الهلال

يناير ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

هيكل مؤرخا

- سارة العقاد بين الواقع والخيال
- أضواء على حياة أقباط مصر



لوحة وفنان

لوحة **غادة شرقية**

للفنان الفرنسي **جوزيبي اوريللي**

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة ذو القعدة ١٤٢٤ هـ - يناير ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج م ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٩ - فاكس ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

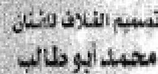
محمود الشيخ — المدير الفني

مؤمن حسنين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

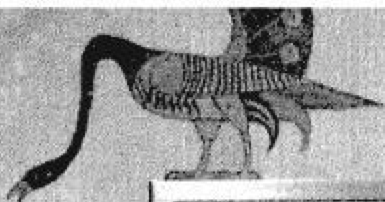
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٢٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٣٢ دولارا، أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٤٥ دولارا، باقى دول العالم ٥٥ دولارا. القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.



الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

تطوير التعليم

مع بداية عام جديد، وعلي طريق مليء بالآلام مشت أمتنا هذا العام الذي انقضي، وعلي أية حال .. كل سنة عزيزي القاريء وأنت بخير، ويبقي أن نذكِّر ونحن في مطلع العام بالقضية المحورية علي طريق النهضة وهي قضية «تطوير التعليم»، فلا يوجد تفسير لتردي الأوضاع العربية، سوي غياب الحرية ونقص التعليم والتدريب، مما أدي إلي شيوع التلقين بدلا من الفهم وإعمال العقل، وغياب الفكرة الرئيسية في التعليم الحديث، وهي اكتشاف مواهب الدارس، ومساعدته في التعرف علي ميوله، وصقل مواهبه، استعدادا لمواجهة أعباء العمل والحياة ..

وليست هذه القضية جديدة، فقديما وفي مطلع القرن التاسع عشر يقول الشيخ حسن العطار: «إن مصر لابد لها أن تتغير، ولايمكن أن تتغير سوي بأن تعلم في مصر من العلوم ما ليس فيها..».

وإحدي سمات التاريخ المصري الحديث البارزة، إدراك أهمية التعليم وتطويره، فشهدنا البعثات في جميع المجالات في عصر محمد علي، واستمر التعلق بالتعليم كأداة لمناهضة الاحتلال البريطاني.

كما أدرك عدد من المفكرين والمصلحين أهمية التعليم كمدخل للنهضة، وأن تعليم الشعب ومحو أميته شرط ضروري للإصلاح، وإذا غفل البعض عن ذلك


د. أحمد زكي


طلعت حرب


الشيخ محمد عبده

أحيانا، فكثيرا ما يتذكرونه في حالة الانحسار الوطني ..

والأسماء كثيرة علي هذا الطريق، وسنقتصر هنا علي تجربة الشيخ الإمام محمد عبده، ومن بعده طلعت حرب والدكتور أحمد زكي ..

تقدم حياة محمد عبده نموذجا للعمل والبحث عن مخرج في ظل أزمة وطنية طاحنة، فقد جعل تطوير التعليم هدفا رئيسيا، فعقب اشتراكه في الثورة العرابية، ومشاهدته أحلامه تنهار بعد هزيمتها ودخول الاحتلال البريطاني، وبعد السجن والمنفي، لم يتوقف عن العمل السياسي، وأصدر مع جمال الدين الأفغاني مجلة «العروة الوثقي» من باريس تدعو إلي الحرية والعدل وتحرض علي مقاومة الاستعمار الزاحف علي الأقطار العربية، ودخل سرا إلي مصر علي أمل تنظيم المقاومة.

وفشلت محاولته، وأرهقته حدة الانقسامات في صفوف الحركة الوطنية، وخيبة أمله مع اكتشاف تسلل عملاء الدول الأجنبية.

وأدرك ضرورة الاعتماد علي إعداد الشعب وتسليحه بالعلم والمعرفة، وإلا فإنه يحرث في البحر وينتظر حصاد الهشيم، فترك السياسة بمعناها المباشر.

وها هو ذا يتساءل في إحدي مقالاته: ماهو الفقر الحقيقي؟! ويؤكد علي



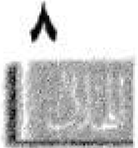
ضرورة تلازم الثروة الطبيعية والثروة البشرية، فالمسالة ليست وجود معادن ومزارع، وإنما هي مسألة الأيدي التي ستستعمل هذه الثروة، «ليس كل ما ذكرته بكاف وحده في الغني والثروة، والعزة والشوكة، بل لابد أن ينضم إليه حسن استعمال هذه الأسباب، ورشاد الرأي في استخدامها، فإن ضلت الآراء، وساء الاستعمال، فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه، لعدم سريان روح التربية الشرعية، العقلية التي تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته» الوقائع المصرية ع ١٠٧٣.

لذلك سعي إلي إصلاح التعليم في الأزهر الشريف، وأقام الجمعية الخيرية الإسلامية التي تقيم المدارس، وترك لنا تسجيلا كاملا لرأيه في التعليم كمدخل للإصلاح.

وفي العشرينات من القرن الماضي نأي طلعت حرب بنفسه عن السياسة مثله مثل الإمام محمد عبده، وقد رأي أنه لاجدوي من السياسة بدون بناء الإنسان، فمن الضروري أن يسبق بناء الإنسان أية نهضة، ورأي أن إصلاح التعليم يسبق أي عمل سياسي، وأن انتشار المنهج العلمي في التفكير يسبق أي عمل سياسي، كما رأي طلعت حرب أن بناء الاقتصاد المصري يسبق بالضرورة العمل السياسي.

وكما قال محمد عبده «لعن الله السياسة» ويقول طلعت حرب: «تبا للسياسة، ماتدخلت في شيء إلا أفسدته».

وكما اهتم باقتصاد البلاد اهتم أيضا بلغة البلاد، فيقول: «أدعو من حيث يجهلون أو يتجاهلون منزلة لغتنا – أن العربية لاتصلح للتعليم، لأنها تقصر عن استيعاب علوم العصر..» ويضيف .. «وواجب الجماعات العربية جعل اللغة الفصحي، واسطة العقد، وأن يعملوا دائما علي توجيه إتجاهاتها بمجمع علمي



عام مشترك».

وفي الخمسينات برز د.أحمد زكي..

ومن يعن بقراءة سيرة حياته وأعماله، يلحظ أنه وهو الحاصل علي أعلي الدرجات العلمية، لم يركز جهده في البحث العلمي، ولم يعكف علي العمل في معمل الكيمياء، بل أخذ ينشر في الصحف، ويلقي المحاضرات، ويقيم المؤسسات العلمية والجمعيات الأهلية، ويساهم في إصدار الدوريات المختلفة، مما يعني توجهه نحو غرس الفكر العلمي في تربة وطنه، ويلح سؤال حول هذه الظاهرة، ولايفسرها، سوي أنه أدرك ضرورة الاهتمام بالتربية والعمل الثقافي، فأخذ يسهم في تطوير التعليم الجامعي، ووجه اهتمامه للعقول وأدمغة البشر التي تصنع النهضة، ومن كلماته .. «أدركنا بعد مؤتمر الصلح أن السلاح، كل السلاح في المدي الطويل، إنما هو العلم والمعرفة، فألقينا سلاحنا، هكذا أعلنا، واستبدلنا بالسلاح القلم، وألفنا عام ١٩١٤ لجنة سميناها لجنة التأليف والترجمة والنشر» واضطلع العالم الكبير بدور بارز في بناء صرح العلم الحديث، وتمكين الثقافة العلمية من النفوس..

ويكاد يكون أول من بشر ونادي بإدخال الثقافة العلمية لكي تصبح جزءا من نسيج الثقافة العربية، باعتبارها الطريق الوحيد للتقدم والنهضة، وأرسي بالفعل قواعد تناول العلوم ومعالجة الثقافة العلمية وتبسيطه وأقام مركز البحوث حتي يكون حاضنة للعلم.

وبعد، فقد حان الوقت لأن نجيب عن هذا السؤال المصيري الحاسم .. «ما العمل؟...».

المحــــــــرر



هيكل مؤرخاً

وقراءة التاريخ خارج المنهج

بقلم
د. عاصم الدسوقي

لايزال فى جعبة محمد حسنين هيكل الكثير والكثير ليقوله للتاريخ سواء من الوثائق المصرية التى يحتفظ بها، أو من الوثائق الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التى اعتاد أن يدون بها ما يخرج به من لقاءات مع مختلف الشخصيات السياسية مصرية وعربية وغربية على مدى رحلته فى عالم الصحافة السياسية منذ مطلع أربعينيات القرن الماضى.

ومن أحدث إصدارته فى هذا المجال كتاب «سقوط نظام» الذى يجيب فيه عن سؤال طرحه تحت العنوان وهو: لماذا كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ لازمة؟، وكان ذلك بمناسبة مرور خمسين عاما على الثورة.

الهلال
ذو القعدة ١٤٢٤هـ - يناير ٢٠٠٤م

وللإجابة عن السؤال اتصالا بالعنوان، كان عليه أن يقرأ وقائع تاريخ مصر ابتداء من حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ التى اعتبرها المسرح الخلفى ليوم ٢٣ يوليو، فأخذ ينهل من معين وثائق لا ينضب يشتمل على مذكرات وتقارير ومحادثات وبرقيات، فضلا عن مفكرته الخاصة التى حملت ملخصات لقاباته وانطباعاته اللحظية عن أشخاصها. ومن هنا جاء كتابه فى ستمائة صفحة متخما بالمعلومات والأوصاف والانطباعات عن الأشخاص والأماكن.

ولأنه يكتب التاريخ كما وقعت أحداثه فى اللحظة الواحدة معتقداً أنه يعيد رسم

صورة حوادثه كما وقعت وحيث كانت، وجدناه يتنقل بين عدة أماكن ليقرأ موقفا معينا أو حادثة بعينها، متجولا ما بين مكتب مسئول، وغرفة طعام وصالون ضيافة ومكان عام وسيارة خاصة، ونادى خاص أو حتى على الرصيف فى مصر وفى خارجها ليلا ونهارا، فبدا الأمر وكأنه يعد سيناريو ضخما لعمل درامي كبير أحسب أنه لن يأخذ جهدا فى إخراجه على الشاشة لأنه يوفر على كاتب السيناريو والمخرج ما يحتاجانه من مناظر وأوصاف وحوادث ورسم للشخصيات .

ويبدو واضحا أن هيكل يعلم تماما أنه لا يكتب بحثا فى التاريخ بالمعنى الاصطلاحى وربما أن صفة المؤرخ لا تعجبه، فنراه يقول فى كل ما أصدره تقريبا إنه قارئ للتاريخ وليس كاتبا له، وكأنه يحذر المتخصصين من توجيه أى نقد منهجى له، لكنه يغفل أو ينسى فى هذا الخصوص أن كتابة التاريخ هى قراءته فى ذات الوقت وما التاريخ في النهاية إلا صناعة كاتبه الذى قرأ أحداثه ومن هنا فإن التفرقة بين قراءة التاريخ وكتابة تفرقة تعسفية ومجرد تلاعب بالألفاظ .

لماذا اتخذ هيكل هذا الأسلوب الوصفي البارع المتقن دقيق الملامح في كل ما يكتبه ؟

لقد كنت أعتقد منذ فترة طويلة أنه يحاكي محمد التابعي أحد نجوم سماء صحافة ما قبل ١٩٥٢ الذى كان يمعن فى وصف الأشياء، ويبحث فيما وراء الستائر، وعما يدور فى الغرف الخاصة، فيأتى ما يقوله مشوقا ينجذب القارئ له ثم تأكد لى أن أسلوب التابعي هذا مدرسة تعلم فيها هيكل وآخرون، إذ قال لنا هيكل بنفسه إن أول رئيس تحرير عمل معه هارولد إيرل رئيس تحرير الاجبيسيان جازيت، نصحه ومن معه عند التحاقه للتدريب فى جريدته بألا يفكر فى إرسال مواد إخبارية عاجلة لصحيفته لأن وكالات الأنباء سوف تسبقه وأن ما يمكن التفوق فيه على الغير يأتى من التركيز على خلفية الوقائع والحوادث راسما باللون والظل وبالصوت والهمس صورا حية للأجواء والظروف والملابسات (ص٨)

وهكذا استقى هيكل معلومات كتابه من الوثائق البريطانية والمصرية فى المقام الأول، ومن أحاديثه مع شخصيات كثيرة مختلفة المقام وانطباعاته عنها ابتداء من الملكة نازلى والملكة فريدة، ثم كل من الباشوات: مصطفى النحاس ومكرم عبيد وإسماعيل صدقى وحسين سرى ونجيب الهلالى ومحمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسن وعبد الفتاح عمرو وأحمد عبود وكريم ثابت وانتهاء بإدجار جلاد وناهد رشاد .

غير أن مشكلة فى التعامل مع مصادره أنه يصدقها جملة وتفصيلا دون أن يداخله أدنى شك فى مصداقيتها، مع أن منهج البحث يعلمنا ألا نخضع للمصدر خضوعاً كاملا وتاما أيا كانت درجته، وأن علينا التحقق من صدق المعلومات بواسطة المقارنة بمصادر أخرى وغير ذلك من أساليب نقد الأصول .. وهذا ما لم يفعله، وحجته أنه لا يكتب تاريخا !!.

والحق أن اهتمام هيكل بالخلفيات طبقا لمنهج أستاذه هارولد إيرل جعله يغرق فى تفاصيل مشرقة جذابة لا يحفل بها عادة باحث التاريخ إلا إذا كان لها تأثير واضح على الحدث الذى يتناوله وليس مجرد إضفاء عنصر التشويق والإثارة ومن ذلك على سبيل المثال ما قاله من أن المارشال ويفل القائد العام للقوات البريطانية زمن الحرب

• هيكل أحد أبناء مدرسة محمد التابعي الصحفية التي تعتمد على التشويق والإثارة ووصف التفصيلات الدقيقة

العالمية الثانية كان شاعرا وكتب نصف ديوانه على شكل رسائل غرام لزوجة وزير مصرى له شأن آنذاك وكانت جميلة فعلا وإن لم يعثر هيكل على ما يجعله واثقا من أنها بادلته الغرام (ص ٢٢) ولكنه آثر إخفاء اسمها احتفاظا بعنصر التشويق ومن ذلك أيضا ما رواه من أن إسماعيل صدقي وبموافقة من الملك فؤاد وضع في طريق مصطفى النحاس وكان أعزبا صحافية إيطالية اسمها فيرا كان، يلتقي بها في عوامة على النيل بالعجوزة للإيقاع به (ص ٢٥٣) . أو روايته عن زواج مايلز لامبسون السفير البريطاني بالقاهرة من صديقة ابنته التى فى عمرها ويكبرها بستة وثلاثين سنة، وملابسات هذا الزوج، وأن فاروق كان يسمى لامبسون جاموس باشا وأن السفير كان يقول عنه «الولدboy(ص ٦٢) .. ومن ذلك أيضا تفاصيل مغامرات فاروق بعد طلاق فريدة ومحاولته الزواج من الأميرة فاطمة طوسون بعد وفاة زوجها الأمير حسن طوسون، ولكنها رفضته وفضلت عليه كونت برتغالى أو تحرش الملك جنسيا بملكة اليونان فردريكا فى ديسمبر ١٩٥٠ (ص ٣٢٢)، وكذا تفاصيل زواج فاروق بناريمان وكيف رآها ومن الذى رتب له رؤيتها ومن كان وراء فسخ خطبتها .. الخ .

اجتهادات في إبداء الرأي

والحقيقة أن استعرض هيكل لوقائع تاريخ مصر بتلك الصورة خلال عشر سنوات (١٩٤٢ - ١٩٥٢) سبق أن تناولته عدة دراسات متخصصة وكتابات جارية، بعضها مذكرات وذكريات كما يفعل هيكل، وبعضها عرض وثائق كما يفعل أيضا ومن ذلك على سبيل المثال وليس الحصر : محمد التابعي في كتابه «من أسرار الساسة والسياسة»، وكتاب صبرى أبو المجد «سنوات ما قبل الثورة»، وأحمد بهاء الدين «فاروق ملكا»، ومحمد صبيح «من العلمين إلى سجن الأجانب ومحسن محمد التاريخ السرى لمصر»، وموسى صبرى قصة ملك وأربع وزارات ومحمد حسين هيكل مذكرات فى السياسة المصرية»، وجلال الدين الحمامصى « أزمة نزاهة الحكم»، وكتاب سيد جاد «الحرس الحديدى»، ومذكرات كريم ثابت وحسن يوسف، فضلا عن الدراسات التى قدمها محمد أنيس عن ٤ فبراير وحريق القاهرة وكذا ما كتبه جمال الشرقاوى عن حريق القاهرة، ورسائل جامعية كثيرة عن هذه الفترة. والجديد فى تقديرى ما ذكره هيكل نقلا عن مفكرته وبعضه خاص بأحاديث الغير معه، وكذا اجتهاداته فى إبداء الرأى فى بعض الموضوعات التى ينبغى التوقف عندها .

وحيث أن هيكل بدأ كتابه بحادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ وخلفياتها (كان فى التاسعة عشرة من عمره إذ ذاك) فكان من الطبيعي أن يركز على حزب الوفد في الحياة السياسية وعلاقاته بالقصر وبالإنجليز وبسائر القوى السياسية ولست أبالغ إذا قلت إن الوفد وشخصياته يكاد يشكل عصب الكتاب وفى هذا الخصوص يؤكد أن مصطفى النحاس كان يعلم بإصرار الإنجليز على أن يرأس الحكومة رغما عن الملك ودليله على ذلك أن النحاس بعد تكليفه بتشكيل الوزارة توجه رأسا فى مساء اليوم



هيكل في لقاء مع الرئيس مبارك وبحضور عدد من رموز الثقافة المصرية

نفسه إلى السفارة البريطانية ليتلقى توجيهات السفير بإقصاء الموظفين الإيطاليين فى القصر وإحداث بعض التغييرات الإدارية، وهى تهمة عمل النحاس وغلاة الوفديين على نفيها

أول تجربة لتغطية الحياة السياسية

كما يؤكد على وقائع فساد الحكم المنسوبة لحكومة الوفد طبقا للكتاب الأسود الذى وضعه مكرم عبيد والتى وصفت آنذاك بفضائح المحسوبية والاستثناءات ثم ما كان من متابعة هيكل وقائع مناقشة الاستجواب المقدم فى شأن الكتاب الأسود من شرفة الصحافة بمجلس النواب عام ١٩٤٣ للتغطية الصحفية، وهى المتابعة التى وصفها بأنها كانت أول تجربة مباشرة له لتغطية الحياة السياسية (كان فى العشرين من عمره) وهذا الجزء فى الكتاب (ص ١٢٣ - ١٢٤) عما دار من وقائع جديد، لأنه ذكر فيه ما تردد من ألفاظ السباب والشتائم المتبادلة والتى حذفت من المضبطة، وكيف أنه أسقط النحاس من نظره فى تلك اللحظة .

ولعل سقوط النحاس هكذا مبكرا فى نظر هيكل مسئول إلى حد ما عن نظرة الاستهانة إلى شخص النحاس فقد صوره لنا فى أماكن مختلفة من كتابه على أنه ليس ذلك السياسى المرموق !! بل إنه شخصية انهزامية فعندما ترددت أنباء بوجود فرقة عسكرية ألمانية عند مدخل الإسكندرية من ناحية الدخيلة واتصل به محافظ المدينة عبد الخالق حسونة طلبا للتصرف أجابه النحاس بقوله:إذا تأكد ذلك إذهب وقابل روميل وسلمه مفتاح المدينة وأبلغه أن الإسكندرية مدينة مفتوحة (ص ١٢٠ - ١٢١)

• مشكلته فى التعامل مع مصادره أنه يصدقها جملة وتفصيلا دون التحقق من صدقها ودقتها

ويكشف لنا أن مصطفى النحاس كان يهاجم توجهات الملك فاروق ناحية العمل العربى عموما وقضية فلسطين خصوصا إذ كان يقول : إن هذا الذى يفكر فيه فاروق مسائل أكبر من عقله ومن شخصيته وكلها إيحاءات مجانين مثل عزام (ص ١٧٢ - ١٧٣) .

كما يؤكد هيكل على قصة قيام النحاس بتقبيل يد الملك فاروق بعد فوزه فى انتخابات يناير ١٩٥٠ (ص ٢٩٠) التى تسجل فى رأيه سقوط عصر بدأ تدهوره من فبراير ١٩٤٢ .. وكيف أن النحاس فى وزارته الأخيرة (يناير ١٩٥٠ - يناير ١٩٥٢) لم يعد يهتم بشئون الحكم إذ كان يقضى معظم وقته فى الحمام أو فى غرفة النوم بعد أن أصيب بداء الوسوسة ويمشى وراءه شخص يحمل زجاجة كولونيا للتطهر، حتى لقد عرف عنه أنه لم يعد يهمه خروج الإنجليز من مصر (ص ٣٢٣) بل إن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ كان باقتراح من وزير خارجيته محمد صلاح الدين .

ولا يفوت هيكل أن يذكر كيفية صعود نجم فؤاد سراج الدين داخل حزب الوفد حيث انتقلت قيادة الوفد على يديه من يد المثقفين إلى كبار ملاك الأراضى الزراعية، وكيفية اقترابه من زينب الوكيل حرم النحاس التى اقتسمت معه قرار الحزب، وحكايات قصور شمال الدلتا وكيف أن الرجل لم يكن سياسيا، بل لقد كان يدير أمور السياسة بعقلية إدارة المزرعة .. وكيف كان يطمح إلى رئاسة الوزارة لولا بعض الحياء.

ومن الملاحظ أن هذه الصفحات الستمائة خلت من بيان تفاصيل إنشاء الحرس الحديدى على خلاف طريقته فى رسم خلفيات الصورة بالألوان، ولم يذكر هيكل لنا إلا أن الفكرة مستعارة من ملك رومانيا كارول، وأن هذا الحرس تحول على يد يوسف رشاد طبيب الملك من حماية الملك إلى الهجوم على أعدائه فى إطار خطة الملك انتقاما من حادثة ٤ فبراير التى أسماها فاروق نفسه الكونت دى مونت كريستوا أمير الانتقام فى قصة الكسندر ديماس وكيف أن الخطة تضمنت تسليط الأضواء الوردية على الملك وتكثيف الظلال الرمادية على خصومه وهى مهمة تكفل بها مصطفى أمين رئيس تحرير مجلة الاثنين والدنيا !.

لقاؤه بجمال عبد الناصر

كما يلاحظ أيضا أن هيكل لم يذكر تفاصيل روائية عن تنظيم الضباط الأحرار، واكتفى بذكر المناسبات التى التقى فيها بجمال عبد الناصر قبل قيام الثورة... الأولى أثناء تغطيته لحرب ١٩٤٨ (غادر الجبهة فى أغسطس)، والثانية فى مكتب هيكل بأخبار اليوم ١٩٥١عندما جاء جمال برفقة زكريا محيى الدين الذى أراد أن يبلغ هيكل عما ما تقوم به إسرائيل من منح تراخيص لعرب العزازمة للتجول عبر خطوط الهدنة وراء المرعى وما يمثله ذلك التصرف من خطورة على الحقوق، والثالثة مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ أمام محلات شيكوريل لقاء عابرا على الرصيف وتساؤلات عما

عمالقة الفكر والفن
هيكل .. نجيب .. أم كلثوم



هيكل فى اجتماع مع عبد الناصر والسادات

حدث دون إجابة، والمرة الرابعة فى ١٨ يوليو ١٩٥٢ فى بيت محمد نجيب حيث كان عبد الحكيم عامر موجودا، وكان هيكل هناك يسعى لاقتناص أخبار من محمد نجيب عما ينتويه ردا على حل مجلس إدارة نادى الضباط فى اليوم السابق (١٧ يولية) وفى هذه المقابلة اختلى ناصر وعامر ونجيب فى غرفة مجاورة لبعض الوقت ثم ما حدث من قيام هيكل باصطحاب ناصر وعامر فى سيارته بعد انتهاء الزيارة وما دار من حديث طويل بين الثلاثة عن كيفية الاحتجاج على حل مجلس إدارة نادى الضباط (ص ٥١٢ - ٥١٧)، وهو حديث طويل يفهم منه أن هيكل هو الذى أوحى لجمال عبد الناصر بتقديم موعد الثورة إلى ليلة ٢٣ يوليو..

والشئ المهم فى هذه الرواية الطويلة أن هيكل يرجع أن تنظيم الضباط الأحرار لم يتصل باللواء محمد نجيب إلا فى وقت ما من شهر يوليو ١٩٥٢ وليس قبل ذلك (ص ٥٥٣- ٥٥٤) وإنه لايستبعد أن يوم مفاتحة محمد نجيب لقيادة الثورة هو يوم ١٨ يولية هذا وذلك خلافا لما تقول به الروايات التى تتعمد الإساءة إلى عبد الناصر فى التعامل مع محمد نجيب .

وأخيرا يبقى القول إن كثيرا من الأحكام التى أطلقها هيكل فى ثنايا كتابه بحاجة إلى مناقشة فى إطار المنهج العلمى وليس فى إطار فن الرواية والحكى وإن بعض المعلومات أيضا بحاجة إلى تصويب وتصحيح ..

من ذلك قوله : إن حسن صبرى وحسين سرى رئيسا وزراء مصر (يونية ١٩٤٠ - ٢ فبراير ١٩٤٢) لم يكونا عملاء للإنجليز وإنما ساسة يعتقدون بضرورة التفاهم مع بريطانيا لبلوغ المطالب المصرية لأن ذلك أسلم من مواجهة غير متكافئة معها (ص ٢٤ - ٢٥) وهذا مجرد تبرير للتصرف وليس تفسيرا له، لأن العمالة لا تعنى أن يكون العمل مدرجا بكشف العملاء، ويتقاضى أموالا بشكل منتظم وإنما أى سياسى

كذلك نظرية هيكل بلزومية ثورة يوليو وليس بحتميتها يضعه في صفوف من يرفضون منهج الحتمية العلمية في تفسير قيام الثورات

يتصرف بما يخدم مصالح الخصوم والأعداء يعد عميلا لهم ..

الملك وتلقائية العاطفة

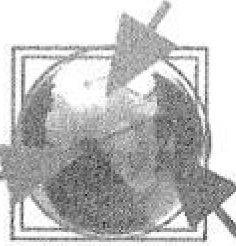
وقوله أيضا إن الملك فاروق كان وطنيا مصريا لاشك فى ذلك وحتى عندما غرق لاحقا فى مستنقع من الفساد زاد وفاض على ما حوله، فإن وطنيته على عكس معظم حاشيته ظلت سليمة فى تعبيرها عن نفسها حتى بتلقائية العاطفة (ص ٤٣) ولست أدرى كيف يفهم هذا التقدير على الأقل فى ضوء ما أورده هيكل نفسه من معلومات فى كتابه «أزمة العروش صدمة الجيوش» ..

وقوله على مدى صفحات كثيرة إن ٤ فبراير هو الانقلاب العسكرى الأول وأنه كان الطريق إلى ٢٣ يوليو الذى يمثل الانقلاب العسكرى الثانى (ص ١٢) ..

وقوله إن حزب الوفد قبل المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس الامريكى ولسن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (ص ١٠٥) والمعروف أن الحرب انتهت بتوقيع الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨، وأن المبادئ أعلنت فى ٨ يناير ١٩١٨ قبل أن يعرف أحد متى تنتهى الحرب ، كما لم يكن حزب الوفد قائما لأنه لم يتكون إلا بعد مقابلة ١٣ نوفمبر ١٩١٨ الشهيرة مع المندوب السامى البريطانى ..

وقوله أيضا إنه من المفارقات إن ملكية الأرض الزراعية كأساس للتركيب الطبقى فى مصر الحديثة لم تدرس بالقدر الكافى فى وطنها وأن أكمل وأوفى دراسة لها جاءت من الجامعة العبرية على يد جبرييل باير (ص ٣٤٨) وهذا قول يجافى الحقيقة لأن جابرييل باير حصل على رسالته من جامعة أكسفورد ١٩٦٢وليس من الجامعة العبرية بتل أبيب، وأنه لم يطلع على أرشيف دار المحفوظات المصرية فيما يتعلق بمكلفات حيازة الأرض .. وأن بعض الشيوعيين المصريين درسوا هذا التركيب الطبقى للملكية الزراعية وكتبوا فيه قبل أن يكتب جبرييل باير كتابة بسنوات ومن هؤلاء إبراهيم عامر فى كتابة «ثورة مصر القومية» ونشره عام ١٩٥٦ ثم كتابة «الأرض والفلاح والمسألة الزراعية فى مصر» «ونشر ١٩٥٨، وكتاب شهدى عطية الشافعى فى ١٩٥٧ تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ – ١٩٥٦». ثم جاءت بعد ذلك ثلاث رسائل دكتوراة نشرت تباعا فى كتب لكل من رءوف عباس النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة (١٩٧٢) وكتاب عاصم الدسوقى كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤ – ١٩٥٢» (١٩٧٥) ثم كتاب على بركات تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣– ١٩١٤ نشر فى ١٩٧٨ واعتمدت على الأرشيف المصرى أساسا .. ولكن ما حيلتنا إذا كان «الأستاذ» لا يقرأ إلا كل ما هو أجنبى ولا يعتقد إلا فيه !!..

وأخيرا .. فإن قوله بلزومية ثورة يوليو وليس بحتميتها يضعه فى صفوف المستشرقين وكتاب الغرب الإمبريالى الذين يرفضون منهج الحتمية العلمية فى تفسير قيام الثورات !! ■



أين ديمقراطية التعليم؟!

بقلم
د. شبل بدران

«إن للفقراء حقاً فى مختلف مراحل وأنواع التعليم، فهو أولا حق لهم، وهو ثانيا مصلحة للأمة وهو بعد ذلك تحقيق للديمقراطية...»
(طه حسين، مستقبل الثقافة فى مصر، ١٩٣٨، ص ١٠)
طه حسين

لقد كان التعليم ومازال وسيظل مجالا للصراع الاجتماعى والسياسى فى المجتمع، فمنذ نشأة التعليم الحديث فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، مروراً بمرحلة الاحتلال البريطانى. والاستقلال المشروط وإنتهاء بالسيادة الوطنية منذ ثورة يوليو ١٩٥٢، والتعليم يخوض هذا الصراع الضارى من قبل القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة فى المجتمع المصرى.

وعلى الرغم من الإنجازات التى تحققت فى مجال التعليم على مستوى التوسع فيه كما وكيفا، وإعتباره حقا من حقوق



الإنسان، وأحد الآليات الهامة لتحقيق التنمية فى المجتمع، ومكسبا وطنياً واجتماعيا للفئات والقوى الاجتماعية التى حرمت منه لزمن طويل بحكم موضعها الاجتماعى والطبقى، إلا أن الواقع المعيش يشهد الآن صيحات هنا وهناك نحو ترشيده وتضييقه أمام الفئات الاجتماعية غير القادرة، وإلقاء اللوم عليه فى قضايا البطالة والتعطل عن العمل.

ولا شك أن المكاسب التى حققها نضال وكفاح الشعب المصرى فى مجال التعليم على مستوى تكافؤ الفرص التعليمية وتحقيق المجانية والمساواة كان الفضل فى معظمها يعود إلى جهود ونضالات طه حسين التى خاضها فى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، حيث يعود الفضل إليه فى دعوته الشهيرة أن التعليم يجب أن توفره الدولة لأبنائها بصرف النظر عن أوضاعهم الاجتماعية والطبقية، لأنه المدخل الطبيعى لتحديث وتطوير المجتمع وتحقيق الديمقراطية، وجعل المجتمع المصرى مجتمعا عصريا قادراً على التفاعل الايجابى مع المتغيرات العالمية،

لقد كان لدعوته - التعليم كالماء والهواء - أبلغ الأثر فى حث القوى الوطنية على جعل التعليم على أولويات العمل الوطنى فى الثلاثينات والأربعينات، بل للآن.

ولقد كانت لدعوة طه حسين فى تعليم العامة مقابل الدعاوى العديدة التى كانت تسعى إلى قصر التعليم على الخاصة، أبلغ الأثر فى تطور التعليم على مستوى فلسفته وأهدافه وبرامجه ومحتواه المعرفى. ولم يكن غريبا أن يصدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨ بعد دعوة طه حسين بسنوات قليلة، إلا استشرافاً من طه حسين للمستقبل ولصدق دعوته وإيمانه العميق ونضاله نحو تحقيق تكافؤ فى فرص الحياة



والتعليم أمام الشعب المصرى وتحقيق حياة ديمقراطية حقيقية تقوم على العلم والمعرفة المتاحة للجميع دون تمييز.

تكافؤ الفرص فى التعليم

تنبع أهمية التكافؤ فى الفرص التعليمية من إرتباطه بالتكافؤ فى فرص الحياة ذاتها وسائر متطلبات العدالة الاجتماعية، ولا ينفع فى معالجة هذا الموضوع الخطير طمس أو إغفال هذه الحقيقة الأساسية أو استبعادها أو تجاهلها ، ويمكننا إدراك التلازم بين هذين المفهومين بمتابعتنا تغير نمط الإنتاج ، وتطور الحياة الاجتماعية ونمط التعليم عبر التاريخ الإنسانى . (شبل بدران ٢٠٠٢ ، ص ٢٨)

ومن هنا فإن إدراك طه حسين لتلك الحقيقة مبكراً جعله يصب جل اهتمامه ونضاله نحو تحقيق العدالة الاجتماعية والتعليمية ، وتلك حقيقة ساطعة ، أدركها طه حسين ، لأن المجتمع الذى عاش فيه حينذاك هو مجتمع طبقى قائم على التمايز وسيطرة رأس المال ، من هنا خاض نضالاً وكفاحاً طويلا من أجل تعميم التعليم على كل فئات وطبقات المجتمع بصرف النظر عن الوضع أو المكانة الاجتماعية، مستنداً فى ذلك إلى أن طريق تقدم الأمم والشعوب لا يكون إلا بالتعليم وبالتعليم الحديث على وجه التحديد. ناهيك عن أن ذلك يحقق الديمقراطية فى المجتمع والتى هى جوهر الإصلاح السياسى والاجتماعى .

الدولة والتعليم

إن موقف طه حسين من دور الدولة فى السيطرة على التعليم ، يعود بالدرجة الأولى إلى أثر الثقافة الفرنسية عليه وتأثره بها. ففرنسا تأخذ بمبدأ سيطرة وإشراف الدولة على كل شئون التعليم، منذ أن وضع نابليون هذا المبدأ عام ١٨٠٦ ، وللآن وكان الهدف الجوهرى من وراء ذلك تحقيق :

- مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية تحقيقا عملياً، وذلك بتقديم نوع من التعليم المجانى الاجبارى المدنى الموحد لكل أبناء الوطن، وهذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلى فى ظل إدارة الدولة لشئون التعليم وتوجيهه.

- الإشراف الفنى على شئون التعليم بوضعه فى أيدى خبراء مدربين لا يتوافرون إلا لدى السلطة المركزية . (كمال مغيث، ١٩٩٧ ، ص ١٥٣).

- التماسك الاجتماعى لأبناء الوطن وتكوينهم فى إطار من الوحدة الثقافية ، التى تحقق التجانس الاجتماعى والثقافى وتسييد ثقافة وطنية مستنيرة لكل أبناء الوطن، تحقق التنوع فى إطار من الوحدة، لأن بديل ذلك شيوع وسيادة ثقافات متباينة وغير متجانسة اجتماعياً وثقافياً ، مما يهدد كيان الأمة، ولا شك أن ذلك كان مطلباً وطنياً فى مواجهة الاحتلال البريطانى إدركه طه حسين مبكراً.

ويؤكد طه حسين على هذا الفهم - فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر - حيث يقول : «.. وإلى الدولة وحدها يجب أن توكل شئون التعليم كلها فى مصر إلى أمد بعيد. وليس معنى ذلك أنى أكره أن يبذل الأفراد والجماعات ما يستطيعون من الجهد لإنشاء ما يمكن إنشاؤه من أنواع التعليم وفروعه. بل معناه أن حياة مصر

الخاصة، وتطورها الحديث ، يقضيان بأن تؤخذ أمور التعليم كلها بالجد والحزم، وأن يكون تنظيمها دقيقاً، الاشراف عليه قوياً، وملاحظتها متصلة لا تفتر ولا تني ، ومصدر ذلك أن مصر مضطربة بين أمرين كلاهما خطير: أحدهما أن كثرة المصريين المطلقة لاتزال جاهلة جهلاً مطلقا فلابد من أن تقوم الديمقراطية بتعليمها ، وبتعليمها على النحو الملائم لأصول الديمقراطية وغايتها ..» (طه حسين، ١٩٣٨ ص ٧١).

والدولة وحدها هي التي تستطيع أن تضع المناهج والبرامج لهذا التعليم، وأن تقوم على تنفيذ هذه المناهج والبرامج . وأن تلاحظ ذلك ملاحظة متصلة دقيقة، حتى لا ينحرف التعليم عن الطريق التي رسمت له، وحتى لا ينتهي إلى غرض مباين للغرض الذي أنشيء من أجله. والثاني أن القلة المتعلمة من المصريين، هي وحدها لا تعدو العشرين في المائة - وما أظنها تبلغها - وقد خضعت لألوان مختلفة من التعليم، ونظم متباينة ومناهج ينكر بعضها بعضاً ، ويصدم بعضها بعضاً ، ونشأ عن ذلك اضطراب له آثاره الخطيرة في حياتنا المصرية على اختلاف فروعها وألوانها. (طه حسين ، ١٩٣٨، ص ٧٢).

ونحن نعتقد أنه ليس هناك أبلغ من قول طه حسين منذ أكثر من ستين عاما مضت للرد على الدعاوى الحديثة والمعاصرة التي تطالب بأن تتخلى الدولة عن دورها في التعليم وتوكله إلى القطاع الخاص الاستثماري بحجة إن الدولة لم يعد لديها الموارد الكافية للانفاق على تعليم أبناء الوطن. أن المشهد التربوي المعاصر ينوء بالكثير من السلبيات التي خاضها التعليم الخاص خلال العقدين المنصرمين بما لا يبشر بالأمل في المستقبل.

ولا شك أن موقف طه حسين كان موقفاً وطنياً إنطلق من إيمانه العميق بديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص التعليمية وفرص الحياة أيضا ، وذلك لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل سيادة للدولة والتي سيظل دورها في التعليم أساسي وجوهري بصرف النظر عن سياسة التحرير الاقتصادي والإندماج في الاقتصاد العالمي بصورة تابعة غير فعالة .

تعليم العامة وتعليم الخاصة

لقد شهدت الفترة الليبرالية (١٩٢٢ - ١٩٥٢) في حياة المجتمع المصري قضية تعتبر أخطر القضايا التعليمية وأهمها في تاريخ التعليم الحديث في مصر لقد كانت كل الجهود تهدف إلى توفير حد أدنى من التعليم العامة من الشعب المصري (الفقراء والمعدمين) في حين تميز الأغنياء بكل الامكانيات التي تسهل لهم الحصول على أرقى أنواع التعليم المعروض في الأسواق أمامهم . ولم يقف أمامهم مانع يحول دون حصولهم على هذا التعليم أو ذاك داخل الوطن أو خارجه ، كما إننا يجب أن نشير منذ البداية بأن المجتمع المصري في تلك الفترة كان مجتمعاً طبقياً نضجت فيه الطبقات الاجتماعية تماماً وتشكلت لها أحزابها السياسية ووسائلها للدفاع والتعبير عن مصالحها .

وكان التناقض حادا بين الأغنياء والفقراء ، بين من يملكون كل شيء، ومن

ليس لديهم شيء، ووسط هذا الجو الاجتماعي ظهرت قضية تعليم العامة (الغالبية العظمى من الشعب) وتعليم الخاصة (الصفوة) وسميت حينذاك بقضية الكم والكيف، ولقد تبنى تعليم العامة (الكم) طه حسين وأحمد نجيب الهلالي، وتبنى قضية تعليم الخاصة (الكيف) المزعومة إسماعيل القباني ولفيف من التربويين الذين عادوا من بعثاتهم من أوروبا وتأثروا بالفكر التربوي والنفسي والفلسفة البراجماتية الأمريكية . (شبل بدران ، ٢٠٠٣، ص ١٧٨) .

اختبارات نفسية

لقد أراد إسماعيل القباني بوجهة نظره أن يجعل التعليم في المرحلة الأولى إلزاميا لجميع الأطفال ، ثم يبدأ بعد ذلك باختيار الصالحين للاستمرار في التعليم النظري الذي يؤدي إلى التعليم العالي، وتتم عملية الاختيار هذه باستعمال مجموعة من الاختبارات النفسية على مرحلتين ، مرحلة أولى استطلاعية عند سن ١٢ سنة ومرحلة ثانية تأكيدية عند سن ١٤ سنة . يوجه بعدها الطلاب إلى التعليم النظري أو الفني حسب قدراتهم واستعدادهم. وهذا معناه إنهاء دراسة من ذهبوا إلى المدرسة الثانوية الفنية عند هذه المرحلة، ويرى إسماعيل القباني أن فتح أبواب التعليم على مصراعيها معناه فصول ومدارس مزدحمة وانخفاض مستوى التعليم من حيث الكيف. (إسماعيل القباني، ١٩٥١، ص ص ١٨٢ - ٢٠٠).

أما آراء طه حسين وأحمد نجيب الهلالي والتي ارتبطت بالكم أو تعليم العامة فيرى طه حسين فتح أبواب التعليم الفني أو تعليم المرحلة الأولى لجميع أبناء الشعب وفتح أبواب التعليم الثانوي أمام جميع الطلاب ممن يرغبون فيه دون داع للقيام بتطبيق الاختبارات التي استقدمها مستر مان ركلاباريد الخبيران التربويان اللذان أحضرتهما الحكومة المصرية لإصلاح أحوال التعليم، وخرجا بروشتة للإصلاح جاء في متنها ضرورة اعتماد الاختبارات النفسية في توزيع الطلاب على مراحل التعليم المختلفة.

ولقد أكد طه حسين أفكاره في كتابه مستقبل الثقافة في مصر حيث يقول «أول ما يجب أن نلاحظه ويجب أن يفهمه المشرفون على الأمر في مصر، أن التعليم ليس ترفا، وإنما هو حاجة من حاجات الحياة ، وضرورة من ضروراتها»، ويؤكد أيضا أن: كل هذا ينتهي بنا أن الديمقراطية الصحيحة إذ فرضت المساواة بين أبناء الشعب في الحقوق والواجبات فهي لا تقبل أن تفرق بينهم في حرية التعليم، وأن يقتصر لون من ألوان هذا التعليم على جماعة من أبناء الشعب يخرج منها القادة والساسة والمديرين.

إن طه حسين يرى أن تتم عملية الاختيار بطريقة طبيعية عن طريق ملاحظة التلاميذ ، فالطفل الذي يثبت فشله ولا يمكنه الاستمرار في المدرسة الثانوية الأكاديمية عليه أن ينقل إلى إحدى المدارس الثانوية الفنية أو المهنية.

التعليم روح الديمقراطية

لقد كان طه حسين يرى أن الدعوة إلى التمهل في نشر التعليم العام بين

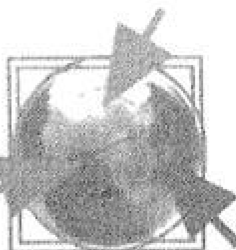
العامة، والاقتصار على ممن يرغب آباؤهم رغبة حقيقية في تعليمهم «هي في حقيقتها امتداد للتعليم في عهد الإنجليز فالتعليم قبل كل شيء، والتعليم بعد كل شيء، والتعليم فوق كل شيء» من هنا نادى طه حسين بمد مرحلة الإلزام ومجانية التعليم العام، وخاصة ونحن في بلد فقير ويعاني أكثر من ٨٠٪ من أبنائه من الأمية والفقر والجهل والمرض، ولأن التعليم هو روح الديمقراطية وأسلوبها، بل أداتها في التصويت، وفي تحقيق الحياة الكريمة أما أصحاب نظرية الكيف - تعليم الخاصة - والتي يؤكد أصحابها «أنه من الخير لنا أن نعلم ألفا من الأطفال تعليماً منتجاً من أن نحشر ألفين في المدارس دون أن يفيدوا من ذلك فائدة مجدية، فتعني أن التعليم للخاصة والصفوة وهو مبدأ غير ديمقراطي. (سليمان نسيم، ١٩٨٤ ، ص ص ٢٤٧ - ٢٤٨).

ولعل المشهد التربوي يتكرر الآن في عام ٢٠٠٣ ، حيث تنادي بعض الأصوات بإنشاء مراكز للتميز يتعلم فيها قلة تعليما متميزاً خيراً من تعليم الكثرة تعليماً غير متميز ، أن نفس الفكر والتوجه مازال يعاني منه المجتمع المصري لأكثر من ستين عاما رغم كل التحولات والتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي مرت على المجتمع المصري . لقد كان طه حسين رائداً ومبشراً فعلا بتلك الأفكار الثورية والتقدمية.

حقا لقد كان الصراع في حقيقته صراعا سياسيا واجتماعيا بين ديمقراطية التعليم ورأسمالية التعليم (لويس عوض ١٩٦٨) أن طه حسين كان يريد أن يجعل من المدارس العليا جامعات ومن التعليم الثانوي طريقا إلى الجامعات . أما إسماعيل القباني فكان يريد أن يجعل من الجامعات مدارس عليا، ومن التعليم الابتدائي طريقا إلى التعليم الفني المتوسط المكتفي بذاته، والذي لا يتجاوزه إلا الممتازون بالعلم والمال ، وواضح أن كلا الاتجاهين استمد فلسفته من سياسة معينة : «الأولى ديمقراطية ليبرالية تقوم على أن الأمة مصدر السلطات، وأن استنارة الحاكم من استنارة المحكوم، أما الثانية فتقوم على أن المواطنين ما هم سوى أدوات للإنتاج وأنهم رعايا ورعايتهم من جنس أعلى من جنسهم » (لويس عوض ، ١٩٦٨).

لقد كان موقف طه حسين الفكري واضحاً جلياً ، وهو انحيازه إلى تعليم الفقراء من أبناء الشعب وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في الحياة والتعليم، وأن على الدولة دوراً رئيسيا وجوهرياً في الاشراف على التعليم وتمويله، لأنه لو ترك للأفراد أو الجماعات فإن ذلك يصيب البنيان الاجتماعي في مقتل يؤدي إلى التشرذم وعدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي الذي تسعى إليه الحكومات والشعوب. ■



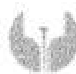


الموضوعية والتلقين

بقلم
د. عبد الوهاب المسيرى

ما يشغل بالي الآن هو قضية قد يتصور البعض لأول وهلة أنها قضية نظرية فلسفية، لا علاقة لها بواقعنا اليومى. ولكننى فى السطور القليلة التالية سأحاول أن أبين أن لها علاقة وثيقة بحياتنا اليومية.

أصبح من المألوف أن نسمع عبارات مثل «يجب أن نتحلى بالموضوعية»، و«يجب أن نبتعد عن الذاتية». ولاشك أن الموضوعية أمر محمود إذ كيف يمكن أن نصل إلى المعرفة وأن ندير مجتمعاتنا دون أن نتحلى بصفة الموضوعية ولكن أى نوع من الموضوعية، فهناك أنواع وأنواع هل هى الموضوعية الاجتهادية، أم الموضوعية الفوتوغرافية المتلقية؟ ولنبدأ حديثنا بتعريف هذا النوع الأخير.



الموضوعية المتلقية هى نموذج تحليلى يذهب إلى أن المعرفة عملية تراكمية تتكون من التقاط أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع (المادى) كما هو تقريبا، بصورة فوتوغرافية (أو شبه منها) قد عرف الموضوعى بأنه «ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين» والموضوعية تستند إلى أن ثمة علاقات قائمة بين أجزاء الأشياء المدركة، وأن الناس جميعا بوسعهم أن يدركوا هذه

العلاقات بنفس الطريقة لو تهيأ لهم الموقف الصحيح لإدراكها ولا يهمني أي التعاريف يتبناها المرء، وإنما المهم هو النموذج الإدراكي الكامن وراءه. وفي حالة الموضوعية نجد أن النموذج الإدراكي يساوي بين العقول كلها، ولذا إن تهيأت الظروف كان الإدراك واحدا أي «إدراكا موضوعياً» مثل هذا التعريف يلغي فعالية العقل وإبداعه ويلغي الذاكرة التاريخية وأعباء المدرك الأخلاقية وتحيزاته وأوهامه وآماله وآلامه وأحلامه والتي تؤثر في عملية الإدراك - فالعقل - حسب هذا النموذج - شئ سلبي بسيط الكاميرا يحاول أن يحيط بالواقع كله وأن ينقل تفاصيل الواقع كلها وبحذافيرها، فهو غير قادر على الحذف والاختيار والتضخيم والتهميش والتحريف والتشويه، مرجعيته النهائية هي الواقع المادي كما هو. وهذا التصور للعقل والواقع يهمل علاقة الجزء بالكل والواقعة بالنمط والظاهر بالباطن فالكل والنمط والباطن لاتوجد في الواقع وإنما هي أطار يجردها العقل الفعال ..

والمعلوماتية المرتبطة تمام الارتباط بهذه الرؤية، تذهب إلى أن المعلومة مهمة في حد ذاتها لابسبب علاقتها بالموضوع الكلي أو بنمط متكرر، ولذا يصبح التأليف هو أن يحشد المؤلف أكبر قدر من المعلومات بغض النظر عن عدم ترابطها وعدم وجود بؤرة مركزية لها والافتراض الكامن أنه كلما زادت المعلومات زادت درجة الاقتراب من الواقع (كما هو)، على أن يحشد الباحث كل المعلومات أو المراجع (أو معظمها)، ويعطينا صورة طبق الأصل من الواقع وهو تصور يتضمن صورة للعقل باعتباره كيانا سلبياً

إن هذا الموقف الموضوعي المتلقي المعلوماتي ليس «موضوعيا» وإنما «موضوعاتيا» بمعنى أن الدارس يكتفي برصد التفاصيل والموضوعات وتسجيلها دون أن يربط بينها ودون أن يبين ما هو المركزي منها وما هو الهامشي، وما هو المعبر عن النمط الكلي وما هو مجرد واقعة غير ممثلة، وما يستحق الإبقاء منها وما يستحق الاستبعاد .

ولعل التمييز بين الموضوعية والموضوعاتية يعود إلى هذا التمييز الذي أدعو له دائما بين الحقائق والحقيقة فالحقائق هي معطيات مادية متناثرة لايربطها رابط، أما الحقيقة فهي نتاج جهد إنساني عقلي، حين يقوم العقل بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج منها وعمليتا الربط والتجريد تقفان على طرف النقيض من عمليتي الحشد والتراكم .

الموضوعية المتلقية

والموضوعية المتلقية لا تفرق بين مادة البحث (التجميعية الأرشيفية) وعملية البحث (التحليلية التفكيكية التركيبية) وقد وصف الأديب الأمريكي هنري ديفيد ثورو هذا النوع من الموضوعية بأنه مثل إحصاء عدد القطط في زنزبار، وهو جهد لا طائل من ورائه إن لم يكن هناك إطار لعملية الإحصاء هذه، وإن لم يكن هناك هدف،

والبحث عن الحقيقة ليس إحصاء عدد القطط في زنزبار، وانما تصنيفها داخل اطر محددة ثم تفسير وجودها على هذا النحو إن هذه الإمبريقية غير مبدعة وغير توليدية فهي محصورة في فضاء التفاصيل الضيق، لاتشغل نفسها بما وراء التفاصيل (أنماطها - اتجاهاتها - علاقاتها ..الخ وقد واجهتني مشكلة الموضوعية المتلقية وبحدة في أثناء محاولتي تعريف الصهيونية فتعريفات الصهيونية التي وردت في بطون الكتب الغربية (بما في ذلك الموسوعة البريطانية) تتحدث عن أن «الصهيونية. هي حركة تحرير الشعب اليهودي» أو «عودة اليهود لو طنهم القومي أو أرض أجدادهم أوالأرض التي وعدهم الإله إياها» وهنا طرحت على نفسي السؤال التالي : «هل تتطلب الموضوعية نقل هذا التعريف بحذافيره، برغم أنه يتضمن مفاهيم كثيرة لا يمكن قبولها، مثل أن فلسطين ليست وطن العرب، وإنما وطن اليهود وأن اليهود شعب واحد؟.. وإن رفضت هذا التعريف، هل يكون هذا من قبيل الذاتية؟» وينطبق الشيء نفسه على ما يأتينا من أخبار، فهل الموضوعية تتطلب أن أوردها كما هي، والذاتية عكس ذلك، برغم إدراكي أن هذه الأخبار تم أنتقاؤها بعناية، وأنه تم في المقابل إخفاء عشرات الأخبار الأخرى أو تهميشها ؟

ظاهرة الأملاء في التعليم

وتتضح سيطرة النموذج المعلوماتي على التعليم في ظاهرة الإملاء التي أصبحت شكلا أساسيا من أشكال التعليم في الجامعة يفترضها الطلبة كما يفترضها الأساتذة أساسا لعقد اجتماعي صامت بينهم. وإن حاول أحد الأساتذة أن يغير من هذا الاتجاه ويبدأ في إعطاء محاضرة حقيقية تتطلب الحوار وأعمال العقل يجد نفسه أنه يقف ضد التيار الأساسي

ثم يلي الإملاء طبع المذكرات والملخصات وبيعها للطلبة «بسعر معقول» أو مغالى فيه حسب درجة طمع الأستاذ. وتصبح القضية هي ثمن المذكرة، ومن هنا مشكلة ما يسمى «الكتاب الجامعي» وهو مفهوم يدل على مدى الانهيار الذي يعاني منه التعليم الجامعي .

ونصل إلى الهوة في «الدروس الخصوصية» وإذ تنحصر العملية التربوية في تدريب الطلبة على طريقة اجتياز الامتحانات وكيفية اجترار المعلومات على ورقة الإجابة، وتنتصر الحقائق الصماء التي لا معنى لها، وتضيع الحقيقة ويذوى المعنى .

وغني عن القول إن فلسفة الامتحانات تنبع من نفس النموذج، إذ يصبح هم الطلبة هو أن يحفظوا عن ظهر قلب ما لقنهم إياه الأستاذ وإظهار معرفتهم باكبر قدر منه في الامتحانات .

كثير من الأبحاث الجامعية الآن ليست «بحوثا» على الأطلاق، فهي في كثير من الأحيان عبارة عن المادة البحثية الأرشيفية

الأولية بعد تصنيفها سطحياً وبعد ترتيبها بطريقة لا تستند إلى منطق واضح أو كامن وهناك حيلة أخرى، وهى أن يكون البحث عبارة عن ورقة تتحدث عن أطروحة معروفة مسبقا يتم توثيقها من خلال حشد مصادر كثيرة ومراجع عديدة ومعلومات غير مترابطة لذا حل التوثيق (الموضوعى المتلقى) محل الاكتشاف والتفكير والتفكيك والتركيب (الذاتى الإبداعى)، ومن ثم ظهر داء النصوصية (أى يحشد الباحث أقوال الآخرين الواحد تلو الآخر، تأييدا لكلامه)

عملية توثيقية

ونفس النموذج (أى نموذج الالتزام بالمعلوماتية والموضوعية المتلقية) يتبدى فى الإجراءات التى تتخذ الآن للتسجيل لدرجة الدكتوراة أو الماجستير فى الماضى كانت المسألة تستغرق بضع ساعات فى مناقشة بين الأستاذ المشرف والمتقدم لنيل الدرجة، أما الآن فيطلب من الطالب (فى كثير من الجامعات) أن يقدم تقريراً مفصلا عن الموضوع الذى سيكتب عنه وعن أطروحته، يرفق به قائمة بالأدبيات المتصلة له وهذا الإجراء يحمى بعض الطلبة (متوسطى الذكاء) من الدخول فى طريق لن يؤدى بهم إلى شئ ولكنه يجعل الهدف من الرسالة عملية توثيقية، لأن كل شئ لابد أن يكون معروفاً مسبقا (مع العلم أننى فى رسالتى للماجستير والدكتوراه قد توصلت إلى نتائج تقف على طرف النقيض من الأطروحة التى كنت أنوى إثباتها .

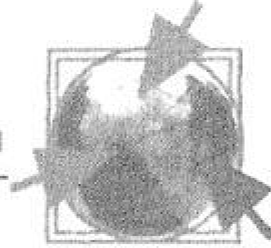
وانطلاقا من فكرة الموضوعية المتلقية، التى تسقط حق الاجتهاد، أصبح من المعتاد أن يقال لطالب تقدم بموضوع رسالته : «لقد كتب فى هذا الموضوع من قبل»، وكأن وجهة نظر الدارس مسألة عديمة الأهمية، وكأن المعرفة الإنسانية معرفة واحدية تراكمية : مجموعة من الأفكار أو المعلومات، التى تتراكم بعضها فوق بعض، مثل المعادلات الرياضية أو القوانين العلمية

وتعبيرا عن نموذج الموضوعية المتلقية الذى استشرى فى الرسائل والمؤلفات فى العلوم الاجتماعية فى البلاد العربية ما يسمى بالاستبيان، وهو مجموعة أسئلة توزع على أعضاء العينة الذين يجيبون عليها عادة بنعم أولا، وتختزل القضية إلى الأسئلة التى يطرحها الدارس والأجوبة التى يتلقاها، ثم يحاول بعد ذلك التوصل إلى نتائج إحصائية دقيقة، ثم يملأ رسالته بالجداول التى تدخل الغبطة على نفس الممتحنين نظراً لدقتها العلمية (وهم يعنون الموضوعية الفوتوغرافية فى واقع الأمر)، ومعظم هذه البحوث يقال لها «ميدانية»، أى أنها لاتتعامل مطلقا مع إطار النظرى ولا تتساءل بخصوصه، وإنما تحاول أن تطبق مقولة نظرية ما على حالة ما أو على عدة حالات وهذه الدراسات الميدانية هى الأخرى عملية تطبيق صماء متلقية تأتى

بنتائج متوقعة متضمنة فى المقدمات النظرية، ومن ثم فهى ليست بحثا ولا تعدل شيئا من النظرية السائدة (مع أن هذا فى تصورى هو هدف العلم) وعادة ما تفضل الإحصاءات والدراسة الميدانية لأنها «مفيدة» مما يبين أن الموقع المباشر سيطر على عقل الدارس، كما توصف بأنها «دقيقة» مما يدل على أن العلوم الطبيعية (وهى علوم تتجاوز فى دقتها العلوم الإنسانية والأجتماعية) تلقى بظلالها الكثيفة على العلوم الإنسانية، كما تدل على أن هذه المناهج ترى الإنسان بحسبانه كائنا طبيعيا .

عملية الإدراك والتفسير

إن جوهر البحث والإبداع - فى تصورى وتصور الكثير غيرى - هو أن يكتشف الإنسان علاقة بين شيئين أو ظاهرتين لم يكتشفها أحد من قبل ويربط بينهما، ثم يجرد بعد عملية الربط هذه نمطا عاماً يتجاوز الظاهرتين له مقدرة تفسيرية، ثم يرى الواقع من جديد فى ضوء هذه العلاقة الجديدة. وعملية الربط فعل ذاتى، لأنه نتاج إعمال الفكر، وليس معطى ماديا يوجد جاهزا فى الواقع، وعملية التجريد عملية إبداعية أكثر ذاتية من عملية الربط. ولكل هذا وجدت أنه من الأجدى استبعاد مصطلحى «موضوعى ذاتى» (فهما يفترضان موضوعاً قائما فى حد ذاته، وذات مستقلة منعزلة لاتتعامل مع الموضوع) أحللت محلهما مصطلحى «أكثر تفسيرية» و«أقل تفسيرية»، فهما أكثر دقة فى وصفهما لعملية الإدراك والتفسير. فإن كانت الأطروحة التى يأتى بها الدارس تفسر عدداً من المعطيات يفوق العدد الذى تفسره الأطروحات السائدة، فهى «أكثر تفسيرية»، وإن كان عددها أقل فهى «أقل تفسيرية»، ويتميز هذان المصطلحان بأنهما لا يتجاهلان الواقع بطريقة مغرقة فى الذاتية، وإن كانا فى الوقت نفسه يؤكدان أهمية العقل ومقدرته على التفاعل مع الموضوع وربط المعطيات المختلفة كما أن المصطلحين الجديدين أكثر انفتاحا. فالإنسان يقدم أطروحته لتختبر على محك «الواقع» لاتقبل أو ترفض، وبعد اختبارها إن وجدها الإنسان أكثر تفسيرية أخذ بها، وربما أضاف إليها ليجعل مقدرتها التفسيرية أعلى ، أما إذا كانت أقل تفسيرية فإنه يشير إلى نقائصها ويكملها، ولذا أسمى هذا النوع من التفكير «الموضوعية الاجتهادية» (فى مقابل الموضوعية المتلقية أو الفوتواغرفية)، وهى ألا ينقل الإنسان الواقع بحذافيره وكأنه ببغاء أو آلة تصوير بلهاء، وإنما يعمل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل ويجرد منها أنماطاً متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل ..■



الاستعمار الجديد والقديم

بقلم
د. جلال أمين

عندما تفضلت مجلة الهلال ووجهت هذا السؤال إلى مجموعة من الكتّاب: «ما الذى يشغل بالك الآن؟»، اتجه تفكيرى على الفور إلى ما يدور فى العراق. ووجدت أن السؤال الذى يلحّ علىّ منذ فترة هو: «ما هو الجديد بالضبط فى الاحتلال الأمريكى للعراق؟ نعم، إنه بلاشك هجمة استعمارية، ولكن فيم يختلف الاستعمار هذه المرة عن الاستعمار القديم؟».

إن لهذه الهجمة الاستعمارية الجديدة نفس الملامح القديمة المعروفة لأى غزوة استعمارية سابقة. ولكن تظهر من حين لآخر بعض الملامح غير المألوفة تجعل هذه الهجمة تبدو وكأنها نوع جديد حقا من الاستعمار، أو كأن ما يحدث يمثل أعلى مراحل الاستعمار.

كان هناك أولا نفس التعلل بحادثة مثيرة، منبتة الصلة فى الحقيقة بما اتخذ بعدها من إجراءات. أقصد بهذا بالطبع حادث ١١ سبتمبر، ٢٠٠١ فأيا كانت الحقيقة فيما يتعلق بتفاصيل ماوقع بالفعل فى ١١ سبتمبر هناك مئات الأدلة على أن ما قيل عنه من أكاذيب، من جانب وسائل الإعلام وجهات التحقيق الرسمية على السواء، يبلغ أضعاف ما قيل عنه من حقائق.

وعلى أية حال فقد استخدم هذا الحادث كما يُستخدم دق الطبول فى تهييج الجيوش للحرب: لا علاقة مباشرة فى الواقع بين دق الطبول فى بداية الحرب وبين الأهداف الحقيقية من الحرب، اللهم إلا تهييج الناس وخلق المناخ النفسى الملائم لما يراد عمله.

هناك أيضا نفس التشدق المألوف بمبادىء سامية جدا، لتبرير أعمال حقيرة جدا. فبعد أن استخدم الاستعمار شعارات نشر المسيحية مرة، فى عصر الرأسمالية التجارية، ثم استخدم شعارات الوطنية وتمدين الشعوب المتأخرة، فى عصر الرأسمالية

الصناعية، تستخدم الآن شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب، فى عصر الرأسمالية المعولمة.

وكل هذه الشعارات، القديم منها والجديد، لا علاقة لها بالطبع بالأهداف الحقيقية من الهجوم الاستعمارى.

أما الأهداف الحقيقية من الهجمة الاستعمارية فإن لها أيضا نفس الملامح المألوفة : السيطرة على مواد أولية ثمينة، وإن كان النفط قد حل محل السلع الزراعية، وفتح أسواق جديدة، وإن كان تصريف الأسلحة قد حل محل تصريف الأقمشة، وفتح مجالات جديدة للاستثمار، وإن كان الأمر الآن كثيرا ما يتطلب القيام بالتدمير قبل أن يعاد بناء ما تم تدميره.

كل هذه الوسائل والأهداف لها إذن كثير من الملامح الرئيسية المألوفة فى أى هجمة استعمارية سابقة.

ولكن هناك أيضا ملامح حديث بشعة لهذه الهجمة الاستعمارية الجديدة لابد أن تستوقف النظر، وتدعو المرء إلى التساؤل عما إذا كنا قد دخلنا، دون أن نشعر، عصرا جديدا تماما، لم نر مثله من قبل، وهو أقرب إلى العصر الذى صوره جورج أورويل فى رواية ١٩٨٤ منه إلى أى عصر سابق من عصور الاستعمار.

أنظر مثلا إلى الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام الآن، ليس فقط فى نقل المعلومات والأخبار إلى الناس، وليس فقط فى إثارة عواطفهم وتوجيه مشاعرهم فى الاتجاه المطلوب، بل ودورها فى إدارة العمليات الحربية نفسها بل وفى خلق الأحداث خلقا.

إن الجيش الأمريكى الذاهب إلى العراق أخذ معه، إلى جانب الأسلحة والعتاد، مندوبى التليفزيون ومصوريه، حيث يقرر قواد المعركة، ليس فقط مكان وزمان المعركة وأسلحتها، بل وأيضا طريقة تصويرها وإخراجها للناس.

وعندما يتقرر إنهاء حكم صدام حسين، يكون أمام قوات الاحتلال الاختيار بين القبض عليه فورا ومحاكمته وإعدامه مثلا، وبين الاكتفاء بتصوير تمثال ضخم له وهو يسقط فى ميدان عام بينما يصفق بعض الناس لسقوطه، على أن يؤجل القبض عليه إلى وقت آخر أكثر ملاءمة.

المشهد كما ترى أورويلى مائة بالمائة، حيث تضيع الفوارق بين الواقع والخيال، أو بين الأصل والصورة.

أو فلتنظر مثلا إلى هذا الاهتمام البالغ بتغيير طريقة التفكير، وتبديل الولاء، وإضعاف الشعور بالانتماء للدين أو الأمة، بما يتطلبه هذا من تغيير مناهج التعليم وإنشاء قنوات تليفزيونية جديدة، وصحف ومحطات إذاعة يقال صراحة إن الغرض الأساسى منها هو تغيير طرق التفكير وتبديل الولاء. نعم، كان من بين وسائل الاستعمار، فى كل مراحله، إضعاف الشعور بالانتماء للوطن، وبالولاء للأمة، وبالاعتزاز بدينها ولغتها. وما أكثر ما فتح الاستعمار من مدارس لتخريج تلاميذ يشعرون بالولاء للدولة المستعمرة، ويفكرون بلغتها، بل ويدينون بدينها. ولكن المدهش الآن، ليس فقط أن هذا يجرى بعد مرور عشرات السنين على اكتشاف نسبية الثقافات، وحماقة ترتيب بعضها فوق بعض، وفى وقت يدافع فيه الناس عن حق الحيوانات والطيور المهددة بالانقراض فى الاستمرار فى الحياة، فما بالك بحق ثقافات إنسانية أخرى فى الوجود إلى جانب الثقافة الغربية؟

بل من المدهش أيضا أن الاحتلال نفسه يجرى بدعوى عدم صلاحية ثقافة للبقاء، أو بدعوى تعارض دين من الأديان مع احترام حقوق الإنسان .. إلخ

لقد كانت الأفكار والشعارات دائما سلاحاً فعّالاً فى أيدى المستعمرين يدعمون بها السلاح المادى. ولكن هناك أشياء جديدة فى هذا أيضا .

شعار مكافحة الإرهاب

اختراع فكرة «الإرهاب» لتبرير هذه الهجمة الجديدة يتسم بصفات جديدة لم يحظ بها أى من الشعارات الدعائية السابقة، مثل نشر المسيحية أو نشر التمدين الأوربى، أو مكافحة الشيوعية.

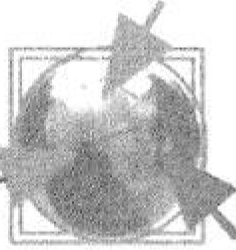
فى كل هذه الشعارات السابقة كانت هناك نسبة لا يستهان بها من حاملى هذه الشعارات ومتلقيها تؤمن به أو على الأقل تصدقه، أما فى استخدام شعار «مكافحة الإرهاب» فإن الترويج له يعتمد على الضجيج المصاحب له أو مجرد التكرار والإلحاح أكثر مما يعتمد على الإقناع.

«وهو تطور يتفق مع التطور الذى حدث فى وسائل الإعلام»

كذلك فإنه فى الهجمات الاستعمارية السابقة كان للشعار المرفوع أساس موضوعى مستقل عند استخدامه لتبرير الاستعمار. فالمسيحية لم تنشأ أصلا لتبرير الاستعمار، ولا التمدن الأوربى، ولا كان النظام الشيوعى مجرد وهم ابتدعه الرأسماليون. أما «الإرهاب»، فهناك أدلة كثيرة على أن الأمر بأكمله مصنوع ومخترع لتبرير التدخل والهجوم والاحتلال. وفكرة الارهاب، على أية حال، **فكرة غريبة لا يعرف لها أحد حدودا واضحة، أو مكانا معينا تسكن فيه، أو مفكرا نادى بها وحدد أصولها وأهدافها .. إلخ.**

أضف إلى ذلك أن استخدام الأفكار والشعارات كسلاح لدعم الهجمة الاستعمارية كان فى الماضى محدودا فى نطاق ضيق سواء من حيث الدول التى يمارس فيها هذا الاستخدام، أو من حيث النسبة من سكان أى دولة التى يوجه إليها هذا السلاح. كانت محاولات المستعمرين القدامى للتبشير بالمسيحية مثلا، لا تمس الجماهير الغفيرة من معتنقى الديانات الأخرى، كما كانت محاولة الترويج للحضارة الأوربية والاقناع بتفوقها مقصورة على حفنة صغيرة من المثقفين أو المتعلمين أو السياسيين. وينطبق هذا أيضا على شعارات مكافحة الشيوعية. وفى جميع الأحوال كانت هناك دائما بلاد وأمم نائية عن محاولات الترويج لهذه الشعارات . أما الآن فلتنظر إلى العالم بأسره، ولتخبرنى بأى بلاد العالم ينجو الآن من هذا الإلحاح السقيم على ضرورة التصدى «للإرهاب» وأى شعب من الشعوب نجت أغلبيته من التعرض لهذه المحاولات المستمرة لتلويث المخ؟

الجديد إذن فى هذه الهجمة الأخيرة يمكن تلخيصه فى عبارة واحدة، وهى «عولمة القهر»، سواء كان هذا القهر ماديا أو فكريا أو نفسيا. إذا كان الأمر كذلك فإن قضية الاستعمار لم تعد قضية شعب بعينه أو أمة بعينها، حتى إذا كانت كذلك فى أى وقت من الأوقات، بل أصبحت قضية الناس فى كل مكان. وإذا كان التحرر من تضليل الأفكار والشعارات التى ترددها يوميا أبواق الاستعمار، شرطا ضروريا دائما لتحرير الشعوب الخاضعة للاستعمار، فقد أصبح هذا التحرر الآن شرطا ضروريا لتحرير العقل الإنسانى فى أى مكان. ■



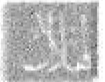
القضية التى تشغل المثقفين

(جزء خاص)

ديمقراطية..
على الطريقة الإيطالية

بقلم
جميل مطر

تعودت فى الشهور الأخيرة تصريحات سيلفيو بيرلسكونى رئيس وزراء إيطاليا ، كل تصريح منها يثير فى أوروبا الاهتمام المصحوب بالقلق ، أو يثير فى الدول العربية والإسلامية ودول أخرى كثيرة الغضب المصحوب بالاشمئزاز . سمعته منذ أسابيع قليلة يقول «يجب أن نروج للقيم الغربية ، ومنها فرض العقوبات الاقتصادية على الأنظمة الشمولية» . وقال «إن استخدام الدول الديمقراطية للقوة فى بعض الحالات كما حدث فى العراق يتطلب العمل على تغيير القانون الدولى ، فالقانون الدولى كما عرفناه كان يقف إلى صف سيادة الدولة ولا يسمح بالمساس بها» .. وقال «إنه يجب أن نتدخل فى شؤون الدول الأخرى كمصدرين للديمقراطية والحرية . وهذا أمر ممكن وأعتقد أن الغرب يجب أن يذهب أبعد مما ذهب إليه الرئيس بوش فى التدخل العسكرى الخارجى تحت اسم الحرب الوقائية»





هذه التصريحات تبدو مفهومة إذا قورنت بتصريحات أخرى أدلى بها فى مناسبات مختلفة متسببا فى مشكلات جمة أشهرها على سبيل المثال تصريحه الذى عبر فيه عن كراهية للإسلام والمسلمين . وتصريح آخر سب فيه أحد النواب الألمان ووجه إليه إهانة لم يغفرها مجلس النواب الألمانى والبرلمان الأوروبى . وتصريحات أخيرة أيد فيها إسرائيل تأييدا خارقا للعادة فأغضب العرب وأغضب الاتحاد الأوروبى . ثم أيد فلاديمير بوتين ضد الثوار فى الشيشان ، فأغضب الأمريكيين وزملاءه الأوروبيين الذين يأخذون على بوتين قسوة معاملته للجمهورية المتمردة . ولكن يهمنا فى كل هذه التصريحات تصدره لقضية الديمقراطية ورفع لوائها والتبشير بها . إذ قد يكون فى تصريحاته متهورا أو غامضا أو غير مفهوم وهذا لم يعد شيئا لافتا للنظر فكثير من زعماء العالم هذه الأيام لايجيدون الحديث ولا يفهمون أحيانا ما يصرحون به . ولعل الكتب الثلاثة التى صدرت مؤخرا عن الرئيس بوش وكمية الأخطاء اللغوية وحجم الجهل الذى تعكسه تصريحاته وخطبه دليل على أى حد صار منصب الرئيس يخضع إلى ما يمليه عليه مستشاروه وحتى رغم هذا الإملاء فإنه قد لايفهم ما يفرض عليه أن يقول .

* * *

بيرلسكونى ربما يأتى بعد بوش مباشرة وقبل طونى بلير فى صدارة المبشرين بالديمقراطية ودعاتها .. بيرلسكونى هو ابن ايطاليا . ومن هى إيطاليا ؟ يكشف تاريخ إيطاليا السياسى عن أن الديمقراطية لم تتعمق فيها رغم فترات مورس فيها شكل أو آخر من أشكال الديمقراطية . المعروف أن إيطاليا منبت الفاشية . فالفاشية نشأت فى إيطاليا قبل أن يصل هتلر إلى الحكم فى برلين . إيطاليا عرفت نظام الحزب الواحد أكثر مما عرفت نظام الأحزاب المتعددة . فقد حكم موسولينى بحزب واحد لأكثر من عشرين عاما . ثم سقطت الفاشية فى الحرب العالمية الثانية وحل محلها نظام الأحزاب المتعددة ومع ذلك ورغم وجود عدد كبير من الأحزاب فى إيطاليا لم يحكم إيطاليا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى سنوات قليلة مضت إلا حزب واحد كاثوليكى معتمدا فى بعض الأحيان على تحالفات أو على ائتلاف مع أحزاب أخرى . بهذا لم تعرف إيطاليا تداول السلطة بين الأحزاب خلال القرن العشرين . كانت النتيجة أن إيطاليا عاشت بديمقراطية مشلولة وبنظام سياسى جامد الحركة لا يتطور ولا ينمو ولا يمارس الديمقراطية كما تفهمها الدول الأعرق فى ممارساتها . ولذلك عانت إيطاليا من كل أنواع الظلم الاجتماعى والفساد القضائى والشلل البرلمانى ، فمن ناحية هيمنت الديمقراطية المسيحية على الحكومة والإدارة وهيمن الحزب الشيوعى على المعارضة ، أى أن إيطاليا خضعت لما يقرب من مدة خمسين عاما الكنيستين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشيوعية، وكلتاهما كانتا على الدوام رافضتين

للتطوير والتغيير . في ظل هذا الشلل نشأ الإرهاب اليميني ونشأ بعده الإرهاب اليساري وامتد منه إلى دول أخرى في أوروبا .

شركات عائلية

إيطاليا مجتمع أبوي . العائلة فيه هي أساس العلاقة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فعلى نقيض معظم الدول الأوروبية تعيش نسبة كبيرة من الشباب الإيطالي إلى أعمار متقدمة مع أهاليهم . وينعكس هذا النظام الأبوي العائلي على ظواهر متعددة مثل الطلاق حيث تبلغ النسبة في إيطاليا ١٦٪ وهي نصف المعدل في بقية أوروبا وثلث معدل الطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية . كذلك تبرز الإحصاءات الاقتصادية أن ٨٣٪ من النشاط الاقتصادي الإيطالي يتم من خلال شركات عائلية وأكثرها شركات لايعمل فيها أكثر من ٥٠ عاملا . وفي السنوات الأخيرة حدث تغير مهم في سلوك الأفراد في إيطاليا وفي إنتماءاتهم

فالإيطالي كان دائما متمسكا بأيديولوجية ما فهو إما اشتراكي وإما فاشي وإما كاثوليكي . وفي الوقت نفسه ظل قويا انتماؤه الجغرافي ، فالإيطالي إما جنوبي أي من صقلية وسردينيا أو نابولي أو باري، وإما شمالي أي من سهل البو وإقليم لومبارديا الشاسع الممتد من فينيسيا شرقا إلى تورينو وسان ريمو غربا . وقد يكون من توسكانيا أي من القلب الارستقراطي ، لغة وطبقة ، وفي التسعينيات من القرن الماضي قفز النظام الدولي قفزة واسعة من الحرب الباردة إلى هيمنة القوة الرأسمالية الأعظم في العالم وقفز النظام الإقليمي الأوروبي في خطوات متسارعة نحو الوحدة الأوروبية ، بكل ما يعنيه هذا التحول من ضغوط على الانتماءات الأساسية للمواطن الإيطالي ، فأضيف الانتماء الأوروبي كانتماء جديد . إلى جانب ذلك حدثت الطفرة الكبيرة في اتجاه العولمة التي أثرت تأثيرا مباشرا على الحياة في إيطاليا وسلوكيات الأفراد فيها . خلاصة القول أن المواطن الإيطالي انتقل في أقل من ١٠ سنوات من إنسان ملتزم أيديولوجيا متمسك بانتماءاته الأولية أبوي النشأة إقليمي النزعة إلى إنسان شديد البراجماتية ، أوروبي التوجه ، عالمي الرؤية .

* * *

أما الرجل سيلفيو بيرلسكوني فهو في حد ذاته قصة . ولكنها القصة التي لاتنفصل عن سياقها ، أي عن طبيعة وسلوك المواطن الإيطالي العادي وسلوكه ولا عن طبيعة إيطاليا والتحولات التي جرت فيها . في يوم ٩٤/١/٢٦ ظهر بيرلسكوني على شاشات قنواته الثلاث ليعلن ، وهو القادم من قلب طبقة رجال الأعمال ، تشكيل حزب سياسي ورغبته في أن يتولى منصب رئيس وزراء إيطاليا . تقدم بيرلسكوني إلى جماهير إيطاليا باعتباره أكبر مالك للأراضي في إيطاليا وأغنى رجل فيها وصاحب أوسع امبراطورية إعلامية . وبالفعل اهتز الكيان السياسي الإيطالي تحت وقع هذه الهجمة وشعر أكثر المراقبين السياسيين أن هذا الرجل سوف يأتي رئيسا للوزارة ، فقد

امتلك الهواء وتسلل إلى جميع البيوت والمقاهي . في ذلك اليوم شاهده على الأقل ٤٥ ٪ من مشاهدي التليفزيون في إيطاليا وما كان يمكن لأحد أن يتجاهله إذ كان يكفي أن تغير القناة إلى قناة أخرى لتجده فيها وإذا انتقلت إلى قناة ثالثة لوجدته كذلك فيها .

لم يخف بيرلسكوني أن هدفه هو السيطرة على معظم أجهزة الإعلام في إيطاليا . ووصل إلى الحكم بالفعل وصار رئيسا للوزارة وانكشفت فضيحة كبرى تتضمن رشوة قضاة كانوا يحاكمونه بتهمة استخدام الفساد ، وانفرط التحالف الحاكم تحت وقع الفضيحة وسقطت حكومته بعد ثمانية شهور قضى جميعها في حرب مع القضاء والعدالة . انتظر بيرلسكوني ست سنوات ولكنه لم يبتعد كثيرا عن الأنظار . كان يطل على المشاهدين من حين إلى آخر على قنواته ومن خلال صحفه التي كانت تزداد باستمرار . وخلال غيابه عن منصب رئيس الوزراء ظل حزبه الأكبر عددا في البرلمان واستمر يدعم سلطانه على السياسيين ويكيل الضربات الواحدة بعد الأخرى للسلطة القضائية ولم يضع فرصة لكي يشتري سياسيا مهما أو رجل قضاء أو أي إنسان له نفوذ أو قد يفيد في أي يوم من الأيام .

كان معروفا مثلا أن خمسين نائبا من الذين انتخبوا على قائمته في عام ١٩٩٤ يعملون كموظفين في شركته المعروفة باسم ميديا است للإعلانات وهي أكبر شركة في إيطاليا في هذا المجال . نواب آخرون كانوا يعملون في شركاته الأخرى وهي متعددة . ونواب من نوع ثالث كانت أرزاقهم تعتمد عليه بشكل غير مباشر ، منهم محامون ومحاسبون واستشاريون ونجوم تليفزيون وسينمائيون وصحفيون ومقاولون ووكلاء فنانين . عدد من هؤلاء كانوا من بين المشتبه فيهم في عديد من القضايا التي يجري التحقيق فيها، وكان هدفه من تعيينهم حمايتهم من الاستدعاء لمحاكمتهم أو للشهادة ضده، ويقال إن أكثرهم لم يحضر أي جلسة من جلسات البرلمان إلا حين بدأت المحاكمات فكان يستخدم حضوره في الجلسات البرلمانية كمبرر لعدم حضور جلسات المحكمة ، بل يقال إنه قام بتعيين جوليو تريمونتي محاميه الخاص وزيرا للميزانية ، وكان الغرض من تعيينه أن يعمل على إصدار تشريع يعفي شركات بيرلسكوني من دفع مبلغ ٢٥٠ مليار ليرة أي حوالي ١٥٠ مليون دولار ضرائب متأخرة السداد ، وكانت الحجة التي استخدمها الوزير لإصدار هذا التشريع أن الحكومة تشجع الشركات على إعادة استثمار هذا المبلغ في مجالات اقتصادية بدلا من تجميده في خزائن الحكومة كإيرادات. وقبل أن تنفذ الشركات هذا الالتزام كان بيرلسكوني قد باعها إلى شركات أخرى فسقط عنها الالتزام .

بيرلسكوني إعلامي يعرف قوة الإعلام وأهميته ، لذلك أصدر أمرا خلال الحملة الانتخابية عام ٢٠٠١ بألا تظهر على ملصقات جميع المرشحين على قائمته إلا صورته هو . وأي نائب يضع صورته إلى

جانب بيرلسكونى يحرم من الانتخابات كان وجهه يطل على الناس فى كل مكان . ملصقات هائلة الحجم على الطرق السريعة ومحطات السكك الحديدية بل إن أحياء كاملة غطت جدرانها صور بيرلسكونى..

أعود لأذكر بما جاء فى صدر هذا المقال عن أن بيرلسكونى هو ثانى أو ثالث أكبر داعية لنشر الديمقراطية فى العالم الثالث ومحاربة الاستبداد والديكتاتورية بالقوة المسلحة إن استدعى الأمر . وفى الحقيقة أكاد لا أجد فارقا كبيرا بين ما فعله بيرلسكونى فى إيطاليا وما فعله أى ديكتاتور نعرفه أو قرأنا عنه فى العالم الثالث . الفرق الوحيد ربما يكمن فى ضخامة الامبراطورية الإعلامية التى يتحكم فيها بيرلسكونى واتساعها مقارنة باحتكار كامل من جانب حكام النظم السلطوية فى العالم النامى . وقد أثارت بعض أحزاب المعارضة مسألة تعارض المصالح بين بيرلسكونى والدولة التى تولى فيها وظيفة رئيس الوزراء وكان رد بيرلسكونى على ذلك أن وضع أولاده على رأس شركاته التليفزيونية ووضع زوجته على رأس المؤسسات الصحافية بكل ما يحمل هذا الإجراء من استهانة بالرأى العام فى إيطاليا وبأصول الديمقراطية الليبرالية التى تشترط وجود مساحة ومنافذ للرأى الآخر وبشكل منصف .

تشريعات مخالفة للأعراف

الشائع فى إيطاليا أنه لم يحدث فى تاريخها السياسى أن أصدرت حكومة هذا الكم من التشريعات المخالفة للأعراف والأخلاق فى هذه المدة الوجيزة ، فإلى جانب التشريع الذى وضعه وزير ماليته الذى يعفى شركات بيرلسكونى من الضرائب المتأخرة ، صدر تشريع آخر يسقط حماية الدولة عن الشهود فى جرائم المافيا وفى أى قضايا تحاكم فيها شركات بيرلسكونى ، ولاشك أنه من الممتع وبالذات بالنسبة إلى أى رجل قضاء أو مشرع أن يقرأ صياغة هذا التشريع الذى يكاد يصرخ فى وجه العدالة والإنسانية والديمقراطية قبل أى شىء آخر . ثم أن حكومته أصدرت تشريعا يعطل فاعلية القوانين الخاصة بسرية الحسابات البنكية فيما يتعلق بالمحاكمات الجارية لبيرلسكونى نفسه أو لشركة من شركاته. بمعنى آخر لايحق لرجال الادعاء والقانون أن يستخدموا الحق فى الاطلاع على حسابات هذه الشركات وحسابات بيرلسكونى طالما ظل بيرلسكونى رئيسا للحكم . ويتمكن الخبراء القانونيون الذين استعان بهم كنواب ورؤساء وأعضاء لجنة تشريعية فى البرلمان ووزراء من إصدار لوائح وتشريعات تجعل أى قضية معروضة أمام القضاء تتعلق به وبشركاته تأخذ وقتا أطول مما تحتاجه قضايا مماثلة ، أى إطالة أمد القضية المعروضة إلى أقصى حد ممكن بوضع العراقيل أمام الادعاء حتى لايتمكن من استكمال قضيته . وهكذا سقطت قضايا لم ينته الادعاء من إعدادها فى الوقت المناسب. عن هذا يقول الإيطاليون إنه بدلا من أن يصدر بيرلسكونى تشريعا واحدا بعدم محاكمة شخصه أصدر عشرات اللوائح

والتشريعات والقوانين التي تصل إلى النتيجة نفسها .

ومن القصص الطريفة التي تروى عن أساليب بيرلسكوني في الحكم أن اثنين من محاميه الشخصيين الذين كلفهم بالدفاع عنه في قضايا الرشوة المتهم فيها أمام محكمة في ميلانو كانا يطيران في الصباح من روما إلى ميلانو ليدافعا عن بيرلسكوني ويعودان بعد الظهر ليشتركا في صياغة قوانين جديدة تصدر بسرعة لمنع الادعاء من الوصول إلى أغراضه التي يخطط لها في الجلسات القادمة للمحاكمة . بمعنى آخر كانا يستبقان الادعاء بإصدار قوانين تحول دون ممارسته حقه في توجيه التهم .

ليس غريبا أن يحدث هذا إذا أعدنا التذكير أن بيرلسكوني يمتلك ثلاث قنوات تليفزيونية يشاهدها ٤٥٪ على الأقل من المشاهدين . وبصفته رئيس الحكومة فهو يهيمن هيمنة كاملة على ثلاث قنوات تليفزيونية حكومية أخرى يتابعها أيضا ٤٥٪ من المشاهدين . أي أن رئيس الحكومة الذي يبشر بالديمقراطية وحرية الرأي الآخر واحترامه واستخدام القوة العسكرية ضد من يحتكرون السلطة خارج الدول الغربية هو نفسه يحتكر الرأي الواحد على الأقل بين ٩٠٪ من المشاهدين . وتقول إحدى الإحصائيات إن بيرلسكوني وحده يدلي بتصريحات تحتل ٤٠٪ من كل التصريحات السياسية في إيطاليا . وأن عدد المعلقين السياسيين في أجهزة الإعلام الذين فصلوا من وظائفهم بسبب انتقاداتهم لبيرلسكوني يصل إلى حدود لا سابقة لها في إيطاليا .

والمعروف أن أضخم جريدة في إيطاليا وهي كوريري دي لاسيرا أجبر بيرلسكوني أصحابها على فصل رئيس تحريرها فوروشيو دي بورتولي وكان سبب الفصل أنه ألمح في مقال له إلى أن ضغوطا من بيرلسكوني تمارس على الصحيفة لتغيير خطها السياسي . هذه الجريدة عرفت على مدى عقود طويلة بوصفها الناطق الأساسي باسم اليمين الرأسمالي الليبرالي ، في إيطاليا .

لا جديد في إيطاليا !

يقول توبياز جونز في كتابه «القلب المظلم لإيطاليا: رحلات عبر الزمان والمكان في إيطاليا» والصادر منذ أسابيع قليلة إنه لا جديد في إيطاليا في ظل بيرلسكوني إلا من حيث الدرجة ، ويضرب مثلا بفريقي الكرة أ . س ميلان ويوفينتوس . الأول يملكه بيرلسكوني والثاني يملكه الملياردير أنيللي صاحب إمبراطورية السيارات ، هذان الفريقان يحصلان على معاملة أفضل من حكام الكرة في كافة المباريات التي يشتركان فيها . هذه إحدى الفضائح المعروف لدى العامة في إيطاليا ومسكوت عنها ، إيطاليا ثقافة مرئية يسهل غوايتها بقنوات بيرلسكوني . ويساوي توبياز جونز بين بيرلسكوني وموسوليني فيقول إن أحدهما كان يسلب إرادة الناس من شرفة في ميدان البندقية في روما والآخر يسلبها من شاشة التليفزيون .

ويلاحظ بول جنزبورج في كتابه «إيطاليا والساخطون فيها» أن أغلب ناخبي بيرلسكوني هم من صغار رجال

الأعمال الذين يشكلون النسبة الأعظم في القطاع الاقتصادى فى إيطاليا. هؤلاء لهم ثقافة اقتصادية وسياسية معينة بمعنى أنهم معتادون على طرد موظفيهم متى شاءوا دون مراعاة قوانين العمل . هؤلاء أيضا يغشون في الضرائب ويتهربون منها ويخرقون كل القوانين . يعرف بيرلسكونى عن خبرة، وخاصة أنه الإيطالي النموذجي ، كما يقال ، أن محاكمته بتهم الفساد والرشوة والتهرب من الضرائب تقلق الطبقة الوسطى ورجال الأعمال لأنهم يخشون أن القضاء وقد بدأ به فلا شك أن يد التطهير سوف تصل إليهم سواء عن طريق التدقيق فى حسابات الضرائب أو عبر مطاردة الذين يخرقون القانون . ولذلك عمد بيرلسكونى فى المرتين اللتين تولى فيهما الحكم أن يبدأ بإصدار قانون يعفى المتأخرين عن الضرائب ، أى يكافىء الطبقة الوسطى من صغار رجال الأعمال على أساليب الغش التى يستعملونها ضد الحكومة .

يلاحظ جنزبورج أيضا أن بيرلسكونى فى الواقع لا يتحدث عن الديمقراطية بقدر ما يتحدث عن الحرية لأن مفهومه للحرية هو ألا يكون هناك أى قيد على المنافسة . ولذلك تشير الإحصائيات إلى أن من كبار مؤيدى بيرلسكونى بعض صغار رجال الأعمال والطبقة الوسطى الصغيرة وبناة العشوائيات أى الذين يعملون على تخريب البيئة فى إيطاليا بالمبانى الخارجة عن القانون أو بأى أعمال أخرى تهدد جمال الطبيعة وقوانين الدولة . هؤلاء يهدمون المبانى الأثرية أو يسرقونها ويحطمون التاريخ الإيطالى أمام سمع رجال الدولة وبصرهم . الحرية عند بيرلسكونى هى حرية الاحتكار والتغلب على الدولة والتهرب من القوانين . وإيطاليا حسب جنزبورج وتوبياز منبت الفاشية والمافيا والإرهاب كلها مجتمعة فى فلسفة واحدة تقوم عليها الحكومة الإيطالية الراهنة .

وتفسير ذلك لدى المحلل السياسى لشؤون إيطاليا أن الأحزاب الإيطالية مثلها مثل أحزاب كثيرة فى العالم بدأت تنحسر لصالح أفراد أغنياء يشترون السياسة بإعلانات التليفزيون . وقد ظهر أحدهم فى أمريكا منذ سنوات وهو روس بيرو . وظهر ثلاثة منهم فى روسيا استطاعوا فى وقت قصير أن يصلوا إلى ما يشبه احتكار أجهزة الإعلام الروسية وحاولوا ضرب فلاديمير بوتين والهيمنة على السياسة الروسية الداخلية والخارجية . اثنان منهم محكوم عليهما وهما فى الخارج كلاجئين سياسيين ، أحدهما فى إسرائيل ، والثانى فى بريطانيا، والثالث ينتظر محاكمة فى سجن روسى بتهمة التهرب من الضرائب والتلاعب فى الأموال .

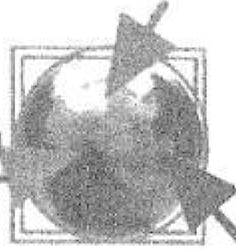
فوق هذا وذاك يشير الكثيرون إلى أن بيرلسكونى يقدم نموذجا سيئا للتطور الإعلامى لأنه يفخر بأنه بدأ حياته الإعلامية فى أوائل عقد الثمانينيات بتقديم استعراض راقص للعراة كان الأول فى العالم . ويقول أحد المحللين السياسيين إن شركة الإعلام التى يملكها سيلفيو بيرلسكونى يعود سر نجاحها ليس لأنها سياسية أكثر مما يجب بل لأنها ليست سياسية على الإطلاق ، فجميع القنوات

التليفزيونية التي يملكها بيرلسكوني لاتتحدث عن السياسة إلا عندما يظهر هو فيها ، إنما كل اهتمامها هو الأفلام وصور العراة والكوميديا . ويتردد في الدوائر السياسية في الحكم أن فلسفة بيرلسكوني تتلخص في عبارة "أن المدخل للسياسة في العصر الراهن هو اللاسياسة" ، وأظنها عبارة تستحق التوقف عندها خاصة هذه الأيام .

خيبة أمل الكثيرين

ويذكرنا بيرلسكوني برئيس الولايات المتحدة الأمريكية عندما يقول «إن هناك شيئا سماويا في أن يختارك الشعب رئيسا له» ، هنا الإضافة الدينية تصيب بخيبة أمل كثيرين من الليبراليين والعلمانيين في الدول الأوروبية خارج إيطاليا . قال بيرلسكوني ذات مرة إن الشعب لايعتبره مذنبا أو مجرما بدليل أنه أعاده إلى الحكم . «وإذا صدر حكم محكمة ضدي فمعناه أنه حكم ضد الديمقراطية لأن الشعب لايعترف بجرائمي أو لايرى أنني ارتكب جرائم وبالتالي كلمته أعلى من كلمة القانون أو القضاء» . كان لافتا لنظر الكثيرين ممن شاهدوا على شاشات التليفزيون مشاهد التصويت على قوانين في مجلس النواب الإيطالي أن يتابعوا موظفي مجلس النواب وهم يهرولون في القاعة ليدقوا بأصابعهم على أزرار التصويت نيابة عن نواب غائبين . ولم يحتج الشعب . واستمر بيرلسكوني يرفع شعار الديمقراطية ويدعو إلى تنفيذه بالقوة وبالعنف . والجدير بالذكر أن التليفزيون الإيطالي لم يقدم في عشر سنوات تغطية لأي قضية من قضايا الفساد نظرت أمام المحاكم الإيطالية ضد بيرلسكوني وشركاته ، باستثناء مرة واحدة حين ناقش أحد مقدمي البرامج الكوميدية علاقة بيرلسكوني بالمافيا ، وأعيدت إذاعة البرنامج في محطتين أخريين كانت نتيجتها أن بيرلسكوني فقدت شعبيته ١٢ نقطة في قياس الرأي العام . واتهم بيرلسكوني التليفزيون بارتكاب جرائم إعلامية وقررت الحكومة فصل ثلاثة من المسئولين عن إذاعة هذا الشريط . ويطمح بيرلسكوني إلى السيطرة على أكبر شركات إعلامية في أوروبا . وحاول شراء أكبر قناة تليفزيونية في إسبانيا ورفعت ضده قضايا في مدريد بسبب فساده وتهربه من الضرائب في إسبانيا واستخدامه شركات وهمية لشراء هذه القناة الأمر الذي أجبر حكومة إثنار على رفض عرض الشراء .

هذا الرجل هو الذي يؤيد إسرائيل تأييدا خارقا للعادة خلافا لكل قرارات الاتحاد الأوروبي وسياساته وهو رئيسه حتى نهاية ديسمبر . فأغضب العرب والمسلمين . وهو الرجل الذي أيد فلاديمير بوتين ضد الثوار في الشيشان فأغضب الأمريكيين والأوروبيين معا . وهو الرجل الذي أصدر قانونا يحمي إمبراطوريته من رجال القانون والادعاء في إيطاليا فأثار حنق المعارضة ملوثا سمعة الديمقراطية ، وبيرلسكوني هو الرجل الذي قال «لم أتصل مرة واحدة تليفونيا بمسئول في قنواتي التليفزيونية التي أملكها للتأثير على قراراته» . أليس هذا هو القول الشائع في كل عواصمنا العربية وعواصم الدول غير الديمقراطية ؟ ■



القضية التى تشغل المثقفين

(جزء خاص)

العروبة المفترى عليها !

بقلم
د. محمد عبد الشفيع عيسى

قدم بعض المثقفين العرب - غداة الغزو الأمريكى للعراق - وعدا بجائزة، وذبحوا ضحية فأما الوعد بالجائزة فهو وعد بالديموقراطية وأما الضحية فهى القومية العربية .

وارتبطت جائزة الديموقراطية بأيديولوجية قوى السوق للاقتصاد الرأسمالى . أما الضحية فلم تكن الديموقراطية فقط، وإنما أفكار العدل الاجتماعى الجذرى أيضا (أو الاشتراكية) بالإضافة إلى الأفكار المرتبطة بالهوية العربية - الإسلامية والمؤتلفة مع المسيحية الشرقية.

وباختصار فإن ذلك الفريق من المثقفين العرب أقام مهرجانا خطابيا للترحيب بالديموقراطية والرأسمالية القادمة - المزعومة حتى الآن، وأقام احتفالية جنائزية لوداع العروبة والاشتراكية والإسلام المؤتلف مع المسيحية الشرقية ..

وبرغم ما يحمله المهرجان والجنازة من دلالات فكرية كبرى، فلم يفسر لنا أحد منهم ما حدث بالضبط وما ينبغى أن يحدث ؟!

لم يقل لنا أحد ما هى الديمقراطية أصلا؟ وهل مازالوا يتذكرون تعريفها المدرسى القديم : (الديموقراطية حكم الشعب بالشعب وللشعب)؟ ولم يقولوا لنا هل للديموقراطية شروط ؟ أى هل إن الممارسة الديموقراطية مشروطة بتوفر مقومات معينة، وان كان ذلك فما هى تلك الشروط أو المقومات ..؟ وهل توفرت لدينا، أو هل يمكن لأمريكا أن توفرها لنا نحن العرب ؟

(ونقول : أمريكا – هكذا مجردة من أى وصف قد يكون متحيزاً : مثل الاستعمارية والأمبراطورية الخ) وكيف يمكن أن توفرها أمريكا هذه – إن افترضنا رغبتها فى ذلك وقدرتها عليه ؟ أم الديموقراطية شأن محلى، أو وطني، أو قومى – وحينذاك: كيف يمكن توفير شروطها ومقوماتها ..؟ وما مستقبلها إن قامت ؟. وما إطارها الاجتماعى وأيضا الحضارى والثقافى والإيديولوجى ؟.

أما الضحية فقد ساقوها ذبيحة مذمومة ومدحورة، ولم يعنوا حتى بعرضها أمام مذبح القرابين قبل أن يسيروا فى جنازتها وحدهم دون شريك؟ وهكذا لم يقولوا لنا : كيف تسببت القومية العربية نفسها فى المآسى ؟ وكيف لنا أن نتوقى كوارث من هذا القبيل بعد ذلك ؟

ولكنا نقول لذلك الفريق من المثقفين العرب هاأنتم فسرتم لنا لماذا استمرت هذه الأمة تعيش أجواء النكسة منذ ١٩٦٧ حتى الآن أى قرابة أربعين عاماً .. ؟ فقد عرفنا منكم الآن كيف يتشتت رأس الأمة – المقطوع – ويذهب شذر مذر تميل به الرياح أينما مالت، وكيفما شاءت لها أهواء الفضاء (الخارجى) ..!

بغداد فى قبضة الاحتلال

قد عرفنا الآن معنى الظاهرة المعروفة فى علم السياسة بـ (تشرذم النخبة) Elite Fragmentation وغياب الاتجاه الرئيسى لأغلبية معينة mainstream direction فقد ذهب مثقفونا كل مذهب بعد وقوع بغداد فى قبضة الاحتلال سواء من حيث تفسير الحدث نفسه (بين أنصار مذهب التقصير ومذهب الهروب ومذهب الخيانة ومذهب الصفقة والإخفاق ومذهب أن هذه هى النتيجة الوحيدة للإستبداد) ومن حيث رسم معالم المستقبل ما بين مواجهة الاستبداد، وبناء (الديموقراطية) المزعومة، وما بين «الليبرالية» على النمط الغربى الصريح (انتخابات وتمثيل) وما بين العلمانية القحة، والدولة الدينية التقليدية، والدولة الإسلامية الحديثة، والدولة الطائفية المجزأة دينيا والمبعثرة قوميا وإثنيا – حيث تنبعث هويات من مرقدها ويعاد إحياؤها من جديد ..

أنقسم أولئك المثقفون العرب على أنفسهم إذن، وتوحد معظمهم حول لعن مامضى والتطلع إلى شبح فى المستقبل. ومع هؤلاء المثقفين، وبأثر لما فعلوه فى الفترة الماضية، احتارت جماهير الأمة التى التفت طوال أيام عملية الغزو العسكرى

للعراق – حول العراق ونفذت بقصد أو بدون قصد عملية (غسيل للدماغ) نسيت من خلاله وقائع ما جرى من الغزو والمقاومة العراقية لهذا الغزو وأخذت تركز على ما أرادت لها أجهزة الدعاية الأمريكية أن تتذكره : مثل سقوط تمثال من حالق وبعض مبالغات إعلامية اعتبرها البعض باعثة على الضحك التمثيلي وعلى انقاض (التمثال) و(التمثيلية) جرى إفساح المجال للفوضى من ناحية أولى، ولسياسات الثأر أو الانتقام المعنوي من ناحية ثانية وكانت هذه هي التربة المزدوجة التي رعتها ألاعيب بعض السياسيين الانتهازيين العرب والعراقيين وسياسة (فرق تسد) الأمريكية – البريطانية .

وضمن هذا الإطار الشامل الذي رسمته الولايات المتحدة الأمريكية يجري الإعداد في العراق وعلى امتداد الوطن العربي لإقامة تمثال جديد ولعب تمثيلية جديدة فأما التمثال فهو لذكرى الكارثة نصبا أو أنصابا أو أزلاما تجسد(ديموقراطية) الهوية المبعثرة، وأما التمثيلية فهي السياسة التمثيلية أي بناء نموذج ليبرالي شكلي يقوم على تعددية سياسية وحزبية فارغة من المضمون الاجتماعي التقدمي والقومي وتكتفي من الغنيمة بسلامة الإياب .. من خلال انتخابات مزورة أو غير مزورة واقتصاد سوق يعيد سيرة الانفتاح .

وبواسطة التمثال والتمثيلية ويريدون تثبيت واقع التجزئة الاستعمارية في الوطن العربي، والتبعية للمركز الأمبراطوري – أو الامبريالي – البائس الجديد : أمريكا – والتعامل من موقع المذلة تجاه إله التطرف العنصري وإله الرأسمال اليهودي أي اسرائيل .

بيد أننا نقول لكل من سبق وما سبق : لا نقولها بالصوت العالي و (بالخط العريض) لا لديموقراطيتكم المزعومة، ولا لوطنيتكم الدعاة لا لاقتصادكم الرأسمالي ولا لأمريكا الكبرى وأمريكا الصغرى اسرائيل .

ديمقراطية قوي الشعب

ولكننا نريد الديموقراطية. بيد أن الديموقراطية التي نريدها هي ديموقراطية قوى الشعب العربي المنتج والساعي الى التحرير الوطني – القومي فلا ديموقراطية لدنيا بدون الاستناد إلى الغالبية الاجتماعية ذات المصلحة المستقبلية في الاشتراكية، ولا ديموقراطية إلا في أجواء التحرر الوطني القومي العربي وتثبيت هويتنا القومية – الدينية .

إن الديموقراطية في عرفنا هي عملية بناء سلطة لقوى اجتماعية معينة، هي صيغة الحكم لهذه القوى، هي ديكتاتوريتها إن شئت فإن شئت لها أن تكون ديموقراطية أو ديكتاتورية الطبقات الاستغلالية والطفيلية المرتبطة بالاستعمار فهذا شأنك وإن اردتها ديموقراطية الشعب العربي المتحرر فهذا شأنك وشأننا أيضا

الديموقراطية إذن ليست جائزة مجانية، وليست منحة، وإنما هى عملية كفاحية، نكاد نقول: ثورية وكما نال الغربيون ديموقراطيتهم بكفاحهم المضنى عبر ثورات البرجوازية الصاعدة في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر (الثورة البريطانية فى عهد كرومويل - والثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية التى أنجبت الدستور وسبقت الحرب الأهلية) - فكذلك لن يتسنى لنا إقامة الديموقراطية كغنيمة حرب وإنما كثمرة كفاح ثورى يشبه الحرب : عن طريق رفع الوزن النسبي للقوى الاجتماعية المنتجة، عبر ممارسة طويلة ومعقدة، تبنى من خلالها المؤسسات، وتراكم الإنجازات، حتى تقيم تلك القوى سلطتها أو ديموقراطيتها أو ديكتاتوريتها .. لافرق ..!

بل إن التجارب الديموقراطية ذات النفس (الليبرالى) المعقول نسبياً فى الوطن العربى وسائر (العالم الثالث السابق) إنما نشأت فى أجواء حركة التحرر الوطنى والسعى للاستقلال السياسى عن الاستعمار فقد تطورت التجربة البرلمانية المصرية فى القرن التاسع عشر فى غمار محاولة تشكيل هوية وطنية معارضة للوجود والنفوذ الأجنبى، والتى توجت بالثورة العرابية ١٨٨١ وتبلورت التجربة (الليبرالية) المصرية فى القرن العشرين تحت تأثير ثورة ١٩١٩ ولمدة ثلاثين عاما (١٩٢٢ - ١٩٥٢) وقد حدث شئ قريب من ذلك فى حالة الهند، من خلال تجربة غاندى ونهرو وبزعامة حزب المؤتمر .

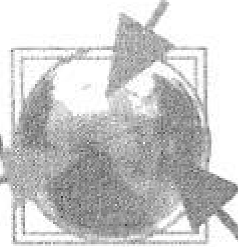
فأما تلك الديموقراطية من النوع الليبرالى الغربى التمثيلى - الانتخابى - الأجوف والمجرد من المضمون الوطنى التحررى الجذرى والمضمون الاقتصادى الاجتماعى أيضا - فهذه لاتزيد عن كونها (أفيون الشعوب) فى المرحلة الحالية ..!

وأن السلطة التى نريدها لأمتنا العربية فى مستقبلنا هى على النقيض من هذا كله.

فهذه هي الجائزة الموعودة الحقيقية وليست الجائزة التي يعدنا بها بعض المثقفين هذه الأيام.! وبعد حديث الجائزة ... يأتي حديث الضحية فالقومية العربية التي يريدونها ضحية، نراها نحن نقطة الابتداء لإعادة البناء فمن مشاعر الشعب العربى المتأججة شوقاً للتحرر من سطوة الأجانب وسلطان الفراعين في الداخل، ننطلق نحو بناء إطار عربى توحيدى جديد.

وإن البناء على أساس العروبة، هو بناء على أساس هوية حضارية متميزة، عربية - إسلامية، مؤتلفة - كما ذكرنا - مع المسيحية الشرقية .

عروبة إذن، ديموقراطية بأفق اشتراكى، وهوية ذات بعد حضارى عميق .. هذا ما نخلص إليه من (المعرفة) وما ينبغى أن نذهب إليه فى (الممارسة) ■



قاتل عند كل زاوية

بقلم
صافي ناز كاظم

تتراكم فوق قلبي الأشياء في زحام ثقيل، أشد ثقلا من زحام ميدان العتبة القاهري بكل جلبته وضجيجه وسياراته الملاكي والأجرة، وحافلاته - التي تنفث دخانها الملوث الخانق - وعربات الكارو التي تجرها البغال والحمير والخيل - التي راح زمان عزتها وهيبتها وتنكست آذانها - وتلكؤ الناس في السير، والعبور والانتظار والتردد بالذهاب والعودة في المساومة والشراء، والغضب والبرود، وإشارات المرور فاقدة الدلالة، فلا يعني اخضرارها عبوراً ولا يكبح احمرارها انطلاقا. التباس وفوضى ولامبالاة رغم زعيق النفير بأعلى صوت ممكن.

نحن في عصر الالتباسات، هذا إذا سألني سائل في أي وقت نحن؟

أندهش ممن يجلس وقوراً «يحلل»، وتحت صورته المتحركة أو الجامدة لقب «محلل سياسي» الأقرب هو لقب «متكهن سياسي»، فالساحة العالمية والمحلية لايمكن قراءتها إلا كما نقرأ الطالع في الفنجان، أو الرمل، أو ضرب الودع. صحيح أنها ليست غيباً لكن من يدعي فهمها يبدو من المشعوذين الراجمين بالغيب كذبا وبهتانا.

وضوح الرؤية «الوحيد» يتجلى في مقاومة الشعب الفلسطيني الباسل على أرضه المحتلة، ذلك لأن العدوان صريح ووقح وبارز ومتسع وموحد، ولأن العدو واضح وأجنبي ويتكلم اللا منطق بفصاحة لا تقبل التأويل.

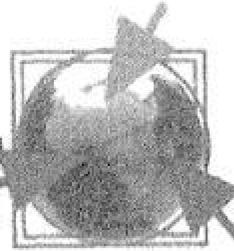
قطبان متواجهان: فلسطيني، صاحب وطن وأرض وهوية كاملة، في مقابل محتل صهيوني سارق وطن وأرض ويسعى لتثبيت هوية مزيفة بفرض واقع

جائر لم يزد عمره على نصف قرن.

لكن هذا الوضوح فى الحق الفلسطينى لم يمنع تداخل مشوشات تتكلم بالباطل لتدحض به الحق «الواضح». مشوشات من جانب المعسكر المعادى ومن جانب بطانته فى داخلنا تصيح للتثبيط بكلمات تشبه عادم الحافلات التى تنفث دخانها الملوث الخانق، فلا تبلغ سوى الإغاظة والاستفزاز بعناوين مثل: «لا للقنابل البشرية» - إثر عملية استشهادية قامت بها الشهيدة النبيلة وفاء إدريس - أو «لماذا لا يحاول الفلسطينى مقاومة احتلاله بالرقص والغناء بدلاً من المقاومة بالسلاح؟»، أو حكمة: «لقد جربنا الانتفاضة ولم تحرر فلسطين وخسرنا بها أكثر مما كسبنا فلماذا لا نحاول صيغا أخرى ؟» إلى آخر ما يمكن أن تتمخض عنه العقليات المثقوبة التى تتطلب «بنطة لحام»، ومع ذلك - والحمد لرب العزة - مازالت المقاومة الفلسطينية بكل أشكالها تستقطب تأييد ومباركة ودعم ودعاء كل التيارات السياسية وغير السياسية فى ساحة أمة العرب والمسلمين والإنسان الصالح فى كل أنحاء الدنيا من دون أى التباس. صارت المقاومة الفلسطينية «بدهية» لا تقبل الاستئناف أو النقض، وحين تأتى الاستغاثات الموجهة لذوى «الضمائر الحية» تناشد مساندة الشعب الفلسطينى حتى تستمر «مسيرته النضالية من أجل مواصلة التصدى للعدوان الإسرائيلى ومواجهة ممارساته الإجرامية على أرضنا المحتلة من حصار، وإغلاق، وتجويع، وتجريف، وتدمير، وقتل.....»، ترهف الآذان وتمتد الأيدى تبحث عن وسائل للتلبية فوق العوائق والمعوقات والمسموح واللا مسموح، بينما يظل ما يدور على أرض العراق العزيز يتشابه كثيرا مع أحداث فيلم سينمائى كان عنوانه : «قاتل عند كل زاوية»، فما كاد الشعب العراقى يفلت من القاتل الأول وعصابته حتى وجد نفسه بين زوايا قتلة يتربصون به بدعوى «الإنقاذ»، يتعارك القتلة فلا تنزل السكاكين إلا على رقبة الشعب العراقى، ولا تنهدم البيوت إلا على رأسه ولا يحيق الدمار إلا بأمانه وأمنه، وبين صيحات ووجوه تلبس أقنعة «المقاومة»، وصيحات ووجوه تلبس أقنعة «التحرير» و«الإنقاذ» لا يجد العراقى «الملاذ» الواقى حقا من «القتلة». لابد له من مَخْرج بعيدا عن «الالتباسات». مخرج لايعرف مسالكه سوى هذا الشعب المجروح الذى عانى من «احتلال» سابق بلون الأرضية، لا يهمه الآن سوى إنقاذ فلوله وذيوله وتعويض خسائره بأنانية انتهجها دوما، ومن احتلال أجنبى، لا يهمه الآن سوى إنقاذ ماء وجهه ومداراة كذباته وتجميل بطشه الذى تفضحه ضراوته ولا إنسانيته التى تقوده دائماً.

لابد للشعب العراقى من تملك زمام «مقاومته» و«تحريره» و«نجاته» بيد واحدة مخلصة، تكون قد تعلمت أن خلاصها من السفاح لا يمكن أن يتحقق على يد سفاح آخر.

وحتى تستبين الرؤى وتنقشع الالتباسات، ألا يمكن أن يتوقف السادة «المحللون» عن «طق الحنك»؟ ■



ماذا لو إنهارت اتفاقيات السلام ؟

بقلم
د. قدرى حفنى *

القضية التى تشغلنى هى مسار العلاقات العربية الإسرائيلية، وبالتحديد مستقبل السلام . ترى هل يوشك ذلك السلام أن ينهار ؟ أو بعبارة أخرى، هل توشك العملية السياسية التى تمثلت فى اتفاقيات السلام أن تتداعى؟ أم أنها ستستمر هكذا بين الحياة والموت مجسدة لحالة اللاحرب اللاسلم؟ أم أننا على وشك أن نشهد تغيراً كيفياً على الساحة يفرض السلام على مناهضيه ؟ وقد يرى البعض – وهم ليسوا بالقلة – أن الصراع العربى الإسرائيلى، لم يشهد أصلا ما يمكن أن يسمى بالسلام حتى نتحدث عن احتمالات انهياره. وعلى أى حال فلعلنا نتفق جميعاً على أن ثمة اتفاقات رسمية علنية أبرمتها مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل، وأن هذه الاتفاقات مازالت حتى يومنا هذا قائمة من الناحية الرسمية على الأقل .

لقد بدأت عملية السلام نتيجة لعوامل عالمية عديدة لسنا فى مجال حصرها . ما يعنينا أنها لم تكن تتويجا لتغيرات حثيثة فى المناخ الثقافى على الجانبين العربى والإسرائيلى لقد بدأت مسيرة السلام فى أعين الجماهير على الجانبين مفاجأة صادمة . كان المناخ الثقافى العربى ولفترة طويلة مشحونا بروح المهزوم الذى يعد نفسه لمعركة فاصلة حاسمة تستعيد حقوق العرب جميعا كاملة . وجاء خيار السلام قراراً قياديا اتخذته مصر ثم منظمة التحرير الفلسطينية ثم الأردن .

* أستاذ علم النفس – جامعة عين شمس

أما على الجانب الإسرائيلى فقد بدا كما لو أن القيادة الإسرائيلية تساق عنوة إلى سلام ثمنة الأرض مع استنادها إلى ثقافة تقوم على الاستعداد الدائم للحرب تمسكا بهذه الأرض . ولذلك لم يكن غريبا أن يتهم بيجن بالخيانة حين وقع معاهدة كامب دافيد، وهى نفس التهمة التى أدت إلى اغتيال رابين فيما بعد، والقياس مع الفارق فالتفاوض يجرى هذه المرة مع الفلسطينيين، ويجرى حول أرض مزروعة بالمستوطنين المسلحين .

صحيح أن اتفاقيات أوسلو وكذلك تفاهمات جنيف تقصر كثيراً عن الأمل الفلسطينى العربى الذى يجسده المناخ العربى السائد، ولكنها رغم ذلك تفوق بكثير احتمال الثقافة الإسرائيلية السائدة، ثقافة الاستيطان، وإسرائيل الكبرى ولكن تلك الثقافة السائدة لم تعد بعد كامب دافيد الثقافة الوحيدة فى إسرائيل فقد أصبحت هناك ثقافة أخرى آخذة فى التبلور . ثقافة ترى إمكانية أن يكون السلام مدخلا جديداً لازدهار إسرائيل ونموها بل وحتى لسيطرتها .

والسؤال الذى فرض نفسه على تفكيرى هو ماذا لو انهارت اتفاقيات السلام ؟ ونعنى بانهيار تلك الاتفاقيات إعلان طرف أو أكثر من الموقعين عليها إعلانا صريحا أنه لم يعد ملتزما بها، وهو أمر يختلف تماما عن كل ألوان التجاوزات، وكذلك عن التهديد بالإقدام على مثل ذلك الإلغاء .

وفيما نرى فإن هذا الاحتمال قائم بالفعل منذ بداية العملية السياسية الجارية والتى ترجع بدايتها إلى اتفاقيات كامب دافيد، ثم مؤتمر مدريد، واتفاقيات أوسلو، والاتفاق الأردنى الإسرائيلى . لقد شهد مسار هذه العملية ومازال يشهد رفضا شديدا من قطاعات واسعة داخل الدول التى وقعت تلك الاتفاقيات على الجانبين العربى والإسرائيلى، بل لقد أصبح رافضو هذه الاتفاقيات - على الجانبين - يمثلون ما يمكن تشبيهه بضمير الشارع على الجانبين بحيث أصبح على أصحاب تلك الاتفاقيات تبرير ما أقدموا عليه لإثبات أنهم لم يتنازلوا عن المبادئ الوطنية أو العقائدية الأساسية لبلادهم. ولسنا على أى حال بصدد الخوض تفصيلا فى مبررات أو ديناميات هذا الموقف سواء من حيث شقه الرافض أو شقه المعتذر .

ومع تسليمنا بأن انهيار اتفاقيات السلام احتمال قائم، إلا أنه فيما نرى ليس بالاحتمال الأقرب للحدوث فى المستقبل القريب . ولا يرجع ذلك بحال - فيما نرى - لتعاظم قوى السلام فى المنطقة بقدر ما يرجع إلى أن انهيار تلك الاتفاقيات تماما قد يكون من الأمور المحظورة أمريكيا - حتى الآن على الأقل - فى ظل النظام العالمى الجديد، كما أن تلك الاتفاقيات قد خلقت واقعا اقتصادياً سياسياً جديداً يضغط فى اتجاه الحفاظ على الوضع القائم .

وعلى أى حال فإن انهيار اتفاقيات السلام لا يعنى بشكل تلقائى الانتقال الفورى إلى حالة الحرب أو القتال الفعلى، بل يعنى على الأرجح الدخول فى مرحلة جديدة من اللاحرب اللاسلم التى قد تستمر لفترة تطول أو تقصر تمهيداً لاتفاقيات سلام جديدة أو لقتال جديد يؤدى إلى إبرام اتفاقيات جديدة . وليس من شك فى أن ملامح تلك

المرحلة تتأثر بدرجة كبيرة بالشكل أو السيناريو الذى قد تتخذه عملية الانهيار هذه والتى قد تتخذ واحداً أو أكثر من الأشكال التالية :

١ - قد تنهار اتفاقيات السلام من الجانب العربى نتيجة استسلام النظم العربية الموقعة لتلك الاتفاقيات للضغوط الداخلية الرافضة وللممارسات الإسرائيلية الدافعة فى نفس الاتجاه .

٢ - قد تنهار اتفاقيات السلام من الجانب الإسرائيلى نتيجة لمزيد من تصاعد قوى اليمين الدينى الإسرائيلى .

٣ - قد تنهار تلك الاتفاقيات نتيجة قرار أمريكى بأنها لم تعد معنية بقضية الصراع العربى الإسرائيلى .

وإيا كان شكل ذلك الانهيار فإنه إنما يعنى مباشرة انتصاراً لأصحاب الاتجاهات الراديكالية العربية على مختلف تياراتهم الفكرية وعلى رأسها التيار الإسلامى الأصولى، كما أنه يعنى مباشرة وبنفس الدرجة انتصاراً لليمين الإسرائيلى وعلى رأسة التيار الدينى الاستيطانى . ولنا أن نخلص من ذلك إلى أن الطرفين الإقليميين فى مرحلة اللاحرب اللاسلم المتوقعة آنذاك سوف يتمثلان فى هذين الطرفين المنتصرين، وهى بذلك قد تختلف عن مرحلة اللاسلم اللاحرب التى عاشتها المنطقة منذ حرب يونيو ١٩٦٧ حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

إن انهيار اتفاقيات السلام، إيا كان الشكل الذى يتخذه ذلك الانهيار، وما يتبعه من تصاعد لمناخ اللاحرب اللاسلم، يعد بمثابة الحل الأمثل لأزمة الضمير الإسرائيلى الراهنة، حيث يتيح لكل القوى الإسرائيلية إمكانية أن تنصهر من جديد . ولكن الاستراتيجية الإسرائيلية لإدارة الصراع قد تختلف باختلاف ملابسات انهيار اتفاقيات السلام.

١ - فى حالة نجاح الاستفزازات الإسرائيلية فى دفع الطرف العربى للتخلى عن اتفاقيات السلام ومن ثم انهيارها، يكون ذلك هو الوضع الأمثل إسرائيليا . حيث لاتكون إسرائيل فى حاجة لتعديل الاستراتيجية التى مارستها طويلاً منذ قيامها، والتى ترسخت عبر مرحلة اللاسلم اللاحرب . وتتلخص تلك الاستراتيجية فى إبراز التهديد العربى، وكذلك فى التأكيد على رغبة إسرائيل فى السلام.

٢ - فى حالة نفاد قدرة إسرائيل على التحمل، وإقدامها على التخلى عن اتفاقيات السلام ومن ثم انهيار تلك الاتفاقيات، فقد يؤدى ذلك إلى تبنيها لسياسة داخلية صارمة حيال عرب الداخل بمن فيهم عرب الضفة والقطاع حتى لو اضطرت للتضحية بغطائها الديمقراطى الذى تحرص عليه كثيراً .

٣ - أما فى حالة حدوث تطورات عالمية سياسية أو اقتصادية غير متوقعة، تدفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى إسقاط المنطقة برمتها من دائرة اهتمامها، ومن ثم التخلى عن الإمساك بدفة اتفاقيات السلام، فقد يؤدى ذلك بأطراف الصراع جميعا إلى إعادة حساباتها وفقا لمحصلة القوة الذاتية المتوافرة آنذاك لكل طرف، ووفقا لقدرة كل طرف على استثمار إمكاناته .. ■

أقــوال معاصرة

● «الكاتب لا يودع الكتابة حتى يودعوه القبر ».
الأديب المغربى محمد شكرى

● «الفقير لايعرف أحدا فى حى الأعمال ومن يعمل فى هذا الحى لايعرف أحدا من الفقراء »
جون بروفيومو الوزير الأنجليزى الأسبق المرتبط اسمه بفضيحة كريستين كيللر

● «طالبان يحاربون من أجل قضية خاسرة »
هيلارى كلينتون
عضو مجلس الشيوخ الأمريكى وزوجة الرئيس الأمريكى السابق

● «بدأ الاحتراء فى العالم العربى عندما أصبح القاضى شرطيا بركبة عريف عند ضابط المخابرات »
المفكر والصحفى سمير عطا الله

● «المسارح فراغات كبيرة نحلم فيها معا نفس الحلم »
برناردو بركولوتش
المخرج الايطالى صاحب فيلمى التانجو الأخير والأمبراطور الأخير

● «النظام فى بيروت يحكم مدينة ميتة، وبشرا موتى، وهو ليس الا قناعا من أقنعة الموت »
الشاعر أدونيس

● «لم يعد الشعر عموما يشكل هما انسانيا بالنسبة الألية البشرية المعاصرة، بعد أن اقصتها عوامل التقنيه وانحسار عامل الاسترخاء الذهنى من مساحة العقل البشرى المبدع»
الشاعر العراقى على الحلى

● «الرجال يفكرون فى الزواج عندما يكونون فى حالة سكر والنساء يفكرن فى الزواج فى حالة الصحو »
الممثل الأنجليزى «هيوجرانت
فى تعليق له عن اقناعة عن الزواج

● «أن قرارا يصدر فى أحد الأمور الأقتصادية والإدارية فى الوقت المناسب، ويشوبه معدل خطأ خمسون فى المائة، خير الف مرة من قرار يصدر صحيحا مائة فى المائة، ولكن فى الوقت غير المناسب »
د . بيتر دراكر
أحد أساتذة علم الإدارة بالولايات المتحدة

● «فرنسا لاتقبل علامات التباهى بالتدين مهما كان نوعها ومهما كان هذا الدين »
الرئيس الفرنسى جاك شيراك

● «الفكر فى العالم الثالث وقع تحت هيمنة ما يعرف بالعقل السلبى الذى هو نتاج مؤسسات جامعية غربية الفكر، وانماط تفكير غير نقدية»
الباحث المصرى / السيد الحسينى


جاك شيراك


أدونيس


كلينتون



إجــراس الخطــر

قــراءة فــى مســتقبل العــــرب

بقلم
د. أحمد محمد صالح

منذ أكثر من مائة عام، والعرب ينتقلون من هزيمة إلي أخرى علي كافة الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية والمعرفية. وتتعاقب عليهم الويلات والإهانات حتى شاعت عبارات اليأس من الشعوب والحكومات العربية معا! وقد بلغ الحد بأن أعلن البعض وفاة العرب!

ووسط حالة العجز والإحباط فى المجتمع العربي، وفى مثل هذه الأيام من العام الماضى ظهر تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول عام ٢٠٠٢ الصادر عن الأمم المتحدة، بالتعاون مع الجامعة العربية، وهو يحلل متغيرات العجز العربى، ويظهر عمق أبعاد الفجوة بيننا وبين العالم المتقدم.



وأحدث صدور التقرير فى العام الماضى ضجة، ودار حوله جدل واسع فى كافة الأوساط، ومع أنها ليست المرة الأولى التى تعنى فيها الأمم المتحدة بتكليف فريق من الخبراء العرب أنفسهم ليشخصوا الحالة العربية الراهنة، ورغم الجدل الذى أثاره التقرير حول أرقامه وأساليب الاحصاء والقياس والتقدير التى اعتمدها، والاستنتاجات والقراءات الخاصة بأسباب ما تعانيه الدول العربية من مشاكل انسانية وعلاقة ذلك بالخبراء العرب الذين وضعوه وخلفياتهم السياسية والفكرية، عدم إبرازهم لدور العوامل الخارجية مثل الاستعمار ومطامع الدول الغربية وإسرائيل كعامل فاعل فيما وصل إليه العرب، ومع تحفظنا على تلك المقولات الناقدة للتقرير، بيد أن ذلك كله لا يقلل من أهمية الناتج النهائى من زاوية المعلومات التى وضعت فيه كبيانات يمكن الاعتماد عليها أو الاسترشاد بها فى قياس حجم العجز والتقزم العربي. وكانت صورة العرب فى التقرير الذى صدر العام الماضى مأساوية وتشير إلى حالة جمود

ليس من السهل تجاوزها، فأربعة وسبعون مليون عربي من أصل مائتين وتسعين مليوناً هو عدد العرب التقريبي يعيشون تحت خط الفقر، وسبعون مليون عربي أميون لا يقرأون ولا يكتبون، وأكثر من خمسة وعشرين مليون عربي من قوة العمل العربية عاطلين عن العمل، ولم يزد ما ترجمه العرب من كتب منذ العصر العباسي وحتى الآن عن أحد عشر ألف كتاب، وهو مجموع ما تترجمه دولة واحدة هي إسبانيا في العام الواحد، ومجموع الناتج العربي العام الذي يبلغ ٦٦٠ مليار دولار أقل من الناتج (العام) السنوي لدولة واحدة هي إسبانيا أيضاً. ورغم أن العرب يمثلون ٥٪ من سكان العالم، فإنهم يمثلون ٠.٧٪ فقط من مستخدمي الإنترنت، وينتجون ٢٪ فقط من الناتج المحلي الإجمالي العالمي وسوق التجارة الإلكترونية العربية لا تزيد على ٠.٢٪ فقط من السوق العالمي، أما اللغة العربية.. لغة القرآن، فرغم أنها تقع في المرتبة السادسة بالنسبة لعدد المستخدمين لها عالمياً إلا أن نسبة وجودها على شبكة الإنترنت لا تزيد على ١٪ أما معظم الأنظمة العربية السياسية فإنها تتفوق على غيرها في تبعيتها والتفنن في وسائل القمع والاستبداد والتشريد لشعوبها، وطرد الكفاءات حيث يهاجر سنوياً من الدول العربية إلى الدول الغربية ما يزيد على ٩٠٠ ألف عربي يمثلون جانباً مهماً من الكفاءات المتميزة في الأمة. ولخص التقرير حالة العرب الانسانية في الفقر والاستبداد، ومحدودية الفرص الاقتصادية والحرمان الاجتماعي، واهمال الخدمات العامة والتعصب وقمع الدولة، وهي مصادر رئيسية للحرمان الإنساني وبالتالي لانكماش الحرية». وجاءت محصلة التقرير وشخصت المرض في ثلاثة نواقص، هي الحرية وتمكين المرأة وبناء القدرات الإنسانية وخاصة المعرفة. واقترحت العلاج في الحرية، والمعرفة، والعمل، والعمل الجماعي، وحرية المرأة، والمؤسساتية، والابداع، والتعاقد الاجتماعي، والكفاءة.

تقرير التنمية البشرية

ومع بداية الصيف الماضي صدر التقرير السنوي للأمم المتحدة عن حالة التنمية البشرية في العالم، وكشف تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣ الذي أصدره برنامج الأمم المتحدة للتنمية، عن تقدم ترتيب ٦ دول عربية وفقا لمؤشر التنمية البشرية الذي يشمل دخل الفرد الحقيقي ومعدل الحياة ونسبة الأطفال الذين يلتحقون بالمدارس ونسبة المتعلمين، والوفيات والمواليد وغيرها من المؤشرات، كما أشار التقرير - الذي شمل ١٧٥ دولة عن تراجع مستوى ١٣ من الدول العربية . وكان التقرير قد رصد أوضاع ١٩ دولة عربية جاء من بينها وللمرة الأولى أراضي السلطة الفلسطينية التي احتلت المرتبة ٩٨ في دليل التنمية البشرية العالمية. وجاءت البحرين وفقا للتقرير في مقدمة الدول العربية من حيث مؤشرات التنمية

البشرية بينما احتلت دولة جيبوتي المرتبة الأخيرة بين الدول العربية، وسجل لبنان أكبر نسبة تراجع باحتلاله المرتبة ٨٣ بعد أن كان ٧٥ بإنخفاض ثماني مراتب تلته تونس بانخفاض ست مراتب من ٩٧ إلى ٩١، بينما انخفض وضع مصر إلى المرتبة ١٢٠ بتراجع ٥ درجات وهي الدولة الأكبر تعدادا للسكان..

تقرير التنمية الإنسانية العربية

وفي ٢٠ أكتوبر الماضي صدر التقرير الثاني للتنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢، تحت شعار نحو إقامة مجتمع المعرفة، في ٢٠٢ صفحة، وأعاد تشخيص الواقع العربي المتقزم، وشارك في اعداده أكثر من ٤٠ مثقفاً ومفكّراً عربياً، ونُشر بالعربية والانجليزية. واستقبل التقرير حتى كتابة هذه العجالة، بصمت وفتور، والبعض اعتبره تكرارا ولم يأت بجديد، وهي عاداتنا دائما في عدم التفرقة بين التكرار والتراكم العلمي، فالتقرير الثاني أعطى فهما أكثر عمقا للواقع العربي المتقزم، وليس مجرد أرقام ومؤشرات، فهو جهد علمي كبير، يفتح باب الحوار الواسع ليراجع العرب أنفسهم، وأسلوب التقرير له طابع خاص، فهو خليط بين العلمي والسياسي والإعلامي، وإن اتسم بالحياد رغم حساسية وغضب المؤلفين من الأحداث التي مرت بها المنطقة في الشهور الأخيرة، وعندما أشار التقرير إلى عدم تمكين المرأة كأحد معوقات التنمية في الدول العربية. لماذا تمكين المرأة فقط؟ وماذا عن تمكين الشباب والمهمشين مثلا؟ هل هم أفضل حالاً من المرأة؟.

التحديات الخارجية

حذر تقرير «التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٢» من النزوع إلى المبالغة في تأثير التحديات الإقليمية والعالمية على التنمية العربية «حيث إن هذا الموقف قد يكون أسلوبا للتنصل والاستكانة». كما دعا التقرير الأجيال العربية الشابة «لأن تكون واعية كل الوعي لتراثها الثقافي الثرى، وتربطه بمقتضيات الحاضر وتتزود منه بالثقة الفكرية والعقلية. وشدد التقرير في جانب مهم على أنه يجب ألا تتحول الحرب على الإرهاب لتكون طريقا لضرب الحريات المدنية. ففي بعض الدول العربية، قدمت الحرب على الإرهاب «مبررا وافيا للسلطة للغلو في كبح الحريات». وأن الإجراءات الصارمة التي اتخذتها الولايات المتحدة في حملتها ضد «الإرهاب»، وتبنتها بعض الأقطار العربية «قد خلقت أجواء وأوضاعا مناوئة للتنمية الإنسانية. ويمضى التقرير إلى القول إن الحكومات العربية تتذرع باعتبارات الأمن والاستقرار «وتتخذ منها مبررا لتخوفها الدائم من مخاطر الحرية» ويرى أن الحرب على الإرهاب طرحت تحديات خارجية خطيرة للتنمية

العربية «فالمضايقات التى يتعرض لها العرب المقيمون خارج أوطانهم قد خلقت مناخا ينتقص من رفاهيتهم، ويقوض من فرص اكتسابهم للمعرفة فى الأقطار الأجنبية ويعرقل عملية التفاعل بينهم وبين مجتمعات البلدان التى يقيمون فيها».

التحديات الاقتصادية

يغلب على نمط الإنتاج السائد فى البلدان العربية الاعتماد على استنضاب المواد الخام، وعلى رأسها النفط، وهو ما يسمى الاقتصاد الريعى، بما يضعف الطلب على اقتصاد المعرفة ويهدر فرص انتاجها محليا وتوظيفها بفعالية فى النشاط الاقتصادى. ويؤكد التقرير على أن مقولة ثراء البلدان العربية مجرد وهم، إذ إن مجمل الناتج الاقتصادى المحلى العربى فى نهاية القرن العشرين، حوالى ٦٠٤ بلايين دولار، يتعدى بالكاد ناتج دولة أوروبية واحدة مثل إسبانيا، أما الناتج القومى الإجمالى للفرد من قوة العمل «فإنه يقل فى البلدان العربية عن نصف مستواه فى دولتين ناهضتين فى العالم الثالث هما كوريا الجنوبية والأرجنتين». ويرصد التقرير اتساعا فى الهوة بين البلدان العربية والدول الآسيوية، خاصة فى نصيب دخل الفرد من الناتج المحلى، على الرغم من تقارب تلك النسب، فى عقدى الستينيات والسبعينيات، ففى حين بلغ دخل الفرد العربى ٧٪ عام ٢٠٠١ وصل فى بلدان شرق آسيا إلى ٥٢٪، ويكمن سر المعجزة الآسيوية فى التركيز على التعليم والتربية، و«والنمور الآسيوية» أفلحت فى «تضييق الفجوة» التى تفصلها عن الدول المتطورة، فيما «اتسعت الهوة» بين البلدان العربية وهذه الدول خلال الفترة ذاتها. والحكومات العربية لم تفشل فى تنمية التبادل التجارى البينى بين شعوبها فقط، ولكنها فشلت فى التبادل التجارى مع الدول المتقدمة، وكذلك فى اجتذاب الاستثمارات الجديدة، وتركز الاقتصاد العربى فى عدد من المشروعات والخدمات وارتبط إلى حد كبير بالبترول واستخدم خبرات أجنبية ليحقق عائدا سريعا. ولعل أبرز ما كشف عنه تقرير التنمية هو تقلص الطبقة الوسطى تحت وطأة الخوف والفقر، وتوازى توزيع السلطة مع توزيع الثروة، والتضحية بالعدالة الاجتماعية، وهو ما أدى إلى اتساع التسلط الإدارى المجحف على مجمل القرارات، وغابت النزاهة والمسئولية وساد الفساد الاجتماعى والأخلاقى، وضعفت القيمة الاجتماعية للعالم، والمتعلم، والمثقف، وباتت القيمة الاجتماعية العليا للثراء والمال بغض النظر عن الوسائل المؤدية، وكان من نتيجة ذلك هروب الكفاءات، فى المجتمعات العربية. كما أصابت الفورة النفطية عددا من القيم والحوافز الاجتماعية التى كان يمكن أن تؤازر وتسند الإبداع واكتساب ونشر المعرفة، ولكن القيم السالبة التى انتشرت من خلال الفترة الماضية قعدت بالإبداع وأفرغت المعرفة من مضمونها التنموى والإنسانى، وحلت الملكية محل المعرفة والعلم، كما يقول التقرير. بكلام آخر، إن الفساد محترم فى بلاد دفنت القيم! كما فقدت المرحلة الراهنة قيم نمط الوجود

الذى يتميز بالاستقلالية والحرية وحضور العقل النقدى والنشاط الإيجابي الفاعل. وأسهم القمع والتهميش فى قتل الرغبة فى الإنجاز والسعادة والانتماء، ومن هنا ساد الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المشاركة فى إحداث التغيير المنشود. وقد نجم عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الطاردة إضافة إلى عوامل الجذب فى الدول الأخرى إلى تنامي ظاهرة هجرة العقول العربية، بما فى ذلك من هدر على الدول والمجتمعات وضياع للفرص، ويقدر عدد الجامعيين العرب المهاجرين إلى أوروبا وأمريكا عام ١٩٩٥/١٩٩٦ بـ ٧٥ ألفا، وكان عدد الأطباء العرب المهاجرين بين العامين ١٩٩٨ و٢٠٠٠ حوالى ١٥ ألف طبيب وبات حلم الشباب العربي الأول هو الهجرة.

حالة التنشئة والتعليم

ورصد التقرير أسباب تخلف العالم العربي فى اكتساب المعرفة، لعدة أسباب، تبدأ بأساليب التنشئة، حيث يشير التقرير إلى أكثرها انتشارا فى الأسرة العربية هى «أساليب التسلط والتذبذب والحماية الزائدة ما يؤثر على نمو الاستقلال والثقة بالنفس والكفاءة الاجتماعية ويؤثر بصورة سلبية على ضعف اتخاذ مهارات اتخاذ القرار وكبح التساؤل والاكتشاف والمبادرة» . ويشير التقرير إلى أن أخطر مشاكل التعليم لاحقا تتمثل فى «تردى نوعيته» إلى جانب ارتفاع معدلات الأمية خاصة بين الإناث، وتناقص الإنفاق على التعليم». ومازال الوضع العام للتعليم متواضعا مقارنة بإنجازات دول أخرى حتى فى بلدان العالم النامى ومقارنة باحتياجات التنمية الإنسانية. ومازال التوسع الكمى فى التعليم منقوصا بسبب ارتفاع معدلات الأمية، ولكن المشكلة الأخطر فى التعليم فى البلدان العربية هي تردى نوعيته، وهذا يقوض أحد أهم أهدافه الأساسية، وهو تحسين نوعية الحياة وإغناء قدرة المجتمعات، كما تحدث التقرير عن تعريب التعليم العالي، واعتبره مفتاحا للنهضة الثقافية، وقال فى هذا الصدد «إن من الضروري أن يتعلم الشباب العرب التفكير النقدى بلغتهم الأم» حتى اللغة العربية هى فى انقراض، والتقرير يوصي «بإصلاح لغوى شامل».

حالة المعرفة

تبدو المعوقات السياسية لاكتساب المعرفة أشد وطأة من المعوقات الاجتماعية والاقتصادية، فالسلطة السياسية فى البلدان العربية تعمل على تدعيم النمط المعرفى الذى ينسجم مع توجهاتها وأهدافها، وتحارب الأنماط المعرفية المعارضة، وبسبب غياب التنافس السياسي والتداول السلمي للسلطة تخضع المؤسسات العلمية للاستراتيجيات السياسية والصراع على السلطة، وتتقدم مقاييس الولاء فى الاختيار للإدارة والترقية بدلا من الكفاءة والمعرفة. وأدى التقييد على البحث والإبداع العلمى إلى تكبيل العقول وإخماد جذوة المعرفة وقتل حوافز الإبداع. وتقوم السلطات الأمنية متجاوزة المؤسسات الدستورية والقوانين بمصادرة المطبوعات ومنع بعضها من

الدخول والتداول والعرض والتسويق. ويرى التقرير أن إنتاج المعرفة فى البلدان العربية يتسم بالتجزؤ والتبعثر، ويتعرض للاستغلال السياسى والتهميش، وأن السلطة فى العالم العربى تضع خطوطا حمراء تؤدى إلى فساد البحث العلمى والعبث فيه، أو إلى تدمير المعرفة نفسها، ومع ضعف منظومة المعرفة وتفشى آليات اجتماعية بديلة وناجعة لحل المشكلات المجتمعية كالمحسوبية والمحاباة، تسود انطباعات عن عدم جدوى المعرفة فى حل مشكلات النشاط الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، أو صعوبة التوصل لمثل هذه المعرفة، ما يؤدى بصناع القرار إلى الانكفاء على ما ألفوه من وسائل وآليات تصرف. وتواجه عمليات نشر المعرفة فى البلدان العربية فى مختلف مجالاتها فى التنشئة والإعلام والترجمة صعوبات عدة من أهمها شح الإمكانيات المتاحة للأفراد والأسر والمؤسسات والتضييق على نشاطها، وكان من نتائج ذلك قصور فعالية هذه المجالات عن تهيئة المناخ المعرفى والمجتمعى اللازمين لإنتاج المعرفة. وما يوصى به تقرير التنمية الانسانية العربية الثانى هو إقامة مجال معرفى يجرى فيه إنتاج المعرفة بمنأى عن الإرغام السياسى.

الإعلام والفضائيات

مازال الإعلام العربى ووسائط الوصول إليه وبنيته التحتية ومضمونه يعانى من الضعف والقصور، ما يجعله دون مستوى التحدى فى بناء مجتمع المعرفة، فعدد الصحف فى البلدان العربية يقل عن ٥٣ لكل ١٠٠٠ شخص مقارنة مع ٢٥٨ صحيفة لكل ١٠٠٠ شخص فى البلدان المتقدمة. والصحافة فى أغلب البلدان العربية تحكمها بيئة تتسم بالتقييد الشديد لحرية الصحافة والتعبير عن الرأى، وتكشف الممارسات الفعلية فى كثير من البلدان العربية عن انتهاكات مستمرة للحريات الصحفية والتضييق عليها بالعقوبات والتهديد، ومازال نمط ملكية الدولة هو السائد، خاصة فيما يتعلق بالإذاعة والتليفزيون. وقد شهد العامان الأخيران حركة ملموسة فى الحياة الإعلامية العربية، فقد نشأت قنوات فضائية عربية قادر على منافسة أعتى المؤسسات التليفزيونية العالمية فى السبق على الخبر والصورة، وعلى بث روح جديدة فى الشاشات العربية ساهمت فى جعل قنوات فضائية عربية كثيرة من القنوات الحكومية والرسمية تتجه نحو الحرية والإبداع والمنافسة. ويشير التقرير إلى أن نسبة وسائل الإعلام لعدد السكان فى الدول العربية تعتبر الأدنى على المستوى العالمى، إضافة إلى أن أكثر من ٧٠ فى المائة من قنوات التلفزة العربية وعددها ١٢٠ «هى تحت إشراف الدولة التى تملك بدورها وكالات الأنباء» وعلى الرغم من انتشار الفضائيات فإن نشرات الأخبار «قلما تحمل المعلومات التى تهم غالبية الناس وتثرى مخزون المعرفة العملية النافعة لديهم. أما الأخبار عن جوانب معينة فى الحياة السياسية العربية، أو فى المجتمع أو الدين، فلا يتم الإعلان عنها فى أغلب الأحوال». كما يرصد التقرير انخفاض

عدد أجهزة الحاسوب المتوافرة فى العالم العربى، حيث هناك ١٨ حاسوبا لكل ١٠٠٠ شخص مقارنة مع المتوسط العالمى وهو ٧٨.٣ لكل ١٠٠٠ شخص، كما يقتصر عدد مستخدمى الإنترنت على ١.٦ فى المائة فقط من سكان العالم العربى.

الكتب والقراءة

وحسب التقرير أنتجت البلدان العربية مجتمعة ٥٦٠٠ كتاب فى العام ١٩٩١ مقابل ١٠٢ ألف كتاب فى أمريكا الشمالية. فالإنتاج العربى للكتاب متراجع إلى حدوده الدنيا بالنسبة لحجم السكان وبالمقارنة مع الدول الأخرى، وهناك ٢٧٠ مليون عربى، والكتاب العربى الذى تباع منه ٥ آلاف نسخة يدخل فى باب الكتب الأكثر رواجا. وتعتبر الترجمة من القنوات المهمة لنشر المعرفة والتواصل مع العالم، إلا أن حركة الترجمة العربية مازالت مشوبة بالفوضى والضعف، فكان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون شخص من العرب فى السنوات الأولى من الثمانينيات يساوى: ٤.٤ كتب، أى أقل من كتاب واحد كل سنة، بينما بلغ ٥١٩ كتابا فى المجر، ٩٢٠ كتابا فى إسبانيا. ويعانى الإنتاج الأدبى من قلة عدد القراء بسبب الأمية وضعف القوة الشرائية للقارئ العربى، فلا يتجاوز الإنتاج العربى فى مجال الكتب ١.١٪ من الإنتاج العالمى رغم أن العرب يشكلون ٥٪ من عدد سكان العالم غير أن اتجاهات هذه الكتب تشير إلى طبيعة اهتمامات القراء العرب، «فعدد الكتب الأدبية والفنية (على سبيل المثال) الصادرة فى البلدان العربية لم يتجاوز ١٩٤٥ كتابا فى عام ١٩٩٦، مما يمثل ٠.٨ فى المائة فقط من الإنتاج العالمى، وهو أقل مما أنتجته دولة مثل تركيا لا يتعدى سكانها ربع سكان البلدان العربية. «فيما تمثل الكتب الدينية نحو ١٧ فى المائة من عدد الكتب الصادرة فى البلدان العربية بينما لا تتجاوز هذه النسبة أكثر من ٥ فى المائة فى مناطق أخرى من العالم».

البحث العلمي والتقنية

ويعانى البحث العلمى فى الدول العربية من شح الإنتاج، وضعف فى مجالات أساسية، وشبه غياب فى حقول متقدمة مثل المعلوماتية والبيولوجيا الجزئية، مع انخفاض الانفاق عليه، وانخفاض عدد المؤهلين للعمل فيه، فلا يزيد عدد العلماء والمهندسين العاملين فى البحث والتطوير فى البلدان العربية عن ٣٧١ لكل مليون من السكان، وهو أقل بكثير من المعدل العالمى البالغ ٩٧٩ لكل مليون من السكان، تواجه عملية ترويج نتائج البحث والتطوير صعوبات وعقبات أساسية بسبب ضعف الروابط بين مؤسسات البحث والتطوير وقطاعات المجتمع الإنتاجية، وغياب الدعم المؤسسى وعدم توافر البيئة العلمية المواتية لتنمية العلم وتشجيعه بالرغم من امتلاك العالم العربى ثروة بشرية مهمة وقادرة على حفز صحوة معرفية. وكان اقتصار سياسات التصنيع العربية على مفهوم اقتناء وسائل الإنتاج وعدم الاهتمام بالسيطرة على التقانات وتوطينها كان معناه أن تقادم التقانات المستخدمة فى المشروعات الإنتاجية حولها إلى مؤسسات غير قادرة على المنافسة. لأن «استيراد البلدان العربية

للتقانة يحفز تنمية المعرفة فى الأقطار المصدرة لها بينما يخنقها على الصعيد المحلى»، وكل عمليات التصنيع والاقتناء التقانى التى قام بها العرب فى نصف القرن الماضى لم تؤد إلى الفائدة المرجوة.

ماذا نفعل في مستقبل العرب؟

التقرير يقدم تشخيصا مخيفا لحالة العالم العربى، الذى يتجه ولو على الأجل البعيد نحو حالة تأزم لا يمكن حسبان أبعادها. فهناك ركود اقتصادى دائم وانخفاض خطير فى معدلات دخل الفرد وتراجع كبير فى الإنتاجية، وسوء كل من العمل الحكومى والتخطيط والسياسة وتفاقم الميزانيات العسكرية وانتشار المحسوبية والفساد المالى الفاضح. وأكثر ما يستدعى القلق هو حالة التعليم فى العالم العربى. وأن الفروق القائمة فى المعدلات العلمية بين البلدان العربية ودول أخرى من هذا الكوكب فى ازدياد مطرد. فتراجع المجتمعات العربية فى حقول التكنولوجيا والاقتصاد والعلوم يجرى يوما بعد يوم، ويرافق ذلك تكريس اعتماد هذه المجتمعات على علماء الغرب والشرق الأقصى. وينتهى التقرير إلى رؤية استراتيجية لإقامة مجتمع المعرفة فى البلدان العربية تنتظم حول أركان خمسة هى: ١- الحرية ٢ -التعليم الراقى. ٣ - توطين العلم والبحث. ٤ - اقتصاد المعرفة. ٥ - تأسيس نموذج معرفى عربى عام، أصيل، منفتح، ومستنير يقوم على: العودة إلى صحيح الدين وتخليصه من التوظيف المغرض، وحفز الاجتهاد وتكريمه؛ النهوض باللغة العربية؛ استحضار إضاءات التراث المعرفى العربى؛ إثراء التنوع الثقافى داخل الأمة، ودعمه، والاحتفاء به؛ والانفتاح على الثقافات الإنسانية الأخرى. ويخلص معدّو التقرير إلى أن «التحدى الأكبر للدول العربية لا يكمن فى اللحاق بالدول الأخرى، على مؤشرات المعرفة فحسب، بل يتعدى ذلك ليشمل العمل الحثيث لامتلاك بعض الخواتيم المعرفية (فى إشارة إلى الصادرات عالية التقنية) من خلال إقامة بنى مؤسسية وبلورة إرادة سياسية». وقد التفت التقرير بشكل خاص إلى ضرورة تنشئة الأطفال وإعادة الأمور إلى جذورها الحقيقية حيث الرهان الحقيقى على إحداث التغيير فى المجتمعات العربية لا يمكن تحقيقه فى يوم وليلة وإنما من تنمية ثقافية تبدأ بتنشئة الطفل من البيت والمدرسية حيث التنمية الثقافية هي الأساس الذى تبنى عليه كافة أشكال التنمية من اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية. والآن بعد هذه البانوراما لأحوال العرب بالأرقام، هل هناك أمل؟! هناك أمل إذا نظر كل عربى حوله وغضب لنفسه ولأحوال بلده على ما يحدث فيها من انتهاك لحقوق الانسان وقمع وقهر اقتصادى وسياسى واجتماعى، وجهل باسم الدين والاستقرار والنظام، فكلنا حكاما وشعوبا مسجونون فى سجن اللامبالاة والخوف والقهر، فنحن غير مستعدين حكاما وشعوبا لدفع تكلفة الحرية والتقدم، لقد فقدنا إرادة الرفض من عشرات عشرات السنوات. فلن ترجع الحياة للعرب. ■


بقلم
د. ماهر شفيق فريد
«الحياة القبطية في مصر» سجل باللغة الانجليزية في مائة وست وعشرين صفحة صدر حديثا عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ويضم مجموعة فائقة من الصور الفوتوغرافية التقطتها عدسة كلاوديا يفرز وشز، وهي مصورة صحفية قضت أكثر من أربع سنوات في مصر، وقدمت لها بشرية نوزة باويرس.



احتفال حول دير العذراء - المحرق

ثمة في المكتبة العربية (والإنجليزية) عدد من الكتب المصورة عن التراث القبطي في الفنون والعمارة، ولكن الجديد الذي يقدمه هذا الكتاب هو أنه يركز على الموروثات الدينية والحياة الاجتماعية لأقباط مصر كاشفا عن الطريقة التي يمارسون بها شعائر دينهم، وكيف تدخل في نسيج حياتهم. وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول: يبدأ كل منها بنبذة عن خلفية الأعراف والتقاليد والمعتقدات التي تجسدها الصور الفوتوغرافية في أعقاب النبذة، إن الشعب المصري مولع بعرض معتقداته الدينية: ففي كل دكان أو محل للعصير أو كواء أو مؤسسة تجارية يملكها قبطي تجد لوحات تومىء إلى ديانة صاحبها. والدين، عند كثير من الأقباط، جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية: يجد تعبيرا عنه في حرصهم على حضور الموالد وزيارة القديسين حيث يحتشد الآلاف، والموالد من أكثر الأمور دلالة على تواشج الحياة الاجتماعية بالحياة الدينية، تمتزج فيها مظاهر التقوى بمظاهر اللهو والمرح: إن الأسرة قد تحتفل بتعميد طفل جديد لها ثم تذهب إلى مدينة الملاهي وتمتطي الأراجيح استكمالا للاحتفال، وقد ترفع أكف الضراعة إلى أحد القديسين ثم تقوم بنزهة تستمتع فيها بغزل البنات الذي يذوب في الفم ذوبانا ! من هنا كان هذا الكتاب - بصوره الحية - نافذة يطل منها القارىء (الأجنبي بخاصة) على عالم ملون مثير.

وتقول يسرية ساويرس في مقدمتها للكتاب: إن الأقباط - أي مواطني مصر الذين يدينون بالمسيحية - يفخرون بأن



البابا شنودة فى احتفال بكاتدرائية القديس مارك - العباسية

بلادهم هى المكان الوحيد - باستثناء أرض فلسطين المقدسة - الذى وطأته قدما السيد المسيح عندما فرت العائلة المقدسة من اضطهاد هيرودس وأقامت بمصر ثلاث سنوات . ويرجع الأقباط أصول عقيدتهم ونشأة كنيستهم الأرثوذكسية إلى وصول القديس مرقص إلى الإسكندرية حاملا معه القداس الذى تُرجم إلى اللغة القبطية ثم جمعه البابا كيرلس الأول ، البابا الرابع والعشرون للكنيسة القبطية. وقد كان تمسك الأقباط الأوائل بعقيدتهم فى وجه اضطهاد الرومان وإقدامهم على الشهادة عن طيب خاطر مبعث فخر لأحفادهم . كذلك كانت مصر هى موطن نظام الرهبنة الذى أنشأه القديس أنطونيوس فى صحراء مصر الشرقية فى القرن الرابع للميلاد، كما كانت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية منارة هادية للفكر والدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية . ويظل أقباط مصر اليوم فخورين بتراثهم الذى أضاف الكثير إلى تراث العقيدة المسيحية بعامة.

ويبين هذا الكتاب - بالكلمة والصورة - كيف يمارس الأقباط حياتهم الدينية، وكيف أبقوا على شعلة الموروث الدينى حية، وكيف يحتفلون بميلاد أو شهادة القديسين ، بل إن عدسة المصورة الغربية لا تُغفل أن ترصد حياة الزبالين - من المسيحيين والمسلمين على السواء - والتغير الذى طرأ على أسلوب معيشتهم نتيجة لالتفات الحكومة والمنظمات غير الحكومية إلى حاجاتهم من إسكان وتعليم ورعاية صحية ، مما فتح أمامهم وأمام أولادهم آفاق حياة جديدة.

وتسجل يسرية ساويرس أن البابا

شنودة الثالث حريص على الالتقاء بأبناء شعبه من خلال ندواته الأسبوعية التى تعقد كل أربعاء، ويؤمها المئات.

التقطت كلاوديا وينز الصور الفوتوغرافية التى يزدان بها الكتاب فى الفترة ما بين فبراير - أكتوبر ٢٠٠١ أثناء إقامتها فى مصر وتجوالها بين محافظاتها. وهى تسجل دينها لمن سبقوها إلى الكتابة عن حياة الأقباط مثل چيل كامل صاحبة كتاب «الحياة القبطية» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٠) وأوتو ميناردوس صاحب كتاب «ألف عام من المسيحية القبطية» (نفس الناشر ١٩٩٩)، وقد التقطت أكثر من ١٥٠٠ صورة اختارت منها المجموعة التى تظهر هنا.

بدايات المسيحية فى مصر

كيف بدأت المسيحية فى مصر، هذا هو السؤال الذى يطرحه الفصل الأول من الكتاب ويحاول الإجابة عنه، «وبعدما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه»، هكذا يقول القديس متى فى إنجيله (الاصحاح الثانى، الآيات ١٣ - ١٥). وهكذا بدأت رحلة العائلة المقدسة (ومعها سالومى مربية الطفل يسوع) من بيت لحم إلى مصر، وتختلف الآراء حول المسار الذى اتخذته هذه الرحلة على وجه الدقة، ولكن الثقات يذهبون إلى أنها عبرت الجليل وبئر سبع إلى حدود مصر متوقفة بتل الفرما وتل بسطة ومسطرد وبلبيس وسمنود والبرلس وسخا ووادى النطرون والقناطر والمطرية وحارة زويلة والقاهرة القديمة والمعادى والبهنسة وجبل الطير والأشمونين وملوى وديروط ومير.

كذلك لا نعرف المدة التى قضتها العائلة المقدسة فى مصر بالضبط، ولكن أغلب المصادر تجمع على أنها تتراوح بين ثلاثة أعوام ونصف وأربعة أعوام.

وكثير من المواقع التى مرت بها الرحلة قد قامت بها الآن كنائس وأديرة منها دير السريان ودير الأنبا بيشوى ودير أبو مقار ودير البراموس فى وادى النطرون ودير المحرق.

وقد تبعت العائلة المقدسة، فيما يبدو، نفس المسار عند عودتها إلى فلسطين، وتقول المأثورات إنه خلال إقامتها فى المكان الذى ينهض به الآن دير السيدة العذراء ظهر ملاك الرب ليوسف النجار فى حلم «قائلا: قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى (إنجيل متى ٢ : ٢٠).

كان القديس مرقص الإنجيلى هو أول من أدخل المسيحية إلى مصر فى القرن الأول الميلادى أثناء حكم الإمبراطور الرومانى كلاوديوس، ورغم أن المصادر لا تذكر تاريخ زيارته لمصر بالضبط فمن المحتمل أن ذلك كان فى أعوام ٤١/٤٢م أو ٤٣/٤٤م وربما أيضا زارها مرة أخرى بين أعوام ٥٠ - ٦٢ م. ومن المحقق أنه كان بها فى عام ٦٨ وهى سنة استشهاده.

لم يكن القديس مرقص هو الذى وضع أول الأناجيل فحسب، وإنما كان أيضا مؤسس الكنيسة القبطية، كان الأول بين سلسلة متصلة من ١١٧ بطريركا، وتقول المأثورات إن أول من اهتدى إلى المسيحية بفضله كان إسكافيا فى



عيد الزعف فى كنيسة سان مارى - بالمعادى



الإسكندرية. وقد هدى مرقص أسرة الإسكافى بأكملها وعمدها ، وسرعان ما تزايد عدد الداخلين فى الدين الجديد، وفى الوقت ذاته خشى الوثنيون أن يزيد عدد المسيحيين عن عدد المؤمنين بالآلهة القديمة، فزُج بالقديس مرقص فى السجن يوم أحد عيد القيامة عام ٦٨، وظهر له ملاك وعده بإكليل الشهادة وهكذا كان، ففى اليوم التالى عُذب القديس وجُر فى شوارع الإسكندرية إلى أن قضى نحبه، وليلتها اجتمع حواريوه لكى يدفنوه فى الكنيسة.

ورغم اضطهاد الرومان نفذت المسيحية جنوبا إلى الصعيد، حيث إن المناخ الروحى لمصر كان أرضا مهيأة للإيمان ، فمن ناحية رحب المصريون بالمسيحية لما تحمله من أوجه شبه بمأثوراتهم الدينية القديمة منذ عهد الفراعنة، كانت قصة السيدة العذراء تشبه أسطورة إيزيس التى حمت طفلها حورس من أعدائه، وسرعان ما غدت الأماكن التى نزلت العائلة المقدسة بها أماكن للزيارة والتبرك.

الدين والهوية المصرية

قلنا إن المصريين يحبون أن يعلنوا عن إيمانهم الدينى: فصور القديسين والصلبان كثيرا ما تزين الجدران ، بل إن من سائقى عربات الأجرة من يعلقون بها صور السيد المسيح والقديسين، والمسلمون يعلقون لوحات تحمل عبارة «الله أكبر» أو ما جرى مجراها. فالمصريون - بكل طوائفهم يفخرون بدينهم ويعدونه محدداً أساسياً لهويتهم.

وفى مساء كل أربعاء يتجه الآلاف إلى الكاتدرائية المرقصية بالعباسية لكى يقضوا ساعتين فى الاستماع إلى عظات البابا شنودة الثالث، ويكتب الحاضرون أسئلة



احتفال حول دير المحرق

تجمع وتوضع تحت نظر البابا ليرد عليها. وهو يتناول عادة مناسبة دينية أو مشكلة طرأت حديثا ثم يقرأ الأسئلة ويجيب عنها، ويقيم هذا اللقاء الأسبوعي صلة قوية بين الكنيسة والشعب، كما يجعل مبادىء الديانة أقرب إلى الأفهام. إن البابا رمز ولكنه رمز قريب من شعبه مما يجعل من اليسير على أفراده التماهي معه

جامعو القمامة في المقطم

كثير من المشتغلين بجمع القمامة (الزبالون) من الأقباط ممن يربون الخنازير لأنها تلتهم الفضلات . وكثير منهم قد هاجر منذ زمن طويل من المناطق الريفية إلى العاصمة بحثا عن فرص للعمل، وحين لم يجدوا عملا مريحا لم يكن أمامهم إلا الانضمام إلى صفوف العاملين بهذه المهنة، ولأسباب تتعلق بالصحة العامة نُقلت مزارع تربية الخنازير من قلب العاصمة المزدحمة إلى مناطق خارج المدينة.

ولأكثر من خمسين عاما والزبالون يمارسون مهنتهم هذه في القاهرة مستخدمين عربات تجرها الحمير أو سيارات حيث ينقلون القمامة إلى واحدة من مناطق خمس: المقطم، طرة، المعتمدية، البراجيل، عزبة النخل. ويعيش حوالي عشرين ألفا من هؤلاء الزبالين في المقطم تحت سفح الجبل وقرب قلعة صلاح الدين. وبينما يجمع الرجال القمامة ، تتولى النساء والأطفال فرزها، وتُقسم إلى مجموعات: زجاج ، وورق، وأشياء معدنية، إلى جانب مواد عضوية لغذاء الخنازير وتباع الفضلات غير العضوية لمصانع تتولى إعادة تدويرها .

ويعيش سكانو هذه المناطق في ظل ظروف صعبة، ولكنها تحسنت في السنوات الأخيرة بفضل جهود المنظمات غير الحكومية والحكومة، فقد توافر لهم الآن ماء الشرب النظيف والكهرباء ونظام



من ضيوف دير الانبا بولا

للصرف الصحى ورعاية طبية، وتوجد بالمقطم عدة مدارس ابتدائية وثانوية، كما توجد برامج لمحو أمية النساء والأطفال بخاصة. وثمة أيضا دور حضانة للأطفال ونواد ومستشفى تابع لدير المقطم وعيادة أنشأتها السيدة الفاضلة سوزان مبارك.

الموالد

يحتفل المصريون - مسلمين ومسيحيين - بموالد الشهداء والقديسين ورجال الله، ويتخذ الاحتفال بالموالد المسيحية صورة رحلات سنوية. إن الموالد جزء من الديانة الشعبية تجمع بين الجانب الشخصى والجانب الاجتماعى. وكثيرا ما تختلف مأثورات الجماهير عن مأثورات الكنيسة الرسمية وإن كان الأمران يتداخلان، إن قسما كبيرا من طقوس الدين الشعبى يضرب بجذوره فى الموروث الدينى لمصر الفرعونية. فالاتجاه الدينى للمصريين قد شكله دائما إيمانهم بالغيب وهو ما يسر على المسيحية أن تخلف ديانة الفراعنة. يؤمن الأقباط بأن هذه الحياة معبر إلى الحياة الأخرى فى الفردوس ومن ثم يحتفلون بموت القديسين على أنه ضرب من الولادة، ولادة تفضى إلى الحياة الأبدية، حل القديسون والشهداء محل الآلهة المصرية القديمة وغدوا موضع توقير وأداة شفاعة، وسرعان ما غدا لكل إقليم فى مصر قديسه الحامى تقام له فيه مزارات وقبور يُحفظ بها رفاته وعظامه، وأحاطت هالة من القصص والمعجزات بكل قديس؛ ولا عجب فالقديسون والشهداء وقائع محسوسة أقرب إلى فهم الناس العاديين من مجردات العقيدة القطعية (الدوجما) للدين الرسمى.

وتقام الموالد فى أفنية الأديرة والكنائس وغيرها من الأماكن المقدسة، ويشيع فيها، إلى جانب العبادة، جو من

المرح، فالمولد السنوي الذي يستمر لمدة عشرة أيام بدير المحرق في مصر الوسطى أشبه بنزهة ، إن الموسيقى ترتفع عالية والناس يرقصون ، وهناك باعة مصنوعات من تايوان ، وباعة مكسرات وفواكه وصور للقديسين، وهناك من يدقون الوشم الذي يصور الصليب على المعصم، ويرسمون صور القديسين على الأذرع والأكتاف، ويُقدر عدد من يحجون إلى دير المحرق في كل عام بخمسين ألف نسمة ، وينظر الفقراء - وهم أقلية - إلى المولد على أنه نزهتهم الوحيدة، فهم ينصبون خيامهم حول الدير عدة أيام، ويزورون الكنائس للصلاة، ويطلبون شفاعة السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين، ويلمسون المزارات والمحاريب وصور القديسين والشهداء التماسا للبركة، وتجلب بعض الأسر روس ماشية تُذبح على سبيل الأضحية في السلخانة التابعة للدير حيث يباركها قس أو راهب، ثم توزع على الحاضرين.

والمولد أيضا مناسبة لعماد الأطفال، إن طقس العماد في المسيحية أول الطقوس وأهمها وبدونه لا يمكن ممارسة باقي الطقوس فهو شرط لخلاص الأرواح ودخول مملكة السموات وذلك بحسب قول السيد المسيح : «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (إنجيل يوحنا ٣: ٥) يُغمس المولود في الماء ثلاثاً باسم الآب والابن والروح القدس وبذلك يتحد بالسيد المسيح وبالكنيسة. وتُعمد البنات بعد ثمانين يوما من ولادتهن، والأولاد بعد أربعين يوما.

ويوقر الأقباط كثيرا من الشهداء ، وهم يدخرون أكبر قدر من التوقير للسيدة العذراء فثمة اثنان وثلاثون احتفالا بها تُقام في كل سنة.

طقوس الزواج

يُدعى طقس الزواج القبطي «الإكليل» لأن الكاهن يضع تاجا (أو إكليلا) لبرهة قصيرة على رأس العروسين أثناء إجراء مراسيم الزواج. ويُعقد الزواج عادة في الكنيسة؛ وفي الأحوال الاستثنائية فقط يمكن عقده بالبيت .

ويتجه العروسان إلى الكنيسة مصحوبين بالأهل والأصدقاء ، كل على حدة ، وتزان الكنيسة بالزهور في هذه المناسبة، ويجلسان على مقعدين مُذهبين ، وفي مواجهتهما مائدة يقوم عليها الكتاب المقدس وصليب ذهبي ودبل الزواج والبخور ، ويرتدي رجال الدين حللا زاهية ويقترن الاحتفال بأناشيد الفرحة وقرع الصنوج ، ويدهن الكاهن معصمي العروسين وجبينهما بالزيت المقدس ثم يضع الإكليلين لمدة قصيرة على رأسيهما ، والإكليل يحمل صليبا ذهبيا نقشت عليه عبارة «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام» ويتبادل العروسان الدبل ويتلو الكاهن آيات من الكتاب المقدس ، وفي نهاية الاحتفال يتلو الحاضرون الصلاة.

وقد تقام حفلات الزفاف في البيوت أو الفنادق أو النوادي بحسب الحالة المالية لكل أسرة، والزواج القبطي يدوم عادة لمدى الحياة، ولا تُقبل دعاوى الطلاق إلا في حالات استثنائية كالزنا أو تغيير الديانة.

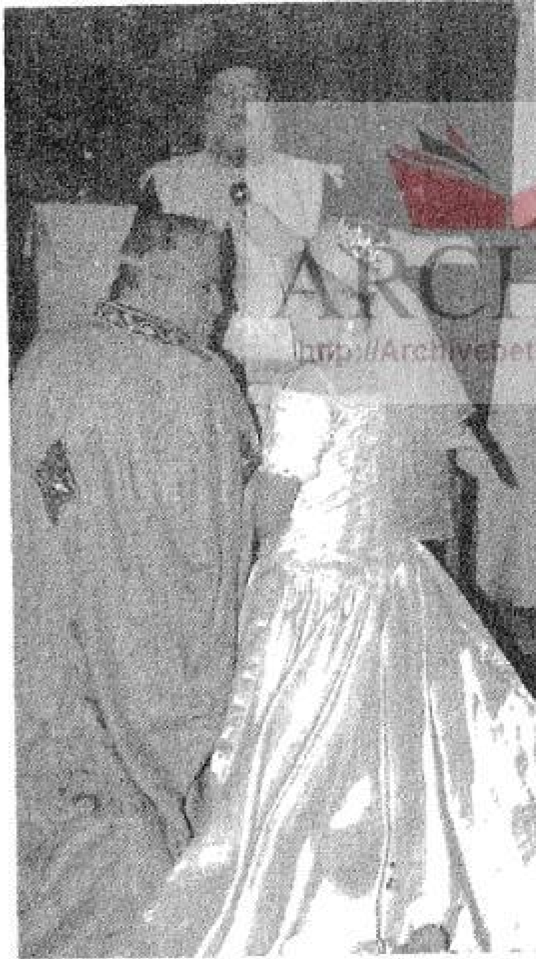
حياة الأديرة

خلال القرن الثالث للميلاد شرع آلاف من الزهاد في العيش متوحدين أو جماعات صغيرة منفصلة عن العالم



الأطفال يرشون الورد أثناء الزواج ▲

▼ طقوس الزواج بكنيسة شبرا



المحيط بهم، واستلهم كثير منهم سيرة آباء الصحراء بولا وأنطونيوس فنشدوا العزلة فى أعماق الصحراء ، لقد عاش القديس بولا (٢٢٨ - ٣٤٣) والقديس أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) فى عزلة تامة بالصحراء غربى البحر الأحمر، وكرسا حياتهما للصلاة والتأمل، وقد صارا يُعدان قادة روحيين ومؤسسين لنظام الحياة الرهبانية ، كان القديس أنطونيوس يؤمن بأمرين ظهرا له فى رؤيا: العمل والصلاة ، وهو أول من لبس رداء الرهبان : حلة من الكتان مثبتة بحزام جلدى ، ومعطف من جلد الأغنام حين يشتد البرد.

لكن أغلب النساك يعيشون فى كهوف ولا يلتقون إلا أيام السبت والأحد حين يلتمسون الإرشاد الروحى من كبارهم ، وكثيرا ما كانوا ينحدرون من أصول اجتماعية متواضعة كالقديس بولا ، ولكن منهم أيضا من كان ينتمى إلى درجة أعلى فى السلم الاجتماعى كالقديس أنطونيوس، ومع الزمن غدا آباء الصحراء - فى نظر المسيحيين بعامة - أبطالا روحيين تنسب إليهم قوى إلهية.

وفى القرن الرابع - بعد وفاة القديس أنطونيوس بزمن قصير ، بُنى دير الأنبا أنطونيوس تكريما لذكراه قرب الكهف الذى قضى فيه حياته، أما دير الأنبا بولا فأقيم ، غير بعيد عن دير الأنبا أنطونيوس ، قرب نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس تكريما لذكرى القديس بولا، وفى الاحتفال بذكرى هذا الأخير يعزف الرهبان الموسيقى وينشدون التراتيم الدينية ، ثم يخترق - فى نهاية المساء - موكب منهم



البابا شنودة وعظة الأربعاء فى كاتدرائية القديس مارك بالعباسية

فناء الدير، ويأتى إلى المكان آلاف المؤمنين منتظرين أن يتمكنوا من لمس صور القديس التماسا للبركة.

ويتسم أسلوب حياة الرهبان بالبساطة والتقشف ، ويتألف طعامهم عادة من الخبز والفول والخضراوات ، وتحرص أديرة كثيرة على الاعتماد على نفسها والاكتفاء ذاتياً ، فهى تؤجر أرضها للمزارعين أو تبيع ما ينتجه الرهبان أو يزرعونه.

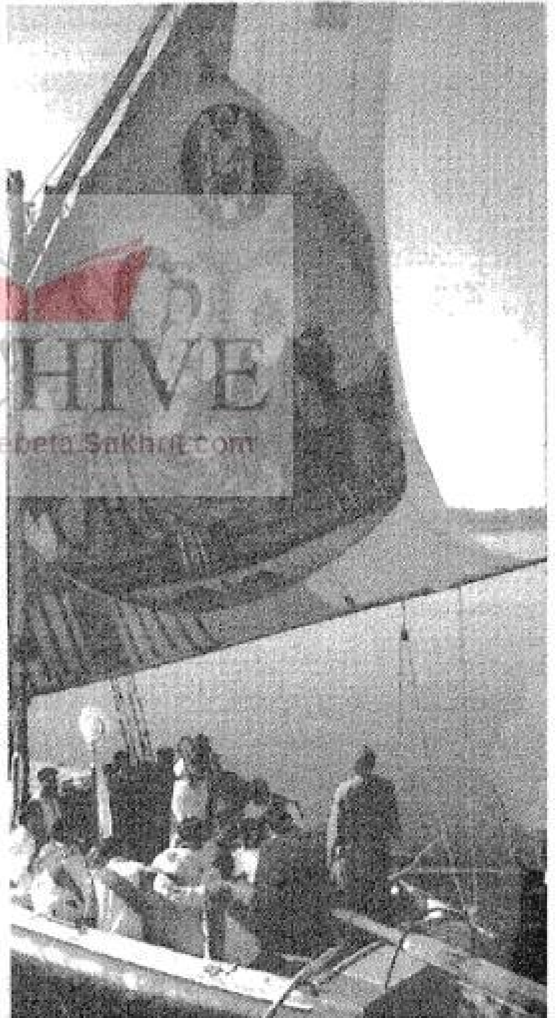
ويعد دير أبومينا قرب الإسكندرية من أغنى الأديرة المصرية، ويقوم رهبانه بتربية الدواجن والأسماك وزراعة الزيتون والخضراوات، ومن الأديرة الغنية الأخرى فى مصر الوسطى دير المحرق.

عيد القيامة

عيد القيامة هو أهم الأعياد القبطية، فهو يفوق عيد الميلاد فى أهميته وفى مظاهر الاحتفال به، ولأن التقويم القبطى مختلف عن التقويم الغربى ، فإن موعده يتأخر عادة عن مثيله فى الغرب.

ويصوم الأقباط خمسا وخمسين يوما قبل العيد، ويمتنعون عن أكل منتجات الحيوانات كاللحم والبيض واللبن والأسماك، كذلك يمتنعون عن شرب القهوة والمشروبات الكحولية أثناء الصيام، وكما هو الشأن فى صوم رمضان المبارك، لا يجوز لهم الأكل إلا فى الفترة ما بين غروب الشمس وشروقها، ويُعفى الأطفال والحوامل والشيوخ والمرضى من فريضة الصيام.

وأسبوع عيد القيامة الذى يُعرف باسم «أسبوع الآلام» فترة صلاة وتأمل احتفالاً بذكرى أيام المسيح الأخيرة على الأرض، إنه يبدأ بأحد السعف وينتهى بعيد القيامة فى يوم الأحد، وفى أحد



احتفال قبطى بالقرب من ملوى

السعف يزور الناس قبور أهاليهم ، ويجرى الكهنة مراسيم القداس في الكنائس ويقودون المواكب التى تحمل سعف النخيل مضفورة على هيئة صلبان ، كذلك يطلقون البخور من المجامر، وخارج الكنيسة يضفر الصانعون أوراق السعف ويبيعونها للناس كي يعلقوها على أبواب دورهم طرداً للأرواح الشريرة. وفى يوم الخميس يحتفل الأقباط بغسل السيد المسيح لأقدام تلاميذه، وفى يوم الجمعة الحزينة تُكسى هياكل الكنائس بقماش أسود، أما يوم السبت فيدعى سبت النور احتفالا بمعجزة النور الذى أضاء جنبات القبر المقدس فى أورشليم ، كذلك تسير فى بعض المناطق مواكب تحمل الشموع .

وفى منتصف ليلة السبت تقيم الكنائس فى كل أنحاء البلاد قداسات، ويجرى البابا شنودة الثالث مراسيم القداس فى الكاتدرائية المرقصية بالقاهرة حيث يتوافد الآلاف، ويرتدى رجال الدين حللا زاهية، أما البابا نفسه فيرتدى ثوبا مزخرفا وتاجا .

والاحتفال بفتح الهيكل الداخلى للكنيسة يرمز إلى إزاحة الملاك لحجر الذى كان يعلو قبر المسيح، ويدور موكب يقوده كاهن حول الهيكل حاملا أيقونة تصور المسيح.

ويشتد حماس المصلين عندما يمر البابا بهم مانحا إياهم بركاته إذ يسود الاعتقاد أنه يملك قوة شافية من الأمراض، وينتهى الاحتفال بتناول القربان المقدس من خبز ونبيذ.

والاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح يشبه الاحتفال بعيد القيامة ، وإن يكن على نطاق أضيق، وتحتفل الكنيسة القبطية بعيد الميلاد فى السابع من يناير من كل عام. ■



التعميد فى دير المحرق

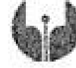


دير العذراء - درنكه

بين
منصور فهمي وزكي مبارك

بقلم
د. محمد رجب البيومي

كان الدكتور زكى مبارك نادر الأصدقاء كثير الغرماء ، إذ قضى حياته فى صيال دائب لاينقطع ، وفيمن ناوأهم أعلام «ذوو مقدرة على النفع والضر معا ، وفيهم من لايقدر حرية الكلمة مهما هتف بتمجيدها ، فأصلاه جهنم شوته شيًا ، وهو مع ذلك يتلهب فى الجحيم باسما غير عابس وقد يشكو حينا فيرتفع صراخه إلى عنان السماء ، ولكنه لا يرجع إلى المهادنة ، وكأنما كتب عليه أن يحمل سيفه حتى الرمق الأخير .



ولا أعـرف من الكبـار الذين شملوا زكي مبارك بعطف حان أثير غير رجلين كبيرين بمزاياهما الخلقية قبل أن يكبرا بمزاياهما العقلية ، هما الأستاذ عبدالقادر حمزة ، والدكتور منصور فهمي .

أما عبدالقادر فقد وقف معه ساعة العُسرة القابضة إذ جعله مراسلا للبلاغ فى باريس كى ينفحه بما يعين على مصائب الدهر ، ثم فتح له جريدة « البلاغ » يصول على صفحاتها بأجر مكافئ ، وقد يعارض اتجاهه فى بعض ما يكتب ، فلا يحاول أن يمنع ما يقول ، وأما الدكتور منصور فهمي فحديثه مع زكي يطول ويمتد ، ولكنى سأجتزئ منه بما يؤمىء ويشير ، إذ أعرض موقفه معه عند نقاش رسالة الدكتوراه الأولى بالجامعة المصرية عام ١٩٢٤ ، وقد كان الدكتور منصور أحد المشرفين على إعدادها، فآزره وأكرم غربته حين تناولته الأقلام الهائجة فى الصحف ، والدكتور منصور فهمي فيلسوف بسلوكه قبل أن



د. منصور فهمي

يكون فيلسوفا بعلمه ، فقد ارتفع فى نظره الفكرى إلى مرتبه ساوت سلوكه الاجتماعى تماما ، فهو يرى الدنيا مسرحا للتناقض ، فلا يضيق بهذا التناقض فى شىء بل يعرض الرأى ونقيضه عرضا محايدا ، وهو حين يبسط الرأى الأول بسطا تاما تظن أنه يمثل وجهه نظره ، ثم يبسط الرأى المقابل إلى أبعد ما ينتهى إليه من مقررات حتى تظن أيضا أنه يحتل وجهة نظره ، وقد يترك الرأيين

د. زكي مبارك

دون ترجيح ، فإذا سألته عن ذلك ابتسم ، وقال لك بوجه : ألست ترى من يعبد البقرة ومن يذبحها ابتغاء في موطن واحد ، ويكافئهما في رأيه صاحب غير معتد ولا آثم ، وهذا هو الروح الفلسفي في أرقى مجاليه !

بداية رائعة

وسأتحدث عن رسالة الدكتوراه الأولى للدكتور زكي بالجامعة المصرية الناشئة ، وكانت خامس رسالة تقدم لهذه الجامعة الناهضة إذ سبقتها أربع رسائل ممتازة حقا ، أتحدث عنها ولا أعجب كثيرا من العجب الذي ينتهي ، إذ أن من المعهود أن يبدأ الشيء صغيرا صغيرا ثم يكبر على مدى الأيام ، ولكن الأمر في رسائل الجامعة كان على عكس ذلك تماما ، فقد بدأت رسائل الدكتوراه رائعة شكلا وموضوعا ثم أخذت تتضاءل بحيث صار الذي ... وكانت الرسالة لا يؤبه منها إلا في ... متواضعة ... يستعد إلى مشاهدة مهرجان علمي تروع الأصداء الفكرية بحيويته ، فأصبحنا الآن نرى في اليوم الواحد بالكلية الواحدة عدة رسائل تناقش وفي كل منها شباب الأساتذة يتحدثون ! أما جمهورهم فالقارئ الباحث المدجج ، والمدعين في ثلاثة منهم البيون الجهمين شيوخنا مما يقال ، ولكنهم رأوا من الشهادة أن يتشاغلوا من الفريق إلى مأتمهم دخلا كالفراغ العراقي ، فهم يترامون ويصفقون ، ويحملون بالقاب

الزهور لنملأ المكان عن اليمين والشمال ، هذا يحدث اليوم ، أما ما شأن الدكتور زكي مبارك فهذه قصته .

لم يكن يعين الموعد المحدد ، حتى امتلأت القاعة بكبار المفكرين ، وفيهم الوزير وأساتذة الجامعة وأكابر شيوخ الأزهر ، ومندوبو الصحف اليومية إذ أرسلت كل جريدة من ينقل إليها مناقشات الأساتذة في إسهاب وإشباع ، وكانت شخصية الطالب مثار عجب شديد بين الأساتذة لأنه كان صلبا لا يلين وكان موضوعه يدور حول شخصية إسلامية نادرة ذات مركز مرموق في الفكر الديني ، وهي محاطة بهالات من الإعجاب والتقدير ، تلك هي شخصية الإمام الغزالي ، وقد انتظر الكثيرون زكي الغزالي من الباحث بكل تقدير هذا الكتاب كان رفيقا رقيقا ، ولكن الباحث ... رأى نفسه ... الغزالي ، بل ... في بعض الأبواب أستاذا ... والغزالي ليس معصوما من النقد ، ولكن الأزهر ... أشد الشيوخ ، ليبدأ النقاش بكلمة للشريف الدكتور منصور فهمي ، وقد نشرت بصحيفة الجامعة المصرية الصادرة في يناير سنة ١٩٢٤ وهي أقرأها وجدت ترجمة طيبة لنا يجب أن يحتذيه معظم الرسائل ، إذ لم يكلف الدكتور منصور بتعداد ما للعزيز مبارك من سبق علمي في دراسته بالأزهر التي استمرت خمس عشرة سنة ، وفي دراسته بالجامعة التي انتهت بإجازة الليسانس بل سأل بعض الكبار عن مبارك ممن له صلة علمية بهم ، وسجل إجاباتهم

فى كلمته ، فقال إن الأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى قال له : لم أر فى الذين عرفتهم من طلاب الأدب - وكان القاياتى أستاذا بالجامعة - من يشبه هذا الطالب فى بعد النظر ، ودقة الملاحظة ، وجاء فى إجابة أستاذ الفلسفة قوله « سرنى من الطالب أنه فهم أمهات المسائل ، وأنه أحسن الترتيب ، وفهمه أكثر من علمه ، وقابليته للفلسفة موضع رجاء ، ولم يقتصر الدكتور على آراء الأساتذة فى الجامعة ، بل كتب إلى الأستاذ حسين والى من كبار علماء الأزهر حينئذ يسأله عن حالته الدراسية بالأزهر حين كان طالبا به فقال الشيخ وسألت عددا من اخوانه ومشايخه بالأزهر ، فقالوا إنه نبيه ومستقيم وحسن الأخلاق وأنا أعلم فيه ذلك .

فما رأى القارىء فى هذا البحث المستقصى من المشرف الذى خبر تلميذه فى سنوات الجامعة ، ودعاه الحرص إلى أن يسأل ذوى الشأن بالأزهر عن أبنائه من قبل ، ثم ختم الدكتور مقدمته بقوله :

موارد العلم الأصيل

إن هذا الطالب الذى جاءت بشأنه هذه الشهادات ، قد تكوّن رأس ماله العلمى من الاتصال بموردين من موارد العلم مورد الأزهر الشريف ومورد الجامعة المصرية ، ويلوح لى أن اختياره البحث فى فلسفة الغزالى ، والأسلوب الذى اتبعه فى ذلك يدل دلالة تامة على أن الطالب قد استفاد من الموردين اللذين أتيح له أن يتصل بهما ، فلم يفرط فى الأزهر ، وحرص كل الحرص على أن يصل بينه وبين ما يناسبه من المعلومات التى استقاها فى حجر الجامعة ، وقد عرف كيف يوفق بين معلومات شتى ، وصلت إليه من طريقين قد يختلفان فى معالجة العلم وتلقيه .

هذا بعض ما جاء فى التقديم ، وهو تمهيد حسن ، يجمّل صورة الباحث بما يدل على استعداده الطيب، وقد ظن الحاضرون أن الريح ستسير رخاء فى المناقشة ، لأن الباحث باغترافه من الأزهر قد أمن الشطط الفكرى ، وبتأثره بالجامعة قد التزم المنهج العلمى ، ولكن زكى مبارك صور حالته النفسية حينئذ بما يبعد هذا الظن ، فقد قال إنه كان يعانى ثورة روحية وعقلية عند تأليف هذا الكتاب، وقد صاحب الغزالى فى مؤلفاته خمس سنوات فأسره بدءا ، ثم رأى أن يؤلف كتابا فى (الأخلاق عند الغزالى) لينجو من أسره ، فجمع قواه وكسَر باب الأسر ليتنسم الروح الحر للفكر وليلقى الغزالى مقابلة الند للند !

هذا الروح العاصف الذى جعله ضريبا للغزالى تلقاه ملاقاة الند للند ، قد جمح بالباحث إلى خطرات أقر بشططها فيما بعد ، وهذا الجموح الشارد قد صدم عشاق الغزالى من كبار الحاضرين حتى أن الشيخ عبدالمجيد اللبان من كبار علماء الأزهر - ولم يكن عضوا باللجنة ، قد سمح لنفسه أن يعترض على الطالب فى أسئلة يوجهها إليه ، والدكتور منصور فهمى يعرف مقام الشيخ اللبان فلم يشأ أن يحرجه بما يدل على أنه يخرج على التقاليد الجامعية حين يفرض نفسه

مناقشا ، وقام من بعده الشيخ محمد الإبياري أحد علماء الأزهر ليوجه أسئلة أخرى للباحث ، وهنا استطاع الدكتور منصور فهمي أن يقول للشيخ الابياري إن الجمهور يسمع ولا يناقش ، وأن الاعتراضات من حق لجنة الامتحان .

وحصل ما لم يكن ليتوقع ، فقد كان الدكتور طه حسين حاضرا ، وهو أستاذ بالجامعة ، وليس عضوا في لجنة النقاش ، فاستأذن معالي الأستاذ محمد حلمي عيسى باشا وكان من الحضور أن يسمح له بتوجيه أسئلة للباحث ، وسارع حلمي باشا فأسر للدكتور منصور برغبة الدكتور طه ، فوقع رئيس اللجنة في حيرة ، ثم رأى المسألة فأعلن أن لأساتذة الجامعة وحدهم أن يناقشوا الطالب ، فهم يشرفون عليه إشرافا أدبيا ، وهذا غير الواقع فعلا ، ولكنه تبرير ، وهنا قام الدكتور طه حسين بتوجيه أسئلة للباحث ، حاول الإجابة عنها قدر المستطاع .

وفي هذا الجو العاصف رأى مندوبو الصحافة مادة دسمة في الاعتراضات والإجابة ، دفعتهم إلى أن يملأوا صحفهم بما كان من صراع ، وأفردت جريدة المقطم صفحتين كبيرتين تعرض كل ما قال ، فانتقلت الضجة من ساحة الجامعة إلى جمهور الباحثين خارجها ، وشرع الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوي عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر في كتابة ردود شديدة اللهجة تبين خطأ الدارس ، وتبعه الأستاذ الشيخ أحمد مكي شيخ المعهد الديني بالزقازيق بهجوم مماثل ، وكان الأستاذ الكبير محمد أحمد جاد المولى عضوا في لجنة المناقشة ، وهو تلميذ الغزالي الذي سار على نهجه في كثير مما كتب من بحوث الأخلاق ، ومن بينها موسوعة (الخلق الكامل) فتتبع الباحث ناقضا بعض آرائه ، وكشف بذلك عن هنات استغلها من أثاروا الضجيج ! وقد حاول الدكتور زكي أن يرد على كل ما قيل في الصحف ، فجاءه رسول من إدارة الجامعة ينصحه بالسكوت التام، إذ ربما فهم بعض الناس من لجاجة الحوار أن للجامعة مآربا في تحطيم القمم العالية من أمثال الغزالي ، وهنا كان الصمت مما لا حيلة فيه !

ولعل من أهم ما أثار الضجيج على الباحث أنه قرر أن الإمام الغزالي ، كان يميل إلى تأييد الفضائل السلبية دون الإيجابية فهو يدعو إلى الزهد والورع والاعتكاف ، والانصراف عن الملذات دعوات متكررة ، ولم يهتم بالفضائل الإيجابية مثل الشجاعة والإقدام والحرص على المال ، والسعي لنيل الأماكن العالية في الحياة ، إذ لايكفي في رأى الدكتور مبارك أن يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة ، وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف ، لأن الضعف شر كله » والباحث حين أفاض في هذا المنحى قد نسي أن المؤلف الكبير ألف كتاب الإحياء في حالة نفسية خاصة دفعته إلى اعتزال المنصب والجاه ، والاعتكاف

فى خلوات المساجد حين رأى مظاهر القسوة لدى الكبراء فى بغداد ونيسابور وبيهق وما وراء النهر ، وتحقق من أن التكالب على السيطرة والرياسة قد سبب شرورا كثيرة ، وخشى على نفسه أن يكون أحد هؤلاء الذين خدعوا ببوارق الحياة ، كما قرر ذلك فى كتابه «المنقذ من الضلال» وهذا الشعور الخاص به دفعه إلى الزهد والانصراف عن الملذات، وهو فى الوقت نفسه لاينكر الفضائل الإيجابية بل أشاد بها إشادة لم تبلغ مبلغ غيرها ، ومن كان فى مثل موقفه العازف عن كل جاه لايكتب إلا ما يطمئن إليه ويقوم بتنفيذه فعلا ، أما قول الدكتور مبارك خير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف فهو الشطط بعينه لأن الرذائل رذائل سواء كانت رذائل قوة أو رذائل ضعف ، ورذائل القوة أشد نكالا من رذائل الضعف ، فما كانت قسوة المتحيزين من الحكام ، وبطشهم بالشعوب ، وتعاظمهم على الجمهرة من المحكومين إلا بعض رذائل القوة ، وهى وحدها باعثة الظلم والجور والاغتيال ! أما رذائل الضعف إن عد الزهد والورع والرحمة من الرذائل فلن تؤدى إلى خطر كبير يعادل رذائل البطش والجبروت بل منحت السلامة أناسا كثيرين !

وأكبر ما أثار العلماء والجمهور وصف الدكتور مبارك للإمام الغزالى بالجبن ، لأنه لم يشترك فى الحروب الصليبية التى دارت فى عصره ، وكان من واجبه أن يمتشق الحسام ويدع اليراع فى هذه المحنة ، وهو وصف لايجد القبول ، لأن كل إنسان ميسر لما خلق له ، ولن يستطيع من تباعد عن ضروب الصيال والكد أن يقوم بما لا يقدر ، وإذا كان من كبار العلماء من خاضوا معامع الحروب أو حرضوا عليها مثل عبدالله بن المبارك ، والعز بن عبدالسلام ، وأسد بن الفرات ، فهؤلاء أبطال حقا ، ولهم قدرهم البطولى بحيث لايقاس بهم الغزالى ، ولكنه فى الوقت نفسه معذور لأنه ترك مالا يستطيع ، وقد عاد مبارك فاعتذر للغزالى فى أيام الحرب العالمية الثانية إذ كتب فى إحدى مقالاته بالرسالة بقول تحت عنوان (إليك اعتذر أيها الغزالى) إنه الآن قد عرف كيف ابتعد الغزالى عن الحرب ، إذ لم يكن يستطيع القتال ، بدليل أن الحرب القائمة الآن ، وقد داهم الألمان حدود مصر ، وضربوا الاسكندرية بالقنابل ، هذه الحرب لم تدفع الدكتور مبارك إلى مطاردة الأعداء لأنه لايستطيع !

حكمة غير مقبولة

وثالثة الشطط فيها مبارك حين حكم بأن الحكمة الانجيلية القائلة « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» حكمة غير مقبولة لايقرها عرف ولا قانون ، ومصدر الخطأ فى هذا الحكم أنه حمل القول على الحقيقة لا على المجاز ، فقائل الحكمة لايعنى الضرب على الخد الأيمن أو الأيسر ، ولكنه يعنى التسامح المرجو من المعتدى عليه كى يتعظ المعتدى بهذا الرفق فيرجع إلى صوابه ، وهذا ما بينه أحد الفضلاء فى رده على الدكتور بجريدة المقطم! وإذا كان الباحث قد خالف الغزالى فى كثير مما دعا إليه فقد اعترف

بمجلة الرسالة العدد (٤٢٥) بأنه رجع عن كثير من هذه الآراء حين ألف كتابه (التصوف الإسلامى) وبين الكتابين أعوام تنقل فيها عقله من أفق إلى آفاق ! وقد أشار إلى نحو من ذلك الأستاذ الكبير محمد جاد المولى فى مقدمته التى تصدرت الجزء الأول من كتاب «التصوف» !

نرجع إلى الدكتور منصور فهمى ، وموقفه من هذه الضجة التى صاحبت المناقشة ، والتى أعقبتها فى الجرائد والصحف ، فهو فى قاعة المناقشة قد سمح للطالب أن يرد بما يشاء دون تهيب ، وأعطاه الفرصة الكاملة لأن يعارض مالا يوافق عليه ، كما أنه من ناحية أخرى سمح للأستاذ محمد أحمد جاد المولى أن يكتب فى التقرير الخاص بمنح الدكتور درجته العلمية بتقدير جيد جدا أن اللجنة حين تمنح الباحث هذه الدرجة لاتعنى أنها توافقه على كل ما أبداه من الآراء ، فهى تتحفظ على كثير مما قرر ، ولكنها تقدر فيه حرية البحث ، وقوة التفكير ! ولهذه منحته الدرجة عن صواب .

هذا فى قاعة المناقشة ، أما بعد انتهائها ، وحدوث الضجيج الصحفى حول الرسالة ، فقد رأى الدكتور منصور ألا يخذل تلميذه فيتركه وحده دون نصير فكتب فى الصحف خطابا إلى الدكتور زكى مبارك ، يأخذ بناصره ، ويهنئه بمستقبله ويأخذ عليه أشياء أخذ مثلها على معارضيه ، فكان خطاب منصور فهمى فى هذه الحومة المشتعلة عامل تأثير قوى فى انتهاء المعركة على وجه يقوى تلميذه ويسدد خطاه ، وقد جاء فى هذا الخطاب النادر ، بعد حديث جاد مفيد استغرق صفحتين من صحيفة الجامعة المصرية:

«أنت يا أخى درست مؤلفات الغزالى وفهمتها وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ؟ وقد ذكرته بالخير حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالى بأكبر من أن يخطىء ، وما كنت بأصغر من أن تصيب، كانت رسالتك مثارا للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنا لم نغضب لذلك ، لأنا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث ، وهل علمناك إلا أن تكون خادما للحقيقة ، ولو شق إليها الطريق ، فمادمت ترى أنك على حق ، ومادمت تعتقد أنك سائر على الطريق السوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن فى رفق ونزاهة ، فالحق لايخدم بمثل الرفق والنزاهة ، وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فإن عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل فإن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والتمادى فى الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق إلا الضلال .

وإن كان يحزننى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك لدخول الجامعة المصرية - يريد رجال الأزهر ممن كتبوا ناقدين - فمن الانصاف أن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون ، فقد رأينا بكل

أسف أن الأزهريين يرمـون أصـحـاب الأفكار الحـرة بالكفـر والمروق وأنصـار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود ، وهم جميعا من المسرفين» .

وإذا كـان لى أن أنصـحـك - ومن الواجب أن أنصـحك - فـإنى أدعوك إلى حرب هذه الضلالة وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف . فإنكم جميعا طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال» .

هذا بعض ما جاء فى الخطاب الرقيق الذى وجهه الأستاذ إلى تلميذه إبان المعركة المشتعلة فى الصحافة !

متى تهتم بالجوهر العلمى

ولى أن اتساءل هل تحتفل اليوم جرائدنا ومجلاتنا بما يدور فى الجامعات من مناقشة علمية ، تصلح أن تكون مادة الصفحة الثقافية بالجريدة ! أو أن المشاهد أن الجريدة إذا شاءت فى النادر أن تتحدث تكتفى بصورة أعضاء اللجنة والباحث المتقدم للدرجة ثم لاتهتم بإبراز الجوهر العلمى للرسالة ، ولا لأهم الاعتراضات التى وجهت إليها ، بل يكون الكلام ممتدا أو موجزا لا يخرج عن الأخبار العامة ، وكأنها تنقل حديثا عن عرس من الأعراس أقيم فى فندق ، بل إن حديث العرس يلقى من الاحتفاء صورا وأسماء وعناوين ما يجعله خبر اليوم ! وقد يكون ضعف الرسائل فى مجموعها صارفا عن هذا الاتجاه ، ولكن بين الضعيف الكثير أمثلة محترمة توجب الإشادة والتنويه ، كما أن من الملاحظ أن الجريدة تحرص على أسماء بالذات تعلن عنها قبل المناقشة ، وتشير إلى الصور والأسماء بعدها ، مما يدل على أن المجاملة للمناقشين لا للباحث ولا لموضوع الرسالة ، وهو أمر يفقد النشر على ضآلته كل اعتبار ، ويدعو إلى إعادة النظر من جديد .

وقد انتقل الدكتور زكى مبارك إلى رحمة الله قبل أن يفارق أستاذه الحياة ، فأسف أسفا لوفاته العاجلة ، وأقامت نقابة الصحفيين حفلة تأبين كبرى للدكتور زكى مبارك كان الدكتور منصور فهمى باشا من خطبائها اللامعين ، وقد سرد فى تأثر شديد بعض ذكرياته عن تلميذه العزيز ، ومنعه الحزن أن يستطرد ، وأذكر أن الأستاذ محمد مظهر سعيد ، كان من المتحدثين الذين أجادوا القول فى صدق وإخلاص ، كما أذكر أنه قال فى ختام كلمته « لقد كان مبارك معارضا لى فى كثير مما أكتب ، وكنت أبادله معارضة بمعارضة ، وهأنذا اليوم أعترف بفضله وسبقه وتبريزه ، وأمانته ، والفضل ما شهدت به الأعداء ! وهو ختام حاز التقدير ، فدوى التصفيق فى مجال التأبين ! وخرج الحضور أسفين على ما نال الدكتور من غبن عجل برحيله على غير انتظار ، وكنت أحد هؤلاء فسرت لا أتبين الطريق . ■


رفاعة الطهطاوى


مصطفى لطفى المنفلوطى


محمد عبده

التأسيس

بقلم
د. عبدالمنعم تليمة

أعمدة المجتمع الحديث المؤسسات (حكومية وأهلية) والصياغات الدستورية القانونية والعقلانية والتعليم المدنى والتمثيل النيابى وتحرير المرأة والعدالة والحريات شخصية واجتماعية وسياسية. فإذا انتقل المجتمع من العلاقات الكلاسيكية الاقطاعية وشبه الإقطاعية إلى العلاقات الحديثة فإنه يكون قد شيد لنفسه موقعا على خارطة التاريخ الإنسانى الحديث، وهنا يجرى له وعليه ما تمليه قوانين هذا التاريخ، وتخلق أعمدة المجتمع الحديث السالفة بنية ثقافية حديثة تدفع وتفسر ما صار إليه هذا المجتمع من أنظمة جديدة أخلاقية وسلوكية وسياسية واقتصادية واجتماعية وتعليمية، ومن تغير فى المثل الأعلى والقيم والأعراف والعادات ، ومن تجدد فى طرز البناء والأزياء


أحمد لطفي السيد


محمد مندور


حافظ ابراهيم

وهذه البنية الحديثة هي القاعدة التي يتأسس عليها نقد أدبي حديث:

كان النقد القديم والوسيط يرد العمل الإبداعي إلى قوى غير مرئية علوية أو سفلية، وكان في التشكيل لغويا بلاغيا يقف في العمل الأدبي عند اللفظة المفردة وفي الجملة المعزولة عند متفرقات من المجازات والكنايات والتشبيهات والاستعارات، وكان في الموقف أخلاقيا دينيا يعتمد في التقويم معايير من خارج العمل مما عليه الجماعة من عقائد ومذاهب وأعراف. لكن البنية الثقافية الحديثة تنقل النقد الحديث إلى آفاق بعيدة، فيغدو نشاطا ثقافيا شاملا، عمله الأول تفسير الظاهرة الإبداعية تفسيرا موضوعيا عقلانيا فيرد إليها طبيعتها الإنسانية ويتعامل مع منتجها تعاملا تشكيليا تكامليا، ويضيء التشابك والتفاعل والتداخل بين الهيئات والتراكيب التي كونت هذا التشكيل الكلي، ويحدد الوحدات البنائية التي أقامت البنية النهائية للعمل. والنقد الأدبي الحديث لايعزل المنتج الإبداعي، فإذا كان عمله الأول المنتج الأدبي الذي يصطنع الخيال أداة في العملية الإبداعية ويصطنع اللغة في العملية التشكيلية، فإنه يمد عمله إلى كل (الصياغات)، الفلسفية والمنطقية، والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية، والعلمية الرياضية والتجريبية، ذلك أن كل صيغة إنما تبدأ بالخيال في وضع الفروض وتتوسل باللغة في تحديد النتائج، وهنا يعمل النقد فيعرض الفرض

على آليات الخيال ويعرض النتيجة على قوانين اللغة ومقرراتها، وبديهي أن الناقد الأدبي ليس مطالبا بالإحاطة بكل الحقول المعرفية، إنما هو مطالب بمعرفة لغاتها ليعرض منتجها على لغته، ليستطيع وضع هذا المنتج في سياقه التاريخي الاجتماعي على قاعدة البنية الثقافية للمجتمع.

إن تحديث المجتمع هو تحرك وانتقال إلى الطور الحديث من التاريخ الإنساني، وثمة مجتمعات عتيقة لها موروثاتها الخالدة التي ترتد في الزمان إلى آلاف من السنين خلت، كان تحرك هذه المجتمعات إلى الطور الحديث مستندا إلى تراثات باقية متواترة أصاب طاقتها الخالقة المبدعة فتور في عصور متأخرة، ثم جدت ظروف تاريخية اجتماعية أعادت إلى تلك الطاقة توهجها،.. هنا تصدق على عودة هذا التوهج التسمية الصالحة في هذا المقام (النهضة). ونماذج النهضات معروفة تاريخيا وعلميا: النهضة الأوروبية الحديثة التي أسست على القديم اليوناني واللاتيني، والنهضة العربية الحديثة أسست على التراث العربي الإسلامي وعمقه في المصرية ووادي الرافدين والشام وما حول ذلك ووراءه من الشمال العربي الإفريقي، والعمق الإفريقي والعمق الآسيوي، والنهضة الهندية التي أسست على الآلهة والأرباب والأديان المحلية والملاحم الشعبية الإنسانية الخالدة، والنهضة الصينية التي أسست على الكونفوسيوشية والمأثورات الشعبية المتواترة، ولقد سمى بعض الدارسين النهضة العربية الحديثة - في القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين الميلاد - (الإحياء) أو (البعث)، وليس هذا بشيء لأن الإحياء أو البعث لايكونان إلا لميت اندثر وذهبت ريحه، ولايصح هذا مع النهضة العربية الحديثة لأنها حركة لحي، كان مضطجعا فجلس، كان جالسا فوقف، كان واقفا فمشي، الشأن في النهضة العربية الحديثة، أن ثقافة العرب والمسلمين بعمقها القديم المصري والشامي والعراق، قد شهدت عصر صعود هو الازدهار العباسية من القرن الثاني الهجري إلى السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - وشهدت عصر خمود حتى مشارف العصور الحديثة فترت في هذا العصر طاقتها على الخلق والإبداع ولكن لم ينقطع تواترها، ثم تحققت ظروف تاريخية اجتماعية نقلتها إلى عصر نهوض هو الذي نعيشه منذ فجر القرن التاسع عشر، لم يحدث لهذه الثقافة العربية انقطاع ولم تحدث معها قطيعة، ولقد عرفت هذه النهضة العربية - في القرنين الماضيين - أربعة أجيال رائدة من العلماء والمفكرين والشعراء والكتاب واللغويين والبلاغيين، ولما كانت كلمة (التراث) مفتاحا لهذه النهضة، فإن كل جيل من الأجيال الأربعة الرائدة له مفهومه لهذه الكلمة المفتاح: التراث لدي الجيل الأول ديني، هو الباقيات

الأمهات من جهود الأئمة والفقهاء والمفسرين والمحدثين والأصوليين والتراث لدى الجيل الثاني هو إبداع الشعراء الجاهليين والمخضرمين والأمويين والعباسيين، وهو -التراث - لدى الجيل الثالث فلسفي خلفه فلاسفة الإسلام الأربعة، الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، ينضم إليهم الغزالي وابن خلدون وغيرهم وأما التراث لدى الجيل الرابع - الراهن - فهو مفهوم شامل ينتظم كل الحقوق المعرفية والإبداعية، كل ما وصل إلى الأجيال الحديثة وسقط في وعيها واستقر في حافظتها، من مروى ومؤدى ومجسد ومخطوط ومطبوع.

نقف عند جهود كل جيل لنقوم منجزه في إقامة البنية الثقافية العربية الحديثة، وما تأسس عليها من نقد أدبي عربي حديث. ونقف في هذه الصفحات عند جهود الجيل الأول.

تأسيس فكري

كان أعلام الجيل الرائد الأول ممن تخرجوا في الأزهر الشريف، فلا ريب في أن الشيوخ الأزهريين قد كانوا طليعة المصريين في بناء مصر الحديثة، كان حولهم آحاد من المدنيين الذين تلقوا العلم الحديث في المدارس العليا المصرية ومن الذين عادوا من بعثاتهم - خاصة إلى فرنسا - بيد أن الكثرة من رواد الجيل الأول كانت من الشيوخ الأزهريين فكانت لهم القيادة والريادة وكانوا طليعة النهوض القرن التاسع عشر كله، نحن ما هنا لانؤرخ إنما نقف بالرصد عند البنية الثقافية والنقد الأدبي، وفي هذا الشأن فإننا ننص على أن الأزهريين كانوا البناة الأوائل للبنية الثقافية المصرية / العربية / الحديثة، ومن ثم كانوا واضعي الأصول والقواعد المبكرة للنقد العربي الحديث كان بين هؤلاء الشيوخ المفكرون والعلماء والفقهاء والمفسرون والمحدثون، والأصوليون والبلاغيون، والنحاة، وكان حولهم مبدعون من الكتاب والشعراء والمحررين، بل كان حولهم من يفتح سبلا للأنواع الصياغية الجديدة كأدب المسرحية والرواية والقصة القصيرة والسيرة - ذاتية وغيريه - وأدب الرحلة، وكانت بين أيديهم تقنيات جديدة لنشر اجتهاداتهم من مدارس عليا ودور نشر ومطابع وصحف وأندية وجمعيات،. لقد كانوا يقيمون البنية الثقافية الحديثة التي ينهض عليها - بداهة - نقد حديث، تمد البنية النقد بآفاق النهضة الحديثة - سياسية واجتماعية واقتصادية وعلاقات ومثل ومؤسسات - فيعمل النقد في كل ذلك أدواته من النظر والتفسير والتحليل والتقويم ويعود بنتائجه إلى قاعدته موجها ومسددا الخطى، الأمر بين الاثنين - البنية والنقد - أمر تشابك وتداخل وتفاعل، تأثر وتأثير.

ونتتخب من بين أعلام الجيل الرائد ثلاثة شيوخ - وحولهم كثير لنرى

مجهودهم الثقافي البنيوي النهضوي الذي كان مهادا لنقد أدبي عربي حديث. هؤلاء الثلاثة هم: رفاعة رافع الطهطاوي المتوفى ١٨٧٣، وحسين المرصفي المتوفى ١٨٨٩، ومحمد عبده المتوفى ١٩٠٥، ولم يكن هؤلاء من القادة الحاكمين المتنفذين، إنما كانوا من أهل الاجتهاد العقلي الحر المستنير، كان هدفهم الانتقال بمصر - كانت ولاية عثمانية - من مجتمع تقليدي إلى مجتمع عصري، كانت غايتهم - استراتيجيا - الطرائق التي تنهض بها مؤسسات المجتمع العصري، بما يحلق بهذه الغاية من تحديد الصياغات والمفهومات والعلاقات والواجبات والمسئوليات. ولايتم لهم ذلك إلا ببنية ثقافية عصرية نشطة.

تأسيس فكرى

أول ما يجتهد الرائد، نقل مصر من ولاية إلى وطن عصرى مستقل، وهنا تتبدى ضرورة تعريف الأمة «.. الأمة جملة من الناس تجمعهم جامعة ... فهى جملة من الناس تتخذ قطعة أرض محدودة بحدود أربعة تعرفها من علم تخطيط الأرض وتسميها اسما يميزها عن غيرها كمصر فيقال الأمة المصرية ...» (المرصفي: الكلم الثمان ص ٤- هذه الأرض التى تتخذها الأمة محلا لعيشها وحياتها هى الوطن، وقد بدأت الكلمة بما يشبه الحد والتعريف التعليمى وبظلال دينية وكلاسيكية وانتهت بالاستقلال بالدلالة العاطفية والمعنى الوطنى العصرى: الوطن فى اللغة محل الانسان مطلقا فهو السكن بمعنى استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أى اتخذوها سكنا وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك، لا وطن إلا مع الحرية، لا وطن في حالة الاستبداد، وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية، إن ياء النسبة في قولنا مصرى هى من موجبات غيرة المصرى على مصر، فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه (محمد عبده: الوقائع المصرية، عدد ٢٨، ١٨٨١)، ولايكون المجتمع حديثا إلا إذا أقام الإدارة والمؤسسات العصرية التى تعمل بصياغات دستورية وقانونية تحدد المسئوليات والسلطات والمفهومات والعلاقات وتنظم الحقوق والواجبات، وكان الطهطاوى فى صدارة من شغلوا بهذا الأمر ونهضوا بالنصيب الأكبر فى التأسيس والتأصيل. كان من مصادره فلاسفة حركة التنوير فى أوروبا ولاسيما مونتسيكيو وكوندورسيه وأمثالها من المفكرين الذين مهدوا للثورة الفرنسية. لخص الثورة الفرنسية وترجم الدستور الفرنسى - مرة يسميه الشرطة ومرة يسميه الميثاق - تحدث عن الحرية والحقوق الوطنية، يتعلق بالدستور مجالس للنواب والشيوخ،

وعانى الطهطاوى فى العثور على الأسماء العربية المناسبة، فمجلس الشيوخ لديه: أهل المشورة الأولى، ومجلس النواب: ديوان رسل العمالات (تخليص الإبريز ص ٧٩). أما حسين المرصفى فوضع كتابا قائما برأسه (الكلم الثمان) يرصد فيه واقع الأمة المصرية زمانه، ويحدد الكلم الثمان التى رآها لازمة لإدارة سياسة اجتماعية حديثة: الأمة والوطن، والحكومة، والعدل، والظلم، والسياسة، والحرية، والتربية، يقول مشترطا لقيام الحكومة رضاء الأغلبية: الحكومة تحصل من اجتماع طائفة من الأمة لإمضاء مقتضيات الطبيعة على وجه يقرب من رضاء الكافة فإذا لم تكن كذلك كانت شيئا آخر يطلب له اسم غير هذا الاسم (المرصفى: الكلم الثمان ٦٣)، وأما محمد عبده فيجعل الوحدة نفيا للاستبداد: إن استبداد السياسة لا علاج له إلا وحدة الأمة وجمع كلمتها (تاريخ محمد عبده، ط١ ص ٨٩١). ولا يتم لهذا المجتمع الحديث كيانه وبنيانه إلا بضم كل أبنائه – من ذكور وإناث – إلى حياته العامة، من هنا إقرار هؤلاء الرواد الحازم بمكان المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع وبحقها فى التعليم والعمل والمشاركة، لقد أعلن الطهطاوى ضرورة تربية المرأة وتعليمها وألح فى هذه الدعوة وجاهد جهادا مثمرا فى هذا السبيل وعرض فى كتابه (المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين) لتعليم البنت خاصة فأفاض القول وضرب الأمثلة من تعليم البنت اليونانية والأمريكية والفرنسية ثم عرج على المرأة العربية فكان رأيه أنها تتحلى بسجايا وصفات تؤهلها لاحترام الرجال، وساق أمثلة كثيرة على ذكاء البنت العربية فى مختلف العصور فذكر أمهات المؤمنين والنساء والشواعر والأديبات والملكات، وجاء فى فصل من ذلك الكتاب رأى متقدم لايذهب إلى وجوب تعليم الفتاة المصرية فحسب بل ويدعو كذلك إلى جواز خروجها للعمل: ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن المعاشرة فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال مايتعاطاه الرجال على قدر قدرتها وطاقاتها، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فالعمل يصون المرأة عما لايليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء (المرشد الأمين ٦٦).

إن هذا المجتمع المصرى الحديث لاتكتمل أركانه ولايمضى عمله فى اتجاه التغير والبناء والتقدم إلا بقاعدة التحديث: العلم، لقد تمكنت النهضات الحديثة غربا وشرقا حين توسلت بالعقلانية نظرا وبالعلم وتطبيقاته أداة، لقد صرف محمد عبده جانبا كبيرا من جهوده ودعوته إلى التوفيق بين الإسلام والعلم

الحديث مايناقض الإسلام الصحيح إذا أحسن فهمه وأحسن بيانه، وإن ضرورة تصوير الإسلام على صورة تتجانب مع العلم الحديث تستلزم أيضا استعادة مافى الإسلام من أصول جوهرية وليس ماكان منه مقصوراً بطبيعته على زمن ما أو مكان ما ... إن الدين من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة (المنار جـ ٨ ١٩٩٩).

ولم يكن هؤلاء الرواد الأوائل مفكرين مؤهلين مؤسسين فحسب، بل كانوا كذلك مبدعين موهوبين، ذلك أن هذا الوطن الحديث المنشود، له من مجده القديم التليد، وحاضره الناهض السعيد، مايجعله جديرا بالحب، والمنشد هنا الطهطاوى:

يا أهل مصر بر مصر فرض عين
فى البر نبذل عن رضى نفسا وعين
.....
وحماية هذا الوطن فرض عين كذلك:
من تعدى وطغى على حماكم يصرع

لقد صارت مصر الوطن الحديث المستقل قوة، وصارت عامرة، وصار ذكر نهضتها على الألسن والأقلام:

قــوة مــصـــر القـــاهرة
علـى ســـواها ظـاهرة
وبالعــــمـــار زاهرة
خـــصت بذكـــر حـــسن

ومنذ قديم إلى الآن - عبر الأطوار والأزمان والأدوار - فإن مصر قلب العالم، أم الدنيا ومركزها:

مركز الدنيا جميعا ... منذ أدوار وأزمن

إن هذا التأسيس الفكرى لنهوض مصر فى التاريخ الحديث قد مهد الطريق لنشوء نقد أدبى عربى حديث، ثقافى شامل.

وتأسيس فنى

يتعامل الناقد الأدبى مع لغة النص، يقف عند أصواتها وتركيباتها وهيئاتها وتشكيلاتها، لينتهى إلى تحديد موقف الشاعر أو الكاتب من واقعه ورؤيته العالمه وأسئلته حول كونه، فالأدب فن لغوى، بيد أن اللغة أوسع من أن تكون أداة

تشكيل ضرب من ضروب النشاط الإنسانى، إنما هى الظاهرة الإنسانية الأولى التى تحقق بها بشرية البشر، بها يتصلون ويتواصلون ويتعارفون، بها ينادون ويجيبون ويصيحون ويهتفون ويهزجون وينشدون ويغنون ويرجعون، وبها يخطون ويكتبون ويقرأون ويدونون، وهي الحافظ الأمين لموروثات أسلافهم، والحامل الموثق لاتفاقاتهم ومعاهداتهم بخير أن هذه اللغة ذات البعد المعيشى الراهن والتاريخى العتيق تتبدى فى الأدب على نحو مخصوص، إنها الاستخدام الوحيد للغة الذى ينتقل بها من التقريرى إلى التصويرى ومن الأصلى إلى المجازى .. الأدب كيفية لغوية خاصة، فالمبدع يتعامل مع اللغة العادية بكيفية غير عادية، إن تنظيم الكلمات فى النص الأدبى يقوم فى النص على الوعى بالتناظر والتناغم والتناسب والإيقاع، وعلى الوعى بوجوهها الأخرى من تنافر ونشوز وتناقض،. يسيطر إيقاع العمل الفنى قبل تشكيله على المبدع، ويسيطر المبدع على الكلمات ليشكل بها هذا العمل، إن المبدع موجه بإيقاع مسيطر يطلب تشكيله، وعمل المبدع أن يلبى، بأن يخضع الكلمات لمطالب هذا التشكيل.

ولم يكن أولئك الأعلام الثلاثة من الجيل الرائد الأول - وأحاد غيرهم من جيلهم معهم وحولهم - مفكرين وعلماء فقط، بل كانوا مبدعين كذلك. وكانوا قد تربوا فى بيئة إبداعية ميتة، إنما كنت طاقتها الإبداعية قدخدمت فى القرون السابقة على النهوض، ولم يصطنعوا القطيعة مع بيئتهم الخامدة، إنما اصطنعوا -فعل أصحاب الريادة والفكر المسئول - التواصل بتجديد هذه البيئة ودفع طاقتها الإبداعية إلى التوهج من جديد: أثرت النهضة الوطنية فى طرائق التعبير الأدبى. ومن الطبيعى أن تكون الثورة على الأنماط الأدبية الباهتة جزءا لاينفصل من الثورة التى عمت جميع مناحى الحياة الحديثة، فلا عجب إذا رأينا أن الذين قادوا مصر إلى التحرر السياسى هم الذين رادوا النهضة الأدبية فيها فحرروا فكرها الأدبى من قيود وأغلال كانت تبهظه.

ورأس المجددين رفاعة الطهطاوى الذى أوغل فى التراث العربى الإسلامى، واتصل اتصالا حسنا بالثقافة الحديثة خلال اللغة الفرنسية، حرر رفاعة: التحفة المكتبية فى النحو. وحرر شرح لامية العرب، وساعده على عمله فى تجديد العربية اهتمامه الكبير بالصحافة والنشر، بل إنه التفت إلى أمر ذى خطر عظيم وهو الترجمة، عن التركية والفرنسية أساسا، فأنشأ سنة ١٨٣٥ مدرسة الألسن لتخريج المترجمين ورأس قلم الترجمة مع أول فرقة تخرجت فى المدرسة، وهنا دقيقة من دقائق التاريخ يلزم الوقوف عندها: مصر قلب العالم، جغرافيا، وتاريخيا، ولاتتحقق هذه المقولة إلا بترجمة ماينتجه العالم. وقد قال أحمد لطفى السيد فجر القرن العشرين: قامت نهضتنا الأولى - يقصد الازدهارة العباسية

- إلا بالترجمة، ودعا إلى وزارة للترجمة وقال محمد مندور منتصف القرن: لن يفلح عملنا ولا دورنا في العالم إلا بوزارة للترجمة، والحق أن عمل رفاعة الطهطاوى كان قريبا من هذه الدعوات، ويعنينا هاهنا أن اشتغال الطهطاوى - بثقافته القديمة الحديثة - بالترجمة والتأليف والصحافة قد كان دافعا للعربية إلى تجديد جوهرى، ومن آيات هذا التجديد أن الطهطاوى يقيم الأواصر بين أداة الأدب، اللغة، وأدوات الفنون الأخرى: .... وأما الفنون فإنها تنقسم إلى: فنون عقلية، وإلى فنون عملية: فالفنون العقلية مايكثر قربها من العلوم مثل علم الفصاحة والبلاغة وعلم النحو والمنطق والشعر والرسم والنحاتة والموسيقى، فإن هذه فنون عقلية لأنها تحتاج إلى قواعد علمية (تخليص الإبريز ٣٧١)، بل إن الطهطاوى يطرق - في المستوى الأدبى للغة - بين المستوى المعيشى التاريخى والمستوى الإبداعى الخالق: ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتاب العلوم منظوما، والنظم هو أن يفصح الإنسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى، وهو يحتاج زيادة عن الوزن إلى رقة العبارات، وقوة الأسباب الداعية لنظمه (نفسه ٣٧٥). ونظم الشعر غير خاص بلغة العرب فإن كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم شعرها، نعم فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها في لغة العرب وحصره في البحور الستة عشر المستعملة هو الخصوص اللغة العربية، ومعرفة فن النظم لاتكفى في نظم الشعر بل لابد أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة، وإلا كان نفسه باردا وشعره غير مقبول (٣٧٧ نفسه). فبمعنى البلاغة عندهم مايقبله الطبع (٣٨٣ نفسه).

أما حسين المرصفى، صاحب «الكلم الثمان» الذى وقفنا عنده في التأسيس الفكرى، فله في التجديد اللغوى والأدبى: الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، كان المرصفى لغويا بلاغيا مبدعا جهيرا، نحل في كتابه الكبير القوانين والمقررات الصرفية والنحوية والعروضية والبلاغية، واعتمد في هذا على الأصول والأمهات، بخاصة كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ومقدمة ابن خلدون، واحتشد لعمله بحافظة نشطة واعية استوعبت الخوالد من الإبداعات العربية جدد اللغة بتخليصها مما لاينفع في الاستخدام، وجدد البلاغة بتخليصها من التفصيلات الجمة والحواشي والتقرير التى تعكر على الاتصال الصحيح وتعطل التذوق الحر. ولاتزال الوسيلة حية فاعلة إلى يوم الناس هذا، نعتمدها ونرجع إليها ونوجه طلابنا إلى مطالعتها، وكان محمود سامى البارودى لاصبر لديه على القواعد والمقررات بخاصة قواعد العروض، فلما تعلم على المرصفى وأخذ عنه، طابت نفسه، وتوهجت قواه الخالقة، فصار غير مدافع: رائد الشعر العربى

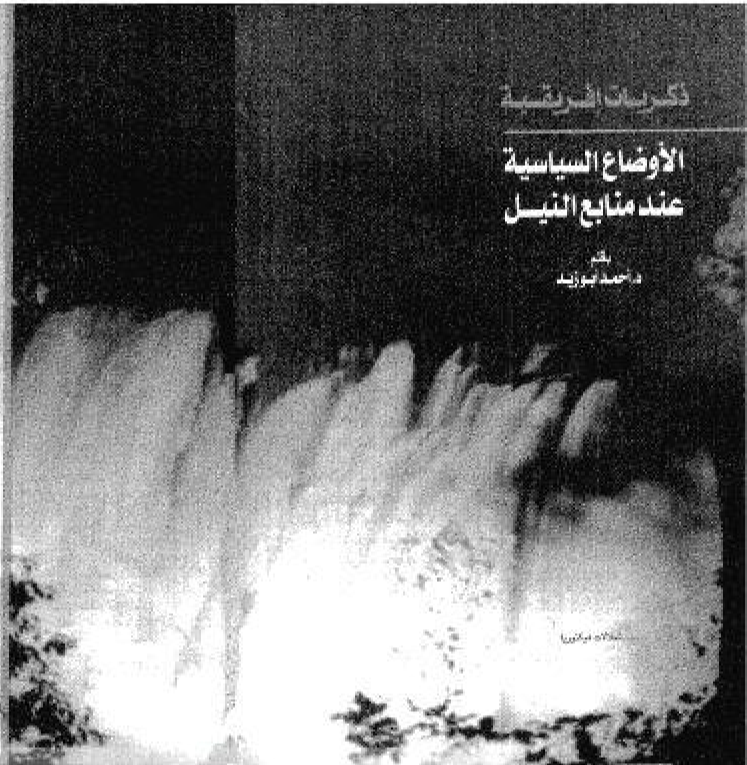
الحديث، ليأتي بعده شوقي ليصير شاعر العصر الحديث.

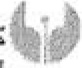
وأما محمد عبده فقد كان بعيد الأثر في النهضة المصرية - والعربية والإسلامية - بكل مناحيها السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية والثقافية، في الثقافة اتصلت قضية الإصلاح الأدبي واللغوي عنده بقضية الإصلاح الديني الذي قاده وبشر به، فقد رأى أن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم وأن المحافظة عليها وتنقيتها خدمة للقرآن نفسه، ولهذا جعل من همة المساهمة في النهضة الأدبية والعمل على تقويم الأساليب وإصلاحها وتجديد أساليب الكتابة عن طريق تقديم النموذج الجيد من كتابته وكتابة تلاميذه والقضاء على الضعف الذي ورثته اللغة في عصور الانحطاط مع تخليص الكتابة من القيود والسجع المتكلف وإرسال الكلام مطلقا مبينا عما يقصده الكاتب في يسر ووضوح. وكانت خطته في الإصلاح اللغوي والأدبي أن بدأ بإصلاح أسلوبه ليضع أمام الكاتبين من معاصريه النماذج الحية لينهجوا نهجها، ولم تقتصر جهود محمد عبده في تطوير النثر العربي في مصر على الكتابة في الصحف والمجلات ووضع النماذج أمام الكاتبين، بل إنه أنشأ سنة ١٩٠٠ جمعية (إحياء الكتب العربية) فنشرت كتاب (المخصص) لابن سيده وغيره من أصول العربية كما وكل إلى سيد المرصفي تدريس الأدب بالأزهر فنهض بتدريس أمهات كتب الأدب العربي مثل كتاب (الكامل) للمبرد و(ديوان الحماسة) لأبي تمام، وكان لهذه الدروس الأدبية أثرها في النهضة الأدبية فجر القرن العشرين، كما حقق محمد عبده جزءاً من مذهبه في إصلاح الأدب واللغة أيام نفيه في بيروت فنهض بتدريس الإنشاء في المدرسة السلطانية، وهناك نشر (مقامات بديع الزمان)، و(نهج البلاغة)، وبعد عودته إلى مصر نهض بتدريس البلاغة العربية في مصادرها المشرقة فقرأ على تلاميذه كتابي (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) للإمام عبدالقاهر وسعى في نشرها ليكونا نموذجين للمحتذين.

وقد تتلمذ معظم الأدباء والشعراء المصريين في النصف الأول من القرن العشرين على محمد عبده بطريق مباشر أو غير مباشر، فقد اتصل به إبراهيم اللقاني وإبراهيم المويلحي وابنه محمد وحفني ناصف وأحمد فتحي زغلول وأحمد تيمور ومصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى عبدالرازق وعلي عبدالرازق وحافظ إبراهيم وغيرهم كثيرون.

وقد وضح الآن - مما سلف - أن عمل الجيل الأول من رواد النهضة - من الشيوخ الأزهريين - قد كان مرحلة تاريخية لازمة لتأسيس بنية ثقافية حديثة، ولنشوء نقد أدبي عربي حديث. ■

في النصف الأول من ستينات القرن الماضي كانت معظم الدول الأفريقية جنوبي الصحراء قد نالت استقلالها وتحررت من الاستعمار الغربي وبدأت تخطو خطواتها الأولى نحو إبراز هويتها الأفريقية الأصيلة من خلال العودة إلى تاريخها القديم وإحياء تراثها وتقاليدها وقيمها القديمة التي عمل الاستعمار على طمسها وإزالتها تماما من ذاكرة الأجيال المتتالية من الأفارقة مستعينا في ذلك بنشر المسيحية من خلال الإرساليات والكنائس والمبشرين وكذلك بنشر مقررات التعليم الغربي في المدارس التي كانت تستخدم اللغات الأجنبية في التدريس على حساب اللغات الوطنية. وقد أدى الحكم الاستعماري الذي كان يقوم على استغلال الموارد الطبيعية في المستعمرات لصالح الدول الاستعمارية مع الحرص على أن يحتل الحكام والموظفون الأوربيون الذين جاءوا للعمل في هذه المستعمرات مكانة أعلى وأرقى بكثير من الأفارقة أصحاب البلاد الأصليين.





كما عمل المستعمرون الأوربيون الذين تملكوا المزارع الواسعة أو احتكروا لأنفسهم النشاط التجارى والصناعي على إبعاد الأفريقيين عن كل الأعمال التى تتطلب مهارات معينة وبذلك ظل هؤلاء السكان الأصليون يحتلون أدنى المراكز الاجتماعية والاقتصادية بحيث كان يعلوهم فى المكانة الملونون والآسيويون وفوق هؤلاء وهؤلاء المستعمرون الأوربيون البيض من إنجليز وفرنسيين وبرتغاليين وغيرهم، وبطبيعة الحال وتبعا لفلسفة الحكم الاستعمارى القائم على استغلال الشعوب والمجتمعات الخاضعة للاستعمار لم يكن المستعمرون الغربيون يعطون اهتماما كبيرا لتنمية تلك المجتمعات إلا فى الحدود التى تخدم مصالحهم هم الخاصة كما لم يأخذوا فى الاعتبار مسألة تقديم الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية إلا فى أضيق الحدود، وظهرت التفرقة العنصرية فى كل أنحاء أفريقيا جنوبى الصحراء وليس فقط فى جنوب أفريقيا، وكان شعور الأفارقة بفداحة الظلم المفروض عليهم من المستعمرين البيض بداية للتنمر والتمرد والعصيان الذى بدأت منه شرارة العنف ضد هؤلاء البيض، واتخذ العنف فى كثير من الأحيان شكلا منظما أوقع كثيرا من الخسائر فى صفوف المستعمرين الأوربيين وكانت حركة الماو ماو التى بدأت بين قبائل الكيكيو بزعامة الزعيم السياسى الكينى جومو كنياتا أهم هذه الحركات وأخطرها خاصة وأن كنياتا نفسه كان على درجة كبيرة من العلم والثقافة كما كان يفهم تماما العقلية البريطانية، إذ كان قد تلقى تعليمه فى جامعة لندن ودرس الأنثربولوجيا على أيدى أحد كبار العلماء البارزين فى ذلك الفرع المهم من فروع المعرفة المتعلقة بدراسة الشعوب (البدائية) وهو برونيسلاف مالينوفسكي. واستغل كنياتا معرفته بافريقيا القبلية وخبرته عن الانسان البريطانى ودراسته للأنثروبولوجيا فى إدارة حركة الماو ماو بكفاءة نادرة أجبرت الانجليز فى آخر الأمر على الرحيل ومنح كينيا استقلالها السياسي . وما فعله كنياتا فى كينيا فعله زعماء آخرون فى بقية أنحاء القارة السوداء وسجل التاريخ أسماء الكثيرين منهم . وقد استلهمت هذه الثورات التجربة المصرية بقيادة عبدالناصر الذى أفلح هو أيضا فى إخراج الانجليز من مصر وكان رجال السياسة فى أفريقيا السوداء فى الستينات من القرن الماضى يعترفون بذلك صراحة وعقد بعضهم مثل نكروما فى غانا أواصر صداقة قوية مع الزعيم المصرى كمؤشر على وحدة الطريق الذى تسير فيه الدولتان

وفى النصف الأول من ستينات القرن الماضى أيضا وافقت جامعة الإسكندرية على إعارتى خبيرا أنثربولوجيا لمنظمة العمل الدولية – أو مكتب العمل الدولى وهو الإسم الأكثر شهرة – فى جنيف وكان يشغل منصب نائب رئيس تلك المنظمة حينذاك أحد كبار العلماء المصريين وهو المرحوم الدكتور عباس عمار الذى كان يشغل منصب أحد أعضاء هيئة التدريس فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة القاهرة قبل أن يتولى إحدى الوزارات أيام جمال عبدالناصر حتى اختلف معه فأبعده عبدالناصر عن مصر لكى يتولى ذلك المنصب الرفيع فى

تلك المنظمة الدولية المهمة وكان ذلك كسبا كبيرا لمصر بغير شك، فقد كان عباس عمار من أفضل الشخصيات التي يمكن أن تمثل وطنها في المحافل الدولية ويحمل أعباء الوظيفة/ الرسالة بكفاءة نادرة .

الأوضاع السياسية والاقتصادية

في مكتب العمل الدولي أرسلني عباس عمار إلى أفريقيا لكي أرصد على الواقع الأوضاع السياسية والاقتصادية في عدد من المجتمعات الحديثة العهد بالاستقلال وأتعرف إمكانات تنفيذ بعض مشروعات التنمية التي تعتمد على حسن استغلال الموارد الطبيعية الغنية التي لم يحسن الاستعمار تطويرها لصالح الأهالي وكذلك تقدير كفاءة وقدرة الأيدي العاملة الوطنية على إدارة مثل هذه المشروعات ونوع التدريب والتأهيل الذي يمكن للمنظمة الدولية تقديمه لهم حتى يتولوا بأنفسهم الإشراف على تلك المشروعات التي كان يشترط أن تكون نابعة من رغبة الأهالي أنفسهم وفي ضوء اقتراحاتهم . وشملت الدراسة الميدانية مناطق قبلية في يوغنده وكينيا وتنجانيقا (تنزانيا) في شرق القارة ثم مناطق الأزاندي في جنوب السودان وبعض المناطق في نيجيريا وسيراليوني في غرب القارة مع زيارات أخرى سريعة نسبيا في بعض الدول الأخرى. وكان المد الثوري لا يزال مسيطرا على هذه المجتمعات مع الرغبة الصادقة في الارتقاء بالأوطان هو السمة الغالبة والعامل الذي قام بتوحيد القبائل العديدة أو على الأقل التقريب بينها بحيث تناست أحقادها القديمة ولو مؤقتا، وبدلا من أن تتناحر هذه القبائل بعضها مع بعض كما كان الحال دائما وهو الوضع الذي كان الاستعمار يعمل على استمراره كوسيلة لترسيخ أقدامه اتجهت عداوات القبائل نحو المستعمرين الإنجليز ونحو الوافدين الآسيويين وارتفعت الأصوات بضرورة التخلص منهم سواء أكان هؤلاء المستعمرون (السابقون) الذين ظلوا مقيمين بعد الاستقلال يشغلون مناصب إدارية في الحكومة الوطنية أم كانوا من أصحاب المزارع الكبيرة، كما ارتفعت الأصوات أيضا بطرد الآسيويين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم (طبقة) أعلى من الأفارقة وكانوا يتشبهون في حياتهم بالانجليز دون أن يقبلهم المجتمع الأبيض الاستعماري أعضاء فيه وبذلك كانوا يشغلون (منزلة بين المنزلتين) إن صح التعبير، فقد كانوا يرفضون الانتماء إلى الأفارقة السود بينما كان الأوروبيون البيض يرفضون اندماجهم في مجتمعهم الاستعلائي المترفع. وبذلك ظهرت التفرقة العنصرية بأجلى مظاهرها مع اختلاف في الترتيب فقد أصبح الأفارقة السود هم الذين يرفضون البيض والملونين على السواء ويتعالون - أو يحاولون التعالي - ويعملون على إيذاء مشاعرهم وإشعارهم طيلة الوقت بأنهم دخلاء غير مرغوب فيهم . وأفلحوا في ذلك إلى حد كبير جدا حيث (تأفرقت) الوظائف والمناصب الرسمية في مختلف الإدارات ، وهاجر الآسيويون إلى بريطانيا - المجتمع الأم - باعتبارهم ينتمون إلى الكومنولث وغرقت بريطانيا في مئات الآلاف من هؤلاء المهاجرين الذين يؤلفون الآن نسبة لا بأس بها من السكان هناك .

في يوغنده

في يوغنده التي أحببتها من كل قلبي مثلما أحببت إقامتي الطويلة في فندق بسيط ولكنه فسيح ومريح للغاية على شاطئ بحيرة فيكتوريا الرائعة المهيبة، حدثت لي حادثة طريفة مع وزير الموارد الطبيعية والمياه في ذلك الوقت . وكان الوزير شابا رقيقا ومهذبا في مثل سني كما كان قد أمضى بعض السنوات في جامعة كيمبردج البريطانية ، وحين عرف

أنني تخرجت في جامعة أكسفورد قام بيننا نوع من الألفة التي كان يشوبها شئ مما يسميه الأنثربولوجيون (علاقات المزاح). فالعلاقات التقليدية بين أكسفورد وكيمبردج مزيج من الغيرة والتعالي والمحبة والتقدير التي تعبر كلها عن نفسها في (التريقة) المتبادلة. وفي أثناء اللقاء أفاض الوزير في حماس شديد في الحديث عن أنهم في يوغنده يؤمنون بمبدأ أفريقيا للأفريقيين وأن يوغنده مفتوحة لكل الأفارقة بغير استثناء وأن الحكومة على استعداد أن تمنح أي مساحة من الأرض لأي أفريقي يأتي إليها للإقامة مادام يزرعها لصالح البلد . وهنا سألته في خبث: «سيدي الوزير أو على الأصح Mr. Minister، إنني مصري كما تعرف، ومصر بلد أفريقي وأنت نفسك قلت منذ قليل إن أفريقيا تدين باستقلالها لمصر إلى حد كبير. فهل إذا تقاعدت أنا الآن من عملي وأتيت للإقامة في يوغنده التي أحببتها بالفعل، فهل تعطونني قطعة أرض أقيم عليها وأتولى زراعتها؟» وقال الوزير ضاحكا: «كلا بالطبع . لأن لون بشرتك أبيض بكثير مما نستطيع أن نتحمله» وكانت هذه إجابة لها دلالتها ، فالعنصرية القائمة على اختلاف اللون ظلت تحكم أفريقيا بعد الاستقلال وإن اختلفت الأدوار .

نظام طبقات العمر

ولم تكن تلك البحوث الميدانية التي قمت بها بتكليف من مكتب العمل الدولي هي بداية اهتمامي بالمجتمعات الأفريقية جنوبي الصحراء. فقد سبق لي أن تناولت في إحدى الرسالتين اللتين تقدمت بهما لجامعة أكسفورد في الخمسينات موضوعا طريفا مميزا للتنظيم القبلي في مجتمعات شرق القارة وهو ما يعرف باسم (نظام طبقات العمر) . وبمقتضى ذلك النظام يتم تقسيم المجتمع الأفريقي رأسيا ليس بحسب التفاوت الاقتصادي وإنما بحسب التفاوت في السن، بحيث إن كل فئة من الأفراد الذين ينتمون إلى فئة عمرية واحدة تقدر بخمسة عشر عاما يؤلفون طبقة واحدة متماسكة ينتمي أعضاؤها لمختلف الجماعات القبلية ويتولون وظيفة اجتماعية واحدة داخل البناء الاجتماعي . فطبقة العمر التي تتراوح أعمار أعضائها ما بين ١٥ - ٣٠ سنة مثلا تؤلف طبقة المحاربين الأبطال الذين يدافعون عن الوطن ، وحين تظهر طبقة جديدة تشغل وظيفة الحرب والبطولة تحل محل الطبقة القائمة التي يتم تصعيدها إلى طبقة الساسة الحكام الذين يتولون إدارة شئون المجتمع، حتى إذا ما تكونت طبقة ثالثة تتم زحزحة الطبقتين السابقتين بحيث تشغل أقدم الطبقات مرتبة الشيوخ وتقوم بالوظائف الدينية ومن تحتها الساسة والأبطال وهكذا . وهذا طبعا هو التنظيم التقليدي المتوارث الذي حل محله الآن نظام الدولة الحديثة ، وأصبح ذلك التنظيم جزءا من التراث.

إلا أن هذه الدراسة (الأكسفوردية) كانت تعتمد على المراجع وبذلك فهي تختلف اختلافا جذريا عن البحوث الميدانية التي قمت بها في الستينات وأتاحت لي فرصة الاتصال المباشر بالناس كبشر وآدميين وليس كمعلومات على الورق . أي أن هذه البحوث الميدانية وضعتني من الناحية العملية وجها لوجه مع تلك القبائل التي كتبت عنها رسالتي الصغرى في أكسفورد وأتاحت لي فرصة تعرف الروح الأفريقية وجوانب كثيرة من

الثقافة الأفريقية التقليدية والثقافة (النخبوية) أيضا المتمثلة فى كتابات عدد من الروائيين والقصاصين والفنانين التشكيليين الذين لم أكن أعرف عنهم سوى القليل. وقد أثار ذلك الاحتكاك المباشر رغبة قوية فى ذهنى لمواصلة الاهتمام بأفريقيا السوداء بشكل عام وبالمجتمعات الافريقية التى تقع فى حوض النيل أو تتصل به بشكل أو بآخر والتى لها اتصال وثيق بمصر سواء فى الماضى أو الحاضر. ولا يزال هذا الاهتمام قائما حتى الآن ويظهر من حين لآخر فيما أكتبه حول أفريقيا والتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تطرأ عليها ودورها فى المجتمع الدولى وما تتعرض له من أزمات بفعل تطاحنها الداخلى بين القبائل أو بفعل القوى الخارجية التى لا تزال تطمع فى ثرواتها الهائلة.

عند منابع النهر

وكما ذكرت فى أكثر من مكان وفى أكثر من مناسبة أن بعض هذه الرحلات الدراسية أو البحثية التى تمت بها بتكليف من مكتب العمل الدولى حملتنى بوجه خاص إلى منابع نهر النيل وروافده الكبرى وأدرت على الطبيعة دور ذلك النهر العظيم فى الاتصال والتواصل الثقافى بين مصر وبقية دول حوض النيل، كما رأيت رأى العين - وليس سامع كمن رأى كما يقول المثل - مدى قوة وفاعلية الجهود المصرية فى تطويع النهر وتطبيعه والتحكم فيه من خلال المشروعات التى أسهم فيها الرى المصرى، وهى جهود تحتاج لمن يدرسها دراسة أكاديمية متعمقة من ناحية ولكنها تحتاج من الناحية الأخرى إلى كتابات إبداعية تصدر عن معايشة النهر وتتبع رحلته والنظر إليها وإلى تاريخ النهر بعين الإنسان الأديب الفنان المبدع الذى يتجاوب مع الموضوع الذى يهتم به ويعيش فيه ويتغلغل إلى أعماقه. كذلك لمست عن قرب الامكانات الهائلة المتاحة لتنمية وتطوير تلك المجتمعات بقبائلها وشعوبها التى لا يزال جزء كبير منها يعيش داخل الغابات فى الوقت الذى يتم فيه تنفيذ كثير من المشروعات لتوليد الكهرباء وإدارة المصانع وتحويل بعض القرى الصغيرة إلى مراكز صناعية هامة كما هو الحال مثلا فى قرية جنجا التى تحولت إلى مدينة صناعية تستقبل مئات العمال من كل أنحاء شرق افريقيا وليس فقط من يوغنده.

ولم تنقطع صلتى بأفريقيا، أو بالأحرى بشئون افريقيا بانقطاع عملى فى مكتب العمل الدولى وعودتى إلى الجامعة. فلا تزال المجتمعات الافريقية القبلية التى تحولت إلى دول حديثة تلعب دورا فعالا على الساحة الدولية تشغل ذهنى ومازلت أهتم بالتنظيمات والمنظمات السياسية والاقتصادية والثقافية الافريقية التى تشغل جانبا كبيرا من اهتمامى وقد اهتممت فى وقت من الأوقات وبشكل مكثف باتحاد الجامعات الافريقية الذى مثلت جامعة الاسكندرية فى اجتماعاته لبعض الوقت والذى لا يبدو أن له أثرا فعالا على الأقل بالقدر الذى كان ينبغى الوصول إليه - فى مجالات تبادل الاساتذة والطلاب والتقريب من المناهج والقيام بدراسات وبحوث ميدانية مشتركة فى مختلف دول القارة حتى تقوم العلاقات السياسية بين مصر والدول الافريقية على أسس قوية من فهم الثقافات المختلفة والاحترام المتبادل. وكما كنت أقول دائما فى مثل هذه المناسبات قد يمكن لمعهد الدراسات الافريقية التابع لجامعة القاهرة أن يقوم بدور بارز فى ذلك وإن كانت توجد دائما مشكلة تمويل مثل هذه البحوث. ولكن الأمل والرجاء لايزالان قائمين وعسى أن تحقق الأجيال الحالية والناشئة ما عجزت الأجيال السابقة عن تحقيقه من أجل الصالح المشترك. ■

نــص تشكـيـلـى

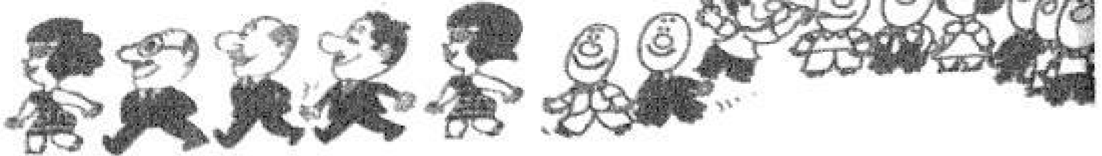
حجازي

الصعلوك المناضل

بقلم
عــدلى رزق الـلــه

يحلولى أن أذكر القارىء بأن ما أكتبه لا يمثل نقدا من قريب أو بعيد فأنا لا أملك أدوات الناقد أو قدرات المؤرخ، لكن يحلو لى أن أطلق على ما أكتبه بأنه مسمى «النص التشكيلى» . لا فضل لى فى تلك التسمية التى ترجع إلى كتابات سمير رافع، ورمسيس يونان، وأحاول الآن أن استكمل ما قد قدماه لنا وأن أحنى قامتى لهما ولإبداعهما ولما حاولا إنجازه لنا فى حقل الكتابة التشكيلية .

تعود معرفتى لحجازى يوم كنت طالبا فى كلية الفنون الجميلة فى نهاية الخمسينيات لتصافح عيونى رسوما خجلى تتميز فيما تميزت بالتواضع «وبالمصرية» الواضحة . حين أذكر كلمة «مصرية» هنا لابد لنا للعودة إلى تأصيل ظاهرة تمصير الصحافة والذى قام على أكتاف رائدنا - رغم إنكاره لحمل لقب الرائد - بيكار والذى اتفق معى على تسميته بـ«الأولانى» . ما أعظم تواضع هذا الرائد والذى رسم لنا أول غلاف مصرى - كتاب الأيام لطه حسين - بعد أن كان الأرمن العاملين بالحفر فى المطابع هم من يقومون بزخرفة الأغلفة ذاك الوقت . وعلى أكتاف بيكار إزدانت صحافة الأخبار برسوم مصرية بريشة بيكار الرومانسية الطابع . كانت الفلاحة الأنيقة الرشيقة هى طابع رسوم بيكار ،





والتى تذكرنا برومانسية محلاها عيشة الفلاحة لمحمد عبدالوهاب .

كانت «دار الهلال» ، «ودار أخبار اليوم» هما بالإضافة إلى دار المعارف تقوم على أعمالهم الصحفية «الصورة» أساسا . كانت تلك الدور لا تتورع عن النقل عن الصحافة الغربية دون ذكر للأصول. وقد عاصرت فيما بعد تلك التجربة بل وعانيت منها الأمرين كما يقولون حين عملت بمجلتي «سمير» وميكى». كانت الأصول الغربية للمسلسلات، تنقل سواء من كتاب السيناريو مع تمصير الأسماء، وكذلك يفعل الرسامون ، فالكشافة فى الغرب يلبسون الأزرق وفى بلادنا يلبسون الكاكى، وهكذا نفعلها دون خجل أو إحساس بالعيب!!.

وهذا ما كان يحدث فى الصحافة ولا ننسى لحلمى التونى، وهو أحد من ساعدوا فى إعطاء نكهة مصرية حقيقية للأغلفة حين نشر بمجلة الكواكب أصلا لرسام أجنبى، كان رسام آخر ينقل نفس الرسم ويمهره بتوقيعه ، وكانت فضيحة ولا كل الفضائح .

لم يكن هدفنا الفضح حين ذكرنا ذلك، ولكن فقط لإعطاء صورة لما كان يحدث، وماتغير بفضل تغير شامل حدث مع صدور مجلة صباح الخير ، مجلة العقول الشابة والقلوب المتحررة، أو العكس وهو صحيح أيضا . فماذا حدث لكى يولد رسامنا حجازى بفضل هذا المناخ الذى كان له فضل كبير على نمو مواهبه

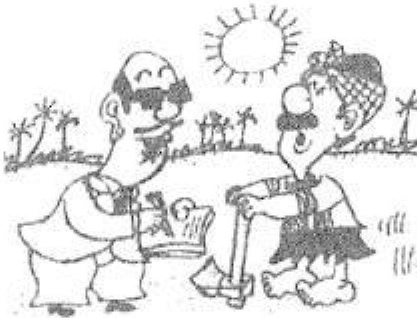


واستخدام كل إمكانياته فى رسوم نضحت بالمصرية والأصالة .

مدرسة صباح الخير

كانت دار روزاليوسف تتميزبأنها دار أقامتها ممثلة المسرح الأولى السيدة روزاليوسف ولهذا دلالة سواء لأنها امرأة تصدت مبكرا لاقتحام مجال الصحافة، ولأنها فنانة فى نفس الوقت لها جموح وطموح الفنان. تربى احسان عبدالقدوس فى أحضانها كأم ، وكصاحبة دار نشر، وكان له فضل فى إعطاء الموهوب حقا أحمد بهاء الدين رئاسة تحرير صباح الخير وهو شاب طموح واعد وحالم بالتغيير. رافق حسن فؤاد الموهوب الآخر والحالم أيضا رحلة قيادة سفينة تخلق مجلة تعتمد أساسا على شباب موهوبين فى بداية أعمارهم يملكون الحماس، والحماس والحلم . كانت الثورة قد ولدت ، وولد معها الطموح فى خلق وإظهار معدن مصرى أصيل . واجتمع فريق يحضرنى الآن ومن الذاكرة - ما قد ينسينى أسماء البعض لكن ضعف الذاكرة سيكون سبب التقصير ، لا سوء القصد - أسماء فريق الرسامين صلاح جاهين ، جمال كامل، هبة عنايت ، جورج البهجورى، ايهاب شاكر ، ناجى شاكر ، ممدوح عمار، الليثى ، وحجازى صاحبنا فى هذه المقالة . ومن الكتاب كامل زهيرى ، فتحى غانم ، صلاح عبدالصبور، أحمد عبدالمعطى حجازى، يوسف ادريس وآخرين بالطبع ويقود السفينة بالتقاسم أحمد بهاء الدين وحسن فؤاد يعاونه أبو العينين .

بماذا تميزت تلك الجماعة؟!



افندى - لكن يتشتكوا من ابه هنا ؟
فلاح - بنشتكى منكم !

١ - إعطاء الرسام ولأول مرة وضعا يوازى المؤلف من حيث الأهمية، ومثال ذلك تلك الصفحات الملونة التى كان يتقاسمها الرسام والكاتب ،يذهبان معا إلى «المولد» أو مجتمع الصيادين ، أو.. أو.. كل مظاهر الحياة المصرية ، ومن الواقع فقد أصبح الإنسان العادي - المصرى - ولأول مرة هو بطل الأحداث ، وفاعل يستحق التقدير . من يستطيع فعلها غير جمال كامل وممدوح عمار ، وحسن الذى مات فى ريعان الشباب.

٢ - أصبحت الواقعية ، وتقديم الثقافة الجادة حلم كل الشباب، فمن ينسى أيام لها تاريخ لبهاء الدين.

٣ - الشعر ، وتقديمه ، وهنا تذكرنى حكاية حكاها لنا صلاح جاهين يوم كتب أول رباعية، وقدمها إلى بهاء قائلا له: هذا ما فعلت ولا أعرف هل يصلح للنشر!؟

يقرأ بهاء ويعجب ، ويقول له أعطني واحدة كل أسبوع من يرسم هذا العمل؟ رغم وجود الجوقة التي ذكرتها من الأسماء، يختار بهاء النحات الشاب آدم حنين ، وكأنه يعرف مسبقا ما سيحدث ، يقرأ صلاح جاهين الرباعية ، ليرسم صموئيل حنين وقد كان اسمه كذلك آنذاك، ويبتدع ما سيصبح «اكليشيه» لكثير من فاقدي الموهبة حين يرسمون الشعر بعد ذلك وحتى الآن .

٤ - الإثارة ، وتقديم الأنوثة المحترمة - والتي لا تعتمد على صور فوتوغرافية - وكلنا يذكر غلاف صلاح جاهين ، والفتاة بالبيجامة ممسكة التليفون في يدها، ويحضرني الرسم الآن كأنني أراه بعيني . نموذج للفتاة المتحررة من القيود ، وغير المبتذلة في آن واحد.

هذه لمسات قدمتها فقط لإيضاح المناخ الذي جاء إليه حجازي الأصغر في العمر بسنوات قلائل .

من هو حجازي؟

شاب تربى في طنطا ، وحلم بدراسة الفن لكنه آثر أن يرحم والده سائق القطار من معاناة رأى هو دون موافقة الأسرة أن يبدأ طريقه في العمل مبكرا . جاء إلى القاهرة مع زميل عمره «اسحق قلادة» والحالم معه بتغيير الواقع إلى الأفضل . إفترشا حجرة لا أثاث بها وحاولا العمل في القاهرة، وواجهتهم الصعوبات الحقة. الحلم الكبير بعد قراءات تنبض بالثورة ويذكر منها حجازي دائما ميله إلى الشعر - وخاصة حفظه لأشعار بيرم التونسي ، وأذكر أن حجازي أسر لي يوما بأنه تصور بأنه

— بيشتغل في مصر بالعمله الصعبه ، مرتبه ١٢ جنيه مصري

— يا سلام .. و لما الاتناشر جنيه مصري يتحولوا للعمله الفلاحي يطلعوا كام بريزه ؟!

سيكتب الشعر هو نفسه .

يرسم حجازي في مجلات رسوما تعبيرية لم أرها بنفسي لكني قرأت عنها في الكتاب الجارما والذي لابد لنا من توجيه الشكر إلى محمد بغدادي الذي جمعها لنا وقام بكتابة تقديم للجزء الأول ، ووعدنا بأجزاء أخرى أرجو لها الصدور قريبا

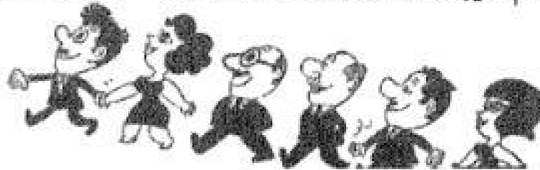
صافحتني أول رسوم لحجازي في نهاية الخمسينات على صفحات روزاليوسف . كان جورج يتألق برسم الشخصيات ، وكان رجائي ونيس يرسم رسوما تعبيرية جريئة تتميز بالحالات النفسية المعقدة وتصاحب كتابات مصطفى محمود التقدمية آنذاك. كان



«إعدام تجار المخدرات»!

جمال كامل وريشته الأنيقة تنقل لوحات من واقع حياة الناس. كان جاهين يرسم النكتة بتعليق لازع. وكان حجازى يضع خطواته الأولى ، ويتلمس طريقه بحذر وخفر، وذكاء وبساطة تصل إلى حد التلقائية. رويدا رويدا تترسخ قدماه وتنحاز فرشاته إلى فقراء هذا الوطن . هل انحازت أم هى عبرت عنه كواحد منه لم تغيره سعة الرزق أبدا، وكنت شاهدا على ذلك بعد أن تلامسنا وتزاملنا ، لكن هذا سيأتى ذكره فيما بعد .

إن أنسى لن أنسى يوم رسم حجازى أسبوعيا مع مقالات إحسان عبدالقدوس تحت عنوان «اختصر نصف طعامك» ، رسم لأولاد فقراء يفترشون الأرض بجوار سلة قمامة ، أمامهم عظام سمكة لا لحم بها والتعليق «اختصر نصف طعامك» ، نقد ولا أقسى من ذلك ، يواجه ويناقض





مقالة رئيس التحرير، المتفهم والواعي والقادر على أن ينشر لرسام يحس بالفقراء إلى هذا الحد. إنه واحد منهم . وأذكر بأن رسوم نبيل تاج هي الرسوم الوحيدة التي تحضر إلى الذهن وتستطيع هي الأخرى التعاطف مع الفقراء بنفس القدر .

المرأة في رسوم حجازى

المرأة المصرية، الأم، الأخت، تأكل المحشي، قوامها ممتلئ دائما تنز وتنضح بالأنوثة وخفة الدم . يقلده كثير من الرسامين ، تخيلت بعضهم يصل بهم الأمر إلى «شف» رسومه ، لكن لم يملك أحد في رسومه بضاضة ، وأنوثة المرأة المصرية كما فعلها حجازى .

هم الانسان العادي، وبداية الإحساس مع الثورة التي حلمنا بأنها قد تحقق له أحلامه، وتتكون طبقة مستقلة وعى سياسى مبكر وريشة حجازى تسخر ، وتلذع ، ببسوط لا يرحم ، وبوعي يصل إلى تلقائية رجل الشارع . فنان بسيط مؤمن ، لا تنازعه نفسه أبدا على مطامع وطموح الفنان ، من مجد أو ما شابه . تصوروا معي أن علاقة حجازى برسومه ظلت أبدا تنتهى فور النشر ، ولم يحتفظ بل ورفض الاحتفاظ بأصول رسومه ، حين عرضت عليه ذلك رفض رغم إيماني بل وتمسكى بعكس موقفه مع فهمي لموقفه المتسق مع اختياره.



- يا سلام على الهدوء في الريف .
- ياسلام على الهدوء في البندر .

أذكر لكم رسمين لم ينشرا له وأثر خطبة السادات والتى تحدث فيها عن ديمقراطية بالأنياب ، وفرم أعدائه. كان رئيس التحرير آنذاك لويس جريس ، وكان للصحافة مكتب مباحثى يراجع الرسوم ويوافق على النشر أو لا يوافق .

رسم حجازى مفرمة كبيرة على قاعدة تمثال كانت موجودة بميدان التحرير - ازيلت بعد ذلك - وقال معلقا أخيرا وجدنا

تمثالا يليق بالقاعدة .

ثم رسم حجازى رجلا يعود إلى بيته ليجد امرأته وقد طبخت له «كفتة» ، ويعلق الرجل ساخرا وقائلا: إيه وليه اللى عاجبك اليومين دول فى الكفتة ، كل يوم كل يوم كفتة: رفض لويس إرسال الرسوم معترضا ، أرسلهما حجازى وعرف لويس ورحم حجازى بارسال ساع يعود بالرسوم قبل أن تصل!!

هكذا رسم حجازى كأفضل ما يكون رسام يناضل إجتماعيا وسياسيا بريشته . من الفقراء ولهم. لم تغره السلطة ولا الجاه ولا المال ولا المجد . رفض الأنوار والأضواء، وظل يرسم ويرسم ويناضل إلى أن توقف يوما عندما أحس بأن لا معنى ولا مغزى ولا عائد مما فعل . رسم الآلاف المؤلفة من الرسوم . كان يصحو مبكرا . يصل إلى روزاليوسف فى الخامسة يرسم حتى التاسعة أو العاشرة. عندما يبدأ الآخرون فى الحضور ينصرف إلى حياة يستهلك فيها نفسه وكأنه يعاقبها . يأكل ويعاقر ويشرب وكأنه يحاول الانتهاء من الحياة، رغم عشقه لها . لم يرضخ لتكوين أسرة، ولم ينجب أطفالا . كان يخاف أن يقترب منه أحد إلى الصداقة، وأسر إلى بذلك خوفا من اقترابى منه، ومانعا لى فى نفس الوقت .

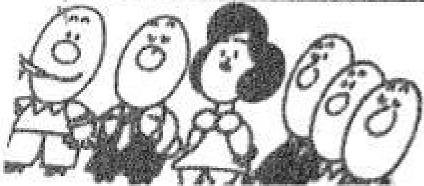
حجازى رسام الأطفال

يبدو أن للنجاح رجالا وللفشل أيضا رجال. كما أن النجاح يحتاج إلى جهد فالفشل أيضا يحتاج إلى جهد . ولأن حجازى رجل عرف النجاح حين رسم للكبار، عرف النجاح أيضا حين رسم للأطفال . كنا فى الستينيات وكان أحمد بهاء الدين قد انتقل إلى دار الهلال يطورها ويطور مجلاتها . بدءا بالمصور وكان هو رئيس تحريرها . ثم طور الكواكب واختار لها رجاء النقاش رئيسا للتحرير ، وكذلك مجلة الهلال وأصبح كامل زهيرى رئيس تحريرها. جاء الدور على مجلة سمير ، وفى حوار دار معى فقد كنت نشطا فى محاولة تغيير ما ينشر للأطفال ، أخذت على عاتقى استقطاب كتاب أمثال فؤاد حداد، الابنودى ، سيد حجاب، سيد خميس، سمير عبدالباقى، يحيى الطاهر وزين العابدين فؤاد. قال أحمد بهاء الدين مشكلة مجلات الأطفال مشكلة رسامين ليس لدينا فى مصر رسامون للأطفال .

أجبته لما لا تجرب ما فعلته بصباح الخير، بل لديك الآن جماعة تخلقت وأصبح لها كيانها غير حالها عندما بدأتم، لما لا تدعو رسامى روزاليوسف للمساهمة بالاضافة إلى اللباد والذى كان قد ساهم فى الرسم لمجلة سندباد، ثم ساهم مع مصطفى رمزى فى انشاء مجلة كروان ، ورسم فى سمير حين حملت رسومه على يدى بعد أن ترك كروان . وفعلها أحمد بهاء الدين، دعا الجميع، وجاءوا ليزغرد قلبى، وحاول الجميع وأذكر فيهم ناجى، الليثى، ومن دار الهلال بهجت ، ثم اللباد وآخرون لا أذكر الآن أسماءهم . ورسم حجازى ليصبح الأكثر من الجميع ارتباطا، بل ونجاحا أيضا حيث قدم واحدة من أنجح ما رسم للأولاد من مسلسلات تحت اسم تنابلة الصبيان . سيناريو وفكرة مصطفى رمزى، ورسوم حجازى، ثم طورها حجازى ليكتب لها



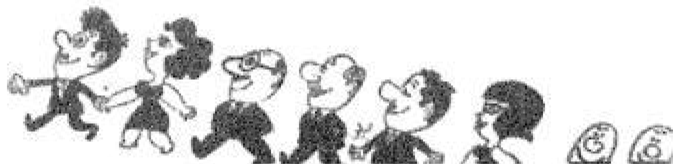
عارفه إنها لجنة امتحان، بس ابني
كان سهران طول الليل يذاكر، ونزل
من غير ما يفطر ولا يشرب شاي!




الخليج العربى
لا .. الخليج الفارسى
لا .. الخليج الأمريكى


مشكله صعبه: انسحاب إسرائيل من الأرض العربيه «المحتله».


مشكله أصعب: انسحاب أمريكا من الأرض العربيه «الغير محتله»!




إن العالم المتحضر يطالب إسرائيل بتحسين الظروف المعيشية للفلسطينيين ..
المجموعة الأوروبية
حتى تتمكن من احتلال أراضيهم مدة أطول!

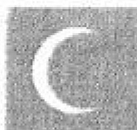

الخلافات العربية
الاحتلال الصهيوني



السيناريو أيضا ، ويحملها بكل أفكاره الاجتماعية، بل والسياسية ، ومازلت أعتبر تنابلة، الصبيان من أهم وأنجح مسلسلات الأولاد المصرية . اندمج حجازى فى الرسم للأطفال، وساهم برسومه فى دار الفتى فى فترتيها الأولى وكان المشرف الفنى والمدير اللباد ، ثم فى الفترة الثانية وكان لى شرف الاشراف والادارة . ثم قدم حجازى لمجلة «ماجد» جهدا كبيرا بل وتفرغ لها أو كاد فى السنوات الأخيرة .

كسب حجازى مالا كثيرا، بعثره دائما، لم يهو أن يغير من وضعه الاجتماعى مثلما فعل الكثيرون من حوله . رفض النجاح والنجومية وقد كان أهلا لهما ، ورأى فيما يحدث زيفا وضلالا . فنان بل وإنسان صعلوك بالمعنى الجميل للكلمة . عاش أفكاره كأنقى ما يكون الرسام الملتزم وحينما أحس بعدم الجدوى، صفى وجوده فى القاهرة . ورحل إلى طنطا ، منها جاء وإليها عاد .

إليك تحياتنا من القاهرة ، ينتابنى خاطر بأن حجازى قد لا يهتم بقراءة ماكتبته عنه ، لكننى كتبت لكم أولا وأخيرا ، بحب يستحقه منى ، بعد أن تلقيت أعمال حجازى كمتلق ، وبعد أن عاشرته كزميل أحترمه وأقدره ، وأتمنى أن تعرفوه مثلما عرفته . وأعترف بأننى أشعر فى نهاية هذا النص بأننى لم أكتب عن حجازى كما يستحق . ■



كتاب الهلال

قصة حياة حركة الثقافة والمجتمع

د. يحيى الجمل

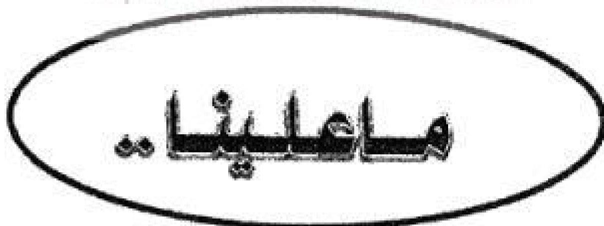
يصدر ٥ يناير ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



١٠٥





بقلم
زياد عبد الفتاح

تصدر ١٥ يناير ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



التكوين العلمى للإمبراطورية الأمريكية

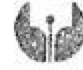
مجتمعات طاردة ومجتمعات حاضنة

بقلم
د. هانى الحسينى

في العقد الثالث من القرن العشرين كانت أوروبا تبدو فى أوج مجدها برلين.. لندن باريس.. تلمع بالثروة وتزدهر بالفكر والعلم والثقافة، حتى ينظر لها كحواضر العالم بل إن مدنا أصغر مثل براج أو فيينا أو بودابست كانت تزخر بحياة ثقافية ونشاط علمى على أعلى مستوى

بعد ذلك بعشرين عاما كانت أوروبا محطمة ممزقة عواصمها العظيمة تعانى من الجوع والخراب، وجامعاتها ومعاهدها خاوية أو تكاد، بينما كان الجانب الآخر من الأطلنطى يبرق لا ببريق الثروة فحسب بل بالإنجازات العلمية الكبرى والإبداع فى جميع المجالات

بالطبع يرجع دمار أوروبا أساسا للحرب لكن لم يعد تألق الولايات المتحدة؟‹ وما سبب انتصارها فى الحرب‹ ،واستمرار هذا الانتصار لوقتنا هذا حتى تحول إلى ما يشبه سيطرة كونية هل بنيت الهيمنة الأمريكية على كفاءة رجال الأعمال والقادة العسكريين فقط ؟ وجيوش العلماء والمبدعين فى جميع الحقول تلك الجيوش التى مكنت الولايات المتحدة من فرض سيادتها العلمية والفكرية على العالم منذ بداية الستينيات، من أين أتت؟ وكيف تكونت؟



ربما نستطيع أن نرى أحد روافد هذا الدفق الحضارى من خلال مسيرة حياة «جون فون نيومان» ديسمبر ١٩٠٣ - فبراير ١٩٥٧) عالم الرياضيات الأمريكى المجرى الأصل، والذى يحتفل المجتمع العلمى العالمى هذه الأيام بمرور مائة عام على ميلاده .

وتثير مسيرة حياة «فون نيومان» العديد من الأفكار، حول دور العالم والتكنولوجيا (وبالذات الرياضيات!!) فى تكوين الإمبراطورية الأمريكية، وكذلك حول استقطاب الولايات المتحدة الأمريكية للكفاءات العلمية من جميع أرجاء العالم وأهمية هذا الاستقطاب فى تحقيق التفوق الأمريكى .

كما تشهد مسيرة حياته فى تصورى على بعض الظواهر التى كان لها عظيم الأثر فى تقدم الولايات المتحدة وكذلك فى مسيرة الحضارة بوجه عام، أجل مسيرة الحضارة بوجه عام. إذ لعلنا نتفق على أن بعض أهم الاختراعات والاكتشافات وأعظمها أثرا (بالنفع أو بالضرر) قد تمت فى الولايات المتحدة الأمريكية بين الأربعينات والستينات من القرن العشرين: من القنبلة الذرية الإنشطارية إلى الحاسب الإلكترونى وحتى بدء دراسة البيولوجيا الجزيئية وتركيب الدنا (DNA) .

إثنان من هذه الأعمال ساهما فيها بدور مهم .

ولد «جون فون نيومان» فى بودابست بالمجر فى ديسمبر ١٩٠٣ لعائلة موسرة، وتلقى تعليمه الأولى فى المدينة نفسها حتى سن الثامنة عشر، حين بدأ يتنقل بين بودابست وزيوريخ : إذ كان يدرس فى الوقت نفسه الهندسة الكيميائية فى زيوريخ والرياضيات ببودابست فى عام ١٩٢٦ حصل فون نيومان على شهادة الهندسة الكيميائية من زيوريخ ودكتوراه فى الرياضيات من جامعة بودابست، فى تلك الأثناء كان فون نيومان (وهو مازال فى أوائل العشرينات من عمره) من علماء الرياضيات المعروفين، إذ نشر العديد من الأبحاث فى أسس الرياضيات ونظرية الأعداد ..

كانت بودابست آنذاك فى مرحلة تحول من العاصمة الثانية الإمبراطورية كبرى (الإمبراطورية النمساوية المجرية) إلى عاصمة دولة صغيرة نسبيا وبينما كانت مثل مدن كثيرة فى وسط أوروبا تذخر بالموهوبين فى شتى المجالات فقد كان يخيم عليها جوكارثى عقب الحرب العالمية الأولى وتمزق الإمبراطورية أصبح الشعور الغالب لدى الشباب الموهوبين واللامعين هو ضرورة الهجرة، فقبل «فون نيومان» وظيفة بجامعة برلين والتى بقى فيها من ١٩٢٧ حتى ١٩٢٩ ثم انتقل إلى هامبورج فى العام التالى، شهدت هذه الفترة نشوء نظرية فيزيائية مهمة وهى ميكانيكا الكم التى بدأها الألمانى فيرنر هايزنبرج والنمساوى إيروين شرودنجر فى ١٩٢٥ إنشغل «فون نيومان» بوضع الأسس الرياضية لهذه النظرية الفيزيائية جاعلاً منها علما رياضيا بالأساس،وأصبحت صياغته لهذه الأسس هى الصياغة الدارجة المستخدمة إلى وقتنا هذا، وجعل هذا العمل العلمى من «فون نيومان» أحد علماء الرياضيات المرموقين فى العالم .

فى ١٩٣٠ ذهب فون نيومان إلى

الولايات المتحدة كاستاذ زائر فى جامعة برينستون لمدة عام، لكنه بقى بها حتى نهاية حياته فى ١٩٥٧ .

خلال حياته القصيرة نسبيا بحث «فون نيومان» العديد من موضوعات الرياضيات وتطبيقاتها، وكانت له بصمات فى أغلبها، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب الرياضيات المتقدمة من ذكر لإسمه لكننا نود أن نلقى الضوء فى هذا المقال لا على عبقريته العلمية الفذةولا على حياته الذاخرة بالنشاط والعمل ولكن فقط على مساهمته فى بناء الإمبراطورية الإمريكية

الاقتصاد الرياضي

وزع «فون نيومان» اهتماماته العلمية بين العديد من الموضوعات فى الرياضيات وتطبيقاتها، وكان أحد هذه الموضوعات هو ابتكار ودراسة النماذج الرياضية فى الإقتصاد فى عام ١٩٣٧ وضع «فون نيومان» نموذجا رياضيا للإتزان الاقتصادى، مقيما لأول مرة أسسا رياضية دقيقة للموضوع ومفضلا أن تدخل الرياضيات كأداة صياغة وتدقيق للمفاهيم بدلا من الاستخدام الشائع لها كمجرد أداة كمية أو وسيلة حساب.لقى هذا العمل اهتماما كبيرا من المشتغلين بالاقتصاد الكمى ومنهم عالم مهاجر أخر هو الاقتصادى النمساوى أوسكار مورجنستيرن والذى قدم فى بداية الأربعينات إلى جامعة برينستون حيث كان «فون نيومان» كان مورجنستيرن مهتما بدراسة قوانين المنافسة الإقتصادية، وكان على دراية باهتمام «فون نيومان» بهذا الموضوع الذى نشر فيه بحثا عام ١٩٢٨ متناولا ما يسمى بنظرية الألعاب ..

تقوم نظرية الألعاب على اعتبار أن أى منافسة هى لعبة لها قواعد محددة كميا للمكسب والخسارة لكل من اللاعبين أو المتنافسين، وتبحث عن استرتيجية ملائمة لكل لاعب كى يقلل خسائرة لأقل حد أو يزيد مكاسبه لأكبر حد قبل دخول «فون نيومان» لهذا المجال كان علماء الرياضيات قد نجحوا فى دراسة الألعاب التى لها طرفان فقط وتكون بلا فائض أى أن كل ما يخسره طرف يكسبه الطرف الأخر فى ١٩٢٨ درس «فون نيومان» الألعاب التى لها ثلاثة أطراف، هنا ظهرت أهمية خلفية «فون نيومان» فى أسس الرياضيات التى مكنته من وضع صياغة دقيقة للموضوع حولته من مجموعة من الطرق المتناثرة إلى نظرية متكاملة .

استكمل مورجنستيرن مع «فون نيومان» هذه الدراسة فى كتابهما: نظرية الألعاب والسلوك .

الاقتصادى الذى نشر عام ١٩٤٤ يعتبر هذا الكتاب أحد الروافد الأساسية لما يسمى اليوم «بحوث العمليات» وهو فرع الرياضيات الذى يلعب دورا أساسيا فى علوم الاقتصاد والإدارة والذى مازالت الولايات المتحدة تحتل فيه موقع الصدارة، ويكفى أن نعلم أن الأمريكيين غنموا نصيب الأسد من جوائز نوبل فى الاقتصاد والتى غالبا ما منحت لعلماء الاقتصاد الرياضى أو القياسى .

مشروع مانهاتن

شارك «فون نيومان» فى مشروع مانهاتن، وهو المشروع الذى أنتج أول سلاح ذرى فى التاريخ. بدأ التفكير فى



السلاح الذرى مع بداية الحرب العالمية الثانية بمبادرة من مجموعة من العلماء على رأسهم الفيزيائى أوبنهايمر مستخدمين النفوذ المعنوى ل «البرت أنيشتين» فى إقناع القيادة الأمريكية لتوفير الدعم لهذا المشروع، بعد دخول الولايات المتحدة الحرب فى ١٩٤٢ أدركت الإدارة الأمريكية أهمية الفكرة واقتنعت بأهميتها فى كسب الحرب، فبدأت مشروعا عملاقا يهدف لصنع سلاح ذرى هو «مشروع مانهاتن» بدأ المشروع يأخذ شكلا واقعيا فى أواخر ١٩٤٣ بانشاء «معمل لوس الأموس الوطنى» فى صحراء نيومكسيكو ليجمع بضع عشرات من علماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات يعملون أساسا فى دراسة الإمكانيات العسكرية للتفاعلات النووية، ثم نجح فى انتاج أول قنبلة ذرية انشطارية فى أواخر عام ١٩٤٤ .

كان مشروع مانهاتن مشروعا عملاقاً بمعنى الكلمة، ولنر ما كتبه عنه عالم الرياضيات البولندى الأصل «ستانيسلاف أولام» دارت رؤوس العديد من الفيزيائيين - الذى كانوا بطبيعتهم من أصحاب الأبراج العاجية - لإدراكهم المفاجئ للأهمية العملية وأيضا العالمية والتاريخية لعملهم بهذا المشروع وأثر فيهم أيضا ضخامة الموارد المالية والمنشآت المعملية التى فاقت كل خبراتهم السابقة، ثم يصف الجو السائد فى المشروع وشعوره نحوه كانت لوس الاموس مكانا شابا ففى سن الثالثة والثلاثين كنت واحدا من الكبار سنا، وما أثر فى بالذات كانت الكفاءة العالية للشباب وتنوع تخصصاتهم، كان الوضع يشبه أن تجد نفسك أمام دائرة معارف، أغلب الشباب كانوا ذوى تكوين يغلب عليه العمق دون الاتساع بينما يمتلك الأكبر سنا - وأغلبهم أوروبى النشأة - معرفة أوسع نطاقا.. كما أثرت فى الموهبة الأمريكية المعروفة فى التعاون وروح الفريق المتميزين (فون نيومان، بور فيرمى، فينمان أوبنهايمر تيللر سيجرى ...) غير عادية، فلم يحدث أن شهد تاريخ العلم مثل هذا التركز».

كان «فون نيومان» من أوائل من أختيروا للعمل بمشروع مانهاتن، أهلته لذلك اهتماماته بالفيزياء وبالطرق الحسابية، وربما أيضا موقفه المساند لدور العلماء فى المجهود الحربى فأفاد المشروع بتذليل العديد من العقبات فى فهم التفاعلات النووية بين عدد كبير من الجسيمات وطور طرقا حسابية جديدة لهذه المسائل ، كان من بين العلماء المشاركين العديد من العلماء المهاجرين من أوروبا هانس بيته الألمانى وستانيسلاف أولام البولندى و«إدوارد تيللر المجرى إنريكو فيرمى و«أميليو سيجرى الإيطاليان، ونيلس بور الدانمركى.

ربما نشعر الآن بعدم ارتياح تجاه الأسلحة النووية وكذلك تجاه الاستخدامات العسكرية للعلم بوجه عام، لكن يبدو أن هذه المشاعر لم تكن سائدة فى ذلك الحين، فقد شارك العديد من كبار العلماء فى مشاريع عسكرية فى دولهم والقليل منهم أبدى فيها بعد ما

يدل على تأنيب الضمير في العديد من الحالات يمكن تفسير هذه المشاركة بالحماسة الوطنية وقت الحرب، لكن كيف يسرى هذا التفسير على العلماء المهاجرين من أوروبا للولايات المتحدة الأمريكية؟ كان العديد من هؤلاء العلماء - ربما أغلبهم - من اليهود الذين هاجروا هربا من الاضطهاد النازى موقف هؤلاء مفهوم نوعا، لكن «فون نيومان» رغم انحداره من عائلة يهودية لم يبد تدينا ولا ارتباطا خاصا بيهوديته بل إنه قد عمد مسيحيا عند زواجه، كما أنه كما رأينا قد هاجر أساسا لتحسين وضعه المهني وقبل الحكم النازى أعتقد أن أحد دوافع هذه المشاركة الواسعة للعلماء في المجهود الحربى كان البحث عن دور أكبر للعلم في المجتمع، وهو دور كان هامشيا لحد ما قبل بدء الثورة التكنولوجية جاءت الحرب إذن لتعطى لهؤلاء العلماء الأفذاذ المهمشين فرصة لأداء دور أساسي يقدره المجتمع، ولاشك في أنهم قد استغلوا الفرصة فأصبح للبرامج العلمية منذ ذلك الحين أهمية سياسية واجتماعية كبرى في الولايات المتحدة الأمريكية، وتتابعت المشاريع العملاقة على نمط مشروع مانهاتن، فأنشئت لجنة الطاقة الذرية ثم وكالة الفضاء الأمريكية (NASA) ثم مشروع حرب الكواكب حتى مشروع الجينوم البشرى .

يلفت النظر أيضا تعامل القيادة السياسية الأمريكية مع العلماء المهاجرين، إذ لم تشكك في ولائهم ودوافعهم وإنما حرصت على توظيفهم والاستفادة من قدراتهم فحققت بذلك تفوقا حاسما على أعدائها الألمان واليابانيين

الحاسب الإلكترونى

كان «فون نيومان» ذو قدرة حسابية يضرب بها المثل وذاكرة تفوق الخيال، فيحكى مثلا أنه كان في صغره يحفظ صفحات كاملة من دليل التليفونات بمجرد قراءتها ويسلى زوار أبيه بالإجابة عن أسئلة عن الدليل لكن عمل «فون نيومان» في مشروع مانهاتن أثار اهتمامه بمشكلة صعوبة الحسابات العددية، فأصبح من أشد المتحمسين لصنع حاسب الكترونى .

وضع «فون نيومان» عقليته الرياضية في خدمة هذاالمشروع فبدأ باقتراح أن تخزن خطوات برامج الحساب داخل ذاكرة الحاسب أو على وسيط متصل بها (كالقرص الصلب حاليا) ووضع التصميم المنطقى للحاسب الإلكترونى، كان نتاج هذه المشاركة صناعة أول حاسب إلكترونى في التاريخ عام ١٩٤٧، فلعلنا لا نبالغ أن الحاسب الإلكترونى (عماد التفوق الأمريكى في العصر الحالى) هو نتاج أفكار «فون نيومان» والتقدم في تكنولوجيا التصغير .

الخلاصة

يتضح لنامن هذا العرض السريع لبعض المنجزات العلمية ل «جون فون نيومان» أن الولايات المتحدة الأمريكية قد استقبلت منذ ثلاثينات القرن العشرين أفذاذ العلماء من القارة الأوروبية العجوز فوفرت لهم الظروف الملائمة للانطلاق وحرية البحث العلمى والتمويل الذى لم يسبق له مثيل، وأعطوها في المقابل مجدا علميا وتفوقا تكنولوجيا مطلقا، والأكيد أن الأمور مازالت تسير في هذا الاتجاه كما تشهد قصة «أحمد زويل». ■

لغويات

نون الوقاية

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

يقول أمير الشعراء :
مر من بعدك ما روعنى
أترى ياحلو بعدى روعك؟

ورد الفعل روع فى هذا البيت مرتين. فى الأولى لحقته نون زائدة، ولم تلحقه فى الثانية .

هذه النون هى التى يطلق عليها النحاة: «نون الوقاية» ، وهى تلحق الفعل عندما تتصل به ياء المتكلم، لأن هذه الياء تقتضى ايقاعا كسر ما قبلها. فإذا كان ما قبلها متحركا بضمة أو فتحة لزم تغييرهما الى الكسر، تقول : معى قلم ثمين، فاذا أضفت القلم الى ياء المتكلم قلت : قلمى ثمين، فحلت الكسرة محل الضم فى قلم لكى تناسب الياء .

وتقول : أهديت صديقى كتابا، فإذا أضفت كتاب الى ياء المتكلم قلت : أهديت صديقى كتابى، فتحولت حركة الفتح الى الكسر لتناسب الياء، وكلتا الكلمتين، القلم والكتاب، اسم ، ولذلك قبلتا الكسر عند اضافتهما الى ياء المتكلم، لأن الجر من خصائص الأسماء .

ولكن الفعل لا يجر، ومن ثم يستحيل أن تتصل به ياء المتكلم مباشرة، لأنها تقتضى كسر ما قبلها، والفعل لا يقبل الكسر، ومن هنا تخلصنا (عضويا فى البدء على التأكيد) من هذا الموقف ، بوضع نون بين الفعل وياء المتكلم، فتكسر النون بدلا من الفعل الذى لا يقبل الكسر، وسماها النحاة، «نون الوقاية» ، لأنها وقت الفعل من الكسر الذى لا يقبله.

أما الحروف فيختلف موقفها اذا اتصلت بياء المتكلم :

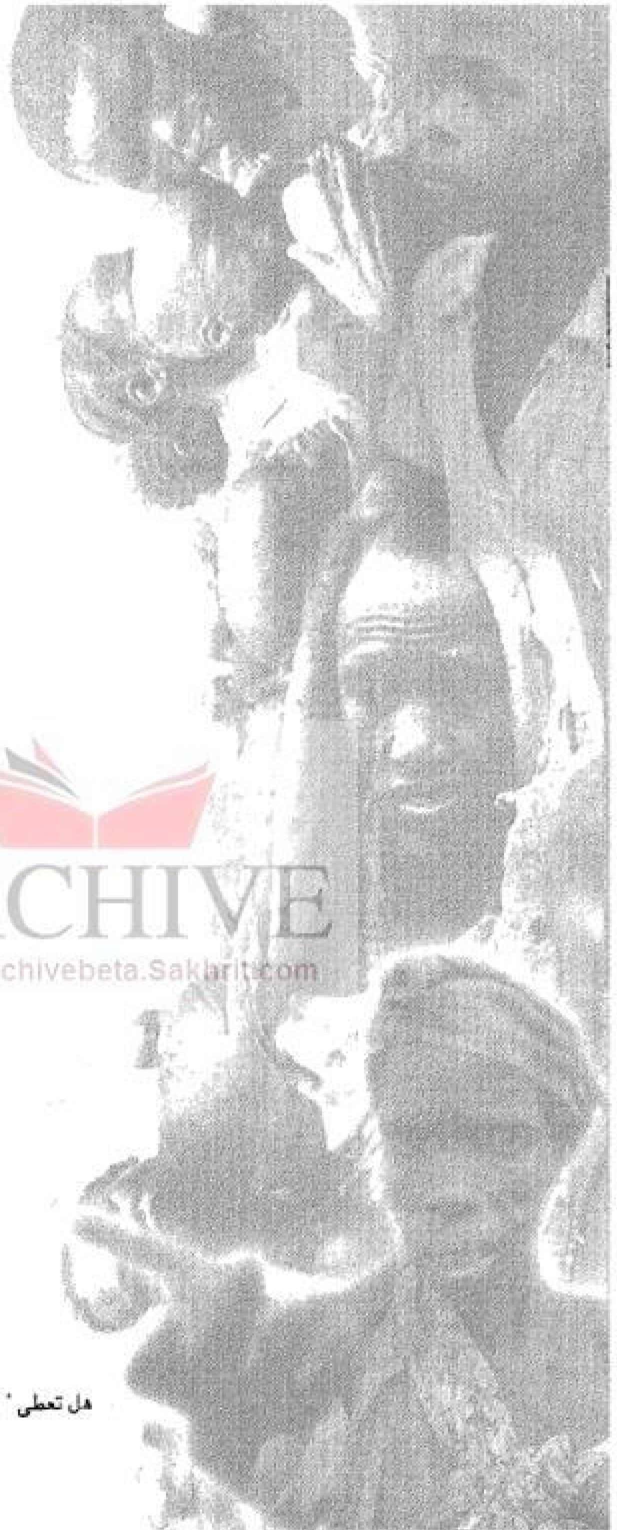
قسم لا يقبل النون اطلاقا وهو الباء واللام، تقول : بى شوق الى السفر، ولى مئة كتاب .

وقسم يتحتم وجودها معه، وهو : من وعن : تقول : منى وعنى .

وقسم يجوز فيه الأمران وهو : إن ، وكأن ، ولكن ، ولعل ، وليت تقول : انى وإننى، وكأنى وكأننى، ولكنى ولكننى، ولعلى ولعلنى، وليتى وليتنى».

فإذا سبق ياء المتكلم ألف أو سكون تحتم فتحها مثل : مناى - مبتغاى - الى - علىّ - بنىّ .

■



تأثيرات العولمة على التمتع بحقوق الإنسان

بقلم
د. منير زهران

هل تعطى " العولمة " الفقراء الحق في الحياة؟

إزاء ما أثارته العولمة من ضجة فى مختلف الأوساط السياسية والاقتصادية والاعلامية حول منافع ومساوىء العولمة، ومنها «الذى جمع مالا وعدده»، وما تمخض عنها من مغارم ومن تحمل عبئها: فقد ساد اتجاه فى المحافل الدولية على اعطاء الأمم المتحدة - باعتبارها أكثر المحافل ديموقراطية وتمثيلاً - الدور المحورى فى اعادة صياغة أسس العولة حتى تكون أكثر إنصافاً، كى تمتد مكاسبها لتعم الجميع، بحيث تصل إلى كافة الشعوب، وأن تشمل جميع القطاعات داخل كل بلد، وإزالة الغبن وتعويض الخسائر التى تحتملها الأطراف الأضعف والأكثر فقدا على حساب مدى تمتعها بحقوق الإنسان الفردية والجماعية.

وإذا كانت العولمة إحدى مظاهر التطور التاريخي والتكنولوجي، خاصة فى مجالات تكنولوجيا النقل والاتصالات والمعلومات، لما لها من آثار بعيدة المدى فى مختلف الميادين، التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، فإن تنامى روابط الاعتماد المتبادل على المستوى الدولى بين مختلف الأطراف الفاعلة أدت إلى انعكاسات إيجابية وسلبية على مئات الملايين من البشر.

لهذا فإن من حق جميع الشعوب أن تشارك - من خلال حكوماتها وممثليها - فى عملية اتخاذ القرار إزاء أى ترتيبات لوضع قواعد جديدة للعولمة أو تعديل القائم منها لتنظيم وإدارة العمليات ذات الأثر العالمى - أى ذات الأثر العابر للحدود والقارات - أى العولمة وذلك وفقاً لمبدأ تقاسم المسئولية على المستوى الدولى.

العولمة وحقوق الإنسان

وللتأكد من تصحيح المسار بعد أن أدرك المجتمع الدولى أن للعولمة تحديات أثرت بدرجات متفاوتة على قطاعات عريضة من المجتمعات - وبصفة خاصة القطاعات الأكثر فقراً بمن فيهم محدودى الدخل من الرجال والنساء والأطفال والمسنين ومدى تمتعهم بحقوق الإنسان، فقد اتفقت على عدة قرارات من الجمعية العامة للأمم المتحدة وخاصة القرارات ١٦٥/٥٦ و٢٠٥/٥٧ الصادران فى ١٩ ديسمبر ٢٠٠١ و١٨ ديسمبر ٢٠٠٢ على التوالى، وقرار لجنة حقوق الإنسان رقم ٢٣/٢٠٠٣ الصادر فى ٢٢ أبريل ٢٠٠٣، على ... أن العولمة ليست مجرد عملية اقتصادية، بل لها

أيضاً أبعاداً اجتماعية وسياسية وبيئية وثقافية وقانونية تؤثر فى التمتع الكامل بجميع حقوق الإنسان.

وتقاس انعكاسات العولمة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مختلف البلدان بمدى انفتاح اقتصادها، ومن تلك الانعكاسات مايؤثر على حقوق الإنسان سواء الفردية أو الجماعية. لذلك أعربت الجمعية العامة للأمم المتحدة عن قلقها ازاء الأثر السلبي للاضطرابات المالية الدولية على التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وعلى التمتع بجميع حقوق الإنسان، وعبرت عن القلق من تاثير العولمة على اتساع الفجوة فيما بين البلدان المتقدمة والنامية، وفى داخل كل بلد، الأمر الذى ساهم فى تزايد حدة الفقر، وأثر تأثيراً سلبياً على التمتع الكامل بجميع حقوق الإنسان، الفردية والجماعية ومنها الحق فى التنمية.

وهكذا جاء تأكيد الجمعية العامة للأمم المتحدة، ولجنة حقوق الإنسان، وهى إحدى اللجان الرئيسية المنبثقة عن المجلس الاقتصادى والاجتماعى، على الالتزام بتهيئة بيئة مواتية على الصعيدين الوطنى والدولى، تساعد على إعمال الحق فى التنمية والقضاء على الفقر بشتى الوسائل، ومنها الحكم الرشيد داخل كل بلد وعلى الصعيد الدولى، والشفافية فى النظم المالية والنقدية والتجارية، والالتزام بنظام تجارى ومالى متعدد الأطراف يكون مفتوحاً وعادلاً وقائماً على قواعد يمكن التنبؤ بها، وأن تكون إدارته منصفة وغير تمييزية، كما نبهت القرارات المشار إليها إلى تأثير التحول الهيكلى المصاحب لعملية العولمة على التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، أى حقوق الإنسان الفردية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بما فى ذلك الحق فى التنمية أى حقوق الإنسان الجماعية

كيفية إعمال الحق في التنمية في ظل العولمة

وكان من المفترض - من الناحية الاكاديمية، ووفقاً لأنصار العولمة والتحرير بوضعهما القائم، أن تصبح العولمة قوة دافعة تعمل لصالح جميع البلدان بحيث تعم فوائده جميع سكان المعمورة، إلا أنه من ناحية الواقع العملى فإن مكاسب العولمة ومغارمها ليست موزعة توزيعا عادلاً أو متساوياً، مع ماتعانيه الدول النامية من صعوبات وما تواجهه من تحديات تتفاوت فى حدتها ونسبتها وفقا لمستوى النمو الاقتصادى والاجتماعي فى تلك الدول، وهذا ما اعترفت به المؤتمرات العالمية المختلفة التى عقدت فى السنوات الأخيرة ومنها مؤتمر قمة الألفية للأمم المتحدة الذى عقد فى سبتمبر ٢٠٠٠، وما أشار إليه سكرتير عام الأمم المتحدة فى تقريره الأخير المعروض على الدورة الثامنة والخمسين للجمعية العامة (المستند ٣٢٣ الصادر فى ٢ سبتمبر ٢٠٠٣) والمعنون

«تنفيذ أهداف قمة الألفية» والذى دعا فيه إلى ضرورة أن تعم فوائد العولمة الجميع، (يراجع مقالنا فى عدد نوفمبر ٢٠٠٣ لمجلة الهلال).

لذلك كان هناك اتفاق فى المحافل الدولية والمؤتمرات العالمية التى عقدت منذ التسعينات على الحاجة إلى اعتماد سياسات وتدابير على الصعيد الدولى للوفاء باحتياجات الدول النامية، بحيث يتم صياغة تلك السياسات وتطبيق تلك التدابير بمشاركتها الكاملة حتى تتأكد مختلف الدول من أن تلك السياسات والتدابير سوف تعمل لصالحها وأن شعوبها لن تدفع ثمنا لها لايتفق مع ماتجنيه من فوائدها .

كما اتفق المجتمع الدولى من خلال المؤتمرات العالمية على الالتزام بإقامة نظم مالية ونقدية وتجارية دولية تتسم بالعدالة والشفافية والديموقراطية وعدم التميز، وتتمتع بالمصداقية بحيث تعمل لصالح الجميع بما فى ذلك الدول النامية ، إلا أن تلك الأهداف لم يتحقق منها إلا النذر القليل .

والمشكلة المحورية هى أن الدول المتقدمة تنتهج فى تعاملها مع العولمة نهجاً تمييزيا يستند إلى ازدواجية المعايير ، فغايتها هو تحقيق أكبر المكاسب مهما تحمل شركائها من الأطراف الأضعف من مغارم، ومع ذلك تحاول اقناع هؤلاء بأن قواعد العولمة فى صالحها ومثلهم في ذلك كالشعراء الذين .. «يقولون مالا يفعلون» ، وقد قال الله تعالى فى سورة الكهف «كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» صدق الله العظيم. فهم يدعون إلى انتهاج سياسات تتسم بالمغالاة فى التحرير وازالة القيود باعتبارها علاجا لجميع مشاكل دول العالم، الكبير منها والصغير، القوى والضعيف، ضمن نظرية الليبرالية الحديثة ، بينما تقوم الدول المتقدمة بضمان الحماية والدعم للقطاعات غير القادرة على المنافسة فيها مثل الزراعة وصناعة الصلب، وتضع القيود أمام الصادرات الرئيسية لغالبية البلدان النامية، ومنها خاصة المنتجات الزراعية والمنسوجات والمصنوعات القائمة على كثافة اليد العاملة، وتفرض القيود على انسياب التكنولوجيا المتقدمة لخدمة التنمية فى دول الجنوب وتثقل كاهلها بمشروطيات يصعب تحملها ضمن برامج الاصلاح الاقتصادى وماتقدمه من قروض واستثمارات وتخفيف عبء الديون.

كما ترفض الدول المتقدمة تطبيق نظرية الليبرالية الحديثة إزاء حركة الأشخاص الطبيعيين عبر الحدود لصالح انتقال اليد العاملة بحثاً عن فرص العمل على غرار ماتفرضه الدول المتقدمة من حرية انتقال رؤوس الأموال. ولم تحدث زيادة فى عدد الدوائر الاقتصادية الفاعلة مثل الشركات والبنوك على المستويين الداخلى والدولى، بل العكس كان صحيحا فقد ازداد تركيز الملكية عن طريق التحالفات بين الشركات والدمج

والحيازة عن طريق الشركة عبر القومية التابعة للدول المتقدمة، والتي يكون نصيب صغار المساهمين فيها - وخاصة من مواطني الدول النامية - ضئيلاً، ويغلب على الأمر أن هؤلاء ينعنون في نهاية المطاف ويتعرضون للغبن ازاء المنافسة - غير المتكافئة - التي تمارسها الشركات الكبرى التي تتمتع بتفوق تكنولوجي مع تعاظم نفوذها الاقتصادي.

وقد نجم عن عملية العولة الليبرالية تقلص في دور الدولة وفي قدرتها الاقتصادية والمالية على ترجمة «الحق في التنمية» على أرض الواقع، وتوفير الخدمات العامة في مجالات التعليم والصحة والضمان الاجتماعي، وهكذا تجرى خصخصة تلك الخدمات وتسويقها تجارياً، وهو ما أدى إلى عدم المساواة في التمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العديد من الدول النامية.

وتحت غطاء معاملة المثل وشعار المساواة في المنافسة رغم فوارق الثروة والكفاية - أي المساواة فيما بين غير المتساوين التي تدعو لها العولة الليبرالية الحديثة ضمن النظام الاقتصادي الدولي القائم - يجرى تعميق عدم المساواة بين الغني والفقير وبين الكبير والصغير ومن هنا يجرى إخضاع الدول النامية لهيمنة الدول المتقدمة وسيطرة شركاتها عبر القومية. وهكذا يصبح الحق في التنمية بعيد المنال، خاصة من تنصيل الدول المتقدمة من التزاماتها ازاء الدول النامية، وتناقص حجم المساعدات الرسمية للتنمية إلى الثلث أو أقل وابتعادها كثيراً عن هدف تخصيص ٠.٧٪ من الناتج القومي الاجمالي للدول المتقدمة كمساعدات وادعائها تطبيق نظرية التجارة الحرة خير بديل عن المساعدات» .. «TRADE NOT AID»

التدابير القسرية الانفرادية وانعكاساتها على التمتع بحقوق الانسان.

تتخذ بعض الدول المتقدمة - مثل الولايات المتحدة - تدابير اقتصادية قسرية انفرادية كعقوبات تفرضها ضد دول بعينها مثل حالات كوبا وإيران وليبيا وسوريا والسودان، والعراق قبل غزوها في مارس ٢٠٠٣. وتتجاوز آثار تلك التدابير حدود الدولة الاقليمية (التي تتخذ تلك التدابير) لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية. وتعتبر تلك التدابير انتهاكاً لأحكام ميثاق الأمم المتحدة، وخاصة المادة الثانية التي تنص - ضمن أحكام أخرى - على المساواة فيما بين الدول وعدم التمييز، كما تتعارض تلك التدابير على إعلان مبادىء القانون الدولي المتعلق بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول والصادر بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٦٢٥ (د - ٢٥) بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٧٠ الذي لايجيز لأي دولة أن تتخذ أو تستخدم التدابير الاقتصادية أو

السياسية لإكراه دولة أخرى على التنازل عن ممارسة حقوقها السيادية والحصول على مزايا من أي نوع. وتتعارض تلك التدابير القسرية الاقتصادية مع ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول الصادر عن الجمعية العامة بالقرار ٣٢٨١ (د. ٢٩) بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٧٤ ، الذى نص فى مادته ٣٢ على أنه ليس لأى دولة أن تستخدم أو تشجع على استخدام تدابير اقتصادية أو سياسية من أى نوع للضغط على دولة أخرى بقصد اجبارها على التبعية لها فى ممارسة حقوقها السيادية.

ويلزم التذكير بأن التدابير الانفرادية القسرية المشار إليها تؤثر سلباً على التمتع بحقوق الإنسان الفردية والجماعية ومنها خاصة الحق فى التنمية، كما تنعكس سلبياً على العلاقات الدولية والتجارة والاستثمار والتعاون الدولى.

ورغم القرارات العديدة الصادرة من الجمعية العامة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ولجنة حقوق الإنسان برفض بل وإدانة تلك الممارسات ، فلا زالت بعض الدول المتقدمة تمارس تلك التدابير القسرية الأحادية رغم ماتنطوى عليه من عقبات أمام التمتع الكامل بجميع حقوق الإنسان وانعكاساتها السلبية على النشاط الاقتصادى والاجتماعى على المستوى الوطنى بالنسبة للدولة المستهدفة باعاقة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، حيث تلتزم الشركات عبر القومية بمراعاة تلك التدابير فى تعاملاتها مع مختلف الدول الأمر الذى يعتبر عقبة إضافية أمام تنفيذ إعلان الحق فى التنمية ناهيك عن انتهاك الاعلان العالمى لحقوق الإنسان والعهدين الدوليين للحقوق المدنية والسياسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لذلك أدانت لجنة حقوق الإنسان من جديد - فى قرارها رقم ١٧/٢٠٠٣ الصادر بتاريخ ٢٤ إبريل ٢٠٠٣، «مواصلة تنفيذ بعض الدول تدابير من جانب واحد واستخدامها كأدوات للضغط سياسياً أو اقتصادياً على أى بلد ، ولا سيما البلدان النامية، يصعب منع تلك البلدان من ممارسة حقها فى أن تقرر - بمحض إرادتها - نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولما للتدابير القسرية المتخذة من جانب واحد من آثار سلبية على أعمال جميع حقوق الإنسان لشرائح عريضة من سكانها، بمن فيهم الأطفال والنساء والمسنون والمعوقون والمرضى

ومع ذلك فقد اعتمد الكونجرس الأمريكى فى أكتوبر ٢٠٠٣ قانوناً بفرض عقوبات وتدابير قسرية ضد سوريا - تحت ذرائع مختلفة نفتها سوريا . مثل هذه التدابير القسرية الانفرادية تعتبر إحدى مظاهر العولمة باقحام توجهات السياسة الوطنية لبعض الدول المتقدمة وفرضها على الدول الأخرى.

مواجهة تحديات العولمة وحماية حقوق الإنسان

ولمواجهة تحديات العولمة يلزم تضافر الجهود على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية، والتضامن والتنسيق فيما بين الدول النامية للحيلولة دون فرض قواعد جديدة للعولمة من خلال التفاوض حول أية ترتيبات أو اتفاقيات دولية جديدة ذات صبغة عالمية، ويلزم التركيز على إنهاء تهميش الدول النامية فى النظام الاقتصادى والتجارى الدولى وادماجها بالكامل فى ذلك النظام بتنفيذ الأحكام التى توفر معاملة خاصة ومغايرة لصالح الدول النامية ، وتعديل القواعد والأحكام التى تتضمنتها الاتفاقيات الدولية التى تسببت فى اجحاف وأضرار لصالح الدول النامية والتى أدت إلى تفاقم الفقر واتساع الفجوة فيما بين الدول المتقدمة والدول الفقيرة وتدهور حقوق الإنسان.

كما يلزم العمل الجماعى - من خلال المحافل الدولية المعنية، وخاصة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى والمنظمة العالمية للتجارة ، لإدارة العولمة على نحو ديموقراطى . ويأتى فى هذا الاطار إصلاح النظام المالى الدولى على نحو يؤدى إلى استقرار أسعار الصرف، ووضع حد للتقلبات التى تسببت فى أضرار وخيمة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى الدول النامية، ونشير بصفة خاصة للأزمات المالية التى تعرضت لها أندونيسيا والاكوادور ثم الأرجنتين وغيرها فى التسعينات وبداية القرن الحادى والعشرين والتى أدت إلى تخفيض قيمة عملات تلك الدول وزيادة مديونيتها الدولية . فإصلاح النظام المالى الدولى يعتبر ضرورة طالما نادت بها الدول النامية وصمت إزاؤها الدول المتقدمة الآذان، هذا الاصلاح ضرورى لاجتذاب تدفقات مالية تبث الاستقرار فى اقتصاد الدول النامية وتحد من مخاطر هروب رؤوس الأموال فى ظل تحرير حسابات رأس المال الذى فرضته مؤسستى بريتون وودز على العديد من الدول النامية ضمن خطط الاصلاح الاقتصادى.

كما يلزم أن تلتزم الدول المتقدمة - قولاً وعملاً - بالهدف المتفق عليه دولياً من تخصيص ٠.٧٪ من الناتج القومى الاجمالى كمساعدات رسمية للتنمية بعد أن انخفضت تلك المساعدات إلى أقل من ٥٠ مليار دولار بدلاً من ١٧٠ مليار دولار . هذا اضافة إلى تشجيع الاستثمار الأجنبى طويل الأجل بهدف زيادة الانتاج من أجل التصدير، حتى يمكن تحقيق الأهداف التنموية التى نصت عليه قمة الألفية للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ٢٠٠٠ . فإذا لم يتوفر التمويل اللازم لبلوغ تلك الأهداف فى الاطار الزمنى الذى حددته القمة، أى عام ٢٠١٥، فسوف تتحول تلك الأهداف إلى سراب، ويتفاقم وضع الفقر فى العالم ، ويتأثر سلباً التمتع بحقوق الإنسان الفردية والجماعية ومنها الحق فى التنمية.

وبالنسبة للنظام التجارى الدولى،

يلزم أن تسوده الديموقراطية فى اتخاذ القرار ، وتكف الدول المتقدمة عن فرض أجندتها على الدول النامية والتى تشكل مايزيد عن ثلثى الدول الأعضاء فى المنظمة العالمية للتجارة ، ولابد من مراعاة الأجندة التنموية للدول النامية فى النظام التجارى الدولى من خلال التنفيذ الكامل والأمين لجميع اتفاقيات وقرارات جولة أوروجواى. وتفعيل المعاملة الخاصة والمغايرة لصالح الدول النامية ، والغاء الدول المتقدمة للدعم وجميع الاجراءات الحمائية التى تعوق نفاذ منتجات الدول النامية للأسواق الدولية، وتعزيز القواعد التجارية المنصفة للدول النامية، ومنحها صوتاً أكثر فعالية فى اتخاذ القرارات المصيرية.

وفيما يتعلق بمكافحة الفساد وضمان الحكم الرشيد فلابد أن ينطبق ذلك على جميع الدول متقدمة ونامية، كما يجب أن ينطبق على المستوى الدولى فللفساد طرفان، ولا يمكن قبول اتهام مسئول فى دولة نامية بالفساد بغض النظر عن من ساهم فى هذا الفساد من الدول المتقدمة سواء كان مسئولا فى الحكومة أو من الشركات عبر القومية .

ويعتبر ارساء دعائم الديموقراطية والحريات الأساسية من بين دعائم احترام حقوق الإنسان وخاصة الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وخاصة الحق فى التنمية ، وهو الأمر الذى لاينطبق فقط على المستوى الوطنى فى جميع الدول ومنها الدول النامية وإنما ينطبق أيضاً على المستوى الدولى. فالديموقراطية حق ومبدأ لايقبلان التجزئة، فلابد من سيادة الديموقراطية على المستوى الدولى بحيث تنطبق على جميع المنظمات الدولية وأجهزتها بما فى ذلك مجلس الأمة ومؤسستى بريتون وودز المنظمة العالمية للتجارة. ■

كلمات عاشت

● ليس صحيحا أن هناك مستعمرين صالحين وآخرين أشرارا، هناك مستعمرون وحسب

سارتر

● أستطيع إرضاء جميع الناس، إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

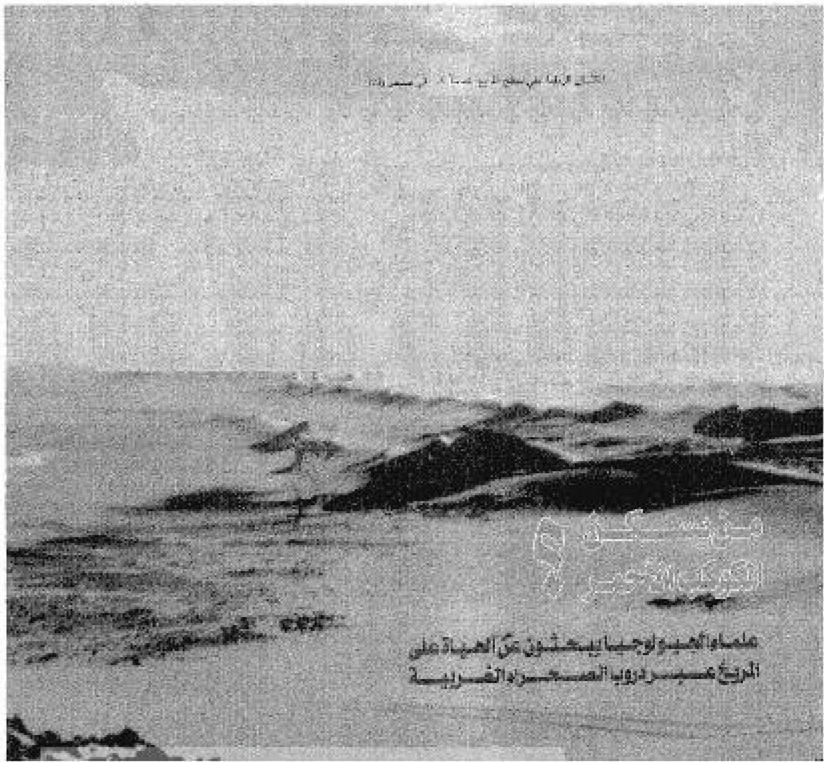
معاوية بن سفيان

● الفنان ليس مصلحا، ولكنه صانع المصلح

توفيق الحكيم

● الإنسان الذى يمسه الحب يرى فى الظلام

مثل مكسيكي

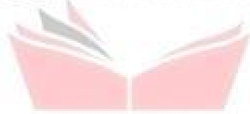


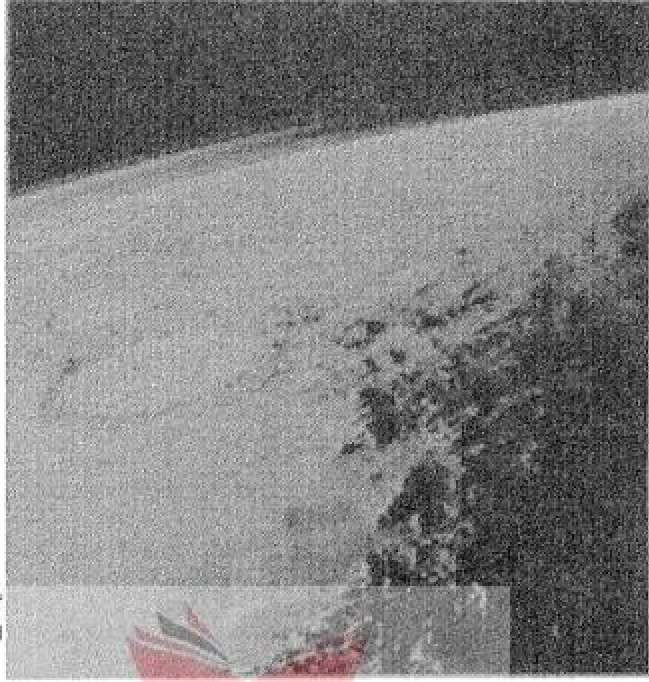
علماء الجيولوجيا يبحثون عن الحياة على المريخ عبر دروب الصحراء الغربية

أماني عبد الحميد

الأكثر قحولة وجدباً والأشد جفافاً على مستوى العالم أجمعه .. قال عنها الدكتور جمال حمدان إنها البيداء أكثر مما هي البادية .. إنها الصحراء الغربية أكثر صحاري العالم عزلة ووحشة . إلا أنها خلال العشرين عاما الماضية كانت محط أنظار علماء الجيولوجيا والفضاء . والغريب أنها بتضاريسها وهضابها وكثبانها الرملية لم تكن هي المحور الأساسي للاهتمام العلمي المتزايد . بل كان موجها لأهداف مختلفة تماما . لا تخطر على بال أحد . نابع من اعتقاد بأن هناك تشابها بين صحرائنا الغربية وسطح كوكب المريخ . وبعد إجراء الدراسات تحول الاعتقاد إلى حقيقة علمية مؤكدة !!







سطح الكوكب الاحمر من الفضاء

المريخ والصحراء الغربية

في محاولة لفهم غموض كوكب المريخ الذي كان اليونانيون والرومان القدماء يقدسونه . ويعتبرونه إله الحرب نظراً لأن لونه الأحمر في السماء جعل لونه قريبا من لون الدم لذا أطلقوا عليه اسم (مارس) .

سألنا الدكتور مسلم شلتوت استاذ ورئيس مركز بحوث الفضاء والطاقة ومعهد بحوث البيئة الصحراوية جامعة المنوفية أكد أن الوديان والمجاري المائية الجافة على سطح المريخ من أكثر غوامض هذا الكوكب . علاوة على وجود أوجه تشابه غريبة بين الصحراء الغربية وبينه . فالأودية الجافة تتواجد في كلا المكانين . وهي التي كانت في يوم ما مليئة بالمياه في مناخ مطير إلى مناخ جاف . فجفت هذه الأودية . ففي المريخ كانت البرودة سبباً في تجمد المياه أما الصحراء الغربية فكان تزحزح حزام المطر إلى أماكن أخرى من العالم منذ آلاف السنين هو السبب .

أما التشابه الثاني فيؤكد د . «شلتوت» أنه في الغلاف الجوي الجاف فالصحراء الغربية هي أكبر منطقة جافة في العالم وتفوق في جفافها

عشرات المرات جفاف ما يسمى بوادى الموت بصحارى الولايات المتحدة الأمريكية . والغلاف الجوى للمريخ جاف للغاية لتكثف بخار المياه به نتيجة البرودة الشديدة وتحوله إلى ثلج . أما التشابه الثالث فهو بسبب المياه الجوفية . حيث تسربت المياه الموجودة بالأودية بالصحراء الغربية منذ انتهاء العصر المطير إلى باطن الأرض منذ آلاف السنين مكونة ما يسمى بخزانات المياه كذلك التى أسفل واحات الصحراء وهذا ما أثبتته دراسات الاستشعار عن البعد سواء بالأقمار الصناعية أو الرادار . وهذا هو ما حدث فى المريخ فقد تسربت المياه إلى تحت السطح أو تجمدت على السطح ثم لوجود عواصف ترابية غطت هذه الثلوج بطبقات من الرمال تصل فى بعض الأحيان لعدة أمتار . وأثبتت دراسات الاستشعار عن البعد للأقمار الاصطناعية احتمال وجود مياه سائلة تحت طبقات الثلوج . ويوضح أن المياه الجوفية بالواحات المصرية والمياه الجوفية بالمريخ تتشابه فى وجودها على مسافات قليلة العمق لا تتعدى الأمتار . مما يجعل دراستها فى مصر مدخلاً لدراسة المياه الجوفية بالمريخ عن طريق اختبار معدات الدراسة بالواحات المصرية قبل إرسالها إلى المريخ .

أما التشابه الرابع فيوضح الدكتور «شلتوت» أن الصحراء الغربية بها عواصف رملية وترابية شديدة تسمى بالخماسين كذلك المريخ حيث اثبتت مركبتا الفضاء الأمريكيتان وجود عواصف رملية شديدة به . كذلك تتشابه تربة المريخ - التى تتكون أساسا من رمال تفصلها بعض الصخور الصغيرة - مع تربة منطقة شرق العوينات جنوب الصحراء الغربية مما يجعل المنطقة حقلاً لاختبار العربات (المينى روفر) و(الميكرو روفر) التى ستهبط على سطح المريخ لدراسة غلافه الجوى وتربته وهى تعتبر إنسانا آليا متحركا يتم توجيهه وتشغيله فى محطات أرضية لوكالات الفضاء .

أقدم منطقة زراعية فى العالم

وجدير بالذكر أن معامل الدفع النفاث (JPL) التابعة لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) بمدينة بسادينا بالقرب من لوس انجلوس قامت بتصميم جهاز لقياس المغناطيسية للطبقة تحت السطحية لدراسة المياه الجوفية تحت سطح المريخ . بهدف التعرف على إمكانية الوصول إلى أى مواد عضوية أو طياره وبالتالى إمكانية قيام حياة ولو أولية فى العصور السحيقة قبل تغير مناخه نحو البرودة .

والمدهش أن معامل (JPL) أى استخدام الأقمار الاصطناعية للاستشعار عن بعد استطاعت تحديد أول منطقة فى العالم بدأت فيها

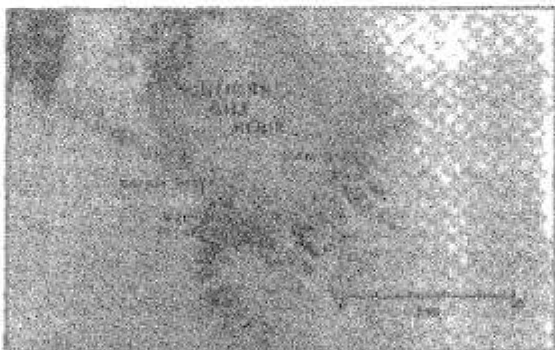
الزراعة وذلك عن طريق ما تحدثه بقايا ومخلفات النباتات المزروعة من التربة . وأثبتت الدراسات أن أقدم منطقة قامت فيها الزراعة فى العالم هى منطقة غرب (اسنا) فى مصر . حيث زرعها قدماء المصريين فى فترة ما قبل التاريخ بالقمح منذ (١٨ ألف سنة) .

نقوش ورسومات عن حياة قديمة

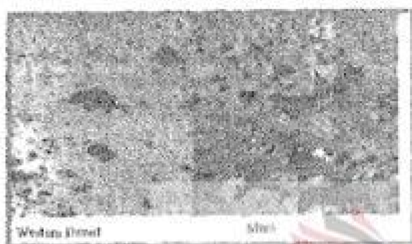
وعن الحياة بالصحراء الغربية يؤكد هذا الاحتمال الدكتور على بركات استاذ النيازك والجيولوجيا فى هيئة المساحة الجيولوجية، موضحاً أن فى أهم الظواهر المورفولوجية فى الصحراء الغربية وجود هضبة الجلف الكبير فى الجزء الجنوبى الغربى . فهو يقع فى أشد بقاع العالم جفافاً . إذ لا تزيد كمية مياه الأمطار على (واحد مم كل عام) كما أن الاشعاع الشمسى قادر على تبخير كمية من المياه تفوق التى تسقط على الأرض (٢٠٠ مرة) . حتى أن المرء لا يرى خلال تنقلاته سوى صحراء قاحلة تغمرها الرمال الصفراء فى كل صوب.

ويذكر الدكتور جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان) أن الصحراء الغربية أكثر تمثيلاً وتجسيداً من الصحراء الشرقية لفكرة الصحراء الحاره والصحراء الكبرى كما لا نزاع على أنها أكثر صحارينا عزلة ووحشة خاصة الركن الجنوبى الغربى منها بالذات فى الجلف والعوينات لم تطأه قدم انسان متحضر حتى ثلاثينات القرن الماضى بل وكما وصفها أحد العلماء الغربيين يعادل فى غموضه حتى الآن غموض صحراء القمر قبل أن يصل إليه الإنسان!!

ورغم الجفاف والعزله والغموض إلا أن الدكتور «بركات» يؤكد أن الشواهد الجيولوجية والبيولوجية والأثرية تثبت أن الجلف الكبير والمناطق المحيطة به تعاقبت عليها جماعات بشرية على فترات مختلفة . منذ العصر الحجرى القديم . تعود إلى الفترات الوسيطة من عصر الهولوسين . ويوضح أن المرء يستطيع أن يرى مخلفات وآثار الإنسان القديم فى كل مكان فى منطقة الجلف الكبير سواء فوق سطح الهضبة أو من حولها أو خلال الوديان التى تقطعها . وتتمثل آثار الإنسان بمختلف الأدوات الحجرية والدوائر الحجرية . وآثار الطرق التى كان يسلكها الإنسان علاوة على وجود نقوش ورسومات كان الإنسان القديم يصور من خلالها أنشطة ومظاهر حياته على الجلاميد الصخرية أو مكاشف الصخور أو على جدران وأسقف الكهوف . ويشير الدكتور «بركات» إلى وجود عدد من المواقع التى تحوى نقوشاً ورسومات تعود إلى إنسان ما قبل التاريخ منها : رسومات ملونة على جدران الصخور



خريطة توضح موقع الجلف الاكبر بالصحراء الغربية



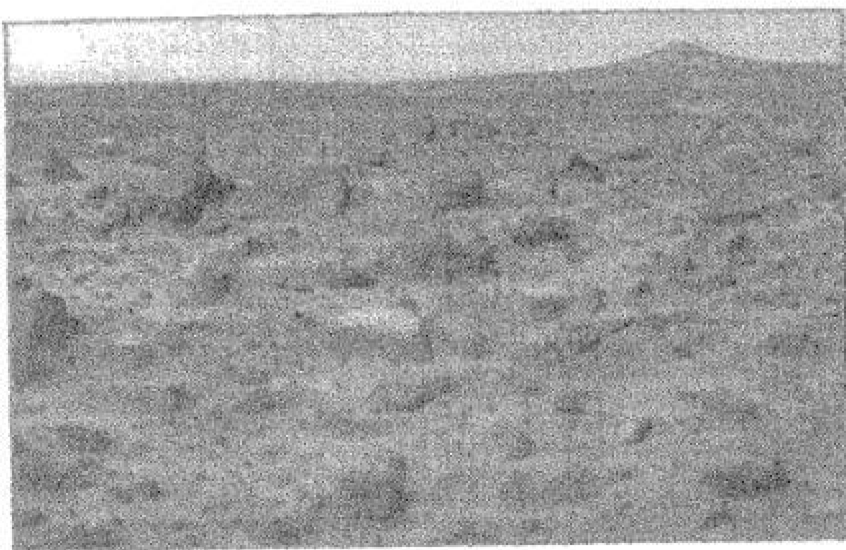
تضاريس متشابهة بين الصحراء الغربية والمريخ

بوادى «حمره» شمال الجلف الكبير . ورسومات «بوادي عبد الملك» ورسومات (كهف شاو) بالجزء الجنوبي الشرقي من الهضبة . ونقوش وادى صورة . ويوضح أن تلك النقوش «بوادى صوره» تكشف عن مرحلة زمنية كانت الحياة فيها مزدهرة هناك حيث عاش الإنسان ومارس فنونا مختلفه . وإن كانت تكثر داخل الكهوف وعلى أسطح الصخور . وأهم ما يلفت الأنظار وجود صور ورسومات لأناس يمارسون السباحة مما يدل على وجود مياه في هذا المكان قديماً .

هل كانت هناك حياة على سطح المريخ !

كل تلك الاكتشاف عن مظاهر للحياة البشرية داخل الصحراء الغربية خاصة هضبة الجلف الكبير أشد مناطق العالم عزلة ووحشه جدد الأمل والايمان باحتمال وجود آثار محفوظة للحياة القديمة أو حتى بقايا حياة بدائية مازالت تعيش في تربة المريخ خاصة أن جميع الدراسات والصور الفضائية التي تم التقاطها لسطح المريخ والقمر والصحراء الغربية تؤكد وجود تشابه في العديد من الخصائص الجيومورفولوجية! .

وبرغم جميع الدراسات والأبحاث لايزال السؤال مطروحاً . هل هناك حياة علي المريخ ؟؟ وإذا كانت الإجابة هى النفى .. فهل كانت هناك حياة أو بقايا حياة على سطحه . كما اكتشفها العلم داخل مجاهل الصحراء الغربية.. ؟؟ لا تزال الإجابة

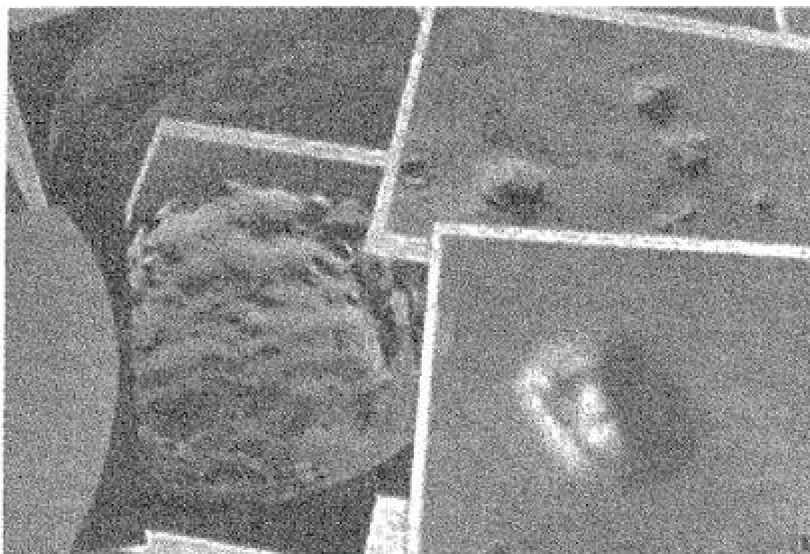


كتل صخرية على سطح المريخ تشبه كثيراً مانراه على الأرض

غير معلومة أو معلن عنها حتى يومنا هذا ؟!

في عام ١٩٧٨ قامت بعثة من سبعة علماء من الولايات المتحدة الأمريكية وثمانية من العلماء المصريين بدراسة عميقة لمختلف الظواهر الطبيعية بالصحراء الغربية كان هدفها الأساسي فهم الأسباب الحقيقية وراء تشابه سطح الصحراء الغربية مع سطح كوكب المريخ . وأثبتت الأبحاث في مجال الجيولوجيا الفلكية وجود تشابه في العديد من الخصائص الجيومورفولوجية وبينت الصور الفضائية التي تم التقاطها لسطح المريخ والقمر والصحراء الغربية وجود هذا التشابه !!

تلك الحقيقة دفعت الكثير من الجهات العلمية إلى التسابق على دراسة الصحراء الغربية ورمالها وهضابها وتربتها وأحوال المناخ . مثل وكالة الفضاء الأمريكية (NASA) والجمعية الدولية لاكتشاف الكواكب . ومعهد بحوث الفضاء الروسي . وتحولت الصحراء الغربية خلال الأعوام العشرين الماضية إلى حقل تجارب نشط . ووقع عليها الاختيار لتكون مكان اختبار معدات استكشاف المريخ قبل سفرها إليه . مثال ذلك اختبار الحفار الصغير الذي سيذهب إلى المريخ في منطقة شرق العوينات . علاوة على اختبار جهاز المجس الكهرومغناطيسي الذي يقوم باستكشاف المياه تحت سطح المريخ . وذلك في منطقة الواحات الخارجة .



لقطات لتربة المريخ أخذت بواسطة السفن الفضائية

كذلك جهاز تسجيل أصوات العواصف الترابية . كل تلك الدراسات والأبحاث والتجارب تم إجراؤها على أمل الوصول إلى إجابة شافية على التساؤل الذى طالما طرحه العلماء !! هل هناك حياة على المريخ أم لا ؟؟ وهل كانت حياة قديمة على سطحه وفنيت نتيجة لتغيرات مناخية أم لا ؟؟ وعندما اكتشف العلماء أوجه التشابه بين الصحراء الغربية والغلاف الجوى وتربة المريخ تجدد الأمل مرة أخرى فى إمكانية معرفة مزيد من الأسرار حول هذا الكوكب الغامض !!

الكوكب الأحمر

أثبتت الدراسات أن كوكب المريخ هو أكثر الكواكب شبها بالأرض . على سطحه جبال وأودية وبراكين ومجارى لأنهار جافة . وتغطى أقطابه الثلوج كما هو الحال فى الأرض . وله غلاف جوى يحوى سحباً ورياحاً وعواصف ترابية عدة وبه فصول مناخية مثل فصل الصيف وفصل الشتاء عندنا وإن كان المريخ يستقبل أقل من نصف ما تستقبله الأرض من الاشعاع الشمسى . لذلك فهو أبرد كثيراً من الأرض . ففى الصيف لا تتعدى درجة حرارته درجة ذوبان الثلوج المائية (الصفر المئوى) وفى الشتاء تصل إلى درجة تجمد ثانى أكسيد الكربون (١٨٠ درجة فهر نهيت تحت الصفر) . ■



فدوى طوقان

شاعرة أمام الباب المغلق !

بقلم
وديع فلسطين

للضاد أن تفاخر بشاعراتها: فدوى طوقان ونازك الملائكة وعاتكة الخزرجي وجليلة رضا وجميلة العلايلي وروحية القليني، فقد أقمن للشعر دوحة عذبة سواء بأشخاصهن أو بما فاضت به قرائحهن من طريف الشعر، وقد أسعدني أن أعرفهن جميعاً وأن أفتقد الراحلات منهن.

أما فدوى طوقان، الشاعرة الفلسطينية الرائدة، فقد تحالفت عليها الظروف المعاكسة حتى قبل أن تولد في مدينة السلط، إذ كرهت أمها أن تنجب مولوداً بعد ستة من البنين والبنات وحاولت عبثاً أن تجهض نفسها للتخلص من الجنين الذي تمثل بعد ولادته في فدوى. وإذا كانت الأم قد استكثرت هؤلاء الأطفال السبعة، فقد رزقها الله بعدهم بثلاثة آخرين، واكتمل عدد أبنائها عشرة، منهم ستة من البنين وأربع من البنات، وكان ترتيب فدوى السابعة في هذا النسل.





خرجت فدوى إلى الحياة دون أن تسجل لها شهادة كسائر الأطفال، فظلت سنوات تجهل تاريخ مولدها ولا تحتفل بعيد ميلادها أسوة بزميلاتها. ولما تجرأت وسألت أمها عن تاريخ ميلادها قالت إن الذى تذكره هو أنها كانت وقتها تنظف أكواز بنات فلسطين يعرف بالعكوف تهيئةً لطهيه، وكانت آلام المخاض تنتابها وقتذاك، ولفدوى أن تعتبر هذه الواقعة شهادة ميلادها! ثم تذكرت الأم أنها عندما كانت فى الشهر السابع من الحمل استشهد ابن عمها كامل عسقلان. وإزاء إلحاح فدوى، توجهت مع أمها إلى المقابر لتستخرج من شواهد القبور شهادة ميلادها. وقد أكد الباحث الأردنى الدكتور يوسف بكار أن عسقلان استشهد فى عام ١٩١٧، وهو إذن التاريخ المرجح لميلاد فدوى طوقان.

● لماذا عاشت فدوى علة قصص الحب فى الخيال؟ ومن هم الأدباء الذين كانت تراسلهم؟

عاشت فدوى - شفاها الله وعافاها من الكسور المضاعفة التى تعالج منها بعد انزلاقها فى بيتها فى نابلس قبل بضعة أشهر - فى مرحلة الطفولة فى هذه المدينة الفلسطينية، وهى طفولة اقترنت بالظلم الغليظ الذى أوقعته عليها أسرتها لا لذنب إلاّ لأنها أنثى فى بيئة شديدة التحفظ. فوالدها صارم فى تربية بناته، ولاسيما فدوى بالذات، وكل خطواتها حتى فى طفولتها محسوبة عليها. وعندما وصلت إلى سن المدرسة، سمح لها بأن تتوجه من البيت إلى المدرسة فى صحبة ذوى القربى من سيدات الأسرة. وفى يوم أغبر، توجهت فدوى إلى منزل خالتها، فرآها غلام فى السادسة عشرة من عمره، وجرى نحوها وقدم إليها عوداً من الفل. فانفرجت شفتاها عن ابتسامةٍ شاكرة لهذا المعجب الصغير. ولم تنس فدوى على مدى العمر هذه التجربة التلقائية الجميلة من هذا الصبى الذى تصرف ببراءة عفوية معها. ولكن الأعين الساهرة كانت تراقبها، ولم تلبث أن وشت بها إلى شقيقها بطل حمل الأثقال الذى انهال عليها بقبضة يده الحديدية تنطلق من فمه عبارات التهديد والوعيد، وحكم عليها بألاّ تغادر عتبة البيت إلاّ إلى القبر! فأخذت فدوى تجتر آلامها فى صمت، ولم تجد سلواها إلاّ فى القراءة تعكف عليها فى «زنزانتها» كلما عثرت على كتاب فى البيت. وقررت أن تثقف نفسها. واستهواها الشعر بصورة خاصة، فإن استعصى عليها فهم عبارة قصدت أخاها الشاعر إبراهيم طوقان لكى

يشرح لها ما غمض من عبارات. ولمّا رأى إبراهيم أن شقيقته فدوى تهوى الشعر، قرّبها منه وصار يمثل الحضن الدافئ لها وسط هجير الحياة وجعل من نفسه معلماً لفدوى يمتحنها فى استظهار أبيات من الشعر، ويقوّم لسانها كلّما تعثر فى عبارة. وعندما سافر إبراهيم طوقان إلى بيروت للعمل أستاذاً فى جامعتها الأمريكية، تواصلت رسائله البريدية مع فدوى يشجعها ويرفع من روحها المعنوية ويحدثها عن الشعر والشعراء.

الحصار

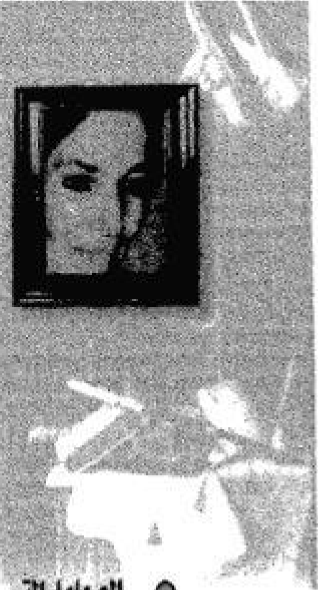
ولكن الحصار الذى أحكم حول فدوى بينما أنوثتها تتفتح وصدرها ينمو وكأنه جريمة حاولت إخفاءها، دفعها غير مرة إلى محاولة الانتحار والتخلّص من حياة بغيضة تحسّ فيها بأنها شخص غير مرغوب فيه، وكم من مرة دخلت مطبخ الدار وهمّت بإشعال صفيحة الجاز، ولكنها جبنت إزاء آلام الحريق، ثم فكرت فى تناول السمّ، ولكن مَنْ يأتيها به، ثم إن آلامه لا تطاق. وأخيراً أقدمت على ابتلاع أنبوبة كاملة من الإسبرين فأنقذها طبيب الأسرة فى آخر لحظة.

أدركت فدوى أن حياتها مرتبطة بالشعر فهو دنياها وسلواها وعزاؤها، وعندما وقعت فى مجلة على قصيدة للشاعرة العراقية رباب الكاظمى، بعثت إليها بأبيات قالت فيها:

أرباح تاج الشاعرات   أرباب فقُت النابهات
والله أنت خليقة   بالمدح بين الآنسات
وأبوك قد أعطاك كنزاً   زاخراً بالطيبات
الكاظمى، ما الكاظمى   هو ناظم للبيّنات
يا أيها الشعراء   لا تقفوا أمام الشاعرات

كانت هذه القصيدة بكر قصائد فدوى، وهى قد اعتزّت بها لأنها خلت من أخطاء العروض والنحو. فجاءت هذه القصيدة شاهدةً على مولد فدوى كشاعرة مرجوّة الغد.

أخذت فدوى بعد ذلك تنظم أبيات ممهورة بإمضاءات مستعارة مثل «دنانير» أو «المطوّقة» أو تقتصر على اسمها المجرّد «فدوى» وتبعث بها إلى المجلات الأدبية فى لبنان، وسعدت عندما رأتها منشورة، فشجعها ذلك على التواصل مع مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات، ولا سيما لأنها كانت واسعة الانتشار فى العالم العربى، فرحّب الزيات بقصائدها ونشرها باسمها الكامل «فدوى عبد الفتاح طوقان». وكانت «الرسالة» فاتحةً للشهرة الواسعة التى نالتها فدوى فى وقت كان فيه عدد الشاعرات قليلاً، كما هيأت لها فرصة للتعارف الشخصى مع الأدباء العرب. وعندما كتبت مقالاً فى «الرسالة» عن الشاعر على محمود طه أعربت فيه عن إعجابها بشعره، أهداها نسخة من ديوان «الملاح التائه» بعدما طرزها بعبارة إهداء جميلة، وبدأ يراسلها، ولكن



العوامل التى ساهمت فى صنع شاعرية فدوى وكيف صنع الحرمان منها شاعرة حزينة

العيون الساهرة مزقت صفحة الديوان التي تحمل الإهداء ومنعت فدوى من مراسلته، فمات الشاعر وهو لايعرف سرّ الجفوة التى حدثت بينه وبين الشاعرة.

ولكن، هل للأنثى الرهيفة الحسّ كفدوى أن تكظم العاطفة التى تتأجج فى صدرها؟

لقد كانت تتلهف ولو على همسة حبّ، ولهذا رحّبت برسائل المعجبين التى كانت تتلقاها بفضل شهرتها البازغة، واستأثر باهتمامها الشاعر المصرى إبراهيم محمد نجا الذى أهداها عدداً من قصائده، وكذلك الأديب المصرى أنور المعداوى الذى أخذ يتلهى بقلبها البكر وهو بعجرفته (كما عرفته وابتعدت عنه) وبقصور باعه لا تؤخذ عواطفه المبثوثة مأخذ جدّ.

ومن الشعراء المصريين الذى عرفتهم فدوى شاعر الملاحم كامل أمين الذى تطوع للقتال فى حرب فلسطين وأصيب بسببها فقامت فدوى بتطبيبه قبل أن يستكمل الدكتور إبراهيم ناجى علاجه فى مصر.

المراهقة العاطفية

وليس أبلغ من فدوى نفسها فى وصف هذا الحب بالمراسلة حيث قالت فى سيرة حياتها:

«كانت مراهقتى العاطفية حادة مشتعلة. نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة. حب بالمراسلة. كنت أقع فى هذا الحب الخيالى وأغوص فيه، كنت جائعة إلى شئ غير موجود، ضائعة، وحيدة، لا أملك شيئاً سوى هذا الخيال المشتعل.

ظل قلبى حديقة للحب لا تذبل أشجارها أبدا. فى لحظات الحبّ يحسّ الإنسان بإنسانيته تتكثف، يخرج من القطب الجليدى المعزول ويرحل إلى الوهج والإشراق».

وعندما زارت فدوى مصر، التقت بالمعجبين لقاءً عادياً، اقتصر على المصافحة الباردة بلا أى مشاعر. لقد قتل الزمن حرارة العاطفة وانطوت صفحة دون أن تذرف عليها دمعة.

نشرت فدوى ديوانها الأول «وحدى مع الأيام» فى القاهرة فى عام ١٩٥٢، وعنوانه وحده يمثل وصفاً دقيقاً لسيرة حياتها حتى فى المستقبل الذى كان مذخوراً لها. فقد عاشت مع الأيام وحيدة، قد تؤنسها رفقة الصويحبات، فإن خلت بعد ذلك إلى نفسها انكفأت على وحدتها وأرسلت فى الشعر أشواق قلبها الحائر قائلة:

قلبي به الحياة وقد | عَمُقَت ومدّت، فيه كالأمد المدد
فتهز أغواري نوازعه | صخابة، دفاقة المدد
ويظل منتظراً على شغفٍ | ويظلُ مرتقباً على وَقَدْ
أحلام محروم تساوره | متوحد في العيش منفردَ
ويودّ لو تمضي الحياة به | للحب، مصدر فيضها الأبدي

حياة تهفو إلى الحبّ، وأنّى لها أن تصيب منه حظوظا.

هي وأسرتها

ولّما استقرت لفدوى منزلة أدبية معترف بها سألها أبوها: لِمَ تضيعين عمرك في هذا الشعر الذاتي الوجداني، ولِمَ لا تساهمي في خدمة قضية وطنك؟ فكانت تقول له إنها عاشت كل عمرها في عزلةٍ عن الحياة السياسية، فكيف تنفعل بهذه القضايا الكبرى وكيف تعبّر عنها؟ فهذه هي مهمة رجال السياسة الذين انغمسوا فيها وعرفوا خباياها ودخائلها ومزالقها وويلاتها.

كانت فدوى تدين لأخيها الشاعر إبراهيم بالفضل الأول في تنبيه مواهبها وتسديد خطاها والوقوف إلى جوارها في الشدائد، فلّما توفي عام ١٩٤١ عن ستة وثلاثين عاماً وكانت فدوى في الرابعة والعشرين من عمرها، نزلت وفاته عليها كالصاعقة، فقد كان يمثل بالنسبة لها كل شئ: فهو أستاذها ورائدها وصديقها و«مخلّصها» بتعبير فدوى، فاظلمت الدنيا في وجهها لأنها افتقدت خير الحصن الذي كانت تلجأ إليه في المحن، ولكن يعزها إلاّ شقيقها الأصغر الدكتور نمر طوقان، وكان طبيباً يعمل في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد التقيت به هناك في عام ١٩٥٥، واتفق عندما كانت فدوى تزور انجلترا للسياحة وللتقوية في اللغة الانجليزية أن تلقت برقية من الأسرة في نابلس تفيد بأن الدكتور نمر لقي مصرعه في حادث سقوط طائرة صديقه المليونير اللبناني إميل البستاني في البحر، وكان ذلك في عام ١٩٦٣. فعجلت بالعودة إلى نابلس لتجدد أحزانها على الراحلين إبراهيم ونمر بصورة خاصة، وعلى الوالدين وبعض الأشقاء، وهكذا كانت الفواجع تلاحق فدوى غير مشفقة على روحها الرقيقة ونفسها المتعطشة إلى السلام الداخلي وقلبها الذي يهفو إلى الحبّ الإنساني الشامل.

ملازمة بيتها في نابلس

ومن الفجائع التي هزّت فدوى هزاً عنيفاً اغتيال الشاب وائل ابن العلامة الفلسطيني عادل زعيتر في روما في عام ١٩٧٢ وكانت تربطها بأسرة زعيتر علاقات ودٍ وجوارٍ حميم في مدينتهما نابلس، فوقفت على وائل ديواناً بأسره عنوانه «على قمة الدنيا وحيداً»، ولا غرو أن تجد فدوى اليوم في جارتها نائلة عادل زعيتر أجمل صحبة، ولا سيما وقد ثقلت عليها الشيخوخة، واضطرت بحكم الكسور التي تعاني منها في



ساقيها إلى ملازمة بيتها فى نابلس بالضفة الغربية، فلا تستطيع تلبية أي دعوة للمشاركة فى أى نشاط أدبى فى الخارج. ولعل آخر رحلتين قامت بهما إلى الخارج وهما رحلة إلى المغرب لتسلم جائزة الشعر بالبابطينية ورحلة إلى باريس للمشاركة فى برنامج للربيع الفلسطيني نظمه معهد العالم العربي، وهناك التقيت بها للمرة الأولى وقد تكون الأخيرة.

على أن فدوى طوقان ما كان فى وسعها أن تتجاهل المدلهمات التى تنصبّ على بلادها، فاستجابت - ولو بعد لأى - لدعوة أبيها إلى المشاركة بشعرها فى معارك المصير، بل خرجت تتواصل مع زملائها من شعراء فلسطين وتتعامل مع رجال السياسة هناك وهناك وتعبرّ عن مشاعرها إزاء المعاملات الوحشية التى يلقاها مواطنوها. وعندما حاولت ذات مرة عبور «جسر اللنبى» للتوجه إلى عمّان، لقيت من صنوف الذل والعذاب ما فجر على قلمها قصيدة نارية تمنّت فيها لو استطاعت أن تلتهم أكباد الذين حاولوا إذلالها. وتحولت هذه القصيدة من جانب الذين أذاقوها الذل إلى سخرية من فدوى لأنها اشتهت «صحن كبدة»!

ولعلّ فدوى هى من قلة من الشاعرات العربيات اللائى سجلن سيرتهن بصراحة وأمانة وعفوية وصدق، وهى فى هذا تتوافق مع الشاعرة جليلة رضا التى لم تتحرج من تسجيل سيرتها بقلمها. فأخرجت فدوى هذه المسيرة فى جزءين هما «رحلة جبلية، رحلة صعبة» و«الرحلة الأصعب» واستدرك عليهما الباحث الأردنى الدكتور يوسف بكار بإصداره «الرحلة المنسية» التى استكمل فيها ما فات فدوى تسجيله عن حياتها وأدبها، كما أصدرت فدوى كتاباً عن شقيقها بعنوان «أخى إبراهيم» وأخرجت ستة دواوين هى : «وحدى مع الأيام»، و«وجدتها»، و«أعطنا حباً» و«على قمة الدنيا وحيداً»، و«أمام الباب المغلق»، و«الليل والفرسان»، و«تموز والشئ الآخر».

حياة حافلة بالألم والحب والعطاء هى حياة الشاعرة العربية الكبيرة فدوى طوقان. ■

كان لأخيها ابراهيم الفضل الأول فى تنبيه مواهبها وتنميتها

فدوى طوقان

تروى قصتها مع الشعر

منذ صغرى أعلن عن نفسه ميلى الفطرى للشعر، كنت أجد متعة كبيرة فى ترديد محفوظاتى المدرسية منه، وأقف مملوءة بالانبهار والدهشة أمام ما يقع عليه بصرى من قصائد أو مقطوعات مطبوعة فى الكتب المدرسية أو فى الصحف التى كان يحضرها أبى وأخوتى إلى البيت، وذلك رغماً عن عجزى عن إدراك مضامينها .

كان هناك كتاب اسمه (الكشكول) يضم مجموعة من الطرائف والشعر والأخبار الأدبية والتاريخية وفى هذا الكتاب كان لى أول لقاء مع قصيدة (أيها الساقى إليك المشتكى)

وضعتنى القصيدة أو بالأحرى الموشح فى دائرة سحرية غامضة لعل منشأها موسيقاه الخارجية المنبعثة من طبيعة الوزن، والمتميزة بتنوع القوافى، مع الالتزام بقافيتى الشطرين الأخيرين من كل مقطع، مما أكسب الموشح ايقاعا يريح السمع ويهدهد النفس .

أما الكلمات فكان معظمها بالنسبة لى محملاً بمعان إنفعالية نفسانية غير التى قصدها الشاعر .

كان السقاؤون فى تلك الأيام يزودون بيوت البلدة بالماء باستثناء بعض البيوت القليلة،



لاسيما بيوت الاقطاع القديمة، والتى كان أصحابها يمتلكون حصصهم الخاصة بهم من مياه الينابيع العديدة فى البلدة .

وكانت المياه تصل إلى تلك البيوت بواسطة القنوات الفخارية تحت سطح الأرض وتصب فى البرك القائمة وسط ساحات البيوت الفسيحة .

وحين كنت ابدأ بالقاء المطلع «أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع» كانت كلمة الساقى تتخذ فى ذهنى معنى إنفعالياً خاصا مقروناً بصورة السقاء الكهل الذى كان يزود بيوت «حارة العقبة» بالماء ينقله اليها من (عين الكاس) شرقى البلدة .

كان مجئ السقاء إلى منزل خالتى فى (حارة العقبة) مبعث إثارة محببة لى، فمنذ يطأ بقدمه أول درجة من درجات السلم الخارجى المفضى إلى الدار، كان صوته يرتفع بالكلمات المألوفة : «ياساتر يالله »، وذلك تنبيها للنسوة لكى يتوارين خلف الأبواب .

كنت أركض إلى السقاء وأقف بجانبه عند الزير الكبير، أرقبه وهو يرفع القربة عن ظهره بيديه القويتين، ثم يسندها إلى بطنه وقد جعل فوهتها المربوطة على فم الزير الواسع، وبعد ذلك يشرع بفك الرباط، فيتدلق الماء العذب الفضى فى الزير الذى لم يكن ليمتلئ قبل أن يبتلع حمولة أربع قرب أو أكثر .

كان الساقى الذى يخاطبه الشاعر يمثل دائما فى خيالى متقمصاً شخصية السقاء الكهل، سقاء (حارة العقبة) ولما كنت أجهل ما هو (الزق) فى قوله (جذب الزق اليه واتكا) فقد استلزم الفعلان (جذب - واتكا) أعطاء كلمة الزق عندى معنى الوسادة .

أما النديم الذى هام الشاعر فى غرته، (ونديم همت فى غرته) فكنت أتخيله ابن جارنا بائع حلاوة الطحينة، ذلك الفتى الأسمر الطويل النحيل الذى كان يحمل اسم نديم . وهكذا كان يعطى خيالى للكلمات صوراً ودلالات خاصة به وحده، وكنت أغتنم فرصة غياب أبى وأبناء عمى وقت العصر فأرتقى السلم الخارجى المكشوف والمؤدى إلى أحد طوابق الدار العليا، وأقف متجهة نحو الشجر المنتصب فى صحن الدار، وأشرع فى القاء الموشح بصوت واثق مرتفع، مقلدة بذلك ابراهيم فى القائه للشعر، وأتخيل نفسى شاعرة تقرأ شعرها على الجمع المحتشد كما يفعل ابراهيم وأستغرق فى تخيل الصورة حتى يكاد يصبح الخيال فى احساسى حقيقة، فإذا انتهيت عدت إلى الانشاد مرة ثانية، ثم رابعة، وأنا فى حالة أشبه بالجذب الصوفى .

بعد ستة وعشرين عاماً، فى عصر يوم من أيام حزيران ١٩٥٥، وقفت فى قاعة (وست) فى الجامعة الأمريكية فى بيروت

لأواجه لأول مرة فى حياتى الحشد الذى دعته الدائرة العربية فى الجامعة للاستماع إلى مختارات من شعرى .

خلال الدقائق التى كان يقدمنى فيها الاستاذ جبرائيل جبور، وبينما أنا أجيل بصرى فى الوجوه أمامى، مر بعينى شريط سريع قصير، رأيتنى فيه بمواجهة الشجر المنتصب فى صحن الدار، ألقى على مسامعه القصيدة العزيزة (ايها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع، وابتسمت .

ربما بدت ابتسامتى فى ذلك الحين وكأنها تحية للحاضرين، وما كانت فى الحقيقة الا تحية لتلك البنت الخيالية البعيدة، المأخوذة بقصيدتها الموشحة وبالحالة الشعرية الصوفية الغامضة التى كانت تعتريها عند القاء الموشح على شجر الدار،

ثم تجاوزت مجرد انشاد الشعر إلى محاولة كتابته كان داخلى يمتلئ أحياناً بمشاعر غير واضحة وبانفعالات مبهمة، خصوصا إذا استمعت إلى الموسيقى والغناء

فهنا كنت أشعر بميل إلى التعبير عن شئ ما، شئ أحس به ولا أفهمه فأهرع إلى قلم وورقة سرعان ما تمتلئ بكلمات لا رابط بينها، ثم أذهب بالورقة المحملة بالألغاز إلى ابراهيم وأرجوه بصوت متردد أن يقرأ ما كتبت (من شعر) ولم يكن ابراهيم يخيب رجائى، بل كان يقرأ الكلمات ويبتسم لى ويربت على كتفي، وأنصرف أنا دون أن أسمع كلمة تشجيع أو تثبيط .

ظلت الموسيقى حتى اليوم تشعرنى بالصفاء الروحى، وتحرك فى داخلى تلك الحالة الغامضة المصحوبة بالرغبة فى كتابة الشعر .

ولقد التقيت فى كتاب (العهد القديم) ببعض أنبيائه الذين كانوا يستعينون بالموسيقى على تجلى الرب، فيهبطون من الأكمة، أمامهم رباب ودف وعود، وهم يتنبأون فيحل عليهم روح الرب .

كما ألتقيت باليشع الذى قال : الآن فأتونى بعواد، فلما ضرب العواد كانت عليه يد الرب .

أجل إن الموسيقى تثير الوجدان، وتحرك الخيال ، إنها تجعلنا نحلم ونرى عوالم غير منظورة، تعج بالحيوية والحركة.. الصدفة العجيبة!

أى دور تلعبه الصدفة فى حياتنا !

حادث تافة، أو خبر عادي، أو محض مصادفة تعترض طريق المرء، فيتغير معها مجرى الحياة، وتنعطف طريق السير انعطافة حادة قاطعة وتصبح الدنيا غير الدنيا والعالم غير العالم

لو لم يعترض ذلك الغلام طريقى ولو لم يحبسنى أخى يوسف بين جدران الدار الهرمة لاستمرت حياتى تسير فى اتجاهات المألوف العادى ولكنت واصلت

دراستى فى المدرسة العائشية حتى نهاية السنة الخامسة، وعندئذ ما كان ابراهيم ليفكر فى أن يجعل منى تلميذة له .

كان قد علم من أمى بسبب قعودى فى البيت، لكنه وهو الإنسان الواسع الأفق، الحنون، العليم بدخائل النفس البشرية، نظر إلى ذلك الأمر نظرة سبقت الزمن خمسين سنة إلى الأمام .

لم يتدخل، ولم يفرض إرادته على يوسف العنيف، لكنه راح يعاملنى بالحب والحنو الغامر .

وظلت تتجمع الأمور الصغيرة لتصبح جسراً ينقلنى من حال إلى حال

كل ما كان منتظراً هو فقط الصدفة العابرة ! ودق جرس الغيب ليعلن قدوم اللحظة، الصدفة .

أخى ابراهيم

كان إبراهيم قد وصل لتوه لتناول طعام الغذاء، وشرع يتحدث إلى أمى بفرح بينما هو يغسل يديه - عن تلميذين من تلاميذه كانا قد جاءا اليه فى الصباح بقصائد من نظمهما، خالية من عيوب الوزن والقافية وكم كان فخوراً ومسروراً وهو يتحدث عن الموضوع وبعفوية مطلقة، وبصوتى الخافت الضعيف قلت : «نيالهم» وتعنى الكلمة بالفصحى هنيئا لهم

نظر إلىّ ابراهيم وصمت ثم قال فجأة: سأعلمك نظم الشعر، هيا معى.

كانت أمى قد سكبت له الطعام، ولكنه ترك الغرفة، ولحقت به، وارتقينا معاً السلم المؤدى إلى الطابق الثانى حيث غرفته ومكتبته .

وقف أمام رفوف الكتب وراح ينقل عينيه فيها باحثاً عن كتاب معين أما أنا فكان قلبى يتواثب فى صدرى وقد كتمت أنفاسى اللاهثة .

دقيقتان، واقبل علىّ وفى يده كتاب «الحماسة» لأبى تمام نظر فى الفهرس ثم فتح الكتاب عند صفحة بالذات .

قال : هذه القصيد، سأقرؤها لك وأفسرها بيتا بيتا ثم تنقلينها إلى دفتر خاص وتحفظينها غيباً . لأسمعها منك هذا المساء عن ظهر قلب .

وبدأ يقرأ :

قصيدة «امرأة ترثي أخاها» :

طاف يبغي نجوة
من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة
أي شئ قتلك
أي شئ حسن
لفتي لم يك لك
كل شئ قاتل
حين تلقي أجلك
والمنايا رصد
للفتي حيث سلك

شرح لى معنى الأبيات،فشعرت بخيط



لقاء الشعر.. بين فدوى طوقان وفاروق شوشة

رفيع من السوداوية يحز في قلبي قال : لقد تعمدت أن أختار لك هذا الشعر لترى كيف كانت نساء العرب تكتب الشعر الجميل .

ونزلنا إلى غرفة الطعام وفي قلبي عالم جديد يضطرب بالانبهار والتوقع

في المساء أسمعته القصيدة غيباً دون خطأ وتلكؤ في تلاوتها .

حين أويت إلى فراشي ذلك المساء كنت أحتضن بين ذراعي دفتراً ذا لون حشيشي باهت وقلما أزرق اللون، وعيداً من أعياد الشعور !

ها أنا أعود إلى الدفاتر والأقلام والدراسة والحفظ ها أنا أعود إلى جنتي المفقودة .

وعلى غلاف دفتر المحفوظات تلألأت بعيني هذه الكلمات التي كتبتها بخطي الرديء خط التلميذة في الثالثة عشرة من العمر .

الأسم - فدوى طوفان

الصف - (شطبت الكلمة وكتبت بدلاً منها المعلم) ابراهيم طوقان الموضوع - تعلم الشعر

المدرسة - البيت

ولم تكن هذه بعيني كلمات، بل كانت شموسا وأقماراً قبلها كانت حياتي واقفة لاتسير مع الزمن ولا أعرف ماذا أفعل بها. أما الآن فها هي حياتي تتحرك، وها هو ايقاعها يسرع وأنا أشعر بتجددي وبعودة الثقة بالنفس من جديد .

ما أروع الخطوة الأولى ! ما أجملها ! ما أشد سحرها

أصبحت خفيفة كالطائر لم أعد مثقلة القلب بالهم والتعب النفسى فى لحظة واحدة انزاح جبل الهوان وابتلعه العدم، وامتدت مكانه فى نفسى مساحات المستقبل شاسعة مضيئة، خضراء كمروج القمح فى الربيع .

وبالرهبة الخطوة الأولى .

إن قوى الشر، الظاهرة منها والخافية لاتهادن أبداً، إنها تقبع دائما فى زوايا الدروب متربصة بنا مع الخطوة الأولى يبدأ العراك والصدام بين ارادة الحياة وقوى الهدم، سواء أكانت عشوائية أم مخططة ومرسومة سلفاً .

قالت أختى (فتايا) لأبى وهى تظن أنها تزف بشرى مثيرة : هل تعلم أن ابراهيم شرع يعلم فوى نظم الشعر ؟

أشاح أبى، وواصل شرب القهوة المرة كانت حركة يده حين أشاح بها تحمل كل معانى الاستخفاف والاستهانة انكمش قلبى مع حركة يده، وتقلص .

انه لا يؤمن أننى أصلح لشئ - قلت هذا بينى وبين نفسى - انه لا يحمل لى سوى شعور اللا اكتراث. كأننى لاشئ، كأننى عدم وفراغ، كأننى لا لزوم لوجودى إطلاقاً .

وازدادت الفجوة النفسية بينى وبين أبى عمقا وإتساعا .

كما بدا هذا الحدث فى عيون عمتى وأفراد أسرة عمى مثار سخرية بادئ الأمر ثم تحولوا إلى أعداء حقيقيين . يعملون على قطع الطريق دون مسيرتى الجديدة.

وكان عليهم أن يتصرفوا حسب تكتيك خاص وذكى، فلم يكن من الهين اقناع ابراهيم بالعدول عما بدأه معى، فهو مستقل التفكير، صريح، جرئ، وصعب الانقياد إلى غير ما يؤمن به .

مضيت فى المسيرة مع ابراهيم والشعر لستة أيام متتالية فجأة توقف ابراهيم .

مسيرة الشعر

ثلاثة أيام مرت دون أن يدعونى لأسمع له آخر قصيدة طلب إلىَّ حفظها وليختار لى قصيدة أخرى للحفظ .

مع هذا الصمت المفاجئ عاد الشعور بالثقل إلى قلبى، وبدأت كتفاى تتهدلان من جديد، وعاد ظهرى يحدودب وأنا أمشى، كما فى الأيام التعيسة السابقة .

كنت ذات طبيعة خجول، تعوزنى الجرأة واقحام نفسى على الآخرين حتى لو كان ابراهيم. انتظرت حتى يقول هو شيئاً ما، وكان انتظارى على هم وقلق .

فى صباح اليوم الرابع كنت قد قررت مبادرته بالسؤال، مستمدة بعض الجرأة من يقينى بمحبته الحقيقية لى ورفقه بى

وكعادتى كل صباح حملت إليه ابريق الماء الساخن لحلاقته اليومية وضعت

الوعاء الصغير على المغسلة، ووقف هو أمام مرآتها البيضوية الشكل متهيأ للقيام بعملية الحلاقة .

بدأ يمرر الفرشاة والصابون على جانبي وجهه وعلى ذقنه، أما أنا فوقفت بجانبه أنظر إليه من خلال المرآة وأبذل مجهوداً صامتاً لأبدأ بالسؤال، حتى أعانني الله في النهاية وفك عقدة لساني، سألته بصوت مرتعش: هل غيرت رأيك ؟ هل كففت عن ..

وانكسر صوتي وذاب، رغما عني، في دمعتين، وأجابني فوراً وقد أصبحت رغوة الصابون البيضاء تغطي نصف وجهه : كلا لم أغير رأيي، ولكنني توقفت لأ تأكد من صدق رغبتك في التعلم سنواصل اليوم الدرس هبطت الدرج بقامة منتصبة، وفتحت لي الدنيا ذراعيها من جديد المستقبل ينتظرني، أنه هناك، لاريب فيه، ولاشك !

وكان هذا كافياً لتبدل إحساسي بالوجود .

رباب الكاظمي

وجه بيضوي ممتلئ،عينان دعجاوان، غرة ناعمة سوداء تغطي الجبهة، وظل ابتسامة على شفتين مطبقتين مع وضع سينمائي للجسم والرأس .

لاتزال الصورة واضحة في خيالي بكل قسمات الوجه الذي لم تمحه السنون البعيدة من ذاكرتي، وتحت الصورة، أو فوقها، أو جانبها، الأسم المطبوع بخط عريض أسود : «الشاعرة العراقية رباب الكاظمي» .

لقد تخمرت في نفسي صورة مثالية لرباب ، فأصبحت مثلاً أعلى أطمح إلى بلوغه وكان للانطباعات الوجدانية والتأثرات النفسية التي تركتها في أعماقي تلك الصورة شأن كبير في توجه تفكيري للشعر قبل الحكم عليَّ بالاقامة الجبرية في البيت .

وحين بدأت محاولاتي الجادة في نظم الشعر كانت أول قصيدة كتبتها دون أخطاء عروضية أو نحوية موجهة إلى رباب الكاظمي :

أرباب تاج الشاعرات
أرباب فقت النابهات
والله أنت خليقة
بالمدح بين الأنسات (!!)
وأبوك قد أعطاك كنزاً
زاخراً بالطيبات
الكاظمي ما الكاظمي
هو ناظم للبينات
يا أيها الشعراء
لاتقفوا أمام الشاعرات

وحين توفي أبوها الشاعر عبد المحسن الكاظمي بعد ذلك بسنوات رثيته بقصيدة أعزي رباب من خلالها ..

(عن كتاب رحلة جبلية. رحلة صعبة
بقلم فدوى طوقان ■

سارة العقاد

بين الحقيقة والخيال

بقلم

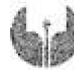
أحمد حسين الطماوى

من تكون سارة ؟

تلك الرواية التى كتبها العقاد ونشرها عام ١٩٣٨ وشغلت النقاد فترة طويلة من الزمن ، هل هى شخصية متخيلة ؟ هل هى شخصية حقيقية ؟ الواقع أنها شخصية حقيقية تعرف عليها العقاد واسمها أليس داغر، وكانت مترجمة وصحفية وكاتبة ، وكانت أمها صحفية وكاتبة وشاعرة وكان زوجها صحفيا وكاتبا، وكان صاحبها العقاد كاتبا موسوعيا، وهو ما لم يعرف عنها من قبل ، وقد أوحت إلى العقاد بطائفة من الشعر وبرواية «سارة».

واللافت للنظر أن العقاد كتب روايته «سارة» بعد أكثر من عشر سنوات، من نهاية الأحداث ، ومع ذلك فقد كان متقدا مشتعلا ، متوهج الروح ، وكأن الحوادث مازالت تجرى ، أو كأنه يشيع الحب وهو فى ملابس الحداد.

وأرجو أن أكون قد وفقت إلى الكشف عن جوانب شخصية سارة «أليس» الحقيقية فى هذا المبحث غير المسبوق ، فلم يذكر أحد من قبلى كل هذه التفاصيل الدقيقة التى وقفت إليها.



الشخصيات التى نطالعها فى القصص والروايات والمسرحيات ليست جميعها متخيلة فكثير منها له أصل فى الواقع يستوحيه القاص ويستملى منه، وقد يصحف ويحرف للإخفاء والتمويه أو لمقتضيات الفن ، ولكن تظل ملامحها الحقيقية بارزة ، ويظل إيقاعها الحى الحقيقى يتوالى إلى أن تبدو وتظهر ويذهب العقاد فى كتابه «خواطر فى الفن والقصة» إلى أن زيفاجو هو باسترناك «فكل ما قاله بلسان الطبيب الشاعر فهو مما يقول باسترناك ويعتقد ويتحدث فيه عن خبرته وسعيه..» . ويذكر على أدهم فى


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كـتـابه «على هامش الأدب والنقـد» أن تورجنيف التـقى ببـازاروف بطل رواية «الآباء والأبناء» في قطار ، ولمح فـيـه طرازا جـديدا من الناس، وأدرك أنه فوضوى المذهب، وقبل أن تنتهى الرحلة كان الشاب قد ترك في نفس تورجنيف أثرا واضحا . وقال لى عبدالمجيد نافع مترجم رواية «التلميذ» إن شارلوت وجرسلو بطلى الرواية هما زوجة جنرال فرنسى في الجزائر، وعسكرى المراسلة الخاص به، أحب أحدهما الآخر ولما كان الزواج بينهما مستحيلا فقد اتفقا على أن يمضيا ليلة ممتعة معا وفي الصباح ينتحران، فانتحرت المرأة وجبن الجندى وقدم للمحاكمة وقد صورهما بول بورجيه في رواية «التلميذ» . وهناك غير هؤلاء ولكننا لا نبحث عنهم.

وشخوص رواية سارة حقيقيون ، فسارة هي أليس داغر ، وهمام هو العقاد، وأمين الذى كان يراقب سارة هو الشاعر الباحث طاهر الجبلاوى والأستاذ زاهر هو د. صبرى السربونى ، والعشير القديم الذى لم يذكر اسمه في الرواية هو الشاعر عبدالرحمن صدقى. لذلك لم يكن العقاد في حاجة إلى التخيل ويكفيه من الخيال ما يجلى الصور.

ولسنا في حاجة إلى ذكر حوادث الرواية لكثرة طبعاتها ولكثرة ما كتب عنهابأقلام كبار الكتاب مثل عبدالقادر حمزة والزيات وعلى الراعى وعبدالرحمن صدقى وعبدالحميد جودة السحار وغيرهم .. وغيرهم ، وإذا كان لابد من تلخيص سريع فإن هماما بطل الرواية ذهب في يوم من أيام الخريف لزيارة الأستاذ زاهر (السربونى) فلم يجده وانما وجد صاحبة البنسيون التى يسكن عندها زاهر وبجوارها سيدة ، هى سارة، وتم التعارف بينهما ، وتتابعت اللقاءات ، ونشأت قصة حب بينهما ، إلى أن بدر منها ومن ابنها ما يدعو إلى الشك والريبة فقاطعها العقاد، ودفع بأمين (الجبلاوى) لمراقبتها إلى أن تبين غدرها وخيانتها .

وكان الدكتور السربونى قد عاد من باريس عام ١٩٢٤ بعد حصوله على الدكتوراه وكان يقيم في منزل يحمل رقم ٢١ شارع الأهرام بجوار كازينو بالميرا بمصر الجديدة.

ومازال البيت قائما وإن جرت تعديلات في طابقه الأرضى، وعلى هذا فتاريخ بدء العلاقة بين العقاد وصاحبته هو ١٩٢٤ لأنه يقترن بعودة السربونى من فرنسا ويساير ما قاله الجبلاوى والزيات وغيرهما من أن عمر العقاد كان خمسة وثلاثين عاما عندما أحب سارة والمعروف أن العقاد ولد عام ١٨٨٩، وقد امتدت علاقة العقاد بسارة إلى مطالع عام ١٩٢٦، فبعد القطيعة سافر العقاد إلى الإسكندرية ليسلو، ويغرق أحزانه في أمواج البحر ومن هناك بعث برسالة إلى عبدالرحمن صدقى مؤرخة في ١٩٢٦/٤/١٢ نشرها محمد محمود حمدان في كتابه «من رسائل العقاد» يشرح فيها حالته النفسية على أثر القطيعة ، ولم يعد الصفاء مرة أخرى بين الحبيبين، أما سارة فقد عاشت في مصر فترة ، ويقول عامر العقاد في كتابه «لمحات من حياة العقاد - ١٩٧٠» «كانت لها بنت تزوجت فيما بعد من رجل من رجال التجارة في فرنسا، ولحقت بها سارة عندما مات ذلك الرجل وورثت عنه

الفتاة وأمها ثروة طائلة ولا تزالان تعيشان في باريس».

من هي؟

دون العقاد في مقدمة الطبعة الثانية من رواية سارة الصادرة عام ١٩٤٣ أن اسمها الحقيقي «أليس» دون أن يفصح عن بقية اسمها فظلت شخصية روائية غامضة إلى أن نشر عامر العقاد صورتها مع العقاد في مجلة «المصور» بتاريخ ١٩٦٩/٣/٢١ وقال إن اسمها الحقيقي أليس وأنها «تنحدر من أسرة تعمل في الصحافة نعني بها أسرة الصحفي الكبير أسعد داغر الذي توفي عام ١٩٥٨» وهو كلام فيه التباس وخطأ إذ إن أليس ليست منحدرة من أسرة أسعد داغر، وإنما ملحقة عليها، فقد كانت زوجته، وحملت اسمه فصارت تعرف باسم أليس داغر، وأسعد داغر هذا الذي نعنيه غير أسعد خليل داغر الذي كان يحرر في المقطم والمقتطف والمتوفى عام ١٩٣٥.

ويقول يوسف أسعد داغر في كتابه «مصادر الدراسة الأدبية جـ ٣ قسم ٢ ص ١٣٦٥ - ١٣٦٧» عن لبيبة هاشم: «بعد معركة ميسلون ١٩٢٠ سافرت (أي لبيبة) إلى الأورجنتين (الصحيح شيلي) فأصدرت في سنتياجو بتاريخ ١٥ أيلول ١٩٢٣ مجلتها الشرق والغرب الأسبوعية فعاشت سنة، وتولت كريمتها أليس أسعد داغر شئون فتاتها في غيابها». وهذا الكلام مهم جدا ومفيد لأنه يبين أن أليس بنت لبيبة هاشم، ويوضح انتساب اسمها إلى أسعد داغر، ومن جهة ثالثة يعرب عن اشتغالها بالصحافة.



ويوسف أسعد داغر الذي أشرنا ليس ابن أسعد داغر وإنما من الأسرة الداغرية الكبيرة، إذن أليس هي بنت لبيبة هاشم أو لبيبة ماضي القاصة الطليعية، الشاعرة، الكاتبة المسرحية، والرائدة في مجال الصحافة النسائية، وصاحبة مجلة «فتاة الشرق» التي أصدرتها في الفترة من ١٩٠٦ إلى ١٩٣٩ والمحاضرة في الجامعة المصرية، هذا علاوة على أن لها فكرا تربويا قوامه أن تتعلم المرأة وتتقن فن التربية ولا تلتحق بالعمل إلا إذا كانت في حاجة إليه، فالمرأة بالنسبة لها مربية أجيال وفاضلة، وكانت تقول لا نريد من المرأة أن تكون فيلسوفة وهذا يعني أنها امرأة محافظة، ولكن يبدو أنها لم تفلح في تطبيق نظريتها على ابنتها، فكانتا متناقضتين.

تزوجت لبيبة ماضي من عبده هاشم (١٨٧٠ - ١٩١٦) في مطالع عام ١٨٩٧ وانتسبت إليه وعرفت باسم لبيبة هاشم وأنجبت اثنين وهذا يؤخذ من خطاب تعزية بعثت به «مي» إليها عندما مات زوجها حيث قالت: «ولئن أوجعك بكاء ولديك فأنت الأم الراقية تكونين لهما خير أب» (سركيس مارس ١٩١٦) وإذا كنا نجهل ترتيب المولودين فإن عام ١٨٩٩ مناسب جداً لأن يكون تاريخ ميلاد أليس عبده هاشم، ولا ننسى أن العقاد قدر عمرها في بداية التعارف بخمسة وعشرين عاما.

وتزوجت أليس وهي في سن العشرين كما سيأتي أي عام ١٩١٩ من أسعد داغر (١٨٨٦ - ١٩٥٨) وهو صحفي كان يكتب

فى الأهرام ، وله مقالات كثيرة عليها مسحة علمية

نشرها منذ عام ١٩١٦ فى «فتاة الشرق» ويبدو أن تردده الكثير على «فتاة الشرق» قرب بينه وبين لبيبة فزوجته بنتها أليس ، ولأسعد داغر نشاط صحفى آخر فقد أصدر عام ١٩٢٧ بالاشتراك مع توفيق اليازجى مجلة «مصر الحديثة المصورة» وهى مجلة راقية كانت تعنى بشئون الأدب والمسرح وتعرض للمشاكل الاجتماعية، والموضوعات السياسية وكان من كتابها خليل مطران وانطون الجميل وأحمد زكى باشا وغيرهم من كبار الكتاب وفى ١٢/١٠/١٩٥٣ تولى إدارة جريدة «القاهرة» وكانت وجهتها قومية عربية ، وكان مستشاراً فى الجامعة العربية.

أليس الكاتبة الصحفية

نشأت أليس فى أسرة صحفية أدبية علمية، ففضلا عما ذكرناه عن أمها وزوجها كان جدها ناصيف ماضى عالماً فى الرياضيات وله فيها ثلاثة كتب غير مؤلفاته فى مسك الدفاتر والفلسفة الطبيعية والمنطق (فتاة الشرق يوليه ١٩١٨) وكان خالها نجيب ماضى صحفياً أديبا حرر فى «فتاة الشرق» كثيرا . ودعته حكومة فلسطين ليشغل منصب وكيل حاكم الناصرة ثم عينته حاكماً لمنطقة بيسان وتوفى عام ١٩٢٣ (فتاة الشرق نوفمبر ١٩٢٣)، فلا جرم أن سايرت أليس هذه الأجواء.

وقد رجعنا إلى «فتاة الشرق» فى العام ١٩٢٠/١٩٢١ فألفينا قصصا ملخصة عن الفرنسية ومقالات اجتماعية ممهورة بتوقيع «أليس داغر» ومنها مقال «السعادة البيتية وواجب الزوجة» تنتقد فيه بشدة المرأة الناشحة والمرأة القوية المستبدة، والمرأة المتكبرة التى تحاول أن تحجب زوجها فى المجتمع، والمرأة الساهية والمرأة الثرثارة ، والمرأة المبذرة والمرأة العنيدة والمرأة المتقلبة والمرأة المعجبة بجمالها التى ترغب فى أن تكون موضوع اعجاب الناس بها دائسة بذلك على عواطف زوجها وشرف مقامها . فهذه المرأة تعرض ذاتها للاحتقار، أما السيدة الفاضلة لا تتوخى إعجاب الناس بها بل تتحاشى لفت الأنظار اليها بما يثقل حمله عليها وعلى زوجها».

والمرأة الفاضلة عندها هى التى تدير شئون منزلها «فإذا عاد (زوجها) اليه بعد عناء الأشغال قابلته بابتسامة ملكية وفتحت له كنوز قلبها .. وأسعد ساعة فى حياة هذه الزوجة هى الساعة التى يعود فيها زوجها من العمل وتستعد له وتصلح هندامها وتتناسى أتعابها ولا تفكر إلا فيما يجلبه لها من السعادة والهناء غير مثقلة عليه بمطالبها وتكون فى كلامها بعيدة عن الكذب لا تخجل من عمل تأتيه لأنها لاتعمل مايخجلها . وتنتصح بنصائح زوجها وتحترم مبادئه .. هذه هى الزوجة الكاملة التى تصلح لأن تكون ربة البيت الشرقى فتملؤه غبطة وسعادة».

وهذا الكلام العذب يمثل رؤية جميلة من المرأة ، ومتى كانت الزوجة كذلك شع نورها على البيت والزوج لأنه يدل على عقل وافر وسريرة طيبة ، وجميل أن ينطلق من بين النساء صوت يستقصى عيوب النساء، ويطامن من خيلائهن وينتقد رعونتهن ويردهن إلى الصواب، فهى تقاوم نزوات المرأة ، وتعيب عليها شغفها بالاثارة مما

يعرض شرفها وشرف زوجها للانتقاص. ولكن خواطر أليس تدعو إلى التأمل وتثير الشجن، لا لخطأ فيها، ولكن لأن الكلام الصادق لايتنافى مع السلوك فى الواقع.

ولها مقالة عن «المرأة الراقية فى العالم» توازن فيها بين المرأة الأمريكية والمرأة الانجليزية والمرأة الفرنسية، والمرأة الألمانية وغيرهن من نسوة أوروبا. وتذكر الفروق بينهن من نواح عديدة مثل الجمال والعلم وإدارة شئون البيت : وتظهر المقالة سعة إطلاعها وتوجهات ذهنها وبخاصة نحو الجمال، ومن مقالاتها المفيدة مقالة «واجب المرأة إزاء نفسها» وتذهب فيها إلى أن المرأة العصرية يجب أن تحيط بالنهضة العلمية وتتابع شئون المجتمع والسياسة وأحداث الكون وترى أن هذا مفيد فى تربية الطفل وتغذية عقله، وتوصى المرأة الشرقية بتعليم تاريخ بلادها لأنه ينمى روح الوطنية فى النفوس، وتشير إلى أهمية الجغرافيا لأنها تزيد التاريخ وضوحاً هذا إلى جانب الإلمام بمبادىء العلوم الطبيعية لكى تجيب على اسئلة أطفالها. وعندها أن الفلسفة والأخلاق تعدان الأطفال ليكونوا نافعين فى المجتمع، وتبين أن هذه العلوم مفيدة للمرأة لأنها تجعلها محدثة لبقة فى مجالسها، وفى مقالة لها عن «السعادة وما يحول دونها» توضح أن السعادة فى البساطة والعيش فى جو نقى ملؤه الحقيقة.

وهذه المقالات التى كتبتها «أليس» تساير اتجاه مجلة «فتاة الشرق» وتتناسب مع أفكار أمها لبيبة، فقد كانت



لبيبة تلح على ضرورة تعليم المرأة وتربيتها لتعد الأجيال الفاضلة، ومن ناحية ثانية كانت تركز على ترسيخ السعادة فى البيت وذلك عن طريق تعزيز المحبة بين الزوجين وتحميل المرأة مسئولية ذلك.

وللسيدة أليس قصص ملخصة من الفرنسية مثل «الماضى لايموت» و«الخنجر الحى» وقصة بدون عنوان منشورة تحت عنوان فكاهات، وهناك قصة علمية فلكية أوردتها تحت عنوان «فى الفضاء الواسع» تزعم أنها من قلمها ، واعتقد أنها ملخصة. وقد توقفت مقالاتها الاجتماعية وملخصاتها القصصية بعد عدد يوليه ١٩٢١ ، ويبدو أنها كانت تنشر ملخصات قصصية بدون توقيع، ذلك أن القصص الملخصة تواصلت فى المجلة بنفس الأسلوب. وثمة ملاحظة أخرى وهى أن أسعد داغر لم يعد ينشر فى «فتاة الشرق» منذ أواخر سنة ١٩٢٠، والظاهر أنه وقع خلاف بينه وبين أليس، ويلوح لنا أن هذا الشقاق استمر، لأن العقاد يقول فى روايته «وليس لسارة زوج» والمقصود من هذه العبارة أنها لاتقيم مع زوجها .

أليس وسارة

إن الموازنة بين أليس وسارة بالغة الصعوبة لأننا لانعرف من أمر أليس مانعرفه من أمر سارة، فبالرغم مما إهتدينا اليه مازالت أليس غامضة والنظرة العاجلة أو المتأنية إلى أليس وإلى سارة تظهر فارقا كبيراً بينهما مع أنهما شخصية واحدة. وليس من أدواتى فى

الموازنة غير ماكتبته أليس، وما دونه العقاد عن سارة.

تقول أليس فى مجال الزينة وإسعاد الزوج، على المرأة «أن تعرف مايتطلب الزوج منها، وحين يعود يجب أن «تستعد له وتصلح هندامها» أما سارة فتقول لهمام: «أو تحسب أن المرأة لا تتزين إلا لزوج أو حبيب؟ إنها لتتزين لنفسها، وإنها لتتزين للرجل الذى فى عالم الخيال» وتهكمت وهى تسأله : «أأرضى زوجا؟» فأليس تسعى إلى أرضاء الزوج وسارة تسعى إلى إرضاء نفسها لا إرضاء زوجها . وهذا التباين مرده إلى أن أليس تقول مايجب أن يقال فى مجلة يقرؤها الجمهور ولا تستطيع أن تشطح أو تحيد عن الصحيح لإحساسها بالمسئولية، أما سارة فإنها تفعل ماتريد وتساير أهواءها ونزعاتها.

وإذا كانت أليس تبدو من مقالاتها أنها محبة لزوجها تنتصح بنصائحه فإن سارة على عكس ذلك ، تقول حسب رواية الجبلاوى التى مصدرها العقاد: «الحقيقة إننى مظلومة فى حياتى وخصوصاً فى الزواج، لقد جنى على أهلى .. فقدت رحمة الأم وأنا صغيرة ، ولم أجد أهلى وأنا كبيرة .. كنت بنتا بريئة .. فلما كبرت كانت نفسى متفتحة للحياة وأفكر فى مستقبل سعيد لكن خاب أملى .. تزوجت فى العشرين من رجل فى الخمسين فلم استرح فى زواجى وكان أهلى يلحون على فى الزواج منه لثرائه، ولكن هل الثراء كل شىء، لو تزوجت رجلاً يملأ عينى ويحقق معنى الرجولة كنت عشت سعيدة .. ولكن حظى خاب فى الزواج ووجدت قلبى فارغا من كل شىء ، ولم استطع صبرا على الفراغ الذى أعيش فيه» وقد قال العقاد مثل هذا الكلام فى فصل «كيف عرفها؟» وآثرنا رواية الجبلاوى التى أوردها فى كتابه «فى صحبة العقاد» لأن فيها زيادة وتفصيل، وأليس فى كتابتها تدعو إلى بساطة المظهر لتتحقق السعادة وتتساءل قائلة: «ماهذه التغييرات المدهشة التى نراها يومياً فى الأزياء؟» أما سارة كما يقول العقاد : «تقرأ أوروبا كما تعبد أزياءها».

أليس صحفية وكاتبة ومترجمة ، أما سارة فـ«قارئة حصيفة» «تقرأ (لهمام) أسفار النوابغ من أساطين الأقدمين وفحول المحدثين الغربيين..».

«تقرأ الشعر والنثر وتنتقد الصورة المتحركة». وقد يكون لإغفال العقاد كتاباتها مبرر وهو إخفاء معالمها الخارجية حتى لايحدد القارىء شخصيتها .

وعلى هذا النحو تجد فوارق بين أليس وسارة أو بين المثال والواقع.

الرواية

ورواية سارة وإن كانت حقيقية ، وجميع أبطالها من الأدباء والكتاب ، فإنها رواية نفسية تتناول الشك والتخمين، والحيرة والغيرة ، والوهم والحقيقة والرياء، والصفاء والكدر، والتذكر والسلو وغير ذلك من أحوال النفس . وإذا كانت رواياتنا تتراوح بين الرومانسية والواقعية ، فإن رواية سارة النفسية تدخل إلى نادى القصص أو معرض الروايات وتحتل الركن النفسى.

ويكاد يكون الشك هو بطل الرواية، فلم يكن فى مقدور العقاد طرح الوساوس والظنون من نفسه ثم يتأسى ويخلد

للراحة. وقد استغرق الشك وما نجم عنه من إضطراب وألم ورقابة صفحات كثيرة، ولولا هذا الشك ربما لم تكن هناك رواية سارة، كذلك فإن هذا الشك انتج أدباً نثريا فى الرواية. وأدبا شعريا نستطيع أن نطالعه فى ديوان «اشجان الليل» للعقاد وبخاصة قصائد «يوم الظنون» «الشك» «الحب المريب» ، «اليقين» وغيرها.

ولعل الفصل الذى كتبه العقاد تحت عنوان «لماذا هام بها» هو من أعمق فصول الرواية النفسية فهو يرى أن «الرجل ليسره أن يستكشف المرأة .. ويسره أن يراقب المرأة وهى تستكشفه...» وتمضى مع هذا الفصل التحليلى لا لتعرف أسباب الهيام فحسب، وإنما لتتعرف على عقل العقاد الوثاب الناهض وهو يتعالى ويتسامح ليصل إلى الحكمة الكلية

* * * *

وبالرغم من أن رواية سارة غنائية ذاتية، فإنها رواية فنية ، فكاتبها لم يسرد أحداثها وفقا للتعاقب الزمنى، وإنما بدأها من قرب نهايتها أى منذ بدأ فكره يتأرجح بين الوصل والفصل حسبما يثبت له من براءتها أو إدانتها، وهى فترة يمكن أن تكون فاصلة بين ماكان وما سيكون . ويصح أن هذه البداية مناسبة لمقتضيات الفن، ويقول عبد الرحمن صدقى عن هذه البداية إنها تأتى «فى مقدمة الوسائل الفنية التى تضفى على الواقع صفة «الفن».

إن هذه البداية جاذبة لموضوع الرواية



ومشوقة إلى معرفة ماسينتهى عليه الأمر .

ويقول العقاد : «ترتيب الحوادث أن تنتهى ثم نكر راجعين للسؤال عن بداياتها وسبيل التاريخ أن تنطوى السير وتنصرم الدول ثم نقتفى مناشئها» ولا أذهب إلى أن هذه الطريقة هى الطريقة المثلى فى القص، وإنما لكل قصة طريقة تناسبها .

ولأن الرواية لاتشتمل على شخصيات عديدة ، فقد عني العقاد بوصف جوانب كثيرة فى شخصيتى سارة وهمام، فقد أبرز فى همام شدة عشقه وعلو فكره ويقظته وأظهر فى سارة أوصافها الخارجية، وتسلل إلى باطنها واستظهره. ومع أن معظم الكلام دار حول سارة، فإننا نشعر أن هماما هو المسيطر على أجواء الرواية لأنه يتفلسف ويتتبع ويعرف أين يقف ومتى، وفى أى طريق يسير.

والحوارات فى الرواية لها دورها فى نقل الأحاسيس والفكرات، وإظهار مايدور فى النفوس من صراعات وبخاصة إذا كان هناك خلاف فى الآراء ، ويجب أن نشير إلى حوارين من حوارات الرواية لهما دورهما فى بناء الرواية : الحوار الأول الذى دار بين البطلين عند ماريانا وكان سبب التعارف وبداية الطريق، والحوار الثانى الذى دار بينهما عندما تلفظ ابن سارة بكلمات غرامية جعلت العقاد يشك فيها، فهذان الحواران فى زعمى من أهم الحوارات لأنهما بداية الغرام وبداية الفراق. ■

رحيل

محمد شكرى

صاحب التجربة الأدبية الخاصة

بقلم
د. صبرى حافظ

لاشك أن رحيل الكاتب المغربى الكبير محمد شكرى فى الخامس عشر من نوفمبر ٢٠٠٣ يشكل خسارة فادحة للأدب العربى الحديث. ذلك لأن محمد شكرى ظاهرة فريدة فى أدبنا الحديث. وتجربة أدبية متميزة فيه، لها فرادتها ولغتها وعالمها الخاص الأثير. استطاعت ان تكتب لنا عالما مغايرا للعوالم التى عرفها أدبنا الحديث منذ بداياته فى مطلع القرن العشرين، وان تقتحم مجموعة من المناطق المسكوت عنها، وتكتبها بصدق وطزاجة وعفوية لفتت الى هذه التجربة المتميزة أنظار القراء والكتاب على السواء. وإذا كان محمد شكرى قد كتب عالم القاع الاجتماعى العربى من الداخل، وبطريقة صادقة الى حد الصدمة الجارحة لم يكتب بها من قبل، فإنه استطاع كذلك أن يأسر لنا تحولات مدينة طنجة المغربية على الورق، وأن يبلور لنا عبر أعماله المتتابعة ما جرى لها طوال نصف قرن من الزمان.

فقد كتب لنا فى وقت واحد تاريخها المغربى التحتى والوطنى الذى رافق سعى المغرب الحثيث للاستقلال، وتاريخها الأجنبى المترع بالتناقضات الناجمة عن تدويلها لسنوات طويلة، وانفلاتها من قبضة المواضعات الاجتماعية والأخلاقية لزمن غير قصير. وقد كتب عدد من الكتاب الغربيين وخاصة الكاتب الأمريكى الشهير بول بولز، عالم طنجة الدولى المترع بالتحلل والمتع واللذات الحسية أو «الهيدونية» والحرية التى لم تكن متاحة فى أكثر مدن الغرب تحررا فى ثلاثينات القرن العشرين وأربعيناته. وكتب عدد آخر من الكتاب المغاربة بعض ملامح مدينة طنجة المغربية ذات الطابع العربى الخالص. ولكن لم يتح لأحد أن يعرف عوالم طنجة المتعددة والمتباينة مثل محمد شكرى.

فقد أتاحت المقادير لمحمد شكرى أن يعيش تجربة طنجة فى العقدين التاليين للحرب العالمية الثانية بكل اتساعها . من قاعها الاجتماعى المغربى فى المدينة القديمة، المزدحم بالفقراء والسحرة والدراويش، المترع بالمسحوقين والبغايا والمعوزين، بالمجرمين والعاطلين . وان يكون واحدا منهم فى الشطر الأول من حياته. كما أتاحت له الظروف كذلك أن يكون واحدا من المغاربة القلائل الذين انخرطوا في عالم المدينة الغربية المناقض كلية لمدينتها الشرقية القديمة. عالم المنطقة الدولية الحرة المليء بالأجانب من كل حدب وصوب، عالم الفيلات الفخمة فى المرتفعات المطلة على البحر أو المحيط، والحفلات الاجتماعية الصاخبة، والسلوك الحسي المترع بالمتعة والتحلل. وكان هذا العالم الكوزموبوليتاني المؤتلق عامرا بالكتاب والمثقفين الأوروبين والامريكيين من الفرنسى جان جينيه Jean Genet والانجليزى إيفيلين وو Evelyn Wough إلى الأمريكيين بول بولز Paul Bowles وزوجته جين وتينيسي وليامز Tennessee Williams وترومان كابوت Truman Capote وجاك كيرواك Jack Kerouac ووليام باروز William Burroughs وآلان جينسبيرج Allen Ginsberg وغيرهم. وهما عالمان قد يتلامسان ويتجاوران ولكن من المستحيل أن يتفاعلا أو يتلاحما، ولذلك فمن النادر أن نجد من استطاع أن يعيشهما معا من الداخل، وأن يكون قادرا على استبطانهما كليهما بنفس العمق والصدق والصراحة الجارحة



الكاتب المغربى محمد شكرى

كما هى الحال مع محمد شكرى ، لأن محمد شكرى نفسه هو ثمرة هذا الحوار بين شقى طنجة المختلفين. فقد عاش محمد شكرى النصف الأول من حياته في قاع المجتمع المغربى وعاشر اللصوص والمهربين والمشردين وأبناء الشوارع. كما عاش الشطر الأول من النصف الثاني من حياته فى فيء المدينة الدولية الحرة فى طنجة . وكان لمعرفته بعالم الكتاب والمثقفين الدوليين فيها فضل تحوله من صعلوك كبير إلى كاتب كبير.

فقد ظل محمد شكرى حتى الأيام الأخيرة من حياته، وقبل أن يجعله المرض قعيد المستشفى يجمع بين جوانحه الجانبين معا: الصعلوك الكبير المتعطش لمتع الحياة الحسية ولذاتها اليومية

البسيطة والمترع بحب العدل والحرية والتمرد على المواضعات الجائرة، والذى أعاد مجد الشعراء الصعاليك فى الجاهلية، وإن بمصطلح يناسب العصر الحديث، والكاتب الكبير الذى استطاع أن يجدد الخطاب الأدبى المغربى، وان يغامر به فى بقاع لم يسمع فيها وقع لقدم مغربية او عربية من قبل، وأن يصوغ فيه لغة سردية جديدة، ويجلب إليه عالما فريدا من التجارب الإنسانية الشيقة. والواقع أن محمد شكرى جمع بين الجانبين لأن الحياة مكنته من أن يعيش بحق حياتين ما كان لهما أن تجتمعا فى إنسان واحد، لولا تفرد هذا الإنسان وإرادته المدهشة. وطاقته الإنسانية الفذة وقدرته على الفهم والعطاء والإبداع، فقد شاءت له الحياة أن يعيش حياة لا يمكن فى أعتى الأحلام تفاؤلا. أن تفضى إلى خلق كاتب كبير، ومع ذلك استطاع أن يتغلب على هذه الحياة الصعبة، وأن يقهرها بإرادة جبارة من حديد، إرادة لا تتسم بالصرامة، وإنما بالليونة والعفوية، وكأنها أدركت منذ البداية أن الديناصورات الصلبة العملاقة قد اندثرت، بينما استطاعت الأميبا القادرة على التأقلم والتكيف، وحماية نفسها وتجديد خليتها باستمرار من البقاء ملايين السنين. فهذا هو منطق الحياة المراوغ الذى يكسر الكيانات الضخمة المتخشبة، بينما يسمح للكائنات اللينة الهشة بالتكاثر والاستمرار.

طنجة مدينة حرة

وعندما جاء محمد شكرى إلى طنجة لأول مرة هاربا من أسرته فى تطوان عام ١٩٤٢ وهو صبى لم يتجاوز السابعة من عمره «فقد ولد عام ١٩٣٥» كانت المدينة تنقسم إلى مدينتين المنطقة العربية التى أعلنت منطقة دولية حرة عام ١٩٢٨ وازدهرت كمدينة دولية حرة بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معان ودلالات ، فقد توفرت فيها حريات لم يعرفها الغرب الأمريكى نفسه إلا بعد ذلك بعقدين من الزمان. والمنطقة الشعبية المغربية التى لا يقوم فيها المواطنون إلا بأدوار الخدم والشحاذين والعاهرات، والقوادين ومهربى المخدرات واللصوص والمجرمين وموفرى الأولاد للواطيين، وكان من الطبيعى أن يقع هذا الصبى الذى فر من الموت والجوع فى تطوان فى براثن محترفى هذه المدينة الشعبية . كان شكرى ينحدر من أسرة فقيرة من أسر «الريف» المغربى، فقد جاء الأب من «سوق احد بنى شيكر» وجاءت الأم من «أرهوابن» وعاشت الأسرة الفقيرة محنة الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينات ، والتى ضربت «الريف» المغربى بقسوة فى شكل مجاعة قاتلة، فر منها الأب بأسرته الى مدينة «تطوان» آملا فى أن يجد فيها مهربا من حظه العاثر فى ريف المجاعة، لكن هذا الحظ العاثر تعقبه فى المدينة التى فر إليها، ولاحقته فيها البطالة والحاجة وعدم القدرة على تلبية مطالب أسرته. وقد فاقم من هذا الوضع العاثر أن الأب كان ينفق القليل الذى يكسبه على الشراب والحشيش، ويعود فى آخر الليل إلى أسرة يضنيها الجوع، فـ«يفش» فيها إحباطاته المتراكمة بالقسوة وضرب الجميع، الأم والصغار على السواء. وكان الخال يحمى الأسرة فى كثير من الأحيان من بطش الأب الأعمى بها . ولكن هذا الخال توفى فجأة عام ١٩٤٢ ، وهو تاريخ فارق فى حياة محمد شكرى.

فبعد وفاة الخال بفترة وجيزة، وفى إحدى نوبات غضب الأب من شقيق محمد

شكرى الأصغر منه - وكان طفلا هادئا، ولكنه فى ليلة من الليالى لم يستطع الكف عن البكاء من ألم الجوع، فاغتاظ منه الأب الشرس لأنه لم يستجب لأمره بالسكوت، وضرب الطفل ضربة مصمية أسكتته إلى الأبد وقتلته فى الحال. وقد شاهد محمد الصغير - وهو فى السابعة من عمره - مصرع أخيه على يد أبيه، وتوعد الاب من يتفوه بكلمة عن هذا القتل العرضى بالموت، فخيم على الأسرة كلها مناخ من الرعب والموت المهيمنين. وجاء هذا المشهد الوحشى بعد وفاة الخال التى أثرت على الأم وطفليها ، فلم يستطع محمد شكرى الطفل ان يتخلص من أثر هذا كله عليه، ولم يتمكن من أن يتخلص من أثر هذا الموت الفعلى، والموت المعلق فوق رأسه لو تفوه بكلمة عنه، فقرر أن يهرب من بيت الأسرة حتى لا يلحق بأخيه الصغير. وترك محمد الطفل البيت إلى حياة الشوارع، ولما طارده الأب بحثا عنه ترك تطوان كلها، وفر إلى طنجة وهو فى السابعة من عمره، لتتلقفه فيها حياة لا تقل قسوة ورعبا عن تلك التى هرب منها. فقد عاش محمد شكرى الصغير حياة الشوارع القاسية . نام فى العراء، وطارده الخوف من الأب الذى يبحث عنه، والرعب من الشرطة التى تطارد المشردين أو من الجرذان التى تقضم أناملهم أثناء نومهم فى مداخل المحلات المغلقة، ومن المجرمين الذين يستغلون هؤلاء المشردين لمآربهم الإجرامية المتعددة. وأصبح هذا الطراد هو النغمة السائدة فى حياته لسنوات طويلة قادمة. سيطرت على صباه ومراهقته معا. ودفعته لحياة الجرائم الصغيرة، والعصابات الصغيرة والتشرد الدائم لأكثر من عشر سنوات.

وكما يقول لنا جان بول سارتر فى كتابه الجميل عن «القديس جينيه» - وهو دراسة نقدية شيقة لحياة وأعمال الكاتب الفرنسى الكبير جان جينيه - بأنه طرد من طفولته منذ وقت مبكر. نجد ان محمد شكرى قد طرد هو الآخر من طفولته مبكرا، وانقسمت حياته مثله إلى قسمين متميزين: حياة ما قبل معرفة القراءة والكتابة، وحياة ما بعد تعلمهما ، ولذلك أدرك هذا الصبى الذى طرد من طفولته النضج منذ وقت مبكر فى حياته وهو لم يتجاوز السابعة بعد، وإن كان نضجا قاسيا مفزعا. كان عليه منذ نعومة أظافره إن كان قد عرف شيئا من هذه النعومة الاصطلاحية، ان يتحمل مسئولية حياته، وان يساهم فى أحيان كثيرة فى رعاية أمه وبقية إخوته، بعد ما يئست الأم من أن يوفر لها الأب ولأولادها الرزق، وعملت فى بيع الخضر. وكان عليه دائما الهرب من بحث أبيه الدائم عنه، ومطالبته بنصيب مما يكسبه الابن من أى نشاط يقوم به . لكن محمد شكرى الصبى كان قد قرر منذ قرر ترك البيت قطع كل رابطة تربطه بهذا الأب، لكن الأب لم يفهم هذا القرار إلا بعدما نالته «علقة» انتقامية ساخنة على يدى صديقين لمحمد فى حياة الصعلكة. سارعا لإنقاذه عندما هجم عليه الأب وأخذ يوسعه لكما وركلا حتى أدمياه . انه يصف ذلك فى «الخبز الحافى» وكأنه ينطوى على نوع من الشفاء من ألم الهوان. والخلاص من عذاب الاب الذى لاحقه باستمرار «وتمنيت لو انى أشاركهما فى ضربه . لو كان فى مكان خال من الناس لشاركتهما . كان عزاء لى أن أراه يضرب على مرأى منى حتى يسيل دمه كما أسال دمى كلما ضربنى» (ص ٧٥).

أمى حتى سن الرشد!

لكن هذه الحياة الصعبة التى أدخلته

في طوايا عالم المدينة التحتي والسري معا من حياة اللصوص والبغايا الى أعمال المهربين وكل أشكال تحدى السلطة الوضعية. لم تستمر طويلا في حياة محمد شكري، لانه عندما بلغ سن الرشد عام ١٩٥٦، وهو العام الذي شهد استقلال المغرب، قرر أن يتعلم القراءة والكتابة وكأنه يفتح بوعي صفحة جديدة في حياته كتلك التي يفتحها الاستقلال في حياة المغرب ذلك لان محمد شكري، الذي ظل أميا حتى بلغ سن الرشد، وإن كان قد كشف رغم أميته عن موهبة لغوية واضحة . فقد تعلم بشكل شفهي الإسبانية والانجليزية أتاحت له التعرف على الجانب الغربي من المدينة وكان محمد شكري قد تعرف في بواكير شبابه على الكاتب المغربي محمد الصباغ، الذي كان يتردد بانتظام على أحد مقاهي طنجة الشهيرة، وأثار الصباغ إعجابه. وأراد أن يكون مثله، فوجهه الى ضرورة أن يتعلم القراءة والكتابة. وانتقل إلى العرائش حيث التحق بمدرستها الابتدائية وهو في الحادية والعشرين من عمره. وفتحت له القراءة أبواب المعرفة على مصراعيها فأخذ ينهل منها بلا حدود. بطريقة ساعدته على قطع خطوات فسيحة في التعليم في فترة وجيزة ، أتاحت له أن يصبح معلما في المدارس الابتدائية بعد عشر سنوات من محو أميته لكن حلمه كان أن يصبح كاتبا لا مدرسا، فهو لا يطيق التراتب الوظيفي ولا روتين المؤسسة لذلك تسرع في الكتابة، وبدأ في نشر عدد من القصص والقصائد في الدوريات المغربية والعربية المختلفة، سرعان ما لفتت له الأنظار. إذ كانت كتابته من البداية ذات مذاق فريد. ونكهة أدبية متميزة وتوثقت في الوقت نفسه علاقته مع مجموعة الكتاب الغربيين الذين كانوا يقيمون في طنجة في هذا الوقت ، وخاصة جان جينيه وبول بولز وتينيسي وليامز. وفي جلسة جمعته مع بول بولز وعدد من الصحفيين والناشرين الغربيين، حكى لهم شيئا من قصة حياته . فاقترح عليه أحدهم أن يكتب سيرته الشيقة تلك، وتحمس بول بولز للفكرة، وعرض ان يترجمها للإنجليزية مع محمد شكري لو كتبها . وكان الناشر الانجليزي المعروف بيتر أوين حاضرا، فتعهد أن ينشرها لو ترجمها بول بولز ووجد محمد شكري نفسه - كما حكى لي وهو يقدم لي القسم الثاني من سيرته الذاتية الروائية لأخذه للنشر في لندن. وأكتب مقدمة له - يقول إنه كتبها، وان عنده مخطوطتها مع انه لم يكن قد كتب شيئا منها على الإطلاق، فواعده بول بولز على الأسبوع القادم كي يأتي له بالفصل الأول للبدء في عملية الترجمة. وفي الموعد المحدد جاءه فعلا بالفصل الأول الذي كتبه في أيام قلائل اختلى فيها بنفسه في مقبرة ، كما يقول لنا في «الشطار». وفي اللقاء التالي جاء بالفصل الثاني، وهكذا حتى اكتملت الكتابة واكتملت الترجمة وصدرت «الخبز الحافي» بالانجليزية أولا ثم بالفرنسية قبل أن تصدر بالعربية ليعاني من المنع اولا، ثم لتصبح واحدة من النصوص الجديدة والمهمة في مجالها في الادب العربي الحديث.

والواقع ان الطريقة التي كتبت بها هذه السيرة الذاتية الروائية هي السر فيما ينطوي عليه من عفوية وطزاجة . فقد انبثق النص. لا عن رغبة مسبقة في كتابته. أو تعمل قصدي لإنشائه، وإنما ككل شئ في حياة صاحبه - التي يرويها لنا فيه بتلقائية نادرة وصدق جارح - كاستجابة

فورية اللحظة سرعان ما تتحول إلى تجربة يعيشها بكل كيانه. إنه واحد من النصوص العربية القليلة التى تم الاعتراف الجمعى والعالمى بقيمة التجربة التى ينطوى عليها قبل أن يكتب من هذه التجربة سطرا واحدا، لأن اعتراف مثقفين كبار من طراز جان جينيه، وتينيسى وليامز وبول بولز بأهمية التجربة ومطالبتهم صاحبها بكتابتها نفى من ساحة النص كلية أخطر ما تتعرض له النصوص السيرذاتية من مثالب، وأولها تعمد تبرير الكتابة عن الذات والتعلل بأهمية التجربة أو كاتبها على السواء. لان آخر ما يمكن ان تزعمه التجربة التى ينطوى عليها هذا النص العربى الرائد والجرىء هو أنها تجربة كاتب مهم. لأنها فى حقيقة الامر تجربة امى من قلب القاع الاجتماعى، ومن أكثر هوامشه هامشية. وثانيها المصادرة المضمرة فى النص السيرذاتى بأنه ينطوى على قدر من الحكمة ويقدم خلاصة لتجربة، أو شهادة على مرحلة، أو مجموعة من المفاتيح لفهم شخصية كاتبها أو أعماله ولذلك يطرح محمد شكرى علينا من البداية نصه باعتباره «سيرة ذاتية روائية» فيموضعه تجنيسيا على الوتر المشدود بين جنسى السيرة الذاتية والرواية. ثم أضاف الى هذا التجنيس صفة أخرى مع الجزء الثانى من عمله «الشطار» فسماها «سيرة ذاتية روائية شطارية».

أدب الشطار

والواقع أن هذه الإضافة التجنيسية مهمة للغاية، لأنها تربط هذا النص الحديث بأدب الشطار والصعاليك والعيارين فى أدبنا العربى القديم، فهو منذ الشعراء الصعاليك فى الأدب الجاهلى أدب لا يعبأ بالمواضعات والتقاليد، وينحو دائما إلى الخروج عليها كما أن أدب «الشطار» كما يدل عليه اسمه، مستقى من دلالة كلمة شطر كما نجدها فى لسان العرب لابن منظور «شطر عن أهله شطوراً وشطارة اذا نزح عنهم وتركهم مراغما أو مخالفا وأعياهم خبثا: والشاطر مأخوذ منه وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثا . واخذ فى نحو غير الاستواء وهذا المعنى اللغوى كامن فى سيرة محمد شكرى الروائية بكل ظلاله وتنويعاته من حيث مجانبة الاستواء» بالمعنى التقليدى ، والخروج على الأعراف المألوفة بالتحدى والتمرد، ومجاله الاستواء بمعناها الحديث، وهو تأسيس مسار جديد، والخروج على التكرار والقطيعية، وأدب الشطار العربى القديم، مثله فى ذلك مثل سيرة محمد شكرى الشطارية ذاتها، أدب طالع من القاع او الهامش الاجتماعى ومناقض فى كثير من رؤاه ومنطلقاته للخطاب الرسمى السائد فى عصره، كتب عنه الجاحظ كتابا مهما قبل أكثر من عشرة قرون وهو (كتاب حيل اللصوص) وهو أدب الفقراء والجياع الذين طحنهم الفقر وأعيتهم البطالة بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن مصالح العباد، وانهماكهم فى الميذان على حد تعبير المقريزى – فضاقوا ذرعا بغياب القانون، وعيبوبية السلطان وغباوة العسكر وأهل الدولة، أو لانهماك السلطان، فى القصف والعزف، وإعراضه عن المصالح الدينية والخبرات السياسية – على حد تعبير ابن حيان التوحيدى.

سيرة تتسم بالصدق الجارح

لكن سيرة محمد شكرى الذاتية سيرة روائية كذلك، بمعنى أنها شديدة الصلة ببنية الرواية الفنية السردية، وبما تنطوى عليه هذه البنية من خيال وابتداع، لكنها رواية من نوع خاص توحد فيها الأنا

الرواية بالأنا الكاتبة ، بالأنا التى عاشت التجربة وقاست من ويلاتها . كما يتم فيها جدل خلاق بين الشفهى والمكتوب، وبين المروى والمعاش فيكسبها ذلك مذاقا روائيا متميزا شديد الحداثة، ولكنه فى الوقت نفسه بالغ التلقائية والعفوية والتواضع، لأن حداثة هذه السيرة الروائية الشطارية لا تنبع من ادعاءات التحديث كما هى الحال مع الكثيرين وكتاباتهم المثقلة بالمعاظلات، ولكن من الصراحة الصادقة والعفوية الطازجة المنعشة، ومن القدرة على العثور على اللغة المناسبة لكل جزء من أجزائها الثلاثة التى تتعدد فيها اللغات وتختلف طبيعة السرد وإيقاعاته من جزء لآخر، فهى سيرة اعترافية تتسم بالصدق الجارح، والقدرة على أن تصبح - كما يقول محمد برادة - سيرة لقراءة الذوات المغيبة والمهمشة. وسيرة فى الوقت نفسه لمرحلة مهمة فى تاريخ المغرب، وأهم من هذا كله لتاريخ مدينة طنجة التحتى وما عاشته من تحولات، لأن الجزء الأول منها «الخبز الحافى» يكتب مرحلة الطفولة والتصعلك والصبا، ويواصل مسيرة الراوى/ الكاتب/ البطل حتى سن الرشد. وبمحض المصادفة فإن محمد شكرى المولود عام ١٩٣٥ بلغ الحادية والعشرين عام ١٩٥٦ وهو نفس عام حصول بلده المغرب على استقلاله فتحولت معاناة هذا الانسان الطالع من حضيض المجتمع المغربى الى استعارة دالة على معاناة المغرب الطالع من تحت نير الاستعمارين الفرنسي والإسباني، ورافق بلوغه سن الرشد بلوغ المغرب هذه السن بالاستقلال ووعود الحرية والعدل. فتحول الكتاب برمته الى استعارة روائية شفيفة، كانت لغتها الجديدة شارة على امتلاك المغرب ذلك لغته ومصيره .

أما القسم الثانى من هذه السيرة الذاتية «الشطار» أو «زمن الأخطاء» فقد سجل تحولا بارزا فى حياة الشخصية الراوية/ البطل/ الكاتب فى آن وفى حياة المغرب الذى بدأ يعانى هو الآخر من زمن الأخطاء، أخطاء مرحلة الاستقلال وتخثر الاحلام الوضيئة بالعدل والحرية. وكان نضج الوعى فيها قرين اتساع رقعة التجربة من ناحية، وجغرافيا النص من ناحية أخرى. حيث نكتشف فيها جوانب جديدة من حياة مدينة طنجة المغوية، ونقرأ معا تواريخها السرية بمواخيرها وحاناتها وبارات الأجانب فيها . ونتعرف بالإضافة إلى هذا كله على فضاءات مغربية أخرى من العرائش إلى تطوان، وأهم من هذا كله اتساع خريطة الانفعالات والعواطف الإنسانية الحميمة من عاطفة الابوة نحو طفلة فطيمة، الى مشاعر الزمالة نحو الكفيف «مختار» والحب العذرى لمعشوقته البتول، وصداقة حميد وسعيدة وعائشة. وتضع الرواية المعرفة والتعليم فى مكان ارقى من النجاح الاجتماعى والحصول على المال. حيث ينفس عليه صديقه القديم «التفرسيتى» ما حققه من تعليم فيشعر البطل /الراوى بقيمة ما انجزه، خاصة بعدما يعرف بسجن عبدالسلام وهرب السناوى رفيقى الصعلكة القديمة فى «الخبز الحافى» كما تقدم لنا الفصول الاخيرة لهذا الجزء الثانى دراسة شائقة فى جغرافيا مدينة طنجة البشرية. وأركيولوجيا تراكمات العابرين فيها من الأجانب والشعراء والكتاب والمحيطين ويتحول النص كله تحت وقع المعالجة الحساسة والمرهفة إلى وثيقة تحرر الذات من تواريخ القهر القديمة. وتحويل الكتابة ذاتها إلى أداة لاستنقاذ الذات من قهر

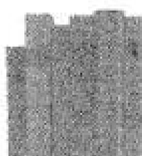
الماضى، وفتح آفاق التحقق والحرية أمامهما.

السعي وراء السعادة

ويصل هذا التحقق ذروته فى الجزء الثالث من هذه السيرة الذاتية الروائية الشطارية «وجوه» والذى صدر قبل عامين

ووجوه هى آخر نص طويل يكتبه محمد شكرى قبل رحيله، بعد نصه النقدى التأملى «غواية الشحرور الأبيض»، وهى عمل بالغ الرهافة والعذوبة، الشاعرية، يكشف لنا عن معارج ارتقاء الذات من «الكارما» التى تنحو بالإنسان إلى إرضاء غرائزه والاهتمام بنزعاته الحيوانية الخالصة إلى «النيرفانا» التي يتخلص معها الانسان من هذه الغرائز التى تشده الى طبيعته الحيوانية، ويتسامى عليها الى معارج التعالى على كل ما هو دونى وخبيث، والسمو الى كل ما هو روحى ونورانى خالص .لأن «النيرفانا» تعلمه ان يلم شتاته ليتحد مع الوجود المطلق، بعدما يدرك ان ملذات الحياة أقل من عذاباتها، وان من الافضل ان يبحث الإنسان مع شوبنهور عن طريقة للتخلص من العذاب بدلا من السعى اللامجدى وراء السعادة المتوهمة ولذلك فقد اتسمت الكتابة فى هذا الجزء الاخير بقدر كبير من الشاعرية التى تقترب من تخوم الحكمة بعدما استبدل البصيرة بالبصر، وأخذ يبحث عما يدور فى داخل النفس البشرية قدر بحثه عما يتبدى من تصاريفها، واستقطر التجربة الإنسانية فى شذرات موحية دالة، وعامرة بالبصيرة والحكمة، ويكتب لنا هذا الجزء كذلك تاريخ طنجة التحتى فى العشرين سنة الأخيرة، وما عاشته من تحولات وانهيارات اجتماعية وعمرانية مصمية. ولا يقدم لنا هذا من خلال اى زعم تاريخى، وإنما من خلال حفنة من الشخصيات والوجوه الإنسانية التى تكتسب أكثر من معنى وتتراكب عبرها الدلالات الشخصية والتاريخية والمكانية والسياسية فى آن.

وهذا التراكب العفوى فى الدلالات - والذى يسرى فى أرجاء هذه السيرة الثلاثة -هو سر أهمية هذا النص الرائد فى أدبنا الحديث ومصدر جدته معا. لذلك انفق محمد شكرى أكثر من عشرين عاما فى كتابتها. فبعد أن انتهى من كتابة الجزء الأول منها «الخبز الحافى» عام ١٩٧٢، صدر قسمها الثانى فى طبعته اللندنية بعنوان «الشطار» وفى طبعته المغربية بعنوان «زمن الأخطاء» عام ١٩٩٢ ثم صدر قسمها الثالث «وجوه» عام ٢٠٠٠ وبرغم أهمية هذا العمل الكبيرة، فإن لكاتبه أعمال أخرى مهمة مثل رواية «السوق الداخلي» عام ١٩٨٥ ومجموعتين قصصيتين: «مجنون الورد» ١٩٧٩، و«الخيمة» ١٩٨٥ وكتابان عن علاقته الخاصة بكل من جان جينيه وتينيسى وليامز بالإضافة الى «غواية الشحرور الأبيض» وهو كتاب فريد فى بابه، ليس فقط لأنه يكشف عن ثقافة الكاتب الواسعة، وإنما لأنه يقدم لنا بصيرته النقدية الثاقبة وعمق فهمه للأدب والحياة معا. و«ورد ورماد» ٢٠٠٠ وهو كتاب فريد آخر، لا مثيل له فى أدبنا الحديث لأنه يضم مجموعة من الرسائل المتبادلة مع صديقه الكاتب المغربى الشهير محمد برادة والتى تكشف لنا الكثير مما كان يعتمل فى أغوار كل منهما عبر مسيرة صداقتهما الطويلة. ■



من ذخائر الكتب العربية

لطائف أخبار الأول

فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول

الإسحاقى المنوفى

أو التاريخ على طريقة ألف ليلة وليلة

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

نتشترك كثرة من قراء التاريخ مع جمهرة من دارسيه فى الإعتقاد بأن حقبة الاحتلال العثمانى لمصر كانت بمثابة (ثقب أسود) إبتلع ماتميزت به حقب سابقة من كتابات تاريخية مازالت آثارها الباقية تشهد برقى فن التأريخ آنذاك، وهو اعتقاد ربما تسببت فيه وغذته ندرة المتاح من كتابات تاريخية تنتسب إلى هذه الحقبة التى امتدت قرابة ثلاثة قرون (١٥١٧ - ١٧٩٨م)، وذلك إذا ما قورنت بوفرة ما وصل إلينا من حقب سابقة ممثلا فى كتابات مؤرخين عظام من أمثال المقريزى - ابن تغرى بردى - ابن حجر العسقلانى - شمس الدين السخاوى وابن إياس، وهى كتابات تميزت بموسوعيتها وضخامتها واشتمالها على عديد من الفنون، بما يشهد للعصر الذى انحدرت منه إلينا بالثراء المادى والفكرى

ذو القعدة ١٤٢٤هـ - يناير ٢٠٠٤م



ولقد تصدت مدارس التاريخ العثماني في بعض الجامعات المصرية مثل جامعات الإسكندرية والقاهرة وعين شمس أخيرا لهذا الاعتقاد بالبحث عما هو متاح من كتابات تلك الحقبة لتحقيقه ومن ثم نشره، فكان من جراء ذلك أن أتيح لقراء التاريخ، ودارسيه أن يطلعوا في السنوات القليلة الماضية على كتب اهتمت بمعظم سنوات الاحتلال العثماني لمصر، نذكر من هذه الكتب مايلي:

«الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة» لمحمد بن أبي السرور البكري، «تحفة الأحباب» ليوسف الملّواني، - «الثورة المصانة في أخبار الكنانة» لأحمد الدمرداش و«تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة» لمصطفى بن الحاج إبراهيم، وينتمي كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» للاسحاقي المنوفي الى تلك المجموعة من الكتب التي اهتم مصنفوها بتسجيل تاريخ الحكم العثماني لمصر، وتجيء أهمية كتاب الاسحاقي هذا من عدة أوجه، منها أنه أول ما طبع من هذه الكتب، حيث أخرجت المطبعة الشرفية بالقاهرة طبعته الأولى في سنة ١٣٠٠هـ ١٨٨٣م، وذلك فيما ذكره يوسف إليان سركيس في ثنايا ترجمته للاسحاقي والكتاب بالجزء الثالث من كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعربة» (ص ٤٣١ - ٤٣٢)، ومنها أيضا تفرد هذا الكتاب بأسلوب للرواية التاريخية لايجده القارئ فيما سبقه أو تلاه من كتب، ومنها كذلك كذلك أنه أول كتاب عن هذه الحقبة لمؤلف من أبناء أقاليم مصر ... عاش وصنف ومات خارج القاهرة، ولما كنت قد شرفت بتقديم دراسة عن كتاب «الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة» لمحمد بن أبي السرور البكري في هلال يناير ٢٠٠٣م، فإنني أرجو بالدراسة الحالية لكتاب الاسحاقي أن أسهم في إلقاء مزيد من الضوء على أحداث تلك الحقبة وعلى تطور فن التأريخ فيها.

قاض متعدد المواهب

ولد محمد بن عبدالمعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد المغني بن علي الاسحاقي المنوفي مؤلف كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» ببلدة منوف عاصمة مديرية المنوفية قرابة مطلع القرن الحادي عشر الهجري أو في إحدى السنوات الأخيرة من القرن العاشر الهجري، كانت نشأة محمد بن عبدالمعطي بإحدى مدن الأقاليم المصرية - ومن ثم ابتعاده عن دائرة أضواء الشهرة المسلطة على المقيمين فقط بالعاصمة القاهرة - السبب الرئيسي في قلة حظه من الشهرة حال حياته وبعد مماته، وهو ما انعكس في ندرة المتاح عنه من معلومات تعنى بتقديم ترجمة وافية، وتعد الترجمة التي أفردها المحبّي في الجزء الثاني من كتابه «خلاصة الأثر في أعيان

القرن الحادى عشر» للأسحاقى هى المصدر الأقدم والرئيسى لما تناثر عنه من إشارات فى بطون كتب التاريخ والتراجم.

أسباب تأليف الكتاب

لن يجد من يتصدى لتقديم كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» أو للتعريف به خيرا مما سطره الاسحاقى مؤلفه فى مقدمته عما حداه لتأليفه ومتى حدث ذلك وكيف رتب مباحثه، فعن أسبابه لتأليف الكتاب .. يقول الإسحاقى فى الصفحة الثالثة : «فعنّ لى أن أحبر ما يليق بالجمع وأسطر مايروق بالسمع من حكايات باهرة، وأذكر من ولى مصر والقاهرة، ذاهبا مذهب الايجاز والتهذيب، آخذا عن النقل (المبرا) من التكذيب .. مما سمعت فوعيت وجمعت فأوعيت، مع إيراد ماشاهدته فى الزمن عيانا وحققت عن معنى نوادره البديعة بيانا، فكان كتابا حسنا فى بابه ..ممتعا لمن تعلق بأسبابه، أنيسا تجل مؤانسته وجليسا لاتمل مجالسته»، وأمام عن تاريخ تأليف الكتاب فإن الاسحاقى يحدد ذلك بقوله فى الصفحة الثالثة أيضا: «فجاء بحمد الله فى حاشية نسيجه الرفيع وطرّه نسخه البديع (أى الكتاب) فى دولة رافع عماد المملكة الشريفة، مجدد نظام الدولة العثمانية المنيفة، شامل الرعايا بظل معدلته الوريفة، مجمل التخت الشريف بعزّ حضرته اللطيفة.. المختص بما استق أن يكون على الخليقة، الخليقة القائم من الالتفات إلى الصلاح والإصلاح بأرفع وظيفة، الراقى مراتب العز لما كمل طالعه سعدا وشرفا، الماحى بصوارمه من بغى فى الأرض بغيا وسرفا، من إقتدى بأبيه وجده فى عدله وجده واقتفى سر سرير الملك مولانا السلطان مصطفى»، فإذا ما علمنا أن السلطان مصطفى ابن السلطان محمد قد تولى حكم مصر على فترتين، أولاهما فيما بين ثالث عشر ذى القعدة سنة سبع وعشرين وألف وثالث ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين وألف، وهى فترة امتدت لثلاثة أشهر وعشرة أيام، ثم عاد السلطان مصطفى إلى الحكم للمرة الثانية بعد مصرع ابن أخيه السلطان عثمان ابن السلطان أحمد فى تاسع رجب سنة إحدى وثلاثين وألف، وقد استمر السلطان مصطفى فى حكم مصر حتى خلع بعد سنة وأربعة أشهر، وتولى بدلا منه ابن أخيه السلطان مراد ابن السلطان أحمد فى خامس عشر ذى القعدة من سنة إثنين وثلاثين وألف، ولما كان الاسحاقى قد أنهى روايته لتاريخ مصر فى كتابه «لطائف أخبار الأول...» قرب نهاية سنة إثنين وثلاثين وألف، فإن الراجح أنه بدأ تأليف كتابه هذا فى فترة الحكم الأولى للسلطان مصطفى، وفرغ من ذلك قرب نهاية حكم هذا السلطان، وأما عن كيفية ترتيب الإسحاقى لمباحث كتابه هذا، فإنه يقول عن ذلك: «وقد رأينا أن نقّسم هذا الكتاب الى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة» (ص ٣)، أفرد الاسحاقى مقدمة كتابه للحديث عن فضائل مصر ومرات ذكرها فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية المشرفة، ورتب الأبواب من الأول إلى الثامن للحديث عن: الخلفاء الأربعة - الدولة الأموية - الدولة العباسية - من حكم مصر من نواب الخلفاء

الراشدين وبني أمية والعباسيين - دولة الفواطم - الدولة الأيوبية - دولة المماليك البحرية ودولة الجراكسة، وتحدث في الباب التاسع عن الدولة العثمانية ومن حكم مصر من ملوكها، وجعل الحديث في الباب العاشر عن من تصرف في مصر من نواب آل عثمان ووزرائهم، وأما الخاتمة .. فإن الاسحاقي يقول: إنها «في مواعظ ونصائح وسلوك وآداب السلاطين والملوك» (ص ٣).

رواية الإسحاقي التاريخية

تختلف الرواية التاريخية بين مؤرخ وآخر - وإن عاشا في حقبة زمنية واحدة - باختلاف حصيلة كل منهما من عناصر تلك الرواية، وهي عناصر تشمل أسلوب السرد والاسناد والإحاطة بعلوم عدة إضافة إلى الإلمام بتقنيات السرد، فإذا ما أخذنا في الاعتبار أن مؤرخي العصر العثماني قد انقسموا بين مؤرخين تقليديين ومؤرخين من الموظفين (د.صلاح أحمد هريدي - مقدمة «تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة» لمصطفى بن الحاج ابراهيم)، فإنه يمكن القول بأن نصيب الرواية التاريخية للمؤرخين التقليديين من عناصر الرواية كان بالغ الثراء، إذا ما قورن بنصيب رواية الصنف الآخر من المؤرخين البالغ الفقر من تلك العناصر، ولقد تميزت رواية الاسحاقي التاريخية بين روايات مؤرخي ذلك العهد بما حوته من تلك العناصر، وبما أحدث فيها الإسحاقي من تجديد جعلها وحيدة عصرها.

يختلف أسلوب الاسحاقي في السرد التاريخي كثيرا عما درج عليه سابقيه من مؤرخين، إذ يبدو أسلوب الاسحاقي في بنائه أقرب إلى الإشارات البرقية في إيجازه وتتابعه، ويظهر الاسحاقي في أسلوبه قدرة فذة على المزج بين التأريخ، والفترات الزمنية في جانبه وبين الأحداث والوقائع التي يقصها في أوجز عبارة ممكنة على الجانب الآخر، ومن أمثلة ذلك ما أورده من تلخيص مذهل لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في بضعة أسطر لاتجاوز نصف الصفحة من الكتاب، يقول الإسحاقي في الصفحة العاشرة: «وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين في ثاني عشر ربيع الأول لعشرى نيسان عام الفيل في عهد كسرى أنوشروان وقد مضى من ملكه إثنان وأربعون سنة، وأقام في بني سعد خمس سنين، وتوفيت أمه وهو ابن ست، وكفله جده عبدالمطلب إلى أن توفي وهو إبن ثمان، وكفله عمه أبو طالب وخرج معه إلى الشام وهو ابن إثنتي عشرة سنة، ثم خرج في تجارة لخديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة وتزوجها في تلك السنة، وبنت قريش الكعبة ورضيت بحكمه فيها وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وبعث وهو ابن أربعين، ...» هكذا تتوالى الأحداث والأزمنة في سيرة تستغرق المجلدات، ولكن الاسحاقي يوجزها بأسلوبه البرقي في بضع سطور، حيث يحيط قارئ كتابه علما عبر هذه السطور بأهم ماحفلت به السيرة النبوية الشريفة من أحداث موثقة زمنيا وتاريخيا، ومن مثل ذلك أيضا ما أورده الاسحاقي عن غزوات السلطان العثماني سليمان ابن السلطان سليم الأول، يقول الاسحاقي تحت عنوان (ذكر غزواته) «أول غزواته انكروس سنة ٩٢٧هـ، ثاني غزواته، رودس سنة ٩٢٨هـ، وعمل الناس لذلك تواريخ ألطفها (يفرح المؤمنون بنصر الله)، ثالث غزواته أنكروس ثانيا سنة ٩٢٩هـ ... » هكذا يمضي الإسحاقي بأسلوب الإشارات

البرقية يسجل غزوات السلطان سليمان حتى يبلغ آخر الغزوات فيقول عنها: «... ثالث عشر غزواته غزوة سكتوار وهى آخر غزواته وتوفى فيها سنة ٩٧٤ هـ» (ص ١٥٠)، إن إسلوبا كهذا يبدو منقطع الصلة بالفترة الزمنية التى عاصرها الاسحاقى، ولكنه – أى الأسلوب – يبدو متوافقا مع عصرنا الحالى بايقاعه السريع وتلاحق أحداثه، وكأنما كان الإسحاقى سابقا لزمانه بأسلوب روايته ومبشرا بما سيأتى من بعده.

الإيجاز والاقتصاد

يمثل الاسناد حجر الزاوية فى الرواية التاريخية، لذلك أولاه الاسحاقى عناية فائقة فى كتابه هذا، وقد تميز لجوء الاسحاقى للاسناد وتحقيق الروايات بسمات خاصة ليتلاءم ذلك مع منهجه فى السرد وهو منهج يعتمد – كما سبقت الاشارة – الإيجاز والاقتصاد فى بناء الرواية .. مع تلاحق المعلومات وحشدها فى سياق يماثل البرقيات وبعض الكتابات المعاصرة الشديدة الايجاز والتكثيف، إن تلك المقدرة لدى الاسحاقى أكسبت تراجمه صفات خاصة جعلتها أقرب إلى لوحات الفسيفساء منها الى التراجم التقليدية التى تشبه لوحة ذات لون واحد، لقد عُنيت التراجم التقليدية فى روايات من سبق الإسحاقى من مؤرخين بإثبات نسب المترجم له وذكر بعض أعماله وبعض ماقيل عنه .. إضافة إلى تاريخ وفاته وعمره، أما تراجم الاسحاقى فإنها تقول من خلال أضيق عبارة أشهر ماعرف عن صاحب الترجمة، وذلك من خلال مقاطع سريعة التواتر تجمع أسماء من سبعة من مؤرخين وخلاصة أقوالهم عن صاحب الترجمة،

فيض من الحكايات

يتحف الاسحاقى قارىء كتابه «لطائف أخبار الأول ... » بفيض من الحكايات تتدفق عبر صفحاته، وهو فيض لايتناسب فى عدده ولا فى تدفقه مع عدد صفحات الكتاب التى بلغت مائة وتسعين صفحة، ويمكن القول بأن كثرة ماحوته رواية الاسحاقى التاريخية فى هذا الكتاب إنما ترجع فى المقام الأول لاتقانه بعضا من تقنيات السرد، وهى تقنيات لم تدرج فى قوالب النظريات سوى فى القرن العشرين المنصرم، وتعد تقنية «توالد السرد» هى الأكثر استخداما من قبل الاسحاقى خلال الكتاب، وهى التى يمكن أن تعزى إليها كثرة الحكايات فى هذا الكتاب، ويتحقق توالد السرد، أثناء القص من خلال التسلسل أو عن طريق إحتواء كل حكاية لحكاية أخرى تحتوى حكاية ثالثة بدورها (سيلفيا باقل: فصول- المجلد ١٢ – العدد ١ – ربيع ١٩٩٤، إن توالد الحكايات داخل العمل قد يتم أيضا فى شكل قصصى فرعية أخرى قد تكون ذات أصول مغايرة لأصول القصة الرئيسية (أحمد درويش: فصول - المجلد ١٢ – العدد٤ – شتاء ١٩٩٤)، وتعد ترجمة الملك العادل أبو بكر إبن الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب – وهو من ملوك الدولة الأيوبية المذكورين فى الباب السادس من الكتاب – مثالا جيدا لتقنية توالد السرد التى اعتمدها الإسحاقى فى روايته التاريخية، فبعد أن يذكر الإسحاقى بداية حكم العادل فى معرض الترجمة له، فإنه يوقف حديثه عن هذا الحكم ليتفرع الى الحكاية الأولى التى انتقاها لروايته

مما حفلت به كتب أخرى عن سيرة هذا الملك، تدور الحكاية الأولى حول حديث عبدالله بن طاهر وبعض الزهاد ممن اجتمعوا في أيوان العادل عن العدل، يذكر حديث العدل الاسحاقي بحكاية رواها السبكي في طبقاته عن موقف بين العادل وقاضي قضاة الديار المصرية شرف الدين محمد بن عين الدولة،

تسلم الحكاية الثانية الاسحاقي لحكاية ثالثة وردت في كتاب «النصيحة» للشيخ أحمد بن عبدالسلام المنوفي. تقص الحكاية الثالثة ما حدث في مجلس القضاء بدمشق عندما تداعى خصمان لدى نائب القضاء المدعو عبدالصمد الدمشقي، يحكي الاسحاقي هذه الحكاية فيقول : « فجاء أحدهما بكتاب العادل بالوصية عليه ، فلم يفتحه (الضمير هنا عائد على نائب القضاء عبدالصمد الدمشقي) وظهر الحق لخصم حامل الكتاب فقضى له، ثم فتح الكتاب ورمى به إلى حامله وقال كتاب الله قد حكم على حامل الكتاب، فبلغ العادل ذلك فقال: صدق ... كتاب الله أولى من كتابي »! (ص ١٢٦)، ثم يمضي الإسحاقي بعد ذلك في سرد مجموعة من الحكايات حوتها كتب التاريخ ودارت كلها حول القضاء والعدل، وهي حكايات حدث بعضها في عصور سابقة مثل حكاية القاضي الإمام أباخارم مع الخليفة المعتضد... أو في عصور سحيقة مثل حكاية قضاة بني اسرائيل الثلاثة والبقرة، فاذا ما انتهى الإسحاقي من سرد جملة الحكايات التي تولدت بين يديه ولا يربطها بصاحب الترجمة من صلة سوى العدل الذي اشتق منه اسمه (العادل) ، فانه يعود إلى الحكاية الأولى التي بدأ منها توالد السرد بجملة يكررها دائما كلما تفرغت به مسالك السرد، يقول الإسحاقي في تلك الجملة دائما: « رجعنا إلى ما نحن بصدده من أمر العادل» (ص١٢٨)، لقد عمل التقاء أسلوب الإسحاقي ذي الجمل القصيرة المكثفة بتقنية توالد السرد على خلق عشرات من الحكايات التي توالت عبر صفحات الكتاب، وهو ماأمتع قراء الكتاب وضاعف من أعدادهم .

ما بين الاسحاقي وألف ليلة وليلة

يربط توالد السرد بين كتاب الإسحاقي هذا وواحد من أشهر كتب التراث وهو كتاب «ألف ليلة وليلة»، ولما كان مؤلفو «ألف ليلة وليلة» المجهولين قد أتموا صياغة الليالي بمصر قراية القرن العشرين الهجرى الذى يوافق السادس عشر الميلادى (أحمد درويش : فصول - المجلد ١٢ - العدد ٤ - شتاء ١٩٩٤ - ص ٢٥١). ولما كانت هناك أيضا بعض من نسخ «ألف ليلة وليلة» يعود تاريخها إلى ما قبل العصر الذى عاش الإسحاقي فيه بقرون وقرون ، مثل تلك النسخة التي ذكر ابن النديم المتوفى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م في كتابه «الفهرست» أنه قد رآها واطلع عليها، فإن مطالعة الإسحاقي لحكايات «ألف ليلة وليلة» بين ما طالع من كتب يعد أمرا مؤكدا، والا فمن أين جاء الإسحاقي ببعض حكايات «ألف ليلة وليلة» لينثرها في ثنايا كتابه من خلال توالد السرد؟، فمن حكايات «ألف ليلة وليلة» التي ظهرت في رواية الإسحاقي خلال هذا الكتاب ... نذكر حكاية وردان الجزار التي روتها شهرزاد في الليلتين التاسعة والأربعين بعد المائة الثالثة والخمسين بعد المائة الثالثة من ليالي « ألف ليلة وليلة» ، وقد نقل الاسحاقي حكاية وردان الجزار بنصها وحذافيرها

فى الصفحة رقم ١١٨ من خلال أحداث ولاية الحاكم بأمر الله، إن تلك الحقيقة لا تعني أن «ألف ليلة وليلة» كانت المصدر الذى استمد منه الإسحاقى حكايات روايته التاريخية التى ضمها كتاب «لطائف أخبار الأول...»، لأن هناك العديد من المصادر الأخرى التى أثبتها الإسحاقى فى كتابه حال نقله عنها، ولكن القيمة الحقيقية لإثبات هذا النقل من «ألف ليلة وليلة» إلى كتاب الإسحاقى، إنما تكمن فى التأكد من أن الإسحاقى كان مطلعا على الليالى، وأن المصدر الذى أخذ عنه الإسحاقى تقنية توالد السرد كان هو «ألف ليلة وليلة»، إن القارئ المتمعن لليالى سوف يتوقف عند مواضع توالد السرد التى برع فى استخدامها كتاب الليالى المجهولين، فمن حكايات «ألف ليلة وليلة» التى اعتمدت توالد السرد لضرورة فنية نذكر الحكايات التالية: الولد الصائغ الذى اسمه حسن - الصياد والعفريت - التاجر والعفريت - والأحدب، لذا يمكن القول بأن التأثير الأهم لـ «ألف ليلة وليلة» على كتاب الإسحاقى لم يكن فى النقل المباشر منها، وإنما حدث ذلك بانتقال توالد السرد إلى الاسحاقى ... ربما من خلال واحد من مؤلفى الليالى المجهولين، وهو ما أثرى كتاب الاسحاقى بتدفق السرد ووفرة الحكايات الشائقة.

قضيتان مهمتان

يتبقى فى نهاية هذاالعرض لكتاب «لطائف أخبار الأول فيمن ملك مصر من أرباب الدول» للاسحاقى المنوفى أن نتوقف عند قضيتين مهمتين تطرحهما قراءة الكتاب، تتعلق القضية الأولى بالبابين الأخيرين من الكتاب، حيث شهد سرد الاسحاقى للأحداث فى هذين البابين تحولا غريبا، فبعد أن طغى أسلوب السرد المقارب لمثيله فى «ألف ليلة وليلة» على رواية الاسحاقى فى الأبواب الثمانية الأولى من الكتاب، ومع الأخذ فى الاعتبار أن أسلوب الاسحاقى فى كتابه كان قويا وخلوا من العامية ويتميز بنفاسة لا يصادفها القارئ فى مؤلفات مؤرخين كبار من عصور سابقة ولاصقة لعصر الإسحاقى، فإن أسلوب الإسحاقى لسرد الأحداث والوقائع فى البابين الأخيرين من الكتاب جاء مختلفا ومقاربا لأسلوب كبار المؤرخين فى العصر المملوكى وبالأخص ابن إياس، حيث مال الاسحاقى إلى المباشرة فى سرد الوقائع، يسجل الأحداث فى سرد مباشر لا يداخله التوقف أو استخدام التقنيات الفنية للقص التى برع فى حشدها مع الأبواب الثمانية الأولى من الكتاب، ويمكن القول بأن ذلك ربما يرجع لواقع المعايشة الذى مر به الإسحاقى مع أحداث هذين البابين، وهو ما جعل المباشرة والتقريرية هما أمثل أدواته لسرد ما عايش فيهما من أحداث، يأتى هذا مقابلا لثراء المادة التاريخية المتاحة عن أحداث الأبواب الثمانية الأولى، مما أتاح للإسحاقى الكم المناسب من الحكايات والموضوعات الكافية للخروج من ضيق المباشرة إلى رحابة التجريب فى تقنيات القص.

أما القضية الثانية فإنها تختص بمجموعة من الصفحات المتناثرة فى النصف الثانى من الكتاب، وهى صفحات من الأدب المكشوف أقحمت فى سياق

أحداث الرواية التاريخية من خلال توالد السرد ، فعلى سبيل المثال جاء اقحام قرابة صفحتين من هذه الصفحات بدءا من الصفحة رقم ١٣٣ بوضع كلمة فائدة كعنوان جانبى بين قوسين ، ثم اتبعت كلمة (فائدة) بالجملة التالية: «لا بأس يذكرها عند الاحتياج إليها وهى قال المنصورى فى اعتبار علامات المماليك والجوارى» لتتوالى بعد ذلك الأوصاف الحسية والحكايات المثيرة عن علاقات غريبة وأحوال أغرب لأناس لا يعلم المرء هل هم حقيقة من أهل هذا الكوكب؟ وتبدو لغة الإسحاقى فى هذه الصفحات مختلفة عن لغته العالية فى سائر أبواب الكتاب ، ولم لا وقد شابت العامية والألفاظ الفاحشة تلك الصفحات حتى يخال المرء انعدام الصلة بينها وباقى صفحات الكتاب، هو ما كشف عنه تأمل هذه الصفحات والتدقيق فيما حوته من حكايات وألفاظ خادشة للحياء، إذ أخطأ من قام بدس تلك الصفحات الصفراء فى سياق رواية الإسحاقى عندما استعان بزجل حوى مصطلح «عمود النور» فى البيت الثالث منه ، حيث جاء هذا البيت فى السطر الأخير من الصفحة رقم ١٢١ من طبعة الكتاب الأخيرة التى أصدرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة خلال عام ١٩٩٨م فى سلسلة الذخائر، وهى طبعة مصورة من إحدى طبعات الكتاب التى أصدرتها المكتبة الأزهرية المصرية بالقاهرة فى عام ١٣١١هـ/١٨٩٣م ، وقد سبقت هذه الطبعة للكتاب أربع طبعات ، أصدرت الثلاث الأولى من هذه الطبعات المطبعة الشرفية فى أعوام ١٣٠٠ و١٣٠٣ و١٣٠٤هـ كما ذكر يوسف إليان سركيس ذلك فى «معجم المطبوعات العربية والمعربة» وقد ذكر يوسف اليان سركيس أن الطبعة الرابعة والتى صدرت فى عام ١٣١٠هـ قد خرجت من المطبعة الميمنية، فاذا ماراجعنا عدد أوراق كل طبعة من هذه الطبعات كما أثبتها يوسف إليان سركيس فى معجمه، لوجدنا أن عدد صفحات الطبعات الثلاث الأولى قد بلغ مائتى صفحة، بينما كان عدد صفحات الطبعة الرابعة مائة وأربعة وثمانون صفحة ، وأما الطبعة الخامسة من الكتاب والتى أصدرتها سلسلة الذخائر ... فإن عدد صفحاتها كان مائة وتسعون صفحة ، إن اختلاف عدد صفحات كل طبعة من الكتاب إذا ما نظر إليه فى وجود مصطلح مثل (عمود النور) ينتمى إلى القرن التاسع عشر الميلادى وما بعده بالطبعة الخامسة منه ، يؤكد أن كتاب الإسحاقى الذى كتب فى القرن السابع عشر وقبل أن تعرف مصر (عمود النور) بحوالى قرنين من الزمان ... قد تم التلاعب فى مخطوطته الأصلية التى لانعرف مكانها الآن إما بالحذف أو بالاضافة، فإن كان الحذف من المخطوطة الأولى لا يعلمه إلا الله، فإن الاضافة ماثلة بين أيدينا فيما دسته أيد مجهولة من صفحات صفراء إلى الكتاب بهدف الربح الذى تدل عليه طبعات الكتاب الثلاث الأولى فى غضون أربع سنوات فيما بين عامى ١٣٠٠هـ و١٣٠٤هـ، إن القضية الأخيرة الماثلة أمامنا فى نهاية المقال مازالت فى حاجة لمزيد من البحث والتمحيص ، وهو ما لن يتحقق الا بظهور مخطوطة الكتاب الأصلية. ■

السينما

وخطر التليفزيون

بقلم
مصطفى درويش

والعام الثالث من القرن الجديد على وشك الرحيل ، لم يبق من زمنه سوى بضعة أيام ، وجدتنى مهموما ، بما استرجعته من أحداثه على شاشة ذاكرتى .

فمن واقع هذا الاسترجاع ، كدت أقطع ، وأنا على يقين أو ما يقرب من اليقين ، بأنه عام حالك السواد .

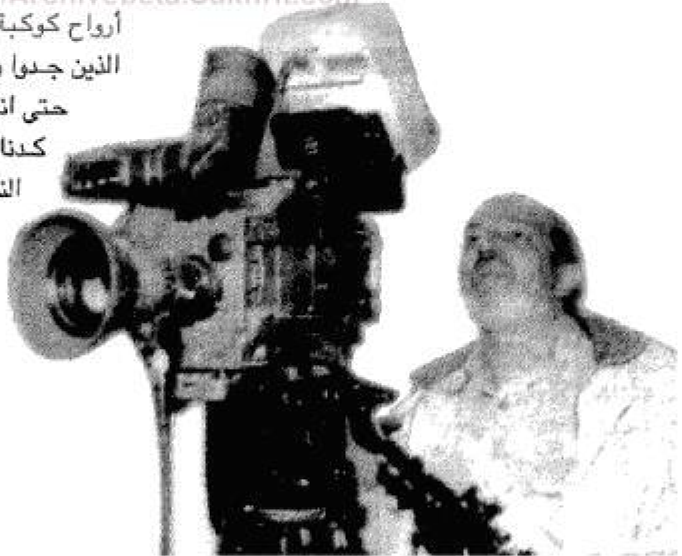
ولم لا يكون كذلك ؟ وفى ربعه الأول ضاعت الحقيقة الماثلة بين أيدينا ، فلم نرها ، لا عن علة فى البصر ، ولكن لأننا لم نعرف كيف نوجه البصر توجيها سديدا .

وما أن بدأ ربعه الثانى ، حتى كانت قد سقطت العاصمة بغداد

ومع اقترابه من منتصفه ، أخذت يد المنون تختطف ، بلا هوادة ، أرواح كوكبة من مشاهير السينمائيين الذين جدوا وأجادوا لعشرات السنين ، حتى انتزعوا المجد انتزاعا ، وحتى كدنا ننسى أنهم مثلنا ناس من الناس .

غرائب الأمور

ولم يكن قد بقى من العام سوى البعض من ربعه الرابع ، حين حدث





خالد ابو النجاء وأحمد عز نجمان صاعدان يخطفهما التليفزيون

مني زكي وعمر واكد في " نظرة عين "

فى بر مصر أمران غريبان

أحدهما :

اغلاق دور السينما ، بطول وعرض البلا د، أثناء شهر رمضان .

والآخر :

انخفاض عدد الأفلام الجديدة التى جرى عرضها فى دور السينما ، بمناسبة العيد ، إلى أربعة أفلام وحين حدث فى بلاد العم سام أمر عجيب ، لم يحدث منذ أن ألقت الحرب العالمية الثانية سلاحها ، قبل ثمانية وخمسين عاما .

هذا الأمر جنوح ستديوهات هوليوود الكبرى إلى اختيار موضوعات معظم أفلامها التى من نوع الإنتاج الضخمم ، والمعدة للعرض فى فترة الأعياد ، الممتدة من عيد الشكر (الخميس الأخير من شهر نوفمبر فى الولايات المتحدة ، حتى عيدى الميلاد ورأس السنة) ؛ اختيارها بحيث تدور وجودا وعدما حول كل ما يعد الرأى العالم العالمى . وبالذات الأمريكى ، لتقبل الحرب باعتبارها حتما محتوما .

علم قليل

ونظرالى ضيق المجال ، ولأسباب أخرى ، لعل أهمها ، إننى ما أوتيت من العلم إلا قليلا، فى كل ما يتصل بالسياسة وبحارها الواسعة ، المتلاطمة الأمواج ، أو بالحرب والسلام ، وما بينهما من فواصل وصلات ، قد يحول فهمها دون الزلل والخبط فى الظلام .

سأكتفى بأحداث الربع الأخير من العام ، المتصلة بعالم الأطياف ، فاعرض لها بشيء من التفصيل .

وابدأ بمصر ، حيث استبان لى ، قبل حوالى شهرين ، مع الاحتفال بظهور هلال رمضان ، وأثناء البحث عن دار سينما فى الجرائد اليومية بامل العثور على فيلم يستحق المشاهدة فى أولى ليالى الشهر الفضيل بأنه لا أمل فى العثور على ضالتى ، عندما لم تقع عيناى فى أية جريدة إلا على إعلانات عن دور سينما

مغلقة بحجة التجديد ، رغم إن بعضها مثل مجمع جالاكس جديد ، بل آخر صيحة فى التجديد ، ليس له من العمر سوى عام .

العدوان الكبير

وعندما قرأت ، وأنا غير مصدق ، إن التليفزيون يزمع عرض اثنى عشر مسلسلا أثناء الشهر الكريم .

وأن مخرجين كبار مثل على بدرخان ، خيرى بشارة ، على عبدالخالق ، نادر جلال ، أحمد يحيى هم الذين اخرجوا بعض هذه المسلسلات ، وأن محمد خان صاحب أيام السادات قد تكفل ، هو الآخر بإخراج فوازير رمضان .

ومعهم هاجرت إلى مسلسلات التليفزيون كوكبة من قدامى الممثلات والممثلين ، أذكر من بينهم على سبيل المثال فيفى عبده ، ليلى علوى ، صفية العمرى ، دلال عبدالعزيز ، الهام شاهين ، يسرا ، وحتى نبيلة عبيد ، نجمة مصر الأولى .

هذا عن نساء الشاشة ، أما رجالها ، فاذكر من بينهم على سبيل التمثيل يحيى الفخرانى ، محمود ياسين ، حسين فهمى أشرف عبدالباقى وممدوح عبدالعليلم .

ولم تقتصر الهجرة على القدامى ، بل شملت كذلك نجوما صاعدة ، واعدة من الجيل الجديد .

لعل أميزهم عمرو واكد نجم ديل السمكة ومن نظرة عين وأحمد عز وخالد أبو النجا نجمى «حب البنات» .

وتساءلت لماذا هذا النزيف غير المسبوق فى تاريخ صناعة سينما ، تعد الوحيدة فى الوطن العربى من الخليج إلى المحيط .

لماذا هذا القفز الجماعى من مركب السينما ، طلبا للنجاة من مركب غارقة إلى حيث النعيم المقيم فى مركب خصم السينمائيين اللعين .

بعد أعمال طويل للتفكير ، وجدتنى أرجع نكسة السينما إلى زمن موغل فى القدم ، ذلك الزمن الذى وفد فيه التليفزيون إلى مصر ، قادما إلينا من بلاد العم سام

ضحالة المعلومات

وقتها ، لافتقار صانعى الأفلام إلى معلومات يستنيرون بها فى مواجهة هذا الوافد الغريب ، لم يحسوا بخطره على صناعة السينما عندنا .

وأغلب الظن أن عدم الاحساس هذا إنما يرجع ، فضلا عن ضحالة المعلومات الصحيحة ، إلى حملة الدعاية المكثفة التى صاحبت مجيئه إلى ربوع بلادنا .

فما أكثر ما قيل أشادة بإنجاز تشييد مبنى التليفزيون القبيح ، المطل على النيل ، وإثارة لاوجه الشبه بينه وبين إعجاز شق البحر الأحمر بعصا موسى السحرية فى سالف الزمان .

ولم تمر سوى بضعة شهور على بدء البث بواسطة ذلك التليفزيون الذى ولد

عملاقا ، إلا وزفت الينا بشرى مشاهدة جميع برامجه مجانا .

وبفضل هذا السخاء ، أو السفه بمعنى أصح ، ومع دخول التليفزيون الملون ، والاقبال على شراء أجهزته اقبالا منقطع النظير .

بفضل ذلك ، أخذ عدد المترددين على دور السينما في التناقص شيئا فشيئا .

وأخذ عدد الدور التي تغلق أبوابها نهائيا ، يزداد على مر الأعوام .

وكان أن تنبه السينمائيون للكارثة التي تتهدد فنهم الجميل ، وأخذ نفر منهم يدق ناقوس الخطر ، ولكن بعد فوات الأوان .

انتصار سياسة الكم

وفي زمن تعملق فيه الأقزام ، احتدم الصراع بين فئتين ، احداهما فئة كبيرة تناصر سياسة الكم في التلفيزيون وأخرى صغيرة مناصرة لسياسة الكيف ، أي السينما .

وكعهدنا بالمعارك على أرضنا ، انتهى الصراع بلا نصر ، وبلا هزيمة لأي من الفئتين ، أو هكذا قيل لنا .

ولسوء حظنا ، كنا على استعداد أن نخدع بسراب ما يقال فالنصر كان في حقيقة الأمر ، من نصيب الفئة المنحازة بالحق أو بالباطل للتليفزيون .

فاخذت ساعات ارساله ومسلسلاته تتضاعف أكثر من مرة ، واعتماداته في الميزانية تتضخم كاورام المرض الخبيث .



نبيلة عبيد .. نجمة تليفزيون بدلاً من السينما

وكل ذلك ، كان بطبيعة الحال ، على حساب فن السينما ولأن حضارة الفراعين أخذت مدة احتضارها ، في قول شهير للفيلسوف الإنجليزي «ارنولد توينبي» زهاء أربعين قرنا فالسينما ، هي الأخرى ، أخذت تحتضر زمنا طال إلى حوالى أربعين عاما .

وليس أدل على ذلك مما حدث لها في شهر الصيام وما حدث لها بعده ، بمناسبة العيد السعيد .

اختفاء السينما

فلأول مرة في تاريخ السينما ، ولعلها المرة الأولى في دولة متحضرة ، تغلق دور

السينما أبوابها طوال شهر بالكامل ، وتختفى صفحات السينما من الجرائد القومية ، وكأنها رجس من عمل الشيطان ، مفسحة مساحاتها للإعلان عن المسلسلات .

ولأول مرة ، منذ سبعين عاما أو يزيد ، لم يتح لدور السينما أن تطرح للمشاهدة بطول وعرض البلاد بمناسبة العيد ، سوى أربعة أفلام جديدة ، أحدها مسرحية معلبة «كده أوكى» لصاحبها المخرج سمير العصفورى .

ومما يعرف عن المسرحيات المعلبة أنها ليست من فن السينما فى شىء ،

فهى ، والحق يقال ، أشبه بالكائنات المسخ فى أساطير الأولين ، مثل تلك التى لها رأس إنسان ، وجسم حيوان أو العكس .

فلاهى هذا ، ولا ذاك .

ومن الأكيد ، إن هذا النوع المسخ الذى لاهو مسرح ، ولا سينما ، ضار بالفنين معا .

وكم نبه الكثير إلى خطر الانزلاق إلى عولبة المسرحيات ، ولكن لا حياة لمن تنادى .

ويطرح «كده أوكى» من عداد الأفلام السينمائية ينكمش الجديد الذى جرى عرضه فى دور السينما ، مع مجىء العيد إلى ثلاثة أفلام هى «أول مرة تحب يا قلبى» ، «بحبك وأنا كمان» و«ن نظرة عين» .

والفيلم الأخير كان عنوانه ، وهو فى مرحلة السيناريو «باحبك وحاتجوزك» .

ابتذال الكلمات

وأول ما يلاحظ على الأفلام الثلاثة أن بينها قاسما مشتركا هو كلمة حب ، تلك الكلمة التى كثيرا ما يساء استعمالها إلى درجة الابتذال .

وأكثر ها نجاحا فى الشباك «بحبك وأنا كمان» لصاحبه محمد النجار ، وهو فيلم غنائى ، بطولة مصطفى قمر ، يشوبه من عيب التخليط الشىء الكثير .

وأقلها نجاحا ، على جميع المستويات «أول مرة تحب يا قلبى» بطولة «جالا فهمى» إخراج «علاء كريم» ، صاحب فيلم «الجراح» الفائز عنه بجائزة أفضل مخرج من المهرجان القومى للسينما ، وذلك قبل بضعة أعوام .

وأصحاب الفيلم يرجعون فشله الذريع إلى مؤامرة كبرى ، يبرها بليل المنتج !!

أما أكثر الأفلام الثلاثة تميزا سينمائيا ، فهو «من نظرة عين» العمل الأول لمخرجه ومؤلفه «إيهاب لمعى» .

ولو جنحنا إلى إجراء مقارنة بين لغة السينما فى فيلمه وبينها فى جميع الأفلام التى جرى إنتاجها وتوزيعها أثناء العام ، لجاءت المقارنة فى صالح فيلم «إيهاب» .

عودة الروح

فكم كان موفقا غاية التوفيق أولا فى اختياره «عمر واكد» و«منى زكى» ، هو لتقمص شخصية مخرج أفلام الافراح ، وهى لتتقمص شخصية العروس التى

أوقعها فى حبه ، يوم زفافها ، حتى انتهى بها الأمر ، عروسا له ، تزف إليه بدل العريس الأصلى .

وثانيا فى اختياره لاصحاب الأوار المساعدة بدءا من «سوسن بدر» لدور أم العروس و«أحمد راتب» لدور أبيها وإنتهاء بكل من «هدى سلطان» و «ماجدة الخطيب» الأولى لدور الجدة الحنون ؛ والثانية لدور الخالة اللعوب .

وكم كان موفقا فى تحريكهم على نحو أدى إلى نجاحهم فى أداء أدوارهم ببراعة فائقة ، فلم تصدر من أحد منهم حركة أو نبرة فيها غلط أو نشاز .

وإن كانت «منى زكى» قد عاب لياقتها البدنية أنها كانت حاملا ، أثناء التصوير !!

وكذلك كان موفقا فى تحريك المجاميع ، لا سيما معازيم الفرح فى منزل العروس ، وفى الفندق الفخم ، حيث الفرح والزفاف .

ومن مزايا الإخراج الأخرى اعتناء «إيهاب» بالتفاصيل أشد عناية ، واهتمامه بتكوين اللقطات ، وبدرجة الإيقاع الذى جاء سريعا ، لاهثا متلائما مع روح القصة المتأثرة إلى حد ما «بمخططة الأفراح» ، ذلك الفيلم الأمريكى الذى تقاسم بطولته «ماثيو ماكونوجى» و «جنيفر لوبيز» ، وجرى عرضه عندنا قبل عام .

وهنا ، لا يفوتنى إن أشير إلى أن تأثر المخرج ، وهو فى نفس الوقت كاتب

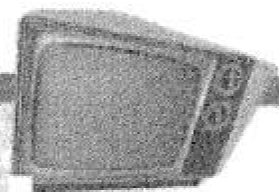


راسيل كراو في "سيد وقائد"، أحد افلام هوليود الحربية

السيناريو ومصمم الديكور ، لم يكن تأثرا دون تصرف ، بل كان تأثرا محسوبا ، روعى فيه الاختلاف الكبير بين طريقة الحياة والتفكير عندنا ، وعند أبناء وبنات العم سام .

وهذا ، ولاريب ، أمر يحسب لرصيد مخرج جديد ، فيلمه الأول يدل على أنه صاحب روح مرحة ، وفهم عميق للغة السينما .

ولعله ، هو وأمثاله الواعدون ، يعيدون بأفلامهم الوعى بأهمية الفن السابع ، ويعيدون الروح إلى صناعة سينما كانت حديث الناس إلى عهد قريب . ■



المتفرجة

الهطل

بقلم
مرفت رجب

ولما كنت من المتشبثين بخيط النور الأبيض للنهار يقطع ظلمة الليل ، تسرنى رؤيته وهو ينشر نوره يلف به الدنيا مُزيحا ظلام الليل يغلبه فى غير جلبة، ولما كنت من الساعين للفوز بهذا الحلول المهيب أتلمس أبعاد رسالته اليومية بأن اليسر قادم لا محالة مهما استحكمت حلقات ضيق عسرٍ لا نرى منه انفلاتا، ولما كنت من الموقنين بأن ما يعرض على شاشاتنا وثيق الصلة بما نريده لأنفسنا ولبلادنا فى الحاضر كما فى مستقبل الأيام، فمن أجل ذلك حكمت على نفسى وفرضت، فى كل يوم حصة من كأس الفرجة تتجرعه ، والتوق يلف السعى يُمنّيه دوما بيوم يتبدل فيه ما فى الكأس من حنظل إلى شهد مراق .

كان المفروض أن أغتبط، ولا شك أننى سررت وأحسست بابتسامة الرضى تتشكل على وجهى، فضحكت منها ومن نفسى التى ذكرتنى بأن إذاعة هذا المسلسل تأتى بعد عام كامل من نشر أولى مقالاتى على صفحات «الهلال» (ديسمبر ٢٠٠٢) والتى نشرت بعنوان «السيد الوزير» وهو عنوان واحدة من أشهر الحلقات المتصلة المنفصلة التى تذاع على التليفزيون البريطانى، وكان عرضى المفصل لاحدى حلقاتها وسيلتى للاقناع بقيمتها ونجاحها، وكذلك لما تضمنته تلك الحلقة التى قمت بعرضها فى المقال من إشارات صريحة وضمنية لواقعنا المعاصر بما مكننى من التطرق إلى ما فيه من تردى أحوال الإنتاج الدرامى فى بلادنا مقارنة بما كان له فى السابق من أمجاد.

وبصراحة، لم يكن المهم عندى أن أحداً قرأ فاقتنع فاستجاب، لكن المهم أن الهدف تحقق، وأن التمثيليات من نوع الحلقات المنفصلة بدأت تجد طريقها إلى شاشاتنا مرة أخرى، لكن الفرحة للأسف لم تتم، ومع ذلك، وبرغم إدراكى الآسف أيضا أن إذاعة حلقات حكايات زوج معاصر قد تضر أكثر مما تنفع إن ركز الناس على عيوبها فنفروا من مثل هذا النوع من الإنتاج، بالرغم من كل ذلك إلا أننى عزمت أمرى أن أخصها باهتمام هذه السطور، دعما وتشجيعا وتشبثا بهذا الصنف من التمثيليات منفصلة الحلقات لعلها فى المرة بل المرات القادمة، أن تمسك بما أفلت من بين أصابع الزوج المعاصر!!

أصعب الأسئلة

ولقد أتت تلك الحلقات بإجابات ميسرة على أصعب الأسئلة التى أربكت جميع مسلسلات رمضان وبلا استثناء ومن الممكن أن نبدأ هنا بأهم سؤالين أولاهما: أولاً موضوع المسلسل وثانيا: من يقوم بالأدوار.. ولقد نجح مسلسل حكايات زوج معاصر - منفصل الحلقات - فى أن تأتى كل حلقة منه لتعالج واحدة من المشكلات المعاصرة لشبابنا ومن فرط قرب الأحوال بما نلمسه فى أسرنا وجيراننا، ولبساطة المعالجة فى معظم الأحيان كان الطريق إلى مسرة القلب سهلا وهو يضحك من طرافة حل مشكلة الأب ذى الابن الوحيد والأم ذات الابنة الوحيدة، فحين يلتقى الشاب بالفتاة ويتآلفان بما يمهد للارتباط بالزواج، نجد الحلقة تنجح فى سبك تنامى العواطف بين أبى العريس وأم العروسة لتنتهى بالتبات والنبات والهنا إلى المات لأبطال التمثيلية والانشراح والمسرة للمشاهدين الذين لا شك يسعدون بفضل الجمع بين سلاسة وواقعية تناول المشاكل، فمثلا البطلة الشابة تدرس فى الدراسات العليا فى كلية الهندسة، لكن سكنها فى الإسكندرية يصعب متابعتها للمحاضرات فى القاهرة ويزيد من المشكلة أن لها عملا وأماً يربطانها بالإسكندرية ويأتى الحل المبتكر العملى فى شكل إعلان صغير تعلقه على لوحة الإعلانات بمدخل الكلية تحدد



فيه طلبها للعون ممن يرغب من الزميلات والزملاء فى إعارتها ما يفوتها من المحاضرات وإذا كان الشاب المهندس بطل الحلقة يجمع إلى الهمة فى الدراسات العليا إقداما على مساعدة زميلة ، فإن البريد الإلكترونى والتليفون ثم اللقاءات الشخصية تصعد الأمور إلى مبتغى جميع الأطراف ، وكل ذلك فى حلقة واحدة، ليأتى ما بعد بمواضيع أخرى، وعلى هذا النحو يتضح أن ما تناولته الحلقة مشابه لما قد يصادف الشباب فى بلادنا بصرف النظر عن فئتهم وتباين مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية وهو ما يتناقض بالكلية مع ما ورد فى زحام مسلسلات رمضان من إلحاح على التشوهات الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية فى حياتنا وكأنما الاتفاق بين الكتاب كان على التركيز على المفاسد بالخصوص، ولقد أفسح هذا النهج المجال لمبادرة البعض بالقول بأن هذا مقصود وإذا ما حاولت إحراجهم بالسؤال عما كان مقصوداً فى رأيهم أجابوا على السؤال بسؤال، كيف إذاً نفسر هذا الاجماع على كشف عورات المرحلة فى كل مسلسلات رمضان؟ والإجابة عندى أن المناخ العام هو الذى أنتج ما فسره البعض على أنه عمد وقصد مع سبق الترصد، فالذى حدث أن الكتاب على طريقة «أحلامك أوامر يا بك» فهموا الحملة الصحفية التى تصاعدت على مدى أيام وشهور ٢٠٠٣ تفضح ممارسات أنشطة الأعمال فى بلدنا وتحاصر القائمين عليها بما تم حبكه حولهم من اتهامات بالفساد - واقعية أو مفبركة - والتقط الكتاب من هذا الفهم أن هذا هو المطلوب وما يتوقع أن يعتمده القائمون على أمر الإنتاج الدرامى فى القطاعين الحكومى والخاص على حد سواء، ولما كان الكل يدق على وتر «أحلامك أوامر يا بك» ، ولما كان الكل - فى هذا الاتجاه - غافل عن الآثار السلبية لنشر الغسيل القذر على عموم المتلقين، ولما كان الكل إما جاهل أو متجاهل لهذه الأبجدية الإعلامية ولتداعياتها السلبية على اقتصادنا الوطنى بعد بعثرة كرامة رجال الأعمال ونساء الأعمال، وبعد الهزء من دوافعهم والتركيز الدائم على دناءة تلك الدوافع واعوجاج ما تلبس معها من مسارب، وقبل كل ذلك وبعده، نظراً للغياب الكامل لأى تنسيق فعلى ومراجعة مدققة للنصوص الدرامية ، كان من الطبيعى أن تأتى النتيجة على ما أتت عليه، لتفقد تلك الأعمال مسوغات ظهورها على الشاشة ، فهى وقد أتت خالية من أى إمتاع أو ترفيه أو تنوير شكلت فيما بينها مسوغات إدانة لكل من كان له بها صلة من قريب أو بعيد بعد أن أحكمت على البلاد والعباد قبضتها ليعم الهم والغم بغير حدود!!

وإذا ما اكتفينا بهذا القدر فيما يخص الاعتبار الأول وهو الموضوع المختار لأى عمل درامى، نستأذن فى الانتقال إلى الاعتبار الثانى وهو من يقوم بالأدوار ؟، وفى هذا أيضاً نجح مسلسل «حكايات زوج معاصر» فيما خابت فيه جميع مسلسلات



رمضان، فالذين قاموا بالأدوار الرئيسية فيه لم يتكرر ظهورهم فى بقية مسلسلات رمضان - باستثناءات قليلة - مما أتاح لنا قدرة على احتمال مشاهدتهم بعد أن جاءت بقية مسلسلات رمضان لتقضى بالكامل على أى قدرة فينا لاحتمال رؤية من مثلوا فيها ، وإننى لا أملك هنا إلا أن أعبر عن شعورى بالمرارة والخسارة لأن هؤلاء الذين شاركوا فى أعمال درامية ظهرت فى رمضان فيهم ممثلون يعتز فن التمثيل المصرى بهم كما أنهم نجحوا من قبل فى تحقيق معزة لهم فى قلوب مشاهديهم لكن الاصرار على القيام بأدوار لا تناسبهم لا من حيث الشكل ولا الموضوع أفقد هذه المجموعة معظم أرصدتها الإيجابية وجعل البعض يطالبهم - بالجملة - بالاحتجاب الكامل عن الشاشة لسنوات قادمة ، حتى ينسى الناس ما اقترفوا فى حقهم من آثام، وحتى يتفرغوا لدراسة امكاناتهم الحقيقية وامكانات تطويرها، لعلهم أن يطوروا قدرتهم على حسن الاختيار، أما حكاية تكرار ظهور الممثلين فى أكثر من عمل يذاع فى اليوم نفسه فتلك كارثة أخرى زادت من غيظ الناس وضجرهم ، وجعلت مجموعة الممثلين موضوعاً دائما للسخرية والتندر!!

أما تواتر ظهور هؤلاء الممثلين فى برامج أثناء رمضان وبعده ، عزفا على لحن «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» فهو أمر لا يثير فى النفس سوى الإشفاق وإن كان البعض قد انبرى للتعليق بالقول إن من حق الكذابين أن يصدقوا بعضهم ، أما التعامل مع جماهير المشاهدين فى بلدنا على أنها جماهير من الهطل ، (جمع أهطل) فليس الرد عليه سوى بالقول بأن الهطل الفعلى هو فى صم الآذان عن السؤال الملح للجماهير ، فيما كان انفاق كل تلك الملايين التى يقال إنها أنفقت على مجمل تلك الأعمال؟؟!!.. والهطل الحقيقى هو فى الظن بأن الأجيال القادمة ستعجز عن تحديد من هم «المفسدون فى الأرض».

الخروج من المأزق

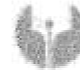
وفى بلدنا من قديم الأزل من يقول «اعطى العيش لخبازه» فخباز العيش البلدى، أى الذى يليق بأهل بلدى رجل حصيف عرّيف ، يعرف أنواع الدقيق والخبيز ويختار لكل منها ناره ودرجة صلابته، ومثله ينطبق على القائم بأى حرفة أو فن لذلك تساءلت ، من أين أتت مخرجة «حكايات زوج معاصر» بهذا اللون الكمونى الفاتح الذى يغطى مقاعد تأييد ظهورها فى كل الحلقات تقريبا والإشارة هنا إلى أن تصميم المناظر والأثاث خلا من أى تنسيق فى الألوان كما خلا حتى من الإلمام الفطرى بتجانس الألوان، أما عن مكاتب الموظفين التى تؤكد أنها وارد بائعى الروبابيكيا وسلق الأمور وخطابية الحوار فى بعض الحلقات فكل ذلك يهدد تجربة القطاع الخاص فى هذا النوع من الإنتاج، ومازال السؤال ملحاً لماذا فشلت التجربة عندنا ونجحت فى بلدان أخرى شقيقة أو صديقة مثل سوريا والهند ؟؟!!



حصاد عام مضى

كونه أشد الأعوام بؤسا وحزنا ودماراً . فإن حصيلة فكر معايشيه كانت تعمل هموماً لا نهاية لها . وتركت الأوضاع المتردية ظلالها على كتابات وقراءات رموز الفكر والإبداع . فأمريكا التى كانت يوما تمثل الحلم القابع وراء المحيط أصبحت هى أم المشكلات . وانصبت سلسلة من الاصدارات على مدار العام حول هيمنتها - التى تحولت إلى بطش عسكرى - وحول فلسفة الغرب الأوربى والأمريكى فى إعادة كتابة التاريخ . بل وحققت أعلى نسب مبيعات .





الأكثر توزيعا

جاءت حصيلة الكتب والاصدارات الأكثر توزيعا منقسمة بين موضوعين : الآثار والتاريخ ، واليكم احصائيات عدد من دور النشر بالكتب الأكثر تويجا :

المجلس الأعلي للثقافة ينال معجم تاريخ مصر . والكتاب المترجم «الفن والحياة فى مصر

الفرعونية أعلى نسب مبيعات على مدار العام . «أما الهيئة العامة للكتاب فتسير على نفس الخطى فيحقق كتابى «وصف مصر» و«عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» للجبرتى أعلى النسب . دار الكتاب الغربى نال كتابها «حرب صليبية بكل المقاييس» الكاتبة د. زينب عبد العزيز . كذلك مكتبة مصر نالت موسوعتها أعلام الفن العربى أعلى الأرقام . أما دار الفكر العربى يحصل كتابها «الدولة العثمانية» للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن على النسب الأعلى . يختلف الأمر نوعاً ما فى دار غريب التى يتصدر القائمة «تفسير القرآن الكريم» للدكتور عبد الله شحاته . كذلك دار قباء حيث يتصدر كتاب الدكتور احمد تيمور «العلاج بالأوزون» أما نهضة مصر فيحتل كتاب أنيس منصور «شارع التنهدات» النسب الأعلى . أما دار الهلال فيحتل كتاب «بيرم التونسى قيثارة الفن» لعبد الغنى داود رأس القائمة .

تراجعت نسب توزيع الأعمال الابداعية داخل دور النشر لكنها لا تزال تجمع حولها آراء المثقفين إيماناً بقيمة عدد منها . فنجد أن الأعمال الكاملة للشاعر المتمرد أمل دنقل لا تزال تحصد أعلى نسب مبيعات طبقا للمجلس الأعلى للثقافة وإن كان الدكتور جابر عصفور يختار رواية ابراهيم اصلان «خلوة الغلبان» كأفضل عمل ابداعى . فى حين اختلفت الآراء مثل رواية «نداء السنونو» لمروة الخطيب التى فضلها محمد جبريل فى الوقت الذى اختار روايته «ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله» كل من أحمد حسين الطماوى وحسنى سيد لبيب كأفضل رواية لعام ٢٠٠٣ (صادرة عن دار الهلال) . ويختار صبرى موسى رواية «نوة الكرم» لنجوى شعبان أما الروائى حسن نور ليختار عمل الشاب هشام علوانى «تغير الكائنات كأفضل رواية .

الامبراطورية الأمريكية
والإغارة على العراق
المؤلف: محمد حسنين هيكل
الناشر: دار الشروق

يبحث في تاريخ الامبراطورية الأمريكية في ظل ما يجرى في العراق من ممارسات لقوى تثير الألم والوجع من الفكر العربي المعاصر. خاصة أن الولايات المتحدة التي عرفتها الدنيا نشأت مهجراً ومنفى وملاذاً لعينات مختلفة ومتناقضة من البشر. وبالتالي «لم تقم على قاعد شعب بعينه أو أمة بذاتها أو عقيدة حلت في قارة من الأرض دبطت ناسها «بل نشأت وظهرت في إطار مغامرة تاريخية نادرة. فاختلفت في كافة الامبراطوريات التي ظهرت على مدى التاريخ (البريطانية الرومانية - النمساوية - الروسية - الاسلامية - البيزنطية).

لذا يؤكد هيكل في كتابه أن «الامبراطورية الأمريكية لم تستطع في أي وقت أن تستوعب فكرة الوطنية الموحدة أو فكرة القومية الجامعة أو فكرة الربط الديني الواسع وبالتالي فإنها عند تعاملها مع أطراف تستند على مثل هذه الأسس. وقفت أمام حاجز ثقافي منيع أدى بها إلى مشاكل .....»

لذا نجد «هيكل» في مستهل كتابه يؤكد أربع حقائق تمثل مشكلة المشاكل للعالم العربي. أولها صعوبة إقامة صداقة حقيقية مع الأمبراطورية الأمريكية، ثانيها خطورة الدخول في عداء مطلق معها وثالثها أن الانزلاق في العداء إلى النهاية يصل بأصحابه إلى حالة الكراهية العاجزة تضرهم أكثر مما تصيب غيرهم ورابعها استحالة الصبر إذا توهم العرب أن بامكانهم تجاهل الامبراطورية الأمريكية وتركها لعوامل الزمن تعريها وتكسر شوكتها كما حدث لامبراطوريات سبقتها ..



أساطير بيضاء - كتابة التاريخ والغرب
المؤلف: روبرت يانج ترجمة: أحمد محمود
الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

ينتقد نظريات التاريخ المعاصرة التى تحمل الرؤى التاريخية الغربية للعالم خارج الحدود الأوروبية . وهى نفسها المشتقة إلى حد كبير من آراء كوجيف ولوكاش وهيجل والاساس الفلسفى للماركسية . ويقدم سلسلة من التحليلات لعدد من نظريات التاريخ والتعقيدات التى ارتبطت بها . ظهر خلال فترة التسعينات ليقدم «دراسات ما بعد الكولونيالية» ويتناول أعمال إدوارد سعيد وهومى بابا وجايا ترى سبيغاك بالبحث فى فصوله الأخيرة . ويتحدى دعاوى المعرفة من خلال اعتماده على نظرية التاريخ الجدلية التى يزعم البعض أنها موضوعية كما يقول «يانج» . لذا نجده يستعرض كافة الرؤى التاريخية التى ظهرت فى أوروبا ويقابلها بالرؤى الأخرى التى بدأت من العالم خارج الحدود الأوروبية. لذا نجد الأساطير البيضاء هى كما يرى جامعها «قصص تمثل أنواعا شتى من التاريخ لا يمكن اختزالها رغم تشابهها إلى قصص أخرى أو إلى إطار واحد . فهى تواريخ روايتها يمكن روايتها بأشكال عدة وقولها بطرق مختلفة وتصورها بأكثر من منظور .. فالكتابة عن تواريخ دول القارات الثلاث . قارات الجنوب الثلاث تعنى الكتابة عن هفوات التاريخ نفسه عن الفضاءات التى طمسها البياض القاسى الذى لا يعرف الرحمة» فيتحدث عن مبالغات سارتر ودفاعه عن الماركسية وفكرها الجدلى على اعتبارها التفسير المشروع الوحيد للتاريخ . وعن أوهام ميشيل فوكو والتى يعتبرها من أشد هجمات ضراوة عند نظريات التاريخ .

ويبحث فى استراتيجية فردريك التى تمكن الماركسية فى مواجهة ما بعد البنيوية وذلك عن طريق تجميع كل الماركسيات فى ماركسية واحدة واستيعابها تحت رعاية التاريخ الكلية .

ويقول «يانج» عن كتابه إنه محاوله للنظر للغرب من وجهة نظر مختلفة محاولة للقراءة من اليمين إلى اليسار بدلا من القراءة من اليسار إلى اليمين . ويطرح تساؤلات .. هل العالم عالم واحد أم اثنان أم ثلاثة ؟ هل الغرب واحد أم أكثر من واحد ؟ هل للغرب وجود على الاطلاق ؟



بيرم التونسي - قيثارة الفن
المؤلف: عبد الغني داود
الناشر: دار الهلال
كتاب الهلال

كثير من أعمال بيرم التونسي تكاد وتندثر وتنمحي آثارها . لذا صدر كتاب يبحث عن الأعمال المفقود أو الضائعة له . خاصة أنه ألف واقتبس وأعد ما يقرب من عشرين أوبريت جاء أغلبها في فترة ما بين الحربين العالميتين بالإضافة إلى حوار وأغاني حوالي خمسين فيلما سينمائيا وكتب مالا يقل عن عشر تمثيليات ومسلسلات وبرامج غنائية للإذاعة لقيت نجاحاً شعبياً كبيراً في زمانها . ويسرد التفاصيل التي ارتبطت بعلاقة «بيرم» بفن الأوبريت مثل أوبريت «شهر زاد» الذى قدمه لأول مرة عام ١٩١٩ ووقتها لم يكن يتجاوز عمره السادسة والعشرين ثم تقديمه لأوبريت «ليلة من ألف ليلة» الذى قدمتهن فرقة فاطمة رشدى فى ١٩٣١ ، «واوبريت عقيلة» والمقتبس عن نص مسرحية «ميديا» المأساة اليونانية التى كتبها «يوبيدس» وغيرها فى الأوبريتات أشهرها «يوم القيامة» و «عزيزة ويونس» و «مايسة» و «مدام بترفلاى» . ويقدم الكتاب عدداً من أعمال بيرم التونسى فى مسرح العرائس مثل «الشاطر حسن» الذى وضع ألحانه علي اسماعيل وصمم ديكوراتها ناجى شاكر وأخرجتها مدام جينى بروفتش وهو عبارة عن مزج بين الحدوتة التقليدية فى جو فانتازى حيث يصيح الديك ليوقظ كل حيوانات وطيور المزرعة لينضم إليهم كل المخلوقات التى ترعب الأطفال مثل الغولة الحدأة وابو رجل مسلوخة . ويوثق الكتاب الأوبريت بكتابة أشعاره كلها . ويختتم «داود» كتابه باستعراض الأعمال السينمائية التى شارك فيها «بيرم» بأشعاره .



خلوة الغلبان
ابراهيم أصلان
الناشر: دار الشروق

حكايات بسيطة تدور حول يوميات أصلان مع أصدقائه قرنائه وحتى البشر الذين لا يعرفهم .. مجموعة تكتمل لتحكى حياة مبدع بتفاصيلها التى يرى البعض مدى عاديتها وإن كانت تغوص فى الأعماق وتكشف أكثر ماتستر عنها بصدق وبلا

موارية أو تجميل . وهى طريقة اصلان فى سرد تفاصيل الحياة بقسوتها وبغرابتها وبهمها الذى لا ينتهى . بداية بحواره القليل الكلام مع سائق التاكسي إلى جانب لقطاته الخاطفة من داخل أحداث عاشها مثل معرض القاهرة الدولى للكتاب ، لقائه بالعقاد ، عشائه مع عبد الوهاب البياتى ، وعلاقته بنجيب محفوظ ، وسفره مع جمال الغيطانى وذكرياته مع يحيى طاهر عبد الله . حتى يصف علاقته بالمكان المحيط به بدءا من كيت كات أمبابة مقر سكنه وبحى جاردن سيتى ومكتبه فى جريدة «الحياة» . عمل جديد على أصلان وإن لا يختلف كثيراً عما يتوقعه القارئ منه . منذ مجموعته الأولى «بحيرة المساء» وحتى روايته «مالك الحزين» يقدم عمله غير العادى بشكل واسلوب عادى جداً بلا تكلف أو تحذلق إنما بسلاسة الرجل الشارع البسيط .



ما ذكره رواة الأخبار - عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمره
محمد جبريل
الناشر: دار الهلال روايات الهلال

الحاكم بأمره من أغرب حكام الدولة الفاطمية وأكثرهم إثارة للدهشة . سيرته التى تسردها كتب التاريخ تمتلئ بالحكايات التى تصل إلى حد الأساطير والخرافات .. عن الزهد فى الحياة والحكم والجاه وأخرى عن الوشايات والدسائس والخيانات ... وأختفى الحاكم بأمره ليضيف بذلك أسطورة جديدة إلى أساطيره الأخرى . ويظل لغز اختفائه تتحدث عنه الناس والمؤرخين حتى يومنا هذا . رواية جبريل هى محاولة لسرد تفاصيل حياة حاكم غريب الأطوار وسط عالم يستمتع فيه البشر والعامة بتصديق الخرافة .. وبالتالى جاءت روايته لتغزل التاريخ بالخيال حول حكم الفاطميين .

ولفترة عاشتها مصر لاتزال ظلالها تعيش بيننا من خلال الآثار الاسلامية البديعة داخل أسوار القاهرة القديمة التى بناها الفاطميون . تتناول الرواية قرارات الحاكم بأمره الغريبة مثل تحريم أكل الملوخية والجرجير والترمس .. وإصراره على تغيير عادات وسلوكيات الناس بالقوة والارهاب حتى أنهم اعتادوا رؤية الرؤوس المقطوعة والمعلقة على الرماح خارج أسوار المدينة على جبل الدراسة دون استغراب أو اندهاش . وتنتهى الرواية بلغز اختفاء الحاكم بأمره وتطرح التساؤل التاريخى هل قتلته أخته ست الملك بالسم أم قتله مجموعة من اتباعه بالمقارع والشوم أم أنه ارتفع إلى السماء ولن ينزل إلى الأرض الا عندما تأتى الساعة .. □

سينما محرم بك

قصة : مصطفى نصر

يعرف طارق سينما محرم بك منذ طفولته. حيث قريب جدا منها. يذكر طارق يوم أن جاءوا بمعظم تلاميذ المدرسة القريبة من السينما، سائرين في صفوف منتظمة، والناس حولهم، والتلاميذ الذين يحملون شارة الشبيبة في المقدمة والخلف. يومها وقفوا صفوفا أمام دار السينما يشاهدون «بلا شك» فيلم «رد قلبي» شكري سرحان في دور الضابط، والأميرة التي أحبها (مريم فخر الدين) بملامحها الرقيقة ووجهها الجميل.

أيامها كانت مدارس المنطقة التعليمية تنقل تلاميذها للسينما، كل مدرسة لها يوم بالتنسيق مع إدارة السينما، فالفيلم يسجل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

والد طارق يعرف العاملين في السينما فهو يذهب إليهم لإصلاح آلات العرض، يجلس معهم، يحكون له ويحكي لهم.

يدخل طارق السينما في أي وقت يشاء، وبدون تذاكر، عندما يهل على

العاملين فى السينما، يصيحون فرحين: «أهلا طارق» يدخل صالة العرض ويأتون له بزجاجة مرطبات.

فى ذلك اليوم جلس قريبا من البوفيه، وأمامه مائدة فوقها زجاجة مرطبات. لم يبدأ عرض الفيلم الذى جاء من أجله، ففتح رواية «أناكارنينا» وأخذ يتصفحها. اقترب مدير السينما منه، ربت فوق ظهره: كيف حال الوالد؟

- بخير. جئت لكى أرى فيلم «نهر الحب» فقد قرأت الرواية ولم أر الفيلم للآن. دخلت امرأة تميل للامتلاء. وجهها مستدير جميل. لم يلاحظ طارق دخولها أول الأمر لكن الجلبة التى صاحبتها جعلت المدير يترك طارق ويسرع إليها. التف العاملون حولها، ابتسموا لها كانت ترتدى عباءة سوداء معقودة حول رقبتها بـ «زرار» ذهبى. يبدو من ملامحها ومجوهراتها مدى غناها ابتسمت وهى تتحدث. تذكر طارق وجه أمه حينذاك فوجه المرأة قريب من وجه أمه. جلست أمام المائدة البعيدة والقريبة من باب صالة العرض، اسرعوا بوضع زجاجة مرطبات أمامها ابتسمت وضحكت فازداد وجهها جمالا واحمرارا ترك طارق كتابه وتتبعها.

اقترب أحد العاملين من طارق جلس بجواره دون أن يحس، فقد كان مشغولا بتتبع المرأة الجميلة. حول وجهها هالة من نور قال الرجل: ما رأيك؟

ضحك طارق فى براءة: فى أى شئ؟

- فى المرأة

- وجهها فيه وقار

ضحك الرجل حتى نظرت المرأة نحوه تاركة العديد من العاملين الذين مازالوا يلتفون حولها.

قال الرجل إنها تسكن قريبا من السينما غنية جدا، بلا رجل.

- لماذا؟

مط الرجل شفتيه:

قد يكون زوجها قد مات، أو طلقها أو.. كل ما أعرفه أنها بلا رجل.

- رأيتها كثيرا فى السينما، وفى كل مرة أطيل فى متابعتها.

- تأتى مرة أو مرتين فى الأسبوع وأحيانا ثلاثة.

- تحب السينما إلى هذه الدرجة؟

- لا أنها تأتى من أجل شئ آخر.

ثم أكمل دون أن يسأله طارق فى هذا الشئ الآخر: تأتى بشاب صغير يجلس بجوارها ويلبى رغباتها.

دهش طارق: إنها كالملاك.

دخل رواد السينما، تزاحموا. تابعتهم المرأة وهى جالسة مكانها وبدأ عرض الفيلم الأفرنجى قامت وهى تتابع طارق مبتسمة غابت فى ظلام السينما وعاد طارق إلى كتابه سأله محدثه ألن تشاهد الفيلم الأجنبى؟

- لا، جئت من أجل الفيلم العربى.

قال طارق بعد أن وضع الكتاب مفتوحا فوق المائدة: ولماذا لا تعترضون على وجود الشبان الذين يأتون معها؟

- نعترض؟! إنها تطعم كل العاملين فى السينما على حسابها، وتقدم الهدايا للجميع عادت المرأة ثانية، وكانت تدق الأرض بحذائها الذى يصل إلى ركبتها فى عنف وعصبية قال محدث طارق: الظاهر لم يعجبها رفيق اليوم.

اقترب العاملون منها. تحدثت فى عصبية ودقت المائدة بيدها أخذوا يهدئونها. ربت مدير السينما على ظهرها حانيا رجعت بظهرها إلى مسند المقعد العريض وتنفست بصعوبة. كان طارق يتابعها وكأنها لوحة جميلة لرسام مشهور، هدأت المرأة أحنت رقبتها قليلا وتحدثت مع مدير السينما. أحنى الرجال رقابهم ليسمعوا ما تقول تحدثوا معها، بعضهم ابتسم والبعض أظهر اعتراضه ودهشته اقترب بعضهم من طارق. كان فى مقدمتهم مدير السينما الذى وضع ذراعه فوق ظهر طارق وقال: الست تريدك.

- كيف؟

- أنت شاب قوى

قال الرجل الذى مازال يجالس طارق لقد قلت لك عن سبب مجيئها إلى السينما.

- لكننى لا أحب هذه الأشياء.

إنحنى مدير السينما حتى لامست شفتاه أذن طارق كلنا نسترزق من هذه المرأة.

وقف طارق فزعا: أرجوكم أرجوكم.

قالها فى صوت مرتفع فساروا بعيدا عنه عادوا إليها، تحدثوا معها وقال محدث طارق:

- حد لاقى

صاح طارق وقد وقف استعدادا للرحيل: لا.. لا أستطيع

التفوا حوله ثانية أحدهم وضع يده فوق كتفه وأجلسه ابتسموا له: كن رجلا.

وقال آخر: لا تخف، لن نخبر والدك بذلك.

فجأة قامت المرأة من مكانها وجاءت إليه أرجوكم، أتركونا معا.

تباعدوا مسرعين جلست بجواره، ابتسمت له. وجهها جميل، عندما تفحصه طارق جيدا أحس أن الشبه بينها وبين أمه كبيرا جدا، حتى صوتها كان قريبا من صوت أمه:

- ما الذى يغضبك منى؟

إرتبك: أنا لست غاضبا منك، بالعكس..

وضعت يدها فوق يده المرتعشة أحس بالدفء.

- لماذا لا تريد أن تجلس معى؟

- إنك مثل أمى.

ضحكت: المفروض أن تطيعنى لذلك.

شد يده من يدها حضرتك امرأة جميلة لماذا تفعلى هذا؟

- ماذا أفعل؟

أعادت يدها ثانية فوق يده ترك يده لها وتابع وجهها المستدير الجميل: كلك براءة وقفت وشدته من يده: هيا بنا قبل أن يبدأ الفيلم العربى.

لكنه لم يتحرك تشبث بالمقعد أكثر: هيا بنا.

وقف، دفعها بعيدا وهو يصيح: لن أرى الفيلم من أجلك.

وأسرع خارج السينما هاربا. ■

النوبة

ليست دوت كـوم

بقلم
مهدى الحسينى

النوبة أرض وتاريخ وبشر وذاكرة وثقافة وفن ونهر وخيال.. وحقيقة مضيئة ساحرة تمثل فى مستقبل مصر والسودان ووادى النيل وشعوب النهر من البحيرات العظمى حتى الاسكندرية .

وهم جماعة مبدعة بطبيعتها الغنية البسيطة، فالفن بطاقة هوية، فلا توجد جماعة تنتج فنا حقيقيا من نفس مظلمة أو ظالمة او حاقدة أو جاهلة، ولا - بالطبع - تنجم عن وجدان خائن. لابد من وجدان طاهر كى يزدهر فن وثقافة أى شعب. وهكذا كان النوبيون ويكونون أبدا.

حول هذا الموضوع المهم، وفى مسرح الهناجر، دارت وقائع العرض المسرحى المستوحى من ثلاثة أعمال روائية لإدريس على ، كتبها الناقد حازم شحاته، واخرجه ناصر عبدالمنعم، وصمم مناظره محيى فهمى، وأزياء ياسمين حاكم، وأعد موسيقاه جمال رشاد، وقام بأدائه مجموعة من هواة التمثيل النوبيين، تساندهم الممثلة المتميزة منى جلال فى دور سيمون، والممثل منصور عبدالقادر فى دور العمدة، والممثل محمد حسيب فى دور البريطانى، والممثلة امل طارق فى دور غادة، ومستورة فى دور شايه، واسامة عبدالمنعم فى دور عوض، وعادل ميخا فى دور محروس، وقام بتنفيذ العرض مجموعة من فنيى الهناجر بقيادة خالد سرور.

المصدر الأدبي

اعتمد الكاتب «حازم شحاته» أعمالا روائية ثلاثة للقصاص المصري النوبي «إدريس على» مصدرا لنصه المسرحي وهي وفقا لترتيب الأصدار كما يلي:

١ – دنقلة سنة ١٩٩٤
٢ – النوبي سنة ٢٠٠١
٣ – اللعب على جبال النوبة سنة ٢٠٠٢.

واقتنص من ثناياها ما يشبه الموضوع الواحد والخط الدرامي المتصل، وهذه مهارة تحسب له ، إلا أن الروايات الثلاث الأصلية في حاجة إلى نقد طويل مفصل ليس هنا مجاله، كما أن ما أنجزه الكاتب المسرحي سوف نتعرض له فيما يلي:

في تقنيات الأعداد المسرحي وفنونه

أهم إيجابية تميز هذا العرض هي جدية الطرح والأداء، سواء عند المصدر، أو الكاتب المسرحي أو المخرج أو مجموعة المؤدين والمنفذين على أنواعهم ، الأمر الذي كان له أثر عميق على حرارة المشاهدة سواء اختلفت أو اتفقت مع العرض، حيث تكون العلاقة المباشرة مع الجمهور هي المقصد الأسمى، سيما وأن القضية قضية جماهيرية عامة ووطنية في المقام الأول.

في مطعم كمدينة عائمة فوق سفينة تجوب المتوسط – بديلا عن قرية نوبية مستقرة – يستحضر النوبي «عوض شلالي» وقد بلغ الستين – على شاشة الانترنت – شخوصا ووقائع مرت به منذ كان في السابعة عشرة أي ١٩٦٣: الجد إدريس على – الجدة شايه – أخته آشا – سيمون عالمة المصريات القبطية المغتربة وزوجها كتبه العالم البريطاني النوبي الأصل – كنود شخصية غامضة من أصول نوبية غرب السودان، مسئول الاتحاد الاشتراكي بمحافظة أسوان – غادة وأبوها النوبي وأمها البولاقية وخطيبها. هذه براعة استهلال انجزت دخولنا إلى عالم المسرحية بتكثيف وسرعة مطلوبة.

مرت شخصية «عوض شلالي» بتحولات كثيرة كلها منطقية ومفهومة، دفعته نحو حلم مستحيل: وطن نوبي من دنقلة إلى أسوان، كان عضوا متحمسا في منظمة الشباب يصدق كل ما يقال عن القرى النوبية الجديدة اليانعة المزدهرة التي سوف ينقلون إليها أمام السد، ويؤمن إيمانا مطلقا بـ «النظام» ومشروعاته ودعاياته فيروجها بين سكان قريته «القديمة» وينفذ عن اقتناع وحماس كل ما يأمره به أمين الاتحاد الاشتراكي بالمحافظة ، ولكنه أمام ما أسفرت عنه الأيام من حقائق صادمة مريرة وقاسية يهرب مهاجرا ليستقر أخيرا كي يعمل جرسونا علي سفينة عائمة على البحر المتوسط، وهناك بعد ١٤ سنة يلتقي بسيمون فتتذكره بلقاء قديم تم بينهما حين زارت قريته النوبية في رحلة بحثية مع زوجها الذي ظنت أنه مات غرقا في النيل، بينما في الحقيقة أنه قتل في خناقة عارضة مع نوبي آخر من جماعة «الكشاف» حول الهوية النوبية!! وتعرض هذه الباحثة الجميلة الناضجة عليه الزواج كي يشاركها حياة الغربة عن الوطن إلى ما لا نهاية، فهي غنية تحمل ثلاث

جنسيات : مصرية وفرنسية وانجليزية»ولكن، عوض يرفض مفضلا بديلا آخر.. هو الغربة فى الوطن. وها هو قد عبأة فى موقع فى الانترنت: «لن تجدها. إلا فى مكانين. قلبك أولهما، وثانيهما على هذا الموقع.. النوبة دوت كوم». ولكن هل صحيح أن النوبة لن توجد فقط إلا على الانترنت؟!! ألا توجد إمكانية نوبة جديدة «حقيقية» على شواطىء البحيرة حيث تمتد الى السودان بعد فتح الحدود؟ وهكذا يتبع الكاتب المسرحي مع عوض شلالى منهجا خاطئا: «اعمل كليك على أى صورة .. هتلاقى حكاية ورا حكاية.. رتبها زى ما انت عاوز .. المهم ابعت لى رأيك. يعنى إيه الوطن؟ والمدهش هنا أن العرض يفترض ان المشاهد - وهو من ورثة أقدم وطن فى التاريخ وأعرق حضارة - سوف يتساءل معه نفس السؤال هل يحول المواطن وطننا إلى مزق شتى عبر الانترنت لا الى سياق متواصل؟ وهل هناك إمكانية نوبة جديدة على شواطىء البحيرة حيث تمتد إلى السودان بعد فتح الحدود؟ وإذا كان هذا الأمر صحيحا، فما هو وراء طرح هذا التساؤل الغريب على مواطنينا؟ يقول عوض: «ظلت النوبة جرحا باتساع خمسين سنة .. قررت استئصاله من روحى لأضعه أمامكم على هذا الموقع: النوبة.. دوت كوم هل هذا ممكن؟ هل يمكن ان يستأصل إنسان وطنه . روحه من ذاكراته وجسده؟ هكذا حولنا الوطن - عبر الانترنت - الى صور متفرقة لا كلية - ذات بعدين بدلا من جسم حى نابض ذو اربعة أبعاد فضلا عن الزمن والطاقة والأثر. فهل يستطيع عوض؟ وهل نستطيع نحن؟ وهل صحيح أن النوبة الآن توجد فقط على الانترنت وفى قلب كل نوبى وفى المراجع والخرائط القديمة وألبومات الصور؟

وعلى الجانب الآخر نجد «غادة» الفتاة البولاقية وقد شحنها أبوها رغما عن انفها على باخرة نيلية كى تتنوب، وفى استقبالها «عوض شلالى» صغيرا» على عتبات المراهقة، مع جدته «شايه وقريبه» محروس الأهبل الذى يعشق الغناء والجمال «لم يستفد من هاتين الصفتين دراميا وجماليا أما غادة فيطلقون عليها لفظة بنت الـ «جوربانية» أى الغريبة لأن أمها ليست نوبية، فتلقاها جدتها شايه المتشددة الصلفة بعنف، وهنا نكتشف عيبين فى صياغة هاتين الشخصيتين: الجدة احادية الجانب لا تعرف سوى الغضب، وكذا الحفيدة البولاقية لا تعرف سوى اللهو الدلع والابتذال. اذن فالصدام حتمى بينهما فنحن إزاء هويتين متطرفتين، وكان لابد من معالجة فنية أفضل لهما، وسأفرض أن «غادة» هذه لم تكن على هذه الدرجة من الدلع والعدوان تجاه البيئة النوبية، وأن شايه أيضا كانت جدة حنون رغم محافظتها، ألا يؤدى هذا التكوين المتوازن غرض الكاتبين على نحو أفضل مادام يطرحان قضية التباين فى الهوية؟ لو أن الشخصيتان كتبتا بأبعاد ثلاثية مكتملة ودرامية من داخل كل منهما ومن خارج كل منهما لاكتسبا ابعادا إنسانية لا استثنائية متعسفة كى تؤدى الغرض الفكرى، وكذا الأمر بالنسبة للأم البولاقية لو كانت قد رسمت كسيدة قوية من بنات البلد البولاقيات دونما ابتذال، ولو قدم الأب النوبي كرجل من العاملين

المطحونين الخاضعين لقهر المدينة واستعلائها عليه بسبب سمرته، فإن العرض في هذه الحال يقدم ثلاث شخصيات ليست مدانة مسبقا، فيطرح قضية الهوية من زاويا موضوعية لا من نظرة خلقية ذاتية محدودة، وهكذا ندلف إلى موضوع الهوية مباشرة بلا عوائق.

هكذا تواصل الشخصيتان بتكوينهما هذا الصدام تلو الصدام حتى تختفي غادة في ظروف غامضة، في الأصل الروائي ألقتها جدتها في الخور، وفي النص المسرحي مال الى الغموض وعدم الجسم موحيا بفكرة قتل شاية لحفيدتها ومرتبكا لأنه لم يقدم تفسيرا لهذا الاختفاء، كان لابد من حل أفضل لهذه الفتاة الحائرة بين ازدواج الهوية والثقافة والتربية لا ذنب لها فيه ثم نجد «آشا» شقيقة عوض التي تعاني حالة من الجدب العاطفي والاقتصادي والإرهاق الجسدي من وطأة العمل المنزلي الشاق، غير أن هذا وحده لا يبرر تعاطفها مع غادة فتتخلى بسهولة عن ضفائرها وثقافتها وميراث أهلها الفني، هي حقا في حاجة إلى تحسين ظروف الحياة اليومية والعمل، ولكنها تكرر ما ورد على لسان غادة من مبالغات حول الحر والعقارب والذئاب، وتلك أمور بيئية يتعود سكان كل بيئة على التعامل معها والا هجر سكان الاسكيمو بلادهم بسبب الجليد وسكان خط الاستواء غاباتهم بسبب شدة الحرارة ووحوش الغابة، ومع ذلك فشخصية آشا مؤهلة – في حال إعادة



لقطة من مسرحية النوبة .. دوت كوم

صياغتها – كي تكون مثيرا للصراع حيث انها من الممكن ان تتوحد وتتناقض في آن واحد مع كل من الجدة شايه وغادة والبيئة، هنا سوف تكون شخصية أعمق وأخصب، ومع ذلك لا يصح التسليم بكل آرائها، وإلا أصبح حنين أهل النوبة إلى نوبتهم القديمة مرضا نفسيا لا مبرر له أصلا، اما «دهبية» أم آشا وعوض، فقد جاءت مطابقة من حيث البنية النفسية والدرامية للجدة شاية، وهي أيضا تكرار لحالة انتظار الزوج الغائب طويلا للعمل في القاهرة، لذا لم نكن في حاجة إلى وجودها إلا بشرط اختلافها نفسيا ودراميا مع الجدة.

وكذا نجلاء ومجموعة البنات اللواتي التففن حول غادة فكن اشبه بالكورس الذي لا وظيفة له. فهن قد تخلين بمنتهى السهولة حين تزعم ان شعرهن كريه الرائحة ومليء بالقمل، والمعروف عن النوبيين من الجنسين عادة الاستحمام يوميا في النيل، ويتعلمن من غادة رقصة «هز ياوز» وهكذا، بينما على العكس من ذلك نجد أن الضفائر الافريقية أصبحت مودة الجميلات في العالم كله وأن الرقص الافريقي بإيقاعاته وحركاته المنمقة موضع اعجاب من الاوروبيين وغيرهم، فهل تقصد المسرحية أن الشعر والرقص والغناء النوبي شيء يعوق التحضر والتمدن؟ هل نسلم باندثار الهوية الثقافية المصرية النوبية وان غادة هي دليل على نجاح عملية الطمس هذه؟ ان الثقافة والفنون النوبية هي نمط حياة كامل يضم العمارة والزي والزينة والموسيقى والغناء والادوات والاساليب والعمارة ولا يصح تجزئتها . إذن كان لابد من شخصية أخرى تعدل الميزان مع غادة.. ولتكن نجلاء.

كان عوض شلالي قد التقى العالم البريطاني النوبي «كتبه» حين زار النوبة قبل التهجير مباشرة ليبحث عن شخص يدعى «كنود» وهو من جنوب النوبة غرب السودان، زاعما ان لدى الأخير وثيقة مكتوبة على جلد الغزال تثبت الحلقة المفقودة التي يبحث عنها العالم في تسلسل العرق النوبي وفقا لعلم الاجناس، هذا الرجل يمثل تطرفا آخر في فهم موضوع الهوية إذ يبحث عن نقاء «العرق النوبي» ولعله كان يعتبر نفسه النوبي الوحيد، اما الباقون فهم اخلاط مع العرب والمماليك والترك، الامر الذي أودى بحياته في معركة مع واحد من «الكشاف» كان متطرفا منحازا لأصوله هو الآخر، وفي لقاء بين كتبه وعوض يسأله الأول عن اسمه كاملا فيسرد عوض قائمة طويلة كلها اسماء عربية، ولكنه لا ينتبه - كما لم ينتبه الكاتب المسرحي أيضا - الى أن السلسلة تنتهي باسم «تود» وهي اسم مصري قديم مصحف تعني «ولد» او «ابن» بما يعني أن لعوض جذر فرعوني، وفي ظني ان هذا الأمر صحيح تماما. فالنوبيون قديما - حتى بحر الغزال حيث يوجد حوالي ١٠٠ هرم - كانوا يشكلون الجذور الافريقية للحضارة المصرية كما يقول عالم المصريات السنغالي شيخ انتاديوب في موسوعته التي أصدرها ١٩٥٥ بباريس، او بمعنى آخر أن الحضارة المصرية القديمة هي العنصر المستمر بشكل أو بآخر - رغم تعاقب المراحل الحضارية على مصر استمرارا متفاعلا - غير ميكانيكي - حيث اندمجت مع كافة ما يناسبها من العناصر الأخرى التي وفدت إلينا، وأفادت منها بما يتواءم مع شخصية المكان ومقتضيات الزمان وحاجات البشر وعلاقات القوى المحلية والدولية، فالشاعر أحمد شوقي ومحمود سامي البارودي - على سبيل المثال - ينحدر كل منهما من اربعة اعراق أحدها مصري، ومع ذلك يختاران طوعا الانتماء لمصر!! كان هذا عصر نهضة وبشائر ازدهار، أما الآن فإن الجار يؤذي جاره، والأخ يتبرأ من أخيه؟ والرجل يقتل أولاده، وعضو البرلمان متعدد الجنسية، والمواطن يتنكر للوطن، ولحسن الحظ أن هذه الأمور الرديئة لم تصبح قاعدة بعد، ولكنني

أخشى ما أخشاه، أن تنطوى هذه المسرحية - بحسن نية - على فكرة نخبوية كوزمويو ليتانية انعزالية غير واقعية وغير تاريخية، تروج ان لفظتى المواطنة والوطن اصبحتا في عصر العولمة بغير ذات معنى. وأن حق المواطن فى وطنه التاريخي - سيما اذا حدث تغير بيئي أو حدودي أو اجتماعي - أصبح ضربا من المستحيل، وفي حين تنفى الأصول والاعراق - وهى حقيقة رغم كل شيء - بحجة محاربة التعصب أو أن ما تفرضه العولمة أصبح امرا واقعا، فإنها تنفي الأصول والحدود والحقوق التاريخية والقوميات، وبينما ينحاز الانجليز الى السكسون والفرنسيون الى الغال والروس الى السلاف الروس، والأمريكان إلى هوية مفتعلة مزعومة، نلغي نحن ما يجب ان ننحاز له، ونعاف ما نقتات به حضاريا وثقافيا، الا ما يقدم لنا من مؤقتات وعوارض تأكيدا للفكرة البراجماتية : نحن ابناء اليوم وحسب ودعكم من الامس!!

المسرحية مليئة رغم صغر حجمها بالتفاصيل المهمة والجديرة بالمناقشة، ولا يتسع المجال هنا للخوض فى كل شيء اثير فيها او بسببها، وإذا كانت تناقش قضية الهوية «ما معنى الوطن؟» فقد أخطأت الطرح، وكان الأجدى بها أن تتعرض لبطولة شعب حافظ على مواطنته المصرية وثقافته وآدابه وفنونة وزينته ومعماره ونخيله وقوانين تفاعله مع البيئة وشيء من اساليب حياته.. ونهره، رغم رياح الخماسين وفيضانات السدود، ولهذا أقول إن الخط الدرامي الخاص بالرباعي! كتبه وكنود وعوض وسيمون وما يتعلق بهم كان فى حاجة الى مزيد من الوضوح والعمق.

في فن الإخراج وتقنياته

لكل عرض عالمه الخاص حتى ولو كان لنفس الكاتب والمخرج ونفس الفكرة، والمخرج المسرحى هو المسئول الأول عن تجسيد هذا «العالم» بفضل هيئته الإخراجية من مصمم للسينوغرافيا مناظر وأزياء واكسسوار ومكياج واضاءة ومصمم للحركة الاستعراضية، وموسيقار، فضلا عن النص المسرحي بإيقاعه ولغته واحداثه وشخوصه وتفاصيله.

ووفقا لترتيب عمليات التلقي تكون الاضاءة في أول لحظاتها بما تسفر عنه من المنظر المسرحي حيث يدور الفعل والحركة هى التى تقود ناظرى المشاهد الى عالم المسرحية، ولذا فقد رأيت أن الاضاءة هنا جاءت عادية أى مجرد إنارة، عدا بضع لحظات ، أى أنها لم تكن تحمل فكرة جمالية أو بيئية أو نفسية أو دلالة درامية، بل تنتقل بسذاجة من لوحة إلى أخرى ومن مشهد لمشهد على نحو آلى: إضاءة مختلطة ببعضها البعض تحدث لبسا في الزمان والمكان أكثر من ارشاد المشاهد إلى حيث تكون بؤرة انتباهه، وليس كما قيل أن المخرج استخدم أسلوب المزج السينمائي فى الانتقال هنا أو هناك، وما تم هو العكس! فاللون والكثافة لم يعطيا أى دلالة ، اللهم الا مشهد الوداع الرومانسي بين سيمون وعوض فجاءت الإضاءة ناعمة بما يتلائم مع الموقف، وأيضا هذه الظلال المزدوجة فى مشهد التهجير وعويل النساء المتعارض مع الأغنية الناصرية الزاعقة، وهو بالمناسبة

من أروع مشاهد العرض من جميع الوجوه، كذلك هذا البروجكتور الأصفر الكبير الحاد في منتصف خلفية المسرح، غير أنه لم يستخدم على نحو واع أو خلاق وانما استخدم استخداما شكليا فقط، فبينما كان من الممكن أن يوحي بفكرة غروب شمس النوبة واختناقها التدريجي المدروس من الأصفر الفاقع الى البرتقالي إلى الأحمر الى الاحمر الشفقي الى البنفسجي الى البنفسجي الداكن الى الاظلام التام. ويرجع اهتمامي هنا بالإضاءة كطاقة تعبيرية جبارة في عالم هذا النص المسرحي، وهو ان هناك تصورا اخراجيا آخر: كيف أن النوبة البهيجة المزدهرة الوادعة في حضن النيل عبر التاريخ، قد ارغم اهلها على هجرتها إما إلى أماكن أخرى أو الصعود إلى أعلى الجبل، ولتصوير هذه الانتقالات التاريخية والمكانية الفادحة يكون تكنيك «القطع» هو الأنسب والأكثر قدرة على صنع الصدمة النفسية الناجمة عن هذه الانتقالات والانهيارات، فهكذا ينتقل العرض من إضاءة بهيجة إلى أقل بهجة إلى مضطربة إلى بقع متلاحقة متناثرة.. وهكذا حتى تسقط النوبة كلها في غياهب الظلام. كما لم تساعدنا الإضاءة على التمييز بين الزمنين اللذين يجرى العرض في اطارهما، طبعا بالإضافة الى التفاوت الضروري في أسلوب الأداء وإيقاعه (بالمناسبة الايقاع والزمن مضطربان تماما في هذا العرض)، فأداء الشباب وإيقاعه غير أداء الشيخوخة وكذا سرعته، وزاد عن كل ذلك هذا القصور في صنع ابسط التغيرات اللازمة لإقناع المشاهد وهي تغيير لون الشعر وطرز الملابس.

هذا وقد غابت الجماعة الشعبية النوبية عن جسم العرض، فهذه القلة من الافراد لا يمكن ان يشكلوا حياة قرية نوبية شكلا وزيا وأداة، فالصوة النوبية على بساطتها ثرية ومدهشة (راجع تراثنا التشكيلي الغنى باللوحات عن النوبة.. وراجع كتالوجات الصور والمتاحف) وليست كالحة وفقيرة كما بدت في صورة العرض، والنوبيون لا يمشون صفوفا كفرقة فنون شعبية غير اصيلة ركيكة التكوين، وبالطبع نحن لا نطالب بالمجيء بعشرة آلاف رجل وامراة وطفل على المسرح، ولكن هناك قاعدة تقول إن القليل المعقول، يمكن ان يوحي بالكثير .. لو كان هناك تصرف وخيال. وللحق فقد وضع المخرج قاعدة فيستدعي المجموعة اذا احتاج الموقف استدعاء أهل النوبة، واذا احتاج الموقف الى الحوار الثنائي أو الثلاثي فإنه كان يخلي المسرح.

هذا ولم تكن بحاجة إلى هذه الديكورات الخشبية المصطنعة حادة الاطراف، والتي صممت ونفذت في تعجل فبدت كرتونية المظهر والملمس، ولا علاقة لها بروعة العمارة النوبية التي بهرت كتالوجاتها العالم، والتي بنى العبقري حسن فتحي جل نظرياته المعمارية على أساسها . بينما لو طالب المخرج من المصمم القدير محيي فهمي أن يصوغ للعرض مناظر من الجريد وقحوف النخيل وأليافه، لكان الأمر اجمل وأسهل وأقل تكلفة، فمثلا يتحدث النص عن سرير الـ «عنجريب» المصنوع بالكامل من الجريد، ولكننا لم نشاهده في العرض الا مغطى تماما بقطعة من النسيج، بينما الأصل أنه يجب ان يظل عاريا من جميع الجوانب

حتى لا تتمكن العقارب من تسلقه.. والأمثلة كثيرة، وبكل أسف فإن مظهر الديكور هنا يؤكد الفكرة الخاطئة التي تطل برأسها من ثنايا النص وهي النوبة أن كالحة ومكان حار وكئيب مليء بالعقارب والقمل والثعابين والذئاب ولا يصلح لسكنى البشر في حين أسف العالم كله على غرق هذا التراث الثقافي والشعبي والعريق على ضياع هذه الحياة البسيطة لقوم بسطاء الى الابد، فإننا نجد العرض يقدم مبررات جاهزة لهذا الضياع .. ولا يقدم ردا عليها.. أو حتى يتحاور معها بندية. رغم ما سبق كان استخدام المخرج لعمق المسرح قد اعطى امتدادا غامضا شعريا للهوية النوبية ومنح الخاتمة قوة وسحرا خاصا.

وأما بالنسبة للمؤثرات الموسيقية والغنائية ، سواء المصاحبة أو الداخلة، فقد كان استخدام أغاني شارل أزنافور مناسبا لمشاهد سيمون مع عوض، ولكن المشهد كان يجب ألا يقتصر على نغم واحد فقط بل على نغمتين، فهذا تصوير غير درامي لهذه العلاقة المزدوجة المتداخلة. ورغم جمال المقطوعات المختارة لموسيقى العرض ككل من الناحية الذوقية في حد ذاتها، إلا أنك إذا سألت واحدا ممن لهم حد أدنى من الدراسة بموسيقات النوبة فإنه يجيبك أنها تقوم على السلم الخماسي وايقاعات محلية والدف الكبير جدا «الحانة» والطنبورة ما تبقى لدينا من الهارب المصرى القديم والغناء الجماعي نساء ورجالا في ثناياها قليل من الأصوات الفردية وهذا النسق لم يتم الاستفادة منه، لأن الأمر ليس اختيار موسيقى مناسبة والسلام، وانما اختيار موسيقى بعينها لكى تعطى ثقافة وتأثيرا وطعما ولونا دراميا محددا.

ورغم كل ما سبق يظل العرض - بمبدعيه الثلاثة وفنانيه - علامة مشرقة على صدر مسرحنا المصري الذي لن يصلح حاله الا بالجدية وعمق الطرح والشرف. ■

اقوال مأثورة

انظر من ينصح لك

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أنظر إلى من ينصح لك فإن دخل من حيث يضار الناس فلا تقبل نصيحته وإن دخل من العدل والصلاح فاقبلها منه

أكرم النفس

المرء حيث يجعل نفسه: إن صانها ارتفعت وإن قصرها اتصفت

عمرو بن العاص

في معرفة النفس

قال الإمام الشافعي: أنفع الأشياء أن يعرف الرجل قدر منزلته ويبلغ عقله ثم يعمل بحسبه.

فنان الغناء

سلامة حجازى

فى كتاب وأسطوانة

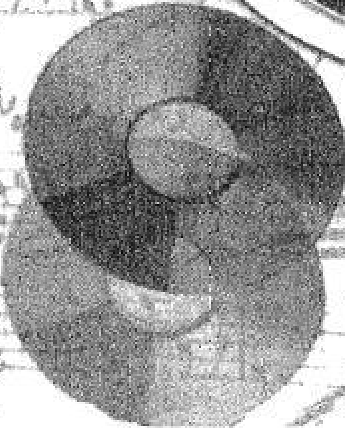
بقلم

فرج العنترى

• من هو صاحب الفضل فى اختراع «الطقطوقة» ؟

• أخطاء تاريخية وفنية فى رصد مسيرة الشيخ سلامة حجازى

الشهادة لله وللوطن ولقوميتنا العربية أن مجهوداتنا العلمية والجادة فى مهام الترشيد والتمدين لكتابات التاريخ الراصد لمراحل موسيقانا العربية مع توثيقها بالتدوين النغمى NOTATION ، وأساسا بالعمل لغربلة وتنقية وتعريب أوبرا الرطانات لمصطلحاتها الفارسية والتركية فى أجرومية «مقامات» السلالم «وضروب» الايقاع وفى قوالب المعزوفات والغنائيات وأيضا فى وجوب التوعية برسالتها التربوية والتذوقية فى المجتمع، قد ظلت برغم «مؤتمرات التوعية برسالتها التربوية والتذوقية فى المجتمع، وقد ظلت برغم «مؤتمرات الذهاب والإياب» مجرد أمل يراودنا حتى بدأت بشائر الصحوة والاستيقاظ فى كل من مرافق «البريزم» بديوان وزارة الثقافة، وفى «مشروع الترجمة القومى» بالمجلس الأعلى للثقافة، وأيضا وبالذات فى جهد «المشروع القومى للحفاظ على تراث الموسيقى العربية» بوزارة الاتصالات والمعلومات الذى أصدر من بواكير نشاطه مرجعا تراثيا فى «كتاب واسطوانة» وأربعة أبواب عن أنشطة فناننا الغنائى الشيخ سلامة حجازى .




٢
سلامة حجازي

وفيما يتعلق بالباب الأول من الكتاب سنجده يتعرض ابتداءً لسيرة المرحوم الذاتية، ثم لمستوى المسرح الغنائى المعاصر لفترته، ثم عمله بفرقة اسكندر فرح فى المدة من عام ١٨٨٩ إلى عام ١٩٠٥ ، وعن عمله بفرقته الخاصة لمدة قصيرة فيما بين عامى ١٩٠٥ و١٩٠٦، وأخيرا عن الشواهد فى وداعه الأخير للحياة فى أكتوبر سنة ١٩١٧ .

وأما عن الباب الثانى فسنجده سردا لمفردات أعماله الغنائية المسرحية، وفى الثالث نجد القوائم التفصيلية عن كل انتاجه من السلامات والمارشات؟! والأنوار والمنولوجات والقصائد والموشحات والطقاطيق؟ والمسرحيات والروايات الغنائية فى تعدادها الذى بلغ نحوا من ٧٦ عملا، ثم الباب الرابع والأخير الذى نجده مجرد رسوم احصائية عن كميات المقامات وقوالب الصياغات التى استخدمها المرحوم فى نسب مئوية، والقارئ الواعى أن يلحظ عدم أى رصد بالمرة لمقادير وأنواع الايقاعات بكاملها سهوا أو عمدا!!

وهذا مع تنبيه إعلامى بأن الحصول على جميع الاحصائيات قد تم باستخدام أحدث برمجيات الحاسب الآلى، وبأن كل التجهيز العام للمواد الموسيقية راجع إلى جهد كل من الاستاذة الدكتورة إيزيس فتح الله والأستاذ محمود كامل.

★★★

والاطلاع على محتويات الباب الأول يشير فى جانب السيرة الذاتية للشيخ إلى أن دار العائلة كانت فى حىّ رأس



التين الشعبى والمتميز بسكنى جموع الملاّحين والنوتية الوطنيين، وأن كبير هذه العائلة هو الريّس النّوتى ابراهيم حجازى الذى كان وافد أصلا من مسقط رأسه فى رشيد ثم استقرّ فى الاسكندرية من مدة وصار عمدة فى الحىّ تبعا لشهرته فيه بالكرم السخىّ وبالتقوى وبالتعبد الصوفى فى زاوية للشيخ سلامة الرأس مع جمهرة «المريدين»، وأنه متزوج من «سالومة» ابنة أحد مشايخ عرب السلوم التى ولدت له فى عام ١٨٥٢ طفلهما الوحيد فأطلقا عليه اسم «سلامه» تيمنا وتبركا بالشيخ الصوفى سلامة الرأس الذى كانت جميع عائلات الحى تستظل بروحانيته، ثم حدث أن أصيب الوالد ابراهيم حجازى بالتهاب رئوى أودى بحياته تاركاً زوجته مع طفلهما فى الثالثة من عمره، وأنها لسوء حظها تزوجت من شخص سكّير عربيد ومتلاف بدد تركة المرحوم بدءا بالدار ثم بالسفينتين ثم انطلق يذيقها وابنها مرارة العيش بشكل ملحوظ فكان أن أسرع الشيخ سلامة الرأس بنفوذه الدينى فى الحى بانتزاع الطفل اليتيم من حضانة زوج أمه المتلاف للتعهد برعايته وتربيته وإلحاقه بكتّاب الحى ليتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم فى نصف اليوم الأول، كما ألحقه فى النصف الثانى بمحل حلاقة ليتعلم حرفة نافعة. وكان طبيعيا أن يتردد الغلام الذى أصبح فى سن العاشرة على زاوية كفيله الشيخ سلامة الرأس بانتظام لرؤية حلقات الذكر دوريًا واستماع أناشيدها بتشبّع غرس فيه عشق النغم بعمق، وخاصة صوت آلة

السلامية التي عكف على محاكاة تنغيمها بصوته في أوقات فراغه الليلي، ثم كان من مواظبته على حضور الأذكار أن استلفت نظر أعضاء الزاوية فقرّبوه منهم وأشركوا صوته معهم في ترديد آهات الصوفيين الممتدة، كما استعانوا به في انشاد الأذكار ضمن «البطانة». وكان هو قد أتمّ حفظ القرآن الكريم في سن الحادية عشرة فانتشر له في الحي صيت بحسن الصوت وترتيل القرآن فتهافتت الأسر على طلبه بالأجر، وبالتالي كان طبيعيا أن يترك الارتباط بحرفة الحلاقة وأن يتكسّب بصوته ليتولى إعاشة أسرته بعد موت زوج أمه.

ثم حدث أن أصيب الشيخ سلامة الرأس بمرض أفقده بصره، فتولى الصبي سلامة الحافظ للجميل مهمة قيادة سيره بانتظام وعناية وثّقت الصلة بينه وبين طاقم العاملين في مركز الطريقة الرأسية ولذلك فما أن توفّي شيخها حتى استخلفوه نقيبا عليهم وهو في الخامسة عشرة حينذاك فأدار حلقاتها بنشاط وعبقرية، وأبدع في الانشاد مما دعى إلى تهافت الكثيرين على الحضور في الزاوية، فعمد إلى تقسيم أنشطة أذكارها بين عدة مساجد وتطوع من جانبه بأداء أذان الفجر في كل منها وحدث خلال هذه الزحمة في نشاطه أن التقى بكبير منشدي القاهرة الذي كان في زيارة للاسكندرية فأفاده بما يحسّن صوته في تقوية القرارات ولعان الجوابات.

ولنا هنا وقفة مع حنجرة الفتى سلامة حجازي الذي بلغ سن المراهقة Adultness في الخامسة عشرة من عمره بمقاييس «علم نفس النمو»، وما زعمته له سطور الكتاب في صفحة ٢٢ من كفاءة حنجرته في تخديمها للغناء وكأنما لم يحدث فيها عطب الخشونة الصوتية الذي يلازم فترة المراهقة كبقية خلق الله من الذكور إبّان هذه الفترة من العمر!! ذلك أن علم نفس النمو يؤكد لنا على أن تغييرا فيسيولوجيا ينتاب أجهزة جسم المراهق الداخلية والخارجية بسبب الزيادة في كمّ الافرازات المنشطة للذكورة Ardrogen، والتي تعمل على ظهور الخصائص الجنسية الثانوية التي من أهمها نمو شعر العانة والشارب والذقن وتحت الابط، والتغيير في تصويت الحناجر إلى خشونة واضحة تشوّه الغناء، وتتطلّب فنيا وطبّيا ضرورة الكف نهائياً عن الغناء حتى انتهاء مدة المراهقة في سن الحادية والعشرين، لكن الكتاب زعم لفتانا المراهق سلامة حجازي حلاوة صوته في أداء الأذكار وفي إطلاق أذان الفجر في عديد من المساجد، وكأن مراهقته قد بطّلت فاعليتها الطبيعية بالتدليس الذي لم يجد له مراجعة وإنما وجد له تسطيراً في مرجع توثيقي عصريّ في سنة ٢٠٠٣ الميلادية!!

ونقفز مع الكتاب إلى حوادث العام ١٨٨٢ الذي تعرضت فيه مدينة الاسكندرية للقصف بقنابل الاستعمار الانجليزي لإخماد الثورة العرابية الوطنية فتجد شيخنا قد هرب بعائلته إلى مدينة رشيد رأس أبيه ويبدأ فيها طورا جديدا من نشاطه الغنائي بجوقة تنقّل بها في أنحاء البلاد والقرى المجاورة فيلاقي نجاحا ملحوظا أكسبه مبلغا كبيرا من المال، غير أن مصيبة فاجأته بموت والدته (وليس بموت زوجته وابنه كما جاء في صفحة ٢٢ من الكتاب) فاضطر إلى العودة إلى الاسكندرية بعائلته، واهتم

بتكوين فريق من مهرة العازفين المحترفين، وتمكن من أن يجتذب لنشاطه نخبة من المؤلفين والشعراء الذين كتبوا له نصوص أغانيه بالفصحى المطعّمة بعبارات الغزل الحديثة والمعانى المهذبة، وتولّى هو مهمة التنقيح النغمى لأنواع القصائد القديمة «التى كان ملحّنة بأساليب عتيقة لاتتفق مع ذوق الجيل، فأسبغ عليها طابعا جديدا تجلت فيه عبقريته ونبوغه، وبذلك كان عهده متميزا بوضع حجر الأساس لبناء نهضوى فى الطرب والغناء المصرى.. (ص ٣٣) .



ولنا هنا وقفة عن غياب استشهاد الكتاب بالتدوين الموسيقى Notation لبيان الفرق بين القديم والحديث الذى طوّره العبقرى النابغة تبعا لأن الكتاب من أوله إلى آخره قد أغفل تماما ويشكل يستلفت النظر المعاصر فى تغييب عنصر أساسى فى التفرقة الموسيقية بين الأنماط، ولمستويات التأريخ، وهذا رغم أنه كتاب صادر من مرفق المشروع القومى لتأريخ وتوثيق التراث الموسيقى العربى، ومع علم الكافة والخاصة بأن التدوين الموسيقى أصبح الآن ميسورا بالنقل من التسجيلات والاذاعات ومن العزف والغناء مباشرة، والعلم أيضا بأن لدينا معاهد عليا للموسيقى فى أكاديمية للفنون تمارس فاعليتها فى بلادنا منذ نصف قرن، وعلى النحو الذى تمت ممارسته بالفعل فى التدوينات التوضيحية لأسلوب الفنانة أم كلثوم فى أدائها الزخرفى المتكرر بأكثر من لون للنموذج الواحد، وعن مكونات المقامات المستخدمة، والآلات المستخدمة، والايقاعيات أيضا إلخ، فى صلْب الكتاب الذى أصدره مشروع الترجمة القومى عن «أم كلثوم صوت مصر والأغنية العربية، والمجتمع المصرى فى القرن العشرين» وأيضا فى الكتاب المماثل الذى أصدرته وحدة «البريزم» عن تاريخ وانتاج ملحننا العبقرى رياض السنباطى موثقا بالنماذج الموسيقية المناظرة والموضحة للدلالات فى كل أغنية مختارة من روائع قصائده وأغانيه، وبحيث لا يتبقى إلا الكتاب العصرى الأجْرد من ميزة النماذج الموسيقية بالتدوين الموسيقى اللازم فى إنتاج المرحوم الشيخ سلامة حجازى وعسى أن يكون ثمة علاج لأحواله!!

ونتحرك إلى الباب الثالث الخاص برصد مختلف الصيغ الغنائية للشيخ فنجد حالتى تصنيف مغلوطة التصنيف والانتساب إلى الشيخ كالطقطوقة والمارش. فالطقطوقة التى انفردت مصر بإبداعها وامتلاكها من دون كل الشقيقات العربيات قد تم إدراجها زورا وبهتانا فى غنائيات الشيخ فى حين أنها لم توجد إلا صدفة من تدريب نغمى للأصابع فاستولدها على يدى مبدعها وصاحبها الملحن الشعبى فى شارع محمد على، محمد على لعبه (١٨٨٥ -١٩٤٤) ولقيت دعما وترويجا من سلطانة الطرب المشهورة منيرة المهدية (١٨٨٥ - ١٩٦٥)، لكن القائمين على عملية التصنيف النوعى لموسيقى الكتاب أدرجوا خفائف أغانى الشيخ ذات الطابع الشامى والسورى فى زمرة الطقاطيق جزافا لما لم يبحثوا عن الحقيقة مع أننا نجدها واضحة تماما فى

كل من مجلة عالم الفكر الكويتية بعددها أكتوبر/ ديسمبر سنة ١٩٩٨ في صفحة ٢١٠ ، وأيضا في عدد أهرام الجمعة ١٣ سبتمبر سنة ٢٠٠٢ بأن الطقطوقة من اختراع محمد على لعبة مما يتطلب تصويب هذا الخطأ في الكتاب.

وأما عن إدراج صيغة المارش في الصيغ الغنائية للشيخ، فالسائد حاليا وتاريخيا وكذلك في الموسيقى نظريا وعمليا أن المارش صيغة عسكرية لطابور الجنود، وأن منها ما هو احتفالي للمناسبات الدولية ومنها ما هو جنائزي في توديع موكب جنائز الراحلين العظماء العسكريين إلى رحمة الله، وأن موسيقى المارش ظلت دائماً للعزف بآلات النفخ النحاسية والخشبية وعلى إيقاع الطبول العسكرية الخاصة، وليست بالغناء أبدا كي تحتسب للمغنى الفلانى والعلانى كما احتسبت بالزور وبالبهتان على شخصية غنائية مصرية، ومصر بالذات هي صاحبة أشهر مارش للنصر في أوبرا عايدة، ويتم عزفه بأبواق تم تصنيعها في أوروبا على مقياس وتنغيم الأبواق الفرعونية التي اكتشفها الأثريون في مقابر بني حسن، ومرة أخرى هي مصر التي سجل لها علماء الحملة الفرنسية تدوينا لمارش مصريّ التأليف والعزف بآلات نفخ وطبول ومصلصلات هادرة ويصحبه نشيد حماسيّ رسميّ حيث لا تخت ولا غراميات، لكن مصر قد كتب عليها أن يصدر منها وعنها كتاب توثيقي رسمي بأن موسيقى المارش غناء لسلامة حجازي بالتخت والغناء في الصفحات من ٩٩ إلى ١٢٠ مما يتطلب غسل هذه الإهانة فورا بدلا من السكوت على تشنيعها!!

وإذ لا يتبقى أمامنا في الاطلاع والمراجعة من أبواب الكتاب إلا مشاهد الرحلة الدرامية لفناننا الغنائي رحمة الله فإننا نتناولها موصوفة ببلاغة ومصداقية الأستاذ الأديب عبد النور خليل فيما يلي من الوقائع:

«أصيب الشيخ بالشلل عام ١٩٠٩، وسقط على المسرح وهو يؤدى واحدا من أدواره الغنائية المشهورة، لكنه أبى أن يغلق الفرقة أو يعتزل العمل على المسرح، فكان يقف على المسرح مسنودا إلى مقعد ويؤدى دوره في المسرحية وكأنما هو معافى وسليم تماما».

«ولقد كان حادث السقوط مريضا بالشلل على المسرح، مؤشرا إلى بدء النهاية في حياة المطرب الشيخ سلامة حجازى رغم أنه لم يستسلم لليأس لحظة، وبدأ يقاوم السقوط في زاوية النسيان، والبقاء على القمة مله أسماع الناس وأبصارهم ، ولكنه اضطر في عام ١٩١١ إلى اللجوء إلى فرقة جورج أبيض ليكون نجما للمسرحيات الغنائية التي بدأت تقدمها على مسرح الأوبرا، وظل يعمل فيها حتى عام ١٩١٤ - عام الحرب العالمية الأولى - ثم انسحب تحت ضغط المرض وقعد في انتظار النهاية الوشيكة إلى أن توفّى في الرابع من أكتوبر سنة ١٩١٧ وبجواره واحد من تلاميذه الشبان يسمعه اسطوانة له غنى فيها قصيدة لشاعر القطرين خليل مطران، كان الشاعر الكبير قد أطلقها امتداحاً له ولمواهبه، ورحل الشيخ سلامة حجازي: الشيخ المنشد المقرئ الذي كان صوته يوصف بأنه الصوت الذهبي لحلاوته وجزالته».■

وديع فلسطين

وأعلام عصره ..

بقلم
د.أحمد السيد عوضين



أخذني هذا الكتاب بجزأيه: «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره». أخذني من نفسي، واستولي علي فكراً وعقلاً، شعوراً ووجدانا، حتي أنسيت أمري كله، ولم أعد أري، أو أسمع، أو أصادق إلا هؤلاء، الأعلام الأفذاذ الذين أفاض المؤلف في أحاديثه عنهم، أو أحاديثه إليهم، أو في أحاديثه إلي نفسه عن حياته مع هؤلاء، وهي حياة اتصلت لأكثر من نصف قرن بسنوات مع أولئك الأعلام.

أحاديث وديع فلسطين عن هؤلاء الأعلام ملأت مجلدين أنيقين ممتعين شكلاً وموضوعاً. أما عن الشكل فلما يمتاز به المجلدان من طباعة أنيقة، وإخراج بديع، وتجليد قيم.. وإن كان المؤلف قد عمد - في كتبه - إلي الاقتصار علي بضاعته من الكلام - الممتع - دون أن يشرك معه آخرين من أهل الفن، فلا صورة، ولا رسم، ولا شيء سوي الكلام .. ولو أنه أضاف إلي مجلديه صورة أو رسما لكل علم من هؤلاء لزادت المتعة .. ولكنه علي ما يبدو خشي علي قرائه أن يصابوا بتخمة، فقال: تكفيهم متعة القراءة، وغزارة المعلومات، وعذوبة الأحاديث.

والحق أن الكتاب - فى موضوعه - قد أوفى بالغرض منه إلى حد كبير، فهو لم يقصد إلى التأريخ لهؤلاء الأعلام، ولا إلى الدراسة المؤصلة لأدوارهم فى عوالم الفكر، أو فى تاريخ الفن، أو فى عالم السياسة، كما أنه لم يقصد إلى مجرد التعريف بهؤلاء، وإعطاء مجرد (نبذات) أو ما هو ميسور له من معلومات عنهم، وكذلك فهو لم يقدم عدداً من المقالات تنشرها المجلات - أو الصحف - ثم يقوم بعد أن تكتمل عدتها بجمعها فى كتاب يخرج به إلى القراء، يضاف إلى ما سبق له أن أصدره من كتب، ثم يورد ذكره فيما بعد ضمن بيانه عن قائمة مؤلفاته ..!!

منهج الكتاب

وحتى يتحاشى المؤلف ما قد يثيره ترتيب هؤلاء الأعلام فى كتابه من مقولات، أو اجتهادات - أو أوجه نقد أو عتاب - فقد التزم الترتيب الهجائى لأسمائهم فى تحديد مكانة كل منهم بين دفتى مؤلفه.. فكان أن احتل «المازنى» المكان الأول بحكم أن اسمه «إبراهيم» يبتدىء بالألف والباء .. وأن اسم أبيه عبد القادر فكان له بذلك السبق على «إبراهيم المصرى» وعلى الشاعر «إبراهيم ناجى» بحكم أن العين فى اسم والد المازنى تسبق الميم والنون فى اسم والدى الإبراهيمين الآخرين.

الصدق والموضوعية

ومن هنا فقد تميزت أحاديثه عن أولئك الأعلام بالصدق من ناحية، وبأنها نابعة عن صداقة حميمة من ناحية أخرى.. وإن كان ذلك لم يحل دونه ودون أن يشير إلى بعض - وليس إلى كل - نواحى النقص والقصور بالنسبة للبعض منهم .. كما تميزت أحاديثه بحرصه على الاستقصاء - فى الحدود المتاحة - لإحصاء ثمرات إبداعاتهم، وللإشارة للأحداث المهمة فى مسيرة حياتهم، فضلاً عن حرصه على ذكر تواريخ الميلاد والوفاة بالنسبة للغالبية منهم .. وهو ما قد يمثل إضافة مهمة بالنسبة لما هو معروف عن هؤلاء من معلومات لم تكن فى أغلب الأحيان موضوع توثيق - على الأقل بالنسبة لتواريخ الميلاد - إلا إذا ارتضينا أن تكون تلك التواريخ على وجه التقريب.

المازنى

وكان حديثه عن «المازنى» هو فاتحة أحاديثه عن أعلام عصره - وكانت فاتحة الحديث هى روايته للقائه الأول معه فى ندوة الثلاثاء التى كانت تعقدها «لجنة النشر للجامعيين» وكان مقرها «مكتبة مصر» بالفجالة التى أنشأها «سعيد السحار» وآزره فى إنشائها وقيامها شقيقه «عبدالحميد» ويصف «وديع» اللقاء الأول فيقول: (كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها «المازنى» بشحمه ولحمه وعن قرب شديد، كنت قبل لقائه أحسبه على بسطة - فى الجسم (ونضيف: تتناسب مع ما تتميز به كتاباته من جرأة وإقدام) - فإذا هو ضئيل البنية، ضاحك المحيا، وخط الشيب شعره الناحل، فإن تكلم التمعت عيناه، له روح عالية من الفكاهة بل السخرية، فهو يسخر حتى من نفسه، ولا يستنكف من أن يصف نفسه بالصعلكة.. وإذا تكلم فعن حكمة وخبرة وبأسلوب حاسم).

ثم يضيف قوله (وكان واضحاً أن «المازنى» مهموم بأسباب الرزق، وهو بسببها يرهق نفسه بالعمل فى الصحافة وبالترجمة والتأليف والإذاعة، سواء فى مصر أو فى البلاد العربية.. وكان يدهشنى من «المازنى» أنه يستصغر من شأن نفسه حتى فى عناوين كتبه إذ اختار لكتاب من كتبه عنوان «قبض

الريح» ، ولآخر عنوان «صندوق الدنيا» ، ولثالث عنوان: «ع الماشى» والرابع عنوان: «من النافذة» والخامس عنوان: «حصاد الهشيم».. ونضيف ولسادس «خيوط العنكبوت».

وقد أشار إلى اشتغاله بالترجمة ومشاركته بنصيب كبير فى ترجمة مواد مجلة «المختار» التى صدرت فى الأربعينات، وإلى عدم اشتغاله بالسياسة وإن كان على علاقة طيبة برجالها ، ثم أشار إلى مشاركته فى «أخبار اليوم» ليس فقط بما كانت تنشره له من مقال أسبوعى، بل بما كان ينشره فى الصفحة الثانية منها التى لم تكن تظهر إلا فى الطبعة التى توزع فى الدول العربية إذ كانت صفحة تعليقات على الأخبار مع التركيز على مشكلات العالم العربى وكان المازنى يشارك بنصيب كبير فى تحرير هذه الصفحة.

على أن صاحب الأعلام وإن روى هذه الحقائق عن «المازنى» فإنه لم يتعرض لدوره الرائد فى الأدب الحديث، سواء فى مجال الشعر أو النثر، ولم يعرض لما قدم من إبداعات، بل لم يشر إلى ما تميز به أسلوبه ومنهجه من السخرية العميقة ، والروح المرحة - والعالية فى الوقت نفسه - وكأن كل ما يهم القارئ هو أن يعرف عنه عدداً من الطرائف دون أن يحيط علماً بدوره الرائد سواء فى الدراسات أو الإبداع الرائع.. فى الشعر أو الرواية والقصة القصيرة.. بل وفى المقال الفنى الذى كان من مبدعيه .. ولعل صاحبنا يستدرك ذلك فى دراسات لاحقة ، واعتقادى أنه مؤهل لذلك .

ناجى

- وكان الشاعر الطبيب «إبراهيم ناجى» موضوعا لفصل ممتع وقد استهله صاحب الأعلام بوصفه لحياة الشاعر بأنها حفلت بالمظالم - ذلك أنه «عندما أصدر ديوانه البكر: وراء الغمام فى عام ١٩٢٤ فوجئ بحملة شرسة عليه وعلى ديوانه بل على شاعريته، شنها عليه طه حسين والعقاد فاستشعر ظلماً غليظاً واقعاً عليه ، وقرر هجر الشعر نهائيا ، بل هجر مصر والنزوح إلى عدم العودة» كان ذلك هو ما استهل به الكاتب حديثه عن ناجى، دون أن يبين لنا : من كان الظالم حقاً ومن كان المظلوم .. وهل كان كل ما قيل عن نقد ديوانه ظلماً خالصاً، ولم يكن فيه شىء من الحق ..!!

وقد انتقل صاحب الأعلام بعد ذلك مباشرة إلى ما حاق من ظلم بالشاعر فى أخريات حياته ، إذ فوجئ بقرار يصدر بفصله من وظيفته كمدير للإدارة الطبية بوزارة الأوقاف ضمن من فصلتهم الثورة فى أول عهدها فيما عرف «بحركة التطهير»، وقد آذاه هذا القرار ، واستولى عليه اكتئاب قاتل ، ولم يحل شهر مارس من العام التالى للثورة حتى سقط ميتاً فى عيادته الخاصة فى اليوم الرابع والعشرين منه كما يذكر صاحب الأعلام .

ويشير الكاتب إلى ناحية خاصة تتعلق بأشعار ناجى إذ يذكر أنه (كان كثير المخالطة لأوساط الفنانين والفنانات ، وهو ما حدا بكثيرات منهن إلى الزعم بأنه كان متيماً بهن، وبأنهن كن البطلات فى قصيدة الأطلال التى ذاعت ذيوعاً واسعاً بعد ما غنتها أم كلثوم، فحققت له أمنتيه ، ولكن بعد أن أصبح خبراً من الأخبار - وجاء صالح جودت ، فأورد أسماء عدد من الملهمات فى حياة ناجى وكلهن (زوزو)... ورأيت على شاشة التليفزيون ممثلة من هؤلاء (الزوزات) فى تعلقه على الملا بأنها هى وحدها بطلة

الأطلال ، وقامت ممثلة أخرى من (الزوزات) بنشر رسائل من ناجي تؤكد أنها هي الوحيدة التي احتلت قلبه، وخلبت لبه...) ويضيف الكاتب أن الواقع أن قصيدة الأطلال لم تكن من وحي واحدة من هؤلاء ، وإنما حقيقتها تعبر عنها تلك الكلمات التي قدم بها ناجي القصيدة في ديوانه بقوله : «هذه قصة حب عاثر. التقيا وتحابا ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت».. وهي جارة قديمة عرفها في شبابه ، وهام بها.. ثم افترقا ولم يلتقيا أبداً إلا في أخريات عمره عندما التقت به مصادفة وسألته : ألا تعرفني؟ فأجابها بالنفي ، وعندما ذكرت اسمها استيقظ كل الماضي الذي ربط ناجي بهذه الجارة القديمة ، واعتذر لها عن غفلته .. ثم راح يسجل قصيدته الأطلال ومطلعها :

يا فؤادي رحم الله الهوى
كان صرحاً من خيال فهوى

- وإذا كان الكاتب قد روى الكثير من الطرائف عن ناجي وشعره، إلا أنه لم يعرض لهذا الشعر ، لا نقداً، ولا تحليلاً، ولم يتناول الحديث عن المكانة الحقة لناجي كشاعر ذي خيال متميز، وشاعرية رقيقة ، وما تعبر عنه أشعاره من صدق عاطفة ، وعمق شعور ، وعمق نظره إلى الحياة والناس ، وسمو في الفكر والخيال.. كل ذلك في ديباجة مشرقة ، ونسيج رقيق .

جميلة العلايلي

وكان من بين الأعلام الذين تناولهم صاحب الأعلام : «الشاعرة جميلة العلايلي» وهي شاعرة مجيدة، تتميز أشعارها بصدق العاطفة ، وذاتية التعبير ، وأصالة الشاعرية، التي تقوم على إحاطة كاملة ، ومعارف واسعة، وموهبة أصيلة تعهدتها بالعقل والرعاية حتى لكأنها (خنساء العصر) ولكنها لم تحقق ما حققت الخنساء من شهرة .. ربما لعدم إجادتها فنون الاتصال ، ولجهلها بأساليب الانتشار، وقد عاشت حياتها في مدينتها «المنصورة» مكتفية بأن تراسل الصحف والمجلات، التي كانت ترحب بأشعارها ومقالاتها النثرية التي تنشرها تعلوها صورتها الجميلة - وكان إنتاجها في أول عهدها - كما يذكر صاحب الأعلام - (يتسم بمسحة من الكآبة والحزن، لأن روح الشاعرة تشدها إلى الانطلاق، في حين أن بيئتها القريبة تشدها وراء الأسوار .. فالشاعرة تتحدث عن قلب كبير، وأحزان وتعذيب، ومدامع صبية ، ثم تتحدث عن السجن الذي يسلمها إلى «هذه الأغوار» في قسوة، مع أن روحها ظامئة ، وحب قلبها حب لاهب هيهات أن ينطفي...».

وعلى أثر زواجها من الأديب «سيد ندا» انتقلت جميلة إلى «عين شمس» حيث عاشت حياتها التي حرصت على أن تكون وقفاً على الأدب، فأصدرت هي وزوجها مجلة «الأهداف» الشهرية التي انتظم صدورها نحو عشرين عاماً ، كما كانت لها ندوة أسبوعية عرفت بـ«مجمع الأدب العربي» الذي استمرت فترة .. وفي خلال ذلك أصدرت العديد من الكتب التي تنوعت أغراضها ما بين الإبداع الروائي والدراسة الأدبية، والنفحات الروحية، والتوجه النسوي - كما وصفها صاحب الأعلام - فلما مات زوجها وهي لم تزل في شبابها تفرغت لتربية ابنها «جلال» وابنتها المتبناه «سحر».. وكان من بين كتبها «أنا وولدي» الذي «يصور قصة فذة من قصص صمود المرأة ، وهي حائرة بين طغيان العاطفة وواجب الأمومة، وقد اختارت جميلة أن تنحاز

إلى واجبها ، ورفضت بكل استبسال أن توزع قلبها بين ابن اليتم ومازال مستقبله في عالم الغيب ، وبين عاطفة مشبوبة عقدت العزم على أن تروض جموحها، وتلزمها حدود الترفع والتسامي.. وانتصرت في معركة وجدانية كبرى، وإن كانت هزمت فيها روحها ودفنت أشلاء ما اتقد من عواطفها ..».

وإذ كانت قضت سنوات عمرها المتأخرة مسمرة على مقعد متحرك بسبب كسور أصابتها، وما تحالف عليها من أمراض الشيخوخة .. فقد تحملت ذلك كله في صبر ، وبقيت - ضمن ما سجلت - سيرة حياتها وذكرياتها في كتابين مخطوطين .. وليت (كتاب الهلال) يستنفذ هذه المخطوطة التى ضمنتها سيرة حياتها ، فإنها لجديرة بالنشر.

وإذا كانت الشاعرة قد انتقلت إلى رحاب مولاها في عام ١٩٩١ ، بعد أن أصدرت ما أصدرت من مؤلفات كان أهمها ديوانيها «صدى أحلامي» و«نبضات شاعرة» إلى جانب العديد من الروايات والدراسات الأدبية - إلا أن ما كتب عنها من دراسات يعد نذراً يسيراً فقد جفاها الدارسون ، وأهملها النقاد ، ولم يرد ذكرها إلا لماما وعلى استحياء .. كما فعل صاحب الأعلام الذى ختم الفصل الذى كتبه عنها بقوله : «هذه محاولة لانصافها، وإن تطاول عليها العهد وشابها القصور» ولعل أهم أوجه ذلك القصور أنه اكتفى في حديثه عن إنتاجها الشعرى والنثرى بالكلمات العاجلة، والعبارات المقتضبة التى نقلنا الكثير منها، والتى لا تدخل إلا في مجال التعريف بصاحبة السيرة: فهل تجد جميلة من يتفرغ لإعداد دراسة عنها، وإنها لتصلح موضوعاً لرسالة جامعية متميزة؟ ثم هل تجد من يحيى تراثها ، ويعيد جمعه ، ترتيبه ونشره ؟ ومن يدرى .. فقد يتحقق شىء من ذلك!!

زكى مبارك

هذا وأيا ما كان اختيارنا للأعلام الذين ننوه عنهم ، فما يحق لنا أن نغفل الحديث عن «زكى مبارك».. فماذا قال صاحب الأعلام عنه؟

كانت بداية الحديث عنه قوله «لو اختصرت حياته لقلت : إنه أكبر أديب مشاكس عرفه العصر الحديث ، فلا أظن هناك أديبا عاش في معارك متصلة، ومشاكسات غير متقطعة ، ومباكسات لا تنتهى كزكى مبارك».

وإذ تعرف صاحب الأعلام على صاحب هذه الشخصية فإنه يذكر عنها أنه قد بهره بعلمه ، ولكن بعض ما كان يعمد إليه من غشيان بعض المشارب التى لا تليق به، وظهوره في ثياب لا تتناسب مع وضعه ومكانته ، ثم ما كان يعمد إليه من الطعن في خصومه وهم من كبار الأدباء وأفاضل الرجال، حتى لقد قال عن طه حسين - وهو من هو علماً ومكانة وأدباً «لو جاع أطفالى لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه...» - كل هذا لم يرض صاحب الأعلام فكان موضع ملاحظته التى أثبتها في حديثه..!!

وقد تحدث عن معارك زكى مبارك التى أثارها مع طه حسين حينا ، ومع أحمد أمين في أحيان أخرى.. حيث ظل لمدة خمسة أشهر ينشر عن أحمد أمين فصوله القاسية التى جمعت فيما بعد في كتاب يحمل عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربى» .. وهى الفصول التى ذكر عنها زكى مبارك أنها «أرقت جفون أحمد أمين خمسة أشهر كانت

عنده كألف سنة مما تعدون..» ومع ذلك فقد أضاف قوله : أنه إذا قابل أحمد أمين «فسأبدؤه بالتحية حيث ثقفته.. فلا يروعنى وجها أراه أهلا للكرامة والحب .. وسلام عليه من الصديق الذى لا يغدر ولا يخون».

على أن صاحب الأعلام يلخص الحديث عن هذه المعارك فى قوله، أنها «تنتهى دائماً بانتصار زكى مبارك، لأنه وحده القادر على المضى فى هذه المعارك حتى يجد خصمه ألا فائدة من الرد عليه، فإذا أفرغ الزكى ما فى جعبته - وجعبته لا تفرغ أبداً - أبداً - كان الخصم قد لاذ بسلامة الصمت ، وكان هو وحده الواقف فى الميدان..!».

كما نقل قول الزيات - صاحب الرسالة - عنه : «إن زكى مبارك لو استطاع تملق الظروف، ولو حذق شيئاً من فن الحياة ، لاتقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع، وجفاوة الصراحة، ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفى الناس، ويبقى ذلك المجهود العلمى الضخم الذى قدمه إلى الأدب العربى فى شتى مناحيه شاهداً على صدق خدمته للأدب ، ورفيع مكانته فى النهضة».

وقد سافر زكى مبارك إلى العراق، وأقام تسعة أشهر، كانت كلها عملاً وإخلاصا وإنتاجا، وكان بما تركه من أثر فيها ، وبما قدم من كتب عنها، مثالاً فريداً فى عطائه ووفائه ، دون أن يخوض هناك معركة واحدة ، سوى معركة مطالبته بإنشاء جامعة عراقية لأبناء العراق.. وقد صدر عن زكى مبارك وهو فى العراق، كما أصدر هو عن العراق أكثر من كتاب كانت من عيون الأدب ، ولعلنا نشير إلى كتابه «ليلى المريضة فى العراق» وقد كان فريداً فى بابه ، غير مسبوق فيما تضمنه من فصول .

ويذكر صاحب الأعلام أن زكى مبارك كان مكانه الطبيعى بين قادة الفكر فى عصره، ولكنه لم يكن يختار إلا مجالس صعاليك الأدب فى مشارب القاهرة - ولو تأملنا الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة المباركية لما وجدنا إلا سبباً واحداً هو الجحود، وهو سبب مازال متفشياً فى عالمنا العربى إلى يومنا هذا.. ولو أن الحياة أنصفت زكى مبارك، ووضعته حيث كان ينبغى أن يوضع لا نصرف إلى إعداد كتب جليلة أخرى من طراز النثر الفنى، والتصوف الإسلامى ، والشريف الرضى».

على أنه مما يحق لنا أن نشير إليه هو أن الصفحات التى خص بها صاحب الأعلام حديثه عن زكى مبارك - قد خلت تماماً من تقييم حقيقى منصف لأدبه : نثره وشعره ، بل لقد كانت إشارته إلى ديوانه «ألحان الخلود» غير كريمة.. وكذلك فقد خلت تلك الصفحات من الحديث عن «عاطفيات» زكى مبارك .. ولست أدرى كيف فات صاحب الأعلام أن يتحدث عن «مجنون سعاد» ومن تكون سعاد التى جن بها؟ وهل للشاعرة جميلة العلايلى صلة بذلك المجنون؟

*

على أن هذا السفر وإن لم يشف منا غليلاً فى الكثير من النواحى التى تتصل بالحديث عن أولئك الأعلام إلا أنه قدم لنا ولا شك فيضاً من المعارف والطرائف والمعلومات عن أولئك الأعلام المتميزين فى حديث يتسم بالسلاسة ، والعذوبة ، ويتصف بالصدق والإنصاف، فشكراً لوديع فلسطين وما نحسب إلا أن ثمة فى الطريق أكثر من جزء آخر عن أولئك الأعلام. ■

شعر
عماد غزالي

يا صديقي ..
جسد الأحلام مرة
مثلما جالت بعمق الروح
طرقات ونزفا
مثلما مرت وجرت أمة
في غربها
باقرنة تحملها الموجة
في جوف القارب
مثلما ينقلب العمر
ولاتنفك شفرات لنا
لا
ولا يرتاح قارب

xxx

يا صديقي ..
شرد الأحلام مرة
واحتمل بعدا
وقال
ليس أقسى أن يمر الليل
عطلا ؟
أن تغازل
وردة النوم بلا أدنى طيوف
ويجئ الفجر خلوا
ليس يقصيه عذارى
- لم ترافقهن عفا -
في متاهات الكهوف
فإذا شردتها واحتملت بهتانها
ليلا طويلا
فانتظر قطعانها عائدة
تنفر من همس الأنامل

وتحسس ملمس الأفقى
وإجفال الأيام .

xxx

يا صديقي ..
راود الأحلام مرة
هل ستقرض لك حبلا من وداد ؟
هل سترتاح الجناحان
إلى خفقهما ؟
ستقول الآن
لن أرفع عيني إلى أفق عناد
ستقول لأن
عاهدت الترب
أن ترى مني خصاما
ستقول :
فاجناحاي يعودان إلى رشدهما
وهما أهدى إلى حمل رصاصي
إلى غر رحالم
سيمد الزغب النابض عنقا
ويراوغ
وينفض الريش عن تلك القوادم

xxx

يا صديقي ..
جدد الأحلام مرة
واحترز خلف الإصابة
إن أصابتك ارتجافات لنهد
ضرب الإصبع غابة
وتحور شجرا، مستفقها، غمدا،
مزاويل ربابة
لاتدع نهرا ليجري
بينما كظما ربات الكتابة

يمكن أن أطلق على تكويني في الصغر "تربية الذاكرة"

صلاح فضل

عندما يستشف المرء ما تراكم وراءه من حجب الماضى، ويحاول أن ينفذ ببصيرته إلى الجذور الأولى، يترك بالضرورة منطقة غائمة رجراجة، لا يستطيع أن ينفذ إليها إلا بلونها من إعادة التخلق وإعادة الخلق، وفى هذا شىء من الخطورة، حيث يرتبط الواقع بتمثلات الإنسان لنفسه، وأوهامه عن ذاته، وتصوراته لماضيه. وعندئذ يترجرج الحد الدقيق جدا بين التاريخ الشخصى، وبين هذه الاسهامات الذاتية، ومع ذلك سأحاول فى هذه السطور أن أجتهد للإمساك بالعصب الصلب والحى لهذه الطفولة الأولى.

فقد نشأت فى بيئة قروية، فى بيت اشتهر أنه بيت الشيوخ، علماء الأزهر، الذين تخرجوا كلهم وحصلوا على العالمية منذ أن عرفت بهذا الاسم، فى سلسلة قيل إنها تمتد إلى سابع جد، وليس معنى ذلك أن الجد الثامن كان ينتمى إلى سلالة أخرى، لكن أبعاد الأرقام وأكثرها سحرا وفاعلية، هو رقم سبعة.

مايذكره جيدا تأكيدا لهذه السلالة المغرقة فى العلم بمعناه الدينى الذى كان شائعا فى الثقافة التقليدية، وليس بمعناه الحديث بطبيعة الحال، الذى لم يكن واردا على بال أحدهم إذن.

الشاهد الذى يستنقذه ماكان يرويه له بعض شيوخ القرية من أن جدته الكبرى أم أبيه أم جده، لم تكن تحسن القراءة والكتابة، لكن زوجها كان يترك لها رعاية الأطفال فى كتاب القرية، الذى يقع فى الحجرة المبطنة بالخشب فى مدخل بيتهم الكبير، ريثما يمضى لقضاء بعض حاجاته، فكانت تقف بالمقرعة على رءوس هؤلاء الصبية، كما يروى لى أحدهم، وهى لا تعرف القراءة والكتابة، ولا تحفظ القرآن الكريم. فكان بعض الصبية الأشقياء يحاولون أن يناوشوها، بأن يتعمدوا الخطأ فى تلاوة بعض الآيات، وإذا بالمقرعة تهوى على رءوسهم، كانوا يسألونها: نحن أخطأنا فما هو الصواب؟.. لم تكن تدرى ما هو

الصواب، لكنها كانت قد حفظت إيقاع القرآن الكريم ونغمه، وأي نشاز فيه كانت تدركه، دون أن تدري كيف تصوبه .

نساء الأسرة كانوا هكذا وإن كان بعضهن ، إبتداء من جدتي المباشرة ، كانت تعرف القراءة والكتابة .

أبي شاعرا

تفتحت عيني على لوحة مطرزة بخيوط ذهبية معلقة في حجرة جلوسنا في قرية «شباس الشهداء» محافظة الغربية حينئذ في آخر الثلاثينيات ، ومحافظة كفر الشيخ الآن ، على مقربة من مدينة دسوق، حيث يكمن ضريح مولاي العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي. كانت اللوحة المطرزة فيها أبيات من الشعر لأبي ، أخذها جدي وطرزها، وهي أبيات لا أحب أن أكررها كثيرا لأن فيها شيئا من الفخر كانت تبعث في نفسي وأنا صغير كثيرا من الزهو، وكانت تمثل لي في فترات العسر والمشقة والمآزق بعد ذلك، عندما سعيت في دروب القاهرة، شبه معدم ، شيئا من العزاء والسلوى التي تمنحني كثيرا من الزاد. كانت الأبيات تقول:

سلالة الفضل أهل الفضل والكرم
ومنزل العلم مألوف من القدم
عناصر الطهر في أحسابهم عرفت
وآية النبل في رقم من الشمم

كنت كصبي أزهو بآية الفضل هذه، دون أن أعرف ماذا تعني على وجه التحديد

على أية حال عندما تفتحت مداركي ، كان حولي هذا المناخ العلمي الأزهري القروي ، الذي يتمثل في أب شاعر، اختطف بالموت والصبي لم يتجاوز الرابعة من عمره بعد، وهو مازال طالبا في تخصص القضاء الشرعي بكلية الشريعة بالقاهرة، في وباء التيفود ، كان من الممكن لو تأخر به العمر قليلا أن تنقذه حقنة بنسلين واحدة، لكن البنسلين لم يكن قد اكتشف حينئذ، ومات هذا الصبي الذي بكته رجال القرية ونساؤها على وجه أخص، لأنه كان على عكس ابنه الدميم كان معروفا بوسامته وجماله وأناقته ورقته الشعرية والشخصية .

أفدت كثيرا من هذا الميراث ، وإن لم أفد منه جسديا، لكن أفدت منه حب وعطف ورعاية ، أهل القرية نساء ورجالا لأنني ابن المرحوم . ورثت عنه أيضا دفترا شهريا ، قرأت فيه كثيرا من القصائد الطريفة، بعضها عن حريق ميت غمر مثلا، بعضها عن غزلياته وهو شاب قبل الزواج، بعضها عن هجاء زوجته التي هي أمي، بعد أن تزوج بها ، بعضها الآخر عن طرائف من مثل هذه

وكان من الطبيعي أن أظن في نفسي، أن علي على الأقل وفاء لأبي وحفظا على تقاليد الأسرة أن أكون شاعرا ، وبالفعل



أخذت نفسي بكثير من قراءة الشعر وحفظه، وحفظت آلاف الأبيات الشعرية، ونظمت كثيرا من القصائد الشعرية .

وفي مرحلة باكرة جدا، وعلى وجه التحديد عام ألف وتسعمائة وتسع وأربعين ، وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة من عمري ، تزوج فاروق الأول ملك مصر زوجته الثانية الملكة الحسناء ، بنت الشعب ناريمان.. كتبت قصيدة في هذه السن لتهنئة الملك فاروق، جعلت الحرف الأول من الشطر الأول فيها ، الحروف التي يتكون منها الملك فاروق الأول ملك مصر. والحرف الأول من الشطر الثاني من كل القصيدة اسم الملكة ناريمان ملكة مصر، ونظمتها بهذا الشكل ، وخرجت مستوفية لقواعد الشعر العروضي الموزون المقفى، لكنني كنت قد فرغت للتو من حفظ الجزء الثاني من الشوقيات على وجه التحديد، فطرحت على نفسي بشكل مبكر في الحادية عشرة، وقبل أن أدخل السنة الأولى الابتدائية في معهد دسوق الديني، السؤال التالي: مثل هذا الشعر الذي كتبته ، هل يرقى إلى مستوى ما أحفظه من شعر شوقي ؟

ولم أتردد في الانتهاء إلى نتيجة قاطعة، إنه لا يرقى بأية حال ، وكانت أول ضربة قاسية ، وجهها الناقد المبكر الذي أخذ يستيقظ في على حساب الكاتب المبدع ، الذي كان يغط في غفلته ، وبلاهته وإعجابه بذلك.. إذا لم تستطع أن تكون في الذروة، فلتصمت عن قول الشعر ، وكانت هذه القصيدة آخر ما نظمت من شعر.. وأذكر هذه الحادثة على وجه التحديد، لأنها تدل على لون من الاعتساف المبكر، والعنف في معاملة الذات، أخذت به نفسي.

وعندما أتأمل سبب هذا العنف ، أجد أن افتقاري لأبي وأنا في الرابعة من عمري ، واحتمالي بظل جدي الذي كان يحنو علي حنوا بالغا، ويتابع تربيتي في المدارس : أولا، المدارس الأولية، لكنه أخرجني من السنة الثالثة، لكي ألتحق بكتاب واحد من تلاميذه وأحفظ القرآن الكريم ، ووهبني للأزهر. هذه الهبة أحزنتني أبلغ الحزن وأعمقه ، لأنني لا أعرف ما الذي كان يغريني أن أظل أفنديا ، ولا أتحول لكي أندرج في سلالة الشيوخ الذين نشأت من أصلابهم كنت على وجه التحديد أتمنى أن أكون طبيبا ، لا أعرف لماذا؟ .. ربما لأن ألبير فهمي الطبيب الوحيد الذي كان يأتي من عاصمة الإقليم دسوق ، أو عاصمة المركز دسوق ، إلى المستشفى لدينا ، كان يركب عربة «كاديلاك» بالغة الفخامة، وكان ذو وجه شبيه جدا بالملك فاروق، في استدارته وحمرته ، وكانت النساء تتطلعن إليه من شرفات المنازل، ومن فوق الأسطح ، كي يشاهدونه وهو ينزل متبخترا من سيارته ، لكي يمضي إلى عيادته ، لكي يطعن مائة رجل وامرأة في نصف ساعة بالحقن المضادة للبلهارسيا قبل أن يعود بسيارته إلى المركز .

ربما كان نموذج ألبير فهمي هو الذي أغراني في تلك السن بأن أكون طبيبا ، لكن أحبط هذه الآمال، ذلك النذر الذي نذره جدي ، بأن يحولني إلى التعليم الديني ، كي أعوض الفقيد الذي رحل مبكرا وهو أبي .

مفاجأ مذهلة

على أية حال حفظت القرآن الكريم في التاسعة ، فعقد جدي احتفالا في المنزل ودعا الفقيه الذي تولى تحفيظ القرآن ، وأولم له وليمة وبعضا من رفاقه وزملائه، وأقرب



عبد الناصر يسلم صلاح فضل شهادة الليسانس من دار العلوم

الأمل ، وبعد نهاية الوليمة استدعانى جدى لكى يختبر مدى اتقانى بعد أن ختمت القرآن الكريم.

وكانت المفاجأة المذهلة ، التى لم يبدو أن جدى قد فوجئ بها ، أننى نسيت تماما ما كنت قد حفظته ، فعلق تعليقا بسيطا جدا ، ومتسامحا جدا «ياصلاح إنت حفظك مثل حرث الجمال» ومن المعروف أن الجمال ذات خف عريض ، وأنها إذا حرثت الأرض فهى تقوم بتسوية ما حرثته أولا بأول ، مما يحتاج إلى أن يحرث مرة ثانية وثالثة، وهكذا .

وقال لى منذ الغد لاتذهب إلى الكُتّاب ، لكن أعد الحفظ هذه المرة كل ربعين فى يوم ، وليس نصف الربع كما كان المقنن للحفظ قديما ، ولك عن كل ربعين تحفظهما خمسة قروش ، وعد برتقال .. وبنظام المكافأة هذه ، أعدت حفظ القرآن مرة ثانية فى ستة أشهر أو أقل ، ثم عندما أكملت العاشرة ، قدم لى جدى أوراق الالتحاق بمعهد دسوق الدينى ، فقابله شيخ المعهد ، ورحب به وحياه باعتباره زميله ، ثم قال له إن اللوائح تمنعنا من قبول التلاميذ أقل من إحدى عشرة سنة ، فأمضى بى مرة أخرى ، ليعود فى العام القادم .

عندئذ أخذ الحزن يعتصر قلبى ، لأننى كنت أعتقد أننى قد حفظت القرآن وانتهى الأمر ، فماذا سأفعل فى هذا العام ؟..

أتى لى جدى ببعض المتون ، وبالألفية لكى أحفظها فى ذلك الوقت، وبالفعل تدربت ذاكرتى على الحفظ منذ ذلك الحين ، لكننى بقدر ماكنت سريع الحفظ، كنت سريع النسيان .

الأمر الذى استحضره بوضوح من تلك الفترة الآن على قدر كبير من الأهمية أولهما هو إحساس ممض لاذع بألم اليتم وفقد الأب ، ولا يسد فراغ الأب أحد آخر .

أذكر مثلا أنه نزل قريتنا فى أحد الأيام مغنى ربابة شبيه بأبى ، تركت المنزل ، وأخذت أجوب القرى خلفه ، يشدنى إحساس إليه بأنه ربما كان أبى قد عاد فى صورة أخرى ..

كنت عندما أجد رفاقى يمسكون بأيدى آبائهم أنزوى فى ركن وأبكى لأن يد أبى لا تمتد إلَىّ كى أمسك بها .

هذا الشعور العميق باليتم ، عانيته بحدة

وقاومته وتحديته ، لكنه ظل ينخر فى قلبى فترة طويلة .

ربما كان الأمر الثانى الذى أذكره ، عاملا خفف لدى بعض هذا الأثر الممض ، الذى تركه غياب الأب..

بيتنا منتدى للشباب

كان بيتنا فى القرية منتدى لشباب القرية المتعلمين .. يعقدون فيه اجتماعاتهم ، ويثيرون فيه مناقشاتهم ، ويتحاورون فيه حول أمور السياسة والثقافة والأدب ، وأمور القرية، والمسائل العامة وغير ذلك ، وكنت أسبق عمرى فى مجالستهم، بل وربما مشاركتهم فى بعض هذه المناقشات ، ثم أخذ نفسى بقراءة مايتداولون حوله فى حواراتهم حتى أستطيع وأنا صبى صغير لاتكاد قامتى تعلو على ظهر الكرسى الذى أجلس ، أن أنطق فأسمعهم ، ولا أثير سخريتهم .

هذا البيت المنتدى عوض قليلا وبفعل أعمامى الذين كانوا فى معظمهم جامعيين ، بعض منهم أزهرى بكلية أصول الدين وبكلية اللغة العربية وهم أكبر منى ، والبعض مدنيون مثل عمى الذي كان طالبا فى كلية الحقوق . هذه البيئة، لنقل التى تقع على تخوم القرية والمدينة، لا من الناحية الجغرافية، ولكن من الوجهة الثقافية، من ناحية ارتباطها بالفكر والثقافة والتعليم ، والحياة العامة. ساعدتنى فى نشأتى على أن أنفتح بسرعة، وأن أعشق شيئا له أعظم الأثر فى حياتى ، بأن أصل فيه إلى درجة الإدمان ، ذلك الشئ كان هو القراءة.

أذكر مثلا أننى ومجموعة من زملائى ورفاقى فى الدراسة ، أو فى العمر وإن كانوا يدرسون فى المدارس المدنية .. كنا خلال شهور الصيف كلها ، التى تمتد أحيانا إلى أربعة أو خمة شهور ، نأخذ على أنفسنا عهدا بأن نقرأ فى اليوم كتابا على الأقل .. كتابين إذا كانا من الحجم الصغير ، وكتابا إذا كان من الحجم الكبير ، ثم نلتقى مساء ونأخذ فى السير على الطرق الزراعية فى ضوء القمر ، لكى نتجاذب الحديث ونتناقش فيما قرأنا من كتب فى النهار ، ويأخزى من يبدو أنه لم يكمل الكتاب الذى تعهد بأن يقرأه .

أعتقد أن هذه العادة التى تأصلت لدى منذ تلك الفترة ، قامت هى الأخرى بتعويض ذلك الفراغ الوجدانى، الذى أشرت إليه بفقد الأب . التعويض المباشر كان يأتى من جانب آخر ، كان يأتى من الخيمة التى تظللنى حينئذ بعطفها وودها ، وهى خيمة الجد ، وكان الجد يؤثرنى بصحبته ، ويؤثرنى أحيانا بالسفر معه إلى بعض القرى المجاورة، ويحكى لى فى هذه الأسفار كثيرا من الحكايات ذات الطابع الدينى ، أذكر منها مثلا : أننا كنا فى سبيل زيارة عمتى ، أى ابنته المتزوجة فى قرية مجاورة، فذهبنا مشيا على الأقدام ، فحكى لى قصة أن الله إذا كان راضيا عن عبده ، أمر الملائكة أن تطوى له الأرض حتى يصل إلى غايته مبكرا وإذا كان غاضبا عليه أمر الملائكة بأن تمد له الأرض حتى ينهك قبل أن يصل إلى غايته .

هذه الصور الطفولية التى تستأنس ببعض مأثورات التراث ، كان لها فعل عجيب فى مخيلتى فى تلك الفترة من الصبا المبكر ، لكن الطابع العقلانى لجدى لم يسمح له بأن يتمادى معى فى هذه الحكايات، بل كان لنا قريب هو خال أبى ، وكان شيخا من شيوخ الطرق الصوفية، ويأتى إلى منزلنا

فيقيم في الدوار ، ولأنني صبي مكلف برعاية الضيوف ، وصب القهوة والشاي لهم ، وصحبتهم وقضاء حاجاتهم ، كان يتعين عليَّ أن ألزمه في الليل ، وفي النهار . هذا الخال كان رجلا يمضي وأمامه لحية وقورة تمتد ثلاثة أشبار بيضاء، ويضع على رأسه العمة الخضراء ، ويأتي إلى القرية فيهرع إليه كل الناس يستشفون ببركاته وبدعائه، وبنوع من الطب العربي بالكي ، يمارسه لشفاء أمراضهم المستعصية في كثير من الأحيان ..

خلال سهراتي المطولة مع هذا الخال الأكبر .. خال والدي ، أخذ يحكي لي حكايات بالغة الطرافة والعجائبية، أشد غرابة في كثير من تفاصيلها من حكايات ألف ليلة وليلة مثلا ، وإن كانت تمضي على نسقها إلى حد كبير ..

حكاية الجنيات

من هذه الحكايات مازلت أذكر، وقد أثر هذا في تفكيري إلى حد كبير ، وسبب لي مأزقا فكريا وعقليا ، عايشني بعد ذلك سنوات طويلة حاولت أن أحله ، دون أن أنجح في ذلك ، واستعنت ببعض كبار المفكرين ليعينني على حله ، فلم أوفق في الوصول إلى هذا الحل .

كان يحكي لي مثلا عن زواجه بالجنيات ، وقصة معاشاته الطويلة، وتفاصيل بالغة البذخ والثراء والجمال ، في حكاية كيف يهيئن له البيوت التي يعيش فيها ، والأطعمة التي ينعم بها ، والملابس التي يرفل فيها، والمتع والصحبة البالغة الرفاهية التي كان يدبرنها له، وكان من عادته أنه إذا قدم له الطعام مثلا، وليكن طبقا من الأرز واللحم ، ويأكل مما يليه ، إذا سقطت قطعة لحم أمامه ، امتنع عن الطعام ، لأن هذا يمكن أن يكون دسيسة لجنية أخرى تريد أن تسممه!

الشئ الطريف جدا في ذلك ، هو أن هذا الرجل لم يكن بحاجة إلى أن يكذب ، ولا أعتقد أنه كان يجاري فضولي الصبياني لكي يخترع لي هذه الأقاصيص والحكايات ، لأنه كان ينسبها لنفسه ، فنشبت في عقلي أسئلة حادة ، عن مدى مصداقية هذاالكلام ، هل حقا ومن الصحيح أن يتزوج إنسي بجنية؟! وجنيات متتاليات ، يعيش فترة مع واحدة، ثم يعيش فترة مع أخرى ثم يتركها ويقترن بأخرى وهكذا !

وظلت أحمل تلك الأسئلة في عقلي إلى أن حضرت إلى القاهرة، عندما كنت طالبا في معهد القاهرة الثانوي ، وانتقلت إلى الجامعة إلى كلية دار العلوم ، وفي السنة الأولى صحبت أحد أصدقائي الذي كان يتردد على مجلس الأستاذ عباس محمود العقاد ، والهدف الأساسي لي أن أسأله عن مدى صحة ذلك ، لأن العقاد كان يمثل بالنسبة لجيلنا المرجعية العقلانية والثقافية العليا ، التي يمكن أن نطمئن لصحة أحكامها ، وإلى سلامة وجهة نظرها ...

وتحينت الفرصة وسألت العقاد بالفعل عن هذا الأمر ، فإذا به يخيب ظني ، جنية بلغة، لأنه نظر إليَّ ورد بصوته الأجش الساخر : يا مولانا هل حلت كل مشاكل الإنس والبشر على الأرض ، حتى تشغل نفسك بمشكلات الجن !

دعك من التفكير في ذلك.

وربما كانت هذه الطريقة البراجماتية، وعلى أية حال فهذا هو الحال الذي عملت به، هو أنني بالفعل كففت عن التفكير في هذه القضية وكففت عن التفكير فيما يتصل بالغيبيات كلها ، ثم أخذت أدرب عقلي على الطريقة العلمية في التفكير ، وعلى العقلانية في أخذ الأمور ، على المنطق في الاحتكام إلى طبائع الأشياء، وتركت ماعدا ذلك جزءاً

من مخلفات الأساطير في القرية!

مساخيط في القرية

أسطورة أخرى من تلك الأساطير التي كان لها تأثير وجداني بالغ في نفسي ، ولم أهتد إلى شيء من تفسيرها إلا بعد مراحل من تقدم العمر. كان أمام منزلنا في القرية تكوينان حجريان من الحجر الجرانيت البالغ في الجمال والنعومة، والتكوينان يتميزان بأشكالهما البديعة وبالنحوت المنقوشة عليهما ، وربما كانا رأسين لعمودين من العمد الفرعونية القديمة أو شيئاً من ذلك ، وكان الشائع لدينا أن هذه المساخيط إنما هي المصير الذي ينتظر أي رجل أو امرأة، أو فتى أو فتاة ينتهك شيئاً من حرمات الدين، ومن قداسة العناصر المرتبطة به، كأن يتوضأ باللبن، أو كأن ينتهك شيئاً من المقدسات فسيسخط حجرا. وعملية المساخيط في القرى المصرية ، كان التفسير الذي يقدم لها، تفسيراً أسطورياً بهذا الشكل، لكن كان الأثر الوجداني الذي تتركه في نفوسنا ونحن صبية ، أثرا عميقاً بأنها تمثل التكوينات التشكيلية النحتية التي نتعايش معها ، ونلعب عليها ونتحسسها، ونتشرب مافيها من جمال ودقة وإبداع فني.

لم تكن الطبيعة الجميلة القروية في الزراعة والحدائق والسماء الصافية ومناخ الدلتا على وجه التحديد ، هي مصدر استشفاف الجمال الطبيعي فحسب، بينما كانت تلك الآثار المتناثرة، المطمورة حينا، والمبعثرة في طرقات القرية، وعلى مشارفها قربا من مدينة صان الحجر الأثرية، والتي تزخر بهذه الأشياء.

يرتبط بذلك أيضاً ماكنا نتداوله عن الكنوز المطمورة، وعن المغاربة، كانوا يستتون الكنز المطلب ، وعن أن هذا الكنز هناك رقية مسحورة إذا اهتدى إليها أحد، استطاع أن يفتح الكنز ويعثر على هذا الذهب. وكانت في أعماق كل بيت - في تقديري ربما - وفي بيتنا على وجه التحديد ، هناك تقاليد عائلية تتداولها الأجيال ، بأن المطلب هو في هذه القائمة، وأننا لو اهتدينا إلى الرقية أو التعويذة الملائمة ، فسوف ينفتح لنا الكنز ، وسوف يتاح لنا.

ما أريد أن أستخلصه من هذه الومضات التي تأتي إلى ذاكرتي بطريقة عفوية، أمر أصبحت أؤمن به، عقلياً وعلمياً الآن، وهو أن الشخصية المصرية، شخصية متعددة الطبقات جيولوجيا، في وعيها قليلاً ، وفي مخزونها اللاشعوري كثيراً .

من الطريف مثلاً أن قريتنا التي تسمى «شباس الشهداء» دائماً تحتفل بمولد هؤلاء الشهداء ، وتطلق عليهم أسماءهم : أن هذا سيدي محمد الصياد، وتلك سيدتنا آمنة إلى غير ذلك ، ولكنني على الإطلاع في بعض الخطط والكتابات القديمة، أن اكتشف أن هؤلاء الشهداء لم يكونوا مسلمين حتى، إنما هم شهداء من عصر الرومان قبل الإسلام!

معنى ذلك أن المذخور من التراث الفرعوني والقبطي والإسلامي كل هذا يتعايش في أعماق قلوبنا ، وفي قاع وجداننا دون أن ندري ، وهو الذي يصنع بعد ذلك مزاج تلك الشخصية المصرية، التي أتلمس مذاقها وملامحها بمحاولة استكناه أحداث تلك الفترة من الطفولة.

لكن لم يخل هذا مثلا من الملح الأساسي في هذه الطفولة، وهو شيء من التمرد.

أذكر ونحن في تلك المرحلة : ثرنا على تقاليد القرية، وعلى إيمانها الشديد بتلك

الغيبيات ، وعلى كمية اليقينيات التى تسلم بها، خاصة فى كرامات الأولياء، وبما يتصل بهذه العوالم الغيبية، وقررنا ونحن طلاب فى المعهد الثانوى والمدارس الثانوية؛ ثلاثة من الطلاب الذين يدمنون القراءة أن نخترع أحد الأولياء، وبالفعل نشرنا فى القرية شائعة عن حلم رواد أحد شيوخ القرية كبار السن عن أنه زاره واحد يسمى سيدى محمد، اخترعنا له اسما وأنه مدفون فى وسط المقابر فى هذا المكان، ويجب أن يصحو ويضع نصبا خشبيا على هذه المقبرة ، ويدعو للتبرعات ، ويقام له ضريح ، وبالفعل انتزعنا هذه الحركة ، وصنعنا وليا؛ وصدق الناس ذلك. وكنا نريد أن نبرهن على هشاشة وزيف كثير من تلك التقاليد القروية، ونحن طلاب فى المراحل الأولى التعليمية.

تربية الذاكرة

الذى استخلصه أيضاً من عصارة هذه الفترة الأولى، أن ما أخذت نفسى به أنا شخصياً فى التعليم الأزهرى، هو نوع مما يمكن أن أسميه تربية الذاكرة، وتربية الذاكرة مسألة فى غاية الدقة، لأنك تحفظ كثيراً ، لكن تستصفى مما تحفظ أنماط وهياكل وتصورات، تجعلك تدرك بعد ذلك مالا تعرفه بمعنى أنك تمتص أساليب الكتابة، وأساليب الشعر ، وأساليب التفكير، ثم تبدأ فى إنتاجها بطرائق موازية أو مخالفة لما تعودت عليه .. وبالرغم من هذا الاستغراق فى الطفولة فى عوالم الغيب التى تنفعنا فيها ثقافة القرية لدرجة مثلاً أننى أذكر الكتاب الأول ، الذى كنت حريصاً على أن أضعه موضع الاختيار والتجريب ، كان «شمس المعارف الكبرى» وكنت أعمل إلى نقل بعض التعاويذ والأحجبة والرقى منه، لكى أجرب هل يمكن أن تزرع هذا الحب أو الكره، أو غير ذلك، كما هو موصوف فى «شمس المعارف» بمربعاتها ومثلثاتها وأشيائها.

قطيعة العالم القروي

عندما انتقلت إلى القاهرة فى سن السادسة عشرة، حدثت قطيعة حقيقية بينى وبين هذا العالم القروى، كانت قراءاتى التمهيد الفكرى والعقلى والمعرفى لهذه القطيعة ، لكن حياة القاهرة بأضوائها ومنتدياتها، بصخبها الشديد، بازدحامها بسيارتها و برجالها ونسائها، ومفاتنها المتعدد، كانت كفيلة بأن تنحو بهذا الفتى، منحى مضادا تماماً، لما كان آخذا فيه وغارقا فيه فى صباه.

كنت أقرأ مثلاً «أيام» طه حسين ، فاتهمه بالسذاجة وبالمكر، لأنه يصدق فى وصف أشياء، ويخفى أشياء أخرى..

طه حسين - مثلاً - لم يأت على ذكر كيفية مقاومته لنوازعه الجنسية التى لابد أنها كانت استبدت به فى مراهقته، وغاية ماهناك أشار إلى بعض ماكان يعترى رفاقه، ولا يعتريه هو بطبيعة الحال من الاحتلام ، كنت أعتبره منافقاً، يدارى الحس والذوق العامين، ولا يريد أن يصدم الناس، ويصدق فى التعبير عن عبثه هو مع نفسه.

كنت آخذ عليه أيضاً أنه ينسب إلى مشاعره فى الطفولة والصبا، أفكارا أعلى بكثير، مما يمكن أن يعترى طفلا فى مثل سنه، أو يدور بخلده، فسيطر نضجه على صباه ، وعلى مراهقته، وكأنه يكتب سيرته بأثر رجعي، بعقلية اليوم، وليس مستحضرا بعقلية الأمس.

كنت آخذ على العقاد مثلاً فى تلك السن الباكرة الأولى، التى لم أتردد فيها كثيراً على مجالسه، إلا بالقدر الذى يشفى شيئاً من فضولى لرؤيته، بعد أن قرأت أن هناك انفعالا حاداً، بينما كان يقوله من جانب،

وما يكتبه من جانب آخر، وأنه كان يراعي الناس فيما يكتب، ولا يصدق فى التعبير عن ذاته. إلا أنه فى حقيقة الأمر كما لمست في بعض هذه الجلسات، كان شخصا مختلفاً، بعد ذلك هذه الأفكار نمت لدى، وإن كنت لم أكتبها، لأننى أريد أن أصدم الناس فيما يعظمونه ويقدسونه، وهذا أيضاً من النتائج التي أخذت نفسي بها. أن ليست مهمة الناقد هى إبطال الأساطير، أو تحطيم الأصنام كما كان يعبر العقاد بذلك، وإنما مهمته هى بناء القيم والمفاهيم وتعديل الرؤى والصور بما يتوافق مع منظوره الجديد، لأن جرح إحساس الآخرين، واغتيال مايعتزون به، لايمكن أن يؤثر فيهم، ولأن هدف الكتابة أدبا ونقداً، هى التأثير فى الآخرين، فينبغى أن نبقى على خيط معاوية معهم، ولا يخرج حسهم إلا عندما تقتضى الضرورة ذلك، وأرفق الوسائل وأشدها لينا وتعاطفا وديا، في كثير من الأحيان.

مقيم للشعائر الدينية

أعود إلى تلك الفترة الثانية، وهى فترة القاهرة لأتذكر مثلاً أننى عانيت فيها أكبر ضائقة مادية مررت بها فى حياتى، عندما كنت فى الثالثة الثانوية الأزهرية، ذلك أن جدى كان قد توفى، وعمى الذى كان قد أخذ على عاتقه رعايتنا، أخذ يبيع قطعة الأرض التي ورثناها، ثم لايكاد يرسل لنا من عائد هذا البيع، مايفى بحاجتنا .. كنت أريد أن أستقل، فتقدمت لإحدى الوظائف فى وزارة الأوقاف، هى وظيفة مقيم شعائر، ومقيم الشعائر هذا عبارة عن شخص يتولى زاوية، أو مسجدا صغيراً من جميع جوانبه، يؤذن حينما يحين وقت الصلاة فيها، ويؤم المصلين، ولا بأس أن يكنسها أيضاً بعد أن تنتهى الصلاة، ويغلق أبوابها، ويحافظ عليها كحارس، فهو يتولى الزاوية من كل أمورها .. ابتداء من الأذان إلى إغلاق الباب.

وكان راتب مقيم الشعائر هذا أعلن عنه ستة جنيهات، وتقدم عدد كبير معى من الطلاب، وهم يحتاجون إلى عدد يسير، ففكرت في أن أستعين بواسطة كبرى لكى أضمن التعيين فى هذه الوظيفة، وذهبت فعلاً إلى إحدى الشخصيات اللامعة الكبرى، التى كانت تربطها صلة صداقة بجدى، وصلة قرابة أيضاً، وهو المرحوم، الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف دراز، الذى كان وكيلاً للجامع الأزهر، وكان حما الشيخ الباقورى وزير الأوقاف عندئذ.

ذهبت إليه أطلب منه أن يتوسط إلى زوج ابنته الشيخ أحمد حسن الباقورى حتى يعيننى.

كان يقيم فى شقة بجاردن سيتى فاستقبلنى هاشا باشاً وذكرنى بوالدى المرحوم وبجدى إلى آخره ثم سألنى عن مستواى الدراسى، فقلت له أننى منذ دخلت السنة الإبتدائية، وأنا أحافظ على مكان الأول دائماً، فى فرقتى، وكنت من الخمسة الأوائل فى الشهادة الإبتدائية، على مستوى الجمهورية .. فإذا به يتخذ موقفاً مضاداً تماماً لما ذهبت أطلبه .. وقال لى سأخبر الشيخ أحمد الباقورى أن يمنع تماماً، ويصدر تعليماته بألا تعين فى أى مكان بوزارة الأوقاف.

لماذا يامولاى، وأنا آت إليك للإستعانة بهذه الحاجة؟!

قال: لأن هذا سيفسد مستقبلك، وسيضيع إمكانياتك وسيقف بك إلى حدود هى أكثر تواضعاً مما يمكن أن تصل إليه بجهدك وعلمك، فخرجت ساخطاً ممن أريد

أن أستعين به، فإذا به ينقلب ضدي بهذا الشكل الحاسم.

وأمضيت ليلة من العذاب والتفكير، لكنني أفقت في الصباح على حقيقة مدهشة، وهي أن موقف الشيخ دراز رحمه الله، كان مؤشرا لي لطريق المستقبل. وأن عليَّ ألا ألجأ إلى الحلول السهلة، والبحث عن وظائف. وإنما استمر في التحمل والكفاح والتفوق، حتى استطيع أن أتم تعليمي بالمستوى الذي أتطلعه.

وكان من الصدف في تلك الفترة أن أخذت بعض الهيئات، مثل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومثل إدارة الأزهر نفسها، في الإعلان عن مسابقات، فأذكر منها الإعلان عن مسابقة، وموضعها: المفضليات حفظ ودراسة، فحفظت المفضليات ودخلت امتحان المسابقة، وفزت بالجائزة الأولى ، وكانت خمسون جنيها، أي مايساوي راتب سنة كاملة من الوظيفة التي كنت أبحث عنها في مسابقة لشيء ممتع كنت أتلذذ بحفظه وبالكتابة عنه.

أخذت المسائل مسار آخر، عندما بدأت في تلك الفترة ذاتها فكرة جوائز المتفوقين ، فعندما حصلت على الثانوية الأزهرية تقرر لي مكافأة شهرية منذ السنة الأولى في كلية دار العلوم قريبة جداً من مرتب المعيد بنفس الكلية.

وخلال السنوات الأربع التي وفقت فيها أن أحافظ على الامتياز، طولها ، وعلى المركز الأول بين مجموعتي، كنت أعيش في بحبوحة من العيش، تجعلني، أسخر من تلك اللحظات التي فكرت فيها أن اكتفي بخلع البدلة، وليس الجلباب والقبقاب، والعمل مقيم شعائر في أحد الزاويا.

مضيفة لأهل قريتنا

نسيت أن أكمل الصورة لأنها طريفة، ولا تخلو أيضاً من بعض المغزى. عندما انتقلت إلى القاهرة لكي أصحب أعمامي الذين سبقوني في الفترات التعليمية ، كانوا يسكنون في شقق بحي الحلمية، ويتنقلون كل عام في شقة، حتى اهتدى بهم الأمر إلى حجرة كبيرة، في بيت كبير في حارة «الجنبكية» بشارع «المغربلين»، فأقمت في هذه الحارة في قلب القاهرة المعزية.

كانت هذه الحجرة طريفة جداً، لأنها واسعة للغاية، لكنها مضيفة أهل القرية كلهم.. كل من يأتي ليعرض نفسه أو ابنه على القصر العيني، مريض أو ما عدا ذلك، أو ليراجع وزارة الإصلاح الزراعي، أو ليقدم طلباً إلى الأوقاف، أو إلى الشئون الاجتماعية، أو ليوسط أحد نواب الدائرة . كل من يأتي من قريتنا، فالفندق المجهز له دائماً هو حجرة «الجنكبية» .. أكثر من ذلك كان معظم طلاب القرية الذين ينتسبون للجامعة يحتلون حجرة لا تخلو في النهار من عشرة أشخاص، وفي الليل من عشرين شخصا ينامون فوق السريرين وتحتهما، وإلى جوار النوافذ.

وكان من المستحيل عليَّ بطبيعة الحال، أن أجد وقتا لكي أذاكر في هذه الحجرة، لأنها لا يمكن أن تخلو ساعة واحدة من نهار أو من ليل، فكان المكان الذي أذاكر فيه وأستمتع جداً هو المساجد الأثرية في منطقة المغربلين، والغورية، من أمثال مسجد الرفاعي، والسلطان حسن، والورداني، وغير ذلك ، ومن كثرة ما عرفت هذه المساجد، شممت ريحها، وتقلبت بين أعطافها، ونعمت بالتكييف الطبيعي فيها، طوال فترة الدراسة. ■

وللتكوين بقية

• عاطف مصطفى

كيف نحول الكم المهدر إلى كيف بناء؟؟

في مقال الدكتور مصطفى سويف «الكم والكيف في حياتنا» والمنشور في عدد ديسمبر ٢٠٠٣ أطرح سؤالا جوهريا وهو: كيف يمكننا أن نولد التحول الكيفي في حياتنا عن التغير الكمي.. أو بعبارة أخرى يمكننا أن نعطى الصدارة دائما للكيف على الكم، ولن يتأتى تحويل الكم الهائل المهدر في حياتنا، إلى كيف فعال ومنتج وخلاق، إلا إذا أطلقنا الإرادة والقدرة الفردية الخلاقة، والتي تمثل رأس المال الإنساني الوحيد الذي يملكه الإنسان من وراء رأس المال المادي . وإذا كان قوام رأس المال الإنساني هو الأفراد، فإن مصلحة البشر في المجتمع المصري أن يمنح كل شخص من الفرص ما يتيح له أن يقوم بعمل منتج.

والقدرة والإرادة الإنسانية الفردية، شئ لا يجمع، ولكنه يستثار في كل نفس على حده.

ويوم ينفض الإنسان المصري عن نفسه روح الاحباط والتواكل والسلبية وتتوافر لديه فضائل الطموح والثقة بالنفس والرغبة في التفوق، وتحديد الهدف والقدرة على التركيز الشديد. يومئذ يستطيع أن يحول الكم المهدر إلى كيف بناء للإنسان والمجتمع، وأن يحلق مع النجاح المتصل.

عمرو عبد المنعم حمودة
برما - طنطا

عودة الحلم الشريد

جاءتْ عيونكِ من دروبِ الشوقِ
نظرتُ الأسى
تلقى على اللومَ وتزيدُ الشجون
كم حدثتنى عن فراقٍ قاتلٍ
وضياعِ عمرٍ فى أكاذيبِ الجنون
قالت: تُرى هل تهجرُ يوماً دربَنا
لتسودَ أيامى فى ظلال الياسمين
ومتى ارتمينا فى رياضِ العشقِ..
يزهرُ عشقُنا عطفاً ولينا
فيجئُ طيركَ صادحاً



يشدو لنا ويعيرُنا سحرَ العيون
وتلوحُ من عينيكَ أطيافُ المنى
وعلى جبينكَ من ضياءِ الفجرِ يأتلقُ السنى
كسحابةٍ ميساءَ تجتاحُ الوجودَ لتستكين
هو حلمُنا المعهودُ

صابر صبري معوض

ماذا تريد انجلترا من العرب؟!

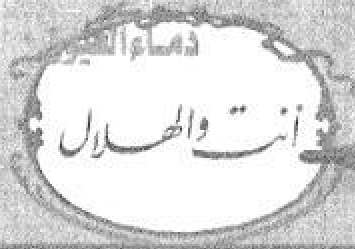
ما قرأت مقالا لابن أستاذى عالم اللغة والأدب أحمد أمين بك وأقصد د. جلال أمين إلا وقد أيقنت أن شموخ الوالد ثقافيا ووطنيا مازال متمثلا فى أبنائه، وإننى أعجب كثيرا بمقالاته فى الهلال ومنذ التسعينيات، حين تعمق اجتماعيا وسياسيا - ماذا حدث للمصريين والذى جمعتموه كتابا للهلال فى يناير «١٩٩٨ العدد ٥٦٥».

المهم أن مقال د. جلال أمين فى هلال ديسمبر ٢٠٠٣ «ماذا تريد أمريكا من العرب؟» يتصل من قريب أو من بعيد بما يحدث للعرب الآن، وليس المصريين فقط، بفعل الامبراطورية التى كانت لاتغيب عنها الشمس ثم غربت بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ وأعنى بذلك بريطانيا.. إذ يقول أستاذنا د. جلال ص ٧٢ «فبعد الهجوم الأمريكى على أفغانستان.. حدث الهجوم العسكرى الأمريكى البريطانى على العراق.. فجأة أصبح الاحتلال العسكرى المباشر ضروريا، بعد أن كنا نظن أن احتلال جيوش دولة أخرى مستقلة، قد أصبح تاريخا قديما لا يمكن أن يتكرر.

إن دور رئيس وزراء بريطانيا لا يختلف عن دور أنتونى ايدن فى عام ١٩٥٦ كما لا يغيب عنا أن بريطانيا هى التى احتلت العراق عام ١٩١٤، وكانت البصرة التى يتمركزون فيها الآن هى المدخل إلى أراضى النفط.

وليسمح لى د. جلال أمين بتغيير عنوان مقاله إلى: ماذا تريد انجلترا من العرب؟

د. سامي منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية



روح الفريق والنجاح في العمل

كلنا يحلم بمجتمع يحيا حياة كريمة، لكن ليس بالتمنى نحقق ما نريد، بل بالعمل وبالجهد والعرق.. والمثال على ذلك هو الدكتور أحمد زويل والذى شرفنا بعلمه وعبقريته، وأنه توصل إلى اختراعه الذى حصل به على جائزة نوبل بفضل جهده الشخصي ثم التعاون المتصل مع فريق من العلماء ساعدوه وتعاونوا معه حتى حقق اختراعه المبهر الذى أفاد العلم وسوف تتحقق نتائج مبهرة من خلال تطبيقاته لصالح البشرية.

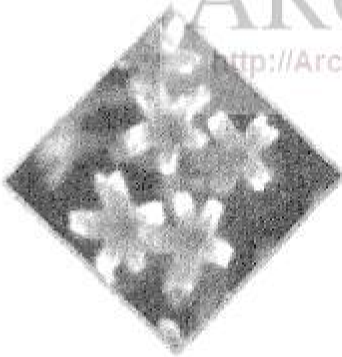
إننا فى أمس الحاجة سواء فى مصر أو عالمنا العربي والإسلامى إلى العمل والتفكير بروح الفريق.

إن التعاون والإخلاص في العمل والحب والتسامح وحب الوطن والغيرة على مصالحه، كل هذا يوصلنا إلى أهدافنا، ويحقق لنا التقدم المنشود فى عالم لا يعترف إلا بالقوى.

حسن عبد المجيد منتصر - فارسكور - دمياط

ربما قلبي.. يعود!!

افتحي الباب
إياك أنْ تغلقيه
ربمَا قلبى.. يعودُ
فى الصباحِ
في المساءِ
ربما أرسمُ من حلمى..
قواربَ الإياب
ربمَا أنقش هذا الليل طيْفاً،
وثرياتٍ ..
تشيعُ الدفءَ فى نبض الوجودْ
تتدلَّى!
يصدح الشعر الجميل
والمدى دمعتينِ!!
افتحي الباب
إياك أنْ تغلقيه
ربما قلبى.. يعودْ!!



محمود المصلي - شربين - دقهلية

تكنولوجيا النانو

وصناعة الماس من جزئيات الفحم!

الهلال

ثورة علمية تنتظرنا .. هى أن يصنع الماس من الفحم وجزئياته.

فقد ثبت من خلال تكنولوچيا النانو، أنه من الممكن تفكيك الفحم العادى ثم إعادة رص الذرات لصناعة الماس.

ويقول بعض الباحثين إن الاحتمالات تبدو أوسع من أن يحيط بها الخيال.. وهو انقلاب جذرى فى العلاقة بين الصناعة والمواد الأولى.

وقد بدأ الاهتمام بتكنولوچيا النانو فى عام ١٩٩٥، حيث ذكرت كلمة «نانو» حوالى ٢٠٠ مرة فى مختلف المطبوعات العلمية، وازداد هذا الرقم إلى ٤٠٠٠ مرة فى سنة ٢٠٠٢ وحدها.

ويرى بعض العلماء فى هذه التكنولوجيا الجديدة تطورا لم يسبق له مثيل فى تاريخ العلم.

وذكر ريتشارد سمولر وهو كيميائى حاصل على جائزة نوبل لاكتشافه نانو أنابيب الكربون ذات الأهمية، أن ميزانية علوم وتكنولوچيا النانو تقع على رأس الميزانيات فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى بلغت سنة ٢٠٠٢ أربعة مليارات دولار، وقد سجل حوالى ٣٠٠٠ براءة اختراع منذ عام ١٩٩٥ ويقدر علماء وخبراء سوق النانو فى المستقبل القريب بحوالى تريليون دولار فى السنة.

هذه الصناعة دخلت حيز التطبيق فى مجموعة من السلع التى تستخدم نانو جزئيات الأوكسيد على أنواعه والألومنيوم والتيتانيوم وغيرها، خصوصا فى مواد التجميل والمراهم.

كما تمكن باحثون فى جامعة بسيول من إدخال نانو فضة، إلى مضادات حيوية. ومن المعروف أن الفضة قادرة على قتل حوالى ٦٥٠ جرثومة دون أن تؤذى الجسم، ويخشى البعض من تسلل الجزئيات الصغيرة جدا للنانو إلى جهاز المناعة فى الجسم.

لكن فى النهاية هل نرى فعلا هذا التقدم المذهل فى صناعة الماس من الفحم، وأيضا فى صناعة الدواء، وفى مجال أقراص الكمبيوتر القادرة على ضغط معلومات أكثر بآلاف المرات من الذاكرة الموجودة حاليا.



موسوعة الهلال الثقافية .. والمسرح

تناولتم في موسوعة الهلال التي تعد إضافة مهمة قضايا حول المسرح وأود أن أشير إلى بعض المسهمين في ميدان المسرح على وجه الخصوص بمدينة الاسكندرية بريادة عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين حينما كان مسئولا عن إدارة جامعة فاروق الأول (سابقا) الاسكندرية الآن إذ جاء بكل من جورج أبيض وعبد الوارث عسر كي يعلم أحدهما دروس القاء النصوص المسرحية ويدرس الآخر أعضاء فريق التمثيل بكلية الآداب على الأداء المسرحي.

قام محمود مرسي بدور أوديب وقد كان طالبا بقسم الفلسفة أما زميله الذي وصل إلى منصب نائب رئيس جامعة الاسكندرية د. محمد زكي عشماوي وكان وقتها طالبا بقسم اللغة العربية فقد أدى دور «تريسياس» العراف. لقد تخرج في هذه الجامعة أسماء لمعت في مجال المسرح ومن بينهم نور الدمرداش والمخرج فاضل والفنانة سميرة عبد العزيز وسمير غانم ووحيد سيف ومدحت مرسي والدكتور سيد عبد الكريم وآخر العنقود الممثل محمود عبد العزيز . وغير هؤلاء.

إن ما دفعني إلى ذكر هؤلاء بابكم الجديد بالهلال الموسوعة الثقافية.

انحياز

انحزتُ إلى خصوبة الكلمة
لا خصوبة الرحم
أعلنتُ انشقاقي من كل القوالب
على وجهي تمردت
من دمي هربت
اخترتُ السباحة
في زمنٍ يخاصم الماء
إخترتُ الكتابة في عالم
لا تختار فيه النساء
إلا الخواتم والأساور وكفن الأزواج
إخترتُ وحدتي
في زمن يضطهد النساء الوحيدات
المديح أو الذم
عندي سواء
لم أواعد رئيس تحرير أو ناقد
للسهر والعشاء
قلبي ملكي
عقلي ملكي
جسدي ملكي
ورأسي لا يعرف الانحناء

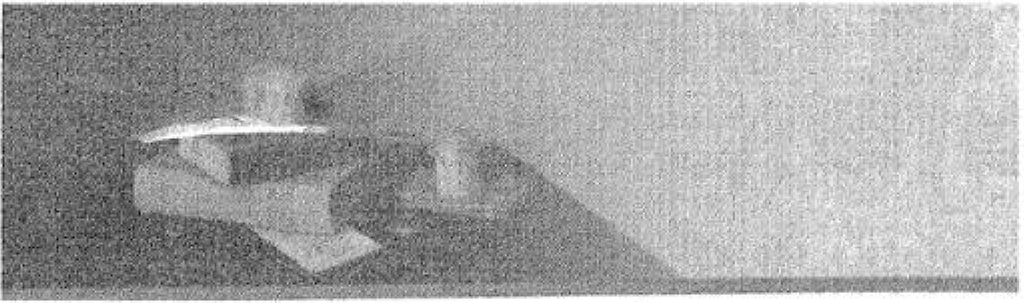
د. مني حلمي

أن تسمع اللون وترى الصوت

قرأت المقال الذى كتبه الدكتور أحمد مستجير في هلال ديسمبر الماضي بعنوان « تسمع اللون وترى الصوت» وأعجبت به إعجابا شديداً لكنني فوجئت بأن نفس الموضوع منشور في «مجلة ثقافية أخرى

ابراهيم عثمان - الزرقا - دمياط

الهلال : نأسف لذلك ونحن لم نكن نعلم بانه سوف ينشر في مكان آخر .



أمنيات للعام الجديد

على مدى خمسين سنة رأينا الظلم الذى حدث للشعب الفلسطيني من تشريد لأبنائه وقتل ودمار نشاهده يوميا.. وعلى الرغم من خروج الاستعمار من الدول العربية، إلا أننا رأينا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ضم واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة إلى إسرائيل.

ثم حدث ما حدث بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وكيف خرج المارد الأمريكى مكشراً عن أنيابه ليحارب فى أفغانستان ويحتلها، ثم العراق وما يحدث فيه الآن..

وإننى كطبيب أرجو أن تتحقق أمنياتى للعام الجديد بتفرغ البشرية لمحاربة الأمراض والمدخل لذلك هو أن ترفع إسرائيل يدها عن فلسطين، وكذلك ترفع أمريكا يدها عن الشعب العراقى، وتتركه يحدد مصيره بيده فى جو من الديمقراطية التى تتشدق بها أمريكا.

وأتمنى أن تتحقق أمنية عزيزة على النفس وهى أن تتفرغ أمريكا لمحاربة الأمراض فى دول العالم الفقيرة، وأن تتعقب الأشخاص المسئولين عن أحداث ١١ سبتمبر ولا تعاقب الشعوب العربية والإسلامية جراء تلك الأحداث.

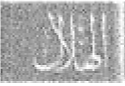
وأتمنى أيضا أن يترك للشعوب المغلوبة على أمرها تحديد مصيرها فى جو من الديمقراطية العادلة.

إن لدينا أمراضا كثيرة فى وطننا العربى: سوء التغذية والجفاف والحمى الروماتيزمية والتيفود حتى الكوليرا تعود من حين إلى آخر فى بلادنا العربية ينبغى أن تكرس الجهود للقضاء على مثل هذه الأمراض.

أيضا نقضى على الأمية التى انتشرت فى بلادنا ووصلت عند النساء إلى ٤٥٪..

أتمنى أيضا أن يعيش الإنسان العربى آمنا فى وطنه ينعم بالحرية والاستقلال.

د. جمال العطار

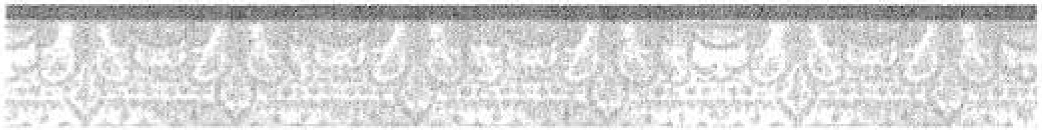


جائزة بمليون ليرة

منحت جائزة سعيد عقل إلى الكاتب جان سالمه وقيمتها مليون ليرة لبنانية عن مجموعة كتبه ومقالاته وذلك بحضور حشد من الأدباء والمثقفين اللبنانيين.

وقال سعيد عقل فى بداية الحفل: جائزتى أقدمها اليوم إلى جان سالمه الذى يتميز فى أعماله بالعديد من المزايا ذات اللون المتفرد، وهو إنسان لا يعرف الكره ويحب الجميع.

وقد رد جان سالمه بقوله: على الرغم من أن صاحبها لا يعتبر من أصحاب الثروات الطائلة التى لا تتيح له ما لا تتيحه للآخرين، فهى جائزة نبيلة، تكبر بشرف واهبها، وغير مغموسة بدم برئ، كجائزة نوبل مثلا، بسبب نيران بارود صاحبها ودخانه الخانق، وخصوصا لأنها جائزة يمنحها سعيد عقل نفسه، الذى شغل الدنيا بأسرها، وملأ العالمين، واستلفت كل الأنظار، فسما نجمه فوق الشعراء النجوم، وكل أدباء عصره، فى نهاية الحفل تسلم المحتفى به شيكا بقيمة مليون ليرة لبنانية.



دماء العيون

أنت والهلال

دماء العيون

دمــاء العــيــون على الســاقطينْ ... وهم يســـقطون بتــيــه وطينْ
وقــد كــان بعـضـهـمـو عـاليــاً ... ومـــا كـــان قط من الهـــابطين
يــريدون فـنـاً ومـــــا فـنـهم ... لغــيــر فــروج الهــوى والبطون
قـضى الابتـذال وإســفـافـهم ... عليـــهم ومـــاتوا وهم يخلطون

★

أينســـون أمـــجـــادهم والورى ... يراها لهم فـــوق هام السنين؟
أيلقـــونهـــا في بطون الثـــرى ... وليست لغــيــر العــلا والعـيون؟
عـــجـــيب هنا أمـــر ناس لهم ... عــقــول وليـســوا لغــيــر الجنون
يبـــيـــعـــون ديناً لهم بالدنا ... ومـــا مـــثلـه فى الدنا أى دين

★

هو الدين يا قـــوم إســـلامنا ... به كل عـــقـل رشـــيــد يدين
أنســعى مع الغــرب فى هدمــه ... ونحــسـب أنّا من المهــتــدين؟
جــمــيع الهــداية فى حكمــه ... وكل الضــلال مع المعــتــدين
لـنـا نــور إســـلامـنـا إنـه ... من النور نور وحق مـــبـــين

حسن أبو الغيط – كفر مصيلحة – المنوفية

مع الأصدقاء

مساهمات كثيرة تصل إلينا من الأصدقاء في القصة وفي الشعر، ونؤكد دائماً على ضرورة أن يتسلح الشاعر بأدوات من أهمها الوزن.

● القصيدة الأولى للصديق حسن عبد اللطيف – جامعة الدول العربية وعنوانها «سنعود»، ننشر منها هذه الأبيات:

ونزرع أعـــواد القمح عودا بعـد عود
ونعزف ألحان النصـــر على أوتار عود
وندق الأجراس بشرى باليوم الموعـود
ويلهو الأطفال ضاحكين حطمنا القيود
ونصلى هناك فنحن أولي منهم بــداود
ويختفى الظلم كما اختفى من قبلهم عاد وثمود

● أما الصديقة هدى عبد الله ابراهيم فننشر من قصيدتها بعنوان «كرسيان فى المقهى» هذه الأبيات

كرسيان يختلفان إلى المقهى
يتقاسمان الذكريات
ينساب فرح قلوبهم
يرتسم فى ألواحهم

يجرى امتداد تاريخهم منهم كنهر زاخر
ترى العرافة في الوجوه تبدو كرمز للصمود

● ننشر بعض الأبيات من قصيدة «إلى كوكب الشرق» للصديق رمضان بشير - قنا - أبو دياب شرق

أنت خلود
يستعصى على النسيان
أنت من تشتاق إليها
كل الآذان
أنت جبل.. حصن منيع
لا بل أنت
مملكة للروائع
والصوت الفنان
أنت اللحن الأول
في كل الأزمان

ونتواصل مع الأصدقاء في الأعداد القادمة ونشكرهم على رسائلهم الرقيقة.

● محمود صالح - المنيا - ابراهيم عزازي - طنطا - عبد العزيز الدريني - الشرقية - أحمد محمد الزهار - القاهرة - عفاف عثمان محمد - المنصورة - هشام ابراهيم - المحلة الكبرى - وائل عبد الرحمن - السعودية.

الكلمة الأخيرة

السلطان أسامة بن لادن

بقلم: إقبال بركة

ماذا لو انتصر بن لادن على أمريكا؟

سيخرج بن لادن وأتباعه من الكهوف التي يختبئون فيها ليعلن نفسه حاكماً منتصراً على العالم كله، فمن الذي سيجرؤ على مقاومته بعد أن دحر «الشيطان الأكبر»، وأثبت أن الحضارة الغربية ليست سوى قصور من القش!! ما الذي سيعوق بن لادن عن تحقيق حلم اليوتوبيا الخاص به، وأن يكتسح كل العقبات نحو بناء الدولة الخيالية التي أهدر ملياراته الموروثة عن أبيه المقاول في سبيل إقامتها؟!

وطبيعي أن يصبح صبيان الطالبان هم مساعدي وبطانة وحاشية الحاكم السوبر الجديد، وسيختار من بينهم وزراءه ليحكم بهم مملكته أو سلطنته الجديدة، التي ستفرض أفكارها ومبادئها على العالم ومن هنا يمكن أن نتنبأ بالخطوط العريضة للسلطنة الجديدة ويكفي أن نعود إلى السنوات التسع العجاف التي تحمل فيها الشعب الأفغاني حكم أولئك الطالبان، لقد عاش بينهم بن لادن سنوات طويلة، تأثر بهم وتأثروا به وامتزجت أفكارهم جميعاً حتى تطابقت، فمن الطبيعي إذن أن تكون صيغة الحياة التي فرضها الطالبان على الشعب الأفغاني، ولم يبد بن لادن أدنى اعتراض عليها، هي الصورة المثلى في نظره ونظرهم لما يجب أن يكون عليه المجتمع البشري. ومن الطبيعي أن يبدأ المهدي المنتظر بن لادن فرض فرماناته السديدة على المهزومين الأمريكان والغربيين قبل غيرهم لكي يجعلهم عبرة لمن يعتبر ولأن المرأة هي الهاجس الأول للمراهقين والذين في قلوبهم مرض فإن السلطان بن لادن سيبدأ بفرض النقاب على نساء أوروبا، أولئك اللاتي أشعن الفجور في أنحاء المعمورة وكن فتنة للرجال وقدوة للنساء ولولاهن ما تمكنت النساء المسلمات من عربيات وأفريقيات وآسيويات تجرأن على التمرد وطالبن بحقوق لا تخص إلا الذكور مثل حرية المشاركة السياسية وحرية العمل وحرية السفر إلى آخر تلك البدع والموبقات.

إن الفرمان الأول للسلطان بن لادن سيكون إجبار [illegible] نساء أوروبا وأمريكا من شعور شقراء، أو كستنائية مسترسلة إلى [illegible] إلى [illegible] تثير الغرائز وتحرض على الفساد. ينبغي أن تعلم المرأة الغربية المتبرجة السافرة أن الله خلقها لكي يستمتع بها الرجل داخل حريمه، ولكي تعمر الكون بالتناسل، ما عدا ذلك بدع لا مكان لها في يوتوبيا الطالبان أو سلطنة بن لادن، وعلى كل من [illegible] أو متخصصة أن تستغفر الله وتتوب عما فعلت وتعود إلى رشدها وتبذل الليل والنهار في محاولة محو آثار العلوم من عقلها. إن المثل الأعلى للمرأة يجب أن يكون الحريم في عصور السلاطين العظام. وما كان يجيده هؤلاء النسوة الفاضلات داخل الحرملك من وسائل إسعاد أسيادهن الرجال والتفنن في إثارة شهواتهم وإشباع احتياجاتهم الجسدية هو أقصى ما يجب أن تتعلمه وتجيده كل نساء العالم، على النساء الغربيات أن يلجأن للدروس الخصوصية من فتيات علي الليل ونساء الجيشا اليابانيات، فهؤلاء لن يتم الاستغناء عنهن إذ سيتحولن إلى جوار وقيان يقدمن المتعة للطالبان وأتباعهم بعد عناء ومشقة اليوم الطويل الذي قضوه في النهي عن المنكرات العصرية والبدع الغربية.

وما أن ينتهي الطالبان وزعيمهم السلطان من القضاء نهائياً على أي مقاومة نسائية حتى يلتفتوا إلى عدوهم الأكبر أمريكا ورمز قوتها الذي بهرت به شباب العالم فراحوا يقلدون بناتها وشبابها، وسيأمر الطالبان وبن لادن بحرق كل مصانع التي شيرت والجينز في كل أنحاء المعمورة، ذلك الزي المبتذل الذي فتن الشبان وانتشر كالنار في الهشيم بين كل شباب العالم. بعد ذلك ستتوالى الأوامر والنواهي.. لا مسارح ولا دور سينما وعلى كل من كان مفتوناً بهم أن يحطم جهاز التليفزيون ويلقى به من النافذة هو وكل ما يملك من أجهزة راديو وفيديو وكاميرات تصوير... إلخ، بل ربما اشتط أحد فقهاء الطالبان فأعلن تحريم الكهرباء باعتبارها من ابتداع الفرنجة وهي تشجع الناس على السهر فيقلبون الليل نهاراً ويتابعون البرامج التي ينقلها لهم الشيطان الأكبر عن طريق الأقمار الصناعية ■

الهلال

فبراير ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

القوالب المفرغة

- أحزاب بلا تأثير ؟
- جامعات فقدت الاستقلال ؟
- جوائز لكبار المسئولين ؟



د. أحمد زويل
فى الطريق إلى
نوبل ثانية



اللباد
وعين العشق
والثقافة



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة ذو الحجة ١٤٢٤ هـ - فبراير ٢٠٠٤م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
تلكس: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٣٥ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٤٥ دولارا، باقى دول العالم ٥٥ دولارا. القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد



الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

لا أحد يتدخل فيما تكتبه الصحافة

اختتم معرض القاهرة الدولي للكتاب فعالياته التى امتدت لمدة عشرة أيام فى الفترة من ٢١ إلى ٣٠ يناير الماضى ، وذلك على عكس ما كان يحدث فى الدورات السابقة بسبب إجازة عيد الأضحى .

كان الرئيس مبارك قد استقبل المفكرين والكتاب والصحفيين والمثقفين بمقر رئاسة الجمهورية قبيل افتتاح المعرض بيوم وتناول فى اللقاء القضايا السياسية والاقتصادية وربما اختلف اللقاء الفكرى هذا العام ، عما كان يحدث فى السنوات السابقة ، حيث اللقاء المفتوح والحوار البناء بين الرئيس والمثقفين داخل معرض الكتاب والذى يعد بمثابة عيد للمثقفين المصريين الذين يبدون آراءهم بكل الصراحة والوضوح .

ولكن يبدو أن ارتباطات الرئيس ومشاوراته المستمرة مع القادة والزعماء العرب بسبب الأحداث المتلاحقة عربيا وعالميا ، كانت وراء اللقاء بهذا العدد المحدود من المفكرين والمثقفين ، وربما تكون هذه فرصة ليلتقى بهذه النخبة على فترات على مدى العام للحوار وتبادل الرأى فى القضايا التى تهم الوطن ، وعلاقاتنا بالأشقاء العرب ودول العالم ، والتأكيد على قضايا ملحة بهدف التوصل إلى حلول جذرية للصراع العربى الإسرائيلى والتأكيد على وحدة العراق ودفع العمل العربى المشترك .

ومن أبرز ما تناوله الرئيس مبارك فى اللقاء أن الصحافة فى مصر حرة ولا أحد يتدخل فيها بحكم الدستور والقانون ، وهى جزء من الممارسة الديمقراطية وحرية التعبير حيث قال : «علينا أن نتفق على بعض المبادىء وأن نعمقها ، ونبتعد فى نقدنا عن التجريح وعدم استخدام ألفاظ سيئة سواء كان نقدا داخليا أو للآخرين ، لأن تجريح الشعوب أو القادة لا يحقق فهما للرأى، بل هو تعقيد أكثر .

فالنقد مطلوب بشرط عدم استخدام ألفاظ خارجة عن اللياقة ، فالصحافة المصرية هى الأقدم فى هذه المنطقة ، وعليها أن تظل أيضا محافظة على قيم المهنة وسمو الكلمة .. وأرجو ألا نخرج فى نقدنا عن أدب الحوار تحت أى ظرف من الظروف، وهذا رجاء وليس فرضا ، حيث انتهى عصر فرض الرأى على الصحافة أو الإعلام ، لأننا نعيش حرية حقيقية الآن » .

حضر افتتاح المعرض د . عاطف عبيد وشارك فيه هذا العام ٩٧ دولة عربية وأجنبية ضمت ٣١٥ ناشرا عرضوا خمسة ملايين كتاب .

شهدت هذه الدورة للمعرض عدة ندوات من بينها ندوة عنوانها «رفاعة الطهطاوى .. مجتمع المعرفة واللقاء بالآخر » .. وأيضا ندوة عن الاستعدادات العربية لمعرض فرانكفورت الدولى للكتاب

شارك فيها عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية ود. المنجى بوسنينه وابراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب ، حيث تمت مناقشة استعدادات الهيئات والمؤسسات الثقافية داخل الدول العربية للمشاركة في معرض فرانكفورت الذى اختار الكتاب العربى ليكون ضيف شرف المعرض هذا العام.

أيضا تم تكريم المبدعين والمفكرين العرب ، بالإضافة إلى مؤسسات النشر وذلك لدورها في إثراء الحركة الثقافة فى مصر والعالم العربى .

أيضا كان من بين أنشطة المعرض هذا العام الملتقى الفكرى للشباب وتمت فيه مناقشة أهم القضايا والمشكلات التى تهم الشباب ، حيث أقيمت ندورة عن مستقبل المشروعات الصغيرة بين التمويل والتسويق وكيفية إيجاد حلول عملية لمواجهة شبح البطالة .

كما ناقشت ندوة كاتب وكتاب مجموعة من أهم الكتب الصادرة فى مصر والوطن العربى ، ومن بينها العديد من الإصدارات التى ترد على الادعاءات المغلوطة التى ترددها بعض الدوائر الإعلامية الغربية ضد الإسلام .

كان كرنفال الدعاية لملف كأس العالم لكرة القدم ٢٠١٠ واضحا فى كل سرايات المعرض وأرجائه ، خاصة وأن هذه الفترة تزامنت مع حضور لجنة الفيفا إلى مصر لتقييم المنشآت الرياضية المصرية والاستعدادات التى يمكن أن توفرها مصر ، خصوصا وأن المنافسة شرسة بين مصر والمغرب وجنوب افريقيا للفوز باستضافة المونديال .

والسؤال الذى يطرح نفسه بعد كل هذه السنوات لإقامة معرض الكتاب هو :

ما هى الفائدة التى تعود علينا من هذا المهرجان الثقافى السنوى الذى ننتظره ؟!

لقد آن الأوان أن نفكر فى العائد والمردود الثقافى ، حيث يمكن أن يسهم فى تغيير الواقع الثقافى الذى يعانى من انصراف الناس عن الكتاب والاتجاه إلى ثقافة تتصل بالسطحية متمثلة فى الثقافة التليفزيونية !

نود أن نصل إلى تقييم حقيقى لما هو معروض فى سوق الكتاب من كتب بصرف النظر عن جهة النشر ، فهل من الممكن أن يقوم معرض الكتاب بهذا الدور .

أيضا مطلوب التصنيف والتقييم للكتب التى تطرح فى المعرض ، كما ينبغى ألا تقتصر الندوات على عدد محدود من المفكرين وتلك الوجوه والأسماء التى نشاهدها فى كل دورة فضلا عن ضرورة مشاركة أكبر عدد من أساتذة الجامعة فى فروع المعرفة المختلفة ، وأن نتغاضى فى عملية الجذب الجماهيرى والذى يتم فى استقطاب المشاهير فى دنيا الفنون ، ضمانا لإقبال الجماهير ، حتى لو كان هؤلاء المشاهير لا يملكون ناصية الكلام ، وأن تتم الاستعانة بأسماء لها ثقلها الفكرى والعلمى ، خاصة أولئك الذين لا يسعون للأضواء ، ولكنهم شجرات مثمرة يجب الاستفادة منها .

ولكى تعم الفائدة لابد أن يتم المزيد من التعاون بين إدارة المعرض والتليفزيون لتغطية الندوات ونقلها على القنوات الفضائية والأرضية ..

كذلك ولكى يتحقق النجاح المنشود يجب دراسة السلبيات والايجابيات وأن يبدأ العمل للدورة السابعة والثلاثين فور الانتهاء من هذه الدورة لنضمن تحقيق المزيد من النجاحات للعرس الثقافى العربى على أرض مصرنا العزيزة .

* * *

وتهنئة من الهلال بمناسبة عيد الأضحى المبارك بالخير والسلام لأمتنا العربية والإسلامية .

المحـــــرر

القوالب المفرغة

- أحزاب بلا تأثير؟
- جامعات فقدت الاستقلال؟
- جوائز تعطى لكبار المسئولين؟

بقلم
د. مصطفى سويف

من أهم العوامل التى تتيح للخلل أن يستشرى فى الحياة الاجتماعية انصراف الأفراد إلى ما نسميه بالنظرة التجزيئية وعجزهم عن تجاوزها بالارتفاع إلى ما يشبه التصنيف لمفردات الأحداث بحيث يرون ما يجمع بين بعضها البعض من دلالات ويستشفون ما يقوم وراءها من علاقات، ومن ثم يتعاملون مع الدلالات أو المعانى الحقيقية لما يحيط بهم ويعالجون حاضرهم بما يناسبه، ويتدبرون مستقبلهم كما يريدونه لا كما يراد لهم. يصدق هذا القول على الحياة والأفراد فى مجتمعنا، كما يصدق على الحياة والناس فى مجتمعات الدنيا بأسرها، فى حاضرها وماضيها ومستقبلها معا. ومن ثم فإن الغفلة عما ينطوى عليه من معان وما يوحى به من توجهات تعتبر غفلة من قبيل الخطأ الجسيم لأنها تصيب الناس فى جذر عميق من جذور اجتماعيتهم ذات الطابع الانسانى المتميز الذى يقوم على الترشيد الذكى المتواصل لحياتهم المجتمعية.



أقول هذا الآن وظروف الحياة الراهنة محليا وعالميا أصبحت تستدعيه أكثر مما كانت تستدعيه فى أى وقت مضى. ومع ذلك فما يعنينى فى هذا المقال هو ظروف الحياة فى مصر، أولا: لأن مصر من حيث هى دولة نامية فإنها تعانى من كثير من الآفات الاجتماعية / السياسية التى تكرس النظرة التجزيئية أكثر مما تدعم النظرة التجميعية/ التركيبية، وثانيا: لأن التعامل مع الموضوع الذى أطرحه فى الفقرات التالية يصبح أقرب إلى عقل القارئ ووجدانه بقدر ما يراه ماثلا فى المفردات المصرية التى تملأ علينا حياتنا اليومية، وثالثا: لأن انتماءنا المصرى هو الطريق الطبيعى إلى الانتماء العالمى، ومن ثم فإن الوفاء بمقتضيات انتمائنا إلى مصر هو الطريق إلى الوفاء بمقتضيات انتمائنا إلى العالم، ومن الجلى أن أمور العلاقات الدولية تتكشف يوما بعد يوم عن حقيقة مهمة مؤداها أن كل دولة مطالبة بأن تقدم ما يدعم عضويتها الفاعلة فى الأسرة الدولية .

هنا فى مصر

مسألة النظرة التجزيئية كما تتحقق عندنا فى مصر يمكن تناولها وتناول أضرارها من زوايا متعددة ، وقد اخترت لهذا الحديث أن أعالج هذه النظرة من زاوية أعتقد أنها أشد إفصاحا من غيرها من الزوايا عن المدى الشاسع للأضرار الاجتماعية المترتبة عليها ، وعن القسوة الشديدة التى تصيب بها جميع جوانب نشاطنا المجتمعى دون استثناء .

أما هذه الزاوية فهى ما أسميه تفريغ قوالب الحياة الاجتماعية من مضمونها السوى، وأما اتساع مدى الأضرار المترتبة على ذلك وشدة وطأتها فتتمثل فى حقيقة كون الحياة الاجتماعية تنتظم من أولها إلى آخرها فى قوالب أو ماتسميه منظومات تتنوع فى مضامينها ، وفى مبادئ تنظيمها ، وفى مستوى حيوية الدور الذى تؤديه فى تماسك البناء الاجتماعى، وفيما تمنحه لهذا البناء من قدرة على النمو والارتقاء ، وما توفره له من حصانة ضد عوامل التحلل والفساد . ومن ثم فإن تفريغ هذه المنظومات من مضامينها الطبيعية من شأنه أن يصيب المجتمع فى نموه وارتقائه ، وكذلك فى صموده أمام عوامل التحلل والبوار ، وهو ما يعنى الإصابة فى صميم كيانه البشرى .

أمثلة للقوالب المفرغة

لا يحتاج المرء لكى يجد الأمثلة على هذه القوالب المفرغة أو التى

يجرى تفريغها إلا إلى التحلى بالنظرة الموضوعية الشاملة (أى التى لا تعجز عن إدراك علاقة الجزء بالكل)، والتنزه عن الغرض أو الهوى (الشخصى أو الفئوى) ، وعندئذ سوف يكتشف أن الأمثلة تتناثر من حوله ... ما أكثرها، فلدينا أحزاب ولكن هل لدينا حياة حزبية (تعددية) فعلا؟ ولدينا جامعات ، ولكن هل المضمون السوى للمنظومة موجود؟ أعنى هل لدينا تعليم جامعى حقا؟ ولدينا جوائز تسمى جوائز الدولة للتفوق والتقدير ، ولكن هل يغلب على متلقيها وأعمالهم التفوق واستحقاق التقدير فعلا؟ ولدينا بحوث يتقدم بها أعضاء هيئات التدريس الجامعية للترقية ، ولكن هل تغلب على هذه البحوث صفة العلم والعلمية؟ ولدينا تلاميذ يندرجون تحت بطاقة التعليم (الأساسى والعالى)، ولكن هل يندرجون هكذا ليتلقوا العلم أم ليتلقوا «الشهادة»؟ ولدينا فرق رياضية وأجهزة رياضية وميزانيات تنفق وكلام فى الصحف وصور وتصريحات لا أول لها ولا آخر ، ولكن هل لدينا نشاط رياضى فعلا؟ ولدينا ... ولدينا ... الخ. خلاصة القول أن لدينا هياكل منظومات مجتمعية كثيرة، شأننا فى ذلك شأن جميع المجتمعات العصرية والشبيهة بالعصرية ، ولكن جرى تبوير معظم المضامين المنظومية لهذه الهياكل فأصبحت قوالب مفرغة، وأضحت بذلك أسماء على غير مسميات ، وصار المطلوب هو الاسم ، وليس المسمى .

وتثير هذه الحقيقة عددا من الأسئلة، يأتى فى مقدمتها سؤالان رئيسيان:

أولهما : ماهى القوى الاجتماعية المسئولة عن هذا التفريغ، وكيف تم لها انجاز ما أقدمت عليه؟

والسؤال الثانى ماهى الدلالة الاجتماعية لهذا التفريغ ؟

كيف تم هذا التفريغ ؟

واقع الحال يشهد بأن التفريغ وقع بأيدينا نحن، أبناء هذا الوطن . هذه حقيقة أولى لابد من الاعتراف بها ، لا على سبيل الشعور بالذنب أو جلد الذات، ولكن على سبيل مصارحة الذات كخطوة أولى نحو محاولة الاصلاح . والحقيقة الثانية التى لابد من الوعى بها هى أن التفريغ جاء (ويجئ) كمحصلة إجمالية لتآزر عدد من العمليات قام (ويقوم) بها عدد من القوى الاجتماعية، وليس قوة واحدة، ولا علاقة لهذا التآزر بمفهوم الاتفاق المسبق أو غير المسبق أو النوايا الطيبة أو السيئة، ولكننا هنا بصدد نتائج طبيعية تترتب على توفر شروط

بعينها . والحقيقة الثالثة التي يلزمنا التنبه إليها أن العواقب السيئة التي تترتب على هذه العمليات والتفاعلات تقع على الجميع ، من أسهموا بالفعل أو بالقول ومن لم يسهموا ، وذلك لكوننا جميعا نعيش في مجتمع واحد، والحياة الاجتماعية في جوهرها تنطوي على معنى المسئولية التضامنية سواء أدرك الأفراد تلك الحقيقة أم لم يدركوها .

وفيما يلي مزيد من تفصيل القول فيما نحن بصدده ، تعددت القوى وتفاوتت العمليات التي تولت تفريغ منظوماتنا الاجتماعية من مضامينها الطبيعية ، فكان من بين هذه القوى الدولة أحيانا بما لها من يد غليظة، وكان من بينها بعض الفئات الاجتماعية أحيانا أخرى مدفوعة بمصالحها الفئوية ضيقة الأفق غالبا، وشارك بعض الأفراد أحيانا ثالثة بأنصبة تتفاوت فيما بين بعضها البعض بتفاوت حظوظهم من الأنانية، ومن التقرب إلى السلطان، ومن القدرة على إلباس الباطل ثوب الحق، والرذيلة ثوب الفضيلة.

أمثلة عايشناها ونعايشها

أضرب للقارىء بضعة أمثلة بقليل من التفصيل :

الأحزاب السياسية ..

كانت لدينا أحزاب سياسية منذ بداية القرن الماضي، لم تكن أحزابا جيدة (حسب معايير الأمم المتقدمة) ولكنها كانت أحزابا فعلا، فقد نشأت بصورة أقرب إلى التلقائية وجاءت نشأتها استجابة لاحتياجات مجتمعية / سياسية معينة، وكان بعضها يعبر عن مصالح شبه طبقية محددة.

وفي أوائل الخمسينيات من القرن الماضي اقتضى نظام الحكم الناصري الأمر بإلغاء هذه الأحزاب وبتلويث سمعتها حتى لا تقوى على القيام من جديد فتناوىء النظام وفي السبيل إلى تفعيل هذا التلويث استعان النظام بأدوات الإعلام، ثم أضاف إلى التجريح الإعلامي عدداً من المحاكمات السياسية لبعض رموز هذه الأحزاب هادفا من ذلك إلى زيادة تركيز الجرعة، ودارت الأيام دورتها ، وانتهى النظام الناصري، وجاء نظام الحكم الساداتي، ووصلنا إلى أواسط السبعينيات ، حينئذ اقتضت ضرورات اللعبة السياسية أن يكون لدينا ما يسمى بالتعددية الحزبية، فتفاوض رأس الدولة (هكذا مباشرة) مع عدد من الأشخاص على قيام عدد من الأحزاب، وفعلا أقيمت الأحزاب، (حسبما أشار رئيس الدولة)، وبعد قليل حق الغضب على ما سمى بحزب

الوفد الجديد، فتقرر تعليق قيامه، ثم جاء الدور على حزب التجمع، فكانت الأوامر تصدر بتعطيل جريدته عدة مرات فى الشهر الواحد، واستمر الحال على هذا المنوال لفترة ما.. وقال الرئيس السادات قولته المشهورة «إن الديمقراطية لها أنياب». وذلك إشارة إلى أن الديمقراطية كما يراها لا ترفع بالضرورة اليد الثقيلة للسلطة التنفيذية، ثم أعيد تدشين حزب الوفد الجديد، وتشكلت لجنة حكومية للنظر فى مشروعات الأحزاب الجديدة لتقرر ما إذا كانت ترضى عن أى من المشروعات فتجيزه، أو لا ترضى فترفض إجازته، فى هذا الإطار تقوم الآن قوالب نسميها أحزابا، والقارئ، بعد هذه المقدمة التاريخية شديدة الإيجاز أن ينظر فى أمر هذه القوالب / الأحزاب وأن يحكم بنفسه : هل هذه قوالب ممتلئة فعلا بمضمون الحياة الحزبية كما تعرفها دول العالم المتحضر؟ أم هذه منظومات ينقصها الكثير من المضمون؟ فهى بذلك أقرب إلى القوالب المفرغة؟

الجامعات ..

أضرب مثلاً آخر، الجامعات، ننظر أولاً من وجهة النظر القانونية، ثم نعرج بإيجاز شديد على الناحية التاريخية للموضوع، تنص المادة الأولى من قانون الجامعات المعمول به الآن (رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢) على عدد من العناصر باعتبارها لبنات أساسية فى تحديد ماهية الجامعة، وتحديد الوظيفة الاجتماعية الموكولة إليها.. وتقرر المادة فى ذلك ما يأتى: «تختص الجامعات بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعى، والبحث العلمى، الذى تقوم به كلياتها ومعاهدها فى سبيل خدمة المجتمع، والارتقاء به حضاريا، متوخية فى ذلك المساهمة فى رقى الفكر وتقدم العلم وتنمية القيم الإنسانية ، وتزويد البلاد بالمتخصصين والفنيين والخبراء فى مختلف المجالات.. وتعتبر الجامعات بذلك معقلاً للفكر الإنسانى فى أرفع مستوياته ، ومصدرا لاستثمار وتنمية أهم ثروات المجتمع وأغلاها وهى الثروة البشرية..» هذه هى المادة الأولى فى قانون الجامعات.. ومن الواضح أنها تجمع بين عدد من العناصر الجوهرية فى تحديد ماهية الجامعة ورسالتها.. وهذه العناصر هى : أولا التعليم ، وثانيا البحث العلمى وثالثا التوجه إلى خدمة المجتمع، ورابعا الارتقاء الحضارى بالمجتمع وخامساً أنها معقل الفكر الرفيع وسادساً أنها مصدر لاستثمار ما يحويه المجتمع من ثروة

بشرية، ومن الجلي أن تلخيص هذا الحصر يكمن في اعتبار المفهومين الأولين التعليم والبحث العلمي هما الجذر، وهما بذلك الطريق إلى تحقيق ما تشير إليه المفاهيم الأربعة الواردة بعدهما في نص المادة، هذا إذن هو التحديد القانوني لجوهر الجامعة كما ارتضته الدولة .

ونستمع الآن إلى كلمة التاريخ.. ننظر فيما يوحي به تاريخ نشوء الجامعة لدينا من تحديد لجوهرها، في مقال نشرته في هذه المجلة المرموقة في يونيه ١٩٩٨ قدمت عرضا موجزاً لتاريخ الإنشاء في أوائل القرن العشرين ، وختمت هذا العرض بتلخيص للنقاط الرئيسية الثلاث التي يشير إليها هذا التاريخ على النحو الآتي: «أولاً: أن الدعوة إلى إنشاء الجامعة صدرت أول ما صدرت من بين صفوف الشعب (لا من دواوين الحكومة).. وثانيا: أن الاستجابة الإيجابية التي استثارتها الدعوة صدرت كذلك من صفوف الشعب ، بدءاً بالترحيب، ومروراً بالاكتتابات لتمويل المشروع، ووصولا إلى تنظيم الخطوات التنفيذية والمشاركة في القيام بها وثالثا: أن الرسالة الاجتماعية للجامعة تم تحديدها منذ بدء الدعوة على أنها رسالة حضارية في المقام الأول.. فقد جاء في تقرير اللجنة الدائمة التي شكلت لوضع أول لائحة داخلية لتنظيم شئون الجامعة ما نصه أن الغرض من إنشاء الجامعة هو «ترقية مدارك وأخلاق المصريين على اختلاف أديانهم وذلك بنشر الآداب والعلوم».. هكذا كان القصد من إنشاء الجامعة، وكانت الملابسات المحيطة بهذا الإنشاء، حدث ذلك في مطلع القرن العشرين.. ودارت الأيام حتى وصلنا إلى عشرينيات ذلك القرن، وتولت الحكومة مسئولية الإنفاق عليها وإدارتها.. وسرعان ما ضاقت الحكومة بموضوع حرية البحث العلمي في هذه الجامعة، فكانت معركة كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين سنة ١٩٢٦ (هكذا مبكراً).. ثم ما كادت هذه المعركة تهدأ حتى شبت معركة أخرى سنة ١٩٣٢ .

وفي هذه المعركة اشتدت جرأة الحكومة عنها في المعركة السابقة، فاعتدت على استقلال الجامعة بنقل طه حسين من كلية الآداب إلى ديوان وزارة المعارف العمومية رغما عنه وتسبب ذلك في استقالة مدير الجامعة، أحمد لطفي السيد، وفي حدوث قلاقل بين الطلاب، ثم دارت الأيام مرة أخرى ووصلنا إلى أوائل الخمسينيات، واشتدت جرأة الحكومة

درجات فوق درجات، وصدر قرار مجلس الثورة بفصل حوالي خمسين عضواً من أعضاء هيئة التدريس تراوحت مراتبهم الجامعية بين معيد وأستاذ كامل الأستاذية، وكانت جريمتهم في نظر الحكومة أنهم عبروا في اجتماع بنادي أعضاء هيئة التدريس الخاص بجامعة القاهرة عن اهتمامهم بالمستقبل الدستوري لمصر.. ثم دارت الأيام دورة تالية ووصلنا إلى بداية الثمانينيات ، وازدادت جرأة الحكومة درجات جديدة فنقلت قرابة عشرين من أعضاء هيئة التدريس رغما عنهم، بعضهم إلى السجن ، والبعض الآخر إلى وظائف إدارية في دواوين الوزارات، ها هنا أترك للقارىء مرة أخرى بعد هذا العرض شديد الإيجاز (حول الجامعة وموقفها القانوني والتاريخي) أن يحكم بنفسه، وأن يستخلص العبرة مما جرى: ماذا بقي لشعب مصر من الجامعة كما خطط لها آباؤنا، منشئوها في مطلع القرن العشرين؟ هل بقي لها البحث العلمي الحر؟ أم بقي لها التعليم الكفء؟ أم دام لها العمل على الارتقاء الحضاري بالمجتمع؟ فإذا قيل إن التحول يجري على جميع مؤسسات المجتمع بمرور العقود والأعوام ، والجامعة شأنها في ذلك شأن سائر مؤسسات البلد: فسيظل أمامنا سؤال محير: وماذا عن مضمون المادة الأولى في قانون الجامعات؟ هل الجامعة - كما تحددها هذه المادة هي الجامعة التي نعرفها الآن على أرض الواقع؟ أم أن هذه الأخيرة ليست سوى قالب مفرغ، بينما يتحدث القانون عن منظومة لا يجمع بينها والقالب المفرغ إلا الاسم؟ جدير بالذكر هنا أن مطلب الإيجاز في التأريخ لعلاقة الجامعة بالدولة اقتضى أن أقتصر على ذكر الأحداث الكارثية الكبرى فحسب، وكان ذلك على حساب عرض عشرات التدخلات الحكومية الصغيرة التي عبأت مناخ العمل الجامعي بالكثير من الشوائب المؤذية، وهو ما دعم (ولايزال يدعم) التهوين من شأنها في نفوس الكثيرين من المواطنين ، بمن فيهم الأعداد الكبيرة من الطلاب وأهلهم ، ومن الأساتذة أيضا، ويعلم الله كيف ينتظر من الجامع من الضعف والهوان أن تقوم على «خدمة المجتمع والارتقاء به حضاريا»!

جوائز الدولة ..

أضرب مثلا ثالثا، جوائز الدولة وما يجري حولها. فقد صدر القانون رقم ١٥٥ لسنة ١٩٦٢ وينص في

مادته الأولى على إنشاء خمس جوائز تقديرية تسمى «جوائز الدولة للإنتاج الفكرى»، وثمانٍ وعشرين جائزة تشجيعية تسمى «جوائز الدولة لتشجيع العلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية»، وجاء فى المادة الرابعة من القانون ما يأتى: «يشترط فيمن يُمنح الجائزة التقديرية أن تكون له مؤلفات أو أعمال أو بحوث نشرها أو عرضها أو قام بتنفيذها. وأن يكون لهذا الإنتاج قيمة علمية أو فنية ممتازة، وأن تظهر فيه دقة البحث والابتكار، وأن يضيف إلى العلم أو الفن جديدا ينفع الوطن خاصة والإنسانية عامة».

ثم جاء فى المادة الخامسة من ذات القانون ما نصه : «تقدم الهيئات العلمية المشتغلة بالعلوم والعلوم الاجتماعية أو بالآداب أو بالفنون الجميلة كل عام إلى المجلس الأعلى المختص أسماء من ترى ترشيحهم لنيل الجائزة التقديرية مع تفصيل أسباب الترشيح...» ثم جاء فى المادة الحادية عشرة ذكر ما يُشترط فيمن يُمنح الجائزة التشجيعية. هذا عن القانون المنشئ للجوائز، والمنظِّم لمنحها. وجاء فى المذكرة الإيضاحية لهذا القانون أن مصر سارت منذ سنة ١٩٤٦ على سياسة قويمة فى تكريم العلماء وتشجيع الباحثين، وذلك بإنشاء جوائز الدولة للعلوم والآداب والفنون وفى موضع آخر من المذكرة ورد ما نصُّه:

«وتطبيقا لذلك اقترُح إنشاء جوائز تقديرية تكريمية تتوج بها جهود العلماء والكتاب والفنانين عن إنتاجهم .. فى مجموعه». وتكلمت المذكرة بعد ذلك أيضا عن الجوائز التشجيعية. هذا هوالوضع القانونى لجوائز الدولة. وأعتقد أن القانون ومذكِّرته واضحان كل الوضوح فى التعبير عن قصد الشارع وشروطه حول منح هذه الجوائز: فالقصد هو التكريم والتشجيع والمنح إنما يكون للعلماء والفنانين والأدباء، والهدف الأساسى هو إفادة الوطن والإنسانية.

ويثار هنا نوعان من الأسئلة: أحدهما يوجَّه إلى الجهات المرشحة لأسماء من يستحقون التكريم. والثانى يوجَّه إلى المكرَّمين. ونبدأ بالنوع الأول: هل يجوز (والقانون ومذكرته بهذا الوضوح) أن تتقدم بعض الجهات (بعض مجالس الجامعات مثلا) بترشيح بعض كبار موظفى الدولة؟ وخاصة من يشغلون مناصب رفيعة فى أجهزة السلطة التنفيذية؟ أم أن هذه الجوائز أُدخلت عنوة واقتداراً فى سوق وسائل التقُّرب، والمنافقة والوصولية؟

وننتقل إلى النوع الثانى من الأسئلة: هل يجوز حسب الحكمة المتوخاة من إنشاء هذه الجوائز أن يتصل كثير من المرشحين بأعضاء مجالس الترشيح ولجان منح الجوائز (عن طريق الوسطاء والهواتف.. إلخ) يرجونهم أن يمنحوهم الجوائز؟ وفى ظل هذه السلوكيات هل تبقى للجوائز أى بقية من معانى التكريم؟ أم أن هذه الجوائز أُدخلت (من جانب بعض المرشحين للتكريم) فى سوق التكالب على علامات الوجاهة وأصبحت من مغريات الاستحواذ بحق وبغير حق؟... وبعد هذا الذى نراه من جهات الترشيح ومن السادة المرشحين، هل يبقى لجوائز الدولة شئ من دلالتها ورسالتها الاجتماعية المتوخاة أصلا من إنشائه؟

أم أصبحت الآن قوالب مفرّغة؟

ومع ذلك فالأمر الذى يهمنى فى هذا المقال أكبر من جوائز الدولة، ومن الجامعات، ومن الأحزاب؛ الأمر يتعلق بالتفريغ الذى يجرى على مشهد منا جميعا للمنظومات التى تخلع على حياتنا الاجتماعية معناها ومبناها، وهو تفريغ جاء (ويجئ) كمحصّلة لتآزر عدد من العمليات، قام (ويقوم) بها عدد من القوى الاجتماعية، وليس قوة واحدة، بعضها قوى رسمية تمثل أجزاء فى جهاز الدولة، وبعضها جماعات ذات مصالح، وبعضها مواطنون عاديون.

أسئلة كاشفة

تتراتب الأسئلة فيما بينها، وأفضلها ما يفتح الطريق إلى فهم الحقيقة دون مواربة. ومع ذلك فالعبرة فى نهاية الأمر بصدق الرغبة فى المكاشفة، مكاشفة النفس والغير. ثم يأتى الدور بعد ذلك على الشجاعة فى الإقدام على التغيير. تشهد القوالب المفرّغة، فى معظم الحالات التى نعانيها، بأن التفريغ إنما تم كمحصّلة لفعلين تآزرا معاً، الضغط فى الاتجاه إلى التفريغ، والانضغاط أو الاستجابة المطاوعة فى التوجّه نفسه.

ويثار هنا سؤال بالغ الأهمية: لماذا الاستجابة الفورية واللّينة للضغط؟ ومع ذلك ففى المثال الخاص بالجامعة حدثت المقاومة فى واقعتين منفصلتين؛ فى سنة ١٩٢٦ أقفل التحقيق مع طه حسين وحُفظت القضية بشجاعة وبدون استفزاز. وبقيت للجامعة كرامتها، وبقى لمصر أملها فى حرية البحث الجامعى. وفى سنة ١٩٣٢ اتسعت دائرة المقاومة وشابها بعض العنف، ولكنها انتصرت

كذلك لصالح الجامعة فى نهاية الأمر فما الذى حدث فى سنة ١٩٥٤؟ هذا سؤال مهم بأن يضاف إلى السؤال الأول، وهو سؤال مفتاحى ينبغى التعرض له والسعى إلى الإجابة الصادقة عنه. ولا أظن أن هذه الإجابة الصادقة تنحصر فى القول بأن الدولة كانت فى سنة ١٩٥٤ مكشّرة جدا عن أنيابها، قد تكون هذه إجابة صحيحة بعض الشئ، ولكن المسألة تظل بحاجة إلى مزيد من التفكير الجاد والمتعمق، وإلا فكيف نفسّر ما يحدث فى المثال الخاص بجوائز الدولة، حيث الضغط والانضغاط يتمان على مستوى بعض الجماعات والأفراد. هنا يلزمنا أن ننظر بإخلاص ونتحدث بإخلاص: ماذا عن التساند الشّلّى كمظهر من مظاهر فساد التضامن الاجتماعى؟ وماذا عن عمليات تنشيط الوصولية التى تزداد اتساعاً وتقوى زخماً كبديل لمظلة الانتماء المنظومى/ الاجتماعى التى أصابها كثير من العطب؟ ثم ماذا عن بريق الإعلامية الذى يزداد تلميعه كل يوم عن سابقه، ويزداد التلويح به على مر الشهور والأعوام؟ ■

كلمات عاشت

• ليس ثمة علم محض من جهة ، وعلم تطبيقي من جهة أخرى ، بل هناك علم وتطبيقات لهذا العلم

العالم باستير

• علم من يجهل وتعلم من من يعلم ، فإنك اذا فعلت ذلك علمت ماجهلت ، وحفظت ما علمت

عروة بن الزبير

• إن الفكره ترتيب أمور معلومة ، ليتادي منها الي اي يصير المجهول معلوماً

ابن سيناء

• هدفي الأول أن أجعل للحوار قيمة ادبية بحتة ليقرأ علي انه أدب وفكر

توفيق الحكيم

• كل مذهب جديد إنما هو تعبير عن حركة تعم عالم الفكر وتطلب الانطلاق ، فلا تختصر علي فن دون فن

يحيى حقي

فى الثناء على نظرية المؤامرة

بقلم
د. جلال أمين

بعد أن وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ المشئومة ارتفعت الأصوات فجأة، بالتصريحات الرسمية والمقالات الصحفية فى الغرب، منادية بضرورة تغيير الأوضاع فى البلاد العربية. أى أوضاع بالضبط ؟!

جميع الأوضاع: سياسية واجتماعية وثقافية وتعليمية. وما السبب بالضبط؟ سببان مهمان الإرهاب أولا، والتخلف الشديد عن ركب الحضارة الغربية ثانيا.

أما الإرهاب فيقصد به أن الذى حدث فى نيويورك وواشنطن فى ١١ سبتمبر كان كله من صنع رجال، ليسوا فقط مسلمين، بل وكلهم من العرب، فلابد أن المناخ السياسى والاجتماعى والثقافى العربى من الفساد بحيث أدى إلي تفريخ هذه العقول المصابة، ومن ثم فإذا أردنا استئصال هذا الفساد من جذوره، وهو الذى يحدث كل هذا التخريب للعالم المتقدم، الطيب والمسالم، فلابد من تغيير هذا المناخ السياسى والاجتماعى والثقافى.

وأما التخلف الشديد عن ركب الحضارة الغربية، فيشهد به عجز العرب عن اللحاق بركب التنمية الاقتصادية (انظر مثلا إلى ما حققته كوريا الجنوبية وتايلاند وسنغافورة، بل وحتى بعض الدول الإسلامية غير العربية، كماليزيا وأندونيسيا، من نمو اقتصادى سريع فى الثلاثين عاما الماضية، بينما كان أداء العرب الاقتصادى سيئا للغاية). كما يشهد به عجز العرب عن اللحاق بركب الديمقراطية (إذ فلتنظر كيف هبت رياح الديمقراطية فى كل مكان إلا البلاد العربية، حتى دول أوروبا الشرقية بما فيها الاتحاد السوفييتى نفسه، تحولت إلى الديمقراطية، وبقيت الدول العربية فى مكانها محكومة بحكومات تزيف الانتخابات أو لا تجرى انتخابات أصلا. ناهيك عن إسرائيل، واحة الديمقراطية فى صحراء واسعة من الدكتاتورية). أما عن التخلف الاجتماعى والثقافى فحدث عنه ولا حرج، إذ فلتنظر إلى كيفية معاملة المرأة فى البلاد العربية، وكيف تنتشر فى بعضها عادات وحشية كختان البنات، أو إلى انتشار الأمية وتدهور مستوى التعليم وضعف الإنتاج العلمى.. إلخ.

النتيجة لابد من التغيير والتغيير السريع .

جوقة التشهير بالعرب

كان أول ما يلفت النظر هو التناغم التام بين عازفى هذه النغمة وقيامهم جميعا بأداء النغمة المطلوبة فى نفس الوقت وفى تناسق بديع، وكأنهم سبق اتفاقهم على أدائها وتدربوا سويا عليها. كان أعلى العازفين صوتا فى الغرب، حيث شارك السياسيين والصحفيين كتاب ذوو أسماء مشهورة من أمثال برنارد لويس (الذى ظهر له كتابان فى التشهير بالعرب والمسلمين فى عام واحد)، وفؤاد عجمى وتوماس فريدمان، ولكن شارك فى العزف أيضا كتاب صحفيون عرب ممن اشتهروا باستلهام موضوعاتهم من الغرب، بل وشارك أيضا فى العزف منظمة من منظمات الأمم المتحدة هى برنامج الأمم المتحدة للإنماء (UNDP) حيث نشرت تقريرا مذهلا، ظهر منه حتى الآن عددان أحدهما لسنة ٢٠٠٢ والثانى لسنة ٢٠٠٣، وتعد الآن التقرير الثالث، وكلها بعنوان «التنمية الإنسانية العربية»، فلم تترك نقيصة إلا ألصقتها بالعرب، وبذلت جهدا كبيرا حتى ينال التقرير شهرة واسعة فطبّل له وزمّر نفس الكتاب والصحفيين الذين حملوا لواء المناداة بضرورة تغيير الأوضاع العربية، ودأبوا على اقتطافه والإشادة به، مؤكدين دوما على أن كاتبى التقرير كلهم من العرب، فكيف يتهمون بالظلم أو القسوة؟ بل وشارك فى اقتطاف هذا التقرير سياسيون غربيون كبار وكأنهم كانوا ينتظرون صدوره بفارغ الصبر، ناهيك بالطبع عن الكتّاب والصحفيين العرب المشتركين فى نفس الحملة.

فشل الاقتصاد .. قديم

كان مما يلفت النظر أيضا فى هذه الحملة توقيتها وفجائيتها. فالنقائص التى تشير إليها نقائص قديمة، فلماذا تذكروها الآن؟ إن عيوب الأداء الاقتصادى مثلا

معروفة ومشهورة منذ أن بدأ الاقتصاديون يرفعون شعار التنمية الاقتصادية وابتدعوا وصف الدول المتخلفة أو العالم الثالث. ومنذ ذلك الوقت، أي منذ نحو خمسين عاما، أحرز العرب تقدما في بعض جوانب الحياة الاقتصادية وفشلوا في بعضها، ومروا بفترات صعود وانتعاش اقتصادي وفترات هبوط وركود، وكانت بعض البلاد العربية أفضل أداء، بصفة عامة، من غيرها، وكان سوء الأداء الاقتصادي في بعض البلاد العربية راجعا في الأساس إلى عوامل خارجية (كانخفاض أسعار البترول مثلا) وفي بعضها راجعا في الأساس إلى السياسة الاقتصادية (كالإفراط في الانفتاح الاقتصادي في رأي البعض، والافراط في التأميم في رأي البعض الآخر). وكان سوء الأداء الاقتصادي في أحيان أخرى راجعا في الأساس إلى عوامل يختلف فيها الرأي حول ما إذا كانت خارجية أو داخلية، كقلة الاستقرار السياسي مثلا أو حوادث الاعتداء على السياح أو حتى شيوع الفساد، إذ يختلف الرأي حول ما إذا كان السبب الأساسي في الفساد داخليا أو خارجيا، ويذهب البعض إلى إلقاء المسئولية عن التقلبات السياسية أو حوادث الاعتداء على السياح على عناصر خارجية.. إلخ.

في ضوء هذا كله بدا مدهشا هذا التركيز المفاجيء على وصم الأداء الاقتصادي العربي كله ودون تمييز بين دولة عربية أو أخرى أو فترة أو أخرى بالفشل التام، وهذا الاتفاق المذهل على إلقاء المسئولية على العرب وحدهم وكأنهم يعيشون وحدهم على جزيرة مستقلة عن بقية العالم يمارسون عليها بمنتهى الحرية كل الموبقات والعادات السيئة.

غياب الديمقراطية أصيل

أما نقيصة غياب الديمقراطية في البلاد العربية فهي أيضا قديمة وليس من المؤكد بالمرة أنها ترجع فقط، أو حتى في الأساس، إلى عوامل داخلية. ذلك أن المستفيدين من غياب الديمقراطية في البلاد العربية كثيرون بعضهم طبعا من الممسكين بمقاليد الأمور في الداخل، والحريصين على استمرار حصولهم على مختلف الامتيازات الاقتصادية والسياسية، ولكن بعضهم أيضا في الخارج «دول وشركات» ممن يفيدون من استمرار حصولهم على مختلف الامتيازات الاقتصادية والسياسية، ومن أجل هذا يحرصون على استمرار حصول بعض العناصر في الداخل، من العاملين في خدمتهم، على امتيازات مماثلة. بل وقد دأبت وسائل الإعلام والدوائر السياسية في الغرب، بما في ذلك هيئات الأمم المتحدة، على الإدلاء بتصريحات، بين الحين والآخر، تشيد بأداء هذه الحكومة العربية أو تلك، وبعظمة وحسن أداء هذا الزعيم أو ذاك، وباستمرار الصداقة والوئام بين هذه الحكومة الغربية أو تلك وبين مختلف النظم العربية. فلماذا هذا الانقلاب المفاجيء دون أن يصدر عن هذه النظم العربية أي عمل من شأنه أن

يعكر هذا الصفو وهذا الوئام؟

أهى أحداث ١١ سبتمبر؟ لا يمكن أن يكون هذا هو السبب، إذ لم يثبت أى دليل على وجود أى علاقة بين أى نظام عربى وبين منفذى أعمال سبتمبر أو المخططين لها، بل ولم تزعم أى حكومة غربية وجود مثل هذه العلاقة، والاجتماعات والمشاورات دائرة على قدم وساق بين الحكومات الغربية والحكومات العربية حول ما يجب عمله فى مختلف الأمور فيما يتعلق بالإرهاب وغيره، فكيف يتسق هذا كله مع هذا الهجوم المفاجىء والمركز على البلاد العربية، بل وبالذات على بعض النظم التى تتسم بوجود علاقات بينها وبين الولايات المتحدة أقوى من غيرها؟

•••

قل مثل ذلك عن النقائص المتعلقة بحالة التعليم والأمية والبحث العلمى وتخلف العرب عن غيرهم فى عدد الكتب المؤلفة والمترجمة، مما أكد عليه تقرير التنمية الإنسانية العربية المشار إليه إذ لم يجدّ فى أى من هذه الأمور جديد يستدعى الغضب المفاجىء، ناهيك بالطبع عن ختان البنات الذى يعود تاريخه إلى بضعة آلاف من السنين. وإذا كان الغرب قد صبر على هذه العادة كل هذه المدة، فليس من المفهوم لماذا يعتريه كل هذا الغضب فجأة، ولماذا الإصرار على استئصالها بين يوم وليلة بصرف النظر عن الظروف الاجتماعية العميقة التى ترتبط بانتشار هذه العادة؟

بين سطور الهجوم

لكل هذه الأسباب بدا هذا الهجوم المفاجىء والمنسق والبالغ القسوة على العرب من جانب وسائل الإعلام الغربية مدهشا وباعثا على الريبة والشك فيما إذا كانت وراءه أشياء لا يراد الإفصاح عنها. وعبّر بعض الكتاب عن هذه الريبة وهم يتوقعون أن يرموا على الفور بتهمة شاع توجيهها لكل من لا يقبل الظاهر من الأمور ويشك فى أن الأسباب المعلنة للتصرفات كثيرا ما تكون غير الأسباب الحقيقية. هذه التهمة بالطبع هى ما يسمى «بنظرية المؤامرة». وهى تهمة مدهشة بدورها لأكثر من سبب. فهى مدهشة أولا لأن موجّه التهمة لا يعتبر نفسه مطالبا بتقديم أى حيثيات يثبت بها صحة التهمة، أى يثبت بها خطأ الشخص الذى يعتبر أن الدوافع الحقيقية غير الدوافع المعلنة، بل يكتفى موجّه التهمة بأن يلفظ باسمها «ها هى نظرية المؤامرة» ثم يضحك ساخرا، وينتظر أن يكون هذا هو نهاية الجدل والنقاش.

وهى، أى هذه التهمة، مدهشة أيضا لأن التاريخ السياسى، القديم والحديث، ملىء بالأدلة على أن ما يقال فى العلن، خاصة من السياسيين، كثيرا ما يكون غير الحقيقة. ومن المعقول جدا أن نتوقع أن يكون العصر الحديث أكثر امتلاء بالأمثلة على اختلاف المعلن عن الحقيقة من أى عصر آخر، بسبب الأهمية التى تحتلها وسائل الإعلام الحديثة، وكثرة وسائل التأثير فى الجماهير، وسهولة اقناعهم بغير الحقيقة، وحاجة القائمين بالحكم إلى التشدق بالديمقراطية، سواء طبقوها بالفعل أو لم

يطبقوها، ومن ثم حاجتهم لكسب تأييد الناس لإجراءات وتصرفات كثيرا ما تكون غير قانونية أو غير أخلاقية، ومن ثم لابد أن يرفضها الناس لو عرفوا حقيقتها.

تشومسكى ونظرية المؤامرة

عندما وجهت هذه التهمة «تهمة نظرية المؤامرة» إلى الكاتب الأمريكى الشهير ناعوم تشومسكى مؤخرا، لرفضه ما يقدم من تفسير لتصرف معين للإدارة الأمريكية وتقديمه تفسيرا آخر، كان رد تشومسكى «إننى لا أفعل أكثر من ممارسة ما يجب أن يسمى بالتفسير المؤسسى للأحداث (institutional analysis)، لا أن يسمى بنظرية المؤامرة»، ويقصد بهذا أنه لا يفعل أكثر من الخوض بالبحث عن الدوافع التى قد تجعل مؤسسة سياسية واجتماعية معينة، تتصرف تصرفا معينا بصرف النظر عن الخطاب الإنشائى الذى يصدر عن الأفراد المتكلمين باسم هذه المؤسسة أو المدافعين عنها.

واستخدام تهمة «نظرية المؤامرة» هو نفسه، فى معظم الأحيان، عمل من «أعمال الارهاب»، إذ إن المقصود منه ليس مقارنة الحجة بالحجة، بل تحقير الخصم وتشويه سمعته بوصمه بشئ قريب من الجنون أو اللوثة العقلية أو المرض النفسى، الذى يدفعه إلي توهم أشياء لا وجود لها، وتخيل وجود أشباح وعفاريت، وهو أمر لا يحتاج إلى الجدل والنقاش بل إلى طبيب نفسى أو عقلى.

ثم حدث الهجوم على العراق

كان هذا هو الحال قبل الهجوم العسكرى على العراق، فلما حدث هذا الهجوم فى أوائل عام ٢٠٠٣، تضاعفت أسباب الشك فى أسباب تلك الحملة الإعلامية المستعرة ضد العرب والمسلمين. إذ حتى لو قبلنا الزعم بأن الذى أثار هذه الحملة الإعلامية هو ممارسة العرب للارهاب وتخلفهم فى مختلف نواحى الحياة عن ركب الحضارة الغربية، فهل يقبل العقل أن هذين هما أيضا السببان اللذان دفعا إلى شن حملة عسكرية على العراق ثم احتلاله؟

أما حجة القضاء على الارهاب لتبرير الهجوم العسكرى فتصطدم بعدة أمور تجعلها غير مقبولة بتاتا. أولاً: عدم ظهور أى دليل على علاقة النظام العراقى بما يسمى بالحركات الارهابية أو ما سمى بأسلحة الدمار الشامل. وثانيا: أن هناك حججا وجيهة للغاية تؤيد الاعتقاد بأن استبدال نظام للحكم بنظام آخر ليس طريقة فعالة لمكافحة الارهاب إذا كانت أعمال الارهاب يتم ترتيبها خارج نطاق نظام الحكم، ومدفوعة بعوامل اجتماعية واقتصادية لا يقضى عليها مجرد تغيير النظام الحاكم، وأن إخضاع بلد كالعراق لحكم أجنبى نتيجة لهجوم عسكرى قد يزيد من أعمال الارهاب بدلا من أن ينقصها. وثالثا: إنه إذا كان للنظام العراقى ميل طبيعى لممارسة الارهاب ضد الغرب، فكان لابد أن يرى المسئولون فى الغرب هذا الميل وأن يتصدوا له منذ زمن

طويل، إذ إن هذا النظام الذى كان يحكم العراق وقت الهجوم العسكرى الأمريكى والبريطانى فى أوائل سنة ٢٠٠٣ هو نفسه الذى استمر يحكم العراق أكثر من ثلث قرن، أى منذ ١٩٦٨، ومرّ على انفراد صدام حسين بالسلطة أكثر من ثلاثين عاما، شهدت فترات من الوئام الشديد والوفاق بينه وبين دول غربية متعددة، بما فى ذلك الولايات المتحدة التى أمدته بمعونات اقتصادية كبيرة وأيدته وشجعته فى هجومه على إيران، (مما وثّقه توثيقاً رائعا، يوما بيوم، كتاب حديث لناعوم تشومسكى بعنوان «هيمنة أم صـراع من أجل البقاء؟: المشروع الأمريكى للسيطرة على العالم Hegomony or Survival America's Quest for Global Dominance, N.Chomsky, 2003. وفى رأى البعض شجعت هجومه على الكويت أيضا.

مبررات ساذجة

وأما تبرير الحملة العسكرية على العراق واحتلاله بالرغبة فى النهوض بأحوال العراقيين، ديمقراطيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، فمن الصعب أيضا قبوله. إذ منذ متى تتجشم دولة، كبيرة أو صغيرة، كل هذا العبء وتضحى بأرواح شبابها وبأموالها من أجل النهوض بأحوال شعب آخر، خاصة إذا كان هذا الشعب ينتمى إلى حضارة وثقافة مختلفة تماما؟ وتاريخ العلاقات الدولية لا يؤيد على الإطلاق تفسير الاحتلال بنزعات إنسانية وأخلاقية، والقول بهذا التفسير الأخير ينمّ بلا شك إما عن رغبة فى التضليل والخداع أو عن سذاجة سياسية منعدمة النظير.

كان هذا كله هو ما دفع الذهن إلى البحث عن أسباب أخرى للهجوم العسكرى على العراق، وإلى الظن بأن نفس هذه الأسباب قد تكون هى التى تفسر الهجوم الإعلامى أيضا. فالإعلام كثيرا ما يقوم بمهمة التمهيد والتبرير للأعمال العسكرية، فلماذا لا تكون دوافع التشهير المستمر بالعرب والمسلمين، الذى بدأ قبل الهجوم العسكرى، هى نفسها دوافع الهجوم العسكرى والاحتلال؟ وهى دوافع تتعلق بالنفط أو بحسم المنافسة بين الكتل الاقتصادية والدول الكبرى لصالح الولايات المتحدة، أو بإعادة ترتيب منطقة الشرق الأوسط بعد اختفاء الاتحاد السوفييتى، لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل، خاصة فى ضوء ما نراه من تحالف غير معهود فى قوته بين العناصر المؤثرة فى الإدارة الأمريكية والنظام الحاكم فى إسرائيل، أو تتعلق هذه الدوافع، على الأرجح، بكل هذه الاعتبارات جميعا.

فإذا قيل إن هذا هو بلاشك مما ينتمى إلى «نظرية المؤامرة» فما أعظمها إذن من نظرية، تلك التى تتفق إلى هذه الدرجة مع دروس التاريخ، ومع الفهم الواقعى للعلاقات الدولية وللطبيعة البشرية ومع أبسط قواعد المنطق السليم فى نفس الوقت.■

صور من الترف الباذخ ليست فى ألف ليلة وليلة

بقلم
د. محمد رجب البيومى

يتحدثون عن ألف ليلة وليلة فيعدونها القصة الأولى التى صورت مباهج الشرق فى ترفه وبذخه ، والتى عرضت من ألوان النعيم وأفانين المغريات مالا يخطر على ذهن بشر ، وألف ليلة وليلة فى تسعين فى المائة من صفحاتها ، لا تصور واقعاً قد كان ، ولكنها تصور أحلاماً وأشواقاً لأناس محرومين لم يجدوا فى الواقع ما يروى ظمأهم اللاهب ، فجنحوا إلى الخيال الموهوم ، وافتروا على الخلفاء والوزراء والملوك ما لم يفعلوه ، ولم يكتبها فرد واحد بل أفراد يحتذى الخالف منهم السالف، يحاول أن يزيد عليه بما يبدع من خيال وما ينسج من تهاويل ، حتى تمت القصة البارعة فى عدة قرون ! وطاب للناس أن يذهلوا عن الواقع حين يحتسون كؤوسها المغرية ، فعكفوا عليها شاربين ناهلين.



وإذا كانت مباهج الترف قد أعجبت الناس فى قصة خيالية ، فقد كان من المنتظر أن يفتتنوا بمشاهد للترف الباذخ مماثلة ، وقعت فى دنيا الناس حقيقة ملموسة لا مراء فى تصديقها ، لأن الذى رواها شيخ رحالة لا نصيب له من الخيال ، بل ربما كان قلمه الضعيف

غير قادر على أن يحيط بكل ما شاهد إحاطة الأديب المصور الفنان ، فاكتفى بالتسجيل الفوتوغرافى ، ولكن ما رآه قد كان فى قوة نفاذه ، وعمق تأثيره مغنيا عن ريشة المصور الفنان ، فجاء ما سجله عن بعض مظاهر الترف فيما شاهد لا يقل روعة عما سجلته لجنة ألف ليلة وليلة التى لم تجتمع فى مكان ، ولكنها تسلسلت فى أزمنة شتى ، لتتوالى الحلقات فى السلسلة ، أخذاً بعضها برقاب بعض!

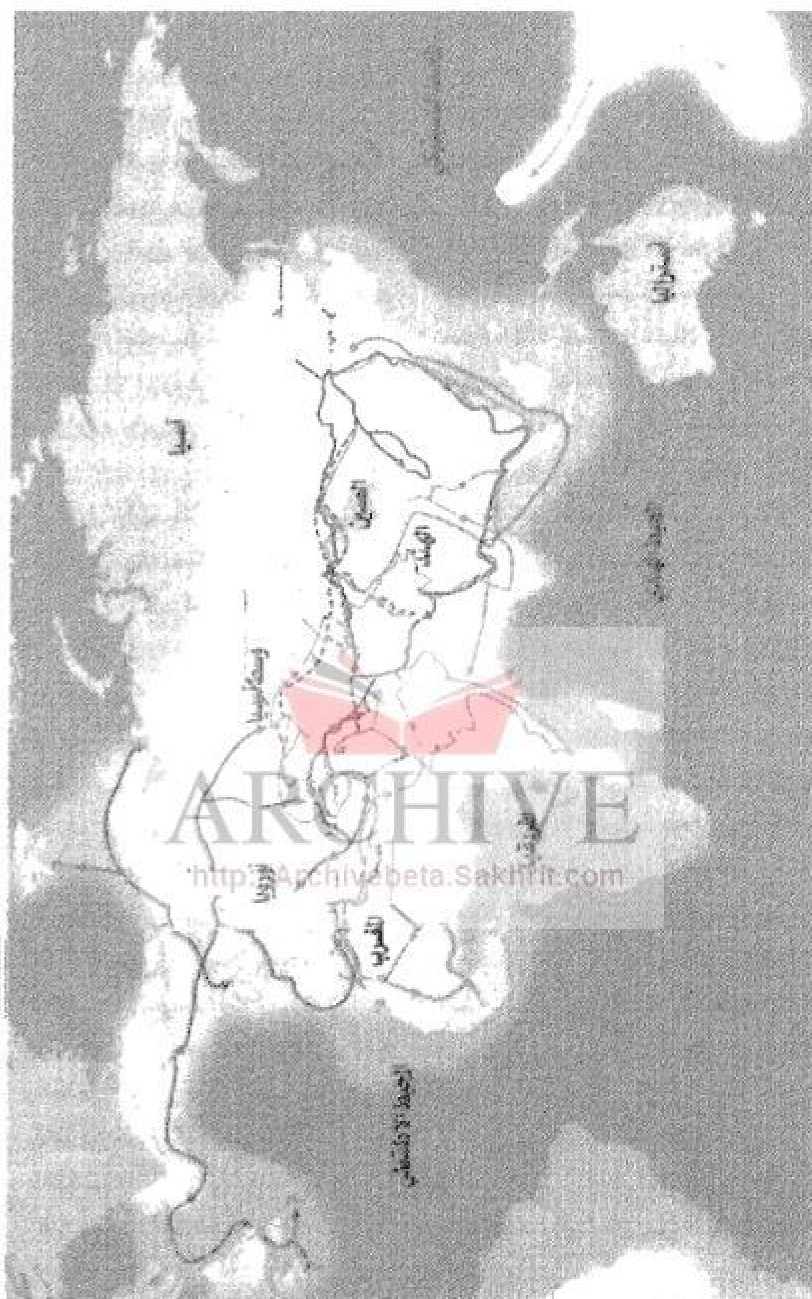
والرحالة الذى أعينه هو «ابن بطوطة» واسمه الذائع المستطير يغنى عن كل تعريف ، وليست رحلته بالمجهولة للذين هاموا بأقاصيص ألف ليلة وليلة ، فقد اشتهرت فى الشرق والغرب اشتهارا جعلها من أقوى



مصادر التاريخ اجتماعياً وسياسياً وجغرافياً ، وقد ترجمت إلى شتى اللغات شرقية وغربية ، وفي المقدمة التي نشرتها وزارة المعارف سنة ١٩٢٣ م سرد لأسماء من احتفلوا بترجمتها في انجلترا وفرنسا وألمانيا باللغات الثلاث ، كما ختمت بقول الرحالة الشهير (سيتزن) متسائلاً «أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ، بل أي أمة أوربية يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية وفيه من الاستقلال بالحكم ، والقدرة على الملاحظة ، والدقة في الكتابة ما لهذا الرحالة العظيم؟» .

في بلاد الترك بالمشرق

ولا يتحمل هذا المقال تتبع مظاهر الترف في الرحلة ، ولكننا نكتفي بما سطره ابن بطوطة ، عن بعض مشاهدته في بلاد الترك بالمشرق ، وأخص مملكة السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وهي واسعة فخمة تشمل إمارات القرم ، والكفا ، وسرادق ، والماجر ، وأزاق ، وخوارزم، وكل أمير يخضع للسلطان ويحاكيه في إدارة إمارته ، ومن عجائب ما رآه الرحالة ، أن السلطان أوزبك ، أو أحد أمرائه، إذا أراد السفر من إمارة إلى إمارة ، خرج في حشد عظيم جداً ، ومعه من الخيام ما يصنع بيوتاً ومساجد ومتاجر ، ويهيئ أسواقاً للبيع والشراء، حتى كأن المسافر يقيم في بلد به كل شئ ولا ينقصه قليل أو كثير مما يباع في عاصمة الإمارة ، وفي الرحلة من العلماء والصناع والتجار والزراع ، والجنود مالا يقع عند حصر ، ومع كل مسافر من يختاره من زوجاته وأولاده وجواريه ، وقد يصطحب الواحد أكثر من عشرة ممن يلوذون به ، والمسكن مهيأ ، والطعام موفور ! وقد لاقى الرحالة من كرم الضيافة ، وإحسان القوم ما جعله ثريا صاحب خيول وجوار وعبيد ، حتى كان وهو الضيف يسير مع أتباعه ، وكأنه أصيل من أبناء البلاد وليس بالضيف الغريب ، وقد لاحظ أن النساء لدى القوم ذوات سلطان آسر على الرجال، وقد رأى في بعض الأسواق امرأة بين عبيدها تغشى السوق لتبيع ما معها من الغنم واللبن ، وجوارها رجل «لا يلبس الغالى النفيس من الثياب كما تلبس هذه



ارتحل ابن بطوطة من المغرب ووسط آسيا حتي وصل الي شرق الصين

المحلاة بالذهب ، الرافلة فى الحرير ، وهى تأمره وتنهاه فظنه أجيراً لديها ، إن لم يكن عبداً ، ثم اتضح أنه زوجها ، وأنه كبقية الرجال يأتمر بأمرها وليس له معها فى شئون التجارة أمر ولا نهى. يقول ابن بطوطة «ويكون مع المرأة زوجها فيظنه من يجهل أمره أنه خادمها ، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم ، وهى فى أفخم لباس» .

فى موكب أمير

أول مشهد نسائى رآه ابن بطوطة فى هذه البلاد مشهد زوجة الأمير سلطية ، وكانت تركب فى عربة لها ، والعربة كما يصفها الرحالة ليست كما نعهد الآن ، ولكنها ذات مساحة متسعة تسمح للراكب أن ينام ، وأن يتنقل هو ومن معه من مكان إلى آخر، وكأنه فى منزل فسيح ، وهى على سعتها مجللة بالجوخ النادر ذى اللون الأزرق البراق ، ونوافذها مفتوحة للهواء والشمس ، أما الأميرة فيجلس بين يديها أربع من الجوارى الحسان بديعات الرونق ، رائعات البهاء والطلعة ، مر من وراء عربة الأميرة جملة من العربات تحمل من الجوارى والغلمان ما تظهر به عظمة الموكب ، إجلالاً للزوجة الرفيعة ، وقد قطعت العربات مسيرها إلى منزل الأمير ، حتى إذا بلغت الغاية ونزلت السيدة المبجلة اندفع إليها ثلاثون من الجوارى مما تحمل العربات ليرفعن أذيال ثوبها ، وهى مديدة ، ولها عرى مختلفة تأخذ كل جارية بعروة منها ، وترتفع بالثوب حتى لا يمس الأرض ! وهى فى هذا المشهد كما قال ابن بطوطة ذات تبختر واختيال ، حتى إذا بلغت مجلس الأمير نهض واقفا لاستقبالها ، وأجلسها إلى جانبه ، والجوارى من حولها يتطلعن إلى وجهها خضوعاً لما تأمر به ، فإذا جاءت الأقداح ، أخذت الأميرة قدحاً وقدمته إلى زوجها فشرب ثم فعلت ذلك بأمراء الأسرة الجالسين جوار الزوج ، ويدور السمر بين الأمير وزوجته فى الحفل العامر ، والقوم فى هيبة ينظرون إلى روعة المنصة فى جلال واحتفاء ، ثم يحضر الطعام بعد الشراب ، لتأكل الأميرة مع الأمير ، فإذا انتهت تقدم إليها بالهدايا التى أعدت من قبل ، وانصرفت فى موكبها تتقدم بعربتها الأنيقة ما خلفها من عربات الجوارى والأتباع ، إلى منزلها الكبير !

أما نساء الشعب لا من المترفات فحسب ، بل من الباعة والسوق ، فإن الواحدة منهن يكون فى عربتها الفسيحة ، وبين يديها الثلاث والأربع

من الجوارى الحسان ، يرفعن أذيالها ، يلبستها غطاء الرأس المرصع بالجواهر ، وفى أعلاه ريش الطواويس ، وهن جميعا سافرات ، باديات الحسن لأن النساء هناك لا يحتجبن بل هن والرجال سواء .

مجلس السلطان الأعظم

كان السلطان الأعظم محمد أوزبك كما وصفه ابن بطوطة «شديد القوة ، كبير الشأن قاهراً لأعداء الله، حارب أهل قسطنطينية العظمى ، وبلاده متسعة ، ومدنه عظيمة وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا» وكان إذا سافر أبدى من السطوة والبهجة ما لم يسمع به من قبل ، ومن عادته أن يجلس كل أسبوع بعد صلاة الجمعة فى قبة تسمى «قبة الذهب» وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الذهب ، وقوائمه من الفضة الخالصة ، ورؤسها مرصعة بالجواهر ، ويجلس السلطان بين زوجاته الأربع على السرير ، وعلى يمينه الخاتون الحائزة لقب الملكة ، أما الثلاث الأخر فأميرات ، وكلهن يطلق عليهن لقب (خاتون) وتجلس بين يديه ابنته وعلى اليمين والشمال ولداه ، وهو يحضر المجلس قبلهن ، فإذا جاءت إحداهن ، وصلت إلى مجلسه فأخذ بيدها حتى تصعد إلى السرير ، ما عدا الملكة فإنه يستقبلها عند باب القبة ، فيسلم عليها ويأخذ بيدها ، ثم أطال الرحالة فى وصف مجالس الأمراء والوزراء وأبناء الملوك من أولاد عمه ، والعسكر المحيط بالمجلس المهيب ، ويظل الملك فى استقبال الوافدين حتى تحين صلاة العصر ، فإذا تم ذلك بدأت الملكة بالانصراف وتتبعها الأميرات كل إلى محلها ، وتحمل العربة الفخمة كلا على حدة ووراءها أكثر من خمسين جارية راكبات الخيل ، وخلف الجميع مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الموكب مائة من المماليك الكبار ركبانا ومائة آخرون مشاة ، وبأيديهم القضبان ، والسيوف مشدودة على أوساطهم ، وهذا لا يقتصر على الملكة بل للزوجات الأربع هذا الموكب بجواريه وفتيانه ومماليكه ، أما منازل الزوجات ، فلكل منهن بيت به قبة من الفضة المموهة بالذهب ، وتكلل الخيل

التي تجر عربتها مجللة بأثواب من الحرير المذهب ، وتجلس الخاتون وسط العربة وعن يمينها امرأة تلقب بالوزيرة ، وعن يسارها أخرى تلقب بالحاجبة ، وبين يديها ست من الجواري الصغار ، فائقات الجمال ، ومن ورائها اثنان تسندان الكرسي ، وعلى رأس كل منهن التاج المكلل بالجواهر ، وبأعلاه ريش الطواويس وعليها ثياب من الحرير مرصعة بالجواهر ، ويكون بين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين وقد لبسوا الحرير المذهب ، وبيد كل واحد منهم عمود من الذهب والفضة ، وفي الرجوع إلى المنزل يكون خلف عربة الخاتون مائة عربة ، وفي كل عربة الثلاث أو الأربع من الجواري الأبكار ، وخلف هذه العربات ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر (رباه هل سمع بمثل هذا أحد) ومع كل عربة غلام موكل بها وهو متزوج بإحدى الجواري الحاضرات !

مجلس الخواتين

هذا ، وقد تحدث الرحالة عن الخواتين الأربع واحدة واحدة فقال عن الخاتون الكبرى إنها أحظى نساء هذا السلطان عنده ، ويعظمها الناس من أجل ذلك ، ولكنها أبخل الخواتين واستدل على بخلها بأنه حضر مجلسها وهي قاعدة بين عشر من النساء كأنهن خادمات لها وبين يديها خمسون جارية ، وبأيديهن صحاف مصنوعة من الذهب والفضة ، وقد ملئت بما يسمى «حب الملوك» ، فسلمنا عليها ، ولم تتفضل بغير مناولتي قدحاً من (القمز) ولم يمكنني إلا أن أشربه ، ونقته ولا خير فيه ، ثم انصرفت ! أما الخاتون الثانية فلم يحظ الرحالة منها بطائل ، وقد وصف مجلسها بما نعرف ، ولكنها امتازت بقراءة القرآن الكريم في مصحف لديها وقد شرب (القمز) في حضرتها مضطراً !

والخاتون الثالثة هي (بيلون) بنت ملك القسطنطنية ، وقد رآها الرحالة جالسة على سرير مرصع ، قوائمه من الفضة ، وبين يديها نحو مائة جارية ، من روميات وتركيات ، ونوبيات ، والفتيان على رأسها ، والحجاب بين أيديها من رجال الروم، وسألت عنا ، وحين علمت أننا غرباء عن أوطاننا ، بكت ، ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها ، رقة وشفقة ، وأمرت بالطعام فحضر ، ولما أردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنا ، وطالعونا بحاجاتكم ، وأظهرت الكثير من مكارم الأخلاق ، وبعثت في إثرنا

بغنم وسمن وطعام كثير ، ودراهم وكسوة ، وثلاثة من جياد الخيل ، وعشرة من سائرها . أقول إن هذه الخاتون ابنة ملك القسطنطينية ، وقد تزوجت زواجاً سياسياً بعد حروب هائلة بين والدها ، وزوجها ، انتهت بالصلح ثم عقد المصاهرة ! ويخيل إلى أن بكاءها لم يكن شفقة على الغرباء فقط ، بل لتأثرها بفراق موطنها وأهلها ، لذلك فضلت الرحيل إليهم كما سيجئ !

والخاتون الرابعة بنت أمير الأمراء عيسى بك ، وقد أثنى عليها الرحالة ، وقال إنها من أفضل الخواتين وأرقهن شمائلاً ، وقد شاهد من كرمها وحسن خلقها مالا مزيد عليه فأنت ترى أن ابن بطوطة قد أعطى لكل زوجة حقها دون إسراف ، بل عبر عما شاهد وعاين ، وفى هذا دليل على أن الذين وصفوه بالمبالغة من معاصريه لم يكونوا على حق ، لأنهم أنكروا أحداثاً لم يتح لهم الحكم على ملابساتها ، وقد اعتقدوا أن كل بلاد العالم مثل بلادهم لا تختلف عنها فى شئ . فصدروا حكمهم على الرجال بما كدر نفسه ، وغير خاطره ، ولم يكن وحده الذى تعرض للتكذيب من الرحالة ، فإن سلفه الرحالة الكبير (مركوبولو) قد تعرض لمثل هذه الشبهات ، ولاقى عناء كبيراً كى يقنع معاصريه بصحة ما رآه ، ولكن الزمن قد أثبت عن يقين صدق ما قاله الرجلان ، فوق ما أثبت من شجاعتهما النفسية حين فرضا على نفسيهما اقتحام الأهوال ، والمجازفة بالحياة أحياناً وراء نهم علمى فى رؤية أحوال الناس ، ومشاهدة الغرائب التى لم تكن تخطر لهما على بال ، وابن بطوطة لم يتأثر بعواطفه الشخصية إطلاقا ، فقد تحدث عن أنواع من المظالم ارتكبها من أكرموه وأنعموا عليه ، ولو كان يستجيب إلى عواطفه الذاتية لأغفل حديث هذه المظالم ، ولكنه اعتقد فى صميم نفسه ، أنه مؤرخ قاض ، وسيحاسبه الله إذا تجاوز فى القول ، مادحا ، أو قادحا . وبهذا حفظت الرحلة مكانتها المحترمة فى التاريخ .

رحلة الخاتون الرومية

ذكرت أن الخاتون الرومية الثالثة (بيلون) قررت السفر إلى والدها بالقسطنطينية لتضع حملها هناك، وقد اهتم



السلطان برحلتها فسافر معها هو والملكة وولي العهد مرحلة أولى من مراحل الرحلة ، وسارت زوجاته الثلاث مرحلة تالية بعد المرحلة الأولى لتتمة الوداع ، وكان العسكر الذى يحمى الزوجة مكونا من خمسة آلاف فارس ، مع عسكرها الخاص المكون من خمسمائة فارس . أما الخدم من المماليك والروم فكانوا مائتين ، وعدد الجوارى مائتان وأكثرهن روميات ! وإذن فيكون اللازمون لها أكثر من ستة آلاف !!

فإذا انتقلنا إلى غير الأناسيّ من الرجال والنساء فسنجد أن العربات التى أحاطتها أماماً وخلفاً تبلغ أربعمائة عربة ! غير ألفى فرس لجر العربات ، وثلاثمائة من البقر ، ومائتين من الجمال ، فماذا يرى القارئ فى هذا الموكب الخاص برحلة أميرة واحدة !

ومن المراسيم التى اتبعت فى هذه الرحلة أن كل بلد تمر به الأميرة يستقبلها الحاكم مع عساكره حتى يبلغوا بها عاصمة تالية فيودعونها ، ليستقبلها حاكم المدينة مع عساكره ، ويسير بها إلى العاصمة التالية أيضاً، مع تقديم ما يجب من أمور الضيافة الباذخة من أفانين الطعام والشراب لجميع أفراد الرحلة ، وكان الرحالة يقابل الأميرة يوميا وهى تغمره بالهبات الجزيلة من خيول وبقر وغنم ، فاجتمع له نحو خمسين فرساً ، وأمرت وكيلها أن يزيد عليها خمسة عشر فرساً ، وقالت له : إن احتجت زدناك ! وقد باع الرحالة كل ما أخذ لأنه لا يحتاج إلى طعام أو شراب أو كساء ، فهو من رجال الرحلة ، وحاجته موفورة ! والأميرة تعلم ذلك ، ولكن مروءتها قد فاقت الحد .

ثم بلغت الأميرة حدود دولة أبيها، فقام أمير العاصمة بضيافة عظيمة للقادمين ، وجاءت أميرات القصر الملكى من القسطنطينية لاستقبالها ، ومع القادمين من الخيل والبغال مالا يحصر ، لأن العربات لا تستطيع السير فى الطريق الجبلى ذى الوعورة الشاقة ، وهنا تركت الأميرة من صحبها من رجال زوجها ليرحلوا عائدين ، مكتفية بالحرس الرومى فهى ابنة ملك البلاد ، ولها الإجلال والاحتفاء أينما تحل ! وقد أخبرها الرحالة أنه يريد الاستمرار فى الرحلة ليرى القسطنطينية وعظمة الملك بها، فوافقت مرحبة ، وسار الرحالة محوطاً برعاية الأميرة وتوصياتها بإكرامه ثم وصلت الأميرة إلى (الفنيكة) وهى مدينة ذات حدائق ، وبساتين وكنائس وقصور آهلة فنزلت فى قصر لأبيها أعد لاستقبالها ، حتى قدم أخوها

في خمســة آلاف فارس من كبــار الجنـود ، وقـبل أن يراها ، غـيـر ملابسه ، ولبس ثيابا بيضاء ، وجعل على رأســه مظلة مكللة بالجـواهر ، وجـعل على يمينه خـمـسـة من أبناء الملوك ، وعن يسـاره خـمـسة آخـرين يلبـسـون البـيـاض وعليـهم مظلات مـزركـشـة بالذهب ، وجـعل بين يديه مـائة من الراجلين ، ومـائة من راكبي الخـيـول ومـعـهم الرمـاح والسـيـوف المكسوة بصفائح الذهب والفضة ، ثم قسم الفرسـان إلى عدة أفـواج ، كل فوج فيه مائة فارس ، وعليه أمير .

وحــان مـوعـد اللقـاء ، فـركـبت الخــاتون بين مماليكهـا وجـواريهـا وخدامها وهم نحو خـمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب والفضة ، وعلى الخاتون حلة مرصعة بالجواهر ، وعلى رأسـهـا تاج مرصع، وفرسـهـا مـجلل بالحـرير ، وفي يديه ورجليـه خـلاخـيل الذهب ، وفي عنقـه قـلائد مرصـعـة ! والسرج مكسو بالذهب ، ومكلل بالجـوهر ، ثم جـاء أخـوهـا وترجل عن فرسـه لأنه أصغر منها ، وقبل ركابها ، فقبلت رأســه ، وترجل الأمـراء وأولاد الملوك ليـقـبلوا ركابها ! وسـار الركب حتى بلغ مدينة - قال ابن بطوطة إنه لا يتذكر اسمها - فإذا ولي العهد في عسكر من عشـرة آلاف مـدرع ، وعلى رأسـه تاج، وعن يمينه عـشـرون من أبناء الملوك وعن يسـاره مـثلهم ، وقـد رتب فرسانه كما فعل أخوه من قبل ، إلا أن الحفل كان أعظم وأروع وحين بلغ الركب القسطنطينية ، ودخلت قـصـر الوالد ، امـتنع القـوم عن مـشـاهدة اللقاء الحار بين الابنة والأب ! وقد علم ابن بطوطة أن الأمـيـرة لما قـربت من والديهـا ترجلت ، وقـبلت الأرض بين أيديهمـا ، وقبلت حافري فرسيهما ، وهكذا فعل من بعدها كبار الحاشية !

وبعد فقد تحدثت كتب التاريخ عن زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن ســهل ، وعن رحلة قطر الندى بنت خـمـارويـه إلى زوجـهـا الخليـفـة ببغــداد ، وعن مـا قيل في ذلك مما يقـرب إلى الخـيــال ، ولكن رحلة الخاتون ، ولم تكن عروســاً تــزف إلى زوج ، بل كـانت تسـافـر من مكـــان إلى مكان ، قـد فـاقت كل تصور يتيحه الخيال ، وهكذا نجد في رحلة ابن بطوطــة الحقـيقـية مـثــل مـا نجـد في قـصـص الأحلام .





العرب.. والغرب

التأثير و التأثر *

بقلم
مصطفى نبيل

نحن والغرب والتأثيرات المتبادلة، ورؤية كل منهما للآخر، إحدى أهم القضايا الثقافية، وتدوين الرحيل إلى بلاد الغرب، نموذج حى على مدى تلك التأثيرات المتبادلة.

وهى علاقة ملتبسة، فتأتى من الغرب المعارف المختلفة، والتقدم العلمى، وتأتى منه أيضا محاولة التبعية والهيمنة!

نجد فى الغرب تطور العلوم وتاريخها، والأفكار الحديثة، ونحتاج إلى عملية تحديث كبرى كى نلحق بركب التقدم، ونحن ننتمى إلى عالم واحد، ونوع واحد، والتقدم البشرى العصرى هو جماع التجارب الإنسانية، بدءاً بقدماء المصريين ومروراً بالرومان واليونان والعرب.

ونحن العرب ندين بالكثير للغرب، كما دان الغرب بالكثير للحضارة الإسلامية فى العصور الوسيطة.

وتأتى معرفة الأجيال المعاصرة بالعلوم الطبيعية والطب والهندسة فى جميع فروعها من الغرب.

ويتميز التاريخ الحديث للغرب خلال القرون الأربعة الماضية، بالإنجازات المعرفية الكبيرة التى استطاعت أوربا بواسطتها الانتقال بالعالم إلى مرحلة جديدة، يحتل فيها مكانة عالية، واقترنت هذه الإنجازات العلمية بالاتجاه إلى تطبيقها فغيرت وجه العالم.

وظهرت ثنائية فى حياة الغرب، تقديس الحياة وصناعة الأسلحة التى تدمر البشرية، التقدم التقنى العالى والسعى إلى الهيمنة على العالم، ومن ناحية أخرى الفنون والثقافة الإنسانية الجميلة وإشاعة الانحلال.

ويتساءل زائر أى بلد غربى هل ما يراه سماحة أم إباحة؟.. فالمجتمع الغربى المتحضر يحمل كل مزايا التحضر وآفاقه،

* من ورقة قدمت فى ندوة العربى « الغرب بعيون عربية »



مصطفى نبيل فى ندوة مجلة العربى الكويتية «الغرب بعيون عربية» - ديسمبر ٢٠٠٣

ولكنه يحمل عناصر البقاء والفناء معا، تسير هذه الدول على حبل مشدود بين السماحة والإباحية التى كانت على الدوام سبب انهيار الأمم.

تفوق عقلى ومعرفى واستغلال هذا التفوق من أجل السيطرة، وظهر الارتباط الوثيق بين الثقافة والسياسة، وظهرت أيضاً ازدواجية المعايير والنأى عن العدل.

وليست الرحلات المتبادلة بين الشرق والغرب، هى وحدها الكاشفة، فهذه العلاقة تحتوى على عناصر العقدة النفسية، فهى علاقة عاطفية وليست عملية، يختلط فيها الإعجاب بالخوف، والحب بالكره.

فأى غرب نقصد، صورته فى بلادنا، مستبداً، غزانا فى عقر دارنا، أم صورته فى بلاده، تبهرنا نظمه وعلومه وفنونه، واحترامه للقانون والنظام.

ولا تكتمل ثقافة أحد إلا إذا عرف ثقافة الغرب أو زار أحد بلدانه.

ولم يكن غريبا الأعمال الأدبية بل والتشكيلية التى تناولت هذه العلاقة. وهناك قائمة طويلة من الروايات مثل «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم و«أديب» طه حسين، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقى و«موسم الهجرة للشمال» للطيب صالح و«أصوات» لسليمان فياض وحتى نصل إلى «أمرى كان لى» لصنع الله إبراهيم.. وقبلها «علم الدين» لعلى باشا مبارك.

إذن هو الغرب المحبوب المكروه المخيف.

فعند نهاية الحروب الصليبية، قامت النهضة الأوربية، وأخذت أوربا تخلع ثوب القرون الوسطى، وتوقف النمو أو كاد فى الشرق، وساد التقليد والجمود مما أدى

إلى اختلال توازن القوة بين الشرق والغرب، وانتهى بالسيطرة الكاملة للغرب على الشرق وبزوغ «الظاهرة الاستعمارية».

وحقا ما ذكره المؤرخ البريطاني السير ستيفن رونسيمان.. «علاقة الشرق والغرب، سلسلة طويلة للتفاعل والاختلاط، وكانت الحروب الصليبية حلقة مأساوية هدامة، فقد كان فيها الكثير من الشجاعة والقليل من الشرف، وكثير من التقوى وقليل من التفهم، ولطخت المثل العليا بالقسوة والجشع، ولوث التفاني والجلد الإحساس الأناني الأعمى، واختلط أخيرا السمو الأخلاقي بضيق الأفق».

وجاءت موجة جديدة من اتصال العرب بالغرب مع صليل السيوف وقصف المدافع أي مع قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر منذ قرنين من الزمان، وكانت هناك بوادر نهوض في الشرق كما يرى البعض، وأجهضته الحملة الاستعمارية (محمود شاكر «فى الطريق إلى ثقافتنا» وبيتر جران «ما بعد المركزية الأوروبية»).

ويرى البعض الآخر أن الحملة الفرنسية جلبت معها المطبعة لأول مرة والتى كانت بداية يقظة الشرق.

وجاءت حصيلة قرن ونصف القرن من الحكم الاستعماري سلبية تماما، سواء بالنسبة للنهضة بجميع جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، أو فيما يتعلق بالتعليم ومحو الأمية، وشكل الاستعمار حجر عثرة حقيقية فى طريق النهوض والتقدم، وإلا فلماذا - مثلا - قرر مؤتمر لندن بعد هزيمة محمد على تصفية المصانع التى قامت؟!

وواجهت حركة النهضة العربية إشكالية عظيمة، مازالت قائمة حتى اليوم، رغم التجارب والخبرات التاريخية، فتواجه الحضارة العربية طرقات عنيفة من حضارة أخرى أقوى وأكثر عنفوانا وتنجذب إليها فى الوقت ذاته!

واختلط الأمران كالخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر، اللذين يصعب على العين أن تفرق بينهما.

فكيف نفصل فى الحضارة الغربية بين التحضر من جهة والقوة والهيمنة من جهة أخرى!

وما هى الحضارة؟ أليست مستوى عاليا من الرخاء المادى، ودرجة عالية من التقدم الفكرى؟.. وفى الوقت ذاته القدرة على الارتفاع بقيم الإنسان، وحماية حصانة المواطن ضد القهر والعسف، والحفاظ على حرية الإنسان وكرامته، ورقى ذوقه فى مجالات الفنون والآداب والثقافة.

وهذه هى معانى الحضارة التى خلبت لب المسافرين والمتعلمين الأوائل من البلدان العربية إلى أوربا، وحتى حين جاءهم الأوربيون غزاة مستعمرين.

نجد الجبرتى فى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» يتعجب من أن سليمان الحلبى الذى قبض عليه متلبسا ومعترفا بعد قتله كليبر، ومع ذلك يقدم إلى المحكمة!

عدم التفاعل الخلاق

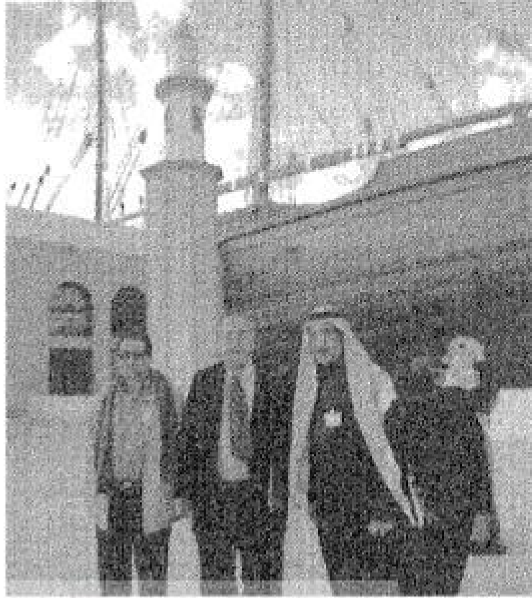
وشهدت العلاقة بين الشرق والغرب خلال القرون الأربعة السابقة، حلقات متتابعة مع الصراع والتوتر والمعارك الدامية والخاسرة، مما دفع الشرق إلى إيثار السلامة، ونأى فى كثير من الأوقات عن الاستفادة بالقدر الكافى من علوم



عبد الهادى التازى - المغرب



أبو المعاطى أبو النجا



سليمان العسكرى وحسن حنفى ومصطفى نبيل في الكويت

العصر، مما أدى إلى عدم التفاعل الخلاق مع مستحدثات العصر . ويتناول الجبرتى فى كتابه الاهتمام بالعلوم الانسانية وغياب العلوم «البرانية» من جامعة الأزهر أيام الحملة الفرنسية، ومع قيام الظاهرة الاستعمارية تحولت بلدان عربية إلى مجرد مستهلك لمنتجات وأفكار الدول الاستعمارية، ترسم السياسات لصالح هذه الدول وليس لصالح الشعوب العربية، وتعثرت الخطى - فمثلا - بين الذين يطالبون بأن تكون مصر قطعة من أوربا، أو أن يكون الشرق والغرب وحدة واحدة، وبين الذين يطالبون بإغلاق الأبواب حفاظا على التراث والهوية!

وأصبحت أعلى الأصوات أكثرها «كسلا» وهى أصوات المقلدين، سواء لمستحدثات العصر أو لما هو عتيق تخطاه الزمن، والبعد عن التفاعل الخلاق مع كليهما.

والمعضلة هي كيف نستفيد من تطور المعرفة البشرية، وتجنب الهيمنة السياسية، ونسعى للتحديث ونتجنب التغريب؟

لقد ظهر تيار يرفض أن نتخذ من الغرب نموذجا على اعتبار أن الغرب أصبح توسعيا مسيطرا وفى الوقت نفسه صاحب منهج متميز غير مجرى المعرفة فى العالم.

فمع أى الوجهين نتعامل، هل نتعامل مع إنتاج المعرفة فى أشد صورها تقدما، أم مع دعوة الخوف والتوجس من السيطرة والهيمنة؟!

ورغم هذه التساؤلات ورغم اعتراض المعترضين، فإن التعامل قائم بين الشرق والغرب، ولم يتوقف استمرار التفاعل بينهما سواء بين القوى المهيمنة أو التيار الرئيسى فى المجتمع العربي.

وقد تلا رحيل الاستعمار فى منتصف القرن العشرين، فترة لم تدم أكثر من عقدين، وهى فترة قصيرة واستثنائية.

وكل شئ يدل على أن المحصلة النهائية لقرن ونصف من الاستعمار الأوربى، لم يكن من الممكن أن تكون أفضل كثيرا مما كانت عليه، وأذكر عندما سألت بن بللا الزعيم الجزائرى المعروف عن تقييمه للتجربة العربية قال «لم نعط تحدى القوى الاستعمارى ما تستحقه من الاهتمام، واستخففنا بها، فكان ما كان».

والدول الاستعمارية كانت على استعداد لعمل أى شئ لكى تعطل التصنيع والنمو الديمقراطى وكذا التعليم والثقافة والتعاون بين البلدان العربية ولا أقول الوحدة العربية.

وهناك أكثر من محاولة ناجحة للنهوض، مرة فى عصر محمد على بمصر والتى انتهت بموقعة «نافارين» ومرة أيام ثورة عرابى وانتهت بدخول الإنجليز فى يوليو ١٨٨٢ والثالثة فى عصر عبد الناصر والتى ضربت فى يونيو ١٩٦٧

المعرفة المشوهة

وفى كتاب «الاستشراق» للدكتور إدوارد سعيد، الذى يتناول العلاقة بين الشرق والغرب والذى صدر عام ١٩٧٨، يؤكد فيه أن الاستشراق الذى يفترض أن يساهم فى الفهم المتبادل بين الشرق والغرب، هو إحدى أدوات الإمبريالية وارتباطها بالصهيونية.

لذا، فهى تحط من قدر الشعوب والثقافات الشرقية تبريرا لاستخدام العنف ضدها، مما أتاح معرفة مزيفة مشوهة للآخرين فى صور وقوالب اختزالية، هدفها التحكم والسيطرة والتلاعب.

وحل محل «الشرق» مجموعة من الأفكار والاستعارات والأساطير لتاريخ العرب والمسلمين، وتحارب اللغة القومية، وتفرض ثقافات بديلة، وقد أبرز «إدوارد سعيد» أن الغرب ليس شيئا واحدا، فهناك الحركات والقوى والتيارات المعادية للاستعمار.

والمثل على هؤلاء الذين لا يعرفون النزاهة «صمويل هنتنجتون» و«برنارد لويس» و«فريدمان» وهذه الأفكار الاختزالية، ومع تكرارها ، تتشكل الأفكار الشائعة والزائفة عن الإسلام، وركوده ومقاومته للحداثة وهوس العنف اللاعقلاني.

وعلى مدى القرن التاسع عشر، فإن المواجهة السياسية والعسكرية، قد شحذت همم المفكرين والقادة الذين يبحثون عن مكامن القوة فى الغرب، ويحاولون نقلها، وعن مكامن الضعف لديهم ويعملون على تلافيها، وجرى كل ذلك، سواء فى مجال الإنتاج أو الدفاع العسكرى، أو فى النظم والأساليب والأفكار والقيم، ومن الطبيعى أن تتشعب وجوه النظر وأن تتنوع التجارب.

وجاء الاقتحام العسكرى والسياسى فاضطربت المعايير، وشلت القدرة على التمييز وتاهت الفروق بين التجديد والتقليد، وبين الإصلاح والاستبدال الأعمى.



حسام السكرى ، مصطفى نبيل ، مسعود شاهر ، صلاح عيسى ، سامى خشبة أثناء فعاليات الندوة

ولم يتبينوا مدى الجبر أو الاختيار فى تحديد ما يؤخذ عن الغرب، وما يترك من نظمهم وأفكارهم وأصول حضارتهم.

الغرب في عيون المفكرين العرب

ولكى نتعرف على رواية عدد من الرحالة العرب أو الذين عاشوا فى الغرب لفترة من الزمن، ونقلوا بعضا من أفكاره نتوقف عند ثلاثة هم رفاعة الطهطاوى وأسامة بن منقذ والسفير المغربى ابن عثمان المكناسى:

إن رفاعة منبهر أشد ما يكون بالفنون الصناعية والمعارف الجديدة، ويدرك الخطر الذى يعنيه سبق أوربا، «قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم، وهذا ما دعا محمد على إلى الاستعانة بـ «الافرنج» وأسباب البعثة إلى الغرب، وكان هدف رفاعة من كتابه تخليص الإبريز «حث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البدائية والفنون والصنايع، فالحق أحق أن يتبع».

ورفاعة لم يعمل من أجل التعريف ببلاد الفرنسيس فحسب، وإنما لحث «ديار الإسلام» على الأخذ بأسباب الرقى والحضارة.

نتوقف عند «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز».

أو - الديوان النفيس بإيوان باريس».

و«تخليص الإبريز - أى الذهب - فى تلخيص باريز» هو أحد الكتب الرائدة، ربما تفوق أهميتها حدود عصرها، وكاتبه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى، الذى لا يختلف أحد على ريادته فى نقل الثقافة الحديثة إلى الشرق، ولا على أثره العميق فى الثقافة العربية، بل ويرى البعض أن هذا الكتاب يعد أهم وثيقة أدبية فى مصر،

في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وقصة حياة الشيخ ذات دلالات وإشارات متعددة.. وهو يشترك في الكثير من جوانب حياته مع كل من د. طه حسين والإمام محمد عبده فخرج هؤلاء من رحم الشعب، يدركون معاناته وأوضاعه البائسة، وقدم كل من رفاعة وطه حسين لبلدهم أعمالا عظيمة، وجمعتهما الدراسة في الأزهر الشريف ثم التعرف على الثقافة الغربية ببعثة كل منهما إلى فرنسا، وهو ما حدث مع محمد عبده، الذي عاش في باريس وأصدر مع الأفغاني مجلة «العروة الوثقى» وهو صاحب القول الشهير «وجدت في الغرب إسلاما بلا مسلمين، وفي الشرق مسلمين بلا إسلام».

ولعبت المصادفة دورا مهما في حياة رفاعة، فلولا اختيار شيخه حسن العطار ما أخذ فرصة السفر إلى باريس مع البعثة المكونة من أربعين دارسا، حينما كان الفتى في مقتبل العمر في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، وعمل بنصيحة شيخه في تدوين رحلته، وأخذ يسجل مشاهداته وانطباعاته.

وجاء هذا الكتاب «الرحلة» غنيا بالمعلومات والمعارف والأمثلة الحية والشواهد.

ويتضمن الكتاب في صلبه العلاقة بين الشرق والغرب، ووضع في رحلته خبرة خمس سنوات من العمل الدوب واستطاع أن يمزج الشرق والغرب في سبيكة واحدة، فاحتفى بإيجابيات الغرب بلا عقد وبلا أحكام مسبقة، كأي عمل علمي جاد، ومن خلال اكتشافه الغرب أعاد اكتشاف الشرق.

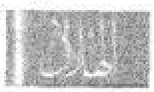
ولا يدهشنا أن نراه قد أفسح في كتابه مكانا لترجمة الدستور الفرنسي، وترجمة لنصيحة الطبيب للحفاظ على الصحة العامة.

وإذا كان العالم الفرنسي شامبليون قد قدم الحضارة الفرعونية القديمة للعالم عندما فك شفرة حجر رشيد، فكذلك فعل الطهطاوي الذي فك شفرة النهضة الأوربية.. والتي قدم الكثير من جوانبها، وقدم للقارئ في الشرق صورة فرنسا باعتبارها عاصمة الحضارة الغربية في ذلك الوقت.

ووصل رفاعة إلى النغمة الصحيحة، والمعادلة المتوازنة، ودعا إلى ضرورة الإمساك بحضارة العصر والتفاعل معها، ولم يكن حديثه عن الحضارة الأوربية مجرد ناقل لما يشاهده وإنما كان يناقش ويحلل ويعلل ويقارن، كل ذلك في يقظة ذهن وبصيرة نافذة، يتجول في شوارعها ويراقب أهلها، ولم يغب عن باله ما يجرى في وطنه، ولم يكتف بالمقارنة ولكن رسم معالم النهضة في الشرق، ونادى بسرعة العمل في اللحاق بالدول الأوربية، ونقل خبرته ومشاهداته للقارئ، وأخذ يبحث عن أسباب النهضة في مكونات حضارة العصر المتطورة، وأخذ يبحث عن إجابة سؤال.. لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

وأهم ملاحظاته في الإجابة عن هذا السؤال هي «تفوق هذه البلاد وبراعة أهلها في العلوم البرانية والفنون والصنائع والرغبة في جلب ذلك إلى الديار الإسلامية لخلوها منها».. ومع الأسف أنه حتى اليوم يغلب على الثقافة العربية الإنسانيات على حساب العلوم الحديثة.

وكانت رحلته - بحق - عملية وصل





د. قاسم عبده قاسم



د. جابر عصفور

بين الشرق والغرب، ولم يقتصر على مجرد التعريف ببلاد الفرنسيس، بل حث شعوب الشرق على الأخذ بأسباب التقدم، وأخذ يقارن ويلتقط الفروق ويحللها، وينادى للأخذ بأسباب النهضة الأوربية، ولا يرى فى ذلك أى شبهة تعارض مع ميراثه الفكرى.

ولم يمنعه شئ من البحث عن سر تقدم الغرب، يقول «وإذا كانت البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم والرياضة والطبيعة، وإذا كانت البلاد الإسلامية قد برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها، فإنها فى حاجة إلى كسب ما لا تعرفه، وجلب ما تجهل صنعه».

فكان لقاء الشرق والغرب عند الطهطاوى لقاء وفاق، قدم خلال رحلته العلوم والفنون والصناعات، ولم يجد فى ذلك أى تعارض مع هويته.

المكناسى فى إسبانيا

ومن الشخصيات التى زارت الغرب وإسبانيا بالتحديد فى القرن الثامن عشر عام ١٧٧٩م، ووصف الغرب بعيون شرقية هو السفير المغربى ابن عثمان المكناسى.. والذى اتخذ موقفا مختلفا عن رفاعة.

ولم يلفت انتباه المكناسى خلال إقامته سوى الطغيان والفجور والذى عبر عنه فى كتابه «الإكسير فى فكاك الأسير» ولعل قراءة هذه الرحلة وتأمل علاقات الشرق والغرب فى ظروف متباينة يساهم فى تجاوز حالة الازدواجية، ويفسر سبب ضياع صوت الذين حصلوا على ثقافة الغرب، ولا يصل صوتهم إلى عقول وقلوب المتلقين، ويصبح المتحدث فى واد والمتلقى فى واد آخر.

وصف المكناسى فى كتابه معالم الحياة فى إسبانيا، وتناول الحجر والبشر، وتوقف عند الرقص وفن التمثيل ومصارعة الثيران، ومختلف مظاهر العلم والفن، ولم يفته وصف الطبيعة الساحرة .

سماحة أم إباحة ؟

وأول ما يلفت نظر الزائر لإحدى الدول الغربية العلاقة بين الرجل والمرأة، هكذا كان الحال مع ابن عثمان ومع رفاعة،

يقول المكناسي: «اجتمع بالدار التى نزلنا بها أعيان البلد، وبعد العشاء اجتمع نساء أعيان البلد، فتلكأت فى الخروج فألح علينا الحاكم فإذا بجمع كثير من النساء قد أظهرن زينتهن بما لا يناسب» ، ويقول فى موضع آخر.. «وردت الضامات نساء الأكابر» ، يقصد السيدات، وأحضرن الموسيقى التى لهن اعتناء كبير بها، ورقصن مع أكابر البلد نساء ورجالاً» ، ويصف ما شاهده فى المتنزهات بقوله: «وهووا من شفا جرف هار إلى بحبوبة النار وبئس القرار» . ويضيف: «اجتمعوا ذات ليلة نساء ورجالا ورقصت النساء كما هى عادتهن، وترى الرجل جالسا مع امرأته وابنته ترقص مع أجنبى، ويناجى بعضهم بعضا ولا حياء لديهم مع ما هو معلوم بينهم وشائع من الفسق والزنا ولا يبالون بشئ فقد جبلوا على عدم الغيرة»!

وهنا يتفق ابن عثمان مع رفاعة فى الموقف من العلاقة بين الرجل والمرأة، ويسجل الطهطاوى خلال رحلته إلى باريس عام ١٨٢٦ تحفظاته ويصف الفرنسيين بقوله:

«ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عن الإسلام من الغيرة» ! ولكنه لا يقف عند ذلك، ولا يعتبره عقبة فى التفاعل والحوار.

رؤية أسامة بن منقذ

ويلاحظ أن هذا الموقف من العلاقة بين الرجل والمرأة موقف قديم، تستطيع أن تجمع أطرافه فى العديد من الكتابات العربية فمثلا فى كتاب الاعتبار لكاتبه الفارس العربى أسامة بن منقذ، الذى شارك فى الحروب الصليبية يبدى دهشته من هذه العلاقة ، وعندما يتطرق الحديث إلى عادات وتقاليد الإفرنج يجد الشرقى فى هذه العلاقة نقطة تمايز لديه والعكس صحيح.

ويلفت نظر أسامة ما تتمتع به المرأة عندهم من حرية، فأفاض فى نقد ذلك، وجاء على لسانه: «ليس عندهم شئ،. من النخوة والغيرة، يمشى الرجل مع امرأته ويلقاه آخر، فيأخذ المرأة وينفرد بها ويتحدث إليها والزوج واقف بعيدا ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت خلالها مع المتحدث تركها ومضى» .. ويبدى دهشته من أن بعض النسوة قد لبسن الشفوف المطرزة وجلسن على الدواوين يستمعن إلى أنغام العود والرباب.

ويحكى مستنكرا كيف جاء أفرنجى يوما ووجد رجلا فى فراشه مع امرأته فسأله: «أى شئ أدخلك عند امرأتى؟ فأجاب: كنت تعبان ودخلت أستريح. قال: وكيف دخلت إلى فراشى؟ أجابه: وجدت فراشا مفروشا فنمت فيه قال: ولكن المرأة نائمة معك، أجاب: الفراش لها، فهل أمنعها من فراشها!

وقال الزوج غاضبا : وحق دينى إن عدت إلى ذلك مرة أخرى تخاصمنا» !! وهذا كل تفكيره ومبلغ غيرته.

ثم يروى قصة مدهشة أخرى.. شهدها حمام المعرة ، يرى أحد فرسان الإفرنج عربيا حليق العانة، ويطلب أن يعلمه حلقها وبعد أن علمه طلب منه أن يعلم «الداما» أى امرأته فأرسل فى طلبها وجاءت إلى الحمام واستلقت على ظهرها حتى علمها ورجلها قاعد ينظر!

ويتساءل مستغربا : «ليس فيهم غيرة ولا نخوة ومنهج الشجاعة العظيمة، وما

تكون الشجاعة إلا لمن لديه النخوة» !

وعلى أية حال.. نصل إلى السؤال الذي ينبغي الإجابة عنه حينما نتناول العلاقة بين الشرق والغرب وهو: كيف نصبح جزءا من المعرفة البشرية، و في ذات الوقت نتجنب الهيمنة السياسية للدول الكبرى، وأيضا كيف ننجز التحديث وننأى عن التقليد ؟

بداية لابد من التسليم بوجود العقبة الرئيسية للنهضة خلال القرنين الماضيين والمتمثلة في الاستعمار التقليدي حتى منتصف القرن الماضي ثم سعي الولايات المتحدة الأمريكية للهيمنة على العالم بعد ذلك.

ولكن ذلك لا يجوز له أن يقعدنا عن التعامل مع مستحدثات العصر، وإلا نكون قد ساهمنا في تحقيق أهداف القوى الاستعمارية في عزلنا عما يفيدنا ويساهم في تقدمنا.

كما أن الغرب ليس شيئا واحدا فعند احتلال بريطانيا لمصر ظهر بلنت الذي دافع بحرارة عن القضية المصرية، بل وكلف محاميا بريطانيا للدفاع عن عرابي، وارتبط بصداقة وطيدة بكل من عبده والأفغاني ، وخلال حرب تحرير الجزائر قامت قوى فرنسية بتأييد استقلال الجزائر، وهكذا.

ومن ناحية أخرى فهناك فارق في نواح كثيرة، مثلا بين فرنسا وبريطانيا وبين ألمانيا والولايات المتحدة.

كما أن المعرفة البشرية ليست في الغرب وحده، فهناك الهند والصين واليابان وروسيا، وهناك أيضا دول أمريكا اللاتينية يمكن اكتساب المعرفة من بعض دولها.

ولا ينبغي أن ننسى أن الأفكار والمستحدثات لم تعد تنتظر الإذن من أحد.

وعلى التجربة العربية أن تتوقف عن التقليد وأن تستخدم النعمة الإلهية التى أنعم بها الله على الإنسان وهى استخدام العقل لا النقل ولا ننقل بلا عقل من الكتب الصفراء، نقلد ما يجرى فى الغرب.

فلنا ثقافتنا الخاصة، لأن لنا مشكلاتنا الخاصة مع صعوبة التعبير عن مفاهيم حضارة معينة باصطلاحات حضارة أخرى، فالحداثة منهج فى التفكير وطريقة فى البحث ومعالجة المشكلات.

والأجدر بالنظر البحث عن القواسم المشتركة، والتخلى عن الازدواجيات، والتخلى عن التطرف فى قبول ما يجرى فى الغرب، أو تطرف آخر برفض ما يجرى فيه!

ومن المستحيل البدء من حيث انتهوا ولابد من الاستفادة من كل تجارب الآخرين فالعزلة والانزواء أمران مستحيلان.

وأخيرا.. لماذا تقتصر الحداثة على المدن وحدها ولم تصل إلى الريف أو البادية، سواء فى عهد الاستعمار أو حتى بعد الاستقلال؟

ورغم كل مزاعم اللامركزية مازالت المركزية سائدة وتحول دون التطور الاجتماعي.

وإذا كان الاستعمار الأجنبى عقبة كأداء فى طريق الحداثة فالاستبداد عقبة أخرى محلية تحول دون إطلاق كل الطاقات نحو النهضة ■

دائرة حوار

مستقبل الجامعات المصرية

فى ضوء التغيرات السياسية المعاصرة

بقلم
د. محمد أبو الغار

تعتبر الجامعة ركنا أساسيا وجوهريا في عقل الأمة، فهي البوتقة التي تخرج منها الأفكار والأبحاث في كل فروع المعرفة، وتقدم الأمم مرتبط ارتباطا وثيقا بمستوى الجامعات فيها، ومن المعروف أن التقدم الأوروبى والأمريكى بنى أساسا على أبحاث علمية، تم استخدامها فى الزراعة والصناعة والتجارة والتكنولوجيا بكل أنواعها، وكذلك فى آلات الحرب، ليصبح هذا



الجزء من العالم أقواها حربيا واقتصاديا وتكنولوجيا. وبهذا أصبح يحكم السيطرة على العالم كله، السؤال البسيط: من أين جاءت هذه الأبحاث؟.. والإجابة سهلة: كلها من الجامعات والمعاهد البحثية التى تبيع منتجها الفكرى لمراكز أبحاث مرتبطة بالشركات الصناعية والزراعية، التى تطور البحوث حتى يمكن استخدامها فى إنتاج السلع المختلفة، حتى تصبح منتجا نهائيا يستخدمه الجمهور ويصدر للعالم كله. ولذا تتنافس الجامعات الأمريكية على إغراء كبار العلماء من جامعات أوروبا، وصغار العلماء الواعدين من دول العالم الثالث للعمل بها، لأن ناتج أبحاث هؤلاء العلماء سوف يكون له مردود مادى ضخم للجامعة وللمجتمع الأمريكى كله.

وعقد الجامعة مع الأستاذ فى أمريكا يتكون من بندين أساسيين، التزام الجامعة بتوفير الحرية الكاملة للأستاذ ليبحث ويفكر، والتزام الأستاذ بنشر أبحاث عالية المستوى. وكلما ارتفع مستوى الجامعة كانت قادرة على إعطاء الحرية الأكبر والتجهيزات الأكثر للبحث العلمي، وهذا الأمر ينطبق أيضا على الدراسات الإنسانية، مع الاختلاف فى نوعية الأبحاث بالطبع. والأستاذ الذى يتكاسل عن البحث والإنتاج العلمى يفقد وظيفته، وعليه أن يبحث عن جامعة أقل مستوى تقبله للعمل بها.

أساس التعليم الجامعى

وعندما أنشئت الجامعة المصرية الحكومية فى عام ١٩٢٥، قال لطفى السيد أول رئيس لها: إن التعليم الجامعى أساسه حرية التفكير والنقد واستقلال الرأى، وليس الحفظ والنقل لكل ما يقال، والتربية الاستقلالية هى شرعنا منذ أول عام أنشئت فيه الجامعة.



وكان سعد زغلول واضحاً في تأييد هذا الاتجاه، عندما انتقد خطبة أحمد زكى بك فى افتتاح الجامعة، عندما أحس بأنه بالغ فيها فى الحديث عن مجد الإسلام، واعتبر أن هذا لا يتفق مع افتتاح جامعة جديدة، تنظر للمستقبل وقال: إن هذه الجامعة لا دين لها إلاّ العلم. وقد استطاعت الجامعة المصرية الحديثة، فى ظل الالتزام بالمبادىء الجامعية الأساسية وهى الاستقلال والبحث العلمى، أن تقدم خريجين على مستوى عال. وقد قام الأساتذة بأبحاث على مستوى عالمى، وكلنا يذكر أساتذة العلوم وعلى رأسهم مصطفى مشرفة، وأساتذة الطب وعلى رأسهم عدد كبير من الباحثين العالميين.

مناخ جامعى سليم

وفى هذا الزمان كان التنافس العلمى بين أعضاء هيئة التدريس هو الحافز على الابتكار والإجادة، وكان يقوم بتحكيم الأبحاث العلمية فى كثير من الكليات العلمية محكمون أوروبيون ضمانا للجيدة والتأكد من الجودة. وكانت الجامعة مستقلة تماما. وحين تدخل وزير المعارف ونقل طه حسين عميد الآداب لوزارة التعليم، استقال لطفى السيد رئيس الجامعة احتجاجا على تعدى وزير التعليم على استقلال الجامعة.

ومنذ إنشاء الجامعة المصرية الحكومية وخلال الثمانية والسبعين عاماً الماضية، تلقت الجامعة المصرية ضربات ساحقة بقوانين جائرة، أفقدتها الاستقلال وأهدرت القيم الجامعية، وألغت التنافس العلمى، وهمشت أهمية البحث العلمى، وذلك فى أعوام ١٩٣١ (صدقى باشا) ١٩٥٤، ١٩٦٣ (كمال الدين حسين) ١٩٧٢ (فترة السادات)، ١٩٩٤، ٢٠٠٠ (العهد الحالى) بالاضافة إلى قانون الجامعات الخاصة.

أرباح الجور على الجامعة

ماهى النتيجة التى وصلنا إليها الآن؟ الدستور ينص على استقلال الجامعة، ولكن هل هى فعلاً مستقلة بينما مجالس الأقسام والكليات لا تنظر فى المسائل المهمة، التى تخص سياسة التعليم والتدريس، وإنما تقررها جهات من خارج الجامعة، أو من المجلس الأعلى للجامعات، ولذا فقد أعضاء هيئة التدريس تدريجيا الاهتمام بالبحث والتدريس والتفوق، وأصبح جزء كبير منهم كموظفى الحكومة، يعرفون أنهم سوف يحصلون على الترقية مرتين بعد الحصول على الدكتوراه، وسوف

يصبح جميعهم تقريبا أساتذة بعد عشر سنوات.

مخاوف من الطرح الإصلاحي

وفى محاولة من الحكومة لإصلاح حال التعليم الجامعي، أخذ مجلس جامعة القاهرة أخيراً قراراً بإنشاء كلية للدراسات العليا، ولكن لم تتضح تماماً معالم تطبيق هذا القرار، وهل سوف يكون لهذه الكليات الجديدة أماكن خارج الكليات الحالية، أم أنها سوف تأخذ جزءاً من المبانى الحالية، والتى تستخدمها الدراسات العليا فى أوقات مختلفة غير وقت استخدام الطلبة، وهل سوف يتفرغ بعض الأساتذة للدراسات العليا فقط؟ وإلى أن تتضح معالم هذا المشروع أخشى أن يصبح فى ثوبه النهائى هو مثلا كلية للدراسات العليا، داخل كلية طب قصر العينى، يقوم بالتدريس فيها نفس الأساتذة فى الأماكن نفسها، ويصبح موظفو الدراسات العليا فى قصرالعينى هم موظفي الكلية الجديدة، ولا يبقى إلا تعيين عميد جديد للدراسات العليا بجوار العميد الحالى.

والمعروف أن مثل هذه التغييرات الجذرية تتم بعد أن تقوم لجنة من الخبراء، وممثلة لجميع الأفكار، بعمل دراسة يتم طبعها وتوزيعها على من يرغب من أعضاء هيئة التدريس ، وكذلك المهتمون بشئون الجامعة من خارجها، ثم يعرض المشروع على مجالس الأقسام لإبداء الرأى، حتى تصل إلى مجلس الجامعة خلاصة الأفكار المختلفة لتتخذ قرارها على أساسه، وأنا كعضو فى هيئة التدريس لأكثر من ثلاثين عاما لم أسمع عن هذا المشروع إلا من الصحف.

جامعة دون دراسة!

وقرر مجلس جامعة القاهرة أيضا الموافقة على إنشاء جامعة أهلية داخل جامعة القاهرة، ويبدو أن هذا المشروع أيضا لم تتم دراسته، ولا أحد يعلم تفاصيله إلا من حديث صحفى مطول، أدلى به رئيس الجامعة لصحيفة الأهرام، وقال رئيس الجامعة: إن الغرض الأول من إنشاء الجامعة الخاصة، هو مواجهة طوفان الثانوية العامة، ولا يمكن أن يتحقق هذا الهدف لأن عدد الطلبة فى هذه الجامعة الخاصة لن يتعدى مئات الطلبة. أما عن طرق القبول المقترحة للجامعة فهى غير منطقية، لأن نظام القبول فى العالم حتى فى أمريكا لكليات القمة، يكون حسب درجات الامتحان المقابل للثانوية العامة. وأعتقد أنه سوف يكون من الصعوبة بمكان إعطاء محاضرات ودروس عملية، لطلبة تدفع وطلبة لا تدفع فى نفس المكان بنفس أعضاء هيئة التدريس، الذين من

المتوقع أن يتكالبوا على من يدفعون لأنهم سوف يتقاضون أجرا إضافيا على تدريسهم. أى أن هذا المشروع بهذه الطريقة سوف يولد بؤرة للحقد الطبقى، وينمى الشعور بعدم المساواة والاضطهاد، مما سوف تكون له آثار على السلام الاجتماعى فى الجامعة.

ويريد رئيس الجامعة أن تكون الجامعة الخاصة مستقلة أكاديميا وماليا، ويتم تحديث المناهج بها، والغريب فى الأمر أن ما يراد للجامعة الخاصة لا تريد الدولة تحقيقه فى الجامعة الحكومية، وخلاصة الأمر أن الجامعة قد وافقت على مشروع لم يسمع به أحد من أساتذتها، ولم تتضح معالمه بعد. وكيف يمكن للجامعة أن تتقدم بدون وجود حتى الحد الأدنى من الديمقراطية، التى تهذب القرارات الخاطئة وتصلحها، وتمنع كوارث قد تنتج من تلك القرارات غير المدروسة؟

ملكية الجامعة

أما قانون الجامعات الخاصة فقد كان هناك تخوف كبير عند الحكومة والمجتمع، ممثلا فى النقابات المهنية، من إنشاء جامعات يملكها أفراد والهدف منها هو الربح، وهو ما غير ممكن أن يحدث حتى فى أعتى الدول الرأسمالية كالولايات المتحدة، التى لا يملك الجامعة فيها أحد ولا يربح من ورائها أحد، فهى جامعات أنشئت بأموال المتبرعين، وأرباح الجامعة يستثمر فيها لرفع مستواها، والجامعة المصرية الأم هى أصلا جامعة أهلية، أنشئت من أموال المصريين أغنياء وفقراء، ولم يكن يملكها أحد أو يربح من ورائها أحد. وهناك تعارض شديد بين فكرة الربح بغرض الاستثمار وفكرة التعليم الجامعى؛ لأنه من الممكن التغاضى عن مستوى الطالب فى دخول الجامعة، أو فى النجاح من سنة إلى أخرى، مادام ذلك سوف يحقق ربحا للملاك، وهو أمر غير مسموح به على الإطلاق فى الغرب. فلماذا عندما قلدنا نظام الجامعات الخاصة فى الغرب طبقناه مبتورا مما أضر بالتعليم الجامعى ضررا بالغا؟

تجربة كلية الطب

وعندما أنشئت كليات الطب الخاصة فى مصر، تعهدت الجامعات الخاصة بإنشاء مستشفيات لتدريب طلابها، ولم يحدث ذلك والآن جميع طلبة الجامعات الخاصة يدربون لمدة ثلاث سنوات، هى نصف مدة دراسة الطب، فى قصر العينى

وعين شمس، بعد دفع مبلغ رمزى. وعندما شعر المجلس الأعلى للجامعات بهبوط مستوى طلاب الجامعات الخاصة، قرر تحديد حد أدنى للمجموع للالتحاق بها، وهو أقل بكثير من المناظر له بالجامعات الحكومية، ولكن الجامعة الأهلية ضربت به عرض الحائط، وانتقل الأمر لمجلس الشعب والمحاكم. وأعتقد أن مشروع الجامعة الخاصة قد يكون مجديا. إذا أنشئت من تبرعات وهبات وليس بغرض الربح، والأمثلة الواضحة فى الجامعات الأمريكية والألمانية والفرنسية.

فى الآونة الأخيرة قررت الدولة إنشاء هيئة قومية لاعتماد وضمان الجودة فى التعليم، كمحاولة لرفع مستوى التعليم، وتطبيقا لأحد النظم العالمية والمطبقة فى أمريكا بصفة خاصة. وهذه الهيئة القومية يجب أن تكون مستقلة تماما عن الحكومة، ومن المعروف أنه من الصعوبة بمكان أن تكون هناك هيئة مستقلة تماما فى مصر، وبفرض إمكانية ذلك فإن هذه الهيئة مطالبة بأن تعاير وتقيم مستوى الأستاذ الجامعى والطالب الجامعى، ومستوى المناهج الدراسية وطريقة امتحان الطلبة حسب المواصفات العالمية، والمقصود هنا المواصفات الغربية وبالتحديد الأمريكية، وحتى يمكن أن تعاير الهيئة، المزمع إنشاؤها، ذلك فإن الجامعة يجب أن تكون مستقلة تماما ماليا وإداريا وفنيا، وأن تعود السلطة الكاملة لمجالس الأقسام والقرارات التى تهم سياسة التعليم لمجالس الكليات، وأن تحدد الكلية عدد الطلاب الذين سوف تقبلهم، وكل هذه الأشياء من المستحيل التصور بإمكانية الموافقة عليها سياسيا، لأن معناها إلغاء وظيفة وزير التعليم العالى وإلغاء سلطات المجلس الأعلى للجامعات، الذى سوف يصبح مجلساً بحثياً يمد الكليات بالبحوث، والدراسات التى تساعد على اتخاذ القرارات السليمة. لا أدرى هل درس المشروع أبعاد وتبعات إنشاء هذه الهيئة الجديدة، وأن الحكومة راغبة فى تطبيق عمل هذه الهيئة بصفة جادة؟!

أرجو أن يكون الأمر كذلك، عندئذ سوف يبدأ التقدم الحقيقى للجامعة لأنه فى ظل الظروف الحالية من المستحيل معايرة أية كلية، فى أى جامعة مصرية، بالمستويات العالمية وإذا أردنا التطبيق الجدى فعلينا إطلاق الحرية للجامعات المصرية، حتى تبدأ فى إصلاح نفسها وتتخلص من ترهلها وتبدأ رحلة جديدة لجامعة جادة ■

خلاصة القول:

بروتوكولات حكماء صهيون

بقلم
د. يوسف زيدان

الزوبعة المفتعلة التى أثيرت بسبب العرض المؤقت لنسخة من الترجمة العربية الأولى من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) بمتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، تعد حالة نموذجية للمعالجة العشوائية والتناول الغوغائى للوقائع .. وها هى التفاصيل :

بدء الزوبعة !

يوم ١٧ / ١١ / ٢٠٠٣ نشرت صحيفة قاهرية خبراً كاذبا ملخصه أن كتاب (البروتوكولات) معروض بصدر متحف المخطوطات فى فاترينة الكتب السماوية بجوار (التوراة) وادّعت الصحافية التى نشرت الخبر الكاذب، أنها سألتنى عن السبب فى وضع (البروتوكولات) مع الكتب السماوية، وتحديداً بجوار التوراة، وأننى قلت لها : البروتوكولات أهم من التوراة! ولم تنس الصحيفة أن تضع مع الخبر صورة، لا لمتحف المخطوطات، وإنما لبعض حاخامات اليهود! ومن هنا .. بدأ تجلى الغوغائية والعشوائية، بل وسوء القصد والنية .

العجيب فى الأمر، أن الصحافية ذاتها، وهى التى تعلم أن الكتاب لم يوضع يوماً بجوار التوراة ، تابعت ذلك التهييج العشوائى، الغوغائى، سيئ القصد والنية فنشرت تغطية أخرى للموضوع نفسه يوم ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٣ وأرفقت هذه المرة صورة كتاب (البروتوكولات) فى الفاترينة التى كان معروضاً بها، فلم ينتبه أحد إلى أن الصحافية دون أن تدرى، تكّذب نفسها بنفسها إذ أن الصورة المنشورة تدل

بوضوح على أن الكتاب كان فى فاترينة (الوثائق) لا (الكتب السماوية) وأن المعروض مع كتاب (البروتوكولات) هو وثائق : خرائط، حجج شرعية، وقفيات .. الخ .

والأعجب فى هذا الأمر، أن بطاقة فاترينة الوثائق تظهر فى الصورة! وقد ثورت الصحيفة بعض الأقلام ضد المكتبة، حين خيلت لمجموعة من المثقفين المصريين، أن الكتاب تم (سحبه) من مكتبة الإسكندرية تحت ضغوط خارجية! وهو ما أثار غضب أكثرهم، فصرح تصريحات نارية ضد المكتبة، بينما واقع الأمر أن فترة (عرضه) هى التى انتهت وبالأحرى أنهيت قبل موعدها بأيام بسبب الزوبعة الزائفة، وعاد الكتاب إلى مكانه (مع عدة نسخ أخرى) فى قاعة الكتب النادرة، ليكون متاحا للباحثين والدارسين المتخصصين، وليس لعموم المترددين على المكتبة (.. جدير بالذكر أن أى مكتبة كبرى بالعالم، تحوى عشرات النسخ من الكتاب فى اللغات المختلفة ! ولو كانت الصحيفة المصرية قد تحرت الدقة فى الموضوع الذى نشرته أولاً، أو كان المثقفون المصريون الذين نشرت الصحيفة تصريحاتهم الغاضبة على المكتبة فى المرة الثانية، قد تحروا الأمر - ولو باتصال تليفونى مع المكتبة - لما كان شئ من تلك الزوبعة قد افتعل .

وعلى الجانب الآخر، فى إسرائيل، بدأت الصحف تنشر الموضوع نقلاً عن الصحيفة المصرية فنشرت جريدتا : يديعوت أحرونوت، ومعاريف يوم ٢٧/١١/٢٠٠٣ الأخبار الكاذبة ذاتها، دون أن تتثبت منها .. ثم يتزايد الإيقاع الجنونى للغوغائية والعشوائية وسوء القصد والنية، مع هذا السيل العارم من مقالات الرفض والتهويل التى نشرتها المواقع اليهودية على شبكة الإنترنت، فإذا بالأصوات تعلو وتتصاخب، فتختلط الأوراق وتتفرع إلى قضايا أخرى - لإحكام إدانتى ! - فتقول إننى أنكر (الهولوكوست) لأننى كتبت يوما أن ضحايا هتلر من اليهود كانوا مليون شخص (فقط) وإننى معاد للسامية ولسوف أعود لمناقشة هذه (القضايا) فى السطور التالية، ولكن قبل ذلك، أود تأكيد أمر يخص (البروتوكولات) هو باختصار : إن هذا الكتاب المزيف أضر بالعرب كثيراً، ونفع كثيراً الإسرائيليين . فقد أعطى الكتاب للوعى العربى صورة مزيفة عن اليهود ، مالبث أن أدمنها الناس وغابت عنهم الصورة الحقيقية للمجتمع الإسرائيلى ، ذلك المجتمع الذى يقيم مع الغرب العلاقات، ويبنى المفاعلات الذرية فى ديمونة .. يبكى سويعة على ماضيه الحزين ، ويعمل ساعات فى بناء المستقبل بوادى السيليكون المسمى هناك (وادى الفلافل) الذى يتم فيه تطوير البرمجيات ومعدات الكمبيوتر ، وعلى الجانب الآخر، ظل كتاب (البروتوكولات) دوما ، مسوغا للانتحاب اليهودى الأبدى وحجة قوية تبرر التباكى والرثاء للذات، وتؤكد اضطهادهم على مر العصور .

التزييف

أما الرأى العلمى فى مسألة تزييف (البروتوكولات) وعدم صحته، فقد استقر

بعد دراسات مطولة إلى أنه وثيقة مزورة استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحافي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث، عنوانه «حوار في الجحيم بين ميكافيللي ومونتسكيو» . وهناك اقتباسات مباشرة - بل وحرفية - من هذا الكتاب الساخر، موجودة بنصها في البروتوكولات . ثم شاعت البروتوكولات بإيعاز من البوليس السري الروسي، لتخويف الروس من اليهود ودفعهم للالتفاف حول القيصر . وقد استقصى د. عبد الوهاب المسيري مناقشة الأمر في موسوعته اليهودية - التي شاركت فيها بقلمي قبل سنوات - وقد انتهى من مناقشة الموضوع إلى مانصه : والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها في الإعلام المضاد للصهيونية أمر غير أخلاقي لأنها وثيقة مزورة، ولاتوجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقة صحيحة . وفي مقالة د. المسيري بالموسوعة فوائد كثيرة، لمن أراد أن يراجعها هناك .

ونأتي الآن لمسألة (الهولوكست) التي أقحمت عنوة في سياق هذه الزوبعة الزائفة .. وقد أقحمت (عنوة) وليس (مصادفة) فقد تم إدخالها في الموضوع، بتعمد واضح، من عشرات المواقع اليهودية على الإنترنت، لتأكيد اتهامي بمعاداة السامية، لأنني أنكر الهولوكوست . ومن ثم، فليس مستبعداً عليَّ، أن أضع البروتوكولات بجوار التوراة وأقول إنها كتاب سماوي أهم من التوراة !

وهنا، لدينا نقطتان للمناقشة، الأولى معاداة السامية والأخرى الهولوكوست فلنبدأ بخرافة (العداء للسامية) تلك التهمة الجاهزة للانطباق على كل من يخالف اليهود، ولو بالرأي :

مفهوم السامية

بحسب ما ورد في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الإنجليزية لسنة ١٩٦٦ الجزء ٢ ص ٨١، ٩٠) ودائرة المعارف الأمريكية (سنة ١٩٨٣، الجزء ٢ ص ٧٤ ، ٧٥) ودائرة المعارف اليهودية (١٩٩٢، ص ٥٨ - ٦٢) وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الجزء الثاني ص ٣٣٢) وعديد من المصادر الخاصة بالمسألة اليهودية والصهيونية .. فإن معاداة السامية AntiSemitism اصطلاح سياسي حديث أشاعه اليهود لتأكيد شكواهم الأبدية من اضطهاد الشعوب الأخرى لهم. وقد كان أول من استخدمه هو الصحافي اليهودي الألماني فيلهلم مار في كتابه الصادر سنة ١٨٧٩ بعنوان : انتصار اليهودية على الألمانية، من منظور غير ديني.

والسامية مفهوم عرقي ينطبق على جماعة بشرية، المفترض أنهم انحدروا من (سام بن نوح) وقد تم تمييز الساميين أولاً على أساس لغوي، لاعرقي ، وذلك للتفرقة بين اللغات السامية والآرية (الهندو / أوروبية) وبالطبع فإن العرب وفقا لهذا التصنيف للبشر - التصنيف غير العلمي - هم أكثر الأجناس سامية، ولا مسوغ للقدح في ساميتهم، بعكس اليهود الذين تشكك الدراسات العلمية الأنثروبولوجية والتاريخية في نقائهم العرقي، وهو الشك الذي تدعمه وقائع مثل وجود يهود ينتمون إلى أعراق آسيوية (مثل القبيلة الثالثة

عشرة) أو زنجية (يهود الفلاشا).

العجيب في الأمر أن دلالة مصطلح العداء للسامية صارت تقع فقط على معاداة اليهود دون غيرهم ! وهكذا لم يعد لفكرة (السامية) وجود خارج الجماعات اليهودية، وكأن العرب ليسوا ساميين ! ولايخفى هنا، أن الغرض من قصر دلالة المصطلح على اليهود، مع ما يتضمنه ذلك من سخف ومجانبة للموضوعية، كان لأغراض سياسية وأيديولوجية، منها جنى أقصى ربح ممكن من إشهار المصطلح - إشهار في اللغة العربية تعني : جعل الشئ مشهوراً، وتعني أيضا : رفع السيف في وجه المخالف - ومنها تجنب الوقوع في تناقض داخلي حين يشب الخلاف مع العرب، وإلا صارت المسألة مجرد خلافات عائلية لاتستوجب قلق العالم على اليهود، وهو على كل حال قلق مزعوم يسوغ دعم دولة إسرائيل (تلك الواحة الديمقراطية المحاصرة بالبرابرة العرب !) مع أن الكل يعرف أن دعم الغرب لدولة إسرائيل لايأتي من (القلق على اليهود المحاصرين) وإنما يأتي تلبية لمصالح غربية في المنطقة العربية، أعني المنطقة التي كانت تسمى (عربية) ثم صارت تعرف اليوم بالشرق الأوسط .. ولا معنى لأوسط، أو أدنى أو أقصى إلا من زاوية الرؤية الغربية (جغرافيا) .

الورقة الرابحة

المهم، صارت تهمة معاداة السامية ورقة رابحة بيد متعصبي اليهود ، تستخدم دوما بنجاح - وتخيب أحيانا لعدم توافر الظروف المساعدة - وجنت منها إسرائيل كثيراً من الفوائد، ولاتزال تجني .. بيد أن الإفراط في استخدام هذه (التهمة) سوف يؤدي لا محالة إلى فقدان تأثيرها . وقد أفرط اليهود في استخدامها، حتى إنها اليوم فقدت بالفعل كثيرا من فعلها وظهرت في المقابل مصطلحات مثل : هوس عداء السامية .. المبالغة في الاتهام بالعداء للسامية إلخ .

وإنني ، كشخص عربي مفترض انتماؤه إلى العرق السامي، أرى أن متعصبي اليهود هم أكثر الناس معاداة للسامية نظراً لإفراطهم في استخدام هذه التهمة الجاهزة للانطباق على مخالفيهم، ونظراً لأنها تنكر ساميتي المفترضة، التي هي صفة موروثة لنا نحن العرب، وصفة مشكوك فيها بالنسبة لكثير من اليهود .. إن عداء هؤلاء اليهود للسامية يؤكده تحويلهم الأمر إلى تجارة ناجحة ، صارت (السامية) معه استثماراً تجاريا وسياسياً، وفقدت معناها اللغوي العرقي والإنساني ، لم يعد لفظ السامية دالا على شئ إلا في معرض دفاع الشخص الذي يتهمه اليهود بمعاداتها، عن نفسه.

وهنا، أرى من الواجب على اليهود أن يكفوا عن استخدام هذه التهمة المجوجة، لأن التمادي فيها أكثر من ذلك سوف يقود إلى مواقف أكثر حرجاً لامجال لإيجاد حلول لها ، وإن اتهامي بمعاداة السامية كان أمراً سخيفا في مجمله وتفصيلاته، وأن دعوتي للكف عن استخدام هذه التهمة، هو أمر في صالح الأطراف كافة ولننتقل إلى المسألة الأخرى التي وعدت بمناقشتها .

إنكار الهولوكوست

كتب جابرييل بيتربرج المؤرخ والمفكر اليهودي ذو الأصل الأرجنتيني، مقالاً

بعنوان المحو Erasures بدأه بأن : هناك ثلاث أساطير مؤسسة لإسرائيل، تشكل أساس بناء الثقافة الإسرائيلية حتى يومنا هذا، هى أساطير:

١ - انكار المنفى والانتقاص من أهمية الزمن الممتد بين خروج اليهود من فلسطين وعودتهم اليها .

٢ - العودة إلى أرض إسرائيل والوعد الإلهي بذلك واعتبار هذه الأرض «خواء» حتى يعود إليها اليهود، ومن ثم فلابد من تطهير أرض المعاد «التى عاد إليها اليهود» من شاغليها ـ الفلسطينيين - باعتبارهم دخلاء على الأرض بعد عودة أصحابها .

٣ - العودة إلى التاريخ، بمعنى أن اليهود فى زمن الشتات كانوا خارج التاريخ، ولاسبيل للدخول فى تاريخ الإنسانية إلا بالعودة إلى الأرض، فالأرض هى التاريخ بالنسبة لهم .. وهى بالتالى، محل الإشغال (المؤقت) بالنسبة للعرب الفلسطينيين !

دلالة المصطلح

إلا أننى أرى أن ثمة أسطورة رابعة، لاتقل أهمية فى مجال (التأسيس) لدولة إسرائيل، هى أسطورة الانتحاب الأبدى على الظلم الذى واجه اليهود عبر العصور. وهى أسطورة أهم، لأنها أقدم وأدوم أثراً فى تشكيل الوجدان اليهودى .. بل هى ضاربة بأعماقها فى التاريخ، وتم استخدامها على نطاق واسع خلال القرون السحيقة، وتجلت فى شكاوى اليهود وانتحابهم منذ عريضة الفيلسوف اليهودى فيلون السكندرى التى حاول أن يتلوها على الإمبراطور كاليجولا فقاطعه الأخير وصرفه من بلاطه ... مروراً برسائل الشكوى المريرة التى تبادلها موسى بن ميمون مع يهود اليمن .. وصولاً إلى الإمعان فى إحياء وإعلاء واستخدام الهولوكوست .

كلمة هولوكوست مجلوبة من أصل يونانى يعنى حرفيا : إحراق القربان بالكامل . وهى تترجم إلى العبرية بلفظ (شواه) وإلى العربية بلفظ (المحرقة). ووفقا لمعجم أكسفورد الكبير OED وقاموس أصول الألفاظ الإنجليزية لإيريك بارتريدج فإن دلالة الكلمة صارت منذ النصف الثانى من القرن العشرين، تقع تحديداً على الإبادة النازية لليهود، وصار معسكر الاعتقال النازى أوشفيتس Auschwitz علامة على تلك المحرقة ، التى صارت بدورها علامة على قمة التراجيديا الإنسانية، حتى إن فيلسوف مدرسة فرانكفورت اليهودى الشهير تيودور أدورنو يقول فى عبارة شهيرة له : لاشعر بعد أوشفيتس .. وهى لعمرى عبارة مؤثرة، شديدة الانفعالية، وقد ذكرتنى فور قراءتى لها أول مرة، بقول الشاعر الفلسطينى محمود درويش فى أنشودته الشعرية الرائعة مديح الظل العالى عن إحدى المذابح الفلسطينية مانصه.

صابرا، تقاطع شارعين على جسد
وصابرا لا أحد
صابرا هوية عصرنا حتى الأبد!

قلت يوماً: إن ضحايا النازى من اليهود كانوا مليون شخص، كان ذلك فى مقالة لى، نشرت منذ سنوات بعيدة واليوم، تستخدم هذه المقولة ضدى - بضراوة - من جهة اليهود، لتأكيد هذه التهمة المجوجة (عداء السامية) التى

أوضحت فيما سبق أنه لا معنى لها، وسأوضح الآن رأيي بالتفصيل في قضية المحرقة، أو ما اصطلح على تسميته هولوكست .

تردد الدعايات اليهودية على مسامع العالم، صباح مساء، أن عدد ضحايا الهولوكست الذين أدخلهم هتلر أفران الغاز، هو ستة ملايين يهودي وإن كان بعض اليهود يقول بعدد أقل، بل إن يهودا باور مدير قسم بحوث الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث (التابع للجامعة العبرية) يقول بوضوح إن رقم ستة ملايين لا أساس له من الصحة، وإن الرقم الحقيقي أقل من ذلك.

والذي أعتقده، أن القضية ليست في العدد المختلف عليه، وإنما في دلالة عملية (الإبادة المنظمة) التي هي عمل إجرامي بكل المقاييس، سواء كان عدد القتلى مليوناً واحداً أو ستة ملايين، ونحن كمسلمين نؤمن بأنه، وفقا لما جاء في القرآن الكريم (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) (سورة المائدة آية ٣٢) فالعبرة ليست بالعدد .

ومن ناحية أخرى، معروف أن ضحايا محرقة النازي بترتيب الأكثر فالأقل، هم البولنديون، السلاف، اليهود ، الغجر العجزة ، المنحرفون جنسياً .. وكان الدور سيأتي حتما على العرب لو انتصر الألمان في موقعة (العلمين) بمصر، وكان العرب حتما - لكثرتهم العددية - سيتصدرون القائمة إذ أن النازية لم تكن لتفرق بين اليهود والعرب .. فكلاهما عند هتلر : سامي .

جدير بالذكر هنا، أن اليهود (القرائين) لم يكونوا عند النازية أهلاً للمحرقة، بل فكرت النازية بجدية في التعامل معهم، باعتبارهم أهلاً للتعاون مع الجنس الآري الراقي! .. وجدير بالذكر أيضا، أن بعض ضباط النازية كانوا يهوداً وجدير بالذكر كذلك أن الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم اليهود للنازي، فكانت بلاد المغرب مهرباً لهم .. فهل يأتي يوم، تقوم فيه هوليوود بانتاج فيلم عن موقفه الإنساني، على غرار تحفة ستيفن سبيلبرج السينمائية: قائمة شندلر .

الهولوكوستات !

إن الإنسانية بائسة ومبتلاة بعظائم هولوكوست يشيب لها السامعون، وقد كان (اليهود) مرة واحدة، ضمن ضحايا تجل واحد من تجليات هذه الإبادة أو تلك المحرقة .. ومن قبل ذلك، ومن بعده، عشرات التجليات الهولوكوست القديم الحديث فمن ذلك ذبح هولاكو لليون وثمانمائة ألف مسلم ببغداد ... أهرامات الجماجم التي بناها تيمور لنك خلال فتوحاته ليتباهى بكثرة ضحاياه الذين تجاوزوا مئات الألوف .. فناء القبائل الهندية على يد المستعمر الأبيض لأمريكا الشمالية .. مجازر الصرب ضد المسلمين في البوسنة .. مجازر كمبوديا .. جرائم صدام حسين ضد الأكراد .. أنهار الدم في أفغانستان .. قتل الجيش الإسرائيلي - يوميا - للفلسطينيين، بما فيهم الأطفال الرضع .

إنني أدعو اليهود، أن يكفوا عن التباكي على محرقتهم ، فقد مرت محرقة النازي من نصف قرن، وكانت حصيلة

(تعويضهم) خلال هذه الفترة وفيرة .. بينما المحارق التى تبيدنا نحن العرب والمسلمين لاتكاد تتوقف طيلة الزمان، وآخرها ما تقوم به اليوم دولة إسرائيل ضد العرب فى الأرض المحتلة

ثمن الدم

والعجيب فى الأمر، أن اليهود لم يثأروا لمحرقتهم من المسئولين عنها، وإنما اكتفوا بتحصيل أموال (التعويض) عنها من ألمانيا ويقال إن حصيلتها بلغت حتى الآن ما يزيد على المائة مليار دولار، دفعتها ألمانيا لإسرائيل تكفيراً عن ذنب تلك اللحظة المؤسفة فى التاريخ الألمانى المجيد واليوم، يثأر اليهود من الفلسطينيين - والعرب عامة - الذين لايد لهم فيما جرى على يد النازى .. اليوم، تحتفل إسرائيل سنويا (يوم الرابع من شهر آيار / مايو) بذكرى الهولوكوست، وفى اليوم التالى مباشرة (الخامس من أيار / مايو) تحتفل بعيدها القومى : إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين .. فتأمل .

وفى المقابل من ذلك، نحن العرب والمسلمين، لا أحد سيدفع لنا تعويضاً عن المحارق التى التهمتنا قديما وتلتهمنا اليوم ولا أحد منا سيقبل تعويضا ماليا عن أرواحنا التى أزهقت سابقا، وتزهق اليوم تحت بصر وسمع العالم أجمع، وتتناقلها يوميا نشرات الأخبار التليفزيونية ولا أحد غيرنا يجرؤ على الكلام .

المسكوت عنه

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن طبيعة العلاقة التاريخية بين اليهود والعرب، كانت تقتضى من (شعب الله المختار) أن يتعامل مع العرب - والمصريين خصوصاً - على نحو أفضل كثيرا مما عليه الحال اليوم، ولا أبالغ إن قلت إن على اليهود أن يكونوا شاكرين وممتنين لمصر فوفقاً لما يرد فى النصوص الدينية (اليهودية) فإن أرض مصر احتضنت أجدادهم الأولين، قرونا طويلة، ثم عانوا - كغيرهم - من ظلم بعض الفراعين فسرقوا الذهب من المصريين وهربوا به، ولم يطالبهم أحد به حتى الآن مطالبة جادة ووفقا لما يرد فى تاريخنا (المشترك) الذى لاسبيل لإنكاره، تم على أرض مصر إحياء اليهودية عدة مرات ! ففى العصور السحيقة أنجزت فى الإسكندرية القديمة الترجمة السبعينية للتوراة، من اللغة العبرية التى كانت قد انطمست، إلى اللغة اليونانية التى كانت لغة الثقافة الإنسانية آنذاك، ولولا هذه الترجمة (الإسكندارنية) لكانت اليهودية قد اضمحلت، وربما اختفت .. ومن هذه الترجمة السبعينية عرف أشهر فيلسوف يهودى قديم (فيلون السكندرى) الديانة اليهودية، وقام بتأويل نصوص التوراة، تلك النصوص التى كانت قد أوشكت على التجمد، فنفخ فيه فيلون روح الدلالة، مستنداً إلى التراث الفلسفى الذى تشكل فى الإسكندرية القديمة وعرف باسم الأفلاطونية المحدثة ومعروف أن النصوص الدينية إن لم تتم لها عمليات التأويل والتفتيح الدلالى المتجدد، فإنها تخبو، ويغدو (الدين) آنذاك مسالة طقسية لا تشارك فى صياغة (ثقافة) من يؤمنون به.. وقد كان فيلون السكندرى يهودى الديانة، يونانى الثقافة، سكندرى المولد

والمنشأ والإقامة فجمع فيلون بين ذلك كله في مزيج فكري نجحت معه اليهودية في البقاء من بعده قرونا تالية، فكان هذا الفيلسوف السكندري - بحق - علامة على طريق اليهودية .. بل اعتبره البعض، من مقدمات المسيحية نظراً لأثره الفكري في آباء الكنيسة، من أمثال القديس أوريجين السكندري .

وعلى أرض مصر، عاش أهم فيلسوف يهودي في العصور الوسطى: موسى بن ميمون (ميمونديز) الذي فر إلى مصر من الأندلس، فعاش وكتب أعماله كلها ونال شهرة في عصره، حتى قيل إنه موسى الثاني واشتهرت من زمنه عبارة يهودية تقول : ما جاء منذ موسى حتى موسى مثل موسى ! وكان موسى بن ميمون المصري الإقامة، مفكراً يهودي الديانة - بل حاخاماً يهودياً - إسلامي المحتوى، حتى إن بعض أساتذتنا في مجال الفلسفة الإسلامية مثل د. إبراهيم بيومي مدكور كان يعده فيلسوفاً إسلامياً - لامسلماً - نظراً لقوة تأثير الفكر الإسلامي في كتاباته ومؤلفاته التي أشهرها كتابه «دلالة الحائرين» وقد أحدثت أعمال موسى بن ميمون انتعاشة كبرى في التراث اليهودي فبقى هذا التراث من بعده قروناً تالية . وما ينطبق على موسى بن ميمون من كونه انعكاساً للفكر الإسلامي في صورة يهودية، ينطبق أيضا على الفيلسوف اليهودي البغدادي، الأقل شهرة ابن كمونة..

وفي العصر الحديث، وحتى قيام دولة إسرائيل في فلسطين، كان اليهود آمنين بمصر يتوالدون .. يتاجرون .. يكسبون .. يتعلمون .. يسافرون .. يشاركون المصريين خير أرضهم . ولم يعرف تاريخنا الحديث حالة استهداف جماعي، لليهود العرب . حالة واحدة .

من هذه الزاوية، لا نعتقد أنه من قبيل المبالغة أن نقول إن على اليهود اليوم أن يكونوا شاكرين وممتنين لمصر ، واختم هذه المقالة بقولي:

إن الأمور ينبغي لها أن تسير، بعكس ما تجري اليوم به .. فصحيح أن حربا اندلعت بيننا لسنوات، ثم انطفى أوارها ومددنا لهم أيدينا قبل سنوات بالسلام، فكان .. فليكن في الأرض (المجهدة) التي نعيش عليها، السلام .. فثمة أمور إنسانية كثيرة، أهم من التنازع، علينا إنجازها .

ومن زاويتي.. أرى أنه لامجال للوصول إلى حل بين الفريقين، إلا بأن يتنازل اليهود عن بعض الأساطير، وأن يفرط العرب في بعض الوقائع .. فيلتقي الجمعان في منطقة متوسطة بين الوقائع العربية والأساطير الإسرائيلية والصعوبة هنا، أن التوجه للمنطقة الوسطى (خطر) من وجهة نظر الفريقين، فالعرب يرون الحال الواقع هو مستندهم الوحيد لمحاولة (البقاء) المستميتة واليهود يرون التنازل عن الأسطورة هو تخل عن مستند (العودة) التي ظل اليهودي يحلم بها منذ قرون.. ومع ذلك، فلا مجال للخروج من المأزق، إلا بالتنازل المطلوب من كل فريق : التنازل الصعب ■

على هامش القمة العالمية للمعلومات

جنيف ٢٠٠٣ - تونس ٢٠٠٥

الديمقراطية والإنترنت

مستقبل الانتخابات الإلكترونية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

عقدت فى الفترة من ١٠ إلى ١٢ ديسمبر الماضى فى جنيف أعمال القمة العالمية لمجتمع المعلومات التى ستعقد على مرحلتين: الأولى كانت فى جنيف، والمرحلة الثانية فى تونس عام ٢٠٠٥، تحت رعاية الأمم المتحدة وينظمها الاتحاد الدولى للاتصالات، وشارك فى قمة جنيف ٦٧ رئيس دولة ورئيس حكومة، إضافة إلى حوالى ستة آلاف من ممثلى المنظمات الدولية والأهلية والقطاع الخاص. وأعطى المؤتمر اهتماما بالعديد من الموضوعات الهامة والملتبسة فى مجتمع المعلومات منها الفرص المتساوية لكل شخص لاكتساب المهارات والمعارف اللازمة لفهم مجتمع المعلومات واقتصاد المعرفة، بالإضافة إلى أهمية التعاون بين البلدان المتقدمة والنامية فى بحوث تقنية المعلومات والاتصالات وإنتاجها وتسويقها، وأمن الشبكات والخصوصية وحماية المستهلك، وكيفية تقليص الفجوة الرقمية، والاستعداد الرقمى ووصول خدمات الاتصالات إلى جميع المواطنين، التعليم الإلكترونى والجهود من أجل محو الأمية التكنولوجية، تطوير قطاع الأعمال التكنولوجية وسبل رفع كفاءته، استخدام تكنولوجيا المعلومات فى تحسين الخدمات الصحية والريفية، وفى الحفاظ على التراث الثقافى والطبيعى، وتطوير صناعة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، وأهمية التعدد الثقافى واللغوى على شبكة الإنترنت والحفاظ على التقاليد والتراث الوطنى للشعوب.

واتفق المشاركون فى القمة على اعتبار تكنولوجيا الاتصال والمعلومات أداة تنموية هامة فى تفعيل الديمقراطية والحكومة الإلكترونية والاستثمار فى الموارد البشرية، وتمكين الجماعات المهمشة للوصول لمنافع التكنولوجيا وحماية حقوقهم وحرياتهم الأساسية والحفاظ على تراثهم وثقافتهم المحلية ووضع التشريعات والقوانين اللازمة لوجود الشفافية والتنافسية ووضع المواصفات القياسية الدولية التى تساعد فى الوصول للخدمات عالميا بدون عقبات، وحرية الوصول إلى المصادر والتطبيقات، وشهدت بعض الموضوعات تقدما فى مناقشتها مثل حقوق الملكية الفكرية وتحقيق التوازن بين حرية الدخول وحماية الابتكارات ودعوة كل الفاعلين لمنع الاستخدام السيء لتكنولوجيا الاتصالات مثل العنصرية والعنف واستغلال الأطفال. أما الموضوعات محل الخلاف فكانت قضايا أمن المعلومات والخصوصية وحماية المستهلك والبيانات والتحكم فى الشبكات وتمويل تكنولوجيا الاتصال لخدمة التنمية، وقضايا حقوق الإنسان ودور وسائل الإعلام وحرية الرأى والتعبير وإدارة شبكة الإنترنت على المستوى العام والفنى، وقد تناولنا فى مجلة الهلال طوال السنوات الثلاث الماضية بعض تلك الموضوعات بشيء من التفصيل، ونواصل فى الأعداد القادمة تغطية بقية القضايا والظواهر التى نعتبرها هامة فى مجتمع المستقبل، ونبدأ بقضية مستقبل التصويت الإلكترونى.

التصويت الإنترنتى

من المتوقع أن يكون للإنترنت دور واضح فى الديمقراطية ونظم الحكم فى القرن الحادى والعشرين. وبدأت فعلا الانتخابات الإلكترونية فى انتخابات الرئاسة الأمريكية لاختيار الرئيس الأمريكى فى نوفمبر عام ٢٠٠٠، وحملت معها بداية ثورة جديدة فى كيفية إجراء عملية التصويت الإنترنتى! حيث أجريت عملية التصويت عن طريق الإنترنت فى ولايتى كاليفورنيا واريزونا وهو ما ينقل العملية الديمقراطية إلى عصر الإنترنت. ويعتقد أن الرئيس القادم للولايات المتحدة فى انتخابات آخر هذا العام (عام ٢٠٠٤)، سيتم انتخابه والتصويت عليه من خلال الإنترنت على طول البلاد، فهناك شواهد يومية على أن الإنترنت تغير طريقة حياتنا كل يوم، بعضها واضح للعيان ومباشر، كما حدث فى التعليم، والعمل، والتسويق، وعلاقتنا الاجتماعية والأسرية، وبعضها غير مباشر وتظهر نتائجه تدريجيا مثل التأثيرات السياسية التى كانت أقل وضوحا بعض الشىء، لكن هناك حكومات بدأت تقدم خدماتها العامة من خلال الإنترنت، وبعض المرشحين فى الانتخابات فى الدول المتقدمة والنامية استغل الإنترنت فى عرض ونشر برنامجه الانتخابى، وتعبئة المؤيدين له، والمتطوعين فى حملات الانتخاب!



واليوم نتحدث حول الدعامة الأساسية فى ديمقـراطيـات العـالـم وهى حق التصويت! فالشكل السائد للتصويت فى دول العالم برغم اختلاف درجات تقدمها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، تقريبا شكل ثابت، حيث يذهب المواطن إلى موقع التصويت، المحدد له فى منطقته وينضم لجيرانه، ويسحب بطاقة التصويت، ويدخل كشكا له ساتر حيث تتوافر له الخصوصية والسرية وحرية الاختيار، وبعد أن يختار مرشحيه، يدفع بطاقة التصويت فى صندوق الأصـوات، هذا الشكل العـام يختلف فى تفاصيله من بلد لآخر، لكنه لا يختلف فى إطاره العام! وكلنا نعرف بأن عدد الناخبين يهبط باستمرار على مستوى العالم رغم التباينات المختلفة فى درجة الديمقراطية بين دول العالم، وأن هناك طرقا جديدة تسهل الاشتراك فى ممارسة التصويت.

تناقص عالمى فى أعداد الناخبين

إن التجـاهل واللامبـالاة حينما ينتشران بين الناخبين، يعتبران شيئا خطيرا يهدد نجاح الديمقراطيات! هذا ما قاله جون كيندى منذ أربعين عاما! وكان وقتـهـا ثلثـا الأمـريكان يصـوتون فى الانتـخـابات الرئاسيـة! ومنذ ذلك الحين، استمر انخفاض أعداد الناخبين، مع تزايد مشـاعر اللامبـالاة، واليوم أقل من ٥٠ بالمائة من الأمـريكان يشـاركـون فى انتـخـابات الرئاسـة، وهذا الانكمـاش فى الناخبين أصبح ظاهرة فى ديمقـراطيـات العالم!

وعندما ننظر إلى عملية التـصـويت التـقليدية فى الدول المتـقدمـة، نجد انها تعتمد علىّ تعليم وإعلام الناخبين من خلال إعلانات التليـفـزيون، أو الاعتـمـاد على وسائل الإعلام الإخبارية لإتاحة الفرصة للناخب على معـرفة الأحداث الرئيسيـة، ولكنها طرق ليست فعالة لجذب الناخبين، فعلى مستوى الولايات المتحدة الأمريكية انخفضت أعداد الناخبين من أقل من ثلثى إلى أقل من ٥٠٪! والنتـيـجـة الأخطر من ذلك أن أقل من ٢٢ بالمائة من الناخبين فى سن الـ١٨ إلى ٢٤ سنة يدلون بأصـواتهم رغم أنهم يمثلون مـسـتـقـبل العالم! وثلث الناخبين غير قادر على التصويت، فعملية التصويت التقليدية تحذف أعداد كمية من الناخبين المتوقعين! وفى انتخابات فرنسا الأخيـرة (ابريل عـام ٢٠٠٢) فى المرحلة الأولى تخلف عن التـصـويت رقم قيـاسى حـوالى ٢٨.٤٪ من الناخـبين بعـد كـان حـوالى ٢٢.٤٪ فـقـط عـام ١٩٦٩! وفى دراسـة مـسـحـيـة فى الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة ، وجـد أن ٧١٪ من الشـبـاب المبـحـوث (١٨ - ٢٧ عـامـا) و٩٠٪ من الناخـبين الذين يبـحـثـون عن برامج المرشحين فى الويب سوف يصوتون على الإنترنت! ويعتقد أغلبية الأمريكان بأن تصويت الإنترنت يجب أن يكون خيارا لهم فى انتخابات الحملة الرئاسية القادمة فى نوفـمبـر هذا العام، وسـوف تسـتـسـهـل الأغلبيـة الواسـعـة فى الولايات المتـحـدة تصويت الإنترنت، وسيتمكنون من الدخول إلى المعلومـات التى تؤثر فى قـرارهـم على التـصـويت لصـالح اتجـاه مـعـين، بدلا من الطرق التقليدية !!

الإنترنت تجذب الناخبين

وإذا كـانت الإنتـرنت غيـرت طريقـة العمل بشكل جذرى لا يخطر على بال أحد منذ ثلاث أو خـمس سنوات! فـإننا نزعم بأن الإنترنت سـتكون لها تأثيرات عـميقة وسـريعـة على الديمقـراطيـة، والسيـاسـة،

والانتخابات بشكل لا يمكن تخيله! ويتوقع أن نفس عملية التثوير هذه ستحدث في عمليات الانتخاب ! فالتغيير الجوهري الذي حدث في الأعمال هو السماح للمستخدمين للوصول والنفاذ إلى كل المعلومات لاتخاذ القرار الذكي في القيمة، وتفويضهم لتنفيذه، نفس الموضوع في الديمقراطية فجوهر الديمقراطية هو الناخب المتعلم، الذي يستطيع ممارسة الديمقراطية في التعليم ويصل إلى الذروة في التصويت عبر الإنترنت!

ولا أريد التقليل من تقدير التحديات المعوقة للتصويت على الإنترنت، ولكن نتفق أن الإنترنت ستوفر الإمكانية لتحسين العملية الديمقراطية في بلاد العالم! فالعديد من الناس الآن يستعملون الإنترنت في اتخاذ القرارات الأساسية في حياتهم، والأغلبية بعد قليل جدا سيستعملونها بشكل حرفي ليس فقط في العمل، بل أيضا في اتخاذ قرارات الشراء المختلفة مثل السيارات والمنازل، وفي البحث عن نصيحة طبية، فلا يستغرب أن يكون التصويت الانتخابي أحد الخيارات في الإنترنت.

لكن الذي يثيرني أكثر، هل سيكون الناس متساوين في لعبة الانتخابات من خلال الإنترنت، خاصة مع انتشار ظاهرة الانقسام الاجتماعي الرقمي داخل الدول المتقدمة نفسها؟ Social divide وهو متعلق بالفجوة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات في الدولة الواحدة، وتزيد عليه ظاهرة الانقسام الديمقراطي Democratic divide وهو يعني الفرق بين الذين يفعلون ، والذين لا يفعلون، الذين يفعلون هم الذين يستعملون أدوات التكنولوجيا الرقمية المشاركة في الحياة العامة، أو بمعنى أدق يشاركون في المجتمع المدني من خلال الوسائل الرقمية! وتلك الهواجس تقلق أيضا المتشككين في الانتخابات الإلكترونية، وأثيرت كثيرا في حوارات مؤتمر قمة المعلومات الأخير.

مزايا وعيوب الانتخاب عبر الإنترنت

مازال هناك من يشكك في جدوى الديمقراطية الإلكترونية e-democracy والمنافع الموعودة لتصويت الإنترنت، وهم يميلون إلى التركيز على العوائق العملية في الوصول غير المتساوي للإنترنت في المدى القريب، وزيادة إمكانية الاحتيال والغش والتدليس، وفقدان الخصوصية، وقواعد وشروط عدم الأهلية للتصويت، وينادون بالتمهل وعدم التسرع في تطبيق نظام التصويت الإلكتروني، فمع أنه طريقة سهلة وقليلة التكلفة للإدلاء بالأصوات إلا أنها تحتاج إلى ضمان عملية التأمين والسرية لكي نصل إلى النتائج المرجوة فعلى سبيل المثال يمكن لفيروس مثل فيروس الحب الذي هاجم مستخدمي الشبكة في الفترة الماضية أن تتم برمجته لكي يهاجم أجهزة الكمبيوتر المركزية المسئولة عن عملية التصويت فيشلها عن العمل، أو أن يرسل آلاف الأصوات الوهمية إلى صناديق الاقتراع الإلكترونية فيتسبب في افساد عملية التصويت بأكملها، وعمليات القرصنة هذه يصعب التنبؤ بها وتوقعها، كما يخشى المعارضون لتلك الفكرة أيضا من مناهضي التفرقة بين المواطنين الذين يستخدمون الإنترنت والآخرين الذين لا تتوافر لهم هذه الخدمة وهو ما سميناه ظاهرة



الانقسام الرقمى Divide diqital قد يسبب نوعا من التفرقة العنصرية، وهذه الأخطار قد تعرض الأمن القومى للخطر! حيث يجب النظر بدقة لتأمين عملية التصويت الإلكترونى، حتى لا يقوم أحد قراصنة الشبكة بتغيير النتائج فتحدث مشاكل يصعب التغلب عليها، والمتشككون قلقون فى المدى الطويل حول خطر فشل التمثيل الديمقراطى، ولكنها وجهات نظر، فالحقيقة أن الإنترنت تشكل طريقا للديمقراطية، والتصويت الإلكترونى من خلال شبكة الإنترنت له مؤيدون كثيرون يرون أنه يسهل عملية الاقتراع بحيث تصبح مجرد ضغطة على الفأرة والناخب يجلس فى بيته، وأنها سوف تجذب عددا كبيرا من الناخبين الذين يحجمون عن الذهاب لصناديق الانتخاب إما لانشغالهم فى أعمالهم أو لعدم رغبتهم فى تحمل مشقة الذهاب إلى اللجان الانتخابية ومواجهة الزحام الذى قد يتعرضون له، ومن خلال الإنترنت أيضا يمكن للجمهور تقييم الخدمات الحكومية، وجمع تبرعات الحملة الانتخابية، والدخول على برامج المرشحين، ويسمح للناس على مسافات، بغض النظر عن الأحوال الجوية للمشاركة فى التصويت. والإنترنت ستلعب دورا سياسيا هاما حول العالم فى الشهور والسنوات القادمة؟

تجربة الهند

وهناك إشارات كثيرة منها ما أعلنته وكالات الأنباء قريبا حول ٦٢٠ مليون ناخب فى الهند يستعدون للتصويت الإلكترونى هذا العام (٢٠٠٤)، فى الانتخابات الهندية العامة تفاديا لحدوث أى ممارسات غير ديمقراطية، ويرى المراقبون أن تصويت ٦٢٠ مليون ناخب بواسطة الكمبيوتر يعد أوسع ممارسة إلكترونية من نوعها على المستوى العالمى، وتسعى الهند لتطبيق هذا النوع من التصويت بغية تجنب الاغتيالات والتزوير والتصويت القسرى والتهديدات التى رافقت الانتخابات العامة السابقة. ويعتقد أن جميع تلك الممارسات غير الديمقراطية ستختفى مع استخدام طريقة التصويت الإلكترونى. وأن نظام التصويت سيجهز بأنظمة حماية مأمونة تقى عملية التصويت من أى تلاعب وتحفظ النتائج دون تغيير لحين بدء عملية فرز الأصوات. وجربت الهند استخدام طريقة التصويت الإلكترونى أول مرة فى الانتخابات البلدية عام ١٩٩٨ . وتقوم الآن بتجربة نظام التصويت الإلكترونى على أكثر من ١٢٠ مليون شخص موزعين على خمس ولايات كما سيجرب النظام أيضا فى ولاية أسام الواقعة جنوب غربى الهند والتى تشهد حربا حدودية مع بنجلاديش. وتمتلك الهيئة الانتخابية الآن ٣٠٠ ألف جهاز تصويت ويأملون أن يزداد هذا العدد هذا العام إلى ٥٠٠ ألف جهاز، وتسهل الإنترنت عملية الانتخاب للمناطق الريفية البعيدة حيث يصعب على الناس ، يوم الانتخابات الوصول ببساطة إلى مراكز الانتخابات، فهم يريدون ولا يستطيعون أن يصوتوا، وفى المناطق الحضرية ذات القاعدة السكانية الكبيرة، حيث يقفون طوابير وينتظرون وقتا طويلا لتتاح لهم الفرصة للتصويت، وهى كلها أشياء محبطة للناخبين، ويبدأون التفكير فى عدم تكرارها ! حتى نتيجة الانتخابات نعرفها بعد التصويت بعدة أيام، حتى تصل أصوات المواطنين المقيمين خارج البلاد! كل ذلك يمكن أن يتغير بتصويت الإنترنت، حيث تتم عملية التصويت ببساطة من

بيوت الناخبين أينما وجدوا! مستعملين توقيعا إلكترونيا ويشاركون في العملية !

مخاوف وأخطار

لكن كيف نعرف أن الشخص الذي يشغل الحاسوب في النهاية الأخرى هو الناخب الحقيقي؟ كيف نعرف أنه ليس تحت ضغط؟ كيف نضمن بأن الهاكرز (قراصنة ولصوص الكمبيوتر) لا يستطيعون الدخول وتغيير النتائج! كيف نتأكد من السرية والخصوصية؟ إذن هناك مخاوف حقيقية جدا تواجه تصويت الإنترنت! ويزيد على تلك المخاوف قلق آخر، فالولايات المتحدة الأمريكية الدولة المتقدمة في تكنولوجيا المعلومات ٥٠٪ من الأسر الأمريكية فقط يمكنها أن تصوت من البيوت، فماذا عن أحياء الأقليات وأحياء الدخل المنخفض والفقراء، بل ماذا عن الدول النامية؟ وقليلة النمو؟ ومناطق في الدول المتخلفة لم تدخل فيها تليفونات حتى الآن! حتى إذا توفرت الإنترنت لكل الناس، فهم ليسوا متساوين في إتقان هجائية الكمبيوتر والإنترنت حتى يستطيعوا التصويت من على بعد، حتى إذا تمت عملية التصويت بمساعدة، فمن يضمن عدم تأثر الناخب باتجاهات من يقدم له المساعدة! فتصويت الإنترنت يخلق فائدة غير عادلة لجزء معين من الناخبين! فحكومات العالم مطالبة بالتصرف بشكل خلاق وذكي لتوسيع قاعدة المشاركة في الديمقراطية، وهناك توقعات في الدول الصناعية بأنه خلال ٥ - ٧ سنوات سوف يتمكن المواطنون فيها من الإدلاء بأصواتهم على الإنترنت وهم في بيوتهم في بيجامات النوم! وبنفس السهولة التي يشترون بها أسهما في التجارة الإلكترونية اليوم! وسوف تجد تلك الدول طرقا جديدة لضمان المفاهيم الأساسية جدا للديمقراطية، مثل الحرية الشخصية، السرية الشخصية، وبالأحرى توفير الأمن من قراصنة الإنترنت. وهناك رأي يقول نعم الإنترنت ستغير طريقة حياتنا، وستؤثر على الحكومة والديمقراطية، ولكنها لن تحل أبداً محل صندوق الاقتراع التقليدي الذي يذهب إليه الناس للتصويت منذ مئات السنين، ولكنها أداة إضافية تسمح للناس بمواصلة التصويت كما يريدون؟ فهي تعطيهم خيارا إضافيا؟ والإنترنت لا تجعل التصويت أسهل فقط، لكنها تخلق الحافز للبحث عن المعلومات، وتخلق ارتباطات بين الأقليات، وبين العوائل، وأماكن العمل ، وتعطي فرصة كبيرة للاستطلاع! وتخلق وسطاء جددا، وتبين قائمة الخيارات بصراحة! وتسمح الإنترنت للناس بالبدء في خلق خيارات جديدة.

شروط صارمة

وتصويت الإنترنت أساسه الدائرة الانتخابية، التي تضع على الإنترنت حاسبات تحت إشراف مسئولي الانتخابات في مراكز الانتخاب، ويمكن أن تسمح للتصويت من أي دائرة انتخابية، وهناك مواصفات صارمة لسرية الناخب، وسرية الصوت، وسلامة الانتخاب، وعدم العبث بالاقتراعات الصحيحة، بحيث يوفر ١٠٠ بالمائة دقة في التصويت، وبشكل واضح الإنترنت ستغير وسائل فعل المجتمع! فيزداد باستمرار أعداد الأفراد في الدول الصناعية وبعض الدول النامية الذين يسجلون ضرائب دخلهم ويدفعونها من خلال الإنترنت، ويسجلون سياراتهم بدون



الحاجة للوقوف في الصف في قسم السيارات، وتنفق حاليا مئات الملايين لربط الجامعات والمدارس بالإنترنت، بمعنى أن حكومات العالم تتجه الآن لتقديم جميع الخدمات العامة لمواطنيها من خلال الإنترنت وهو ما يسمى الحكومة الإلكترونية، والحكومات عليها أدوار كثيرة حتى تدعم عملية التصويت بالإنترنت، فهي مطالبة بتقديم المعونة التقنية، وتعديل وسن القوانين المنظمة للعملية الديمقراطية مثل قوانين التوقيع الإلكتروني الذي يصبح وثيقة ملزمة قانونيا ، وتدريب الناخبين على استعمال مهارات الكمبيوتر والإنترنت وعمل تجارب ومختبرات ديمقراطية لعملية التصويت الجديدة ! وأصبح في الإمكان الآن في الولايات المتحدة الأمريكية توقيع كل القوانين الجديدة إلكترونيا !

هل ستنقذ الإنترنت الديمقراطية ؟!

في كتاب إلكتروني صدر عام ٢٠٠٠ عنوانه The E - Democracy «الديمقراطية بواسطة الإنترنت» الإصدار الثاني، من تأليف ستيفن كليفت وهو محاضر استراتيجي ومحرر بوكالة أنباء ديمقراطيات على الإنترنت، يتساءل فيه هل ستنقذ الإنترنت الديمقراطية؟! أو ستقودنا الإنترنت لاعتقادات كثيرة غير واقعية! فكل جديد يأتي في تكنولوجيات الاتصال، تأتي معه مقولات كثيرة تبشر بإمكانيته! ويعتقد الكاتب أن الإنترنت مثل التليفزيون عندما فَعل الديمقراطية في العالم وأنقذها وأسعفها! ففي السنتين الأخيرتين كانت هناك آلاف الانجازات المثيرة والمهمة التي تخدم ديمقراطية الإنترنت، أو الديمقراطية العلى الخط. وكانت خطوة التغيير سريعة ومتزايدة، على أية حال التحول الديمقراطي خلال استعمال الإنترنت يعتبر فقط خدش سطح لإمكانياتها. ويتوقع في مدى العقود القليلة القادمة أن تتغير الديمقراطية نحو الأحسن، وأن تتطور طرق إلكترونية ومتشابكة تسمح للناس بتحسين حياتهم وتحسين العالم حولهم. فنحن في بداية عصر ديمقراطية الإنترنت. وربما أكثر السمات الديمقراطية في الإنترنت هي قدرة الناس على التنظيم والاتصال في مجموعات وكيانات ضمن السياقات الجمعية الإلكترونية المجانية، فتوفر فرصا جديدة للمشاركة السياسية والمجتمعية والتصويت الانتخابي في العقود القادمة! فالإنترنت تملك الفرصة كاملة لبذر بذور الديمقراطية على الخط في القرن الجديد للأجيال القادمة. فالتصويت على الخط - فقط - مجرد جزء من ديمقراطية الإنترنت، بمرور الوقت، العديد من البلدان ستسمح للناس بالتصويت عن طريق تقنيتهم المفضلة، مثل السماح لناخب في البيت بإكمال اقتراعه من المنزل وهذا لا يؤثر على قداسة العملية الانتخابية وأمنها، وفي سيناريو المستقبل يتوقع الكاتب، أن المواطن سيتسلم بطاقة التصويت في البريد إذا كان مسجلاً نفسه كناخب في البيت، ثم يعيد اقتراعه بالبريد أيضا، أو يستعمل هاتفه لعمل نغمة معينة ويوقع عليها بتوقيعه الصوتي! أو يستعمل التصويت عن طريق الإنترنت ويترك توقيعه الرقمي أو رقم هويته الشخصية. وأيضا ناخبو المكان الانتخابي، وهي الطريقة المعتادة مازال في إمكانهم التصويت شخصيا في الانتخابات بالذهاب إلى أماكن صناديق الانتخاب كالمعتاد، والناخبون «في البيت» الذين لم يصوتوا حتى اليوم النهائي يمكنهم أن يقترعوا من

خلال مواقع الانتخاب المرتبطة بالإنترنت، ويؤكد الكاتب على أن مزايا تكنولوجيا التصويت والانتخاب لا تبرر استعمالها الرسمي من قبل أي حكومة. ولا حتى انتشار وسيطرة التكنولوجيات وتحديث طريقة الاستفتاءات هو القضية ، لكن القضية هل ستجذب تلك التكنولوجيات أعدادا وفئات جديدة من المواطنين لممارسة الديمقراطية التمثيلية؟! يجب أن تصبح تلك القضية أكثر بروزا! والقرار في تطبيق التقنية في الانتخابات الرسمية هو أولا اختيار سياسي، يضع في حسابه كيف ستؤثر تلك التقنية على نتائج الانتخابات أكثر من كونها خيارا يريده الجمهور.

والكاتب في كتابه لا يعارض التصويت على الإنترنت، ولكنه يشكك في حدوث تلك التحويلات المتوقعة، فالانتخابات كما يقول هي «الخبز الأبيض» الذي يحمل سندويتش الديمقراطية! لكن الحشو الذي بين شطري السندوتش هو الأهم لصحة الديمقراطية!

ويتوقع في الولايات المتحدة، كما ذكرنا السماح للتصويت على الإنترنت أن يتم في البيت خلال الانتخابات العامة المقبلة ، من خلال مبادرات الاقتراع التي يقودها المواطنون، وأن يقارن بين كلفة الانتخاب من البيت خلال الإنترنت، وكلفة الانتقال إلى التصويت، مع استكشاف امكانيات وزارة الدفاع في امكانية التصويت على الإنترنت للقوات العسكرية المتمركزة في ما وراء البحار، ومقارنة بين تجارب الدول فيما يخص هذا الموضوع، ومقارنة تكاليف العملية الانتخابية على الإنترنت بمثيلتها التي تتم بالبريد، بتلك التي تتم شخصيا. ونذكر أن التصويت على الإنترنت جزء صغير من جدول أعمال الديمقراطية الكاملة على الإنترنت. ونحن لا يجب أن نسمح للتصويت على الإنترنت بأن يصبح السيف الذي يسقط حركة الديمقراطية الواسعة على الإنترنت. والمسئولية في ديمقراطية الإنترنت تشاركية بين القطاعات الديمقراطية الأساسية التي تغرق الإنترنت بالمعلومات السياسية الحكومية، وتلك القطاعات مثل أجهزة الإعلام ومجهزي خدمة الإنترنت والمرشحين والأحزاب السياسية، وكل مؤسسات المجتمع المدني، حتى قطاع صناعة تقنية المعلومات الذي يطور أدوات الاتصال والمعلومات ويضع المعايير التي تؤثر أساسا في الديمقراطية العلى الخط. والحكومة الإلكترونية في أي دولة، أو ما يسمى الإنترنت الحكومي، المفروض أن يقدم كل المعلومات الديمقراطية مثل تقارير الميزانية واجتماعات وجداول البرلمانات، والسلطات التشريعية ، ومجالس المدينة، وحتى مجالس الحي، والمجالس التي تشرع القوانين، وأنشطة كل الخدمات الحكومية، وعلى الإنترنت تقارير أخرى مثل نشاط المسئولين المنتخبين، ونبذة عن حياتهم، كل ذلك للتقرب إلى المواطن.

الحكومات الإلكترونية

نحن نسمع الآن عن «حكم إلكتروني» وليس فقط «عن خدمات حكومة الكترونية»، وتسليم الخدمة الأكثر كفاءة والمحسنة، ولا نريد من الحكومات أن تقدم الخدمات ببساطة بدون تقييمها سياسيا. فالحكومات يجب أن تمارس إصلاحا أساسيا وتفاعليا لتطوير



الشرعية التي يتطلبها الحكم في عصر المعلومات. فالحكومات لابد أن تتنافس مع توقعات المواطنين كمستهلكين تعودوا الجودة من مواقع الويب التجارية التنافسية.

فالأغلبية الواسعة للمستعملين للإنترنت الحكومي يريدون خدمة حكومية على الإنترنت جيدة وسريعة، للحصول على معلومات دقيقة ومفيدة، ومعطيات حول كيفية الأداء الحكومي في كل إدارة، ومعرفة مصادر تمويلها واتفاقها. فالبرلمان الإسكتلندي وافق على قبول العرائض العامة الرسمية عن طريق الإنترنت. والعرائض طلب رسمي من واحد أو أكثر إلى البرلمان. وهناك أيضا يعرضون الاستشارات الحكومية على الإنترنت، في هولندا تأسست آلية رد واضحة وإطار زمني لضمان الإجابة على تعليقات وأسئلة المواطنين. هناك منتديات المناقشة الأولية على موقع الويب لرئيس الوزراء توني بلير في بريطانيا، وهذا قاد إلى حرص منتدياتهم السياسية على الإنترنت على تقديم خدمات عامة أفضل! مثل الردود الرسمية، وتقديم العرائض والاستشارات البرلمانية ومحاضر جلسات البرلمان البريطاني، واستضافة سلسلة من المنتديات التفاعلية الخبيرة المدعوة بالارتباط مع اللجان في كل من مجلس اللوردات ومجلس العموم.

مستقبل ديمقراطية الإنترنت في العالم العربي

السؤال الآن هل ديمقراطية الإنترنت تصلح للعالم العربي؟ وهل تصلح انتخابات الإنترنت في ظل الديمقرطية المقيدة الصورية السائدة في العالم العربي! وهل تصلح مع تواضع وهشاشة البنية التحتية للإنترنت في العالم العربي؟ واتساع الفجوة الرقمية، وبروز الانقسام الرقمي الواضح بين أغنياء وفقراء المعلومات بين الدول العربية بعضها البعض، وعلى مستوى الدولة الواحدة؟

ونزعم هنا أن عوامل التخلف الاقتصادي والتكنولوجي والتقاليد الاجتماعية السائدة والعصبيات في الدول العربية تلعب دورا معوقا للديمقراطية، حيث تعتبر العلاقات الشخصية والعائلية والقرابة، والاتصال الشخصي كلها عوامل محددة في الانتخابات! ويمكن لانتخابات الإنترنت أن تكون الحل المناسب لذلك! وتكون أيضا الحل المناسب للبنية العربية الاجتماعية المحافظة والتي تحد من حرية المرأة في الذهاب بمفردها إلى مراكز الانتخاب!. وهناك أيضا عدم جاهزية الناخبين العرب لممارسة الانتخابات الإلكترونية لضعف ثقافة الكمبيوتر والإنترنت! علاوة على عوامل السرية والأمان، ونقص الخبرة لدى الناخبين وعدم تعود مستخدمي إنترنت العرب على هذا الأسلوب في الانتخابات، كلها عوامل اجتماعية قد تعيق التصويت على الإنترنت! ويزيد على ذلك قيمة الحرص على الخصوصية، والتي يمكن أن تقف أحيانا كمعوق للانتخابات الإلكترونية لأن قيمة الحرص على الخصوصية في العالم العربي أكثر تعقيدا وعمقا بالمقارنة بالغرب!

وفي محاضرة قرأت عنها للدكتور عماد مصطفى في مكتبة الأسد بسوريا قال: «الإنترنت منبر ديمقراطي عالمي، هي ملكنا بقدر ما نريد، وهي ملك الآخر بقدر ما يريد، فإذا أردنا كانت لنا، وإذا لم نرد كانت لغيرنا ■

•«الأجناس الأدبية بأشكالها المتعارف عليها ليست منزلة، والتجريب ضرورة »

الأديبة المصرية رضوى عاشور

• «الأحداث المزلزلة التي مرت بالأمة العربية، قد دفعت بالثقافة إلى الهامش، بل إلى الشتات، أو ما أسميه بالدوار الحضاري »

الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة

•«نظام، الطبقات القائم حاليا، جامد، وفي نفس الوقت عاجز »

مايكل كين

الممثل الإنجليزي الفائز بأوسكار مرتين

• «نخطئ إذا كنا نعتقد أن في إمكاننا أن نفرض فكرة بالقوة أو أن نمنعها من الانتشار بفرض الرقابة عليها، وعلى أصحابها، لا الفرض، ولا المنع يليقان بالإنسان »

الشاعر أدونيس

• «إلغاء حصص الموسيقى يوفر على وزارة التربية مبالغ مالية تصرف لمعصية الخالق، ولا تعود بالنفع على الطالب ، بل بالعكس تميت قلبه عن ذكر الله»

النائب الكويتي ضيف الله بورمية

• «إسلام بلا اجتهاد، يعني إسلاما بلا عقل »

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل في الأدب عام ٨٨

• «المدرسة هي المكان الوحيد في حياة الطفل، حيث يمكن له أن يرى الآخر، باعتباره كائنا إنسانيا مساويا له»

وول سوينكا

الحائز على جائزة نوبل في الأدب عام ٨٦

• «لا نستطيع أن نخدم قضايا الحريات من تحت مظلة الديكتاتورية »

المفكر السوري محيى الدين اللاذقاني

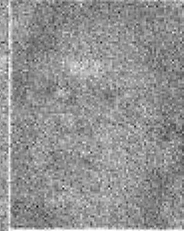
• «إذا أمسكت الرقابة بروائي، فهو إما غبي، أو راغب في الشهرة »

الأديبة الجزائرية أحلام مستغانمي

• «الخطاب العربي كما تنتجه وتستهلكه شريحة واسعة من الانتلجنسيا العربية، خطاب مريض بالغرب، أو بالأحرى بتقدم الغرب »

المفكر السوري جورج طرابيشي

أقوال معاصرة


رضوى عاشور


وول سوينكا


أحلام مستغانمي

في الطريق إلى نوبل ثانية

زويل

أهم باحثي القرن العشرين



بقلم
د. لطفية النادى



مازال نبوغ د. أحمد زويل يعد بالكثير لدنيا العلم، فبعد رصده لديناميكية تكوين الجزيئات وترابطها وانفصالها، كانت محاولاته للسيطرة على تلك الجزيئات وتطويعها، للوصول بها إلى تكوينات جديدة أو تعديل علاقاتها الأصلية، فيما أطلق عليه علم الفيمتوكيمياء.. من ثم واصل د.زويل بحوثه لتصل إلى ٥٠٠ بحث، ولتكون جائزة نوبل بالنسبةله لا محطة وصول بل قاعدة انطلاق لآفاق أرحب.



الرئيس مبارك يمنح زويل قلادة النيل العظمى - ديسمبر ١٩٩٩

والكتابة الآن عن الدكتور أحمد زويل كمثل من يحمل شمعة مضيئة في جو عاصف، الشمعة تحاول الإبقاء على اشتعالها والعواصف تتضافر وتهب من كل جانب، هي لاتسعي لإطفائها لأنها لاتعلم بوجودها ولكن العواصف، ظواهر طبيعية لا تذر ولا تترك، هي لاترى ولكنها تؤثر، وفي رؤيتي كيف تبقى على تلك الشمعة أنوقد منها شعلة كبيرة تقف في مواجهة العواصف، أم تحولها إلى مصباح تحميه أغلفة شفافة صلبة لا تتأثر بالعواصف ولا بالرياح، أم نحولها إلى مصادر ضوئية تكنولوجية جديدة تسطع وتبهر وتنطلق إلى الأمام دائما، تخترق العواصف ولاتشعر بها فهي أضعف من أن تؤثر فيها وهي لاتخترق العواصف فقط بل تخترق العوائق الصلبة وتمر فيها وقد تعاني بعض التغيير كضعف في شدتها ولكنها تظل قادرة على التغلب على كل المصاعب ولاتبالي بوجودها وتشق طريقها دائما لتنير المكان وتشع الأمل وتبقى على دنيا العلوم والتكنولوجيا في أبسط صورها وفي أعمق آثارها ..

وأنا أنظر من حولي لأرى د.أحمد زويل الباحث الجاد فيه صفات قد تخفى على كثيرين هي صفات الذهب الخالص الذى مهما علقت عليه شوائب أو تراكمت عليه أتربة لم تغيره لا في طبيعته ولا في بريقه وأؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يعطى العباد في الأرض نعما كثيرة لايعلمها إلا هو، ومن عباده من يقدر تلك النعم ويحرص عليها ويزكيها ومنهم من هو دائم التبرم لايراها ولايدركها ونحن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا دائما ممن يستمعون الحديث فيتبعون أحسنه، وممن يقدرون النعم

ويضعونها فى مصافها ويحرصون عليها .. وكان لى استاذ جليل أ.د. محمد عبدالمقصود النادى رحمه الله الذى كتب لى خطابا لا أنساه أبدا أحافظ عليه لأتركه لأبنائى يقول فيه .. إن الجواهر دائما توجد فى الأرض مغطاة بالأتربة والشوائب .. وعلينا دائما أن نكتشفها وإذا وجدناها نصقلها ونبقى عليها ونضعها فى مكان الصدارة نرفع عنها الشوائب لتظل دائما براقة نباهى بها الدنيا وما فيها.

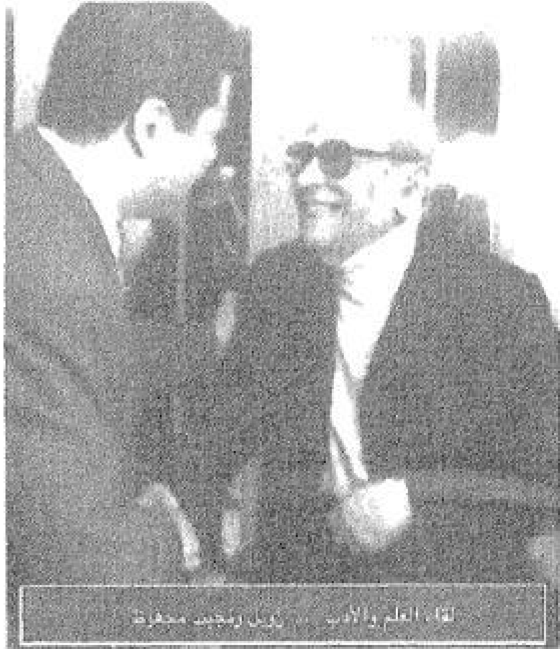
وأحمد زويل مثله مثل الماسة العظيمة الكبيرة المبهرة، جوهرة أصلها مصرى وجذورها مصرية، يفتخر بمصريته ونحن نقدره ونحترمه وأمريكا وجدت هذه الماسة العظيمة فأعطتها من اهتمامها الكثير ومنحتها الفرص لتزيح عنها أعباء كثيرة وقدمت له ما يساعده على أن يظهر بريق عبقريته وحماسه للعلم، وأمريكا من الدول التى تقدم لرعاياها دائما فرصا لظهور مهاراتهم ولديها العقول والقلوب المخلصة التى تكتشف وتصقل وتبقى على جواهرها لامعة وتضعها على هامات الطرق وأعالى المنصات فهنيئاً لها بأحمد زويل وهنيئا لنا بمعرفته.



- أبحاثه تجاوزت خمسمائة بحث وتلاميذه أربعمائة باحث

لقد تعرفت على أ.د. أحمد زويل لأول مرة فى عام ١٩٨٩ حيث حضرت له محاضرة علمية بالجامعة الأمريكية بقاعة إيوارت دعانى لحضورها صديقى العزيز أو قل ابنى المخلص أ.د. صلاح عرفة ودخلت القاعة متوقعة أن أرى رجلا مهيبا متكبرا مقطب الجبين زائغ البصر كمعظم الأساتذة الكبار الأجانب الذين سبق أن حضرت لهم محاضرات بالجامعة الأمريكية.. ولكنى لم أر ذلك .. فقلت فى نفسى ربما جئت مبكرا بعض الوقت وكان هناك على المنصة من يجهز أجهزة الاستماع والميكروفونات وأجهزة العرض والشاشات فلقد كانت هناك شاشتان وليست واحدة وبعض الشفافات وبعض الشرائح وجهازان للعرض وما إلى ذلك وعندما نظرت لساعتى لأرى موعد المحاضرة المعلن إذا بالاستاذ الدكتور صلاح عرفة يقدم أ.د.أحمد زويل وهناك من يضع له الميكروفون والبطاريات فى جيب جاكتته .. ما هذا .. هذا الرجل الذى يساعد على ترتيب أجهزة العرض .. شاب ضاحك السن مهذب المظهر وبدأت المحاضرة المبهرة وقدم اكتشافه العظيم لتصوير مولد الجزيئات

الكيميائية بأسلوب رائع سهّل فيه أصعب التصورات وعرض فيه مقدمة طريفة عن تاريخ التصوير وتغير سرعة التقاط الصور إلى أن انتهى بنا باستخدام الليزر فائق السرعة لتصوير تفكك الجزىء واندماج الذرات وتعرفها من دوران ومحاورة حتى تمتزج وتتزاوج أو تنفصل .. بالروعة العلم .. كنت قد قرأت عن هذا الاكتشاف العظيم .. ولكن حضور تلك المحاضرة أعطانى رؤية صادقة وواضحة عما قام به أحمد زويل .. شغلنى الحديث العلمى عن متابعة مظهر هذا الرجل وبساطته فى عرض الصعب من الأمور العلمية التكنولوجية الجديدة .. هو لم يكتشف ولم يصمم جهاز ليزر الفيمتو ثانية .. ولكنه استخدمه لإثبات ديناميكية تكوين الجزيئات وترابطها أو


لقاء العلم والأدب .. زويل ونجيب محفوظ

في الاحتفال بوضع حجر الأساس لجامعة العلوم والتكنولوجيا بمدينة السادس من أكتوبر - ٢٠٠٠



انفصالها وهو مالم يسبقه إليه أحد .. لقد فتح أحمد زويل مجالا جديدا فى علم الكيمياء .. سخّر فيه الفيزياء لدراسة الكيمياء الديناميكية ومايحدث فى أزمنة متناهية فى الصغر تقاس بالفيمتو ثانية وكان مقدارها حينذاك ١٩٠ فيمتو ثانية .. ماهذا الجمال والسلاسة التى يعرض بها أحمد زويل أهم أحداث القرن العلمية والتكنولوجية .. دعوت له فى نفسى فى تلك اللحظة التى استوعبت فيها الحدث بكل جوانبه العلمية. وعندما انتهى من محاضرته .. كنت أصفق له ليس لأنه انهى المحاضرة .. ولكن لأننى فهمت واستفدت أضعاف أضعاف ماقرأت .. وذهبنا إلى الشاى حيث قدمنى د.صلاح عرفة لأتعرف على د.أحمد زويل وسعدت جدا بهذا الموقف الذى رأيت فيه بساطة ومهابة فى الوقت نفسه وبشاشة لم أعهدها فى أمثاله .. مما شجعنى أن أحكى له عن تاريخ محاولاتى إدخال فيزياء الليزر وتكنولوجيته فى مصر منذ عام ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٩ عندما رأيته لأول مرة وبهت الرجل من قدرتى على المثابرة وقبل على الفور دعوتى له لإلقاء محاضرة بمركز علوم الليزر بكلية العلوم الذى لم يكن قد صدر له قرار بعد بإنشائه وإنما كان لايزال معملا لفيزياء الليزر .. وطلبت منه أن تكون المحاضرة أكثر علمية مما قيل بالجامعة الأمريكية حيث كان المستمعون من جميع التخصصات حينذاك، وتوقعت أن يحضر محاضرته بكلية العلوم كثير من العلميين الدارسين والمتعمقين فى علوم الليزر ..



وقبل د.أحمد زويل الدعوة وكانت أول محاضرة يلقيها بجامعة القاهرة فى عام ١٩٨٩وكانت غرفة المحاضرات صغيرة مملوءة عن آخرها وطرقات مبنى معمل الليزر مليئة بالباحثين الشبان .. وكانت محاضرة ممتعة تلتها زيارته لمعمل ليزر ثانى أكسيد الكربون الذى عمل عليه الرعيل الأول من الباحثين فى علم فيزياء الليزر وتطبيقاتها .. وكان د.أحمد زويل سعيدا جدا برؤية المعمل وطلاب البحوث وطفق يثنى عليهم ويشجعهم ويشجعنا بأنه يرى لأول مرة فى مصر مثل هذا الجهد وهذه البحوث فى مجالات علمية جادة.

وكنا قد تقدمنا بمشروع لإنشاء المعهد القومى لعلوم الليزر



زويل وسط جموع العلماء فى أحد المؤتمرات



.. ويتشاور مع د. لطفية النادى التى تنصت باهتمام



كمعهد تابع لكلية العلوم وذلك فى عام ١٩٨٥ وكانت الأمور تسير ببطء وتعانى من صراعات لانفهم مغزاها ولانود أن نفهمها ولكننا كنا نثابر ونأمل فى فرج من الله سبحانه وتعالى لنضع جامعة القاهرة فى ركب التكنولوجيا المتقدمة العالية حتى هيأ الله لجامعة القاهرة رئيسا عظيما هو د.مأمون سلامة يؤمن بالعلم والعلميين ويؤمن بضرورة دفع عجلة التقدم وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٨٩ فوافق على إنشاء مركز ذى طابع خاص هو المركز القومى لعلوم الليزر وعينت مديرة له عام ١٩٩٠ .. وهنا تعمقت صلاتنا مع د.أحمد زويل الذى دعوناه لزيارة المركز وإلقاء محاضرة علمية وتشاورنا معه فى الخطة التى وضعناها للوصول بالمركز الى معهد واسميناه National Institute of Laser Sciences (NILS) إلا أن الأستاذ الدكتور زويل اقترح إضافة كلمة مهمة حولته إلى (NILES) وهو نهر النيل مصدر النماء والثراء لبلادنا وأصبح National Institute of Laser Enhanced Sciences وكان دائم الموافقة على رؤيتنا للمشروع وكان سعيدا جدا بتفاؤلنا وكثيرا ما قال ألا تظنين بالطفية أن نختصر بعض التخصصات مثل التطبيقات الطبية؟.. وكان هدفى من ذلك أن يدر هذا التخصص بعض العائد المادى على المعهد حتى نستطيع دائما أن نطور الأجهزة وأن نحافظ على صيانتها إلا أنه بالفعل مثل حجر عثرة على المعهد كما سنرى .. المهم دعونا مخلصين أ.د.زويل لإلقاء محاضرة عامة يشرح فيها تطور العلوم عالية التقانة إلى أن وصلت إلى مايقوم به من دراسات وماحققه من اكتشاف تصوير الجزىء الذى كان يستخدم فيه أعلى درجة من تجميع الأطياف الذرية والجزيئية واستخدام ليزر لتفتيت الجزىء عالى القدرة والشدة وفائق السرعة وليزر آخر يستخدم كمجس لما يحدث أثناء التفكيك والترابط وهنا كان الهدف محاولة السيطرة على الجزيئات لتكوين تركيبات جديدة أو إدخال تعديلات على تركيبها بعد تفهم خواصها وهو ما فتح الباب على مصراعيه لعلم جديد أشاد به جميع علماء العالم وانبهرنا به وهو علم الفيمتوكيمياء والدراسات الفيزيائية والكيميائية التى تصل إلى تركيبات الصبغات والأدوية التى تساعد فى التغلب على بعض الأمراض الشرسة وكان هذا

● العمل والمثابرة منهجه، والعلم طريقه إلى نوبل ثانية

د. لطفية النادى تقدم زويل فى إحدى الاحتفاليات

أملنا.

وكانت محاضرة د.زويل فى عام ١٩٩١ بالقاعة الكبرى لجامعة القاهرة، مظاهرة علمية اكتظت فيها القاعة بالشيب والشباب وخيرة العلماء .. وحضرها نائب رئيس الجامعة لشئون الدراسات العليا والبحوث أ.د.محمد الجوهرى نائبا عن رئيس الجامعة أ.د.مأمون سلامة الذى كان يعزف دائما عن الظهور ويعمل فى صمت ويدفع عجلة العلم دائما بمثابرة وجهد بالغ لإيمانه الشديد بأن العلماء هم عباد الرحمن الصادقين الملتزمين لرفعة بلادهم بالإخلاص والدين. وقدم أ.د.زويل أرفع جوائز الجامعة بمنحه درع جامعة القاهرة كما قدم له عميد كلية العلوم الميدالية الذهبية لمركز علوم الليزر وتطبيقاتها عرفانا منه باهتمامه وتشجيعه للقائمين على تنفيذ وإدارة هذا المركز المهم بجامعة القاهرة وبكلية العلوم .. ولا أدرى الأسباب التى تدعو د.زويل لعدم ذكر هذه الاحتفالية الكبيرة وتلك الجوائز التى إن لم تكن ثمينة فى قيمتها فهى غالية فى جوهرها ومعناها.

وكنا طوال هذه الفترة نتابع تقدم أ.د.زويل فعندما رأيناه أول مرة كانت بحوثه تكاد تقرب مائتين وطلابه لايزيدون على ثلاثين طالبا ولكنه واصل التقدم وزادت إمكانياته من الأجهزة ومن الطلاب وبدأ فى إدخال تقنية جديدة أخرى بأن استطاع الحصول على شعاع قوى من الإلكترونات فى زمن يعادل ٢٠٠ فيمتو ثانية فى الفراغ وكان ذلك حدثا على مستوى العالم واصل معه الجهد لاستثمار هذا



الاكتشاف والإنجاز العظيم في دراساته.. وتوقعنا له الحصول على جائزة نوبل في أوائل عام ١٩٩٤ ولكن سبقه لذلك بعض العلماء الآخرين ليس لأن إنجازاتهم أهم من إنجازاته ولكن بحكم السن فإن د.زويل كان في ذلك الوقت لم يكمل بعد خمسين عاماً.. ولكن طلابه في البحوث زادوا ونشره العلمي زاد وإحساس العالم العلمي في جميع أنحاء المعمورة زاد بل فاق كل تصور.. وكان مؤتمر افتتاح المعهد القومي لعلوم الليزر على الأبواب في مارس ١٩٩٤.. وسارع علماء العالم للاشتراك فيه حيث إن د.زويل قبل أن يشاركني في رئاسة المؤتمر.. لقد كان لاسمه فعل السحر في جذب علماء حاصلين على جائزة نوبل مثل بلومبرجن وعلماء واعدين آخرين من أنحاء العالم ونجح المؤتمر نجاحا باهرا وافتتحه أ.د.مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة آنذاك خلف أ.د.مأمون سلامه ويرى في الصور الأعداد الكبيرة من كل الجنسيات التي حضرت هذا المؤتمر وعرضت أبحاثها فيه مشجعة شبان الباحثين وملأتنا حبا لهذا العلم الرائع الذي أدخل بتقنيته الكثير على جميع التخصصات..

● سخر زويل الفيزياء للدراسة الكيمياء الديناميكية لتسجيل ما يحدث في أزمنة متناهية الصغر

وفي هذا المؤتمر منح د.مفيد شهاب اللوحة التذكارية المعهد الدكتور أحمد زويل، وكان الجميع مبهورا بالإنجاز الكبير الذي قمنا به من معامل وبحوث وإن كانت في أول الطريق إلا أن تكريم كل العاملين في المشروع كان إنجازاً رائعاً..

ثم انطفأت شعلة الحماس بعد عدة شهور لدينا بعد أن أدركنا المعاش ولم يحترم ويقدر ضرورة مواصلة العمل الجاد بهذا المعهد الذي تم فصله عن كلية العلوم ليرأسه أحد الاساتذة الأطباء.. هو ممتاز في تخصصه.. ولكن تخصصات المعهد كانت ومازالت أكبر بكثير من تخصص أي طبيب لأنها تكنولوجيا عالية تتطلب علماً غزيراً ومثابرة مثل التي بذلناها على مر السنين من عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٩٤ والمشروع كان مقررا له أن ينتهي في عام ١٩٩٧.. وهنا لي وقفة شكر وامتنان للأستاذ الدكتور أحمد زويل الذي حاول أن يوضح للمسئولين خطأ هذا القرار.. إلا أنني رحلت عن القاهرة إلى دولة قطر.. وعملت هناك على إنشاء معمل جديد صغير لا يقارن بما قمت به في مصر.. وهو معمل للاتصالات

باستخدام الليزر..

انقطعت صلتي بالمعهد ولكنها لم تنقطع أبداً ولو للحظة واحدة عن متابعتي لنشاط وتقدم أ.د.زويل الذي كنت أدعو له دائماً في صلواتي أن يحصل على جائزة نوبل.. وتوج هذا العالم الكبير بحصوله على جائزة نوبل وعلى جوائز أخرى قبلها وبعدها وتنافست جامعات أوروبا وأمريكا بل وروسيا ودول شرق أوروبا في منحه الدكتوراه الفخرية وكذلك الجامعة الأمريكية بالقاهرة.. أما جامعاتنا فلا حديث عنها.

أما رئيسنا العظيم حسني مبارك فلقد احتفل به وأعطاه ومنحه أكبر وسام وشرفه بالحديث إليه وتكريمه وموافقته على إنشاء جامعة العلوم والتكنولوجيا في مصر..

ونتساءل.. ما الذي حدث؟.. الذي حدث هو ما يحدث دائماً كلما كبر المصريون.. فلقد اندثرت آمالنا من قبل في الطاقة الذرية.. وتلاها انهيار الآمال في التكنولوجيا والتقانة العالية.. فهل يا ترى ستلحق جامعة العلوم والتكنولوجيا بهذين المشروعين السابقين؟ أما زويل في أمريكا.. فهو مازال يزداد بريقاً وتجاوزت أبحاثه ٥٠٠ بحث، وطلابه ٤٠٠ طالب.. ودراساته تعددت لتربط بين الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا لدراسة ماهية تركيب البروتينات والجينات.. وهو الآن يعمل بجد ويثابر في سبيل الحصول على جائزة نوبل الثانية ندعو له دائماً بدوام التقدم والازدهار ولنا أن نستفيد من علمه بحضور المؤتمرات وعقدها سواء بمصر أو بالخارج..

***

لقد حان الوقت لكي ننظر بجدية أكبر لإنشاء وتذليل العقبات لإقامة جامعة العلوم والتكنولوجيا والتي احتفل بوضع حجر أساسها بمدينة السادس من أكتوبر في الأول من يناير عام ٢٠٠٠ وشارك في هذا الاحتفال الدكتور عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء وعدد من الوزراء ■

ماذا يعنى مجتمع المعلومات المصرى..؟

بقلم
د. أحمد درويش *

يشهد العالم حاليا تطورا هائلاً فى مجال الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ، وهو ما يطلق عليه البعض الثورة المعلوماتية ، وقد شملت هذه الثورة جميع مجالات الحياة ، وأحدثت تطورا ملحوظا بجميع المؤسسات العاملة بالمجتمع . من أهم هذه التطورات ظهور نموذج تعامل جديد بين المؤسسات وبعضها ، وبين الأفراد والمؤسسات . يتميز هذا النموذج بأنه لا ورقى ، إذ يعتمد على تبادل البيانات والطلبات الكترونيا ، كما أنه يستغل تكنولوجيا شبكات الحاسبات ، ومن ثم لايتطلب وجود الطرفين فى نفس المكان الجغرافي . الحكومات وإن كانت أبطأ الجهات تأثرا وأقلها تفاعلا مع التغيير إلا أنها

* المشرف على برنامج الحكومة الالكترونية

وبضغوط غير منظورة من المنافسة مع المؤسسات الخاصة لإرضاء العميل ، امتد تأثير نجاح هذا النموذج ليشمل الحكومات ، وبدأ العديد من الحكومات فى الكثير من الدول المتقدمة وكذلك النامية باستخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لتحسين كفاءتها، ولتقديم خدمة مميزة لمواطنيها وذلك من خلال مايعرف ببرامج الحكومة الإلكترونية .

ونظرا لخطأ المسمى الذى اشتهرت به هذه البرامج ، حيث إن لفظة الكترونية متحققة بالنظم الحكومية منذ أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، عندما بدأ استخدام الحاسبات فى الأعمال الحكومية، لذا فإنه من المناسب أن نبدأ بتعريف الحكومة الالكترونية ، وأكثر هذه التعريفات شيوعا هو استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لإحداث تطوير فى أساليب عمل الحكومات ، وكذلك فى مفهوم الحكومات عن نموذج وآليات تقديم الخدمات للمتعاملين (مواطنين - رجال أعمال - مستثمرين - موردين - مصدرين - شركات) . ويدخل فى نطاق ذلك تطوير المفهوم الكلاسيكى لخدمة المواطن ، فالمواطن طبقا لفلسفة الحكومة الالكترونية يعتبر عميلا للجهات الحكومية التى تحاول دوما إرضاءه عن طريق تقديم الخدمات الحكومية له ، بالشكل والأسلوب الذى يناسبه وبالسرعة والكفاءة المطلوبة فى أى مكان وكل وقت . وعلى ذلك فإن تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات هى وسيلة أو أداة وليست هدفا فى ذاتها.

قاعدة بيانات مشتركة

ويمكن تقسيم الخدمات التى تقدمها الحكومة الالكترونية إلى ثلاثة أنواع طبقا للفئة التى يتم تقديم الخدمة لها ، النوع الأول هو خدمات تقدم الجهات الحكومية (G2G - Government to Government) ، وبمعنى أدق هى عملية ميكنة الجهات الحكومية المختلفة وإنشاء قواعد البيانات الاقتصادية ، وكذلك شبكات الربط وتداول البيانات ، وتعد هذه المرحلة بمثابة حجر الأساس لأى برنامج حكومة الكترونية ناجح ، فميكنة الجهات والربط بينها يعطيان الفرصة لتحسين الأداء وخدمة المواطن . أما النوعان الثانى والثالث فهما



خدمات الحكومة للمواطن Governmen to Citizen-G2C، وخدمات الحكومة لقطاع الأعمال Government to Business - G2B وكلاهما يهتم في المقام الأول بتطوير الخدمة الحكومية ، فالنوع الأول يهتم بتقديم أفضل الخدمات للمواطن، والهدف من ذلك هو تحقيق مستوى مرتفع من الرضا العام بين المواطنين ، وكذلك تقليل الضغط والزحام على مراكز تقديم الخدمات الحكومية مما سينعكس بدوره على تخفيف الزحام في العواصم والمدن الرئيسية ، والنوع الثاني يهتم بالمستثمرين والشركات فهو يقدم خدمات للمستثمر في كل المراحل بدءا من قرار الاستثمار مرورا بجميع الخطوات من تراخيص ، جمارك ، تأمينات ، ضرائب وغيرها وقد أدى تنفيذ هذه الخدمة في العديد من البلاد إلى زيادة معدلات الاستثمار بها ، وزيادة إقبال المستثمر عليها .

متطلبات الحكومة الإلكترونية

ونجاح برنامج الحكومة الالكترونية يعتمد على عدة عوامل ومتطلبات منها وجود بنية تحتية قوية للاتصالات ، تمكن المواطنين من التمتع بخدمات الحكومة الالكترونية عن طريق الشبكات مثل التليفون والإنترنت والتليفون المحمول وغيرها ، أما العامل الثاني فهو انتشار معدلات استخدام الحاسب والإنترنت بين المواطنين والشركات ، واستعدادهم للنمط الجديد لتقديم الخدمة . وفي هذا الصدد فإن أي برنامج للحكومة الالكترونية يجب أن يقترن ببرنامج يعمل على رفع معدلات استخدام الحاسب والإنترنت عن طريق توفير الحاسب بسعر مناسب وبالتقسيط وكذلك توفير خدمة الإنترنت بسعر رمزي، وهو ما بدأت به التجربة المصرية كما أنه لا مناص في فترة السنوات الأولى من البرنامج من إنشاء مراكز خدمة متطورة ، تساعد المواطن الذي لا يملك التكنولوجيا على الاستفادة منها من خلال هذه المراكز.

القوانين والتشريعات المنظمة لعملية التعامل الالكتروني عبر الشبكات تعد أيضا من أهم الركائز للانتقال إلى النمط اللاورقي لإنجاز الخدمة ، حيث يتطلب نموذج العمل الجديد وجود تشريعات تحكم عملية التعرف على الهوية ، مثل قوانين التوقيع الإلكتروني وسرية البيانات ومحاربة القرصنة وغيرها .

جدوى المشروع الحكومي

وقد يتبادر إلى أذهان البعض تساؤل

عن جدوى مشروع الحكومة الإلكترونية ، وهل يؤدى تنفيذ البرنامج إلى مكاسب ومنافع للدولة ، وهل تغطى هذه المنافع التكاليف التى تتحملها الدولة لتنفيذ المشروع . وللإجابة عن هذا السؤال يمكننا عرض بعض المنافع المباشرة وغير المباشرة التى يمكن أن تتولد من تنفيذ مشروع ضخم مثل الحكومة الالكترونية .

أما عن المنافع المباشرة فتتمثل معظمها فى تقليل تكاليف والنفقات المختلفة للحكومة ، ومن ذلك خفض للتكاليف المباشرة مثل التكاليف الإدارية ، وكذلك التكاليف الخاصة بالخدمات المشتركة بين الوحدات الحكومية لنفس العملية ، وكذلك هناك خفض ملحوظ للنفقات ، ناتج عن تحسين وتطوير الأداء . وهناك أيضا منافع متعلقة بتوفير الوقت والجهد والمال الناتج عن إنجاز الخدمة من المنزل بدلا من الذهاب إلى مقدمى الخدمة ، والانتظار لأوقات طويلة والذهاب أكثر من مرة والمعاناة من الاختناقات المرورية وغيرها

أما عن المنافع غير المباشرة فتتمثل فى ازدياد حالة الرضا العام للمواطن ، وكذلك ازدياد معدلات الاستثمار نتيجة للخدمات المميزة التي تقدمها الحكومة . أما عن جدوى مشاريع الحكومة الالكترونية والعائد الاقتصادى من تنفيذها ، فقد أشارت النتائج التى قامت بها دراسة حديثة إلى أن نسبة العائد إلى التكلفة من تنفيذ مشاريع الحكومة الالكترونية هو ٩٢٪ للمواطنين و٥٤٪ لخدمات قطاع الأعمال و١٢٨٪ للخدمات المتبادلة بين الوحدات الحكومية .

وانطلاقا من هذه المقدمة يمكننا عرض تجربة مصر فى تنفيذ برنامج الحكومة الالكترونية ، وهو ما نطلق عليه مبادرة مجتمع المعلومات المصرى لتوصيل الخدمات الحكومية إلكترونيا ، وهو إحدى العلامات الأساسية فى طريق مصر لرأب الفجوة الرقمية وتحويل المجتمع المصرى إلى مجتمع معلوماتي متطور : وقد بدأت الشرارة بإعلان السيد الرئيس حسنى مبارك لمبادرة مجتمع المعلومات المصرى فى سبتمبر ١٩٩٩ ، وتلا ذلك إنشاء وزارة للاتصالات والمعلومات فى أكتوبر من نفس العام ، ووقع على عاتقها تنفيذ هذا التكليف وكان برنامج الحكومة الالكترونية أحد ستة محاور جنبا إلى جنب مع التوصل / المعاملات الإلكترونية / التعلم الإلكترونى / الخدمات الصحية / توثيق التراث تشكل الركائز الأساسية للانتقال إلى مجتمع المعلومات .

أهداف المشروع

وقد حددت الحكومة المصرية رؤية



واضحة وبسيطة لتنفيذ المشروع وهى تقديم خدمات حكومية على مستوى عال من الجودة للجمهور أينما كانوا وبالشكل الذى يلائمهم بحلول عام ٢٠٠٧ . ولتحقيق هذه الرؤية حددت الحكومة عدة أهداف رئيسية منها مايتعلق بخدمة المواطن بالشكل والأسلوب الأمثل ، ومنها مايهدف إلى تشجيع الاستثمار عن طريق تبسيط الإجراءات وإنشاء بوابة الكترونية لتعامل المستثمر مع الحكومة ، وتوفير المعلومة الصحيحة والدقيقة التى تساعده على اتخاذ قرار الاستثمار ، وبالإضافة إلى تطوير الأداء الحكومى وخفض الإنفاق وتحسين مركز مصر فى النظام العالمى .

وتتبع الحكومة العديد من السياسات المتطورة فى تنفيذ البرنامج والتى تضمن مشاركة فعالة للقطاع الخاص ، وتشجع نماذج التنفيذ المبتكرة ، وتضمن نسبة من المشاركة بين الجهات الحكومية فيما يتعلق بتبادل المعلومات والتعاون فى تقديم الخدمة . ومن أهم هذه السياسات تلك التى تهدف إلى تهيئة المناخ القانونى المناسب لتنفيذ المشروع وتلك المتعلقة بجودة الخدمات .

أما عن الإطار التنفيذى للبرنامج فهو يعتمد على أربعة مشاريع رئيسية تعمل على التوازى لتحقيق الأهداف المعلنة . المشروع الأول هو مشروع إرساء البنية الأساسية ، وهو يختص بالأمور القانونية والتنظيمية فهو من جهة ينشر مفاهيم أمن وسرية الشبكات على الساحة التشريعية ، ومن جهة أخرى يدرس اللوائح المنظمة لعمل الجهات الحكومية ويطورها بالشكل الأمثل، الذى يتلاءم مع سياسات وأهداف البرنامج ، يهتم المشروع أيضا بالنواحى التقنية اللازمة لتنفيذ المشروع فهو يضع المواصفات القياسية لمشاريع الميكنة بالوزارات والجهات المختلفة ، وكذلك يطور من البنية الأساسية للحكومة برفع معدل انتشار الحاسبات وأحدث البرامج بها ، المشروع أيضا يعمل على تصميم وتنفيذ نظام لبنية المفتاح المعلن بالحكومة بالتعاون مع الوزارات والجهات المعنية وبيوت الخبرة وشركات القطاع الخاص . ومن أهم مكونات هذا المشروع بوابة الحكومة الالكترونية والتى صممت لوضع جميع الخدمات الحكومية على الشبكة بشكل متطور يتناسب مع احتياجات المواطن .

أما المشروع الثانى فهو مشروع تقديم الخدمات للمواطنين ، والقرى ، تبع فلسفة

متطورة فى خدمة المواطن والمستثمر تعتمد على توفير الخدمة على مدار ٢٤ ساعة خلال جميع أيام الأسبوع من خلال شبكة الحكومة ، وكذلك من خلال مراكز الخدمة الجماهيرية التي سوف يتم إنشاؤها في جميع المحافظات والأقاليم المختلفة ، وذلك بمكاتب البريد والسنترالات ونوادي تكنولوجيا المعلومات وغيرها . والمشروع أيضا يهدف بشكل رئيسى إلى خدمة سكان المحليات والقرى، وذلك من خلال إنشاء مراكز خدمة متطورة في المحافظات المختلفة ، تقدم خدمة مميزة ومميكنة لسكان المحافظات المختلفة.

مثال ذلك العديد من الخدمات التى تقدم من خلال بوابة الحكومة المصرية على الإنترنت ومنها الحصول على مستخرج من شهادة الميلاد أو بدل فاقد الرقم القومى (يقدم الطلب من على الإنترنت وترسل شهادة الميلاد أو بدل فاقد الرقم القومى إلى المنزل فى خلال ٤٨ ساعة بالبريد المخصوص الذى يسلم باليد) وسداد فاتورة التليفون وبعض الخدمات الأخرى التي يتوالى تنفيذها تباعا وندعو القارىء إلى زيارة الموقع وعنوانه www.egypt.gov.eg والموقع يقدم خدماته باللغة العربية .

أما المشروع الثالث فهو مشروع ميكنة نظم العمل وتطبيق نظام الأرشيف الالكترونى بالوزارات والجهات الحكومية المختلفة وهو مبادرة لاستغلال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى رفع كفاءة الأداء الحكومى وخفض النفقات ، ويقدم المشروع فكرة الميكنة من خلال مجموعة من التطبيقات الالكترونية الموحدة لتخطيط موارد المؤسسة الحكومية والتي تتضمن نظم الحسابات ، والموازنة ، وشئون العاملين ، والمخازن ، والمشتريات . يتم تنفيذ هذا المشروع بالتعاون مع الشركات المصرية وهو يهدف من جهة إلى تطوير الأداء بالحكومة عن طريق إعادة هندسة دورات العمل ومن جهة أخرى إلى تشجيع شركات القطاع الخاص وبناء قدرة تنافسية تضمن لها وجودا فى الساحة المحلية والإقليمية .

والمشروع الرابع والأخير هو مشروع بناء الهيكل المعلوماتى وقواعد البيانات الاقتصادية ودعم القرارات ويهدف إلى توفير معلومات دقيقة لصناع القرار من خلال قواعد بيانات عملاقة تشمل جميع البيانات وتتصل ببعضها وتغطى عدة قطاعات اقتصادية مختلفة ، وسيوفر المشروع أيضا مصدر معلومات هائلا للمستثمرين لإتمام دراسات عن



مشاريعهم تساعدهم على تحـديد العـائد والمخـاطر المتوقـعـة من التنفيذ .

انجازات المشروع

وقد حقق المشروع العديد من الإنجازات فى عدة مجالات . ففى مجال البنية الأساسية تم تنفيذ بوابة الحكومة المصرية على شبكة الإنترنت وموقعها http://www.egypt.gov.eg وهى بوابة الكترونية لتقديم العديد من الخدمات للمواطن والمستثمر ، تم كذلك وضع مواصفات قياسية لكل من نظم الشبكات والتراسل بالحكومة ، إدارة وتصنيف الوثائق ، التكامل بين التطبيقات وتأمين المعلومات . أما من ناحية تهيئة الجهاز الحكومي ورفع قدرته التنافسية ففى هذا المجال تم التعاون مع الشركات العالمية لإتاحة الفرصة أمام جميع الجهات الحكومية للتمتع بالتراخيص وأدوات التطوير الحديثة بسعر مخفض .

أما فى مجال تقديم الخدمات فقد تم تنفيذ العديد من الخدمات التى تخدم المواطن منها الاستعلام عن ودفع فاتورة التليفون ، وكذلك استخراج بدل فاقد الرقم القومي ومستخرج شهادة الميلاد بالتعاون مع وزارة الداخلية ، ومنها أيضا الاستعلام عن نتائج الثانوية العامة وخدمات التنسيق بالجامعات . أما عن خدمات المستثمرين فقد تم تنفيذ خدمات الاستعلام عن التعريفة الجمركية ، متابعة الإقرار الضريبى ، وحساب ضرائب المبيعات بالتعاون مع وزارة المالية والمركز الضريبي النموذجى الموحد .

وفيما يتعلق بميكنة العمل بالحكومة تم تنفيذ نظام العمل الجديد فى وزارة الاتصالات والمعلومات حيث تعمل جميع النظم فى الوزارة بالشكل الآلى الحديث ، كما تم البدء فى نشر النظم الحديثة لتخطيط موارد المؤسسة فى خمس وزارات أخرى، أما فى مجال الوثائق والأرشيف الالكترونى ، فقد تم تطبيق النظام فى مكاتب خمسة من الوزراء بالإضافة إلى مكتب رئيس الوزراء . هذا بالإضافة إلى مايزيد على ٢٨ مشروعا آخر لميكنة نظم العمل بالجهات المختلفة مثل النيابات والشهر العقارى وغيرها .

وبالرغم من هذه الإنجازات فمازال المشروع يواجه العديد من التحديات بعضها يتعلق بالأمور القانونية والتنظيمية ومنها عدم وجود إطار قانوني يشرع عملية إتمام المعاملات عبر الشبكة وكذلك عملية سرية تداول البيانات والمعاملات ، والبعض الآخر يتعلق بصعوبات فى

التنفيذ ناتجة عن غياب الوعي بفلسفة البرنامج وبالتالى مقاومة تنفيذه ، وأخيرا عقبات ناتجة عن المعدل المنخفض لانتشار الحاسب الآلي بين المواطنين وكذلك عدم وجود إطار ميسر للسداد الالكتروني حيث إن استخدام بطاقات الائتمان شفى مصر مازال محدودا . وقد اتخذت الحكومة العديد من الخطوات وتبنت العديد من المشاريع لتخطى هذه العقبات ، فمن جهة تم تشريع قانون للتوقيع الالكتروني وهو حاليا بانتظار العرض على مجلس الشعب، ومن جهة أخرى يقوم البرنامج بالعديد من حملات التوعية والتدريب على استخدام النظام الجديد ، كما تبنت وزارة الاتصالات والمعلومات مبادرة الإنترنت المجاني وحاسب لكل منزل والتي تهدف إلى انتشار معدل الحاسب الآلي بين المواطنين وكذلك قامت بإنشاء مايزيد على ٥٠٠ ناد لتكنولوجيا المعلومات .

ويركز البرنامج على مبدأ رئيسي وهو مشاركة المجتمع بجميع فئاته في جميع خطوات تنفيذ المشروع من تخطيط وتنفيذ وتقييم للأداء وذلك من خلال عدة قنوات منها البحث الميداني والمؤتمرات وورش العمل وغيرها ، والهدف من ذلك هو ضمان قيام البرنامج بأهم دور له وهو خدمة المواطن والمستثمر بالشكل الأمثل ■

أقوال عاشت

● ذمة البعض في إمضائه والبعض ينكر حتي إمضائه

ميخائيل نعيمة

●يجب علي الأديب أن يهدم دون أن ينسي البناء

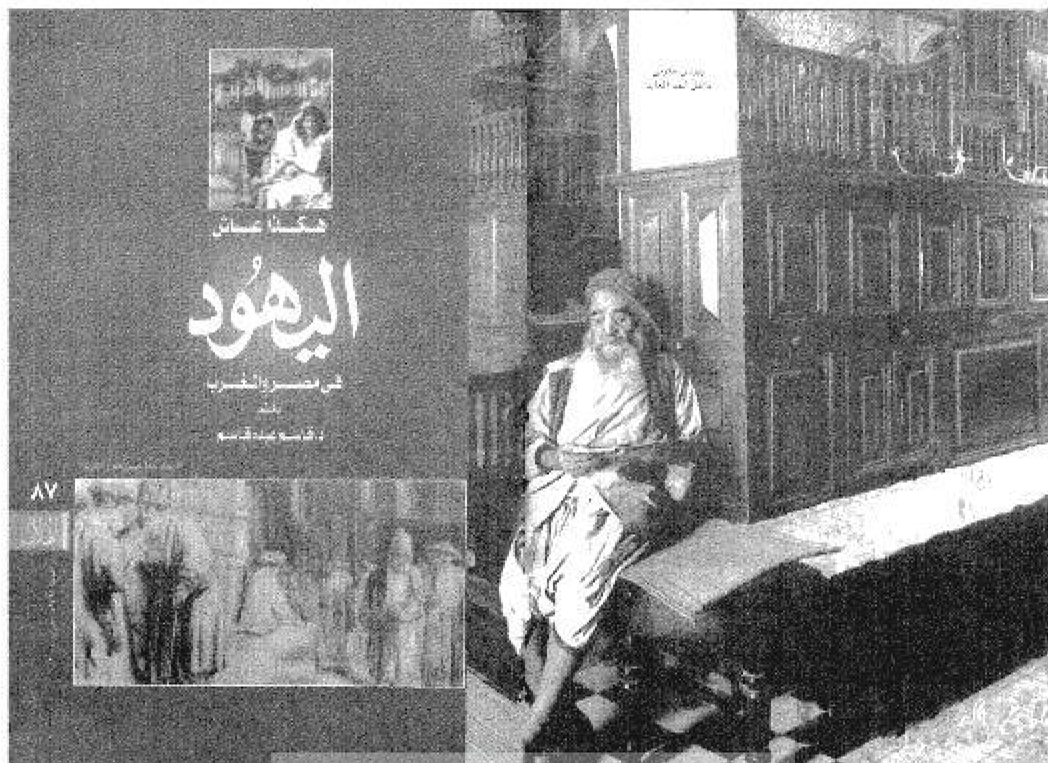
سلامة موسى

●الطمأنينة هي الدليل علي سوء طوية النفس

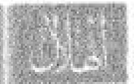
ليو توليستوي

●لأن الناس لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الموت والبؤس والجهل ، قرروا الا يفكروا فيه ، ليعيشوا سعداء

باسكال


هكذا عاش
اليهود
في مصر والمغرب
د. قاسم عبده قاسم
٨٧

كانت مصر قد تحولت إلى مركز حضارى وثقافى واقتصادى ذى جاذبية طاغية منذ منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ؛ وذلك بسبب الأحوال المضطربة فى المنطقة العربية وعالم البحر المتوسط من ناحية ، وقيام دولة قوية قادرة فى الداخل ومهابة فى الخارج هى دولة سلاطين المماليك التى كانت عاصمتها القاهرة من ناحية أخرى . إذ إن سقوط الخلافة العباسية ، وتصاعد نجاحات الإسبان الكاثوليك ضد مسلمى الأندلس جعل القاهرة بمثابة الحصن الأخير المدافع عن الحضارة العربية الإسلامية ؛ فقد تمكن سلاطين المماليك من دحر الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع وواصلوا هجومهم القوى على المعاقل الفرنجية فى فلسطين وبلاد الشام حتى تم لهم القضاء على آخر المعاقل فى عكا سنة ١٢٩٢ ميلادية ، ومن ناحية ثانية استطاع المماليك هزيمة المغول فى عين جالوت وإعادة الخلافة العباسية فى القاهرة كما واصلوا حروبهم ضد المغول الذين لم يلبثوا أن تحولوا إلى الإسلام وصاروا قوة مهمة فى عالم الإسلام فى غضون جيلين .





أدى هذا بطبيعة الحال إلى نتيجتين غاية فى الأهمية :

أولاهما ، أن القاهرة صارت ملاذا آمنا لكل الفارين من المغول فى الشرق والشمال أو الهاربين من محاكم التفتيش الكاثوليكية فى إسبانيا التى انحسرت مساحة الدولة الإسلامية فيها بشكل مطرد حتى تم النصر النهائى للكاثوليك الإسبان سنة ١٤٩٢ م .

وثانيتهما : أن التجارة العالمية تحولت إلى المرور بالأراضى المصرية ، وصارت الموانىء والمدن المصرية مناطق جذب

للتجار والعلماء والساعين إلى الرزق من كل مكان ، ولم يكن يهود المغرب والأندلس استثناء فى ذلك بطبيعة الحال .

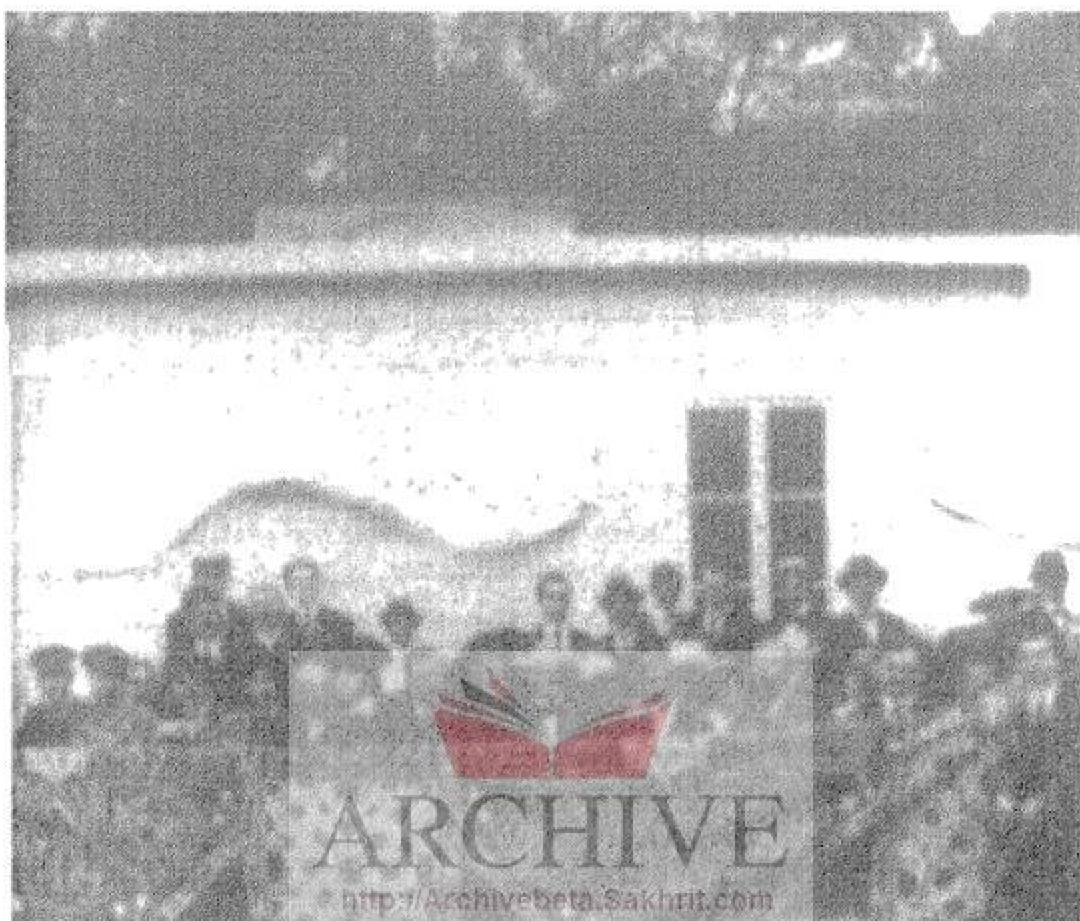
بيد أنه ينبغى علينا أن نوضح أن اليهود فى مصر كانوا على الدوام من عناصر البناء السكانى المصرى منذ عصور موغلة فى القدم . ولم يكن اليهود فى مصر جالية أجنبية ذات خصائص اجتماعية / ثقافية متميزة ، وإنما كانوا جزءا من الجسد المصرى الكلي ، وباستثناء الدين الذي اعتنقوه فإن اليهود قد شاركوا بقية المصريين فى كل شيء آخر ؛ اللغة والعادات والتقاليد والخصائص الثقافية والسمات الاجتماعية العامة .

الهجرة إلى مصر

وإذا كان اليهود قد عاشوا حياتهم باعتبارهم مصريين ؛ فإنهم ظلوا على الدوام أقلية ضئيلة العدد لأسباب دينية وتاريخية موضوعية ، ومع هذا فإن الجماعة اليهودية فى مصر ظلت تستقبل فى الفترة التى يهتم بها البحث، أعدادا من المهاجرين من فارس والعراق وفلسطين لأسباب مختلفة ؛ أهمها الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية المضطربة بسبب الغزو المغولى والحروب الصليبية، كما أن أعدادا كبيرة نسبيا من المهاجرين اليهود إلى مصر جاءوا بفعل الحروب الدائرة بين المسلمين والكاثوليك فى إسبانيا والرياح السياسية والاقتصادية المعاكسة التى هبت على بلاد المغرب العربى آنذاك .

من ناحية أخرى، كان وجود اليهود فى المغرب قديما ويرجعه بعض الباحثين إلى موجات ثلاث من الهجرة اليهودية دفعت بأعداد من اليهود إلى بلاد المغرب العربى قبل الإسلام . وقد أتاحت الدول الإسلامية لليهود فى المغرب قدرا كبيرا من الحرية بحيث برز من يهود المغرب فى المناصب السياسية والإدارية فى مختلف دول المغرب ، كما أن حكام الدول المختلفة التى قامت فى المغرب قربوا اليهود ، بل إن بعضهم بنى لهم أحياء خاصة كما حدث فى فارس الجديدة. وقد عمل يهود المغرب فى كل المهن والحرف التى عرفها ذلك الزمان . ولكن الحروب المتواصلة بين حكام المغرب ، وتدهور الأحوال الاقتصادية ، واضطراب الأمور السياسية ، منذ القرن الثامن الهجرى فصاعدا جعلت من هذه المناطق مناطق طاردة لليهود القادرين ماليا بحيث هاجروا إلى مناطق أكثر أمنا ، ولم يكن هناك مكان أفضل من مصر فى تلك الأثناء .

وربما تكون ظروف اليهود فى مصر قد تحسنت بعد قيام الدولة الفاطمية التى يعتبرها المؤرخون العصر الذهبى لأهل الذمة من اليهود والنصارى ؛ وقد أدى هذا إلى زيادة هجرة اليهود إلى مصر أثناء ذلك العصر (٣٥٨-٥٦٤ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) . ومن ناحية أخرى شهد



احتفال يهودي في مصر

القرنان الثاني عشر والثالث عشر للميلاد تصاعد النشاط التجارى فوق مياه البحر المتوسط . وتكشف أوراق الجنيزا عن أن قسما كبيرا من يهود مصر آنذاك كانوا من المهاجرين أو من سلالتهم .

وقد أمدنا الرحالة اليهودى بنيامين التطيلي الإسباني بتقرير عن أعداد يهود مصر في القرن الثاني عشر وذكر أنهم موجودون في خمسة عشر مكانا بمختلف أنحاء البلاد ، والملاحظ أن النسبة العالية من هذه التجمعات اليهودية كانت في المدن وفى الموانيء الرئيسية ، كما عاشت أعداد منهم في الريف . كذلك أوضحت أوراق الجنيزا أن اليهود عاشوا في ثمانية عشر مكانا آخر غير تلك الأماكن التى ذكرها بنيامين التطيلي .



الاعياد اليهودية في المغرب وتونس

الاسكندرية .. مقصد اليهود

وفى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى حدثت تطورات سياسية وعسكرية فى المنطقة العربية وحوض البحر المتوسط زادت من أعداد اليهود المهاجرين إلى مصر بصفة عامة؛ فضلا عن أن الظروف السياسية الصعبة ليهود المغرب العربى دفعت بأعداد منهم إلى الهجرة إلى مصر بسبب الرواج الاقتصادى الذى نعمت به نتيجة تحول الطرق التجارية العالمية إليها .

وإذا استعرضنا الأماكن التى ذكرت أوراق الجنيزا أن اليهود أقاموا بها استطعنا أن نعرف أن نسبة كبيرة من يهود المغرب قد استقروا فى الاسكندرية ومدن غرب الدلتا التى كانت فى طريق

الهجرة من المغرب إلى مصر، ووصلت منهم أعداد إلى القاهرة بطبيعة الحال .

كان هناك عدد من اليهود المهاجرين من جنوب أوربا وصقلية يسكنون الاسكندرية أملا فى الحصول على عمل فى هذا الميناء المهم . ولكن أعدادا أخرى من يهود المغرب استقروا فى الاسكندرية أيضا . فقد ذكر الرحالة اليهودى ميشولام الثولتيرى ، الذى زار مصر سنة ١٤٨١ م ، أنه كان يسكن الاسكندرية حوالى أربعة آلاف يهودى ، ثم تناقصت أعدادهم حتى لم يعد بالمدينة سوى ستين أسرة يهودية ، وذكر ميشولام أيضا أن قسما كبيرا من الاسكندرية قد صار خرائب ولم يكن بالمدينة سوى معبدين يهوديين أحدهما كبير والآخر صغير .

كذلك فإن الرحالة اليهودى «عوبديا دا برتنورو» الذى زار الاسكندرية سنة ١٤٨٨ م ذكر أن عدد يهود الاسكندرية كان خمسا وعشرين أسرة فقط وتكشف وثائق الجنيزا عن أن يهود الاسكندرية كان بينهم عدد من اليهود الأثرياء العاملين فى التجارة العالمية ولكنها تدهورت بعد ذلك تماما لأسباب كثيرة . وعلى الرغم من تدهور المدينة فإن الإسكندرية ظلت مقصدا لليهود المغاربة الوافدين بحثا عن فرص العمل وكسب العيش . بيد أن الأحوال العامة للاسكندرية ظلت تتدهور باطراد مما أدى إلى تناقص أعداد سكانها ومن بينهم اليهود بطبيعة الحال .

واللافت للنظر أن المهاجرين اليهود لم يتوقفوا عن القدوم إلى مصر فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك ؛ إذ يحدثنا عوبديا أنه وجد بالقاهرة حوالى خمسين أسرة يهودية ممن أجبرتهم السلطات الإسبانية الكاثوليكية على نبذ دينهم ، وقد فروا إلى القاهرة لكى يعودوا إلى الديانة اليهودية . وقال هذا الرحالة إنه وجدهم فى القاهرة فقراء معدمين لأنهم اضطروا إلى ترك أموالهم وممتلكاتهم وعائلاتهم فى إسبانيا .

يهود المغرب فى مصر

ونستنتج من تقارير الرحالة اليهود ومن أوراق الجنيزا والمصادر العربية أن اليهود عاشوا فى ثلاثة وثلاثين مكانا على الأقل فى جميع أنحاء مصر، ويستلفت النظر أن أكبر الجماعات اليهودية عاشت على طريق الهجرة من فلسطين مثل بنها وبلبيس اللتين كانتا من أكبر أماكن تجمع اليهود المهاجرين من فلسطين إلى مصر ، ومن ناحية أخرى ، كانت الاسكندرية وزفتى والمحلة الكبرى وسمنود ودمسيس ودميرة ودمنهور .. وغيرها من أماكن التجمعات اليهودية الكبيرة على طريق الهجرة من المغرب إلى مصر .

فقد كانت مدينة المحلة الكبرى مركزا تجاريا مهما فى الوجه البحرى منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولأن

حمل اليهود أسفارهم
في الحل والترحال !



هذه المدينة كانت عاصمة إقليم الغربية منذ وقت طويل فإنها جذبت عددا متزايدا من المهاجرين من شمال افريقيا كما اتخذها عدد كبير من المهاجرين اليهود من تونس والمغرب مستقرا ومقاما

ومنذ فترة بعيدة عاشت بمدينة المحلة الكبرى جماعة يهودية كبيرة العدد نسبيا ظلت موجودة بها حتى منتصف القرن العشرين على أقل تقدير ، ولاتزال إحدى مناطق هذه المدينة تحمل اسم خوخة اليهود . وتكشف وثائق الجنيزا التى ترجع تواريخها إلى القرن السادس والقرن السابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) أن المحلة الكبرى كانت بؤرة هامة لتجمع اليهود المهاجرين من بلاد المغرب العربى .

وقد اشتغل يهود المحلة بعدد من الحرف والصناعات والمهن ؛ منها نسج الحرير والطب وجباية الضرائب ، كما كان من بينهم عطارون وأصحاب حوانيت وصباغون وتجار يعملون فى التجارة العالمية ، وتكشف وثائق الجنيزا أيضا عن أن يهود مدينة المحلة الكبرى كانوا يمتلكون المنازل والعقارات ، كما أن عددا من المعابد اليهودية كان قائما فى هذه المدينة

يهود زفتى وميت غمر

وعلى مدى أجيال عديدة كانت مدينة «ميت غمر» بالغربية سكنا لجماعة يهودية كبيرة العدد أغلبها من اليهود المهاجرين من المغرب أو من سلالتهم ، وكان بعض اليهود فى ميت غمر تجارا على حين توزع الآخرون بين مختلف المهن والحرف . وتشير أوراق الجنيزا إلى أنه كان بهذه المدينة معبدان يهوديان .

وعلى الضفة الأخرى من فرع دمياط كانت مدينة «زفتى» تواجه «ميت غمر» وكانت بها هى الأخرى جماعة يهودية كبيرة ، وكان الأحبار والربيون من يهود هذه المدينة هم الذين يتولون المناصب الدينية الرئيسية فى الجماعة اليهودية فى الوجه البحرى كله ، وكانت بمدينة زفتى محكمة خاصة باليهود تتولى الفصل بينهم حسب شريعتهم . ولدينا عدد من وثائق الجنيزا تتراوح تواريخها بين سنة ١١٠٤ وسنة ١٢٣٢ م تشير إلى أن عدد يهود زفتى كانوا حوالى ستين عائلة أو تسعين عائلة تضم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة فرد على أكثر تقدير، ولم يكونوا كلهم من المهاجرين من شمال افريقيا وبلاد المغرب العربى بل كان بينهم عدد من المهاجرين اليهود القادمين من فلسطين.

وقد اكتسبت مدينة زفتى أهميتها بسبب نشاطها الاقتصادى المتنوع ؛ إذ كان التجار يفدون إليها لشراء الكتان الذى انتشرت زراعته فى المناطق الريفية المتاخمة لها . كذلك كان التجار يفدون إليها بخام الحرير الذى استخدمه أهالى زفتى فى صناعة المنسوجات الحريرية التى كانت أنوال النسيج المنتشرة فى

المدينة والقرى المحيطة بها تستخدمه . وقد اشتهرت النساء اليهوديات فى مدينة زفتى بإنتاج نوع من النسيج على أنوالهن ذكرته وثائق الجنيزا باسم «شغل الريف» كان يباع فى أسواق القاهرة كذلك كانت بالمدينة وكالة تجارية كبرى كان يتم تداول منتجات المدينة وما يرد إليها فيها . ونستنتج من وثائق الجنيزا أن مدينة زفتى ضمت عددا من اليهود القرائين إلى جانب اليهود الربانيين الذين كانوا أغلبية اليهود آنذاك .

لم تكن تلك بطبيعة الحال هى المدن التى اقتصر وجود اليهود عليها فقط بل إنهم انتشروا فى عدد من المدن والقرى على امتداد الأراضى المصرية؛ ولكننا أردنا أن نرصد أهم أماكن تجمعات اليهود المهاجرين من المغرب العربى فقط.

ثلاث فئات عددية

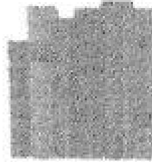
ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الجماعات اليهودية فى مصر ، والتى ضمت عددا كبيرا من المهاجرين ، يمكن رصدها فى فئات ثلاث وفقا لحجم الجماعة وأهميتها الدينية :

ففى العاصمة القاهرة كان يقيم رئيس اليهود الذى عرف باسم «الناجد» وحوله كانت تتركز السلطة الدينية والقضائية العليا حيث تدار الشئون الداخلية للجماعة اليهودية ولذلك كانت الجماعة اليهودية بالقاهرة أكبر تجمع لليهود فى مصر .

أما الجماعات متوسطة العدد فكانت تقيم فى المدن والموانىء المهمة مثل الاسكندرية ودمياط والمحلة الكبرى وزفتى فى الغربية ، وبلبيس وبنها فى الشرقية وقوص فى الوجه القبلى .

وكانت الجماعات الأصغر عددا تقيم بالريف وتعتمد كثيرا فى أمورها الدينية والقضائية على المعابد ورجال الدين اليهود فى المراكز والمدن القريبة..

تكشف هذه الدراسة عن أن يهود المغرب قد وفدوا إلى مصر ضمن هجرات عامة جاءت إلى مصر من بلاد المغرب العربى تحت وطأة الرياح السياسية المعاكسة ، أو سعيا وراء الرزق ، أو هربا من الخطر الإسبانى والبرتغالى المتصاعد ضد بلاد المغرب العربى أواخر العصور الوسطى .. أو ما شابه ذلك من أسباب . كما تكشف عن حقيقة أن اليهود فى المدن والريف المصرى لم يعيشوا بمعزل عن بقية المصريين سواء فى سكنهم أو فى الحرف والمهن التى امتهنوها . كما تكشف عن أن اليهود الوافدين كانوا يعاملون نفس معاملة اليهود المصريين بمقتضى المفاهيم القانونية المستمدة من الشريعة الإسلامية ، ولذلك فإنهم مارسوا شتى الحرف والمهن التى عرفها المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ■



الحيوان

للجاحظ

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

شهرته الجاحظ، وكنيته أبو عثمان، واسمه عمرو بن بحر، ولد بالبصرة ١٦٠هـ = ٧٧٦م، والبصرة يومئذ مهد العلم، ومنتدى الأدب، ومركز الإشعاع الثقافى فى العالم الإسلامى كله، وفيها أمضى طفولة شقية، فقد والده وهو بعد صغير، وخلفه بلا ثروة يعيش منها، ولكن جو المدينة الثقافى جعل من ذهابه إلى الكتاب ضرورة، وفيه أظهر الصبى ذكاء خارقا، ونهما حادا إلى المعرفة، فلما اشتد ساعده أخذ يعمل إلى جانب طلب العلم، يبيع الخبز والسمك فى الأسواق، ثم يغشى المساجد يلقى علماءها، يسمع منهم أو يجادلهم، ويتردد على سوق المربد قرب البصرة، وإليه يختلف الشعراء والخطباء، وشغله ذلك كله عن طلب العيش فضاقت به أمه، وذات يوم جاءها يطلب طعاما فقدمت له طبقا فيه كراريس ورق وقالت: كل، سخرية من

اشتغاله بالدراسة، واهتمامه بالقراءة، وانصرافه عن الكسب، فخرج إلى المسجد ممرورا، ورآه يونس بن عمران، أحد كبار العلماء، فأدرك حاله، وسأله عن شأنه، ولما وقف على أمره أعطاه خمسين دينارا، فأخذها الجاحظ منه ومضى إلى السوق، فاشترى دقيقا وطعاما وعاد إلى داره مزهوا، والحمالون من ورائه، فلما رأته أمه دهشت، وسألته: من أين لك هذ؟ فرد عليها متشفيا: من الورق الذى قدمته لى فى الطبق!.

كان الجاحظ نهما إلي القراءة، لم يقع في يده كتاب إلا أتى عليه، يكتري حوانيت الوراقين، ويبيت فيها للدرس والمطالعة، وله قدرة فائقة على الحفظ والرواية، فأكسبه ذلك معرفة واسعة، وثقافة منوعة، بين دينية، وأدبية، عربية ويونانية، وهندية وفارسية، وعاش فى عصر طافح بالقمم فى كل فن وعلم، فى الفقه والحديث والتوحيد، والعقائد والتصوف والفلسفة، والنحو واللغة والأدب. وغيرها.

ثم التقى بالنظام، أبى إسحاق إبراهيم بن سيار، رأس المعتزلة على أيامه، وتتلمذ عليه وأعجب به أستاذا، واتخذ الاعتزال مذهبا، وأصبح أحد ثلاثة من كبار رجال المعتزلة، وله بينهم اتباع يسمون «الجاحظية».

وإلى جانب العلم المقروء كان صاحب رحلة، أمضى حياته متنقلا بين البصرة وبغداد، ورحل إلى دمشق، وزار أنطاكية، وثمة احتمال أنه جاء إلى مصر، فأكسبه التنقل وتنوع البيئات وتباين العيش، عمقا فى التجربة وشمولا فى النظرة، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والناس.

شيطان فكه

كان الجاحظ دميم الخلقة، جهم الوجه، جاحظ العينين، ويلغ فيهما الغاية، ومن ذلك لقبه، حتى أن الخليفة المتوكل عندما سمع بمنزلته من العلم والفهم استقدمه إليه فى سامراء ليؤدب ولده، فلما رآه استبشع منظره، فصرفه بعشرة آلاف درهم، وهذه النقائص الجسمية كانت وراء دعابته ومرحه وسخريته من نفسه، وتندره بأعز أصدقائه، واستخف بالعادات المرعية، والآداب السائدة، وأدرك أن المراوحة بين الجد والهزل تذهب برتابة الحياة، وتخفف من ثقلها، وأن تقديم الهزل بين يدى الجد

أنفع له، وأدعى إلى إقبال الناس عليه، فكان لطيف الروح، فكه المحاضرة، صادق المواساة، سريع البديهة حاضر النكتة، يقبل على الحياة مغتبطا بها، متفائلا لايرى منها إلا وجهها المشرق، يسجل الفكاهة ولو على نفسه، يقول: «ما أخجلني إلا امرأة مرت بي على صائغ يهودي، وأشارت إليه وقالت: مثل هذا، وانصرفت، فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إلى بفص، وأمرتني أن انقش عليه صورة شيطان، فقلت لها: يا سيدتي، أنا ما رأيت الشيطان، فجاءت بك!

وأقبلت الدنيا على الجاحظ، وأقبل عليها يعب من متعها الحسية، ولم تجذبه الحياة الخاشعة التقية التي كانت تظل جانبا كبيرا من مواطنيه وشيوخه، فأضرب عن الزواج، وانصرف إلى التسري، ولم يعقب ولدا، ولم يكن راغبا في الإنجاب،سأله أحدهم حين رأى رفاهيته: ألك ضيعة بالبصرة؟. فابتسم الجاحظ وقال: إنما أنا وجارية لي، وأخرى تخدمها، وخادم وحمار، أهديت كتاب «الحيوان» إلى ابن عبدالملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار، وكتاب «البيان والتبيين» إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وكتاب «الزرع والنخل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لاتحتاج إلى تجديد ولاتسميد.

عقله وحريته

وكان يحرص دوما على أن تكون حياته الخاصة ملكا له، لايجاهر بمعصية، ولا يباهي بخطيئة، يؤثر الستر، ويبتعد عن مواطن الإثارة، ولا يرى في مداراة العامة عيبا، ويتخذ من مرضاتها مذهبا، مادام ذلك لايحمله على غير مايرغب فيه من الأفكار والعادات.

لكن البصرة مالبثت أن ضاقت بالجاحظ، أو لعل الجاحظ أحس أنه أكبر منها، فرحل عنها إلى بغداد، وفيها مثل دور الطالب من جديد، فتردد على مجالس العلماء والأدباء، ووجد عند شيوخها مالم يجده عند أساتذته في البصرة، وفيها استطارت شهرته، وسمع به المأمون فأراد أن يفيد منه، وأسند إليه ديوان الرسائل فلم يبق فيه غير أيام ثلاثة، تركه بعدها هاربا بعقله وحريته، لأنه لم يستطع أن يأخذ نفسه بنظم الدواوين وتقاليدها وما تقتضيه من وقار مصطنع، ولم يتحمل دسائس الزملاء الذين خافوا على أنفسهم من ذكائه وعلمه، ففارق أكبر وظيفة أدبية في ديوان الخلافة غير آسف، ووصف لنا بدقة جو الوظائف حينذاك، وحتى أيامنا هذه يقول: «فإن أولئك (الموظفين) لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة، قد لبسها الرعب، وألفها العزل .. فهم مع ذلك في تكدير وتنغيص، خوفا من سطوة الرئيس، وتنكيل الصاحب، وتغيير الدولة»

شهيد الكتب

عاش الجاحظ حياة طويلة، خصبة مثمرة، وندع المبرد صاحب كتاب الكامل، يصف لنا أيامه الأخيرة، وقد ثقلت عليه السنون فناء بها جسمه، ووهنت أمامها قواه، وأصيب بفالج نصفي، فعاد إلى البصرة مسقط رأسه، ومهبط ذكرياته، يحتمى ببيته وأمسه، يقول المبرد: «دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له: كيف أنت؟، فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ماشعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآله، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة، أنا فيها». ولم يمت الجاحظ ضحية المرض، وإنما ذهب شهيد الكتب، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به، وهو جالس بينها يقرأ، فانهالت عليه وقتله، ولحدته ميتا بعد أن كانت شاغل حياته وسلوة عقله، عام ٢٥٥هـ =٨٦٨م.

أحاط الجاحظ بأكثر ما عرف على أيامه من علوم ومعارف، ولم يترك علما إلا وضع فيه مؤلفا، قد يكون كتابا ضخما أو رسالة صغيرة، وعالج قضايا لم يفكر فيها أحد قبله، فبحث فى طبائع الأشياء والحيوان والنبات والمعادن، وأقام علمه على أساس من المشاهدة والملاحظة والتجربة، وكتب فى المعلمين وبنى هاشم واللصوص وصفات الله وكيد النساء، وأربت مؤلفاته على ثلاث مائة وخمسين، بين كتاب مطول ورسالة مختصرة، لم تصلنا كاملة، وضاع معظمها، فنحن لانعرف شيئا – مثلا – عن كتابه «نظم القرآن»، إلا ما أورده هو عنه فى كتابه «الحيوان» وما لدينا من بقية مخطوطاته تتقاسمه خزائن الكتب فى العالم أجمع، طبع معظمها وبقيت منها قلة لن يبعد بها الزمن حتى تطبع، فأدب الجاحظ يجد من الدارسين عناية ومن القارئين إقبالا.

الحيوان خلاصة معرفية

يعد **كتاب الحيوان** أهم كتاب بين تراث الجاحظ، سعة وعلما وشمولا، وأقلها شعبية، وأحسب أن عنوان الكتاب جنى عليه، لأن من لم يقرأه فعلا يتصوره دراسة فى علم الأحياء، يهم العلماء المختصين بالحيوان وحدهم، وكنت أحد هؤلاء الذين جهلوه لزمن طويل، حسبته كتابا علميا فى تشريح الحيوان أو التأريخ له، والتعريف بخصائصه وفوائده على أحسن تقدير، ومرور أكثر من ألف عام على تأليفه يجعل مافيه من علم قديم تجاوزه الزمن، ثم عرفت حقيقته طالب بعثة فى إسبانيا، فقد وجدتهم فى جامعة مدريد يعرفونه جيدا، ويتحدثون عنه فى إجلال، وعرفت أن جورج سارتون خصه بصفحات طوال فى الجزء الأول من كتابه «مقدمة لتاريخ العلم»، وأن المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس عرض لأفكار الجاحظ الفلسفية والكلامية وتأثيره فى نشأة الفلسفة الإسلامية فى الأندلس، ولما كانت ترجمة كتاب الحيوان إلى اللغة الإسبانية تتطلب جهدا مضنيا، لتنوع معارفه وسعة مادته، وتقدم سن بلاثيوس،

وسوء طباعة الكتاب إذ ذاك، فقد اكتفى بالتعريف به، صنفه أبوابا، وصنع كشافا لمادته باللغة الإسبانية، ليسهل على المستشرقين الرجوع إليه والإفادة منه، ونشر بحثه هذا في مجلة إيزيس (العدد ٤٣، المجلد ١٤، مايو ١٩٣٠) ثم أعيد نشره بعد وفاة بلاثيوس في أعماله المختارة، المجلد الثاني، مدريد ١٩٤٨، وقمت بترجمة هذه الدراسة إلى اللغة العربية في كتابي «دراسة في مصادر الأدب».

أوجز الجاحظ محتوى كتابه، وهو أعلم به من غيره يقول: «هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو، كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الأبي كما يشتهيه الفطن».

أتم الجاحظ الكتاب، وهو مفلوج، في سن عالية، فجاء خلاصة تجاربه وثقافته، ففيه طبيعة وفلسفة وسياسة وفرق دينية، وقضايا جغرافية، وعرض لتأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر والأجناس البشرية، وفيه حديث عن الطب والأمراض التي تصيب الإنسان والحيوان، وعن المفردات الطبية، والعرب والأعراب وأصولهم وعاداتهم وعلومهم وخرافاتهم، وأفاض القول في القرآن والحديث والفقه والأديان، وجمع صفوة من الشعر العربي ونادره، ومن الأمثال والغرائب، وكسا ذلك كله أثوابا من فكاهة الجاحظ لاتجعلك تمل قراءته مهما أطلت، ونثر بين صفحاته قضايا تتصل بالجنس، إذا تأملتها وجدتها علما، ويراها المتزمتون مجونا.

أبواب وفصول الحيوان

يمكن كسر مواد الكتاب على خمسة أقسام كبرى، كل قسم منها يتضمن مواد مختلفة، تتصل به تكوينا أو نتاجا:

● **العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيماوية:**

وفيه عرض للحرارة والذرة والرائحة والصوت والفيزياء، والفلك واللون والماء والمناخ، والمغناطيس والهواء، ومايتصل بكل مادة من هذه المواد.

● **علوم الحيوان ومايتصل به:**

وفيه تصنيف عام لأنواع الحيوان: تمشي أو تطير أو تسبح أو تزحف، وحيوانات جوية ومائية وأرضية.. تعيش على اللحم، أو تأكل النبات أو تعيش عليهما معا.. وحيوانات جميلة، وأخرى قبيحة، أو حمقاء، وصفات وخصائص ترتبط حين تمرض، أو حين تدافع عن نفسها، وأشكالها ومساكنها وصفاتها الاجتماعية.

● **مشكلات تتصل بالجنس والتناسل:**

وفيه عرض للتناسل التلقائي، وملامح الجنس عند الإنسان والحيوان، وعلامات

البلوغ عند الغلام والفتاة، وعلم النفس الجنسى، وتحليل الغريزة الجنسية عامة، وعند المرأة خاصة، وتأثير الخمر والغناء فيها، والعلاقات الجنسية بين الحيوان، وبيوت البغاء في الهند، ورذيلة اتصال الإنسان جنسيا بالحيوان، والاعتدال في الجماع سبب طول الحياة، والختان وتأثيره في اللذة الجنسية، ختان الرجال والنساء عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، ونساء الروم والهنود وفارس أشد شهوة وأكثر فجرا من العربيات وأكثر فجرا من العربيات لأنهن غير مختونات، والخصاء، والخصيان والتناسل وطرائقه عند عدد من الشعوب، وتغير طبيعة الخصى في بعض صفاته، خصاء الحيوان، وحديث عن بعض الأساطير والخرافات المتعلقة بالحيوان.

● أنواع الحيوان وفصائله:

يشمل هذا القسم من المادة كل فصائل الحيوان وأنواعه، عرض لطبيعتها، مهما كان نوعها، وشكلها، وللصراع بينها من أجل البقاء.

● قضايا تتصل بالإنسان: وتشمل ثلاثة أفراع رئيسية : موضوعات تتصل بعلم النفس الإنسانى الفردى، وفيها تحدث عن النفس والمعرفة والنوم والشك واليقين والنسيان، والجنون والغضب، والعداوة بين الأفراد، وحب الوطن والشهرة، واللذة والانتحار، والمعمرين وحب الحياة، والقسوة في التعذيب، والانتحار.

وموضوعات تتصل بالسلالة وعلم الاجتماع ، وعرض فيها لتأثير البيئة والمناخ والغذاء وغيرها، وخلقة الإنسان وتأثيرها في نفسيته ، وصعوبة التأقلم على بعض الأجناس البشرية وبعض الحيوانات والنباتات، الذكاء والفراسة، الأجناس البشرية المعروفة على أيامه، وقابلية الهنود لتعلم اللغة العربية، ومعارف عرب الجاهلية في الفلك والطبيعيات، وعن المهارات البشرية المختلفة، وعن المهن الحقيرة والمحترمة، والتى تصنع الثروة، وألعاب العرب، والأطباء والقواد والموسيقيين والراقصين، وألعاب الأطفال والشطرنج، وفن الملاحة وفن صناعة الفسيفساء والزجاج والفخار.

والفرع الثالث والأخير من القضايا التى تتصل بالإنسان موضوعات تدخل في نطاق علم النفس المقارن وفيه تحدث عن الفرق بين الإنسان والحيوان والوحش، وغريزة الحيوان وذكاء الإنسان فيم يتفقان وفيم يختلفان ، لغة الإنسان ولغة الحيوان، وعن وسائل التعبير الخمس: اللغة المنطوقة والمكتوبة، ولغة الإشارات، ولغة الإنسان، ولغة الطفل والخرس، الرموز الرياضية والأرقام الهندية، وكل شعب له كتابته أو مايقوم مقامها، وغيرها.

●الديانات والفرق:

وفى هذا الجانب تحدث عن الملحدين، واليهودية والمسيحية والبوذية والزرادشتية، وخلال حديثه عن هذه الديانات تكلم عن خروج آدم من الجنة والشجرة التى أكل منها، والأساطير المتصلة بالطوفان، ويأجوج ومأجوج، وبنى إسرائيل في التيه، وأن الحواريين أصحاب عيسى كانوا صيادين ، وعن الأناجيل الأربعة، وعن فقر

رجال الدين البوذيين وعفتهم وصدقهم وصحتهم.

وتحدث عن الإسلام، موقف العرب منه، الموضوعات التى اختلف حولها المفسرون، وعلم الكلام، وحكمة البعث، ونار جهنم، والعقاب على المعصية فى الدنيا وفى الآخرة، الفرق الدينية، تعصب المتكلمين، الشيعة وتعصبهم، الزهاد المسلمين، الأولياء والفقهاء، ترجمة النظام المعتزلي، نقد كعب الأحبار الراوية.

وفى هذا الجانب يعرض لألوان من الخرافات، ويتحدث عن الجن والملائكة، وبيوت أقامتها الجن، وظهور الشياطين والجان فى شكل رجل أو ثور أو نسر أو غيرها. والجان تلهم الشعراء، والاعتقاد بأن الجان تعيش فى الخرائب مصدره الضغط النفسى الذى تحدثه الوحدة والصحراء، ويقص حكايات شياطين تجامع النساء ونساء يجامعن الشيطانات، والأرواح والجان والشياطين عند المسلمين واليهود والمسيحيين، ويعرض لمفاهيم التنبؤ بالغيب، والتفاؤل والتشاؤم والحسد، والطلاسم التى فى المدن ضد الحيوانات الضارة، وهاروت وماروت والزهرة وغيرها.

● **الموضوعات اللغوية:**

وتتوزعها عدة محاور:

أولها **الشعر العربي**: حداثته، وأن المواهب الشعرية لاترتبط بالأسباب المادية، ولا العنصرية، ورواية الشعر وتدريسه، والسرقات الأدبية، الجمال والآراء النقدية، والحكمة والمثل ودوراتهما حول الحيوان، والأمثال التى تتصل بالحمار.

وثانيها **الحكايات**: حكايات بذيئة، المؤمنون بالخرافات يفعلون ذلك سذاجة أم ذكاء، ألوان من الحكايات التى كانت سائدة فى المجتمع العربى إذ ذاك، أساطير تتصل بالعواجيز والعصافير.

وثالثها يتصل **بالأعلام**: أسماء بعض الطيور مشتقة من محاكاة أصواتها، أسماء تدعو إلى التفاؤل وأخرى تدعو إلى التشاؤم، إطلاق صفة يهودى على بعض الحيوان وعدم استخدام لفظ مسيحى، أسماء حيوانات تطلق على الإنسان احتقارا، وأخرى تطلق على الجوارى والنجوم والكواكب إطراء. التصغير، الأسماء العبرية، والمدح الذى يؤدى إلى الهجاء. اشتقاقات مضحكة، وصيغ لتصور المستحيل.

هذه رؤوس الموضوعات التى ضمنها الجاحظ كتابه إجمالا، والحديث عنده، حولها، يطول ويمتد، ويخرج - كعادته - من قضية إلى أخرى ثم يعود إلى الأولى. وثمة عدة ملاحظات: أن هذه المواد لاترد مجتمعة فى فصل واحد، فى جزء واحد، وإنما تأتى متفرقة موزعة على أجزاء الكتاب الثمانية. وبعض هذه المعارف تجاوزه الزمن فهو يقرأ تاريخا، وبعضها الآخر أثبته العلم الحديث، وجانب منها أدخل فى باب الخرافة والأسطورة، وكان

الجاحظ يعرف ذلك، ولكنه أوردها تسلية وترويحا.

الكتاب - كما نرى - ليس دراسة منهجية وتقنية لعالم الحيوان، وإنما سيل من الملاحظات العلمية غير المنتظمة، تختلط بالمأثورات الشعبية، والشعر والقصص والحكايات المتصلة بالحيوان.

المعرفة أولا وأخيرا

لايهدف المؤلف أصلا إلى تهذيب القارىء بقدر مايهدف إلى إيقاظه، واضعا أمام عينيه روائع عالم الحيوان، لكى يستطيع أن يتأمل بديع صنع الله، ويؤكد المؤلف فى أكثر من مكان على هذه الغاية، ومنها انبثق منهجه وخطة تحريره.

إنه لايكتب للتقنيين، وإنما لعامة الناس، ومن ثم يهرب من التزام أى منهج علمى منظم فى دراسة أنواع الحيوان المختلفة وتتبعها، ويحاول - على العكس - أن يبهج القارىء ما استطاع، فيورد فى بداية كل باب لونا من القصص والأشعار. وإذا لم يكن الكتاب علميا بخطته ومنهجه فإنه بمادته يأتى فى أعلى طبقة من العلمية، ويستمد المؤلف مادته من مصادر ممتازة، على نحو مايشير إليه هو نفسه فى مقدمة الجزء الأول من كتابه.

مصادر ومراجع

كان **المصدر الأول** للجاحظ فى كتابه عربيا خالصا، ممثلا فى القرآن الكريم، والحديث النبوى، والتراث العربى، قصصا وأشعارا وحكايات ونوادر وغرائب وأمثالا. وما أكثر ماتحدث العرب عن الإبل والخيل والأسد والضبع والذئب والثعلب والحمر الوحشية وعن الطيور وألوانها، أحاديث فيها شىء من التجربة وشىء من الخرافة، وبعض المبالغة والتهويل، ويقيم الجاحظ نفسه هذا المصدر قائلا: «وقل معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين، إلا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه فى أشعار العرب والأعراب».

من مصادر الجاحظ أيضا **كتاب الحيوان لأرسطو** ونقله ابن البطريق من اليونانية إلى العربية، ونقل عنه الجاحظ نصوصا ليست كثيرة، ولكنها ذات قيمة، ولم يقبل آراءه على علاتها، فكان ينقده، ولكنه يعرف قدره ويعتذر عنه، يقول: «مايليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لايحققها الامتحان، ولايعرف صدقها أشباهه من العلماء»، ويرد ذلك على المترجمين لكتابه، بأنهم لم يحسنوا النقل ولم يتوخوا الدقة والمطابقة، وأساءوا فى الإخبار عنه، ولعل أرسطو لو وجد هذا المترجم لبرىء إلى الناس من كذبه عليه، ومن إفساده معانيه بسوء ترجمته.

واستشهد أيضا من كتب جالينوس الطبية للتدليل على بعض النقاط المحددة المتصلة بالأمراض التى تحدثها لسعة بعض الحيوانات، وعلى غرائز بعض الطيور وقضايا أخرى، وهو يشير إلى كتب إقليدس، ولكتاب المجسطى أكبر كتب بطليموس الفلكية، وبعامة إلى كتب المنطق والطب والرياضيات والفلك والموسيقا

والزراعة والكيمياء والآلات والتقنية، وكتب أخرى مترجمة، ويبدو أن الجاحظ عانى كثيرا من سوء الترجمات فى زمنه، ففصل القول فى كتابه «الحيوان» عن الترجمة : مشكلاتها وقضاياها وأخطاء المترجمين، والشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يقوم بها، كلام لم يفقد شيئا من بريقه وجدته حتى يومنا، ولم تزد الدراسات المعاصرة حرفا واحدا على ماقاله الجاحظ فى هذا الباب.

وكانت **مدرسة المعتزلة** نبعا ثرا ارتوى منه الجاحظ ، فقد أثروا العصر العباسى الأول بالحوار والجدل والمنازعات الكلامية، فجاء كتابه معرضا طريفا لها، خاصة الجزءين الأول والثانى منه.

إلى هذه المصادر يجب أن نضيف ملاحظاته الشخصية وخبراته وتجاربه التى التقطها خلال رحلاته، أو من لقاءاته مع شتى طوائف المجتمع، فهو يسأل كل من يتوسم فيه المعرفة، ولايقف بهذا عند طبقة معينة، يجالس الملاحين ويسمع منهم من يقول : «سمعت حديثا من شيوخ ملاحى الموصل وأنا هائب له، ورأيت الحديث يدور بينهم، ويتحدث مع صائد العصافير، ويخالط الحوائين ويقف منهم موقف المستمع إلى الشكوى، يقول: «وشكا إلى حواء مرة، وأراني حية منكرة».

لقد حاول الجاحظ دون أن يكون عالما بالحيوان مهنة أن يلتقط مادة كتابه فى فضول صابر لايمل، وصنفها فى إتقان كبير، وقدم لنا وثيقة بالغة الأهمية، صاغها الجاحظ فى أسلوبه الفريد المتميز، فجاء الكتاب عظيم الفائدة، بالغ المتعة والجمال.

كان كتاب الحيوان من أوائل الكتب التى نشرت فى مطلع النهضة المصرية الحديثة، طبعه للمرة الأولى الوراق المعروف الحاج محمد الساسى، وهو تونسى اتخذ من القاهرة مقاما، ونشط فى طبع كتب التراث، نشر كتاب الأغانى كاملا فى ثلاثين جزءا، وثنى عليه بطبع كتاب الحيوان فى أجزائه السبعة بين عامى ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م و ١٣٢٥هـ = ١٩٠٦م، وكانت طبعة تجارية غير محققة علميا، شابتها أخطاء كثيرة، دون أن يقلل ذلك من تقديرنا للجهد الذى قام به الناشر وشكرنا عليه، فقد مهد الطريق لمن جاء بعده.

وكان الذى جاء بعده عالما جليلا، هو المرحوم عبدالسلام هارون الأستاذ فى كلية دار العلوم، الذى تكفل بالكتاب ضبطا وتصويبا وشرحا ومراجعة ومقارنة بين مختلف مخطوطاته الموزعة على مكتبات العالم، وانتهى به، فى عمل لايعلى عليه، إلى نسخة كاملة التحقيق، وأضاف إليه جزءا ثامنا، ضمنه فهارس كاملة متنوعة، تيسر الفائدة منه، ونشرته مكتبة الحلبى فى القاهرة عام ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م ■

لغويات

تواجَد

سمعت بعض زملائي مرات ينكرون على طلابهم في مناقشة الرسائل الجامعية استخدام الفعل تواجد بمعنى وُجد، ويقولون إنه لم يرد بهذا المعنى ، فعدت إلى المعاجم أسألها :

في المعجم الوسيط، وهو أفضل المعاجم المعاصرة:

وجَد فلان وجْدا: حزن. ووجَد عليه مَوْجِدة: غضب. ووجَد به وجْدا: أحبه. ووجَد فلان وُجدا وجِدة: صار ذا مال. والواجد: الموسر، الغني من الناس. ووجَد مطلوبه: أدركه. ووجَدَ الشيءَ: علمه. ويقال وُجِد (مبنيا للمجهول) الشيءُ من عدم فهو موجود : نقيض عُدم فهو معدوم . وأوجد الله الشيءَ من عدم، أنشأه من غير سبق مثال. وأوجد الله فلانا أغناه وأوجده من بعد ضعف قواه. وأوجده على الأمر أكرهه عليه. وأوجده الشيءَ جعله يجده ويظفر به.

وكما ترى فإن كلمة تواجد لم ترد في معاجمنا بمعنى الوجود كما يستعملها المحدثون، وإنما وردت في المعاني التالية:

يقال تواجد فلان: أظهر الوجد. وتوجَّد لفلان: حزن له. وتوجَّد الفلانة: أحبها. وتوجَّد السهر: شكاه.

فإذا أردنا أن نستخدم الفعل المجرد، وهو وجد للدلالة على معنى الوجود، استخدمناه مبنيا للمجهول، لأن صيغة المبني للمعلوم منه متعدية، فيكون المراد وجوده متعلقا بالفعل على سبيل المفعولية.

وإذن إذا أريد تعليق الفعل على سبيل الفاعلية جيء به مبنيا للمجهول، أو استخدمنا إحدى صيغ المطاوعة، وفيها يتحول الإسناد من الفاعل للمفعول، وهذه الصيغ هي: انفعل، افتعل، تفعل، تفاعل.

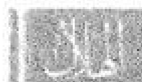
وقد اختار المحدثون صيغة تفاعل فقالوا: تواجد بالمكان، ومصدره التواجد، ومجيء تفاعل دون أن تعني المشاركة بين اثنين يرد كثيرا في العربية الفصحى، فنحن نقول: تداركه الله برحمته، وتفاقم الأمر، وتراكم السحاب وغير ذلك، وهو مما أقره المجمع اللغوي أيضا. وإذن لا خطأ في أن تستخدم تواجد، بمعنى وجُد (مبنيا للمجهول) ■

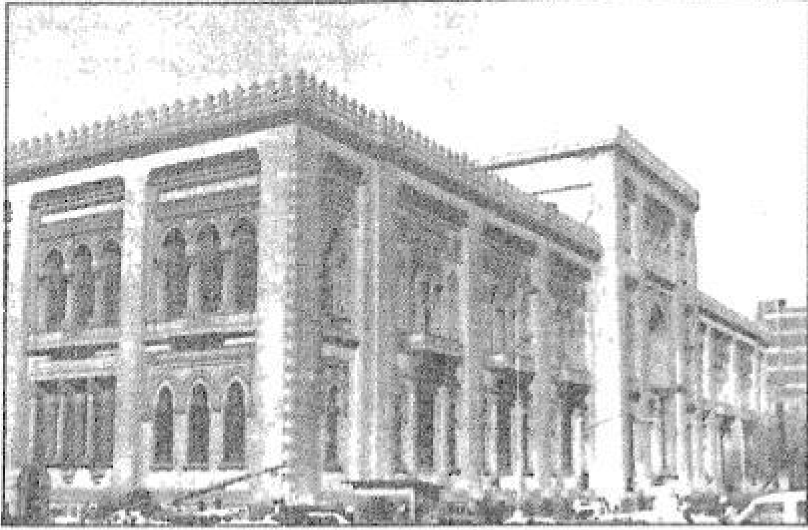
دار الكتب المصرية

ومائة عام من الثقافة (١٩٠٤ - ٢٠٠٤م)

بقلم
د. أيمن فؤاد سيد

عرفت مصر منذ فجر تاريخها «خزائن الكتب» في طيبة وأون، ثم في الإسكندرية التي حوت جنباتها أهم مكتبة عرفها العالم القديم. ومع الفتح الإسلامي لمصر وبداية عصر التدوين والتأليف عند المسلمين ساهم العلماء المصريون في إثراء المكتبة العربية مع سائر علماء العالم الإسلامي، وكان من أوائل هؤلاء العلماء: عبدالله بن لهيعة والليث بن سعد وعبدالله بن وهب ويزيد بن أبي حبيب والإمام محمد بن إدريس الشافعي وعبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم. وتبع ذلك نشأة الجديد من خزائن الكتب التي جمعت بين جنباتها ما أنتجه الفكر الإسلامي طوال أربعة عشر قرنا.



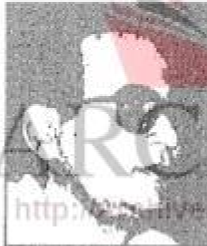


دار الكتب المصرية بمقرها السابق فى باب الخلق

وتظل مع ذلك أشهر هذه الخزائن «خزانة كتب الفاطميين» والتى يصفها المؤرخ الشيعى يحيى بن أبى طى ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م بأنها «كانت من عجائب الدنيا وأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها .. وأنها تحتوى على ألف وست مائة ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيئ



على مبارك
منشىء دار الكتب



د. أحمد مرسي
الرئيس الحالي لدار الكتب

كثير .. وأن من عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى» (أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ١:٥٠٧)، ومع استيلاء السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على مقاليد السلطة فى مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١٠٧٢م، تفرقت هذه المكتبة

وفقد أغلبها عن طريق البيع أو إلقائها على كيمان البرقيه شرق مدينة القاهرة الفاطمية.

خزائن كتب المدارس

ومع دخول الأيوبيين السنة إلى السلطة في مصر ثم مع خلفائهم المماليك عرفت مصر نظام «المدرسة» التي تعد مؤسسة التعليم الإسلامية الحقيقية، فحلت بذلك «خزائن كتب المدارس» محل خزائن كتب الخلفاء وخزائن دور الحكمة والعلم، يقول القلقشندى في مطلع القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى: «أما الآن فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب اكتفاء بخزائن كتب المدارس التى ابتنوها من حيث إنها بذلك أمس». (صبح الأعشى ١:٤٧٦) فاشتملت أغلب مدارس القاهرة التى أنشئت في العصر المملوكى وكذلك المساجد الجامعة الكبيرة على خزائن كتب وقفت على طلبة العلم الذين يترددون على هذه المدارس ويتابعون الدروس التى يلقيها بها كبار العلماء والفقهاء. وفي العصر العثمانى شارك «الجامع الأزهر» - الذى أصبح المؤسسة التعليمية الأولى في مصر - المدارس في احتوائه على العديد من خزائن الكتب التى وقفها أصحابها على طلبة العلم المترددين على الجامع الأزهر.

ونتيجة الجهل بقيمة الممتلكات الثقافية التى تمتلكها مصر وعدم وجود تشريعات تحمى هذه الممتلكات وتمنع من الاتجار فيها أو نقلها خاصة بعد أن أخذت أوروبا توجه أنظارها إلى بلدان الشرق الإسلامى وانشاء قنصليات لها في العواصم الكبرى، وتردد التجار والرحالة إليها انتشرت تجارة الكتب والآثار التى أدت إلى تسرب جزء كبير من الممتلكات الثقافية فيه (آثار ومنقولات ومخطوطات وأوراق بردى ووثائق الجنيزة)، عرفت طريقها إلى المتاحف والمكتبات العالمية والمجموعات الخاصة.

الكتبخانة الخديوية

وتنبه إلى خطورة هذا الوضع واحد من أبناء مصر المستنيرين هو على باشا مبارك الذى أقام دارساً في فرنسا ضمن البعثة التى أوفدت لدراسة العلوم العسكرية ابتداءً من عام ١٨٤٤ والتى تعرف بـ«بعثة الأنجال» لأنه كان من بين اعضائها أنجال محمد على باشا ومنهم إسماعيل باشا الذى تولى الحكم بعد ذلك سنة ١٨٦٣م. شاهد على باشا مبارك في باريس «المكتبة الوطنية» وأعجب بها إعجابا كبيراً، وعندما

تولى إسماعيل باشا خديوية مصر وأصبح على باشا فى موضع السلطة اقترح على الخديو إسماعيل إنشاء «كتبخانة» – أى دار كتب – على دور الكتب الوطنية فى أوربا واستصدر منه قراراً في ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٨٦هـ/٢٣ مارس سنة ١٨٧٠م أسند إليه فيه الخديو «جمع المخطوطات النفيسة التي لم تصل إليها يد التبديد مما حبسه السلاطين والأمراء والعلماء والمؤلفون على المساجد والأضرحة ومعاهد العلم، ليكون من مجموع هذا الشتات نواة لمكتبة عامة»، ضمت فى أول عهدها نحو عشرين ألفا من المجلدات والمراجع ومجاميع الخرائط، هى كل ما أمكن إنقاذه فى هذا الوقت من تراث مصر المخطوط وأوائل المطبوعات. يقول على باشا مبارك: «ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية أضاهي بها كتبخانة مدينة بارين، فاستأذنت الخديو إسماعيل باشا فى ذلك، فأذن لى، فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضاً (أى فى سراى مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز) وبعد فراغها جمعت فيها ماتشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والأفرنجية وغيرها، وجعلت لها ناظرا ورتبت لها خدمة ومعاونين، وعملت لها قانوناً لضبطها وعدم ضياع كتبها، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التى حدثت فى عهد الخديو إسماعيل باشا وجعل بها النفع العام للخاص والعام». (الخطط التوفيقية الجديدة ٣: ١٠٠) .

دار كتب الجماميز

كان المقر الأول «للكتبخانة الخديوية» الطابق الأرضى بسراى مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو إسماعيل بدرب الجماميز بجوار ديوان المدارس، وأتيح الانتفاع بمقتنياتها لجمهور القراء والمترددين فى غرة رجب سنة ١٢٨٧هـ/ ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠م، وتعد بذلك أول وأقدم مكتبة وطنية على النظام الحديث تنشأ فى الشرق الأوسط.

واعتبرت محتويات الكتبخانة ملكاً لديوان الأوقاف لأنها كانت أعيانا وقفت قبل أو بعد خزنها.. ولأجل المنفعة العامة جعل حق ديوان الأوقاف شاملاً لكل ما يضاف فيما بعد من المؤلفات والأشياء، بقطع النظر عن اللغة أو المادة أو الجهة الواردة منها، وأنعم الخديو إسماعيل على ديوان الأوقاف بعشرة آلاف فدان للانفاق من ريعها على الكتبخانة.

وعندما ضاق بدروم سرايا

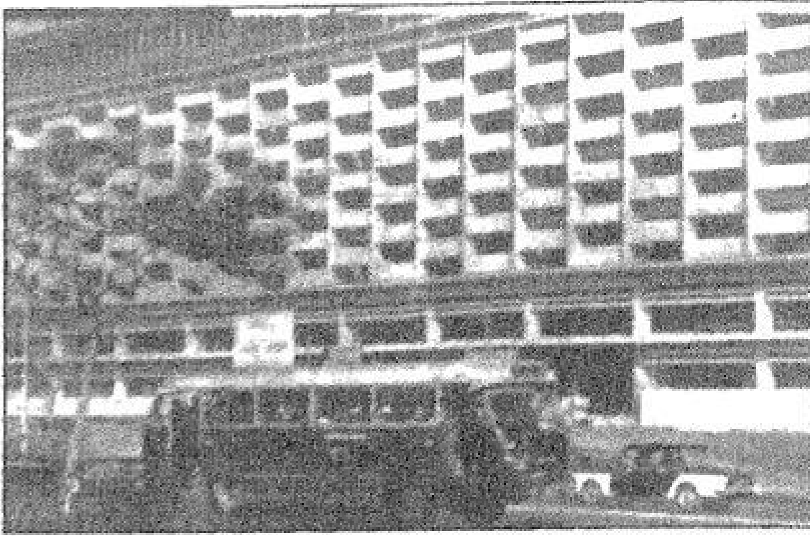
مصطفى فاضل باشا بمجموعات الكتبخانة التى أخذت فى النماء وخشية أن تتسرب رطوبة الدور الأرضى إلى المخطوطات فتفسدها، نقلت المخطوطات فى سنة ١٨٨٩م إلى السلاملك بنفس السراى فى المكان الذى كان يشغله ديوان المدارس.

ومع تزايد رصيد الكتبخانة ونمو مقتنياتها أصدر الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٥م امرا بعمل مشروع لبناء مكان واسع يليق بحفظ ما فيها من الذخائر الأدبية والعلمية، ولكن لم يبدأ فى وضع تصمم هذا المشروع إلا بعد ذلك بعامين عندما طالب الدكتور برنارد موريتز Ber-nard Moritz ثالث مدير الكتبخانة (٢٥ أكتوبر ١٨٩٦ - ٣١ أغسطس ١٩١١م) فى تقريره الذى رفعه إلى وزارة المعارف فى ٢٤ يوليه سنة ١٨٩٧ بضرورة الإسراع فى بناء محل جديد للكتبخانة، خاصة وأن المحل الموجود فيها لا يمكن وقايته بأية طريقة من الحريق، كما أنه على سعته غير مناسب لوضع الكتبخانة لأنه لم يبن لغرض ايجاد كتبخانة فيه، كما أن الدور الأول رطب جداً مما يسبب ضررا بالغا للكتب والمخطوطات.

مكتبة باب الخلق

وفى عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م وضع الخديو عباس حلمى الثانى حجر أساس الكتبخانة الخديوية ودار الآثار العربية فى ميدان باب الخلق، وخصص طابقه الأرضى لدار الآثار العربية» التى تحولت فيما بعد إلى «متحف الفن الإسلامى» - وطابقه الأول وما فوقه للكتبخانة الخديوية» -دار الكتب المصرية فيما بعد- وانتقلت إليه الكتبخانة فى عام ١٩٠٣م، وفتحت أبوابها للمترددين عليها فى أول عام ١٩٠٤م. وتأثر تشييد المبنى بنظام المتحف البريطانى فى لندن الذى كان يضم حتى عام ١٩٧٤ كذلك المكتبة الوطنية البريطانية.

تحول اسم «المكتبة الوطنية» طوال تاريخها الذى يمتد الآن لأكثر من مائة وثلاثين عاما أكثر من مرة، ففى البداية عرفت بـ«الكتب خانة الخديوية» ثم «دار الكتب الخديوية»، وبعد إعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤م أصبحت تعرف بـ«دار الكتب السلطانية» ثم تحول اسمها مع إلغاء الحماية على مصر سنة ١٩٢٢ إلى «دار الكتب الملكية»، وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وإعلان النظام الجمهورى أصبحت تعرف بـ«دار الكتب المصرية».



دار الكتب المصرية بمقرها الحالى على كورنيش النيل

ظلت «دار الكتب» فى مبناها الواقع فى وسط ميدان باب الخلق «ميدان أحمد ماهر»، مهوى أفئدة العلماء والباحثين من العرب والمسلمين والمستشرقين لأكثر من سبعين عاماً، الذين ترددوا عليها للاستفادة من مجموعاتها النادرة من المخطوطات والمطبوعات وأوراق البردى ومن العلماء والشيوخ القائمين عليها. فعرفت جنبات هذا المبنى التاريخى أعلاماً من أمثال: أحمد لطفى السيد وحافظ إبراهيم ومنصور فهمى وأمين مرسى قنديل وتوفيق الحكيم ويحيى حقى، الذين تولوا رئاسة الدار، ومن العاملين بها رجال أثروا المكتبة العربية وكانوا نعم العون فى إفادة المترددين عليها من أمثال: أحمد رامى ومحمد عبدالرسول ومحمد عبدالجواد الأصمعى وأحمد الزين وأحمد نسيم وعبدالرحيم محمود وأحمد عبدالعليم البردونى وفؤاد سيد ومصطفى الشوربجى ومحمد أبوالفضل إبراهيم ونصر الله الطرازى رحمهم الله أجمعين.

جامعة دار الكتب

كانت دار الكتب المصرية فى منتصف القرن العشرين الجامعة الحرة لمصر بكفاءة وجدارة يلتقى فيها الأعلام الذين كانوا ملء السمع فى هذا الوقت من أمثال: محمد كرد على

وخليل مردم وطه حسين وحسن حسني عبدالوهاب التونسي وعبد العزيز اليمني الراجكوتي وعبدالرحمن المعلمي ومحمد زاهد الكوثري وخير الدين الزركلي وعبدالله كنون وحمد الجاسر ومصطفى جواد من العلماء العرب والمسلمين، وإغناطيوس كراتشكوفسكي ولويس ماسينيون وشارل كوينز وكارلو ألفونسو نلليثو وأمبرتو ريتزيتانو و أربي سرجنت وروبرت روبمر وستنافورد شو من المستشرقين وغيرهم كثير.

والعارفون بالمخزون الفكري الذي لم شمله ووحدت أشتاته دار الكتب المصرية، يقدرون أنها بحق ذاكرة مصر الفكرية وسجل التراث العربي الإسلامي حفظته على الآماد وبؤأته خير المنازل.

أزمة دار الكتب

كانت بداية أزمة دار الكتب عندما ضمت إليها «دار الوثائق القومية» في عام ١٩٦٥، وهي الدار التي أسست عام ١٩٥٤ لتحفظ الأرشيف القومي، فقد جاء هذا الضم عبئاً على دار الكتب وتهميشا لدار الوثائق أعاق كلا منها عن أداء رسالته على الوجه المنتظر منه ثم جاء ضم الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر إلى دار الكتب والوثائق القومية عام ١٩٧١ تحت اسم «الهيئة المصرية العامة للكتاب» ليمثل بداية تدهور عانت منه «دار الكتب» طوال نحو ربع قرن، حيث فقدت «دار الكتب» شخصيتها الاعتبارية واستقلاليتها وأصبحت مجرد إدارة مركزية تابعة للهيئة المذكورة، فتراجع دورها الثقافي وفقدت ميزانيتها المستقلة وأصبحت غير قادرة على متابعة الحركة الثقافية ولا على اقتناء أهم المطبوعات المنشورة خارج مصر خلال هذه الفترة، أو تقديم الخدمة المكتبية اللازمة للمترددين عليها لنقص إمكاناتها المالية والبشرية. وشهد العالم في هذه الفترة تقدما علميا كبيراً في مجال الخدمات المكتبية، ونظم المعلومات وطرق الحفظ والتخزين وكذلك الصيانة والترميم. وتخلفت دار الكتب عن الأخذ بأسباب هذا التقدم لتقهقر موقعها في قيادة العمل الثقافي وافتقارها للعلماء والأخصائيين، وسبقتها في مجال التحديث والتطوير العديد من المكتبات في الدول المجاورة التي نشأت بعدها بعقود طويلة ولا تمتلك دار الكتب والوثائق القومية مقتنياتها أو قيمتها العلمية.

وجاء «مشروع تطوير دار الكتب

المصرية» الذى بدأ فى شهر مايو سنة ١٩٩٢ ليعيد إلى الدار مكانتها التاريخية، فصدر فى شهر مايو سنة ١٩٩٣ قرار رئيس الجمهورية رقم ١٧٦ لسنة ١٩٩٢ بإنشاء هيئة عامة تسمى «دار الكتب والوثائق القومية» تكون لها الشخصية الاعتبارية ومقرها مدينة القاهرة وتتبع وزير الثقافة. ومع ذلك فإن فصل «دار الوثائق» عن دار الكتب ضرورة يجب الإسراع فى تنفيذها، فهذا الوضع الذى يجمع المكتبة الوطنية والأرشيف الوطنى معاً غير متبع فى دول العالم، فالمكتبة الوطنية وظائفها وتخصصها ومصادر معلوماتها التى تختلف تماماً عن وظائف وتخصصات ومصادر معلومات الأرشيف الوطنى.

كانت فكرة تطوير دار الكتب تهدف إلى إعادة المكانة التاريخية والريادية فى منطقة الشرق الأوسط والأخذ بأسباب التقدم العلمى والتكنولوجي الحديث. كانت نقطة انطلاق مشروع تطوير الدار هو تطوير المبنى التاريخى لدار الكتب فى باب الخلق الذى نحتفل هذا العام بعيده المئوى الأول حيث يحول إلى مكتبة للدراسات الشرقية ينقل إليها رصيد الدار من المخطوطات وأوراق البردى والمصادر والمراجع والدوريات المتعلقة بالدراسات الشرقية ومركز تحقيق التراث ومتحف المصاحف والمخطوطات التاريخية والأنشطة الفنية والإدارية المتصلة بهذا النشاط من إبداع و وتصوير ومختبر صيانة وترميم ووحدة لبناء قواعد البيانات.. الخ. كان هذا هو مضمون كراسة الشروط والمواصفات التى قدمتها مع المهندس الاستشارى جمال بكرى وطرقت فى مسابقة عالمية فى ٧ يوليه سنة ١٩٩٣، أعلنت نتيجتها فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٩٤، وجار الآن تنفيذ المشروع الفائز الذى أدخلت عليه تعديلات كثيرة قد تخالف في بعضها فلسفة المشروع المطروح فى كراسة الشروط والمواصفات.

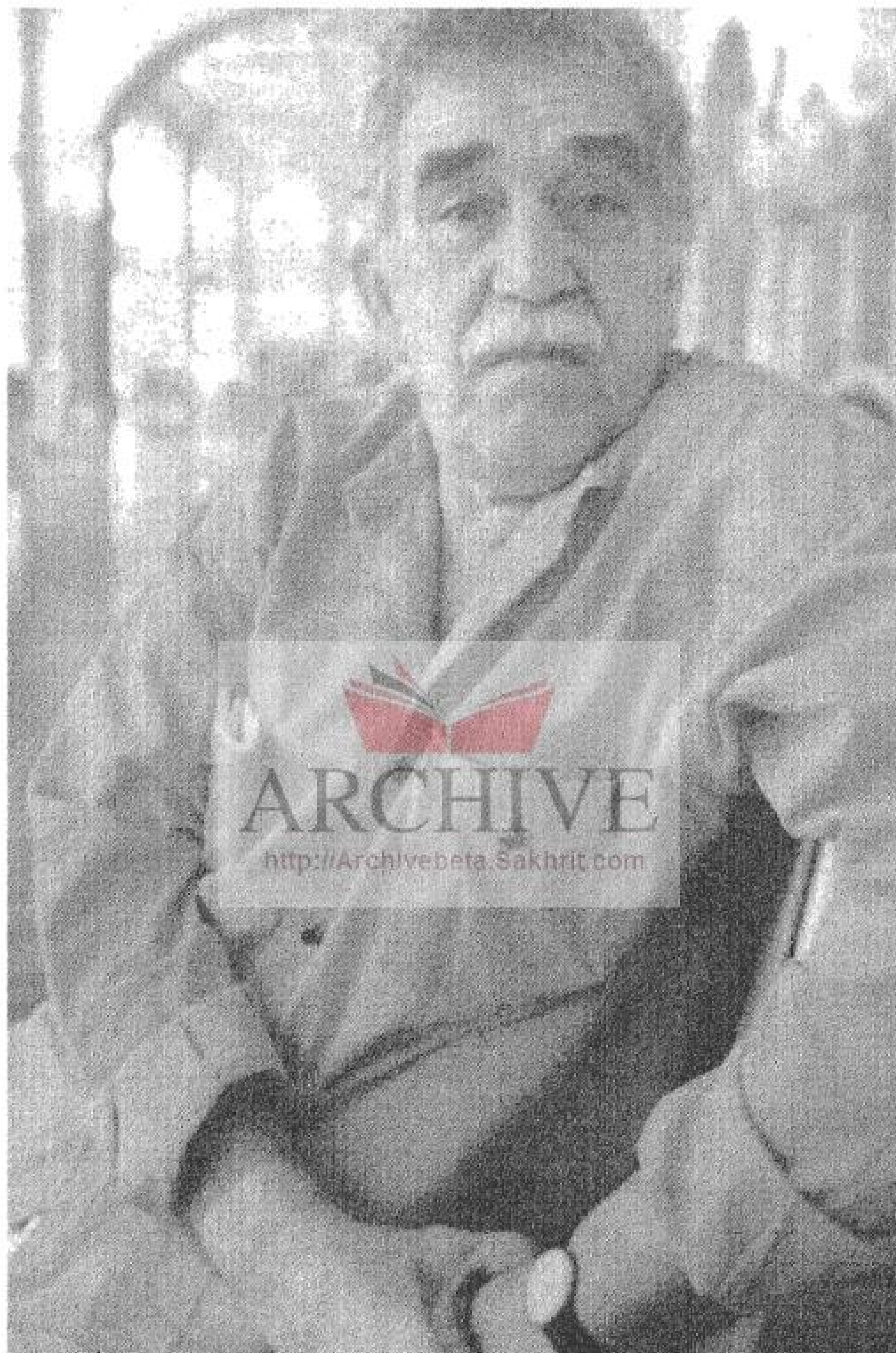
ويحدونا أمل كبير فى أن دار الكتب المصرية بجناحيها: المبنى الرئيسى على كورنيش النيل، ومكتبة الدراسات الشرقية بباب الخلق - التى نرجو أن تفتح قريبا بإذن الله- ستلقى وفق قوية فى ظل رئاسة رئيسها الحالى الاستاذ الدكتور أحمد مرسى، خاصة وأنها تحظى برعاية كبيرة من الوزير الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة وراعية الفنون والثقافة فى مصر السيدة الفاضلة سوزان مبارك حرم السيد رئيس الجمهورية

ماركيز
.. وسيرتان

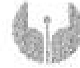
مائة عام من الصداقة والعزلة !!

بقلم
د. سليمان العطار

قامت سيلفانا باترنوسترو بنشر سيرة الكاتب الكولمبى جابرييل غارثيا ماركيز تحت عنوان «الوحشة والصحبة - سيرة شفوية».. اعتمد عملها على رحلة لها حول أرض السحر والرجال المسحورين والنساء ذوات الكرم المسرف حين يهبن الهوى فى عشق للعشق، إنها أمريكا اللاتينية حيث ولد وعاش معظم عمره ماركيز بين قرى مجهولة فى غياهب المستنقعات أو مدن ملعونة بالإغراق فى ممارسة فن الحياة وبالابتسامة الدائمة فى مواجهة ظروف الفقر القاسية الفانتازيا. لقد مضت هذه الباحثة تطارد فى كل مكان هناك معارف ساحر الرواية وجيرانه وأصدقائه تسألهم عنه وعن حياته، فقالوا لها الكثير والمثير، وكأننا أمام «مائة عام من الصداقة والعزلة».. هل يستطيع أحد أمام أمواج الكاريبى (التى تلطم وجه الصباح حتى الاحمرار وتقذف بالقطرات المالحة قلب الليل حتى يصرخ بالموسيقى التى تعطى أسماء لرقصات الأمواج بجانب أسماء لأمواج النساء الليليات واهبات الحب والأشواق) ألا يشعر بالوحشة المتوحشة وبالحاجة الملحة إلى الصحبة حتى لو كان لا مكان لها إلا المواخير، التى رآها فوكنر.. السبيل الوحيد لإلهام الكتاب .







لقد آمن ماركيز بمقولة فوكنر فسكن في شبابه المواخير متعرضا للموت أكثر من مرة بصورة درامية حتى ندم وتاب عن إيمانه بمقولة فوكنر وليس عن سكنى المواخير، فلم يكن له سقف آخر أو مكان إلا الحدائق العامة وأرصفة الشوارع، التى حتى لم تعد تصلح لقرار مفاجىء للشرطة لمطاردة من يسكنونها لقضاء الليل، وبفضل إحدى صديقات ماركيز من بنات الليل، تهيأ له السقف واستطاع أن يجتاز امتحان مادة القانون الرومانى فى دراسته الجامعية.. هذا ما نعرفه من سيرة أخرى لماركيز نشرها فى ثلاثة مجلدات لنفسه، مازلنا ننتظر ما تبقى من مجلدات حتى تكتمل لنا صورة حياته..

لكن السؤال المهم: لماذا تصبح مهمة السيرة الذاتية والسيرة التى كتبها عنه غيره؟ الإجابة فى حالة ماركيز تكاد «تقفز إلى الذهن بسرعة خارقة، إنها رواياته وقصصه التى صنعت شخوصها من حياة قريته وأسرته وأصدقائه، ويا له من لوم كانت تبثه له أمه: «أيها الولد المفضوح، ليس هكذا ينبغى أن تنشر أسرار عماتك» أو «ليس هكذا أيها العاق تتحدث عن أمك».. إننا أمام سيرة لماركيز كتبتها سيلفانا، وسيرة ذاتية لنفسه كتبها عن نفسه . إنه ماركيز وسيرتان تفسران أسطورته الأدبية.

إن أهمية ما كتبته سيلفانا يكمل ما كتبه ماركيز عن نفسه لأن صاحب السيرة الذاتية حين يكتبها تتأمل الذات نفسها عبر رؤيتها للآخرين . إننا نرى ماركيز فى سيرته الذاتية ناظراً لأصدقائه والآخر، لكن فى سيرة سيلفانا نرى الآخر ناظراً إلى ماركيز. إنه اكتمال الصورة: أبطال روايات ماركيز يتحدثون عن أنفسهم إذ يرون ماركيز، وهو يتحدث عنهم إذا يراهم.. والرؤيتان تفسران فى كمال أعمال ماركيز التى يقف على رأسها روايته المذهلة التى كررت «دون كيشوت» لثرفانتس، أقصد رواية مائة عام من العزلة.

صدق ماركيز وصراحته

لكن أهمية السيرتين فى رأيى هى أنهما إنذار لكتاب السيرة الذاتية من العرب: «أيها السادة إنكم لا تكتبون سيرتكم الذاتية، إنما هى وقائع تقل أهميتها عن مستوى قص السيرة الذاتية.. أرأيتم إلى أى حد كان ماركيز صريحا وصادقا وهو يتحدث عن فقره

وتواضع أسرته وأهمية بنات الليل الأحمر في حياته؟

أرأيتم الصدق؟» ، إن السيرة الذاتية عند الكتاب العرب في معظمهم عبارة عن محاولة لإخفاء السيرة الذاتية، وليس كتابتها.. إننا سوف نرى مع ماركيز (في سيرته الذاتية) ومع أصدقائه وجيرانه ومعارفه (وهم يحدثون سيلفانا عنه) شيئا لا نعرفه: اسمه الصدق في كتابة السيرة الذاتية أو السيرة.

لنتجاوز ذلك ونعود لسيرة ماركيز الذي كتب حياة قريته ووطنه كولومبيا في عدد من أعظم روايات وقصص القرن العشرين.. باختصار إذا أحسنت وصف قريتك، فأنت تسلك أقصر طريق إلى العالمية، لكن كيف يتحقق ذلك من حياة ماركيز في سيرتيه؟ إنهما خطوتان أولاهما أن تمتلك ذاكرة فيل كما يحكي لنا إدوارد داكونتي.. إن ماركيز امتلك ذاكرة الفيل التي وعت تفاصيل البيئة الدقيقة في قريته «أراكاتاكا» التي تميز نهرها بالصفاء والأحجار البيضاء التي تشبه بيضا ينتمي إلى ما قبل التاريخ، وتميز مناخها بصيف جاف وشتاء مطير إلى حد الرعب.. أيضا تلك الذاكرة وعت الحواديت وقصص الرعب التي كانوا - يجتمعون حولها في دكان جد داكونتي: ماركيز يصحبه جده الذي أعطى صورة «أورليانو بوين ديا» في مائة عام من العزلة. أما روز سيترون فيحكي لنا عن جدة لا تتوقف عن القص الذي حفظه ماركيز، بل ويعتقد روز أن القدرة على القص أمر وراثي، جعل من ماركيز استجابة لما يسمع من قصص (حسب داكونتي) إلى أن يذهب للنهر لملء زجاجات من الماء من نهر القرية لعله يستخرج مع الماء بعض الأقزام أو العفاريت التي تسكن النهر.. لكن كلها ذابت في الماء لتعطيه طعما لا نظير له.

نستمر مع هذه الخطوة الأولى لماركيز نحو واقعيته السحرية:

إنها مرة أخرى جدته حسب ما يقوله غييرمو أنجلو الذي يظن أن أعظم إلهاماته مصدرها جدته التي حذرته من تمشيط شعره ليلاً، لأنه لو فعل فسوف تضل إحدى السفن طريقها في البحر إننا نكاد ندخل في القيمة الرمزية لأحداث الحياة اليومية، والتي تكثر في حياة القرية المصرية دون صدى في الفن.. إن كنس البيت يوم سفر أحدهم معناها خطر على حياته وأنه لن يعود إلى البيت ، فيمتنعون عن كنس البيت.. وعمل تمثال من «الشبة» للحاسد وفقا عينيه يمنع الحسد، ودفن الشعر أو الأظافر أو أي جزء من الجسم بعيداً عن الأعداء يقي من شرهم ، وقدماء المصريين كانوا يصنعون سفنا على نمط سفن الغزاة ويحرقونها لتحترق سفنهم في البحر.. إن ذاكرة ماركيز الفيلية اتسعت لهذا كله من تراث



شعبى وأسطورى ليصير وراء سلوك أبطال رواياته، فأين نحن من تراثنا فى أعمالنا الروائية؟!..

التعرف على الأدب اليوناني

أما الخطوة الثانية، بجانب الذاكرة التى استوعبت أساطير القرية والجد والجدة وغيرهما من خلق الله الذين يحيون فى جو سحرى، هى امتلاك تقنية كتابة الرواية . لقد كانت حسب تعبير ماركيز فى سيرته الذاتية «الفرقة الموسيقية من عصابة الأصدقاء فى شبابه المبكر».. والذين التقت بهم أيضا سيلفانا . إنهم ليسوا مجرد أصدقاء لكنهم أساتذته الذين علموه «ما هو الأدب». بفضلهم عرف «فوكنر» الروائى الفذ والذى عاش فى الأرض «التى عاش عليها ماركيز» شطرا من حياته لقد أعطوه أعماله ليقرأها وبفضلهم عرف الأدب اليونانى والرومانى وأعجب بـ «أوديب ملكاً» وبالأوديسة التى قرأها كثيراً، لكن الأهم بفضلهم عرف المواخير وأدمن فن الحياة.

مع هؤلاء الأصدقاء وعلى شواطىء الكاريبى ترعرعت فى قلبه رواية العمر، والعمل الذى يسعى أى أديب ليكتبه ليصل إلى القمة الباردة التى منها يلمس السحاب ويستمطره.

أنها رواية «مائة عام من العزلة».. لقد خطط حكايتها واستكمل فى ذهنه شخوصها ، لكنه عجز عن كتابتها، فبدأ كل ليلة يكتب فصلا من فصولها أو من فصول رواية أخرى تصب فيها، لكن الأمر ما قاله تولستوى «أنظر بحق إلى قريتك وسوف تصبح عالميا.. القرية، القرية، القرية».. كما يحكى لنا فيكتور روخاس: إن عصابة الأصدقاء فى «كارتاخينا» وقد تباحثت عن كل الآداب الأوروبية منتهية بفوكنر الأمريكى طرحت سؤالاً: متى تقول أمريكا اللاتينية كلمتها.. ولقد قالها ماركيز وجيل جليل من كتاب أمريكا اللاتينية، وخاصة من كتاب الرواية.

لكن لماذا عجز عن كتابة روايته التى كما يقول أصدقاؤه إنه كان يضعها تحت ذراعه لمدة تزيد على ربع قرن ؟ لقد تأكد أنها تحتاج لكاتب متمرس لم يكنه هو طوال هذه المدة.

لقد احتاج لعمل شاق من العيش والقراءة والكتابة اليومية ليمتلك فن الحكاية، التى امتلكها شفويا كما تحكى «ماريا لويسا إليو» إلى سيلفانا.. فى ليلة أعقبت محاضرة ذهبت مع آخرين إلى منزل صديق وجلست بجانب ماركيز

وحكى لها كل قصة «مائة عام من العزلة».. كانت تسأله فى تشوق كلما حكى شطرا منها : وماذا بعد ؟ قالت له : اذا كتبت هذا فأنت تكتب توراة .قال لها سوف اكتبها وأهديها إليك، فظنت أنه يسخر من سذاجتها ، لكنه هكذا كان عندما تأكد أنه صار المتمرس والخبير ليكتب مثل هذا العمل العظيم الذى منحه نوبل.

ومع ذلك عندما كتبها لم يجد ناشراً. لقد قالوا له «ألعب لعبة أخرى» وعندما غامرت دار نشر أرجنتينية بطباعتها فوجئت بتوزيع مئات آلاف من النسخ واضطرت إلى إصدار ثلاث طبعات لها فى عام واحد.

الانعزال من أجل الكتابة

لقد بنت له زوجته غرفة سحرية فى بيتهم فى المكسيك لكى ينعزل داخلها للكتابة ، ومضى مع هوامشه وفصوله المكتوبة سلفا وذاكرته فى كتابة أعظم عمل روائى فى القرن العشرين حمله مباشرة إلى كثير من الجوائز قبل نوبل.. إن أصدقاءه يسمونه «جابو» وأحيانا يصغرون الأسم إلى «جابيتو». كلا الاسمين تصغير لجابرييل.. لكن ماذا دهى جابيتو بعد أن نال شهرة مخيفة، وثراء بلا حدود؟

يجيب أصدقاؤه بشيء من الأسى.. لقد أحب السلطة والمال، ونقطة ضعفه الرؤساء.. إنه يستطيع أن يرفع سماعة التليفون ليطلب تسع رؤساء جمهوريات بالتليفون أو رؤساء وزراء (فى مقام الرؤساء مثل فيليبى جونثالث رئيس وزراء اسبانيا) لكى يشرب كأسا مع أحدهم ويقضى ليلة من السمر. لقد صار مثلا صديقا لكلينتون أثناء رئاسته للولايات المتحدة عندما تعلقت ابنته فى رقبته وطلبت منه أن ترى ماركيز فى إحدى زياراته الولايات المتحدة ، أما الجنرال (عمر) ديكتاتور بنما فى زمن ماض على مائدة العشاء مع ماركيز يقول: «إن ماركيز صديق للديكتاتوريات». فيسأل ماركيز بحدة «كيف؟» فيرد الجنرال «لأنك صديقى وصديق كاسترو». هل تغير الشهرة والثروة من الرجل؟ نعم لقد حدث هذا لجابو، لكنه مع ذلك فى سيرته الذاتية لم يخف ذلك الشاب الجائع الفقير المتشرد الذى تؤويه «المومسات» ، والذى أصبح مشهور اليوم وثرى القوم وصديق الرؤساء الحميم، حتى أنه يضع سنة فى العالم الاسبانى: أن كل رئيس يعلن على الملأ صداقته لأحد الكتاب المشهورين ، حتى أن أثنار رئيس وزراء اسبانيا الحالى فاجأ الناس بصداقته «بفارجاس يوسا» بديلاً عن «ماركيز» عند سلفه «جونثالث» رئيس الوزراء السابق.. لكن يبقى شيء نفهمه من السيرتين هو احتفال كولومبيا الصاخب بفوز ابنها بنوبل الأمر الذى لم نفعله مع نجيب محفوظ.



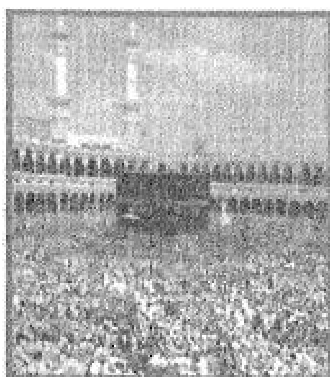
لقد سافر إلى السويد عدد غفير من كولومبيا بين فنانين وكتاب ومسئولين لحضور تسلمه للجائزة، أما نحن فقد تركنا ابنتى نجيب محفوظ وحدهما تتسلمان الجائزة، فكتب نجيب محفوظ «صدى سيرته الذاتية» لأننا لسنا مثل الأمريكان اللاتينيين نسامح ونتسامح مع حقائق حياة من يتأمل ذاته.. إن «صدى السيرة الذاتية» لنجيب محفوظ أشبه بشخص فاضل مثل سيلفانا يكتب عنه فلم تقل قيمة العمل العظيم، لكننا نحس بأن صاحبه معاقب بعدم القدرة على الصراحة إلا داخل «حدود» لم يعرفها «ماركيز» فى كتابة سيرته، وإن عرفها معارفه وأصدقاؤه وجيرانه عندما تكلموا عنه، فصارت سيرة سيلفانا «صدى لسيرته الذاتية» التى كتبها بنفسه عن نفسه:

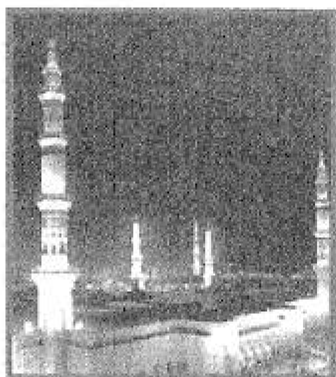
ذاته تتأمل «ذاته العريانة» دون خجل عربى «تخجل به كل سيرة ذاتية» لعربى، فتدارى بدلا من أن تكشف وتعرى.

هل هو خجل الكتاب أم أنها القيود الاجتماعية الصارمة .. إن ابن الأزرق فى كتابه «بدائع السلك فى طبائع الملك» يحذر من الاقتراب فى الكتابة من الدين والسلطان والفلسفة، فماذا تبقى؟ الجنس: لقد كتب فيه القدماء بحرية أما نحن فقد أضفناه للممنوعات . أختم بنكتة أمريكية جنوبية: «لقد جاء منتج أمريكى لماركيز طالباً إذنا بعمل «مائة عام من العزلة» فيلماً، طلب ماركيز مائة مليون دولار.

قال له الأمريكى: ما رأيك أن نكتفى بعشرة أعوام من العزلة؟».. إنها أول مرة تصبح فيها رواية موضوعاً لنكتة.. إن هذا يعكس مدى شعبيتها، التى جاءت من أن الناس وجدوا أنفسهم فيها لأنها تنطلق من الواقع - وحتى يصير عالميا يمزج به فانتازيا الخيال ليسرع فى العودة إلى الواقع - هكذا أبدا فى صراحة تخلو من ممنوعات ابن الأزرق التى حفلت بها كتب التراث التى تحكم كتابنا، لأنها صارت سيدة الواقع المعاصر، فهل من مهرب؟

ربما فى قراءة سيرة ماركيز الذاتية وسيرته السيلفانية، بجانب جميع أعماله، إنها دعوة للتحرر من الخوف والخجل، لأن الأدب فى تصويره للواقع يحرر الواقع من جموده، ويفتح للناس - حتى لو غضبوا - بوابات المستقبل، دون دفن الرؤوس النعامية فى رمال صحرائنا الحارقة. ■



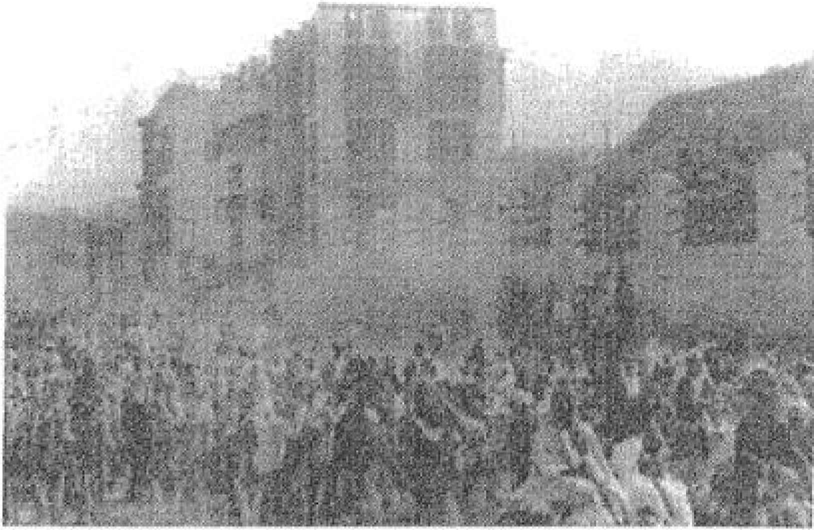


الحرمان المكى والنبوى

فى كتابات الرحالة الأجانب

بقلم
عرفة عبده على

ما بين روائع آيات الماضى، ومعاقد التاريخ من ضفاف النيل وطور سيناء إلى بيت لحم والناصرة وبيت المقدس إلى مكة والمدينة، إلى ما يحف بهذه الأصقاع من آثار قدسها الله، وما نهض فى أحضان هذا التاريخ من إبداعات فكرية وحضارية.. تكونت حصيلة ضخمة من معارف أوروبا عن الشرق شكلت ما عرف بـ «علم الاستشراق»، تبدل إلى محاولة اكتشاف جديد للشرق القديم وانطلقت الرغبة فى معرفة أدق عن الآخرين، ترقب وترصد، فيما يمكن أن نسميه «تحقيق عن الشرق» ENQUETE SUR L'ORIENT-

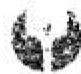


قافلة الحج المصرية تدخل مكة عام ١٨٧٦ م



صورة نادرة للحرم المكي في بدايات القرن العشرين

«بوركهارت»،
أو الشيخ ابراهيم!



من أوائل الرحالة المستكشفين لبلاد العرب، في عصر الإمبراطورية العثمانية، المستشرق «جون لويس بوركهارت» الذى ولد بمدينة «لوزان» بسويسرا، في ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٨٤، وعندما أتم دراسته الأولية، ألحق بمدرسة «نوف هوتيل» الثانوية، وفي عام ١٨٠٠ التحق بجامعة ليبزج، ثم بجامعتي لندن وكمبريدج، ليحصل مجموعة من المعارف مثل اللغة العربية وعلم الفلك، علم المعادن والكيمياء والطب والجراحة، قبل أن ترشحه «الجمعية الأفريقية» للقيام برحلة استكشاف في افريقيا .

وأطلق لحيته، واتخذ هيئة شرقية.. وفي ٢ مارس ١٨٠٩، غادر إنجلترا، ليقضي ثلاث سنوات في سوريا متخفياً في زي تاجر مسلم، وفد من الهند، باسم الشيخ «ابراهيم» مزودا بتوصيات من ادارة شركة الهند الشرقية وتنقل ما بين حلب ودمشق وتعمق في دراسة اللغة العربية وآدابها، ثم توجه إلى لبنان وحوران، وكان أول أوروبي يشهد آثار «البتراء» ثم سلك طريق الحج إلى القاهرة وقام برحلة إلى بلاد النوبة، ومنها اخترق الصحراء إلى «سواكن» ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة وانجز رحلته في بلاد العرب (١٨١٤- ١٨١٥) زار فيها مكة والمدينة، أعقبها برحلة إلى سيناء وخليج العقبة، ثم استقر في القاهرة، حيث لاتزال ماثلة آثار أقدام نابليون على ضفاف نيل مصر، ووافته المنية في ١٥ أكتوبر سنة ١٨١٧، ودفن بلقب «الشيخ والحاج ابراهيم» في مقبرة خاصة، في الجنوب الشرقي من باب النصر «بالقاهرة الفاطمية» .

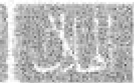
وفي كتابه الشهير «رحلات في بلاد العرب» قدم لنا انطباعاته في رحاب مكة والمدينة عارضا لجوانب من الحياة الاجتماعية بالمدينتين، وبعد أن أدى مناسك العمرة في شهر رمضان، قال:

«خلال شهر رمضان، ألف مصباح تضيء الجامع الكبير (الحرم المكي) تجعل من الليل أمانا لكل الغرباء في مكة... وان كان الليل في رمضان لايقدم تلك الاستعراضات البراقة والاحتفالات المرحة التي نراها في بلاد الشرق الأخرى !

مكة مدينة لطيفة التصميم، شوارعها- بصفة عامة – أعرض من شوارع المدن الشرقية، منازلها شامخة مبنية من الأحجار، النوافذ العديدة المطلة على الشارع توحي بانطباع أكثر حيوية ! ، وقليل منها يزدان بالمشربيات، ومثل مدينة جدة، فإن مكة تحوى عدداً من المنازل ذات الثلاثة طوابق، بعضها مطلي باللون الأبيض .

وفي الماضي، كان للمدينة ثلاثة أبواب لحمايتها، أحدها شيد في الجانب الآخر للوادى عند شارع «المعلاة» وآخر عند حي «الشبيكة» والثالث عند الوادى المفتوح تجاه حي « المسفلة» وقد تم ترميم هذه الأبواب في عام ٨١٦ و ٨٢٨ هـ وقد ظلت بعض أطلالها قائمة لنحو مائة عام .

المكان العام الوحيد في قلب المدينة، هو ذلك الميدان الرحب للجامع الكبير، لا أشجار أو حدائق تسر الناظرين ! ولاحياة للمشهد العام إلا في موسم الحج، الحوانيت المنتشرة بكل حي تكتظ



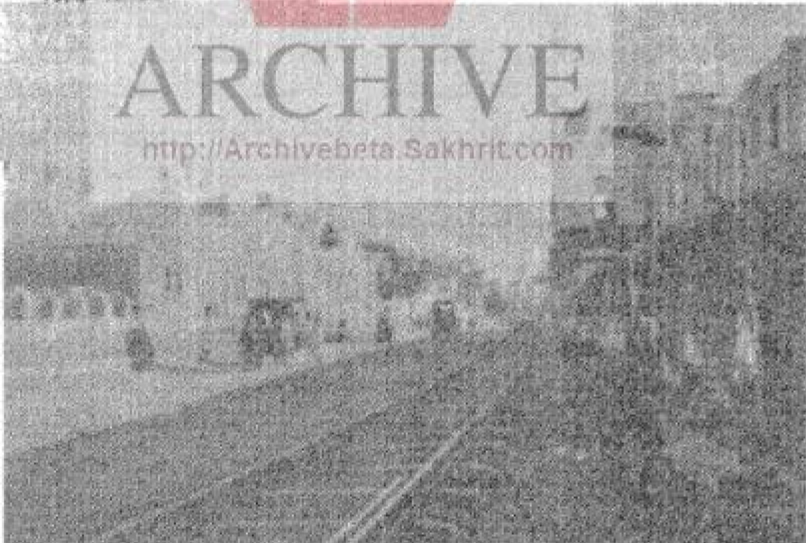


بوركهارت أو
الشيخ
ابراهيم
بالزي
الشرقي

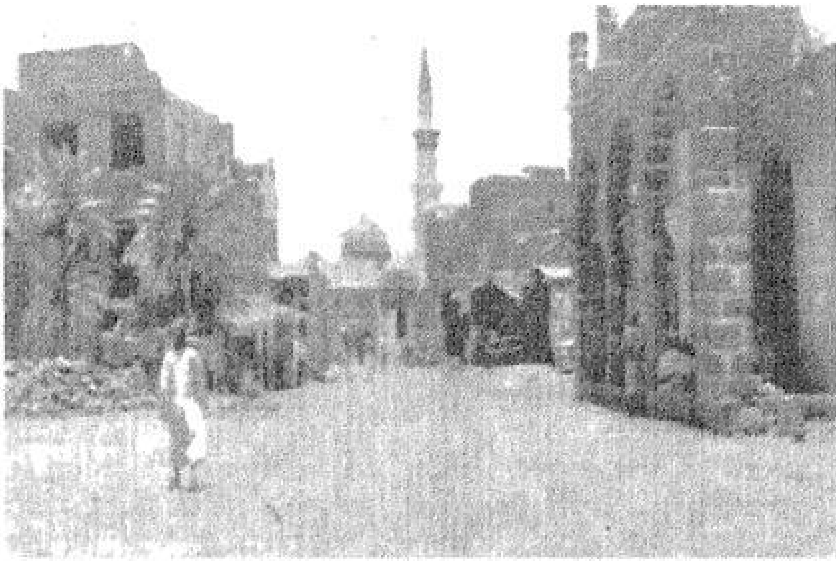


لقطة للروضة الشريفة عام ١٩٥٠ حيث دفن
خاتم المرسلين في المدينة المنورة

١٢٥
الهلال
ذو الحجة ١٤٢٤هـ - فبراير ٢٠٠٤م



سكة حديد الحجازية بشارع العنبرية فى المدينة المنورة - ١٩٢٥ م



أحد الشوارع المؤدية إلى الحرم النبوى بالمدينة المنورة فى بدايات القرن الماضى

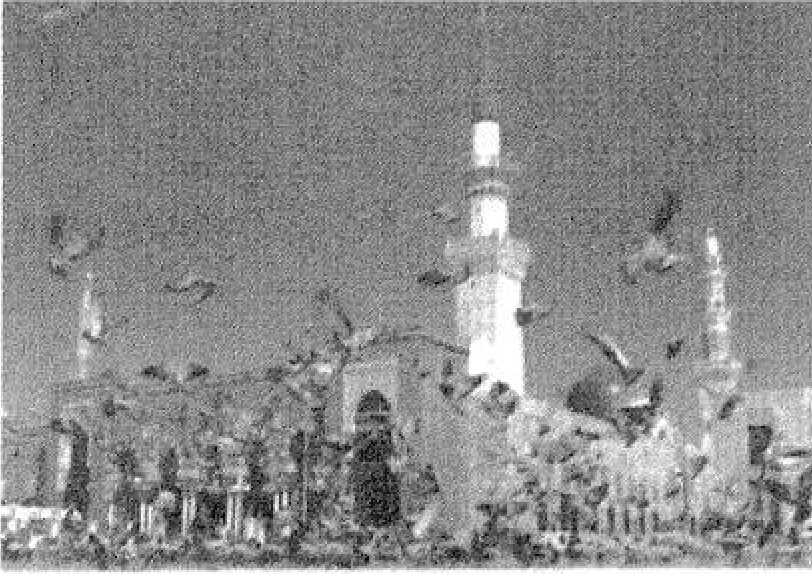
بالمعروضات باستثناء أربعة أو خمسة منازل ضخمة ملك لشريف مكة ومدرستين (تحولتا الآن إلى محال للفلال!) والجامع، وبعض المبانى والمدارس الملحقة به!.

ولايمكنك أن ترى تلك المعالم التى تشتهر بها مدن الشرق مثل الخانات اللازمة لراحة المسافرين، أو وكالات لتخزين البضائع، أو قصور عظيمة أو مساجد، وقد يمكننا أن نرجع هذا النقص الشديد فى المبانى العامة، إلى هذا التبجيل الخاص الذى يكنه السكان نحو «الكعبة» .. وهذا مايمنعهم من تشييد بناء آخر يمكن أن يضاهيها !»

وفى وصف الحرم المكى، يقول بوركهارت:

«الحرم من الداخل على شكل مربع تقريباً، تتوسطه بميل إلى الزاوية الجنوبية الكعبة.. وأبواب الحرم المكى ثمانية فى الجهة الشمالية وهى : الدريبة، المدرسة، المحكمة، الزيادة، القطبى، الباسطية، الزمامية ثم باب عمرو بن العاص، وفى الجهة الغربية ثلاثة أبواب : العمرة، ابراهيم ثم باب الحزورة وفى الجنوب سبعة أبواب: أم هانئ، التكية، الرحمة، أجياد، الصفا، بنى مخزوم، ثم باب بازان وفى الجهة الشرقية أربعة أبواب : بنى هاشم أو باب على، العباس، باب النبى ثم باب السلام.

وللمسجد ست منارات : منارة باب العمرة، منارة باب السلام، منارة باب على، منارة الحزورة، ومنارة باب الزيادة ومنارة السلطان قايتباى.. وصحن المسجد مكشوف تقطعه ممرات مفروشة بالحصى الصغير، والكعبة بوسط الصحن، وزواياها تسمى أركان : فالركن الشمالى يسمى الركن العراقى، والجنوبى يسمى الركن



حمام الحما وجانب من صحن الحرم النبوي

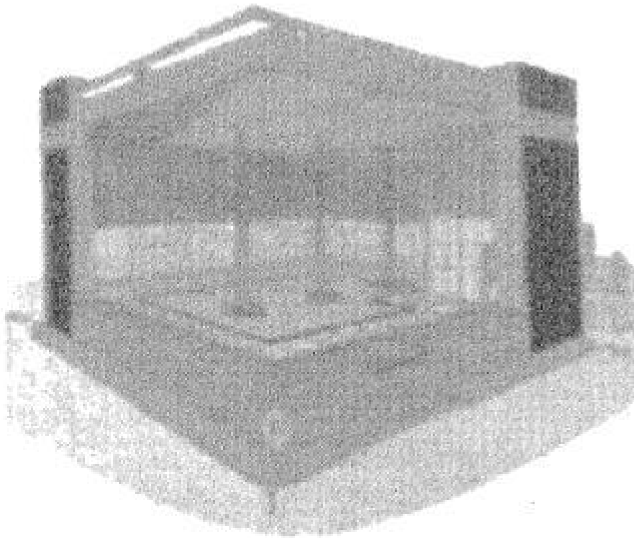
اليماني، والغربي يسمى الركن الشامي، والشرقي يسمى ركن الحجر الأسود ... ويخرج من أعلى منتصف الحائط الشمالي «ميزاب» حتى لاتتجمع مياه الأمطار على سقف الكعبة، وهو الآن من الذهب الخالص، وقد أمر بصنعه السلطان عبد المجيد وبالركن الشمالي باب صغير يسمى «باب التوبة» وبداخل الكعبة ثلاثة أعمدة، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب وحائط الحجر الأسود، ويغطى جدرانها الحرير الأخضر نقشت عليه آيات مذهبة، كما يزدان داخلها بأكثر من مائة قنديل من الفضة والذهب المرصع بالجواهر»!

وعن انطباعاته عن المدينة المنورة يقول بوركهارت : «ترجلت القافلة فى إحدى ضواحى المدينة، حيث أودع المسافرون أحمالهم، وبدأوا على الفور فى البحث عن أماكن للإقامة بمساعدة مطوف محترف، وقد أمكننى الحصول - بعد قدر من المشقة - على شقة لابأس بها بشارع السوق الرئيسى للمدينة، تبعد عن الجامع الكبير بنحو خمسين ياردة .

نقلت أمتعتى إلى مقر إقامتى، ثم طلبت من المطوف زيارة الجامع والضريح المقدس لمحمد ... ومثلما فى مكة، فالزائر فور وصوله إلى المدينة المنورة، لابد أن يؤدى هذا الفرض، قبل أن يشرع فى إنجاز شؤونه الخاصة، المناسك هنا أبسط وأكثر يسرا مما فى مكة وقد انتهيت منها فى نحو ربع الساعة» !

فارتيما .. أو الحاج يونس

وقد حرص كثير من الرحالة المسلمين والأوروبيين على زيارة المدينة المنورة وبعض الرحالة الأوروبيين الذين تظاهروا



قطاع الكعبة من الداخل





رسم للحرم النبوي يعود الى القرن الثالث عشر



بالإسلام، وطافوا بأرجاء العالم الأسلامى، كانت مهمتهم الحقيقية، رصدا شاملا للبلاد وتحصيناتها، والأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للشعوب الاسلامية ..ومن هؤلاء الرحالة الايطالى «لودفيكو دى فارتيما» .. أو «الحاج يونس» كما سمى نفسه ! .. الذى قام برحلته إلى الشرق فيما بين عامى ١٥٠٢و ١٥٠٩ فأبحر من البندقية قاصدا مصر ثم توجه إلى بلاد الشام، ليطوف بعدها ببلاد العرب (الحجاز) ثم اليمن فالخليج العربى وبلاد فارس وقد رحل دى فارتيما إلى المدينة المنورة، فى قافلة ضمت ثلاثمائة من الزائرين والتجار والمماليك وكتب فى نهاية اليوم الخامس عشر «وصلنا إلى جبل (هدية) محيطه نحو عشرة أميال يقطنه نحو أربعة آلاف يهودى قصار القامة، شبه عراة يميلون إلى السواد، لايأكلون إلا لحوم الغنم، وإذا وقع أحد المسلمين بين أيديهم سلخوه حياً !!.. وكانوا يحومون حول الجبل كالماعز البرية!.. وعند سفح الجبل، وجدنا بركة يتجمع بها الماء فى موسم الأمطار، وبالقرب منها ثمانى شجيرات جميلات، عششت فيها «قمريتان» فكان مشهد أشبه بالمعجزة فى هذا الجو القاحل! فقد سافرنا خمسة عشر يوماً لم نصادف خلالها طيراً أو حيواناً.. وفى اليوم التالى، وعلى مسافة أربعة أميال من مدينة النبى، توقفت القافلة عند بئر، حيث اغتسل كل فرد من أفراد القافلة، وارتدينا ملابس الإحرام قبل دخول المدينة» .. وقال عن مسجد النبى» «يبلغ طوله مائة خطوة طولاً وثمانين خطوة عرضا ويوجد بابان فى كل جهة من جهاته الثلاث، أما الرابعة فلا أبواب فيها، والسقف يرتفع على عقود تمتد على أعمدة من الحجارة المطلية باللون الأبيض.. عند كل باب من الأبواب الداخلية، تجد عشرات من الكتب التى تتناول حياة محمد «*»: وشروحاً للعقيدة الإسلامية، وخلف حاجز معدنى مشغول بشكل جميل، توجد قبور محمد «*» وأبى بكر وعمر» .

ورحل «دى فارتيما» إلى مكة، وسجل انطباعاته عنها، فقال «إنها مدينة رائعة الجمال قد أحسن بناؤها، وتضم نحو ٦٠٠٠ أسرة ومنازلها جيدة .. وتمثل جبال مكة أسواراً للمدينة، وحاكمها «شريف» من سلالة النبى، ويتبع سلطان مصر...

وقد رأيت أعداداً كبيرة من الحجاج الذين يبتغون الغفران !.. أتى كثير منهم من بلاد الهند وفارس والشام وإفريقيا، وتروج هنا تجارة الجوهرات والبهارات والأقمشة والشمع والمواد العطرية !

فى وسط مكة تتوسط الكعبة الجامع الكبير، مبنى جميل يشبه «الكولوزيوم فى روما – Callesseum of Rome» وله نحو تسعين بابا ذات عقود، كان يجلس تحتها نحو خمسة آلاف، رجالاً ونساء، يبيعون المواد العطرية ، ولا أستطيع أن أصف لكم روعة الروائح التى شممتها فى هذا المكان .. ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع الكعبة ست خطوات، وقد غطيت بالحرير الأسود الفاخر (الكسوة) وبابها من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان، على جانبيه «جرة» يقال إنها مليئة بـ «البلسم» وجدران الكعبة مغطاة برقائق من الذهب، وفى كل ركن من أركانها تتدلى حلقة كبيرة وثريات تتدلى

من السقف، مشغولة بالمينا ومرصعة بالذهب ويطوف الحجاج حولها سبع مرات، ويتمسحون بها ويقبلونها وبالقرب منها توجد «بئر زمزم» يقف عندها ثمانية رجال لسحب المياه، وعقب طواف الحجيج يأتون إلى هذه البئر، فيصب القائمون على البئر ثلاث «صفائح» على كل حاج - حتى الذين كانت ثيابهم من حرير! - طالبين من الله أن يطهر أبدانهم ويغفر لهم ذنوبهم !

ويرفرف فى سماء المسجد نحو ١٥ ألف حمامة، يقال : إنها من سلالة حمامة الغار! »

ريتشارد بيرتون

أما العالم الجغرافي والمؤرخ والانثروبولجي، مكتشف بحيرة تنجانيقا، والذى ترجم كثيراً من المؤلفات العربية والفارسية إلى الإنجليزية، الرحالة الأيرلندى الشهير «ريتشارد بيرتون» الذى بدأ رحلته إلى مصر وبلاد العرب والشام عام ١٩٥٣، وبعد أن طوف بنا فى مكة المكرمة، انتقل إلى المدينة المنورة ليصف لنا عمارتها وجبالها وأوديتها ودروبها وعادات أهل المدينة وتفاصيل حياتهم اليومية، وقد استضافه «الشيخ حامد» فى منزله بحى «المناخة» ويقول رغم أن منزل الشيخ حامد لم يكن واسعاً، إلا أن المناظر المتباينة التى تبدو من نوافذ (المقعد) تجعل منه مكاناً حيوياً، فناحية الشرق تشرف على ميدان بر المناخة وسور المدينة وما خلفه من منازل والباب المصرى، ومآذن الحرم النبوى وجبل أحد على البعد، ومن ناحية الشمال ترى مسجد محمد «ﷺ» وجزءاً من جدار الحصن .. والطبقة العليا فى مجتمع المدينة تأثرت بالفخامة التركية والمصرية فى معيشتها ...

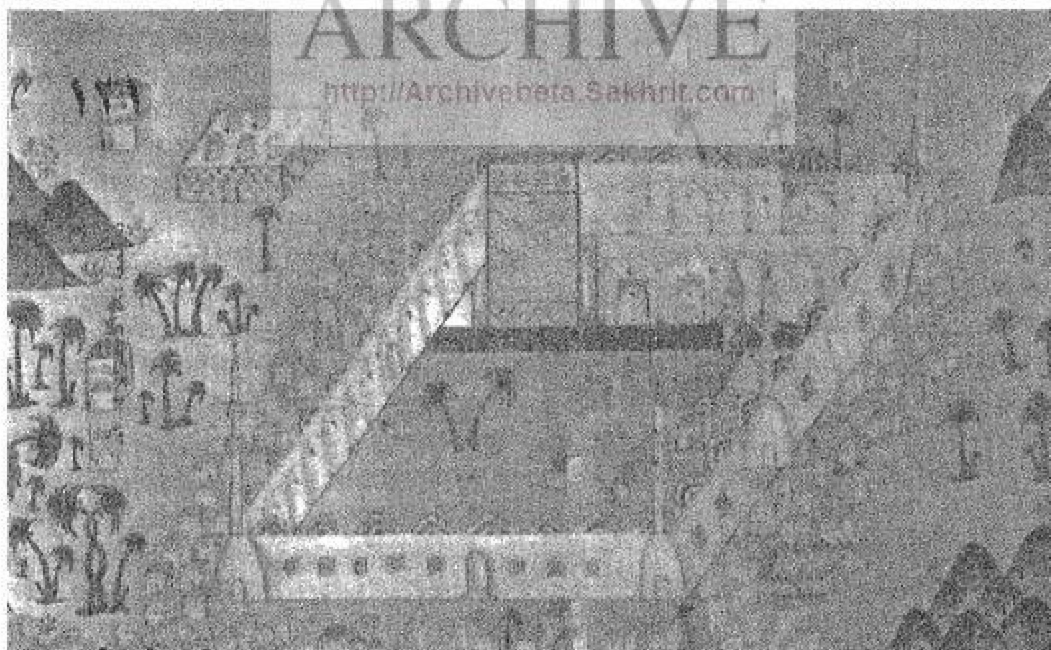
وتحدث بيرتون عن قداسة المدينة والمكانة الرفيعة للمسجد النبوى، مشيراً إلى أن بعض المسلمين يعتقدون أن المدينة المنورة أكثر شرفاً وأعلى مرتبة روحية من مكة المكرمة، وأن النبى قد فضل المدينة «دار هجرة» وباركها كما بارك ابراهيم مكة .. وأهل كل من المدينتين يتباهون بالشرف الذى حازته مدينتهم !.

ويقول بيرتون عن المسجد النبوى الشريف :

« هذا المسجد الذى يحظى بالتبجيل والتوقير من كل مسلمى العالم، يبدو بسيطاً متواضعاً فى مظهره المعمارى، وهو متوازى الاضلاع طوله نحو ٤٢٠ قدما وعرضه ٣٤٠ قدما، يتوسطه صحن تحيط به أربعة أروقة ذات أعمدة رخامية تعلوها عقود مزخرفة .. وبطول الجدار الشمالى يوجد الرواق المجيدى «نسبة إلى السلطان عبد المجيد» أما الجدار الغربى فعنده رواق «بوابة الرحمن» وفى الجدار الشرقى «بوابة النساء» أما الجدار الجنوبى فيحوى أكثر المواضع قداسة فى المسجد وهى «الروضة الشريفة» .

« وقد بدأنا الدخول بالقدم اليمنى لنخطو أمام خط «المواجهة الشريفة» مردداً الدعوات التى كان يدعو بها الشيخ حامد.. عن شمالى، حائط منخفض مزخرف بنقوش عربية به أربعة أبواب صغيرة، يمكن العبور منها إلى الداخل حيث المحراب النبوى والمحراب السليمانى والمنبر، وكلا المحرابين من الفسيفساء الجميلة المختلفة ألوانها، والمنبر من الخشب الأرابيسك الرائع، ومن الباب الغربى الصغير، دخلنا إلى الموضع الشهير بـ «الروضة الشريفة» .. وإلى

الحرمان المكي والمدني في الرسوم الفارسية





الشرق ضريح النبى محمد «ﷺ» محاطاً بمقصورة من الخشب الخرط البديع .

والمشهد الذى يثير الإعجاب ليلاً، تلك الأنوار المنبعثة من الزجاج الملون فى الجدار الجنوبى، والنحاس المشغول الاصفر أو المطلى باللون الأخضر، وتنبهر العيون من أضواء القناديل وأنوار الشموع الضخمة.. ومن تعمق فى روح الشرق سيدرك معنى «الفردوس» الذى قصده المعمارى !!.

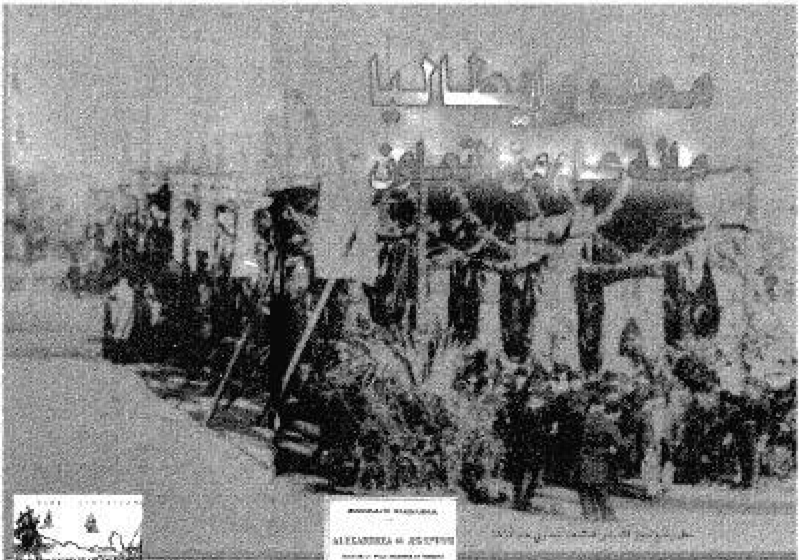
والضريح أو «الحجرة» كما يطلق عليه، كانت أساسا غرفة السيدة عائشة، يفصلها عن المسجد ممر عرضه نحو عشرين قدما، ويحيط بالقبر إحاطة كاملة سياج معدنى مزخرف بكتابات وأشكال نباتية رائعة، به أربعة أبواب :باب المواجهة، باب فاطمة الزهراء، باب التوبة والباب الشامى وهو الوحيد الذى يفتح لدخول الطواشية لتنظيف الأرضية وإضاءة القناديل ورفع الهدايا التى يلقى بها بعض الزائرين

وفى الجزء الجنوبى من السياج، توجد ثلاث طاقات ترتفع عن الأرض نحو خمسة أقدام الأولى تواجه قبر محمد «ﷺ» وتشتهر بـ شباك النبى والثانية تطل على قبر أبى بكر، والثالثة على قبر عمر بن الخطاب، وتعلو الحجرة الشريفة قبة خضراء، يرتفع عليها هلال ضخم مذهب والخيال المتوهج لبعض المسلمين جعلهم يتصورون أن هذا الموضع يصعد منه «نور ربانى» يهدى خطى الحجيج على بعد مسيرة ثلاثة أيام من المدينة المنورة!

أما مآذن المسجد النبوى فعددها خمس لكن واحدة منها وهى المئذنة الكائنة فى الزاوية الشمالية الغربية للمسجد قد تهدمت وجار العمل فى إعادة بنائها، أما منارة «باب السلام» فتنتصب بالغرب من الباب الذى يحمل الاسم نفسه، وهذه المنارة (أو المئذنة) طويلة وجميلة تعلوها كرة ضخمة مخروطية من نحاس مذهب، أما منارة «باب الرحمة» فوق منتصف الجدار الغربى تقريبا وهى أكثر بساطة من المنارات الأخرى، وفيها ممران فى الجزء الدائرى العلوى ويعلوها مخروط من النوع الشائع فى مصر وتركيا. وفى الزاوية الشمالية الشرقية توجد «المنارة السليمانية» نسبة إلى منشئها السلطان «سليمان القانونى» وهى مشيدة بشكل جيد كبرج حجرى مقسم إلى ثلاث طبقات متينة، والطبقتان إلسفليتان مضلعتان، أما الطبقة الثالثة فاسطوانية وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث لها منصة أو منبسط يحيط به سور دائرى لحماية الصاعدين من السقوط .

وأخيراً هناك منارة الرويسا Ruia-sa(كما كتبها بيرتون) فى الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد، وقد شيدت فوق البقعة التى كان بلال (رضى الله عنه) يؤذن فيها ليدعو المسلمين الأوائل للصلاة، وقد سميت بمنارة الرؤساء لأنها مخصصة للرؤساء من العلماء والحكام !.

وكلتا المئذنتين تنتهى ببناء بيضى (أهليجى) متين ينبثق منه عدد من المثلثات الخشبية وبالنسبة لهاتين المئذنتين وكذلك الأروقة فإنها جميعا تضاء بالمصابيح الزيتية فى المناسبات الاحتفالية كوصول قافلة الحج الدمشقية ومن النظرة الأولى، يبدو عدم التناسق بين هذه المنارات، رغم الجمال والعظمة البادية فى كل منها على انفراد .. لكن بعد عدة أيام، وجدت عينى قد ألفت مشاهدتها ولم أجد صعوبة فى تذوق روعتها وشكلها النبيل !! ■



بقلم

مينا عبد البديع عبد الملك *

مصر وإيطاليا حضارتان مرموقتان على جانبي المتوسط . كان لابد لهما من عبوره ، كان لابد لهما من لقاء . بدأ اللقاء الأول منذ آلاف السنين مطعما بجلال السبق لهما لتتوحد المشاعر كي تسود العالم آنذاك . وظل هذا اللقاء دفين الزمن إلى أن تم لقاء الزمن الحاضر والتجديد منذ مائة عام .. كان لقاء العلم والاكتشاف وهو الاستمرار الحقيقي لإسعاد الشعوب بما يثري حاضرها ومستقبلها .

خلال مائة عام من التواجد العلمي والكشفي الإيطالي في مصر تحققت للإنسانية أحلام لها طابع الواقع المليء بالسحر والغموض لتلقي ضوء الكشف على حياة غابرة أعطت للماضي تفوقا إنسانيا مرموقا بين الحضارات . فقد مرت بمصر بعثات للتنقيب بدءا من المكتشف الرحالة «بلزوني» باكتشافاته الرائعة والمهمة لمقبرة لفرتاري ومعبدي أبي سمبل وغيرها مما بهر العالم وصولا إلى عصرنا الحالي والذي تطورت فيه العلاقات إلى مستوى أعمق وأهم وهو الحفاظ على هذا التراث الذي هو ملك للإنسان على مر العصور .

* أستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة



غلاف كتاب سجل أعمال البعثات الأثرية الإيطالية بمصر على مدى ١٠٠ عام



غلاف الكتاب الذي أصدره عالم الآثار الإيطالي بريشيا عام ١٩١٤ عن الإسكندرية المصرية

مصر وإيطاليا

مائة عام من التعاون

بهذه الكلمات سجل السيد فاروق حسنى - وزير الثقافة المصرى - خطاب الشكر الذى وجهه إلى الدكتورة «ماريا كازينى» الأثرية بالمعهد الثقافى الايطالى بالقاهرة على جهدها الكبير فى تجميع وثائق البعثات الايطالية المختلفة - على مدى مائة عام - بمصر، وتسجيل ذلك التاريخ الحافل بالاكتشافات والترميمات تلك التى هى موضع اعتزاز الشعب المصرى وتقديره.

ساهم فى تسجيل هذه الموسوعة القيمة ثمانية وعشرون أستاذا متخصصا من الجامعات الايطالية المختلفة : روما ، فلورنس ، بيزا ، باليرمو ، ليسى ، بولونيا ، تورينو ، نابولى، ميلانو ، ميسينا ، بويتير . وبتعضيد من الخطوط الجوية الايطالية «اليتاليا».

الكتاب مقسم إلى سبعة أقسام مختلفة : فترة ما قبل التاريخ ، مصريات ، مصر اليونانية الرومانية ، برديات ، الحفاظ على الآثار ، الدراسات الايطالية فى المتحف المصرى ، ثم قسم الآثار بالمعهد الثقافى الايطالى بالقاهرة .

المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية

مع منتصف القرن التاسع عشر قام عالم الآثار الفرنسى أوجست مارييت - الذى خلف جاستون ماسبيرو - بتأسيس مصلحة الآثار المصرية . عمل الباحث الايطالى لويجى فاسيلى مع ماسبيرو بينما كان السندرو بارسانتى - السكندرى المولد - مساعدا لمارييت والذى امتدت أعماله من الدلتا شمالا إلى النوبة جنوبا . فى تلك الفترة المبكرة كانت الآثار المصرية تعانى من التدمير الشامل والإهمال وتحتاج إلى عناية خاصة .

بعد ذلك بأكثر من خمسين عاما قام أثرى إيطالى - سكندرى المولد «بوتى» بتأسيس المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية عام ١٨٩٢ وذلك بداخل مبنى بشارع رشيد (حاليا طريق الزعيم جمال عبدالناصر) وذلك بغرض حفظ آثار مدينة الاسكندرية التى كانت تظهر من أعماق الأرض مع أعمال الحفر لمنازل ومنشآت المدينة المختلفة . وبازدياد حركة العمران والاهتمام بالآثار القيمة للمدينة رأى «بوتى» أهمية إنشاء المتحف الحالى بالإسكندرية وفى عام ١٨٩٥ بدىء فى إنشاء الجناح الغربى ، وظل بوتى مديرا له حتى اكتمل المتحف فى عام ١٩٠٤ وفى الفترة (١٩٣١ - ١٩٥٢) تولى إدارة المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية إثنان من علماء الآثار الايطاليين هما ابفارستو بريشيا وأشيللى أدريانى .

ولكل من بوتى وبريشيا وأدريانى الفضل فى الحفائر التى قاموا بها فى مواقع عديدة بحثا عن الآثار اليونانية والرومانية سواء داخل نطاق مدينة الاسكندرية أو فى مدن مصرية أخرى جرت بها وقائع التاريخ اليونانى الرومانى مثل الفيوم والبهنسا والصحراء الغربية .

ومن أهم المواقع التى تم اكتشافها مناطق جبانات الشاطبى ومصطفى كامل والحضرة والتى يعود تاريخها إلى العصر البطلمى ، بالإضافة إلى البقايا المطمورة تحت الأنقاض حول عمود دقلديانوس بمعبد السرابيوم - وكذا كوم الشقافة وجبانة اللاتين ومنطقة كوم الدكة الأثرية .

وفى عام ١٩٣٦ كشفت الحفائر التى



مقابر منطقة مصطفى باشا

قام بها المتحف اليوناني الروماني عن معبد روماني من الطراز الأيوني يرجع تاريخه للقرن الثاني داخل محجر للرمال بمنطقة الرأس السوداء، وجدت به مجموعة من تماثيل رخامية لأرباب الاسكندرية القديمة إيزيس ، حربوقراط وهيرمانوبيس داخل إحدى قاعات هذا المعبد .

أول بعثة أثرية إيطالية جاءت إلى وادي النيل بتمويل من الحكومة الايطالية ، تم تكوينها بمعرفة أرنستو شيابارللى (١٨٥٦ - ١٩٢٨) الذى كان يشغل وظيفة أمين المتحف المصرى بتورينو وأستاذ المصريات بجامعة تورينو ، ومتحف تورينو قد تأسس بقطع أثرية يعود تاريخها إلى الفترة ما بين الدولة المصرية القديمة والمتوسطة والتى اكتشفت بمنطقة الجيزة عن طريق الحفائر التى قام بها شيابارللى وبمساعدة فرانسسكو باريني .

أهم الاكتشافات الأثرية التى قامت بها البعثات الايطالية تلك التى كانت على حدود منطقة طيبة حيث مقبرة الملكة نفرتاري ، مقبرة الرسام مايا (الدولة الثامنة عشرة) بدير المدينة .

كذلك اهتم شيابارللى بتشكيل فريق عمل مكون من أستاذ علم الأجناس «جيوفاني مارو» ، وأستاذ المصريات «فرانسسكو باريني» وأستاذ الترميم «فابريزو لوكارني» حيث استخدموا طرقا فنية للمحافظة على رسوم مقبرة مايا ، وبعد ذلك أمكن فكها وإعادة تجميعها بمتحف تورين بايطاليا !

بحوث علي البرديات

مع بداية القرن العشرين حدث تطور في البحوث التى تجرى على البرديات المصرية القديمة . ففى عام ١٩٠٨ تأسست «الجمعية الايطالية لبحوث البرديات اليونانية واللاتينية في مصر» ، وفي عام ١٩٢٨ استبدلت «بمعهد البرديات» بجامعة فلورنسا والتى قامت بإجراء حفائر فى المناطق الأثرية مما أدى إلى اكتشاف مجموعة قيمة من البرديات الوثائقية المكتوبة باليونانية . وقد أجريت

مصر وإيطاليا
مائة عام من التعاون

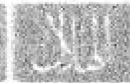
هذه الحفائر في مناطق هرمويوليس ، أوكسينيموس (١٩١٠ - ١٩٢٨) ، أنطينو (١٩٣٥ - ١٩٣٨) ، الهيبى (١٩٣٤) ، طبتينس ، ثيادلفيا ، ومدينة مادى ، وكان الذى يشرف على هذه الحفائر «كارلو آنتى» من جامعة بادو الايطالية (والذى اختير ليخلف شيابارللي - بعد وفاته - في إدارة البعثات الأثرية الايطالية) . إيفارستو بريشيا (الذى صار أستاذا للآثار الكلاسيكية بجامعة بيزا عام ١٩٣١ وأستاذ التاريخ اليوناني الروماني بنفس الجامعة عام ١٩٣٥) ، آشيل فوجليانو (بجامعة ميلانو) . وقد نتج عن هذه الحفائر اكتشاف عدد ضخم من البرديات اليونانية (بالإضافة إلى الديموطيقية والهيراطيقية كالتى تم اكتشافها في مكتبة معبد منطقة طبتينس ، بينما البرديات التى تم اكتشافها بمناطق انطينو ، الهيبى ، بعض مواقع بالفيوم ، ثيادلفيا ، طبتينس ، ومدينة مادى ألقت مزيدا من الضوء على آثار مصر القديمة .

معبد التمساح

في الفترة (١٩١٢ - ١٩١٣) قام بريشيا باكتشاف أثرى هام فقد عثر على معبد بقرية «بطن هريت» بالفيوم يسمى «معبد التمساح» . وهذه القرية تمثل أطلال المدينة القديمة ثيادلفيا خلال العصر البطلمي ، وقد كان التمساح هو الإله الرئيسى لتلك المدينة خلال تلك الحقبة . وتضم القاعة رقم (٩) بالمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية آثار هذه الاكتشاف . فمن أهم المعروضات بهذه القاعة مومياء للتمساح داخل خزانة زجاجية في الجانب الشرقى من القاعة تعلو المحفة الخشبية التى كان يطوف بها كهنة المعبد قديما بمومياء التمساح داخل المعبد خلال طقوس العبادة الخاصة به، وتستقر هذه المحفة الآن على ركيزة خشبية رشيقة كانت تستعمل قديما لحفظ هذه المحفة بالمعبد .

وفى الجانب الغربى من القاعة يوجد باب المعبد الخشبى وتعلوه كتابة يونانية بخط أنيق تعلن عن أن مواطنا من الإسكندرية ، قد أهدى هذا الباب للمعبد تكريما للملك بطلميوس الثامن (١٤٥ - ١١٦ ق . م) وكل من زوجته وأخته المعروفتين باسم كليوباترا . كذلك تعرض بالقاعة لوحتان من الحجر الجيرى مكتوبتان باللغة اليونانية بالحفر ويعلوهما مناظر للتماسيح ، ويبين النص المكتوب على اللوحتين حق معبد التمساح في حماية اللاجئين إليه وقد كان هذا الحق من الامتيازات ذات الصفة القانونية التى كان الملوك البطالمة يمنحونها لبعض معابد مصر خلال ذلك العهد البعيد ضمن سياستهم في السيطرة على كل مصادر القوة في البلاد بالمهادنة ، وقد كان في مقدمة هذه المصادر طائفة الكهنة المصريين في طول البلاد وعرضها .

وتوجد بالقاعة خزانتان توجد بهما مجموعة من الأوانى ، وتماثيل الأرباب المصرية واليونانية ومن أجملها - كما يذكر الأستاذ أحمد عبدالفتاح مدير عام المتحف اليونانى الرومانى - تمثال خشبى لرأس التمساح ، وتمثال للمعبودة هيكاتى المنحوت من الخشب، وهو من القطع النادرة التى عثر عليها لهذه المعبودة الاغريقية بمصر ، وقد عثر على هذه القطع بداخل المعبد، والأبنية المحيطة به والمتصلة بشعائر عبادة التمساح في أعياده والمناسبات المختلفة . وقد تم نقل





منظر عام لمقابر الشاطبي ، ويظهر أمامها مباني كلية سان مارك

بوابات هذا المعبد والتماثيل المحيطة بها والهيكل الخاص بالمعبد من الفيوم وأعيدت إقامتها بالجانب الغربي من الحديقة البحرية للمتحف اليوناني الروماني .

اكتشافات الفيوم

«أشيل فوجليانو» بدأ حفائره بالفيوم بمدينة مادى (١٩٣٥ - ١٩٣٩) على أمل اكتشاف برديات جديدة فقام بالتنقيب عن معبد كامل يرجع تاريخه إلى الدولة المتوسطة كان قد أنشأه أمنحتب الثالث هذا بالإضافة إلى اكتشاف أربعة ألحان لإسيدوروس مسجلة باليونانية تمدح في الفرعون أمنحتب الثالث الذى بنى هذا المعبد .

في عام ١٩٦٦ تم افتتاح اكتشافات مدينة مادى مرة أخرى بجامعة ميلانو تحت إشراف «إدا برسياني» - حاليا بجامعة بيزا - ومازال يقوم بنفس الرسالة بجامعة بيزا .

حاليا يقوم متحف تورينو بإجراء بعض الاكتشافات متتبعا نفس الطريقة الناجحة التى قام بها «شيابارللى» و«جيليو فارينا» (خليفته في إدارة متحف تورينو في الفترة ١٩٣٠ - ١٩٣٧) و«سيرجيو دونادوني» أعاد العمل مرة أخرى في منطقة أنطينو (الذى بدأ العمل بها بريشيا في الفترة ١٩٣٧ - ١٩٣٨) مع معهد فيتالي البرديات بفلورنسا وتوصلوا إلى معلومات ذات قيمة تخص الفن والمسيحية في مصر .

وحاليا يوجد عدد من أعمال التنقيب تم البدء فيها . ففي الفيوم اكتشفت جامعة بيزا مقابر تعود إلى الدولة الوسطى ، كما أن جامعتي بولونيا وليسي تعاونتا في أعمال تنقيب على مدى سبعة أعوام تحت إشراف أستاذ المصريات «سيرجيو برنيجوتي» وأستاذ البرديات «ماريو كاباسو» . في طيبة توجد حفائر وترميمات في مقبرة شيشونج تحت إشراف «سيرجيو دونادوني» بجامعة روما - حاليا يشرف عليها «السندرو روكاتي» ، بينما مقبرة هاروا يقوم بدراستها «فرانسسكو

مصر وإيطاليا مائة عام من التعاون

تيرادريتي» بمتحف الآثار بميلانو و«مارلينا بترو» من جامعة بيزا..

منذ عام ١٩٧٤ صارت مقبرة باكترنف المهمة بسقارة موضع اهتمام الأثريين حيث تقوم جامعة بيزا بأعمال التنقيب والترميم .

بمنطقة الدلتا ، يقوم «باولو جالو» من جامعة تورينو بالعمل بجزيرة نيلسون الواقعة بخليج أبى قير .

فى خلال الثلاثين عاما الأخيرة ، قام عدد من الايطاليين بأعمال التنقيب بمناطق مختلفة على أرض مصر تعود إلى عصر ما قبل التاريخ . فبعد «سيلفاتور بوجليسي» الذى أجرى بحوثا عام ١٩٦٠ ، قامت «إيزابيلا كانيفا» - من جامعة روما - بالعمل فى اكتشافات منطقة مادى بينما قامت «بربارا باريس» - من نفس الجامعة - بالعمل فى واحة الفرافرة ، وكذلك «رودولفو فاتوفيتش» من المعهد الشرقى بجامعة نابولى قام بإدارة البعثة التى تعمل فى منطقة الدلتا الشرقية . كذلك كانت النتائج التى توصلت إليها «لويزا بونجراني» بمنطقة وادى حمامات الواقعة فى الصحراء الشرقية ذات أهمية تاريخية كبيرة .

إنقاذ آثار النوبة

شغل فيضان النيل منذ أقدم العصور بال المصريين ، فبذلوا جهدهم ليحتفظوا بمائه ، ومن هنا كان التفكير الجدى فى العصور الحديثة لإقامة السدود والخزانات فأنشىء خزان أسوان عام ١٨٩٨ - ١٩٠٢ وتمت تعليته الأولى فى عام ١٩٠٧ - ١٩١٢ ثم تمت تعلية ثانية عام ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ثم واجهت البلاد فى أوائل الخمسينات مشكلة تزايد عدد السكان مع ثبات مساحة رقعة الأرض الزراعية وبالتالي فالحاصلات الزراعية لا تكاد تكفى السكان !!

من هنا اتجه التفكير نحو إنشاء السد العالي كضرورة قومية اقتصادية لتوفير الرخاء للبلاد . وعندما نادى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) بمشروع السد العالى لم ينس الآثار الخالدة على ضفتي النيل فى بلاد النوبة ، فالتفت إليها لينقذها قبل تنفيذ مشروع السد العالى .

وكما بدأت فكرة إقامة السد العالى تزداد عمقا فى قلوب أصحابها لتوفير الرخاء لهذا الجيل وللأجيال القادمة ، كانت فكرة إنقاذ آثار النوبة تزداد عمقا فى نفوس المثقفين ، لابقصد المحافظة على جزء من الحضارة المصرية القديمة يمتد من فجر التاريخ حتى العصور الوسطى فحسب ، بل لاستكمال مراحل البحث والدراسة لهذه الآثار : ماهو ظاهر منها وما لايزال فى عالم الغيب مطمورا تحت الرمال .

فى يناير ١٩٥٩ مر بالقاهرة المدير العام المساعد لمنظمة اليونسكو واجتمع بالسيد وزير الثقافة والارشاد القومى - فى ذلك الوقت ، وعرض السيد الوزير أمر الآثار المهددة بالغرق وما تستطيع منظمة اليونسكو تقديمه لمصر من مساعدات لإنقاذ معابد النوبة وآثارها . ونقل المدير العام المساعد للمنظمة هذه الرغبة إلى المدير العام للمنظمة الذى رحب بالفكرة وبعث يستفسر عن نوع المساعدات المراد تقديمها ومداها ، فأفادت وزارة الثقافة والإرشاد القومى بأنها مساعدات فنية ومادية تستهدف تنسيق الدراسات والأبحاث الخاصة بآثار النوبة السفلى،



إحدي مناطق عمل البعثة الأثرية الإيطالية ، حيث يتم ترميم بعض القوارير الفخارية

وذلك بإيفاد بعثات للتنقيب عن الآثار، وبعثات أخرى للدراسات الجيولوجية والانثولوجية ، وتصوير الإقليم بالتصوير الفوتوجرامترى ، ثم استكمال تسجيل المعابد والمقابر والنقوش المنحوتة في الصخر على طول ضفتي النيل في النوبة السفلى ، ثم نقل المعابد التي يتيسر نقلها ، وإعادة تشييدها خارج المنطقة المهددة بالغرق ، وأخيرا حماية المعابد المنحوتة في الصخر التي يتعذر - من الناحية الفنية والعملية - نقلها من أماكنها .

وعلى أثر ذلك وصل الخبراء إلى النوبة السفلى ، ثم قدموا تقارير ثلاثة: تقرير للأستاذين «أندريه كوين» و«جوزيف ديفو» عن حماية معبدى أبو سمبل وفيلة ، وتقرير للدكتور «جورج كينتش» عن الدراسات الجيولوجية للمنطقة المهددة بالغرق ، وتقرير للأستاذ «جازولا» عن نقل وحماية آثار النوبة من معابد فيلة وبجة في الشمال حتى معابد أبو سمبل وأبو عودة وجبل الشمس في الجنوب . وكان لهذه التقارير أثرها في إيقاد حماس كثير من الدول التي أدركت أن إنقاذ آثار النوبة واجب إنساني ، وليس عملا يخص مصر وحدها . وفي ٨ مارس ١٩٦٠ وجه الرئيس جمال عبدالناصر نداء دوليا لإنقاذ آثار النوبة وذلك من خلال رسالة بعث بها لمنظمة اليونسكو والتي وجدت استجابة تامة في نفوس الأعضاء المجتمعين في جلسة اليونسكو تردد صداها في كلمة رئيس المنظمة ، ومما جاء فيها : (.. مصر هبة النيل .. هي أول جملة اغريقية تعلم ترجمتها عدد لاحصر له من الطلاب ، فلتتحد اليوم جميع شعوب العالم لكي لايطوى النيل في أعماقه ، بسبب المشاريع البناءة التي ترمي إلى زيادة الخصب ومنابع القوى ، العجائب التي ورثناها نحن الأجيال الحاضرة من أجيال طوتها الدهور ..) .

ولبى كثير من دول العالم النداء ومنها الحكومة الايطالية الممثلة في جامعتي ميلانو (بإشراف سيرجيو دوناتوني)

مصر وإيطاليا مائة عام من التعاون

وروما (بإشراف أرتورو ستنيشو) والمتحف المصرى بتورينو (بإشراف سيلفيو كورتو) .

كما كان لقسم التعاون الدولى بوزارة الشئون الخارجية الايطالية دور مهم فى نقل آثار معبد فيلة وذلك بالاستعانة ببعض الشركات الإيطالية والفنيين الايطاليين والمعماريين والأثريين .

المتحف المصرى بالقاهرة

فى عام ١٨٦٣ تم إنشاء مبنى لإدارة الآثار المصرية بحى بولاق بصفة مؤقتة تحت إدارة «أوجست ماريت» (١٨٢١ – ١٨٨١) والذى سرعان ما تحول إلى متحف . كان أحد مساعدى «ماريت» يدعى «لويجى فاسيلى» (١٨١٢ – ١٨٨٧) يقوم بمهمة تطوير النشاط الذى تقوم به مصلحة الآثار المصرية . كان فاسيلى فنانا إيطاليا أنهى دراسته فى أكاديمية بريرا الايطالية وعندما غادر ميلانو إلى مصر شارك الأثرياء من الأجانب الذين كانوا يقومون بإجراء حفائر أثرية على أرض مصر وأخذ يبيع لهم بعض العاديات التى كان يشتريها من محلات العاديات المصرية . وعن هذا الطريق كان اللقاء بين «فاسيلى» و«ماريت» حينما باع له تابوت أحد فراعنة الأسرة السابعة عشرة وهو معروض حاليا فى متحف اللوفر بفرنسا .

وعندما فقد «ماريت» أحد مساعديه ويدعى «بونيفوى» الذى توفى إثر ضربة شمس فى أثناء الحفائر التى كان يقوم بها فى صعيد مصر ، تذكر «ماريت» الفنان الايطالى «فاسيلى» وطلب منه الالتحاق بمصلحة الآثار، ومنذ ذلك الوقت رافق «فاسيلى» مدير مصلحة الآثار «ماريت» فى عدد كبير من الاكتشافات الأثرية وأشرف بنفسه على عدد من أعمال الحفر نائبا عن مصلحة الآثار فى كل من الفيوم ودار أبو النجا . وبنهاية عام ١٨٦٥ عين أمينا للمتحف فى بولاق .

فى عام ١٨٨١ توفى «ماريت» فأخذ الأثريون الألمان والفرنسيون فى البحث عن من يخلف «ماريت» فى إدارة مصلحة الآثار ، وفى نفس الوقت – ولمدة شهر – قام «فاسيلى» بإدارة المتحف فى بولاق ، بعد ذلك اختير «جاستون ماسبيرو» لإدارة مصلحة الآثار . فى عام ١٨٨٤ اعتزل الخدمة ثم عاد إلى ايطاليا وفى عام ١٨٨٧ اغتيل .

المتحف المصرى بأيد إيطالية

لم يعد المتحف المصرى ببولاق يتسع لاحتواء الكمية الضخمة من الآثار المصرية التى نتجت من الاكتشافات العديدة التى تقوم بها البعثات الأثرية فى كل أنحاء مصر ، فمن ثم تقرر فى عام ١٨٨٩ نقل متحف بولاق إلى منطقة الجيزة فى فيلا ملك لأسرة الخديو والتى سرعان ما تحولت إلى متحف .

وبعد بضع سنوات قليلة تكررت مشكلة ضيق مساحة المتحف أمام الكمية الضخمة من الآثار ، لكن هذه المرة أمكن تدبير مبلغ من المال لبناء مبنى جديد للمتحف المصرى ، أسند بناء المشروع الجديد إلى شركة بناء ايطالية يملكها «جاروزو» و«زافرانى» حيث استخدموا أحدث طرق بناء ومن هنا كان المتحف المصرى بالقاهرة أول مبنى يتم بناؤه من الخرسانة المسلحة. بدأ البناء فى يناير ١٨٩٧ وانتهى فى نوفمبر ١٩٠١ وتسلم مفتاح المتحف الجديد – بميدان التحرير – «السندرو بارسانتى» (١٨٥٨ – ١٩١٧) وهو مهندس ايطالى يعمل فى مصلحة الآثار . وفى يوليو ١٩٠٢ تم نقل محتويات



المتحف من الجيزة إلى ميدان التحرير .
أيضا اختير «بارسانتي» لإعداد المعابد والآثار المصرية لزيارات السياح، كما قام بتنظيف أبى الهول من الرمال وإعداد معبد الرمسيوم (معبد رمسيس الثانى) لاستقبال الزوار .
من أهم الأعمال التى قام بها «بارسانتي» هى قيامه بمد خط سكة حديد عبر دلتا النيل إلى منطقة تانيس الواقعة فى مركز الدلتا الشرقية ، وأمكن بذلك نقل عدد ضخم من الآثار التى تحوى تماثيل ومسلات بلغ وزنها العديد من الأطنان إلى القاهرة . أيضا كانت عملية نقل محتويات المتحف من الجيزة إلى القاهرة تمثل صعوبة بالغة، فأنشأ خط سكة حديد بين الجيزة والقاهرة واستعان بعربتى سكة حديد قامتا بعدد ١٩ رحلة لنقل الآثار الضخمة إلى ميدان التحرير . انتهى من نقل الآثار فى يوليو ١٩٠٢ حيث تم افتتاح المتحف رسميا فى ١٥ نوفمبر ١٩٠٢ .
فى الفترة (١٩٢٠ - ١٩٣٠) وصلت إلى المتحف كنوز توت - عنخ - آمون ، ومن هنا لزم الأمر إعادة تخطيط المتحف ولم يعد الدور الأرضى بالمتحف كافيا لاستيعاب الكمية الضخمة من الآثار ، لذلك تم غلق عدد من صالات العرض بالمتحف وتحويلها إلى مخازن..
اعتبارا من عام ١٩٦٠ بدأ التفكير فى إعادة تنظيم المتحف أو مضاعفة مساحته ولكن العائق الأساسى كان يعود إلى المبانى الضخمة التى تحيط به من الناحية الشمالية من جهة ميدان التحرير .
فى عام ١٩٩٠ تبرعت الحكومة الايطالية بتمويل دراسة تقوم على أساس نقل جزء من معروضات المتحف إلى متحف جديد يتم بناؤه على بعد بضعة أميال شمال أهرامات الجيزة ، وقد اشترك فى هذا المشروع عالما الآثار الايطاليان «سيلفيو كورتو» و«سيرجيو دونادونى» .
التعاون بين معهد الآثار بميلانو «سيغيش راكولتى» والمعهد الثقافى الايطالى بالقاهرة أثمر عن تنظيم معرضين فى المتحف المصرى بالقاهرة، أولهما عام ١٩٩٤ على اسم «لويجى فاسيلى» وأعماله فى مصلحة الآثار المصرية ، والثانى عام ١٩٩٨ خاص بالالهة ايزيس .
أيضا هذان المعهدان نظما معرضا خصص لبناء المتحف المصرى الجديد، وقد تمت إقامة هذا المعرض بالمنطقة الأثرية المخصصة له بالجيزة وكان ذلك فى عام ١٩٩٥ .
أيضا العمل التاريخى الذى قامت به «ايلاريا برتكوشى» التى رممت القناع الجنائزى «ليويا» حما أمنحتب الثالث . وقد تم هذا العمل بالتعاون مع خبراء المتحف المصرى بالقاهرة ، وهو الآن معروض بالمتحف المصرى .
هذا بالإضافة إلى مساهمة علماء الآثار الايطاليين فى القيام بالعديد من الدراسات بالمتحف المصرى بالقاهرة منها كتالوج خاص بأدوات الرسم عند المصريين القدماء ، ترميم البرديات المصرية واليونانية ، دراسات على الشرائح الرقيقة المسجلة عليها كتابات ديموطيقية ويونانية .
إن هذا الكتاب الرائع الذى جاء فى ٢٤٨ صفحة ويحتوى على ٢٥١ صورة ما بين ملونة وأبيض وأسود من القطع الكبير ، يمثل صورة مشرقة للتعاون البناء بين الحكومتين المصرية والايطالية فى مجال الآثار المصرية التى تمثل حلقة من حلقات تاريخ الإنسانية .■

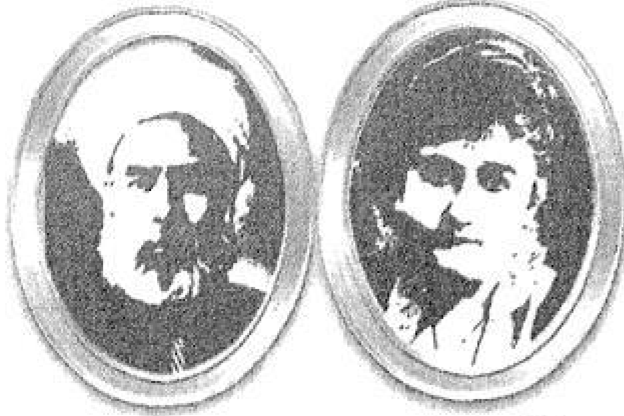
الإمــام والأميــرة

الشيخ محمد عبده ونازلى فاضل

أمانى عبد الحميد

احتار كثيرون من هواة النميمة التاريخية فى تصنيف العلاقة التى جمعت بين الشيخ محمد عبده والأميرة نازلى فاضل ، لما لها من أثر عليهما معاً . ولا نعلم لماذا كل هذه الحيرة وأوراق التاريخ لم تذكر الإمام محمد عبده يوماً بولعه بفاتنة الأسرة العلوية ، وإنما ذكرته بأنه الإمام المصلح أحد رموز التنوير والعدل والإصلاح فى مصر . كما لم تذكر الأميرة نازلى كامرأة تحمل داخلها مشاعر خفية يصعب على المحيطين بها اكتشاف سرها . إنما ذكرتها بالأميرة المتمردة ، الناقمة على الأسرة المالكة وصاحبة أهم صالون ثقافى وفكرى فى نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . فلماذا كل هذه الحيرة على مدى أكثر من مائة عام مضت على وفاتهما ؟!





الإمام محمد عبده

الأميرة نازلي فاضل

صفحات التاريخ تحكى لنا عن علاقات وصداقات وخلافات نشأت بين أفراد الوسط الثقافي والأدبي والفكري ... مظاهرها الخارجية لا تختلف كثيراً بين زمن وآخر . فبعضها قائم على المصالح وآخر مبنى على صراعات وتنافس ، وبين ذاك وتلك نجد علاقات من نوع خاص .. يسردها لنا التاريخ على استحياء عن تلاقى شخصين فى أفكارهما أو نضالهما .. أو قد يكون تلاقيهما أعمق ، فيصل إلى حدود الروح .. مما قد يشعل اللهفة والشعور بالرضا عند اللقاء أو النقاش بينهما . وقتها تنالهما ألسنة النميمة خاصة إذا كانا رجلاً وامرأة . فنجد من يصفهما بعلاقة تأثير وتأثر، ومن يحملها أكثر مما ينبغي ، ويصفها بعلاقة الحب الخفي ، وغير ذلك مما قد تحتمله أى علاقة إنسانية .

وهذا ماحدث مع الشيخ محمد عبده والأميرة نازلي فاضل . عندما توطدت علاقتهما فى أعقاب عودة الشيخ الإمام من منفاه ببلاد الشام فى عام ١٨٨٨ . نظراً لقيام الأميرة نازلي بمساع لدى صديقها اللورد كرومر ورياض باشا رئيس النظار بإيعاز من سعد زغلول محاميها الشاب وصديق الشيخ عبده . وذلك للضغط على الخديو توفيق لإصدار العفو عنه والسماح له بالعودة إلى مصر بعد نفيه فى أعقاب الثورة العرابية . ولدى عودته توثقت علاقتهما معاً . وأصبح الشيخ محمد عبده من أهم المترددين على صالون الأميرة .

وإن كان أهم ماجمع بين الأميرة والشيخ فى ذلك تأييدهما لأحمد عرابى وثورته وعداؤهما للخديوية .

حيث قال عنه الخديو عباس حلمى الثانى أحد أعداء الأميرة «إن الشيخ عبده يدخل عليه وكأنه فرعون» .

الشيخ المصلح

جاء محمد عبده من بلدته «محلة نصر» بمركز شبراخيت بمدينة البحيرة ، محملاً بأفكار القرية ولأبوين فقيرين . وارثاً من أبيه قوة العزيمة والثبات والتعالى عن سفاسف الأمور ، ومن أمه رقة القلب والرحمة والسماحة . وصفه صديقه قاسم أمين «كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه ، وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوماً مدة حياته

كان يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله ....» .

جاء من قريته ليدرس فى الأزهر ويعيش سيرة من نوع خاص .. رحلة نابضة بالحياة والنضال .. منذ بدايته الأولى ظهرت نزعته الإصلاحية والتنويرية . خاصة عندما التقى بالإمام المفكر جمال الدين الأفغانى سواء فى مصر أو فى باريس ، لينشأ معا جمعية وجريدة «العروة الوثقى» . بل فى باكورة كتاباته الإصلاحية نجده يدافع عن تحسين حال المرأه فى المجتمع ، ومطالبته بتلافى النقائض البيئية التى تعيشها .

وكانت للإمام محمد عبده فتاوى تخطى بها فقهاء عصره خاصة فيما يتعلق بتعدد الزوجات . حيث ينتقد فى مقالاته التى كان ينشرها فى جريدة الوقائع المصرية غفلة الناس عن الفهم الصحيح لمعنى الزواج فنجده يقول «إن هذا الميثاق الذى أخذه النساء من الرجال لابد أن يكون منسبا لشئون الفطره السليمة ، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هى الأقوى ماتعتمد عليه المرأة فى ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها ، والرضا بالاتصال برجل غريب عنها ، تساهمه فى السراء والضراء» .. ويرى أن هذا الميثاق الفطرى من أغلظ المواثيق وأشدها إحكاما .. كما كتب مقالاً آخر عنوانه «حكم الشريعة فى تعدد الزوجات» وصف فيه أنواع التعاسات والمظالم التى تضطرم بها البيوت من أثر تعدد الزوجات . وأوصى بالاعتدال والمحافظة على حرمات النساء وحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وعدم تطليقهن إلا لداع ومقتضى شرعى .

وظل طوال حياته يدافع عن حقوق المرأة وكرامتها خاصة حقها فى العلم والحرية والمعاملة الكريمة وذلك من خلال دروسه وكتاباته فى تفسير القرآ الكريم .

بل كان من أخطر ما أفتى به الإمام بالنسبة لتعدد الزوجات حيث رأى جواز منع التعدد بقانون تصدره الدولة . ويبرر ذلك بقوله : «لأن شرط التعدد هو التحقق من العدل وهذا الشرط مفقود حتما ....» لذا يرى الشيخ محمد عبده أن الاستثناء الوحيدة هو عقم المرأة مع رغبة الرجل في الإنجاب . ويقول في ذلك «عند ذلك يباح الزواج بثانية بعد رفع الأمر إلى القضاء ، الذي يختص بالتحقيق من قيام الضرورة . أي أن الزواج بثانية لا يباح إلا بحكم من القضاء ...» .

ويبدو أن سيرة الشيخ محمد عبده ونزعته الإصلاحية وآراءه وأفكاره التنويرية كانت من أهم عوامل الجذب والتلاقي مع الأميرة نازلي فاضل ، خاصة أنها في ذلك الوقت كانت أحد نجوم المجتمع الأرستقراطي المصري برغم من تشكيك الكثيرين في صدق نوايا بحجة أنها كانت انجليزية الهوى والتفكير . وكان كبار رجال الانجليز في مصر من ضمن رواد صالونها .

نازلي الأميرة المتمردة

داخل قصرها بدرب الجماميز استطاعت الأميرة نازلي اجتذاب صفوة قادة الرأي والفكر والسياسة في مصر . وذلك داخل صالونها الأدبي والثقافي الذي لعب دوراً كبير في تغيير فكر واتجاهات كثير من الرموز والعقول . حتى اعتبره البعض أحد ينابيع حركة التنوير التي دبت في أواصل المجتمع المصري خلال نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .

عاشت الأميرة حياة قصيرة مداها أربعين عاماً فقط . لكنها كانت حياة ثرية بالأحداث والتأثيرات المتبادلة بينها وبين كل من كان على صلة وثيقة بها . فهي أميرة من الأسرة العلوية عمها الخديو إسماعيل تربت وعاشت حياتها على النمط الأوروبي . فثقافتها غربية وتجيد اللغات الأجنبية خاصة الفرنسية . وكما يقول عنها محمد فريد في «مذكرات بعد الهجرة» تقابل الرجال على العادات الأوروبية وتكثر من شرب الخمور وتحيي ليالي موسيقية داخل قصرها .

وامرأة بمثل تلك المواصفات خلال ذلك الزمن كانت من الأمور غير المعتاده في المجتمع المصري آنذاك وكان من الطبيعي أن تكون كشعلة الضياء التي تجتذب إليها الفراشات الباحثات عن النور والدفء . فكانوا يطلقون عليها «محركة الرجال» كونها مبعث اعتزاز لدى كثير من رواد الفكر في مصر أي أنها لم تكن نموذج أنثوي يستهويه الرجل الشرقي العادي لكنها كانت النموذج الذي يبحث عنه الرجل المفكر الباحث عن العقل الجميل كوجه صاحبته . فهي بجمالها

ورقتها وأنوثتها ومن قبلهم عقلها الرزين وثقافتها العميقة استطاعت أن تصبح داخل مجتمع - لايزال نساؤه غير متعلمات أميات يقبعن خلف الحجاب والبراقع - النموذج الأمثل ، حتى قال عنها جمال الدين الأفغانى «تمثال الكمال والجمال حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى ، والمقام الأسنى» .

عاشت الأميرة حياتها تكره عمها الخديو إسماعيل وسلالته لأنه أضاع حق أخيه والدها مصطفى بهجت فاضل باشا .. فى الحكم فحملت داخلها طوال سنوات حياتها القصيرة عقدة الحكم والكراهية للأسرة الخديوية . ويبدو أن ذلك كان أحد الأسباب التى دفعتها إلى إقامة صالونها لتستقبل فيه مشاهير زمانها . خاصة ممن يتقابلون معها من كره أو رفض الحكم الخديو . لذا نجد أنها مالت إلى محمد فريد وابتعدت عن مصطفى كامل لأن الأول لم تكن علاقته بالخديو عباس حلمى وطيدة عما كانت علاقة «كامل» به .

وإن كان أكثر رواد الصالون تأثرا بأفكارها وبشخصيتها ، اثنين من أعلام النهضة المصرية . بل إن آراءهما وكتاباتهما قد أتخذت منحى جديدا يختلف عما سبقه هما الإمام محمد عبده وقاسم أمين .

وعندما ننظر لعلاقتها بالشيخ محمد عبده أحد رواد التنوير نجدها لاتختلف كثيرا عن علاقتها بسعد زغلول المحامى الشاب ولا عن علاقتها بقاسم أمين . ولكن الاختلاف الحقيقى كان من حجم وشكل التأثير المتبادل على العلاقة بينها وبين كل واحد منهم

تأثير متبادل

عرفت الأميرة الشيخ محمد عبده مستشاراً فى محكمة الاستئناف ودام صديقين منذ عودته من منفاه ببلاد الشام وحتى فرق الموت بينهما . ويذكر لنا الشيخ مصطفى عبدالرازق فى مقالة بمجلة الهلال عام ١٩٥٨ بعض تفاصيل تلك العلاقة بقوله «أدركت تلك الأميرة النقادة ، التى تعرف كيف تسوس مواهب الرجال ، ما للأستاذ من تفوق عقلى وخلقى ومن جمال فى نفسه وحسه فخصته بمكانه تجمع بين الحب والإجلال ، وكان الشيخ يجد فى كنف الأميرة مايغذى روحه الحساس وذوقه اللطيف ويجدد نشاطه للعمل ويرفه عنه من أحمال الوقار مالا يستطيع أن يرفهه إلا ذكية حسناء ....» كما يوضح الشيخ مصطفى عبدالرازق فى دراسة له عن أثر المرأه فى حياة الشيخ محمد عبده أن أثر الأميرة نازلى فاضل على الشيخ كان له ثلاثة وجوه «الأول أسلوبه الكتابى ، فألح فى أسلوب الأستاذ فى العهد الأخير ميلا إلى العذابة والخفة كما فى الفصول التى كتبها فى مجلة المنار عن سياحاته ..»



، ويستنكر الشيخ عبدالرازق أن يكون سبب تلك الخفة وميل الشيخ محمد عبده للمزاح هو تعيينه عضواً فى مجلس إدارة الأزهر وتقلده منصب الإفتاء . كما يقول عن أثر الأميرة نازلى «الأثر الثانى المائه فى كتاباته بموضوعات لم يكن من قبل ليعرض لها مثل كلامه عن الرسوم والتماثيل محبذا بنحو قوله : «إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة وأحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة والأحوال البشرية ..» ، كذلك قول الشيخ عبده «إن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى» وقوله «أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت ، فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك ..» .

ويرى الشيخ عبدالرازق أن الأثر الثالث فى علاقة الأميرة بالشيخ فكان يتعلق بعداوته بالانجليز .. حيث خفت حملته على انجلترا وسمح بصداقته الشخصية للورد كرومر صديق الأميرة دون تفريط فى حق البلاد أو العدول عن رأيه السياسى ، رغم عداوته لإنجلترا التى شهد الشيخ تشريدها لأستاذه جمال الدين الأفغانى فى البلاد وإحباطها لمساعيه الإصلاحية كلها . وإن كان الدكتور عبدالمنعم الجميعى فى كتاباته «دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر الحديث» يرى أن تغير بعض مواقف الشيخ محمد عبده خاصة المتعلقة بعدائه للانجليز لم يكن سببها الرئيسى علاقته بالأميرة نازلى المحابية للانجليز ، ويقول «إن الشيخ ساند العرابيين خلال ثورتهم ووقف للانجليز بالمرصاد وهاجمهم على صفحات العروة الوثقى وغيرها هجوما عنيفا وأنه بعد أن قابل الأميرة تغير موقفه تجاههم . ولكن لماذا لا نرجع ذلك إلى اقترابه من سن الشيخوخه وأن التجارب حنكته وصقلت أفكاره ....» ويضيف : «إن الشيخ محمد عبده تأثر ببعض أفكار هذه الأميرة ولكن ليس إلى الحد الذى ينسبه أفكاره كوطنى حاول بث فكرة الوطنية المعتدلة فى نفوس مواطنيه ، وطالب الحاكم بإصدار دستور عادل لحكم البلاد» وإن كان الدكتور الجميعى يوضح أن إتقان الشيخ محمد عبده للغة الفرنسية قد يكون نفحة من نفحات الأميرة . وإن كان التاريخ يذكر لنا أن الشيخ محمد عبده تعلم اللغة الفرنسية عندما سافر إلى باريس للقاء أستاذه جمال الدين الأفغانى وبلازمة قاسم أمين الطالب آنذاك والذى كان يتولى أعمال الترجمة والمعاونة فى إصدار جريدة «العروة الوثقى» أى قبل أن يتعرف على الأميرة نازلى ويتأثر بها . ■

أدبـاء
وعشاق



الناقد والشاعرة

أنور المعداوي وفدوى طوقان

بقلم
وديع فلسطين

أتناول هذا الموضوع بحذر شديد لأنني لم أكن طرفاً فيه يطوّع لى أن أستكشف خفايا القلوب وأستكنه ما تضمره من صحيح المشاعر أو زيفها. فالعلاقة بين رجل وامرأة - أياً كانت صورتها - هى من الأسرار الدفينة التى تظلّ رهن التكهنات، حتى ولو كانت هناك إشارات صريحة أو غامضة تومئ إليها. وسأتناول قضية الحب الصادق أو الموهوم بين فدوى طوقان وأنور المعداوى من ثلاثة عناصر هى: أنور المعداوى كما عرفته، ومجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات، والشاعرة فدوى طوقان.

أنور المعداوي



عرفت أنور المعداوى فى أواخر عقد الأربعينات من القرن الماضى، وكان يكبرنى بثلاث سنين، وجرى اللقاء فى دار «مجلة العالم العربى» بشارع إبراهيم باشا، وهى مجلة شهرية أصدرها يوسف شحاته بعد انفصاله عن دار المعارف وإنشائه داراً للنشر تحمل اسم «العالم العربى». واختار ناشر المجلة الأديب سيد قطب ليكون رئيساً لتحريرها، وهذا رغب فى استقطاب الأدباء الشبان للكتابة فى هذه المجلة الناشئة، ومنهم أنور المعداوى وكاتب هذه السطور. وكنت أنا والمعداوى شابين نتلمس طريقنا فى المجتمع الأدبى، وكان هو يعمل مدرساً للغة العربية فى مدرسة ثانوية، وكنت أعمل

في الصحافة مع انجذاب إلى الأدب.. وصرنا نلتقي هنا وهناك دون أن يعكر صفو علاقتنا شيء، وإن كنت لاحظت في المعداوي شدّة اعتداده بذاته واعتقاده بأنه فاق الأولين والآخرين على الرغم من تواضع عمله كمدرس في مدرسة ثانوية.

وكنت وقتها أقيم في الجيزة، وأتوافق مع الأديب على أدهم أو مع الشاعر محمود حسن إسماعيل على اللقاء في مقهى عبد الله بميدان الجيزة لأنهما كانا يقيمان بدورهما في الجيزة. وكنت أرقب على مسافة من مجلسنا «شلّة» أنور المعداوي، وكانت أصوات مناقشاتهم وضحكاتهم تجلجل في المقهى وكأنهم في «محششة»، ولهذا حرصت على عدم الانضمام إلى هذه الشلة التي أدخلوها بعد ذلك تاريخ الأدب وجعلوا منها حاضنة للأدباء الشبان. ولأن المعداوي كان أضخمهم جسماً وأعلاهم صوتاً، فقد اعتبروه أستاذهم دون أن يوضحوا حيثيات أستاذيته التي تتلمذوا عليها.

وبقيت أتواصل مع المعداوي، فعرفت أنه غير راض عن عمله في التدريس وبسبب إهماله تم الاستغناء عنه. ثم التحق بإدارة تابعة لوزارة المعارف عرفت باسم «إدارة السجل الثقافي» وكان مقرها في شارع سليمان باشا الذي احتلت عمارة شركة مصر للتأمين مكانه بعد هدمه. وعندما اختير أنور المعداوي ضمن سكرتارية مجلة «المجلة» استصغر هذه الوظيفة لأنه كان يرى نفسه مؤهلاً لرياسة تحريرها، ومن ثم امتنع عن تسلم عمله في المجلة ولم تقع الفُرقة بيني وبينه إلاّ عندما هاجم سلامة موسى في مجلة «الرسالة» وقال إن سلامة موسى تناول قلمه ليكتب منذ ربع قرن، ومع ذلك فهو ينظر فيجد نفسه في مؤخرة «الصفوف». وقد هالني أن يصبح النقد على هذا القدر من الإسفاف، فكتبتُ مقالين في «المقتطف» وفي مجلة «الأديب» اللبنانية أبرزت فيهما الدور الريادي الذي اضطلع به سلامة موسى، فما كان من المعداوي إلاّ أن انقضّ على وكتب فذلكة في «الرسالة» ختمها بقوله: لو سئلت النملة رأيها في الذبابة لقالت : «هذا فيل كبير!». ومادمت قد أصبحت في رأى المعداوي مجرّد نملة، فقد قاطعته إلى آخر عمره عندما انتقل إلى قريته، وصار يهيم على وجهه يكلم نفسه، فقضت عليه عجرفته ولم يزد عمره وقتها على ٤٤ عاماً.

مجلة الرسالة

كان من عادة أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» أن يقضي أياماً في ضيعته في المنصورة حيث يكتب مقالة الصدر التي تحتل عادة صفحة ونصف الصفحة من مجلته وتنشر مرة كل أسبوعين. وكان يتناوب كتابة مقالات الصدر أدباء كبار، مثل عباس محمود العقاد وعبدالوهاب عزام ومحمد عبدالله عنان. ولأن المعداوي كان يدرك أن مجلة «الرسالة» هي أوسع المجلات الأدبية انتشاراً في مصر والعالم العربي، فقد اتصل بالزيات وأقنعه بتخصيص باب أسبوعي له في المجلة بعنوان «تعقيبات»

في حين لحق به زميله في إدارة السجل الثقافي عباس خضر وبات بدوره يحرر باباً أسبوعياً بعنوان «الأدب والفن في أسبوع»، وكان هذان الأديبان «بيرطعان» في مجلة «الرسالة» في غياب صاحبها، وكنت أقول عنهما إنهما مثل «قبضايات لبنان» بسبب مهاجمتهما لكبار الأدباء هجوماً شرساً، كما كانا يتحكمان في كل ما ينشر في المجلة من مقالات وقصائد يحملها البريد إلى إدارتها. بل إن المعداوي جرؤ ذات مرة فاحتل صدارة مقالات المجلة في غياب الزيات، ورغبة من هذين الأديبين في الظهور، بدأ يتحرشان بكبار الأدباء، فهاجم عباس خضر العقاد وأحمد زكي أبو شادي والشاعر إبراهيم ناجي، في حين هاجم المعداوي سلامة موسى وتوفيق الحكيم (وإن كان صالحه حول زجاجة كوكاكولا كما جاء عنوانا لمقال نشره في مجلة «الصياد» اللبنانية عندما كانت تطبع في مصر) وهاجم الشاعر نزار قباني فردّ عليه رداً مطولاً في جريدة «كل شيء» اللبنانية.

الشاعرة فدوى طوقان

في غياب الزيات في المنصورة، كان المعداوي يفض بريد المجلة ويتصرف فيه على هواه. وكانت فدوى طوقان تبعث بقصائدها إلى المجلة من نابلس مع رسالة موجهة إلى الزيات تحمل عنوانها في هذه المدينة الفلسطينية. فتلقف المعداوي رسالتها والتقط عنوانها وبعث إليها بنسخة مُهداة من كتابه «نماذج فنية» فشكرته على هديته، ومن هنا بدأ حبل المراسلة بين الطرفين اعتباراً من عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٥٤ عندما توقفت فدوى عن الرد على رسائله. وعندما علم من فدوى أن لديها رغبة في نشر ديوانها الأول «وحدي مع الأيام» في مصر، رحب بالإشراف على طباعته في مكتبة مصر لصاحبها سعيد جودة السحار.

في خلال المراسلات بين الأديبين، بعث المعداوي إلى فدوى ببضع عشرة رسالة هي التي قام رجاء النقاش بنشرها والتعليق عليها، أما رسائل فدوى إلى المعداوي فلا نعرف عنها شيئاً على وجه القطع لأنها اختفت وقيل إن المعداوي أعدمها بنفسه.

وواضح من رسائل المعداوي أنه تدرّج في بث فدوى إعجابه ثم مشاعره، سواء أكانت صادقة أم زائفة، واستدرجها إلى الاستمرار في مكاتبته مستغلاً في ذلك بكارة عواطفها وشعورها بالقمع والكبت، مع وحدة الاهتمام الأدبي بين شاعرة وأديب. وعللت فدوى إقبالها على هذه المراسلة بقولها - دون أن تحدد اسم أنور المعداوي أو تذكره في سيرة حياتها المنشورة - : «قبل الخروج من (القمقم) كانت مراهقتي العاطفية حادة مشتعلة. نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة حب بالمراسلة! كنت أقع في هذا اللون من الحب الخيالي وأغوص فيه، وبيني وبين التجربة الواقعية جدران (القمقم) الأثرية. فكانت المراسلة والخيال هما ميداني الضيق والواسع في آن. كنت جائعة إلى شيء غير موجود،



ضائعة، وحيدة، لا أملك شيئاً سوى هذا الخيال المشتعل».

فالحقيقة المؤكدة التى أعلنت عنها فدوى طوقان بسنّ قلمها هى أن الأمر لم يتجاوز «حباً بالمراسلة» و«حباً خيالياً» و«خيالاً مشتعلاً». ولا نبعد عن الواقع إذا قلنا إن ما كان بين الطرفين هو إعجاب أدبى متبادل. ثم إن فدوى هى التى قامت بنفسها بقطع حبل هذه المراسلة عندما اكتشفت أن أنور المعداوى غير جاد فى العواطف المبثوثة، وأنه يتلاعب بعواطفها. كانت تنتظر من المعداوى أن يفاتحها برغبته فى الاقتران بها، أو أن يقول لها بصريح العبارة «لقد اخترتك لتكونى زوجتى أمام الله والناس»، ولكنه لم يفعل ولم يتخذ أى خطوة عملية فى هذا الاتجاه بسبب نرجسيته الطاغية التى تجعله عاجزاً عن أن يبذل شيئاً من أنانيته وحريّته لتكوين أسرة. فالإعجاب الأدبى المتبادل لا يكفى لاجتماع الشمل بين قلبين ما لم يكونا على استعداد لتبادل التضحيات المطلوبة فى رفقة العمر.

وقد حاول الدارسون التماس أعذار للمعداوى جعلته يحجم عن اتخاذ خطوة حاسمة تتوج هذا الإعجاب الأدبى المتبادل. فرجاء النقاش يؤكد أن الأمراض العضوية التى كان المعداوى يعانى منها، بما فى ذلك عقدة أوديب لفرط تعلقه بأمه، هى التى حالت دون تحقيق الزواج، ولمحّ إلى أن المعداوى كان ناقص الرجولة بدليل أنه صارح فتاة برغبته فى الزواج منها



رجاء النقاش



د. علي شلش

بشرط ألاّ يكون بينهما لقاء حميم. فقالت الفتاة إنها تقبل هذا الزواج ما دام بينهما حبٌ ، ولكنها بادرت إلى الاختفاء بعد ذلك. وحاول على شلش أن ينفى عن أنور المعداوى هذا القصور فنقل عنه قوله إنه كان يستقبل بنات الهوى فى بيته. وبنات الهوى - كما يعلم على شلش - هن طالبات مال ولسن طالبات قرب، ومادمن يتقاضين الثمن، فليتغاضين عن القرب لأنهن شبعن منه فى صنعتهن.

فلسفة الحب والهوى

ونعود إلى فدوى طوقان واعترافاتها، فهى حاسمة فى تحديد فلسفتها فى الحب والهوى حيث قالت فى سيرة حياتها: «بالنسبة لى، ظل الحبّ يحمل مفهوماً أوسع نطاقاً من كونه تأكيداً لأنوثة المرأة. ظلّ بالنسبة لى تأكيداً لإنسانيتى المسحوقة وإنقاذاً لها. ولقد بقيت طوال عمرى مشدودة إلى الحب (أى قبل المعداوى وبعده) مدفوعة بعاطفة شعرية يصعب توضيحها. كذلك ظلت استجابتى للحب، ويبقى هو الشعلة الأكبر اجتذاباً فى

مجالات الحياة المختلفة. ولست أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن الحبّ كان عندي فكرة مجردة وعالماً مطلقاً هو الذي أحببته، وظل (الآخر) بالنسبة لي تجسيداً لتلك الفكرة التي لم أستطع هجر آفاقها أبداً حتى أصبحت حاسة من حواسي وغريزة من غرائزي، تحمل الحرارة والنبض باستمرار، فأغطس معها في حمام عاطفي ساخن يغسل أعماقي من الشوائب المرّة. ولم تكن لتلك الفكرة المجرّدة شواطئ ولامرافئ أرسو عندها. كانت بحراً واسعاً تعلو أمواجه أحياناً حتى تستحيل إلى دوامة تدور بي وتلفني فتفقدني إحساسي بالعالم الخارجي من حولي».

وللذين يزعمون أن فدوى لم تعرف إلاّ حبيباً واحداً هو أنور المعداوي أنكرهم بأن الشاعر المصري إبراهيم محمد نجا كان بدوره من الذين طارحوا فدوى المشاعر العاطفية، وقد سجّل في ديوانه «أيام من عمري» قصائده في فدوى ومع ذلك لم تشر إليه في سيرة حياتها، ثم إن فدوى نفسها تعترف بأن القلب يمكن أن يحبّ أكثر من مرة حيث قالت في سيرة حياتها: «لا غرابة في أن يحبّ القلب الواحد أكثر من مرة. فمن الشذوذ أن يتجمهد قلب الإنسان عند شخص معين طوال الحياة. إنها ظاهرة طبيعية ان تنشأ في القلب وتتكرر أكثر من علاقة، وفي كل مرة تكون للعاطفة نفس القوة السابقة والصدق والفوَحَان، ولا مكان هنا للأهواء العرضية والطيش والعربدة».

وقارئ سيرة فدوى طوقان لا يسعه إلاّ أن يلاحظ مدى جيشان عاطفتها بصورة جارفة وهي تتحدّث عن شاب انجليزي التقت به أثناء زيارتها لإنجلترا واكتفت بذكر الحرفين الأولين من اسمه وهما A.G. فهي تصفه بأنه «شقيق الروح» وأنه «جنّة لقيت في ظلها الهدوء والسلام والراحة والسكينة. إنه إنسان مؤنس وديع. بجانبه كان يغيب شعوري الدائم بأني قد ألقي بي في عالم أقوى منّي». وقالت إنها «عاشت معه في فردوس أرضي. أين أنا غداً من هذه الجنة؟ لو يقف الزمن. لو أنني أملك الإمساك باللحظات الهاربة، اللحظات التي تتساقط قطرة قطرة في محيط الزمن لتتلاشى فيه وتندثر ثم لا تعود، لا تعود أبداً. ها نحن معاً، نمارس رياضة المشي على طرف الغابة، يرهف تغريد الطائر حسّي. يتسلّل النغم إلى جنة قلبي مشبعاً بالهدوء والعزلة. تحتويني فتنة غامضة.. يا لتلك الأيام مع ذلك الصديق الرائع. ما كان أغناها بالغبطة واكتساب المعرفة. لقد كان لكل شئ مذاق خاص في إحساسي ووجداني».

★ ★ ★

وصفوة القول إن رهافة حسّ فدوى واشتياقها الدائم إلى الحب فتحا قلبها لكل طارق، سواء باسم الإعجاب الأدبي، أو باسم العاطفة الشبوبية، ولكنها بقيت دائماً ظمأى بعدما خاب أملها في أولئك المراسلين غير الجادّين. فلّما اقتربت من ذلك الشاب الإنجليزي المجهول، استردت جنّتها المفقودة وعاشت أحلى أيام عمرها ■



حيــويــة عرض مســرحى عــن « الالتبــاســات»

بقلم
صافى ناز كاظم

هذا العرض المسرحى «جواز على ورقة طلاق»، الذى شاهدته مساء الجمعة ٢٠٠٤/١/٩ على خشبة المسرح الحديث بشارع قصر العينى، يقدم نصا مسرحيا لألفريد فرج بلغ من العمر أكثر من ثلاثين عاما، لكن المخرج أحمد عبدالحليم استطاع أن يبث فيه الحيوية من جديد. موفرا له مجموعة من القدرات المسرحية العالية، لبها باقة ممثلين متوهجة الحضور بقيادة سامى مغاورى، ويوسف إسماعيل، وعايدة عبدالعزيز، ووفاء عامر، وهشام عبدالحميد، وترتيب الأسماء بأبجدية الاقتراب من القلب .



• صفية هانم • عايدة عبد العزيز وابنها «مراد» هشام عبد الحميد في مشهد من المسرحية

العرض من فصلين، يبدأ من الساعة التاسعة والنصف مساء وينتهي مقتربا من الواحدة، صباحا، بما يعني أنه يستغرق مايزيد على ساعات ثلاثة، كان من الممكن جدا أن نهلك خلالها لولا ذلك الجسر الرحيم الذي اختاره المخرج أحمد عبدالحليم ليكون الصلة الرابطة بين الجمهور والخشبة وما يدور عليها من طرح لفكرة الاستعلاء الطبقي أو الاجتماعي أو الثقافي التي يمارسها الناس على بعضهم البعض، والتي دار الزمان دورته لتعود - للأسف - في حاضرنا الآن بوضوح لتكشف لنا أنها لم تنمح أبدا في أي لحظة من لحظات ماتصورناه يوما ثورة لإلغاء الفوارق بين الطبقات وإلغاء الألقاب وإقامة أسس العدالة الاجتماعية بترسانة القوانين الاشتراكية! وأعني بـ «الجسر الرحيم» الثنائي الفنان: «سامي مغاوري» - يقوم بدور المؤلف و«يوسف اسماعيل» يقوم بدور المخرج - ويبدأ هذا الثنائي اللعبة بالتناوش حول المسرحية المرتجلة - زعما - التي اتفقا أن يقدماها لحضراتنا، فالمفترض أن المؤلف يريد «مسرحية لا فيها ضحك ولا ميلودراما، لا غنا ولا رقص، ولا الحاجات اللي بتحاول تغويكم بيها مسارح الغواية إياها .. لكن فيها حياتكم »، وكما يقرر المخرج «اتفقنا إننا نرتجل قصة حب .. قصة حقيقية حنألفها ونخرجها ونمثلها قدام عينيكم، مش حنخبي أسرار صنعتنا زي بتوع الألعاب السحرية .. لا حنلعب قدامكم على

المكشوف»، وكما نرى أننا أمام فنية مسرحية قديمة جدا من بدايات المسرح البريختي في منتصف القرن الماضي، وهي فنية من الممكن جدا أن تخنقنا بالملل والسماجة إذا لم يتلطف المخرج ويختار لمن يحملها أذكياء يتمتعون بخفة ظل أصيلة وتلقائية، وبديهة حاضرة لتمرير ولقف الدعابة بإيقاع سريع وبراعة استثنائية وهذا ماتوفر، والحمد لله كثيرا، في الفنانين «سامي مغاوري» و«يوسف اسماعيل».

★★★

يأخذنا الثاني - الجسر - إلى الفريق الذي على عاتقه «تمثيل» المسرحية «المرتجلة»: الممثل - (هشام عبدالحميد) - والممثلة - (وفاء عامر) - تشترط الممثلة أن تكون القصة من قصص الحب التي استهلكتها السينما، قصة حب بين غني وفقيرة أو فقير وغنية: «حب فيه عراقيل وأحزان وأفراح»، لكننا نفهم أنها سوف تختلف فالعراقيل لن تنشأ من ظلم رجعي، غبي، فاقد للوعي السياسي والاجتماعي والإنساني، كلا! فالممثل يقدم شخصية مراد الشاب الجامعي الذي يعتنق الفكر الاشتراكي، وهو ابن عائلة الأيوبي العريقة في المواقف الوطنية والتضحيات المبدئية كما تعرفها أمه صفية هانم - (عايدة عبدالعزيز) - «جدك الشيخ الأيوبي الكبير كان زعيم في برلمان عرابي باشا



مراد وزينب.. زواج الأغنيا، والفقراء هل ينتهي بالطلاق؟

في المحكمة قال للمستشار الإنجليزي انتم تقدروا تكسروا رقابنا لكن مش حتقدروا تكسروا عزم الأمة، لما رجالة الملك قتلوا غفير في أرض خالك مصطفى باشا رجع للملك النيشان بتاعه، أبوك عاش طول عمره استقالته في جيبه، لولا سعد باشا عمره ماكان أخد البهوية لأن مافيش مستشار انجليزي ارتاح معاه، أنا يامراد طلعت مظاهرة المدرسة السنية أيام سعد باشا .. الرأي الجريء كان دايما في بيتنا .. لكن مش لازم عشان تدافع عن الضعفا إنك إنت تكون راجل ضعيف .. مهما


الفريد فرج


أحمد عبد الحليم

كـــــان رأيك فى السيــاسـة أوعى تفتكر إنك ممكن تـنـسـى أنـت مين...».

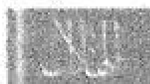
كــل هــــذه الخلفية العائلية «الواعية» تصبح «نقيض» وعيها لحظة أن يجـد «مراد» نفسه فى غمرة حب مندفع تجـاه «زينب» التى يصفـهـا المؤلف لنا: «بنت الأسطى سيد السواق فى شركة صغيرة».

اجتمعا فى حى السيدة العريق، هو ساكن الفيلا وهى جارته ساكنة البيت الشـعـبى، حين يطارده البوليس بعد اشتراكه فى مظاهرة من مظاهرات العهد الملكى قبل ١٩٥٢، يرمى بحقيبة الأوراق والكتب الممنوعة لتخبئها زينب فى «الفرن».

بعد أن يتم الإفراج عنه من المعتقل تقرر أمه ابعاده عن المطاردات البوليسية وكـــذلك عن زينب، التى لاتراها الأم «الواعية» كفئا له بل تقولها صراحة إنها لاتعدو أكثر من خادمة فى بيته، فيسافر إلى النمسا ليستكمل دراسته، خلال أربع سنوات تكون «زينب» قد قرأت كل أوراق الحقيبة فتكتسب الوعى والنضج، بينما يكون «مراد» قد بردت نار حماسته فى ملاهى أوروبا بين الكاس والطاس، وحين يعود بشهادته الدكتوراه فى التحريك الآلى «وده فن تكنولوجى رفـــيـع»، يكون من الخبراء الوطنيين الذين حلوا محل «أفواج الأجانب اللى كانوا ماسكين مفاتيح البلد الاقتصادية والصناعية ورحلوا بعد سنة ١٩٥٦ .. الظروف فـضـلا عن الكفاءة الخاصة لمراد خلته يقفز سلم الوظائف لحد ما حصل أخطر حدث اقتصادى فى تاريخ مصر الحديث .. تأميمات ١٩٦١ فاحتل مراد مركز مدير الانتاج فى مصنع من المصانع ...» وهو المصنع الذى تكون «زينب» فيه واحدة من القيادات العمالية المتخبة وهكذا يعود اللقاء بين «الحبيبين» بعد عشر سنوات.

★★★

عشر سنوات انضجت «زينب» الفقيرة الكادحة وزودتها بالوعى الحاد بحقوقها وقيمتها مواطنة وإنسانة، لكن هذا الوعى لم يوصلها إلا إلى اكتشاف كذب الأقوال، وخواء الشعارات، فالفقير ظل مطاردا بعار «الفقر» والدونية، والعقلية الاستعلائية ظلت تناقض أقوالها وشعاراتها، فصار «الثورى» بهذا أكذب من «الرجعى» ذلك لأنه يقول مالايقدر على تحقيقه على أرض الواقع، وهكذا تتكرر «قـصـــة الحب» التقليدية بين الغنى والفقيرة التى تحاربها



العراقيل الاجتماعية الرافضة المساواة بين البشر، تعرف «زينب» المهانة حين تستسلم لمشاعرها الصادقة فلا يتزوجها «مراد» إلا لكي يجهضها، لايقبل منها نسلا، ليس هذا فقط بل يحاول أن يمسخها، لتنسلخ عن حقيقتها، ابنة السائق، لتكون الهانم اللائقة بمكانته، ولأن هذه هي المحاولة المستحيلة تطلب زينب «الطلاق». عند هذا المطلب كان يجب أن تنتهي المسرحية بما يشبه الرفض المنطقي للانسحاق من جانب «زينب»، والذي يكون بدوره، رسالة العرض المستفادة، غير أن ذلك لم يحدث فدخلنا في معمعة «الالتباسات» بين نهاية يقرر فيها «مراد» طلاق «زينب» ليتزوجها من جديد، بعيدا عن زواج المضطر، (ولانعرف كيف تغلب على تناقضه، وردم تلك الهوة بين القول والفعل، والشعارات والواقع، التي اشتهرت بها شريحته من الثوريين الكلامنجيين في مرحلة مابعد ١٩٥٢)، وفي حفل الزواج تقع زينب ميتة انتحارا، (ولانعرف كذلك المبرر لهزيمتها المعنوية المفاجئة بعد وعيها الناهض)، وبين نهاية أخرى يقترح فيها الممثل والمؤلف والمخرج - داخل المسرحية المرتجلة - بضرورة أن تكون النهاية «سعيدة»، فتصحو العروس ويتم الزواج على أساس أن الحب الجميل يمكن أن «يلم الشرخ»!.

وأمام هذا «اللا معقول» وجدت نفسي أردد عبارة التساؤل الشائعة بين الجيل الجديد: «هوّه في إيه؟» |

من حكم وأمثال الفراعنة

- لن يتحقق النجاح بالصراع والكفاح فهو في حاجة دائمة للصبر والهدوء.
- الشحات الذكي لا يطرق إلا الأبواب الكبيرة .
- كل جار يمكنك أن تتخذ منه معلما أو تتلقى منه علما .
- حتي الطيور ترفع رأسها نحو السماء بعدما تطفيء ظمأها .
- الق فأسك بعيدا عن الشجرة التي تحميك بظلها وتطعمك بثمارها .
- إذا تشاجر كلبان على غنيمة تكون من نصيب الذئب الذي يأتي على صياحهما .
- من لا يغتنم فرصة تتاح له اليوم في انتظار فرصة أكبر قد يأتي بها الغد يفقد الإثنين معا .


مونديال ٢٠١٠
إرادة شعب
ومشروع قومي مصري
بقلم
حسن المستكاوي
UNITING PEOPLE
EGYPT
2010
BID
توحيد للشعوب
كان من الضروري خوض السباق .. وإلا انتظرنا ٢٠ عاما أخرى !
كرة القدم ليست مجرد لعبة ولهذه الأسباب غزت العالم !

من بريطانيا خرجت كرة القدم إلى العالم فانتقلت لأوروبا أولا، ثم إلى المستعمرات مع جنود الاحتلال، فى افريقيا، وآسيا، واستراليا، وحتى إلى أمريكا الجنوبية، وإلى البرازيل، حيث عرف شعبها الكرة على يد مواطن انجليزى يدعى تشارلز ميللر وقد ولد من أبوين انجليزيين فى مدينة ساوباولو البرازيلية ثم سافر فى مطلع شبابه إلى وطنه الأصلى حيث عشق الكرة، ولعب لنادى (ساوثامبتون) وعاد إلى البرازيل فى أواخر القرن التاسع عشر، ونشر اللعبة الجديدة .

ولم تعد كرة القدم مجرد رياضة أو لعبة مثل الألعاب، بل أصبحت مثار اهتمام ورعاية كل دول العالم، وجماهيرها ملايين، آلاف الملايين، ومن كل جنس ولون، والاهتمام بالكرة وصل لدى بعض المشجعين إلى حد الهوس، وهى درجة أعلى وأخطر من العشق فكيف نجحت هذه الرياضة ؟! وكيف أحبها كل شعوب الأرض؟ وكيف أصبحت اللعبة الشعبية الأولى والثانية ؟! ولماذا غزت العالم ولماذا هذا التنافس المحموم بين الدول من أجل الفوز بشرف تنظيم المونديال ؟، الإجابات ليست بالبساطة التى تظنها، وكل إجابة ليست كافية فى حد ذاتها لتبرير هذه الشعبية الفائقة. لأن الكرة تعدت حدود الرياضة، وأصبحت ظاهرة اجتماعية لكن دون شك هناك عوامل ساعدت على انتشار اللعبة بوجه عام، فهى تمارس فى أى مكان، لاتحتاج لملعب له تجهيزات خاصة، ولا أدوات أو معدات معينة يحتاجها الممارس، وهى فى متناول الجميع الطفل والشاب والكهل، وأية مجموعة تستطيع أن تلعب أية مباراة فى أى وقت، حتى ليلا على ضوء القمر !



ويقول علماء الاجتماع : (فى وسط القرن التاسع عشر ولد المجتمع الصناعى الذى أرغم عددا كبيرا من الناس على الاستعمال الآلى لقدراتهم على العمل - أى أن العامل من كل النشاطات الخلاقة الأخرى، وعليه فقد وجد الآلاف فى لعبة كرة القدم الجديدة التنظيم الجماعى الذى يعكس صورة من صور حياتهم وفى الوقت نفسه يعطى قيمة إضافية، بل وثقافية لاستخدامات الأطراف التى لا تستعمل فى العمل، أى الأرجل)!

وإذا كانت الكرة قد استطاعت غزو العالم بأسرة للأسباب السالفة فإنها أيضا غزته لأنها مسرحية متكررة (للصراع الجماعى) هذا الصراع المولود مع البشرية، وقد أصبحت الكرة رمزا من رموز الحرب، ولعل ذلك من أهم أسباب مصاحبة الشغب والعنف للعبة، بل ويرجع العلماء الحوادث الدموية الأخيرة التى شهدتها ملاعب انجلترا وأوروبا إلى (الفراغ العسكرى)، أى لأنه لاتوجد حروب، تماما مثل تعبير (الفراغ السياسى) والذى جعل الشعب يتحزب للأندية .. وعن الصراع الجماعى يقول الصحفى الفرنسى (چورج زيفلير) الكاتب فى (الفيجارو) : (منذ الأزل والمظهر الذى

يحكم العلاقات الإنسانية هو الكفاح فعندما تهاجم جماعة ما جماعة أخرى، فإن رد المجموعة الأخرى هو حتما المواجهة ومنها يأتى التصادم والعنف!)

وإذا كان العنف هو الجانب المظلم للكرة، أو وجهها القبيح فإن لها جوانب أخرى مبهجة، وطريفة، وغريبة ووجوه جميلة أيضا، فبالإضافة إلى جماعية اللعبة، وملعبها الكبير، وحجم كرتها الصغير، الذى يكفى لمتابعة خطوط سيرها بسهولة، وتعدد خططها، وما تحويه من مناورات، ومحاورات، ومفاجآت متغيرة ومتجددة لهذا كله ستجد فى اللعبة القوة والحيوية والديناميكية، وهذا يخلق الإثارة والمتعة، والاستمتاع بموسيقى الأداء الجماعى الجميل الذى ينتهى بالأهداف، التى تأتى من المفاجآت فتهز القلوب فى المدرجات، كما تهز الشباك!

تقديم الملف إلى الفيفا

فى نهاية سبتمبر من العام الماضى سافر وفد مصرى برئاسة د. فتحى سرور رئيس مجلس الشعب إلى زيوريخ فى سويسرا وتوجه إلى شارع هيتز جويج حيث يقع مقر الاتحاد الدولى لكرة القدم لتسليم ٦٠ نسخة من ملف مصر لاستضافة مونديال ٢٠١٠ إلى الفيفا وهو ما تكرر من جهة أربع دول إفريقية أخرى ترغب فى تنظيم أكبر بطولة لكرة القدم وهى المغرب وتونس وليبيا وجنوب إفريقيا وقد مكثت لجنة من ٤٠ متطوعا يرأسها محمد السياجى سكرتير عام الاتحاد المصرى خمسة أشهر فى إعداد هذا الملف الذى يتكون من ١٠٠٠ صفحة تقريبا واستعانت اللجنة بشركة فرنسية صاحبة خبرة وسبق لها إعداد ملف فرنسا لمونديال ١٩٩٨ وملف مدينة مونتريال لتنظيم دورة الألعاب الأوليمبية عام ١٩٧٦.

ووفقا لشروط الفيفا هناك ١٥ عنصراً لابد من تسجيلها فى الملف ومنها ما يتعلق بكل من الأمن والصحة والإستادات والبيئة والطاقة الفندقية وملاعب التدريب والمراكز الصحفية والإعلامية والمدن التى ستقام فيها المباريات والطرق والمطارات ودرجات الحرارة والرطوبة فى الدول التى تقدمت بطلب تنظيم المونديال لمراجعة ما جاء بالملفات التى قامت ومطابقته للواقع.

وبداية اتفق المصريون على نقطة أساسية وهى أنه كان من الضرورى خوض السباق لأنه ليس من المعقول أن يعلن الاتحاد الدولى أن إفريقيا ستنظم كأس العالم ولاتتقدم مصر ثم أن خوض السباق فى حد ذاته تجربة مهمة لأنه فرض إعادة مسح للبنية الرياضية المصرية كما أن الفوز بتنظيم البطولة يعنى نقلة اقتصادية ورياضية شاملة وتحقيق مكاسب مادية وسياحية هائلة وتفرض على الدولة بناء وتطوير ملاعب واستادات ومطارات وطرق فى ٥ سنوات بدلا من ٢٠ عاما!

وكانت زيارة الوفد المصرى لمقر الفيفا فى نهاية سبتمبر الماضى مع وفود أربع دول أخرى مجرد عملية تسليم للملف وليس عرضا نهائيا فقبل أن تجتمع اللجنة التنفيذية للفيفا التى تضم ٢٤ عضوا للاقتراع على الدولة التى ستفوز بتنظيم المونديال ستعرض الدول الأربع المتنافسة ملفاتها مرة أخرى قبل ٢٤ ساعة من موعد الاقتراع المقرر له شهر مايو المقبل.

لكن ما هى فرص مصر؟

يقول د. على الدين هلال وزير الشباب:

أولا كان من حق كل دولة أن تدخل

السباق وكان لابد أن ندخله نحن أيضا وإلا انتظرنا ٢٠ عاما أخرى حيث سبق وأعلن الفيفا عن مبدأ تداول القارات لتنظيم هذا الحدث الرياضى الكبير .



وقد حصلنا على الدعم الكامل من القيادة السياسية ومن الحكومة المصرية وكنا أول دولة إفريقية تعلن خوض السباق والملف المصرى متكامل وهو عبارة عن وثيقة مكونة من ١٠٠٠ صفحة وآلاف النقاط الصغيرة والملف يحتوى اتحاد الإذاعة والتليفزيون والجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء ومركز المعلومات بمجلس الوزراء وأرى أن فرصتنا ممتازة وماقدمناه إلى الفيفا لايحتوى أمنيات أو أحلاما إنما واقعا وقدصنعنا رأيا داخليا عاما حيث تكاتف المصريون من أجل تنظيم البطولة واستقبلت طوال الأشهر الماضية عشرات الشخصيات التى ترغب فى عمل أى شئ من أجل مصر وهذا الرأى العام هو المساند لنا فى حملتنا الخارجية ولا تتصورون درجة اهتمام الناس وكيف نتلقى آلاف الاقتراحات من جميع الأعمار، فحملة كأس العالم مشروع قومي للمصريين وفى حالة فوزنا بشرف تنظيم المونديال سنقدم بطولة تشرف كل إفريقى .

وأعتقد أن فرصتنا جيدة لكنها غير مؤكدة ولعلكم تذكرون كيف خسرت جنوب إفريقيا سباق ٢٠٠٦ بفارق صوت عن ألمانيا لكن مصر تملك الحضارة والتاريخ ونحن أول دولة إفريقية مارست كرة القدم وانضممت للاتحاد الدولى، وفزنا ببطولة الأمم الإفريقية ٤ مرات ونظمناها ٣ مرات وسننظمها للمرة الرابعة عام ٢٠٠٦ ومصر أيضا دولة المقر للاتحاد الأفريقى لكرة القدم والعديد من الاتحادات الرياضية الأخرى على المستويين الإفريقى والعربى ونحن أيضا شعب من البنائين بنينا الأهرامات والسد العالى ومشروع توشكى وهذه بإيجاز شديد بعض مبرراتنا لدخول السباق وللفوز بهذا السباق .

المنافسة صعبة والفرصة كبيرة

وحول تجربته فى إعداد الملف والصعوبات التى واجهته وفرص مصر يقول محمد السياجى رئيس لجنة إعداد الملف :

لاشك أن المنافسة صعبة، وأننا بدأنا من الصفر، حيث أن المغرب لها خبرة سابقة بخوض التجربة ثلاث مرات وجنوب إفريقيا مرة واحدة، ولا أعنى بذلك أنهما المنافسان لمصر فقط فهناك تونس وليبيا، وكل منهم عنده نقاط قوة ونقاط ضعف ثم أننا نحترم جميع المنافسين فهكذا تعلمت على الأقل من ممارستى لكرة القدم كلاعب ومن تجربتى الطويلة معها فى الإدارة .

ومن ناحية الصعوبات فقد كانت أهمها خوض التجربة لأول مرة وعدم وجود بيانات متكاملة فى البداية عن المنشآت الرياضية مثل الاستادات ولكننا تجاوزنا ذلك بمساعدة جميع الأجهزة والوزارات المصرية .

ويقول السياجى : أعتقد أن فرصة مصر كبيرة لأسباب تاريخية وسياحية وجغرافية أيضا بجانب استقرار الأوضاع وحالة الأمن وتوافر الطرق والمدن القادرة على استقبال الملايين من جماهير كرة القدم فى العالم ويكفى أن الفيفا طلب توافر ٣٥ ألف غرفة بالفنادق ومصر لديها

أضعاف هذا الرقم .

ويضيف السياجي: رغم ذلك فإن البعض متشائم والتشاؤم ليس في محله لأننا نعمل بجدية ونخطو خطوات ولانعلن عنها وهذا أمر بديهي حتى لانفيد المنافس بأفكارنا لكننا نمضي في طريقنا على أمل الفوز بهذا الشرف، وحتى لو لم نفز وهو احتمال وارد سنكسب خوض التجربة ومعرفة مالدينا من بنية تحتية رياضية . ونحن نتابع تحركات الدول الأخرى ونعرف ماذا تملك جنوب إفريقيا وما لاتملكه، وعندهم نقاط ضعف كبيرة ومنها الأمن .

وفي جميع الأحوال نحن نعمل من أجل هدفين، الأول هو تنظيم كأس الأمم الأفريقية عام ٢٠٠٦ على أحسن مستوى، والثاني المونديال عام ٢٠١٠ ومن أجل الهدف الأول هناك منشآت تبنى وعمليات تجديد تجري في بعض الاستادات ومنها استاد القاهرة .

انتهى كلام السياجي وقد أشرنا كثيرا ونكرر الآن أن دخول مصر السباق كان أمراً حتمياً فليس من المعقول أن يعلن الفيفا تنظيم كأس العالم في إفريقيا عام ٢٠١٠ وتقف مصر بتاريخها ومكانتها موقف المتفرج، وكل ما علينا الآن أن نبذل أقصى طاقة وأقصى جهد من أجل الفوز بهذا الشرف ونحن ندرك أن دولاً مثل جنوب إفريقيا والمغرب تخوض السباق وهي تملك خبرة خوض المنافسة من قبل والأولى هزمت إنجلترا سيدة كرة القدم وخسرت أمام ألمانيا في الدورة السابقة بفارق صوت بامتناع ممثل منطقة الأوقيانوس جاك ديمبسي عن التصويت وكل هذا نعلمه وتعلمونه، ومع ذلك نحاول، والدولة غير صامتة وتتحرك في كل الاتجاهات ومن المحتمل أن نخسر السباق في النهاية لكننا لم نقف موقف المتفرج !

ومن أهم مميزات الملف المصري تنوع وتعدد المدن التي يمكن أن تستضيف مباريات المونديال ومنها الغردقة وشرم الشيخ والأقصر ومرسى مطروح وبرج العرب أو الساحل الشمالي بجانب القاهرة والجيزة والبحر الأحمر منطقة سياحية معروفة عالميا ومناخها وطبيعتها ساحرة والأقصر وأسوان عبق التاريخ، ومصر تعتز بهذا التاريخ الذي لايملكه غيرها في القارة، ومرسى مطروح والعلمين لها مناخ جميل وبها مشاهد خلابة يختلط فيها لون البحر الأزرق بلون السماء .

والغردقة وشرم الشيخ والأقصر وأسوان ومرسى مطروح أيضا مدن تجيد فن التعامل مع الأجانب فكأس العالم ليس مباريات كرة قدم فقط وإنما يواكبها العديد من الأنشطة السياحية والثقافية والفنية ومن شروط الفيفا توافر ٣٥ ألف غرفة فندقية وفي الغردقة حاليا ٢٠ ألف غرفة وفي شرم الشيخ ٢٨ ألف غرفة وتحت الإنشاء في المدينتين ٣٠ ألف غرفة وفي مرسى مطروح ٥ آلاف غرفة بما فيها الموجودة في الساحل الشمالي على البحر الأبيض إلى منطقة سياحية عالمية كما هو الحال في تونس، وفي الأقصر ١٠ آلاف غرفة و ٢٥٠ فندقا عائما يمثلون طاقة فندقية تقدر بأكثر من ٢٠ ألف غرفة .

وفي الغردقة وشرم الشيخ مطاران دوليان وشبكة طرق رائعة وبنية تحتية متكاملة وفي شرم الشيخ قاعة مؤتمرات مميزة وفي الأقصر مطار دولي وفي مرسى مطروح مطار العلمين ومطار برج العرب ومطار مرسى مطروح، ويمكن تطويره، والمطارات في غاية الأهمية أثناء البطولة لانتقالات الفرق والجماهير



بجانب الوسائل الأخرى البرية وبالسكك الحديدية..

وفى كأس العالم تقام عدة مباريات فى اليوم واختيار مرسى مطروح يعنى إمكانية إقامة مباريات عصرا لانخفاض درجة الحرارة صيفا وهو توقيت المونديال، بينما يمكن إقامة المباريات ليلا فى الغردقة وشرم الشيخ وأسوان والتكلفة الاستثمارية لبناء الاستادات يمكن توفيرها من حصة مصر من الفيفا، ومن الإدارة الإقتصادية لهذه المنشآت عقب انتهاء المونديال بتنظيم معسكرات للفرق الأوربية وبطولات موسمية. وقد اندهش الفرنسيون مثلا من استاد القاهرة العملاق الذى تقام فيه مباراة كل أسبوع ثم يتحول إلى جثة هامدة، فكيف لايكون منطقة جذب اقتصادية كما هو الحال فى العديد من الملاعب الكبرى فى العالم؟، ثم أن توافر مدن للإعاشة وللمباريات فى آن واحد سيوفر الكثير من المال والجهد والوقت بالنسبة لانتقالات الفرق والجماهير المصاحبة لها ؟!

نحن نملك الكثير لكن تبقى أساليب عرضه وكيفية إدارته وهو السؤال الصعب حقا ؟!

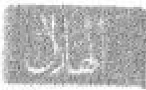
وتنظيم بطولة كأس العالم يعد مشروعا قوميا لما له من فوائد اقتصادية وسياحية واجتماعية ويكفى أن نعرف أن جنوب إفريقيا خصصت ملياراً و ٨٠٠ ألف دولار لتنظيم المونديال وأن المغرب خصصت ملياراً و ٢٠٠ مليون دولار، وأنه لم تخسر دولة بسبب تنظيم المونديال حسب قول الفيفا، والأرباح تتحقق من التسويق وحقوق النقل والترويج والرعاة الرسميين حيث ترعى منافسات الفيفا ٢٠ شركة تجارية كبيرة ويحصل الفيفا على الأموال من خلال لجانه المتخصصة ويقوم بتسليمها للدولة المنظمة التى تحصل أيضا على ما يقرب من نسبة ٧٠٪ من حصيلة بيع التذاكر .

وفى مونديال ١٩٩٤ بأمريكا تحقق أكبر إقبال جماهيرى ٣,٥ مليون متفرج، وتابع مونديال ٢٠٠٢ حوالى ٣٨ مليار نسمة من الأرض خلال مجموع مباريات البطولة التى يصل عددها إلى ٥٢ مباراة..

وحققت كل من كوريا واليابان فائض ربح صافيا بلغ مليار دولار لكل دولة ويفرض تنظيم المونديال تطوير البنية التحتية من طرق وملاعب ومطارات ومستشفيات ومراكز صحفية وقاعات مؤتمرات .

ويقدم المونديال آلاف فرص العمل خلال البناء والاستعداد ويساهم فى تنشيط المنتج المحلى وفى كوريا واليابان على سبيل المثال أتاح المونديال ٣٥٠ ألف فرصة عمل ووصل عدد الغرف الفندقية التى شغلت خلال البطولة إلى ١٤٠ ألف غرفة، وعدد الغرف التى شغلها ضيوف الفيفا والفرق والإعلاميون والإداريون بلغ ٢٢٧٥٠ غرفة، وعدد غرف الشقق السياحية ١١٧ ألفا وعدد المتطوعين ٦٠٧٥٠ فردا وعدد المترجمين ١٢٥٥٠ وأقيم ٦٤ مركزا إعلاميا وكان متوسط إنفاق السائح يوميا ١١٠ دولارات .

ويبقى أن تنظيم المونديال يفرض نقلة حضارية شاملة فى المنشآت الرياضية والمطارات والطرق والفنادق والسلوك الرياضى والاجتماعى للمواطنين، كما يضع الدولة التى تفوز بشرف التنظيم على الخريطة السياحية العالمية لسنوات طويلة



قبل وبعد البطولة !

BOX أعضاء اللجنة التنفيذية للفيفا

اللجنة التنفيذية للفيفا تضم ٢٤ عضوا وهم الذين سيصوتون لاختيار الدولة التي ستنظم مونديال ٢٠١٠ وتحظر قواعد الاتحاد الدولي إجراء اتصال مباشر بهؤلاء الأشخاص وهم :

– السويسري جوزيف بلاتر رئيس الفيفا منذ عام ١٩٩٨

– القطري محمد بن همام نائب رئيس الفيفا ورئيس الاتحاد الأسيوي وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٦ .

– الكاميروني عيسى حياتو نائب رئيس الفيفا ورئيس الاتحاد الأفريقي وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٠ .

– السويدي لينارت يوهانسون نائب رئيس الفيفا ورئيس الاتحاد الأوروبي وعضو في اللجنة منذ عام ١٩٩٠ .

– الأرجنتيني جروندونا خوليو عضو اللجنة منذ عام ١٩٨٨ ورئيس اتحاد كرة القدم في الأرجنتين .

– الأسكتلندي ويل دافيد إتش نائب رئيس الفيفا وعضو باللجنة منذ عام ١٩٩٠

– الكوري الجنوبي تشانج جونج جون عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٤ ورئيس الاتحاد الكوري .

– ممثل ترينداد وتوباجو جاك وارنر وهو رئيس اتحاد منطقة الكونكاكاف وعضو اللجنة منذ عام ١٩٨٣ .

– الاسباني ماريا فيلار أنجيل عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨ ورئيس الاتحاد الأسباني ماريا فيلار أنجيل عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨ ورئيس الاتحاد الأسباني..

– التونسي سليم علولو عضو اللجنة منذ عام ١٩٨٨ .

– البلجيكي ميشيل دوج عضو اللجنة منذ عام ١٩٨٨ .

– الكوستاريكي دافيد إسحاق ساسو عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٠ .

– البرازيلي ريكاردو تاكسيرا رئيس الاتحاد البرازيلي وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٤ .

– التركي إيرزيك سينيس عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٦ ورئيس شرف الاتحاد التركي .

– الأمريكي تشاك بلازير سكرتير عام اتحاد الكونكاف وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٦ .

– التايلاندي ورادي ماكودي سكرتير عام إتحاد تايلاند وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٧ .

– ممثل باراجواي د. نيكولاس ليوز عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨ .

– البوتسواني إسماعيل بامجي رئيس اتحاد الكرة البوتسواني وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨

– المالي أمادو دياكيتي رئيس اتحاد الكرة في مالي وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨ .

– الروسي د. فياشيسلاف كولوسكوف رئيس الاتحاد الروسي وعضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٠ .

– الألماني جيرهارد مايروفور فيلدر رئيس الاتحاد الألماني وعضو اللجنة منذ عام ٢٠٠١ .

– الفرنسي ميشيل بلاتيني عضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٢ .

– التونجي أهونجالو فيدسينالوهي عضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٢

– الياباني جانجي أجيورا عضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٢ ‖



كمال الشيخ

.. شروق دون غروب

بقلم
مصطفى درويش

ما إن بدأ العام الجديد حتى كان كمال الشيخ آخر السينمائيين الكبار المتخرجين فى استوديو مصر فى النزع الأخير من حياته، ينسحب بهدوئه المعهود منها، عن خمسة وثمانين عاما، إلا قليلا، أنفق منها خمسة وأربعين عاما على الأقل، وهو مرفوع الشراع، فى بحار تجربة صناعة الأطياف، منذ بدأ توليف «مونتاج» الأفلام، فى ذلك الاستوديو، وحتى عهد قريب، حين وقفت به السن عن التوق إلى الرحلة . بحثا عن آفاق جديدة لفن السينما، ذلك الفن الوليد، الذى أوقعه بسحر صوره فى غرام دام ثلاثة أرباع القرن، الذى ودعناه، قبل ثلاثة أعوام !.



والحق، أنه مما اضره، ويدفعه إلى التوقف عن الإخراج فى السنة السابعة من العقد الثامن من القرن العشرين، هو فشل فيلميه الأخيرين، «الطاووس» (١٩٨٢) ووقاهر الزمن» (١٩٨٧) فلقد كان فشلهما ضربة قاسية لكرامة مخرج فى مقام «الشيخ»، وكما يقال فى الأمثال كان القشة التى قصمت ظهر البعير، ذلك أنه، مما يعرف عنه انه فنان غير مكابر، يقطر رقة ووداعة.

ولأنه كذلك، فسرعان ما احس بما يحس به الفنان وحده، دون سائر الناس، فلم يرجع فشل فيلميه إلى انهيار السينما، كما يحلو للبعض أن يقول، وانما أرجعه لأمر لم يفصح عنه ابدا، ولو همسا، ذلك الأمر أو السر هو فى أغلب الظن، نضوب معينه السينمائى، ربما لكبر السن، أو لأسباب أخرى.

ولأنه كان فنانا قنوعا، يكفيه أنه بلغ القمة بأربعة وثلاثين فيلما روائيا طويلا، فقد آثر الاعتزال بنفس راضية، مرضية، على اعتبار ما مضى من مشوار إبداعه السينمائى، تجربة بحلوها ومرها، وقد انتهت بانتهاء زمنها الجميل.

وعندى أن رصيده هذا من الأفلام، فضلا عن اعتزاله وهو فى السبعين، قد سلكه مع الخالدين الذين نهضوا بالسينما المصرية، حتى ملأت الدنيا، وشغلت الناس


كمال الشيخ

طويلا فى الوطن العربى من الخليج إلى المحيط.

لحن الخلود

ويحضرنى هنا من رصيده هذا ثلاثة أفلام، أقف عندها قليلا، لأن كل واحد منها يلقى بعض الضوء على أسلوب صاحبها، ورؤيته لفن السينما، وهى رؤية ثرية، تقطع بمعرفة عميقة بلغة العصر.

والأفلام الثلاثة هى. حياة أو موت (١٩٥٤)، واللص والكلاب (١٩٦٢) والصعود إلى الهاوية (١٩٧٨).

وأبدأ بفيلمه الثالث «حياة أو موت»

الذى اخرجه بعد انتهاء مرحلة التوليف «المونتاج»، من حياته، وبدء مرحلة الاخراج، بفضل فيلمه الأول «المنزل رقم ١٣» (١٩٥٢).

دهشة انفعال

أبدأ به، لأقول إننى شاهدته أول مرة، وبالمصادفة فى باريس حيث كان يعرض، بمناسبة تكريم معهد العالم العربي لصاحبه، وذلك بعرض بعض ما ابدعه من أفلام وكم كانت دهشتى، وأنا فى قاعة العرض بالمعهد أشاهد فيلما قديما، بلا ألوان، وله من العمر أربعون عاما، هذا إلى جانب أن معظم ممثليه «يوسف وهبى»، و«عماد حمدى» و«حسين رياض» قد انسحبوا من الحياة من سنين، ومع ذلك انفعل به، وكأنه فيلم جديد، خارج لتوه من معمل التحميض.

أما لماذا اندهشت وانفعلت بحياة أو موت، فذلك لأنه، عكس أفلام ذلك الزمان، صور الواقع كما هو، فى شوارع القاهرة، دون أى تزويق. ولأنه بإيقاعه اللاهث، وببنائه الدرامى المحكم، قد نجح فى الاحتفاظ بجدته، وبقدرته على التشويق.

ووجدتنى اتساءل، وأنا أغادر القاعة، لماذا أنكروا على مخرجه الريادة فى الواقعية، ونسبوها إلى كل زعيط ومعيط، ونطاط الحيط.!!

واقعية مصرية

ففيلمه، والحق يقال، درة من درر الواقعية، ذكرنى بلقطات شوارع القاهرة، وميادينها، حيث كان يجرى البحث عن بنت صغيرة، تحمل إلى أبيها المريض بالقلب، زجاجة عبثت خطأ بسم زعاف، بدلا من الدواء.



الراحل كمال الشيخ بين وزير الثقافة وسعد الدين وهبة أثناء تكريمه في مهرجان القاهرة السينمائى



كان دائما محل تقدير لقاء ماقدم للسينما

أقول ذكرنى بلقطات لشوارع روما وميادينها، فى فيلم «سارقو الدرجات» لرائد الواقعية الجديدة «فيتوريو دى سيكا»، حيث يبحث الأب مع ولده الصغير، عن الدراجة المسروقة، دون أن يعثرا على أى أثر لها، رغم كل ما بذلاه من جهد، وما تعرضا له من إذلال.

ولا يفوتنى هنا، أن أذكر أنه عندما جاءنى الخبر الفاجع بنبأ انسحاب كمال الشيخ من الحياة، وجدتنى استرجع على شاشة ذاكرتى أمسية معهد العالم العربى بمدينة النور، فأسرع بوضع الشريط المسجل عليه «حياة أو موت» فى جهاز الفيديو، لأشاهده مرة أخرى غير أننى فى هذه المرة لم اندهش، ولم أتساءل، بعد الانتهاء من مشاهدته، بل ازددت يقينا على يقين بأن صاحبه كان رائدا بحق، لواقعية جديدة، على الطريقة المصرية،

تجاوز بها واقعية حارة العزيمة لأستاذه في استديو مصر «كمال سليم».

سر الاختيار

هذا عن الفيلم الأول، أما الثاني، وهو «اللص والكلاب» فمأخوذ عن رواية بنفس الاسم، استوحى نجيب محفوظ موضوعها من حادثة حقيقية لهارب من العدالة، ومطارد من الشرطة، كتبته الصحافة بالسفاح، لارتكابه بضع جرائم قتل، على سبيل الانتقام من شركاء سابقين.

واختيار كمال الشيخ لرواية «اللص والكلاب»، لتكون أحداثها منطلقا لفيلمه السابع عشر، انما يرجع إلى جوها المشبع بالتوتر والمطاردات والتشويق، وهو الجو الذي يؤثره، ويتميز به أفضل ما أبدع من أفلام.

وعندما شاهدت، قبل بضعة أيام، تسجيلا له على شريط فيديو، وجدته كما شاهدته، وكتبت عنه، قبل أربعين سنة، فيلما رصينا، متندا رزينا، زاخرا بابتكارات فنية، لا يتسع لشرحها المجال، وبتفاصيل معتنى بها اشد عناية، فضلا عن أداء بارع لممثليه «شكرى سرحان»، «كمال الشناوى» «صلاح منصور» و«صلاح جاهين»، قوامه الاعتماد، لا على الكلام، بل على ملامح الوجه، وقدرة الجسم على التعبير.

باختصار وجدته، بعد كل هذه السنين، قد بقى منه فى نفسى شيء جميل، وذلك لأنه فن سينمائى حقيقى، أصيل. والآن، إلى «الصعود إلى الهاوية».

بداية أقول إننى لست بصدد تحليل سياسى - اجتماعى لظاهرة نجاحه، المنقطعة النظير، وانما بصدد ذكر واقعة، تشهد على مهارة كمال الشيخ فى اختيار الممثل المناسب للدور الذى يزمع اسناده إليه فى الفيلم .

من المعروف عن الفيلم أن بطولته قد انعقدت «لمديحة كامل»، حيث تقمصت فيه شخصية «عبلة كامل» التى ارتضت أن تعمل جاسوسة، ضد وطنها مصر، لصالح إسرائيل وأنه قد شاع، وقت عرضه، أن سعاد حسنى كانت المرشحة الأولى لأداء دور الجاسوسة، فلما اعتذرت، استبدل بها كمال الشيخ مكرها، مديحة كامل.

انتصار الحقيقة

إلا أنه، بعد ربع قرن من عمر الزمان، كذب كمال الشيخ هذه الشائعة، فى حديث معه، سجله، قبل ثلاثة أشهر، الناقد طارق الشناوى، لصالح إحدى الفضائيات، إذ كان من بين ما باح به فى هذا الحديث، أن سعاد حسنى هى التى طلبت أن تلعب دور الجاسوسة، وأنه هو الذى رفض الاستجابة لطلبها، لا لسبب سوى أنه شعر أن الجمهور سوف يتعاطف مع «سعاد» من منطلق تعلقه بها حبا، فيغفر لها خيانتها لمصر، وحتى يحقق الفيلم رسالته، عمل على اسناد الدور إلى ممثله ليس لها رصيد «سعاد» من حب الناس.

ثمن الخيانة

وكانت «مديحة كامل» الممثلة التى وقع عليها الاختيار ولأنها لم يكن لها ذلك الرصيد من الحب، فلم يتعاطف معها الجمهور، بالعكس كاد يطير من السعادة لحظة سقوطها، ورجل المخابرات، يقول لها فى الطائرة العائدة بها إلى أرض الآباء التى خانتها، بثمن قليل، مشيرا إلى تلك الأرض «هذه مصر ياعبلة»!!

وختاما، يبقى لى أن أقول إن الأفلام الثلاثة من الخصب والقوة، بحيث تركت فى السينما المصرية آثاراً بعيدة، عميقة. ولو أن المخرج لم يبدع سواها، لكان ذلك كافيا لبقائه فى ذاكرة الزمان ■



الأسطورة فى بينالى القاهرة الدولى

وهم كبير وواقع فقير!

بقلم
د. صبرى منصور

لا ندرى إلى متى سيظل المصريون غير قادرين على القيام بتنظيم احتفاليات ثقافية وفنية خالية من الأخطاء العديدة فى الإعداد والتنظيم والتنفيذ.. فتلك الأخطاء أصبحت سمة مميزة تصاحب نشاطاتنا ومؤتمراتنا، ويلحظها بسهولة كل من ساقته قدماه إلى معايشتها عن قرب، فيكتوى بآثارها السلبية التى يصل تأثيرها أحياناً إلى تحقيق عكس ما تهدف إليه تلك النشاطات والاحتفاليات. ويقدم بينالى القاهرة الدولى التاسع للفنون التشكيلية - والذى يقام كل



الفنانان السويسريان زيلكا ماروستيش وأندريا هلبنج - عمل مركب

عـامين - الدليل على أن بيننا وبين دقـة التخطيط وسلامة التحضير وشفافية التنفيذ زمناً بعيداً، وخاصة أنه لا يستفاد من أية ملاحظات موضوعية بناءة، أو اعتراضات منطقية ، حين يرى المسئولون أنهم فوق مستوى النقد وأعلي من تقبل النصح، ويعتقدون أن أى رأى مخالف هو رأى مغرض، لا يجب الاصغاء له أو الالتفات إليه. ففى شهر مايو عام ٢٠٠١ تناولنا فى مقال تم نشره فى هذا المكان بينالى القاهرة فى دورته الثامنة بالنقد، وأشرنا إلى سلبيات كثيرة قللت - فى رأينا - من قيمته ، وانتقصت من جدواه الثقافية والفنية، ويأتى بينالى هذا العام مثقلاً بنفس الأخطاء كما يسفر عن سلبيات جديدة فى نواح عديدة.



بيان مبهم للبينالى

وتحت عنوان غـــريب التركيب «الأسطورة .... رهان الخيـالى ، ورهان الفن!» جـاء مـوضـوع البـينالى فى بيـان تم إرساله إلى الدول المشاركة العربية منها والأجنبية ، حتى يأتى إبداعها متناغما مع فكرته ومحققا لها، وفى ثلاث صفحات تضـمن البـيـان خليطاً من الأفكار، فى صياغة لغوية متكلفة، تعتمد على الألفاظ الضخمة التى لا تحمل معنى واضحاً، ولم يرهق صاحب البيان نفسه فى مراجعة الأخطاء النحـوية والإمـلائيـة وأخطاء الطباعة، مما جعل من البـيان وثيقة لا يصح أن تصدر عن مؤسسة رسمية لها قيمتها الثقافية فى بلدنا، وقد احتوى البيان أفكاراً خاطئة حين رأى أن الفن فى المجتمعات الصناعية قد أصبح عاجزاً عن إنتاج «خاصية التخيل وذلك لأنه قد تجذر عميقاً فى الحياة اليومية لتلك المجتمعات».

وهو اعـتـقـاد طالما تردد فى حـيـاتنا الثقافية وتدحضه تلك الاتجاهات الفنية التى ظهرت فى أوروبا بعد عصر الثورة الصناعية خلال القرن التاسع عشر، ومازالت ممتدة فى أساليب ما بعد الحداثة ، تلك الاتجـاهات التى أعلت من قـيـمـة الخيال ودوره فى الحياة الإنسانية، فمنحته أهمـيـة قصوى فى العملية الإبداعيـة ، وتحت مسـمـيات كالرمزية والسيريالية والميتافيزيقية والواقعية السحرية أبدعت أعمال فنية لفنانين عظام أمثال جوجان وسلفادور دالى وماجريت وإرنست وديلفو ودى كيريكو وكارا وغيرهم عديدين ممن استطاعوا أن يحققوا معادلة متوازنة بين غزو الآلة وبين انطلاق الخيـال بلا حدود، كـمـا امتد الإبداع الخيـالى والأسطورى ليـشـمل فنوناً أخرى كـالأدب والسينما، فمازالت نماذجه تلبى حاجة أساسية عند الإنسان.

ولقد أدى الفهم الخاطىء بكاتب البيان إلى إصدار أحكام قاطعة ونهائية لا تقبل الجدل أو المناقشة حين يقول بأن «الناتج الخيـالى الذى هو روح الفن وتميمـتـه الواقية» صـار مسـتـعاراً، ومقـتلعـاً من جـذوره اقـتـلاعـاً» وبأن «زمن الأسطورة وزمن الحكايات الخـرافيـة النبـيلة قـد انمحى».

ويستعرض البيان أفكار صاحبه عن ضرورة إعلاء شأن الأسطورة التى يجب ألا تسقط «باسم الصناعة أو باسم العلم أو باسم التكنولوجيا والبيـوتكنولوجيـا» ويعلن تحالف البينالى التاسع مع «الخيال، مع كل ما هو آدمى، مع الوحى الملهم فى جنبات النفس البشـرية» ثم ما يلبث أن يناقض هذا التحالف حين يعلن أن بينالى القاهرة ينادى «بالعلم باعتباره نسباً من هجين الأسطورة». ثم فـجـأة يخلق الكاتب هدفـاً جديداً للبينالى، «إن البينالى حين يدون بيـانه فى نهاية العـام الثـالث من الألفية الثالثة، يود أن تكون المشاركات من فنانى العالم بمثابة احتجاج على استطيقا الحرب» ويفسر تلك الاستطيقا بقوله المبهم «تلك الاستطيقا الجمالية - التى أخذت تجدول درجات تقبل الفن على أساس ذلك التشكيل المعجمى لآلات الحرب الدموية».

وينهى صاحب البيان بيانه بأنه يريد لمشاركات البينالى «أن تهزم العولمة حسب مفهوم سلطة تبديد البشر . سلطة تحويلنا جميعاً إلى ممتثلين ومنصاعين» ثم يدعونا لكى نتأمل «الأسطورة للمرة الأخيرة فى حياتنا قبل الطوفان».

البينالى يهدم فكرته

ويفهم من السطور الأخيرة فى البيان أن هناك رغـبـة فى الانفـلات من أسـر



أجـواء أسـطورية.. للفنان الإسباني فرانشيسكو جارثيا



التبعية، وإعلاء شأن الإبداع الذى يقاوم عوامل محو ذاتيته، ويحافظ على معالم هويته، ويرفض التقليد والانصياع بدعوى مواكبة العالمية والعولمة.

وهكذا يبشر البيان بإبداع إنساني جديد، ويمهدنا لاستقبال رؤى مختلفة تراهن على الخيال وعلى الأسطورة، وبعد كل ذلك تتجول فى أرجاء المعرض الذى انتشرت أعماله فى أربعة مواقع لمائتين وخمسين فناناً من خمس وخمسين دولة، لتجد أن كل ذلك الكلام الضخم مجرد كلام فى الهواء، وستجد أن الفنانين يقدمون إبداعاً لا صلة له من قريب أو من بعيد بالمعانى المذكورة فى البيان، وربما كان لهؤلاء عذرهم، فالبيان كما أوضحنا ملتبس المعانى، متعدد الأهداف، ولا يعتمد على أفكار واضحة وإنما على كلمات وتعبيرات رنانة، فإذا ما ترجمت أصبحت خالية المعنى فارغة المحتوى.

والمأساة الحقيقية هى أن مسئول البينالى نفسه هو الذى هدم فكرته، وتخلى عن نبوته التى بشرنا بها، وذلك حين جاءت اختياراته الشخصية للفنانين - ما بين ضيوف شرف أو دعوات وجهها شخصيا لبعض الفنانين - بعيدة فى مجملها عما أتعب نفسه فيه وأجهدنا فى قراءته، وجهزنا نفسياً ووجدانياً لاستقباله.

بل ويبدو أن لجنة التحكيم نفسها لم تطلع على بيان البينالى، أو لعلها اطلعت ولم تقتنع بما ورد فيه، فجوائزها الممنوحة ذهب أكثر من نصفها إلى أعمال فنية اعتمدت على التكنولوجيا، وانصاعت للقوالب الفنية الجاهزة حسب مفهوم العولمة، ويعتري الإنسان شعور بالغيظ حين ينقب فى الأعمال المعروضة عن دلالة لموضوع البينالى، أو أىّ تضمين رمزى أو خيالى، فلا يجد ذلك محققاً إلاّ فى بعض الأعمال القليلة التى لا تشفى غليله أو تروى ظمأه، ويشعر كما لو أن هناك خديعة ما دبرت له، وأنه كان سليم الطوية، ساذج التصور حين تخيل أن ما قيل كان ممكناً رؤيته على أرض الواقع، ويتذكر فى النهاية أن شيمة نفر من المصريين الآن الاقتصار على إطلاق الكلمات الضخمة، وصياغة الشعارات المدروسة بعناية، والاكتفاء بالواجهة أو العنوان، ولا أهمية لشىء بعد ذلك.

مشاركات غير عادلة

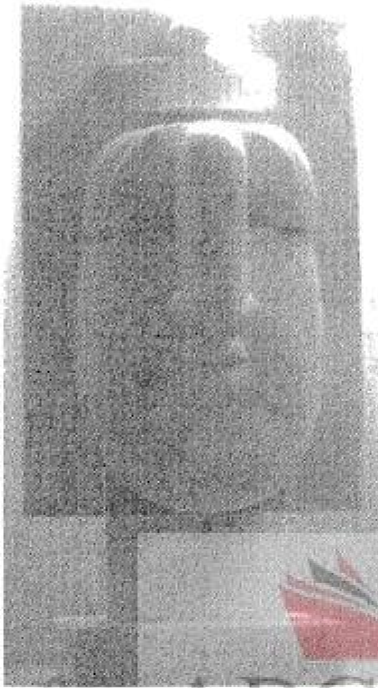
وحين تتأمل كيف تمت مشاركة الدول المختلفة فى البينالى ستجد أموراً غريبة غير قابلة للفهم ولا تخضع لمبدأ سليم، فأولاً هناك مشاركات لدول أرسلت فنانين يمثلونها رسمياً، وثانياً هناك مشاركات لفنانين مدعوين شخصياً من قبل مسئول البينالى، وثالثا هناك مشاركات ضيوف شرف قام المسئول أيضا باختيارهم.

ويبدو أن تلك المشاركات والاختيارات لا تخضع لقواعد أو معايير موضوعية، فالسعودية - مثلاً - التى أرسلت رسمياً أضخم عدد من المشاركين بلغ اثنى عشر فناناً، ولم يكتف المسئول عن البينالى بذلك العدد ورأى أن السعودية تستحق تمثيلاً أكبر فقام بتوجيه دعوة شخصية لخمسة فنانين آخرين، ليصل العدد الإجمالى لفنانى السعودية إلى سبعة عشر فناناً، بينما تراوح عدد فنانى الدول الأخرى ما بين ثلاثة إلى خمسة فنانين، وهناك بعض الدول التى مثلها فنان واحد. بل إن عدد الفنانين السعوديين قد فاق عدد فنانى مصر صاحبة البينالى، ومعروف أن البلد الذى يقيم المعارض الدولية الكبرى على أرضه يجد فى ذلك فرصة لعرض أكبر

عدد من أعمال فنانيه. كما يثير تمثيل مصر فى البينالى أكثر من علامة تعجب، فقد رشحت رسمياً خمسة فنانين ورأى مسئول البينالى أن لديه صلاحية تجعله يختار أحد عشر فناناً آخرين، من بينهم أربعة كضيوف شرف، وسبعة آخرون، وجه الدعوة الشخصية لهم، والأمر المثير ، أن ستة من هؤلاء المدعوين شخصيا يقيمون فى دول أوروبا منذ أواخر السبعينات، والأمر الأكثر إثارة وغرابة أن واحدا من هؤلاء الستة المغتربين - وبصرف النظر عن ابتعاد أعماله عن محور البينالى وموضوعه - قد توفى عام ١٩٨٤!، وكذلك إذا أضفنا أن ثلاثة من ضيوف الشرف هم أيضا فنانون مصريون مقيمون فى الخارج منذ سنوات بعيدة، فيكون بذلك مجموع الفنانين المهاجرين الذين يمثلون مصر تسعة فنانين من بين ستة عشر فنانا ، ويبدو الأمر كما لو أن مسئول البينالى ينتصر لمجموعة الفنانين المغتربين، ويرى أنهم الأجدر بتمثيل مصر، حتى لو كان إبداعهم لا يحقق فكرة البينالى وهدفه، ويبدو متناسيا الفنانين يكابدون الحياة فى بلدنا ، ويثرون بإبداعهم الحركة الفنية المصرية، كما تنضح أعمالهم بالخيال والدلالات الأسطورية، ومن بينهم على سبيل المثال الفنانون أحمد عبدالوهاب وعادل المصرى ومحمد القبانى وعصمت داوستاشى والسيد عبده سليم وفتحى أحمد.

مؤهلات محدودة للجنة التحكيم

وعادة ما تكون هناك اعتراضات على تقييم لجان التحكيم فى مجال الفنون الذى لا يخضع لمعايير نهائية وقاطعة، ولكن تشكيل تلك اللجان من شخصيات ذات كفاءة عالية وخبرة عريضة فى المجال



وجه أسطورى ..للنحات الإيطالى بيترو كاشيلا

يمكن أن يمنح أحكامها درجة نسبية من المصداقية. ونجد فى بينالى هذا العام أن لجنة تحكيمه مكونة من ستة وليس سبعة أعضاء كما تنص المادة (٢٦) من قواعد وشروط البينالى نفسه، وذلك فضلا عن أنه من البديهى أن يأتى تشكيل لجان أى تحكيم مكونا من عدد فردى حتى تكون هناك أغلبية فى التصويت. كما سنجد أن أربعة من الأعضاء الأجانب فى اللجنة أحدهم نيجيرى ويعمل أستاذاً مساعدا للفنون، والثانى إيطالى دارس للقانون وناقد ونشاطه الأساسى تنظيم المعارض، والثالث سويدى فى الواحدة والثلاثين



ودارس للعلوم الإنسانية وإدارة الثقافة والحرف اليدوية وتنظيم المعارض وأنهى دراسته منذ عامين فقط، أما الرابع فهو تشيكي دارس للعمارة ويعمل مديرا للمعهد القومي للآثار، وكان عضوا في تحكيم جائزة معمارية كبرى في بلده.

وكنا نتمنى أن يعكس تشكيل اللجنة ومواصفات اعضائها وقدراتهم ما يؤهلهم للتفضيل والاختيار والتقدير، فإن أية مسابقة دولية تستمد قيمتها من قيمة أعضاء لجنة تحكيمها وما يتمتعون به من وزن ثقافي عالي وخبرة طويلة وعميقة بعملية الابداع الفني التشكيلي.

أخطاء عديدة أخرى

ومازال هناك العديد من الظواهر اللافتة والأخطاء الواضحة التي تطغى على إيجابيات البينالي وعلى ما بذل فيه من مجهود، وتقلل من قدره كاحتفالية عالمية:

فدليل المعرض - وهو وثيقة تاريخية - جاء هزيلا في مادته، مختلطا في معلوماته. لدرجة أنه احتوى على صورة لعمل الفنان الفائز بالجائزة الكبرى غير العمل الموجود فعلا في البينالي، وهي إذا كانت قريبة الشبه والعناصر فإن ذلك لا يجيز وضعها كبديل للعمل الحقيقي، وإذا قيل إن عمل الفنان يتم تجهيزه في المعرض، وليس هناك من وقت لتصويره ثم إثباته ونشره بالدليل، فإنه كان من الممكن نشر فكرة العمل المبدئية التي من المفروض أنها قدمت للمعرض قبل الموافقة على تنفيذها، وذلك مثلما حدث مع أعمال فنانين آخرين في مجال التجهيز في الفراغ.

ولم يضم الدليل أية بيانات مفيدة عن الأعمال، فلا تدرى إلى أي مجال تنتمي، وبأية خامة نفذت، وعلى أي حجم تكون. وهناك فنانون أفردت لهم صفحات عديدة ومعلومات مسهبة ومملة عنهم. بينما هناك آخرون كان حظهم في الدليل بضعة سطور موجزة، وقد اختص مسئول البينالي، أحد الفنانين من ضيوف الشرف بمقال نقدى ليس دليل المعرض مكانه لأن في ذلك تمييزا لا مبرر له عن الفنانين الضيوف الآخرين.

وهناك ظاهرة أثارت العديد من التساؤلات حول تكرار أسماء فنانين بعينهم في دورات البينالي المختلفة، حيث يكونون مرة عارضين لأعمالهم، وفي أخرى ضيوف شرف أو مدعوين بصفة شخصية أو أعضاء في لجنة التحكيم، وما يمكن أن يلقي ذلك بظلال من الشك في موضوعية الاختيار والترشيح، وتشتد التساؤلات عند المتابعين عن الفنان المصرى المقيم في إيطاليا وتتم دعوته الشخصية من مسئول البينالي طيلة السنوات الثلاث الماضية، ليحصل في كل مرة على إحدى الجوائز والتي توجها العام بالجائزة الكبرى.

كما أن هناك مبالغة شديدة في تحديد عشرة فنانين كضيوف شرف في المعرض، فقد احتلت أعمالهم قاعات العرض المميزة، وعرضت لهم أعمال كثيرة، وبدا الأمر كما لو أن المعرض الدولي قد خصص لهم، بينما الفنانون المشاركون على هامش المعرض، ونحن نرى بأن التكريم يكون أقوى وأكثر تعبيرا عن التقدير لو كان هناك ضيف واحد أو اثنان، أما هذا المهرجان من ضيوف الشرف فهو بدعة لا مثيل لها في البيناليات العالمية.

أما اللجنة العليا للبينالي والتي تم تشكيلها من القيادات الإدارية والتنفيذية،



تنويعات على وجه روماني قديم.. للفنان الإيطالي إيميليو فارينا



ومع احترامنا لرئيسها وجميع أعضائها، إلا أن اللجان العليا للبيناليات يكون تشكيلها من شخصيات لها ثقلها الفني والثقافي ، حيث إن مهمتها ليس تنفيذ البينالي وإخراجه لحيز الوجود، وإنما وضع استراتيجيته الثقافية وأهدافه العليا، ومراقبة مساره، وتحديد حكامه.

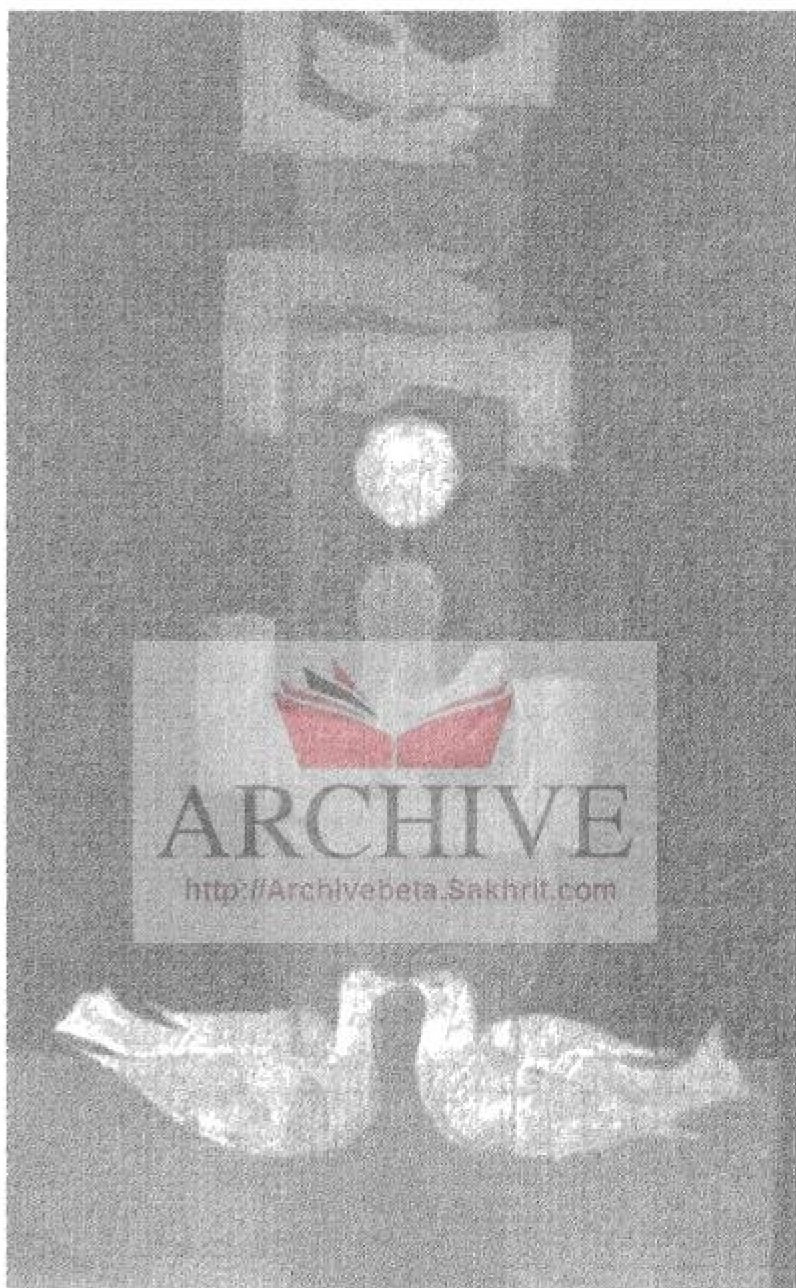
وتبقى الظاهرة غير المفهومة في أن يتولى شخص واحد مسئولية القوميسير العام لبينالي القاهرة لمدة سنوات متصلة، فحتى لو كان ذلك الشخص عبقري الأداء، موضوعي الفكر، فإن مسئولية البينالي كاحتفالية دولية يجب أن تكون جماعية التفكير والتنظيم حفاظا على عدم الشطط والانزلاق نحو القرارات الفردية والذاتية، وهو ما يكشفه كم الأخطاء والسلبيات التي حدثت، والتي كان يمكن تداركها لو كانت هناك آراء تتشاور حول القرار الصائب، وليس هذا المعرض العالمي بأقل منزلة وأهمية من المعرض القومي - وهو معرض محلي - الذي تشكل له لجنة من اثني عشر عضوا من ذوي الخبرات والكفاءات المختلفة، تكون مسئولة عن وضع سياسة المعرض واختيار ما يعرض فيه من أعمال، مع أنه لا تخصص له مثل البينالي جوائز مالية ضخمة.

توجه مختلف للبينالي

ويشير الفنان فاروق حسني في مقدمته للبينالي «إن الفنان يتحمل عبء التعبير عن الواقع، وهو الأمر الذي جعل العملية الإبداعية في حالة تفاعل دائم مع معطيات مرتبكة، حيث تنامي صعود إقليميات وظهور قوميات جديدة تفرض أشكالا لتعددية الرؤى الثقافية، والذي يعد البينالي أحد محافلها في المنطقة، والتي تطرح سبل التحاور والتفاعل على أرضية الحوار الحضاري».

وأيضا سبق أن نبهنا في المقال الذي نشرناه عقب انتهاء دورة البينالي السابقة إلى ضرورة التأكيد في أنشطتنا الثقافية على مخاطر الاندفاع نحو مجاراة أساليب التعبير الأوروبية، والسعي نحو تخليق أساليب مستقلة عنها ، لها مقوماتها الذاتية، كما اقترحنا أن يكون محور البينالي في دورته التاسعة - الحالية - هو الذاتية الثقافية وكيف يمكن للفنون التشكيلية المعاصرة أن تكون وعاء لها، فربما كان ذلك التكريس لموضوع الساعة بمثابة الحث على إحياء العوامل الإيجابية الخلاقة عند الفنانين في بلدنا وبلاد مثيلة له في وضعه الثقافي، من أجل تجسيد أساليب تشكيلية متميزة تساهم في إثراء الفنون العالمية، ولكي يكتسب بينالي القاهرة قيمة ثقافية حقيقية حين يكون مجالا لحوار جاد بين ثقافات متمايزة ومختلفة، مما يمنح مصر دورا رائدا وقياديا في المنطقة وعلى مستوى العالم.

ونأمل أن يجد قطاع الفنون التشكيلية - وعلى رأسه الفنان أحمد نوار بما عرف عنه من كفاءة -الوسيلة المناسبة لضخ دماء جديدة للبينالي وتصحيح سلبياته ونقترح في هذا الصدد الدعوة منذ الآن إلى عقد حوار بناء تدعى إليه الكفاءات المصرية الحريصة على قدر مصر ومكانتها الفنية والثقافية لتحديد هوية البينالي ومراجعة شروطه وقواعده، وتنقيتها من كل ما هو غريب وشاذ عن المعايير العالمية والمنطق السليم، وذلك تدعيما لدور البينالي ولكي تتحقق له المكانة الدولية الرفيعة التي يريدها له كل المخلصين ■



١٨١
الهلال
ذو الحجة ١٤٢٤هـ - فبراير ٢٠٠٤م

تركيب خيالى.. للفنان المصرى محمد أبو العزم



اللبــــاد

وعين العشق والثقافة

بقلم
صــلاح بيصــار

بلغة صافية رائقة.. مسكونة بخربشات الحس الشعبى المشاكس.. صدر كتاب «نظر! - الألبوم الثالث» للفنان محيى الدين اللباد عن دار العربى للنشر والتوزيع.

وهو كتاب يعكس لفنون الصحافة وفن الكتاب وثقافة الأطفال.. خاصة الفنون الجرافيكية من الكاريكاتير والرسوم التعبيرية والأشرطة المصورة «الاستربس» وحتى الرموز والشعارات والفواصل والوقفات والإشارات.. مع ملاحظات بصرية من هنا وهناك .. وهو يضىء على كل ما له صلة بهذه الفنون فى مختلف بلدان العالم.. لذا يمتد إلى التاريخ والأدب والسياسة وسيكولوجية الإبداع.. كتبه اللباد بعين العشق والثقافة.. بشعار بشارة الخورى: «إن عشقنا فعذرنا.. إن فى وجهنا نظر!» والذى غناه عبدالوهاب وعلى الحجار!.



الكلب «كوبى» تميمة دورة برشلونة



«وبظرا» من القطع الكبير.. أبيض وأسود من الداخل بالاضافة إلى اللون الأحمر على الغلاف.. رشيق فى إخراجه.. يشع بالحيوية رغم تقشف الورق.. جاء بمثابة استراحة للعين.. تنتشلنا من بحار الألوان التى تغرق فيها الصحف والمجلات حاليا.. أشبه بصوت الناى.. معزوفة بصرية.. تطرب ببساطة شديدة وبلا ضجيج.

فوق الجميع

– بعنوان «هايل بوش» يشير اللباد إلى آلة الإعلام الأمريكية الجهنمية بقوله: عند بدء حرب الخليج.. تفرجنا – فى محطة تليفزيون CNN – على الرئيس بوش يلقى خطاب الحرب فى الكونجرس الأمريكى ورأيناه يلوح بقبضته وذراعه بجسم متشنج ووجه متقلص هاتفا: «يجب أن نجعل القرن الواحد والعشرين قرنا أمريكيا!».

ويضيف: فى تلك اللحظات الأمريكية الحاسمة تتشكل آلة إعلامية هائلة تعزف عبر آلاف وسائل الإعلام التى تتنوع من محطات التليفزيون العملاقة إلى فانلات الـ«تى – شيرت» المطبوعة نغمة واحدة وشعارات مكررة تصبح أمريكا فوق الجميع ليندفع مئات الملايين من الأمريكان صارخين فى نفس واحد: «هايل بوش!».

واللباد يؤكد على خطورة تلك الآلة ومدى نجاحها فيما هو أبعد من توحيد الشعارات على ألسنة الناس.. حين ينشر خمسة رسوم كاريكاتورية أمريكية نشرت جميعها فى يوم واحد هو ٢٦ أغسطس ١٩٨١ تعليقا على واقعة اقتحام المقاتلات الأمريكية المجال الجوى الليبى وإسقاطها لطائرتين عسكريتين كإنذار موجه إلى ليبيا بصفتها راعية للإرهاب.. العجيب أن الرسامين الخمسة رسموا فى نفس واحد نفس الفكرة بالضبط بدون أن ينقلها أحدهم عن الآخر!

– وهو يشخص حال الكاريكاتير العربى من خلال تحليله لازدهار الكاريكاتير الجزائرى: فقد تميز الأخير مع شقيقه من الأشرطة المرسومة – بين نظرائهما فى البلاد العربية – «بخصوصية وحداثة وألمعية وبمهارات حرفية ومعرفة متينة لأصول المهنة وبنجاح فى تحقيق تراكم معقول فى هذا الفن رغم أنه لم يستغل بعد.. ومع هذا يظل الأمل فى أن ينفتح عليه الكاريكاتير العربى الراهن فيجدد نفسه وينشط عقله وخياله ويغسل عينيه بعد أن ظل أسيرا لمدرسة صباح الخير يعتمد على اللفظ والحوار أو مقلدا لبعض مدارس كاريكاتير دول البلقان وأوروبا الشرقية إذا كان كاريكاتيرا



الرسام محمد مزارى

صامتا بلا تعليق».

واللباد يشير إلى تجربة مجلة «المنشار» والتى صدرت هناك بالفرنسية معبأة بالنقد والهجاء اللاذع والسخرية الحريفة وبدت كوجبة شهية مبهجة من السخرية السياسية الفوضوية الجميلة.. تمطع فيها «على حد تبعيره» أصحابنا «إيدو» و«ملواح» و«مازارى» من جيل الوسط ورسموا كاريكاتيرات كثيرة وساندتهم بقوة أعمال رسامى الجيل الأول المخضرمين «سليم» و«هارون» و«حنكور» وظهرت إلى جانب هؤلاء كاريكاتيرات طازجة جميلة لرسامين من جيل جديد لم نتفرج على أعماله من قبل «لقمان» و«ميميد» و«بندين» و«بليم» و«معمرى» و«حليم» وغيرهم.

ولاشك فى أن اللباد يعد واحدا من بين قلة قليلة من رسامى الصحافة.. ممن يضيئون على فنون الصحافة منهم بهجت عثمان رحمه الله وبهجورى.. وهو متابع لكل ما يحدث لهذا الفن فى شتى بقاع العالم من بداياته الأولى وحتى الآن.

– وفى كتابه ينقلنا إلى عالم الرسام الأمريكى الرومانى الأصل «ستينبرج» بلغته الساخرة: يحتفل العالم الغربى هذه السنة بمرور ٥٠٠ عام على اكتشاف «كريستوفر

كولبس» لأمريكا عام ١٤٩٢ - بينما يقيم عالم الهنود الحمر في نفس الوقت.. المآتم والاحتجاجات بمناسبة الذكرى نفسها - وفي ذات التاريخ تحل ذكرى مرور ٥٠ سنة بالضبط على بدء اكتشاف «سول سيتنبرج» لأمريكا إذ وصلها مهاجرا من رومانيا عام ١٩٤٢ قرب نهاية الحرب العالمية الثانية. وبما أننا دائما «ما نتمحك» في أول مبرر معقول لتقديم هذا الرسام العبقري بدرجة «بيكاسو الكاريكاتير» ها هي المناسبة التاريخية تقدم لنا الفرصة على طبق من ذهب ومعقولية!



لرسام الكاريكاتير الجزائري سليم

ومع رسوم ستينبرج.. يصفه اللباد بأنه : «إكتشف أمريكا بالرسم في رؤية شاملة لها بصماتها الفارقة وروحها الخاصة المتنوعة: لقد رسم العنف المطبوع على سيمائها.. رسم التخلف وراء قشرة لامعة من التمدين والقدرة على الاستهلاك.. رسم الذعر وعدم الأمان ورسم التركيبة الفيسفسائية لمجتمع يظل المواطن فيه فردا غريباء.

جحا بالفرنسية

-- وفي «الخواجات يكتشفون لنا مجلة كاريكاتورية ثورية مصرية قديمة» يشير إلى ذلك بقوله: شاطرين جدا هؤلاء الخواجات ولا يزهقون من النكش في تاريخنا البعيد والقريب وفي حاضرنا أيضا وبالتفصيل .. كثير منا يعرف الرسام الأسباني المتحضر «خوان سانتيز» الذي افتتح لنا سكة الكاريكاتير على مستوى الاحتراف وقد يعرف بعضنا أعماله في مجلة «الكشكول» التي صدرت لتهدم حزب الأغلبية الوفد وتهلهل سمعة زعيمه سعد زغلول.. لكن القليل منا يعرف أن سانتيز قد أسس بعد رحيل سعد مجلة كاريكاتورية أسبوعية.. تنطق بلسان حزب الوفد وتعارض وتهاجم إسماعيل صدقي رئيس الوزراء الديكتاتور العميل.. كان اسم هذه المجلة جحا وكان يكتب هكذا: Goho لأنها كانت تصدر بالفرنسية لتشرح لجمهور الأجانب داخل مصر وخارجها

بالكاريكاتير ما يجرى من أحداث سياسية فى بلادنا وتنقل لهؤلاء وجهة النظر المصرية الوطنية.. اكتشفت لنا تلك المجلة الباحثة الفرنسية «إيرين فينوليو» فى بحث مصرى نشر فى مركز الأبحاث الفرنسي بالقاهرة.

-- وفى «ثوريون لكن ظرفاء» يتتبع اللباد بالرسم والكلمات تفرعات شجرة عائلة دوريات الكاريكاتير الفرنسي بدءا من مجلة «الشاريفارى» أو الدوشة والصادرة عام ١٨٣٢ والتى كثيرا ما فرجتنا كتب تاريخ الفن على رسوم «دوميبه» و«جرانفيل» و«جافارنى» التى نشرت على صفحاتها وقد تحيزت رسوم هؤلاء الرسامين الكبار للشعب وللحرية والمساواة وهاجمت النظام الامبراطورى وصدر بعدها مجلة «الضحك» بصفحات شغلتها بكاملها الرسوم السياسية الملونة والتى كان من بين رساميها «هنرى تولوز لو تريك».. كما جاء بعدها «صحن الزبدة» تجديدا فى الرسم السياسى الساخر فى فرنسا وأوروبا فى فجر القرن العشرين «صدرت عام ١٩٠١» ولايزال أثرها ممتدا حتى الآن فى حفيدتها شارلى الأسبوعية التى تزامن صدورها مع اندلاع ثورة الشباب والطلبة فى أوروبا «١٩٦٨».

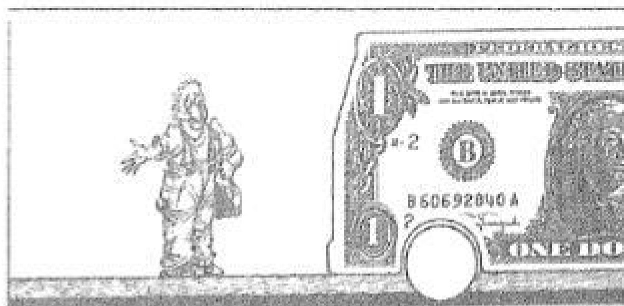
حديث الأربعاء

– ويصل اللباد إلى ذروة تألقه حين يأتى الحديث حول أستاذه وشيخه «على حد تعبيره» حسين بيكار وأول صدور لمجلة سندباد فى عددها الأول صباح الأربعاء، ٢ يناير ١٩٥٢.

«أشرق علينا مع «سندباد» ومع الكتب التى سنطالع فيها رسوم بيكار بعد ذلك عالم نظيف نقى مثالى وأنيق.. عالم مطهر من الفظاظة والقبح والبذاءة والفجاجة.. والتلوث بأنواعه.. فى سن العاشرة اخترت بيكار شيخا لى وتبعت شيخى وركبت أعالى البحار لأبحث عن الكتب التى رسمها فأخذت قطار كوبرى الليمون إلى محطة مصر ومشيت منها إلى شارع الفجالة حيث مكتبة دار المعارف وهناك وقعت على كنز بيكار الذى ظللت لفترة طويلة اغترف منه بالضبط كما فعل على بابا مع مغارة اللصوص فى الكتاب الجميل الاستثنائى الذى رسمه لصياغة كامل كيلانى.. مع مغارة اللصوص لتلك القصة عام ١٩٤٦».

– وهو يدهشنا وينعشنا بروح البحر المتوسط الفنية من خلال شعار ثورة برشلونة وشيمتها.. «لايزال الشعار الرسمى البصرى لثورة برشلونة يعد اختراقا غير مسبوق لكل

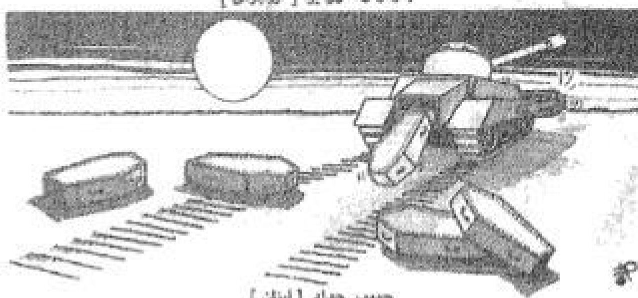








إدواردو موريليز [أورجواي]



حبيب حداد [لبنان]

من معرض الشمال في عيون الجنوب

أفكار العيال على أوراق المال

الكاتب اكزوبرى صاحب كتاب (الأمير الصغير) على ورقة عملة فرنسية من فئة الخمسين فرنكا

تصميمات شعارات الدورات الأوليمبية السابقة: ثلاث ضربات فرشاه حرة عابثة خلقت الشعار بلا حاجة لأدوات تنفيذ هندسية أما الرموز البصرية لألعاب الدورة فكانت مدهشة ليسر تناولها وبدت كأنها مرسومة بضربات فرشاة خطاط يابانى أو قصبة خطاط عربى أو فارسى وبلا استخدام لأدوات التنفيذ التقنية هى الأخرى.

واختارت برشلونة تميمة لدورتها تمثل كلب اسمه كوبى! تصوروا دولة محترمة تجعل شعار أول أولمبياد تقام فيها كلب؟ .. وقد بدى برسمه البسيط وكأن رسامه تلميذ طفل.. وأضفى كوبى المبتسم مرحا وعمقا طفوليا على الوجه البصرى للدورة وتحرك رسمه - بكفاءة - على المطبوعات واللافتات الاليكترونية العملاقة فى الملاعب وعلى شاشات التليفزيون ولبى كل المهمات التي ألقيت على عاتقه!!

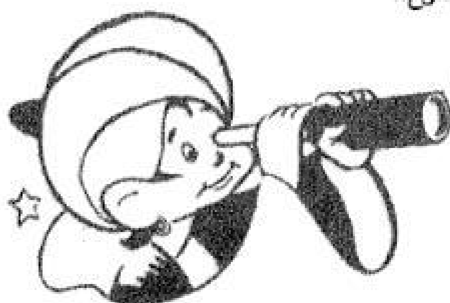
هذا قليل من كثير فى كتاب اللباد الممتع.. والذى نقلنا خلاله إلى عوالم بصرية كلها «نظر» .. أشبه بصندوق الدنيا .. الدنيا الكبيرة التى جاءت إلينا بالرسوم والكاريكاتير والملامح الإنسانية وامتدت أيضا من الكاريكاتير السوفيتى والكومنولث إلى الشمال فى أعين الجنوب الفنية مع كتابات حول إيهاب شاكر وبهجورى وحجازى وذو العينين «عبدالغنى أبو العينين» وعبدالفتاح الجمل وصلاح عيسى وسانت أكزوبرى صاحب «الأمير الصغير» والذى ظهر على ورقة عملة فرنسية جديدة من فئة الخمسين فرنكا مع تأملات فى بينالى براتسلافا لرسوم كتب الأطفال ومعرض بولونيا الدولى لكتب الأطفال وغيرها.

- ولكن .. إذا كانت هذه الموضوعات قد نشرت من قبل فى أكثر من مطبوعة تحت العنوان ذاته نظر، نشرت فى مجلات «صباح الخير» و«روز اليوسف» و«وجهات نظر» و«الهلال» و«أخبار الأدب».. فقد كان من المهم كتابة تاريخ النشر.. حتى لا يلتبس الزمن على القارىء.. وعلى سبيل المثال حين يتحدث اللباد فى «أرنبة تبيض ذهبا» عن زيارته لكاتب الأطفال الهولندى الأشهر ديك برونا يقول: استقبلنا الكاتب الرسام «٦٥ سنة» .. هنا لا يعرف القارىء متى حدث ذلك.. «والمعروف أن ديك برونا من مواليد ١٩٢٧»..! وهذا يعنى أن اللقاء حدث منذ أكثر من عشر سنوات.. وفى موضوع «أنا أحب بهجورى» يشير إلى أن بهجورى ذهب إلى باريس منذ أعوام طويلة «لعلها زادت على خمسة عشر» رغم أن ذهاب بهجورى لباريس حدث منذ أكثر من ثلاثين عاما ..! وفى مواضع كثيرة يتوه زمن الموضوع..

ومن هنا لزم التأكيد على أهمية تاريخ النشر.

تحية إلى محيى اللباد رساما ومصمما وكاتبا.

وكله «نظر!» —



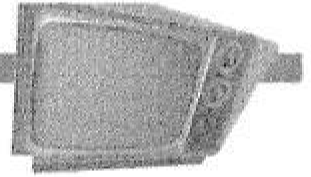
متى أراه ؟

شعر

أحمد السيد

أسائله – حبيبي – هل أراه ؟
يجئ جوابه : إن أذن الإله ؟
وفي شوق أسائل : هل قريب
لقائي .. أم بعيد في رؤاه ؟
فلا ألقي جواباً غير قول
يمني القلب أو يرضي هواه
بآمال عذاب في لقاء
يروي الشوق يطفي من لظاه
ويهدي النفس ماترجو رغاباً
هي الأمل المرجي من سناه
هي الحسن الجميل وقد تبدي
هي الحب الأصيل لمنتهاه
هي النور المصفي في رواء
ويأتي الخير فيضاً من صفاه
فهل يرضي حبيبي – بعد – عني
ليسعدني، فسعدي في رضاه
أم أن جوابه يبقي دواما
بأن القرب إن أذن الإله !
ولكني أظل – الدهر – أرنو
جمالاً أرتجيه .. ولا أراه
وما يكفي حديث في بعاد
يثير الحس، يذكي من جواه
ولن أحيي حياتي في ثناء
فلا أجد السبيل إلي لقاه ؟
ولا ألقي سوي الحرمان بعداً
ولست ببالغ أبداً حماه
نعم هو ذاك ما ألقي دواماً
يباعد – لايقارب – من حطاه
وإن ظل الحديث علي اتصال
فأسعد بالحديث .. ولا أراه

فهل ثم ارتواء دون لقيا
وهل يغني حديث عن رؤاه؟
هي الرؤيا الحبيبة لا أغالي
وقد حرمت عيوني من سناه
ومن أسف تقطعت الخيوط
فليس سوي مزيد من جفاه
وإن رق الحديث عن الفراق
بما يطوي حديثا عن هواه
وعن شوق يغالبه طويلا
فلا يبدي التلهف أن يراه
وأن يطفي لهيبا من فراق
ويهدي الروض فيضا من صفاه
سنحيي في عذاب ما حيينا
ويشقينا الفراق بمنتهاه
فياليلي الطويل.. أليس صبح
يوافي ثم يسفر عن رؤاه ؟
وأبصر حسنه وجهاً لوجه
أصافحه، وأنعم في رضاه
بإقبال .. وقرب .. ثم همس
يشيع النور فيضا من ضياه
ويغمرني بإشراق لنفسي
وإسعاد لقلبي في هواه
أحقاً ما أقول وما أمني
به النفس اللهوفة أن تراه؟
أسائله - حبيبي - هل أراه
يجئ جوابه : إن أذن الإله
إن أذن الإله ..



المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

الجائزة

كان لابد أن نقترب أكثر... إذ لم يكن ممكنا أن نكتفى بما لاح لنا على البعد.. فقد بدت هيئة الكتلتين الحجريتين محيرة وهى على البعد تكاد تطابق هيئة الكتلتين الحجريتين الممشوقتين فى شموخ على مدخل معبد إدفو فى صعيد البلاد.. ولقد آثرت أن يكون اقترابى سيرا على الأقدام لآخذ ما أشاء من الوقت فى تأمل ما هالنى فى المشهد .



تركت السيارة وبدأت التقدم من زاوية سمحت لى برؤية الكتلة الحجرية الأكبر وقد قامت كعملاق يفرد عباءته على مسافة غير بعيدة من الكتلتين، أو فلنقل إنها مصد طبيعى من الحجر المنبثق من قلب الصحراء فى كتلة واحدة، جاء انحناؤها من طرفيها باتجاه الكتلتين الحجريتين أمامها مشكلا هيئة القوس، يصد اندفاع الريح إن اشتدت هبتها ، ويبرز استقامة الكتلتين

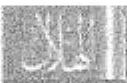
وشموخهما أمامها فارضة على المكان من الأبهة والجلال ما يغريك بالاقتراب أكثر لعلك تلم بأسرار هذه التكوينات البديعة وقد حولت مشهد الصحراء الممتدة حولنا بغير حدود، إلى متحف طبيعي تتردد في جنباته آيات التسبيح ...

غيرت اتجاهي في السير مبتغية تعديل زاوية الاقتراب لأصل إلى نقطة شبه مركزية على أمل أن يمكنني وقوفي عندها من الإلمام بأطراف تلك التكوينات الحجرية المبهمة.. وبمجرد شروعي في ذلك ، بدأت أتبين وجود كتلة حجرية أخرى تصورتها نتوءاً منبثقا من إحدى الكتلتين الرئيسيتين ، يوحي بهيكل تمثال أبي الهول، لكنني بمزيد من الاقتراب تبينت أنه ليس هيكلا واحدا وإنما هما هيكلان يرتفع الواحد منهما خلف الآخر وكأنهما توأمان لأبي الهول يقومان بدورهما بحراسة التكوينين الحجريين المنبسطين خلفهما على هيئة مدخل معبد إدفو.. يا سبحان الله العظيم ماذا أودعت يارب في هذا التشكيل من أسرار؟!

ولماذا أتصور أن هاتين الكتلتين الشامختين وإن كانتا من الحجر الجيري إلا أنهما محميتان من خلف بفعل ذلك التشكيل الحجري القوس، ومن أمام بوجود تكويني تمثال أبي الهول يخففان بدورهما من عنف ارتطام الريح إن عصفت بالمكان من هذا الاتجاه.. ولما كنت قد أطلت الوقوف وقد تسمرت قدماي، بدأت أرفع رأسي لعلي أحيط بتناغم تعرجات سطح ما ارتفع أمامي في شكل معبدٍ صرحٍ مهيب، وحين امتد بصري للخط العلوي للصرح هالني ما رأيت في لون السماء من زرقةٍ صافيةٍ داكنة لم أشهد لها مثيلا في حياتي .. وناديت على صحبتي ألفتهم إلى تلك الدكنة الزرقاء الصافية، تشد البصر ليتأمل ويرى كيف تحافظ الزرقة على دكنتها فوق الصرح وكيف تتخلى عنها بالتدريج عند طرفيه على يمين ويسار، حتى تذوب تماما إذا ابتعد البصر قليلا عن حدوده .

عجبات

قال لنا سائق السيارة إن أهله سكان الواحات يسمون هذه المنطقة «عجبات» والإشارة واضحة إلى ما في هذا الجزء من صحراء مصر الغربية من عجب وأعاجيب أو «عجبات» تتنوع أشكالها وألوانها على الطريق اللازم قطعه من الواحات البحرية إن كنت تريد الوصول إلى واحة الفرافرة، ولقد تابعنا الرحلة التي أخذتنا إلى «صحراء الكريستال» إشارة إلى ما يظهر في رمالها وحجرها من نقاط هي إلى لمعة الماس أقرب في





التشبيه كما أخذتنا إلى صحراء تلك الغابة من التشكيلات الحجرية المتجاورة المتزاحمة حيث يتنوع اقتراب كل منها من هيئة نبات عش الغراب (المشروم) وكذلك عرجنا على ما يعرف بالصحراء البيضاء، لكننا قررنا الاكتفاء بهذا القدر لنأخذ طريق العودة وعلىَّ هنا أن أعترف أننى كنت صاحبة الدعوة للعودة فقد كنت أبتغى إلقاء نظرة أخرى على ذلك النوع من زرقة السماء قبل أن تضيع الفرصة إن غابت الشمس قبل أن نصل إلى المكان ولكننا حين اقتربنا ، بدا المشهد مختلفا تماما، فقد ذهبت دكنة زرقة السماء فوق الهيكل الحجرى الصرح، وصار كل ما يحيط به من سماء فى لون السماء التقليدى وإن لم يخل من صفاء. شملت روحى أحاسيس فقد موجع لم يخفف منه سوى رجائى لصحبتى أن نعود ، فى يوم قريب - إن شاء الله - إلى نفس المكان ، وعلينا أن نكون فى «عجبات» فى مثل ساعة النهار التى زرناها فيها اليوم ، وأن نقترب منها نفس الاقتراب ، بنفس زاوية الاقتراب لنحظى بنظرة أخرى ، وتأمل جديد لنفس المكان وما يحيطه من ألوان ، فالآن ، والآن فقط تأكدنا من اختلاف الأمور تبعا لاختلاف زاوية النظر إليها ، وصحيح أن هذه العبارة تكررت علينا آلاف المرات، لكن ما رأيته فى تلك الزيارة لتلك البقاع من صحرائنا الغربية يعطيها أبعادا وأعماقا متباينة تثير فى الذهن من الأسئلة أكثر مما تقدم من الإجابات .

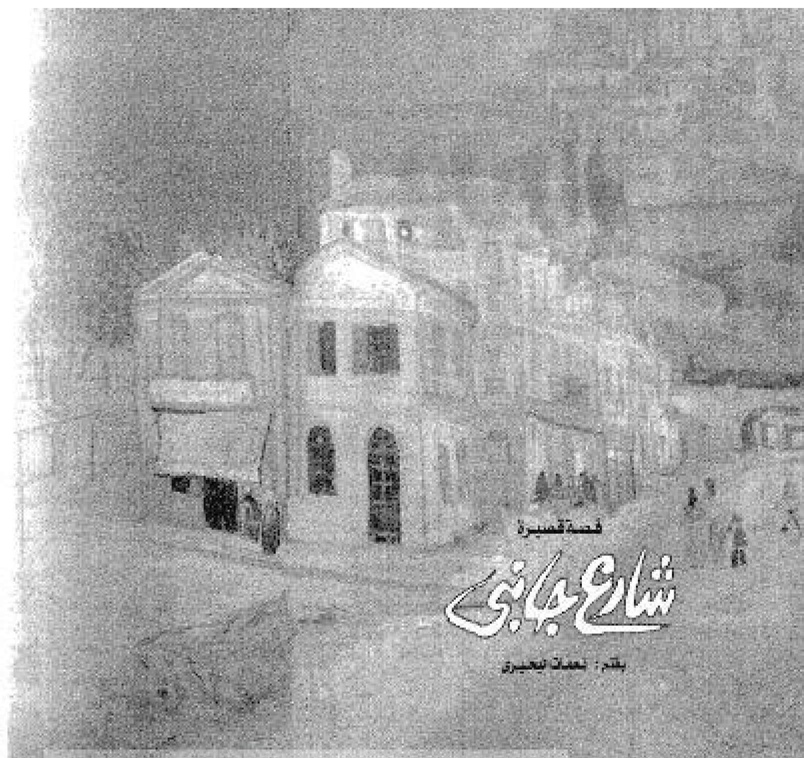
صاحب الجائزة

مضت أيام وأيام ، والصور ماثلة فى ذهنى، تفرض حضورها على كل ما يقع عليه بصرى فى القاهرة، وكل ما يمر من أحداث، وكل ما يصل سمعى وبصرى من قراءات وتحليلات تسلم نفسها لزاوية للرؤية واحدة، تتشبث بها، إما عن قصور أو استسهال أو عمد. وصارت الفكرة المهيمنة علىَّ تحدد نفسها بسؤال واحد وحيد، ماذا لو غيرنا زاوية الرؤية، وبدأت أتخيل أنواع الجوائز الفكرية والنفسية التى يمكن أن نفوز بها إن جربنا واجتهدنا حتى جاءنى مثال «هوارد زن» Howard Zinn، حافلا هو الآخر بالإيحاءات والأفكار. ولقد فاز الرجل بجائزة «أصدقاء لوموند الدبلوماسى» يوم الأول من ديسمبر ٢٠٠٣ وحين وقف لإلقاء خطابه فى هذه المناسبة بيَّن بالتفصيل تلك الدوافع التى حفزته لوضع كتابه «التاريخ الشعبى للولايات المتحدة» وبدأ كلامه بالإشارة إلى ١٩٧٠ عام

اتخاذه للقرار بوضع ذلك الكتاب بعد أن عمل أستاذا للتاريخ لعشرين سنة تلت مشاركته في حركة الكفاح من أجل الحقوق المدنية في الجنوب الأمريكي، وقضاء عشر سنوات في الكفاح المناهض لحرب فيتنام. ويوضح لنا «هوارد زن» أن نشأته في أسرة من الطبقة العاملة من المهاجرين ساكني نيويورك فتحت عينيه على أمور شحذت ملكاته النقدية، وهو ما تعمق بعد ذلك أثناء عمله في موقع بحري لثلاث سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية ثم بعمله على متن قاذفة قنابل كانت أثناء الحرب تقلع من انجلترا في هجمات منتظمة على شاطئ فرنسا المطل على الأطلنطي.

ولقد وجدت ملكاته النقدية فرصتها الذهبية، حين أتيح «لهوارد زن» الحصول على منحة جامعية كانت مخصصة للمحاربين القدماء، ومنهم أمثاله من الفقراء الذين يستحيل عليهم تحمل عبء الرسوم الباهظة للتعليم الجامعي، وهكذا حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة كولومبيا. وعند هذه النقطة من كلامه وجدنا «هوارد زن» يتوقف برهة ليؤكد لنا أن خبراته في الحياة هي التي كونت وعيه بأن ما يتعلمه في الجامعة يتعمد إغفال كثير من العناصر المهمة في تاريخ الولايات المتحدة. ويؤكد لنا «هوارد زن» Howard Zinn أنه لم يكن أبدا خاضعا لأي وهم بشأن ما يطلق عليه «الموضوعية» ذلك أنه كان دائما يدرك أن المؤرخ أو الصحفي أو أي مقدم على رواية للتاريخ يجد نفسه مجبرا على الاختيار بين عدد هائل من الأحداث، يذكر بعضها ويهمل البعض الآخر وهو ما يعكس مصالحه، سواء أكان واعيا أم غير واع بتلك المصالح. ويحكي لنا في هذا الصدد عما يثيره في نفسه كلام المسئولين في الولايات المتحدة عن ضرورة تعليم «الحقائق» للتلاميذ وكيف أن ذلك يذكره دوما بشخصية المتحذلق «جراد جرينج» Gradgrind في رواية تشارلز ديكنز «أوقات عصيبة» Difficult Times حين كان يتحذلق على المعلم الشاب قائلا: «لا تُدرس سوى الحقائق، الحقائق» بينما نجد أن قيام أي كاتب أو مؤرخ أو صحفي بالكتابة عن أي «حقيقة» يتضمن حكما، هو ذلك الحكم بأن هذه الحقيقة مهمة، أما الحقائق الأخرى فيتم إسقاطها لأنها في حكم ذلك الكاتب ليست مهمة.

وفي ضوء ما سبق، يطرح السؤال نفسه: لماذا تهمل شاشاتنا كل ماله صلة بصحراء البلاد؟ وحول هذا السؤال تدور أسئلة أخرى ربما تدعوني لتناولها في مقال آخر، إن شاء الله ■



من جديد أزعجني شظار الزجاج المكسور على جانب المطبخ ومحاولات عمل شاي آخر، وصوت الضجيج وانتقاله من حالة إلى أخرى مثل جرس إنذار. وما أن ملأت البراد ثانية حتى أدركت أن الكبريت اختفى.. اقتطع على الرغم من الحالة المستقرة التي أمر عليها

مع ارتباكات الشاي المسكوب والأكواب المكسورة، وقلة الحالة القلقة.. مزيج من الترقب والشرود من الجسم النحيل.. هكذا أبحث لي الأصوات.

شعور حاد وكثيف بأنني تأخرت كثيرا، وأنهم منتظرون منذ ساعات وأيام، وربما سنوات، جاءتني واحدة فأقلقتني في مسائل كثيرة أهمها هذه الحالة الغريبة والدهشة والمستقرة على نحو ما من الشعور بالرضا والبهجة والألفة منذ فترة، وظلي حسنا رقيقا ومملوءا من المسي.

كنت أقول للجارة إذا ما حاصرتني بأحبها أو قريب لها:

ألا ترغبين إلا أن أدخل وكر الزوجات اللاتي



يفرغن الطاقات بكاء ونحيبا ونميمة، وحسدا على الوحيدات. كانت تحاصرني بنظرات غيرها من الجيران.. وكنت أضحك كثيرا وأنا أتذكر رواية قرأتها لكاتب لا أتذكر له اسما إلامعنى عن مجلس قيادة الجنس الذيلي، الذي تشكل للإطاحة بالديكتاتورية اللاذيلية ولإقامة المجتمع الذيلي العظيم الذي حلم به الفلاسفة والشعراء الذيليون والذي استشهد في سبيله ما لا يحصى من خيرة الشباب الذيلي الطليعي..

لم أعبأ كثيرا بآراء الجارة ونظرات الجيران وخيرة الشباب الذيلي الطليعي. كنت مأخوذة بأصوات هؤلاء الذين في بيتي وينتظرون الشاي والذين قد يلقونني بالبخل الشديد وخاصة أنني لم أتمكن من تقديم طعام أو حلوى، ومازالت آراء الجارة تأتيني وأنا أنحني على الأرض باحثة عن علبة الكبريت.

كنت أتحرك في جميع الاتجاهات وهي تتحرك معي، وأذني المتعبة والتي كفت تماما عن العمل من نصيبها، العضو الوحيد الذي يتلقى آراءها في الحياة.

كلام كثير عن البيت والأطفال والحب والسعادة، صرت أسمعه كما أسمع شيئا من الطرائف القديمة، أو برنامج حدث في مثل هذا اليوم...

مازال نفس اليوم يتحرك في داخلي وكأنه الأمس حين كانت كلمة واحدة قلتها فنزعت سدادة صمته المطبق ليندفع الكلام مثل رذاذ متطاير. لم أحاول بعدها الحد من بهجته المفرطة، تلك التي أحسها كلما لاقيته، فينطلق بوصاياه العشر، آخرها ضرورة الخروج من القوقعة، فيمنحني من جعبته عناوين الأصدقاء القدامى الذين خلعتهم الذاكرة منذ زمن.

تصيبني عدوى البهجة فأتأبط ذراعه وهو يبتكر أرضا جديدة وخطوات، يأخذ بيدي ويجري في سباق ورهان، أن الفشل ليس قدرا، وأن الإنسان بحق قادر - لو أراد - على هتك ستر الغشاوة، فيهمس في أذنيّ أن هذه الخطوات تحديدا هي البداية، بعدها يزيح عن نفسي قشرة قوقعتي السميكة.

كان أبوه قبيحا وكانت أمه نحيلة فجاء إلى الدنيا يحمل مسئولية زواجهما الموفق، ولم أكن أطمع في رجل أكثر إثارة، وقد ولدتني أمي بقلب رحب وعينين واسعتين، لاترى من الدنيا إلا الجميل والصادق والحقيقي.

منذ رأيته أول مرة بين الرفاق وأنا أحسه من تلك النظرة العميقة المتوثبة إلى مكامن الغائر والغامض والمجهول، هذا غير عفوية الكلام والضحك والبكاء، بعدها تناولتنا العيون والألسنة من قوم صعاليك المقهى فراح يردد الذين كانوا



يراودونني من أن لآخر عن نفسي:

«خطفها الواد «الديسنت».. خطفها الواد «الديسنت»».

كان بالفعل رقيقا وخجولا وهادئا بلغات كثيرة، لكي يتناوله الصعاليك بنعوتهم الخشنة.

«الواد الديسنت.. الواد الديسنت».

.. سمعها أكثر من مرة، ومن أقرب أصدقائه، ولم يجد إلا أن يضحك ملء فمه وقلبه وعينيه ويهرع في زهو إلى صديق مشترك، يحثه على مرافقته إلى بيتنا، ربما استطاع فك طلسم خريطة الخطوات معي إلى الأبد.

رآه أبي وهو يتوقف عند عتبة بيتنا مشدوها، سعل وهو ينظر إلى الأرض، بعدها تعثرت قدماه في طرف سجادة غرفة الصالون، على الرغم من أنها لم تكن وثيرة على الإطلاق..

«غرفة الصالون» مكان لقاء الضيوف.. غرباء كانوا أم أقرباء.. لا أدري من الذي أطلق عليها اسم «الصالون»



ربما أحد الحلاقين المجتهدين في هذا المجال..

بعد سنوات طويلة رأيته، فقلت له كلمتي التي تنتزع دائما سدادة صمته المطبق فينطلق بالكلام، كان هذا من فرط الغياب الذي كثف من داخله حضورا عميقا واضحا، فبدت الأيام التي تلت ذلك اليوم جديرة بأن تعاش.

حدثني كما يحدث الجميع عن أخته التي طلقها زوجها وألقاها بيناتها الثلاث في غياهب بيت فقير مظلم حتى راودها شبح الموت ذات صباح من بدايات الربيع ومواسم المرح فماتت.

حدثني أيضا عن عمله الذي قايضه بحفنة رماد، وبيته الذي قايضه بغرفة صغيرة خلف مقهى قديم، يتقاسم ظلال جدرانها مع جرسونه النوبي الأخرس، ورغم هذا يشعر بالبهجة لا تبرح أرضه لأنه جاهني وقد أحرق سفن العودة إلى ما كان، مطالبا إياي بألا نتحدث إلا عن أرض جديدة وقلب واسع وعينين طيبتين.

في موعد آخر أزحت سجادة بيتنا جانبا، تلك التي أشيع أنه تعثر بطرفها ذات مساء، وقد تيقنت أن للحب أسبابه. بعدها رحت أستعيد حلمي القديم بأن نبتكر أرضا جديدة، لا تنزع فيها ذاكرتنا، ولا ننتظر الجن والملائكة أو معونات الرجل الأبيض، بل نجدل الخطوات بالخطوات.

لم يمر وقت طويل حتى استوقفني صديق له وأنا أحرق الخطوات باحثة عنه، وكان الصديق يبدو حزينا باكيا، وكنت أتوجس من حزنه المفرط حتى سألته، فواتته الجرأة شيئا فشيئا ليخبرني أن العزاء على نفس المقهى.. نفس المقهى القديم في الشارع الجانبي. ■



اجرى يا لولا..
يوم السنجاب..
ورقة العشرين

موعد مع التجريب السينمائى

بقلم
الفاروق عبد العزيز

حمل التجريب على الدوام عبء تطوير الفنون فى علاقتها بالأشكال الموروثة من جهة، وبالجمهور المتلقى من جهة أخرى. والأصل فى التجريب هو أن فنانا يتناول شكلا تقليديا فى فن من الفنون ويغامر بإبداع رؤية جديدة لهذا الشكل، ويحقق الإبداع الجديد قبولا بدرجة ما لدى المتلقى، حين يختار الفنان أن يقدم «تجربة» فنية مثيرة للاهتمام بغرض فتح نوافذ جديدة لهواء «فنى» نقى لتجديد مخزون «رئة» المشاهد والمتذوق الواعى .

وتاريخ السينما خلال الأعوام المائة الماضية هو فى حقيقة الأمر تاريخ من التجريب، وكل ما اعتبره الدارسون فتوحات سينمائية هو واقعيا رؤى جديدة لفنانين مبدعين صاغوا أفكارهم فى أشكال سينمائية كانوا يجربونها للمرة الأولى. غير أن فريقا من الفنانين بعضهم موهوب وغالبيتهم بلا موهبة اقتحموا عالم التجريب لمجرد التجريب، وربما ماكان ينبغى عرض محاولاتهم تلك على جمهور واسع، الأمر الذى أدى إلى تخريب المفهوم الإيجابى

لمعنى التجريب الفنى، ولنتذكر أولا أن الفنان ضحل الموهبة هو الذى يفشل دائما فى تغليف رسالته بسجر الفن سواء كان عمله تجريبيا أم تقليديا .. ومثل هؤلاء الأدعياء يتشدقون دوما بأن لهم رسالة لم يفهمها المشاهد وأن أعمالهم «غامضة» لأسباب فى بطن الشاعر!.


لولا تجرى مع الأحداث مرة تلو مرة


قبل مدججا بعد أن عرف مكانه مكانه !

أجرى يالولا

عندما شاهدت فيلم «اجرى يالولا اجرى» للمخرج الألمانى الشاب «توم تيكفير» للمرة الأولى، وجدته يستلهم عبارتين فى مطلع فيلمه كمصدر لفكرة الفيلم، الأولى مفادها أن دورة الاكتشاف البشرية لن تتوقف أبدا، بحيث أنه لو تصورنا أننا قد أحطنا بمعرفة شىء ما.. فإننا نجد أنفسنا أمام بداية دورة الاكتشاف مرة أخرى لندور من جديد.. ولنطرح نفس الأسئلة وهكذا!!

غير أن ما أثارنى هو اسم صاحب العبارة الثانية فى صدر الفيلم والتى تقول فى نفس المجرى أيضا، إن «مابعد المباراة هو ماقبلها!» .. المباراة ؟! الفيلم ليست له أية علاقة بأية مباراة!! ثم من يكون السيد هيربرجر هذا الذى قالها!!

فالعبارة الأولى حول المباراة تكملها عبارة أخرى لنفس الرجل تقول: «الكرة مدورة .. وزمن المباراة هو تسعون دقيقة. هذا هو كل ماهنالك وماعداه مجرد نظريات!» .. حسنا من يكون السيد هيربرجر إذن؟ .. هو سيب هيربرجر مدرب كرة القدم الألمانى الأسطورى الذى قاد الفريق الألمانى إلى النصر فى مباريات كأس العالم فى عام ١٩٥٤.

بطل الملاعب تسببت نظريته عن «الكرة المدورة» فى إطلاق أكبر طاقة بصرية حركية على الشاشة منذ أن ظل جين هاكمان يجرى بلا نهاية طوال الخمس الأخير من فيلم جون فرانكنهايمر الكلاسيكى الشهير «العلاقة الفرنسية» الجزء الثانى فى عام ١٩٧٤.

وجرى لولا يستغرق الفيلم بكامله فى الوقت الذى تنتهى فيه الأحداث كل نصف ساعة تقريبا من زمن الفيلم نهاية مختلفة (أو لنقل ثلاثة أشواط مادامت الكرة مدورة!): مرة تلقى فيها لولا حتفها وأخرى

يموت فيها مانى والثالثة تنتهى نهاية سعيدة لكليهما، والفيلم مرئى من خلال عينى لولا التى تختار فى كل رؤية للحكاية إدخال عناصر جديدة على المقدمات الثابتة فتتغير النتائج، وهى هنا تمارس تجربة الاختيار فى كل مرة لكى تبدأ دورة جديدة بأسئلة جديدة وإجابات جديدة حول الحب والموت.

جدة التناول التجريبى

وهكذا فإن «اجرى يالولا اجري» هو فى النهاية فيلم يتبع خطا روائيا واضحا تماما لكل مشاهد. غير أن قوة أسلوبه تنبع من جدة تناوله التجريبى القائم على أركان السرد الروائى التقليدى من حدث وعقدة وحل ومن مغامرات مخرجه وكاتبه (والمشارك فى وضع موسيقاه توم تيكفير) فى دنيا الشكل.

لقد جعل من فيلمه قنبلة بصرية وصوتية تتمتع بطاقة حيوية كهربائية هستيرية على الشاشة . طاقة لاتكل ولاتمل، معبرة بوضوح عن ثقافة البوب المتفجرة كالألعاب النارية بقوة إبداعية هائلة وماهرة تجمع بين كل وسائط التعبير تقريبا من استخدام الأبيض والأسود حينا إلى الألوان حينا آخر، ومن التصوير السينمائى إلى الفيديو، ومن الأغنية المصورة إلى الأسلوب الإخبارى، ومن الرسوم المتحركة إلى ألعاب الفيديو، ومن العرض الدرامى المسرح إلى الأداء التمثيلى القائم على التقمص الوجدانى، ومن التصوير بالحركة البطيئة إلى الحركة السريعة، ومن الإيقاعات الصاخبة لموسيقى البوب والراب إلى الألحان الهادئة.. واختاروا ماتشاءون! ستجدونه هنا!!

على ضوء مقولة أن المباراة أكثر أهمية وإثارة من النتائج ، يلمس المشاهد أهمية القرارات الصغيرة والاختيارات المترتبة عليها، والتى قد لا نعى فى خلال ساعة ونصف من حياتنا فى يوم عادى أنها قد تؤثر فى مصير كل منا .

وربما لهذا اختار المخرج تيكفير أن يروى حكاية فيلمه فى زمنه الحقيقى، نحو ثلاثين دقيقة ، تعاد لثلاث مرات متتالية، وفى كل مرة تبدأ الحكاية – المباراة مع انطلاق صفارة الحكم من نفس الموقع (وهى هنا سماعة الهاتف التى تلقى بها لولا إلى سماء الغرفة بعد أن تتلقى خبر ورطة صديقها المغفل)، ورغم أننا نلتقى نفس الأشخاص فى كل حكاية، إلا أن نوع الاختيار الصغير أو الكبير الذى مارسته لولا وبدرجة أقل صديقها الأخرق مانى فى كل مرة، هو الذى يحدد المسار حتى نهاية الحكاية.

وبنفس المقدار تثيرنا فكرة عرض تصورات المخرج ، فى فلاشات خاطفة لثوان، لمصائر ثلاث شخصيات لا أهمية لها على هامش كل دورة من الأشواط الثلاثة، وهى فكرة تشبه زخرفة على الإطار المحيط باللوحة الأصلية كتأكيد بصرى: «ماذا لو؟».

مسابقة بلا لوائح

بقدر الأهمية الفكرية لفيلمه وربما تزيد، يجعل تيكفير من فيلمه احتفالية

بالسينما، فلولا يكاد يكون فيلما عن الوسيط البصرى الصوتى ذاته، وكأن السينما هنا هى مسابقة بلا لوائح داخلية أو خارجية .. فضاء فنى يمكن لأى وسيط آخر أن يقتحمه لتحقيق تناغم فنى منشود على الشاشة ،دون أن تنقطع محاولات تيكفير السيطرة على الزمن السينمائى بإبداع شكل يحاصر فيه الزمن الواقعى من أجل التحكم فى تأثير حكايته.

فهناك لقطة قسم فيها تيكفير الشاشة إلى مربعين تجرى فى القسم الأول منهما لولا فى محاولتها لأن توقف مانى عن حماقة أخرى وهى سرقة مسلحة لسوبر ماركت للحصول على المبلغ المطلوب، وفى المربع الثانى نرى مانى يهم بفعل ذلك. ولم يكتف تيكفير بهذا بل مد تحت القسمين مستطيلا مسيطراً حاكما على الكادر بأكمله هو لقطة لساعة عملاقة بعقاربها التى توشك على أن تتلاقى عند نقطة الصفر، موعد تسليم المبلغ لرجل العصابة وإلا...! موعد نهاية المباراة فى تمام الثانية عشرة ظهرا.

وهذا أسلوب يكشف عن مدى حضور الصورة عند المخرج تيكفير الذى صرح ذات مرة «بأن البداية عندى تكون دائما من صورة، تدخل صورة ما مخيلتى وما تلبث رغبتى أن تشتعل فى تحريكها، وقد تخيلت هنا صورة فتاة تجرى فى شوارع برلين مثل لولا وعكفت على تطويرها لكى أكتب وأصنع فيلما حولها .. وأعتقد أن فكرة صناعة فيلم فياض بالحيوية هى دافع أولى لدى صناع الأفلام. ومن هنا تأتى شعبية أفلام الحركة لأنها تتقاطع مع الإحساس بالسرعة.

وحينا فى كبسولة الزمن

يفيض مخزون الصفات السلبية لدى مذيع الطقس الشهير فيل كونورز (بيل مرى) فى فيلم هارولد راميس الأمريكى «يوم السنجاب» ١٩٩٣.

فهو مداح نفسه ، مغرور، أنانى ويفتقر إلى الإحساس، متعجرف، واهم لايعرف ذاته ولايقدر حجم نفسه! هو باختصار كوب فارغ، وجعجعة بلا طحن!.

وإذا قلبنا الأمر على هذا الوجه أو ذاك فربما اكتشفنا مدى حاجتنا إلى معرفة ذواتنا لكى نتعلم كيف نحبها حقا، والأهم كيف نتطلع إلى «الداخل» أولا قبل أن نلوم «الخارج» - العالم الخارجى - على الشقاء أو الألم أو التجارب غير السعيدة التى نمر بها معه.

ورغم أن فيلم «يوم السنجاب» من إنتاج استوديو هوليوودى إلا أن فكرته وبناءه تجريبيان تماما.

فهذا فيل كونورز مذيع الطقس الشهير فى نشرة الأخبار التليفزيونية يكلف للعام الرابع على التوالى بتغطية المهرجان السنوى ليوم السنجاب، ويوم السنجاب له علاقة وثيقة بالطقس! ففى الثانى من فبراير من كل عام يخرج فى الصباح الباكر سكان مدينة بنستونى فى ضواحى فيلادلفيا الأمريكية إلى منطقة يحتفظون فيها بسنجاب! وفى حفل طقوسى يتكرر كل عام منذ العام ١٨٨٦

يفتح باب الجحر الصغير ليخرج السنجاب. فإذا كانت السماء صافية ورأى السنجاب ظله فسيعود من تلقاء ذاته الى جحره، وهو ما يعني أن هناك ستة أسابيع من الطقس السيىء! أما إذا كان اليوم غائما فلن يرى السنجاب ظله، وهو ما يعني ان بشائر الربيع قد هلت. وهنا سينطلق السنجاب ليلعب فوق الأرض.

ويطلق أهل المدينة على بطلهم التاريخي الشهير اسم فيل، وهو نفسه اسم بطل فيلمنا فيل كونورز، الكاره للبشر ولمهمة تغطية أخبار «فأر الطقس» هذا، كما أطلق عليه!

ما إن أدى فيل مهمته ساخرا كعادته، حتى سارع إلى الهروب من تلك المدينة الصغيرة ! ولكن عاصفة ثلجية تضطره إلى الانكفاء عائدا إلى فندقه في بنستوني!

ليلة وتمر!

ويستيقظ فيل في تمام السادسة صباحا كما استيقظ أمس على إيقاع أغنية للثنائي سوني وشير «أمسكت بك يا حلو»! ويستغرب فيل من التكرار! ويتعاظم استغرابه حين ينزل إلى بهو الفندق ليكتشف أن أحداث الامس تتكررا وفي الشارع يلتقي نفس الأشخاص ونفس السيارات ونفس الشحاذين ونفس الحيوانات الأليفة! وهم يفعلون ما فعلوه بالأمس! المؤسف أن أحدا من فريق المحطة لا يهتم بما يجرى له لأن شهرته تسبقه: فهو لا يهتم إلاّ بنفسه!

وفي اليوم التالي تتكرر نفس الأحداث! ويبدأ أن فيل كونورز قد نفى من الحياة العادية قسرا لكي يكتشف انه منفي من نفسه!

كان الرجل بحاجة إلى أن يوضع في كبسولة زمنية مغلقة بإحكام بين السادسة صباحا والسادسة صباحاً من اليوم التالي .، تدور دورتها المحتومة رغم أنفه ورغم كل محاولات الانتحار والهروب المتلاحقة! وكلما تخيل أنه تقدم خطوة بعيدا عن الكبسولة يعود إليها مع دقات الساعة السادسة صباحا وعلى إيقاع أغنية شير وسوني «أمسكت بك يا حلو!!».

لا مهرب إذن ! إلا إلى الداخل لكي ينظر داخل نفسه ويعيد التعرف إلى ذاته من جديد. ففي أطول يوم في حياته لن يأتي الغد أبدا، ما لم يغير ما بنفسه لتتغير علاقته بالعالم من حوله.

فكرة رائعة صيغت في بناء تجريبي يقوم على إعادة سرد الأحداث مع رصد لتحولات البطل التي بدأت من حالة الإحباط الكامل من وقوع أي تغيير في أحداث هذه الكبسولة الزمنية مهما فعل! هل أنا رجل نصف الكوب الملآن أم نصف الكوب الفارغ؟ هكذا ظل يردد رجل النصف الفارغ هذا في سعيه نحو الخروج من النمط السلوكي الذي حبس نفسه فيه طيلة حياته! ويختار البطل المعاصر أن يتغير حين يساعد متشرداً عجوزاً، كان يتجاهله تماما في يومه السابق وحين يكون إيجابيا مع مدرسة بيانو، وحين يتعلم حرفا جديدة كأن ينحت تماثيل ثلجية، والأهم حين يستخدم معرفته، بخبرة اليوم المتكرر، أن طفلا سيسقط من

فوق شجرة فى ساعة محددة، فيسارع إلى انقاذه!

بل إنه يتعرف من جديد على منتجة برنامجه التى كان يتعالى عليها ليكتشف فيها حبا يحتاجه. عبر وقائع هذه التجربة المعملية فى حياته، يصل فيل الإيجابى مع الحياة الآن إلى أن يحدث مشاهديه من أمام مكان الاحتفال بلغة لم يعهدها من قبل:

«حينما رأى تشيكوف الشتاء الطويل، كان يرى فيه الجهامة والظلام وافتقاد الامل. ومع ذلك فإننا نعلم أن الشتاء هو مجرد خطوة أخرى فى دورة الحياة. ولكننى هنا الآن وانا واقف بين سكان بنستونى متمتعا بحرارة دفء بيوتهم وقلوبهم، لا يمكننى إلا أن أتخيل طقسا أفضل من شتاء براق طويل».

يا له من تغير وياله من تجربة مذهلة بصحبة بيل مرى الممثل الكوميدى الممتاز الذى حافظ على خيط رفيع دقيق أمسك به هو وحده، مع النص الممتاز، بين حالة فيل الأولى الكارهة للبشر والعاشقة للذات على نحو سلبى، وبين حالته الأخيرة المحبة للبشر وللنفس على نحو إيجابى حين أدرك أن فى اليوم الواحد مخزونا هائلا من القبول والإبداع يماثل ما فى داخل نفسه من ثروات!

حينذاك عاش فيل يومه الصحيح الكامل فى يوم السنجاب!!

ورقة الفن الساحرة!

لم يحدث لى، ولا حتى طاف بخاطرى ان أسأل نفسى، ولو لمرة واحدة، السؤال التالى: من أين جاءت هذه الورقة المالية وإلى أين ستمضى؟! لابد ان تكون قد شهدت قصصا وحكايات!! وأيما كان صاحب السؤال. فهو إنسان ذو خيال خصب ومثير ولعله أضاف أسئلة أخرى لذلك السؤال الجوهرى من عينة: ماذا لو تسللت برفقة هذه الورقة لأتعرف على حيوات من وقعت فى أياديهم؟ ماذا سيحدث إذا رأيت بعض حكايات هؤلاء تتقاطع من بعض حكايات أولئك بسبب هذه الورقة؟! وهل يمكن ان تصلح هذه الحكايات موضوعا لقصة او لسيناريو فيلم؟! هذه هى نوعية الأسئلة التى طافت بخيال خصب لكاتب سيناريو أمريكى اسمه اندريه بوهيم قبل حوالى سبعين عاما!!

فى عام ١٩٢٣ بدأ الشاب أندريه فى كتابة سيناريو يجسد ما تخيله من رحلة ورقة نقدية قيمتها عشرون دولاراً بين ميلادها ومماتها. وفى عام ١٩٣٥ أنجز السيناريو لفيلم Twenty Bucks.

وطرق أول باب صادفه من أبواب استوديوهات هوليوود ، وكان مترو جولدوين ماير، وهو على يقين من أن مدير الإنتاج بالاستوديو سيقفز من الفرح بعد الإطلاع على فكرة هذا السيناريو المبتكرة تماما! ولكن مصيرا كمصير ورقة العشرين دولاراً كان ينتظره بشوق عند المنعطف!! فقد تناقلت السيناريو أياد كل مديرى الانتاج فى هوليوود .. من الاستوديوهات الكبيرة حتى شركات

الانتاج الصغيرة! ولكن لا أحد تحمس لانتاج السيناريو فى فيلم لأن الفكرة ببساطة كانت مبتكرة إلى حد الغرابة فى هوليوود الثلاثينات! فبناء سيناريوهات الافلام وقتها كان يقوم فى الغالبية الساحقة على حكاية حب تتخللها عقبات على أية خلفية ماشئت ضعها. اجتماعية معاصرة.. تاريخية.. حربية.. أو بوليسية أو غير ذلك. وفى أى قالب أردت.. درامى او كوميدى او بين بين! وكان هذا هو كل ما هنالك! فمن سيقبل من هؤلاء المنتجين المغامرة بمنح البطولة لورقة بعشرين فى شكل تجريبى غير مألوف للمشاهد؟!

انتهي المطاف بالسيناريو الى رف مهجور فى منزل الكاتب. ظل التراب ينهال عليه لحوالى ستين عاما (!) الى ان نفض الكاتب أندريه عنه الغبار وأعطاه لولده ليزلى ليقرأه. ووقع الابن فى غرام القصة وقرر أن يعيد كتابتها بهدف إضافة لمسات عصرية لها ! فما كان منه إلا ان أدخل نفسه فى سباق ماراثون لتحديث السيناريو الذى كتبه الوالد، ليترك فى النسخة النهائية قليلا من المشاهد الأصلية التى كتبها الأب محتفظا بالفكرة الأساسية بالطبع. وهكذا ولد السيناريو كنتاج للتفاعل بين مخيلتين ابداعيتين، الأب أندريه والابن ليزلى.

وبعزيمة متجددة انطلق الابن فى هوليوود مطلع التسعينات التى أصبحت أكثر تقبلا للأفكار التجريبية المغامرة، وما ان طرق باب اول استوديو صادفه حتى اعجب مدير الانتاج فيه بالسيناريو حتى أن الاستوديو قرر استخدام ممثلين لهم اسماء رغم ان ميزانية الفيلم لم تتعد ستة ملايين دولار فى عام ١٩٩٣.

معنى ان تنتقل الورقة النقدية من يد الى يد فى عمل درامى هو ان الباب الروائى مفتوح هنا على مصراعيه لجميع الاحتمالات. وأن «للصدفة» دورا فعالا فى بناء هذه الدراما. والمصادفة نقيصة فى البناء الدرامى التقليدى اذ لابد ان يتطور الحدث الدرامى من تلقاء ذاته اعتمادا على عوامل داخلية خالصة. أما فى الميلودراما (القائمة بطبيعتها على المبالغة الانفعالية) وفى الكوميديا فإن استخدام الكاتب للمصادفة مقبول ومبرر، لاننا نشاهد كوميديا فى النهاية. ولكن الكاتب ليزلى بوهيم والمخرج الوثائقى كيفا روزنلفلد، فى أول افلامه الروائية، اتفقا على ان استخدام المصادفة هنا نابع من القصة التى تدور حول انتقال عشوائى، فى معظم الاحيان، لورقة نقدية من يد الى أخرى، وانه من الضرورى ان تتداخل القصص المنسوجة حول الورقة وتتقاطع بحيث لا تبدو مجموعة من قصص قصيرة تم تجميعها فى فيلم واحد. ولذا سنجد ترابطا دراميا مقنعا بين اكثر من حكاية قصيرة من حكايات الفيلم! وهكذا فإن استخدام عنصر المصادفة فى الدراما الجادة يؤثر سلبا على مصداقية الدراما لدى المشاهد، فى حين أن توظيف عنصر المصادفة فى الكوميديا يمثل بالتأكيد قوة دعم رئيسية لها!

كتبت الناقدة ريتا كيمبلي في الواشنطن بوست تقول: إنه برغم ان السيناريو ظل على الرف لنحو ستين عاما منذ عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٩٣ الا ان ورقة العشرين لم تحتفظ بقيمتها وحسب بل ارتفعت قوتها الشرائية. فهذا الفيلم غير المألوف يذكر البشر من ذوي العقول المغرقة في حبها للمال، أن المال قد يستطيع أن يجعل العالم يدور ويدور، ولكن أروع الأشياء في الحياة، وهنالك الكثير منها، لاتزال مجانية للجميع، ويعجز المال حتما عن شرائها.

كتب أحد المشاهدين تعليقا على الفيلم قال: «اذا كنتم تشاهدون الفيلم لانكم تحبون واحدا من ممثليه فسيخيب املكم! فلا يوجد ممثل واحد في هذا الفيلم يأخذ حيزا اكبر من الآخرين. وإن كان ممتعا مشاهدة الجميع. لكن اذا كنتم تريدون مشاهدة فيلم يختلف كثيرا عن افلام هوليوود التقليدية الشائعة، فهذا عمل مكتمل الأركان تماما!

أحد أهم عناصر الجاذبية في هذه التجربة الفيلمية هو الخيال الذي انجب فكرته! فمجرد متابعة رحلة الورقة من يد لأخرى دون أن يعلم المشاهد اليد التالية التي ستنتقل اليها، وأي جانب من جوانب الشخصية صاحبة اليد سيقدر له أن يراه الآن، يجعل من مشاهدة الفيلم كتجربة مفتوحة النهايات عملية ممتعة لا تنتهي بمجرد انتهاء المقطع الذي يدور فيه هذا الحدث او ذاك. ولهذا بني الفيلم بناء تجريبيا على خلاف الغالبية الساحقة من الافلام على الرغم من ان البداية تتطور الى وسط وعقدة وحل لحكايات ابطالها من البشر. فما يعنينا هنا هو حكاية الورقة «البطلة» مع إضاءات مختارة من الحيوات التي صادفتها في رحلتها.

ولعلنا كمشاهدين خرجنا بخلاصات مفادها ان الحياة اعجوبة وهي مغلفة بذلك القدر الهائل من الغموض! وإننا بهذا يجب ان نعترف بأن قدرتنا محدودة للغاية إزاء العوامل القدرية المفاجئة التي يمكن ان تغير من اي سيناريو نضعه لحياتنا في أية لحظة.. حتى حين نتصور اننا قادرون على تقرير مصائرنا.. فهذه الورقة النقدية المغموسة في القهوة والدم وأحشاء السمك والمذيلة بعبارة حب، هي دليل متحرك على هذا حين تدخل «حياتها» شخصيات وتخرج، ثم تعاود الظهور في ظروف جديدة حين تتقاطع مساراتها أمام «عيني» الورقة التي قد تعني رمزا عند البعض، وفاصلا عند البعض الاخر بين الحياة والموت!

وهنا يأتي اسلوب الاخراج الرشيق، في توافق مع حيوية هذه الفكرة متشبعا تماما بمدرسة المخرجين الأمريكيين الموهوبين روبرت التمان ومارتن سكورسيزي القائمة على المغامرة بالأفكار والتجريب في دنيا الاشكال الجديدة في إطار من التعبير الإبداعي عن حالات انسانية.

ألم تكن هذه دوما هي حياة الفن وغايته؟ ■

التكوين

التفوق بالنسبة لي هدف لا أستطيع التخلي عنه.

صلاح فضل

استعرض د. صلاح فضل فى عدد الهلال الماضى بعضا من عناصر تكوينه ، فآلمنا بمشاهد يتمه صغيراً لم يتجاوز الرابعة ، يرى الأطفال بحوزة آبائهم ، وشد انتباهنا بالتماعه العلمى وانفراده بالمركز الأول ، طوال اختلافه إلى المعهد الثانوى الأزهرى ، وتركنا فى مساجد القاهرة الأثرية بحى المغربلين ، حيث كان مكانه المفضل ، لمدارسة مقررات كلية دار العلوم ، ليعود فى هذا العدد ويستكمل معنا الرحلة ..

عندما جئت إلى القاهرة ، وأخذت أتردد على منتدياتها الأدبية أخذ يتكون لدى نوع من الوعى المضاد تجاه قراءاتى الأولى ، ومن إعادة النظر فى الهالة ، التى كنت أضفيها على أشخاصى المحبوبين ، فى تلك القراءات. وأخذت أكتشف على وجه التحديد طريقة الشعراء المحدثين ، والروائيين المحدثين ، والثقافة المدنية . وأكثر ما ساعدنى على اكتشاف الثقافة المدنية ، ثم عن طريق صدفة بحتة ، أنا أدين لهذه الصدفة بجزء أساسى فى تكوينى .

كان عمى الأستاذ عبد الغنى رحمه الله قد دخل كلية الحقوق وكان فى السنة الثانية عندما انتقلت إلى القاهرة: وكان يحب أن يتكئ على الأريكة بحجرة «الجنابكية» ويغمض عينيه ، وأن أقرأ له







صلاح فضل وحسين فوزي وتوفيق الحكيم وحسين مؤنس فى مؤتمر المسرح بمدريد ١٩٨٣

مقررات كلية الحقوق ، ويتلقاها بالسمع بدلا من أن يتعب نفسه فى القراءة .. ولأن دراستى الأزهرية ، كانت عبارة عن تكرارات لا تنتهى ، فى حلقات مفرغة المواد ذاتها من عام إلى آخر ، فلم تكن تقتضى منى أى مجهود .

شغب وممنوعات

وكان المدرسون ، وهذا هو الطريف يشترون صمتى ، بمعنى أننى كنت شديد الشغب عليهم ، لأننى أطرح الأسئلة الممنوعة ، والمحرمة ، وأحاول أن أحرجهم وأبحث لهم فى قراءاتى فى المراجع المعمقة التى نمتلكها فى البيت بحكم المكتبة الأزهرية المتوفرة لدينا .. بعض المسائل لكى أطرحها عليهم ، وأستمتع وهم يتحيرون فى الإجابة عليها ، بينما أكتم ضحكى لأننى أعرف الإجابة الصحيحة التى لا يستطيع المدرسون الإجابة بها ولايستطيع التشدد معى، أن يجعلنى أكف عن هذه المعابثات الصبيانية الظريفة ، إلا أن يتوددوا إلىّ ، ونصبح أصدقاء ، ونعقد اتفاقا وديا ، أنه لا إحراج بينى وبين كثير من الأساتذة .

كانت عادة العم هذه ، بدأت أقرأ له جميع مقررات كلية الحقوق ، فى القانون المدنى ، فى الجنائى ، فى الاقتصاد ، فى نظريات الالتزام ، فى الدستورى ، فى الدولى .. وأنا مازلت فى المرحلة الثانوية .

وكنت ليس مجرد قارئ مثل قارئ المكفوفين ، يتلو شيئاً دون أن يفهمه ، بل أحاول أن أناقشه فيما أقرأ ، حتى إذا جاء وقت الامتحان ودخل الامتحان ، وعاد إلىّ بالورقة الخاصة بالأسئلة ، كنت أقول له ، كان يمكن أن تجيب عن هذا السؤال بكذا وكذا ، وتجيب عن هذا السؤال بكذا وكذا ، فيضحك عمى ويقول لى : ليتك كنت قد ذهبت إلى الامتحان بدلا منى .

هاجس التفوق فى الجامعة !

وعندما دخلت كلية دار العلوم ، كانت هذه القاعدة القانونية هى المتكأ ، الذى

أعتمد عليه كي أستشرف نوعا آخر من الدراسات على مجموعة من عمالقة الفكر اللغوى والأدبى والنقدى فى مصر .

ولم أكن أكتفى بأساتذتى فى دار العلوم ، بل كنت أذهب إلى كلية الآداب، أحاول أن أسترق السمع إلى محاضرات طـه حسين ، ومحـاضـرات الشـيـخ أمين الخولى ، ومحاضرات بعض الأسـاتذة الآخرين ممن أقـرأ لهم وأسمع عنهم ، وأريد أن أراهم .

كان هاجس التفوق يمثل بالنسبة لى كابوساً مخيفاً ، لأنه ورطة لا أستطيع التخلص منها ، وكنت أشبه بالأسير الذى وضع فى القفص ، ولا مفر له من أن يكمل هذا الأمر ، لكن فى تلك الفترة فى المرحلة الجامعية ، أتيح لى أن أشهد نماذج من ثقافتين متعارضتين تماماً ، ومتقابلتين ، إحداهما ثقافة عصرية من أساتذتى الذين درسوا فى الجامعات الغربية ، وتسلحوا بأقوى أسلحة العلم والمعرفة الحديثة فى اللغة والفلسفة والأدب والنقد ، وعرفوا منطق العالم فى الفكر ، وإنجازات العصر فى المعرفة والتطورات العلمية التى حدثت فى هذه العلوم .

هؤلاء يمثلون جانبا هو الذى يعتبر القدوة والمثال ، والنموذج الأكثر توهجا بين الأساتذة ، إلى جانب مجموعة أخرى من الأساتذة ، الذين اكتفوا بالدراسة المحلية فى الوطن ولا يتقنون اللغة الأجنبية ، ولا يعرفون شيئاً عن طريقة تفكير العالم، ولا عن تطورات العلم ، وهؤلاء غالبا ما كانوا يثيرون إشفاقى وسخريتى ، وكنت أكفكف جماحى ، كى لا أصطدم بهم ، وكى لا أكشف ما أجده من عوراتهم العلمية .

لكن سبب لى هذا مأزقا حقيقياً ، إذ ترسب لدى عبر سنوات التعليم الجامعى يقين جازم ، بأنه لامستقبل لى ، ولا سبيل إلى تحقيق طموحى والإمساك بحلمى الذى يبدو لى كنجم فى السماء ، أحاول أن أقبض عليه بيدى ، إلا أن أطير إلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط ، وأن آخذ بأسباب العلم والمنهج ، والتقدم العلمى فى جامعات هذه البلاد .

فى تلك الفترة شبت فى مصر أزمة اقتصادية فى منتصف الستينيات ، وبالرغم من أننى تخرجت بالدرجة التى ألفتها وهى الامتياز مع مرتبة الشرف ، وعينت معيدا ، إلا أننى قاسيت واحدة أيضاً من أعنف التجارب التى مررت بها فى تلك الآونة .

كان ذلك يتمثل على وجه التحديد فى مسألة بالغة البساطة لكنها حاسمة فى تقرير مستقبلى .

كان عميد الكلية فى تلك الفترة واحدا من أكبر علماء اللغة والفكر اللغوى فى الوطن العربى ، وهو الدكتور ابراهيم أنيس ، فاستدعانى إلى مكتبه ، وقال لى سأعينك معيداً مع مجموعة من زملائك ، لكننى سأقيدك للدراسات اللغوية .

قلت له يا سيدى أشكرك وأقدر تماماً حرصك على وكرمك ، لكننى سوف أتخصص فى النقد ، لأننى وهبت نفسى ، ودبرت أمورى ، ورتبت كيانى العلمى والمعرفى على أن أمارس النقد الأدبى .

قال لى : هذه أحلام الشباب ، الذين يفتنون بالصحافة وبالإذاعة ، وما جد حينئذ من تليفزيون ، لكن عقليتك علمية ومنظمة ، وقد اخترتك ، ولا سبيل إلى مراجعة ذلك .

قلت له : أنت كعميد ، وأنا أيضاً لا أستطيع أن أتخلى عن عملى كمعيد ، لأن

هذا مصدر رزقى ، وسوف أقبل الوظيفة ، لكن أعدك أننى سأهرب منك فى أقرب فرصة ، لأننى لن أستمر فى الدراسات اللغوية .

أسلمنى إلى استاذ عبقرى هو الدكتور عبد الرحمن أيوب ، وكان عبد الرحمن أيوب ، قد استحدث فى كلية دار العلوم معملا للصوتيات ، فقيدنى على قوة معمل معيد ، مشرفا على معمل الصوتيات ، يعنى أبعد ما يكون عن الأدب والنقد ، لكى أتعامل مع أجهزة ، ومع اختبارات صوتية بحكم الوظيفة ، ورضيت بذلك ، مضمرا أن أهرب إلى الأدب وإلى النقد فى أقرب فرصة للدراسة .

زاد الطين بلة فى تلك الفترة أن تغير العميد ، بعد أن كنت قد عينت ولا سبيل إلى مراجعة ذلك ، وكنت قد سجلت رسالتى الماجستير بإشراف الدكتور إبراهيم أنيس ، ووكلت فيها كى أختار موضوعا قريبا من الدراسات الأدبية .

قلت له إن ولعى بالأدب وبالنقد ، لن يتركنى أمارس دراسة لغوية بحتة ولا أريد أن أدرس شيئاً بين اللغة والأدب . فتسامح معى ، وأذن لى بأن أسجل موضوع الرسالة عن «نظام الجملة فى اللغة العربية» . كنت أضمر فى نفسى أن أركز دراستى على نظام الجملة الشعرية ، وبهذا أكون قد دخلت باب النقد من مدخل الدراسات اللغوية .

ابتسم مدركا ما أسعى إليه من تحايل ، كى أنفذ إلى دراسة الأدب وأذن لى بذلك ، وكان من العلم والخلق ، بحيث ارتضى أن أسجل معه .

عندما جاء العميد الجديد ، كانت بينه وبين العميد القديم بعض الإحن والخلافات الشخصية ، فأوقف تسجيل موضوعى ، واستدعانى إليه لكى أغير المشرف ، لأنه لا



د. صلاح فضل مع ابنيه نهلة وأيمن في باريس

يريد للعميد القديم أن يظفر بالإشراف على المعيدين ، ووجدت أن ذلك ، مع أننى كنت رافضا للعمل بقسم اللغويات ، مخالف لما استشعره من ولاء أخلاقى، فرفضت الامتثال لتعليمات العميد الجديد ، وظل موضوعى معلقا ، ووضعى فى الكلية معلقا ، إلى أن حدث شئ طريف جداً فى هذه الفترة، كان يتصل بأستاذى الأقرب والنموذج المثالى الذى احتذى به فى تلك الفترة ، وهو المرحوم الدكتور محمد غنيمى هلال .

تقدم د. غنيمى هلال للحصول على كرسى الأستاذية ، وغنيمى هلال كان أعلى ذروة وصل إليها الفكر النقدى فى الأدب المقارن ، وفى الدراسات النقدية ، لا فى الجامعات المصرية ، وإنما فى الجامعات العربية كلها فى تلك الفترة ، وكان إنتاجه الغزير وعلمه الذى مازالت الأجيال تنهل منه

، يضرب به المثل فى الإتقان والإلمام والعمق ، والكفاءة ، لكن لجنة الترقية للأساتذة ، آثرت منافسه وكان شئ من الشيوخ الأجلاء ، من الدارسين التقليديين الذين لا يضيفون شيئاً إلى المعرفة ، وأعطته الكرسى.

غضب غنيمى هلال غضبا شديداً، وأقسم أن يهجر جامعة القاهرة ، وتزامن ذلك مع مشروع عبد الناصر لتطوير جامعة الأزهر ، فعرض عليه الانتقال للعمل بكلية اللغة العربية فى الأزهر ، فذهب غضبا وحنقا على جامعة القاهرة ليعمل فى الأزهر

وأخذ يضع الخطط للنهوض بجامعة الأزهر ، ومن هذه الخطط إرسال البعثات ، وأعلن عام ١٩٦٥ عن بعثة لدراسة النقد الأدبى فى فرنسا .

حلم العمر !

تقدم كل معيدى أقسام اللغة العربية بكليات الآداب للحصول على هذه البعثة ، التى كانت لحساب جامعة الأزهر .

قانون البعثات كان صارما حينئذ ، وحدد بوضوح قاعدة الأفضلية ، كان يفضل الأعلى تقديرا ، فإذا تساويا فى التقديرات ، فالأفضل سنا ، وبكل المقاييس رشحت أنا ، مرشحا مصريا لهذه البعثة ، وأخذت أستعد لتحقيق حلم العمر ، فى السفر إلى باريس لدراسة النقد الأدبى ، نفس الطريق الذى مر به أستاذى غنيمى هلال ، ومن قبل محمد مندور ، ومن قبلهما طه حسين وتوفيق الحكيم إلى آخر السلسلة الذهبية من عشاق باريس .. مدينة النور ، ونور المدائن كما كان يسميها طه حسين .

أخذت أستعد ، وإذا ببرقية مفاجئة من البعثات تستدعينى للحضور ، لتقول لى : أن الضائقة المتصلة بالعملات الصعبة فى الدولة كانت وزارة على صبرى ، قد تولت الحكومة حينئذ ، قد أدت إلى قرار إلغاء البعثات .. ماذا نفعل فى مستقبلنا إذن ؟ ...

قيل لى .. إذهب إلى السفارة الإسبانية ، ولأن الإسبان لا يتوقع أن يعرف أحد لغتهم قبل أن يذهب إليهم ، فلم يسألونى عما إذا كنت أتقن الإسبانية أم لا ! وقبلونى على منحة .

تصادف فى تلك الآونة على وجه التحديد ، فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٦٥ أن كان لى بعض الأصدقاء ، وجمعتهم فى منزلى المتواضع فى المعادى ، وكنت حديث الزواج برفيقتى وزميلة عمرى ، التى سعيت للتعيين فى الكلية حتى استطيع الزواج منها ، وقبلت قسما غير قسمى لكى أتقدم وأنا موظف معيد فى الجامعة ذو مستقبل ، فلا يستطيع أهلها أن يرفضونى .

دعيت فى منزلى مجموعة من الأصدقاء حينئذ ، كان منهم ثلاث شخصيات أحدهم أصبح الآن وبعد ذلك من كبار الدعاة الإسلاميين ، والآخران من كبار اليسار ، وسهرنا سهرة فى البلكونة ، وتناقشنا فى كل شئ وفى الأسبوع التالى قبض على ضيوفى الثلاثة ، إما بتهمة الانتماء للأخوان المسلمين ، أو للتنظيمات الشيوعية !

أخذت أنتظر متى سيقبض على أنا بدورى ، لأنها كانت فترة عصيبة!

سعيت بكل طاقتى لكى أجرى إجراءات الحصول على المنحة الإسبانية والسفر ، وقلت لزوجتى التى كانت مدرسة فى التربية والتعليم، استكملى إجراءاتك ، وسأسبقك إلى الإسكندرية ، فإذا أدركتنى سافرت معى

على نفس الباخرة ، وإذا سبقتك إلحقيني في الباخرة التالية ، حتى أستطيع النفاذ بجلدي قبل أن أجد نفسي في اليوم التالي في السجن ، إما بتهمة الانتماء للأخوان المسلمين ، أو للتنظيمات الشيوعية ، مع أنني لم أكن أنتمي إلى أحدهما ، لكن من الذي كان يدري أن تسهر مع شاب زميلك ، ثم يقبض عليه في الأسبوع التالي ، معنى ذلك أن الدور سيأتي عليك !

مدريد والأزمة الاقتصادية

سافرت إلى إسبانيا بالمنحة ، وكانت التعليمات أن المكتب الثقافي في مدريد سيدفع لي الفرق بين المنحة ومرتب عضو البعثة ، لأن هذا ما تستطيع الدولة أن تسهم به . وأدركتني زوجتي لحسن الحظ على الباخرة ، وكانت معنا طفلتنا الأولى وعمرها أربعة شهور ، وذهبنا إلى مدريد . وبعد وصولنا بأيام قليلة ، فاجأني الدكتور حسين مؤنس الذي كان يعمل حينئذ مستشاراً ثقافياً لمصر ، ومديراً للمعهد المصري للدراسات الإسلامية ، بأن استخرج لنا بطاقات السفر للعودة .

قلت له : لماذا يا مولاي ؟

قال : لأن الأزمة الاقتصادية تفاقمت ، والدولة لا تستطيع أن تدفع لكم فروق المرتبات .

قلت له : لن أعود وسأكتفي بالمنحة التي كانت توازي حينئذ ما قيمته خمسة آلاف بيزته أي خمسا وثلاثين جنيها مصريا .

قال : إنه من المستحيل عليك أن تعيش بمفردك بهذا المبلغ ، فضلا أن تعيش مع زوجتك وابنتك .

قلت له سأتدبر شأني .. لا شأن لك بذلك ! لكنني لن أعود ، لست ممن يتراجعون ، وكانت ملحمة من الصراع، ووقتها كان ممنوعاً التحويلات ، وكل شيء ممنوع ، لكنني استطعت بالتحدي والإصرار والعمل على أن أستمر .

بعد عامين فقط من هذا التاريخ ، كنت قد عينت في جامعة مدريد أستاذاً مساعدا للأدب العربي والترجمة ، وفرجت من أوسع الأبواب اقتصاديا ، لكنني ظللت معلقا بأن أتحول إلى باريس لأن كل من ذهبوا إلى مدريد ، قالوا اذهب لدراسة الأندلسيات ، وإسبانيا ليست الوطن الأمثل لدراسة النقد الأدبي ، ولا نعرف شيئاً عن آدابها .

أشار علي الدكتور حسين مؤنس أن أدرس موضوعا عربيا ، وأن أنتهي من الدكتوراه في عدة شهور ، وأن أحصل على اللقب وأعود ، فرفضت ، لأنني أريد أن أتكون ، أن أتعلم ، أن أتقن اللغة والثقافة .

أرسلت حوالي ثلاث مذكرات للرئيس عبد الناصر استنجد به لكي يحولني إلى الدراسة في باريس ، فكان يحيل المذكرات إلى البعثات ويردون علي بما أعرفه ، بما أشكو منه ، وكانه حوار الصم !

حدث أمران في تلك الفترة ، غيرا كثيراً من وعيي بالموقف العام .

الأمر الأول : كنت أحمل معي راديو «ترانزستور» صغير وأستمع إلى محطة لندن العربية ، وكانت النافذة الوحيدة التي أطلع معها على أخبار الوطن ، لأنني استغرقت في دراسة اللغة والثقافة والأدب والجذور الكلاسيكية الإسبانية ، حتى أستطيع أن أتمكن من الدخول إلى مجال النقد الأدبي ، فسمعت في محطة لندن في عام ١٩٦٦ . أو أول عام ١٩٦٧ أن الرئيس عبد الناصر ومصر ، كانت تمول حركة انقلابية في إحدى الدول الافريقية ، وأنه عثر على حقيبة بها خمسة ملايين جنيه استرليني ، كان قد أرسلها عبد الناصر لدعم هذه الحركة الإنقلابية الفاشلة .

ذهبت فى اليوم التالى إلى الدكتور مؤنس أسأله : كم تكلف البعثات المصرية فى الخارج ، التى ألغتها الدولة لمأزقها ، وعدم قدرتها على توفير العملات الصعبة ، فنظر إلى مستغربا ليقول : هل تريد أن تنفق على المبعوثين ، بدل إعادتهم للوطن ؟

قلت له : أريد أن أعرف فقط .

فلم يهتم بالإجابة علىّ ، لكننى استدرجته ، حتى عرفت بأن هؤلاء المبعوثين ، لا يكلفون الدولة فى العام أكثر من نصف مليون جنيه تقريبا ، وهم يمثلون المستقبل العلمى لمصر.

يعنى أن تلك الحقيبة التى ضبطت وصورت ، لم تكن مجرد تشنيع استعمارى على نظام الرئيس عبد الناصر ، كانت تكفى لسد الحاجات التعليمية لمصر ، ثمانية سنوات للمبعوثين ، يستأنفون قيادة ورفع شعلة النهضة العلمية فى مصر.

وجاءت نكسة ١٩٦٧ لتمثل القشة التى قصمت ظهر البعير ، فى إحساس بالموقف السياسى لمصر ، لا يمكن أن يقارن شعور الخزى والعار، والانقسام الداخلى العميق ، الذى يشعر به المصرى فى الخارج - بما كانوا يشعرون به فى الداخل .

كنت أستأجر شقة فى مدريد مع زميل لى يأتى من جامعة بيرو بأمريكا اللاتينية ، يدرس الدكتوراه .. الشقة مكونة من أربع حجرات لكل منا حجرتين .. اضطررت لهجر هذه الشقة ، والبحث لى ولزوجتى عن مسكن آخر صغير ، حتى لا أواجه هذا الزميل ، لأنه كان يعايرنى صباح مساء بذل الهزيمة التى منينا بها فى سنة ١٩٦٧ ، وكنت عندما يسألوننى من أين أنت ؟ أتلجلج فى الرد ، وأتردد قبل أن أقول إننى مصرى !

كان الانكسار عميقا وغادرا فى أعماق القلب، الصورة من الخارج تختلف أساساً عن الصورة من الداخل، كانت الناس تلهو بألفاظ النكسة بالنكت عليها وبغير ذلك .

لكن حدث الأمر الثانى فى هذا الصيف ذاته ٦٧ ، بعدها بقليل اشتريت من مدخراتى أول سيارة صغيرة ، أقتنيها وأقودها ، وكانت وجهتى قبل أن أذهب لمشاهدة مدن الأندلس بالسيارة ، أن أذهب إلى باريس الكعبة التى حرمت من الحج إليها .

كان لدى عنوان أحد زملائى الأعزاء ممن سبقونى فى البعثة ، قبل إلغاء البعثات ، وذهبوا إلى جامعة باريس لدراسة الأدب المقارن ، فراسلته ، وذهبت مع زوجتى لزيارته ، وأقمنا فى فندق متواضع من فنادق الطلاب ، وكنت قد بدأت أقرأ ما يترجم إلى الإسبانية من بواكير النقد الحديث ، خاصة لبارت وجاك لوسون وغيرهما من أعلام النقد الجديد فى فرنسا وفى العالم .

أخذت أسأل زميلى عن آخر كتب هؤلاء الأعلام ، وماذا قرأ منها ، فوجدته لا يعرف شيئاً على الإطلاق ، وهو يدرس فى السربون

فطنت إلى شئ بالغ البساطة والأهمية ، أن المشكلة ليست المكان ، وإنما المشكلة هى فى تطلعك ومشروعك أنت ، وما تبحث عنه ، أيا كان المكان الذى أنت فيه ، ستحقق مشروعك ، وستقهر كل الصعوبات المكانية والزمانية .

منذ تلك اللحظة رضيت عن بعثتى ، وعدت تصالحت مع مدريد ، ومع الثقافة الإسبانية ، ومع ما تتيحه لى كنافذة ، أطلع منها على كل الثقافات العالمية ، لأننى أدركت



.. مع جارسيا جومث وحرمه ، في المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد - ١٩٨٢

أن اللغات الأوروبية ينطبق عليها ما كنا ندرسه قديما فى نظرية الأوانى المستطرقة .. أن ما يصب فى خانة يسرى فى بقية الخانات .

كان هذا نهاية مأزق البعثات بالنسبة لى ، وأخذت نفسى بصعوبة بالأصعب دائما ..

كانت هناك فجوات كثيرة فى معرفتى بالثقافة الغربية ، حاولت أن أملأها ، لكن اللحظة التى أريد أن أتوقف عندها ، عندما أنتهيت من الحصول على دكتوراه الدولة ، وانتهت زوجتى من الحصول على دكتوراه الدولة ، وقررنا العودة للوطن.

كنت مضطراً بحكم قانون البعثات ، أن أذهب إلى جامعة الأزهر ، لكى أتسلم وظيفتى ، التى وفدت لحسابها ، كان قد هجرها الدكتور غنيمى هلال ، من كثرة ما لقى من مضايقات ، وذهب إلى السودان ، حيث لقى حتفه مبكرا ، ودخلت إلى عميد الكلية أقدم له نفسى .

حرب داحس والغبراء

وبدأت سنة من الحرب العصيبة بينى وبين الكلية التى أعمل بها .. بدأت حرب داحس والغبراء .. عميل من دار العلوم يعمل فى الأزهر ! .. وأخذ بعض كبار الأساتذة ، يقول فى أول مجلس قسم أحضره ، كنا نظن أن الأفعى قد انقطع دابرها بسفر غنيمى هلال إلى السودان ، لكن يبدو أن لها أذنابا مازالت تطل علينا ..

ابتسم بجوارى صديقى وأخى الأكبر وأستاذى فى الثانوية الأزهرية الشيخ أحمد الشرباصى ، وشدنى من يدى كى نذهب إلى الكافتيريا ونشرب الشاى ، ولا نستمر فى سماع مثل هذه السخافات ، لكن كانت سنة عصيبة .

توقف معادلة شهادة الدكتوراة التى حصلت عليها لسبب بسيط ، وهو أن كل من ذهب إلى إسبانيا قبلى درسوا دراسات عربية ، لم تكلفهم مجهودا بطبيعة الحال ، وقضوها فى سنوات قليلة ، لكنهم حصلوا على الدكتوراه فى التخصصات الأندلسية ، أنا ذهبت لكى أتخصص فى اللغات الرومانية ، وفى النقد الأدبى ، ولم يذهب

أحد من قبلي ليتخصص في هذا المجال .. فلابد أن تحال أوراقي للمفتي ! . والمفتي هو المجلس الأعلى للجامعات كي يفتي بصلاحيتها للمعادلة ، أو عدم صلاحيتها .

بقيت في وظيفة معيد لمدة عام كامل ، قبل أن يصدر قرار المجلس الأعلى للجامعات ، بمعادلة شهادتي للدكتوراه والتعيين في وظيفة مدرس .

وهذا العام من أشد المحن التي مرت بي ، لأنني فكرت كثيراً لأن أعود إلى مدريد في تلك الفترة ، لأكتب في مدى شهرين ، رسالة الدكتوراه في أي موضوع عربي أتقنه، وآتي لهم بشهادة في اللغة العربية ، حتى المعادلة ، حتى لا يتوقفوا عن تعييني هكذا .

لكنها كانت سلسلة من تلك الإحباطات الكبرى التي كان عليَّ أن أواجهها وظيفياً ، ولو أخذت في الاستمرار ، في ذكر هذه الإحباطات لاستغرقت التكوين كله ، لكنني أريد أن أنتشل نفسي انتشالاً ، لكي أتوقف عند أمور أخرى ، هي التي أريد أن أركز عليها .

الأمر الأول : وهو أنني عدت إلى الوطن لكي أمارس ما تصورته حلماً جميلاً ، رسالة الفكر والأدب والنقد ، لقيادة المجتمع ، وجدت أن المجتمع قد مضى في طريق لا يسمح للمثقفين بقيادته . بل يهمشهم تهميشا شديداً ، ولا يسألهم عن شئ ، ولا يتيح لهم فرصة المشاركة . فانكفأت على مادة التخصص التي أتقنتها كي أكشف عن تجليات التقدم العلمي التي حدثت فيها ، باعتبار أن هذا البناء المعرفي ، هو الإسهام الذي يمكن أن أسهم به في صناعة مستقبل أفضل لهذا الوطن.

الأمر الثاني : وجدت أن الحياة الثقافية في مصر قد أنحسر عنها ظل الشخصيات الكبرى ، العبقريات البارزة الشامخة ، مات طه حسين عام ١٩٧٣ - من قبله مات العقاد في الستينيات ، بقي الحكيم ، برز نجيب محفوظ ، تغيرت خارطة الأدب بالتأكيد .. تغيرت خارطة النقد ، وأكثر ما كان يمضي في خريطة النقد ، أن مندور قد ذهب معه بهاء النقد ، ومن بقي من النقاد العرب في مصر حينئذ ، كانوا بقايا الأيديولجيين من اليساريين والأساتذة الذين لا ينصتون إلى الايقاع الإنساني ، ولا يعرفون التقدم المنهجي ولا العلمي في النقد الأدبي .

وعندما شرعت في كتابة أول كتبي «النظرية البنائية» خشيت أن أهاجم من اليساريين ، لأنه كتاب لا يتغنى بالماركسية ، ولا يقدس الجدلية المادية ، وإنما ينقدها ، فأرفقته بكتاب آخر يستكشف الجديد في التفكير الواقعي ، والجديد في المنهج الواقعي هو منهج الواقعية ، ونشرتهما معا في عام واحد ، هو عام ١٩٧٨ ، أي منذ خمس وعشرين عاما الآن .

الآن عندما ألقي نظرة : هذه هي بداية الإنتاج والتحقق ، وأستطيع أن أعتبرها إلى حد ما ختام التكوين ، بالمعنى الدقيق لكلمة التكوين ، التي لا ينبغي أن تمتد إلى ما بعد الأربعين .. عام ١٩٧٨ كنت قد أكملت الأربعين من عمري ، ولأنها سن الرشد ، ولأنها سن النبوة ، ربما كانت السن التي بدأت فيها الكتابة النقدية .

القرآن والبلاغة العربية

ما أخذه على هذا التكوين .. نقدي لهذا التكوين بأثر رجعي .. ربما كنت مدينا ، ومن الضروري أن أقر بذلك لأثر القرآن الكريم في

تغذيتي بالبلاغة العربية ، وإتقان شعرية اللغة العربية ، لكن لا أنسى أن هذا الإتقان جاء عن طريق الحفظ، وليس عن طريق الفكر ، وأنه بقدر ما ينمي الحفظ ، ملكة اللغة لدى الإنسان ، فإنه يأتي على حساب ملكة المبادرات الخلاقة ، والإبداع الحقيقي في الفكر ، وربما كان ذلك هو الذي أحدث نوعا من التفاعل في إمكانات التكوين ، كان بعضها حافزا قويا ، وبعضها الآخر كابحا عنيفا . هذه واحدة .

الثانية : أنني بالرغم من تحقيق النموذج المتداول في المثل الشعبي : «الغزالة تغزل برجل حمار» وقد غزلت بالاسبانية ، وهي «رجل حمار» بالنسبة للغة عالمية إلى حد ما ، لكن لازلت أعتقد أن حرماني من الفرصة الطبيعية في استكمال بعثتي إلى فرنسا ، كان له تأثير عميق على مساري .

حاولت أن أتجاوزه ، لكنني أدرك نتائجه ، وأدرك أكثر من ذلك وهذا هو الممض جداً ، والمؤلم جداً ، أن هذا الحرمان لم يتوقف عليّ ، بل شمل أجيالاً بعد ذلك ، من أساتذة الأدب والنقد في الجامعات المصرية ، اكملوا دراساتهم في الداخل ، وعطلت إمكاناتهم تماما عن أن يكتمل نموهم المعرفي والمنهجي والعلمي ، في الجامعات الغربية ، بنفس النسق الذي شهدته الأجيال السابقة ، مما شل حركة التقدم العلمي في الجامعات المصرية الآن ، خاصة في العلوم الإنسانية .

ما أشهده من ضعف المستوى ، وتصور الهمة ، والزهو بالجهل ، والتبجح بأننا لسنا بحاجة إلى الغرب، ليس إلا نتيجة مباشرة لما ترتب على قرارات علي صبري سنة ١٩٦٥ من إلغاء البعثات في العلوم الإنسانية . ما يقال بعد ذلك عبر أربعين عاماً ، من أن البعثات مستمرة ، كذب فاضح ، لأننا نشهده في العلوم الانسانية لا تذهب بعثات منذ تلك الفترة ، وانقطع خط السلسلة الذهبية من العقول المصرية، التي تتهجن بالمعرفة ، وبالمنهج وتتمرس بالخبرة عبر سنوات طويلة ، في الجامعات الغربية وتعود لتقود حركة الفكر في الجامعة والمجتمع .

توقف هذا بفعل المؤسسة العسكرية والنظام الذي لا يعطي لهذا الجانب أحقيته

هي بالنسبة لي كانت مشكلة جزئية حللتها بطريقة ما ، وتجاوزتها لكن بالنسبة للأجيال التي تلت ذلك ، عوقت بشكل أساسي نمو الحركة المنهجية والعلمية في الجامعات المصرية .

لم يفلت منها إلا أفراد قلائل عصاميون ، اخترقوا حواجز اللغة ، وهم معدودون على أصابع اليد الواحدة، لكن التيار توقف ، ولا يريد أحد أن يعترف بذلك .

الأمر الثالث والأخير الذي أريد أن أطرحه : إن غلبة ما يطلق عليه المدرسة الوطنية ، في العلوم الإنسانية ، هو عجز عن الاسهام في الثقافة العالمية ، وأن الوسيلة الوحيدة لنمو الفكر الإنساني في العلوم لدينا ، هي التواصل الخلاق مع التيارات العالمية ، وأن الدعوات التي يشيعها المتكفئون على أنفسهم لتبرير عجزهم، لا يمكن أن تحقق لنا الاضطراد في التقدم .

ملاحظة شخصية أخيرة .. أشعر أن القليل الذي أسهمت به في نمو المعرفة النقدية ، ليس إلا استمراراً في النهر المتدفق العظيم ، الذي استشعر منبعه الأول ، عند رفاعة الطهطاوي مروراً بطه حسين ، حتى آخر أستاذ درس لي . ■

تطوير التعليم

أشكركم على افتتاحيتكم الحضارية المستقبلية «حول تطوير التعليم» والتى نشرت فى العدد الماضى، وهى بحق قضية الساعة ، ويجب أن تحتشد لها كل الطاقات الفكرية والعلمية والسياسية والاقتصادية والثقافة العلمية التى أشرتم إليها فى ختام هذه الافتتاحية ، والتى كرس العلامة الدكتور أحمد زكى جهده فى جعلها من نسيج الثقافة العربية ، هى أول ما يجب أن تتبناه جميع الأجهزة والمؤسسات لأنه بدون العلم الحديث ، ومتابعة آلياته وتقنياته ، سنظل فى دائرة الاستهلاك والتبعية والتخلف .

وإننى أتساءل معكم .. ما العمل ؟! .. وهذا السؤال المصيرى يعد بداية للعمل الجاد .

ومجلة الهلال من المنابر الرائدة المؤثرة فى وجدان المثقفين والهيئات العلمية ، وحينما تتبنى هذا التوجه الحضارى ، ستتمكن مع جهود الهيئات الأخرى من إرساء قواعد العلوم ، ومعالجة الثقافة العلمية ونشرها فى أوساط المفكرين والمثقفين ؛ وهذا عبء حضارى أرى أن الهلال جديرة به وقديرة على تحمله والقيام به.

د. صابر عبدالدايم
وكيل كلية اللغة العربية - الزقازيق

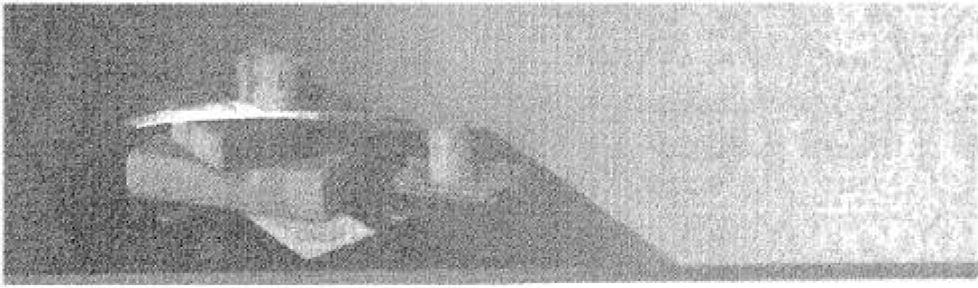
الهلال : شكرا على ما جاء بهذه الرسالة التى نعتز بما تضمنته ولايمكن أن نؤدى هذا الدور إلا بمساعدة المثقفين ، وجهودهم ، كما على الهيئات العلمية والثقافية أن توفر المناخ المناسب للارتقاء بالثقافة فى كل مجالاتها وميادينها المختلفة ، ونرحب بالآراء السديدة فى هذه القضية المهمة «تطوير التعليم».

إلى كل من يقول: أنا مصرى

الشاعر سليم الرافعي طرابلس - لبنان

(في البدء كانت مصر .. فيا أيها الأحرار .. إن شعوركم بأزلية وطنكم دعاكم إلي التفكير في تكوين حزب يحمل اسم مصر .. فليشهد العالم أن الحقيقة لاتتبرج بزينتها ولكنها تحيا في صمت القدرة) .

إن تقلهـا .. فـأنت حـر كـريم ... (أنا من مـصـر) والخلود نديم
حارت الأرض .. مادت الأرض .. فاسمع ... صـعـقـات الأهرام .. وهي تقوم
جـرحـهـا فى سموه سال عشقا ... إن جـرح العشاق شأن عظيم



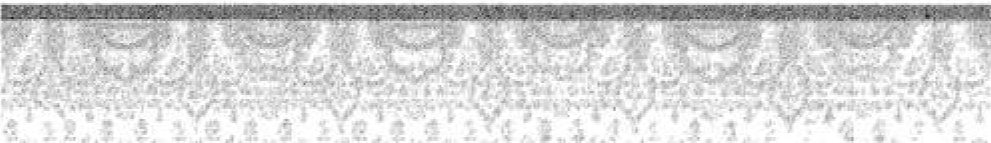
المحاريب من دم تتجلى
شيد اللغز هيكلا عبقريا
قل لمن يسمع التراتيل : إني
يلثم النيل أرضها لايبالى
قطرات يحملن شعبا جديدا
فاغرفوا منه حين يجرى شفاها
الفراعين منه آية رب
والجيوش التى أثارت غبارا
وقفة مصر فى الجبال تراءت
يا طيور الوجدان فوق الصحارى
تترامى الكؤوس فى مصر .. لكن
وإذا أحيت العصور علوما
ومضة فى الرؤى .. فكل انتماء
إن تقلها .. فإنها كلمات

نبض الصخر .. فالصخور كلوم
أيها الطين .. أيها الترنيم!
مغرم بالمكونات أهيم
وطىء الأرض واغل أم صميم
غاص فيه من مصر روح قديم
باسمه السرمدى تحكى الفهوم
أزلى الإلهام ليس يريم
سحقتها الأهرام .. فهى رميم
كيف تعلو النسور .. كيف تحوم؟
سمع الليل شجوها والنجوم
كأسها (النيل) شعشعته الكروم
فهى (مصر) التى إليها العلوم
لسواها فى العالمين ذميم
قالها المجد والجلال الحكيم

نور الدمرداش ..
وبداية المسرح بالإسكندرية

فى باب أنت والهلال وفى عدد يناير الماضى نشرتم لى لمحة سريعة عن بعض الذين اسهموا فى تنمية المسرح الجاد بجامعة الاسكندرية ، وشكرا لأنكم قد نشرتم ما أمددتكم به من أسماء هؤلاء وكلهم من آل الثقافة والهواية الجادة لفن المسرح ، حينما كان هناك مسرح ، بل لقد أنشأنا على نفقتنا الخاصة فرقة المسرح الحديث بالاسكندرية ، وأدارها نور الدمرداش، ولم يكن قد اعتمد بعد مخرجا بالمسرح القومى أيام إدارة الصاغ أحمد حمروش ؛ فلما دعى حمروش إلى الاسكندرية ، وشاهد ما قدمناه اعتمد الدمرداش مخرجا بالمسرح القومى ، وسمح له بإخراج مسرحية (تلميذ الشيطان) لبرنارد شو ، ومن هنا دخل نور إلى عالم الإخراج بالتلفاز فقدم مسلسل «هارب من الأيام» .

كان كل فرد منا يسهم شهريا فى رأس مال هذه الفرقة التى استمر نشاطها ثلاثة أعوام من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٣ بمبلغ عشرة جنيهات شهريا إلى جانب حصة التأسيس لكل فرد منا بمبلغ ٢٠ جنيها شهريا ، إلى أن جاء المحافظ حمدى عاشور وأقام فرقة الاسكندرية المسرحية كأول فرقة من فرق المحافظات ، وذلك بمعاونة من المسرح القومى



لقد ضم أعضاء هذه الفرقة من قد أصبح مخرجا والآخر ممثلا ، ناهيك عن مناصب إما فى وزارة الثقافة ، وإما فى وزارة الخارجية .

إننى أشرف بأننى كنت واحدا ممن تتلمذوا على يدى كبار المخرجين ، بدءا بالأستاذ الرائد زكى طليمات وانتهاء بالفنان نبيل الألفى ومرورا بالفنان الذى ضحى من أجل مسرح جاد بمدينة الاسكندرية من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٣ الأستاذ نور الدمرداش ويكون فخرا أن يكون من بين تلاميذه المخرج محمد فاضل ، والفنانة سميرة عبدالعزيز والدكتور سيد عبدالكريم والفنان مدحت مرسى ، والأستاذ محمد غنيم سالم وكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية سابقا والدكتور جمال بيومى السفير بوزارة الخارجية .

د. سامى منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية
قسم اللغة العربية

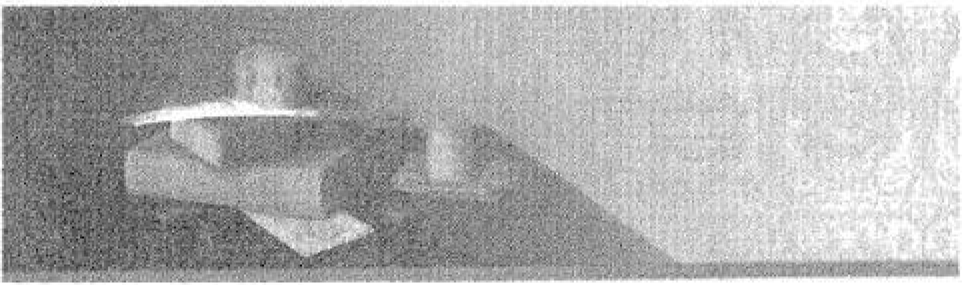
متى ولد الموسيقار محمد عبدالوهاب؟!

أغرانى قراءة موضوع الموسيقار محمد عبدالوهاب بين سيد درويش وأحمد شوقى والذى نشر فى هلال ديسمبر ٢٠٠٣ خاصة أنه بقلم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ، فتوقعت دراسة أكاديمية تختلف عما نقرأ فى المجلات «الفنية» ، ولكن لابد لى من مصارحتكم بخيبة أملى ، فعلى الصفحة الأولى من المقال ما يكفى من هذا الخطأ الذى أورده الدكتور عبدالمنعم إبراهيم الجميعى - بكل ثقة - تاريخ ولادة عبدالوهاب (١٣ مارس ١٩١٠) ليضيف أنه بدأ حياته الفنية أيام الشيخ سلامة حجازى قبيل الحرب العالمية الأولى ، فكيف يستقيم مثل هذا القول ؟

فلقد نشبت الحرب المذكورة فى ١٩١٤ ، وولد عبدالوهاب فى ١٩١٠ ، وبدأ حياته الفنية قبل نشوبها ، أى فى ١٩١٣ أو ١٩١٢ ، وهذا يعنى أن عبدالوهاب بدأ حياته الفنية قبل فطامه!!

حدثنا متعهد حفلات الموسيقار عبدالوهاب فى سوريا ولبنان ، حيث غنى عبدالوهاب فى ثلاثينيات القرن العشرين ، أنه قرأ على جواز سفره تاريخ ميلاده سنة ١٨٩٦ ، وهذا أقرب إلى المنطق ، فإذا كان قد بدأ العمل مع سلامة حجازى قبيل ١٩١٤ ، فإن عمره يومئذ يتراوح بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة .

أما القول فى بداية المقال بأن عبدالوهاب (قد امتاز بخصوصية صوتية فى الأربعينيات والخمسينيات) فهذا يعنى أن الدكتور الجميعى لم يقرأ ما كتبه الأستاذ كمال النجمى رحمه



الله عما طرأ على صوت عبدالوهاب ، فى الثلاثينيات ، وعن الأسباب التى أدت إلى تراجع تلك الحنجرة الفريدة ، ولو فعل لربما كنا قد قرأنا تحليلا أكثر دقة.

ثائر معيطة – اللاذقية – سوريا

بابل



منبلج صبحك يا (بابل)

أيقنت أخيرا أن المضطجع جوارك..

نجم أزرق عائد من عتبات التاريخ المنهزم ..

إلى الفتح (الأموى)

قد أعلن فى ساعته

أن الحرية محض سفاح

بين الإرهاب وأحجار الطفل البدوى

ليفتش بين ثيابك ..

عن عطر الشرق النووى

ويقول : بتيه المنتصرين

إن الميثاق تعثر ...

فى رفع رؤوس الأعراب ورايتهم

لترفرف فوق البر الشرقى

قد تبتسمى – لكن عدوك بالداخل

يتربع فوق العرش (الأموى)

فمن المذنب يا بابل ؟

صابر صبرى معوض



حياة أقباط مصر..
رصيد حضاري وتاريخي

قدم الدكتور ماهر شفيق فريد فى مقاله فى عدد يناير الماضى «أضواء على حياة أقباط مصر» رؤية بعيون غربية ، فعلى الرغم من الصور الفاتنة التى التقطتها عدسة كلاوديا إيفون وينز ، فإنها قصرت فى نقل الموروث القبطى بكل أصالته بما يعنيه من تفرد وتمايز ، ولم تعبر بصدق عن الأعراف والتقاليد والمعتقدات القبطية ، فهى فى ممارستها ليست مقصورة على الأديرة والكنائس أو بجوارها ، بل تمتد إلى أعماق الأعماق فى ربوع الدلتا والوادى، وأساءت عدسة المصورة الغربية إلى المصريين جميعا - مسلمين وأقباط - عندما رمتنا بثالثة الأثافى بتصويرها حياة «الزبالين» من الأقباط والمسلمين على السواء ، ويكرر هذا المشهد فى المقال بأن كثيرا من المشتغلين بجمع القمامة (الزبالون) من الأقباط ممن يربون الخنازير» . وللأسف الشديد فإن الصورة كرؤية لسائحة وصحفية مصورة أجنبية تنقل إلى العالم الخارجى فى أوروبا وأمريكا، ويساء توظيفها بسوء نية إعلاميا وإنسانيا فى محاولة لنيل من سمعة مصر وكرامتها .. لماذا لم تلتق المصورة الغربية بأعلام فى المجتمع المصرى من الأقباط من مفكرين وكتاب وأساتذة جامعات وصحفيين وإعلاميين ورجال أعمال وتجار لترسم صورة حقيقية لأقباط مصر المعاصرين بكل قطاعات مجتمعهم ؟

إن حياة أقباط مصر تاريخيا واجتماعيا وحضاريا هى أكثر خصوبة وثراء وعمقا ، وامتلاكا لرصيد حضارى وتاريخى ممتد ومتدفق مع نهر الزمن ، ربما لايستطيع أى كاتب أو مصور أو فنان أن يستوعبه وينقله ولو جانب منه بصدق وأمانة لاسيما إذا كان أجنبيا ، ولم يعايش المصريين، ودائما تأتى بشارة الرب : « مبارك شعبى مصر» .

عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - مركز الغربية



حبر ودم



عندما تسفك الدماء
فى العراق أو أفغانستان أو فلسطين
أو أرض أفريقيا السوداء
عندما يسيل الدم
مثل النفط أو الأمطار
هل تنفع القصائد ؟
هل تجدى الأشعار ؟
هل يفيد حبر الأقلام
فى إنهاء العنف والطمع
وصنع السلام ؟
هل تواسى الدموع
قتلى الحروب ؟
الحرب والشعر
أمران لا ينسجمان
هل يذهب الجنود
إلى الحرب وهم يغنون
هل بالجنة الموعودة بعد الموت يحلمون؟
أو هل يطمعون فى مكافأة
من الرؤساء والملوك؟
ما هذا العالم
الذى تحكمه القوة ؟
ما جدوى حبر الأقلام
والقنابل تسقط
على الأبرياء
عندما يصبح العالم
بحرا ملوثا بالدماء
كلنا نغرق
لا طوق نجاة
فى الأرض أو فى السماء .

د. منى حلمى

ابن رشد

الهلال

هو الوليد بن أحمد بن رشد ولد فى قرطبة عام ١١٢٦ م وتوفى فى ١١٩٨ م وكان والده من مشاهير القضاة وقد أتيح لابن رشد أن يتلقى ألوانا مختلفة من الثقافات ، وبرع فى العلوم الشرعية والعقلية ، وتولى القضاء فى مدينة اشبيليه ثم فى قرطبة ، فشغل منصب أبيه وجده ، وأصبح يلقب بقاضى قرطبة .

عرفه العالم بشخصيته الفريدة .. فقد كان مفكرا حرا ، يجيد المساجلة والحوار ، ويأخذ الحياة مأخذ الجد ، فكان يثابر على البحث والدرس ، حتى قيل عنه : أنه لم يترك القراءة إلا ليلتين، ليلة وفاة أبيه ، وليلة الاحتفال بعرسه.

ويعد الفيلسوف المسلم الوحيد الذى ترجمت أفكاره إلى لغات أجنبية وكان لايزال على قيد الحياة .

وقد شرح ابن رشد كتبا كثيرة لأرسطو أهمها : الطبيعيات والسماء والعالم والكون ، وما بعد الطبيعة والنفس ، ومن بين أهم كتبه «تهافت التهافت» الذى رد فيه على كتاب الغزالى (تهافت الفلاسفة) .

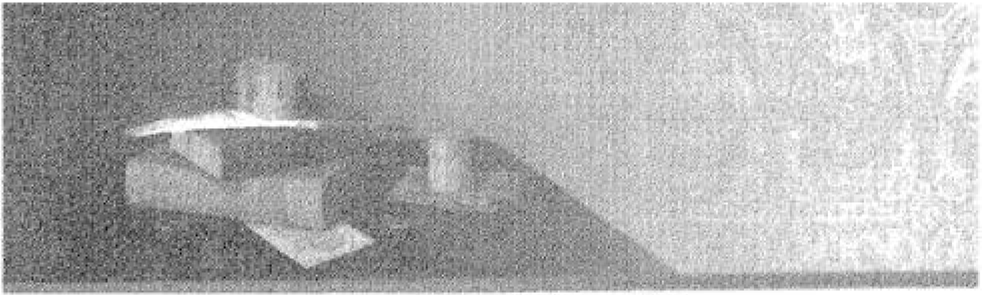
ودراسته للغة أفادته فى تكوين اتجاهه النقدى فى الفلسفة ، إذ أن الدارس لكتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد يلاحظ حسا نقديا ، فهو لايكتفى بمجرد رواية وترديد آراء غيره، بل يمحص هذه الآراء وينقدها نقدا دقيقا .

وابن رشد يؤمن بالمجتمع ، ولا يرى السعادة إلا فيه ، ويؤمن بأن سعادة الفرد فى سعادة المجموع ، ومصلحة الدولة يجب أن يكون لها الاعتبار الأول، وهى فوق مصلحة الفرد ، ولهذا فلاعجب إذا رأيناه ينتهز الفرص ليوجه حملاته على الحكام الجاهلين ، لأنهم لايقدرون الصالح العام .

وعلى الرغم من أنه حرص فى كتبه الفقهية والفلسفية على ألا يجابه الناس بكل ما يعرف ، وعلى أن يعرض آراءه بصورة غير مباشرة ، حتى لايصدم مشاعر قومه ، فقد هوجم بما لم يهاجم به مفكر قبله ، وألصقت به تهمة الإلحاد ، وأحرقت كتبه ، واستنكر الناس منه قوله بقدم العالم وإنكار حشر الأجساد . وما ذهب إليه من أن الله لايعلم عن الجزئيات أكثر مما يعلمه الحاكم عن جزئيات تنفيذ مروسيه لسياسته العليا .

لكن ابن رشد لم يسلم فى عصرنا هذا من القول بأنه ليس أعظم فلاسفة المسلمين وآخرهم ففى ذلك تهويل ومبالغة ، فلم يكن فيلسوفا ومجتهدا كالآخرين ، وهو ليس آخر الفلاسفة المسلمين ، فقد ظهر بعده فلاسفة عظام آخرون وكتابه «الكليات» محض كلام نظرى تقليدى .

ولم يكن ابن رشد كذلك عقلانيا عظيما ، بل ساعيا إلى المواءمة بين العقل والشرع كما فعل كثيرون من سابقيه ولاحقيه .



بين الشاعرين المتنبي وحافظ إبراهيم

قرأت المقال المهم الذى كتبه د.منير زهران فى هلال نوفمبر ٢٠٠٣ بعنوان «هل تعود الثقة إلى النظام الدولي» ووجدته يستشهد بهذا البيت :

رب ساع مبصر في سعيه
أخطأ التوفيق فيما طلبا

ولكنه نسب البيت إلى أبي الطيب المتنبي ، والحقيقة أن البيت الشعرى هذا لشاعر النيل حافظ إبراهيم من قصيدة مشهورة تحت اسم «غادة اليابان» ومطلعها .

لا تلم كفى إذا السيف نبا
صح منى العزم والدهر أبى

وبعده مباشرة البيت الذى استشهد به صاحب المقال ، ويليه قوله هذا البيت الشهير :

مرحبا بالخطب يبلونى إذا
كانت العليا فيه السببا

ثم قوله :

إيه يادنيا اعبسى أو فابسمى
ما أرى برقك إلا خلبا

والحقيقة أن مثل المتنبي لايختلط شعره بشعر حافظ إبراهيم وقصيدة حافظ إبراهيم نشرت في الجزء الثاني من ديوانه ص ٧ من طبعة دار العودة في لبنان

وتحياتي للكاتب الفاضل وللهلال

فرج مجاهد عبدالوهاب - عضو اتحاد الكتاب - شربين دقهلية

على الجارم المدافع عن العربية

تحل فى هذه الأيام ذكرى رحيل الأديب والشاعر الكبير على الجارم الذى ولد فى ١٨٨١/١٢/٢٥ ورحل عن دنيانا فى الثامن من فبراير ١٩٤٩ وقد رثاه طاهر الطناحي مدير تحرير الهلال فى عدد مارس ١٩٤٩ بقوله «افتقد الأدب العربي - على غرة - أديبا من نوابغه ، وشاعرا من فحوله ، وصفيا أو فى أصفيائه .. أخلص للأدب، ووهب حياته لخدمته ، وامتزج بروحه ونفسه ، فكان أجمل طبعا وأصفى نفسا ، وأرق شعورا ، وكان الوفاء أبرز ما تحلى به فى صناعته وبين إخوانه وبنى قومه ، فأحبه عارفوه، وقدره كل من طالع آثاره البليغة ، وجاب رياض شعره الرائعة . وحظى بما فيها من جمال وجلال .

درس على الجارم على يد الشيخ محمد عبده ، ثم التحق بدار العلوم ، وأوفد ببعثة إلى إنجلترا عام ١٩٠٨ ، وفى عام ١٩١٢ عين مفتشا للغة العربية بوزارة المعارف ، ثم كبيرا لمفتشى اللغة العربية ، وعضوا بمجمع اللغة العربية منذ إنشائه ، ثم عميدا لدار العلوم حتى بلوغه سن الستين عام ١٩٤٢ م .

وفى الهلال عدد أكتوبر ١٩٨٦ يقول د. رجب البيومى عنه «وحين انتقل شوقى إلى دار الخلد ، تألق الجارم شاعرا ، كما تألق عالما ، فصار ممثل مصر فى محافل العروبة ..» .

لقاء عند السد العالي



بقلم: محمد عودة



كمال القلش

في كل مرة كانت تنتابه الأزمة وينتقل إلى المستشفى لايلبث أن يعود بعد ساعات أو نصف ليلة على الأكثر ويقول ضاحكا لمن ينتظرونه بقلق «تجديد كمان»، وهي مقولة الموظفين المقبلين على المعاش بفرح حينما تتجدد مدة خدمتهم وكنت اعترض وأفسر له الأمر بأن «عمر الشقي بقي» ونستأنف نقاشاتنا الحادة العذبة والمتصادمة دائما!!

وقبيل أسابيع أقام لنا بدون مناسبة مأدبة عشاء «بورجوازية» فاخرة وتسابقت شقيقاته الثلاث وملائكته الحراس في إعدادها ولما سألناه عن المناسبة قال ببساطة «استعراض قوة .. وكرم شراقوة». وكنت انتمي معه إلى نفس المحافظة التي تتميز بعنصرية خاصة ويتناسى أهلها أنهم عزموا القطار وباعوا الثور لأم قويق «البومة» وأمضينا ليلة دافئة حميمة لم يطرأ على بال أحد أنها كانت مأدبة وداع.!!!

وقد التقيت معه لأول مرة منذ سنوات بعيدة مجيدة في موقع السد العالي. وكان الموقع يومئذ مزارا وبوتقة مشتعلة مضطرمة يلتقي فيها وينصهر كل مصر الحقيقية بتراثها وواقعها ومستقبلها بكل الطبقات والخبرات والمبادىء والايديولوجيات.

وكانوا ثلاثة من الكتاب الشعبيين أفرج عنهم بعد اعتقال طويل، وبعد المصالحة الثورية من كل الفصائل وفجروا [illegible] والعمق في الواقع وتمييز ماينفع الناس ويمكث في الأرض.

وخرج كتاب فريد لثلاثة كتاب شبان عن السد العالي، والمشروع الذي غير تاريخ مصر وحياة شعبها والذي وفر أهم حاجياتها الماء والطاقة. وكانوا «كمال القلش» و«صنع الله إبراهيم» و«رءوف مسعد»، ولاشك سوف يبقى كتابا متميزا واحد أهم المراجع عن مصر والمصريين!

وخلال أيام السجن ولياليه الطويلة كتب كمال القلش ورفيقه على ورق البافرة الذي تلف فيه السجاير قصة معركة بورسعيد التي عاشها وشارك فيها وسوف يظل أفضل ماكتب عن معركة أجهزت على الامبراطورية البريطانية وأنهت خمسمائة عام من عصر السيادة الأوروبية وكان بطلها شعب بورسعيد ومنهم طفل لم يتجاوز العاشرة وقوات الجيش التي حققت ثورة يوليو واستطاعا الحفاظ على المخطوط الفريد والخروج به ونشره وأضافا بردية مصرية إلى «البرديات» النادرة التي سجلت تاريخ مصر وأمجد صفحاته. وفجأة غادرنا كمال القلش ببساطته وأصالته وبراءته وصلابته ونقائه الفكري والروحي .. وحتى نلقاه.

ليرحمنا ويرحمه الله.

الهلال

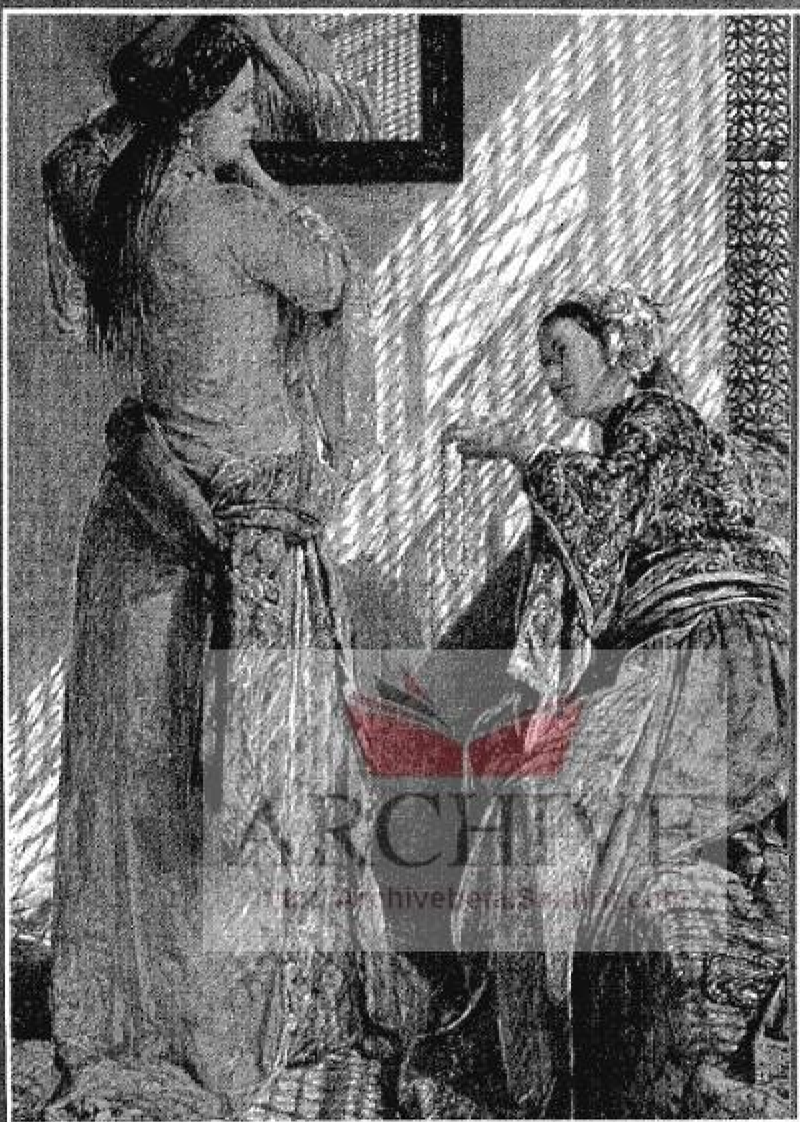
مارس ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات




خفايا علاقة أم كلثوم ورامى

- آفاق جديدة أمام العمل العربى
- محنة المخرجات فى عالم معاد للنساء

مصر من نافذة قطار



لـوحـة وفـنـان

ثرثرة على المدخل

القاهرة ١٨٧٣

للفنان الانجليـزى : جـون فـريدريك لويس
زيت علـى خـشـب (٣٠×٢٠ سم)
محفوظة فى متحف وايت وورث بجامعة مانشيستر

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة - محرم ١٤٢٥ هـ - مارس ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٠ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

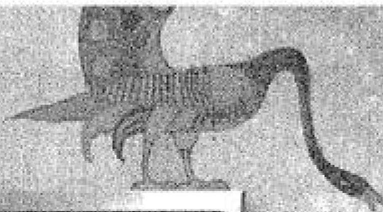
عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

مؤمن حسين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

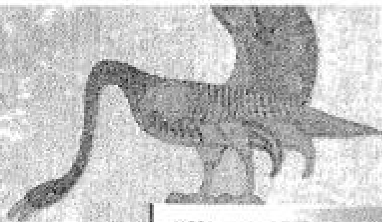
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١٫٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢٫٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات





تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٠ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



الموسيقى والغناء
«جزء خاص»

الأبواب الثابتة



العدل والحرية

ونحن نحتفل بذكرى عميد الأدب العربي د. طه حسين، ومع ندوة المجلس الأعلى .. طه حسين .. بعد ثلاثة عقود، نعيد قراءة بعض تراثه المجهول ، فقد كتب مقالا مهما في يوليو ١٩٤٦، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، يتنبأ خلاله بالصراع الفكري حول العدل والحرية .. وأفضل تحية لذكراه أن نعيد نشر فقرات منه وهو قطرة من بحر تراثه العميق الذي لا ينفد .

مسألة واحدة تلقى في كل مكان متحضر، ويعجز الناس عن أن يجدوا لها حلا حاسما، أو جوابا قاطعا ساطعا .

أيمضي العالم إلى تحقيق العدل.. أم إلى تحقيق الحرية ؟! هذه هي المسألة، أو قل هي المشكلة التي تسلطت على العقول واستأثرت بها. ثم استأثرت بالتفكير السياسي كله في أواخر القرن الماضي ، وثارت بسببها الحرب العالمية الثانية ، وصبت على العالم ما صبت من الشر والهول .

وانتهت الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية دون أن تجد إحداهما جواباً لهذه المسألة أو حلا لهذه المشكلة . وهي مسألة قديمة عرفها الإنسان منذ عصور بعيدة، ولا شك أن الفلاسفة قد استقصوا أمر الصراع بين الحرية والعدل في أطوار الرقي الانساني على اختلافها. ثم انتهوا الى ما انتهى اليه العالم من حيرة، فمنهم من آثر الحرية ،لأنها تحقق كرامة الانسان، وفريق آثر العدل لأنه يرضي حاجة الإنسان الى المساواة ، ويتيح له حظاً من الانصاف يعصمه من استعلاء القوى على الضعيف، وتحكم الغني في الفقير ، وتفوق القادر على العاجز .

وفريق آخر حاول ان يلائم بين العدل والحرية ، فلم يبلغ من هذه المحاولة شيئا ذا خطر ، لأن العدل المطلق والحرية المطلقة لايستطيعان أن يلتقيا إلا إذا قيدت الحرية وقيد العدل ، وانتقص كلاهما من أطرافه فشوه خلقه تشويها ما .

ومن الخطأ أن نظن ان هذا الصراع بين الحرية والعدل مقصور على بيئة إنسانية دون بيئة ، أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان ، وإنما الواقع الذي نستطيع أن نلاحظه في كل وقت هو أن هذا الصراع قائم في البيئات الإنسانية المثقفة ، وفي أجزاء العالم المتحضر، يقوى ويعنف حيث ترقى الحضارة وتتفوق ، ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة وتميل إلى الخمود ، ولكنه موجود دائما ومتصل على كل حال. ويكفي ان ننظر الى العالم المتحضر الذي نعيش فيه اليوم لنتبين ان الصراع بين الحرية والعدل

عنيف إلى اقصى غايات العنف في اوروبا وأمريكا .. والمهم ان نلاحظ مظاهر هذا الصراع، لنتبين الى أى طريق نحن مسوقون، وإلى أى غاية نحن مدفوعون .

فينبغي للشرق أن يوطن نفسه على أنه جزء من هذا العالم المتحضر الحديث الذى يضطرب أشد الاضطراب بهذا الصراع العنيف المتصل بين الحرية والعدل، متأثر سواء أراد أو لم يرد بهذا الصراع وبما يكون له من أثر فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والخير ان يوطن نفسه على ذلك وأن يعد له عدته .

وحسبه ان يعلم أن هذا ليس مقصوراً عليه، وإنما هو المصير المحتوم لكل جزء من أجزاء العالم بعد أن ألغيت مسافات الزمان والمكان ، فهو يتجاوز الدول ذات الحول والطول الى الشعوب التى تمثلها هذه الدول، فالشعوب نفسها مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، يريد بعضها ان يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعا للحرية لا متبوعاً، ويريد بعضها الآن أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية نافلة تتحقق إن سمح العدل بتحقيقها، ويضحى بها إذا لم يكن بد من التضحية بها فى سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس.

ثم تختلف الشعوب فى حياتها الداخلية نفسَ هذا الاختلاف بين الدول، فتكون فيها الاحزاب المتباينة التى يذهب بعضها مذهب الحرية الكاملة، ولا يتردد فى التضحية بالعدل إذا اقتضت الحرية هذه التضحية، ويذهب بعضها مذهب العدل الشامل، ولا يتردد فى إهدار الحرية إذا اقتضى تحقيق العدل إهدارها .

إذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى، ويتخذ الدين أساسا لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة ، وترقى إلى المثل العليا، وتؤمن بأن فى الانسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان حظه فى الرقى، إلا إذا اتصلت بمصدرها الأول عن طريق الإيمان والثقة والأمل، أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب، كان فى نشوئه الخير كل الخير ، لأنه يصلح ما أفسدت الثورة، فيرد الى الدين مكانته فى القلوب وسلطانه على النفوس ، ويعصم الناس من المادية الجامحة والإلحاد المتمرد ، ويكفل لهم فى الوقت نفسه سعيا متصلا إلى تحقيق العدل فى الارض . هذا بعد أن اضطرتهم أحداث القرن الماضى الى التفكير فى أن العلم ليس كل شيء ، وفى أن العقل ليس كل شيء، وفى أن الانسان لا يتألف من العقل والجسم فحسب، ولكن له ملكات أخرى لا ينبغى أن تهمل وحاجات أخرى لا ينبغى أن تزدرى . ومن أهم هذه الملكات ملكة الشعور، ومن أهم هذه الحاجات الحاجة الى الإيمان بقوة قدسية مديرة لشئون الانسان تسمو به الى الخير وتنهاه عن الشر، وتنأى به عن الموبقات . فالإنسانية بين اثنتين : إما أن تريد الشفاء ، فتسلك اليه طريقه المستقيمة وإما أن تؤثر المرض، فتشقى بآلامه وأثقاله حتى يدركها الفناء، وكذلك ستظل الانسانية مضطربة بين هذين المذهبين، مذهب العدل وما يقتضى من وسائل قد تكون منكرة فى كثير من الأحيان، ومذهب الحرية وما يستتبع من نتائج ليست أقل من وسائل العدل فكرا، ومن يدرى لعل يوما من الأيام، قريبا أو بعيدا، يرى ذلك الفيلسوف الذى يبتكر للإنسانية مزاجاً معتدلاً من الحياة يتحقق فيه العدل من غير عنف، وتتحقق فيه الحرية من غير عنف، وتتحقق فيه الحرية من غير ظلم ، ويذوق الناس فيه سعادة لا يشوبها بؤس ولاشقاء ■

المحـــــرر



صعود وسقوط الاحتلال
بين اللورد كيرزون والسفير بريمر

بقلم
جميل مطر

لم يستقر الرأى بعد بين علماء السياسة والاستراتيجية على توصيف الحالة الإمبراطورية الراهنة . توجد شواهد على أن العالم يعيش فى ظل نظام اكتملت له شروط الحالة الإمبراطورية، وشواهد أخرى تؤكد على أن العالم مازال يعيش فى ظل نظام دولى وإن تغيرت فيه بشكل جذرى موازين القوة، حيث أصبحت أغلب القوة تتركز الآن فى يد دولة واحدة وهى الولايات المتحدة . أما الذين يعتقدون أن الحالة الإمبراطورية قائمة فيختلفون حول تقييم هذه الحالة، هل الإمبراطورية الأمريكية تتقدم أم تتحسر؟ . بمعنى آخر هل هذه الديمقراطية حققت أهداف منظريها فى الولايات المتحدة ومنفذيها فى الخارج ؟ أم أنها لم تحقق بعد أكثر من زيادة النفوذ وإن بتكلفة باهظة ؟.





رأينا مثلا فى الآونة الأخيرة كيف أن الولايات المتحدة واجهت، ومازالت تواجه صعوبات جمة فى محاولتها إجبار فرنسا بشكل أساسى، وأوروبا الغربية بشكل عام، على التخلى عن مواقعها فى النظام الدولى والتراجع خطوات واسعة نحو مواقع متأخرة أبعد ما يمكن عن الموقع الذى تحتله الولايات المتحدة الأمريكية. رأينا أيضا زعماء أمريكا اللاتينية يتصرفون فى القمة التى انعقدت بالمكسيك فى شهر يناير الأخير بشكل أقرب إلى المواجهة منه إلى التعاون مع الولايات المتحدة ورأينا أيضا كيف أن الولايات المتحدة خرجت من المؤتمر خاسرة بسبب هذه الدول التى أعلنت صراحة احتجاجها على مطلب أمريكا من المؤتمر التركيز على دعم إجراءات الأمن والحرب ضد الإرهاب، ومطلبها تطبيق سياسات جائزة لتنفيذ مبادئ حرية التجارة من طرف واحد. احتجت معظم دول أمريكا اللاتينية على إغراق أسواقها بالسلع التى تدعمها الحكومة الأمريكية خلافا لمبادئ حرية التجارة الدولية وقواعد منظمة التجارة العالمية.

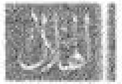
عدم إغضاب أمريكا

ورأينا، ومازلنا نرى، كيف أن العلاقات بين الولايات المتحدة ومنطقة الشرق الأوسط تتردى وبسرعة إلى مستوى متدن للغاية وبخاصة بعد احتلال القوات الأمريكية للعراق فى الربيع الماضى. تقول جميع المؤشرات

أن معظم الدول العربية تتصرف كما لو كانت قررت عدم إغضاب أمريكا خوفاً من تكرار ما حدث للعراق معها، أو خشية عقوبات جسيمة تفرضها عليها واشنطن ، بل أن الرئيس بوش اعترف فى خطاب حال الأمة الذى ألقاه فى شهر يناير ٢٠٠٤ بأن الحملة العسكرية فى العراق جعلت ليبيا تتحول عن سياساتها الداخلية والخارجية على حد سواء . وعلى كل حال فإن موضوع ليبيا كغيرها من الدول العربية التى اتخذت قراراً أطلق عليه محلل سياسى عربى تعبير الانبطاح الاستباقى ليس دليلا كافيا على أن الإمبراطورية الأمريكية فى أوج قوتها فعلاقات العرب بالإمبراطوريات الأجنبية لم تكن دوماً أفضل مقياس لصعود أو انهيار تلك الإمبراطوريات . وفى نفس الوقت تدل الحملات الإعلامية الأمريكية وتصريحات المسئولين الأمريكيين على أن هناك توترات شديدة تمر فيها العلاقات الأمريكية - العربية ، هذا بالإضافة إلى التصاعد الهائل فى الغضب الذى تشعر به الشعوب العربية بسبب التدخلات الأمريكية فى شئون الدول العربية وموقفها المتغطرس والمنحاز بعناد فى الصراع العربى - الإسرائيلى .

يذهب محللون للسياسة الدولية إلى القول بأن ما نشهده ويعتبره البعض حال إمبراطورية صاعدة ما هو فى الحقيقة إلا محاولة أمريكية للمبالغة فى استعراض عناصر القوة والنفوذ لديها . ويدللون على ذلك بالإعلان بصراحة عن حملات الضغوط التى تمارسها واشنطن ضد جميع دول العالم وبخاصة دول أوروبا الغربية والدول العربية والاتحاد الروسى . ويتساءل هؤلاء ألا يمكن أن تكون المبالغة فى استعراض عناصر القوة تهدف إلى الإيحاء بوجود حال صعود إمبراطورى، وإن كان واقع الحال فى السياسة الدولية يقول بغير ذلك .

لذلك تتعدد المقارنات التى يقيمها بعض الباحثين والكتاب بين الحالة الراهنة للإمبراطورية الأمريكية وبين إمبراطوريات أخرى سابقة عليها تركزت معظم المقارنات على الإمبراطورية الرومانية باعتبار أن القائمين على الإمبراطوريتين الرومانية. والأمريكية اهتموا إلى جانب أمور أخرى بإعلاء دور القانون والتبشير بنسق قيم معين لترقية الهمج فى حال الإمبراطورية الرومانية، وتأديب وتهذيب ما يطلق عليه الأمريكيون الدول المارقة والفاسدة والإرهابيين والمتشددين الإسلاميين، ودول تمارس



الإسلام بطريقة لا تعجب الولايات المتحدة . يهتمون أيضاً بالإمبراطورية الإسلامية بالزعم أنها اعتمدت أسلوب استخدام السيف من أجل التبشير بعقيدة ومبادئ معينة . أما الاهتمام بالإمبراطورية البريطانية فإنه وإن كان يأتي في مرتبة متأخرة في هذه المقارنات، ربما بسبب اختلافات شديدة بين النهجين الأمريكي والبريطاني في أساليب التوسع وحكم الشعوب الأخرى، إلا أننا لا ننسى أنه في الحالتين لعبت رسالة ما دور المبرر الذي استخدمه منظرو الاستعمار البريطاني ومنظرو التوسع الإمبراطوري الأمريكي وإن اختلفت المسميات .

آخر المستعمرين الإنجليز

من بين هؤلاء المحللين الذين اهتموا بالمقارنة بين الإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية البريطانية الكاتب البريطاني الكبير «ديفيد جيلمور» والمحلل المعروف «إيان بوروما»، الأول كتب كتابا بعنوان «كيرزون: رجل الدولة الإمبريالي» ويقع في ٦٨٤ صفحة . والثاني، أي بوروما، قام بعرضه والتعقيب عليه في واحدة من أشهر الدوريات المتخصصة في عروض الكتب . خلصت من قراءتي إلى نقاط استحقت التوقف عندها ثم الكتابة عنها . فقد اختار جيلمور شخصية كيرزون باعتباره آخر الرجال «العظام» في تاريخ الاستعمار البريطاني حين كان نائبا للإمبراطور في الهند . وهو الرجل الذي عاصر السنوات الأخيرة من عصر الاستعمار الغربي التقليدي . قرأنا الكثير في فترة أو أخرى عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي أدت إلى انحسار الإمبراطورية البريطانية، وقرأنا العديد من الكتابات التي ناقشت خطوات التراجع في هذه الإمبراطورية وكيف تنازلت لندن عن جزء بعد آخر من إمبراطوريتها التي لم تكن تغرب عنها الشمس . لكن أعجبني عرض بوروما وبخاصة ما أورده من أسباب سقوط الإمبراطورية البريطانية ، استنادا إلى دراسته المتعمقة لحياة اللورد كيرزون والمعلومات



الوفيرة التي حصل عليها من الكتاب . أعجبني أيضا أنه كان يكتب هذه الأسباب وعينه على الولايات المتحدة الأمريكية في مرحلتها الراهنة...

سيكون من الصعب على قارئ يقرأ العرض الذي أعده بوروما أن يميز بين ما كتبه كتحذير للولايات المتحدة أو إنذار عساها لاتكرر أخطاء الإمبراطورية البريطانية لقد بدا انحسار الإمبراطورية البريطانية، حسب رأي بوروما، وربما جيلمور في أعقاب الزيادة الكبيرة والمفاجئة في أعداد القتلى من الضباط البريطانيين الذين سقطوا دفاعا عن الإمبراطورية أو عن رسالة الرجل الأبيض . هؤلاء الضباط في غالبيتهم العظمى كانوا من أبناء الطبقة الارستقراطية الحاكمة في بريطانيا ، وهي الطبقة التي اعتنقت الأفكار الاستعمارية وكانت الأكثر استفادة من الإمبراطورية البريطانية . ويبدو أن الزيادة في أعداد القتلى من أبناء هذه الطبقة دفعتها للتفكير في ضرورة الانسحاب من المناطق المتوترة وتهذيب خريطة الإمبراطورية . من ناحية أخرى كانت هذه الطبقة ذاتها تقترب بسرعة من نهايتها كطبقة حاكمة مسيطرة بسبب النهضة التعليمية الكبيرة التي شهدتها الجزر البريطانية في أواخر القرن التاسع عشر، وبسبب التحولات الهائلة في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية . أدت هذه التطورات جميعها إلى بزوغ طبقة جديدة بدأ أبناؤها في احتلال مراكز مهمة في البيروقراطية البريطانية وفي أجهزة الجيش . وكان واضحا أن الطبقة الجديدة لم تكن على نفس درجة الإيمان بالفكر الاستعماري والدور الإمبراطوري لبريطانيا .

من ناحية ثالثة حدث أن انتبه أبناء الطبقة الجديدة إلى التغيرات العالمية المتسارعة التي حدثت في الفترة منذ مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبعضها كان بمثابة ثورة حقيقية في النظام الدولي . إذ انتصرت اليابان على روسيا في حرب ١٩٠٥، وهو الانتصار الذي هز أركان الإمبراطوريات الغربية في آسيا خصوصا ، وفي أعقابه تصاعدت حدة المقاومة الوطنية في كافة أرجاء العالم ضد بريطانيا . لقد اعتبرت الشعوب الآسيوية أن هزيمة دولة أوروبية على أيدي دولة آسيوية كافية لنفي مزاعم تفوق الرجل الأبيض وحقه في فرض هيمنته على الشعوب الأخرى . ومن بين الشعوب التي تأثرت بهذا الانتصار

شعب مصر الذى استأنف على الفور نضاله الطويل ضد الوجود الاستعمارى البريطانى فى مصر.

فى نفس الوقت تقريباً نشبت الفوضى فى أرجاء روسيا ودول كثيرة فى أوروبا الشرقية، وهى التى مهدت للثورة البلشفية وتولى الشيوعيين الحكم فى روسيا . تصادف أيضا خلال هذه المرحلة أن برزت الولايات المتحدة كقوة عالمية كبرى فى أعقاب مساعدتها بريطانيا وفرنسا لإنهاء الحرب فى أوروبا . عندئذ تأكدت الطبقة الاستعمارية الحاكمة فى بريطانيا أنه ما كان ممكناً الحرب ضد الألمان بدون اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية وتأكدت أن الدفاع عن الإمبراطورية بالقوة البريطانية وحدها لم يعد كافيا ولا جائزا . ومنذ ذلك الحين لم تتخل بريطانيا عن هذا الموقف إلى أن جاء يوم تجاوزت الولايات المتحدة تقاليد الطرف المساعد ودخلت فى مواجهة صريحة مع الإمبراطورية البريطانية وكانت هذه المواجهة آخر تحدى فى حياة هذه الإمبراطورية .

المشهد قبل الأخير

أرى كثيرا من نقاط الاختلاف بين هذا المشهد قبل الأخير فى حياة الإمبراطورية البريطانية وبين المشهد الراهن فى حياة الإمبراطورية الأمريكية . فالشريحة الأعلى من الطبقة الوسطى الأمريكية مازالت فى قمة سطوتها وهيمنتها على النظام السياسى الأمريكى كما أن هذا الشريحة استفادت من التطورات الدولية ابتداء من انهيار الشيوعية وفشل كثير من تجارب التنمية على أسس اشتراكية فى العالم الثالث . استفادت كذلك من الصحوة الدينية التى رافقت انحسار «القومية» وتدفقات أفكار ونظريات العولمة وممارساتها وفى أقل من ثلاثين عاما استطاعت هذه الشريحة إقامة تحالف عقائدى مع التيار المتشدد الصاعد فى الكنائس الإنجيلية فى وسط وجنوب الولايات المتحدة . وأظن أن هذا التحالف هو الذى ضاعف من عدوانية التوسعية الأمريكية إذ أنه بعد أن كانت رسالتهم نشر الديمقراطية بالوسائل السياسية السلمية ، وجد الإمبراطوريون فى الولايات المتحدة فى معاداة الإسلام وفرض الحصار عليه أفضل وأسرع وسيلة لتجديد الإمبراطورية وحشد أنصار جدد لها !

من ناحية أخرى ، نجحت الولايات المتحدة فى تحويل مجرى المقاومة ضدها فى جميع الأقاليم التى تهيمن عليها حين وصمتها بالإرهاب ، وجعلتها تبدو تيارا

عالميا منظما يهدف إلى تدمير الحضارة الغربية لذلك بينما لم نجد فى عصر الإمبراطورية البريطانية حكومة فى لندن ترفع شعار من ليس معنا فهو ضدنا ، نجد فى الولايات المتحدة من يضع نظرية سياسية دينية إمبراطورية ويطلق عليها صدام الحضارات ، وآخر يقرر أن التاريخ انتهى لصالح ما تطرحه أمريكا من فكر وسياسة وممارسات . ومن اجتماع النظريتين تدفقت دماء جديدة فى الفكر الإمبراطورى الأمريكى إذ أصبح مقنعا لشرائح كثيرة فى الطبقة الحاكمة الأمريكية مبدأ «التوسع العقائدى الاستباقى» . وعلى عكس الحال فى عصر السلام البريطانى حين كانت المقاومة الوطنية متواصلة فى معظم المستعمرات ، تسابقت دول كثيرة فى عصر السلام الأمريكى لطرح «استسلام استباقى» تفاديا لمواجهة مباشرة حتمية على عمليات التوسع الإمبراطورى الأمريكى . يدعونا للتأمل فى هذا المشهد صورة إمبراطورية تستبق المقاومة ضدها بالغزو والاحتلال والحصار أحدها أو كلها معا، وصورة دول وتيارات ومذاهب تستبق هذه الممارسات الإمبراطورية بالاستسلام والخضوع والانسحاب على الذات، أحدها أو كلها معاً، وصورة «مقاومة معولمة» تتخذ صوراً متعددة وبعضها بالغ العنف.

دول بوروما ..
محافظ بيروقراطى

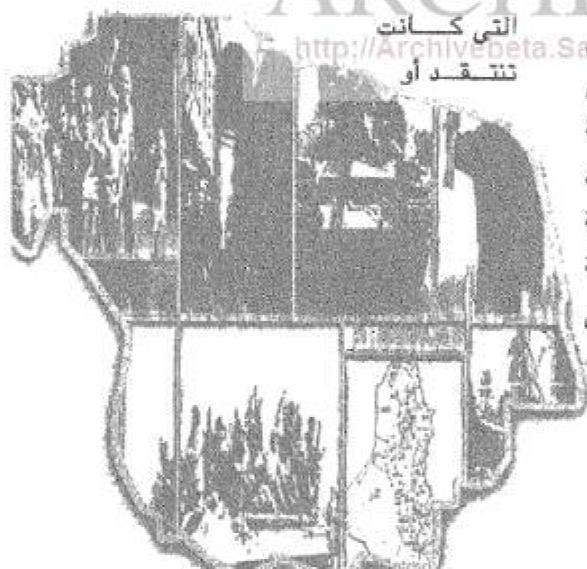
وفى أجزاء متعددة من العرض يناقش بوروما شخصية اللورد كيرزون كما ورد فى كتاب جيلمور. إلا أنه على غير المتوقع لم يعقد مقارنة واحدة بين كيرزون والسيد بريمر. ومع ذلك فبالقراءة المتأنية قد نفهم أنه أراد من القارئ أن يقوم بهذه المقارنة بنفسه. فمثلاً عندما يتحدث عن آراء كيرزون الاستعمارية لا يستطيع القارئ إلا أن يقارن رغماً عنه بين كيرزون وبريمر. ينقل جيلمور ومعه بوروما عن اللورد كيرزون فى كتابه «فارس والمسألة الفارسية» والصادر عام ١٨٩٢ والذى مازال يعتبر من أهم المراجع البريطانية وبخاصة الاستعمارية عن بلاد فارس، يقول: إن أساليب حياة الغرب قد لا تناسب الشعوب غير الغربية. وقد وقف كيرزون ضد كثير من المفكرين البريطانيين الذين حاولوا التبشير بطرق الحياة الغربية لتقلدها وتمارسها الشعوب الآسيوية وشعوب المستعمرات البريطانية فى كل مكان. كان يعتبر هذه المحاولات غير مجدية لا لشئ إلا لأن «للآسيويين طرقهم فى الحياة وهى طرق

لا تشبه في قليل أو كثير الطرق الغربية»، وإن إقناع شعوب المستعمرات بأن تمارس ثقافة الغرب وأساليبه في الحياة يعتبر مضيعة للوقت. ولكنه يقول من ناحية أخرى إن الفرد الآسيوي سيفضل دائماً حاكماً آسيوياً يعامله معاملة غير طيبة عن حاكم أوروبي يعامله معاملة طيبة. أتصور أن بوروما عندما ينقل هذا عن كيرزون يريد أن يلفت النظر إلى آراء كثيرة تتردد حالياً على ألسنة مسئولين أمريكيين من أنصار الإمبراطورية ودعاة نشر مبادئها. ولا ننسى بأي شكل أن كيرزون هو سليل الطبقة الأرستقراطية التي كانت تلقن أبناءها في مدرسة إيتون الشهيرة رسالة الإمبراطورية، وهي الرسالة الأقرب في كل التاريخ الإمبراطوري إلى الرسالة التي بشرت بها روما.

تلقى بول بريمر تدريبه وتعليمه في مدارس وجامعات نخبة القادة في أمريكا. درس في جامعتي ييل ومدرسة الإدارة في هارفارد وقضى بعض الوقت في معهد الدراسات السياسية والدولية في باريس، أي في معهد تفريخ النخبة ورجال الدولة في فرنسا. وقضى في السلك الدبلوماسي ثلاثة وعشرون عاماً.

إلا أنه لم يتول منصبا رئيسيا إلا مرة واحدة حين عينته الخارجية الأمريكية سفيرا لدى حكومة هولندا. بمعنى آخر لم يكن بريمر بارزا مثل جورج كينان وجالبريث أو أيكنز. المؤكد في كل الأحوال أنه لم يكن ليبرالي الاتجاه. كان محافظا وبيروقراطيا ملتزما. المؤكد أيضا أنه لم يؤلف كتابا على مستوى كتاب بلاد فارس الذي كتبه اللورد كيرزون. كتابه الوحيد يحمل اسمه مع اسم شريك له في مؤسسة التراث الأمريكي، إحدى أكبر قلاع الفكر الإمبراطوري الأمريكي، ولم يثر نشره اهتماما يذكر.

يكشف بوروما في عرضه للكتاب عن حياة كيرزون أن العهد الإمبراطوري البريطاني كان غنيا بالأفكار سواء تلك التي كانت تجدد في الفكر الإمبراطوري الإستعماري أو تلك التي كانت تنتقد أو



تحاول على الأقل تحسين بعض عيوبه وقد ازداد هذا الوضع وضوحا عندما تعددت خلفيات رجال البيروقراطية الإمبراطورية في لندن، إذ جاء منهم من كان يؤمن بأنه من الضروري الاستفادة من تقاليد وتراث الشعوب الخاضعة للإمبراطورة البريطانية لتضيف بتراثها وحكمتها إلى مجد الإمبراطورية وإلى عملية التنويه والنهضة في الغرب. كيرزون كان مؤمنا إيمانا راسخا بأن وظيفة المستعمر البريطاني في الخارج هي حماية النظام البريطاني ولعله في هذا لا يختلف عن بول بريمر حاكم العراق الأمريكي. كان مثل غيره من أبناء الطبقة الارستقراطية البريطانية يتحلى بدرجة عالية جدا من الغطرسة. ولكن غطرسته لم تقتصر على نظرته لشعوب المستعمرات، وإنما شملت كل ما هو ليس بريطانيا. كان كيرزون ينتقد الفرنسيين ويعتبرهم في مستوى متدن بالمقارنة بالبريطانيين. كان يسخر من المطبخ الفرنسي الذي يستخدم الدسم، ومن الثقافة الفرنسية التي كان يطلق عليها الثقافة المخنثة. هنا لا يختلف كيرزون كثيرا عن عدد لا بأس به من أفراد النخبة السياسية الحاكمة الأمريكية الذين يسخرون من البطاطا المقلية التي أخذت اسم البطاطا الفرنسية، ومن كل ما هو فرنسي. ويشهرون بسمعة فرنسا وتاريخها في أجهزة الإعلام الأمريكية. كيرزون من ناحية أخرى كان يكره المثقفين من أهالي المستعمرات. وكان بشكل خاص ينتقد شعب البنغال بمسلميه وهندوسيه، إذ اشتهرت البنغال بارتفاع نسبة التعليم ويرز بين البنغاليين عدد كبير من المثقفين والمفكرين. وقد انتقم كيرزون منهم انتقاما شديدا عندما أمر بتقسيم البنغال بين شرقية أي مسلمة وغربية أي هندوسية واستمر هذا الانقسام إلى يومنا هذا فبنغلاديش هي البنغال الشرقية التي رسم حدودها كيرزون منذ قبل الاستقلال بخمسين عاما أو أكثر ويقال: إن كيرزون كان يتكبر على صغار الموظفين في البيروقراطية البريطانية العاملة في الهند رغم أن الكل يعرف أن البيروقراطي الصغير، هو الذي حافظ على نسيج الإمبراطورية البريطانية في كافة أنحاء العالم لأنه كان يعيش بين الشعب ويتعاطف معهم ويحل مشاكلهم ويسوى نزاعاتهم، هؤلاء كانوا ضد تقسيم الهند وإن كانوا لم يستطيعوا الوقوف في وجه كيرزون الذي اشتهر في الفكر الإمبريالي البريطاني بتخصصه

فى رسم الحدود بين الأعراق والطوائف. وهو التخصص الذى كان السبب فى نشوب حروب لا نهاية لها فى شبه جزيرة الهند ومناطق أخرى من آسيا.

نائب الملك

هنا أيضا يختلف بريمر عن كيرزون فالحاكم الأمريكى فى العراق لا يملك السلطات المطلقة التى كان يحوز عليها الحاكم البريطانى للهند. لذلك نتجاوز حين نطلق على بريمر لقب نائب الملك، أو شاه العراق، فالرجل تحد من قدرته على الحكم عديد من الاعتبارات لم تكن موجودة فى زمن كيرزون. فى الهند كان كل كائن بريطانى أو هندى، عسكريا كان أم مدنيا، يخضع لكيرزون. فى العراق يختلف الوضع. فالعسكر الأمريكيون يتلقون تعليماتهم من القيادة العسكرية فى قطر والموظفون العراقيون ينفذون من أوامر الحاكم بريمر ما ينسجم مع أوامر شيوخ عشائرهم أو توجهات مرجعياتهم الدينية أو القومية. ولا شك أن نقص الخبرة لدى بريمر وضعف مستوى مستشاريه يضعان قيدا على كفاءته وقدرته على تسيير أمور الحكم فى العراق. إذ بينما كانت الهند قلب الإمبراطورية وركيزة التفكير السياسى الإمبراطورى لا تحتل العراق أى موقع مهم فى الفكر الإمبراطورى الأمريكى، بدليل التخبط الذى تعانى منه الإدارة الأمريكية بسبب ندرة المعلومات عن العراق وعدم الدراية الكافية من جانب الأكاديميين ورجال الاستخبارات الأمريكية بشئون العراق الداخلية، بل المنطقة كلها، ومع ذلك يكاد لا يخلو خطاب لمسئول أمريكى من التلميح إلى أن واشنطن تمهد لأن يصبح العراق قلب الإمبراطورية الأمريكية فى الشرق الأوسط الكبير.

كيرزون، مثل غيره من مبعوثى قيادات الإمبراطورية العالمية، يردد شعارات ولا يمارسها، هو رغم أنه كان حامل رسالة التبشير بالديمقراطية ورسالة الرجل الأبيض إلا أنه كان يعلن على الملأ أن الديمقراطية لا تصلح للهند، فالهنود فى رأيه يفتقرون إلى كثير من شروط الديمقراطية وهى العدالة والمساواة والحقيقة لم ينس التاريخ الاستعمارى البريطانى لكيرزون أنه حذر ضد دخول الجيش البريطانى إلى بغداد وأن يكتفى باحتلال البصرة فى عام ١٩١٥ فى أعقاب دخول الأتراك الحرب مع الألمان ضد بريطانيا. كان هدف الحملة البريطانية التى خططت لها القيادة الموجودة فى الهند إبقاء الألمان والأتراك بعيدين قدر الإمكان عن الخليج وعن طرق الموصلات إلى الهند واحتلال

البصرة لضمان تدفق النفط، إلا أن اللورد كيتشنر، أحد أكبر أعداء كيرزون كان في صف احتلال بغداد، وانقسم رجال الإمبراطورية في لندن بين مؤيد ومعارض. كان هناك من يقول: إن احتلال بغداد سيؤثر إيجابيا على العرب ويجعلهم مؤيدين لبريطانيا في الحرب، وكان من هؤلاء اللورد إدوارد جراي، بينما رأى كيرزون أن احتلال بغداد سيعقد الحرب ويغضب العرب ويستهلك الطاقة الإمبراطورية البريطانية فيما لا فائدة من ورائه . ولم يؤخذ بكلامه . ففي ١٩١٧ تم الاستيلاء على بغداد وتأمينها بعد عامين من الفوضى ونشطت المقاومة المسلحة ضد الاحتلال وجرت أنهار من الدماء في العراق.

تحسين صورة الاحتلال

يبقى أن نشير إلى أن كيرزون كان مقتنعا كل الاقتناع بأهمية أن تحصل الدولة الإمبراطورية على موافقة الشعب في أي قطر مستهدف للاحتلال أو الإخضاع. فالشعب الراضي عن الاحتلال والساعي له يضغط حتما على حكامه المحليين ليستدعوا القوات الإمبراطورية. كان مقتنعا أيضا بأن أفضل وسيلة لحكم الشعوب من جانب دولة إمبراطورية هو أن يقوم حكم ذاتي تحت إشراف سلطة الاحتلال الإمبراطوري. في هذه الحالة لا تتحمل دولة الاحتلال الإمبراطورية مسئوليات الفوضى أو التقصير أو نقص الإنجاز وحدها . بل يمكن عندئذ ليس فقط تحميل المسئولية لأجهزة الحكم الذاتي المنتخب ديمقراطيا أو المعين تعيينا مباشرا من سلطة الإمبراطورية، ولكن يمكن أيضا تحويل الغضب الشعبي تجاه السلطات المحلية. وأظن أن قيادات في النخبة الإمبراطورية الحاكمة في أمريكا ومنها كولين باول، مؤمنة بهذه الحكمة ، فهي تسعى باستمرار إلى تحسين صورة الاحتلال في الدول العربية والترويج له وحث كافة المسئولون وأجهزة الإعلام على استخدام تعبير التحرير ورفض تعبير الاحتلال.

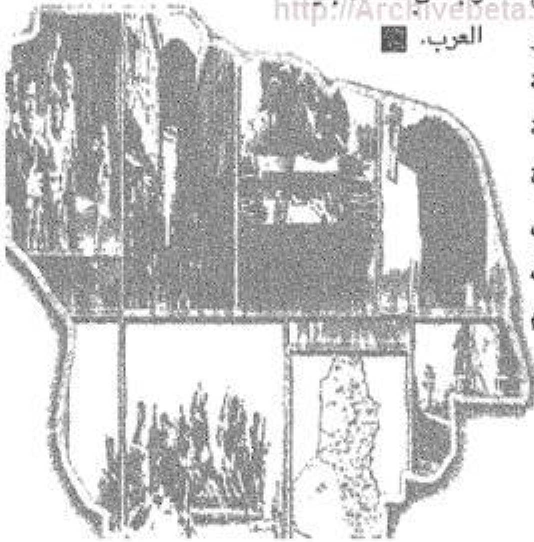
فرق جوهري أخر بين كيرزون وبريمر، هو أن الأول كان يؤدي وظيفة هي من اختصاصه وتتفق مع خبرته وتدريبه، بينما الثاني اختير على أساس فهم خاطيء.. فقد تخصص بريمر عبر السنوات الأخيرة في موضوع الإرهاب، حتى اعتبرته الحكومة في واشنطن أحد أهم الخبراء في هذا الموضوع، فقد عمل في هذا المجال منذ العام ٨٦ حين عينه الرئيس ريجان سفيرا لشئون مكافحة الإرهاب ويبدو أنه اكتسب خبرته من

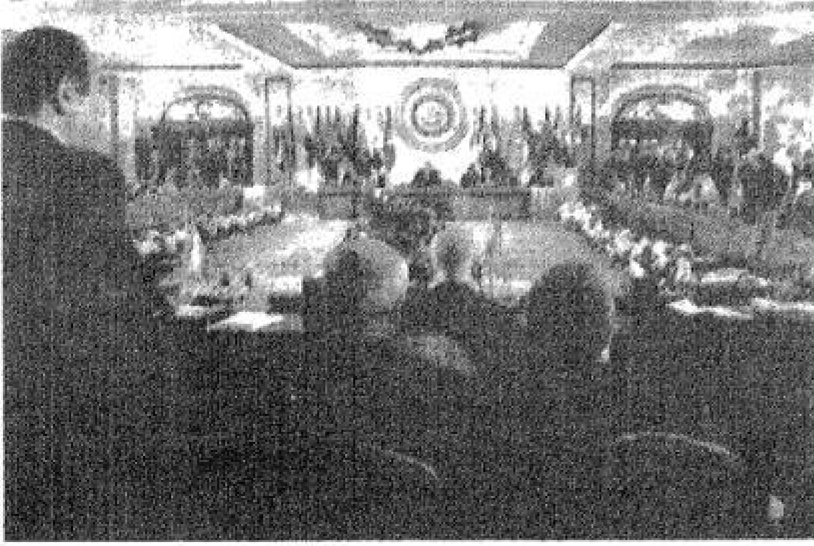
خلال عمله مع أوليفر نورث صاحب فضيحة الكونترا، حين قامت اللجنة التى كان يرأسها وفى عضويتها بريمر تبيع السلاح إلى إيران لدعم قوات الكونترا التى كانت تحارب جيش الساندينيستاس فى نيكارجوا، وكان بريمر أعلى مسئول عن مكافحة الإرهاب فى أمريكا عندما أسقط الإرهابيون طائرة بان أمريكان فوق لوكيربى فى استكلنده، واختلف الناس وقتها بين من يتهم بريمر بالتقصير لعدم يقظته ومن يمدحه لأنه تنبأ بموجة إرهابية قادمة، إذ نصح وقتها بإنشاء وزارة للأمن الداخلى ووضع إجراءات قوية لمكافحة الإرهاب، وهى النصيحة التى لم تنفذ إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

أخصائي إرهاب

وجاء اختيار بريمر حاكما لبغداد استناداً لاقتناع كان سائداً قبل أن يثبت زيفه، بأن حكومة صدام حسين متواطئة مع تنظيم القاعدة وأنها مستعدة بأسلحة تدمير شامل، أفهم أن تستغل الشريحة الامبراطورية فى الولايات المتحدة قضية الإرهاب لتحتل العراق وتجعله ركيزة توسعها فى العالم الإسلامى أو ما يسمى بالشرق الأوسط الكبير، ولكن لا أفهم أن تبعث إلى بغداد بأخصائى إرهاب ليحكم ويصنع عراقا نموذجا، كيرزون تخصص فى الاستعمار وفى عهده نمت وترعرعت الحركة الوطنية فى الهند، أما بريمر فقد تخصص فى مكافحة الإرهاب، وفى عهده نشأ الإرهاب فى العراق ثم نما وترعرع.

أخشى أن تتفاقم أخطاء الامبراطورية وممثليها فى بغداد فتتدهور أحوال العراق ويصير بالفعل نموذجا تشيد به وتقلده قوى الهدم والانفراط فى العالم العربى، أخشى بنفس القدر أن يسلك حاكم العراق ومعاونوه الطريق السهلة فيستعيرون من العالم العربى أبغض ما فيه من سياسة وفساد وتخلف، فيعود أسلوب الحكم عند العرب نموذجا صالحاً للتطبيق فى العراق.. لا أحد فى الشرق الأوسط الكبير يتمنى أن تصير بلده كالعراق فى وضعه الراهن، ولا أحد يتمنى للعراق أن يجمع بين الاحتلال الأجنبى وأبغض ما عند بقية العرب. ■





الجلسة الختامية لقمة بيروت - مارس ٢٠٠٢

آفاق جديدة للعمل العربى

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

فى أواخر الشهر الحالى (مارس ٢٠٠٤) تنعقد القمة العربية الدورية الرابعة فى تونس بعد طول مراوحة حول مكان انعقادها لتبحث عدداً من القضايا بالغة الأهمية، وعلى رأسها دون شك تطورات القضيتين الفلسطينية والعراقية وإصلاح جامعة الدول العربية، وسوف يركز المقال على هذه القضية الأخيرة ليس لأنها أهم القضايا المطروحة على القمة بالضرورة ولكن لأن بعض الغموض واللبس ربما كان محيطاً بها.

تبحث قمة تونس عدداً من المبادرات المقدمة من دول عربية بعينها، ولا نريد الآن أن نقع فى شرك مناقشة هذه المبادرات تفصيلاً، فثمة ماهو أهم من ذلك يتعلق بالخبرة الماضية لمحاولات إصلاح جامعة الدول العربية ودلالاتها، وبعض الاعتبارات الموضوعية التي يمكن أن تساهم فى تحديد مصير محاولات الإصلاح الراهنة، وأفكار حول السيناريوهات المختلفة لقمة تونس فيما يتعلق بالموقف من قضية إصلاح الجامعة

الخبرة الماضية لمحاولات الإصلاح

تأتى محاولات الإصلاح الراهنة فى ظل أزمة خانقة تلف النظام العربى بعد عجزه عن مواجهة تحدى الممارسات الإسرائيلية فى فلسطين والاحتلال الأمريكى للعراق، ولذلك فإنه من الأمور الإيجابية دون شك أن تكون هناك رغبة فى إصلاح جامعة الدول العربية بهدف تفعيل نشاطها ، غير أن إلقاء نظرة متفحصة على جهود الإصلاح السابقة يمكن أن يكون مفيداً فى استشراف مصير المحاولات الراهنة.

تكاد مبادرات الإصلاح أن تكون قد لازمت جامعة الدول العربية منذ نشأتها، وهو أمر جيد يدل على السعى إلى تعزيزها، غير أن له جانبه المظلم أيضاً على نحو ماسيجىء، فقد شهد عقد الأربعينات من القرن العشرين (١٩٤٨) مناداة بتنسيق السياسات الخارجية للدول العربية باعتبار أن ذلك ضروريا للحديث عن أمن قومى عربى، وشهد عقد الخمسينات من القرن نفسه وفى عدد من سنواته مقترحات بإنشاء اتحاد عربى لجعل الجامعة منظمة أكثر فاعلية وتكوين جمعية شعبية (أى برلمان بلغة اليوم) لإضافة بعد غير رسمى إلى جهود الجامعة العربية ، ناهيك عن الموافقة فى مطلع ذلك العقد على معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى، وهى معاهدة حلت - ضمن مساهمات أخرى - معضلة نظام التصويت فى جامعة الدول العربية، إذ مكنت مجلس الدفاع الذى نشأ بموجبها من أن يصدر قرارات ملزمة بأغلبية الثلثين فى مقابل ميثاق الجامعة الذى يمكن أن تصدر القرارات فيه بالأغلبية ، لكنها فى هذه الحالة لن تلزم إلاّ من وافق عليها، وفى عقد الستينات وافقت قمة الإسكندرية فى ١٩٦٤ على إنشاء محكمة عدل عربية لتقوم بدور فى حل المنازعات العربية العربية، وفى السبعينات دعت قمة الرباط ١٩٧٤ إلى تعديل الميثاق ليصبح أكثر ملاءمة لمتطلبات التطوير، وفى الثمانينات وافقت قمة عمان على عدد من الوثائق الاستراتيجية فيما يخص عملية التكامل العربى، وفى

التسعينات وافقت قمة القاهرة ١٩٩٦ على محكمة العدل العربية «من حيث المبدأ»، ودعت إلى إقامة منطقة تجارة حرة عربية لتعزيز العلاقات التجارية بين البلدان العربية، وفي مطلع القرن الواحد والعشرين وافقت قمة القاهرة على بروتوكول دورية القمة.

ويظهر إمعان النظر في المحاولات السابقة أن بعضها قد وفق عليه كمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي (١٩٥٠)، ووثائق قمة عمان الاقتصادية (١٩٨٠) ومنطقة التجارة الحرة العربية (١٩٩٦) وبروتوكول دورية القمة (٢٠٠٠) بينما رفض البعض الآخر أو تعثرت محاولات الموافقة النهائية عليه كإنشاء محكمة عدل عربية أو تعديل الميثاق، غير أن النتيجة تبدو واحدة في الحالتين، بمعنى أن ما وافق عليه من مقترحات للتطوير لم يؤد إلى نقلة نوعية في العمل العربي المشترك، فلا معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي أفضت إلى أمن عربي قومي أو تكامل اقتصادي حقيقي، ولا وثائق قمة عمان الاقتصادية وضعت موضع التطبيق، ولا ما نفذ من برنامج منطقة التجارة الحرة العربية منذ ١٩٩٨/١/١ أحدث نقلة نوعية في التجارة البينية العربية، ولا دورية القمة العربية غيرت في طبيعة نتائجها، بينما نلاحظ في الوقت نفسه أن بعضاً من أهم إنجازات الجامعة كتصديها الناجح للتهديد العراقي بضم الكويت قبيل استقلالها في ١٩٦١ قد تم في إطار الهيكلية الحالية .

ويعني ما سبق أن قضية إصلاح الجامعة ليست قضية إصلاح قانوني فحسب وإنما هي قضية سياسية بالمقام الأول، وعندما يتوافر الشرط السياسي لفاعلية الجامعة – وهو أساساً الإرادة العربية المشتركة – سوف يكون الاصلاح ممكناً، بل سوف تعمل الجامعة على نحو أفضل ولو في ظل هيكلتها الحالية، ولا يعني هذا ألا نجتهد في مجال الإصلاح القانوني، ولكن معناه أن ننتبه لحقيقة أن هذا الإصلاح وإن بدا ضرورياً فإنه غير كافٍ، بل إن توفر الإرادة العربية المشتركة يعني إمكان تفعيل الجامعة وتعزيز دورها الحالي حتى في إطار وضعها الراهن.

نحو الإصلاح في قمة تونس

لا أريد أن أبدو متشائماً بشأن مايمكن أن تتوصل إليه قمة تونس بخصوص إصلاح جامعة الدول العربية، خاصة أن المناخ العربي الراهن لاينقصه مزيد من غيوم الإحباط واليأس، غير أن تجاهل الواقع من ناحية أخرى سوف يكون اختياراً مستحيلاً إذا كنا ننشد الجدية، ناهيك عن لا أخلاقيته. وللأسف فإن ثمة عوامل لايبدو تأثيرها معززاً لامكانات التفاؤل بأداء قمة تونس في قضية اصلاح الجامعة:

- هناك أولاً مفارقة أن «مظاهرات الإصلاح» تتم على خلفية من أداء عربي سيىء في المرحلة التي سبقت هذه المظاهرات، فلم يتمكن العرب من شئ يذكر في مجال التصدي للممارسات الإسرائيلية الاجرامية في الأراضي الفلسطينية والممارسات الأمريكية المشابهة في العراق، على الرغم من وجود «كم كبير» من القرارات ذات الصلة التي كان من الممكن أن تجدى في مواجهة هذه التحديات ، وليس واضحاً لي كيف أن عقد النظام العربي الرسمي الذي انفرط بعد الاحتلال الأمريكي يمكن أن يلتئم مرة أخرى حول قضية إصلاح الجامعة مع أن الظروف العربية والإقليمية والعالمية كما هي لم تتغير.

- وهناك ثانياً: أن بعض مبادرات الإصلاح يبدو وكأنه يعكس روح «التنافس» أكثر منها روح الإصلاح وجوهره، وأعلم أن إثبات هذا الشك صعب علمياً الآن، وإن كان من الضروري أن نشير إلى أن التحركات السياسية التي قام بها بعض من أصحاب المبادرات تكشف عن حقيقة التنافس هذه، مع أن ثمة قاسماً مشتركاً بين المبادرات يمكن البناء عليه، وهو ماحاول الأمين العام لجامعة الدول العربية القيام ببلورته لعرضه على القمة في تقرير يقدمه إليها.

- وهناك ثالثاً : أن بعض المبادرات المطروحة يتعارض مع الحقائق البنيوية للنظام العربي الذي يقوم على فكرة سيادة الدول الأعضاء والمساواة في هذه السيادة كما هو منصوص عليه في الميثاق ، ولذلك فإن مقترحات مثل تكوين مجلس أمن عربي من عدد محدود من الدول ، أو جعل التصويت ملزماً للكافة إذا وقع بأغلبية الثلثين ، أو فرض عقوبات متدرجة على الدول التي لاتلتزم بسداد نصيبها في ميزانية الجامعة أو بتنفيذ القرارات الصادرة عن هيئاتها المختلفة - مقترحات كهذه لن تصادف حماساً من قبل عديد من الدول العربية التي تخشى أي قيد على سيادتها، كذلك فمن غير الممكن أن يكون ثمة برلمان عربي فاعل يضفي بعداً شعبياً على عمل الجامعة بينما تغيب البرلمانات الفاعلة في كل الدول العربية أومعظمها على الأقل.

- وهناك رابعاً: وأخيراً أن ثمة «ازدحاماً» واضحاً في أفكار التطوير وآلياته المطروحة على الجامعة العربية، فهناك الاقتراح بجعل التصويت بأغلبية الثلثين ملزماً للكافة، وهناك الإقتراح بإنشاء مجلس أمن عربي من سبع دول عربية بالانتخاب لمدة محددة تتجدد العضوية بعدها، ويكون هذا المجلس مسئولاً عن الحفاظ على الأمن القومي العربي، وهناك الاقتراح بانشاء محكمة عدل عربية ومصرف للتنمية الاقتصادية

فى الوطن العربى وهيئة للمتابعة ومجلس أعلى للثقافة ... الخ، وليس من المبالغة القول بأن أكبر ضربة يمكن أن توجه للجامعة من الداخل يمكن أن تكون الموافقة على هذه المقترحات كافة، لكى تبدأ بعدها محنة التصديق ثم البحث عن موارد لتشغيل هذه المؤسسات الجديدة فى زمن شحت فيه موارد منظمات العمل العربى المشترك إلى حد بعيد ، وبعدها - أى محنة التصديق والتمويل - تأتى محنة المصداقية .

سيناريوهات القمة وأفكار للمستقبل

لن يخرج موقف قمة تونس من جهود الاصلاح الراهنة عن احتمالات ثلاثة : إما الرفض وإما القبول وبينهما القبول من حيث المبدأ.

وتظهر خبرة العمل العربى المشترك أن فضيلة الصراحة غائبة فى الدبلوماسية، فالذين لايوافقون على شيء يبدو فى نظر مقترحيه أو الرأى العام العربى مفيداً للأمة لا يخاطرون بصراحة الرفض التى تجلب عليهم متاعب شتى هم فى غنى عنها ، ولذلك فهم إما يوافقون على أمل أن تلحق القرارات الصادرة بهذه الطريقة بغيرها من القرارات، وتجد طريقها سريعاً إلى أرشيف الجامعة وأوراق الباحثين ، فإذا حدث أن بدت بوادر جدية للتنفيذ أمكن لهم الصمت أو التذرع بأية حجج تجعلهم فى وضع المستثنى من التطبيق والالتزام ، ولذلك فإن سيناريو الرفض غير وارد بالنسبة لقمة تونس.

ويبدو أن سيناريو قبول مقترحات التطوير محتمل إذن، فمن الصعوبة بمكان أن ترفض مقترحات التطوير ومن المفيد سياسياً أن يبدو القادة العرب وكأنهم يشعرون بجسامة المسئولية ويتصرفون من ثم طبقاً لهذا الشعور فيتخذون من القرارات مايعزز منظومة العمل العربى المشترك كى تصبح أكثر قدرة على مواجهة التحديات، ويجب أن يكون واضحاً - خاصة على ضوء ماتم استعراضه من خبرة ماضية - أن هذا السيناريو حال حدوثه لايعنى أن جامعة الدول العربية «سوف تتطور» وإنما هو يعنى فقط أن ثمة قرارات قد اتخذت بشأن تطويرها .

ويبدو فى تقديرى أن سيناريو «الموافقة من حيث المبدأ» مع إحالة المقترحات أو معظمها إلى «لجان لدراستها» هو السيناريو الأوفر حظاً، فهو يجمع بين الحسنيين إذ يظهر القادة العرب بمظهر الحريص على التطوير مرتين : مرة بالموافقة على مقترحاته وثانية باظهار الحرص على أن تكون هذه المقترحات أكثر جدية بإحالتها للدراسة ، وهذا السيناريو بالمناسبة وقع كثيراً فى محاولات تطوير سابقة ، وكان آلية للوأد الرحيم لها.

يبقى أن نضيف أن الواقع يشهد أحياناً تداخل أكثر من سيناريو، فمن الممكن مثلاً أن تتم الموافقة على مقترح

معين ويرفض آخر وتحال أفكار أخرى للدراسة، غير أن المحصلة العامة فى تقديرى لن تكون مفضية إلى تطوير حقيقى طالما بقيت السياسات العربية على ماهى عليه.

ما الحل إذن؟

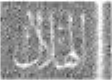
يبدو من التحليل السابق أن ثمة تشاؤما بخصوص مصير محاولات إصلاح جامعة الدول العربية سواء فى قمة تونس القادمة أو فى أعقابها وإذا كان هذا التحليل صحيحاً فهل يفضى بنا إلى القعود وانتظار المصير المحتوم، أو المساهمة مع بعض الواهمين أو المؤمنين «بالشرق الأوسط الكبير» فى الدعوة إلى هدم الجامعة؟ لن يكون هذا بطبيعة الحال هو طريق المؤمنين بالرابطة العربية والمدركين لخطورة مايحاك للعرب من داخلهم ومن خارجهم. فهل لنا أن نتقدم بمنتهى التواضع باقتراح ذى أبعاد ثلاثة؟

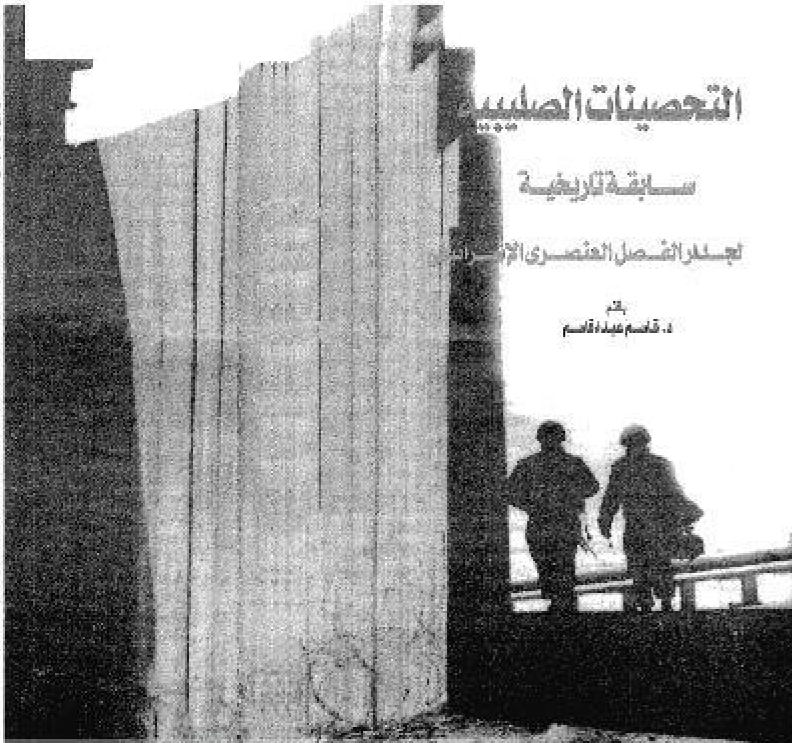
- فى البعد الأول: نعمل على تفعيل ماهو موجود دون إصلاح أو غيره، فلدينا معاهدة الدفاع العربى المشترك بمجلس دفاعها ووثائق قمة عمان الاقتصادية وعشرات من قرارات القمم والمجالس الوزارية التى لو نفذنا منها نسبة محدودة لدبت روح جديدة فى النظام العربى دون أن نتكبد مشقة الخلاف حول مقترحات التطوير.

- وفى البعد الثانى: ننصح بوضع أولويات للتطوير ونتخير مقترحاً وحيداً نتصور أنه سوف يكون الأكثر فعالية فى تفعيل الجامعة، ونبذل قصارى الجهد لانجاحه، فإن نجح فتح الباب لغيره، وإن أخفق تعلمنا من دروس الإخفاق فيما هو مقبل من خطوات.

- وفى البعد الثالث: ننصح الدول ذات العزم الصادق على التطوير بأن تشكل فيما بينها نواة يتفق أعضاؤها على القيام بخطوة نوعية أو أكثر فإن نجحت هذه الخطى جذبت المزيد من الأعضاء إلى النواة ، وصرنا أقرب إلى نموذج الاتحاد الأوروبى الذى بدأ بست دول أخذ عددها يتزايد مع كل نجاح يتحقق، بمعنى أن زيادة العدد لم تتم على الأساس نفسه كما هو الحال فى جامعة الدول العربية، وإنما كان الأساس يزداد متانة بالتدريج ويستقل الأعضاء الجدد القطار من المحطة التى يلحقون به فيها وليس من محطة قيامه.

أما إذا بقينا ندور فى الحلقة المفرغة نفسها - مقترحات تفشل فتحبطنا أو تنجح فتزيدنا احباطاً لعجزنا عن تنفيذها لأن الخصائص البنيوية للنظام العربى هى نفسها لم تتغير، فقد حكمنا على أنفسنا بالركون إلى حركة هى أقرب إلى السكون، أو لعل السكون خير منها، فقد يكون سكون التأمل فى أعراض المرض بغية التوصل إلى خير طريقة لعلاجه. ■





يقول المؤرخ الإسرائيلي المعاصر يوشع براور، الذي مات منذ سنوات قليلة في كتابه «عالم الصليبيين» (ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، دار عين للدراسات والبحوث ١٩٩٩م)، وهو أبرز من كتبوا عن الاستيطان الصليبي في فلسطين والمنطقة العربية، ليصف حال المستوطنين الفرنج:

«كانت نسبة الصليبيين داخل حدودهم بالقياس إلى أعدائهم واحدا إلى خمسة تقريبا. وبينما يبرهن هذا التقسيم الإحصائي على أن الصليبيين فشلوا في الاستعمار الاستيطاني، فإن هذا التقسيم الإحصائي نفسه يبدو أكثر أهمية عند النظر إليه من خلال إطار الجغرافيا السياسية للشرق الأدنى، حيث لم يكن ربع المليون أوربي «صليبي» يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب، وإنما كانوا يواجهون ملايين المسلمين من النيل إلى بلاد ما بين النهرين. ومن حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم لمدى أكثر من مائة وخمسين عاماً، ذلك أن رابطة الدين المشترك، واللغة والثقافة المشتركة، لم تكن لتحول دون مسيرة التاريخ وفرض التجزئة. إلا أن محاولات توحيد القوى الإسلامية، مثل محاولة صلاح الدين الأيوبي، لم تكن تعمر طويلاً بعد وفاة صاحبها، ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى السلطان بيبرس في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي».



إن هذه الكلمات التي كتبها يوشع براور، عن الاستعمار الاستيطاني الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، تشي برؤية صهيونية معاصرة لمشكلات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين. إذ إن مشكلة التفوق العددي التي أرقت الفرنج الصليبيين قديما، هي التي تؤرق الكيان الصهيوني الآن. وما الحديث عن القنبلة البشرية الفلسطينية والدراسات والبحوث التي تجريها الدوائر الصهيونية عن احتمالات الاكتساح السكاني الفلسطيني لأولئك الذين جمعتهم الحركة الصهيونية من أرجاء الدنيا لتقيم بهم دولتها العنصرية. وإذا كانت التجربة الصليبية، عموما، تعتبر بمثابة «السابقة» التاريخية للتجربة الصهيونية، فإن المؤرخين الإسرائيليين بذلوا جهوداً جبارة لفهم ظاهرة الاستيطان الصليبي ومحاولة استخراج الدروس المستفادة من تلك «السابقة التاريخية». وربما كانت هذه الدراسات تهدف إلى كيفية حل معضلة المشكلة السكانية، واحتمالات الذوبان داخل هذا المحيط السكاني. لقد توصل الصليبيون إلى حل جزئي للمشكلة السكانية، وربما يكون الإسرائيليون قد استوحوا فكرة «الجدار العازل» من هذه «السابقة التاريخية»، إذ يقول يوشع براور:

«ونظراً للتفوق العددي للمسلمين، تعين على الصليبيين أن يكونوا في حالة حرب مستديمة. فقد أملى عليهم المنطق والحذر أن يتمركزوا في مواقع محصنة، وقد صارت تلك الصفة هي العلامة المميزة للمملكة الصليبية. وبينما كان الفرنج الصليبيون في بلادهم الأصلية يعيشون جميعا، سيداً وخادماً، في المناطق الريفية بشكل دائم، فإنهم اضطروا في الشرق إلى العيش داخل مدن وقلاع حصينة دونما استثناء. أما الاستيطان الصليبي في الريف الفلسطيني، فقد اتخذ شكل بيوت الضياع المحصنة التي تناثرت هنا وهناك حقا، ولكنها كانت دائما بالقرب من القلاع أو المدن المحصنة، وكان من النادر أن يسكن المهاجرون الغربيون القرى، وفي هذه الحال لم تكن تخلو من برج دفاعي إلا إذا كانت واقعة في نطاق إحدى القلاع»..

التهرب من السلام

مرة أخرى تطل المشابهة بوجهها من بين السطور، إذ إن حالة الحرب الدائمة صارت بمثابة «الأسمنت» الذي يجمع شتات هذه الشراذم التي جمعتها الصهيونية من هنا وهناك. ولعل هذا يفسر لنا حالة التهرب الدائمة من السلام على الرغم من كل التنازلات الثقيلة التي قدمتها القيادة الفلسطينية. إن الخوف من السلام لدى الإسرائيليين يمكن تفسيره في ضوء الحقيقة القائلة بأنهم يمكن أن يذوبوا في المحيط السكاني العربي الأوسع، بتراثه الحضاري وخلفيته الثقافية، وخبرته التاريخية. ولهذا تعين على قادة الدولة اليهودية أن يضعوا سكان هذه الدولة في حالة حرب دائمة، تماما مثلما فعل أسلافهم الصليبيون.

أما مسألة التمركز في مواقع محصنة، والتي كانت سمة من سمات الوجود الصليبي، فإن تلك الأعداد الهائلة من الجنود الإسرائيليين، والعدد الكبير من حواجز التفتيش وغير ذلك من الإجراءات التأمينية، إنما هي نوع من التحصين في ثياب عصرية. كما أن القيود المفروضة على العرب الذين يعيشون داخل الكيان الصهيوني تأكيد لروح التمترس وراء الحصون التي يعيش الإسرائيليون في ظلها. ومن ناحية أخرى فإن ما ذكره المؤرخ الإسرائيلي عن أن الصليبيين لم يعيشوا في الريف بشكل عام - وهو حقيقة تاريخية - يكشف عن أن الصهاينة قد استوعبوا هذا الدرس وكانت الكيبوتزات المسلحة هي الحل الذي توصلوا إليه. فضلاً عن أن المستوطنات اليهودية تقوم على أسس عسكرية في الأساس. وما هي قطعان المستوطنين المسلحين وما يقترفونه من جرائم تؤكد على الطابع العسكري للمستوطنات الزراعية اليهودية. إذ إن عسكرة الحياة الإسرائيلية يحقق عدة أهداف، تحقيق الشعور الدائم بحالة الحرب، توفير الحماية العسكرية الذاتية للمستوطنات الصهيونية، التغلب على عوامل نقص الموارد السكانية وسط محيط بشري معاد وأكبر عدداً.

الأمن الذي لا يجيء!

ومن ناحية أخرى، فإن سياسة «الشعب تحت السلاح» التي تجعل من غالبية الإسرائيليين قوات احتياط فعالة للجيش الإسرائيلي، قد صبغت الكيان الصهيوني كله بالصبغة العسكرية. كما أن الصناعات العسكرية باتت أساس الاقتصاد الإسرائيلي، فضلاً عن أنها صناعات لا تزدهر ولا تتقدم في ظل السلام الذي يخشاه زعماء إسرائيل خشيتهم على وجود الكيان الصهيوني نفسه. هذا الخوف من التفوق العددي للعرب، والذي يترجم نفسه إلى خوف من السلام ذاته، هو الذي جعل الدولة اليهودية تتبنى سياسات عسكرية تقوم على أساس تحقيق الكفاءة القتالية بأقل قدر من القوات العسكرية العاملة. وهو أيضا السبب في «حل الفرصة الأخيرة» الذي تصورت حكومة شارون أنه طوق النجاة للكيان الصهيوني، وهو إقامة ذلك السور العجيب لحماية الإسرائيليين «المحبوسين داخل خوفهم» من الهجمات الفلسطينية المحتملة. إن من يقرأ تاريخ الاستعمار الاستيطاني الصليبي يمكن أن يفهم بسهولة نوازع الخوف التي تحرك الإسرائيليين الآن، وتتجسد في ذلك الجدار العنصري الذي ينشد الإسرائيليون من ورائه أمناً لا يجيء، وسراباً يفر من الرائين، يقول يوشع براور:

«ومن هذه المراكز الحصينة، التي كانت مدناً في العادة، كان الصليبيون يحكمون البلاد. ولكي يكون وجودهم محسوساً وسيادتهم فعالة، فإنهم رصفوا جميع الطرق الرئيسية والممرات بالحصون الصغيرة التي كانت تشبه نقاط المراقبة أو

نقاط الشرطة. وصارت شبكة التحصينات الواسعة، التى لم تشهدها المنطقة من قبل هى الشبكة الحاكمة للمملكة الصليبية. وطالما كانت القلاع والحصون والاستحكامات مصونة ظل الصليبيون يحكمون الأراضى المقدسة. بيد أنهم كانوا يحكمونها فقط طالما كانت حاميات قلاعها وحراسها، ودوريات الطرق قادرة على حفظ الأمن فى الإقليم. وقد تجلت علامات واضحة تدل على قصور السيادة الصليبية بعد ثمانين عاماً من تأسيس المملكة. فقد تحصَّن جماعة من المسلمين الذين اتخذوا من دمشق قاعدة لهم وتحصنوا فى أعلى جبال الجليل، وفرضوا الضرائب على السكان المحليين دونما مضايقة من السلطات الصليبية. وحدث بمحض المصادفة أن استثار وجود كمائن أولئك الفدائيين أفراد أحد الجيوش الصليبية وهم يعملون فى تحصين أحد الممرات القريبة، فدمروا مخابئهم ووضعوا بذلك نهاية لنشاطهم، وقد أدى هذا الحادث إلى ضرورة أن تكون الدولة الصليبية والمجتمع الصليبى فى حالة حرب دائمة. لقد تمهلت القدس السماوية فى نزولها، وصار السلام حلما قاصرا على عالم النبوءات والأحلام بعيدة المنال. وكان على القدس الأرضية أن تُحكم ويتم الدفاع عنها بوسائل واقعية على الرغم من كل ما كانت تعبر عنه من قيم روحانية».

وجه التشابه بين كيانين

فهل يخفى على أحد أن يوشع براور كان يقصد إسرائيل على الرغم من أنه كان يكتب عن تجربة الاستعمار الاستيطانى الصليبى قبل سبعة قرون؟ وهل يمكن لأحد أن يغفل عن وجه التشابه - على الرغم من المسافة الزمنية التى تفصل بين الكيانين - بين الكيان الصليبى والكيان الإسرائيلى؟

إن روح التحصن ، والخوف من الأعداء أصحاب الحق والأرض الذين يحيطون بهذا الكيان الغريب هى التى ميزت تاريخ الصليبيين وتميز سلوك الإسرائيليين. وعلى الرغم من أن الوسائل اختلفت، بطبيعة الحال، بحكم الظروف التاريخية الموضوعية فإن الروح تظل واحدة فى الحالين. فهل الحاميات ودوريات الطرق والحصون تختلف فى جوهرها عن الوسائل العسكرية الحديثة التى تستخدمها القوات الإسرائيلية لضمان الأمن؟ وهل يختلف الهاجس «الأمنى» لدى إسرائيل الحالية عن ذلك الهاجس الأمنى الذى كان يحرك الصليبيين قبل عدة قرون من الزمان؟ أليس الجدار العازل الذى يبنيه الإسرائيليون الآن سوى تجسيد لهذا الهاجس؟

إن هذه الأسئلة، وما يتفرع عنها بالضرورة، تكتسى مشروعيتها من حقيقة أن التشابه شديد فى جوهر الوجود الصليبى والوجود الصهيونى على الأرض العربية. فقد قام كل من الكيانين حول أيديولوجية تستمد خيوطها من الفكرة التوراتية عن «الشعب المختار» و«الأرض الموعودة». فقد ركز البابا إربان الثانى فى خطابه إلى الجموع التى كانت تستمع إليه

في كليرمون بجنوب فرنسا في ذلك اليوم من شهر نوفمبر من سنة ١٠٩٥م على فكرة أن الرب قد «اختار» الفرنج لهذه المهمة التي وصفها بأنها مقدسة، كما ذكرهم بفلسطين «الأرض الموعودة» التي تفيض باللبن والعسل حسبما يقول الكتاب المقدس. ومن ناحية أخرى، كانت الخلفية الأيديولوجية ستاراً لمشروع استعماري استيطاني يحرم المنطقة العربية من وحدتها ومن ثروتها على السواء. وكذلك فعلت الحركة الصهيونية سواء في رعايتها، أو في مراحل تنفيذ مشروعها. وفضلا عن ذلك، كان المشروع الصليبي في القرن الحادي عشر والمشروع الصهيوني في القرن العشرين مشروعاً غربياً وجهه الغرب ضد المنطقة العربية وساندته بالأموال والرجال والقوة العسكرية. ففي تاريخ الحركة الصليبية، كانت كل الحملات الصليبية التي أعقبت الحملة الصليبية الأولى، دفاعاً عن المكاسب التي حققتها تلك الحملة، وتجسدت في زرع الكيان الصليبي على الأرض العربية. وفي تاريخ الحركة الصهيونية يقف الغرب موقف الظهير المساند للكيان الصهيوني على الأرض العربية ذاتها، مسانداً بالمال والجيوش والدبلوماسية والضغوط الدولية، والتدخل العسكري السافر إذا لزم الأمر «تأمل ما حدث في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م حينما تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية بجسر جوي يحمل الرجال والعتاد لإنقاذ الدولة اليهودية التي بات وجودها مهدداً بعد الانتصارات المصرية والسورية».

النفسية الخائفة وراء الجدار العازل

إن المغزى الحقيقي للجدار العازل، أو الحائط العنصري الذي يقيمه شارون، يتمثل في حقيقة تعرفها إسرائيل جيدا، وتجسدها كلمات المؤرخ الإسرائيلي يوشع براور الذي زعم أنه كان يكتب عن الصليبيين، إذ يقول:

«.. ولكن الهزيمة ذاتها كان لها معنى عند الصليبيين يختلف عن معناها عند أعدائهم. فقد كان لدى الأعداء احتياطي لا ينفد من القوى البشرية، وبالنسبة لهم لم تكن أكثر الهزائم قسوة تعني أكثر من مجرد معركة خسروها، يتلوها تقهقر إلى قواعد آمنة بعيدة عن متناول الجيوش الصليبية في حلب، ودمشق، أو القاهرة. أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يعبئون كل قواهم البشرية تقريباً في حالات الهجوم الرئيسية، فقد كانت الهزيمة الواحدة ربما تعني خسارة المعركة أو الحرب، بل حتى ضياع المملكة الصليبية نفسها. وهذا هو بالضبط ما حدث في معركة حطين سنة ١١٨٧م، عندما كان معنى الهزيمة هو فقدان المملكة كلها».

ألا ينطبق هذا على إسرائيل؟ ومن ثم، فهل لنا أن نفهم النفسية الخائفة وراء الجدار العازل؟ وهل الجدار العازل إلا رمز ومغزى للخوف من السلام ومن الحرب ومن المستقبل؟!! ■

حزب الله
والواقع العربى

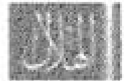
بقلم
د. محمد سليم العوا

فى ذكرى عاشوراء ١٤٢١ هـ، التى وافقت يوم ١٤/٤/٢٠٠٠م، ألقى السيد حسن نصر الله ، الأمين العام لحزب الله ، خطابا حضره نحو ستة آلاف شخص . لم يكن الاحتلال الإسرائيلى قد خرج يومئذ من جنوب لبنان ، لكنه كان قد أعلن تحديد شهر يوليو ٢٠٠٠ للانسحاب من الأراضى المحتلة فى الجنوب .

يومها وقف حسن نصر الله يخاطب أنصار الحزب وأعضاءه عن الموضوعات التى ستكون موضع اهتمام الحزب، بعد أن يتحقق الانسحاب، الذى وصفه بأنه حين يتم سيمثل «حالة انتصار تاريخى لامثيل له ، لكنه يمكن أن يتكرر» !

وحدد السيد حسن نصر الله هذه الموضوعات بأنها : «الأسرى والمعتقلون تحت يد العدو الصهيونى ؛ الأضرار التى أصابت لبنان وحقه فى التعويض عنها ؛ ميليشيا أنطوان لحد العميلة لإسرائيل ؛ الاعتداءات الصهيونية المستمرة على أراضى لبنان وسيادته بحرا وبرا وجوا ، اللاجئون الفلسطينيون وضرورة عودتهم إلى وطنهم» .

وكان هذا الخطاب إعلانا بأن مهمة الحزب الوطنية فى لبنان لن تنتهى بمجرد الانسحاب الإسرائيلى من الجنوب ، لكنها ستستمر فى شأن هذه القضايا - التى سماها حسن نصر الله ملفات يجب أن يعمل الحزب على إغلاقها - إلى أن يتحقق للبنان الحصول على حقه المشروع فى كل منها، بما فيها موضوع اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان وضرورة عودتهم إلى ديارهم .




حسن نصر الله

بعد هذا الخطاب بأيام معدودة قرر العدو الصهيوني أن يخرج من لبنان بليل، متخفيا عن أنظار المقاومة، مستبقا الموعد الذى حدده لانسحابه بأكثر من شهرين (!) ولم يكن لذلك من سبب إلا أن جنود الاحتلال لم يعودوا قادرين على احتمال العمليات اليومية التى كان يقوم بها رجال حزب الله ضد الوحدات العسكرية للقوات الصهيونية.

وبهذا الخروج المبكر، الذى لم يتوقعه أحد، أخلى العدو الصهيونى الساحة أمام حزب الله ليبدأ العمل فى شأن الموضوعات التى تضمنها خطاب حسن نصر الله فى المحرم ١٤٢١ هـ = أبريل ٢٠٠٠.

☆☆☆

كان أول هذه الموضوعات هو موضوع الأسرى والمعتقلين، وقد تابع العالم كله فى أواخر شهر يناير ٢٠٠٤ كيف تم التبادل الناجح بين حزب الله والعدو الصهيونى. تسلم حزب الله نحو أربعمائة وثلاثين أسيرا عربيا، وتسلم رفات نحو تسعة وخمسين شهيدا من مختلف القوى الوطنية ومن المقاومة الإسلامية، كانوا قد ارتقعوا شهداء فى معارك التحرير ضد العدو الصهيونى.

وتسلم الصهاينة أسيرا واحدا هو العقيد فى المخابرات الإسرائيلية «الحنان تننباوم»، وجثث ثلاثة قتلى من الجنود الاسرائيليين كانوا قد لقوا مصرعهم على يد رجال المقاومة الإسلامية فى الجنوب اللبنانى.

وقد استمرت المفاوضات التى انتهت بهذا التبادل نحوا من ثلاث سنين، كان المفاوضون فيها من حزب الله عند موقف واحد، وتذبذب الموقف الصهيونى من الرفض الكامل لكل اقتراح بالتبادل، مقرونا بتهديد صريح بقصف بيروت إذا لم يفرج حزب الله عن العقيد الحنان تننباوم، إلى القبول التدريجى بمطلب وراء مطلب - من مطالب حزب الله - حتى قبلها جميعا، وتم التبادل فى الأيام الأخيرة من شهر يناير ٢٠٠٤ التى وافقت أيام الحج الأكبر لعام ١٤٢٤ هـ.

ويعود المتابع لسيرة حزب الله إلى خطاب السيد حسن نصر الله، فى المحرم ١٤٢٩ هـ = أبريل ٢٠٠٠، ليجده قد قال عن قضية الأسرى: «الأسرى يجب أن يطلقوا جميعا بمن فيهم الشيخ عبدالكريم عبيد وأبو على الديرانى، فإن بقوا فى السجون الإسرائيلية فإننا قوم لا نترك أسرانا، ومن حقنا أن نفعل أى شىء من أجل إطلاق سراحهم».

وكان مما فعله حزب الله أسر العقيد فى المخابرات الصهيونية الحنان تننباوم واتخاذه ورقة رابحة مضمونة فى التفاوض لإطلاق سراح الأسرى اللبنانيين والعرب.

وأسر الحنان تننباوم لم يكن عملية يسيرة، بل كان نتيجة جهد استخبارى عالى المستوى، ثبت فيه تفوق مخابرات حزب الله (الشعبية!) على مخابرات الصهيونية الرسمية التى ما فتىء الصهاينة يفخرون بقدرتها وإمكاناتها! والقصة الكاملة لأسر هذا العقيد فى

المخابرات الإسرائيلية لايمكن الآن أن يباح بها ، فى نظر المسئولين فى حزب الله ، وهى يوم تعرف سيزداد كل عربى فخرا بهؤلاء الرجال الأبطال وبقدرتهم على العمل فى النطاق الأمنى المحلى والدولى التى لاتوازيها إلا قدرتهم على مواجهة العدو، بلا تردد ولا خوف ، فى ميدان القتال.

والصهاينة اليوم فى ورطة لايحسدون عليها فى مسألة هذا العقيد وقد شكلوا لجنة عالية المستوى من الكنيست (البرلمان) الإسرائيلى للتحقيق معه ، والتحقق من صحة أقواله . وقال بيان لهذه اللجنة : « إنه (أى تننباوم) تسبب فى ضرر أمنى يفوق الخيال» وإن هناك حاجة «لوقت طويل لتقدير الضرر الأمنى والاستراتيجى الذى سببه . وهو ضرر يفوق كل تصور» (الحياة ٢٠/٢/٢٠٠٤) .

وهذه اللجنة ، والمحققون الذين تستعين بهم ، تبحث بالوسائل كافة عن إجابة السؤال : كيف وصل الحنان تننباوم إلى لبنان ؟ وتحاول التوصل إلى أجوبة شافية فى هذا الخصوص !!

والواقع أن الأجوبة الشافية كلها فى جعبة الجهاز الأمنى لحزب الله . وهو الجهة الوحيدة التى تملك التفاصيل الصادقة لكيفية الإيقاع بهذا العقيد الإسرائيلى ، الجاسوس ، الذى تعتبره إسرائيل أخطر من «مردخاى فانونو» الذى أفشى الأسرار النووية لإسرائيل (!؟) .

وإسرائيل تعتبر الثمن الذى دفعته فى استعادته من حزب الله ثمنا مبالغا فيه ، وقال رئيس لجنة الاستخبارات فى الكنيست «يوفال شطانيتس» إنه «يجب توفير كل الوسائل لطاقم المحققين لانتزاع الحقيقة» ! (الحياة ، العدد نفسه) .

هذا هو وضع الأسير الإسرائيلى العائد إلى الأرض المحتلة .

☆ ☆ ☆

أما اللبنانيان ، اللذان ذكرهما السيد حسن نصر الله فى خطابه فى المحرم ١٤٢١ هـ = أبريل سنة ٢٠٠٠ ، الشيخ عبدالكريم عبيد وأبو على الديرانى ، فقد عادا مع المئات الآخرين من إخوانهم ليلقوا الترحيب والفرحة ، والثقة التامة بثباتهم وصبرهم على الرغم مما لقوه من التعذيب البشع على يد الصهاينة فى سجون إسرائيل .

وهذا هو أحد الفوارق الكثيرة بين صنعنا فى أسرانا من أعدائنا وصنعهم فيمن يأسرون من رجالنا . إن الحنان تننباوم ، والمحققين معه من الصهاينة ، لم يستطيعوا أبدا ، ولن يستطيعوا ، أن يزعموا أنه أوذى أو عذب أو نكل به على يد آسريه من رجال حزب الله ، وأسرانا لاينكر أحد، ولا الصهاينة أنفسهم ، أنهم تعرضوا لصور من التعذيب لم تعرفها الإنسانية، ولا مارستها النازية ولا الفاشية ، فى سجون الكيان الذى يدعى أنه واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط . بل إن أبا على الديرانى نفسه رفض أن يغادر سجنه ما لم تعقد المحكمة العليا الإسرائيلية جلسة لتسمع فيها ادعاءه قبل سلطات العدو الصهيونى التى مارست ضده أبشع صور التعذيب وأدنأها وأقساها . وقد استجيب لطلبه، وأدلى بأقواله أمام المحكمة الإسرائيلية، لإصراره على مقاضاة الذين عذبوه والدولة التى يمثلونها . وأكثر من ذلك دلالة ، على احتفاظنا بقيمنا الإنسانية مع أعدائنا ، أن الحاخام والطبيب ، اللذين تسلما جثث الجنود الصهاينة الثلاثة ، صرحا لوسائل الإعلام بأن الجثث كانت بحالة جيدة جدا ، وأنها كانت محفوظة بطريقة علمية سليمة ، وكانت مجمدة حتى أنهم تعرفوا على أصحابها من ملامح وجوههم فضلا عن وسائل التعرف

المعملية !

أفلا يحق لحزب الله أن يقول: هذا نحن وهكذا نصنع ، وهؤلاء هم ، وكذلك يفعلون ؟!

تحدث حسن نصر الله في خطاب المحرم ١٤٢١ هـ = أبريل ٢٠٠٠ م عن موضوع الاعتداءات المستمرة على لبنان من جانب الصهاينة . وتعهد بتصدى المقاومة الإسلامية لهذه الاعتداءات . وقال : « لن نقبل أي اعتداء مهما كان صغيرا ومهما كان شكله ومهما كانت التضحيات » .

وهو تعهد لاتزال المقاومة حريصة على الوفاء به ، ولم تكن الجثث الثلاث التي سلمت للصهاينة إلا حصيلة معركة مع دورية صهيونية توغلت في الأراضي اللبنانية فتصدت لها المقاومة..

وقبيل إتمام التبادل بأيام قليلة توغلت جرافة صهيونية في الأراضي اللبنانية فوجدت في انتظارها نيران مدفعية حزب الله التي أحرقتها بمن كان فيها من الصهاينة .

وفي آخر خطاب ألقاه السيد حسن نصر الله في بلدة جبشيت، يوم ٢٠٠٤/٢/١٤ ، في احتفال بذكرى الأمين العام السابق للحزب السيد عباس الموسوى (استشهد في ١٩٩٢/٢/١٦) قال إن من حق المقاومة أن تنصب الكمائن وتزرع الألغام على الطرقات التي يسلكها الجنود الصهاينة للوصول للأراضي اللبنانية . وتعهد حسن نصر الله بالرد على أي محاولة لانتهاك السيادة اللبنانية . وهو تعهد تعلم إسرائيل قبل غيرها أن حزب الله سيفي به ، فذلك هو الخبر اليقين الذي لايستطيع أحد المكابرة في صدقه ، منذ بدأت المقاومة الإسلامية نشاطها في سنة ١٩٨٢ حتى الآن .

☆☆☆

وعندما جاء حسن نصر الله على ذكر العملاء الذين تعاونوا مع العدو الصهيوني تحت ما سمي بجيش لبنان الجنوبي ، قال في المحرم ١٤٢١ هـ = ابريل سنة ٢٠٠٠ م إن «أمامهم ثلاثة خيارات : أن يرحلوا مع العدو الإسرائيلي ، أو يسلموا أنفسهم للقضاء اللبناني ، أو يواجهوا رصاص المقاومة» .

وقد اختار هؤلاء العملاء الحلين الأول والثاني ، فمنهم من رحل مع الصهاينة ، ومنهم من سلم نفسه إلى القضاء اللبناني .

فأما الذين رحلوا مع الصهاينة فقد توالت الأنباء عن احتقار العدو الصهيوني لهم ، وأنهم يحيون في عشش من الصفيح والأخشاب القديمة سميت (معسكرات) ، وتدفع لهم دراهم معدودة من العملة الإسرائيلية لاتكفيهم لحياة الكفاف . ولما تجرأ نفر منهم على التظاهر مطالبين بتحسين أوضاعهم عاملتهم الشرطة الإسرائيلية بالقسوة والعنف اللذين تكفلا بألا يفكر في العودة إلى الاحتجاج أحد !

وأما الذين سلموا أنفسهم إلى القضاء اللبناني فقد قال حسن نصر الله عنهم (في خطابه بمناسبة دفن رفات الشهداء الذين عادت أجسادهم في التبادل الأخير إلى لبنان ، يوم ٢٠٠٤/١/٣١) : « إن الدولة لم تحاكمهم ، فهي عفت عنهم ، وهم موجودون في الجنوب وفي البقاع الغربي وفي مناطق مختلفة . وأقول لهم على كل حال إن الحسنات يذهبن السيئات ..» ، وطالبهم بأن يدلوا من يثقون بهم في كل منطقة على الأماكن التي دفنوا فيها بعض الشهداء الذين سقطوا في معارك التحرير ، وتعهد ألا يسألهم أحد أو

يحاسبهم أحد ، وقال إن هذه حسنة وعمل صالح .. يمكن أن يقدمه هؤلاء الذين ارتكبوا كثيرا من الخطايا والجرائم ، ويمكنهم أن يقدموا هذا العمل الصالح لمجتمعهم ولشعبهم ولوطنهم !

فلم يتعامل حزب الله مع من خانوا الوطن ، وحملوا السلاح مع العدو الصهيوني ضد أبنائه ، بالانتقام (وهو مشروع) ولا بالكراهية (وهي مسوغة بسابق صنيعهم) ولكنه تعامل معهم بالمنطق القرآني الإنساني : « إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين» (هود : ١١٤) .

وهذا نموذج جديد يقدمه حزب الله على أن العمل السياسي ، والمقاومة المسلحة الإسلامية يستحقان من ذوي النفوذ والسلطان ، ويستحقان من الحكام ، ويستحقان من المفكرين وأصحاب الأقلام ، إنصافا أكثر مما يقدم لهما ، واحتراما حقيقيا مبناه الممارسة الحضارية الإنسانية للعمل السياسي الإسلامي والمقاومة الإسلامية التي تدل على أن الخير العام هو بغيتهما ، وأن النصر الحقيقي عندهما هو تحقيق مصلحة الأمة، لا تحقيق المجد الشخصي ولا المنافع الفردية مادية كانت أم معنوية .

☆ ☆ ☆

ويصف السيد حسن نصر الله المقاومة بأنها كما تمتلك «السلاح والبندقية والصاروخ والخبرة العسكرية والرجال الأشداء والإيمان الطاهر النقي ، فإن لديها خبرة وعقلا وتجربة راقية . وهي تعرف كيف تتعامل مع العدو في الليل وفي النهار : ماذا يقول، وماذا يفعل ، وماذا يخطط ، وهي مقاومة يقودها قلب وعزم . وهي ليست جبانة فتتخلى عن المسئولية ، ولا هي مجنونة فتذهب بوطنها وشعبها في وديان الهلاك» (خطابه في ٢٠٠٤/٢/١٤) .

وفي الخطاب نفسه يقول حسن نصر الله إنه ليس هناك مقاومة عشوائية ولا عمليات فردية ، ولكن تخطيط محكم وتصميم دائم على حماية لبنان ، وأن تجعل العدو لايستطيع التفكير في العدوان عليه !

وإن المقاومة داخليا «لن تدخل في خصومة ولا تنافس ولا محاولة إلغاء لأحد، ولا محاولة الحلول مكان أحد» !

والذين يعرفون مسيرة الحزب على مدى الاثنين العشرين عاما ، التي عاشها حتى الآن ، يعلمون أن هذا الخطاب خطاب صدق ، وليس مجرد كلمات للاستهلاك المحلي أو لطمأنة القوى الخائفة لبنانيا أو عربيا من وجود حزب الله .

والذين وقفوا على التكوين العقدي للحزب يعلمون أن قيادته لاتتصرف إلا بناء على الحكم الشرعي الذي تتضمنه الفتوى المعتمدة ، وهو التزام يضمن التعقل الدائم ، والالتزام بمصلحة الأمة، والمحافظة على وحدتها ، وصيانة عوامل قوتها ، وتحريم اعتداء بعضها على بعض ، لأن ذلك كله هو مقتضى الأدلة الشرعية ، التي يقوم عليها الافتاء ، من الكتاب والسنة ، وفهم الأئمة ، ومواقف السلف المجاهدين في تاريخ الإسلام كله .

☆ ☆ ☆

وإذا كان حزب الله قد استطاع - في مسيرته كلها - الالتزام بهذه المبادىء ، وإقناع شبابه بتلك المعاني ، وتعامل لبنانيا وعربيا ودوليا على هديها، فإن نموذجه يكون أصلح النماذج للأحزاب العربية ذات التوجه الإسلامي ، والتجمعات الحركية الإسلامية في العالم الإسلامي وخارجه.

إن القدوة التى قدمها حزب الله للمقاومة الفلسطينية هى فى الذروة من الأهمية . فالمقاومة هي المقاومة ، والعدو هو العدو ، وإذا استطاع شباب حزب الله الانتصار عليه عسكريا واستخباريا وتفاوضيا فإن ذلك ليس ببعيد عن المقاومة الفلسطينية التى يحدوها العزم الذى لايلين لتحرير الوطن ، ويشد بنيانها الإيمان بأن أصحاب الحقوق لايملكون ترف التفريط فيها ، ويجمع صفوفها فى مواجهة المستعمر دم النساء والرجال الذين ارتفعوا شهداء - بتعبير حزب الله - فى سبيل استمرار شعلة المقاومة موقدة يستضىء بها المجاهدون ويصلى بنارها المعتدون الغاصبون .

ولاريب أن هناك اختلافات كثيرة ظاهرة بين الوضع اللبنانى عندما كان الصهاينة يحتلون الجنوب ، أو عندما اجتاحوا بيروت سنة ١٩٨٢ ، وبين وضع فلسطين كلها تحت الاحتلال الإسرائيلى .

لكن هذه الاختلافات يتضاءل أثرها بجانب اتحاد الظرف الموضوعى المتمثل فى معادلة العدوان والمقاومة . وهو الظرف الأساس فى اندحار كل معتد وانتصار كل مقاوم !

☆☆☆

فإذا نظرنا إلى الواقع العربى خارج فلسطين فإنه من الإنصاف الواجب أن نقرر أنه ليس عيبا أن تستفيد أحزاب وجماعات سبقت حزب الله فى النشأة والجهاد والعمل السياسى ، جميعا ، من تجربته فى هذه المجالات كافة . ولهذه الأحزاب والجماعات أسوة فى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ، الذى كان إذا حزبه أمر (أى اشتد عليه وضاقت به سبل الخروج منه) فزع إلى الفتيان يستشيرهم ، يبتغى حدة عقولهم (!).

والواقع العربى الرسمى ينظر بعين التهمة إلى كل تجمع إسلامى حركى أو حزبى - وأحيانا إلى كل تجمع إسلامى ولو كان نقابيا أو ثقافيا أو تعليميا أو رياضيا أو اقتصاديا !! - ومن المصلحة العربية العليا أن يعيد هذا الواقع الرسمى نظره إلى هذا الأمر برمته ، وأن يحاور قادة تلك التجمعات ومفكريها ، وذوى الرأى فيها ، بحيث ينتج هذا الحوار عقدا سياسيا ، كالذى اتخذه حزب الله عهدا على نفسه ، أن تكون القوة الإسلامية فى خدمة المصالح العامة للأمة ، لا لخدمة فئة أو جماعة أو طائفة ، وأن يكون مقابل ذلك هو الطمأنينة إلى القوى الإسلامية التى تعمل فى المجالات كافة ، واستيعابها فى إطار الشرعية القانونية والمشروعية السياسية ، التى تحول بأسنا كلنا ، وطاقتنا كلها ، إلى تحقيق التقدم الفعلى عمليا لا نظريا ، وواقعا يرى المواطن العربى ثمرته ويحس بأثره ويلمس بنفسه نتائجه ، لا أرقاما صماء لامعنى لها ، وإحصاءات كاذبة أو خادعة لانتيجة لها ، تزيد من عمق الهوة بين ذوى النفوذ ومن لا نفوذ لهم، وذوى الجاه ومن لا جاه لهم ، وأصحاب القرار ومن يشعرون صباح مساء أنهم لايسمع لقولهم وإن سمع فإنهم لايستجاب لهم .

☆☆☆

لو حدث هذا لكان أعظم صنيع خير صنعه حزب الله للأمة كلها ، وكانت يدا يحفظها له العرب كلهم الإسلاميون منهم وغير الإسلاميين ، بل والمسلمون منهم وغير المسلمين .. فإننا كلنا فى المعاناة والهم - حتى الآن - سواء !! ■


ماذا حدث للمصريين
فى معرض الكتاب؟
بقلم
د. جلال أمين

كان أول ما خطر ببالي عندما رأيت هذه الأعداد الغفيرة من رواد معرض القاهرة للكتاب، الذى أقيم فى يناير الماضى، وهم يجوبون طرقاته مصطحبين زوجاتهم وأولادهم، أو فى مجموعات من الشبان أو الشابات الذين تبدو عليهم هيئة طلاب الجامعات، وهم جالسون لتناول الطعام فى مقاهى المعرض، أو يفحصون الكتب قبل شرائها، أو يشترون مختلف البضائع المعروضة عليهم فى كل مكان، من لعب الأطفال إلى الأدوات المنزلية إلى الملابس..إلخ، أننى أمام عينة كبيرة ممن يمكن وصفهم بـ «المصريين مائة بالمائة». إنهم مجموعة من الناس المتجانسين تمام التجانس، أو ما يقرب جدا من التجانس التام، وكأنهم، وإن كانوا يسيرون فى جماعات متفرقة، قد اتفقوا على الخروج والمجىء معاً إلى المعرض فى نفس الوقت.

إنهم متجانسون بأزيائهم، وعلى الأخص النساء اللاتى لا تكاد تجد واحدة منهن غيرمحجّبة، ومتجانسون، نساء ورجالا، فى المستوى الاقتصادى لما يرتدونه من ملابس، بل وفى نوع النظارات التى يلبسها من يحتاج منهم إلى نظارة، إذ تكاد تكون كلها ذات إطار أسود رفيع ولا يحجب جزءا كبيرا من الوجه. والذكور من الشباب يكاد شكل شعرهم يوحى بأنهم ذهبوا جميعا إلى نفس الحلاق.. إلخ.

إنى لا ألاحظ هذا التجانس إذا سرت فى شارع من شوارع الأحياء الأكثر رخاء فى القاهرة، كالزمالك أو مصر الجديدة أو المعادى، بل ولا حتى إذا سرت فى شارع من شوارع وسط البلد، كطلعت حرب أو قصر النيل. قد تجد درجة عالية من التجانس، وإن لم تبلغ هذا القدر الذى لاحظته فى المعرض، فى فناء جامعة من الجامعات المصرية، وإن كنت قد لاحظت فى زيارة لى لإحدى كليات جامعة الاسكندرية مجموعتين متميزتين من الطلاب تقف إحداهما على بعد خطوات قليلة من الأخرى فى فناء الكلية، ولكن بدت المجموعتان وكأن فجوة عميقة تفصل بينهما، ولا يمكن لمن يراهما أن يخطئ فى تحديد المستوى الاقتصادى لمعيشة كل منهما، خاصة وأن المجموعة الأعلى دخلا، كما يبدو من ملابسها ودرجة الاختلاط الأعلى بين الذكور والإناث فيها، كانت أقرب من المجموعة الأولى إلى الكشك الذى يبيع أنواعا من المرطبات والمأكولات المستوردة الألذ طعما والأعلى سعراً.

لا يوجد هذا الانقسام فى معرض الكتاب. طبعا يمكن أن يحدث أن ترى سيدة غير محجبة بين الحين والآخر، ولكن هذا الأمر نادر، ومن الممكن أن ترى رجلا

يمكنك أن تقطع بأنه أعلى دخلا من الباقين، ولكن لعله ليس بالضبط من زوّار المعرض بل أحد المتكلمين في إحدى الندوات، فحصل بسبب ذلك على تصريح بدخول سيارته إلى المعرض، والأرجح أنه سيترك المعرض بمجرد انتهائه من ندوته. وهناك بالطبع بعض الرجال المشتغلين بعمل من أعمال التنظيف أو كنس شوارع المعرض أو بيع بعض السلع الرخيصة، ممن ينتمون بلا شك إلى طبقة أدنى بكثير من طبقة روّاد المعرض، ولكن هؤلاء لا يدخلون في الحساب، لا في هذا التحليل الذي أقوم به الآن، ولا في أي تحليل آخر.

كتب تقبل عليها الغالبية العظمى

هناك مظهر آخر من مظاهر التجانس، لا يقل أهمية عن كل ما ذكرت، ويتعلق بالغرض الأساسي من إقامة هذا المعرض أصلا، وهو نوع الكتب المعروضة والمشتراه. فالكتب في الغالب الأعظم منها كتب دينية، وهذا هو النوع الذي تقبل عليه الغالبية العظمى من رواد المعرض، ويتمتع بأكبر قدر من الرواج، ومن ثم كان على الناشرين، أيا كانت اتجاهاتهم الفكرية، أن يعرضوه في مكان بارز ويلوّحوا به لجذب أنظار الزائرين.

انظر مثلا إلى أسماء المكتبات المنتشرة في المعرض، فالمكتبة هي إما مكتبة التقوى أو النور أو الاعتصام أو اليقين أو الوفاء أو الفضيلة أو الإيمان.. إلخ، ومن ثم فإني عندما وجدت مكتبة تحمل اسم «مكتبة الثقافة الدينية» قلت لنفسي: «وهل في المعرض أي ثقافة أخرى؟»

بل وحتى المكتبات العريقة في علمانيتها اضطرت إلى وضع الكتب الدينية، أو المتصلة بشكل ما بالدين، في مدخل المكتبة أملا في استدراج المشترين إلى النظر في الداخل. والميكروفونات تذيع بصوت عال آيات المصحف المرتل أو تعلن عن الطبعات الجديدة من هذا التفسير أو ذاك، وقد سجل الآن على اسطوانات حديثة للاستخدام عن طريق الكمبيوتر.

لا يمكن أن يعتريك أي شك فيما يسود الغالبية العظمى من زوار المعرض من ولاء حقيقي للدين، واحترام تام لكل ما يتعلق به وتمسك صارم بشعائره. يظهر هذا ليس فقط في انتشار الحجاب على هذا النحو بين السيدات، وكثرة مطلقي اللحى بين الرجال، ولكن أيضا في الكتب التي يختارون تصفحها والنظر في محتوياتها وما يقررون في النهاية شراءه منها. ومع هذا فلابد أن يلفت نظرك أيضا ما طرأ من تحول على مظاهر هذا التدين في السنوات العشر الأخيرة، مما لابد أن يعكس تطورات طرأت على أفكار ونفسية هذه الشريحة الاجتماعية التي تقوم بزيارة المعرض، وهي تطورات لابد أن تعكس

بدورها، في رأيي، تغيرات اقتصادية واجتماعية.

تغير طرأ على الحجاب

إذ فلننظر مثلا إلى التغير الذى طرأ على الحجاب نفسه. نعم، مازال الكثير من السيدات، خاصة من الأكبر سنا، يفضلن ذلك الحجاب الذى يبدأ من منتصف الجبهة ويحيط بالرأس بما يشبه الخيمة ثم ينزل إلى منتصف الجسم فيغطى تماما الكتفين والصدر، وهو بهذا شديد الشبه بما ترتديه الراهبات. ويكاد هذا الحجاب يتحد مع الثوب نفسه، وهو ثوب فضفاض لا يظهر أيضا معه أى أثر لبداية أو نهاية هذا الجزء من الجسم أو ذاك. نعم مازال هذا النوع من الزى موجودا وبكثرة، ولكن الذى يلفت النظر الزيادة الواضحة فى نسبة المرتديات لنوع آخر من الحجاب، خاصة من الفتيات والسيدات الأصغر سنا. فالحجاب فى حالتهن من ألوان مختلفة وأنواع مختلفة من الأقمشة، وهو يُرتدى بحيث يكون ملاصقا للرأس ويحيط بالوجه إحاطة البرواز للصورة، وكأنه بدلا من أن يمنع العين من النظر يؤكد ملامح الوجه ويبرزها. وهو ينتهى فجأة تحت الذقن مباشرة، فلا يحجب أى شئ غير الشعر فإذا كان الأمر كذلك، فما الذى يمنع من إعطاء بعض الاهتمام بمنظر الوجه نفسه باستخدام بعض وسائل التجميل وإضافة بعض الرتوش هنا وهناك؟ ولكن الأكثر لفتا للنظر هذا التغير المدهش الذى طرأ على الأجزاء الأخرى من الزى، وعلى الأخص ظهور البنطلون وشيوعه شيوعا كبيرا بين الفتيات والسيدات من مختلف الأعمار إلا المتقدمات فى السن.

البنطلون وتحرر المرأة

لا يجب أبداً أن نستهين بشيوع ارتداء النساء للبنطلون فى مصر. فأنا مازلت أذكر بوضوح، إذ لا يعود هذا إلى أكثر من عشرين عاما، كيف كان ارتداء المصريات للبنطلون أمرا نادرا جدا، بل وعندما كان يعتبره الكثيرون خروجا عن اللياقة والحشمة الواجبة. كان ارتداء الثوب الفضفاض هو المتوقع من المرأة، واقترن البنطلون فى الذهن بالذكورة. بل لقد ظل هذا التمييز هو الشائع فى الغرب حتى الستينات، حتى لقد استخدمت بعض الشعوب الأوروبية فى بعض تعبيراتها الدارجة ارتداء البنطلون كرمز لصاحب السلطة الحقيقية فى الأسرة. كان هذا التحول فى مصر فى النظر إلى البنطلون أمرا مهما إذن، إذ اقترن بدرجة لا يستهان بها من زيادة تحرر المرأة، وزيادة اشتراكها فى الحياة العامة وممارستها، أكثر فأكثر، لنفس الأعمال التى كانت من قبل مقصورة على الرجال.

هذا الانتشار للمرأة المصرية وزيادة نسبة النساء بين رواد المعرض والمشتركين فى مختلف الأنشطة الدائرة فيه، من بيع وشراء، ومساهمة فى

الندوات، والقيام بالكثير من الأعمال اليدوية، كالتنظيف وكنس الشوارع وتوزيع الإعلانات، مما كان مقصورا على الرجال منذ بضع سنوات، هو أيضا من الأشياء اللافتة للنظر في معرض الكتاب في هذا العام. وعندما يزيد العدد تقل الوحشة وتزيد درجة الشجاعة التي تشعر بها المرأة، ويعتريها شعور أقوى بالثقة بالنفس، وتصبح أكثر انطلاقا وحرية في التعبير عن نفسها، مما يظهر ليس فقط في الكلام والحركة بل وحتى في أسارير الوجه.

لاحظت أيضا تغيرا على بعض أنواع السلوك من جانب الشبان من الذكور مما قد يفسره إلى حد ما هذا التحرر الذي طرأ على الفتاة المصرية. هل هذا الحضور الأقوى والانتشار الأوسع من جانب الفتيات المصريات هو الذي يفسر هذا الاهتمام الأكبر الذي يبديه الشبان المصريون بمظهرهم وزيادة عنايتهم بطريقة قص وتصفيف الشعر ودرجة لمعانه؟ إن جرأة مجموعات الشباب المصري من الذكور على مفاتحة مجموعات الفتيات المصريات بالكلام أو إلقاء عبارات المجاملة السريعة، ناهيك عن المغازلة الصريحة، مازالت محدودة جدا، على الأقل في هذه الشريحة الاجتماعية المنتشرة في معرض الكتاب، ولكن ليس من الصعب عليك أن تلاحظ من باب خفي إحساس مجموعات الشبان الذكور بوجود مجموعة أو أكثر من الفتيات على بعد أمتار قليلة منهم، أو أن تلاحظ كيف أن إحساسهم بوجود الفتيات عن قرب كان له أثر لاشك فيه ليس فقط في حرصهم على أن يظهروا بالمظهر المناسب، ولكن أيضا في نوع ما يصدر عنهم من كلام قد يصل إلى سمع الفتيات.

دعاة أكثر عصرية

هل بمثل هذا يمكننا أيضا أن نفسر ظهور نوع جديد من الدعاة الدينيين من نوع عمرو خالد مثلا؟ دعاة أكثر «عصرية» بأكثر من معنى، سواء في المظهر العام ونوع الملابس التي يرتدونها، أو في طريقة الحديث بل وحتى في الموضوعات التي يختارون التركيز عليها في الدعوة الدينية وطريقة شرحهم لها. لقد صادفت في جولتي بالمعرض مكتبة يقتصر البيع فيها على كتب وأشرطة عمرو خالد مما يكفي للتدليل على مدى شعبيته، وعلى غلاف كل كتاب صورة كبيرة للمؤلف رأيت فيها وسامة واضحة (أو على الأقل ما يمكن أن يعتبره كثيرون وسامة واضحة) وأناقة ملحوظة، مما شجعني على اتخاذ خطوة أخرى وهي أن اشترى بعض هذه الكتب (الصغيرة والزهيدة الثمن) وأن أقرأها لأعرف ما إذا كان في محتوى الكتب وطريقة تناول الموضوعات الدينية فيها ما يتفق مع صورة المؤلف وشعبيته، ومع مالاحظته من زيادة التحرر لدى النساء المصريات اللاتي سمعت أن فيهن كثيرات

يحملن إعجابا فائقا بطريقة عمرو خالد في الدعوة الدينية. فماذا وجدت؟

في كتاب بعنوان «محبة الله» وجدت المؤلف يقول:

«أذكر شابا صغيرا (١٨ سنة تقريبا) ذهب إلى أحد العلماء وسأله وقال له: «أنا على علاقة بفتاة كذا ويحدث بيننا كذا وكذا، فهل إذا تركتها يرضى عني ربي؟»

فقال له: «يا بني، إذا فعلت ذلك فلن يرضى عنك فقط، ولكنك سوف ترتفع مكانتك عنده جدا» وقد أقسم لي وقال: «عندما ذهبت إلى منزلي فكلمتها في التليفون، وقلت لها: «لن أكلمك مرة أخرى، لأن الله أغلى عندي من أي شئ آخر» وقال لي: «لقد أنهيت المكالمة وأنا مسرور، وأحسست في صدري بشئ، وكأنه يقال لي: سنبدلك حباً بحب» (ص١٥) .

يلفت النظر أيضا في هذا الكتاب كثرة استخدامه لكلمات كالحب والشوق، في حديثه عن محبة المسلم لله، وهي كلمات لابد أن كان معناها في أول عهد الناس بالإسلام مختلفا بعض الشيء عن معناها الآن، بعد شيوع استخدامها للتعبير عن مشاعر مختلفة تماما في الكتب والأفلام والأغاني، مما يجعل استخدامها الآن يوحي بمعان عصرية أكثر جاذبية للجيل من الشبان والشابات، ولكنها قد تبعد عن المعاني التي يرمي إليها عادة الدعاة الدينيون.

من الواضح أن هذا الجيل من الشبان والشابات قد فعل كل ما يستطيع للتوفيق بين تقاليد الأسر التي نشأوا في ظلها ومتطلبات الحياة العصرية، فحققوا في ذلك درجات مختلفة من النجاح في الزي جمعت الفتيات بين الحجاب على الرأس (بعد تطويره وتجميله) وبين الملابس العصرية فيما عدا ذلك.

وفي التعبير عن مشاعرهم الدينية حاولوا بقدر الإمكان الجمع، على طريقة عمرو خالد، بين الالتزام بشعائر الدين والاستمتاع بالحياة، بقدر ما تسمح لهم ظروفهم المادية. وهم يريدون أن يحققوا طموحاتهم في التقدم المادي، الذي لم يحقق مثله آباؤهم وأجدادهم، والذي تلح وسائل الإعلام الحديثة على ضرورته ومزاياه، مع الاحتفاظ بقدر الإمكان بولائهم لتقاليد آبائهم وأجدادهم.

النجاح في الحياة

صادفت مثلا في سيري، مكتبة مدهشة لم أكن رأيتها ولا سمعت عنها من قبل اسمها «مكتبة جرير». دخلتها فإذا بكل ما تعرضه للبيع من كتب من منشورات هذه المكتبة نفسها، وكان أول ما لفت نظري في هذه الكتب المستوى الفاخر لطباعتها، وأناقة الغلاف وجودة الورق. ولكن كان الأهم من ذلك موضوعات هذه الكتب. فكلها تقريبا يدور حول «النجاح في الحياة» بالمعنى الدنيوي البحت للنجاح. رأيت من بين هذه الكتب مثلا، ترجمة لذلك الكتاب العتيد الذي سمعنا

عنه لأول مرة في أواخر الأربعينات، عندما بدأت الثقافة الأمريكية، بل وكل شيء أمريكي، يغزو حياتنا، وهو كتاب «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس؟» لمؤلفه الأمريكي ديل كارينجي، والذى قيل لنا وقتها إنه نجح نجاحا هائلا فى العالم بأسره، وبيعت منه ملايين النسخ بمختلف اللغات. كان بعضنا يتندر على الكتاب وقتها ويثير السخرية منه لما يحتويه من تشجيع على النفاق والكذب لمجرد كسب ما يسمى «بالأصدقاء»، ومن فهم ضيق جدا لمعنى النجاح يقصره على النجاح المادى البحت مما يتطلب نوعا معينا من «التأثير فى الناس» . ها قد وصل الكتاب إذن، بعد أن كانت قراءته مقصورة على حفنة صغيرة من المثقفين المصريين القادرين على اكتشاف خدعته، إلى أيدى الجماهير الغفيرة من المصريين، المتعطشين لهذا النوع بالذات من النجاح، والذين خضعوا لعدة سنوات لتأثير التليفزيون والمسلسلات الأمريكية، أو المتأثرة بها، مما يز... لفهم رسالة هذا الكتاب وأمثاله بسهولة.

أمثال هذا الكتاب تملأ رفوف مكتبة جرير بأسرها، وها هى أمثلة لعناوينها التي حرصت على تدوينها، إذ إنها تلخص فلسفة كاملة للحياة:

كيف تتخلص من القلق وتبدأ الحياة.

إذا كان النجاح لعبة فهذه هى قوانينها.

كيف تتمتع بالثقة والقوة فى التعامل مع الناس.

اكتشف القائد الذى بداخلك .

التغلب على القلق (بالتعاون مع الجمعية الأمريكية لأمراض القلق والخجل).

توقف عن الشكوى وابدأ النجاح .

العادات السبع للإقدام على التغيير بشجاعة .

اهتم بإنجاز ما تريد قبل الغذاء (تأليف.. المدرب الأول فى أمريكا على فن البيع).. إلخ

وكلها كتب مترجمة عن مؤلفين أمريكيين، وإن كانت الصفحة الأولى تبدأ بعبارة «باسم الله الرحمن الرحيم».

إلى جانب مكتبة جرير مباشرة مكتبة أخرى تبيع أسطوانات الليزر الحديثة المعدة للاستخدام عن طريق الكمبيوتر وتحتوى على مختلف أنواع الدروس للشبان الطامحين إلى اكتساب مهارات جديدة تساعد على زيادة الدخل، ولفت نظرى فيما تعرضه هذه المكتبة علبة كبيرة جذابة الألوان، رسمت عليها صورة فتاة محجبة وكتب إلى جانبها «نوران تتعلم اللغات»، فهى إذن تحتوى على هذا النوع من أسطوانات الكمبيوتر والأمل هو أن تلفت نظر هذا النوع من الشباب بالضبط،

من هذه الشريحة الاجتماعية بالذات، التى تميل إلى إطلاق اسم مثل «نوران» على بناتها.

هذه المحاولة للتوفيق بين العصرى والتقليدى، الوافد والموروث، تجد مظاهر لها فى كل مكان. فحتى المكتبات المتخصصة فى الكتب الدينية تجد فيها إلى جانب الكتب التى تشرح الشروط الواجب توافرها فى أداء الشعائر الدينية، رفوفا كاملة مخصصة للأجزاء المختلفة من كتاب «سلاح التلميذ» المعد لمساعدة التلاميذ على اجتياز الامتحان فى مختلف المواد، وموائد طويلة عليها عدد لا يحصى من روايات الجيب المترجمة، صغيرة الحجم وزهيدة السعر، والتى تحمل عناوين مثل «رجل المستحيل»، أو «عودة الشر» أو «سر الشحنة المزيّفة».. إلخ.

بين كتب الدين والتراث والكمبيوتر

من الواضح جدا لأى زائر للمعرض أن الجيل الجديد من هذه الشريحة الاجتماعية التى تملأ شوارع المعرض ومكتباته يتنازعه ميلان قويان، أحدهما إلى كتب الدين والتراث، والآخر إلى الكمبيوتر واللغات الأجنبية، وقد اكتشف التجار هذه الحقيقة قبلنا جميعا فحاولوا بقدر الإمكان الإفادة منها فى زيادة أرباحهم، وها هم يملأون صالات المعرض بخليط مما يمكن أن يشبع هذا الميل أو ذاك. ومهما ركز أحد هؤلاء التجار على إشباع أحد هذين الميلين، ربما بسبب ميوله الشخصية أو تاريخه، فإنه لا يستطيع مقاومة إضافة بعض الكتب أو السلع التى تشبع الميل الآخر أيضاً. تجد هذا مثلا فى الصالة الكبيرة المخصصة للكمبيوتر وكل ما يتعلق به، حيث يفاجئك لدى دخولك من الباب من يوزع عليك منشورات تشرح لك طريقة الحصول على لوازم الكمبيوتر بالتقسيط أو تقدم لك عروضا ميسرة للحصول على «أقوى القواميس الالكترونية» بالنقد والتقسيط على اثنتى عشرة دفعة شهرية. ولكن هناك أيضا منشورات للدعاية لأسطوانات سجلت عليها أحاديث دينية من مختلف الأنواع.. يجرى كل ذلك بينما تنبعث من جهاز للكمبيوتر، وضع فى مدخل الصالة مباشرة، موسيقى عالية للغاية، فإذا التفت إلى الشاشة رأيت صورا لراقصات خليعات تتتابع الواحدة منهن بعد الأخرى، على سبيل المزيد من الدعم لتسويق كلا النوعين من المنتجات، الموروثة والوافدة. على بعد خطوات قليلة من هذا الكمبيوتر شاهدت فتاة محجبة تقوم بتوزيع منشورات تحتوى على قواعد التقسيط، وهى تكاد تموت خجلا من اضطرارها للوقوف فى هذا المكان وسط كل هؤلاء الشبان المزدحمين حول الكمبيوتر الذى تتتابع هذه المناظر على شاشته. ■

الصحافة

بين الأمس واليوم

بقلم
د. محمد رجب البيومى

الجريدة اليومية ذات رسالة حيوية جادة. ونود لها من الارتقاء والازدهار مايوده القائمون على تحريرها، فإذا اتجه النقد الهادف إلى بعض أبوابها، فهو النقد المخلص العطوف، الذى يعاون على تسديد الخطأ، دون إجحاف بالجهود المبذولة، والعقبات التى تذلل فى صبر وأناة، والقصور الذى نلحظه فيها، مما يسهل تلافيه، إذا صدقت الهمم، وخلصت النيات، ووجوده الدائم هو نقص القادرين على التمام، الذى عده المتنبى من أفدح العيوب!

تطالع صفحة الأدب كل أسبوع، فتجدها صفحة أخبار الأدب لا صفحة الأدب، فالكلمات الخاصة بالكتب أنباء لا آراء، والأسماء التى تذكر لأدنى مناسبة ذات أخبار لاتتصل بالأدب إلا لأن بعض من تعنيهم قد وضعوا فى صفوف الأدباء، والندوات الثقافية لاتهتم الجريدة بنشر الدقيق من أفكارها

المتنازع عليها، بل برصد الصور، وروس الموضوعات، والمبالغة في الاحتفاء بمتكلم وإهمال سواه مع أنه لم يقل شيئا ذا بال، وهي بهذا الاعتبار لاتخرج كثيرا عن صفحة الفن، مع الفارق البعيد لأن قارئي صفحة الفن من الجمهور العريض، ينتظر الأخبار لا الآراء ويرحب بالصور الأنيقة للجميلات من الممثلات، فهي غرض مقصود لذاته، فإذا قضى أربا من هذه الناحية فقد رضي عن الجريدة، أما قارئ صفحة الأدب فلا ينتظر صورا ولايريد أخبارا، ولكنه يريد توجيها وارتفاعا بمستواه، لذلك تسقط الصفحة من يده ، حين يدركه مثل النوم، فلا يسارع بإعادتها إذ قرأ العناوين سريعا فعرف كل شيء!!

الأدب .. بين الجريدة والمجلة

قد يقول قائل إن اكتفاء الصفحة الأدبية بشذرات موجزة عن الكتاب المعروض، أو بمعلومات خاطفة عن الموضوع ، المرصود، هو الأمر الطبيعي الذي يقدم «الساندوتش» لقارئ عادي، أما النقد التحليلي للكتاب، أو الإحاطة الشاملة للموضوع، فمن شأن المجلات الأدبية المتخصصة ، ولها قراؤها المتميزون، فإذا التزمت الجريدة اليومية منحى المجلة المتخصصة، فقد أثقلت على القارئ بما لايريد، وصرفته عن أخبار الأدب والأدباء معا، وهذا ما فطن إليه القائمون على الصفحة الأدبية، فلم يقدموا اللحم الدسم لذوي الأسنان الهشة من الأطفال، واكتفوا بكوب صغير من اللبن، وهو غذاء مفيد!



وهذا التبرير الخطابي ينكره الواقع المعاصر لصفحة الأدب في الجريدة اليومية من قبل ، فمنذ ظهرت جريدة السياسة اليومية سنة ١٩٢٢م، وقام على تحريرها الأديب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله، أخذت صفحة الأدب تقدم من البحوث الأدبية، والمقالات التاريخية، والتراجم الإنسانية ما أعطى للصحافة رسالة قوية في اليقظة الفكرية،

وقد جمعت هذه البحوث فى مؤلفات مستقلة أصبحت مرجع الباحثين، وتعددت طبعاتها مرة بعد مرة، ورأت الصحف الأخرى أن السياسة قد سبقت بصفحتها الأدبية فسارعت باحتذائها، وهكذا كان للبلاغ وكوكب الشرق والأهرام والمصرى والوادى والجهاد صفحاتها المماثلة، وكتابها الأعلام من كبار الأدباء! ولن أرسل الكلام إرسالا هشا دون تمثيل مبين!



د. طه حسين

أساطين الكتاب في الصفحة الأدبية

إن لدينا - مثلا - كتاب (حديث الأربعاء) بأجزائه الثلاثة للدكتور طه حسين، قد نشر أكثره على صفحات السياسة اليومية فأحدث معركة فكرية واتسعت أنهار السياسة لمعارك قلمية أدارها أمثال رفيق العظم وأحمد زكى باشا، وشكيب أرسلان على صفحات السياسية، وانتقل الصدى إلى جريدة المقطم فكتب الاستاذ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية مقالات نسفت دعوى الدكتور طه حسين فى الطابع المجونى العام للعصر العباسى نسفا، ورد الدكتور على بعض دون بعض، رد على من سالمه لهجة ومديحا واتقاء، وسكت عمن أوجعه وخزا وطعنا! كل ذلك فى صفحة الأدب اليومية بالسياسة! فهل قال قائل إن قارئ الجريدة اليومية ملول سائج لايريد الدسم المرئ ؟!

ولا أترك جريدة السياسة دون أن أشير إلى هذا اللون الأدبى الجديد الذى ابتكره الأستاذ عبدالعزيز البشرى فى صفحة الأدب بالجريدة نفسها حين كتب (فى المرآة) ليصور أعلام الأدب والسياسة والفكر فى مصر تصويرا قلميا رائعا، أخذ على القارئين ألبابهم، وجعل كل وزير يترقب حذرا أن يصوره البشرى بما يسقط مكانته لدى القراء، وقد قال إسماعيل صدقى لبعض أصدقائه، إنه لم ينم الليل حين أخبره أحد محررى السياسة أن مقال الغد فى المرآة خاص به، وقد قرأ المقال قبل أن تكتحل عينه بالنوم صباحا واطمأن خاطره، فأرسل كتابا رقيقا للبشرى نشرته السياسة فى العدد التالى، وأعاد البشرى نشره، بمجموعة (فى المرآة)!

أما الاستاذ عباس محمود العقاد،

فأكثر كتبه قد نشر فى الصفحة الأدبية بالجرائد اليومية، كالمطالعات والفصول والمراجعات، وساعات بين الكتب وغيرها، مما نشر فى البلاغ اليومي، والبلاغ الأسبوعي والمساء والجهاد، والعقاد موجز البيان، دقيق المعاني، وقد يغمض ويصعب أحيانا، فهو لاينحدر كالسيل مثل طه، ولا يتخفف بالفكاهة مثل المازني، ولكنه فى الصفحة اليومية أستاذ كبير مع تلاميذ متطلعين، وقد أحدث حركة فكرية مثالية بما بعث من آراء ظلت موضع الشد والجذب بينه وبين ناقديه! فهل قال أحد إن الجريدة اليومية لاتحتمل شموخ العقاد، ولا تمتد إلى أقصى مراميه، لم يقل ذلك أحد، وإنما أقبل القراء على آثاره فى العشرينيات حين لم تكن لدينا إلا جامعة ناشئة لم تكتمل كلياتها بعد، ولم يكن لدينا من المدارس الثانوية غير مالايتجاوز عدد الأصابع! أما الآن فى القرن الحادى والعشرين، حين تعددت الجامعات، وانتشرت آلاف المدارس، وتنوعت المكتبات وتعددت دوائر الإعلام من إذاعة مسموعة ومرئية ومسارح وقصور ثقافة، أما الآن فالصفحة الأدبية



عباس محمود العقاد

فى الجريدة اليومية صفحة أخبار، فإن زادت فبما هو شبيه بالأخبار! لماذا؟ لأن القارىء ساذج ترضيه السطحية، ويطمئن للقشور!

وإن استطرد فأذكر مقالات الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في كوكب الشرق والبلاغ، أو مقالات المازنى فى الأخبار الواقعية والبلاغ، وهما لايقلان مكانة عن طه وعن العقاد، ولكنى أقول إن تألقهم جميعا قد سطع فى سماء الصفحة الأدبية فى الجريدة اليومية! فأبطلوا حجج الكسالى والمتراخين، ومن الحظ الحسن أن كتبهما التى جمعت هذه المقالات لاتزال ذائعة يتداولها قراء اليوم، مثل، تحت راية القرآن وحصاد الهشيم وقبض الريح، فما معنى هذا؟

منطق الصفحة الأدبية

إن الذى يصف الصفحة الأدبية فى الجريدة اليومية بالشلل، ينتهى إلى عدة أشياء، أحدها الإيجاز المخل المبتسر فى تناول الموضوع، إذ من رأى المشرفين على هذه الصحف أن تتسع الصفحة لأكثر من ست مواد، فيأتى المقال غائما لايفصح عن وجه مشرق، وقد يكون مقدمة لا نتيجة لها، أو نتيجة لم تسبق بمقدمات، فيفقد

ثمرته المرتجاه، وقد قنع الناشر والكاتب بالعنوان والاسم، وكأنهما كل شيء، وهذا في الكثير الملموس دون أن نغفل الجد الصارم لدى نفر يكتبون مايفيد عن موهبة واستعداد، فماذا يضير لو اكتفت الجريدة بمادتين أو ثلاث على الأكثر، وامتلأت بهما الصفحة كما كانت تمتلىء من قبل بمقال واحد للدكتور طه حسين، ولكن كيف؟ ومن وراء هذه المواد المبتسرة أعمدة تتحدث عن أخبار أدبية، وكتب ستجد قريبا أو بعيدا طريقها للنشر، ومواعيد لندوات ثقافية، وصور لمن وردت أسماؤهم عرضا في الأخبار، هذا غير إعلانات أسفل الصفحة تتحدث عن كتب تباع مع الجرائد! وكل هذا في الصفحة الواحدة فإذا تركنا الإيجاز المخل، فإننا نشير إلى ظاهرة أخرى، تتجسد في تكرار أسماء معينة تسعد بصداقة القائم على النشر فيتاح لها النشر الدائم دون أن تكون لها مقدرة على العطاء المستمر، وإنما هو الشغف لملء الفراغ فحسب، وقد يكون لدى الناشر من المقالات مايقدم الجديد لأسماء لا يعرف أصحابها، ومن العسير في ضوء هذه المجاملات الشخصية أن تظهر هذه المقالات الجادة وهكذا تظهر الصفحة ذات الأنهار الثمانية مليئة بالحروف والكلمات دون مضمون مفيد

وإذا شاء أحد أن يماري فيما أسطره من النقد فيسأل نفسه: أيرى فيما ينشر من هذه المبتسرات مايهيىء كتابا جادا يصبح أثرا رائعا من آثار المكتبة العربية ككتب هيكل والمازني وطه والعقاد، بل ككتب الصف الثاني من أمثال محمد مندور وعبدالرحمن الخميسي وسعد مكاوي وقد انطلقوا جميعا في الصفحة الأخيرة من جريدة المصري مع غيرهم ممن غابت أسماؤهم عن الذاكرة، فإذا كان الجواب هو استحالة أن ينشأ من هذه الهلاميات أثر يفيد القارىء، فقد كصح مانقول دون ارتياب.

ولعلي لا أغفل القول عن أمر ثالث يلوح في هذه المواد المبتسرة الكليلة وهو اتجاه بعض الخاطفين إلى الحديث عن مصطلح غربي، عفا أثره في موطنه، وعاد هناك كالطلل الدارس، وقد ظنه من الطرائف النادرة لا لأنه استبطن خوافيه، وولج إلى أعماقه، بل لأنه قرأ عنه مقالا في جريدة أجنبية ، وقد تكون جريدة عربية فمن يدري ، ثم رأى أن يبهر القراء بما ألم، ولم تسعفه مقدرته العقلية، ولا لغته البيانية في الإفصاح عن بعض مافهم، ولكنه امتشق القلم، لينثر جملا متضاربة تتشاجر تحت عنوان المصطلح الحبيب لنفسه، وتقرأ ما

تقرأ فلا تعرف شيئا مما عناه الكاتب، فاللغة عربية الحروف فحسب، والمعانى لا تستقيم على سنن معهود، فقد يوجد مبتدأ لا خبر له إلا فى عقل الكاتب، وقد يوجد فعل يبحث عن فاعله فيستحيل وجوده، ومن القراء أمثالى من يظن أن مستوى الموضوع أرقى من أن ينحدر إلى العقول المتواضعة فيكتفون بالأسف على أن حرمهم الله موهبة الفهم الدقيق، إذ شاء أن يختص بها نفرا من ذوى النبوغ الفائق كهذا الذى تفضل بكتابة هذا الإبداع!

إن صفحة الأدب يجب أن تتحرر من أوهاقها الثقال، وأول خطوات هذا التحرر أن يكون القائم عليها ذا أمانة خلقية تلزمه أن يجهر بالحق متى تعين الجهر، ولى فى هذه الناحية واقعة أليمة فقد شاء أحد السارقين أن يسطو على عدة كتب مترجمة إلى العربية عن الإنجليزية فى علوم التربية والاجتماع وعلم النفس، فطبعها باسمه ، وقام بالنشر تاجر بيروتى ، وظهرت الكتب المسروقة متوجة بقلم المترجم السارق، وتحت اسمه ما يلى (مراجعة الدكتور محمد رجب البيومى عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة) وجاءنى النبأ الفاجع فعجبت إذ كيف أراجع كتبا عن الانجليزية وأنا لا أعرفها! فبعثت بأربعة أسطر فقط، إلى جريدة يومية أستنكر ما حدث ، ولم تسمح الجريدة لمظلوم أن يجأر بشكواه فاضطررت إلى النجدة بالمجلات التى أكتب فيها بمصر والبلاد العربية فكانت مجلة الهلال فى طليعة المنجدين، فياله ! أتمتلئ صفحة الجريدة اليومية بأخبار الندوات الأدبية، وتشيد بالمراهقات اللاتى يبدأن الخطوات الأولى ثم تضن على مظلوم وقع فى بهتان الإفك بأربعة أسطر؟! أهذه رسالة الأدب التى يرعاها أساتذة الصحافة فى عهدنا السعيد ! ..لقد غابت المسئولية الخلقية غيابا مؤلما فهل ستعود؟

هذا بعض ما يقال عن الصفحة الأدبية فماذا نقول عن الصفحة الدينية؟

قشور الصفحة الدينية

إن مهمة الصفحة الدينية فى الجريدة اليومية أصعب بكثير من مهمة الصفحة الأدبية، فالصفحة الأدبية تواجه جمهرة القراء غالبا بكثير مما لا يعلمون فيجدون بها بعض ما لم يعرفوه من قبل، إذ أن هذه الجمهرة لم تلم بشئون الأدب نظرا لظروفهم المعيشية ،أما الصفحة الدينية فتتعرض لأمور أفاضت فيها إذاعة القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثين عاما إفاضة ملحة دائبة ولهذه الإذاعة أكبر نفوذ على السامعين، فهى المسموعة فى المتجر والمصنع والحقل والشارع

حتى الأمي الذي لا يفهم بعض ما يقال ، يطمئن إلى مجرد السماع، واثقا من ثواب الله فيه، وفرض على القائمين على هذه الصفحة أن يعوا ذلك جيدا، إذ لا يجوز أن يعيدوا أحاديث الإذاعة بعبارات مختلفة تنتهي إلى معنى واحد، بل عليهم أن يتعمقوا ما يعرضونه تعمقا، ينفح بالجديد من التحليل، والطريف من التفسير، فيشعر قارئ الجريدة المتواضع أنه يقرأ ما لم يسمعه من قبل، فيقبل عليه في شوق، ولكن المشاهد غير ذلك ، فكلمات الإذاعة القرآنية بعينها هي كلمات الصفحة ، والمتكلمون هم الكاتبون في أكثر الأحوال، هذا إلى الولوع بالإيجاز المخل على نحو ما أشرنا إليه في حديثنا عن الصفحة الأدبية، وهذا الإيجاز يتجه دائما إلى القشور لا إلى اللباب وكأن المراد أن نملأ الفراغ فحسب!

وما يقال عن تبرير هذه الكلمات المبتسرة في الصفحة الأدبية يقال عنها في تبرير القصور الواضح في علاج الموضوعات الدينية إذ يقال إن البحوث الدينية لها مجالها في الصحف المتخصصة ، وإن القارئ يسأم المقال المستوعب الجاد فلا يلتفت إليه ، وإذا كنت فندت ما قيل عن ذلك في صفحة الأدب بالاستشهاد بكبار الكتاب في عهد الازدهار الأدبي، فأنا أفعل ذلك تماما في مجال الحديث عن الصفحة الدينية فأقول إن كاتبا كبيرا كالأستاذ محمد فريد وجدي نشر كتابه (الاسلام دين عام خالد) متواليا في الصفحة الدينية بجريدة الجهاد اليومية وقد لاقى احتفال الأستاذ محمد توفيق دياب إذ حرص على نشر المقالات الطويلة إشباعا لرغبة القراء وشكره الأستاذ وجدي في مقدمة الكتاب حين قدم الطبعة الأولى منه ، لقد لمس الأستاذ توفيق دياب انجذاب القراء منذ سبعين عاما فاكثر إلى هذه البحوث المسهبة المستفيضة فآثرها بالاحتفاء . وكذلك فعل الأستاذ خليل ثابت رئيس تحرير المقطم حين أفرد لمقالات الشيوخ الكبار، يوسف الدجوي ومحمد شاكر، وعلى سرور الزنكلوني، ومحمد سليمان مساحات شاسعة وبعضها كان يتصدر نصف الصفحة الأولى من المقطم ثم تأتي البقية في نصف آخر بالصفحة الثانية، وكانت


عبد القادر المازني

هذه المقالات مصدر رواج للجريدة إذ يقبل عليها القراء فى نهم زائد! أفنقول الآن إن الوعى لدى قرائنا لا يتحمل غير ما يكتب فى القصاصات! نقوله بعد أكثر من ثمانين عاما، إذ أن مقالات هؤلاء الكبار نشرت فى العشرينيات!


عبد العزيز البشرى

طويل تحت العنوان الضخم يضم صُور هؤلاء الذين تبرعوا بالإجابة من غير ذوى الاختصاص ويقرأ القارئ فيجد من تضارب وجهات النظر ما يبلغ التناقض الصريح، واختلاف العلماء فى الرأى الفقهى مشهور معروف، ولدينا فى التراث التشريعى ما يُعرف بكتب الخلاف! ولكن أىّ علماء يقع بينهم الخلاف هم الفقهاء الأثبات الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد، فلهم أن يختلفوا بالدليل، ومعهم أسلحتهم الأصولية من القياس والاستحسان ومراعاة العرف إلى آخر ما هو مقرّر لدى هؤلاء! أمّا أن يبدى كلّ متعلم رأيه فيما جدّ من المسائل، وأما أن ينشر ذلك فى جريدة سيّارة، فهذا ما يدعو إلى الاضطراب.

أخطاء واضحة

وحين تجدّ أمور هامة تشغل الذهن المصرىّ، كأحكام نقل الأعضاء والاستنساخ، وفوائد الاستثمار يقع القائمون على الصفحات الدينيّة بالجرائد اليومية فى خطأ واضح يعقبه الاضطراب الشديد، إذ تُرسل كلّ صفحة مندوبا من محرّرى الجريدة إلى كل من يتزيا بزّى أهل العلم، قد يكون إماما فى مسجد، أو مدرّسا فى معهد، أو أستاذا فى كلية لتسأله عن حكم الله فيما جد، والمسئول عند نفسه عالم أزهرى يحمل درجة العالمية أو ما فوقها، فلابد أن يبدى رأيه فى الحدث الجديد ولا يعنيه إنْ كان أهلا للفتوى بتضلعه الدقيق، ومراسه الطويل أو أنه إنسان ينتسب إلى أهل العلم فقط، وهنا تخرج الصحيفة بعنوان ضخم يملأ مساحة الأنهار السبعة أو الثمانية، ثمّ بمستطيل

إن الفتوى التى يجيب عليها المسئول فى الجريدة اليومية نوعان، نوع يتجه إلى المقرّر التعارف مما درس فى كتب الفقه من أحكام متداولة تتعلق بالعبادات والمعاملات، وقد نص عليها المؤلفون. وهذا النوع المعروفة أحكامه مما يُجيب عنه كل دارس، ونوع جديد لم تقرّر فيه أحكام سابقة، وهذا لا يجيب عنه إلى

هيئة مسئولة كمجمع البحوث أو لجنة الفتوى، ولا يجوز للجريدة ولا للإذاعة أن تخلط بين هذين النوعين، فتفتح الباب لكل قائل يرى في نفسه كفاءة تفتقد الدليل، بل إنني للأسف الشديد قرأت في رمضان الماضي فتوى تنتمي إلى النوع الأول، وقد ذاعت عنها الإجابة الصحيحة في مناسبات متعددة حتى أصبحت من قبيل تحصيل الحاصل، ولكن المسئول تورط فذكر من الحكم ما هو خطأ يوقع في البلبلة! لقد أفتى الأئمة الكبار عبد المجيد سليم ومحمود شلتوت وأبو زهرة بأن تناول القطرة بالعين في شهر رمضان لا يبطل الصوم، واعتمدت الفتوى على الدليل المقنع، وأفتى بها من قرأها، وكنت أحد المفتين تابعا غير متبوع! كان هذا منذ سنوات رسخ فيها الحكم رسوخا لا يتزلزل، ثم طلعت علينا جريدة شهيرة في رمضان الماضي بعنوان كبير يقول: قطرة العين تفطر في رمضان وقد نسبت الفتوى لعالم مهما قيل عنه، فهو تلميذ لهؤلاء الثلاثة الكبار، وكان عليه إذا خالف الرأي الذائع ألاّ يُلقي بالحكم مجردًا هكذا، بل يقول مثلا ذهبت لجنة الفتوى بالأزهر



محمد فريد وجدى

الشريف، وذهب الأئمة عبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ومحمد أبو زهرة وغيرهم من كبار المعاصرين إلى جواز تعاطي القطرة في رمضان، ولكني أرى غير ذلك، على أن يكون النشر في مجلة متخصّصة يقرؤها الدارسون، وليس في صفحة يومية تورث البلبلة في النفوس! وكان من واجب المشرف على الصحيفة أن يتريث في نشر غير المشتهر، هذا إذا كان قد درس الحكم من قبل! ويظهر أنه لم يدرس شيئا!

ومما يتوجه إليه النقد في هذا المجال أن نرى بالصفحة الدينية، سطورا موجزة في هيئة كلمات ذات موضوع، تحت عناوين، أبو بكر الصديق، عمر، عثمان، خالد، الحسين، عمرو بن العاص وغيرهم من مشاهير الأعلام في الدين والسياسة والزهد، وتقرأ فتجد ما هو معروف لتلميذ المدرسة الابتدائية، ولو كان ذلك في مجلّة للطفل كالبراعم أو ميكي ونشر بحروف كبيرة ذات شكل بارز لقلنا إنه غذاء مناسب لبُرعم غض، أما أن نأتي

بهذه الذائعات المشتهرة ثم تكون ممهورة باسم كاتب متطلع، فهذا استهزاء بالقارئ، وملء فراغ يجب أن يشغل بما يفيد، ومن المضحك جدا أن يجلل المقال بصورة للكاتب العميق.

لقد قارنت منذ أكثر من عامين على صفحات الهلال بين العمود اليومى فى الصحافة فى عهدين مختلفين فكان السبق للعهد الأول، وهذا المقال يقطع بتفوق الماضى على الحاضر فيما ينشر بصفحتى الأدب والدين، وهى مشكلة تتطلب العلاج، لأننا يجب أن نتقدم لا أن نتأخر، وتعظم المفارقة حين نعلم أن المشرفين على صحف الأمس كانوا من منازلهم، لم يلتحقوا بكليات الإعلام الباهرة، ولم يأخذوا المذكرات الجامعية الرفيعة بالثمن الفاحش، ثم هم يصلُون بالسفينة إلى الشاطئ فى مأمنٍ من العواصف الهوج! وما أقررهُ فى هذا المجال يؤمن به الذين قرأوا صحافة العهدين، وأكاد أسمع أصواتهم الموافقة، وإن لم ينطقوا بحرف تأكيداً لقول الشريف الرضى

فقلت نعم، لم تسمع الأذنُ دعوةً

ألا إن قلبى سامع وجنانى

* لم نعد فى عصر يستطيع الخطيب، أو الكاتب، أن يتفرغ فيه لانتقاء موضوعاته، فقد أصبحت الموضوعات اليوم، هى التى تفرض نفسها، أو بالأحرى الموضوع، لأنه لم يبق إلا موضوع واحد أمامنا : المحافظة على حياة وطننا، وحياتنا

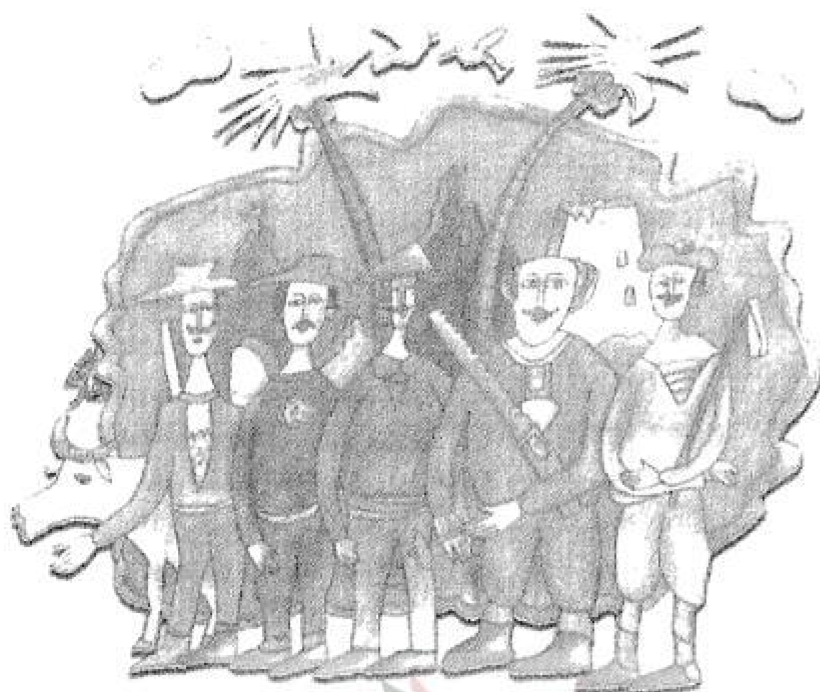
«جيردو»

* المعرفة لا يجب أن تمنع عن اى إنسان، على أساس أن المعرفة تفيد فى الشر كما تفيد فى الخير، لذلك يجب أن يصحبها تدريب أدبى، وبث للقيم الخلقية.

«برنارد شو»

* أعتقد أن أكبر خطر يتهددنا - إذا افترضنا أن الجنس البشرى لم يفن نفسه فى حرب كبرى - هو أن نصبح معبئين كالجنود، فنتيجة للاكتشافات العلمية والميول البيروقراطية، يتعرض العالم للتنظيم، إلى حد لا يصبح من السهل إطلاقا السكنى فيه.

«برتراند راسل»



أسطورة النقود تنفجر.. ولغز التمويل ينحل !!

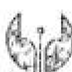
بقلم
محمد يوسف عدس

قد تسوق المصادفة للإنسان أحيانا - ومن حيث لا يحتسب - فرصة تيسر عليه بعض الصعوبات المعرفية، وهذه القصة واحدة من هذه المصادفات السعيدة التى أفادتنى فى فهم حقائق اقتصادية كانت

مـسـتـغلقـة علىّ، ومكنتنى من الربط بين نثـارها فانتظمت فى عقد واحد واكتسبت إضاءة جديدة.

مؤلف هذه القصة رجل اقتصاد كندى اسمه «لويس إيفين» أراد أن يبسط الأمـور لغيـر المختـصين من أمثـالى حتى يتسنى لهم استيعاب القضية دون أن يصطدموا بالمصطلحات المعجمية أو الخلافات النظرية. ولا تكتسب هذه القصة المثيرة قيمتها الحقيقية من شهرة مؤلفها، بقدر ما تكتسبها من المضمون الذى تنطوى عليه والمغزى الإنسانى الذى تلمح إليه.

أما بالنسبة لى فقد كانت بابا جديدا إلي عالم من المعارف والأفكار والأشخاص، تبينت فيه أن عددا لا بأس به من المفكرين الغـربيين يبـشـرون بنظام اقتصادى جديد متحرر من الفائدة ، لأنهم يعتقدون أن النظام الاقتصادى التقليدى السائد قد تسبب فى خراب المجتمعات على مر العصور، وأنه كان دائما وراء الكوارث الاقتـصادية والجشع الرأسمـالى والحـروب المدمرة ونهب ثروات الشعوب، وأحد أسباب الفقر والجوع التى تعصف بشعوب العالم الثالث.



تحطمت سفينة فى المحيط الهائج فغرق ركابها فيما عدا خمسة منهم، تعلقـوا ببـعض حطام عـائم ألقى بهم على شاطىء جزيرة مهجورة، حيث ظلت عيونهم لساعات طويلة معلقة بالأفق البعيد، عسى أن تقترب منهم سفينة إنقاذ تعود بهم إلى حياة الحـضـارة والأهل بعـد أن تقطعت بهم الأسـبـاب، ولكن مـازال الأمل يتـسـرب من نفوسهم حتى تبين لهم أنهم ماكثون فى هذه الجزيرة إلى ما شاء الله، فشرعوا يتجولون فى الجزيرة يستكشفون أرضها ويتعرفون على ما فيها، فقد أصبحت وطنهم الجديد.

كانوا خمسة رجال كنديين: فرانك وهو نجار ضخم البدن مفعم بالحيوية، وبول فلاح اعتاد على الصبر والحياة الشاقة، وجيم مرب ناجح للحيوان، وهارى متخصص فى الزراعة، وتوم خبير فى المناجم والتعدين.

الاستطلاعـات الأوليـة رفـعت روحـهم المعنوية فلم تكن الجزيرة صخرة جرداء، ولكن بها حيوانات قابلة للاستئناس والاستخدام، قال جيم أنا كفيل بذلك. ووجد بول مساحات كبيرة من الأرض صالحة للزراعة، واكتشف هارى فى الغابة أشجار فاكهة مختلفة تحتاج إلى شىء من العناية، أما فرانك فقد وجد أن

أكثر أشجار الغابة مصدر لأخشاب جيدة تصلح لبناء المنازل، ثم جاء توم بخبر سعيد فقد تبين له أن التركيبة الصخرية للجزيرة تدل على وجود معادن كثيرة فيها.

تجربة مهمة

مضت الأيام سراعا وبدأت الجزيرة تزدهر بفضل العمل الدوب للرجال الخمسة. لم تكن ثروة الجزيرة من الذهب أو أوراق البنكنوت ولكن من أشياء ذات قيمة حقيقية، ثروة من الطعام والملابس والمساكن وغير ذلك من أشياء يحتاجها الإنسان لمواصلة حياته.

كل واحد منهم اشتغل في صنعته فأنتج فيها إنتاجا وفيرا، وما زاد عن حاجته كان يتبادل به على أشياء فائضة من إنتاج الآخرين.

لم تكن الحياة كاملة كما ينبغي أو كما اعتادوا عليها في الماضي، ولكنهم كانوا يعللون أنفسهم بأنها فترة ستنقضي ثم يعودون إلى وطنهم وأسرهم.

اعتاد الرجال أن يجلسوا معا كل يوم للحديث في شئونهم ومشكلاتهم، ومن هذه المشكلات أن نظام المقايضة بالسلع له عيوب فالسلع لم تكن كلها حاضرة طوال الوقت، فالخشب الذي استخدمه الفلاح خلال الشتاء ليطهي طعامه ويستدفىء به لم يكن يستطيع مقايضته بالبطاطس إلا بعد ستة أشهر. وقد تتوافر لأحدهم كمية كبيرة من إنتاجه ويريد أن يستبدلها بسلع أخرى من إنتاج عدة أشخاص وفي أوقات مختلفة. كل هذا عقد نظام المقايضة وألقى بعبء ثقيل على الذاكرة، وانتهوا إلى أنه لو كان هناك نظام للنقود لاستطاع الواحد أن يبيع ويشتري بالنقود الأشياء التي يريدها في الوقت الذي يحتاجها فيه، ولكن للأسف ولا واحد منهم كان خبيرا بإنشاء مثل هذا النظام، إنهم يعرفون كيف ينتجون ثروة حقيقية من السلع والخدمات، ولكن كيف تنتج النقود التي هي رموز لهذه الثروة، هذا شيء خارج عن نطاق خبراتهم.

رفيق جديد

في مساء يوم من الأيام وكان الرجال يجلسون على شاطىء البحر يتحدثون عن نفس المشكلة، ربما للمرة المائة رأوا قاربا صغيرا يقترب من الشاطىء وبه رجل واحد، علموا فيما بعد أنه الوحيد الذي نجا حيا من ركاب سفينة محطمة واسمه أوليفر. كانوا مبتهجين أن يجدوا رفيقا جديدا فأتحفوه بأفضل ما عندهم، ثم أخذوه في جولة حول الجزيرة وقالوا له: رغم أننا انقطعنا عن العالم ولكننا لا نشكو كثيرا فالأرض والغابة بهما خير كثير والحمد لله ولكننا نفتقد شيئا واحدا هو النقود. فقال أوليفر: حسنا.. يمكنكم أن تشكروا العناية الإلهية فأنا من رجال البنوك وفي أقصر وقت أنشىء لكم نظاما نقديا يحل مشكلاتكم، وبذلك يتوفر لكم كل شيء مما يتوفر للناس في الحياة الحضارية. هتفوا مسرورين: رجل بنكي، رجل بنكي!، كأن ملاكا قد نزل إلينا من السماء!

إله الحضارة

- يا سيد أوليفر، باعتبارك رجل البنك عندنا فسيكون عملك الوحيد هو العناية بنقودنا فقط، لا حاجة بك للعمل اليدوي هنا.

قال: سوف أعمل على رفاهية هذه الجزيرة بكل طاقتي.

فقالوا: سنبني لك بيتا يليق بمقامك



المحترم، وحتى يتم هذا نرحب بك ضيفا فى بيوتنا.

قال: شكرا لكرمكم، ولكن قبل كل شيء علينا أن نفرغ حمولة القارب فهناك مطبعة وورق وأحبار وحروف، ويوجد برميل صغير أرجو أن تتناولوه بأكبر قدر من العناية. أفرغ الرجال القارب، إلا أن البرميل الصغير أثار كثيرا من فضولهم، فقال أوليفر: «إن هذا البرميل به كنز يفوق الأحلام، إنه مملوء بالذهب!».

شهق الرجال الخمسة فى نفس واحد وهتفوا: إنه الحضارة قد نزل عندنا فى جزيرة الخلاص! الإله الأصفر، الذى يختفى دائما فلا تدركه الأبصار ولكن لديه قوة رهيبة، بوجوده وغيابه وتقلب أسعاره تتقرر مصائر البلاد المتحضرة!

– ذهب يا سيد أوليفر.. لابد أنك رجل بنكى عظيم!! يالمهابتك يا صاحب العظمة، أيها المبجل أوليفر.. يا أعظم كهنة الإله الذهبى! تقبل ثناءنا وتقديرنا وقسمنا لك بالولاء والإخلاص!

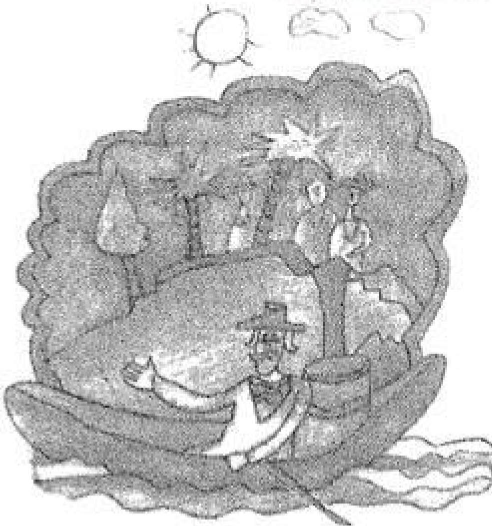
– نعم أيها الرفاق إنه ذهب يكفى لقارة كبيرة لا لجزيرة فحسب، ولكن الذهب يا رفاق ليس للتداول، فالذهب لابد من إخفائه، إنه روح النقود الجيدة، والروح دائما غير مرئية، وسوف أشرح لكم الأمر عندما تتسلمون أول دفعة من النقود.

وقبل أن ينصرفوا إلى حال سبيلهم سألهم أوليفر: كم من النقود تحتاجون لتصريف تجارتكم، نظر بعضهم إلى بعض وتشاوروا فيما بينهم حتى استقر الرأى على مائتى دولار لكل واحد منهم، ذهبوا إلى فرشهم ولكن عز النوم عليهم فقد امتلأ خيالهم بصورة الذهب فظلوا مستيقظين حتى مطلع النهار.

أما أوليفر فلم يضيع لحظة من وقته رغم ما أصابه من إجهاد، ذاب فى تيار حماسه لمستقبل هبط عليه كمدير للبنك ووزير لاقتصاد الجزيرة، ومع تنفس الصبح كان قد انتهى من إعداد حفرة دفن فيها البرميل وأهال عليه التراب وغرس فوقه شجيرة صغيرة فأصبح مكانه غير معروف من أحد سواه. ثم بدأ يشغل أدواته فى طباعة أوراق نقدية مجمل قيمتها ألف دولار، وقال لنفسه: لقد أصبح الشريد مدير بنك، كم هى مسألة سهلة أن تصنع النقود. إن السذج يظنون ان هذه النقود تستمد قيمتها من الذهب، ويجهلون هذه الحقيقة: وهى أن قيمة النقود تكمن فى المنتجات التى ستشتريها، يعنى فى قوتها الشرائية، فبدون المنتجات تصبح هذه الأوراق عديمة القيمة.. ولجهلهم جعلونى سيدهم!

من يملك النقود؟

فلما حل مساء اليوم التالى هرول الخمسة إلى أوليفر، وكان على المنضدة خمسة أكياس من النقود عندما بادرهم أوليفر قائلا: قبل



توزيع النقود أود أن ألفت أنظاركم إلى أمر مهم، أنتم تعلمون أن أساس النقود هو الذهب، والذهب عندي محفوظ في خزينة البنك فهو ذهب أملكه، وترتيبا على ذلك تكون النقود نقودي، ولكن لا ينبغي أن تشعروا بحرج من ذلك، فسوف تتصرفون بالنقود كيف تشاءون، وسيكلفكم هذا أن تدفعوا إلى فائدة مقدارها ٨٪ وهي فائدة معقولة في بلد تشح فيه النقود.

أجابوا جميعا بنفس واحد: لك ما تريد يا سيد أوليفر، هذا شيء معقول، فقال: نقطة أخيرة أيها الأصدقاء، البيزنيس بيزنيس (الشغل شغل) حتى بين الأصدقاء، قبل أن تأخذوا النقود على كل واحد منكم أن يوقع على ورقة تلتزمون بها أن تدفعوا الفائدة ورأس المال، وفي حالة الامتناع عن الدفع يحق لي مصادرة ممتلكاتكم.

الحل هو المعضلة

أصبحت نقود السيد أوليفر متداولة في الجزيرة وأصبحت التجارة سهلة بل تضاعفت، وأضحى كل إنسان سعيدا بمجريات الأمور، وكان مدير البنك دائما في موضع التقدير والاحترام والاعتراف بالجميل، فيما عدا شخص واحد هو «توم» المنقب عن المعادن.. لماذا يبدو مهموما وقد جلس وحيدا منهمكا في حسابات ومعه القلم والورقة؟! فتعالى ننظر في أمر توم:

لقد وقع توم مع زملائه على عقود تقتضي أن يعيدوا إلى البنكي نقوده في نهاية العام. يعني مائتا دولار بالإضافة إلى ستة عشر دولارا أخرى، ولكن توم لا يجد في جيبه سوى حفنة قليلة من الدولارات ويوم تسديد الدين يقترب حثيثا. كان الرجل يفكر في هذه المعضلة مليا منذ وقت طويل، ولم يجد لها حلا، والآن أخذ ينظر إلى المشكلة من وجهة نظر الجماعة ككل، قال في نفسه: هل يستطيع كل من في الجزيرة أن يدفعوا لأوليفر ١٠٨٠ دولارا بينما كل نقود الجزيرة مجتمعة لا تزيد على ألف دولار فإذا دفعناها كلها إليه سنبقى جميعا مدينين له بثمانين دولارا غير موجودة أصلا، وبسبب هذا الدين يستطيع أوليفر أن يستولي على كل ممتلكاتنا ومنتجاتنا، يعني يستولي على الجزيرة كلها ويخرجنا منها مفلسين، حتى لو استطاع قلة منا لديهم النقود ان يسددوا ديونهم هذا العام فسوف يأتي الدور على الجميع في الأعوام التالية ويستولي البنك على كل شيء، لابد أن نعقد على الفور اجتماعا لنرى معا ماذا يمكن عمله في هذه المعضلة.

استطاع توم بالأرقام ان يبرهن على صحة رأيه واتفق الجميع على أن صديقهم البنكي قد خدعهم وقرروا عقد اجتماع معه على الفور.

البنكي الغير

تولى فرانك شرح وجهة نظر الجماعة واستمع أوليفر بصدر رحب والابتسامة لا تفارق شفتيه. قال: كيف نستطيع أن ندفع لك ١٠٨٠ دولارا وكل ما في الجزيرة من نقود لا يزيد على ألف دولار فقط؟! أجاب أوليفر: هذه هي الفائدة يا أصدقائي، ألم يرتفع معدل إنتاجكم؟ فقالوا: بالتأكيد ولكن النقود لم تزد مع زيادة الإنتاج، وأنت الوحيد الذي تصنع النقود وقد صنعت لنا ألف دولار فقط وتريد الآن أن تسترد ١٠٨٠ دولارا.. هذه استحالة!.

قال البنكي أوليفر: الآن استمعوا إليّ يا

أصدقاء من أجل خير أكبر للجماعة عليها أن تكيف أوضاعها لظروف الزمن، إننى سوف أطالبكم فقط بسداد الفائدة وسوف تبقى معكم رؤوس أموالكم المقترضة.. مائتا دولار لكل واحد منكم، فأجابوا جميعا: بارك الله فيك يا سيد أوليفر، هل ستلغى المائتى دولار التى يدين بها كل واحد منا لك؟ رد أوليفر مبتسما: لا .. لا.. آسف، ليس الأمر هكذا، إن البنك لا يلغى الديون أبدا.. فستظلون مدينين لى بالنقود التى اقترضتموها، ولكنكم ستدفعون لى سنويا الفوائد فقط، فإذا دفعتهم الفوائد كل عام بأمانة فلن أطالبكم بسداد رأس المال.. ربما لا يستطيع البعض سداد قيمة الفوائد كل عام نظرا لتداول النقود... حسنا نظموا أنفسكم فى شكل دولة وأنشئوا نظاما للضرائب بموجبه يدفع الأغنياء ضرائب أكثر ويدفع الفقراء أقل.. اجمعوا قيمة الفوائد كلها فى مبلغ واحد وسوف أكون راضيا بذلك، وتأكدوا أن دولتكم ستزدهر. انصرفت الجماعة وقد اطمأنوا بعض الشىء ولكن لاتزال الشكوك تساور عقولهم.

أصبحت لا تطاق

أخذت الأمور تزداد سوءا فى جزيرة الخلاص، ارتفع الإنتاج ولكن انخفض بيع السلع إلى الحد الأدنى وأليفر يحصد فوائده البنكية بانتظام، فقد كانت الجماعة تضع مستحقاته جانبا وبذلك تجمدت النقود بدلا من سيولتها وانسيابها بحرية. الذين يدفعون ضرائب أكثر يشتكون من الذين يدفعون أقل، ولكى يعوضوا ذلك رفعوا أسعار سلعهم وعانى الفقراء الذين ليس لديهم مايدفعونه للضرائب من وطأة الغلاء فأخذوا يقللون من مشترياتهم حتى كسدت التجارة.

تدهورت الروح المعنوية وتسربت البهجة خارج حياة الجماعة، فلم يعد أحد يهتم بعمله كما تعود من قبل، ولِمَ يهتم والإنتاج يباع بصعوبة؟ وعندما يبيعون فإن جامع الضرائب يلاحقهم ليوفر لأوليفر قيمة الفوائد المستحقة على الديون ، ويخرجون هم من أموالهم التى حصلوها بجهدهم وعرقهم. إنها كارثة حقيقية أخذت تلقى بظلالها الكئيبة على علاقاتهم الاجتماعية، فأصبح كل واحد منهم يلقى اللوم على الآخرين ويتهمهم بأنهم السبب فى ارتفاع تكاليف المعيشة وسبب ماحل بمجتمعهم من تعاسة .

كان هارى يجلس وحيدا فى حديقته – ذات يوم – يفكر فى الموقف الذى صارت إليه الأمور فوصل إلى خلاصة: إن النظام النقدى الذى جاء به هذا البنكى والذى وصفه بأنه نظام تقدمى، هو الذى أفسد كل شئ طيب فى هذه الجزيرة. لا شك أن كل واحد من الجماعة كانت له أخطاء، ولكن النظام المالى الذى وضعه أوليفر من شأنه وطبيعة تصميمه أن يستثير فى الطبائع البشرية أسوأ مافيها من خصال، لذلك اعتزم هارى أن يعرض أفكاره هذه على زملائه فى محاولة لإقناعهم وتوحيد جهودهم لعمل مشترك ثم بدأ بجيم الذى لم يكن من الصعب إقناعه قال: أنا لست عبقريا ولكنى منذ وقت طويل أشم رائحة سيئة فى نظام هذا البنكى الذى حط علينا من حيث لا نعلم .

استطاع هارى أن يقنع زملاءه واحدا بعد الآخر، وقرر الجميع فى النهاية أن يجتمعوا

مع أوليفر مرة ثانية ويواجهوه بمشكلاتهم .

انتفاضة الجزيرة

تفجرت عاصفة من الاستياء والغضب فى مجلس أوليفر، قالوا له: النقود أصبحت نادرة فى الجزيرة يارفيق لأنك تتخذها منا أولا بأول!، إن لدينا أفضل تربة وأطيب المصادر الطبيعية ولكن منذ وصلت إلينا وأحوالنا تتدهور من سيئ إلى أسوأ، ديوننا تتراكم علينا حتى أغرقتنا إلى الأعناق!.

- هل تريدون مزيدا من النقود؟ حسنا، إن برميل الذهب يصلح لإصدار آلاف من الدولارات، وسوف أقرضكم ألف دولار أخرى على الفور لمعالجة أزمتكم المالية .

قالوا: معنى هذا أن ديوننا سترتفع إلى ألفى دولار بدلا من ألف واحدة وسنضطر لدفع فوائد الديون حتى آخر أعمارنا .

قال البنكى : هذا صحيح .. ولكنى سوف أقرضكم المزيد من النقود كلما احتجتم إليها، وعندما ترتفع قيمة ممتلكاتكم، ولن تدفعوا لى أبدا إلا الفوائد المستحقة. اجمعوا ديونكم فى دين واحد وهو ما نسميه اصطلاحا «الدين الموحد» وتستطيعون أن تضيفوا إلى هذا الدين سنة بعد سنة وتصبح الفوائد مركبة .

قالوا : ونرفع نحن الضرائب سنة بعد سنة لسداد فوائدك؟!.

قال : طبعا ، هذا واضح، ولكن عوائدكم من العمل ستزيد عاما بعد عام أيضا .

قالوا: ومعنى هذا أنه كلما نمت الجزيرة



بسبب عملنا وجهدنا زادت ديوننا !!!.

قال البنكى: أتعرفون لماذا؟.. لأن هذا بالضبط مايحدث فى كندا أو فى أى مكان آخر من العالم المتحضر، ذلك لأن درجة حضارة الدولة تقاس دائما بحجم ديونها للبنوك.

قالوا متعجبين: وهذا هو النظام المالى السليم يامستر أوليفر؟!.

قال: يا أيها الرجال المحترمون الطيبون كل النقود السليمة مؤسسة على الغطاء الذهبى، والذهب فى البنوك، يخرج إليكم على شكل ديون، والدين الوطنى شئ حسن لا غبار عليه، إنه يمنع الناس من الشعور بالرضا الزائد عن الحد ويخضع الحكومات لصوت الحكمة العالية المطلقة التى تجسدت فى رجال البنوك. إننى كبنكى أحمل شعلة الحضارة هنا فى هذه الجزيرة الصغيرة، وسوف أملى عليكم السياسة الحكيمة وسوف أنظم لكم مستوى معيشتكم وأوضاعكم المالية .

انزعج الحاضرون من هذه النغمة الجديدة ومن الصلاحيات والسلطات التى فرضها هذا البنكى الدخيل عليهم ، والتى تطلق يده حرة تتصرف بشئونهم حسب مشيئته وهواه دون مراعاة لحريتهم هم وحقوقهم الأصيلة فقالوا له :

ياسيد أوليفر، إننا أناس بسطاء، لم نتعلم كثيرا ولكننا لا نريد هذا النوع من الحضارة عندنا فى الجزيرة، ولذلك لن نقترض منك بعد اليوم سنتا واحدا ، قل ماشئت: مال حسن أو غير حسن نحن لن نتعامل معك بشئ من هذه اللحظة .

صاح فيهم البنكى مستنكرا. أيها الرجال المحترمون إننى أشعر بعميق الأسف لهذا

القرار الذى تورطتم فيه بسبب نصيحة تعيسة جاهلة، ولكن إذا قررتم الاستغناء عن خدماتى فتذكروا أن معى توقيعاتكم، ادفعوا لى كل شئ مرة واحدة، رأس المال والفوائد جميعا .

قالوا : ولكنك تعلم أن هذا مستحيل ياسيد أوليفر فليس فى الجزيرة كلها ما يكفى من نقود لسداد ديونك، فحتى لو دفعنا كل مالدينا من نقود فسوف نبقى بعد ذلك مدينين لك دائما وأبدا .

قال غاضبا : وماذا أفعل لكم؟ ألم توقعوا باختياركم وبإرادتكم الحرة؟!.

الشعب يسيطر على الصحافة

لاحظ أوليفر خلال مناقشاته مع الرجال الخمسة أن بينهم إثنين محافظين وثلاثة ليبراليين، كما لاحظ وجود خلافات فى الرأى بين كل من الفريقين . كذلك فإن انطباعه السابق عن هارى أنه أكثر الخمسة حكمة وبعد نظر فهو يرى أن الجميع لديهم نفس الاحتياجات ونفس التطلعات وأن مصيرهم مشترك ، وأن اتحادهم من شأنه أن يحدث ضغوطا على السلطة ويمنعها من ممارسة الاستبداد عليهم . ومن ناحية أخرى يرى أوليفر أن هذا الاتحاد الذى يدعو إليه هارى لا يمكن احتماله فهو يعنى - بكل بساطة - نهاية سلطانه على الجزيرة، فلا يستطيع دكتاتور مالى أو غير مالى أن يقف أمام شعب متحد متعلم واع . ومن ثم صمم أوليفر على افتعال فتنة سياسية بين سكان الجزيرة تمزق وحدتهم وتضعف قوتهم .

وهكذا قام بتحويل مطبعة النقود إلى طباعة الصحف، فأصدر صحيفتين أسبوعيتين: واحدة سماها «الشمس» وخصصها لليبراليين والأخرى سماها «النجم» وجعلها للمحافظين، وحدد الاتجاه الفكرى لصحيفة الشمس فى هذا الإطار : إذا كنا قد فقدنا السيطرة على مصائرنا فإن ذلك راجع إلى وجود خونة بيننا باعونا لرجال الأعمال ، وجعل الخطاب السياسى لصحيفة النجم: إن حالة الدمار الذى لحق بنا وباقتصادنا وهذا الدين العام المتفاقم ترجع المسئولية فيه إلى سياسة هؤلاء الليبراليين الذين لا يعبأون بالمصلحة الوطنية.

ونجحت الفكرة الجهنمية فاستغرق الفريقان فى صراع صحفى عنيف، ونسى الجميع القيود التى كبلهم بها أوليفر الخبيث ..

لحظة تنوير وانكشاف الأسرار

وحدث فى أحد الأيام أن ذهب «توم» فى تجواله على الشاطئ إلى بقعة نائية فى الطرف الآخر من الجزيرة، حيث رأى جسما على شكل قارب نجاة تخفيه عن الأنظار بعض الأعشاب الطويلة، فاقترب منه وتحقق أنه قارب مهجور وفارغ فيما عدا صندوق خشبى يرقد فى قاع القارب، وهو بحالة جيدة. فتح «توم» الصندوق فوقع بصره على بعض أدوات عديمة القيمة، ووجد تحتها شيئا يشبه «ألبوم» الصور فتناوله بيده فإذا به كتاب مبسط فى «الاقتصاد بدون فوائد» من مطبوعات هيئة مالية أو جمعية ادخار شعبية تسمى نفسها "Social Gedit" .. دفع توم حب استطلاع شديد فجلس وبدأ يتصفح الكتاب ويقرأ بشغف، وكلما قرأ زاد اهتمامه، والتمع وجهه بضوء المعرفة التى ساقها الله إليه. ياالله هذا شئ كان يجب أن نعرفه منذ وقت طويل: النقود لا تكتسب قيمتها من الذهب

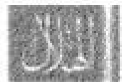
الذى فى البنك، ولكن من السلع التى تشتريها، من القوة الشرائية للنقود .

وهذا الكتاب يعلمنا كيف نصنع النقود ببساطة، ويتلخص السر كله فى نوع من المحاسبة (مسك الدفاتر) .. أرقام تسمى أرصدة تنقل من حساب شخص إلى شخص آخر تبعا لحركة البيع والشراء ، والمحصلة النهائية هى مجموع الإنتاج لا مجموع الديون، فكلما زاد الإنتاج فلابد أن تزيد كمية النقود، ولن يكون هناك فى أى لحظة فوائد تدفع على إصدار النقود الجديدة، ولا يقاس التقدم - كما يدعى ذلك البنكى الأفاق - بحجم الدين العام ، وإنما بإصدار أسهم متساوية لكل فرد، وتنضبط الأسعار وفقا للقوة الشرائية العامة بواسطة ما يسمى بمعامل السعر .

لم يستطع توم أن يكبح جماح نفسه فهب قائما، وعاد مهرولا ليشارك زملاءه هذه الاكتشافات الباهرة . وتحول توم بين يوم وليلة إلى معلم ناجح علم إخوانه ما أفاء الله عليه به من فهم للاقتصاد الصحى المبرأ من الفوائد والربا .

قال لزملائه: استمعوا إلى جيدا ، هذا ماينبغى أن نفعله دون انتظار للبنكى أو برميل ذهبه، وبدن التوقيع على ديون جديدة، سوف أفتح حسابا باسم كل واحد منكم على ورقة مقسمة إلى عدة أنهر أو أعمدة، فى العمود الأيمن سأضع قيمة الأرصدة المضافة التى تجمع إلى حساب كل عميل وفى العمود الأيسر سأضع حساب المبالغ التى تخصم من حسابه . كل واحد يريد مائتى دولار .. حسنا سوف نكتب ٢٠٠ دولار كرصيد دائن فى العمود الأيمن لكل واحد منكم . فإذا اشترى فرانك سلعا من بول بمبلغ عشرة دولارات، فسوف تخصم عشرة دولارات من حساب فرانك وبذلك ينخفض رصيده إلى ١٩٠ دولار، بينما يرتفع الرصيد الدائن لبول ليصبح ٢١٠ دولارات ، فإذا اشترى جيم من بول شيئا بثمانية دولارات فسوف نخصم ٨ دولارات من حساب جيم ليصبح ١٩٢ دولارا فقط بينما يرتفع رصيد بول إلى ٢١٨ دولارا .. وهكذا نستمر فى نقل أرقام من حساب شخص إلى حساب شخص آخر بنفس الطريقة التى تنتقل فيها النقود من جيب شخص إلى جيب شخص آخر، فإذا احتاج شخص ما إلى نقود ليتوسع فى مشروعاته الإنتاجية نصدر له المبلغ المطلوب لأرصدة جديدة حتى إذا تمكن من بيع منتجاته نضيف المبالغ التى حصلها إلى رصيده الدائن .. وبنفس الأسلوب نعامل الأشغال العامة التى يقوم بها المجتمع ، تدفع من أرصدة دائنة جديدة، وبهذه الطريقة تزداد أرصدة العملاء شيئا فشيئا دون الافتئات على أرصدة الآخرين، ومن ثم يستفيد كل واحد من التقدم الذى يحققه المجتمع ككل وهذا ما يسمى بالأسهم الوطنية، وبهذا الأسلوب تصبح النقود وسيلة للخدمة وليست ديونا تقيد الأعناق.

استطاع كل واحد أن يفهم النظام المالى الجديد، وفى اليوم التالى تسلم البنكى أوليفر رسالة وقعها الخمسة تقول: سيدى الفاضل إنك بدون ضرورة ما قد أوقعتنا جميعا فى الديون والفوائد، وقمت باستغلالنا أسوأ استغلال، ولذلك لم نعد فى حاجة إليك بعد اليوم فى إدارة نظامنا المالى، من الآن فصاعدا سوف نحصل على كل ما نريد من



نقود بدون ذهبك المخفي عن الأنظار وبدون ديون، وبدون لصوصية، إننا سننشئ على الفور نظاما ماليا جديدا في هذه الجزيرة، وسوف تحل الأسهم الوطنية محل الدين الوطني العام، فإذا أصررت على أن تحصل على نقودك فسوف نعيدها إليك كاملة ولكن بلا سنت واحد زيادة، لا فوائد ولا غيرها .

وقع أوليفر في حيرة شديدة وحل عليه يأس مقنط، وهو يرى إمبراطوريته تنهار على رأسه، تحطمت أحلامه كلها وضاع مستقبله فماذا يصنع؟ لم يعد الجدل مع هؤلاء الناس يجدي، لقد فهم الجميع اللعبة البنكية فلم تعد النقود والأرصدة الدائنة سرا بالنسبة لهم بقدر ما لم تكن بالنسبة له، لقد استهوت عقولهم فكرة الاقتصاد الخالي من الفوائد والربا، وسوف تنتشر عقيدتهم بسرعة كبيرة على حساب فلسفتي الربوية، فهل أطلب منهم الصفح والمغفرة؟ هل أصبح واحدا منهم؟ أنا الممول البنكي المبجل؟!! لا يمكن أن أقبل بهذا ما حييت!.. الأفضل لي أن أعتزلهم وأضع بيني وبينهم الحواجز قدر ما أستطيع .

سقوط القناع عن الزائف

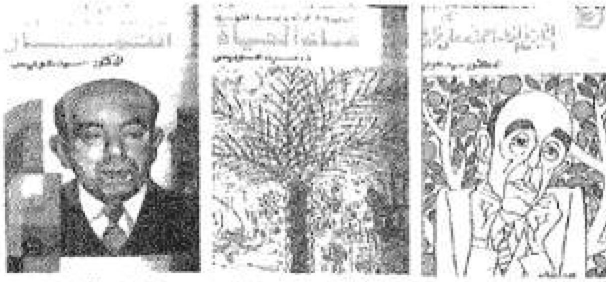
لكي تحصن الجماعة نفسها ضد أي مطالبات يقوم بها أوليفر في المستقبل قررت أن تحمله على أن يوقع على وثيقة يعترف فيها أنه قد استعاد كل ما كان يملك عندما وصل أول مرة إلى الجزيرة، حصروا ممتلكاته وأثبتوها في الوثيقة: القارب والمجاديف ، والمطبعة الصغيرة وبرميل الذهب .

كان على أوليفر أن يدلهم على المكان السري الذي أخفي فيه الذهب، فأخرجه الرجال من الحفرة التي دلهم عليها ، ولكن بدون ذلك الإجلال الذي أحاطوه به في المرة الأولى عندما نقلوه من القارب ، فقد علمهم كتاب «الاقتصاد بدون فوائد» احتقار الذهب .

لعب الفأر في صدر خبير المعادن الذي كان يساعد في استخراج البرميل من الحفرة، فقد شعر أنه أخف من أن تكون حمولته ذهبا خالصا، وتشكك أن يكون الذهب مختلطا بشئ آخر، ذلك إذا كان البرميل ممتلئا، فلما أفضى الرجل بشكوكه إلى أصحابه لم يفكر فرانك طويلا وإنما هوى بفأسه على البرميل بضربة واحدة أطاحت بالغطاء وانكشف ما في البرميل، وصاح الجميع : أي ذهب هذا؟!.. ولا ذرة من الذهب، كل ما في البرميل صخور، مجرد صخور لا قيمة لها!..

لم يستطع الرجال أن يتغلبوا على الصدمة المروعة: لا تقل لنا إن هذا الأفاق قد استطاع أن يخدعنا إلى هذا الحد، هل كنا نحمل على أكتافنا رؤوس خراف عندما طرنا فرحا وابتهاجا لمجرد أن نطق باسم الذهب على مسامعنا، هل رهنا كل ممتلكاتنا في مقابل بعض أوراق تستند فقط على كمية من الصخور عديمة القيمة؟!.. يالها من سرقة مغلفة بأكاذيب!، عندما نفكر أن بعضنا قد عبس في وجه بعضنا الآخر، وأصبح كل واحد منا يكره أخاه ويرى فيه مصدر البلية التي ابتلينا بها ندرك فداحة ما أوقعنا فيه هذا الرجل الشرير المزيف .. ياله من شيطان رجيم!.

استشاط فرانك غضبا ورفع فأسه مرة أخرى، ولكن قبل أن يهوى بها على رأس البنكي أوليفر كان قد أطلق ساقيه للريح واختفى في الغابة . ■



سيرة د. سيد عويس الذاتية في ثلاثيته التي نشرها بكتاب الهلال

سيد عويس

والتاريخ الذى يحمله على ظهره

بقلم

مصطفى نبيل

أطلت علينا في فبراير الماضي ذكري مولد د. سيد عويس، شيخ علماء الاجتماع في مصر، وقبل رحيله في ١٦ يونيو ١٩٨٩، نشر في كتاب الهلال سيرته الذاتية في ثلاثية تحت عنوان «التاريخ الذي أحمله علي ظهري» كما أصدر في كتاب الهلال كتابه «لا للعنف». وثلاثيته سيرة ذاتية من نوع خاص، و«لا للعنف» كأنه نبوءة بما شهده العالم، دعا خلاله إلي إنقاذ البشرية مما يهددها.

وكلما أعدت قراءة ثلاثيته، وجدت ما هو جديد وشيق في دفتر أحوال حياة مصر الاجتماعية، وكأنك تعيد اكتشاف مصر، فهو يعنى بالدرجة الأولى تفاصيل الواقع المصرى والحياة الاجتماعية التى لمسها وعاينها، وهى عنده «محاولة قراءة بعض سطور من موسوعة المجتمع المصرى» ومحاولة تفسير بعض ما يجرى فى بلادنا، وكما يحدد طبيعة المشكلات الاجتماعية، يرسم الطريق من أجل وضع حل لها.



عويس .. عالم اجتماع خرج من رحم الحارة المصرية بتقاليدها وثقافتها ، فاكتسب حكمتها

وتكاد تكون هذه السيرة من أميز السير الذاتية ، وتستهويني قراءة السير الذاتية ، واستمتع بقراءتها ، وهي أفضل طريقة تروي حياة المرء ، فهو يعرف وقائع ودوافع وتفاصيل هذه الحياة .

وإذا كان المرء يميل بطبعه لإخفاء عناصر ضعفه، فطبيعة الذاكرة أنها انتقائية وأنها أيضا مراوغة .

ولكن هذا لا ينطبق على هذه السيرة ، فهي في الحقيقة سيرة ومسيرة الأحوال الاجتماعية في مصر، وهي أيضا تسجيل أمين لتجربته وخبرته في العمل في حقل الدراسات الاجتماعية .

ويدرك طبيعة ما هو مقدم عليه ، يقول «أنا بشر ، قد تخونني ذاكرتي أحيانا ، وقد أقول أشياء وأسكت عن أشياء أخرى، ولكن ما سأقوله هو الصدق .. ، فالملاحظ أن ذات الإنسان لها وجوه عديدة ، فصورتي عن ذاتي غير صورة من حولي من الناس عنها ، وهي غير الصورة التي أعتقد أنها الصورة التي يراها من حولي من الناس وهي أيضا صورتي الحقيقية» .

ومعظم مادة سيرته جاءت من خلال عمله الميداني ، وسط الناس ، ومزج بين ذلك العمل وبين الدراسات الأكاديمية ، كما نجده خرج على النمط السائد «للسيرة الذاتية العربية» عندما تناول بلا خجل بعض جوانب العلاقة بين المرأة والرجل . وها هو يقول.. «إن ما حدث من مصاعب طبية لأبي وأدى إلى وفاته ، هو محاولة أن يمارس حقوقه الزوجية ، بينما داهمته أزمة ضيق النفس» ..

أين الطريق ؟!

يكتب سيد عويس قصة العمل الاجتماعي في مصر ، وهو مشحون بأكثر ألوان القلق نبلا ، ومن خلالها يبحث عن الطريق عن انتشال المجتمع من وهدة التخلف والفقر والأمية .. وهو في كل خطواته يبحث عن وسائل العمل وأدوات الفعل المؤثر .

ونمضي معه ، نصحبه وهو يتحول إلى شخص آخر تماما ، بعد أن كلف بأول دراسة «حالة حدث» كلف بها في بداية عمله عام ١٩٣٨ في الحقل الاجتماعي ، كان مقصده بيته في حي الخليفة الذي

يعرفه والذى تربى فيه ، ولكن لم يتمكن من الوصول إلى العنوان إلا بصعوبية بالغة ..

وكانت مفاجأته الأولى أن أسرة بكاملها وأثاثها تعيش فى حوش مع الأموات ، .. «وهو ما لم أتصور حدوثه، كنت أفهم أن تعيش أم أرمل فى حوش مع ابنها الوحيد الذى مات على أمل أن تلحق به ، ولكن أن تعيش أسرة بكاملها فى حوش قرافه وتتخذه مسكنا لم يكن فى الحسبان ! ، وفوجئت وفجعت ، وها أنذا أواجه حقائق الحياة - وجها لوجه - التى يعيشها بعض أبناء وطنى ، على قدر ما عرفت وعلى قدر ما كان حولى من حلالات فقر مدقع إلا أننى لم أجد مستوى من الفقر أقل مما وجدت عندما كنت أقوم بدراسة هذه الحالة ، حالة أول حدث جانح !

ولم أتبين من محتويات الأثاث سوى الحصير الذى ينام عليه كل أعضاء الأسرة ، ورأيت وجوها آدمية مثل الأشباح ، لم أتبين ملامح وجوه الأطفال ، التى اختفت وراء القذارة والتراب .

وعندما خرجت من «الحوش» الذى كنت فيه ، أحسست أن عينى استبدلت بهما عينين أخريين ، وأحسست أننى لا أرى أشياء أو أناساً إنما أرى ظواهر ومواقف وعلاقات اجتماعية تدعو إلى العمل .

وكان شعورى بالضآلة أمام ما أرى جارفاً . وتركت المكان والقصة تعتصر قلبى وتملك على حواسى»

وكانت تجربته الأولى التى ساهمت فى عثوره على الطريق الذى عليه أن يقطعه .

إطلاق اللحية !

وقبلها خاض تجربة روحية من نوع آخر ، انتهت بانضمامه إلى الجمعية الشرعية وارتدائه الجلباب وإطلاق لحيته وحلق شاربه ، ويقدم تفسير هذا التوجه .. لعل ذلك يرجع إلى الإحباط الذى يواجه جيلنا بعد فشل ثورة ١٩١٩ ، وعجز هذا الجيل عن تحقيق أهداف الثورة فى الاستقلال ، واتجهنا إلى الاهتمام بالأمور الدينية أكثر من الاهتمام بالأمور العامة أو الأمور الشخصية» ويضيف .. «أصبحت متدينا أعيش حياة العزلة النسبية عن المجتمع وما يدور فيه» ، واندفع معه - فى هذه المرحلة - كثيرون ، واتجه البعض إلى التصوف ، وانتعشت الجمعيات الدينية، والتحق بالجمعية الشرعية وكان تأثير الشيخ محمود خطاب السبكى عليه كبيراً ، وكان من رفاقه الشيخ سيد سابق والكاتب الكبير خالد محمد خالد ، وبذل نشاطا وجهداً كبيرا من خلال هذه الجمعية.

وعندما عمل فى مصلحة الحدود ، اتهمه رئيسه بالدروشة الدينية والإهمال، فذهب إلى الحلاق ، «وارتديت البدلة وخلعت الجلباب .. وأصبحت إنسانا آخر ،




سارت ثلاثية عويس على نفس الخط الاجتماعي لثلاثية نجيب محفوظ !

بعد أن كنت أشعر كأنني في سن الستين ، رجعت شاباً في سن الرابعة والعشرين .. وأستطيع أن أعيش حياتي ، أذهب إلى أي مكان وأقابل أي شخص دون ما حرج ، ولن يكون مصدر ثقافتي قاصراً ، بل سيكون أمامي المسارح والمتاحف والسينما ، وسأنصت إلى الموسيقى وأستمع للأغاني .. وسأعيش بين أعضاء المجتمع حراً طليقاً لا يعصمني من الزلل سوى ضميري» .

ورأى أنه من الضروري فهم الواقع المصري لكي تتحقق أولى خطوات الإصلاح «وخرج من هذه التجربة معتبراً أن دراسة الواقع المصري هي الخطوة الأولى للاستدلال والاستقراء الذي يقود إلى الطريق ، ومن أجل دفع المجتمع للمشاركة الإيجابية في تغيير هذا الواقع المرير ، ودعا الجميع إلى المشاركة في العمل الاجتماعي الهادي بديلاً عن العمل السياسي الهادر !

وأخذ يتجول في مواقع العمل الاجتماعي .. «عندما زرنا ملجأ شارع منصور كان الواقع الذي شهدناه أليما .. دخلنا من باب الملجأ، فماذا وجدنا .. ؟ أطفالا لا تزيد سن الواحد منهم على سنتين واقفين صفين ، وإذا بكل طفل يتعلق برجلي كل واحد منا صائحا .. بابا .. بابا..

وشعرت بجسامة المسئولية الواقعة علينا ، وأخذت أقارن بين ما يفعله زملائي من أعضاء الجمعية الشرعية من الأعمال الصالحة ، وبين ما يفعله المسئولون عن أطفال ملجأ شارع منصور».

ولا يفوته أن يلحظ من خلال التجارب التي يسجلها عظم الفجوة بين ما يحتاجه الواقع الاجتماعي وبين ما تقوم به المؤسسات الرسمية التي تتعامل معه وتعالجه .

وهو هنا يدعو إلى العمل الأهلي ، ويشيد بتجربة جمعية الرواد، والتي كان

ضمن صفوفها د . إبراهيم حلمي عبد الرحمن ومريت غالي ويعتبرها إحدى التجارب الرائدة .

يقول .. «عندما زرنا «محلة الرواد بالطيبي» عام ١٩٣٨ ، وهي ثمرة جهود جماعة مصرية أطلقت على نفسها «جماعة الرواد» ، تركت في نفسي بعض الآثار الطيبة . علما بأن جماعة الرواد تألفت على يد نخبة من الشباب المصرى الذين عادوا من بعثاتهم في الخارج وأصبحوا بعد عودتهم من قادة المجتمع ، وعندما لمسوا المشاكل التي يعاني منها المجتمع ، واستقر رأيهم على أن الهدف ، تكوين المواطن الصالح الذي يؤمن بالمثل العليا ويعمل على تحقيقها، ويشعر بواجبه نحو المجتمع ، ويبذل الجهد في خدمته تحت شعار «قوة الوطن في قوة الفرد» .

وأقامت مراكز اجتماعية في عدد من الأحياء تعمل على خدمة أهل الحي ويشير أيضا إلى جماعة إنقاذ الطفولة المشردة برئاسة الدكتور علي إبراهيم وعملها على إنشاء مؤسسة لإيواء الأطفال المشردين .

ويتحدث عن مساهمته بعد ذلك في إنشاء جمعية للعمل الاجتماعي بحي بولاق سنة ١٩٤٧ ، فليس غريبا على من يشغله الواقع الاجتماعي أن يسعى إلى فهم مفردات هذا الواقع ، وأن يتناول مثلا ظاهرة غريبة يختلط فيها الجهل بالسذاجة ، عندما يرسل البعض برسائل إلى من لا يملك من أمره شيئا ، إلى ضريح الإمام الشافعي ، وهي دراسة عميقة وفريدة ، تتلامس مع الوجدان الشعبي ، ويقترب من هذا الوجدان بوعي وبغير استعلاء، فقد سبق أن كتب هو نفسه رسالة إلى الإمام يناشده أن ينجح في الامتحان !

يدرس هذه الظواهر الاجتماعية بفهم ، ويحمل شحنته من الإعزاز والحب للمجتمع الذي ينتمي إليه ويبحث ملامحه ومشاكله ويستعرض الملامح التي يكتبها البسطاء ، شاكين أو متضرعين ، ولفت نظره في هذه الرسائل جرائم غير منظورة تقع ومشاكل اجتماعية غير معلومة وطموحات وصرخات ألم للبسطاء من المواطنين، سيدة تستغيث بالإمام قبل أن تسقط في الضياع ، وأخرى تكتب .. «أنا هدى بنت نبيهة ، وقعت في عرضك ، فانتشلني ! وأخرى .. تطلب من الإمام أن يزوجها فلانا الذي تحبه، وثالثة . تسأله التحقيق فيمن سرق «دكر البط» من فوق السطوح ، وآخر يسأل هل ابنته ثيب كما يدعي البعض ، أم أنها لا تزال عذراء ! «بعض هذه الرسائل يصل بالبريد أو باليد والبعض عليه ورقة دمغة !

ومن سواه يغوص في أعماق الشخصية من خلال «هتاف الصامتين» الذي يصنع من كلماتهم التي تكتب على الحافلات وسيارات النقل ، حكاية تكشف الكثير ، فتدل على أحلام البسطاء وقيمهم ، ويقف طويلا عند كلمات مثل «ربنا يكفينا شر المستخبي» ويعتبرها تعبيرا عميقا عن

المخاوف التاريخية للشعب المصرى .. وهو يرصد ويدرس دلالة الأمثال والتعبيرات الشعبية .

الإصلاح عنده يبدأ من دراسة الواقع ، وعدم الاستعلاء عليه ، كما سبق وذكرت، والعمل وعدم انتظار الإذن من أحد . فما يدعو إليه هو ضرورة العمل الاجتماعى قبل ظواهر التدين الكاذبة ، ويظهر أيضاً اهتماما كبيراً بقضية الأمية ، فمن العسير أن يقوم المجتمع بالتنمية مع انتشار الأمية، ويرى أنه لا يجوز أن تقتصر أساليب علاج الأمية على أحد أطراف المشكلة وهو «المتلقى» ولا تلقى بالاً إلى «المعلم» .

ويقول بالحرف الواحد.. «فالحاجة فى ضوء خبرات طفولتى وشبابى ومهنتى إلى تغيير المجتمع المصرى إلى الأفضل ماسة .. وإن السياسة لابد أن تكون معرفة ما هو كائن موضوعياً ، لكى نغيره إلى ما يجب أن يكون .. فالسياسة يجب أن تكون محو الأمية والقضاء على الفقر ومكافحة الأمراض» .

ألا ترى فيها يقوله سيد عويس تشابها مع ما سبق وقاله عدد من الرواد مثل الإمام الشيخ محمد عبده الذى يعتبر التعليم هو الخطوة الأولى نحو النهضة ، أو طلعت حرب الذى يرى أن الاقتصاد المستقل يسبق ما عداه فى سبيل النهوض بالبلاد ، ود.أحمد زكى الذى يرى شيوع الثقافة العلمية هو الخطوة الأولى نحو التقدم.

وهؤلاء جميعاً يرون ضرورة العمل فى الداخل ، وأن مادة العمل هى الواقع وضرورة تغييره ، وأن ذلك ينعكس بالضرورة على موازين القوى ويؤثر تأثيراً إيجابيا فى السياسة ، والتى إذا تجاوزت ذلك تصبح «طحن بلا طحين» أو «حرث فى البحر» ، فالخروج من أسر التخلف هو أول المهمات ، وله آلياته وتداعياته التى يجب أن يدركها المثقفون والمصلحون ويتبعون خطاها .

ثلاثية سيد عويس

إن ثلاثية سيد عويس «التاريخ الذى أحمله على ظهرى»، والتى تلقاها القراء باهتمام كبير لما فيها من صدق وعمق، وترجمت إلى اللغة الفرنسية ، والتى تقف فى أهميتها إلى جانب «شخصية مصر» لجمال حمدان ، و«تكوين مصر» لشفيق غربال ، وكل من هذه الأعمال تسهم فى فهم أبعاد الشخصية المصرية .

والمدهش حقا أن تسير ثلاثية سيد عويس بالتوازى مع ثلاثية صاحب نوبل «نجيب محفوظ» ثلاثية عويس وصف للأحوال الاجتماعية وثلاثية محفوظ عمل درامى يتناول الأحوال الاجتماعية لذات الفترة التى يعالجها عويس .

ولنتابع معاً هذا المشهد ، الذى يصف فيه سيد عويس ظهور الجد ونزوله من الدور الثانى فى طريقه إلى العمل .. «يهرع جميع من فى البيت يسابق بعضهم

بعضا ، واحدة تحمل الأواني وما تبقى من الطعام ، وأخرى تحمل أرغفة الخبز ، وثالثة تحمل الطبلية ، ذاهبين بكل هذا إلى إحدى الحجرات لإخفائها .. ويقف الجميع فى نصف دائرة ، فإذا نزل الجد ووصل إلى آخر السلم ، يقول مشكرا - وكأنه قرفان - «صباح الخير» ويردون .. «صباح الخير يا سيدى»، ثم يوزع المصروف ويعطي أوامره على ما يريده من الطعام ، أو ما يعن له من نزوات !

وما أن يدير ظهره حتى يهرع الجميع ويحضروا الطبلية وأواني الطعام الذى لم يتم أكله . ويعودوا ويستأنفوا تناول طعام الإفطار..». ألست هنا أمام سي السيد الذى قدمه نجيب محفوظ!

هذا علاوة على رصد انعكاسات الأحداث السياسية على الحارة متقاربة مع الفترة التاريخية لثلاثية نجيب محفوظ وهذا مشهد آخر يرويه سيد عويس خلال ثورة ١٩١٩ ، الجد يضرب حفيده بالكرباج ، لأنه سار فى المظاهرات المطالبة بالاستقلال ويقول له صارخاً ..

«مالهم الانجليز يا ولد يا خنزير، مش هم اللى جابوا الترماى ، .. مالهم الإنجليز مش هم اللى جابوا الكهرباء » ، وتتوسل نساء البيت لكي يتوقف عن ضرب الحفيد قائلات .. «معلش يا سيدى حرم خلاص» .. ولكن يصرخ الحفيد تحت ضربات الكرباج قائلا :

«تحيا مصر ، تحيا مصر ، يسقط الإنجليز .. يسقط الانجليز» .

ولعل هذا الجد يخشى على حفيده من عساكر الانجليز ، أو لعله مثل بعض مرتفعى الصوت اليوم ، تغريه تكنولوجيا الغرب ، أو أنه يصدق ادعاءاته بالدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان !

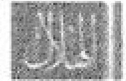
وتستمر ذات أجواء ثلاثية نجيب محفوظ ، بين القصرين وقصر الشوق والسكرية ، وعندما ينقل جلسات الأب فى الوكالة التى يمكنها ، وحوار الأصحاب ومناقشتهم فى الأمور السياسية ، تكاد تكون أمام أحمد عبدالجواد وصحابه . «كانوا جميعا من أعضاء الحزب الوطنى ، حزب الزعيم مصطفى كامل ، وكان بينهم الأديب كامل كيلانى ، ومنهم ضابط الجيش عبد العزيز راشد ، ومنهم صاحب المكتبة الشيخ إبراهيم يوسف».

ثم يروى أثر تجنيد أبناء الحارة من سكان حى الخليفة كعمال فى الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الأولى، ويرصد التغيرات التى حدثت لمن عاد منهم .

الاستمرارية الثقافية

ويؤكد فى سيرته أنه «لكى تتضح الرؤية ، فإن كل شىء له تاريخ ، وأنه لكى نفهم الحاضر علينا أن نفهم الماضى البعيد والقريب »

لهذا نجده يهتم بالتراث الثقافى المصرى منذ مصر الفرعونية وحتى اليوم وانتهى إلى وجود عناصر ثقافية مستمرة . فالدين لم يتغير فى هذا المجتمع على طول



عمره سوى مرتين .. أما جنس المصريين فلم يتغير فى جملته من خلال عمر المجتمع المصرى .. بل إن العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كما هى أيام المصريين القدماء، ولا يعنى ذلك أن مصر لم تأخذ شيئا من الثقافات الأخرى ، ولكنها كما أخذت أعطت ، وما أخذته لم يمس الأصيل الذى بقى مع غيره عبر الأزمان !

فالدين المسيحى عندما دخل إلى مصر فى عام ٦٤م ، لم يجد شعب مصر أرضا جرداء ، لأن مصر كانت تعرف «أوزيريس» واستشهاده ، ثم بعثه، كما كانت تعرف شقيقته «إيزيس» قبل أن يطرق أذنها صوت البشارة المرقسية عن «الفادى المخلص» ، وأنه «مريم العذراء» .

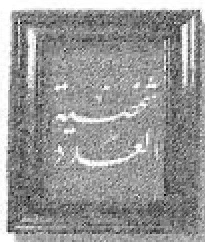
ولم يجد الدين الإسلامى عندما دخل إلى مصر سنة ٦٤٢م فى شعب مصر أرضا جرداء . لأن مصر كانت تعرف الوحدانية الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار ، فالتاريخ يذكر أن آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة أمنمحتب الرابع (أخناتون) كان أول الموحدين .

وتمكنت مصر رغم النير الرومانى من غزو غزاتها فى عقر عقولهم ، ومنحت مصر العالم المتحضر نبضه الروحى وعقيدته الدينية .

ويخلص إلى أن سمات الثقافة المصرية هى التدين والصبر وتقديس الأم واحترام الأكبر سنا وتقديس الموت والجنوح إلى مقاومة الظلم وما أسميه الدين الشعبى - يقول د . سيد عويس - فيتميز بالتسامح فى أداء العبادات ويرفض التشدد .

ويرى أن الإصلاح يبدأ بتغيير وضع المرأة وحصولها على حقوقها المتساوية ، فالنساء حاملات العناصر الثقافية فى المجتمع، «ونساء مصر جئن إلى العالم لا ليعترضن ولكن ليرضخن!» ، والصبى فى التراث الثقافى المصرى هو الذى يمنع العدو . ويرجع فضل ما وصل إليه فى حياته إلى أمه التى ربته يتيما . ويصل إلى لب قضية الإصلاح بالقول .. «يبدو أن الغنى الفاحش والفقر المدقع ، هذا الفارق بينهما هو الذى يولد العنف ، .. فالملاحظ أن الغنى الفاحش وخاصة إذا كان غنى غير مشروع وظاهرة البطالة وبخاصة فى محيط القادرين من أعضاء المجتمع، لها علاقة متينة بظاهرة العنف .. وهناك ألوان من الجرائم ترتكب بقصد الحصول على عمل» .

وصاحب السيرة عالم اجتماع لا يستطيع أن يبدع إلا تحت سماء بلاده ، خرج من أعماق الحارة المصرية بتقاليدها وثقافتها ، ولكنه اكتسب أيضا حكمتها، وتعلم منها العمل الدءوب والصبر حتى يتحقق العدل والحرية . ■



خالد محيي الدين

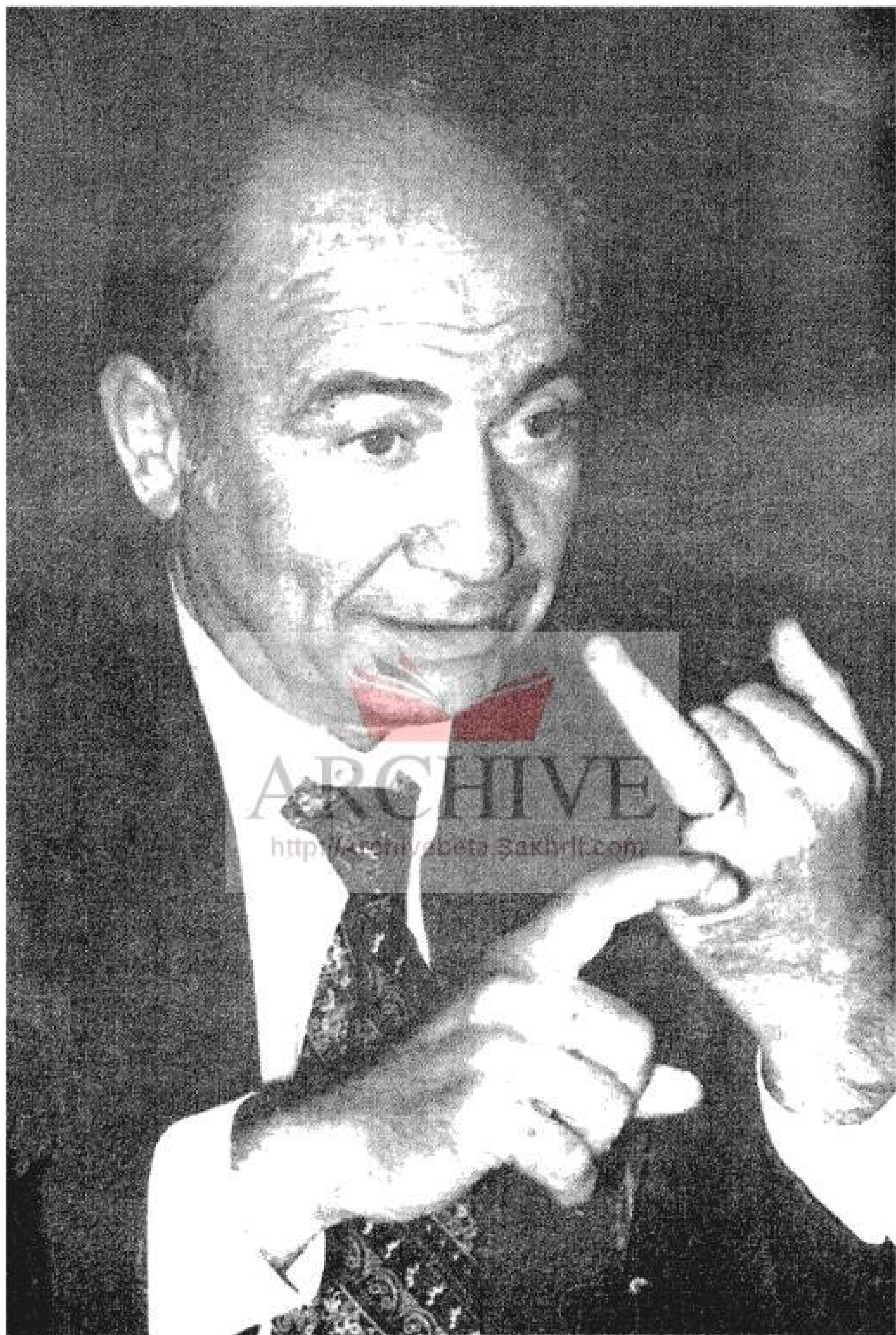
الثائر الحالم

بقلم
د. عاصم الدسوقي

لم يخطئ من قال إن الإنسان ابن ظروفه ووليد الأحوال التى يتفتح عليها وعيه، فهى التى تشكل ملامح تفكيره الأساسية، وتصنع رؤيته لكل ما يصادفه من حوادث ومواقف، وتصبح أساسا لشخصيته وعلامة عليها بحيث يصعب التفريط فى أى ركن من أركانها مهما كانت الإغراءات ومهما كان الثمن الذى قد يدفعه مقابل أن تبقى صورته كما انطبعت عند الآخرين أول مرة. ولعل خالد محيى الدين يعتبر صورة مثالية للشخصية التى صنعتها ورسمت معالمها ظروف معينة حرص على أن يحافظ عليها، وإن لم يخل الأمر فى سبيل ذلك من القيام بمناورات هنا وهناك....



لقد تفتح وعيه السياسى مبكرا على المظاهرات التى اندلعت فى ١٩٣١ ضد حكومة إسماعيل صدقى باشا بسبب إلغائه دستور ١٩٢٣ . ولكن وهو فى تلك السن المبكرة من عمره أضمر وعيه أن هناك أكثر من وجهة نظر فى الموضوع الواحد حسب التكوين وحسب المصالح، إذ لاحظ أن جده وهو من كبار الملاك آنذاك كان يشعر بامتنان لإسماعيل صدقى الذى قام بتسوية ديون الملاك الزراعيين لدى البنوك الأجنبية وكانت أرضهم مهددة بالسقوط فى يد الأجانب وفاء للديون أما خاله العائد من فرنسا يحمل درجة الماجستير فى الاقتصاد ومعها مجمل الأفكار الليبرالية، كان ضد إسماعيل صدقى باعتباره ديكتاتورا يدعم الحكم المطلق للملك فؤاد .





ثم تقوم مظاهرات ١٩٢٥ لتوحيد صفوف الأمة - وهو فى المرحلة الثانوية - وتنتهى بعقد معاهدة ١٩٣٦ ليثور جدل كبير بشأنها عما إذا كانت معاهدة صداقة وتحالف مع انجلترا أم أنها معاهدة تبعية والتزامات فتنشأ لديه كراهية مبكرة للإنجليز. وما أن تتواتر أنباء تهديد هتلر للمصالح الإنجليزية والفرنسية يختلط في وعيه العداء لانجلترا بالإعجاب بهتلر، ومن ثم الإعجاب بشخصية أحمد حسين زعيم جمعية مصر الفتاة وكلماته الساخنة فى جريدة «الصرخة» لسان حال الجمعية.

ثم يتعرف مبكرا أيضا على جانب من فساد الحكم فى مصر فى أعلى مستوياته عندما التحق بالكلية الحربية فى نوفمبر ١٩٣٨ بشهادة الثقافة العامة وليس بالتوجيهية كما هو معتاد، ويعلم أن قبول دفعة بالثقافة العامة ذلك العام راجع إلى أحد أصهار الملك واسمه إبراهيم خيرى الذى كان إبنه متعثرا فى التوجيهية.

وفى الكلية الحربية تبلورت لديه مشاعر الكراهية ضد الإنجليز بدرجة أوضح عندما يشاهد يافطة باسم المستشار العسكرى البريطانى مكتوبة بالإنجليزية على باب مكتبه بالكلية وكان مجدى حسنين قد لفت نظره إليها، فقام بنزعها ووضعا مكانها أخرى باللغة العربية، وتزداد محنته عندما يقوم الإنجليز بسحب دبابات الجيش المصرى لميدان الحرب بعد هزائمهم أمام الألمان فى دنكرك، وكان قد تخرج فى سبتمبر ١٩٤٠ ملازما ثانيا بسلاح الفرسان (الآلاى الأول دبابات)

○ تفتح وعيه السياسى مبكرا على المظاهرات التى اندلعت فى ١٩٣١

أستاذ فى الوطنية

ثم تتكثف تلك المشاعر بحادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهيرة عندما يفرض الإنجليز على الملك حكومة النحاس باشا التى اعتبرت إهانة بريطانية مريرة للبلاد وللملك وللجيش، فحضر اجتماعا عاصفا بنادى الضباط للرد على تلك الإهانة لم يسفر عن شئ وآنذاك وجد فى حسن عزت مثلا أعلى واعتبره «أستاذه فى الوطنية»، وقرر أن ينخرط فى عمل سياسى من أجل تحرير مصر.

وفى تلك الأثناء يلتقى أيضا بالضابط عزيز المصرى المعروف بوطنيته فلم يجد عنده حلا فى مواجهة الإنجليز إلا باغتيال

أعوانهم من السياسيين المصريين واحدا إثر واحد حتى ينفض العملاء لكنه لم يقبل أسلوب الاغتيال حتى ولو كان وجوبا شرطيا فى العمل السياسى للتخلص من الخصوم، ذلك أن الوازع الدينى الذى يحض على الرحمة وفعل الخير، كان قويا عنده، فقد نشأ فى تكية الطريقة النقشبندية بدرب الجماميز التى كان جده لأمه شيخها، ولايزال يحرص على حضور مولد سيدى على السماك وقد تبدى هذا الوازع فيما بعد فى وقوفه ضد إعدام الملك فاروق، وضد إعدام خميس والبقرى عمال كفر الدوار، وضد إعدام عدلى لملوم الذى وقف ضد تطبيق الإصلاح الزراعى .

روح وطنية ودينية

ولا بد أن الضابط عبد المنعم عبد الرءوف عضو جماعة الإخوان المسلمين أدرك ما يتمتع به خالد محيى الدين من روح وطنية ودينية معا فأراد أن يجنده فى الجماعة، ففى نهاية ١٩٤٤ رتب لقاء بينه وبين جمال عبد الناصر ليظفر بهما فى الجماعة وأخذهما للقاء الصاغ محمود لبيب مسئول الجناح العسكرى فى الإخوان بجزيرة الشاى بحديقة الحيوان وتناول الحديث كيفية تحرير الوطن بيد الشباب .

وآنذاك كان خالد قد عرف عثمان فوزى الضابط بسلاح الفرسان الذى أخذ يمده بكتب عن الماركسية كان لها تأثيرها فى تنمية التفكير العلمى لديه وأهمها كتاب روجيه جارودى «الإقتصاد محرك التاريخ» الذى جعله يربط بين تحرير الوطن وتحرير المواطن وعلى هذا أخذ يسأل جماعة الإخوان المسلمين عن برنامجها الاجتماعى دون أن يظفر بإجابة . وكان عبد الناصر قد أخبره بأن هذه الجماعة لن تقدم شيئا للقضية الوطنية وأنها تريد استغلال الضباط ليكون الجيش أداة لهم ولما اكتشف عبد المنعم عبد الرءوف تردد خالد وناصر فى الإندماج بالجماعة رتب لهما لقاء بالإمام حسن البنا الذى رأى استثمارا لخبرتهما العسكرية إلحاقهما بالجهاز السرى للإخوان تحت قيادة عبد الرحمن السندى، وفى بيت قديم بالدرب الأحمر أقسم الإثنان على المصحف والمسدس يمين الطاعة للمرشد والبيعة الكاملة، ورغم هذا ظل عبد الناصر مستريبا من الجماعة، وظل خالد يبحث عن البرنامج الإجتماعى، فبدأ كلاهما فى الابتعاد تدريجيا عنها منذ ١٩٤٧ .

الاشتراكية أحد ملامح تفكيره

وفى تلك الأثناء (يناير / فبراير ١٩٤٧) التقى خالد بأحمد فؤاد وكيل النيابة وزميله القديم بمدرسة الناصرية الإبتدائية وكان آنذاك عضوا بمنظمة



إيسكرا الشيوعية فوجد خالد نفسه عضوا فى تلك المنظمة حيث تعلم فيها القراءة المنهجية، وكان أول كتاب يكلف بقراءته وتلخيصه وتقديم عرض له فى الخلية كتاب «الإشتراكية: أين ولماذا وكيف» فأصبحت الإشتراكية أحد ملامح تفكيره ورؤيته للمشكلات السياسية والاجتماعية القائمة ثم يلتقى مصادفة بالملازم سيد جاد فى القطار أثناء عودته من مهمة بالصعيد الذى يخبره بعد أن أفرط فى شرب الخمر أن القصر الملكى يعرف أنه، أى خالد، هو أحد الضباط اليساريين لكن لا يملك دليلا ضده (كان سيد جاد آنذاك عضوا بالحرس الحديدى الذى شكله الملك لحمايته بإشراف طبيبه يوسف رشاد).

وهنا روع خالد، وبدأ يخشى على مصيره، وأدرك أن كلام سيد جاد حقيقى وليس هزلا بتأثير الخمر، وأنه قد يفصل من الخدمة العسكرية ويكون الشارع مصيره . ومع هذا الإحساس بالخطر والخوف من المصير فكر فى أن يلتحق بكلية التجارة بالتوجيهية العسكرية فى العام الدراسى ١٩٤٧ / ١٩٤٨ . ونجح عبر وساطات معينة أن ينتقل من سلاح الفرسان إلى التدريب الجامعى بجامعة فؤاد الأول بعيدا عن شبهة البقاء فى القشلاق العسكرى من ناحية، وليكون قريبا من محاضرات الجامعة من ناحية أخرى .

○ فى الكلية الحربية تبلورت لديه مشاعر الكراهية ضد الإنجليز

وأظن أن هذا كان السبب الرئيسى لانسحابه من منظمة إيسكرا وليس كما قال : إنه اكتشف أن مسئول الخلية يعمل باشكاتب فى سلاح الفرسان، بدليل أنه لم ينسحب من منظمة حدتو التى انضم إليها بعد ثلاث سنوات (١٩٥٠) بتأثير أحمد فؤاد الذى كان قد ترك إيسكرا هو الآخر، وكان مسئول الخلية ميكانيكيا بسلاح الطيران (الرفيق بدر - سيد سليمان رفاعى)، ولم يحتج على جمال عبد الناصر الذى التقى بهذا الرفيق أيضا وأبدى اعتراضه لخالد قائلا له «هل ترضى أن تتلقى أوامر من ميكانيكى». ولم يكن السبب أيضا أنه استمع فى إيسكرا إلى حديث مضطرب عن الماركسية اختلط بالإلحاد مما يتعارض مع قاعدته الدينية لأنه صرح فيما بعد أنه قبل قراءة الماركسية كان قد ألحد حوالى عامين ثم عاد إلى حظيرة الإيمان فلما قرأ الماركسية ظل مؤمنا .. وليس السبب أيضا قوله: إنه نقل إلى سلاح الحدود،

وأن إيسكرا اعترفت بقرار تقسيم فلسطين (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) .

وهكذا عندما انضم إلى الخلية الأولى لتنظيم الضباط الأحرار التى تكونت فى صيف ١٩٤٩ (وكان قد انتهى من امتحانات الفرقة الثانية بكلية التجارة شعبة المحاسبة) كانت الاشتراكية قاعدته الفكرية التى بمقتضاها يمكن تحرير الوطن سياسيا وتحرير المواطن اجتماعيا بالقضاء على الإنجليز وعلى النظام السياسى القائم..

وفى ١٩٥٠ تدعمت صلته بصديقه القديم أحمد فؤاد بعد أن أصبح مسئولا بالحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) ورتب لقاء فى بيته حضره ناصر الذى أبدى إعجابه بتحليل أحمد فؤاد للموقف السياسى - الاجتماعى، ومن ثم حدثت الصلة بين حدتو وتنظيم الضباط الأحرار الذى بدأ يفتح باب عضويته للشيوعيين. لكن عبد الناصر أصر على أن يكون انضمامهم بصفة فردية وغير ممثلين لتنظيم حدتو، وكذلك فعل بالنسبة لكل من كان يريد الانضمام ويكون عضوا بأى منظمة سياسية خارج الجيش .

مع الضباط الأحرار

فى تنظيم الضباط الأحرار بدأ خالد ينشط إذ قام بتكوين خلية سلاح الفرسان، واشترك فى صياغة أول منشور أصدره التنظيم (خريف ١٩٥٠) بعنوان نداء وتحذير، وشارك فى إرساله إلى كل القيادات العسكرية، وأعد بالاشتراك مع أحمد فؤاد فى سبتمبر ١٩٥١ برنامجا بأهداف التنظيم يدعو إلى القضاء على الإستعمار الأجنبى وأعوانه الخونة فى وادى النيل، وتكوين جيش وطنى قوى لكن عبد الناصر رأى الاكتفاء بتداول البرنامج بين أعضاء التنظيم ورفض نشره منعا لاستعداء الإنجليز ولفت أنظارهم ويشهد خالد بأن هذا الرأى «كان رؤية ثاقبة للمستقبل من عبد الناصر» . كما وافق عبد الناصر على طلب جمال سالم الذى كان قد عاد من الولايات المتحدة من رحلة علاج بعدم الزج بالاستعمار الأمريكى فى المنشورات، وبأن تتضمن المنشورات رفض الشيوعية، فاعترض خالد ونجح فى إقناع لجنة قيادة التنظيم بالاستمرار على ما هم عليه . ثم لاحظ أن عبد الناصر بدأ ينتقد الشيوعية ويخطئ من نظرية أن الاقتصاد يحرك الحوادث قائلا» : عن الصراع السياسى صراع على السلطة .

وعندما حصل خالد على بكالوريوس التجارة صيف ١٩٥١ أنهى إنتدابه للتدريب الجامعى وعاد لسلاح الفرسان (قائد ثانى الكتيبة الميكانيكية) ولما تم الاستيلاء على قيادة الجيش فجر الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ عاد إلى سلاح الفرسان ليبقى بين رجاله وزملائه، وتقرر أن يعمل «ضابط مخابرات السلاح على أن تكون مهمته غير تقليدية بل تكون سياسية يستطلع من خلالها

رؤى الضباط وآفاقهم فكان مكتبه ملتقى ضباط الفرسان يطرحون عليه رؤيتهم وهمومهم ومشكلاتهم وخلافاتهم فتوطدت علاقتهم به أكثر وأكثر .



كيف بدأ الصدام مع مجلس قيادة الثورة ؟!

ثم بدأ الصدام مع مجلس قيادة الثورة يأخذ مجراه تدريجيا، وكانت شيوعيته التي لم يخفها هي الصخرة التي اصطدمت بها الرؤى والإرادات في الوقت الذي كان فيه عبد الناصر يحرص على بقاء الثورة بعيدة عن التبعية لأي إيديولوجية قائمة شيوعية كانت أو إسلامية وكانت البداية عندما عرض في مطلع أكتوبر ١٩٥٢ مشروع قانون بالعفو الشامل عن المعتقلين السياسيين اعتبارا من ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ (تاريخ توقيع معاهدة ١٩٣٦) وحتى ليلة الثالث والعشرين من يوليو وعرف أن العفو لا يشمل الشيوعيين فاحتج، ولم يناصره أحد حتى يوسف صديق أحد أعضاء حدتو ثم طلب منه مجلس قيادة الثورة إيقاف علاقته بأحمد فؤاد أو إيداع أحمد فؤاد السجن حتى لايتصل به (أكتوبر ١٩٥٢) كما اعترض وحده على منع إقامة إتحاد عام للعمال، وعلى مشروع قانون عقد العمل الفردي (مارس ١٩٥٢) الذي يحرم على العمال القيام بالإضراب ويسمح بالفصل التعسفي ووقف عبد الناصر معه لمواجهة تيار يقول إن السماح بالإضراب من شأنه أن يخيف رأس المال حتى تم التوصل إلى حل وسط باقتراح عباس عمار وزير الشئون الإجتماعية بمنع الفصل التعسفي بسبب النشاط النقابي.

وعندما شرع مجلس قيادة الثورة في مناقشة الوضع السياسي بعد نجاح الثورة كان خالد وحده من أنصار دعوة البرلمان للانعقاد رغم تحذير السنهوري رئيس مجلس الدولة ونائبه سليمان حافظ وكذا على ماهر من دعوة هذا البرلمان الذي يضم أغلبية وفدية بل ومن إجراء إنتخابات جديدة وعندما قرر مجلس قيادة الثورة توزيع أعضائه على الوزارات المختلفة، كل واحد يشرف على وزارة أو اثنتين لضبط الأمور، كان من نصيبه وزارتا الصحة والصناعة فاستغرب لهذا الاختيار، وكان يرى نفسه أكثر تأهيلا لوزارة المالية بحكم حصوله على بكالوريوس المحاسبة ويبدو واضحا والحال كذلك أن جمال عبد الناصر وقد عرف اتجاهات خالد أراد أن يبعده عن المسئوليات التي يمكن أن يؤثر في

○ كانت شيوعيته التي لم يخفها هي الصخرة التي اصطدمت بها الرؤى والإرادات

مسارها بأفكاره واتجاهاته

ناصر يرفض الاستقالة !

فلما نشرت وثيقة أهداف الثورة التي كان خالد قد صاغها مع أحمد فؤاد ورفض ناصر طبعها للتوزيع كما سبقت الإشارة، استاء عبد الناصر، وعرف أن الضباط الأحرار من أعضاء حدتو وراء نشرها فطلب من خالد أسماء الضباط الشيوعيين سلاح الفرسان فرفض ولكن تمت مصادرة جريدة «الكاتب» ثم «الواجب» لسان حال حدتو وعلى هذا بدأ خالد يشعر بالعزلة في مجلس قيادة الثورة ومن ثم إلتصاقه أكثر وأكثر بزملائه في سلاح الفرسان وفي أعقاب الجدل حول مشروع قانون عقد العمل الفردي تقدم باستقالته من المجلس في ٣١ مارس ١٩٥٣ ليعود إلى سلاح الفرسان حيث زملائه الذين يشعر بذاته بينهم، لكن عبد الناصر رفض قبول الاستقالة .

ثم جاء ت أزمة مارس ١٩٥٤ التي أقام عليها خالد سمعته الديمقراطية في مواجهة الدكتاتورية، وهي الأزمة التي وجد نفسه فيها مع نجيب دون اختيار، وكان كل منهما يعمل على استغلال الآخر لتقوية جانبه وقد بدأت هذه الأزمة عندما قدم نجيب استقالته من رئاسة الجمهورية في ٢٣ فبراير (١٩٥٤) احتجاجا على قيام مجلس قيادة الثورة بانتزاع سلطاته بتوجيه من عبد الناصر وقبيل ذلك كان نجيب قد اختار خالد ليصحبه في رحلة إلى بلاد النوبة دون أن يأخذ أي عضو آخر من المجلس ربما لما لمسه من مواقفه المعارضة داخل المجلس وفي الرحلة طرح خالد على نجيب أن يتبنى قضية الديمقراطية، وعودة الحياة النيابية وإجراء الإنتخابات أفضل من أن يربط معاركه بالحفاظ على سلطاته، لكن نجيب لم يهتم بالأمر ولست أدري كيف طرح خالد على نجيب هذا الاقتراح وهو يعلم منذ البدايات أن محمد نجيب من أكبر المتحمسين لإنفراد مجلس قيادة الثورة بكل السلطات، وأنه من أنصار إطالة الفترة الإنتقالية لمدة أكثر من السنوات الثلاث المقررة، وأنه كان قد أعد نفسه من البداية ليستمر حاكما !! هل أراد خالد أن يستخدم نجيب واجهة لتحقيق مطلب الحياة النيابية أم أنه كان يسعى للخلاص منه حيث يعلم أن ناصر لن يوافق على هذا المطلب؟

ومما قد يؤكد من هذا التحليل أن خالد رغم علمه سلفا بحقيقة موقف نجيب نراه يقترح في اجتماع مجلس قيادة الثورة الذي كان ينظر في تصفية الخلاف بين نجيب والمجلس أن يعلن المجلس عودة الحياة النيابية وفي هذه الحالة سوف يتراجع نجيب فيتحول الصراع أمام المراقبين من صراع شخصي على السلطة إلى صراع سياسي حول المبادئ فلما قدم الإقتراح لنجيب نظر إليه مبتسما دون تعليق وفاجأ الجميع بتقديم استقالته في ٢٣ فبراير وكان قد حررها في ٢٢

فبراير ورغم كل هذا اعترض خالد على على قبول استقالة الرجل كما تجمع مختلف الروايات المعاصرة.

حصان طروادة !

وفى اليوم التالى لإعلان إستقالة محمد نجيب يوم ٢٥ فبراير أى يوم ٢٦ فبراير وكان يوم جمعة تم اجتماع فى سلاح الفرسان لاتفصح المصادر عمن دعا إليه، ولم يحضره خالد وحضره حسين الشافعي الذى فوجئ بمطالب الفرسان بعودة نجيب، وإقرار الديمقراطية، وتحديد موعد لعودة الجيش للثكنات مع أن نجيب - كما فهمنا من مذكرات خالد (والآن أتكلم) - لم يقدم استقالته بسبب الديمقراطية وإنما بسبب منازعته السلطة ورغبته فى الانفراد بها . فهل كان نجيب هو حصان طروادة بالنسبة لخالد ؟! ثم حضر عبد الناصر جانبا من مناقشات اجتماع الفرسان وطلب منهم الانتظار حتى يعرض الأمر على مجلس قيادة الثورة



○ كان رومانسيا حالما وفارسا نبيلا وسياسيا يبحث عن الممكن أكثر منه ثوريا

وفى مبنى القيادة حضر خالد محيى الدين بعد خروجه من حفلة سواريه بالسينما واقترح ناصر الذى أدرك مرامى محوز نجيب - خالد، أن يتولى خالد رئاسة الوزارة وأن يعمل بسرعة على عودة الحياة الدستورية وعاد جمال مصطحبا خالد إلى سلاح الفرسان وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا من فجر يوم السبت ٢٧ فبراير ليعلن للمجتمعين الموافقة على حل مجلس القيادة، وعلى عودة نجيب لرئاسة الجمهورية، وعلى تكليف خالد بتشكيل حكومة انتقالية لمدة ستة أشهر تجرى انتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور دائم، وعودة أعضاء المجلس إلى الثكنات، وهنا ضجت القاعة بالتصفيق، وتوجه خالد مغتبطا إلى نجيب لإبلاغه بالقرار ولكن عندما عاد إلى مبنى القيادة ليبلغهم بموافقة نجيب كانت الأمور قد تغيرت، إذ تمت محاصرة سلاح الفرسان وطالب البعض باعتقال خالد .. إلخ وانتهت الزوبعة بعودة نجيب يوم ٢٨ فبراير، وإصدار قرارات الخامس من مارس الشهيرة التى تقضى بانتخاب لجنة لوضع الدستور وبموجبه يعاد تشكيل الأحزاب ويكون لمجلس قيادة الثورة سلطة سيادية ووافق نجيب عليها بعد أن انتحى به خالد جانبا لدقيقتين وكان مترددا متشككا .

وفى ٢٥ مارس عرض البغدادى على مجلس القيادة إلغاء قرارات الخامس من مارس بعد أن تحلقت القوى المعارضة للثورة

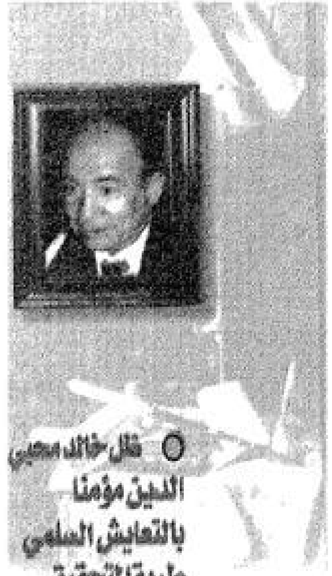
من أنصار النظام القديم حول نجيب استغلالا لتلك القرارات واقترح خالد تشكيل جديد لنظام ديمقراطى يحرم بمقتضاه من حق الترشيح للجمعية التأسيسية كل من أيد من قبل القوانين المقيدة للحريات، وكذا رؤساء الأحزاب السابقة، والخاضعين للإصلاح الزراعى لكن عبد الناصر لم ينخدع باقتراح خالد، وأدار المناقشة حول الأخذ بأحد اختيارين: إما إلغاء قرارات الخامس من مارس، وإما رفع جميع القيود عن عودة الأحزاب والإفراج عن جميع المعتقلين وبعد مناقشات دامت خمس ساعات تم إلغاء قرارات الخامس من مارس .

غير أن خالد يقول : إنه لم يحضر هذا الاجتماع وكان مختفيا بالإسكندرية، بل إنه لم يوقع على قرارات الخامس والعشرين من مارس، على حين أن جمال حماد أظهر وثيقة عليها توقيع خالد على القرارات فى اجتماع ٢٩ مارس (آخر ساعة فى ٢٨ يولية ١٩٩٣)، ونفى خالد توقيعه بشكل قطعى قائلا : إنه لم يوقع إلا على استقالته بتاريخ الثانى من إبريل ١٩٥٤ (آخر ساعة فى ٤ أغسطس ١٩٩٣)

ثائر نبيل

ويبدو واضحا أن خالد محيى الدين من أزماته المتتالية مع رفاقه بمجلس قيادة الثورة كان رومانسيا حالما وفارسا نبيلا وسياسيا يبحث عن الممكن أكثر منه ثوريا يسعى إلى تحقيق المستحيل بتجاوز كل الأطر القائمة .. فهو لم يقتنع مثلا بأن أى ثورة هى إجراء استثنائى فى تاريخ الشعوب تصحبها إجراءات استثنائية بالضرورة ولا تقودها العاطفة، وأنها لايمكن أن تخضع لنصوص دستورية قانونية وضعت سلفا لنظام ثارت الثورة عليه، بل إنها تحتاج لقوانين جديدة تعبر عن التحولات الجديدة، وإلا لماذا تقوم الثورة إذا كانت سوف تبقى على فلسفة النظام القديم ومن هنا نراه يعجب من وقوف عناصر سياسية مثل السنهورى وسليمان حافظ وفتحى رضوان ضد الدستور والديمقراطية، ومن قول الدكتور سيد صبرى أستاذ القانون الدستورى «إن البلد فى وضع ثورى ويحاجة إلى خطوات ثورية وإلى فقه ثورى» وبالتالى لم يستوعب الدعوة إلى تطهير الأحزاب ثم إلغاؤها كما لم يستوعب قيام ناصر بتحجيم نشاط مجلة التحرير لزيادة النغمة الشيوعية فيها .

كما لم يستوعب أن ينفرد مجلس قيادة الثورة بكل الأمور دون مشاركة من جميع الضباط الذين قام كل منهم بدور ليلة الثورة وخاصة ضباط سلاح الفرسان، ومن ثم نراه يغمض عينيه عن قيام سلاح الفرسان وأسلحة أخرى بتشكيل جمعيات عمومية من الضباط لتناقش أمور الحكم وتصدر قرارات ملزمة !! وكانت فكرته المثالية تقوم على التوصل إلى حل يكفل احترام آراء الضباط



○ ظل خالد محيي الدين مؤمنا بالتعايش السلمي طريقا لتحقيق التحرر الوطني والتقدم الإقتصادي والاجتماعي

الأحرار فأوجد بهذا منظمات موازية لمجلس القيادة الأمر الذى كان مثار استهجان عبد الناصر وغيره.

ولم يدرك أن إلحاحه على الديمقراطية برغم نبل الغرض وإعادة الحياة النيابية والحزبية، والثورة بعد وليدة لم يتجذر عودها بين الناس، من شأنه عودة حكم كبار ملاك الأراضى الزراعية وأصحاب رأس المال التجارى والصناعى على حساب عامة الشعب التى قامت الثورة من أجلهم .

صداقة حميمة مع عبد الناصر

على كل حال .. لقد غادر خالد مصر إلى باريس ومنها إلى جنيف بترتيب مع جمال عبد الناصر على أن يفترقا أصدقاء وزملاء سلاح لا يخون أحدهما الآخر وظل خالد محتفظا بنقائه الثورى حريصا على الثورة التى أسهم فى نجاحها فنراه يرفض أن يستثمر أحد خلافه مع عبد الناصر، فقد أراد محمود أبو الفتح صاحب المصرى أن يستثمر إعتراضه على عقد اتفاقية الجلاء ١٩٥٤ فأبى ..

ثم يعود إلى مصر فى ٤ ديسمبر ١٩٥٥ ليبدأ صفحة جديدة من حياته بعيدا عن السلطات السياسية، ولكن أكثر قربا من تكوينه ومن اهتماماته، إذ يتولى رئاسة تحرير جريدة المساء لنشر الفكر الإشتراكى ١٩٥٦ - ١٩٥٩ وينجح فى انتخابات أول مجلس أمة عام ١٩٥٧ عن دائرة بلده كفر شكر ويظل يفوز بهذه الدائرة فى كل الانتخابات التى أجريت بعد ذلك حتى بعد أن تغير اسم المجلس إلى مجلس الشعب أيام السادات.

وفى ١٩٦٢ يحصل على الميدلية الذهبية للسلام، وفى ١٩٦٤ - ١٩٦٥ يتولى رئاسة تحرير أخبار اليوم وأمانة الصحافة باللجنة المركزية للإتحاد الاشتراكى العربى وعندما اندلعت مظاهرات الشباب فى مارس ١٩٦٨ احتجاجا على أحكام محاكمات قيادات الطيران المسئولة عن هزيمة ١٩٦٧ يطلب منه عبد الناصر الرأى فيقدم ورقة بشأن أهمية التغيير السياسى، ولم ينس طموحه القديم فركز على أهمية الإنتخابات الحرة والإصلاح الاقتصادى والتعبئة من أجل المعركة، وهى أفكار وردت فى بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ الذى صاغه هيكل وفى ١٩٧٠ يحصل على جائزة لينين للسلام وكان أول مصرى يحصل عليها، وآنذاك كان سكرتيرا عاما

للمجلس القومي المصري للسلام وعضو مجلس السلام العالمي.

اتهام باطل !

وبعد رحيل عبد الناصر وانفراد السادات بالسلطة يعترض خالد على قرار السادات بإلغاء المعاهدة مع السوفييت قائلا «إن هذا الإجراء لا يخدم مصر» وسرعان ما اتهمه موسى صبري المقرب من السادات بالعمالة للإتحاد السوفييتي . ولكنه وجد في قرار السادات بإنشاء منابر للرأي في أبريل ١٩٧٦ فرصته لممارسة العمل السياسي «بأسلوب ديمقراطي» فيتولى منبر اليسار الذي سرعان ما تحول إلى حزب سياسي باسم التجمع الديمقراطي الإشتراكي العربي ولم ييأس من مطالبته بتغيير السياسة الإقتصادية عن طريق إلغاء الاستيراد دون تحويل عملة، والحد من الشراء وإعادة تخطيط الاقتصاد القومي، وإعادة النظر في قوانين الانفتاح ثم جاءت انتفاضة ١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧ لتؤكد صحة وجهة نظره وفساد وجهة نظر الحكم ورأى في سياسات السادات فاشية من نوع ما وخاصة فيما يتعلق بالقوانين المريبة التي أصدرها مثل قانون العيب، وقانون حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعي .

***

لقد ظل خالد محيي الدين مؤمنا بالتعايش السلمي طريقا لتحقيق التحرر الوطني والتقدم الإقتصادي والاجتماعي، ومؤمنا بأن طريق الديموقراطية في مصر مرهون بتحقيق العدالة الاجتماعية وفي خطوة لها مغزاها قام بالتنازل عن رئاسة حزب التجمع ضاربا بذلك مثلا في «الديمقراطية» وغامزا بطرف خفي لرؤساء الأحزاب الآخرين ويكفيه فخرا أن سيرته عطرة بين الناس، نظيف اليد، عفيف النفس، لم تطله شائعات استغلال النفوذ والسلطة والجموح التي طالت كثيرين غيره ولم تجد مجلة روز اليوسف إلاه لتمنحه عن جداره وسام الإحترام» في عام ٢٠٠٠

أمد الله في عمره ومتعه بالصحة والسلام.. ■

المراجع

- خالد محيي الدين، .. والآن أتكلم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٩٢
- أحاديث معه وعنه في الصحف الآتية : المصور ٢٤ /١٩٧٠/٤، روز اليوسف ١٩ /١٩٧٦/٤، ١٩٧٧/٣/٧.

الأنباء الكويتية ١٩٨٤/٤/١٦ ، ١٩٨٦/٤/١، ١٥ / ٦/ ١٩٨٨ الوطن العربي ٥ / ٦/ ١٩٨٦، وآخر ساعة في ٢٨ / ٧/ ١٩٩٣، ١٩٩٣/٨/٤ ومجلة أكتوبر ٢٣ / ٤/ ١٩٩٥ ، والأهالي ١٩٩٥/١١/٨ . ومجلة روز اليوسف ١٠ / ٦/ ٢٠٠٠

- عاصم الدسوقي، أزمة مارس ١٩٥٤، الهلال مارس ٢٠٠٢

أقوال معاصرة

• « أعتقد أن الزواج يستمر أكثر مما يلزم، ويجب أن ينقطع وقتا ما »

إدوارد البى
الأديب المسرحى الأمريكى

• «لم أر فى حياتى شيئا أجمل من تواضع الكبار، ولا رأيت أقبح من غرور الصغار »

الكاتب اللبنانى سمير عطا الله

« ظهر ضيق الصدر، وضيق الذهن والأفق وزيادة الشك فى الآخر، والانزواء، كإفرازات العصر الهزيمة واليأس والانكسار »

الدكتور كمال أبو المجد
وزير الإعلام الأسبق


كمال أبو المجد

• « لو عاد سقراط، فقد لايموت، لكن من المؤكد أنه كان سيدان »

الفيلسوف والكاتب الألمانى
ينسى سونتجن

• « التخلف الحضارى فى هذا العصر هو حرام بعينه، بل أشد أنواع الحرام لأنه يهدد الوجود الإسلامى فى الصميم »

الكاتب البحرينى محمد جابر الأنصارى

• « الدين لايمكن أن يكون مشروعا سياسيا »

جان بيير رافاران
رئيس وزراء فرنسا


جان بيير رافاران

• « إذا لم يبادر الحكام العرب إلى حلق رؤوسهم من تلقاء أنفسهم، فإن آخرين سيحلقون هذه الرؤوس على رغم أنوفهم »

الرئيس اليمنى على عبد الله صالح

• « يريد المتشددون إخفاء جسم الديكتاتورية القبيح برداء الديمقراطية الجميل »

محسن ميردامادى
عضو مجلس النواب الإيرانى

• « أشعر بيد التاريخ تربت على كتفى »

رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير


تونى بلير

• « لا أحد يصبح ممثلا، إن لم يكن قد ولد ممثلا »

النجمة الفرنسية ايزابيل هوبير

بعض ما تعلمته من صلاح جاهين

بهاء جاهين

بنوتى لصلاح جاهين ليست عادية، فأنا لست ابنه بالجينات فقط، ولكنى ابنه الشعرى أيضا.. وإذا كانت بنوتى الشعرية لصلاح جاهين يشاركنى فيها الكثيرون - ممن تتلمذوا على يديه من خلال قراءتهم لقصائده - فإنى أفخر بأني كنت الصبى الوحيد فى ورشة أسطاها صلاح جاهين، إذ أسعدنى زمانى بأن أنشأ فى بيت هو سيده ، فمنذ قصائدى الأولى ويده الخبيرة الحانية توجهنى وتكشف لى الصنعة عملياً وشفهياً.



صلاح جاهين وابنه بهاء

وصلاح جاهين من الآباء الذين يؤمنون بأن كل جيل عليه أن يلقن خبرته الثقافية والحياتية للجيل التالي: وعليه فقد كان دائم الحكي لي عما مر به من تجارب وما استوعبه من خبرات وما استخلصه من هذا وذاك من حكمة ومن آراء تلخص تلك الخبرات والتجارب. فمثلاً حين كنا نمر بمناطق من القاهرة القديمة كان يلفت نظري للمآذن، ويشرح لي الفرق بين مآذن العصر المملوكي ذات الاستدارات ومآذن العصر العثماني التي تشبه القلم الرصاص أو إذا سارت بنا السيارة بحذاء مجرى العيون يشير إلى السور موضحاً أن في أعلاه مجرى كان يستخدم في العصر المملوكي لنقل مياه الشرب.

***

لم يكن صلاح جاهين إذن مجرد أب بيولوجي أو حتى شعري لي، بل كان أباً ثقافيا أيضا، استقيت منه الكثير من معارفي ومداركي، وآرائي في الفن والحياة، ومن أهم ما فعله في حياتي إهدائي الكتب، ومن أهمها روايات دستويفسكي في ترجمتها العربية الرائعة التي قام بها سامي الدروبي ونشرتها هيئة الكتاب في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات.. كنت حينها في الثالثة عشر ومازلت أذكر الثورة الفنية التي أحدثتها هذه الروايات في رأسي.. وأعتقد أنها هي التي صنعت مني شاعراً، أو على الأقل فجرت الكامن المكنون في صدري من شعر، وحين بلغت عامي الحادي والعشرين أهداني أبي في عيد ميلادي دائرة المعارف البريطانية، ومازلت استخدمها حتى الآن.

دروس مستفادة

ومما تعلمته منه قيمة العمل وإتقان العمل، وقيمة الواجب والتفاني في أدائه، أذكر أنه أصيب في أعوامه الأخيرة بآلام مبرحة في العمود الفقري لم تكن تجدي معها المسكنات .. وكان عليه في نفس التوقيت كتابة أشعار مسرحية إيزيس للحكيم التي أعاد المسرح القومي تقديمها في أوائل الثمانينات وأخرجها كرم مطاوع.. فكان صلاح جاهين يتحامل على نفسه حيث يخف الألم قليلاً، ويقوم إلى مكتبه وينحني عليه ليكتب. وحين انتهى رفع رأسه من الأوراق قائلاً.. «أهه أنا دلوقت راضي عن نفسي» وظننت حينها أن ما قاله مجرد كلام ، وليس وراءه ما وراءه، ولكنني حين أتأمل الموقف الآن أرى بوضوح أنه كان درساً موجها لي.

العمل .. والألم

كان صلاح جاهين مثلاً أعلى في المثابرة على العمل، فكان يعمل أكثر من عشر ساعات يومياً.

وكان أحيانا يقبل أعمالاً لا يتحمس لها لمواجهة أعباء العيش، والإنفاق على الأسرة، ومن خلاصات تجاربه التي كان أحياناً يسر بها لي:

«لكي تنجح لابد أن تعمل.. والعمل دائماً ينطوي على بعض الألم، حتى وإن كانت فيه لذة.. فلكي تنجح لابد أن توطن نفسك على تحمل ذلك الألم».

ومما تعلمته منه أيضا السعي إلى التجديد دائما..

فإذا كان صلاح جاهين أحب النجاح، فإنه كره تكرار نجاحه، مثلا حين نجحت «الليلة الكبيرة» أو الرباعيات أو فيلم «خلى بالك من زوزو» أو فوازير نيللى، لم يحاول صلاح جاهين تكرار التوليفة الفنية أو الوصفة التى أعجب مذاقها الملايين، بل كان دائماً ينطلق بعد نجاح عمل له إلى وصفة وتوليفة مختلفة تماماً.

البساطة فى كل شيء

ومن قواعد الفن التى تعلمتها منه البساطة والمصرية.

كان ينصحنى قائلاً: «حين تكتب لا تقل الشمس تشرق من الغرب .. قل الشمس تطلع من الشرق.. ضارباً مثلاً على فضل البساطة على التحذلق والتغريب أى السعى للغرابة من أجل الغرابة.. وكان صلاح جاهين يعتقد أيضا أن البساطة وحدها لا تكفى بل يجب فى كل عمل فنى - سواء كان قصيدة أم أغنية أو حتى رسمة كاريكاتورية - أن تظهر ملامح الشخصية القومية، أى يجب أن يكون الفن مصريا، عاكسا ملامح التراث الشعبى الموروث أو الواقع المعاش.

ومن أهم الكتب التى شكلت وجدان صلاح جاهين فى هذا الصدد كتاب «فى الأدب الشعبى» لأحمد رشدى صالح التى ألهمت نماذجه من الموروث الشعرى الفولكلورى صلاح جاهين بعض أشعار ديوانه «عن القمر والطين» (١٩٦١) وكتاب «سندباد مصرى» للدكتور حسين فوزى، وتاريخ الجبرتى كتابه الأثير وخاصة الجزء الرابع منه الذى سجل يوميات الحملة الفرنسية وظهر أثر ذلك الكتاب فى ملحمة «على اسم مصر» التى كتبها صلاح جاهين وهو يعالج من الكمد فى أحد مستشفيات موسكو عام ١٩٧١.

رحابة تضم حدود الوطن

وإذا أردت أن ألخص صلاح جاهين فى سطور قليلة، لقلت إنه الثراء الإنسانى غير المكترث بنفسه، والرحابة التى تضم فى حضنها حدود هذا الوطن بطيره وناسه وزرعه وبهائمه ونيله وصحرائه وسمائه، الطفل الأب اللعبى الحكيم.. كان يقول لى:

ما الفن إلا لعبة.. وإلا فقل لى لم نكتب سطوراً تحت بعضها وفى أواخرها قواف!! إن كان كل ما نريده التعبير عن معنى أو وجهة نظر فلم لا نكتبها فى شكل مقال؟!

كان لعبه جاداً، وهمه عاماً، وإرادته قوية، وطفولته أبوية، وكل تجلياته عبقرية، وحياته كلها مثلاً حياً - لى ولغيرى ممن عرفوه وأحبوه - للتواضع دون ضعة، والثقة دون ذرة غرور، والحب والعطاء دون ثمن ودون انتظار لثمن، والحنان الرجولى، والقوة الوديعة، والصبر الجميل، والروح الشفافة..

كان يحنو علىَّ كما تحنو الأم على الوليد، ويلعب معى كما لو كنا طفلين فى نفس السن، بل أحياناً كان ينظر لى بعيون كلها دهشة وحكمة ويقول:

أحس أنك أبى.. ■

صلاح جاهين

ومأزق الفنان فى العالم الثالث

بقلم
عبده جبير

بعد كل ما قيل وتم تداوله بخصوص صلاح جاهين، سيكون علينا أولا أن نقر (ونعترف) بأن هناك مسألة تسمى «مسألة صلاح جاهين»، وهى المسألة التى تطرح نفسها فى تجلياتها العامة، لتكون «مسألة الفنان فى مجتمعات العالم الثالث»، ومصر نموذج واضح وصريح من جهة، لكنه يحمل تعقيدات كبرى، نتيجة لظروفها الخاصة.

هذه الظروف الخاصة هى على وجه التحديد: قيادة الدولة للعمل الثقافى إنتاجا وتوزيعا.

لذا يجب علينا أولا أن نلقى نظرة سريعة على خريطة مصر السياسية - الفنية، وعلى (الثقافية بالأحرى) لنصل إلى حقيقة العلاقة الملتبسة بين الفنان والعالم المادى المحيط به، وعلى رأسه، السلطة المهيمنة على مقدرات المجتمع وناسه، وعلى وسائل حركة الثقافة بشكل يكاد يكون مطلقا.







استحوذت مشاكل التعليم على جانب كبير من رسومه

١ - كلنا يعرف ما كان يجرى قبل «ثورة» ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، والضرورات التى حتمت تغييرا كان لابد منه ليتفادى المجتمع الأزمة المركبة التى كان المجتمع المصرى يمور بها فى العهد الملكى .

ففى الوقت الذى كانت القوى السياسية المصرية مشغولة ببرامج «إصلاحية»، وأيضا بمهاترات لم تؤد إلى أى نتيجة، شاء القدر أن يتخلق من رحم المجتمع تلك الجماعة العسكرية التى استطاعت فى غفلة من الجميع ، تكوين تنظيم سرى صغير ومحكم، لتنقض على السلطة، وتتخلص من كل القوى الأخرى فى المجتمع، واحدة بعد الأخرى، لتنفرد بكل مقدراته.

٢ - نأتى إلى هذه الجماعة الصغيرة التى سميت «الضباط الأحرار » ، لنقرأ «عقلها» وأفق تفكيرها ، فنجد أنها، ربما كانت مؤهلة لقيادة البلد عند العدو المشترك فى ذلك الوقت (الاستعمار الإنجليزى) بنجاح، كما أدارت معركة إقصاء كل القوى السياسية الأخرى، بنجاح أيضا، لكنها، أدارت المجتمع على المستوى المدنى بطريقة عشوائية .

وقادتها يعترفون فى لهجة فيها الكثير من الفخر، بأنه لم يكن لديهم برنامج سياسى/ اجتماعى/ اقتصادى/ ثقافى لإدارة المجتمع واستغلال موارده فى هذه المجالات، استغلالا لا يقف عند حد الخلاص من الخصوم وسلبياتهم القديمة، بل



كيف يربي المدرس الجاهل جيلا من التلاميذ؟

لبناء مجتمع عصري يقوم على المشاركة الفعالة والطوعية المبنية على اقتناع بفكر سياسي محدد، لأن هذه الجماعة نفسها، كما سلف، ليس لديها فكر سياسي محدد، فكانت النتيجة: موجات من التجريب المتوالي في كل مجالات الحياة، لم تؤد إلا إلى النتيجة التي حدثت بالفعل:

– انكسار عسكري، أدى إلى انكسار سياسي، أدى إلى حالة من التيه، أدت بأنور السادات، وهو عضو أساسي في الجماعة، إلى محاولة الخروج من هذا التيه بتغيير كامل للخط القديم، إلى خط جديد، لم يكن لديه أيضا برنامج محدد، كما لم يستند إلى القوى الحقيقية الفاعلة في المجتمع، فكان هذا الفراغ السياسي العميق الذي تعانيه مصر.



٣ – عند هذه النقطة ليسمح لي القارئ

ببعض التفصيل .

ففى اعتقاد الكاتب أن أخطر ما فعله أنور السادات ليس فقط، اتفاق كامب ديفيد، على خطورته التى أدت إلى انقلاب شامل فى المنطقة، بل ذلك الانقلاب فى بنية المجتمع السياسية، من نظام الحزب الواحد، إلى شكل هجين وغريب من التعددية الانتقالية غير القائمة على أساس حقيقى: أى دستور جديد متكامل، يصوغه فقهاء الأمة، لبناء مجتمع سياسى متعدد حقيقى، يعبر عن القوى السياسية الحقيقة فى المجتمع .

ما فعله أنور السادات ، فى هذا المجال، هو ما يمكن أن يقوم به «عمدة» قرية محدود التفكير ليعالج أزمة وطن ليس له ملامح القرية.

ما فعله أنور السادات بالضبط، بعد أن جاءه إلهام التغيير، أنه قام بزيارات ليلية وهو متخف فى عباءة ليعقد صفقات مع أشخاص بعينهم، للاتفاق على تقسيم وتوريث الحياة السياسية فهؤلاء الأشخاص (وما يمثلونه)، مما جرى على النحو الذى جرى عليه، ولأن السادات كان يرى أن الحياة السياسية هى: يسار (أى يسار؟) ويمين (أى يمين؟) ووسط (أى وسط؟) هكذا على هذا النحو الميكانيكى سلم اليسار لخالد محيى الدين، واليمين لمصطفى كامل مراد، وأمسك هو بالوسط .

وطبعا كانت النتيجة هى ما هى عليه الآن: مجرد أشباح ورقية لا أحزاب سياسية حقيقية، وإن كانت بعض الأحزاب (وعلى رأسها التجمع ثم الأحزاب التى خرجت للنور بعد نضال قانونى، العمل، الوفد، الناصرى) وهى تقبل القسمة كانت تعرف الخلل الموجود فى النص الدستورى والقانونى وجاهدت بشرف من أجل تغييره.

إذ أن طريقة السادات الفردية هذه لا يمكن أن تكون أساسا صالحا لحياة سياسية حية وفاعلة.

٤ - لقد كان البديل الوحيد المفروض للقيام بتغيير كبير، من مجتمع الحزب الواحد إلى مجتمع تعددى أن يقوم فقهاء الأمة بصياغة «كتاب الأمة» الذى هو الدستور والقوانين المطبقة لهذا الدستور التى هى جزء مكمل وضرورى لتطبيقه بشكل صحيح، مما كان سيعنى قانون أحزاب (وانتخابات) حقيقى يمكن القوى السياسية الحقيقية الفاعلة فى المجتمع من التعبير عن نفسها فى أحزاب حية، تخرج بالمجتمع من أزمته الدستورية، ليسير فى اتجاه التعددية الحقيقية .

٥ - وهنا، أيضا، لابد من استطراد لازم حتى نصل إلى «مسألة صلاح جاهين» .

فها هى سلطة يوليو تمسك بكل شئ فى يدها، إن يكن فى مجال الوسائل، أو فى مجال الغايات، ولنتقدم أكثر لنوضح، لقد أضحت الصحف، والمجلات، ودور النشر ووسائل الإعلام المختلفة (التليفزيون ، والإذاعة) والسينما أيضا فى أيدى السلطة، التى لم تعدم فى بعض المراحل شخصيات تولت هذا المنبر أو ذاك وكانت على هذه الدرجة أو تلك من الكفاءة.

.. لكن هذا كله عنى ببساطة أنه لا وجود لنتاج الفنان بين أيدى أو أسماع أو أعين الناس إلا إن تعامل الفنان مع هذه السلطة، تعاملا، أحيانا، كان يعنى «التعاون» وفى الغالب كان يعنّى الخضوع الكامل للفنان أمام السلطة .

وإذا كانت هذه السلطة ترى أنها دوما على حق، وأن فكرها ، الذى هو ليس بفكر عميق، هو الفكر الصحيح، فقد عنى هذا على المستوى التطبيقى، إنك، كفنان، لا يمكنك أن تتلاءم، مع هذه السلطة لو كانت رؤيتك للفن (والعالم والأشياء) مختلفة بشكل جذرى، وكثير من الفنانين والمفكرين الموهوبين، عصفت هذه التبعية بمواهبهم، (إلا من رحم ربك) أو عاشوا فى عزلة، وفى مرحلة السادات لم يكن أمامهم إلا الهجرة الداخلية، أو إلى الخارج، أو أصيبوا بالاكتئاب، كما حدث بالضبط مع صلاح چاهين، الذى حاول التغلب على اكتئابه بالعقاقير وصلاح عبدالصبور، الذى حاول التغلب على اكتئابه بالشراب، فكانت النتيجة واحدة: موت مبكر خسر خلاله المجتمع موهبة كبيرة .

من جهة ثانية فإنه لا يمكن لمثل هذه السلطة أن تمتلك رحابة صدر، تجاه تمرد أو حلم الفنان (الذى هو بطبيعته حلم بالمستقبل) فهى لا ترى فى الفنان أو المثقف إلا جزءا من ماكينتها المعدة للاستمرار فى السلطة، وهكذا يجد الفنان نفسه فى مأزق كبير.

٦ - وأظن أن أكثر الفنانين تعرضا لهذا المأزق هم فنانو الكاريكاتير، فهم لا يستطيعون الرسم على أنفسهم، كما يمكن للشاعر أو الروائى أن يكتب على نفسه، أى يستطيع العثور على ناشر مستقل أو ينشر بعيدا عن الصحيفة اليومية يعكس فنان الكاريكاتير الذى لا مكان له سوى فى المنبر العام من الصحف والمجلات .

إن المأزق الأهم فى حياة أى فنان هو





اهتم جاهين كثيرا بالمرأة في رسومه !

أنه يريد فعلا أن يخلص لفنه دون أن يكون متأثرا بالمشاكل اليومية التي قد تضره، فحتى الفنان الثورى الجاد يريد أن تكون ثورته من خلال ما هو إنسانى، وجاد وعميق، وهذا قد يبتعد به عن جمهوره المفترض، وللإلحاح الذى يحس به من تفاقم الأزمات، فإنه على استعداد أن يقدم تنازلات فنية، وأحيانا فكرية لمتلقيه مقابل أن يستمر فى تقديم عمله للناس، وهنا المأزق الحقيقى إذا لم يكن هذا الفنان قادرا على خلق حياة تحميه من هذا المنزلق حتى ولو ضحى بهذا الفن، كما فعل بهجت عثمان وأحمد حجازى، وهما فنانا كاريكاتير، لا يقلان أهمية عن صلاح جاهين، فرحلا إلى ما رأيا أنه أجدى من الكاريكاتير فى مرحلة ساد فيها الابتذال . فلجآ لرسوم الأطفال، أى للأجيال الجديدة التى قد تحمل الرسالة بشكل مختلف هذه



تميز بخفة الدم المتناهية ..

المرة .

٧ – عند هذه النقطة، ونأسف للتطويل، نعود إلى مسألة صلاح جاهين ، انظر: هذا فنان كبير، متعدد المواهب، على درجة فائقة من الحساسية، لا يستطيع الاكتفاء بالتعبير عن مشاكله الشخصية، ولسوء حظه فإن عمله الأساسي للمشاركة في الحياة العامة، هما شعر العامية، والكاريكاتير، وهما الشكلان الأكثر انمداجا بالحياة العامة وتعبيرا عن مواضعاتها المباشرة، وهما مرتبطان بالقول (والوسيلة في ذلك إما الإذاعة أو التليفزيون، المسرح أو



الهلال
محرم ١٤٢٥هـ - مارس ٢٠٠٤م

المنتدى المباشر) أو الرسم فى منبر جماهيرى (وهو هنا المجلة أو الصحيفة على وجه التحديد) وكل هذه الوسائل فى يد السلطة بلا منازع .

٨ - وبشكل عام فإن التقييم الإجمالى لقيمة صلاح جاهين يمكننا أن نجده فى هذه الجملة البليغة للشاعر الكبير أحمد عبدالمعطى حجازى (الذى صاحب جاهين فى فورة طلوعه فى صباح الخير) ويقول:

«لم يكن صلاح جاهين يرى فنا منفصلا عن الحياة، لكن الحياة لم تكن بالنسبة له شعارا يرفع به موهبة متهافتة، بل كانت حافزا للاكتشاف والإضافة، وأنت حين تسبح فى النهر العميق المتدفق لا تتبع الموج بل تقاومه وتظهر عليه. هذا هو الجدل الذى وقاه شر السطحية والخطابة الكاذبة والعاطفة المصطنعة التى تفيض بها أغلب أعمالنا. وخصه هو بإبداع فريد طازج، مزيج من السخرية والبكاء، الطيش والحكمة، ذلك هو فن الشعب حين يرتفع عن ابتذال الظرف ويصبح تاريخا للروح» .



سخر من كل شيء .. حتى من نفسه !

٩ - أما التقييم الخاص فلا تجد غير «أسطى» آخر من أهل «الكار» لكنه يتمتع بشجاعة الحق أحق أن يتبع «فلا تتسرب إلى نفسه غيرة أهل «الكار»، وإنما روح العدل التى يتمتع بها كبار الفنانين الذين يستحقون عن جدارة صفة «الأسطى» ذلك هو محيى الدين اللباد الذى إن قال فى موضوع الكاريكاتير فعلينا أن نفسح له مجمل المكان .

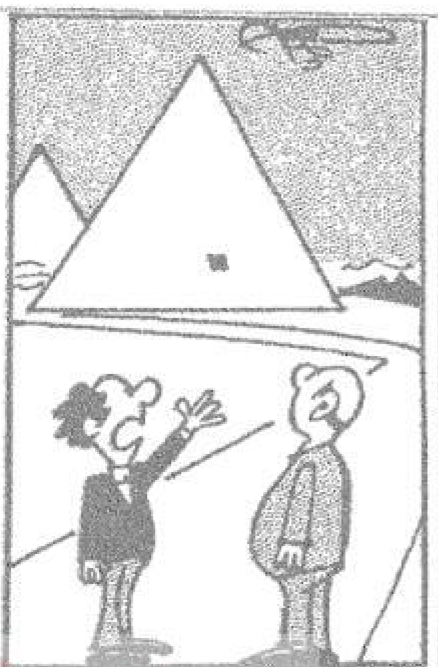
يصف اللباد أولا صلاح جاهين بأنه صاحب الرقم القياسي، ويشرح ذلك موضحا:

«عندما يسجل البطل الرياضى رقما قياسيا جديدا فى لعبته، فإنه بذلك يحدد

القدرة القصوى للنوع الانسانى فى تلك المهارة فى ذلك التاريخ، وعندئذ يشعر الناس - حتى وإن كانوا لا يمارسون اللعبة - بأن البطولة التى سجلت قد شملتهم، ويشعرون بالفخر وبالقدرة على تحدى الضعف والموت، ويتوهمون أن بإمكانهم - يوما - أن يبلغوا مثل هذا القدرة، وبهذا ينعمون بالأمل والتوازن والقوة والتفاؤل .

هكذا كان «صلاح جاهين» فى الكاريكاتير .

بالنسبة للقراء وضنهم رسامو الكاريكاتير ، كان الرقم القياسى الذى ينتظره الجميع كل صباح، هو كاريكاتيره الملئ بالملاحة والذكاء والوعى والعبث والمرح الطفولى والقدرة المعجزة على التلخيص وعلى التواصل» .



ـ وده القدم ملهى ليلى اتبنى فى شارع الهرم .. واتسمى الشارع باسمه !

السخرية ليست من الهرم .. بل من جهل المعاصرين !

لكن اللباد وهو يوضح موقع جاهين على خريطة الكاريكاتير يكتب تحت عنوان آخر صاحب حق الاختراع ويقول : «فى العام السابق لانطلاقه صلاح جاهين على صفحات صباح الخير ، فى يناير ١٩٥٦ كانت خريطة الكاريكاتير كالتالى:

كان «عبدالسميع» (أكثر الرسامين شهرة وشعبية وتأثيرا فى هذا الوقت) قد ترك مجلة روزاليوسف إلى أخبار اليوم لينضم هناك إلى «صاروخان» و«رخا»، بينما كانت مجلات دار الهلال: «المصور»



و«الهـلال» و«الاثنين» تزدحم برسـامين أوربيين: «برني» و«برنار» و«كـيـراز» و«فيدروف» ومن خلفهم بعض الرسامين المصريين يقومون بتمصير رسوم ما يقدم اليهم من كاريكاتير أجنبي قد ترجمت تعليقاته، وكان «طوغان» نجما في جريدة الجمهورية يقدم رسوما سياسية رمزية قوية الخطابة وزاعقة الشعارات الوطنية، وكان زهدى ينشر مثلها في روزاليوسف من أرضية يسارية تقليدية، بينما لم يكن في جريدة الأهرام رسام كاريكاتير واحد .

كان هناك حائط سميك يفصل الكاريكاتير إلى نوعين لا صلة بينهما : «كاريكاتير سياسي» كانت موضوعاته هي «السياسة» نفسها بلا لف أو دوران.. وكان أبطاله هم رجال الدولة أو السياسة ومعهم شخصية رمزية تنوب بوجودها عن «الشعب» .

كان القسم الآخر هو «الكاريكاتير غير السياسي» وكان نكتا وقفشات وتهريجا نمطيا لا علاقة له بما يجرى في حياتنا، ولا نستطيع أن نعرف منه ما موقف رسامه السياسي أو الإنساني ولا رؤيته الاجتماعية، ولا ثقافته .. أبطاله أشخاص شوه مظهرهم بمبالغة شديدة ليكونوا «مضحكين».. لم تكن هناك علاقة بين هذه الشخصيات النمطية، وبين واقعنا اليومي.. ولم يكن هذا النوع من الكاريكاتير سوى ترجمة بالرسم لنكت وقفشات وشخوص المسرح الفكاهي التجاري في ذلك الوقت» .

ويقول اللباد إنه في العام ١٩٥٥ فتحت روز اليوسف بابها أمام عدد من الرسامين الشبان، وهناك تقابل جاهين مع جورج البهجوري الذى كان يرسم رسوما كاريكاتورية مدهشة، أصيلة، غريبة، استطاع أن يخلط فيها - بسلاسة نادرة - مراجعه من فنون مصر القديمة والقبطية والإسلامية والشعبية، مع ما تعلمه من راغب عياد وحامد عبد الله، مع ما في وجدانه الصحي شديد الطيبة بدون أن يتأثر بما يفعله الخواجات.

وكان هناك أيضا حسن فؤاد ينشر في الكتب والمجلات والصحف رسوما لافتة النظر لشخوص ومواقف لم يسبق لها الظهور في هذا المجال. كان يرسم المعتاد الذى نراه حولنا كل يوم في الزحام، في أحياء القاهرة الوطنية، وفي قرى الريف المصري، كانت رسومه تعكس وجدانا غنياً، وثقافة فنية حديثة، ووعيا اجتماعيا، وانحيازا سياسيا، وحبا لوطنه وشعبه وللثقافة والتقاليد المحلية.

لابد أن صلاح جاهين قد تأثر كثيرا بجورج وحسن، كان الشكل بالغ المصرية الذى اكتشفه جورج في رسومه، وكانت الشخصيات والمواقف والأماكن التى اكتشفها حسن فؤاد كانت فتوحا جديدة مهمة جذبت اهتمام جاهين، وبها عثر على ؛

الطريق الموفق والمناسب - بالضبط - للموضوعات والأفكار التي سيقلب بها - بعد قليل - فن الكاريكاتير في مصر كما تقلب «فردة الشراب».

يضيف اللباد أنه وبعد سنة من الرسوم المتفرقة في روز اليوسف فوجئ القراء منذ العدد الأول لمجلة صباح الخير (١٣ يناير ١٩٥٦) بكاريكاتير جديد، مختلف، صادم، مدهش ومبهج، كان هذا هو كاريكاتير صلاح جاهين الذي تعرف فيه القراء «على أنفسهم وأقربائهم وزملائهم وجيرانهم ومعارفهم وشاهدوا فيه - لأول مرة - الأماكن التي يألفونها: البيوت القاهرية البسيطة والريفية الفقيرة بتفاصيلها الحميمة».

وأعتقد أن هذا الميلاد الجديد لصلاح جاهين في صباح الخير، وإن كان قائما، طبعا، على موهبته الكبيرة، إلا أنه كان أيضا قد تدفق بفضل رعاية ودفع واهتمام منشئ هذه المجلة أحمد بهاء الدين، الذي من المعروف أنه أيضا كان وراء دفع جاهين لكتابة رباعياته التي أخرجت أهم ما فيه من طاقة شعرية.



المذيعة التي لا تخطيء !!

وصلاح جاهين الشاعر هو صنو جاهين رسام الكاريكاتير الكبير.

***

نعود إلى ما أسميناه «مسألة صلاح جاهين» فنؤكد على أنه إذا كان رسام الكاريكاتير قد وجد فيما كان يجرى من أحداث في الفترة الناصرية، روحا وطنية جعلته متوافقاً مع نفسه ومع مجريات





- الاوراق بيطلع غيرها كل سنه !.. المصيبة فى الشجرة !

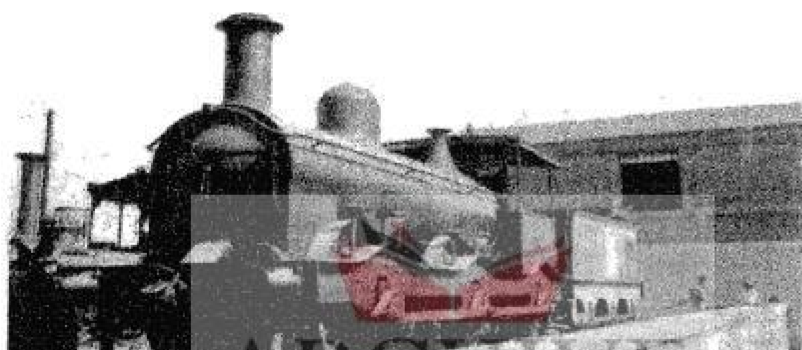
عبر جاهين عن انهيار السينما المصرية في كثير من الرسوم

الأمور، إلا أننا نظن أنه وجد نفسه في فترة السادات ، وهو قد انتقل منذ وقت إلى الأهرام، كبرى الصحف المصرية، وأصبح كاريكاتيره هو افتتاحية العدد الاجتماعية اليومية، إلا أننى أظن أنه قد بدأ بالمأزق الذى وجد نفسه فيه .

فالتوجهات العامة للمرحلة لم تكن بالتأكيد مما يمكن أن يتحيز له جاهين، كما انه وبحكم طبيعة تكوينه لم يكن بإمكانه التخلي عن موقعه أو متلقيه الذى ينتظره كل صباح، ومن هنا بدأت علامات الاكتئاب تظهر عليه ، عاناها كما يمكن أن يعانيها أى فنان حساس يجد نفسه فى مثل هذا المأزق، فانتهت به إلى موت جاء قبل الأوان، ليختطف منا فنانا كبيرا كان يمكن أن يستمر فى العطاء لسنوات وسنوات، على الرغم من أن ما أعطاه لم يكن بالهين ولا اليسير . ■

مصر

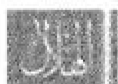
من نافذة أول رحلة قطار



أول قطار للركاب فى السكة الحديد المصرية

بقلم
د. محمد المهدى

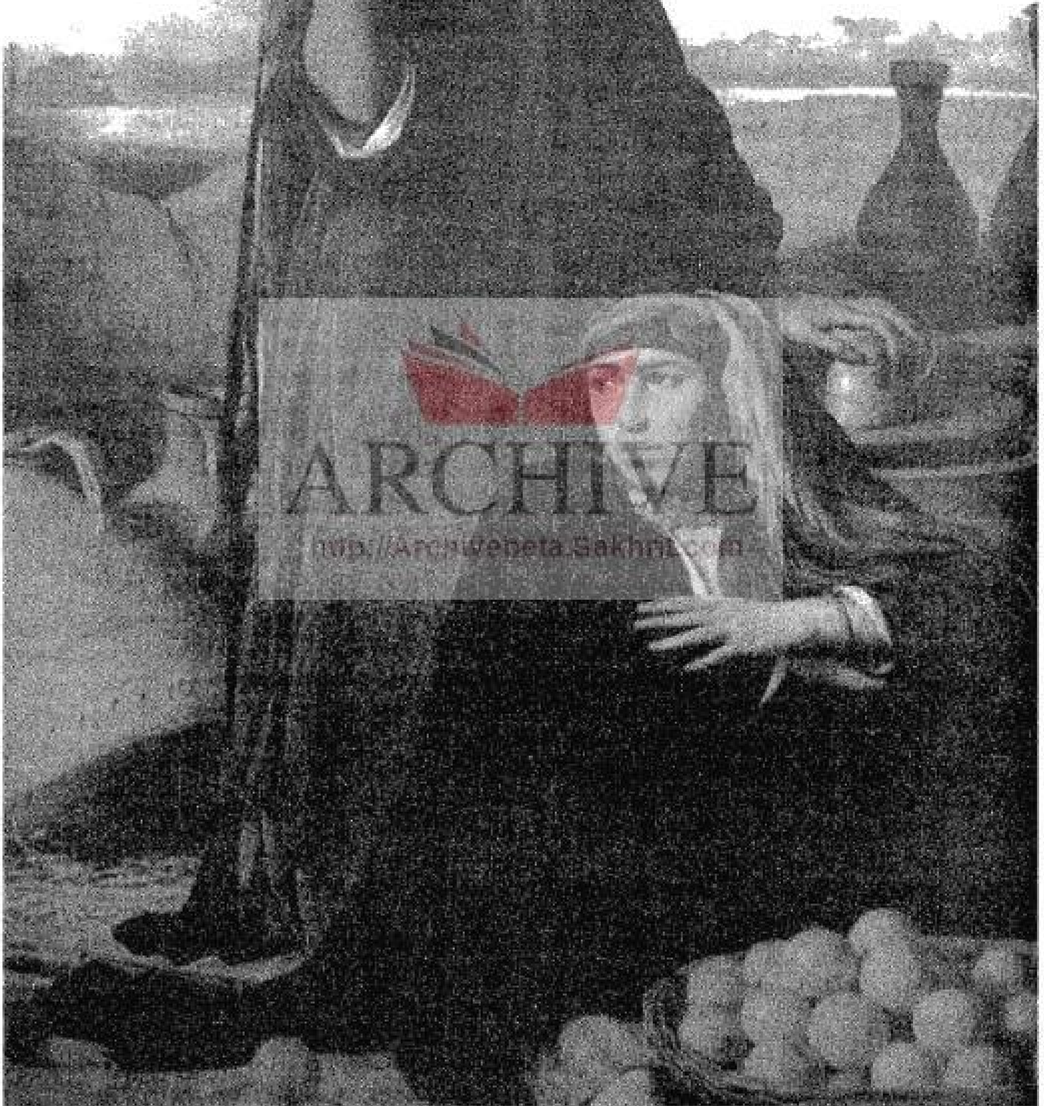
١٠٢

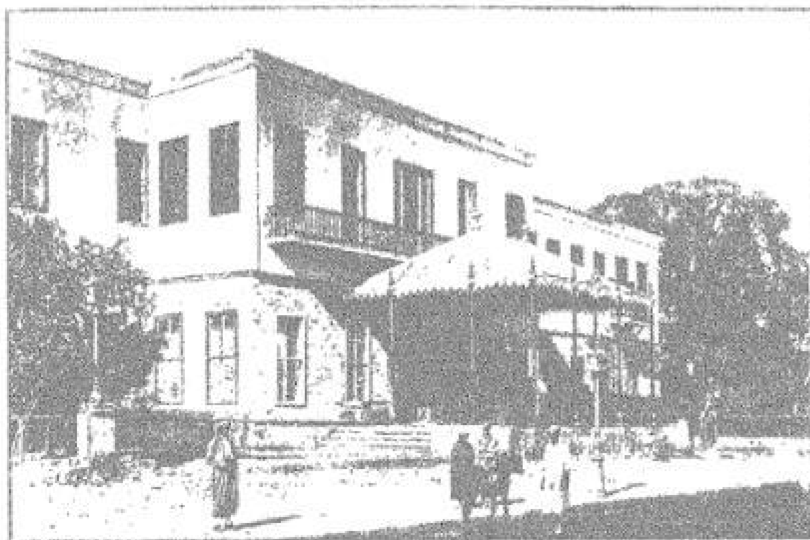


محرم ١٤٢٥هـ - مارس ٢٠٠٤م

- كيف رأى الفنان جوتييه الحياة بمصر فى القرن التاسع عشر؟
- الفلاحة وطفلها على ظهر حمار تشبه لوحة العائلة المقدسة!
- الفلاح بثوبه الأزرق كأنه رمز اندماج الماء والأرض والسماء..

بائعات الماء والبرتقال -
فيلكس كلمنت ١٨٧٢





نزل جوتييه فى فندق شبرد القديم بميدان الازبكية

الزمان ... الجمعة ٩ أكتوبر عام ١٨٦٩ . والمكان مدينة مرسيليا . جوتييه فى مرحلة النضج من العمر، يخرج من فندقه وكله حماس ليتوجه إلى سفينته المتجه إلى الشرق ... الشرق كان عنده حلما من أحلام ألف ليلة وليلة .... وأيضا مصدر إلهامه الروحى والعقلى . كان قد زار المعرض المصرى الذى أقيم فى باريس عام ١٨٦٧ ، وشاهد فيه معالم على طريق الشرق. جاءته الفرصة هذا العام للتأمل القريب. ليشهد كمراسل صحفى مع غيره من الأدباء والفنانين، والصحفيين افتتاح قناة السويس. يحلم (تيوفيل جوتييه) بألا تتوقف رحلته عند مصر، لابد وأن يستكملها إلى الأراضى المقدسة .. إلى القدس. ومنها إلى الشام ... ومنها .. وفجأة يمر أمامه عند منعطف الطريق جناز يتقدمه شمامسة بأردية بيضاء ... ماهذا الشؤم، جناز يوم الجمعة ... هذا دين كيف ترانى سأسدده؟



سوق شعبي بالقاهرة للفنان سينيوريني

جوتييه الشاعر، والأديب والناقد التشكيلي الفرنسي صاحب المزاج الحساس يصدمه الجناز، كما يحكي في ذكرياته ، ولكنه يستأنف سيره إلى سفينته وان داخله القلق . وعندما يصل إلى الميناء يرى السفينة (موريس) راسية ، فيطمئن إلى أن الرحلة لم تلغ . يتقدم سائلا عن غرفته على ظهرها . وما يكاد يضع قدمه على أول درجة من درجات سلم الهبوط حتى يتعثر ويسقط.

آه ... ليس السقوط هو الذي آلمه، ولكنه الشؤم الذي كان يلح عليه. يقول جوتييه أنه تماسك رغم شعوره بأن كتفه يكاد ينخلع من جسده، أخذ يردد بينه وبين نفسه : «يبدو أنني سددت ديني».

كانت رحلة «جوتييه» تضم من رجال الأدب، والفن ، والصحافة بعض نجوم ذلك الزمان: شارل بلانك. لويزه كوليه، بيرشبرل والفنان المعروف العاشق للشرق أيضاً أوجين فرومنتان .. وغيرهم.

وتعلق الكاتبة لويزه على حادث جوتييه فتقول:

- يبدو ان جوتييه نتيجة لوهمه ظل في غرفته بالسفينة بكامل ملابسه . وعندما أراد النوم، هم بتغييرها بعد أن تجمعت الخيالات في رأسه . حينذاك سمعته ينادي ويئن مستغيثاً بصوت خفيض . اسرعت اليه وساعدته على خلع سترته، وعاونته حتى تمكن من الوقوف، وأرسلنا

في استدعاء الدكتور روكا. كان جوتييه شجاعاً فبمجرد أن أعاد له الطبيب العظمة المكسورة إلى مكانها، وعلق ذراعه في عنقه، حتى صعد معنا إلى سطح السفينة رغم الضباب الكثيف ورداءة الطقس.

وتضيف الكاتبة المعجبة بجوتييه:

- لقد ضاعف الشحوب الرخامي في اليوم الثاني من صفاء وجهه. كان يثير دهشتنا مايبدو على جبهته من صلابة. كان شعره الطويل الذي مشطه له أحد الأصدقاء يحيط بجبهته البراقة، ونظراته تبدو أكثر نضارة عنها بالأمس، وكانت وجناته المنتفخة المعبرة عن صفاء ملامح وجهه تبدو مشدودة من كتمانه الألم الشديد، وعندما انتشر نور الصباح على رأس الشاعر، أعاد اليه وسامته الأصلية.

قدر لـ (جوتييه) أن يظل حبيس ذراعه، فلم يحقق أحلاما روادته للتأمل القريب، والانتقال الكثير، والمقارنة المتأنية اكتفى بالنظرة البعيدة - رغم ضعف بصره - والحركة القليلة، والمقارنة الفلسفية. وقبل نصيبه، ولكنه شعر بالأسف لأنه لم يحقق ما حققه من تأملات وكتابات حول أسبانيا وإيطاليا، واستنبول (القسطنطينية في كتابات الغرب)، أو مشارف الشرق. ارسل إلى جريدته خمس أو ست مقالات نشرت بين فبراير ومايو عام ١٨٧٠، واعيد طبعها بعد ذلك في كتابه (الشرق).

تأملات (جوتييه) ستكتفي برحلة القطار، وسطح فندق شبرد بالقاهرة. ولكنها رغم محدوديتها فإن لها عمقها وطرافتها وجدتها. كانت أول عين فنان تسجل على شريط الذاكرة رحلة شرقية من نافذة قطار، فأول خط حديدي سار بين الاسكندرية والقاهرة كان قد انتظم أيام افتتاح قناة السويس، ومن نافذة هذا القطار المتمهل تداخل الأخضر، والرمادي، أو النيلي ... انفصلا، واتحدا في عين الناقد التشكيلي جوتييه ... ومنهما خرج لنا بتأملات خاصة بمصر، وعامة بشرق الأحلام والإلهام.

رحلة القطار

وتبدأ الخط من أوله .. يقول (جوتييه) عن الاسكندرية عندما وصل اليها: «تبادل التحية والبدء في نقل الحقائب، لم تكن مهمة سهلة في وسط الزحام. كان البحارة يقومون بسحب الحقائب من قاع السفينة، بينما كان الحمالون يتنازعون لحملها مع تبادل اللعنات والسباب بشتى اللغات، ويصل تدافعهم على حافة السفينة أو السلم إلى حد يهدد بسقوطهم في البحر، وعندما هدأ نسبياً موج الحقائق، تمكنت بمعونة صديق من النزول، لجأت في المؤخرة إلى صندوق كبير وجلست عليه، ثم استأنفت السير ووصلت إلى الشاطيء الرملي. احتواني هذا الشاطيء بشمسه

المحرقة كحمام بخار. وبدأت أفواج متنوعة تتعاقب أمام عيني ... اقباط، وفلاحين، وبرابره، ويونان، وملطيين يتخللهم زنوج، يشرف على تموجاتهم موظفى الخديو بملابسهم النبيلة، وطرابيشهم الرسمية. كانوا مكلفين باستقبال الضيوف القادمين من أوروبا وارشادهم إلى فنادقهم. وكانت المشكلة تبدو أمامي كيفية حفاظ المسافر على حقائبه، فقد كانت تمتد عشرين ذراعاً عند ظهور أول حقيبة. ويتنازع اثنان أو ثلاثة من العمالقة الأقوياء بدفعات عنيفة لحمل صندوق قبعة صغير أو حقيبة يد، ومن يحصل منهم على الحمل ينطلق به إلى المدينة دون سؤال عن وجه المسافر أو من يكون..!».

أخيرا وصل (جوتييه) إلى فندق انجلترا ، وفى اليوم الثانى بدأت رحلة القطار من الاسكندرية إلى القاهرة. كان بعض الكتاب السابقين على جوتييه قد كتبوا عن الرحلة من الاسكندرية إلى القاهرة على ظهر مركب صغير. وقرأ (جوتييه) كل ماكتب تقريباً عن مصر والشرق ... قرأ (فلوبير)، و(شاتوبريان)، و(جيراردى نرفال)، و(مكسيم دى كامب) وغيرهم. ولكن كانت جلسة جوتييه فى مركبة الدرجة الأولى البيضاء، ذات الجلد الأخضر الفاخر، وتأملاته القطارية تجربة جديدة أثارت شغف القراء فى باريس . لقد تعمقت عينه نسيج اللوحة فصور بالكلمة قائلاً:

«المحبة التي يكنها الفلاح لأرضه، هذه الملحوظة يستطيع أن يدركها حتى المشاهد قليل الوعي، وحينما نراه يروح ويجيء على هذه الأرض المروية ندرك أنها من عنصره . بملابسه الزرقاء التي تشبه ثوب الكاهن، يبدو وكأنه يقود اندماج الماء بالأرض. هذان العنصران اللذان إذا تشربا بسخونة الشمس جعلا الحياة تزدهر. ولا يمكن أن ترى هذا التآلف بين الأرض والإنسان فى مكان آخر. كما لا يمكن أن تلحظ أهمية الأرض بأكثر مما تبدو هنا. انها تبسط ألوانها على كل شيء، المنازل عليها لون الأرض، والفلاح بلونه البرونزى، والأشجار معفرة أيضاً بتراب الأرض. والمياه محملة بالطمى. الكل يخضع لهذا النظام المنسق. وقد قمت بتسجيل هذه الملاحظات اثناء دفعات القطار .. وكنت أحدث نفسى فأقول : لايحتاج الفنان لكى يصور هذه اللوحة الا لهذا اللون الذى يسمونه لون المومياء، مع قليل من الأبيض وزرقة السماء ... والحيوانات أيضاً تبدو وكأنها ترتدى نفس الرداء. الجمل اشقر اللون . الحمار رمادى، الجاموس ازرق غامق. الحمام رمادى. والطيور الشقراء كانت أيضاً تدخل فى اطار اللوحة العام. ومما يثير الانتباه هو عدم خلو لوحة الريف من حركة الآدميين، انهم يتحركون دائماً على



المصرية على حافة النيل - ليون بيلى ١٨٦٣

حافة القنوات، ويشغلون المساحة، ولا تلحظ هذا الازدحام فى القرى الفرنسية ... أنه شىء يأخذ المتأمل ويسليه .. تتحرك الجماعات فى ذهابها لأعمالها داخل اطار نافذة القطار .. تتجدد اللوحات دائماً فى تتابع واتساق والاطار ثابت. ان اللوحة تنطق دائماً بخطوط جانبية لما يمر بداخلها. الجمال، والابقار، والثيران تحرس زوجة الفلاح المترنحة على ظهر الحمار، تحمل وليدها ... قافلة تشبه العائلة المقدسة».

ثم يأتى دور النيل داخل نافذة القطار فيتناوله تناولا تشكيليا، ويضعه فى موضعه اللائق من اللوحة، فيقول «النيل يصب بغزارة على الجانبين منبسطا



حمار قاهري - بريس دافين ١٨٣٠



فلوبير



شاتوبريان

عريقا، مثل سيل الطمى الأحمر اللون، يكاد يلتقط شكل الماء ... منتفخ مندفع لاتقهره الكثافة ... أنه نهر من التربة، وتحاول السماء ان تضع عليه لمسات انعكاس ضعيفة مبعثرة من زرقتها فوق لمعان أمواجه». نيل شهر اكتوبر ... نيل الفيضان يشهده جوتييه بعين الفنان، وعين الشاعر، وعين الأديب.. فتأتى لقطته بأبعاد متعددة وصياغه موجزة، وعمق فلسفى درامي، ويصل القاهرة فيقول «هذه هى القاهرة التى طالما تبادلت الحديث عنها مع فلوبير، ومكسيم دى كامب، وجيرار دى نرفال، والتى سجلوها بمقالاتهم الممتعة فأيقظوا فينا حب المعرفة».

تأملات سطح شبرد

نزل (جوتييه) فندق شبرد فى ميدان الأزبكية «لقد اسكنونى فى أحلامى». وهذا الميدان انذاك كان قلب حى الارستقراطية .. حديقة الفندق خططها بستانى فرنسى على طريقة حديقة (مانسو)، والفندق تديره تقاليد فرنسية. ولكن النكهة الداخلية والخارجية شرقية. العمارة الداخلية

وحركة الناس في الميدان . شجرتي خروب ضخمتين تظلان الميدان فيجلس فى فيئهما بعض البدو وجمالهم، وخادمة صغيرة شبه عارية تتقدم إلى الساقية تملأ جرتها . وألوان متعددة تروح وتجيء .. من تركى ، إلى أرمنى، إلى قبطى، إلى ابن بلد ، إلى خاتون... ومشربيات مذهبة موزعة فى مربع الميدان تؤكد لـ(جوتييه) أنه انتقل فعلا إلى عالم الشرق. ولكن أى خسارة، إنه مايزال يتأمل لوحته من بعيد . لوحة الميدان يكتبها من سطح الفندق، فقد حذره الطبيب من الدخول فى زحمة الناس.

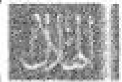
وحينما وصل (جوتييه) بعينه إلى الخاتون (سيدة المجتمع آنذاك) وجدها على ظهر الحمار النشيط المزركش الشهير الذى سجلته فرشاة (مارميه) و(جيروم) و(لوتى) ... ويتعاطف (جوتييه) مع الحمار أكثر من الخاتون، ومعه حق فإن أناقة الأول كانت بادية، بينما كانت الخاتون محجبة يتبعها خصى فخور!

ويكتب (جوتييه) عن صديقه وموضع اعجابه فيقول «يقال إنه لايوجد أقل من ثمانين ألف حمار فى القاهرة ... انى أقول حمير لا أرواح (كلمة حمار بالفرنسية ANE وكلمة روح AME وخشى الكاتب الخلط بينهما) فكم هى لطيفة هذه الحمير، انها فى غاية النشاط ، والمزاج المرح، وليست ذات سحنة حزينة كحميرنا المغلوبة على أمرها، الباكية، الشاكية من سوء التغذية وكثرة الضرب والاحتقار.

وربما كانت حمير الشرق تعلم أن الفيلسوف الاغريقى (هوميروس) كان قد شبهه الملك (اجاكس) بالحمار . وهو تشبيه لايحمل معنى التحقير الا فى الغرب . وربما علمت أيضاً حمير الشرق ان أحد أجدادها قد حمل السيدة العذراء وطفلها عيسى من فلسطين إلى شجرة الجميز بالمطرية.

وتدور عدسة (جوتييه) من فوق السطح، وتسقط على القراداتى، وتنتقل إلى ساحر الثعبان فى لحظة انتفاخ رقبة الحية وهى تتلوى منتصبة فى بطء، وتنظر حولها فى غضب ... يتأمل (جوتييه)، ثم يعود للتراث، ويستنتج «الحية بقوامها، وانتفاخ صدغيها هى الجعران المقدس، الذى يظهر كثيراً فى اطار المعابد، وفوق أبوابها الضخمة، وأعلى هامات الآلهة والفراعنة . أنه انطباع فريد أن يرى الإنسان الزخارف حيه تتحرك .. وكنا نظنها فى الماضى رموزا هيروغليفية».

لم يكن (جوتييه) متفلسفا، أو مصورا، أو ناقدا فقط فى شريطه الأدبى القصير، ولكنه كان أيضاً صاحب حس واقعى، لاينسى فى المدينة، أو فوق سطح الفندق



مــا انطبع في ذاكــرته عن الريف، أو من نافذة القطار . المرأة الريفيـة ذات الثوب الأزرق منطلقة في همة للبحث عن الرزق، لاتعبأ بما يحدثه الريح من تموجات على ثوبها المشوق «كالراية المتموجة» بعضهن ممسكات على راحة اليد المعكوسة اناء مستطيل كالابريق. والأخريات ثبتن الجرار الفخارية أو النحاسية الصفراء على الرؤوس ، لا يشغلهن هم اليوم عن حمل صغير على الكتف، وربما سحب طفل ثان باليد الأخرى. أما نساء المدينة الناعمات المحتشمات داخل الحجاب الحزين المصنوع من نسيج أسود لامع يعلن بوميضه عن قدوم يستوجب من صاحب الذوق السليم، أو الهدف الخبيث الالتفات، يحدث الوشاح الطويل الأبيض خطا في وسطه يمتد من الأرض وينتهي عند الفم والأنف، ويتيح للعين السوداء الواسعة المكحولة فرصة الظهور في ومضات قلقه تنم عن حركة داخلية ذات مغزى . هؤلاء النسوة يقول عنهن جوتييه:

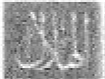
«أحياناً كن يرفعن اذرعهن ويهززنها برقة تكشف عن اساور ذهبية وفضية، وكانت هذه الحركة ترفع اطراف ارديتهن فتلقط عيوننا اطراف سراويلهن المصنوعة من الاطلس الحريري الأصفر ... واسعة كالفساتين، أما القميص الضيق فمن المخمل المبطن حتى يقرب النهدين تحت قميص شفاف من قماش متماوج».

ولكن المدينة لاتحوي فقط الناعمات. انها ككل المدن تحوي المتناقضات ... شقاء أو استرخاء . يكتب (جوتييه) في آخر مقاله عن القاهرة تحت عنوان (مايرى من فندق شبرد) عن سكان المدينة ... السقائين وعذابهم تحت ثقل القرب . الخدم في تناقض مظهرهم مع مهمتهم... في ملبسهم المزركش، وخصورهم المحبوسة، وصدرياتهم المطرزة بالذهب، واكمامهم المسترسلة إلى الكتف. في مهمتهم الشاقة التي تقتضي الجري وراء العربة الانجليزية ، أو النمساوية الطابع التي يركبها اسيادهم الباشوات، يدفعون المارة بعيداً عن انفاس السيد المترفع.

ويكتب عن التناقض بين التركي الطربوش، أو المتفرنج بالريدنجوت، وبين البدوي بمظهره الخشن ومهابته بملابسه الفضفاضة من الصوف، أو بين الارناؤطي بشاربه المفتول، وزخارفه ذات اللون الأحمر، وخنجره المثبت في الخصر، وبين النوبي بأذرعه العارية القوية. هذه اللقطة صورها كثيرون قبل (جوتييه) وبعده، وعبرت عن التناقض في التركيبة الاجتماعية آنذاك، والتي صدرت عن تناقض الوضع السياسي والاقتصادي.

● [illegible]

ولكن لـ(جوتييه) لقطة ينفرد بها على



شـريطه ... أنه يتـرك حـشـد الآدمـيين، ويدخل حـشـد الحيوانات، وتسجليه لها يأخذ ابعادا فلسفية ، ودينية لحضارة الشرق. ولا تتعجل فى الحكم على العبارة ان قلقت منها ، أو الرجل ان قلقت منه. يرى (جوتييه) الجمل يمر أمامه بظهره الأحدب، وسيقانه المفككة، وخفيه المدكوكين فى الأرض، وخصره النحيل بخصلات من صوف كثيف، ورقبته الطويلة، وشفته المتدلية، وعينه الراضية، فيتذكر بداية العالم، وأيام نزول الكتب المقدسة ، والأنبياء الأوائل، وبور الصحراء التى أخرجت الجمل الصامت، والدفقات الروحية. هذه الصحراء تبدو هادئة بدائية فى مظهرها، ولكنها ثورية فى جوهرها ثم ينتقل إلى الثور الأسود بغرته البيضاء، وعيونه المتحدية، وتعادله مع البقرة الهادئة، وقرونها التى تزين رأسها دون هدف عدوانى .. هذا التعادل هو مزاج شرقى أيضاً.

هذه المملكة التى قدر لها أن تقوم على خدمة الانسان ، يحتفى بها الفنان (جيروم) أيضاً فى كتابه (الحصاد فى مصر) وكتب عنها قصيدة نحتية الأوصاف.

جوتييه فى مصر .. يأمل أن يستكمل رحلة الشرق ، ولكنه يتذكر سوء حظه، واقتصار رؤيته على الاسكندرية، وعبور الدلتا، وتأمل الأرض، والنهر ، والفلاح،


جيرار دي نرفال

والقرى الواسعة الهادئة بألحانها البسيطة ثم لقطات سريعة لمظاهر الحياة على الشريط الأخضر.

فى القاهرة يسترجع أسفه ... أين أحلامه بمشاهدة آثار مصر القديمة، وآثار مصر العربية؟

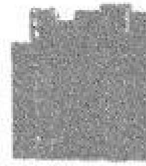
ان اقصى ما استطاع تسجيله هو رؤية الأهرامات من بعيد وسط الغيوم اثناء رحلة القطار، وقباب المساجد ومآذنها من على سطح الفندق. وظل يحلم بالشرق وهو فى قلب الشرق، وتجددت حسرته عندما قرر زملاءه السفر إلى الصعيد.، فيقول فى ليلة رحيلهم «اننى سأتركهم يستكملون لى عالم الأحلام، جيروم ، وفرومنتان، وتورنومين، وبيرشير، وبيرتولو، وشيفينير، وايزامبيرت. لقد رحلوا جميعاً الليلة على مركب بخارى سيصعد بهم النيل. وكان بإمكانى مشاركتهم الرحلة، ولكن ما الفائدة، فليس فى امكانى ركوب الحمير، أو الخيل، والجمال فى الذهاب



استوحى الفنانون مشهد «رحلة العائلة المقدسة» فى لوحاتهم عن مصر فى القرن التاسع عشر

لمشاهدة الآثار التى تبعد أحياناً عن النهر أكثر من فرسخ. وكان من الحكمة البقاء حتى تلتئم عظامى. وبقيت فى فندق شبرد، وحاولت الا أحرم نفسى من بعض الزيارات الخفيفة. ذهبت بالأمس إلى بولاق ميناء القاهرة النهرى، ثم القصر المعد لاستقبال الأمبراطورة أوجينى التى ستحضر اليوم، أنه قصر فخم تختلف الاراء فى ذوقه، ولكنه بالتأكيد تكلف نفقات مفرطة لحد الجنون».

كان هذا سيناريو (جوتييه) الناقص عن الشرق، ولو قدر له استكماله لجاء أكثر حيوية، وأعمق أثرا مما كتبه السابقون عليه خاصة فلوبير، وجيرار دى نرفال، ومكسيم دى كامب. وهم الثلاثة المطاردون لخيال (جوتييه) بما كتبوه عن الشرق، وسبب أسفه فيما كتبه من لقطات سريعة ■



كتاب
تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة

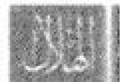
البيرونى
أبو الريحان محمد بن أحمد

بقلم
محمد بركة

يعجب القارىء لسير علماء العرب عندما يطالع سيرة وترجمة العلامة محمد بن أحمد، الملقب بالبيرونى والمكنى بأبى الريحان، ومثار هذا العجب ليس من الكم الهائل من المؤلفات التى أنجزها البيرونى، وإنما من الكيف الذى اجتمعت به كل هذه العلوم فى جوف رجل واحد.

وإذا كانت الموسوعية صفة ملازمة لعلماء العرب فى عصر البيرونى، فإن اعتماده على التجريب يجعله فى طليعة من ألفوا فى العلوم التطبيقية كالفلك والصيدلة والجغرافيا والميكانيكا.. وغير ذلك الكثير.

ويجىء كتاب البيرونى الذى نعرض له «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» كدرة التاج من بين أعماله، فقد اجتمع لهذا المؤلف سببان من أهم أسباب النجاح على الإطلاق، وهما براعة المؤلف وجاذبية المؤلَف، وكيف لا وقد عايش البيرونى مَن تحدث عنهم وتفاعل معهم.. وليس من سمع كمن رأى..



والبيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ) (٩٧٣-١٠٤٨م) واحد من أهم علماء العربية، ولد في الشمال الشرقي لإقليم خوارزم فيما يعرف الآن بأوزبكستان، التي كانت جزءا من مملكة مترامية الأطراف هي مملكة فارس، ولقب بالبيروني - كما يقول ياقوت الحموي في معجم الأدباء - نسبة لكلمة «البراني» الفارسية والتي تعني المغترب، وهذا لاغترابه عن بلده معظم حياته.

عندما فتح محمود الغزنوي خوارزم أخذ معه البيروني إلى مقر ملكه في غزنة (أفغانستان حاليا) سنة ١٠١٨م - ٤٠٨هـ ، وكان يرافقه في حملاته العسكرية التي انتهى فيها إلى فتح الهند، ومن ثم عندما أتم البيروني مؤلفه هذا (تحقيق ما للهند...) رفعه إلى محمود الغزنوي ، الذي كان يرعى البيروني ويمنحه الكثير من المال والحرية.

والحقيقة أن الكتب لاتذكر الكثير عن أخبار نشأة البيروني، ولا من تلقى العلم على أيديهم، غير أن كل ما نعرفه هو شغفه البالغ بالعلم والمعرفة وتبحره في علوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والفيزياء ، إلى جانب اتقانه لغات كثيرة منها اليونانية والفارسية والسنسكريتية . ورغم ثقافته الموسوعية فقد ركز جهده الأساسي في العلوم

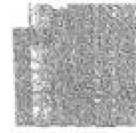


الطبيعية من رياضيات وفلك، كما اشتهر في الثقافة العربية باهتمامه بالجغرافيا والفلك وعلم الأنواء الجوية .

وعلى الرغم من كثرة مؤلفات البيروني، والتي يصل عددها في بعض الروايات إلى مائة وعشرين مؤلفا، فقد ضاع معظم هذا الإنتاج ، ولم يبق منه إلا ما يشهد ويدلل على مكانة الرجل ورفعة شأنه من أمثال:

* «الآثار الباقية عن القرون الخالية» .. وهو خلاصة للتقاويم الفلكية والشعبية المختلفة ، ويقدم وصفا لجميع التوقيتات والأعياد المعمول بها عند مختلف الشعوب.

* «تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن».. وهو كتاب في الجغرافيا والرياضيات.



* «القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم» .. وهو موسوعة موجزة فى علم الفلك وحساب التوقيتات، وحساب المثلثات والرياضيات والجغرافيا .

* «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» .. وهو يتناول الكثير من المصطلحات الهندسية والفلكية ووصفا للأجهزة الفلكية.

* «الجماهر فى معرفة الجواهر».. وهو مؤلف مهم فى الجيولوجيا ، يبحث فى التعدين والأحجار الكريمة بصفة خاصة.

* «الصيدنة فى الطب» .. وهو كتاب في علم الدواء ، أورد فيه أسماء العقاقير وتأثيراتها مستعينا بأحد الأطباء.

* «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» .. وهو موضوع هذا العرض :

حول الكتاب

يتوزع كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة.. » على ثمانين بابا، كل باب يشتمل على عدة مباحث، ويقع حسب طبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد فى ٥٤٨ صفحة بخلاف الفهارس.

يذكر البيرونى فى مفتتح كتابه أسباب تأليفه له، وهو أنه كان استجابة لما طلبه إليه أبو سهل الإيرانشهرى من وضع كتاب يصحح فيه أخطاءه الناتجة عن نقله لروايات العوام. أى أن الكتاب انتقائي نقدى ، يميز المنقول عن الهند من مقبول أو مرفوض الكلام حين عرضه على العقل، وأضاف البيرونى ما رآه عند اليونانيين فى نفس الباب.

بدأ البيرونى فى سرد أحوال الهند، موضحا سبب عدم معرفة العرب المسلمين بأمور هذه البلاد، وأن هذا راجع إلى اختلاف اللغة لفظا ودلالة ، وتباين المعتقد الدينى.

وكان أول ما حظى باهتمام البيرونى لدى الهنود هو عقيدتهم وتصورهم للذات الإلهية ، وهو يميز بين مستويين من الاعتقاد لديهم: اعتقاد الخاصة وهم يؤمنون بالله الواحد الأزلى من غير ابتداء أو انتهاء ، مدبر فى ملكوته. وهو تصور يتفق مع العقيدة الإسلامية. والمستوى الآخر من الاعتقاد وهو مستوى العامة الذين يدينون بالتجسيم وعدم فناء الروح وحلولها فى عدد من الأحياء ، وهو ما يعرف بعقيدة التناسخ . ويقارن البيرونى بين عقيدة الهنود وعقائد اليونانيين المؤمنين بتعدد الآلهة ، ويذهب إلى مقارنات أخرى مع ما يدين به العبرانيون مستشهدا بما ورد فى توراتهم ، وبعقيدة «مانى» المنتشرة بين الفرس، وهو فى هذه المقارنات يستخدم مصطلحات الهنود بألفاظها مع ترجمتها إلى العربية ، ويفعل نفس الشىء فيما يتعلق بالمنقول عن اليونانية .

الفلسفة الخلقية للهنود

تحتل الفلسفة الخلقية للهنود مساحة كبيرة فى كتاب البيرونى ، وهى مرتبطة بالمعرفة ، ففى عقيدتهم أن الخلاص بالعلم لايكون إلا بالتغلب على الشهوات والغضب، والالتزام بالسيرة الفاضلة والدين الذى لايخرج عن مجموعة أصول مثل الطهارة وملازمة الصوم والتقشف ، والبعد عن الكذب والسرقة والزنا.

والتقشف عند الهنود هو أخذ الإنسان قدر حاجته، وترك ما عدا ذلك، ثم يضيفون إلى ذلك ترك اللحم والامتناع عن قتل الحيوان.

وفى كلام البيرونى عن المجتمع الهندى يفصل القول عن ظاهرة من أبرز ما يتميز به، وهى نظام الطبقات ، فيقول إن السياسة والدين اجتمعا على تصنيف الناس فى طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والاختلاط، إذ يلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة ، ولايرخصون لأحد فى تجاوز رتبته، ويعاقبون من لم يكتف بطبقته ، وينبه البيرونى إلى أن الهنود أورثوا الفرس نظامهم هذا.

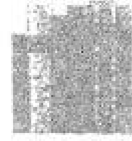
ويفرد البيرونى فصلا حول بداية عبادة الأصنام عند عدد من الشعوب القديمة كالهنود والرومان، كذلك تعرض لكتاب الهنود المقدس المعروف باسم «بيذ» ويقول إن معناه «العلم بما ليس بمعلوم»، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى فى عقيدة البراهمة ولا يعلم تفسيره، ويتلوه كهنة الهندوس «البراهمة» تلاوة من غير فهم لتفسيره . ويتضمن «بيذ» الأوامر والنواهى والثواب والعقاب، ومعظمه تسابيح وتراتيل ، وهم لايبيحون كتابته ، وإنما هو مقروء بألحان يعجز القلم عن كتابتها.

أطرف فصول الكتاب

ومن أطرف فصول الكتاب الفصل الذى يتناول كتب الهنود فى النحو والشعر، وفيه يقول البيرونى : «إن نحوهم هو الذى يصحح به الكلام ويؤدى إلى البلاغة فى الكتابة والفصاحة فى الخطاب، وكان سبب وضع النحو أن أحد ملوكهم قال كلمة لإحدى جواريه فهمت منها شيئا وهو يقصد شيئا آخر لتشابه نطق اللفظين، فغضب الملك، وذهب إلى أحد القديسين فوضع له قوانين يسيرة هى مبادىء علم النحو ، وتلا النحو كتاب «جند» وهو فى وزن الشعر، المقابل لعلم العروض العربى ، وهم لايستغنون عنه لأن كتبهم منظومة فى مجملها ، حتى تسهل على التلقى والمدارسة » ، وهو ما ينتقده البيرونى ويأخذه عليهم .

وينتقل البيرونى إلى الحديث عن كتب الهنود فى سائر العلوم ، مثل علم النجوم الذى يعول الهند عليه لتعلقه بأمور ملتهم، كما يتناول مؤلفاتهم فى الطب، فالطب عندهم مرتبط بالنجوم، ومن أهم كتبهم الطبية كتاب «برجايت» الذى يزعمون أن مؤلفه هو «براهم».

الآداب الهندية



وللآداب الهندية مكان فى بحث البيرونى ، ويشير من ضمن ما أشار إلى كتاب «بنج تنتر» المعروف لدينا باسم «كليلة ودمنة» ، فيقول إنه تردد بين الهندية والفارسية والعربية على ألسنة قوم لايؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع فى زيادته باب «برزويه» قاصدا تشكيك ضعاف الاعتقاد فى الدين وجرهم إلى مذهب «المانوية» ، ويصرح البيرونى بأنه كان يود ترجمة هذا الكتاب من جديد.

كذلك يستعرض البيرونى فى كتابه وحدات الموازين والمكاييل عند الهنود، وأنواع وأشكال خطوطهم وحسابهم، ويذكر المواد التى كانوا يكتبون عليها عارضا مقابلها فى عالم الإسلام مثل الجلود والقراطيس وورق البردى ، كما يستعرض طرفا من عاداتهم وأساليبهم من عدم حلق الشعر وتضفير اللحى، وقيام النساء بأمور الحرث والزرع وخلود الرجال إلى الراحة، ولبس الذكور ملابس النساء ، واتخاذهم الأقراط والأساور.

الزواج عند الهنود

كما يسجل البيرونى العادات الهندية الخاصة فى الزواج، ومنها أنهم يتزوجون فى سن صغيرة، ويكون الزواج بعقد بين الأبوين لأبنائهم بغير مهر ، وإنما يؤدى الزوج صلة للمرأة بحسب قدرته، وهو مال يجوز ارتجاعه إلا أن تهبه المرأة عن طيب خاطر، ولايفرق بين الزوجين إلا الموت، إذ لاطلاق عندهم، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وما فوق الأربع محرم، أما المرأة المتوفى عنها زوجها فليس لها أن تتزوج ، وهى بين أمرين، إما أن تظل أرملة ما بقى من عمرها أو تحرق نفسها، ويجوز لكل رجل من أهل الطبقات أن يتزوج من طبقته أو فيما دونها، ولايحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ، وينسب الولد إلى طبقة الأم دون الأب.

المحظور والمباح

ويصف البيرونى المباح والمحظور لدى الهنود فى المأكل والمشرب ، فيقول إن ذبح الحيوان محظور عندهم على الإطلاق ، ولكن لأن الناس يشتهون اللحم بطبيعتهم، فقد بقى الحظر بالنسبة للبراهمة رجال الدين فقط، وبقى العامة يأكلونه فيما عدا لحم البقر ، فهم لايأكلونه ، وكذلك الخيل والحمير والإبل والأفيال.

وكان لأساطير الهنود وتقاويمهم الفلكية ، وأعيادهم، وعلم التنجيم وجداوله مكان وافر من الكتاب ، على الرغم من عدم دقة هذه الجداول فى نظر البيرونى ، غير أن منطلقه كان تحقيق ما لهؤلاء القوم من مقولة .. مقبولة فى العقل أو مرذولة. ■

لا أبا لك! (١-٢)

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى



لغويات

كلمة أب من أقدم الألفاظ العربية، توجد على الصورة نفسها تقريبا فى كل اللغات السامية: العربية الجنوبية القديمة والحبشية والعبرية والآرامية والسريانية والأكادية .

تطلق الكلمة على من كان سببا مباشرا فى إيجاد الشئ وظهوره ماديا، فيقال للرجل الذى كان سببا فى إنجاب الابن أب، أو معنويا فيقال أرسطو أبو المنطق، والخليل بن أحمد أبو النحو والعروض، وأينشتاين أبو القنبلة الذرية .

وعلى صاحب الشئ الذى اشتهر به فينسب إليه .

ويطلق على الأب والأم تغليبا، وفى القرآن : «كما أخرج أبويكم من الجنة».

وعلى العم تغليبا، وفى القرآن، حكاية عن بنى يعقوب : «قالوا نعبد إلهك وإله آبائك : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق» وكان إسماعيل عم يعقوب .

وفى الشعر يخاطب أبو فراس الحمدانى بنى عمه فيقول :

بنى أبى ! فرق ما بينكم
واش على الشحناء مطبوع

ويضاف الأب إلى غيره فيصبح كنية، مثل : أبو ذر الغفارى، وأبو سفيان. وتجئ هذه الكنية فى أسماء الأمكنة أيضا، فيقال : أبو سنبل، وأبو قير، وحتى فى الطيور، فهناك أبو قردان .

وتأتى لتأكيد المعنى، تقول : بأبى أنت !، أى فداؤك أبى، يقول أبو تمام :

بأبى فتى ودعته   تاهت بصحبته الرفاق

ويقال فى المدح والتعجب: لله أبوك! وتجمع أب على آباء، وفى القرآن «الله ربكم ورب آبائكم الأولين».

وعندما تثنى ترجع الكلمة إلى أصلها البعيد، وهو : أبو، فيقال أبوان، وكانت الآشورية البابلية الوحيدة التى احتفظت فيها الكلمة بالواو دائما، على حين سقطت هذه الواو فى بقية اللغات السامية الأخرى عبر الزمن .

وأب ، والأسماء الشبيهة بها، وهى على سبيل الحصر: أخ وحم وهن وذو بمعنى صاحب، لها فى العربية إعراب خاص بها، شرط أن تضاف لغيرياء المتكلم، تقول : هذا أبوك قادم وقابلت أباك فى الطريق ، ومررت بأبيك يعمل.

ومن العرب من يلزمها الألف فى كل الحالات : الرفع والنصب والجر .

من كلمة أب سكت جملة تتردد كثيرا فى الشعر الجاهلى والأموى والعباسى وهى : لا أباك !، وقد شغل جماع الشعر وشراحه الأوائل بإعراب هذه الجملة ، و لكنهم مروا بمعناها سراعا، أو ألمحوا إليه على نحو لا يشفى غليلا. والتعليل عندى أن الجملة، وهى ضاربة فى القدم، وصلتهم مجردة من السياق الذى قيلت فيه لأول مرة، فجهلوا معناها الدقيق، وأعرض بعضهم عن تفسيرها، وألمح إلى المعنى ظنا، مستنبطا من سياق الجملة التى وردت فيها . ■

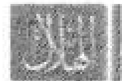
للحديث بقية





خفايا قصة الحب

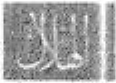
بقلم
محفوظ عبد الرحمن



قالت لى السيدة عطيات - أو عطية كما كان يناديها زوجها أحمد رامى - بدون غضب: لم يكن رامى يحب أم كلثوم كما قلت! وكان ذلك فى حفل أقامته إحدى الجهات احتفالا بمسلسل أم كلثوم، وقابلت فيه لأول مرة السيدة الفاضلة فضلا عن أولادها: الدكتور محمد والأستاذ توحيد والسيدة إلهام.

وفى لحظة فكرت فى موقف هذه السيدة، والناس يتحدثون عن حب زوجها لامرأة أخرى. وأسعفتنى القريحة كما يقولون فقلت معتذرا: إنها ضرورات التأليف كما تعرفين! لكنها بعد هذا الحديث بقليل قالت لى: كان رامى يحب أم كلثوم ومن كان لا يحبها؟!

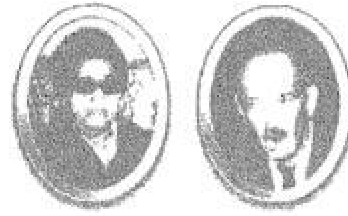




ولاشك أنها من أشهر قصص الحب في مصر في القرن العشرين، وقد شبهها أحد النقاد «بروميو وجوليت»! وشهرتها أتت من شهرة صاحبيها، فأم كلثوم هي أشهر امرأة عربية منذ «شجرة الدر» حتى الآن، أو هذا ما أظنه. وهي المرأة التي بلغت في فن الغناء شأوا لم يسابقها فيه مغنية أخرى في تاريخ العرب، وهي مالكة أفئدة الناس خمسين عاما ونيفا. وأحمد رامي البطل الثاني للقصة هو واحد من شعراء مصر الكبار، وتمتع رغم تعففه بشهرة عريضة، ويرغم تحوله إلى العامية بنسبة كبيرة، إلا أنه ظل شاعرا متميزا فضلا عن نشاطه الأدبي والفني العام فلقد كتب قصصا وحوارا للأفلام السينمائية.

فضلا عن أن شهرة هذه العلاقة أتت من حرج إعلانها في مجتمع محافظ خاصة وأنها بدأت عام ١٩٢٣ وانها كانت تتجدد مع كل أغنية يكتبها لها.

وكان أول لقاء لهما في عام ١٩٢٣ وبعد أن عاد أحمد رامي من بعثته في فرنسا لدراسة فهرسة الكتب، وكان يعمل في دار الكتب.



وكان قد جاوز الثلاثين ومرت عليه بالطبع أكثر من قصة حب، كادت إحداها تصل للزواج، لكن الزواج لم يتم. ولاشك أن فترة فرنسا فعلت فى نفسه مثلما فعلت فى توفيق الحكيم، لكن المرأة كانت امرأة عامة، ولم تكن له قصة معينة تذكر. وقصائد رامى فى باريس لا تتوقف عن المرأة بل يلفت نظرنا حنينه إلى أبيه الذى فقده صغيرا.

مع العودة إلى مصر لاشك ان الشاعر الشاب كان مهيأ لقصة حب.

أما أم كلثوم فلقد كانت أصغر منه إذ كانت فى الخامسة والعشرين على إحدى الروايات. ولاشك أنها كانت أقل استعدادا لقصة الحب فلقد شغلها ولاشك أنها تتحول من مطربة ريفية تائهة بين القرى والبنادر إلى مطربة مهمة فى العاصمة تسعى إلى منافسة سلطانة الطرب منيرة المهدية وفتحية أحمد وتوحيدة.. وإن كان هذا الطموح لا يلغى مشاعرها.

وكان بين رامى وأم كلثوم أغنية «الصب تفضحه عيونه» التى لحنها الشيخ أبو العلا محمد. يقال إن الشيخ أبو العلا أخذ القصيدة من رامى قبل سفره إلى باريس ولحنها وغناها. وعندما أتت أم كلثوم إلى القاهرة وقد تبناها الشيخ أبو العلا، وكانت معجبة به أشد الإعجاب، طلبت منه أن تغنى الأغنية. وقبل ذلك مرحبا.

ولكن أم كلثوم «كتبت» فى عام ١٩٤٨ أن القصيدة أطلعها عليها الشيخ أبو العلا فأعجبت «بخفة وزنها، ورقة ألفاظها ومعانيها. فطلبت إليه أن يلحنها. وأخذت أغنيها فى الحفلات العامة والخاصة، وكلما رأيت شدة الإقبال على سماعها، ازداد إعجابى بها وبنظمها الموفق الجيد»

ويداعبنا الشك فى رواية أم كلثوم فلا نظن أنها فى ذلك الوقت المبكر - وكانت لاتزال تلبس ملابس الرجال - قادرة على أن تطلب من الشيخ أبو العلا أن يلحن لها رغم إعجابه الشديد بها ولقد «كتبت» أم كلثوم هذه الشهادة بعد وفاة الطرف الآخر فيها. أما أحمد رامى فما كان يكذبها فى شىء كهذا. فضلا عن أنه كان غائبا عند تلحين القصيدة وغنائها لأول مرة.

ولأن أحمد رامى كان محبا للغناء وأهله فلقد سمع بمجرد عودته عن فتاة ريفية اسمها أم كلثوم تحصد إعجاب الناس بهمة عالية. وأنها غنت له «الصب تفضحه عيونه» وذهب رامى ليسمعها فى الأزبكية.

وتكاد أم كلثوم فى شهادتها تقول إنها تعرفت على رامى عندما حضر ليسمعها لأول مرة وعندما جلس فى الصف الأول متتبعا الغناء بعناية ملحوظة.

وقد يكون هذا صحيحا. اذ تقول الروايات الأخرى إن رامى صعد إلى

المسرح بعد الوصلة الأولى وهنأها وقال لها: «انا غريب وأريدك أن تغني قصيدتي» فقالت له فورا: حاضر ياسي رامي!!

هل تعرفت عليه لأن هذه القصيدة هي القصيدة التي غنتها لشخص على قيد الحياة. أو لمعرفتها - أيضا - أنه غائب في فرنسا، وربما سمعت - وإن لم يذكر أحد هذا - أنه قد عاد من بعثته. وفي كل الأحوال كانت تحيتها لرامي دون أن يعرفها بنفسه بصراحة دليلا على الذكاء وسرعة الخاطر.

وغنت ام كلثوم:

الصب تفضحه عيونه

وتنم عن وجد شجونه

إنا تكتمنا الهوى

والداء اقتله دفينه

ولابد أن رامي تأثر تأثرا كبيرا، فهو رجل يملك أحاسيس مشتعلة، والمطربة كانت تملك من الجاذبية ما يؤثر في أي رجل. وأكبر دليل على تأثر رامي أن قصيدته التالية بدأت بـ«صوتك».

وكان اللقاء الأول لرامي وأم كلثوم في آخر حفلاتها. وبعد ذلك سافرت إلى رأس البر حيث قضت شهور الصيف في ضيافة أمين بك المهدي الذي كان عاشقا للموسيقى والغناء وكان قد تعرف هو وأسرته على أم كلثوم منذ وقت مبكر.

وعندما عادت أم كلثوم غنت في «تياترو البسفور» وعندما ارتفع الستار رأته في الصف الأول، فغنت له قصيدته. وأثناء الاستراحة ذهب لتحيتها مع بعض أصدقائه الذين قالوا لها إنه يكتب قصيدة جديدة يقول فيها:

صوتك هاج الشجو في سمعي

وأرسل المكنون في أدمعي.

وأسمعها أبياتا أولى من القصيدة. وطلبت منه أن تغنيها، فرحب لكنه قال إنه لم يتمها بعد. تقول أم كلثوم في شهادتها:

«ووعد بأن يزورني بعد أيام في منزلي بحي عابدين». ليقدمها لي بعد أن يتمها».

وهي صيغة لا نعرف منها إذا كان هو الذي اقترح زيارتها، أم أنها كانت هي التي دعته. ونميل إلى الثانية لحياء رامي.

وبدأت قصة الحب. وكان ستارها تعليم وتثقيف أم كلثوم، فلقد كان رامي يأتي لها بكتاب أو أكثر في يوم الاثنين وهو يوم إجازة دار الكتب. وفي الأسبوع الثاني يناقشا فيما قرأت.

رامي والتحول إلى العامية

وكان العاشق قد قدم تضحيته الكبرى عندما تحول للكتابة بالعامية وهو الذي كان مخلصا للعربية. وربما كان أحمد شوقي هو الذي شجعه عندما كتب بالعامية لمحمد عبدالوهاب،. لكن أحمد شوقي توقف عند بضع أغان. أما رامي فلقد تحول إلى العامية حتى لم يعد الناس يذكرون له إلا روائعه بها.

ولا نعرف هل تجاوبت أم كلثوم مع طلب رامي فبادلته حبا بحب أم أنها توقفت عند استثمار هذا الحب. ويبدو أن أم كلثوم توصلت إلى فكرة مؤداها أنه طالما رامي يحبها دون زواج سيبدع شعره الجميل. وأنها إذا تزوجت فلن يكون لديه دافع عاطفي لكتابة هذا الشعر. وهي فكرة كانت سائدة في تلك الفترة وربما تكون موجودة حتى الآن. وقد لاحظت أن أم



كلثوم عندما تصل إلى فكرة تؤمن بها، ولا تغيرها.

وكانت من الأفكار التى تسيطر عليها مثلا حرصها على ألا يعرف أحد شيئا عن حياتها الخاصة، بل أحيانا عن عملها. إذ لم تكن تعلن اسم الأغنية التى ستغنيها إلا أمام الجمهور.

شهادة ام كلثوم حول رامي

وقصة الحب فى تلك الفترة أشد غموضا من أى وقت آخر. وإن كنا نتخيل أنها «معركة» بين شاعر يقدم أرقى الاحاسيس ولقد «كتبت» أم كلثوم عن رامى فى شهادتها أنه: مجموعة روحانية من الأحاسيس الملهمة والثورة العميقة المكبوت، والهدوء الرزين، مع ظرف نادر، وخيال محلق وخاطر سريع، وإخلاص لذات الإخلاص.

وانا لم اعرف احمد رامى عن قرب لكن ما قالته ام كلثوم هو ما قاله كل عارفيه فى سطور محددة.

ولم يقدم الشاعر أحاسيسه فقط. بل قدم أستاذيته التى صنعت فى النهاية مع أستاذية القصبجي، أعظم مطربة فى الشرق. ولكن يبدو أن فكرة العلاقة الروحية سيطرت على أم كلثوم.

سار أحمد رامى رحلته مع أم كلثوم فكتب أول أغانيه بالعامية:

خايف يكون حبك ليه
شفقة علي
وانت املي في الدنيا دي
ضي عيني

أم كلثوم منحنة لأغاني رامي

وفى السنوات الأولى غنت له ١٤ أغنية فى عام واحد «١٩٢٦» وفى عام آخر غنت له خمس أغان منها اثنتان من تلحينها (١٩٢٨) ولقد لحنت ام كلثوم ثلاث أغان كلها من تأليف رامي. وفى عام آخر غنت له ١٧ أغنية «١٩٣١» وإذ عرفنا ان الأغنية تحتاج إلى نقاش فى كلماتها، وتحتاج إلى مراحل فى التلحين وإلى تجارب كثيرة حتى تخرج إلى الناس، فمعنى هذا أنهما كانا يقضيان معا وقتا طويلا. ثم كانت القارعة.

فلقد احتفل معهد الموسيقى العربية بأم كلثوم وكان قد احتفل من قبل بمحمد عبدالوهاب. وألقى أحمد رامى قصيدتين فى المناسبتين، ولكن سرى تعليق بأن القصيدة التى كتبها رامى فى أم كلثوم هى نفسها التى كتبها من قبل فى عبدالوهاب مع تغييرات طفيفة. ونشرت روز اليوسف كاريكاتيرا بهذا المعنى.

وبالطبع صدمت أم كلثوم صدمة كبيرة فلقد كانت تؤمن أن أحمد رامى هو المتعبد فى محرابها، فضلا عن أن المنافسة بينها وبين عبدالوهاب كانت قد اشتدت. فلا منافس أمامها غيره.

ويبدو أن أم كلثوم تجاوزت الحدود المعقولة فى غضبها من رامى، الأمر الذى جعله يقطع علاقته بها. وعندما سافرت فى

عام ١٩٣٥ إلى فلسطين لتقيم حفلات فى القدس ويافا وحيفا أيام أن كانت عربية رفض أن يودعها. وحتى عندما عادت ودخلت المستشفى وأجرت عملية الزائدة الدودية التى أجراها لها الجراح الكبير الدكتور على إبراهيم وكانت آنئذ عملية خطيرة. لم يزرها إلا عندما سألت عنه وشكت أنه لم يزرها.

وعادت قصة الحب لكن بدستور جديد. لقد تزوج رامى من عطيات التى حذرها الجميع من أن رامى يحب أم كلثوم. فقالت ومن لا يحبها؟!.. لقد قبل كل منهما ألا يتجاوز هذا الحب حدوده ليتطور إلى الزواج.

رامي رقم واحد

ورغم أن أم كلثوم عرفت وغنت لشعراء آخرين مثل بيرم التونسى وعبدالفتاح مصطفى وطاهر أبو فاشا وعبد الوهاب محمد وغيرهم إلا أن أحمد رامى ظل رقم واحد فى فنها. وحسب الدراسة التى أجراها المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى كتب ٤٦.٧٪ من أغانيها. أى النصف تقريبا. والشاعر الذى يليه مباشرة هو بيرم التونسى كتب ١٢.٣٨٪ من أغانيها.

وكان أحمد رامى مستمعا مثابرا يجلس فى نفس المقعد، وكان يسمعها غالبا مغمض العينين. وحدث مرة أو مرتين أن تأخر فى الدخول إلى الصالة فأعادت ما غنت فهى تغنى للناس وله.

واستمرت علاقة الحب بين الوصل والهجر إلى أن تحولت الى صداقة عميقة. فلقد أدرك كل منهما أن ما كان بينه وبين الآخر أكبر من أى زواج او قصة حب.

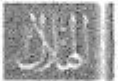
وفى نهاية ١٩٧٤ أو بداية ١٩٧٥ زارها فى فيلتها بالزمالك، وقضى معها وقتا طويلا يستعيدان ذكريات الماضى، وربما تحدث عن الأصدقاء الذين رحلوا فى رحلة الحياة. محمد القصبجى الذى بدأ معهما الرحلة والذى لحن لأم كلثوم اكثر من ٢٢٪ من أغانيها ولم ينافسه سوى زكريا أحمد ولم يسبقه سوى رياض السنباطى. وربما تحدثا عن غير القصبجى. ومن يدرى ربما استرجعا قصة حبهما، وأبديا الرضا أو عدم الرضا.

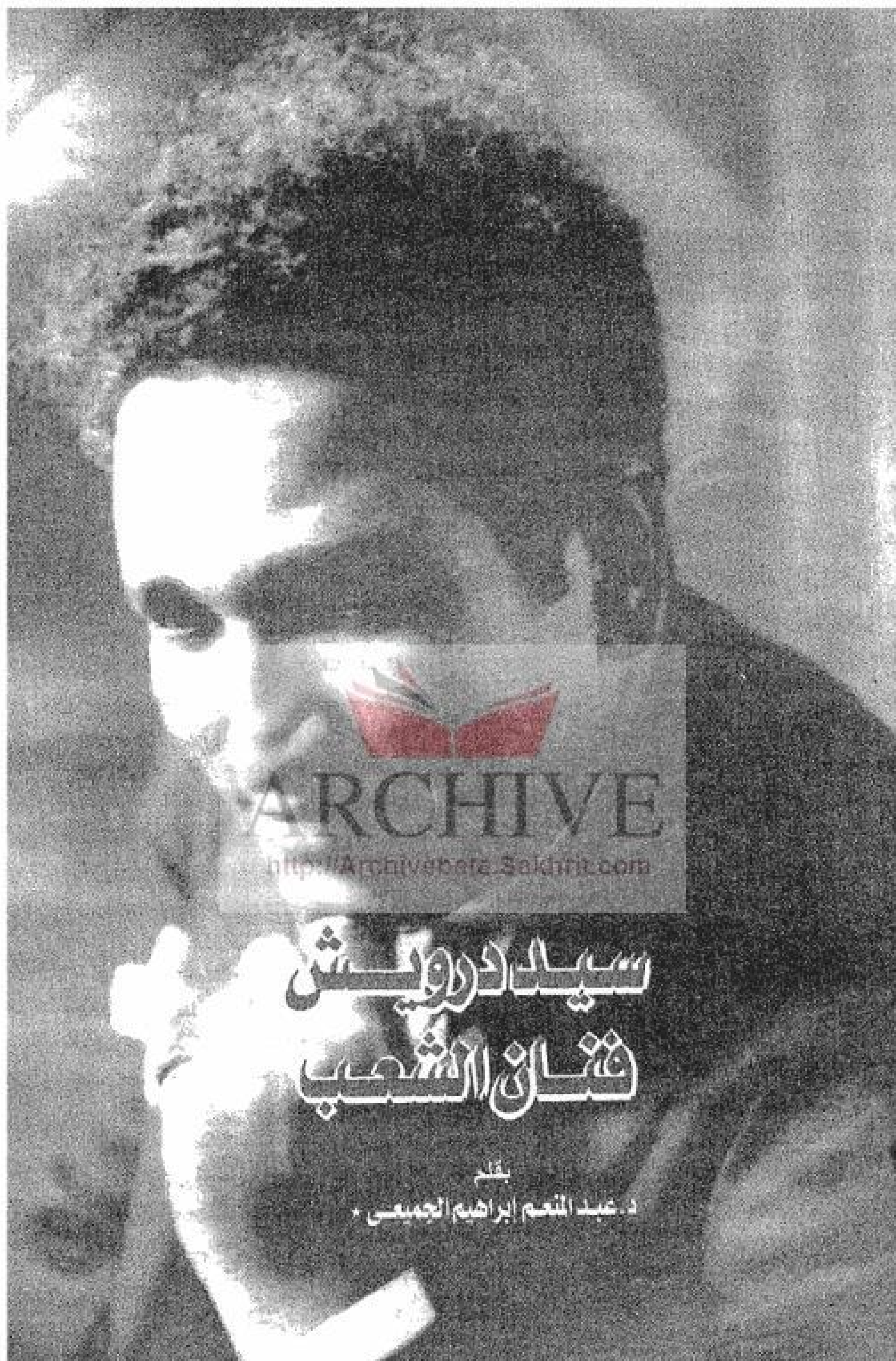
وعندما جاء وقت الرحيل رفضت أن تتركه وصحبته فى سيارتها إلى حدائق القبة لتقضى معه أطول فترة. وكأنه لقاء وداع، فلقد زاد المرض عليها بعد ذلك حتى جاءت النهاية فرحلت أم كلثوم فى ٣ فبراير ١٩٧٥. ورغم الحزن الذى ساد الجميع، إلا أن البعض التفتوا ليروا أحمد رامى رفيق رحلة العمر. وليحاولوا معرفة مدى ألمه

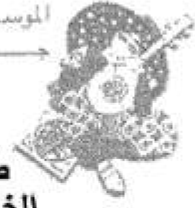
وقال رامى:

ما جال فـي خاطري أني سأرثيها
بعد الذي صغت من أشجي أغانيها
قد كنت أسمعها تشدو فتطربني
واليوم أسمعني أبكي وأبكيها

وقصص الحب تنتهى عادة أما قصة حب رامى وأم كلثوم فهى قصة باقية على الأقل بتلك الأغانى التى مازالت تسحرنا وتدفع الفرح إلى قلوبنا والدموع إلى عيوننا. ■




سيد درويش
فنان الشعب
بقلم
د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى *



إن تاريخ الموسيقى العربية يتوقف طويلا أمام بصمات سيد درويش الخالدة في فن الموسيقى والطرب بمصر. فقد نجح فى تخليص الغناء العربى من التكرار الممل والبشارف التركية والطرب المخدر للنفوس، وتضمين الغناء بمضامين ذات دلالات شعبية ووطنية، كما استطاع أن يكون المجدد الأول فى الموسيقى العربية، والمؤسس الحقيقى للمسرح الغنائى المصرى.

لقد اختار القدر البيئة التى ينبغى أن تبدأ فيها نشأة سيد درويش، إنها البيئة الشعبية الخالصة الآهلة بالسكان والمهمومة بالبحث عن لقمة العيش وليس فى حياتها سوى التفكير فى هموم الوطن ومشاكله. تلك البيئة الوطنية هى حى «كوم الدكة» الشعبى القديم بالاسكندرية مسقط رأس سيد درويش ومسرح طفولته، والتى كانت صالحة لظهور عبقرية مصرية قادرة على تصوير الحياة الشعبية المصرية بكل معانى الكلمة وهى شخصية سيد درويش الذى كان كثير الانفعال بالحوادث التى تحمل بين خصائصها الوطنية الصارخة والتوجه الاجتماعى لذلك جاءت أغانيه معبرة صادقة أصيلة فى شعبيتها كما كان انتشارها بين الناس يتسم بالسرعة، خاصة وانه كان يلتقط ألحانه من أفواه عامة الشعب ثم يصيغ منها نغما أصيلا شجيا فيه سمة المصرية التى يبحث عنها علماء الفلكلور الشعبى. كما أن فيها الموسيقى الجميلة الجامعة بين الشرقية والغربية. لقد وفق سيد درويش فى جعل الأغنية تعبيرا عن التطورات اليومية لحياة المجتمع، ونطقت ألحانه بمر الشكوى من استغلال الأجانب لموارد البلاد وثروتها، كما عزف بموسيقاه على وتيرة الغيرة الوطنية والإصلاح الاجتماعى والاقتصادى، وارتفع صوته بشكوى أصحاب الحرف والعمال الكادحين من وطأة العمل وما يلاقونه من عنت ومشقة وظروف قاسية فانفعل بآلامهم خاصة وأنه كان يتعايش معهم وينفعل بما يحدث لهم، وعندما يحس بأمواج الألحان تذخر فى

★ أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة القاهرة فرع الفيوم

صدره كان لا يهنأ له العيش قبل تدوينها.

طريقة جمع سيد درويش لألحانه:

لقد كان سيد درويش يمشي في الشوارع ويستمع إلى هؤلاء الناس، ويلتقط طريقتهم من أفواههم، ماذا يقولون؟ وكيف يعيشون؟ وما هي حكاياتهم الحلوة والمرة، ثم يحوّل كل ذلك إلى ألحان تجمع بين العبقرية والذوق. ومما يذكر أنه ما يكاد يسمع أحد باعة «الطرشي» يغني لسلعته في أحد شوارع شبرا حتى ينزل إليه ويتابعه متأثرا بنغماته الشعبية، وأنه كان يتنقل في حي عابدين ليستمع في حارة «السقايين» إلى نداء هذه الطائفة وهم يعلنون عن الماء الذي يحملونه في قربهم. ومما يروى أنه كان ذات مرة يسير في منطقة بحي بولاق فسمع بائعا صعيديا يقف إلى جوار جدار وهو ينادي على نوع من البلح بنداء طريف يُشكّل نغما استرعى انتباهه فأوحى إليه ذلك بلحن جديد مبتكر على وزن النداء الذي سمعه من بائع البلح، وكان ذلك هو ميلاد اللحن المشهور «مليحة جوي الجلل الجناوي».

غناء سيد درويش للحرفيين والعمال

لقد غنى سيد درويش أغنيات لمعظم الحرفيين في المجتمع المصري، عكست همومهم وظلت تتنقل بين أفواه الناس مثل لحن «السقايين» الذي عبر فيه عن معاناة أفراد هذه الحرفة بعد أن تعرضت أرزاقهم للخطر نتيجة لاستغناء الناس عنهم بعد أن مدت شركة المياه مواسيرها إلى معظم أنحاء القاهرة هذا إلى جانب الألحان. التي تعبر عن معاناة أصحاب الحرف الأخرى مثل «الشيالين» و«المراكبية» و«الجزارين» و«الموظفين» و«الحمارين» و«العربجية» وألحان عن «الحشاشين» و«البرابرة» و«السودانيين» و«المغاربة» و«الصعايدة» وغيرهم فكانت أغانيه بمثابة سبيكة فنية تعكس هموم هؤلاء الناس، وكانت كل أغنية من أغانيه الشعبية تحمل في تكوينها جوهر طبيعة الغرض منها وإيقاعه لدرجة أننا نسمع في أغنية الشادوف إيقاع ارتفاع الدلو بالماء، وجريان الماء في الأرض الشراقي، ونسمع الفلاح وهو يُشرك الشادوف في همومه وأحلامه، ونفس الأمر بالنسبة لأغنية المحراث وإيقاع سنّه حيث يغوص في باطن الأرض زاحفا ليفجر سطحه بمشاعر من التربة السوداء تتفتت كما يقول «خيري شلبي» في «صحبة العشاق» معرضة كل ذرة فيها لحمام الشمس وحضن الماء.

أغاني سيد درويش الاجتماعية

أما عن أغنيات سيد درويش التي تتعرض للسبوع والطهور والخطوبة والزفاف فقد عبرت عن مشاعر وأحاسيس ناطقة من فرط صدقها بأعذب الألحان والأنغام كما كانت كلماتها ذات تأثير قوي خاصة وأنها كانت من التراث الشعبي الذي نظمه له «بيرم التونسي»، ومن الأزجال والأدوار الشعبية التي لُحنت بمعانيها ولغتها ومظاهرها اليومية مما أدى إلى تقبل الجماهير لها بسرعة فائقة خاصة وأنها عبرت عن واقعهم واتفقت مع مناسبات حياتهم، فإذا أنجبت السيدة الحامل بنتا استشف سيد درويش من الروح الشعبية صورا مناسبة لذلك منها «لما قالوا دي بنيه.. قلت يا ليلة هنيه..

تكنس وتطبخ لى وتملا لى الميــه» وإذا أنجبت ولدا لحن لها «لما قالوا دا ولد .. انشـد قلبي وانسـعـد«١»» وإذا خطبت الفتـاة لحن لهـا «ست البنات يا فـوز يا مركبة مليانة لوز» وإذا جاءت ليلة الدخلة لحن لهـا أغنيـات فض البكارة «قـولوا لأبوها الدم بَلّ الفرشـة.. قـولوا لأبوها يروح بقى يتـعـشى» وهكذا كـان سـيـد درويش مـعـبـرا عن طوائف الشـعب المصرى وطبقاته وآلامه وعاداته وتقاليده ومعاناته، فتجاوبت معه نفوس الجماهير التي وجدت فيه أصداءً لمشاعرها حتى أطلق على أغانيه «أغاني الشعب» كما لقب بفنان الشـعب خاصـة وأن أغـانيـه عبرت عن توجه اجتماعي مأخوذا من روح الشعب، ومعبرا عن آماله وآلامه فضمن الغناء بمضامين اجتماعية ذات دلالات عميقة جعلت من الغناء أداة تثقيف بجانب أنه أداة امتاع وإلى جانب ذلك فقد تطرق سـيـد درويش فى أغـانيـه إلى مـوضـوع قضية المرأة والطاقات الانسانية المحبوسة فـيـها مواكبا فى ذلك دعوة قاسم أمين وتحدث عن الصنايعية المظاليم، وعن حب الوطن، والفتنة الطائفية كما ارتبط بصلة قوية مع رجال الحركة الوطنية فـهاجم الاستـعـمـار الانجليزى ودافع عن ثورة الشـعب فى عـام ١٩١٩ ولحن نشـيـدا اختارته مصر شعارا موسيقيا لها وفيما يلى نعرض لذلك.

سيد درويش والأغاني الوطنية

اهتزت مشاعر سيد درويش بعد أن سخَّر الانجليز آلاف العمال المصريين خلال الحرب العالمية الأولى فأبدعت قريحته الأغنية الشعبية الشهيرة التى كان يرددها مجموعات العمال والفلاحين الذين أرغموا على السير فى ركاب القوات البريطانية وازداد حنينهم لوطنهم، وشوقهم إليه فصاغ اللحن، وهذه الكلمات

بـــلدي يا بلدي وأنـا بدي أروّح بلدي

يا عزيز عيني يا ولدي أنا عاوز أروح بـلدي

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ انصهر سيد درويش فى لهيبها، وأبدع فنا غنائيا جديدا، وكانت موسيقاه هى التعبير الفنى لهذه الثورة، وأصبحت الأناشيد الوطنية هى صوت الشعب المصرى الأكثر تأثيرا وترديدا خلال الثورة، وقد اشتهر منهم نشيدان لسيد درويش أحدهما نشيد الأفندية الذى كان يردده طلبة المدارس فى مظاهراتهم واجتماعاتهم وكانت كلماته تقول:

يا عم حمزة إحنا التلامذة

ما يهمناش السجن ولا المحافظة

من غير لحاف والعيش حاف

ما يهمناش يا عم حمزة

والنشيد الثانى كان نشيد المشايخ الذى كان يردده طلبة الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي، ومدرسة دار العلوم وكانت كلماته تقول :

اضربونا بالرصاص

فالحياة في القصاص

إضـــربونا بالمدافـــع

فالأمر لله دافـع

«١» هذه الأغنية من أغانى التراث وقد غيرّ سيد درويش فى ألفاظها، فمن المعلوم أن عوام المصريين كانوا يفضلون أن يولد لهم ولد على أن تولد لهم بنت وهذا ما تؤكده الأغنية التراثية التى تقول الأم فيها لما قالوا دى بنية انهد ركن البيت علي ولما قالوا ده ولد، انشد قلبي واتسند.

وإلى جانب ذلك فقد أخرج سيد درويش مع نجيب الريحاني، وبديع خيرى الاستعراض الوطني العظيم الذى حضره سعد زغلول والعديد من رجالات مصر الذين سمعوا بافتخار إلى نشيد من ألحان سيد درويش وهو:

قوم يا مصري مصر دايما بتناديك
خد بنصري نصري دين واجب عليك
رد سعدي قبل ما يضيع بين ايديك
وعي مجدى يروح هدر أدام عنيك

يضاف إلى ذلك أن سيد درويش نزل المعركة ضد الانجليز بنوعية جديدة من المنشورات الوطنية فى شكل غنائى لقنه للجماهير، وقام باعة البلح بترديده فنتيجة لتحريم السلطات البريطانية ذكر اسم سعد زغلول، وفرضها الرقابة على نصوص الأناشيد، وإحكام قبضتها على المسارح لحن سيد درويش أغنيته الرائعة (يا بلح زغلول) تعبيرا عن الصدى المكبوت فى النفوس والتى يقول فيها:

يا بلح زغلول ياحليوة يا بلح
يا بلح سعدي زغلول يا بلح
سعد وقال لي ربي نصرني
وراجع لوطني زغلول يا بلح

كما لحن سيد درويش العديد من الأناشيد الوطنية الأخرى ومن أشهرها:

أنا المصري كريم العنصرين
بنيت المجد فوق الأهرامين

وهكذا أرخت أغانى سيد درويش الوطنية لتاريخ مصر النضالى بعد أن صاغها بكل إبداع، وخاض بها حربا ضد الاحتلال، كما أتاحت ثورة ١٩١٩ له مناخا مناسبا لرسالته الفنية فانبعثت على يديه الألحان المصرية الصميمة.

وقبيل منتصف سبتمبر ١٩٢٣ أعد سيد درويش نشيدا وطنياً ليغنيه مع طلاب وطالبات المدارس فى حفل استقبال سعد زغلول بعد عودته من المنفى، وكانت كلماته تقول:

مصر وطننا سعدها أملنا
كلنا جميعا للوطن ضحية
أجمعت قلوبنا، هلالنا وصليبنا
أن تعيش مصر عيشة هنية

وسافر سيد درويش إلى الإسكندرية ليقيم مع شقيقته فى حى محرم بك حتى تحفظ المجموعة النشيد. وفى اليوم المحدد للاحتفال وهو ١٥ سبتمبر كانت المجموعة قد حفظت النشيد، وانتظرت حضور سيد درويش ولكنه كان قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة. وحضر سعد زغلول الاحتفال وعزفت المجموعة نشيد «بلادى بلادى لك حبى وفؤادى» ورددت الجماهير هذا النشيد بقوة وحماسة، وأبدى سعد زغلول إعجابه باللحن الشعبى العظيم، وسأل من الذى وضع هذا اللحن؟ وقيل له سيد درويش، فقال سعد أين هو لأحييه؟ فقيل له لقد مات، وتم دفنه، ومن المعروف أن هذا النشيد تخطى حدود الزمن، واستقر فى وعى الملايين نشيدا وطنيا لمصر كلها«٢».

تراث سيد درويش وضرورة المحافظة عليه

وهكذا كان سيد درويش نتاجا عبقريا

«٢» اختار مصر هذا النشيد شعارا موسيقيا للسلام الوطنى بعد عقد معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل عام ١٩٧٩.

ليقظة الشعب المصرى، فقد تفتحت عبقريته على نبض الشارع المصرى، وعلى الرغم من أن عمره كان قصيرا فقد كان عمرا غنيا بدروب الفن الغنائي، وحافلا بالإنتاج الفني الغزير فقد أضاف للموسيقى العربية أكثر مما أضافه أصحاب الأعمال الطويلة من الموسيقيين.

لقد ولد سيد درويش والغناء كان فنا ارستقراطيا منعزلا عن الشعب، ومات بعد أن حقق امتزاجاً خاصا بين الموسيقى الفنية والشعبية وقرّب بين فن الخاصة والعامة، ورفع صوت طوائف الشعب فى موسيقاه وخلّف مقدارا كبيرا من التآليف الموسيقية التى تجمع بين الكآبة والألم والشعور بالسمو النفسي والروحى. ومع كل ذلك فقد انحسرت موجة سيد درويش بعد وفاته، ومُنعت أغانيه من التداول والتدريس فى معهد فؤاد الأول للموسيقى (الموسيقى العربية) وقامت حملة فى الصحف ضد موسيقاه بحجة أنه ملحن خارج عن القواعد والأصول، واستطاع أصحاب التيار المحافظ أن يعزلوا موسيقاه لفترة مما دفع شاعرا مثل بيرم التونسى إلى الدفاع عن سيد درويش وفنه فى زجل قال فيه:

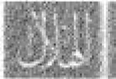
من بعد موته بعام
طلعت علينا أقوام
هو العظيم ياناس
في أرضنا يتداس

ودفع أديبا مثل عباس العقاد إلى القول «يخطئ من يفهم أن وظيفة سيد درويش كانت فرنجة الموسيقى العربية والنقل من أوربا إلى مصر». وجعل أديبا مثل توفيق الحكيم يقول «كان التجديد عنده متصلا بفنه ممزوجا بدمه، شيئا يتدفق من ذات نفسه كما يتدفق السيل الهابط من القمم، وكانت الألحان تتفجر منه كأنها تنفجر من ينبوع خفى»، وجعل رائد المسرح العربى زكى طليمات يقول «إن سيد درويش كان رائدا من رواد الموسيقى المصرية الحديثة».

وإلى جانب ذلك فقد قامت مجموعة من المثقفين بتكوين جماعة أصدقاء سيد درويش لجمع تراثه ونشر موسيقاه والدفاع عنها. والحقيقة أن ما فعله درويش كان ثورة حقيقية فى عالم الغناء لم يترك فيها الجوانب المشرقة من التراث، ولم يترك ما فى المدنية الأوربية من محاسن.

تلك كانت حياة فنان عظيم استطاع أن يضع أسس عصر غنائي كامل تغيرت بموجبه الأذواق تغيرا تاما، فجعل الأغنية الوطنية تحمل فى كلماتها وألحانها ملامح بارزة من شخصية الإنسان المصرى وطابعه ومزاجه وحركاته، وترك لفنه من الآثار ما سيظل نصبا تذكاريا شامخا لموهبته الفائقة التى أكدها على مدى سنوات حياته القصيرة رغم كل العقبات التي واجهته.

وعلى أى حال فبعد وفاة سيد درويش كاد الغناء العربى يفقد هويته لولا ظهور فئة من الملحنين والمطربين ساروا على منهاجه، واستلهموا روحه وذوقه وتعبيراته في بناء الألحان مثل زكريا أحمد ورياض السنباطي والقصبجى وعبد الوهاب وغيرهم مما ساهموا بنصيب كبير، وكانوا بمثابة جسر المقاومة الذى ابتناه سيد درويش فانطلقت بدائع فن الغناء العربى الحديث على حناجر المطربين والمطربات وعلى رأسهم أم كلثوم. ■







العقاد ناقداً موسيقياً

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

تمر في الثانى عشر من شهر مارس الحالى الذكرى الأربعون لرحيل عملاق الأدب العربى: عباس محمود العقاد، وبالرغم من انصرام هذا الردح من الزمن بعد رحيل العقاد، فإن ما صدر عن أدب هذا العملاق من دراسات ومقالات، لا يتناسب بحال مع غزارة ونفاسة ما أثرى به الأدب العربى من إنتاج أقل ما يوصف به العبقرية والشمول .

والعقاد الذي يرتبط اسمه بالعبقريات والدراسات السياسية والفلسفية والنقدية، ويتصف أدبه عند عامة القراء بالعمق والصعوبة ، لم يجد غضاضة في أن يكتب عن الموسيقي والغناء وأهل الغناء مجموعة مقالات يمكن أن تفصل من سياق إنتاجه وتدرج في كتاب منفصل.



الموسيقى الأسوانية.. كانت منهل العقاد ومنبع ثقافته الموسيقية

ولقد لامس الغناء وجدان عباس محمود العقاد في سنوات صباه التي قضاها بمسقط رأسه: مدينة أسوان، ففي أسوان - وهي آخر المراكز الحضرية المصرية باتجاه الجنوب - تعد الموسيقى طقساً من طقوس الحياة اليومية، تصافح الأسماع نهارا بالأسواق ومساء بالأفراح والموالد والمناسبات، بل تتردد خلف سرادقات العزاء ممثلة في «العديد» (بلغة أهل الصعيد) الذي لا يعدو أن يكون لوناً من ألوان الغناء، وللموسيقى الأسوانية والغناء الأسواني طابع مميز يجتذب الآذان، وهو طابع يعد نتاجاً لتعدد روافد الموسيقى والغناء الأسوانيين، فمن رافد فرعوني وآخر عربي وثالث نوبي.. اكتسب الغناء الأسواني والموسيقى الأسوانية طابعهما المحبب لدى شعب يتميز بالطيبة والوداعة، لذلك يمكن القول بأن عشق أهل أسوان الفطري للموسيقى والغناء هو المنبع الأول الذي نهل منه العقاد ثقافته الموسيقية، بينما مثلت مدرسة أسوان (الأميرية)، على حد تعبير العقاد نفسه، النبع الثاني الذي ارتوت منه نفسه المتفتحة لكل جميل في الأدب والعلم والفن مزيداً من الثقافة الموسيقية، يتحدث العقاد في يومياته عن تلك المدرسة فيقول: «يوم كنت من تلاميذها غير منتسب إلى فرقتها الموسيقية والرياضية، ولكنني كنت أشترك في الحفلات العامة كما يشترك فيها سائر تلاميذها، فقد ألقينا في يوم

واحد أربعة أناشيد من صباح ذلك اليوم إلى مغربه ، وأولها مترجم عن الإنجليزية يبتدئ، بهذه الفاتحة المرددة :

الساعة نصف وثمان
أخشى تأخيرك للدرس
اذكر قانون العرفان
قم واستحضر درك الحدس

أما الأناشيد الثلاثة الأخرى فقد كان منها السلام الوطني وهو نغمة واحدة ترددها الفرق الرياضية بألفاظ مختلفة ، ثم كان منها نشيد الاستقبال ومطلعه :

نور الأنام بدا لنا
وضياؤه قد عمنا

ثم نشيد التوديع ومطلعه :

سر يامليكا للسودان
فلك السلامة كل آن

ويستطرد العقاد بعد ذلك فيعدد ما حفظه في مدرسته الأولى من أناشيد فيقول: «ولا نظن أن الأناشيد التي كنا نحفظ ألحانها كانت تقل عن عشرة في جملتها ، غير الألحان التي رويناها بالتلقين ممن سبقونا في الدراسة على نظامها (الأميري) المتبع في مدارس (النظارة) على عمومها» (عباس محمود العقاد: يوميات – جزء ٢ – ص ٣١٤: ٣١٥)، هكذا شكلت سنوات الصبا في أسوان اللبنة الأولى في اهتمامات العقاد الموسيقية .

مؤرخ الإسلام

ولد عباس محمود العقاد في ٢٨ يونيو من عام ١٨٨٩ بمدينة أسوان، وجاء إلى القاهرة في عام ١٩٠٤ ليعمل موظفا، ولقى وجه ربه بالقاهرة في يوم ١٢ مارس من عام ١٩٦٤م، وخلال قرابة خمس وسبعين سنة عاشها العقاد.. أثرى الأدب العربي بأكثر من ثمانين كتابا خلا المقالات الصحفية ، وهو إنتاج ضخم عالج العقاد من خلاله شتى مباحث الفكر والأدب.

عمل العقاد بالكتابة والصحافة معا، وتنوعت كتاباته بين الشعر والنثر، ويعود تاريخ إصدار ديوانه الأول إلى عام ١٩١٦، ثم توالت بعد ذلك مجموعاته الشعرية مثل : «وحي الأربعين» – «هدية الكروان» «عابر سبيل» و«أعاصير مغرب»، وقد طبع قالب المقالة غالبية إنتاجه النثرى الذى نذكر منه: «الفصول» – «مطالعات في الكتب والحياة» – «مراجعات في الآداب والفنون» و«ساعات بين الكتب»، ويمثل النقد الأدبي جانبا مهماً من الإنتاج النثرى للعقاد، ومما يذكر في هذا المجال اشتراكه مع الكاتب والأديب إبراهيم المازني في إصدار كتاب «الديوان»، وقد عكف العقاد في السنوات الأخيرة من عمره على الترجمة لأعلام الإسلام، فقدم للمكتبة العربية والإسلامية سلسلة «العبقريات» التي تضمنت عبقريات: محمد (صلى الله عليه وسلم) – الصديق – عمر – الإمام على – ذو النورين (عثمان بن عفان) – خالد (بن الوليد) – عمرو بن العاص – بلال بن رباح – الحسن أبو الشهداء – الصديقة بنت الصديق – فاطمة الزهراء ومعاوية بن أبي سفيان، بل إن تراجمه امتدت لتتناول سيرة البعض من مفكرى الإسلام وفلاسفته مثل: ابن سينا – ابن رشد – الإمام الغزالي – الإمام محمد عبده – عبدالرحمن الكواكبي

والشاعر محمد إقبال.

جاءت العبقريات في سياق اهتمامات العقاد الإسلامية، وهي اهتمامات تشعبت لتعالج عديداً من القضايا التي عرضت للإسلام والمسلمين في مطالع القرن العشرين الميلادي ، ومن هذه القضايا - بل وأهمها - الدفاع عن الإسلام ومواجهة أباطيل خصومه من المستشرقين والمغرضين، فقدم في معرض دفاعه هذا الكتب التالية : «مطلع النور» - «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» و«ما يقال عن الإسلام»، إن المجال يضيق بذكر كل ما كتبه العقاد دفاعا عن الإسلام، ولكن المقلّب لكتبه لن يجد بدأ من أن يتفق مع الكاتب الراحل محمد عبدالغني حسن في أن يطلق على العقاد لقب «مؤرخ الإسلام» (محمد عبدالغني حسن : الهلال - أبريل ١٩٦٧ - ص ١٠٠).

ما بين الموسيقى والعلوم

شكّل التاريخ للإسلام وقضاياه شطرا كبيرا من اهتمامات العقاد الفكرية، تلك الاهتمامات التي جعلته يدلي بدلائه في منابع فكرية متعددة ضمت الشعر والدين والفلسفة والسياسة والعلوم والفنون ، ليخرج تلك الدلاء وقد امتلأت بجواهر الفكر ممثلة في أبحاثه وكتبه، وهي اهتمامات استمدت مصادرها واكتسبت ثراءها من انطواء العقاد وموسوعيته بالإضافة إلى مكتبته الكبيرة التي ضمت قرابة أربعين ألف مجلد في مختلف فروع المعرفة، لذلك فان اهتمامه بالموسيقى والغناء - الذي قد يثير دهشة البعض - يعد استكمالا لجانب مهم من مشروعه الفكري، شأنه في ذلك شأن كبار المفكرين ممن زهت بإبداعاتهم عصور ازدهار الحضارة العربية والإسلامية، ومن هؤلاء المفكرين نذكر من أعلام العصر العباسي كل من الكندي والفارابي وابن سينا، ممن يقف التاريخ شاهدا على إبداعاتهم الموسيقية التي ضمت تصنيف الكتب وعزف البعض منهم على الآلات الموسيقية إلى جانب الاسهام في علوم شتى ضمت الفلسفة والطب والرياضيات واللغات والفقه والدين، حيث مثل رخاء العصر ورعاية حكامه للفنون التربة الحاضنة لهؤلاء الأفذاذ، ولم تحل تشنجات البعض من المتعصبين والجهلة بينهم وبين الاشتغال بالموسيقى والغناء أو الكتابة عنهما إلى جانب اشتغالهم بالعلوم الدينية، بل إن البعض من فقهاء ذلك العصر تصدوا لتأليف الكتب والمقالات التي تفند دعاوى القائلين بتحريم الموسيقى والغناء، ولعل أشهر الأمثلة على ذلك هو الدراسة الفقهية الرائعة عن موقف الإسلام من الغناء والتي ضمنها الإمام أبو حامد الغزالي كتابه الشهير «إحياء علوم الدين».

يمكن للمتأمل والمدقق في سيرة العقاد أن يستشف مراحل تطور اهتماماته الموسيقية، حيث تطورت تلك الاهتمامات عبر مراحل رئيسية ثلاث، ونظراً لطبيعة الحياة الفكرية لعملاق كالعقاد، فإن مراحل اهتماماته - التي تعبر بالطبع عن فكره وإنتاجه - لابد وأن تتسم بصفات خاصة تميزها، فإذا ما أعملنا ذلك المبدأ على ما مرت به اهتمامات العقاد بالموسيقى والغناء من تطورات، لوجدنا أن

المرحلة الأولى من اهتمامه بالموسيقى والغناء – والتى شغلت سنوات صباه وشبابه الباكر – قد اتصفت بالاستماع والقراءة ، بينما تميزت المرحلة الثانية بتقديم العقاد البعض من شعره ليتحول إلى أشعار غنائية، وبالطبع فإن تلك المرحلة واكبت سنوات التألق الفكرى والإعلامى للعقاد ، ثم تجىء فى النهاية المرحلة الثالثة التى اختصت بالكتابات النقدية عن الموسيقى والغناء العربيين، وهى كتابات توزعت بين منابر صحفية عدة تنقل بينها العقاد فى رحلته مع الكتابة الصحفية ، وتتناثر هذه الكتابات الصحفية بأعداد يصعب حصرها وعلى مدار عشرات من السنوات، لكن الذى حفظ منها ووصل إلينا هو ما تضمنته المقالات التى دأب العقاد على نشرها تحت عنوان «يوميات» بصحيفتى «الأخبار» و«أخبار اليوم» فى السنوات الأخيرة من حياته .

شهد عام ١٩٠٤م وصول العقاد إلى القاهرة للمرة الأولى، كان مجىء العقاد فى هذا العام من أجل الخضوع للكشف الطبى قبل تعيينه موظفا بالحكومة، وبعد أن استقر به المقام فى القاهرة.. تحول ليعمل فى عام ١٩٠٧م بالتحرير فى صحيفة «الدستور» التى كان يصدرها محمد فريد وجدى وفى صحيفة الشيخ على يوسف الشهيرة «المؤيد»، فى تلك الأيام.. كانت روح الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى ربوع مصر قد أتت ثمارها ، ممثلة فى نهضة عمّت المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية ، وكان المسرح الغنائى يبدأ آنذاك نهضته الكبرى على يد سلامة حجازى، بينما كانت ثورة الغناء الأولى فى القرن العشرين التى قادها شيوخ من أمثال أبى العلا محمد ودرويش الحريرى على وشك أن تطلق من رحم ثورة ١٩١٩م إلى ساحة الغناء المصرى قادة الثورة الثانية من أمثال سيد درويش وزكريا أحمد ومحمد القصبجى إبان السنوات الأولى لمقام العقاد بالقاهرة، ليجد العقاد مسارح القاهرة ومغانيها تصدح بكل جديد فى الموسيقى العربية، فيملأ أسماعه المتعطشة – بحكم ما ألفته بأسوان – بكل ما هو جديد وأصيل من تلك الموسيقى ، ولتتبلور بذلك اللبنة الثانية فى تكوينه الموسيقى.

وعندما تنقل العقاد فى عمله الصحفى إبان عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين بين صحف : كوكب الشرق – المؤيد الجديد – الضياء – مصر – الجهاد وروزاليوسف، كانت الجاليات الأجنبية وقوات الاحتلال البريطانى ترفد الغناء المصرى ومن ثم الموسيقى العربية بكثير من الموسيقات الأجنبية، تلك الموسيقات التى وجدت فى شركات الاسطوانات ومحطات الإذاعات الأهلية ومن بعد ذلك محطة الإذاعة الحكومية واجهات لعرض الكثير من أعمالها الجادة، وإذا ما تذكرنا أيضا ما كانت تقدمه دار الأوبرا الملكية من الموسيقات والأوبرات العالمية، التى كانت تستقدم لها الفرق الشهيرة للأوبرا وللعزف الموسيقى من مختلف الدول الأوروبية، فإنه يمكن القول أيضا بأن العقاد قد وجد فى ذلك اللبنة الثالثة من

تكوينه الموسيقي، وبطبيعة الأمور .. فإن تلك اللبنة وسابقاتها ممن شكلن تكوين العقاد للموسيقى لم يقمن وحدهن بإعطاء هذا التكوين ملامحه المعروفة لنا الآن، وإنما ساهمت فى ذلك أيضا حصيلة قراءاته الموسوعية فى كل فن وعلم، والتى كانت بينها ومن أهمها قراءاته عن الموسيقى، وهى قراءات أتاحت له أن يحيط علما بكل ما وصل الينا من تراث الموسيقى العربية فى عصور ازدهارها ببغداد والأندلس ، لقد كانت تلك القراءات بمثابة المادة اللاصقة التى ضمت لبنات تكوينه الموسيقى إلى بعضها، وأعطت ذلك التكوين سماته المعروفة لقارىء العقاد فى كل زمان ومكان .

اتخذ اهتمام العقاد بالموسيقى والغناء خلال سنوات بداياته - التى لقبت فى هذا المقال بسنوات «الاستماع والقراءة» - أشكالا عدة، ولعل عدد ما ترك بعد رحيله من اسطوانات جمعها خلال تلك الحقبة يكون أشهر هذه الأشكال وأكثرها دلالة ، لكن هناك أشكالاً أخرى قد لا تعرفها الكثرة الغالبة من قراء اليوم، فمن ذلك نذكر أنه عندما أطلقت الإذاعة المصرية فى السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ١٩٣٩/١٢/١٩م ولأول مرة أغنية المطربة أسمهان الشهيرة: «دخلت مرة فى جنينة»، أسرت تلك الأغنية التى نظم كلماتها الشاعر عبدالعزيز سلام وصاغ لحنها الغنائى من قالب المونولوج الملحن مدحت عاصم أسماع المصريين، واكتسحت ما عداها فى سوق الاسطوانات وطلبات المستمعين، ولندع الآن الباحث اللبنانى فكتور سحاب يصف لنا ما حققته تلك الأغنية من ذيوع وانتشار ، يقول فكتور سحاب فى رسالته التى تقدم بها لنيل درجة الماجستير فى التاريخ: «ومن قصص إقبال الجمهور المصرى على أغنيات أسمهان، أن عباس محمود العقاد، الأديب الكبير، روى أنه كان يتجول بالترام وعلى الأقدام فى شوارع القاهرة بحثا عن نسخة اسطوانة (دخلت مرة فى جنينة)، ولم يتيسر له الأمر، لرواجها العظيم» (فكتور سحاب: السبعة الكبار فى الموسيقى العربية المعاصرة - دار العلم للملايين - بيروت - ص ٢٨٣)، هكذا كان اهتمام العقاد فى مطلع الأربعينات وقبله وبعده بالغناء ، وهو اهتمام جاء على قدر حصيلة العقاد من هذا الفن الجميل بالسماع والقراءة .

العقاد شاعرا غنائيا !

كان من الطبيعى فى حالة مفكر مثل عباس محمود العقاد أن يترك بصمته على فن أحبه كفن الغناء، وكيف لا؟ .. والرجل بحكم موسوعيته عالج فى كتاباته فنونا شتى لم يكن الغناء والموسيقى أصعبها بحال، اتخذت بصمة العقاد أو بقول آخر إضافته لفن الغناء شكلين مختلفين ، وقد تمثلت الإضافة الأولى فيما قدمه العقاد من شعره ليلحن ويصبح شعراً غنائياً، وأول هذا الشعر هو نشيد «قد رفعنا العلم» الذى قدمه العقاد حوالى عام ١٩٣٤ - وإبان وزارة عبدالفتاح يحيى باشا - ليصبح نشيدا قوميا لمصر، ويتكون هذا النشيد من ست فواصل .. وتضم كل فاصلة بيتين، وقد بدأ العقاد

نشيده بالبيت التالي :

قد رفعنا العلم
للعلا والفدا
فى عنان السماء

واختتمه العقاد بالفاصلة التالية :

فارخصى يانفوس
كل غال يهون
كل شيء حسن
إن رفعنا الرءوس
فليكن ما يكون
ولتعش يا وطن

وقد لحن النشيد عبدالحميد توفيق زكى وتغنت به المجموعة، ودأبت الإذاعة على تقديمه فى برامجها حتى الخمسينات من القرن العشرين، ومما هو جدير بالذكر هنا أن مجموعة من محبىّ العقاد وأصدقائه رأت أن تكرّم العقاد على نظمه لهذا النشيد، فأقامت لذلك حفلا بمسرح الأزبكية ترأسه زعيم الوفد: مصطفى النحاس باشا فى مساء الجمعة ٢٧ أبريل من عام ١٩٤٥م.

لم يكن نشيد «قد رفعنا العلم» هو الشعر الوحيد الذي قدمه العقاد ليلحن ويغنى، حيث قدم العديد من قصائده لتغنيها المطربة نادرة أمين، والتى كان العقاد شديد الإعجاب بصوتها، وقد ذكر المؤرخ والملحن عبدالحميد توفيق زكى أن عدد ما قدمه العقاد لنادرة أمين من قصائد قد بلغ أربع قصائد (عبدالحميد توفيق زكى: المعاصرون من رواد الموسيقى العربية - ص ٣٥)، ومن هذه القصائد نذكر قصيدة «فى الهوى قلبى زورق يجرى» التى لحنها رياض السنباطى وتغنت بها نادرة أمين للمرة الأولى فى العاشرة والنصف من مساء الاثنين ١٩٣٩/٩/١١م، وفيما يلى مطلع هذه القصيدة التى نشر نصها الكامل بالصفحة السادسة عشرة من العدد رقم (٢٣٤) من مجلة «الراديو المصرى» الصادر فى ١٩٣٩/٩/٩م :

فى الهوى قلبى
زورق يجرى
أين يمضى بى
نهره الخمرى
ليتنى
أدرى

ومن قصائد العقاد التى تغنت بها المطربة نادرة أمين فى الأربعينيات قصيدة «يا ساعة الصفو»، وقد لحنها رياض السنباطى أيضا وشدت بها نادرة أمين للمرة الأولى فى الحادية عشرة من مساء الأربعاء ١٩٤٨/٦/٣٠، فأين هذا الشعر الجميل مما يخدش الأذن والحياء الآن من كلمات الأغانى الشبابية؟!

الكتابات النقدية

مثلت الكتابات النقدية التى نشرها العقاد فى عديد من الصحف إضافته الثانية والمهمة لفن الغناء، فقد جلت تلك الكتابات التى استندت لعلم يتسم بالغزارة والموسوعية الكثير من قضايا الغناء والموسيقى العربيين، وتوزعت تلك الكتابات بين الصحف على مدار ما أنفقه العقاد فى الكتابة من سنوات، مما يجعل الاحاطة الكاملة بكل ما كتبه عن الغناء والموسيقى فى مقال كهذا ضرباً من المحال، ولعله من حسن الطالع أن فطن العقاد فى أيامه

الأخيرة لأهمية أن يجمع شوارد ما كتب من مقالات صحفية في مجلدات تيسر مطالعتها وتحقق حفظها، فصدر الجزء الأول من تلك اليوميات عن دار المعارف بالقاهرة قبل رحيله بقليل، ثم تتابع صدور الأجزاء الباقية عن نفس الدار حتى اكتملت أربعة وأربت صفحاتها على الألفين ، ومن بين تلك اليوميات التي جاوز عددها المئات.. كانت هناك أربع وعشرون منها أفردها العقاد لقضايا الغناء والموسيقى العربية، وهي بالطبع غير مقالاته عن الموسيقى الغربية ومؤلفيها، وتوزعت اليوميات الأربع والعشرين على أجزاء اليوميات بالكيفية التالية، واحدة في الجزء الأول وهي: (تاريخ الموسيقى العربية: ص ٣٣٢)، وسبعة عشر في الجزء الثالث قدمت بالعناوين والصفحات التالية: (دور سيد درويش: ص ١٩٩) - (فن الغناء تقدم طولا وعرضا ولكن لم يرتفع: ص ٢٠٣) (الموسيقى اللانغمية : ص ٢٥٩) - (الموسيقى اللانغمية أيضا: ص ٢٦٤) - (الاشتراكية والغناء : ص ٢٧٧) - (ضبط النغم : ص ٢٨٦) - (رواد أهملناهم : ص ٢٩٠) - (صالح عبدالحي : ص ٢٩٣) - (نغمات الجاز تصيب السامع بالمغص : ص ٢٩٦) - (الرائد سيد درويش : ص ٣٠٠) - (أغاني الأمة .. دليل على رقيها: ص ٣٠٢) - الهوس بفن التصوير في المغرب: ص ٣٠٦) - الأناشيد الوطنية: ص ٣١١) - (والأناشيد مرة أخرى: ص ٣١٤) - (أفلاطون والغناء: ص ٣١٩) - (بين الأصوات الوافية وبساطة الألحان: ص ٣٢٠) و(هل الانقطاع للمنولوج يصرف المستعد عن الأدوار المسرحية: ص ٣٣٢)، يتبقى بعد ذلك ست من يوميات العقاد التي تحدث فيها عن الغناء والموسيقى العربية وجاءت جميعها في الجزء الرابع من اليوميات، وفيما يلي عنوان كل منها ورقم الصفحة التي بدأت في الجزء الرابع: (إعادة النظر في لقب «المطرب»: ص ١٠٧) - (الشجاعي صحح اسمه ومضى يصحح الأسماء كلها: ص ١٢١) - (ماركة البنت في أغنية اليوم: ص ١٣٢) - (ذكرى سيد درويش: ص ١٨٦) - (موسيقانا في أربعين سنة: ص ١٩٤) و(الشعر قبل مهرجان الشعر: ص ١٩٧)، ويكشف هذا الرصد لمقالات العقاد عن الغناء والموسيقى العربية أن هناك ثمة خطأ قد شاب طباعة مقالة (موسيقانا في أربعين سنة)، التي جاءت في سياق يوميات العقاد المنشورة بالجزء الرابع من يومياته، حيث استبدل موضوع اليوميات التي نشرت في صحيفة «الأخبار» بتاريخ ١٨/٩/١٩٦٣م بموضوع آخر عن الثورة البلشفية.

وبالرغم من تعدد موضوعات يوميات العقاد الأربع والعشرين التي تحدث فيها عن الغناء والموسيقى العربيين، إلا أنه يمكن القول بأن ما عالجه العقاد في تلك اليوميات لم يخرج عن مبحثين رئيسيين، اختص المبحث الأول منهما بالترجمة لعدد من أعلام الغناء والموسيقى العربيين ممن يعتقد العقاد بأهمية ما أضافوه لهذا الفن، ولكن العقاد يبتدع في ترجمته منهجاً يجعل منها - أي الترجمة - مزيجاً من التعريف بالشخصية ومناقشة القضايا

التي يثيرها المبحث الثاني، وهو المبحث الذي أداره العقاد حول قضايا الغناء ومشكلاته، ولنضرب هنا بيومياته التي نشرت في ١٨/٩/١٩٦٣م بصحيفة «الأخبار» مثلا على منهجه في الترجمة لأعلام الموسيقي والغناء، فقد تحدث العقاد في تلك اليوميات عن فنان الشعب سيد درويش بمناسبة انقضاء أربعين سنة على وفاته ، ثم تفرع من حديثه عن سيد درويش إلى تقييم الغناء حال كتابته اليوميات، فبعد أن أثنى على ما تحقق للغناء من تقدم خلال الأربعين سنة التي انقضت بعد رحيل سيد درويش، إلا أن رأيه النابع من الاستماع والعلم يرى أنه على الرغم مما طرأ على الغناء في تلك العقود الأربعة: «فلا يكفي أن تتكاثر الأدوار والاحاديات (المونولوجات) .. ولا يكفي أن يتكاثر عدد المغنين والمنشدين على طابع واحد» ليكون ذلك تعبيرا عن تقدم الغناء، «وإنما المنتظر أن تكون الكثرة تنويعا بغير تكرار، واختلافا في الطابع والجوهر وليس مجرد اختلاف في الحناجر والأصوات» (يوميات : جزء ٤ - ص ١٨٧).

مضى العقاد يناقش في يومياته بفهم العالم الذواق الكثير من قضايا الغناء العربي والموسيقى العربية، فتصدى في اثنتين من يومياته نشرتا بصحيفة «الأخبار» في ٧/١٢/١٩٦٠م و١٤/١٢/١٩٦٠م لما يصل إلينا من تقاليع الغرب الموسيقية مثل الموسيقى السريالية التي أسماها البعض الموسيقى اللانغمية (يوميات: جزء ٣ - ص ٢٥٩، ص ٢٦٤ - ٢٦٥) ، يقول العقاد عن تلك التقليعة الموسيقية إنها لا تخرج عن : «محاكاة القرقعة والفرقعة والضجيج والعجيج واصطناع الخلط والخبط واجتناب الانتظام والانسجام» (يوميات: جزء ٣ - ص ٢٦٥)، ويبدى العقاد أيضا فهماً دقيقاً لتطور الغناء المصرى في معرض مناقشته لدعوة أطلقها قارىء لصحيفة «الأخبار»، تمنى القارىء في دعوته لو أن الزمن توقف عند نجوم الغناء في آخر القرن التاسع عشر من أمثال عبده الحامولي وألمظ ويوسف المنيلاوى وداود حسنى وسلامة حجازى وغيرهم ، بدأ العقاد مناقشته دعوة القارىء بالثناء على هؤلاء الرواد وإبداعاتهم، ولكنه يجمل رأيه في أمنية القارىء أن يتوقف الزمن عند هؤلاء الرواد فيقول بأن الاستماع لغناء هؤلاء الرواد ما هو إلا: «خطوة من خطوات الزمن تذكر وتستعاد ولكنها لا تعود للبقاء ولا للغناء ما بعدها من الخطوات» (يوميات: جزء ٣ - ص ٢٩٠ - ٢٩٢).

هكذا مضى العقاد في يومياته يتحدث عن الغناء والموسيقى حديث العالم المحب، وهو في حديثه الذى حفظته لنا تلك اليوميات يشخص مشاكل الغناء العربى والموسيقى العربية ويقترح لها ما يراه - من وجهة نظره - مناسباً من حلول، ولعل ما اقترحه في يومياته التي نشرت بتاريخ ١٣/١١/١٩٦٣ في صحيفة «الأخبار» وتحت عنوان «الشعر... قبل مهرجان الشعر» يقدم أبلغ دليل على ذلك ، فقد

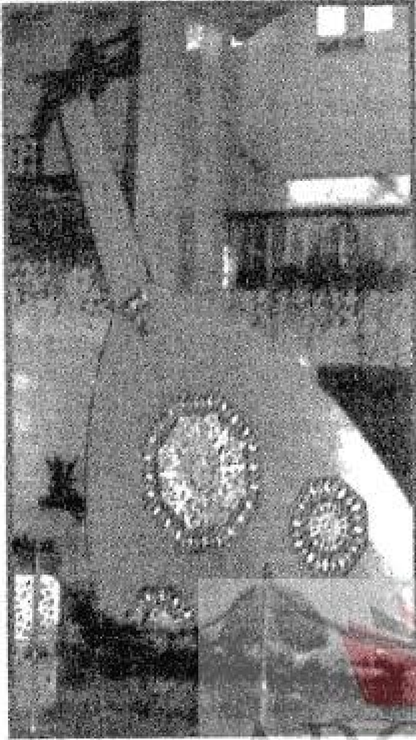
ناقش العقاد فى تلك اليوميات ميل البعض والحاحهم على استخدام العامية فى الشعر الغنائى ، وتغييب الشعر العربى بلغته الفصحى وأوزانه العروضية عن أسماع الشعب بحجة أن العامة لا يفهمون أو يتقنون الحديث بالفصحى، ويدلل العقاد على زيف تلك الحجة بأن عامة الشعب المصرى كانوا: «يتغنون على قوارع الطرقات بأناشيد سلامة حجازى (قبل نصف قرن من تاريخ نشر تلك اليوميات) فى الحماسة والغزل، وأشيعها على الأفواه قصيدة الفخر على لسان صلاح الدين:

إن لم أصن بمهندى ويمينى
ملكى فلست إذن صلاح الدين

وأخيرا ..

إن العقاد فى مقالاته الأربع والعشرين التى أفردها للحديث عن شئون الغناء والموسيقى العربية فى يومياته، يتفوق كثيرا على من نلحق بأسمائهم الآن ألقاب الناقد الموسيقى أو الناقد الفنى والمؤرخ الفنى، لأن عملاق العبقريات والفلسفة وغير ذلك من ثمار الفكر العالى، كان عملاقا أيضا فى حديثه عن الموسيقى والغناء وما يلم بهما من مشاكل وأزمات، ولم يكن تصديه لهذا النوع من الكتابات على سبيل التفاخر بالقدرات وطول الباع، وإنما كان ذلك لدرء المطاعن التى لحقت بهذا الفن الجميل على طول سنوات ضعف الأمة العربية وتمزقها، وهو ما أثبته فى يومياته التى كتبها تحت عنوان: «فن الغناء تقدم طولا وعرضا ولكن لم يرتفع» ونشرها فى صحيفة «الأخبار» بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٢م، يصف العقاد فى تلك اليوميات نظرة الكثرة الغالبة من قراء ذلك الزمان إلى الكتابة الأدبية عن الغناء والموسيقى فيقول: «هذا الغناء تكتب عنه مقالة افتتاحية على أيام النهضة القومية؟، نعوذ بالله!، ذلك هو الهزل والابتذال، إن لم يكن ذلك هو الكفر بدين اللياقة والعرف المأثور» (يوميات: جزء ٣ - ص ٢٠٣)، ولكن العقاد يرفع عن فن الغناء ما لحقه من أدران النظرة الدونية لبعض الجهال والمتعصبين فى إحدى يومياته، وهى التى حملت اسم «أغانى الأمة.. دليل على رقيها»، حيث يتفق مع مقولة أفلاطون الشهيرة بأنك إذا أردت أن تعرف مدى رقىّ أمة فاستمع إلى أغانيها، ويضيف العقاد إلى ذلك فيقول: «ولا نعرف شيئا تنطوى عليه خلائق الأمم وعاداتها يخفى على من يستمع إلى أغانيها، وقد نمتحن هذه الحقيقة بتجربة ميسرة لكل من يريدها، وهى تأليف مجموعة صغيرة من مائة أغنية من أغانى الغزل والفخر والحداد والفكاهة والمناجاة على اختلاف بواعثها ، فاننا سنجد بعد مراجعة هذه المجموعة أننا نستطيع أن نحكم منها على أخلاق الأمة وآدابها وما تعمله القوانين والشرائع فيها» (يوميات : جزء ٣ - ص ٢٠٥)، رحم الله العقاد.. فقد كان عملاقا فى كل ما كتب وفى كل ما اعتنق من أفكار. ■





مستقبل العود وموسيقانا آفاق لا حدود لها

بقلم
نصير شمه

منذ سنوات وأنا أخطط على ورق أفكارا حول إعادة بناء الموسيقى داخل الشخصية العراقية، ولدى كثير من الملاحظات حول وجود الموسيقى في المعاهد والكليات المتخصصة في هذا الفن، وبنفس الوقت أجد أن هذا الشكل الفنى الذى يعيد هندسة روح الإنسان وعقله فى الداخل لم يتغلغل كفاية ، نتيجة للظروف غير المستقرة التى مر بها بلدى طوال ٣٠ عاماً. أشد ما يشغلنى هو كيفية الدخول والانطلاق لهذا المشروع الذى أرى ضرورته، تشبه بناء الحياة الاقتصادية والسياسية والعمرانية، خصوصاً أن القسوة غيرت من ملامح الشخصية العراقية ولا يمكن معادلتها دون انصهار علم الجمال بكل أشكاله وروح هذا الإنسان.

أعتقد أن الخلفية التاريخية لتذوق الفن للشخصية العراقية ستساعد على إقامة هذا البناء خلال فترة زمنية قصيرة. وهذا البناء يبدأ من سن مبكرة وصولاً إلى سن الكهولة مروراً بالمدارس والمعامل والمستشفيات والحياة العملية عموماً. هذا شاغلي الأساسي منذ سنوات. الذي يدفعني للتفكير بإطار أنطلق منه بهذه الأفكار هو فضل الشخصية العراقية في بنائي كموسيقي.

مستوى تذوقها، ثراؤها الثقافي، رغبتها في استقبال الجديد، ودعمها المحب لما تراه مهماً. وهي أسس تمكنني مع زملائي من تأسيس أو ترسيخ هذا البناء.

وحتى تبقى الموسيقى جزءا من يوميات الإنسان علينا أن نخرج بها من حيزها العلمي المتوفر في المعاهد والكليات الموسيقية المتخصصة إلى كل ماهو عام وغير متخصص. والرافد هو المتخصص والمتذوق هو العامة. وهذا لا يتم بمعزل عن دولة لها مؤسسات ولها قدرة على تسيير برنامج كهذا يمتد تأثيره على أكثر من ٢٤ مليون نسمة.

وحين أقول بشيء من التركيز عن المجتمع العراقي فقط لأن حجم الضرر كان كبيراً عليه طوال ثلاثة عقود. لكن مشروعي الشخصي يشمل الإنسان المطلق في كل مكان.

موسيقانا ومستقبل العود

الشاغل الآخر هو مستقبل العود وموسيقانا حين وضعت فكرة بين العود العربي أردت من خلاله أن أؤسس نظاماً شاملاً لطرق تدريس عالية الجودة ومتخصصة ومتنوعة لا تعتمد على عزفي فقط وعلى مؤلفاتي بل على مدارس متعددة. وأيضاً أثبت قياسات العود التي تختلف من محافظة إلى محافظة داخل القطر الواحد. وهذا ما بدأ العمل عليه منذ انطلاقة فكرة بيت العود منذ خمسة أعوام. بدأنا نضع أشكالا عملية للقياسات المقترحة والدقيقة للآلة الموسيقية بالتعاون مع صناع مهرة من أرجاء الوطن العربي وأسسنا (من خلال البيت) كادر تدريسي من الشباب والذين تتراوح أعمارهم بالعشرينات، وبدأت أضع لشكل المناهج التدريسية التي أرغب في تعميمها لأنها نابعة عن تجربة وخبرة وإلمام بمدارس مختلفة. عسى أن يتركز مجهود العازفين والأساتذة على الإجادة في العزف والتأليف وتطوير المهارات. بدلاً من البحث عن العلل الموجودة في الصناعة والآلة.

بعد مرور عام على انتقال بيت العود إلى مكان عريق ومستقل (منزل الهراوى) ستنطلق الورشة الخاصة لصناعة العود داخل البيت واليوم كل أعضاء بيت العود الذين يتراوح أعدادهم الستين عازفاً وعازفة يمتلكون آلات بنفس القياسات ونفس الشكل، وهؤلاء سيعممون طرق التدريس والصناعة إلى محيط أوسع. كذا إصدار الكتاب الخاص بي الذي سيكون

شاملا لما سيحتاجه العازف من معلومات كاملة بكل ما يتعلق بآلة العود.

تحولات ايجابية

أهمية الورشة ضمن بيت العود العربي تشبه إلى حد ما مختبرا علميا صناعيا لتطور صناعة آلات العود. من استخدام الخشب وتجفيفه إلى حجم الصندوق الصوتي وقياس زند العود وكل ما له علاقة بنقاء الصوت وجودته. ومنذ أعوام وأنا أعلم اثنين من صناع العود كل ما أتوصل إليه من أفكار ليمتلك العازف آلة أحسن مما لديه وبالفعل توصلنا إلى نتائج ايجابية كبيرة وحتى تخفيض أسعار العود الجيد الذى أصبح خارج تناول الطلبة.

اضافة إلى تطوير البحث فى أساليب العازفين وشرحها وتاريخ الآلة الموسيقية وهذا أصبح جزءاً من البرنامج السنوى لبيت العود الذى أصبح فى تناول الجمهور المتابع لنشاط بيت العود العربى.

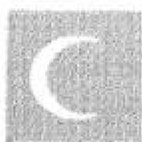
مستقبل كامل أعضاء بيت العود المهنى من الأمور التى تشغلنى بإلحاح، مستقبلهم تأمين حياة متوازنة تبعدهم عن النزول عن قيمة العلم الذى تحصلوا عليه. انتشارهم فى بقاع العالم من خلال بيوتات للعود تربطهم بالمقر الأم.

إحياء ثقافتنا العربية

الشاغل الآخر هو اعطاء صورة عميقة عن ثقافتنا العربية فى أرجاء العالم، وهذه تتطلب منى تمريناً متواصلاً يومياً يمتد لساعات وقراءات وسماع كل ماهو جديد وكل ماهو مهم من القديم، وتواجد فى المحافل الدولية المهمة وتقديم أفضل العروض المتقنة والمشبعة بروح الصوفيين المجهولين وفطاحل الشعراء وفلاسفة العرب القدامى وإرث الموسيقى الثرى، خلط هذه النقاط وتقديمها عادة موسيقية تمنع المتلقى من التنحنح والتحرك داخل كرسيه وسط صالة الحفل. الاتقان والجودة والعمق أسس أى عمل فنى يجب أن تقدم من خلاله أنفسنا وما يقف خلفها من ثقافة وثراء وتنوع. اضافة إلى طبع اسطوانات منتشرة فى كل أنحاء العالم تحمل للإنسان كل الضفاف الأخرى أفكارنا وأحلامنا ورؤانا الموسيقية ونظرتنا لشكل الحياة وجوهر فلسفتنا.

هذا ما أريد أن أبوح به وهناك المخفى الذى سأحققه إن توفر وقتاً أعيشه.. أحلامى التى تتحول إلى شاغلى هى أحلام يقظة. دائماً أغير مسارها لتصبح منهاج حياة. ما تحقق منها يقف عند حدود الحلم لغاية اثنى عشر عاماً الأولى من عمرى. مابعد ذلك أحاول أن أوفر الوقت الكافى لتجسيدها كواقع.

ماسبق ذكره هو ما يشغل نصير شمه مهنيا.. لكن ما يشغل هذا النصير على صعد أخرى آفاقه منتشرة فى اتجاهات بعيدة داخل وخارج الروح لا حدود لمداها. تبدأ من انطلاق جملة موسيقية. ولا تنتهى عند تغلغلها داخل روح صافية تتلقفها وتسكن ضمن ذبذباتها. ■



كتاب الهلال

مصر المستقبل

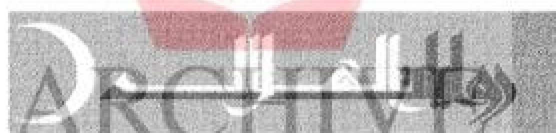
المياه - الطاقة - الصحراء

بقلم

د. رشدى سعيد

يصدر ٥ مارس ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



١٤٥



محرم ١٤٢٥هـ مارس ٢٠٠٤م

سوق هرج

بقلم

عائد خصباك

تصدر ١٥ مارس ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



صنع الله إبراهيم   .. و مصداقية أمريكانلى

أمريكانلى = أمر «صنع الله» عجب!

بقلم
صافى ناز كاظم

كان لابد أن أقرأ كتاب صنع الله إبراهيم المعنون «أمريكانلى = أمرى كان لى»، وذلك لسببين شخصيين، الأول : أننى كنت أول من قدم صنع الله إبراهيم فى الصحافة المصرية «العلنية» عندما انبهرت عام ٦٦ - ١٩٦٧ بروايته القصيرة جدا، المكثفة جدا، الموجعة جدا، «تلك الرائحة»، ورغم أننى لم أكن قد خبرت وقتها ظلم الاعتقال وإهانات المراقبة وسماجة التحقيقات الأمنية، إلا أننى - بانتمائى لآلام الوطن - كتبت أشيد بفنه الثاقب، (وكان المقال يشيد أيضا بقصة قصيرة لجميل عطية عنوانها «خطبة هامة وسط قوارير الزيت»، وبقصة قصيرة غريبة لمحمد مبروك إبراهيم هى : «صوت صمت نزف نصف طائر» - أو مايقترب من هذا - كنت فرحة باكتشافى لأصوات شابة من جيلى فى عنفوان غضبها. وكنت فرحة على وجه الخصوص لأن «صنع الله» و«جميل» مثلى من مواليد أغسطس ١٩٣٧، برج الأسد!).

ومازلت أذكر بحثى المضنى عن صنع الله إبراهيم حتى وجدته وطلبت منه التفضل بالحضور إلى دار الهلال لنلتقط له صورة، فجاء بوجهه النحيل، شديد الشحوب، وملامحه التى تعطيه قسمات المرتجف من البرد، المغتصب للضحكات بسبب الألم المبرح أو التهكم المرير، وظل يؤكد فرحه بترحيبى بروايته وبأن صورته «ستظهر فى المجلة»، على حد تعبيره، الذى لم أفهم إذا ما كان ساخرا أم صادقا، وكانت تلك الصورة التى التقطها مصور دار الهلال عام ٦٦/١٩٦٧هى الأولى، على وجه اليقين، التى يحتفظ بها أرشيف دار صحفية للأستاذ صنع الله إبراهيم. لم أكتف بهذا الاستقبال لرواية صنع الله، ولكنى - كعادتى فى حالة الحماس - حملته فوق رأسى أنوّه بروايته «الرائعة» لكل رائح وغاد، وإذ كنت فى زيارة لبيت الصديق الراحل الأديب الفنان غسان كنفانى فى إحدى ضواحى لبنان، أبريل ١٩٦٧، قابلت المترجم الإنجليزى الشهير «دنيس جونسون - ديفيز»، وأبدى اهتمامه بمعرفة حركة الأدب الحديث فى مصر فرشحت له «تلك الرائحة»، وحين قال إنه لم يسمع عنها أو عن مؤلفها من قبل، قلت له: تماما فلم يكن من الممكن أن تسمع عنها أو عن مؤلفها وهو فى غياهب السجن والاعتقال.المهم أن ترشيحى أنتج لقاء طيبا بين «صنع الله» و«جونسون - ديفيز»، وظهرت الترجمة الإنجليزية الرائجة لـ «تلك الرائحة».

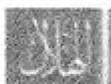
السبب الشخصى الثانى: هو ما تضمنه كتاب «أمريكانلى» من تفريغ لبعض حوارات الفيلم التسجيلى «أربع نساء من مصر» الذى أخرجته المصرية/الكندية تهانى راشد عام ١٩٩٧ وكنت واحدة من السيدات الأربعة.

أما الأسباب الموضوعية لإقبالى على قراءة «أمريكانلى» فكانت رصيد إعجابى بأسلوب وفن كتابة صنع الله إبراهيم، وتقديرى لإيقاعه الشيق السريع، لأننى لا أطيق الملل والإملال والكتابة الطاردة التى تدفعنى بقبضتها لأشيح عنها.

لم تفتنى رواية كتبها «صنع الله»، حتى وإن لم يهدها إلىّ، قرأت كل أعماله، ماعدا كتابه الذى ملأنى بالتقزز «التجربة الأنثوية» - فألقيت به بعيدا بعد صفحات قلائل، فى الوقت الذي شكرت له «ذات» وضحكت وأنا أقرؤها حتى دمعت عيناى من الصدق والحزن معا.

* * *

تأخذ الهواجس الجنسية ركنا رئيسيا فى البناء الفنى لأعمال «صنع الله إبراهيم»، يعبر عنها بوضوح وصراحة من دون أن يقدسها أو يبتذلها. يخيل إلىّ



أحيانا أنه يزدريها ويمتهنها، فهو يوظفها غالبا للتعبير عن القهر والحصار والتضييع. هناك ذلك التجسيد الحسى للأزمة والوحدة والاغتراب وقلة الحيلة، لابد عنده من تلك «اللطشات» الحسية الغالبة على السياق لإنزال «الجاد» إلى مستوى «العبث»، نتيجة لهذا التوق إلى كشف الزيف ومعاقبته هو والكذبات بالتفاهة والتسفيه.

***

حين أقبلت على قراءة «أمريكانلى» - ٤٨٤ صفحة - لم أتخوف من طولها وأوراقها الكثة، فعهدى أن خفة الظل وفن الكتابة عند «صنع الله» يهونان كل صعب، فدخلتها، غير متحوطة من الزلات والمقالب حتى بدأت أشكو رتلا تفصيليا من التفاصيل، غير المؤدية إلى كوّة للإنقاذ، أمسك بخناقى وزهقت روحى. تركت الكتاب فترة، ثم عدت إليه فى محاولة ثانية وأخيرة، قلت إنه ليس «رواية» بالمعنى المفهوم لهذا الجنس الأدبى، إنه تقرير «يروى» فيه تجربته ومشاهداته وتأملاته حين استضافته إحدى الجامعات الأمريكية ليحاضر عن نفسه. لابأس، لكن لماذا حاول أن يغطى ذاته بقناع وهمى لأستاذ تاريخ يحاضر عن التاريخ؟ القناع وهمى وغير محكم ويطل من ورائه بشفافية كاملة الكاتب الروائى صنع الله إبراهيم الذى استعاض عن القلم والورقة بالكتابة المباشرة بالكمبيوتر، ولعل هذا هو السبب فى أنه نسى نفسه وظل «يدردش» حتى كبّت الطابعة فى حجره ٤٨٤ صفحة لاتخلو من أخطاء مطبعية وثرثرة لم تدعمها الهوامش المفيدة للتعريف بهذا وذاك، فكل تعريفاته فقدت مصداقيتها حين دلفت إلى تفريغه لحوارات الفيلم التسجيلى «أربع نساء من مصر». كانت التفريغات نموذجا فريدا لتجسيد أغنية الطفولة :

«خواجه إلياس،
كب العدس على القلقاس،
فى البيبيرا».

خلل رهيب أحدثه صنع الله فى اقتباساته من الفيلم الذى يقدم أربع شخصيات مختلفة تمام الاختلاف فى المنطق وفى المفردات والمجادلات وإن اتفقت فى الموقف الذى يرفض الكيان الصهيونى، والهيمنة الأمريكية، والدكتاتورية والبطش السلطوى الظالم. شخصيات الفيلم تجمع وداد مترى اليسارية المسيحية، أمينة رشيد

الماركسية، شاهندة مقلد الوطنية المؤيدة لكل القوى المهتمة برفع الظلم عن الفلاحين، وكاتبة هذه السطور التي تنطلق في كل أمورها بهدى عقيدتها الإيمانية المسلمة. هذا التباين في مكونات كل شخصية جعل لكل واحدة أسلوبها ومنطقها الذى لاينسحب منها إلى غيرها، لكن هاهو «صنع الله إبراهيم» ينسب كلام «شاهندة» إلى «أمينة رشيد» - ص ٤٢١ - ممزوجا ببعض فقرات من كلام «أمينة» وينسب كلام «أمينة رشيد» إلى «صافى ناز» - ص ٤٢٠ - بما لايتفق مع الحقيقة ولا مع التأثير الدرامى للفيلم، وكلمات من أقوال «وداد مترى» إلى شاهندة، مع الإشارة إلى بيت ابنة وداد، «ريم سعد لوقا» في ريف الفيوم، على أنه بيت شاهندة وهلم جرا ....

هرعت إلى شاهندة وقلت لها : «هل رأيت عصيدة صنع الله إبراهيم في كتابه أو تفريغه السيريالي اللامنطقى لفيلم أربع نساء من مصر؟»، قالت شاهنده : «لقد انزعجت جدا وحين نبهت صنع الله إلى كل هذه الأخطاء قال: مش مهم من قال ماذا، المهم إثبات الكلام الذى قيل!».

قلت : «وما أهمية كلام يقال من دون إثبات قائله؟» هل يجوز أن أبدو في الفيلم بشخصيتى المرتدية للزى الإسلامى الشرعى ثم ينسب إلىّ كلام «قيل» على لسان أمينة رشيد يحدد رفضها الكامل للاتجاه نحو الالتزام الإسلامى وتعزوه إلى تأثير وفود القادمين من الخليج والسعودية متخمين بـ «البترو دولار» - كما تقول أو تتهم - ومتراجعين عن «الحضارة»، كيف يمكن أن ينسب إلىّ أنا بالذات كلمات مثل: «التبعية ليست فقط للدول العظمى، وإنما أيضا للسعودية والدول البترولية والهجرة الواسعة، لكن الناس لايريدون المقاومة، يقولون عشان إيه؟ وأدّى هذا كله إلى موقف جديد من الحياة، فردية شرسة، بعدى والطوفان، طالما أنا أوكى. شعور قوى بعدم الحيلة، الناس ترى النتيجة، إيمانى يستند إلى اختيار أخلاقى أكثر من التفاؤل الحقيقى.المستقبل يبدو لى شديد الظلمة». هذا كلام «أمينة رشيد» برؤيتها وتحليلها الماركسي، ولايمكن أن يكون كلام «صافى ناز كاظم» برؤيتها وتحليلها الإيمانى الإسلامى. كيف يتصور صنع الله إبراهيم أن الأمانة تجيز له هذا التشويه، وبمنتهى البساطة يحسم بفتواه غير الشرعية: «المهم إثبات الكلام الذى قيل»!

قلت لشاهندة: «صنع الله إبراهيم فقد مصداقيته، ولعله يعانى من عته الشيخوخة أو الزهايمر الشهير!». ■

"لهو الأبالسة" و"طفل شقي اسمه عنتر"

كتابات جديدة عن عالم جديد

بقلم
سلوى بكر

يقف البعض عاجزا إزاء تفسير ظاهرة الإبداع الجديد المتدفق فى القصة والرواية العربية الآن، وهناك من يعزو بروز هذه الظاهرة إلى الرغبة الكامنة لدى البعض فى التعبير عن الذات وهمومها، أو إلى تحقيق مكانة فى عالم الثقافة والأدب، وهذه التعليلات فى مجملها لا تخرج عن نطاق علم النفس، ويمكن الرد عليها ببساطة، إذ أن كثيراً من كتاب الرواية والقصة الجديدة هم متحققون بالفعل بشكل أو بآخر فى مجالات أعمالهم ودروب حياتهم .

وربما يكون من الأنسب تفسير ظاهرة التدفق الإبداعى الجديد ضمن اطار تدفق المتغيرات الدولية والمحلية وتلاحقها المجنون طوال الوقت فسقوط دول، وتهاوى أفكار، وصعود جماعات اجتماعية وهبوط غيرها كانت على القمة، وتناقضات العالم المعاصر التى تصل إلى حد المهازل المسرحية



سهير المصادفة



.. وعوالم عشوائية

والعبث الوجودى ، كل ذلك دفع بعشرات الناس للإمساك بالأقلام، أو لمس أزرار الكمبيوتر للتعبير عن رؤيتهم لهذا العالم الذى بات غريباً ولايمكن قبوله أو تفسيره ضمن أطر المنطق المعتاد ولعل غياب الأطر السياسية الفاعلة، وقدرتها على التحليل والتفسير والفعل والحركة فى الشارع العربى دفع الكثيرين لأن تكون الكتابة بديلا ووسيلة للتعبير عن الذات، وعن العالم المحيط وبغياب العمل السياسى بإعتباره ضرباً من الابداع والفن، فقد لجأ هؤلاء إلى الفن والإبداع الأمرى والأكثر تأثيرا وهو الإبداع الأدبى فى صورته القصصية والروائية.

فالكتابات الجديدة وإن بدت للوهلة الأولى وفى مجملها منشغلة بالذات، أو منكبة على عوالمها، إلا أنها تفصح فى النهاية عن مأزق حياتى وهو مأزق الاضطرار إلى الانسحاب من المتن إلى الهامش المجتمعى، والعيش خارج السياق أو خارج النص الاجتماعى بكل ما فيه من قيم ومتعارف عليه من مفاهيم وقواعد تنظيم علاقاته وأعرافه، ويرتكز هؤلاء المنسحبون إلى أن هذا المجتمع فاقد للمنطق الإنسانى فى العدالة الاجتماعية وتداول الإدارة بين الأجيال وتبدل المواقع فالكبار فيه هم كبار إلى الأبد، والصغار يظلون إلى جانبهم أقزاماً لاينمون ولا يكبرون رغم مالديهم من خبرات وامكانات .

ومعظم ابطال الروايات والقصص الجديدة هم نماذج معبرة عن هؤلاء المنسحبين، فهم غارقون فى هموم أجسادهم ويتعاطون المخدرات ويتعاملون مع هموم المجتمع برفض واستعلاء ولامبالاة فى أفضل الأحوال، كما أنهم لا يراهنون على أى فكر أو فعل سياسى، ويعد هذه الكتابات ينحو

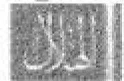
إلى تحطيم التابوهات أو المحرمات وانتهاكها على نحو صارخ كموقف احتجاجي ضد «المجتمع» ، الذي لا يسمع ولا يرى ولا يسمح لهؤلاء الشباب بالتعبير أو التكلم عما يجيش في صدورهم وبدواخلهم، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع أصوات احتجاجية بالمقابل ضد هذه الكتابات، كما أن بعضها قوبل باحتفاء نقدي من البعض الذي وجد فيه «سكة» جديدة للكتابة وشجاعة أدبية، وقدرة على اختراق «المسكوت عنه» واجتياز مالم يجتز في الكتابة الأدبية من قبل .

كتابة أخرى

بجانب هذه الكتابات الرافضة برز نوع آخر من الكتابة توازى زمنيا مع هذه الكتابات لكنه آثر الاشتباك مع المجتمع وهمومه، وجاء رفضها بعيداً عن الشعور بالذات وتضخيم همومها أو فصل هذه الهموم عن هموم المجتمع، بل سعت هذه الكتابات إلى الكشف عن الخرائط الوعرة المعقدة لتضاريس البنية الاجتماعية الجديدة، والتنبيه إلى ما بها من مثالب وعيوب وتعتبر رواية «عمارة يعقوبيان» لعلاء الاسواني والتي صدرت لأول مرة منذ سنوات هي الرواية المفتتح لهذا الاتجاه من الروايات الجديدة، كما يمكن رصد روايتي سهير المصادفة «لهو الأبالسة » ورواية محمد توفيق المعنونة «طفل شقر اسمه عنتر» ضمن هذا التيار المشار إليه، وهو تيار لاتغيب عن عينه تعقيدات المجتمع، ويسعى إلى فك طلاسم هذه التعقيدات عبر الرصد الروائي .

مهمشون ومشوأون

في رواية سهير المصادفة «لهو الأبالسة» يتكشف عالم بات من الصعب تجاهله ولو بالعين المجردة فالتجمعات السكانية العشوائية التي نمت كالفطر حول المدن الكبرى في مصر، خلقت معها أنماطا بشرية جديدة لها عوالمها وعلاقاتها الناتجة والوثيقة بطبيعة المكان العشوائي الذي تعيش فيه، وتسعى «لهو الأبالسة» للكشف عن العوالم الإنسانية العشوائية، فالذين تم استبعادهم بسبب الفقر وتدني المستوى الاقتصادي والاجتماعي، والذين يلفظهم الريف وقراه المتدهورة ، هم المكون الإنساني لهذه العشوائيات التي تغوص في عوالمه الرواية . فالمعشوأون تدور حياتهم في فلك كل ما هو عشوائي مثلما كان ميلادهم فعلاً عشوائيا أيضا . وهؤلاء المستبعدون، والذين لايمكن تصنيفهم اجتماعياً لم يحصلوا على أية خبرات تعليمية تؤهلهم للانخراط في المجتمع، والدخول إلى «الهيئة الاجتماعية»، بالمعنى المتعارف عليه، وهم يعيشون بلا خدمات دون كهرباء أو مياه شرب نظيفة




محمد توفيق



.. ومبالغات منطقية

أو أية شـروط ذات حـد أدنى للحـيـاة الآدمية الإنسانية .

لقد ساد فى أدب الحقبة الستينية ومـا تلاه نماذج لأبطال اصطلح على تسميتهم بالمهمشين، غير أن مهمش الستينيات لايتشابهون مع أبطال « لهو الأبالسـة» فـالأولون كـانوا يشكلون ظاهرة مـحـدودة قدمت فى الأعـمـال القصصية والروائية من باب الغرائبية أو الطرافة غير أن أبطال المصادفة هم نماذج باتت تشكل ظاهرة مجتمعية، فهم ملايين من أبناء المجتمع العاطلين عن العمل الفاقدين لأى خبرة بل هم قنابل موقوتة قابلة للانفجار لأنهم وكما يقول بول ايلوار الشاعر الفرنسي :

الذين بلا خوذ
بلا قبعات

وهم الذين يموت أفضل من فيهم بسبب المرض والجهل والجوع ودون أن يلحظهم أحد، فبطلة رواية «لهو الأبالسة» السـاردة للنص الروائى، هى دارسـة عـادت من موسكو لتـعـيش فى هذه العشوائيات وترصد عالمها وتقرنه طوال الوقت بعـالم كـان يسـمى ذات يوم «الاتحاد السوفيتى»، وهو العالم الذى عاشت فيه حيناً ودرست فى جامعاته.

إن الروائية تعقد المقارنة المتوازية بين العالمين، حيث عالم السوفيت الذى بدا حلمـا ذات يوم، ولكنه راح وتبدد وعالم «حوض الجاموس» موضوع الرواية الذى يعيش فى الظلمات الدائمة بسبب غياب الكهرباء وظلام العقل الذى ترتفع فيه الخرافات بمجرد أن تغيب الشمس لتطفو على سطحه الأشباح والعفاريت والجن، وكل ما تغذيه مئات الكتب المطروحة على أرصفة المدن الكبرى من أفكار تمتهن العقل وتنحيه عن طريق الحياة الحقيقية.

بهذا التوازى الروائى بين عالم حوش الجاموس فى لهو الأبالسة وعالم السوفيت المتلاشى، يطرح أسئلة لابد منها عن أفق منتظر لمحرومين معشوئين فى هذا المكان المفترض روائياً أو أى مكان عشوائى آخر حقيقى فى العالم، حيث راهنت الملايين من أمثال هؤلاء المعشوئين على حكم بالعدالة الاجتماعية والمساواة الإنسانية فى بلدان نهبت فراراً من الاستعمار ورأت أن تجربة السوفيت ربما كانت تجليا أمثل لهذا الحلم، من الممكن إنجازه على الأرض .

طفل شقى اسمه عنتر

وتتواصل رواية «طفل شقى اسمه عنتر» لمحمد توفيق، مع رواية سهير المصادفة فى طرحها لنماذج مهمشة فى المجتمع المصرى الراهن، عبر تدفق سردى شديد الثراء فى تفاصيله فعالم الرواية الذى يبدو شريانه الرابط هو النيل فى إشارة رمزية إلى أن العمل قابل للامتداد مع امتداد النهر العظيم على كل الخريطة المصرية، يتوقف منذ بدايته عند عسكرى المرور الشاويش أشمونى الذى يفتتح بعينيه مشاهد الرواية الأولى، حيث يقف عند تقاطع كورنيش النيل فى المعادى وأمام واحدة من عماراته الشاهقة ليزيح الستار عن عالم سكانها الغرائبى، حيث يثير لغز مقتل راقصة العديد من التساؤلات ليس حول مقتلها الغامض فقط، ولكن حول القتل غير المرئى الحادث لملايين الناس كل يوم فى المجتمع، عبر أساليب الفساد، وتراجع الضمير لدى الذين يهيمنون على مقدراته، حيث برز الانحطاط الاقتصادى والتفسخ الاجتماعى، ورغم أن الرواية لاتستقبل بعالم «المعشوئين» كما هو الحال فى لهو الأبالسة لسهير المصادفة، إلا أنها تقدم نماذج لها اهميتها من حيث الدلالة الاجتماعية وتوصيفها للمهمشين فى مصر الآن، فالمهمش هو كل انسان منتج وقادر على العطاء ولديه إمكانات لهذا العطاء «عبر الخبرة والتعليم .

إن حثالة الطبقات وفقا للتعريف الماركسى والتى سادت كتعريف التهميش حيناً فى الأدب خلال كتابات الأجيال السابقة، كباعة الدبابيس وعلب الكبريت فى الشوارع، وصابغى الحمير فى الأسواق ورواد الخمارات والحانات الشعبية القذرة، لم يعودوا هم المهمشون فى الأدب الآن طالما أن التهميش الحقيقى فى المجتمع بات ويفعل الحراك الاجتماعى المتواصل يعنى استبعاد كل الطاقات الإنسانية المنتجة حقاً وصاحبة القدرات الخلاقة والإبداعات الأصيلة، إن هذا الحراك المستمر أدى إلى استبعاد كل الخبرات الأعلى، طالما أن الاقتصاد بات قائما على المضاربة والسمسرة فى

أفضل الأحوال وليس على الإنتاج الحقيقي الدافع للنمو والازدهار فالدكتور عبد الملاك في «طفل شقي اسمه عنتر» لمحمد توفيق، عاد بشهادة دكتوراه في الهندسة الوراثية من الولايات المتحدة الأمريكية بعد خمس سنوات دراسة فيها، لكنه يجد نفسه مهمشاً وبلا عمل بل ويكتشف أن حبه القديم الوحيد ممثلا في زميلته فرح قد سرق منه أيضا، وهو يضطر لأن يلعب دور المشعوذ الأقرب إلى البهلوان بدلاً من العمل في تخصصه، فهذا هو الدور المتاح له ضمن هذه الهزلية الاجتماعية الجديدة التي هي أقرب إلى العبث .

فارص أم واقعية سحرية

والملاحظ أن السرد في الروايتين ينحو إلى مبالغات منطقية، وصفها البعض بأنها ضرب من الواقعية السحرية اللاتينية في الأدب، غير أن الجنوح اللاواقعي الذي يتبدى مثل سقوط البيانو وأثاث الشقة في رواية طفل شقي، أو النمو اللامنطقي لشجرة اللبلاب والدم المتدفق في أرجاء المكان، والمرأة التي تضاجع حمارها هو في الحقيقة جنوح ومبالغة خيالية أقرب إلى الفارص المسرحي فهذا التطرف في رسم الشخصية أو المشهد يبدو ومقبولاً إلى أبعد حد، ضمن حدود عالم الروايتين وما يمثله من جنوح لايصدق ومبالغة عبثية في الحياة المعاصرة التي يعيشها الناس . ■

كلمات عاشت

* لم يطرق أبي الهجاء إلا نادرا جدا ، لأنه يراه غير خليق بالشعر الرفيع

« حسين شوقي » في كتابه أبي شوقي

فاذهب كما ذهب الربيع مضى
فقد شيعته مدامع الزهر
واهدأ كما هدأ النسيم قضى
في هدأة الأضواء والشعر
ماكنت إلا أمة ذهبت
والعبقرية أمة الأمم
أو شعلة أبصارنا خلبت
ومنارة نصبت على علم

« الشاعر إبراهيم ناجي » على قبر شوقي

* ليس الإنسان كومة أسراره الحقيرة ، إنه ما يصنعه

« أندريه مالرو »



كامل أمين



أبو القاسم الشابي

من حديث الشعر والشعراء

الحياة الملحمية لشاعر الملاحم



بقلم
وديع فلسطين



إذا قيل شاعر الملاحم، انصرف القول إلى ثلاثة من شعراء العصر الحديث هم أحمد محرم والشاعر اللبنانى بولس سلامة والشاعر كامل أمين، ولكن حياة كامل أمين كانت ملحمة دهرية منذ ما ولد فى طنطا فى الخامس عشر من مايو ١٩١٥ وإلى أن لقى وجه ربه فى التاسع عشر من سبتمبر ٢٠٠٣، بعد معاناة طويلة مع المرض وبترت فى أثنائها ساقه، وتسمر فى فراشه فاقد الأمل فى أن يتلقى ذات يوم هاتفا من جهة من جهات الثقافة المتعددة سواء لمواساته أو لإسداء يد إليه فى العلاج أو فى الاهتمام بشعره الذى تتهدده عوامل الضياع.



رشيد سليم الخورى



فدوى طوقان



بولس سلامة

ولما ازدادت مرارته من ذل المرض، طلب من ابنته أن تجلسه على الكرسى المتحرك وخرج إلى حيث تلعلع شاشة التليفزيون ببرامج الشخلعة وقال فى سورة غضب : إنى أبصق على هذه الدنيا.

بل إن وفاته - وهو شاعر ذو تاريخ ومنزلة - لم تنتبه إليها جميع وسائل الإعلام، بما في ذلك صفحات الأدب وصحفه، لولا كلمة منصفة من الصحفية ابتسام الهواري.، وكلمة بليغة من استاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي.

ولأن ظروف الحياة التى عاشها كامل أمين كانت مورثة للقنوط، فقد ساق فى عام ١٩٦٣ أبياتا تنبأ فيها بنهايته الأسيفة ، حيث قال:

ها أنا أمضي عن الدنيا كما يمضي القطيع
وسياط الدهر تهوى فوق ظهرى وأطيع
وأرى الساعات تمضى، وأرى عمرى يضيع
وسأمضى بعد حين حيثما يمضى الجميع

بين الكفاح والاعتقال

خاض كامل أمين الحروب ثلاث مرات، مرة كمجند في الحرب العالمية الثانية، و مرة متطوعا فى حرب فلسطين، ومرة متطوعا أثناء العدوان الثلاثى فأدى بذلك لا ضريبة وطنية واحدة، بل ضرائب ثلاثا أصيب أثنائها إصابات بليغة فحاولت الشاعرة فدوى طوقان فى الحرب الفلسطينية إخفاءه فى بيتها وتطبيبه، وعاد إلى مصر ليستكمل العلاج على يدى شاعر الأطلال الدكتور إبراهيم ناجى.

وعرف كامل أمين السجون مرتين إذ ألقى القبض عليه فى محاولة اغتيال الزعيم مصطفى النحاس باشا لشبهة لم تثبت عليه، وتكرر اعتقاله فى عام ١٩٦٧ حيث قضى فى السجن ثلاث سنوات، وكان وقتها يعمل فى وظيفة متواضعة فى وزارة الأشغال، فتم نقله منها، مما اضطره بعد الخروج من السجن إلى قبول العمل فى إحدى الشركات.

وكان قد توهم أن استقلاله بالعمل لحسابه الخاص يهيىء له حياة الاستقرار، فالتحق بكلية الحقوق بجامعة عين شمس وعمل بالمحاماة بعد تخرجه ولكن المحاماة عائدته فلم توفر له أسباب العيش المستقر مع أسرة قوامها زوجة (هي ابنة رائد أدب الأطفال كامل كيلاني وولدان توفي واحد منهما صغيرا، وخمس بنات، فاضطر إلى هجر المحاماة ملتمسا لنفسه وظيفة تؤمن له راتبا شهريا في إحدى الشركات، كما أسلفنا.

اعتزاز بالنفس

وعلى الرغم من الظروف القاسية التي اعترضت حياة كامل أمين، فقد كان شديد الاعتداد بنفسه، يرى نفسه كشاعر متسنما قبة الجوزاء في حين أن كل الناس، بما فيهم الشعراء دون منزلته، وقد عبر عن ذلك بأبيات صارخة قال فيها:

إلى الذين سمائي فوق عالمهم
وفوق كل عظيم فوقهم قدمي
العائشين مع الموتى مناصفة
كالحلم في العين، بل كالدود في الرمم
لئن حييت ومد الله في أجلي
لأسفكن دم الكتاب في قلبي
وأجدعن أنوفا لو صنعت لها
أنفا من العاج، بعد اليوم لم تقم
ممن أخاف، وسيف الله في قلمي
ومن أهاب، وصوت الحق ملء فمي

ملاحم كامل أمين متعددة، بعضها منشور وبعضها مازال مخطوطا، وهي في جملتها تعتمد مادة التاريخ في أذكر منها «ملحمة القادسية» و«ملحمة عين جالوت»، و«ملحمة حطين» و«الملحمة المحمدية»، و«ملحمة السموات السبع الأولى» و«ملحمة السموات السبع الثانية»، و«ملحمة أكتوبر» و«ملحمة إخناتون»، و«ملحمة الخوص» وفيها يرثي نجله الراحل، وله من الدواوين «المشاعل» و«نشيد الخلود» و«عندما يحرقون الشجر» و«النور الأخضر». أفلا يستحق هذا التراث الشعري أن تتبرى لنشره هيئة من هيئات ثقافتنا، إن لم يكن وفاء للشاعر الراحل، فتقديرا لهذا العمل الملحمي، والشعري المتفرد في يومنا الحاضر.

وكانت رابطة الأدب الحديث قد أقامت حفلا لتأبين كامل أمين غابت عنه وسائل الإعلام جميعا، ربما لانشغالها بسهرات رمضان ومسلسلاته وفوازيره، فألقيت كلمة في هذا الحفل قلت فيها:

عطاء وتجاهل

كانت حياة كامل أمين ملحمة من الملاحم التي لم ينشرها على الملأ، فقد خاض المعارك، وجرب السجون والمعتقلات، وتلطم في تحصيل أسباب الرزق لكي يقيم أود

أسرة كبيرة، واختار لنفسه طريق الشعر الشاق، وهو شعر الملاحم، فسخر موهبته لنظم ملاحم تقع في آلاف من الأبيات حتى وإن جافته أسباب النشر وكانت آخر ملاحم حياته تجربة المرض في شيخوخة أربت على ثمانية وثمانين عاما ، فقضى بقية عمره مقعدا دون إذلال لأنه كان عميق الإيمان مستسلما لأقداره، لا يشكو ولا يتضجر، فذهب إلى لقاء ربه دون أن يسمع كلمة عطف أو رعاية من الأجهزة الرسمية، بل دون أن تهتم حتى صحف الأدب بنشر خبر وفاته لأنه من شعراء يترسمون الفحول في إنجازاتهم، وليس من شعراء الخزعبلات الشعرية!.

ولقد ران عليّ حزن شديد عندما علمت من أسرته الصابرة أنه ظل محتفظا بكبريائه الشماء، فأبت عليه نفسه أن يعكر صفو أحد من زملاء الشعر والنثر، ولا طرق باب واحد من سدنة أجهزة البيروقراط، ولا نافس زيدا في مسابقات الشعر المحلية والنفطية ، ولا تملق وزيرا أو كبيرا، ولا استصرخ أهل الأريحية في نداءات منشورة في الصحف، وإنما عزت عليه نفسه وتمنعت روحه المستعلية فلم تندّ عنها حتى عبارة: آه!.

هذا هو كامل أمين، وله من اسمه نصيب في سمو الخلق وأصالة الوجدان، فهو كامل بحق، وهو أمين بصدق، وهو في حياته الملحمية مجاهد حتى وإن أنكر الناس عليه جهاده.

وهذه ملاحمه ودواوينه، ما نفذ منها ومازال مخطوطا، تنتظر أن ترى النور ولا تستجديه من أحد، لقد أدى كامل أمين رسالته ومضى، وبقي على المجتمع الأدبي - إن كان له وجود - أن يستكمل رسالته بطبع هذه الأعمال الكاملة ليستوحي منها الجيل الجديد معاني البطولة والوطنية والفداء وبذل الأرواح رخيصة في سبيل الوطن أو المبادىء أو العقيدة.

أيها الصديق الراحل، كم ألوم نفسي على التقصير المتطاول معك، فقد مضت سنوات دون أن أسأل عنك، ولكنني كنت أدرك أنني لا أستطيع لك شيئا ولا أملك من أمري ما يخفف عنك بعض معاناتك، فتغاض عن تقصيري، وإن كنت لا أغفر لنفسي، وأحمد الله الذي رزقك بأسرة كانت بارة بك، وأحاطتك بعواطفها ومشاعرها وحبها، وأغنتك عن استجداء الرحمة من الغير، وهي قد عاهدتك على أن تبقى أسرة مترابطة يشرفها أن تنتسب إلى كامل أمين.

الاستشهاد بالشعر

ومادمت استغرقت هنا في حديث الشعر والشاعر، فإن لي وقفة مع الذين يستشهدون بالشعر في كتاباتهم المنشورة، دون أن يتحروا نصه الصحيح أو نسبته إلى قائله، وأخشى ما أخشاه، ونحن في عصر يلقف فيه الناس الثقافة لقف عجلان، أن تشيع على الألسنة وفي الدراسات الأكاديمية الأغاليط التي يتورط فيها الكاتبون عند الاستشهاد بالشعر.

فللشاعر المهجري رشيد سليم الخوري المكنى بالشاعر القروي قصيدة عنوانها

«بين البشر والبقر» نظمها عندما كان الاستعمار الأجنبي جاثما في ربوع بلادنا العربية، وقارن فيها بين البقر الذى يراه سارحا في مروج البرازيل لايعاني شيئا من الإذلال الذى يعانيه أبناء وطنه تحت نير المستعمر، فقال مخاطبا البقر:

طوباك سارحة فى القفر طوباك
إن كنت أحسد مخلوقا، فإياك

وكان مما قاله فى هذه القصيدة:

تشكين فصل الشتاء البارد القاسي؟
ماذا أقول أنا فى عشرة الناس؟
نامي على الثلج، نامي، ليس من باس
فالثلج غير فؤاد دون إحساس
وإن تكن هاطلات الغيث تنشاك
طوباك، فالقطر غير الدمع طوباك

وختم القصيدة بقوله:

طوباك فى مربع الحرية الخصب
بين الأزاهر والأمواه والعشب
لو تعلمين عن الإفرنج والعرب
وما يلاقيه فى الأوطان كل أبى
ماكنت تخشين من سكين سفاك
طوباك فالموت غير الذل طوباك

وقد نظم الشاعر القروى هذه القصيدة في إحدى جولاته بالقطار في البرازيل لكى يبيع ما يحمله من عروض البضاعة، وفى أثناء عودته من هذه الجولة ركب البحر، فهاج نوء عظيم كاد يغرق السفينة، وخاف الناس خوفا شديدا، أما هو فكان همة الأكبر أن يجد وسيلة ينقذ بها قصيدته، ولو هلك. فالقصيدة نظمها الشاعر القروى، والحديث فيها موجه الى البقر لا البشر ومع ذلك جاء لوذعى من كتاب الأركان الصحفية فنشر فى جريدته المعمرة فذلكة بعنوان «مع الشتاء البارد» زعم فيها - حسب ظنه - أن الشكوى من فصل الشتاء فى هذه القصيدة هى لميخائيل نعيمة. ثم قال: «إن مشكلة الشاعر أنه يبحث عن قلب فيه إحساس، وهذا القلب اليوم فى ندرة العنقاء والخل الوفى» فالشاعر لم يكن يبحث عن قلب - لعله قلب الحبيبة - وإنما كان يخاطب البقر ولا البشر! ودع عنك أن اللوذعى قد كسر الأبيات التى استشهد بها مادام يعتمد على الذاكرة الخؤون.

وقرأت ذات مرة لكاتبة فى إحدى المجلات استشهادها بالبيتين:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

ونسبت هذين البيتين الى المتنبى مع أن قائلهما شاعر تونس أبو القاسم الشابى ..

وإذا كان لابد من الاستشهاد بالشعر، فللمستشهد أن يتخلص من خيانة الذاكرة بأن يقول كما قال الشاعر، دون تحديد لاسمه، وهو ما أفعله شخصيا إذا ما عز علي نسبة أبيات إلى قائلها.

الأيام الأخيرة للشاعرة فدوى طوقان

ودعت الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان عالم الفناء في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر الماضى عن عمر يناهز السادسة والثمانين، وقد بدأت رحلة الفناء عندما سقطت في منزلها قبل نحو خمسة أشهر وتعرضت لكسور مضاعفة زاد من صعوبة علاجها أنها كانت تعاني إلى جانب ذلك من داء السكري ومن ارتفاع الضغط، وفي أثناء مرحلة العلاج فى المستشفى أصيبت بجلطة بسيطة فى المخ، وتصادف وقتها أن كان فى نابلس طبيب فلسطيني يعيش فى ألمانيا ويتابع أحدث تطورات الطب في علاج الجلطة، فاستطاع أن يشفي فدوى من هذا العارض، ولاسيما لأن احتمالات الشفاء منه لدى المتقدمين فى السن أكبر من احتمالات علاجه لدى الشباب، على ما أفاد هذا الطبيب النطاسي.

وبعد شهور قضتها فدوى المستشفى نقلت إلى منزلها لمتابعة العلاج الطبيعي، ولم تكن تستطيع المشي إلا بالاستناد إلى عكازين وفي مصاحبة المرضات خشية أن تفقد توازنها، وبسبب فقدانها للشهية، كانت تكتفي بأقل القليل من الطعام حتى صارت «جلدا على عظم» فتدهورت صحتها من جديد ونقلت إلى المستشفى وصارت تنادي أمها وأباها وشقيقها مرحبة بالانضمام إليهم، وجاءت لحظة الختام المحتومة لتثير عاصفة من الحزن على رحيلها فنعاها الرئيس ياسر عرفات قائلا إنها جبل من جبال فلسطين وكانت فدوى غير متهيبة للموت مادامت تموت في بلادها وتدفن في ثراها، وقد عبرت عن ذلك بقولها:

كفاني أموت علي أرضها
وأدفن فيها
وتحت ثراها أذوب وأفني
وأبعث عشبا علي أرضها
وأبعث زهرة
تعبث بها كف طفل نمته بلادي
كفاني أظل بحضن بلادي
ترابا ، وعشبا ، وزهره

وها قد تحققت أمنية فدوى طوقان، فاحتضنها ثرى فلسطين كما احتضنت هي قضية فلسطين في حياتها وشعرها ووجدانها وقلبها. ■

نجيب محفوظ ظالماً!!

عرض ونقد
عبد المنعم الجداوى



رحل الكاتب عبد المنعم الجداوي وهو يمسك بقلمه ، الذى طالما غمسه فى مداد المقالة الأدبية ، ترويحا لنفسه بعيداً عما تخصص وبرع فيه من مقال التحليل الاجتماعى للجريمة .

رحل كاتبنا الكبير تاركا بين جدران مؤسسة دار الهلال أصداء ضحكاته ورحيق قلمه، فلروحه المحلقة التحية.. ولنفسه المطمئنة الجنة .

.. الهلال

هكذا امتد ظلم عبقرية «نجيب محفوظ» إلى كل من ينطق العربية، وهذه اعترافات كاتب مغربى ، ضاع عمره فى محاولته أن يكتب عن «تطوان» كما كتب «نجيب» عن «القاهرة» ، وأن يأخذ من حوانيتها وأزقتها ما أخذه «نجيب» من «زقاق المدق» ، و «الغورية» ، و«خان الخليلى» ، ولما نفدت منه الأيام، وأفلس زمنياً وذهنيا، سجل اعترافه، وفشله ،ومعاناته بصدق شديد، فكان نجاحه ، وكانت روايته التى أسماها «المصرى» وكان أولى به أن يسميها «رواية الرواية التى لم تكتب» .



الكاتب المغربي محمد أنقار



« المصري » .. في ظلال نجيب محفوظ

الكاتب مغربي ، والرواية اسمها «المصرى»، وهي تدور في مدينة «تطوان» والذى يدور هو المدينة لا الأشخاص .. المدينة بأحيائها المعدمة والغنية، والشعبية، والراقية .. الأسواق والرواد.. التجار، والعمال، الذين يتعاملون، والذين يحتالون ، ومن يجرى خلفهم الدولار، ومن يلهثون خلف «الدرهم»، ولا يعثرون عليه، وقد يقعون في أيدى القانون قبل أن يصلوا إلى «الدراهم» التي يريدونها حلالا ، ليواصلوا مسيرة الحياة .. كل هؤلاء لايغيبون عن سطور رواية «المصرى» صفحة واحدة، وأنت في دهشة من أول سطر..! فلا تكاد تعرف سر هذه الضجة التي احتواك المؤلف «محمد أنقار» في طياتها بعبقرية يحسد عليها.. فهو قادر على أن يجعلك قارئا ، وأنت لا تطلب غير ذلك.. ثم بعد صفحات ودون أن تدرى تعرف أنك لم تعد قارئا ، وأن المؤلف دون إذنك نقلك من موقعك ، وغير علاقاتك مع أشخاص الرواية ، فإذا بك صرت واحداً منهم.. تزاحمهم في نواديهم، ومقاهيهم، وترى ما في بيوتهم دون استئذان، وسواء قبلت أو رفضت فأنت فقدت حريتك بكامل رغبتك، وفي نشوة تشعر أنك تعايش أشخاص الرواية، وأنهم من موقعهم ينظرون إليك.. تقترب منهم حتى ترمقك أنفاسهم، وتسمع حفيف ملابسهم، ورائحة عرقهم.. فتبتعد بعداً يوشك أن يخرجك من بين السطور.. فتعود إلى موقعك داخل السطور.. أو بمعنى أدق داخل «تطوان»، تضرب في شوارعها، وأزقتها، ودروبها ليلا أو نهاراً.. تبحث عن شيء لا تعرفه.. لتجد نفسك في نهاية الرواية وفي وقت واحد في «تطوان» ، وفي «القاهرة»، وفي «تونس» وفي بغداد وكما أن كل هذه المدن مدائنك ، فأنت أيضا إبن لكل هذه المدن..!

قصة رواية

في هذه الأوراق لن نجد رواية تقليدية كالروايات التي عرفناها.. لأنها في حقيقتها قصة رواية لم تكتب، معاناة أديب.. تمكن منه عشق الرواية، فأحب وهوى «نجيب محفوظ» وأشخاص رواياته حبا مرضيا، شغله عن ممارسة حياته بشكل طبيعي، رغم أنه مدرس محترم، وزوج ناجح، وأب لمجموعة من الأولاد والبنات، وشقيق لإخوة وأخوات، ولهم أبناء هو العم والخال لهؤلاء وهؤلاء.. ورغم كل هذا شغف «بالقاهرة الجديدة»، والثلاثية.. وامتزج بالشخصيات، والأماكن، والحارات، والأزقة، والتهم «زقاق المدق» وصافح «المعلم كرشة»، وتصدى «لحميدة» يحاول انقاذها، وتمنى لو قفز من «المغرب» من قلب مدينته «تطوان» إلى «قهوة الفيشاوى» بالقاهرة، وأمسك بخناق «نجيب محفوظ» ورجاه أن يغير مصير «حميدة»، لأنها لا تستحق كل هذه البهدلة، وهو لن يكون وحده، وإنما سوف يكون معه «رفيق عمره» من الكتاب إلى التخرج إلى التوظف في التعليم الإعدادى والثانوى، ثم عشقهما سويا ذلك الساحر

الذي اسمه «نجيب محفوظ» وأشخاص رواياته، وفي شطحة خيالية. يقول «أحمد الساحلي» لصديقه «عبدالكريم» أنه سوف يكتب يوماً ما رواية كروايات (نجيب محفوظ) يجعل فيها «تطوان» مكان القاهرة وأسواقها مكان «الفيشاوي»، ويشفق عليه «عبدالكريم» من هذا الطموح المرعب الذي هو أقرب إلى الجنون، ويحذره أن يقف بأحلامه عند القراءة والاستيعاب ، وذلك نعمة طيبة تتلاءم، وتنسجم مع مواهبه لو حاول تجاوزها أهلك روحه، وأتلف نفسه دون طائل.. ! لكن «الساحلي» يرفض قبول نصيحة تحد من قدراته الأدبية التي لا يعرف قدرها سواه، ويروى لصديقهما المحامي «بنعيسى» عن رغبته في استثمار موهبته ويشجعه المحامي، فهو الآخر من المعجبين بالرواية القاهرية، ولكنه يتمنى أن يكتب «الساحلي» رواية مغربية «تطوانية» تدور في أسواق «تطوان» ومقاهيها، وتتحدث عن الحوانيت، وأصحابها، ورجال المقاهي وكلهم جميعاً كالمعلم «كرشة» ، ولهم سمات معينة.. ويسمع «الساحلي» ويزداد جنوناً إلى حد أن الفكرة تختلط بكريات دمائه البيضاء والحمراء، فيرى في المنام أنه مع صديق له يقتحمان مطبعة تطبع رواية جديدة «لنجيب محفوظ»، ويظل الحلم في كيانه إلى أن يقترب من سن الإحالة إلى المعاش ويخرج زميله «عبدالكريم» إلى التقاعد، وبعدها بأسبوع واحد يدركه الموت.ويضطرب داخلياً، فزميله يسبقه بعام واحد، ويحزن على صديق عمره، لكنه يفكر في الكتابة، وكيف أنه كان يظن أنه سوف يكتبها قبل التقاعد، فلما اقترب موعد التقاعد وفاجأه موت صديقه.. اكتشف مروعاً أن الموت قد يأتيه كصديقه بعد التقاعد بأسبوع واحد، وهي فترة ضيقة قد لا يتمكن فيها من كتابة الرواية، وعليه فلا بد أن يرى مدخلاً جديداً لحل مشكلته ، وينشغل في مشاكل تلك المرحلة الخطيرة من عمر الإنسان.. فالأولاد لهم مشاكلهم بعد أن كبرت معهم، وأصبحت تتعداهم إلى الأم والأب، ومشاكل الاستعداد النفسي للتقاعد، وخطوات تسليم العهدة، وخلو الطرف، ومن المستحيل الكتابة في موازاة هذه المشاكل حتى لو حلت جميعها، ولكن الكتابة لابد أن يجهز لها بأن يبحر في «تطوان» من جديد، وأن يغوص في حوانيتها، ورجالها ، ونسائها، وأسواقها ونواحيها حتى الباعة الذين يفترشون الأرض، والنسوة اللائي يتسولن، ويقفن في أماكن محددة، وسمات الذين يفدون إلى «تطوان» كتجار من الأرياف أو كزبائن يبحثون عن بضائع لا توجد إلا في «تطوان».. الملابس ، الملامح، الأشكال ، السمات، الحوارات، صراخها وهمسها، وحينما يبدأ الغوص في «تطوان» ليعد نفسه للكتابة يسأل ماذا فعل «جارسيا»، وماذا يفعل «برنارد شو»؟ وماذا قال كتاب الرواية، وماذا قال «نجيب محفوظ» عن إعداد نفسه للكتابة .. وأثناء ذلك تقتحم حياته قصة غرام ابنه بابنة الجيران ، وهم ناس دونهم في العراقة، وتقول أمه إنها لن

تسمح بهذه الزيجة إلا على جثتها، وتتجمع العائلة في كتلة ضد هذا الزواج الذي سوف يسيء إلى كل العائلة.

مواجهة لا طاقة لأحد عليها

والكاتب المؤلف «محمد أنقار» .. يطرح كل ذلك أمام القارئ، بضمير المتكلم، فهو على لسان «أحمد الساحلي» يقول حكايته مع عشقه لكتابة الرواية، وإصراره على تحقيق هذا الحلم المستحيل، حتى بعد أن أحيل إلى المعاش، وتصور بكامل ذهنه أن الباقي من عمره قياساً على صديق عمره «عبدالكريم» سبعة أيام..!!

وهو دون أن يدري وضع نفسه، والقارئ معه في مواجهة لا طاقة للبشر عليها ، مواجهة بين سكون، ورحيل، وصرخات صامتة، وحاضر يضربه الماضي، ويجرجره المستقبل، فتسيل دماؤه على جانبي الليل والنهار، وعليه إن استطاع أن يكتب وحده الرواية التي تدمدم داخله ، وهو حتى هذه اللحظات الحرجة، لم يصل بها في ذهنه إلى بداية أو وسط أو نهاية، ولم يستقر على أشخاصها رجالاً ونساء، ولا من أين يبدأ..؟ من الأسواق أم من البيوت ؟ وماذا يعطي للقارئ في روايته ؟ وهل لديه ما يعطيه مثل «نجيب محفوظ»؟ أم أنه يكتب ليقدم «تطوان» وأهل «تطوان» وأسواقها في جولة سياحية؟ .. وعاد يقرأ رواية جديدة صدرت «لنجيب محفوظ»، وينقب بين سطورها عن هذا الشيء الجذاب الذي يعطيه المؤلف العبقري لقرائه وهل بالضرورة الملحة أن يكون هو لديه ما يفيد القارئ، أم أنه يكفي أن يضع مدينته مكان «القاهرة»، وأشخاص أسواقها وأزقتها مكان الآخرين..؟ وسيف الزمن مسلط عليه، فالأسبوع الذي بقي له بعد التقاعد يوشك أن ينتهي ، وهو لم يبدأ بعد في تحقيق حلم عمره الذي حتى هذه الأيام التي يعتبرها أخيرة.. لم يتحقق..!!

متاهة الكلمات والعبارات

وكلما فاضت الرغبة في الكتابة من حسامه، وشعر بالفتح العبقري يفجر فقاقيع النبوغ في ذهنه يهجم على الورق الأبيض، ويشهر القلم بحبره الأسود على بياضه الناصع، فإذا به يقف وحده في متاهة عبارات وكلمات بعضها يريد البداية وبعضها يريد النهاية، وفي تضاربها تطيح بإرادته وبالقلم، ويعتصم بالسكون اللذيذ، وينسحب منه الوعي ، ويروح في سبات عميق..

ويفيق ثائراً يحتدم غضباً يعاود ما سجله من جديد لعله يعثر على بداية . فلا يجد سوى سطور فوقها تاريخ قديم عن زيارته ورصده لمقهى «تطواني» كان يعده ليكون بدلاً من «الفيشاوي» وجاء في السطور «في أيام الصباح كان يحلو لنا أن نصعد الدرجات القليلة المختفية في الركن الأيمن «للغرسة الكبيرة» تفضي بنا إلى السطح فنطل على الساحة البهيجة المزدانة أطرافها بأعراش الكرم الخضراء مدعومة بقوائم خشبية وقد جلس تحتها

البائعون يفترشون حصرا ويشربون الشاى، ويتسامرون دون جلبة».

ومراقبة الأماكن كان أسهل ألف مرة لديه من رصد الأشخاص الذى كاد يكلفه حياته، لاسيما وهو يحاول أن يحملهم على الكلام ليقف على طريقتهم فى إلقاء الجمل والعبارات وتراكيبها اللحنية فى الانبساط والغضب وحين المعارك وفى حوارات البيع وكل ذلك مع متاعب أمراض الشيخوخة فى المعدة، والركب، والعيون، وأزمات الجهاز التنفسى ..!

ثم يصرخ «محمد أنقار» بلسانه أو بلسان «أحمد الساحلى» قائلاً: «كيف يمكننى الربط بين وصف السوق والصفحات القصصية التى سبق أن كتبتها عن «تطوان» فى مرحلتى «مدرسة المعلمين» و«زواج عبدالكريم» . ثم هل المطلوب أن أصف أم أروى وقائع المكان أم أجمع بينهما؟ وسلمت بأن الجمع هو الأليق لولا أنى قدرت صعوبة ذلك واعترفت بفقر إمكانياتى للقيام بتلك المهمة»..

لم يبق سوى الرحيل

وتتساقط أيام الأسبوع الرهيب، وكلما شيع جنازة تلكأ هناك بين القبور ووقف يناجى «عبدالكريم»، ويشكو إليه «تطوان» و«الحلم»، و«نجيب محفوظ»، وأمراضه والوقت الذى يطبق عليه، ويهمس فى أذن عبدالكريم :«ثق بى إنى استجديت الدروب العتيقة بحب أبدى وحمت حولها كما النحلة بين ثقوب الخلية، والآن لم يبق سوى المضى فى الطريق إليك..»

فى المقابر ضريح «سيدى على المنظرى» يقال إنه أول من بنى «تطوان» ، يلجأ إليه المؤلف فيقول: «ها هى أمانتك أعيدها إليك.. أنت بنيت المدينة وأنا عجزت عن وصفها.. أرجو المعذرة فأنا لست أول الفاشلين ولا آخرهم.. «أحمد عاكف» قد فشل.. «عثمان بيومى» نفسه فشل.. أما «كمال عبدالجواد» فهيهات أن أحذو حذوه»..

وهؤلاء أشخاص فى روايات «نجيب محفوظ»..

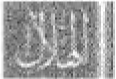
يشتد النغز فى معدته، يشعر أنه يحتضر.. يقول لـ « عبدالكريم»..

– منذ أن ولدت وأنا احتضر.

فيرد عليه قائلاً:

– ومع ذلك لا يجب عليك ان تقارن صور الموت بالليزر والأشعة ، إنك قاصر فى اقتحام المجهول.. اعترف بذلك.. زر الطبيب فى الغد إن بقيت حياً. وسلم الأمر لمن خلقك..

وتنتهى رواية «المصرى» التى كتبها الكاتب المغربى «محمد أنقار» فى «١٨٣» صفحة عن «تطوان» المغربية لكن تحت ظلال شجرة مصرية اسمها «نجيب محفوظ».. إنها محاولة، واعتراف ، وطموح إلى عبقرية فى الحكى والقص نرجوها له، لأنه يستحقها وعليه أن يكتب، وسوف يقرأ الناس هنا وهناك ، كما قرأوا من قبله «لنجيب محفوظ» الذى لم يظلمه ، وإنما هو الذى ظلم نفسه..!! ■



كشف حساب

أجمل روايات أوروبا ٢٠٠٣

بقلم
محمود قاسم

من الصعب أن تقرأ كل هذه الكتب، أيا كانت شهوتك للقراءة.

وفى الصحافة الأدبية العالمية، فإن بعض المحررين يقومون بمساعدة قرائهم فى اختيار الكتب «الواجب» قراءتها وذلك بأساليب عديدة، منها بالطبع عمل عرض جذاب لبعض هذه الكتب، أو نشر قوائم المبيعات بشكل منتظم.

لكن ليس الكتاب الأكثر مبيعا دائما هو الكتاب الأفضل صحيح أنه يعكس أذواق الناس واهتماماتهم وقد يكون أحيانا هذا الكتاب رواية أو كتابا سياسيا أو فكريا لكن الكتب الجيدة لا تحتاج إلى قراءتها فقط يوم صدورها وإنما يمكن للقارئ أن ينتظر ليفعل ذلك فى وقت لاحق.


باتريك موديانو


لوكليزيو




مارتن اميس

ومن هنا جاءت أهمية التحقيق الثقافى الذى أقامته المجلة الفرنسية «لوبوان» فى الفترة الأخيرة. فبعد أن هدأت مواسم الجوائز الأدبية، والتى لم يبرز فيها كتاب أو كاتب بعينه، اختارت عمل لجنة تحكيم خاصة تختار للقارئ أجمل خمس عشرة رواية صدرت

الناس فى العام الماضى، ويمكن للقارئ الذى اقتناها، أو فى طريقه إلى أن يفعل ذلك، أن يضع هذه الكتب فى الأولويات، خاصة فى بلد يلتهم الناس الكتب فور صدورها.

لجنة التحكيم

على طريقة الجوائز الأدبية، تم تشكيل لجنة تحكيم من أدباء وصحفيين موجودين فى الساحة منهم جاك بيير أميت (الذى فاز بجائزة جونكور ٢٠٠٣)، وكلود أرنو- وجان بول انتوفن، ومارك لامبرون (فاز من قبل بجائزة جونكور) ومارى فرانسواز لوكلير، وكريستوف ميرسيه، والأديب المخضرم فرانسوا نورسييه وفيليب نورى وكريستوف أوندبوا، وجيل بودلوفسكى وميشيل شنايدر، والبير صباغ.

وتبعا لهذه الأسماء الكثيرة فقد تم استبعاد العديد من الكتب التى صدرت فى العام الماضى من تأليف أعضاء لجنة التحكيم والتى تدخل فى إطار شبهة المجاملة، مثل كتب الناشرين الصادرة فى مؤسسات يكتب فيها هؤلاء الأدباء والتى بلغ عددها أربعة وعشرين كتابا مما يعنى أنها يمكن أن تدخل فى دائرة الاختيار، خاصة أن كتابا بارزين من طراز لوك بيسون، أصدروا كتبا مهمة فى هذه الفترة وكل جريرته أنه يكتب فى المجلة التى أعدت هذا التحقيق المهم.

الكتاب أم الرواية؟

أول ملحوظة، أنه تم اختيار خمسة عشر كتابا هذه المرة، وليس عشر روايات مثلما حدث فى المرة السابقة، وذلك بسبب اتساع دائرة الاختيار. أما الملحوظة الأهم فإن الكتب المختارة لم تكن كلها روايات مثلما يحدث عادة، بل هناك دراسات أدبية وتاريخية وجمعت أسماء الكتاب بين أجيال عديدة، فهناك أدباء مشهورين مقروئين مثل لوكليز يو وهناك كتاب فازوا بجوائز كبرى من قبل مثل بييركومبسكو صاحب جائزة جونكور، أما الملحوظة الثالثة فهى أن الكتب المختارة لم تكن كلها فرنسية بل تم اختيار الكثير من الروايات والكتب المترجمة مثل رواية «تجربة» للكاتب البريطانى مارتن أميس ورواية «راقص» للكاتب الايرلندى كلوم ما كان وأيضا رواية «نجمة البحار» للايرلندى أيضا جوزيف أوكنور ثم «ملكة الجنوب» للروائى الأسبانى الشاب أرتورو بيريز - ريفين.

يعنى هذا أن الرواية أو الكتاب يجيء فى دائرة الاهتمام قبل اسم الكاتب فهناك كاتبان من ايرلندا فى الأربعين من العمر وموضوع هذه الروايات لا يقترب من السياسة تقريبا، كما أن رواية مثل «راقص» لم تكن محلية بالمرة فالكاتب الايرلندى منبهر بسيرة حياة واحد من أشهر راقصى الباليه فى القرن العشرين هو رودلف نورييف الذى هاجر إلى الولايات المتحدة فى منتصف السبعينات وعاش هناك، وقام ببطولة فيلم عن حياة فالنتينو عام ١٩٨٠.

لم ينتبه أحد قبل الكاتب «ماكان» أن فى حياة نورييف ما يشبه أساطير التاريخ، وأنه يمكن تتبع هذه السيرة فى

صياغة إبداعية قيل عنها إنها مختبر للإعجاب.

أما الكاتب الايرلندى الثانى، فهو ليس بعيدا عن الفن، انه شقيق مطرب الروك سنير أوكنور وهو يذهب فى روايته «نجمة البحار» إلى التاريخ الايرلندى، وبالضبط عام ١٨٤٧ ، أو ما يعرف بعام المجاعة الايرلندية، وتدور الرواية فى سفينة تتجه إلى نيويورك كل ركابها من الذين عانوا من الجوع ، وعليهم البحث عن الشبع بأى ثمن فهناك حياة مشرقة تنتظرهم وأحلام ودهشة وكلما اشتد بهم الجوع زادت أحلامهم ورؤاهم لما ينتظرهم.

الأكثر انقرائية

الكاتب البريطانى مارتن أميس (٥٢ سنة) هو الأكثر انقرائية فى السنوات الأخيرة وهو ابن الكاتب المعروف كنجسلى أميس ، ويكاد يضارعه فى موهبته وأهميته وفى روايته الأخيرة «تجربة» يتابع التوغل فى أسباب العنف فى الحياة المعاصرة خاصة فى بريطانيا حيث يروى فيما يشبه السيرة الذاتية كل ما شاهده ومر به من أحداث عنف أو سمع عنها فى حياته.

أما الأسبانى بريفيت فالقارئ الأوربى يعرفه من خلال روايته السابقة ومنها «لوحة المحامى» ، وتقول مجلة لوبوان أنه الكاتب الأكثر أهمية فى إسبانيا المعاصرة، مولود فى قرطاجنة الإسبانية عام ١٩٥١ منبهر بالكاتب الفرنسى الكسندر ديماس ، وبكافة الروائيين الذين كتبوا عن البحر ، وقد كرس حياته للكتابة عن العوالم نفسها، وفى «ملكة الجنوب» يبتدع شخصية مستوحاة من رواية «الكونت دى مونت كريستو» فيتخيل أن لبطل الرواية أدمون دانت ابنة عم وأنها تبحر فى إحدى السفن من أجل القيام بتجربة أقرب إلى تلك التى عاشها ابن عمها.

الكتاب يكسب

ليست كل الكتب الأكثر أهمية من الروايات كما أشرنا، وقد حظى كتاب عن المفكر الفرنسى شاتوبريان للمؤلف مارك فومارولى بدرجة الصدارة ضمن الكتب الخمسة عشر الممتازة، والكتاب بعنوان «الشعر والرعب» وهو عنوان غريب لكتاب يقدم صورة حية لمفكر وأديب شغل بال الناس طوال قرون ، امتزجت حياته بالشعر والحب والسياسة والايدولوجية، وقد غاص المؤلف فى كافة هذه الوجوه للكاتب وأضاف حسا خاصا على الشخصية التى اختارها.

والجدير بالذكر أن كتابا مشابها قد لاقى النجاح نفسه للمؤلف أصدره قبل عامين باسم «مذكرات الجانب الآخر من المقبرة».

أما الكتاب الثانى ، غير الابداعى ، فى هذه المجموعة فيحمل عنوان «تاليران، الأمير الساكن» للمؤلف ايمانويل دوفارسكويل، الذى يعود أيضا إلى التاريخ الفرنسى القديم ويقدم سيرة حياة أحد رجال السياسة وهو ريشيليو ، ويغوص فى هذه السيرة لواحد من أكثر

من أثروا في تاريخ فرنسا وهو نفس السياسي الذي جعله الكسندر ديماس بطلا لروايته الشهيرة «الفرسان الثلاثة» وغيرها.

أهم ما في هذا الاختيار على الاطلاق هو أن الروائي باتريك موديانو لايزال في الصدارة، وهو الكاتب الأكثر أهمية فعلا منذ عام ١٩٦٨ حتى الآن، والذي تمت ترجمة بعض أعماله في مصر منها «شارع الحوانيت المعتمة» (روايات الهلال) و«الحي الضائع» (الروايات العالمية)، فقد حققت رواية موديانو الأخيرة «حادث عادي» نجاحا لا يقل عن بقية رواياته التي يعزف فيها الكاتب على تفاصيل حياة الناس العاديين الذين نلقاهم كل يوم من حولنا في كل مكان.

تدور أحداث الرواية في باريس في شارع الأهرامات حادث عادي أبطاله امرأة مجهولة، ورجل ملئ بالطاقة، وحكاء يتذكر ماضيه من خلال ما شاهده، تتوافد صور الطفولة وأوراق الشباب، ووجوه شبحية عرفها، نسي أسماء أصحابها، تبقى منها هالات غير محددة هي تقريبا نفس الوجوه التي ألقاها من قبل في كافة رواياته السابقة.

ويعود الكاتب الفرنسي بول كلوديل إلى عام ١٩١٧ في روايته «النفوس المحترقة» من خلال قصة مصرع قزمة جميلة، ويقوم مخبر تحر بالبحث عن أسباب قتلها والفاعل . ونحن هنا لسنا أمام رواية بوليسية، بل هناك تكشف حقيقي لما يدور في أوروبا أثناء الحرب العظمى والجدير بالذكر أن هذه الرواية فازت في نوفمبر الماضي بجائزة رينودو.

كما أن الكاتبة الشابة لور مورا تعود إلى الحقبة نفسها في روايتها «ممر الأوديون» من خلال امرأة تدعى أدريان مونييه قامت بتأسيس مكتبة في ميدان الأوديون في عام ١٩١٥، وقد شجعت هذه التجربة نساء أخريات على إنشاء مكتبات مشابهة مما جعل من هذه المنطقة سوقا خاصا للنشر وتصنيع الثقافة.

وإلى عام ١٩٦٣ يعود الكاتب الشهير لوكليز يو بروايته الجديدة «ثورات»، إنه العام الذي تم فيه اغتيال جون كيندي ، وأيضا هو العام الذي هبط فيه لوكليز يو فوق كوكب الأدب، هذه الرواية الجديدة تدور أحداثها منذ العام الثاني للثورة الفرنسية ١٧٩٠ وحتى عام ١٩٦٩ ، حين هبط الإنسان فوق سطح القمر لكن الكاتب لا يتحدث عن كيندي ولا عن الثورة ولا القمر ، بل عن أسرة غامضة، كمية أسرارها أكثر بكثير مما يعرفه الناس عنها.

هناك بالطبع كتب أخرى، بالغة الأهمية منها «نوافذ على العالم» لفردريك بيجيرر و«حياتي وسط الظلال» لريشار ميليه وداعاً لفرنسا الغابرة» حول مصير فرنسا وأوروبا وسط العولمة المتجددة بجنون، ولا شك أن هذه الكتب تعكس أحوال الابداع، والكتب في أحسن أحوالها كما أن هذا التحقيق قد يدفع صحفنا ومجلاتنا أن تغير الأسلوب العظيم لاختيار «الأفضل» مع نهاية كل عام. ■

مهنة المخرجات

فى عالم معاد للنساء

بقلم
مصطفى درويش

النساء أينما كن مضطهدات، سواء أكن فى الهند، أو أفغانستان، فى الولايات المتحدة أو فى اليابان.

وإذا كان ثمة فرق يميز بلدا عن بلد فى هذا الشأن، فينحصر فى درجة الاضطهاد...

فمثلا هوليوود، حيث للنساء منزلة كبيرة، خاصة فى كل ما يتصل بمهنة التمثيل، لم تسلم هى الأخرى من اضطهادهن، وذلك بتمييز الرجال عليهن فى مهنة الإخراج، التى تعتبر، بحق، عصب صناعة الأفلام.

فنادرا ما نرى اسم امرأة بوصفها مخرجة لفيلم مع أسماء صانعيه، وهى تظهر تباعا على الشاشة البيضاء.

المرشحون الخمسة لأوسكار أفضل مخرج تتوسطهم صوفيا كوبولا



فباستثناء «ك-١٩، صانعة الأرامل»، ذلك الفيلم الذي عرضت فيه مخرجته الأمريكية «كاترين بيجلو» لمأساة بحارة غواصة روسية، تحمل رؤوسا نووية، أثناء الحرب الباردة، أقول باستثنائه، لم أشاهد أي فيلم آخر لمخرجة أمريكية، بدءا من شروق شمس القرن الواحد والعشرين، وحتى يومنا هذا.

وهنا لا يفوتني أن أذكر أن صاحبته تعد أول امرأة في تاريخ السينما، تتاح لها فرصة إخراج فيلم بتكلفة إنتاج جاوزت التسعين مليون دولار.

أوسكار والنساء

هذا وليس أدل على التمييز الذكوري للرجال على حساب الجنس اللطيف في مجال الإخراج، ما هو ثابت على وجه اليقين، من أنه لم يجر ترشيح أية مخرجة لجائزة أوسكار، خلال ستة وسبعين عاما، عمر تلك الجائزة إلا مرتين.

كما لم تتوج بها أية مخرجة، إلا مرة واحدة.

وفي مرتي الترشيح، لم تكن المخرجة أمريكية، وإنما من جنسية أخرى.

مرة إيطالية «لينا فيرتمولر» عن فيلمها «الجميلات السبع» (١٩٧٦) ومرة أخرى نيوزيلاندية «جان كامبيون» عن «البيانو»، ذلك الفيلم الذي خرج من مهرجان كان «١٩٩٣» بجائزته الكبرى «السعفة الذهبية».

وخرجت صاحبته من حفل توزيع جوائز أوسكار «١٩٩٣» فائزة بجائزة أفضل مخرجة، لأول وآخر مرة في تاريخ مصنع الأحلام.

انهيار الأسوار

وعلى كل، فالآن، وبعد مائة عام سينما، أو يزيد، وبعد مرور أكثر من عشرة أعوام على فوز أول مخرجة بجائزة أوسكار.

ها نحن نشهد سور الانحياز للرجال ضد النساء في مجال الإخراج، وهو على وشك السقوط والانهيار.

فلأول مرة في تاريخ هوليوود تلمع أسماء كوكبة من المخرجات الواعدات الصاعدات، وذلك بفضل أفلام من إبداعهن، تحظى بثناء النقاد، في شبه إجماع، وترشح للعديد من جوائز المهرجانات والاحتفالات السينمائية، والكرة الذهبية، وبافتا، وأوسكار.

ومن بين هذه الأفلام أذكر «روعة أمريكية»، «متوحشة»، «ثلاثة عشر»، «أحد يجب أن يعطى» و«فقد في الترجمة».

والفيلم الأخير للمخرجة «صوفيا كوبولا» ابنة المخرج «فرانسيس فورد كوبولا»، صاحب ثلاثية، الأب الوحي، ذلك الحدث السينمائي الكبير.

«وفقد في الترجمة» ثاني فيلم تخرجه «صوفيا»، بعد «انتحار العذراوات» الذي قامت بإخراجه قبل خمسة أعوام.

وهو مأخوذ عن سيناريو من تأليفها،

ومن بين مزاياه، قلة تكاليف إنتاجه التي لم تصل حتى إلى أربعة ملايين دولار، رغم تصويره في طوكيو التي تعتبر واحدة من أغلى مدن عالمنا.

هذا، ولم يستغرق تصويره سوى سبعة وعشرين يوما.

ترشيحات بالجملة

وعنه رشحها اتحاد المخرجين بالولايات المتحدة كأفضل مخرجة كما رشحتها الأكاديمية البريطانية «بافتا»، ضمن خمسة مخرجين لجائزة أفضل مخرجة.

وقريباً من نهاية يناير أعلن عن ترشيحها هي والسيناريو لجائزتي أوسكار أفضل مخرج وسيناريو.

وبذلك أصبحت أول مخرجة أمريكية يجري ترشيحها لأوسكار.

والمنافسون لها، كلهم من الرجال، بطبيعة الحال وهم البرازيلي «فرناندو ميرليس» صاحب «مدينة الرب» و«النيوزيلاندي»، «بيتر جاكسون» صاحب ثلاثية «سيد الخواتم»، وترشيحه عن جزئها الأخير «عودة الملك» والاسترالي «بيتر وير» صاحب «سيد وقائد- الطرف الأقصى من العالم» والأمريكي «كلينت ايستوود» صاحب «النهر الغامض».

وأغلب الظن، أنه عند الإعلان عن الفائزين والفائزات يوم التاسع والعشرين من فبراير لن تكون أوسكار أفضل مخرج من نصيب «صوفيا»، وإنما من نصيب صاحب ثلاثية «سيد الخواتم».

شق الطريق

وعلى العموم، فصوفيا بفوزها بالترشيح لأوسكار أفضل مخرج، قد شقت الطريق للنساء.

والمأمول أن يلعب فوزها دوراً في إضعاف التمييز الذكوري للرجال على حساب النساء عندنا، حيث تعاني المخرجات منه، ربما بدرجة أكبر، وأكثر تأثيراً.

وآية ذلك، قلة عددهن، بحيث قد لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة..

هذا إلى أنه نادرا ما تلمع أسماء جديدة لمخرجات، ونادرا ما تتاح لمن يبتسم لهن القدر من بينهن، حينا من الزمان، فرصة إخراج أفلام روائية طويلة، بانتظام.

مولد مخرجة

ومن هنا الحماس عند سماع اسم المخرجة الشابة «كاملة أبو ذكرى» يتردد في وسائط الإعلام، مبشراً بأن مسيرتها في دنيا صناعة الأفلام الروائية الطويلة قد ابتدأت بفيلم جديد اسمه «سنة أولى نصب».

ولأنها عانت من التمييز الذكوري طويلا، فلم تتح لها فرصة إخراج فيلم روائي طويل، إلا بعد انقضاء عدة أعوام على إخراجها فيلمها الروائي القصير



خالد سليم
وداليا البحيرى وأحمد عز ونور
فى «سنة أولى نصب»

«قطار الساعة ٦» الذي يدور حول رجل ريفي عجوز «أدى دوره الفنان الراحل محمد توفيق»، يصحو من نومه، ويرتدى ملابسه، لا لعمل شئ سوى انتظار قطار السادسة، الذي يفترض أن يكون ابنه العائد من الحرب، مستقلا له.

ويصل القطار دون ابنه، ومع ذلك لا ييأس العجوز ويقوم يوميا بالرحلة إلى محطة القطار، وكله أمل فى أن يجنى ثمرة الانتظار.

النهج السليم

فقد كنت على يقين أو ما يقرب اليقين من أنه لو أتيحت لها فرصة إخراج فيلم روائى طويل، بعد معاناة الانتظار رغم فيلمها الجميل، أن تبث فى فيلمها الجديد شيئاً من معاناة المرأة، فى مجتمع لا يقيم وزنا لقضية مساواة النساء بالرجال، فى الحقوق والواجبات.

أى أن تسير على نهج، المخرجات الشابات اللائى سبق لهن أن أخرجن أفلاما عرضن فيها بوضوح وجلاء لبعض القضايا المتصلة ببنات حواء.

ومن بينهن أذكر على سبيل المثال «صوفيا كوبولا» و«سميرة» ابنة المخرج الإيرانى «محسن ماخمبلباف»، ذلك الرائد الرائع، الذي يقف للدعاوى الملالى بالمرصاد.

فكلتاهما بدأت الإخراج بأفلام تنتصر لقضايا المرأة، الأولى بانتحار العذراوات، «١٩٩٩»، والثانية بفيلميها «التفاحة» «١٩٩٨» و«السبورة» «١٩٩٩»، ذلك الفيلم الذى جرى اختياره قبل أربعة أعوام للمشاركة فى المسابقة الرسمية لمهرجان كان، حيث فاز بجائزة التحكيم.

ومما قوى يقينى بأن المخرجة ستنجح فى فيلمها الأول إلى مناصرة المرأة، مثلها

فى ذلك مثل «صوفيا» و«سميرة» قيام فيلمها على سيناريو من تأليف كاتبة وأستاذة مرموقة فى معهد المسرح، الدكتورة «سميرة محسن».

ولكن، خابت توقعاتي، عندما شاهدت «سنة أولى نصب».

قوة التدمير

فقد وجدته منقطع الصلة بمشاكل المرأة، وما تعانيه فى مجتمعنا.

لا يحاول الاقتراب منها، ولو من بعيد.

فضلا عن إنه لا يختلف موضوعا وشكلا، عن أى فيلم للمخرجين الشبان، الذين ملأوا الدنيا صخبا، بشعارات لا تقول فى نهاية الأمر، شيئاً.

فقصته ليست جديدة، وذلك لأن فيها من ملامح الأفلام المصرية القديمة والحديثة الشئ الكثير.

ولن أعرض لتفاصيل القصة التى تدور حول شابين، دفعتهما البطالة والحاجة إلى النصب والاحتيال، فذلك شئ يطول.

وإنما أكتفى بأن أقول بأنها ليست مستمدة من بيئتنا، ولا قريبة من نفوسنا، ولا نابعة من تقاليدنا وعاداتنا وتصرفاتنا، فضلا عن أنها حافلة بالمفاجآت واللقاءات المفتعلة بين بطلى الفيلم «خالد سليم» و«أحمد عز» وبطلتيه «داليا البحيرى»، و«نور».

نصف مسئولية

يبقى لى أن أقول:

أولاً: أن المخرجة وإن كانت ليست صاحبة القصة إلا أنها مسئولة عنها نصف مسئولية.

فهى التى ارتضت أن يتمحور حولها الفيلم.

أما مسئوليتها الكاملة، فهى عن الإخراج الذي جاء مفتقدا لأى شئ جديد.

ثانيا: أن الممثلين باستثناء «خالد سليم» كانوا عناصر طيبة، آلات جميلة وطيعة، فى يديها.

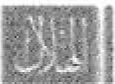
أما لماذا استثنيت «خالد سليم» نجم الفيلم الذى جمع بين التمثيل والرقص والغناء، فذلك لأنه أمام عين الكاميرا، كان جامدا، كجلمود صخر، عاجز عن التعبير.

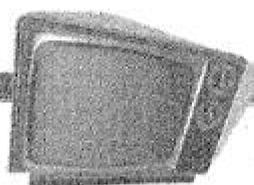
ثالثاً: أن «أحمد عز» تقدم كثيراً كممثل، ولعل الفضل فى ذلك يرجع إلى «كاملة»، صاحبة الفيلم، وقدرتها على تحريك الممثلين على أحسن وجه.

الطريق الآخر

وختاما، فالأكيد أن كاملة أبو ذكرى باختيارها «سنة أولى نصب» ليكون أول أفلامها، قد اختارت طريق الاستسهال.

وحتى لا تحيد عن طريق مناصرة المرأة وقضاياها، فيما هو آت لها من أفلام، عليها أن تتعلم الكثير، لاسيما من أفلام «صوفيا» و«سميرة»، بما تحمله من معان سامية، وأفكار رائدة.. ■





المتفرجة

بقلم

مرفت رجب

الجائزة «٢»

تنفسنا الصعداء فلقد أوقف السائق السيارة بعد أن خاض بنا ما ظننته مغامرة بغير ضرورة، كان أثناءها يغوص بنا غياهب الجانب الغربى من الطريق المتجه إلى واحة الفرافرة ولما لم تكن الفرافرة بغيتنا، ولما كنا من قبل قد توقفنا عند منطقة «عجبات» ونهلنا من أعاجيبها ما ملأ أرواحنا بزاد خلته يكفينا لسنين، كان السؤال يلح على رأسى، هل يستعرض السائق قدراته على صعود المرتفعات والهبوط منها بسلاسة السابح بطل عبور البحار على ما فيها من أنواء ولكنه حين توقف وقال تفضلوا، نزلنا، وقبل أن نستجمع كياننا الذى بعثرته أهوال المغامرة جاء صوته: «من هنا .. شوفوا» وإذ بأصواتنا جميعا من صدورنا فى تسبيحة جماعية مأخوذة بما انتثر قبالتنا على الصحراء الممتدة على مدى البصر من كتل حجرية بدت لأول وهلة كأنها عشرات الخيام المصطفة فى شبه انتظام مخيمات الحجيج فى عرفات، وماهى بخيام .. وإنما هى تنويعات حجرية على هذا التكوين الربانى الأخاذ .



تتابعت الأسئلة المتعجبة على ذهني من أين أتى هذا السائق بمواهب التشويق وترتيب المشاهد بما يكفل الانبهار ويثير في الوجدان أن هذه الشحنة من الانفعالات والأفكار. لم يكن بالقطع مصوراً تليفزيونيا ولا كانت له سابق خبرة بعالم السينما وحرفياتها إنه مجرد سائق محترف قدمه لنا صاحب الفندق الذي أقمنا فيه على أنه سائق ماهر من أبناء الواحات الأصلاء .. جاء كل ذلك وغيره مما رأيته في تلك الرحلة ليعمق الإحساس بضآلة ما نعرفه عن أهل مصر من سكان الواحات وما يحيط بهم من صحارى حافلة بالكنوز والحكايات لا نجد لها أثراً على شاشاتنا، وكأن قرار التجاهل قد اتخذ مع سبق الإصرار والترصد . هل هناك وجه شبه بين مثل هذا القرار وبين موقف كتاب التاريخ من الأمريكيين الذين عارضهم هوارد زن في كتابه «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة الأمريكية» والذي فاز عنه بجائزة لوموند الدبلوماسي لعام ٢٠٠٣.

الأكاديمي

يؤكد لنا هوارد زن على ملمح رئيس غائب عن التاريخ الرسمي للولايات المتحدة وهو ما يجعل فكرتنا عن الماضي مشوهة - بل والأخطر من ذلك - أنه يوقعنا في أخطاء بشأن الحاضر ويبدأ في ضرب الأمثلة بادئا بالنص الوارد في الدستور الأمريكي «نحن الشعب» We the People ويشرح لنا خداع العبارة، ففي عام ١٧٨٧ قام خمسة وخمسون شخصا بوضع الدستور ، كانوا جميعا من البيض مالكي العبيد أو التجار وكانوا عازمين على تكوين السلطة التي تمكنهم من حماية مصالح طبقتهم . ويحكي لنا هوارد زن كيف أن مصالح الحكام تتخفى دائما وراء ستار يسمى «المصلحة الوطنية» .

ولقد حرص أستاذ التاريخ الأمريكي Howard Zinn صاحب كتاب «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» أن يضمن كلمته التي ألقاها وهو يتسلم الجائزة عن ذلك الكتاب ، مجموعة من الأدلة التي استقاها من خبرات عاشها ، فيقول: «إن خبرتي الشخصية في الحرب، وبالتالي في تاريخ كل التدخلات العسكرية الأمريكية ، توقظ شكوكي في كل مرة استمع فيها إلى مسئول أمريكي كبير يتحدث عن «المصلحة الوطنية» أو عن «الأمن القومي» تبريرا لسياساته . فبمثل تلك المبررات قام الرئيس الأمريكي هاري ترومان في عام ١٩٥٠ بشن ما أطلق عليه مهمة بوليسية Police Action ، وهو العمل الذي راح ضحيته مليونا شخص في كوريا، وبمثل تلك

المبررات قام ليندون جونسون وريتشارد نيكسون بالحرب الفتاكة فى الهند الصينية، وبنفس المبررات قام رونالد ريجان بغزو جرانادا Grenade فى عام ١٩٨٣ ، كما قام بوش «الأب» بالهجوم على بنما فى ١٩٨٩ ثم على العراق بعد عامين من ذلك التاريخ وبالمثل بدأ كلينتون عمليات ضرب العراق بالقنابل بدءا من عام ١٩٩٣، ولقد استخدموا جميعا نفس المبررات ثم يأتى دور «بوش الجديد» ليشرح لنا قيامه بغزو العراق بدافع من «المصلحة الوطنية» ويالها من مسخرة!! إذ لم يكن من الممكن لهذه المقولة أن تحظى بأى قبول فى الولايات المتحدة دون تغليفها بالعديد من الأكاذيب الحكومية والإعلامية بشأن «أسلحة الدمار الشامل» وروابط مزعومة بين العراق والقاعدة. ويمضى المؤرخ الأمريكى هوارد زن فى كلامه ليؤكد لنا أن «الانخفاض الحالى الملحوظ فى شعبية جورج بوش يرجع إلى تزايد حجم إدراك مزيد من الأمريكيين لحجم التزييف والكذب فيما يصل إليهم من معلومات رسمية .. ويأتى هذا التراجع فى شعبية بوش بالرغم من التعاون الوثيق بين الحكومة والاعلام وهو بشكل عام ما تتسم به الأنظمة الديكتاتورية وليس الديمقراطية ويمضى زن فيقول «لقد بدأ مفهوم الحرب القصيرة الخالية من الآلام يذوب تدريجيا مع زيادة حالات قتل الجنود الأمريكيين بالمئات، والجرحى يصلون إلى الألف وربما الألفين، حتى إن الممثل الأمريكى شير Cher ظهر على إحدى القنوات التليفزيونية المشفرة ليحكى عما رآه فى واحدة من مستشفيات واشنطن من جنود فقدوا بعضا من أطرافهم ، إما الذراع أو الساق أو الاثنين ويتعجب شير من ضياع شباب هؤلاء المحاربين ، كما يتعجب من مبررات تلك الحرب .

ونعود لمتابعة ما استمعنا إليه من كلام المؤرخ الأمريكى هوارد زن الذى يوضح وجهة نظره قائلا: «نحن نحاول أن نوضح للأمريكيين ما يلتزم الإعلام الصمت بشأنه ، مثل هؤلاء العشرة آلاف وربما الثلاثين ألف عراقى من المدنيين الذين راحوا ضحية تلك الحرب، ذلك أننا نتمكن - بفضل الاحتلال الأمريكى للعراق - من مهاجمة المدنيين وسجن الأبرياء بصرف النظر عن عمرهم، وقذف الأحياء السكنية بقنابل زنة ٢٥٠ أو ٥٠٠ كج .

ويعود المؤرخ للإشارة المباشرة لكتابه الفائز بالجائزة ويقرر: «حين عزمت على كتابة التاريخ الشعبى للولايات المتحدة، اخترت أن أحكى تاريخ الحروب التى خاضها الوطن، ليس من وجهة نظر جنرالات الحرب أو السياسيين الدوليين، وكذلك من وجهة نظر زوجاتهم وأبنائهم وأمهاتهم الذين يفاجأون فى يوم من

المنفرجة

الأيام بتسلم برقية تعزيهم في موت ذويهم في الحرب .

ولقد كانت رغبتي كذلك، أن أحكي تاريخ الولايات المتحدة من وجهة نظر «الأعداء». المكسيكيون الذين تعرضوا للغزو الأمريكي، والكوبيون الذين استولى الأمريكيون على أراض لهم في ١٨٩٨، والفلبينيون الذين عانوا أوائل القرن العشرين من حرب كريهة مدمرة راح أثناءها أكثر من ستمائة ألف فلبيني ضحية معارضتهم للأمريكيين الذين كانوا قد عقدوا عزمهم على غزو الفلبين .

ويفاجئ زن Zinn سامعيه بطرح السؤال «ماذا يحدث للسياسة الخارجية للولايات المتحدة إذا ما محونا من نفوسنا، من عقولنا وأرواحنا كل ما يتصل بالحدود الدولية، لننظر لكل طفل على أنه واحد من أبنائنا بصرف النظر عن مكانه على الأرض . لو كان ذلك قد حدث، لما ألقيت مثل تلك القنبلة الذرية على هيروشيما، ولما ألقيت قنابل النابالم على فيتنام أو أفغانستان أو العراق ...

«إنني حين أمسكت بالقلم لأسطر صفحات كتابي هذا كنت مشحونا بكل ما عشته - بداية - مع والدي في مجتمع السود ثم من بعد في الجامعة، مكافحا ضد التمييز العنصري..

ولقد كنت على طول الخط آخذا في حسباني أن ما نتعلمه في دراستنا للتاريخ ينحي جانبا كل ما ليس له صلة بالبيض، ومن المؤكد أن الهنود كانوا أكثر عرضة للإغفال، أما السود فإنهم يظهرون في ذلك التاريخ كعبيد ثم كبشر محررين في الظاهر ، ولكننا دائما نجد الرجل الأبيض يلعب أول الأدوار ... حتى على مستوى المراحل الأولى من الدراسة في المدرسة، لم يكن مسموحا أن يتاح لنا معرفة أن وصول كريستوفر كولمبس إلى العالم الجديد كان مرادفا لإبادة الشعب الهندي الذي كان يعيش على جزيرة اسبانيولا (وهي المقسمة حاليا بين جمهوريتي هايتي والدومينيكان» علمونا الكثير عن توسع الدولة الجديدة، لكن أحدا لم يعرفنا أن ذلك التوسع كان يعني طردا قسريا للهنود من كافة أنحاء القارة...

إنني ، على طول دراستي للتاريخ، لم أسمع أحداً يتحدث عن القتل المتكرر للسود بينما الحكومات ماضية في صمتها الأصم منتشية بالدستور الضامن للمساواة في الحقوق ... إن هدفي من كتابة «التاريخ الشعبي» هو أن أساهم في خلق الوعي بالصراع بين الطبقات وبالظلم وغياب العدالة بين الأجناس ، وكذلك لأنبه إلى الغطرسة الأمريكية .

كـمـا أنني بالمثل أريد أن أسلط الأضواء على مقاومة مؤسسة السلطة، وعلى رفض الهنود أن يموتوا وأن يبادوا وكذلك على تمرد السود على العبودية ثم على الفصل العنصري ثم على اضرابات الطبـقـة العـاملة... ذلك أن حـذف تلك الأعمال من نماذج المقاومة - مهما كانت ضـآلة ثمارها - يؤدى إلى الاعتقاد بأن السلطة لا يتمتع بها سوى من يملك القوة والثـروة . إننى آمل فى التـذكـيـر بأن المعوزين (من العمال والملونين والنساء) بمجرد أن ينظموا أنفسهم ويبدأوا فى إظهار احتجاجهم على مستوى الوطن فإنهم يتحولون إلى قوة لا تستطيع أية حكومة أن تغفلها ببساطة» .

ويختتم المؤرخ الأمريكى Howard Zinn كلامه بعبارة صريحة صراحة ما سبقها من شهادات: «إذا كان للتاريخ أن يبدع ويبشر بمستقبل لا يلغى الماضى، يجب أن نقدر الإمكانات الجديدة ونكشف عن كل ما تم سجنه فى الظلام .. وأمل فى أن يتشكل مسـتـقـبلنا من لحظات التضامن المحفورة فى ذاكرتنا من قرون الحروب المتعاقبة ».

وتشبثاً منى بنبرة الأمل التى أنهى بها هوارد زن كلامه عن كتابه الذى أهله للجائزة، فإننى أفضل أن أنحى جانبا كل مـا يطرأ على الذهن من مـلابسـات التواطؤ على صحارى بلادنا بما فيها من ألوان الحياة البشرية والنباتية والحيوانية وما يصيب تراثها وبقاعها من تشوية وانتهاك، ذلك أننى مازلت متشبثة بالأمل فى ظهور مجموعة من المبدعين المتخصصين فى فنون الانتاج لشاشاتنا، ينجزون لصحراء مصر ما أنجزه هوارد زن لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ولن تكون الجوائز ساعتها من نصيبهم وحدهم، وإنما ستشمل أهل مصر أجمعين. ■

كلمات عاشت

ربما قامت عظمة المهنة ، قبل كل شيء ، بتأليف البشر ويضمهم بعضهم إلى بعض .. حينما يشدنا إلى إخوتنا هدف واحد ، خارج عنا حينئذ . فقط ، نتنفس الصعداء ، لأن الاختبار يعلمنا أن الحب لا يتحقق ، بأن ينظر كل منا إلى الآخر ، بل بأن ننظر معاً فى اتجاه واحد .

« أنطوان اكزوبيري »

إن دعاة التفوق العنصري الأبيض يتوهمون أن المعركة ، معركة أعداد ، وأنها معركة عنصرية ، وأنها معركة بين الأسلحة الحديثة ، والأسلحة البدائية ، ولكنها ليست كذلك، إنها معركة الحق ضد الباطل ، والخير ضد الشر .

« البرت لوتولي»



مرارة محمود شاكر في حلوق الجميع اليوم



بقلم
عبدالرحمن شاكر

أكتب هذا المقال فى مجلة الهلال العريقة التى فتحت صدر صفحاتها لى، منذ أكثر من عشرين عاما، فى وقت أوصدت فيه أمامى منافذ أخرى للتعبير.. تعقيبا على ما كتبه السفير حسين أحمد أمين فى جريدة القاهرة، بتاريخ ٣ فبراير الفائت، عن لقائه بالأديب الكبير الراحل محمود محمد شاكر، وتابعه فى ذلك معجبا بما كتب، على صفحات ذات الجريدة بتاريخ ١٠ فبراير، كاتب أقرأ اسمه لأول مرة، وهو الأستاذ محمد محمود عبدالرازق، الذى تكلم عن لقاءين له بالأديب الراحل، ويأتينى هذا المقال بعد أن وصلت إلى ذات الحالة، التى وصفها حسين أحمد أمين فى كلامه عن عمى الأستاذ محمود شاكر، بأنه «قد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف ونظره يذهب»!





في ذكرى العلامة محمود شاكر

واقعة يوم ١٦ ديسمبر ١٩٩٦ كنت في دار الشروق أتحدث وصاحب

المعلم حيث أخبرني أنه ينوي القيام في الثامنة مساء بزيارة لمحمود شاكر في منزله..

بمناسبة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته.. ولما كنت شديد

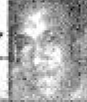
مقابلة شاكر منذ قراءتي للكتاب الغريب «أباطيل وأسمار» والمقدمة الثلاثة لكتابه عن المتنبي، ومن

تقدير لجهوده الفذة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعه عن شخصيته القوية، وآرائه الغريبة، وأمثاله

في حضرة المحموم به من حوارييه رغم حدة طبعه وسلاطة لسانه.. فقد رحبت بمرافقة المعلم إليه

خالجنا سروره شيء من الوجل والرهبة والخشية من الاصطدام وإن كان قد قرأ بعضا من

مقالاتي في مجلة «المصور» أو كتابي «حقيقة المسلم المزيفة».



حسين أحمد أمين يكتب عن:
شيخ محققي التراث العربي

تكلم حسين أحمد أمين وتابعه كثيرا عن «فظاظة» الأديب الراحل «وسلاطة لسانه»، وطعنه فيمن يسمونهم رموز الثقافة العربية، ونسي كل من الكاتبين أن الأستاذ محمود قد نشأ في جيل كان من أكبر أعلامه الثقافية، كل من المرحوم عباس محمود العقاد، والمرحوم مصطفي صادق الرافعي.

وكما روى المرحوم سعيد العريان في كتابه «حياة الرافعي»، كان العقاد يسمي الرافعي «المهندار الأصم» حيث كان الأخير فاقد السمع، وفي مقابل ذلك كان الرافعي يسمي العقاد «أحمق الدولة»، فضلا عن الكتاب الذي ألفه الرافعي في هجاء العقاد وسماه «على السفود» ولم يضع اسمه عليه، بل ترك ناشره إسماعيل مظهر، يكتب على غلافه أنه بقلم «إمام من أئمة الأدب العربي»! فضلا عن موروث الأدب العربي من أهاجي المتعاصرين، مثل «نقائض جرير والفرزدق» وأهاجي حماد عجرد لبشار بن برد وابن الرومي للبحتري وهلم جرا! على أن أشد «هجاء» وجهه محمود شاكر إلى لويس عوض هو وصف عمله بأنه «لعب ولغوصة» في كلام العرب، وبأنه «شرلتان»، وذلك لأن الدكتور لويس قد أقدم على عبث شديد باللغة، حينما حول «الصليان بالياء» في قصيدة للمعري وهو نبات تأكله الأبل، إلى صلبان بالباء وزعم أنها في وصف حلب! وزعم أن «وردة كالدهان» في ذات القصيدة، بل في القرآن الكريم وتفاسيره هي «روزامسكيتا» الواردة في ثقافات أخرى، بينما المقصود هو حمرة اللون فحسب، كما بين شاكر في كتابه «أباطيل وأسمار»، وغير ذلك كثير، منها قراءته لما ذكره الجبرتي عن لجوء الإماء الحبشيات إلى معسكرات الفرنسيين بأنها كانت «لما علمنه من رغبة القوم في مطلق الأنثى»، وتفسيرها بأنها رغبتهم في تحرير المرأة! ولم تكن رغبتهم تعود مجرد الرغبة «البيولوجية» في الأنثى.

أما ما كتبه المعجب بالصورة التي رسمها حسين أحمد أمين لشاكر عن «ادعاءاته الظالمة» فيما يتعلق «بسرقات توفيق الحكيم من الكتاب الأوروبيين». فقد سبقه إلى ذلك من قديم المرحوم

أحمد رشدي صالح في جريدة الأخبار عن سرقة فكرة الحوار مع الحمار من كاتب أسباني، وقد نشرت بعض الصحف صفحات من كتب الحكيم وبجانبها صور من أصولها الأوروبية، وأظن أن المرحوم الأستاذ يحيى حقي هو من كان يدل الأستاذ شاكر على ما يسطو عليه الحكيم من كتابات الكتاب الفرنسيين، وإذا كان لي أن أدلي بشهادة خاصة ، فقد عرض التليفزيون المصري في إحدى سهراته فيلما فرنسيا تدور قصته عن الصديق الذي يقع في غرام صاحبته أو خطيبة صديقه دون أن يدري ، واقتبس منها توفيق الحكيم قصته التي صورت فيلما بعنوان «رصاصة في القلب» ولا يعني ذلك أن كل أعمال الحكيم مسروقة من آخرين كما تساءل الكاتب متنكرا !

السطو والاستشراق

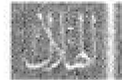
ويقودنا ذلك إلى قضية السطو ومتابعة المستشرقين فيما يذهبون إليه من أحكام مغرضة على الثقافة العربية والإسلامية.

لقد انفصل محمود شاكر عن السرب الأدبي الذي كان عميده هو أستاذه المرحوم الدكتور طه حسين، أقول انفصل مبكرا في سن التاسعة عشر وترك كلية الآداب في السنة الثالثة قبل موعد تخرجه بعام واحد ، لأنه اقتنع بأن الدكتور طه في كتابه عن الشعر الجاهلي ، قد ارتكب خطأين: الأول منها هو «سطوه» على مقالة المستشرق مرجليوث ، في هذا الموضوع مما يعتبر مخالفة للأمانة العلمية، والثاني هو متابعته لرأي هذا المستشرق فيما ذهب إليه من ادعاء أن الشعر الجاهلي لا أصل له، وأنه كله قد وضعه الرواة بعد ظهور الإسلام، وقد حاول أحد أساتذة «الفتى محمود شاكر» وهو المستشرق الإيطالي نالينو أن يثنيه عن عزمه على ترك الجامعة، فكان شرطه لذلك أن يعترف الدكتور طه بأنه أخذ كتابه عن مقالة مرجليوث، وقد عاد الدكتور طه بالفعل عن هذا الطريق ولكن في وقت متأخر، حينما راح يشرح بعض قصائد الشعر الجاهلي في «حديث الأربعاء» أذكر منها شرحه لمعلقة لبيد بن ربيعة العامري ومطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها

وعلى ذكر نالينو، فربما يهم الأستاذ حسين أحمد أمين أن يعلم، أنه قد عرض على الأستاذ محمود شاكر أن يذهب معه إلى إيطاليا، لكي يمنحه درجة الدكتوراه مباشرة من إحدى الجامعات الإيطالية، عن كتابه «المتنبي» الذي صدر في عام ١٩٣٦ في عدد خاص من المقتطف، وحاز به الأستاذ محمود وهو في السابعة والعشرين شهرة واسعة، جعلت بعض الصحف بعد ذلك، ومنها «الدستور»، تنشر مقالاته في صدر صفحتها الأولى، كما كانت تفعل الأهرام بالنسبة لقصائد أحمد شوقي أمير الشعراء ، وتكتب تحتها اسمه وتقول «بقلم الأديب النابغة فلان»، وحينما توفي والده المرحوم الشيخ محمد شاكر عام ١٩٣٩، كتب أحد من أنبوه في الصحف: «من أولاده الكاتب اللوذعي الذي لا يشق له غبار الأديب المؤرخ الأستاذ محمود محمد شاكر».. وهلم جرا، وبعد ذلك يأتي حسين أمين وسواه يزعمون أنه كان ينفس على مشاهير الأدباء شهرتهم ولذلك كان يهاجمهم، بعد أن «فشل» في أن ينتج بقدر ما أنتجوا من أدب !

والواقع أن حكاية الإنتاج هذه، كانت لها قصة في حياة محمود شاكر،



محرم ١٤٢٥هـ - مارس ٢٠٠٤م


طه حسين


لويس عوض

لقد كان صديقاه أحمد حسن الزيات وسعيد العريان، يأخذان عليه انصرافه عن الإنتاج، وانكبابه على القراءة، وهذه القراءة، مضافا إليها تحقيق بعض عيون كتب التراث، كانت هى مصدر المعرفة الهائلة التى اكتسبها هذا الرجل بالثقافة العربية والإسلامية على النحو الذى اعترف ويعترف به حتى من خاصموه وحملوا عليه مثل الكاتبين اللذين نعقب على كلامهما الآن! وهذه المعرفة هى التى جعلت أستاذه طه حسين الذى اختلف معه فى مقتبل العمر، يوعز إلى الوزير السابق المرحوم الشيخ أحمد حسن الباقورى، أيام كان صديقا للأستاذ شاكر، بأن يتقدم بسجل إنتاجه إلى مجمع اللغة العربية ففعل، واختير بعدها عضوا بالمجمع.

وللعلم أيضا، فإن خلاف محمود شاكر مع أستاذه طه حسين لم يفسد للود قضية بين الرجلين، وقد اصطحب محمود شاكر صديقه الشاعر الكبير الراحل محمود حسن إسماعيل، إلى الدكتور طه مطالبا إياه برفع غبن لحق بالشاعر أيام كان يعمل فى وزارة المعارف وكان الدكتور طه سكرتيرا عاما لها، فاستجاب لطلبه قائلا: «حاجتك مقضية ياسيد محمود»!

منتهى الفشل

يتحدث الكاتبان اللذان نحن بصددهما عن فشل محمود شاكر! إذا كان الرجل قد فشل فى شىء فهو فى دفع البلاء عن أمته العربية والإسلامية، والخطر الذى كان يراه مبكرا من تدهور تعليم اللغة العربية وآدابها وتحصيل الثقافة العربية والإسلامية على نحو صحيح، والوقوع فى الشراك والدسائس التى كان ينصبها الاستعمار الغربى لهذه الأمة مستعينا بطلائع غزوة من المستشرقين، على نحو ما بين رجل لا يمكن وصفه بأنه «مسلم متعصب»، وهو المفكر الأمريكى الفلسطينى الأصل الراحل مؤخرا «إدوارد سعيد» فى كتابه عن الاستشراق، وكان العقاد يقول فى مجلسه: إننى أبحث عن أحمد أمين بميكرسكوب فلا أجده، لكثرة ما أغرق ذاتيته فى أفكار المستشرقين!

وقد أصبحنا فى زمن أصبحت فيه العداوة ظاهرة مستعلنة فى الدوائر الاستعمارية الغربية للحضارة العربية والإسلامية، وخطر هذه العداوة على هوية هذه الأمة بادية للجميع باسم العولمة، التى تعنى الأمركة، وخاصة بعد الغزو الأمريكى مؤخرا للعراق، وأصبحت المرارة التى كان يستشعرها محمود شاكر من قديم إزاء الغزو الغربى غصة فى حلوق سائر العرب والمسلمين، وقد وقع قلب العالم العربى والإسلامى من جديد فى كماشة أحد طرفيها هو احتلال أكبر قوة عسكرية فى العالم للعراق، والطرف الآخر هو العدوان الصهيونى المدعوم أمريكيا على فلسطين، وأصبحت العروبة والإسلام والمقاومة الوطنية عند هؤلاء مرادفات للإرهاب!

أما على المستوى الشخصى، فإن الأستاذ محمود شاكر رحمه الله، قد رأى


عباس محمود العقاد — مصطفى صادق الرافعي

فى أخريات أيامه أكثر من كتاب مطبوع عبارة عن رسالة جامعية عنه، ومازال رسائل أخرى يجرى إعدادها فى مختلف الجامعات عن علمه وأدبه النادرين!

كتب الدكتور مجدى وهبة، مقالة بالإنجليزية بعنوان «غضب مرتقب» ترجمها إلى العربية شقيقى المرحوم زهير شاكر، يقول فيها:

«لا جدوى من أن تمثل جانب الإسلام نماذج مثل طه حسين، أو المثقف شبه الماركسى الحديث، أو حتى من يسمون بالإسلاميين «المعتدلين».. إذا كان الهدف هو قيام حوار على أساس واقعى. لا يمكن للنظام الثقافى الغربى أن يدخل فى حوار مع صورته فى المرآة، حتى ولو كانت هذه المرآة تشوه ملامح الصورة شيئا ما، بل لابد له أن يواجه الحقيقة الواقعة، وإحدى صور هذه الحقيقة هو الغضب الذى عبر عنه محمود شاكر».

ذلك ما كتبه هذا الأستاذ الجامعى تعقيبا على كتاب «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» لمحمود شاكر، وأى حديث عن حوار الحضارات لا يستغنى عن مثل هذا الخطاب.

وعسى أن يصل هذا الحوار - إن صحت النوايا - إلى غاية صحيحة، لا نكون نحن فيها الطرف المقلوب، سياسيا وعسكريا، وفكريا أيضاً!

لقد كانت «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» أواخر ما خطه قلم الأستاذ محمود شاكر، رأيه في الاستشراق، قد سجله من قديم فى مقالة له بمجلة الرسالة فى العدد ٣٥١ عام ١٩٤١، حينما قال: «ينقسم أمر المستشرقين إلى عملين أحدهما عملهم فى الكتب العربية القديمة التى نشروها من بدء توجههم إلى هذا الغرض، والآخر ما كتبوه فى دراساتهم فى الآثار العربية وما أرخوه من تاريخ الإسلام، وتاريخ آرائه فى مذاهبه العلمية والفلسفية».

ويعد أن يفيض الكاتب فى وصف عمل المستشرقين في نشر الكتب العربية يقول: «ومجد الناس همة هؤلاء المستشرقين الأعاجم - وحق لهم - بجعل جماعة ممن ليس عليهم يدفعون القول بعد القول فى تعظيمهم والمغالاة فيهم بغير الحق.. ثم مضى ذلك وانسحب التبجيل على آرائهم فى الفكر الإسلامى والتاريخ العربى كما انسحب على أعمالهم فى نشر الكتب.. وأين هذا من ذاك؟».

وينسحب ذلك على موقفنا عموما من الحضارة الغربية المتطورة علميا وتكنولوجيا، فإذا كان كثير من مبدعات هذه الحضارة يبهرنا بل ويفيدنا، فهل يفيدنا أن بعض مبدعاتها «التكنولوجية» تفتك بأهلنا في كل من العراق وفلسطين؟ أم أن علينا أن نميز بعقولنا بين ما ينفع وما يضر؟! ■



الكتاب:
الولع الفرنسي بمصر
من الحلم إلى المشروع
المؤلف: د. أحمد يوسف
ترجمة: أمل الصبان
الناشر: المجلس الأعلى للثقافة





سبق وأصدرت سلسلة كتاب الهلال سنة ١٩٩٤ أول ترجمة عربية لكتاب «المخطوط السرى لغزو مصر» تأليف د. أحمد يوسف عن نص مجهول وغير منشور كتبه الفيلسوف الألمانى ليبنيز عام ١٦٧٢ وأرسله إلى الملك لويس الرابع عشر أقوى ملوك أوربا حينئذ يدعوه فيه إلى أن يعبر البحر إلى مصر للاستيلاء عليها لوقف المد العثمانى الإسلامى.

وبالرغم من صدور النص الأصلى للكتاب فى سلسلة «كتاب الهلال» إلا أن المجلس الأعلى للثقافة قام مؤخراً بنشر «المخطوط السرى لغزو مصر» ترجمة أمل الصبان فى المشروع القومى للترجمة مع ذكر أنه «النص غير المنشور الذى قدمه ليبتنز للويس الرابع عشر» كما جاء على غلاف ذلك الإصدار. وهناك عدة ملاحظات:

كيف يعاد نشر كتاب فى المشروع القومى للترجمة سبق نشره باللغة العربية فى سلسلة كتاب الهلال الواسعة الانتشار والذى تناولته العديد من الأقلام بالتعليق والدراسة منذ صدوره حتى اليوم.

إن الإشارة إلى أن ذلك «نص غير منشور» غير حقيقى فكيف ذلك وقد قمنا بنشره قبل عشر سنوات باللغة العربية.

إن اسم الفيلسوف الألمانى هو ليبنيز وليس ليبتنز كما جاء فى تلك الترجمة الجديدة.

ولا يغير من الأمر شيئاً وضع عدة عناوين على غلاف الإصدار الجديد مثل «الولع الفرنسى بمصر: من الحلم إلى المشروع».

إن الترجمة الجديدة لكتاب د. أحمد يوسف لم تشر من قريب أو من بعيد للترجمة السابقة التى صدرت فى سبتمبر ١٩٩٤ عن كتاب الهلال.

يجب فى مثل هذه الأعمال مراعاة الدقة والتحرى قبل التسرع خاصة فيما يصدر عن المشروع القومى للترجمة.





الكتاب: دفاعا عن الإنسان - دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة
المؤلف: د. عبد الوهاب المسيري
الناشر: دار الشروق

برغم الإيمان بالإنسانية المشتركة التي تجمع الجنس البشري إلا أن هناك خصوصيات مختلفة تحمل تركيبات إنسانية لا حدود لها تميز الإنسان الفرد عن بقية أقرانه البشر بل وتميزه عن الكائنات الطبيعية والمادية .

لذا يقوم «المسيري» باستخدام نماذج تحليلية مركبة .

وهي نماذج يدخل في تركيبها عدد من العناصر المتنوعة المتداخلة بل والمتناقضة منها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والحضاري، حتى يتمكن من الإحاطة في معظم جوانب الظاهرة الإنسانية ، ويرى أن التعبير عن احترام إنسانية الإنسان وتركيبته يكمن في استخدام النماذج المركبة في تحليل بعض الظواهر والأحداث والجماعات الوظيفية داخل التاريخ البشري.

ويحاول على مدى اثني عشر فصلا أن يحلل مجموعة من النماذج يطلق عليها اسم الجماعات الوظيفية ويفسر ظاهرة فشل بعضها.. مثال ذلك الجماعات الوظيفية اليهودية والمماليك كجماعة وظيفية قتالية.. كذلك يفسر ظاهرة «الماشيح» وهو المسيح المخلص اليهودي وفكرة الخلاص عند اليهود والتي سيعودون بها إلى صهيون، كذلك يحلل أهم الحركات الدينية اليهودية في العصر الحديث بوصفها كما يقول «المسيري» حركة مشيحانية دينية يهودية خلقت تربة خصبة لظهور الصهيونية وهي حركة المسيحية والصهيونية ، كما يغوص الكتاب داخل بعض الجماعات الوظيفية الأخرى مثل الحلولية والعلمانية الشاملة.

ويضعها في سياقها الاقتصادي والتاريخي والاجتماعي والثقافي والديني ، ويفسر ظاهرة المحرقة النازية ليهود أوروبا من خلال وضعها في السياق الغربي الحديث.

إلى جانب وضعها في سياقها الألماني واليهودي.

والجزء الأخير من الكتاب يتناول ظاهرتين ترتبطان بالوطن والوجدان العربي في العصر الحديث وهما حملات الفرنجة والجماعات اليهودية، والماسونية حيث يقدم رؤية مركبة تدرس العناصر الدينية والاقتصادية والحضارية التي أدت إلى تجريد حملات الفرنجة ضد المسلمين أي المواجهة العسكرية بين العالم العربي والعالم الغربي خلال الحملات الصليبية والتي أصبحت محط الاهتمام بعد ظهور

الدولة الصهيونية للتماثل وبين تجربة الفرنجة أو الصليبيين وبين تجربة الصهاينة ، كذلك ظهور الماسونية حيث يرى الكثيرون من أصحاب النماذج الاختزالية أن الماسونية حركة عالمية إلحادية.. ولكن «المسيرى» يرى أن دراسة الماسونية بدقة .. تؤكد أن هناك حركات ماسونية شتى تختلف باختلاف ظروف نشأتها وتطورها .. ويفسر لنا نشأة وتطور الماسونية من خلال استعراض بعض أنواعها مثل الماسونية الربوبية والإلحادية موضحا أن الماسونية هى «بنت محيطها الحضارى والتاريخى والجغرافى .. فقد كانت ألمانية فى ألمانيا وانجليزية فى انجلترا، وفرنسية فى فرنسا .. وتغيرت هى نفسها مع تغير أوروبا، ويفسر طبيعة العلاقة بين الماسونية واليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية.

وفى نهاية الكتاب يقدم «المسيرى» تحليلا لمفهوم المتحف والذات القومية موضحا أن رصد مفهوم المتحف على اعتباره مبنى وصالات وقاعات وغرف يعتبر مفهوماً قاصرا.

فالمتحف من خلال تبنى نموذج تحليلى مركب هو متحف متعدد الأبعاد ويقول: «سيكون بوسعنا حينئذ أن نميز بين متحف وآخر وأن نرى المتحف فى علاقته بالنموذج المعرفى الكامن وراءه ويكشف علاقة المتحف بالذات القومية حيث يرى أن المتحف يجب أن يكون تعبيرا عن رؤية الذات القومية لنفسها وتجسيداً لوعيها بتاريخها وحاضرها ومستقبلها .. لذا تجد الدول تنفق الملايين لتقيم المتاحف وتفتحها بالمجان لجماهيرها دون أن تسأل عن العائد المالى لأن العائد المتوقع هو عائد ثقافى حضارى اجتماعى سيترجم نفسه إلى عائد مادى بشكل غير مباشر.. إذ أن الإنسان المنتمى المحدد الهوية إنسان منتج ملتزم أما الإنسان غير المنتمى الذى لا جذور له.. إنه إنسان تعصف به الأيديولوجيات والموضات غير قادر على البذل أو العطاء..



الكتاب: عشية أفول الإمبراطورية - أسئلة حول موقعنا فى عالم الغد
المؤلف: كريم مروه
الناشر: الفارابى

وسط عالم ملئ بالمتغيرات المتناقضة، حافل بالاضطرابات المتلاحقة مما يجعلنا نعيش حقبة انتقالية بين عصر مضى وعصر جديد قادم من تاريخ العالم. يطرح كريم مروه فى صيغة تساؤلات وتصورات يصعب إجابتها. اشكالية «فى أى عالم هو عالم الغد القادم؟ وما هو موقعنا منه؟» يواجه القارئ فى مقدمة كتابه بأن أسئلته وتصوراته تشمل العالم المعاصر كله بما فى ذلك بلداننا الجزء الضعيف والمتخلف فيه . يستعيد أحداث الماضى ويعيد قراءتها فى صيغة جديدة متحررة من أية أفكار

مسبقة.

حيث يرى أن الذهاب إلى المستقبل لا يتحقق إلاّ من خلال القراءة النقدية للماضي، ومن خلال الاستفادة من دروس الأحداث والتجارب السابقة. مبرراً أن التاريخ لا يصنع مرة واحدة، وإنما في عملية تواصل تنقل العالم من حقبة إلى حقبة تليها.

وفي واقع قديم إلى عصر جديد، خاصة أن الجديد لا يولد من فراغ ولا يهبط في الغيب بصورة تلقائية. إنما يولد قطعاً من رحم القديم....»

الكتاب عبارة عن مجموعة من الرؤى النقدية والتحليلية لتاريخ عالمنا المعاصر. فنجد «مروه» بدأ كتابه بدراسة حول «كتلة تاريخية جديدة لصياغة مستقبل العالم» ومن خلالها يحلل أسباب انهيار المنظومة الاشتراكية العالمية. ويستنتج أن أهم أسباب الخلل هو ذلك النابع من عمق التجربة الاشتراكية نفسها. ويرجع إلى سياسات «ستالين» ونهجه المدمر في كل الميادين قبيل الحرب العالمية الثانية. في وقت كانت الرأسمالية لديها قدرة أكبر على تجاوز تناقضاتها وتجاوز أزماتها.

ويستنتج أن انهيار التجربة الإشتراكية أعطى الفرصة للرأسمالية لكي تتطور في اتجاه ما يُعرف بالعولمة الرأسمالية بالمعنى السياسي والاقتصادي والثقافي والقيمي. وأعطى لنظامها صفة النظام العالمي الجديد. لذا نجده يؤكد على حاجة العالم إلى حركة جديدة لمواجهة كل ما يتصل بظاهرة العولمة الرأسمالية المتوحشة التي تهدد الشعوب. لذا يقترح أن يكون شعار العولمة البديلة هو شعار الحقبة التاريخية التي تمر بها البشرية. وذلك من خلال برنامج ملموس وفي حركة عالمية تتكون في كتلة تاريخية من نوع جديد.

ويقدم الكتاب قراءة نقدية في حقبة نصف قرن وتاريخ الأمة العربية ليدعو من خلالها إلى الديمقراطية بكل معانيها وإلى تحمل جميع القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى جانب الدولة ومسئولياتها للخروج من الأزمات التي تحيط بمجتمعنا. بالإضافة إلى دعوته للتضامن الكامل لمواجهة مصيرنا ككل وشعوب لها ثقافاتها الخاصة. وفي سبيل ذلك نجد «مروه» يجدد دعوته إلى الثورة. حيث نشرها في مقال عام ١٩٤٧ بعنوان «لابد من الثورة» في جريدة «الرأي العام». وها هو يجدد الدعوة إلى الثورة حيث يرى أن هناك تزامن وترابط أربع قضايا مثيرة للقلق والجدل على الوجود الإنساني في بلادنا.

تبدأ تلك القضايا بالأوضاع داخل بلده لبنان وتمتد إلى فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي ثم الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق ورابعها قضية الاستبداد المستشري داخل أنظمة الحكم العربي (جمهورية/ملكية).

ويواصل «مروه» في كتابه تقديم دراسات تحليلية نقدية لأهم الأحداث التي مر بها العالم خلال الفترة الماضية مثل: أحداث ١١ سبتمبر والتي أطلق عليها «أحداث دراماتيكية وتحولات قيد التكوين». وتناول أيضاً الإرهاب وجذوره السياسية

والاجتماعية والايديولوجية. ودور العلم في رسم مستقبل العالم وغير ذلك من قضايا عن الديمقراطية والاشتراكية والاستبداد.



الكتاب: مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة
المؤلف: أحمد بلبع
الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

عن الرق كظاهرة اجتماعية ظهرت واستفحلت على مر العصور حتى تحولت إلى مؤسسة متكاملة الأركان، مستقلة بكيان لها سلطاتها ونفوذها ومسئولياتها. وصارت لها قواعدها وأعرافها وسنت لها قوانينها وشرائعها. يقدم أحمد فؤاد بلبع دراسة جادة متعمقة في تاريخ نشأة وتطور الرق في كل عصر أو مجتمع أو حضارة. نتعرف من خلالها على أعراف وقواعده الخاصة، وشرائع وقوانين تنظيم حياة الرقيق، وعلاقتهم بالمجتمع. ونوع المعاملة التي يلقونها . وما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق - إن كان لهم شيء منها - بل وتتعمق الدراسة في أسباب الرق ووسائل امتلاك الرقيق، ومصادر الحصول عليه . وتحدد أنواع وطبيعة العقوبات التي يحق للسيد أن يوقعها على رقيقه إذا أخل بواجباته أو قصر في خدمته. كما تتناول وضع المرأة والغلمان داخل مؤسسة الرق حيث كانت المظاهر تختلف باختلاف الحضارات والمجتمعات والمراحل. واهتمت أيضا بعملية انتشار البغاء في كل المجتمعات والحضارات حيث كان القرين للرق ويسير معه جنبا إلى جنب. علاوة على الخصاء إحدى أشد ممارسات الرق قسوة وشذوذا وغرابة. كذلك ابتكار وسائل للتعذيب فقط لإرضاء شهوة التعذيب المريضة لدى الساديين في كل مجتمع. وبالطبع تكون الطبقات الدنيا في المجتمع هي المستباحة لاسيما الرقيق.

يستعرض الكتاب تاريخ الرق في المجتمعات البدائية القديمة وفي اليابان والصين وارتباطه بالدعارة والبغاء. كما يدرس مفهوم الرق في الشرائع الهندية القديمة وتطوره داخل المجتمعات الهندية المتلاحقة انطلاقاً من بعض الشرائع مثل شريعة «منو» والفقه الهندوسي، ثم يستعرض النظم القانونية في بلاد وادي النهرين وطبقاته وأسبابه وملامح قسوة الأحكام الجنائية والقصاص التي يتعرض لها الرقيق عند الأشوريين. ثم ينتقل إلى المجتمع الفارسي ليكشف لنا أوضاع المرأة وعلاقتها الزوجية والتفريق بين الزوجة الرئيسية والزوجة الخادمة. ومجتمع عرب الجاهلية وأسباب الرق عندهم مثل السبي والتسري، البغاء والتبني، السفور والنقاب وكافة





الكتاب: اللوبي - القوة السياسية اليهودية والسياسة الخارجية الأمريكية
المؤلف: إدوارد تيفنان
ترجمة: حسن عبد ربه المصري
الناشر: المشروع القومي للترجمة المجلس الأعلى للثقافة

أشكال التمييز عندهم، كما يتناول الرق عند الحضارات المختلفة مثل قدماء المصريين، والعبرانيين، اليونانيين والرومان.

ثم يدرس الكتاب الرق في الديانة المسيحية والكنائس المسيحية. خاصة موقف الكنيسة من تجارة الرقيق وأطوار الديانة نفسها. ويتناول بالشرح اضطهاد المسيحيين في المراحل الأولى ثم محاكم التفتيش وممارسات التعذيب. ويكشف عن مفهوم مصطلح البغاء الديني الذي كان يمارس داخل الأديرة والكنائس وفي ختام الكتاب في الفصل الحادي عشر تنتقل الدراسة إلى استعراض أهم ثورات الرقيق على مر العصور مثل ثورة صقلية الأولى والثانية وإن كان أهم تلك الثورات، ثورة سبارتاكوس التي كانت نهايتها. هي عبارة عن نهاية مأسوية لثورات الرقيق.

كثيرة هي جماعات الضغط الأمريكية الموالية لإسرائيل تنتشر في جميع أرجاء الولايات المتحدة، تمارس عملها منذ بدايات الخمسينات من القرن العشرين تتلون وفق ألوان الطيف السياسي والمدني والديني التي يعج بها المجتمع الأمريكي.. تتغلغل حتى تصل إلى مؤسسات صنع القرار.. وبرغم كثرة عددها إلا أن من أشهرها منظمة النداء اليهودي الموحد، الكونجرس اليهودي الأمريكي، مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية، وأشهرها وأخطرها بلا منازع لجنة العلاقات العامة الأمريكية والإسرائيلية التي تُعرف باسم «ايباك». ولم تأت شهرتها من فراغ. إنما نبع من قدرتها على جمع أموال التبرعات المعفاة من الضرائب وإرسالها إلى إسرائيل، وقدرتها على جمع الأموال اللازمة لدعم الحملات الانتخابية للمرشحين لمجلس النواب والشيوخ الأمريكيين وكذلك لمنصب رئيس الجمهورية علاوة على شبكة علاقات عامة واسعة ومتشعبة.. كل ذلك مكنها من الآراء التي تميل إلى مصلحة إسرائيل.

ومن هذا المنطلق يطرح إدوارد تيفنان الصحفي السابق لمجلة التايم تساؤلاً حول حقيقة وحجم الدور الذي تقوم

به جماعات الضغط اليهودية داخل الولايات المتحدة. وذلك من خلال تتبع السياق التاريخي لتطور العلاقات الأمريكية الإسرائيلية منذ نشأة الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ كتتويج لنجاحات الصهيونية.

ويكشف باستفاضة سنوات الحرب والسلام فى الشرق الأوسط. حيث سجلت الهبات المالية لأفراد الجماعة اليهودية الأمريكية أرقاماً قياسية فى أعقاب انتصارات حرب الأيام الستة. بل قفز حجم المساعدات الأمريكية الاقتصادية التى تُقدم لإسرائيل من ١٥ مليون دولار عام ١٩٦٧ إلى ٧٥ مليون دولار فى العام الذى تلاه، ويتتبع الكاتب جميع التحركات السياسية الإسرائيلية داخل الحكومة الأمريكية. خلال تلك الفترة حتى عبور القوات المصرية قناة السويس فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ واقتحامها خط بارليف. ودور منظمة «إيباك» فى الضغط على نواب الكونجرس فى الأعوام التى تلتها لتبنى خطة «إعادة النظر» التى تقوم على اعتبار إسرائيل السد المنيع الذى يمكن أن يواجه تمدد النفوذ السوفييتى فى منطقة الشرق الأوسط....

ويكشف الكتاب أيضا خفايا الحملات الانتخابية للرئاسة الأمريكية ودور الجماعات اليهودية (اللوبى) فى تحريكها أو حتى تغيير مسارها على عدة مستويات ومع مختلف الرؤساء الأمريكيين (كندى/جونسون/نيكسون/ كارتر/ ريجان).

وإن كان من أهم فصول الكتاب ذلك الذى يبحث فى حالة الحرب التى شنتها المنظمة اليهودية «إيباك» من أجل إتمام سيطرتها على واشنطن. حيث أن نشاط المنظمة اتخذ منحى جديدا بعدما تم اكتشاف أن الإحسان الذى يقدمه الكونجرس الأمريكى للدولة اليهودية قد يتسبب فى تدمير دولة إسرائيل إذا اعترض عليه أى سيناتور مترزمت بشكل قد يكون أسرع فى تدمير الجيوش العربية مكتملة. لذا بدأت «إيباك» فى توفير مقومات الهيمنة عن طريق تحويلها إلى حركة جماهيرية لتسييس اليهود الأمريكيين ودفعهم إلى القيام بالدور الإيجابى الذى من شأنه خدمة مصالح إسرائيل.

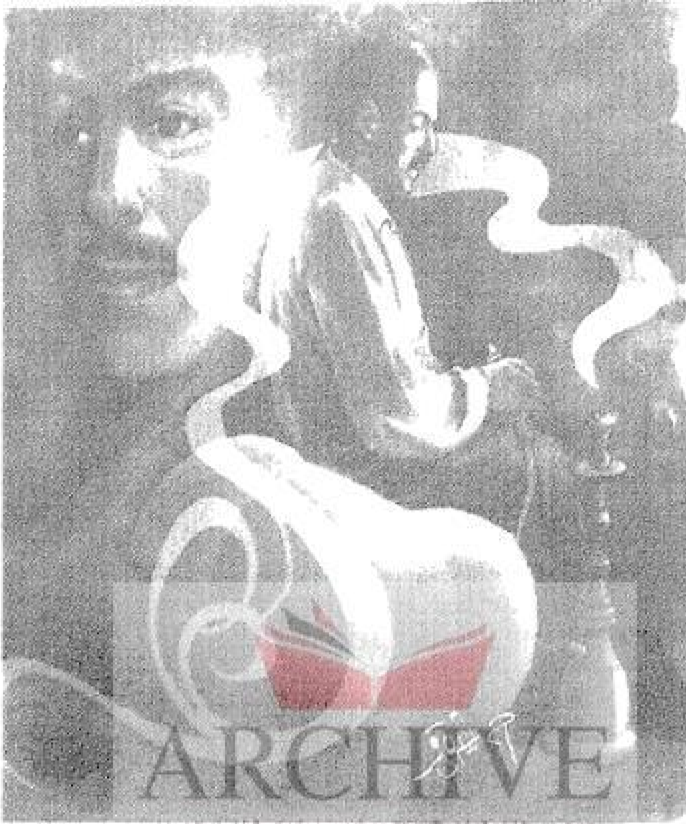
وعلى مدى عشرة فصول يواصل الكتاب سرد خفايا دور المؤثر الذى تلعبه المنظمات اليهودية الضاغطة على جميع مستويات القرار السياسى الأمريكى. خاصة المتعلق بالسلام فى الشرق الأوسط. وقوة إسرائيل المتزايدة داخل المنطقة.

الغمام

بقلم
عصام راسم

كنا لم نلتق منذ فترة طويلة. كان صاحب الدراسة . رأيته من ظهره فعرفته .. مدة سنة أو أكثر لم نتقابل . مثل كل شيء، يد الدنيا تتصرف في علاقاتنا . تجمعنا وتطرحنا براحتها. وهي الظروف المعاندة، تجعل المرفوض، من داخل أعماقنا، هو القاعدة الضامة بيننا وبين العالم، وما هو مرغوب لكوننا الداخلي بإلحاح، تجعله شيئا طارئا، ومكوثه بيننا مكوث الصدف العبثية المضحكة. كنت أحب هذا الشخص كحبي لما هو طاريء، ورغبتي في أن أجعل الصدف الرائعة - الطارئة - قاعدة تقوم عليها حياتي ، وليس العكس - أي لا تكون قاعدة حياتنا مقامة على ماهو ليس مرغوب ورائع - عرفته من ظهره والعرج الخفيف الذي مسه من داء شلل الأطفال.

كان جسده الطويل النحيف ، يهبط ويصعد، وبحدة مكتومة، مع كل خطوة يخطوها إلى الأمام. يمشي بهدوئه المعتاد ، مجتازاً زحام الناس فوق طوار الشارع الضيق . يفتح في اختلاط الأبدان ببعضها، شريطاً رقيقاً من الوسع، حتى يعبر بجسمه الخفيف . كان يغالب هزيمة العاهة الطفولية القديمة، وينسكب كماء في قناته الرقيقة التي شقها برفق بين لحم الناس العابرين إلى حالهم. لمحته خفيفا وطارئا وسط قاعدة، هي بشر عاديون يمشون في شارع عادي. صعد صوتي فوق رؤوس المارة، فلم يسمع ندائي. رغم سلامة ساقاي من شلل الأطفال لم استطع اللحاق به، فناديت اسمه، وفجرت أحرفه وسط الشارع، فصارت الحروف القليلة لاسمه، صدفة رائعة، تغاير قاعدة الأصوات المنبعثة من أركان الطريق. لم ينتبه وظل مستمرا في تدفقه الهادىء إلى الأمام. الفيت نفسي . وأجلت جدالي مع سخافتي الخاصة التي استعمرت فضائي من بداية صباحي، وركضت نحوه . لم يصدق عينيه حين شاهدني. أجذبه من كتفه، وأوقفه قبالي. في البدء لم يعرفني تمام المعرفة . شبه على لمدة نصف دقيقة، ثم ارتمى في أحضاني. منه عرفت أننا لم نتقابل منذ خمس سنوات. منه عرفت أنني تغيرت لحد ما ، شكلي تغير. شيب قليل يجاهد ليفترش السوالف، ليشق طريقه لبقية فروة رأسي، إنه يتحايل ليحتل ملامحي



ريشة : أحمد شوقي

أيضاً. وهو كذلك كان شكله قد تبدل لحد كبير، لدرجة تخيلت أنني لو كنت رأيته من الأمام وليس من ظهره، لكنت قد أخيب في التعرف عليه. وهذه هي إحدى الصدف الطارئة الرائعة، وهي لاتتمثل في أنني قابلت صاحبي صدفة، وإنما تتمثل في أنني لمحت صاحبي من الخلف .. من ظهره.

قبل أن ألقاه، ونقف على الطوار، لنتحدث لفترة طويلة عن الطماطم، كنت جالساً على المقهى منذ الصباح الباكر، منتظراً، لسيارة العمل، التي ستقلني إلى «السد العالي» حيث عملي. جاءت السيارة فلم أذهب لعندها، وظللت أنفث كتل دخان المعسل إلى فوق .. زمر السائق لي لينبهني،

وعندما أشحت له بيدي قامت العربة وانطلقت للبعيد حتى غابت، وظللت جالساً، ابك الدخان. كانت تفاعلات غبية تتلاكم في رأسي، وعدة خيارات تتزاحم قدامي. رغبة شقية تنخس أخرى، لينشب الصراع داخلي، ويرتفع غبار المعركة المجهولة، ويطمس أفق رؤيتي . كانت تلك حالتي،

قبل أن ألقى صديقى، ونتحدث عن الطماطم .. كنت أجهل الخيار المناسب فى هذا الصباح. كله تساوى أمامى، ولا يفعل لى دهشة تخدشنى بالتحفز والرغبة فى المرور إلى غاية أريدها. كله واحد لا فرق، صار جلوسى على المقهى مساو لزيارة والداى فى «صحارى»، وعدم زيارة أباواى ندا لزيارتهم، حتى وقت أن أكتشف وأنا جالس على المقهى، أننى لى أكثر من شهرين لم أزرهم، سيرى فى الشوارع، مثله مثل رجوعى إلى بيتى. أن أذهب خجلا إلى أحد أصدقائى، لأستلف منه مبلغا من المال، يعيننى إلى نهاية الشهر، لا يفرق هذا كثيراً عن ذهابى إلى هامش المدينة، القاطن به ابن عمى، الذى اقترض منى مبلغا كبيراً ذات يوم ليس بقصى. أن أروح لصاحبى فى مكتبه الحكومى مكسوفاً كامشا فى بعضى، مثله مثل رمحى إلى ما وراء واجهة المدينة الفخم، حيث هناك فى الهامش يسكن ابن عمى، دخولى على هذا حابياً وجلا، متساو مع دخولى على ذاك متفوش منفوخ الأشداق. زاعقا فيه مطالبا بحقى. كله واحد، ذلك الصباح مكفهر السمات، ساخن الملمس، كئيب أمامى دون سبب واضح. رميت بصقة دخان كبيرة من حلقى، وقمت. موجات الهواء الواهنة، المنبعثة من أثر قيامى الفجائى، فجرت قذفة الدخان، فثارت رائحة المعسل وصعدت لعينى وحرقتنى. بعد عدة خطوات مشيتها فى اتجاه مكان ما أجهله، تذكرت النادل، عدت إليه وحاسبته، وبدلاً من الطلوع للخارج ثانية، رجعت إلى مقعدى القديم، وطلبت الشاى الرابع، وحجر المعسل الخامس. للمرة الثالثة جاءنى النادل مرحبا بمغادرتى. كان وجهه ناشفاً وتعابير الضيافة البشوشة التى استقبلنى بها فى السابق، انزوت، وفرت إلى مسارات غيبية. كان الرجل قد ملنى تماماً، بل صار يكرهنى جداً فى هذه اللحظة، وعيناه تضغط على بحدة وتدوسنى لتحت، إلى أن الأمس رخام المقهى الممسوح جيداً. كان يبطحنى بعنفه الصامت هذا، ويمسح فى قدر من المحبة، أردت أن أعطيه له قبل أن انصرف انصرافى الأخير. أخذ الفلوس من يدى الممتدة ناحيته، ومال قليلاً بجزعه ونزع بعجلة الكوب الزجاجى الفارغ من فوق المائدة وانحنى أكثر فأكثر وحاصر النارجيلة بذراعه ونهشها من فوق الأرض بقسوة، ونفخ بحس عال. حقيقة هو يكرهنى فى تلك اللحظة. أنا أتعبنه، صار سائماً منى ويبغضنى لحد ما، وأنا منذ الصباح أكره هذا الصباح، وأشياء أخرى، ولا أشأ أن أتورط فى ضحايا جدد. وأنا أمشى فى وسط ضوضاء الطريق، أصبحت قادراً أيضاً على توسيع رقعة ضحاياى. وأنا سائر، أدرت رأسى جهة المقهى القريب، وحدجت بعينى. كان هناك واقفاً ويتابع انصرافى بوجه حجرى ونظرات لاتلين. كنت قد استطعت الآن أن أكرهه جيداً. الطماطم مجنونة، هى ثمرة مستديرة، استدارة اللغز المحكم الإغلاق. تستعصى على الإدراك كالأحجية. من يتعامل معها، لابد أن يفهمها ويدرس منهجها الغامض، حتى يروضها الطماطم تكشف اقتصاد السوق، وتعرى حالة الناس، من خلال أقدامهم أو أحجامهم عنها. زراعتها تحتاج عناية خاصة. طريقة ريها تختلف من نوع لآخر. هى قد ترفع مستوى من يزرعها إلى عنان السماء، قد يصير غنيا، وقد تجعله يضيع ويشحذ. الطماطم يوم فى الواطى، ويوم فى العالى.

– أنا بأحب الدمعة

خالص.

- الموضوع مش دمعة ويس.

- أنت بتزرعها..!؟

- لا .. بأتاجر فيها.

صاحبي القديم، جعلني أحب الطماطم جداً، كان يتكلم عنها كخبير زراعي، أو كقسيس، يعظ في الناس، ويرسخ في أعماقهم السحيقة، تعاليم السيد المسيح. كان متحمساً للطماطم، كشريعة حياة يواجه بها غباء العالم، كان مؤمناً بها بشدة ووله. فهم كل أسرار حياتها، وعلاقاتها بالناس، لذلك هو صار شيئاً مهما بين المزارعين، والتجار، وأصحاب شوادر الخضار في مختلف الأماكن. وكلما تعمق في سرده عن اكتشافه اختاره بعد جهد وتقلب وتضارب، كنت أحس أنه يخف أكثر، ووجهه يشف، وتروح منه تجاريج الزمن التي صدمتني، لحظة أن أوقفته لأسلم عليه. ورأيت جسده النحيف يكاد يرتفع من فوق الأرض ويركب الفراغ العلوي المتكيء فوق هامات الذاهبين والراجعين في الشارع.

في كل مرة أطلب منه أن نرجع إلى المقهى القريب. لنقعد ونشرب حاجة ساقعة، ونكمل كلامنا، كنت أراه يهز كتفيه رافضاً، ويقول وهو يغرس أصابع يديه في جيوب منطاله الجينز: «لا لا.. أنا مستعجل .. بعدين نبقى نتقابل ونقعد براحتنا». ولدهشتي كنا نستمر ماكثين في مكاننا مدة أخرى جديدة. ثم تخرج إحدى يديه وتذهب إلى جيب القميص العلوي، وتخرج بعلبة سجائر مستوردة، يفتحها وينكت سيجارة في حنكة ويقيد بها النار، ويشرع في مص دخانها . كان يفعل هذا دون أن يعزم على بواحدة، برغم أنه لم يكن يعرف إنني منذ شهور أقلعت عن تدخين السجائر واتجهت إلى الشيشة. أكثر من مرة دخن أمامي ونحن واقفين، دون أن يعطيني واحدة. هو أيضاً لم يسألني عن أحوالي، فقط احتضنني وباسني، وعندما مرت فترة الصمت الأولى التي اجتاحت بداية اللقاء، أسرعت وسألته، فتفجر أمامي حديث الطماطم، وما سبقه عن شكلي الذي تغير. وحدثني أيضاً عن عائلته، وعن أخيه الأصغر «مخائيل»، الذي كبر وحتما سيعاونه في تجارة الطماطم بعد إتمام دراسته. قال .. «الحمد لله ..» وكررها مرات عديدة بإيمان كامل، وببهجة صافية انبسطت قدامي على جسده فأزادت من خفته.

- مخاييل في الليسانس السنة دي..

- ياه .. كبر مخائيل!! كان كد كده!!

حديث الطماطم - بغير شعور - أجبرني على التسامح قليلاً، مع لون الصباح الكالح، خصوصاً بعد تدرج عمر النهار إلى الكبر، واشتداد عوده، في ظروف كأنها طارئة وغير خاضعة لنظام كوني معتاد. كان الجو خريفياً، مقبلاً على أوائل الشتاء، وبه لسعة من برد هينة تقدر الأبدان على استيعابها بالألبسة الخفيفة، ذات الأكمام، كان صاحبي مستمراً في الحديث عن اختياره الذي نجاه من شظف العيش، ونجى سلسال العائلة أيضاً. كان يتحدث مسترسلاً وكأنه يقدم لي أجوبة عن أسئلة تضج في رأسي. قلت في سري في الطماطم.. لكن كيف؟.

قبل أن أناقشه في اختياري الذي حددته منذ لحظات، أخرج علبة الدخان، وأشعل لنفسه سيجارة.

أنت بطلت سجاير؟ مش كده.

- أنت عرفت ازاي!؟؟

أخذ شهيقاً دخانياً عميقاً، وحدق في ولم يرد، وضم ذراعيه إلى صدره، وراحت يده الفارغة من حمل السيجارة، تملس ببطء على كوعه البارز من كم قميصه

النصفي، ثم أطلق كائنات دقيقة من فمه، لها لون رمادي باهت، راحت تتفكك، وتتلاشى . قبل ان أسأله عن كيفية العمل بالطماطم، رن تليفونه المحمول، المعلق في حزام الوسط، وصنع بعض الضوضاء بيننا والقلق . قال : «طيب .. طيب..»، ثم علق الهاتف الصغير في منطاله، وأسرع عازما على المغادرة، وهو يمد يده مصافحاً، قلت له سؤالي الذي بدأ يخبط ويزرع في دماغي عن الطماطم. كنت قد حزمت أمري، هي الطماطم.

– معلش .. أنا مستعجل دلوقتي .. خد العنوان.

– ده عنوان البيت.!؟

– أيوه .. ابقى تعالى في الليل .. بعد العشا.

وتبخر في الزحام واختفى فجأة. في الليل وأنا ارتقى درجات السلم الحلزوني الخافت الضوء، حددت السؤال وخلصته من أي زوائد أو إضافات غير مجدية، جعلته واضحاً ومجلواً، هو بالضبط عن الطماطم، وكيف أدخل إلى عالمها، الذي بدل حال الصاحب، وجعله كما صار ثريا بالمال، صار كذلك ثرياً بالمعارف التي تخص الطماطم



وملحقاتها ، من زراعة، وجني، وبيع وشراء، وما يكتنف صلتها بالناس من غموض، ثم وبمنتهى الصراحة، كيف أصبح مثله خبيراً في تلك الثمرة. قديماً كان يسكن نفس المنطقة التي بها بيت عمي، في هامش المدينة، الآن يقطن هو وأهله حي أطلس. أمام العمارة العالية، حديقة واسعة. عن اليمين واليسار تتناثر الحدائق والعمارات. الحي هادىء . أمام باب الشقة وقفت، ورفعت ذراعي. بعناية ضغطت الجرس، الصوت جاء من خلف الباب مكتوما. الموسيقى الخفيضة، انقطع صدحها بعد أن رفعت أصبعي عن الجرس المستطيل بجانب ضلفة الباب.

– أنت مخائيل؟.

ظهر أمامي وجه عشريني متحفزا مبهوتا لحد ما من رؤيته لي. من ورائه أطلت رأس صلعاء، تحمل ملامح لصديقي القديم وأخيه الأصغر كانت الملامح صافية. تشي ولا تحسم بالشبه الرابط بين الثلاثة، لها خصوصية السن السبعيني المهيب، وفي نفس الوقت تشارك الولدين في تفاصيل صغيرة غير محددة أو ملموسة. هو الأب الذي جنى صنيع الطماطم في أخريات أيامه، الاثنان وقفا في مواجهتي مستفسرين.

الأب فتح باب الشقة لآخره، وأزاح برفق مخائيل، ليقصيه عن اهتمامي، وتقدم ببطء حتى تعدى الباب من الخارج بشبر أو أقل، وكأنه يفدي إبنه بنفسه في ساحة قتال محفوفة بالخطر، يراها هو فقط. جاء الأب في المقدمة وانعزل الابن في الصف الخلفي الآمن.

كانا الاثنان يلعقاني بعيونهم الواجسة. كانا خائفين بعض الشيء. الأب زر عينيه قبل أن يتكلم، وحدق فيه. التعاريج ظهرت صريحة أسفل العينين، وطلعت التجاعيد للإمام وسطت على كل قورته العريضة. لا أعرف لماذا شعرت أنني مقبل على حدث قد يؤذيني، أو يكسرني لأجزاء. أردت أن ارجع للخلف قليلاً، أن ألف وأجري فوق جثة الليل الممدود على سريره بالخارج. أخلع حذائي وأجري حافي القدمين وأوغل في هذا العتم الخارجي المحتمل، حتى أختفي من هذا الهجوم النظري العارم. لكن لماذا؟! فهذا الصغير مخائيل، الذي كبر، بعدما كان يحضر لنا الشاي ونحن نذاكر – أنا ، وأخيه الأكبر – فهذا مخائيل الذي كان وهو صغير يتواطأ معنا في بعض الأمور، مثل شرب السجائر في غرفة الذاكرة، أو ذهابنا إلى السينما دون علم الكبار. كان يتعاون معنا

في كسر مشقة الأوامر الصارمة الحاكمة لتصرفاتنا ونحن طلبة.. وهذا والد صاحبي ، هو رجل يجمع بين القسوة والحنان، النسب الشاعرية تفرزها غدة الحكمة، فنتلقاها - أنا وابنه، حين تجمعنا حجة الذاكرة - بغير رفض كامل أو قبول خالص. كان حيادي. على حافة المعقول يقف. لماذا أتقهقر هاربا!؟.

في تلك اللحظات الصغيرة الصامتة التي جمعتنا كنت متيقنا كلنا يريد أن يفر من قدام الآخر، والسبب غير مدرك للفريقين. رغم كل ذلك . كانت هذه لحظة طارئة جيدة، صدفة أخرى رائعة تجتمع بي في هذا اليوم، بكل آلامها النفسية المبهمة، هي صدفة طارئة رائعة. أنا أعرفهما وهما إلى الآن يجهلان شخصي. إنها مسافة زمنية لاتتجاوز الثواني القليلة، لكنها كانت كفيلة بتلويثنا بالشكوك والإحساس القلوق بهبوط خطر ما غامض فيما بيننا. كانت ثوان صغيرة، دسمة بالأسئلة، تؤهلنا لقبول القادم مهما كان فادحاً مزلزلاً. الأب الهرم، المتعرج بفعل أحداث الأيام استطاع صيد نبرات صوته من أعماق غائرة، ورشقني بالسؤال. النبرات الواهنة وضعت حداً لعفاريت الهلاوس التي أسرتنا جميعاً منذ قليل، وأرجعت إلى أمام باب الشقة، واقعاً كان قد انزوى في آخر ركن من الدنيا. الواقع رغم علاته يكون صدفة طارئة أحياناً أيضاً يكون أخف وطأة من بعض الصدف الفجائية.

- أنا فلان الفلاني .. صاحب سامح .. هو موجود!؟

- ايه .. .. ..!!!!؟

بعد أن جمعاني من أمام المدخل، وحطاني على أحد المقاعد بالصالة، ورتبا أعضائي من جديد، كنت قد بدأت أفيق وأعي ما حولي: رنوت لهما طويلاً مذهولاً غير مصدق، وكانا هما أيضاً يتساويا معي في الذهول وعدم التصديق، رفعت نظري عنهما وذهبت إلى الأرجاء مستكشفا. كانت الصالة ضيقة، مفروشة بأثاث بسيط. عن يميني «نيش» موضوع به أوان صينية دقيقة واضحة من خلف الضلف الزجاجية القصيرة، عن يساري تلفاز مفتوح مكتوم الصوت، يبدوا أنهما اخفضا الصوت نهائياً وقت أن رننت جرس الباب.

أنا جالس الآن على مقعد لانتريه قديم، متسخة حواشيه. أمامي في الحائط معلقة صورة للسيد المسيح مصلوبا وصور عائلية أخرى، كل أفرادها يبتسمون. بجوار السيد، صورة كبيرة لصاحبي، وكان هو أيضاً يبتسم، شكله لم يتغير عن آخر لقاء لنا منذ خمس سنين.

في أعلى الإطار وفي القرن الأيمن للصورة، علق شريطاً أسودا عريضاً يؤكد ما قالاه لي هما الاثنان منذ برهات .. «تعيش أنت من خمس سنين!!. قمت متثاقلا وقصدت الباب الذي مازال مفتوحاً. ما شعرته تحقق لجميعنا. نزلت الدرجة أثر الدرجة، تاركاً خلفي جنازة صغيرة، تفيح منها النهنهة الكتومة والحسرة. صدر الأب لم يستطع أن يكفي ذهولي ودهشتي وسقوطي وانكساري لأشلاء، وتذكيري له بجروحه القديمة المقفلة. ومخائيل وقف حائراً غير مصدق لما قصصته عليهما متلعثما عن سامح، وعن الطماطم.

- طماطم!!!!؟

بعد أن أفقت أن هب الأب مكتوداً على المقعد المجاور ورنا للصورة المعلقة على الحائط ولعت مقلتاه وساح الماء بمهل من الاثنين. كارثة التذكر وقعت، وأمضت القلب من جديد.

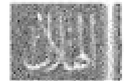
في الخارج الواسع، استقبلني الشارع بهدوء، وساعدني العتم الخفيف على الاختباء من أعين المارة القلائل. كنت كلما نسيت موت صديقي. أتذكر حديث الطماطم. ■

جماليات الشرق

فى إبداعات الغرب

بقلم
جمال قطب

كان حدثا مروعا شهده تاريخ مصر المحروسة فى عام ١٥١٧ عندما اقتلع الغازى العثمانى سليم الأول نحو ألف وثمانمائة من الفنانين والصناع المهرة من جذورهم الضاربة فى أعماق الأصالة والعراقة والإبداع الإسلامى المفعم بروح العقيدة .. تلك التى بلغت ذروة روعتها فى أواخر عهد دولة المماليك، شاهدة على عبقرية الزمان والمكان وريادة الفن المصرى فى الدولة الإسلامية الكبرى على اتساع رقعتها فى أرجاء المعمورة آنذاك! ولم يكتف الغزاة العثمانيون بأن استولوا على هذه المواهب النادرة كغنائم حرب وأرسلوا بهم إلى عاصمة الخلافة العثمانية وهى فى عنفوانها وسطوتها العالمية التى كانت لاتقهر فى القرن السادس عشر .. بل إن سليم الأول خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة بالذهب والفضة وما غنمه من كنوز وتحف ثمينة .. كما ذكر محمد بن إياس فى مؤلفه الذى يؤرخ لتلك الفترة العصيبة من حياة المصريين تحت الاحتلال : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» .. أى أنه حرم البلاد من فنانيها، ومن إبداعاتها التى كانت بمثابة القدوة التى يحتذى بها من الأجيال التالية.



وهكذا انكسرت حلقة الوصل بين فنون المراحل المزدهرة السابقة ومستقبل عقيم حرمه الغزاة من توارث الملكات العبقرية فى ساحة الإبداع المصرى فرعونيا وقبطيا وإسلاميا أثار الوجدان على مر العصور!

وعاشت مصر بعدها فيما يشبه الفراغ الفنى إلا من محاولات متواضعة ممتزجة بتأثيرات تركية ركيكة توارت فيها روح الأصالة والإبداع. وسارت الأمور متثاقلة مستكينة تحت سطوة الهيمنة العثمانية، حتى هب الإعصار الفرنسى على بلادنا عام ١٧٩٨ بعد أن وهنت قبضة الأتراك وكادت تندثر أقاليم إمبراطوريتهم العجوز. فتحركت المياه الراكدة حتى أضحت أمواجا عاتية اختلط فيها هدير المدافع وضجيج العجلات بإبهارات الحداثة والإثارة وتألق المعاصرة!

وأخذ نابليون وضباطه من بعده يتفننون فى اجتذاب أبصار المصريين

العوالم في رقصة النحلة
القاهرة — للفنان جيروم



شرفة على النيل للفنان الفرنسي يوجين جيرو- ١٨٧٨

ويصائرهم، فهذه الحفلات والمعارض والكتب المصورة والمنشورات الإعلامية وفرق الموسيقى ومراسم الفنانين تزخر بها أحياء القاهرة .. وتلك أحياء كاملة حولها الفرنسيون إلى مجمعات مبدعة ساهرة سامرة على غرار أحياء مونمارتر ومونبارناس في باريس .. وتبارى الفنانون في إنشاء مراسمهم الخاصة يصورون فيها النساء الجميلات ورجالات القاهرة من زعماء ومشايخ وأعيان .. بعث جديد شهدته القاهرة والإسكندرية وبعض المدن الأخرى .

وهكذا هبت روح المعاصرة والانتعاش الوجداني الذى رافق الحملة الفرنسية المحاربة وما صاحبته معها من جيوش المبدعين في جميع التخصصات ومجالات الفكر الإنساني وأسباب الدعاية والإبهار والغواية، والعمل على استيعاب العالم الجديد، والتطلع إلى عاصمة النور والحضارة على الأرض الفرنسية .. وكان هذا هو هدفهم الاستعماري من الشعوب التي ترزح تحت حكمهم. وفي نهاية الأمر، قدم الفرنسيون مصر على طبق من ذهب لمحمد علي، فبسط نفوذه عليها مبهورا بالدرس الفرنسي في التحضر والتحديث، كوسيلة لتحقيق طموحاته في منافسة الباب العالي، بل والتفوق على الإمبراطورية العثمانية المتهالكة!

وكان ما كان من أمور الكر والفر والتنافس والسيطرة وشئون السياسة، ولكن مايهمنا في استعراضنا هذا هو الفن الذى عاود الظهور في بلادنا مرة أخرى بعد غفوة طويلة عمرها ثلاثمائة عام منذ الهجمة العثمانية وانهيار دولة المماليك حين كانت مصر رائدة في إبداعات الفنون الإسلامية.



«اسكتش» لوجوه مصرية للفنان جاباني- ١٨٩٠

مصر وحكاية الاستشراق الفنى

كان من الطبيعي أن تدين أسرة محمد على بالولاء والعرفان لفرنسا .. فكانت تطلعاتها الحضارية تدور فى فلك النموذج الفرنسى كقدوة للحضارة الأوروبية فى العالم الحديث، كما جاء حصاد الوجود الفرنسى فى بلادنا لبضع سنوات متواصلة على نحو إعلامى مثير لما سجله الفنانون والباحثون عن طبيعتنا وعاداتنا وتقاليدنا .. وبالتالى انتشر هذا الكم الهائل من الفنون والمطبوعات والقصص والذكريات فى ربوع أوروبا كدعاية ونداء إلى الأوروبيين عامة والفنانين بخاصة لأن يشدوا رحالهم إلى القاهرة ، ففيها آثار جميع الحضارات التى توالت على العصور التاريخية المتعاقبة .. وفيها سحر الشرق بأجوائه الدافئة وتقاليده المتوارثة الأصيلة وتراثه العجيب الذى يدير رؤوس الباحثين عن الغرائب والأسرار .. ويداعب خيال الفنانين المنقبين عن الجمال ومكامن الإلهام!

وتوالت البعثات إلى فرنسا .. كما توافدت جموع الفنانين الذين استقدمتهم أسرة محمد على للاستفادة من إبداعاتهم فى قصورهم وتسجيل صورهم وإضفاء روح الجمال الأرستقراطى على حياتهم الباذخة.

وهكذا أقيمت جسور الصداقة بين الدولة المصرية والحضارة الأوروبية .. وبدورهم، استدعى الفنانون الذين حظوا بالإقامة بين ظهرانينا أصدقاءهم مدفوعين إلينا بأحاسيس وجدانية رائعة تفجر طاقاتهم وملكاتهم العبقرية التى تهيم بالجمال حيثما كان، لاسيما بجماليات الشرق التى حلموا بها لكثرة ماسمعوا

عنها!

وهنا لابد لنا أن نفرق بين نوعين من المستشرقين وقد تباينت أغراضهم ومقاصدهم ومآربهم حسب قناعتهم وأهوائهم : فكان بعضهم من الإمبرياليين العنصريين الباحثين عن السلبيات لغرض فى نفوسهم ونفوس من عملوا لحسابهم .. أما البعض الآخر من الوافدين على بلادنا – وهم من نعنى بهم – فكانوا من المحبين العقلانيين المبهورين بحضارة الشرق وسماحته وجمالياته الملهمة .. إنهم الفنانون العظام الذين تفاعلوا مع طبيعتنا الخلابة وذابوا عشقا فى حب الإنسان والأرض والتاريخ والتراث .. فأبدعوا روائعهم الخالدة فى شرقنا العربى .. وأصبحت أعمالهم مدرسة فنية تعد من أجمل مدارس الفن العالمى وهى مدرسة «الأوريانتاليزم» Orientalism، وتعريفها العلمى: أنها مدرسة غربية استمدت موضوعاتها من جماليات الشرق، وهى مدرسة واقعية ذات مسحة رومانسية.

وبهذا التعريف نرى أن هؤلاء الفنانين لم يكتفوا بنقل الواقع مهما كان جميلا ومثيرا، بل تباروا فى إضفاء روح الجمال والشاعرية على هذا الواقع الذى انفعلوا به وتفاعلوا معه ..

الجذور ومنابع الإلهام

وإذا كانت الحملة الفرنسية على مصر وما تلاها من الأحداث والانسياق إلى التغريب سببا مباشرا فى ظهور «الأوريانتاليزم» ووصوله إلى ذروة ازدهاره كما وكيفا فى القرن التاسع عشر، إلا أن تأثير الإلهامات الشرقية على الوجدان الغربى له جذور ممتدة فى أعماق التاريخ إلى أبعد من ذلك بكثير، فالحروب الصليبية وما عادت به الجيوش الأوروبية الغازية من انطباعات وذكريات، وما تناقله الرواة من المواقف والأحداث فيما بين الواقع والخيال والحقائق والأساطير، كان كل هذا بمثابة الكشف عن كنوز الأسرار وإثارة المشاعر والأحاسيس التى تحلق فى أطياف الأحلام والمغامرات .. حتى أضحت كلمة «الشرق» رمزا ملهما ممتعا مقترنا بالكشف عن العجائب والغرائب!

ناهيك عن الأحداث الجسام التى واكبت سقوط الدولة البيزنطية «الرومانية الشرقية» فى عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح ورحيلها من القسطنطينية إلى موطنها الأصلى فى إيطاليا .. فعادت بعد هذه القرون الطويلة محملة بحضارة شرقية أضيفت إلى الحضارة الرومانية الغربية .. وبذلك امتزجت الحضارتان، وبلغ التأثير الشرقى مداه فى عصر النهضة الذهبى الذى تربعت إيطاليا على عرشه فى القرن السادس عشر، ومنها انتقلت هذه الإلهامات الشرقية العبقرية إلى باقى الدول الأوروبية .. وطوال هذه القرون التحولية دأب الفنانون على البحث عن مكامن الجمال فى بلادنا الشرقية وفى الأندلس وفى كل أرض اتسمت بالطابع الشرقى وتراثه العريق!

وفى القرن الثانى عشر، أقدم الأديب الفرنسى الشهير انطوان جالان على ترجمة قصص ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية، ومنها ترجمت إلى عشرين لغة أجنبية فى وقت واحد ليقرأها العالم أجمع منذ ذلك الحين، ولتلهب مشاعر الفنانين وتدفعهم دفعا إلى مايشبه الهجرة الجماعية إلى بلادنا ليشهدوا تلك الأساطير الواقعية أو ذلك الواقع الأسطورى الذى رواه جالان بأسلوبه الجذاب وشاعريته الممتعة التى تجلت فيها موهبته الروائية وهو يحكى على لسان شهرزاد من مخدعها المعبق بالعطور والبخور .. عن أسرار القصور وأجنحة الحريم وعظائم الأمور وخوارق الجن والأسحار فى أقصى الأرض وأعمق البحار! وكان من الطبيعى أن يتأثر الفنانون قبل غيرهم بهذه الدراما الموحية للكاتبهم المبدعة بعد أن تمثلت هذه

الأساطير فى أذهانهم عالما مثيرا اختلطت فيه الرؤيا بالرؤيا والحقيقة بالخيال .. وما الفن إلا خيال ينطلق من عالم الواقع .. أو واقع يحلق فى أطياف الخيال!

وكانت هذه العوامل كفيلة بأن تستنهض الهمم وتستحث الخطى نحو الهدف وبلوغ أمل الفنانين الأوروبيين فى الهجرة إلى بلادنا الشرقية..

وحظيت مصر - والقاهرة بصفة خاصة - بالنصيب الأوفر من استقبال هذه المواهب الفنية الوافدة ، لتفردها بآثار الحضارات المتعاقبة عبر قرون التاريخ ولطابعها الشرقى الأصيل فرعونيا وقبطيا وإسلاميا فبدأت الهجرة إلينا فى أول الأمر بأعداد قليلة لها طابع المغامرات الفردية .. ولكنها ما فتئت أن تحولت إلى ظاهرة جماعية أثناء وبعد الحملة الفرنسية حتى وصلت إلى ذروتها فى القرن التاسع عشر.

وتألقت حركة الاستشراق الفنى عندما استقر الفنانون فى القاهرة والإسكندرية وبعض المدن المصرية الأخرى وسجلوا فى روائعهم كل ماوقعت عليه أعينهم فى أرضنا الطيبة! وطاب لهم المقام بيننا.. وأصبحت مصر وطنهم الثانى .. وكثير منهم اندمج فى العائلات المصرية بالمصاهرة فصارت مصر وطنهم الأول وازدهرت الفنون الاستشراقية التى ملأت الفراغ الوطنى بعد أن انقطع التواصل المحلى بين السنوات العجاف وبين أمجادنا العريقة الماضية .. واستمرت هذه الهجرة الإبداعية حتى انحسرت شيئا فشيئا مع إطلالة القرن العشرين إلى أن تلاشت نهائيا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .. ثم توالت الأحداث العالمية والتحولات المصيرية بإيجابياتها وسلبياتها وأفكارها الفلسفية وتشنجاتها الانفعالية وتعقيداتها الأيديولوجية .. مما أسبغ على الفن أنماطا مستحدثة تواكب هذه المتغيرات اللاهثة ..



الفلاحة المصرية للفنان وليم مولان - ١٨٦٠

وملأنا نحن الفراغ الفنى وأخذنا ننافس بفنانينا فى المنتديات العالمية بعد أن شهدت بلادنا افتتاح أول مدرسة للفنون الجميلة عام ١٩٠٨، ما لبثت أن تفرعت إلى العديد من الأكاديميات والمعاهد الفنية المتخصصة. ولكن ظل التأثير الأوروبى والمستشرقون بفنونهم الغربية .. قدوة لنا حتى يومنا هذا من وجهة النظر الأكاديمية، كما استقل العديد من فنانينا بطابعهم التراثى الخاص .. مستلهمين جذورنا الضاربة فى أعماق الزمن البعيد أو القريب .. جاهدين لأن يكون لنا فننا وملامحنا وهويتنا المميزة. ■

التكوين

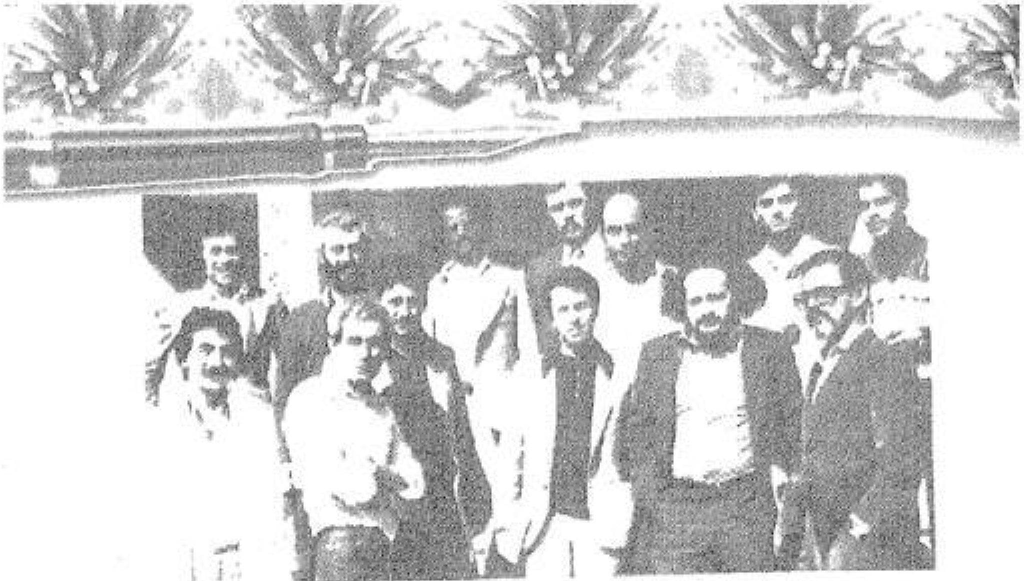
سأندهش إذا وافاني الموت

مصطفى الحسيني

هنا فى لبنان، حيث أعيش، سألنى عن ما بلغت من السنين صديق شاب يقل عمره كثيرا عن نصف عمرى، فلما أجبته بما بلغت قبل سؤاله بأيام قلائل، قدّم لى ما هو متعارف عليه من عبارات التهنئة والتمنيات بالصحة وطول العمر. ثم أردف ذلك بسؤال عن ما إذا كانت فكرة الموت تراودنى، أى إذا ما كان فكرى مشغولا باقتراب القضاء المحتوم.



لم يفاجئنى أو يزعجنى سؤاله، فالشاب شغوف بالفلسفة التى يقوم بتدريسها فى إحدى الجامعات اللبنانية رغم صغر سنه. كما أننى أذكر أننى عندما كنت فى مثل عمره، كنت أعتبر من بلغوا الخمسين مسنين انقضت أيامهم. لكننى بقدر ما لم يفاجئنى سؤاله، فاجأنى جوابى الذى أتى تلقائيا دون أى تفكير: الحقيقة أننى سأندهش كثيرا إذا مت.



صورة في بيروت ما قبل الاجتياح الاسرائيلي ، من اليمين فارس قرة بيت ، سيد خميس ، خالد أبو خالد ، محمد نور ، يوسف عبد لكي ، علي فرزات ، ومن الأسفل : مصطفى الحسيني ، جورج بهجوري ، العربي الصبان ، ناجي العلي ، عبد الهادي الشماع

لم يكن ما فاجأني في ذلك الجواب هو ما يحتويه من تناقض العبث، فمن البديهي أن الميت لا يشعر ولا يعرف ولا يدرك أنه مات، ناهيك عن أن يدهشه ذلك. ما فاجأني أن ذلك الجواب لم يأت تلقائيا فحسب، إنما أنه لم تلحق به شائبة من المزاح أو محاولة التفكه أو الممازحة - وإن كان الشاب - لحسن حظي - قد ضحك، ففهمت أنه أخذه شعلي واحد من تلك المناحي، وإلا لحسبني مجنونا .

أدركتني المفاجأة أو أدركتها، فرحت أتأمل ذلك الجواب، فكان أول ما انتبهت إليه أنني مازلت أنظر إلى كثرة من أصادفهم من الكهول والشيوخ والذين يغلب أن يكونوا أصغر مني سنا، على أنهم من كبار السن الذين يستحقون مني توقير الأعمار، وفي بعض الأحيان واجب الرعاية أو المساعدة

* * *

وفي اليوم الثالث من شهر أغسطس العام ٢٠٠٣ بلغت الثامنة والستين، حسب الأوراق الرسمية. أما حسب رواية أمي رحمها الله، فقد بلغت تلك السن في اليوم التاسع من شهر مايو من السنة نفسها. سبب اختلاف الوثيقة عن الرواية هو أنني ولدت في قرية عائلة والدتي «ساحل الجوابر» التي كانت حينئذ تابعة لمركز تلا بمحافظة المنوفية، ثم أصبحت وبقيت حتى الآن تابعة لمركز الشهداء بالمحافظة

نفسها، بعد أن ارتقت تلك البلدة فى سلم التصنيف الإدارى من بلدة إلى مركز. قبل ولادتى ذهبت أمى لزيارة أهلها ولتلد «عند أمها» حسب عادة كانت شائعة - وربما لاتزال- بينما كان بيتنا فى شبين الكوم، عاصمة المحافظة نفسها، حيث كان أبى يعمل ولم يدخل اسمى إلى سجل المواليد إلا بعد عودتى مع أمى إلى بيتنا.

تقابل «ساحل الجوابر» قرية أخرى أصبحت ذات شأن فى تاريخ مصر المعاصر، هى «ميت أبو الكوم» مسقط رأس الرئيس أنور السادات الذى أوشك أن يجعل منها عاصمة ثانية للبلاد. أما مقتضى هذا الذكر فهو أنه فى عام ١٩٥٦ ربطت المصادفة بينى وبين السادات عندما عملت فيما كان يسميه «المكتب السياسى» فى صحيفة الجمهورية التى كان يرأس مجلس إدارة «دار التحرير» التى تصدرها. وكانت «الجمهورية» تنشر على صفحتها الأولى كل يوم تقريبا مقالة كتبت باسمه.

كان ذلك «المكتب السياسى» يتبع السادات مباشرة وكان يشغل نصف طابق بمبنى «الجمهورية» فى شارع الصحافة. وكان مكتب السادات يقع ضمنه، مما أتاح لى تعاملا مباشرا معه. وبحكم القرب بين «ساحل الجوابر» و«ميت أبو الكوم» فإننى أعرف عن التاريخ الشخصى للسادات - عن طريق الرواية الشفهية المتواترة - أكثر كثيرا مما أورده عنه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه «خريف الغضب» لكن هذا ليس مقامه.

كان المرحوم على الدالى يدير عمل ذلك المكتب السياسى ويشرف على التحرير فيه المرحوم أحمد رشدى صالح ويتولى على جمال الدين إخراج الصفحتين الأسبوعيتين اللتين كان المكتب ينتجهما: الصفحة العربية و«صفحة باندونج» وعندما التحقت بذلك العمل عن طريق المرحوم حسن فؤاد أو بتدبير منه شرح لى على الدالى أن وظيفة الصفحة العربية هى تحريض بقية الصحف المصرية على الاهتمام بالشئون العربية، حيث كان ذلك الاهتمام ضعيفا. أما «صفحة باندونج» فوظيفتها الترويج لأفكار «الحياد الإيجابى» على ضوء قرارات مؤتمر باندونج الذى انعقد فى أندونيسيا فى العام السابق أما بقية «أعضاء» المكتب الذين انضممت إليهم فهم المرحوم أحمد فوزى عطا الله وألفريد فرج ويوسف صبرى والمرحوم محمود أبو وافية الذى كان «عديل» السادات.

لا يخفى ما كان فى تسمية أحد أقسام التحرير فى الصحيفة بذلك الأسم الفخم - المكتب السياسى - من تعبير عن ميل

السادات إلى إحاطة نفسه بمظاهر الأهمية حتى لو كانت بلا مضمون ولا سلطة .

فجأة اختفى أنور السادات من مكتبه واختفت السكرتيرتان اللتان كانتا تعملان معه واختفى ذكره وإنما إلى حين وحل محله ضابط آخر هو أمين شاكر، فكان أول ما اتخذ من قرارات حل المكتب السياسى وتوزيع «أعضائه» على أقسام التحرير.

فى خضم ما أصاب عملنا من اضطراب عرفنا قصة اختفاء السادات المفاجئ، أجرى مراسل لصحيفة «لو سوار» البلجيكية معه حديثا سأله فى سياقه عن ذلك المكتب السياسى فأوقع السادات نفسه فى ورطة، قال إنه My inner Cabinet تحدث بالإنجليزية ولا أظنه كان يعرف معنى ذلك المصطلح الذى قد يترجم إلى «إنه وزارتى الداخلية».

حسب ما تردد آنذاك، ويبدو أن أحدا من المقربين من الرئيس جمال عبد الناصر لفت نظره إلى التسميات والأوصاف التى يستخدمها السادات وأظن أن الرئيس لم يكن يتساهل فى شئ يتعلق بانفراده بالسلطة .

وهكذا دفع السادات ثمن ولعه بالفخفخة، حتى لو كانت فى الألفاظ .

رغم أن الفترة التى عملتها فى ذلك «المكتب السياسى» كانت قصيرة إلا أنها أتاحت لى نوعا خاصا من الاطلاع على دخائل السياسة المصرية وعلاقاتها العربية والدولية .

كان من أهم ما يرد إلى «المكتب السياسى» من مصادر، تقارير جهاز المخابرات العامة عن الأوضاع العربية والدولية وتقارير سفراء مصر فى عواصم العالم إلى وزير الخارجية وما يرسل منها مباشرة إلى مكتب الرئيس..

فتح ذلك النوع من الاطلاع مداركى على أبعاد للسياسة تختلف عن ما كنت أعرف وأظن حتى ذلك الحين كانت معرفتى بالسياسة تدور ما بين ما كنت أقرؤه فى الصحف والكتب وكان أهمها عندى الأعمال النظرية وكتب التاريخ، وما كنت أكتسبه من خلال تجربة مضطربة من عضويتى فى المنظمة الشيوعية «الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى» المعروفة اختصارا باسم «حدتو» كانت خبرة تتوزع بين المحافظة على السرية فى كل شئ والدقة فى المواعيد لأسباب تتعلق بالأمن، وتوزيع المنشورات والملصقات الصغيرة وتنظيم جمعيات للنشاط الثقافى فى جامعة القاهرة حيث كنت أدرس القانون والمشاركة فى تنظيم المظاهرات عدا عن ذلك كانت خلافاتى مع «حدتو» هى العنصر الغالب على علاقتى بها أظن الآن - فى إدراك لاحق - أن مصدر الخلافات التى

انتهت بخروجي من الحركة الشيوعية أنني لم أكن أحب السرية ولا الالتزام النظري بمعرفة ضحلة بالماركسية تفرضها القيادات الشيوعية جميعا وأنني لم أكن مقتنعا بكفاءة القيادة التى أتاحت لى فترة احتجاز قصيرة (٤٠ يوما) فى ربيع ١٩٥٥، أن أتعرف على بعض أعضائها عن قرب .

أذكر بهذه المناسبة النكتة التى أطلقها صديقى ابراهيم فتحى، الذى كان زميل ذلك الاحتجاز. سمعته صدفة يقول ضاحكا «ياحلاوتك فى الملس * يا أم عبد الحى» . فلما سألته عن من تكون روى لى نكتة عن أمراة فقيرة كانت تسكن بمفردها غرفة فى حى فقير كانت تغادر غرفتها مرتديه الملس الذى يخفى معالم الجسد تشترى حاجياتها ثم تعود لتغلق باب غرفتها حتى اليوم التالى. لم تكن تخالط أحدا وذات يوم اكتشفت جاراتها أنها ماتت بهدوء فى غرفتها فلما شرعن فى إعدادها للدفن اكتشفن ما كان الملس يخفيه من جفاف عودها وضموره كنّ فى حاجة إلى كلمات يشيعنها بها، فرحن يرددن : ياحلاوتك فى الملس يا أم عبد الحى

عندما ولدت كان أبى يعمل بمصلحة المساحة بوظيفة مساعد مهندس وإن كان يصر على استخدام لقب المهندس، ليس من باب الإدعاء أو التبجح - فيما أظن - إنما مقتنعا بأن له فى ذلك حقا أسوة بخريجى مدرسة الفنون والصنائع التى اكتسب المتخرجون فيها صفة المهندسين، بعد أن سميت مدرستهم - بعد تخرج دفعات عديدة فيها - كلية الفنون التطبيقية فلماذا لا تسرى المعاملة نفسها على المتخرجين فى «مدرسة المساحة»، وهو واحد منهم ؟ هذا حسب ما بقى فى ذاكرتى من لغة المذكرات التى كان يكتبها باسم «رابطة خريجى مدرسة المساحة» التى شارك فى تأسيسه .

ولم تكن تلك هى «المعركة» الوحيدة التى استغرقته ولم يكسبها

كان أبى قد التحق بالجامعة الأمريكية فى القاهرة فى سنة إنشائها - ١٩١٨ - على ما أظن ولم يكن بها من مستويات الدراسة إلا اثنان : الأدنى منهما يحصل الناجح فيه على شهادة تسمى باللغة الإنجليزية Matriculation، تعادل البكالوريا فى زمانه أو التوجيهية فى

* نوع من الثياب ترتديه الريفيات فوق ملابسهن ، يتميز بالتجعيد والكشكشة ويخفى معالم الجسم

زمانى أو الثانوية العامة الآن، وكان قد حصل على الشهادة المصرية التى كانت تسبق تلك الأخيرة وتسمى الكفاءة تلى تلك الشهادة الأمريكية التى تؤهل للالتحاق بالجامعة سنة تمهيدية تساعد الطالب على اختيار موضوع دراسته الجامعية ويسمى الطلاب فيها Fresh-menويقصد بها الطلاب المستجدون .

حسب رواية أبى أنه نجح فى المرحلتين لكن الجامعة الأمريكية لم تفتح الكليات الموعودة فى السنة الأكاديمية التالية ونصحت الطلاب الراغبين فى مواصلة دراستهم بالسفر إلى الخارج، لكن أباه رفض أن يفارقه ولده البكر وأعاده إلى القرية - ساقية أبو شعرة ليعيش بطالة أبناء أعيان الريف إلى أن زارهم قريب لهم كان يعمل مديرا لمصلحة المساحة ويحمل لقب بك «ابراهيم بك زكى» فنصح أباه بأن يرسل ابنه الأكبر إلى مدرسة المساحة الحديثة الإنشاء والتى تتبع المصلحة التى يديرها ويبدو أن أبى وجدها فرصة للتخلص من حياة الريف بعد أن خبر حياة اللهو فى القاهرة تحت رعاية خاله عبد العزيز، الذى لن يلبث أن يأتى ذكره

لكن خيبة الأمل فى إتمام التعليم العالى، خاصة بعد أن لاحت فرصة إتمامه خارج البلاد، لم تفارق أبى حتى نهاية حياته، على ما أظن .

كانت خيبة الأمل تلك تلوح من وقت لآخر فى حلم لم يفارقه بما كان يعتبره فرصة ضاعت للالتحاق «بكلية هارو» Harrow College وهى ثانوية إنجليزية خاصة يلتحق بها أو بنظيرتها إيتون Eaton أبناء الطبقات العليا فى بريطانيا وبعض أبناء أغنياء المستعمرات البريطانية أظن أنه سمع عن «هارو» أو عرف بها من بعض من كان احتك بهم من الإنجليز فى سياق هوايته لكرة القدم فى «النادى المختلط» الذى أصبح فيما بعد «نادى الزمالك» ويبدو أنه كان يتطلع إلى الالتحاق بجامعة بريطانية وربما لم تكن، فى ذلك الزمان لتقبل ما حصل عليه من الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

أيضا أمضى أبى وقتا وبذل جهدا - دون طائل - فى كتابة الرسائل باللغة الإنجليزية يدافع عن ما تصوره حقا له فى عضوية رابطة خريجى الجامعة الأمريكية بالقاهرة

☆☆☆

فى تاريخنا العائلى الشفهى أن جدى لأبى شحاتة على حسن عيسى، أو شحاتة أبو عيسى، كان لردح من حياته، رجلا موسرا، يملك الاراضى ويتاجر فى محاصيلها كان من علامات يسره أنه كان

التكوين

يوظف كاتبا قبطيا أسمه المعلم داوود يمسك حساباته وكان هو الذى علم أبى القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، فلم يذهب إلى كُتّاب مثل أقرانه فى جيله، وهو ما ذهبت أنا إليه فى جيلى وأنه بعد أن بلغ سن الإلتحاق بالمدرسة الابتدائية انتقل إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة القربية الابتدائية التى مازالت باقية فى موقعها نفسه خلف الجامعة الأمريكية وليعيش فى كنف خالة له، عرفتها أنا باسم ستى أم زكى، ولم أعرف، حتى مطلع شبابى أن ابنها الأكبر، الذى أصبح اسمه عنوان أمومتها، كان اسمه «الرسمى» عباس وأنه رفيق الصبا والشباب لأبى وشريك مغامراتهما وطيش شبابهما - وقد أطلعنى على طرف من ذلك استخدمته فيما بعد لتليين موقف أبى من بعض مغامرات مطلع شبابى وطيشه .

كان راعيهما إلى المغامرات خالهما «جدى عبد العزيز» الذى كان بملابسه الريفية الفاخرة يقودهما إلى دور اللهو فى شارع عماد الدين وساحل روض الفرج وكان من طرائفه أنه عندما كانت واحدة من فتيات الكباريهات تسأل عن عمله، كان يقول: أنه مفتش مراجيح وقد بقى حتى نهاية حياته، رغم ما لحق به من فقر محافظا على فخامة الثياب وحسن المظهر لم أعرف له أبدا مصدراً للرزق عدا عن ما سمعت به بعد وفاته من أنه اقتطع أجزاء كبيرة من حديقة بيت صهره محمد عرفة وبنى لنفسه بيتا متواضعا عاش فيه مع آخر زوجاته - عزيزة - التى لم ينجب منها وباع أجزاء من الأرض لآخرين .

☆ ☆ ☆

فيما أعيه من طفولتى، كانت ستى أم زكى تعيش فى بيت يشبه القصور يقع فى شارع فى امبابة مازال يحمل اسم زوجها - محمد عرفة - الذى كثيرا ما شاهدته يجلس بمفرده فى غرفة الاستقبال فى سلاملك ذلك البيت لايصلنى من معالم حياته إلا صوته الذى كان - فى تصورى - يخرج من «لغلوغه» متكسرا متقرّقا وصوت الجرس الفضى الذى كان يستخدمه لاستدعاء خادمة لا أذكر اسمها

كان من علامات وجوده أيضا دخول قريب لنا كنا نسميه « عم أمين أبو عيسى» ليقضى معه أوقاتا قصيرة فى الأيام الأولى من كل شهر، وكان شقيقه «عم محمد أبو عيسى» زوجا لعمتى حمدية « التى أحمل لها منذ طفولتى حبا شديدا ربما كان مرجعه ما أصبحت فيما بعد أدرك أنه نوع من الحنان الرقيق الممزوج بالحزم تغدق منه علينا- أنا وإخواتى وأبنائها وكل من

دخل إلى فلكها من أطفال العائلة والجيران، الغريب أنه حتى الآن لا أعرف بالضبط نوع صلة القربى بين أبي و «عمتي حمدية» وزوجها عم محمد أبو عيسى »

ذلك أن قرية «ساقية أبو شعرة» موطن عائلة أبي تضم عائلة واحدة مترامية الأطراف إن جاز التعبير وربما إذا جرى استقصاء الأحياء الذين تعود أصولهم القريبة إليها تجاوز تعدادهم المائة ألف .

أصل تلك العائلة حكاية تشبه الأساطير وقد تكون كذلك .

في أربعينات القرن الماضي كنا نعيش في «مدينة» الأقصر «المشهورة» بما تحتويه من آثار فرعونية حيث كان عمل أبي وكان كثيرا ما يتغيب لأيام قد تطول في مهمات تتعلق بعمله من ذكريات تلك الفترة أن زارنا في بيتنا ذات يوم اثنان أو ثلاثة من الصعايدة عليهم مظهر الأعيان مصحوبين بعدد من القفف تحتوي العدس والفريك والتمر - على ما أذكر ما عرفناه بعد ذلك هو أن هؤلاء أقارب لنا من بلدة اسمها «قوص» بمحافظة قنا وأن أبي وبعض العاملين معه انقطعت بهم السبل ذات ليلة عن العودة إلى موقع المخيم الذي كان مقرا للمشروع الذي يعملون فيه، فاستضافهم عمدة أقرب قرية، ضمن واجبات العمدة حيال من تنقطع بهم السبل من موظفي الحكومة و «الضباح رباح» .

وكما يحدث في سمر ليال من هذا النوع سأل العمدة أبي عن أصله وفصله، وما أن ذكر أبي اسم عائلته ومسقط رأسه حتى راح العمدة يسرد له أسماء من جيل أبيه وأن واحدا من إخوته متزوج من «بحراوية» من هناك وأطلع أبي على « شجرة عائلة» شفهية يحفظها عن ظهر قلب تروي تلك الشجرة أن أصل تلك العائلة المترامية الأطراف يرجع إلى الحجاز وأنهم بطن أو فخذ من قبيلة تعاون رجاله مع حملة ابراهيم باشا ابن محمد علي على تلك البلاد في عشرينات القرن التاسع عشر وأنه عند انسحاب قوات الحملة المصرية خشي هؤلاء المتعاونون على أنفسهم، فاقتفوا أثر الحملة عبر البحر الأحمر إلى مصر وأنهم عندما وصلوا إلى صعيدها بدأ الرؤوس من رجالها مع ذراريهم يغيرون على القرى - على عادة البدو في ذلك الزمان ومن يسترخص منهم قرية أو يعجبه معاشها يستولي عليها ويطرد أهلها منها بقوة البأس وأنه هكذا استولى «حزين» منهم على قرية قرب إسنا جنوب الاقصر واستولى دنقل - الجد الأعلى لعائلة العمدة - على «الكراتية» قرب قوص

شمال الأقصر واتجه الباقون شمالا فاستولى «حزين» آخر على قرية قريبة من كوم حمادة غرب دلتا النيل واستولى عيسى وعقل وبكر ونصر على محلة الإمام الشعراني واتهموه بالجنون وأطلقوا على المحلة اسم «ساقية أبو شعرة»، تلميحا إلى ما ألحقوا بالإمام من أذى أجبره على مغادرتها إلى القاهرة حيث استقر فى الحى الذى نسب إليه – باب الشعرية، بعد أن أحاط به تلاميذه ومريدوه .

أما فى محلة الشعراني نفسها، فقد طرد البدو أهلها كعادتهم لم يستبقوا منهم إلا أهل بيوت ثلاثة «العسكرى» الذى يمثل الدولة و«المزين» الذى ليس منهم من يعرف حرفته و«سيدنا» وإمام الجامع ومعلم «الكتاب» و«المأذون» بعقد الزواج وحله بالطلاق لم يكن لهم عنه غنى .

بقيت تلك العائلات زمنا خارج «العائلة» المغيزة إلى أن تشابكت معها بالمصاهرة .

مما قد يوحى بأن فى تلك الرواية شيئا من الصحة، أنه حتى عهد قريب كان رجال «العائلة» يتباهون بما اقترفوه أو يدّعون اقترافه من جرائم قتل خصومهم أو من تجرءوا على ما يزعمون لأنفسهم من هيبة وكان شبابها المقيمون خصوصا أبناء الأعيان يتفاخرون فيما بينهم بقدراتهم فى مجال السرقة، خصوصا فى وضح النهار تسوية لحسابات غير معترف بها أو استيفاء المطالبات غير مستجابة بغض النظر عن الحق فيها أو لمجرد اظهار البراعة أى لأغراض لا يرونها متصلة بالإجرام ولأسباب ليس من بينها الحاجة. كأنما السرقة من شيم الفروسية وقد شهدت أنا نفسى فى «ساقية أبو شعرة»، فى ستينات القرن الماضى، على مائدة غداء دعانى لها قريب لى كان يشغل منصبا مرموقا فى الدولة، شابا من أقاربنا كان بين المدعوين إلى الوليمة وهو يبلغ مدعوا آخر، هو أيضا من أقاربنا أن «نحاس بيتكم عندى إن كنت عاوزة إبعت خده بس أدفع المبلغ اللى طلبته منك امبارح» وتضاحكا دون ضغينة وشاركهم الآخرون الضحك

* * *

كان عم أمين أبو عيسى يدخل إلى غرفة محمد عرفة كالمتسلل يحمل دفترا مستطيلا مما يستخدم لتسجيل الحسابات ويحاول إخفاءه فى طيات جلبابه يغلق الباب خلفه فى هدوء ثم لا يسمع من داخل الغرفة صوت ولاهمس وبعدما لايتجاوز ربع الساعة يخرج عم أمين من الغرفة كالمتسلل كما دخل .

فيما بعد، أيضا فى مطلع شبابي عرفت طرفا من قصة حياة محمد عرفة من خلال حكايات جلسات السمر التى ألفتها حينا من الزمن فى مطلع شبابى، مع ابنه الأكبر عم زكى عرفة ومن حكايات صهره وخال أبى «جدى عبد العزيز» الذى عرفت من خلال تلك المسامرات أنه كان الراعى «لشباب ابنى أخته - أبى و «عم زكى عرفة» - « يعرفهما بالدنيا» فى أماكن اللهو .

فيما بعد ومن خلال تلميحات أمى الساخرة حول «الخواجة لما يفلس يدور فى دفاتره القديمة» فهمت أن وظيفة «عم أمين» مع محمد عرفة، أنه كان يقوم بتحصيل ماله من ديون لدى آخرين وأن محمد عرفة كان حريصا على كتمان ما يتعلق بموارده، حتى يحميها لنفسه من مطالب أبنائه الذين لم يكمل أى منهم تعليمه وأصبحوا يعملون فى وظائف صغيرة ويعيشون عيشة الفقراء، إلا من المسكن الذى تبدو عليه مظاهر العز من الخارج بينما يدب فى داخله الخراب .

الطريف أنه بعد وفاة محمد عرفة بسنوات كثيرة، فكر بعض من تبقى من أبنائه وأحفاده فى بيع ذلك البيت الكبير، لكنهم اكتشفوا أنه ليس ملكا لأبيهم وأن ملكيته مازالت مسجلة باسم «ناعوم» وأنهم حتى لا يستطيعون الحصول على ترخيص بترميمه أو هدمه ربما لذلك مازال «متن» ذلك البيت قائما بعد أن تمزقت حديقته الكبيرة، التهم بعضها التنظيم ليمد شارع محمد عرفة حتى يتصل بالطريق الذى كان الحد الجنوبى الكتلة عمران امبابة واستغرق بناء المساكن أجزاءً أخرى منها .

أما «ناعوم» المالك القانونى لبيت محمد عرفة فليس فى ذاكرتى من شأنه سوى أطراف حكايات للمتها ذاكرتى من ما روته أمى عن واقعة قتله أمام كباريه الكيت كات على مدخل امبابه بيد قريب لنا اسمه محمد أبو بكر، فيما اعتبره جزاء وفاقا على سوء معاملته لأبناء «ساقية أبو شعرة» الذين يسكنون إمبابة التى كانت مهجر العاطلين منهم، بمن فيهم الوارثون المفلسون الذين لم يبق لهم من العز إلاّ غطرسة أغنياء الريف التى تزداد حدة مع الإفلاس روت أمى، لا أعرف استنادا لأى مصدر أن محمد أبو بكر ترّصد ناعوم عند مغادرته الترام فى محطة الكيت كات فى موعد عودته اليومى وأنه تظاهر بأنه يحجز مائدة فى الملهى الشهير ويتجاذب الحديث مع الموظفة الجميلة، بينما يترصد وصول ضحيته ومن تحت إبطه الأيسر أطلق النار على ناعوم من مسدسه الذى

حرص على أن تخفيه ملابسه الريفية فأصابه في مقتل وهو على بعد أمتار منه ثم تظاهر أنه التفت باتجاه ضحيته عندما سمع صوت الرصاص فاندفع وألقى بنفسه على الجثة وهو يهتف باسم صديقه وحبيبه ناعوم أرجّح أن أمي سمعت هذه الرواية من محمد أبو بكر نفسه أو منقولة عنه يبدو من تلك الروايات التي سمعت معظمها من أمي أنه كان هناك نوع من التشابه بين الجانب العملي في حياة كل من محمد عرفة «وناعوم» ذلك أن دافع محمد أبو بكر الذي كان من أعيان قريتنا لقتل ناعوم زعمه أن ذلك الأخير كان يؤجر لبعض أبناء القرية الذين هاجروا إلى إمبابة قطعا من الأرض التي كان هو يستأجرها بمساحات كبيرة من وزارة الأوقاف وأنه كان يطرد من يتخلف عن دفع الإيجار

لكن يبدو أيضا من تلك الروايات أن من خلفيات مصرع ناعوم أنه هو الذي خلف محمد عرفة في استئجار أراضي الأوقاف، بعد أن ألغت الوزارة عقدها مع محمد عرفة لتخلفه عن أداء التزاماته لها، كما يبدو أن «ناعوم» كان في البداية مجرد واجهة لمحمد عرفة ثم غدر به في تلك الخلفيات أيضا أن وزارة الأوقاف استولت على مساحة كبيرة من الأرض ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فدان حسب الروايات المتواترة من أملاك جد أبي لأمه عمر نصر، كان رهنها للوزارة ضمانا لالتزامات صهره محمد عرفة في استئجار أراضي الأوقاف بقيت هذه القصة أو القضية حية إلى ستينات القرن الماضي حيث قام تحالف بين «جدي عبد العزيز» وبين شقيقي عادل، رحمهما الله لاسترداد تلك الأراضي التي احتفظت بها الوزارة بعد أن استوفت من ايرادها ما كان لها من مستحقات لم يطالب بها أحد لكثرة ورثة عمر نصر وتزايد أعدادهم مع تعاقب الأجيال وكان بعضهم لا يعرف شيئا عن ذلك الموضوع وقد اكتشف أخي عادل بعد وفاة جدي عبد العزيز أن حليفه كان قد خدعه إذ توصل إلى تسوية مع وزارة الأوقاف ضمنت له راتبا مدى الحياة مقابل التوقف عن ملاحقة القضية، التي كانت الوزارة تزعم أن معظم مستنداتها مفقودة .

أما عادل رحمه الله فقد تحولت خديعة حليفه له إلى حكاية طريفة يرويها ضاحكا ومترحما على حليفه على ما جرى به طبعه السمح لا يأخذ عليه سوى أن التسوية كانت ظالمة

كان لأبي عدد كبير من الخالات وخال واحد هو جدي عبد العزيز ولم يكن أبي يعرف معظم أولئك الخالات فالرواية

المناقلة عن ذلك الجد أنه تزوج فى حياته من ٢٣ امرأة كلما أعجبته إمرأة طلق واحدة من نسائه ليتزوجها لكنه احتفظ بزوجته الأولى - جدة أبى لأمه وأم جدى عبد العزيز

يروى أن جد أبى ذاك كان ذات مرة خارجا من محكمة فى بولاق بالقاهرة عندما رأى بجوار مبناها امرأة تبيع البرتقال أعجبته فاشترى برتقالها وتزوجها وهذه كانت تذكر فى أوساط العائلة باسم «زينب البولاقية» وكان من بقى على صلة بالعائلة من ذريتها يعرفون بتلك الكنية وأنه لم يكن يسمح لأى من مطلقاته لا بالزواج من بعده لأنه لايأكل أحد من صحن أكل منه شيخ العرب ولا بالعودة إلى أهلها لأنه كفيل شرعا بنفقتها إنما كانت تحال إلى «بيت المطلقات» الذى كان حراما عليه .

ويقال أنهن تفرقن بعد موته وصحبن أطفالهن الذين لم يكن من بينهم ذكور ولم يبق فى ساقية أبو شعرة» إلا من كن من «العائلة» واحدة من بنات أولئك الخالات بنات الغريبات هى التى تزوجت أثناء حياة أبيها فى عائلة دنقل .

حتى ذلك الحين كانت الصلة بين أطراف هؤلاء البدو ماتزال قائمة .

☆ ☆ ☆

هل أبعدنا طول الاستطراد بالتداعى عن ما قلته لصديقى الشاب من أننى فى «الحقيقة سأندهش كثيرا إذا مت »؟

المسألة التى أقف أمامها هى أننى مكتمل اليقين بأن مآلى الموت مثل سائر الأحياء، لكننى متيقن الشعور، إن كان فى المشاعر يقين، بأننى سأندهش كثيرا إذا مت».

والمسألة أيضا أننى أعلم علم اليقين، مثلى مثل غيرى أن الموت نعمة على البشر، إن لم يكن لسبب فلأنه يقيهم ملل الخلود وينقذهم من التحول إلى عبء زائد فى التزاحم على رقعة سطح الأرض والتدافع على نصيب من أرزاقها ومواردها وهوائها ويطهر حياة أعقابهم من ما يلحقه بالحياة خلود الناس من تلوث الأنفاس والفضلات والأفكار .

والمسألة كذلك أننى أدرك - فلسفيا، لو سمح لى بالتفلسف - أن الموت هو ناظم الحياة وضابط إيقاعها وأنه مصدر وعى الإنسان بالزمن وأنه دافعه إلى التحقيق والإنجاز والتحقق . وأنه لولا هاجس الموت المتيقن ما أنجزت البشرية شيئا من الكثير الذى أنجزته فميّزها عن سائر الأحياء .

رغم ذلك فإننى سأندهش كثيرا إذا وافانى الموت .

هل هذه من حصيلة «التكوين»؟ ■

مقالان أعجباني

في هلال فبراير ٢٠٠٤ حرت كثيراً وأنا أحاول نهماً- رغم سني وبصري الذاويين- أن أنجز في محبة قراءة ما يواتيني من زخم موضوعات هذا العدد، وأراني دائبا والحمد لله على المتابعة، خاصة مع مقالي أستاذي الدكتور محمد رجب البيومي والدكتور «صديقي الكبير» الطاهر أحمد مكي. في مقال الأول عن «صور من الترف الباذخ ليست في ألف ليلة وليلة»، وفي مقال الثاني «من ذخائر الكتب العربية- الحيوان للجاحظ».

ولقد أبهجني مقدرة الدكتور البيومي في ثلاثة عشر سطراً «ص٢٤» أن يجمع جمعا مانعا- وهذا غير معهود في الموضوعات النقدية- مصادر أحلام ألف ليلة وليلة، وكيف أذهلت قارئها في سويداء فهمهم العاطفي، طوال عصور حياتهم، مما جعلني أتمنى أن يحذو شبابنا حذو شيوخنا الراسخين في استمرار ترسيخ قنواتهم في تجاريبهم الكتابية.

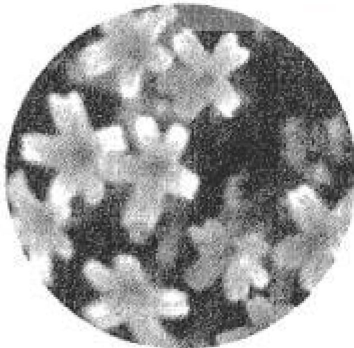
ولم يكن مقال د.الطاهر مكي إلا استمراراً على النهج الأصيل، الذي يثير لدينا ذكريات شيوخنا الذين عرفونا بأبي الجاحظ. - تلاميذ طه حسين- في سنوات طلبنا الأولى من الخمسينيات بالجامعة، وأخص منهم الدكتور محمد طه الحاجري.

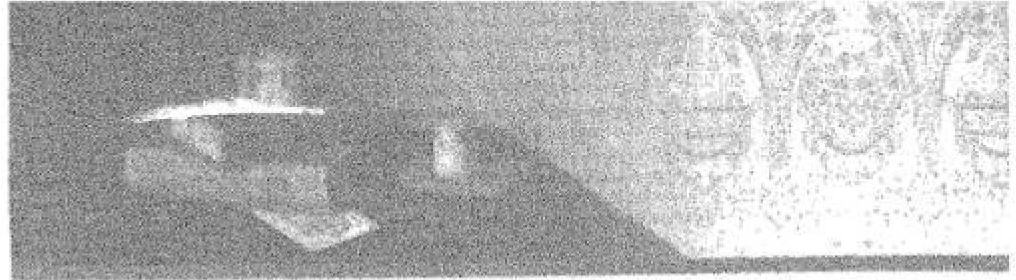
د.سامي منير عامر
الإسكندرية-كلية التربية - قسم اللغة العربية

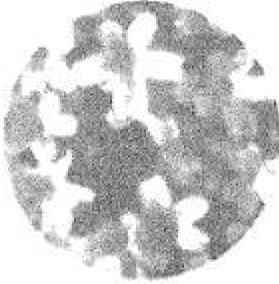
- الهلال: نشكر لكم هذا الاهتمام من خلال كتاباتكم المفعمة بالحب، وأيضاً ذلك الحرص على الاهتمام بكل ما كتبه أستاذنا الدكتور شكري عياد عن لغة النقد في بابه الشهير في الهلال «القفز على الأشواك».

أنشودة البراءة

«كريم» يا أنشودة البراءة
يا صوت موسم الوضاءة
يا عطر إيقاع الطفولة الجميلة
يا نبض قلبين تعانقا
والحياة غردا
ونسجا من العبير حلم أيام ظليلة
وأنت شمس أشرقت
في ليلنا الشتوي يا كريم
فأدفأت أيامنا المرتعشة
وعلقت في القلب قنديل الأمان
وأطلقت في الروح أسراب الضياء والحنان
***







فهل تجود يا كريم بالرضا...؟؟!!
وهل يهل نجمك السعيد
في عامنا الجديد؟؟!!!
وهل يضيء وجهك الوضيء أيامنا؟؟!!!
وهل تعيد بسمة الحياة في عينيك أحلامنا؟؟!!!!

***

وعن زماننا الغريق في الدخان
هل ترحل الغيوم والأحزان؟؟!!!
وهل على وجوهنا
تشرق يا كريم بسمة البلابل المهاجرة؟؟!!!!
وهل تعود للحقول..
.. خضرة الحياة والسواعد المسافرة؟؟!!!!

د.صابر عبدالدايم

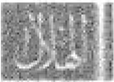
دراسة تتناول الشاعرة جميلة العلايلي

طالعت باهتمام ما كتبه د.أحمد السيد عوضين في عدد يناير ٢٠٠٤ بعنوان «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره»، وما يهمني في هذا المقام، هو ما ورد من حديث عن الشاعرة جميلة العلايلي، إحدى رائدات جماعة أبولو، وجميلة من هؤلاء الأعلام الذين أغفلتهم الأضواء، وأهملت إبداعاتهم مجاهل النقاد، مع ما تحمله إبداعاتهم من قيمة، وما يمثله إنتاجهم من تنوع ووفرة تجعلهم في مصاف الريادة، ومع أن الأستاذ وديع تحدث عن صنيعه، بأنه محاولة لإنصافها، وإن تطاول عليها العهد، وشابها القصور، وعلق د.عوضين على هذه العبارة بالدعوة لدراسة جميل العلايلي وأدبها قائلا: «فهل تجد جميلة من يتفرغ لإعداد دراسة عنها ، وإنها لتصلح موضوعا لرسالة جامعية متميزة؟ ثم هل تجد من يحيي تراثها ويعيد جمعه، وترتيبه ونشره ومن يدري فقد يتحقق شئ من ذلك؟

أود هنا أن أبشر بأنه قد أوشك أن يتحقق ما دعا إليه د.عوضين في الهلال، فقد قدر لي منذ عامين أن أسجل موضوع أطروحتي للماجستير بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة تحت عنوان «جميلة العلايلي: حياتها وشعرها دراسة فنية».

إنني أتمنى ألا يكون جهد الباحثين الراغبين في دراسة جوانبها الإبداعية، جهداً مكروراً ومعاداً، وأهيب بهم تناول جوانبها الإبداعية الأخرى، من قصص وروايات، ومقالات صحفية وأدبية، ودراسات نقدية.

أحمد محمد شبل - باحث بجامعة المنوفية



أين الحقائق والثوابت؟

أين الجـمـال بعـينك الزرقـا؟!
ضاع الجمال وضعت، ضيعك الأسى
تتبخر الأحلام والشعر الذى
أين الثبات بكوكب؟ من قهره
الفيلسوف مهرطق متحذلق
كم من عقار كان كشفا رائعا
وتراجعوا .. قالوا اكتشفنا انه
والعالم النفسى مجنون به
(لاوعيه) متذمر متثائب
فى رأسه (سيجموند) يخلع نعله
ويقول : إن الجنس أعظم عقدة
وجى (يونغ) بفكرة أخرى بها
لم يثبت العلماء شيئا إنهم
أين الحقائق والثوابت فى الدنا؟

من كنت بحرا أزرقا ينثال
بعد الأسى يتبخر الشلال
ألفته، تتفتت الأجبال
سيدور يوما والحياة سؤال
أما الطبيب فساحر دجال
قالوا : هو الشافى، هو الآمال
ضار فظيع ساحق قتال
مس كان حديثه أدغال
و(الوعى) صخر حوله أسمال
ويضاجع امرأة.. وكم يختال
فى عمرنا فتصدق الأجيال
غيم الدجى وبها الغموض جبال
يتخبطون وعلمهم أظلال
كل الحقائق فى الحياة خيال

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

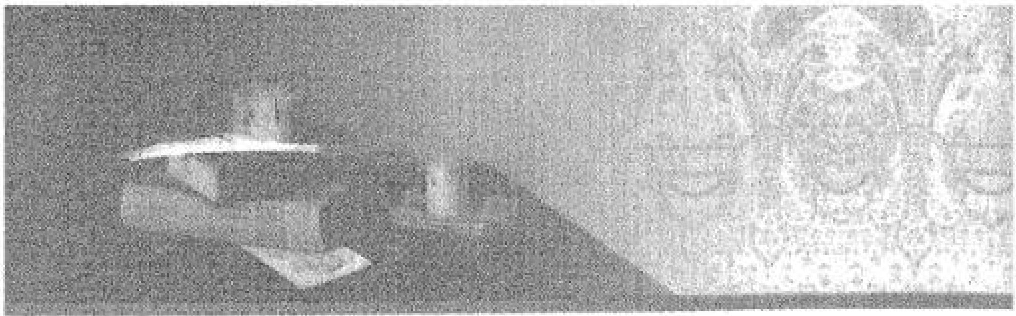
لماذا هذه الردة فى العقلية العربية؟!

ولقد رأيت فى مقالكم ما يتواشج بقوة، مع الحديث بأسى عن حالة الردة فى العقلية العربية، بعد أن أمسك بتلابيب بشائر النهضة رفاعه رافع الطهطاوى، كيف تقدمت فنلندا، رغم إغراقها فى التخلف أيام ابن فضلان، وكيف تأخرت إيطاليا عن دول أوربا، رغم أنها كانت البادئة بالتقدم فى عصر النهضة، وتكمن الإجابة فى نموذج وحدة النسيج الألمانى.

هل تفككت الخيوط العربية قبل أن تستكمل السدى تلاصقها مع اللحمة؟

أعادنى موضوع البحث «العرب وعلاقتهم بالغرب» إلى مقالكم فى نوفمبر ٢٠٠٢، الذى قدم مداخلة بين على مبارك ومحمد عبده وأحمد أمين وقلينى فهمى ومحمد فرغلى، نماذج متنوعة من المشارب والثقافات والطبقات، والديانات، وكانت حلقات الوصل بين القرن ١٩ والقرن العشرين، وقرأت جميعاً الغرب، انشغالا بهموم الشرق، وهى حالة لخصها الراحل د.حسين فوزى حين قال ما معناه «أنه يتجه إلى الغرب حبا فى الشرق».

دعانى هذا أيضاً لأن أسترجع ماورد بمقالكم، عن فرقة الحشاشين فى ثلاثة أعمال



«زيدان، وبارتول، ومعلوف»: الفارق بين العمل الأول والأخير، ما يقارب القرن.

ويدل الانشغال بهذه القضية الآن، على اتجاه يجافي التاريخ الإيجابي في مسار الفكر العربي، ويقطع السبيل على تواصل الأجيال، من عصر الرواد المتنوع الثقافات، مع الاتفاق حول وحدة القضية المطروحة، إلى عصر الشباب، وجيل كنا نأمل فيه استجلاء البصيرة وليس الحيرة.

أود أن تتابعوا الكتابة حول هذه الخيوط الخفية، ما انقطع منها وما يمكن أن يكون قد بقي.. ولعله يكون مشروع كتابكم القادم.

د.محمد المهدى
مستشار دار الآثار الإسلامية المجلس الوطني- الكويت

الليل قارب منتهاه

الليل قارب منتهاه   ستعود للأصل الحياة
هذا الظلام سينتهي   والصبح يشعلنا سناه
ليل تضيق بظلمه   وظلامه وبمحتواه
سيزول بعد جفونه   فينا ويكفي ما جناه
صرنا بلا ثمن نرى   ممن بلا عين نراه
كم ذا نباع ونشترى   بيد العمى تبت يداه
هل نحن أم أعداؤنا   لله نحيا في هداه؟
عند الإله جزاؤنا   هو من يجازى لا سواه
هل نحن أرخص منهمو   أجباهم فوق الجباه؟
للمؤمنين عليهمو   فضل وجاه اى جاه
كم يقتلون حياتنا   دون التفات للحياة
فإذا دافعنا نحن عن   أحياتنا صرنا الجناة
قولوا لكل من ادعى   كذبا يراجع ما ادعاه
بالصدق يفلح من سعى   بالصدق يرتاح السعاة

حسن أبو الغيط
كفر مصيلحة - المنوفية

دفاعا عن الشعراء

يظن البعض أن الشاعر انسان يهيم في دنيا الخيال، ويثرثر بكلام لا يفهم معناه، أو على الأقل لايؤمن به، وقد ساعد على ذلك أن القرآن الكريم قد أيد هذا المعنى في آخر سورة الشعراء .

ولكن على هؤلاء الناس أن يعلموا أن هناك شعراء مستثنون في الآية الكريمة، وإذا كان هناك شعراء منافقين ، فهناك من هم صادقون مع أنفسهم ومع الآخرين.

والشعر كما نعلم هو لغة المشاعر والأحاسيس ، ومن الطبيعي أن يحلق الشاعر في الآفاق تبعا لطبيعة الشعر، التي تفرض نفسها عليه فرضا، لا فكاك منه !

فلو كان الشعر كلاما واقعيا خاليا من الخيال، لأصاب النفس بالرتابة والملل، فسر جمال الشعر، ورقة معانيه، هو تلك الطبيعة الخيالية، التي يتفوق فيها الشعر على النثر العادي.

والشاعر وهو يبدع يعيش لحظة تأمله بكل جوارحه، ولا أبالغ إذا ماقلت إنها تكاد تنسيه العالم بأسره، فإذا ما حاول أن يجسد تلك اللحظة الخاطفة التي تشبه الومضة في قالب لفظي، نرى فيه المعاني تلبس ثوبا قشيبا، ويطالعنا بريقها الأخاذ، وقدرتها الفذة على التأثير في النفس ، وكلما أوغلت أو تمادت الصورة في تأثيرها، كانت الصورة حسنة في موضعها .

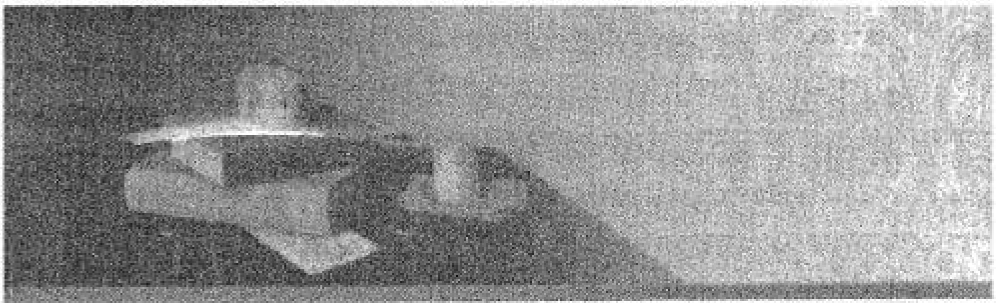
فإذا ما فقدت الصورة هذه الخاصية، حق لنا أن نتهم الشاعر في شاعريته، ونرميه بالتقليد الأعمى، وعدم نضج شاعريته، وركاكة أسلوبه، وضعف روح الابتكار في شعره وليقف الشاعر أمامنا موقفا يلام عليه .

السيد النحفة - شبراخيت - ش احمد عرابي

معركة الكراسي

خلا الكرسي .. فاستلت سيوف ... وتاهت عن مخارجها الحروف
لكل مبارز جيش عريض ... من الجوعى، وموعده رغيف
يصول .. وللوساطة ألف وجه ... لكل هنيهة وجه أليف
وكم وعد الوسيط، وكم تعدى ... على وعد له .. فأتى الخريف
وكرسي يتيم، كيف يحظى ... به تحت السما قلب نظيف؟
وقد حطت على شمس الطوايا ... بقايا الليل .. فابتدأ الوجيف
رماد كل جمر كانت يوما ... يعاند حظه وهو الضعيف
فكيف أرى بلادي اليوم ترضى ... على الكرسي معتركا يطوف
وترضى للكفاءة أي قبر ... اذا لم يرض وقفتها الرصيف؟
فيا أسفا على بلدي ، أخيرا ... مظالمنا بجبهته كسوف
وحيث يفوز مغتصب فينفي ... جهود حياتنا .. يأتي النزيف

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج



أ

أبو نصر الفارابي

٢٦٠ هـ (٨٧٤م) - ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م)

الهلال

ولد أبو نصر الفارابي فى «وسيج» وهى قرية صغيرة تقع فى ولاية «فاراب» من بلاد الترك، لكن والده كان قائدا عسكريا.. ومن أصل فارسي. حصل على علومه فى بغداد، وألم بالأدب والرياضيات، وتشهد مؤلفاته فى الموسيقى، على سعة دراسته للرياضيات، كما يبدو من مؤلفاته العديدة والمتنوعة، أنه كان يعرف الفارسية والتركية، الى جانب العربية، غير أن كتاباته بالعربية رغم سموها، كان يشوبها بعض الغموض.

حينما وقعت بعض الاضطرابات السياسية فى بغداد، آثر الفارابى أن يقيم فى حلب، واستقر فى مجلس سيف الدولة، وفى آخر أيام حياته ركن الى الخلوة بين مظاهر الطبيعة، حتى توفى فى دمشق، بعد أن وقف حياته على التأمل الفلسفى، فصار أستاذا لكثير من المفكرين ولاسيما ابن سينا.

وقد سمى ارسطو بالمعلم الأول، أما الفارابى فقد سمى بالمعلم الثانى، لأنه قام بتأليف كتاب يجمع ويهذب ماترجم قبله من مؤلفات المعلم الأول.

يعد من أعظم العلماء النظريين والعمليين فى صناعة الموسيقى، ومؤلفاته زادت على مائة كتاب ومجلد فى جميع العلوم الانسانية من فلسفة الى منطق، الى علم الطبيعة ومابعد الطبيعة، وعلم الموسيقى والسياسة والاخلاق والخطابة والشعر. اضافة الى الكيميا، والهندسة.

والفارابى هو صاحب الفضل الأول على الفلسفة الاسلامية، لأنه هو الذى وضع أساسها، ورتب مسائلها، ولهذا يعد أول فلاسفة الإسلام بلا منازع، ولذلك يلقبونه بالمعلم الثانى، تمييزا له عن أرسطو المعلم الأول للفلسفة اليونانية، كما يلقبونه بصاحب المدينة الفاضلة، كما لقبوا أفلاطون بصاحب الجمهورية.

والتجديد الذى ينسب للفارابى، أنه لم ينظر الى الفلسفة نظرة المقلد، وانما نظر اليها نظرة المجتهد، وأنه كان يدعو الى الحقيقة، وبهذا يكون قد فتح باب الاجتهاد ومهد الطريق من بعده.

وهو أول من صاغ الفلسفة الإسلامية فى ثوبها الكامل، ووضع أصولها ومبادئها، كذلك نجد عنده مذهبا فلسفيا متكاملا يمتاز بظاهرتين رئيسيتين لعلهما جديدتان فى ذلك الوقت، وهما نزعة روحية واتجاه صوفى، وعنده النزعة الروحية والاتجاه الصوفى يلتقيان فى نواح كثيرة، وهو ماكان له عميق الأثر فيمن جاء بعده من فلاسفة الاسلام، وفى هذا تختلف جهوده عن جهود الكندى الذى تصدى للفلسفة بالشرح والتهذيب دون أن يكون له مذهب فلسفى ينسب اليه.

ويرصد المهتمون بالتجديد للفارابى عملين تجديديين فى إطارهما تدخل كل اسهاماته الفلسفية.

الأول: كان فى كيفية اصلاح الحكم.

والثانى: فى تهذيب ماترجم قبله من علوم الفلسفة وترتيبه وترتيبا علميا منهجيا يسهل طريق البحث.

هذا الى جانب تأثر غير المسلمين بإسهاماته الفلسفية، للنهوض بعلومهم، الى درجة ان الفارابى يعد واحدا من الحكماء الأربعة فى تاريخ الفكر الانسانى بوجه عام.

قصة قصيرة

الوجع الضائع

تملأ الكراسي، أمامنا شباكان.. واحد نسلم فيه الوصفة الطبية، والثاني نتسلم منه الأدوية..

الصيدلانية، تنادي بنبرة عالية مستعلية : نورة مصلح ، سعدة المحمود، هيا مبيريك.. تتقافز النسوة أمام النافذة التي تظهر جزءاً من وجه الصيدلانية، ترمي لهن الأدوية (حبة مساء، وحبة ليلا، وهذه حبة عند الوجع) وتستمر تجادلها إحداهن الدواء ليس هو، تتجادل معها ثم ترفض الكلام وتعيدها للطبيب، تنفعل المرأة، يكاد يتطور الموضوع الى تشابك بالكلمات.

لكن الصيدلانية تنسحب.. يخيم السكون، بعد أن حاولت سيدة حايلية التدخل للتخفيف.. يسود الصمت، ثم يتململ الكلام فيهمهم، ثم ينطلق تتجاذب الحاضرات أطراف الكلام.. الأمراض، العين، الحسد ، السحر، الأدوية الشعبية في عقر دار الطب الحديث..

صامتة أنا ..

تستحثني جارتي للكلام .. تسألني : ماذا يؤلمك..؟!

أمد يدي الى رقبتي .. تقول : «ها الأيام الهواء متغير وكل الناس حلوقها توجعها..» لا أعلق، تستفزني للكلام: متزوجة..؟!

أشير علامة لا..

أين تعيشين..؟ عند أمك..!!

أهز رأسي لا

عند اخوانك..؟!!

تشتغلين..؟!

اهز رأسي لأسفل لأعلى

نعم ..

تفرح ، تلتقط رأس خيط .. وأين تشتغلين..؟

أصمت .. وأنا أضع يدي على حنجرتي ..

بالرئاسة..؟!

لا ..

بالمدارس الأهلية ..؟!

لا ..

حيرتها ، أين لامرأة يمكن أن تعمل بغير تلك الجهات..؟



تتفحصني جيدا . كفي، ومابدا من قدمي..

أقول عن لوني تلطفا سمراء، ولكني فحمية اللون تهمهم المرأة المجاورة لها.. تلتقط الهمهمة، وتقول بما يشبه الهمس : طقاقة..؟!

أشير : نعم .

تفرح وكأنها وجدت حلا للكلمات المتقاطعة ..

ترد : إيه .. هذا وجع الحلوق .. والبارحة ليلة خميس .

أكاد أشهق ضحكا .. وأنا أمسك بحنجرتي .. فعلاقتي بالأغاني لا تتعدى سماعها بين آونة وأخرى ..

وكل ما في الأمر انني لم أرغب الكلام.. وكل ما يؤلمني نغزة خفيفة على كتفي الأيسر .. تخدر كل ذراعي ..

وأحالتني طبية القلب للفحص بالرنين المغناطيسي .

شريفة الشملان - السعودية - الدمام

أخا الاسلام هيا الى النداء ... فقد نادى من الأقصى النساء
وقد صرخت مساجدنا ونادت ... وأولى القبلتين له بكاء
وقد حرقوا الحدائق والمدائن ... وذبحوا الناس واغتصبوا النساء

فهيا يا أخا الاسلام هيا ... فإن النصر آت من السماء
فقد قربت نهاية كل ظالم ... وأوشك ان يكون لنا رخاء
فهيا يا أخي للنصر هيا ... فوقت الجد آت والعلاء

فهيا الى فلسطين الحبيبة ... فإن الاقصى يبكي في النداء
فهيا فانفروا طوعا وكرها ... فلا عدل سوى عدل السماء
فما بقيت سوى الأطفال تهتف ... وتلك النسوة بحت بالنداء

أحمد نادي عبدالرحمن بهلول
نادي أدب ديروط - أسيوط

الكلمة الأخيرة

جوائز الدولة



بقلم: د. محمود الربيعي

هل بقي مكان للاستشهاد بالمتنبي في عصر العولمة؟ إنه إذن القائل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

ومعنى قوله هذا أن تسمية هذه الجوائز باسم الدولة مضر، وأولى بها في مرحلة أن تسمى «جوائز الحكومة»، وفي مرحلة ثانية «جوائز وزارة الثقافة»، وفي مرحلة ثالثة «جوائز النخبة المختارة» أو «جوائز تأليف القلوب»، أو «جوائز احتواء الشاردين»، وفي مرحلة رابعة «جوائز إيصال بعض المساعدات المادية إلى المحتاجين»!

شارتها «أدبية ثقافية»، وحقيقتها «سياسية» بالمعنى الواسع الغامض للكلمة، وهو معنى «المواءمة»، وتحيط بها تساؤلات يصعب تجاهلها في كل مراحلها. تصل إلى صاحب موهبة متوسطة بحجة أنه مريض، ويحتاج عائدها المالي للعلاج، وتحجب عن صاحب موهبة رفيعة بحجة أنه غني ويتمتع بالصحة، فتفرغ بذلك من محتواها الحقيقي. قواعدها على الورق لا تنقصها «الإنشائية» المغالية في الضبط، والتحري والتجرد، لكن صورة العدالة المحيطة بها – كما استقرت بالتجارب في نفوس كل من اقترب منها – مهزوزة باطراد!

أحوالها عند القائمين عليها دائما على ما يرام، والذي يقول بغير ذلك عرضة لأن ينال نصيبه من الصفات التي تتراوح بين «المشكك» و«الطامع»، و«الموتور»، و«الحاسد» و«عدو النجاح» و«الحقود»!

لا يجدي في جبر صدعها أن تغير قوانينها، أو ترفع قيمتها المادية، أو حتى تغير أسماءها، وإنما قد يجدي أن تتغير «العقلية» التي تحكمها، والتي حولتها من معنى «التقدير» إلى معنى «المكافأة»، فاصطف الطامعون فيها في «طابور» طويل، يحلم كل من فيه بأن يسمع اسمه حين يأتي عليه الدور، ونشط أصحاب الحيل، والسعي الحثيث، إلى الوصول إلى الأبواب وإدمان قرعها!

في تقاليد الثقافة العربية أن من طلب «الولاية» لا يمكن منها، فلماذا لا نقول بالمثل إن من طلب الجائزة لا يعطاها؟ لكننا نرى الأمر على العكس من ذلك في موضوع الجوائز فمعظمها يشترط له «التقدم» الصريح لها، وأقلها لا يشترط التقدم. لكننا نعلم أن «الإيعاز» و«التعرض» و«العمل الدائب الصموت من وراء ستار» أنواع من «التقدم بالقوة» للجوائز، وهو أشد فعالية وتأثيرا من «التقدم بالفعل»!

إذا أرادت «الدولة» أن «تقدر» صفوة أبنائها فعليها أن تسعى إليهم، ولا تجعلهم يسعون إليها، وسبيلها إلى ذلك أن تجعل مقاييس هذا التقدير معلنة للجميع، ومعترفا بها من الجميع، ومقنعة للجميع، وقابلة للمناقشة من الجميع. أما إذا تركتهم يسعون إليها – لغرض في نفس يعقوب – فلتعلم أنه لن يقف على بابها سوى المدربين على معرفة من أين تؤكل الكتف، وإنهم لكثيرون. والغريب أنهم يصلون دائما إلى هذه الكتف، ويأكلونها!

عرض جديد

لركاب الدرجة الاولى و درجة رجال الاعمال

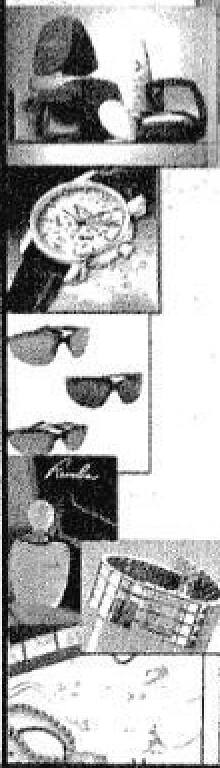
الليموزين . . خدمة متميزة

تقدمها مصر للطيران

مع قسيمة مشتريات مجانية من الاسواق الحرة تصل قيمتها الى ٥٠٠ جنية







* خدمة الانتقال بالليموزين الى مطار القاهرة الدولي من المكان الذى يحدده المسافر من داخل القاهرة .
* تحدد قيمة قسيمة المشتريات من الاسواق الحرة تبعا لجهة السفر .
* يطبق العرض على خطوط مصر للطيران الدولية ما عدا النقاط التالية :

(بيروت - عمان - دمشق - حلب - طرابلس - بني غازى - لارنكا - الكويت)

* الدفع نقدا او بأى بطاقة من بطاقات الائتمان المختلفة .
* العرض سارى حتى ٣١ مارس ٢٠٠٤

لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال بوكيلك السياحي او بمكاتب مصر للطيران

وزارة الطيران المدني

الشركة القابضة لمصر للطيران

مصر للطيران

EGYPTAIR



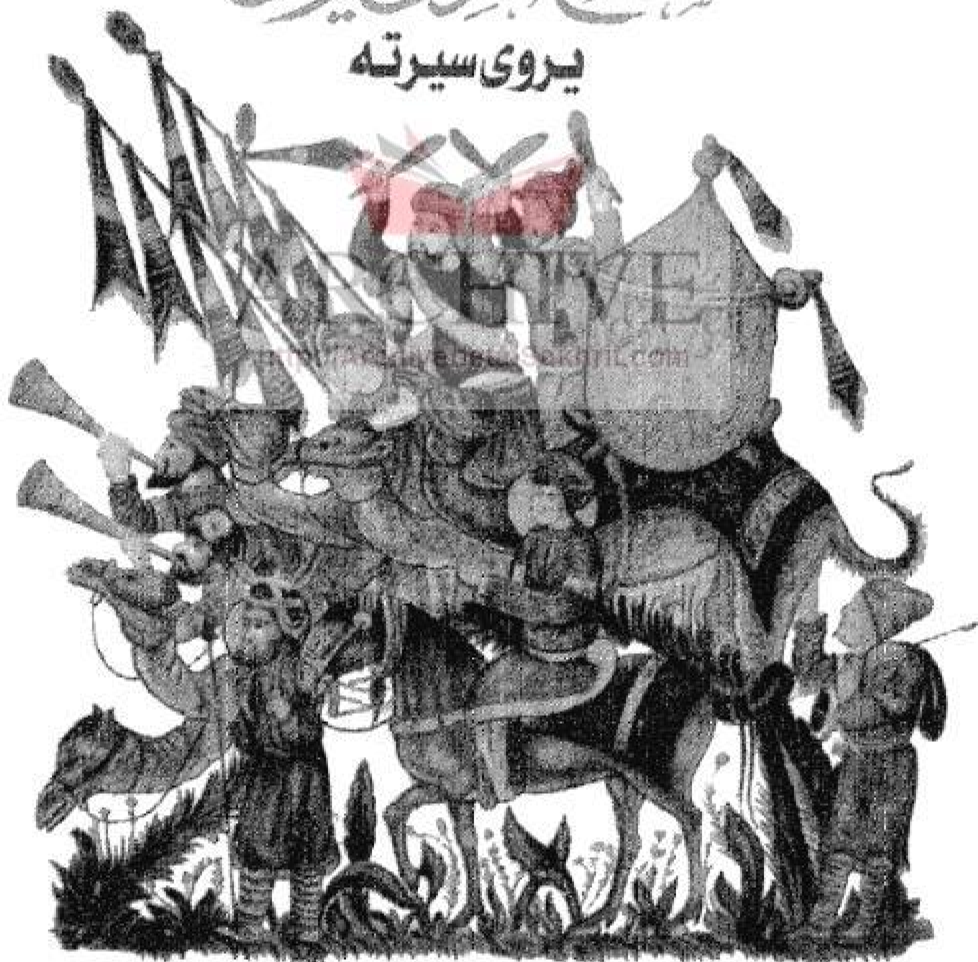
www.egyptair.com.eg

الهلال

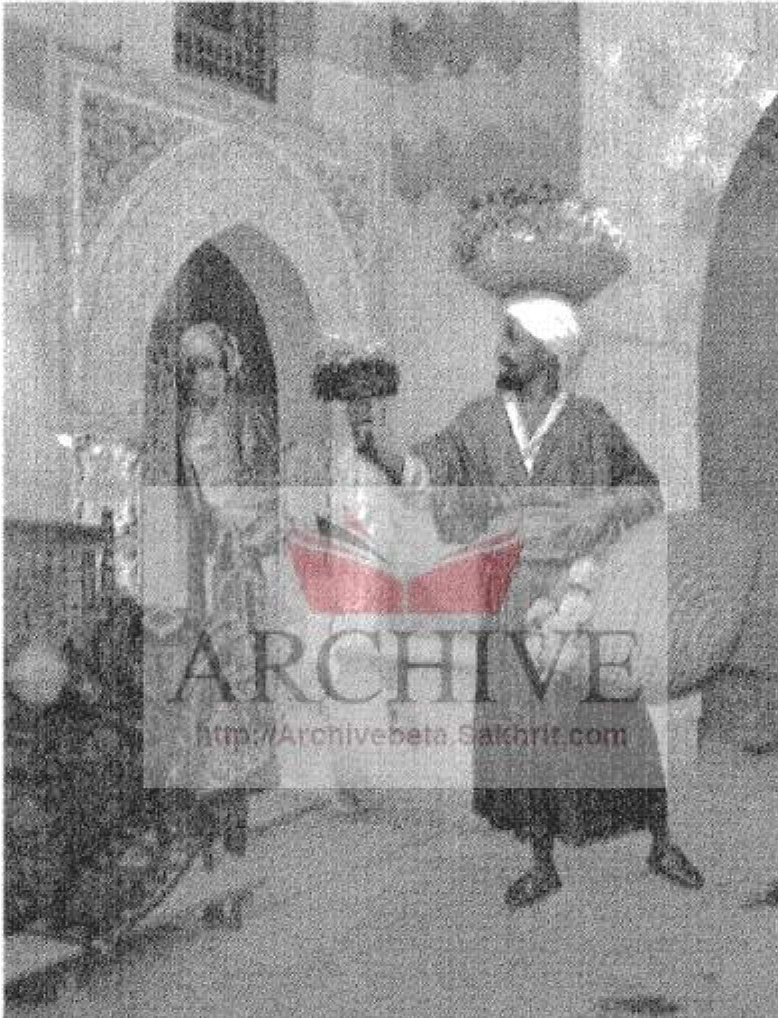
ابريل ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

- القراءة والكتابة فى خطر؟
- هل يتكلم العلم العربية؟
- قصة حب الرافعى ومى

صاحب
صلاح الدين الأيوبى
يروى سيرته



لوحة وفنان



« بائع الزهور »

زيت على خشب ٨٠×٦٣,٧ م
للفنان الألماني: رودلف إيرنست
(١٨٥٤ - ١٩٣٢)

الهلال

مجلة شهرية ثقافية تصدر عن دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العدد الرابع - السنة الثانية عشرة بعد المائة - صفر ١٤٢٥ هـ - أبريل ٢٠٠٤م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال

تلكس: ٣٦٢٥٤٦٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥ ، ١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات



الفهرس

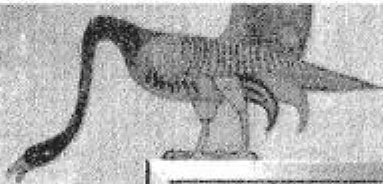


لوحة الغلاف

تنافخ الأبواق وقارعى الطبول لتشجيع جيش المسلمين في معركتهم ضد العدو. من كتاب «فضائل القلم» رسمه وكتبه الواسطى.

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٤٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٤٥ دولارا. باقى دول العالم ٤٥ دولارا.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد



الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

قــوة السينمـا


صلاح أبو سيف


يوسف شاهين

السينما لغة العصر ، ما في ذلك شك، ومن هنا حماس المصريين لها، منذ أن كانت فنا وليدا، لم يروا من صوره المتحركة إلا أقل القليل، وليس أدل على ذلك مما كتبه الأديب يحيى حقى عن نشأته، وهو صغير، في أسرة تعشق السينما رجالا وصبيانا.

«لا يخرج حديث مائدة العشاء عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة، وعن ترديد أسماء الممثلين في إيطاليا وألمانيا وأمريكا، والمقارنة بينهم».

وفي البداية، لم يكتب لذلك الحماس أن يترجم إلى لغة السينما، في أفلام مصرية لحما ودما، فاستيراد المعدات اللازمة لصناعة السينما ، وبناء الاستوديوهات، ودور العرض المجهزة بأحدث الآلات، كل ذلك، وهو أمر لازم لإقامة بنية سينمائية صناعية متكاملة، لم يكن في الإمكان تحقيقه، لأكثر من سبب.

وكان من أثر ذلك، أن تأخر إنتاج أول فيلم يخرجه مصرى إلى عام ١٩٢٤، تاريخ «الباشكاتب» ، لصاحبه السينمائي الرائد «محمد بيومي».

وبدءا من ذلك التاريخ الموغل في القدم، والسينما في تطور وصعود وارتقاء، بفضل كوكبة من الفنانات والفنانين ونفر بعيد النظر من رجال الاقتصاد.

ومع ثورة الضباط الأحرار ، قبل اثنين وخمسين عاما ازداد الاهتمام، بالسينما ، صناعة وفنا . فكان أن جرى التخطيط لإنشاء المعهد العالى للسينما، وصندوق دعم السينما، فضلا عن إقامة مهرجانات للترويج لما تنتجه صناعة السينما فى مصر من أفلام سواء أكانت روائية، أم تسجيلية، ولتتويج مبدعيها بما يستحقون من جوائز مالية، والأهم ما يستحقونه من تقدير وتكريم.


شادى عبد السلام

وليس ثمة شك فى أن المهرجان القومى للسينما المصرية أهم هذه المهرجانات. ولا غرابة فى هذا.

فأية صناعة سينما فى مشارق الأرض ومغاربها لها مهرجان سنوى، بل أكثر من مهرجان، فعلى سبيل المثال السينما الأمريكية لها مهرجان أوسكار، والسينما الفرنسية لها مهرجان سيزار.

وعلى كل، فما هى إلا أيام من أبريل، وينعقد فى ميعاده السنوى المهرجان القومى العاشر للسينما المصرية.


توفيق صالح

والمأمول أن يكون منطلقا لسينما مصرية مسايرة لروح العصر ، متحررة من الأغلال لسينما وطنية، نابضة عن أهدافنا السياسية والاجتماعية، تكون حديث الناس من الخليج إلى المحيط، ففيلم جاد نابض من هذا النوع، يستطيع أن يصل إلى القلوب والعقول، بأسرع واجدى من ألف بحث ومقال، ولوحة وتمثال.

وقديما قال أرسطو «لايهمنى من يضع قوانين الأمة اذا وضعت أنا أغانيها».

ولو عاش فى عصرنا لاستبدل بالأغانى الأفلام!! ■

المحرر

القراءة والكتابة فى خطر

مستقبل القراءة والكتابة فى عصر المعلومات

بقلم
د. أحمد محمد صالح

دان سبيربير Dan Sperber باحث في العلوم الاجتماعية في مركز CNRS بباريس ، تركزت أعماله حول العلاقة التبادلية بين الإدراك المعرفي والعلوم الاجتماعية ، ومن أشهر كتبه «أنثربولوجيا المعرفة ١٩٨٥، والعلاقة بين الاتصال والإدراك المعرفي مع ديردري ويلسون Deirdre Wilson عام ١٩٨٦ ، وتفسير الثقافة عام ١٩٩٦ . ومتخصص فى أبحاث تأثيرات الويب على القراءة والكتابة وانتشار المعرفة، وله محاضرة منشورة علي الانترنت عام ٢٠٠٢ باللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية، يعلن فيها قرب انتهاء عصر القراءة والكتابة .

هل قرب انتهاء عصر القراءة والكتابة؟!

ويحاول دان في بداية المحاضرة أن يكسب القارىء معه ويقول : أنت وأنا نعيش في بيئة ، اللغة فيها كلية الوجود، ودائما على شكل محفزات صوتية أو بصرية مباشرة ، فإذا قرأت هذا النص، فأنت تستعمل بسهولة لغة منطوقة ومكتوبة بنفس الوقت! وكل يوم نحن نتعامل ونعالج نصوصا مكتوبة أكثر من النصوص المنطوقة . ونميل إلى تقييم القدرة على القراءة والكتابة بنفس القدر الذى نقيم به إدراكاتنا الحسية الأساسية وقدراتنا الآلية ، وننظر إلى معرفة القراءة والكتابة كضرورة أساسية إلى إدراك ذاتنا ، نحن ننسى بسهولة بأن الكتابة اختراع حديث العهد في تاريخ الجنس البشرى، ومنذ بضعة أجيال فقط أصبحت معرفة القراءة والكتابة العالمية هدفا منشودا ، وأن هذا الهدف أبعد ما يكون عن الإنجاز ، وحتى عندما نتذكر بأن الكتابة حديثة العهد ، وأن معرفة القراءة والكتابة بمفهومها الواسع مصطلح جديد الانتشار ، نعتبر الأمر مفروغا منه وأن تلك المفاهيم ستبقى على معناه ، ثم يبدأ دان في طرح الأطروحة الأكثر جدلا ويدافع عنها ويقول : «إن الثورة في تقنية الاتصال والمعلومات قد تحول قريبا الكتابة إلى أثر ماض : حيث سيستبدل بها الخطاب المنسوخ آليا ، بينما ستبقى القراءة» .

وبدون التكهن والتنبؤ ، دعونا نتأمل مليا في محاضرة دان الذى يتجرأ أكثر ويزعم بأن كلا من الكتابة والقراءة قريبا ستصبحان أشياء من الماضى، وتظهر ممارسات بديلة تكون علامة فارقة في التاريخ الإنساني ، وستكون رجعة مرة أخرى للوراء ! فقريبا جدا ، ويمكن تكون موجودة الآن ، إمكانية الدخول إلى المعلومات المخزونة بشكل شفهي وسماعي ، حيث توجد حاسبات ناطقة ستجعل من الممكن أخيرا استبدال كل اللغة المكتوبة باللغة المنطوقة ، ونحن سنكون قادرين على خزن واسترجاع المعلومات ببساطة من خلال النطق والاستماع ، والنظر إلى رسومات وليس في النصوص . بهذه الخطوة الهائلة للأمام ، والحقيقة هي خطوة إلى الماضي ، نكون أوشكنا على إعادة تكوين الثقافة الشفهية على أساس تقني موثوق وأكثر كفاءة . ويجادل دان على أية حال ، ويشير إلى عدم وجود تناظر وتماثل ذى علاقة بين الكتابة والقراءة يؤكد بقاء القراءة .

الماضي والحاضر

وقبل أخذ نظرة خاطفة إلى المستقبل ، دعونا ننظر إلى الماضى والحاضر ، ونذكر بأن الأطفال في أغلب المجتمعات الإنسانية التي وجدت، يصبح فيها الأطفال مؤهلين كالكبار بدون أى مساعدة من التعليم الرسمي، فهم يكتسبون اللغة ، والمعرفة بمحيطهم

الاجتماعي والطبيعي ، ويكتسبون تقنيات وقواعد السلوك ، والقصص والحكايات ، والأغاني ، وبقية المكونات الثقافية بدون أي تدريب أو تدريس رسمي في المدرسة. وربما تم مساعدتهم بالنصائح والتصحيحات من البالغين والأطفال الآخرين ، لكن مثل هذه المساعدة التربوية في رأي دان تجيء في دعم عملية تلقائية من الاكتساب ، وهي مختلفة تماما عن التعليم المؤسساتي ، الذي يستخدم لإرسال المعرفة والقدرات التي نادرا ما تكتسب عفويا ، لذلك إذا لم يتعلموا بشكل منتظم ومستمر ، من غير المحتمل أن تستقر تلك المعارف كعناصر في الثقافة . وهنا نتفق مع دان خصوصا في ضرب التناقض بين امتلاك اللغة وبين مهارة الكتابة في الشروط العادية ، حيث يحدث امتلاك اللغة آنيا وعفويا بين الأطفال في عمر مبكر جدا والمساعدة التربوية (التي تغيب عمليا في بعض المجتمعات) تلعب في الأكثر دورا هامشيا . وبالمقارنة بينها وبين اكتساب مهارة الكتابة والقراءة نجد أنها تحدث على أية حال خلال عملية طويلة ومركزة من التدريب المتعمد المتفاعل مع معلم ، هل لأن أنظمة الكتابة أكثر تعقيدا من اللغات ؟ العكس تماما هو الصحيح كما وضح في المحاضرة ! فاللغة مثل الانجليزية، أو الأمهرية ، أو الصينية أكثر تعقيدا من أبجدية ومقاطع ونظم الكتابة . وفي الحقيقة، اللغويون لم ينجحوا حتى الآن في تزويدنا بقواعد واضحة بالكامل لأي لغة



، بينما أنظمة الكتابة مستندة على قواعد واضحة بالكامل . والاختلاف الرائع في أنماط اكتساب وامتلاك اللغة من ناحية ومهارة الكتابة من الناحية الأخرى يرجع أساسا للاستعداد النفسي، فالبشر مهيئون لاكتساب لغة مجتمعهم عفويا وآنيا، ولا يملكون مثل هذا الميل لاكتساب مهارة الكتابة . بالأحرى ، كان لابد لأنظمة الكتابة أن تتكيف مع الادراكات الحسية للإنسان واستعداداته الآلية التي ظهرت قبل اختراع الكتابة . وهكذا ظهرت أنظمة الكتابة ، وانتشرت واستقرت مطلقا قبل اختراع الكتابة نفسها ؟

القراءة و الكتابة مكون خاص

والكتابة في رأي دان لم تظهر كمكون مشترك وعام في ثقافة المجتمعات الحديثة ، لكنها ظهرت كمهارة متخصصة تزاول من قبل الكتاب المحترفين في خدمة الدولة ، ولأن الطلب على هذه المهارات كان كافيا اقتصاديا لانتاجها ، من خلال حافز اقتصادي أو اضطرار من المستعمل النهائي، حيث تصبح أقلية من الناس متخصصين في الكتابة عندما يتغلبون على صعوبة المعرفة الادراكية في امتلاك مثل هذه المهارات، وباستثمار ثقيل في تدريب تطبيقي . ويصبح تدريس مهارة الكتابة نموذجيا موضوعا في الترتيب الثاني بين المهارات التعليمية ، وقد أدى تطوير الكتابة إلى تراكم وتنويع النصوص المكتوبة ، وعلاوة على ذلك فإن التحويلات الاقتصادية والسياسية المرتبطة سببت انخفاض تكلفة اكتساب معرفة القراءة

والكتابة بالمقارنة بارتفاع منافعها لنسبة مستمرة التزايد من السكان . وأصبحت منافع معرفة القراءة والكتابة أعظم من تكلفتها في المجتمع الحديث لأغلبية السكان ، وأصبحت الأمية وصمة عار وثمنا فادحا في حق الشخص ، ويرصد دان في محاضرته عاملاً مهما آخر ساعد على تعميم معرفة القراءة والكتابة ، وهو ما يسمى بالآلية . فمهارة الكتابة عندما تكتسب بشكل صحيح ، تصبح الكتابة نوعا من العملية الآلية : وأي واحد يمكن أن يكتب دون أن يكون مدفوعا بأي انتباه واعٍ إلى الحركات اليدوية التي تضمنها . (وهذا أيضا صحيح وينطبق على مهارة الكتابة على الآلة الكاتبة) . وأكثر الأشكال المبكرة للكتابة ، مثل الخط المسماري في السومرية التي نشأت في العراق ، والكتابة الآرامية والسريانية والمندائية والعربية القديمة بموادها وأدواتها ، لم تصل للسلاسة والسهولة الآلية التي نشعر بها الآن عند الكتابة . ونفس الموقف في القراءة ، هي أيضا مجرد شكل آخر من أشكال نماذج التعرف والتمييز البصري الآلي . وهكذا توجد حقيقتان توضحان انتشار وذيوع معرفة القراءة والكتابة : الحقيقة الأولى بأن منافعها أصبحت أعظم من تكلفتها لأكثرية متزايدة من الناس . والحقيقة الثانية تقول إنه بمجرد دفع التكاليف الأولية لاكتساب مهارة معرفة القراءة والكتابة تكون تكلفة استعمال هذه المهارات تافهة نسبيا . وهناك ترابط بين الحقيقتين إذا كان توزيع التكلفة والمنافع امتد على فترة أكبر في حياة الأفراد ، أو في عبارة أخرى ، إذا كانت التكلفة الحدية لإتقان الكتابة والقراءة لم تسقط بشكل مثير فجأة ، ومن ثم تقل درجة الاتقان . (هذا بالمناسبة كان يحدث في حالة الكتابة على الحجارة أو في الطين) ومع تكرارات منخفضة في استعمال الكتابة والقراءة ، ستوجد نصوص مكتوبة أقل للقراءة ، وينتظم في قراءتها قليل من الناس . والنتيجة ، ستنخفض منافع الكتابة والقراءة ، وقد لا تقارن إيجابيا بالتكلفة ، ماعدا مجموعة صغيرة من الكُتّاب المحترفين . في الحقيقة أن تعلم الكتابة والقراءة عملية سهلة ومربحة عموما ، والأكثرية من الذين يقرأون ويكتبون ، يكونون قادرين على المشاركة في معظم المنافع بنفسهم ، ويملكون حافزا كبيرا في امتلاك واكتساب أطفالهم تلك المهارات وهنا يتساءل دان سبيربير Dan Sperber في محاضرته ويقول : إذا كان الأمر كذلك، كيف إذن نشك في مستقبل الكتابة والقراءة ؟! ويقدم جوابا قصيرا مباشرا على ذلك هو أن الكتابة ليست هي الطريق الوحيد لإنتاج النصوص المكتوبة !

..وكان السكرتير يكتب

حتى عهد قريب ، كان العديد من الناس الأغنياء أو أصحاب السلطات يأمرون سكرتيرهم بالكتابة بدلا من الكتابة بأنفسهم . بعض الأعمال الأدبية والتاريخية ، مثل فردوس ميلتن المفقود أو نابليون أمليت ولقنت لأسباب السرعة ، أو قد يكون مسألة ضرورة كما في حالة ميلتن الكبير السن ، والذي فقد بصره ،

ومع ذلك ، إذا اعطينا الاختيار ، سوف يفضل معظمنا أن يكتب بنفسه . السبب الرئيسى لذلك من وجهة نظر دان سبيربير ، بأنك عندما تملى على الآخرين تفقد السيطرة على نصك بالمقارنة مع الكتابة بنفسك حيث السيطرة أكبر . على أى حال من الأحوال ، الإملاء والتلقين التقليدى كان شكلا من العمل الدينى ، وليس طريقا للكتابة . الآن ، تقنيات المعلومات الجديدة أوشكت أن تزودنا بشكل مبتكر من الإملاء بدون العيوب القديمة حيث يمكن السيطرة على النص ، وغيرت تكنولوجيا المعلومات تقسيم العمل بحيث لن يكون بين رب العمل والمستخدم ، لكن بين الناس والمكائن ! وتطورت بسرعة برامج تمييز الصوت التى تحول الخطاب إلى نص على مدى السنوات القليلة الماضية ، حيث تسمح الكلام فى الخطاب المستمر الطبيعى ، وفى سرعة تحادثه أن ترى كلماته تظهر على الشاشة . فى الوقت الحاضر ، نسبة الخطأ مازالت ملحوظة جدا ، وتتطلب تلك البرامج تدريبا أوليا ، ويؤكد دان أن العديد من المستعملين الذين لايحتاجون فعلا مثل هذه البرامج قد يصبحون فاقدى الثقة فيها نتيجة عيوبها ، ويتوقع التغلب على تلك العيوب فى ظرف سنوات قليلة ، وستتمكن الماكينة من تمييز صوت المتكلم ونسخ خطابه مع قليل جدا من الأخطاء ، بل ستنفذ الماكينة أوامر المتكلم وهو يتدفق فى الخطاب ، مثل أوامر المراجعة والتدقيق الإملائى والنحوى والتأكيد لكى تطاع من البيانات التى ستنسخ . وسيصبح الأمر أسهل على الماكينة بالمقارنة بالسكرتير . عموما سيكون من السهولة إعطاء التعليمات إلى الحاسوب أو إلى أى أنواع من العدد ، والآلات والمركبات والمكائن الأخرى بشكل شفهى أكثر من إصدارها خلال لوحات المفاتيح ، والماوس (الفأر) والأدوات اليدوية الأخرى . المكائن بالتالى ستكون قادرة على تزويدنا بالمعلومات بشكل شفهى أكثر من تقديمها من خلال الشاشات . فالتقدم فى تقنية النطق للنص ، ستمكن المكائن من القدرة على قراءة النصوص المكتوبة جهوريا ، وبصوت طبيعى جدا ، وتفاعلات اللغة الطبيعية الشفهية بالمكائن ستصبح المعيار الأساسى بدلا من الاستثناء .



وهنا للكاتب تحفظ مؤقت على رؤية دان سبيربير ، فرغم المتابعة لأخبار التقدم فى تكنولوجيات المعلومات بحكم التخصص والاهتمام ، لكنى لم أسمع عن التقدم فى برامج تمييز الأصوات منذ ٧٥ سنة على الأقل من الآن ، ولم يحدث هذا التحول الثقافى الذى تبشر به المحاضرة . حتى إذا تقدمت تلك التقنية وتحسنت ، فالناس الذين ندعوهم الأميين (تعبير هجومى) سيكونون قادرين على استعمال تلك التقنية ، ويجب أن تصلهم ، ومع ذلك أزعم أن الناس سيستمرون فى حتمية أن يملأوا الاستمارات الحكومية المختلفة (شهادات الميلاد والوفاة وطلبات العمل والإعانة الاجتماعية .. الخ كتابة) وسيستمرون فى القدرة على قراءة وفهم إشارات

الشـــارع من مـــرور وعناوين بدون الاستعانة بالماكينة !

على أية حال تقنيات النطق الجديدة التى تحـول النص المطبـوع إلى خطاب مسمـوع أو الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب سوف تغير حياة الناس فعلا ، خاصة الذين يلاقون صعوبات فى الكتابة والقراءة نتيجة عاهة أو تلف فى حاسة السمع أو البصر أو أجهزة النطق، أو أجهزة الدماغ ! والسبب الواضح لعدم استفادة واستغلال ملايين الناس الأميين حول العالم لهذه التقنيات هو فقط الفقر، فالفقـر هو السبب الأول فى أميـتهم . وقريبا فى رأى دان سبيربير ستقارن تكلفة ومنافع الكتابة والقراءة ليس فقط بالأمـيـة لكن أيضـا بتلك الطرق البديلة لإبداع وإدخال والوصول إلى النصوص ، والتى زودتنا بها التقنيـات الجديدة . والسـؤال الآن الذى تطرحـه المحاضـرة كيف يمكن أن تؤثر هذه التقنيات على مستقبل الكتابة والقراءة؟!

الاختيارات الفردية

بينما الخطاب المنطوق حدث يتجلى فى وقت مـعين ، نجـد النص المكتـوب جسم له ديمومة كبيرة فى الفضاء عندما تنقش الكتـابة على الحـجـر (الآثار المصرية) أو له ديمومة قليلة جدا مثل الكتـابة على السبـورة وأقل فى حـالة الكتابة على رمـال البحـر. بسبب هذا الاختـلاف فى صيـغة الزمن والمكان لوجـود الخطاب المنطوق، كانت الكتـابة مناسبة لاستعمالات مختلفة . وتطوير الكتـابة لم يؤد إلى انحـدار الخطاب المنطوق . وا , يقدم دان دليلا على مقولته

الكمبيوتر يكتب بدلا من الإنسان!

بأن الخطاب المنطوق يستـعمل أقل ، أو يستعمل بأقل جودة ، فى المجتـمعات المثقفة أكثر من المجتمعات الأمية . لكن العكس هو الصحيح تطوير الكتابة أدى إلى ظهور استعمالات جديدة للغة ، فى الشبكات الاجتماعية الأكبر والكثيفة، وفى الفرص الجديدة لاستعمال الخطاب أحدث تطويرا عظيما فى فن الخطاب .

ويتساءل دان سبيربير ماذا سيحدث إذا أصـبحت تقنيات التـحـويل الآلى للخطاب المنطوق إلى نص speech to text أو تحـويل النصـوص إلى خطاب منطوق text to speech من الأدوات العادية الآن فى عملية الاتصال بين كل الناس ؟ جوابه المباشر أن ذلك سيسبب ظهور استعمالات إضافية للغة ! وسيتم إزاحة الكتابة كأداة والاستغناء عنها ، وحـرص دان سـبيـربيـر على ضـرورة التمييز بين نشاط الكتابة (سواء الكتابة اليدوية أو الطباعة) ، والنص المكتوب ، ونشاط القراءة ، وقدم عدة سيناريوهات ، السـيناريو الأول استـعمـال تقنيات تحـويل الخطاب المنطوق إلى نصـوص بشكل منظم مع ندرة استخدام تقنيات تحـويل النصـوص إلى خطاب منطوق

(سيناريو معقول) ، وهذا يؤدى على الأقل إلى تهميش نشاط الكتابة نفسه مع استمرار أهمية ومكانة النص المكتوب ونشاط القراءة، السيناريو الثانى إذا استعملت تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نصوص وتقنيات تحويل النصوص إلى خطاب منطوق بشكل منتظم هنا ستكون نهاية نشاط الكتابة وأيضا نشاط القراءة ، وعلى ذلك سيعتمد النص المكتوب على المكائن التى ستستعمل لغة الماكينة لتشفير المعلومات وجعلها ملائمة للتحويل من وإلى الخطاب المنطوق ، ولغة الماكينة تستعمل أكوادا ورموزا لاتبدو مثل نصوصنا المكتوبة ، وسواء انتهت أو لم تنته المجتمعات باستبدال نشاط الكتابة والقراءة بتقنيات التحويل فإن ذلك لن ينتج مباشرة من قرار جماعى مستند على رؤية النتائج الاجتماعية الحضارية، لكن ينتج من تراكم القرارات الفردية. لكن إلى أى مدى ، سوف يتبنى الأفراد هذه التقنيات الجديدة ؟ وتحاول المحاضرة الاجابة على مستويين الأول تحويل الخطاب المنطوق إلى نص ، والثانى تحويل النص إلى خطاب منطوق ، ثم تستعرض نتائج هذا التحول الثقافى ، وفى حدود المساحة نكتفى فى عجالة هذا الشهر بالمستوى الأول .

تحويل الخطاب المنطوق إلى نص

يتوقع دان سبيربير فى محاضرته أن تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص ستمكن الأفراد من إنجاز أهداف مختلفة ويتابعون النصوص المكتوبة، وأن التبنى لتلك التقنيات سيتم لأول وهلة وعموما على استحياء . فماذا نفعل بنص مكتوب لايعتمد على الكتابة باليد ، أو تمت طباعته ، أو أملى على السكرتير ، أو حتى نسخ بماكينة التصوير . القليل من الاستثناءات لن تستسيغ هذا الأمر مثل الرغبة فى شم الورق المعطر والمحمل برسالة غرامية مكتوبة بيد الحبيب ، على كل حال تعميم تلك التقنيات لن تقف أمامه عقبات كثيرة مثلما حدث فى انتشار وتعميم برامج معالجة الكلمات وأشهرها برنامج word . وعلى الفرد أن يختار إنتاج النص المكتوب بواسطة تلك التقنيات أو بشكل آخر من أشكال الكتابة ، ولن يصبح مثل هذه القرار بالغ الأهمية وستقرره اعتبارات عملية واعتبارات متعلقة بتذوق وطعم الكتابة الناتجة . وتقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص له فائدة عملية واضحة ورئيسية فهى أسرع عدة مرات من الكتابة اليدوية أو حتى الطباعة . وله ضرر عملى واحد واضح : فالخطاب المنطوق صاخب ولا يستطيع مستعمله أن يشعر بارتياح كطريقة لإعداد النصوص فى أكثر الأعمال ، حتى إن حدث ذلك فى قاعة الدروس ، أو حتى فى المنزل ، على أية حال ، إذا أظهر الخطاب المنطوق أنه النمط الفعال فى إنتاج النصوص المكتوبة ، ربما نحتاج تنظيم مكان العمل ، فتصور معى صالة التحرير وكل محرر يتكلم بصوت مسموع لإعداد مادته لكى تسجل الماكينة ، وربما أيضا نحتاج وسائل تقنية جديدة لتسيطر على



الضوضاء. الحجة الرئيسية فى رأى دان سبيربير التى قد تجىء لاستمرار نشاط الكتابة ليس لها طبيعة عملية بقدر ماهى ذات طبيعة ثقافية . فالكتابة باليد تسمح للواحد بالتعبير عن الفكرة بطريقة غنية وأكثر سيطرة بالمقارنة بالخطاب المنطوق . فالكاتب يمكن أن يكتب ، ويصحح ، ويعيد الكتابة ، وفى النهاية ، ينتج نصاً خاليا من الترددات وحيرة تصليحات الكلام الشفهى ، وخصوصية وغنى الأسلوب للنص المكتوب تأتى تحديدا من استغلال هذه الإمكانيات . ويجب ملاحظة أن هذه الإمكانيات ليست من نتيجة نشاط الكتابة بحد ذاته ، لكن فى استطاعة الكُتَّاب أن يقرأوا ما يكتبون كما يكتبونه . وتخيل بأنك تكتب، وتستطيع أن ترى فقط الكلمات التى تكتبها ، ثم أصبحت الكتابة التى كتبتها غير مرئية وغير قابلة للمسح : وهنا ستفقد الكتابة كل مزاياها التى تتفوق بها على الخطاب المنطوق . والأسوأ أن الكتابة أبطأ من الخطاب المنطوق ، وكمية النص التى يمكن للكاتب أن يحملها باختصار فى الذاكرة ستكون أصغر ، فالكتابة تنتج جملاً أقصر وأسهل من تلك المنتجة فى الخطاب المنطوق . تخيل من الناحية الأخرى بأن الذى أمرت به على الماكينة يمكن أن يظهر فورا ويقرأ على الشاشة ، وعلاوة على ذلك ، يمكن أن يصحح بسهولة بواسطة الأوامر الشفهية (وربما بعض الأوامر اليدوية أيضا) هذا التفاعل الشفهى جوهرى بالماكينة يعرض فرصا مماثلة لإمكانيات كتابة النصوص . لكن الإمكانية المبدعة للكتابة فى رأى دان سبيربير لاتجىء من حركات اليد لكن من تلك الرؤية التى تراها العين . بكلمة أخرى الذى يجعل لعملية الكتابة الشىء الثمين والفريد استثنائيا هو القراءة الآنية للذى يكتب ، وأن هناك سببا جماليا مهما لتفضيل تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب . على أية حال حين نقارن بين تحريك القلم على الورقة أو الضغط على مفاتيح الآلة الكاتبة أو لوحة مفاتيح الكمبيوتر للكتابة وبين الخطاب المنطوق يكون الأخير أكثر طزاجة وطبيعية أكثر بكثير من الحالة الأولى . فى بادىء الأمر ستبدو عملية الإملاء على الماكينة صعبة ، لكن عندما نتغلب على الصعوبة ، ربما تصبح أكثر راحة وخالية من الاصطناعية والتكلف ، وتجنبنا التوتر العضلى ، والتململ من الكتابة وسماع صوتنا الخاص وهو يعبر عما يدور فى نفسه من خلال اللغة. وعندما ستكون تلك التقنيات متاحة للجميع ، قد يدرك العديد من الناس مصدر المضايقات الدائمة التى كانوا يعانون منها عند الكتابة باليد ، وإذا أثبتت تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب فعاليتها ومناسبتها ، قد ينتهى ذلك بالناس إلى ترك نشاط الكتابة جملة بدون أن يقرروا عمل ذلك أو حتى يلاحظوا أنهم فعلوا ذلك ، تماما كما حدث مع نشاط الكتابة باليد عندما تحول إلى الضغط على لوحة مفاتيح الآلة ! فالتأثير المتراكم للقرارات الفردية على المستوى الثقافى صعب توقعه، لكنه احتمال جدير بالتوقع والدراسة . (ونكمل فى العدد القادم) . ■

عرقلة وتعطيل الارتقاء والنهضة

بقلم
د. مصطفى سويف

من الدروس الأولية فى موضوع ارتقاء الإنسان ، مسألة اتساع مساحة الرؤية ، واتساع أفق العمل؛ وهو ما يعنى أن أحد المبادىء الأساسية المنظمة لمسار الارتقاء ، كما تتبعه قدراتنا (الفكرية والعملية والوجدانية) هو اتجاهها جميعا نحو مزيد من اتساع المحيط الذى تغطيه ، ومن هذا المنطلق تجدنا نقيم الفكر الناضج على أنه يأخذ فى الاعتبار أعدادا متزايدة من العوامل المسئولة عما يتصدى لحله من مشكلات ، والفعل الناضج على أنه يتجه إلى توسيع دوائر تأثيره ، وكذلك نقيم الوجدان الناضج من حيث كونه يتجه إلى مزيد من رحابة الطيف الذى يتسع له، ومن أوضح المظاهر التى تتكامل فيها قدراتنا لتفعيل هذا المسار فى الحياة الاجتماعية الاتجاه فى نشاطاتنا المختلفة إلى مزيد من الأفعال آجلة العائد (وهو ما يعنى تغطية مساحة زمنية واسعة فى المستقبل المنظور) على حساب النشاطات عاجلة المردود (أى ذات الأفق الزمنى الضيق) . وقد علمتنا أنواع منوعة من الخبرة أن النشاطات ذات المردود العاجل غالبا ما تتراوح فى نتائجها بين العقم من ناحية والإضرار بنا وبالمحيطين بنا من ناحية أخرى ، فى حين أن الأعمال التى نخطط للإقدام عليها، ونحن نعلم أن عائدها يأتى بعد حين، غالبا ما يأتى عائدها هذا نافعا لنا وللغير معا .


ورغم أن هذا الكلام يعتبر من الدروس الأولية في ارتقاء الإنسان، ورغم أنه يتحقق فعلا في جوانب أعمالنا المختلفة على غير وعي منا غالبا، وبوعي منا أحيانا، مع ذلك فعندما ننظر في شئون العمل العام كما يمارسه الكثيرون من شاغلي الوظائف العامة لدينا (وخاصة شاغلي الوظائف العامة العليا) نجد أن العكس هو الصحيح؛ فالتفضيل والإنجاز يتجهان غالبا إلى اختيار الأفعال سريعة المردود على حساب الأعمال بطيئة العائد، وفي المقال الراهن أتناول هذه الحقيقة ممثلة تفصيلا في مثال واحد من بين عشرات الأمثلة الشائعة الآن في حياتنا، وأحاول إسقاط الضوء على دلالتها ضمن الآفات التي تضرب في جذور حياتنا الاجتماعية.

مشكلات في المؤسسة التعليمية

قد يلحظ القارىء أنني أكثر من الحديث عن المؤسسة التعليمية في مقالاتي التي أنشرها في هذه المجلة، مجلة الهلال الرصينة، وهذا صحيح، ولي في ذلك مبررات عدة؛ منها الأهمية البالغة لهذه المؤسسة في تشكيل حاضر الأمة ومستقبلها، ومنها ضخامة هذه المؤسسة بالكم الكبير من العناصر البشرية الذين تضمهم تحت مظلتها والكم الأكبر من العلاقات الإنسانية التي تربطهم بمحيط اجتماعي أوسع كثيرا من حدودها، وهو ما يعني أن صلاحها أو فسادها يمس دوائر واسعة في حياتنا الاجتماعية، ومنها أيضا انتمائي المهني لهذه المؤسسة أكثر من انتمائي إلى أي مؤسسة مهنية أخرى في المجتمع، وهو ما يجعلني أكثر دراية بأمورها مني بأمور غيرها من مؤسسات المجتمع، ومع ذلك فأنا أدرك بنوع من البصيرة الحدسية أن المشكلات التي أتناولها في أحاديثي عن مؤسسة التعليم لها ما يناظرها (في معالمها الرئيسية) في سائر مؤسسات المجتمع، كالمؤسسة القائمة على شئون الصحة، والمؤسسة القضائية التشريعية ....الخ.

مجانية التعليم

من أخطر القرارات التي صدرت في تاريخ المؤسسة التعليمية عندنا قرارات مجانية التعليم، قرار المجانية في التعليم الأساسي (الممتد حتى الثانوية العامة)، ثم المجانية في التعليم الجامعي. (صدر الأول في بداية الخمسينيات على يد آخر حكومة لحزب الوفد، وصدر الثاني في أواسط حكم عبدالناصر). وانصافا للحقيقة والتاريخ فقد شهدت بنفسي تعبيرات الترحيب الحار بكل من القرارين على نطاق مجتمعي شديد الاتساع، ولعل هذه الحقيقة المجتمعية / التاريخية نفسها أن تكون من أهم دواعي الوقوف عندهما

من حين لآخر والنظر فيهما بنظرة تحليلية موضوعية تتناسب وعمق تأثيرهما فى تشكيل مجتمعنا المصرى المعاصر . ثم إن مرور حوالى نصف قرن على صدورهما والعمل بمقتضاهما يتيح للمواطن الجاد أن يشهد ويدرس عددا كبيرا من النتائج المباشرة وغير المباشرة ، المرغوب فيها وغير المرغوب فيها ، مما ترتب على هذين القرارين ، ومن ثم يتيح لنا قدرا كبيرا من الموضوعية فى استخلاص الأحكام التقويمية الصائبة الخاصة بهما وما كان لهما من تأثير فى مسيرة العملية التعليمية ، وما يتخلل هذه المسيرة من نقاط ضعف ونقاط قوة ، كما يتيح لنا قدرا معقولا من الثقة فيما ينبغى التخطيط له من تدابير لزيادة عوامل القوة والاقلال من عوامل الضعف .

نعود بالذاكرة أولا إلى أواخر الاربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن الماضى ، وقت صدور القرارين الشهيرين ؛ فقد كانت مصر حينئذ فى حالة غليان اجتماعى وسياسى ؛ كانت الدعوة إلى الاصلاح السياسى على أشدها (فى مواجهة عبث القصر ، والسياسيين ، وألاعيب الاستعمار الإنجليزى) ، وكذلك كانت الأصوات الداعية إلى الإصلاح الاجتماعى عالية بما فيه الكفاية (حول موضوع الفروق بين الطبقات وغياب العدل الاجتماعى) . فى ذلك الجو الاجتماعى / السياسى صدر القرار الأول ، واعتبر قرارا ثوريا لأنه صدر عن حكومة تحكم باسم حزب الأغلبية (الوفد) ، ولأنه جاء كاستجابة صادقة لمطلب التطوير الاجتماعى / السياسى . ثم تداعت الأحداث بسرعة متنامية ، وفى خضمها قامت حركة الجيش فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، وفى الوقت نفسه بقى المناخ العام مشبعا بمطلب الإصلاح والتطوير الاجتماعى / السياسى ، وتبنى نظام الحكم الجديد هذا المطلب ، فقدم عددا من الإصلاحات ، كان من بينها الإصلاح الزراعى ، وإعلان قيام النظام الجمهورى ، ثم كان إعلان مجانية التعليم الجامعى فى أوائل الستينيات (فى ظل مناخ التأميم ودعاوى الاشتراكية) .

فى هذا السياق التاريخى بروافده المتعددة رسخ فى الوجدان العام أن القرارات المتعلقة بمجانية التعليم جاءت كخطوة (ضمن خطوات أخرى) على الطريق إلى تحقيق مطلب العدل الاجتماعى ، ومع ذلك ، ورغم كل ما تنطوى عليه من دلالات بالغة الأهمية فقد عوملت معاملة التعليمات والتوجيهات والأفعال سريعة المردود ، بمعنى أن السياسيين استغرقتهم فرحة الجماهير بصدور القرارات فلم يلتفتوا إلى مترتباتها

، وساعدهم على ذلك (كما هى العادة) إعلام يقوم أساسا على جهود الشراح ممن لايكفون عن التغني بعظمة القرارات وعظمة القيادة التى أقدمت على إصدارها .. إلى آخر هذا النوع من التغنى الذى يصدق عليه القول بأنه يزيد عن الحد فينقلب إلى الضد ؛ والضد هنا هو الانصراف إلى هذه الطنطنة بدلا من التنبيه إلى ضرورة البدء فورا باتخاذ التدابير اللازمة لحسن تنفيذ هذه القرارات صونا لها من تراكم الآثار الجانبية (غير المرغوب فيها) على مر الأعوام والعقود شئنا ذلك أم أبينا .

النتائج غير المحسوبة

علمتنا تجارب الحياة ، وستظل تعلمنا أن أى قرار نتخذه لعلاج مشكلة ما، لابد وأن تترتب عليه، إلى جانب النتائج المرجوة، نتائج أخرى غير مرجوة أو غير محسوبة ، وأن بعض هذه النتائج تكون ما يسمى آثارا جانبية للعلاج ، وهى غالبا آثار ضارة بدرجات متفاوتة ، هذا صحيح بالنسبة للعلاجات التى نتناول بها مواقف الحياة فردية كانت أم مجتمعية ، بل وصحيح بالنسبة للعلاجات الطبية والطبية النفسية .. الخ . ومن هذا المنطلق يتكلم كثير من علماء النفس المهتمين بدراسة عمليات التفكير عن واحدة من أهم الوظائف العقلية التى يجب العناية بتدريبها ، وهي وظيفة «النفاذ» أى الوظيفة التى يستخدمها الشخص فى أن ينفذ بخياله إلى تصور نتيجة أو نتيجتين أو أكثر مما سوف يترتب على هذه الخطوة أو تلك من خطواته ، ومن ثم يحتاط مسبقا في مواجهة ما يمكن أن يكون غير مرغوب فيه من بين هذه النتائج وذلك بإدخال التعديلات أو التحويرات المبكرة المناسبة في صميم بنية القرار .

والسؤال المطروح فى هذا الموضع من الحديث هو : إلى أى مدى كانت القيادات المسئولة عن القرارات المذكورة، والدوائر اللصيقة بها ، تتبنى هذا النهج في التفكير ؟ وفى صياغة قراراتها ؟ أعنى نهج تصور النتائج مقدما ، المرغوب فيها وغير المرغوب فيها ؟ بعبارة أخرى ، إلى أى مدى كانت القيادات المسئولة تتعامل مع هذه القرارات باعتبارها قرارات بعيدة العائد ؟ معظم الدلائل تشير إلى أن هذا النهج لم يكن من المناهج المعتمدة عند أهل الحل والربط ، ومع ذلك فسواء كان هذا النهج معتمدا، ولكن بصورة مشوية بالكثير من الأخطاء، أم لم يكن معتمدا أصلا فنحن نملك الآن رصيدا من الخبرة تجمع لنا على امتداد قرابة الخمسين سنة الماضية يتيح ، بل ويستوجب النظر واستخلاص الأحكام بقدر معقول من الموضوعية ، والاستبصار ، والشعور

بالمسئولية ، ولعل الخمسين سنة الماضية بكل مالها وما عليها أن تكون كافية لردنا إلى الحكمة الشعبية القائلة بذهاب السكرة ومجيء الفكرة ، وفى الفقرات الباقية من المقال الراهن أذكر عددا من النتائج غير المحسوبة (المباشرة وغير المباشرة) مما ترتب على صدور القرارات بصورتها التى صدرت بها ، وسوف أخص بالذكر ما توالى من نتائج على التعليم الجامعى ، أما التعليم العام فلعل وعسى أن تتاح لنا فرصة لتناوله فى مقال آخر بما هو جدير به من عناية .

النتائج المباشرة

فيما يلى أكتفى بذكر البعض (دون الكل) من النتائج المباشرة (غير المحسوبة) التى توالت على التعليم الجامعى .

أولا : الزحام

ظاهرة الزحام هى السمة الرئيسية التى تسم جميع الكليات فى جامعاتنا ، الآن وبالأمس القريب ، وتزداد كثافته سنة بعد أخرى بصورة لامثيل لها فى معظم جامعات الدول المتقدمة . ولا يقتصر وجود الزحام على الحرم المحيط بالكليات بل يمتد إلى طرقاتها الداخلية ومدرجاتها . ولهذا الزحام (فى الحرم) أضراره التى لاتقع تحت حصر ، بدءا من الأضرار الصحية إلى الأخلاقية ... الخ، وللزحام فى المدرجات أضراره النوعية الإضافية ، وهى أضرار مدمرة لعملية التدريس تدميرا تاما ، وذلك من خلال الفوضى عالية النبرة والفوضى المكتومة ، وما يحدثانه معا من خروج عن الانضباط بصورة يعجز معها الأستاذ عن السيطرة على الموقف ، بصورة تؤدى إلى التدنى بمعنوياته ، وإلى تشتيت الطلاب بدرجة تجعلهم عاجزين عن توفير الحد الأدنى من الاستيعاب المطلوب .

ثانيا : زيادة نسبة الطلاب إلى أعضاء هيئة التدريس

وتأتى هذه الحقيقة كترجمة لتزاحم الطلاب، إذ يقترن بالقلة النسبية لأعداد أعضاء هيئة التدريس ، وهذا كله صحيح بالنسبة للطلاب المنتظمين وطلاب الانتساب الموجه على حد سواء ، وإلى القارىء بعض الحقائق فى هذا الصدد ، فقد حدد المجلس الأعلى للجامعات ما اعتبره المعدلات النمطية لما يخص عضو هيئة التدريس بأنها تتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ طالبا فى الكليات العملية و ٣٠ إلى ٤٠ طالبا فى الكليات النظرية ، ومع ذلك فالمعدلات كما تحققت فعلا فى خلال السنة الدراسية ٢٠٠٠/٢٠٠١ كانت على النحو الآتى : ٢١٠ طلاب فى التجارة ، و٢٠٦ فى الحقوق ، و١٩٦ فى السياحة والفنادق ، و٨٦ فى الخدمة الاجتماعية ، و٧٠ فى الآداب ، هذا بدون طلبة الانتساب الموجه ، فإذا أضيف هؤلاء أصبحت المعدلات على النحو الآتى : ٣٩٧ فى التجارة ، و٤٣٢

فى الحقوق ، و١٥٠ فى الخدمة الاجتماعية، و١٢٤ فى الآداب ، هذا عن الكليات النظرية. والحال فى كثير من العملية ليس أفضل من ذلك بكثير ؛ فالمعدلات فى كليات التربية النوعية ١٧٢ ، وفى التربية ١٠٣ ، وفى الصيدلة ٦٧ ، وفى الاقتصاد المنزلى ٥٥ .

ثالثا : اعتماد أسلوب التلقين أو الإملاء

لكل ظاهرة شروطها ، ويفرق المتخصصون فى مناهج البحث العلمى بين نوعين من الشروط :

شروط ضرورية ، أى لابد من توفرها لكى تظهر الظاهرة ، ولكنها لاتكفى لتفسير هذا الظهور ، وشروط كافية ، أى أنها تكفى لتفسير الظهور ، وقد تولد أسلوب التلقين فى التدريس الجامعى كظاهرة تقوم وراءها مباشرة عناصر الزحام الشديد فى المدرجات كشروط ضرورية وكافية .

وفى هذا الإطار فإن أى كلام عن ضرورة التدريس باتباع أسلوب الحوار وتوليد المعانى كناتج تفاعلى بين الأستاذ والطالب يعتبر فى ظل هذه الظروف من لغو الحديث لا أكثر ولا أقل ، وكذلك الحال بالنسبة للكلام عن إقامة علاقة مباشرة بين الطالب والأستاذ، فهو ضرب من اللغو الذي لا طائل من ورائه ، إضافة إلى كونه تضليلا عن الهدف الحقيقى الذى ينبغى لجهود الإصلاح المخلص أن تتجه إليه إذا كان لها أن تقوم وأن تكون مجدية فى إعادة عملية التعليم الجامعى إلى مسارها الطبيعى .

النتائج غير المباشرة

وإلى القارىء فيما يلى ذكر أهم النتائج غير المباشرة (غير المحسوبة) التى توالت أيضا على التعليم الجامعى لكى يتراكم أثرها مع تأثير النتائج المباشرة فيدعم بعضها بعضا فى تدمير التعليم الجامعى شكلا ومضمونا .

أولا : الدروس الخصوصية

أفاض الكثيرون غيرى من الكتاب الأفاضل فى الحديث ضد الدروس الخصوصية . وفى كتاباتهم ما فيه الكفاية، وكل ما أريد أن أضيفه هنا هو أن هذه الدروس الخصوصية هى إحدى النتائج غير المحسوبة التى ترتبت بصورة غير مباشرة على قرار مجانية التعليم الجامعى بالصورة التى نفذ بها ، وما ترتب على ذلك من تزاحم فى قاعات الدرس وتدهور لعملية التدريس ، فهى ظاهرة مشروطة بالشروط الضرورية والكافية التى أدت إليها ، والكلام عن جشع المارسين لها وفساد ضمائرهم .. الخ كلام لامعنى له ولا جدوى منه

ثانيا : التعجل فى إنشاء كثير من الجامعات الإقليمية

أنشئت كثير من الكليات والجامعات

الإقليمية لمواجهة الأعداد المتزايدة من الراغبين فى الالتحاق بالتعليم الجامعى ، وفى مناخ الضغط الذى أصبح سمة شائعة فى مجال التعليم الجامعى أنشئت كثير من الكليات والجامعات دون تدبير لاحتياجاتها من أعضاء هيئة التدريس ، وكان قرار السلطات المسئولة لحل هذه المشكلة هو الاعتماد على نظام الانتداب من الجامعات القائمة فعلا ، ولما كانت الكثير من هذه الجامعات الأخيرة تعانى أصلا من نقص شديد ناجم عن اختلال النسبة بين الزيادات الطلابية وأعضاء هيئات التدريس فقد ترتبت على الانتدابات الجديدة مشكلات تراكمت فوق مشكلاتها الأصلية . والنتيجة النهائية لهذا كله أن أصبح لدينا فى العام الدراسى ٢٠٠٠ /٢٠٠١ عدد ٢٩ كلية لاتوجد بها درجة أستاذ ، و٢٤ كلية لايوجد بها أستاذ مساعد واحد ، و٨ كليات لايوجد بها مدرس واحد . بل أكثر من ذلك ، أنه (فى حدود السنة الدراسية المشار إليها) توجد ثمان كليات لايتوفر بها عضو هيئة تدريس واحد فى أى درجة من درجات أعضاء هيئة التدريس .

عود على بدء

جدير بالذكر أننى لم أقصد بهذا الحديث أصلا إلى حصر مشكلات التعليم الجامعى لدينا ، كذلك لم أقصد إلى استثارة الأذهان لصياغة حلول لهذه المشكلات ، ولكنى قصدت إلى مناقشة قضية أكبر من التعليم الجامعى بكثير ، لأنها تمس الوطن كله فى حاضره وفى مستقبله ، وهى قضية تتناول آفة من الآفات الأساسية التى تصيب حياتنا الاجتماعية وتنخر فيها عند الجذور ، وتتلخص فى أن التوجه الغالب على شاغلى الوظائف العامة العليا فى الدولة يتعاملون مع الأعمال والقرارات التى تعرض لهم من منطلق تفضيل الأعمال أو القرارات سريعة المردود على الأعمال والقرارات بطيئة العائد ، وهو ما من شأنه أن يمضى بالفرد وبالمجتمع فى حالتنا نحو تعطيل الارتقاء ، وتكريس التخلف .

وهذا ما يبدو واضحا فى ثنايا المثال الذى قدمته ، مثال التعليم الجامعى وما أصابه من آثار جانبية (غير محسوبة) سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة ، ترتبت على قرارات تنشد المردود العاجل ولم تحسب حساب العائد الآجل سواء أكان خيرا أم كان شرا .

وكان من الممكن أن أختار لهذا الحديث مثالا مشكلة أخرى مثل تعاطى المخدرات ، أو ثالثة مثل مشكلة الإسكان ، أو رابعة مثل تلوث البيئة أو خامسة مثل قرار إلغاء الصف السادس فى التعليم الابتدائى ثم قرار إعادته .. الخ ولكنى

قصدت قصداً إلى اختيار قرار مجانية التعليم الجامعي لأنه يجسد نموذجا يمكننا أن نتعلم منه الكثير. ولايعني هذا الحديث الإشارة من قريب أو من بعيد إلى الدعوة لإلغاء مجانية التعليم الجامعي . إنما المغزى الحقيقي لهذا الحديث يتجلى في تقديمه نموذجا للقرارات التي تسعى أساسا إلى تحصيل المردود العاجل دون التدبير المبكر لآليات الصيانة ضد التوابع الضارة غير المرغوب فيها . وفي تقديري أن هذا النموذج من القرارات (والأعمال) هو الغالب في تصريف شئون الدولة عندنا ، وأنه يعتبر واحدا من أهم الآليات المسهمة بنصيب كبير في تعطيل ارتقائنا ، وهو في الوقت نفسه إفصاح بالغ الدلالة عن هذا الارتقاء المعطل.

في ختام هذا المقال ينبغي طرح عدد من الاسئلة حول نموذج القرارات والأفعال التي تتعجل المردود :

ما الذي يدفع البعض إلى تبني هذا الأسلوب بدلا من أسلوب القرارات والأعمال محسوبة العائد البعيد ؟ هل يجوز تفسير هذه الحقيقة تفسيرا نفسيا خالصا بالرجوع إلى نزوع البعض للاندفاع في مقابل نزوع البعض الآخر إلى الروية في التفكير والتدبير والفعل معا ؟ أم أن هذا التفسير يعتبر رأيا ساذجا كما أن إسقاطاته المجتمعية تعتبر مضللة ؟ أظن أن الأمر هنا بالغ التركيب والتعقيد ؛ إذ لابد للإجابة المدققة من أن تحسب حساب المناخ الاجتماعي المحيط بصدور هذه القرارات والأفعال . هل هذا المناخ يشجع الانفراد بإصدار القرارات أم يشجع طلب المشورة ؟ وهل للتفكير النقدي أي فرصة لأن يرى النور في هذا المناخ؟ ومن هم الذين تطلب منهم المشورة ؟ من هم من حيث التوجه الفكرى / الاجتماعى/ السياسي ؟ ومن هم من حيث التطلعات أو الطموحات الشخصية ؟ وهل بين المستشارين من هم خبراء في الموضوع المطروح للمشورة ؟ أم أن الخبراء مستبعدون، وصناعة القرار حكر للسياسيين وحدهم؟

هذه الأسئلة وأمثالها جديرة بأن تطرح للمناقشة ، لأن العواقب المترتبة على هذا المستوى من الأعمال والقرارات (الذي مثلنا له في هذا المقال) لاتقع على المؤيدين والمقربين فحسب، لكنها تطال المجتمع بأسره، ومن الواضح أن العالم كله ، بما فيه مصر ، مقبل على مرحلة من تاريخه لاتحتمل ترف الإدارة بأسلوب القرارات المتعجلة ، ولا تحتمل تعطيل مسيرة الارتقاء لأي عضو من أعضاء الأسرة الدولية ، سواء أكان هذا العضو من الصغار أم كان من الكبار. ■

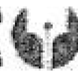
مشروع

الشرق الأوسط الكبير

الأسباب الحقيقية والمزيفة

بقلم
د. جلال أمين

لابد أن تعتري المرء دهشة شديدة ، بعد أن يقرأ سطورا قليلة مما يسمى بمشروع «الشرق الأوسط الكبير» ، الذى طرحته الولايات المتحدة منذ أسابيع قليلة على مجموعة الدول الصناعية الثمانى ، وسوف تقوم هذه الدول بمناقشته فى مؤتمر يعقد فى يونيو القادم فى الولايات المتحدة .



فطبقا لنص هذا المشروع كما نشرته صحيفة الحياة اللندنية فى ١٣ فبراير ٢٠٠٤ ، يبدأ ذكر ما سمى «بالنقائص» والعيوب العربية ابتداء من السطر الثالث . وبعد فقرة واحدة قصيرة يبدأ هذا المشروع فى تعداد هذه النقائص مثل :

- «مجموع إجمالى الدخل المحلى لبلدان الجامعة العربية الـ ٢٢ هو أقل من نظيره فى إسبانيا» .

- «حوالى ٤٠٪ من العرب البالغين (٦٥ مليون شخص) أميون ، وتشكل النساء ثلثى هذا العدد ...» .

وهكذا تذكر نقيصة بعد أخرى من «نقائص» العرب ، مما يخلق ، طبقا لأول جملة فى المشروع «تحديا وفرصة فريدة

للمجتمع الدولى» .
فرصة لأى شىء بالضبط ؟
للإصلاح طبعا ، والنهوض بهذه البلاد العربية البائسة .
إصلاح أى شىء بالضبط ؟ والنهوض بهم فى أى ميدان ؟
فى ثلاثة ميادين حددها تقريران صدرا خلال العامين الماضيين عن برنامج الأمم المتحدة للإنماء . يحيل إليهما ويقتطفهما نص مشروع الشرق الأوسط الكبير بين الحين والآخر ، ويؤكد على أن واضعى هذين التقريرين من العرب ، فلابد أن كلامهم عن نقائص بلادهم صحيح ، طبقا للمبدأ الشهير «وشهد واحد من أهلها» . هذه الميادين الثلاثة التى حددها تقريرا برنامج الأمم المتحدة للإنماء المعنونان «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢ ثم للعام ٢٠٠٣» هى :
- الديمقراطية
- المعرفة
- ما سمى «بتمكين المرأة» ، أى زيادة الفرص المتاحة أمام المرأة ومضاعفة قدراتها .
ولكن مشروع الشرق الأوسط الكبير يعطى أيضا حيزاً لا بأس به لميدان رابع أسماه «توسيع الفرص الاقتصادية» .

★★★

لابد أن يكون أول ما يخطر ببال أى شخص عربى يقرأ نص هذا المشروع لأول مرة ، ويروح محايدة تماما ، هذا الخاطر : «يالها من سخافة وبزالة ! إذ ما شأنكم بنا وما الذى دعاكم للتدخل فى شئوننا ؟
هل شكونا لكم من حال الديمقراطية والمعرفة وأحوال المرأة عندنا ، وهل طلبنا منكم المساعدة فى النهوض بها ؟» .
وكلما فكر المرء فى الأمر ازداد غيظا

فأولا : هذه الأحوال التى يشكون منها ، أيا كان تقييمنا وتفسيرنا لها ، قديمة جدا ، ولم يجد فيها جديد . فحالة الديمقراطية والمعرفة والمرأة ، والتنمية أيضا ، حالة قديمة تعود إلى عدة عقود إلى الوراء ، بل وربما عدة قرون . فما الذى يجعلكم تهتمون بإصلاحها فجأة وفى هذا الوقت بالذات ؟
وثانيا : إن علاقاتنا السياسية والاقتصادية الوثيقة بكم (أى بالولايات المتحدة) قديمة جدا بدورها . ففى مصر تعود هذه العلاقة الوثيقة إلى منتصف السبعينات ، منذ حل الرئيس الأمريكى نيكسون ضيفا على مصر وأعلنت مصر سياسة الانفتاح الاقتصادى ، وبدأت محادثات فك الاشتباك مع اسرائيل ، وعادت العلاقة الحميمة كذلك (وبمباركة من الولايات المتحدة) بين مصر والمؤسستين الماليتين الشهيرتين : البنك الدولى وصندوق النقد . ومنذ ذلك الحين تدفقت المعونات والقروض من هاتين المؤسستين ومن حكومة الولايات المتحدة على مصر . فلماذا لم تشتكوا من وجود

كل هذه النقائص قبل الآن ؟ وقد كان من أسهل الأمور عليكم أن تلفتوا النظر إليها ، ولو برفق ، بل وأن تلمحوا من بعيد إلى أن استمرار هذه العلاقات الوثيقة معكم ، واستمرار معوناتكم لنا يتوقفان على تحقيق هذه الاصلاحات . فلماذا لم تفعلوا ذلك ، وقد كان من المؤكد أن تكون له آثار إيجابية للغاية ؟

أما الدول العربية الأخرى ، فكثير منها كان على علاقات وثيقة وحميمة أيضا (ولا يزال) بالولايات المتحدة حتى من قبل مصر ، بما فى ذلك دول الخليج كلها (بل وحتى العراق فى ظل العشرين سنة الأولى على الأقل من حكم صدام حسين) فلماذا الغضب المفاجيء الآن ؟

★★★

الشيء الوحيد الذى ورد فى هذا المشروع ويمكن أن يتصور كتبرير لهذا التدخل الآن هو أن هذه الأحوال السيئة فى البلاد العربية هى التى أنتجت ظاهرة الإرهاب العربى والإسلامى، وأن هذا الإرهاب يهدد أمنكم وأمن الأوربيين كما اتضح من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، ومن ثم فلابد من تدخلكم لإصلاح الأحوال حتى تضعوا حدا لهذا الإرهاب ولا يتكرر ما حدث فى ١١ سبتمبر . هذا هو معنى العبارة التى وردت فى نص مشروع الشرق الأوسط الكبير التى تقول

«ساهمت النواقص الثلاث التى حددها الكتاب العرب لتقريرى الأمم المتحدة حول التنمية البشرية للعامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ - الحرية والمعرفة وتمكين النساء ، فى خلق الظروف التى تهدد المصالح الوطنية لكل أعضاء مجموعة الثمانية . وطالما تزايد عدد الأفراد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية فى المنطقة ، ستشهد زيادة فى التطرف والارهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة» .

هذا الزعم بأن الغرض من مشروع الشرق الأوسط الكبير أو أحد أغراضه، القضاء على الإرهاب من نوع ما حدث فى ١١ سبتمبر ، غير مقنع البتة لأكثر من سبب .

هناك أولا الشك فى أن ما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ هو بالفعل نتيجة إرهاب إسلامى عربى . وهو ما لم يقم عليه دليل قاطع حتى الآن . إن هناك شكوكا قوية عبر عنها كتاب عديدون ، ليسوا فقط من العرب بل ومن الأوربيين والأمريكيين ، فى أن ما حدث فى ذلك اليوم حدث بأيد أمريكية أو على الأقل بمساعدة أيد أمريكية أو عرف به أمريكيون قبل حدوثه وسكتوا عليه . وقد كانت هذه الشكوك من القوة وتستند إلى أدلة دامغة بحيث أدت بالإدارة الأمريكية إلى وضع قيود شديدة على التعبير عن هذه الشكوك وتهديد أى شخص تسول له نفسه الخوض فيها . (مما يجعلنا أيضا نشك فى إخلاص الإدارة الأمريكية لقضية نشر «المعرفة») .

ولكن دعنا من هذا ، ولنفرض جدلا أن ما حدث في ١١ سبتمبر هو بالفعل نتيجة إرهاب عربي إسلامي . ولنفرض أيضا أن ما يسمى بالإرهاب العربي الإسلامي هو حقا ظاهرة مستقلة عن أي تدخل أجنبي ، وليس من صنع أو نتيجة دعم ومساعدة من أجهزة مخابرات خارجة عن العالم العربي والإسلامي ، قدمت له هذا الدعم في البداية بغرض الإطاحة بالنظام الشيوعي ، ثم استمرت تستخدمه لأغراض أخرى مستجدة من أمثال «مشروع الشرق الأوسط الكبير» . لنفرض أيضا أن هذا «الإرهاب العربي الإسلامي» ظاهرة إسلامية عربية خالصة ، تعمل بوحي من مصادر عربية وأنبتتها تربة عربية . حتى لو افترضنا جدلاً هذا وذاك ، فلازال القول بأن الإرهاب هو نتيجة هذه النقائص العربية الثلاث في الحرية والمعرفة وتمكين المرأة ، قول غير مقنع البتة لعدة أسباب .

أولا : أين هو ذلك التحليل العميق الذي أجريتموه وبين على وجه قاطع أن سبب الإرهاب هو نقص الديمقراطية أو نقص المعرفة أو سوء أحوال المرأة ؟

إن الارهاب الذي تشكون منه هو إرهاب موجه إليكم أنتم ، فما الذي يضمن لكم أن حكومة عربية ديمقراطية وتعبر عن مشاعر وآمال شعبها تعبيراً مخلصا ، لا تمارس هي نفسها أعمالا إرهابية ضدكم ، أو تشجع بعض الأفراد على القيام بمثل هذه الأعمال ؟

انظر مثلا إلى حكومة كالحكومة الإيرانية التي أتت بها في ١٩٧٩ ثورة شعبية في إيران ، وكانت تتمتع بتأييد ساحق من الشعب الإيراني . ألم تصدر في ظلها فتوى من الإمام الخميني بإباحة دم الكاتب البريطاني «سلمان رشدي» لتأليفه رواية اعتبرت معاديه للإسلام ؟ يبدو إذن أن استتباب النظام الديمقراطي في بلد لا يكفي للقضاء على أعمال الإرهاب في بلد آخر .

أما نقص المعرفة كسبب للإرهاب ، فما رأيكم في هؤلاء الشبان العرب الذين تزعمون أنهم قادوا الطائرات التي فجرت برجي نيويورك الشهيرين ووزارة الدفاع الأمريكية ؟ ألم يبلغوا غاية التفوق في العلم والمعرفة بحيث استطاعوا قيادة طائرات وسيطروا على أجهزة على درجة عالية من التعقيد ؟ المهم ، ألم يثبتوا أن التطرف والإرهاب لا يتعارضان مع درجة عالية جدا من «المعرفة» ؟ أم أنكم تقصدون بالمعرفة شيئا آخر مثل المعرفة بالآداب العالمية والإنسانيات ؟ فلماذا لم توضحوا هذا الأمر إذ أن إحراز تقدم في هذه الأمور الأخيرة أمر أسهل كثيرا من غيره ؟

وأما سوء أحوال المرأة العربية كسبب من أسباب الإرهاب ، فما رأيكم في هؤلاء الفتيات والسيدات الفلسطينيات اللاتي تعدونهن طبعا في

عــداد الارهــابيين ، واللاتي فــجــرن أجسادهن استشهاداً وغضباً لحقوق قومهن وأملا في أن يكون الاستشهاد مهرا لاستعادة فلسطين ؟ ألم تكن هؤلاء السيدات والفتيات على درجة عالية من التعليم واستقلال الرأى والثقة بالنفس ، ومع ذلك ، أو بسبب ذلك ، قمن بهذه العملية التى تعتبرونها قمة الأعمال الإرهابية ؟ فهل حقا يتعارض النهوض بأحوال المرأة مع ما تخشون منه من «إرهاب» أم أنكم تقصدون بالنهوض هنا نهوضا من نوع خاص جدا ؟

***

الأقرب إلى العقل إذن أن الدواعي الأساسية للإرهاب والتطرف نتجت ، لا عن سوء أحوال الديمقراطية والمعرفة والمرأة فى بلادنا ، بل عن العلاقة الوثيقة بيننا وبين الولايات المتحدة وطبيعة هذه العلاقة ، من ناحية ، وعن موقف الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية واسرائيل من ناحية أخرى، هذا إذا افترضنا أن ما يسمى بالإرهاب هو حقا إرهاب «عربى إسلامى» جاء من وحى أشخاص عرب ومسلمين يفكرون ويعملون باستقلال عن أي تدخل خارجى . فإذا صح هذا التشخيص فإن مشروع «الشرق الأوسط الكبير» من شأنه أن يزيد من احتمالات الإرهاب بدلا من أن يقللها ، إذ أن هذا المشروع من شأنه أن يزيد العلاقة بيننا وبين الولايات المتحدة قوة ويزيدها تبعية ، وسوف يسمح ، فيما يبدو بمزيد من المعاملة غير العادلة للفلسطينيين ، إذ أن ذكر قضيتهم وسوء معاملتهم لم يرد أصلا فى المشروع ، بل إن الدولة الوحيدة ، من بين دول الشرق الأوسط الكبير كله ، التى حظيت فى نص المشروع بكلمة طيبة واحدة هى إسرائيل .

وثانيا : فلنفرض جدلا أن نظاماً أكثر ديمقراطية وأكثر اهتماما بالتعليم والمعرفة وأكثر احترامات للمرأة سوف يقضى على الإرهاب . فكم يحتاج هذا الأمر من الزمن يا ترى ؟ إن هذه الأمور كلها بطيئة الأثر بطبيعتها ، ولا تحدث نتائجها الطيبة إلا فى المدى الطويل . فهل أنتم حقا مستعدون للصبر على الإرهاب كل هذه الفترة ، أم أن هناك طرقا أسرع جدا وأكثر فعالية للقضاء على الإرهاب ، وهى وضع حد للإرهاب المضاد ، كالإرهاب الاسرائيلى فى فلسطين مثلا ، أو الإرهاب الأمريكى فى العراق ، أو كليهما معاً ؟

وثالثا : إذا كانت هذه الاصلاحات الثلاثة وأمثالها هى الكفيلة حقا بالقضاء على الإرهاب كما تفهمونه وتعرفونه ، فلماذا يا ترى لم تفعلوا شيئا بشأنها طوال الثلاثين عاما الماضية (أو أكثر) وهى فترة كان لكم فيها (ولا يزال) نفوذ كبير فى معظم البلاد العربية ، وكان باستطاعتكم بقليل من الجهد ، وبدون تهديد بالضرب والاحتلال ، أن تجعلوا النظم العربية أكثر ديمقراطية والتعليم

أكثر انتشاراً والمرأة أكثر تحررا ؟ خاصة وأنه طوال هذه الثلاثين عاما كانت هناك بوادر وعمليات كثيرة تشبه العملية الإرهابية الأخيرة فى نيويورك مثل ما حدث من اعتداء على السياح أو الأقباط فى مصر ، ومن تفجيرات فى الكويت والسعودية .. الخ

★★★

إذا كانت كل هذه التساؤلات والشكوك فى محلها فلا بد أن يكون لرفع شعارات الإصلاح الأخيرة ، بما فى ذلك مشروع الشرق الأوسط الكبير، أهداف أخرى لا علاقة لها بالإصلاح ، من بين هذه الأهداف الأخرى ، السيطرة على نفط العراق مثلا ، والاستئثار بمجالات الاستثمار والتسويق (ليس فى العراق فقط بل وفى سائر بلاد الشرق الأوسط الكبير) على حساب أوربا والدول الصاعدة بسرعة فى شرقى آسيا وعلى رأسها الصين ، وإعادة ترتيب المنطقة العربية لصالح إسرائيل ، ذات الصلات الحميمة مع حكام البيت الأبيض وفى سبيل تحقيق مثل هذه الأهداف التى تتعارض مع مصالح العرب ، لا بأس من استخدام مثل هذه الشعارات الجميلة التى تبدو وكأنها تحقق مصالح العرب ، كالديمقراطية والمعرفة وتمكين المرأة والتنمية . فرفع شعار الحرية والإصلاح الديمقراطى مثلا يسهل مهمة احتلال العراق ومن ثم وضع اليد على آبار النفط . وتغيير مناهج التعليم باسم إصلاح حال المعرفة والنهوض بالمرأة ، يسهل مهمة تطويع التلميذ العربى لقبول التعاون مع إسرائيل . وإنشاء قنوات تليفزيونية بتمويل أمريكى باسم إصلاح حال المعرفة والإعلام ، يساعد على تطويع المستهلك العربى وتدريبه على استهلاك سلع أمريكية وإسرائيلية . وإنشاء بنك للشرق الأوسط باسم التنمية ، الذى ورد ذكره فى نص مشروع الشرق الأوسط الكبير ، يسمح بإشراك إسرائيل فى توزيع واقتسام إيرادات النفط العربية وما قد يرد إلى المنطقة العربية من معونات خارجية .. الخ

لا عجب إذن أنه بينما لا يشمل نص المشروع من النقد والاتهامات إلا النقد والاتهامات الموجهة للدول العربية دون غيرها ، يقدم المشروع على أنه مشروع «الشرق الأوسط الكبير» ، وكأن الهدف هو ضم شمل الغنيمة على مغتنمها ، أى تهيئة الفرصة لتقديم الفريسة ، وقد تم إخضاعها ، لتلك الدولة التى أصبحت مستعدة تماما لإكمال عملية الافتراس .

★★★

عندما وصلت خواطرى عن مشروع الشرق الأوسط الكبير إلى هذه النقطة تذكرت المنشور الذى وزعه نابليون بونابرت على المصريين لدى قدومه لاحتلال مصر فى ١٧٩٨ ، وتذكرت أن بين مضمون هذا المنشور شبها بما

تضمنه مشروع الشرق الأوسط الكبير، رغم مرور قرنين بين المنشور الفرنسى والمشروع الأمريكى .

فعدت اقرأ نص منشور نابليون كما ورد فى كتاب الجبرتى ، فإذا بى أجد من أوجه الشبه أكثر مما كنت أتوقع .

لقد بدأ منشور نابليون بداية ورعة للغاية ، فيقول مطلعه :

«باسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد ولا شريك له في ملكه» ثم قدم نابليون نفسه إلى المصريين على أنه نصير للديمقراطية والمساواة:

«من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته» . ثم قدم تبريرا لمجىء الجيش الفرنسى إلى مصر قريبا جدا من تبرير الأمريكيين لمشروع الشرق الأوسط الكبير الذى يذكر .

«التطرف والإرهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة» . باعتبارها «ظروفا تهدد المصالح الوطنية لكل أعضاء مجموعة الدول الثمانى» أما منشور بونابرت فيعبر عن هذا التبرير بالطريقة الآتية :

«من زمان مديد ، السناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى» .

(وقد لاحظت هنا ركاكة اللغة العربية التى كتب بها المنشور ، ورجحت أن سببها هو أن المنشور لابد كتب بالفرنسية أولا ثم طلب من أحد المصريين ترجمته ، وهو ما ذكرنى بركاكة الكثير من العبارات العربية الواردة فى تقريرى التنمية الإنسانية العربية اللذين استند إليهما نص المشروع الأمريكى وتكرر اقتطافه منهما ، مما رجحت معه عندما قرأتهما أن هذه الأجزاء من التقريرين لابد أن كتبت بالإنجليزية أولا) .

ثم يمضى المنشور ليعد المصريين بالتقدم والازدهار فى ظل الحكم الفرنسي ، مما ذكرني بالكلام عن التنمية والتقدم فى ظل مشروع الشرق الأوسط الكبير . فيقول المنشور :

«من الآن فصاعدا» لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة» ..

ولكن منشور بونابرت لا ينسى أن يقرن الوعد بالوعيد ، مثلما يفعل الأمريكيون الآن بالضبط ، إذ يوجهون تهديداتهم بين يوم وآخر لحكومات «الدول المارقة» التى لا تستجيب لنداء «الإصلاح» . فيقول منشور بونابرت :

«المادة الثانية : كل قرية تقوم على (أى تقف ضد) العسكر الفرنساوى ، تحرق بالنار» ■


د. علي جمعة

● «من علامات فساد الزمان، الإفتاء بغير علم».

الدكتور على جمعة - مفتى الديار المصرية

● «أنا مجرد عسكرى فى لعبة شطرنج كبيرة».

سامنتا مورتون

الممثلة الإنجليزية التى جرى ترشيحها لأوسكار مرتين

● «مهمة الكاتب، حتى وإن كانت عسيرة، إزالة الغشاوة».

الكاتب السودانى

محمد إبراهيم الشوش


علي عبدالله صالح

● «تمجيد التدخين فى أفلامى لطخ يدى بالدماء، وأصابنى بالسرطان».

من اعترافات جو استرهار - كاتب السيناريو الأعلى سعرا فى هوليوود وصاحب سيناريو - الغريزة الأساسية

● «الديمقراطية سيئة، ولكن أسوأ منها عدم وجودها».

رئيس جمهورية اليمن على عبدالله صالح

● «أمريكا تعطيك الفرصة للتنقيب فى عقلك».

د. يامينى نارياتان - هندية حاصلة على درجة دكتوراه من جامعة أوكلاهوما

أقوال معاصرة

● «الرغبة فى الإصلاح ليست جديدة، إنها تعود إلى القرن التاسع عشر عندما اتصلنا بأوروبا، وأدركنا مدى تخلفنا».

الكاتب العراقى خالد القشطينى

● «أشعر باليتم وضياع الطريق والهوية».

الكاتبة الفلسطينية - سمر خليفة


بنازير بوتو

● «الجنرالات لا يخضعون للمحاسبة، فيما يتخذ المدنيون ككباش فداء لأخطاء العسكريين».

بنازير بوتو - رئيسة وزراء باكستان الأسبق وزعيمة حزب الشعب - الباكستانى المعارض

● «البشر لا يحتاجون إلى الجذور، مقدار حاجتهم إلى الأصول».

أمين معلوف - الأديب المنحدر من أصل لبنانى

● «الوقوف فى وجه التقدم ليس ممكنا».

الشيخة سبيكة بنت إبراهيم آل خليفة

عقيلة عاهل البحرين


بيل كلينتون

● «عندما نفكر نربح، عندما نستعمل عواطفنا يربحون هم».

من قول للرئيس الأمريكى السابق- بيل كلينتون فى أثناء الحملة الانتخابية

ليس هكذا يتم الاحتفال

بـ طه حسين!

بقلم
د. محمد رجب البيومى

الدكتور طه حسين مفخرة من مفاخر الأدب العربى المعاصر، فقد ترك من الآثار الأدبية القيمة ما أحدث دويا بين النقاد، وكانت له جرأة تدفعه إلى الجهر أحيانا بما لا يرضاه الكثيرون، وهو يرحب بعدم الرضا، ويعده دليلا على اليقظة والاستقلال، ومن طبيعة الرجل الكبير أنه لا يصبر على مراجعة آرائه حين تسنح فى خاطره ، بل يسارع إلى تسجيلها فى مقال عاجل يشغل القراء، أو فى كتاب ثائر يظن أنه سيبعث الضجيج الذى يرحب به كثيرا كثيرا، وهو يعترف بهذه العجلة فى التأليف والنشر ويسجلها فى مقدمات كثير من كتبه، فهو يقول فى مقدمة كتابه (من حديث الشعر والنثر) من لى بالوقت الذى يمكننى من إعادة النظر فى كلام مضت عليه أعوام، ومن لى بفراغ البال الذى يتيح لى أن أفكر فيما قلته أمس وأنا رجل مضطر دائما إلى أن أفكر فيما أقوله اليوم أو غدا.



ويقول فى مقدمة كتاب «حديث الأربعاء» كنت أرجو أن تتيح لى الأيام شيئا من فراغ البال يمكننى من النظر فى هذه الفصول وتهيئتها للجمع والنشر، ولكن الأيام لم تتح لى ما كنت أرجو وما أحسب أنها ستتيحه لى قبل أمد بعيد.. ومعنى ذلك كله أن على قارئ الدكتور إذا أراد أن يستند إلى رأى أذاعه ، أن يحاول استقصاء ما كتب فى هذا المجال، فربما يكون قد تعجل القول فى أمر فاتى بما هو موضع للنقد، ثم عن له أن يصحح ما قاله، فكتب ما يناقض قوله السابق، وهذا ما حدث كثيرا فيما قرأته من آثار الكاتب الكبير، ولا معابة عليه فى ذلك، ولكن الذى يوجه إليه النقد من اقتصر على رأى سابق للدكتور وعده موضع حكمه، فأطلع قارئه أو سامعه، على ما يجب تصحيحه والتعقيب عليه، لا سيما إذا كان موضع الخلاف جوهرياً تترتب عليه نتائج حاسمة لا تقبل التردد والارتياب، وأى مسألة أقوى خطراً، وأبلغ أهمية، من رأى للدكتور فى عروبة مصر ومكانتها من الأمة العربية فقد أسلف الدكتور فى هذه القضية ما كان موضع النقد الصارم من كبار الدارسين، ثم مضت الأيام، فعاود الدكتور بحثه متأملاً فاحصا، حتى اهتدى إلى خطئه فيما قرر، وكتب ما ثبتت له صحته بعد التأمل والتدبير! أفيجوز إذن لبعض الفضلاء الذين تحدثوا فى ندوة أدبية عن طه حسين أن يعتمد على الرأى السابق وحده، وأن يعده سدرة المنتهى التى اطمأن إليها الأديب الكبير؟ فيظلمه بذلك ظلماً بينا لا لبس فيه! وما أمثل لذلك إلا بمثال من يكتب سيرة تاريخية لخالد بن الوليد سيف الله المسلول، فيتحدث عن عدائه للدعوة الإسلامية فى أول أمره، ثم يفيض فى مواقفه العدائية للإسلام فى غزوة بدر، وفى هجومه الصارخ على المسلمين فى أحد حيث قلب بهذا الهجوم ميزان المعركة تماما! ويقف بالقول عند ذلك تاركاً الصفحات البيض التى سجلها خالد بعد إسلامه فكانت غرة فى جبين الفتح الإسلامى ! أنذا فعل ذلك من تعرض لسيرة خالد، أفيكون مصيبا أم غير مصيب؟

بعد ثلاثة عقود !

أقامت لجنة الدراسات الأدبية والنقد، بالمجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع كلية الآداب قسم اللغة العربية ندوة موسعة استمرت يومين تحت عنوان (طه حسين بعد ثلاثة عقود) وقد دارت بحوث شتى فى محيط طه حسين يهمنى منها الآن التعقيب على متحدث فاضل قرر أن طه حسين يرى مصر ترتبط بثقافة البحر الأبيض دون ارتباطها بالثقافة العربية، وهذا ما أكده طه حسين فعلاً، وألح على تقريره فى كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) وقد قوبل حينئذ بنقد عاصف من كبار المثقفين أذكر فى طليعتهم المفكر العربى الكبير الأستاذ ساطع الحصرى، حيث أفرد عدة مقالات قوية لدحض هذا الزعم، ولم يجب الدكتور بشىء ما على ناقديه، حيث كان من ديدنه أن يلقى بالحجر الثقيل فى الماء ليحدث دويا يأخذ الأسماع، ويقرأ ما كتب دون أن يرد إلا إذا كان محاوره عباس العقاد أو المازنى أو هيكل، فهؤلاء الثلاثة كان طه لا يجرؤ على إغفال قولهم ، لما يعرف من تأثيرهم الأدبى لدى القراء، ثم أجمعت الأمة بعد عشرين عاما على ضرورة الوحدة العربية. ورأى الدكتور أن يبارك هذا

الاتجاه فألقى خطبة رنانة في مؤتمر أدباء العرب المنعقد في القاهرة ابتداء من ١٩٥٧/١٢/١٥.



وحضره ممثلون عن أدباء لبنان وسوريا والعراق والكويت والبحرين واليمن والسودان وتونس والمغرب وليبيا والأردن والجزائر وفلسطين، هذه الخطبة نسخت كل ما قاله في كتاب مستقبل الثقافة في مصر، وأعادت الدكتور طه إلى عروبته الأصيلة زائدا عنها ، مبتهجا ببعثها الواقعي بعد أن كانت حلما يتردد في النفوس الرائدة، وكان على الباحث في ندوة المجلس الأعلى أن يلتفت إلى ذلك، في هذا الوقت بالذات، لأن أقلاما غير مسئولة أخذت تتنكر لعروبة مصر، وترسل من النفثات المريضة في الصحف المأجورة ما يزعج المخلصين من أبناء الوطن العربي، وهؤلاء في رأيي لا يكتبون عن عقيدة، ولا يثبتون على رأي لأن ذبذبتهم الفكرية تحول دون ثباتهم الواعي، كان على الباحث أن يظهر تراجع الدكتور عما قرره من قبل، بدل أن يعطي هؤلاء المندفعين اسما كبيرا يصولون به، هو اسم الدكتور طه حسين، ومهما يكن من شيء فالحق لا يعرف بالأشخاص، ولكن يعرف بالمنطق لدى الصيال!

مناقشات جوهرية

ليس من المعقول أن أعرض في مقال متواضع ، كل ما ساقه الدكتور طه حسين من شبهات حول عروبة مصر، وأعقب عليها بما فنده الكبار من أخطاء وقع فيها الدكتور متسرعا كعادته دون أن يلوذ بالاتئاد، ولكني أكتفي بثلاث نقاط ذكرها الدكتور، وأختار الرد عليها من نقدات من تعرضوا لها بالتوهين، ومن مقارنة الشبه العائمة بالإجابات المقنعة ينجلي الحق دون ضباب.

١- يقول الدكتور طه «إذا أردنا أن نلمس المؤثر السياسي في تكوين الحضارة المصرية وفي تكوين العقل المصري، وإذا لم يكن بد من اعتبار البيئة في تقدير هذا المؤثر، فمن اللغو ومن السخف أن نفكر في الشرق الأقصى أو الشرق البعيد، ومن الحق أن نفكر في البحر الأبيض المتوسط وفي الظروف التي أحاطت به، والأمم التي عاشت حوله، وإذن فالعقل المصري ليس مثلا شرقيا إذا فهم من الشرق الصين واليابان والهند وقد نشأ هذا العقل المصري متأثرا بالظروف التي أحاطت بمصر، وعجلت في تكوينها، ثم نما في أوربا، وأثر في الشعب المصري من الشعوب المجاورة وتأثر بها، وكان من أشد الشعوب تأثرا بها العقل المصري وتأثيرا فيها العقل اليوناني» .

هذا القول الذي يجعل الشرق محصورا في اليابان والصين والهند ويهمل إهمالا تاما البلاد العربية المجاورة ومنها مشرق الإسلام في الجزيرة قد فطن إلى فساده الأستاذ سيد قطب رحمه الله فقال في الرد عليه «إن وضع المسألة في هذا الموضع تتجلى فيه مهارة الدكتور في المناقشة فقد قسم الدنيا قسمين اثنين لا ثالث لهما، قسم تمثله الصين واليابان وإن شئت فضم إليهما الهند وإندونيسيا وقسم تمثله فرنسا وانجلترا، وإن شئت فضم إليهما كل دول أوربا وأمريكا، ولابد حينئذ أن تكون مصر أمة غربية لأنها تفهم الانجليزي

والفرنسي أكثر مما تفهم الصيني والياباني، ولكن لا ريب نجد وجه المسألة يتغير لو كان الشرق الذي سيواجهك به غير الصين واليابان. أي لو كان هناك قسم ثالث للدنيا يمثله الشرق العربي والمغرب العربي، ومصر بينهما حلقة اتصال» .

٢ - ويقول الدكتور طه «ليس من الشعوب التي نشأت حول بحر الروم فرق عقلي أو ثقافي، وليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج »

فيرد عليه الأستاذ الكبير ساطع الحصري قائلا:

لا أدري كيف يستطيع أحد أن يدعي ذلك بصورة جدية، فإن الفروق في الطبع والمزاج من الأمور التي تشاهد على الدوام بين الأمم الأوربية نفسها، وهي تبدو للعيان بين الانجليزي والفرنسي والألماني والإيطالي، حتى بين الشمالي والجنوبي من الفرنسيين والشرقي والغربي من الألمان والسهلي والجبلي من الطليان وبين الريفي والمدني والصانع والتاجر والمثقف والعامي من هؤلاء، فكيف يعقل مع هذا الا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه، انى أميل إلى أن الدكتور طه لم يكتب هذه العبارة عن تأمل واقتناع» .

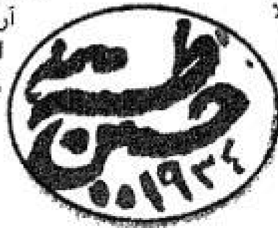
٣ - يقول الدكتور طه «إن الإسلام لم يغير العقل المصري، ولم يغير عقل الشعوب التي اعتنقته بل إن الإسلام قد مد سلطان العقل اليوناني وبسطه على بلاد لم يكن زارها إلا لماما، وإذا كانت أوربا لم تتأثر عقليا بالإنجيل فإن مصر لم تتأثر بالقرآن»

فيقول الدكتور زكي مبارك ردا على ذلك: «وإن الديانات تفترق وتجتمع، ولكن هذا لا يمنع من أن هناك خصائص للعقلية المسيحية والعقلية الإسلامية، وهذه الخصائص تخفى على العوام ويدركها الخواص، وكيف لا توجد هذه الخصائص بين دينين مختلفين مع أننا نعرف أن هناك خصائص متعددة في الدين الواحد. إننا نعرف أن للكاثوليكية خصائص وللبروتستانتية خصائص، وإننا نعرف أن للعقلية الشيعية خصائص، وللعقلية السنية خصائص، فكيف جاز لك يا سيدي أن تتوهم أن الإسلام لم يغز العقلية المصرية بتغيير وتبديل.

إن الموجة الإسلامية التي طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين والتي قضت بأن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد، هذه الموجة العاتية لا يمكن أن يقال بأنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية، والعقلية الإسلامية هي شئ غير العقلية اليونانية بلا جدال» .

حديث الأربعاء
١

هذا قليل جدا، لا يمثل واحدا في المائة مما كتبه كبار النقاد في نقد آراء الدكتور طه في مستقبل الثقافة، ويكفى أنني أثرت شهية القارئ الدارس في





تتبع هذه الآراء تتبعا بصرا وقد كانت مجلات الرسالة والثقافة ودار العلوم فى سنة ١٩٣٩ مسرحا لهذه الآراء، وكانت بحقائقها الصادمة سببا فى تعديل جوهرى لهذه الآراء، قام به الدكتور طه حسين حين ألقى خطابه الحافل فى افتتاح مؤتمر الأدباء العرب سنة ١٩٥٨م، ومن الحظ الحسن أن مجلة المجلة الصادرة بتاريخ يناير سنة ١٩٥٨، قد نشرت خطاب الدكتور فى صدر العدد منوهة به، كما أن الجزء الأخير منه قد قرر على طلبة المدارس الثانوية فى درس النصوص فصار مشتهرا على أوسع نطاق، وفى هذا ما يدل على اتجاه حميد للدكتور، وشجاعة فائقة فى الرجوع إلى الحق، وأذكر أن الدكتور حسين فوزى رئيس تحرير المجلة قد أثنى ثناء طيبا على خطاب الدكتور، وقال فى المقدمة التى يفتتح بها المجلة كل شهر «أنا لا أتهم بالغلو، ولا أرمى بالتحيز عندما أقول إن خطيبا من خطباء المؤتمر وقف يمثل عندى العروبة فى أعمق معانيها وأقومها ألا وهو الدكتور طه حسين» ولعل القارئ قد اشتاق إلى أن يقرأ بعض ما قال الدكتور إذ ذاك فأسوق إليه هذه الفقرات:

لقد تحدث الدكتور طويلا عن أثر الأدب العربى فى نهضة الأمة العربية، وعن أثر الدين الذى كان هو العامل الأول أو المؤثر الأول فى انتشار العرب خارج جزيرتهم ثم فى تكوين هذه الأمة الجديدة ومن المحقق أن البلاد التى يتألف منها العالم العربى الحديث لا يمكن أن تكون مؤلفة حقا من عناصر عربية خالصة، وإنما هى عربية بلغتها، عربية بشعورها وعقلها ووجدانها وعربية بدينها سواء كان هذا الدين إسلاما أو نصرانيا، هى عربية بهذا كله، آثرت العروبة على غيرها وأصبحت أمة عربية جديدة كونها الإسلام، وكونها دون إكراه أو إجرام أو عنف ثم قال الدكتور ما نصه.

«إذا كان الأدب قد أدى واجباته إلى الآن فينبغى أن يؤدى هذه الواجبات فى تقوية القومية العربية، وتكوين هذه الوحدة العربية التى ورثها العرب عن أسلافهم وعن آبائهم الأول، تكوين هذه الوحدة التى أضاعتها الأحداث والخطوب، يجب أن تعود وأن تتم، ويجب أن تكون الأمة العربية واحدة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وأن يكون العرب كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وألا يذهب العرب هذه المذاهب المتفرقة، قوم يخلصون للفكرة العريقة، وقوم يخلصون ببعض قلوبهم، ولا يخلصون بها كلها، كل هذا يجب أن يزول والوحدة العربية يجب أن تتحقق، وليس إلى تحقيقها الصحيح من سبيل، إلا أن ينهض بها الأدباء فهم بناة القومية العربية، وهم الحفظة عليها، على نموها وقوتها، وعليهم ألا يريحوا أو يستريحوا حتى يتم تكوين هذه الوحدة، وحتى تمضى الأمة العريقة فى طريقها إلى الحياة الراقية المجيدة السعيدة» .

هذا الكلام الرائع رد حاسم على كل ما قاله من قبل، وهو بتدفقه الجياش، وبحرارته الدافئة ينبئ عن إخلاص أكيد للوحدة العربية، وإيمان بمستقبلها إذا سلكت النهج القويم. ■

لا أبا لك ... ٢-١

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

تعرف اللغة العربية ألوانا من الجمل المسكوكة، ضاربة في القدم، نلتقي بها في الشعر القديم، الجاهلي والعباسي، تروى كما هي، ونستخدمها تقليدا، ونجهل نحن، والذين سبقونا، السياق الذي قيلت فيه، وتاريخ التركيب، فيغم علينا فهم معناها بدقة، ويصعب تحديد المراد منها، ولم يشغل جامعو الشعر قديما، وشراحه، وعلماء النحو أنفسهم بتفسيرها وبيان معناها، وإن شغلوا بإعرابها، وبيان أوجه الخلاف فيه من هذه الجمل تعبير: لا أبا لك.

يقول زهير بن أبي سلمى، وهو شاعر جاهلي:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولا - لا أبا لك - يسأم

إلى من يتوجه زهير بالخطاب : إلى نفسه على طريقة الالتفات أم إلى غيره؟ وماذا يعني بقوله: «لا أب له »؟ يمدحه أم يذمه أم يعاتبه، أم يريد شيئاً آخر لم يفصح عنه؟

لم يقل لنا ثعلب صانع ديوان زهير وشارحه شيئاً، واكتفى بأن يذكر: «قوله لا أباك يلوم نفسه»، ولكن يلوم نفسه على ماذا، لم يفصح ونحن لا ندري.

وفسر التركيب الأعلم الشنتمري، وهو أندلسي، في شرحه المعلقات فقال: «إنها كلمة تستعملها العرب في تضاعيف كلامها عند الغلظة والجفاء وتشديد الأمر»، ويقف عند هذا الحد، ويبقى كلامه مرسلا يحتاج إلى فضل بيان وتحديد، فهذا التفسير يصلح لاستخدام بشار بن برد لها حين يقول:

أعمى يقود بصيرا - لا أبا لكم

ضل من كانت العميان تهديه

ولكنه لا يصلح لتفسيرها في بيت زهير السابق أو في بيت عنترة حين يقول:

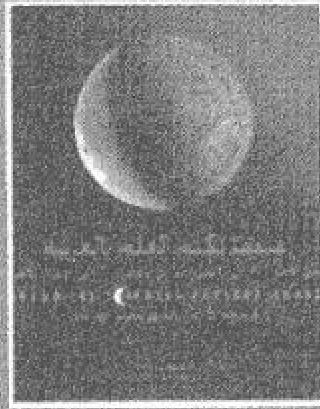
فاقنى حياءك - لا أبا لك - واعلمي

أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

لم يقتصر استخدام التركيب على الشعر، وإنما انتقل إلى النثر، ونلتقي به في بعض الأحاديث النبوية، وقد راج، وأصبح مثلا، يقال لمن له أب فعلا، ولمن ليس له أب، وحين دققت النظر في جملة من هذه التراكيب رجحت عندي معان ثلاثة تفوح منها، حسب السياق: التعجب والحث والزجر. ويكون القصد في الأول وصف من يتجه إليه الخطاب بأنه عصامي لا كفيل له، بنى نفسه بنفسه، ودلالته على المعنيين الأخيرين واضحة، يكون معها لونا من النهر أو التهديد أو الدعاء عليه، أو للغلظة والجفاء وتشديد الأمر كما قال الأعلم الشنتمري . وقياسا على هذا التعبير قيل، على قلة، لا أم لك، وفي هذه الحالة تكون للذم فحسب!

لقد شغل العلماء أمر إعراب الجملة عن معناها، وهو ما سنعرض له في حديث تال:

«الحديث بقية» ■



هل يتكلم العلم بالعربية مرة أخرى؟
سؤال الآتي يخرج من رحم الماضي!

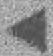
بقلم



د. فيصل الع...

- عناق بين ... والتجريب والملاحظة و... والعلم والفن
- دروس المغامرة: صرخة في أذن الأنا الذاهل وصفعة للأنا الحاقد
- لغة رائقة للتعرف والاعتراف والكشف والاكتشاف

سؤال كبير لا تكفي للإجابة عنه مقالة، ولا حتى كتب، وقد رأيتني أميل إليه على الرغم من أن السطور الآتية هي عن ظاهرة كبيرة شهدتها القاهرة في العام الماضي ورفعت لافتة «عندما تكلم العلم بالعربية».



وفي علاج الثور الأجرب الذي لا يقدر على النهوض

أن يوجد أصل السوسن فيرض ويدق ويسقط على الأرض





[illegible] مريضة ثم يغطيها عليه فإنه يبرأ و

[illegible] إذا كان قطعة ثم انقعه في خل ها



العنوان عن المستقبل، وما تحته عن الماضي . قد يتوهم بعضهم أن ثمة خللا أو شرخاً أو انفصاماً، ولكن الحقيقة مع قليل من إنعام النظر تتبدى، فالاحتفال بالماضي، والحديث عنه، قد يكون إذا ما وضع في إطاره الصحيح مقدمة للاستشراف ؛ استشراف المستقبل، ذلك أنه (الالتفات إلى الماضي وإثارته) يشير بداية إلى وجود حياة في الكائن الذي أحس بكيانه، وأدرك أنه قدم شيئاً ذا قيمة يوماً ما، وليس هناك مايمنع من أن يؤدي الدور مرة أخرى. واستشراف المستقبل لايتحقق بدون أساس من الأمس، الأمس الذي يعطي القوة، ويمنح الدافع. الماضي والمستقبل إذن وجهان لورقة واحدة ، والسؤال بصيغة المستقبل لاينفي أن نتحدث عن الماضي.

مغامرة باتجاه الماضي

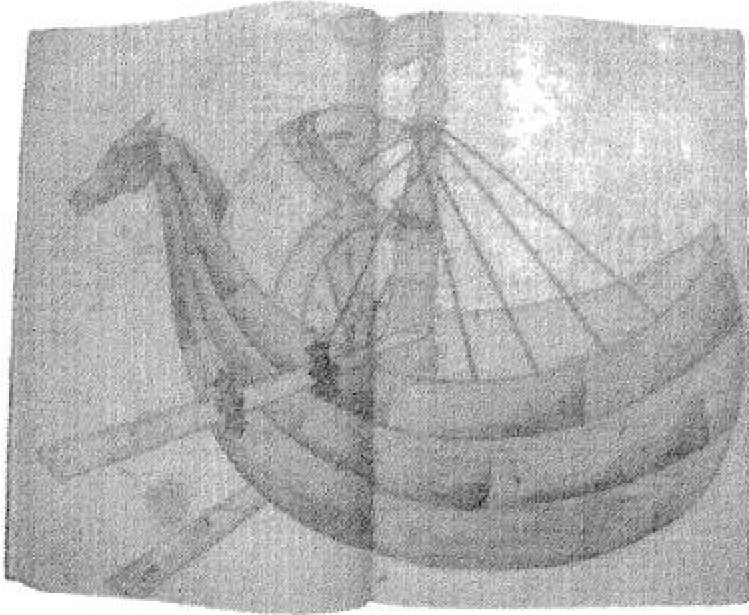
بعض الناس يهوون المغامرة ، وبعض الشعوب تهوى أيضاً المغامرة ، والفرنسيون أفراداً وشعباً من هؤلاء الهواة . لكن المغامرة (الفرنسية) هذه المرة من نوع خاص، فهي ليست مغامرة تقليدية، بالدلالة اللغوية للفظ وإيحاءاته المعاصرة، وإن اشتركت معها في لذة الكشف والاكتشاف والإثارة والدهشة. المغامرة - كما نعرفها - فعل باتجاه المستقبل يحمل في طياته المخاطرة، ويخدم غرض صاحبه أو أغراضه، ويرضي مزاجه وطبيعته . أما المغامرة التي هي موضع حديثنا فإن بوصلتها تتحرك في الاتجاه المعاكس، تدير ظهرها للحاضر والمستقبل، وتنطلق بقوة إلى التاريخ (الماضي). وعلى الرغم من أن المخاطرة فيها ليست صارخة، لكنها قائمة. أما العنصر الأبرز فيها فهو إثارة العلم، واكتشاف الآخر. وبطل المغامرة هنا يدخل أرضاً ليست له، لكنه يشعر أن الإنسان هو الإنسان، وأن العلم هو العلم، ولا أقل من أن يتحاور الإنسان مع أخيه، يعرفه، ويعترف به، ويجد في علمه؛ علم الأمس، قاسماً مشتركاً يجمع بينهما.

هي مغامرة فرنسية في تاريخ العلم العربي، في ثمانية قرون (من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حتى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي) قرون طويلة كان فيها وجه العلم عربياً إسلامياً ولسانه أيضاً عربياً إسلامياً. وتمكن عراب المغامرة من خلال فكرته الجريئة والقيم النبيلة التي تحملها (لذة العلم، والاعتراف بالآخر واكتشافه والتحاور معه) أن يجذب إليه رفاقاً من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وسويسرا، بالإضافة بالطبع إلى شركائه الرئيسيين من العرب، من مصر وغيرها من البلاد العربية .

سباحة ضد التيار

وإذا كان المغامرون (الفرنسيون والألمان والسويسريون) لم يبعدوا كثيراً عن مواقف بلادهم السياسية إزاء ما كانت تتعرض له إحدى أهم عواصم العلم العربي، فإن رفقاهم من الإسبان والإيطاليين قد خرجوا برؤاهم الثقافية والحضارية من قيود المصالح السياسية والاقتصادية لبلادهم. وتحقق عنصر المخاطرة ، فقد كانت سباحة ضد التيار، حتى لأولئك الذين لم تعترض عصا القوة على مغامرتهم، فالعصا الغليظة جداً لاتفرق بين السياسيين والمثقفين ، وتستطيع أن تطال، وتعاقب الأطراف جميعاً.

لقد بدأت المغامرة باتجاه تاريخ العلوم



لوحة من كتاب «صور الكواكب الثابتة» لعبد الرحمن الصوفي - دار الكتب المصرية

العربية ، لكن المغامرة بطبيعتها لاتعرف الحسابات، ولا تخلو من المفاجآت، وهكذا فإنَّ الإغراءات ومتعة الاكتشاف لم تلبثا أن فتحتا أبواب العوالم الأخرى (غير العلوم) : الفكر والفن والثقافة والشعر والموسيقى ، حتى اللعب (وإن كان عن طريق العلم). لم يكن ممكنا أن يتوقف المغامر عند حد ، حتى لاتنتفى الفكرة الأساسية التى من أجلها دخل التاريخ، وارتضى الإبحار فيه، دون شروط أو قيود مسبقة.

صورتان متناقضتان

عام ٢٠٠٣ رحل عنا فأصبح ماضياً أو رحلنا عنه باتجاه الآتى، لكنه سيظل مزروعاً فى داخلنا زمناً طويلاً، لأسباب كثيرة لاتخفى ، وما يهمنا من هذه الأسباب أنه كان إطاراً لصورتين متناقضتين أشد التناقض، مختلفتين أقوى الاختلاف: صورة قاتمة تملؤها خطوط سوداء دامية هى حرب وحقد وتخريب وهمجية ، وصورة مضيئة تشع نوراً ومصالحة وسماحة وبناء وحضارة وتقدما.

الصورة الأولى كانت هناك مزروعة على امتداد رقعة كبيرة من شرقى الوطن العربى . أما الثانية فكانت معلقة فى كل مكان من أرض الكنانة، وأرض النور، ولكل صورة أبطالها: جنود ودبابات وصواريخ وطائرات، أو عقول وأقلام وفكر وكتب وفنون . وبين الصورتين وحولهما صور أخرى كثيرة مملوءة خوفاً وضعفاً وتواطؤاً وانكساراً وانطواء تحت راية الأقوى، أو نابضة عزة وقوة وتعاطفاً وشموخاً وألقا.

لنترك الصورة القاتمة حتى لا تمتد



خيوطها السوداء إلى صورتنا المضيئة فتطفئها. لقد كان العام الراحل عاماً مختلفاً بحق للتراث العلمي العربي بفضل تلك التظاهرة الضخمة بكل ما تعنيه الكلمة من معان ، فهذا التراث - شأنه شأن أصحابه - مظلوم، لم يشهد التفاتاً إليه - إلا على مستوى نفر قليل من المتخصصين - منذ عقود، وربما جاز أن نقول منذ قرون ! ولم يتوقف الأمر عند مجرد التفات ، بل تجاوزه إلى الاحتفال ، ثم تحول الاحتفال إلى تظاهرة، جمعت بلاداً عربية عديدة، ومؤسسات أكاديمية وثقافية وإعلامية وفنية وخدمية؛ وقدمت نشاطات ذات مستوى جاد ورصين، بعيداً عن القشور والضجيج، واستقطبت أساتذة، ومتخصصين وعلماء متنوعي المعارف، رفيعي المستوى، وأثارت موضوعات تتسم بالشمول والابتكار والتنوع، وخاطبت مختلف الشرائح الاجتماعية والسنية والتعليمية.

الأنا والآخر

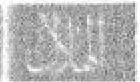
وإلى الالتفات والتظاهر الاحتفالي تنبه صاحب هذا التراث «الأنا المتردد» لأهمية تراثه، وعادت إليه بعض ثقته بنفسه ، في مقابل «الأنا» الذاهل أو المبهور أو الحاقد الذي عرفناه وألفنا وجهه، واعتدنا سماعه، وهو يتكلم ويكتب ويحاضر، مهوناً من شأن هذا التراث وأهله، مؤكداً في كل مناسبة أنه «تراث من الماضي» تجاوزه الحاضر، ففقد قيمته ودوره، ولا يتردد كثيراً قبل أن يؤكد أنه أصبح معوقاً، وأننا إذا أردنا إحياءه فإن علينا أن نقتله!

وقبل كل ماقلنا من إيجابيات (٢٠٠٣) لتراثنا العلمي لابد من التوقف عند نقطة مهمة للغاية تتمثل في أن الذي بادر إلى تبني التظاهرة العلمية هو «الآخر» ممثلاً بالمركز الثقافي الفرنسي بالقاهرة ، وقد كان «الآخر» هذه المرة منصفاً في مقابل «الآخر» المتحيز الذي عرفناه وألفنا وجهه أيضاً، حتى لم نعد نرى غيره ولا يغيب - بالطبع - أن الآخر «الفرنسي» باحتفاله بالعلم العربي قد قام بعمل حضاري تجاوز فيه أشواك الغرور والأنانية ، غرور الحاضر وأنانية النفس البشرية، وارتقى إلى مسألة فهم التداول الحضاري، وقوانين الزمان، وتكامل الإنسان على وجه الأرض، ودورات الحياة التي لاتتوقف، شأنها شأن الكوكب الذي نعيش عليه وفيه.

وأخيراً فإننا لانستطيع - على الرغم مما أسلفنا من محاولة إبعاد خطوط الصورة القاتمة - أن ننسى أن عام (٢٠٠٣) الذي كان عام العلم العربي هو نفسه الذي شهد سقوط بغداد ، عاصمة هذا العلم في تلك الفترة الزمنية التي كان لسان العلم فيها عربياً .

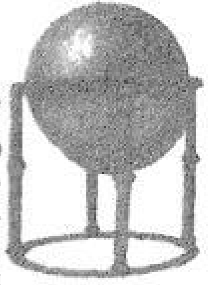
لحظة الانطلاق

مازلت أذكر مطالع العام الماضي، وكم مرة تم تأجيل لحظة انطلاق نشاطات التظاهرة ، بسبب إرهاصات الحرب على العراق، ومازلت أذكر كيف أن الأمر كاد يصل تحت تأثير ظروف السياسة وحساباتها المعقدة إلى إلغاء التظاهرة من أساسها. وتعاضدت مع ذلك عوامل أخرى تتصل بالظروف الاجتماعية السائدة في مكان انطلاق التظاهرة، ونشاطاتها، حيث الناس مشغولون بما يقال وما يحدث وما سيحدث، الحرب بإرهاصاتها وعواقبها شغلت الجميع واستأثرت باهتمامهم، وطغت على أي أمر آخر. كان هناك خوف حقيقي من أن يئد ذلك كله ماتم التخطيط له، إذ بدون الناس، مشاركين وجمهوراً ،





صفحات مخطوطة من كتاب «فوائد الأعشاب» للغافقي، ١٥٨٢م – متحف الفن الإسلامي



لا معنى لشيء، ولا قيمة له. وثمة أسباب أخرى إضافية مثل أن تفهم التظاهرة على غير وجهها، أو يحسب بعضهم أنها جاءت لتشغل أو تلهى عما يحدث من عدوان في أماكن أخرى.

لكن الأمور سارت في الاتجاه الصحيح، ورجحت الكفة الصائبة، وغلبت الأهداف النبيلة تلك الحسابات والظروف والتوقعات، بمختلف اتجاهاتها ومستوياتها، وذلك بفضل العقول التي كانت تخطط، والنوايا الصادقة التي أخلصت العمل والغاية.

شركاء .. في المغامرة

قلنا إن الاحتفال تحول إلى تظاهرة، والشواهد على ذلك كثيرة، فقد شارك بالإضافة إلى فرنسا ومصر، كل من ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا. كما شاركت منظمات عربية وإقليمية، منها جامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد المخطوطات العربية، ومعهد البحوث والدراسات العربية) ما نوميد (مركز مخطوطات البحر المتوسط).

نرجع إلى البلاد المشاركة، فنجد أن عدد الجهات المصرية التي تعمل في مصر (القاهرة وعدد من المحافظات) قد بلغ نحو أربعين جهة، تشمل الوزارات والمؤسسات التابعة لها، والجامعات، والجمعيات، والمعاهد العربية والأجنبية، والوسائل الإعلامية بمختلف أشكالها، والفرق الفنية، والمكتبات والهيئات، هيئات الخدمات الوطنية، والصناديق الثقافية، والقطاعات الفنية، والمتاحف، والمجالس المتخصصة.

في فرنسا وصل العدد إلى (١٧) جهة، تبدأ بوزارة الخارجية من خلال الإدارة العامة للتعاون الدولي والتنمية، وتنتهي بمؤسسة الكهرباء، وبينهما قصور، ومراكز تاريخ العلوم بأنواعها، ومراكز الأبحاث المختلفة، ووسائل الإعلام، وعلى رأسها التليفزيون.

من إيطاليا حضرت جامعة فلورانس، ومن ألمانيا جامعة فرانكفورت، ومن إسبانيا جامعتا برشلونة ومدريد.

هؤلاء جميعاً كانوا شركاء في تظاهرة العلم العربي، في تجسيد حقيقي لشعار حوار الحضارات والثقافات، بعيداً عن التنظير والأبراج العاجية والسفسطة التي لاطائل من ورائها.

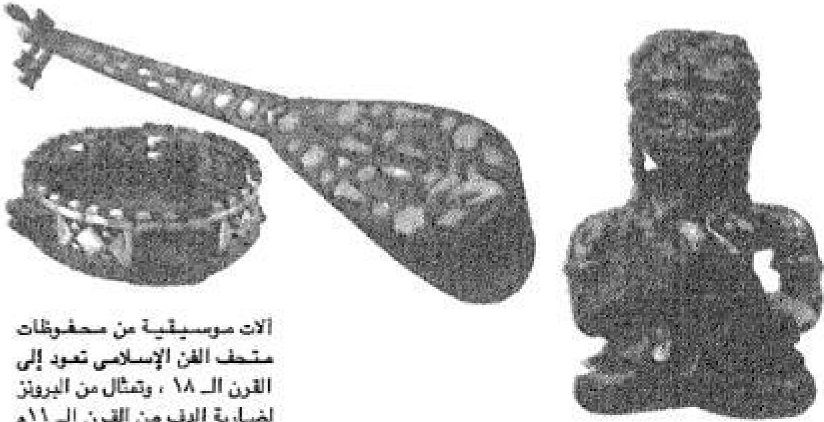
وإذا كان هؤلاء هم الشركاء فلنا أن نتصور عدد المشاركين الذين مثلوا هذه الجهات، على اختلاف اهتماماتها وتخصصاتها.

حوار المعارض

ثمانية قرون كان العلم فيها عربياً، من القرن الثاني حتى التاسع الهجري/ الثامن حتى الخامس عشر الميلادي. حركة زمنية ممتدة، على مساحة جغرافية تستغرق معظم الكوكب الذي نحيا فيه، فهل استطاعت التظاهرة أن تعبر أو تشير إلى ما حدث في هذا الزمان والمكان الممتد الواسع؟

كانت هناك معارض؛ ثابتة ومتنقلة، بأكثر من لغة، توزعت على القاهرة والاسكندرية وبورسعيد، واحد من هذه المعارض حاول إجراء حوار راق بين تنويعات حضارية، فجمع بين معروضات متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وصور المخطوطات العلمية المحفوظة في دار الكتب المصرية.

ومعرض آخر نظر إلى التراث العلمي العربي في سياقه المكاني، فهذا التراث في جزء منه ليس بالقليل هو نتاج المنطقة العربية، وهي منطقة تعد طبيعياً جزءاً من



آلات موسيقية من محفوظات متحف الفن الإسلامي تعود إلى القرن الـ ١٨ ، وتمثال من البرونز لضاربة الدف من القرن الـ ١١م

حوض البحر الأبيض المتوسط، هذا المعرض الذى ضم (٢٠) ملصقاً حكى قصة نشأة علم الفلك فى حوض المتوسط منذ القدم حتى عصر النهضة، وأقيم فى محافظتين: القاهرة، وبورسعيد.

معرضان (ثالث ورابع) للصور التى التقطت من المتحف الزراعى فى القاهرة، انطلق أولهما من فكرة تتساءل كيف يمكن للعلم أن يمس حدود الخيال؟ فى حين كان ثانيهما تحت عنوان «من الغلال إلى الخبز»

وإلى جانب المعارض السابقة كان هناك معرض للوحات مائية تمثل النباتات المجففة، وهى أيضا من مقتنيات المتحف الزراعى بالقاهرة، وهذا أيضا انطلق من فلسفة أن الرسومات واللوحات هى جزء من أدوات العلم، ويمكننا بواسطتها أن نقترب من أسرار هذه الأحياء المائية .

المعرض السادس ركز على التاريخ الطبيعى والإنسانى لمنطقة الدلتا من خلال خرائط ترجع إلى القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى.

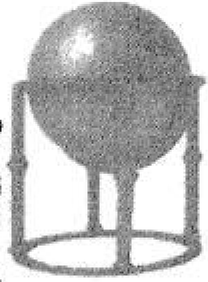
خاتمة المعارض استخدام وسائل الاتصالات المرئية، وكان عبارة عن معرض متنقل متفاعل يتضمن (١٢) لافتة متناهية الدقة، و(١٢) تجربة علمية من التراث العربى الإسلامى بالإضافة إلى خمس معروضات نموذجية، وقرص مدمج متفاعل ثنائى اللغة، وموقع إنترنت .

هذه المعارض التى أشرنا إليها لم تبق فى صورتها بل تحولت إلى (كتالوجات) وكتب وأفلام وثائقية ، أفلام عن البيمارستانات الإسلامية، ومقياس النيل، والعود العربى ، والمزولة الشمسية، والعصر الذهبى للإسلام، و(على مقربة من النجوم) و(رحلة فوق سطح القمر، ومنحنى بلا نهاية، وهل الكون متناه؟ وفى مجال النجوم).

يلاحظ بالطبع على هذه الأفلام كيف أنها سجلت المنشآت الحضارية والآلات الفنية، والحضارية، كما تجاوزت ذلك إلى التاريخ، وإلى الكون، وأثارت أسئلة تستنفر الفكر، وتحثه على التأمل والتحليق، وتدعوه إلى الانطلاق والتخيل .

أدوات .. وكتب

ومن أجمل ما انجزته التظاهرة



واستدعت فيه التاريخ الحضارى العربى الإسلامى استدعاء حيا تلك الأدوات التى بنيت اعتمادا على المواصفات والمقاييس التراثية، فقد تم بناء اسطرلاب، كما تم صنع وشاح يمثل عنصراً زخرفيا من الخزف، ويعود إلى القرن ١٢ هـ / ١٨ م.

ولم تغب الكتب، فقد وضعت خطة لنفض الغبار عن مخطوطة فى الخيل لابن الأحنف (ق ٧ هـ / ١٣ م) كما تقرر نشر مخطوطة أخرى تحمل عنوان (مصالح الأبدان والأنفس) لأبى زيد البلخى (من رجال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) ويعد أول كتاب عربى يربط بين صحة البدن والنفس، ويتحدث عما يسمى تراثيا بـ(حفظ الصحة) وبمصطلحنا اليوم (الطب الوقائى)

الأطفال .. وعناق الحوار

الأطفال كانوا أيضا على الخريطة فهم الأولى بمعرفة تراثهم إن كانوا عربيا مسلمين، وبمعرفة جزء مهم من تاريخ العلم الإنسانى إن لم يكونوا كذلك، فى إشارة واضحة إلى بناء الجسور، جسور الحوار بين الأجيال الجديدة، فالمستقبل لن يكون كما نريد إذا لم نتعارف، ويحترم كل منا الآخر .

ماذا قدمت التظاهرة للأطفال سلسلة من الكتيبات بالعربية والفرنسية تحت عنوان (ثقافة وتراث) وقد تنوعت لتشمل التعريف بلغة مبسطة ومركزة بأعلام مثل ابن سينا، ومنشآت مثل البيمارستانات، ومقياس النيل بالروضة، وأدوات مثل المزولة الشمسية، ومعارف مثل (التقاويم) وصناعات مثل (صابون لتنظيف الجلد وعلاجه) وفنون هندسية مثل (الهندسة فى فن الزخرفة الإسلامية).

وكما الحال فى المترو فقد جرى إطلاق (حافلة علوم) جابت شوارع القاهرة وحطت رحالها أمام المدارس، واستثارت الطلبة فى مجالات الرياضيات من خلال تراث الفنون الزخرفية الإسلامية. وبهذا العناق الحميم بين التجريد والمتعة البصرية أمكن الوصول إلى العقول والقلوب. هذه الحافلة صبت رافداً جديداً أيضا فى ما قُدِّمَ للأطفال والشباب وأقامت ثلاث ورش، خاطبت من خلالها شرائح عمرية تبدأ من سن الخامسة وتنتهى بسن السابعة عشرة.

والشباب .. يحلق مع النجوم

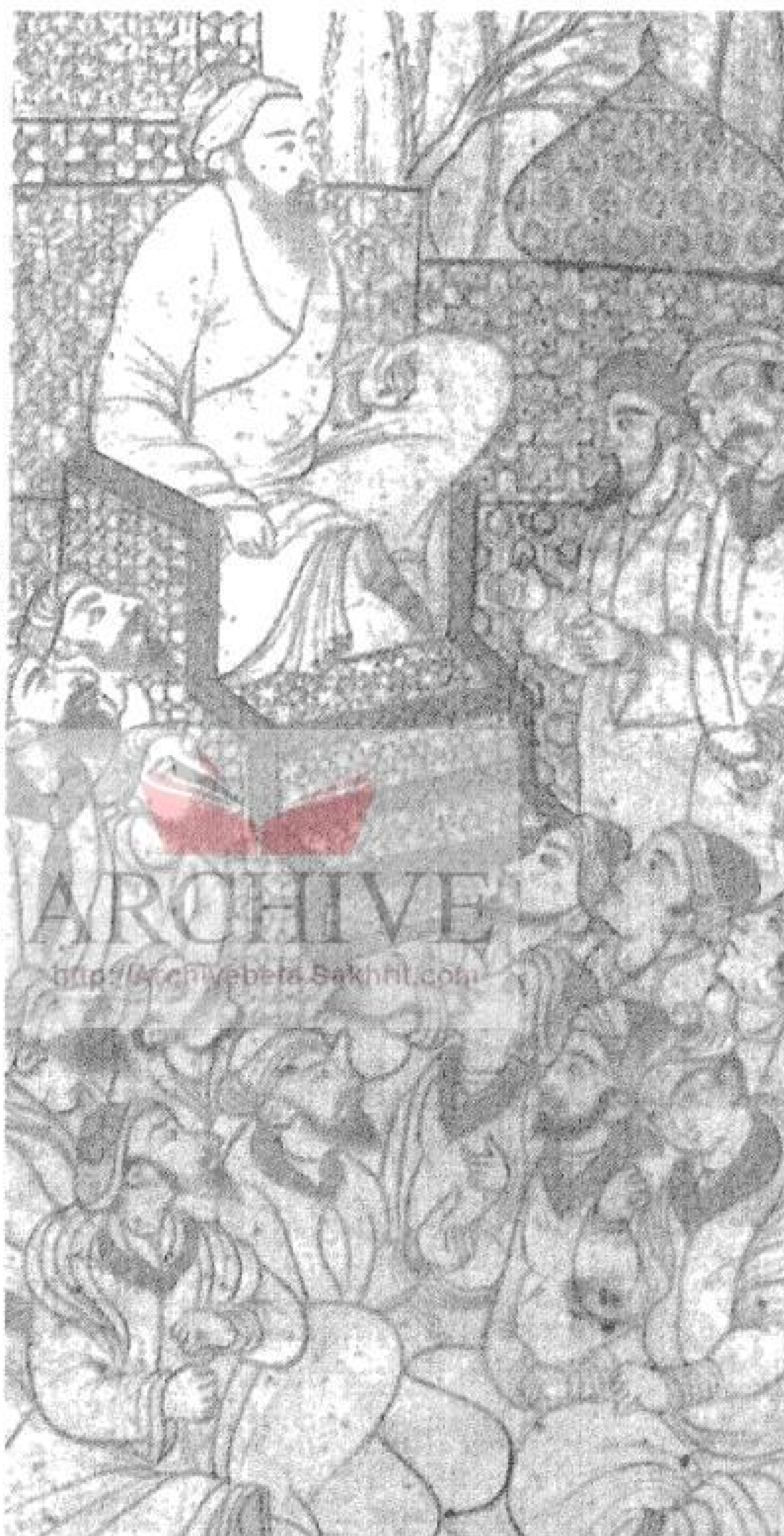
والشباب فى هذه الايام، ذلك الملتصق بالأرض، المشغول بالأشياء القريبة منه، كان لابد من دعوته إلى التحليق مع النجوم ، مع القمر وأطواره وحركته ومع الأرض التى يعيش عليها لتحديد موقعها ودورانها ومع الأرض أيضا وعلاقتها بالشمس وما يترتب على ذلك من فصول .

وليس بعيداً عن تلك الدعوة الجميلة دعوة أخرى للعب بالضوء تلك اللعبة التى كانت معروفة فى التراث العربى الإسلامى، ويمارسها الخلفاء من خلال ما عرف بـ (المشكال).

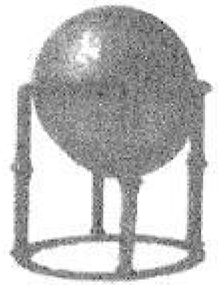
والعلم توأم الفن، فإلى جانب الهندسة والنجوم والكواكب وألعاب الضوء أقيمت ورشة لتعليم مبادئ العزف على العود ولقاءات للتعريف بهذه الآلة الموسيقية العربية الأصلية وللتعريف بالمخطوط (كتاب الأمس قبل ظهور الطباعة) وأيضا بالحديقة العربية، وبدور علم النبات فى خدمة فن التجميل وبأشعة إكس فى خدمة التراث، ومعالجة الزجاج وأشياء أخرى.

استدعاء المدينة الاسلامية

المدينة العربية الإسلامية منارة العلم



من المخطوطات الفارسية التي ترجع الى القرن الثامن عشر الميلادي وفيها يبدو ابن سينا بين تلاميذه من طلبة العلم - وهي من المخطوطات المحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة



والحضارة والثقافة والأدب والفن فى ذلك الزمن الذى احتفت به التظاهرة، ومن حقها أن تستدعى، وتكون حاضرة لتحقيق التواصل والاتصال بين الماضى والحاضر .

من أجل المدينة استقلت التظاهرة مترو الأنفاق بالقاهرة وقدمت أسئلة لركابه، وحاولت من خلالها استثارة عقولهم بالتاريخ وللتاريخ .

ومن أجل هذه المدينة أقيمت مزولة شمسية أفقية كبيرة بالقلعة تبلغ حوالى مائة متر مربع، ويمكن من خلالها ملاحظة تحرك الظل، واكتساب بعض المفاهيم الفلكية. ومن أجلها ايضا أستدعى بيت الحكمة الذى أقامه الخليفة العباسى المأمون، وبيت الحكمة الذى ينسب إلى الخليفة الحاكم بأمر الله وكان الاستدعاء بلغة العصر بإقامة نموذج افتراضى على الإنترنت.

تساؤلات عميقة

والمتخصصون لم يكونوا بعيدين عن التظاهرة ،فقد التقوا فى سيمنارات ومحاضرات وورش علمية، وبحثوا دور العلوم؛ تاريخا وحاضرا، فى فهم العالم الذى نعيش فيه، وبناء العلاقات بين بنى البشر، والتقريب بينهم، وتوحيد رؤاهم، كما تدارسوا دور المدرسة المصرية الحديثة لتاريخ العلوم، وكيف انتشر علم الفلك العربى فى العالم الإسلامى وفى أوروبا، وتلك الرحلة التى قامت بها كل من الكيمياء العربية، والرياضيات العربية والبيزنطية إلى الغرب، وإسهام المدرسة اليونانية بمدينة الإسكندرية فى العلوم العربية.

وكانت هناك تساؤلات حول : هل نحن محتاجون إلى تاريخ واحد للعلوم، أم تواريخ للعلوم؟ وكيف يمكن للعلوم أن تنتج نوعا آخر من العلاقة بين البشر؟ وهل من ضرورة للترجمة؟ وما هى الرهانات والتحديات التى تواجهها العلوم فى عصر العولمة ؟ وكيف يمكن أن تكون لغة ما لغة عالمية للعلوم ؟ وما هو تأثير العولمة على اللغات المختلفة؟

تساؤلات عميقة وكبيرة، وبالتأكيد لن تجد إجابات قاطعة، لكن بذوراً وضعت فى التربة، ولعل هذه البذور تشق للأرض قريباً، ليتغير كثير مما يعيشه الإنسان اليوم من تناقضات، ويتحقق بعض ما يحلم به ويتطلع إليه.

حكاية من ألف ليلة

كيف استدعت التظاهرة إنجازات الماضى الفكرية والعلمية والأدبية؟ لقد رجعت إلى المخطوط، ذلك «الوعاء» المعرفى الذى كتبه العرب المسلمون بمداد من دمائهم، حرفاً حرفاً ، ونقطة نقطة، وسجلوا على صفحاته، جلداً، وورقاً، حياتهم، وثمرات عقولهم، ونبضات مشاعرهم ورؤاهم وخيالاتهم، وتجاربهم، ورحلوا تاركين ذلك الكتاب، ليقاوم ورقه الضعيف ومداده عوامل الزمن والإهمال والحروب والأحقاد والتعصب الفكرى والهمجيات، لقد فقد منه الكثير، ولكنه لم يمت. حكايته كانت أغرب من حكايات علاء الدين وألف ليلة وليلة ألا يستحق هذا الحامل لحضارة القرون الطويلة أن يحتفى به؟!

أخذ الاحتفاء اتجاهات عديدة، فقد تم عبر سلسلة من المحاضرات التعريف بالبرنامج الأوروبى لمخطوطات البحر الأبيض المتوسط، ورصدت حياة ومسيرة مخطوط عبر الزمن، وتم التوقف عند المجاميع المخطوطة والحياة الفلسفية فى

ساعة على هيئة فيل- من الجامع في بيان العلم والعمل النافع في صناعة الحيل للجزرى - متحف الفن الإسلامى



اليمن فى القرن الخامس عشر، وعند مخطوطات نصير الدين الطوسي، ومخطوطات ابن سينا وابن النفيس وابن الهيثم، وموروث المخطوطات العربية فى إسبانيا.

حميمية العلم العربي

ولم يكن العلم العربي في ذلك الزمن يعيش فى جزيرة بعيدة معزولاً عن بقية العالم، بل كان على اتصال وثيق وحميم، بمبادرات منه، وبفضول من الآخر. هذا الاتصال والتواصل عبرت عنه التظاهرة فى ندوات كشفت عن التأثير الكبير لابن الهيثم على دراسات الرسم المنظورى فى إيطاليا فى عصر النهضة، وعن تمثل الغرب فى العصور الوسطى لعلم الضوء العربي، وعن ترجمة وتمثل العلم فى القرن التاسع (بغداد) وعن تأثير الموسيقى الأندلسية فى إسبانيا.

وإلى جانب ذلك لم يكن بدٌّ من تتبع كيف تكونت النظرة الفرنسية للعلوم العربية، وكيف كان تنقل العلماء وراء انتشار الأفكار حول حوض البحر الأبيض المتوسط، وكيف تحقق التضامن العلمي بين نواحي المتوسط، وليس بعيداً عن العلوم، (الأدب)، فالأدب العربي كان له تأثير كبير فى الأدب الغربي.

موضوعات تحيط بقضية من أخطر قضايا المجتمع الإنساني: وهى نقل المعرفة والفكر والأدب والظروف التى يتم فيها ذلك والغايات التى تتحقق.

مساءلة الماضي

لكن الماضي بكل ما حققه ليس محمياً من المساءلة، فالمساءلة هذه هى التى تستخلص منه أفضل ما فيه، وترمى به بذرة معطاءة فى تربة الحاضر الخصبة، من أجل مستقبل أجمل نوراً، وأشد توهجاً. على أن المساءلة هنا ليست بمعنى النقد فحسب، ولكنها بمعنى التساؤل، وهذا أشمل وأعلى، إذ الماضي يعطينا دروساً منوعة، دروساً من خطئه، ودروساً من صوابه بنفس الدرجة.

فى هذا الإطار، وضمن محور «مساءلة الماضي من أجل إعداد أفضل للمستقبل» أثيرت فى ندوة مسألة «الأصول التاريخية لحقوق الإنسان فى العالم العربى والإسلامي» وفى أخرى قضية الوحدة فى التنوع، وهى فكرة أساسية الجغرافيا، وقد رمت إلى أن تقول: إن فكرة الجغرافيا هذه ينبغى أن تنتقل إلى البشر، وفى ثلاث ندوات قضية «الكون» مرة من حيث نشأته ومصيره، وأخرى فى علاقة الشعراء معه، وثالثة فى قياسه. تُرى هل يفرِّق هذا الكون بين الماضي والحاضر والمستقبل؟ وكيف نظروا إليه فى الماضي؟ وماذا عن نظرتنا نحن ومدى اتفاقها أو اختلافها معهم؟ والنظرة بالطبع نظرة مزدوجة، علمية وشعرية.

وانطلاقاً من الماضي كيف يمكن أن نستعد بالأدب فكرياً للقرن المقبل. هذا موضوع ندوة استشرافية تثير سؤالاً فى غاية الخطورة والأهمية.

والمساءلة تطرقت أيضاً إلى المنشآت العلمية العربية الإسلامية، والعلوم العربية فى مصر فى عصر المماليك، والرياض (الحدائق) العربية، وتاريخ العلوم فى التعليم الابتدائي والثانوى، وأهمية الترياق فى تقدم علوم النباتات.

الشعر والموسيقي

العلم والموسيقى والشعر، المسافة بينها ليست بعيدة، كما قد يتصور بعض الناس، وقد حظى العود العربي بسلسلة من اللقاءات بهدف الاحتفال به، والكشف عن تقنياته وأشكاله. والعود العربي ليس نوعاً، فهناك العود اليمنى، والقرطبى

و(الجزائر)، ومن العود والربابة انبثق الرق والكمان الأوسط، ومن العود توالدت أنواع عديدة لدى العرب والغرب.

لقد كانت الموسيقى علماً يُعنى به الفلاسفة والفلكيون والرياضيون، فالموسيقى فكر، وصدى لجمال الكون وطبيعته، وهي أيضاً علاقات ونسب بين الصوت والزمن. هل نعيد إلى الذاكرة كتاب الكندي الفيلسوف والفلكي والرياضي العربي المسلم «الموسيقى الكبير» لنرى صدق ما قلنا.

أما الشعر فهو أرقى ما يعبر به الإنسان عن نفسه وعن الكون وعن كل شيء وهو أيضاً ليس بعيداً عن العلم، فموضوعهما واحد، لكن النظرة تختلف والمعالجة تتباين، ما أجمل أن نرى إحدى ظواهر الكون (النجوم) في مرايا متباينة، مرايا الشعراء، ومرايا الموسيقيين، ومرايا رجال العلم، ثلاثة أنواع كل منها تنقل إلينا زاوية، ومن الزوايا المختلفة تتكشف العلاقات، والتأثيرات والتأثرات المتبادلة، ثم إن الشعر عالم وحده، والشعراء لهم لغة خاصة في الحوار مع الكون وظواهره والتفاعل معها. بهذه الرؤية عقدت ندوتان إحداهما «عندما يتحدث الشعراء والموسيقيون ورجال العلم عن النجوم» وثانيتهما «الشعراء والكون».

☆☆☆

أن تحتفي بأي شيء «عربي إسلامي» في الوقت الذي تشوه فيه صورة كل ما هو عربي إسلامي وتجعل منه الآلة الإعلامية شيئاً متخلفاً دموياً إرهابياً، لابد أن تكون شجاعاً أولاً، ومنصفاً ثانياً، وذا قضية ثالثاً.

هذه العناصر الثلاثة تحققت في تظاهرة «عندما تكلم العلم بالعربية» أما



اسطرلاب من النحاس يعود الى ١٤٨٦م - متحف الفن الإسلامي

الشجاعة فقد ألمحت إلى الظروف التي قامت في ظلها الاحتفالية. وأما الإنصاف فإن مجرد تبني التظاهرة بنشاطاتها المتنوعة والثرية دليل عليه، وأما القضية فهي المسألة الأخطر التي ينبغي التوقف عندها بعض الشيء، لأنك لكي تحتفي بعلم منسوب لأمة، لابد أن تكون معترفاً بقيمة هذا العلم، وإسهام الأمة التي أنتجته في مسيرة الحضارة الإنسانية. ومثل هذا يكتسب أهميته ليس من اعتراف الآخر وتبنيه، ولكن قبل ذلك من إعادة الثقة المفقودة لأولئك الذين اهتزت ثقتهم بدورهم في ما مضى، وقدرتهم على تجاوز واقعهم اليوم، واستشرافهم لمستقبل يكون امتداداً لماض كان العلم فيه لا يجيد غير العربية، وهو ما يثير تساؤل العنوان: هل يتكلم العلم بالعربية مرة أخرى؟

كى لا تخرج الأمة العربية من التاريخ والجغرافيا

بقلم
عبد القادر النيال *

لا أريد أن أكون متشائما، لكننى لا أجد فى هذا العالم ما يحمل على التفاؤل. إنه عالم لا مكان فيه للحالمين بمستقبل أفضل.. عالم لا إنسانى، يسود فيه النفاق والمعايير المزدوجة والغدر والخداع.. عالم تهدر فيه القيم، ويقتل فيه الأطفال، وتجوع فيه الشعوب المستضعفة، وتستباح فيه الأوطان.. عالم تهيمن عليه دولة عظمى واحدة غاشمة، هاجسها الوحيد هو إحكام قبضتها وتوسيع سيطرتها على الشعوب من أجل تحقيق مصالحها، حتى ولو أدى ذلك إلى سحق كل من يقف فى طريقها.. دولة تمتلك من أسباب القوة ما لم يتح لدولة أخرى فى التاريخ.. دولة ينضوى تحت جناحيها كل من يخشى بطشها أو يطمح فى الحصول على فتات موائدها.. حتى الدول الكبرى من الدرجة الثانية تنساق فى ركابها، ولا تقوى على مواجهتها.

* باحث سورى

في هذا العالم المتوحش تقف الأمة العربية وهي في أشد حالات الضعف والتشتت والضياع.. تتكالب عليها كل القوى الطامعة في ثرواتها وأراضيها ومواردها.. بلاد محتلة، وقواعد عسكرية تجثم فوق أراضيها.. وشعوب مكبلة بألف قيد وقيد.. وأنظمة متصارعة تسعى كل منها لتحسين موقعها على حساب الأمة العربية بأسرها.. وثروات طبيعية مستنزفة، واقتصادات محاصرة، وموارد مرتهنة، وفئات حاكمة بعضها متواطيء وبعضها الآخر مرتهن أو خائف.

معضلة التغيير

إذا كان العالم على النحو الذى ذكرت، وكان ذلك هو حال الأمة العربية، فهل من سبيل للتغيير لكي لا نركن إلى الأوهام، علينا أن نعترف بأن إمكانات التغيير في المستقبل القريب تكاد تكون معدومة.. فمن الخطأ الاعتقاد بأن ميزان القوى فى العالم يمكن أن يطرأ عليه تعديل فى الأجل القصير. كذلك من غير المحتمل أن تتخلص الأنظمة العربية من تبعيتها، وأن تتحرر من مخاوفها، وأن تعلو فوق مصالحها الآنية خلال أمد قريب.. ولا اعتقد أن مناشدة ضمائر الأنظمة العربية لنبذ الخلافات فيما بينها، وتغليب المصلحة القومية على مصالحها الذاتية الآنية يمكن أن يسفر عن نتائج ملموسة. فالأنظمة العربية قد ذهبت بعيدا في انحرافها عن الخط القومي إلى الحد الذى يتعذر عليها التراجع، حتى لو رغبت الأنظمة العربية المرتهنة تصحيح مسارها فإنها غير قادرة على القيام بخطوة كهذه بعد أن كبلت نفسها بقيود يتعذر التخلص منها، وعزلت نفسها عن الجماهير العربية، مصدر قوتها الأساسية.

أقول ذلك ليس من أجل تبرير مواقف الأنظمة العربية، فالأضرار التى ألحقتها هذه الأنظمة بالقضية العربية يستحيل تبريرها. كذلك من الخطأ الاستنتاج من قولي هذا بأنه دعوة للثورة، فالظروف الموضوعية والذاتية غير مهيأة لذلك، فضلا عن أن «التجارب الثورية» للعديد من البلدان النامية قد ألقت ظلالا من الشك على قدرة النهج الثورى على تحقيق تقدم مستدام خال من الانتكاس والارتداد للخلف. كما أنني لا أرمي من هذا القول الى الترويج للاعتقاد بأن أبواب التغيير موصدة بشكل نهائي. إن ما أريد أن أؤكد عليه هو أن مفتاح التغيير يكمن فى الجماهير العربية، وإن الديمقراطية الحقة هى الصيغة الوحيدة التى تتيح للجماهير تحمل مسئوليتها. إن جميع

الهزائم العربية فى العصر الحديث مردها تغييب الجماهير العربية عن ساحة الصراع. لعقود عديدة جرى إبعاد الجماهير العربية عن المشاركة فى المعركة المصيرية للدفاع عن وجودها وتحقيق مشروعها القومى النهضوى، تارة باسم التحرير، وتارة أخرى باسم الوحدة العربية أو العدالة الاجتماعية.. وكان طعم الحصاد مر كالعلقم. لم نخسر الأرض فحسب، بل فقدنا معها الإرادة أيضا. واقترن ذلك بتفاقم التشرذم العربى، وتزايد سوء توزيع الثروة والدخل على المستويين القومى والقطرى..

مسئولية الأحزاب العربية

ولا تقع مسئولية ما حدث على الأنظمة العربية وحدها، فالأحزاب العربية بمختلف تياراتها واتجاهاتها تتحمل قسطها من المسئولية التاريخية فيما آل إليه حال الأمة العربية. لسنا هنا بطبيعة الحال بصدد تقويم تجربة الأحزاب العربية، فذلك يتطلب بحثا مستفيضا يتجاوز حدود هذا المقال بيد أنه يمكن القول أن إنسياق معظم الأحزاب العربية وراء رغبتها للوصول إلى الحكم بسرعة وبأية وسيلة، وسعيها للانفراد بالسلطة، قد أتاح فرصة ذهبية أمام قوى داخلية وخارجية لتغذية الخلافات فيما بينها، ودفعها للدخول فى صراعات دموية انتهت بإنهاكها جميعا. ولم تكتف تلك القوى بتسعير الصراع بين الأحزاب العربية، بل عملت على شق وحدتها وشرذمتها، وذلك باللعب على المصالح الشخصية لبعض قادتها، ودغدغة أحلامهم بالسيطرة . ولعل مما ساعد تلك القوى على تحقيق مآربها هشاشة مؤسسات الأحزاب العربية، وغياب الممارسة الديمقراطية الحقيقية فى داخلها، وتمحور تنظيماتها حول أشخاص قادتها.

لم تفقد الأحزاب العربية من جراء صراعتها قطاعات مهمة من جماهيرها فحسب، بل خسرت نفسها ايضا. كانت الجماهير تلتف من حول تلك الأحزاب باعتبارها تحمل وعدا بمستقبل أفضل، وصاحبة مشروع نهضوى حضارى لتجاوز واقع التخلف والتبعية والتجزئة. لكنها اكتشفت أن الهاجس الأساسى لتلك الأحزاب هو الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها بأى ثمن. ودفعت خيبة الأمل الجماهير إلى الإنكفاء على ذاتها، والانسحاب من الحياة السياسية، والانشغال بهمومها المعاشية التى أخذت تضغط عليها بشدة نتيجة لإتباع نمط من التنمية حابى فئة قليلة على حساب الجماهير العربية.

الإحباط وتبدد الحلم

ولم يكن الحزبيون من مختلف التيارات والاتجاهات بأفضل حال من الجماهير العربية. فالصراعات داخل كل حزب التى اتسمت بالعنف فى أحيان كثيرة، لم تفض الى سلسلة من الانشقاقات فحسب، بل دفعت بأعداد غير قليلة من الحزبيين للابتعاد عن الحياة العامة، يغالبون إحساسا ممضا بالاحباط وخيبة الأمل والغربة والفشل. كان من الصعب عليهم أن يصدقوا أن الحلم الذى حملوه فى نفوسهم عشرات السنين، ونذروا أنفسهم له، وضحوا من أجله قد تبدد كالسراب، كانوا يراقبون الأحداث بألم ومرارة،وهم يشاهدون الأمة العربية تنزلق إلى هاوية لا قرار لها.

فى خضم هذا العالم المتوحش، ووسط حالة السقوط العربى المريع والمفجع، يجرى تكريس الهيمنة الأمريكية وفرض عملية التسوية المذلة مع الكيان الإسرائيلى على الأمة العربية. هذه الهيمنة التى أريد لها أن تضع نهاية للمشروع القومى العربى النهضوى، وذلك من خلال تكريس التجزئة وتغذية الولاءات الأثنية والطائفية داخل المجتمعات العربية، وإلحاق الاقتصادات العربية بالاقتصاد الرأسمالى العالمى، واحتواء البلدان العربية ضمن ترتيبات أمنية ومشاريع إقليمية، ومحو ذاكرة الأمة العربية وتحطيم القدرات الذاتية العربية، ومحاصرة الثقافة والقيم الوطنية والقومية، ومصادرة الإرادة العربية، ونشر القيم وأسلوب الحياة الغربية، وملاحقة كل من يرفض الرضوخ بتهمة الإرهاب.

تغييب الدور الجماهيري

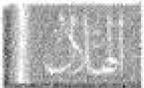
وما كان للانهيار العربى الذى أفضى إلى هذه الحالة أن يحدث لولا تهميش الجماهير العربية وإقصائها عن ساحة الصراع. لقد بدأ هذا الانهيار منذ أن عمدت الأنظمة العربية إلى كبت الجماهير العربية وممارسة مختلف ألوان القمع عليها خوفا على سلطتها ومصالحها. وإذا كان من أمل للخروج من هذا النفق المظلم فيتجلى فى عودة الجماهير العربية لأخذ مواقعها في ساحة العمل الوطني والقومى. إن بقاء الجماهير العربية ونخبها الواعية على هامش الصراع المصيرى لا يمكن أن يخدم سوى الكيان الإسرائيلى والقوى العالمية المهيمنة التى تقف وراءه، ويسهل بالتالى تنفيذ الأهداف النهائية لعملية الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية.

قد لا تكون عودة الجماهير العربية للمشاركة بفعالية فى الحياة العامة

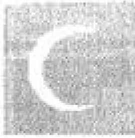
بالأمر اليسير. فالجماهير العربية التى فقدت ثقتها بالأحزاب السياسية العربية سوف يصعب عليها التعامل معها مجددا. وما لم تعمد الأحزاب السياسية العربية الى ممارسة النقد الذاتي بجرأة وصدق وصراحة، وإعادة النظر فى أساليبها وبنيتها التنظيمية وخطابها السياسي وعلاقاتها بالأنظمة العربية، فسوف يتعذر استعادة ثقة الجماهير العربية بها. كما أن وطأة الهموم المعيشية لا تتيح للجماهير العربية سوى فسحة ضيقة للانشغال بالشأن العام.

مهمة المنظمات الأهلية

على أن أعراض المعاناة النفسية والضياع الفكرى التى تعانى منها الجماهير العربية لا تنطوى على الاحباط والقنوط فحسب، بل تحمل فى طياتها بذور الغضب والرفض الذى يمكن أن يتحول الى فعل لمواجهة مخاطر الهيمنة اذا توافرت صيغ العمل المناسبة. وغنى عن القول أن اتفاقات التسوية بين بعض الأنظمة العربية والكيان الإسرائيلى لا يمكن أن تضع نهاية للصراع العربي الإسرائيلى، طالما أنها تجاهلت جذر المشكلة. واذا كانت الانظمة العربية قد قيدت نفسها بالاتفاقات التى وقعتها تحت ضغط ظروف اتسمت بخلل جسيم فى موازين القوى، وعلى أرضية واقع عربى مأزوم ومتآكل، فلا أقل من أن تفسح المجال للجماهير العربية ونخبها الوطنية لمتابعة الصراع من خلال منظمات أهلية غير حكومية تعمل على مقاومة الاحتلال والتطبيع، ومقاطعة البضائع والشركات الأمريكية والإسرائيلية وتلك المتعاونة معها والمساندة لها، والزود عن الثقافة العربية، ومحاربة الفساد، والدفاع عن حقوق الإنسان وتجديد الفكر القومى العربى، واستنهاض الطاقات العربية، وتوسيع الممارسات الديمقراطية والمشاركة الشعبية.



وحتى لا نغرق فى الأوهام، علينا أن نعترف بأن المهام المطلوب القيام بها جسيمة للغاية، وأن التصدى لتحقيقها لا يخلو من مشاق وآلام ومعاناة، وأن القوى الداخلية والإقليمية والدولية المناهضة لمسيرة الجماهير العربية تمتلك من أسباب القوى مما يجعل من مجابهتها أمرا بالغ الصعوبة والخطورة. ولكن، هل هناك من سبيل آخر للحؤول دون خروج الأمة العربية ليس من التاريخ فحسب، بل ومن الجغرافيا أيضا. ■



كتاب الهلال

تأملات فى أحوال مصر والعرب والعالم فى منتصف القرن الواحد والعشرين

بقلم

د. جلال أمين

يصدر ٥ ابريل ٢٠٠٤

رئيس التحرير

مصطفى نبيل



٥٧



صفر ١٤٢٥هـ - ابريل ٢٠٠٤م

الساعات

بقلم

مايكل كننجهام

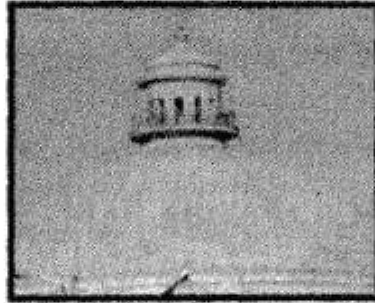
ترجمة

محمد عيد ابراهيم

تصدر ١٥ ابريل ٢٠٠٤

رئيس التحرير

مصطفى نبيل



من يحتاج لجامعة مستقلة؟

بقلم
د. هانى الحسينى *

فى ٩ مارس الماضى احتفل الجامعيون المصريون بذكرى استقالة أحمد لطفى السيد من رئاسة الجامعة عام ١٩٣٢ احتجاجا على نقل الدكتور طه حسين من الجامعة دون موافقتها، فأصبح هذا اليوم عيداً لاستقلال الجامعة، وبهذه المناسبة نطرح سؤالا :

هل نحتاج لجامعة مستقلة ؟

ربما ترى السؤال فى غير محله، فنتساءل أولا ما هى الجامعة المستقلة ؟ وعن أى شىء تستقل ؟ هل يعنى الاستقلال أن تنعزل الجامعة عن المجتمع ؟ أو ألا يؤدى الاستقلال بالضرورة لعدم خضوع الجامعة للسلطة السياسية ؟

من الطبيعى أن يتردد المرء تجاه فكرة الاستقلال هذه، أليس من الضرورى أن تخدم الجامعة المجتمع؟ وهل السلطة السياسية إلاّ المعبر عن مصالح هذا المجتمع؟ كيف نضمن أن تقوم الجامعة بدورها الضرورى من قبول الأعداد الكبيرة وإعدادها لسوق العمل لو لم تخضع لسلطة سياسية تحدد لها أولويات القبول وسياسة التعليم؟ وكيف نحافظ على أن تقوم الجامعة بالأبحاث العلمية الضرورية للمجتمع إذا تركنا تقرير توجهات البحوث للباحثين أنفسهم، بما هو معروف عن العلماء من عدم اكتراث بالمشكلات الحياتية الآنية؟ ثم أليست الدولة هى الممول الرئيسى للجامعات ؟ وبالتالى ألا يحق لها التدخل فى شئونها على الأقل للرقابة على المال؟ أو بشكل آخر: هل يعنى الاستقلال ألا تعتمد الجامعات على الدولة فى التمويل

* كلية العلوم - جامعة القاهرة.

كل هذه الأســئلة هي أسـئلة مشروعة، بل وضرورية، كي نجيب عن السؤال الأساسي: هل نحتاج لجامعة مستقلة ؟

قبل أن ندخل في هذه الحلقة من الأسـئلة، أود أن أدعـوك - عـزيزي القـارىء - لأن تلاحظ أن الجـامـعـة المصرية ولدت مستقلة استقلالا تاماً .


د. طه حسين


أحمد لطفي السيد

الجامعة المصرية ولدت مستقلة



فعندما اجتمع مؤسسو الجامعة المصرية في ١٩٠٦ اختاروا أن ينصوا في بيانهم على أن الجامعة «ليس لها صبغة سياسية، ولا علاقة لها برجال السياسة ولا المشتغلين بها، فلا يدخل في إدارتها، ولا في دروسها، ما يمس بها على أي وجه كان». يذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا النص كان يهدف إلى طمأنة سلطات الاحتلال الإنجليزي والذي بمشروع الجامعة عن الأهداف السياسية لمصطفى كامل والحزب الوطني. لكن هذا النص أرسى لدى الجامعيين منذ تلك اللحظة مفهوم استقلال الجامعة عن السياسة والسياسيين في إدارتها وتعليمها، وإن كان لم يبعد الجامعيون - طلابا وأساتذ - بأي وجه عن المشاركة في الأنشطة السياسية والوطنية.

كانت الجامعة المصرية عندما أنشئت في ١٩٠٨ مؤسسة مستقلة فعلا، فرغم حصولها بدءاً من ١٩١١ على إعانة سنوية مقدارها ٢٠٠٠ جنيه من وزارة المعارف، فإن الجامعة ظلت محافظة على استقلالها: لم تتدخل الحكومة لا في تعيين الأساتذة ولا في مناهجهم التي يدرسونها، ولم تحاول أن تضع أحد موظفيها في الإدارة العليا للجامعة بل أن الجامعة استقلت ببعثاتها التي كانت تحدد وجهتها وموضوعاتها دون استشارة أي جهة حكومية.

لكن ذلك الاستقلال التام وصل بالجامعة لطريق مسدود، فلم تستطع الجامعة المواءمة بين مواردها المالية القليلة ومصروفاتها الضرورية، كما أن الطلب عليها من الدارسين اصطدم بعقبة عدم اعتراف الحكومة بشهاداتها وعدم التزامها بتعيين خريجيها . اضطرت الجامعة إذن للبحث عن ارتباط أوثق بالإدارة الحكومية، ساعية لإيجاد مصدر تمويل مستقر واعتراف بدرجاتها العلمية، فأنشئت الجامعة المصرية الحكومية وانضمت لها الجامعة المصرية الأصلية لتصبح كلية الآداب بها. في ذلك الانتقال لم تضح السلطات الجامعية بمبدأ الاستقلال، فنص اتفاق ضم الجامعة لوزارة المعارف على أن:

«تكون الجامعة المصرية معهدا عاما محتفظة بشخصيتها المعنوية وتدير شئونها بنفسها بكيفية مستقلة تحت إشراف وزارة المعارف العمومية كما هي الحال في جامعات أوروبا»، كما نص أول قانون لتنظيم الجامعة - صدر في ١٩٢٧ وعدل في ١٩٣٣ و١٩٣٥ - على أن الجامعة «تدير أموالها بنفسها» ويقوم على إدارتها مدير الجامعة (يدير الجامعة ويمثلها أمام الجهات الأخرى) ومجلس إدارة الجامعة (يختص بالجوانب المالية والإنشائية) ومجلس الجامعة (يختص بالجوانب العلمية والإدارية). كما نلاحظ أن ذلك القانون قد راعى التوازن في المسئولية بين المعينين من قبل السلطة السياسية والمنتخبين، فبينما يعين مدير الجامعة بمرسوم فإن وكيل الجامعة ينتخب من مجلسها والذي يتكون في أغلبه من أعضاء منتخبين من مجالس الكليات. استمر هذا الوضع حتى أزمة مارس ١٩٥٤، حيث أنهت حكومة الثورة استقلال الجامعة بادئة بحملة «التطهير» ثم بتغيير قانون الجامعات في ١٩٥٦ ناسفة كل جوانب الاستقلال الجامعي. منذ ذلك الحين أصبحت الجامعات المصرية تابعة للسلطة السياسية وملحقة بها.

* * *

كان غرضي من هذا العرض التاريخي أن أبين أن الجامعة المصرية نشأت مستقلة وحافظت على استقلالها حينا من الزمن ثم فقدت قليلا منه تحت ضغط الحاجة للدعم الحكومي وانتزع منها ما تبقى بتأثير شهية سلطة الثورة للاستئثار بكافة مراكز التأثير في المجتمع.

ونعود لطرح الأسئلة التي بدأنا بها:

كيف يتسق مبدأ الإدارة المستقلة للجامعة مع اعتماد الجامعة ماديا على الدولة؟ أو بشكل آخر ما هي حدود رقابة الدولة (أو حتى المؤسسات الخاصة المانحة) على إدارة الجامعة لما تُمنح من أموال؟

هل تستطيع الجامعة أن تنفصل بسياستها البحثية عن مطالب المجتمع والدولة؟ بل هل يمكن للجامعة أن تتجاهل الضغوط الاجتماعية والسياسية بشأن ترويج أو منع بعض اتجاهات البحوث؟

هل تستقل الجامعة بتحديد سياسة القبول فيها؟ أي هل يحق لها أن تحدد بشكل مستقل أعداد المقبولين للدراسة في التخصصات المختلفة؟ أم أن عليها أن تلتزم (كما يحدث عندنا) بالواجب الاجتماعي الذي تحدده الحكومة، فتقبل ما يفرض عليها من طلاب؟

بين الفكر والمادة

في عام ٢٠٠١/٢٠٠٢ بلغت موازنة جامعة القاهرة أكثر من ٩٧٠ مليون جنيه، مولت الدولة منها ٧٤٠ مليون جنيه وحصلت الجامعة على الباقي من إيرادات أنشطتها وخدماتها، أي أن التمويل الحكومي يبلغ ٧٥٪ من مجمل الميزانية. في نظام القيم الراهن يبدو أن هذه الأرقام ترتب حقوقا للحكومة لدى الجامعة. ربما، لكن أي حقوق؟ هل من ضمنها حق الحكومة في الإشراف المباشر على إدارة الجامعة؟ أو حق الحكومة في تحديد التوجهات التعليمية والبحثية لأقسام وكليات الجامعة؟ هل يحق

لوزير التعليم العالي «أن يصدر توجيهاته» للجامعات حتى بشأن قرارات مجالسها ؟

قد تكون إحدى الإجابات أن الجامعة توفي بالتزاماتها تجاه الدولة بتقديم الخدمة التعليمية لحوالى ١٩٣ ألف طالب. المشكلة في هذه الحجة أن الدولة تدفع بأموال يسهل تقديرها رقميا بينما ترد الجامعة الدين بخدمة فكرية قد يختلف على تقدير قيمتها.

تدهور المستوى!

لا شك في أنك لاحظت كما لاحظ العديد من الكتاب والمواطنين تدهور مستوى خريجي الجامعات، وربما ترجعه مثل الكثيرين لعيوب في التدريس الجامعي وفي تكوين الطالب في التعليم قبل الجامعي، لكن ربما يفوتك أن هذا التدهور هو أيضا نتاج «سياسة الجامعة» فالنجاح في الجامعة أصبح شبه أوتوماتيكي، تضخمت قواعد الرفع والرأفة والنقل للفرقة الأعلى لطلاب راسبين في بعض المقررات، حتى أصبح رفع النتيجة جزءا من حقوق الطلاب. في المقابل تم إدخال نظام الفصلين الدراسيين مع الاحتفاظ بتنظيم معقد ومكلف للامتحانات يؤدى لأن تنحسر أسابيع الدراسة لحوالى عشرة أسابيع في كل فصل دراسي، مما لا يتيح للطالب الوقت لهضم المقررات والعمل الجاد لينجح بمجهوده هو. كل هذه التبديلات والمخترعات جاءت «بقرارات سياسية» أو نتيجة «لقرارات سياسية». نظام الفصلين الدراسيين: قرار سياسي، زيادة أعداد المقبولين عن القدرة الاستيعابية للكليات: قرار سياسي، يؤدى لتكدس الطلاب وصعوبة السماح برسوبهم حتى لا يزيد التكدس. حتى التفاصيل: يصدر رؤساء الجامعات قرارات بقواعد الرفع والنقل حتى لو خالفت هذه القواعد منطق التخصص، فينقل الطالب الراسب في مواد أساسية لفرقة أعلى مع أن استيعابه لمواد الفرقة الأعلى قد يكون مستحيلا دون النجاح في تلك المواد الأساسية. ورؤساء الجامعات (المعينون)، رغم كونهم أساتذة جامعيين ، إلا أنهم يتبعون إشارات السياسة التي تصعد بهم أكثر من منطق العلم والتخصص.

أيضا يستحيل في النظام الحالي تعديل المناهج بشكل مستمر، إذ يتطلب أي تعديل في اللوائح الداخلية للدراسة في الكليات أن يوافق عليها المجلس الأعلى للجامعات ووزير التعليم العالي.

بالمثل تتبع الجامعات طموحات الساسة في البحث العلمي، ويظهر هذا لو تابعنا المشاريع التي تحظى باهتمام إعلامي والمشاريع التي تجابه بهجوم أو تحاط بالصمت. ولعلك تذكر الحملة التي صاحبت فوز «أحمد زويل» بجائزة نوبل، ومشاريع إنشاء «جامعة تكنولوجية» تحت رعايته، ثم ما تمخضت عنه هذه الحملة من تلاسن بين أحمد زويل وأحد المسئولين، كما لعلك تذكر ما ملأت به وسائل الإعلام أسماعنا حول «ثورة الجينات» و«الهندسة الوراثية»، فماذا أنتجنا من كل ذلك ؟ وحملة أخرى مازالت مستمرة عن «تصدير البرمجيات»، بينما لا نرى دورا للدولة في رعاية شباب الباحثين في علوم الرياضيات والحاسب، ونرى تراجعا متواصلا للحجم النسبي للمنتجات المصرية في سوق البرمجيات العربية.

في الواقع تتدخل الاعتبارات السياسية في تعيين المعيدين وفي توظيف موارد الجامعة في المشاريع البحثية المختلفة، كما يؤدى انعدام الديمقراطية والشفافية في

الإدارة الجامعية إلى فقدان الجامعيين لأى سلطة جماعية على اتخاذ القرارات بشأن البحث العلمي، ويبقى الأمر رهينا بالعلاقات الشخصية أو بالنوايا الحسنة لبعض المسئولين.

على جانب آخر نرى تدخلا سياسيا من نوع مختلف: محاولة «تعقيم» النشاط الطلابي، بمنع كل ما يثير حماس الشباب من أنشطة سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، وتحديد شديد لحرية التعبير داخل الجامعة . نتيجة هذا المنع وهذا التحديد انحسار النشاط الطلابي، وفقد الطلاب حماسهم ومبادرتهم، فأصبحت الجامعة بلا روح، وطلابها يدورون يومهم وراء جمع الملخصات ونماذج الامتحان بحثا عن نجاح دون فكر.

بل أن هذا الجو الخامد انتشر حتى فى وسط هيئة التدريس، فلمَ يتحمس الأستاذ إذا كان لا يؤخذ رأيه فى القرارات الأساسية لمؤسسته الجامعية؟ المسئولون المعينون يفرضون اختياراتهم فى أغلب الأمور ولا يعبأون برأى زملائهم ، إذ لم يكن لهؤلاء الزملاء دور فى الوصول بهم إلى كراسيهم .

هل يكفي ذلك لإقناعك بأضرار السيطرة السياسية على الجامعات؟

لنحاول الآن أن نكون ايجابيين، ما هو البديل؟

لا يكفي أن نستبعد التدخل الحكومي كي تصبح المؤسسات الجامعية مستقلة، فكيف تدار مثل تلك المؤسسات الضخمة من داخلها ؟

متطلبات الاستقلال

لمفهوم الاستقلال الجامعي شقان: الاستقلال العلمي والاستقلال المالي والإداري.

الاستقلال العلمي يعني ألا تتدخل أى جهة خارجية فى تحديد محتوى ونظام التدريس والأبحاث فى الجامعة ولا توجهاتها العلمية ، يقوم الاستقلال العلمي على تعدد المستويات: فعلى مستوى التخصص يترك لمجالس الأقسام تقرير المسائل العلمية والتدريسية، وعند العمل بين تخصصات مختلفة يعمل مجلس الكلية على التنسيق والتوفيق بينها، أما فى الأعمال أو الدراسات ذات الاتساع أو الجديدة تماما فيحال الموضوع لمجلس الجامعة. الاستقلال العلمي إذن يلزمه تحديد واضح لحدود مسئولية المستويات المختلفة فلا تتعارض. يحتاج الاستقلال العلمي أيضا لدرجة عالية من المناعة للنقد أو حتى التهجم الخارجي، فبعض الدراسات أو الأبحاث الجديدة والمجددة قد تصطدم بعدم قبول اجتماعي، وعلى الجامعة فى مثل هذه الحالة أن تدافع عن طلابها وأساتذتها فى ممارستهم للدراسة الجادة والبحث العلمي الذى يحتاج لجرأة التجديد ويحتمل الخطأ - بل يحتاجه - كما يحتمل الصواب. يُمكّن هذا الاستقلال أعضاء هيئة التدريس من التجديد لا فى البحث فقط بل أيضا فى التعليم، بإعطائهم القدرة على تعديل محتويات المقررات بشكل مستمر دون انتظار موافقات من جهات عليا كالمجلس الأعلى للجامعات.

الاستقلال المالي والإداري يعنى أن تستقل الجامعة بإدارة مواردها البشرية والمادية. لابد أن تكون للجامعة موارد محددة منها ما يأتى من الحكومة ومنها ما يأتى من الأفراد والجهات الخاصة ومنها ما تحصل عليه الجامعة نتيجة تقديم خدماتها، ولا يحق لأى جهة تقدم جانبا من موارد الجامعة أن تتدخل فى إدارتها سوى فى حدود

الرقابة القانونية على المال العام. وتملك الجامعة أصولها من منشآت وتجهيزات وأراض دون أن يشاركها فى هذه الملكية وحقوق التصرف فيها شريك. يعطى هذا الاستقلال للجامعة مرونة كبيرة وقدرة على التجديد، فيمكنها أن تنشىء وحدات بحثية أو تدريسية جديدة ، أو تحول مسار الوحدات القائمة دون عقبات إدارية.

لا يكتمل هذان الشقان إلا بجمعهما فى غلاف من ديمقراطية وشفافية الإدارة، مما يعنى نظاما قائما بالأساس على أن يختار الجامعيون من يندبونه لإدارة مؤسساتهم بجميع مستوياتها وأن يتمتعوا بالوسائل اللازمة للرقابة على الإدارة.

ويحتاج استقلال الجامعة أيضا لمنح طلابها حرية أكبر فى أنشطتهم والعودة لمبدأ عدم التدخل فى الأنشطة داخل الجامعة، لتتحول الجامعة إلى واحة للفكر المتجدد والتعبير الحر تطلق فى المجتمع نسائم التجديد مداوية تيبسه وجموده.

الناحية العملية

هل يمكن أن يتحقق هذا التصور المثالى ؟

يتحقق هذا المفهوم المثالى عن استقلال الجامعة إلى حد كبير فى الجامعات الأوروبية؛ فمثلا ينص قانون التعليم الفرنسى على أن «المؤسسات العامة العلمية والثقافية والمهنية والتى تقوم بالتعليم العالى والبحث العلمى تتمتع بشخصية اعتبارية وبالاستقلال العلمى والتعليمى والإدارى والمالى، وتتم إدارتها بصورة ديمقراطية بمشاركة كافة أفرادها من طلاب وأساتذة وموظفين وشخصيات خارجية... وتحدد هذه المؤسسات سياستها التعليمية والعلمية بشكل مستقل مع احترام القوانين والتعاقدات التى تربطها»[٢]، ويحدد هذا القانون أيضا قواعد انتخاب رؤساء الجامعات ومجالسها وصلاحياتهم ... إلخ.

سؤال أخير.. كيف نضمن حق المجتمع تجاه المؤسسات الجامعية ؟

يمكن أن ترتبط الجامعات مع الدولة بعلاقات تعاقدية ، تمول فيها الدولة الجامعة، وتقدم الجامعة فى المقابل خدمات تعليمية وبحثية مقومة ماديا. وتكون الرقابة على تنفيذ كل طرف لواجباته فى يد جهاز من «الحكماء» ذو استقلال مماثل للمجلس الأعلى للقضاء . لا يعنى هذا أن تكون لدينا سلطة رابعة أو خامسة إلى جانب السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وإنما أن يكون لهذا المجلس سلطة محدودة بما يخص تمويل التعليم.

فهل ترى الآن أننا قادرون على بناء جامعات مستقلة تفى بحاجات الوطن والمواطن؟

وهل توافق على أننا نحتاج لجامعات مستقلة؟

وهل نعمل جميعا كى يصبح هذا الاستقلال واقعا؟ ■

---

(١) اعتمدنا فى هذا العرض التاريخى على كتاب د. رءوف عباس: تاريخ جامعة القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤

(٢) قانون التعليم الفرنسى: الجزء الثانى - الكتاب السابع- العنوان الأول حول إنشاء واستقلالية المؤسسات العامة ذات الطبيعة العلمية أو الثقافية أو المهنية.

من ذخائر الكتب العربية



صلاح الدين الأيوبي

بقلم

مصطفى نبيل



على طريقة ملوك أوروبا ، تصور فنانو القرون الوسطى صلاح الدين مرتدياً التاج ، مع الحفاظ على العمامة وسيفه الأحدب

ريتشارد الأول ، ملك إنجلترا الذى عرف بـ « قلب الأسد »



« النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية «سيرة حياة صلاح الدين ، أبرز أبطال عصره ، سجلها القاضى بهاء الدين بن شداد ، الذى صاحب صلاح الدين وخالطه وجالسه ، وله معرفة عميقة به ، والكتاب وثيقة مهمة تنقل التاريخ الحى لعصر بأكمله ..

وساهمت معاصرة ابن شداد لصلاح الدين فى الإلمام بدقائق وتفاصيل حياته وأعماله ، وتفوق ما يكتبه المؤرخ فى عصر لاحق من ناحية، إلا أنها تقود إلى التأثر بالمعارف والقيم فى عصرها ؛ وتحيز كاتب السيرة - على الأرجح - لمعاصره .

ويزخر التاريخ العربى بالتراجم لأبرز الشخصيات ، فيكتب مثلا محمد المدينى البلدى سيرة ابن طولون ، ويترجم محيى الدين بن عبدالظاهر للظاهر بيبرس ، وتغنى هذه التراجم الدراسات التاريخية المعاصرة .

التحق كاتب السيرة بهاء الدين بن شداد بصلاح الدين بعدما كان قاضيا فى حلب ، والتقى بصلاح الدين وهو يحاصر قلعة «كوكب» فى الشام، وأصبح من أقرب خلصائه ، يصحبه ويستشيره .

وألزم بهاء الدين نفسه فى مقدمة كتابه بإبداء ما حققت من حسناتها .. وما سفرت ، إلا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبرا يقارب العيان .. وحول علاقته بصلاح الدين ، يقول .. «كان الله قد أوقع فى قلبى محبته منذ رأيته ، .. وسير إلى بعد لقائه .. أنه لن يمكننى من العودة إلى بلادى .

***

وبداية .. هذا المقال ليس سردا لوقائع الحروب الصليبية، ولا سردا لما سجله بهاء الدين ، فعلاوة على أن هذه الوقائع باتت معروفة ، وفى متناول من يطلبها ، وإنما اقتصر على تناول بعض الوقائع فى إطار دلالتها ، فليس هنا مجال التاريخ لهذه الحرب الطويلة المتشابكة .

من ذخائر الكتب العربية

ويعنيني ماهو معاصر ، فكثيرا ما يردد القادة الغربيون هذه الأيام كلمة «الحروب الصليبية» ، أي الحروب الدينية المقدسة ، كما أني من المؤمنين بأن على البشرية أن تتجاوز الصفحات المظلمة من ماضيها ، ولا تقف عند أحقاد الماضي ، وأن تنبذ الحروب ، وأن تقيم حضارتها الحديثة على ركائز من العدل والحرية ..

ولكن ها هو الرئيس الأمريكي جورج بوش يذكرنا بها وهو يشن حملته على الإرهاب بعد ١١ سبتمبر ، ثم يعود ويتراجع ، وتكررت ذلة اللسان مع عدد من قادة الغرب ، وكثيرا ما جاء على لسان تاتشر عندما كانت رئيسة الحكومة البريطانية كلمة «الحروب الصليبية» ، ومازلت أذكر عندما زارت موسكو ، وصفت رحلتها بأنها «حملة صليبية» !

ويرى المؤرخ البريطاني توينبي أن الحروب الصليبية هي التي أدت إلى قبول بريطانيا الانتداب على فلسطين ، وهي وراء صدور وعد بلفور ، وخلف تأييد بريطانيا للهجرة اليهودية إلى فلسطين .

ولم يمح من الذاكرة بعد قول القائد البريطاني اللنبي عندما دخل القدس : «ها قد عدنا يا صلاح الدين» !!



والسؤال الذي مازال يتردد هو: هل كانت الحروب الصليبية حروبا دينية؟!

لم يستخدم هذا المصطلح الرجال الذين قاموا بالحملة الأولى ، بل ولم يستخدمه المؤرخون المسلمون الذين عاصروا هذه الحروب ، فلا تعثر على هذا المصطلح على لسان مؤرخنا بهاء الدين بن شداد ، ولم يرد في كتابات ابن الاثير أو المقريزي وابن تغرى بردي، وأطلق الجميع عليهم كلمة «الفرنج» ، مدركين أنها مغامرة استيطانية .. وإذا كان الكاتب يستخدم هذا التعبير ، فلأن هذا هو المصطلح السائد ، بعدما جاءت جيوش الغرب تحت راية الصليب .

ولم تكن هذه الحرب صراعا بين المسيحية والإسلام ، إنما «صراع قوى» وصراع مصالح ، يقوده الجهل ، وتستطيع الغوغائية أن تحيل أنبل المشاعر إلى نار حارقة .

وأفصحت هذه الحرب عن حقيقتها عندما أخذت الصبغة الدينية تقل مع الزمن حتى خلال هذه الحرب ، ويميل العديد من المؤرخين المعاصرين ، إلى أن دوافع هذه الحرب كانت بعيدة كل البعد عن الدين ، وأنها كانت إحدى نتائج الصراع بين البابا والملوك والأباطرة في أوروبا ، وأنه كان يأمل من وراء إشعالها أن تتزايد سلطته ، وأن تتوحد الكنيستان البيزنطية والرومانية تحت رئاسته ، ومن ناحية أخرى رغبة الكثير من القوى الجديدة في تجاوز النظام الإقطاعي ، وحتى يمكن للفرسان تحقيق طموحاتهم .. بدأت الحروب تقل داخل فرنسا ، وبدأت هجمات المغيرين تخف حدتها ، إلا أن الجماعات المسلحة المحلية لم تتفكك ، وفقد العديد من القيادات سواء الكونتات أو الأتباع سيطرتهم ، وأصبح إرسالهم للشرق، وإعطاء غطاء مقدس ضروريا لما يقومون به ، فوجود مبرر ديني لاستخدام القوى يجعل العمل العسكري ممكنا ومبررا ، ويذهب الجنود إلى الموت راضين !

كما نظر البابوات ورجال الدولة إلى هذه الحرب باعتبارها وسيلة ناجعة لتوجيه الجنوة القتالية من الداخل إلى الخارج ، من حرب بعضهم بعض إلى حرب الاغيار

هذا ما يؤكده السياق الذى اشتعلت فيه الحرب ، وجاءت الشرارة الأولى عندما وجه امبراطور الدولة البيزنطية طلبا إلى البابا ليدعو أمم الغرب إلى نصرته ، بعد أن تساقطت مدنه وقلاعه أمام السلاجقة الأتراك .

وكان السلاجقة قوما محاربين أتوا من أواسط آسيا ، وفقد البيزنطيون معظم أراضيهم فى آسيا فى معركة مانزكرت عام ١٠٧١ م . وشعر الامبراطور كومنينوس بالخطر فطلب من البابا المساندة .

وألقى البابا أربان الثانى البريطانى فى حشد كبير بكليرمون إحدى المدن الصغيرة جنوب فرنسا يدعو أتباعه للحج المسلح حتى يتم غفران ذنوبهم ، ودعا إلى حملة مقدسة تحت راية الصليب .

وفى كلمته التى نقلها وليم الصورى ، مؤرخ الافرنج يقول البابا .. «لست أنا الذى أدعوكم ، ولكن الرب هو الذى يحثكم ..» وينادى الفرسان بالتوقف عن الصراع فيما بينهم ، وأن يقدموا المساعدة لإخوانهم فى الأناضول، وعليهم بعدها أن يحرروا إخوانهم من عبودية الكفار .. !، وأن يسيروا إلى أورشليم ويحرروا مقبرة المسيح ! والرب هو القائل بصوت أشعيا .. ميراثى إسرائيل ، ..» إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل ، تملكها الآن شعب هو ابن الجارية المصرية هاجر الذى يتعرض لأبناء المرأة الحرة - سارة -.. حتى قالت: «أطرد هذه الجارية وابنها» .

ولم يخف البابا الدوافع الحقيقة لتلك الحملة عندما قال .. « هذه الأراضى التى تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل



جانب وتحيطها سلاسل الجبال ، وتضيق بأعدادكم الكبيرة ، وهى لاتفيض بالثروات الكبيرة ، وإنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقوم بزراعتها ..» .

وكانت هذه هى الشرارة التى أشعلت حربا استمرت قرنين من الزمان فى مغامرة الغرب فى القرون الوسطى .

وإذا رجعنا إلى «دائرة المعارف البريطانية» التى يستحيل اتهامها بالتميز للشرق والإسلام نجدها تقول إن أحد أسباب هذه الحرب هو إطلاق القوة الزائدة فى غرب أوروبا من عقالها ، والدليل ما نجده فى صفحات التاريخ من صراع بين ملوك وأمراء أوروبا الغزاة ، صراع لا على القدس ، ولكن على اقتسام أجزاء واسعة من البلاد الإسلامية ، ثم تؤكد دائرة المعارف البريطانية أن المسيحيين الارثوذكس الشرقيين اشتركوا فى مقاومة الغزو الأوروبى البيزنطى ، ورفضوا الخضوع للكنيسة الكاثوليكية، وتؤكد دائرة المعارف ، أن الشرق الإسلامى لم يكن يعرف التعصب ضد أى دين ، وهذه الحرب هى التى تسببت فى بعض حالات الاضطهاد الدينى كإحدى



صور رد الفعل .

وهذه هي الأسباب التي من أجلها فكر الغرب في «غزو الشرق» هدفه الذي لم يتغير ، أو إقامة دويلات أوربية (مستوطنات) داخله ، تتحكم في بقية المنطقة الاستراتيجية ، الغنية ، والقريبة .

وهكذا وفي هذا السياق ، قامت إسرائيل التي وصفها أحد القادة العسكريين الأمريكان أنها حاملة طائرات غربية في الشرق الأوسط !

ولعلنا لم نبعد كثيرا عن سيرة صلاح الدين وحديث ابن شداد ، عندما نلمح في سرده كيف أن الأغراض الدنيوية كانت أقوى من الأغراض الدينية ، وكيف قامت حركة ضد تأثيرات الشرق على المستوطنين الذين استوطنوا هذه الممالك وجاءوا مع الحملات الصليبية .

وكلما قلبت صفحات النوادر السلطانية توالت المشاهد .

.. عندما طال القتال وأنس البعض بالبعض ، بحيث أن الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال ، وربما غنى البعض ، ورقص البعض ، لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال .. قالوا يوما .. إلى متى نقاتل الكبار وليس للصغار نصيب ، تريد أن يتصارع صبيان .. وهكذا .

والغريب والمدهش أن هناك أفكارا تتناسخ وتعاود الظهور في أشكال جديدة ، والتي تساهم في إشعال الحروب وقتل الأبرياء ... مثل :

- زعم شعب من الشعوب أنه شعب الله المختار ، هذا ما زعمته الحملة الصليبية، وهم يحملون رسالة الرب .. وهذا ما يزعمه الصهيونيون اليوم .
- التشبه بالنبي موسى عليه السلام ، الذي قاد أتباعه من مصر إلى الأرض الموعودة .
- انتظار عودة المسيح عليه السلام.

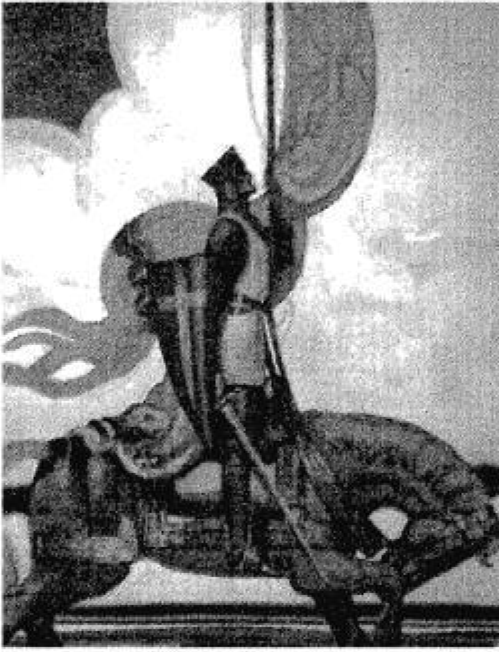
ملامح شخصية

ولم يترجم حياة صلاح الدين بهاء الدين بن شداد وحده ، وإنما سجل سيرته أيضا عماد الدين الأصفهاني ، ولكن ابن شداد كان الأقرب لصلاح الدين ويلاحظ أنه تجنب الحديث عن حياته الشخصية ، فمثلا لم يتناول زواجه السياسي ، من أرملة نور الدين عصمة الدين خاتون ابنه معين الدين ، لكي يعطي شرعية لخلافة نور الدين ، ويشير بهاء الدين إلى الجانب السياسي .. « لم تحقق السلطان وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلا لاينهض بأعباء الملك .. تجهز للخروج إلى الشام ، أصل بلاد الإسلام ..» .

وقدم ابن شداد ملامح صلاح الدين الشخصية في العديد من المشاهد والحكايات. ويقول في وصفه .. «إنه قضى حياته صابرا على مر العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى .. » .

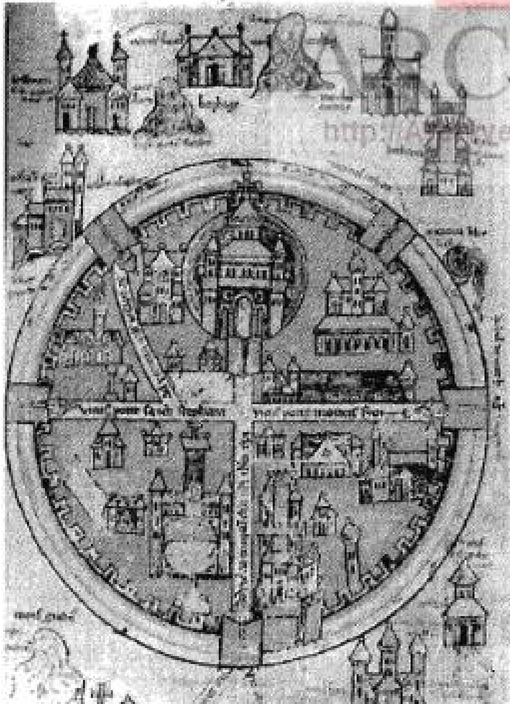
ويورد نصيحة صلاح الدين لابنه وهو الذي قضى حياته بين صليل السيوف محذرا من سفك الدماء .. «أحذرك من الدماء ، والدخول فيها والتقلد لها ، فإن الدم لاينام .. ولاتحقد على أحد فإن الموت لايبقي أحدا .. واحذر ما بينك وبين الناس ، فإن الله لايغفر إلا برضاهم .. » .





الصورة المثالية للمحارب الصليبي في مخيلة فناني القرون الوسطى، كما تصورها الفنان جراهام سيمون

خريطة تصور «مملكة القدس» بعد الاستيلاء الصليبي عليها ١٠٩٩ م مأخوذة من «تاريخ الحروب الصليبية» لروبرت مونك



وهذه بعض السمات الشخصية لصلاح الدين تتابعت في ترجمته مشاهد نزول صلاح الدين على رأس أمراء جيشه، وعدم فرض رأيه، وهو دائم طلب المشورة في أمور الحرب والسلام.

وكان مولده بقلعة تكريت، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل .. واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة، ثم ذهب إلى مصر مع عمه.

وكان من جالسه لايعلم أنه جليس السلطان، بل يعتقد أنه جليس أخ من الإخوان. ويدلل على كرمه .. منذ رحيله من حران، قال .. «انظر من بالباب من الوافدين، وهذه ثلاثمائة دينار قسمها عليهم بالقلم بأقدارهم ..» وسمعته يوما يقول «يمكن أن يكون من الناس من ينظر إلى المال، كما ينظر إلى التراب»، ويضيف «فكأنه أراد بذلك نفسه».

لقد بلغ كرم صلاح الدين حدا كبيرا، وهذا بهاء الدين يقول .. «كان خازنوه يخفون على الدوام بعض المال للطوارئ، لأنهم كانوا يعلمون أنه لو عرف السيد بذلك المخزون لأنفقه في الحال.

وإذا أضاف إليه البعض لقب السلطان، ولكنه هو نفسه لم يستعمله قط.

.. وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به .. وأنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد .. ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا إلى آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه .. وقنع بالدنيا بالسكون في ظل خيمة .. ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا».

ويصف مقدرته وعنادة في القتال وموقفه عند الكسرة .. يقول .. «لقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج

عكا ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعلم ، وهو ثابت القدم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم، ويخجلهم حتى يرجعوا للقتال ، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسئول من جانبهم .. » ، وفي مشهد آخر يصور صلاح الدين وهو يتألم من مرض ألم به ، ومع ذلك يمتطي جواده ويحمل سلاحه ويستمر في القتال ... «أما صبره فلقد رأيته بمرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعتراه .. بحيث لايستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئا على جانبه إذا كان في الخيمة ، وامتنع عن مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر ، يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى صلاة المغرب، وهو صابر على شدة الألم ...» ويصفه وكأنه يحدد مواصفات الحاكم الصالح .

.. «وكان رحمه الله كثير المروءة ، ندي الوجه ، كثير الحياء ، منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف ، يكرم الوافد وإن كان على غير دينه ، وكان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة، حافظا أنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، عارفا بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث يستفيد محاضره منه مالا يسمعه من غيره .. وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحدا إلا بالخير .. وطاهر اللسان، فما رأيته أولع بشتم قط .. فما أحضر بين يديه «يتيم» إلا وترحم على مخلفه ، وخبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه ، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ..» .

ويذكر ابن شداد .. أنه مات ولم يوجد في خزانته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة ودينار واحد من الذهب ، وهو الذي كان تحت يديه خزائن الأرض .

ويصف يوم وداعه .. «كان يوما لم يصب الإسلام والمسلمين مثله ، منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة – قلعة دمشق – والبلد والدنيا الوحشة .. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم فظننت هذا ضربا من التجاوز والترخص إلا يوم وفاته ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل القضاء الفدى بالنفس، ولو تقبل تضحياتنا لكنت أنا وغيري، قد أعطينا حياتنا له .

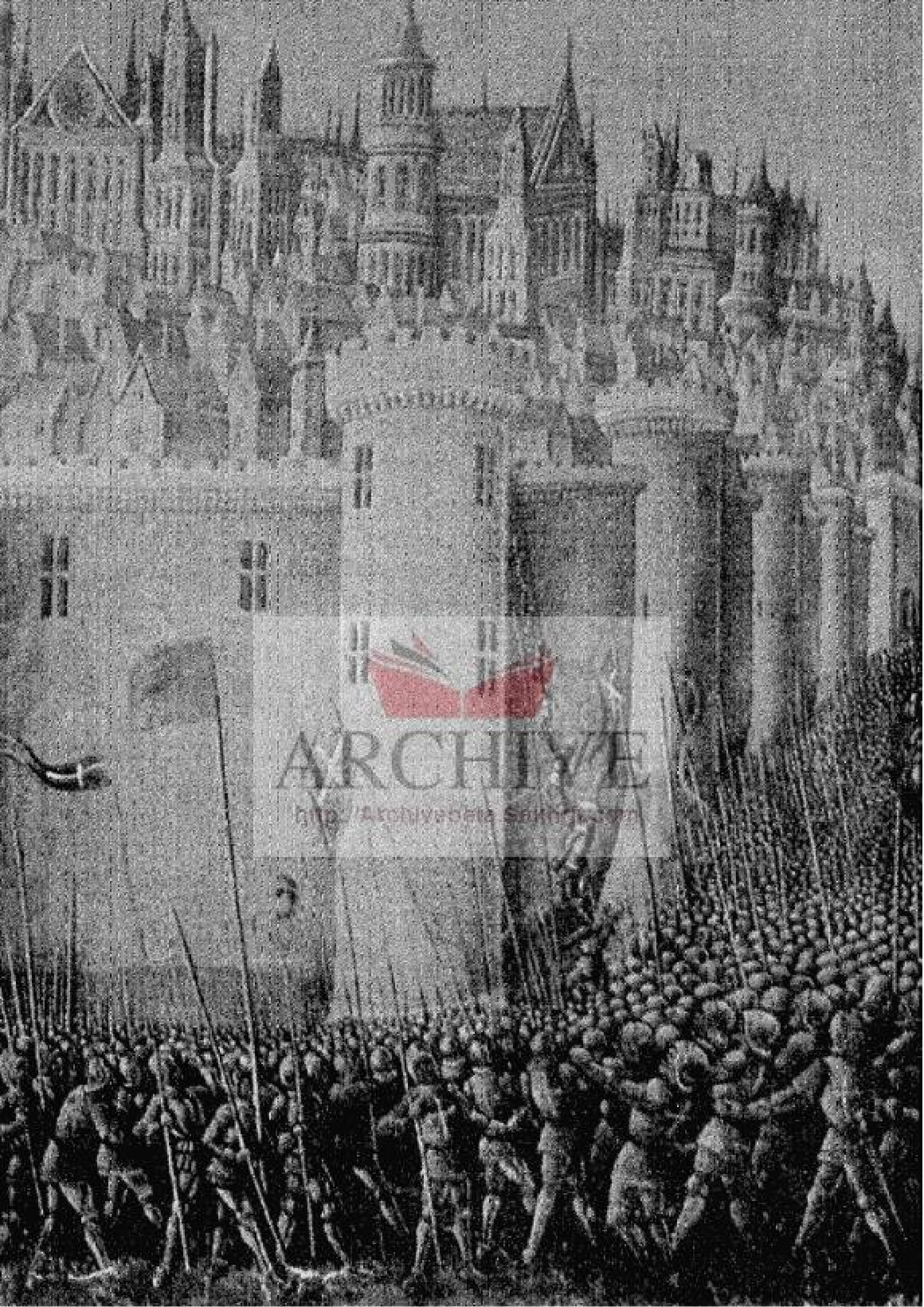
ومات عن نحو سبع وخمسين سنة، وملك مصر أربعا وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة»

مكانته ..!

وتأتي مكانته من أنه قضى معظم حياته وهو يقاتل ، رجل قوي صلب عنيد وحد الدول الإسلامية وانتصر في حطين واسترد القدس، ورغم أنه لم ينتصر في كل معاركه ، إلا أنه لم يتوقف لحظة عن القتال ، وكانت حطين أكبر من نصر عسكري ، فهي بداية القضاء على الحملة الصليبية ، وهي بالنسبة للصليبيين أكبر من مجرد هزيمة عسكرية ، فخلالها أسر ملك بيت المقدس وسقط فرسان الصليب وقضى على غالبية جيش مملكة بيت المقدس .



حصار أنطاكية «والاستيلاء عليها ١٠٩٧ ، كانت البوابة لرئيسية لوصول الصليبين إلى القدس ◄



وأجمع الأصدقاء والأعداء على مروءته واستقامته الشخصية ، فلا يعد إلا ويوفي بما وعد ، ولا يعاند ، إذا واجه صعوبة تركها ولكن لا يتخلى عن هدفه أبدا ، بل يعود إليه بعد استكمال شروط الانتصار ، ولا يخاف الصلح إذا اقتضت الضرورة ذلك ، ولم يخرق هدنة وقعها ، فكانت شخصيته تحمل من السجايا ما يؤهله لبناء الدولة التى امتدت من شمال العراق وديار بكر حتى اليمن جنوبا ونهر الفرات فى الشرق ونهر النيل فى الغرب ، وجمع القوة الإسلامية بين يديه ، وكانت قبل قيادته تقتصر على عواصم الشام والجزيرة، وما عدا ذلك فى يد الفرنج أو تحت الحكم الفاطمي . وكان الشرق نهبا للاقتتال ، وتورطت هذه الإمارات فى الحروب والمنازعات .

وعند رحيله كانت القاهرة ودمشق وبغداد صفا واحدا ، لذا كان ظهور صلاح الدين استجابة لحاجة ماسة، فسرعان ما رجع صلاح الدين إلى روح الدين ، وخلال فترة لم تتجاوز عشر سنوات ، أصبح قائدا معترفا به من الجميع .

وقد عمل على تجنب المواجهة إلا عندما يكون قادرا عليها ، وأدرك أهمية توافر المعلومات في إدارة الصراع ، فبث عيونه فى كل مكان ، ترصد تحركات الفرنجة ، وذكر ابن الأثير أن زوجة الأمير الصليبى بوهيميد الثالث كانت تنقل إليه تحركات الجيش وأخباره .. وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه ، وامتزجت عنده الفروسية بالرحمة ، وبفضل ذلك مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر ، وتجنبت ارتكاب الأعمال الوحشية التى سبق وارتكبتها جيوش الفرنجة ..

كما كان دهاء صلاح الدين السياسى لايقل عن مقدرته العسكرية ، فقد وحد المسلمين ، وقلب على الفرنجة لعبة الإيقاع بين أعدائهم ، وأوقع بينهم مدركا طبيعة المصالح التى تحركهم ، فأوقع بين بيزنطة وروما ، واستمال تجار الدول الايطالية بالتجارة مع مصر .

وصفه الرحالة ابن جبير بقوله .. «لا يأوى لراحة ، ولا يخلد لدعة ، ولايزال سرجه مجلسه» .

ووصفه عبداللطيف البغدادى .. «إن القريب منه لايستطيع سوى أن يشعر بحب ممزوج بالهيبة» .

ووصفه مؤرخ الفرنجة ويليم الصورى .. « حكمه مفعم بالحصافة ، شجاع فى الحرب، كريم لدرجة الإسراف .. » .

ولا يفوتنى أن أذكر أن الكتابة التاريخية فى هذا العصر وصلت إلى أرقى مستوى ، وهذه الكتابات دليل حى على مدى التنوع والثراء الذى وصل إليه التدوين التاريخى ، حتى أن بطلا مثل صلاح الدين ، يتعرض لكثير من النقد من ابن الأثير ، وخاصة عندما يتخلى عن حصار صور ، الأمر الذى أدى إلى قوة أعدائه ، بل ورآه مسئولا عن تحصينها وإمدادها بالمحاربين «فصلاح الدين هو الذى جهز جنود الافرنج وأمدها بالرجال والمال من التاركين لعكا وعسقلان والذين أعطاهم الأمان ..» .



رمز الوحدة

أقول .. الوحدة هي أكبر إنجازاته وطريقه للنصر والقيادة .. وتلمح بوضوح فى حكاية القاضى ابن شداد، أن هزائم الشرق كانت مرهونة بانقسامهم وصراعاتهم وخلافاتهم ، وأن صلاح الدين هو رمز وحدتهم .

وعندما كسب الصليبيون الجولة الأولى فى هذه الحرب ، ونجحوا فى احتلال كل من الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس .. كان «الانقسام» هو الجنرال الذى يعمل إلى جانبهم .

وكما كانت القدس هدف الحملة ، كانت أيضا الدافع للوحدة ..

وقبل صلاح الدين توزعت البلاد على أمراء الأتراك الشراكسة ، وعندما سعى الخليفة العباسى لإقامة جيش موحد للخلافة ، قام عماد الدين زنكى حاكم الموصل بإنزال الهزيمة بهذا الجيش ، وعندما عين الخليفة الفاطمى الحافظ ابنه وزيرا تآمر على أبيه .. «واستبد بالأمر ، وقتل كثيرا من أمراء الدولة ، مما جعل الأب يدس السم لابنه ليتخلص منه .. ».

وقبل الغزو الصليبى شهدت الشام صراعا مريرا بين السلاجقة والفاطميين وينقل د. سعيد عاشور عن المؤرخ ابن العديم قوله .. «كانوا (الأمراء) يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه !» ، والأدهى أنه لم يتوقف الأمراء عن التحالف مع الإمارات الصليبية فى صراعهم بين بعضهم البعض . وكانت الأسر العربية ترقب انهيار السلاجقة ، ولم يتدخل أحد لإنقاذ أنطاكية ، ويروى ابن الأثير .. « كان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ، وصاحب دمشق - بأننا لانقصد سوى البلاد التى كانت للروم».

ولم يكن فى نهاية القرن الحادى عشر حاكم مسلم واحد قوى ، بل كان هناك عدد من الأمراء المحليين المتنازعين، وعندما ظهر عاهل قوى ، عماد الدين ونور الدين وبعدهما صلاح الدين ، عجز الصليبيون عن الاحتفاظ بإماراتهم.

وبدأ العالم الإسلامى يقظته وأخذ يشهد غضب الأهالى العاديين ، ولم تعد هذه الحروب تعنى الحكام وحدهم، وأخذ هؤلاء يتساءلون عن تخاذل الحكام وفرقتهم ، وأخذ الفقهاء والعلماء والقضاة يخطبون فوق المنابر، ويدعون إلى الجهاد ، وظهرت الكتب التى تحض على الجهاد ، كما أثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج مشاعر الغضب .

وأدرك الجميع أن الصليبيين جاءوا من أجل البقاء ..

وحان الوقت بعد إدراك الأهالى لطبيعة الخطر أن نشهد تحركا تلقائيا .. يقدمه بهاء الدين .. «تبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص فى ردهم فلم يفعلوا، ولقد أمر من الرجالة ضربهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى قتال شديد ، وأسر الافرنج جماعة من الرجال وقتلوا جماعة .. وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا .

هذا وقضى صلاح الدين ١٢ شهرا فى قتال الفرنجة ، و٣٣ شهرا فى حملات من أجل وحدة المسلمين ، وبعد ما تحققت الوحدة ، شرع فى محاربة الجيوش الغازية ، أى أنه نجح فى إقامة الإطار السياسى الذى يمكنه من تحقيق النصر . وكانت كل الظروف تدعوه للعمل ، ويبرز هنا كزعيم مميز، لديه الفطنة والحس السياسى والرؤية العامة ، الذى يعرف ماهو مطلوب، ويعمل على إعداد أرض المعركة والسيطرة على مختلف القوى ، ثم دفعها لكى تعمل من أجل تحقيق أهدافه .

صلاح الدين فى مصر

كانت مصر بموقعها وبشرها ومواردها

كفيلة ، بترجيح كفة أحد الطرفين المتصارعين على حدودها الشرقية فى أرض الشام ، وغدت مصر الجائزة الكبرى التى يسعى إلى الفوز بها الجراكسة أو الافرنج .

هذا بعد تراجع الدولة الفاطمية وخروجها من الشام ، إما بسبب هزائمها أمام الجراكسة الأتراك وإما نتيجة ضربات الافرنج .

فقد استولى الصليبيون على القدس بعد فرض حصار على المدينة المقدسة استمر خمسة أسابيع فى يونيو ويوليو ١٠٩٩ ، وتمكن الصليبيون من اقتحام المدينة يوم الجمعة ١٥ يوليو ، وأبيحت القدس للسلب والنهب والقتل وطرد منها اليهود والمسيحيون الشرقيون ، وقامت مملكة بيت المقدس الصليبية .

وخرج بلدوين ملك بيت المقدس عام ١١١٦ م فى حملة إلى خليج العقبة ، وبنى قلعة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، وشيد قلعة فى جزيرة فرعون حتى يحول دون تدخل الجيش المصرى فى الشام .

وتحقق فى عهد نور الدين قدر من التوازن بين السلاجقة والصليبيين لذا عمل



كل منهم لكسب مصر إلى جانبه ، ووصلت قوات بلدوين إلى الفرما – أول المراكز الأمامية فى مصر والتى تقع شمال بورسعيد الحالية ، وبعدها غزا عمورى الدلتا سنة ١١٦٣ م ، ووصل إلى بلبيس ، وأغرقه الفيضان فى دلتا النيل ، وانسحب «بعد أن قتل من أهلها خلقا كثيرا وخرب وأحرق جل دورها ..».

وكانت الخلافة الفاطمية فى هذه الأثناء فى الطور الأخير من عمرها ، بعد أن أنهكتها الكوارث وأصبح الخلفاء ألعوبة بأيدى الوزراء – كما ذكرت – حتى أنه لم يكد يضرب الفرنجة الحصار على أنطاكية حتى أرسل الوزير الفاطمى الأفضل يطلب من الفرنجة اقتسام البلاد ، انطاكية لهم وبيت المقدس للفاطميين ، ولم يدرك المسلمون فى هذه المرحلة طبيعة الخطر، وظنوا أن تلك الحملات ليست أكثر من الاشتباكات السابقة بين الدولة البيزنطية والإسلامية على التخوم بينهما.

وهنا بدأ نجم صلاح الدين يبزغ عندما صحب عمه أسد الدين شيركوه، ولم يتجاوز عمره السابعة والعشرين على رأس جيش بناء على طلب شاور لمساعدته ضد ضرغام الذى يسعى للتحالف مع الفرنجة .

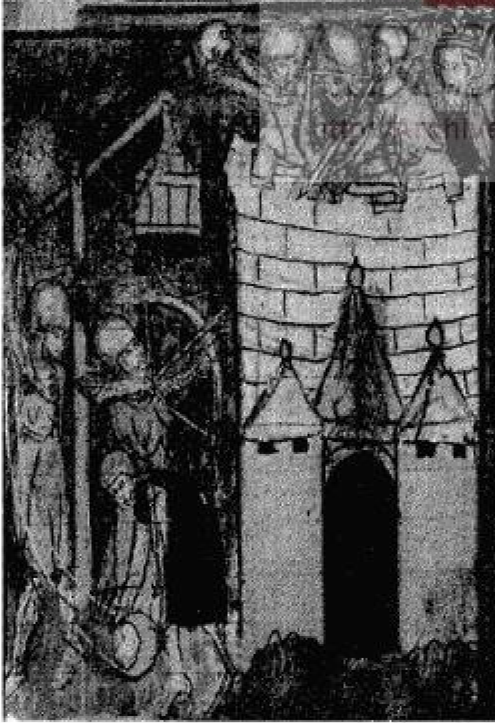
ويتناول كاتب سيرته بهاء الدين هذه المرحلة بقوله .. « إن صلاح الدين كان موضع ثقة عمه الذى لايفصل أمرا ولا يقرر حالا إلا بمشورته ، ثم عاد ودخلها للمرة الثانية سنة ١١٩٦ م . ثم اختاره الخليفة الفاطمى وزيرا سنة ١١٧١ م ، ومن يومها وهو صاحب الكلمة العليا فيها .

ويسجل القاضى ابن شداد اختيار الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه وزيرا .. » وأطلق عليه لقب الملك المنصور، ووافاه الأجل بعد شهرين وخمسة أيام، وتولى صلاح الدين الوزارة باعتباره أقل أمراء جيش نور الدين شأنا ، ولقب بلقب الملك الناصر ، ولم يكن عمره تجاوز



بورتريه لصلاح الدين الأيوبى كما صورته المخطوطات الفارسية - ١١٨٠ م

لوحة تخيلية من القرن الرابع عشر ، تتناول حصار «القدس» بالسهام والمنجنيق



واحدا وثلاثين عاما ...».

ويضيف .. « استتبت الأحوال .. وبذل المال ، وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها ، .. فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد والاجتهاد، ناشر مذهب أهل السنة ، غارس فى البلاد أهل العلم والفقه والتصوف» .

وتمكن صلاح الدين من القضاء على الخلافة الفاطمية لأن الحكم كان فاطميا والشعب سنيا ، ودعى فى القاهرة فى أول جمعة سنة ٥٦٧ هـ للخليفة العباسي ، فى ظل الخليفة الفاطمى الذى كان على فراش الموت ، وسقطت الدولة الفاطمية بعد نحو قرنين، «ولم ينتطح فيها عنزان» على حد قول ابن الأثير ..

ولم يكن بهاء الدين بن شداد محايدا ولا منصفا ، وهو يتناول هذه الوقائع ، وخاصة عندما يقول .. «كان لوصولهم إلى مصر - قوات أسد الدين - وقع عظيم ، وخافه أهل مصر،.. وعرف أنها بلاد بغير رجال!، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال !

وهو هنا واقع تحت تأثير ذلك الصراع الذى دار بين شاور وضرغام، ثم بين شاور وصلاح الدين، وكان يعيد قول شاور وهو يدعو نور الدين إلى إرسال حملة لتأييده ضد ضرغام ، ثم انقلب على الحملة واستخدمها حتى يضرب خصمه بسيف نور الدين ، وهو الذى أحرق الفسطاط ، وظلت النيران مشتعلة أكثر من خمسين يوما» .. كما «اتفق شاور مع الافرنج ضد أسد الدين» .. وجرت بينهم حروب كثيرة..» كما ينقل ابن شداد .

كما أن هذا الحديث إحدى نتائج الصراع القديم بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وعندما كانت الحرب مشتعلة بينهما فى الشام ، وعند انتزاع الجراكسة الأتراك دمشق وبيت المقدس من الفاطميين

وكان انفراد صلاح الدين بالحكم فى

مصر مقدمة لمرحلة حاسمة ، فمن الطبيعي الاستجابة إلى منطق التاريخ وحقائق الجغرافيا ، وتصبح مصر ميدانا أساسيا فى مواجهة الغزو ، وأكدت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل تلك المرحلة التاريخية . وبدأ صلاح الدين طريقه الطويل ، وقضى فى مصر ست سنوات لإعادة ترتيب الأوضاع الداخلية . يقول عندما احتدم الصراع بعد وفاة نور الدين إلى أمراء نور الدين بالشام « .. لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه ..» .

وأقام فى مصر المدارس والمستشفيات، وطهر الترع وقوى الجسور ونظم الضرائب ، إلى جانب تحصين البلاد وأقام قلعة الجبل ، وأعاد بناء ما تهدم من سور القاهرة ، كما قام ببناء حائط كبير خارج القاهرة عن طريق الاسكندرية ، مع إعداد البلاد للحرب الطويلة ، واختار مكانا بارزا للقلعة فوق صخور جبل المقطم والتى تشرف على القاهرة ، مما يمكن المدافعين من صد أى عدوان، وأحاط قلعته بخندق عميق ، ووصف ابن جبير القلعة سنة ١١٨٣ م ، بأنها حصن حصين المنعة ، ووصف الخندق بأنه «ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر ، عجبا من العجائب الباقية ، وأمر صلاح الدين بعمارة أسوار الاسكندرية، وأبراجها .. «وتردد على ثغرى دمياط والاسكندرية ، وشاهد ما استجد من السور الدائر ، وتفقد الأسطول» .



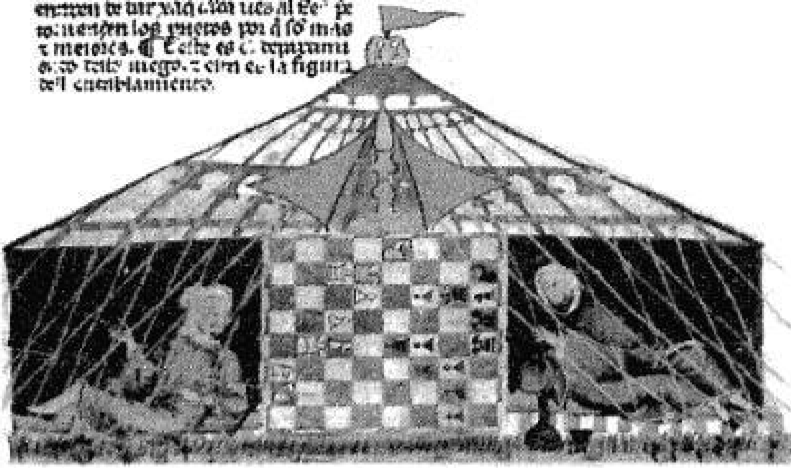
وأمدت مصر بالفعل المعركة بالرجال والسلاح والتموين ، وكثيرا ما يتكرر قول ابن شداد معلنا وصول العسكر والميرة إلى أرض المعركة من مصر ، وتمكن الأسطول المصرى من مواجهة الأسطول الصليبى ، ومثلا يقول عند حصار عكا .. «وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات ، وصلت من مصر » .

وأصبحت مملكة بيت المقدس بين شقى الرحى بين مصر والشام ، كما أن القواعد البحرية فى دمياط والاسكندرية سلبت الصليبيين سيادتهم البحرية .

ويقى أن أقول إن رمز عصر صلاح الدين فى مصر ، خصى أبيض هو بهاء الدين قراقوش (العقاب) الأسدى ، ويضرب به المثل حتى اليوم كرمز للطغيان ، وهو الذى أنجز المشروعات التى كلفه بها صلاح الدين بيد من حديد، كما جاء شنق الشاعر عمارة اليمنى فى القاهرة ، بتهمة التآمر من أجل إعادة الحكم الفاطمى ، وجاء بعدها مصرع شهاب الدين السهروردى ، بأمر من صلاح الدين ، وبتحريض من علماء حلب وفتوى منهم، ويروى ابن شداد «أن صلاح الدين كان كثير التعظيم لشعائر الدين .. مصدقا ما وردت به الشرائع ، مبغضا الفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة .. أمر ولده بقتل شاب نشأ ، يقال له السهروردى قيل إنه كان معاندا للشرائع ، وعرف السلطان فأمر بقتله..»!

وهو مؤشر واضح أنه فى ظل الحروب ، يتقلص هامش الحرية ، ولايوجد أى تسامح مع احتمالات الاختراق ، ولا شطحات الصوفية !!

وربما يمكن تفسير مقتل السهروردى ،



مخطوطة تعود إلى ١٢٨٢ ، من كتاب الألعاب لألفونس سيج ، تصور لعبة الشطرنج كلعبة عربية شعبية جذب غموضها الأوروبيين مع قدوم الحملات الصليبية ، واعتبروها تدريباً على التفكير الرياضي والمنطق الهادئ

وبيع مكتبة القاهرة الفاطمية على ضوء رغبة صلاح الدين توحيد الجميع تحت لواء مذهب واحد .

«وفى الخامس من محرم سنة ثمان وسبعين رحل السلطان قاصدا الشام ، ولم يعد بعدها إلى مصر»!

وحقا .. لقد نجحت هذه الدولة فى مهمتها التاريخية . فى مواجهة الغزو ، ولكنها فشلت فى إدارة المجتمع ، وفشل ورثة صلاح الدين فى الحفاظ عليها موحدة ، وانتظرنا دورة تاريخية مقبلة ، عندما ظهر قطز والظاهر بيبرس والمماليك ، الذين قضوا على بقايا الصليبيين والمغول معا .

بين اللين والخشونة

ومما يسترعى الانتباه ، أن صلاح الدين كان يحارب ويفاوض ، يستخدم اللين والخشونة معا ، ولم يتنازل لأحد عن غايته ، ولكنه ميز بين المهم والأهم .. وكما جاء على لسان ابن شداد .. «فانظر إلى هذه الصناعة باللين تارة والخشونة أخرى..» ، فكان على طول جهاده لايغلق إمكانية الاتصال والتفاوض مع من يقاتلهم، ولم يترك يوما الغضب أو الإحباط أو التعصب محركا له ..

كان طرفا الصراع فى أحد فصول الحرب الصليبية ، بين كل من صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا ، وكادت تقترن هذه الحروب باسمهما معا ، وتجلت صفات ريتشارد القتالية بجموحها وشجاعتها ، بنواقصها وفضائلها . فى مقابل شخصية صلاح الدين التى رأى فيها الملك البريطانى القسوة والعنف ، ويعود ريتشارد وينفى هذا الادعاء ، بعدما أظهر صلاح الدين حكمة وحصافة عميقتين نحو هذا الملك الأوروبى ، وتبارى كل منهما حتى يتفوق على الآخر فى الشهامة والشجاعة .

ويحكى بهاء الدين صفحات حول المفاوضات والحروب التى جرت بين الطرفين ، ودارت المفاوضات بين الملك العادل شقيق صلاح الدين وملك الانجليز ، حتى اقترح أن يتزوج الملك العادل بأخت

ريتشارد الأميرة جوانا أرملة ملك صقلية ، ويكونا معا حاكمين للدولة الجديدة ، ويشترك الزوجان في حكم فلسطين ، على أن يسترد المسيحيين «صليب الصلبوت» ، على أن يسمح لهم بزيارة كنيسة القيامة ، وفوجيء الصليبيون بقبول صلاح الدين بذلك ، وبدأ الصليبيون في التراجع ، وادعوا ضرورة موافقة الكنيسة على زواج الأرملة ، كما أبت جوانا أن تمكن مسلما من نفسها !

وعرف صلاح الدين أن ريتشارد يخادع ، ويأمل أن يعارض صلاح الدين ، فيغضب بذلك الملك العادل ، واضطر إلى كشف لعبته المزدوجة ، ويعلق كاتب سيرته «رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة» .

واستمرت المفاوضات واستمرت المعارك ، ووافق صلاح الدين على أن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور إلى يافا ، أما البلاد الداخلية فتبقى في أيدي المسلمين ، وتم عقد صلح الرملة في ٢ سبتمبر ١١٩٢ م . على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، ويعلق ابن شداد قائلا: «ولم يكن الصلح من إيثاره» !



بين الحقيقة والخيال

يتوق البشر عادة ، إلى نقل البطل من الحالة الإنسانية إلى «الأسطورة».. والأسطورة في أحد معانيها ، حنين جارف إلى الماضي .. ولا تهدف الأسطورة إلى وصف أحداث تاريخية بدقة ، بل هي محاولة للتعبير عن دلالتها ، أو السعي إلى قبول أحداث تاريخية وقعت بالفعل ، ولكن محاولة للتعبير عن دلالتها ، أو توجيه الانتباه إلى حقائق غير متسقة بالضرورة ومغزاها الحقيقي أنها تصف الوجدان والحياة الباطنية للجماعات ..

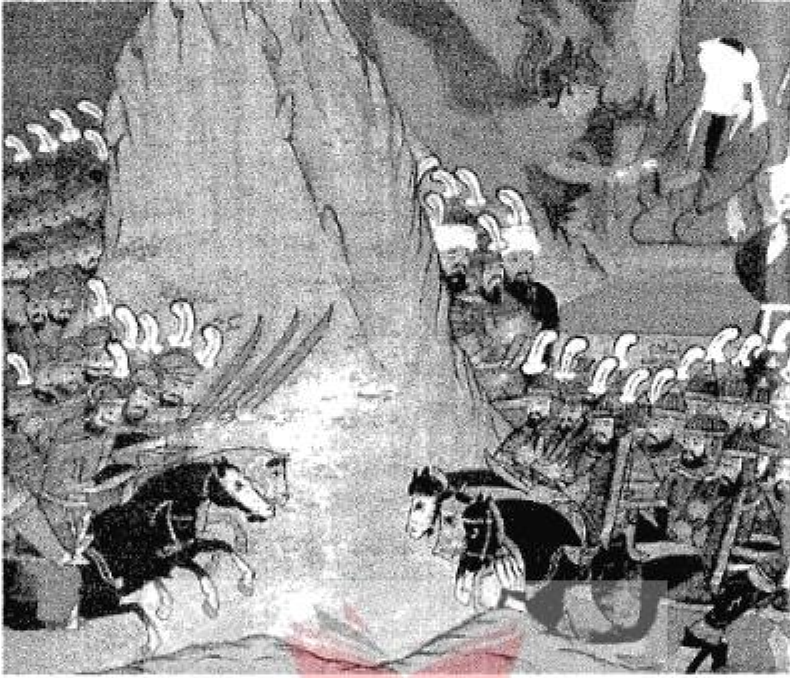
والمدهش أن صلاح الدين أسطورة حيه في الكتابات الغربية والعربية معا .. وما من قائد مسلم آخر تعلق به خيال أوروبا مثل صلاح الدين .

وأخذت أسطورة صلاح الدين تتشكل في عصر «دانتي» ، فنجد في كتاب «الكوميديا الالهية» ، تجرى الاساءة إلى خمس شخصيات مسلمة، ووضع دانتي صلاح الدين في الفئة الثانية في عالم النسيان بين الأبطال في العصور القديمة !

وأختير بطلا في الكثير من الأعمال الروائية الرومانسية ، ففي القرن الثالث عشر ، نجد أن صلاح الدين يسلب قلب اليانور أكويتين الملكة الفرنسية ، بعد سماعها عن شجاعته ، وتتناوله روايات أخرى كفارس يتمتع بسجايا الفروسية .

ويكتب السير وليم سكوت رواية تاريخية تعالج الحروب الصليبية وبطلها صلاح الدين ، وهي «الطلسم» .

ونجد في التراث العربي ، أنه سافر إلى مصر في المرة الثانية على كره منه ، ولم يكن هذا الضابط المغمور طموحا ، والذين يعرفون بداياته أنه كان يمكن أن يكتفي بأن يكون أميرا من أمراء جيش عمه ، ولكن دفع به القدر إلى مالم يخطر له على بال ، ورغم ضآلة دوره في القتال



كانت « القدس » محور الصراع بين المسلمين والفرنجة على مدار التاريخ

الذى نشب ارتفع شأنه ووصل إلى الحكم، ووجد نفسه وريث أغنى أسرة حاكمة عربية فى الشرق .

ويروى ابن الأثير مؤرخ الحروب الصليبية ، امتناعه عن مرافقة عمه أسد الدين إلى مصر ، وقوله «والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت فى الاسكندرية مالا أنساه !!» ويعزف البطل هنا عن المغريات ولكنها تسعى إليه

ويزيد الأسطورة ألقا تواضع صلاح الدين ، ويروى ابن شداد ..

«كنت أسير بجوادى إلى جانب السلطان قبالة الفرنج ، فأقبل نحونا أحد كشافة الجيش ومعه امرأة تنتحب، وتقرع صدرها ، فقال لنا : « لقد خرجت من عند الفرنج ، تريد مقابلة رئيسنا فاحضرناها .. وقالت المرأة .. دخل أمس لصوص خيمتى وسرقوا ابنتى الصغيرة ، وقضيت الليل بطوله أبكي ، فقيل لى إن ملك المسلمين رحيم ، سوف نتركك تذهبين إليه ، .. وها أنا ذى أتيت عاقدة عليك كل الآمال.. ، فتأثر صلاح الدين وفاض الدمع من عينيه ، وأرسل فى البحث عن الطفلة .. وأقبل فارس يحمل الطفلة .. وما أن رأتها الأم حتى ارتمت على الأرض ومرغت وجهها بالتراب» .

ويطول الحديث ولا ينتهى عن صلاح الدين ، ويكفى تأثيره على ألف ليلة وليلة ، فى حكايات مثل حكاية نعمان وولديه ، وحكاية نور الدين ، ومريم الزنارية ، والصعيدى وزوجته الفرنجية وغيرها . ■

جدار الفصل العنصرى له لون أخضر

بقلم
محمد يوسف عدس

«المرض الذى يهدد مستقبل الولايات المتحدة هو وجود سكان سود فى أراضيها .. فالبيض والسود يعيشان فى وطن واحد ولكن فى مجتمعين منفصلين غريبين .. هذان الجنسان مرتبطان أحدهما بالآخر ولكن بدون امتزاج .. ومن ثم فهما لايستطيعان الانفصال كلية ولا يستطيعان الاتحاد»





وردت هذه العبارات في كتاب بعنوان «الديموقراطية في أمريكا» لمؤلف فرنسي اسمه «أليكسيس دي توكفيل» كان معجبا بالديمقراطية الأمريكية فرحل إلى أمريكا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وعاش هناك يبحث تلك التركيبة الإنسانية الاجتماعية الفكرية التي أثمرت هذه الديمقراطية العظيمة، كان مدققا ثاقب النظر ولكنه ألف الكتاب بروح المحب العاشق، ومن هنا اكتسب أهمية تاريخية ومرجعية متصلة، فقد لاحظت كما لاحظ قبلي الصديق الكريم الدكتور جلال أمين الذي تفضل مشكورا بإهدائي نسخة من هذا الكتاب - أن الاستشهادات المرجعية والاقتباسات من كتاب «دي توكفيل» لاتزال يتردد صداها في كثير من الكتابات الأمريكية والإنجليزية المعاصرة.

وسوف نرى في هذه المقالة أن عبارات «دي توكفيل» التي صورت الحالة العنصرية في أمريكا منذ أكثر من قرن ونصف القرن تنطبق على الأوضاع العنصرية الجارية والتي شهدت تفجرا مثيرا في تسعينات القرن العشرين.

وقد تناولت أجهزة الإعلام الأحداث والصدمات الدموية التي جرت في لوس أنجيلوس سنة ١٩٩٢ وصورت كاميرات التليفزيون كيف انهالت الشرطة البيضاء بالضرب على شاب أسود حتى فارق الحياة، وكان رد الفعل عنيفا غاضبا من السود في كل أمريكا.

فقر ينتزع الروح

الصحفي «جافين إيسلر» يصف حالة مجموعة من السود المشردين في شوارع واشنطن بلا مأوى وقد اجتمع منهم ثلاثة وثمانون شخصا في بيت من بيوت الصدقة .. يقول: «كلهم - بلا



استثناء – يعانون من أمراض أعجزتهم عن الحركة .. من بينها الالتهابات الرئوية والدرن والسكرى وأمراض أخرى متنوعة بسبب فيروس الإيدز .. بعضهم قطعت إحدى قدميه بسبب ضربة صقيع فى شتاء واشنطن المهلك .. لا تستر أجسادهم سوى مزق من ملابس قديمة .. وقد اعتادوا أن يجلسوا فى الطرقات يتسولون من المارة بينما تمر عليهم سيارات ليموزين مكيفة وفاخرة مزودة بزجاج ملون يحجب مناظرهم عن أعين ركاب هذه السيارات وهم أقوى وأشهر رجال السياسة فى العالم، كأنهم لايريدون أن يروا حقيقة ما يجرى فى شوارع المدينة، وهى ليست كغيرها من المدن وإنما عاصمة أعظم دولة فى العالم، ويقال إنها أعظم دولة فى التاريخ الإنسانى كله!.

تقول «د. جويتشوس» المشرفة على العلاج فى بيت الصدقة: «أنا هنا منذ سنة ١٩٧٦ .. ولا أرى أمامى حتى الآن سوى أوضاع تتفاقم سوءا يوما بعد يوم ..» .. وتقارن بين خبرتها فى واشنطن وبين خبراتها الطبية فى بعثات بالعالم الثالث فتقول: «لقد شاهدت فقرا مدقعا فى زائير مثلا ولكننى كنت أرى أملا فى عيون الناس هناك، أما هنا فلست أرى بصيصا من أمل فى عيون هؤلاء الضحايا .. إنما أرى فى العيون يأسا مقنطا .. إننا نتحدث فيما بيننا ونصف مدينتنا هذه بأنها جزء من العالم الرابع، ونقصد بذلك أنها مدينة موجودة فى قلب رخاء مفرط لاحدود له. ولذلك فإن الفقر فيها ينتزع الروح من صدور البشر».

ويعلق إيسلر قائلا : ليس فى الولايات المتحدة شىء يماثل فى قدرته على إشعال الغضب بسرعة الريح الهائجة – كالمشكلة العنصرية، خصوصا عندما يصاحبها – كما هو حادث بالفعل – ذلك الفقر المذل والخوف المروع من الجرائم، ثم يضيف: «ما من واحد تحدثت معه خلال سنوات طويلة من إقامتى فى الولايات المتحدة عن هذه القضية إلا وقد أبدى استياءه من استمرارها وتطورها إلى الأسوأ حتى بلغت ذروتها فى عقد التسعينات .. إن



خطر نشوب صراع دموي بين السود والبيض هو هاجس مستمر في عقول الأمريكيين كأنه كابوس مرعب».

ويؤكد هذا أحد المواطنين السود فيقول: « من المحتمل جدا أن يكون عندنا هنا بوسنة أخرى.. أعني حربا أهلية بين البيض والسود فالرجل الأبيض مسلح حتى أسنانه » .

أمريكا المنقسمة على نفسها

صدر في الولايات المتحدة - منذ أكثر من قرن - إعلان تحرير العبيد ثم تلا ذلك نضال طويل مرير حتى أصدر كيندي إعلان الحقوق المدنية في ستينات القرن العشرين، وظن الناس في خارج أمريكا أن عذابات الأمريكيين السود قد انتهت وأن القضية العنصرية قد أصبحت مجرد تاريخ تجاوزه الزمن، ولكننا نفاجأ بأحداث جسام تزلزل المجتمع الأمريكي، فنشهد سلسلة من الاغتيالات يذهب ضحيتها الزعيم الزنجي القس مارتن لوثر كنج صاحب النهج السلمي ونبذ العنف في المطالبة بتحقيق الحقوق المدنية للسود، تمتد يد خفية لتنهي حياته وهو على المنصة أمام عشرات الآلاف من مناصريه وهو يلقي خطابه التاريخي الشهير «عندي حلم..»، ثم لا يلبث زعيم زنجي آخر «مسلم» أن تغتاله اليد الخفية على نفس النمط، ومن قبل تم اغتيال الرئيس الأمريكي جون كيندي صاحب المبادرات الشهيرة في إعلان الحقوق المدنية للسود، واغتيل بعده أخوه روبرت كيندي وكان مرشحا للرئاسة، ربما خشية أن يتابع سياسة سلفه وأخيه التحررية، في كل هذه الاغتيالات بدأت التحقيقات وانتهت إلى نتائج هزيلة وتقارير مشبوهة ومثيرة للجدل، خصوصا بعد اغتيال «أزوالد» المتهم بقتل الرئيس وهو في حماية رجال الأمن الذين ألقوا القبض عليه، اغتاله شخص مريب سرعان ما تبخر، وكأن هناك إصرارا على تبديد الحقائق ودفن معالم الجريمة وأدلتها إلى الأبد. في هذا المناخ المتوتر المظلم تجد الشائعات وقصص المؤامرات طريقها إلى عقول الناس الذين لا يفهمون ما الذي حدث وكيف حدث ولأي سبب حدث؟! وتتولى الأفلام السينمائية تفسير المستغلقات فتشير بأصابع الاتهام إلى متآمرين في داخل أجهزة الاستخبارات الأمريكية وإلى شخصيات في مراكز عليا وإلى مراكز قوى عنصرية ذات نفوذ هائل في المجتمع تعمل من وراء ستار، وتظل أمريكا منقسمة على نفسها إلى أمتين منفصلتين غير متساويتين أمريكا البيضاء وأمريكا السوداء على حافة حرب عنصرية. ولقد صدق أحد المعلقين السياسيين عندما قال: «إن الهوة العنصرية في أمريكا لم تتلاش ، وإنما ازدادت عمقا وخطرا حتى بلغت ذروتها

فى التسعينات وأصبح اجتيازها أمرا مستحيلا».

ينابيع الغضب

يظل الكلام عن القضية العنصرية فى أمريكا كلاما نظريا حتى تدعمه الحقائق والأرقام والدراسات الميدانية، وفى هذا الإطار يحشد لنا الصحفى الكاتب جافين إيسلر فيضا من الحقائق والاحصاءات ضمن كتابه «ولايات الغضب الأمريكية» تعززه دراسات أخرى جادة وإحصاءات رسمية موثوقة. من بين الاحصاءات أن ٩٠٪ من الأطفال السود يعيشون فى أحياء فقيرة ترعاهم الأم وحدها ، أما الآباء فلا وجود لهم إلا فيما ندر، وأن ثلثى المواليد فى أمريكا من أمهات سود جاءوا من طريق غير شرعي.. يعني خارج إطار العلاقات الزوجية، وأن أكثر من ٤٠٪ من الأسر السوداء يعيش أفرادها تحت خط الفقر بينما لا تزيد النسبة عند البيض على ٧٪ فقط، وهناك إحصاءات وحقائق أخرى مذهلة سترد فى سياقها المناسب. والمهم هنا أن نؤكد أننا نتحدث عن مجتمع تفشت فيه البطالة والمخدرات والفقر والجريمة لدرجة أن الرجال والأطفال فيه يعيشون فى حالة من الخوف الدائم من الموت المفاجيء الذى قد يحل بأحدهم فى أى لحظة.

ولابد أن أعترف أن أى مقالة بل أى كتاب مهما أفاض فى هذه الحقائق لا يمكن أن يستوعب المشهد العنصرى فى أمريكا بكامل تفاصيله، وعلى أحسن الفروض قد نتمكن من إطلالات سريعة خاطفة على الوجه الغاضب للعلاقات العنصرية المزمنة فى المجتمع الأمريكي.

من هذه الإطلالات الخاطفة نذكر ما حكاه «جافين إيسلر» عن خبرة شخصية صادفته أو صادفها وهو فى تاكسى يقوده شاب أسود اسمه «بن» يقول: توقف «بن» ليسمح لسيدة بيضاء يزيد عمرها على الستين عاما أن تعبر الطريق . فلما اقتربت منه نظرت إلى وجهه لم تشكره وإنما تغيرت ملامح وجهها وامتلأت عيناها بمزيد من مشاعر الخوف والسخط فعلق «بن» بمرارة قائلا: آه من تلك النظرة التي تطل من عيني شخص أبيض إذا وقع نظره على وجه أسود! كأنه قد رأى لصا أو



مغتصبا أو قاتلا أو مثيرا للشغب في منطقة بيضاء آمنة.. وكأن هناك رابطة لا فكاك منها بين السلوك وبين لون الجلد!.

الأسود والأخضر

قلت إن هناك دراسات عديدة تتناول جوانب عميقة الغور في المسألة العنصرية تتفق في مجموعها على ثلاثة أمور رئيسية:

أولا : يوجد إجماع على أن المحاولات التي اتخذت لمواجهة الفقر والخوف المتفشيين في المجتمعات السوداء قد باءت جميعها بالفشل الذريع وتجلى انهيارها التام على عقد التسعينات، واتضح أن ستين سنة من السياسات المعلنة والتصريحات السياسية عن شن حملات جادة على الفقر والجريمة كانت أضغاث أحلام ووعودا انتخابية فارغة.

ثانيا : ليست الدراما العنصرية ذات لونين أسود وأبيض فقط وإنما هناك لون ثالث يفصل بينهما هو الأخضر، ذلك هو الدولار الأمريكي ذو الوجه الأخضر، فقد حفر المال في الولايات المتحدة خطا فاصلا بين البيض والسود وأصبح الأغنياء البيض ومعهم قلة قليلة من السود الأغنياء في جانب من هذا الخط وعلى الجانب الآخر يعيش الشعب الأسود اليائس يتلظى بنار الفقر والرعب من القتل المتربص في كل ركن.

ثالثا : تصديقا لتنبؤات «أليكسيس دي توكفيل» منذ قرن ونصف القرن لاتزال هناك أسباب واقعية متراكمة من الشك وعدم الثقة، والخوف من أن الطرف الآخر يمتلك قدرة كامنة على الثورة والعنف تتفجر مع أوهى إثارة فإذا الشرارة الصغيرة تتحول إلى حريق هائل.

هذه العوامل الثلاثة يتداخل بعضها في بعض لتصنع ينبوعا من الغضب لا ينضب في قلب العلاقات العنصرية بين الأمريكيين السود والبيض، أحد الشواهد على هذه الحقيقة وأقربها الاضطرابات العنصرية التي اجتاحت لوس أنجليس سنة ١٩٩٢ وتردد صداها في كل الولايات المتحدة وشاهد أحداثها الناس على شاشات التليفزيون في جميع أنحاء العالم.. لذلك لا أجد ضرورة للخوض في تفاصيلها من جديد.

المسيرة المليونية السوداء

في التسعينات أيضا عرفنا شيئا عن المسيرة المليونية التي دعا إليها لويس فراخان الزعيم الزنجي.. احتجاجا على الأوضاع المتردية للشعب الأسود بسبب المعاملة السيئة والإهمال والعنصرية الكامنة، كانت وجهة المسيرة هي العاصمة الفيدرالية واشنطون فتدفق إليها مئات الآلاف من الشبان السود من جميع أنحاء الولايات المتحدة، وقد قيل وقتها إنها أكبر مسيرة احتجاج سوداء

على العنصرية البيضاء في كل التاريخ الأمريكي، وهذا هو القدر الذي علمناه من الإعلام الأمريكي والعالمي.

أما التفاصيل المهمة ذات الدلالة فقد تكفل بها الصحفي الانجليزي «جافين إيسلر» الذي حضر المسيرة وتابعها وكتب تقارير مفصلة عنها.. يقول : كان سكان واشنطون البيض يشعرون بقلق شديد وتبدو في سلوكهم وأحاديثهم عصبية ظاهرة.. كانوا يخشون أن يتفجر الموقف لأي إثارة غير منظورة فتتفجر ثورة عارمة ودمار وتخريب كالذي حدث في لوس أنجليس.

ويضيف: قبل المسيرة بيومين علم أحد جيراني البيض أنني ذاهب لمتابعة المسيرة وتصويرها فنظر إليّ بدهشة واستنكار قائلا : «لا أظنك جادا في الذهاب إلى المسيرة!. ألا تخشى وأنت رجل أبيض أن تحدث اضطرابات فيصيبك مكروه؟.» وقال لي صحفي أبيض: «من المفروض أن أذهب أنا أيضا لتغطية أحداث المسيرة ولكني سوف أترك حافظة نقودي في المكتب احتياطا من حوادث السرقة» وحذرني صديق ثالث: «من المؤكد أن تقع حوادث عنف في مثل هذه الحشود السوداء» ولذلك فكرت في الحصول على إجازة من العمل هذا اليوم حتى لا أخاطر بالخروج إلى الشارع».

وذكرت امرأة ابنها كان على موعد تدريبات رياضية مع فريقه في هذا اليوم ولكنها علمت أن الملاعب كلها قد أغلقت وأرجئت جميع التدريبات.

«أما في القطاع التجاري فقد أغلقت جميع الأعمال والمحلات في شمال غرب واشنطون كلها تحسبا من أعمال العنف.. وأصبحت الشوارع خاوية على عروشها.. منظر لم أشهد مثله من قبل على مدى سنوات طويلة من إقامتي في واشنطون».

كانت الرسالة المتداولة بين جميع البيض أن هذه المسيرة ليست مجرد اجتماع لمئات الآلاف من إخوانهم الأمريكيين المتضررين يعبرون عن استيائهم ومطالبهم العادلة، وإنما هو غزو أسود لواشنطون تقوم به عصابات مخيفة لإثارة الرعب والفوضى في



الولايات المتحدة.. شباب سود.. مليون مجرم من أمثال ويلى هورتون قد انفلتوا من عقالهم.. وبالمناسبة ويلى هورتون هذا هو شاب أسود أثار عاصفة إعلامية عندما اعتدى على شاب أبيض واغتصب صديقته البيضاء.. وعلى الرغم من أن هذه حادثة عادية تقع كل يوم فى أمريكا يرتكبها السود والبيض على السواء إلا أنك لا تفهم لم كان التركيز بالذات على هذا المجرم الأسود حتى أن جورج بوش الأب استغل هذه الحادثة فى انتخابات الرئاسة ضد «مايكل دوكاكيس» منافسه الذى كان حاكما ولاية ماساشوسيتس حيث وقعت جريمة القتل والاغتصاب.

يقول إيسار: عندما وصلت المسيرة إلى واشنطون دخلت بين جموع المتظاهرين وتحدثت إلى عدد كبير من الشبان السود الذين استقبلونى بترحاب ومودة.. لم تكن تنقصهم الثقافة ولا روح المرح والدعابة.. كان من بين ما لفت نظرى قميص يرتديه عدد كبير من الشبان مكتوب عليه بخط كبير عبارة «Justice? Justus» وهى عبارة استنكارية فيها نوع من اللعب بالكلمات والمقصود بها «هل العدالة تقف ضدنا فقط؟».

دراسات إحصائية

من أفضل الدراسات الإحصائية ما قام به «أندرو هاكر» وضمنه فى مقال نشر فى «واشنطون بوست» ٣٠ يناير ١٩٧٧ معتمدا على إحصاءات لجهاز الاستخبارات الفيدرالية، تستخلص منه الحقائق التالية:

الأمريكيون السود يشكلون ١٢٪ من سكان الولايات المتحدة، و١٣٪ من عدد المدمنين على المخدرات و٣٥٪ من المقبوض عليهم فى تهم الاتجار بالمخدرات و٥٥٪ من الذين ثبتت إدانتهم، ويمثلون ٧٤٪ من الذين صدرت ضدهم أحكام بالسجن فى مختلف الجرائم، وقد بلغ عدد السود المسجونين سنة ١٩٩٥ رقما مذهلا «مليون وستمائة ألف رجل» وهذا العدد يساوى عدد الرجال والنساء الذين يعملون فى مختلف فروع القوات المسلحة الأمريكية، ويجب أن نضيف إلى هذا ثلاثة ملايين وسبعمائة وخمسين ألفا من السود تحت الإشراف والرقابة البوليسية.

ويؤكد علماء الجريمة أن أسوأ الأخبار لاتزال قادمة على الطريق فجرائم الأحداث بين السود فى تصاعد مخيف.

ويتنبأ «جيروم ميللر» أحد علماء الجريمة أن نسبة المسجونين من الرجال السود البالغين سوف تصل إلى ٥٠٪ عام ٢٠١٠م. فإذا بدت هذه النسبة الآن غير قابلة للتصديق فينبغى أن نتذكر أن نسبة الأبناء غير الشرعيين بين المواليد

السود التي تنبأ بها الخبراء في الستينات وكانت حينئذ غير قابلة للتصديق – تحققت في عقد التسعينات.

وفي دراسة قام بها مجموعة من الباحثين في جامعة كورنيل بعنوان «حال الأمريكيين» وجد أن ثلثي الرجال السود في منطقتين فقيرتين يتاجرون في المخدرات وأن ما يكسبه الواحد منهم في اليوم يتراوح بين ٨٠٠ إلى ٩٠٠ دولار، حتى الأطفال الصغار ابتداء من سن الثامنة يمكن أن يكسب الواحد منهم خمسين دولارا ليقوم بمراقبة الطريق وينبه تاجر المخدرات عندما تقترب سيارة الشرطة من المكان، ولأن الأطفال متخرطون في هذه التجارة الخطيرة معرضون هم أيضا للقتل في أي لحظة عندما تشتعل الحرب بين العصابات المتنافسة، والأطفال السود الذين يعرضون أنفسهم لهذه المخاطر تضطرهم ظروف أسرهم التعيسة إلى هذا العمل، فبحسب ما كشفت عنه دراسة كورنيل فإن ثلث أطفال أمريكا السود يعيشون في حالة من العوز والضنك .

الموت والرعب

التقى إيسلر بعدد من رجال العصابات السود الذين يجوبون الشوارع فينشرون فيها الموت والرعب، يدعى أحدهم «سويت بي».. كان يلبس في أصابعه أربعة خواتم ذهبية كبيرة، فهو رئيس عصابة.. أراه منديلا أصفر هو رمز عصابته وشرح له أنها من أكبر وأنشط العصابات في شيكاغو وعندما تطرق الحديث عن العنف قال: أستطيع أن أبيع لك مسدسا «نصف أوتوماتيكي» ٩ ملليمتر بثمانين دولارا فقط وإذا رغبت في بندقية كلاشينكوف أبيعها لك بمائتين وخمسين دولارا .. واعترف بأن رصاص أعدائه استهدفه مرتين الأسبوع الماضي ولكنه رفض أن يدخل في تفاصيل هذا الهجوم.. قلت له هل أبلغت الشرطة؟ قال مندهشا: ولم أفعل هذا؟.. لا طبعا .. قلت ولم لا؟ فقال سوف أعتني أنا وأتباعي بهذا الأمر.

يقول إيسلر: في منطقة ليتل روك التي يعني بها «سويت بي» وهي بلدة صغيرة لايزيد عدد سكانها على ١٨٠



ألف تحدث فيها ٦٧ جريمة قتل فى السنة، ومقارنة بأيرلندا الشمالية - فى أثناء الحرب الأهلية بين الكاثوليك والبروتستانت خلال التسعينات - كان عدد القتلى مائة قتيل بينما يبلغ تعداد سكانها مليونا وسبعمائة ألف، فإذا طبقت نسبة القتلى فى ليتل روك على بلفاست لتوقعنا ثمانمائة قتيل لا مائة فقط.

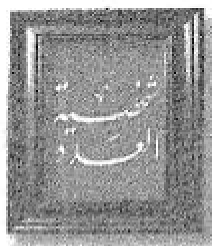
وعموما إذا كنت فى أمريكا فأنت معرض للقتل خمس مرات أكثر مما إذا وجدت فى ايرلندا الشمالية.. ففى هذه البلاد العجيبة يموت ستون أمريكيا بالرصاص كل يوم. لقد أصبح انتشار الأسلحة والمخدرات وجرائم القتل أوبئة أشد خطرا من الإيدز فى المجتمعات السوداء.

فإذا أضفت إلى ذلك الفقر والتشرد والبطالة المتفشية والأسر المتهرئة، وقطعان الأطفال الذين لا يعرفون لهم أبا ولا يجدون بجوارهم أما ترعاهم - ذلك إذا كانت هى ليست فى حاجة إلى رعاية وتربية - إذا فعلت ذلك تكتمل أمامك صورة مجتمع تتصدع أركانه وتنهار قوته ويوشك على الاندثار.. كأنه يمارس عملية انتحار منظمة، أو قل إنها واحدة من قصص المؤامرات السرية غير المستغربة على العقل الأمريكي، لتدمير القوة السوداء حتى لا تتحول إلى خطر على مستقبل الولايات المتحدة!

من قصص المؤامرات الخفية التى يتداولها بعض الأفارقة الأمريكيين مما له مغزى فى هذا الإطار - أن الطائرة التى حملت أسلحة إلى عملاء أمريكا فى نيكاراجوا، فيما عرف بفضيحة «إيران - كونترا جيت» كانت تحمل فى عودتها مخدرات سربتها كالعادة أجهزة المخابرات إلى المجتمع الأسود!

ومن الحقائق المخفية أن الحكومة الأمريكية قامت بإجراء تجارب طبية عرفت باسم Tuskejee وهى تجارب غير نمطية ولا يتم الإعلان عنها، فى هذه التجارب ترك الباحثون متعمدين رجالا من السود يصارعون مرض «السفلس» بدون علاج لدراسة تطور المرض فى الجسم البشرى حتى قضى عليهم جميعا.

وهكذا نجد أنفسنا أمام حالة عنصرية نمطية يحكم العلاقة فيها بين الأسياد والعبيد قدر هائل من الكراهية المتراكمة وانعدام ثقة مزمن وخبرات مريرة وعنيفة لم تتوقف فى وقت من الأوقات.. براكين كامنة قابلة للتفجر فى أى لحظة.. إنها حقا كما يقول «دى توكفيل»: مرض عضال يهدد مستقبل الولايات المتحدة. ■



جمال الغيطاني

بين الرواية والتاريخ

بقلم
د. سامية محرز *

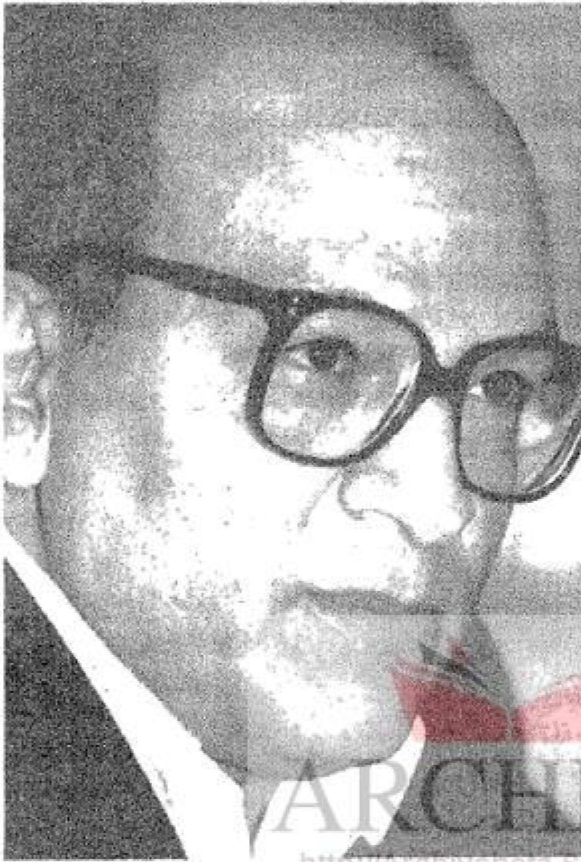
ولد جمال الغيطانى عام ١٩٤٥ فى صعيد مصر، وانتقل مع عائلته فى سن مبكرة إلى حى الجمالية التاريخى فى القاهرة، الذى أصبح فيما بعد جزءا لا يتجزأ من مسرح أعماله الإبداعية وقاسما مشتركا بين تاريخه الشخصى والفنى وتاريخ الكاتب الكبير نجيب محفوظ، الأب الروحى وحجر التكوين الأساسى للغيطانى فى مسيرته الأدبية.

وقد أفرد الغيطانى لهذه العلاقة القوية مع حى طفولته ومع ابنها ومؤرخها عملا جميلا عنوانه «نجيب محفوظ يتذكر» (١٩٨٠) حيث يستهل الكتاب بجولة مع كاتبنا الكبير فى حوارى وأزقة حى الجمالية، يتوقفان معا عند بعض معالم الحى القديم التى وردت فى أعمال محفوظ: المقاهى، الجوامع، الأسبلة، البيوت، كلها لا تزال قائمة رغم الزمن ورغم تقلباته وتحولاته منذ أن عاش فيه الكاتبان سنوات مقتبل العمر كل فى مرحلة مختلفة من تاريخ الجمالية.

وفى واقع الأمر فإن هذا النص الوثيقة، نص «نجيب محفوظ يتذكر» له أهمية مزدوجة. فهو بالطبع نص يؤرخ لنجيب محفوظ نفسه وعلاقته بالمكان: تأملاته وذكرياته عن ذلك الحى العتيق وتطور تاريخه الأدبى الملتحم بمعالمه وشخوصه التى تسكن أعماله الروائية. ولكنه فى ذات الوقت نص عن الغيطانى نفسه وعلاقته هو بنفس المكان. فبقدر ما يكتب الغيطانى عن محفوظ فى هذا الكتاب بقدر ما يكتب تاريخه هو باعتباره الابن الأصغر للجمالية، الشاهد الجديد على ملامحها المتبدلة، كاتب «الحارة» ومدون همومها وأحلامها، تلك الحارة التى وظفها محفوظ فى أعمال كثيرة توظيفا رمزيا، فورثها عنه

---

* قسم الدراسات العربية - الجامعة الأمريكية - القاهرة



جمال الغيطانى ليكمل خط معالمها وتتبع مصائر أولادها .

روافد الغيطانى الإبداعية

وقد تضافرت مجموعة من العوامل الشخصية والعملية والثقافية فى تشكيل العمل الأدبى لدى الغيطانى، وأثرت جميعها على توجهاته فى الكتابة منذ منتصف الستينات من القرن الماضى. فنراه يحول فجيعته الشخصية فى وفاة والده المبكرة إلى رمز قومى محورى فى كتاباته يعبر من خلاله عن تجربة جيله فى الستينات تجربة اتسمت بالغربة والإحساس باليتم المبكر ، ونراه يستفيد من عمله فى تصميم السجاد فى مطلع حياته محولا إياه إلى مرجعية فنية وتقنية يوظفها فى بنية النص وآليات الكتابة الإبداعية . ثم نجده ينحت لغته الخاصة من خلال قراءاته الأولى فى التراث العربى محاكيا أمهات الكتب فى التاريخ والتصوف الإسلامى، من ابن إياس والمقريزى إلى ابن عربى وابن خلكان

أما انتماؤه لجيل الستينات الذى عاش صدمة الهزيمة عام ١٩٦٧، فقد كان نقطة محورية فى الثورة على الأشكال الأدبية المهيمنة، ومقاومة ظروف الاعتقال السياسى بالكتابة الإبداعية ، ومراوغة الأشكال الرقابية بأشكال القص التجريبى. وأما مسيرته الصحافية بدءا بالتحاقه بجريدة الأخبار فى السبعينات، ثم عمله كمراسل حربى على الجبهة المصرية طوال الحرب المصرية الاسرائيلية، وفيما بعد على الجبهة الايرانية العراقية ووصولا إلى منصبه الحالى كرئيس تحرير جريدة «أخبار الأدب» الأسبوعية - كل هذه التجربة أمدت نصوصه بنبضها الحى فى تمثيل الواقع المعاش سواء كان فى مجال الرواية والقصة أو فى مجال أدب الرحلات والمشاهدات أو فى مجال المذكرات والسير. فموقع الغيطانى المتميز فى قلب المؤسسة ودوره فى التعبير عن المتغيرات الجذرية التى طرأت على الشارع المصرى فى كل تجلياته الثقافية والاجتماعية

والسياسية على مدى أكثر من ثلاثة عقود ، جعلت منه شاهدا على عصر، وجعلت من أعماله مجملة تاريخا مغايرا المدينة والمجتمع في أن .

محاور القص الغيطانى

وتعتبر أولى مجموعات الغيطانى القصصية اللافتة، «يوميات شاب عاش منذ ألف عام» (١٩٦٩) بمثابة حجر الأساس في البناء المعماري العام لأعماله الابداعية من قصة ورواية. فقد استطاع الغيطانى منذ البداية تحديد مجموعة من المحاور الرئيسية المحركة لعمله القصصى، يعبر من خلالها عن هواجسه كمثقف عضوى، ويشارك بها في صياغة «ضمير الأمة» لا سيما في عكوفه على البحث عن العلاقة بين القص والواقع، الرواية والتاريخ ، الأصالة والمعاصرة، المثقف والسلطة، الأدب والسياسة، الكاتب والمجتمع .

كل هذه الهواجس الأولى نجدها متبلورة منذ تحفته الروائية «الزيني بركات» (١٩٧٤)، ذلك العمل الفذّ الذى كتبه الغيطانى فى الخامسة والعشرين من عمره وكان ولا يزال يحتل موقعاً خاصاً فى الكتابات النقدية والدراسات الأكاديمية العالمية لما يتميز به من نضج مبكر فى صياغة اللغة القصصية، والبنية الروائية، والأسطورة السياسية.

فرواية «الزيني بركات» تخلق عصراً بأكمله وتتخذ من التاريخ المصري في العصر الوسيط (١٥٠٧ - ١٥١٨) محوراً رئيسياً لكتابة الواقع المعاصر (١٩٥٢ - ١٩٦٧) أى أنها توظف التاريخ توظيفا رمزياً وتطرح على القارئ رؤية دائرية وتوازٍ كابوسي بين تراجعات الماضي والحاضر، والهزائم التاريخية والمعاصرة وآليات القهر والقمع على مر التاريخ . وتتجلى عبقرية الرواية في تعريتها المرعبة للعلاقة بين المثقف والسلطة من خلال علاقة سعيد الجهيني الطالب الأزهري في النص مع شخصية الزيني بركات المراوغة وشخصية زكريا بن راضي الباطشة. ويجتمع الاثنان، المحتسب والبصاص على تدمير سعيد وتنتهى الرواية بأنينه المدوى أبداً «آه، أعطبونى، وهدموا حصونى...».

آليات السرد ومنابعه

أما عن توظيف اللغة في نص «الزيني بركات» فنستطيع القول إنه مفتاح آخر لتطور سمات الغيطانى الأسلوبية. فهو



● كانت للغيطانى لغته الخاصة التى استقاها من قراءاته الأولى فى التراث العربى محاكيا أمهات الكتب

يحاكي أسلوب ابن إياس في التدوين التاريخي للعصر الوسيط من جهة، ويتماهى مع خصائص أسلوب المتصوفة من جهة ، ويخرج علينا بنص يمزج بين الحالتين. وقد تحدث الغيطاني في أكثر من مناسبة عن الجهد الكبير الذي بذله كي يتمكن من كل هذه الأدوات والأساليب المتنوعة في اللغة العربية ونثرها، حتى أنه كان قد درّب نفسه على نقل صفحات بأكملها من المؤلفات التراثية «على مهل وبأناة» لا لشئ إلا المحاولة تشربة لسر الأسلوب ونفاذه إليه والوصول في الأخير إلى لغته الخاصة التي أصبحت فيما بعد تميز أعماله الإبداعية كلها سواء كانت عن الماضي أو الحاضر.

وتتوالى أعمال الغيطاني فيما بعد موظفة كل هذه الآليات السردية، ففي «وقائع حارة الزعفراني» تعتمد الرواية في مجملها على اللغة التقريرية وأسلوب الملفات «المحايد» أما «كتاب التجليات» (١٩٨٣ - ١٩٨٧) فيعاود الخوض في التراث الصوفي المتماشي مع تجربة النص ذاته وعلاقته بالغربة والموت والزمن والذاكرة .

وفي خطط الغيطاني (١٩٨٠) يصطف كاتبنا المعاصر مع مجموع كاتبي «الخطط» من المؤرخين، المقريزي، على مبارك ويطرح على قرائه تخطيطاً جديداً تنبئياً للقاهرة الحديثة .

مسئولية إبداعية

وعلى الرغم من مسئوليات الصحافة وضغوطها العملية، فقد توالت أعمال الغيطاني الإبداعية بشكل منتظم يذكرنا بانضباط كاتبنا الكبير نجيب محفوظ، نذكر من بين هذه الأعمال - على سبيل المثال لا الحصر - في مجال القصة والرواية «أرضي .. أرضي » (مجموعة قصصية، ١٩٧٢) الزويل (رواية، ١٩٧٤) ، حكايات الغريب (مجموعة، ١٩٧٦) ذكر ما جرى (مجموعة ١٩٧٨) رفاعي (رواية، ١٩٧٨)، «رسالة البصائر في المصائر» (رواية قصصية، ١٩٨٩)، «متون الأهرام» (١٩٩٤)، «حكايات المؤسسة» (١٩٩٧).

وأما عن أعمال الغيطاني في مجال أدب الرحلات والمذكرات فنذكر على سبيل المثال «المصريون والحرب»ـ (١٩٧٤)، «حراس البوابة الشرقية» (١٩٧٥)، «مصطفى أمين يتذكر» (١٩٨٣) .

وكل هذه الأعمال ، خاصة الابداعية منها، تطالب القارئ باستمرار المشاركة الفعلية في قراءة الحاضر والماضي معا معتمدة في كثير من الأحيان على زحزحة الفواصل بين الإبداع والتاريخ ، الروائي والمؤرخ ، المتخيل والواقع ■

مذكرات داوستاشي

بقلم

صافي ناز كاظم

قراءة ممتعة في سيرة ذاتية بالعربي المكسر!



عصمت داوستاشي



.. ولوحة من معرضه عام ٢٠٠٠

بجهوده الذاتية، أصدر الفنان عصمت داوستاشي الجزء الأول من «ذكريات سكندري، ١٩٤٣ - ١٩٦٣»، من سلسلته «كتالوج ٧٧»، يحتوي سيرته الذاتية في السنوات العشرين الأولى من حياته، منذ مولده مارس ١٩٤٣ حتى مبتدأ دراسته في كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية، وقد أعطى هذه المرحلة عنوان «الرملة البيضاء»، آملا أن يكون الجزء الثاني: «الرملة الحمراء»، ١٩٦٣ - ١٩٨٣ والجزء الثالث: «الرملة السوداء»، ١٩٨٣ - ٢٠٠٣، حتى إتمامه سن الستين. والكمية المطبوعة ٥٠٠ نسخة فقط، وسعر الواحدة خمسة جنيهات..

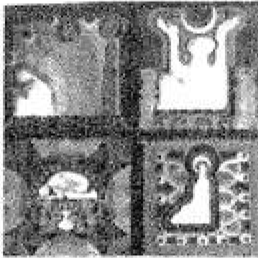
يقول عصمت داوستاشي في تقديمه لمذكراته: «أكتبها وأنا أشعر بوهن الذاكرة وبداية تلاشيها لأسجل أحداثا وأماكن وظروف وناس رأيت الآن وقد تجاوزت الستين من عمرى أنها أشياء جديرة بالتسجيل وبالكتابة عنها والإشارة إليها قبل أن يسحبها النسيان إلى العدم. ولا أستطيع أن أقول إنها سيرة ذاتية، لأنها بحق ذكريات سكندرى، عن مدينته وأسرته والظروف التي شكلته، إنها عالمى الخاص، مدينتى الاسكندرية ..» ، ولا يستغرق الكتاب سوى ١٥٦ صفحة تشمل بعض الصور العائلية القديمة للجد والجدة والوالد والعائلات الصديقة ومن ورد ذكره - مؤثرا - في الذكريات مثل «بابا سرى» شيخ تكية «البكتاشية»، التى تم نقلها عام ١٩٥٢ من المقطم، عند مغارة الشيخ المغاورى ، إلى اسطبلات الأمير عمر ابراهيم بالمعادى وينقسم الكتاب إلى أربعة فصول : ١ - الجريتلية، ٢ - البكتاشية ، ٣ - شوارع وحوارى وبيوت، ٤ - سحر الكتب، هذا طبعا بعد عنوان: «زمن البراءة والحب والاكتشاف» ، الذى يعرف من خلاله: «الرملة البيضاء» شاطىء يتوسط الميناء الغربى لمدينة الاسكندرية خلفه مباشرة فنار المدينة.. وبجواره جزيرة رأس التين حيث قصر

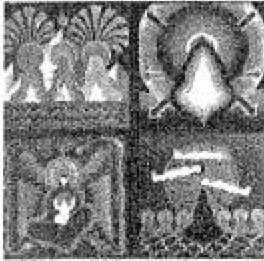


الجد إبراهيم ويسميه داوستاشى زوربا الاسكندرانى لأنه جمع بين حياته وكفاحه فى الإسكندريه وكريت

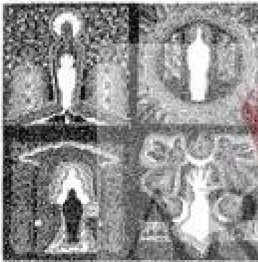


داوستاشى مع باباسرى فى ملابس دراويش البكتاشية عام ٦١ - ١٩٦٢





لوحات معرض عصمت داوستاشي (وتريات إسلامية) من وحي أشعار صافي ناز كاظم الصوفية



الملك، وهذا الشاطىء الساحر الصغير المفروش بالرمال الناصعة البياض عبارة عن جزيرة صغيرة تصل إليها بالمراكب الشراعية، ولم يكن يذهب للاستمتاع برمالها ومياهها الصافية إلا عدد قليل من الناس.. كان معظمهم أجانب فى ذلك الزمن ، نهاية الأربعينيات من القرن الماضى، كنت وقتها طفلاً صغيرا فى السادسة أو السابعة من عمرى، وكان جدى إبراهيم - الذى يعمل قهوجى فى مقهى الحاج مصطفى الجريتلى.المواجه لباب خمسة بالجمرك - يسلمنى لريس المركب الشراعى ... ليذهب بى إلى الرملة البيضاء للفسحة ثم يعود بى مرة أخرى إلى المقهى. كنت أقبع داخل المركب خائفا من البحر .. تغمرنى رائحة الميناء... كنت أرى الأجانب.. يونانيين أو طليانة يستحمون ويلعبون بحرية ومرح.. ومازالت الرمال البيضاء فى كيانى وروحى وقلبى.. منذ ذلك الزمن البعيد امتلأت بالنقاء والحب وظللت ذلك الملاك الصغير المتشبث بحبال الشراع، المنتظر العودة للديار، الذى يرى ويستمتع بكل شىء إلى أن يحين وقت الرحيل الأكبر، فينطلق ويطير.»

على الرغم من هذا المفتتح المتفائل، لا يجد عصمت داوستاشى غضاضة فى أن يناقض نفسه قبل نهاية الكتاب بصفحات قليلة، فيقول صفحة ١٢٢: « حين أعاود قراءة السطور السابقة اكتشف أننى لم أكتب الكثير، لدى ما أقول بين السطر والآخر، ولكن وبصدق أشعر بأن كل هذه الذكريات سخيفة وسانجة، فطالما لم يدفعنا الماضى إلى مستقبل أفضل فهو ماض وتاريخ فاشل ومحبط، لأننا الآن وغداً ننحدر إلى أسوأ ما نكون، ولعل الصمت كان أفضل من هذا البوح الرومانسى الذى نميل إليه».

والحقيقة أننى وأنا أقرأ ذكريات

الجدة خديجة شبرا هانم ووالدتها وابنها عبد الحليم (والد داوستاشى)

داوستاشى لم تهمنى تلك التناقضات فى مشاعره وأقواله، وتقلبه بين المرح والفرح وبين «العكننة» والتذمر ونوات الجهامة والاكتئاب، أليست هى أيضا طبيعة البحر بين زمجرة الموج العالى اللاطم وبين إشراقه الهادىء الناعم «والموجة تجرى ورا الموجة عاوزه تطولها»؟

أمتعنى كتاب داوستاشى وظللت - فى كل أحواله - أقرأه وأنا مبتسمة، بل لم يفتنى أن أضحك فى بعض فقراته وأقهقه.

يكتب عصمت داوستاشى بسلامة نية متناهية، يقول: «.. جعلنى الأستاذ السبعينى مدرس اللغة الانجليزية أكره كل لغات الدنيا، كان يعاقبنا بالضرب بقسوة، يجعلنا نقف فى صف ويضرب أول الصف ويطلب منه أن يعود لآخر الصف، وهكذا حتى نسمع صوت جرس انتهاء الحصة، فيكلفنا بواجب جديد نحفظه لنعود فى اليوم الثانى، تقريبا نفس مجموعة الصف إياها، إلى الضرب من جديد، وكانت توصية أبى له بالاهتمام بى - لأن جراج السبعينى الذى يمتلكه الأستاذ يقع أمام ورشة أبى فى أبى الدرداء - كانت التوصية وسيلته لمزيد من الضرب مع رفعى من أذنى

الإثنتين لأعلى حتى أن أنني تمزقتا ومازالت آثار هذه الجروح بها حتى الآن. من يومها لم ينطق لساني لا الانجليزية ولا غيرها ، وكان نطقي العربية بصعوبة كبيرة . لقد كرهت بالجملة كل لغات الدنيا واهتممت فقط بالفن واعتبرت الرسم هو لغتي الحميمة ، وحين كتبت ذلك في امتحان دبلوم عالي، بعد تخرجي من الفنون الجميلة، أسقطني الفنان حامد عويس في الامتحان وأخرجني من إتمام الدبلوم، وحسنا فعل . » ، يستشعر داوستاشي دائما عائق اللغة، لكن هذا لم يمنعه أبداً من أن يقول، والغريب أنني لم يداخلني الملل لحظة واحدة وأنا أقرأ كتابه، مع درايتي بكل أخطاء اللغة، نحواً وهجاء وصياغة، بالإضافة إلى الأخطاء المطبعية الكثيرة، لا يكتب داوستاشي بالفصحى أو بالعامية، إنها لغته الخاصة التي تبدو كأنها تفريغ لتسجيل صوت عصمت داوستاشي وهو يحكي على سجيته، ولا يكف عن تذكير قارئه بنقصه اللغوي، حتى وهو يفتخر ببراعة ابنه عبدالله – الذي تخرج أخيراً في كلية الحقوق – «.. يحمل ملامح بلده – مصر – وطباع أهل بلده ولغتهم الجميلة التي



تتميز بخفة الدم والفهلوة اللذين ينقصاني في لغتي، إن كانت لي لغة أصلاً..»

☆☆☆

في فصل «الجريتلية»، يحكي «داوستاشي» عن أصل عائلته التي اضطرت إلى الهرب من جزيرة «كريت»، بعد الحرب العالمية الأولى، فراراً من الاضطهاد الديني الذي جعل التعداد المسيحي في الجزيرة يتربص بإخوانهم المسلمين، من أهل الجزيرة الذين يحملون نفس الملامح والسمات ويتشاركون في الأرض واللغة والمواطنة . كان المسلمون من أهل الجزيرة مستهدفين في كل وقت بالقتل والاغتيالات مما أدى إلى هروب الكثيرين – كما يذكر داوستاشي – «إلى تركيا أو بلاد الشام أو مصر خاصة مدينة الاسكندرية، وإلى سواحل شمال افريقيا خاصة مدينتي سوسة وبنغازي في ليبيا، وأصبح في كل مدينة ساحلية بحوض البحر الأبيض المتوسط جالية جريتلية مسلمة أشبه بالقبيلة .. وقد ولدت أنا في مدينة الاسكندرية لأجد نفسي منتميا إلى القبيلة الجريتلية السكندرية من جهة والدي.....» .

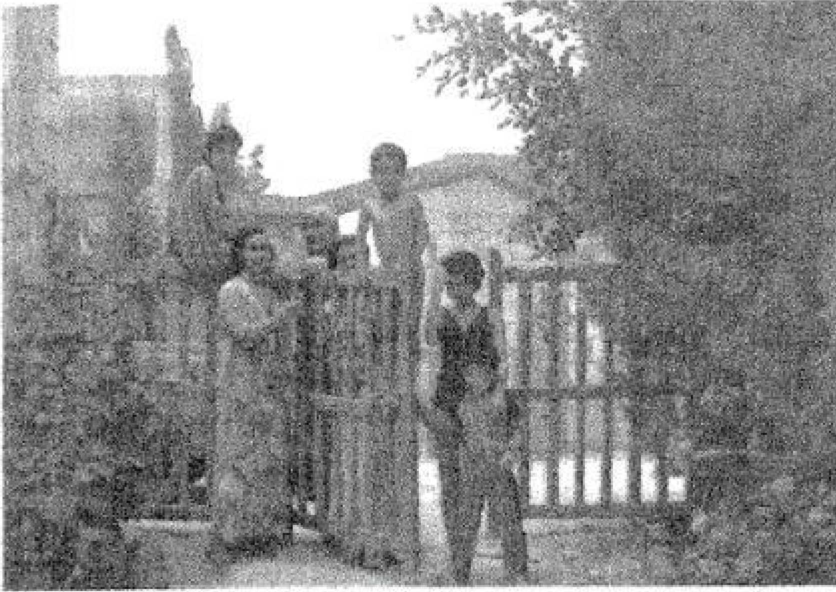
ويشرح عصمت سبب لقبه داوستاشي قائلا: «... حتى أواخر



أحدث صورة لأسرة داوستاشي مع أحفاده نور وشادى وأولاده عبد الله وسحر وسامية وزوجته الفنانة فاطمة مدكور



بابا سرى في مجلسه كما رآه عصمت وهو طفل يحاكمه على التهامه حقلا كاملا من الفول الحراتي بحديقة التكية وجطه يقول « أكره السلطة والحكام وأى مهيمن إلا الله سبحانه وتعالى »



• ما أن أدلف من بوابة حديقة مرسم بيت داوستاشي ، المشابه لتكية البكتاشية ، حتى أعرف أنني دخلت في طقس يشبه الرؤيا • . صافي ناز عند مدخل البيت مع الفنانة فاطمة مذكور وأولادها آل داوستاشي - ١٩٨٦

الستينات لم أكن أعرف حكاية اسم داوستاشي» لكنه قابل في ليبيا واحدا من أقربائه اسمه «حسين إليفانتشي..... وعندما سألته عن اسم إليفانتشي.... أجابني بأن اسم أسرتي أنا الآخر هو داوستاشي وأخبرني أن جدي إبراهيم عندما حضر إلى مصر لم يذكر هذا الاسم مطلقا، وهكذا عندما عدت في إجازة للإسكندرية بحثت في أوراق الأسرة وعثرت على وثيقة زواج جدي إبراهيم بجدتي خديجة شبرا هانم، وكان لقب جدي في هذه الوثيقة هو دواستاكي.... داوستاشي ... الاسم المتداول الشعبي لدواستاكي.... اسم ....

كريتلي صرف، وهكذا عرفت لماذا كانوا ينادونني وأنا صغير باسم - (تاشي) - فالحروف النهائية الألف والشين والياء حروف تضاف لجعل الاسم أكثر حميمية في نطاق الأسرة..... ومنذ ذلك التاريخ استعملت هذا اللقب داوستاشي كاسم شهرة لي، أوقع به لوحاتي، وكنت معروفا قبلها باسم عصمت عبدالحليم، وكانت معظم رسائلي تصلني وقد سبق اسمي لقب السيدة أو الآنسة لأن عصمت اسم مشترك بين الجنسين، ولكن بعد أن جعلت اسم الشهرة.... عصمت داوستاشي اختفت تماما صفة الآنسة أو السيدة التي كانت تسبق اسمي ....

حتى فى الأخبار القليلة التى كانت تنشر عن أنشطتى الفنيــة.... حـتى أواخـر الستينات....» ويحكى عن واقعـة هروب جده إبراهيم والد والده «...كـان جـدى وأحـد أقـاربه خـارجين من المقـهى فى قريتهم المجاورة لخانيه، عاصمة كريت، حين أطلق عليهما الرصاص فقتل قريبه فوراً، هكذا كان يتم تصفية المسلمين من أهل الجزيرة ، ثم استدعوا جدى للتجنيد ليرتدى ملابس الجنود اليونانيين ليحارب أهله.... فقرر الهرب من الجزيرة كلها، وهكذا تم لفه فى سجادة والمرور به من المنطقة الجمركية إلى السفينة المتجهة للاسكندرية .... وعندما وصلت السفينة الاسكندرية ذهب مـــصطفى أفندى الجريتلى، صاحب مقهى باب ستة، كقهوجى يرتدى ملابسه التقليدية فوطة وغطاء رأس ويمسك بصينية عليها أكواب الشـاى والقـهـوة ودخل الميناء من باب الجمرك كعادته فى توصيل الطلبات ، والتقى بجدى إبراهيم داخل السفينة، وأعطاه ملابس القهوجى والصينية .. أخذها جدى وخرج بهـا من المنطقة الجمركية وهكذا وجد نفسه فى المدينة. هذه الحكاية سمعتها من جدى مباشرة ومن جدتى وأحكيها للمرة الأولى، وعندما سألت عن سبب اختفاء اسم داوستاشى، علمت أن جـدى لم يذكـره فى أوراقـه بمصـر لأن اليـونانيين كـانوا يرسلون



صافى ناز مع عصمت داوستاشى فى حديقة بيته / مرسمه فى بيطاش العجمى عام ١٩٨٦

جواسيسا يبحثون عن الجريتلية الهاربين من التجنيد والقبض عليهم وترحيلهم مرة أخرى إلى كريت، التى أصبحت يونانية بالكامل... كان جدى يسمع وهو يعمل بالمقهى ، بعد وصوله ، من ينادى اسم داوستاشى فيتجاهل هذا النداء تماما، وإلا قبض عليه كهارب من العسكرية اليونانيـة، وهو الذى هرب... حـتى لا يضطر لأن يقـاتل أهله من المسلمين ويحاربهم ...».



بعد أن تزوج الجد إبراهيم الجدة خديجة شبرا هانم، من القبيلة أو الجالية الكريتلية، تمت ولادة عبدالحليم إبراهيم، أبو عصمت، سنة ١٩٢٠ بالاسكندرية، ويقول عصمت: «في الاسكندرية عاش جدي وجدتي عيشة فقيرة للغاية...» ومع ذلك استطاعا أن ينهضا وأن يتركا في ذاكرة الحفيد الحنين الأبدي إلى تدليلهما: «.... عايشت الحياة الجريتلية في منزل جدتي والحياة المصرية في منزل أمي وتكونت هكذا شخصيتي، مزيجا من الحياتين اللتين كونتا شخصيتي السكندرية البحر متوسطية عن حق».

***

عام ١٩٨٣ أرسل عصمت داوستاشي إليّ خطاباً شيقاً ممتلئاً بالرسوم والحكايات والكلام الطيب، وكتبت في زاويتي «مونولوج»، التي كنت أنشرها وقتها في مجلة الكواكب، أتساءل: «.. لكن من أين جاءت هذه الداوستاشي وما معناها؟..» وفتح هذا التساؤل باب الصداقة التي تجمعني به وبزوجته الفنانة النحاتة فاطمة مدكور منذ ذلك التاريخ. كانا يكتبان معا في



مجلة د . يحيى الرخاوي «الإنسان والتطور»، وأدهشتني فاطمة بكتاباتها الجديدة تحت عنوان «رحلة لا مجدية». بعد ذلك تركت فاطمة مدكور النحت لأسباب صحية وفكرية، فالنحت يتطلب قوة جسمانية لم تعد موجودة بما يكفي عند فاطمة، التي بدأت تشكو الإرهاق السريع، بالإضافة إلى الطبيعة التأملية التي تشكل جوهر شخصيتها الثقافية، والتي قادتها لترى أنها لم تعد ترتاح إلى «فكرة» النحت من الأساس. واستمرت فاطمة في الكتابة، تدون أفكارها بأسلوبها الطليعي الخاص جداً، حتى بلغ بها التأمل الثقافي إلى الزهد كذلك في التدوين ، وإن لم تكف عن التعبير من خلال حديثها المنطلق بتدفق كلما وجدت أذنا مصغية .

على مدى كل تلك السنوات، الواحدة والعشرين، منذ ١٩٨٣ حتى الآن، تحولت معرفتي بأسرة عصمت داوستاشي وفاطمة مدكور إلى صداقة وطيدة متغلغلة في القلب، وإن انقطع التزاور بمساحات هائلة من البعد الزمني. هناك دائما إحساسي بأنهما ملاذ آمن دافئ أستطيع، في أية لحظة، أن أهرع اليه

عصمت داوستاشى فى تشكيل فنى مع إحدى لوحاته

وأختبئ فيه، من الضيق ولطشات الاكتئاب، من دون مقدمات أو استئذان. هما، بتوأميهما، سحر وسامية، وابنهما، الذى أسمياه أتون فى مرحلة عشقهما للفراعنة حتى احتج هو شخصيا عندما اشتد ذكاؤه فغيره باختياره إلى «عبدالله»، ببيتهما الفنى الأعجوبة فى بيطاش العجمى. ما أن أدلف من بوابة حديقة ذلك البيت - المشابه للتكية البكتاشية - حتى أعرف أننى دخلت فى طقس يشبه رؤيا النائم: أسمع وأرى ولا أتكلم ولا أشارك، محايدة، هادئة، منتظرة، بعد الخروج، أن أصحو من الحلم حتى أحكيه وأفسره خيرا اللهم اجعله خيراً! فاطمة فى تلك الرؤيا تتكلم بإيقاع التفكير، الذى حين يتوقف لا يصمت فهو يبحث فقط عن التعبير الصائب والكلمة التائهة. مشحونة طيلة الوقت بالفرز بين المقبول والمرفوض. سحر وسامية وعبدالله استكمال زخرفى لهذه العائلة فى إطارها «فوق الواقعى»، وعصمت داوستاشى فى حركة عمل دائبة، مغلق الفم، مسهب فى تشكيل الأشياء فى «دروته» الخاصة، التى يكون فيها شديد الحضور وكامل الترحال، مستميتا فى البحث عن نافورة المياه التى يريدها لحديقته حتى تكتمل عنده أركان «التكية» التى كانت ملعب طفولته. ■





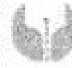
صنع الله إبراهيم

ورواية الحاضر بوصفه تاريخا

بقلم

إبراهيم فتحى

يواصل صنع الله إبراهيم فى أحدث رواياته أمريكانلى (أمرى كان لى) منهجه الفنى الذى تميز به منذ أن نشر روايته الأولى «تلك الرائحة» ١٩٦٦، إنه يحاول إعادة اكتشاف كل شىء وتحريره من الصور المتداولة الملتصقة به. وكل شىء عنده يشمل الأحداث والأفعال والأفكار السياسية وطرق الكتابة وموضوعات الكتابة، وهو يعتبر نفسه روبنسون كروزو يقدم العالم، ويقدم إحساساته ومشاعره فى تلقائيتهما الفورية المباشرة، بعد نزع الأردية الاستعارية والمجازية المفروضة عليها، وفى «أمريكانلى» يلعب دور كولومبوس معاصر يعيد اكتشاف أمريكا مركز العالم، ويسترجع من خلالها تاريخه الشخصى وتاريخ مصر وتاريخ العالم العربى باحثا عن أصول وبدايات.


إنه كمؤلف يرتدى قناع مؤرخ أكاديمي مصرى ذهب إلى أمريكا ليحاضر فى معهد التاريخ العالمى، وقد ترك له مدير المعهد حرية اختيار الموضوع الذى يحاضر فيه، واقترح أن يتناول تجربته الذاتية كمؤرخ، والمنهج الذى اعتمده لنفسه فى البحث التاريخى، وهذا المركز أو المعهد أسسه أمير نفطى بنى فى صباه قصرا كلفه ٣٠٠ مليون دولار، ثم حصل على عمولة قدرها مليار دولار عن عقد تليفون بلده مع شركة التليفون والتليغراف الأمريكية، ودفع فى تأسيس المركز عشرين مليون دولار.

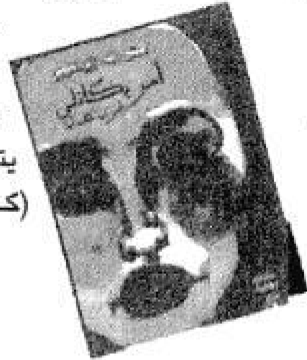
وبدءا من البداية يطرح الروائى مسألة موضوعية الكتابة التاريخية، وواقعية الكتابة الروائية للتساؤل. فالرواية الخيالية الفنية ورواية التاريخ عند المؤرخين يشتركان فى هدف تحويل حركة الواقع والمجتمعات والحياة الإنسانية إلى أبنية للمعنى وقد تشيد الرواية وقد يشيد العرض التاريخى نصوصا لها زمنها الخاص وموقعها الخاص وتمثيلات أفراد وجماعات، إن صنع الله فى قصه المتخيل للحاضر بوصفه تاريخا يقدم عملا فنيا يهتم ببناء شخصيات ليست راكدة متحجرة أو سطحية، بل مكتملة قادرة على الإدهاش بطريقة مقنعة كما يهتم بالجمع بين فورية الأحداث التفصيلية والاتساق الكلى للعالم المصور، ويجعلنا صنع الله نحس بمضامين التاريخ واتجاه حركته وانعكاس ذلك الاتجاه (قلبه) أو تحوله، فى نسيج حياتنا اليومية، والتاريخ فى هذه الرواية يصنعه البشر ويصنع البشر، ولانرى فى كل رواياته الحركة التاريخية كأنها مخطط تجريدى أو كروكى متخشب، فهو لايكتب روايات ذات قضية جاهزة أو ذات مفتاح.

وعلى الرغم من أن الرواية متخمة بأفكار كثيرة جدا، وراويها يمتلك طاقة ذهنية متفجرة، فهل عاقه ذلك عن أن يكون روائيا مبدعا؟ إن مشاكل التأليف الروائى، التى تتشكل من حلقات يمكن أن تمتد إلى مالانهاية، تتناول التوتر بين حميمية وجوده الخاص وبين موقفه العام. فالرواية إشكالية، بمعنى أن فعل الكتابة، تسجيل المحاضرات وسياقاتها الخاصة الشخصية والسياسية، هو جزء محورى من طريقة بناء النص الروائى، أى أن كتابة الرواية جزء محورى من مادة تناول الرواية نفسها، لذلك تستكشف الرواية العلاقة

المتناقضة بين الحياة كما يعيشها الناس وفكرتهم عنها، وتصوير الفن لها، كما أن الحياة الجنسية للبروفيسور شكرى، قناع صنع الله، ملغمة بالإذلال والقلق والإحباطات والاستمناء (كل روايات صنع الله كذلك دون «نفاق»).

الخاص والعام

وهذه الحياة الحميمية الجنسية المسهبة تحاول أن تقفز إلى المجال العام لتتكلم لغة التمرد، وتمثل مجالا ممكنا لحرية متخيلة لم تخنقها قيود تقليدية، فالتخيل رغم مايحيط به من تعاسة وإملاق يحاول تصوير حلم علاقة مساواة نقية خالصة بين الذكور والإناث بعيدا عن إملاءات سلطة الموقع (أستاذ وطالبة)، أو الامتياز الطبقى (حبيبته السابقة التى تزوجت غيره أكثر استقرارا). ونجد فى هذه الرواية التاريخية استكشافا لتاريخ عاطفى حسى للمجتمعات، يحاط عادة بالخفاء والسرية، وبمعايير مزدوجة جامدة فى تقييم ربات البيوت وكاسبى العيش، فالرجال يتطلبون (كما فى



قصة كلينتون والمتدربة) تنوعا جسديا جنسيا قبل الزواج وبعده، وتحكى الرواية عن تغيرات ضخمة فى العلاقات الحميمية بين الرجال والنساء، عن حق النساء فى الممارسة الجنسة والتمتع بها دون حفظ أنفسهن للعريس المأمول، فالفتيات فى الرواية (معظمهن طالبات أمريكيات) متاحات احيانا فى لقاءات عرضية سريعة، يحصلن على اللذة ويمنحنها، أما العلاقات طويلة المدى عندهن فتتطلب شخصا ملائما اقتصاديا وثقافيا، وتبدو الفقرات الجنسية الطويلة فى الرواية، أى تلك العلاقات الشخصية الطافية بحرية، نقاط ربط بين الجسد وهوية الذات والمعايير الاجتماعية المرنة. فالجنس فى الرواية تعتبره التعليقات والتقييمات المعلنة وتقييمه من زاوية إعادة انتاج شكل العائلة والذوات المنخرطة فى تراتب العمل وتصنيف السلوك الفردى الملائم للمراكز الاجتماعية المرموقة، فهو من ناحية المعلنة وتقييمه من زاوية إعادة انتاج شكل العائلة يخضع جزئيا للضبط والقمع (فى تاريخ الراوى) فى المدرسة ومكان العمل والحياة الاجتماعية عموما التى تخلق أجسادا مطيعة متحكما فيها لا تتحرك أو تسلك

تلقائيا بحافز الرغبة، ولكنه من ناحية أخرى فى الولايات المتحدة، يعتبر مع الجسد شيئا يملكه الفرد، وتسهب الرواية فى الحديث عن المثقفين أو نسبة عالية منهم يعتبرون الاستمناء طريقة لتحسين الاستجابة أو مصدرا للذة عبر الأخيلة المنطلقة، وفى هارفارد حلقة دعارة الطالبات تأخذ الواحدة فى اللقاء ٣٠٠ دولار، فلو «اشتغلت» ساعة كل يوم تحصل على أكثر من راتب البروفيسور وتبدو الأنشطة الجنسية فى الرواية بناء عقليا اجتماعيا يعمل داخل مجالات الامتياز والنفوذ والسلطة وليست مجرد استثمارات بيولوجية (وإن اختفت الرواية أحيانا بتلك الاستثمارات فى طابعها الفزيولوجى الغليظ) تجد منفذا أو لاتجده، ويوضح السرد الروائى أن الجنس الآن ظاهرة لها طابع المؤسسة، شديدة الثقل: آلاف الكتب والأفلام والأشرطة والصور والعيادات وحوانيت البيع، وقد تومئ بعض الفقرات المطولة إلى أن الجنس يكاد يكون نواة للتجربة الانسانية بكاملها وقد يبتلع نظرات الراوى، يسقط بصره عادة على الأكتاف العارية البيضاء، والأثداء الثقيلة التى يظهر أعلاها واهتزازها، والشورتات البيضاء



القصيرة للغاية التى تبرز جمال الأفخاذ والسيقان حتى المنفرج منها، والركب المتبادعة التى تدفع الدماء فى عروقه، ولكنه من ناحية أخرى يسدل طابعا مأساويا مجانيا على صورة الجسد فأجزاء اللحم التشريحية المحاطة بالرغبة المراهقة يربطها فى صباه حينما كان يقطعها من صفحة أخبار اليوم أيام الملك، بما فى ظهرها من صور سياسية تشوه الزعماء الوطنيين المعادين للاحتلال، كما أنه لكى يصل فى خياله ما بين أسفل صدر المرأة وأعلى الركبتين، شاهد لأول مرة صور عشرات من النساء كاملات العرى: فلسطينيات من أهالى دير ياسين فى أبريل ١٩٤٧ جردتهن عصابات مناحم بيجين من ثيابهن بعد اغتصابهن وذبحهن وتكويمهن على شاحنات عسكرية، تمام الجسد الأنثوى، الجنسى والقتل، فالبحث عن المرأة (الخاص) مرتبط دائما بالبحث فى التاريخ (العام)، فقد تميزت

الرابطة بين الزوجين من روابط القرابة الأوسع وإعطاؤهما دلالة خاصة فى مشروع يبدو برا ورحمة وعاطفية. البيت العش الهادىء دعم وجدانى بدلا من نفعية وصراع السوق. الآن بعد حبوب منع الحمل والعوازل الطبية هناك جنس متحرر من جولات مزمنة للحمل والميلاد والنزيف والحمى والموت، لذة خاصة بالأفراد ومعاملتهم الشخصية ثم الإيدز والموت، ويرتبط الجنس فى الرواية بالهوية الذاتية فى تغير اشكالها مع الانتقال فى المكان والزمان، وفى أسلوب حياتها مونيكا التحقت متدربة بالبيت الأبيض ١٩٩٥ بفضل نفوذ والدتها التى قدمت تبرعات كبيرة لحملة كلينتون الانتخابية، لقاءات الجنس الشفوى والرئيس يواصل مكالمة مع مستشاره السياسى، السياسة والفعل الجنسى، كل الأمور فى التاريخ يمسك بعضها ببعض.

السرد الروائى التاريخى

كيف يحكى الراوى سيرته الذاتية فى «أمريكانلى»؟



لقد تمثل منذ طفولته أطرا حكائية من أهله ومن مدرسته ومن الكبار وهم يحكون مايجرى لهم وعليهم، أى تمثل طرزاً معينة، صيغا معينة، للبدء والحركة والختام، للتبرير والتقييم ظل يستخدمها فى وصف تجاربه ووقائع حياته الخاصة، وحينما يحلى ذكرياته لاتواجهها فى المحل الأول الانطباعات والصور الذهنية فى تفردها وانعزالها بل الشكل المقرر المقنن من الحكى فالذات ليست ذرة خصوصية، أو فردا له جوهر فطرى، أو نواة موحدة يمكن أن تحكى قصة معزولة تماما، خيطا منفلتا من نسيج علاقاتها، ويبنى الراوى ذاته ذهنيا وانفعاليا وحسيا انطلاقا من حكايات سمعها وضمها عن آخرين وبناها عن نفسه، وذات البروفيسور شكرى قصة أعاد كتابتها أمامنا دون انقطاع، ليخبرنا عن حياته اتى ينتجها ذهنيا، مغفلا الكثير مؤكدا أشياء بعينها هل يؤلف أو يصوغ مفردات كثيرة فى نسق تفسيرى، فى نموذج يتخيل، تركيب سردى، هو خصوصيته؟ نفس الشخص طول الوقت يواصل البقاء، إنه يزاول تجارب وأحداث حياته فى العائلة والمدرسة والجامعة، فى تقلبات الخط كما يفسرها أمام طلبته

وطالباته من خلال تعبيره عن إحساسه بقصة حياته، ويعرض نفسه وكل ما حدث له محاصرا بقصصه وبقصص الآخرين بلغة هذه القصص ويبدو، أمامنا أنه يحيا حياته في مصر وأمريكا كما لو كان يرويها، متحددا بحكايات عن نفسه، ذاته ليست في الرواية شيئا وحده في البيت أو الفصل الدراسي أو في حمام الجامعة فوق القاعدة البلاستيكية للمرحاض هل هي وجهه وانعكاس فخذيه منقولين عبر المرآتين الصغيرتين؟ أم كيانا يشيده يخترعه أحيانا بواسطة حكايتها وكتابتها؟ إنه يقدم ذكريات كثيرة تتحول إلى سريان دمه وطريقته في النظر والالتفات ووعيه بنفسه، ولكنه لايحكيها لصالحه ولايغفل الأجزاء غير المريحة من ماضيه أو يضع عليها أجمل الوجوه أحيانا يقوم بالتقريع بدلا من التجميل، ولكن كل استرجاع قد يحمل تغييرا مهما حاول تدقيق الفهم وتقديم سرد استقرائي كل ولائه للواقع. أن المؤرخ في الرواية مشتاق لتنظيم تجارب حياته المبعثرة في شكل يريد أن يعطيه معنى وأن تمتلك المعطيات امكانات جمالية وسمات موجبة، رمزية التاريخ عنده رواية والرواية تاريخ، هل تقترب ذاكرته



من «الحقيقة» في صراحتها المؤلمة الفاضحة الجارحة؟ أغرم بتلميذ في مدرسته الثانوية له شفتان جميلتان طالما سعى إلى تقبيلهما دون فائدة. تساؤل حول تصميم الحكي، أين بدأ وأين انتهى، كان من الممكن أن يبدأ من موضع آخر وما من نهاية ضرورية محكمة. اللغز الذي شوقنا لتتبعه أي الرسائل والأزهار الغامضة التي وصلته لم نعرف من أين أتت، ولا ماهي أهدافها، ولم يهتم السرد بإدماج الأحداث المتفرعة الاستطرادية المشتتة في خط قصصي متتابع منتظم. فالواقع مرعب عبثي. ويناقش السرد تصنيع الواقع وتزييفه في أجهزة الإعلام. الوقائع يعاد ترتيبها من جانب الشركات العملاقة. الميديا والأكاديميا متداخلتان. هناك وهم أن الباحث التاريخي أو الروائي يستطيع أن يكتب ما يشاء ويبيعه للناشر الذي يعجبه ويبيع حقوق نشره مسلسلا لإحدى المجلات ثم تستطيع شركة

توزيع عرضه في المكتبات، وخلال ذلك يشتريه ستوديو سينمائي ويحوله الى فيلم ويبيع الحقوق للتليفزيون، كل هذا دون اعتراض من الدولة !!. ولكن الوكيل والناشر مملوكان في الغالب لنفس الشركة التي تملك المجلة وشركة التوزيع والمكتبة وستوديو السينما وسلسلة دور العرض والقناة التليفزيونية. المهم أن الكتاب (البحث أو الرواية) يجب ألا يتعدى موضوعه خطوطا حمراء معينة وإلا احتاج معجزة لكي يفلت من كل هذه الحواجز (المنافسة موجودة ولكنها بين احتكارات الأقلية). الرسائل الجامعية لا تقر إذا خشي المشرفون أنها يمكن أن تؤثر على حظ الجامعة من المنح التي تقدمها الشركات الكبرى .

ويشبه المؤرخ الروائي في الاهتمام بطريقة عرض الوقائع . ما التاريخ؟ إن المنظورات المختلفة تستقي معاني وحقائق مختلفة من نفس الأحداث من خلال تفسير الشواهد الوثائقية فالماضي ليس كيانا متشيئا يتم عرضه بحياد



في ذاته ولذاته. بل إن اهتماماتنا ومصالحنا الحاضرة الضيقة الأفق تعيد تفسيره . الراوي يبني «الحقائق بإضفاء معنى خاص على الأحداث. الوثائق لا تتحدث بنفسها بل يتحدث عنها المؤرخ أو الراوي الذي يضم الوقائع والاحصائيات المتناثرة عن الماضي في هيكل يبدو منطقيا متكاملا

الروائي في أمريكانلي يعيد تنسيق الوقائع وترتيبها وتقديمها وتأخيرها وتغيير أوزانها النسبية بنجاح محققا القيمة الفنية في الدلالات الانسانية والترابط البنائي الشكلي والرواية ترفض الزعم بأن الحياة لا تحكي قصصا فهي عشوائية في تشوش فوضوي سيال، ولكنها لا تزعم أن الروائي يجب ألا يترك نهايات كثيرة دون حسم ، فالحياة الفردية فيها الكثير من اللاعقلانية واللاوعي وهي لا تختزل حياة الإنسان إلى الوظيفة الاجتماعية رغم أنها تستكشف الأبعاد التاريخية للوجود الانساني .

كما لا تقف عند تصوير وضع محدد أو المجتمع في لحظة معينة. فالتاريخ فيها ليس خلفية تفسيرية ديكورية بل هو عنصر مكون لأنماط الذاتية والفردية . إن مصائر الأفراد

فى الرواية يجرى تعقبها عبر لوحة واسعة من التغيرات الاجتماعية والأحداث التاريخية، ويضىء الاجتماعى الفردى، ولكنه لا يستنفده، كما تتفاعل دلالة كل منهما دون اختزال الفردى الى الاجتماعى. الحيوات الفردية مستغرقة فى صراعات وازمات وتشنجات وتقلصات واضطرابات عبر قرن كامل. وهناك تجاوزات وانتهاكات، وتفريغ انفجارى لتسلطات جنسية كأنها تحديات وجودية للروتين الخانق والموت فى الحياة. الراوى يدرس فى سمينار وهناك متلقون ومتلقيات داخل النص طلبة مروى لهم يصغون لخطابه ويقاطعونه بالتعليقات والاسئلة. ويقدم الراوى ما يشبه ان يكون مونولوجا دراميا. هو فى الستين ويحس بعمره ويأسره جمال الفتيات ويقع فى شرك علاقة عابرة مع احداهن، فالنص يشكل فعلا كلاميا طويلا، أحيانا يكون فى موضع الأب ويعد المحاضرات يصارع شعورا بالغثيان القلق ازاء جلده المرتخى المتهدل، والمجاعة الجنسية لمراهقته فى منتصف القرن.

وهو يقترب هنا من مجتمع التساهل، من جيل يستقى استنتاجاته عن العالم وطبيعة التجربة ومباهجها من الأعضاء التناسلية. ولكن ما لدى الفتيات من حيوية وفتنة يجعلانه يشعر بسنوات عمره ثقيلة فوق



نبضه. ويتخيل أن الزواج النفعى، فى مشاهدته لبعض العلاقات، فى علاقة مقصورة على واحدة مملة لا تتمشى مع الاشباع الشهوى. ويبدو أن تخيلات الراوى الشبقية تذهب الى أن المضاجعة وحدها هى التى تجعل شيخوخته حية فليست مجرد احتكاك ومتعة ضحلة بل كأنها انتقام من موت وعقم وهزيمة.

وتحمل الرواية على تحدى خيال الثقافة المهيمنة فى، انتهاكها للافتراضات المقرة عن العلاقة بين الكاتب والقراء كما ينبغى.

المشهد الثقافى العربى

وثمة استعدادات ضخمة لتنظيم مؤتمر دولى ضخم عن الثقافة العربية عشية القرن الحادى والعشرين بقيادة الأمير النفطى، واسع المعرفة الذى يدافع عن التعددية وحرية التعبير، المؤتمر سيدعو مائة من صفوة المثقفين

العرب يعبرون عن انفسهم دون أى رقابة ليضعوا استراتيجية ثقافية واضحة للقرن القادم، فالعلم العربى يتعرض لخطر فقدان الهوية . ولن نلخص وقائع المؤتمر وزيفه وتشويهه لفكرة الهوية يكشفه للمؤرخ عن حقيقة دعوته وتوظيفه لخدمة مالا يعتقده .

فالرواية إذ ترسم الملامح الذهنية لبطلها تستطرد فى مناقشة الروايات التاريخية الاوربية والعربية وشروط إمكانها وحدودها .

فالمؤرخون فى مصر يعملون فى ظل المؤسسة الأكاديمية الرسمية مثل أقرانهم الامريكان ، يكتبون التاريخ الآمن الذى لا يتعارض مع الخط العام للنظام ويكشف النص ما يسمى بالمؤرخين الجدد فى إسرائيل وعلاقتهم بالمخابرات العسكرية . فهو يعيد بناء الوقائع ويستخلصها من الأردية الايديولوجية التى تزيفها ومن أكاذيب الميديا. لأن التاريخ عنده لا يكتفى بتسجيل «الوقائع» بل يمحص الواقعة داخل سياقها الحافل بالصراع



ويفتش خلفها . إنه يقدم رواية أخرى، تقوم بتبعيد وتغريب الصور الزائفة عن المجتمع الأمريكى والإمبراطورية الامريكية . والتاريخ الأمريكى فالراوى مؤرخ يستقى الأحداث ، من مصادر مختلفة ويوازن بينها ، ولا يقدم وثيقة اجتماعية أحادية الجانب بل يحاكم المصادر ومسلماتها وتتصارع الروايات والاتجاهات الايديولوجية فى التاريخ. ومن أمتع الاشياء فى الرواية تلك الحوارات العميقة بين اتجاهات المدارس التاريخية بعد الكشف عن جذورها المسكوت عنها عادة. فهنا لن نجد الروح الخاصة بالعاديات والمخلفات الأثرية بل تداخل الماضى والحاضر ومدى تأثير ماضينا الجمعى الذى تنقذه الرواية من الأكاذيب فينا . انه الرد يمتلك قدرة على دخول طرائق الحياة والمناخ الفكرى للفترات التى يتعرض لها ببحث مستفيض واستبصار ومفارقات . فالتحرير الوطنى والسياسى مكسب يحتوى بعض الخسائر. والإهتمام بالتاريخ لا بوصفه مسارا مجردا بل مؤثرا فى الحيوات الفردية . وهو استعارة تفسر بعض جوانب الحاضر.

والناس يكابدون التاريخ ويعانونه لا

فى تفاصيله السطحية وتغير عاداتهم ، فالحياة نفسها لها منطق أعمق فى التغيير . وهذه الرواية لذلك رغم الاستطرادات الفكرية والمناقشات المتفرعة التى تثقلها والناتجة عن الرغبة التى لامبرر لها فى قول كل شيء والوصول الى الكلمة النهائية لمست هذا المنطق الأعمق للحياة .

إنها شبكة من ا لصيغ السردية المتقاطعة التي تعمل على تعديل المعطيات واعادة بنائها ، وليست تراكبا من مستويات متعددة للمعنى . وقد تعطى الصدارة لصيغة سيرة شخصية، أو تجربة حسية، أو التساؤل عن مسألة معلقة أو صيغة سمات لبناء الأفراد أو محددات السلوك والأفعال أو الصيغة الثقافية التى تقدم اعلاما ومعرفة واسعة متعددة الأنواع، وهذه الصيغة الثقافية ربما طغت على ماعداها دون مبرر فى الكثير من الأحيان ، ووقفت عند تقديم معلومات مهما تكن مهمة وكاشفة ونفاذة فقد غلبت جانب الاهتمام التأملى. ولكن تصميم الرواية مع ذلك ربط الجمالى الشكلى بالتاريخى الاجتماعى .



ففيها تركيز على لحظات حاسمة حرجة ، قد تكون كوميدية او رثائية، إن الأمم لا تخلق نفسها وفقا لأفضل مثلها العليا، بل تشكلها قوى متعددة قد لا يعرف أبناؤها إلا القليل عنها، وهذا الأساس بكيف قام الماضى بصنعنا ، تقدمه المخيلة التاريخية في الرواية بأفضل الأشكال . ■

كلمات عاشت

● إن النقص الذي يعتور النقد الفني الحديث، يرجع إلى أنه لاينبثق من طبيعة الواقع العربى ولا بيئته ، وإنما ينبثق من طبيعة أنماط أوروبية لاعلاقة لها بنا.

«أحمد حسن الزيات»

● المسرح لا شأن له بالواقع، إن ميدانه هو الحقيقة التي يصل إليها من خلال الأسطورة.. والسينما على العكس ، يهمها الواقع الذي قد يتضمن لحظات من الحقيقة.

«جان بول سارتر»

● كل الذى أدريه أننى سأموت، وأنا أتساءل: لماذا لم أكن أفضل مما كنت؟!

«توفيق الحكيم»

أدبـــاء وعـــشـاق

الرافعي ومي

هـل كـان بينهـمـا حـب؟

بقلم

وديــع فلسطيــن

إذا كان مصطفى صادق الرافعي (١٨٨١ - ١٩٣٧) روميو، فهل كانت مي (١٨٨٦-١٩٤١) جولييت؟

إن المأثور من قصة روميو وجولييت أن الحب بينهما كان متبادلاً، وأنهما في سبيله اختارا أن يجمعهما قبر واحد، فهل كان الحب بين الرافعي ومي من طرفين أو من طرف واحد ملأ الدنيا حديثاً عنه في حين تكتمت مي أخباره حتى وافاها الأجل بعده بأربع سنين. وفي هذه السطور أجتهد في استقصاء جوانب هذا الحب من جملة من الآثار المنشورة، سواء ممن عاصروا الرافعي ومي أو من الدارسين لحياتهما في فترة تالية.

كان اللقاء الأول بين الرافعي ومي أشبه ما يكون بالمصادفة، فقد أقيمت في عام ١٩٢٣ حفلة لتأبين الأديب فرح أنطون (١٨٦١-١٩٢٢) فتصافحا وتبادلا عبارات التقدير، وانتهزت مي هذه الفرصة لكي تدعو الرافعي إلى حضور ندوتها الأسبوعية التي كانت تقيمها في بيتها مساء كل ثلاثاء، فلبّى دعوتها لأول مرة في نفس تلك السنة ١٩٢٣، ثم تبادلا المؤلفات، ولكن الرافعي لم ينتظم في الحضور إلا عاماً واحداً وانقطع عن جلسات الصالون في عام ١٩٢٤.

كان الرافعي أديباً شامخاً في عصره، حتى وصف الزعيم سعد زغلول باشا كتابه «وحي القلم» بأنه في بيانه «كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الحكيم». ولكن الرافعي، على رفعة منزلته الأدبية، كان يشغل وظيفة متواضعة في محكمة طنطا حيث كان يقيم مع زوجته وأم أولاده. وكان راتبه بضعة جنيهات حتى استطار فرحاً عندما جاءته علاوة قدرها خمسون قرشاً، كما أخبرني تلميذه وصديقي الشيخ محمود أبو رية .. كما كان يعاني من علة الصمم المطبق، حتى ان أستاذي فؤاد صروف (١٩٠٠-١٩٨٥) أخبرني أنه كان يتبادل الحديث مع الرافعي عندما يزوره





فى مكتبه فى مجلة «المقتطف» فى وريقات صغيرة، وكان يتبع نفس هذا الأسلوب، وهو كتابة وريقات يضمنها آراءه فى ندوة مى دون أن يسمع له صوت، فكيف يشارك فى المناقشة وهو لا يسمع ما يقال فيها، حتى إن العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) وصف الرافعى فى ندوة مى قائلاً «إنه كان يلجأ إلى أسلوب المفاجأة بالكتابة الذى لا يغنى الاطلاع عليها عن السماع» إشارة إلى صممه.

قطيعة الصحبة

ويروى كامل الشناوى (١٩١٠-١٩٦٥) فى كتابه «الذين أحبوا مى» أن الرافعى كان يسافر بالقطار من طنطا إلى القاهرة كل يوم ثلاثاء فيصل من محطة القاهرة إلى الصالون رأساً. وفى حين كان رواد صالون مى يتأنقون فى ملابسهم وحلاقة ذقونهم، فإن الرافعى كان يفتقد هذه الأناقة، ويدخل الصالون وعليه كل ما فى الطريق من غبار. ولحه حافظ إبراهيم (١٨٧١-١٩٣٢) يوماً وقد جاء فى بدلة جديدة فقال له: أنت متنكر يا صادق، فأين التراب الذى يغطى بدلتك دائماً؟!

ويروى الشناوى أن الرافعى زار مى فى ميعاد مضروب، وكان فى مجلسها شاعر جلست إليه تحدثه ويحدثها، ودخل الرافعى فوقفت له حتى جلس، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته، وجلس الرافعى مستريباً ينظر، وأبطأت به الوحدة وثقل عليه أن تكون لغيره بينما هو أحوج ما يكون إليها، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبته وقالت له نفسه. ما أنت هنا وهى لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف؟ فاحمر وجهه وغلى دمه ورمى إليها نظرة ونظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب. واستمهلته فما تلبث، وكتب إليها كتاب القطيعة.

ولا بأس أن أذكر هنا أننى كنت من فترة أراجع مجلات نشرت فى الثلاثينات من القرن الماضى، فرأيت فيها إعلانا متكرراً عن عقار - لعل اسمه العنبرول إذا لم تخنى الذاكرة - وفى الإعلان صورة للأديب مصطفى صادق الرافعى مع عبارة بخط يده يزكى فيها هذا العقار. فهو قد سبق الفنانين والفنانات فى الإعلان عن المنتجات، ولكن المؤكد أنه لم يكن يتقاضى أجراً شبيهاً بالأجور الفلكية التى تنهال على أولئك الفنانين والفنانات من بند الإعلان.

إن الرافعى، على منزلته الأدبية المرموقة فى عصره أديباً وباحثاً وشاعراً ومفكراً قد استولى عليه اعتقاد بأن مى



تحبه، فتحول إلى «مهووس» بمى لا يكتم مشاعره، بل يعلنها فى كتب أصدرها تباعاً هى «السحاب الأحمر» و«رسائل الأحزان» و «أوراق الورد»، وهى كتب حشد فيها الرافعى كل حصيلته اللغوية والبلاغية، وكل سرحات عقله من الخيال، فقال فى محبوبته شعراً ونثراً كثيراً بلغ الذروة فى «أوراق الورد». ومع ذلك، فإنه عندما فرغ من إعداد هذا الكتاب وصفه «بكتاب الشيطانة»! والكتاب يضم رسائل متخيلة متبادلة بين الرافعى ومى ، فلا حملها إليها سعاة البريد، ولا بعث بها إليها مع رسول، ولا جاوبته على أى منها.

اعترافات الرافعى

فماذا قال الرافعى فى هذا الحب المجنون الذى يؤكد محمد سعيد العريان (١٩٠٥-١٩٦٤) أنه حب ثان سبقه حب لفاتنة لبنانية مجهولة عرفها فى شبابه الأول.

يقول الرافعى: كان لها فى نفسى مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه، ثم خضوعى لها خضوعاً لا ينفعنى. فبدّلنى الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيال خضوعاً لا يضرّها. وما أريد من الحب إلا الفن، فإن جاء من الهجر فن، فهو الحب.

كما قال : أحببتها جميلة لأوجدَ بها الجمال فى معانىّ وذوقى، ورقيقة لأسيل منها بالرقة فى عواطفى ونزعاتى، وظريفة لأزيد بها فى نفسى طبيعة مرح وابتهاج، ومتوازنة لتدخل فى طباعى الانسجام والوزن وصحة التقدير، وناعمة لتخلص بروحى من خشونة الضرورات القاسية فى الحياة، ومُتَفتِّرة لألقى من تفتّرها على بعض أيامى فتنقلب حبيبةً بما تمنع وتصدّ، ورشيقة لتهب خيالى سرّ التوثب والحركة، وجذّابة لأجد بها المغناطيس الذى يجذبنى فى الإنسانية إلى مصدرى الأعلى. وأحببتها وهى بجملتها فن وجمال روحى، لأرجع وأنا يحملنى حسّ وانفعال وإدراك.

وهو يصف رسائله المتخيَلة بأنها رسائل تطارحها شاعر فيلسوف روحانى وشاعرة فيلسوفة روحانية، كلاهما يحب صاحبه. وما أحسب حبّ هذا الشاعر وتلك الشاعرة قد كان فى كل حوادثه إلا تأليفاً من الأقدار. فروحه القوية فرض عليها أن تحبّ، فلما أحبتْ فرض عليها أن تتألم، فلما تألمت فرض عليها أن تعبّر، فلما عبّرت فرض عليها أن تسلو.

أهدى الرافعى إلى محبوبته زجاجة من العطر الثمين، وبعث معها برسالة - حقيقية أو متخيلة - جاء فيها: يا زجاجة العطر، اذهبى إليها، وتعطرى بمسّ يديها، وكونى رسالة قلبى لديها، وها أنذا أنثر القبلات على جوانبك فمتى لمستك فضعى قبلتى على بنانها، وألقيها خفية ظاهرة فى مثل حنوّ نظراتها وحنانها، وألمسيها من تلك القبلات معانى أفراحها فى قلبى ومعانى أشجانها.

ثم بعث إليها برسالة شعرية وصفها بأنها «رسالة للتمزيق» كان ممّا قاله فيها :

فوالله إن الحبّ خير محاسني
ووالله إن الحب شرّ عيوبي

وفى وصفه للحبّ قال: النهار يفتتح بالشمس، والليل يفتتح بالكواكب، أما الحب فلم يفتتح إلاّ بوجهك يا حبيبتى. والشمس والكواكب نار، ولكنها على الدنيا نور. أما وجهك فنور، ولكنه على قلبى نار. أتجهلين؟ أتعرفين؟

كان الرافعى فى مجلسها ذات يوم،

فامتد بينهما كلام قالت في آخره «أنت متوحش»، فقال لها: وأنت متوحشة، ثم كتب إليها رسالة قال فيها: ماذا أقول في متوحشتي الجميلة؟ ولو قالت لي «أكرهك» لما وقفت الكلمة عندها عند هذا الحدّ، لأنها من أشياء قلبي فيكون معناها: أكرهك لأني مكرهة أن أحبك. أكرهك لأنك أخضعتني وجعلتني مكرهة أن أحبك، أكرهك لأن كلمة أكرهك هي التي أظن أنها تخفي أمام نفسك تواضعي لك في نفسي.

وقال في آخر رسائله الوهمية: لا أقول إن روضة الحبّ قد انتهت إلى أيامها المقشعرة التي تظهر فيها كل أشجارها حاملة من اليبس والتجرد إعلان آخر الفصل. ولكني أقول.. والسلام عليها.

هل كان هناك حبٌ واقعي؟

هل كان هناك حب واقعي متبادل بين الرافعي ومي أو أن الأمر كله محض خيال يداعب الرافعي ويعذّبه دون أن تحس به مي؟ المؤكد من كل ما وقفت عليه من أخبار هذه العلاقة أن الرافعي كان كمن يفرض خيالات حبه على مي حتى يقنعها بأنه هو وحده فارس أحلامها الذي لايباري، على الرغم من أن قلب مي كان في تلك الفترة مشدوداً إلى جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) كما يتضح من الرسائل الواقعية لا المتخيلة التي تبادلاها ونشرتها الأديبة سلمى الحفار الكزبري في كتابها «الشعلة الزرقاء» ونشرت فصول أخرى منها في مؤلفات الدكتور جميل جبر ووداد سكاكيني والدكتور فاروق سعد. لقد بلغ الرافعي حداً من جنون الحب أو هوسه جعله يتسقط أي عبارة لمي لكي يتخذ منها دليلاً قاطعاً على انجذاب مي إليه.

وقد روى الشيخ محمود أبو رية (١٨٨٩ - ١٩٧٠) أنه كان في صحبة الرافعي في طنطا ذات يوم فجاءت جريدة الأهرام وفيها مقال للآنسة مي وردت فيه عبارة من كلام لها سبق نشره، فقرأه بشغف، ثم التفت إليّ وقال بلهفة: أنظر يا أبا رية. ووضع إصبعه على عبارة من المقال: إن هذه الكلمة العابرة لم تكن في الأصل، وإنما وضعت هنا وكأنها رسالة لي منها. ومن ثم عرفت أن الآنسة مي كانت تحمل لي حبا، ولكنها تتلطف في إبدائه، وإن كانت تتحرج عن إظهاره للناس، وأضاف أبو رية قوله: ومما أقرره هنا أن الرافعي ذكر لي أنه استشار السيدة الكريمة زوجته في حبه لمي حتى لا يمس بهذا الحب الطاهر أمانة الزوجية الوثيقة.

العريان يؤكد الحب

ويقول محمد سعيد العريان، وهو من ألصق الناس بالرافعي وكتب سيرته وقدم «لأوراق الورد»: كانت قصة حب، ثم انتهت كما ينتهي كل حب، بين اثنين تكون الفلسفة والكبرياء بعض عناصر وجوده، وافترق الحبيبان على غير ميعاده، وفي نفس كل منهما حديث يهتم أن يفيض به. وفعل الفراق بالرافعي ما فعل، فأنشأ كتابيه «رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» يصف فيهما من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته، فلما استفرغ ما كان في نفسه من خواطر الحب المتكبرة، ونفس عن غيظه بما ذكر من معاني البغض والهجر والقطيعة ليخدع بذلك نفسه عما تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه، هدأت ثائرته بعد عنفوان، وفاءت إليه نفسه، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه، فعاد إلى حالة بين الغضب والرضا، وبين الحب والسلوان فاستراح إلى اليأس لولا اثارة من الحنين تنزع به إلى الماضي، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلئ من بعد



بالشعر والحكمة والبيان. يرحمه الله، لقد مات ولكن قلبه مازال حيا ينبض، يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه، فيجد فيه صورة من قلبه.

وفى موضع آخر قال العريان إن الرافعى أحب مى حبا عنيفا جارفا لايقف فى سبيله شئ، ولكنه حب ليس من حب الناس، حب فوق الشهوات والغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية.

نعمات فؤاد تسخر من هذا الحب

على أن هذا الحب الجارف فى نظر صاحبه وتلميذه قد وجد من يستخف به أو ينكره، فالباحثة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد تقول فى كتابها عن الرافعى: «ترى لو كان الرافعى يرى فى نفسه الرجل الكفء لمى الأديبة المرموقة وسيدة المجتمع المشهورة، هل كان يعمد إلى كل هذه التخريجات والتركيبات والافتعالات فى غزله؟ إن المسألة بالنسبة للرافعى كانت عملية إبهار، ولكن المسكين خرج من الجهد المضنى الذى بذله فى «أوراق الورد» بنتيجة عكسية، فبدلا من أن يبهر مى، بهر سعيد العريان!

والسيدة سلمى الحفار الكزبرى التى كادت تتخصص فى مى وأصدرت عنها عدة كتب قالت إن الأمر فى العلاقة بين الطرفين لا يعدو كونه اندفاعا عاطفيا من الرافعى قابلته لياقة ومودة من مى، كما كان الحال بين مى ومن عرفتهم من أهل الثقافة، سواء فى مراسلاتها معهم أو فى لقاءاتها بهم فى صالونها.

أما الأديبة وداد سكاكينى (١٩١٣ - ١٩٩١) فتؤكد أنه قد تواتر الدليل والشهود على أن هذا الحب كان من طرف واحد اصطنعه صاحبه ليجد فيه ينبوع الشعر والحكمة والبيان، وكان فيضا من الهواجس والتهاويل صور فيها فلسفته فى الحب والجمال.

وكان صديقنا الصحفى أسعد حسنى قد استعانت به مى كى يقوم عنها ببعض المهام التى تكلفه بها، كترتيب مكتبتها والتوجه إلى مكتب البريد لإرسال خطاباتها وما إلى ذلك من أعمال السكرتارية.. وكانت تأتمنه على بعض أسرارها ، وعندما رغب سلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨) فى زيارتها فى بيتها للمرة الأخيرة قبيل وفاتها، رافقه فى الزيارة أسعد حسنى كى لا تمانع فى استقبالهما فى وقت كانت فيه توصد أبوابها أمام الزائرين ، وقد نشر أسعد حسنى عندما تولى رياسة تحرير مجلة «العالم العربى» كلاما يوثق به حول مى، وقد أعفانى الدكتور فاروق سعد مؤلف كتاب «السر الموزع للآنسة مى» من التنقيب عن كلامه فى أعداد المجلة القديمة، فنقل عن أسعد حسنى أنه سأل مى عن حقيقة العلاقة بينها وبين الرافعى بعد صدور كتاب «حياة الرافعى» لمحمد سعيد العريان ، فأجابته وهى تبتسم: لم تزد عن حدود التعارف العابر السطحى. وعندما أهدانى بعض كتبه أرسلت إليه شكرى وتقديرى، ولم يكن فى رسائلى إليه إلا إجابة عن مسائل وجهها إلى فى شئون أدبية. قالت مى ذلك والدهشة ترتسم على وجهها للجرأة على التاريخ التى أوحت إلى من أرخ حياة الرافعى بكتابة ما كتب.

بعد عشر سنوات من القطيعة

أما أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة فقد سجل فى كتابه «مصطفى صادق الرافعى كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا» أن الرافعى كان محبا عاشقا، وقال: ولا يظن

ظان أن الرافعى لفرط جديته فى الحياة ورهبنته فى محراب لغة القرآن ورحاب الدين، كان متعسفا فى حياته متشددا فى أحاسيسه غليظا مع نفسه ومع الناس، لقد كان الرافعى قلبا بين جنبيه أرق من أنداء الصباح، وروحا أنقى من حياء العذارى، لقد كان الرافعى محبا عاشقا، ثم قال: لقد قص علىّ صديقى المرحوم محمد سعيد العريان أن الرافعى كان متماسكا فى حبه لمى، وقورا فى صلته بها، لا يترخص أو يصطنع الظرف ولا يتهافت أو ينافق تقربا إليها كما كان يفعل غيره من العاشقين، ثم حدث منها ما جعله يغضب لكرامته فانصرف عن مجلسها وقاطعها عشر سنين.

ويقول الشكعة إن الرافعى طلب من العريان ذات يوم أن يصاحبه إلى بيت مى، فقد قرر أن يزورها ويجدد ماضى صلته بها . لقد تأنق الرافعى فى ذلك اليوم أناقة ملحوظة، وأمسك بعصاه إمساك الشباب الفتيان لا إمساك الكهول المتهالكين وظللنا نضرب فى الأرض سعيا إلى دارها، وكلما قربت الدار، تباطأ الرافعى فى مشيته، حتى إذا وصلنا إليها قال الأديب الكبير : لا يا سعيد، سوف لا أصعد إلى زيارتها ، لقد مرت على آخر لقاء بيننا عشرة أعوام طوال، لا شك أنها غيرت مني وغيرت منها، وأخشى أن ينكر كل منا صاحبه بفعل السنين، وإني أريد أن يحتفظ كل منا للآخر بصورة الشباب الوضيئة. ويستطرد العريان قائلا: وانصرفنا عائدين وإلى حيث كنا قافلين.

الرافعي يغار من مي

وفى حين كان الرافعى يطارح مى أسباب الهوى، كان يغار منها غيرة لم يستطع كتمانها. فقد لاحظ أن الدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) منشئ مجلة «المقتطف» كان يقدم مقالات مى على سواها من المقالات، ومنها مقالات الرافعى، فلما تكرر منه هذا الأمر بعث برسالة إلى الدكتور صروف يعاتبه لأنه لا يراعى أقدار الأدباء فى ترتيب المقالات فى المجلة، فكيف تسبق مقالة مى مقالة الرافعى؟ فرد عليه الدكتور صروف موضحا أن المجلة ليس لديها «بروتوكول» تراعيه فى نشر المقالات، وإنما تراعى فى ترتيب المقالات زمن ورودها إلى المجلة وقال إنه يعرف أن كثيرين من الذين لهم الكعب الأعلى فى الإنشاء يجلون قدر مي ويمدحونها بالكلام والكتابة، وقد رأيت إسماعيل باشا صبرى (١٨٥٤ - ١٩٢٣) يقبل يدها فى بيتى!

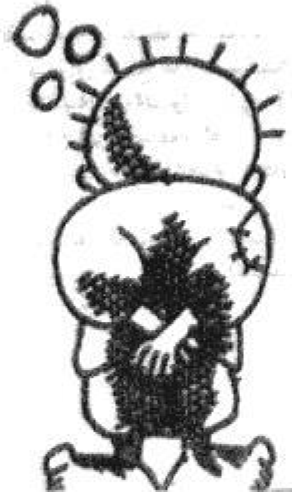
●●●

وفى اعتقادى الذى لا ينتقص من القيمة الأدبية لمصطفى صادق الرافعى الذى لم أعرفه وإن كنت نعمت بصداقة المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى (١٨٨٩ - ١٩٦٦) وبمودات الشاعر الكبير سليم الرافعى - أن الرافعى كان مهووسا بمي فى حين كانت مى تحترم أدبه وتقدر علمه وتلتمس له أعذارا فى عواطفه المبثوثة فى كتبه الثلاثة التى ناجاها فيها بلغتى الشعر والنثر عساها تؤثره وحده بحبها .

ولا يسع المرء إلا أن يفترض جدلا أن مى استجابت لمطارحات الرافعى وارتضت أن تكون زوجته الثانية، فهل كان يفرض عليها أن تقيم معه فى طنطا وأن تكف عن عقد صالونها وأن تمتنع عن استقبال الرجال فى بيتها؟ إن الجواب على هذا السؤال لا يحتاج إلى اجتهاد، لقد كانت لكل منهما شخصيته القوية المتفردة، وكان حريا بهاتين الشخصيتين أن تصطدما لو قدر لهما أن تجتمعا تحت سقف واحد مع ضرة وأولادها ومع غيرة الرافعى الشديدة ومع راتبه شديد التواضع! ■

ناجى العلى

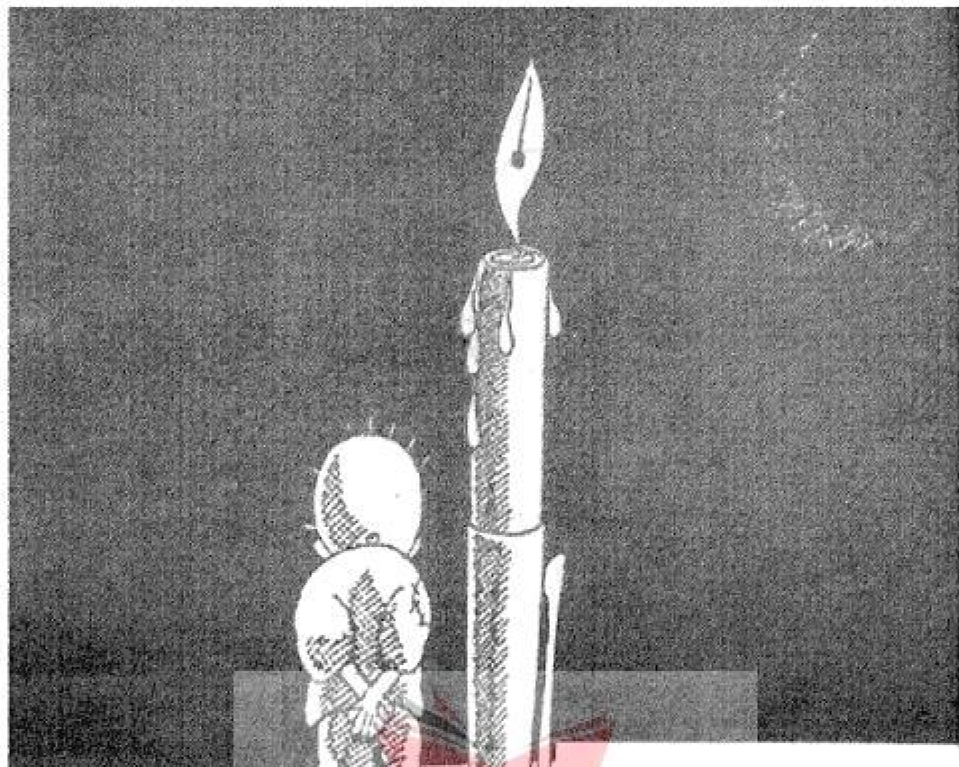
بقلم
أحمد عز العرب



صفر ١٤٢٥هـ - أبريل ٢٠٠٤م

أى رسم يمكن أن يرسمه الآن ناجى العلى؟

لو أن رصاصات الاغتيال طاشت عن هدفها ولم تصب الفنان الشهيد ولو أنه خرج فى التاسع والعشرين من أغسطس (آب) ١٩٨٩ من



المستشفى إلى مقر عمله، فهل نستطيع أن نتخيل الصورة الكاريكاتورية التى نراها اليوم بتوقيع ، ناجى العلى ؟

ليس هذا بالفرض المستحيل، فمجمل أعماله لم يكن لها سوى موضوع واحد هو (القضية الفلسطينية) . وبتفصيل أدق يمكننا أن نقول إن كل ما أبدعه ناجى العلى لم يخرج عن كونه تصويرا أميناً لتعليقات الفقراء من أبناء الشوارع والبساتين على ما يجرى من تطورات الصراع فى فلسطين. صحيح أنه لم يرسم إلاَّ فقراء المخيمات لكن من قال إنهم يختلفون عن غيرهم من فقراء العرب؟



لقد كان بحق صوت من لا صوت لهم من أبناء الأمة العربية. ومضت سيرته الذاتية موازية تماماً لكل ماتعرضنا له وكل ماحل بقضية شعبه من انكسارات وصعود بحيث أصبح بسيرته وفنه هو الصورة الدالة بامتياز على (الفلسطيني).

بدايات لاتنتهي

كانت صورة (الفلسطيني) في وعي ووجدان أبناء جيلي، صورة غائمة تخيلية. كنا قد سمعنا عن مجازر اللد والرملة والجليل وسمعنا عن تواطؤ الخونة وتخاذل الحكام، ولم نكن قد شاهدنا شيئاً من ذلك، فلم تكن الأقمار الصناعية قد اعتلت فضاء الكون تبث لنا صوراً مما يجرى فى الطرقات والمخيمات، فاستخلصنا مما سمعناه صورا تعبر عن شجاعة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني وأشعار هارون هاشم رشيد. وتوهمنا حينها أنه لولا تخاذل أو تواطؤ بعض حكامنا لما جرت نكبة ١٩٤٨. لذلك استبشرنا بذهاب هؤلاء الحكام وظهور آخرين جدد أكثر إخلاصاً ووطنية وبوسعهم كما وعدونا أن يناصروا الأخ (الفلسطيني المقهور) وأن يعيدو له الحق السليب.

لكن الأمر - كما تعلمنا من تجاربنا الذاتية فيما بعد - لم يكن بهذا القدر من التبسيط.

فعلى سبيل المثال : فإن شخصاً مثلى ما كان له أن يعارض حكم (الضباط الأحرار) فى مصر. ففضلاً عن الروح الوطنية المتدفقة فى رجال هذا الحكم

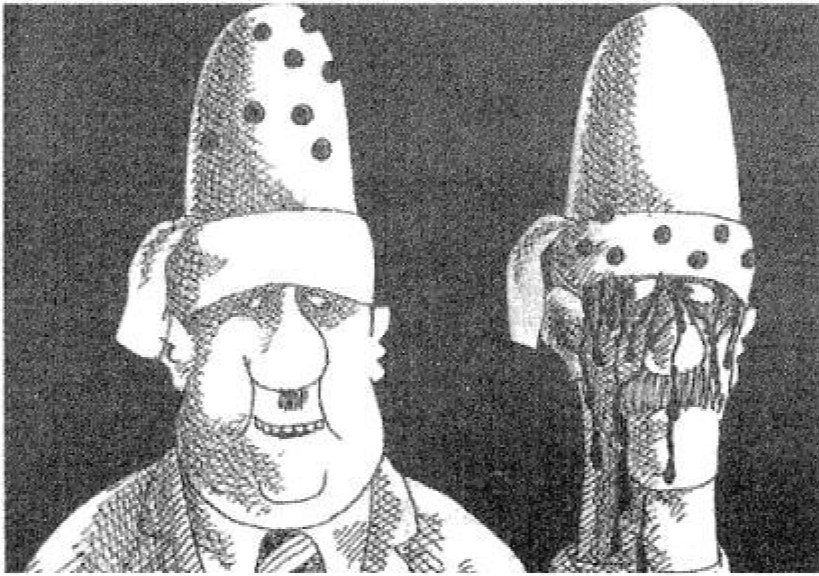


الجديد فإنه قد أتاح لأمثالي فرصة التعليم الجامعي المجاني ورفع عن آبائنا سطوة أصحاب الأعمال وملاك الأرض والمساكن، والأهم من ذلك كله أنه منحنا الشعور بانفتاح بوابات الحلم على اتساعها.

برغم ذلك كله فقد لازمني شعور بالقلق والريبة، نبع من وقائع الحياة اليومية كما عايشتها وعايشها الملايين من صور صعود المنافقين والانتهازيين مع إزاحة لأصحاب الكفاءات والنوايا الحسنة وحكايات يتناقلها الناس عن المغيبين في المعتقلات بسبب أفكارهم أو آرائهم المخالفة للنظام، لذا بقيت بيني وبين هذا النظام الوطني مسافة فاصلة لم تلتئم خصوصاً وقد عاينت قدراً يسيراً مما تعرض له المعتقلون.

قبل أن تحل بنا النكبة الثانية (١٩٦٧)، كانت الدراسة بالجامعة قد أتاحت لنا مخالطة بعض الزملاء العرب والفلسطينيين وبفضل معايشتهم عن قرب لم تعد صورة (الفلسطيني) غائمة في وعينا كما كانت وتكشفت لنا أبعاد جديدة لما كان يدور في غزة والضفة والأرض المحتلة، وكنا لفرط جهلنا نتوهم أنه لم يعد بها سوى العجزة المستسلمين أو الخونة القابلين للحكم الصهيوني وإذ بنا نتعرف على عالم جديد زاخر بالحياة وفياض بنماذج البطولة، ليست تلك البطولات الزاعقة، وإنما بطولة الحفاظ على القلب الفلسطيني نابضاً





بالحياة. وبدأنا نتعرف على أسماء: توفيق زياد ومعين بسيسو ومحمود درويش وأميل حبيبي.

ولا أنسى ذلك الزلزال النفسي الذى خلفه عندى زميل غزاوى إذ ورد فى حديث عابر إسم القوات الدولية الفاصلة على الحدود المصرية، ذكر لى اسمها عرضاً، فاستوقفته وإذ لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل وكانت لتلك (القوات) أسوأ الذكريات عندنا لما جرى من مذابح للفلسطينيين تحت سمع وبصر مراقبى (الأمم المتحدة).

حاولت التأكد من صحة كلماته، فتعجب لدهشتى وكأن وجود تلك القوات الدولية حقيقة لايجهلها أحد سواى. فدارت بى الأرض. فإما أن زميلى كاذب فيما يقول وإما أن كل مانسمعه من بيانات سياسية ترددها أجهزتنا هى الكذب عينه.

وفى الحالتين فإن القلق هو نصيبى الوحيد. حتى حلت الكارثة فتبين الصدق من الكذب وتفجرت فى نفوسنا ينابيع الغضب.

..ورحيل لاينتهي

كان ناجى العلى طفلا لم يتجاوز التاسعة يوم حلت النكبة الأولى. إذ ولد عام ١٩٣٧ بقرية صغيرة اسمها (الشجرة) قرب طبرية. وكانت تلك المنطقة مسرحاً لعدد كبير من العمليات الإرهابية

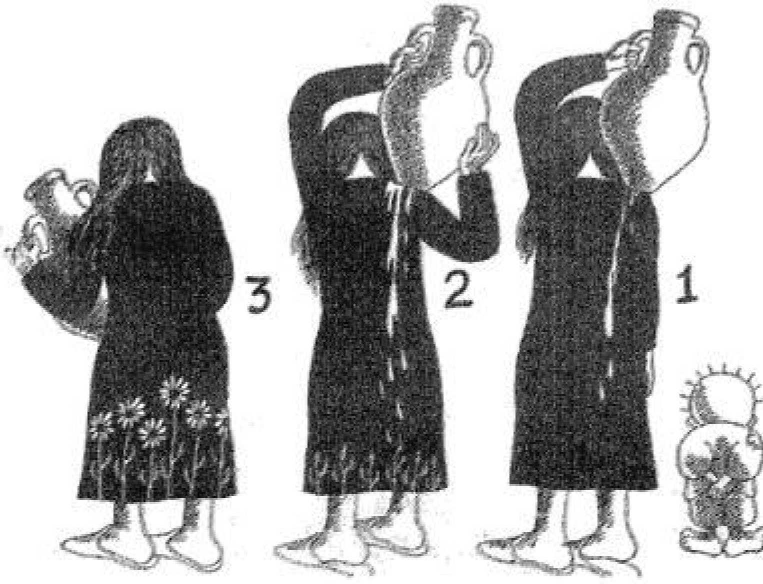




الصهيونية والمجازر التي ارتكبتها عصاباتها لإقتلاع فلاحي القرى العربية من الأرض. وبعض تلك المجازر سجلتها تقارير مراقبي الأمم المتحدة ولازالت محفوظة في أرشيف وثائقها . وسجلت شهادات بعض معاصريها من اللاجئين في بحوث ودراسات عدد من الكُتَّاب العرب مثل: وليد الخالدي والياس شوفاني وصالح عبد الجواد وحليم بركات . كما اعترف ببعضها عدد من المؤرخين الإسرائيليين الجدد في استعراضهم (لأهوال حرب الاستقلال).

وقدر لناجي العلي أن يعايش تلك الأهوال في مرحلة سنية مبكرة وأن يشارك أهله الفرار إلى مخيم اللاجئين في (عين الحلوة) بجنوب لبنان. وفي هذه المرحلة من عمر الإنسان تكوّن ذاكرته البصرية والوجدانية بالغة الحساسية تلتقط أدق التفاصيل وتختزن أرهف المشاعر. وتركت تلك التجربة في نفس ناجي أثرها العميق الذي رافقه طوال حياته وشكل تكوينه النفسي ووعيه الفطري.

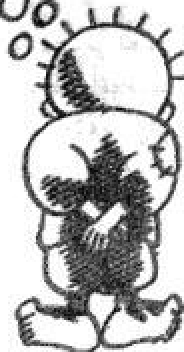
لم يتمكن الطفل الصغير من متابعة الدراسة المنتظمة، واضطر للعمل في البساتين ليوفر قوته ونفقات تعليمه الصناعي المتوسط ليتمكن من العمل في بعض الورش الصغيرة بمدينة طرابلس . حتى بلغ عامه العشرين فسعى لعمل أفضل في السعودية. ولم تطل إقامته هناك أكثر من عامين عاد بعدهما إلى لبنان ليستكمل دراسة الفنون الصناعية

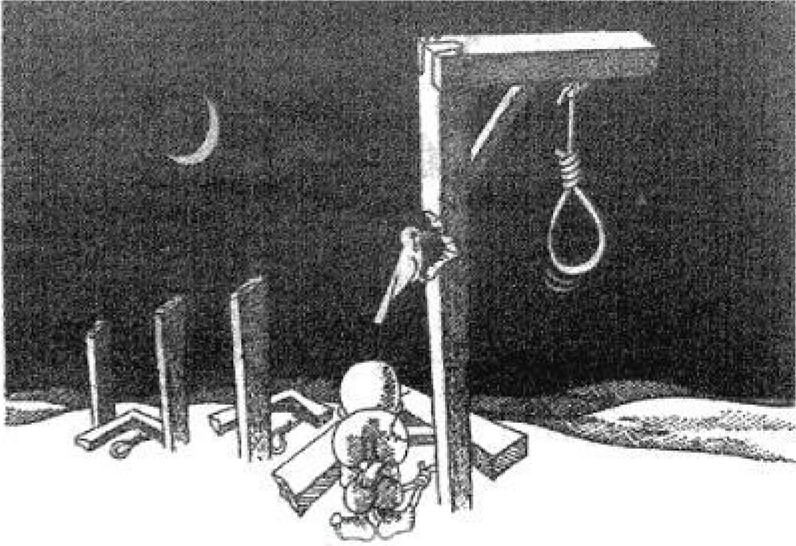


التطبيقية . إلا أنه لم يتمكن من ذلك، ولما أتاح له غسان كنفانى أول فرصة لنشر رسومه بمجلة (الحرية) انتقل من عين الحلوة إلى بيروت، ومنها إلى (الطليعة) الكويتية حتى استدعاه (طلال سلمان) إلى بيروت من جديد ليشارك فى تأسيس صحيفة (السفير) وبقى بها حتى وقع الغزو الإسرائيلى للبنان وحصار بيروت، فتابع رحيله إلى الكويت من جديد فى صحف (السياسة) و(القبس). فلما ضاق برسومه بعض أصحاب النفوذ انتقل للعمل فى (القبس الدولية) بلندن.

وبعد شهور طالته رصاصات الغدر فى الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩٨٧ ومضى فى غيبوبته بالمستشفى حتى فاضت روحه فى التاسع والعشرين من أغسطس من نفس العام.

على هذا النحو مضت حياة الشهيد فى نزوح دائم ومن سفر إلى سفر .. من وطن بديل إلى بديل آخر وبقى وطنه الحقيقى الوحيد فيما إكتنزه بداخله من أيام الطفولة غير السعيد . ولأننا لا نرى من الأشياء ولا نتعرف إلا على تلك التى نحملها بداخلنا، ولأن «كل بئر ينضح بما فيه» لذلك ظلت رسومه تعكس تلك المرارة والقتامة التى رافقته ولذلك أيضاً كان لابد أن تكون مختلفة عما استقر فى وعى قراء الصحف العربية لمفهوم (الكاريكاتير) شكلاً ووظيفة.





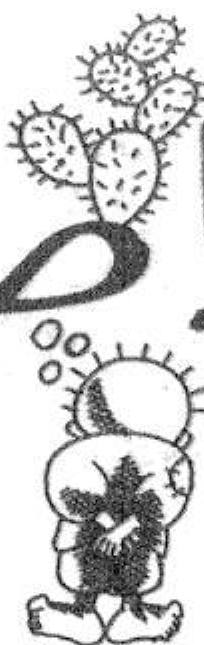
هنا يحق أن نتساءل إذن عن سر الاعجاب الشعبي بتلك الرسوم المغايرة القاتمة. هل تغير المزاج العام للقراء؟ وما الذي يجذبهم إلى هذه الرسوم؟

صباح الغضب

كان الجمهور العربي قد استيقظ مذعوراً في صبيحة النكبة الثانية (يونيو ١٩٦٧) ليجد نفسه في العراء تماماً بين أطلال عالم تقوضت أركانه في ساعات، وكأنه عالم من الكرتون الملون عشنا بداخله حتى أطاحت به ركلة قدم. وبهلع بدأ الكل في البحث عما يحتمون به أو يلجأون إليه .. عالم جديد .. أو لغة جديدة وأناس مغايرون لمن تركنا لهم مقاليد أمورنا.

وبدت صورة العقل الجماعي العربي وكأنه قد فقد رشده في سعيه المحموم للخروج من المأزق لايميز بين من خذلوه ومن خانوه، ولا يدرك الفرق بين النقد الذاتي والانتحار الجماعي لأفراد الأمة .. بركان غضب هائل لايعرف في أي مسار يسير في هذا المناخ العارم تحولت أبيات شعراء مثل: أحمد فؤاد نجم ومظفر النواب إلى نضال يتناقلها الناس ويغمدونها في الجميع وراجت النكات الشفاهية التي تنهش فينا نحن المواطنين البسطاء بقدر ماتحقر المسئولين عنا. وتكاثرت الكتابات والدراسات (العلمية) التي ردت العجز والسلبية إلى «طبيعة الشخصية القومية» وكأنه قدر علينا أن نبقى عاجزين متخلفين وفقا لجيناتنا الوراثية أو سماتنا التي توارثناها ولا حيلة

الديمقراطية

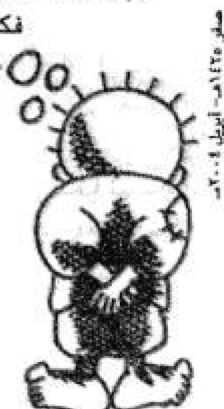


لنا في تبديلها!!

قليلون جداً في عالمنا العربي يومها من حاولوا الاحتفاظ بتوازنهم النفسي والعقلي وأدركوا الفرق بين الغضب المدمر الذي ينهي وجودنا وبين الغضب الساطع الذي بشرتنا به فيروز والرحبانية.

وتعلق الناس بقسم عبدالرحمن الأبنودي (أحلف بسماها وبترابها) ورددوا بأسى بالغ وحسرة متعلقين بالأمل (إحنا بلدنا للنهار).

من هذه الفئة القليلة كان ناجي العلي فكانت أول رسومه المنشورة بمجلة الحرية رسماً عبارة عن خيمة على شكل هرم يخرج من قمته بركان



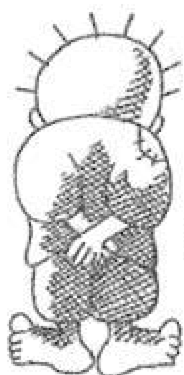
ترتفع فوق سحبه يد بعلامات النصر.

وتتابع الرسوم تصور الفقير العربي متشبثا بالأمل، وتفضح الوقار الزائف للحكام وتسلطهم الغبي.

كانت تلك الرسوم متوافقة مع المزاج العام وتحقق لمشاهديها متعة جمالية وإضاءة فكرية، فهي قد جاءت على هواهم منحازة إليهم ترد لهم الاعتبار الذي طالما انتهكه الحكام وتبث فيهم الأمل وتحقق لهم النيل ممن تسلطوا عليهم فتحقرهم وتحيلهم إلى كائنات هلامية مزرية الشكل.

وتوافقت الحاجة الجماعية الملحة للتجديد مع تلك الرسوم التي كانت غريبة على العين.

لكن إلى أي حد كانت رسوم ناجي تجديداً في الكاريكاتير؟





فى تقديرى أن رسومه وإن جاءت مختلفة عمن سبقوه من الرسامين وأغلبهم من المصريين لسبق ظهور الصحافة فى مصر عن غيرها من البلاد العربية. فإن هذه الرسوم لم تكن مقطوعة الصلة بما قبلها. والتجديد فى الفن والثقافة كالتجديد فى الحياة لاينبع من فراغ ولا يجلب من غير التربة الثقافية وإلا لكان بدعة أو تقليعة لاتدوم طويلاً. وبقدر ماجاءت رسوم ناجى مختلفة بقدر ماجاءت وثيقة الصلة بما أنجزه السابقون عليه فى الكاريكاتير.

– هذا الفقير حافى القدمين الذى جعل منه ناجى محوراً لرسومه ألا ينتمى بشكل أو بآخر إلى هؤلاء الفقراء الذين صورهم (حجازى) لأول مرة فى الكاريكاتير وجعل من حياتهم اليومية مادة لعمله؟

– ثم هذا الأسلوب الفنى فى استخدام الحيل الجرافكية والتخفف من التعليقات اللفظية ألا يقترب من تكنيك مصيى اللباد وتوظيفه للعلاقات بين الخطوط والمساحات عوضاً عن التعليق اللفظى؟

لولا خشيتى من تلك الروح القبلية السائدة بيننا اليوم وخوفى من الإتهام بالتعصب لفصلت أكثر فى شرح مبلغ انتماء رسوم ناجى بما قبله.

وإن كنت أرى فى هذا الانتماء المعنى الصحيح للأصالة والتجديد وهو مايضاعف من التقدير الفنى لما أنجزه الشهيد.

رحمه الله. ■

مصاعب وآفاق

الفن المصرى الحديث

بقلم
د. صبرى منصور

لا ينفصل الفن التشكيلى عن نواحى الحياة المختلفة فى المجتمع المصرى المعاصر ، والتى تتطلب السعى نحو إصلاحها وتحديثها ، فهو يحتاج إلى مناقشة قضاياه ، وتوفير المناخ الثقافى السليم لازدهاره وتألقه ، ليكون مناظراً فى قيمته وأهميته لفنون الدول التى قطعت شوطاً هائلاً فى طريق التقدم والحضارة . فلقد عرف المصريون الفن التشكيلى فى صورته الحديثة منذ ما يقرب من مائة عام ، وجاء ذلك مواكباً للصحوة المصرية فى أوائل القرن العشرين بعد قرون طويلة من السبات الحضارى ، وذلك إلى جانب تعرفهم على فنون أخرى كالمسرح والسينما والموسيقى والباليه التى أتاحت الفرصة للمصريين للتواصل فيما بينهم وبين أنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين الآخرين من ناحية أخرى بأسلوب غير أسلوب التواصل المباشر ، وهى درجة من درجات الرقى والتحضر فى تاريخ تطور الإنسان .

صاحبة الأساور الزرقاء - محمود سعيد





فهل استطاع المصريون أن يعبروا بالفن التشكيلي عن أنفسهم ؟

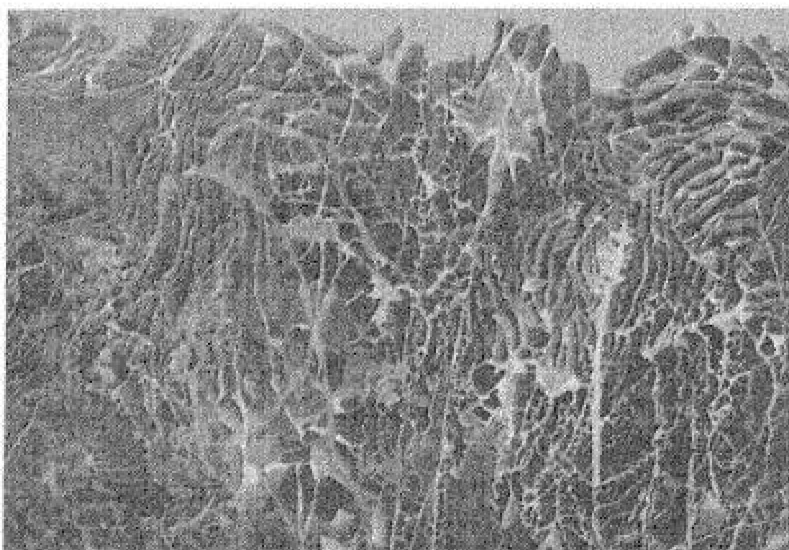
وهل يقدم إبداعهم الفني للعالم رسالة ذات خصوصية ثقافية ؟ .. وقبل أن نطرح إجابة عن هذا التساؤل ، فإن هناك قضايا تتصل به اتصالاً وثيقاً ، ورغم أنها قضايا سبق تناولها بشكل أو بآخر ، إلا أنها بحاجة إلى اختبارها من زوايا جديدة ، ومناقشتها بعقل متفتح ، حتى تأتي الإجابة واضحة ومقنعة .

وتشمل هذه القضايا : الخصوصية الثقافية التي تعد الفنون وعاءها وحامل رسائل شعوبها الوجدانية والروحية ، والعلاقة غير الإيجابية السائدة بين فنوننا والفنين الأوربي والأمريكي ، وفكرة العودة للقديم وإحياء التراث الفني المصرى عبر عصوره المختلفة ، والعلاقة بين الفنان وأجداده من المبدعين القريبين منهم والبعيدين ، وما هي العناصر التي تتكون منها الذات الثقافية المصرية ، وعلاقة التعبير عنها بالموضوع من جهة وبأسلوب صياغته الفنية من جهة أخرى ، ومن يتلقى رسالة الفنان المصرى ويتفاعل معها وجدانياً لتتحقق فائدتها وتفي بالغرض منها .

الفن وخصوصية الثقافة

تشمل صيغ الحياة لأي شعب عناصر الدين والعادات والتقاليد والعلم والفن ، وهي التي تخلق ثقافة هذا الشعب ، وتسهم في تحديد ملامح هويته ، وتميزه عن غيره من الشعوب ، كما تخلق لديه الوعي باختلافه عن الآخرين ، وإذا انتفى ذلك الوعي ، واضمحلت معالم ثقافة الشعب فإن عوامل بقائه ومقومات وجودها نفسها تتعرض للفناء والتحلل .

ولقد ظل دور الفن في التاريخ حاملاً للثقافات المتنوعة للإنسان ، وكما تظهر لنا آثاره الباقية فإنه كان خير من يجسد التوجهات الحضارية، ويمثل أفكارها خير تمثيل ، بل إنه كان وسيلة من الوسائل الفعالة في تعميم ونشر الصيغ الحضارية الأخرى ، حين حمل في معظم العصور التاريخية مسئولية الدعوة الدينية ونشر قيمها ، والتعبير عن نصوصها ، وخير مثال على ذلك فنون مصر القديمة ، والفن المسيحي في القرون الوسطى . كما كان الفن خير من تتبلور فيه اتجاهات التحول في الأفكار النظرية والفلسفية الكبرى ، والتي صاحبت الثورات الفكرية والاجتماعية ، مثلما نجده في عصر النهضة الأوربية ، عندما تبنى قيم التحول الجديدة نحو الإنسان باعتباره النموذج والمثال ، وكذلك في الفن الأوربي الحديث عندما جسدت الأساليب الفنية العديدة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين مبدأ تقديس الحرية المطلقة للإنسان الفرد .



فيضان إفريقى - عز الدين حمودة

وتلك الخصوصية التى تبدو أساسية فى الفنون ليست مطلوبة فى مجالات علمية أخرى كالطب والهندسة ، وذلك لأنها مجالات تخدم البشرية جمعاء ، ومع أنها فى بعض الأحيان تطوع نفسها وفقاً للظروف المختلفة لكل شعب ، إلا أن نظرياتها وأسلوب تطورها متماثل عند البشر جميعاً ، ولا تستلزم الاستقلالية التى تصبح حيوية بالنسبة لأشكال الفنون .

ولقد مكنت الثورة الصناعية فى العصر الحديث شعوب أوربا وأمريكا الشمالية من تحقيق تفوق حضارى كان من شأنه شعور الشعوب الأخرى بالحاجة إلى نقل ثقافة الغرب ، مع ما يمثله هذا النقل من إحساس بالخطورة على سمات حضارتها ومعالم هويتها ، حين يؤدى بها إلى التقليد الأعمى ، وتلك إشكالية من أهم الاشكاليات التى تواجهها فنون الدول النامية . فإذا كانت هناك مرحلة كان لابد فيها من التبعية الثقافية التى كانت نتيجة منطقية للتبعية السياسية فى عهود الاستعمار الأوربى ، فإن الدول النامية وهى فى مرحلة إعادة صياغة مجتمعاتها يجب أن تلتفت إلى ضرورة حث قوى الإبداع فيها على اتخاذ خطوات نحو فنون أكثر استقلالية ، وتعبر عن خصوصيتها الثقافية بشكل أكثر وضوحاً وتحديداً ، وهو ما تحتاجه مصر ضمن تطلعاتها إلى

تطوير وتحديث حياتها المعاصرة .

نحن والفن الغربى

ولقد كان طبيعياً - منذ قرن من الزمان - أن تتجه أبصار المصريين المقتحمين الجدد لعالم الإبداع الفنى صوب الغرب ، صاحب التقاليد الراسخة فى مجال الفنون ، ليتمثلوا إنجازاته الكبرى ، وينقلوا أساليبه الفنية ، ويحتذوا نماذجه الشهيرة . ويتعلموا تقنياته ومهاراته ، وفى النهاية أن ينسجوا على منواله إنتاجهم الفنى ، وبالفعل ظهرت أعمال فنية كشفت عن مهارة المصريين العالية وحساسيتهم الفنية المرهفة ، ولكن ظل وضع الإبداع الفنى ثابتاً على النهج الاتباعى ، الذى كان يتأكد وجوده أحياناً ، ويقل تأثيره فى أحيان أخرى ، وذلك تبعاً للظروف السياسية والاجتماعية فى مصر ، ولكنه فى جميع الأحوال كان عاملاً ضاغطاً على الإبداع المصرى ومعوقاً لعوامل تشكله ونضجه واستقلاله . وسيطرت على ساحة الإبداع ما عرف بقضية الأصالة والمعاصرة ، حيث تبنى دعاة الأصالة فكرة الفن القومى الذى يتصل بعناصر التراث المصرى الفنى بشكل أو بآخر ، فى حين نادى أصحاب الدعوة للمعاصرة إلى نبذ القديم واقتفاء أثر المدارس الفنية الغربية واتباع تعاليمها ، بينما كان هناك فريق معتدل فى توجهه ، لا يعطى ظهره للتراث وإنما يحاول أن يمتد بخيوط منه ، وينتقى من بين عناصره ما هو مفيد فى التعبير الفنى الحديث ، كما أنه لا يرفض الاستفادة من أفكار مدارس الفن الغربى ، فيما بدا كمحاولة توفيقية .

ولقد أدلى كل بدلوه فى هذه المسألة التى بدت كمعضلة لا حل لها ، وأدى الخلط وعدم الوضوح فى تحديد المصطلحات والمفاهيم إلى التباس مازالت آثاره السلبية ممتدة حتى اليوم .

وتكشف المتابعة الفاحصة لمسيرة الفن المصرى منذ بدايته الحديثة أن تأثير الفن الغربى بدءاً من جيل الرواد الذى تلقى تعليمه الفنى - سواء فى مدرسة الفنون الجميلة أو فى مراسم الفنانين الخاصة - على أيدى الأجانب ، ووفق مناهج الفن الغربية ، لم يخفت وتقل سطوته إلا فى مرتين ، الأولى منهما حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وما صاحبها من إثارة للنزعة الوطنية فى المجتمع المصرى ، والتى دفعته إلى البحث عن عوامل استقلاله ، فطال ذلك مجال الفن التشكيلى رغم أنه كان مازال وليداً ، وتجسدت تلك النزعة بشكل واضح فى لوحات محمود سعيد وراغب عياد وتماثيل مختار . أما المرة الثانية فقد جاءت مصاحبة لعودة نفس النزعة الوطنية بشكل أكثر وضوحاً وحدة من خلال المشروع الوطنى الذى تبناه عبد الناصر فى الخمسينات والستينات ، وانعكست



من أعمال الفنان الراحل سعيد العدوى

آثارها على شتى أنواع الإبداع الفنى ، وفي الفن التشكيلي نجد صداها ظاهراً فى أعمال فنانين عديدين من بينهم تحية حليم والسجينى والجزار وندا ، وتميزت تلك الفترة بالبحث عن جماليات تشكيلية جديدة وذات صلة حميمة بعناصر الثقافة المصرية وخصائصها المميزة .

وفيما خلا هاتين الفترتين فإن الفن الغربى كان ومازال يلقى بظلاله على الإبداع المصرى ، وخاصة منذ وقوع النكسة عام ١٩٦٧ وما صاحبها من انتكاسة للمشروع القومى العام ، وخفوت صوت الداعين لإحياء الروح المصرية الأصيلة المبدعة . وإذا أضفنا تلك التغييرات الاجتماعية السلبية ، والسلفية الفكرية المعادية للفنون ، مما أدى فى النهاية إلى تكريس أنواع الفنون السوقية والسطحية ، وعدم حفز أسلوب البحث والتفكير والمعاناة والتجويد ، مع تشجيع استعمال ما هو جاهز ومعد سلفاً وسبق تجريبه وأثبت رسوخه فى الغرب ، كل تلك العوامل قد ساهمت فى وقف نمو وانطلاق الفن المصرى الحديث كما كان يرجى من أمة مصدر فخرها اليوم هو فنونها التشكيلية ولكن فى عصرها الموغل فى القدم .

درجات متفاوتة من التأثر

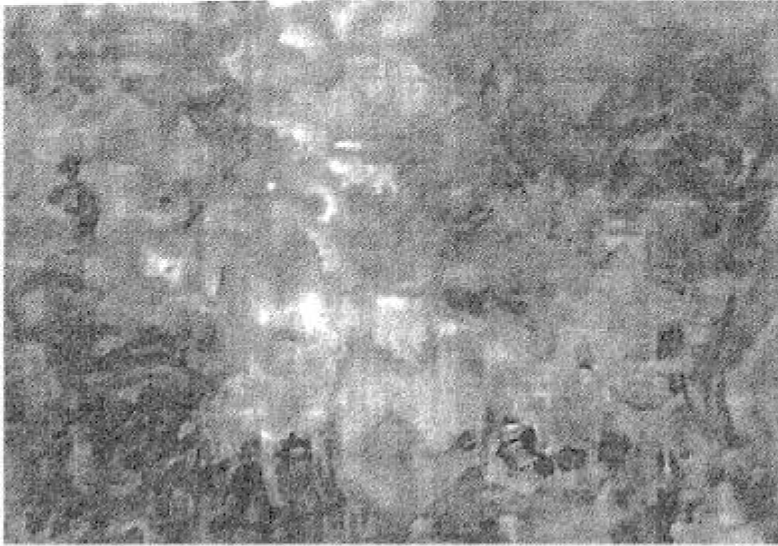
ولقد اختلف الفنانون المصريون فى مدى وكيفية تأثرهم بالفن الغربى ، وذلك

تبعاً لمقدار الموهبة والنضج الفنى والوعى الثقافى عند كل منهم ، ولأن هناك مساحة واسعة من التأثر تبدأ بمجرد تبنى الفكرة النظرية للأسلوب ولكن الفنان يضيف لمسته الذاتية وإضافته الشخصية مثل تجريد رمسيس يونان وفؤاد كامل ، وتنتهى بالتقليد المباشر والنسخ لبعض أعمال الفنانين الغربيين ، كما أن هناك الفئة التي تتبنى أساليب الفن الغربى وكأنها هى التى أبدعتها وابتكرتها ، فتراها تدعو إليها بكل قوة ، وتهاجم وتقاوم بضراوة أى حديث عن خصوصية الثقافة ومحلية الفن وكأنه وصمة حضارية وتخلف فكرى ، فهى لا تكتفى بنقل الأفكار والصيغ التشكيلية الجاهزة - وذلك فى حد ذاته أمر مشين - وإنما تتخطى ذلك إلى إثارة الخلط والتشويش على المبدأ الصحيح فى الإبداع باعتباره عملاً ذاتياً فى المقام الأول يحمل ثقافة صاحبه ورؤيته الشخصية ، وتتخفى تلك الفئة وراء تعبيرات غامضة ومقولات خاطئة ، مثل مواكبة الحداثة الفنية ، أو أن الفن لغة عالمية ولابد أن يتخاطب الجميع بمفرداتها

والمقصود بالتعبير الأول أن هناك شكلاً أوحد لا بديل له للحداثة الفنية هو ذلك الذى يوجد فى الغرب ، وكأنه ليس ممكناً أن تخلق الشعوب حداثتها المعبرة عنها والمشتقة من عناصر ثقافتها ، وفى ذلك التعبير إلغاء للروح الحيوية المبدعة وافنائها ، كما أن فيه امتهانا لقدرة الإنسان وإمكانياته فى التحليق بعيداً عن القوالب المعروفة والمستهلكة ، كما أنه يعنى انتظارنا دائماً لما هو أكثر حداثة .

أما مقولة أن الفن لغة عالمية ، فهو بالفعل لغة عالمية لأن قيمه وعناصره التى تكونه مفهومة ويتم إدراكها لدى جميع البشر فى أى مكان من العالم ، وإدراك القيم الجمالية كالخط واللون والمساحة والتصميم ومجمل العلاقات التشكيلية لا يحتاج إلى مترجم ، فلا يجب أن تفسر عالمية الفن على أنها صياغات معينة يلتزم بها الجميع وإلا تخلفوا ، فمن خلال القيم الجمالية يمكن الحصول على صيغ لا نهائية من أشكال التحديث .

كما يثير بعض الداعين لتقليد الفن الغربى مقولة أن هذا الفن قد تأثر هو نفسه بفنوننا القديمة وفنون الأمم الأخرى كالفن اليابانى والفن الزنجى ، ولكن ذلك التأثر كان بمثابة إثراء الفن الأوربى بعناصر جديدة لم تفقده انتماءه لتاريخه المتصل ، ولم تقض على معالمه ، وهناك فرق بين أن يتضمن فى نسيجه ملامح من هنا وهناك أو استعارات فنية وبين عملية النقل والتقليد ، فالمهم هو المحافظة على انتمائه الكلى فى مجمله النهائى . وذلك ما توضحه أعمال بيكاسو التى تأثر فيها بمعالجات الفن الزنجى ، وجوجان الذى تأثر بالفن المصرى القديم ، وماتيس الذى تشكل الزخرفة الاسلامية بعضا من ملامح أسلوبه ، وقد ظلت أعمال هؤلاء



من أعمال الفنان رمسيس يونان

منتمية قلباً وقالباً للفن الغربي .

ويقرر «إدوارد لوسي سميث» وهو من أهم النقاد المعاصرين في أوربا في كتابه «الحركات الفنية منذ عام ١٩٤٥» أن «الحداثة قد أصبحت أحد الأشياء التي تحسدها الدول المتخلفة ، وتحاول أن تقلد صورة منها . نقلاً عن الدول المتقدمة» كما يرى سميث أن فناني الهند واليابان اللتين اضمحلت حضارتهما التقليدية فيما بين الحربين العالميتين قد حاولوا إعادة البناء وفق النموذج الغربي ، ولم يوفقوا في سعيهم .

«ورغم أن فنانين يابانيين مثل التجريدي جيرو يوشيهارا كانوا متميزين بلاشك بسبب لمساتهم الذاتية النابعة من الخط التقليدي الياباني إلا أنهم لم يبهرونا كما فعل كبار الفنانين في عصرهم ، فقد انحسرت أهمية هؤلاء الفنانين على المستوى الوطني المحلي ، ولم تتخطاه إلى المستوى الدولي» . كما يقرر بأن ظاهرة الفن الشعبي المكسيكي لم تتكرر . وتلك رؤية لناقد غربي وتقييمه للنماذج المقلدة للفن الغربي واعتبرته نهاية المطاف لعملية الإبداع الفني .

ولهذا فإنه يجدر بنا أن يأتي بناء فننا الحديث معتمداً في أساسه على المقومات الثقافية الذاتية ، وعبر تحولات طبيعية غير مفتعلة، ومن خلال آليات واعية ذكية تحث العناصر الأصيلة على الإبداع الفني المستقل والمعبر عن خصوصية الثقافة المصرية في طورها الحديث .■

التراث

فى ثقافة القرن

بقلم

د. أسامة أبو طالب

سوف تتسع رقعة معالجتنا لموضوع التراث كى تعتمد التعامل معه باعتباره «إرث الحضارة العربية الإسلامية على جميع أصعدة إنجازاتها» الروحانية والمادية من إنجازات علمية إلى عطاء إبداعى أدبى أو فنى بكل أشكاله وصيغه الفردية أو الجماعية الشعبية، سواء وصلتنا متواترة بالسرد الشفاهى أو محفوظة بالكتابة أو محمية ضمن دائرة موروث الفرجة العامة مع متطلباتها ورفقتها من فنون سمعية وبصرية؛ والتى هى أساس المشاهدة المشاركة الحية. ذلك لما مثلته هذه الحضارة من قدرة على تقبل حضارات وثقافات أخرى دون إحلال أو ابتلاع متعسف أو تذويب قسرى؛ بل فى إفراز منتج نهائى متفرد ذى نكهة خاصة وطابع خاص «يسمحان بالاعتراف بأصولها ومصادرها الحضارية والثقافية السابقة بقدر مايؤكد انتسابها لهذه الحضارة ويمثلها!



ما هو مستقبل ثقافتنا وتقاليدنا وأعرافنا؟

يتضمن بحث هذا الموضوع إذن - أو تشمل هذه النظرة - الموروثين الدينى المسيحى والإسلامى كما يتجليان فى أشكال الاحتفالية الشعبية ذات الطابع الدينى - أو ما أطلق عليه دين الحرافيش! «والذى هو نتاج تراكمات ثقافية عديدة ذات طبقات متتابعة سواء كانت متناغمة أو متناقضة، حيث صيغ هذا النتاج الثقافى ذو الشكل الدينى على مهل وبالتدريج عبر العصور وإن إتمام هذا النتاج الثقافى (الفنى) النهائى يتوقف على المطبخ السوسيوثقافى إن جاز التعبير. وعلى ذلك يمكن تفسير تأثر بعض الممارسات والطقوس الإسلامية القبطية الحالية - فى مصر مثلا - ببعض المعتقدات والأديان والثقافات المصرية القديمة منذ العهد الفرعونى(١). وهو ما يمكن رصده فى بلدان عربية أو إسلامية أخرى من ذوات الحضارات قبل المسيحية أو الإسلامية. حيث يمثل ذلك الموروث بتقاليده الحية مكونا مهما من مكونات العقل والوجدان العربى الجمعيين فى اختلاطهما الصاهر المركب معا. والذى - بالتوافر على دراسته العميقة وتحليله العلمى المستقرىء الواعي - يمكننا أن نصل إلى نتائج ذات قيمة تساعد على معرفة دوافع الفعل الإنسانى وأهله وإنجازاته فى هذه المنطقة الحية المؤثرة من العالم، والتى تعتبر - ومازالت رغم عوامل الارتداد ومسببات النكوص - منجم القوة الروحية الهائلة فى هذا الكون!

التراث العربى والعولمة..

ما هو موقف هذا الإرث الثقافى الكبير إذن وما يحدث على ساحة الأرض نابعاً من الغرب أو مفرزاً من العقل الأمريكى بالتحديد! متخذا تسمياته

(١) على فهمي: دين الحرافيش فى مصر المحروسة. ص ٤٢ - ٤٣.



الجديدة عولة أو كونية. منذرا بكل مايمكن أن تفعله أو تهدد بفعله تلك التسميات من قدرة على التغيير الاجتماعي في المنطقة العربية؛ وبأى شكل أو صيغة من صيغ الابتلاع أو التذويب أو التأثير دون أن نعرف إلى أين تذهب وإلام تنتهي؟ وما هو موقفنا من فعلها المتدافع؟

هل نكتفي بموقف المتفرج السالب المنفعل أم بموقف المراقب الراصد حتى ولو كان متمتعاً بـ «وعي سلبي» مؤلم معذب؟.. وهل يمكننا القول بأن هناك سعيا حقيقياً واعياً مدروساً وقادراً على تحديد حجم هذه الظاهرة المكتسحة ومداها وقوة تأثيرها كي يكون بإمكانه حشد قوة مواجهة لموجاتها في اتجاهات آمنة أو حتى أقل خطراً إن لم يكن لاستغلالها وتحويلها إلى تيار دافع في «واقعه المحلي» ذي قدرة على المواجهة والاتساق مع الحركة العامة لتيار العولمة هذه ليستفيد منه ويفيد. وليحاوره أو يتجادل معه دون أن يعلن عليه الحرب أو يقاطعه. وفي الوقت نفسه يضمن الحفاظ على هويته وفردانية ملامحه دون أن يذوب فيه أو يضمحل مستسلماً له.



وبمعنى آخر: ماهو مستقبل «ثقافتنا القديمة» - أو «تقاليدنا» وأعرافنا الأدبية والفنية ومعاييرنا الأخلاقية وممارستنا الاجتماعية - باعتبارنا أصحاب ثقافة وحضارة معا؟.

وأيضاً إلى أي مدى وبأية صيغة يمكن أن تظل فنوننا التراثية باقية تحظى بالاحترام وفق نظرة متوازنة سواء ظلت كامنة في أشكالها التقليدية القديمة أو حركها الاستغلال ودفعها التطوير كي تتخذ أشكالاً حديثة من التجليات كمحصلة لإعادة التناول بالتحويل والتنشيط والاستلهام والتخصيب وفق نظرة علمية - متوازنة أيضاً - بمعنى أنها تنظر إلى الظاهرة وتتناولها في سياق انبعاثها ومنظومة حياتها ومسيرتها تاريخيا واجتماعياً ضمن حركة التغير والتطوير والتقدم والموازنة والمحادثة لها على كوكب الأرض؛ وبما يخلص التعامل معها واستثمارها - حضاريا - من منطلقين يمثل كل منهما تطرفا معوقاً غير فاعل، حيث ينطلق «الأول» من نظرته العابدة المصنمة لهذا الإرث؛ وبما يجعل من المساس به أو محاولة تحريكه - إلى

زاوية الفحص وإعادة التفهم - نوعاً من الكفر أو شكلاً من أشكال الخروج والخيانة!

بينما يجنح «التطرف الآخر» إلى نفيه وإنكاره مشاركته فى صناعة التقدم؛ بل ويدعو إلى ادانته وتجريمه واعتباره «جميعا» سبباً من أسباب النكوص ذريعة من ذرائع التخلف وحججه وأدواته!

فى حين تنأى النظرة الموضوعية عن هذين الموقفين الدوجماطيقيين - العابد والمتعالي - كلاهما فتطالب بالغربلة والفرز والانتقاء وترحب - بل وتوجب - بإعادة النظر الدائمة وتجديد التناول والتأويل والتخريج على ضوء ما يحققه «العصر العالمى» بتقنياته ومناهجه وأدواته استجابة لرغبة واعية منها فى المحافظة على جوهر التراث باعتباره قيمة صنعتها تراكمات الخبرة وليس مجرد منتج اعتراضى عابر يمكن تنحيته جانبياً بعيداً عن مسيرة تحديث العقل وبناء ثقافته وحضارته العصريين!

«تبويش» الفنون العربية

كيف ينجز ذلك «التعامل العصرى» - مع مفردات التراث الدينية والأدبية والفنية إذن - وإلى أى مدى يمكن أن نسوغ قبوله لأجيال تبتعد عنه إلى وسائط عالمية لاتنكر نظرتها المتعالية إلى «فنون العالم القديم» وممارساته الدينية

ما هو مصير خيال الظل والأراجوز والسامر والحكواتى؟

والثقافية والاجتماعية وما يتعلق بها من تناولات على مستوى الفكر أو بساط الفعل في مناخ لاينكر ابتعاده المتواصل عن ثقافة «الكتاب» وبالتالى تعاليه على ممارسات فنية شعبية تقليدية مارسها الأجداد وأدوا بها دوراً سياسياً واجتماعياً ناقدا وناجزا مثل «خيال الظل والأراجوز والتحبيظ والسامر والحكواتي على ساحة إحداث الصدمة والتغيير بالفرجة والأداء المسرحى الحى»!.

ماهو موقفنا من الأغنية العربية التقليدية وفنون الطرب القديم الذى لم يعد وحده مهدداً بالمجافاة وهجر الأذن والذوق؛؟ بل تجاوزهم فعل الإهمال والتعالى ليصيب بفعله التدميرى ممارسات فنية قيمة ذات تاريخ أحدث، ونعنى بها الأغنية العربية منذ مطالع الستينيات عاطفية كانت أم وطنية . علاوة على ندرة إنتاج هذا النوع الوطنى بالذات - أو ترديه - بعد إخفاق المشروع القومى الوحدوى العربى وفشل محاولات

ومؤسسات إحيائه؟!

وألا يمثل تجاهلنا لـ«وحدة» هذه الفنون العربية التقليدية - سواء كانت فنون العرض والأداء الحي أو فنون الشاشة - والتخلي عن إدراك قيمتها وتناقص اعترافنا بدورها الذي حققته كمعبر تاريخي حقيقي عن عقل ووجدان أمتنا في لحظات تاريخية فاعلة من حياتها؛ خطرا يهدد القاعدة الصلبة والأرض «القومية» الوحيدة التي تحملت فرقتنا، وأظهرت قيمتها في تحقيق تماسك إنساني وحضاري بيننا كبشر دفعت بهم ممارسات السياسة وأطماع الآخر وغيبة الجدل ومصادرات التعبير وتجريم الاختلاف وافتقاد الأمن إلى التجزيء والتجزر والنكوص والارتماء إما في أحضان الماضي وعبادته - لوذا به وخوفاً من «الحاضر غير المدرك» والمستقبل الغامض غير المستقرىء جيداً - أو إلى نفيه نفيا قاطعا مجملا يتهمه ويحمله عبء ما وصلنا إليه من قهر أو هبوط وتخلف وعجز!



إن من الثابت الذي لايمكن على الإطلاق إنكاره أن سلسلة التقاليد الحية التي تمثلها ممارسات الأدب والفن العربيين قد لعبت دوراً ناجزا في تحقيق وحدة أخرى أكبر وأكثر ثباتاً من التوحيد السياسي بين أبناء هذا الشعب. وأن هذا الدور الذي ظل صامداً يمثل الملتجأ الأساسي الأقوى بعد سقوط جسور التواصل السياسي والتوحيد الفوقي المفروض من أعلى - في بعض تجارب السياسة العربية وممارستها - يتعرض الآن إما لهزات التشكيك في قيمته وجدواه . وإما لمحاولة مدركة قاصدة متعمدة لما نطلق عليه «عملية تبويش» مزلزل للأرض بتسريب المياه إلى أساساتها؛ حيث تجرى عملية تحريك أو إزاحة للمنتج الفني العربي القيم - حديثه وقديمه - واستبداله بمنتج آخر سوقي وعارض ومتدن يتمحك في المنتج الغربي ويقلده غافلاً عن كونه إفراز مرحلة حالية من حضارة ديناميكية ومشهد معاصر من مسيرتها .

الهوية الثقافية .. والآخر!

وفي حين تحظى المسيرة برصد «المفكر والمثقف الغربي» ودراساته وتحليلاته؛ يفتقد «معملنا القومي» هذا الرصد أو لا يعترف به حين تبدو وتطل محاولاته. ومن ثم نضطر إلى اللجوء إلى «تحليلات الآخر» والقياس عليها

وتطبيقاتها مع القيام بتهجين نظرته ونظرياته فى تربة عقولنا وأرض أفكارنا إلى أن تحدث كارثة الافتقاد المطلق للهوية واكتمال حلقاتها فى أجيال قادمة ربما تحدث بينها وبين تاريخها وفنونها وآدابها قطيعة معرفية كارثية مدمرة! وخاصة فى غياب دور المثقف الحقيقى وكف فعله المؤثر وعزلته غرقا فى ممارساته النظرية أو تمسحاً فى مدد السلطة أو سعيا إلى نعمة مراكزها!..

وما حالة العزوف التى يعانيها المسرح العربى من جمهوره وخصام مشاهديه له - بعد رحلة تواصل وإنجاز تاريخية رائعة لعب فيها دوراً أساسياً فى قضايا تحرير العقل وتحرير المرأة وتنوير الوطن وتثويره والتقريب بين لهجات لغته الأم وكسر العزلة وتثبيط العداوة بين مذاهبه الدينية والعقائدية - إلا شاهد حقيقى على حالة التردى التى نعيشها!

وما استبدل منتج كتابته وعروضه القيمة بمنتج آخر هابط مبتذل رخيص وترويجه بدأب وتمكن وإصرار ومقدرة؛ سوى عرض ظاهر لحالة التردى الكامل «المقصودة» للذوق الفنى العربى . تبدأ بأن يستدير الكاتب لمجتمعه معطياً واقعه ظهره ومتخليا عن دوره فى أن يكون «ناقداً ورافضا وإصلاحيا متمرداً» إلى السقوط فى هاوية تكريس التافه والمتردى والرخيص والتكسب أو الإثراء من جراء الإضافة - بفنه - لمستنقعاتها المفتوحة لابتلاع القيمة وتدشين الزائف ودعمه وترويجه!

● إلى أى مدى وبأى صيغة يمكن أن تظل فنوننا التراثية باقية؟

ومن هذا المنطلق يتم «تسليع» الثقافة والفن العربيين التقليديين بعد تشويه ملامحهما وعزلهما عن سياقهما الفكرى والحضارى؛ ليصبح «المقدس» مشاعاً منتهكا و«الرفيع» هابطا، مثلما تشتعل المنافسات «الإقليمية» بين الدول العربية معلية شأن اللهجات المحلية، ومحيية باعثة للعرقيات المنصهرة فى بوتقة «الكل العربى» والمكونة لمركبه الفسيفسائى التاريخى - الذى كان صلدا ومتمسكاً وباعثا على الإعجاب - حتى يتم لفعل التجزئة لصالح الآخر الطامع العدو أن يتم ويكتمل ويفعل؛ فيما نحن غارقين فى جحيم إجبار أنفسنا على الاعتراف إما بنظرية المؤامرة المحاكة ضدنا؛ أو الإقرار بصراعنا كحضارة تقليدية تعانى من عجزها مع حضارة أخرى تتسيدها

مادياً وعسكرياً وتوشك أن تكون ثقافيا كذلك!.. أو أن نتعلق بسراب - نعلل به أنفسنا ونطمئنها - من «حوار الحضارات» فيما يشبه تجميلاً عاجزاً يخفف من اعترافنا بحالة «صدام» - دائم لانقدر عليه - ويروج البعض إلى الاعتراف المستخذى به والذى يمثل حالة مزرية من الاستسلام للآخر كحل وحيد يرون أن نقبله برغبتنا بدلا من أن يفرض علينا عنوة وقسرا وبما يضمن تكريس الواقع وتثبيت الصورة أو الإمعان فى النكوص والارتداد إلى ممارسات معتقدية وثقافية وتقاليدية سبق للعقل العربى الناقد أن محصها وأثبت فسادها وتجاوزها فى رحلة تنوير حقيقية معتمدة ومثبتة!

هموم الثقافة العربية

إن مدخل الإنقاذ يبدأ من الاعتراف الشجاع بأننا نعيش حالة فادحة من التناقض والازدواجية والأداء الشكلى الزائف لقيم وتوجهات حقيقية ونمارسه ونروج له : فبينما نقرأ عن الثقافة وأهميتها لايمارس مثقفونا - ولا غالبيتنا بالطبع - متطلباتها.



والنتيجة أننا لانصدق مثقفينا لكننا نتعايش معهم ونسمعهم! مثلما يجهر غالبية مثقفينا بعدم تصديق السلطة أو بفقدان الثقة فى توجهات مشروعاتها دون أن يقدموا مشروعاً حقيقياً للتطوير ويدافعوا من أجل تمريره وتجربته وممارسته!

ومن هنا ربما يصبح إلقاء بعض الأسئلة نوعاً من الكشف المجدى عن حالة مرفوضة والإضاءة على فعل واجب.

فهل يلعب الفن : المسرح، السينما وإبداعات فنون الكتابة العربية - ذات التاريخ - فى التأثير الإيجابى على المواطن وتحقيق تنمية بشرية فاعلة ذات حس تاريخى ووعى بالحاضر واستشراف علمى موجه للمستقبل وصانع له؟

وهل أفلحت لوائحنا فى تشجيع البحث العلمى وموازرة تجارب تطبيقه عمليا والاستفادة من نتائجه ومبتكراته؟

وهل نجح نظامنا التربوى فى خلق المواطن القارئ، وصنع المواطن المنضبط الواعى المتحلى بالرشد والاعتدال والمتخلص من أمراض التطرف والتعصب والجنون بالآخر الغربى واحتقار منتجاته وصناعاته الوطنية؟

وهل استطاعت التربية الوحدوية التى استمرت زمنا فى جعلها مطلباً

حقيقيا - قابلاً للتوريث - أما أنها فشلت مثل فشل التجربة الاشتراكية على أيدى مطبقيها وفى وطننا العربى كذلك؛ فشل التجربة الحزبية فى أن تصنع لها متحزبين منتمين عن اقتناع فاكتفت بالتمسح فى ترديد عبارات المعارضة فى نفس اللحظة التى تمد فيها اليد طالبة العون من حكومة الحزب المنافس الحاكم كى تقوى على مواجهته وتوهم المنتمين لأحزابها بأنها تعرض من أجلهم؟

هذه هى قضية الأداء الشكلى إذن؟؟ سد الخانات بدلا من ملئها بالصحيح والمفيد؟ الحديث عن المعارضة بدلا من ممارستها. الدعوة لنبذ التطرف والتعصب بينما تؤمن به نفس العقول الداعية وتقترفه بانتظام؟

وهل نجح نظامنا الزراعى فى تحقيق اكتفاء غذائى تكاملى يشملنا جميعاً ويفيدنا كافة بانفتاحه على علم زراعى غربى متطور وبارتكازه - فى نفس الوقت - على قاعدة عريقة من الخبرة فى الزراعة وتنمية الثروة الوطنية كما مارسها الأجداد بدلاً من التسابق الحالى إلى الأخذ «بتجديدات مشبوهة» وتقليد غير مدروس والاقتتال على حلبة تنافس إنتاجى مكرر لا يؤدى لغير الكساد فيما تترك الزراعات والمحاصيل والخبرة الوطنية مهجورة إلى حد الموت!

وهل تمكن نظامنا التعليمى - فى كل الدول العربية بلا استثناء - أن يعد مواطن العصر الآخذ بأسباب التقدم والمتسلح بمعرفة تراثه معرفة ناقدة حقيقية فى نفس الوقت؛ وأن يجهز مواطن المستقبل كذلك؟.. وهل سلحناه بإيمانية الانتماء مع رحابة قبول الآخر والتعايش المتوازن معه؟ ودعمناه بما يقلل من مسافة الإنجاز العلمى والتكنولوجى الفاصلة بينهما، أو يعوضها بإنجازه الثقافى المتميز والمتأصل تاريخيا بما يضمن تحديثه وتطويره بدلا من السقوط فيما أشرنا إليه من انبهار عاجز أو رفض متخلف مريض ومغلق!

أسئلة كثيرة وهموم أكثر لن يجيب عنها أو يحلها ويفض من اشتباكاتها سوى جهد علمى حقيقى متمتع بنظرة ناقدة ورؤية محايدة وأدوات وتقنية علمية وموقف يعى موقعه من تقاليد الماضى وثقافة العصر! ■

من الثابت أن التقاليد الأدبية والفنية العربية لعبت دورا فى وحدة أبناء العروبة..

إحدى روائع التراث الإنسانى الشفاهى

السيرة الهلالية

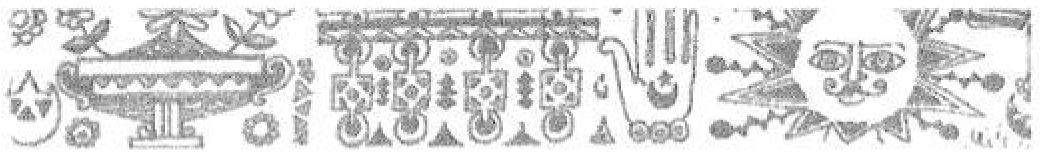
شعر المنسيين وضميرهم الشعبى

كيف نحميها ؟

أمانى عبد الحميد

أجزاء كبيرة فى السيرة الهلالية أصبحت مهددة بالاندثار بعد موت عدد كبير من شعرائها ورواتها العظام فى مصر . ماتوا ودفنوا معهم أجزاء كبيرة من أشعارها الموروثة . لم يورثوها لأحد من بعدهم . القليل منهم علم أبناءه أو تلاميذه مثل جابر أبوحسين ،آخر من ورث تلميذه سيد الضوى قبل وفاته . فكيف لنا أن نحافظ على تراثنا الشفهى من الاندثار . هل بإدراجه ضمن قائمة الروائع العالمية للتراث الإنسانى الشفاهى غير الملموس ، أم إقامة متحف خاص به ، أم عقد الندوات والدراسات والقيام بجمعه وتوثيقه بالطرق العلمية ، أم أن الأمر يحتاج إلى ضرورة الحفاظ على قدرة البشر على ممارسة موروثهم الشعبى وعدم التخلى عنه ؟

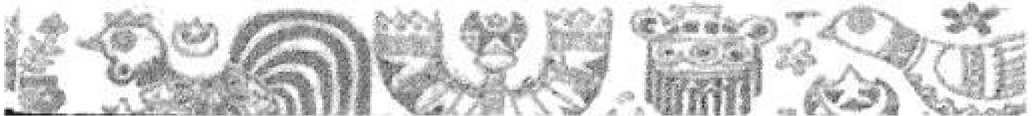






سيد الضوى آخر رواة السيرة الهلالية وبجواره عبدالرحمن الأبنودى

من المثير للإعجاب أن تنجح بعض الثقافات الشعبية القطرية فى التشبث بالحياة . تقاوم الاندثار فى ظل عصر العولمة - الذى يحاول أن يقضي علي كل اختلاف ثقافى - والذى بدأ يسحب البساط من تحت أقدام عصر مضى . كان فيه للتقليد والموروث بعض القيمة كمصدر إلهام للأجيال المتعاقبة ، وضرورة من ضرورات الحياة ، وعلاقات البشر بعضهم ببعض من أفراح أو أحزان ، ينطبق القول على السيرة الهلالية كجزء من أدب شعبى متوارث جيلا بعد جيل شفاهة . وبرغم أنها أشعار مجهولة المؤلف لكنها قاومت الاندثار (ماتبقى منها) بفضل بعض من الجماهير المغمورة ، أولئك الذين يعيشون ملاصقين لواقعهم القريب من الأرض ، البعيد عن لهاث المدينة ومركز





السلطة . وبفضلهم أصبحت السيرة الهلالية ملحمة متكاملة ودخلت ضمن التراث الإنساني وقائمة الروائع العالمية من التراث غير الملموس التي أعلنتها منظمة اليونسكو في مايو ٢٠٠١ .

ثقافة قابلة للزوال

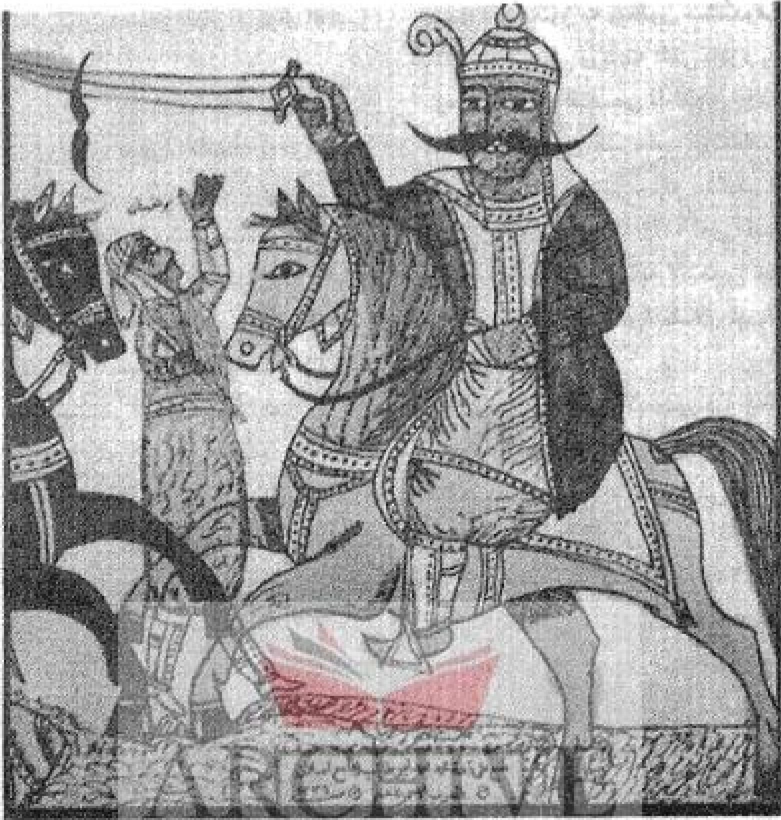
أعلنت منظمة اليونسكو قائمة تضم تسعة عشر عملاً فنياً اعتبرتهم أهم روائع التراث الشفهي وغير الملموس للإنسانية . ووقتها أعلن مدير عام المنظمة كواتشيرو ماتسورا أن القائمة الجديدة تهتم بالجوانب غير المادية في الثقافة - أي المنتجات السريعة الزوال مثل القصص واللغة ذاتها، أو المعتقدات والقيام ، أو رقصات الأفراح والأعياد ، ندب الجنازات، الغناء والمهارات والحرف والأساطير ، وكل مايعطى الثقافات حيويتها . جاء إعلان القائمة بعد مداولات طويلة حول تحديد مفهوم مصطلح الثقافة والتراث غير الملموس أو المحكى أو الشفهي . برغم أن الاهتمام بدأ منذ زمن طويل بالثقافة الشعبية الشفاهية منذ القرن الثامن عشر تقريبا ، خاصة بين علماء اللغة والتاريخ والفن الشعبي . كما أن المناقشات داخل اليونسكو نفسها أثيرت حول قائمة التراث العالمي منذ عام ١٩٧٠ واستمرت حتى صدور القائمة في باريس .

والمعضلة الأساسية هي كيفية الحفاظ على هذا المجال المتسع من التراث . خاصة وأنه أصبح يقترب من الاندثار ، فكثير من التقاليد الشعبية بدأت تفقد قدرتها على التوارث بين الأجيال الجديدة. فلم يعد الناس يحرصون على تعلمها أو تعليمها لأولادهم . فنجد على رأس القائمة الهنود الخمسة الذين مازالوا يتكلمون لغة «الزبارا» في غابات الأمازون ، كذلك ثقافة شعب «الجاريفونا» في أمريكا الوسطى والمكونة من لغتهم وموسيقاهم ورقصاتهم على اعتبار أنهم آخر سلالة عبيد أفريقيا والمهددين بالفناء هم ولغتهم المنطوقة وأوبرا «كونكو» التقليدية بالصين أحد أقدم التقاليد المسرحية الصينية ، أو مسرح «نوجاكو» الياباني ، رقصة «كويتيا تام» في الهند أحد المسارح الراقصة الذي يبقيه حياً خمس عائلات «شاكيار» في الجزء الجنوبي من الهند فقط . كذلك دخل القائمة عدد من المهرجانات التي يجتمع فيها الناس مثل ميدان جامع الفناء العجيب بالمغرب حيث يجتمع الرواة الشعبيين من كل صوب .

وللأسف الشديد أكدت إحصائيات اليونسكو أن الوعي بقيمة التراث الشفهي بدأ يتناقص في ظل انتشار مفاهيم العولمة . فالموارد الثقافية مثلها مثل الموارد الطبيعية أصبحت معرضة للخطر . بل اندثر بعضها بالفعل . وعلى







حملت «السيرة الهلالية» أفراح البسطاء وأحزانهم، انتصاراتهم وانكساراتهم، كما كان بطلها المغوار أبو زيد الهلالي!

سبيل المثال أنه من بين ستة آلاف لغة مازال يتم التحدث بها على كوكب الأرض، يتنبأ علماء اللغة بأن ٥٠٪ إلى ٩٥٪ من تلك اللغات لن تعيش، وستندثر بحلول القرن القادم. خاصة أن أغلبها لغات غير مكتوبة. وعندما تموت لغة ما فإن كثيرا من المعارف والمعلومات والتعبيرات التى تراكمت على مدى الأجيال تموت معها.

وإن كان إصدار القائمة التى ضمت منذ بدايتها «١٩» تسعة عشر عملاً يمثل الروائع العالمية للتراث الشفهى والمعنوى للإنسانية، استطاع أن يزيد من قوة التشبث بالتقاليد المنتقاة ويقوى الذين يمارسونها، حتى ولو أنها مغرقة فى المحلية. لأن عليها أن تعيش وتزدهر



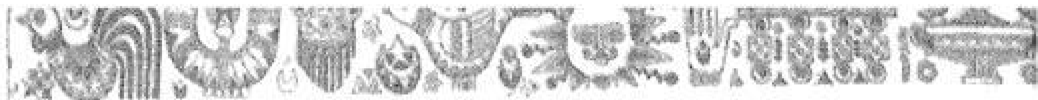
حتى تكون مصدر إلهام للأجيال القادمة

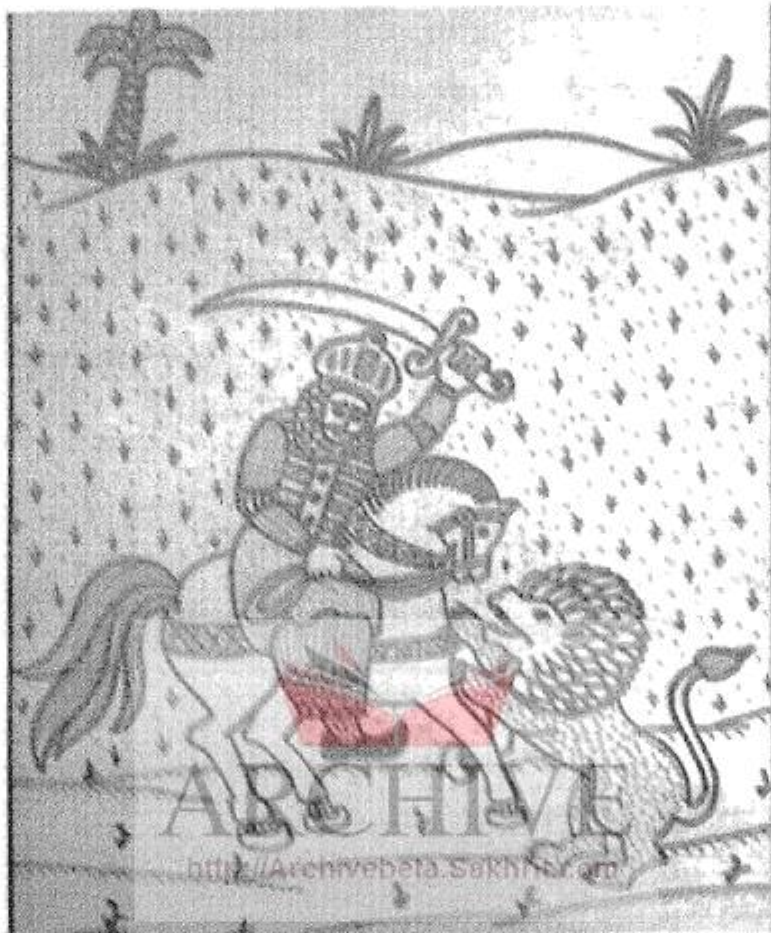
متحف للسيرة الهلالية

وخلال الفترة الماضية تمكن مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعي برئاسة الدكتور فتحي صالح والذى يتبع مكتبة الإسكندرية . تمكن من إدراج السيرة الهلالية ضمن قائمة روائع التراث الإنسانى العالمى غير الملموس على اعتبار أنها أحد عناصر التراث الشفهى الموروث عبر الأجيال منذ مئات السنين وقارب على الاندثار نظراً لوفاة عدد كبير من رواته وعدم توارثه بشكل يحفظه من الزوال . فإذا علمنا أن شعراء السيرة الهلالية والربابة العظام فى مصر ماتوا جميعا ودفنت أجزاء كبيرة من أشعارهم الموروثة معهم .

ومن هنا جاءت أهمية قائمة الروائع العالمية للتراث الشفهى والدور الأكثر صعوبة المطلوب منها وهو الحفاظ على قدرة البشر على ممارسة موروثهم الشعبى وعدم التخلى عنه . وذلك عن طريق توثيقه وتسجيله ودعم عملية ممارسته والاستمرار فى تقديمه . على سبيل المثال لايدرك أهل المدينة مدى قيمة شاعر الربابة لدى سكنى القرى والنجوع البعيدة . ففى أقاصى الريف الهادىء تشتعل مشاعر أهله وحماستهم عندما يزور قريتهم أحد شعراء الربابة . حيث يحتفون به ويظلون مشدوهين بأدائه الارتجالى وربابته التى تلازم يده ، وهو يتغنى بالقصص الشعبى الذى لايعرف القرويون غيره أمثال حكايات أبوزيد الهلالى ، الزير سالم ، سيف بن ذى يزن، الزناتى خليفة . أما أهل المدينة فصلتهم بالسيرة والربابة لاتتعدى عدد من الحفلات الساهرة خلال ليالى رمضان من كل عام .

عبدالرحمن الأبنودى بدأ رحلة البحث عن السيرة الهلالية وأشعارها من أفواه شعراء الربابة . يعترف فى حديثه مع «الهلال» أنه لجأ إلى السير الشعبية هربا من نكسة ١٩٦٧ . وخلال ٣٧ عاماً لم ينته بعد من جمع ملحمة السيرة الهلالية . «فأحداثها لم تنته بعد فهى مستمرة ، أطرافها منتشرة فى جميع أطراف مصر وتمتد إلى تونس السودان، وليبيا وحتى حدود تشاد ونيجيريا ..» ويبدو أن ماجمعه الأبنودى تحول إلى حجر أساس أول متحف للفنون الشعبية الشفهية فى مصر، داخل بلدته الصغيرة «أبنود» التابعة لمحافظة قنا، ويقول عنه أنه يضم تسجيلات صوتية ومرئية عن السيرة.. التى هى شعر البسطاء المنسيين، فالدارسون اهتموا بجمع شعر الشعراء الرسميين المقربين من السلاطين والأمراء والسلطة، وأهملوا مايقوله الناس

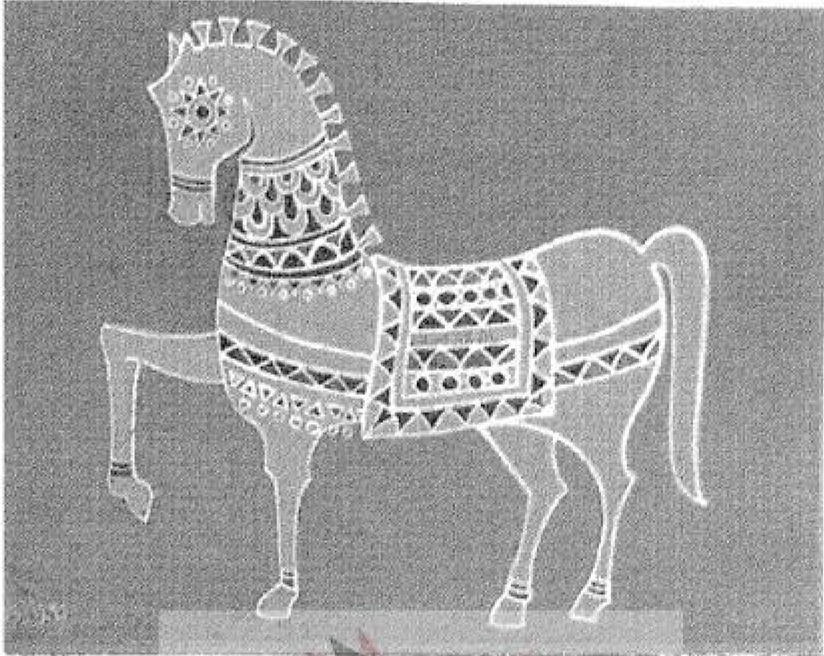




«السيرة الهلالية» ملحمة متكاملة بفضل أجيال متعاقبة من الحفظة والرواة ..

العاديون، برغم أن السيرة الهلالية ملحمة شعرية متكاملة تبدأ أحداثها قبل ظهور الإسلام بخمسة قرون واستمر تكوينها أزمنة متعاقبة، نابعة من الضمير الشعبى وينطقها الشعب بلغته البعيدة عن لغة مصطلحات أهل السلطة، فهى صادقة شفافة بخلاف شعر القصور المليء بالرياء والمديح!.. وتظل المسألة معلقة بحياة رواة السيرة ويحكى «الأبنودى» أن هناك راويا اسمه



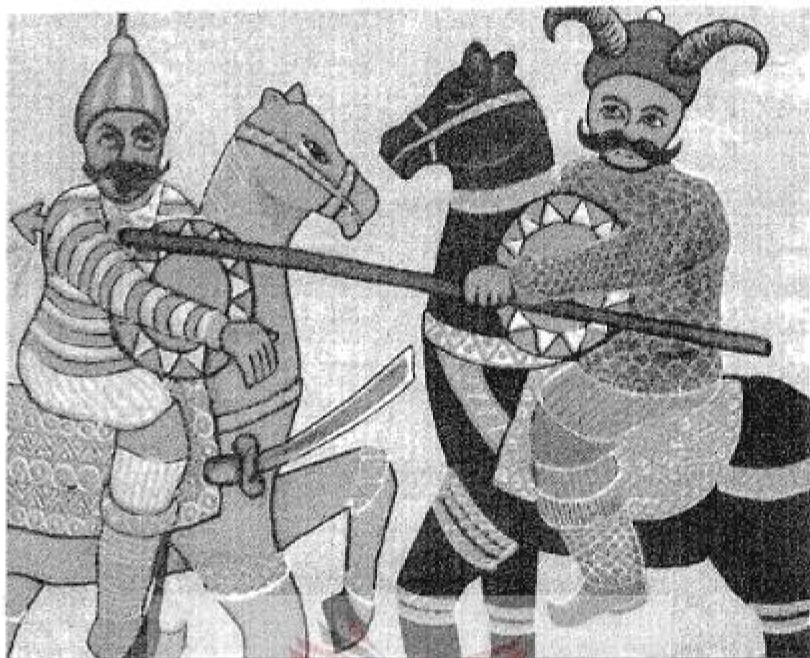


رسومها الفولكلورية بألوانها الشعبية ارتبطت بوجدان المستمعين اليها

«عبدالسلام» هو فى الأساس بائع طعمية فى «الأقصر» لكنه راويا للسيرة يأتيه العمال من كل صوب ليستمتعوا بطريقة سرده وروايته، فكل راو لديه مجموعة من المريدين يسيرون وراءه من بلد لبلد، ليستمتعوا بطريقته الإرتجالية فى السرد، مثل سيد الضوى آخر من تبقى من شعراء الربابة ومن رواة السيرة الهلالية وللأسف الموت أسرع بكثير من عمليات التوثيق والدليل موت عدد كبير من أغانى العمال كما يؤكد «الأبنودى»، كان العمال يتغنون بأغان خلال عملهم، اليوم قاموا باستبدالها بشرائط الكاسيت الجديدة، أو بالسماع لمحطات الإذاعة المختلفة وتوقفوا عن الاستمتاع برتم غناهم المتواصل مع رتم عملهم وسرعة أدائهم.

ويرى «الأبنودى» أن موافقة اليونسكو بضم السيرة الهلالية فى قائمة التراث العالمى غير الملموس شجع وزارة الثقافة على الإسراع فى إقامة متحف خاص بالسيرة الهلالية ببلدة «أبنود»، من المقرر أن يضم المتحف تسجيلات صوتية وسمعية ومرئية وشاشة سينمائية





هل إدراجها ضمن قائمة التراث العالمى يكفى؟!

وبروجكتور، علاوة على غرفة لاستضافة أى دارس جاد للسيرة، كما يضم المتحف ـ وهو الأول من نوعه في مصر والوطن العربي ـ كل الكتب والإصدارات التي تناولت السيرة الهلالية منذ ابن خلدون وحتى عبدالحميد يونس وغيرهم، كذلك كل المخطوطات وآلات الربابة التى كان شعراء السيرة يستخدمونها فى غناهم.

توثيق السيرة

وفى الوقت نفسه تقدم مركز التوثيق الحضارى والطبيعي بدراسة جادة حول السيرة الهلالية لمنظمة اليونسكو تتضمن تعريفا كاملا بها وخطة متكاملة لعمليات التوثيق لمفردات السيرة، وإن كان من أهم ماجاء في الدراسة إصرار المركز على وضع برنامج لتدريب كوادر بشرية ماهرة يكون لديها القدرة على جمع وتوثيق الأشعار من جميع المحافظات المصرية وذلك طبقا لمعايير وقواعد علمية، وإن كان المركز يحلم بإنشاء نظام دراسي للأجيال الجديدة تتعلم من خلاله مفردات تراثهم القديم قبل أن يندثر ويفقد صلته بالبشر، ويتحول إلى تراث





متحفى لايمارس طقوسه أحد.

وتقترح الدراسة المقدمة فترة خمس سنوات يقوم خلالها المركز أولا بالتعريف بالسيرة الهلالية كملحمة شعبية شفاهية، ثم القيام بتدريب المتخصصين فى مجال جمع الفولكلور المصرى خاصة السيرة وثالثا توثيق جميع المعلومات التى تم جمعها على وسائط مختلفة مثل الكتب وأشرطة الفيديو واسطوانات الليزر وباللغات الثلاث (العربية ـ الانجليزية ـ الفرنسية) علاوة على إقامة ندوات، سيمنار، حلقات نقاش، وموقع الكترونى على شبكة الأنترنت.

ومن أهداف الدراسة هو التركيز على جمع وتوثيق كل مايتعلق بالسيرة، وليس الأشعار فقط مثل الملابس، الرقصات، الأدوات الموسيقية، وطرق توريثها من جيل إلى آخر، وطرق التعبير والسرد المختلفة، كذلك يسعى المركز إلى ترجمة السيرة الهلالية ـ بعد جمعها ـ إلى اللغة الانجليزية وإعادة نشرها بالكامل، باللغتين العربية والانجليزية.

وبالرغم من أن الميزانية المقترحة والتى من المفترض أن تمولها منظمة اليونسكو تبلغ (٢٦٠ ألف دولار) خلال فترة السنوات الخمس.. البرنامج الزمنى لتنفيذ بنود الخطة، فإنها تعتبر ليست بالضخامة مقارنة بدورها فى الحفاظ على السيرة الهلالية كتراث شفهى موروث، ولكن السؤال المطروح أمامنا هو لماذا لم يتم التنسيق بين وزارة الثقافة التي قررت إقامة متحف للسيرة الهلالية ببلدة «أبنود» وبين مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى الذى تبنى مشروع إدراج السيرة ضمن قائمة التراث العالمية ويسعى إلى الحصول على تمويل من المنظمة الدولية لجمعها وتوثيقها، لماذا لم تتوحد الجهود بين مركز التوثيق والجهود التى بذلها عبدالرحمن الأبنودى فى جمع أشعار السيرة، والتى أصدر منها جزءين في إطار مشروع مكتبة الأسرة ولايزال كما يقول «الأبنودى» حوالى سبعين جزءاً لم يتم نشرهم من قبل، تحتاج إلى تمويل من أجل أن تخرج إلى النور.

وإن كان مركز توثيق التراث الحضارى قد أدرج ضمن دراسته موافقة الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية على المشاركة فى تسجيل كل النصوص الهلالية التى تمتلكها لدى المركز، وذلك من خلال أعضائها شعراء ورواة السيرة وهم عنتر هلال، محمد على، عنتر رضوان، فاروق القناوى، إسماعيل عبدالصمد، كما أدرج بيان للدكتور أحمد مرسى أستاذ الفولكلور بكلية آداب جامعة القاهرة ومدير المركز المصرى للفولكلور والتراث الشعبى،





خضرة الشريفة، «الجازية» .. وغيرهما من بطلات السيرة، كان لهن كبير الأثر في تصعيد الأحداث وتطورها

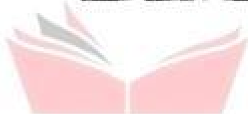
الذى أكد فيه أن السيرة الهلالية المصرية هى الملحمة الشعبية الشفاهية الوحيدة المكتملة، بخلاف السير الشفاهية المنتشرة فى بعض الدول العربية، موضحا أن تلك السير هى أجزاء ناقصة من السيرة الهلالية وأحيانا مقحمة عليها، أما سيرة بنى هلال المصرية هى السيرة المكتملة العناصر مثل الشعر والموسيقى والسرد والأداء الغنائى.

وبرغم كل تلك الجهود التى تسعى إلى الحفاظ على موروث السيرة الهلالية، لكن من الضرورى السعى إلى حفظها فى ذاكرة البسطاء من المصريين لتحمل أفراحهم وأحزانهم وانتصاراتهم وانكساراتهم كبطلها المغوار أبوزيد الهلالى، يتوارثها جيل بعد جيل، ولايفقدون الصلة بها حتى لاتموت وتندثر مع النسيان. ■



لا شيء يا بغداد يبكيني سوى تلك الدموع الراقيه
تلك التي في مقلتيك حبستها بقضاء ربك راضيه
تأبين أن تتأوهي وتكابرين على الجراح الداميه
تتضرعين لخالق حتى يرد إليك ثوب العافيه
لتعود ثانية بهية زهى [?] فوق حصاتها متباهيه
تسمو على أوجاعها رغم العواصف والرياح العاتيه
رغم انهيار جدارها وأنين نهر فراتها [?] وعويل ماء الساقيه
بغداد يا وطن البنفسج والأقاحي والطيور الشاديه

شعر
مطيع ادريس - سوريا





يا سحر كل قصيدة لا ينتهى للشعر فيها قافيه
يا صرخة مجروحة راحت تدوى فى سماء عاليه
لتقول كم دخلت ربوع المشرق العربى فى الماضى جيوش غازيه
فعلت كثيرا إنما لم تقترف إثما بحق شواهد تحكى حكايات السنين الخاليه
بغداد لا تتساءلى إن أصبحت كلمات شعرى قاسيه
فأنا كمذبوح غدوت بعيد ما نهشتك أنياب الوحوش الضاريه
دخلوك من بوابة ما كنت أحسب أنها من دون حراس تجول وحاميه
ما كنت أدرك أننى يوما سأبكى مثلما تبكى الثكالى وهى تمشى حافيه
بمدافع زفراتها زفرات نار حاميه
يكوى بها قلب على خفقانه مازلت يا بغداد أنت الغاليه
مازلت قادرة على أن تنهضى من بين أنقاض الفجيعة ثانيه
لتقاومى أعتى وأفتك هجمة قادت جحافلها رعاة الماشيه

جاءوا كحمقى دون أن يستخلصوا عبرا قبيل سقوطهم ف الهاويه
فى قاع شر نهاية وجدت لمن ترعى المجازر وهى غير مباليه
بشرائع لم تعطها إذنا لرفع مظالم وهى المظالم كلها والطاغيه
يا موطنا طالت غياهب حزنه وسطت عليه نوائب متواليه
ما فارقتك من المواجع سبعة إلا إليك لكى تعود ثمانيه
لتريك ألوان الردى بطريقة ليست لها فى القتل أذن واعيه
تصغى ولو لصراخ طفل داره من أمه وأبيه أمست خاويه
ممن له كانا جناحين اعتلى بهما ليشدو للذرا والرابيه
لمرابع ليست لمحتل بها إلا المخارز والسهام الكاويه
إلا مزيد من نعوش خبلت بعنابر أعدادها متناميه
أصحابها قتلوا وما وصلوا لأهليهم لكى تبقى الحقيقة خافيه
عمن بأولاد لهم زجوا بحرب لم تكن فيها القناعة كافيه
لا شئ يا بغداد يبكينى سوى تلك الدموع الراقيه
تلك التى فى مقلتيك حبستها بقضاء ربك راضيه
بعدالة يبقى بها لله عين غير غافية ولا متغافيه
عن أهل عشق مجازر هم زائلون وأنت.. أنت الباقيه

انحدار من أفلام أوسكار إلى صايع بحر!

بقلم
مصطفى درويش

نادرا مايفوز فيلم بإحدى عشرة جائزة أوسكار فعلى امتداد ثلاثة أرباع القرن لم يفز بمثل هذا العدد من الجوائز سوى «بن هور» (١٩٥٩) و«تيتانيك» (١٩٩٧) غير أنه ، قبل شهر ، وبالتحديد اليوم الأخير من فبراير ، انضم إليهما «سيد الخواتم - عودة الملك» لصاحبه المخرج النيوزيلاندى «بيتر چاكسون» ، عندما أعلن فى حفل الأوسكار ، بمسرح كوداك ، خبر فوزه بجميع الجوائز التى كان مرشحا لها ، وهو أمر غير مسبوق ، وذلك رغم أن عددها كان مماثلا للعدد ، الذى فاز به هذان الفيلمان ، وهو غير قليل .

سيد الخواتم والأفلام

والجوائز التي حصدها ، أولها وأهمها بطبيعة الحال ، جائزة أفضل فيلم ، تلك الجائزة التى لم يكن ينافسه من أجل الفوز بها سوى أربعة أفلام هى «فقد فى الترجمة» لصاحبته «صوفيا كوبولا» أول مخرجة أمريكية ترشح لأوسكار .

و«سيبسكويت» لصاحبه «رونالد نيم» ، و«النهر الغامض» لصاحبه كلينت إيستود و«سيد وقائد» لصاحبه المخرج الإسترالي «بيتر بير» أما الجوائز العشر الأخرى ، فهى المخصصة لأفضل مخرج وتوليف (مونتاج) ومكياج وتصميم ملابس وتصميم مناظر وسيناريو مأخوذ عن قصة ومؤثرات بصرية وأغنية وموسيقى تصويرية وميكساج صوت .

ولأن الفيلم نيوزيلاندى لحما ودما ، فقد علق النجم «بيلى كريستال» مقدم الحفل على كثرة الجوائز التى حصدها قائلا :

الآن لايوجد فى نيوزيلاندا أحد إلا وقد فاز بجائزة أوسكار .

و«سيد الخواتم - عودة الملك» الجزء الأخير من ثلاثية ، جرى عرض أول أجزائها ، قبل عامين ، وثانيها قبل عام .

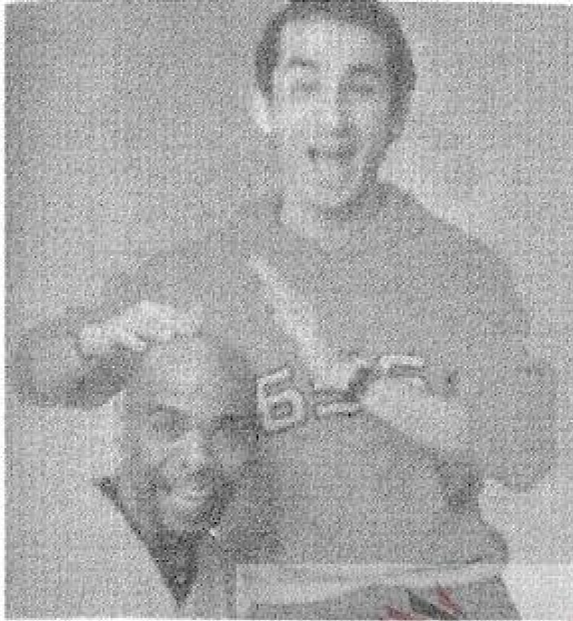
وأحداث الثلاثية مستوحاة من ملحمة أسطورية أبدعها خيال الأديب الانجليزى «تولكين» ، قبل خمسين عاما .

محور الشر

ولأن المخرج «جاكسون» متمكن ، بفضل موهبته من صنعته ، استطاع أن يشد أعصابنا بجزء الثلاثية الأخير ، الذى قاربت مدته الساعات الثلاث وأن يعلق عيوننا ببياض الشاشة وسوادها حيث سحر عالم الأساطير بأرواحه وأشباحه وكائناته الغريبة ، وأبطاله ، تتوج مغامراتهم بالانتصار على الأشرار ويجعلنا نحس ، بعد أن ينتهى الفيلم ، بقدر من راحة البال .


فيجو مورتنسن ـ الملك العائد فى سيد الخواتم


.. و ليف تايلور الملكة العائدة


أحمد حلمى « صايع بحر »

ولم لا ، وقد تحقق المستحيل ، بانتصار الإنسان على قوى الظلام ، بعد أهوال يشيب لها الولدان.

وهنا ، لايفوتنى أن أذكر ، أن الفيلم يقول من بين ما يقول إن الدنيا لا تؤخذ إلا غلابا ، بعد معارك طاحنة بين الخير ، وأكثر من محور من محاور الشر ، الأمر الذى يذكرنا بعبارة وردت على لسان الرئيس الأمريكى فى بيانه أمام الكونجرس عن حالة الاتحاد ، بعد بضعة شهور من تدمير برجى مانهاتان .

الحرب والسلام

وما يقوله «سيد الخواتم» يردده أكثر من فيلم جرى ترشيحه لبعض جوائز أوسكار .

ومن بين هذه الأفلام أقف قليلا عند كل من «الجبل البارد» و«سيد وقائد» و«الساموراى الأخير» .

وأول الأفلام الثلاثة ، صاحبه «أنطونى مينجيلا» السابق له الفوز بأوسكار أفضل مخرج عن فيلمه «الانجليزى العليل» (١٩٩٦) .

وفيلمه الأخير «الجبل البارد» تدور أحداثة أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، التى انتهت بتحرير العبيد .

وعنه فازت النجمة «رينيه زيلفجر»



لقطات من «سيد القوائم»

بأوسكار أفضل ممثلة مساعدة .

ولعله من المفيد أن نذكر بأنها لعبت دور سفاحة شيكاغو «روكسي» في الفيلم الاستعراضي «شيكاغو» الذي خرج من مهرجان الأوسكار ، قبل أكثر من عام متوجا بجائزتي أوسكار أفضل فيلم ومخرج «روب مارشال» .

أما الفيلمان الآخران ، فأحدهما «سيد وقائد» بطولة راسيل كراو الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسي عن أدائه في فيلم «المصارع» (٢٠٠٠) ، وأحداثه تدور في أعالي البحار ، أثناء الحروب النابوليونية بين فرنسا وبريطانيا ، حيث يكتب النصر في نهاية المطاف لسيدة البحار .

والآخر «الساموراي الأخير» لصاحبه المخرج «إدوارد زفيك» .

الأصالة والحداثة

وموضوعه متمحور حول الصراع بين الأصالة والحداثة في اليابان ، قبل قرن وربع القرن من عمر الزمان .

ففي ذلك الزمان الموغل في القدم تحمس «ميجي» الإمبراطور الإله لتحديث بلاد الشمس المشرقة ، بعد عزلة عن العالم الخارجي استمرت زهاء مائتي عام، وتحقيقا لهدفه هذا ، تبنى ما لدى

الغرب من علم وتقدم وتنظيم وأساليب فى الحرب والتقاضى والمحاكمة ، لم يكن يحسنها اليابانيون ، فتخلفوا عن ركب الحضارة .

غير أن سياسته لقيت مقاومة ، أخذ عودها يشتد تحت زعامة محاربين أشداء «ساموراى» ، وسائلهم فى النزال وسائل عتيقة ، عفا عليها الزمان ، كالسيوف والرماح والنبال .

والغريب فى أمر الفيلم أن مخرجه ، ونجمه الأول «توم كروز» فى عرضهما للصراع بين الجديد والقديم ، قد جنحا إلى التعاطف مع المحاربين البواسل «الساموراى» ، وهم يبذلون الروح فداء للوطن ، وقيمه النبيلة التى تجمع بين الشجاعة والشرف والصدق والإخلاص والوفاء .

وهذا التعاطف يبدو واضحا فى تصوير المعركة الأخيرة ، حيث نشاهد فلول جيش الساموراى ، وهى تباد بنيران المدافع والرشاشات المستوردة من بلاد العم سام .

الساموراى الأخير أمريكى

والأكثر غرابة ، أنه لم ينج من هذه المذبحة سوى محارب واحد ، غير يابانى ، الأمريكى «ناثان الجيرن» (توم كروز) ، الذى اقتنع بقيم الساموراى ، أثناء أشهر الأسر ، فمارسها فى حياته عن إيمان !!

ومن الغرائب الأخرى ، عدم ترشيح «توم كروز» لجائزة أفضل ممثل رئيسى ، والاكتفاء بترشيح الممثل اليابانى «كين واتانابى» عن أدائه لدور قائد الساموراى «كاتزو موتو» ، الذى تنتهى به المعركة الأخيرة وقد أسلم الروح ، شاهرا سيفه ، فى ساحة القتال .

ولكنه لم يفز بأوسكار أفضل ممثل مساعد ، وبدلا منه فاز بها الممثل الأمريكى «تيم روبنز» ، عن أدائه لدور رجل شوهه الإغتصاب ، وهو صبى ، فى الفيلم الرائع «النهر الغامض» .

وبالمناسبة ، فجائزة أفضل ممثل رئيسى كانت من نصيب النجم «شين بين» عن أدائه لدور صديق «روبنز» وقاتله وفيلم «النهر الغامض» يقترب من الختام .

التضحية بالجمال والقوام

أما جائزة أفضل ممثلة رئيسية ، فكانت من نصيب «شارلى ذيرون» ، وهى ممثلة من جنوب إفريقيا .

وقد فازت بها بفضل أدائها لدور قاتلة عشوائية انتقاما من الرجال فى فيلم «وحش» للمخرجة الصاعدة الواعدة «باتى جينكينز» .

ومن بين الأسباب التى رجحت فوزها ، إنها ، ورغم أنها ست حسن وجمال ، أرتضت تقبيح وجهها ، حتى يبدو مقنعا تقمصها لشخصية القاتلة «إيلين وورنوس» التى جرى إعدامها فى ولاية فلوريدا ،

لثبوت قيامها بقتل سبعة رجال مع سبق الإصرار .

كما ارتضت أن تزيد وزنها بمقدار أربعين رطلا (حوالي عشرين كيلوجراما) .

وكعهدنا بمصنع أحلام هوليوود ، عمل على عرض معظم أفلامه المرشحة لجوائز أوسكار ، والفائزة فيما بعد ببعض منها ، في مشارق الأرض ومغاربها ، أثناء الشهر الذى يبدأ بالترشيحات ، وينتهى بإعلان اسماء الفائزات والفائزين .

وفعلا ما أن انتهى العيد الكبير ، حيث يمتنع عرض الأفلام الأجنبية بقوة القانون ، حماية للسينما المصرية ، حتى سارع أصحاب الأفلام الأمريكية المرشحة لأوسكار بعرضها فى دور السينما عندنا .

سر غلبة الإنتاج الكبير

وبطبيعة الحال لم يكن بينها فيلما المخرجتين «صوفيا كوبولا» و«باتى جينكينز» .

الأول لأنه ليس من أفلام الانتاج الكبير التى تحقق إيرادات مضمونة لموزعيها ، فهو فيلم مؤلف لم يكلف صاحبته سوى حفنة من الدولارات .

والثانى لأنه من ذلك النوع الذى اعتادت رقابتنا الرشيدة الحيلولة بيننا وبين مشاهدته ، حماية لنا من أنفسنا .

يبقى لى أن أقول إنه فى الوقت الذى كنا فيه ، نحن المصريين ، نشاهد بطول وعرض البلاد «النهر الغامض» و«سيد وقائد» و«سيد الخواتم» و«الساموراى الأخير» كان لايتاح لنا أن نشاهد من إنتاج السينما المصرية سوى أفلام هابطة ليس فى وسعها أن تقول شيئا .

دروس فى الردح والابتذال

أفلام مبتذلة تحمل كل العداء للذوق والجمال ومن بينها أذكر على سبيل التمثيل «شبر ونص» و«كيمو وأنتيمو» و«صايع بحر» أكثر أفلام الموسم إنحطاطا وابتذالا ، حيث ينحدر الحوار إلى ردح فاحش ، وآية ذلك هجاء «حنتيرة (أحمد حلمى) لأم خطيبته السابقة بقولته لها يا اللى أمك ما قالتش لا» وحيث يستجيب حنتيرة لإغراء المعلم تاجر المخدرات ، فيقوم بتوزيع السموم البيضاء فى أحد شوارع الأسكندرية ، حتى كاد يبيع المحافظ تذكرة هيروين .

وحيث يسرق ، ويرتكب غير ذلك من الآثام ، فلا يعاقب بل يكافأ ، رغم صيعنته من فاتنة الحى ، حبيبة العمر ، وسط زغاريد الأم ، ورقص أبطال الفيلم الصايعين .

كل ذلك باسم الانتصار للمهمشين ومن عجب أن ينحدر قلم ناقد كبير ، حاصل علي أكثر من وسام ، فيصف صايع بحر بأنه فيلم مدهش .. قصة ومناظر وتمثيلا .. وأين ؟

فى قاهرة وزارة الثقافة !!





اللعب فى الدماغ

ندوة مثيرة وعرض مهم فى مسرح الهناجر

بقلم
مهدى الحسينى

فى أدبيات النقد المسرحى ، لا يوجد موافقة على طول الخط ولا معارضة على طول الخط ، لأن المسرح بالذات فن مركب من عناصر عديدة لا تأتى على منصته - غالباً - كاملة التناسق أو تامة التكوين ، خاصة وأن المبدع الأساسى للعرض - أى المخرج - له شركاء قد لا يقلون عنه أداء ووعياً ، كل فى حدود مهمته أو دوره ، وقد يتكاملون معاً أو يتفاوتون أو يتكاملون إلا قليلا .. وهكذا شأن أى عمل جماعى ، هنا لا يملك الناقد من أمره إلا أن يراعى هذا النقص أو تلك الزيادة ، وأن يفسر ذلك الميل أو يفهم هذا المنعرج .. وهلم جرا .



المسخرة الإعلامية العربية والعالمية في مشهد التليفزيونات

فالناقد المتجرد البرئ لا يحمل مسبقاً مواقف أو آراء أو قوالب أو مقاييس أو أحكاما أو شعارات ، وإنما يحمل - فقط - خبرات نظرية وميدانية ومعارف لا يستعين بها في فهم العرض وتقييمه ، إلا بعد أن يكتمل في ناظريه، ويصبح ملء سمعه وعقله وروحه ، أي بعد المشاهدة .. بل والمشاهدة لأكثر من مرة ، وبعد مراجعة النص إن وجد ، ثم عقد مقابلات فنية مع أبرز المبدعين ، ولا بأس مع بعض المشاهدين ، فالعرض المسرحي لا شئ بدون جمهوره ، هنا يختلي الناقد بنفسه وأوراقه وما تحصله من علوم ومعارف ليكتب مقاله الذي يعبر فيه عن خلاصة وعيه وانفعاله بالعرض الذي شاهده ، وهنا لا يكتب رأياً قاطعاً .. ولكن على سبيل الترجيح .

هذه خاطرة أدونها هنا بعد مشاركتي في الندوة التي عقدها مركز الهناجر للفنون حول العرض المسرحي «اللعب في الدماغ» بعد انتهاء الليلة المسرحية مساء الخميس ١٢ فبراير الماضي ، ذلك أن قيمة فن المسرح تكمن في حيويته التامة ، حيث لا يختلف أثر المسرحية بين النقاد فحسب ، بل بين مبدعيها كذلك ، وبين صفوف المشاهدين أساساً ، فالعرض المسرحي - في الليلة الواحدة - ليس كيانا واحداً ، بل هو عشرات ومئات العروض .. وإلى ما لا نهاية بعدد امتداد لياليه على المنصة وبحسب أعداد المشاهدين ، لذا لم أنزعج لاختلاف مع ما ورد في كلمتي الموجزة من معايير أظنها صحيحة ، ولكن انزعاجي كان لأمر آخر جاء في وقائع الندوة :

(١) أن البعض تطرق إلى قضية مصير «الفرق المسرحية الحرة» كموضوع أساسي وكما لو كانت الندوة معقودة من أجل مناقشة هذه المسألة .

(٢) تطرق البعض لمناقشة العرض من زاوية وحيدة هو ما ورد في ثناياه من أفكار سياسية ، وليس عرضاً فنياً عن قضية تكون السياسة هي البعد المهم فيها ، شرط أن يرد بصيغة جمالية ، في حين أننا نرى أن الأجدى للمناقشات والدعوات والشعارات السياسية أن تتم في قاعات الأحزاب السياسية والنقابات وليس في قاعة مسرحية .

(٣) أن البعض أخذ في تزكية المخرج والمؤلف والفرقة دون الولوج إلى عالم العرض

الفنى بتقييم جمالى لما أبدعه هؤلاء من فن وحرفة فضلا عن ملاحظتى العامة ، وهى جنوح المصريين – فى مثل هذه المناقشات والاجتماعات – إلى الرغبة فى مناقشة كل شئ دفعة واحدة ، بل والوصول إلى تقييمات نهائية فى كل الموضوعات ، مع البعد التام عن مبدأ أن لكل مقام مقال ، وأن لكل مجال ما يناسبه ، وأن لكل موضوع حدوده التى تحدد نوعيته فلا نخرج منها إلى موضوعات أخرى كالعادة . حقا إن كل شئ مترابط ، ولكن الحبال – بهذه الطريقة الخاطئة – تكون طويلة ومتداخلة ومعقدة .. فتقل الفائدة ويتعرج الطريق ، فنخرج وقد أفرغنا شحنة انفعالاتنا وأرضينا ذواتنا . لا أكثر !

كان الأجدى أن يركز المتحاورون على الفن والحرفة فقط : النوع المسرحى للعرض وتقنياته ومزاياه ومنزلقاته ، والنص المتصور والإخراج والموسيقى والأغانى والاستعراض والمنظر المسرحي والأزياء ، والاكسسوارات والتنكر والاضاءة ، والميزانسين والإيقاع جملة وتفصيلا ، وتقنيات الممثلين ومزاياهم وأساليب أدائهم و مهارات كل منهم وطابعه ، كان الأجدى أن تنصب الندوة على هذه الأمور وحسب ، هنا سوف يتمكن كل صاحب رأى أو موقف أو انطباع أن يسجله من خلال هذا النوع من النقد أو التذوق الفنى ، علماً بأن الشعارات لا تدوم ، والانفعالات لا تشفى غليلاً ، بل تتبقى الأفكار العميقة والحقائق الواضحة البسيطة والمشاعر الصادقة .

وليطمئن أصحاب المواقف الوطنية والغيوريون على الطبقات الشعبية والمعادون للهجمة الاستعمارية على المنطقة حيث أنهم لو ركزوا على التقييم الفنى والتحليل التقنى ، سوف يخدمون صناع هذا العرض أكثر .. وأكثر ، وسوف يستطيعون الحصول مستقبلاً على مسرحيات أخرى جديدة ، من نفس المبدعين ونفس المخرج ومن غيرهم – لكن بأسس فنية أعمق وأدق وأرقى ، مع تسليمنا مبدئيا بقيمة عرض «اللعب فى الدماغ» الذى نحن إزاءه الآن .

ولا يفوتنى هنا أن أنوه بمبادرة الهناجر لانتاج هذا العرض لفرقة «الحركة» من جماعات المسرح الحر ، ثم عقد ندوة موسعة لمناقشته ، فى وقت تقاعس فيه البيت الفنى للمسرح عن عقد ندوات لمناقشة عروضه .

«قالب الريفيو المسرحي»

لاحظت ميل عدد من الفرق الشابة إلى هذا الشكل المسرحى الجذاب والمعروف بمرونته وتعدد أنواعه وألوانه وأساليبه وتأثيراته وأغراضه ، ولكننى أخشى أن يكون فى الأمر استسهال أو مزاحمة ، أو عجز عن لم شعث موضوعاتهم وقضاياهم ومشاعرهم وتجاربهم وأمانيهم .. فى عروض متماسكة ، فأغلب هذه العروض – كما لاحظت – تكتفى بالتعامل مع العارض والمؤقت فقط ، وبعضها لا يلمس الحقائق بعمق ووعى كافيين .. فيقنع بالظاهر دون الجوهرى وبالنتائج دون مسبباتها ، وآخرون يميلون إلى التسلية والاستعراض والفكاهة فيسوقون اسكتشاتهم الخفيفة دون العناية بدقة اختيار مفردات العرض ودلالاتها وعلاقاتها معا .. ابتداء من الموضوع وانتهاء بالحرفية ، فلا يفكرون فى هدف كبير أو أثر عميق أو إحساس خاص أو معنى ذى شأن .

علماً بأن قالب «الريفيو» المغرى ، فن له تاريخ سابق على ظهوره فى مصر مع مطلع القرن العشرين ، فهو على عكس القالب الأرسطى المحكم وأقرب إلى القالب الملحمى ، وإن استفاد من التعبيرية والبرشتية والعبث فدمجها فى سياقه علاوة المسرح الشعبى ، وهو أشبه بالريبورتاجات الذى تتقلب صفحاته أمام ناظريك وفقا لفنون المسرح .. لا وفقا



لحرفيات الصحافة ، فالمسرح فن أعمق وأشمل وأكثر بقاء وفاعلية : لوحات إثر لوحات ، متحولة دوما ، تصوغ نفسها على هيئة غير محكمة قصداً ، وإن كان يحكمها فكر ما .. ومزاج وذوق وطابع ما .. وفن وحرفة ما .. تتعاقب بالإيقاع وتترابط بخيط ما وفقا لحرية الاختيار وليس وفقا للحتمية الدرامية ، تنطلق من شخصية أو واقعة أو حدث أو أزمة أو سؤال أو أطروحة أو فضيحة أو اقتراح أو فكرة ، فتظل تمضي بفضل الاختيار الموفق لنقطة الهجوم هذه حتى تصل إلى نقطة نهاية مغلقة أو مفتوحة ، أما القوام فأجزاء تتلاحق وتتدفق وتنمو وتتقدم - كاشفة منجزة - في اتجاه ما تستهدفه وما تبتغيه ، لهذا يتم التنقل بحرية عبر الزمان والمكان ، دون مشهد رئيسي ولا ذروة ولا حل ، وإنما سياق ونسق ، قد تكون نهايته سؤال جديد أو إجابة حاسمة أو فاجعة أو دعوة على عشاء وهمي أو تحريض على الثورة .

وكما لا تتشابه المجلات والريبورتاجات المصورة من حيث طوابعها وأساليبها وأشكالها وأغراضها وتأثيراتها ، تختلف أيضاً أنواع الريڤيو المسرحي إلى مالا نهاية ، فلعله أفاد من فنون الميوزكهول ، ومن المنوعات المصاحبة لعروض السيرك ، ومن عروض الفنانين الجائلين في الموالد والسوامر والأحواش والمقاهي في الريف والمدن ، وقد يتخلله الرقص والغناء والعزف والتمثيل والتهريج والاكروبات وألعاب الخطر ، وقد يلجأ إلى مشاهد العنف والغرام والانتصار والفشل ، وقد يلجأ إلى السيوف الخشبية والرسم على الوجوه والأقنعة والتنكر والباروكات ، وغالبا ما يسيطر على عروضه مزاج الكوميديا والفارس والهجاء والمراوغات والمقالب والمسخرة والفكاهة . حقا إنه عالم ساحر صاخب مثير ، غير أنه قد يغري بالتعجل والسطحية والابتذال .

الريڤيو في مصر

عرفت مصر بذرته الأولى في صيغة الفصول المضحكة التي تمت بين فصول المسرحيات الكبيرة في السنوات الأولى من القرن العشرين ، وعرفته على يد چورج دخول (كامل الأصلي) والفار وغيرهم من كبار الساخرين .. ومن المسيري وحمام العطار ، وقدمه الريحاني وستيفان روستي معا أثناء الحرب العالمية الأولى في صيغة عروض الفرانكو آراب ، حيث رسم الريحاني شخصية (كشكش بك) عمدة كفر البلاص الذي جاء إلى القاهرة بعوائد القطن ليلهو بها بين الحسناوات في المراقص والبارات ، فيخسرها عائداً مفلساً إلى قريته ، بينما يكسبها ستيفان روستي صاحب الكباريه ، ومن خلال هذا الخط البسيط يقدم الريڤيو عدداً من أغنيات الفرانكو آراب الساخرة المصحوبة بـ (نمر) الرقص والفكاهة ، وكأنها هي غطاء للمعنى العميق القائم خلف هذه الصيغ / اللوحات / المشهدية البراقة الضاحكة . وأيضاً يقدم ابراهيم رمزي (دخول الحمام) كما يقدم على الكسار - صيغته الخاصة بالخادم الأسمر الذكي الفقير المغلوب على أمره مع أمين صدقي ..

وهكذا استمر الأمر حتى ظهور نذر الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ .

وفي سنة ١٩٢٩ تلتقي الراقصة بديعة مصابني مع الفنان المشرد عزيز عيد - وكانت قد اتفقت مع مكتب الدعاية من أجل الحلفاء على تقديم برامج ترفه بها عن ضباط التحالف وتهاجم دول المحور والنازية والفاشية وتدعو للديمقراطيات الغربية - وذلك في كازينو بديعة (مكانه الآن فندق شيراتون القاهرة) ولما لم تكن موفقة في تحقيق تلك المهمة التي كانت أكبر من قدراتها ، فإنها عرضت على عزيز عيد أن يتولى عنها هذه المسئولية الجسيمة ، فيدلف الفنان الخبير إلى كواليس الملهى ليلتقي بمصمم الرقصات ومايسترو الچاز باند النحاس

الشائع أنذاك ، ليعرف منهما طبيعة «النمر» التي يقدمانها لرواد الملهى ، بعد ذلك التقى بالباقين من مهرجين ومونولوجستات وراقصات وراقصين وممثلين كوميديين ولاعبي سيرك وموسيقيين ، وليشاهد بروفة حية لكل الفقرات فإذا به يعيد ترتيبها ترتيبا خاصا رابطا إياها - عن قصد - برباط واه أو مرن ، بحيث يسهل عليه التعديل والتبديل وفقا للمتغيرات الفنية الخاصة أو الاجتماعية والسياسية العامة ، وبعد الانتهاء من هذه العملية الفنية التنظيمية أخذ العرض صيغة الريڤيو المتماسك ، فأعطى أبعاداً ومعان لم تكن في حسبانهم إذ أصبح عرضا مشوقا مسليا ، وفي نفس الوقت محمل بالسخرية من دول المحور ، وكبار شخصياتها دون السقوط في سطحية المباشرة ، وحين رحل عزيز عيد سنة ١٩٤٢ ، فإن المخرج فؤاد الجزايرلي قد تولى عنه هذه المهمة حتى نهاية الحرب سنة ١٩٤٥ .

وفي سنة ١٩٧١ كانت مصر تتفجر احتجاجا على استمرار الاحتلال الصهيوني لسيناء وفلسطين والجولان منذ هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، وبالفعل استغل هاني مطاوع المخرج البازغ حينها فرصة اختياره مخرجا لمنتخب التمثيل المسرحي في جامعة القاهرة ، فقدم أول ريڤيو بعد طول انقطاع باسم «البعض يأكلونها والعة» ، وكانت لوحات منفصلة شبه متصلة تسخر من أوضاع ونماذج شائعة إجتماعياً وسياسياً في ذلك الحين ، وتخاطب روح التمرد والاحتجاج الوطني ، على الهزيمة وأسبابها ، وحين كتبت مقالا في ملحق ثقافي لصحيفة لبنانية فقد أبديت تحيزاً لهذا النوع من العروض الذي يعالج قضايا الواقع المعاش رغم تحفظي على البنية الاعتباطية للوحاته وغياب خط ما يصل ما بينها ، والتقط المخرج سمير العصفوري الخيط كي يضع عرضه من هذا النوع «كلام فارغ» في مسرح الريحاني بشارع عماد الدين وكأنه يعيده مرة أخرى إلى موطنه الأصلي ، وأتبعه بعرض ثان باسم «كلام فارغ جداً» طارحاً فيهما أزمة الشباب الحياتية المجسدة في أزمة السكن والدخل والزواج والجنس في ظل وعود - لا تتحقق - من قبل الحكومة بحل هذه المشاكل ، وبالطبع لا يتبقى في الذاكرة من هذه العروض جميعاً سوى بعض ملامح هذا الشكل الفني «الريڤيو» وشيء من ملامح الممثلين الظرفاء ، ذلك أن هذه العروض أجيزت تحت ظروف الرقابة المشددة ومحظورات انتقاد النظام ، فجاءت غير متعرضة لأسباب الظواهر وقوانينها ، أي فاقدة للبنية التحتية التي تضمن لها البقاء .

ومع مطلع الثمانينات بمناسبة شهر رمضان قدمت مع المخرج عبد الرحمن الشافعي نوعاً آخر من الريڤيو يعتمد على الثقافة الشعبية وبعض اللمحات الفولكلورية ، حين فككنا الصورة الاذاعية / العرائسية (الليلة الكبيرة) للمبدعين صلاح چاهين وسيد مكاوى وحولناها إلى عرض غنائي استعراضي ساخر في ٤ ساعات بسرادق حديقة الخالدين بالدراسة (مكانه الآن دار الافتاء) ، هذا وقد راعينا المرونة التامة حتى يستوعب العرض بين فقراته وثناياه فرق الفنانين الشعبيين القادمين من مختلف أقاليم مصر ، وفرق السيرك والموسيقات الشعبية ، وبعض المطربين والمطربات الراغبين في المشاركة في احتفالات الثقافة الجماهيرية بشهر رمضان ، ولم يكن الأمر مجرد (عرض منوعات) ، وإنما خطوطا وشخصيات جذبناها من صميم نص صلاح چاهين لنمدها على طول العرض ، وفي داخله كي تشكل كل هذه الفقرات اليومية والعارضة قواما مسرحياً واحداً ، كنا نعالج غربة الريف في زحام المدينة ونومئ إلى تلك التغيرات الجسيمة الماثلة في الأفق.

إذن ففي تجربتنا الوطنية على نحو قرن ، ثروة من فن «الريڤيو» غزيرة التنوع ،





اللوحة المتكاملة للفساد السياسي كما يراها خالد الصاوى مؤلف ومخرج العرض

نستطيع أن نفيد منها فى طــرح قضايانا «الساخنة» دون أن نتجاهل الأعمــاق والأسباب ، بأن لا نسقط فى شراك الدعاية والإعلام أو التعجل أو مجرد الاحتجاج والسخرية أو الاكتفاء بنقد المظهر دون الجوهر .

«اللعب فى الدماغ» العام.. هل يمكن تصنيعه ؟

هذه هى قضية العرض منذ لحظاته الأولى ، فمنذ تدلق وحده صغيره شرسه من جنود المارينز الأمريكان إلى صالة كافتيريا الهاجر ، وكأنما العرض يوجه انذاراً إلى كل الشعوب العربية (وغير العربية) ، بأن من لا يطيع سوف يسحق وفى خضم هذا الجنون والإرهاب يعيش جمهور المسرحية لحظات عصيبة تدفع به - عبر المقاعد والممرات - إلى حيث منصة العرض ، وهناك تستقبل المذيعة التليفزيونية (جسدت دورها بحنكة واتقان الفنانة نرمين زعزع) الجنرال توم فرانكس (قام به الكاتب والمخرج خالد الصاوى) كى تجرى معه حواراً - على الهواء مباشــرة - حول مشروعاته الاستعمارية ، وذلك بعد أن يغنى فريق الممثلين أغنية تبدو متفائلة ولكنها محملة بالمفارقة والتحذير مما يحيط بنا من مخاطر ، وهنا يغنى الجنرال أغنيته المكتظة بالتضليل والمراوغة والأكاذيب ، فيرد عليه الشباب بأغنية متمردة مليئة بالتحريض، مشهد افتتاحى - بعد المقدمة - مشحون بالمواجهات والتحديات تمت بطريقة ساخرة كاشفة وبأساليب تمزج بين السمع بالمشاهدة والحركة والموسيقى والرقص والمنظر المسرحى ، ومختلف وسائل الأداء والتعبير الممكنة والتى يمتلكها الممثلون من تعبيرات الوجوه وحركات الأيدى والأرجل وأصــوات الاحتجاج ومواجهة التهديد.

العرض يتميز بالحيوية الشديدة ، وتجدد فى الصورة المسرحية وديناميها المستمرة والمتواصلة، فالديكور متحرك كما لو كان يشارك فى عملية التمثيل ، والتغيرات تتم عياناً ،

والخدع مشكوفة عمداً ، والعلاقات واضحة تماماً ، والاضاءة (صممها محمد حسنى) تشكل لوحة تشكيلية حية غاية فى الحداثة والتعبير والتألق ورغم تغيرها كل لحظة إلا أنها تحافظ على جمالياتها ، والألحان معبرة ساخرة كانت أم شجية أم محرضة (ألحان خالد الصاوى توزيع ورؤية عمرو اسماعيل) والغناء مفعم بالانفعالات ومشحون بالأفكار (الغناء لمحمد عبد الوهاب الذى أظهر موهبة تمثيلية خاصة وبالذات فى استخدام تعبيرات الوجه .. ومعه أوديت شاكر .. وكذا خالد الصاوى التى يصور فيها عجرفة الجنرال الأمريكى ساخراً منها) والاستعراض فى مكانه وليس مقصوداً فى حد ذاته (تصميم مراد عبداله) والأشعار قوية المعانى رغم مباشرتها بعض الشئ (كتبها خالد الصاوى أيضاً) الصياغة الفنية للمفارقات المتلاحقة محكمة ومتجددة ، ولم يلجأ العرض للف والدوران فى التعبير عن مقاصده ، بل حدد الخصم بشخوص الجنرال «توم» وحليفه الانجليزى (هيثم عامر) الذى قام بدور مستر بوش أيضاً ، وباقى عناصر المارينز والعولمة (حمادة شوشة الذى يمثل بمنتهى الاستمتاع)(حقا كان التمثيل رائعاً وسلساً وبسيطاً رغم قيام أغلب الممثلين بأكثر من دور مثل فاطمة السروى المارينز ، والمذيعة الخليجية والنجمة الصاعدة والفتاة الضحية ، والمتميز شهاب ابراهيم الذى قام بدور البروفيسير وأدوار أخرى وحمادة بركات فى الشاب أشرف ، وسيد فؤاد فى دور الريجسير والزوج القواد والأب المجرم ، وقام عطية الدرديرى بأدوار الصعيدى والزوج المتواطئ ، هؤلاء الذين صنعوا عالم المسرحية على نحو أخاذ .

غير أن ثمة (تطويل) ما فى السياق و (لبس وتكرار) فى علاقة الشاشة الخلفية للفيديو بروجكتور بالعرض أخل بالإيقاع ، وتحميل المجرمين المطحونين من المحتاجين المنحلين كل المسئولية والتغاضى عن جرائم الطبقة الجديدة ، وضيق ما يبدو فى أفق العرض من الناحية الفكرية ، واكتفاء بالإثارة دون التحليل والاحتجاج دون التسبيب، وغياب للقوى التى تساند الجنرال وترسله إلى المنطقة أو تستدعيه ، وعدم تعرضه للظروف والأسباب والملابسات التى أسست لهذه الكارثة التى نحياها ، أما نهاية العرض فهى تدعو للتساؤل . هذه الأمور قد تعيدنا لمناقشة هذا الشكل الفنى وإمكانياته غير المرئية والتى لم يستخدمها العرض : إنه الريفيو .

سر النجاح ..
وسر الفشل ..

كان الإقبال على العرض استثنائياً لأنه لعب على الأوتار الحساسة : السخرية من وحشية المارينز ممثلى الإمبريالية الأمريكية ، والسخرية من التحالف بين انجلترا الشريك المقهور لخطط العدوان الأمريكى ، فى إطار من إدانة خطط إعلام السماوات المفتوحة بلا مبرر وبلا صدق ، والتى تزعم الديمقراطية والحرية بينما هى برامج انتقائية سواء فى الضيوف أو فى المتحدثين من الجمهور العادى (حيث تكسب شركات التليفون مبالغ طائلة) وكذا كشف شخصية المذيع أو المذيعة المزيفة التى تقوم بهذا الدور ، وأيضاً التعامل مع بعض (حالات) مثل الشاب أشرف الذى أقام علاقة شائنة مع زوجة صديقه مبرراً ذلك بالبطالة والعجز عن إيجاد فرصة عمل وعن الزواج ، ومثل الممثلة مشروع النجمة التى لا أصل لها ولا فصل ولا تعليم ولا فن ولا ثقافة ، ثم الأبوة الزائفة لقواد يقدم زوجته لأحد الأثرياء العرب أو تقديم زائف لثورتنا العرابية .. وأخيراً تقديم بروجكتور لجورج بوش الحقيقى .. ثم مثوله شخصياً بممثل على منصة العرض لتدير معه المذيعة حواراً !! ولكن ما هو الفيصل بين ما هو مسرحى .. وبين الإثارة السياسية السطحية والمباشرة ؟



ظاهر الأمر عرض احتجاجي على ما يحدث في المنطقة ، تحملت الأغاني والأشعار عبء تقديم معانيه الساخرة الكاشفة فأرضت صناعه وجمهوره معاً. أضف إلى ذلك الشكل الباهر في السينوغرافيا في أغلب عناصرها ، وأيضاً الطابع الهزلي الحاد المحبب للمزاج المصري فضلا عن عشقه للموسيقى والرقص والغناء ، إذن فـ (الطبخة) سائغة تماماً . شكل العرض «ريفيو» ومضمونه سياسي إجتماعي ساخر ، والإعلام هو التيمة المعتمدة ، ولكن (الفعلة) الرئيسيين غائبون ، والأوضاع والتشريعات والقوى (الفاعلة) لم يمسسها العرض ، بل تعرج الخط المسرحي حسبما شاء صانعه ، فلم يمض في الطريق المتوقع : فقد جاء الجنرال والمارينز . ما الذي جاء بهم ؟ المطامع الامبراطورية الأمريكية الاستعمارية . من الذي سمح لهم ؟ الأنظمة العميلة والضعيفة . ماذا تفعل تلك الأنظمة ؟ تدعي الوطنية وتضعف شعوبها وتقهرها وتفرط في ثرواتها وهويتها القومية وثقافتها الوطنية . وماذا تفعل الامبريالية في هذه المجتمعات ؟ إنها تدير الفساد وتنظمه وتدعمه وتورطه ثم تتخلص منه ليجئ فساداً جديداً حتى تنهب ثرواته وعقوله وأسواقه وثقافته .. وهكذا . وعلى من تعتمد الامبريالية داخل هذه الأوطان ؟ على الطبقة الجديدة الكوميرادورية الدنيئة والجشعة والأنانية قصيرة النظر ضيقة الأفق الجاهلة رغم إدعائها العلم والمعرفة والفاشية رغم إدعائها الديمقراطية والمخربة رغم زعمها بالتنمية ، وكيف حال الجماهير الشعبية ؟ إنها مقهورة مسلوبة الارادة يطال أجزاء منها الفساد والعفن والجريمة واللامسئولية . وماذا تفعل الجامعات ؟ تحولت إلى دور للمحفوظات وطلاب الترقيات والدرجات وتهمل بل وتضطهد العلماء الحقيقيين المستقلين . وماذا تفعل الأحزاب والبرلمانات ؟ إنها صورية لا سلطة لها ولا رأي . وما هو دور الإعلام ؟ إنه منظومة قهر العقل وخلق الأصنام والأكاذيب وما وظيفة الأمن ؟ قهر المواطن جسديا دون التوجه نحو العدو الحقيقي . وماذا تفعل المقاومة ؟ تخطئ وتصيب حتى تجد طريقها - بعد وقت - بسبب حرمانها من قادتها الطبيعيين الصادقين . وماذا يفعلون مع المقاومة ؟ يحاولون رشوتها وإفسادها والوقيعة بين صفوفها ثم تهديدها ثم سجنها ثم تصفيتها . هذه هي المنظومة الشاملة والحقيقية لعرض آخر يتناول نفس الموضوع الذي حاولت «مسرحية اللعب في الدماغ» أن تقدمه .

إننا نتساءل لماذا اقتصر هذا العرض على الفقر الفكري الناجم عن التغاضي عن الوقائع الجسيمة التي ألمت بعالمنا الثالث كله ، وما دمتم تتحدثون عن (النضال) دعونا نسألكم : أين لصوص البنوك والحسابات السرية في سويسرا ؟ أين ارستقراطية الطبقة الجديدة والساحل الشمالي ؟ أين الوكلاء الكبار للشركات عابرة القارات والمتعددة الجنسية والتي تديرها المخابرات الأمريكية ؟ أين شركات البترول والصلب العالمية ؟ وأين عقولنا التي سرقت منا بعد أن حوصرت هنا؟ أين أسواق الغذاء والدواء ؟ أين حاملات الطائرات والطلقات المعجونة بالمواد النووية ؟ وأين الصحف الكبرى وشبكات التلفزيون العملاقة وتكنولوجياتها التي لا نملكها والتي تسيطر على فضاءات الشعوب وآفاقها ؟ في الحقيقة .. لم يطرح العرض إلا ما نعرفه ؟ ولم يفرغ إلا شحنات الغضب في نفوسنا .. بينما لم يضف إلينا وعيا جديداً ■



المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

إجهاض الوعى

رفع الفتى ذراعيه وهو يتحرك باتجاه القلب من الجمع مؤكداً انعدال المزاج ، وقد انفرجت أساريره في تأكيد للإشارة واضح ، لكن زعيم «القعدة» لا يكتفى ، فلا يلبث أن يلح على الفتى بالسؤال ، «مرضى» ، يعنى «مرض» ، ومع استمرار الفتى فى تغليظ القسم بأنه «مرض» تضج الصالة بالضحك الصاخب تكاد تتصدع جنبات المسرح من فرط قوته وهو ضحك لا يخلو من صراخ ، ذلك الذى ينبع من هول الكشف والتعرية ، فما كان الفتى يعلن عن رضاه عن أمر مسبوق أو متوقع .. وإنما جاء التسليم الكامل وإعلان الرضا تنازلا تاما عن حقوقه فى أدنى مستويات الكرامة الإنسانية ، تلك التى يفرط فيها على رءوس الأشهاد ، وهو يترك زوجته لتكون شركا بينه وبين صديقه ، والأخير لا يكتفى بالمشاركة فى الفراش وإنما هو يجاوز ذلك إلى تولى إدارة أعمال مواهب الزوجة ، وهى فنانة تسعى للصعود !!

لم يترك لنا البرنامج التليفزيونى فرصة لالتقاط الأنفاس فعلى عكس كل البرامج التليفزيونية المذاعة على أثيرنا ، جاءت مسرحية «اللعب فى الدماغ» محققة لأبعد الغايات من استخدام تقنية «اللقطة» .. أو فلنقل إن كلا يعرف مقصده ، كما يعرف السبيل إليه ..

لماذا ؟ ولماذا؟ !

لكن.. لماذا اختار صاحب «اللعب فى الدماغ» لمسرحيته شكل البرنامج التليفزيونى (المفتوح) ، أى المذاع على الهواء مباشرة وهو الشكل الذى استشرى على شاشاتنا

بذريعة إتاحة مشاركة الجمهور الذى يتصل بمقدمى البرنامج تليفونيا ليسمع المشاهدون ؟ لابد أن الفنان الفذ خالد الصاوى يعرف أن اللقطة قادرة على نقل شحنات من المعانى والعواطف تتصاعد بحذق ترتيب اللقطات لتكون لدى المتلقى فهما أعمق لموضوعها ، يجعله أقدر على تكوين الرأى السليم بشأنها ، فهو لذلك يفهم ما يمكن أن تشكله لقطات ذكية تتتابع فى سياق واحد إيجابى ، ولابد أيضا أنه وضع يده على قوة الفتك بأى إدراك أو وعى إن جاء تتابع اللقطات تنويعا على لحن التشتيت وبعثرة الإدراك طريقا إلى الإجهاض البيّن للوعى ..

أما دليلى على ما سبق فهو أن خالد الصاوى كتب المسرحية وجعل أرضية المسرح تضم ما يمكن أن تكون دوائر متعددة صغيرة ، لكن كلا منها يكفى لحركة شخصين أو ثلاثة هم أبطال اللقطة ، وجعل الإضاءة تنساب فى سلاسة لتصب أشعتها على الدائرة موضوع اللقطة بما يحقق تسارعاً مذهلاً فى تتابع اللقطات يعلّى القدرة على التعمق فى المعانى وتناقضها إن لزم الأمر ومن ذلك تتفجر الضحكات..

ويمكننا إذ ذاك أن نطرح السؤال ، كيف أوصلتنا المسرحية للحظة إعلان الشاب الزوج كامل ارتياحه لوجود هذه العلاقة «الشرك فى الزوجة» بينه وبين صديق العمر .. وكيفّ جاءت تلك اللقطة مفجرة لكل هذا الضحك الممتزج بالصراخ الذى منه قد تتدفق دموع ؟!

لم يخطر بأى بال يتابع المسرحية ، وقد بدأت بمشهد صاخب يكاد يطابق ما يتكرر علينا فى البرامج التليفزيونية إياها ، أنها ستصل إلى ذروة من هذا النوع ، لكنها إذ تفعل تفهم من عساه لم يفهم بعد ، أبعاد كون بطل المسرحية الجنرال الأمريكى «توم فوكس» ضيفا مقيماً فى برنامج تليفزيونى حشدت له البطلة المذيعة مواهبها فى تدليل الضيف بلا حدود .. وتئن جنوبنا ألماً من قدرة المذيعة على إطلاق الضحك فينا وهى تتفنن فى ابتكار أساليب الاستخذاء الملاعِب للضيف ، فتمط الكلام على طريقة فلانه، وتتحرك فى لولبية على طريقة علانة ، وتلهث فى دفق الكلام على طريقة مذيعة أخرى غلبانه ، وتستأثر بالثرثرة نيابة عن الضيف كما توالى المقاطعة لتذكر الجميع بجميع أوجاعهم من تنوع الابتلاءات فى هذا الاتجاه .. طيب .. لكن كيف وصلنا لتلك اللقطة ، ذروة استسلام «الزوج» للواقع الجديد، أو فلنقل للواقع القائم الذى اكتشفه حديثا وقبله معلناً تمام الرضا، وكيف لا والسائل هو الجنرال توم فوكس .. والمسألة بسيطة هكذا جعلها التليفزيون، فالبرنامج يبدأ مع المسرحية وقبل أن تنقضى الدقيقة الأولى تكون المذيعة قد نطت وفطت وهللت وهى تستقبل الجنرال توم فوكس ، ولأنها مذيعة تليفزيون فلقد قدمته على أنه حبيب الكل ، وجعلت تكيل له من ألوان وأشكال الإعجاب والوله مع كل إشارة منها أو لفتة ، وفى كل جملة استخدمتها فى تقديم الفقرات التى لابد طبعا أن تشتمل على مسابقة بلهاء ومتسابقين .. !! وجوائز بالهبل ، ولا عجب أن يكون الفائز فى مسابقة يديرها توم فوكس هو ذلك



اللاعب على كل الحبال ، يشارك صاحبه في نشاط عمله ، (يعني بيننا مصلحة) ، لكن النشاط يستوعب الزوجة «انتصار» ليقوم توم فوكس بتقديم الجائزة للشاب خاطف زوجة صديقه ويكمل جميله بإعطائنا جميعا درساً موجزاً يبلور جدوى وجوده بيننا ، والذى هو تحقيق مثل هذا النوع من التفاهم الهادىء .. لكن السؤال مازال قائما كيف حقق توم فوكس هذا التحول الذى أسماه بالتفاهم الهادىء؟!

التليفزيون !

فى مقال «الصفعة» المنشور فى نفس هذا الموضع تقريبا من مجلة الهلال عدد اكتوبر ٢٠٠٣ كتبت فى أثر التقدم التقنى على المنتج التليفزيونى ، وبينت كيف أن جميع التسهيلات التقنية التى تشمل فيما تشمل ، المونتاج الالكترونى وإمكان تجميع الوسائط السمعية البصرية والإذاعة والمونتاج أثناء البث الحى والألوان والموسيقى والرسوم والألعاب الالكترونية ، إلى آخر قائمة ما يندرج تحت التقدم التقنى كل ذلك أصبح مسخراً لخدمة شىء واحد وحيد ألا وهو تحقيق ما أسميه «بالتلوث المعرفى» وهو الذى يؤدى بالبشر إلى عكس ما ابتغوا أصلا من سعيهم لاستخدام هذه الوسائط فإذا كان الهدف الأصلى هو الإمتاع بالمعرفة ، لتحقيق الاستنارة الكافية لاتخاذ القرارات السليمة فى المجتمع سعيا لتمكين أفراده من مساءلة من يحيدون عن أى صواب بما يؤثر بالسلب على سلامة ورفاهة المجتمع بكافة أفراده ، فالآن تأتى مسرحية «اللعب فى الدماغ» لتقدم مثلا حياً غير مسبوق فى تجسيده لقدرة التليفزيون على تحقيق ما أسميته من قبل بالتلوث المعرفى وهو المؤدى بالحتم إلى إجهاض الوعى

وكما فى التليفزيون ، رأينا المسرحية تحشد إمكانات التقدم التقنى ، ومنها الأبسط كالتليفون وكذلك الأكثر حرفية مثل الشاشة العريضة الممتدة فى خلفيه المسرح تعرض زوايا مخالفة للقطة الحية التى تجرى أحداثها على المسرح أمام أعيننا وإذا كان معظم المعروض على تلك الشاشة هو نتاج عمل حامل كاميرا تليفزيون الماريتز المتحرك بحذق فى زوايا المسرح ، فإن بعضه نتاج تسجيلات تماثل أو تناقض محتوى أو شكل المشهد الممثل على المسرح والمسألة هنا ليست لمجرد استعراض الإمكانات الفنية ، ولكنها عامل مضاف لقوى التشتيت الفتاك المنطلق تباعا بغير اللقطات بتعاقب الثوانى ولا نقول الدقائق التى تستغرقها اللقطة . أما إن سألنا عن محتوى اللقطات فكل منها يستدعى شبيهاً له فى التليفزيون يفضحه فتنفجر منا الضحكات ، وإذا كان التليفزيون يخلط الجد بالهزل بغير مسوغ ، ويتعمد بتر اللامع من الأفكار والمعانى ليفسح المكان والوقت للمبتذل أو التافه منها ، مطلقا بذلك كل أسلحة إثارة الغيظ والسخط لينصرف إليها غضبنا بدلا من أن ينصب على مسببات الغيظ الأهم والأجدر بحشد الجوارح لمقاومتها ودحرها ، فى المقابل يجد المشاهد . اللقطات فى مسرحية اللعب فى الدماغ

تفعل نفس الشيء لينقلب ما رأيناه في بداية المسرحية من ثورة الزوج على صديقه الذي أغوى زوجته ، ونراه في مشهد الذروة وقد ذهب عنه كل أثر من غل أو كبرياء ، وأعلن تمام الرضا . ولا عجب فقد كانت اللقطة السابقة تركز على ما ظهر على الشاشة في خلفيه المسرح للفحص التليفزيوني لرأس صدام حسين بعد السقوط ..

المسخ والنسخ .

وهكذا يجدني القارىء العزيز ، أواصل اللف والدوران ، أحاول أن أقترب مما أنجزته هذه المسرحية الفريدة في تاريخنا المسرحي ، ولم أصل بعد إلى ما يرضيني بأنني فعلت، ولعل الأقرب للمنطق هنا أن أقر وأعترف أنني مهما حاولت ، ومهما حاول غيري ممن كتبوا عن هذه المسرحية بأي شكل من أشكال التحليل أو النقد ، فأقصى ما يمكننا أن نصل إليه هو الإسهام في الاحتفاء بهذا العمل الفني القادر بكل جدارة على المنافسة على المستوى العالمي . وإذا كنا حتى الآن لم نسمع أو نقرأ في أي مصدر عربي أو أجنبي عن مسرحية تتناول خطورة التليفزيون كسلاح متحكم في أدوات إجهاض الوعي ، وأن يتم للعمل الفني ابتكار الصيغ والأساليب الفنية النابعة أصلا من مضمونه ليجعلها بذلك محققة لتفرد في اختيار الجزئيات وأساليب تكثيفها وترتيبها بحيث تنتهي بنا إلى أثر كلي من التنوير والمتعة فإن ما ابتكره يستعصي على المقارنة وفي هذا أجدني اتجه بالعمد إلى تجنب الإشارة إلى مواطن أخرى للقوة ينفرد بها هذا العمل لأنني أتمنى أن تتاح عروض أخرى للمسرحية أشمل من العروض التي تجاوزت الفترة المحددة للعرض بمسرح الهناجر والذي ما كان ليفعل إلا استجابة مشكورة من مديرته الاستاذة د . هدى وصفي بعدما واصلت الجماهير تدفقها على أبواب الهناجر بغير انقطاع نريد عروضا أشمل ، بمعنى أن تنتقل المسرحية للعرض على مسارح أخرى في جميع مدن وقرى مصر ، وأن تكون «اللعب في الدماغ» على رأس ما يمثل فن المسرح المصري في أي مسابقة أو مهرجان مسرحي إقليمي أو دولي .. نريد أن يطمئن الناس في بلادي إلى أن شبابهم بخير، نريدهم أن يتأكدوا أنه بالرغم من سيول التفاهة والركاكة والابتذال والانحلال والاسفاف والإضعاف مازال شبابنا بخير ، نريدهم كذلك أن يثقوا أن التمييع والتتويه والمسخ والنسخ للأصول والجذور والثوابت لم يصب أدمغة شبابنا .. وإذا كانت السهام مصوبة الآن لتكريس تداعيات خيبة لم يكن للشعوب من ذنب في وقوعها .. فإن الهجمة تكاد تريدنا أن نركن إلى أنها جزء فينا أصيل أو عجز في الطبع قديم .. ويأتي خالد الصاوي ومعه هذه الباقة من زهرات وزهور شباب مصر ليأكدوا أن منابع الإبداع المصري لم تنضب بل إنها دوماً في ازدهار ، وإنهم كذلك يؤكدون .. أن الشعوب لا تنسى وإن لاذت بالسكوت .. كما وأنها تغضب وتكظم غيظها إلى أن يجعلها الله أداة قضائه العادل .. ■

عبقرية الصورة

في كتب الأطفال

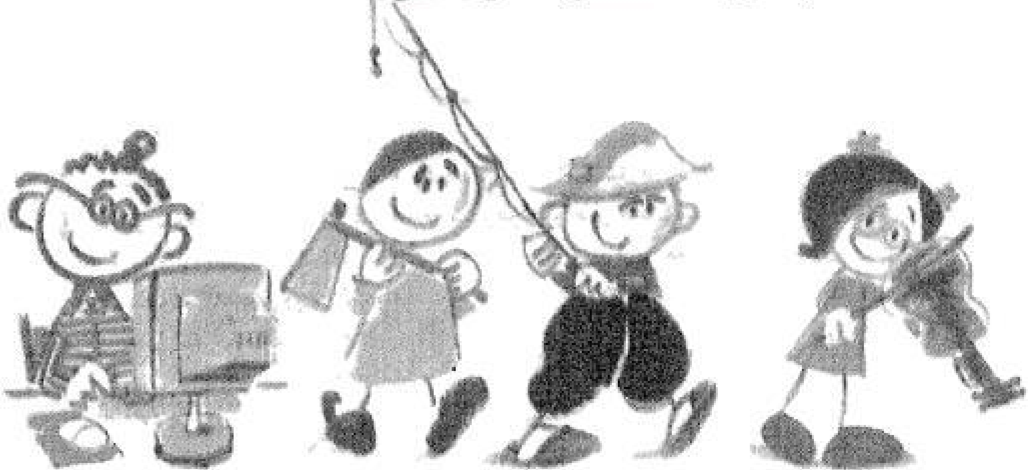
فاطمة المعدول والدهشة قبل كل شيء

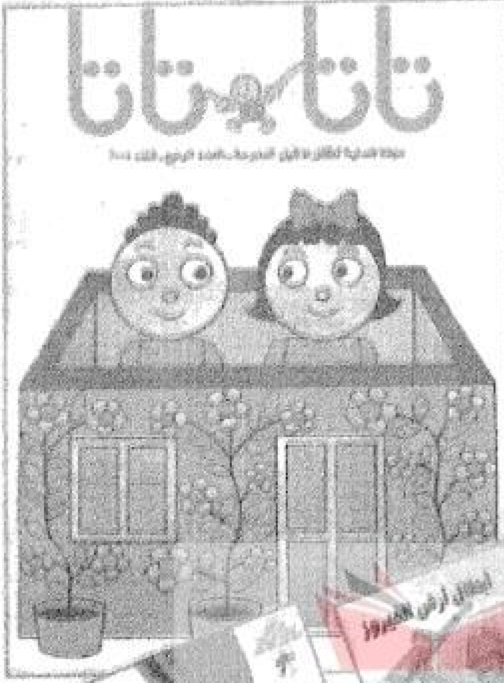
بقلم
محمود قاسم

من المهم أن تكون مخلصا فيما تفعله.

يبدو هذا واضحا في مختلف الأنشطة الخاصة بالطفل التي مارستها فاطمة المعدول في حياتها الوظيفية، والمهنية، وأنشطتها المختلفة.

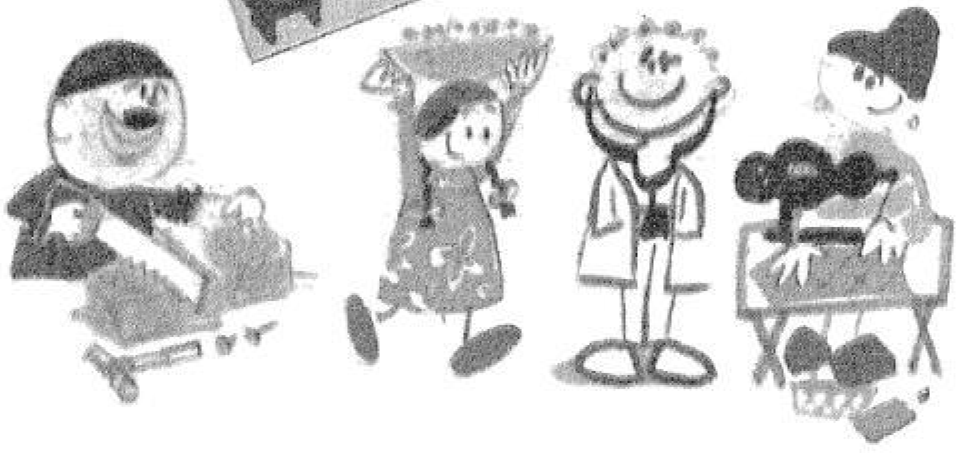
والذين يعرفون فاطمة المعدول عن قرب، يعرفون أن مفتاح شخصيتها هو الإخلاص تجاه المحيطين بها، أيا كانت درجة قرابتهم لها، وأيضا لما تمارسه من أعمال.







وقد اتضح هذا في أنشطتها الخاصة بمسرح الطفل، حين كانت تعمل في الثقافة الجماهيرية، وقد اختارت نوما أن يكون للطفل المعاق مسرحه الخاص به، ممثلاً، وكاتباً، ومتفرجاً، فجعلت لهذا الطفل كيانا حقيقيا، وفنا خاصا بها.
ثم حين تولت إدارة المركز القومي لثقافة الطفل نجحت في عمل العديد من المشاريع الناجحة.





خاصة فى مجال الإصدارات ، وأخيرا فى مجال سينما الأطفال.

وقبل ان نتناول بعض الإصدارات الأخيرة التي صدرت عن المركز، فان



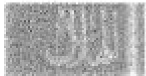
الافـــلام التى اشـــرفت على انتاجها وإخراجها للأطفال ، قد لاقت استحسانا كبيرا فى مـهـرجـان سـينـمـا الاطـفـال الأخير، وتنافست على الجوائز الكبرى وكانت تستحق الإشادة، والحصول على الجوائز.

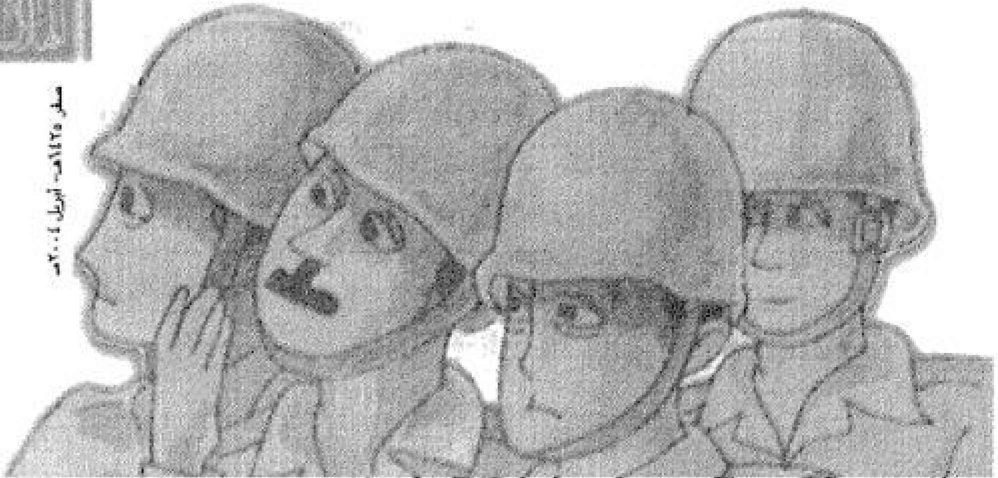
فاطمة المعدول ، حصلت بدورها على العديد من الجوائز عن كتب الاطفال التى قامت بتأليفها وإعدادها، سواء عن دار الشروق، أو عن المركز القومى لثقافة الطفل، فنالت جائزة التسامح من منظمة اليونسكو ، كما حصلت على جائزة السيدة سوزان مبارك – المحترفين – أكثر من مرة.

الخروج عن النمطية

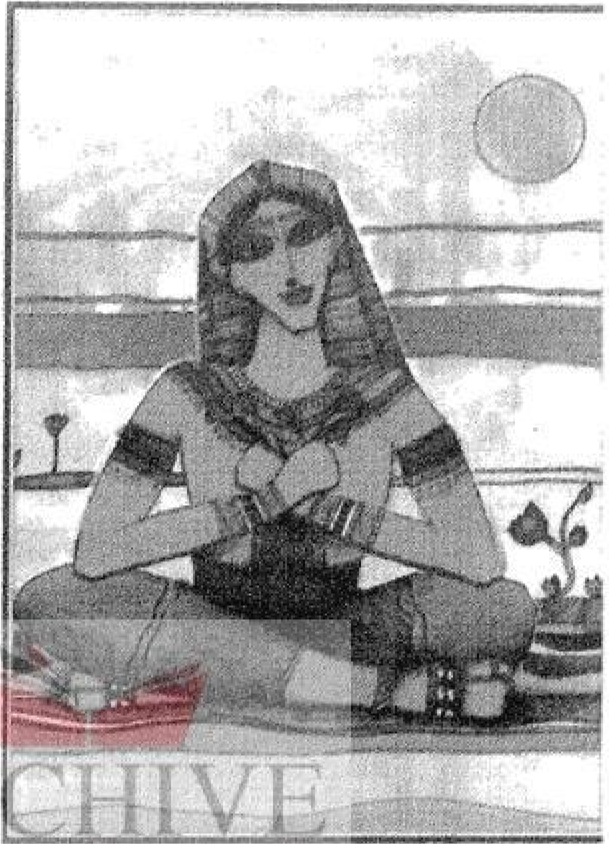
أهمية الكتب المنشورة فى المركز، أنها بالفعل كتب أطفال، فيها الصورة عمل مبهج للغاية، وفيها محو ملحوظ لأمية العين، فقد استعانت بفنانين لديهم حس عال بالرؤية، ومعرفة مؤكدة بما يمتع بصر الأطفال، والكبار، وايضا فإن هذه الكتب تم اختيارها بعناية، من حيث المؤلفين الذين قاموا بكتابتها.

وقد تميزت هذه الكتب بالتنوع الملحوظ: تنوع فى الكتاب والرسامين،





وأيضا فى القطع المختارلكل كتاب، فليست هناك نمطية فى اختيار قطع الكتاب، فقد تجد كتيبا صغيرا، لا يتجاوز قطعه الـ١٠ سم ، وآخر يصل إلى ٤٠ سم طولا أو عرضا، وهذا يتناسب مع هوس الصغار بالتنوع والتغيير، وسرعة الإحساس بالملل والنمطية.



اتفرج يا سلام

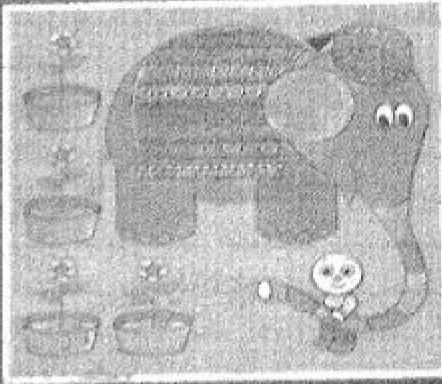
من أبرز الكُتّاب الذين قاموا بالتأليف: نادر أبو الفتوح، يعقوب الشاروني، منى ثابت، والراحل الجميل محمد صدقي، ومجدى نجيب، وشوقى حجاب، ود. عماد أبو غازى، وسميرة شفيق.

أما أبرز الرسامين فهناك حجازى، هبة عنايت، محسن رفعت، صلاح بيصار، محمود الهندى، عبدالرحمن نور الدين، وليد طاهر، رشا منير، وإيهاب شاكر.

يجب أن يستلفت كتاب «اتفرج يا سلام واقرأ الكلام» انتباهك، ليس فقط لأنه رحلة فنية مع أعمال الفنان الكبير احمد حجازى، ولا ان الذى قام باختيار الرسوم هو مجدى نجيب، ولكن ايضا للاخراج البالغ الرقى للكتاب، ابتداء من القطع المختار له ، ٣٢ سم ارتفاعا

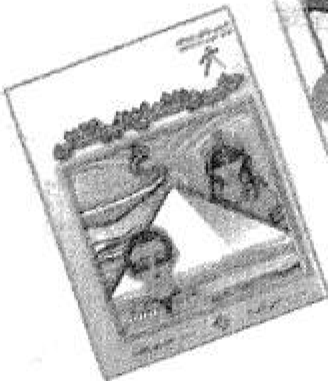


× ٢٣ سم عرضا. وهو يسمح بفرد اللوحة. او الرسمة المختارة كى «تملأ العين» كما يقال، كما يمكن التأمل والابحار فى العالم الرائع الذى يعبر عنه الفنان.



وقد اختار المخرج الفنى للكتاب «مجدى نجيب»، ان تكون المقدمتان فى بداية الكتاب مكتوبتين بخط يدوى متعدد الالوان، المقدمة الاولى بقلم فاطمة المعدول نفسها التى تقول «فى طفولتى كانت تدهشنى رسومات حجازى، لم افهم كل ما يقصده فى بعض الاحيان. لكننى كنت دائما احب رسوماته واعماله التى تبعث فى نفسى السعادة والبهجة بجانب الدهشة».





وتستكمل قائلة: «حين عملت في مجال ثقافة الطفل، أدركت لماذا أحببت حجازى . وانا صغيرة، فهو بسيط بساطة الاطفال، عميق عمق اعظم الفلاسفة. يصل بأعماله الفنية الي اعماق الحياة المصرية والإنسان المصرى باسلوب سهل بسيط واستحق ، بحب الكبار والصغار معا، ان يتربع على قمة الفن الساخر.

«إنه فيلسوف الخط والريشة الاول، واختيار المركز له وصديقه الفنان الشامل المبدع مجدى نجيب لكى يقدما هذا الكتاب لاطفال مصر، هو شرف واختيار نسعد به».

ولم يبتعد مجدى نجيب كثيرا وهو يكتب مقدمته، عن ما قالته فاطمة المعدول، «ستندهش وأنت تتأمل رسومات الفنان حجازى.

ستراها تتحرك

تهمس

تصرخ

تنتقد .. تسخر.. وتضحك

فى وقت واحد

وحتى أطفاله الذين يرسمهم،

عيونهم مليئة بدهشة

البراءة، والتساؤل

وكذلك طيوره

وحيواناته.. وكل

رسمة من

رسوماته تحكى

حكاية، حتى ولو

كانت بلا تعليقات

او شروحات» .



يوميات طفل

فنان

الكتاب الثانى المهم ،



والذى تلعب فيه الصورة دورا بارزا هو، «يوميات طفل فنان»، تأليف محمد صدقى (١٩٢٣ - ٢٠٠٤)، ورسوم هبة عنايت، كان ذكاء فاطمة المعدول، هو اختيار قصة لكاتب قيل انه مكسيم جوركى مصر، دافع دائما عن العمال، ومكاسبهم. وقد كتب صدقى هذه القصة وهو في السابعة والسبعين من العمر، فاستعاد طفولته البعيدة وهو يكتب عن الطفل محفوظ الذى يدون يومياته، ابتداء من الخميس ٤ يناير عام ٢٠٠١، وحتى ٢٢ فبراير من العام نفسه.



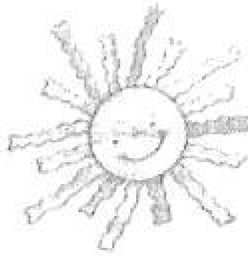
الطفل الفنان هنا قروى. إنه محمد صدقى فى طفولته «أتم والدى دراسته فى المعهد الدينى بالاسكندرية، ويشترى يوميا جريدة الاهرام ليحكى ما فيها من أخبار وحوادث لأصدقائه ليلا على مقهى الصفطاوى..

«هذه المقهى تقع قريبا من دمنهور. ليلة أمس حلمت خلال نومى بأننى اقدم لوحتى الجديدة الى الاستاذ رشدى مدرس الرسم ليعلقها فى لوحة المدرسة الزجاجية كما يراها زملائى، ولكننى وجدت فى الصباح عند استيقاظى ان الكراسة وعلبة الالوان قد اختفيتا».

عصافير الحب

فى كتاب «عصافير الحب» لشوقى حجاب، ورسوم وليد طاهر «٢٠ سم × ٢٠ سم» بدا الفهرس بالغ الجدة والحداثة، فقد بدا شغف المشرفين على المشروع بالشعر العامى وذلك ضمن اختيار شعراء مصر الكبار للأولاد والبنات فى





ـسن التكوين بهدف التعرف على التراث الشعرى المصرى والعربى.

من هذه القصائد مثلا.

النيل أسمر بيجرى
من أول الزمان
الخير يملالى حجرى
النيل يقول كمان
النيل شريان فى قارة
افريقيا الأفريقية
وقلبه فيه حرارة
الإنسان والغيطان

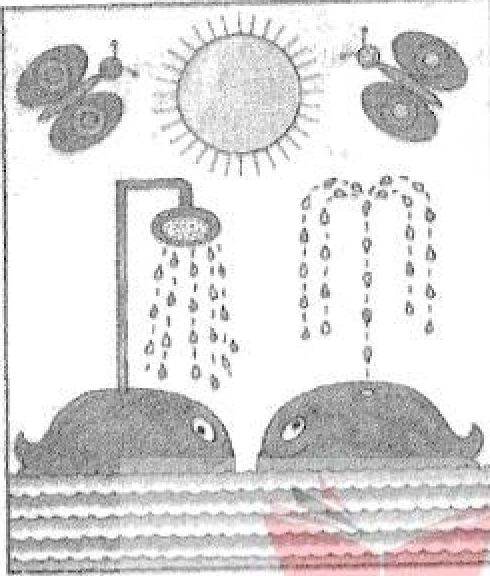
وبعيدا عن الإبداع، فقد كتب أستاذ التاريخ عماد أبو غازى عن «قصة العلم المصرى» من رسوم محمود الهندى «٢٠ × ٢٠ سم»، وهو كتاب تعليمى، وتعريفى، تلعب فيه الصورة دورا بارزا، بالإضافة الى المعلومات الجانبية، مثلا فى حالات الحداد تنكس الاعلام إعلانا للحزن، فعلم الدولة جزء من وجدان مواطنيها.

ومن بين هذه المعلومات: «كان السلطان الظاهر بيبرس أبرز سلاطين المماليك البحرية، فقد قام بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد سقوطها فى بغداد وعلى يد



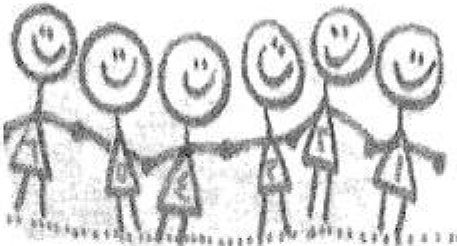
المغول، فأصبح اللون الاسود شعارا لدولة المماليك فى مصر والشام والحجاز منذ ذلك الحين».

ويقول الكاتب إن العثمانيين استخدموا العلم الاحمر عندما استوطنوا آسيا الصغرى ، نقلا عن دولة السلاجقة، ثم أضافوا إليه الهلال الأبيض بعد احتلالهم للقسطنطينية في القرن الخامس عشر الميلادى، فقد كان الهلال شعارا لهم منذ القدم.



تاتا تاتا

ولا يمكن ان نتحدث عن إصدارات المركز دون التوقف بإجلال عند مجلة «تاتا تاتا» التى صدر العدد الرابع منها فى شتاء ٢٠٠٤، وهى مجلة فصلية لطفل ما قبل المدرسة، باعتبار انها المجلة الاولى والفريدة من نوعها التى تتوجه الى قارئ، تلعب الصورة بالنسبة له دورا مهما، ولذا فإن هوية المجلة، هى الهوية نفسها لأغلب مطبوعات المركز، حيث تعتمد على الصورة، وعلى القصص المكتوبة بخط يد كبير حر، ومساحة الصورة هنا أكبر من أى مساحة للكتابة، وهى تضم المعلومات ويرسم المجلة فنانون متميزون منهم حجازى، محسن رفعت، صلاح بيصار، رشا منير وآخرون من الذين يرسمون كتب المركز. ■



قصة قصيرة

عندما يموت الموت

بقلم
محمد السيد سالم

.. بطريقة مفاجئة وغريبة تقف عربة سوداء فارهة أمام أبواب مستشفى الدكتور (رمزي عبد العليم) عند أطراف المدينة يهبط سائق السيارة في رداء خاص، يصعد في ارتباك درجات السلم القليلة، يواجه موظف الاستعلامات الذي كان مشغولا في مكالمة هاتفية وقد تمدد بجواره أحد حراس المستشفى يشاهد في بلاهة تليفزيونا يذيع أخبارا طارئة عن جيوش تحرق بلادا وبيوتا وحقولا بالصواريخ والطائرات والمدافع ويصور بعض جثث مسجاة في عرض الطرق، تبدو كتماثيل خشبية وصورها زرقاء وملامحها بارزة وعيونها مفتوحة تراقب دائما يحملون الشباب ويسوقونهم معصوبي الأعين، مقيدي الأيدي قرب جماعات واقفة تنظر إلى ركام بيوت مهدمة ومتهورة ومتصدعة بعيون سوداء جوفاء ووجوه بيضاء من الجوع، جافة من الخوف.

.. السائق حين لا يلتفت إليه أحد، يطرق بيده على مكتب الاستعلامات بطريقة أحدثت صوتا مدويا ثقب جو المستشفى الهادئ.

- ماذا تريد أيها السيد؟

- أريد أن تترك هذا الهاتف وتسرع باستدعاء الدكتور رمزي عبد العليم.



بريشة: أحمد شيحة

– ماذا قلت ؟

– أخبره أن مولاى الملك يحتضر.

موظف الاستعلامات ورغم جهله بشخصية هذا الملك ، وإدراكه أنه لايمكن لأحد أن يجرؤ على ازعاج الدكتور رمزى وخصوصا فى مثل هذا الوقت من الليل، إلا أن الأمر كان كما يبدو أخطر من كل هذا وذاك، لهذا فلابد من أن يصحو صاحب المستشفى الخاص ومديرها، وعلى الفور انتفض موظف الاستعلامات وقطع مكالمته ليتصل بالمدير الذى زمجر فى بداية الأمر، ولكنه انتفض واقفا حين سمع مسألة جلالة الملك وأسرع يغير ملابسه وينزل فى عجلة وهو يحمل حقيبته، السائق الخاص يرفع يده بالتحية ويتقدم ليفتح له باب سيارته

– إلى أين نمضى ؟

– إلى مولاى الملك.

– من هو مولاك الملك ؟

– إنه ملك الموت

تنطلق السيارة كقذيفة لحظة أن ارتطمت هذه الكلمات المألوفة المخيفة فى رأس الطبيب الذى اندهش قبل أن يبتسم ويتأكد أنه فى وعيه، ولكنه يتراجع فى فزع حين يرى وجها مضطربا شاحبا ينعكس على المرآة الصغيرة التى تعلو رأس السائق، يلقى برأسه للوراء يلاحظ أن مقاعد السيارة ترتدى اللون الأسود الداكن. السيارة تندفع فى الظلام دون صوت كما لو كانت لاتتحرك تصعد طريقا جبليا تنحدر به شقوق سود لايمكن سبراغوارها .

– لا .. لا يمكن أن أكون فى حالة عادية، هادئة سواء كنت أحلم أو فى قلب واقع فهذه أول مرة منذ أن خلق الكون أتحرك حيا نحو الموت حسب طلبه وداخل سيارته، أتحرك نحو معجزة، رحلة خارقة لم تصادف أى إنسان قبلى..

يسند الطبيب رأسه للخلف، يشعر بدهشة تختلط ببهجة، ينتظر لحظة الوصول دون أن يخشى الموت عند نهاية الطريق، وعلى أى حال يمكن أن يلقى حتفه فى بيته وعلى فراشه دون الحاجة إلى اختراق جبل واجتياز شقوق متعرجة على الجانبين

.. تتوقف السيارة، ينحنى السائق بعد مغادرة السيارة، ويفتح بابها فى احترام وهدوء .

– تفضل ياسيدى

يهبط الاستاذ، يتقدم نحوه أحد الخدم ويقوده إلى ساحة ضيقة، وضوء خافت ينبعث من مصباح زيتى قديم، يحس بسكون حزين يشيع كما لو كان يتحرك ليلا فى ساحة سجن، يسرع الخادم أمامه، يصعد سلما ضيقا ملتويا والأستاذ فى أعقابه

– أرجوك أن تخبرنى الآن فيما يريدوننى

– يلتفت الخادم إلى الأستاذ وهو يضع أصبعه على شفتيه، وعند باب فى نهاية دهليز ضيق طويل، يطرق الخادم الباب فى هدوء يتسرب صوت واهن من الداخل .

– من أنت ؟

– لقد وصل الطبيب يامولاى

– دعه يدخل

ينفتح الباب، يفيض الدهليز الضيق بضوء براق يغطى الدكتور رمزى وجهه بيديه، وبعد لحظة يعاود التقدم نحو الغرفة التى بدت ممتدة وخاوية يهتف الخادم فى اضطراب .

– تفضل بالجلوس أيها الطبيب، حالا سوف

يكون جلالة الملك هنا .

.. يجلس الأستاذ على أقرب مقعد، يتطلع حواليه في اضطراب وضيق وهو يدرك أن أمرا مخيفا على وشك أن يحل.

.. يظهر ملك الموت وهو يتجه نحو الطبيب، ويقول في إعياء .

– اضطررت لاستدعائك هنا أيها الطبيب الماهر اغفرلي إن كنت أزعجتك .

ينهض الطبيب ينحني للملك وقد هبط الهدوء بكل ثقل على المكان وهو يحس بشئ ساخر يعبث في عقله، فهو ابدا لم يكن يتخيل أن يكون الموت كما يراه الآن، حقا إنه لم يكن يتوقع هيكلا عظميا يحمل منجلا، ويلتف بملاءة بيضاء ولكنه كان يتوقع أن يواجه شيئا يفوق ما هو طبيعي، كيانا أكثر جلالا، وأشد هولا غير هذا القزم العجوز الضئيل الذي جف عوده، وغطت التجاعيد وجهه، هذا هو ملك الموت، ميكروب عضوى ضخم، لايعبر عنه إلا ذلك الرداء القرمزى الثقيل .

– إننى أيها الطبيب الاستاذ فى خطر، أنا مريض جدا، وأخاف من أن أموت .



.. ينظر الطبيب إلى الموت فى إرتباك .

– لا أفهم ما تقصد يامولاى .

– فى الحقيقة أنت تفهمني جيدا، ولكن يبدو أن الموقف غريب، ويبدو هكذا لأن ملك الموت يخشى الموت، أليس كذلك؟

– إن جلالتكم تمزح لاشك .

– لو كنت أمزح ما كنت بعثت فى طلبك، ما كنت وضعت كل ثقتى فيك .

– يامولاى لا أعرف كيف أعبرلكم عن امتنانى لهذه الثقة .

– والآن قم بفحصى، لا أدرى كيف وصل أمر مرضى إلى هذا الحد.

– ربما الإرهاق فى العمل، الذى يبدو على كوكب الأرض مخيفا رهيباً.

– ولم لا والحروب تأكل الرجال، تمضغ أذرعتهم وسيقانهم وعيونهم، ثم تترك لى مهمة الموت .. مهمة صعبة كل يوم تزيد وتزيد حتى أثقلت كاهلى، قصمت ظهرى .

– لا أعرف ماذا أقول لك يامولاى، وأنت بالفعل فى حالة صحية ليست على ما يرام.

– ومع ذلك عشت حياتي سليما كالبحر، ترى هل أصبحت عجوزا، أم مريضا، إن شيطان الحروب والمعارك والعدوان يعلم أن قلبى يؤلمنى وعقلى وأعصابى، ومع ذلك لا يرحم، لايتوقف، حتى أصبحت أحس بآخر أنفاسى، فإذا لم تشفن فأنا ميت، وسوف أتوقف للأبد عن ملاحقة ضحايا حروب قادمة، وكوارث على الطريق .

.. ملك الموت ينكمش فى مواجهة طبيب يلهث بعد أن نجح ملك الموت فى اثارته، الأمر إذن لم يكن أضحوكة، فالموت بالفعل يعانى مرضا.. وياله من مرض غريب، مخادع نجح فى شق طريقه إلى هذا الجسد المنهار بعد ملايين السنين.. حقا إنه أمرلا

يمكن تصديقه إذا استطاع الطبيب رمزى أن يشفى ملك الموت، ويخلصه من مرضه الوبيل وعجزه الخطير، سيكون بلاشك حدثا صارخا ومثيرا سوف يهز أركان الأرض

.. وفى لحظة لم يستطع الطبيب أن يتمالك نفسه، ويفرك يديه فى اعتباط

– الصبر يامولاى الصبر، ولاداعى للقلق، سنرى أولا ما هو الداء، حتى نصل للدواء

يشرع الطبيب بالانقضاض على جسد الموت، يفحص فى اهتمام كل جزء فيه يتحسسه أعلى وأسفل وهو يبتسم فى رقة يسأله الملك :

– ماذا هنالك ؟

– لاشئ يثير القلق، لاشئ سوى عملية جراحية بسيطة للغاية، وبعدها ستكون سليما يامولاى كالبحر .

يتطلع الطبيب إلى وجه الموت بنظرة غريبة وقد تأكد أنه على وشك الموت، وإذا أريد إنقاذه فيجب أن يتدخل مبضعه فى أوردة قلبه وشرايينه، ومع ذلك فالأمل كما يبدو ضعيفا) الطبيب يتجنب نظرة أمل تبرق فى وجه ملك الموت، ويخرج أدواته الطبية وآلاته من حقيبته يأمر الخادم بأن يأتى له بماء وأقمشة نظيفة، القلق يجتاح الملك وهو ينظر إلى ما يحدث حوله .

– هل ترانى سوف أعيش بعد إجراء العملية؟

– إنها لعبة أطفال لقد نجحت فى أكثر من أربعة آلاف عملية مثل هذه العملية إننى أقوم بها وعيناى مغلقتان، وبيدى اليسرى، وسترى هذا بنفسك ياصاحب الجلالة ارجوك ألا تخف .

الخجل يعترى ملك الموت بسبب جبنه قبل أن يسلم نفسه للتخدير، الطبيب يتأمله وقد راح فى سبات عميق .

– أخيرا وصلت إلى يدى أيها السفاح العنيد، والفناء الرهيب، إن حركة واحدة من مبضعى يمكن أن تخلص العالم من شرورك وتصبح أعظم خدمة للبشرية وفرصة نادرة وثمينة لاتعوض .

يتوقف الطبيب فجأة عن التفكير حين أدرك أن الأمر لابد له من عقل وتدبير .

– لا .. لم يكن لعواطفى حق الاندفاع هكذا فملك الموت مريض، وقد ائتمننى على حياته، إننى ومهما كان الأمر طبيبا ولست قاضيا يحكم بالإعدام وينفذه، إن واجبى أن أعالج هذا المريض مهما كان وأحاول بكل طاقتى أن أنقذه

.. يرفع الطبيب مبضعه وقد إزداد إضطرابه، وارتجف بدنه وهو يحس بمواجهة الجنون يندفع الدم إلى وجهه، يدوى الطنين فى أذنيه

– جنون ما أفكر فيه أمام تلك الفرصة الثمينة النادرة التى لا يمكن أن تتاح لى مرة أخرى، ولكن هل يمكن لى حقا أن أنقذ هذا السفاح، الذى غالبا ما يباغت البشر بمنجله دون موعد، هل يمكن لى أن أنقذه حتى يأتى إلى فراشى غداً ويقبض روحى .. لا .. إن موت هذا الموت معناه أن أعيش للأبد .

.. يمد المبضع فى مهارة، يغرزه عميقا فى أحد شرايين القلب، ينبثق الدم، تخمد الحركة فى أنفاس الصدر، ينحنى الطبيب على الملك، يتأمله، يتأكد من موت الموت

.. يغسل الطبيب يديه

في هدوء، يتفرس في وجه الخادم الذي انتصب حزينا بجوار الفراش يتأمل الوجه الباهت الساكن.

– من المؤسف أن يموت الملك رغم نجاح العملية، حقا تؤسفني هذه النتيجة الحزينة، ولكن ربما اختلف الأمر لو أنه بعث في طلبي، قبل أن تتفاقم حالته.

.. تجتاح الطبيب موجة من الابتهاج رغم صوته الهادئ، غير المنفعل، يغادره الإحساس بالذنب والشعور بالجرم، لم يعد يتذكر إلا أنه قد أهدى البشرية عملا فذا لم يكن في الحسبان سوف يجعله خالدا على وجه هذه الأرض، حتى كاد يرى العالم ينحني له تقديسا وابتهاجا، ويرى صوره وتماثيله تغطي وللابد جدران المحافل العلمية والعالمية، وتلمع على صفحات وسائل الإعلام التي سوف تغرقه بالشهرة الداوية كرجل قضى على الموت وأحاله إلى ذكرى مؤلمة انتزعت صفحتها من كتاب التاريخ ..

.. يصطحبه الخادم إلى الدهليز الطويل، والدرج الملتوي حيث تنتظره في الساحة السيارة السوداء الفارهة، يتخذ الطبيب مقعده، تمضي السيارة في صمت نحو طريق الجبل، يتأمل الأستاذ ظلام الليل بوجه باسم راض بكل ما يحمله بعد رحلة هذه الليلة..

وفجأة تدوي صيحة حادة، تتوقف على أثرها السيارة لتواجه ماردا ضخما يقف بجوار السيارة، ليبدو ظله ضوء ناصع تشوبه الزرقة، وقد لمع بجانبه الأيمن منجل عريض النصل، ملطخ بالدماء، يتقدم إلى الطبيب، ينحني إليه في وقار:

– عفوا ياأستاذ

يناوله مظروفا كبيرا، يتطلع الطبيب إلى المارد في دهشة .

– ما هذا ؟

– لقد نسيت أتعابك ياسيدي، وحقك في أن أشكرك على ما تكبدته من مشقة رغم أن .

– لا شكر على واجب، وقد كان يجب على جلالة الملك الذي أهمل صحته أن يبعث في طلبي مبكراً حتى يمكن أن.

– هذا ما كنت أقوله دائما لأبي .

– أتقصد أنك..

– نعم أنا ابنه وبالطبع سوف أرث مهمته، وما يعزيني أنه مات في الوقت المناسب .

– الوقت المناسب ؟!

– بالطبع، خاصة أن مواسم الحروب الآن مزدهرة كما ترى والصراعات صارت جحيما في كل الانحاء،والضحايا أصبحوا بلا حدود.، لهذا فإن مهمة الموت أصبحت ثقيلة، لابد أن تؤدى بكل الجهود والطاقة، وترى لو أبي ظل حيا، هل كان يقدر على أداء المهام الجديدة بصحته الواهية وعجزه الواضح، اعتقد أنه كان لابد أن يرحل حتى أصل أنا في موعدي

يستدير المارد ويمضي مسرعا حتى يختفي بين الجرف .

وتنطلق السيارة إلى سفح الجبل ■



بين الطويل والشريف

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

يبدو التاريخ لمتأمله كحلقات متصلة من الصراع بين الجديد والقديم، الجديد بحكم بحثه عن موطئ قدم في باحة التاريخ، والقديم بحكم دفاعه عن موقعه فى تلك الباحة، وتنطبق هذه الملاحظة على ما يجرى بين الدول تماما كانطباقها على ما يحدث بين الأفراد ، وقد كان العلامة الأشهر عبدالرحمن بن خلدون - فيما أعتقد - هو أول من قال بذلك فى شأن الدول، إذ يقول ابن خلدون فى مقدمة تاريخه الشهيرة بأن الدول الجديدة تطاول الدول القديمة على ما تتمتع به من وفرة الرزق وسعة النعيم والملذات، وهو بالضبط ما يحدث بين الأفراد فى شتى مسارب الحياة، فما أن تبرق موهبة نجم فى أفق فن من فنون الحياة، حتى يبدأ الصراع ويحتدم بينه وبين سابقيه، كل يريد الصدارة ويسعى للاستئثار بأضواء الشهرة ومغانم المجد

والغناء من أكثر فنون الحياة اتساقا مع تلك الملاحظة التى يمكن القول بأنها تكاد تجرى مجرى القانون أو القاعدة، حيث حفظت لنا كتب التاريخ حكايات ما دار بين الجدد من نجوم الغناء وسابقيهم ممن كانوا ملء



كمال الطويل



محمود الشريف

الأسماع والأبصار حتى الأمس القريب، ولعل أشهر تلك الحكايات هو ما حفظه لنا أشهر كتاب اهتم بأخبار الغناء والمغنين في تاريخ العربية، وهو كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، حيث يروي أبو الفرج في فصول كتابه الكثير مما دار بين الجدد والقدامى من أهل الغناء أثناء صراعهم بحثا عن مكان جديد أو دفاعا عن مكان قديم في قصور حكام وأمراء العهد الذي أرخ له الأصفهاني ، فمن ذلك ما أورده الأصفهاني في ثنايا ترجمته لاسحاق بن إبراهيم الموصلي عن محاولة المغني المعروف -- في ذلك العهد - «مخارق» الكيد لإسحاق عند الخليفة الواثق، فقد تعمد مخارق أن يفسد لحناً أداه أمام اسحاق وفي حضرة الواثق، فلما أبدى إسحاق امتعاضه مما سمعه من مخارق، وكان اللحن من وضع الواثق الذي عرف عنه إتقانه صناعة الغناء، فإن حيلة مخارق أثمرت طرد إسحاق من مجلس الواثق.. ثم نفيه إلى بغداد فيما بعد ، وذلك على الرغم مما حوته الكتب من حكايات وحكايات عن صداقة ربطت بين الواثق وإسحاق، وهي صداقة سوغت للخليفة أن يستشير - في بعض الأحيان - إسحاق فيما يلحن من غناء، إن حكايات الصراع بين الجدد والقدامى من نجوم الغناء والتي حفظتها لنا كتب التاريخ أكثر من أن تحصى هنا، ولعل أشهر تلك الحكايات هو ما دار منها حول أبي الحسن علي بن نافع.. موسيقار الأندلس والمسلمين الأكبر الذي عرف بلقبه

الأشهر «زرياب» ،فعندما علا نجم زرياب فى بلاط هارون الرشيد بغنائه وتجديده فى أساليب التلحين والغناء وبتطويره لآلة العود، ضاق به أستاذه إسحاق الموصلى وأشاع فى حضرة هارون الرشيد أن به مسا من جنون، بل وأضاف إسحاق إلى ذلك أن شيطانا من الجن يلهم زرياب ألحانه، وإزاء مالقى زرياب ببغداد من مكائد إسحاق الموصلى والبعض من سابقيه من الموسيقيين، فإنه قنع من الغنيمة بالإياب ورحل بفنه - مؤثرا السلامة - إلى الأندلس، ليصنع هناك ما صنع للموسيقى العربية من تجديد وابتكار.



الشيخ محمود صبح



أم كلثوم

بين عبدالوهاب وأم كلثوم وسابقيهم

لم تكن علاقة الجدد من نجوم الغناء بسابقيهم فى القرن العشرين المنصرم بأفضل من مثيلتها بين نظرائهم من نجوم الغناء فى العصر العباس وغيره من العصور، وليس هناك أبلغ مما لقيه كل من محمد عبدالوهاب وأم كلثوم على أيادى سابقيهم من نجوم الغناء ، للتدليل على طبيعة العلاقة بين الجدد والقدامى من أهل الغناء خلال سنوات القرن المنصرم، فعندما سطع نجم محمد عبدالوهاب فى سماء الغناء العربى بعد لقائه فى صيف عام ١٩٢٤م بأستاذه ووالده الروحى: أمير الشعراء أحمد شوقى بك، كان ذلك إيذانا بقرب مغيب نجوم كانت تتلألأ فى تلك السماء من أمثال صالح عبدالحى وعبداللطيف البنا ومحمود صبح، فاجتمعت تلك المجموعة من كبار المطربين بزعامة الشيخ محمود صبح على مهاجمة الوافد الجديد إلى دنيا الطرب، والذى كاد يسحب البساط - بساط المجد - من تحت أقدامهم ، وقد انفرد الشيخ محمود صبح بطريقة من ابتكاره فى الهجوم على منافسيه ، فكان إذا أراد مهاجمة محمد عبدالوهاب مثلا، فانه ينتهز فرصة غنائه فى إحدى محطات الاذاعات الأهلية، ليتوقف عن غنائه بعد أحد المقاطع ويوجه عبر الميكروفون -

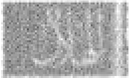

منيرة المهدية


فؤاد حلمي


محمد عبد الوهاب

وعلى الهواء مباشرة – ما يريد أن يهاجم به عبدالوهاب أو غيره، ومن أمثلة هجوم محمود صبح على محمد عبدالوهاب ما نقلته د. رتيبة الحفني عنه بعد أن توقف عن غناء وصلته في إحدى الاذاعات الأهلية، قال محمود صبح في ميكروفون الاذاعة مخاطبا محمد عبدالوهاب في بث مباشر من أندر ما شهدته الاذاعة في تاريخها: «مش عاجباك دي يا واد يا عبدالوهاب؟... طب اسمع دي.. سمعت الرعد في ودانك !!» (د. رتيبة الحفني: محمد عبدالوهاب.. حياته وفنه – ص ١١١) ولقد انتهى ذلك الهجوم والكثير مثله بانزواء المهاجمين في ظلال النسيان، وانفراد محمد عبدالوهاب بمركز الصدارة في الغناء العربي.

لم تكن أم كلثوم عندما بدأ نجمها يلتمع في آفاق الغناء العربى أفضل حالا مع سابقاتها من محمد عبدالوهاب مع سابقيه، فعندما هز صوتها الصادح عرش الشهيرات من مطربات العقد الثالث من القرن العشرين وفي طليعتهن منيرة المهدية وفتحية أحمد، كان ذلك إيذانا بانطلاق حملة شعواء اتخذت من بعض الصحف والمجلات منابر للهجوم على النجمة الجديدة ومحاولة وأدها قبل أن يشتد عودها، وقد اتخذت تلك الحملة أساليب متعددة، أهونها اتخاذ الفلاحة الصغيرة القادمة من طماي الزهايرة مادة للتندر في مجالس البعض من مطربات ذلك الزمان، مثل فاطمة قدري التى كانت تسخر كثيراً من ارتداء أم كلثوم لجبة وعقال أثناء غنائها، واشتدت تلك الحملة على أم كلثوم لتصل إلى أشرس أساليبها،



عندما تقولت مجلة «المسرح» في عددها الصادر في ١٩٢٧/١/٣١م على أم كلثوم وقالت عنها إنها قد تعرضت لحادث اغتصاب وهي بنت صغيرة في طماي الزهايرة (د. رتيبة الحفني: أم كلثوم معجزة الغناء العربي - ص ٥٦) وبالرغم من ذلك.. انطفأت أضواء الشهرة من حول المهاجمات ودلفن إلى التاريخ ليصبحن بعضا من صفحاته، بينما سارت أم كلثوم لتواصل مشوارها الذي نعرفه.. تحيطها أضواء الشهرة وقلوب الجماهير.

بين الطويل والشريف

بلغ الغناء المصري والعربي أوج ازدهاره وإنتاجه قرابة منتصف العقد الخامس من القرن العشرين ، عندما ضخت سنوات المخاض لثورة يوليو وما مضى من عمر الثورة حتى ذلك الحين دماء جديدة تدفقت في عروق الغناء فأنعشته وأفعمته بالحيوية والانطلاق، تمثلت تلك الدماء الجديدة في مجموعة الشعراء والملحنين والمطربين والمطربات التي ظهرت في الفترة بين آخر الأربعينيات ومنتصف الخمسينيات، ومما لاشك فيه أن كمال الطويل كان في الطليعة من تلك المجموعة، وذلك بما قدمه من ألحان في سنوات بدايته التي امتدت فيما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٦م ، نذكر من ذلك ألحانه لأغنيات مثل: (الفورية واسكندرية) لمحمد قنديل - (إلهي ليس لي إلاك عونا) لفايده كامل - (لأ يا حلو لأ) لمحمد مرعي - (عجباني وحاشته وقل ادع الله) لشادية - (ياشمعدان حارتنا) لنجاح سلام و(على قد الشوق ولا تلمني) لعبدالحليم حافظ.. وغيرها كثير، كان التركيب الطبقي لملحني الغناء المصري عند منتصف الخمسينيات - إذا ما استعرنا ذلك من علم الاجتماع أو التاريخ الإسلامي - يشتمل على طبقات أربع، الطبقة الأولى وهي طبقة الرواد التي ضمت كلا من: زكريا أحمد - محمد القصبجي - محمد عبدالوهاب - رياض السنباطي - فريد الأطرش ومحمود الشريف، بينما تجيء في الطبقة الثانية أسماء من لمع من ملحنين إبان سنوات الحرب العالمية الثانية مثل محمد فوزي - أحمد صدقي - عبدالعظيم عبدالحق - عبدالعزيز محمود - عبدالحليم نويرة - سيد مكاوي وفؤاد حلمي، أما الطبقة الثالثة فقد ضمت أسماء من قادوا ثورة التغيير في الموسيقى العربية طوال النصف الثاني من القرن العشرين، وتبرز في هذه الطبقة أسماء: كمال الطويل - محمد الموجي - بليغ حمدي - رءوف ذهني - منير مراد وعلي إسماعيل، ويحل في الطبقة الرابعة من عملوا بالتلحين إلى جوار العزف وقيادة الفرق الموسيقية ومن وضعوا لحنا واحداً أو ألحانا قليلة.. بالإضافة إلى من عملوا في تلحين أغنيات

لم تحظ بإقبال المستمعين.

إن توزيعاً طبقياً كهذا.. يظهر مدى ما كان عليه الغناء المصرى - والعربى بعامة - فى ذلك العهد من ثراء، وهو توزيع يكشف أن غناء تلك الأيام قد شهد كل ألوان الطيف الموسيقى، وبالرغم من ذلك.. كان هناك وقتها من يقول بأن الأغنية المصرية والعربية تعيش عصر أزمة ، ومن هؤلاء .. كانت مجلة «الإذاعة» ومن منطلق تلك الرؤية.. انتهز حسن إمام عمر: معد ومقدم برنامج «نجوم الفن» فرصة لقائه بكل من محمد عبدالوهاب ويوسف السباعى وفريد الأطرش ومحمود الشريف وعبدالحليم حافظ وحسن فايق وشكرى سرحان وليلى فوزى ونادية فهمى ، فى سهرة قدمت مجلة «الإذاعة» مقتطفات منها فى تحقيق نشر تحت عنوان «سهرة الأسبوع الإذاعية» على الصفحات (١٨، ١٩، ٥١) بالعدد رقم (١١٠٦) الصادر فى ١٩٥٦/٥/٢٦م ، انتهز حسن امام عمر تلك الفرصة ليطرح على بعض المشاركين فى الندوة أسئلة من نوعية: ما رأيك فى الأغنية المصرية؟ وما رأيك فى الجيل الجديد من الملحنين؟ وقد كشفت إجابات تلك الأسئلة عن موقفين متعارضين، فبينما هاجم الروائى يوسف السباعى - سكرتير ما يسمى أنذاك بالمجلس الأعلى للفنون والآداب - جيل القدامى من الملحنين، وشدد على أن أفكارهم هى العقبة التى تمنع تطور الموسيقى والأغنية المصرية، جاء رأى محمود الشريف معارضا لذلك تماما، حيث عبر الشريف عن رضاه بما وصلت إليه الأغنية المصرية من مستوى، وهاجم الشريف فى نفس الوقت الجدد من الملحنين قائلا: «دول اللى بدأوا من النهاية.. ما داقوش النضال والتعب والجهاد.. وشخصيتهم لم تتحدد بعد.. وأنا لا أعترف بهم.. » (ص ٥١).

انصب هجوم محمود الشريف على الجدد من الملحنين ولم يوجه للحن بذاته ، ولكن كمال الطويل عده هجوما على شخصه.. تماما كما هو هجوم على طبقته أو جيله من الملحنين، فانبرى سريعا لتفنيد ما حمله هجوم الشريف على جيله من اتهامات.. بل ولمهاجمة الشريف نفسه، جاء رد كمال الطويل فى العدد التالى من مجلة «الإذاعة» وتحت نفس العنوان: «سهرة الأسبوع الإذاعية»، كان رد الطويل على اتهام الشريف لجيله من الملحنين كما يلى: «اكتب.. وبمنتهى الصراحة وحياتك.. قول إن الملحنين الجدد هم: منير مراد والموجى وكمال الطويل ورؤوف ذهنى (لم يكن بليغ حمدى قد ظهر بعد)، هم عماد الحركة الموسيقية الجديدة (!!!)، هم اللى طوروا الموسيقى المصرية من الجمود والسطحية وضيق الدائرة التى كانت تسير فى حدودها إلى آفاق أوسع

ومعان أجدده (الإذاعة: العدد ١١٠٧ - ١٩٥٦/٦/٢ - ص ١٩)، لم يكتف الطويل بهذا الصاع لرد صاع الشريف، وإنما آثر - رحمه الله - أن يرد الصاع بصاعين !، فانتقل من حديثه لكاتب الموضوع: أبوالمجد الحريرى إلى مهاجمة محمود الشريف بقوله: «أنا أتحدى أى ملحن من الملحنين الموجودين باستثناء عبدالوهاب والسنباطى.. أن يرى فى ألحانه القديمة جملة موسيقية متماسكة أو لحنا فيه ترابط من الناحية الفنية!!، الملحنون القدامى كان انصرافهم الكلى إلى التعبير (البدائى).. بصرف النظر عن القيمة الموسيقية فى المقدمة والصلة الموسيقية بين (الجمل) الغنائية، والوحيد المتطور تطورا حقيقيا هو عبدالوهاب وبعده السنباطى، وهكذا انطلقت واحدة من معارك أهل الغناء، تطايرت فيها الاتهامات.. وقرعت الحجة بالحجة، فى مشهد لا أعتقد أنه من الممكن أن نرى له مثيلا فى عصرنا الحالى الذى لا ينطوى إلا على الخواء!.

المدافعون عن الشريف

لم يكن إدراج اسم محمود الشريف هنا فى الطبقة الأولى من ملحنى الغناء المصرى، إبان منتصف الخمسينيات من القرن العشرين ، وليد عاطفة أو نتاج رأى شخصى، وإنما كان ذلك بسبب طول عهده باحتراف الغناء والتلحين، ولأجل ما أضافه لفن الغناء من أعمال مثلت مرحلة هامة من مراحل تطوره، فقد بدأ محمود الشريف رحلته مع الفن فى عام ١٩٢٧م بالغناء فى السهرات والحفلات الخاصة وفى الإذاعات الأهلية بمدينة الاسكندرية ، ثم عمل كمطرب وملحن وممثل بدءاً من عام ١٩٢٨م ولعدة سنوات فى مجموعة من الفرق الفنية بمدن الاسكندرية والمنصورة والقاهرة، حتى انتهى به المطاف خلال عام ١٩٣٢م فى فرقة بديعة مصابنى.. ليشارك فى تلحين وغناء استعراضاتها الشهيرة، عرف الشريف طريق الشهرة عندما بدأ يغنى فى الإذاعة المصرية منذ عام ١٩٣٧م، حتى تحقق لاسمه البريق والذيوع فى عام ١٩٣٨م بعد أن تغنى محمد عبدالمطلب بلحنه الخالد لأغنية «بتسألينى بحبك ليه»، ثم توالت أعماله بعد ذلك، فلحن عشرات بل مئات الأغنيات فى عشرات من الأفلام الغنائية الناجحة خلال الأربعينيات والسنوات الأولى من الخمسينيات، وإضافة إلى ذلك، فإن الشريف أثرى الغناء المصرى بعديد من البرامج الغنائية الإذاعية الناجحة مثل: قسم - عذراء الربيع - جلنار وبالوما، كل ذلك بجانب عشرات من الأغنيات الإذاعية الجميلة التى تنوعت بين عاطفية ووطنية ودينية، كان هذا الزخم الهائل من الانجاز معروفا من محبى فن الغناء قبل الخاصة

من أهل هذا الفن، مما أغضب مجموعة من ملحنى الطبقتين الثانية والثالثة لما حمله رد كمال الطويل من تجريح فى القيمة الفنية لألحان محمود الشريف.

كان أحمد صدقى هو أول من أدلى بدلوه من الملحنين فى هذه المعركة، فعندما سأله أبوالمجد الحريرى الصحفى بمجلة «الإذاعة» ومفجر المعركة عن رأيه فيما قاله محمود الشريف عن الملحنين الجدد فى عدد سابق من المجلة، أجاب أحمد صدقى قائلا: «ما أقدرش أقول إننا لا نعترف بالملحنين الجدد، ما أقدرش أحكم عليهم من دلوقت ! نصبر عليهم، يمكن شخصياتهم الفنية تتحدد فيما بعد» (الإذاعة: العدد ١١١٠ - ١٩٥٦/٦/٢٢ - ص ٣٤)، ولما سئل أحمد صدقى عن رأيه فيما تحدث به كمال الطويل عن محمود الشريف، كانت إجابته كما يلى: «قولوا له.. رفقاً بالقوارير ياسى كمال.. إنت ما عملتش تطور فى الموسيقى، إنت صحيح اليومين دول نجم لامع، ولكن لا يبهرك هذا اللمعان، وانتظر.. شوف الأيام.. هل حاتقدر تطفر بالموسيقى طفرة غير الموجودة، إنت ما عملتش غير ألحان ناجحة فقط، ولكنها ليست طفرة وليس فيها جديد عما كان موجوداً.. ولم تغير فى الموسيقى شيئاً». هكذا اتسم رد أحمد صدقى على كل من محمود الشريف وكمال الطويل بالعقلانية، وذلك بالرغم من كونه - أى أحمد صدقى - أقرب إلى الشريف فى الطبقة والبداية والتكوين منه إلى الطويل، ولكن رأى البعض الآخر من الملحنين فى تلك المعركة كان شيئاً آخر.

أفردت مجلة «الإذاعة» قرابة ثلاث صفحات من عددها رقم (١١١٤) الصادر فى ١٩٥٦/٧/٢١م لاستطلاع آراء أربعة من الملحنين فى أحداث هذه المعركة، وقد قالت المجلة فى معرض تقديمها لهؤلاء الملحنين إنهم من شبان الموسيقى والألحان، والملحنون الأربعة بترتيب حديثهم إلى المجلة هم: عبدالعظيم عبدالحق - حسين جنيد - فؤاد حلمى ومنير مراد، وهم بالطبع أقرب فى الطبقة والبداية إلى كمال الطويل، فيما عدا عبدالعظيم عبد الحق الذى كانت بدايته سابقة لهذا الجيل من الملحنين بعشر سنوات على الأقل، ولنبدأ هنا بآخر من أدلوا بآرائهم فى هذه الندوة الصحافية التى أدارها أبوالمجد الحريرى أيضا، فعندما سأل أبوالمجد الحريرى آخر من استطلع آراءهم من هؤلاء الملحنين فيما نسبه كمال الطويل إلى الشريف وجيله، كان رد منير مراد واضحاً وقاطعاً: «ومن أنا حتى أهاجم هؤلاء العمالقة؟» (الإذاعة: العدد ١١١٤ - ١٩٥٦/٧/٢١ - ص ٥٣)، ولكن رد

الآخرين كان شيئا مختلفا، فقد قال عبدالعظيم عبدالحق فى ختام حديثه الذى تناول فيه بالشرح والتوضيح الأسباب الحقيقية وراء تلك المعركة: «إن الرجل (يعنى بذلك كمال الطويل) الذى بدأ حياته بـ (إلهى ليس لى إلاك عونا) وانتهى بـ (أبوس النار ماتحرقنيش.. أبوس خدك يلهلبنى).. يجب أن نصلى من أجله!».. (ص١٩) والأغنية الثانية التى أشار إليها عبدالعظيم عبدالحق فى حديثه هذا.. هى من ألحان كمال الطويل وتغنت بها المطربة نادية فهمى فى فيلم «الجسد»، وقد أثارت تلك الأغنية استهجان الجميع.. مما تسبب فى منع إذاعتها، كانت الأسباب الخفية لتلك المعركة من وجهة نظر عبدالعظيم عبدالحق تكمن فى الدعاية المضللة التى تلاحق كل ناجح، مما يجعله متورطا فى محاولته مواصلة النجاح بالانزلاق إلى الإنتاج السريع وفى الدفاع عن مكانته التى تحققت بكل الأساليب، ويرى عبدالعظيم عبدالحق أن انسياق كمال الطويل وراء الإنتاج السريع قد أوقعه فى محاذير الاقتباس، وهو ما عبر عنه بقوله: «فاتجه (أى كمال الطويل) إلى الموسيقى الغربية الخفيفة يختار من جملها ما يناسبه، ثم يسمعها للمؤلفين الخصوصيين (!!) ليضعوا له على وزن تفاعيلها معانى أكيدة النجاح».. (ص١٨)، وعندما التقى أبوالمجد الحريرى بالموزع والعازف وقائد الأوركسترا والملحن حسين جنيد ليستطلع رأيه فيما حدث بين الطويل والشريف، قال حسين جنيد على الفور: «من الخطأ بالنسبة للملحن اشتهر ببعض أغان ناجحة (من وجهه نظر رجل الشارع)، أن يتورط مثل هذه الورطة، وانا مشفق كل الاشفاق على السيد (الطويل) لما أقحم نفسه فيه من تعرض لعمالقة الفن الذين دخلوا التاريخ رغماً عنه !، ومع احترامى للأغانى (القليلة) الناجحة للأخ كمال، فيهمنى أن أسجل للتاريخ وحده أن إمكانياته الفنية ترتبط بالظروف الحالية» ! (ص ١٩)، وعلامة التعجب بعد حديث حسين جنيد من لدن كاتب المقال ولم ترد فى أصل الموضوع المنشور بمجلة «الإذاعة»، وذلك لأن حسين جنيد أظهر فى حديثه قدرته على الفهم الصحيح لما يدور حوله من أمور وعلى قراءة ما وراء حجب الأيام القادمة، فقد غربت أضواء البداية عن كمال الطويل بسقوط نظام ثورة يوليو فى نكسة يونيو ١٩٦٧م، وواصل كمال الطويل مشواره بالصورة المتقطعة التى شهدناها بعد عام ١٩٦٧م معتمدا على موهبته ولاشىء سواها.

كان فؤاد حلمى الذى بدأ مشواره مع التلحين فى منتصف الأربعينيات.. أشد من التقى بهم كاتب الموضوع: أبوالمجد

الحريرى عصبية وسخرية فى رده على ما طرح عليه من أسئلة حول المعركة بين الطويل والشريف، فقد سخر فؤاد حلمى بشدة مما قاله كمال الطويل حول ما قام به هو وجيله من تطوير للموسيقى العربية، فقال فؤاد حلمى عن ذلك: «يكفى كمال الذى اعترف بأنه لا يعزف أية آلة موسيقية، ويلحن بفمه وأصابعه، أن تطوره الفنى مستمد من الأرائك والترابيزات (المناضد)..» (ص ٥٣)، ويشير فؤاد حلمى بقوله (يلحن بفمه وأصابعه) و(الأرائك والترابيزات) إلى ما صرح به كمال الطويل فى أحاديث صحافية، من أنه يضع ألحانه عن طريق الصفير بفمه أو بالنقر على كرسى أو منضدة، كان فؤاد حلمى قد بدأ حديثه بتحدى كمال الطويل قائلا: «إنى أتحدى كمال وأبواقه، أن يعطى لحنا منفرداً ويلحنه فى يوم أو ثلاثة، لأنه للآن لم يخرج وحده لحنا كاملا» (ص١٩)، ثم اختتم فؤاد حلمى هجومه باتهامه للطويل باقتباس ألحان أنجح أغنياته من ألحان لملحنين آخرين!، واستشهد فؤاد حلمى فى معرض التدليل على صحة اتهامه بنماذج من أغنيات الطويل وما يقابلها من ألحان أخرى، فيما يرى أنها المصدر الذى اقتبس منه الطويل ألحانه.

دروس مستفادة

وبالرغم من عنف ما انطلق فى تلك المعركة من آراء واتهامات ، فإنها توقفت بعد حديث الملحنين الأربعة فى عدد مجلة «الإذاعة» رقم (١١١٤)، وانقطعت أخبارها فيما تبع ذلك العدد من أعداد، ويتبقى هنا أن نحاول الآن تخمين أسباب قيامها وانتهائها السريع وما شهدته من تدخل أطراف خارجية ، ولعل السبب فى قيامها يرجع إلى ما أثر عن محمود الشريف وكمال الطويل من اعتداد بالنفس وثقة بما اختصهم الله به من موهبة، وإن ذلك يمكن أن يكون أيضا سببا معقولاً لانتهائها السريع، لأن المعتد بنفسه والواثق من موهبته لا يصر على خطأ انساق إليه فى اندفاعة أو زلة لسان، وأما ما شهدته المعركة من مداخلات لأطراف خارجية .. فإنه يكشف عن أمرين، أولهما هو ما دأبت عليه الصحافة الفنية من افتعال المعارك بين أهل الغناء والفن بعامة، وكانت الوسيلة لذلك.. إما باختلاق الوقائع أو باصطياد العثرات، ومنها عثرات الألسن التى يتم النفخ فيها، وأما الأمر الثانى.. فإنه يتمثل فى معاناة البعض من أهل الغناء أو الفن من تحيز بعض الأقلام الصحافية، وهى تلك الأقلام التى كانت تغدق بالمديح على البعض وتغرق فى التجاهل والإهمال الكثرة الغالبة. ■

أتاتورك ومنيرة المهدية

ومسائل مصرية

بقلم
د. محمد حرب

لم يكن مصطفى كمال أتاتورك - كما يظن كثير من المثقفين المسلمين والعرب - مجرد ضابط عثمانى كبير قام بقيادة بلاده فى حرب ضروس ضد القوى الأوروبية المتحدة التى كانت تجثم على صدر بلاده، وحسب، وإنما كان مصطفى كمال باشا مثقفا ثقافة مدنية عالية، يجمع بين اطلاعه على الثقافة الشرقية وعلى الثقافة الغربية التى تغلغلت فى المجتمع العثمانى فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو ابن ثقافته وثقافة عصره التى اتجهت للفكر الغربى.



رأى مصطفى كمال أتاتورك، عندما تولى دفة الأمور في بلاده، أن على تركيا الأخذ بالطريق الغربي للتقدم. كان أتاتورك يضع نصب عينيه نجاح الحرب التي يقودها وهي حرب الاستقلال التركية ضد المحتل الأوروبي المشترك، وهي قوات التحالف البريطاني والفرنسي والإيطالي واليوناني. ولما انتصرت بلاده في حرب استقلالها، رأى أتاتورك أن تتجه بلاده إلى أوروبا تستقي منها منابع حياة جديدة. وهذا ما يفسر اتخاذه عدة قرارات في هذا السبيل مثل تغيير حروف اللغة التركية من حروف عربية إلى حروف أوروبية (لاتينية)، وإلغاء الخلافة واتخاذ التقويم الغربي أساسا للعمل في تركيا، حتى أنه أمر بجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد، بدلا من الجمعة، مسايرة للمصارف العالمية والأوروبية. وبالإجمال جعل أتاتورك لدولة تركيا الجديدة التي أوجدها، أسس اللحاق بالمدنية الأوروبية الغربية في الظاهر وفي الأساس من اتخاذ القبعة غطاء لرأس الاتراك إلى اتجاهات الدولة التركية من صناعية وتقنية وتكنولوجية وثقافية وموسيقية وفنية وتعليمية.

أتاتورك ومنيرة المهدية

عندما دعت الحكومة التركية، سيدة الغناء العربي - وقتها - المصرية السيدة منيرة المهدية - والأتراك شعب يتذوق الفنون - استقبلها أتاتورك استقبالا يليق بشهرتها. استمع أتاتورك إلى غناء منيرة المهدية، وطرب كثيرا لصوتها ولأدائها ولفنها، فقد كان اتاتورك يعشق الموسيقى الكلاسيكية الشرقية. وبعد انتهاء الحفل، هنأها أتاتورك وأظهر إعجابه بفنها، ومع ذلك فقد أردف متسائلا: «هل لك في الموسيقى الغربية؟»، وأجابت بالنفي، فقال لها أتاتورك: «ان صوتك رائع ويحتاج إلى الموسيقى الغربية ليفصح عن مكنوناته وسيحقق لك شهرة عالمية»، وأوصاها بذلك.

أتاتورك وعزيز على المصرى

وعندما أرادت مصر في عهد الملك فؤاد، مدربين عسكريين لتدريب الجيش المصري، اتجهت إلى أنقره عاصمة تركيا الصديقة، ولما وصل الأمر إلى أتاتورك نظر فيه، وقال إن عندهم - أي عند المصريين - عزيز باشا، وهو فيه الكفاية لتدريب الجيش المصري. فقد كان أتاتورك يرى في عزيز باشا المصري شخصية فذة، قادرة على حل كل الصعاب.

والمعروف ان عزيز على المصرى كان ضابطا في الجيش العثماني، وكان زميلا لمصطفى كمال. وكان الاختلاف بينهما فكريا فقط، فقد كان عزيز المصري «عزيز أفندي وقتها» عضوا في الاتحاد والترقي، أما أتاتورك فلم ينضم إلى جمعية الاتحاد والترقي. وتعرض عزيز المصرى إلى حقد وحسد كبار الاتحاديين مثل أنور وجمال. ولم يتلق عزيز المصري من أتاتورك إلا كل تقدير.

أتاتورك وطربوش السفير المصرى في أنقره

كان الطربوش هو غطاء الرأس - القومي - في مصر، لكن أتاتورك أصدر في تركيا مرسوما يبطل ارتداء الطربوش وأغطية الرأس التقليدية، وإبدال ذلك بالقبعة الأوروبية لمن أراد أن يرتدي شيئا على رأسه. وبلغ حماس أتاتورك في هذا أن قام بجولة في أنحاء تركيا للدعاية إلى لبس القبعة.

وفي حفل دبلوماسي في أنقره، فوجيء أتاتورك بالسفير المصرى مرتديا طربوشه، وأشار أتاتورك إلى عدم ضرورة أن يلبس سفير مصر طربوشه في بلد مثل تركيا

صدرت فيه قوانين تمنع ارتدائه. واحتج السفير المصرى على ذلك. واحتجت معه كل صحف مصر وقتها. لكن أتاتورك استطاع تسوية هذه المسألة، وعادت العلاقات بين مصر و تركيا إلى أقوى مما كانت عليه.



الشيخ علي عبد الرازق

وبمناسبة قانون القبعة الذى فرضه أتاتورك على الأتراك، نذكر أنه كان قد أمر بتأليف وتلحين نشيد قومى لتركيا الجديدة، وعقدت مسابقة فاز فيها الشاعر محمد عاكف، وسمى هذا النشيد باسم نشيد الاستقلال، والذى يخاطب فيه التركى بقوله:

لا تخف ! فلن ينطفىء أوار هذا العلم الأحمر «لون علم تركيا» السابح فى الشفق.

حتى يخمد آخر موقد من مواقد البيوت فى بلادى
نجم شعبي، هو هذا العلم، نجم شعبى المتألق.
إنه ملكى أنا ، إنه لي ولأمتي.
يا أيها الهلال الذى تتوسط علم بلادي
لا تقطب جبينك ضيقا وقلقا
فأرواحنا فداء لك.
اما الاستقلال فإنه حق لشعبى هذا
المؤمن بالله . الذي يعبد الله.
عشت حرا منذ الأزل، وسأحيا حرا إلى الأبد.

وعندما أصدر أتاتورك قانون الزى والأزياء وجعل مظهر الزي الرسمي أوروبيا، أمر بالضرورة باستبدال الطربوش - وكان غطاء رأس شائع فى تركيا وفى الدولة العثمانية وقتها - بالقبعة الأوروبية، ويقال إن الشاعر المرموق محمد عاكف صاحب النشيد القومي التركي هذا أصبح محرجا من الظهور بين تلامذته ومحبيه بغير الطربوش الذى اعتاد على ارتدائه على رأسه، فهاجر إلى مصر، وأقام فى حلوان، وكانت - وقتها - من أجمل ضواحى حى القاهرة وأكثرها نقاء جو. وفى أثناء مقامه فى مصر، انتدب لتدريس اللغة التركية فى كلية الآداب جامعة القاهرة ومن تلامذته المميزين الدكتور عبدالقادر القط، استاذ الأدب العربى فى جامعة عين شمس والناقد الأشهر فى زمانه.

ومع ذلك ، وعندما أصاب الحنين الشاعر محمد عاكف وعاد إلى تركيا، وجد كل استقبال جميل، ولم يغضب أتاتورك عليه.

وعلى ذكر الشعر والشعراء، يبدو أنه لم يصل إلى علم أتاتورك تلك المدحية الرائعة التى نظمها فيه أمير الشعراء العرب أحمد شوقى والتى وصف فيها أتاتورك بأنه خالد العرب. وحث فيها أحمد شوقى، أتاتورك ليقوم بتجديد خالد العرب، وهو بالطبع خالد بن الوليد. ولم نعثر - حتى الآن - على اشارة لهذا فى المصادر التركية.

أتاتورك والأزهر الشريف

كان أتاتورك قويا وجريئا، واضحا وصريحا، فعندما اقتنع بعدم جدوى الخلافة العثمانية أمر بإلغائها. وفوجىء العالم الإسلامى وقتها بهذا الحدث الكبير. وقام طلبة

الأزهر، الذى يعرفه الأتراك باسم «الأزهر الشريف»، بمظاهرة صاخبة تحتج وتعارض إلغاء مؤسسة الخلافة. ولم يكن - كما يبدو - أتاتورك قد توقع هذا . وأثرت هذه الحادثة فيه. ويبدو أنه بناء عليها، أى على حادث المظاهرات الأزهرية فى القاهرة، سحبت حكومة التركية اعترافها بشهادات الأزهر.

لكن أتاتورك استحسن كتابا أصدره أحد علماء الأزهر، وهو الشيخ على عبدالرازق، وهو كتاب الإسلام وأصول الحكم، فقد ترجم هذا الكتاب - فى حينه - إلى اللغة التركية وانتشر انتشارا واسعا وذلك ليقوى - وإن لم يكن فى حاجة - شرعية إلغائه للخلافة.



الفريق عزيز المصري

أتاتورك ومصطفى صبرى

كان الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى أواخر الدولة العثمانية أيام السلطان محمد وحيد الدين آخر السلاطين العثمانيين. وكان مصطفى كمال باشا ياوراً للسلطان مرافقا له. وكان هذا الشيخ قوى الشخصية حاد المزاج. وقد نصح السلطان وحيد الدين، وحذره من مصطفى كمال، لكن وحيد الدين كان مقتنعا بشخصية ياوره الذى أصبح أتاتورك فيما بعد، كما كان مقتنعا بقدرته العسكرية. ومن هنا وجدنا الشيخ مصطفى صبرى مضادا للثورة الكمالية، وكان منتقدا لبرنامج أتاتورك فى تحديث تركيا، مما أدى إلى اعتباره عدوا من أعداء الثورة وضمن قائمة الممنوعين من دخول تركيا وكان الشيخ قد هاجر منها إلى اليونان ثم الحجاز، واستقر به المقام فى مصر، وهاله ما يكنه المثقفون المصريون ذوو الاتجاه التغريبى من اعجاب بالغ بأتاتورك وبالتغريب، وهذا ما دفع الشيخ إلى كتابة كتابه الشهير «موقف العقل» ليهاجم به كل الداعين إلى حركة التنوير الغربية النمط: أتاتورك، وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم. وطبع هذا الكتاب أول ما طبع فى مصر. وحرم دخوله تركيا فى حينه.

أتاتورك وجمال عبدالناصر

حدثنى سفير تركيا فى مصر والذى جاء بعد نقل ياشار ياقيش إلى فيينا - بالمناسبة ياشار ياقيش كان ومازال محبا لمصر ولشعبها - وهو الذى اصبح أول وزير خارجية فى حكومة حزب العدالة والتنمية الذى يقوده رجب طيب اردوغان - وسفير تركيا الذى اتحدث عنه توفى أثناء عمله فى الخارجية التركية، أقول إنه حدثنى قائلا: إن فى مكتبة الكلية الحربية فى مصر كتاب الذئب الأغبر الذى أصدرته دار الهلال «المصرية طبعا» للكاتب الانجليزى ارمسترونج صديق أتاتورك. ويقول هذا السفير - الذى لا أذكر اسمه - ان عبدالناصر قرأ الكتاب وهو طالب بالحربية وقد أشار الرئيس المصرى بقلمه على بعض فقرات، يبدو أنها كانت مناط إعجاب عبدالناصر.

وينبغى القول هنا إن أتاتورك قد أوجد ببرنامجه الإصلاحى الشامل لدولته تركيا على النمط الغربى اعجابا من المثقفين المدنيين المصريين كتابا أو زعماء، نهجوا على منواله، وأثر الكتاب منهم فى الرأى العام المصرى ومنهم الأميرة قدرية حسين. ■

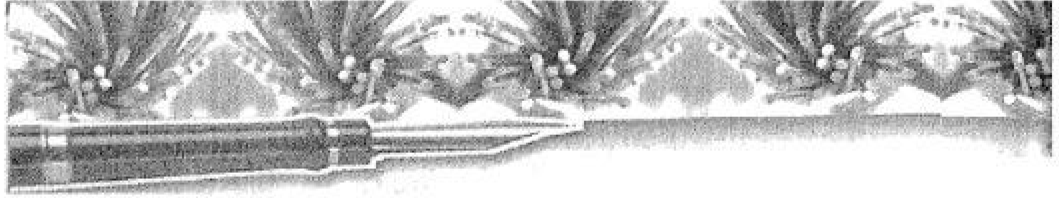
التكوين

عندما قررت أن أكون عظيماً مثل طه حسين

مصطفى الحسيني

من كُتّاب الشيخ عبد الرحيم وعريفه الشيخ جودة فى امبابة إلى كتاب شيخ عبد الرحيم آخر فى «ساحل الجوابر» - قرية عائلة أمى ، حيث قضيت فترة أظنها شهوراً . كان الشيخ الأول كفيفا بينما عريفه مبصر . وكان الشيخ الثاني كفيفا ولم يكن له عريف. وما بقى فى ذاكرتى عنه هو ثقة نساء القرية به ثقة تشبه الغرام. كما أذكر أنه كان يحب لوناً غريباً من الطعام لم أعرف أحداً غيره يأكله ؛ فول جاف مجروش يطبخ مع الكزبرة الخضراء وكثير من الشطة. بينما كان سميه فى امبابة ذا كلف ملحوظ بالحلاوة الطحينية التى كان يجهزها فى شطائر يدسها بجوار الوسادة التى كان يقتعدها فى صدر غرفة الكتاب. وكنا ننتهز فرصة غياب الشيخ جودة لأمر أو لآخر، فتمتد أيدينا إلى تلك الشطائر لندس فى بعضها الشطة.







لا أظن أنى استفدت كثيراً من الوقت الذى قضيته بين الكُتَّابين. كنت لسبب ما نفورا من ذاك النوع من التعليم . بالتأكيد تعلمت القراءة والكتابة ومبادىء الحساب . لكنني لم أحفظ القرآن الكريم ولا حتى جزءاً منه كما يجدر بتلاميذ الكتاتيب. وكنت أرى صديق تلك المرحلة من طفولتي وزميلي في الكتاب، خلف ، ابن «عمتي حمدية» جالساً وقد أسند اللوح الصفيح(١) على ركبتي اللتين أتخذ لهما وضعا يشبه وضع حامل اللوحات وهو ينسخ السورة من القرآن بالقلم البسط(٢) والحبر الأزرق على صفحة اللوح اللامعة، حتى إذا امتلأت محاها بخرقة مبتلة ليكرر عملية النسخ حتى يحفظ السورة ويسمعها لأبيه «عم محمد أبو عيسى». كنت أشفق عليه وعلى نفسي، فأنا ذهبت إلى بيتهم لأستدرجه للخروج إلى اللعب.

من الكُتَّابين إلى مدرسة الجرن(٣) الأولية بامبابة أيضاً. الجرن الذى تقع المدرسة على حافته هو جرن محمد عرفة – زوج خالة أبى الذى سبق ذكره. ما بقى فى ذاكرتى من تلك المدرسة التى خرجت مثيلاتها من النظام التعليمى المصرى منذ زمان بعيد هو قطرى أفندى الذى كان يعلمنا ثلاثة مواد : الموسيقى التى كان يأتى إلى درسها حاملا العود . والصحة التى كان تعليمه لها يليق بهيئته، إذ كان بادي الصحة والأناقة والنظافة. ومادة كانت تسمى الأشياء تقوم على التعريف الأولى بمبادىء العلوم أو الطبيعة.

لم أمكث طويلاً بتلك المدرسة إذ كنت قد قاربت الثامنة – سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية فى ذلك الزمان والتى كانت مرحلة ثالثة من مراحل التعليم بعد الكُتاب والمدرسة الأولية .

التحقت بمدرسة امبابة الابتدائية التى كانت تقع على الطرف الجنوبي للبلدة، يفصلها عن بيت محمد عرفة، العلامة العمرانية البارزة، ترعة ومساحة عريضة من الحقول يحيط بهما طريق غير مرصوف يتخذ شكل قوس يقترب من شكل الزاوية القائمة.

تكاد ذكرياتى عن تلك المدرسة تنحصر فى ضيقى بالطربوش الذى كان اعتماره إلزاميا بحكم القانون باعتباره رمزا للوطن. لا أعرف لاسبب ضيقى بالطربوش ولا حكمة اتخاذ تلك القلنسوة الحمراء التى تشبه سطلا مقلوبا تتدلى من مركز سطحه العلوى خصلة من الخيوط السوداء، رمزا للوطن، بينما تتميز مصر بالوان ثلاثة هى الأخضر الذى تزهو به على ضآلة نسبته فى مساحتها، لكنه المصدر الرئيسى للعيش على أرضها،

والرملى الذى يغطى معظم مساحتها لكنها تكاد تنكره ولون التراب الذى منه خلقنا وإليه نعود.

لم يطل مقامى فى تلك المدرسة أيضاً. انتقل عمل أبى وبيتنا إلى المنيا التى توصف عادة بأنها «عروس الصعيد» - وهى بالفعل تبدو مستحمة ومجلوة.

بالانتقال إلى المنيا دخلت حياة عائلتنا مرحلة من التجوال استغرقت سنوات تعليمى من الثانية الابتدائية فى تلك المدينة الحلوة إلى حصولى على شهادة «الثقافة» التى كانت تسبق التوجيهية بسنة واحدة من مدرسة دمنهور الثانوية، مروراً بسنوات أربع فى «الأقصر».

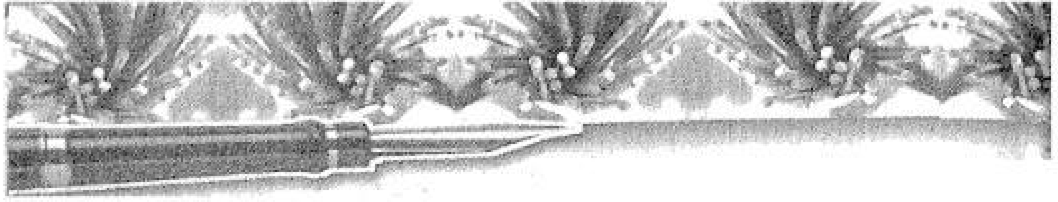
فى المنيا ألحقنى أهلى بمدرسة حسن كاشف التى وعيت فيمابعد أنها كانت ضمن قطاع تعليمى من سوء الحظ أن جرى التخلى عنه ضمن واحدة من خطط «تطوير» التعليم و«تحديثه». كان ذلك القطاع التعليمى يتبع مجالس المديريات التى تغير اسمها فيمابعد إلى محافظات. كانت مجالس المديريات منتخبة من «نخبة ناخبين» - إن جاز التعبير . كانت هناك شروط تأهيل للترشيح والاقتراع تتعلق بحجم الملكية أو مقدار مايدفعه الشخص من الضرائب. كانت «وزارة المعارف» هى مرجع مناهج التعليم فيها كغيرها من المدارس. لكن المدرسين فيها كانوا يختارون من بين أبناء المدينة أو البلدة أو القرية التى تقع فيها المدرسة. كانت لهذا الشرط ميزتان: إحداهما أنه كانما كان المدرسون مسئولين عن عملهم أمام أهلهم قبل مسئوليتهم أمام رؤسائهم، والأخرى أنهم لم يكونوا ينقلون من مدارسهم إلى مدارس أخرى، الأمر الذى يضمن قدراً من الاستمرار والاستقرار فى العلاقة بين المدرسين والتلاميذ.

من سوء حظى أن أهلى اعتبروا التحاقى بتلك المدرسة مجرد سد لفجوة زمنية تستكمل السنة الدراسة التى بدأتها فى امبابة. التحقت بعدها بالسنة الثانية بمدرسة المنيا الابتدائية، بعد «امتحان قبول» أظن أنى اجتزته بصعوبة .

التحقت بمدرسة لم أقم فيها صداقة ولم تبق لى من أيامها ذكريات سوى واقعة واحدة كانت ذات أثر بليغ فى حياتى سيأتى ذكرها.

فى تلك المدرسة أيضاً - كسابقاتها - لم يطل بى المقام. نقل أبى إلى الأقصر وانتقلت مع شقيقى بهى وعادل إلى مدرستها الابتدائية، بهى فى السنة الرابعة التى هى نهاية تلك المرحلة من التعليم وعادل وأنا فى السنة الثالثة .

فى تلك المدرسة «تفتحت» - إن جاز التعبير . لم تعد لى مع المدرسة ولا مع





إحدى المناسبات التى جمعت مصطفى الحسينى مع كبار الكتاب والمثقفين ..

التعلم مشكلة . لكن ذلك - فيما أظن - لم يتحقق إلا بعد حادثة دامية .

منذ أن عرفت المدرسة كرهت الرياضة البدنية، مع أنى لم أكن كسولا . فى تلك المدرسة الجديدة كان معلم الرياضة البدنية - وهنا معرفة وإدراك لاحقين - كما فى مدارس غيرها ، واحداً من جنود الجيش المحترفين السابقين، كانوا يحالون إلى المدارس الصغيرة أو النائية لتولى تلك المهمة إلى جانب ضبط النظام فى المدرسة.

فى الأول من تلك الدروس وعلى ماجرت العادة طلب المعلم، حامد أفندى، أن يتخذ من لا يريد المشاركة فى الدرس خطوة إلى الأمام. ثم أخذ يسأل كل منا عن سبب عدم مشاركته.

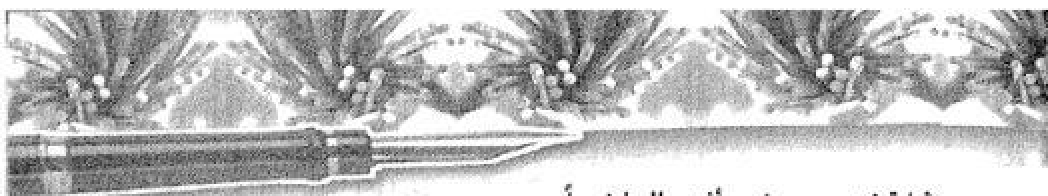
كانت الأسباب المقبولة هى المرض أو ادعائه . عندما وصل إلىَّ قلت ببساطة: إننى لا أريد لأننى لا أحب «الألعاب» كما كنا نسميها. أمرنى حامد أفندى بصرامة أن أعود إلى الصف. لم أتزحزح من مكانى. كانت بيده عصا هى فى الأصل ساق كرسى من الخيزران، رفعها فى وجهى وهو يكرر الأمر. برقت فى كيانى خشية أن يضربنى بها على رأسى. دون تفكير، اختطفتها من يده ووجهتها إلى جبهته التى انبثق منها الدم. ألقيت بالعصا وأطلقت ساقى للريح باتجاه حديقة المدرسة. كانت الحديقة جيدة التنسيق

مقسمة إلى حقول صغيرة مربعة تفصل بينها ممرات ضيقة منحتني فرصة لمراوغة حامد أفندي الذي كان يجد في أعقابي، أحسست أن صدري يكاد ينشق من اللهاث. اتجهت، يائساً، إلى الدرج الخلفي لمبنى المدرسة متجها بسرعة إلى غرفة الناظر التي اقتحمتها لاهثاً. لم أكن رأيت الرجل البدين ذو القامة القصيرة والوجه المستدير إلا عن بعد، حيث يقف كل صباح على الشرفة الأمامية للمدرسة يراقب «طابور الصباح». وسط اللهاث حاولت أن أتكلم . لا أتذكر تعبير وجهه وهو يأمرني بحزم أن لا أتكلم وأن أجلس على مقعد أشار إليه . لم يلبث حامد أفندي أن دق على الباب المفتوح وأطل مدمي الوجه. سمعت الصرامة في صوت الناظر الذي أمره أن يذهب إلى «غرفة الإسعاف» وأن لايعود إلا عندما يستدعيه. ظهر «فراش حضرة الناظر» فأمره أن يأتي بكوب من عصير الليمون. كنت مازلت أحاول أن أتكلم، أشار إليَّ بالسكوت وأمرني بشرب عصرالليمون. بعد أن هدأ لهاثي وانتظم تنفسي سألني عما حدث ورويته. سألني باستنكار هادىء إن كان يجوز أن يضرب التلميذ معلمه . لا أذكر من جوابي سوى قولي له إنه لو ضربني بتلك العصا الغليظة لشج رأسي. سألني عن اسمي وعمل أبي. ثم نادى الفراش وأمره أن يصحبني لأغسل وجهي ثم إلى فناء المدرسة. بعد ذلك أكملت اليوم المدرسي كأن لم يحدث شيء.

لكن المفاجأة كانت في «طابور الصباح» في اليوم التالي. انتظمت الصفوف وعندما انتهت طقوس الطابور الذي كان يشرف عليه حامد أفندي وأعطى إشارته بالتوجه صفاً صفاً إلى حجرات الدرس، أشار الناظر بالتوقف وانطلق يتحدث بصوت قوي ولهجة حازمة. خلاصة ما قال أن المدرسة شهدت في اليوم السابق حادثاً مؤسفاً؛ أن حامد أفندي رفع فوق رأس أحد التلاميذ الصغار(٤) عصا غليظة لم يكن هو يعلم بوجودها، وأن التلميذ رد عن نفسه. وهذا خطأ ، كان عليه أن يلجأ إليه كما فعل في نهاية المطاف. لكنه هنا يوجه الكلام إلى المدرسين:

إن الضرب في المدارس ممنوع بحكم القانون وأن أي مدرس يلجأ إليه سيحال إلى التحقيق وينال جزاءه. ثم يوجه حديثه إلى التلاميذ الكبار؛ واجبهم حماية زملائهم الصغار.

بعد تلك الواقعة أصبحت المدرسة لي



بمثابة فردوس صغير. أذهب إليها فرحاً وأغادرها مشتاقاً إلى العودة.

أذكر من مدرسي تلك الفترة مدرسين لمادة الحساب: فوزى أفندى مسعد وزكريا أفندى بسطا . كان كل منهما يستهل الدرس بإلقاء مسألة حسابية نتسابق إلى حلها دون كتابة، فيما كانا يسميانه «الحساب العقلى». وكان زكريا أفندى المديد العريض البدين مع خفة حركة مدهشة، ينطق كلمة «عقلى ممدودة» باتساع خطوته الواسعة إلى حجرة الدرس.

كما أذكر يوسف أفندى إدريس(*) الذى علمنا اللغة العربية فى تلك السنة الثالثة الابتدائية. لكن ذلك لم يكن أهم ماتعلمت منه. مازلت أذكر عبارته التى كان يلقيها بشىء من التنغيم «القليل من الكثير». كان قد نظم نوعاً من «الجباية» سماه قرش الطالب. كان يقتضى من كل طالب فى المدرسة (٣٦٠ طالباً) قرشاً واحداً كل شهر. لايفرق بين غنى وفقير. لم يكن القرش فى ذلك الزمان وفى بيئة يغلب فيها الفقر أمرا هيناً، لكنه حسب ماشرح، سيستخدم تلك النقود فى شراء ماينقص بعض التلاميذ الذين كان بعضهم يأتى إلى المدرسة بثياب رثة أو حافى القدمين. وكانت حكمته فى المساواة فى الجباية أن لايشعر فقراء التلاميذ أنهم يتلقون صدقة. فما يساهمون فيه لا يمكن أن يكون صدقة جارية عليهم. ولم تكن الـ ٣٦٠ قرشاً التى تجمع كل شهر مبلغا صغيراً، إذ كان ثمن الحذاء الكاوتشوك عشرة قروش.

أذكر أيضاً صديق أفندى الذى كان يعلمنا الجغرافيا والتاريخ معا ويربط بينهما.

كما أذكر مدرساً آخر للغة العربية هو أحمد السيد البسيونى، سريع البديهة حاضر النكتة، لم أشعر أبداً فى وجوده بتلك المسافة الفاصلة بين المدرس والتلميذ. كان شاباً أعزب، يدعو بعض من يختارهم منا فى أيام الجمعة إلى مسكنه حيث يعد لنا «الفتة واللحم المسلوق» ويروى لنا شعرا كثيراً يحفظه. كون فى المدرسة جماعة للتمثيل كان أخي بهي من أبرز أعضائها واختار لتدريب الفريق مسرحية «مصرع كليوباطرة» لأحمد شوقى.

على أن أكبر أثر لتلك الفترة التى امتدت أربع سنوات من حياتى المدرسية، ترجع إلى ناظر المدرسة ولسبب غير الواقعة الدامية التى سبق ذكرها ومعالجته له.

كنا فى سنة ١٩٤٦ وفى بداية سنتى الثالثة الابتدائية نفسها . كان «طابور الصباح» قد اكتمل وتهيأت صفوف التلاميذ للسير إلى حجرات الدرس . لكنه – مرة أخرى – أوقف السير بإشارة من يده ثم ارتفع صوته غاضباً يوبخنا على

أننا نريد الانتظام فى الدراسة بينما الحكومة «تقتل زملاءكم على كوبرى عباس»(٥) ويحضنا على الخروج فى مظاهرة قادها محمولا على عنق من تناوب على حمله من التلاميذ الأشداء.

فى السنة التالية أضيفت إلى المدرسة «فصول ثانوية» لاستيعاب من أنهوا فيها دراستهم الابتدائية فى العام السابق، بدلا من أن يضطر من يريد منهم مواصلة التعليم إلى الالتحاق بمدرسة قنا الثانوية على ماجرت العادة.

فى السنة التالية انتقلت إلى تلك «الفصول الثانوية» ودخلت بداية المراهقة ومن معالمها أننى تعلمت «التزويغ» من المدرسة. كنا «شلة» من فصول مختلفة، نحضر «طابور الصباح» والدروس الأولى حتى الثالث الذى تعقبه «الفسحة الأولى». أثناءها كنا نتسلق نخلة مائلة تجاور سور المدرسة من الداخل لنقفز إلى شجرة تجاوزه من الخارج كى ننطلق إما إلى منطقة آثار الكرنك شمال المدينة، أو عبر النيل إلى وادى الملوك غربها. كان بيننا من يهوى التصوير الفوتوغرافى: جميل سوريال وأخى بهى. ومن يهوى الرسم: رمسيس عزيز وميلاد قلادة. ومن يهوى الكتابة (الإنشائية الوصفية) أخى عادل وعبد الحميد محمد يحيى وأنا. وكان معنا آخرون لا أذكرهم.

ذات يوم وجدنا أنفسنا وقد جمعنا «فراش حضرة الناظر» من حجرات درسنا المتفرقة أمام باب غرفته، فلما اكتمل عددنا أدخلنا إلى حضرته الذى أشار لنا بالجلوس ثم بدأ يتحدث كأنه يتداول أمرا مع أقران له. أبلغنا أن فى أمرنا مايحيره : فنحن - على قوله - تلاميذ نابهون. لكنه لاحظ من خلال بيانات رصد الحضور والغياب أننا نتغيب عن معظم الدروس. وأنه يريد أن يعرف أمورا ثلاثة : كيف نغادر المدرسة وإلى أين نذهب وماذا نفعل. تطوعت بشرح الأمر برمته . وإذا بوجهه يتهلل ويتحدث إلينا عاتبا علينا عدم إبلاغه بمشروعنا، وأبلغنا أنه سيخصص لنا من أدوات «جمعية الرسم» وميزانيتها ما يكفى لإنتاج «جريدة حائط» نعرض فيها انتاجنا الأدبى والفنى. وأننا سنخرج من باب المدرسة «بكرامتنا»، شريطة أن يحرم من تلك الميزة من يتراجع أداؤه المدرسى. كانت المرة الأولى التى يسمع فيها أحد منا عن «جريدة حائط» ففسر لنا أمرها.

فى السنة الدراسية التالية كان محمد عبد الرحمن بك الزمك قد نقل إلى «ديوان الوزارة» مفتشا عاماً للجغرافيا.

وألغى خلفه «واصف بك» كل ماأنشأ وأرسى.



وفي نهاية تلك السنة الدراسية انتقلنا - مرة أخرى مع عمل أبى - من الأقصر فى أقاصى الصعيد إلى دمنهور فى شمال غرب الدلتا.

***

لم أشعر فى حياتى بالغربة كما أذكر أننى شعرت بها فى مدرسة المنيا الابتدائية. بالتأكيد لايعود السبب إلى المدرسة ولا أنا أعرف سبب ذلك الشعور.

أظن أننى كنت فى سن التاسعة صبياً نفوراً وعنيداً ومزاجيا. كنت أتعامل مع المدرسة والدراسة فيها من خلال تلك الخصال. لا أذكر من المدرسين الذين كانوا يعلمون فصلى فى تلك السنة سوى ثلاثة:

شعراوى أفندى، الذى كنت أنفر منه أشد النفور. كان سمينا مترهل السحنة، لاتفارق يده مسطرة خشبية ثقيلة، يقبض على طرفها على نحو من يتهيأ لاستخدامها فى الضرب على الأيادى بحافتها الحادة. وكان يفعل ويصحب الضرب بتوجيه شتائم مقذعة إلى التلميذ المخطئ أو المهمل. كرهته لحظة أن رأيته وقررت فيمابينى وبين نفسى أن لاعلاقة لى به ولا بما يعلم: اللغة العربية والدين. أثناء الدروس كنت أجلس ساهياً منصرفا بكليتى إلى ما لم أعد أتذكر. لم أكن أؤدى ما يكلفنا به من واجبات مدرسية. ولم أكن أجيب عن أسئلته. وإذا وجه نحوى مسطرته لم أفتح كفى لتلقى العقاب. كنت أبقى يدى منقبضة وبظهرها أزيح مسطرته بحركة قاطعة كان يسرنى أن أظنها كانت تخيفه، إذ لم يكن يعيد المحاولة أثناء الحصة نفسها. ثم كانت لى معه معركة مستترة سيأتى ذكرها.

المدرس الثانى هو محمد أفندى إسماعيل الذى كانت مادته مبادىء العلوم والحساب. كان طويلاً ممتلىء القوام بغير سمنة واضحة. أحمر الشعر والوجه الممتلىء بالتجاعيد دون شيخوخة، له أنف بارز أكثر إحمراراً من وجهه. كانت كراهيتى له أقل من كراهيتى لشعراوى أفندى. لكن «عقابى» له كان هو نفسه: تجاهله هو والمواد التى كان يعلمها.

أما المدرس الثالث الذى أتذكره فهو فوزى أفندى أندراوس الذى كانت اللغة الإنجليزية مادته. وكانت تلك السنة بداية دراستنا لها. كان أنيقاً يشع بالنظافة. لاأتذكره إلا مبتسما. قررت أن اللغة الانجليزية هى مادتى.

ما أن وزعت علينا شهادات امتحان «الفترة الأولى» واطلعت على دراجاتى حتى قررت تمزيق الشهادة التى كان يفترض أن يوقع أبى عليها ثم أعيدها إلى المدرسة. كانت درجاتى فى جميع المواد صفرا، باستثناء اللغة الإنجليزية التى حصلت فيها على ٤٩.٥ من خمسين

درجة. رغم الخيبة الواضحة في المواد الأخرى فرحت بما حققت في مادتي المفضلة لمدرسي المفضل. إلا أن المأزق كان ينتظرني في البيت، فأخي عادل، الذي تخلف عن بدء التعليم بسبب عاهة خلقية أعاقت قدرته على النطق حتى تم تصحيحها بالجراحة، كان في فصل آخر بالسنة الدراسية نفسها. وقد حمل شهادته إلى البيت مزهوا إذ نجح في المواد كلها وأحرز ترتيباً متقدماً على معظم أقرانه.

زعمت أن فصلنا لم يتسلم شهاداته. لكن كذبتي كانت مفضوحة وأكدها عادل في اليوم التالي عندما أبلغ الأسرة كلها أنه سأل زملاء لي في الفصل وأنهم جميعاً تسلموا شهاداتهم. تمسكت بكذبتي في عناد ثم التزمت الصمت.

لكن قراراً آخر كان يتشكل داخل دماغي. سأضع مزاجي جانباً وسأتفوق على عادل في امتحان الفترة الثانية. في الفصل، لم يتغير شيء من أدائي، ربما لذلك كان أدائي في الامتحان التالي مفاجأة للمدرسين الذين أعتقد أنهم كانوا قد نفضوا أيديهم مني. نجحت في المواد كلها وكان ترتيبي هو الثاني على فصل يضم أكثر من ٣٠ تلميذاً.

***

في تلك السنة الباردة الجافة من حياتي المدرسية، جاورت في حجرة الدرس تلميذاً أجد الآن من الغريب أنني لا أذكر اسمه. اذكر أنه كان ضعيف البنية شاحب الوجه كثير السعال.

ذات يوم قال لي أن خاله رجل مهم جداً. تحدى الأزهر وانتصر عليه. وأن اسم خاله طه حسين. لم أكن سمعت بالاسم. لكن زميلي ذكر أن خاله ألف كتباً كثيرة.

لا أذكر أني سألت أحداً عن طه حسين. لكن الاسم استقر في وعيي وقررت أن أكون «رجلاً عظيماً» مثله. بدت لي المسألة سهلة: قررت الامتناع عن حضور درس الدين الذي كان شعراوي أفندي يلقيه علينا كل خميس. لجأت في البداية إلى فناء المدرسة. لكني كنت أجد نفسي وحيداً وملحوظاً فيه. قررت التغيب عن المدرسة في أيام الخميس، فكنت أغادر البيت في الصباح كالعادة برفقة الشقيقين بهي وعادل. عند باب المدرسة أفترق عنهما وسط الزحام لأتجول في شوارع المنيا حتى نهاية اليوم المدرسي القصير. هكذا تعرفت على شوارع المنيا وأحببتها وأصبح لي فيها أصدقاء سريون، أجمل من أنكر منهم «نعمات الجزارة»، امرأة حادة الجمال كانت تسكن بالقرب منا، لاحظت تسكعي في وقت المدرسة فنادتني لتزجرني وتهددني



بإبلاغ أهلي، لكني احتلت عليها بالملاطفة وبالحديث عن غلظة شعراوى أفندى ويبدو أني بهرتها بالكلام عن ابن بلدها طه حسين «الذي تحدى الأزهر». تواطأت معي وأصبحت أقضي إلى جوارها وقتا جميلاً في بيتها بعد أن تفرغ من مساعدة زوجها الجزار في عمله. لم أكن أشبع من التملي في جمال وجهها. ولم تكن غافلة عن ذلك فكانت تزجرني عن «البحلقة» فيها ثم تحتضنني ضاحكة.

لم يفت شعراوى أفندى تغيبي عن المدرسة أيام الخميس، فأخذ يترصدني في درس اللغة العربية أيام السبت ليسألني عن سبب ذلك الغياب، فكنت أتذرع كل مرة بوعكة أو أخرى فيعلق هازئاً: «كنت إقرى (إقرأ) عليها سورة».

في السنة التالية، بعد انتقالنا إلى الأقصر قررت أن آخذ مسألة «عظمتي» على خطى طه حسين مأخذ الجد. توجهت إلى مكتبة في شارع كليوباطرة كانت تنظم استعارة الكتب مقابل اشتراك يسير. لم أدفع قيمة الاشتراك إلا بعد أن وجدت بين ما فيها من كتب اثنين لطه حسين أحدهما الجزء الأول من «الأيام».

وكما ترى لم أبلغ من قامة طه حسين أي مبلغ.

لكن، هل كانت تلك هي بداية التكوين؟

(١) و(٢) : اللوح الصفيح والقلم البسط من أدوات التعليم في الكتاتيب الأول لوح معدني مصقول لامع يستخدم للكتابة القابلة للمحو بسهولة، يكتب عليه بالقلم البسط المصنوع من نوع الخيزران المجوف الرفيع، يبرى على شكل قلم يشق طرفه المدبب حتى يعلق به الحبر بعد غمسه في «الدواة».

(٣) الجرن : مساحة واسعة من الأرض، مستديرة أو مربعة، تستخدم لدرس محاصيل الحبوب من القمح والشعير. الاسم في اللغة الفصحى هو: البيدر.

(٤) كانت مدارس «المناطق النائية» ومنها الأقصر معفاة من شروط السن في التعليم. كان يزاملني حتى السنة الثانية الثانوية فريد بشير الذي غادر المدرسة في تلك السنة، ليتولى عمودية قرية نقادة بعد وفاة أبيه.

(٥) غير يوسف إدريس الكاتب المعروف الذي تعرفت عليه بعد ذلك بثماني سنوات.

(٥) الإشارة هي إلى «حادثة كوبرى عباس» بالجيزة، حيث فتحت حكومة إسماعيل صدقي باشا ذلك الكوبرى على النيل أثناء عبور مظاهرة من طلاب المدارس وجامعة فؤاد الأول عليه. فمات عدد من الطلبة غرقا. ■

مقالات متميزة تثرى العقول

بعد قراءتي للهلال - عدد مارس الماضي رأيت هذا التنوع الذى يبدو للقارئ حديقة غناء بورودها وأزهارها.. فهذا مقال أستاذنا الجليل د. محمد رجب البيومي : «الصحافة بين الأمس واليوم» وأسلوبه العذب السلس، وبلاغته التى ينتشي بها القارئ، يقارن بين الصفحة المخصصة للأدب وأخباره في صحافة الأمس وصحافة اليوم ، ليجعلنا نترحم على ماض تولى ، كان يولى الأدب اهتماما كبيرا .

وهذا مقال د. جلال أمين «ماذا حدث للمصريين فى معرض الكتاب» يأخذك معه عندما يستعرض زوار المعرض من رجال ونساء وفتية وفتيات وأطفال في عمر الزهور ، فتراك وأنت تتجول فى ساحات المعرض وجنباته ، تسمع حوار المتحاورين وهمساتهم ، وأنت تراهم حولك غادين رائحين ، يستعرضون ما تقع عليه أعينهم من كتب ومعروضات وهذا رئيس التحرير فى مقاله عن الراحل سيد عويس «والتاريخ الذى يحمله علي ظهره» أمامك جانبا من ثلاثيته التى أبان فيها جانبا من سيرته الذاتية متنقلا معك فى التاريخ ، مصورا جانبا من الحياة الاجتماعية لقطاع من المصريين ، فكأنك تعيش معهم وتشعر بأحاسيسهم .

العدد تتنوع فيه الموضوعات ، ويثرى ذلك العقول بكل جديد فى مجال الثقافة والمعرفة ، خاصة ذلك الجزء المتميز عن الموسيقى والغناء وما كتبه عبدالرحمن شاكر دفاعا عن عمه تعقيبا على مقال للأستاذ حسين أحمد أمين متجنيا على علم من أعلام المحققين المحترمين .

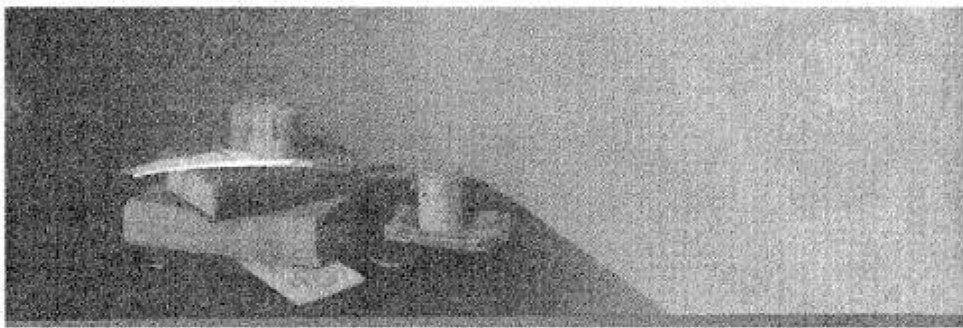
ولا أستطيع في عجالة أن أكتب عن مقالات العدد كله التى هى بمثابة زاد يفيد كل عاشق ومحب للثقافة ، وذلك يدفعنى للمطالبة بالمزيد من هذا الجهد المتميز .. وألست معى أن الهلال تؤكد فى مطلع كل شهر أنه بالفعل كما يقول المثل العامى المعروف «الدهن فى العتاقى» .

محمد السيد نمير
العجمى - ادكو - بحيرة

بحار التمنى

يقولون عنى ..
ضللتُ الطريق
وأدمنتُ شعر الهوى والنضار
وأمست خطاى كما الموج ..
حين يشد الغريق ..
لخوض البحار
يرون التمنى ..
ظلام طويل
ولكن قلبى يراه النهار
فلا تعجبين ..
لسهدى وصمتى
فإن بقائى محض انكسار
حياتى جراح
بدون اختيار أتيتُ إليها
وأرجع منها بدون اختيار

صابر صبرى معوض - المنصورة



الجائزة وصفوة المبدعين

الصفحة الأخيرة فى العدد الماضى بعنوان «جوائز الدولة» أحسست من خلال قراءتها أن أستاذنا محمود الربيعى مازال ربيعا نقديا ، فقد استهل موضوعه (المعاصر) ببيت من عند المتنبى (وهو من القرن الرابع الهجرى) يعنى به أن وضع الأمور فى غير موضعها الصحيح فى عصر العولمة مفسدة أى مفسدة ، ذلك أن (منح) تلك الجائزة مهما تموهت مسمياتها وأهدافها - إلى غير مستحقيها من المبدعين - يشجع أهل الإلحاح والوساطات من متوسطى الموهبة على مداومة البحث عن أنجز أساليب (من أين تؤكل الكتف) حتى يتم التوصل إليها .

ويرى د. الربيعى أن على من يتحكمون فى تقرير أمر استحقاق هذه الجائزة أن يغيروا من عقليتهم واضعين فى اعتبارهم ضرورة أن تسعى تلك الجائزة إلى صفوة أبناء مصر من المبدعين الموهوبين الذين تأبى كرامتهم إلا أن تتمسك بقول القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى فى مقدمة كتابه «الوساطة» .

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
لأخدم من لاقيت لكن لأخدما

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
إذا فابتياع الجهل قد كان أحزما

ويمضى الربيعى بنا منبها - من طرف خفى - ذوى المواهب الأصيلة إلى أن يستعيدوا تذكر شعارهم الذى قد تناساه بعضهم كثيرا وهو :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس تعظما

د. سامى منير عامر
الاسكندرية - كلية التربية قسم اللغة العربية

حول كتاب المخطوط السرى لغزو مصر

إيماء لما نشر بمجلة الهلال عدد مارس ٢٠٠٤ فى باب رحيق الكتب عن كتاب الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع ، تأليف : أحمد يوسف ، ترجمة : أمل الصبان ، أوضح اللبس الذى وقع فيه كاتب التعليق حيث أورد أنه سبق وأصدرت سلسلة كتاب الهلال سنة ١٩٩٤ أول ترجمة عربية لكتاب المخطوط السرى لغزو مصر تأليف د. أحمد يوسف عن نص مجهول وغير منشور كتبه الفيلسوف الألمانى ليبنتز عام ١٦٧٢ وأرسله إلى الملك لويس الرابع عشر حينئذ يدعوه فيه إلى أن يعبر البحر إلى مصر للاستيلاء عليها لوقف المد العثمانى الإسلامى ... إلخ.

وقالت : إن نص مذكرة ليبنتز التى قدمها للويس الرابع عشر ، فقد وردت فى أحد ملاحق الكتاب .





* إن عبارة «النص غير المنشور» فقد وردت على غلاف الطبعة الفرنسية للكتاب ، وأعتقد أنها ترجمة أمينة لعنوان الكتاب الأصلي والذي لا علاقة له بكتاب د. أحمد يوسف والمنشور في سلسلة كتاب الهلال بعنوان «المخطوط السرى لغزو مصر» والحق أننى لم أر من قبل كتابا يوضع عليه عنوان أحد ملاحقه لا عنوانه ، وموضوع دراسته الحقيقى ، فهذا العنوان الذى لا يحبذه كاتب التعليق كثيرا ، هو لب الموضوع وأساسه .

* لم يكن ثمة مجال لذكر أن الترجمة الجديدة لكتاب د. أحمد يوسف لم تشر من قريب أو من بعيد للترجمة السابقة وأن مذكرة ليبنتز هى مجرد ملحق فى داخل الكتاب الفرنسى، والترجمة المنشورة هى ترجمة جديدة لنص المذكرة .. وأى نص قيم يمكن بل ويجب ترجمته أكثر من مرة .

د. أمل الصبان

* * *

ولتسمح لى الاستاذة المترجمة بذكر الملاحظات التالية :

١ - الكتاب الفرنسى هو نسخة من الكتاب العربى خطها كاتب واحد ، وإن كان الكتاب الفرنسى طبعة جديدة ومنقحة ، وليست كتابا جديدا بالمرة وهناك فارق بينهما ، أحدهما يتوجه للقارئ العربى ، والآخر يتوجه للقارئ الفرنسى ، فيصبح الغزو للقارئ الفرنسى ولع بمصر يتنامى من الحلم إلى المشروع ، ويصبح دبليسيس رمزا لفرنسا .

٢ - من المدهش حقا أنه فى ص ١٩٥ من الكتاب ، ذكر بمؤلفات الكاتب، لا توجد ضمنه «المخطط السرى لغزو مصر» الذى نشره الكاتب فى كتاب الهلال عام ١٩٩٤ .

٣ - فى رسالة من د. أحمد يوسف يقول بالحرف الواحد رأيت أنه من المفيد إعادة ترجمته - أى الكتاب - لأننى لم أكن راضيا تماما عن ترجمتى!!

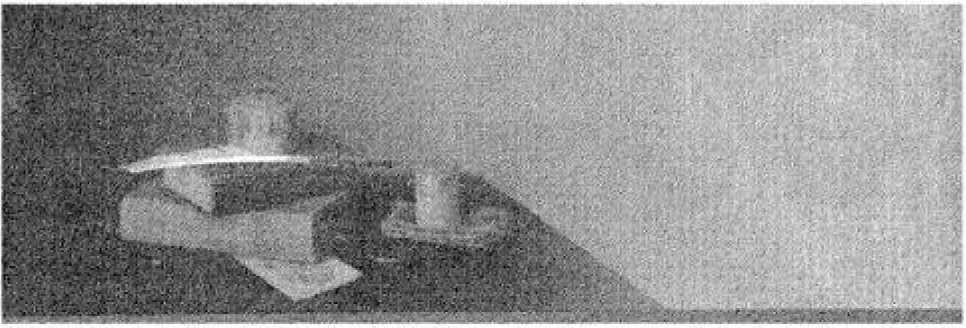
٤ - لا يجدى إدعاء التعالى والقول .. لم يطلع على الكتاب ، ولم يتصفح فهرسه .. فهذه حجة العاجز ، وما يتبع ذلك من «جرأة» على الحق عند القول «لأدرك أن الكتاب الصادر عن دار الهلال ، هو كتاب آخر تماما ، وأيضا لا صلة له بالكتاب المترجم .

وعنوان الكتاب لكل من له عينين ، واحد وهو «المخطوط السرى لغزو مصر» وهى تعنى هنا أن الكتاب «لا يعرف من عنوانه..» .

٥- وأطلقت المترجمة لفظ العبيد المماليك ، وادعت أنهم طلبوا من لويس « المقدس » أن يتوج ملكا على مصر ، وهى واقعة تاريخية ليس لها أصل !

٦ - أن كل ما سبق نشر نص المخطوط فى الكتاب الفرنسى ، هو تمهيد لنشر هذا المخطوط .

٧ - وتتجاهل أن غلاف الكتاب الفرنسى وصف المخطوط أنه «النص غير المنشور» وهى التى تقول فى ردها .. إننى لم أر من قبل كتابا يوضع عليه عنوان أحد ملاحقه لا عنوانه!!» .



الشوق يغربني

سألت الله ينبوعا
من الأشعار يغشانى
سألت الله مملكة
كما المنفى
فلا طعن ... ولا أصفاد
سجان
سألت الله ملهمة
تشق الصدر عن حلمى
تهدهدنى
تضم ضفاف وجدانى
وخلت الأرض
أمنية
بها أحيا
فسرت العمر فى وهم
ولا أدرى
بأى الحتف أوطانى
فدمع العين ينزفنى

وحد النصل فى جرحى
يمور ينزف شريانى
هى إمرأة
بنهر الشوق تغربنى
تعذبنى
وتترك فىَّ شيطانى
وتجرفنى
لغور المر فى غيظ
تكبلنى
تسوق علىَّ أشجانى
هى امرأة
على مجرى بقاياها
تلملمنى
بشط السهد تلقانى

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس دقهلى

ظواهر الوجود وحساسية التلقي في أدب إبراهيم أصلان

فى أعمال إبراهيم أصلان القصصية والروائية تمتزج ظواهر الوجود بحساسية التلقي في تكوين واحد هو النص ، بحيث تحيل كل منهما إلى الأخرى فى علامات إبداعية، أو تستبدل كل منهما وجود الأخرى فى حركة لا تنتهى من الدلالة ، التى تنتشر فى المتلقى دون حدود فاصلة بين الوهم ومحاكاة الواقع والواقع نفسه ، بوصفه علامات للتلقي عند السارد والقارئ على حد سواء ، وأعتقد أن القارئ المنتج الأول لأعمال أصلان ، هو سارده الذى يقدم لنا قراءة للظواهر فى صورة الظواهر نفسها ، لنعيد النظر فى مفهوم التلقي والتأويل ، وكأن شخصيات السارد قراءة لوجوده المحير والمربك مثل أى ظاهرة إبداعية .

فالكتابة المحايدة للظواهر فى (وردية ليل) لا تعنى (التسجيل) بالدرجة الأولى ،

أنت والهلال

كما هو متوقع نقديا ، وإنما تشير إلى ما هو الواقع بوصفه أثرا منتجا فى الوعى ، فى الوقت نفسه ، فالحيادية هنا تجرب مفردات الواقع تشكيليا .

وفى (يوسف والرداء) تستبدل الخصوصية المكانية معرفة (الأنا) إذ يستحيل الإدراك دون أن يكون جزءا من المتاهة الإبداعية ، وحول حساسية التلقى بوصفها ظاهرة يبدو هذا فى المغالطة اللغوية فى (فضل الله عثمان) بين رجلين أحدهما يتحدث عن بوتاجاز بستة فرن ، والآخر يغالطه ويقول ستة شعلة ، ثم يتحول غضب الآخر إلى ظاهرة للغياب فى فضل الله عثمان.

فى (وردية ليل) ينتج ألم الإمساك بالكوب الساخن من جانب سليمان، وقع خطوات غير مرئية وراءه ، كأثر لألم التلقى ، وتحويله لظاهرة إبداعية غير معروفة ، وتمتد آثار الصوت فى الذات من الحذر إلى اللامبالاة .. وهكذا يصير التلقى جزءا من النص والعلاقة عند أصلان .

محمد سمير عبدالسلام - المنيا

لا تسألوا قلبى الحديثَ بحبكم
فكفاهُ أنْ عافَ الحديثَ مِرارا

لكنْ سلوا قلباً تسمَّع للهوى
لم يتخذْ غيرَ السكوتِ شعارا

باللهِ ، هل تُغْنى الفعالُ عن الهوى
لتبين عن حبٍّ تحدَّرَ نارا؟

أو ما رأيتِ الزهرَ يرقصُ نشوةً
ما إن تُقَبِّله الشموسُ نهارا

ويظلُّ يَهْزَجُ مُذْ تُصافح كفُّهُ
كفُّ الندى، أرأيتِ زهراً ثارا ؟!

فالحبُّ لو تدْرينَ إنْ وثقتْ به
نفسُ المحبِّ تفجّرت أنهارا

ما ضرّهُ أنْ قال: «أنتِ حبيبتى»
فترجّعُ الأصداءُ «أنتِ» مرارا

ويُعيدُ قلبي ذكرَها لا يَرْعَوِي
أيلامُ أنْ زادَ الحنينُ أوارا ؟!

أحمد محمد الدماطى

الشهداء - منوفية

ب **البيروني**

الهلال

٣٦٢هـ/١٩٧٣م - ٤٤٠هـ-١٠٤٨م

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني عالم وفيلسوف .. وهو من أصل فارسي.

ولد بضاحية خوارزم ودرس الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ، أغلب مؤلفاته باللغة العربية ، إلا أنه كان بارعا فى الكتابة بالفارسية.

وقد أجمع النقاد على أن مؤلفاته فى التاريخ من أفضل المراجع لحياة الشعوب الشرقية، وفى كتابه «تاريخ الهند» نقل الأرقام الهندية، وكتب مقالات فى الأسطرلاب والأفلاك، وقال إن الأرض كروية، وأن جميع الأجسام تنجذب نحو مركز الأرض، وذلك بفضل طريقة ابتكرها البيروني حيث قام بعمل خريطة مستديرة للعالم، ونقلها من صورة الأرض الكروية إلى الورق المسطح لأول مرة، كما ابتكر طريقة جديدة لعمل النماذج الجغرافية المجسمة، وكان يقضى ساعات يومه فى النهار والليل لتأليف كتاب فى الفلك اسمه «التحديد» .

بحث فى كتابه «الآثار الباقية» الذى ترجم للانجليزية سنة ١٨٨٧ عن الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأمم القديمة، من أشوريين ويونانيين إلى وقت وجود البيروني، وهو أول مبحث للأشهر الفارسية والعبرية والرومية والهندية والتركية يبين كيفية «استخراج التواريخ بعضها من بعض» .

وله كتابه القيم «تحقيق ما للهند من مقولة معقولة فى العقل أو مرذولة» أهداه السلطان مسعود بن محمود الغزنوى، فكافأه نظير الكتاب حمل فيل مع راكبه من الفضة الخالصة، واعتذر البيروني عن قبول الهدية فى شمم وإباء بأنه لا يحتاج إلى شئ فى الدنيا نظير كتابه هذا !.

ويعد أكبر أعمال البيروني أنه عدل من رسم الأرقام الحسابية العربية، وهى الأرقام الهندية التى أدخلها إلى العربية، وهو صاحب الفضل الأول فى ابتكار الكسر العشرى .

يقول عنه «لويس ماسينون» المستشرق الفرنسي: لقد فهم البيروني تمام الفهم الدور العالمي للغة العربية، بوصفها بين اللغات السامية، أهم لغة حضارة ، وأدرك مقدرتها على التركيز والتجربة، وتراكيبها عن طريق الاشتقاق، بدلا من الزوائد، وقيمتها فى توحيد المتكلمين بها.

وتقديرا لفضل البيروني على العلم أنشئت فى «طشقند» بأوزبكستان جامعة تحمل اسم «جامعة البيروني» وأقام المتحف الجيولوجي فى مصر تمثالا له، وأصدرت الهند عنه مجلدا تذكاريا بعدة لغات، وفى عصرنا الحديث تهتم بالبيروني جامعات لينتجراد وبرنستون وبرلين، وتحقق أبحاثه وتحاول العثور على بعض الأبحاث من كتبه المفقودة.

ويعد عالمنا الكبير من أفضل علماء المسلمين الذين أضافوا الكثير من المعارف والنظريات فى كل العلوم .

الخطاب الإسلامي والمستقبل

الخطاب الإسلامي منذ بدايته لم يعن فقط باللحظة الراهنة، وكيفية التعامل معها، بل عنى بتوجيه الأنظار نحو المستقبل، بحديثه عن عالم الغيب وما بعد الموت من جنة ونار، بل بحديثه عن الصراع بين الروم والفرس وأخباره عن الروم في بضع سنين: قال تعالى: ﴿ **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين .. الآية**﴾ .

والمتأمل فيما سطره العقاد فى كتابه «الإسلام فى القرن العشرين» فى الفصل الأخير بعنوان «الغد» يجده سباقا كعادته دائما فى الحديث عن الإسلام، وأهم المشكلات التى يمكن أن تواجه المسلمين، فيقرر العقاد أن «الغد غيب مجهول، ولكننا نستطيع أن نستعد له، ونحسن الاستفادة منه، ولا نفاجأ بما تحمله لنا الأيام من حوادث وصروف إذا توافر أمران :

* حسن قراءة التاريخ وسير الأمم والحضارات .
* وأن يقوم فهمنا للإسلام على هدى وبصيرة .

والعقاد بنظرته الثاقبة تلك، يشير إلى ما عانى منه المسلمون من تطرف وتعصب وتشدد، كان من نتائجه زيادة المشقة والتعسير على الناس، وتنفيرهم من مبادئ الإسلام ، مع أن التيسير من المبادئ التى أكدها القرآن: ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾، ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ .

والفكر الإسلامى مطالب بتقديم رؤية واضحة للتعامل مع عشرات القضايا ومن بينها : قضية الديمقراطية والحرية، الموقف من حوار الحضارات، تحديد الموقف من تحرير المرأة ، واقرار قيم التعددية فى الفكر والممارسة .

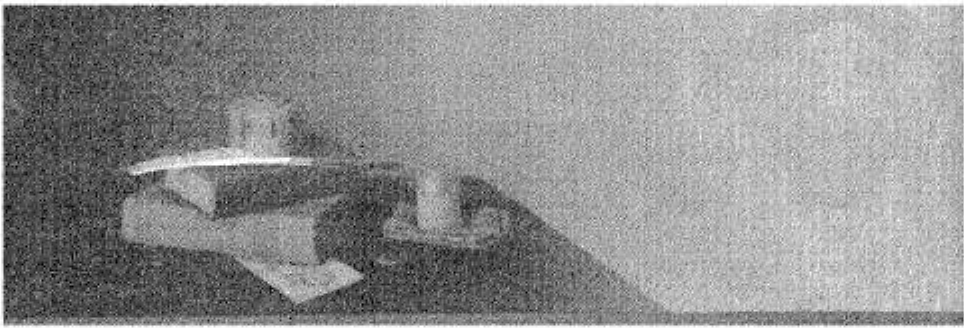
السنوسى محمد السنوسى - القضلية - بسيون غربية

قصة قصيرة

الموعد

كنت سائرا أحث الخطى لأدرك موعد بدء الحفل، أتفادى المارة المهرولين كأنه يوم الحشر، أتحاشى نظرة طفل مارق من أمه أو تائه جاء يسأل عن طريق كل مافى ذهنى أن أصل فى موعدى وقع نظرى عليها، وبعد حيرة لم تستمر سوى ثوان عرفتها ما أن تلاقت نظراتنا حتى وجدت فى عينيها نظرة امتزجت فيها الرغبة بالدلال، كدت أمشى إليها فهرولت مبتعدة بخطوات مثقلة. عبرت إلى الرصيف المقابل دلفت إلى شارع جانبى وسارت فيه مرقت وراءها اقتربت منها وناديت فلم تلب وسارعت إلى أول الشارع حتى وصلت الميدان فاستوقفتها السيارات المسرعة. هرعت لألحقها ما إن دنوت حتى عبرت الطريق بين احتجاج سائقى السيارات هرعت بالمثل وعندما عبرت كانت قد توارت عن ناظرى وقفت أبحث عنها وعن أى طريق سلكت لقد ضاعت فى الزحام التفت ورائى لأعود لطريقى فرأيت ساعة الميدان وفيها أدركت أنها ضاعت وضاع موعدى!

محمد فريد هزاع



قراءة فى العدد الماضى

وصلتنا رسائل كثيرة تتناول عددا من المقالات المنشورة بالهلال يبدى فيها القراء آراءهم ومن بينها .

● يقول ابراهيم متولى من بلقاس دقهلية: أعجبنى مقال الدكتور قاسم عبده قاسم «التحصينات الصليبية وجدار الفصل العنصرى الاسرائيلى» والذى أكد فيه أن النفسيه الاسرائيلية نفسية خائفة، لذا فهى تعزل نفسها وراء هذا الجدار العازل الذى يؤكد خوفهم من السلام ومن الحرب ومن المستقبل .

لقد جاء هذا المقال المهم فى موعده، وليؤكد حقيقة أن قلاع وتحصينات الصليبيين انتهت واندثرت بهزائمهم، وكما حدث من قبل سوف يحدث لجدار الخوف أو ما يسمى بجدار الفصل العنصرى الاسرائيلى... كما يتساءل أين أحلام الصهيونية وكيف كانوا يتحدثون عن دولتهم من النيل إلى الفرات، وهم يخشون الآن من الشعب الفلسطينى الثائر الذى يحارب بأجساد أبنائه من الشهداء .

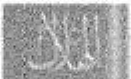
● أما عن مقال وديع فلسطين المنشور فى عدد فبراير ٢٠٠٤ بعنوان «أنور المعداوى وفدوى طوقان» وهجومه على أنور المعداوى الناقد المرموق فيقول أحمد سلام من المعادى ما هذا التجريح الذى وجهه كاتب نشهد له بالحياد فى كل ما يكتب فى الهلال، وما سبب ذلك ؟

ونقول للقارئ العزيز: إن هذا هو رأيه ونحن فى الهلال اعتدنا ألا نحجر على رأى كاتب من كتابنا ، أو حتى من القراء .

● ورسالة مقتضبة من قارئ يعيش بعيدا فى أسوان وهو يتابع كل ما يكتبه الأديب صنع الله إبراهيم .. القارئ اسمه اسماعيل عمر .

قال بالحرف الواحد .. ما هذه القسوة من الكاتبة صافى ناز كاظم فى مقالها أمريكانيلى = أمر «صنع الله عجيب» وكيف تقول ما قالته عن صديق كما تزعم، أو كاتب قدمته للحياة الثقافية بمثل هذه القسوة خاصة فى السطور الثلاثة الأخيرة من مقالها المنشور فى عدد مارس الماضى.

* ونقول للقارئ العزيز: إن هذا هو رأى الكاتبة ونحن أيضا لا نحجر على رأى الكاتبة.



الكلمة الأخيرة



حوار قبل شروق الشمس

بقلم: د. محمد نور فرحات

قال: أصبح الحديث عن الإصلاح السياسي والديمقراطي ملء السمع والبصر في كل أرجاء العالم العربي. هل اكتشف الحكام العرب فجأة أن الإصلاح السياسي أمر عاجل لا يحتمل التأجيل؟

قلت: لا لم يكتشف الحكام العرب ذلك، بل كانوا يعلمونه ويقاومونه ويلقون بدعاة الإصلاح في غياهب السجون بحجج سياسية وتشريعية مختلفة. في كل النظم القانونية العربية تشريعات وضعت خصيصا لمن يجرؤ على رفع صوته المطالبة بالإصلاح السياسي وإجراء الانتخابات النظيفة، وتداول السلطة عبر صناديق الانتخابات، ووقف ممارسات القمع والتعذيب ومختلف انتهاكات حقوق الإنسان. كان القمع يستخدم تارة تحت شعارات حماية الدين، وتارة أخرى تحت شعارات حماية الثورة، وتارة ثالثة حماية الأمن الوطني، ومرات كثيرة بدون أي شعارات إطلاقا.. وكم من الأحرار العرب سقطوا صرعى بمقصلة القمع مجردين فوق ذلك من شرفهم السياسي.

قال: لماذا كل هذا؟

قلت: لمجرد تأمين احتفاظ الخليفة العربي والسلطان العربي والأمير العربي والرئيس العربي والملك العربي بكرسي الملك والسلطنة والرئاسة والخلافة.

قال: الشرعية العربية إذن هي شرعية القمع

قلت: نعم هي شرعية القمع، ولكن ما يبعث على الأسى أننا قد أصبحنا مقموعين بلا ثمن، فلا الأوطان تحررت، ولا التنمية تحققت، ولا التراب الوطني نجحنا في الحفاظ عليه.

قال: وما الجديد إذن في الأمر حتى يرتفع خطاب الديمقراطية وحقوق الإنسان اليوم في العالم العربي وبواسطة حكامه أنفسهم؟

قلت: الجديد هو [illegible] الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين، والذي تبلور مؤخرا فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير.

قال: ولكن هذا المشروع ليس به أي تلويح بممارسة ضغوط.

قلت: إرادة أمريكا هي [illegible]

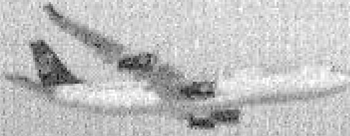
قال: أشعر بخزي شديد أن ينكل الحكام العرب بشعوبهم عندما تطالب بالحرية ثم ينصاعون لإرادة أمريكا دون مقاومة. أكاد أكره الديمقراطية التي تأتي عن طريق جلادينا.

قلت: ويشعر الديمقراطيون العرب بحيرة بالغة اليوم عندما يجدون أنفسهم في نفس الموقع الأمريكي، يتحدثون بنفس اللغة ويطالبون بنفس المطالب.

قال: ولكن من قال إن الأمريكيين يطالبون حقا للشعوب العربية بالحرية والديمقراطية؟! إن هدفهم الحقيقي هو تطويع الرأي العام العربي ومحاولة امتصاص الغضب الشعبي العربي تجاه الولايات المتحدة، وسوف يفشلون قطعا في ذلك لأن توجهات الرأي العام العربي تجاه أمريكا ليست رهنا بوجود نظم ديمقراطية داخلية، ولكنها رهن باتباع أمريكا سياسة أكثر عدلا.

قلت: وكيف تقرأ المستقبل؟

قال: ستسفر عملية الاحتيال الكبرى التي تمارسها أمريكا ويمارسها الحكام العرب عن مزيد من السخط الشعبي العربي. أمريكا تحتال على الشعوب العربية حين تزعم أنها تريد لها الديمقراطية، والحكام العرب يحتالون على أمريكا وعلى شعوبهم عندما يزعمون أنهم في طريقهم إلى الإصلاح الديمقراطي. وتبقى الشعوب في النهاية سيدة مصيرها. وعندما تشرق الشمس سينقشع الضباب ■











كوالالمبور ((ماليزيا))

رحلات مباشرة

مع مصر للطيران

بالتعاون مع الخطوط الماليزية

القاهرة كوالالمبور القاهرة

يومى الخميس و الاحد

باحدث طرازات الطائرات

وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران



www.egyptair.com.sg

الهلال

مايو ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

عرائس الجزائر

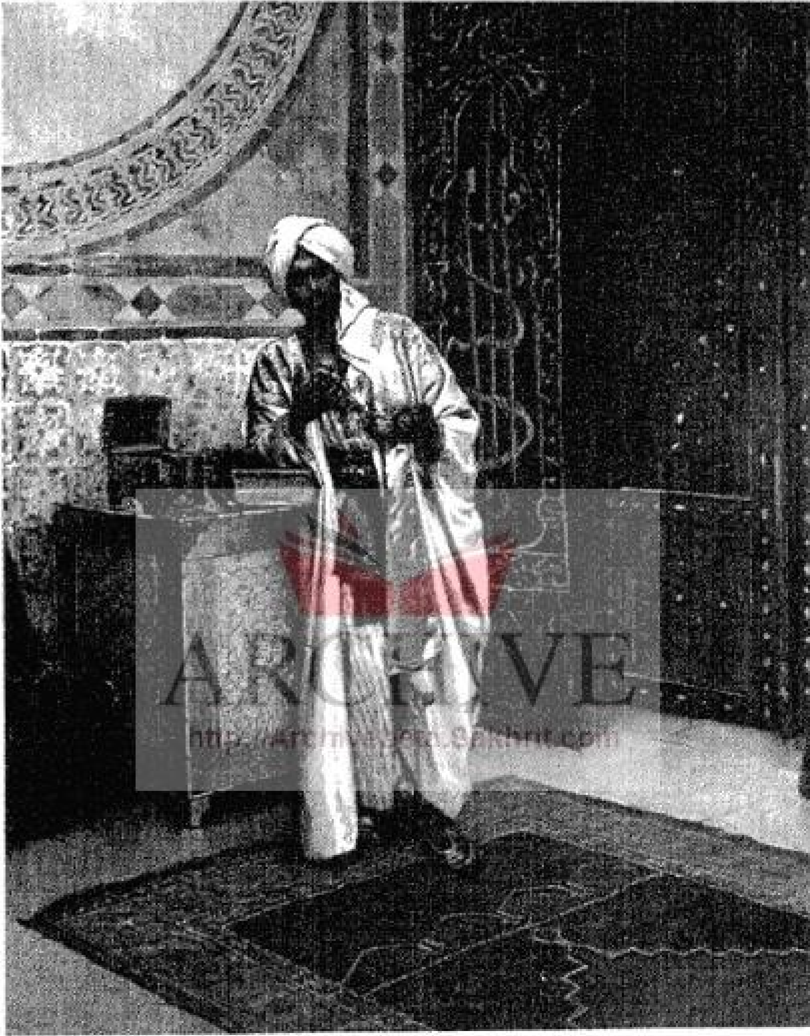
القصة الكاملة لمنظمة حماس

أكذوبة التنمية الإنسانية

الإمبراطورية الأمريكية والشرق الأوسط الكبير

جزء خاص

لوحة وفنان



المراكشي الذي يعشق جواهره

زيت على خشب ٧٣×٥٨
للفنان الألماني: رودلف إيرنست
متحف الفن الحديث لندن

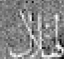
الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة ربيع أول ١٤٢٥ هـ - مايو ٢٠٠٤م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١.٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٥٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

من هنا نبدأ

بداية لايشعر بقيود العبودية سوى الأحرار .. فالديمقراطية مثل أعلى تسعى الجماعات للوصول إليه ، يوجه ويقود جهد البشر ، وليس مجرد نظام للحكم .

والديمقراطية ليست وصفة سحرية ، ولا تقتصر على وجود برلمان وانتخابات ، وليست لها صيغة وحيدة للعمل ، تحل المشكلات وتتخطى العقبات تلقائيا ، بل هي رحلة دائمة ومتجددة ، طويلة وشاقة . والتخلف والاستبداد أهم مشكلات الديمقراطية ، فمن الصعب أن تعي الشعوب حقوقها كاملة ، وأن تمارس هذه الحقوق ، بدون حكم القانون ، وقوة المؤسسات ، ووجود القضاء المستقل .

ولا تكتمل الديمقراطية بدون نظام تعليمي يسلح أبناء المجتمع بالقدرة على اقتسام الثروة وتبادل السلطة ، ويجعل المنافسة عادلة بين أبناء المجتمع الواحد ، وماهي قيمة الديمقراطية التي لاتزود الشعب بقسط وافر من الثقافة العامة ، ولا تسلحه بالوعي والقدرة على التمييز في شئون بلاده !

فالديمقراطية في النهاية هي الإطار لنظام يقوم على رأي عام يقظ ، وهي تعيد التوازن من جديد داخل المجتمع ، وهي البديل من الاضطرابات والانفجارات غير المحسوبة .

وهي أيضا إطار مؤسسي يبين كيفية اختيار الحاكم ، وشيوع الإحساس بالشرعية من أهم نتائج الحكم الديمقراطي ، فيأتي الحاكم تعبيراً كاملاً عن الشعب ، وتظل هذه العلاقة قائمة بين الحاكم والمحكوم ، مصدر قوة الوطن والحاكم معاً ، فإيمان الشعب بأحقية السلطة وجدارتها هو جوهر الشرعية ومعناها العميق ، فالقوانين تخرج في ظل الديمقراطية من اختيار ووجدان الشعب ، تعبر عنهم ، ويصبح من الطبيعي الخضوع لها .

وتستمد الشرعية قيمها من طريقة وجود السلطة أي الأسلوب الذي اتبعته للوصول إلى الحكم ، ومن غير هذه الصلة المعنوية وهذا الخيط الرفيع الواصل بين الحكم والشعب لا توجد الشرعية .

وهي إذن عنصر حاسم في قوة الشعب ، سواء في الداخل في إنجاز النمو ، أو في مواجهه التحديات الخارجية ، فاستناد الديمقراطية إلى الفرد يقابل بإذعانه للحكومة ، مما يؤدي إلى حكومة شرعية ، يعاد تأكيدها من خلال انتخابات ، بالتالي القدرة المستمرة على التصحيح وإعادة التوازن

فمبدأ السيادة تملكه الأمة وحدها ، وليس لأي جماعة أو أي فرد أن يمارس سلطة لم تخوله الأمة إياها صراحة بعد أن مضى الزمن الذي كان يستمد فيه الحاكم سلطانه من السماء ، أو يفرض حكمه عن طريق قانون القوة وبعد أن انتصرت فكرة قوة القانون .

والديمقراطية مثل الهرم الذي يقف على قمته السلطات الثلاث التشريعة والتنفيذية والقضائية ، إلا أن قاعدته تقوم على المبادرة الفردية وتتكون من الجمعيات الأهلية والنقابات والمحليات ، وكلها تنشأ وتعيش بالاختيار الحر للأهالي .

والديمقراطية لها تاريخ طويل حافل في بلادنا ، وخاض من أجلها أجيال وراء أجيال معارك ضارية ، ودفع الكثيرون في سبيلها التضحيات وكانت المفارقة المؤسفة، أن الكثيرين فقدوا حريتهم الشخصية عندما طالبوا بالحرية لشعبهم !

وشغلت قضية الحرية المصلحين منذ فجر النهضة العربية ، ومن أبرز دعاة الحرية ، جمال الدين

الأفغاني ، الذي أدرك أن تخلف الشرق يعود إلى غياب العدل ، وعدم تقيد الحكومات بدستور ، ومن أبرز حملة مشاعل الحرية عبدالرحمن الكواكبي، الذي نادى بالحرية من خلال كتابه «طبائع الاستبداد» ، كما أن محمد عبده له رأي قاطع يدعو إليه في أن الاستبداد أحد معوقات النهضة ، حتى أنه انتقد إصلاحات محمد على باعتباره حاكما مطلقا .

وقد لايعرف الكثيرون أن عمر الحياة النيابية في مصر يصل إلى نحو قرن ونصف ، وأن مصر شهدت مجلس شورى القوانين في وقت لم يكن له مثيل في الشرق، والذى صدرت لائحته في أكتوبر ١٨٦٦ في عصر الخديو إسماعيل ، وتحرم هذه اللائحة الفقراء من الاشتراك في الانتخابات .

وبعد قيام الثورة العرابية صدر دستور عام ١٨٨٢ ، والذى ينص على حق الانتخاب «لكل مصرى من رعايا الحكومة سواء أكان مولوداً في مصر أو مقيما فيها مدة لا تنقص عن عشر سنوات ، وأن يدفع للحكومة خمسمائة قرش في السنة ، أي حق الانتخاب لدافعي الضرائب وحدهم ، مضافاً إليهم العلماء والقسس والحاخامات والمدرسون والحائزون للشهادات من المدارس العليا ، وأرباب الوظائف والضباط والأفوكاتية والأجزجية والأطباء والمهندسون» .

ويرى عدد من المؤرخين أن هذا المجلس النيابي كان أكثر تقدما من بعض المجالس في الدول الأوربية .

وأسقط هذا الدستور التدخل العسكرى الأجنبى عند الاحتلال البريطاني لمصر ، ومن أيامها وتوحدت المطالب الوطنية في الديمقراطية (الدستور) مع الاستقلال الوطني .

ويصدر دستور سنة ١٩٢٣ بعد ثورة ١٩١٩ ، والذى تعرض لمصاعب مختلفة ، فقد كان ينظم العلاقة بين ركائز ثلاث ، الاحتلال والملك والحركة الوطنية ، ورغم أنه ألغى إلا أن الشعب نجح في إعادته ، أما في عهد ثورة يوليو ، التي أعلنت أن أحد أهدافها .. «إقامة حياة ديمقراطية سليمة» ، فلم تحقق الديمقراطية ، ويلمس المؤرخ طارق البشرى طبيعة أزمة الديمقراطية في هذه المرحلة بالقول .. «من أهم أسباب الانتكاس الحادث لثورة ٢٣ يوليو ، مايتعلق بالأسلوب التنظيمي الذى بنيت به هياكل النظام ومؤسساته ... وهو أسلوب فرضته التجربة التاريخية على رجالها بقدر ما شاركوا في تأكيده .. فلدينا «شكل تنظيمى» يتصل بصميم أوضاعنا التاريخية خلال المائتى عام الأخيرة» !

●

وتواجه الديمقراطية تحديات عديدة ، تحول بين بعض الدول والقدرة على إقامة نظام ديمقراطي ، وإحدى هذه العقبات غياب التقاليد الراسخة لحرية الرأى ، أى شيوع التعصب وغياب السماحة ، نتيجة طول النظم التسلطية ، ومن العقبات أيضا ظهور طبقة رأت أن مصلحتها الإبقاء على أوضاع تحقق مصالحها ، ويخشون وقوع أي تغيير يؤدى إلى الفوضى أو فقدان السيطرة ، ومن هذه العقبات أيضا ضعف أو غياب قوة اجتماعية تعتمد على هياكل ومؤسسات اقتصادية واجتماعية .

ومعروف أن الانكماش والركود الاقتصادى ، أحد الأخطار على الديمقراطية فهو يعنى الخوف الذى يولد الشك ، ويصبح المواطنون على استعداد للاستجابة إلى أية أصوات تدعو إلى التمرد ويضطهد الحكم معارضيه بشده حين يشعر أن هناك مايهدر الأسس القائم عليها .

ويقول هارول لاسكى في هذا المجال .. «للتاريخ قاعدة مؤكدة هي أن النفوذ المطلق تسرى سمومه في أوصال أصحابه ، يفرضون معاييرهم في الخطأ والصواب على الآخرين ، ويوقنون أن صلاح المجتمع يتوقف على بقائهم في مناصبهم» .

وفي مجال عقبات الديمقراطية ، لايمكن إغفال سيادة الأوضاع القبلية أو الأوضاع الطائفية ، عندما تتحول العشيرة أو الطائفة بديلاً للمواطنة ، وأيا كانت الوثائق الديمقراطية ، فإن الممارسة يمكن أن تجعل النصوص بلا معنى .

لقد بدأت بشائر الحرية في كثير من أنحاء العالم ، فثورة المعلومات أخذت تغير العالم ، وأخذت الفضائيات والإنترنت تزيل الحواجز السياسية والثقافية ، وأخذت الطبقة الوسطى تصبح أكثر قوة وأشد نفوذاً» . ■

المحـــرر

البعد العلمي للثقافة

بقلم
د. مصطفى سويف

أعتقد أن جمهرة القراء الأفاضل يشاركونني الاعتراف بصعوبة الاتفاق على وضع تعريف جامع مانع للثقافة. ولعلنا نذكر في هذا الصدد كثيرا من المناقشات التي سبق أن أثيرت في صحفنا وتبين من خلالها أن الموضوع يتسع للعديد من وجهات النظر المتباينة، ومع ذلك فنحن نكثر من الحديث عن المثقفين وواجباتهم وحقوقهم، ونتحدث كثيرا عن أن فلانا متعلم لكنه ليس مثقفا، ونتحدث كذلك عما نتمنى أو نرجو أن تقوم به أجهزة الإعلام من خدمات لنشر الثقافة، ونتكلم أيضا عما نتطلع إليه من أن تقوم وزارة الثقافة من دعم للثقافة والمثقفين، وكثيرا ما نتحاور فيما بيننا حول ما إذا كان نشاط بعينه يصنف أو لا يصنف باعتباره من بين النشاطات الثقافية. والشيء الذي يمكن استخلاصه من هذه الأحاديث والمناقشات جميعا أن هناك حدا أدنى من الاتفاق بيننا حول ما نعنيه بمفهوم الثقافة، رغم كوننا لا نستطيع أن نمسك به ونحدد ماهيته في إطار تعريف جامع مانع

من هذا المنطلق، منطلق الوقوف عند الحد الأدنى من تحديد المعنى، ومن منطلق أنني لا أستطيع أن أتكلم عن البعد العلمي للثقافة دون أن أبدأ بتحديد ما أعنيه عندما أستخدم كلمة الثقافة، لذلك أبدأ بتقديم ما أعتبره نواة أساسية يدور حولها مفهوم الثقافة في ذهني.

نواة لتحديد مفهوم الثقافة

أشير بمفهوم الثقافة إلى منظومة معرفية أساسا، ولكنها تنطوي في الوقت نفسه على بطانة وجدانية، وتشف كذلك

عن مؤشرات سلوكية. وبما أنها منظومة فهي تقوم بدور الإطار لتغيرات متلاحقة في المكونات المحتـــواة، وتكون هذه التغيرات ذات توجه معين، ومعنى ذلك أن الثقافة كما يحملها المثقف في نفسه ليست حالة ثابتة «ستاتيكية» ولكنها عملية دينامية، كما أن التغيرات التي تجري في إطارها ليست عشوائية لكنها ذات توجه نحو مزيد من التحرير والتعديل، سعيا وراء تحقيق نمط من التوازن الذي لا يكاد يستقر حتى يختل جزئيا ليسعى نحو توازن جديد. هذا تعريف مؤقت، يمكن أن يفي بالغرض المطلوب في حديثي الراهن. وهو بهذه الصورة أقرب إلى أن يكون تعريفا بالرسم منه إلى أن يكون تعريفا بالجنس والفصل النوعي كما يقول أهل المنطق.

والثقافة بهذا المعنى عدة أبعاد أو جوانب رئيسية، أوضحها ثلاثة:

بعد معرفي، وآخر وجداني، وثالث سلوكي.

فأما البعد المعرفي فيضم مجموعة من المعاني ذات مصادر متعددة «كالآداب والفنون والعلوم والحكم والأمثال.. الخ» . وتتفاوت هذه المعاني فيما بينها من حيث درجة التجريد أو التجسيم، كما أنها تنتظم في شكل حزم بحيث تعتبر كل حزمة بمثابة منظومة صغرى لا تكف مكوناتها عن التفاعل فيما بينها ، كما أن هذه المنظومة لا تكف عن التفاعل وسائر المنظومات المحيطة بها. وتتجلى هذه الحقائق كلها فيما يطرأ على معلوماتنا من تغيرات محدودة النطاق أحيانا ومتسعة النطاق أحيانا أخرى، كما تتوجه هذه التفاعلات جميعا نحو تحقيق أنماط من التوازن القابل أبدا للتجديد.

ويشير البعد الوجداني للثقافة إلى مجموع العناصر الخبرية «نسبة إلى خبرة» التي تترسب في نفوسنا نتيجة للتعرض المباشر لآثار فئة من المثيرات تنهال علينا من بعض جوانب الإطار المجتمعي، الحضاري الذي يحيط بنا «كالفنون بوجه خاص». وتتسم هذه الآثار الخبرية بأنها تتفاوت فيما بينها على تدريج متصل يتراوح بين التقبل والسرور من ناحية والنفور والامتعاض من ناحية أخرى. ولعل أوضح ما يكشف عن هذا البعد الوجداني للثقافة رصيدنا الخبري من التعرض للأعمال الفنية في مجالات الموسيقى والفنون التشكيلية، فنحن في تعاملنا المباشر مع هذه الأعمال لا نتعامل على المستوى المعرفي فحسب «كأن أعرف مثلا أن محمود سعيد رسم لوحة تسمى «ذات الجدائل الذهبية» ولكننا نتعامل في الوقت ذاته من منطلق الشحنات الانفعالية العامة والنوعية التي تستثيرها في نفوسنا

أعمال تلك الفنون ونختزنها في ذاكرة خاصة بالرنين الوجداني غير اللفظي. ومع ذلك فأنا أضرب مثلا هنا الأعمال الموسيقية وأعمال الفنون التشكيلية لأنها ربما كانت من أكثر الأعمال الفنية استثارة للشحنات الوجدانية غير المتلبسة بالألفاظ، غير أن هذه الشحنات تستثار أيضا بواسطة أعمال تنتمي إلى الفنون الأخرى كالشعر والمسرح والرواية. الخ. بل إنها تستثار أيضا من خلال تعرضنا لبعض الأعمال العلمية، فنحن نتكلم أحيانا عن خبرات جمالية تمر بنا أثناء قراءتنا بعض الأعمال العلمية، وذلك لتوفر خصائص معينة في طبيعة البرهان الذي يقدمه الباحث، وسلاسة العلاقة بين هذا البرهان ومعمار النظرية التي ينتهي إليها البحث. على أي حال هنا في هذا النوع من الشحنات الوجدانية التي نخبر فيها درجات متفاوتة من الرضى والسرور والنشوة يتمثل البعد الوجداني للثقافة.

ونأتي بعد ذلك للجانب السلوكي للثقافة، أو ما يمكن أن نسميه بعد الفاعلية، ويبدو هذا البعد بجلاء فيما نبديه في أحاديثنا أحيانا من اعتراض على بعض السلوكيات «العلمية» التي يقوم بها فلان «رغم ما نعرفه عنه من أنه مثقف» «كأن يتجه إلى أداء بعض الطقوس الشعبية ابتغاء التغلب على إحدى المشاق النفسية التي يعاني منها»، في مثل هذه الحالات التي نواجهها عادة بإبداء الدهشة أو الاستنكار نكشف عن أننا ندرك الثقافة على أنها تنطوي على بعد سلوكي نحو مواقف الحياة، ولا ننظر إلى الثقافة باعتبارها تقتصر على كونها حصيلة لمجرد التلقي، تلقي المعلومات أو الشحنات الوجدانية بغرض التخزين والاكتناز.

خلاصة القول إذن أن مفهوم الثقافة كما أتبناه في هذا المقال ينطوي على أبعاد ثلاثة. هي : البعد المعرفي، والبعد الوجداني، والبعد السلوكي.

البعد العلمي للثقافة

عندما نتكلم عن البعد العلمي للثقافة تتبادر إلى الذهن معان متعددة، منها نوع المعارف، وحجمها، تلك المعارف التي تتناول مفردات مستمدة من العلوم المختلفة كالكيمياء والفيزياء. الخ.. وتدخل ضمن ثقافة المثقفين نتيجة لما يقومون به من اطلاع على مصادر المعرفة العلمية المتاحة، ومنها الكيفية التي يمكن بها تكوين مقياس لما نتصور أنه مستويات ثقافية نستطيع عن طريقها أن نقيس المقامات المتفاوتة للمثقفين. ومنها كذلك الكيفية التي يمكن بوساطتها صياغة برامج تربوية لتنشئة الصغار على طريق الثقافة ومنها أيضا تصميم خطط بحثية للدراسة العلمية لواقع الثقافة والمثقفين

وعلاقة هذا الواقع بالإطار الحضارى للمجتمع. هذه المعانى وغيرها تتداعى إلى الذهن عندما نقف أمام هذا العنوان «البعد العلمى للثقافة» ، غير أنى لن أتناول الموضوع فى مقالى الراهن إلا من الزاوية الأولى، زاوية المعارف التى تتناول مفردات مستمدة من العلوم المختلفة تدخل ضمن ثقافة المثقفين نتيجة لاطلاعهم على هذه العلوم الجارية. وربما أتيح لى من الظروف فى المستقبل المنظور أن أفرد لكل زاوية من زوايا النظر الأخرى مقالا يلقى بعض الضوء على ما تنطوى عليه هذه الزوايا من معان وإيحاءات.

البعد العلمى للثقافة بالمعنى الذى أفرد له هذا المقال يدخل فى سياق البعد المعرفى للثقافة، بمعنى أن البعد العلمى المقصود هنا جزء من كل، الجزء هو العلم والكل هو المعرفة. فإذا تركنا سياق المعرفة الثقافية الواسع وتفرغنا لتركيز الضوء على البعد العلمى فلابد من الحديث عن هذا البعد من زاويتين، زاوية الماهية أو طبيعة هذا البعد، وزاوية الوظيفة، وظيفته بالنسبة للبنية الثقافية التى تحمله بمعناها الفردى والاجتماعى.

ماهية البعد العلمى للثقافة

فى سياقنا الراهن يمثل البعد العلمى للثقافة كل ما يترسب فى أذهاننا نتيجة لاطلاعنا او تعرضنا بوجه عام للتأثر، بنواتج النشاط العلمى بصوره الأكاديمية «كما تتمثل فى المؤلفات والأحاديث والعروض الفيليمية العلمية.. إلخ»، وبصوره التطبيقية «كما تتمثل فى استخداماته المتعددة فى حياتنا الاجتماعية، فى الزراعة، والصناعة، والصحة.. إلخ» وجدير بالذكر هنا أننا نقصد الاطلاع والتعرض خارج نطاق دائرة النشاط التخصصى، من هذا القبيل اطلاع المشتغلين بالفنون والآداب على بعض الأعمال العلمية فى صورتها الأكاديمية أو تعرضهم للجوانب المعرفية اللصيقة بتطبيقاتها. وكذلك اطلاع المشتغلين بالعلم على بعض نواتج العلوم الواقعة خارج مجالات تخصصهم ودون أن يكون القصد من هذا الاطلاع خدمة التخصص خدمة مباشرة. كل ما يترسب فى الذهن بهذه الصورة يشغل مواقع مختلفة داخل مجال ما يسمى بالبعد العلمى للثقافة.

ولكن ماهية البعد العلمى لا تتمثل فى التراكم المترتب على عملية ترسب المعلومات هذه فحسب، فالصورة أعقد من ذلك بكثير، ذلك أن حقيقة العمل العلمى كما تتجلى للمطلع عليه إذا تم الاطلاع بقدر معقول من التفصيل والتدقيق تشف عن عدد من العناصر غير المتجانسة فى طبيعتها تدخل جميعا ضمن مكونات البعد العلمى للثقافة، لأنها «أى هذه

العناصر، تسهم معا في إقامة البناء الداخلي لمنظومة العلم . وقد حاولت أن أصنف هذه العناصر في فئات حسب طبيعتها فوجدتها تنتظم في خمس فئات، على النحو التالي: **أولا – فئة المعلومات.** كأن تثبت في ذهني بعض المعلومات عن الوظائف التي تقوم بها «الناقلات العصبية» كالدوبامين، والأستايل كولين داخل خلايا المخ ، أو كأن تستقر عندي معلومات مؤداها أن مناطق المخ التي تنشط عندي حينما أشاطر شخصا عزيزاً عليَّ مشاعره وهو يتألم في أحد مواقف الحياة تكون مماثلة تماما لنشاط مناطق المخ عنده فيما عدا أن المنطقة الحسية الحركية المعنية بتألمه تنشط عنده ومثيلتها لا تنشط عندي ... إلى آخر تلك المعلومات العلمية التي نلتقطها من هنا وهناك ولا تكاد تقع تحت حصر .

ثانيا – فئة العناصر المنهجية: من هذا القبيل أن تثبت في الذهن بعض المفاهيم الرئيسية التي تمس جوانب في منهج البحث العلمي، مثل مفهوم الفرض العلمي، ومفهوم العينة الممثلة لجمهور بعينه ، ومفهوم معامل الارتباط الذي لا ينطوي على علاقة سببية، ... إلخ.

ثالثاً : فئة تضم عناصر من تاريخ العلم: من هذا القبيل سير بعض العلماء وكيفية اقترانها بنشاطهم العلمي، رجال مثل جاليليو، ونيوتن ، ورونالد فيشر، وابن سينا، وابن الهيثم، وابن خلدون. ومن هذا القبيل أيضا عناصر تاريخية حول طبيعة التطورات العلمية المتلاحقة وكيف أن الجديد فيها غالبا ما يستوعب القديم وقلما ينسخه .

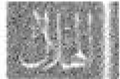
رابعا – فئة المقامات المشتركة بين العلوم الطبيعية البيولوجية والعلوم الاجتماعية. من هذا القبيل فكرة الاحتمالات، وفكرة التنبؤ، وقابلية الظواهر للقياس الكمي، والمجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة.

خامسا – فئة العناصر الأقرب إلى أن تندرج تحت فلسفة العلم: مثال ذلك طبيعة التفسير العلمي، وطبيعة القياس الكمي ومستوياته ومناطق التداخل بين منظومة العلم والمنظومة الأخلاقية .

هناك إذن خمس فئات من العناصر تسهم في تكوين البعد العلمي للثقافة، هي : المعلومات ، والعناصر المنهجية ، والتاريخية ، وعناصر المقامات المشتركة بين العلوم الطبيعية / البيولوجية والعلوم الاجتماعية ، ثم عناصر من فلسفة العلم. وفي هذه الفئات الخمس تتجلى ماهية البعد العلمي للثقافة .

وظيفة البعد العلمي للثقافة

هناك زوايا متعددة للنظر في مسألة الوظائف المختلفة التي يؤديها أو يمكن أن يؤديها البعد العلمي للثقافة. وفي هذا الصدد نستطيع أن نميز بين زاويتين



ربيع أول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م

اثنتين على أقل تقدير، أما الزاوية الأولى فتسلط الضوء على أثر هذا البعد على تكوين رأى اجتماعى عام على صلة بالعلم، وبأحوال المؤسسة العلمية فى المجتمع .

وأما الزاوية الثانية فتتناول أثر هذا البعد على البنية الثقافية نفسها كما يحملها المثقفون ويحاولون تفعيلها .

وأبدأ بالحديث فى إطار زاوية النظر الأولى. منطلق الحديث هنا هو أهمية ألا يتخلف المجتمع عن مواكبة مسيرة العلم المعاصر متمثلا فى أحدث جبهات تقدم، لأن هذا التخلف يهدد المجتمع فى شئونه الحياتية جميعا، بدءاً بالغذاء والصحة ووصولا إلى الأمن وحق أبناء المجتمع فى الرفاه. ومنطلق الحديث أيضا هو أهمية أن يكون المجتمع مشاركا فعلا بنصيب ما فى إنتاج العلم، وفى صناعة التقدم العلمى المقبولة حسب المعايير العالمية، ولا يكتفى بأن يكون مستورداً للعلم متمثلا فى خبرائه وتقنياته ، لأن جميع الدلائل تدل على إمكان أن تحبس عنه هذه السلع العلمية (أعنى الخبراء والتقنيات) ما لم يكن لديه ما يقدمه فى هذا المضمار على سبيل المقايضة ، فإما أن يقايض بمنتجات علمية من صنعه ، أو يجبر على المقايضة بأقدار من ثروته الوطنية أو من إرادته السياسية. ولما كان السياسيون المحترفون ينشغلون عادة بمواجهة المشكلات المباشرة والتدبير للحلول العاجلة بينما يحتاج إنتاج العلم إلى الخطط بعيدة المدى آجلة العائد ، لذلك وجب أن تكون هناك ضغوط مجتمعية على رجال السياسة لتكريس جزء من جهودهم للتفكير والتدبير لشئون التقدم العلمي على المستوى الاجتماعي، ولا يكفي لتفعيل هذه الضغوط أن تبذل من قبل المؤسسات الرسمية ولكن لابد من أن تقوم وراء ضغوط هذه المؤسسات ضغوط مجتمعية واسعة النطاق، يقودها رأى عام مثقف، يحمل فى عقله وفى ضميره البعد العلمى، ولا يكف عن الحث والدفع والمطالبة بصوت عال وبمطالب واضحة مفصلة. هذا عن الوظيفة الأولى

أما عن الوظيفة الثانية للبعد العلمى، وهى أثر هذا البعد على المنظومة الثقافية كما يحملها المثقف ففى هذا الصدد لابد من الاهتمام بجميع مكونات البعد العلمي كما أحصيناها. ومع ذلك ، وأمام القيود التى تفرضها محدودية المقال الراهن ، فربما أجزتُ لنفسى إعطاء الأولوية لمكوّنين اثنين على وجه التحديد هما فئتا العناصر المنهجية والعناصر التاريخية . جدير بالذكر هنا أن مواضع القوة فى العلم متعددة، ولكن أقوى هذه المواضع هو المنهج، ذلك أن المنهج هو المسئول الأول عن التقدم المتواصل

للعلم، وعن نموه التراكمي، وعن قابلية نتائجه للتطويع في أشكال تطبيقية مختلفة، ويتحقق ذلك كله (أي التقدم ، والنمو التراكمي، والمطاوعة) بفضل خاصية بالغة الأهمية للمنهج العلمي، هي ما يمكن أن نسميه خاصية التصحيح الذاتي.

ويمكننا جميعا أن ندرك هذه الخاصية إذا نظرنا عن قرب في بعض العناصر المنهجية، وفي الكيفية التي تؤدي بها هذه العناصر دورها في تسيير دفة العلم. نأخذ مثلا عنصر «الفرض العلمي». فالفرض العلمي فكرة تطرأ على ذهن الباحث، وهي تنطوي على تنبؤ «إذا صح كذا فسيحدث كذا»، ونحن في حياتنا اليومية كثيرا ما نمارس هذه الصيغة الفكرية ولكن بطريقة غير منضبطة، أما في مجال العلم فالفكرة/ الفرض هي مشروع تجربة علمية، فإذا نجحت التجربة وتحقق التنبؤ قُبِلتْ الفكرة/ الفرض وأصبحت نواة لقانون علمي أو خطوة على الطريق إلى بناء نظرية، أما إذا فشلت فلابد من الانصراف عنها والبحث عن غيرها من أفكار قد تكون أجدى بالنسبة لمسيرة البحث. هكذا يحدث التصحيح الذاتي للمسيرة، ولفكرة الباحث أولا بأول. وللتصحيح الذاتي مداخل أخرى متعددة في كيان العلم. ولنتأمل فيما يمكن أن يحدث في ذهن المثقف الجاد الذي يحرص على الاطلاع على بعض المؤلفات العلمية، ولنتساءل: أليس وارداً أن يفيد هذا المثقف من هذه المفردة المنهجية على سبيل التعميم أو المحاكاة؟ ومع ذلك فما أتحدث عنه هنا إنما يحدث على مستوى المثقف الفرد، فكم يكون الأثر كبيرا إذا تصورناه يحدث على مستوى أعداد متزايدة من مجموع المثقفين. وفي هذا السياق نفسه يمكن التنبيه إلى عدد كبير من العناصر المنهجية الأخرى في العلم: من هذا القبيل مفهوم العَينة، ومفهوم الاحتمالية، ومفهوم الاقتران الذي قد لا ينطوي على علاقة سببية، وعشرات من العناصر المنهجية المماثلة. ولنا أن نتخيل كم يكون تأثيرها عظيما إذا أُحسِنَ توظيفها لزيادة كفاءة المنظومة الثقافية في مجموعها.

ونترك الآن مسألة المنهج، وننظر في أمر مكوِّن آخر من مكونات البعد العلمي، ننظر في المكون التاريخي. أعني عناصر تاريخ العلم: ننظر في عنصر الإسهام العربي في التاريخ العلمي للعلم، كثيرون بيننا يعرفون أن الحضارة العربية في العصور الوسطى كان لها إسهاماتها في تاريخ العلم، هذا أمر لا شك فيه، ولكن المهم في هذا الشأن ألا تظل هذه المعلومة عامة أو جوفاء، المهم أن تمتلىء هذه المعلومة بمضمون يثريها فيزيد من

قابليتها للتفعيل فى نفوس حامليها، المهم أن تحتوى ثقافتنا على قدر معقول من المعلومات المفصَّلة عن سير العلماء العرب القدامى، وعن إسهاماتهم العلمية؛ مثال ذلك بحوث البصريات عند ابن الهيثم، أو وصف ابن سينا لأعراض الاكتئاب، أو وصف داود الإنطاكي للآثار السلوكية المترتبة على تعاطى القنَّب .. إلخ مثل هذه العناصر المستمدة من تاريخ العلم من شأنها أن تزيد من استبصارنا بالجذور الحضارية المتشعبة للعلم الحديث، ومن ثم تزيد من قدرتنا على تصحيح كثير من الأخطاء الشائعة فى الكتابات المتعددة حول تاريخ العلم.

أعتقد أن كل ما يدخل فى تكوين البعد العلمى من مكونات إنما يزخر بإمكانات لا حدود لها فيما يتعلق بالتحليل الوظيفى لهذه المكونات وما يمكن أن يترتب على هذا التناول التحليلى الوظيفى لهذه المكونات من إثراء للرأى العام ومن تفعيل للخزانة الثقافية كما يحملها المثقفون. وإذا كنت قد اقتصرت فى حديثى على التحليل الوظيفى لمكونين اثنين من مكونات البعد العلمى فما ذلك إلا مراعاة لدواعى محدودية هذا المقال. وفى يقينى أن القارئ يستطيع أن يكمل بنفسه مسيرة هذا التحليل فيما يتعلق بالمكونات الثلاثة الأخرى: المعلومات، والمقامات المشتركة بين العلوم الطبيعية/ البيولوجية، والمفردات الأقرب إلى فلسفة العلم.

فى ختام هذا الحديث أجد لزاما علىَّ أن أشير إلى بضعة تعقيبات لا يستقيم الحديث بدونها:

أولا: يشير هذا الحديث بصورة ضمنية مسألة الشروط التى يجب أن تتوفر فى المؤلفات العلمية التى يمكن للقارئ غير المتخصص أن يقرأها ويستوعب مادتها العلمية.

ويحضرنى الآن شرطان أساسيان هما: (١) التبسيط غير المخل، و(٢) الأمانة والنزاهة فى الالتزام بروح العلم، بمعنى الامتناع عن البثّ الأيديولوجى فى ثنايا الكتابة العلمية.

ثانيا: يثير هذا الحديث، وبصورة ضمنية أيضا مسألة الحاجة إلى أن تكون ثقافة المثقف متوازنة، بمعنى أن تُكامل بين شقين: شق الدراية بالآداب والفنون والإنسانيات من ناحية ، وشق المعرفة بالعلوم من ناحية أخرى. وفى رؤيتى أن تحقيق التكافؤ بين شقى هذا البناء المتكامل من شأنه أن يدفع بحامله إلى مزيد من الفاعلية فى الحياة الاجتماعية.

ثالثا: يثير هذا الحديث كذلك سؤالا شديد الجذرية: لماذا الثقافة؟

كيف يكون التحليل الوظيفى للثقافة؟ ■

في محنة الدروس الخصوصية

التعليم اليوم صوري وليس حقيقيا !

بقلم
د. محمد رجب البيومي

كنت أزور بعض الناس للحديث في موضوع مشترك ، وقد أراد إشعال السيجارة فلم يجد الكبريت ، فانطلق يدعو ابن البواب ليشتري له المطلوب من محل فلان! هكذا عين صاحب المحل ، وانطلق المسكين فوجد المحل موصدا ، فرجع يخبره بما كان ، فما كان من صاحبي إلا أن انفجر في وجهه ، وقال لي إن هذا الولد مثال الغباء ، وقد طرد من المدرسة لأنه تخلف ، ولم يجز الامتحان ! وظهر التألم على وجهي بعد أن آثرت السكوت ، فسألني عما اعتراني ، فقلت له إني تألمت لسببين لا لسبب واحد ، فأنت الذي حددت له اسم البائع ، وقد التزم بقولك فلا ملام ، ثم إنه طرد من المدرسة لتخلفه وكان من المتوقع أن يتخلف فجميع سكان العمارة ، يتعبونه نازلاً صاعداً في شراء ما يلزم بعد أن يأتي من المدرسة وليس في حجرة أبيه بأسفل العمارة مكان يصلح لاستذكار دروسه إذا أراد ذلك بعد تعب اليوم الطويل ، والمدرسة اليوم كما نعلم لا تعطي درساً ما يساعد على النجاح ، وأنت وأنا نعطي الدروس الخاصة الضرورية لأبنائنا وبدونها لن ينجح تلميذ مهما ارتاح في منزله ، ولم يكن خادما يذهب ويجيئ ! فالتلميذ المسكين لم يتخلف لإهماله ، ولكن احتياج والده قد أعده ليكون خادما لا تلميذاً .

والمدرسة من ناحيتها – للأسف – مدرسة صورية لا حقيقية، تعد الفصول والمدرس والحصص الدراسية إعداداً لا يفيد غير من يأخذ الدرس الخصوصي من المدرس! أفيكون التلميذ بعد ذلك مثال الغباء ، وقد طرد من المدرسة لأنه متخلف كما تقول ! إنه ذو حظ تعيس !

تكافؤ الفرص

رجعت ضائقاً محزوناً أفكر في حالة التلميذ الفقير في المدرسة بين الأمس واليوم ، كان التلميذ قديماً في ما قبل المرحلة الجامعية يجد الجو المدرسي الملائم لتلقي الدروس ، فالأستاذ يؤدي واجبه كأحسن ما يكون والتلميذ الفقير يجد ما يجد التلميذ الثري من الإقبال والاهتمام ، فميدان التسابق متكافئ لا شذوذ به ، وإذا رجع إلى منزله استطاع أن يراجع ما أخذ من الدروس دون حاجة لدرس خاص ، وهو يعلم أن المدرسة فرصته الوحيدة ، لإشراق مستقبله ، وأبوه يؤكد له ذلك بمظهره ومخبره ، فيؤثر الاجتهاد ، ويجتاز الامتحان بنجاح !

كان تكافؤ الفرص عاملاً رئيسياً في إيجاد الطبقة المتوسطة في الشعب ، وهي التي تقوم بالدور الرئيسي في التقدم الاجتماعي ، لأن اجتهاد أبناء الفقراء في المدرسة قد دفعهم إلى الصفوف الأمامية فنالوا الوظائف المناسبة ، ولديهم من الكفاح الذي مرنوا عليه من قبل ما يدفعهم إلى الجد الصارم في مزاولة أسباب الحياة ، ثم جاء دورهم في الإنجاب ، فحرصوا على مستوى مشرف لأبنائهم لم يحظوا به من قبل . فوجد جيل جديد من هؤلاء يعتمد على نفسه بإرشاد المسئولين من آبائه ، واتصلت الحلقات لتؤدي إلى المزيد ، ولا يمكن في الظروف الأليمة للمدارس اليوم أن تواصل رسالتها في تقدير المجتهد ، وتزكية النابه ، فتكون النتيجة أن يرسب التلميذ الفقير ، وأن يخرج إلى المجتمع عاطلا لا يجد ما يعمل ، وتلك هي المأساة !

الفقر مدرسة النبوغ

أعرف أن الفقر مدرسة النبوغ ، وأن الألم يلهب فيلهم ، ولكن متى ؟ إذا فتحت النوافذ للمعرفة ، ووجد التلميذ البائس جوا يساعده على النمو التعليمي . أما أن تحقق المدرسة إخفاقاً تاماً في رعاية هذا المتطلع إلى الحياة الكريمة . وأما أن يضيق به والده البائس فيرميه إلى الشارع دون اهتمام فإن طوفان التشرد سيمتد بأرديته الوخيمة دون انقطاع .

والتشرد تكافحه بالمسكنات فقط ، فالملاجئ والاصلاحيات ، لا تستوعب أكثر من عشرة في المائة ممن لا يزالون يجمعون أعقاب السجائر ، ويتسللون إلى

الجيوب فى الزحام الحاشد بوسائل المواصلات ، ويخطفون حقائب الصغار من طلاب المدارس ويبحثون فى المزابل عن فتات الطعام شركة مع القطط والكلاب، بعض هؤلاء هم تلاميذ المدارس الذين لم يعرفوا سبل النجاح ، فضاق بهم ذووهم ممن يضيقون بنفوسهم قبل أن يضيقوا بأبنائهم، فرموهم إلى الطريق ، وفيهم من اعتمد عليهم فى أكل عيشه ، فحبب لابنه أن يسرق وأن يتسول ليعود مساء إليه بما يمسك رمقه! ولازال شعار محو الأمية بعد ذلك نطلقه مقرونا برسالة التعليم الابتدائى ، فلم تمح الأمية ، ولكنها فتحت بابا واسعا للمتشردين !

كان المغفور له الاستاذ عبد العزيز جاويش قد قدم مشروعا عمليا سنة ١٩٢٥ م إلى وزير المعارف محمد توفيق رفعت باشا ، يدعو فيه إلى أن تكون المدرسة الأولية ذات رسالتين رسالة تربوية وهى محو الأمية ورسالة عملية ، وهى تهيئة التلميذ منذ بدء حياته إلى عمل صناعى أو زراعى تضمن له الكسب إن خرج من المدرسة الأولية واكتفى بها ، بحيث تكون مسائل التربية التعليمية مقتصرة على الضرورى الذى يمحو الأمية ويلم بمبادئ الحساب والدين والكتابة فقط لتجد التربية العملية نصيبها فى إعداد العامل والزارع فى الريف على نحو أخص . ولو أخذ بهذا الاقتراح ، وقامت الوسائل الصحيحة على تنفيذه، لوجد التلميذ الذى لم يوفق فى دروس الثقافة له بابا للارتزاق بما أتقن من حرفة قد تكون السباكة أو التجارة أو الزراعة أو الحدادة ، وحينئذ يجد باب الرزق. والمدارس الفنية الآن لا تؤدى رسالتها على الوجه المنشود مع أنها تلى المرحلة الإعدادية، فإذا كنا لا نستطيع الآن مواجهة الدروس الخصوصية فى مدارس الحضانة والمدارس الابتدائية وإذا كان أبناء الفقراء يتعثرون فى خطواتهم لعدم قيام المدرسة بواجبها المنوط بها ، فإن الواجب الحتم لذلك هو أن نعود إلى اقتراح الاستاذ عبد العزيز جاويش ، لأنه يفتح باب العمل للتلميذ حين تضيق أمامه سبل الدراسة المنتظمة فيخرج إلى العالم الفسيح دون نصير .

المجانية المزعومة

وحين أكرر فزعى لفراغ المدارس من مضمونها الحقيقى الذى أنشئت من أجله ، أجد من يعارض هذه الحقيقة السافرة ، مستدلا بما تنشره الجرائد عن تقدم التعليم باتخاذ الوسائل الحضارية من انترنت وتليفزيون ، وأجهزة لم تكن معروفة من قبل ، ولكن ذلك كله شئ، والخواء الفارغ فى تأدية المدرسة رسالتها على الوجه المنشود شئ آخر ،

والحديث في هذا شبيه بالحديث عن المجانية المزعومة في التعليم ، لأن أولياء الأمور قد زهقت أرواحهم بنفقات الدروس الخصوصية التي أصبحت قضاء وقدرا لا محيد عنه ، ويتمنون بفارغ الصبر أن تمحى المجانية وتعود المصروفات المدرسية مضاعفة مضاعفة لتمحو بلاء الدروس الخصوصية ، ولو كانت المدرسة تقوم بواجبها على النحو المنشود لما باع الآباء الضروري من أثاث المنزل ، والكمالي من حلي الزوجة ، واليسير الضئيل من العقار ليطفئوا بلاء هذه الدروس ، ثم ماذا بعد ذلك كله ! ماذا بعد التخرج من الجامعة ، وقد بلغت الروح الحلقوم لدى الأب والأم ، إنها البطالة الصارخة التي تجعل حامل الليسانس والبكالوريوس مثل الذي لم يتعلم حرفاً واحداً في سنة دراسية ! بل ربما يفوقه بما مارسه في الحياة العملية من مهارات لم تهيأ له ، أليس هذا هو الواقع المرير ؟

البحث عن العلاج

والمشكلة التي يشير إليها عنوان هذا المقال لا تزال قائمة لا تجد أدنى حل يريح .. أفنترك التلميذ المسكين الذي لم يوفق إلى اجتياز سنوات التعليم الابتدائي هكذا ؟؟ أنتركه حيث لا يهتم به ولي أمر يرعى حقوق الأبوة ، بل يكون في بعض أحواله كما أسلفنا من قبل عاملاً أساسياً في انحدار فلذة كبده إلى أسوأ الدركات ، أم نبحث عن علاج منقذ لهذه الزهرات الغضة التي تفاجئها عواصف الرياح بما يعجل ذبولها السريع ؟

إن الرأي الذي أراه ، أن تقوم جوار المدرسة الابتدائية التعليمية ، المدرسة الابتدائية العملية ، فتتلقى الذين لم يستطيعوا الانتظام المدرسي ، ليتعلموا الحرف المهنية التي تهيئهم للحياة ، فتكون بها فصول للزراعة والحدادة والسباكة والنجارة بحسب ما تتطلبه البيئة المحلية ، فإذا قضى التلميذ سنوات الدراسة بهذا النمط من التعليم ، فإنه سيتجه تلقائياً إلى الكسب الشريف، وسيجد من يرحب به في مجالات الإنشاء والتعمير ، وينجو من سيطرة والد قد يضطره إلى ما لا يليق ، إذ في محاضر بعض مراكز الشرطة انحرافات شائنة لأبناء صغار كانوا ضحية توجيه الآباء المنحدرين ، بل ماذا أقول حين أجد في بعض هذه المحاضر انحرافات لبنات صغيرات كن ضحايا التوجيهات الآثمة للأمهات والآباء معاً ، ولابد أن يكون بهذه المدارس العملية فصول للفتيات الصغيرات حيث يدربن على ما يليق بهن من فنون التطريز والأشغال المنزلية

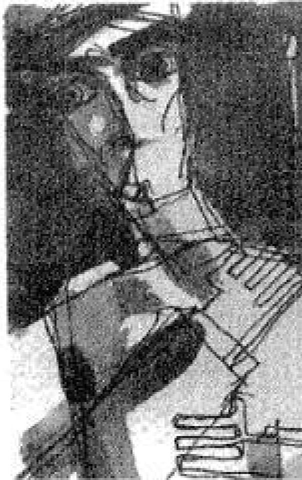
، والحياكة مما يؤهلن للكسب الشريف ، وهنا يبدأ الإنقاذ العملى للتلميذ المسكين !

إن المسألة الخافية عن كثير ممن يتحدثون عن بلاء الدروس الخصوصية أنها منعت كثيراً من أبناء الفقراء عن التعليم فى المرحلة الأولى ، وبخاصة حين قررت اللغة الانجليزية على التلاميذ وأصبح الدرس الخصوصى - بلا مراء -أداة النجاح ، والذى سيواصل حضوره دون درس سيتكرر رسوبه ، ويقذف به إلى الخلاء ، ومع اشتداد أعباء الحياة ، سيعجز ولى الأمر الفقير فيما بعد التعليم الابتدائى عن مساعدة بعض بنيه فيكتفى بواحد أو إثنين ، وقد يكون فيمن أجبروا على الامتناع من ذوى الذكاء من كان يرجى لهم حسن المستقبل إن سارت الريح رخاء دون إعصار ، وبذلك تفقد الأمة من أعضائها الصلاب ممن كان يرجى منهم أن يكونوا عونا على النماء الاجتماعى ، فأصبحوا قانعين بالكفاف ، فلماذا لا يتحدث التربويون عن هذا الخطر الذى بدت مظاهره على نحو صريح ، ولماذا تعقد المؤتمرات متحدثة عن المناهج والتطور المتخذ من وسائل الحضارة فى المعامل والفصول ما يعد جديداً فى بابه ، ثم لا يلتفت المتحدثون إلى الذين سيحرمون لعجز الآباء ، واشتداد الأزمة المالية على نحو لا يبشر بالانفراج، بل لماذا لا يسكت المتحدثون كل يوم فى مؤتمرات المرأة عما يكررونه دائماً من التطلع إلى حقوق مظهرية يعدونها وسيلة التقدم الحضارى ثم يسكتون عامدين عن هوان المرأة الذليل فى القنوات الفضائية حين تبدو كالعارية فى الغناء ، وحين تبدى من أنواع التبذل الشائن فى القبل والعناق والاحضان والارتخاء ما يجعلها سلعة تباع بأرخص الأثمان ، وقد كادت تستغنى عن ورقة التوت هل فكر الداعون إلى حقوق المرأة فى اجتماعات مظهرية لا خير من ورائها، فيما يشاهدون من بلاء ماحق سيمزق الأسر شر تمزيق ! لقد كنا نطلب من هؤلاء احتجاجاً قولياً فقط يظهر أنهم يحافظون على كرامة المرأة المهدورة ، ولكنهم فى رأيى لا يعدون ما تظهره القنوات العابثة موضع اعتراض ، بل لعله فى رأيهم بعض الخطوات السريعة فى طريق التقدم المنشود ، ثم أليست رعاية الطفل الفقير ، والعمل على رفع مستواه التعليمى من أوائل ما تتوجه إليه الفاضلات من المتحذلقات أم أن المرأة شئ ، والطفل شئ آخر، مع أنه لديها كل شئ فى الحياة !

ضياع حق الفقير

لعلى استطردت قليلاً فإن القلم

يقودنى كثيراً دون أن أقوده، ولكنى أعود إلى الموضوع فأعلن أن التلميذ الفقير ضاع حقه نهائياً الآن ، لأن المدارس كما يشهد الله ويشهد جميع العارفين ليست إلا فصولا وأدراجاً فحسب ، فالمدرس فى تسعين فى المائة ، لا يقوم بواجبه إطلاقاً ، مكتفياً بالدلائل المظهرية من إعداد كراسة التحضير وكتابة السبورة وأغرب ما يفاجئنا فى هذا الأمر أن المدرسة الاعدادية والمدرسة الثانوية بكل واحدة منهما أكثر من خمسة وكلاء مع المدير والناظر وطابور المدرسين الأوائل ، فماذا يفعل هؤلاء؟ ولماذا لا يختص كل وكيل بدور من أدوار المدرسة فيمر على كل مدرس بالفصل ، ويراجع السبورة ، ويوقع على الكراسات ملاحظاً خطوات التقدم التدريجى ، فإذا استشعر المدرس أنه محاصر تماما بالرقابة اليقظة أدى واجبه ، وأتاح للتلميذ الفقير أن يجد ما يعينه على المذاكرة حين يتعنت الدرس الخصوصى على أمثاله ، أذكر أنى كنت فى الستينات مدرساً بالمنصورة الثانوية ، وكان الناظر من الحزم والجد بحيث يواصل المرور يومياً على الفصول والمدرسة حينئذ كالجامعة إذ بها إثنان وثمانون فصلاً ، والعمل برعاية الناظر يؤدى على أحسن ما ينتظر أذكر أن مدرساً للرياضة كان عند الناس من المقربين للناظر، وقد تلقى هذا الناظر الادارى الحازم ورقة من طالب مجهول تقول إن المدرس يكتفى بكتابة مسألة حسابية على السبورة ، ويتركنا بعد ذلك دون أن يشرح شيئاً، فما كان من الناظر الاستاذ مسعد المصرى رحمه الله إلا أن جال جولة أولى فى مبدأ الحصة ، وشاهد المسألة على السبورة ، وظن المدرس ، أنه بعد هذا المرور لا يعقل أن يجئ مرة ثانية ، ولكنه قبل انتهاء الحصة بثلاث دقائق اتجه إلى الفصل ، ورأى المسألة الحسابية هى هى دون أن يصنع المدرس جديداً ، فتحقق من صدق الشكوى ، وطلب من المدرس أن يعجل بالحضور إليه ليختار مدرسة أخرى إذ إن مثله فى خموله لا يجوز أن يكون من أعوانه ! هذه اليقظة الادارية ذات الإخلاص الصارم تمت بمجهود إنسان واحد فكيف بطابور الإداريين والموجهين؟! رحم الله الاستاذ حسن مسعد المصرى وأكرم مثواه !



وقد تطالعنا الصحف كثيراً بوكلاء للوزارة فى الادارات المختلفة يعرضون الكمبيوتر والإنترانت



وبعض المستحدثات ويزهـون بأنها أصبحت من مستلزمات الطلاب ، فكانت دليـلا على التـقدم المدرسى ، والواقع المرير أن التلميذ لا يسـتفيد منها شيئاً ذا بال ، إذ لا يقوم المدرس بجهد ما غير التنبيه على الدرس الخصوصى بالمنزل وهكذا تقدم الاطباق الشهية مليئة باللحم والفاكهة والحلوى وليس لدى التلاميذ أسنان تساعد على الهضم ! والصور كل يوم تملأ الصفحات !

إن مشكلة الطالب الفقير فى عصر الدروس الخصوصية مشكلة قائمة لا سبيل إلى تجاهلها ، لأنه لا يحصل فى المدرسة قليلاً ولا كثيراً ، وسيتقهقر فى الامتحان لا محالة ، وإذا تكرر رسوبه طرد إلى الشارع لا لأنه لم يجد المدرس الموجه ، بل لأنه تلميذ فاشل ! وهو فى أعماقه يعلم أنه ليس أقل جدارة من الناجحين ، ولكنهم ، أخذوا الدروس وباء بالحرمان.

إن الفقر المادى لا يعيب التلميذ ، ولكنه يعيب مجتمعه الظلوم ، وقد كتب الأستاذ فتحي رضوان في كتابه (أفكار الكبار) فصلاً بارعا عن الدكتـور زكى مبارك قال فيه إنه نشأ فى الأزهر، والأزهر مدرسة الفقراء ، لأن التعليم به بالمجان، لذلك سطع في مصر بين نجومه من أبناء الفقراء من كانوا من أعلام العصر، وأخذ الأستاذ فتحى رضوان يذكر من هؤلاء النوابغ محمد عبده والمراغى وشلتوت وطه حسين وأحمد أمين والمنفلوطى ودراز وأبا العيون والغاياتي والهلباوى ومحمد أبا شادى والهيهاوى ومحمد ابراهيم وعبد الوهاب خلاف وأبا زهرة وعبد الله النديم وآخرين يجدهم القارئ فى ص ٥٤ من الكتاب ، وأزيد على ما ذكره الاستاذ فتحى رضوان فأقول إن الازهر فى هذا العهد كان المعهد الوحيد الذى يخاف فيه الأستاذ من التلميذ ! أجل يخاف الاستاذ من التلميذ إذ لابد أن يوجد فى كل حلقة من حلقات العلم ثلاثة أو أربعة

من الطلاب ، قد ذاكروا الدرس مذاكرة تامة قبل ميعاده ، وتربصوا بالأستاذ فى شرحه ، فلا يتركونه دون أن يجيب عن أسئلتهم الدقيقة ، وقد يخطئ المراد فى مسألة ، فيتصدى له الطلاب فى حرية مكفولة ، لا تعرف الانزواء ، وهنا يكون الدرس ، شبيها بالحومة ! فهل يوجد الآن فى أى معهد مدنى أو دينى هذه الحرية المفرطة فى السؤال والجواب ، وتأكيدا لذلك استشهد بما ذكر الدكتور طه حسين فى الجزء الثانى من الأيام حين قال عن حوار قام بينه وبين بعض الاساتذة وهو طالب مبتدئ فى الازهر «لقد أتعب الفتى - يريد نفسه - شيخه حوارا وجدالاً حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار ، ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط «الله يحكم بينى وبينك يوم القيامة !! ص ١٣٠ من الأيام ! لقد كان الأزهر يومئذ متنفسا لأبناء الفقراء ووجدوا فى دروسه ما سبق بهم إلى التقدم فى مضمار الحياة ! فأين يجد الآن من تتقاذفهم الطرقات دون نصير ! أين يجدون الدرس المستوفى والمدرس القويم ؟

ويح التلميذ الفقير ، حين ينبذ بالعراء وهو مذموم ! لأن والده لا يقوم بنفقات المنزل إلا بشق النفس ! فمن له بمئات الجنيهات تبذل لولد واحد ، ولديه عدة أولاد ! إن أكثر القائمين الآن على شئون البلاد فى جميع مرافقها ، من الذين تعلموا بالمدارس حين لم يكن هناك مجال للدروس الخصوصية ، وبانتظام الدراسة التعليمية آنذاك استطاعوا أن يأخذوا أرقى الشهادات وأن يكونوا من ذوى الشأن فى إدارة البلاد ، ولو كان الأمر حينئذ هو الأمر المشاهد اليوم لما استطاع الكثير منهم مواصلة التعليم ، ولكان حظهم البائس كحظ تلاميذ اليوم ، أفلا ينظرون إلى معاناة الفقير الذى لا يملك نفقات الدروس الخصوصية فى ضوء ما كان يتهددهم لو ووجهوا بهذه الأعباء ! ولست بذلك أضائل من مكانتهم فى المجتمع ، فالمرء بعمله وجده لا بماله ونسبه وقد كان والد اسماعيل صبرى باشا الشاعر العظيم متواضعاً فى وظيفته ، وحين بلغ اسماعيل صبرى مبلغه من النبوغ فى الأدب ، والرفعة فى المناصب ، تحدث عنه حاقدوه بما يسئ بتواضع أبيه فرد عليهم شوقى رداً مفحماً حين قال فى رثائه :

إن فاته نسب الرضى فريما
جريا لغاية سؤدد وطراف
شرف العصاميين صنع نفوسهم
من ذا يقيس بهم بنى الأشراف؟
قل للمشير إلى أبيه وجده
أعلمت للقمرين من أسلاف؟

وفى هذا بلاغ !! ■

أكذوبة التنمية الإنسانية

بقلم
د. جلال أمين

لم يكن وصف بعض بلاد العالم بأنها بلاد «متخلفة» وصفا شائعا بل لعله لم يستخدم على الاطلاق ، قبل نهاية الحرب العالمية الثانية. ولكن من المدهش كيف شاع استخدامه بعد تلك الحرب ، وردّدته الألسنة ، وتكرر ظهوره في عناوين الكتب والمؤتمرات والندوات ، بل وأصبح له أساتذة متخصصون وأقسام خاصة في جامعة بعد أخري من الجامعات الأوروبية والأمريكية .
هكذا استيقظنا في صباح أحد الأيام فوجدنا أننا ننتمي إلي بلاد «متخلفة» وانشغل الاقتصاديون بمحاولة تعريفنا تعريفا دقيقا ، حتي يعلم بأمرنا من لم يكن يعلم .

قامت مجموعة من الخبراء الذين انتقتهم هيئة الأمم المتحدة لهذا الغرض (فى ١٩٥١) بتعريف البلاد المتخلفة بأنها تلك البلاد ذات متوسط الدخل المنخفض بالمقارنة بالولايات المتحدة . وسرعان ما انتشر هذا التعريف وأصبح أكثر التعريفات شيوعا .

وما أكثر الجداول التى أعدت ونشرت والتى ترتب بلاد العالم ، بعضها فوق بعض ، طبقا لهذا المعيار ، وهو متوسط الدخل . واختلف الاقتصاديون فقط فى تحديد المكان الذى يوضع فيه الخط الفاصل بين البلاد المتخلفة والمتقدمة ، فالمتشددون اعتبروا البلاد المتخلفة تلك التى يقل متوسط الدخل فيها عن ربع متوسط الدخل فى الولايات المتحدة بينما اكتفى المتساهلون بعشر هذا المتوسط أو ثمنه .

لم يخطر ببالنا قط فى ذلك الوقت ، أى منذ نحو خمسين عاما ، نحن الطلبة المشغولين بقضية التقدم الاقتصادى ، أن مثل هذه الجداول ترتكب خطأ فاحشا، إذ تعامل طائفة كبيرة من البلاد والأمم والثقافات نفس المعاملة ، لمجرد أنها تشترك فى خصيصة واحدة تهم الاقتصاديين أكثر من غيرهم ، وهى انخفاض متوسط الدخل ، رغم ما بين هذه البلاد والأمم والثقافات من اختلافات شاسعة فى كل شىء آخر تقريبا ، من طبيعة المناخ إلى نوع

التضاريس ، إلى خصائص اللغة ، إلى درجة التجانس العرقي إلى طبيعة الدين السائد ، فضلا عن اختلاف التاريخ ، ونوع العلاقة بين كل من هذه الأمم والدول الأوروبية الاستعمارية ، وقربها أو بعدها عن أوروبا وأمريكا . إلخ ، رغم أن هذه الاختلافات المهمة كانت تتطلب سياسات اقتصادية مختلفة وترتيبا مختلفا للأولويات ، وأساليب مختلفة في مخاطبة الجماهير وكسب تعاطفهم مع مايراد تطبيقة من سياسات .. إلخ .

أهمل الباحثون في التنمية الاقتصادية كل هذه الأمور إهمالا شنيعاً ، فهم إما لم يشيروا إليها في كتبهم وبحوثهم بكلمة ، أو ذكروها في جملة عارضة أو وضعوها في هامش ، حتى يتفرغوا لمهمتهم الوحيدة وهي بحث طرق زيادة الدخل ، وما يتطلبه هذا من زيادة الادخار ، والاستثمار أو معونات واستثمارات أجنبية ، أو تحرير أو تقييد التجارة ، أو زيادة ، أو تخفيض الضرائب .. إلخ .

وكأن هذه المتغيرات الاقتصادية كلها لا تتوقف هي نفسها على تلك الأشياء الأخرى التي جرى إهمالها ، من عادات وتقاليد ودين ولغة وعلاقات اجتماعية بين أفراد الأمة بعضهم البعض ، وعلاقات سياسية مع الدول الأقوى والأكبر .

من بين مالم يخطر ببالنا قط في ذلك الوقت التمييز في داخل هذه المجموعة من البلاد المسماة بالمتخلفة ، أي ذات متوسط الدخل المنخفض ، بين بلاد ذات حضارات عريقة وأخرى ليس لها مثل هذه الحضارات . أو بين بلاد عرفت نظام الدولة المركزية القوية منذ آلاف من السنين ، ودول لم يمض على إنشائها خمس سنوات أو أقل ، إن وضع هذين النوعين من البلاد في جدول واحد والحديث عنها كلها وكأن مايحتاجه النوع الأول من وسائل للنهوض الاقتصادي هو نفس مايحتاجة النوع الثاني ، كان يشبه مرور وابور الزلط أو البلدوزر على طريق مليء بالمرتفعات والمنخفضات والمباني والآثار فسواها كلها بالأرض وقضى على أي سمة تميز كلا منها عن غيرها .

كان الأجدر بالباحثين في أمر نهضة هذه البلاد أن يلتفتوا إلى أن عملية «إصلاح» يمكن أن تحدث بعد مرور هذا البلدوزر ، حتى لو أدت إلى تنمية اقتصادية ، يمكن أن تحدث ضررا بالغا وتخريبا شديدا في تلك الامم ذات الحضارات العريقة ، والتي أجريت عليها عملية «الإصلاح الاقتصادي» دون أي مراعاة لأثرها على ثقافة وتقاليد هذه الأمم وقيمها الاجتماعية والخلقية . كان لابد أن نتوقع هذه النتيجة المؤسفة التي حدثت بالفعل ، وهي أنه بعد ثلاثين أو

أربعين سنة من هذه التنمية الاقتصادية التى لا تلقى أى بال للتراث الحضارى والثقافى لأمم فقيرة حقا، ولكنها عريقة فى مضمار التحضر، لابد أن تتحول هذه الأمم إلى مسخ لثقافة وحضارة دول أخرى متفوقة عليها حقا اقتصاديا وتكنولوجيا ولكن ليس بالضرورة فى غير ذلك من أمور.

قد يعترض على هذا بالقول بأن كثيرين من الاقتصاديين كانوا يتوخون الحذر عن وصف بلادنا بأنها متخلفة فيقولون إنهم لايقصدون بالتخلف إلا التخلف الاقتصادى، ولم يقصدوا قط أن هذه الدول متخلفة بالضرورة ثقافيا واجتماعيا. فالاقتصادى على أى حال ليس مؤهلا، بوصفه اقتصاديا، للحكم على أى شىء غير الاقتصاد. ولكن هذا الاعتذار غير كاف بالمرة، والدليل على ذلك هو ماحدث بالفعل لثقافة وحضارة هذه البلاد «المتخلفة اقتصادياً» خلال الخمسين عاما الماضية.

ذلك أنه كان من واجب الاقتصادى أن يدرك من البداية أن الجسم الاجتماعى جسم حى لايمكن تقسيمه إلى أجزاء: هذا اقتصاد وهذا سياسة وهذا علاقات اجتماعية وهذا دين وهذا لغة. إلخ كان عليه أن يدرك منذ البداية أن أى إجراء «اقتصادى» لابد أن يؤثر فى السياسة والمجتمع والثقافة .. إلخ، كما أن أى عملية جراحية تجرى على جزء من المعدة لابد أن تؤثر فى بقية أجزاء الجسم. ومن ثم كان لابد أن يراعى فى اختيار أساليب الإصلاح الاقتصادى، الذى يمكن أن يحدثه كل أسلوب منها من آثار على نمط الحياة الاجتماعية ككل. لم يكن يجوز مثلا أن يختار المكان الذى تجرى فيه إقامة صناعة جديدة أو أسلوب الإنتاج الذى يتبع فيها، وما إذا كانت تتم فى ظل ملكية خاصة أو عامة، وطنية أو أجنبية، بسرعة أو ببطء .. إلخ. لم يكن يجوز اتخاذ هذه القرارات بناء على حساب العائد الاقتصادى وحده كان لابد أن يؤخذ فى الاعتبار ليس فقط أثر هذه القرارات على صحة الناس وراحتهم وعلى حجم العمالة والبطالة وعلى توزيع الدخل، وهى أمور تدخل فى نطاق الاقتصاد أو قريبة الصلة به، وكله كان لابد أن يؤخذ أيضا فى الاعتبار أثر هذه القرارات على ولاء الناس لتقاليد أمتهم ولغتهم القومية ومعرفتهم بآدابها وتاريخها، وولاء الفرد لدينه وأسرته وعلى أنماط الحياة والسلوك، من معمار وموسيقى وعلاقات اجتماعية .. إلخ.

الذى حدث هو عكس ذلك. فقد اتخذت هذه القرارات فى الغالبية العظمى من الحالات بناء على الاعتبارات الاقصادية وحدها، وكانت النتيجة تنمية اقتصادية متفاوته فى درجة نجاحها أو فشلها اقتصاديا، ولكنها فى كل

الأحوال فاشلة فى صيانة الثقافة والحضارة الخاصة بكل أمة . فإذا بالأمة التى سارت شوطا أبعد فى التنمية الاقتصادية هى أيضا التى سارت شوطا أبعد فى التنكر لتراثها وتقاليدها .

☆ ☆ ☆

ما الذى شجع على حدوث هذا المسخ والتشوية لثقافات وحضارات الأمم الفقيرة ؟

شجع عليه أولا مايحتله التغلب علي الفقر من أولوية فى سلم الحاجات الإنسانية . فالشخص الجائع لايفكر والحرمان الاقتصادى الشديد يصعب معه الاهتمام بمشكلات الثقافة والحضارة . وكلما اشتد الفقر كلما بدا الاهتمام بمشكلات الثقافة والحضارة ترفاً .

وشجع عليه ثانيا أن الحضارة والثقافة السائدة ، وهى الحضارة الغربية ، تتسم بإعلاء شأن الاقتصاد على ماعداه من جوانب الحياة .

إنها حضارة نشأت وترعرعت فى ظل الرأسمالية ، وانتشرت فى كثير من البلاد بدافع الاستعمار الاقتصادى ، فحملت ثمارها الثقافية والحضارية بذور إعلاء الاعتبارات الاقتصادية على ماعداها .

وشجع عليه أيضا شيوع فكرة التقدم التى لا تميز بين التقدم فى مضمار الاقتصاد والتكنولوچيا وبين التقدم فى غيره ، والتى تنطوى على الاعتقاد بأن التقدم الاقتصادى والتكنولوچي ينطوى بالضرورة على تقدم فى سائر نواحى الحياة ، وأن التنظيم السياسى والعلاقات الاجتماعية والقيم والأفكار . وأنماط السلوك التي تسود فى مجتمع متقدم اقتصاديا وتكنولوچيا هى كلها بالضرورة أكثر تقدما من تلك التى تسود المجتمعات الأفقر والتى تطبق تكنولوچيا أقل تقدما . إذا كان الأمر كذلك حقا ، فما وجه القلق علي مايمكن أن تجلبه التنمية الاقتصادية من تغيرات فى الثقافة أو القيم أو أنماط السلوك ؟

هذه الاعتبارات الثلاثة تكفي لتفسير ماكنا نشعر به فى بداية عهدنا بدراسة التنمية الاقتصادية بأولوية التنمية الاقتصادية على ماعداها ، وعدم توقفنا ، ولو لحظة واحدة ، للتفكير فيما يمكن أن تحدثه هذه التنمية الاقتصادية من تخريب فى جوانب أخرى من حياتنا .

هذه الاعتبارات الثلاثة ربما كانت أيضا تكفي لتفسير موقف رجل مثل الزعيم الهندى نهرو الذى كان متعاطفا بلاشك مع قضية المحافظة على التراث والثقافة الوطنية ولكنه كان على استعداد لتقديم اعتبارات التقدم الاقتصادى والتكنولوچى عليها ، على الأقل بمقارنته بزعيم هندى آخر هو المهاتما غاندى

الذى رفض التسليم بهذه الاعتبارات الثلاثة رفضا باتا : رفض مقولة أن التقدم التكنولوجى يعنى بالضرورة تقدما ثقافيا وحضاريا ، ورفض الاعتراف برقى الحضارة الأوربية أصلا ، بل رفض تقديم الحاجات الاقتصادية على غيرها من الحاجات الإنسانية .

ولكن العامل الأساسى الذى حسن الأمر ، وغلب الاعتبارات الاقتصادية على غيرها فى تطور العالم الثالث ، وقضى بإهمال قضايا الثقافة والاستقلال الحضارى ، كان شيئا أبسط من هذا بكثير ، وهو أن أصحاب القرارات النهائية والحاسمة فيما يطبق ولا يطبق من أساليب التنمية ، كانوا هم أنفسهم ينتمون إلى حضارة وثقافة مختلفة عن تلك المهددة بالتنمية الاقتصادية أو على الأقل كانوا ممن تربوا وترعرعوا فى ظل حضارة وثقافة مختلفة ومن ثم لم يساورهم أى شك فى أنها الحضارة الوحيدة الجديرة بالاقتداء . إنى أقصد بالطبع ممثلى المصالح الأجنبية من ناحية (من شركات ودول أجنبية وهيئات دولية تعمل لحساب هذه الشركات والدول) والعاملين فى خدمتهم من سياسيى الدول الآخذة فى النمو ، من ناحية أخرى . فهؤلاء وهؤلاء فرضوا علينا مشروعات وصناعات وطرقا فى الإنتاج وسلعا استهلاكية وإنتاجية وطرقا للترفية ووسائل إعلام تنتهى كلها بفرض نمط معين من أنماط الحياة ، وأنواع معينة من السلوك ، وطموحات وآمال من نوع معين تنتمى كلها إلى نفس نمط الحياة والسلوك والطموحات لأصحاب هذه الشركات وممثلى هذه الدول والمؤسسات الدولية ، دون أى اعتبار لما يعنيه كل ذلك من ضمور وانسحاب لأنماط السلوك والقيم والطموحات المحلية.

* * *

بعد ٤٠ سنة من هذه «التنمية الاقتصادية» النشطة ، بفترات صعودها وهبوطها ، بنجاحاتها وفشلها ، كانت الصورة العامة ، كما كان لابد أن نتوقع، بائسة تماما من الناحية الثقافية والحضارية ، وهى ما وصفته من قبل بالمسخ الذى يجمع بين هويتين أو شخصيتين ، ويتسم بالقبح الشديد فضلا عن فقدانه لأى شخصية ، ومن ثم عجزه عن أن يقدم أى مساهمة متميزة للثقافة الإنسانية . إذ انشغل سياسيو ومثقفو وفنانو أمم العالم الفقيرة بتقليد وتكرار مايفعله سياسيو الغرب ومثقفوه وفنانوه . وعندما شرع الاقتصاديون عندنا وعندهم فى تقديم كشف الحساب عن مكاسب وخسائر هذه الأربعين عاما (٥٠ - ١٩٩٠) لم يضمنوا كشفهم بندا يتعلق بالثقافة والحضارة ، بل اقتصروا فقط على البنود الاقتصادية ، كمتوسط الدخل ومعدلات الادخار والاستثمار



وبرجة التصنيع ومن تدفق الاستثمارات الأجنبية .. إلخ بل ولم يتناولوا حتى أثر التغيرات الثقافية والسلوكية على المتغيرات الاقتصادي ، بينما كان من الممكن جدا أن يكتشفوا أن كثيرا من أوجه الفشل الاقتصادى قد يكون راجعا إلى تغير فى أنماط السلوك والقيم والأخلاق والحياة الثقافية بوجه عام .

رغم أن نتيجة الأربعين عاما لم تكن سارة حتى من حيث النمو الاقتصادى نفسه ، إلا فى عدد محدود من البلاد ، معظمها فى جنوب شرقى آسيا ، حظيت دول العالم الثالث أو الفقير بترقية من جانب المعلقين والباحثين فى أمور التنمية والتخلف ، المنتسبين للعالم الصناعي أو المتقدم ، ومن الهيئات الدولية المتكلمة باسمه ، فأطلقوا على بلادنا وصفاً أرقى وأكثر تهذيبا من وصف «الدول المتخلفة» (under developed) كما كانت عادتهم فى الخمسينات والستينات وسمونا «دولا نامية» (developing) وهو وصف وإن كان أكثر تأدبا من وصفنا بالتخلف فإنه ليس أفضل منه كثيرا من حيث تصويره الحقيقة . إننا لم نكن «متخلفين» بل فقط فقراء ، كما أننا لسنا دائما فى حالة «نمو» بل كثيرا ما نكون فى حالة ركود أو تراجع اقتصادى ، وإن كنا دائما فى حالة «تغريب» ، باستمرار وبدون انقطاع . ولكن حيث أننا كنا دائما ولا نزال نفعل مايطلب منا بالضبط وبدون اعتراض ، كان من الضرورى تهنئتنا وتشجيعنا على الاستمرار فى نفس الطريق ، ومن ثم أطلقوا علينا هذا الوصف المشجع «الدول النامية» . وإمعانا فى تطميننا وتهدئة خواطرنا قيل لنا إن كل أوجه الفشل فى أدائنا الاقتصادى يمكن التغلب عليها باتباع مايسمى بسياسات «التصحيح الهيكلى» ، وهى فى نهاية الأمر لاتعنى أكثر من مزيد من فتح الأبواب أمام سلع الغرب واستثماراته ، بما فى ذلك بيع مصانعنا ومرافقنا العامة للأجنبى .

أما أوجه الفشل فى الأداء الاجتماعى ، إذ لوحظ زيادة كبيرة فى أعداد الفقراء والمعوزين حتى فى حالات النمو الاقتصادى السريع ، فقد وعدونا بالاهتمام بالأمر بدليل الإعلان عن معيار جديد لتقييم الأداء لايقتصر على الجوانب الاقتصادية البحتة ، كمتوسط الدخل ومعدلات الادخار والاستثمار والتصنيع .. إلخ ، بل يشمل ماسمى بجوانب «التنمية البشرية» أى تلك المتعلقة بالإنسان كآدمى ، وليس فقط باعتباره مستهلكا ومنتجا للسلع والخدمات.

هذا المعيار الجديد ، معيار «التنمية البشرية» (Human Develop-ment) قامت بالإعلان عنه هيئة الأمم

المتحدة للإنماء (UNDP) فى سنة ١٩٩٠ ، وقيل إنه سوف يتم بناء عليه ترتيب البلاد المختلفة من حيث تقدمها أو تأخرها فى مضمار «التنمية البشرية» ، ويقوم هذا المعيار على ثلاثة مؤشرات :

١ - متوسط الدخل ٢ - والعمر المتوقع لدى الميلاد ٣ - وحالة التعليم أما متوسط الدخل فقد أستعير من معيار التنمية الاقتصادية القديم ، وأما العمر المتوقع لدى الميلاد فأهميته ترجع إلى أنه يعكس التقدم والتأخر فى أمور مهمة للإنسان كحالة التغذية ومستوى الخدمات الصحية ، وأما التعليم فهو أيضا مهم لرفاهية الإنسانية وتقدمه .

كان من السهل الاعتراض على هذا المعيار الجديد (التنمية البشرية) بالقول بأنه لايزال يتجاهل أشياء أخرى مهمة ، كمستوى البطالة ، ودرجة المساواة فى توزيع الدخل ، وهى أمور اقتصادية بدورها ، كما أنه يتجاهل تماما مايحدث للجوانب الثقافية والحضارية ، مما يجعل هذا المعيار الجديد ليس أفضل كثيرا من سابقه ، الذى يعيش التقدم والتأخر بمتوسط الدخل وحده . ولكن بصرف النظر عن هذا الاعتراض (الذى لاشك فى صحته) فإن من المهم أن نلاحظ الخسارة التى لحقت بنا بتسمية هذا المعيار الجديد (التنمية البشرية) . إذ مهما كان اعتراضنا على معيار متوسط الدخل واقتصاره على قياس جانب واحد من جوانب حياتنا فإن أصحابها كانوا على الأقل متواضعين إذ كانوا دائما على استعداد للاعتراف بأنه لايتجاوز ميدان الاقتصاد ، ومن ثم لايقول لنا شيئا عما حدث لجوانب الحياة الأخرى .

أما تسمية المعيار الجديد بهذا الاسم الفخم ، معيار «التنمية البشرية» فتكمن خطورتها فى الإيحاء بأننا الآن نتكلم عن مختلف جوانب الحياة الإنسانية ورفاهيتها ، وهو بالطبع غير صحيح .

* * *

مضت عشر سنوات أخرى ، نسينا فيها أكثر فأكثر مايصيب حياتنا الثقافية وأنماط سلوكنا وقيمنا وعلاقتنا الاجتماعات من تغيرات كانت جديرة بإثارة القلق والأسف . ثم ظهر فجأة فى سنة ٢٠٠٢ تقرير مدهش ، من نفس المنظمة (UNDP) ولكنه خاص بالبلاد العربية وحدها ، ويحمل عنوانا أكثر إدهاشاً وهو «التنمية العربية الإنسانية» Arab Human Development تجرأ هذا التقرير على الادعاء بأنه يقدم لنا معياراً أكثر شمولا للتقدم الإنسانى والتخلف ، ومن ثم استعاض فى ترجمته للفظ الانجليزى (Human Devel-opment) التنمية البشرية ، كما فعلت التقارير السابقة ، بعباره «التنمية الإنسانية» الأقرب فى اللغة العربية إلى الجوانب النفسية والمعنوية فى الإنسان . وزعم هذا التقرير أن من

الأفضل الاستغناء عن متوسط الدخل استغناء تاما في قياس التقدم الإنساني والتخلف ، والاعتماد على ثلاثة مؤشرات أخرى هي : الحرية أو الديمقراطية ، والمعرفة ، وما أسماه «بتمكين المرأة» (women empowerment) أي الارتفاع بمستوى المرأة ورفع القهر عنها. وراح التقرير يقارن الدول العربية بعضها ببعض ، وكذلك بالدول الأخرى ، في هذه الأمور الثلاثة .

هكذا انتقلنا عبر خمسين أو ستين سنة ، من التنمية الاقتصادية إلى التنمية البشرية إلى التنمية الإنسانية وفي كل خطوة كان استخدام لفظ «التنمية» يبدو كريها أكثر فأكثر ولا تقبله النفس إلا بصعوبة أكبر فأكبر . ذلك أن لفظ التنمية أو النمو يوحي بزيادة العدد أو الحجم أو صفات مادية يسهل قياسها فأنا أنمي ثروتي أو أموالي بإضافة القرش إلى القرش أو فدان الأرض إلى فدان ، أو أنمي ثروتي الحيوانية بزيادة عدد المواليد من قطعان الماشية أو الماعز ، ومن السهل أن أقيس هذا النمو أو ذاك بأرقام قاطعة الدلالة على ماحدث . أما «التنمية الإنسانية» فعبارة غامضة لايمكن أن تؤدي إلا إلى اللبس ، وقد تستخدم أيضا للتضليل ، وهي لهذا السبب عبارة قبيحة وفاسدة الذوق . وهي عبارة تهبط بأمور تتعلق ببعض من أسمى أهداف الإنسان وصفاته إلى مستوى العد والجرد ، وتختصر تطورا معقدا أشد التعقيد ومتعدد الجوانب في مؤشرات بسيطة وسطحية للغاية .

خذ مثلاً هدفا كالحرية ، أو وصف الإنسان بأنه حر أو مسلوب الحرية . إن للحرية عشرات المعاني ، ومجالات ممارستها متعددة ومتشعبة ، والقيود التي ترد عليها قد تأتي من عشرات المصادر ليست الدولة إلا مصدرا واحدا منها . فحريتي قد تقيدها الدولة أو المؤسسة الدينية أو العرف الشائع أو رب العائلة أو شيخ القبيلة أو المدرسة أو الحزب أو الرقيب على الصحف أو على الإذاعة والتليفزيون ، ناهيك عن الفقر كقيد على الحرية ، والمرض والعجز والشيخوخة ، وضيق المسكن وصعوبة الانتقال من مكان لآخر وملوثات البيئة وارتفاع مستوى الضجيج .. إلخ إذا كان الأمر كذلك فكيف يتسنى لأحد أن يزعم أن الحرية تقاس بعدد مرات الذهاب إلى صناديق الانتخاب (دون الالتفات حتى إلى ما إذا كانت الأحزاب المتنافسة ذات برامج متشابهة أو مختلفة) أو عدد المسجونين بسبب آراء سياسة ، (بصرف النظر عن عدد المحرومين من تحقيق رغباتهم الطبيعية بسبب الفقر) وأن الدولة تعتبر متقدمة في مجال الحرية إذا زاد عدد مرات الانتخاب وقل عددا المسجونين

السياسيين ومتخلفة إذا حدث العكس ، بصرف النظر عما يحدث فى سائر المجالات الأخرى ؟ ثم إن كلاماً مشابها جدا لهذا يمكن قوله عن حالة المعرفة إذ من الغنى عن البيان أن هدف المعرفة ، بقدر ماهو هدف سام وشريف ، هدف معقد ومتعدد الجوانب وله عشرات الوسائل والمصادر . كما أن وصف شخص ما بأنه يتمتع بمعرفة كبيرة أو واسعة ليس من السهل قياسه . فالمعرفة ليست هى مجرد جمع المعلومات ، وإلا كان الكومبيوتر أكثر الكائنات معرفة، ودائرة المعارف «أكثر معرفة» من صاحبيها . ونحن نعرف أشخاصا واسعى المعرفة وبعيدين كل البعد عن الحكمة ، وأن الحكمة كثيرا ما تكون مطلوبة أكثر من المعرفة ، بل وأن كثرة المعرفة قد تؤدى هى نفسها إلى قلة الحكمة ، إذا كانت من نوع المعرفة التى «لاتنفع الناس» ، أو إذا أدت كثرتها إلى اختلاط الأمور أمام صاحبها فأضعفت قدرته على التمييز بين النافع والضار . لايمكن إذن فى تحديد الهدف الاكتفاء بكم المعرفة بل لابد من التطرق إلى نوعها . ومتى سلمنا بأهمية «نوع» المعرفة فإن قياس التقدم والتخلف فى مجال المعرفة يصبح من أصعب الأمور إن لم يكن مستحيلا ، ويحسن بالمرء فى هذا المجال ، كما رأينا أيضا فى مجال الحرية، أن يتحلى بالتواضع والتأنى والحذر قبل أن يظن نفسه «أكثر تقدما» فى مجال المعرفة من غيره ، وقبل أن يرتب الناس والأمم بعضهم فوق بعض فى مجال «المعرفة» ، زاعما أن بعضهم أفضل من غيرهم ، لهذا السبب ، فى مضمار «التنمية الإنسانية» .

والأمر لايقل وضوحا فى مجال الارتقاء بأحوال المرأة أو تحريرها ، أو بحسب تعبير تقرير التنمية الإنسانية «تمكين المرأة» . لايمكن أن ينكر أحد أن المرأة المصرية أو العربية تعانى من بعض صور القهر التى يتعين التخلص منها . ولكن أى امرأة فى العالم لا تعانى من صورة أو أخرى من القهر ؟ وأى مرحلة من مراحل التاريخ عرفت مساواة بين المرأة والرجل ؟ إن من الخطأ الظن بأن الأمم المتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا لابد أن تكون قد نجحت أيضا فى تحرير المرأة من كل صور القهر . ذلك أن التقدم الاقتصادى والتكنولوجى قد يؤدى بذاته إلى زيارة استغلال المرأة اقتصادياً ونفسيا ، إما خضوعاً لمنطق تعظيم الأرباح فى ظل الرأسمالية ، أو لمنطق تسويق السلع فى ظل المجتمع الاستهلاكى، أو لمنطق تشجيع الفردية والاستقلالية فى ظل المجتمع التكنولوجى الحديث ، أو لكل هذا معاً كما حدث فى معظم دول الغرب التى تجتمع فيها سمات الرأسمالية مع سمات المجتمع الاستهلاكى والتكنولوجى الحديث .

لا عجب إذن أن يبدو الكلام عن تمكين المرأة (women empower-ment) أدعى إلى إثارة الضحك والسخرية منه إلى معاملته معاملة الكلام الجاد . بل إن العبارة نفسها «تمكين المرأة» تفضح سخافة الهدف . فهى ، خاصة فى اللغة العربية ، عبارة غير مكتملة ، إذ أن كلمة «تمكين» بالعربية لا يكتمل معناها إلا إذا اقترنت بالبوح بالشيء الذى يراد تمكين المرأة منه . ومتى حاول المرء الإجابة على السؤال عما يراد تمكين المرأة منه اتضح تعقد الهدف وصعوبة الحسم بما إذا كانت أمة ماقد نجحت أكثر من غيرها فى الارتقاء بأحوال المرأة . فتمكين المرأة من المال قد يفقدها استقلالها وحريتها إزاء الشركة التى تكسب المال منها ، وتمكينها من الاستقلال عن الزوج قد يفقدها التمتع بمكانتها كأم وربة أسرة . إلخ .

هنا أيضاً لابد من بعض التواضع.

ومع جميع الأحوال يجب تجنب هذا التعبير السخيف «التنمية الإنسانية» ، الذى يقدم على افتراض ضمنى بأن الرقى الإنسانى هدف بسيط يمكن قياسه بالأرقام كما يقاس الطول والقصر ، وإخضاعه للقياس بالعدد أو الحجم أو الوزن كما تعرض السلع والحيوانات ويقاس حجمها ووزنها .

إن صور الرقى كثيرة كما أن صور القهر كثيرة ، وكثيرا ما تنجح أمة فى التخلص من صورة من صور القهر لتقع فى صورة أخرى منه . ولا يجب أن يعمينا نجاح أمة فى إحراز تقدم اقتصادى أو تكنولوجى عن فشلها فى إحراز تقدم فى جوانب أخرى من جوانب الحياة الإنسانية.

ولكننا للأسف معرضون دائما للوقوع فى هذا الخطأ . فالشخص القوى ماديا له سحره وسطوته ، وكذلك الأمة القوية اقتصادياً وتكنولوجيا ، حتى لنظن أن تقدمها فى هذه الأمور لابد أن ينطوى على تقدم فى سائر الأمور . وهذا الخطأ الشنيع يشبه فى رأيى ماقد يحدث إذا اعتدت قبيلة على قبيلة أخرى ، فألحقت بها هزيمة ساحقة وسيطرت عليها سيطرة تامة . إذ ينظر أفراد القبيلة المهزومة ويلاحظون أن أفراد القبيلة المنتصرة لهم جميعا أنوف ضخمة لايكاد يشذ منهم أحد عن ذلك . فظنوا أن هناك علاقة وثيقة بين الانتصار فى الحروب وحجم الأنف ، وراحوا يحاولون المستحيل لتكبير حجم أنوفهم ، فإن لم يستطيعوا ذلك بالشد والجذب ، ركبوا على وجوههم أنوفا صناعية كبيرة الحجم .

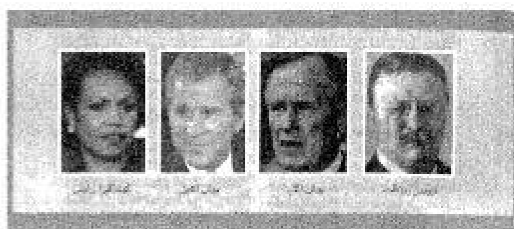
كم يبدو شكلهم مضحكا حينئذ وكم يثيرون الرثاء لحماقتهم ، بالضبط كما يبدو لنا تقريرا «التنمية الإنسانية العربية» الصادران فى العامين الماضيين عن برنامج الأمم المتحدة للإنماء ■

الإمبراطورية الأمريكية

نصائح ضد الأفول

بقلم

جميل مطر



بفضل السياسة الخارجية الأمريكية في السنوات الأخيرة اكتسبت هواية جديدة. أقبلت على قراءة ما يكتب في الولايات المتحدة وخارجها عن الأساليب الإمبراطورية في التوسع وحكم الشعوب وبناء الأمم . كثيرون هذه الأيام الذين يضعون النظريات ويقدمون النصائح للطبقة الحاكمة الأمريكية عن كيفية حماية الإمبراطورية من خطر الاندثار الذي تعرضت له الإمبراطوريات «الليبرالية» السابقة وأهمها البندقية وبريطانيا. ولما كان الصديق السفير لبيب العربي يعرف عني هذه الهواية فقد بعث لي بمقال طويل كتبه كبير المنظرين للإمبراطورية الأمريكية «روبرت كابلان»، سجل فيه عدداً من القواعد التي وصفها بأنها ضرورية إذا أرادت الولايات المتحدة أن تحتفظ بمكانتها وقوتها الإمبراطورية الدائمة.



وقبل أن يفصل «كابلان» في القواعد قال لنا ما لم أكن أنا شخصياً أعرفه بهذا التحديد أو الدقة. قال إنه عندما دعيت القوات الأمريكية إلى العراق منذ عام كانت القوات الخاصة الأمريكية منتشرة في ٦٥ دولة في العالم. كانت في نيبال تدرب قوات الحكومة على حربها ضد الثوار الماويين، وكانت في الفلبين تشترك في الحرب ضد جماعات أبو سياف، وأحزاب التنظيمات اليسارية في كولومبيا. أما أهم المراكز الإمبراطورية الأمريكية في الخارج، فهي الدولة التي تحصل على ثالث أكبر معونة أمريكية بعد إسرائيل ومصر، وهي الدولة التي تحتفظ لها أمريكا بسر حيازتها لاحتياطيات هائلة في النفط لم تستغل بعد وغابات شاسعة وثروة عظيمة من الطيور.

يقول كابلان إن الإمبراطورية الليبرالية تنهار لأنها تتسبب في تحولات ديناميكية في أرجاء الإمبراطورية، ولأنها بممارساتها تنشر أفكار الديمقراطية فتضعف سلطة المستبدين من أصدقاء أمريكا وتقوى مساعد القوة المعارضة. فضلاً عن أنها تعرض نفسها لمواقف محرجة من جانب حلفائها كما حدث من جانب تركيا والمكسيك وألمانيا وفرنسا حين عارضت أمريكا لأن شعوبها كانت ضد التدخل في العراق



أعداء الامبراطورية الأمريكية

كان أفضل للولايات المتحدة أن تتدخل في العراق بهدوء وتضرب بسرعة وفي السر، هكذا ينصح إليوت كوهين أستاذ التاريخ العسكري في جامعة جونز هوبكنز الأمريكية. يقول أن الرومان كانوا يتصرفون على هذا النحو . وينقل عن تيودور روزفلت قوله «تكلم بنعومة واقبض على عصا غليظة»، وبريطانيا التي كانت، حتى مائة عام فقط، تتحكم أساطيلها في محيطات العالم وغير قابلة للهزيمة، هي الآن قوة من الدرجة الثانية في أوروبا والتي تقودها ألمانيا وفرنسا، والصين تزداد قوة بمعدلات متسارعة ، والأمم المتحدة نقيض النظام الإمبراطوري لأنها تكره الحرب، كل هؤلاء أعداء للإمبراطورية الأمريكية.

تقوم الولايات المتحدة، في أنحاء شتى من العالم ، ببناء أمم أو إعادة بناء دول سقطت أو كادت تسقط أو تتأهل للسقوط. في تلك الدول تقوم القوات الخاصة الأمريكية باتخاذ قرارات دون العودة إلى واشنطن أو قيادتها في فلوريدا وجورجيا . يؤدي جنود القوات الخاصة وظائف بالغة الأهمية، فهم في كولومبيا يدربون الجيش الكولومبي على القتال بشجاعة أكبر. يتسامرون مع شيوخ القبائل في أفغانستان والعراق للاستفادة من نفوذهم ومعلوماتهم لشن عمليات ضد المقاومة ولإثارة نعرات قبلية وطائفية إن احتاج الأمر. ذهبوا إلى اليمن ليبحثوا مع السلطات فيها عن نوع القوات التي تحتاجها في المرحلة الحالية. هل هي في حاجة إلى قوات بحرية خاصة لحماية السواحل؟ ، أم قوات خاصة للمدن أم قوات متدربة على حرب العصابات في الجبال؟ . يناقشون مع قطاعات المجتمع المدني في منغوليا والحكام المحليين وسائل حماية الاستقرار ضد تمرد تدفع إليه الصين أو روسيا . وفي رومانيا يقومون بجهد كبير لبناء جيش جديد وقياس استعداد جنود رومانيا لإدارة حرب حديثة. هؤلاء وغيرهم من الجنود الأمريكيين المنتشرين فيما لا يقل عن ٦٥ دولة هم حسب تعبير كابلان، حراس القيم الإمبراطورية ووكلائها في الخارج، هؤلاء يجب أن تقيم لهم حكومة واشنطن قواعد عسكرية في الدول وفي دول أخرى.

قواعد تلتزم بها الامبراطورية

قام روبرت كابلان، استعدادا لكتابة المقال، برحلة أخذته إلى أربع قارات ليدرس على الطبيعة أوضاع الامبراطورية الأمريكية، وليخرج بعدد من الشروط والقواعد التي يجب أن تلتزم بها الإمبراطورية. تقول القاعدة الأولى أنه ليس شرطا



في السياسي الذي يدير إمبراطورية عصرية أن يتمتع بفصاحة تشرشل أو بإنسانية روزفلت . ليس مطلوبا منه أن يبشر بأربعة عشر نقطة مثل الرئيس ولسن ولا بحريات أو بنظريات أو أحلام

الأهم من كل هذا أن يعزز وجوده على الأرض برجاله الذين هم الضمان الوحيد لتوسع الإمبراطورية وسلامتها. وينقل عن أحد مؤرخي الاستعمار البريطاني قوله: أن أفضل رجال الإمبراطورية هم هؤلاء الذين يمارسون الرياضة والمتفتحون والحساسون للبيئة الثقافية التي يحرسون فيها قيم الإمبراطورية عارفون بالعادات والتقاليد المحلية لأنهم بهذه المعرفة يكسبون ثقة القادة المحليين

اجتمعت هذه الصفات في أربعة وخمسين جندياً من جنود القوات الخاصة غيروا مسار القتال في الإكوادور. كل جندي فيهم تدرب على أن يكون قاتلاً في لحظة وإنسانياً في لحظة أخرى، وأن يجيد لغة البلد التي يعمل فيها.

تفترض القاعدة الثانية في القوات الخاصة الإمبراطورية سرعة الحركة. ويعتبر كابلان الإسكندر الأكبر النموذج لكل قائد إمبراطوري. فقد استطاع الهيمنة على بلاد فارس في عام ٤٠١ قبل الميلاد دون أن تكون لديه خطة مسبقة باستثناء تصريحه لقادته الميدانيين بأن يفكروا ويخططوا وينفذوا دون العودة إليه . ما لا يعرفه الكثيرون أن أهم صفة تتمتع بها جنود الإسكندر الأكبر كانت قدرتهم على إقامة علاقات شخصية وصداقات مع القادة المحليين

لقد وافقت رومانيا وبلغاريا على الدخول في حرب العراق لا لشيء إلا لأن القوات الأمريكية المقيمة في كلا الدولتين نجحت في العلاقات الشخصية مع النخبة السياسية الجديدة فيهما .

مهارة الاحتلال!

تبقى القاعدة الثالثة على أهمية أن تكون إمبراطورية روما دائماً نصب أعين القيادة الإمبراطورية الأمريكية. فالولايات المتحدة عندما سمحت بتعددية الهجرات في النصف الثاني من القرن الماضي أي صارت هي نفسها مثل روما، أي صارت بشكل آخر «مجتمعاً دولياً». كانت روما الإمبراطورية في أزهى عصورها تمنح المواطنة للنخب في البلقان والشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وحدث أكثر من مرة أن تولى حكم الإمبراطورية رجال من أسبانيا وأقاليم أخرى في الإمبراطورية. وأمام أمريكا فرصة لإحياء روما. وأول نصيحة يجب أن تلتزمها هي تجنيد أكبر عدد ممكن في قواتها المسلحة من أبناء الشرق الأوسط، واستخدام القادة المحليين كسفراء للإمبراطورية وقادة لجيوشها حتى لو كانوا حديثي العهد بالجنسية الأمريكية. يفخر كابلان بأن القيادة العسكرية الجنوبية تضم عديداً من العناصر المكسيكية والكوبية وأنها قررت اعتبار اللغة العربية «مهارة احتلال» وشرطاً ضرورياً من شروط الانضمام للقوات الخاصة. ينصح أيضاً بأن تقيم القيادات العسكرية في المواقع الخارجية مثل قاعدتها في دولة قطر أو كما كانت في بنما حتى عام ١٩٩٧. وينصح أيضاً بمنح القادة الإقليميين حريات كبيرة في

اتخاذ القرار في مواقعها الخارجية.

وفي النصيحة الرابعة يشير إلى أهمية اختراق قيادات الأمن الداخلي والقوات المسلحة في جميع دول العالم . يقول أن رؤساء الدول والحكومات يتغيرون ولكن يبقى حرس رئاسة الجمهورية . هؤلاء لا يتغيرون . كذلك القوات الخاصة المحلية التي يتم تدريبها على أيدي الأمريكيين فهي لا تتغير. والسبب ببساطة، أن هؤلاء، أي حرس الرئاسة والقوات الخاصة، يتكلف تدريبهم جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة. ثم يتساءل كابلان، أيهما أهم بالنسبة لواشنطن: أن يكون في تركيا وباكستان ديمقراطية قوية وجيش ضعيف أم جيش قوي وديمقراطية أقل؟ . ويعتقد أن الإجابة واضحة ولا تقبل الشك ، ولكن لا يجيب . ويضيف أن ما لا يعرفه الكثيرون أنه تبين أن الرسالة التي تصل للسياسيين الأجانب عن طريق الضابط الأمريكي المسئول عن تدريب القوات المحلية تكون مقنعة أكثر من الرسالة التي تصل عن طريق شخصية مدنية أمريكية وحتى لو كان وزير خارجية أمريكا ، بل وأي شخصية سياسية ومحلية كبيرة. لذلك يجري تدريب القوات الخاصة الأمريكية على كيفية تلقين المبادىء الأمريكية كحقوق الإنسان والديمقراطية لنشرها داخل جيوش العالم .

إن القوات الخاصة الأمريكية الموجودة في بعض دول القوقاز ووسط آسيا وبخاصة في أوزبكستان وجورجيا وطاجكستان تؤثر في الحياة السياسية أكثر مما يؤثر فيها الدبلوماسيين والمدنيين الأمريكيين الذين تزدحم بهم عواصم تلك الدول. والمعروف على كل حال أنه في العصر الإمبراطوري يصعب التمييز بين العمل العسكري والعمل الدبلوماسي، إلى درجة أن القوات الخاصة الأمريكية هي التي تكفلت بصياغة القوانين الجديدة في دولة بارجواي وهي التي وضعت مشروع الدستور الجديد في عام ١٩٩٤. ويقول كابلان : أن القوات الخاصة الأمريكية تقوم حاليا بتدريب ضباط اليمن على كيفية التعامل سياسيا مع رجال القبائل ويعالجون المرضى في منغوليا وفي أمريكا الوسطى وفي بوليفيا .

ويشير كابلان ، ويؤيده في ذلك خبراء آخرون في الشئون الامبراطورية الأمريكية، إلى أهمية مايسمى باقتصاديات القوة، أي تحقيق أقصى عائد بأقل تكلفة. التزمت بهذه القاعدة القوات الأمريكية منذ بداية الحرب الباردة وتزداد أهميتها باستمرار نقص الموارد. وستكون النتيجة الحتمية



للالتزام بهذه القاعدة الاستخدام المتزايد لحروب المخابرات والحروب السرية.

من أين يبدأ الإصلاح؟

وتثير قضية بناء الأمم أسئلة كثيرة تتعلق بحدود الإصلاح ومدى الحاجة وإبراز خطأ القائلين بضرورة إصلاح المجتمع بكامله. يذهب تيار إلى أهمية التركيز على جوانب معينة في المجتمع بإصلاحها والتوسع منها إلى جوانب أخرى. فإذا كان من الصعب مثلاً إصلاح القوات المسلحة بدون إصلاح المجتمع حينئذ يجدر التركيز على قيادات الجيش من كل الرتب وعدم انتظار إصلاح المجتمع. وفي حالة الحرب يتعين على القوات الخاصة الأمريكية والمحلية المدربة تحت إشراف هذه القوات التركيز على الأهداف الدقيقة والاستراتيجية فقط وعدم التوسع في نطاق الحرب. لقد أبرزت إن اقتصاديات القوة أهمية القوات الخاصة في العمل الإمبراطوري الأمريكي لأنها وإن تكلفت غالياً فإن عائدها أكبر بكثير من عائد القوات العادية ذات التكلفة الأرخص. ومن أمثلة اقتصاديات القوة فكرة أو استراتيجية المهمات الفردية سواء كان الفرد يقوم بعملية عسكرية خطيرة أو يعمل مستشاراً ومدرباً لفئات خاصة في دول أخرى. هذا الفرد سيكون رصيداً هائلاً في المستقبل، لأنه سيكون ، إن آجلاً أو عاجلاً، مستشاراً استراتيجياً لأمريكا في شئون الدولة التي عمل فيها وتقاليدها ونخبها.

ومن القواعد التي ينصح بها كابلان ماجرى تجربته من قبل، مثل تشكيل مجموعات صغيرة من الرجال تكلف بمساندة أو قلب نظام حكم في دولة أخرى. والشائع، ولكن غير الموثق، أن الولايات المتحدة توقفت عن هذه الممارسات بعد اكتشاف اشتراكها في مؤامرة إسقاط أيندي رئيس جمهورية شيلي واغتياله في أوائل السبعينات يتأكد الآن مرة أخرى للنخبة الحاكمة في واشنطن أن الدور الذي قامت به القوات السرية في إسقاط أيندي واغتياله نموذجاً صالحاً ويجب العودة إليه. فالأعمال السرية مأمونة أكثر من الأعمال الحربية التي تتطلب تعبئة واسعة في الجيش وفي السياسة والدبلوماسية وفي الإعلام.

ويقول كابلان أنه يجب عدم الاهتمام كثيراً بالجوانب الأخلاقية في الحروب السرية. وقد جرت العادة أن تسبق الأعمال العسكرية، وبالتالي فهي منفصلة أخلاقياً عن مبدأ إعلان الحرب الذي يعقبه الغزو المسلح.

الوحشية مطلوبة

ويقول كابلان من ناحية أخرى يجب أن يتعود الرأي العام الأمريكي على أن الحروب وحشية بطبيعتها، وأن الوحشية في الحروب مطلوبة من أجل دعم الإمبراطورية. لقد كتب أحد كبار المؤرخين العسكريين كتاباً عن وحشية الاحتلال العسكري للفلبين خلال الحرب الأمريكية فيها منذ عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٠٢. وقال أن وحشية ماحدث هناك واستغلال الانقسامات الطائفية والدينية كانت أموراً مدبرة ولازمة. والمؤكد أنه في المناطق التي لم يتم فيها بعد تصفية المقاومة المسلحة الإكثار بشدة من

الجنود والإقلال من المتطوعين لأغراض المساعدة الإنسانية. فالمتطوعون، أحياناً بل وغالباً، يشكلون عقبة في طريق تقدم القوات الأمريكية فضلاً عن أنهم أداة إعلامية قد تكشف عن وحشية بعض الأعمال العسكرية، الأمر الذي لايخدم إطلاقاً أهداف الحرب وأهداف الإمبراطورية الأمريكية في الخارج.

هزيمة أمريكا!

أما «أم القواعد» فهي أنه لا شيء يعلو فوق المهمة العسكرية. لامهمة أخرى ولا رسائل ولا التزامات أو مواثيق دولية، لا اتفاقات ولا أمم متحدة ولا مجلس أمن ولا رأي عام، لاشيء على الإطلاق يعلو فوق المهمة العسكرية. مشكلة «الإمبراطوريين» في أمريكا هي الرأي العام الأمريكي وضغوطه وشدة استجابة النخب السياسية لهذه الضغوط. كانت فيتنام النموذج الذي يجب أن لايتكرر مرة أخرى في أي عملية من العمليات العسكرية الأمريكية في الخارج. لاينسى دعاة الإمبراطورية الأمريكية ودعاة العمل العسكري الخارجي ثورة الرأي العام الأمريكي على كل توسع في العمليات التي قامت بها القوات الأمريكية في فيتنام. اضطرت هذه القوات إلى الانسحاب مراراً ورغماً عنها تحت ضغط الرأي العام وفي النهاية أدى هذا الضغط إلى هزيمة أمريكا على أيدي الفيتناميين. يقول كابلان إنه لا شيء على الإطلاق يجب أن يحد من حرية الجيش الأمريكي في أي دولة في العالم في التوغل داخل الدولة وفي كل المواقع المحيطة بهذه الدولة إن استدعى الأمر هذا التوغل لحماية نفسه وحماية المصالح الأمريكية.

الحرب الشاملة أو المتكاملة مفهوم مشتق من نص صيني كتبه إثنان من العقداء في جيش تحرير الشعب الصيني. يقول النص «إنه في القرن العشرين قد يحتوي نزاع عسكري معين على أنشطة عسكرية تقليدية وحروب اقتصادية وتجارية وقانونية» تسعى الحرب المتكاملة إلى إحداث صدمة لدى الأعداء بالهجوم عليهم في أكثر من موقع وفي أكثر من قطاع وضد أكثر مصلحة من مصالحهم. ولعب الإعلام دوراً مهماً في هذه الحرب. إذ تؤثر أجهزة الإعلام في صنع السياسة رغم أنها لاتتحمل مسئولية نتائج هذه السياسة. وقد استخدمت الولايات المتحدة في العراق هذا الدور بشكل لم يحدث في حروبها السابقة. إذ اهتمت أشد الاهتمام بالإعلام العالمي وأهملت إهمالاً شبه كامل الإعلام الأمريكي، بذلك تفادت ثورة الرأي العام الأمريكي وحاولت إحداث الانقسام في صفوف



الأعداء الفعليين فى العراق والأعداء الذين اعترضوا على الحرب الأمريكية فى أوروبا. ويفخر كابلان بأن الولايات المتحدة التى اشتهرت بنجاحها فى بيع منتجات لاتريدها الشعوب الأخرى تستطيع أيضاً أن تسوق سياسة خارجية بطريقة جيدة. يجب أن يتوافر لدى الولايات المتحدة محاورون يستطيعون التحدث فى فضائيات العالم العربى بإحدى اللهجات السائدة فى العالم العربى. ويعترف بأن هذه المهمة تزداد صعوبة إذا كان الهدف مجتمعات تسود فيها الأمية وتنتشر فيها الشائعات ونظريات المؤامرة، أى فى مجتمعات تنتقل فيها الأخبار شفهية فقط. فى هذه الحالة يجب تفادى المواجهة المباشرة والتركيز على تشتيت انتباه المواطنين المحليين على قضايا داخلية وبرامج ترفيهية تافهة أو مثيرة للجدال.

أما النصيحة التى يعتقد المؤلف أنها يجب أن تأتى قبل أى نصيحة أخرى فهى «أن يعلو دائماً الصوت الأمريكى كصوت منتصر». إن الطلب على الأمن فى الداخل أدى إلى الرغبة فى الهيمنة على الخارج، وهى حكمة مقتبسة من نموذج الإمبراطورية الرومانية. إلا أن لغة الانتصار يجب أن تستند فى النهاية على ثقة الشعب الأمريكى فى منعة أمنه الداخلى. وأمنه القارى ولذلك ستكون العقود القادمة عقوداً حاسمة فى التاريخ الأمريكى، وسيتعين على واشنطن أن تدير إمبراطورية فى مواجهة شعور متزايد بأنها دخلت مرحلة الأقوال وعدم الجدوى. يعلق كابلان أن ونستون تشرشل كان يتنبأ للولايات المتحدة أن تكون خليفة للإمبراطورية البريطانية. أما نحن (أى أمريكا) فيجب أن لا يهدأ لنا بال طالما لم يبزغ أمامنا احتمال مماثل للنبوءة التى تنبأ بها، بمعنى آخر يتعين على الأمريكيين منع تحقق نبوءة مماثلة.

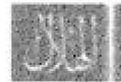
إن المشكلة الكبرى فى نظر حماة الإمبراطورية الأمريكية هى مايطلق عليه تعبير الإمبراطورية المترددة. وأظن أنهم على حق فى هذا. إذ أنه حتى الآن ورغم كل الجهود التى بذلت فى الأعوام الأخيرة لبناء أساس داخلى قوى فى الولايات المتحدة يمكن أن يقوم عليه أو فوقه إجماع وطنى مناصر للإمبراطورية لم ينجح هذا الأمر حتى الآن. فالأمريكيون منقسمون، ومازالت نسبة كبيرة فى النخبة السياسية الأمريكية تخشى عواقب الاندفاع الإمبراطورى الأمريكى. ومع ذلك يتفاعل بعض أنصار الإمبراطورية بمستقبل المشروع الإمبراطورى استناداً إلى أن التركيبة السكانية الأمريكية الجديدة تبشر بقرب حصول هذا الإجماع. إذ أن نسبة متزايدة باستمرار من السكان الأمريكيين من أصول أسبانية لن تقف بحكم ثقافتها السياسية عائقاً باسم الديمقراطية أو الليبرالية فى وجه هذا الاندفاع الإمبراطورى. بل إن هذه الملايين الجديدة التى تتحدث الأسبانية فى الولايات المتحدة وتتلعثم عندما تتحدث اللغة الإنجليزية أو تفكر بها لاترى غضاضة فى قيام نظام فى أمريكا يقيد الحريات والديمقراطية ويتوسع فى الخارج على حساب الدول الأخرى حتى لو كانت فى مواطنها الأصلية، أى فى أمريكا اللاتينية ■

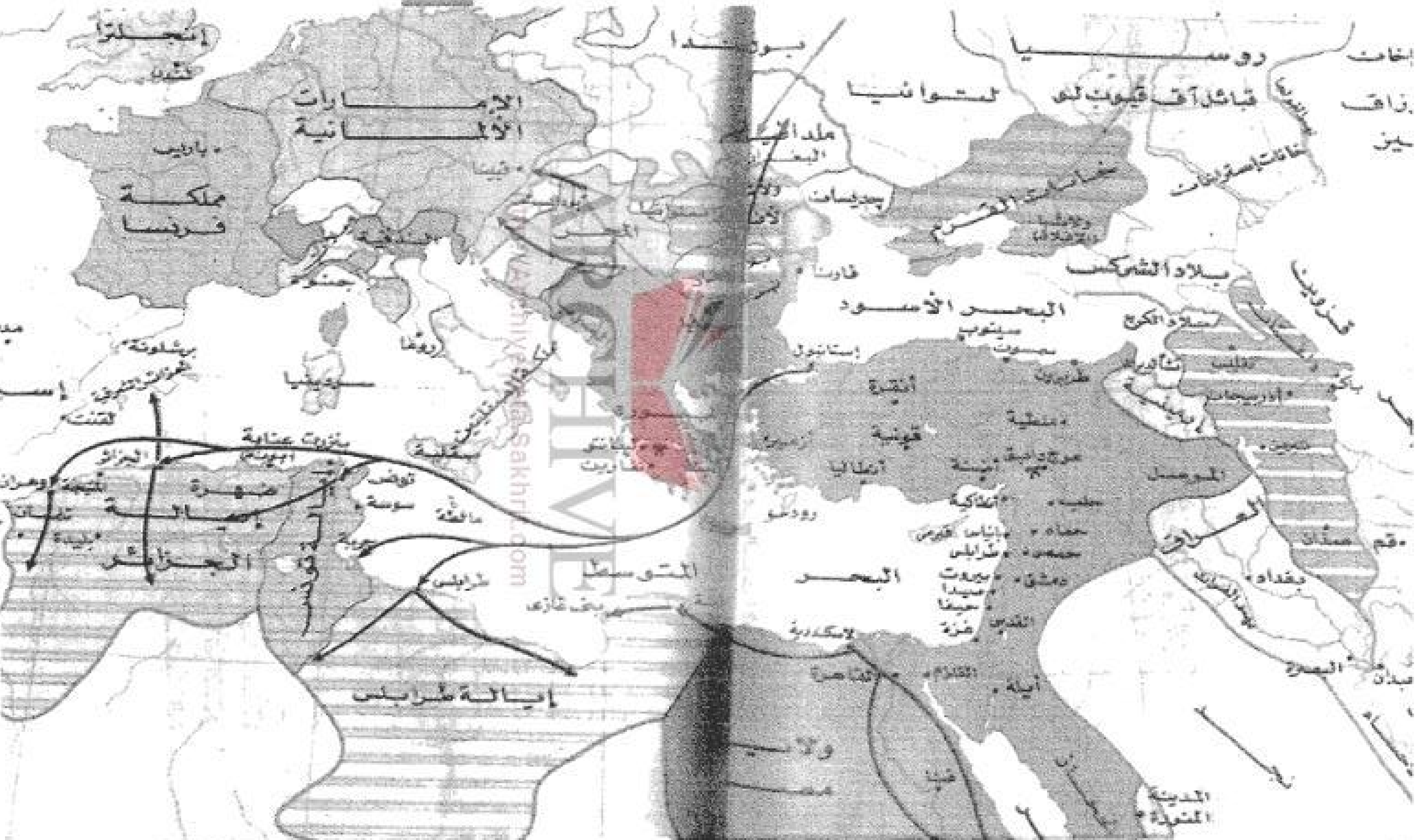


الشرق الأوسط الكبير والإصلاح على الطريقة الأمريكية !!

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

أتحفتنا الإدارة الأمريكية فى شهر فبراير الماضى بمبادرة للتطوير والإصلاح سميت بالشرق الأوسط الكبير لم يكن في المبادرة جديد بصفة عامة لابالمعنى التاريخى ولا فى اطار الموقف الراهن، فمن المنظور التاريخى مثلت الترتيبات الشرق أوسطية حلما أمريكيا مستديماً لمستقبل الوطن العربى، فلم تبد الولايات المتحدة الأمريكية فى أى وقت من الأوقات حماسا للتفكير فى مستقبل هذا الوطن وفقاً لخطوط عربية. قد يكون الأمر راجعا إلى وعى بخبرة التاريخ الذى يفيد بوضوح بأن العرب ما تجمعوا إلا وشكلوا كتلة مؤثرة في التفاعلات الدولية، وقد تكون آخر حلقات هذه الخبرة هى الحقبة الناصرية التى ارتفع فيها المد القومى العربى إلى المستوى الذى ألحق فيه الضرر بالمصالح الأستراتيجية الأمريكية فى المنطقة، وقد يكون التأثير الصهيونى الذى يخشى بدوره تجمع العرب مسئولا هو الآخر عن ديمومة الحلم الأمريكى الشرق أوسطى للمستقبل العربى، لكن النتيجة تبقى واحدة فى كل الأحوال : أن السياسة الأمريكية ألقت بثقلها دوماً وراء نظام شرق أوسطى لا عربى .




إنجلترا
الإمارات الألمانية
مملكة فرنسا
باريس
روسيا
بولندا
لتوانيا
بلاد الشركس
البحر الأسود
إستانبول
أنقرة
قونية
الموصل
العراق
بغداد
البصرة
دمشق
بيروت
حيفا
غزة
الإسكندرية
القاهرة
أيلة
المدينة المنورة
البحر المتوسط
إيالة طرابلس
طرابلس
إيالة الجزائر
سوسة
سردينيا
روما
جنوة
برشلونة
رودس
أنطاكية
طرابزون
باكو
سيناء

أما في إطار الموقف الراهن فلم تحمل مبادرة الشرق الأوسط الكبير أي جديد أيضا فمنذ توصلت الإدارة الأمريكية الحالية في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى ذلك الاستنتاج القاضي بأن الوطن العربي بات معملاً لتفريخ الإرهاب بسبب نظمه الاستبدادية وتخلفه التعليمي والإقتصادي أخذ رجال الإدارة الأمريكية سواء في البيت الأبيض أو في وزارة الخارجية الأمريكية يمطروننا من حين لآخر بوابل من الأفكار الخاصة بضرورة تطويرنا ديمقراطياً وآليات ذلك وحتمية تغيير المناهج التعليمية العربية لتخليصها مما يحض على كراهية الآخر فيها . إلى أن جاءت المبادرة الأخيرة لتجمع هذا كله وتعطيه اسم الشرق الأوسط الكبير بحيث بدت وكأنها «أم المبادرات».

مع ذلك فإنه يمكن القول بأن التدقيق في مبادرة الشرق الأوسط الكبير يكشف عن أنها قد تضمنت جديداً بأحد المعاني، فهي المرة الأولى – في حدود ما أعلم – التي تطلق فيها الولايات المتحدة مبادرة في هذا الإطار الواسع وتجعل هدفها الرئيسي هو الإصلاح الداخلي، ذلك أن جميع المشروعات الشرق أوسطية السابقة تميزت إما بكونها ذات طابع أمني (كمشروع قيادة الشرق الأوسط في مطلع خمسينيات القرن العشرين ومشروع حلف بغداد في منتصفها) وإما بكونها ذات طابع وظيفي (كمشروع جونستون للمياه خلال الفترة نفسها) وإما بكونها ذات طابع يجمع الأمرين معاً (كمبدأ أيزنهاور في ١٩٥٧ وشرق أوسطية أوسلو في أعقاب توقيع الاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي في ١٩٩٣) لكن حلم الشرق أوسطية الأمريكي هذه المرة اتخذ خصوصيات الداخل العربي هدفاً له .

عن مضمون الشرق الأوسط الكبير

باستثناء ما سبقت الإشارة إليه فإن المبادرة لم تأت بجديد نوعياً يختلف عن الأفكار التي تبارى رجال الإدارة الأمريكية في البيت الأبيض ووزارة الخارجية في طرحها منذ ما يزيد عن السنتين، وإن تميزت بأنها قد غرقت في تفاصيل مملة تعكس غياباً حقيقياً للقدرة على الإبداع، بنيت المبادرة على مثلث للإصلاح تشير أضلاعه إلى تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح وبناء مجتمع المعرفة وتوسيع الفرص الإقتصادية، وهي محاور جذابة بطبيعة الحال، وتكاد أن تحظى بإجماع من النخب العربية، بل هي حرية بأن تحصل على تأييد أي نخبة تسعى إلى التغيير في أي مكان في العالم لكن إمعان النظر في الأفكار التي تضمنتها المبادرة لتجسيد هذا المثلث في واقع الشرق الأوسط الكبير يكشف عن سطحية بالغة

تنم عن غياب حقيقي لفهم مدى تعقد المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المنطقة .

ففي مجال الديمقراطية على سبيل المثال تتحدث المبادرة عن «تقديم مساعدات تقنية عبر تبادل الزيارات أو الندوات لإنشاء أو تعزيز لجان انتخابية مستقلة لمراقبة الانتخابات والاستجابة للشكاوى وتسلم التقارير» وكذلك «تقديم مساعدات تقنية لتسجيل الناخبين والتربية المدنية إلى الحكومات التي تطلب ذلك، مع تركيز خاص على الناخبات» وذلك فضلا عن الإشارة إلى الزيارات المتبادلة والتدريب على الصعيد البرلماني ومعاهد التدريب على القيادة خاصة بالنساء «ومبادرة وسائل الإعلام المستقلة» من خلال آليات تتمثل في زيارات متبادلة للصحافيين في وسائل الإعلام المطبوعة والإذاعية ورعاية برامج تدريب لصحافيين مستقلين وتقديم زمالات دراسية الخ، وجهود مكافحة الفساد من خلال التشجيع على تبني «مبادئ الشفافية ومكافحة الفساد» الخاصة بمجموعة الثماني، ومناقشة استراتيجيات وطنية لمكافحة الفساد وتعزيز خضوع الحكومة للمساءلة، وتعزيز المجتمع المدني من خلال تشجيع حكومات المنطقة على السماح لمنظمات المجتمع المدني بالعمل بحرية، وزيادة التمويل المباشر للمنظمات المهتمة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، وتبادل الزيارات وإنشاء شبكات إقليمية وتمويل منظمة غير حكومية تعمل في اتجاه التوصل إلى تقويم سنوى للجهود المبذولة من أجل الإصلاح القضائي أو حرية وسائل الإعلام في المنطقة .


دوايت أيزنهاور


جورج بوش

وفي مجال بناء مجتمع المعرفة تحدثت المبادرة عن تعزيز جهود محو الأمية، وعن ترجمة المؤلفات الكلاسيكية لدى مجموعة دول الثماني في مجالات الفلسفة والأدب وعلم الإجتماع وعلوم الطبيعة، وإعادة نشر الكتب الكلاسيكية العربية النافذة والتبرع بها إلى المدارس والجامعات والمكتبات العامة المحلية، ودعت المبادرة إلى عقد «قمة الشرق الأوسط لإصلاح التعليم » قبل انعقاد قمة مجموعة الدول الثمانية الصناعية الكبرى، ومبادرة التعليم من خلال الإنترنت، ومبادرة لتدريس إدارة الأعمال ! وفقا لنموذج معهد البحرين للمصارف والمال، وهو مؤسسة بمدير أمريكي ولها

علاقة شراكة مع عدد من الجامعات الأمريكية .

وفى مجال توسيع الفرص الاقتصادية تضمنت المبادرة ما أسمته بمبادرة تمويل النمو من خلال «إطلاق حرية الخدمات المالية وتوسيعها فى عموم المنطقة» وكذلك مبادرة التجارة التى ركزت على انضمام بلدان المنطقة إلى منطقة التجارة العالمية، وإنشاء مناطق فى الشرق الأوسط الكبير للتركيز على تحسين التبادل التجارى فى المنطقة، وإقامة مناطق تشجيع التعاون الإقليمى فى تصميم وتصنيع وتسويق المنتجات، وإنشاء« منبر للفرص الاقتصادية » يجمع مسئولين كباراً من مجموعة الدول الثمانية الصناعية الكبرى والشرق الأوسط الكبير، مع امكان عقد اجتماعات جانبية لمسئولين وأفراد غير حكوميين لمناقشة القضايا المتعلقة بالإصلاح الاقتصادى .

رؤية نقدية

لاشك أن المبادرة على النحو السابق يمكن أن تكون متضمنة لأفكار مفيدة وفق النموذج الأمريكى فى نظم الحكم والثقافة والاقتصاد، غير أن إمعان النظر فى المبادرة يفضى إلى العديد من الملاحظات التى نتخير منها الملاحظات الأربعة التالية :

ترتبط أولى الملاحظات بأن مطلقى المبادرة قد حددوا الشرق الأوسط الكبير بأنه الدول العربية بالإضافة إلى إسرائيل وتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان، وهى مجموعة غير متجانسة من الدول على الأقل بحكم وجود إسرائيل من بينها، ولايخفى أن هذه الدول تعانى من مشكلات مختلفة بدرجات متفاوتة ولا يمكن أن توصف لها الحلول نفسها خاصة وأن مبادرة الشرق الأوسط الكبير حرصت على أن تبدو وكأنها تنطلق من حاجة داخلية ماسة للتغيير عبر عنها تقريرا التنمية الإنسانية العربية الصادرين عن الأمم المتحدة فى عامى ٢٠٠٢و ٢٠٠٣ ولم يلتفت معدو المبادرة فيما يبدو إلى أن معنى الاستناد الحصرى إلى التقريرين هو أن الرؤية المتضمنة فى المبادرة لاتنسحب إلا على البلدان العربية .

أما الملاحظة الثانية فتشير إلى أن المبادرة قد أغفلت تماما دور العوامل الخارجية فى وصول الأوضاع العربية إلى ما وصلت إليه من حال أمعنت المبادرة فى نقده ولا نريد الآن أن نضيع الوقت فى جدل ممتد حول مسئولية العوامل الخارجية عن التخلف العربى خاصة وأن مسئوليتنا عنه واضحة للغاية، ولكن يكفى أن نذكر أن هذه العوامل تلعب فى الوقت الراهن دوراً بالغ الخطورة فى تكريس الإحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية أو الإحتلال الأمريكى للعراق ومن عجب أن

التقريرين اللذين استندت إليهما المبادرة قد أشارا بوضوح إلى هذه الحقيقة، فقد أشار التقرير الأول (٢٠٠٢) إلى الاحتلال الإسرائيلي وكيف أنه شكل عقبة كؤوداً في وجه التنمية الإنسانية يترتب عليها إهدار خطير لفرص التنمية الإنسانية في البلدان العربية وليس في فلسطين فحسب حيث تمتد معاناة الإحتلال إلى عموم الشعب العربي وإن اقتصر جانب من أوخم عواقبه على حدود فلسطين، وقد شدد التقرير الثانى الصادر في عام ٢٠٠٣ على المعنى نفسه وفصل فى بيان العواقب الوخيمة للاحتلال الإسرائيلي وممارساته على فرص التنمية الإنسانية في فلسطين والوطن العربى، وأضاف حديثاً مماثلاً عن تداعيات احتلال العراق على التنمية الإنسانية في الوطن العربي منتهياً إلى أن تبعات غزو العراق واحتلاله لاتتوقف عند حدوده، وسيكون لتطور الأوضاع في العراق إضافة لذلك آثار مهمة على التنمية الإنسانية في عموم الوطن العربي، إذ بالنسبة للمنطقة العربية ككل جسدت هذه الحرب مخططات إعادة تشكيل المنطقة العربية من الخارج خدمة لأغراض قوى أجنبية». وحرص التقرير بعد ذلك أن يوضح أن هدفه في مواجهة ما سبق هو «حفز رؤية استراتيجية تبلورها النخب العربية عبر عملية إبداع مجتمعي وطنية تتوخى إعادة تشكيل المنطقة من الداخل خدمة للتقدم الإنساني فيها» وقد اشير إلى هذه المعانى جميعا فى صراحة ووضوح سواء في الكلمة التي ألقتها د ريما خلف هنيدى المدير الإقليمى لمكتب الدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى فى تدشين التقرير الثاني في أكتوبر ٢٠٠٣، أو فى تصدير التقرير الذى كتبه «مارك مالوك براون» المدير العام للبرنامج .


محمد مصدق


عمرو موسى

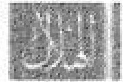
أما الملاحظة الثالثة فتتمثل فى أن المبادرة قد تحدثت في غير موقع - استشعاراً من واضعيها بحساسية فرض التغيير من الخارج - عن «التعاون مع البلدان المعنية وأشارت كذلك إلى أنها تأخذ في إعتبارها أن القوة الدافعة للإصلاح الحقيقى فى الشرق الأوسط الكبير يجب أن تأتى من الداخل وإلى أن المساعدات التى ستقدمها مجموعة الثمانية سوف تتم استناداً إلى «الجهود التى تبذل بالفعل فى المنطقة»، غير أن إمعان النظر فى الآليات المقترحة يشى

بالتدخل الصارخ في أخص الشئون الداخلية للبلدان المعنية، فسوف تنشئ مجموعة الثمانية وتوفر التمويل لمراكز يمكن للأفراد أن يحصلوا فيها على مشورات قانونية، وتزيد التمويل المباشر لمنظمات الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتمول منظمة غير حكومية لغرض تقويم الجهود المبذولة في مجال الإصلاح، وترعى قمة الشرق الأوسط لإصلاح التعليم التي ستكون ملتقى لقيادات الرأي العام المتطلعة إلى الإصلاح والقطاع الخاص وقادة الهيئات المدنية الاجتماعية في المنطقة ونظرائهم من الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبي «لتحديد المواقع والمواضيع التي تتطلب المعالجة، والتباحث في سبل التغلب على النواقص في حقل التعليم» وهكذا.

وأخيراً فإن الملاحظة الرابعة تشير إلى أن النخب العربية لايمكن لها أن تفصل في رأيها بين المبادرة وبين ما تعرفه عن خبرة السياسة الأمريكية في محاولاتها السابقة لتغيير النظم من الخارج. صحيح أن فضلا ما يمكن أن ينسب لهذه السياسة في تأسيس نظم ديمقراطية ليبرالية في أعقاب الحرب العالمية الثانية كما في حالتي اليابان وألمانيا على سبيل المثال، لكن وزراً كبيراً ينسب للسياسة نفسها في التحالف مع نظم غير ديمقراطية للغرض ذاته وليست حالة د. محمد مصدق في إيران في مطلع خمسينيات القرن العشرين أو سلفادور الليندى في شيلى في عقد السبعينيات من القرن نفسه سوى مثالين على عديد من الحالات المماثلة بل إن الأداء الأمريكي في العراق حتى الآن يكشف عن السوءات نفسها، فالمفارقة أن الولايات المتحدة التي تملأ آذاننا صراخا حول وجوب الديمقراطية تتبنى الآن نهجا غير ديمقراطي في العراق في الوقت الذي تصر فيه القوى السياسية الحية في العراق على ديمقراطية حقيقية، وأخيراً وليس آخراً فإن الدنيا مليئة بنماذج غير ديمقراطية تحمل تهديداً للولايات المتحدة الأمريكية بموجب المعايير التي تطبقها الولايات المتحدة على البلدان العربية فلماذا لاتطيح بنظمها بالطريقة نفسها ؟ بل إنه من الطريف أن المبادرة نفسها تعترف بأن الوطن العربي يسبق أفريقيا جنوب الصحراء في مؤشرات عديدة فلماذا لاتوجه الولايات المتحدة إهتمامها بالتغيير إلى أفريقيا أولاً ؟

المواجهة العربية

يلاحظ أن عدداً من النظم الحاكمة في دول عربية مهمة قد استنفر في أعقاب طرح المشروع بأكثر ما استنفر بسبب احتلال العراق، وأعلن مسئولون رفيعو المستوى في هذه النظم رفضهم إملاء التغيير من الخارج وأكدوا أن التغيير يجرى بالفعل بإرادة ذاتية وإن



وجبت مراعاة الظروف الخاصة بكل دولة، وانطلقت أجهزة إعلام عربية تفند مبادرة الشرق الأوسط الكبير، وعلم أن دولاً بعينها قد قدمت مبادرات خاصة بها للتطوير الداخلي عرضت في الدورة الأخيرة لمجلس الجامعة العربية لاتخاذ قرار بشأنها تمهيدا لرفعها إلى مؤتمر القمة التي كان مفترضا أن تعقد في تونس في نهاية مارس. وثابر قطاع مهم من النخبة العربية المثقفة على رفض مشروع الهيمنة الأمريكية ومنه مبادرة الشرق الأوسط الكبير ومع ذلك فإن النجاح في هذه المواجهة يفترض شروطاً ضرورية لاغنى عن توفيرها إذا أريد للنظام العربي أن يجتاز بسلام هذا الامتحان الجديد .

أول هذه الشروط أن مواجهة المشروع الأمريكي لمستقبل المنطقة لايمكن أن تكون جزئية بمعنى أن تقبل السياسة الأمريكية تجاه فلسطين أو العراق أو يسكت عنها بينما يتم التصدى فقط للشق المتعلق بالتغيير الداخلي في هذا المشروع ذلك أنه من البديهي أن نجاح المشروع الأمريكي المتعثر في العراق ومشروع الوكيل الإسرائيلي المتعثر في فلسطين سوف يصل باحتمالات النجاح في مواجهة «الشرق الأوسط الكبير» إلى حدها الأدنى إن لم يكن إلى الصفر، حيث سيصعب حينذاك التمسك بالقول بأن كل تغيير آت من الخارج يتأبط شراً ولو على نحو غير مباشر، وسيقوى منطق المطالبين بفرصة للشرق الأوسط الكبير..

وثانيها أن نجاح المواجهة يتطلب جبهة عربية واسعة في المواجهة تضم أولاً أكبر عدد من الدول العربية وهي مسألة تحيطها صعوبات واضحة بالنظر إلى أن ثمة نظماً عربية تظاهر المشروع على نحو واضح أو على الأقل تطالب بإعطائه فرصة، وهناك نظم عربية أخرى قد لاتقوى على الاعتراض عليه صراحة كما أن هذه الجبهة يجب أن تحشد من خلفها أوسع قطاعات ممكنة من النخب والجماهير العربية ومن الواضح أن الاتجاه الغالب بين هذه النخب والجماهير مستفز من السياسة الأمريكية بصفة عامة رافض لتدخلاتها غير أن هذا وحده لايمكن أن يصلح أساساً لمواجهة ناجحة إذ يجب أن تكون هناك إرادة تغيير حقيقي تنعكس في سلوك يحظى بالمصداقية في اتجاه التطوير الداخلي من قبل النظم العربية وهذا ينقلنا إلى الشرط الثالث .

ثالث الشروط إذن أن المواجهة لايمكن أن تستند إلى القول بأننا نعرف أكثر من غيرنا حاجتنا إلى التطوير الداخلي وأننا شرعنا فيه بالفعل بما يعطي معنى أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، إذ لاشك في أن خطى التغيير بطيئة وغير كافية ومتعثرة في معظم

الأقطار العربية إن لم يكن في جميعا، وقد نذكر مجرد تذكرة بأن قرارات «قمة أنشاص» في ١٩٤٦ - أي منذ أكثر من نصف قرن - قد اختتمت بإجماع القادة العرب « على ضرورة تيقظ شعوبها تيقظا كاملاً إزاء الخطر الصهيوني الذي يهددنا وإزاء أي خطر خارجي آخر وأن نعمل على إنهاض شعوبنا وترقية مستواها الثقافي والمعاشي بحيث تصبح قادرة على مجابهة أي عدوان خارجي مداهم». كان الخطر الشيوعي وقتها يلوح في الأفق بالإضافة إلى الخطر الصهيوني بطبيعة الحال، ووجد القادة حينذاك أنه لا بأس من إعلان نية السعي من أجل التطوير الداخلي، ولأن ذلك لم يحدث فقد شملت الوطن العربي موجة تغيير عارمة بعد أقل من عقد من الزمان ولعل الدلالة تكون مفيدة خاصة وأن التركيز على الديمقراطية في مشروع الشرق الأوسط الكبير من شأنه أن يغري قطاعاً من المتقبلين للتدخل الأمريكي وربما قطاعات من المحايدين بتبني منطق إعطاء فرصة للدور الأمريكي، أو القول بأنه ليس من المعقول أن ترفض الديمقراطية لمجرد كونها مطروحة علينا من الولايات المتحدة الأمريكية وهو ما ينقلنا للشرط الرابع .

يتعلق الشرط الرابع إذن بضرورة أن تكون المواجهة مستندة إلى أساس فكري راسخ يكشف بمنتهى الموضوعية حقيقة الديمقراطية الأمريكية، والواقع أنه ما من منطق يستحق المواجهة السياسية والفكرية في الظروف الراهنة أكثر من المنطق الذي يبدأ بتصديق الطرح الديمقراطي الأمريكي لمستقبل الوطن العربي فالأمة العربية ليست مدعوة للقبول بخيار ديمقراطي أمريكي بأي حال فالديمقراطية بالنسبة للولايات المتحدة وسيلة وليست غاية بدليل ما حدث مع إيران وشيلي مما سبقت الإشارة إليه وما يجري في العراق الآن أيضاً.

ولأن الشروط السابقة صعبة، والخبرات العربية القريبة في مواجهة الشرق أوسطية غير مشجعة، فإن ثمة شكاً في القدرة العربية على الوفاء بمتطلبات هجوم مضاد وناجح على مشروع الشرق الأوسط الكبير، وسوف يكون ارتباك هذا الهجوم العربي المضاد - إن وقع - أسوأ من القعود عن المواجهة بكثير، فهل من تدبر رشيد يكفل للعرب الانتصار في معركة الشرق الأوسط الكبير؟ أم أنه سوف يتعين عليهم أن يكتفوا بدور المراقب أو المهاجم المتردد حتى تتكفل عوامل التآكل الذاتي بأن يذهب هذا المشروع كسابقيه إلى أرشيف التاريخ ؟ ■

● «المستقبل سيكون أنثوياً لأسباب كثيرة ، لعل أبرزها أننا نتحول من نمط الإنتاج الصناعي الثقيل الذي يتطلب قوة عضلية إلى العمل بأدمغتنا ، أمام شاشة الكمبيوتر »

البارونة سوزان جرينفيلد
أول امرأة ترأس المعهد الملكي في بريطانيا

● «عندما يفرغ الحاكمون من كلامهم ، حينها يتكلم المحكومون والظاهر أن حكامنا فرغوا من كلامهم ، والسلطة في خراب »

برهان علوية
المخرج اللبناني صاحب فيلم كفر قاسم

● « في لبنان حرية كثيرة ، وديمقراطية قليلة»

سليم الحص - رئيس وزراء لبنان الأسبق


سليم الحص

● « بقدر ما يحاول القذافي أن يظهر كشخص عادي، يصبح شخصا غير عادي ، إنه أغرب شخص عادي في العالم ».

براين وتكر - المعلق البريطاني

● « فيما نقوم بتخريب كوكبنا هذا ، بدأنا الآن نبحث كيف نخرب كوكباً آخر»

الكاتب روبن ماكي عن المخططات الأمريكية لكوكب المريخ

أقوال معاصرة

● «الواحد يجب أن يعلم ، ولو القليل ، قبل أن يعلق على شئ لا يعرفه »

روجر آلن - المستعرب الأمريكي

● «أنتم تريدون الحياة ، ونحن نريد الموت »

أبو دجانة الأفغاني
الناطق بلسان القاعدة في أوروبا

● «المجتمع العربي ليس لديه استعداد لرعاية المواهب وصقلها » .

المستعرب الياباني نوبواكي نوتوهارا

● «التعصب الديني يمكن أن يؤدي في أي مكان إلى أن يتولى السلطة نظام مشابه لطالبان »

صديق باراك
المخرج الأفغاني صاحب فيلم أسامة

● «الدولة الريعية النفطية لعبت دوراً سلبياً ، أضعف الرغبة في المشاركة السياسية لدى السعوديين ».

الكاتب السعودي عبد العزيز الخميس


فاروق الباز

● « يوجد في العالم العربي كله ، بما فيه مصر خلل عام في الفك »

العالم المصري د. فاروق الباز

● «الجهاد في مفهومه الحقيقي، وسيلة لحماية التعارف والاختلاف، أي حماية الحرية في الاختيار »

د. عبد الحميد الأنصاري
عميد كلية الشريعة في قطر سابقا



من يحتاج إلى إعادة التعليم؟!

بقلم
عبد الرحمن شاكر

فى صفاقة لم يسبق لها مثيل ، تضمنت المبادرة الأمريكية لإصلاح ما يسمونه «الشرق الأوسط الكبير» ، ويقصدون به العالم العربى وتخومه الاسلامية المجاورة ، إصلاح التعليم الدينى فى هذه المنطقة ! ولو كان حديثهم عن إصلاح التعليم ينصرف إلى تعليم التكنولوچيا والعلوم البحتة كما كان يطلق العرب على العلوم الطبيعية والرياضيات ، أو فى مجال الانسانيات الديمقراطية التى يتشدقون بها ، أو الاقتصاد «الحر» ، لكان الأمر مقبولا ومعقولا ، أما إعادة تعليم أبناء هذه المنطقة أمور الدين ، فهذا أمر مدهش ، وذلك لأن العقائد التى يؤمن بها هؤلاء القوم أو يظهرون الإيمان بها ، كاليهودية والنصرانية ، إنما وجدت أولا فى هذه المنطقة قبل أن تصل إليهم.

ربيع أول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤

والوضع الطبيعى أن يأتوا إلى هذه المنطقة لكى يتعلموا منها ما يكون قد فاتهم فى علوم الدين .. أما أن يأتوا إلى المنطقة التى توصف عن حق بأنها «مهد الأديان السماوية» لكى يقفوا منها موقف المعلم ، فهذا هو العجب العجاب !

الأمر إذن عندهم ، هو أن الغالبية العظمى من أبناء هذه المنطقة قد اعتنقت الإسلام ، الذى ظهر بعد ظهور المسيحية وقبلها اليهودية بقرون ، ولا يشك عاقل ، فى أن أتباع هاتين الديانتين قد دخلوا فى حوار طويل عريض مع الإسلام عند ظهوره ، ولم يتركوا حجة يعترضون بها على ما خالفهم فيه إلا قالوها أو كتبوها ، فماذا فى جعبة يهود أمريكا أو نصاراها ليعلموه للمسلمين ؟! التسامح

الدينى مثلا ؟ إن تاريخ هذه المنطقة يشهد لها بعد أن غلب عليها الإسلام أنها كانت الأكثر تسامحا فى العالم كله مع «أهل الكتاب» وهى الصفة التى أطلقها الإسلام على اليهود والنصارى ، ولقد ظل من بقى على هاتين الديانتين من أبناء المنطقة شركاء حقيقيين فى الحضارة العربية الإسلامية التى انتشرت وازدهرت فى حدود الصين شرقا إلى جنوب أوروبا غربا فى الأندلس ، كانت لهم مساهماتهم فى العلوم والفنون والآداب ، بل فى شئون الحكم أيضا حيث كان منهم وزراء لبعض خلفاء المسلمين ! ولم تعرف هذه المنطقة المذابح الهمجية التى عرفتها أوروبا فى اضطهاد المخالفين فى العقيدة ، مثل المذابح التى شنها القياصرة الروس على اليهود فى بلادهم ، وصولا إلى «الهولوكست» التى يتشدقون بها فى عهد قريب جدا فى ألمانيا النازية فى القرن الماضى مباشرة ، فضلا عن الحروب المتطاولة ما بين مختلف الطوائف أو المذاهب المسيحية ، والتى ما تزال بقاياها حتى الآن تمثل مشكلة فى إيرلندا الشمالية.

لا أحد يملك فى هذه الدنيا أن يعلم المسلمين فى بلادهم معنى التسامح الدينى ، وهم الذين كانت بلادهم ملجأ من الاضطهاد الدينى فى أوروبا ، مثل لجوء اليهود الذين فروا من محاكم التفتيش فى الأندلس بعد سقوط دولة الإسلام هناك ، إلى دولة الخلافة العثمانية فى الأستانة ، أو «اسلامبول» كما سماها الأوروبيون وينطقها عامتنا : «اسطنبول» !

الغرض الصهيونى

لقد خلت مبادرة «إصلاح الشرق الأوسط الكبير» التى قدمتها الإدارة الأمريكية من أية إشارة إلى حل ما يسمى «بقضية الشرق الأوسط» وهى الصراع القائم فى فلسطين ، بين مغتصبيها من الصهاينة وأصحاب البلاد من الفلسطينيين العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، وكان ذلك سببا فى رفض الدول العربية للمشروع، وأصبح مفهوما لدى الرأى العام العربى ، أن هذه المبادرة إنما تهدف إلى إدماج الدولة الصهيونية ، مع استمرار عدوانها واغتيالها لحقوق الشعب الفلسطينى فى المنطقة العربية والإسلامية ، بحيث تكون لها السيطرة على المنطقة بأسرها ، ليس من خلال تفوقها العسكرى الساحق فحسب ، بفضل المؤازرة الأمريكية غير المحدودة لها ، بل أيضا من خلال التفوق العلمى والتكنولوجى المكفول لها أيضا أمريكيا، بحيث تكون لها اليد العليا فى المقدرات الاقتصادية لشعوب المنطقة ، وأخيرا تتطلع عبر الراعى الأمريكى لها لكى تكون مقبولة ، بل ومرحبا بها عبر إعادة التعليم التى تدعو إليها المبادرة الأمريكية ، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم الدينى .

يزعم الساسة الأمريكان أصحاب

تلك المبادرة ، أنهم يريدون إخلاء برامج التعليم الدينية مما يدعو إلى كراهية الآخرين ، فهل تتضمن هذه البرامج مما يحض على هذه الكراهية، أكثر مما يحتويه العهد القديم من كتابهم المقدس ؟! ولكن العرب والمسلمين يعلمون أن ما تحتويه تلك النصوص إنما يتعلق بعهود بالغة القدم ليس منها ما يتعلق بالأوضاع الراهنة ، إلا بقدر ما يستغلها سفهاء الصهاينة لتسويغ أغراضهم العدوانية .

لو أن النصوص الدينية لدى العرب والمسلمين كانت تحض على كراهية الآخرين ، على النحو الذى يصورها به الساسة الأمريكان أصحاب المبادرة ، لما بقى فى هذه المنطقة مخالف للعقيدة الإسلامية ، منذ أصبح الإسلام هو عقيدة الأغلبية فى أبنائها ، وبلغت الدولة الإسلامية أوج مجدها وقوتها قبل أن توجد الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها بزمان طويل ؟

لم يكن هناك أمريكان فى هذه الدنيا حين أمر القرآن الكريم المسلمين بألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، فهل يريد الساسة الأمريكان أن يترك المسلمون ذلك ، وقول نبيهم «من آذى ذميا فقد آذانى» يقصد بالذمى من دخل ذمة المسلمين وعايشهم فى سلام من أهل الكتاب اليهود والنصارى ؟

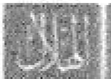
أغلب الظن أن اليمين المسيحى الصهيونى المسيطر على الإدارة الأمريكية إنما يريد للمسلمين أن يتخلوا عن مبدأ المساواة بين البشر الذي دعا إليه الإسلام طبقا لقول نبيهم: «كلكم لآدم وآدم من تراب» أو قوله «ليس لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود فضل إلا بالتقوى» لكى يؤمنوا معهم بكلمة مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانى الذى يدينون به :

«إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف والغرباء .. وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التى تأكل، مايتساقط من فتات مائدة أسيادهم، تماما كالمرأة الكنعانية» ! (أنظر كتاب «المسيح اليهودى ونهاية العالم» للزميل الصحفى المختفى رضا هلال ، رحمه الله حيا كان أو ميتا !)

على أن مارتن لوثر إذا كان قد قال ذلك فقد كان يقصد الأصلاء من بنى إسرائيل ممن أرسل إليهم المسيح وكانوا أمة من الموحدين ، وليس الأدعياء الصهاينة الذين يتعبد لهم الساسة الأمريكان الآن ويساعدونهم فى اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها وإبادتهم !

جريا وراء الكذب

لم يكن إدعاء أن العراق يملك أسلحة نووية ، أو بالأقل أسلحة دمار شامل هو الكذبة الوحيدة التى انطلق وراءها الساسة الأمريكان لشن الحرب



على ذلك القطر العربي واحتلاله ، بل لقد أعلن أحد المسئولين الأمريكان السابقين أن الحرب التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على فيتنام، والتى لقيت فيها نكالا مريعا ، نرجو أن يتحقق مثله قريبا فى العراق، إنما كان جريا وراء كذبة أخرى عن قيام الفيتناميين بقصف سفن حربية أمريكية فى مياه المنطقة المجاورة لها !

على أن الكذبة الكبرى التى يجرى وراءها الساسة الأمريكان هى إدعاء اليهود الأشكناز الذين اغتصبوا فلسطين والذين جاءوا من روسيا وشرق أوروبا ، وما يزال المهاجرون الجدد إلى «إسرائيل» يأتون منها، إنما «يعودون» إلى بلادهم أرض اسرائيل !

ولقد سبق أن رحبت على صفحات «الهلال» بانضمام الزميل الصحفى الراحل المرحوم وجيه أبو ذكرى إلى قافلة الواعين من الكتاب العرب بقصة «الخزر» الذين اعتنقوا الديانة اليهودية فى القرن الثامن الميلادى وهم يشكلون حاليا أكثر من تسعين فى المائة من يهود العالم ، ومنهم نشأت الحركة الصهيونية وهم يشكلون مادتها البشرية الأساسية .

واليوم أعود إلى الترحيب بقلم جديد ، انضم إلى ذات القافلة الواعية، وهو قلم الزميلة الصحفية الأستاذة مها عبدالفتاح ، بما كتبته على صفحات «أخبار اليوم» بتاريخ ٦ مارس المنصرم ، وذكرت فى مقالها عددا كبيرا من المراجع من بينها مصادر أمريكية تكشف عن الأصول الحقيقية لهؤلاء الأدعياء ، ونفت ما يدعونه من الانتساب إلى «السامية» وقالت إن أصولهم تعود إلى «يا بيت» الابن الثالث لنوح ، وتقصد ما هو منصوص عليه فى سفر التكوين من أن جدهم «أشكناز» الذى يعرفون به هو «أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح» ، فكتبت «يافث» «يا بيت» ، ربما كما ينطقها بعض الأوروبيين .

إننى أتمنى أن يكون كل المسئولين عن الإعلام العربى ، والساسة العرب قد قرأوا ما كتبته الأستاذة مها فى مقالها المذكور ، لكى يجابهوا الساسة الأمريكان بأنهم هم الذين يستحقون إعادة التعليم إذا كانوا يجهلون بالفعل حقيقة من يساندونهم من الصهاينة مغتصبى فلسطين ! أما إذا كانوا يعلمون ويتعمدون الكذب مثلهم فلا أحد عاقل يستمع إلى كلام الكذابين !

أما ما يزعمه الساسة الأمريكان من أن برامج التعليم العربية والإسلامية تحض على الكراهية وأنها هى مصدر ما يسمونه بالإرهاب ، فليعلموا أن مصدر تلك الكراهية هو ما يفعلونه هم وحلفاؤهم الصهاينة .. لو كانوا يعقلون ■

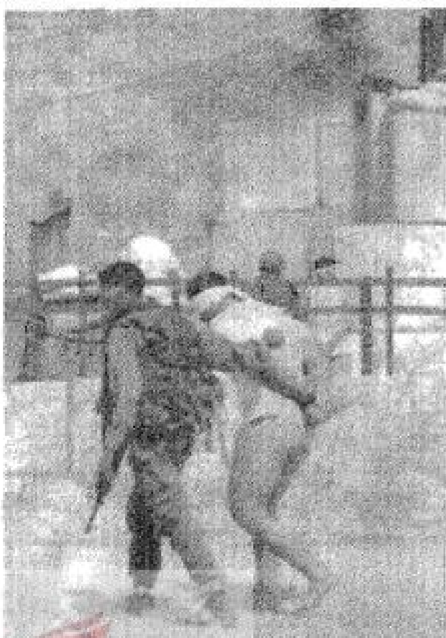
دائرة حوار



هذا الشرق الأوسط الكبير

بقلم
د. رفعت سيد أحمد

لاشك في أن منطقتنا العربية مقبلة على مرحلة تحولات مهمة على الصعد المختلفة سياسياً وثقافيا واقتصاديا، الخطير في الأمر أن هذه التحولات تأتى هذه المرة بإرادة وضغوط خارجية وتأتى ملتحفة بعباءات زائفة، كان أحدثها وأخطرها هو ما سمى بمشروع «الشرق الأوسط الكبير»، والذى صيغ على شكل وصايا تبشيرية تعد المنطقة بالرخاء والحرية والمعرفة الواسعة، فى تبسيط مخل لقضاياها، ودونما انخراط جدى فى البحث عن جذور معاناتها وسر تخلفها المقيم .


إعادة إنتاج الهيمنة من زمن (العولمة)



«المشـــروع» أثار الجـــدل والحــوار الموسع فى أرجــاء المعـمـورة وبخـاصـة فى بلادنا، التى يدمن فيها غالبا المثقفون والساسة تلقى المشاريع والأفكار والحوار حولها دونما محاولة جادة لأن يقوموا هم بإنتاجها، حتى عندما فتح الله على واضعى تقريرى (التنمية الانسانية) بتمويل من الأمم المتحدة وهم من المثقفين الذين نحترمهم - على المستوى الشخصى - كانوا أشد جلداً للذات من غيرهم وأقل تحليقا فى الأفق بحثاً عن الأفكار الجديدة المبشرة، والقادرة على حل معضلات

أوطانهم، الأمر الذى مثل (فرصة ثمينة) لإعداد متربصين، من أمثال واضعى مشروع «الشرق الأوسط الكبير» للاسترشاد بتقريرى التنمية الانسانية سالفى الذكر، إذ لم يجدوا ما هو أشد قتامة وأقل نفعاً لهذه الأوطان، من أرقام ونتائج تلك التقارير .

مخاطر المشروع

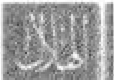
أولا : يبدأ المشروع بفقرة مهمة ذات دلالة يقول فيها (يمثل الشرق الأوسط الكبير تحدياً وفرصة فريدة للمجتمع الدولي، وساهمت النواقص الثلاثة التى حددها الكتاب العرب لتقريرى الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية للعامين ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ فى (الحرية - المعرفة - تمكين النساء) فى خلق الظروف التى تهدد المصالح الوطنية لكل أعضاء مجموعة الـ (٨) وطالما تزايد عدد الأفراد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية فى المنطقة سنشهد زيادة فى التطرف والارهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة) أنظر النص الكامل للتقرير فى (صحيفة الحياة - لندن ١٣ / ٢/ ٢٠٠٤ ص ١٠) إن هذه العبارة تمثل فى تقديرنا كشفاً عن النوايا الكامنة خلف مشروع «الشرق الأوسط الكبير»، وأيضاً هى تكشف عن مدى هشاشة المشروع واحتمالية سقوطه السريع إن هم بدأوا فى تطبيقه بمثل هذا الفهم السطحى لمشكلات المنطقة .

(١) فمن ناحية أولى تكشف عبارة (يمثل الشرق الأوسط الكبير تحدياً وفرصة فريدة للمجتمع الدولى) البُعد الانتهازى للمشروع والذى يعتبر هذا الشرق الأوسط مجرد (تحدى) أى مجرد مفعول به وليس فاعلا فى تشكيل المجتمع الانسانى المتقدم والواحد، وإن هذا الشرق الأوسط بات يمثل (خطراً) على مجموعة الثمانى خاصة فى مجال (الارهاب) و(الجريمة الدولية) و(الهجرة غير المشروعة) وهذه أكاذيب غير صحيحة لأن هذه الأخطار موجودة فى صلب الحياة السياسية للمجتمع الغربى والهجرة غير المشروعة) على سبيل المثال تأتى من بلدان عدة منها من لاعلاقة لها جغرافيا بهذا الشرق الأوسط الكبير الذى حددته واشنطن فى مشروعها، فتأتى مثلا من فيتنام أو أندونيسيا

وأحياناً من كوبا وأمريكا اللاتينية أو من دول جنوب الصحراء الأفريقية، وكذلك (الجريمة المنظمة) التي بات مصدرها الرئيسي عصابات المافيا داخل المجتمعات الغربية وبخاصة الأمريكية منها، أما (الإرهاب) فقد أضحى بمثابة مشجب (إسلامي) جاهز لتعليق كل الموبقات العالمية عليه وصار مرادفاً لكلمة (الإسلام).

إن التحليل الموضوعي للعديد من مفكري الغرب يصل بشأنه إلى أنه قد أضحى ظاهرة داخلية متغلغلة في نسيج المجتمعات الغربية وليس وافداً عليها مع عدم إنكارنا لوجود أشكال منه وافدة من شرقنا الإسلامي، وهي مرفوضة من كل صاحب عقل رشيد، ولكن قصر (الإرهاب) على هذه المنطقة دون العالم أجمع يعد تبسيطاً مخلاً للأمور .

(٢) من ناحية ثانية تكشف العبارة الموحية التي بدأ بها المشروع عن سطحية فريدة في فهم حقيقة مشاكل المنطقة، والتي حصرها المشروع في ثلاث (الحرية - المعرفة - تمكين النساء) وأسقط عمداً قضية الصراع العربي الصهيوني بأبعادها الانسانية والحضارية والاقتصادية والسياسية وبتأثيراتها حتى على منتج لهذه المنطقة من (الإرهاب) و(الجريمة المنظمة) إلى (الهجرة غير المشروعة) ويسقط أيضا المشروع قضية احتلال العراق بكل مآسيها على المنطقة وتفتيتها لنسيج تماسكها السياسي، وتقدمها المعرفي، بل إن تعمد المشروع إغفال هاتين القضيتين المتفجرتين يؤكد من جانب آخر أهدافه ومراميه حين يريد تعويم القضيتين في إطار خلق مشكلة أكبر اسمها الشرق الأوسط الكبير وبدلاً من أن يقدم على حل جدي حقيقي، ومواجهة فعالة للأزمتين، قفز عليهما قفزة بهلوان، أو مهرج يتصور أنه بذلك يتخلص من صداعهما المزمن والذي كان هو بالأساس من أوجده، وبالتالي تقع عليه مسئولية حله، ان التجاوز والقفز على هاتين المشكلتين تحديداً سوف يفجران المشروع برمته من داخله، وسيؤكدان دون عناء أن كل الأفكار والمبادرات البراقة التي قدمها المشروع لاقيمة لها ولا جدوى منها على الأرض، ما بقي على هذه الأرض احتلال عنصري إحلالي، احتلال ينتج - كالغدة السرطانية - أضراره كل صباح وبدون توقف وهي أضرار لا تصلح معها (روشتة) العلاج

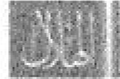


الأمريكية سالفة الذكر .

ثانيا: المشروع ينظر إلى الشرق الأوسط الكبير نظرة (اقتصادية) وجغرافية عامة تلغى الخصوصيات، والتجارب والأبعاد التاريخية لكل بلد على حدة ولكل منظومة إقليمية على حدة حيث يدخل دولاً مثل (باكستان - أفغانستان - ايران - اسرائيل) على دول عربية سميت فيما مضى (بالوطن العربى) لها سمات وخصائص لغوية وثقافية وسياسية تكاد تكون واحدة وتجمعها مظلة سياسية واحدة اسمها (جامعة الدول العربية) والأخيرة رغم وهنها السياسى البين، إلا أن لها تاريخها واجتماعاتها الدورية بل ومبادراتها الخاصة بإصلاح البيت العربى من الداخل، إن إدخال الدول الأربع السابقة على هذه المنظومة العربية، يعنى إما عدم ادراك لخصوصيات المنطقة وهذه مصيبة، أو تعمد عدم الادراك لتلك الخصوصيات والعمل على تحطيمها بمثل هذا المشروع، وتصبح هنا المصيبة أشد وأعظم .

بل إننا نلاحظ أنه حتى داخل المنظومة العربية ثمة تفاوت فى طبيعة التشكيلات الطبقية والنظم السياسية والثقافية وانساق القيم السائدة وأنماط التحالفات الدولية بل وعمق التجارب التاريخية وبالتحديد فيما أسماه المشروع بـ (النواقص الثلاث : الحرية - المعرفة - تمكين المرأة) اذ لا يمكن على سبيل المثال أن توضع خبرة وعمق تجربة مصر وسوريا والعراق مع خبرة وتجربة بعض دول الخليج أو موريتانيا فى مجال الحرية أو المعرفة أو حتى قضية تمكين المرأة، ومحاولة تنميط الجميع بنمط واحد يمثل سوء قصد أريد به خلط كل الأوراق كى يسهل بعد ذلك تمرير مشاريع الهيمنة السياسية والاقتصادية باسم «الاصلاح» وهو منها برئ .

ثالثا يقوم المشروع فى مجمله على فكرة فرض الحل من الخارج دون حتى مجرد استشارة أصحاب الشأن فيه ولو على سبيل (جبران الخاطر) وفى هذا ليس فحسب استعلاء مقيت على أصحاب المكان والزمان المراد تحديثهم أو إصلاحهم، بل به أيضاً إعادة انتاج فج لمنطق الاستعمار القديم الذى كان يمركز العالم كله



حول ذاته، ويفترض لنفسه رسالة حضارية لتمدين العالم الخارجي وفقاً لثقافته وحضارته وتدريجياً يتحول هذا (التمركز حول الذات) إلى استراتيجية استعمارية قامعة للشعوب الأخرى، ومستنزفة لثروات الشعوب وخيراتها، تماماً مثلما حدث مع تجربة الاستعمار القديم للشرق العربي والإسلامي وهو تمركز يؤدي في النهاية إلى تخليق نقيضه أي الثورة عليه، والتمرد المسلح على قيمه واستراتيجيته وهو ما سيحدث مستقبلاً .

وإضافة إلى ما سبق وإذا علمنا أن الولايات المتحدة قدمت هذا المشروع خلال شهر (فبراير ٢٠٠٤) إلى مجموعة الدول الثماني (ألمانيا - فرنسا - انجلترا - اليابان - أسبانيا - ايطاليا - كندا - أمريكا) كي تقوم بقراءته والتعليق عليه تمهيداً لمناقشته في اجتماعها المقبل في (سي ايلاند بولاية جورجيا الأمريكية) في يونيو ٢٠٠٤، وأن يسبق ذلك عرضه على قمة الأطلسي التي ستعقد في اسطنبول بتركيا أيضاً في ذات الشهر (يونيو ٢٠٠٤)، وهو الشهر الذي من المفترض أن يشهد تسليم السلطة في العراق للعراقيين مع حل سلطة الاحتلال (التحالف) وإعادة تجميع هذا الاحتلال في خمس قواعد عسكرية كبرى في العراق تكون قريبة من مصادر النفط والشركات الأمريكية الذي تمتصه، إذا علمنا كل هذا فإننا نكون أمام مخطط خبيث لإعادة ترتيب المنطقة وفقاً للأجندة الأمريكية بعد أن تكون - كما تتخيل وبعض الخيال خطأ- قد أغلقت الملف العراقي وبدأت في فتح وترتيب الملفات الأخرى ومنها ملف سوريا وايران .. ثم وبالأساس ملف الشرق الأوسط الكبير، وهي ملفات تأتي كلها في سياق حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية لجورج بوش وكأنها تستهدف مجتمعة الدعاية المجانية له للعمل على إنجاحه بدعوى أنه يعيد ترتيب المنطقة ويعيد إصلاحها، بما لا يهدد مصالح (الناخب) الأمريكي وأمنه، وأيضاً بما لايزعج اللوبيات الحاكمة في واشنطن وعلى رأسها اللوبي اليهودي ولوبي (السلاح) ولوبي (النفط) .

★★★

رابعا : بعد هذه الحقائق تطل عدة تساؤلات يأتي في مقدمتها : هل كل ما تخطط له (أو تتمناه) الادارة الأمريكية تجاه هذه المنطقة

يتحقق؟وهل أمريكا جادة في إشراك خصوم الأمس (أوروبا القديمة) أو توريطهم فى هذا المشروع أم الأمر مجرد مناورة من أجل الانتخابات الأمريكية؟ وإذا لم يكن مؤامرة، لماذا لم تأخذ أمريكا بمقترحات (فيشر) وزير خارجية ألمانيا التى قدمها أمام مؤتمر ميونخ للسياسات الأمنية الذى عقد يوم ٧ / ٢/ ٢٠٠٤ وفيها ربط دقيق بين مصالح الدول الغربية ومصالح العرب وأيضاً فيها تأكيد على ضرورة حل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً؟ وإذا لم يكن الأمر مجرد مناورة ستعود بعدها واشنطن للعمل منفردة فى المنطقة برمتها فلماذا لم تأخذ بالمبادرة الفرنسية / الألمانية التى صيغت تحت عنوان (شراكة استراتيجية لمستقبل مشترك مع الشرق الأوسط) طرحت للحوار أوائل مارس ٢٠٠٤ وفيها (تأكيد موسع على ضرورة التشاور والتنسيق والتفاهم مع بلدان منطقة الشرق الأوسط عبر حوار جماعى قوى فى وجه أى محاولة لفرض نموذج من الخارج، وضرورة التوازى بين تسوية الصراع العربى الصهيونى وإنشاء حكومة مسئولة فى العراق من جهة ومسيرة الشراكة المقترحة من جهة أخرى) .. وفقاً لنص المبادرة (انظر صحيفة الحياة ٧ / ٣/ ٢٠٠٤) وأخيراً لماذا لم تأخذ المبادرة الأمريكية بالمبادرات التى قدمتها مصر والأردن بل والجامعة العربية، وهل هذه المبادرات الإصلاحية لا تأتى على هوى المستعمر الجديد، أم لأنها تستحضر إسرائيل فى كل بنودها باعتبارها الخطر الأبرز لوأد أى إصلاح أو تقدم جدى فى المنطقة؟

تساؤلات عدة، ليست بحاجة إلى إجابة فإجاباتها معروفة ولكنها بحاجة إلى رؤية للتحرر والانعتاق، وهى رؤية، نستطيع بها أن نصنع محاكمة عادلة لمشروع الشرق الأوسط الكبير ونستطيع أن نقدم من خلالها مقاربة جادة للرد عليه أم ترك تلك التساؤلات عالقة مع المضى أمريكياً وبالقوة فى فرض المشروع فإن ذلك سيولد، شاء الأمريكيون أم أبوا، ردود فعل واسعة ستعادى المشروع قبل أن يولد، وإن ولد فسيكون مشوهاً سيتبرأ منه ساعتها الجميع وقد يساهمون معاً وبقوة فى دفنه. ■



لماذا لا تستطيع القوة الأولى الوحيدة فى العالم التصرف بمفردها؟

بقلم
د.السيد أمين شلبى

جوزيف ناى Joseph Nye هو عميد مدرسة نظم الحكومات فى جامعة هارفورد وهو وكيل وزارة الدفاع السابق فى عهد كلينتون، وهو منذ نهاية الثمانينات مشغول بالقوة الأمريكية وقدراتها وأبعادها ومكانها بين القوى الأخرى وذلك منذ أصدر فى عام ١٩٩٩ كتابه Bound to Lead والذى أراد أن يرد به على دعاة مدرسة الاضمحلال Declinist الذين تصوروا أن القوة الأمريكية تتراجع بشكل نسبى مقابل قوى أخرى صاعدة، وفى الكتاب الذى نقدمه اليوم يركز ناى على أن القوة ليست وحدها كافية لحل المشكلات الدولية مثل الارهاب والتدهور البيئى ومنع الانتشار النووى وبدون الاعتماد على الأمم الأخرى ومن هنا دعوته للسياسة الأمريكية لكى تعيد توجيه مسارها للتعاون مع الآخرين والتعامل معهم، وكما أوصى إعلان الدستور الأمريكى، بالتهذيب وليس بالغطرسة والإملاء وعدم الاستماع إليهم.

وفى هذا السياق يعالج المعركة التى تدور فى الولايات المتحدة الأمريكية بين دعاة العمل المنفرد Uni-lateral والعمل المتعدد Multilateral، وهو وإن كان من الواضح أنه من دعاة التعاون والعمل المتعدد إلا أنه لايأخذ هذا على إطلاقه بل يضع معايير اللجوء إلى كلا الأسلوبين.

وعلى الرغم من أنه فى كتابه الأول Bound to Lead قد توقع أن تظل الولايات المتحدة الأمريكية فى مركز القيادة وأنها ستظل تمسك بعناصر القوى التى تميزها عن غيرها إلا أنه ينبه إلى أن للقوة أخطارها وهو فى

كتابه الجديد يطور فى مفهوم القوة وعناصرها، ويعتبر أن القوة هى القدرة على التأثير على النتائج التى تريد الولايات المتحدة الأمريكية تحقيقها وتغيير سلوك الآخرين لتحقيق هذه النتائج، وفى سياق القوة فإن القوة العسكرية تظل عامل حاسم فى بعض المواقف ولكن من الخطأ التركيز بشكل ضيق على الأبعاد العسكرية للقوة الأمريكية، وعنده أنه إذا أرادت الولايات المتحدة أن تظل قوية فإنها تحتاج إلى التركيز على القوة اللينة Soft Power ويميز بينها وبين القوة الصلبة Hard Power التى تركز على الدوافع والحوافز أما القوة اللينة فهى الطريق غير المباشر الذى يعتمد على الثقافة والأيديولوجية وجاذبية القيم لممارسة القوة التى تجعل أمما أخرى يمتلكها الإعجاب بهذه القيم وتريد تقليدها وتتطلع إلى مستواها من الرخاء والانفتاح وبهذا المعنى يدعو «ناى» إلى جدول أعمال للسياسة الدولية بشكل يعتمد على الجاذبية والإقناع والنموذج والاستماع للآخرين أكثر مما يعتمد على القسر والزجر، كما ينبه إلى أن الغطرسة واللامبالاة بآراء الآخرين والتفسير الضيق للمصالح القومية والعمل المنفرد هو طريق أكيد لتقويض هذه القوة اللينة، ومن كلا القوتين اللينة والصلبة يتكون مزيج القوة ومصادرها وسوف يكون من الخطأ الأكبر للولايات المتحدة الأمريكية أن تعتمد على بعد واحد من عناصر القوة أو تعتقد أن الاعتماد على القوة العسكرية فقط سوف يضمن قوتها.

الهيمنة الحميدة!

ويعطى «ناى» اهتماما بتحليل مفهوم الغطرسة ومناقشة «المحافظون الجدد» الذين يدافعون اليوم عن سياسة خارجية عمادها ما يسمونه الهيمنة الأمريكية الحميدة Benign American Hegemony واعتبار أنه مادامت القيم الأمريكية جيدة وتمتلك القوة العسكرية فإن الولايات المتحدة يجب أن تتصرف وفقا لذلك.

أما «جوزيف ناى» فهو يعتبر أن تحديد المصلحة القومية لكى تتضمن المصالح العالمية هو العامل الحاسم فى تحديد ما إذا كان الآخرون سوف يرون الهيمنة حميدة أم لا، ومن ثم فإن أى تركيز على القطبية الواحدة والهيمنة والعمل المنفرد وما يصاحب ذلك من غطرسة سوف يؤدى إلى تفتيت القوة اللينة والتى هى جزء أساسى من الحل وينطلق ناى فى «تحليله» للقوة الأمريكية من أنها ليست أبدية وأنها إذا بددت قوتها اللينة من خلال المزيج من الغطرسة واللامبالاة سوف يزداد تعرض أمريكا للخطر والإسراع فى تفتيت تفوقها.

ويطرح «ناى» سؤالا مركزيا وهو إلى متى سوف يستمر التفوق

الأمـريكي، ومـا الذي يمكن فـعله بهـذا التـفـوق؟ ويميـز بين من يعتـبـرون أن التفوق الأمـريكي، هو ببساطة نتيجة لانهيار الاتحاد السوفييتي وأن هذه هي «لحظة القطب الواحد» التي سوف تكون قصيرة وهو ما يعني أن على الولايات المتحدة أن تدخر قوتها وأن ترتبط بالعالم بشكل فقط، وبين من يجادلون من أن القوة الأمريكية ضخمة وأنها سوف تدوم لعقود وأن لحظة القطب الواحد يمكن أن تصبح عهدا من القطبية، ومن وجهة نظر «ناي» فإن التفوق الأمريكي سوف يدوم في هذا القرن ولكن بشرط أن تستطيع الولايات المتحدة أن تستخدم تفوقها بشكل عاقل وإذا ماتحقق عدد من الافتراضات: منها أن التقدم الطويل الأجل للقدرة الإنتاجية سوف يستمر، وأن المجتمع لن يتعرض للتحلل، وأن الولايات المتحدة سوف تظل محتفظة بقدرتها العسكرية ولكنها لم تصبح ذات طابع عسكري زائد، وأن الأمريكان لن يصبحوا متغطرسين في قوتهم بشكل يبددوا فيه قوتهم اللينة وأنه لن تقع سلسلة من الحوادث الكارثية تحول بشكل عميق الاتجاهات الأمريكية في اتجاه منعزل، وأن الأمريكيون سوف يحددون مصلحتهم القومية بشكل واسع الأفق يشمل المصالح العالمية.

THE PARADOX OF AMERICAN POWER



ركز «جوزيف ناي» في كتابه على أن القوة ليست وحدها كافية لحل المشكلات الدولية

حقيقة القوة في عالم اليوم

في توصيفه لأوضاع القوة في عالم اليوم يرفض «ناي» مفهوم عالم القطب الواحد، وكذا القطبية المتعددة ويعتبر أن كلا منهما مضلل أما حقيقة القوة في العالم فهي أشبه برقعة الشطرنج ثلاثية الأبعاد، حيث تقع في قمتها القوة العسكرية، وهي أحادية القطب بشكل واضح، وحيث أن الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة التي تمتلك أسلحة عابرة للقارات، وقوات جوية وبحرية وأرضية قادرة على الانتشار عالميا، ولكن وسط الرقعة فإن القوة الاقتصادية متعددة الأقطاب حيث تمثل الولايات المتحدة الأمريكية، أوروبا، اليابان ثلثي الناتج العالمي، وفي هذا البعد الاقتصادي فإن

الولايات المتحدة الأمريكية ليست قوة مهيمنة وأن عليها أن تساوم أوروبا كطرف متساو، وهذا الوضع هو الذى جعل بعض المراقبين يسمونه عالم هجين من تعدد وتفرد الأقطاب Hybrid Uni - Multi Lateral World أما قاع رقعة الشطرنج فتشغله العلاقات عابرة القوميات التى تعبر الحدود وتقع خارج حدود سيطرة الحكومات وهذا المجال يضم لاعبين غير حكوميين من رجال البنوك الذين يحاولون بلمسات إلكترونية مبالغ تتعدى ميزانية حكومات، وكذلك إرهابيين وفى قاع الرقعة هذا فإن القوة موزعة بشكل واسع بحيث لن يكون هناك معنى للحديث عن القطبية أو التعددية أو الهيمنة.

ويستخلص «ناي» من هذا التوزيع للقوة أنه إذا كنت إزاء لعبة ثلاثية الأبعاد فسوف تخسر إذا ما ركزت فقط على البعد العسكرى وفشلت فى أن تلاحظ الأبعاد الأخرى ومدى الترابط بينها.

فى هذا التوزيع المعقد للقوى فإن مايزيد من تعقيد الموقف بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، أن هناك الكثير والكثير من الزهور التى تقع خارج سيطرة حتى أكثر القوى قوة، فالولايات المتحدة الأمريكية تفتقر إلى المتطلبات الأولية لحل الصراعات الداخلية للمجتمعات الأخرى وإلى التحكم ورصد الصفقات عبر القومية التى تهدد الأمريكيين فى الداخل وإزاء هذا يرى «ناى» أنه ليس أمام الولايات المتحدة إلا أن تقيم تحالفات دولية لكى تتعامل مع تهديدات مشتركة وتحديات تجعلها تتعلم بشكل أفضل كيف تشارك مثلما تقود - وينقل فى هذا عن محلل بريطانى «أن مفارقة القوة الأمريكية فى نهاية هذا القرن هى أنها من العظمة بحيث لاتتحداها قوة أخرى، ولكنها ليست عظيمة بما فيه الكفاية لكى تحل مشكلات مثل الإرهاب الدولى، والانتشار النووى فالولايات المتحدة تحتاج إلى مساعدة واحترام الأمم الأخرى».

وفى استعراضه للمعركة بين دعاة العمل المنفرد ودعاة العمل المتعدد، ورغم وضوح أنه يقف إلى صف الفريق الأول، ويرى أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تعمل مع الأمم الأخرى حول المشكلات العالمية بطريقة متعددة، ويتفق مع الرأى القائل بأن الولايات المتحدة لاتستطيع أن تضمن مصالحها بشكل منعزل، على الرغم من هذا فإنه لايقبل العمل المتعدد على إطلاقه ويضع عددا من المعايير للاختيار بين أساليب العمل المنفرد أو المتعدد فهو لايستبعد العمل المنفرد فى الحالات التى تتعلق بمصالح حيوية تتصل ببقاء الولايات المتحدة، ويقدم أزمة الصواريخ الكوبية نموذجا على ذلك كما يدعو إلى الحذر فى الترتيبات المتعددة التى تتدخل فى قدرة

الولايات المتحدة على خلق سلام مستمر في المناطق المضطربة، إلا أنه يعتبر العمل المتعدد والتعاون مطلوبا وجوهريا في القضايا ذات الطابع التعاوني الحقيقي والتي لاتستطيع أن تديرها الولايات المتحدة بدون مساعدة دول أخرى مثل قضايا التغير المناخي وانتشار الأمراض المعدية واستقرار الأسواق المالية العالمية والنظام التجاري الدولي وانتشار أسلحة الدمار الشامل وتجارة المخدرات واتحادات الجريمة الدولية والإرهاب الدولي، ففي كل هذه المشكلات التي تتصل بالمصالح القومية الأمريكية لايمكن أن تتحقق إلا بالمشاركة والتعاون مع بقية العالم.

ويستخلق «ناي» في النهاية أن مفارقة السياسة الأمريكية تكمن في أن السياسة تتغير بطريقة تجعل من غير الممكن لأقوى دولة في العالم منذ الإمبراطورية الرومانية أن تحقق بعض أهدافها الدولية الحاسمة وحدها، فالولايات المتحدة تفتقر إلى كل من الطاقة والقدرة الدولية والداخلية لحل صراعات تعتبر داخلية لمجتمعات أخرى، وأن تراقب وتتحكم في تطورات عبر القومية تهدد الأمريكيين في الداخل، وفي الكثير من قضايا اليوم الرئيسية، فإن القوة العسكرية وحدها لاتستطيع ببساطة أن تحقق النجاح وأن استخدامها في بعض الأحيان قد يأتي بنتائج عكسية.

وقد جاءت الأحداث لكي تثبت للإدارة الأمريكية صحة وجهة نظر «جوزيف ناي» عن صعوبة التصرف بمفردها وبمنأى عن المجتمع الدولي ومنظمته الدولية، فبعد النجاح العسكري الخاطف في العراق اكتشفت الإدارة الأمريكية أنها لا تستطيع بمفردها تحمل أعباء ما بعد الحرب واستمرار وجودها، سواء على المستوى العسكري، أو البشري أو الاقتصادي، لذلك عادت إلى الأمم المتحدة، التي كان أقطابها حتى وقت الحرب يعتبرونها غير ذات موضوع Irrelevant، لكي تضفي أولا الشرعية على وجودها، ولكي تقنع دولا أخرى للاشتراك في قوة دولية تشاركها العبء العسكري في العراق، فضلا عن مساهماتها في أعباء إعادة الإعمار في العراق، وهكذا انهار أحد الافتراضات المهمة التي روج لها خبراء وأقطاب الإدارة الأمريكية وهي أن أمريكا قادرة على التصرف المنفرد إن لم تنصاع القوى الدولية الأخرى الاختبارات والمواقف الأمريكية، هذا فضلا عن افتراضات أخرى تثبت الأحداث كل يوم عدم صحتها ■

حماس

القصة الكاملة

- تتبنى المؤسسات وتقاوم الاحتلال
- فى غزة أنشأت أول جامعة داخل الخيام

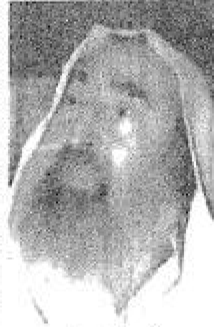
بقلم

د. عادل حسن غنيم

تزامن تأسيس حماس مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧م، ولذلك فإن حماس تعتبر يوم الثامن من مارس ١٩٨٧م تاريخ بدء الانتفاضة التاريخ الرسمى لتأسيسها وهناك عدد من العوامل السياسية والاقتصادية كانت وراء تلك الانتفاضة، لكن العامل الرئيسى هو تفاقم الصراع بين الشعب العربى الفلسطينى وبين قوات الاحتلال الإسرائيلية التى أمعنت فى إجراءات الاستيطان والقمع والاضطهاد .

فلقد حدث فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧م أن داهمت شاحنة عسكرية إسرائيلية أربعة من العمال الفلسطينيين وقتلتهم وبناء علي ذلك فقد نسبت أجهزة الإعلام الإسرائيلية قيام الانتفاضة إلى المشاعر التى تفجرت إثر هذا الحادث، ولاشك أن هذا الحادث كان استفزازاً حقيقاً للجماهير، لكنه لايعدو أن يكون مجرد الشرارة التى اطلقت المخزون الثورى الكامن لدى الجماهير .


عز الدين القسام


أحمد ياسين


عبد العزيز الرنتيسي

وكان ذلك اليوم هو اليوم الأول لانتفاضة ١٩٨٧م، وفي مساء اليوم التالي (٩ديسمبر) اجتمع المكتب السياسي للإخوان المسلمين في غزة واعتبر الحادثة هي اللحظة المناسبة للانخراط عملياً ضد الاحتلال، وفي ذلك الاجتماع تم صياغة البيان الأول لحركة المقاومة الإسلامية، واعتبر الاجتماع اللقاء التأسيسي لحماس، كما اعتبر الحاضرون مؤسسي حماس، وهم : الشيخ أحمد ياسين، وعبد العزيز الرنتيسي، وصلاح شحادة، ومحمد شمعة، وعيسى النشار، وعبد الفتاح دخان، وإبراهيم اليازوري .

ويعتبر الشيخ أحمد ياسين هو مؤسس حركة حماس وأباها الروحي، وقد ظل الشيخ رغم كبر سنه وظروفه الصحية الصعبة نموذجا للقيادة الثورية التي لم تعرف يوماً أي ضعف أو استكانة، ومن يتابع تصريحاته سوف يجد على الدوام ثباتاً وتحدياً وإصراراً على المقاومة، غير آبه بسلطان أو نفوذ مصمماً على الجهاد حتى تحقيق النصر أو الشهادة .

وقد حرصت إسرائيل على تصفية الشيخ أحمد ياسين باعتباره رمزاً للمقاومة الفلسطينية حيث اغتالته في هجوم صاروخي نفذته ثلاث طائرات عسكرية من طراز أباتشي لدى خروجه من مسجد قريب من منزله في غزة فجر يوم الاثنين ٢٢ مارس ٢٠٠٤م، حيث أشرف إرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي شخصياً على تنفيذ العملية. كما كان صلاح شحادة رئيس أول تنظيم عسكري لها، وكان شحادة في طليعة من ألقي القبض عليهم وحوكموا بتهمة تنظيم عمليات عسكرية بعد انتفاضة ١٩٨٧ م بحوالي عام واحد، وقد ظل يؤدي دوره حتى استشهد في أواخر يوليو ٢٠٠٠ م إثر هجوم لطائرتين إسرائيليتين من طراز إف ١٦ على منزله في غزة، ولا يعرف الباحث في تاريخ العالم الحديث والمعاصر عمليات اغتيال لمواطنين يقاومون الاحتلال يتم تنفيذها بالطائرات بواسطة الصواريخ سوى في إسرائيل التي لا تجد في المجتمع الدولي من يردعها .

دور عملي في مقاومة الاحتلال

وهناك مجموعتان من العوامل اسهمتا في تأسيس حماس، المجموعة الأولى متعلقة بتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية على صعيد فلسطين، والمجموعة الثانية متصلة بالتطور الفكري والسياسي للحركة الإسلامية في الأرض المحتلة، وبشكل خاص في قطاع غزة، وبالنسبة للمجموعة الأخيرة حدث تعاظم بضرورة الانتقال إلى القيام بدور عملي في مقاومة الاحتلال، كما أن تجربة التنظيم العسكري الذي شكله الشيخ أحمد ياسين في أوائل الثمانينيات واكتشف عام ١٩٨٤م زادت من الاقتناع باهمية المقاومة في تلك المرحلة.

وبقراءة البيان الأول لحماس الصادر في ١٤ / ١٢/ ١٩٨٧م تبدو لنا ملاحظة سياسية مهمة وهي أن هناك خلطاً بين اليهود

والصهاينة، فاستخدام كلمة اليهود ليس لها ضرورة باعتبارهم الذين يتبعون الدين اليهودي وليسوا جميعهم صهاينة، أما كلمة الصهيونية فتعني هؤلاء اليهود الذين احتلوا أرضنا وانتزعوا خيراتنا وتعاونوا مع الاستعمار من أجل تنفيذ أهدافهم المشتركة وقد تطورت رؤية حماس بعد ذلك إلى التفريق بين اليهودية والصهيونية، وتوجيه العداء نحو الحركة الصهيونية .

وأما ميثاق حماس الذي يحتوي على خمس وثلاثين مادة، والذي صدر في ١٨ أغسطس ١٩٨٨م فأهم ملامحه ما يأتي : أن الإسلام هو منهج هذه الحركة التي تتكون بنيتها الأساسية من مسلمين ويمتد بعدها المكاني إلى أي بقعة من بقاع الأرض، وأن الصراع الدائر في فلسطين هو صراع حضاري مصيري لا يمكن إنهاؤه إلا بزوال سببه .

ولاشك أن الميثاق يتضمن أشياء إيجابية عديدة مثل ربط قضية تحرير فلسطين بدوائر ثلاث، وهي الدوائر الفلسطينية والعربية والإسلامية، ومثل اعتبار دور المرأة المسلمة في معركة التحرير دوراً لايقل عن دور الرجل واستعداد الحركة لمساندة كل الحركات الوطنية العاملة على الساحة الفلسطينية .

استراتيجية حماس

وتبني حماس استراتيجيتها في مواجهة الاحتلال الصهيوني الاستيطاني لفلسطين على عناصر أربعة : الأول، حشد طاقات الشعب الفلسطيني وتوجيهها نحو الصمود ومقاومة العدو الغاصب باعتبار هذا الشعب هو المستهدف الأول من الاحتلال الصهيوني، وعليه يقع العبء الأول في مقاومة الاحتلال .

والثاني، أن ساحة المواجهة مع العدو هي فلسطين، وأما الساحات العربية والإسلامية فهي ساحات مؤازرة للشعب الفلسطيني

الثالث، أن مواجهة العدو ومقاومته في فلسطين يجب أن تظل متواصلة حتى النصر والتحرير

والرابع، أن العمل السياسي هو إحدى وسائل الجهاد ضد العدو الصهيوني، ويهدف إلى تقوية صمود الشعب في مواجهة الاحتلال .

والواقع أن الحركة الإسلامية بشقيها : الإخوان المسلمون في غزة، والجماعات الإسلامية الأخرى في الضفة الغربية، قد اكتسبت وزناً وموقعاً مهمين في الساحة الفلسطينية منذ بداية الثمانينيات حتى صارت في مجموعها تمثل حسب آخر استطلاعات فلسطينية وإسرائيلية ودولية ٧٥٪ من القوى الجماهيرية المنظمة .

وقد تبلور التنسيق بين المنظمات الإسلامية إلى بناء جبهة تلتف حول برنامج يصب في خدمة النضال المشترك ضد العدو الصهيوني تحت اسم تنظيم «الواثقون» وقد انضم التيار الإسلامي فيما بعد إلى عضوية المجلس الوطني الفلسطيني في أبريل ١٩٨٧م.

ورغم الأدلة القاطعة على الدور المتميز للتيار الإسلامي الفلسطيني في انتفاضة ١٩٨٧م إلا أنه امتنع عن الإشادة ببطولاته، والتزم بالتنسيق مع كافة القوى خاصة المسيحيين والحزب الشيوعي.

وطبقاً لتعريف أصحابها، فإن حماس حركة جهادية تسعى إلى تحرير فلسطين بكاملها من البحر إلى النهر، وتستند في فكرها ووسائلها ومواقفها إلى تعاليم الإسلام، وتعمل على إقامة دولة إسلامية مستقلة في فلسطين .

وتلتزم منظمة حماس في قراراتها بالشورى إلى حد كبير ، قد ساعد على هذا التوجه التزام مؤسسها أحمد ياسين به، ومع أنه الشخص الوحيد في الحركة الذي كان قادرا على فرض رأيه الفردي، لكنه لم يستخدم هذا الحق، مما جعل المنظمة تلتزم بقرارات الأغلبية.

دور مهم للمسجد

واعتباراً من أواخر ١٩٩٠م أصبح هناك ناطق رسمي باسم حماس خارج الأرض المحتلة، وبعد قيام السلطة الفلسطينية في مناطق الحكم الذاتي في أبريل ١٩٩٤م،

أصبح رموز حماس يتحدثون باسمها ، واستطاعت حماس تثبيت وجودها من خلال العمل الانتفاضي والعسكري، أو من خلال العمل الاجتماعي والأهلي، مما مكن حماس من الاستحواذ على شعبية كبيرة جعلتها منافسا مهما لنفوذ منظمة التحرير الفلسطينية. وفي إحدى وثائق الحماس ما يشير إلى أنها حازت على تأييد ما يزيد على نصف الشعب الفلسطيني في غضون سنوات قليلة . لكن ورد في مذكرة أخرى مؤرخة في أبريل ١٩٩٠ ما يعني أن ثقل حماس في الساحة الفلسطينية يتراوح بين ٤٠ - ٥٠٪ . وعندما تقدمت حماس بمشروع تحالف القوى الفلسطينية، حددت فيه نسبة تمثيلها في القيادة المركزية بـ ٤٠٪ والفصائل الأخرى ٤٠٪ والمستقلون ٢٠٪ .

ومنذ نشأتها اعتمدت حماس على المساجد والمؤسسات الخيرية في تحويل خطابها الاجتماعي إلى واقع ملموس، وساهمت في هذا الإطار المئات من مساجد الضفة الغربية وغزة فضلا عن عشرات الجمعيات والمؤسسات الإسلامية الأخرى .

وخلال الانتفاضة الأولى لعبت المساجد دوراً مهماً في بلورة فكرة الهوية، وتحرير الذات العربية من الانكسار . وقد بلغ عدد المساجد في الضفة الغربية حوالي ٨٥٠ مسجدا لعب خطباؤها دوراً مهماً في عملية التعبئة، وأصبحت أيضا منتديات سياسية، وكانت وسيلة إبلاغ توجيهات الانتفاضة للشعب .

لكن هذا الوضع لدور المساجد تغير بعد وضع سلطة الحكم الذاتي يدها على جميع المساجد ضمن حملة منظمة ضد المؤسسات التي كانت تسيطر عليها حماس إثر سلسلة التفجيرات التي وقعت في القدس وتل أبيب في فبراير ومارس ١٩٩٦م.

كتائب عز الدين القسام

وفي البداية كانت عمليات كتائب عزالدين القسام لا تستهدف الا جنود الاحتلال وأدواته العسكرية والمستوطنين باعتبارهم جنود احتياط في جيش العدو، وكانت تحرص على الا يقع ضحايا من المدنيين . ولكن الممارسات الاسرائيلية التعسفية وعدم تفريق جيش العدو ومستوطنيه بين المجاهدين والمدنيين العزل جعل كتائب القسام تعتمد سياسة الرد بالمثل التي تقرها القوانين والأديان السماوية، ولم يكن ذلك سياسة ثابتة لدى كتائب القسام، وإنما كان سياسة استثنائية فرضتها حكومة اسرائيل.

– وتتبع حماس سياسات محددة في مقاومة الاحتلال أهمها: أن تكون مواجهاتها مع قوات الجيش الإسرائيلي وتشكيلاته المساندة، وأن تمارس حق الدفاع عن النفس ضد وحدات عملاء الاحتلال ومستوطنيه المسلحين، وأن تركز العمليات على الأهداف العسكرية، وأن تتجنب أية أهداف أخرى خاصة المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ، وعدم التمثيل أو التشويه أو الإمعان في القتل في حالة الاشتباك المسلح، وعدم الاعتداء على أي أشخاص أو مصالح غربية في الأراضي المحتلة أو خارجها، وعدم القيام بأية عمليات خارج فلسطين المحتلة .

وقد احتل العمل العسكري موقعاً أساسياً في فكر حماس وممارستها واستراتيجيتها خاصة منذ تأسيس جناحها العسكري عام ١٩٩٢م، ولم يشكل هذا العمل مصدراً مهماً من مصادر شعبية الحركة فقط، بل شكل مصدراً أساسياً لشرعيتها ونقطة خلاف شبه دائم مع السلطة الفلسطينية منذ عام ١٩٩٤م.

وخلال عامي ١٩٩٣، ١٩٩٤م تصاعد النشاط العسكري لحماس ونفذت سلسلة من العمليات الانتحارية في قلب الكيان الإسرائيلي ضد حافلات ومستوطنين، وسقط خلالها عشرات الاسرائيليين ، وتوجت تلك العمليات بسلسلة عمليات تفجير في فبراير ومارس ١٩٩٦م – أي بعد الانتخابات الفلسطينية – مما أدى إلى تجميد بدء مفاوضات المرحلة النهائية. وطبقاً لإحدى الإحصائيات، نفذت حماس عام ١٩٩٣م

(١٣٨) عملية، ترتب عليها مقتل ٧٩ قتيلاً حسب إعلان السلطات الإسرائيلية.

وإثر دخول السلطة الفلسطينية الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٩٤م زادت صعوبات العمل الفدائي رغم تحسن نوعيته، وقامت حماس بتنفيذ خمس عمليات فدائية ضد الكيان الاسرائيلي انتقاما لمجزرة الحرم الإبراهيمي التي ارتكبها ضابط اسرائيلي ضد المصلين أثناء تأديتهم صلاة الفجر، والتي ترتب عليها استشهاد ٢٩ شخصاً وجرح أكثر من ثلاثمائة، وتمكنت حماس في العمليات الخمس من قتل ٣٩ إسرائيلياً وجرح ١٥٨. وفي ٥ يناير ١٩٩٦م استشهد يحيي عياش، وقد ردت حماس على استشهاده بعدة عمليات قتل خلالها ٤٥ إسرائيلياً وجرح ١١٣ طبقا للمصادر الاسرائيلية.

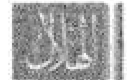
الالتزام بالثوابت الإسلامية

وعندما أثيرت فكرة تكوين قيادة مشتركة لكل الفصائل في انتفاضة ١٩٨٧م، لم يكن لدى حماس مانع من المشاركة في تلك القيادة على عدد من الأسس من أهمها التزام هذه القيادة بالثوابت الإسلامية الوطنية للشعب الفلسطيني المستندة لحقه الكامل في فلسطين، ورفض كافة مشاريع التسوية السياسية المطروحة مادامت تنتقص من السيادة الفلسطينية الكاملة، وعدم تقديم أية تنازلات عن أي من الحقوق.

وبمناسبة إعادة تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني في أبريل ١٩٩٠م والدعوات التي وجهت لحماس للاشتراك في المجلس، قدمت حركة حماس مذكرة إلى رئيس المجلس الوطني الفلسطيني عبدالحميد السايح تطالبه بمراعاة عدة اعتبارات منها أن يكون الانتخاب وليس التعيين هو الوسيلة الأساسية لاختيار أعضاء المجلس، وإذا تعذر ذلك فيجب أن يعكس التشكيل أوزان القوى السياسية على الساحة، وتعديل الميثاق بما يتفق مع عقيدة الشعب الفلسطيني المسلم وتراثه الأصيل، وأوضحت الحركة استعدادها للمشاركة في المجلس الوطني الفلسطيني بناء على عدد من الاعتبارات من أهمها رفض التفريط بأي جزء من أرض فلسطين، ورفض اعتبار الكيان اليهودي كياناً شرعياً ومعترفا به، والتأكيد على الخيار العسكري، وأن تحصل حماس على حقها المتناسب مع حجمها في جميع مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية.

وكانت حركة حماس في الوقت نفسه عاملة على التنسيق بين الفصائل الفلسطينية المختلفة حرصاً منها على تكامل أدوارها وتوحيد مواقفها، وبناء على ذلك فقد تقدمت في أبريل ١٩٩٢م بمشروع للفصائل الفلسطينية - بشأن تكوين لجنة التنسيق الفلسطينية العليا - يحدد أهداف تلك اللجنة والسياسات والمبادىء التي تحكمها. وفي أعقاب توقيع اتفاق أوسلو، تقدمت في سبتمبر ١٩٩٣م للفصائل الفلسطينية العشر بمشروع تحالف لقواها المختلفة يوضح كيفية تكوين القيادة المركزية للتحالف وهيئتها التنفيذية.

ونتيجة لما قامت به حماس في أوائل عام ١٩٩٣م من لقاءات واتصالات مع عدد من ممثلي الدول الغربية بشأن القضية حول موضوعات المبعدين الفلسطينيين والممارسات الصهيونية القمعية ونية الخارجية الأمريكية إدراج أعمال حماس ضمن الأعمال الإرهابية، صدرت من بعض القوى تأويلات رأتها حماس خاطئة، فأذاعت بياناً حول طبيعة تلك الاتصالات، وأوضحت به أن ذلك يأتي انسجاماً مع سياسة الحركة التي تهدف إلى الانفتاح والحوار مع كل الدول والأحزاب لكن الباحث يرى في ذلك تحولاً إيجابياً في أساليب الحركة، حيث أن الحركة سبق أن أعلنت في المادة ١٣ من ميثاق حركتها أن ما يسمى بالحلول السلمية والمبادرات والطروحات والمؤتمرات الدولية مضيعة للوقت، لكن الحقيقة أن تلك الاتصالات التي قامت بها حماس تدخل ضمن هذه المبادرات والحلول السلمية لبعض جوانب القضية وليس في ذلك إساءة إلى



حماس، كما أن ما قدمته من عروض ومبادرات بهدف التوصل إلى وقف لإطلاق النار وفق شروط عادلة يدخل أيضاً في إطار ذلك التطور الإيجابي في أساليب الحركة.

ولقد كان من المواقف التي زادت من تقدير المراقبين المحايدين لتوجهات حماس أنها أعلنت أنها تحرم مبدأ الاغتيال السياسي، كما ترفض الوصول للأهداف السياسية عبر العنف، كما تحظر على كوادرها العسكرية استهداف المدنيين الإسرائيليين خلال مقاومتها للاحتلال العسكري.

عمليات مقاومة مشتركة

وأما بالنسبة لنظرة حماس إلى منظمة التحرير الفلسطينية فقد تدرجت من الاعتراف المتحفظ في البداية إلى التحفظ الكامل ثم إلى تجاهل موضوع الاعتراف مع انعقاد مؤتمر مدريد، ثم تطورت الأمور بعد ذلك إلى الاتهام بالتفريط والتنازل الكلي مع اتفاقي أسلو والقاهرة، ثم إعلان حماس بأن المنظمة لم تعد تمثل الشعب الفلسطيني وطموحاته، وقد خفت حدة الهجوم كثيراً منذ دخول السلطة الفلسطينية مناطق الحكم الذاتي في أواسط ١٩٩٤م إذ أصبحت السلطة محل الهجوم والاتهام بدلاً من المنظمة.

وأما عن علاقة حماس بفتح فقد واجهت حماس في البداية صعوبات كبيرة في التعامل مع حركة فتح، وحدث توتر واشتباكات بينهما، لكن بعد حدوث عدة لقاءات بين الطرفين جرى أكثر من اتفاق بهدف التنسيق وتجاوز الحساسيات، وتحسنت العلاقات مع اندلاع انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠م حيث ازداد اقتراب فتح من سياسات حماس في المقاومة والانتفاضة.

وترى حماس أن سلطة الحكم الذاتي هي أحد إفرازات اتفاق أوسلو، وهي ترفض المشاركة في المؤسسات السياسية للحكم الذاتي، وبناء على ذلك فقد قاطعت انتخابات المجلس التشريعي للسلطة كما رفضت الاشتراك في الحكومة، لكنها في الوقت نفسه ترفض الاقتتال مع السلطة أو التورط في حرب أهلية معها، رغم قيام سلطة الحكم الذاتي بحملات اعتقال وملاحقة لكوادر حماس خلال الفترة من ١٩٩٤م حتى بدء انتفاضة ٢٠٠٠م حيث خفت حدة تلك الممارسات وإن لم تتوقف حتى بالنسبة لقيادات حماس. ففي منتصف عام ٢٠٠٢م تصدى عشرات من أنصار حماس لأجهزة الأمن الفلسطينية وحالوا دون اعتقال عبدالعزيز الرنتيسي، كما تحدى الشيخ أحمد ياسين قرار الإقامة الجبرية الذي فرضته السلطة الفلسطينية عليه في منزله، وقاد مظاهرة مناوئة لواشنطن في مدينة غزة.

وأما بالنسبة للمشاركة الوزارية فقد سبق أن رفضت حماس عرض الرئيس عرفات بالانضمام إلى مجلس وزراء معدل خلال عام ٢٠٠٢م، وأكد إسماعيل أبوشنب أحد قيادات حماس معارضة الحركة لأي شكل من المشاركة في أي مؤسسة مقيدة باتفاقات أوسلو، لكنه مع استمرار الحوار بين الفصائل الفلسطينية، ازداد الاقتراب بين حماس والسلطة الفلسطينية وضاقت هوة الخلافات رغم تمسك كل طرف بمنطلقاته.

فبمناسبة ما أثير مؤخراً حول انسحاب إسرائيل من قطاع غزة، أبدت حماس استعدادها من حيث المبدأ للمشاركة في إدارة شئون القطاع بعد الانسحاب، ورحب ياسر عرفات في الوقت نفسه بتشكيل قيادة وطنية موحدة تضم جميع الفصائل في فلسطين بما فيها حماس.

وكان مساعد الناطق باسم وزارة الخارجية الأمريكية قد حذر من مشاركة حماس في مؤسسات السلطة الفلسطينية زاعماً أن حماس مؤسسة إرهابية. لكن صائب عريقات وزير شئون المفاوضات الفلسطيني أعلن أن السلطة الفلسطينية ترفض تحذيرات الإدارة الأمريكية من مشاركة حماس في مؤسسات السلطة، مؤكداً أن ذلك شأن فلسطيني داخلي.

وأما عن العلاقة بين حماس وحركة الجهاد الإسلامي فكانت أكثر تميزاً من سائر الفصائل باعتبارهما الأقرب عقائدياً.

علاقات متميزة

وأما عن علاقات حماس على المستوى العربي فقد حافظت بشكل عام على علاقات طيبة مع البلاد العربية، فقد تميزت علاقات حماس السياسية مع السودان وإيران بمستوى رفيع، وبدرجات طيبة مع سورية ولبنان، وحافظت على خطوط اتصال دائمة مع دول الخليج، وعلى علاقات لم تنقطع مع مصر والسعودية واليمن، وعلى علاقات متذبذبة مع المملكة الأردنية الهاشمية وإن كانت مستقرة في المرحلة الأخيرة، وترجع هذه العلاقات الطيبة مع معظم البلاد العربية والإسلامية إلى أسباب عديدة أهمها هو عدم تدخل حماس في شئون البلاد العربية الداخلية، وعدم الدخول في محاور صراع بين تلك الدول، وعدم إنشاء فروع لها في تلك البلدان، وحفاظها على إتباع سياسة وسطية مع الكثيرين، واتخاذ موقف مماثل من حرب الخليج الثانية، حيث طالبت بالانسحاب العراقي من الكويت وانسحاب القوات الأجنبية . أما على المستوى الشعبي فقد كانت علاقات حماس أفضل كثيراً منه على المستوى الرسمي، حيث حظيت بتقدير شعبي كبير وتأييد معظم تيارات المعارضة العربية والإسلامية.

أما بالنسبة لموقف إسرائيل من المنظمة فقد شنت إسرائيل حملة شاملة ضد حماس في مايو ١٩٨٩م أدت لاعتقال معظم قياداتها وعلى رأسهم الشيخ أحمد ياسين، لكن المنظمة كانت قادرة على تقديم قادة جدد وعلى متابعة النضال وتصعيده.

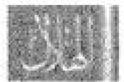
وقد نجحت حماس في معركة إعلامية مع إسرائيل عندما قامت الأخيرة بإبعاد ٤١٥ مواطناً فلسطينياً غالبيتهم العظمى من كوادر حماس حيث أمكن توفير جو عربي وعالمي مناصر لتلك الحملة اضطرت معه إسرائيل إلى إعادتهم.

ومنذ فوز شارون بمنصب رئيس وزراء إسرائيل في فبراير ٢٠٠١م تصاعدت عمليات الفصائل وبضمنها حماس مما أدى إلى تصاعد الانتفاضة الفلسطينية، وبلغ رد الفعل من جانب إسرائيل درجة غير مسبوقة من الاغتيالات لكوادر المقاومة فضلاً عن أعمال القتل والتجريف والهدم واجتياح أراضي السلطة الفلسطينية ، واستخدام كل الأسلحة الحربية الإسرائيلية ابتداء من البندقية حتى الطائرات المقاتلة إف ١٦، كما تصاعدت أعمال العنف المضاد من جانب المقاومة الفلسطينية بما في ذلك العمليات الاستشهادية، وهكذا تصاعد إرهاب الدولة على يد شارون حتى بز كل سابقيه، وليس هذا بغريب على شارون صاحب التاريخ الدموي السابق ، وأبرزه مذابح صبرا وشاتلا ومخيم البريج في قطاع غزة.

موقف الغرب من حماس

وعلى المستوى الدولي لم تعلن حماس الحرب المفتوحة على الغرب، ولم تطالب بطرد مصالحه في المنطقة، كما أنها لم تقترب من العمليات الخارجية كخطف الطائرات واحتجاز الرهائن أو اغتيال إسرائيليين في مدن خارجية. ومع ذلك وصفت أغلب عمليات حماس دولياً بالإرهاب وبخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية، مما أثر في حماس إقليمياً، وتصاعدت الإدانات على استحياء من كثير من الدول العربية والإسلامية، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة.

وقد استنكرت حركة حماس الموقف الأمريكي الداعم للإرهاب الإسرائيلي الذي جاء على لسان وزير الخارجية الأمريكية كولن باول، وأعطى الضوء الأخضر لإسرائيل بتصعيد عدوانها على الشعب الفلسطيني بقوله إن هدم منازل الفلسطينيين وتدمير مطار غزة رد على حادث تهريب سلاح، فطالبت حماس السلطة الفلسطينية باعتبار الولايات المتحدة شريكاً لإسرائيل في العدوان على الشعب الفلسطيني باعتبارها وسيطاً غير نزيه ولعل مايؤكد عدم النزاهة هذه ماأعلنه الرئيس الأمريكي عقب اغتيال الشيخ ياسين من تأكيد حق إسرائيل



في الدفاع عن نفسها.

ورغم المواقف الإسرائيلية والأمريكية المحبطة، فقد حاولت السلطة الفلسطينية مراراً تهدئة الأمور في فلسطين، فقد سعت السلطة الفلسطينية منذ أعلن الرئيس عرفات عن مبادراته لتثبيت وقف إطلاق النار في ١٦ ديسمبر ٢٠٠١م لتهيئة الأجواء لاستئناف محادثات التسوية السلمية. وأكد ياسر عرفات أن وقف إطلاق النار قرار استراتيجي اتخذته القيادة الفلسطينية ويجب الالتزام به.

وفي تصريحات لمجلة نيوزويك الأمريكية في ٢١ يناير ٢٠٠٢م قال عرفات إن شارون يسعى لخلق توترات بين الفلسطينيين مشيراً إلى أن الجانب الفلسطيني يعمل كل ما يستطيع عمله على المستوى السياسي وفي مجال الأمن من أجل وضع حد للعمليات الاستشهادية لكن السلطة الإسرائيلية لم تتجاوب مع تلك المحاولات، مما دعا السلطة الفلسطينية إلى إيقاف تلك المبادرة.

وقد استمرت إسرائيل في تصعيد الأمور ومتابعة سياسة التدمير والتقتيل والتصفية وهدم المنازل والاعتقالات بشكل وحشي ويومي، ورغم توقف أعمال المقاومة أحياناً بعض الوقت حرصاً من الفصائل الفلسطينية وعلى رأسها حماس لإعطاء فرصة للجهود الدبلوماسية كما حدث في تلك الهدنة التي عقدت لمدة ثلاثة أشهر وانتهت في ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٣م بهدف وقف العدوان والإفراج عن جميع الأسرى والمعتقلين في السجون الإسرائيلية، لكن إسرائيل كانت تتحين فرصة أو حادثة فردية أو عارضة كي تستأنف تجاوزاتها وعدوانيتها مطالبة بتوقف المقاومة تماماً قبل استئناف أي حوار. وفي تقديرنا أن حماس ليست هي المسئولة عن تردي الأوضاع في فلسطين باستمرارها في رفع راية المقاومة، لكن إسرائيل هي التي تتحمل المسئولية الأساسية لما يحدث في فلسطين، فهي دولة توسعية لاتريد السلام، لأن السلام سوف يحد من حركتها ويعطل توسعاتها ويقضي على إحلامها.

والمتتبع لموقف إسرائيل من حماس خلال انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠م سوف يلحظ أن إسرائيل قد صفت كثيراً من قيادات حماس متصورة أن ذلك سوف يشل حركة المقاومة أو يضعفها، لقد استشهد من قادة حماس كثيرون وعلى رأسهم صلاح شحادة، وإسماعيل أبو شنب، ويحيى عياش، وجمال سليم وجمال منصور، و قائد الحركة ورمزها الشيخ أحمد ياسين ، و أخيراً د. عبد العزيز الرنتيسي. وكانت الحركة بعد استشهاد كل من هؤلاء الرموز تزداد قوة وفعالية وتقوم بعمليات استشهادية مؤثرة وفعالة سواء داخل الخط الأخضر أو خارجه.

ولا شك أن اغتيال الشيخ أحمد ياسين بشكل خاص يثير تساؤلا منطقياً وهو إلى أين تتجه حماس بعد استشهاد الشيخ خاصة بعد إعلان وزير الدفاع الإسرائيلي عقب اجتماع عسكري كبير أنه ينبغي إضعاف حركة حماس حتى يمكن تطبيق خطة الفصل مع الفلسطينيين؟

يعتقد اعتقاداً جازماً أن حماس سوف تتابع دورها في خدمة القضية الفلسطينية محققة مزيداً من النجاح ومزيداً من التقارب مع فتح وسائر الفصائل الفلسطينية من أجل مواجهة ذلك التصاعد الذي تفرضه إسرائيل مدعمة من القوى الاستعمارية المختلفة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. ولعل من أهم الأسباب التي تجعلنا نتوقع دوراً لحماس خلال مرحلة مابعد الشيخ أحمد ياسين كون هذه المنظمة تدار بشكل جماعي يعتمد على الشورى مما يوفر على الأغلب مناخاً طيباً لحسن اتخاذ القرار.

إسرائيل سوف تضطر عاجلاً أو آجلاً إلى الحوار مع السلطة الفلسطينية والتسليم بالحد الأدنى من المطالب الفلسطينية، وسوف يسجل التاريخ ويكتب المؤرخون الجدد في إسرائيل يوما ما أن استمرار حماس في مقاومة الاستعمار الإسرائيلي كان عاملاً أساسياً في تراجع إسرائيل وانسحابها من الضفة الغربية وقطاع غزة وفي الحفاظ على قدر من الكرامة العربية. ■

هل نعلن وفاة

القراءة ؟

بقلم
د. أحمد محمد صالح

فى العدد السابق بدأنا قراءة وتأمل محاضرة دان سيربير Dan Sperber الباحث فى العلوم الاجتماعية فى مركز CNRS بباريس، والذى يعلن فيها قرب انتهاء عصر القراءة والكتابة! وإمكانية الدخول إلى المعلومات المخزونة بشكل شفهى وسماعى، حيث الحاسبات الناطقة التى تمكنا من استبدال كلّ اللغة المكتوبة باللغة المنطوقة. وسنكون قادرين على تخزين واسترجاع المعلومات ببساطة من خلال النطق والاستماع، والنظر إلى الرسومات، وليس فى النصوص، وإذا أثبتت تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب فعاليتها ومناسبتها، قد ينتهى ذلك بالناس إلى ترك نشاط الكتابة جملة بدون أن يقرروا عمل ذلك أو حتى يلاحظون أنهم فعلوا ذلك، ونكمل فى عجالة اليوم تأثيرات استعمال تقنيات تحويل النص المكتوب إلى خطاب منطوق.





يشرح دان ببساطة تقنيات تحويل النص إلي خطاب منطوق، بأن واحدا عنده نص مكتوب يقرأ له بدلا من أن يقرأه بنفسه. كما هو الحال مع بعض الناس الأغنياء أو أصحاب السلطة الذين يستعملون السكرتيرات لكي يملين عليهن ولا يكتبون بأنفسهم، وإذا كان عندهم نصوص تقرأ لهم من قبل قراء مستأجرين. وعندما يقرأ لك النص فهو يختلف تماما عن الذي تقرأه بنفسك. وتساهم نغمة صوت القارىء فى الطريقة التى تستطيع بها ترجمة النص وفهمه. وفى بعض الحالات تكون القراءة من الآخرين ممتعة مثل الممثل الذى يقرأ قصيدة، أو الأم التى تقرأ قصة إلى طفلها، لكن عموما، نحن نفضل أن نترجم ما قرأنا فى صوتنا الصامت الخاص. علاوة على ذلك، نحن قد لا ننمو ونحن مولعون بنغمة صوت الحاسوب، لكن ربما نحاول أن نكون متحفظين ولا نتأثر بالكمبيوتر فى تفسيرنا للنص. وبينما نشعر باللذة والإثارة لسماع قصة أو قصيدة تقرأ جهوريا، وهناك أنواع أخرى من النصوص يفضل بكثير فهمها متى قرأتها لوحدك. مثل هذه النصوص التى تكتب نموذجيا لكى تقرأ بشكل صامت ، وصعب أو مستحيل أن تتلى على مستمعين . فأى شخص يشعر بالضجر والملل حتى الموت حين يسمع عالم أو باحث يقرأ جهوريا بصوت عال محاضرة مكتوبة، وأظن هذا ما سوف يحدث إذا قرأنا هذه المقالة بصوت عال !

ولفهم ذلك لابد من توضيح دور ذاكرة المدى القريب فى عملية الإدارك والاستيعاب خلال الاستماع إلى الخطاب المنطوق (سواء كان الخطاب التلقائى أو قراءة جهورية لنص مكتوب)، فكل معلومة تعطى من خلال الصوت المنطوق يجب أن تعالج وتحتفظ بها فى ذاكرة المدى القريب لفترة طويلة وكافية للسماح بحل شفرتها اللغوية، أو تفقد تلك المعلومة (بالرغم من أن بعضها يمكن أن يعاد بناءه من السياق). ويعقد دان سبيربير مقارنة بين المنطوق والمكتوب ويؤكد على أن النص المكتوب مزود بذاكرة إضافية خارجية للمدى القريب، وهى مؤثرة وفعالة، وتخزن النص وتمكنا من مسح النص ذهابا وإيابا كما نريد، وهذا يسمح للقراء بمتابعة النص فى سرعتهم الخاصة، فى المقابل حالة الخطاب المنطوق يكون الاستماع مقيد بسرعة المتكلم، وفى النص المكتوب يمكن للقارىء أن يقشط النص بنظرة خاطفة أولا وبعد ذلك يطالعه بتفكير وإمعان. ويمكن أن يختار العودة إلى بعض المقاطع التى مر عليها إذا أدرك صلتها بأثر رجعى، أو يدقق فى اتساق وتماسك النص. لكن عندما يقرأ النص المكتوب، تطلق وتحرر الطاقة الإضافية التى تزودنا بها نغمة الصوت بإشاراتها وإيماءتها، وتكسب مدى وعمق ما أنت قادر على فهمه وانتزاعه واستخلاصه من النص.

وفى النص المكتوب يستطيع القراء أن يروا صفحة كاملة ويدخلون أى جزء آخر من النص بسهولة، وهو غير متاح مع الخطاب المنطوق. والكتّاب يمكنهم أن يستعملوا جمل أكثر تعقيداً، ويمكن أن يبرزوا وينظموا نصهم بالفقرات، والعناوين الأساسية والثانوية، ويمكنهم أيضا أن يرتبوا خطوط النص بإضافة الهوامش، والمراجع، أو ملاحق، ويتاح لهم أن ينتجوا أنواع جديدة من الأجسام

اللغوية والتخطيطية فورا، مثل القوائم والجداول المنظمة والأشكال البيانية، حتى في العروض الشفهية، أكثر المعلمين والمحاضرين وجدوا من المفيد أو حتى الضروري تزويد الحضور بالنص المكتوب والوثائق التخطيطية الأخرى للقراءة أو الفحص، مثال الكتابة على السبورة، والنشرات والملخصات، والآن تستخدم الشاشة لعرض البيانات، والعديد من الفورمات المتداولة للنص المكتوب في العروض البصرية تستغل وتوظف تأثيرات الذاكرة القصيرة الأمد، ومن المحتمل بعض هذه الوظائف يمكن أن ينجز بالمكائن الناطقة، لكن ليس كلها. على سبيل المثال، قد يكون من السهل أن تطلب من الماكينة قراءة مدخلات قاموس قصير أسهل من التفتيش باستعمال الحروف الأبجدية. ومن الناحية الأخرى، التجول، والتصفح من المحتمل أن يبقى، أكثر فعالية عندما يكون بشكل بصرى بالمقارنة بالصوتي.

طرائف المكائن الناطقة

شهد العالم المتقدم في السنوات القليلة الماضية موجة جديدة من المعاكسات التليفونية الغامضة والتهديدات العجيبة الصادرة عن أجهزة تكنولوجية عبر الهاتف، ويبدو أنها موجة جديدة من الإنزعاجات التقنية بعد أن سيطرت تماما على حياتنا ثورة التكنولوجيا والاتصالات. والمجهولون الغرباء الذين يحاولون مضايقة الناس وتهديدهم عبر الهاتف، ليسوا هؤلاء الأفراد المرضى والمخبولين، بل إنهم آلات وماكينات ذكية تعمل بشكل آلي، فمثلا ماكينات المشروبات الساخنة والباردة المنتشرة في شوارع العالم الآن مبرمجة على أنها تتصل آليا بمراكز صيانتها إذا دعت الحاجة أو تتصل آليا طلبا لمزيد من عبوات المشروبات، ونتيجة لأخطاء في برمجتها لا تتصل تلك الماكينات بمراكز خدمتها بل تتصل بأرقام هواتف منزلية، وفي إنجلترا وصلت الشكاوى من تلك الظاهرة إلى حوالي ٨ آلاف شخص يعانون من معاكسات ماكينات المشروبات أو المأكولات أو مستودعات الغذاء أو حتى مراحيض عامة عمومية تعمل بشكل آلي، وأصبح الأمر مزعج للغاية في البلاد المتقدمة التي دخلت فيها ثورة الاتصالات، وأصبحت هواتف آلاف المواطنين مشغولة دائما بمكالمات أجهزة الرد الآلي وشركات التسويق. ومشكلة المضايقات التليفونية بسيطة إذا كان هناك شخص هو الذى يتصل، فيمكن ردعه بالكلمة أو مراقبة البوليس للخط إلخ، لكن ماذا تفعل إذا كان الذى يعاكسك في التليفون ماكينة سجائر أو مشروبات أو مستودع مأكولات أو مرحاض عمومي آلي ويتكلم معك بصوت بشري. ففي بريطانيا انزعجت سيدة من التكرار اليومي لمكالمة في الرابعة صباحا، يتصل بها المرحاض العمومي الآلي ليخبرها أن الصابون نفد منه! في أمريكا سيدة تتلقى كل ساعة ونصف بالضبط مكالمة هاتفية ولمدة ٦ شهور متوالية. وتبين أن طالب المكالمة هو مستودع نفط تمت برمجته بشكل خاطئ، وأصبحت هذه الظاهرة متزايدة مع زيادة أعداد الماكينات الآلية والذاتية الناطقة وتزايد استخدامها خاصة في الدول المتقدمة، ونحن هنا في مصر



الحمد لله لا نعاني من معاكسات الكمبيوتر إلا في فواتير التليفونات والكهرباء، وقبل ذلك نعاني من كمبيوتر الداخلية عند حساب الأصوات في الانتخابات، أو مراجعة جواز سفرك في المطار، فعادة كمبيوتر المطار يضعني في قوائم المشبوهين والمطلوبين. فنحن نحمد الله على مشاكل التخلف.

ونرجع مرة أخرى لمحاضرة دان سبيربير الذي يؤكد من وجهة النظر العملية، أن الاستماع إلى نص أبطأ بكثير من القراءة. هو أكثر ضوضاء أيضا (لكن هذه يمكن معالجتها بسهولة بالسماعات). العقبة الأقوى في رأيه أمام هجر وترك القراءة هو الدور الذي تلعبه، ليس في الوصول إلى النصوص، لكن في إنتاج النصوص، وكما أشارت المحاضرة، فإن القيمة الحقيقية في نشاط الكتابة ليس الحركات اليدوية ولا الطباعة على لوحة المفاتيح، لكن في إمكانية أن نقرأ ما نكتب كما نكتبه! ومع كل هذه الاعتبارات، من غير المحتمل أن ينجح التأثير المتراكم للقرارات الفردية للاستعمال المنتظم لتقنيات تحويل النص المكتوب إلى خطاب منطوق ويؤدي إلى هجرة نشاط القراءة والمطالعة على المستوى الاجتماعي والحضاري.

النتائج والمضامين الثقافية

إذا تأملنا في مضامين أفكار دان سبيربير تظهر الحقيقة التي تعلن أن كل منافع نشاط الكتابة اشتق من القراءة. حتى الفوائد الظاهرة للكتابة على الخطاب المنطوق تجيء من حقيقة بأنك كما تكتب، تقرأ ما تكتبه. فالكتابة جوهريا تكلفة دفعت مقدما لكي تكون قادرة على الربح من القراءة. هذه التكلفة في رأي دان كانت ومازالت مستحيلة

> **ماذا تفعل إذا كان الذي يعاكسك في التليفون ماكينة سجائر أو مشروبات أو مستودع مأكولات؟!**

التجنب ولا مفر منها! لكن ليس لزمن طويل قادم، فعندما تصبح التقنية قادرة على تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب بشكل صحيح كما يتجلى، ويمكن تعديل النسخة وتنظيم النص بواسطة الأوامر الشفهية هنا فقط يصبح نشاط الكتابة لايعود بفوائد ومنافع كافية لتبرير كلفته . على النقيض من ذلك، فإن قراءة الماكينة جهوريا للنص دائما أقل جاذبية من أن يقوم الفرد بالقراءة بنفسه! فالتأثير المتراكم للقرارات الفردية لاستعمال هذه التقنيات الجديدة سيسبب قريباً، على المستوى الاجتماعي والحضاري، قرب اختفاء نشاط الكتابة، بينما سيستمر الناس في نشاط القراءة. والقرارات الفردية التي يتحدث عنها دان سبيربير ستتخذ من قبل الناس الذين دفعوا فعلا التكلفة الرئيسية بانغماسهم في نشاط الكتابة والقراءة، وتلك التكلفة، ليست تكلفة استعمال هذه المهارات، لكن تكلفة اكتساب تلك المهارات . حتى لو تحولت هذه التكلفة المدفوعة وفضلت الانتقال إلى الإنتاج الشفهي للنصوص المكتوبة، لأننا ببساطة لم نتوقف حتى الآن عن النشاط الذي تعلمناه وهو الكتابة باليد رغم أن معظمنا لا يتوقف أيضا عن الكتابة بالضغط على لوحة المفاتيح.

وعندما يتوقف مزاولة نشاط الكتابة طبعا (ما عدا نشاط الخطاطين)، يتساءل دان سبيربير ماذا سيحدث في تعليم الكتابة نفسها؟ ويبين أن تعليم الكتابة يتضمن دائما تكلفة أكثر عندما يقارن إلى تعليم القراءة. فالقراءة يمكن للفرد أن يتعلمها لوحدها، بينما تعليم كتابة يفترض أولاً ويستلزم القدرة على القراءة وطالما تعليم الكتابة وتعليم القراءة مرتبطان بشكل منتظم نحن لا نستطيع السيطرة على المقارنة بينهما لتقدير التكلفة المرتفعة في تعليم الكتابة بالمقارنة بتعليم القراءة. علاوة على ذلك، حتى المقارنة المسيطر عليها لا تسمح لنا حقا بتقدير اقتصاد الجهد الذي ينتج عن تعليم الأطفال القراءة فقط، وأدبيات علم أصول التدريس pedagogies قديما وحديثا تبين لنا أن هناك قليل جدا من الاستثناءات، مثل حالات الطلاب المصابين بعاهات يجب أن يستهدف تعليمهم كلتا المهارتان معا. وإذا تعلم الطفل القراءة لوحدها، فعلم أصول التدريس يؤكد على أهمية التعليم مجدداً، مع الانتباه إلى الدور الذي يمكن أن تلعبه تلك الحاسبات في تلك العملية، ونزعم أن استعمال التقنيات الجديدة، يمكن من تعليم القراءة لوحدها بطريقة سهلة عن تعليم الكتابة والقراءة معا. وكل هذا يعني في محاضرة دان سبيربير عندما نستبدل نشاط الكتابة بتقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب، فالقراءة لوحدها هي التي ستعلم ويتم



تدريسها! وهكذا سيتم تحرير أوقات الأطفال، والمعلمين، والآباء على أن توظف في أشياء أخرى!؟ بالتأكيد هذا التصور غير واقعي. فمثل هذا التحول الثقافي عملية معقدة ويواجه عوامل مختلفة من القصور الذاتي. ويعتقد دان أن الناس في البلدان المتقدمة، ربما يكون عندهم اهتمام أعظم في وفاة الكتابة، لكن الأطفال لم يستطيعوا أن يحكموا على ذلك التحول الثقافي، وعلى أية حال لن يسألهم أحد! لكن الأجيال الأولى للبالغين التي ستنتقل إلى الإملاء على الماكينة بعد سنوات من ممارسة نشاط الكتابة ستدفع ثمن تعلمها. لكن هناك عدة حقائق ستجعل هؤلاء البالغين مدافعين بحرارة بالغة عن تعليم الكتابة، منها الألفة والحميمية في ممارسة نشاط الكتابة، وغياب التمييز بين تعليم الكتابة وتعليم القراءة، والإحتقار أو الشفقة على الناس الأميين. كل تلك المشاعر ستتلاقى في دفاعهم عن تعليم الكتابة، والمعلمون هم أول هؤلاء المدافعون الذين تدربوا بالصبر والصمود على تدريس الكتابة، ولن يعترفوا أبدا بأن كل هذه المعرفة قد تكون قديمة وبالية. ويلتمس دان سبيربير العذر العاطفي لهؤلاء المدافعون عن الكتابة، بالرغم من أنهم قد لا يمارسون الكتابة بأنفسهم، لأنهم سيشعرون بأنهم يدافعون عن الثقافة ذاتها ضد الأسوأ من الأميين، وأنصار سياسة الأمية الذين سيهللون لتلك التقنيات، ويتوقع دان سبيربير بأن تعليم الكتابة سيعيش طويلا ويعمر بعد زواله. هذا السيناريو يبقى تعليم الكتابة كنشاط دراسي إلزامي، وهو ليس السيناريو الوحيد المعقول، ولكنه يهمل عوامل مختلفة يمكن أن تغير ذلك، فالتعليم عموما في

رأى دان من المحتمل أن يخضع لتغيرات جذرية كنتيجة لتطوير التقنيات الجديدة، فاكتساب مهارة القراءة قد يحدث مبكرا جدا وعفويا أكثر نتيجة التفاعل بالمكائن، وهذا يؤدى إلى تمييز حقيقى وانفصال بين تعليم القراءة وتعليم الكتابة، وقد تنتهى الكتابة بلعب دور رئيسى فقط فى دروس الكتابة بالفصول الدراسية، ويتناقص دورها فى تعليم مواد البحث الأخرى، فى مثل هذه الشروط، تعليم الكتابة سيفقد معناه بسرعة بين الأجيال الجديدة للبالغين التى يمكن أن تغرى بإعادة تعليم الكتابة اختياريا.

حتى هذا السيناريو المعدل لا يأخذ فى الحسبان تنويع الحالات عبر البلدان، فأغلب مصادر التعليم فى بلدان عديدة مستثمرة فى تعليم معرفة القراءة والكتابة، ومحو الأمية، حيث يعتبر جزء عظيم من السكان عائق رئيسى فى التنمية الاقتصادية. فى مثل هذه البلدان، استعمال تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص speech- to- text أو تحويل النص إلى خطاب منطوق text - to - speech، متوقف على التكلفة، إذا كانت تكلفتها منخفضة، وقد تكون طريق بارز إلى تعجيل الترقية الاجتماعية للأفراد والتنمية الاقتصادية الجماعية. إذا كان الأمر كذلك، فى هذه البلدان، فالتعليم يجب أن يفكر مجدداً ويقوم على قاعدة جديدة: بينما، فى الوقت الحاضر، تحتل مهارة الكتابة مرحلة مركزية فى التعليم، وهى فى المستقبل قد تكون مهارة عاطلة تقريبا. ويفترض دان سبيربير، أنه حتى لو نتج من تراكم القرارات الفردية البسيطة والمعقولة، هجرة الكتابة وتعليمها ربما نتيجة ذلك تحدث تأثيرات

> **الكلمة المكتوبة على الورق باقية، والكلمة المسموعة من الإذاعة والتليفزيون عابرة، والكلمة المكهربة على الكمبيوتر فوارة متلاشية.**

ثقافية رئيسية. هذه التأثيرات صعب التنبؤ بها فى الوقت الحاضر.

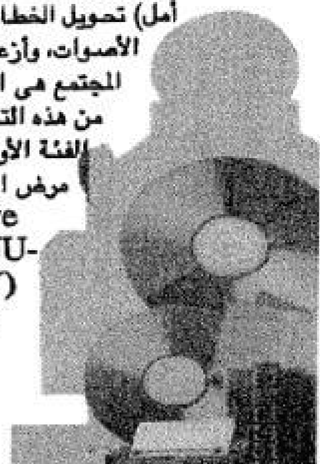
التحول الثقافى

من السهولة الكلام عن العودة إلى مرحلة الشفوية، لكن نقف مبهورين أمام التأثيرات العميقة للكتابة على الحضارات الإنسانية التى أعطت الفرصة لتراكم المعارف والخبرات والثقافات الإنسانية واحتفظت بها إلى الأبد ضمن حدود الذاكرة الطويلة المدى للإنسانية. فهل تستطيع تقنيات المعلوماتية الجديدة أن تفعل ذلك رغم أنها تسمح بأشكال جديدة من التراكم الثقافى وأنماط جديدة فى تخزين واسترجاع المعلومات؟! ويحلل دان سبيربير الاحتمالات ويقول أن تعميم الإنتاج الشفهى للنصوص المكتوبة من المحتمل أن ينتج عنه تأثيرات مهمة على النصوص نفسها. هذه التأثيرات قد تكون مشابهة لتأثيرات تبديل الكتابة اليدوية بالطباعة، وبعد ذلك استبدال الطباعة البسيطة ببرامج معالجات الكلمات. هذه التحولات لم تدرس بشكل منتظم. لكن ربما يكون لتركيب النصوص المكتوبة بواسطة الصوت تأثيرات أعمق، فقد ظهرت أشكال مختلفة من الكتابة تفاوتت بتفاوت اللهجات الشفهية والمكتوبة. فهل العودة إلى العضو الطبيعى للتعبير اللغوى يضع

حداً لهذا التفاوت، أو سيسبب ظهور لهجات جديدة؟ والرموز ذاتها التي استعملت في أنظمة الكتابة المختلفة نتجت من تفاهم وتوفيق بين حاجات اليد وحاجات العين والطباعة، والآن الحاسوب، جعل من الممكن تطوير حروف جديدة، على أية حال، مازالت متماثلة بما فيه الكفاية مع الحروف والأشياء المكتوبة باليد، لكن دان يرى أن هذا القيد وهو التماثل يمكن أن يختفي كليا، ويتوقع تتطور وانبثاق أنظمة كتابة جديدة ، موجهة بشكل خاص باعتبارات الهندسة البصرية الإنسانية البصرية Vis-ual Ergonomics وعلم الجمال EsthetiEs . والإنسان يمكن أن يتخيل أي شيء لكن التنبؤ المنطقي والمبصر في منتهي الصعوبة لسرعة تلاحق المتغيرات والتقنيات الجديدة. فهو صعب لكن ليس مستحيل.

المستفيدون

الحقيقة أن دراسات دان سبيربير التي لخصت نتائجها في تلك المحاضرة تثير العديد من الأسئلة المثيرة، أكثر مما تعطي إجابات! خصوصا ضمن سياق الانتقال من الكتابة اليدوية إلى الطباعة ثم إلى لوحات المفاتيح وبعد ذلك (على أمل) تحويل الخطاب إلى النص وتمييز الأصوات، وأزعم أن هناك فئتين في المجتمع هي التي يمكن أن تستفيد من هذه التقنيات فورا، وأقصد الفئة الأولى الذين يعانون من مرض الإجهاد المتكرر. RSI (Repetitve - Stress - INJU-RY) بسبب الطباعة، والتي تعتبر بالنسبة لهم أكثر



النشاطات الغير طبيعية والضارة لهم التي أحدثتها ثورة الحاسوب. الفئة الثانية المستفيدة مباشرة هم الناس الأميون الذين لم يتعلموا الكتابة والقراءة ربما تلك التقنيات تساعدهم تماما، لكن السؤال المطروح هل يمكن أن ننظر إلى تقنيات تحويل الخطاب إلى النص والعكس كمستوى نهائي في تقدم الإنسانية من بداية احتكار المعلومات والأفكار النخبية (الرهبان في الأديرة) إلى انتشار الأفكار والمعلومات وذيوعها، وأخيرا الإبداع الذاتي والاستقلالية (الإنترنت)؟! أشك أن هناك سقف تقف عنده التقنيات الجديدة! من ناحية أخرى نقدت المحاضرة النموذج التقلدي لمعرفة القراءة والكتابة (الكتابة زائد القراءة) وأكدت علي الفجوة الكبيرة بين تعليم معرفة القراءة والكتابة ومستويات معرفة القراءة والكتابة في المجتمع، فهناك ملايين من البشر يعانون من الأمية الهجائية وملايين أخرى تعاني من الأمية الوظيفية خاصة في الدول المتخلفة، والسؤال كيف تنجح تلك التقنيات في سد تلك الفجوة؟! وهل تنجح تلك التقنيات في عبور الفجوة بين المجتمعات المتخلفة حيث ملايين الأميين وبين المجتمعات الصناعية الغنية حيث الأكثرية المتعلمة؟ أعتقد أن ذلك سيعتمد على كلفة الوصول إلى هذه التقنيات (مكائن وبرمجيات ملاءمة) كما أشار دان سبيربير. هذه الكلفة يجب أن تقارن إلى كلفة تعليم الكتابة والقراءة، التي تكلف تكلفة مرتفعة فعلا بالنسبة للمجتمعات التي تنظمها، وأيضا للأشخاص الذين يستثمرون وقتهم في تعليم هذه المهارات. ولم يقدم دان سبيربير أرقاما للمقارنة وهو يتحدث عن التقنيات والتكاليف المستقبلية، لكنه

توقع، فى المستقبل القريب نسبيا، أن تكون تكلفة التزود بتلك التقنيات أكبر من تكلفة تعليم مهارات القراءة والكتابة على مستوى الأشخاص والمجتمعات، ومن غير المحتمل أنها ستكون مربحة وتحقق منافع للأشخاص والمجتمعات بدلا من الإستثمار فى تعليم مهارات القراءة والكتابة، وإذا كان هذا صحيح، فإنه على المدى الطويل قد تساعد التقنيات الجديدة على تجسيد الفجوة الاقتصادية بين المجتمعات الأفقر والأغنى على أية حال، تلك التقنيات فى رأى دان قد تخلق نوعا جديدا من الفجوة الثقافية، لها بعدين الأول فى المجتمعات الأكثر تقدما من المحتمل أن تعليم الكتابة سيستمر حتى ولو لم تستعمل الكتابة بشكل عادى بعد الآن (مثال لغة اللاتينية التي مازالت تعلم بالرغم من هجرتها كلية منذ قرون). ورغم عدم وضوح القيمة الإدراكية المعرفية لمثل هذا التعليم، لكنه سيكون عامل التفاضل والتمييز «للنخبة» من الناس الذين تعلموا هذه المهارة الممتازة، وبين الآخرين المستعملين لتلك التقنيات (كما هو الحال مع تعلم اللغة اللاتينية، فهو علامة عودة إلى نخبة ثقافية فى المجتمعات الغربية). والأكثر أهمية، أن البلدان الأفقر قد تلجأ ليس فقط إلى تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى النص لكنها قد تلجأ أيضا، وأكثر بكثير من البلدان الأغنى، إلى تقنية إنتاج النصوص المنطوقة، وتتجاوز ليس فقط الكتابة، بل والقراءة أيضا. هذا قد يثبت أن تلك التقنيات مربحة على العديد من المستويات الرئيسية للتنمية الاقتصادية، وقد يؤسس ذلك فجوة ثقافية أصيلة، ليست فى الرمز فقط، بين أولئك الذين تعلموا المهارات التى تسمح بتصحيح وتركيب النص المتقن، والآخرين وهم الأغلبية. البعد الثانى، يبين أن معرفة القراءة والكتابة التقليدية دمجت بين فوائد الذاكرة طويلة المدى وفوائد الذاكرة قصيرة الأمد . فهل استبدال الكتابة بتقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص واستبدال القراءة بتقنيات تحويل النص إلى خطاب منطوق يحفظ كلتا أنواع الفوائد؟ الإجابة عند دان سبيربير أن تلك التقنيات ستحافظ فقط على فوائد الذاكرة الطويلة المدى لمعرفة القراءة والكتابة وتترك وتتخلى عن فوائد الذاكرة القصيرة الأمد، وهذا قد يكون حسنا لأعمال البزنس، لكنه من الواضح ليس للعديد من أشكال النشاط الثقافي.

وأخيرا بعد هذه الرحلة مع أفكار دان سبيربير المقلقة على مدى شهرين فى مجلة الهلال، نذكركم بمقولة الأستاذ محمد حسنين هيكل منذ عدة سنوات فى إحدى كتبه، كتب يقول «لا أعرف أهو تحيز رجل لما ألف وعرف، أو أنه حكم فى الموضوع، بصرف النظر عن متغيرات العصور، لكنى على شبه اقتناع بأن الكتاب المطبوع على ورق له العمر الطويل، وأنه الحاضر على الدوام، مهما اشتد من حوله الزحام، بمعنى أن الكلمة المكتوبة على الورق باقية، والكلمة المسموعة من الإذاعة والتليفزيون عابرة، والكلمة المكهربة على الكمبيوتر فوارة وهى مثل كل فوران متلاشية. أى أن الكلمة المكتوبة على الورق بناء صلب: حجر أو معدن، وهكذا كل بناء، وأما غيرها فهو صيغة متغيرة - خاطفة، ولامعة وبارقة!». ■

شاهد عيان يصف مصر العثمانية

مصر في القرن السابع عشر

بلد بلا شعب أو شعب بلا ملامح!!

بقلم:
مصطفى نبيل





تسود الحياة الثقافية بعض المسلمات حتى تصبح من البديهيات، وكثيراً ما تتردد على ألسنة الكتاب.

ومن هذه البديهيات ما يدهشك عند الحديث عن مصر العثمانية، وكأنها بلد بلا شعب، أو شعب بلا ملامح، مجرد ولاية عثمانية تابعة، خلال عصر تميز بالجمود والتخلف.

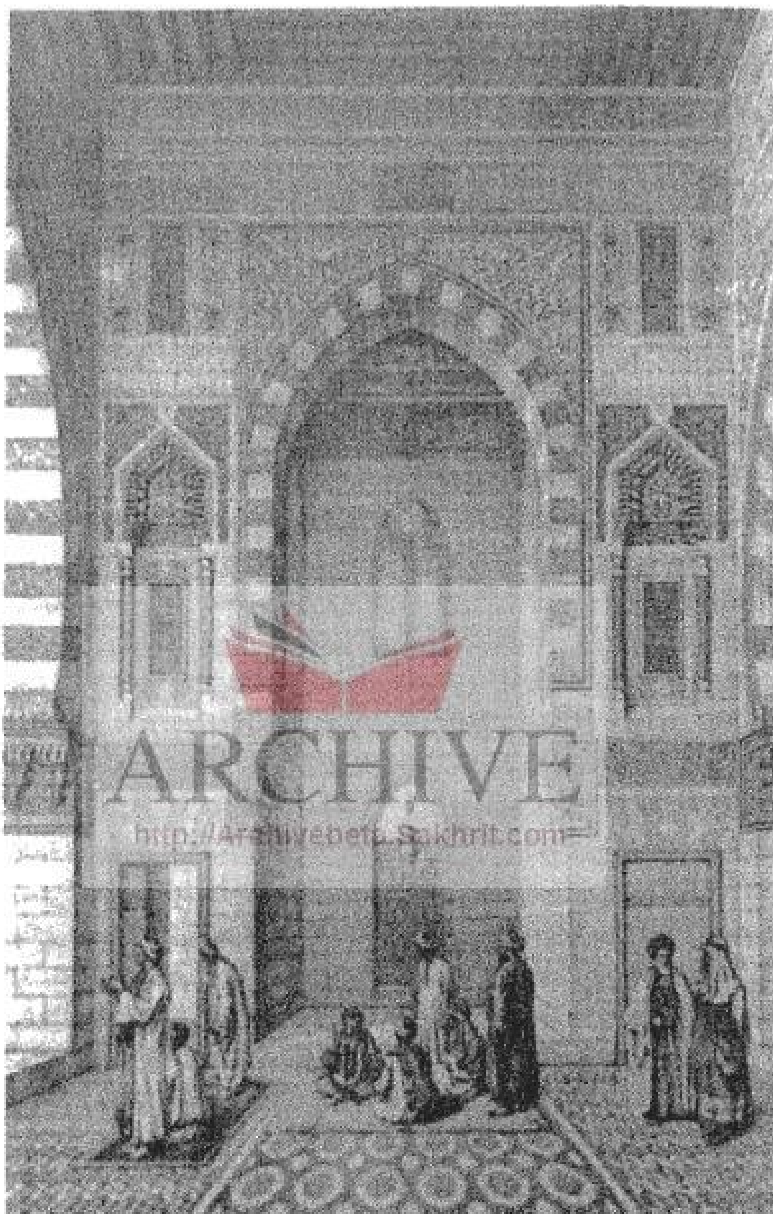
وتتوالى الدلائل والبراهين على غير ذلك.



صدر مؤخرا كتابان يعيدان الاعتبار لمصر العثمانية، ويؤكدان أنها لم تكن مجرد مرحلة جمود وظلام وتقليد!

أحدهما كتاب «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية» للدكتورة نللي حنا، والذي نشر ضمن مطبوعات الجامعة الأمريكية، وترجمه للغة العربية د. رءوف عباس.

والكتاب الثاني .. «سياحة نامة مصر» للرحالة التركي أوليا چلبي، شاهد عيان يتناول مشاهداته في رحلة إلى مصر العثمانية في القرن السابع عشر وأصدرته دار الكتب، وسبق أن ترجمه



أحد الإيوانات من داخل جامع قايتباى - القرن ١٥م

محمد على عوني وراجعه د. عبدالوهاب عزام.

ويلتقى الكتابان ويتلامسان فى الكثير من المسائل، ويؤكدان على دور الطبقة الوسطى وأنها ركيزة العمل الثقافي، أحدهما عن طريق التنقيب والتحليل، والثاني عن طريق المشاهدة والرصد ويؤكدان أن الحكم العثماني لم يكن أسوأ كثيراً من حكم ملوك وأمراء أوروبا فى ذات الفترة، وأن الدولة العثمانية التي حكمت الشرق ثلاثة قرون، لم تكن كلها سنوات تخلف، تحارب العلم والمعرفة، ولم تكن مصر مجرد بقرة حلوب!

وهناك الكثير من الكتابات التي تنحو هذا المنحى، ومنها ما جاء على لسان جرجي زيدان فى «تاريخ آداب اللغة العربية»، «تعيش مصر العثمانية فى عصر الانحطاط لذهاب دولة العرب، واستبداد سواهم»، «وانحصرت آداب اللغة العربية فى كتب الفقه والدين، وحتى أشعارهم أكثرها فى مدح النبي، وأكثر المؤلفات الفقهية شروح وحواش.. وفسدت ملكة اللسان، وجمدت القرائح، وأصبح الكاتب يهمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع..».

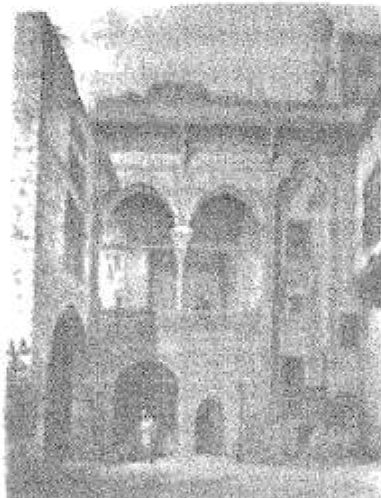
وتوالت الكتابات التي ترد على هذه الفكرة، والتي تزعم أن النهضة الحديثة، جاءت إلى الشرق مع مدافع نابليون ومصاحبة للحملة الفرنسية، وأبرز هذه الكتابات ما جاء فى كتاب «فى الطريق إلى ثقافتنا» للكاتب الراحل محمود شاكر، وكذلك الكاتب الأمريكي بيتر جران الذى اعتبر ظهور كتاب «تاج العروس» للزبيدى دلالة على وجود ثقافة مزدهرة فى العصر العثماني.

فهل يمكن أن يكون التحديث والإصلاحات فى عهد محمد على إلا إذا كان من تولوا القيام بها أناس تعودوا تقبل الأفكار الجديدة؟!

هناك إذن عمق تاريخي للثقافة المعاصرة، فلم تأت من الوالى العثماني ولا نتيجة سياسات من الخارج أخذت بها مصر العثمانية.

ويأتي كتاب د. نللى حنا لكى يحرك المياه الراكدة، ويقدم حججاً جديدة على حيوية الأهالي فى مصر العثمانية، والمتمثلة فى طبقة وسطى نشيطة، وكما يقول د. رءوف عباس فى تقديمه للكتاب وفى تفسيره لعدم العناية بمصر العثمانية.. «كان من سوء حظ تلك القرون الثلاثة - العثمانية - أنها وقعت بين عصرين، كان لمصر فيهما شأن كبير.. عصر المماليك وعصر محمد على، وحكمها ولاة عثمانيون يستخدمون فى حكمها قوى من بقايا المماليك... وغاب عنا أن نظام الحكم العثماني تضمن عناصر إيجابية، وعندما أصبحت مصر تتعامل مع سوق واسعة».

وإذا كانت د. نللى قد أبرزت معالم



واجهة الإيوان أو المقعد المطل على فناء المنزل فى «بيت الأمير» - القرن ١٧ م

طبقة وسطى لها ثقافتها، فقد أكدت تنوع الثقافة الدينية، واستجابتها للتحولات الاجتماعية، وتوافقها مع حاجات المجتمع، وتوصلت دراساتها، وهى الرائدة فى ذلك النوع من الدراسات، التى تعتمد على مادة تاريخية من خلال حصر التركات فى المحاكم الشرعية، ووثائق الأوقاف، والتى دللت على اتساع الطبقة الوسطى بانتشار الكتب عقب انخفاض أسعار الورق.

وهذا التنوع الثقافى أكثر مما يظن الكثير من المؤرخين، ودليل وجود فئات وجماعات فى مساحة وسط بين الخاصة والعامة، وهو إحدى نتائج نظام التعليم، وانتشار الكتب، ووجود أعمال أدبية وعلمية رغم غلبة الكتب الدينية وانتشار ثقافة الكتب والمقاهي والصالونات الأدبية، ورسمت دراسة د. نللى حنا ملامح ثقافة القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهى تختلف تماما عن الصورة النمطية السابقة، التى استقرت لدى العديد من المؤرخين المحدثين.

وهناك كتاب رائد فى هذا المجال، وهو كتاب «الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى» لمؤلفه محمد سيد كيلانى، ومن أبرز الكتب التى صدرت أيام مصر العثمانية، «سيرة الظاهر بيبرس»، و«الأميرة ذات الهمة»، و«هز القحوف» للشيخ يوسف الشربينى، و«تاج العروس» لمرتضى الزبيدى.

ويمكننا أن نلحظ ظهور أعمال أصيلة، تكشف عن وعى بالماضى القومى، وبعض المكانة للأفكار ومخترعات الغرب، والحرص على الحفاظ على اللغة العربية والهوية الوطنية.

وليس فيما أقول عدم التسليم بما عانته مصر فى ظل الحكم العثمانى، فقد شهدت مصر ركوداً بسبب تقاعس الولاة العثمانيين عن القيام بالمشروعات العامة، وحتى لم تحافظ على القائم منها. وكما يذكر د. شفيق غربال.. «لا تجد بالنسبة لمصر وسوريا أى تغيير بسبب خضوعهما للحكم العثمانى، فلم يمس شيئاً أساسياً!».

وليس هذا حكما بالبراءة على الدولة

العثمانية، ولكنه البحث عن نور أبناء البلاد، وبالتالي لا تتجاهل الصفحات الدامية للحكم العثماني في مصر، يوم جريان الدم أنهاراً في حواري القاهرة، والذي يصفه وصفاً مؤلما إبن إياس، وإعدام سلطان مصر أيامها طومان باي على باب زويلة، ولا يمكن إعفاء هذه الدولة من تحمل المسئولية عن الغزو الفرنسي لمصر، والاحتلال البريطاني، وإصدار الأستانة فرمان إدانة العاصي عرابي!

والدولة العثمانية ذاتها، هي التي تخلت عن اللغة العربية، واتجهت إلى العمل على تتريك الولايات العربية.

سياحة نامة

وإذا كان كتاب «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية» قد أبرز ملامح هذه الطبقة، فقد جاء كتاب سياحة نامة مصر» لكي يقدم النماذج الملموسة على وجود هذه الطبقة، وهي الجماعة أو الحفنة التي تحتل الوسط بين خاصة الناس وعامتهم، أو من أطلق عليهم حينا «أوساط الناس» أو «مساتير الناس».

ويورد أوليا جلبي - والتي تعني بالعربية السيد الولي - توالي الصور خلال رحلته في تقسيم المجتمع إلى الخاصة من أهل السلطة ومن دار في فلكهم، وعامة الناس الذين يطلق عليهم الحرافيش أو الغوغاء أو الدهماء.

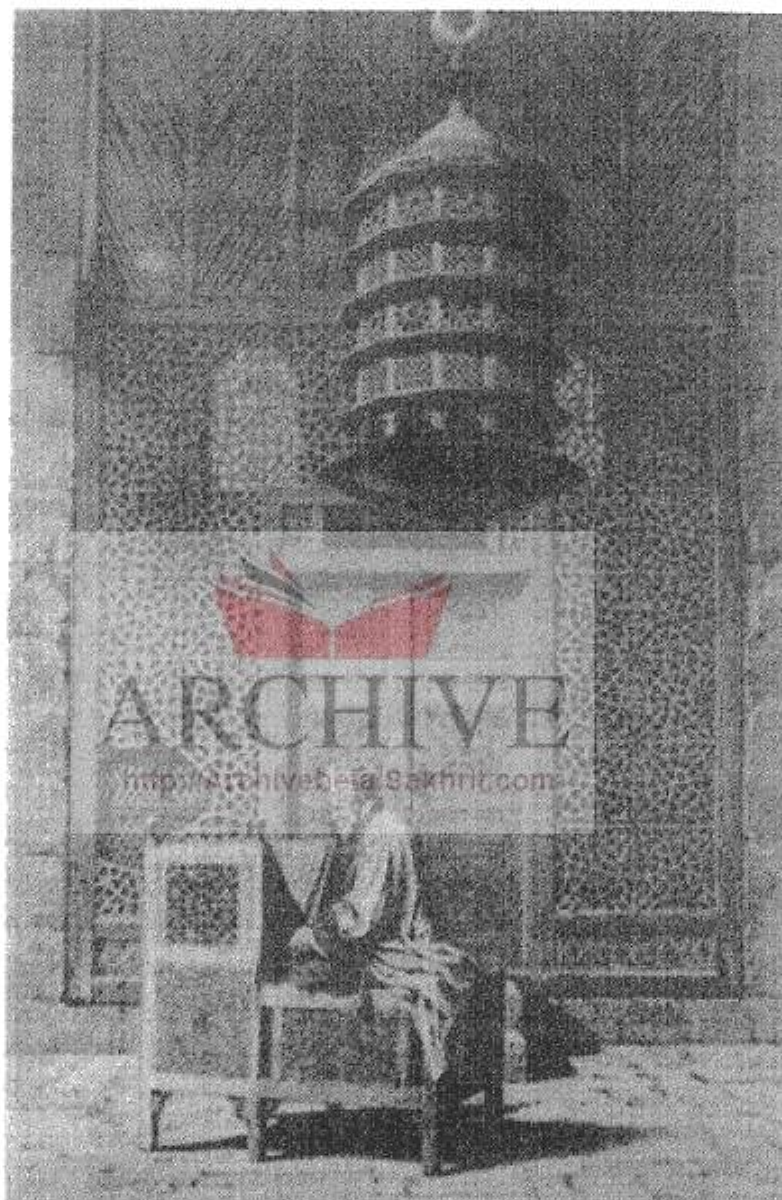
وهي رحلة ذات أهمية خاصة، فهي لمحة ضوء، ولحظة صدق نادرة، عن مرحلة تندر الدراسات حولها، ومن الذين زاروا مصر في هذه المرحلة التاريخية، حسن الوزان أو «ليون الأفريقي»، والرحالة الألماني «كريستان نيبور» وعدد من الرحالة الفرنسيين وغيرهم.

وزار أوليا جلبي مصر مرتين الأولى عام ١٦٧٢م والثانية عام ١٦٧٦م وقضى في إحداهما ثماني سنوات، وجاءت زيارته لمصر كجزء من رحلاته في بقاع العالم المختلفة، وهو يرى مصر بعين المعماري الذي يرصد بدقة الأعمال المعمارية الأثرية، ويتحدث عنها حديث العالم، ويقدم مصر بعين المؤرخ الذي يروي تاريخ مصر منذ الأزل وحتى تاريخ زيارته بعد العودة إلى كتب التاريخ المختلفة، ولا تخلو كتاباته من عدد من الأساطير والخرافات والنوادر التي تعبر عن المفاهيم والقيم السائدة في عصره، ويظهر من خلال رؤية عين ثاقبة وقدرة تحليلية كبيرة، وهو مولع بالأرقام والاحصاءات فلم يترك شيئا لم يذكر حصره من القصور إلى الحارات وحتى الحميرا وكثيراً ما يستطرد وينتقل من موضوع إلى آخر !

والرحلة بحكم طبيعتها تقدم بعض المعلومات التي تحتمل الخطأ والصواب، ولكن قيمتها أنها تقدم مشاهد حية فيها نبض وانفعال شاهد عيان.



مدخل جامع وضريح السلطان برقوق - القرن ١٤ م



وأهمية المجلد العاشر أنه يتناول مصر ووصف حياة المصريين والجماعات التي يتكون منها المجتمع، ويركز على عادات فلاحي مصر وتقاليدهم، ومصر عنده ولاية ممتازة لدى السلطنة العثمانية، والقاهرة العاصمة الثانية بعد استانبول وهي درة الحكم العثماني.

شاهد عيان

ونقتصر هنا على عرض بعض جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية التي رواها، والتي تستعرض حياة الأهالي وأعمالهم، في الرحلة التي يصل عدد صفحاتها إلى ما يزيد على ٦٥٠ صفحة غنية بالتفاصيل.

بدأت رحلته إلى مصر سنة ١٠٨٢هـ – ١٦٧١م .. «الحمد لله دخلنا مصر القاهرة، لكي نتنعم بكسب الهواء، ونجدد شهوة الصفاء.. وشاهدنا مصر القديمة التي يتحسر عليها الملوك، والتي تدعى الفسطاط، وقد امتلأت الدنيا بأبنيتها الأثرية.. فكانت الفسطاط قلعة عظيمة عامرة على ساحل نهر النيل، وكانت نادرة الدهر، وهي مدينة عتيقة ليست لقصة تاريخها غاية، ولا لحكاياتها وروايات مجدها وشأنها نهاية، فهي من حيث المنظر خير الأقاليم، ومن حيث الخير أوسعها ، ومن حيث القرى أكثرها .

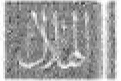
وتحتوي الأراضي المصرية على كنوز عظيمة ورقائق جسيمة، وخبايا كثيرة، فليس فيها موضع يخلو من كنز خفي، لأن أهلها لايزالون يدفنون أموالهم في الأرض.

ويتأمل باب زويلة ويقول.. «لم أر في حياتي ورحلاتي بابا عاليا فيه ما في هذا الباب من الفن والجمال..».

ويصل في حديثه عن الطبقة الوسطى التي تتكون من العلماء والتجار.. «.. إن عدد العلماء والقضاة والمدرسين يبلغ مائة وأربعة وسبعين ألفاً، هذا ويكاد علماء الحديث والتفسير يختصون بمصر، وفيها أكثر من اثنى عشر ألفاً من الأئمة والخطباء وأحد عشر ألفا من المشايخ الكرام، وفي الجامع الأزهر وأروقته زهاء إثنى عشر ألفا من العلماء الذين بين أيديهم الكتب.

والأزهر هو منبع النخب المصرية.. ليس كمثله جامع في الدنيا، فعدد طلابه ١٢ ألفا يسكنون حوله، وبه تسعة آلاف مكتبة زاخرة بالكتب، ومطبخ الجامع الأزهر مفتوح دائما للفقراء، وفي جوانبه أربعة وخمسون رواقا، أي أماكن أقوام من خمسين بلداً، وكل رواق حافل بالعلماء، وسكان أي رواق لا يعرفون عدد سكان رواق آخر.. وهو حافل بالعلماء المصريين الذين يقومون بإلقاء الدروس في سبعين مكانا، وداخل الجامع وخارجه ١٢٠٠ مصباح توقد كل ليلة».

وخلاصة القول عند رحالتنا.. «لا



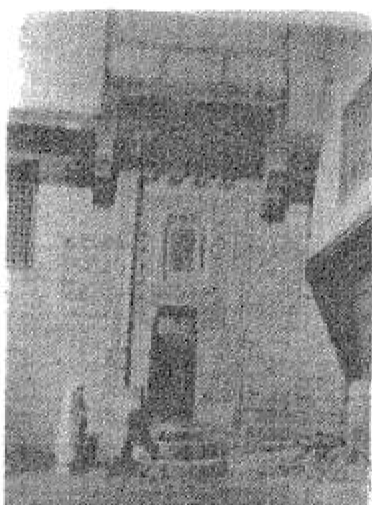
يحدث اضطراب في مصر إلا ويخرج علماء الأزهر صائلين، وجولتهم خطرة جداً.. إلى حد أن قاتلا أو لصا إن اعتصم به تائبا متطهراً، فلا يقدر الحاكم على انتزاعه.

ولم يتطرق رجلنا على ما يدرس في الأزهر، وهل يقتصر على الدين أم أن هناك موضوعات أخرى؟

ونجد أن بعض الرحالة الفرنسيين، الذين زاروا مصر خلال الدولة العثمانية وتناولوا الحديث عن الأزهر أجابوا على السؤال فيذكر فرمنال.. «أن التلاميذ يدرسون في الأزهر الطب والفلك والفلسفة»، ويقول دورفال عن علماء الأزهر.. «هؤلاء الرجال مسلمون بالفطرة، يمتازون بالجد والاستقامة»، وينضم جرانجيه إلى فرمنال بقوله.. «الأزهر كلية عظيمة يدرس فيها المنطق والفلك والتاريخ، وله استقلال ملحوظ..».

ونعود إلى أوليا جلبي الذي يقول.. «لجميع الفقراء من طلبة الأزهر رزق مقرر صباحاً ومساءً، وهو صحن من حساء الأرز والعدس ورغيف، وفي كل ليلة جمعة يقدم إليهم الأرز واللحم والبصل والحلو.

ولما كان المصريون يؤمنون بفضل الأزهر فهم يتصدقون عليه كثيراً، ويؤدون زكاة أموالهم له، كما أن صرراً وعطايا ترسل إليه من سائر البلاد،



باب الحريم الخارجي في «بيت الأمير» - القرن ١٧ م

وأوقافه هائلة يقصر اللسان عن وصفها.

ولا يوجد بلد في العالم به نسبة عميان كبيرة بقدر مصر، ففي الأزهر من حفظة القرآن من ألفين إلى ثلاثة آلاف قارئ» أغلبهم من العميان.

أما المدارس فيوجد في القاهرة ٦٨٠ مدرسة، يطلق على الواحدة منها «دار الحديث» ولم يذكر طبيعة الدراسة، وهل تقتصر على الدين أم يدرس بها الحساب والعلوم الأخرى؟!

وهناك ألفا مدرسة للصبيان، كلها وقف أهلي، أي أقامها الأهالي لتعليم أولادهم ولأعمال الخير، وهي ثلث مدارس مصر.

وهناك جهود كبيرة للتعليم ومحو

الأمية يشهد على ذلك الكتاتيب في قاهرة القرن السابع عشر، ويكفي أن تعرف انتشار هذه الكتاتيب التي يصل عددها إلى ألفين وخمسة عشر كتابا، يتعلم فيها الصبية الحروف الهجائية، ولهذه الكتاتيب أوقاف دائمة، ويوجد بعض هذه الكتاتيب فوق الأسبلة، ومن عادة أعيان القاهرة أن يبنوا الكتاتيب فوق الأسبلة.

المعامل والمصانع

ويلفت النظر في رحلة أوليا جلبي وصفه لعدد من المعامل التي تصنع فيها الأدوية وصفا دقيقا، ووصفه أيضا لصناعات مختلفة رأى أن بعضها يفوق غيره من أمثاله في العالم.

وشاهد تصنيع ترياق الفاروق الذي يصنع في مستشفى السلطان قلاوون، ومعجون العقرب الذي يشفي من لدغة العقرب وغيرهما من الأدوية.

وقدم وصفا لصناعة السكر وتفريخ البيض وصناعة النشادر، ولا يخفى أثر الصناعة على غيرها من النشاطات وما يسبقها من التدريب وما يتبعها من التسويق، ويوصي بمشاهدة مصنع السكر... فهو من الأماكن العجيبة، وأيضا مصنع النشادر، ومصنع ملح البارود، وإنتاج معدن النطرون، وهو مادة كالملح يستعمل في صناعة الزجاج، فهو يذيب الزجاج في نار خفيفة ويحوله إلى سائل.

ويقوم بجولة على الصناعات والحرف اليدوية، صناع البسط وعددهم ثلاثمائة، يزاولون حرفتهم في عشرين مصنعاً، ينسجون الزرابي وبسط مزركشة يقصر اللسان عن وصف جمالها، وما ينسج في القاهر ليس له وجود في سائر البلاد، ويتوقف عند صناعة السرر من سعف النخيل، ويتعجب من تفريخ البيض، عندما يضع الفلاح إحدى عشرة بيضة في روث الخيل، ويمضي على ذلك عشرون يوماً، وإذا بأحد عشر كتكوتا تخرج منها وتجري على الأرض.. وهو عمل لا يقدر عليه سوى أهالي قرية «برما» الواقعة في قضاء إبيار، ويعلق على ذلك قائلا.. «إن الذي لم ير كيفية صناعة هذه الفراريج بمصر لا يمكنه أن يتصور مدى شيطنة ومهارة الفلاح المصري!».

الغريب أن تفريخ البيض لفت أيضا انتباه «كارستن نيبور» الرحالة الألماني الذي زار مصر في مطلع سنة ١٧٦٢م، والذي أظهر دهشة كبيرة عندما فوجيء بوجود صناعة تفريخ البيض التي تعرفها أوروبا، وتحدث أيضا عن صناعة النشادر، وتعرض في رحلته لنظام الحكم الذي رأى فيه بعض ملامح الديمقراطية... فنظام الديوان فيه سمات الديمقراطية، فكان الديوان يعزل الوالي، وعندما يرسل مبعوثا إلى الوالي يطلق

عليه «أبو طاقية»، والذى يقوم بفرش البساط الأحمر تحت قدميه، إشارة إلى رغبة أعضاء الديوان فى عزله.. ويتكون الديوان من البكوات ورؤساء القوات والعديد من وجهاء القاهرة وشيوخ الأزهر والنقباء من رؤساء الحرف وشهبندر التجار، ويروى الرحالة الألمانى ما شاهده من أعمال مسرحية، وفرق تجوب القرى وتقدم أعمالها، ويستنكر قيام الرجال ذوى اللحى بدور النساء (رحلة إلى مصر. كارستن نيبور ترجمة د. مصطفى ماهر).

حياة مصر الاجتماعية

ويسرف الرحالة التركى فى وصف الأعيان والاحتفالات والمواكب والتشريفات التى تميز بها هذا العصر، ويعدد أيضا صور التكافل الاجتماعى، فهناك أماكن عديدة تقدم كل يوم قدورا كبيرة صباحاً ومثلها بعد العصر من الحساء للفقير والغنى والصغير والكبير، ولا يمنع أحد من دخولها، ويصف شوارع القاهرة وحواريها بالنظافة، قبل ظهور الشركات الأجنبية. .. «ويجمع الزبالون الزبالة بكنس شوارع القاهرة، كنسا نظيفا بحيث لا يدعون فيها ذرة من النفايات».

موكب القاضى.. يقيم القاضى فى قصر عظيم، كان قصر الخليفة المعز لدين الله، والحاصل أن إحقاق الحق فى مصر من أصعب الأمور وبعيد الاحتمال، وذلك لأن إحدى الجهات لابد أن تتدخل بالشفاعة والرجاء والايماء والإشارة بكل إصرار وإلحاح، وقد يحصل أن يتدخلوا فى الأمر ويتسببوا فى صدور حكم ظالم وقرار جائر.

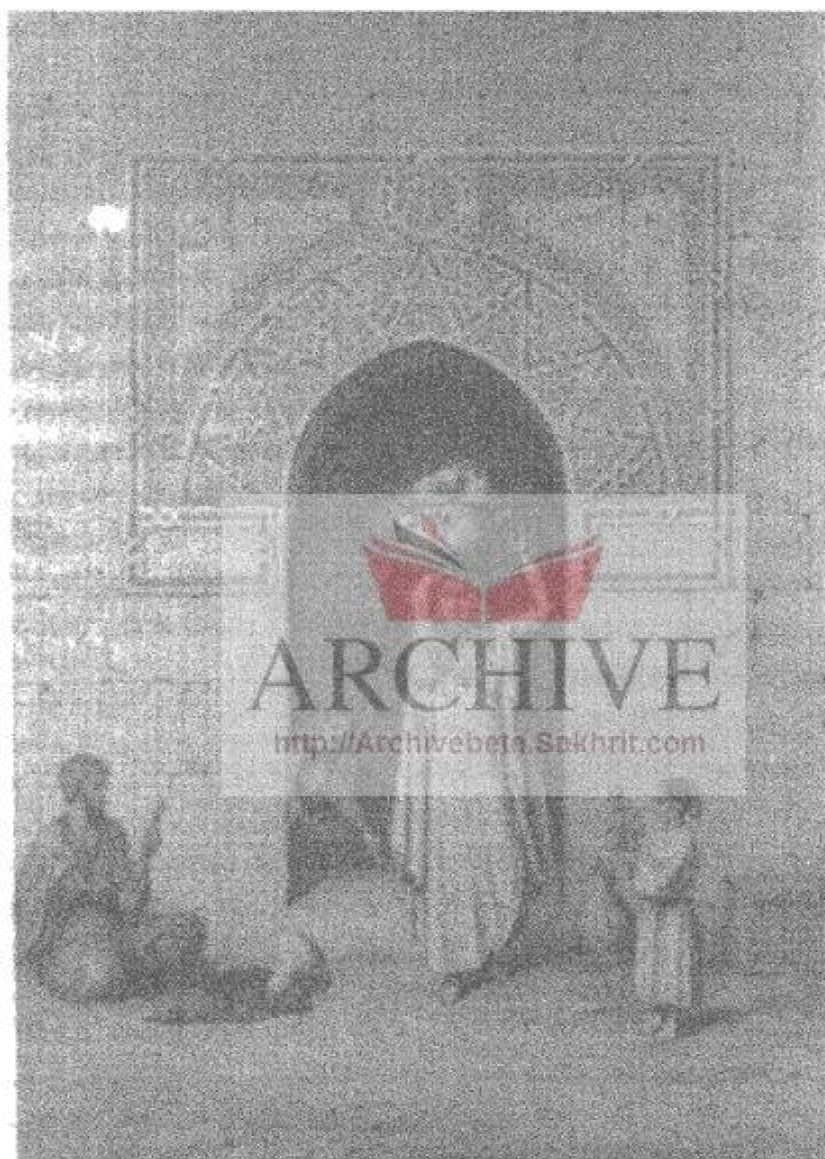
ومن يحتاج للفتوى يذهب إلى الأزهر فينال أحد علمائه بضعة فلسات ويأخذ الفتوى كما يريد، كما يحصل خصمه على فتوى مناقضة!، وفى مصر عشرون ألف عالم يتصدون للإفتاء ويخترعون مسائل غريبة وعويصة، وقضايا عجيبة يتفننون فى معالجتها، ولا شك فى أن مصر بلد غريب الأحوال جدير بالاطلاع ، وله علماء كثيرون يشاركون فى علوم كثيرة وفنون عديدة، وليس لحكمائه أمثال ونظراء فى الكون، إذ هم فى غاية الذكاء والألمعية.

ويستلفت انتباهه ظاهرة مازالت قائمة حول بناء مسجد فى ركن داره، يصلى فيه هو وأتباعه.. «إن المصريين كانوا فى الأزمان الماضية جد مغرورين حتى أن المرء إذا ملك عشرة أنفار استنكف العبادة فى مساجد أخرى، فخصص ركنا فى داره أو بنى مسجداً خاصا، فكان فى مصر مائة وسبعة وسبعون ألف محراب!!

المقلدون والمضحكون

يبلغ عدد مقاهى قاهرة القرن السابع عشر ستمائة وثلاثة وأربعين مقهى، وبعض هذه المقاهى يستوعب ألفا

باب أحد منازل شارع شيراوى بالقاهرة - ١٤ م



من الرواد، ويصف هذه المقاهي ، بأنها مجهزة بالفسقيات والمقصورات، ومن أشهر هذه المقاهي، مقهى الغورية، ومقهى باب الفتوح، ومقهى الجماميز، وهي تقدم الدخان، وبها المقلدون والمضحكون للتسرية عن الرواد.

وتعيش القاهرة أيامها على إيقاع النغم، فلا تستطيع فرقة موسيقى القلعة التوقف عن العزف ومغادرة القلعة، فيعزفون كل ليلة بعد العشاء، ولكل فرد من أفراد الفرقة الموسيقية راتب كبير، ويعزفون على آلاتهم مقاطع موسيقية شجية، قبل الفجر فتدمي قلوب العشاق، وبمجرد أن ينتهي الأذان تشرع فرقة القلعة في العزف من جديد.

الحمير والجوارى

ولم أكن أتصور أن مصر العثمانية تسمح بالبغاء، ولكن رحالتنا يذكر، مما اختصت به مصر دون الولايات العثمانية الأخرى، وجود بيوت للبغاء، رغم شدة تدين أهلها، ويقتصر العمل في هذه البيوت على الجواري، ونساء من مختلف شعوب الأرض، وفي القاهرة ثمانمائة بغي، يجتمعن في باب اللوق، تحت رقابة ثلاثة موظفين واحد منهم في القاهرة، وواحد في بولاق، وواحد في الفسطاط، ويطلق على كل واحد من الثلاثة «شيخ العرصات».

ولا يمكن للبغي قضاء الليل في غير بيتها، والقوادة مهنة ملحقة بالبغاء، يحترفها ثلاثمائة من النساء السابقات في المهنة، ويطلق على الرجل العامل في هذه المهنة «ديوث»!

ويدهش رحالتنا ذكاء الحمير، ففي مصر حمير كثير، يكاد المرء يظن أنها مستولية على البلد!، إذ يسمع من الحمارين أصواتا عالية تردد ، ظهرك، جنبك، يمينك، يسارك !

وأول مقام موسيقى تسمعه صبحاً هو نهيق الحمير، ويركب أعيان مصر الحمير، ويعدون بها كأنهم يتسابقون، فحميرها ذكية جداً، وسريعة جداً أيضاً.

★★★★

ومصر لديه أم الدنيا، تطعم الدنيا كلها كأنها أمها، فإذا خربت الدنيا، أصلحتها مصر، وأطوارها وعاداتها وقوانينها بعيدة عن التعبير باللسان والتحرير بالقلم.

أما أنا - أوليا جلبي - الفقير كثير التقصير ، قليل البضاعة ، كثير السياحة، فقد حركت قلمي العاجز على قدر الطاقة فوصفتها كأنها قطرة في بحر أو ذرة في الشمس.

بلاد يحصل فيها مثل أحوالها، وجاءت شهرة مصر بأم الدنيا من ذلك، فأي ملك على ظهر الكرة الأرضية ملك هذا القدر.

★★★★

هكذا كانت ، وهكذا ستكون ■



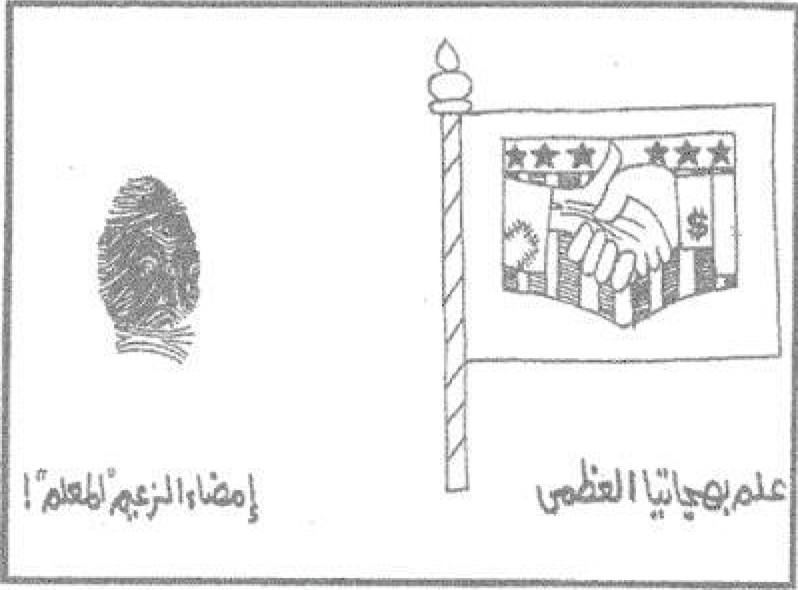
حكومة وأهالي في بهجاتيا العظمى

بقلم
د. سامي منصور



بهجت عثمان ..

فنان ملتزم بقضايا مجتمعه ، محترم لمسئولية رسام الكاريكاتير . ناقد عنيف وإن كان عنفه أملا في أن يكون النقد أداة للتغيير إلي الأفضل .



وصفات مثل هذه لفنان تجعل عملية الكتابة عنه بالغة الصعوبة، وتزداد الصعوبة عمقا واتساعا إذا كان الكاتب، فى مثل حالتى، واحدا من أصدقاء بهجت عثمان جمعتنا الأيام والليالى على مواقف سياسية واجتماعية بل وشخصية واحدة، إلى أنه كان يطلق على مجموعة الأصدقاء «أبناء الجالية المصرية بالقاهرة» !!

ورحل بهجت ورحلت معه من حياتنا كثير من الأشياء الجميلة، ولم يبق لنا غير فنه، ذلك الفن النادر الذى ارتبطت به وأصبحت أتعايش معه يوميا ... !

فقد وضعت على باب حجرة مكتبى لوحته عن الانتفاضة الفلسطينية الأولى وهى من شعر سميح القاسم يقول فيها «وطفل أنا حين ألعب .. وعاصفة حين أغضب .. وحين أثور .. تعيد البراكين لى سرها» . رسمها بهجت بإحساس يستوقف كل من يدخل مكتبى .

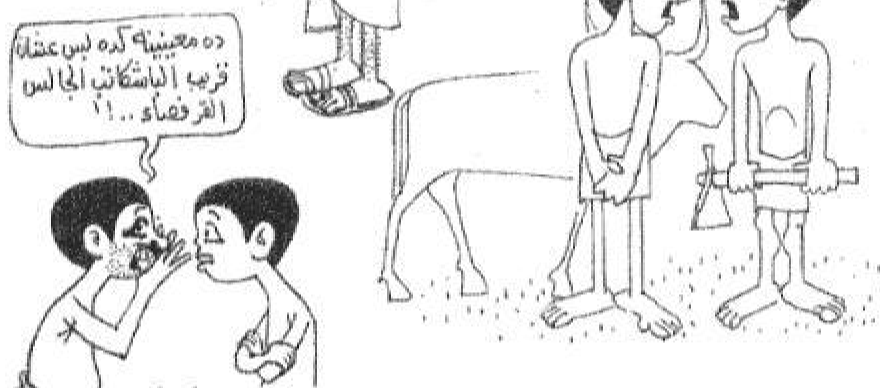
وفى منزلى وضعت لوحته من الفن الشعبى، «السيدة والحنطور» فى موقع لابد أن تكون آخر ما أراه قبل مغادرتى المنزل، لتكون لوحته عن الانتفاضة هى أول ما أراه حين أدخل مكتبى وبين اللوحتين رحلة عمر لفن بهجت عثمان .

وبهجت فنان متعدد المواهب مارس الفن بأكثر من أداة، وفى أكثر من مجال، ولكنه فى كل المجالات كان واحدا، بمعنى أنه كان برؤية سياسية واجتماعية واضحة لم تستطع التزامات الحياة ومشاغلها بل ومشاكلها أن تصرفه عنها .

وقد أتاح تجميع أعمال بهجت فى جريدة الأهالى فى كتاب، هو الثامن من نوعه فى تاريخ المكتبة العربية، أن نرى ذلك الموقف النضالى لفنان مهموم بوطنه وأمته . وجاء كتاب بهجت «حكومة وأهالى» تعبيراً صادقا عن التزام بهجت بهموم الشعب والوطن وفى نفس الوقت تعبيراً أميناً عن


يا أخي أكتب لك شوية أغاني..! تمثيليات..!! بدل ما انت عريان كده وقاعد
ألف مرة أقول لك إن إسمه الكاتب الجالس القرفصاء مش أبو الهول
صحيح..؟ وبيكتب في مقبرة إيه علشان أبقى أقراله...!!


أدي نتايج الأهرام المدرجة.. دول عاملين عندنا إعلانات...
ما تنساش تحط لنا رقصتين شرقي عشان يبقى فيلم رائع
وحايعرف مشاكلنا إزاي وهو قاعد القرفصاء كده ؟!
يا بني هو بيكتب لك ؟!! ده بيكتب للسياح


ده معينينه كده بس علشان قريب الباشكاتب الجالس القرفصاء..!!

قاعد تلات آلاف سنة تكتب عن مشاكل المواصلات وبرضه مش داخل

وعملت إيه بشرف الكلمة.. كرهالك راكبين عربية رمسيس

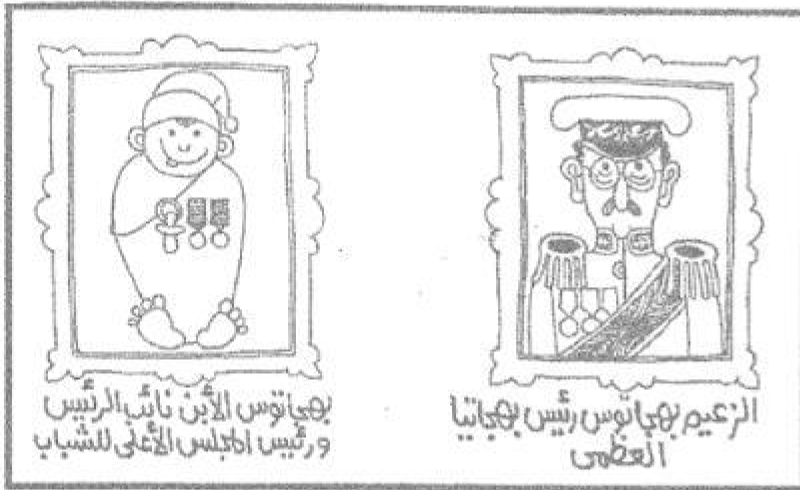
ده كلام مش مفهوم... يابني اكتب هيروغليفي

الكاتب المصري اريح للأمن القرفصاء!! عشان تقدر تنام في الشغل كمان



الكاتب الجالس القرفصاء

إختصر عامودين عشان حاطط مكانها صورة العازفات الثلاثة...!!





موهبة بلا حدود وثقافة غير مغلقة . فأن تجمع رسوم لفنان كاريكاتير هو أمر ممكن ولكن أن يكون الكتاب كله له خط واحد، هو حكومة من جانب وأهال من جانب آخر فهو يعنى أن بهجت لم يكن يرسم للحظة ولكنه يرى بعين أبعد من الموقف اللحظى وأعمق من مجرد الحدث .

وقد تجلى هذا فى تقديم صلاح عيسى للكتاب عندما قال «ربما ساد ظن خاطئ بأن الكاريكاتير - كالمقال السياسى - تعليق يومى مباشر على حدث، يفقد جانبا من حضوره حين يبرد الحدث أو يتباعد أو يخفت وهجه.. وتلك فكرة ثبت خطؤها .. خاصة إذا كنا أمام «الفنان الموقف» صاحب الرؤية



السياسية والاجتماعية المتكاملة والمقاتل من أجل قضية ..

إن الفن الجميل، ومنه المقال السياسى والرسم والصور الكاريكاتيرية ، لا يفقد بالزمن قدرته على إثارة البهجة والفكر في نفس الذى يتلقاه .. إن السخرية التى تنفجر من روح حساسة وعقل مفكر، تظل قادرة على النفاذ عبر الزمن، وتحتفظ كذلك بقدرتها على أن تمنحك البسمة التى تغسل الروح ولاتكتفى بالانفراجة بين الشفتين »

وكان كتابه الثانى «بهجاتوس رئيس بهجتيا العظمى» وسام شرف لهذا الفنان، وهو يرسم ويصور كل حاكم هزلى يحكم شعبه ويسرق ماله ويفتح السجون له .

- ويكفى بهجت عثمان أن يقدم كتابه الثانى الأستاذ الدكتور على الراعى، والذى يتحدث عنه بأنه «زميل»، ليتأكد لنا بوضوح ثقافة وموقف بهجت تجاه الأحداث .

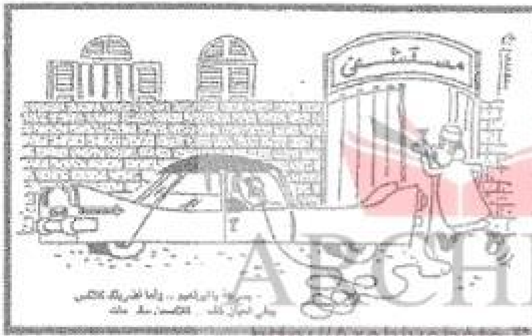
يقول د. على الراعى فى مقدمته.« بهذه الرسوم يمضى الفنان المبدع بهجت عثمان فى طريق اختطه لنفسه منذ مدة، وهو يقضى بأن يترك جانبا النقد الفردى العابر لظواهر متفرقة من حياتنا الاجتماعية والسياسية، ويختار الموضوع الواحد المتصل، يتأمله من عشرات الزوايا، ويلقى عليه الضوء بعد الضوء فإذا جوانبه تتكشف لنا بوضوح، وتصبح الرسوم المتفرقة كلا واحدا متسقا .. وبهذا يصبح الرسم الكاريكاتيرى بحثا فى أحوال الوطن على شكل رسوم، ويستحق أن يجمع فى كتاب وأن تضمه المكتبات».

تجربة لتثقيف أطفالنا

وإذا كان البعض يرى أن بهجت حين وصل الموقف إلى حالة من التدنى فى السبعينات ابتعد إلى فن الطفل، فإننى أرى العكس بأنه لم يعتزل ولا أصابه اليأس، بل لقد قرر أن يخوض تجربة تثقيف أطفالنا بالوطنية والشجاعة باعتبار أن الطفل هو الأمل .. وإذا كان الجيل الحالى - فى ذلك الوقت - قد تمزق فإن الطفل هو الأمل .

وقدم مجموعة من الكتب تحولت بها كتب التراث مثل كليلة ودمنة إلى كتب مرسومة





برشاقة ومبسطة بعلم عميق لتكون سلاحا من أجل المستقبل .

وقد قدم بهجت مجموعة من المعارض كان التراث الشعبى بطلا فيها ، مع مجموعة من الألوان المشرقة أو التى يصفها الفنانون بالألوان الساخنة .

إنك عندما تطالع رسوم بهجت لاتضحك لمجرد الإضحاك كما يقول الكاتب طلال سلمان - فهو ليس المهرج .. إنه صاحب نكتة مبدع، لكن النكتة ليست نكتة لذاتها .. إنها طلقة سخرية لاذعة لاتخطئ هدفها ، فيختلط الدوى بالقهقهة، فإذا ما هدأت موجة الضحك العارمة انبعثت فى النفوس المعرفة اليقينية بمواقع الخطأ والخلل الواجب إصلاحها ..»

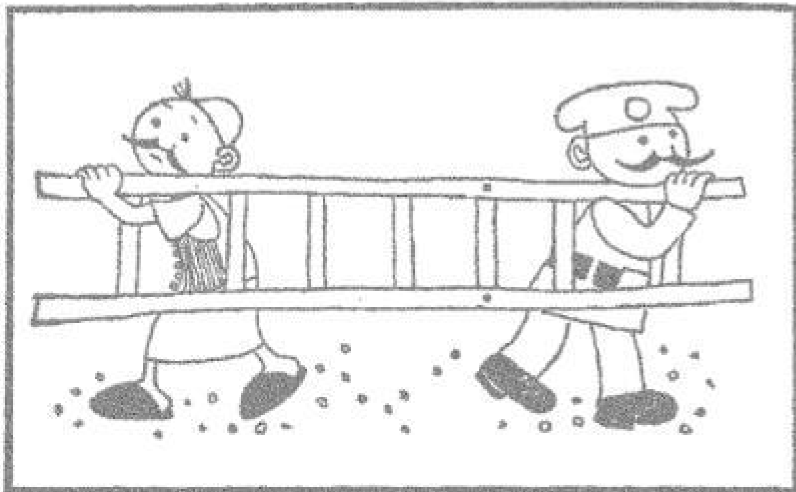
وإذا كانت البساطة فى التشكيل هى أسلوبه فإن الشعب بأنشطته وتطور حياته هو الشاغل .

وقد شاركته فى بعض المعارض رفيقة حياته الفنانة بدر . ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إنه يندر أن يتزوج شخص فنانا كان أو غير فنان من زوجة تشاركه بعض الصفات وتكمل له بعضا آخر .

أثر رحيل بدر

لقد جمع الإثنين ذلك الشعور بالبراءة ، فقد كانت بدر، وهى تعد «عرائس» مسرح العرايس، كأنها طفلة تلعب بعروستها وهو ماتراه فى أعماق بهجت .

وكان رحيل بدر هو نقطة الانسحاب





بين الواقع والأمل

لقد كانت الجلسة مع بهجت تعيد لي التوازن بين الواقع والأمل، وكانت سهراتنا في الماضي في منزله أغلب الأحيان في صالون يجمع عددا من المثقفين وحديث بالغ العمق والاتساع في ثقافة متنوعة وإن كانت هموم الوطن تجمعنا على أمل .

الحقيقية لبهجت بل وزحف المرض على عينيه مما ترك شعورا لديه بقرب الرحيل ليلحق برفيقة حياته وهو ماحدث فعلا . ورحل بهجت ولكن بقي ذلك الفن الرفيع سلاحا لمن لا سلاح لهم .

وأكون صادقا تماما حين أقول إنني أفتقد بهجت الإنسان والفنان . فقد كنت وخاصة في السنوات الأخيرة قبل رحيله التقي به في الصباح الباكر والناس نيام لنتحدث عن سقوط الأصدقاء في بئر الحياة وسقوط الوطن في مخالب الاستعمار الجديد .

وأرجو أن يعذرني القارئ، إذا قلت بكل صدق إن رحيل بهجت واعتزال مجموعة رفاقه من فناني الكاريكاتير قد عاد بفن الكاريكاتير إلى حالته الأولى.. ارسم بخطوط بلا موقف ولا طعم . وربما كان الجيل الحالي من رسامي الكاريكاتير أكثر صعوبة في التعبير لغياب روح النكتة ليس من فن الكاريكاتير فحسب بل من حياتنا وأصبح الواقع نفسه هو نكتة قبيحة لم يعد في قدرة أحد أن يقول نكتة أمامها !! ■



عبقرية الأقصوصة المخزنجية

بقلم

خيري شلبي

سأظل أفخر دائما بأنني كنت أول صوت ارتفع مهللا بالفرح على صفحات جريدة الأهرام ابتهاجا بميلاد قاص غنائي شاعر اسمه محمد المخزنجي بمناسبة صدور أول مجموعة قصصية له بعنوان: (الآتي)، تلك التي صدرت عن دار الفتى العربي في ثمانينات القرن الماضي. كانت أقاصيص تلك المجموعة مكتوبة - فيما هو مفترض - - للفتية، أي أولئك الذين يعيشون في مرحلة عمرية فيما بين الصبا والشباب، وذلك حسب توجهات دار الفتى العربي - الفلسطينية - التي آثرت أن تلعب دورا تربويا من خلال فنين عريقين هما: القص والتشكيل، القلم والريشة، ولاشك أنها قد وفقت الى حد كبير في تقديم فن عظيم يخدم الأغراض التربوية النبيلة لدار الفتى العربي، ويستطيع أي باحث أن يعود الى قوائم مطبوعاتها المتنوعة من القصص، الى الشعر، الى الأساطير الغنية بالدلالات، الى الحواديت المكتنزة بالأفكار الى نصوص تاريخية ذات توجه قومي، ولسوف يتأكد حينئذ - الى احترامه لدار الفتى العربي - أن القاص محمد المخزنجي كان أبدع وأنبل هدية قدمتها دار الفتى العربي لقراء العربية!

مجموعة (الآتى)، فيما أذكر بعد مضى ما يقرب من ربع قرن من الزمان، كانت ولا تزال علاقة بارزة فى أسلوب القص العربى الحديث، ومحطة فى موقع استراتيجى خطير الشأن فى سكة فن القصة القصيرة، على رصيفها لافتة تقول لمن يجيد الرؤية والقراءة إن المشوار الجبار الذى قطعه فن القصة القصيرة المصرية قد كلل بالنجاح فى إنجاب «بطن» جديدة من بطون القصة سوف تثرى القبيلة القصصية بعلاقات جديدة ودماء جديدة وملامح جديدة تزيدها فتوة وتجذرا فى التربة المصرية الخصيبة.

إحكام البنيان

كان أستاذنا يحيى حقى قد جرب فن الأقصوصة المكثفة التى يتراوح طولها بين نصف صفحة وصفحة إلى صفحتين . يتكامل فيها البنيان بإحكام شديد بحيث تنسق تفاصيله المعمارية مع تفاصيل رؤية فنية. إلا أن الصورة الفنية لأقاصيص يحيى حقى - المتناثرة فى مجموعتيه : «أم العواجز» و«الفراش الشاغر» - كانت دائما فوق مستوى الواقع، بعضها ذو مذاق شعرى صرف، ومعظمها بمذاق فلسفى خالص وإن كان يشف عن مستويات متعددة للتلقى، حيث تتجلى براعة الأستاذ فى رسم صورة فنية ناطقة تصلح أن تكون هدفا فى ذاتها كبناء فنى مبهج للنظر مريح للخواطر، ومن هذا المدخل نفسه يطمح الكاتب فى أن يتعمق



إبراهيم أصلان

القارئ فى الصورة ويعطيها مزيدا من التأمل لاستخلاص معطياتها الانسانية والفلسفية.

نفس التجربة خاضها القاص الكبير - أستاذنا الثانى - يوسف ادريس حينما بث الحياة فى فن الأقصوصة، ولعل أقصوصة «نظرة» فى مجموعته الأولى «أرخص ليالى» من الفرائد التى اغتنت بها القصة المصرية فى توجهاتها الواقعية الحداثية. الأقصوصة لا تزيد على أسطر معدودة، وهى أشهر من أن تلخصها سيما وأنها غير قابلة للتلخيص باعتبارها تلخيص التلخيص للواقع المصرى آنذاك.

وقد وصل يوسف ادريس بفن الأقصوصة الى مستوى فنى أكثر إحكاما وتجليات من القصيدة الشعرية فى أرقى مستوياتها، ولا أظن أن قراءة ينسون أقصوصة «مارش الغروب» وغيرها من الأقاصيص البديعة ذات النفس القصير جدا .

وفى جيلنا حاول كل من يحيى الطاهر عبدالله وإبراهيم أصلان كتابة فن الأقصوصة، وحدثت بينهما مباراة أسبوعية استمرت على صفحات جريدة

المساء أكثر من عامين قدما خلالهما كثيرا من النماذج الطيبة وإن كان كلاهما قد أحجم عن ضمها في كتاب .

عقلية ناضجة

على أن أقصوصة المخزنجي جاءت شيئا مختلفا، عبقريا مافي ذلك شك، لدرجة أن المخزنجي وهو شاب حديث السن آنذاك كان يشي بعقلية جماعية فنية، حيث لا نشعر مطلقا أنه مجرد فرد يؤلف أقاصيص طريفة، إنما يداخلنا اليقين بأن العقلية الناضجة التي نحتت هذه الأقاصيص على هذا النحو من الدقة والاتقان والشمولية لابد أن تكون عقلية أمة بأكملها ، والواقع أن الله يختص بهذه الموهبة بعض أبنائه الموهوبين من أمثال فؤاد حداد وصلاح جاهين وبيرم التونسي وأحمد شوقي، حيث الواحد من هؤلاء قادر على تمثل العقلية الجماعية ومحاكاتها وامتلاك مفرداتها، ففي الكثير من قصائد بيرم التونسي وفؤاد حداد وصلاح جاهين تحس أن الأمة كلها قد شاركت في تأليفها بما يفيض لديها من مخزون شعوري جماهيري يعكس أصواتا متعددة وأفكارا متباينة تتجادل في ضفيرة فنية يجد كافة القراء أنفسهم فيها .

أقاصيص مجموعة «الآتي» كانت ولا تزال تذكرنا بمستويات شاهقة من الفن القصصي التربوي الإنساني الخالص عن فيلسوفي الأطفال - الكبار قبل الصغار - إيسوب في خرافاته البديعة وهانز كريستيان أندرسن في قصصه وحواديته الغنية بالدلالات والمعاني والقيم الأخلاقية العظيمة.

وصلت الأقصوصة في مجموعة «الآتي» الى درجة الأمثولة، أو الحكمة الدامغة الشبيهة بالنظرية العلمية لايأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها. كل أقصوصة تقوم على بناء فني أشد إحكاما من بناء القصيدة الشعرية المتماسكة، أقاصيص أشبه بحبات اللوز، أو الفستق بالأحرى، القشرة لا تقل أناقة ورصانة وجمالا عن الثمرة نفسها، القشرة نفسها عمل فني قائم بذاته ليكون وعاء مناسبا لهذه الثمرة الدقيقة المليئة بالعناصر الغذائية المتعددة.

ولأن محمد المخزنجي كان في الأصل شاعر عامية التقيته ذات يوم بعيد من عقد سبعينات القرن الماضي ضمن براعم اقليم المنصورة في أمسيات الثقافة الجماهيرية ، لذا فإن القصة عنده تأتي من منطلق شعري، وتلتزم بنيان القصيدة: مجموعة من الصور الفرعية الدقيقة تؤدي الى تكوين إنساني متكاتف متضافر يشف عن تجربة شعورية انعصرت في كوبة صغيرة أو أنبوب اختبار . ولأنه - المخزنجي - كان طالبا بكلية الطب يدرس التشريح فإن قدرته على الاحتفاظ بالنسب كانت مذهلة، بمعنى أن الأقصوصة مكونة ربما من بضعة أسطر ولكنها حافلة بجميع التقنيات المستخدمة في بناء القصة الطويلة أو

الرواية. الأقصوصة أحيانا مجرد لقطة، ولكنها بالنسبة للواقع أشبه بالخلية الحية بالنسبة للجسد المأخوذة منه، فيها كل تفاصيل الأصل وجيناته الوراثية. الا أنها ليست هكذا فحسب، إنما هي هكذا لأنها ستريك في مراياها كل تفاصيل الواقع الإنساني المصري.

المفارقة في نهر الحياة

المدهش حقا في تلك الأقاصيص قدرة الكاتب - مع أنه كان لايزال شابا حديث السن - على استكشاف المفارقة العميقة في نهر الحياة اليومية، وهي مفارقات جارية كالنهر ولهذا لا يلحظها إلا صاحب موهبة شديدة الحساسية تجاه الواقع وما يضطرم فيه من حيوات - وقدرته على اكتشاف المفارقة الانسانية - الناعمة جدا أحيانا وغير الزاعقة - لاتقل عن قدرته على الإمساك بالمفارقة والنفاذ الى ما تحتويه من مضمون شعوري انساني، والأقصوصة عنده لا تقدم المفارقة نفسها رغم صلاحيتها كشكل قصصي حافل بإمكانيات الحكي الى مالانهاية، إنما هو يمسك بالجوهر الانساني الثمين للمفارقة، يترجمه الى موقف درامي، الى لقطة شعرية ناطقة، الى معزوفة موسيقية ذات بداية ووسط ونهاية حتى وإن كانت مجرد جملة واحدة فإن مدارج الانفعال فيها تتسق مع تصاعد الانفعال، الى أهزوجة، الى وشم مدقوق على ظاهر يد أو فى عصفورين أخضرين على فودى فلاح يميز



يحيي حقي

بهما نفسه عن الدخلاء من غير المصريين . وفى كل أقصوصة ثمرة شهية المذاق مع فكرة صادمة تهز الوجدان وتفتق الأذهان على منابع الحكمة في الحياة، وفى كل أقصوصة غذاء جديد، روحي أو معنوي أو فكري أو شعوري، وفى كل أقصوصة رصيد جديد من الحكمة والوعي النوراني يضاف إلى رصيد القارىء فكأنه قد عاش هذه المكتشفات، إن فعل القراءة لأصحاب المواهب الفذة يتحول إلى ممارسة للحياة، الشعور، الفكر، التأمل، إن الكاتب الموهوب هو من ينسيك أنك تقرأ، إذ هو يضعك مباشرة في قلب الفعل الحيوى دون مقدمات، يحيلك إلى طرف أصيل في الفعل الفني الذى يبدأ تخلقه الفعلى بمجرد وقوع بصرك على السطر الأول..

رؤية مبهجة وعبارة صافية

لهذا فأنت بعد قراءة «الآتي» للمخزنجي ستختلف عنك قبل القراءة، ستشعر أن هذا الكاتب الموهوب ذا الرؤية المبهجة والعبارة الصافية قد فتح عينيك ووعيك على مالم تكن - لفجاجتك عدم

المؤاخذة ـ تعنى بالانتباه عليه أو تستعلى عليه باعتباره من سقط المتاع، ستكتشف أنك قد خسرت الكثير من الكنوز والمعانى الإنسانية المشرقة بعدم انتباهك من قبل لما يتدفق به نهر الحياة اليومية في الشارع والحارة والدكان والمطعم والأتوبيس، وبخاصة بسطاء الناس الذين هم فى الأصل خميرة الشعب وعجينة الأمة، من الأعرج إلي الأكتع إلي البائع السريح إلى الفلاح الفقير إلى العامل المعدم إلى الشريد والمتسول والموظف الغلبان، إن الحياة بمعناها الحقيقى الأصيل لاتتجلى بأجلى وأوضح معانيها إلا فى حياة هؤلاء البسطاء من الناس، إنهم نبات الحياة، شاربو العرق الإنسانى، هم منبع الحكمة والمعانى المشرقة الموسعة للمدارك فى اكتشاف الشرف الحقيقى فى العناء الإنسانى الخلاق.

هكذا تألقت عبقرية المخزنجي في مجموعته الثانية (رشق السكين) التى اعتبرها ـ وبأعلا صوت ـ من عيون الأدب العربى الحديث، لقد حققت ذروة عالية جدا لما يمكن أن تصل إليه الأقصوصة، حيث وصل فى هذه المجموعة الفذة إلى مستوى لغة الخطاب الإنسانى، مثل كليلة ودمنة وخرافات إيسوب وحكايات هانز كريستيان أندرسون، يمكن أن نستخدمها فى خطابنا اليومى كالمأثور الشعبى، إن حياتنا كمصريين بنوع خاص تقوم على الحواديت والحكايا، نتخاطب بالحدوتة الأمثولة، الواحد منا يرد على من يحاوره بقوله: فى يوم من الأيام حصل كذا وكذا، أو: كان فيه مرة واحد صفقته كذا فعل كذا أو قال كذلك فحدث.. إلخ، أو: كان على بن أبى طالب أو عمر بن الخطاب يمشى فى الشارع ذات يوم فوجد كذا... إلخ، وخذ عندك ملايين الحكايات المأثورة التى راكمها التراث الشفاهى وحولها إلى لغة خطاب كالمأثور الشعبى، وإذا كان المأثور يتكون من بضع كلمات تحتوى على درس عميق أو عصارة تجربة مفحمة فإن المأثور الحكائى يتكون من بضع صور وحوارات موجزة فى إطار سردى تتكون منه طرفة أو ملحمة حمالة أوجه.

أقاصيص المخزنجي فى مجموعة «رشق السكين» تبلغ هذا المستوى الرفيع من التراكم الإنسانى المعصور فى أوان قصصية حمالة أوجه تصلح للتعبير عن مواقف كثيرة ومعانى كثيرة شرط أن تكون مفحمة فى كل وجه من وجوهها.

وإنى لأشعر بكثير من الصدمة والمرارة لأن هذه المجموعة القصصية العظيمة لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار لتضع كاتبها فى مكانته اللائقة به كواحد من كبار كتاب اللغة العربية فى عصرنا الراهن فى فن كاد ينقرض لشدة صعوبته فأصبح هو فارسه الأوحد الذى بعث فيه الحياة لقرون طويلة قادمة.

صدمتى ليست قوية ومرارتى ليست حارقة لأننى أعرف أن المجموعة لم تحظ

بحقها الواجب من الإعلان والدعاية، ثم إنها لم تطبع إلا مرة واحدة ضمن سلسلة «مختارات فصول» وهى لاتطبع أكثر من ألفي نسخة، ولا أدرى لماذا لا يعاد نشرها في سلسلة مكتبة الأسرة؟ إن كانت قد نشرت بالفعل فى مكتبة الأسرة ـ وأنا غير متأكد ـ فإن عدم درايتي بخبر نشرها دليل على أنها نشرت بشكل محدود، فكم من أعمال أذاعت الإعلانات الملحاحة أنها نشرت فى مكتبة الأسرة ثم هرولت لأبحث عنها بين فروشات الباعة فلا أجدها مطلقا، إن كان ذلك لنشاط التوزيع وسرعة النفاد فلماذا لا يعاد طبعها مثنى وثلاث ورباع!..

مجموعة .. نموذج لأدب الأقصوصة

بل إننى أطمح إلى أبعد من ذلك، أن تقوم وزارة التربية والتعليم بشراء هذه المجموعة وتوزيعها على طلبة المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية كنموذج لأدب الأقصوصة في حداثتها المزهرة، ستضرب الوزارة عدة عصافير بحجر واحد، ستسهم في تربية التلاميذ بما في هذه الأقاصيص من زاد إنسانى عميق من شأنه تهذيب النفوس وبناء الأخلاق وتشييد الضمائر.. وفى نفس الوقت ستربى الذائقة الفنية عند التلاميذ وتسقيهم حب الأدب والفن القصصى من خلال هذه المجموعة ذات الأسلوب الأدبى الفنى الرفيع، سيسحب التلاميذ لغتهم العربية



يوسف إدريس

من خلالهما، يتعلمونها حقا، سيتكون عندهم إحساس بها يساعدهم على اكتشاف حمولات المفردات من ثقافات وتجارب.

وكان المخزنجي ـ شأن كل أبناء جيله ـ قد ارتحل إلى بلد عربى شقيق يعينه على بناء حياته الزوجية، فاشتغل فى مجلة العربى الكويتية، هجر الطب والأدب إلي الصحافة الثقافية، فكان ذكيا جدا، أسلم نفسه للرحلات والاستطلاعات التى لاشك أضافت إليه الكثير من الخبرات والمعارف، لكنه لم ينس موهبته القصصية فكتب مجموعة «الموت يضحك»، ثم ألحقها أخيرا بمجموعة «العزف على الماء»، وبقدر ما افتقدت عبقرية المخزنجي فى الكثير من قصص الموت يضحك أرانى قد التقيتها بكامل وهجها فى مجموعة العزف على الماء، ولكن الحديث عن هاتين المجموعتين يحتاج «لقعدة» مستقلة، أتعشم أن تجمعنا في يوم قريب جدا إن شاء الله. ■

الرحبانى «خواجة إلياس» يكب «فعلا» العدس على القلقاس!

بقلم
صافى ناز كاظم

إلياس رحبانى هو الشقيق الأصغر لعاصى ومنصور رحبانى، قابلته خلال رحلتى الثرية الأولى للبنان صيف عام ١٩٥٩، ربما كان ذلك فى بيت الأديب «ميخائيل نعيمة» بقريته الجبلية. الذى أذكره عن إلياس أنه كان غاضبا محتجا كارها - من يومه - للموسيقى الشرقية، لكنه كان يعبر عن رأيه بلغة ظريفة يتقبلها من حوله بالابتسام والضحك، كأن الأمر لا يعدو مزاحا لا يتطلب من الأخوين رحبانى، منصور وعاصى، سوى التعقيب المختصر: «هيك هوّ إلياس»!

كنت جالسة أمام المذياع المرئى أناضل لكى أهرب من حصار الدماء على جانب أو الرقص المروّع على الجانب الآخر، حين أطل وجه إلياس رحبانى، عفوا من دون قصد منى، فى برنامج «هالة شو» بقناة روتانا. لم أتعرف عليه، ليس بسبب أن ملامحه قد تغيرت بعد ٤٥ عاما، ولكن لأننى كنت قد نسيتها تماما. عندما قدمته الدكتورة هالة بدا وجهه منزعجا كأنه قد تورط فى مأزق اجتماعى يريد الفكاك منه ومن مجاملاته. كانت غادة رجب قد انتهت من غناء قطع من تراث فيروز بفشل ذريع وصوت مخنوق. وإلياس يقلب ناظريه بحثا عن باب الخروج دون طائل، مما جعل «د.هالة سرحان» تسرف فى تحية المغنية الشابة، التى خسرت مساحات هائلة من صوتها منذ بدأت مشوارها الفنى، ولم يجد «إلياس» مناصا من أن «يفش» غلّه فى الموسيقى الشرقية بعصبية أضحكتنى وذكرتنى بمقولة أخويه «عاصى ومنصور»: «هيك هوّ إلياس». بعد أن دخل «إلياس» بحكايته الطريفة عن المعجب الذى أرسل خطابا إلى «فيروز» تحت عنوان «الآنسة فيروز زوجة الأخوين رحبانى»، انطلق فى هجومه على «الموسيقى الشرقية» فأصبح بحق «خواجة إلياس» الذى يكب «فعلا» العدس على القلقاس، وهو يؤكد أن التراث الموسيقى الشرقى والعربى غير موجود «أصلا»، وليس به أى شئ من آلات العزف سوى «الربابة»، وهل معقول أن نعيش العمر كله ندق على الربابة؟ هكذا تساءل بلهجته اللبنانية «المهضومة»

وأسلوبه الحاد، ويواصل، وهو يتلفت بين جمهور «روتانا» المترنح بالجينز الملتصق، وصيحات العرى المتنوع من باريس ولندن ونيويورك، فيقول: «كل شئ لدينا غربي، انظروا... هادا لبسنا غربي، السيارة غربية، الفيولين غربي، كل ما فينا غربي... ليش يعني صايرين نزعق فى الموسيقى بالوطنية؟».

لم ترد عليه د . هالة بما يذكره بالعود - وهل ينسى أحد العود؟.. عود الموصلي وعود زرياب في القرن الثامن الميلادي، وآلة القانون الفارابية، بين نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادي، وقبلهما آلة الهارب الفرعونية، التي يسميها القاموس «آلة الكنارى»، والناى والأرغول، والمزامير - (هل كانت مزامير سيدنا داوود شرقية أم غربية؟!) - والدف ، وإيقاعات الحداء للجمال وهي تدب صابرة متحملة بالفن وحشة البيداء. أشار «خواجة إلياس» فى استعلاء إلى الآلات الوترية في الأوركسترا كأنها وليدة ذلك الغرب الفرانكفوني، الذي أعلن انتماءه إليه، يختال، كأنها التي سبقت العود والقانون والسنتور و«الربابة» وليست متطورة منها ، ويا إلياس مين دلعك، ملقتش حد يردني!

لست بصدد اقناع إلياس رحباني أو أى أحد بترك حبه للغرب، فمن يكره نفسه لايمكن أن تجبره على حبها، لكن الذي لابد أن يعرفه أصحاب نزعة اضطهاد الذات : «ذاته» أو «ذات الأمة»، أنهم ليسوا «كل» الذات، ولا «كل» الأمة، حتى يصرخوا «كل مافينا غربي»، من المؤكد أن جمهور «روتانا» ليس «كل مافينا» ، فلا يجوز أن يسخر هؤلاء ممن يجد في ثقافته وفنونه وتراثه المتعة والخلاص والكنف والملاذ والنهضة بالنفس من النفس . لا يجوز تسفيه «الوطنية» لأن بعض النصابين تاجروا بها، ولا يجوز الغضب من العدالة الاجتماعية، لأن اللصوص تحت لافتاتها هربوا بالزكائب ، فوق الأكتاف، محملة بالدولارات، ولا معنى للتنافس في إثبات أننا أمة قد أفلست وتضعضعت ولا أمل إلا في الإجهاز عليها لتموت تماما وتخلصنا ، من دون ترك الفرصة حتى لأنفاس مقاومة يزفر بها صدر الجسد النازف .

لو شاء السيد إلياس رحباني أن يعرف الحقيقة عن تراث الموسيقى العربية والإسلامية ، ربما يكون مفيداً لثقافته أن يقرأ كتاب «الموسيقى في الحضارة الإسلامية» للدكتور محمد صالح المهدي، الذي صدر في لندن عام ٢٠٠٢ عن دار الفرقان للتراث الإسلامي

لكن المهم الآن هذا التساؤل البرئ أو الساذج :

ما المشكلة فى أن يكون لدينا التخت والأوركسترا؟

ما التعارض فى أن تحب السيمفونية وتتلذذ بالموال والليل والعين والميجانا والعتابا ؟

ألا تكمن المشكلة حاليا فى ذلك الخلط المتصاعد بين «بوابة» الغناء و «بوابة» أسواق الرقيق الأبيض؟■

«أحاديث ابن دريد»
أول مجموعة قصصية فى الأدب العربى

بقلم
د. أحمد درويش

كتاب «أحاديث ابن دريد» والذى يعد أول مجموعة قصصية عربية، حالت ظروف وأسباب تاريخية دون أن يحتل مكانته التى يستحقها فى ريادة النثر القصصى العربى.

وأول هذه الأسباب . وهو عدم العثور، حتى الآن، على النص الكامل لأحاديث ابن دريد. وهو نص يبدو أنه كان متضمنا فى كتاب كبير يحمل عنوان «أمالى ابن دريد» وكان يتكون من سبعة أجزاء، ظلت متداولة حتى القرن السابع الهجرى، أى بعد وفاة ابن دريد بنحو ثلاثة قرون، ولم يبق من هذا الكتاب سوى جزء صغير، طبع بعنوان «تعليق من أمالى ابن دريد» بتحقيق السيد مصطفى السنوسى سنة ١٦٨٤ . إضافة إلى مخطوطة لابن دريد أشار بروكلمان إلى وجود أوراق منها فى المكتبة الخالدية بالقدس تحت عنون «الأخبار المنثورة» واحتمال أن تكون مكونة من ستة أجزاء.



ولابد أن يضاف إلى ذلك أهم ما بقى من هذه الأحاديث ممثلا فيما نقله أبو على القالى تلميذ ابن دريد، عندما ذهب إلى الأندلس وأملى على طلابه فى حلقات «الخميس» التى كانت تعقد بمسجد قرطبة، مجموعة من أحاديث ابن دريد، كانت يبدأها دائما بعبارة «حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله» وبقيت هذه الأحاديث فى كتاب «الأمالى لأبى على القالى»، أهم أثر احتفظ لنا به التاريخ من هذه الأحاديث القصصية الرائدة.

وهناك سبب رئيسي آخر أسهم فى حجب شهرة هذه الأحاديث، وهو ظهور فن المقامة على يد بديع الزمان الهمذانى الذى كان تلميذا مباشرا لابن دريد، وقد تعود الدارسون على أن ينسبوا اليه والى مقاماته، ريادة الفن القصصى ، مع أن بديع الزمان نفسه اعترف بتأثره المباشر بأحاديث ابن دريد التى استلهم فكرتها ثم عارضها، وقد جاءت الإشارة إلى اعتراف بديع الزمان الهمذانى. فى كتاب «زهر الآداب» لأبى اسحاق بن على الحصرى القيروانى المتوفي عام ٤٥٣ هـ، عندما قال فى حديثه عن «الهمذانى» :

«ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى، أغرب بأربعين حديثا، ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها فى معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية»، وهذا النص الذى يثبت أن «المقامات» كانت شديدة التأثر بأحاديث ابن دريد ، لا ينبغى أن يفهم منه المعنى الحرفى . لعدد الأحاديث الأربعين، وعدد المقامات الأربعمائة، فالمراد كثرة العدد فى التجربة الأولى ، ومحاولة الزيادة عليه فى التجربة الثانية، وقد تنبه الدكتور زكى مبارك إلى نص زهر الآداب وأشار اليه فى رسالته التى قدمها لنيل الدكتوراه من جامعة السوربون.

الذيوع والانتشار

على أنه ينبغى أن يشار إلى أن بديع الزمان لم يكتف بمجرد نقل الفكرة عن أستاذه، ولكنه طورها بطريقة استفاد فيها من بعض السلبيات التى تصاحب عادة، التجارب الرائدة، مما أعطى للمقامات

فرصة أكبر للذيوع والانتشار.

وأهم نقاط التطوير، هو الانتقال بالفن القصصي من مرحلة «الإيهام بالصدق» في أحاديث ابن دريد، إلى «التصريح بالخيال» في مقامات الهمذاني، ذلك أن ابن دريد كان حريصا على أن يصدر كل حديث بسند الرواة الذين تلقاه عنهم فيقول مثلا «أخبرنا عبدالرحمن عن عمه الأصمعي» قال: «سمعت أعرابيا يقول كذا» أو اخبرنا الرياشي عن ابن سلام قال: بلغني ان الاحدمي دخل على يزيد بن عبدالملك»، وهذا الحرص على السند من ابن دريد كان يثقل حركة القصة من ناحية، ويجعلها قريبة من الخبر التاريخي من ناحية أخرى، مع أن معظمها كان من خيال ابن دريد، وقد حرص الهمذاني في المقابل على اسقاط «سلاسل الإسناد» فخفت حركة القصة، وعلى أن يصرح بالخيال من خلال ابتكار شخصية موحدة تروى كل المقامات، وهي شخصية عيسى بن هشام، وشخصية تتولى بطولتها وهي شخصية المغامر، «ابو الفتح السكندري» وكلتا الشخصيتين من خيال الهمذاني.

على أن الجزء الباقي من أحاديث ابن دريد، يحمل من الخصائص الفنية، ما يؤهله لأن يحتل موقع الريادة في فن القصة العربية، وقد عمدنا في كتابنا «ابن دريد رائد فن القصة العربية» الى جمع كل ما رواه «القالي» من هذه الأحاديث، وإعادة ترتيبها وتصنيفها في سبع مجموعات وفقا لموضوع الحديث او القصة فهناك أحاديث في عالم الأعراب والبادية وأحاديث من عالم الطرائف والنوادر و«أحاديث في عالم الكهان» و«أحاديث من عالم النساء والصبابة» و«أحاديث من جنوب الجزيرة» و«أحاديث من التاريخ» وأحاديث من عالم الحكمة والفصاحة، وتبلغ الأحاديث التي اخترناها ووضعناها نحو مائتي حديث أو قصة وقد يكون بعض هذه الأحاديث مجرد «مشهد قصصي» مثل قوله «رأيت أعرابيا يصلي وهو يقول في دعائه: أسالك الغفيرة، والناقة الغزيرة، والشرف في العشيرة، فإنها عليك يسيره» أو يكون الحديث «موقفا قصصيا» يروى بالنثر أو بالشعر مثل موقف الأعرابي الذي قيل له: من لم يتزوج أمراتين لم يذق حلاوة العيش، فتزوج امرأتين ثم ندم على ذلك فانشأ يقول:

تزوجت اثنتين لفرط جهلي
بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفا
أنعم بين اكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحي وتمسى
تداول بين أخبث ذئبتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى
عتاب دائم في الليلتين
وألقى في المعيشة كل ضر

كذاك الضر بين الضرتين

وهناك أحاديث يتحقق من خلالها ما يمكن ان يسمى بالحكاية ذات العناصر القصصية المتشابكة، مثل حكاية ملك من ملوك الجنوب. ولدت له بنت واحدة، فعزلها عن جنس الرجال، وجعل جميع أعوانها من النساء حتى تولت هى الملك فجعلت جميع حاشيتها ووزرائها من النساء فى محاولة للاستغناء عن عالم الرجال، ولكن مستشاراتها عندما رأين الحزن يسيطر عليها برغم أنها تملك كل شىء، أشرن عليها بالزواج . فسألتهن عن أهميته وفوائده، وأخذت كل واحدة تشرح ، حتى اقتنعت ، ورشح الخطاب حتى وقع الاختيار واستقامت الحياة.

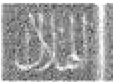
وتعكس أحاديث ابن دريد كثيرا من الشرائح والطبقات الاجتماعية والفكرية والنفسية التى تصلح مجالا للفن القصصى مثل طبقة المحرومين، الذين كانوا يتخذون من فن الكدية وهى فن طلب الإحسان من خلال الوسائل الأدبية أو الفنية وهى طبقة دار حولها كثير من الابداع القصصى فى أحاديث ابن دريد ومقامات الهمذانى ، كما تخصص فيها بعض شعراء ذلك العصر مثل ابى دلف الخزرجى، والاحنف العكبرى وكتبت حولها بعض المؤلفات مثل كتاب «المحاسن والمساوى» للبيهقى، وهذه الطبقة وما تثيره من انتاج فنى فى التراث العربى القديم، تذكر بمثيلاتها الآن فى العواصم والمدن الغربية ، حيث يقف المغنون والشعراء والرسامون فى محطات المترو، يقدمون فنونهم ويضعون قبعاتهم المقلوبة ، لكى يلقى فيها المارة بعض اموالهم.

نمو الفن القصصى

وتظهر أحاديث ابن دريد جوانب من عوالم أخرى فى الحياة العربية وقابليتها لنمو الفن القصصى، مثل عالم الأعراب بتناقضاته مع عالم المدينة، وتجسيده لعالم البداوة والغفلة وقلة الخبرة الممزوجة بالمكر، وهو يعكس فى الوقت ذاته الفصاحة والنقاء والبعد عن التكلف.

وهناك عالم النساء وهو عالم تحفل به أحاديث ابن دريد من زوايا متعددة ويعكس فيما يعكس «قيمة المرأة فى التراث الشعبى وحكاياته المتخيلة ، ومن الحكاية من يمثل المرأة الاميرة والحاكمة والزوجة العاشقة التى تعبر عن حبها ازوجها، او عن ألمها لانه فارقها، او تصرح وهى فتاة بحبها لابن عمها شعر أو نثرا .

وهناك عالم الموقين والحمقى الذى تعكس بعض أحاديثه وقصصه جوانب سخرية عميقة مثل قصة هذا الغلام الاحمق الذى يقول لأمه إننى واثق بأننى ساكون عظيم الشأن. وتقول أمه .. كيف وليس فى المدينة ، من هو أحمق منك؟ فيقول لها: والله مارجوت هذا الأمر، إلا من حيث يئست منه، أما علمت أن هذا زمن الحمقى، وأنا أحدهم. إن كثيرا من العوالم والشرائح النفسية والاجتماعية



والفكرية والتاريخية العربية، تتجلى صورها على استحياء، فى هذه المجموعة القصصية الأولى فى التراث الأدبى العربى «أحاديث ابن دريد» والتى لم نعثر الا على جانب قليل منها، فى كتابات أبى على القالى، وغيره من المخطوطات التى أشرنا إليها، ولكن الخصائص الفنية لهذا الجزء القليل تدلنا على أننا أمام رأس جبل عظيم من الجليد المختفى فى بحر التراث الهائل، والذى يستحق عناء البحث عنه.

تمثل شخصية أبى بكر محمد بن دريد العمانى البصرى ظاهرة لافتة للنظر فى تاريخ القرنين الثالث والرابع الهجرى، اللذين يمثلان فترة من أزهى فترات الأدب العربى.

فقد امتد عمر ابن دريد ما يقرب من قرن بين عامى ٢٢٣ و ٣٢١ هـ وظل محافظا على حيوية الذهن وغزارة الإنتاج حتى آخر عمره. وأدهش العلماء الأقدمين لمقدرته على الجمع بين «الابداع» والتأليف فقد كان شاعرا وقصاصا مرموقا، إلى جانب كونه من كبار علماء اللغة والأدب ، ومن هنا جاءت عبارتهم الشهيرة: «ما ازدحم العلم والشعر فى صدر رجل ازدحامهما فى صدر ابن دريد وخلف الأحمر» كان ابن دريد عمانى الأصل ، ينتمى إلى حضارة الجنوب القحطانية التى كان لها مذاق مختلف عن حضارة الشمال العدنانية ، وقد قضى معظم عمره فى الشمال ، فى البصرة التي كان امام النحو اللغة بها. او خراسان او فى بغداد التى كان استاذا بها تتلمذ عليه معظم أعلام القرن الرابع الهجرى، مثل المسعودى المؤرخ، وأبى سعيد السرافى النحوى وابن خالويه عالم اللغة الشهير والآمدى ناقد العصر الذى وازن بين ابي تمام والبحترى، وأبي الفرج الاصفهانى مؤرخ الأدب الشهير وأبى على القالى الذى حمل علم ابن دريد إلى الأندلس، ودون بعض آثاره الأدبية ، والمتنبي الشاعر الكبير الذى مر على مجالس ابن دريد، وبديع الزمان الهمذانى، صاحب المقامات والذى ينسب اليه عادة ، ريادة فن القصة عند العرب، مع أنه ، كما سنرى كان متأثرا فيها بأستاذه ابن دريد.

وقد ارتبطت شهرة ابن دريد بمعجم الجمهرة الذى يعد اول المعاجم العربية التى يسرت سبل البحث عن معانى الكلمات بترتيبها الالفبائى، وبقصيدته الشهيرة «مقصورة ابن دريد» التى تحولت فى العصور التالية الى قصيدة تعليمية فى أرجاء العالم الإسلامي، وخاصة فى البلاد غير الناطقة بالعربية، حيث يجد المتعلمون فى «المقصورة» كنزا من الكلمات والتراكيب. واشتهر كذلك، بكتابه «الاشتقاق» الذى عد اول كتاب فى تفسير «أسماء العرب».■

لا أبا لك!

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

لو لم يتضمن هذا التعبير خروجا على قواعد النحو ما عرض له النحاة وغيرهم من رواة الشعر، ولتركوه لقارئه يفهم منه ما يستطيع ، مع أن دلالة أي كلمة أو جملة بدقة تتوقف على معرفة السياق الذي قيلت فيه، وهو ما نجهله بصدد التركيب الذي معنا . فلفظ «أبو» فيه من الأسماء الخمسة، أو الستة، إذا شئت، ولها قاعدة خاصة بها في البناء النحوي، فهي تعرب بالواو رفعا، والألف نصبا، والياء جرا، شرط أن تكون مفردة، غير مصغّرة، مضافة لغير ياء المتكلم. وإذن فمن حقها أن تكون: «لا أبَ لك»، بالفتح دون ألف، لأنها منصوبة غير مضافة.

كان ابن الأنباري، أبو بكر محمد، المتوفى ٢٢٨هـ - ٩٢٩م ، أول من تعرض لهذه القضية، فذكر في شرحه «القصائد الست الطوال»: أنها مبنية على لغة من يلزمون الأسماء الخمسة الألف دائما، في حالات الرفع والنصب والجر، يقول رؤبة:

إن أباها وأبا أباها
قد بلغا في المجد غايتاها

ورأى أبو جعفر النحاس، المتوفى ٣٣٨ هـ - ٩٠٥ م ، أن اللام زائدة، والتقدير: لا أباك، وهي هنا مضافة لغير ياء المتكلم، فلا خروج على القاعدة، وإعرابها: «لا أبا» مبتدأ والخبر محذوف، والمعنى: لا أب لك موجود أو حاضر مثلا.

ويدعم هذا الرأي أن مثله ورد في بيت شعر جاهلي دون لام، يقول شبيل بن ورقاء، جاهلي أدرك الإسلام، وأسلم على وهن ، فكان لا يصوم رمضان، فسألته ابنته: ألا تصوم؟

فرد:

تأمرني بالصوم، لا درّ درّها
وفي القبر صوم لا أباك طويل

على أن هناك لغة ضعيفة تجعل الأسماء الخمسة منقوصة، أي حُذف منها الحرف الأخير، وتعرب بالحركات على الباء، فيقال: أبُك، وأبَك، وأبِك، يقول رؤبة يمدح حاتما الطائي:

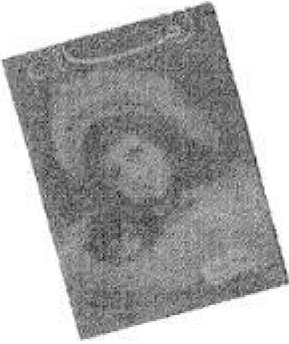
بأبِه اقتدى عديٌّ في الكرم
ومن يشابه أبَه فما ظلم

•••

جاء تركيب «لا أبا لك» على غير المطرد من القواعد، في لهجة من لهجات غير شائعة، تختلف نطقا وإعرابا، ومنذ أصبح للعربية نحو ونحاة حسمت المدرسة البصرية في النحو الأمر، فقررت «ما جاء على غير القاعدة المطردة يُحفظ ولا يقاس عليه»، وهو اتجاه يحفظ للغة وحدتها، وللقواعد كرامتها، وأتمنى على علمائنا الأجلاء، في مجمعنا الموقر للغة العربية، ألا تنزلق بهم شعارات التيسير التي تُرفع في وجه العربية هذه الأيام تشهيرا بها، فيتخذوا من شاذ اللهجات والروايات سندا يبنون عليه قاعدة، تهدم البناء اللغوي السليم، وتنتهي باللغة العربية إلى فوضى تجعل منها ثوبا «ضم سبعين رقعة، مشكلة الألوان مختلفات» كما يقول شاعر النيل، حافظ إبراهيم. ■

من تجربتي في

الصحافة الأدبية





وديع فلسطين



أحمد حسن الزيات



محمد عبد القادر المازني

بقلم
وديــع فلسطيــن

لعل القارئ يلتمس لي عذرا إذا ما رآني أدير الحديث حول الذات، فكيف أتحدث عن «تجربتي» دون أن أكون محور الحديث، ولو في بعض جوانبه، وإنما أسوق طرفا مما صادفته أو عانيته في الإطلال من كوة الصحافة على الأدب وعالمه.

عندما كنت أدرس الصحافة طالبا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، اختارتني إدارة الجامعة لكي أتولى رئاسة تحرير مجلة الطلاب الأسبوعية واسمها «القافلة» وهي مازالت تصدر حتى الآن بقسميها العربي والانجليزي كما كان شأنها منذ صدورها، وكان علي بوصفي المسئول الأول عن تحرير القسم العربي في المجلة أن أكتب مقالا بتوقيعي في كل عدد أتناول فيه أي قضية تخطر على البال ولاسيما مايتعلق منها بالحياة الجامعية أو بأمنيات الطلاب في تلك الفترة وطبيعي أن أسلوبي في ذلك الوقت كان أسلوبا عاديا يكتبه طالب لقراء من الطلاب.

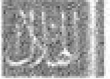
وفوجئت ذات يوم باستدعائي من قبل أستاذي فؤاد صروف، الذي كان يرأس وقتها تحرير مجلة «المقتطف» إلى جانب عمله في الجامعة، وقال لي إنه يتابع ما أكتب في «القافلة» ولكن على أن أهتم بأسلوبي حتى لايظل أسلوبا دارجا مثل مراسلات الدواوين أو حتى أسلوب كتبة العرائض المحترفين، فقلت له إنني وإن آثرت اللغة الانجليزية إلا أن الذي حببني في اللغة العربية أستاذاي السباعي بيومي والسيد شحاتة، فقال: إن الدراسة المعهدية وحدها لاتكفي لتجويد الكتابة، ونصحني بأن أطالع بعناية المقالات التي تنشر في مجلات أدبية وعلمية محترمة مثل «المقتطف» و«الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات و«مجلة التربية الحديثة» التي كان يحررها الدكتور أمير بقطر وتصدر عن الجامعة، فقلت له إنني أدرس الصحافة وآمل أن أعمل بها بعد تخرجي، وليس من مطامعي أن أحشر بين الأدباء، ولكنه قال لي إن أكبر الصحفيين والذين ينشرون في الصحف هم الذين يتميزون بأسلوب أدبي راق، فكليات الآداب قد تخرج مدرسين ولكنها لاتخرج أدباء. واستشهد بطائفة كبيرة من كتاب ذلك العهد قائلا إنهم ما احتلوا هذه المنزلة الرفيعة إلا بسبب أسلوبهم المشرق، ومنهم طه حسين والعقاد والمازني وهيكل باشا وتوفيق دياب ولطفي السيد وأنطون الجميل وخليل ثابت وعبدالقادر حمزة ومحمد زكي عبدالقادر وأحمد الصاوي محمد وغيرهم.

وعملا بنصيحة أستاذي فؤاد صروف، اجتهدت في متابعة هذه الكتابات في الحدود التي سمحت بها ظروفي كطالب جامعي مضطر إلى التوفر على دروسه توفراً تاما فهي التي يحاسب عليها حسابا عسيرا من أساتذته، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان!.

وبعد تخرجي في عام ١٩٤٢ - وأنا اليوم أقدم خريجي هذه الجامعة وأقدم أساتذتها ـ حاولت اقتحام عرين المجلات الأدبية، محاولا قدر الإمكان صقل أسلوبي، فبعثت بمقال عنوانه «الأديب من أين يبدأ؟» إلى مجلة «الثقافة العربية» التي كانت تصدر في سوريا، وفوجئت بعد نشره بمقال للأديب محمد فهمي عبداللطيف نشره بتوقيع «الجاحظ» في مجلة «الصباح» لصاحبها محمد مصطفى القشاشي هاجمني فيه هجوما شرسا لأنني جاهل في اللغة العربية، وعنوان المقال يشهد على هذا الجهل المطبق لأنه عنوان «خواجاتي»، أما الصياغة العربية السليمة فهي «من أين يبدأ الأديب؟» وليس «الأديب من أين يبدأ؟». وأقول بين عضادتين إنني صرت بعد ذلك صديقا لمحمد فهمي عبداللطيف، بل إن آخر يوميات له نشرها في «الأخبار» كانت تتناول بحفاوة كبيرة كتابا لي عن الشاعر إبراهيم ناجي، وتوفي بعد نشر هذه اليوميات.

شرف لم أحلم به!

وفي محاولاتي الأولى، ترجمت أقصوصة عنوانها «كف القرد» وبعثت بها إلى مجلة «المقتطف» التي نشرتها في عدد صادر في عام ١٩٤٣ وكان من عادة المجلة أن تنشر إعلانا تنوه فيه بالموضوعات المنشورة في العدد الجديد، وألفيت اسمي منشورا إلى جانب بعض باشوات ذلك الزمان، وهو شرف لم أحلم به في تلك السن المبكرة، ثم جربت حظي مع مجلة «الرسالة» فبعثت إليها بالبريد بمقال مترجم عن الكاتب المسرحي هنريك إبسن فنشرته في عددها الصادر في سبتمبر ١٩٤٣،



وكنت أفضل دائما أن أبعث بمقالاتي بالبريد لاعتبارين: أولهما أنني كنت مازلت حديث السن وخشيت أن تهمل تلك المقالات لأن كاتبها شاب في أول الطريق، وثانيهما لأنني أردت أن أحتكم إلي رأى محرر المجلة، فإن رأى المقال صالحا للنشر قام بنشره بغض النظر عن كاتبه، ومجرد النشر كان تزكية اعتززت بها أكبر اعتزاز.

كنا في ذلك الوقت نمارس الكتابة الأدبية باعتبارها عملا إضافيا إلي جانب العمل الصحفي الأساسي، ولم نكن نطلب عن ذلك أجرا ولا كان أصحاب المجلات يقررون لنا مكافآت عما نكتب، كان جزاؤنا الأكبر هو نيل شيء من الشهرة، والاستفادة من التصويبات التي كان المحررون يجرونها على مقالاتنا، واعتبار النشر في حد ذاته شهادة بأن المقال جدير بالذيوع، ومع أنني نشرت في مجلات أدبية كثيرة في الداخل والخارج، إلا أن المجلات التي خصصتها بالكتابة الدورية هي «المقتطف» و«الرسالة» و«منبر الشرق» لصاحبها على الغاياتي في مصر ومجلة «الأديب» في لبنان لصاحبها ألبير أديب، فالأولى كتبت فيها على مدار عشر سنوات، والثانية نشرت فيها مقالات متباعدة على مدى خمس عشرة سنة والثالثة على مدى أربعة عشر عاما والأخيرة على مدى أربعين عاما، ولم أتقاض مليما واحدا عن كل هذا الجهد.

عودة الرسالة من جديد

وكان الزيات قد عطل مجلة «الرسالة» في عام ١٩٥٢ كاحتجاج صامت على الظروف غير المواتية التي حلت بالمجلة، إذ قطعت عنها اشتراكات وزارة المعارف، وتفاقمت مطالبات الضرائب، وانخفض التوزيع انخفاضا حادا بعد ضياع فلسطين في عام ١٩٤٨ لأن المجلة كانت منتشرة فيها انتشارا واسعا، فأغلق الزيات المجلة وباع مطبعتها إلي الأديب عمر الدسوقي.

وعندما ارتأت وزارة الثقافة في عام ١٩٦٣ إعادة إصدار «الرسالة» باعتبارها من أنشطة الوزارة، هاتفني الزيات قائلا إنه يريد الاستعانة بكتاب الرسالة القدامى في عهدها الجديد، ودعاني إلي الكتابة فيها، كما دعا أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي وصديقنا محمد عبدالله السمان، وقال إنه إذا كان ضن علينا بأي مكافأة في الماضي، فإن الوزارة كفيلة بدفع مكافآت للكتاب في العهد الجديد للرسالة، الذي لم يزد على عامين اثنين، ولم يفكر الزيات في الاستعانة لا بأنور المعداوي ولا بعباس خضر مع أنهما كانا يتمترسان في المجلة وكان لكل منهما مقال في كل عدد، وكانا عند إصدار المجلة في عهدها الجديد مازالا على قيد الحياة، فالمعداوي توفي في عام ١٩٦٥ وعباس خضر في عام ١٩٨٧، ولعل الزيات كان قد ضاق بهما.

وعندما اضطرتني ظروف الإزاحة من العمل الصحفي في مصر إلي قبول العمل في مكتب شركة أرامكو في القاهرة، أصبحت مجلة «قافلة الزيت» الشهرية من جملة اختصاصاتي، وكانت المجلة وقتها مجرد نشرة تعني بموضوعات تتعلق بأنشطة الشركة في السعودية وموظفيها وعمالها، ومباريات كرة القدم وأخبار الزواج والمواليد الخاصة بالموظفين وما إلي ذلك، فاقترحت على أسرة تحرير المجلة أن تحولها إلي مجلة ثقافية تحمل إلي أولئك الموظفين مادة تفيدهم في توسيع آفاقهم، وبعد تردد وافقت أسرة التحرير على اقتراحي الذي أكدت فيه أنني سأستكتب

كبار الكتاب، ولابد بالتالي من دفع مكافآت سخية لهم كي يقبلوا التعاون مع المجلة وبمجرد الموافقة على اقتراحي، اتصلت بالعقاد الذي رحب على الفور بدعوتي، ودفعنا له أكبر مكافأة وقتها وهي خمسون جنيها في حين كانت المكافآت المرصودة للكتاب في بعض المجلات لاتزيد على خمسة جنيهات، ووسعت دائرة الاستكتاب فشملت الأمير مصطفى الشهابي والدكتور محمد مندور وعزيز أباظة باشا ومحمود تيمور بك والدكتور منصور فهمي باشا وأحمد حسن الزيات وإسماعيل مظهر وشيخ الأزهر عبدالرحمن تاج وعبدالرحمن صدقي والشيخ أحمد الشرباصي ومحمد عبدالله عنان وغيرهم، وكنت بدوري أكتب فيها ولكن متطوعا على اعتبار أنني موظف في مكتب الشركة في القاهرة.

ويبدو أن إقرار مبدأ منح الكتاب مكافآت سخية - ولعلي المسئول عنه - قد فتح الباب على مصراعيه أمام حتى ناشئة الأدب، بل لصوص الأدب، فصاروا يغرقون المجلات العربية بمقالاتهم طمعا في مكافآتها التي لاتفرق بين كاتب كبير وكاتب ناشيء، ولاسيما لأن المسئولين عن هذه المجلات هم أصلا موظفون حل عليهم الدور في الترقية فقيل لهم: كونوا رؤساء تحرير، فكانوا، مع أنه ليس لهم سابق معارسة للكتابة الأدبية، بل ليست لهم دراية بأقدار الكتاب، فصندوق بريد المجلة يكتظ يوميا بالمقالات والقصائد والأقاصيص التي يبعث بها كل من يتوهم في نفسه بأنه أديب، وما على المسئولين إلا انتقاء مايروق لهم من المقالات وهي في كثير من الحالات مقالات لمن لم تسمع بأسمائهم من قبل تتصدر فهارس المجلات، وجدت غير مرة بعد دفع المكافأة المرصودة أن تبين للمسئولين أن الكاتب قد سرق مقالا لكاتب كبير لعله مازال على قيد الحياة!.

السرقات الأدبية

وعندما صدر معجم البابطين للشعراء في طبعته الأولى، تبين أن «شاعرة» من الاسكندرية انتحلت لها قصائد من شاعر معاصر، فنشرت في المعجم منسوبة إليها، فكانت فضيحة لا «للشاعرة» وحدها بل لمن أشرفوا على المعجم «الموثق» لعجزهم عن اكتشاف هذه السرقة العلنية قبل اندساسها في المعجم.

كتبت مرة مقالا في مجلة «صوت البحرين» التي كان يصدرها الأحرار والمجاهدون في البحرين، واخترت لها عنوانا هو «الاستعمار وهل يمكن أن يكون ثقافيا؟» رددت فيه على الأديبة اللبنانية روز غريب التي تطيرت من فتح مكتبة أمريكية في زحلة وطالبت بإغلاقها. وقلت في مقالي ما مؤداه أهلا بالمكتبات من جميع الأنواع تفتح في جميع المدن العربية، فما أحوجنا إلى الاعتراف من جميع ألوان الثقافة، وقلت إننا لانعتبر شكسبير أو برنارد شو أديبين استعماريين بسبب جنسيتهما الانجليزية، وإنما نعتبرهما أديبين إنسانيين نستمتع بأدبهما ونعده من تراثنا الفكري، ولم يكد المقال ينشر، حتى توالت المقالات في تسفيه آرائي بإمضاءات مثل «فتى الصحراء» و«ابن الهيجاء» واستمرت المجلة تنشر هذه المقالات على مدى سنة كاملة، ولم يقف إلى جواري في هذه الحملة إلا أستاذنا الأزهري الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي.

رسالة شكر

وبعد احتجاب جميع المجلات الأدبية غير الحكومية في عامي ١٩٥٢ و١٩٥٣، ومنها «الرسالة» و«الثقافة» و«الكاتب

المصري» و«الكاتب» و«مجلة علم النفس» ومن قبلها جميعا مجلة «المقتطف» التي عاشت ٧٧ عاما، فكر فتحي رضوان عند اختياره وزيراً للإرشاد القومي في إصدار مجلة «المجلة» بشرط عدم الإشارة إلى أنها من مطبوعات وزارته، واختار الدكتور محمد عوض محمد أول رئيس لتحريرها، والشاعر حسن كامل الصيرفي سكرتيرا لتحريرها، ومع أن الوزير أراد أن يوهم القراء بأن هذه المجلة ليست حكومية مائة في المائة، فقد أقام حفلا كبيرا - شهدته - في القاعة الذهبية في قصر الأمير محمد علي بالمنيل إيذانا بصدور المجلة، وكنت قد قررت ألا أكتب في المجلات الحكومية لاعتقادي بأنها مجلات «موجهة» لايملك الكاتب فيها حريته الكاملة، ولكن اتفق مع صدور هذه المجلة أن أغلقت قناة السويس بسبب العدوان الثلاثي، فاقترح علي الدكتور محمد عوض محمد أن أكتب للمجلة موضوعا عن أثر إغلاق القناة في مرور البترول العربي إلى أوربا وأمريكا، واستجبت لرغبته متبرعا بكتابة هذا المقال الذي نشره في العدد الثاني من المجلة تاليا لمقاله مباشرة، ومازلت أحتفظ برسالة شكر من الدكتور محمد عوض محمد لأنني اعتذرت من عدم قبول أي مكافأة. وكانت لي بالدكتور عوض علاقة كريمة بدأت منذ عهد التلمذة الجامعية عندما اعتمدت على كتابه «سكان هذا الكوكب» في رسالتي الجامعية التي كان موضوعها «كيف تعالج مصر مشكلة الاكتظاظ بالسكان» وكانت طبعا باللغة الانجليزية.

وعندما اختير الدكتور حسين فوزي رئيسا لتحرير «المجلة» هاتفني صديقي الشاعر حسن كامل الصيرفي راجيا أن أكتب مقالا عن سلامة موسى بمناسبة وفاته، قائلا إن هذه هي رغبة الدكتور فوزي - ولم أكن أعرفه، ولبيت دعوته حتى يظهر المقال في الشهر التالي للوفاة مباشرة، ولم يكد المقال يظهر حتى انبرى له «المشاكس» حبيب الزحلاوي، فكتب تعليقا ناقما لم يكتف فيه بالهجوم على سلامة موسى وعلى كاتب المقال، وإنما أصابت سهامه آخرين منهم الدكتور أمير بقطر وكمال الملاخ، ولما تلقى الدكتور حسين فوزي مقالة الزحلاوي قال للصيرفي: هؤلاء الشوام لابد أن يتعاركوا، فقد كان يحسبني شاميا، ولكن الصيرفي أكد له أنني من قرارة الصعيد، ولما رفض الدكتور فوزي نشر هذا المقال، أدرجه الزحلاوي في كتابه «شيوخ الأدب الحديث» الذي أوغل فيه في هجاء جميع كبار الأدباء ولم تسلم منه حتى جاذبية صدقي!.

مقال غاضب!

ثم أصدرت وزارة الثقافة مجلة «الثقافة» فرأس تحريرها في العام الأول جنرال الأدب يوسف السباعي، وتخلى عن الرياسة في العام التالي للدكتور عبدالعزيز الدسوقي، ولم أنشر في هذه المجلة حرفا واحدا اتساقا مع مذهبي وهو عدم التعامل مع النشرات الحكومية، ومع ذلك لم أسلم من مقال غاضب نشره عني الدكتور الدسوقي قال فيه إنني أحتاج إلى علاج نفسي!.

ولم أشأ أن أرد عليه مادام قد ارتأى إحالتي إلى طبيب نفسي! ولكن صديقيه بادرا إلى إنصافي في المجلة نفسها، هما الناقد مصطفى عبداللطيف السحرتي والقاص محمود البدوي، ثم انضم إليهما الروائي والفنان التشكيلي أمين ريان، وتصافيت بعد ذلك مع الدسوقي عندما وجه

إلي رسالة اعتذار رقيقة.

كتاب لم يسمع به النقاد!

ولكتابي «قضايا الفكر في الأدب المعاصر» حكاية لابأس من أن أرويها. كنت أعرف الشاعر السعودي محمد حسن عواد، وكان يحرص على لقائي كلما حل في القاهرة، وذات يوم تلقيت منه رسالة يقول فيها إن ابن شقيقته محمد سعيد باعشن يعتزم إصدار جريدة أدبية أسبوعية عنوانها «الأضواء» ورجاني أن أشجعه في هذا المشروع، فلبيت دعوته متطوعا وكتبت سلسلة من المقالات الأدبية هي التي تألف من مجموعها هذا الكتاب، وعند صدوره، قام صديقي اللبناني فوزي عطوي بإعادة نشر جميع فصول الكتاب في حلقات متتابعة وبعناوين ضخمة في جريدة «بيروت المساء» لصاحبها الوزير الأسبق عبدالله المشنوق، ثم قام صديقي الشاعر اللبناني سليم مكرزل بإعادة نشر جميع هذه الفصول في مجلة كان يصدرها عنوانها «الغربال»، ثم قامت دار الجديد في بيروت بنشر الكتاب في طباعة أنيقة، ومع أن فصول الكتاب هي فصول في النقد، ومع أنني أهديت منه نحو ٤٠٠ نسخة، فإن نقاد هذا الزمان لم يسمعوا به!

وفي رحلتي مع الأدب لم أصطدم أبدا بالرقباء ولم يتعرض أي مقال لي للمنع أو الحذف، على النقيض من المقالات السياسية التي طالما عانت من سطوة الرقيب بل جهله في حالات كثيرة، وكنت في بعض الأحيان أتحايل على الرقيب السياسي متخذا من «باب الكتب» في الجريدة منفذا مأمونا، زارني في مكتبي بالجريدة ذات يوم نجل المجاهد الفلسطيني الكبير محمد على الطاهر، وأنهى إليّ أن البوليس هاجم بيته في الفجر وساقه إلى المعتقل، وطلب أن أنشر هذا الخبر في الجريدة، ولكن الرقيب بادر بحذفه، وعندئذ تحولت إلى «باب الكتب» في الجريدة وتناولت كتابا من مؤلفات أبي الحسن - وهذه هي كنيته - وقلت فيه «لو كان الأستاذ الطاهر كله ذنوب فحسبه هذا الكتاب شاهدا على صدق وطنية المجاهد الكريم وبلائه في مكافحة الاستعمار البريطاني وزميله الصهيوني»، وكان من عادة الرقيب أن يكتب عبارته التقليدية «لامانع من النشر» على مقالات «باب الكتب»، وهكذا أفلت كلامي من سيفه المصلت على الرقاب والضمائر.

شرف الكلمة

وقد عرفت معظم الذين تولوا رئاسة تحرير مجلة «الهلال» أو أشرفوا عليها ماعدا مؤسسها جرجي زيدان، فقد عرفت شكري زيدان بك والدكتور أحمد زكي بك وصالح جودت وكمال النجمي والدكتور حسين مؤنس وإبراهيم المصري وسلامة موسى وطاهر الطناحي، وعرفت رجاء النقاش في فترة لاحقة، فلم يدعني إلى الكتابة في المجلة إلا رئيس تحريرها الحالي مصطفى نبيل، ربما بإيعاز من الزميلة العزيزة صافي ناز كاظم.

وحرصت على مدى العمر أن أتفادى الخوض في المعارك الأدبية حتى لا أشغل القارئ بأمور قد لاتهمه، وعقمت قلمي من جميع الموضوعات الشائكة، وآمنت بشرف الكلمة منذ ما عاقرت فنون الكتابة، وهو ما كنت أحاول غرسه في طلابي، عندما كنت أشتغل بالتدريس الجامعي.

وبعد، أرجو ألا ينطبق عليّ قول القائل: مادح نفسه يقرئك السلام!. ■



مرايا

نجيب محفوظ

مرآة لأحزان الوطن

دنيا الموظفين .. انتهازية وبؤس .. وما خفى كان أعظم ..

بقلم
د. فهمى عبد السلام



من إدارة السكرتارية ينطلق بنا كاتبنا الكبير إلى دهاليز وزارة الأوقاف وحجراتها وأروقتها المظلمة ، ويزلف لنا من دهاقنة الوظيفة الميرى رواية عن دنيا الموظفين ، رواية صغرى داخل روايته الكبرى - المرايا - وهو الموظف العتيد الذى عاش عدة عقود فى دنيا الوظيفة الميرى . وسنبدأ بالقاع ، وقارئ المرايا سيتعرف بلا شك على نجم القاع الوظيفى فى وزارة الأوقاف ، صقر المنوفى فراش إدارة السكرتارية ، «الجاسوس بالسليقة ، ولحساب نفسه ولحساب الآخرين ، ويتطوع لإفشاء الأسرار ويهمس بها وهو يقدم قهوة الصباح» .

نحن إذن أمام شخصية «النمام» ، وهذا النموذج الإنساني المدهش سبق أن التفت إليه ديستويفسكي ورصده خلال تحفته البديعة «الأبله» ، وقارئ الأبله لابد أن يتذكر «ليبوتين» العجيب الذي كان يذرف الدموع حزنا إذا ما مر يوم لم يتصيد فيه فضيحة أو وشاية . وهذا السعي المحموم والبحث الدءوب عن عورات الناس وفضحهم سمة أساسية من سمات النمام ، وهذه الشخصية لا تظهر كما قال ديستويفسكي إلا خلال أزمنة التحولات الاجتماعية الكبرى وإبان الفترات الانتقالية ، والنمام شخص ذكي بلا جدال ، ولا يخلو من موهبة دون شك ، لكن أزمنة الاضطرابات أشبه بالطوفان الهائل الذي يكتسح الفقراء الأذكياء أصحاب المواهب، والنميمة عند هؤلاء أشبه بسلاح الانتقام، فإذا كانت الأقدار قد حكمت عليهم بالبقاء في القاع ومهانة القاع، فلا بد من الانتقام من المجتمع ومن الدنيا اللذين غلباه على أمره ، ولن يجد سوى النميمة ليطعن بها الجميع غدرا، كما غدر به الجميع ..

إذا ما تركنا نمام ديستويفسكي - ليبوتين - الذي يحتاج إلى دراسة وحده، سنرى كيف رصد كاتبنا نمامه صقر المنوفي ، الذي ليس نماما فحسب ، لكنه طفيلي أيضا ..

صقر المنوفي أشبه بقلم المباحث وحده ، فما من فرح أو مأتم إلا ولديه علم به ، فيحضر أول الليل مع العاملين ويعاون بكل همة، وفي نهاية الليل يحتل مكانه فيظفر بوليمة عشاء ، فما تمر ليلة إلا وهو في وليمة فأي «باشا» يدانيه في هذا الحظ الغذائي المنعدم النظير ؟

هذا الكلام عن صقر المنوفي - وهو نميمة في حد ذاته - لم يأت إلا من عباس فوزي وهو نمام كبير آخر ..

يحدثنا نجيب محفوظ عن نمامة خفيف الظل العجيب صقر المنوفي أن حياته - فيما عدا تلك الولائم الفاخرة - جرت كما تجرى حياة بقية الفقراء ، فهو يسكن في حجرة أرضية بعطفة دعبس في الحسينية ، ومتزوج وله ولدان وبنت أهمل تربيتهم كعادة الفقراء ، وأعد خطة للثراء بدأت إبان الحرب العالمية ، وانطلق من بيع حلل وحلي ذهبية ورثها عن أمه ، وتجمع لديه مبلغ راح يستثمره بإقراض الموظفين بربح فاحش ، منتهزا الغلاء الذي عم البلاد أثناء الحرب ، وهذا نشاط غريب بالنسبة إلي مسلم من الفقراء ، لكن صقر أقدم عليه وتمادى فيه ، واشتهر بين صغار الموظفين الفقراء وما أكثرهم ، فأقبلوا عليه ، وأصبح مصدرا لحركة سرية فتنامت نقوده وتراكمت .

واستمر صقر في تنفيذ خطة الإثراء بصبر ودأب وخلال ربع قرن اشترى بيتا صغيرا ، وحتى بعد أن تحسنت حالته المالية لم يغير من مظهره أو في سلوكه شيئا ، فظل في وظيفته الحقيرة يقوم على خدمة موظفين يعتبر سيدا لهم من الناحية الاقتصادية ، ويسعى إلى الولائم والموائد للاستمتاع بالولائم المجانية ، وظل يتشمم الأخبار والفضائح ليفشي الأسرار والسقطات ويعرى العورات ويهمس بها وهو يقدم قهوة الصباح .

فتحي أنيس

وأعجوبة نجيب محفوظ الثانية من أهل القاع الوظيفي هو فتحي أنيس ، طويل رشيق عظيم القسمات إذا رأيته حسبته موظفا كبيرا أو سليلا لأسرة عريقة ، لكنه لم يكن سوي كاتب قيد بالابتدائية ، ومرتبه ثمانية جنيهات يعول بها زوجته وخمسة أطفال وأما وشقيقتين مطلقتين ، ولم يكن أمام فتحي أنيس إلا أن يتسول أحيانا فيقول لزملائه في بساطة :

- من يعطني ثمن سندوتش فول وله

الجزاء الأوفى في يوم القيامة .

وكان اللاذع عباس فوزى يقول عنه:

- أنظر إلى عبث الطبيعة .. جادت عليه بمظهر يليق بموظف استقبال فى الخارجية ، لكنها ضنت عليه بما ينفق أو ما ينفع الناس .

أو يقول عنه :

- إنه حى لا يرزق .

ويخبرنا نجيب محفوظ عن تحايل فتحى أنيس على جوعه الدائم مستغلا منظره ، فكان يتقدم إلى أسرة ما كخاطب لابنتهم ، فيقابل بالترحيب من ناحية المبدأ حتى يتم الاستعلام عنه ، وفى الفترة الموضوع فيها تحت الاختبار ، يزور الأسرة فيستقبله رب البيت ، ويتعمد البقاء حتى وقت الغداء أو العشاء ، ولما يدعى إلى المائدة يلبى وهو يقول :

- لا يأبى الكرامة إلا لئيم !

ثم يأكل فى وحشية كأنما يخزنه ليجتره بقية الأيام ، وتجئ الاستعلامات فى غير صالحه طبعا، فيعتذرون عن عدم قبوله ، فيذهب وقد فاز ببعض أكلات خيالية ، ويواصل غزواته فى أنحاء المدينة حتى تتسرب أخبارها إلى الموظفين الذين جعلوه نادرة تروى .

أما عبدة سليمان فيسجل لنا نجيب محفوظ أنها كانت أول موظفة تعين فى وزارة الأوقاف ، وهى سمراء بضة أقرب إلى الامتلاء خفيفة الروح ومتوسطة الجمال؛ وحاصلة على البكالوريا ، وتم تعيينها فى إدارة السكرتارية ، ويذكر لنا أن وجود موظفة بينهم كان حدثا كبيرا ، وأن إدارة السكرتارية شهدت اهتمام الموظفين بمظهرهم ، وسرعان ما يهمس صقر المنوفى فى أذن نجيب محفوظ «الراوى» قائلا ..

- صاحبتك من السيدة زينب !

- وماله ؟

- السيدة زينب مأهولة بالطلبة ولذلك الكثير من بناتها .... (ويشير بيده إشارة مثيرة) .. وها هو النمام صقر المنوفى يمارس هوايته ، وبعد فترة طويلة أصبحت عبدة سليمان عادة يومية لا تثير الاهتمام ولا تلفت الأنظار ، وصقر المنوفى مازال مصرا على ممارسة النميمة المجانية ، فيعود إلى الراوى ليقول له :

- لا تصدق أن فتاة «شريفة» تقبل بالعمل وسط الرجال .

يرد عليه نجيب محفوظ :

- لكنها مؤدبة حقا وتصد عنها جميع الطامعين دون استغلال للدعاية .

- سياسة حلوة .. حفاظا على كرامتها كموظفة وللإيقاع بالمغفل ابن الحلال .

والنمام يحزنه أن يرى رجلا فاضلا أو امرأة شريفة ، ويعد وجودهما إهانة شخصية له ، لكن للأسف كان سوء ظن صقر المنوفى بعبدة سليمان فى موضعه ، إذ لم يمر طويل زمن حتى كانت حكايتها على كل لسان ، وأصبحت سيرتها موضع نميمة الموظفين وحياتهم الفارغة التى تتعيش على الفضائح وسقطات الناس .

العادل

تبدأ الحكاية عندما لاحظ أهل إدارة السكرتارية أن محمد العادل ، يتحجج بزيارة صديق له فى الإدارة كى يحوم حول عبدة ، وكان محمد العادل على الرغم من تفاهة وظيفته وبدائية تعليمه شخصا شهيرا فى الوزارة ، فهو ابن شقيق محمد باشا العادل عميد الأسرة الكبيرة ، وزوج كريمته ، والباشا ووكيل الوزارة تربطهما صداقة قوية ، وبرغم ضآلة مرتب محمد العادل كان يرتدى أفخم البدل وينفق عن سعة من نقود زوجته، ومن ناحية المظهر فكان جميلا له مظهر الذوات واعتدادهم بأنفسهم ، وقوبلت زيارات محمد العادل للإدارة بالاستهجان ، وأبدى عباس فوزى رئيس الإدارة امتعاضا

صامتا خوفا من نفوذ محمد العادل ، أما الراوى - نجيب محفوظ - وهو المسالم الدمث فلم يتحرك ، إلا أن عبدالرحمن شعبان مترجم الوزارة نارى الطباع قام وحمل محمد العادل من أعلى جاكتته وسار به إلى الباب قائلا:

- لو رأيت وجهك هنا سأكسر لك دماغك .

وسرعان ما مارس صقر المنوفى نشاطه أولا عندما قدم تقارير - وهو يقدم القهوة - أن محمد العادل يطارد عبده حتى مشارف السيدة وأنه يلح فى جنون على أن يتعرف عليها وأنها تصده ، وسرعان ما تقدمت عبده بطلب إجازة لمدة أسبوع ، فلم يهتم أحد من الإدارة ، إلا أن صقر المنوفى سرعان ما جاء بالخبر والغمز أن محمد العادل طلب إجازة لمدة أسبوع هو الآخر .

تعود عبدة سليمان من الإجازة وقد فقدت من روحها شيئا ثمينا لا يمكن تعويضه ، عاكفة على العمل وهى حزينة واجمة كأنها راجعة من قرافة ، وما أن يسألها عبدالرحمن شعبان «مالك يا آنسة» حتى تنهمر دموعها وتحكى لهم أنها تزوجت من محمد العادل ، الذى اقنعها بالزواج السرى حتى لا تعلم زوجته أو عمه الباشا ، وأنها قبلت وسافرا إلى الإسكندرية ومكثا أسبوعاً هناك ، وأنه فى نهاية الاسبوع قال لها إن استمرار زواجهما فيه تهديد لحياته كلها ، وأنه طلقها بالأمس فقط ، وهمس صقر المنوفى فى أذن الراوى قائلاً .

- إنها طريقة جديدة للعشق !

ونالت عبدة من اللوم قدر ما نالت من التعاطف ، وتطوع كثيرون لمساعدتها فى إجراءات القضية الشرعية ، ونما الخبر إلى الزوجة والباشا ، واستدعى وكيل الوزارة - بإيعاز من الباشا - عبدة فوبخها واتهمها بإغواء الولد الأرعن !! وطالبها بالتنازل عن القضية فى نظير أن يحفظ لها حقها ، لكنها صارحتهم بأنها حبلى وبذلك ازدادت الأمور تعقيداً

النحال !

ومن الزواج السرى ينقلنا الكاتب الكبير إلى الشذوذ الجنسى ، وكله فى وزارة الأوقاف . وبطل الشذوذ هنا هو شرارة النحال وقصة صعوده ، وهى دراما كما يقول أهل السينما تراجيكوميك ، كوميديا سوداء بها من الضحكات بقدر ما بها من الدموع .

كان شرارة النحال عامل تليفون فقيراً أقرب إلى السعادة ، فى الدرجة الثامنة فى العشرين من عمره ويعمل بابتدائية حديثة ، لكن شرارة كان يلفت إليه الأنظار «بجمال وجهه ورقة شمائله ورشاقة قده» ، وكان صقر المنوفى يعاتبه ممازحاً ويقول له .

- اخلع بدلتك والبس فستاناً وأنا أضمن لك عريساً خلال أربع وعشرين ساعة.

يبدأ الصعود حينما خلت درجة سابعة لوفاة شاغلها ، ويحدثنا نجيب محفوظ الموظف عن أحزانه الوظيفية لأن حملة المؤهلات العليا لم يكن يتم ترقيتهم حنقاً من الرؤساء أصحاب الابتدائية القديمة ، وأن الترقيات كانت تتم دون قواعد ، واشتعلت افئدة أهل الدرجة الثامنة للحصول على الترقية - والراوى كان منهم - فسعى كل واحد إلى أحد الكبراء ليشفع له ، وانهالت كروت التوصية على وكيل الوزارة ، وتمت ترقية أحد الموظفين ، وفجأة استبعد القرار بقرار جديد أثار دويا كبيرا فى دنيا الوزارة أن الذى ترقى كان شرارة النحال ، وأنه لم يترق فحسب إنما تم انتدابه للعمل فى مكتب وكيل الوزارة وهو مجد وظيفى كما تعلمون عظيم !

كيف تم ذلك ؟! العلم عند النمام الأعظم

صقر المنوفي الذي حكى الحكاية لنجيب محفوظ .. إن وكيل الوزارة كان قد قرر ترقية موظف آخر، وطلب شرارة مقابلة الوكيل ، وطردته السكرتارية شر طردة، وقبع شرارة في الممشى حتى إذا خرج سعادة الوكيل في وقت الانصراف رمى بنفسه بين يديه وقال بلهجة تمثيلية كأنه فاطمة رشدي، إنه مسئول عن أسرة كبيرة وإنه لا وساطة له إلا الله وسعادته ، وأن الوكيل نظر إليه بنظرة لا تخلو من ضيق وامتعاض ، إلا أن شيئاً في وجه شرارة جعله يعيد إليه النظر في اهتمام ، ولبث الوكيل ينظر إليه كأنما لا يريد أن يسترد بصره .

وسكت صقر المنوفي (عن الكلام المباح) وهو يبتسم في خبث ، فسأله نجيب محفوظ :

- أي شيء تقصد ؟!

فانسحب صقر من أمام المكتب وهو يقول :

- في العشق ياما كنت أنوح ..

الحقيقة أن ذلك الموقف الدرامي صاغه نجيب محفوظ بعبقرية واقتدار ، وهو درس للكتاب في معالجة مثل ذلك الموضوع الشائك - الشذوذ الجنسي - بأستاذية ، وفي «العشق ياما كنت أنوح» تصل الفكاهة الرائعة إلى أقصاها ، وليتخيل القارىء الكريم سعادة الوكيل وهو ينوح لأن غلامه قد هجره وبلا رحمة ، فقد جمع نجيب محفوظ خفة الظل المدهشة والقدرة الفائقة على التعبير و «المجون» وكل ذلك بلا كلمة نابية واحدة .

ونتابع مع أستاذنا الكبير قصة شرارة النحال ، الذي كانت انطلاقته من ضراعة أشبه بتضرعات فاطمة رشدي ، ليصعد بسرعة الصاروخ ويتحول خلال فترة وجيزة إلى أهم «رجل» في مكتب سعادة الوكيل ، ربما أهم من مدير المكتب نفسه . ليرتدي أفخر الثياب وتنهال عليه الهدايا أشكالاً وألواناً ، وتصبح الابتسامة التي يمنحها شرارة هدية يتفاخر بها المتلقي وهو يحمد الله المنان ، ثم تأتي مفاجأة أخرى أن يتولى الوزارة وزير من «أهل ذلك» لتتفجر أزمة لم ترد لأحد على خاطر!

الذي دبر «المؤامرة» كان موظفاً كبيراً وكانت تربطه خصومة بسعادة الوكيل ، وحدث الوزير الجديد عن سكرتير الوزير «الجميل» ، ودبر الموظف الكبير لقاء بين شرارة والوزير لعرض بعض الأوراق التي طلب الوزير الاطلاع عليها ، وقيل إن الوزير اقتنع «بكفاءة» شرارة «من النظرة الأولى»، وأن الوزير طلب نقل شرارة إلى مكتبه، ورحب شرارة ترحيب شاب لا حدود لطموحه، وأبلغ الوزير سعادة الوكيل برغبته في نقل شرارة إلى مكتبه، فثار الوكيل وصارح مبلغه أنه «لا يستغنى عنه» .

غضب الوزير وأصدر قرارا بنقل شرارة إلى مكتبه فما كان من الوكيل إلا أن اعتزل في قصره، وكان الوكيل والوزير ينتميان إلى حزب واحد، وقيل إن رئيس الحزب وبخ الرجلين كي لا يتسرب خلافهما «الأيديولوجي المبدئي» إلى صحافة الوفد، فعاد سعادة الوكيل إلى العمل كاظما غيظه وهو في وضع النائح عشقا على خطف غلامه الجميل.

المؤذن!

ومن شرارة النحال الصاعد كالصاروخ إلى صاروخ صاعد آخر في سماء وزارة الأوقاف يقدمه لنا نجيب محفوظ في بورتيريهاته الرائعة، إنه عدلي المؤذن الذي يرتبط بصداقة سطحية مع الراوي منذ أيام كلية الاداب، إذ كان عدلي يعمل موظفا في إدارة الجامعة وحصل على الليسانس وهو يعمل، وقفز قفزة صغيرة عندما اعتمد عليه دكتور انتهازي في الجامعة كموظف، وأوصى الدكتور ابراهيم عقل بـ «عدلي» عند

وزير الأوقاف، وشغل منصبا كبيرا «رئيس المكتب الاستشاري»، وأثبت عدلي طاقة خارقة، واتصل بحكم عمله بجميع فروع الوزارة، واحتفظ لشخصيته بالاحترام «مع عدم الحيد إلى ما يمس الكرامة إلا عند الضرورة القصوى فرفع الانتهازية إلى أرفع مراتبها».

لم يعرف عن عدلي أنه صنع خيرا في حياته! ولم يتورع عن إيذاء شخص طالما وسعه الإيذاء، وكان يجد سعادة في الشر والتحدي والإيقاع بالخصوم بل وبالأصدقاء ولم يكن يهمه أن يكون محبوبا وخيل إلى الراوي أنه يعمل بشغف أن يكون موضع النقمة والبغض والحسد، وكرهه الموظفون كإبليس وتهامسوا بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته التي لم تتزوج، ومنهم من فسر عزوبية عدلي بشذوذ جنسي يخفيه بصرامته وعنجهيته وظل يصعد ويصعد حتى أصبح مديرا عاما قبل ثورة يوليو.

... لم يتورع عدلي عن إيذاء نجيب محفوظ رغم زمالتهما القديمة وصلتهما العلمية في قسم الفلسفة، كانا وهما موظفان يلتقيان في سليمان باشا، ويسيران كزملاء رغم فارق الدرجة، ويتناولان إفطارهما في الأمريكين، ثم يمضيان في طريق الوزارة معلقين على الأحداث والمارة والأشياء. «كان يبدو في تلك الفترة ودودا لطيفا ضاحكا محبا للمزاح ويحكي النكت عن الملك وعن الساسة والحاشية، أو يدعوني إلى زيارة مسكنه الجديد في المعادي، ثم قد يستدعيني بعد ذلك بربع ساعة فيطالعني بوجه جديد، وجه صارم بارد، يأمر ويكلف وينذر بلا رحمة وبلا ذوق وأغادره وأنا أضرب كفا على كف، ومرة فضفضت بما في نفسي فبحت بما يكربني للأستاذ عباس فوزي فقال لي:

- عنده انقسام شخصية ابن القديمة، نحن موعودون في هذه الوزارة بكافة أنواع الشذوذ.

ورشحت لجنة شئون الموظفين الراوي - نجيب محفوظ - لدرجة خالية، وذلك بعد مقارنات طويلة بينه وبين منافسه الذي كان كاتبا بالسجلات، ورفعت اللجنة قرارها فوقعه الوزير، وغادر الراوي الوزارة مترقيا متلقيا التهاني، ولما رجع إلى الوزارة صباحا فوجئ بإلغاء القرار وترقية المنافس بدلا منه، وكاد الراوي أن يفقد عقله على حد تعبيره، وبالبحث علم أن موظفا كبيرا بالديوان الملكي اتصل بالأستاذ عدلي المؤذن موصيا بالمنافس فما كان من عدلي إلا أن سارع بمقابلة الوزير وأخبره بالتوصية، وفي الحال تمزق قرار ترقية الراوي وتحرر قرار جديد بالترقية الجديدة وذهب الراوي إلى عدلي - الزميل القديم ورفيق سليمان باشا والأمريكين منفعلا وناقشه فيما سمع من أنباء، لكنه ظل طيلة الوقت صامتا باردا حتى «تعبت وبخت» ثم قال في هدوء:

- أعدوا بيانا بالميزانية الجديدة للنشر في الصحف.

وخرج نجيب محفوظ الصابر كشعب مصر على الظلم وقد صمم أن هذا فراق بينه وبين عدلي المؤذن، واستفسر عن «صلة المنافس وهو على قد حاله مثلنا» بالسراي فقيل له:

- صلي وسلم على سيدنا لوط.

حرب فلسطين!

... راح نجيب محفوظ يتابع شخصياته الدرامية رفاق رحلة الوظيفة، ونبدأ بعبدة سليمان ومحمد العادل، على الرغم من الطلاق، إلا أنهما لم يشبعا من بعضهما، فاستمرت علاقتهما وبدون زواج هذه المرة وفي تكتم شديد حتى عن عيون صقر المنوفي التي لا تنام، حتى استدعى الوكيل ذات يوم عبدة ومحمد وهددهما بالنقل إلى

الأقاليم إذا لم يقطعا علاقتهما الآثمة، وحدث هذا بحضور الباشا نفسه، والتقطت آذان السعاة الحوار الغاضب، فأذاعه صقر المنوفي بطريقته السادية، ونقل محمد العادل إلى وزارة الزراعة، وتزوجت عبدة سليمان من مقاول قبل أن يربي ابنتها على شرط أن تقدم استقالتها، ففعلت، وكان هذا على عهد حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وانقطعت أخبارهما عن الراوى حتى رآها صدفة بعد عشرين عاما في ميدان التحرير، وكانت بدينة جدا وفي الخمسين، وأخبرته أن زوجها المقاول مات منذ عامين فقط، وأنها رزقت منه بثلاثة ذكور في كليات الطب والصيدلة والزراعة وأن ابنتها تزوجت من ضابط.

أما مصير محمد العادلي فكان رهيبا، إذ قامت الثورة وطبقت قوانين الإصلاح الزراعي، بعدها بعام واحد مات الباشا، ولم يتبق لابنته إلا ما تستطيع أن تربي به أولادها، فامتنعت عن إعطاء زوجها أي نقود، فلم يستطع ممارسة الحياة على المستوى الذي اعتاده، فاختلس وفصل من عمله وهو يعيش الآن كالمتشردين، واضطر إلى العمل في الإسكندرية منادي سيارات!

أما فتحي أنيس «الحي الذي لا يرزق» على حد تعبير عباس فوزي، فقد جاء صقر المنوفي ليقول للراوي ذات صباح:

- أخيرا وفق ابن الشحاذة!

- من؟

- فتحي أنيس

وبقية «النميمة» أن فتحي أنيس تزوج من أرملة غنية جدا في الستين من عمرها، وقيل إنه تزوج بموافقة زوجته الأولى إيثارا لسعادة الأولاد على سعادتها، وصح الخبر - كما تصح أخبار صقر المنوفي - إذ ظهرت آثار النعمة على فتحي أنيس في ملبسه وصحته ورونقه، ورغم كل شئ أثار حسد الكثيرين، وكان عباس فوزي يتهكم عليه وسأله ذات مرة:

- كيف تطاوعك نفسك على معاشرة مومياء؟

فيجيبه فتحي أنيس في بساطة وصراحة:

- عندما يملأ الإنسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من اللحوم وخمس كؤوس من الويسكي فإنه يستطيع معاشرة عزرائيل نفسه!

وعقب حرب ٤٨ ماتت الأرملة مخلفة عليه ثروة طائلة ولم يفلح في إخفاء فرحته حتى في الأيام الأولى للحدث، واستقال من وظيفته، وفكر في إنشاء عمل حر، حتى هداه تفكيره إلى فتح مقهى كبير في التوفيقية، وتحمل خسائر عام أو عامين حتى يتقن مهنته الجديدة ثم نجح المشروع نجاحا منقطع النظير.

أما عدلي المؤذن وشرارة النحال، وهما من الأقوياء المؤذين، فقد تنافسا منافسة رهيبة، وواصل كل منهما وصوليته المقيتة كل على طريقته، حتى قبيل الثورة كانا يتنافسان على منصب وكيل الوزارة، وقامت الثورة وقدم عدلي المؤذن شكايا كيدية للجنة التطهير، لكن لم يثبت شئ على شرارة وقامت الثورة بترقية شرارة الذي كان قد تزوج!!، وقيل إن ابنه الضابط شفع له عند القيادة، واعتبر عدلي المؤذن أن ترقية غريمه هي أكبر ضربة تلقاها في حياته، وسرعان ما وجد نفسه بين موظفين جدد لم يعرف لهم أصلا ولا فصلا، واختفى أغلب معاونيه في التطهير ورجع يخطب ود نجيب محفوظ كالسابق، وانظر يا عزيزي القارئ الكريم إلى شخصية كاتبنا الكبير المتسامحة الخيرة، إذ غفر لعدلي كل بشاعاته وقسوته ورجعا يتلاقيان في سليمان باشا إلا أن كاتبنا الكبير صاحب الحس الأخلاقي الرفيع، والذي يتعذب حينما يرى الناس أوغادا بلا خلاق، فيشعر بالغبطة لزوال

سلطان عدلى المؤذن الانتهازى الوضيع ويسجل:

«وشعرت لأول مرة فى حياتى بأن موجة العدالة تجتاح العفونة المتصلة بلا هوادة فتمنيت أن تواصل سيرها بلا تردد وبلا اعوجاج وفى نقاء وطهر إلى الأبد».

وحاول عدلى التسلل إلى القيادات الجديدة فلم يفلح، وما لبث أن أصيب بسرطان الدم فاعتكف فى بيته فترة ثم وافاه الأجل حوالى عام ١٩٥٥ وعندما مات يسجل كاتبنا الكبير.

«ولا أنسى ساعة انتشار خبر الوفاة فقد خرج الموظفون على تقاليدنا المرعية وسمعت العشرات وهم يقولون بأصوات شامتة.

- الله يجحمه

- فى ألف داهية

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها، شيعها عشرة أنفار؛ قريب واحد، وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة وعقب وفاته بيوم واحد انتحرت شقيقته العانس».

أما خصم عدلى المؤذن اللدود شرارة النحال الذى لم يعتمد على جماله وحده فقد حصل على الكفاءة والبكالوريا وليسانس الحقوق، وتزوج ورزق بولد وبنت، وقدم عام ٥٢ إلى لجنة التطهير فلم تثبت عليه شيئا، ورقى إلى وكيل وزارة، ثم عين رئيسا لمؤسسة عقب تطبيق الاشتراكية! وهو الذى ألف كتابا فى أفضال الأسرة العلوية ومكارمها، وآخر ما سمعه عنه نجيب محفوظ أن صديقا رآه فى مكة عام ١٩٧٠ وهو يؤدى فريضة الحج!

أما النمام الأعظم صقر المنوفى فقد أثرى من الربا الفاحش واشترى البيت الذى يسكنه، وهدمه، وأقام محله عمارة صغيرة من أربعة أدوار، ورغم ثرائه ظل طفيليا فى الولائم وفراشا يقدم القهوة ويشى بالأسرار والسقطات، وجاء العقاب الإلهى فى أولاده فالبنت هربت وهى فى سن المراهقة، والبكرى عمل صبى قصاب ومات فى مشاجرة، والأوسط عمل فراشا فى وحدة صحية واختفى عن أسرته، وحزن صقر حزنا عميقا واعتقد أن ما أصابه فى ابنه وفى ابنته لم يكن إلا انتقاما إلهيا لإثرائه بالربا الفاحش فكف عن الإقراض وحج إلى بيت الله، وحينما أذاع صقر سر عبدة سليمان وأنها أصبحت عشيقة العادل بطريقته السادية ذكره عبدالرحمن شعبان بأن له ابنة هربت ، فبكى صقر من التأثر وانكمش على نفسه وغادر الحجرة.

أما المفاجأة الكبرى أن صقر المنوفى تم القبض عليه عام ٥٢، أن ابنة الكواء جاءته بالبدلة وكان صقر وحده فى الغرفة فاعتدى عليها وهى قاصر وعام ١٩٦٠ كان الراوى فى الفيشاوى فرأى صقر المنوفى مقبلا عليه بعد خروجه من السجن بأشهر وكلما سأله الراوى عن حاله أجاب فى اقتضاب: الحمد لله.

وعلم الراوى بأن زوجة صقر ماتت وهو فى السجن وأنه يعيش وحيدا وراح الراوى يواسيه ويشجعه فقال صقر:

- أنا راضى بما حدث فهو جزاء حق، لكن لم لا يعامل الله سبحانه بالمثل أشخاصا مثل شرارة النحال أو عدلى المؤذن؟

وهكذا تسدل الأقدار ستائرها على شخصيات دنيا الموظفين، ونسمع خلالها هدير الحياة وتلاطماتها الهائلة، وتحية إلى أستاذنا القدير على تحفته الرائعة ودرته الجميلة. ■

عرائس من الجزائر

• تفاؤلاً بالبكرى معتقدات وطقوس الزواج
• وإيماناً بأساطير وتعاويذ السحر والحسد

أمانى عبدالحميد



عندما تقرأ هذا الكتاب تتأكد أن العروسة أو الدمية ليست مجرد لعبة يلهو بها الأطفال. إنما هى نتاج خصب ارتبط به أفق الإنسان. وهى الوسيلة الأسبق فى لجوئه إلى التجسيد أو المحاكاة. فمنذ القدم استعان البشر بالعروسة ليجسدوا الخالق لكى يستوعبوا قواه الخارقة ويمارسوا أمامها عقائدهم وإيمانهم. وظلت على مدى التاريخ تعنى الرمز الملموس لكل انفعالات الإنسان وخيالاته وعلاقاته بكل ما هو معنوى غير ملموس. تلك العلاقة الخفية والوطيدة بين الإنسان والدمية وذلك الإرث الضخم من الأساطير والقصص الخيالية والعادات والمعتقدات استطاعت زينب الميلى أن تسردها وترسمها وتجسدها من كتابها «عرائس من الجزائر».

زينب الميلي الصحفية الجزائرية استطاعت أن تنطلق في تجربتها الانسانية الأليمة إلى إبداع فني رفيع حيث قامت بتصميم عرائس بعدد المناطق الجزائرية وألبست كل واحدة زي منطقتها. حتى أصبح أمامها عدد من الدمى تحمل أثوابها وملامح وجوهها تاريخ وتراث تلك المناطق ومعالم شخصيتها وهويتها.

تقول زينب في كتابها «عرائس من الجزائر» انتمي إلى جيل بنات لا يعرفن العرائس الجاهزة ولا يقتنين الدمى المعروضة في واجهات المحلات. وكان الآباء يمنعون بناتهم من شراء الدمى الفرنسية خشية التغريب والتفرنس. لذا كانت الأمهات والجدات يقمن بعمل العرائس. «دُمانا كانت بدائية. عرائس تخاط من الكتان وتحشى إما بالصوف أو بنخالة القمح بعد الطحن أو بالنجارة الناعمة. عيونها وشفتاها وخصلات شعرها من الخيوط والقماش».

حكايات ذات دلالات

قدمت في كتابها سبعاً وأربعين عروسة مختلفة الأشكال والأزياء. من شمال وجنوب الجزائر ومن مرتفعاتها ووديانها وحتى من أعماق صحاريها. بعضها للبنات وأخرى دمى للبنين. كل عروسة تحمل ملامح بيئتها وتحمل معها أرثا كبيرا من الأساطير والحكايات التي تحوم حول اليوم المشهود لزفاف العريس بعروسه، فبرغم اختلاف البيئة والمكان إلا أننا نجد دائما الطقوس والعادات التي يجب احترامها. والإيمان بها واتباع مفرداتها المتمثلة في الزي أو الحلي أو حتى الحركة التي تصدر من العروس، حتى يتمتع الزوجان بحياة هنيئة تخلو من عيون الحسد وهادئة لا تؤذيها الأرواح الشريرة. معظم تلك العادات تختلف باختلاف المستوى الفكري والثقافي ويتفاوت المستوى المادي الذي ينعمْ به أهل المكان، لكنها جميعها مستوحاة من الجذور والمنابت العميقة، بعضها أسطوري خيالي يصل إلى حد الخرافة، وبعضها ديني يرتبط بطقوس العبادة، والآخر يتجلى في طقوس الزواج



«محمد» أو «حمه» أول من يختن في العائلة

والميلاد داخل الجزائر . على اعتبار أنها بلاد مترامية الأطراف ومتعددة البيئات. لذا تختلف تلك الطقوس والعادات من مكان لآخر. فثوب الزفاف له مواصفات ترتبط بالمعتقد السائد فى المنطقة. الحلى التى تتزين بها سواء من الفضة أو الذهب أو حتى من العاج والخرز كل قطعة لها دلالاتها. حتى الاسم الذى تحمله العروس يكون نابعاً من بيئتها. قد يكون متماشياً معها أو حتى متعارضاً تماماً كما سنرى. وبما أن المعتقدات والأساطير ترتبط بشكل كبير بحالة العجز الذى قد يشعر به الانسان أمام أية قوى قاهرة أو مظاهر لا يفهم أسبابها. لذا كان الإنسان يلجأ لأعمال السحر والتمائم أو الطلاسم، كلها تساعده على التخلص من موقف ما لا يقدر على مواجهته. أو حتى الشفاء من مرض ما أو أذى ما.

لذا اهتم الإنسان بصنع التمائم على شكل حليّ لتحميه وتبعد عنه الشياطين والأرواح الشريرة وعلى العروس ليلة عرسها أن ترتدى إحدى تلك الحليّ أو التمائم لتنعم بحياة تخلو من الأذى.

وهذا ما كشفت عنه زينب الميلى فى كتابها الذى يرصد أهم ملامح التفاؤل والتشاؤم عند الجزائريين والتى



«دوجة» عروسة من العاصمة ترتدى «الكراكو» الجاكيت القطيفة المطرز بالذهب وحليها ذو الطابع التركى



بداى «بدوى من الهوقار - الملثمين - يضع على صدره تعويذة بها ورقة كتبت عليها آيات قرآنية لجلب الخير وإبعاد الشر



« محبوبة» أي المفضلة لدى الجميع ، ترتدي الذهب ، وشعرها يظل منسدلا حتى اليوم الثالث من الزواج

تعود جذورها إلى تاريخ بعيد قد يرجع إلى ما قبل ظهور الأديان السماوية.

لكن البشر هناك قد يكونون غيروا في طريقة النظر إليها. بعد دخول الديانات. قاموا بتحويرها أو جعل بعضها لا يتعارض مع العقيدة الدينية.

وإن كان لا يختلف كثيراً عما ورثوه فى الماضى.

عرائس الأمل

كل عروسة عليها أن تحمل فى ثوبها وشكلها وحليّها إرثا كبيرا توارثته الأجيال المتعاقبة. فهى تحمل ملامح بيئتها. عروسة منطقة النماشة بالأوراس تحمل اسم «جغمومة» حيث إنها مناطق يشح فيها المطر وتقل فيها عيون الماء. لذا تحمل البنت اسم الإناء الذى يدلى إلى البئر ليحمل الماء أى جغمة الماء. أما ثوب زفافها فيتكون من أجزاء كثيرة وإن كان أهمها «الدباغة» الذى يمتص الدهن من رأسها، و«التلثيمة» التى تحميها من حبات الرمال، والجبين الذى ترتديه على رأسها، وعندما تضعه على صدرها فهذا يعنى أنها «تافيارت» أى بكر لم يسبق لها الزواج.

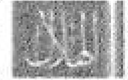
وتضع سلاسل تتكون من قطع نقدية فضية هى فى الأغلب مهر وصداق المرأة. وبها توضع صيغة فضة عبارة عن جعبة مستطيلة مجوفة تسمى «صيغة السر». ويرجع تاريخها إلى أن تلك المناطق لم يكن بها نفوذ سواء عثمانى أو فرنسى.

وكان الرجال يتزوجون أكثر من امرأة . وعندما يموت قد لاترث المرأة نصيبها فى إرث زوجها. لذا يحرص والد البنت على صناعة «صيغة السر» تلك ليضع داخلها عقد الزواج أو ما يقوم مقامه. ترتديها المرأة طيلة حياتها، حفاظاً على حقوقها الشرعية.

ترتدى البنت الملحفة وهى الزى الرئيسى للمرأة الريفية وبالصحارى الجزائرية . لونها يختلف باختلاف الموقع الجغرافى، ففى أعراش قبائل النماشة اللون الأحمر هو المفضل، ومن بعده الأصفر، وفى حالة الكبر يتحول اللون إلى لون باهت أو غامق. وفى مناطق أخرى تختار المرأة اللون السماوى أو الحبرى.

وإن كانت النساء يفضلن أن تكون الملحفة مزينة بحبات الرمان رمزا لكثرة الإنجاب. وبعد دخول الكهرباء أصبحت الملحفة يتم تطريزها برسم المصباح لتدل أن صاحبتها لبستها مثل دخول الضوء إلى بيتها.

أما «علجية» فاسم يطلقونه على السيبايا سواء من الذكور أو الإناث خاصة فى «واد سوف» بالقرب من تونس ومن تحمل هذا الاسم تحمله تبركا بأن تكون ذات جمال وحسن مزيج من الجمال العربى والغربى فهى سمراء تغطى رأسها بمنديل من الحرير وشعرها ضفائر منسدلة على كتفها طول الأيام السبعة للعرس ومن «واد سوف» نرى دمية لذكر يطلقون عليه اسم «محمد» وينادونه «حمه» للتدليل وهو الولد الأول الذى يختن فى العائلة يرتدى الطربوش



القانى الحمرة الصوفى والمطرز بالقيطان الأسود وعليه يضع بوكشاش أو الوزعة المصنوعة فى الفضة للتفاؤل ولرد العين والحسد ويرتدى قطعة فى الصوف الأبيض تكون لأحد المعمرين فى العائلة تبركا به حتى يعمر الولد كصاحبها.

خيط السروج

أما «خولة» فهى عروس من منطقة تلمسان تحمل سمات الجمال الجزائرى وشمال أفريقيا تميل إلى السمنة لأن بعض العائلات كان تطلب مهر البنت بما يعادل ميزانها من الشحم واللحم وهى



«غنيمة» اسمها يرجع إلى غنائم زمن الحرب ترتدى محرمة من الحرير الذى تشتهر به مدينة «تلمسان»

ترتدى كميات كبيرة من الذهب واللؤلؤ والجواهر والخواتم والخلخال الذى يشبه خلخال بنى مزاب ومصنوع من الذهب.

«أم هانى» عروس من منطقة شاويسة النمامشة شائعة فى المناطق البربرية حيث تعمل المرأة على حصد الزرع وتربية المواشى وصناعة الصوف وغزله أما الرجل فدوره ينحصر فى جز الخرفان وعمليات النسج للخيوط فقط. ومن الغريب أن تلك المناطق اشتهر فيها الرجل بضرب زوجته بعصاه على رأسها تأديبا لها لعنادها لذا ترتدى المرأة «الشمبير» وهو كم هائل من المحارم والأقمشة لتحمى رأسها من الضربات، وتتزين العروس هناك بالفضة ولا تلبس الذهب، حليها مطعم بالزجاج الأحمر لحب القبيلة لذلك اللون حتى سميت قبيلتهم بالعرش الأحمر.

«زمردة» اسم يطلق على البنت فى المناطق التى شهدت نزوحاً من الأندلس خاصة بعد سقوط غرناطة ترتدى جاكيت من القطيفة المطرزة بنوع من الخرز يسمى السمسم الأسود وتترك شعرها طويلا منسدلاً لأنه لم يعرف المقص تتزين بعقود مختلفة الأشكال والأطوال مصنوعة كلها من الذهب الخالص منها عقد يسمى «خيط الروح» لالتصاقة برقبتها وإن كانت تلبسه ليلة زفافها على رأسها موضع التاج.

ومن قسنطينة تحمل العروسة اسم «منوبة» يدللونها باسم «بوبة» تضع فوق رأسها نسيجاً حريرياً بخيوط مذهبة ويزينونه بقطعة من الذهب الصغيرة هرمية الشكل يسمونها «مخ الشاشية» والتي لاتلبسها تكون إما عجوز أو أنها من عائلة متواضعة جدا وهناك ما يسمونه بالمحبوب نظرا لأن المحب الراغب في الزواج يهديها لفتاته، قطعة أيام الخطبة والثانية في المناسبات أو الأعياد والثالثة عند الزواج، ويسمى بهارة الشاشية السلطاني اقتباساً من السلاطين الثلاثة للدولة العثمانية أورخان، حراد الأول وبايزيد. وترتدي العروس قندوره قطيفة مطرزه بالذهب لونها عنابي ومطرزه برسوم زهرة القرنفل والسوسن التي تشتهر بها الزخرفه الإسلامية، وفي المدن غير البحرية يطلق أهلها على عروسهم اسم «بحرية» تيمنا بالبحر خاصة من مدينة «تبسة» التي تحمل اسم جبال تبسة داخل تخوم الصحراء الجزائرية. وترى «زينب» في كتابها أن أهل المدن البحرية أكثر انفتاحاً خاصة فيما يتعلق بخروج المرأة، ويقول هناك أن المرأة لاتخرج الامرتين، الأولى عندما تغادر أهلها إلى بيت زوجها الثانية عندما تخرج منه إلى القبر، لذا كان البحر بالنسبة لأهل مدن الداخل محاطا بهالة من الأساطير فمن معتقداتهم أن الشخص المسحور يستطيع أن يتخلص من مفعول السحر إذا غطس في ماء البحر وشرب من أمواجة المالحة وإن هو أخذ منه كميات مياه وسكبها على عتبه منزله أبطل مفعول السحر نهائيا لذا ظلت عروس تبسة تحمل اسم البحر .

نزول السر

ومن قلب الصحراء أيضا عروسة تحمل اسم ابنه الناقة البيضاء المهارى وهو «مهرية» وذلك لشغف أهل بلدة نقرين بالنوق والمهارى حيث يتباركون عندما تكون المولودة ناصعة البياض لأن السمرة هي المنتشرة بينهم. تضع العروس على رأسها قطعة على شكل يد كتميمه لها مصنوعة من الفضة المزركشة وداخلها حجابا به أسماء الله الحسنى ليحميها من لسعات العقارب التي يكثر وجودها عندهم خاصة في فصل الصيف، وأقراطها تتشكل على هيئة حيوان خاصة الأسد وبها زخارف أفريقية وفي منطقة الحضنة أطلقوا على عروسهم السمراء اسم «قرمية» المأخوذ من اسم طائر القرمي الذي يتميز بجمال وكبر عيونه السوداء ترتدي ملحفة غريبة الصنع ونادرة فهي مصنوعة من الحرير الطبيعي الخالص عليها زخرفة إسلامية وتمسك بأكتافها خلالات في الفضة وفي يدها أساور كثيرة أما عروسة الهوقار يطلقون عليها اسم «فاطنة» ويقصدون بذلك الفطنه والذكاء

ترتدي عقود من الخرز والعاج الأفريقي ملونة إيمانا بانها تمائم تبعد عنها الشر ولسعات الأفاعي. فستاتها يكون دائما من اللون الغامق عليه رسومات تحمل صليب الصحراء وهو يختلف عن الصليب المسيحي .

ومن العادات الغريبة تلك التي يعتقد بها أهل مدن شرق الجزائر مثل سوق أهراس وبعض العائلات من عنابه وبنى حزاب الا يظهر من العروس ليلة عرسها شئ على الإطلاق حيث يتم تغطيتها من رأسها إلى أخمص قدمها لذا أطلقوا عليها اسم «المغبزة» فهي تجلس على فراش بالأرض ولاتترك مكانها طوال النهار حيث تعتقد النساء المسنات أن تغليف العروس يجعل خدودها تحمر وهذا يعني أن السر نزل عليها فالاحمرار جزء من الجمال، وعندما تصل العروس إلى منزل زوجها تعطيها حماتها بيض لتكسرهم على الباب قبل دخولها حتى تكون زوجة كثيرة الإفراخ مثل البيضة ومن نفس المعتقد يطلق أهل المناطق البربرية على عروسهم «الفروجة» أي الدجاجة الصغيرة وأحياناً الفلوسة أي الدجاجة ذات العرف الأحمر أو«النونابة» أي التي يكثر ريشها خاصة ذا اللون الأحمر .

الرجال الزرق

كما قدمت زينب الميلى في كتابها عدد من العرائس أو الدمى التي تمثل الذكور في مختلف بقاع الجزائر مثل عريس حمدان أو «البرنوس» حيث يرتدي برنوس مصنوع من صوف الغنم أو الخروف الأبيض، وأخر مصنوع من وبر الجمال يكون لونه أزرق وينتشر في مناطق غرب الجزائر ودمية أخرى تحمل اسم «عاشور» لكل صبي يولد ليله عاشوراء ويكون على والديه إلباسه الطربوش الصوفي المزين بالهلال والنجمة ويرتدي قميصاً من الحرير

«العارم» اسم مأخوذ من الطيور المهاجرة ، ويطلقه البعض على اليوم حتى يبعد التشاؤم ويصفون به جمال العيون وكبرها



الأبيض المقلم يسروالا عربيا يرجع طرازه إلى العهد العثماني. أما في قرية «العقلة» في منطقة النماشة فيطلقون على الولد اسم «بوتوته» وهو مستمد من شجرة التوت البرى فالمرأة التي يطول انتظارها للحمل أو لإنجاب الذكر تقوم بزيارة الولي الا سالح في بلدتها وتقدم لله الوعد أو النذر وإذا رزقت بالولد تصنع له قنوارة أو جبة في الصوف الناعم لتضعها فوق رأسه تقوم بحياكتها إحدى الجدات أو الأكبرهن عمراً تبركاً بأن يصل لعمرها. وفي صدره توضع رجل ضبي أو ضربا يكون قد اصطاده رجل



عريس قبيلة «صنهاجة» البربرية الذى يقيمون بالصحراء ويعرفون بالرجال «الزرق»

يحمل اسم محمد أو أحمد وإذا لم يصطده أحد يحمل هذا الاسم يتولى ذبح الضريان أحد يحمل الاسم وفي المناطق الناطقة باللغة البربرية يسمى الذكر باسم «بداى» يكون ملثم ويرتدى السبحة حول عنقه ولاتفارقه تماماً كأهل الهوقار. أما في الشرق فيطلقون على الذكر الذى يولد أيام القر الشديد أو البرد القارس المصحوب برياح وثلوج اسم «بوقرة». أما قبيلة «صنهاجة» البربرية فعريسها الملثم يطلقون عليه اسم «تاترى تانتوقا» أى النجم الذى يظهر مباشرة بعد غروب الشمس قبل ظهور كل النجوم، ومن عاداتهم ألا يسموا مولودهم الذكر قبل مرور سبعة أيام على ولادته خوفا من أن يحلى في عيون الموت فيخطفه، والغريب أن ابناء القبيلة الذين يسكنون الصحراء يطلقون عليهم اسم «الطوارق» وعلى رجالهم اسم الرجال الزرق والمرأة عندهم هى التى تملك حق طلاق الرجل لذا لايوجد عندهم تعدد الزوجات وعباءة العريس مصنوعة في خيوط الصوف الناعمة ويرتدى حزاما طويلا من جلد الجمل يكون مصبوغا بمواد مثل الأعشاب ومطليا بمادة الصلصال التي يقومون بتجهيزها بطريقة خاصة حيث يبول عليها البعير ويخلط بمخ الغزال وزهيم النعام وهو مادة دهنية اعتقاداً منهم بأن ذلك يحمى العريس من الإصابة بالعقم أو العجز

الجنسي وتبعد عنه الشياطين والأرواح الشرير .

الشمس والقمر

كما سرد الكتاب عددا من الحلى والأدوات والآنية التى ارتبط بها أساطير ومعتقدات آمن بها أهل الجزائر سواء فى البدو أو الحضر. مثل «الجبين» الذى ترتديه المرأة البدوية فوق رأسها بعد أن تلفها بعدد من الأغطية القطنية أو الحريرية. ويختلف الجبين فى مكان لآخر. فنساء النماشة يتشاءمن من الذهب ويطلقون عليه الشمس التى تقترن بالجفاف والقحط لذا يفضلن صنعه منه الفضة ويسمونه القمر لما يمثله من هدوء وبرودة النسيم، وهو حليه ترمز إلى حالة المرأة إذا كانت متزوجة أم لا. كذلك يسرد أساطير القميص المطرز بأشكال وزخارف إسلامية حيث تؤكد الحكايات ارتباط القميص «برداء المسيح» رغم أن العروس ترتديه ليلة عرسها داخل ثوب زفافها .

أما «الطاسة» التى تشبه القبعة الكاملة التطريز يستعملها أهل الحضر وتلبسها النساء الشابات أيام العيد، أما المسنات فلا يضعنها أبدا . وتتدلى من أحد جنباتها خيوط ذهبية ملوية وترمز إلى المرأة المسلمة. فلا ترتديها اليهودية على اعتبار أن الطاسة تشبه العمة التى يرتديها مشايخ المسلمين فى حين تلبس المرأة باختلاف ديانتها شاشية القرن أحد أهم قطع الزينة الضرورية والأغلى ثمنا .

والطريف أن للرجل أيضا لوازم زينة لكي ترمز إلى مكانته الاجتماعية والاقتصادية ومنزلته وقبيلته أو عشيرته مثل «إدرذام» وهى قطعة يحملها فارس الحضر و«الخرج» التى يحملها أهل البدو فى رحلاتهم.

وهما قطعتان معدتان لوضع البارود، وتكون مطرزة أو مصنوعة بالكامل من الفضة الخالصة. كما تستعمل كحافظة للنقود ولا يحملها إلا الثرى أو صاحب الجاه.

والكتاب ثرى بالتفاصيل الكثيرة التى تتناول أزياء أهل البدو والحضر وأهل السواحل والصحارى . ولا يسعنى استعراض كل ما جاء فيه لكننا كنا نأمل أن مجهودا مماثلا فى مصر . فتراثنا لا يخلو من تلك التفاصيل سواء التى تتعلق بالأزياء أو الحلى أو حتى طقوس الزواج وليلة العرس. فالمرأة فى مدن القنال ترتدى ثلاثة أثواب زفاف بثلاثة ألوان أبيض وبمبى وأزرق.. وفى واحة سيوة تبدأ بغزل ثوب زفاف البنت يوم ولدتها وفى سيناء ترحل الفتاة قبل عرسها إلى الجبل – رفيق دربها – لتودعه وتبيت بين دروبه ولا ترجع إلا ليلة زفافها. وبالتالى لدينا من الحكايات والمعتقدات التى تحتاج إلى التدوين برغم اندثار أغلبها. ■



القصة الحقيقية لخيانة

المطربة الصغيرة للشاعر كامل الشناوى

بقلم
يوسف الشريف

يكاد يجمع الذين عرفوا عن قرب الشاعر كامل الشناوى، أنه برغم القصائد الوطنية العديدة التى نظمها، إلا أنه يستحق عن جدارة لقب «شاعر الحب» الذى خلعه عليه عباس محمود العقاد، وذلك أن الحب كان دائما طعامه وهواءه ومحور حياته!

وهو عندما دعا الشعب فى قصيدته الوطنية إلى كراهية الإنجلير «تعلم كيف تكره»، فكأنما كان يحرض نفسه، ويحاول أن يجبرها على شىء لاتعرفه، فهو قد حاول طوال حياته أن يكره، ولم يس طع!

كان كامل يكتب فى كل أغراض الشعر، وصفا، ومديحا، وحماسا، ورثاء. لكن ظل الحب يستحوذ على غالب اهتماماته وإبداعاته الشعرية.

ولأنه لم يتزوج قط، كان شعره أداته، ووسيلته، وملهاته التى يستشرف عبرها الجمال ويتنفس بها الحب، فإذا لم يسعفه الوحى والخيال شعرا، استعاذ بلمحاته الشعرية المنثورة، وهى رسائل الحب التى كان يبثها إلى آخر معشوقاته، وكان يكتبها تحت عنوان «ساعات» فى صحيفة الجمهورية التى كان يرأس تحريرها، وفى قصاصات أوراقه التى صدرت بعد وفاته فى كتاب بعنوان «حبيبتى» وعلى مايبدو أن هذه الرسائل ظلت حبيسة مكتبه دون أن تطاوعه نفسه على نشرها فى حينها لأسباب خاصة مجهولة!.

يقول مصطفى أمين فى كامل الشناوى العاشق: «كان برغم بدانته سريع التنقل وخصوصا فى حبه وهواه، قلبه مثل برامج السينما التى تتغير كل أسبوع، وكل رواية تعرض على شاشة قلبه هى «آخر صيحة»، وهى «أقوى ما عرض حتى الآن»، فإذا انتهى عرض الفيلم، ارتدى الفيلم الجديد نفس الثوب، وتحلى بنفس الأوسمة والنياشين، وفى الفترة التى كان يحب فيها كامل الشناوى، يصف محبوبته بكل الأوصاف الحلوة والنعوت الضخمة، ثم ينسدل الستار عن المعشوقة فجأة، وتحل مكانها المعبودة الجديدة، وهكذا كان قلب كامل الشناوى مثل جمهوريات أمريكا اللاتينية، مليئة بالانقلابات والتغيرات!».

ولأن الإنسان مطبوع على الحب طفلا وصبيا وشابا وكهلا وشيخا، لذلك عرف كامل الشناوى الحب فى كل دورات حياته تباعا، فحتى المطربة الصغيرة، وهى كانت أشهر محبوباته وأخرى معشوقاته وهو فى معمعة الكهولة، نظم فيها شعرا ملتهبا مشبوب العاطفة، كما سبها نثرا صارخا كضربات ملاكم جبار!

عن حبه الأول يقول: «لا لست أذكر على وجه التحديد كيف كانت قصة حبى الأول، كل ما أذكره أننى كنت صبيا لم أدخل بعد مرحلة الشباب، كان حبا ساذجا لم يتجه إلى غير الشوق والحنين، كانت تربطنى بها أواصر قربى، كنا نلتقى فى منزلنا أو منزلها كل يوم، أحسست نحوها شعورا غامضا، وجدته يدفعنى إليها وفى الوقت نفسه يبعدنى عنها. كنت أتمناها زوجة، ولكنى كنت أتهيب أن أهمس إليها بكلمة حب واحدة، كان الحديث يدور بيننا قصيرا جادا، وحركت هذه الحادثة شيئا حلوا جميلا فى قلبى كنت نسيته لأن العيون حولنا كثيرة، كنت صبيا صغيرا لم يزل يخشى الحب .. وافترقنا .. و .. لما كبرنا التقينا مصادفة، جمعتنا المفاجأة المدهشة فى منزل الأسرة بعد سنين طويلة من عدم اللقاء. كانت حبيبتى قد تزوجت وأنجبت، وفى لحظات هادئة صارحتها بما كان فى نفسى نحوها وأنا صبى، تمصصت عليها شعورى زمان، وضحكت هى الأخرى من

هواجس نفسي، وقالت إنها كانت تبادلني نفس المشاعر والأحاسيس في ذلك الحين، ولكن الوقت قد فات، وهكذا دارت بي الأيام دورتها، وكما أحببت في صباي أحببت في شبابي، وإلى الآن مازلت أتشبث بالحب، ولم أكن في شبابي سعيدا بالحب، ومن هنا يمكن الإجابة عن السؤال: هل أنا مع الحب .. شقي أم سعيد؟!..

ذلك كان اعتراف كامل الشناوي يوما عام ١٩٦٠ .. حب الصبا المكتوم الذي ضاع، وشقاء شبابه بالحب .. فماذا بقي له من مؤهلات الحب ومشاعره في كهولته؟

أن يضيع الحب في مرحلة الطفولة والصبا .. فذلك أمر مفهوم في سيرة كامل الشناوي .. فربما كان السبب يرجع إلى بيئته الدينية ونشأته المحافظة في الريف، وربما كان للبداوة والانطواء دخل فيما حدث.. ثم من منا لم يحب ولم يضع منه الحب في بواكير العمر؟

ولكن كيف يشقى الإنسان بالحب في مرحلة الشباب والفحولة، وإذا فشل مرة في الحب أو أكثر فمن الطبيعي أن يواصل تجاربه العاطفية مع غيرها وغيرهن من المحبوبات حتى يلتقي بالحب ويتواصل معه، لكننا في حالة كامل الشناوي نكتشف أنه لم يع الدروس المستفادة من تجاربه.. وأنه ظل يستعذب الفشل في الحب أو التعلق بأوهام الحب!.

يقول أنيس منصور: أنا لا أصدق كثيرا مايقوله الشعراء لأنهم يتفننون بالعذاب والهوان ويجدون لذة في ذلك، وإن حاولت أن تمد يدك لواحد منهم فإنه لن يطاوعك، وسوف يسخر منك، لأن الشاعر لايريد علاجا لعذابه، بل عذابه هو العلاج، وشقاؤه هو الشفاء .. ولذلك فأنا أصدق كامل الشناوي ألف مرة عندما يقول:

أنا عمر بلا شباب
وحياة بلا ربيع
أشتري الحب بالعذاب
أشتريه فمن يبيع

فتاة المعادي

الشائع عن كامل الشناوي فيما رواه عن نفسه، أن أول حب قاهري في حياته كان في مقتبل العشرين من عمره وزمانه عام ١٩٣٠ ومكانه المعادي، واسم محبوبته مدموزيل «س».

كانت «س» آية في الجمال والرقة، رقة العود والصوت والسلوك، لكنها تختلط فيها الكلمات العربية بالفرنسية فتتحول على شفتيها موسيقى وسحرا!

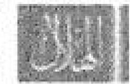
ذهب إلى خالها يتلقى على يديه دروسا في اللغة الفرنسية استعدادا لدراسة الحقوق في «السربون»، بعد أن تيقن والده الشيخ سيد الشناوي أن ابنه فاشل لامحالة في الاستمرار بالدراسة على غراره في صحن الأزهر الشريف.

فلما التقى بالمدموزيل «س» عدة مرات على انفراد، وبحث عن الشيطان ثالثهما كما تعلم في الأزهر، لم يجد أمامه سوى لوحة ربانية لاشرقية ولا غربية، لكنها مزيج حضاري فريد ونبيل، كانت قطعة من الفن والجمال والثقافة، من الحقيقة والخيال، كلماتها تغريد، وسكناتها نسائم، ونظراتها ضياء الفجر!

من أجلها خلع العمامة من قلبه وعقله قبل أن يخلعها عن رأسه، سمع منها لأول مرة عن نظرية «داروين»، وأسمعته السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، وعلمته أصول الإتيكيت، وفتحت أمامه آفاقا رحبة على دنيا جديدة!.

لم تخل مواقفه معها من طرائف ومآزق، كان أول الأمر يسير معها فيسبقها ويسرع حتى تظل خلفه كعادة الرجال مع النساء في عائلته، وإذا قابلها أحد معارفها ابتعد عنها، فتناديه فيأتي خجلا كأنه ضبط في موقف شائن!

ورأى الرجال في عائلة «س» يقبلون أيدي النساء، وفكر في أن يقلدهم. وعندما التقى بها نسي نفسه وهو يقبل يدها، فهم برفع يدها على جبهته كما يفعل عادة مع



والده ووالدته وعمه، لكنه أدرك حرج الموقف بسرعة وتوقف!

وكامل الشناوى تغزل كثيرا فى محبوبة الصبا بشعر مزيف لايعبر عن نفسه، كان فى جملته تقليدا لمعانى وألفاظ الغزل التى قرأها فى قصائد الشعراء، فهو قد شكا من الهجر وهى تلازمه، وعبر عن الغيرة ولم يكن هناك أحد سواه، بعث إليها بالسلام على جناح النسور وهى بجواره!

لكن ما أن افترقا حتى اختلى بنفسه وهو يسترجع السعادة والنشوة ساعات اختلائه بها، وذلك النور الذى كان يشع من ملامحها، وسحر حديثها ورقتها و.. يقول كامل الشناوى إن أول قصيدة نظمها فى حياته تعبر عن مشاعره الحقيقية كانت فى محبوبة المعادى المدموزيل «س».

المعادي أو نفحة من هواها
تودع النفس في شذاها الشجونا
المعادي فقد تركت في فؤادي
في رباها مشردا مجنونا

الغانية زهور

على أن كامل الشناوى روى لى أنه هم بالزواج وكاد يقع فى حبائله عام ١٩٤٥. وكانت المحبوبة إحدى قريباته وهى فى الوقت نفسه حفيدة الكاتب الصحفى الشهير محمد التابعى، وقد وصفها كامل الشناوى بكونها بارعة الجمال.. رقيقة.. خجولة.. شديدة الأنفة. منطوية على نفسها..

وعندما أبرقت العائلة إلى التابعى تطلب موافقته وكان فى رحلة صيفية بالخارج، كان رده بالاعتذار عبر تأجيل الموضوع برمته إلى حين عودته.

ومرت شهور، وبينما كان التابعى وكامل الشناوى فى ضيافة السيدة أم كلثوم بمصيف رأس البر .. اختليا وكل منهما لديه مايقول للآخر و.. بادر التابعى قائلا: تريد ياكامل أن تسألنى لماذا عارضت زواجك من «...»؟.

قال: نعم.



كامليا — مصطفى أمين

قال التابعى: أنت يا كامل مولع بالسهر طول الليل .. تقوم الليل كله .. وتنام النهار كله .. فماذا تفعل زوجتك الشابة طول الليل و.. وافقه على استبعاد فكرة زواجه!

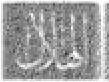
وقد ظل كامل الشناوى يختزن بالألم ذكرى تلك الواقعة التى لم يعرف بها أصدقاؤه وكثير من أقاربه، وبعد عشرين عاما تذكر الفتاة التى كان يرنو إلى الزواج بها.. وكيف اضطر أهلها إلى الإسراع بزواجها عندما أدركوا تعلقه بها وتعلقها به.. وكتب قصيدة يقول فيها

كل ما أذكره أنا انتهينا
وتولاني الضياع
حين أبصرت الوداع
لاتثر حولي ضجة
فلقد أصبحت زوجة

ويروى أصدقاء كامل الشناوى أن أعمق قصة حب مكتملة الأركان خاض تجربتها فى السابعة والعشرين من عمره، وهى التى أطلقت ملكاته الشعرية الرومانسية من عقالها العاطفى، وفجرت مشاعره المكبوتة، وأججت فيه عزائم الرجولة، فلم يعد يأبه لا بالتقاليد ولا بالشهرة أو المكانة الاجتماعية!

حدث ذلك عام ١٩٤٧ .كان لايزال يملأ الدنيا أملا وشعرا عذبا حالما، وكانت محبوبته غانية اسمها «روز»، وكان اللقاء فى كباريه بديعة مصابنى.

كان قد ذهب إلى هذا المكان مع جمع من أصدقائه يستروح من عناء العمل



الصحفي، فوجدها تتهاوى على مائدته، وكان الصحفيون انذاك لهم من الأهمية فى هذه الأمكنة الليلية ما لأثرياء الحب وتجار القطن والعمد وجنود الحلفاء من جاذبية مادية، ودون الدخول فى تفاصيل العلاقة وكيف انتهت إلى فراق، كانت له كعادة الشعراء العرب القدامى ما يشبه الوقفات أو الزيارات للإطلالة العاطفية، وكثيرا كلما استبد به الحنين إلى ماضى الفحولة والعطاء العاطفى المتبادل.

أذكر أنه صحبنى إلى «روز» فى أوائل الستينات، لبنانية الأصل، أوربية السلوك، ورغم أنها كانت فى العقد الخمسين، إلا أنها كانت لاتزال تضج بالحيوية والنشاط والجمال والدلال رغم بصمات السهر التى تخلفت حول عينيها، ولاحظت أن شعرها الذهبى بات كالح اللون، وأن قوامها رغم اكتنازه لايزال يتقن فنون التثنى والإغراء والغواية!

كانت روز تملك وتدير بارا «حانة» يحمل اسمها فى أحد الممرات الجانبية عند تقاطع شارع شريف مع شارع ٢٦ يوليو بوسط القاهرة، و .. ازيك ياكامل بك .. وازيك ياروز وضحكات مجلجلة وانطلقا سويا فى حديث الذكريات الودود المتبادلة ما كان يصلنى فى المكان البعيد الذى جلست فيه حتى لا أقطع عليهما خلوة الحب الغارب.

لم أسأله عنها ولم أكن أعرف علاقته السابقة معها إلا بعد عامين، حين جمعتنى الظروف به صيف عام ١٩٦٣ فى شقته التى استأجرها فى حى الأزاريطة بالإسكندرية، وكان قد فرغ من لعب «البوكر» مع بعض أصدقائه الفنانين وراح يداعبهم بسخرياته وآيات ظرفه، أذكر بينهم المذيع جلال معوض وزوجته الفنانة ليلى فوزى، والفنان صلاح ذو الفقار وحرمه، والسيد بدير وزوجته المطربة شريفة فاضل، وتحية كاريوكا والناقد الفنى جليل البندارى.

تحية كاريوكا التى كانت تعرف الكثير من مغامرات كامل الشناوى العاطفية مع الفنانات والفانيات، طلبت منه فجأة أن يروى قصيدة «العيون» التى نظمها فى محبوبته الغانية روز.. وفى نبرات متوهجة بالألم وذكريات الشباب الغض الإيهاب، عرفنا أن قصته العاطفة معها انتهت كالعادة إلى فراق .. قال:

لا وعينيك يا حبيبة روحي
لم أعد فيك هائما فاستريحي

سكنت ثورتي، فصار سواء
أن تليني، أو تجنحي للجموح
واهتدت حيرتي، فسيان عندك
أن تبوحي بالحب أو لا تبوحي
وخيالي الذي سما بك يوما
يا له من خيال كسيح

وإلى نهاية القصيدة التى يقول فيها:

لا وعينيك!
ما سلوتك عمري
فاستريحي
وحاذري أن تريحي

القنانة كاميليا

الشائع أن أغنية «أنت عمرى» كانت أول لقاء فنى مشترك بين عبدالوهاب وأم كلثوم، وهذا غير صحيح، فقد سبق هذا الحدث لقاء آخر كان موضوعه الفنانة الجميلة كاميليا.

كان ذلك عام ١٩٤٥ والمناسبة عيد ميلاد أحد أصدقاء كامل الشناوى الذى لبى الدعوة وبصحبته الفنانة السينمائية الفاتنة كاميليا، وكان بين المدعوين السيدة أم كلثوم وعبدالوهاب وتوفيق الحكيم ومصطفى أمين وفكرى أباظة والدكتور عبدالوهاب مورو.

حاولت أم كلثوم أن تداعب كامل الشناوى فاتهمته بأنه يتحيز فنيا لكاميليا ويحابيها باهتماماته الصحفية، وحاول أن يقطع عليها طريق السخرية فاعترف أمام الجميع بتحيزه لكاميليا عاطفيا، لكن أم كلثوم أحرجته وقالت: إذا كانت عاطفتك صادقة تجاه كاميليا إذن فقل فيها شعرا من وحى اللحظة.

وعلى الفور بادر محمد عبدالوهاب وقال أنا مستعد كذلك لتلحين هذا الشعر فورا وقالت أم كلثوم وفي هذه الحالة أعلن استعدادي لغناء اللحن في الحال!

ولما وافق الحاضرون على هذا الرأي، لم يجد كامل الشناوي بدا من أن يتنحى جانبا حتى فرغ من نظم أبيات من الغزل في كاميليا وقال فيها:

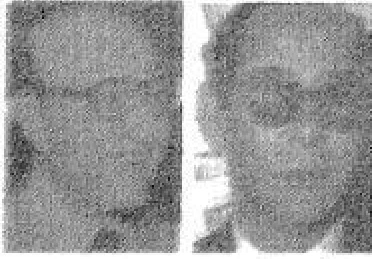
لست أقوى على هواك ومالي
أمل فيك فارفقي بخيالي
إن بعض الجمال يذهل قلبي
عن ضلوعي فكيف كل الجمال

وقرأ عبدالوهاب القصيدة ولحنها على العود وغنتها أم كلثوم واستعادها الحاضرون مرات ومرات حتى مطلع الفجر.. ولم تكن كاميليا تفهم العربية الفصحى، فكان توفيق الحكيم يترجم لها الأبيات إلى الفرنسية.

والمتتبع لقصة كامل الشناوي العاطفية مع كاميليا يلاحظ أمرين لهما ما وراءهما من الدلالات والمعاني، فهو والملك فاروق كانت لهما علاقة بالفنانة كاميليا، وعلى ما يبدو أن ذلك ما تشي به أخر قصائده عند افتراقه عنها، وهو شعور مزيج من الكبرياء والإحساس بالخطر:

يا كبريائي لقد كلفتني خطرا
فيك المنايا مطلات بأنياب
تمرد الليل لا أغفو به أبدا
حين رأى الفجر مسفوحا على بابي

بعدها ارتبط كامل الشناوي بعلاقات عاطفية طائشة في غالب الأحوال، بعد أن أعياه البحث عن شبيهة لمحبوبة المعادي الدموزيل «س» في رقتها ونحافة عودها وكان يسمى هذا اللون والشكل من الجنس اللطيف تارة «كوكيت» وأخرى «منيون»، بل إن صديقه الشاعر صالح جودت نظم قصيدة بعنوان منيون أهداها إلى نجاة الصغيرة إرضاء لصديق صباه كامل الشناوي وفيها تخاطب الفتاة المنيون حبيبها



عبد الرحمن الخميسي محمد عبد الوهاب

البدين قائلة:

أحبه.. أحبه.. ويزدهيني حبه
وفرته، تعجبني وقلتي، تعجبه
كأنني في إصبعه حينما أقربه
سيجارة تؤنسه.. تدفئه.. تلهبه
كأنني عصفورة.. زقزقتي تطربه
يضمني في يده.. ويحتويني حبه
أكاد من تيهي به أكله.. أشربه

والشاهد أن علاقات كامل الشناوي العاطفية بهذه الأحجام والأنماط الأنثوية التي عرفها في كهولته لم تتجاوز الحب الروحي أو الرومانسي لا الحب الحسي أو الجنسي على حد وصف الشاعر العربي القديم:

أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم
وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب.. لا إتيان معصية
لا خير في لذة.. من بعدها سقر

لا تكذبي

عندما صدر ديوانه الوحيد «لا تكذبي»، كان بمثابة صرخة ضد خيانة المرأة، حتى أن أحد الشعراء كتب مقالا يعلق فيه على الديوان تحت عنوان «شاعر يحب الخائنات» وأحصى عدد محبوباته في الديوان بأكثر من قصائده الثلاثين وصفحاته التي لم تتجاوز ١٠٦ صفحات وكتب أحد النقاد يقترح على كامل الشناوي تغيير العنوان من «لا تكذبي» إلى لا تكذب، ربما لأنه يتقاسم المسئولية في خيانة محبوباته، عبر عجزه عن إرواء عطش

تلك الأنماط الأنثوية البرعمية.

على أن أول بيت في ديوانه كـان بداية النهاية لأكبر وأعمق وأشهر قصة حب في حياته كلها:

لا تكذبي إني رأيتكما معا
ودعي البكاء فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى
من عين كاذبة فأنكر وادعى

والحديث عن بطلة القصيدة كثير، ومتناقض، فمن قائل أنه ضبطها متلبسة بخيانتها العاطفية مع صباح قباني مدير تليفزيون دمشق، أو شقيقه الشاعر نزار قباني، ومن قائل أنه المخرج عزالدين ذو الفقار، بينما الكثيرون - وأنا معهم - يجزمون بأنه كاتب أديب شاب يعتبره النقاد - ولايزال - أقدر من كتب القصة القصيرة في مصر والوطن العربي.

ومن عجب أن هذا الأديب - يرحمه الله - التقاني بعد صدور كتابي «آخر ظرفاء ذلك الزمان» حول سيرة حياة أستاذنا كامل الشناوى، وبادرني فيما يشبه العتاب لأني لم أذكر اسمه صراحة، باعتباره الخائن في قصيدة لا تكذبي، وكتبت اعترافه في حينه بمجلة روز اليوسف!

أذكر أوائل عام ١٩٦٢ أنني صحبت كامل الشناوى إلى حلواني «جروبي» حيث، دفع فاتورة مشتريات بمبلغ مائة وخمسين جنيها، وإذا بثلاثة عمال يحملون أمامنا إلى سيارة «بويكس» صناديق الجاتوه والبتي فور وتورتة ضخمة بيضاء ذات عدة أدوار لم تقع عيناني على مثلها سوى في الأفلام السينمائية.

كانت المناسبة عيد ميلاد مطربة مشهورة «منيون» صغيرة الحجم، رقيقة الصوت، وإلى شقتها بالزمالك، دخلت مع كامل الشناوى حيث كان المدعوون محدودي العدد من الأصدقاء، والصحفيين والفنانين والأقارب.

فلما جاءت لحظة إطفاء الشموع، إذا بمحبوبة كامل الشناوى وملهمته تختار كاتب القصة القصيرة وتمسك بيده ليساعدها في قطع التورتة بالسكين، وكأنها كانت تقطع في أوصال قلب الشاعر الكبير، وحاول طوال الحفل أن يستر ألمه وإخفاقه وفشل، وهو الذي دخل الحفل منذ قليل هاشا باشا يكاد يرقص طربا ومرحا، ولم يحتمل الموقف فانصرفنا وكان لايزال في الليل ساعات.

ذهبنا إلى شقة الشاعر عبدالرحمن الخميسي في حي معروف وكان مفلسا، ومن النافذة نادى جاره الفنان سعيد أبو بكر وقال له إن كامل بك في ضيافته.. وهات معاك أربعة كيلو كباب وأي حاجة نشربها!

لكن كامل الشناوى لم يتناول غير قطعة واحدة من اللحم دون أن يلامس الكأس شفتيه، إذ كان في حالة لم أعهده فيها من قبل على مدى السنوات العشر التي لازمته خلالها في أخريات حياته، عيناه مغرورقتان بالدموع وقد امتقع وجهه، وكف عن أجمل صفاته ومواهبه.. وهي الحكي والسخرية بآيات ظرفه حتى خشيت أن يحدث له مالا تحمد عقباه.

بعد قليل طلب من فكري الجوهري مدير أعمال الخميسي أن يحضر له تاكسي ولاحظت أنه على غير عادته لم يدعوني إلى مصاحبته و..

هناك في شقة المطربة الصغيرة قالت لي باتعة مديرة منزل كامل الشناوى وكاتمة أسراره.. دق الباب، فتحت الخادمة، لم يستأذن في الدخول.. وحتى رأى كل شئ ماثلا أمامه يستحيل إخفاؤه أو انكارها

وبينما اقرأ بابه الأسبوعي في صحيفة الجمهورية «ساعات» أدركت ما حدث رغم أنه غير في بعض التفاصيل وأغفل ذكر الأسماء: «كان المفروض أن أكون معهم، أشاركهم الاحتفال بعيد ميلادها. فهي صديقة. وهم أصدقائي. ولكنهم نسوا أن يدعوني إلى الاحتفال. وتداركوا نسيانهم فذكروني في سهرتهم، وقدموا إليها هداياهم وكانت سيرتي أبرز ما في الهدايا. وضعوا أمامهم التورتة. ومع التورتة مزقوها



بالسكين»!

قال لي الأستاذ مصطفى أمين إنه الوحيد الذي استقبل كامل الشناوي في أعقاب فاجعته العاطفية في مطربته الصغيرة، ولما حكى لي القصة بكل تفاصيلها المثيرة، حرضته على أن يجسد مشاعره في قصيدة، فكانت دموعه تختلط بحبر القلم الذي يكتب به، ثم حرضته بعد اكتمال القصيدة على أن يقرأها على مطربته الصغيرة في التليفون حتى يشفي غليله، وقرأ عليها القصيدة وهو يكاد ينتحب، وعندما انتهى قالت وكأن الأمر لا يعنيها: كويسة خالص.. ممكن أغني القصيدة دي يا كامل بك؟»

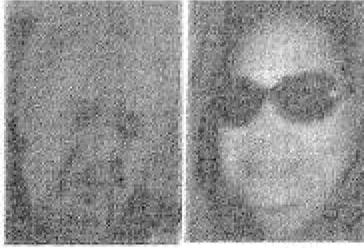
المعروف أن إحسان عبدالقدوس كتب قصة الشاعر الكبير مع محبوبته في جريدة الأهرام تحت عنوان «وعاشت بين أصابعه»، وقالت لي السيدة نرمين القويسني مديرة مكتب الأستاذ إحسان إن المطربة الصغيرة ألحت عليه أن يغير من بعض التفاصيل وكان قد نشر من القصة فصلين، لأنها فوجئت بلعنات الناس تنهال عليها عبر التليفون، وفي خطابات الذين قرأوا القصة وعرفوا العذاب والآلام التي عاناها كامل الشناوي في حبه من طرف واحد، بل إنها عادت وطلبت شراء القصة بعد نشرها لإنتاجها في فيلم سينمائي بشرط ألا تسأل لماذا لم تشرع في إنتاج هذا الفيلم ورفضت أسرة إحسان العرض.

على أن كامل الشناوي لم يتوقف عن هجاء محبوبته شعرا ونثرا .. فهو القائل في القصيدة التي غناها عبدالحليم حافظ:

حبيبها لست وحدك
حبيبها أنا قبلك
وربما جئت بعدك
وربما كنت مثلك

***

فلم أزل تلقاني
وتستبيحي خداعي
بلهفة في اللقاء



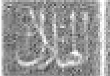
أم كلثوم — احسان عبد القدوس

برجفة في الوداع
بدمعة ليس فيها
كالدمع.. إلا البريق!!
برعشة هي نبض
بغير عروق
حبيبتي وروت لي
ما كان منك ومنهم
فهم كثير.. ولكن
لا شئ تعرف عنهم

ثم ينهي القصيدة قائلا:

ما أنت يا قلب؟
قل لي:
أأنت لعنة حبي؟!
أأنت نقمة ربي؟
إلي متي أنت قلبي؟

وفي رسائله النثرية الكثير من ألوان هجائه وذمه لمحبوبته «المنيون» التي يصفها بقوله: إنها تحتل قلبي، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها.. تكنسه، وتمسحه، وتعيد ترتيب الأثاث.. وتقابل فيه كل الناس.. شخص واحد تهرب من لقائه.. صاحب البيت! ■



كتاب الهلال

عشر سنوات غيرت العالم

بقلم

د. محمود سليمان

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

يصدر ٥ مايو ٢٠٠٤



نوافذ النوافذ

بقلم

جمال الغيطاني

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

تصدر ١٥ مايو ٢٠٠٤

كيف ضاعت حبات الماس؟

شعر
يسري خميس



أناشدها طوال الوقت
أن تبقي علي هذا الرماد
لأنه قلبي
يمكننا به نبني
قصوراً في ربي النهر
بساتيناً لفرط الحب والرمان والفشل
أراجيحا تبعثرنا علي مر الزمان
لعله يأتي
يمر ويلقط الحب
يهاجر
في مخالبه رماد القلب
واسعة بلاد الله
ومر الوقت مر الوقت
لم تسمع لصوت القلب
لم يأت
وجاءت طلقة الصياد غادرة
وبعثرت الرماد الماس
لم تبق علي أثر

١٥١
الهلال
ربيع أول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م

الأحلام

بين فقدان الوعى وداء النسيان

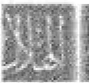
بقلم
مصطفى درويش

كتب المفكر أحمد بهاء الدين في مؤلفه القيم «أيام لها تاريخ»، إن الإنسان في أولى محاولات تعريفه سمى حيوانا ناطقا فلما تبين أن البيغاء تنطق سمى حيوانا ضاحكا وبعدئذ عندما تبين أن القرود هى الأخرى تضحك سمى حيوانا عاقلا وأخيرا، بعد أن تبين أن جميع الحيوانات تعقل، وإن كان بمقدار يختلف حسب نوع الحيوان. استقر الرأى على تسمية الإنسان ، حيوانا ذا تاريخ.

لماذا؟

لانه من بين جميع الحيوانات. قد تميز بالقدرة على اختزان التجارب التى مر بها، ثم استرجاعها حينما يشاء، على النحو الذى يراه مفيدا له فى الحاضر، أو فى مستقبل الأيام.

مشاهد من العنف السادي مازوكي في افلام جيبسون



فاتت، وفقا لما خطه قلم صاحب المؤلف القيم «تستطيع أن تصطاد الفأر الذي في بيتك بنفس الطريقة التي كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم - مصيدة وقطعة جبن».

الناس والفئران

وذلك يرجع إلى أن اصطياد الفئران بنفس الطريقة حدث مرارا وتكرارا على مر السنين، إلا أن أحدا منهم، ولو من باب الاستثناء، لم يفطن إلى أن مصيدة وقطعة جبن، انما تعني فقدان الحرية، فالحياة في نهاية الأمر.

والإنسان إذا أصابه داء النسيان، لا يتذكر من ماضيه شيئا، أصبح إنسانا بلا تاريخ، لا يفطن إلى المصيدة وقطعة الجبن، مثله في ذلك مثل الفئران.

وما يقال عن تردى الإنسان حال فقدان الذاكرة، ينصرف كذلك إلى الأمم والشعوب، إن هى نسيت ما مر بها من تجارب ، لاسيما ما كان منها متصلا بتاريخها القريب.

أما لماذا الاسترداد على شاشة الذاكرة الآن لما جاء فى «أيام لها تاريخ»، عن تسمية الإنسان، والفرق بينه وبين الفئران، فى حالة اذا ما تساءل القارئ»، فذلك لأنه يحدث فى بر مصر، هذه الأيام. ضجة مماثلة لضجة أفتعلت، قبل نصف قرن من عمر الزمان، كان القصد الأوحد منها هو خداعنا .

ضجة الوصايا العشر

وابدأ بالضجة الأولى لأقول أنها حدثت، وعقد الخمسينات من القرن الماضى، يقترب من منتصفه، وبالتحديد عام ١٩٥٤ .

ففى ذلك العام غادر المخرج الأمريكى الأشهر «سيسليل دى ميل» عاصمة السينما هوليوود، متجها إلى العاصمة المصرية ، حيث جرى استقباله ، وهو وطاقم فيلمه المرافق له، استقبال الابطال.

وحيث بادرت رقابتنا اليقظة بالموافقة على سيناريو «الوصايا العشر»، مع التصريح لصاحبه «دى ميل» بتصوير جميع مشاهده على أرض مصر، دون أى استثناء.

ومع بدء التصوير، بمشاركة آلاف الجنود المصريين، بوصفهم جنود فرعون مصر، أخذت الصحف والمجلات تشيد بصاحب الفيلم، وحفيدته الحسناء، وتتغنى بما ستجنيه مصر من فوائد جمة، من جراء تصويره فى ربوعها، وبمشاركة جنود جيشها العظيم.

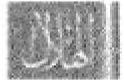
قصة حب

وكان من بين ما تغنت به كثيرا، حكاية، وكأنها من حكايات ألف ليلة وليلة، حكاية وقوع الحفيدة الحسناء فى أسر حب ضابط شاب من سلاح الفرسان.

وكيف انتهى بها ذلك الحب، زوجة فى أحضان الشاب الوسيم.

وكيف كان منطلقا لاختياره، بواسطة جدها، لأداء دور سائق عربة رمسيس الفرعون اللعين . فى مشهد الوصايا العشر المحورى، حيث ينفلق البحر الأحمر ، كالطود العظيم، لينجو النبى موسى، ومن معه أجمعين، أى بنو إسرائيل . ثم يغرق الله الآخرين، أى فرعون مصر، ومن معه من جنود مصريين.

هذا، ولم يمر سوى عامين إلا قليلا، على التصوير فى بر مصر، إلا وكان الوصايا العشر، يجرى عرضه بحى مانهاتان، نيويورك ، إثر العدوان الثلاثى، بأيام، وبالتحديد ، يوم التاسع من نوفمبر لعام ١٩٥٦، وذلك احتفالا باجتياح القوات الإسرائيلية لشبه جزيرة سيناء.



السراب

هكذا خدعنا . قبل خمسين عاما بسراب الوصايا العشر فهل تعلمنا من الدرس الأليم؟

للأسف لم نتعلم منه شيئا .

فيكاد ألا يتذكر أحد كيف خدعنا بسراب زمان ظنناه جميلا.

ولأننا في حالة نسيان. وكأننا بلا تاريخ، أصبحنا بلا مناعة، تقينا السقوط، ضحايا تكرار الخداع.

مولد يا دنيا

فمرة أخرى يجيئنا من عاصمة السينما، وراء المحيط، فيلم يهلل له ويكبر، في شبه اجماع، وكأننا في حلقة ذكر، إنه فيلم سمى آلام المسيح.

فها هوذا، يوسف شعبان، نقيب الممثلين يبعث برقية الى صاحب الفيلم، الممثل العالمي، والمخرج العبقري، من بين ما جاء فيها أنه أي السيد النقيب، وإياه أي المخرج، وكل العرب في خندق واحد ضد الصهيونية ، وضد اليهود الذين قتلوا المسيح.

والآن ينتظر السيد النقيب وكل العرب ، وهم على أحر من الجمر ردا من الممثل العالمي، والمخرج العبقري!

وفوق هذا، ها هو ذا عدد من صحفنا الرافعة راية الجهاد عالية، تتلقف البرقية النارية، وتضيف إليها صفحات وصفحات تصف الفيلم بأنه الأعظم في تاريخ البشرية، وتوجه إلى أي ناقد يجنح قلمه إلى التطاول على الفيلم الأعظم تهمة العمالة والخيانة ، وممالأة الصهيونية العالمية وفضلا عن ذلك تنتشر شائعات تزعم أن الممثل العالمي والمخرج العبقري، وقد اكتشف دناءة اليهود، وكراهيتهم له، فعلى وشك إنتاج فيلم عن العرب والإسلام، وتكريس جهده وماله، في خدمة القضايا العربية، في مواجهة طاغوت اليهود، قتلة الأنبياء.

كشف المستور

وفي هذه المرة، ربما بفضل ثورتي المعلومات والاتصالات، لم تمر سوى

مريم «أم يسوع» دور جسد الانفعالات الإنسانية



بضعة أيام على الترخيص بهرولة منقطعة النظير «للآلام» بالعرض العام، وبست نسخ ، بدلا من النسخ الخمس المقررة للفيلم الأجنبي، كالمعتاد، ألا وقد انكشف المستور . عندما طيرت وكالات الأنباء خبر انهماك صاحب الفيلم الممثل العالمي، والمخرج العبقري في دراسة امكانيات إنتاج وإخراج فيلم تاريخي ضخم عن ثورة المكابي، تلك الثورة التي يعتبرها بنو إسرائيل واحدة من أهم أحداث تاريخهم أو أساطيرهم.

والسؤال هل فيلم «الآلام» الذي كان مدار حماس واهتمام جعلا كل شيء من أمره غريبا حقا، يستحق من الناحية الفنية هرولة الترخيص له بالعرض العام، رغم مخالفة ذلك للمادة الثانية من قرار وزير الإعلام والثقافة رقم ٢٢٠ لسنة ١٩٧٦ بشأن القواعد الأساسية للرقابة على المصنفات الفنية التي جاءت ناصة في بندها الثاني على حظر إظهار صور الانبياء عموما، لاسيما الرسول والمسيح اللذين جاء ذكر اسميهما بالتحديد؟

عنف سادو مازوكي

بداية، قد يكون من اللازم، المفيد أن أنكر أن شهرة «ميل جيبسون» منتج الفيلم ومخرجه، لم تبدأ إلا بفضل قيامه بأداء دور «ماكس المجنون» في ثلاثية «ماد ماكس» تلك الثلاثية التي انطوت على كمية من العنف لم نعهدها من قبل في الأفلام.

واتبع ذلك بأداء دور شرطي في رباعية تحت اسم «السلاح القاتل» ، وهي الاخرى كان فيها من العنف الشيء الكثير.

ويعد فوزه بأوسكار أفضل مخرج عن «القلب الشجاع» ذلك الفيلم الذي شاهدنا فيه عنفا، من ذلك النوع الذي يشيب له الرضع في حجور الأمهات.

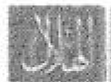
انتماء ذكري لقوى العدوان

وقبل «الآلام» بحوالي عامين ، جنح الى التمثيل، دون الإخراج، في فيلمين أحدهما «كنا جنودا» وهو من الأفلام الأمريكية القليلة التي خرجت عن قاعدة عدم جواز تمجيد بطولة المحاربين في حرب «فيتنام» لأنها كانت حربا غير عادلة ، ضد نضال شعب من أجل الاستقلال.

والفيلم الآخر «علامات» ، حيث لعب دور رجل دين كاثوليكي يواجه احداثا، لا تفسير لها في الفيلم الا بروحانيات ، أقرب الى الخزعبلات.

ويلاحظ ان جنوحه هذا، جاء مواكبا لازدياد قوة التيار اليميني المتشدد، المتأثر بفكر المحافظين الجدد، ذلك الفكر الذي له الغلبة الان في توجيه سياسة الولايات المتحدة ، خاصة بعد العدوان على مبنى البنتاجون والبرجين التوأم في مانهاتان.

والذي يمكن استخلاصه مما تقدم أن



ربيع أول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م

إخراج «جيبسون» للآلام كان أمرا متوقعا، فى ظل المناخ السياسى السائد حاليا فى بلاد العم سام.

وإنه باخراجه وانتاجه له، يعتبر آخر المبشرين فى السينما الأمريكية، بعلامة الصليب.

فالآلام قائم على سيناريو ألفه «جيبسون» مشاركة مع «بينيكت فيتزجيرالد».

عداء للتجديد

وقد استوحياه من الأناجيل الأربعة، ومع تأثره الى حد كبير بفكر «أنا كاترين ايمرسون» وهى امرأة متصوفة عاشت فى القرن التاسع عشر، حيث تمسكت بأهداب تعليم دينية تقليدية غير مسايرة لروح العصر، بل قل تحمل عداء شديدا لأى تجديد.

وعلى غير المعتاد لم يعرض السيناريو لحياة المسيح عيسى بن مريم من المهد الى اللحد.

وإنما اكتفى منها ببضع ساعات لم تزد عن اثنتى عشرة ساعة، هى الساعات الأخيرة، التى انتهت، كما جاء فى الأناجيل، بتسليمه الروح، بعد عذاب شديد.

ومثلما تبدأ أفلام الرعب فى سينما مصنع الأحلام بهوليوود، يبدأ الآلام، بليل وضباب، وقمر تطارده سحب ملؤها الغضب، وحية تسعى فى غابة موحشة، حيث تدور معركة بين الحواريين، والجنود الرومان، تنتهى بالقبض على المخلص، تمهيدا لتسليمه الى مجمع الكهنة، حيث تجرى محاكمته بتهمة ادعائه إنه المسيح المنتظر.

وأثناء تلك المعركة، يستل أحد التلاميذ سيفه ويقطع بها أذن أحد الجنود.

غير أن المخلص يرجع أذن الجندى الى مكانها سليمة، ويأمر تلاميذه بإغماد السيوف.

والغريب انه رغم هذه المعجزة التى أعادت الى الجندى أذنه، لم يتأثر الجنود، واستمروا فى غيهم يعمهون، بل أخذت وحشيتهم تزداد على مر الساعات.

تكملة فنية

ولن أحكى شراء ذمة يهوذا بثلاثين قطعة من الفضة ولا حكاية قبلته التى صارت رمزا للخيانة، ثم انتحاره تكفيراً عن جريمته وتحت جثته المشنوقة، جثة حيوان نتن، تأكلها الديدان كما لن أحكى تفاصيل المحاكمة ولا هتافات الرعاع بالموت الزؤام، فذلك شيء يطول، فضلا عن انه غير مجد.

فكل ما جاء فى فيلم «جيبسون» عن حياة المسيح قبل ربطه بجذع شجرة تمهيدا لتعذيبه بجميع أنواع الإيلام، سبق لنا أن رأيناه، بأسلوب سينمائى أكثر رقيا فى أفلام أخرى، اذكر من بينها على

سبيل المثال «انجيل متى» رائعة بازوليني، المخرج الإيطالي الذي جاءه الموت بالقتل، قبل تسعة وعشرين عاما في «أوستيا» ، قريبا من روما، حيث مدينة الفاتيكان.

الاختزال .. تمايز

أما ما انفرد به الفيلم، وتميز به في رأي صاحبه، عن غيره من الأفلام السابقة التي تناولت السيرة العطرة، فهو اختزالها فيما مر بصاحبها من عذابات تفوق طاقة الإنسان بتصويرها بشكل دموي، سادي و مازوكي، فهو، أي المخلص، لا يظهر بعد صدور أمر الحاكم الروماني «بيلاطس»، ويؤدي دوره «خريستو نعوموف شوبوف» بتعذيبه ، إلا والجنود الرومان يسوقونه، ويصفعونه ويوسعونه ضربا، بعصي وسياط ، يوخزونه بقطع من حجارة وشظايا من زجاج ، حتى اذا ما انهكه التعذيب وضعوا على رأسه إكليلا من الشوك، انغرس في لحمه المسلوخ، تسيل منه الدماء، ملطخة جسمه العليل، مخفية وجهه، بحيث لا نستطيع أن نرى من معالمه شيئا.

ثم ساروا به، وهو يئن تحت ثقل صليب ضخم، ظل يحمله، هو ويهودي آخر، حتى وصلا به الى جبل الجماجم حيث دقوا، بغلظة وقسوة، كفيه بالمسامير.

وهنا، لا يفوتني أن أذكر أن المشهد الذي جاء ذكره في الأناجيل في بضع كلمات، استمر في الفيلم عشرين دقيقة بالتمام.

وأخيرا، وأنا أقترب من ختام العرض لهذا الفيلم الكئيب والذي ارتأى أحد النقاد انه أحد أسوأ الأفلام التي شاهدها في الأعوام القليلة الماضية.

الشيطان امرأة

أرى من المناسب أن أقول ،أولا أن قمة الكاريكاتورية في الفيلم ظهرت بوضوح في رسم شخصية الشيطان ، كما قال بحق ذلك الناقد الذي اعتبر الآلام أحد أسوأ الأفلام فقد بدأ في شكل امرأة بلا شعر، وكأنها حسب قوله، قد خضعت للعلاج الكيمائي الذي يوصف في بعض حالات السرطان، ويتسبب في سقوط شعر المريض، بما في ذلك حواجبه ورموش عينيه.

وكان أسوأ المشاهد التي ظهرت فيها تلك المرأة الشيطان ذلك المشهد، خلال تعذيب المخلص، حيث رأيناها تحمل طفلا مشوها، أشبه بمخلوقات الفضاء في أفلام مصنع الأحلام وبالمناسبة جرى اسناد دور الشيطان للممثلة «روزا ليندا شيلينتانو».

وهكذا وصم صاحب الفيلم المرأة بجعل الشيطان أنثى كأنه يقول بهذا أن المرأة هي المتسببة في لعنة الرجال.

ثانيا : أن «جيم كافيزيل» المتقمص لشخصية المخلص لم يعطه «جيبسون» فرصة اظهار براعته في الأداء، تلك البراعة التي تبدت في «الخط الأحمر الرفيع» رائعة المخرج المقل تيرينس ماليك» وذلك قبل ستة أعوام.

فطوال الفيلم ، وباستثناء لقطات قليلة منحصرة في استرجاع الماضي، لم نراه إلا مضروبا، أو مصلوبا، ولم نسمع من صوته إلا الانين.

ثالثا: أن الفاتنة «مونيكا بيلوتشي» في دور مريم المجدلية ، والممثلة اليهودية المتزمتة، «مايا موجنشتيرن» في دور مريم العذراء، كانتا النقطة المضيئة الوحيدة وسط ظلام، كله تعذيب وإيلام.

ورابعا : إن قصر عرض الفيلم، وهو يدور وجودا وعدما حول الام مخلص رسالته الدعوة الى المحبة والسلام قصره على الكبار، رحمة بالصغار، وحماية لهم من العنف الذي جاء فيلم جيبسون مشويا به، على نحو غير مسبوق، لما ينهض دليلا على إنه فيلم يستغل بطريقة تجارية، غير إنسانية سيرة عطرة، بالإهدار لرسالة قوامها نبذ العنف، وتبنى المحبة بين الناس!! ■

المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

التليفزيون يقحم المناظر الفاضحة على بيوتنا!

قالها الخبير بكل الوضوح والصراحة.. «تكتفه»، ولما بدت الدهشة على المحاورة، شرح لها بكلمات قاطعة : «المطلوب في هذه الحالة أن نحرمه من أى قدرة على الحركة، حتى لا يتمكن من إلحاق الأذى بنفسه أو بمن حوله».

ولو كان أى من القراء الأعزاء مكاني ، لحدث له ما حدث لى بالتمام والكمال، فقد كانت تلك العبارات كافية لأقع في أسر برنامج لم يكن لى به سابق معرفة، ولكن جدية المتحدث ولباقة المحاورة تكفلتا بضمان تعلقى بالشاشة حتى نهاية البرنامج.

فقد جاء السؤال التالى للمحاورة مشبعاً لما ثار فى نفسى من شغف للتعرف بالمراد شل حركته ، والأسباب المبررة لذلك ، «لم هذه القسوة وقد دعوت فى الحالة السابقة إلى الاكتفاء بالتجاهل»، أجابها الخبير على الفور.. «فى الحالة السابقة كان عبثه محاولة منه لشد الانتباه ، لذلك طلبت أن يكون الرد هو التجاهل التام، مهما تكررت وتنوعت أساليب ذلك العبث، أؤكد أن علاجها هو التجاهل أما إذا جاءت تصرفاته مؤذية لنفسه أو لغيره ، فلابد عندئذ من شل حركته بالكامل، ولفترة كافية، ولو كرر توجيه الأذى نكرر بالمثل شل حركته، والمؤكد أنه عند نقطة ما، سيفهم ويتوقف عن توجيه الأذى».

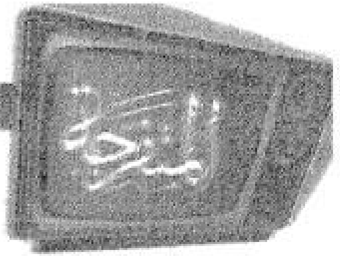
وقبل أن يتبادر إلى ذهنى الخاطر بأن الخبير متخصص فى التربية، جاءت الأسئلة والإجابات التالية لتعرفنى بأن الموضوع هو مشاكل التعلم عند ذوى الاحتياجات الخاصة سواء أكانوا من متوسطى أو محدودى الذكاء.. أما عن عناصر إخراج البرنامج من حيث تتابع المتحدثين من خبراء ومحاورين فقد

كانت من التركيز والتنوع، بحيث تمكن مشاهد البرنامج من الإلمام بكل المحاور التي بحثها ذلك المؤتمر الذي انعقد بمدينة الرياض، على مدى ثلاثة أيام من التاسع والعشرين إلى الحادي والثلاثين من مارس ٢٠٠٤.

وهكذا نجحت القناة الثانية لتليفزيون المملكة العربية السعودية أن تنقل لنا عبر ذلك البرنامج الناطق باللغة الانجليزية ما يكفينا للاقتناع بالمستوى الرفيع لذلك المؤتمر من حيث التنظيم وجدية وكفاءة المشاركين من الأطباء والمعلمين فقد ناقشوا ضيوف المؤتمر من صفوة الخبراء في كل صغيرة وكبيرة لها صلة بالتعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة وما إن انتهى البرنامج حتى وجدت السؤال يتبلور في ذهني ألا يمكن الاستفادة من أساليب التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة في معالجة أعراض الإعاقة المستشرية على شاشاتنا؟!!!.

ليست هذه السطور هي أول كتاباتي المنبهة لآثار أعراض الإعاقة الزاحفة على شاشاتنا بكل ثبات وشراسة، وهي بعون الله لن تكون الأخيرة، ولست وحدي فيما يلم بي من ذعر من هول ما هو قائم، فلقد تواترت جهود الأقلام تصرخ بكل أشكال التحذير.. ولكنني بالفعل مندهشة من سكوت علماء النفس والاجتماع عن القيام بعمل منظم علمي يخرج بدراسة شاملة لآثار أغاني الفيديو كليب وتخصيص قنوات تليفزيونية تكرس لها ساعات من الإرسال متصلة.. وهي قنوات مفتوحة ومتاحة للجميع سواء عن طريق الاشتراك الشرعي أو عن طريق أساليب أخرى غير قانونية، ولكنها جعلتها متاحة لكل البيوت والمقاهي والمطاعم المكتظة دوما بالشباب، ولمن يسألني عن السبب في قيامي بالربط بين الموجة الجديدة من الأغاني المصورة Video clip والإعاقة أقول.. هذه ليست أغاني، فإذا كان الغناء هو القيام بالجمع بين الكلمات والألحان ليؤديها صوت أو أصوات قادرة على تحقيق الغاية الفنية من هذا النوع من الفنون، فإنني أقول إن اضافة الأجساد العارية أو شبه العارية على النحو السائد في أيامنا ينقل هذا المصنف من خانة الغناء إلى خانة الدعارة.. وإذا كان الثابت تاريخيا أن تراخيص الغناء مختلفة عن تراخيص ممارسة الدعارة حيث إن الأخيرة تندرج في إطار يدخل في صميم سلطات المسئولين عن حفظ النظام والأمن العام، وهم الذين غيروا عبر التاريخ موقفهم من إباحة الدعارة إلى منع ممارستها، فهم في الحالتين يجتهدون في تطبيق القوانين المنظمة لهذا النوع من النشاط.

أما عن تراخيص الغناء، فهي من نوع مختلف، بدأ تاريخيا بشكل ديمقراطي صرف.. فالجمهور يحدد بشكل مشاهير وفوري قبوله أو نفوره من القائم بفعل الغناء في مولد أو عرس أو «سبوع مولود».. ولما بدأت الإذاعات الأهلية، كانت المحطات تتنافس في استقطاب مشاهير المغنين إلى أن جاءت الإذاعة المصرية لتتكفل بالمهمة، حتى صار الغناء في الإذاعة علامة على تميز الصوت وجمال الأغاني. ويشهد تاريخ الإذاعة المصرية في معظم النصف الثاني من القرن العشرين بأنها اجتهدت في تقديرها للمهمة، وخصصت لذلك لجنتين من أرفع لجانها، اختصت الأولى



باجــــازة الأصــوات ، وركزت الثانية على إجــازة نصوص الأغاني، وحتى لاتضيع السطور بعيداً عن الغرض الأساس من كتابتها، فإنني أدعو الباحثين الإعلاميين إلى دراسة تاريخ هاتين اللجنتين بما يبين قيمة ووزن الأعضاء، ونوع قرارات الإجازة أو المنع، من واقع محاضر اللجنتين، وتتبع ثغرات التسيب وظروفها، وما أدت إليه من ظهور الهابط المتردي على الشاشة إلى أن وصلنا إلى ما نحن الآن بشأن محاولة توصيفه من أعراض الإعاقة المنتشرة على ما يسمى بقنوات الأغاني ..

وإذا كانت الإعاقة تعني عند البعض قصوراً في قدرة حركة الذهن أو البدن عن الإتيان بالفعل الملائم للظرف الملائم فإنني أقول إن المشاركين في أفعال الدعارة المعروضة على شاشات الأغاني يعانون من أعراض إعاقة واضحة، وهي من أنواع الإعاقة المؤذية للنفس وللغير، والتي تستدعي نوع العلاج الذي وصفه الخبير المشار إليه في مقدمة هذه السطور حين دعى إلى ضرورة الإسراع بشل حركة المعاق، لمنعه من إلحاق الأذى بنفسه أو بالغير .. والسؤال الآن هو، كيف نحقق ذلك .. ومن الذي سيمنحنا السلطة؟ وما هي الإجراءات اللازمة ؟! ومن هي الجهة أو الجهات التي ستخول سلطة التنفيذ ؟

الانتخاب .. الانتخاب .. الانتخاب

إنني أطالب بتشكيل جمعية أهلية أو مجموعة عمل أو هيئة منتخبة لدراسة ما ورد في سطور هذا المقال وكل الكتابات المماثلة في الموضوع، وأقترح أن تكون المهمة هي تشخيص الحالة واقتراح الإجراءات ، وحتى تكون هذه الجماعة ممثلة – بقدر الإمكان – لكل فئات وتوجهات الشعب، فإني أقترح أن تقوم كل كلية أو معهد علمي جامعي بانتخاب ممثلها في هذه الجماعة، مع مضاعفة العدد الممثل للكليات والمعاهد المتخصصة في علم النفس وكذلك أن تنتخب كل مؤسسة صحفية من يمثلها .. ويحتاج الأمر في هذا الصدد إلى مراعاة بعض الشروط اللازمة.

أولا: انعدام الصلة بأي من جهات الإنتاج الغنائي سواء منه العام أو الخاص.

ثانيا: انعدام الصلة بأي من وحدات إنتاج الإعلانات.

ثالثا: عدم المطالبة بأي مقابل مادي أو معنوي للجهد والوقت المبذولين في هذا السبيل.

رابعا: الاستعداد ، عن طيب خاطر ، لتحمل كل أساليب القمع والترويع المادي والمعنوي المتوقعة من أصحاب المصلحة ، وهم جماعة «المعاقين» ممن اختلط عليهم توصيف الأغاني بتوصيف الدعارة، ومن ذلك يكونون الثروات.

خامسا: أن تتبنى رئاسة تحرير مجلة الهلال أمر ما يلزم لاستكمال تشكيل هذه الجماعة والتعجيل بإنجاز المهمة المطلوبة منها في أسرع وقت ممكن.

والرأي عندي أن الشواهد تدعونا للتصرف بنفس أساليب تعبئة الجيوش حال الإغارة على الأوطان، وإذا كانت الإغارة هذه المرة تتم بأيدي نفر من أبناء الوطن هم من المرضى أو من المضللين ، فإن أذاهم يتسرب إلى نفوس أبناء الوطن كافة.. ولا أريد هنا أن أفصل في

بيان العلاقة بين مشاهدة تلك المصنفات الداعرة وبين زيادة حالات الاكتئاب بين المشاهدين، وإنما أريد أن أترك تفصيل ذلك وبيانه ليأتي من أصحاب القول الفصل في ذلك من علماء النفس ، فهم بالتأكيد أدرى مني وأقدر على شرح تأثير دخول تلك الصور وجعلها جزءاً من المكونات المعرفية للفرد وهم كذلك أدرى وأقدر على التفصيل في بيان عمليات المقارنة التلقائية والفورية وهي مقارنة قد تضع الذات في مقارنة بما هو معروض .. كما قد تضع المعروض في مقارنة مع المحيطين ، وخاصة من هم في الدائرة الخاصة للفرد..

أترك ذلك لعلماء النفس فبينهم في بلادنا أعلام ، نأمل في أن يكون وجودهم في الجماعة المطلوب تشكيلها عامل حفز على بلورة ما يرقى إلى الوفاء بما هو مأمول.

والآن

أما الآن، وإلى أن تنقضي الساعات أو الأيام الفاصلة بين نشر هذا المقال وتكوين جماعة العمل المشار إليها فيه فإنني - كغيري - لا أستطيع أن أكتفي بالانتظار ومن جانبي أرى بوجوب طرح بعض الأفكار لعلها تكون موضوع بحث وتداول من جانب كل المهتمين بالأمر.

أولا: تخصيص قناة تليفزيونية لإذاعة كل الحفلات الموسيقية والغنائية التي ينظمها محترفون متخصصون ومن الممكن البدء بإذاعة كل الحفلات التي تم تسجيلها من دار الأوبرا والمسارح التابعة لها والتي تستطيع أن تملأ ساعات من الإرسال بالمئات وعلى أعلى مستوى.

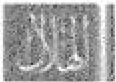
ثانيا: تخصيص قناة تليفزيونية لشباب الموسيقيين من الدارسين المعاصرين والتابعين في المعاهد الموسيقية المصرية تعرض برامج عنهم وعن دراستهم وإبداعاتهم ، وكذلك عن أساتذتهم المعاصرين منهم، والسابقين مع تحقيق توازن في ساعات الإرسال للموسيقي والغناء الشعبي والتقليدي وعزف المصريين كذلك للمؤلفات الأجنبية.

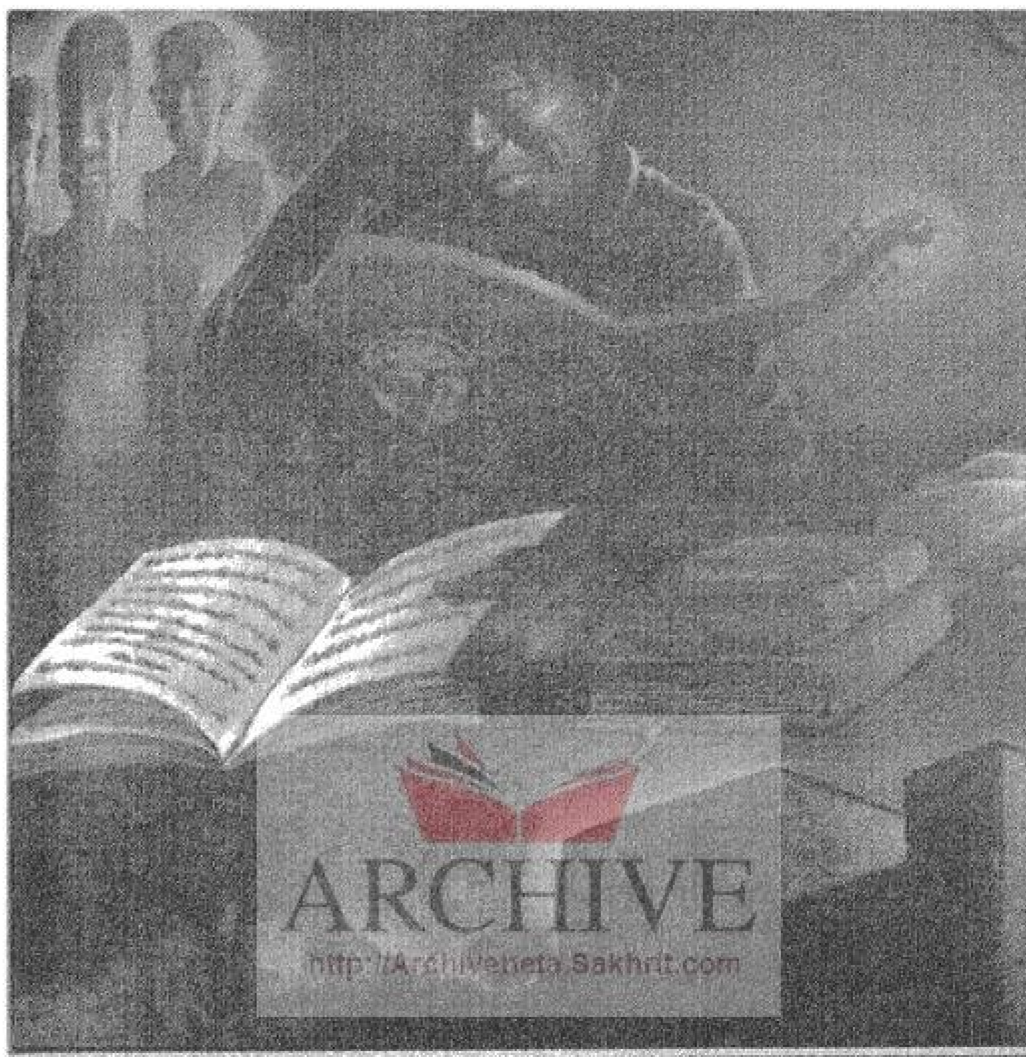
ثالثا: توقيع الاتفاقات اللازمة بين دار الأوبرا المصرية واتحاد الإذاعة والتليفزيون بما يسهل عمليات التنسيق اللازمة لحفظ حقوق الملكية وحقوق الأداء العلني للمبدعين .

رابعا: أن تكون مجموعة العمل المنتخبة مشاركة في كل الخطوات الممهدة لتنفيذ النقاط الثلاث السابقة، بحضور كل الاجتماعات التحضيرية والمشاركة فيها بالرأي والاستمرار في ذلك ، لتتحول مهمة تلك الجماعة المنتخبة إلى متابعة أداء هاتين القناتين بعد بدء البث الفعلي لبرامجهما.

خامسا: تحويل قنوات الدعارة المعروفة حاليا بقنوات الأغاني إلى قنوات مشفرة، وذلك بإخراجها من حزم القنوات المفتوحة واتخاذ الإجراءات اللازمة لعدم إتاحتها للمقاهي والمطاعم وأماكن تجمع الشباب.

هل نكون بذلك قد اقتربنا من الأخذ بنصيحة الخبير.. لعلنا نفعل.. «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة». صدق الله العظيم ■





قصة قصيرة

عود عمران

بقلم
محمد كرزون - حلب

كان يراودني من حين إلى آخر شوق عارم لسماع ترنيمات شاد.. فتقتحم على كل أنواعُ «الملتميديا» لتفرض نفسها، فأعافها جميعا.. فأنا في شوق لسماع صوت بشرى مباشر، من الحنجرة إلى الأذن، ولا بأس إن كان يحتضن عوده، أو يعانق كمانه.. أو يلثم نايه.. فأجد نفسى وقد سرت في الطريق ماشيا إلى بيت «عمران».. أدعوه لزيارتى، أو أدعو نفسى للدخول إلى بيته.

والحق أن عمران صار يفهم الغرض من زيارتى، فإن كان مزاجه عامراً رحب وأوسع لى طريق الدخول.. وإن كان مزاجه معكراً نفث في وجهى نفثتين محملتين بالهموم.. مع مدة من الصمت الطويل.. فأفهم، فإما انسحب وأعود أدراجى إلى بيتى بواسطة «تاكسى أجرة» هذه المرّة.. وإما أدخل لأستمع إلى شكواه من هذه الدنيا التى ندر فيها الذوق والتذوق!

وكان يبدو وكأنه لا شكوى له من أحد بعينه، قريباً كان أو صديقاً.. أكثر همومه عامة.. إلى الحد الذى كنتُ أسمع منه صدى لشكاوى الآخرين ومعاناتهم أكثر من همومه الشخصية.

وما أبرع عمران وهو يصول ويجول بين طبقات أصواته، ومقامات الموسيقى العربية، وأصابعه تلاعب الأوتار بخفة عجيبة.. ما أروعه وقد تملكه الطرب ودخل ملكوت الإبداع.. وما أسعدنى وأنا أعيش لحظات صافية لا يعكر صفوها معكر.. وما أشقانى عندما ألوم نفسى: لماذا لم أصادق الموسيقى بدل الهندسة الميكانيكية؟! لقد حولت هذه الهندسة اللعينة تفكيرى إلى أن الحياة عبارة عن أقراص مسننات كبيرة ومتوسطة وصغيرة، وكل مسنن يدفع غيره ويندفع بقوة من غيره.. والكل يدور، ولكن لا يدرى لماذا يدور، ولا إلى متى يدور، ولا لمن يدور.. حتى بت أشعر أن مسننات حياتى بدأت تتآكل وتتعثر وتطقطق، ولم يعد ينفع معها زيت الآلات في مرونة حركتها وتخفيف ضجيجها الرتيب.. وليس لها من مصير إلا الإهمال أو الصهر وإعادة التصنيع.

محظوظ عمران.. الحياة عنده كلها أوتار.. ولكل وتر نغمة جميلة.. الحياة جمل موسيقية متتابعة، ولكنها ليست مترافقة.. هكذا كان يبدو لى هذا الرجل.. إلى أن أدخلنى ذات يوم بفعل قوة جذبه التى لم تنفع معها قوة نبذى.

– يا صاحبى.. لا موسيقى بعد اليوم.. لا غناء.. لا طرب.. يا صاحبى.. الحياة.. ما الحياة؟ دعنى ألخصها لك بكلمات.. في كل مرة تأتينى فأستمع إلى منطقك.. وتستمع إلى أوتارى.. اليوم أريدك أذناً لا فماً لتستمع إلى منطقى.. هذرى.. جنونى.. سمه ما شئت.. اليوم أريدك مستمعاً.. مستمعاً وحسب!!!

بدا على بعض الغباء، وبعض البلاهة، من هول المفاجأة.. ولكننى سرعان ما عاد إلىّ شعورى الإنسانى النبيل الذى طالما صفاه عمران بعزفه الصافى من كل شائبة.

– معك أنا يا عمران.. أسمع.. وأفهم!! معك وبين يديك..

وقمت لأجلس قربه وأضع يدى على كتفه.. ويدى الأخرى على صدره:

– أنفث ما في هذا الصدر من دخان.. واحك

ما تريد.

اعتدل عمران.. وخفف من ثورته.. ثم نهض يعمر إبريق الشاى.. المنكه بنكهة الليمون:

- عشرون عاماً.. وأنا أظن أن كل الأصدقاء مثل صديقى العود.. قصتى - يا صاحبى - باختصار.. ليس هناك من صديق كالعود.. لا تؤاخذنى.. فأنا لم أر منك فى أى يوم تصرفاً قبيحاً.. ولكن فى نفس الوقت لم أجربك.. لم يحدث أن..

وصمت برهة، ثم عاد إلى القول:

- ومن يدرى ؟ فقد تكون مثلهم !!!

وعاد إلى الصمت من جديد.. وعمران لا يدرى كيف يخرج من مأزق انتقاده لى، ورغبته فى (الفضفضة) و(بث الهموم).. فرأيت أن أبادر إلى إخراجه إلى بر الأمان:

- كل ما تقوله صحيح.. وأنا لم أزعل.. ولن أزعل منك.. ياشيخ حرام عليك كل هذا التفكير قبل الدخول فى الموضوع.. ادخل فى صلب الموضوع.. ولا يهمك.. أنا معك.. فى الماضى معك.. وفى الحاضر والمستقبل معك.. ياشيخ حرام عليك تتعب نفسك!!!

وفجأة، انقض عمران على صندوق خشبى كبير فى زاوية الغرفة، أخرج ورقة:

- انظر، ما تاريخ هذا التنازل؟! سبعة عشر عاماً.. منذ سبعة عشر عاماً تنازلت لهم عن كل ميراثى من والدى عندما رأيتهم مختلفين.. وقلت لهم: يكفينى من ريحه هذه العمامة وتلك المخطوطات.. وكتابه الوحيد فى (المناجاة).. وضحكوا فى سرهم.. أنا متأكد أنهم قد ضحكوا فى سرهم، لأننى - كما يعرفوننى - بحثت عن الأشياء الروحية.. المعنوية، وتركت مال الدنيا لهم.. وظنونى مسكيناً، ولكن هم المساكين.. تركت لهم البيت الكبير، والمحل الذى فى السوق القديمة.. وبعض الأملاك الأخرى.. تنازلت عنها جميعاً مقابل العمامة وبعض الكتب.. واليوم يتهموننى بأنى استأثرت بكل شىء.. صحيح أن العمامة والكتب هى عندى كل شىء، ولكن تركوها لى بإرادتهم، وتركت لهم كل شىء برضا وطيب نفس.. لقد باعوا كل التركة وتقاسموا ثمنها فيما بينهم.. ولم يبق من أشياء عينية سوى ما بقى عندى.

حتى هذه اللحظة لم أجد مشكلة فى كلام عمران.. لم أجد ما يثير.. ولا أخفى أن بعض الملل قد ظهر علىّ.. ولكن لم يكن فى يدى حيلة.. على أن أتابع إلى الأخير.

كان الشاى قد صار جاهزاً.. صب بعضاً منه فى فنجانى.. وشعر بتململى.. وبدأ يبدى اعتذاره غير المباشر، وحاول أن يغير الحديث، ولكننى استعدت نشاطى، وصحوت لأمرى معه، وبإصرار قوى منى طالبته بالمتابعة:

- مؤتمر !! يا سيدى مؤتمر حول جدى.. الآن اكتشفه الباحثون، فصار كل ما مسته يديه ثمين، وكل ما وضعه على رأسه ذا قيمة.. إحدى المنظمات الثقافية الدولية اكتشفت أن والدى - رحمة الله عليه - كان ناثراً مجدداً من خلال كتابه الذى احتفظت به، والذى طبع منه أقل من ألف نسخة عندما كان على قيد الحياة.. ويعلم الله كم عانينا من تلك النسخ، عشر سنين لم يبع منها أكثر من مئتى نسخة.. إلى أن جاء الحاج أمين

الكتبي، فأخذها بربع قيمة كلفتها.. وفرحنا وقتها، وفرح والدي بتلك الصفقة.. وظننا جميعاً أن القصة إنتهت وانطوت.. واليوم يُعقد مؤتمر خاص بهذا الكتاب.. وفود من بلاد متعددة.. ودعوات خاصة للمشاركة فيه لمن بقي من أصدقائه، مع تكريم خاص لأولاده أو أحفاده.. وقد سمعت أن اللجنة المنظمة للمؤتمر قد عرضت مبلغاً ضخماً لقاء حصولها على المخطوطة.. لا أخفيك أنني قلت لهم: اشتروا البيت الذي بعناه وحولوه إلى متحف صغير، ولكن أخوتي عارضوني وطلبوا أن لا أذكر مثل هذا الاقتراح، فماذا يقول الناس إذا سمعوا أننا فرطنا في البيت من أول شهر بعد وفاته؟! وبصراحة، المبلغ الذي سيدفعونه للبيت لن يأتينا منه شيء، ولن نستطيع الانتفاع من البيت لأن إدارة المتحف ستشغله.

بدأت أشعر أن رواية من نوع غريب تنسج.. وصار عندي فضول إلى سماع تفاصيلها كاملة.

– وماذا حصل بعد ذلك؟

– ما حصل هو دعوى مقامة ضدي بأنني أستأثر بميراث والدي ولا أدع الورثة ينتفعون به.. فأنا أمنعها عنهم قاصداً أو أكتم عنهم (ثروة قومية) باستئثاري بـ (مناجاته) والدخول في الجو الروحي العظيم الذي تركه لنا قلمه.. ولا أقدم قائمة بالكتب التي كان لها الأثر في ثقافته وشخصيته.. أو كراسته التي دون فيها بعض المعلومات عن شيوخه وتلامذته.

هل تصدق أن أتهم بكل هذه الاتهامات؟!

وهممت بسؤاله: لماذا تحبسها عنهم، ولكني فضلت أن يسترسل في حديثه لعله يكشف جوانب أخرى لم أفهمها بعد.

ودون أن يدري، ذهب إلى عوده.. وأزال عنه الغلاف القماشي.. ركنه بقربه.. وهم باستئناف الحديث، ولكنه فضل أن يخبئ الكثير.. وفجأة قال:

– لا أحد يستحق الكتاب أكثر مني.. إنني أشم منه رائحة أبي.. عطر مداده.. عبق فكره الصافي عندما يتضرع إلى الله.. لا أطمئن إلا عندما يكون بقربي.. لن يسرقوه مني.. لن أمكنهم من النيل منه.. لا أحد يفهمه مثلي.

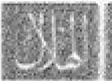
نسي كل ما قرر في حق صديقنا (الموسيقى) وهجرانه لها.. انكب عليه يدندن بأوتاره ما تيسر من نفسه.

كانت سهرة من أجمل سهرات عمري، وربما أجمل سهرات عمره أيضاً.. ولم أستطع أن أقاوم الدموع التي انسلت من عيني.

في نهاية السهرة غلف عمران مخطوطة أبيه بقماش من الحرير الأخضر، وأعطاني إياها، وهو يقول:

– فليأخذوها.. لقد حفظتها .. بكل مقاطعها وحروفها.. بكل خلجة من خلجات أبي عندما كان يناجي بها ربه.. أرجوك خذها وسلمها لهم، فلست أنا من أحبس مناجاة أبي التي ملأت الآفاق.. هذه أمانتي إليك، فهل تساعدني؟! ادع ربنا أن يهيىء لهذا الكتاب من يفهمه.. لا من يأخذ به شهادة عليا لينتفع بها في دنياه.

وكان ذلك آخر عهدي بعمران. ■



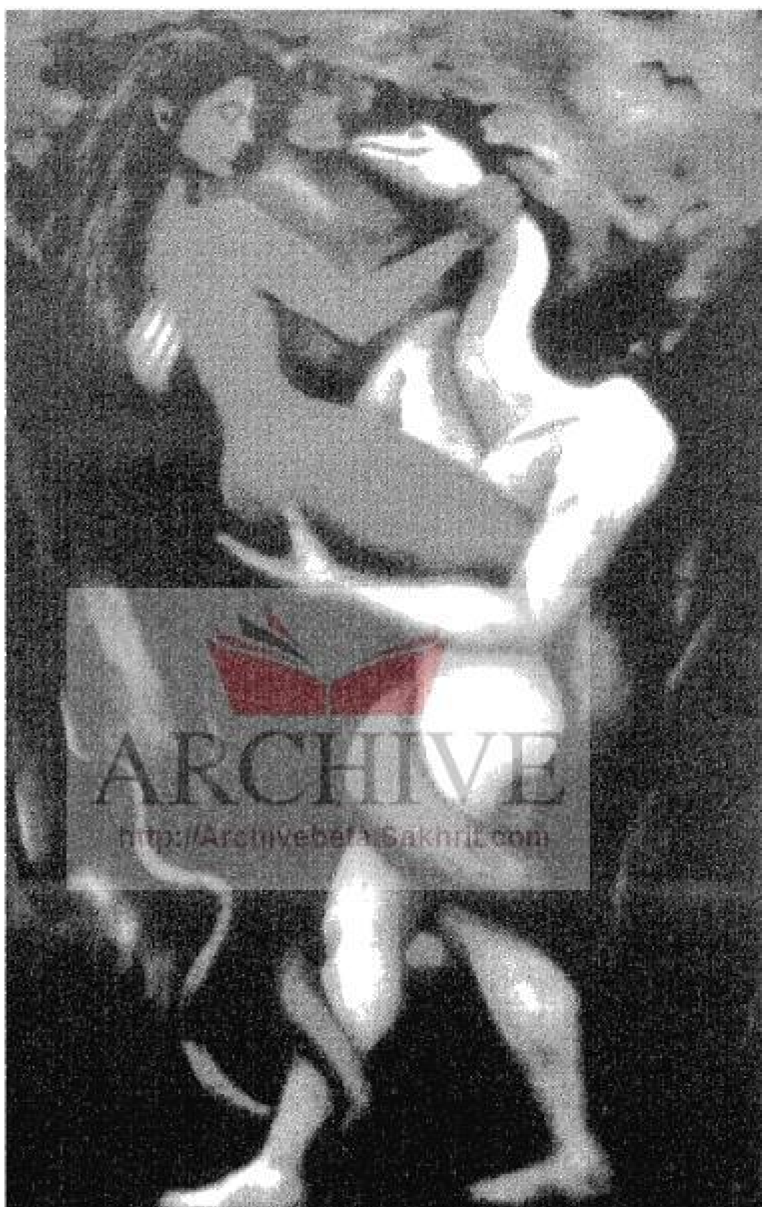
بين التكرار وأسباب المعاصرة

حركة الفن مظهر خادع

بقلم
د. محمد عرابى

لاشك في أن القاهرة تحتل المركز الأول في إدارة حركة الثقافة والفن منذ نشأة الفن الحديث.. وفي الآونة الأخير ومنذ منتصف الثمانينيات - وبين القاعات الخاصة وقاعات المؤسسة الثقافية - وهي تموج بحركة فنية تبدو في ظاهرها نشطة بصورة لم يسبق لها مثيل من حيث الكم، وأما الكيف فشأن آخر يجب التوقف عنده لعلنا نتبين إلي أين تسير الوجهة .

وربما يبهرنا زخمها بمظهره الخادع .. ولكن عند اتساع الرؤية لتشمل الصورة بأطرافها المترامية نتأمل تفاصيلها فنجد أنفسنا أمام إشكالية مهمة وهى تشابه الموضوعات وتكرارها بصورة تفصح عن انفصال الفنان عن اللحظة الراهنة و إن بدا فى بعض الأحيان مرتبطاً بملامح مكانية محلية. فمن بين ما شهدناه - فى هذه الجولة - ما يبدو سجين الحكاية الأسطورية أو الشعبية فى قوالبها الفنية التى سيطرت على صاحبها منذ زمن، وفي نفس الإطار - وإن اختلفت الصورة قليلاً - نجد ما يشير إلى أن صاحبها قد آثر السلامة واكتفى بتصوير مظاهر وموضوعات بيئية تتعلق بملامح مكانية أكثر من كونها تمس الحياة الإنسانية ، فتأتى الأعمال فى قوالب لا تحمل من صاحبها سوى ما تعلمه من حرفة الرسم والتلوين في إطار أكاديمي مستفيداً من إنجازات الانطباعية، ولا يمكن لنا أن ننكر دور هذا النوع من الأساليب الفنية فى مواطن أخرى فى حياتنا الثقافية أو اليومية بعيداً عن مقام ذلك النوع من



فاطمة قدرو وإنسانها الأسطوري

محمد الطحان يعزف على وتر الجنوب

الإبداع الذى ننشد فيه الجدة والأصالة والخصوصية ...

الحداثة الغربية

وعلى الجانب الآخر هناك من يحاول الإمساك بأسباب المعاصرة باحتمائه فى أساليب وقوالب فنية أفرزتها الحداثة الغربية، ربما يكون قد تم تجاوزها أو انبثقت فى ظل ما أصاب الحياة الغربية من أزمات ثقافية من فرط إحكام قبضة الساسة ورأس المال على وسائط التعبير الفنى المختلفة وشيوع النزعة المادية وذلك دون الإلمام ببواعثها وأغراضها فتكون النتيجة أشكالا فنية مشوهة ليس لها هدف واضح الأمر الذى يفرض علينا إعادة طرح السؤال الدائم وما يتبعه من أسئلة متعلقة وهو : لماذا الفن اليوم؟.. وما هى طبيعة الاحتياج الإنسانى له فى هذا الزمن ؟.. وعلى أية صورة أو كيفية تكون جدة العمل الفنى وأصالته ؟... ولابد أن تأتى الإجابات فى ظل سياق عالمى قد تعرى وفضح فكرة تطور الإنسان فى ظل الحضارة الغربية الراهنة، وأفصح عن وحشيته الكامنة تحت دخان أنظمة وأيديولوجيات براقة المظهر، الأمر الذى يجعلنا نضيف تساؤلات أخرى: هل مازال للفن والفنان دور فى حركة الحياة؟ وإن كان هذا ففى أى خندق يقف؟ هل يكون مع مقاومة ذلك الوحش الكاسر المدمر؟ أم فى خندق الأقوى؟..أم يكتفى بزخرفة الحياة



وينسحب خارج دائرة الصراع وحركة التاريخ ؟.

بالطبع لانبغى إجابات شفوية نظرية حتى لانقع فى المحظور فنقول ما لانفعل، وليس لدينا ما يؤدى إلى التسرع فيبقى باب المناقشة مفتوحا لعلنا نهتدى إلى إجابات عملية شافية، وعلى أية حال فهناك ما يجب الإشارة إليه فى هذه الجولة لكى تتضح لنا الصورة أكثر.. فيظهر النشوقاتى فى الـ «تاون هوس» Town House إحدى قاعات العرض الخاصة التى تتبنى ما تطلق عليه من وجهة نظرها الأفكار الحداثية أو الطليعية، ويقدم لنا تجربة فنية ربما تبدو مغايرة لما عرفناه به فى حقول التسابق والتجريب التى تتبناها المؤسسة الثقافية .. فهو يصيغ تكويناته الفنية - هنا - تحت فكرة الموت عبر وسيط ربما يخيل للبعض أنه أصبح تقليدياً فى خضم التقنيات المستحدثة التى فرضت نفسها فى حقل الفنون الجميلة فغيرت فى بنية مفاهيمها وخصائصها، إذ أنه يعتمد على الرسم والتلوين فى تجسيد رؤيته للموت عبر الجسد الإنسانى وطاقاته التعبيرية، وبغض النظر عما تحمله أعماله فى هذا المعرض من قيمة فنية.. فإن ما تعكسه من ملامح الأسى والألم - وان لم يكن هذا جديداً بصورته المجردة - يبدو قريباً فى هذا المضمون من تلك الصورة القاتمة التى تشكلها الأحداث

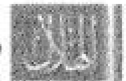
العالمية وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط، تلك الصورة التى تحيى بداخل كل منا وتكتم كل ألوان التفاؤل، ومن هذه الوجهة فإن أعماله فى هذه اللحظة الراهنة تذكرنا بقضية علاقة الفن بالمجتمع أو الزمان والمكان، وماهية القيمة الجمالية وعلاقتها بالتعبير، إذ ربما يعلو التعبير عنده عن لغة الشكل أو العكس فالمهم أنه مازلنا نلمس حلقة مفقودة يجب البحث عنها فى إطار خبرته وتجاربه المستقبلية .

البحث عن الهوية

وأما «محمد الطحان» فيصر على احتمائه بالحياة الشعبية المصرية وتراثها الإبداعى وما تحمله من ملامح ثقافية خاصة، تلك التى تلازمه مثل ظله منذ أن عرفته فى ثمانينيات القرن الماضى مصوراً وإنساناً صاحب حساسية وقناعات فنية خاصة تنخرط فى منعطف البحث عن الهوية المصرية فى إطار التراث الشعبى وفى هذه المرة يتخلى عن تكويناته السابقة التى كانت تعتمد على استلهامه روح الفن الشعبى برموزه وجمالياته بغض النظر عن الدلالة الرمزية المتعارف عليها، حيث كان اللون والملمس يؤديان دوراً مهماً فى تجربته الفنية، فبعد أن كانت حبيسة البعدين على جدار أو واجهة من واجهات البيوت بملامسها التى تفيح برائحة الأزمنة، فهو يخرج من هذه الدائرة المحدودة إلى فضاء أرحب بين رطوبة الأرض النيلية وحرارة شمسها، حيث يطبع إنسانها صورته الباطنة على جدرانها ويتنفس فيه عبق الحرية محتمياً بدفء «اللمة» فى صور أو مظاهر فلكورية يختلط فيها الموروث أو التقليد أو الطقس بالاحتياجات الإنسانية الدائمة للحرية والولوج فى عوالم أرحب خارج دائرة الحياة اليومية برتابتها ومحدوديتها، إذ تتبلور فى صور تعكس ما تنطوى عليه الذاكرة من أبعاد ثقافية يجسد منها «الطحان» ما هو مجرد من الأبعاد الغيبية أو ما يرتبط منها بعالمنا الأرضى المحسوس فلا ترى فى أعماله تلك الأجواء الفوقية بغموضها وآفاقها الخيالية .

إطار أسلوب فنى يفصح عن امتلاكه لحرفة عالية فى رسم الوجه الآدمى من منظور مفهوم المحاكاة ومكتسبات المدرسة الانطباعية .

وفى منطقة أخرى من فن التصوير، وفى قاعة ٥ × ٥، تظهر البحرينية العراقية «فاطمة فخرو» مواليد ١٩٤٣ برؤية تصويرية تفصح عن جرأة مثيرة للتقدير والإعجاب إذ تظهر متحررة من قيود وتقاليد الموروث الثقافى أو الاجتماعى، التى من شأنها الحد من حرية الإبداع والتحليق فى ممالك الخيال للإفصاح عن خبايا النفس ودوافعها المتعلقة بالحياة، فهى وإن بدت حالة بالحرية إلا أنها لم تنفلت من عالمنا الأرضى الملموس صاحب الأبعاد الحسية، وذلك رغم ما يبدو على أعمالها





عمل للفنان محمد الطمان يستنهض ذاكرة الحياة المصرية

من رؤية خيالية تتضح فى إنسانها الأسطورى المحمل بدلالات رمزية - ربما أفصحت عنها أساطير رمزية قديمة - تجسد من خلالها العلاقة السحرية الأزلية بين المرأة والرجل أى «ما بينهما من رباط مقدس» أعطته له معظم الحضارات الإنسانية .. ربما تتنوع صورته فى إطار جوهر واحد، وهنا فى عالم «فاطمة» يظهر الرجل في تكوينه الإنساني برأس ذكر البجع - أو الأوز - بلونه الأبيض، ويحمل حورية حمراء فى علاقة عضوية تبيح بما بينهما من تواصل إنسانى بصورة رمزية تحمل أوجهاً متعددة من التأويل لاتبرأ مما تحمله الفنانة فى أعماقها من أبعاد ثقافية ونفسية خاصة بها فى هذا الإطار، فربما تبدو العلاقة بينهما متكافئة أو متكافلة أو ربما تتفوق فيها المرأة قليلاً، فالحورية أو المرأة الأسطورية الحمراء ليست من ذلك الطراز الأنثوى الضعيف أو المستكين أو الذى يرتدى قناع الاستحياء إذ نراها

ثانية تمتطى جواد ذاتها الجامح لتنفلت من تشرنقات التقاليد بطاقة روحية ذاتية مستقلة عن أى دعم خارجي، وعلى الرغم من ذلك فإن حلمها يخرج من إطار الذاتية ليكون حلما إنسانياً عاماً فى هذا الزمن .

حوار ميلودرامي

فعلى الرغم من أنها تتناول أكثر الموضوعات شيوعاً إلا أنه يكتسب عندها أبعاداً رمزية خاصة، وتأتى الطبيعة لتمثل العنصر الثالث فى هذا الحوار الميلودرامى، إذ تبدو متجردة من معظم الملامح التى تربطها بهوية مكانية أو ثقافية محددة، ففى بعض الحالات تتجلى بأبعادها القطرية فى إعصار ليلى أزرق يتأرجح بين صورة تلاطم أمواج البحر أو سماء ملبدة بغيوم تحركها رياح عاتية، وفى حالات أخرى تتجلى فى أشجار خريفية قائمة متعرية السيقان وتتسم بغلظة وخشونة ربما تشير لما يموج به الواقع من قيود وغلظة وخشونة تستهدف الإنسان فى أى مكان، وعلى أى حال فإن أعمالها تتميز بصدق وصراحة شديدين مع النفس دون مواربة... وتحمل الكثير من الدلالات والإيحاءات الرمزية ليس أمامنا متسع لتحليلها وقراءتها بصورة كاملة.

وعلى الجانب الآخر يظهر منصور المنسى بأحدث إبداعاته فى فن النحت مع أربع فنانات هن : «نهى عبد الحفيظ» و«أمانى دهب» و« رشا محمود» و «نجوى » فى معرض جماعي بساقية عبد المنعم الصاوى تحت عنوان «وجدانيات» حيث تتنوع إبداعاتهن بين فن الحفر والكولاج والرسم والكمبيوتر جرافيك، ويشكل هذا العرض حالة تتكامل لتطرق أبواب المعاصرة وتمسك بأوتار اللحظة الراهنة، خاصة على مستوى الوسائط التقنية وما يحمله الشكل ومعالجاته الفنية من مضمون، ومن جانب آخر ترتبط مباشرة بالتراث المصرى.. إذ نجد «نهى عبد الحفيظ» تستلهم بعض الأشكال أو الرموز المصرية القديمة مثل «نوت» الهة السماء وغيرها فى إطار تقنيات الكولاج وقوالب الطباعة التقليدية

وتأتى «أمانى دهب» من خلال التصوير لتجسد وجهة نظرها ومشاعرها تجاه القضية الفلسطينية «الجرح الدائم» بإشاراتها الرمزية المباشرة فى صياغات فنية تتسم بمسحة تعبيرية يكتسب فيها اللون والخط بعداً مهماً، وفى إطار التعبير بالأبيض والأسود تأتى «نجوى» بجرأة فائقة لتجسد عالمها فى تكوينات عضوية خلية تتحرك فى فضاء أبيض شريطى مفتوح .

وأما «رشا محمود» فترتاد أكثر التقنيات أو الوسائط الفنية حداثة محتمية فى الفن الإسلامى أو العربى أو ما يطلق عليه على سبيل الخطأ الزخرفة الإسلامية، وتحاول الاستفادة من إمكانات الصورة الرقمية من حذف أو إضافة وتأثيرات لونية أو ملمسية وغيرها

مما هو متاح في برامج معالجة الصور وذلك لصياغة تكوينات فنية تتصف بملامح فنية خاصة تشير إلى خبرتها الأكاديمية في معالجة الشكل والتكوين، ولكن لابد من الوضع في الاعتبار أن التقنية الرقمية تعتبر من الوسائط المسيطرة بإمكاناتها الواسعة إذ تتطلب رؤية وحساسية فنية عالية من أجل ترويضها والانفلات من سحر مغرياتها .

ويأتي منصور المنسي في هذه المجموعة متفرداً برؤية فنية متبلورة في أسلوب فني يتمسك بلغة الشكل وخابراً بأسرار حوار الكتلة مع الفراغ، إذ يستمد مفرداتها من الكائنات الحية سواء إنسانية أو حيوانية وخاصة تلك التي تزاملت مع الإنسان المصري منذ فجر تاريخه فحفرت لنفسها في ذاكرته دلالات رمزية، فنرى في أعماله البومة والثور والإنسان والأفعى، فهو يعيد صياغتها في تكوينات معمارية تتسم بالصرحية ومحملة بدلالات رمزية إيحائية، أحيانا توحي بنوع من القوة والرسوخ، وفي أحيان أخرى توحي بحركة حلزونية تتشابه - في بعض الأعمال - مع معطيات الآلة الحديثة ومكوناتها، ومن هذه الوجهة تحمل أعماله ملامح عصرية مع احتفاظها بملامح محلية خاصة .. تتجلى في انعكاس ملامح المكان بتجلياته الطبيعية والإنسانية في تكويناته : سواء كان ذلك على مستوى الأسلوب الفني، الذي يستمد ملامحه من مكتسبات الفن الحديث وتراثه النحتي القديم أو كان على مستوى المضمون .

وفي كلية الفنون الجميلة بالزمالك يظهر «طاهر عبد العظيم» ليلفت الانتباه بعنوان معرضه: ألوان من بلدنا وذلك إلى ظاهرة مسميات المعارض في هذه الأيام التي غالبا ما تأتي في إطار الدعاية عن المعرض، حيث تحرى الجانب التشويقي ولفت الانتباه، بغض النظر عن مدى ارتباطه بمضمون المعرض، ونعود إلى أعمال طاهر عبد العظيم فنراه يستقي تكويناته من مناظر الحياة الشعبية القديمة بخطوطها المائلة وملامسها الرطبة ذات الألوان المحايدة، حيث تتحول إلى مساحات منسوجة من عجائن لونية سميكة تتنوع في درجاتها عبر انتقالات لونية هادئة، فيبدو المشهد كما لو كان في منطقة «شبه الظل» أي لاتجد ذلك النوع من التباين الحاد بين الضوء والظل المميز للطبيعة المصرية، وتظل ملامح المنظر كامنة في بنية العمل الفني بصورة تجعلها وسيلة لبناء فني يميل إلى التسطيح والاختزال فتبدو أعماله أشبه ببحث في بنية التكوين وعلاقاته اللونية أو الملمسية بغض النظر عما يحمله العمل من أبعاد أخرى سواء تعبيرية أو عاطفية أو خيالية أو حتى واقعية، ولكنها تفصح عن خبرته في مجال التصوير وعن ذهنية منهجية تتجه بخطوات ثابتة في البحث نحو هويتها الفنية . ■



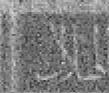


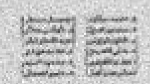
حوارات القاهرة
المثقفون والأزمة العراقية
تأليف: علي سعيد علي الفاتح
الناشر: مكتبة مدبولي

حوارات صحفية حيوية، أجراها الصحفيان علي سعيد وعلي الفاتح مع بداية الحملة الأمريكية على العراق وحتى بعد سقوط صدام في أبريل [illegible] تدور حول [illegible] الشخصيات السياسية [illegible] الاتجاهات [illegible] والمصرية، ويكمن أهمية تلك الحوارات أنها استطاعت أن تجمع بين التحليل الفكري وبين التحليل السياسي لوقائع سقوط بغداد برغم أنها لم تخل من الحماسة الزائدة التي تغلب عليها الرطانة القومية كما يذكر صلاح عيسى في تقديمه الكتاب.

حوارات تجمع عددا من الرموز في مختلف الاتجاهات، تبدأ بحوار مع أحد رموز الإسلام السياسي المهندس أبو العلا ماضي وكيل مؤسسي حزب الوسط وتنتهي بحوار مع نوري عبدالرازق المثقف والمفكر اليساري السياسي والذي يقيم بالقاهرة منذ عام ١٩٧٣ على اعتبار أنه أحد رموز المعارضة العراقية ويحمل سكرتير عام منظمة التضامن بين الشعوب الآسيوية والأفريقية، إلا أنهما اتفقا على إدانة الأنظمة المستبدة ونظام صدام حسين على وجه الخصوص.

كما يستعرض الكتاب عددا في الحوارات مع عدد من الشخصيات أمثال الدكتور أسامة الغزالي حرب والدكتور إسماعيل صبري عبدالله. الدكتور حسن حنفي والدكتورة دلال البرزي، الدكتور رفعت السعيد، الدكتور سعيد النجار وسليمان العسكري وضياء الدين داوود، وفهمي هويدي، محمد سيد أحمد، محمد عودة، ومراد وهبة، مكرم محمد أحمد. وإن كان أخطر ما جاء في الكتاب ما جاء على لسان فخري كريم المثقف العراقي وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي سابقا، أكبر وأهم الأحزاب العراقية المعارضة للنظام [illegible] في ختام حواره حال [illegible] بعد تسييده وثقافة [illegible] صار الاستبداد [illegible] حتى في زوايا البيت. فالأب يستعيد الوشاية بابنه والمرأة بزوجها والنظام يكافئها ويسميها «الماجدة»، ويكافئ الأب الذي يضرب ابنه بالرصاص لأنه هرب من الجندية والنظام عود الطفل في المدرسة كتابة تقارير بصيغة موضوع إنشائي مدرسي عما يقوله والداه عن شخص السيد الرئيس. ثقافة الاستبداد هي ابتسار الأدب العراقي في أدب الحرب وابتسار الشعر في قصائد مديح القائد المهيب وابتسار الرواية العراقية في الروايات التي تمجد صدام حسين...





الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربي
المؤلف: مجموعة من المقالات
الناشر: مكتبة مدبولي

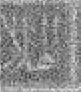
مجموعة من المقالات البحثية التي صدرت ضمن فعاليات ندوة «الدولة الوطنية في ظروف العولمة»، وذلك كثمرة تعاون بين مركز البحوث العربية والأفريقية بالقاهرة ومركز البحوث والدراسات الاستراتيجية بجامعة دمشق. تناولت الندوة الجوانب الاقتصادية والسياسية لقضية الدولة الوطنية وذلك وفق تعميق مفهوم قضية الاستحواذ على النظام الرأسمالي العالمي الوحشي المسمى بالليبرالية الجديدة.

في القسم الأول [illegible] المقدمة المفهوم والـ[illegible] الدكتور سمير [illegible] ومفهوم الدولة [illegible] العلاقات المعقدة [illegible] ينطلق من نقد الخطاب السائد للعولمة، بل ولابد أن يرد على مقولات بأن العولمة هي نهاية التاريخ خاصة أنها ظاهرة تتضمن نوعاً من الثبات خلال الفترة التاريخية القائمة. أما الدكتور محمد دويدار يناقش الفلسفة الاقتصادية لمنظمة التجارة العالمية وأبعادها القانونية حيث يرى أن فهم اقتصاديات المنظمة الجديدة يحتاج إلى التعرف على خصائص حركة الاقتصاد الدولي في العقود الماضية، وعلى جهود تنظيم الأسواق الدولية من خلال المنظمات الاقتصادية الدولية، وذلك كمحاولة للتعرف على كيفية تحويل الاقتصاد الدولي إلى سوق واحد لا تعرف الحواجز أمام حركة السلع سواء المادية أو الخدمية أو التكنولوجية.

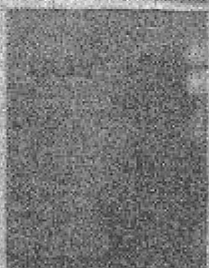
أما القسم الثاني يضم ورقة بحثية الدكتور منير الحمش حول موضوع آليات وأدوات الاختراق والهيمنة الأجنبية وذلك من خلال تناول دور صندوق النقد الدولي، البنك الدولي ومؤسساته، ومنظمة التجارة العالمية والشركات متعددة الجنسيات في إطار شبكة العلاقات الدولية والنظام الرأسمالي العالمي وفرض جدول أعمال اقتصادي وسياسي على الدولة الوطنية، مما يشكل مساساً وتعدياً على سيادتها. ويحاول البحث في السبل أمام البلدان النامية للانعتاق من أسر الرأسمالية العالمية وشباك العولمة في الوقت الذي تعمل الرأسمالية العالمية على إضعاف الدولة وتهميشها.

وإن كان القسم الثالث يتناول قضية الهيمنة الاجتماعية والإعلامية، حيث يتناول عبدالغفار شكر مسألة اختراق المجتمع المدني في الوطن العربي خاصة مع تزايد نطاقه [illegible] من ٢٠ ألف مؤسسة في منتصف [illegible] إلى ٧٠ ألف مؤسسة في أواخر [illegible] المجتمع المدني [illegible] الثقافية باللغة [illegible] الأبعاد العالمية والدولية علاوة على المتغيرات الداخلية [illegible] في ظل رؤية الكاتب [illegible] التي يمارس الغرب من خلاله نوع من مجتمعاتنا وإحكام قبضته عليها.

وتواصل الأبحاث أيضاً وأضيف التعمق لقضية العولمة من خلال تناول عدد من الموضوعات المتعلقة مثل الهيمنة المعلوماتية والإعلامية وآثارها للدكتور محمود السيد، كذلك يتناول العولمة من خلال خبرات التعامل مثل تجربة المواجهة في الصين وكوريا للدكتور شوقي جلال، ثم عن الدول العربية وإطارها القومي إزاء العولمة لكل من جميل مطر والدكتور أحمد برقاوي والدكتور الطيب تيزيني.







الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول

تأليف: روى متحدة

ترجمة: أشرف كيلاني

ناشر: المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

يتناول كتاب روى متحدة الجديد السلوكيات والروابط الاجتماعية التي أعطت شكلاً للحياة السياسية في المجتمع الإسلامي الأول الذي ظهر منذ أكثر من ألف عام.

ويصف الطرق التي استعملها أفراد المجتمع لصياغة تحديداتهم والتزاماتهم تجاه بعضهم [illegible] الحياة السياسية [illegible]

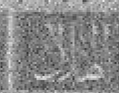
اعتمد [illegible] الكتاب على تحليل مادة الحكايات التي [illegible] ذلك بقيها مادة أكثر بساطة من التحليلات والأبحاث والمقالات التي تتناول بناء المجتمع خاصة التي تم وضعها خلال القرنين العاشر والحادي عشر. فالكاتب يرى أن المسئولين الحكوميين والعلماء ورجال الأدب الذين كان معظمهم مصدراً للغالبية العظمى من تلك الحكايات لم يتحرروا من تأثير مناصبهم وشخصياتهم ورغم أنها تمتلئ بالتفاصيل بهدف جعلهم أشخاصاً واقعيين ومن ثم يمكن تصديقهم.

وانصب اهتمام الكاتب بسلوكيات الأفراد وليس الجماعات لأنها أقدر على إعطاء وصف دقيق لشكل الحياة السياسية. فنجده يقدم وصفاً للبناء الاجتماعي الذي كان قائماً في غرب إيران وجنوب العراق خلال القرنين العاشر والحادي عشر والسلوكيات والروابط الاجتماعية المختلفة من خلال الأشكال المختلفة للولاء والالتزام والقيادة في فترة غلبت عليها الفوضوية على الشئون العامة في أعقاب سقوط الخلافة الإسلامية.

ويذكر «متحدة» أن محمداً صلى الله عليه وسلم قبل أن يقود مجتمعاً سياسياً كان واضحاً بأن الرؤية الأخلاقية للإسلام لها مضامينها السياسية. فالإسلام دين ينظر فيه إلى الحياة العامة على أنها مسئولية جماعية للمجتمع وقام القرآن الكريم بإعطاء التنظيمات التي يجب على المجتمع أن ينهض بالمسئولية وفقاً لها.

وعندما كان محمد ﷺ على مدى الاثنى عشر عاماً الأخيرة من حياته القائد الفعلي لمجتمع سياسي، فقد تأكد الجانب السياسي للعقيدة الإسلامية وتطور على نطاق واسع. وعندما توفي محمد ﷺ لم يعد هناك ملهم [illegible] للمجتمع الإسلامي سرعان ما تفجرت النزاعات حول اختيار قائد جديد. وعندها [illegible] المسلمين على أنه يجب [illegible] المجتمع الإسلامي قائد واحد.

ويذكر [illegible] اتفاق جماعة المسلمين على [illegible] القرآن [illegible] الحافظ الأول الذي تركه محمد ﷺ لأمته [illegible] على سنته النبوية وهي الحافظ الثاني كوسيلة لنشر تعاليم الإسلام. أما الحافظ الثالث وهو آل محمد ﷺ كان سبباً لكثير من الخلاف. اعتقد بعض أن محمد ﷺ أراد لأسرته أن تخلفه في قيادة الأمة، ومع ذلك فعند وفاة محمد لم تقبل غالبية المسلمين النظرية التي تتمحور حول آل محمد ﷺ إلا عند مقتل الخليفة الثالث عثمان كان ذلك إيذاناً ببداية أول حرب أهلية في الإسلام. واستمر المنحدرين من نسل علي أو العلويين يلعبون دوراً مهماً في العالم الإسلامي، واعتبر معظم المسلمين



أنه واجب ديني إظهار علامات احترامهم العظيم للعلويين، ومن ثم يبحث الكتاب في الولاءات المكتسبة وهي كما يرى «متحدة» ولاءات إيجابية استخدمها الناس كأساس للتعاون وتتجلى في أفضل صورها أوقات الشدة.

وفي الفصل الثالث يتناول ولاءات الطبقة أي المصلحة المشتركة التي تتسم بالوعي الذاتي والتي تجعل الفرد يضع نفسه ضمن طبقة لها نفس المصالح، فيشرح مفهوم المرء، الطبقة، الرعية، الأعيان الرئاسة والرئاسة بين العلماء، الأحداث والعيارون، الطوائف، ويختتم الكتاب بفصل عن مفهوم الملكية والعدالة وشكل المجتمع خلال فترة البحث.



معجم «المكنز الكبير»
المؤلف: د. أحمد مختار عمر

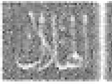
هذا المؤلف كما جاء على غلافه «معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادات».

وليس من سبيل إلى وصف هذا المعجم الفريد الجديد إلا وصفه بأنه مجموعة معاجم في معجم واحد، بل إن هذا الوصف لا يوفيه حقه من التقدير، فهو لا يجمع هذه المعاجم ولا يضيفها إلى بعضها أو ينسقها، لكنه يفعل ما هو أرقى وأنقى وأعمق وأعرض وأروع وأرفع من هذا بكثير، إنه يقدم مستويات متعددة من العمل المعجمي في نفس اللحظة، وكأنه صورة متقدمة من فن التصوير الذي كان يعرف - ولا يزال - بأنه الإيحاء بوجود بعد ثالث، فإذا بهذا «المكنز» يقدم لنا كل الأبعاد الممكنة وغير الممكنة بما فيها بالطبع البعد الرابع المرتبط بالزمن بل بما فيها بعض ما لا تتكفل به إلا الحاسة السادسة.. وهو يفعل هذا من خلال فكرة ذكية تحشد إلى استغلال كل مدخل لكل ما يمكن من استخدام وتوظيف لغوي وأدبي ودلالي بل ومجازي أيضاً.

بهذه الفكرة الذكية التي قد تبدو - الآن وبعد إنجازه عمله العظيم - بسيطة تمكن هذا العالم الجليل من أن يطوع مفردات اللغة وجذورها لقراءة جديدة تنطلق من حيث تبدأ كي لا تنتهي إلا وقد أحاطت باللغة واستقصتها استقصاء علميا محددا كفيلا بأن يستوعب كل ما هو متصل بالمدخل من قريب أو بعيد.

وإني أكاد أتخيل عالمنا الجليل وقد جلس إلى هذا المعجم وأخرج الدنيا كلها من اهتماماته حتى إذا صفت له نفسه أخذ ينظر إلى الدنيا وإلى الحياة وإلى الطبيعة وإلى ما وراء الدنيا وما وراء الحياة وما وراء الطبيعة، ثم يمعن في هذه النظرة وكأنه لا يرى في كل شيء إلا بعض صورة من غيره، حتى لو كان هذا بالتضاد أو التشابه أو التخالف أو الترادف أو التكامل أو التفاضل، وهو معني باستخدام كل قدراته العقلية من تحليل وربط وتركيب وتجريد وتجسيم وتشبيه وتصور وتخيل واستنتاج واستنباط واستقراء، وهو في كل هذا قادر قدرة منحها له الله سبحانه وتعالى على أن يصل في سرعة البرق إلى هذه القرارات اللغوية التي تستلزم جهود المجامع وتستنزف جهود الإدارات وربما لا تصل بعد هذا كله إلى بعض ما وصل إليه.

ولو أن مسار القرون يتنبأ به من خلال بدايتها فإنه يمكن لنا القول بأن القرن الحادي والعشرين سيشهد نهضة توظيف للغة العربية إلى آفاق لم تصلها طوال تاريخها على نحو ما تبدى في وضع هذا المعجم العظيم في بداية هذا القرن الذي ربما يكون من حظه في نظر خلفائنا أن يعرف بأنه القرن الذي شهد في بدايته وضع «المكنز الكبير» وصدور طبعته الأولى.



مشــروع

من أجـل حمـايـة الوثـائـق والأوراق الشخصية

بقلم
د. رءوف عبــاس

تعد الأوراق الشخصية (أو الخاصة) مصدرا لا غنى عنه لكتابة التاريخ المعاصر لأى أمة متمدنة، ونعنى بها الأوراق التى تتجمع لدى الشخصيات العامة، التى تلعب دورا فى الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية. وقد تتخذ تلك الأوراق طابع «المراسلات الخاصة» التى تتلقاها الشخصية العامة ممن يدخلون فى دائرة نشاطها، أو من تربطهم بها روابط الصداقة. وقد تتخذ صورة «اليوميات» التى يبثها صاحبها مكنون نفسه، وما تمنعه طبيعة عمله، أو وضعه الاجتماعى، أو علاقاته الإنسانية عن البوح به للآخرين.

ولعل أبرز مثال لذلك يوميات سعد زغلول التي نشرتها دار الكتب بعنوان «مذكرات سعد زغلول» بتحقيق بالغ التواضع قام به عبدالعظيم رمضان وقد تتخذ الأوراق الشخصية طابع «المذكرات» التي يكتبها صاحبها عادة اعتمادا على يومياته وقد لا ينشرها في حياته، ويوصى بنشرها بعد وفاته بعدد معين من السنين.

وفي بلادنا تتضمن «الأوراق الشخصية» لمن يتولون مناصب عامة، وثائق الدولة الرسمية، التي يجمعها شاغل المنصب العام «رئاسة هيئة أو وزارة أو رئاسة الوزراء» عند تركه للمنصب باعتبارها أوراقه الشخصية رغم أن بينها ما قد يكون نسخة فريدة من مذكرة مهمة أو سرية، ورغم ما تتعرض له هذه الأوراق «الخطيرة» من تلف وضياع عندما يلبي من جمعها نداء ربه، فيبددها الأبناء وهذه الظاهرة لا نجد لها أثرا في البلاد المتقدمة التي تضع ضوابط قانونية للحفاظ على وثائق الدولة، فعندما كتب ونستون تشرشل مذكراته عن «الحرب العالمية الثانية» حصل على إذن خاص من مجلس الوزراء بالاطلاع على الوثائق التي كانت لاتزال في مرحلة السرية، واطلع عليها وفق ترتيب خاص بالأرشيف القومي «دار المحفوظات العامة» رغم أن تلك الوثائق صدرت منه، أو قدمت له، أو شارك في صنعها عندما كان رئيسا للوزراء خلال الحرب، ولكنه لم يحملها معه عند تركه المنصب كما يفعل أصحاب المناصب الرفيعة عندنا. وكلنا نذكر ما نشره «الأهرام» في صدر صفحته الأولى من تغطية لترك رئيس وزراء أسبق لمنصبه، من أن موظفي رئاسة الوزراء خرجوا في وداع سيارة نقل حملت «أوراقه الخاصة» وبعض الملابس الرسمية التي كان يحتفظ بها في مكتبه ولا يدهشنا أن يبلغ «نزيف» الوثائق الرسمية التي حملها معه شحنة سيارة نقل، فقد قضى الرجل في المنصب ما يزيد على الثماني سنوات.

***

هذه مقدمة طويلة - لابد منها - لكي نقف على أهمية «الأوراق الشخصية» كمصدر لكتابة التاريخ المعاصر، لأنها تخص أناسا لعبوا أدوارا أساسية في صياغة أحداث ذلك التاريخ، لذلك فكرت مجموعة من المؤرخين العرب في مشروع لإقامة مركز عربي «خاص»

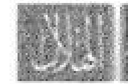
بجمع الأوراق الشخصية من عائلات من رحلوا من الساسة والشخصيات العامة، وترتيبها، وتصنيفها وفهرستها وإتاحتها للباحثين للاطلاع أو الحصول على نسخ بصورة من بعضها وفق مادرجت على العمل به دور الأرشيف في مختلف بلاد العالم المتمدن.

وكان الدافع للتفكير في المشروع - فيما علمت - ما سمعه أصحاب المشروع من كثرة العروض التي يتلقاها مركزا دراسات الشرق الأوسط بجامعتي أوكسفورد ودرام ببريطانيا من عائلات الساسة العرب - على وجه الخصوص - لإيداع أوراقهم الشخصية بأحد المركزين حتى أصبحت الطاقة الاستيعابية لهما عاجزة عن تلبية الطلبات التي يتلقيانها. وقيل في تبرير حرص تلك العائلات على إيداع الأوراق الخاصة لمورثهم في أرشيفات معاهد أجنبية خارج الوطن العربي، بدلا من إيداعها دور الوثائق الرسمية في بلادهم، أنهم يخشون أن تتعرض - عمدا - للتلف، أو يساء تخزينها وحفظها أو يتم حجبها عن الباحثين، على أساس أن الأمور في بلادنا تسير حسب إرادة المتربع على كرسي السلطة، وأن قوانين الحفاظ على الوثائق وإتاحتها للباحثين، قلما تحظى بالاحترام. وخاصة أن كل نظام يرى في نفسه منقذ البلاد والعباد من الضياع، ويعتبر أن ما جاء به هو الحق بعينه، وأن ما كان قبله باطلا، لذلك تفتقر النظم الحاكمة في الوطن العربي إلى الوعي بالتاريخ وبأهمية الأرشيف القومي كمستودع لذاكرة الأمة وسجل لتجاربها. ونادرا ما تعي تلك النظم دروس التاريخ، فتقع في نفس الأخطاء الفادحة التي وقع فيها أسلافها، فلا عجب أن يخشى أصحاب الأوراق الشخصية من عواقب إيداع تلك الأوراق الأرشيف الوطني لبلادهم.

مراسلات محمد فريد

ولكن بقاء تلك الأوراق بيد تلك العائلات لا يخدم تاريخ البلاد من قريب أو بعيد لأنها تظل بمعزل عن متناول الباحثين وأذكر - في هذا السياق - المراسلات الشخصية التي كان يبعث بها الزعيم محمد فريد لعائلته أثناء وجوده في منفاه الاختياري بأوروبا، إلى عائلته بمصر، والتي رأيت نماذج منها عند المستشار عبدالخالق فريد، وعلمت أنها تزيد على المائة وستون خطابا.

وقد توفي عبدالخالق فريد، ولا نعرف أين توجد تلك الخطابات الآن. وكذلك



خطابات نوبار باشا التى كان يرسلها لعائلته أثناء وجوده بأوروبا فى مهام كلفه بها الخديو اسماعيل، أو أثناء وجوده هناك فى أواخر عهد اسماعيل، وقد شاهدت بعضها - أيضا - عند حفيده مريت غالى الذى رحل منذ سنوات ولا نعرف مكانها الآن. فوجود الأوراق الشخصية لدى العائلة لا يضمن الاستفادة منها كمصدر لكتابة التاريخ. وقد تقع - فى نهاية المطاف - فى يد من لا يقدر قيمتها من الورثة، فيتم إهدارها أو ضياعها.

وضمت المجموعة التى فكرت فى مشروع إقامة «مركز عربى للأوراق الشخصية» د. نادية البغدادى، وهى ألمانية من أصل عراقى وتعمل بجامعة وسط أوروبا ببودابست (المجر)، ود. بسمة قضمانى، وهى - فيما أعلم - سورية الأصل وتعمل بمؤسسة فرانكلين بالقاهرة والأستاذ فاروق مردم بك، وهو سورى يعمل بمعهد العالم العربى بباريس والأستاذ جميل مطر الباحث والكاتب المصرى المرموق مدير المركز العربى للتنمية للقاهرة.

وتفتق ذهن أصحاب المشروع عن ضرورة عقد إجتماع تحضيرى لوضع الأسس العامة التى يصاغ على أساسها المشروع، يتخذ شكل مائدة مستديرة يدعى إليها بعض الشخصيات العربية والأجنبية من أهل الاختصاص، ومن أصحاب الخبرة بالوثائق، والمشتغلين بدراسة التاريخ العربى المعاصر. واختير معهد العالم العربى بباريس مكانا لاستضافة الاجتماع (دون أن تكون له صلة رسمية بالموضوع فلا يدخل المشروع ضمن دائرة اهتماماته)، وتولت مؤسسة فرانكلين بالقاهرة مسئولية تحمل نفقات الإقامة فى باريس للمدعوين للاجتماع، وتحملت جامعة وسط أوروبا نفقات السفر للمدعوين من الخارج.

وبدأ الاجتماع بعرض عام لفكرة المشروع قدمته كل من نادية البغدادى وبسمة قضمانى، وشاركهما العرض فاروق مردم بك، وسلم الجميع بأهمية تجميع الأوراق الشخصية وضرورتها الحيوية ولكن تركز النقاش حول نقاط رئيسية أراها بالغة الأهمية، هى: الشكل القانونى والتنظيمى للمركز المقترح، مكان إقامته، مصادر تمويله، كيفية أدائه لمهامه، العلاقة بين المركز وأصحاب الأوراق الشخصية، طرق ووسائل إتاحة هذه الوثائق للباحثين ومدى إمكانية نشر

بعضها نشرا علميا محققا.

مواصفات المراكز البحثية

أما عن الشكل القانوني، فأقترح أن يكون المركز مؤسسة خاصة مستقلة لا تهدف لتحقيق ربح، يديرها «مجلس أمناء» يختار أعضاءه من بين الخبراء المشهود لهم بطول الباع في هذا المجال، وتكون للمركز لائحة أساسية تحدد كيفية اختيار أعضاء مجلس الأمناء وصلاحياته، والجهاز الفني والإداري للمركز، وطريقة عمله، والجوانب المتصلة بالحقوق القانونية لأصحاب الأوراق الشخصية فيما يودعونه أرشيف المركز من أوراقهم، ونوع الضمانات التي تقدم لهم مقابل تفويض المركز حق التعامل مع تلك الأوراق وفق الأصول المتعارف عليها دوليا لمثل هذا النوع من النشاط.

مرونة في بيروت

واقترح أصحاب المشروع مدينة بيروت مقرا للمركز المقترح، وحجتهم في ذلك أن القانون اللبناني أكثر مرونة من غيره من القوانين العربية الأخرى، في إتاحة مساحة واسعة من الحرية لهذا المركز للعمل، ولخلو لبنان «تقريبا» من الأجهزة الحكومية التي تعنى بمطاردة مثل هذا النوع من المراكز بحجة «الدواعي الأمنية»، وقيل أيضا أن وجود المركز في بيروت يبعث الطمأنينة في نفوس أصحاب الأوراق الشخصية، ويشجعهم على التعامل مع المركز المقترح كما أن بيروت ربما كانت أيسر العواصم العربية دخولا للقادمين من خارج لبنان من الباحثين الذين يترددون على المركز.

أما عن مصادر التمويل التي يعتمد عليها مثل هذا المشروع الطموح الذي يحتاج إلى تخصيص مقر خاص ملائم، مجهز بكل وسائل الحفظ المادي «أرشيف الأوراق» والالكتروني بما يحتاج إليه من معدات متطورة، هذا فضلا عن تكلفة الأجور والرواتب للعاملين بالمركز «نفقات الادارة» وغيرها من نفقات ضرورية، فقد رأى أصحاب المشروع أن يكون التمويل معتمدا على الهبات المالية التي تقدمها بعض الشخصيات العربية الثرية، والتبرعات التي يجود بها الأفراد والمنح الأجنبية التي يتم الحصول عليها من الجهات والمؤسسات المعنية بتشجيع مثل هذا النوع من النشاط العلمي.

أما عن العلاقة بين المركز المقترح وأصحاب الأوراق الشخصية فترتكز على «الثقة» التي يوفرها الوضع القانوني والنظام الأساسي للمركز، وموقعه في بيروت. وأن يكون إيداع الأوراق أرشيف

المركز دون مقابل مادى، أو مقابل قيمة رمـزية، أو حـتى السـمـاح للمـركـز بالحـصـول على صـورة رقـمـيـة لتلك الأوراق، مع احـتـفـاظ أصـحـابهـا بهـا. ويلتزم المركز باتباع تعليمات أصحاب الأوراق فيما يتعلق بالإتاحة.

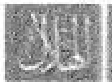
أمـــا عن طرق حـــفظ الأوراق الشخصية التى يحصل عليها المركز، فقد دار حديث طويل استغرق جلسة كاملة خـصـصت لهـذا الغـرض، تم فـيـهـا استعراض تجارب الأرشيفات الأوروبية فى هذا الصـدد. وقـدمت نادية الرزينى (مؤسسة ومديرة مركز الرزيني للأوراق الشخصية بمدينة فاس بالمغرب) تجربتها الخاصة فى إقامة مركز للوثائق والأوراق الخاصة بعائلتها ذات الأصل الأندلسي، والتى يرجع تاريخـهـا إلى قـرنين من الزمـان. فـقـامت بتجـمـيع تلك الأوراق والحـجج فى بيت العـائلة بمدينة فـاس الذى حولته إلى أرشيف ومتحف خاص بالعـائلة، وبينت كيف أن التجربة جذبت انتباه عائلات فاس، فأودعت ما لديها من أوراق بمركز الرزيني.

أين تقام تلك المراكز؟

وتحول الحديث إلى ضرورة التركيز على الحفظ الرقمى باستخدام الوسائط الإلكترونية الحديثة، وقدم سليم تمارى عرضا عن آخر ما تم التوصل إليه فى هذا المجال، وتعددت الآراء حول أفضل البـــرامج والوســـائط التى يمكن اسـتـخـدامـهـا، وبدا الحـديث فى تلك التفاصيل غريبا سابقا لأوانه، ذكرنى بالمثل الفلاحى المصرى «يشترى الوتد قبل الجاموسة» وبقصة بائعة اللبن التى قرأناها بكتاب المطالعة فى بداية التعليم الابتدائى قبل ما يزيد على نصف القرن. فـهـا نحن نتـجـادل حـول أفضل النظم والبـرامج والوسـائط الالكتـرونيـة التى تستـخـدم فى المركز الذى لم ينشأ بعد، مع إدراك مـا يتـسم به التطور فى هذا المجال من سرعة الايقـاع، وأن مـا قد نفضله اليوم يصبح «دقة قديمة» عندما نصل إلى مرحلة التطبيق.

واتفق على أن تكون الإتاحة مطلقة للراغبين فى الإطلاع على ما لدى المركز من مقتنيات الأوراق الشخصية لأغراض البحث العلمي، مع إمكانية الحصول على صور ورقـيـة أو رقـمـيـة من تلك الأوراق وفق ضـوابط خـاصـة يضـعـهـا مـجلس الأمناء.

وقـد دار حـوار طويل حـول مـدى مـلاءمـة الأوضـــاع الحـاليـة فى الوطن



العربى لإقامة مثل هذا المركز فى الوقت الراهن، وشكك البعض فى جدوى اختيار بيروت مقرا للمركز، واقترح البعض الآخر أن يقام المركز فى بلد أوروبى، أو حتى فى قبرص لتوفير الثقة الكافية فى المشروع وجديته وطمأنة أصحاب الأوراق الشخصية على سلامة التعامل مع أوراقهم، والحرص عليها وحسن استخدامها، أو عدم إساءة استخدامها، وتعلل أصحاب هذا الرأى بأن من يستطيع السفر إلى بيروت للاطلاع على أوراق معينة يمكنه السفر إلى باريس أو لندن أو ليماسول طالما توفرت لديه إمكانات السفر. وبرر ذلك كله بعدم توفر الضمانات الكافية التى يحتاجها أصحاب الأوراق الخاصة التى تجعلهم يثقون فى التعامل مع المركز لو كان مقره بإحدى العواصم العربية.

ولم نحبذ فكرة إقامة المركز فى «المهجر» لاجتذاب ثقة أصحاب الأوراق الشخصية فيقبلون على التعامل معه، لأن ذلك - لو تم - لن يفيد الباحثين العرب فى دراسة تاريخ بلادهم المعاصر، لبعد الشقة وصعوبة الحصول على «منح» دراسية تمكن الباحث من السفر إلى الخارج على نحو ما يحدث فى بلاد الغرب. وقلنا أن من الأفضل أن نبحث عن «صيغة قانونية» مناسبة لخدمة هذا الهدف مثل إعداد قانون نموذجى للحفاظ على الوثائق القومية تتبناه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليسكو)، وتوضع على ضوئه قوانين الحفاظ على الوثائق فى دول الجامعة العربية، ومن بينها الاهتمام بالأوراق الشخصية.

ومن الممكن أن يضع المركز المقترح صياغة مثل هذا القانون النموذج بين أولوياته، لأنه لا يمكن لمركز هكذا أن يضع يده على «جميع» الأوراق الشخصية فى الوطن العربى، ولأنه من المنطقى والأفضل أن تشجع الأرشيفات الوطنية فى البلاد العربية على الاهتمام بالأوراق الخاصة والحرص على جمعها وتوفير الضمانات لأصحابها، وحفظها بطرق مناسبة وإتاحتها للباحثين.

غير أن اقتراحنا هذا كان صرخة فى واد، واتجهت المناقشات إلى ما سبق أن تناولناه من نقاط تتصل بالبناء الهيكلى للمركز وطريقة تعامله مع أصحاب الأوراق الخاصة، ووسائل حفظ وإتاحة ما لديه للباحثين.

وانفض الاجتماع على أن نحاط علما بمضبطة وافية له ولما طرح فيه من

اقتراحات (لم تصلنا حتى كتابة هذا المقال) وعلى وعد بعقد اجتماع آخر فى مكان وزمان يحددان - عندئذ - للنظر فى الخطوات التنفيذية للمشروع.

وخرجت بانطباع أن المسألة ليست مجرد استطلاع لرأى «الخبراء» حول مشروع إقامة مركز «اقليمى» للأوراق الشخصية، وأن هناك خطوات ربما تكون قد اتخذت فى هذا الصدد بالفعل، وربما كان هذا الاجتماع لاستيفاء بعض متطلبات الجهات الممولة للمشروع «الواهبة» العربية أو «المانحة» الأجنبية، فقد أغلق تماما باب الحديث عن تفاصيل قضية التمويل، كما لف الغموض الإجابات التى قدمت عن الأسئلة الخاصة بكيفية تشكيل مجلس الأمناء، وطريقة اختيار أعضائه، ومن لهم اليد الطولى، والكلمة الفصل فى هذا الصدد، رغم أنها مسألة لها - فى رأيى - الأولوية عن قضية وسائط الحفظ ووسائل الإتاحة التى استغرق النقاش حولها وقتا طويلا.

على كل، لا يعنى ذلك أننا نشك فى حسن نوايا أصحاب المشروع، ولا نتساءل حول دوافعهم، فالمسألة مهمة، وتحتاج إلى تحرك سريع لإنقاذ مجموعات كبيرة من الأوراق الشخصية التى لا يمكن أن يكتب تاريخ دقيق لبلادنا فى غيبتها، قبل أن تذروها رياح الإهمال والتلف. وهناك أوراق تتصل بتاريخ الحركة العمالية فى مصر والحياة الحزبية - على سبيل المثال - أتيح لى الاطلاع عليها فى الستينات لدى أصحابها، لا أعرف مستقرها الآن، ولم يطلع عليها أحد بعدى، وقس على ذلك الكثير من الأوراق الخاصة المخفية بدء بأوراق مصطفى النحاس باشا التى كانت لدى فؤاد سراج الدين وانتهاء بأوراق العديد من الشخصيات التى تولت مناصب وزارية، ونزحت معها ما ضمته المكاتب من وثائق الدولة، وهو نموذج يتكرر - بالمناسبة - فى كل البلاد العربية.

لقد آن الأوان - حقا - لوضع الضوابط القانونية التى تمكن دور الوثائق القومية «الأرشيفات الوطنية» من الحصول على هذه الوثائق، مع وضع الضوابط الكفيلة بالحفاظ عليها وإتاحتها للباحثين فذلك أفضل كثيرا من ترك هذه الوثائق تقع فى أيدى مؤسسات خاصة، لا يدرى أحد شيئا عن القنوات التى تصلها بجهات قد يكون من مصلحتها حجب تلك الوثائق عن الباحثين العرب. ■

المدرسة السعيدية

صانعة التاريخ

بقلم
د. سلمان أبوستة

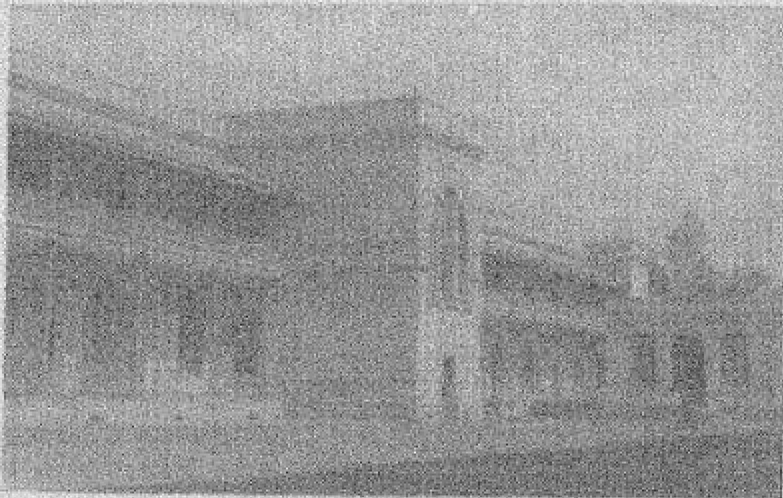
هناك صروح للعلم تكتسب إسما وتاريخا ليس بسبب مبانيها المميزة، بل لما تخرجه من شخصيات تصنع التاريخ وتؤثر فيه فهل منا من لايعرف أكسفورد أو السوربون أو الأزهر أو القيروان؟

فى هذا السياق، وإن بدرجة أقل كثيراً تأتى مدرسة السعيدية، الجارة الصغيرة للجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول ثم جامعة القاهرة فيما بعد)، التى أنشئت مثل الجامعة فى مطلع القرن العشرين. فقد أنشئت المدرسة السعيدية عام ١٩٠٦ وانتقلت إلى مبناها الحالى عام ١٩٠٨.

لقد تمتعت السعيدية منذ إنشائها بميزات عديدة كانت مبانيها فخمة، تحتوى إلى جانب الفصول، على فيلا لسكن الناظر، الذى كان إنجليزيا فى البداية، ثم مصريا حمل لقب بك، وتحتوى على مسرح، ومكتبة، ومعامل ومصلى، وملاعب واسعة وقل أن يدخلها آنذاك طالب لاينتمى لأسرة علم أو مال أو مركز ربما لاقتصار طالب العلم على تلك الفئات.

لقد أصبح تاريخ المدرسة هو تاريخ طلابها الذين برزوا فى ميادين عديدة. لقد كانت المدرسة هى التربة التى نموا فيها، والتى يعزى إليها نجاحهم وتفوقهم فيما بعد، وليس مقياس النجاح دائما هو الشهرة، إنما هو دور الشخص فى تفعيل المجتمع وتحسين حاله وتنويره وتركه عند وفاته أحسن حالاً بقليل مما كان عليه عند مولده.

أما الشهرة، فهى علم الناس باسم الشخص لابقيمته للمجتمع وقد تكون الشهرة لمن أصاب حظاً، أو اقترف إثماً، فهى بالقطع ليست مقياس النجاح.



المدرسة السعيدية عام ١٩٢٤

وحظ السعيدية بخريجيها النابهين من النجاح كبير وهو ما عبر عنه كتاب «عظماء ومشاهير السعيدية» الذى أعده خريج السعيدية اللواء فاروق رجب وبذل فيه جهداً كبيرا لجمع المعلومات من مصادر متناثرة، لعدم وجودها فى مكتبة المدرسة . لقد تصفحت الكتاب بشوق، فهى مدرستى التى تخرجت فيها منذ حوالى خمسين سنة أمامى بكل ماضيها الناصع ورغم أن جهد المؤلف جهد طيب، ليس له الكثير ممن ينافسونه، لكنه أشبه بدليل أصحاب المراكز وأصحاب الشهرة .

غاب عن الكتاب ما صنعته المدرسة بأجيال من الطلاب انطلقوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، يخطون طريقهم ويتركون آثارهم فى حقول بعيدة عن الشهرة، أو بلاد بعيدة عن جغرافيا مجتمع القاهرة الوزارى .

أين ذكر حمزة أبو الفضل، الطالب القروى البسيط المخلص لدينه والوفى الأصدقائه الذى أتى من البدرشين ليختلط بأبناء الذوات؟ أين هو الآن ؟ لابد أنه نشر النور حيث ذهب .

أين ذكر جلال بهجت الذى كان يتحرق شوقا فى شبابه الغض إلى الدفاع العسكرى عن الوطن ، فقضى نحبه شهيدا عام ١٩٦٧ ؟

أين ذكر محمد شرابى ابن مصر الجديدة الذى أصبح بارزا فى العمارة فى ألمانيا؟ أين غيره من الطلاب الذين صنعوا لأنفسهم ولبلادهم أمجادا علمية وتجارية فى أوربا وأمريكا ؟

أين الكثير من الطلاب الذين لايمكننى حصر أسمائهم الذين انخرطوا فى الحركات السرية السياسية، والذين انتهى الأمر ببعضهم إلى السجون والمعتقلات، أو بالاستشهاد، فى الحركات الفدائية ؟ أين الطلاب العرب، غير المصريين الذين شاركوا إخوانهم فى المعارك الوطنية فى العدوان الثلاثى على السويس وفى حرب



خريجو مدرسة السعيدية من الوزراء والسياسيين والكتاب، بينهم الكاتب الكبير فكري أباظة الذي كان يحرص على حضور مهرجان السعيدية السنوي

١٩٦٧؟

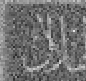
أين هؤلاء، ومنهم من أبناء اللاجئين السياسيين في مصر، مثل أولاد عبد الكريم الخطابي، المجاهد الجزائري الكبير؟ ما الذي تعلموه في مصر، وما الذي علموه لزملائهم المصريين؟

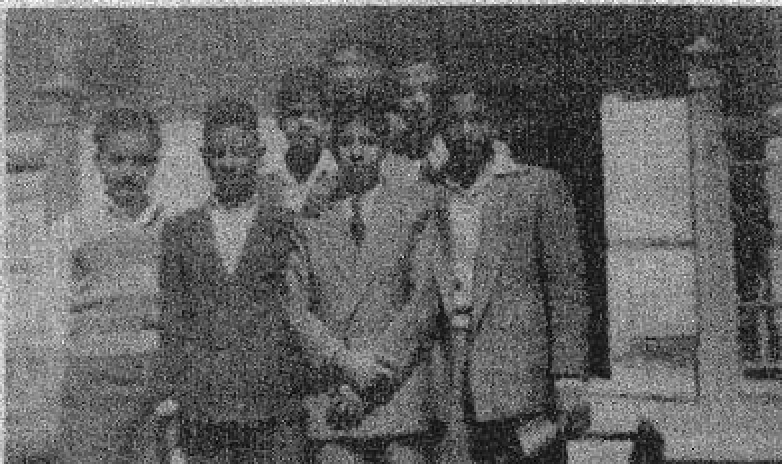
كنا نتلقى العلم والتربية من أساتذة مختارين بعناية، يدركون حقيقة الرسالة التي يؤدونها، وعلى رأسهم ناظر المدرسة محمد أحمد بدوية الذي كان والداً عطوفاً ومربياً فاضلاً. كنا نقارع أستاذ اللغة العربية الحجة بالحجة في حصة الإنشاء والخطابة، وهو يدربنا على حسن استعمال المنطق واللفظ، ويوجه عقولنا الناشئة نحو حسن التفكير والتدبير.

أما مدرس اللغة الفرنسية، فكان فرنسيا مستشرقا نكافح معه في التفاهم بالفرنسية كما هو يكافح بتعلم العربية ومدرس اللغة الإنجليزية كان نشيطاً دءوباً ولكنه كان يستعمل أسلوب الحفظ العقيم واستبدال الكلمات الإنجليزية بمرادفاتها العربية، وهو أسلوب عانيت الكثير لأتخلص منه أثناء دراستي في انجلترا، ولو أني لم أقبل به طوعاً في الأصل. ومدرس الرسم كان فناناً يعشق مهنته، ولذلك لم يجد صعوبة في نقل موهبته إلى الطلاب.

والآخرون تركوا في أنفسنا انطباعات أغلبها جميل وكلها مفيدة ولم تكن علاقة التلميذ بأستاذه هي الجيدة فحسب، بل كان عددنا الصغير واختيارنا المعتنى به واسم مدرستنا العريق من أهم الدوافع لتنمية الطاقات والمواهب الكامنة في هذا الجيل الناشئ.

أذكر بوابة السعيدية ومبانيها الشامخة، حينما دخلتها تلميذاً في خريف ١٩٤٩، بعد حصولي على الابتدائية من مدرسة حلوان في صيف ذلك العام أذكرها بكل رهبة وأنا الفلسطيني اللاجئ





من طلاب المدرسة السعيدية عام ١٩٥٣: جلال بهجت، سلمان أبو ستة، حمزة أبو الفضل، سامي كامل السيد من يمين الصف الأول، ويبدو في الصف الثاني: جمال أحمد مصطفى، عصمت عبد المطلب أحمد

إلى مصر من العدوان الصهيوني في عام النكبة ١٩٤٨، يشحنني الغضب ويدفعني إلى الرغبة في الإنجاز والتفوق. وادخل المدرسة وأتعرف على أصدقاء العمر، مصطفى نبيل الصديق النبيل الذي أصبحت عائلته هي عائلتي في المنفى، ومحمد شرابي الصديق الملتزم الذي أصبح أستاذاً مشهوراً في العمارة في جامعة ألمانية قبل أن يقعده المرض.

ولست أنسى المنافسة الشريفة والصداقة الخالصة بيني وبين عصمت عبد المطلب حول الحصول على أعلى الدرجات في الامتحانات. لقد كنا نذهب إلى المدرسة سوياً كل صباح مشياً على الأقدام، أمر عليه في بيته قرب كوبري عباس وأنا قادم من المنيل ونتحدث في الدروس والمدرسة وأحلام الشباب طوال رحلة المشي إلى المدرسة لقد أصبح عصمت من أشهر الأطباء في الأمراض النسائية وحصل على أعلى الشهادات من بريطانيا.

الغضب من فداحة النكبة، والحزن لضياع الوطن تحولا إلى طاقة مشحونة أعانتني، بجهد الأساتذة الرزين والشخصي، على الحصول على أعلى الدرجات كل عام، ولقد توج هذا الجهد بحصولي على الترتيب الأول على القطر المصري في شهادة الدراسة الثانوية القسم العام (الثقافة) عام ١٩٥٣ والأول أيضا في شهادة القسم الخاص (التوجيهي) عام ١٩٥٤ على القطر أيضا.

وهذه هي المرة الوحيدة في تاريخ السعيدية التي يحصل فيها أحد طلابها على الترتيب الأول في امتحان للقطر كله في عامين متتاليين وهذا ما سجلته لوحة الشرف التي سجلت عليها إنجازات طلاب المدرسة منذ إنشائها عام ١٩٠٨.

شهد النصف الأول من الخمسينيات أحداثاً وطنية مهمة وعلى رأسها ثورة ٢٣ يوليو. وكنا في سن غضة نتأثر ونتفعل

خصوصا للاجئ مثلي رأى بعينه احتلال اليهود لأرضه وهدم بيوتها وذبح الأبرياء فيها ، ورأى تقدم الجيش المصرى ثم انسحابه من أرض فلسطين تتبعه أمواج بشرية من اللاجئين من القرى التي احتلها الصهاينة وطردوا أهلها منها، ورأى بسالة المتطوعين الفلسطينيين والمصريين وخصوصا الإخوان المسلمين في الدفاع عن الأرض العربية، لذلك لم يكن عجيباً أن أذكر هذا كله في خطبتي في يوم السعيدية في أول عيد لثورة ٢٣ يوليو بحضور أحد الضباط الأحرار، وأعتقد أنه كمال الدين حسين، وكانت كلمة الطلبة قد أوكلت إلى في هذا اليوم.

عشق للصحافة

كانت الكتابة والصحافة من أهم هواياتي، ومن أجل إشباع هذه الهواية، حصلت على ما يسمى بدبلوم كلية الصحافة المصرية بالمراسلة في السنة الثانية ثانوي، وكان لها عنوان في أحد الأحياء الشعبية . وهي ترضي غرورك بتسميتك صحفياً مقابل رسوم متواضعة .

ومالبثت أن مارست المهنة هاويا بإصدار وتحرير ورسم مجلة الحائط التي كانت تعلق على حائط الفصل ويقرأها بعض الطلاب للاستفادة الجادة أو حتى لاستدرار النكت لكن المدرسين كانوا يشجعون هذا التوجه بالنقد والإرشاد والتشجيع، وفي السنة النهائية أصدرت مجلة السعيدية المطبوعة لذلك العام، ولا أنسى ابتسامة المربي الفاضل محمد أحمد بنونة ناظر المدرسة وهو يسلمني نسخة مطبوعة من المجلة التي حررتها وانتظرت صدورها بشوق .

بين الماضي والحاضر

تذكرت كل هذا، وأنا أتجول في مباني المدرسة العام الماضي، ودهشت للمقارنة بين الماضي والحاضر، ليس فقط بالتناقض المعروف بين نظرة الطفل الذى كان يرى الأشياء كبيرة والبالغ الذى يراها على حقيقتها، بل لمرأى الاهتراء والتحلل في المباني وسوء نظافتها ولم يكن هذا الانحدار في المبنى وحده، بل في المعنى أيضا .

الطلاب يسرحون ويمرحون دون رادع من مدرس أو مراقب، ولم يكن باديا عليهم أى تقدير لقيمة المكان أو تاريخه .

ورأيت مسئولين في المدرسة، لاأدرى ما هي وظيفتهم، يقف كل واحد في مبنى، ويحمل عصا، لعل لها منافع أخرى غير الوعيد بالعقاب وقد حسبت أن هذا العصر قد ولى منذ زمن .

ربما يكون التدهور في أحوال المدرسة بسبب ضعف الحال، فقد أخبرني ناظر المدرسة أن عدد الطلاب أصبح ستة آلاف طالب، بينما كان أقل من العشر في زمني.

ربما كان هذا العدد الكبير هو السبب في إنشاء البنايات الجديدة عديدة الأدوار، وعديمة الطراز والذوق التي نشبت كأعشاب برية بين المباني القديمة الراقية وأصبحت هذه الأخيرة تشبه «عزيز قوم ذل» فقد تساقط ظاهرها كقشور بيض مكسور .

وعدت أبحث في المكتبة الراقية ذات الطاولات الخضراء والتي كنا أحيانا نتناول فيها شاي الساعة الخامسة، فوجدتها في مكان آخر وقد اتسعت مساحتها وهبط رونقها وعبثاً بحثت عن مجلة السعيدية التي أصدرتها عام ١٩٥٤ أو غيرها من الأعداد، فلم أجد لها أثرا كأنما أتى زلزال قضى على تاريخ هذه المدرسة العريقة في غفلة من الزمن .

أما الحوائط التي كانت تزينها لوحات

الشرف التي تجدها عادة في أعرق المعاهد شاهدة على تاريخها، حافزة لأجيالها الجديدة، فقد امتلأت بإعلانات فارغة متناثرة هنا وهناك كأنها سور حديد، أما لوحات الشرف، فقد اختفت .

وعبثًا حاولت البحث عن هذا الكنز فلم يسعفني أحد ولكني ثابرت إلى أن وجدت من دلني عليها وياليتني مارأيت هذا المنظر . دخلت غرفة واسعة ملأنة بحطام الأثاث والمكاتب والطاولات المكسورة، وأعانني حارسوها على إزالة هذا الركام، إلى أن عثرنا على لوحات الشرف وقد تحطمت واجهاتها واتسخت وتقشرت حروفها .

وقد حاولت إنقاذ هذا التاريخ من الاندثار، فوكلت لبعض الحرفيين إعادة صنع هذه اللوحات وإعادة تخطيطها علها تعود إلى بيتها المختار على جدران المدرسة السعيدية .

إن كان لحال هذه اللوحات التي وجدتها وصف صادق فهو مثل مبنى المدرسة القديم «عزيز قوم ذل».

وإن كان هناك عذر لضعف الميزانية وتضاعف أعداد الطلاب، فما العذر في اقتلاع لوحات الشرف من مكانها ورميها في كومة المهملات، كيف يقتدي الطلاب بسابقيهم ويعتزون بمدرستهم، إذا مسح تاريخها وأصبحت بلا جذور؟

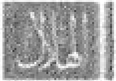
هذه الكوكبة من المشاهير والعظماء التي سجلها كتاب السعيدية، ألم تجد من بينها من يجتمع أمرها على جمع مبلغ مائة ألف جنيه، لتنظيف المدرسة داخلها وخارجها وإعادة صبغها وترميمها، وإحياء تاريخها بتزيين حوائطها بإنجازات خريجيها وعمل متحف صغير توضع فيه أمثلة من أعمالهم، وإعادة افتتاح المكتبة ذات الطاولات الممتدة بغطائها الأخضر وصفوف الكتب القيمة على جدرانها كما كانت قبل ٤٠ عاماً، وذلك بأن يتبرع خمسون خريجا على الأقل، كل بألف كتاب، لكي تحوي المكتبة، مع ما كان فيها إن لم تطله عادية الزمن، حوالي مائة ألف كتاب؟

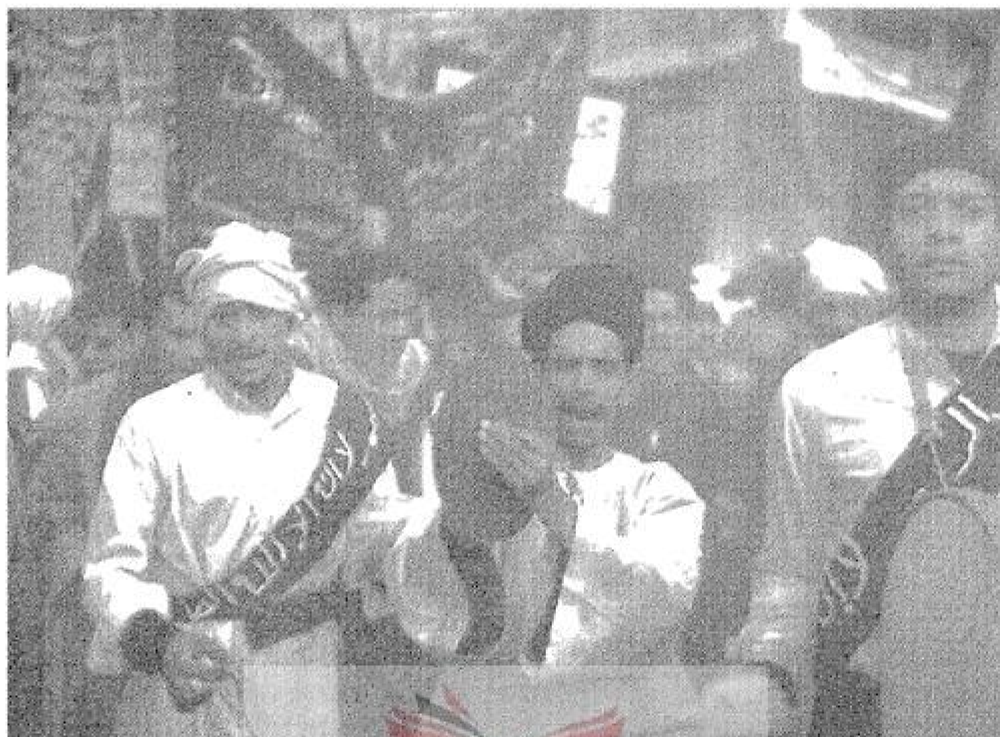
لماذا لاتضع جمعية الخريجين برنامجا مع إدارة المدرسة على تربية الطلاب خارج مقررات الدراسة تربية تدعو إلى الاعتزاز والثقة بالنفس، وبالفعل الجدي المثابر وباحترام المبادئ وبتحمل المسئولية ، وليكن لكل خريج سواء في علمه أو عمله تلاميذ من المدرسة يتواصل معهم ويفيدهم بتجربته، كأب روحي ومعلم صديق .

إن جامعات أكسفورد وكامبردج وهارفارد لاتكاد تتسلم مساعدات حكومية، لكنها من أغنى الجامعات، لأن دخلها يأتي من الأموال التي يهبها خريجوها أو يتركونها لها في وصياتهم.

هل يمكن أن نقتبس هذا التقليد المفيد؟ وهل يمكن أن يدرج هذا في جدول جمعية الخريجين القادم، إلى جانب «استعادة الذكريات» وطرائف الماضي؟ وهل يمكن أن تكون قدوة التلاميذ ليست في المشاهير والعظماء فحسب، بل أيضا في كفاح الآخرين ونجاحهم وفائدتهم لأمتهم دون أن تظهر صورهم بالضرورة في الصحف وعلى التليفزيون .

حينئذ يكون الصرح علما وعملاً وتاريخاً يقتدي، ولا يكون مجرد بناية قد اهترأت أركانها ■





دراويش الصوفية في «زفة المولد» بالأعلام والبيارق والطبول والطاسات

قايتباي وخيمة من عجائب الدنيا!



ربيع أول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م

المولد النبوي.. ومشاهد الخلافة الفاطمية

بقلم
عرفة عبده علي

عبر مختلف عصور الدول الإسلامية، عرفت مصر عددا كبيرا من الأعياد والاحتفالات، التي ارتبطت بعقائد المصريين ودياناتهم، فقد كان لكل من المسلمين والنصاري واليهود، أعيادهم ومواسمهم، التي اتخذت الاحتفالات بها - مظاهر محددة - ارتبطت بعادات وتقاليد الشعب المصري.



ففي عصر الدولة الفاطمية، التي نشأت حاملة لواء زعامة الإسلام والخلافة - في ظروف سياسية ودينية خاصة - كان الفاطميون حريصين على إعادة صياغة عقل الشعب وروحه وحياته العامة والخاصة، وفقا لتوجهاتهم ورسومهم، فنرى الحياة الاجتماعية المصرية، في ذلك العصر، اتخذت مظاهر خاصة، تألقت بألوان من البذخ والترف والفخامة، قل أن نجدها في عصر آخر من عصور مصر الإسلامية فكانت هذه الحياة - مرآة للدولة الفاطمية - طبعت بمنهاجها السياسي والديني والعقلي، وعلى الرغم من تحفظ الشعب المصري في مشايعة الدولة الجديدة في غاياتها المذهبية، فقد استمتع بالفيض الفاطمي وروعته في مواكب الخلافة، ورسومها الباهرة، ومأدبها الشهيرة، وعطائها المأثور، ومازال كثير من آثار تلك الرسوم والاحتفالات في أعيادنا وتقاليدنا الدينية المعاصرة.

وقد انتهت الينا صور ومشاهد للمواكب الاحتفالية والمواسم الفاطمية، بأقلام مؤرخين معاصرين لذلك الزمان، مثل: ابن زولاق والمسبحي وابن الطوير وابن المأمون وكانت الاحتفالات بالمولد النبوي من أبرز مشاهد الخلافة الفاطمية، فيذكر المؤرخ العلامة المقريزي عن ابن المأمون «.. واستهل ربيع الأول، وتبدأ بما شرف به الشهر المذكور، وهو ذكر مولد سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لثلاث عشرة منه وأطلق ماهو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم، ومن الأصناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة، ومن الخزائن برسم المتولين والسدنة للمشاهد الشريفة التي بين الجبل والقرافة، التي فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، سكر ولوز وعسل وشيرج لكل مشهد، وما يتولى تفرقته سناء الملك ابن ميسر أربعمائة رطل حلاوة وألف رطل خبز» ..

وكانت الآداب الفاطمية والأسمطة الرسمية والشعبية، من الأحداث الشهيرة فى ذلك العصر، كما كان الخلفاء الفاطميون يشهدون هذه الاحتفالات والأعياد، فى أحد المناظر الملكية، ويحتشد العامة لمشاهدة الخليفة عند ظهوره بالمنظرة، أو لرؤية موكب قاضى القضاة، والانعامات والهدايا تشمل كل الأمراء وأرباب الرتب وأصحاب الدواوين وأرباب السيوف والأقلام، الخطباء والقراء وسدنة المشاهد ..

وعن «ابن الطوير» يقول المقريزى :

.. فإذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول، وهو مولد النبى صلى الله عليه وسلم تقدم بأن يعمل فى دار الفطرة، عشرون قنطارا من السكر اليابس، حلواء يابسة من طرائفها، وتعبى فى ثلثمائة صينية من النحاس، فتفرق فى أرباب الرسوم من أرباب الرتب، وكل صينية فى قوارة من أول النهار الى ظهره، فأول أرباب الرسوم قاضى القضاة ثم داعى الدعاة، ويدخل فى ذلك، القراء بالحضرة والخطباء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة وقومة المشاهد.. فإذا صلى الظهر، ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم الى الجامع الأزهر، ومعهم أرباب تفرقة الصوانى، فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة، ثم يستدعى قاضى القضاة ومن معه، فإن كانت الدعوة مضافة اليه وإلا حضر الداعى معه بنقباء الرسائل فيركبون ويسيرون الى أن يصلوا الى آخر المضيق من السيوفيين، قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين، فيقفون هناك وقد سلكت الطريق على السالكين من الركن المخلق، ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك، وكنست الطريق فيما بين ذلك ورشت بالماء رشا خفيفا، وفرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر، ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة، وإلى القاهرة ماض وعائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة، فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق فى وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم، فيقربون من المنظرة ويترجلون قبل الوصول اليها بخطوات، فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت وتشوق لانتظار الخليفة، فتفتح إحدى الطاقات فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل، وعلى رأسه عدة من الأستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص منهم، ويفتح بعض الاستاذين طاقة ويخرج منها رأسه ويده اليمنى فى كمه ويشير به قائلا: أمير المؤمنين يرد عليكم السلام، فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته وبصاحب الباب بعده كذلك، وبالجماعة الباقية جملة جملة من غير تعيين أحد، فيستفتح قراء الحضرة بالقراءة ويكونون قياما فى الصدر ووجوههم للحاضرين وظهورهم الى حائط المنظرة، فيقدم خطيب الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم، فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل الى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم، فيقول : وأن هذا مولده الى ما من الله به على ملة الإسلام من رسالته ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ثم يؤخر، ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك ثم خطيب الجامع الأقمر، والقراء فى خلال خطابة الخطباء يقرأون، فإذا انتهت خطابة الخطباء، أخرج الأستاذ رأسه ويده فى كمه من طاقته ورد على الجماعة السلام ثم تغلق الطاقتان فتنفض الناس، ويجرى أمر الموالد الخمسة الباقية على هذا النظام الى حين فراغها على عدتها من غير زيادة ولا نقص».

والموالد الخمسة الأخرى، التى أشار إليها المقريزى هى : مولد الإمام الحسين (٥ ربيع الأول) ومولد فاطمة الزهراء (٢٠ جمادى الآخرة) ومولد الإمام على (١٣ رجب) ومولد الإمام الحسن (١٥ رمضان) ثم مولد الإمام الحاضر .

وفى عصر الدولة الأيوبية، أبطلت كل مظاهر الاحتفالات الدينية، فقد كان السلطان صلاح الدين يوسف يهدف إلى توطيد أركان دولته، لمواجهة ما يتهددها من أخطار خارجية، واقتلاع المذهب الشيعى،

بمحو جميع الظواهر الاجتماعية التى ميزت العصر الفاطمي..!

خيمة .. من عجائب الدنيا!!

وفى أوائل عصر سلاطين المماليك، اتخذ الاحتفال بالمولد النبوى من العظمة والإبهار، ما يتناسب مع شهرة المجتمع المصرى من رفاهية، وكان السلاطين حريصين على مشاركة رعاياهم الاحتفال بهذه المناسبة .. ويروى «السخاوى» ما شهده في عهد الظاهر برقوق ، عندما حضر الاحتفال الرسمى بالقلعة، فيقول : «فرأيت ماهالنى، وأظن ما أنفق فى تلك الليلة على القراء الحاضرين وغيرهم نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب العين، مابين خلع ومطعوم ومشروب وغير ذلك، بحيث لم ينزل واحد منهم إلا بنحو عشرين خلعة من السلطان والأمراء»..

وتميز عصر السلطان الأشرف قايتباى، بما لم يسبقه إليه أحد من السلاطين، حيث أمر بصنع خيمة عظيمة «جاءت من عجائب الدنيا» .. وقد أبدع ابن اياس فى وصفها وتخليد ذكرها ، فيقول فى أخبار ربيع الأول سنة ٩٢٢ ، عصر السلطان الأشرف قانصوه الغورى «وفى يوم الاثنين حادى عشر عمل السلطان المولد النبوى الشريف على العادة، ونصب الخيمة العظيمة التى صنعها الأشرف قايتباى ؛ قيل إن مصروفها ستة وثلاثون الف دينار، وهذه الخيمة كهيئة قاعة وفيها ثلاثة لواوين، وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة عالية، لم يعمل فى الدنيا قط لها نظير، وهى من قماش ملون، وهذه الخيمة لا ينصبها الا ثلاثمائة رجل من النواتية ، فنصبها بالحوش، ونصب الشربدارية فى الحوش أحواض جلد ممتلئة بالماء الحلو، وعلقوا شركات بالكيزان الفاخرة، وزينوا بالأوانى الصينى والطاسات النحاس، وأوسعوا فى زينة الشرابخاناه أكثر من كل سنة ، ثم جلس السلطان فى الخيمة، وحضر الاتابكى سودون العجمى، وسائر الأمراء من المقدمين وغيرها ، وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس من المباشرين على العادة، ثم حضر قراء البلد قاطبة والوعاظ على العادة، ثم مد السلطان السماط الحافل وأوسع فى أمره، وكان ذلك اليوم مشهودا وأبهج مما تقدم من الموالد الماضية»!

وكان الاحتفال عادة، يبدأ عقب صلاة الظهر، وينتهي عند ثلث الليل، وعندما يستقر السلطان فى مقامه بصدر الخيمة، جالسا الى يمينه شيخ الإسلام، وعن يساره قاضى القضاة، ويأخذ الأمراء وأرباب الدولة وكبار العلماء أماكنهم المخصصة، يبدأ الاحتفال بتلاوة القرآن، فيتعاقب القراء، وكلما انتهى أحدهم، أنعم عليه السلطان «بخمسمائة درهم فضة»!

مدح الرسول وآل بيته

ثم يتعاقب الخطباء ، ويهب السلطان لكل منهم «صرة فيها أربعمائة درهم فضة ومن كل أمير شقة حرير».. وبعد صلاة المغرب، تمد أسمطة الحلوى السكرية مختلف ألوانها «ويتخطفها الفقهاء» للتوسعة على أبنائهم، حتى اذا انتهى الطعام، يبدأ المنشدون فى مدح الرسول وآل بيته ، ثم يتوافد الخليفة والقضاة والأمراء والأجناد، طائفة بعد أخرى، فيقبلون الارض بين يدى السلطان، فينعم عليهم جميعا بالخلع «ويجبر خاطرهم» بالمنح، أما السماع فيبدأ من ثلث الليل ويستمر حتى الفجر، فتأتى طوائف الفقراء والدراويش ومعهم رئيس المنشدين ورئيس المشببين ويستمرون فى الذكر، والسلطان جالس «ويده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه، والخازندار يأتيه بكيس بعد كيس، حتى قيل إنه فرق فى الفقراء ومشايخ الصوفية والزوايا فى تلك الليلة اكثر من أربعة آلاف دينار».. وفى صباح يوم المولد، يوزع السلطان كميات من القمح على الزوايا والربط ويترقب عامة الناس الاحتفال بالمولد النبوى «فيعملون الولائم لذلك، ويزيدون فى العبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم» كذلك اعتاد كثير من

الناس إحياء الذكرى الكريمة في منازلهم، وتطرف بعضهم في الاحتفال ، فأتوا بالمغاني وآلات الطرب وتسابقوا في اللعب بالدف والشبابة، ويصدح القوالون بالقصائد والمدائح النبوية، فإذا ما انتهى الإنشاد، تقام حلقات الذكر، على حين تطل النساء من المشربيات واسطح المنازل لشاهدة وقائع الاحتفالات، كذلك كانت تقام داخل البيوت، احتفالات نسائية بهذه المناسبة، حيث تلتف النساء حول احدى الواعظات او المتفقهات في الدين لسماع حديثها .

في زمن العثماني...!

ثم تبدلت الأحوال في عصر مصر العثمانية، وتواضع الاحتفال بالمولد النبوى فيتحسر ابن اياس على ما كان من بهجة الأيام السالفة، فيقول عن أحداث سنة ٩٢٣: وفي يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول، كانت ليلة المولد النبوى، فلم يشعر به أحد من الناس، وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد من اجتماع القضاة الاربعة والأمراء بالحوش السلطاني، والأسمطة التي كانت تعمل في ذلك اليوم، وما كان يحصل للمقرئين من الشقق والأنعام، فبطل ذلك جميعه، وأشيع أن ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرض الحواصل التى بها ، فرأى خيمة المولد فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار، فقطعوها قطعا وأباعوها للناس ستائر وسفر، وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا، لم يعمل في الدنيا مثلها قط.. وكانت كهيئة القاعة ولها أربعة لواوين وفوقهم قبة بقمريات والكل من قماش، وكان فيها تقاصيص عجيبة وصنايع غريبة.. وكانت من جملة شعائر المملكة فاتباعت بأبخس الأثمان، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها، وفقدتها الملوك من بعده، فحصل منه الضرر الشامل، وهذا من جملة مساوئه التى فعلها بمصر» !

وفي أحداث ربيع الأول سنة ٩٢٤ هـ ، يقول المؤرخ ابن اياس :

«.. وفي يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول، كانت ليلة المولد النبوى، فصنع له ملك الأمراء (خاير بك) مولدا لم يشعر به أحد من الناس، فقيل حضر عنده عشر جوق من القراء والوعاظ وبعض فقهاء ، فرسم لكل جوقة من هؤلاء بأشرفين فضجوا من ذلك.. فرسم لك جوقة بأربعة أشرفية لا غير، وقيل إن ملك الأمراء أخلع على الوعاظ في ذلك اليوم كوامل بسمور ثم استردهم منهم بعد ذلك وأعطاهم مبلغا يسيرا ، ثم بعد العصر، مد سماطا في المقعد الذى بالحوش، ليس بكبير أمر، تخاطفته العثمانية على لمح البصر، وبات أغلب الفقهاء بلا عشاء!.. وأين الحسام من المنجلي!.. بالنسبة لما كان يعمل في مولد السلاطين الماضية من الأسمطة الحافلة والشقق الحرير التي كانت تدخل على جوق القراء والوعاظ، ولاسيما ما كان يعمل في موالد السلطان الغورى، فكان يصرف على سماط المولد فوق عشرة آلاف دينار، وكان يحضر عنده في تلك الخيمة العظيمة، التى لم يسمح الزمان بمثلها أبدا، القضاة الأربعة، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم ألف، غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاس والقماش، فأين ذلك النظام العظيم، كيف ذهبت أوقاته؟ فيا أسفي على تلك الأيام، كأنها كانت منامات !»

أيام الجبرتي ..!

ويرحل بنا المؤرخ العظيم «عبدالرحمن الجبرتي» الى زمن الحملة الفرنسية، يوم تقلد الشيخ خليل البكرى نقابة الأشراف، في يوم الجمعة الخامس من ربيع الأول لسنة ١٢١٣ هـ ، وفيه «سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم، فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوية معاونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبابيبهم، وأرسل الطبلخانة الكبيرة الى بيت الشيخ البكرى، واستمروا



يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره، وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد في الهواء»!

وواقع الأمر أن حرص نابليون على إظهار احترامه لعقيدة المصريين وشعائرهم وتقاليدهم، كان جزءا من «التوظيف السياسي» للعنصر الديني من أجل استمالة المصريين ، فعقب هذا الاحتفال بيومين، كتب بونابرت الى الجنرال مارمو يطلب منه زيارة الشيخ البكري بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي، وأشار الى أنه يجتمع برؤساء الدين في القاهرة، كما أرسل إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية نسخة من "Courrier de Egypte" العدد الأول، الذي يحوي مقالا عن الاحتفال بالمولد، ليقوم بترجمته وطبعه.

وفي يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الأول سنة ١٢١٤ هـ ، يقول الجبرتي عن احتفال ذلك اليوم : «عمل المولد النبوي بالأزبكية، ودعا الشيخ خليل البكري - ساري عسكر الكبير - مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج القناديل واصطناع مهرجان»..

ثم طلب بونابرت من الحكام الفرنسيين للمديريات، توزيع منشورات باللغة العربية على الأهالي، لإخبارهم بالاحتفال العظيم الذي أقيم بالقاهرة «وقد استمع القائد العام لقصة المولد، ثم أقبل على الصلاة يحف به



فتح عينك .. تاكل ملبن !

كبار المشايخ» !

ولم يذكر الجبرتي شيئا عن احتفال سنة ١٢١٥، الا أن جريدة «الكوريية» تشير في عددها، اغسطس ١٨٠٠» الى مناسبة المولد النبوي، وتقول : «مهما تكن آراؤنا الدينية ، فالواجب يقتضي بأن نعتبر محمدا رجلا يسمو كثيرا فوق بقية الرجال الذين عاشوا عصره، ويمتاز عليهم، وهو بفضل عبقريته ومعارفه وشجاعته أهل الإعجاب الأجيال التالية» .. كما عرضت الجريدة جانبا من نشأة الرسول، وموجزا لأصول العقيدة الإسلامية.

لقد أدرك الفرنسيون ما للعقيدة من أثر في التنظيم الاجتماعي في المجتمع المصري، فأكثروا من استخدام الآيات القرآنية، وحرصوا على إحياء الشعائر والاحتفالات الدينية والأعياد القومية، بل إنهم شجعوا عقيدة الشعب في الكرامات، فشاركوا في الاحتفال بموالد بعض الأولياء» !

رؤية إنجليزية

ثم جاء المستشرق البريطاني الشهير «إدوارد لين» ew. Lane الذي أبدع في دراسة ووصف تفصايل الحياة اليومية المصرية، في كتابه «شمائل وعادات المصريين المحدثين».. على نحو لم يبلغه أحد



مدح الرسول على أنغام الربابة ..

من المستشرقين، حتى أنه أتقن لغة الحديث باللهجة المصرية.. وقد وصف لنا الاحتفالات بمولد النبي عام ١٨٣٤، فيقول:

«تجـرى احـتـفـالات المولد في الحي الجنوبي الغربي من الساحة الرحبة المعروفة ببـركـة الأزبكيـة، التي تتـحـول في مـوسم الفيضانات إلى بحيرة كبيرة.. حيث تنصب خيام وسرادقات للدراويش الذين يجتمعون كل ليلة للاحـتـفـال وإقامة حلقات الذكر.. ويتجمع الناس في النهـار للاستمـاع إلى الشـعـراء والرواة، ومـشـاهدة المشـعـوذين والمهرجين، وقد أجبرت الغوازي على التخلي عن الرقص.. وترى في بعض الشـوارع المجاورة المراجيح، وباعة المأكولات والحلوى، وتكتظ المقاهي بالرواد..

وكانت الليلة الحادية عشرة من الشهر القمري، وكان القمر يشع نوراً في السماء، فـيضـفـي على الاحـتـفـالات روعة وبهجـة.. ومررت بشارع سوق البكري، لأحضر جانباً من حلقات الذكر، كانت الشوارع التي مررت بها محتشدة بالجموع الغفيرة، ولم أصادف إلاّ القليل من النسـاء.. وعلقت في المكان - بسوق البكري - الذي شهد تجمعاً ضـخـمـاً من الناس «ثريا» رائعة كبيـرة تضم نحـو ثلاثمائة قنديل»!.

الدوسة!..

ويمضى إدوارد لين مـغـرقـاً في وصف أدق تفـاصـيـل حلقـات الذكـر والإنشـاد، ومـواكب الدراويش، مـعبراً عن دهشته من احتشاد الأقباط لمشاهدة تلك الحلقات التي استـمـرت حـتى أذان الفـجـر.. وفي اليـوم التالي، شاهد عرض «الدوسة» المميز الذي يختص به دراويش السعدية، فقال:

«توجـهت في اليـوم السـابق لليلة المولد إلى الأزبكية قبيل الظهر، فلم أشـاهد غير بعض الدراويش والشعراء والمهرجين، وقد استقطب كل منهم حلقة من المتفرجين، ثم بدأت جـمــوع الناس تتـزايد في انتظار استعراض الدوسة، الذي يقام كل عـام في مثل هذا اليـوم.. قـصـد شـيخ الدراويش السعدية - السيد محمد المنزلاوي - مسجد الحسين، بعـد أن قـضـى شطراً من الليلة السـابقة في خلوته، مـردداً بعض الصلوات والأدعية الخفية، وبعد أن أدى صلاة الجمعة، توجه في موكبه إلى دار الشيخ البكري، الذي يرأس جـمـيـع طوائف الصـوفـيـة في مصر، وتقع هذه الدار بالجهة الجنوبية لبركة الأزبكية، وفي طريقه انضمت إلى موكبه، مجموعات من الدراويش السعدية، وفدوا من أقسام مختلفة بالعاصمة وشيخ السعدية كهل، أشهب اللحية، وسيم المحيا، جميل الهيئة، أبيض الوجه، وكـان يلبس في هذا اليوم: بنشاً وقـاووقاً أبيضين، وعمـامـة من الموسلين الزيتي اللون داكن، تعبر مقدمها منحنية قطعة الموسلين الأبيض، وكـان يركب جواداً متوسط الارتفـاع والوزن وإني أذكر ذلك، لسـبب يتـبـينه القـارئ الآن، ويدخل الشيخ بركة الأزبكية، يتقدمه موكب عظيم من الدراويش وأتباعه..

وفي طريقه من هذا الميدان، وقف الموكب على مسافة قصيرة من منزل الشيخ البكري،



حيث انبطح عدد كبير من الدراويش وغيرهم – لم أستطع أن أحصيهم عداً – انبطحوا جنباً إلى جنب، متلاصقين بقدر الإمكان، وأرجلهم ممدودة وأذرعهم تحت جباههم، وكانوا يهمسون على الدوام باسم الله، ثم جرى إثنا عشر درويشاً، حفاة أغلبهم، على ظهور رفقائهم، وكان بعضهم يضرب الباز ويصيحون الله!.. ثم دنا الشيخ، فتردد حصانه – دقائق معدودة – قبل أن يطأ ظهر أول المنبطحين، ولكنه خطا أخيراً بالدفع والحث من الخلف، ثم مشى دون خوف ظاهر، بخطوة عالية، على ظهورهم جميعاً، يقوده شخصان، وكان أحدهما يطأ الدراويش المنبطحين فوق أرجلهم أحياناً، والآخر فوق رؤوسهم ، وهتف المشاهدون في الحال بصوت ممدود: الله!

ولم يظهر على أحد ممن داسهم الحصان أنه أصيب بسوء ، بل وثب كل منهم واقفاً، بعدما مر الحصان عليه وتبع الشيخ، ويقال إن هؤلاء والشيخ أيضاً يستعملون كلمات (أي يرددون اسما أو أدعية) في اليوم السابق، حتى يمكنهم احتمال خطى الحصان دون ضرر، وإن بعضاً لم يهيئوا كالسابقين، اجترأوا على الانبطاح ليمر الحصان عليهم، فلقوا حتفهم، أو أصيبوا بضرر بالغ، في أكثر من مناسبة!

ويعد هذا العمل: كرامة، أحدثتها قوة غير طبيعية، منحت لكل شيخ من شيوخ السعدية المتتابعين.. ويقولون أيضاً إن الحيوان درب لهذا الغرض ، ولكن إذا كان الأمر كذلك اعتبر هذا من الوقائع المثيرة للدهشة، إذ أن دوس الحصان الآدميين هو عمل ينفر منه الحيوان بشدة، كما هو معروف، وقد رفض شيخ السعدية الحالي عمل الدوسة عدة سنوات وبعد توسل شديد، قبل أن يفوض القيام بها إلى شيخ آخر، نجح في أدائها بالرغم من أنه كان ضريراً!..

وقد توفي هذا الشيخ الضرير، عقب ذلك، فاستجاب شيخ السعدية إلى التماس دراويشه، وأصبح منذ ذلك الوقت، يقوم بعمل الدوسة بنفسه دائماً..

وبعد أن قام الشيخ بهذا العمل الفذ، دون حدوث ما يعكر صفو ذلك اليوم، ركب إلى صديقه الشيخ البكري، ودخل إلى قصره بصحبة بعض الدراويش»!!

وتجدر الإشارة إلى أن الاحتفال بعمل الدوسة، قد أبطل في عهد الخديو توفيق كما أشار «أحمد شفيق باشا» في مذكراته، الذي حدثنا عن حفلة «الأشاير» و«عملية الدوسة».. فقال:

يجتمع في ذلك اليوم، ارباب الطرق الصوفية، بميدان باب الخلق، ويسير الموكب بأهم شوارع المدينة، وكانت تضم جماعة من المشعوذين، منهم من يأكل الزجاج والثعابين، ومنهم من يضرب شدقه بدبوس ذي رأس غليظ، في عنف وقسوة، بل كان بعضهم يضع حد السيف على بطنه حتى يعلو عليه شيخهم، ثم يبل بريقه موضع السيف أو موضع الدبوس ليشفى، وعندما يصل موكب الأشاير إلى ساحة المولد النبوي أمام صيوان البكري، يقرأ رجال كل طريقة الفاتحة، وأمامهم شيخهم بحضور ولي الأمر والمدعوين، وبعد ذلك ينبطح الكثيرون على وجوههم في صف كبير، ثم يمر فوقهم شيخ السادة السعدية بحصانه، يقوده اثنان من اتباعه، وهم يعتقدون أن سينالهم من جراء ذلك خير كثير، وكان الناس يروحون عليهم بمراوح يدوية، أو بملابسهم أثناء انبطاحهم على الأرض في الحر الشديد، وقد أبطل الخديو توفيق باشا هذه الحفلات العنيفة المزعجة، التي كانت خاصة بطريقة السادة السعدية، المنتسبين إلى سعد الدين الجباوي».

الاحتفالات في عهد الأسرة العلوية

ومنذ عهد الأسرة العلوية، أصبح عبء تنظيم احتفالات مولد النبي مسئولية نقيب

الأشراف، الذى يتلقى دعماً من الخزانة العامة للمساهمة فى النفقات، كذلك كانت محافظة القاهرة وإدارتها تخصص أطناناً هائلة من الأرز واللحوم والزبد والشاى والخشب، أيضاً إدارة الممتلكات الخديوية (الخاصة الخديوية) كانت ترسل أطناناً من السكر، وأدوات المطابخ..

وأصبح بيت السادة البكرية، وساحته الشهيرة بالأزبكية، يشرف برعاية الاحتفال الرسمى للمولد، وغدا بديلاً لاحتفالات الحوش السلطانى بالقلعة، وعنهم يقول على باشا مبارك فى خططه: «وللسادة البكرية فى ظل الدولة المحمدية العلوية من العناية ما يتحدث بزائد شرفه الركبان، ويفتخر به هذا الزمان على غيره من الأزمان، لاسيما فى عهد الحضرة الفخيمية الخديوية وعصر الطلعة المهيبة التوفيقية، فإنه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوى الشريف إلى حده الأعلى..

وذلك أنه فى العشرة الأخيرة من شهر صفر الخير من كل عام، تصنع بمنزلهم مأدبة فاخرة، يدعى إليها جميع مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا، والوجوه والأعيان والذوات، فتدخل أرباب الطرق بالطبول والبيارق، رافعى أصواتهم بالذكر والصلاة على رسول الله، ثم يعين لكل واحد من السادة الصوفية ما يخصه من ليالى المولد الشريف».. ويضيف قائلاً:

«وفى الحادى عشر من الشهر المذكور - الذى هو ختام المولد الشريف - تزدان خيمة لسيد البكرى بتشريف الجناب الخديوى، يهدى السيد بفرجيه سمور من الحكومة السنية.. وفى ليلة الثانى عشر منه، يقرأ المولد النبوى الشريف فى خيمة السيد باحتفال فائق يحضره الجناب الخديوى والنظار والعلماء والأعيان».

وكان مما يزيد مشهد الساحة رونقاً وبهاء ما قامت به الخاصة السنية من تشييد لسرادق ضخم يتحلى بأبهى زينة أطلق عليه «خيمة الحضرة الفخيمية الخديوية».. بجانب خيمة السيد البكرى التى عينتها له الحكومة.. وقد أشاد على باشا مبارك بلياليها: «تكون زاهية بالتلاوة والدلائل والأذكار، باهية من أضواء الشموع بسواطع الأنوار زاهرة أيامها بالخيرات وأنواع المبرات فى إطعام الطعام وبذل الإكرام»!

وفى ٢٥ من شهر صفر، كانت الطرق الصوفية تجتمع بالقرب من ميدان «باب الخلق» حاملين بنودهم وراياتهم، متوجهين فى موكب إلى قصر الشيخ البكرى - نقيب الأشراف - بالأزبكية، حيث ينتظرهم مشايخ الطرق والتكايا وسدنة الأضرحة وبعض الأمراء والأعيان، الذين حضروا «وليمة فاخرة» تلبية لدعوة الشيخ البكرى، ثم يتلى فرمان المولد، ويحدد لكل طريقة يوم لإقامة الذكر بقصر البكرى، أو للمرور فى موكب أمام القصر.

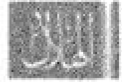
وفى اليوم التالى، يجتمع قراء القرآن بقصر البكرى، ويتلى أيضاً «حزب البكرى» وقصة «المولد النبوى».. وفى المساء، يدعى الأمراء والعلماء والوزراء وكبار رجال الدولة، لحضور استقبال مشايخ الطرق، والاستماع إلى إنشاء قصة المولد، وفى هذا المحفل، كان نقيب الأشراف يمنح رؤساء الطرق عباءة الشرف، من الصوف الفاخر، عادا مشايخ «الرفاعية» و«السعدية» فيتسلمون عباءات خاصة من الجوخ!

وخلال تلك المراسم، يستمر توافد مواكب الطرق، وحلقات الذكر، داخل وخارج قصر البكرى، كما كانت تنصب السرادقات والخيام لهذا الغرض فى ساحة الأزبكية.

الاحتفال الآن

وعن الاحتفال بالمولد النبوى فى ذلك العصر، يقول أحمد شفيق باشا:

«يبدأ المولد فى ٢٥ صفر، بأن يجتمع رجال الطرق الصوفية بميدان باب الخلق، وكل طريقة معها أعلامها، وعند تكاملها تسير فى موكب، ينشد رجالها ترانيم، كل طريقة بنغمتها، مع دق الدفوف وقرع البازة، إلى أن يصلوا مركز مشيخة الطرق



الصوفية، حيث يستقبلهم السيد البكرى، فتقرأ الفاتحة والصلوات والتسليمات، ثم يجتمع مشايخ الطرق لديه فيعلن افتتاح المولد النبوى الشريف، ثم ينصرفون. وفى عصر يوم ٢٨ صفر يجتمع القراء لقراءة آى الذكر الحكيم، وفى مسائه يدعى الأمراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان لسماع قصة المولد الشريف، ثم يأتى أرباب الطرق المختلفة، جماعات جماعات، كل أهل طريقة بدورهم، وأمامهم حاملو الفوانيس الخاصة بهم – وهى فوانيس كبيرة مغطاة بقماش أبيض رقيق بدل الزجاج – فيستقبلها السيد البكرى، وبعد قراءة الفاتحة والصلوات والتسليمات، يقام مجلس الذكر، وينشدهم الشيخ الشنتورى ويستمر إحياء الليالى فى سراى السادة البكرية لغاية يوم ٤ ربيع الأول».

الليلة الختامية

فى ليلة ١٢ من ربيع الأول، ختام ليالى المولد أو «الليلة الكبيرة» كان الخديو يتصدر الاحتفال فى سرادق نقيب الأشراف، فى حضور حاشيته وأعضاء الحكومة والأمراء وأعيان الدولة، وفى مذكراته عن هذا «الحفل الرسمى» يقول «أحمد شفيق باشا»:

«وفى المساء، تمد الموائد فى سرادق البكرى للمدعوين، وبعد صلاة العشاء، يشرف الصيوان – الجناب الخديوى – لسماع قصة المولد النبوى الشريف، وفى ختام قراءة القصة، يوزع الحلوى وشراب الليمون على الحاضرين، وينصرف بعد ذلك سموه إلى سرادقه، حيث يبدأ بالألعاب النارية.

ويزدحم الناس فى هذه الليلة ازدحاماً لا مثيل له لمشاهدة هذه الأذكار، وسماع أناشيدها، ورؤية النيازك.. وينتهز الشباب فرصة الزحام، فيكثر الغزل بين الفتيات والفتيان، وتمشى رسائل – اللب والفستق – ونحوها بين العربات التى تحمل الجنسين، مما يجعل من الليلة مهرجاناً: حظ الفتنة فيه أكبر من حظ الدين، إن كان للدين حظ فى أمثال هذه الحفلات»!

فى عهد الملك فؤاد، انتقلت ساحة الاحتفال بالمولد النبوى إلى العباسية. حيث تولت وزارة الأوقاف، وبعض الهيئات الحكومية، إقامة سرادقات خاصة، طوال فترة الاحتفالات، يرتادها الزائرون من كل صوب، يستمتعون بأطايب الطعام والمشروبات، وبسماع أشهر القارئين والخطباء والمنشدين.

أما فى عهد الملك فاروق، وبالتحديد عام ١٩٤٥، فكان الاحتفال بالمولد النبوى فى صحراء قايتباى، أو ما يطلق عليها «ترب الغفير» ويصف شاهد عيان هو «حسن السندوبى» وقائع الاحتفال، فيقول:

«قبيل الظهر بساعة، بينما هذا الجمع الحاشد فى الانتظار، إذ تعالت هتافات الجماهير المحتشدة على قوارع الطرق المؤدية إلى ساحة المولد، بحياة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، وحياة مصر الخالدة، فكان ذلك إيذاناً بوصول الموكب الملكى الفخم، وقد أقبل جلالته بوجهه المشرق على هذه الجموع، مشيراً بيده الكريمة إشارة التحية والسلام.. وبعد أن صدحت الموسيقى بالسلام الملكى، وقف فاروق وحاشيته يستعرض بعض فرق الجيش.

ثم بارح جلالته السرادق الملكى، قاصداً تشريف سرادق السادة البكرية، وما هو أن أشرف عليه حتى نهض حضرة صاحب السماحة السيد أحمد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وحوله جمع من كبار المشايخ، لاستقبال جلالته بما يليق بمقامه الكريم ولما شرف جلالته – حفظه الله – صدر المجلس الخاص، قام حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف وأخذ فى إلقاء قصة المولد الشريف»! ■

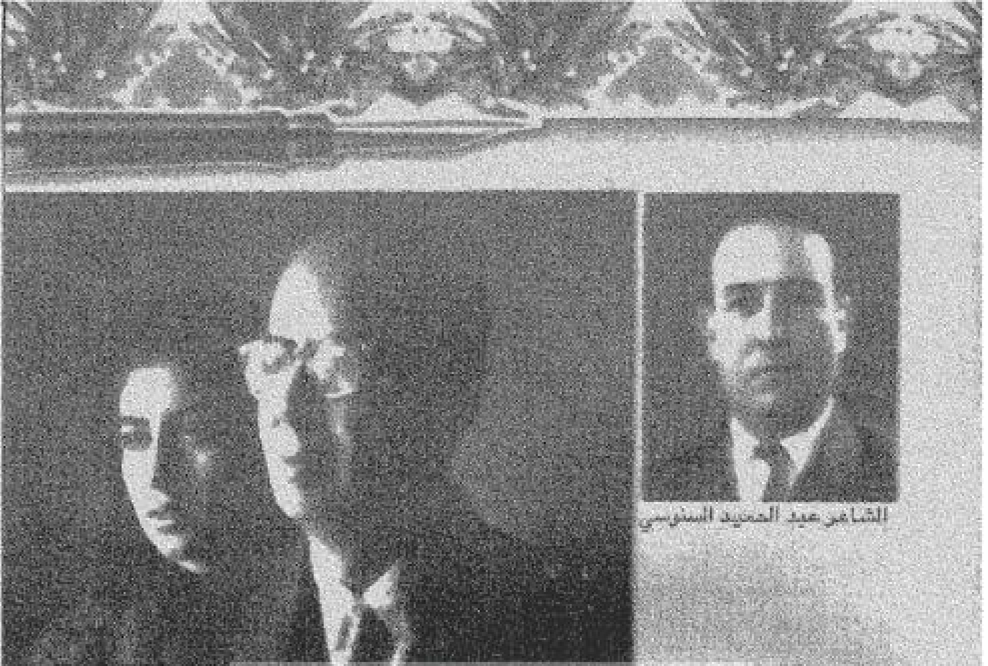
التكوين

أبى محمد مفيد الشوباشى علمنا حب الثقافة والمعرفة والتمسك بالقيم

شريف الشوباشى

عائلة الشوباشى عائلة جاذبة.. فكل من اقترب منها أحبها وانضم إليها، سواء من الأصدقاء، أو الأدباء والمفكرين، وأيضا مثلما فعلت فريدة الشوباشي بزواجها من علي، وأيضا الشاعر عبدالرحمن الخميسي، الذى تزوج من فاتن الشوباشي، وأصبح صديقا وفيا لأبى محمد مفيد الشوباشى، والذى كان يحلو له أن يلتقى بحبيه وبأفراد أسرته داخل مكتبته التى تحولت إلى صومعة للقراءة، وللندوات التى كان يحضرها العديد من النقاد والشعراء.

.. أبى الشاعر والناقد محمد مفيد الشوباشى، ولد بمدينة الاسكندرية فى ٨ سبتمبر ١٨٩٩م، وعاصر الاستعمار فى بداية القرن العشرين، وثورة ١٩١٩، والمقاومة المسلحة ضد الاستعمار الانجليزى، وأدرك ثورة ٢٣ يوليو، وهو فى قمة مجده الأدبى، وكان لهذه المتغيرات فى عقله وقلبه، وفى عطائه الفكرى والأدبى، تأليفا وترجمة و[illegible]



الشاعر عبد الحميد السنوسي

الشاعر محمد مفيد الشوباشي ومعه ابنته فاتن، وكانت من أحب أبنائه إلى قلبه

تلقى أبي تعليمه بمدرسة تقوم منهجها على إتقان اللغة الانجليزية، والتي تعد البذرة لتشجيعه ثقافته الأجنبية، مما جعله فيما بعد في صدارة الذين اعتزوا بأدبائهم مثل عبدالرحمن شكري والمازني والعقاد وزكي نجيب محمود، وبفضل هذه النشأة تمكن من ترجمة بحوث كثيرة من عيون الأدب الغربي، ولا سيما في القصة والرواية، والدراسات الفلسفية والنقدية، ويعتبره النقاد أحد الكتاب المؤسسين الكبار الذين جمعوا بين الثقافة الأدبية والثقافة القانونية وعلى رأسهم أمير الشعراء أحمد شوقي و د. محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم ويحيى حقي و د. محمد مندور.

ثم عمل محاميا بالاسكندرية واستمر يزاول هذه المهنة حتى عام ١٩٤٧، واكتسب طول فترة عمله هذه خبرة عملية بالحياة والمجتمع، في وقت كان يرتاد فيه الندوات الأدبية يلقي فيها الشعر والنثر ويتبادل الرأي مع روادها، وكان من نتاجها ديوانه (وحي الشاطئ) وفوزه بجائزة المجمع اللغوي في الشعر عام ١٩٤٧.

ثم ترك الاسكندرية وجاء إلى القاهرة، والتحق بوظيفة مراقب في إدارة الثقافة العامة، ثم مديرا للتشريعات والشئون القانونية بوزارة المعارف، وظل يعمل بهذا المنصب حتى سنة ١٩٦٦ حيث أحيل للمعاش.

أنشأ صالونا أدبيا بمنزله في حي العباسية، ثم انتقل إلى منزل جديد في شارع الساحة بحي عابدين، ولم تكن ندواته الأدبية والشعرية مقصورة على بيته، بل امتدت إلى مكتبة أنشأها باسم

التكوين

(مكتبة عصر الذرة).

ووقفت أمي إلى جواره في رحلته لتهيئ له أفضل جو يمكنه من البحث والإبداع، وحفزه للمضي إلى الأمام، على الرغم من ظروف الحياة التي كانت تقسو في بعض الأحيان. وقد حزن كثيراً لفراقها، كما ضاعف من هذه المحنة فقد شقيقتي فاتن في حادث أليم، وكانت من أحب أولاده إلى نفسه. ولو توقفت لأتعرف على بعض ما قيل عن أبي أجد د. حسن فتح الباب يشير في كتابه «نقاد الأدب - محمد مفيد الشوباشي»: «كان من حسن الطالع أن عرفت الأستاذ محمد مفيد الشوباشي، فأدى تعرفي هذا إلى تغيير جذري في مسيرة حياتي، على مستوى الفكر والشعر والنقد والثقافة العامة. لقد أسهم بنصيب كبير في تصحيح منهجنا وتعميقه، وأثرى ثقافتنا، وغدت كتاباته من مكوناتنا الفكرية الأساسية».

لقد رأيت فيه القدوة والمثل.. كان القدوة والرمز للأستاذ المعلم بأدق معنى للكلمة، والإنسان النموذجي الذي يطابق فعله قوله، ولا تشوب شخصيته وسيرته نرجسية أو انقسام، أو غرور مثل بعض المثقفين. وكان صاحب رسالة، يعرف أن لكل موقف ثمنه، وظل عزيزاً شامخاً، في تواضع الكبير حتى آخر حياته ويعد أول المفكرين الذين أصلوا نظرية الواقعية في الوطن العربي وتلمح ذلك في كتابه (الفلسفة السياسية) كما ترجم كتاب (الأدب والفن في ضوء الواقعية) للناقد الفرنسي جون فريفيل، وهو من الكتب المهمة التي أثرت في تطوير حركة النقد الأدبي في الخمسينيات وما بعدها، فضلاً عن دراسات كثيرة من بينها دراسة «بين الأدبين العربي والاغريقي» ودراسة «الفكرة والواقع في كتابة القصة».

أبي .. مثلي الأعلى

انتمي إلى أسرة الشوباشي التي تربطها علاقة قوية بالثقافة، ويعود الفضل في ذلك إلى جدي محمد الشوباشي، والذي كان محامياً معروفاً في جيله، وكان أول نقيب للمحامين بالاسكندرية وعندما قامت ثورة عرابي، انحاز جدي إلى هذه الثورة، ولما غزا الانجليز مصر في عام ١٨٨٢ هرب إلى تونس، ثم إلى باريس خوفاً من بطش الانجليز، وشارك في إصدار صحيفة العروة الوثقى، التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، ولم يتم إصدارها أكثر من عامين، وبعد ذلك صدر عفو من الخديو عن كل الذين شاركوا في ثورة عرابي، وبدأ العفو بالمدنيين، ثم تم العفو بعد ذلك عن العسكريين، وعاد جدي مرة أخرى إلى مصر، وبدأ يعمل في مجال المحاماة، وهو الذي أورث أبي حب الثقافة والولع بالمعرفة.

أما أبي فكان مثلي الأعلى، وهو كما أشرت في المقدمة كاتب معروف في جيله، وقد كان من حظ أبنائه أن يشاهدوا في المنزل كل يوم خميس ألمع نجوم الثقافة والفكر في مصر، في منتصف القرن العشرين.

كانت بداية وعيي في بداية الخمسينيات إلى جانب إخوتي علي وسعيد



شريف الشوباشي في السابعة من عمره يرتدي زي مدرسة الليسيه



الجد الذي شارك في ثورة عرابي

وفاتن وهدى، وأكاد أتذكر هذا التجمع الثقافي، والذي كان يضم الدكتور محمد مندور وعبدالرحمن الشرقاوي والدكتور لويس عوض والأديب يحيى حقي، فضلاً عن شباب الأدباء، ومن بينهم عدد من الأدباء العرب، يحضرون ندوة الخميس، التي شهدت حوارات في كل جوانب الثقافة والفكر.

كنت صغيرا وأنا أشاهد هذه الندوة التي تلقى فيها قصائد الشعر، وتحتدم فيها المناقشات والآراء العديدة، وذلك كله رسخ لدى انطباعا بأهمية الثقافة والعلم، وأنا أرى كبار المفكرين في بيتنا وبينهم أبي وهم يتحاورون حول كتاب قرأه أحدهم، أو يناقشون قضية فكرية مهمة تشغل بال المثقفين في ذلك الوقت، فضلاً عن أنها - أي تلك الندوة وغيرها - كانت تعد المدرسة الأولى التي فتحت لي أبواب الثقافة على مصراعيها.

نهلت من كل ما ألفه أبي، خاصة كتابه «الفلسفة السياسية» و«أثر العرب في الحضارة الأوربية»، وكان يعد من أوائل الذين أدركوا أثر العرب الثقافي في الحضارة في عصر النهضة الأوربية.

وبالإضافة للجهود الذي بذلها أبي في البحوث الكثيرة التي ألفها ونشرت في العديد من الدوريات أصدر رواية بعنوان «الخيط الأبيض»، وهي رواية مهمة جدا، وللأسف الشديد لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار.

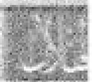
أبي هو الذي غرس حب الثقافة والمعرفة، من خلال مكتبته المتاحة لي



علي وفريدة الشوباشي مع ابنهما نبيل

ولشقيقي الراحل علي، فقد كان يوصي بكتاب معين لقراءته وللاستفادة مما يضمه هذا الكتاب من قضايا فكرية، وأذكر أنه أوصاني بقراءة كتاب «أسس الفلسفة» للكاتب الفرنسي جورج بوليتزر، وهذا الكتاب يعتبر بالنسبة لي طاقة نور حيث أفادني كثيراً

أدرك وأنا طالب في الجامعة أن لغتي العربية «ركيكة» وقد أزعجه ذلك جداً، وحرص على أن الازمه يومياً في المكتبة لكي أقرأ له .. وفي البداية كانت أخطائي النحوية كبيرة، وظل يتابعني، وهو يعلمني النطق الصحيح وقواعد اللغة، حتى تمكنت من امتلاك ناصيتها، بفضل توجيهاته وارشاداته



ذكريات لا تنسى

حينما تخرج أبي في مدرسة الحقوق جامعة الاسكندرية عمل محامياً، وكان من أعز أصدقائه الأستاذ عبدالحميد السنوسي وهو شاعر معروف آنذاك بالاسكندرية، وله شعر رقيق وجميل جداً، وزيادة في المودة والصداقة التي جمعت بينهما تزوج عبدالحميد السنوسي من عمتي، واشترك مع أبي في مكتب للمحاماة في الاسكندرية في عام ١٩٤٧، وقد اشتريا سيارة سوياً، لتوصيلهما، فلم تكن الحياة وقتها سهلة مثلما نرى الآن

كان من بين ذكريات أبي التي حدثني عنها، عندما عاد سعد زغلول من المنفى، ذهب عبدالحميد السنوسي لاستقباله

وألقى قصيدة ترحيبا بزعيم الأمة، وكان أبى يذكر لى هذه القصة بفخر شديد!.

ومن بين الذكريات المهمة التى رواها لى أبى، أنه حضر جلسة تاريخية فى البرلمان المصرى، أعلن فيها سعد زغلول رفضه بعد مقتل «السير لى ستاك» سنة ١٩٢٤، حين وجه الانجليز للوزارة فى ذلك الوقت إنذارا بدفع مبلغ كبير جدا من المال، على سبيل التعويض لأسرة السير لى ستاك، فضلا عن اعتذار رسمى من الحكومة المصرية لبريطانيا. وعلى الفور ذهب سعد زغلول إلى البرلمان وأعلن رفضه لهذه المطالب البريطانية.. بل وكان رده حاسما وهو الاستقالة!

عمل أبى مديرا لمكتب وزير الحقانية محمد باشا سعيد، بعد تخرجه فى مدرسة الحقوق مباشرة، أما كيف حدث ذلك فهذا ما رواه أبى «بأنه بعد تخرجه فى مدرسة الحقوق، فوجئ بمحمد باشا سعيد، والذى كان صديقا حميما لجدى محمد الشوباشى، يتصل به، وقال له لقد علمت بأنك قد تخرجت فى مدرسة الحقوق، وطلب منه أن يعمل معه، وتدرج فى وظيفته إلى أن شغل منصب المدير الفنى لمكتب وزير الحقانية.

أخى على الشوباشى

وإذا كان حديثى ينصب على عائلتى فذلك يحتاج منى إلى محطات أتوقف عندها، لكى أشير إلى دور الأشخاص الذين كانوا يعيشون فى هذا البيت الذى ملأه أبى علما وثقافة وحنانا وحبا لكل أفراد عائلة الشوباشى... ويجئ دور مهم لأخى الأكبر على الشوباشى، والذى توفى منذ سبع سنوات..

وعلى لم يكن أخى فقط، لكنه كان بمثابة صديق أثير إلى نفسى ووجدانى، حيث شجعنى باستمرار على القراءة، وكنا نتبادل الرأى، ووجهات النظر فى الأدب وفى الفن، وقد أفادنى كثيرا.

وعلى الرغم من المخزون الثقافى الذى تكون لديه طوال مشواره، ظل حتى بلغ من العمر اثنين وستين عاما، ولم يقدم إبداعه، وتجربته الثقافية والفكرية.. وكنت دائم السؤال.. لماذا لا تكتب، وتقدم مالديك من رؤى ثقافية؟!.. كان من المفترض أن يبقى على حتى سن الخامسة والستين بعمله فى وكالة الأنباء الفرنسية بباريس، لكنه فضل أن يتركها قبل هذا الموعد بثلاث سنوات.

ثم بدأ يكتب، وكان أول كتبه رواية «ثالثة رابع»، ثم كتب «مدرسة الثوار» عن تجربته فى السجن فى أواخر الخمسينات، وتحديدا عام ١٩٥٨ بمعتقل بالواحات الداخلة، وكلنا يعرف أن من يكتبون عن تجربة السجن، يتناولون ما شاهدوه من ألوان التعذيب والضرب والهوان، أما على فكتب عن مدى استفادته من تلك الفترة التى قضاها فى السجن، وعدها بمثابة مدرسة يتعلم فيها المعتقل أو السجين الكثير، خاصة إذا كان ضمن مجموعة من كبار المثقفين المصريين فى ذلك الوقت، ثم كتب بعد ذلك «أحلام بدرية».

وبداية سفر على إلى باريس كانت فى عام ١٩٧٢ واستقر بها، وخلال فترة حكم السادات لم يحضر إلى مصر، لأنه كان معارضا لسياسته، ومع بداية حكم

الرئيس مبارك، كان حنينه إلى مصر يتزايد يوما بعد يوم، فبدأ يتردد على مصر، ويغير موقفه من النظام.

كان قد تزوج من فريدة الشوباشي في عام ١٩٥٧، وانضمت الى أسرة الشوباشي والتي كان أبي يعد الرمز والقدوة لها، خاصة في جميع تصرفاته، وبشكل دائم، حيث كان كل كلامه ينصب على الثقافة ويحرص على أن يكون ذلك في ثوب جميل وأخاذ، وبعيدا عن أمراض المثقفين، الذين يظهرون نوعا من التعالي.

وبانضمام فريدة إلينا اكتسبنا عضوا جديدا في عائلة ثقافية تكتب الشعر والقصة وتهتم بالفكر والأدب، ويقام في منزلها كل خميس من كل أسبوع [illegible] يشارك فيها عدد كبير من [illegible] العصر الذهبي للثقافة المصرية والعربية.

أصبحت فريدة عضوا أساسيا في أسرتنا، واكتسبت اسم الشوباشي، وكثيرا [illegible] افتخرت بهذا الاسم [illegible] فذلك رمز له دلالته على اقترانها بهذه الأسرة وجدانيا وثقافيا، حيث أصبحت اعلامية لها دورها المهم من خلال ما تقدمه، وبالمناسبة فريدة تلعب دورا مهما في إحياء ذكرى أبي والذي توفي عام ١٩٨٤، وأيضا إحياء ذكرى زوجها علي والتي مرت على وفاته ثلاث سنوات.

حينما دخلت فريدة أسرة الشوباشي، عاشت بيننا في منزل يتنفس كل أفراده الثقافة والعلم، وهي سعيدة بذلك الجو، ومن بين ما أذكره ونحن في غرفة الطعام، إذا سقطت «شوكة» من أحدنا وهو يتناول طعامه.. على الفور يتذكر أبي بيتا من الشعر، يتضمن هذا الحدث العارض، وبعد لحظات قد يشتد الريح في الخارج، ونسمع صوت النوافذ تغلق وتفتح بصوت عال، فإذا بأبي يلقي بيتين من الشعر جادت بهما قريحته على الفور!

لكل هذا ولاستعدادها الفكري والثقافي، بدأ ابداعها وكتبت فعلا عددا من القصص القصيرة، أذكر منها قصتها الجيدة «عبارة غزل». وكان منزل علي وفريدة في باريس مزارا لكل مصري يعرفهما، خاصة من مثقفينا الكبار وأذكر من بينهم كامل زهيري ومحمد عودة ويوسف ادريس وجمال الغيطاني والشاعر الفلسطيني محمود درويش، [illegible] أن البعض أطلق على بيت علي وفريدة في باريس «بيت العمدة» وهذه [illegible] تزورهم كثيرا ما شهدت سهرات ثقافية في كل ألوان الثقافة، وطرح كل القضايا بدءا من حب مصر والهموم التي تشغل كل مثقف غيور على وطنه.

وعبدالرحمن الخميسي ينضم للأسرة

كان منزل الشوباشي في مصر يستقطب المثقفين والمبدعين في جميع مجالات الثقافة والابداع.

ومثلما كان لعلي الشوباشي دور لكي يجتذب فريدة الشوباشي لتنضم للأسرة، كان لفاتن الشوباشي دور في أن تجتذب احد رموز الثقافة المصرية، الكاتب عبدالرحمن الخميسي، فبزواجهما عام ١٩٦٢ انضم للأسرة عنصر بارز ومهم

كان عبدالرحمن الخميسي في ذلك

الوقت نجما من نجوم الفن، والثقافة وبالمصادفة كان قد كتب مسلسله الشهير «حسن ونعيمة» والذي شهد ميلاد نجمين مهمين في مجال التمثيل والغناء، وهما الفنانة سعاد حسني والفنان محرم فؤاد، كما ألف وقتها أيضا تمثيلية بعنوان «البهلوان المدهش أحمد كشكش» بطولة سميحة أيوب وتذيعها الإذاعة المصرية.

وعبدالرحمن الخميسي كان شخصية مختلفة تماما عن أبي، فعلى الرغم من أنهما شاعران مهمان وأديبان كبيران إلا أن شخصيتيهما كانت مختلفة تماما.

وأذكر حينما كتب أبي رواية «الخيط الأبيض» كان عبدالرحمن الخميسي متيما بها، وكان يتمنى أن يحولها إلى مسرحية، وبالفعل بدأ في إعداد بعض موادها، لكنه كما يعرف كل المثقفين في أثناء حياته كانت تشغله أمور قد تنسيه مشروعات مهمة جدا.

أبي كان ملتزما [illegible] بيته جدا، ولا يخرج إلا لشيء مهم، إلا أن عبدالرحمن الخميسي كان على النقيض من ذلك تماما، فهو يحب الخروج ويعشق السهرات.

ولكي نتعرف على بداية اللقاء، أتذكر يوم جاء إلى بيتنا، وطلب الزواج من أختي فاتن.. لن أنسى أبدا مدى الحب الذي شاهدته في عيني عبدالرحمن الخميسي لأبي، ومنذ اليوم الأول للقاء تبادل أبي معه هذا الحب وتلك المودة، التي ظلت تجمع بينهما.

كان الخميسي انسانا جميلا خفيف الظل، سريع البديهة، حاضر الذهن دائما،



شريف الشوباشي

ربما بالنسبة لي [illegible] هذا الوقت الذي دخل فيه منزلنا [illegible] جدا.

لقد تعلمت منه الكثير، وتحضرني هنا مقولة: ان الرجل حينما يتزوج يترك المنزل، او بمعنى اصح المنزل ينقص واحدا من افراده. وتصدق هذه المقولة بالفعل فلقد زار بيتنا شخصا مهما جدا هو عبدالرحمن الخميسي المفكر والأديب الفنان والإنسان، تماما كما انضمت فريدة الى منزل أسرة الشوباشي.

منزل عبدالرحمن وفريدة كان قريبا من منزلنا بوسط القاهرة، وكنا دائما إما عندهم وإما يأتون إلينا بشكل منتظم، فما بين أبي وبين عبدالرحمن الخميسي كان يتسم بالود وبالتقدير والاحترام، وكثيرا ما كانت المناقشات تدور حول



الثقافة والشعر والفلسفة ، فهو كشاعر ، كانت له رؤية فلسفية عميقة في الحياة.

وعبدالرحمن الخميسي يعرفه أصدقاؤه ومحبوه، أذكر من الطرائف أنه كان يجلس مع عدد من أصدقائه في مكان عام، وجيبه خاو من المال، ويود أن يكرم أصدقاءه، لكن من أين؟! وإذا به يلمح ملحنا يجلس بعيدا، فقام على الفور وكتب أغنية شعبية تقول «ماتزوقيني ياماما.. أوام ياماما.. دا عريسي حياخدني بالسلامة ياماما»، وقدم هذه الأغنية للملحن وعلى الفور تسلم منه المقابل وكان خمسة جنيهات، كانت لها قيمة مادية في ذلك الوقت، وأحضر بها الطعام والشراب وأكرم أصدقاءه!

كان له أصدقاء من بينهم كامل زهيري ورجاء النقاش ومحمد عودة وغيرهم، وكان له أصدقاء لا يعرفهم إلا هو منهم إبراهيم راضي وسمير ولى الدين والد الفنان علاء ولى الدين، وكان بالنسبة لهم المثل الأعلى، يتركون بيوتهم ويذهبون معه إلى كل الأماكن التي يرتادها وكان أصدقاؤه يطلقون عليه «القديس».

وبعد وفاة زوجته فاتن ظل على صلة مستمرة بأولاده خالد الخميسي وعقد الخميسي.

كان له فضل كبير علي، فعندما تخرجت في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الفرنسية عام ١٩٦٧ ، لا أنسى أنه أخذني وذهب معي إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط ولتلتقي بالأستاذ محمد عبدالجواد، وقال الخميسي لي إن هذه مدرسة صحفية، وقلت لكنني أحب الأدب، واقتنعت في النهاية برأيه وكان ذلك بداية عملي في هذا المجال الصحفي منذ عام ١٩٦٧ والذي عملت من خلاله صحفيا بمجلة «المصور» بدار الهلال بعد فترة عمل في الوكالة ومن دار الهلال انتقلت للعمل بالأهرام ومديرا لمكتبها في باريس منذ عام ١٩٨٥، ثم للعمل ، مع بدايات عام ٢٠٠٢، وكيلا بوزارة الثقافة لشئون العلاقات الثقافية الخارجية، ثم رئيسا لمهرجان القاهرة السينمائي.

أسرة تحترم الثقافة

هناك شخصيات في عائلتنا لابد من الإشارة إليهم، هدى الشوباشي وتخرجت في معهد السيناريو ، وشاركت في تنظيم مهرجان الإسكندرية السينمائي لعدة سنوات وكانت عضوة نشطة في جمعية الفيلم، أيضا نبيل الشوباشي وهو الابن الوحيد لأختي علي، تربى طوال حياته في فرنسا في بيئة تموج بالثقافة، وتزوج من فرنسية ولكنه عاد إلى وطنه مصر ليعيش بها ويعمل حاليا في التليفزيون وهو محب للثقافة وقارئ متميز جدا.

أما خالد الخميسي ابن أختي فاتن فقد أنتج وأخرج عدة أفلام تسجيلية وتمثيليات تليفزيونية.

والبرعم الأخير في العائلة فهو عمرو الشوباشي، أيضا تربى طوال حياته في باريس وعاد إلى مصر، وهو يعمل الآن في قناة النايل تي في ، عاشق للسينما، وشارك كمساعد مخرج مع يوسف شاهين في فيلم «سكوت حنصور» ومع رضوان



الشاعر عبد الرحمن الخميسي



خالد الخميسي

الكاشف في فيلم «الساحر»، ومع سمير سيف في فيلم «معالي الوزير».

ولأنني أنتمي إلى أسرة تعشق الثقافة، فلا أستغرب أن [illegible] في جو يتحدث فيه الجميع عن الثقافة والأدب والعلم، والمعرفة، [illegible] الثقافية لا أستغرب أن يكون [illegible] الشخص مولعا بالثقافة ومحبا لها، وبالتالي ليس من الضروري أن يكون مبدعا، ولكن يكفي أن الأساس قوي ومتين.

وللأسف الشديد فإنني ألاحظ أن هناك اتجاها في مصر للاستهانة بالثقافة وهذا شيء مخيف وينذر بخطر كبير، فالبعض يقول «ياعم هذا رجل مثقف» وكأنها نكتة أو نوع من التهكم.. وإنني أحذر من هذا الاتجاه.

إن أكبر إهانة توجهها إلى فرنسي هي أن تنعته بالجهل، ولا أنسى أنني شاهدت رجلا فرنسيا في برنامج على الهواء في التليفزيون يضرب آخر، لأنه كال له الاتهامات وحين قال له «أنت رجل جاهل»، قام هذا الشخص وضربه على الفور.

فلا ينبغي ألا نقلل من أهمية الثقافة ونعمل على [illegible] وازدراء العلم والمعرفة، بحجة أن الهموم تحيط بنا من كل جانب وبالتالي ننصرف عن القراءة وعن الثقافة بوجه عام.

علينا أن نعود لما كنا عليه في زمن مضى، نهتم بالثقافة ونقدسها ونحترمها، ونضعها في المكان اللائق بها.

فنحن شعب عرف الحضارة منذ آلاف السنين، ولا ينبغي أن نرتد إلى الوراء، بل نواصل هذه المسيرة التي عرفتها كل شعوب العالم عنا. ■

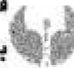
الهلال وأنا

بقلم
مصطفى الحسينى

يبدو العنوان انعكاسا على مرآة لعنوان الفصل قبل الأخير من الهلال: «أنت والهلال».
وموضوع المقال لايعدو ذلك.

★★★

الحقيقة أن متعة قراءة «الهلال» ، يدخل عليها، بل أخشى أن أقول إنه يتدفق إليها حتى يكاد يجتاحها مايعكرها، مع أنها متعة كبيرة قل أن تنافسها ولاحتى أن تضاهيها متعة قراءة أى مجلة ثقافية عربية أخرى، خصوصا بعد أن تحولت المجلات الثقافية العربية أو معظمها إلى «ظواهر غريبة» عسيرة على الفهم.
صفة «الظواهر الغريبة» لاتنطوى على أى جنوح إلى المبالغة ولا على أى استخفاف، بل إنها قد تنطوى على مبالغة فى التقدير أو على إسراف فى وصف الأمر الواقع.



فتلك المجلات أصبحت تتمايز بين أنواع ثلاثة:
أكثرها «رصانة» هى التى ينشر فيها بعض الأكاديميين فى العلوم الإنسانية «أبحاثهم» التى أرادوا أن يحرزوا بنشرها حسنيين: الهروب من إخضاعها للتحكيم العلمى الدقيق؛ ونشرها كأنها عرضت عليه. إذ يعتقدون، مع الجهات غير الأكاديمية التى تنشرها أنه يكفى أن تضع جهة غير أكاديمية على مجلة تصدر عنها عبارة أنها «مجلة محكمة»، حتى يحسب لهم مانشروا فيها عندما يسعون إلى ارتقاء درجة أعلى على السلم الأكاديمى . ولعلهم يحصلون

فعلا على ذلك.

«فضيلة» ذلك النوع من المجلات أن كتابها هم تقريبا قراؤها.

النوع الثانى شائع ذائع، والحقيقة، أن له على الأرجح نوعا من الفائدة، إذ يتوجه إلى نوع من القارىء العام يفيده بأطراف من المعلومات وهوامش، تيسر له أن يكون متحدثا فى المجالس وأن يخوض فى آخر مستجدات العالم، لكن دون أن تعينه على تنشيط تفكيره والتوصل إلى تقديرات عقله. والتقدير هو أهم فضائل العقل، بل قد توهمه أنه قبض على المعرفة من مجامعها. إنها الوسيلة السابقة على الإنترنت للحصول على المعلومات.

أما النوع الثالث فهو تلك المجلات المتباهية بكتابها «النجوم» الذين يكتبون عن «الحداثة» وما «بعد الحداثة» و«البنيوية» و«التفكيك» وما إلى ذلك، بينما يعيشون فى بلاد ومجتمعات لم تبلغ أبدا تخوم تلك الحداثة من حيث هى جوهر حياة يعيشها مجتمع أفرز عناصرها وعواملها ومقوماتها. لكن الكتاب «النجوم» - الذين لايكاد يستضىء بهم أو يسترشد أحد. نجوم فى نظر بعضهم بعضا ولدى الآخذين بـ «الموضة» حتى فى أمور العلم والعقل - يظنون الحداثة زيا فكريا أو أدبيا، أو أنها صيغة أدبية أو مذهب فى النقد.

من «فضائل» تلك المجلات أن قراءها أيضا هم كتابها، لذلك تصرخ وتستصرخ بين آن وآخر أنها توشك على التوقف بسبب «ضيق ذات اليد» وتهيب بأصدقائها ومحبيها تطلب منهم النجدة. وتعتبر حالها من معالم «أزمة الثقافة» ومن الأدلة على استشرائها، وخطرها. دون التفات إلى أن معوقها الحقيقى هو «ضيق ذات الإحساس»، فهى وكتابها يعيشون بعقولهم وينتحلون لأنفسهم وجدانا لايمت إليهم. لكن من رذائلها أنها تجتذب شبابا فى غضاضة تكوينهم يؤدى بهم تطلعهم إلى المعرفة إلى الانبهار بما تطالعهم به تلك المجلات. لكن العزاء أن كثرة هؤلاء الشباب لاتلبث أن تنصرف عنها.

ليست كذلك «الهلال».

ميزتها الكبرى أنها تنشر ماينشط تفكير قارئيها ويوسع معرفتهم إلى ما يتجاوز آفاق مألوف اهتمامهم، فينفتحون عليها لتضيف إليهم.

كتاب الهلال يتداولون مع القراء، لا يعلمونهم، ناهيك أن يمنوا عليهم بالحكمة.

سأذكر كتابا بأسمائهم على سبيل المثال لا الحصر، وعلى غير ترتيب. وهم من المواظبين أو المتواترين: مصطفى سويف، رشدى سعيد، أحمد مستجير، شكرى عياد (رحمه الله)، أحمد عبدالرحيم مصطفى (رحمه الله)؛ تلميذاه وخلفاه: رءوف عباس وعاصم الدسوقى، جميل مطر، طارق البشرى (المُقل)، صافى ناز كاظم، محمود عبدالفضيل، مهدى الحسينى ... (ولأن حامل الاسم الأخير شقيقى سأبين لماذا أذكره فى هذا السياق: تقرأ له عن المسرح

مايحفزك على المشاهدة، وإن أحبطك قصر أعمار العروض المسرحية. وما يجعلك تتأمل فعل القائمين به؛ في الفن كما في الحرفة).

بهؤلاء وغيرهم تقرأ الحاضر ناظرا إلى المستقبل. تقرأ الحاضر متأملا ما به من قصور. تعيد النظر إلى الماضي وتعيد النظر فيه. تقرأ عن العالم مايحفزك إلى السعي إلى فهمه وعن العلم ما يفتح شهيتك ولا يشفي غليلك.

هذا بعض، غير قليل، من متعة قراءة «الهلال».

لكن ، وكما يقول الإنجليز، لابد لكل جملة من خصر هو «لكن» !

لكن هذه المتعة يجتاحها فيروس خبيث هو أخطاء الطباعة !

ليست مبالغة القول إن بعض المقالات، لاينجو سطر واحد منها من أخطاء الطباعة.

وقانا الله رذيلة «قطع الأرزاق»، لكن «الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه». (حديث شريف).

لماذا لاتبدل «الهلال» فريقها من المصححين اللغويين؟

وما دمنا في حديث اللغة، أظن أن «الهلال» بحاجة إلى محرر لغوي، وغني عن الذكر أنها وظيفة معروفة في صناعة النشر، لا يسلم كاتب من زلل اللغة. مهمة «المحرر اللغوي» المنشود أن يقرأ مادة المجلة كلها، ناظرا في سلامة اللغة واستقامتها، متداولا مع الكتاب عند الحاجة.

عودة إلى كتاب «الهلال» وما يكتبون؛ سأجازف بقول إنني كلما قرأت ماينشر لاثنين من كتابها المواظبين، أحسست أنني تناولت وجبة لايسيغها الطبيب.

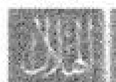
المشترك بين محمد رجب البيومي ووديع فلسطين، أنهما يكتبان عن «ماض جميل». هنيئا لهما ولنا بما عشنا جميعا من جمال الماضي. لكن الجمال وقيمته مرهونان بامتداده في الحاضر والمستقبل إن كان من شأنه أن يمتد، بما نتعلم منه. لكن الماضي، مهما بلغ، ليس نموذجا للحاضر والمستقبل ولا قدوة. قد ينطوي الماضي على طاقة مخزونة، عندئذ تكون العبرة في معالجته بكيفية إطلاق تلك الطاقة نحو الحاضر والمستقبل ، في كيفية تحقيق «انشطار ذرتها».

بغير ذلك، تصبح رواية الماضي لونا من أقاصيص السمر. لابأس.

***

أحيانا، يساور القارئ المواظب أن المجلة تبدأ أشياء ثم لاتواظب عليها أو تفعل ذلك ، إنما على وهن. المثال الواضح هو «دائرة حوار». بدأت؛ في ثمانينات القرن الماضي، تطرح موضوعا يتجاذبه عدد من الكتاب في العدد نفسه وقد يستطردون به إلى عدد يليه، ثم أصابها الوهن؛ أصبح الموضوع يطرح ثم يترك، ثم ازداد الوهن حتى أصبحت الدائرة بيانا لاحوار حوله.

بالطبع، ليست هذه كل شوائب الهلال؛ فهناك ماتنشر من باهت الشعر والقصة القصيرة. ألا تريد الهلال أن تكتشف شاعرا يملأ صوته العصر الذي



تنفتح آفاقه على مابعد زمن صلاح عبدالصبور وأمل دنقل؟ وقصاصا ينقل ذاكرة القصة العربية إلى العصر الذى رحل دونه يوسف إدريس؟.

***

فى درب آخر، نجد فى «الهلال» ضيقا ملحوظا وربما متزايدا فى أفقها العربى، وهو ضيق مطرد. بينما كان من مميزاتها منذ صدورها أنها كانت مجلة للثقافة العربية. يبدو هذا النقص فادحا بفعل عوامل وأسباب ليست «الهلال» مسئولة عنها، إذ نعيش منذ عقود مايمكن أن نسميه زمن تمزق الثقافة العربية أو تمزيقها، وهو ما ليس هنا مجال الخوض فيه.

وإن تكن «الهلال» غير مسئولة - قطعا - عن التمزق أو التمزيق؛ فإن من واجبها - حكما - العمل على التدارك؛ بالرتق (أضعف الإيمان) والوصل - أفضل الجهاد.

أرجح الظن أن ذلك لن يكلفها كثيرا وربما ولا قليلا، سوى قدر من الجهد الثمين. فالمؤكد أنها ستجد فى بلدان العرب الأخرى كتابا ذوى باع وقيمة يختارونها حاملا لأفكارهم، دون أن تحبطهم أو «تردعهم» مكافآتها القليلة التى يقبلها أقرانهم من كتابها الحاليين.

والمفترض أن يعين «الهلال» فى مهمة وصل ماتمزق أو انقطع، ماتحقق وانتشر وشاع من سهولة الاتصال وسرعته.

***

من باب الاستطراد فى مسألة سهولة الاتصال وسرعته، دعنا نسأل: لماذا لاتفكر «الهلال» فى إصدار طبعات متعددة لها فى عدد من البلدان العربية؟ ذلك أولى بإعادة نسج خيوط الثقافة العربية، خصوصا إذا اكتسبت الطبعات المتعددة قدرا من التمايز ذى المراجع المحلية أو الإقليمية، يجعل منها روافد يغذى بعضها بعضا. وذلك أجدى من تصدير كميات محدودة من المجلة إلى بلد عربى أو آخر، تصل دائما متأخرة، بعد أن يكون قارئها، حتى الذى ينتظرها، قد فقد الإحساس بوتيرة المجلة الشهرية التى يفترض أن تصله فى موعدها فى أول كل شهر.

***

ولايعوض القارىء عن مايفوته من متعة وفائدة قول إن الجمال لايكتمل إلا بنقصه، أو أنه كما قال شاعر (لا أعرف اسمه!):

إذا تم شىء بدا نقصه

ترقب زوالا إذا قيل تم

لاشىء يتم. هذه حكمة استمرار الحياة، لكن الحياة، بذات دفعها، تتحرك دائما نحو الكمال، دون أن تبلغه أبدا.

وهذا مايتمناه قارىء «الهلال» هذا لما بقى له من مجلات الثقافة.

تذييل :

أرسلت هذه السطور عن طريق البريد الإلكترونى، حتى لاتضطر «الهلال إلى تنضيدها.

هذه - طبعا - خشية من أخطاء الطباعة. ■

ماذا تريد أوروبا من العرب؟!

أصبحت صفحة (الكلمة الأخيرة) من مجلة الهلال كل شهر بحثا موجزا، ذا خطوط محددة، أحس خلاله بجهد كاتبه، هذا ينطبق تماما مع ماكتبه الشهر الماضي د. محمد نور فرحات بعنوان (حوار قبل شروق الشمس) وخلاصتها كالتالي: «هل إكتشف الحكام العرب فجأة أن الإصلاح السياسي أمر عاجل لا يحتمل التأجيل؟

لا.. بل كانوا يعلمونه ويقاومونه، ويلقون بدعاة الإصلاح من الأحرار العرب صرعى بمقصلة القمع، مجردين فوق ذلك من شرفهم السياسي بحجج سياسية وتشريعية مختلفة.. مؤداها أن الشرعية العربية إذا هي شرعية القمع!

ولكن هؤلاء الحكام العرب ينصاعون لإرادة أمريكا دون مقاومة، ونحن نكره الديمقراطية التي تأتي عن طريق جلادينا!.

ورغم إيجازي السابق لأهم ما جاء بمقال د. نور فرحات فإنني عدت بذاكرتي إلى ما كتبه الراحل الكبير أحمد بهاء الدين في كتابه «شرعية السلطة في العالم العربي».. الصادر سنة ١٩٨٤ ص ٦ تحت عنوان «نحن والحاضر».

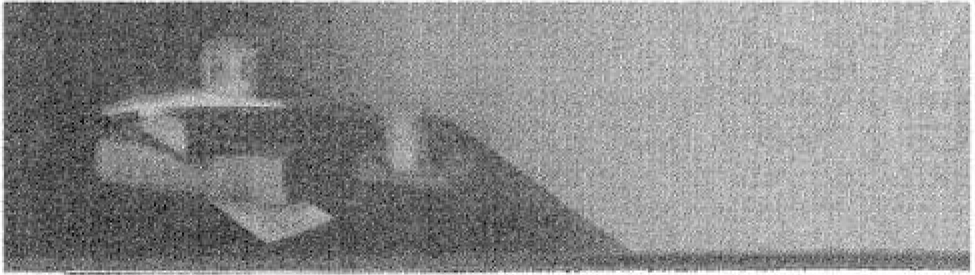
«أعتقد أنه لو استقامت أمور الأمة العربية الداخلية، وحياتها مع نفسها، لتغير الموقف تماما بالنسبة لكل شيء، وحتى التحديات الخارجية، سوف يتغير وضعها وسوف تسهل مواجهتها إلى حد بعيد.

ويقول الأستاذ بهاء مذكرا العرب ص ٢٩٣.

«إن» أوروبا قوية.. كانت تحب أن ترى دائما عالما عربيا ضعيفا، لأن عالما عربيا موحدا، كان يعني إضعاف «أوروبا»، وذلك بما كان يتمتع به هذا العالم العربي من حضارة سابقة متكاملة.. وهذا يسبب لأوروبا مشكلة.. والظروف السياسية والاقتصادية الآن (١٩٨٤) قد تغيرت بالطبع، ولكن الرواسب لا تحدث بسهولة.

قد يهم الأوروبيون بترولنا، ولكن قد تزعجهم وحدتنا على وجه اليقين، فهل تناسينا نحن العرب.. ذلك الآن سنة ٢٠٠٤ بعد أن تكاثر الأكلة على قصعتنا!! وليسمح لي أستاذنا د. نور فرحات أن يكون عنوان مقاله «حوار قبل غروب الشمس»!.

د. سامي منير عامر
كلية التربية
جامعة الأسكندرية



البجاحة!

قذفوا
على أرضي القنابل
ثم قالوا:
أنت قاتل؟
«أنت شر قد سرى»
فليقاتل!
سرقوا من الأرض المشاعل
ثم قالوا:
«هذا إظلام القبائل»
«صار يعلو فيه باطل»
نحن جئنا
«كي ننير الليل في أرض القبائل»
نمحو إرهابا يقاتل
كل عاقل!
وضعوا - بأيدينا - السلاسل
ثم قالوا:
قد أتينا
«كي نحرر في القبائل!
من كل طاغية وسافل!
نحن جئنا .
كي ما نزرع في السنابل!
كي يصير الخير طائل!
للقبائل
دفعوا
على أرضي القوافل
ثم قالوا
نحن جئنا
كي ما نثرى في الوسائل
كي نحرك كل خامل..
دمروا الأرض
وقالوا:
قد أتينا
كي نعمر كل زائل..!!
زرعوا المصائب حولنا
أثقلوا - فينا - الكواهل
ثم قالوا:
قد أتينا
كي نحقق كل آجل
فوق أرض - كم رجونا -
أن نرى فيها السواحل!
وطن تناثر وانتهى
وصار زائل
والبجاحة في تواصل
تقتل.. تعربد في الدنا حول القبائل
تثرى الا باطل
ونحن ننظر حولنا
نرجو الجحافل
أن تكون رحيمة
إن ما تقاتل
من أجل خير قد بدا
يأتى القبائل..!!

محمد عواد
شارع حسين كمال - الدقي

قولوا لأمريكا: لا .. ولو لمرة واحدة!!

اغتالت الطائرات الإسرائيلية الغاشمة الشيخ أحمد ياسين في مارس وقبل أن يمر شهر على هذا الاغتيال الجبان وبنفس الأسلوب الهمجي لعصابات إسرائيل قتل الدكتور عبد العزيز الرنتيسي.. وكما مزقت القذائف الصاروخية الشيخ المقعد وكرسيه .. بنفس الأسلوب القذر فرقت الصواريخ جسد الدكتور الرنتيسى كما قتل الحارس الشخصي له وآخر فضلا عن إصابة عشرة من أبناء الشعب الفلسطيني .

العالم العربي والإسلامي ودعاة الحرية والمتشدقون بالسلام والمطالبون للأمن ومحاربة الإرهاب .. كل هؤلاء شاهدوا السيناريو الحزين يتكرر، والفلسطينيون من هول صدمتهم، أو من هول الصدمات خرجوا إلى الشوارع لايدرون ماذا يفعلون .. وإلى أين ذاهبون ؟!

.. ماذا يريدون ؟.. وماذا أعددنا للرد عليهم بديلا للشجب وللاستنكار والخوف والهلع من أمريكا وتساؤلنا صباح مساء، متى يحل السلام ؟!

ياسادة العرب ويامسلمي العالم، يا من تشكلون سدس العالم كله أفعلوا شيئا لوجه الله، حتى ولو بالمقاطعة وياحكام العرب قولوا بالصوت العالي لا يا أمريكا .. توقفي عن التحيز والانحياز لهذا الشارون قولوها مرة ولاتخافوا فالله لن ينساكم

أحمد فوزي – مدينة السادس من أكتوبر

علينا تسقط الأمم

علينا تسقط الأمم وكل الغربان تزدحم
وتأكلنا هنا أكلا وتهضمنا فتنهضم
ونحن الأمة الأولى وكم كانت لنا قدم
وقمتنا في الأعلى وكانت تحتها القمم

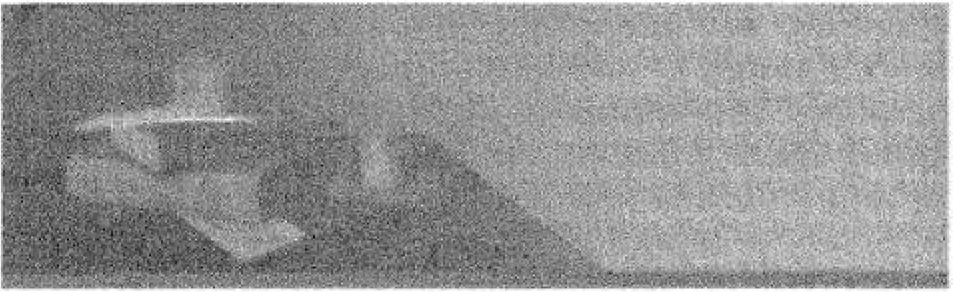
***

تفرقنا .. فجاءتنا كلاب الغرب تلتهم
فهذي القدس ضيعتنا تئن وفوقها صنم
وفي بغدادنا أمم من الأجناس تقتسم
وكم بلد لنا أخرى مع الأجناس تصطدم
وهيمنة لغانية تراودنا وتستلم
وكل العالم الجاري يجاريها ويحترم
وقد عرفت خطورتها ولو هي بعدها عدم

***

عجبت لأمة هبيت تضل وحولها أمم
عجيب أمر أمتنا وتلك الأصل والشمم
لها قيم بها تحيا تموت فأين ذي القيم؟!
وأين الحكم والدنيا إليه العمر تحتكم؟!

حسن أبو الغيط – كفر المصيلحة – المنوفية



المؤرخ هو ضمير الماضي ..

لكن الفرنسي تسفتان تودوروف تجاوز دوره كمؤرخ لما حدث في الماضي، بل هو شاهد على الحاضر يبدى رأيه فيه، ويشارك في صناعته..

تودورث ينتمي أساسا إلى ثقافة البلقان، حيث ولد في بلغاريا عام ١٩٣٩، وتلقى ثقافته الأولى هناك، وبعد تخرجه حاملا شهادة التاريخ البلغاري، وصل وهو في الرابعة والعشرين من عمره إلى باريس وصار مواطنا فرنسيا، فدرس التاريخ الأوروبي وعشق الثقافة الفرنسية، وأصبح أهم المؤرخين المعاصرين، لأنه لم يكن مجرد عين راصدة على ما حدث في التاريخ، بل كان محللا مضيفا وجهة النظر والفلسفة. كما صار من كبار المدافعين عن الديمقراطية

وأمام مؤرخ وفليسوف من طراز تودروف، وهو مؤلف الكتاب الشهير «ذكريات الشر، أغواء الخير» عام ٢٠٠٠ كان لابد أن يدلي برأيه فيما يحدث الآن من حولنا خاصة حرب العراق ومن هنا جاءت أهمية كتابه الأخير «الفوضى العالمية الجديدة» وأهمية هذا الكتاب أن مؤرخا معجباً بالديمقراطية على الطريقة الأمريكية قد قرر التعبير عن صدمته فيما يسمى بالشيزوفرنيا الأمريكية .

جاءت غرابة هذا الكتاب أن تودروف ترك تاريخ الماضي المنصرم، وانتقل إلى الحاضر المسيار المليء بالعنف، والفوضى غير المتوقعة، وهو يرى في ذلك أنه لم يكن له أن يتحمل ما يدور من حوله دون أن يعبر عن وجهة نظره، وليس أمامه عمراً ينتظره كي يضع ما حدث في العراق في ميزان التاريخ .

يقول تودروف أن أمريكا لم تتغير قط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وأن ما فعله السفير الأمريكي في بلغاريا عام ١٩٤٧ من خلال مناهضة الشيوعية، لايختلف عم يفعله الأمريكيون اليوم وهم يتصببون عدائهم للأسلام، لم يتغير شئ قط في سياسة أمريكا .. إنها نفس السياسة: البحث دائما عن خصم لدود لمعاداته، ومحاولة كسب أصدقاء ..

كما يرى تودروف كمؤرخ وفليسوف، وقارئ لخريطة العالم الحالي، أن السياسة الخارجية الأمريكية تبدو متأرجحة بين المواقف الإنعزالية والمحافظة، وبين الرغبة في السيطرة على كل ما يخص شئون العالم.

ضحكة عينيها

إن أطبـــــقت ياحلوتي ســــحــــــائب الأحـــــزان
أو أمطرت، أو أرعـــــدت، أو زمـــــجـــر البــــركــــان
أوهز شـــوقي عــــاصف قـــد قـــوض الأركـــان
أو ظل عـــودي يشـــتكي من قـــســـوة الألحـــان
أو بت أحـــمـل مـــهــجـــة قـــد هدها الطوفـــان
يكفـــيني أن تتـــبـــســمي، أوتضـــحك العــــينان

أحمد محمد الدماطي
(الشهداء - المنوفية)

من فن الخطابة .. في حفل افتتاح جامعة الإسكندرية

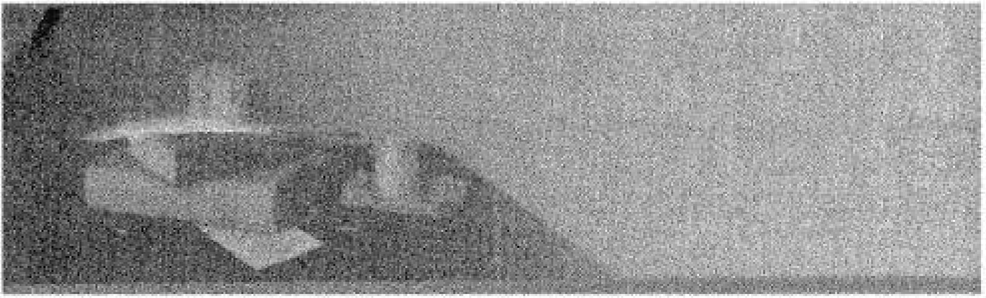
لطه حسين أثر مهم في أساليب الخطاب الرسمي في حياة مصر، حيث ملك بعبقريته الفذة ناصية اللغة العربية، وفي هذه السطور من خطاب طه حسين الذي ألقاه في يوم افتتاح جامعة الإسكندرية الرسمي في ٨ فبراير ١٩٤٣ نرى أسلوبه الذي يخلو من الركاكة ونلمح فيه الاهتمام الكبير باللغة العربية السليمة، وكان الملك يحضر هذا الحفل

يقول : «أحب شئ اليك، وأثر شئ عندك يامولاي أن تؤدي كل مصري حظه من الواجب الذي تفرضه عليه الحياة المصرية على أتم وجه وأكمله في غير نفور ولاتقصير، والواجب الذي تفرضه الحياة المصرية على الجامعيين، هو أن تخلص عقولهم وقلوبهم وضمائرهم، للعلم يحبونه كما تحبه، وينصرونه كما تنصره، ويتخذونه كما تريد أن يتخذ وسيلة إلى معرفة الحق ما أمكن الوصول إلى الحق، وأداة إلى تقويم الخلق، وتنقية الضمير وتصفية الذوق وتثقيف الشعب على اختلاف طبقاته، وتكوين أجيال مخلصة للحق مؤثرة للعدل ، قادرة على أحتمال التبعات والنهوض بالواجبات الوطنية مهما تكن ومواجهة مصاعب الحياة التي تزداد تعقدا من يوم إلى يوم .

والجامعيون يأخذون أنفسهم بأن يقفوا على هذا كله جهودهم وأوقاتهم وأن يبذلوا في سبيله صفوة ما يملكون من قوة وأيد.

والجامعيون يأخذون أنفسهم أيضا بأن تكون جهودهم كلها خاصة لمجد الوطن العزيز، وبالسعي إلى هذا يبلغ المصريون غايتهم إذا جدوا واجتهدوا وأخلصوا، وعلينا العهد بأن نكون دائما في طليعة الجادين المجتهدين المخلصين.

أحمد عبد الفتاح - مدير عام متاحف - آثار الإسكندرية



أم كلثوم .. فنانة احترمت فنها فخلدها هذا الفن

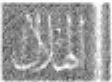
لانمل أبداً من سماع أغاني أم كلثوم، والتي تتميز بالكلمات الرصينة والألحان الرائعة، في زمن كان الإبداع فيه هو السمة الغالبة .. فالكل في ذلك الوقت كان يحترم ذاته، لذا جاءت حفلات كوكب الشرق في مطلع كل شهر، لتملأ سماء القاهرة بدفء الأشقاء العرب الذين كانوا يأتون لهذه المناسبة ونرى كيف توحد العرب حول صوت سيدة احترمت الفن، فأعطاها الفن تلك الألقاب .. كوكب الشرق، وسفيرة الغناء العربي، وغيرها من الألقاب التي يعرفها من عاش تلك الحقبة المهمة في حياة مصر إنني حبا في فن أم كلثوم حرصت على مشاهدة المسلسل المهم الذي كتبه الكاتب المبدع محفوظ عبد الرحمن، وأخرجته المخرجة أنعام محمد علي، ولاحظت ثراء الفترة التي عاشتها أم كلثوم، ولقاءاتها مع كبار الشعراء والساسة والصحفيين ورجال الاقتصاد وفي مقدمتهم طلعت حرب مؤسس بنك مصر، وأيضاً تعرفنا من خلال هذا المسلسل على محمد القصبجي وزكريا أحمد ورياض السنباطي وعلاقاتها بعبد الوهاب ومن قبل منيرة المهدية ثم بالكتّاب الكبار من أمثال بيرم التونسي وأحمد رامي وغيرهما ممن كتبوا لها أجمل الكلمات.

الذي دفعني للحديث عن أم كلثوم متابعتي لها وانشغالي بكل ما يكتب عنها، فضلا عن اهتمامي بجمع كل ماكتب عنها

سناء علي - السعودية المدينة المنورة.

الهلال : لقد تناولت وسائل الإعلام هذا المسلسل في أكثر من مناسبة، وماكتب عن أم كلثوم في تلك الفترة - يمكن أن يجمع في كتب

ملامح ابن خلكان



هو الأديب والمؤرخ شمس الدين أحمد بن خلكان .. ولد بالموصل، ويتصل نسبه بالبرامكة .. عمل بالتدريس فترة بمدارس دمشق، وتولى نيابة القضاء في مصر والشام أثناء ولاية الملك الظاهر .. من مؤلفاته أبناء الزمن، وفيات الأعيان ويشتمل على ٨٤٦ ترجمة للأعيان والمشاهير حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وترجم إلى عدة لغات وقال الشاعر فيه هذا الزجل :

زي البدر ماضيه يهل   زي الفجر مانوره يبان
شمس الدين طل على الدنيا   بكلام كله حكم وبيان
ويامـا ألف كتير   عن أبناء الزمان
واهتم بالوفيات إذا   كانوا من الأعيان
وكان مؤرخ وقاضي   وكان مدرس كمان
وكان خل هو وكان   أديب وكاتب شهير
وضم أغلب كتاباته   في كتاب مميز مثير
وصاحبه شمس الدين   قضى في كتابته سنين

محمد أمين عيسوي - الإسماعيلية

أنت والهلال

رثاء قلب

علام ياقلب تنعى من أسقاك كأس الأفراح أشجانا
وتشكو من خيانتك وأذاقك العذاب فنونا وألوانا
وتغنى بصبابتك وعزف على وتر بال أتراحك ألحانا
اللوم عليك إذا مثلته مجداً خالداً فقد مثلته زيفا وبهتانا
دارة القمر تدثرت بالصدق لم تنل منه إلا عنوانا
كذبت .. خانت .. وما كنت تدرى ولا كنت خوانا
وعدت ووعودها كاذبة وكانت دوما للكذب ظمآنة
ليست عليك عزيزة فالخائن لايعد فى عرف الأخلاق إنسانا
لها الشكر إذ علمتك أن الورد الناضر يحوى السم أحيانا
لنا الله يجزينا عن نوايانا ويجزيها عنا كل إحسانا

محمد فريد هزاع - القاهرة - بنك ناصر الاجتماعى

الكاتب علاء الديب ذهب للعلاج فحكموا عليه بالسجن !!

بعد معاناة طويلة مع المرض دخل أديبنا الكبير علاء الديب مستشفى وادى النيل لكى يعالج على نفقة الدولة والتى خصصت له - مشكورة - خمسين ألف جنيه.

وأجريت له جراحة عدة مرات، مما جعل التكاليف تزيد قرابة ثلاثين ألف جنيه لايمتلك منها كاتبنا حتى أقل القليل نظرا للمعاناة الطويلة قبل دخوله المستشفى وما تكلفه.

حينما أراد علاء الديب أن يغادر المستشفى أحضروا له إيصال أمانة إلى أن تصل بقية النقود من نفقات العلاج التى تتحملها الدولة.

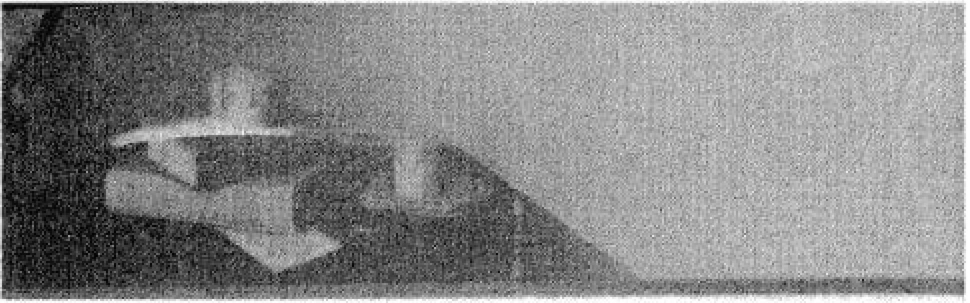
وفوجىء بأن مدير المستشفى قدم هذا الإيصال إلى النيابة وليحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات!

وإننى أتساءل وكلى دهشة وعجب .. هل كاتب وروائى كبير حاصل على جائزة الدولة التقديرية يشغل منصب رئيس لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة يحكم عليه بالسجن لأنه يعالج على نفقة الدولة؟..

أين نقابة الصحفيين؟!.. وأين اتحاد الكتاب، وأين وزارة الثقافة ؟ وأين مؤسسته التى يعمل بها «روز اليوسف» ولماذا لايعامل كاتبنا مثل غيره من الذين يسافرون إلى الخارج، وتقدم لهم كل التسهيلات حتى يتعافوا تماما.

إبراهيم محمود حمدان - حلوان - المعصرة

الهلال : نحن نناشد المسئولين أن يتدخلوا وبسرعة، لأن ماحدث إساءة كبيرة لرمز من رموز الأدب فى مصر، حتى لاتضيع هيبة مثقفينا بهذا الشكل المهين أمام الرأى العام.



ج

جمال حمدان
١٩٢٨ - ١٩٩٣

الهلال

أحد عشر عاما مرت على وفاة واحد من أبرز الكتاب الذين تغلغلوا فى شخصية مصر، واستطاع أن يؤلف كتابه الشهير شخصية مصر فى أربعة أجزاء، وتصل صفحاته إلى ٣٥٥٠ صفحة، تضمن ٧٤١ مرجعاً أجنبيا و ٣٥٠ مرجعا عربيا .

ولد جمال حمدان فى ١٩٢٨بقليوب، وتخرج فى قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة عام ١٩٤٨ وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ريدنج بلندن، كما حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٩ عن كتابه «جغرافية العالم العربى» ويشهد هذا الكتاب على براعة جمال حمدان فى جمال الأسلوب وعذوبته وهو يكتب عن جغرافية البلاد العربية.

حصل أيضا على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ١٩٨٦، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

كانت له نظرته ورؤيته فى الحياة، وكان صاحب رأى لايحيد عنه، فلم يواصل تجربة التدريس وترك الجامعة ليتفرغ تماما للبحث العلمى منذ عام ١٩٦٣ وعكف فى منزله بالدقى لايغادره إلا للضرورة لينجز مشروعه الثقافى من خلال ما أصدره من كتب هى الفريدة من نوعها فى المكتبة العربية

من بين كتبه:

- ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ١٩٧٤
- الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ١٩٦٣
- اليهود انثروبولوچيا ١٩٧٠
- شخصية مصر (٤ أجزاء)
- سيناء «كتاب الهلال»
- القاهرة «كتاب الهلال»
- العالم الاسلامى المعاصر (كتاب الهلال)
- القاهرة : تأليف ديزموند سيتوارت ترجمة د. جمال حمدان ١٩٧١ كان لديه مشروع لانجاز عدد من الكتب تحت الطبع من بينها الصهيونية واليهودية ١٠٠٠ صفحة لم يعثر لها على أثر بعد وفاته فى ١٨ إبريل من عام ١٩٩٣، وحامت شبهات حول وفاته بسبب عزمه على إصدار هذا الكتاب المهم !

فى كتابه «شخصية مصر» نلمس من الموضوعات التى عالجها شخصية ظاهرة الطغيان عنده، لأن العوامل التى تساعد على إحكام الطغيان «ن البلد المعمور، صغير المساحة صارم الحدود، عالم متناه كالزقاق المغلق، سهل متواضع، ليس فيه من معاقل الاتجاه أو دروب الهروب على نحو ما تعرف البيئات الجبلية الصحراوية مثلا حـ ١ ص ٥٦٥أيضا يقول : «ليس أمام الإنسان المصرى الرافض الا متاهات الصحراء أو مفازات النوبى فالأولى لجأ اليها آباء الكنيسة أيام الرومان، والأخرى لاذبها المماليك أيام مذبحة القلعة الشهيرة .. حتى الصحراء لعامل الجفاف والقسوة، لم يكن من السهل أن تكون مهربا .

بقلم: شكري فؤاد

حسنا فعلت ورشة العمل التي نظمتها حركة «سوزان مبارك الدولية من أجل السلام» التي عقدت في ١٤ مارس ٢٠٠٤ عندما حددت أول مكونات السلام، وأنا أعني هنا السلام الاجتماعي، بضرورة نبذ فكرة العدو باعتبارها فكرة تثير العداوات ينبغي أن تحل مكانها فكرة السماحة.

وكان قد استلفت نظري منذ مدة أن المواطن المصري - وربما العربي بشكل عام - تسيطر عليه فكرة أنه يعيش في مجتمع يحيط به الأعداء من كل جانب وهم في أغلب الأحوال أعداء من داخل مجتمعه ومعارفه وينعكس هذا في عدد الأمثال الشعبية التي يتداولها في أحاديثه وتجعل له في كل خطوة يخطوها عدوا يتربص به. ولا أظن أن هناك شعبا آخر لديه هذا الكم من الأمثال التي تجسم العداوات المحيطة بأفراده.

إذا خرجت من منزلك إلى الشارع فعليك الحذر لأن الأعداء يملأون المكان من حولك لذلك «موت على عدولك [illegible] ولا تفوت [illegible] عريان».

وإذا أتاك خير أو ظفرت بشيء [illegible] سواء كان طعاما طيبا أو شرابا عذبا فالنصيحة الأولى لك هي «[illegible]».

وإذا كان [illegible] إلى جانبهم أعداء «[illegible] لك [illegible]».

وإذا [illegible] لك صديق من مرض أو مصيبة حلت به فعليك أن تهون عليه بسارع بالقول «إن شاء الله عدوك» أو «في وش (زجاج) العدو».

وإذا كان الحديث عن وضع بائس فهو «لايسر عدوا أو حبيبا»، والعدو يأتي دائما أولا.

ويجتمع أصحاب المهنة الواحدة في العالم كله في نقابة أو جمعية يتضامنون فيها معا لضمان مصالحهم وتحسين أحوالهم أما عندنا «فعدوك من كارك» أي عدوك هو زميلك في مهنتك.

وحتى إذا كان المثل يحض على مكارم الأخلاق فهو يدور أيضا حول فكرة العدو «إن جاء عدوك لحد بابك قل له مرحبا بك».

إن تغيير المفاهيم الثقافية والقيم الاجتماعية يحتاج إلى وقت طويل وعمل متصل دءوب لابد أن نبدأ به الآن وإلا استمر المستأجر عدوا المالك والمدرس عدوا الطالب والرئيس عدوا المرءوس وحل العداء محل المودة والإخاء والتسامح ■





تعلن عن الجديد في رحلاتها بمناسبة الجدول الشتوي
بين القاهرة و مختلف العواصم

بيروت دمشق عمان الكويت دبي

يوميا

الخرطوم يوميا ماعدا الأربعاء	**حلب** الأربعاء و الأحد	**أبو ظبي** يوميا ما عدا الأحد
الرياض يوميا ما عدا السبت و الأحد	**طرابلس** يوميا ما عدا الثلاثاء و الجمعة	**تونس** الأثنين و الأربعاء و السبت
نيروبي الأثنين و الأربعاء و الخميس	**طوكيو** الثلاثاء و الجمعة و الأحد	**بانجوك** الأربعاء و السبت

الهلال

يونيه ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

عشيقة نابليون فى مصر

الشباب: مهاجرون داخل الوطن

الحرف التقليدية والمأثورات الشعبية

لوحة وفنان



محراب مسجد رستم باشا بالقسطنطينية

زيت على خشب ٩٢,٥×٧١,٥
للفنان الألماني: رودلف إيرنست
متحف الفن الحديث - لندن

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العدد الثاني عشر بعد المائة ربيع ثاني ١٤٢٥ هـ - يونيه ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
تلكس: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

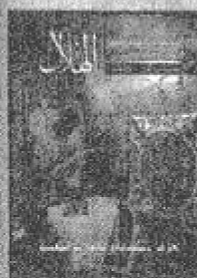
مؤمن حسنين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١
ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس
٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٣.٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات



الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد نقدياً أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٣٥ دولاراً، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٤٥ دولاراً، باقى دول العالم ٥٠ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

محمد رجب البيومى

الدكتور محمد رجب البيومي من أبرز كتاب مجلة الهلال على مدى أكثر من خمسين عاما، اتسمت كتاباته بالعقلانية والموضوعية، ويناقش كل القضايا بهدوء رغبة منه فى الإصلاح، انطلاقا من رؤية إسلامية سمحة، كانت دوما هى السمة التى ميزته في كل كتاباته الأدبية والشعرية، فقد برز ذلك فى مقالاته الأخيرة حول قضايا التعليم والثقافة وكشفه لبعض العادات السيئة التى استشرت في مجتمعاتنا خاصة المصرية، مثل المبالغة فى مهور الزواج والمبالغة في مظاهر العزاء والمتاجرة فى زواج الصغيرات، وغيرها من القضايا التى تهم المجتمع والناس ومستقبل الوطن، وهو فى كل ذلك يستعرض الجوانب المضيئة من تاريخنا الثقافى والأدبى والاجتماعى، حتى نتخلص من عيوب أفسدت مجتمعنا واستشرت فيه .

والدكتور البيومى مثله - لدينا فى الهلال - مثل الراحل الكريم الدكتور شكرى عياد يعتبر الهلال قبلته التى يوجه إليها مقاله الشهرى الذى يكتبه بكل العناية والاهتمام، بل ويحرص على أن يصل قبل موعده المعتاد، ويطمئن على وصوله ناسيا أنه رئيس تحرير مجلة الأزهر، واضعا فى اعتباره اتساق فكرته التى يطرحها مع منظومة العدد الجديد من الهلال ونحن نعتبره فى المقابل من أهم كتابنا خاصة بما يحظى به من إنتاج أدبى مشهود يتمثل فى دواوين شعرية ومسرحيات نال عنها الجوائز فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ومجمع اللغة العربية، من بينها المسرحية الشعرية «انتصار» و«فوق الأبوة» وديوانه الشعرى «صدى الأيام» ورجب البيومي والذى ولد عام ١٩٢٣ حفظ القرآن كله صغيرا، وثقف نفسه من خلال مكتبة والده، حيث بدأ وهو صغير السن يقرأ كتاب «كليلة ودمنة»، ثم قرأ ديوان حافظ إبراهيم، وتعلق بالشعر والأدب، وهذا شجعه على كتابة المقالات.. ففى المرحلة الابتدائية أرسل تعليقا أدبيا لمجلة الرسالة تعقيبا على مقال نشره أحمد حسن الزيات فى مجلة الرسالة، ولعشقه للأدب كان يحرص على قراءة كل ما يكتبه العقاد والمازنى وعبدالرحمن شكرى وأحمد أمين ومحمد فريد أبوحديد.

ويقول عن أحمد حسن الزيات «لقد فتح مجلة الرسالة لمقالاته وهو طالب، وكان يرشده إلى مراجع أدبية كثيرة.. وبتشجيعه صار كاتبا وهو طالب قبل أن يوظف ويحترف الكتابة بداية من عام ١٩٤٥.

أما محمد فريد وجدى «فقد وجهنى إلى الكتابة الإسلامية، وقال له إن الكاتب الإسلامى لا يصح أن يكتب عن الراقصات أو أرباب السوء الخلقى، لأن الذى يكتب فى كل موضوع



ينافى الرسالة التى تخصص فيها يكون كاذبا بينه وبين نفسه».

أما الذى كان له تأثير كبير فى الناحية الاجتماعية المتقيدة بنماذج الإسلام فهو الشيخ محمد الغزالى، لأنه كان صديقى وأستاذى فى آن واحد، ويمتاز عن جميع الدعاة بحرارة أسلوبه وقوة نبضه وإخلاصه الزائد لما يعتقد من سمو الإسلام ومبادئه، وأحاول أن أحتذيه».

و د. محمد رجب البيومى يستحق منا أن نتوقف عند مسيرته والتى تقترب من الستين عاما، كان عطاؤه فيها يمتلىء بقضايا تهم الباحث والقارىء الذى يستزيد من تاريخنا الثقافى والأدبى والاجتماعى والسياسى، ويركز على شخصيات من التاريخ الإسلامى الملىء بالسير العطرة، وأيضا نماذج أدبية وشعراء أثروا حياتنا بإنتاجهم الفكرى، ويبرز ذلك من خلال بعض مؤلفاته: «الأزهر بين السياسة والفكر» «موسوعة النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين» وصدرت فى ستة أجزاء، «صلاح الدين الأيوبى» «هارون الرشيد» «فى ظلال النبوة» «حديث القلم» والذى اشتمل على موضوعات فى النقد الأدبى، فبعضها مع طه حسين والعقاد والمازنى وأمين الخولى وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وله آراؤه السديدة حول مصادرة بعض الأعمال الأدبية والأدب المكشوف: «المصادرة تزيد الانتشار، فكل مصادرة فى هذا العالم ترفع من المصادر، ونحن لا نؤيد المصادرة» : «أما بالنسبة للأدب المكشوف، فيجب علينا أن نفهم ما هى رسالة الأدب؟ فالأدب ارتقاء بالمشاعر والأحاسيس، فإذا قرأت قصيدة مكشوفة فى وصف المرأة فهل ترتقى مشاعرك؟ والإجابة واضحة، ويزداد التأثير على الشباب فينام طوال الليل مؤرقا.. أما إذا قرأت قصيدة غزل عفيف تدعو إلى السمو فإنك تشعر بالراحة».

ولأنه مهتم بالشعر وله دواوينه فله رأيه فى السؤال الذى يطرح دائما الآن عن تراجع الشعر وازدهار الرواية: «فعلا الشعر تراجع وذاع صيت الرواية عندنا، والسبب فى ذلك أن المجلات والصحف احتفلت بالرواية ولها الحق فى ذلك لأن القارىء أقبل على الرواية، وزهد فى الشعر لغموضه، وقارىء الرواية هو الجمهور.. أما قارئ الشعر فهو المثقف.. فكان على المجلات والصحف أن تهتم بالمثقف وتجعل للشعر نصيبا، ولكن ببحثهم عن الربح اهتموا بالرواية».

وكاتب بحجم الدكتور رجب البيومى وبثقافته الأدبية المتنوعة، وبدوره المتواصل فى مجال الإبداع يستحق من «الهلال» ومن قرائه التحية والثناء على مواصلة المشوار بفكره الممتلىء بحيوية المبدع كما لو كان فى سن العشرين، متعه الله بالصحة ليواصل مع مجلته الأثيرة إلى نفسه وإلى قرائها كل جديد ومتجدد فى ميدان الثقافة العصرية التى لا تحيد عن مبادئنا وأخلاقياتنا العربية الأصيلة.

المحـــــرر

الشباب .. مهاجرون داخل الوطن!

بقلم
د. صلاح قنصوه

لم يعد الواقع الاجتماعى فى مصر مستقراً بقدر ما أصبح حركة مضطربة نحو أفق مفتوح، ونداءً صارخاً أو خافتا إلى التغيير، ودعوة معلنة أو مضمرة إلى بنية مختلفة لا تكشف عن معالمها إلا فى مستقبل قريب أو بعيد.

ويشارك الواقع الاجتماعى، على هذا الوجه، الشباب نفس خواصهم الأساسية بوصفهم كيانا واعداً أو متوعداً، مبشراً أو منذراً.

١- الوضع والوعى

ليس الشباب فئة واحدة متجانسة، بل يمكن تصنيفهم على مستويين:

الأول من حيث وضعهم من هيكل المجتمع كفلاحين أو عمال أو طلاب، أو طلاب، أو عاطلين.

والثانى من حيث درجة الوعى بدورهم ومسئوليتهم وحقوقهم، وتصورهم للمستقبل الذى ينبغى أن تمضى إليه خطوات التغيير.

وربما كان الفريق الذى يعنينا أكثر من غيره، ويشد انتباهنا فى حديثنا عن الشباب هو الفريق الواعى، بدرجة ما، بدوره ومكانته، والمعانى لأزمته، فرغم كونه أقل عدداً، إلا أنه أعلى صوتا، ويقود غيره من الشباب، وقد يغرى سائر فئات المجتمع للانجذاب نحوه.

كما ينبغى أن نفرق بين النظرة الموضوعية المحايدة إلى الشباب، ونظرة الشباب إلى أنفسهم من جهة توزيع الأدوار على مسرح المجتمع الذى فى سبيله إلى التحول والتغير. فالكبار، أو الجيل السابق، ينظر إلى الشباب، من حيث هم أفراد كمجرد مشروعات ناقصة تنتظر بين الكواليس لأداء دور معين يوما ما على مسرح الكبار. فهم إذن مشروعات مواطنين، وليسوا مواطنين كاملين.

كما ينظر الكبار إلى الشباب، من جهة كونهم وضعا أو حالة، كمرحلة انتقالية بين فترتين هما الطفولة والرشد. ومن ثم فإن



الكبار يتهيأون فى الحالين للقيام بدورهم فى تشكيل الشباب وصياغتهم على النحو الذى يلائمون بمقتضاه الوضع الراهن للمجتمع الذى استقرت فيه سلطة الجيل السابق ورسخت بالتالى أساليب التعامل معه.

إذن، فنحن بإزاء مسألتين هما: طبيعة «الوضع الراهن»، وعمليات إدماج الشباب فى ذلك الوضع الراهن عن طريق كافة مؤسسات التربية والتعليم، والمؤسسة الدينية، ووسائل الإعلام.

ولا تختلف هاتان المسألتان فى معظم المجتمعات المستقرة. إلا أن ما حدث فى مصر قد اتخذ وجهة أخرى سواء من ناحية «الوضع الراهن»، أو من ناحية محاولات ادماج الشباب فيه.

فقد كان الإيقاع متسارعاً فى التقلبات المباغتة فى السياق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى مصر.

ولم يكن ذلك بفعل ثورة شاملة، بقدر ما كان نتيجة قرارات وممارسات متضاربة تهبط بين الحين والآخر من قمة السلطة إلى قاعدة الجماهير.

وقد أفضى ذلك إلى تشتت ملامح الصورة الوطنية وتمزقها وإعادة تجميعها بين وقت وآخر وفقاً لقرارات سياسية واجراءات اقتصادية تنتقل أحياناً من النقيض إلى النقيض.

وكان لابد أن تتفكك وحدة الانتماء، أو على الأقل، يتخلخل الشعور بالانتماء لأنه لم يترك لحرية الاختيار أو تلقائيته بين أعضاء الوطن. بل إن حرية الموافقة والتصفيق لقرار ما، إن كانت هذه حرية، كانت مقيدة محدودة بلحظة صدور القرار التالى الذى قد ينقلب على القرار السابق.

ومن ثم أصبح على المواطن أن يكيف مشاعره وحماسته وأفكاره بما يتفق مع تذبذب البندول والاقتصادى - السياسى فى انتقاله المفاجىء من اتجاه إلى آخر.

وقد أدى هذا إلى أن يتخذ المواطن موقف المتفرج فى ركن آمن، مما راكم شعوراً بالانفصال عن القضايا الوطنية الكبرى.

٢ - تسرب الشعور بالانتماء

جعلت السلطة وأجهزة اعلامها من مهامها تحديد أو تضييق مواصفات أو شروط الانتماء إلى الوطن وفقاً لقراراتها المتعارضة فيما يتصل بالسياسة الخارجية أو الداخلية على السواء.

«فالاشتراكى الوحدوى القومى» هو الوطنى فى زمن، وكذلك «المصرى صاحب سبعة آلاف سنة حضارة والمرتبط بالعالم الحر» هو الوطنى الوحيد فى زمن آخر.

وقد تجتاح القرارات أحياناً اسم الوطن التاريخى ليغدو مرة «جمهورية عربية متحدة» وإقليما جنوبيا، أو ليعود ثانية إلى «مصر» شرط أن تتوحد مع شخص الحاكم رب العائلة، ويصبح انتقاد سياسته انتقاداً لمصر!

وفى كل الأحوال، انتزعت السلطات حق التفويض فى التعبير وحدها عن الوطن.

فاتخذ المواطنون منها موقف التكذيب النفسى لمعظم ما تقول، وكأن هذا التكذيب درعاً سيكولوجيا لحماية المواطن من مغامرات السلطة الجديدة ومفاجآتها.

ولأن هذا الدرع النفسى لم يتخذ صورة معارضة سياسية صريحة على المستوى الواقعى، فإن المواطن قد انكفأ على ذاته التى لم تفرخ سوى عدم التصديق أو الجديدة، واللامبالاة، والسخرية وإطلاق النكات للتنفيس أو التعويض.

فالواقع أن ما حدث لفترة طويلة سابقة رغم تعدد السياسات وتعارضها، هو التعبئة السياسية للمجموع التى تزامنت وتوازت مع التفريغ السياسى للأفراد. بعبارة أخرى، «تقوير» المواطنين مما يمكن أن يكون لديهم من مواقف أو آراء خاصة، وإعادة «حشوهم» بالشعارات العامة السائدة فى كل حقبة سياسية!! وربما كان آثار ذلك أن

«الكوسة» تعد من أفضل أنواع الخضر للحشو!

وعلى أية حال، فقد سعت الأجهزة الحاكمة إلى جمع الناس تحت شعارات معينة لا تسمح بالخروج عنها وكأنهم كيان واحد متجانس. وفى الوقت نفسه، بذلت قصارى جهدها فى افراغ المواطنين من فرديتهم السياسية بما تنطوى عليه من مواقف واتجاهات خاصة مختلفة قد لا تتفق مع شعارات التعبئة الرسمية. وحينئذ، تولد الشعور بغياب الهدف المشترك الواضح والمقتنع به لدى الجميع. ويعنى هذا فى نهاية الأمر فقد الفرد شعوره بالمواطنة.

فمفهوم الوطن لا يعنى التواجد معاً فى بقعة جغرافية، بل يمثل وحدة الانتماء، والمشاركة، والأمان الاقتصادى والسياسى.

وفى ظل الأوضاع السابقة تحللت روابط المواطنة التى تعنى قدراً من المشاركة فى تحقيق أهداف محددة تجلو أبعادها ووسائلها قنوات الحوار الديموقراطى. ولا تعنى المواطنة الاتفاق والتجانس، بل تعنى الموافقة المتبادلة على حق الآخرين، فى أن يكونوا أطرافاً فى الحوار أو الاختلاف حول قضية مشتركة كل واحد منهم.

ولنتأمل أو نسترجع ما كان يحدث فى سياقين سابقين ومتعارضين. ونحن لا نشير هنا إلى مشروعية الشعارات التى رفعت وأعلنت، أو إلى صحتها أو إلى سلامتها، بل ينصرف حديثنا إلى ما لحق الشعور بالانتماء من تدهور وتسرب.

ولئن قيل إن شباب اليوم لم يعانوا أو يعاصروا هذا السياق أو ذاك، إلا أنهم يعايشونه لأن آباءهم القائمين بأمر دمجهم فى الوضع الراهن قد أشربوا من قبل معايير تلك الفترات، وتأثروا بنتائجها، ومن ثم لا يمكن استبعادها من وعى الشباب الحاضر أو لاوعيه.



ففى السياق الأول، شمل «التأميم» الحوار حول الحرية والعدل وغيرهما لأن الحوار لم يعد من حق الأفراد فهو ليس ملكية خاصة، وكان لابد من تدخل الدولة لاستخدامه على الوجه الأفضل حيث أن الدولة تعرف مصلحة الجماهير أكثر من الجماهير نفسها وللدولة وحدها الحق فى إدارة الملكية العامة للحوار.

ولهذا لم تقنع الدولة بتأميم المرافق فقط، بل جاوزتها إلى محاولة تأميم الفكر والسلوك. ولا يختلف التأميم أو حق السلطة فى توجيه الفكر فى أى تأميم اقتصادى آخر بوصفه صيغة من صيغ الاحتكار القديم، أو رأسمالية الدولة، أو الفاشية.

وحينما ينتزع من الناس ملكيتهم لأهم مقومات المواطنة وهو الحوار، فإنهم يتجردون من الاحساس بالانتماء إلى وطن واحد. ولا يبقى لديهم سوى اللهفة على بلوغ النجاة، النجاح الفردى، والمعنى واحد، وهو ايثار السلامة والعافية، والتزاحم أو التسابق على تحقيق المنفعة الفردية المباشرة، أو حتى قصيرة الأمد.

وفى هذا السياق، لم تعد مسارات الحياة أو مشروعات المستقبل عند المواطنين متوازية، يمضى كل منهما فى طريق صاعد إلى هدفه، بل أصبحت متقاطعة يصطدم فيها الواحد مع الآخر.

فما دام الأفراد عاجزين عن التخطيط لأنفسهم، ولم يعد بلوغ الأهداف جائزة يحصل عليها أصحاب الكفاءة فى العمل، فلابد إذن من إقامة الجسور العلوية لاختطاف الأهداف قبل أن يصل إليها الآخرون. بل قد يصبح منع الآخرين من بلوغ أهدافهم، هدفاً فى ذاته، لأن تهديداً خفيا متوقعا من الغير يتربص بكل فرد. كما لا يدرى المرء أى سلاح قد يشهره رفاق الدرب فى وجهه، أو يطعنون به ظهره.

وعند تسرب الشعور بالأمان من ثقوب

انقطاع الصلة بين الأسباب والمقدمات من جهة، والنتائج من جهة أخرى، وغلبة الوسائل غير المشروعة وغيبة المشاركة فى تحديد المصير، عند كل ذلك، يحس الأفراد أنهم ليسوا مواطنين، بل مجرد «سكان» يقطنون بقعة واحدة.

فهنا يفتقد الشعور بالانتماء الذى قد تحدد وفقاً لشروط النخبة الحاكمة. ويصبح التعريف الاجرائى للانتماء هو التحالف مع النخبة، أو إمكانية الانتفاع بالسياسة المهيمنة والتربح منها. فالمنتمون إذن هم المنتفعون أو المسايرون.

ويتطلب هذا النوع من الانتماء الرسمى أو الأميرى مهارة خاصة يتدرب عليها ذلك الطراز من المنتمين، وهى احتقار الذات أو التخلص من أعباء الحياء. فكلما ازداد احتقار المرء لنفسه وقل حياؤه وخلع عذاره، ازداد اندفاعاً واقتراباً من تحقيق أهدافه.

وذلك لأنه تخفف مما يثقله من ضمير أو كبرياء أو كرامة، وأصبح الطريق أمام تطلعاته ممهداً، ناعماً، آمناً. وتلك آلية معروفة فى «التوربين النفاث» الذى يندفع إلى الأمام بقدر ما ينفثه من الخلف. وهكذا يترنم بالشعارات والمبادىء بينما يعمل على النقيض منها تماماً!

أما فى السياق التالى، فقد كان على الضد من الممارسات والشعارات السابقة. ففى الانفتاح أطلق سراح الأفراد الذين تدربوا من قبل على التوجس من بعضهم البعض، والإيقاع فيما بينهم. وعندما انطلقوا خارج القفص تحول السكان القدامى إلى زبائن ينبغى انتزاع أقصى ربح منهم أو إلى منافسين لابد من تدميرهم.

ولقد كان الانفتاح حريا أن يتوجه إلى إقامة رأسمالية وطنية بالمعنى المألوف فى بلدان العالم الغربية الرأسمالية حيث تتنافس فى تصدير سلعها وتشغيل مواطنيها ورفع مستوى معيشتهم غير أن ما حدث لدينا كان بخلاف ذلك نتيجة التوجس من نكث السلطة لوعودها ورغبة فى الربح الخاطف المضمون وتأثر بنمط السلوك العدوانى السابق وتدفقت الأموال ولكن ليس من الخارج بل من جيوب المواطنين الآخرين ومدخراتهم الذين تحولوا إلى مجرد زبائن أو فرائس للغش والاحتيال والنصب الصريح.

ولم تعد قضية الغاية أو الهدف العام مطروحة فى ظل هذا النوع من الانفتاح فالقرارات لا تصدر بشأن الغايات بل فقط بصدد الوسائل أى وسائل الحصول على أقصى ربح وأسرعه، ولم يعد الربح من أجل الحياة بل الحياة من أجل الربح. ومن ثم ساد سباق محموم تحت شعار الربح من أجل الربح. وتركزت الثروة القوة والمتعة فى قبضة أقلية متسلطة تضع معايير السلوك وقيمه على أساس مفهوم ضيق للنجاح يجعل المال سيدا لكل نشاط وطنى أو قومى وغدت القيم الإنسانية نوعا من الأسهم المالية التى تخضع للمزايدات والمناقصات فى سوق المزاحمة الدموية والتدافع بالمناكب.

ومن النتائج المباشرة لهذا الطوفان الانفتاحى الذى جاء على غير أساس راسخ من الشعور بانتماء مشترك لأهداف قومية واضحة، أن قيم الثقافة أصبحت قيما تجارية أى سلعة واعدة بالرواج والربح فى السوق. ولذلك أصبحت تعبيرا وترجمة مباشرة عن الحاجات والمطالب التى خلقها المجتمع الاستهلاكى المغترب تلك الحاجات التى تكشف عن الرغبة فى التعويض أو الهروب من كل صور الحرمان.

وتأتى فنون الانفتاح لتلبية تلك الحاجات بالأحلام الوردية وأفلام أو مسلسلات العنف والجنس، وينتهى الفن كخلق وابداع ليتربع فى محلات عرض الثقافة كبضاعة أو سلعة.

وإلى جانب مسارح القطاع الخاص ونوادى الفيديو شجع الانفتاح على تداول كتب التراث والنصوص وتنافست وسائل

الإعلام على استضافة نجوم الفكر الديني، كما كان المماليك يتنافسون قديما على تشييد المساجد واشتعلت المنافسة أيضا في القطاع الخاص المجال الديني فامتلأت الصحف وتزاحمت الندوات بالحديث عن الدين المستثمر حديثا وارتفع الصخب الإعلاني عن بيوت الخبرة الدينية التي افتتحها علماء الدين الذين يرون أنهم ليسوا أقل شأنا من غيرهم أصحاب الخبرة الاقتصادية والهندسية ولابد أن يكون لهم حظ معلوم وحصة مخصصة في كبرى المناصب والاستثمارات.

ولعل الانفتاح لو قدم إلى ساحة ممهدة لكان انجازا طيبا أو لو جاء في هداية خطة رشيدة، ولكنه للأسف أعلن كجرس الحصة الأخيرة في مدرسة للمشاغبين الذين يتربص أو يتوعد الواحد منهم للآخر خارج أسوار المدرسة.

ومع تباين السياقين الشمولي، والانفتاحي، إلا أنهما شريكان في جذر واحد هو نظر السلطة إلى مجموع المواطنين على أنهم قطيع، مرة قطيع من الأغنام، والمرة التالية قطيع من الذئاب ومن ثم لم يكن يعامل المواطن بوصفه ذاتا بل بوصفه موضوعا تفرض عليه الأهداف والوسائل.

وترتب على هذا أن الانتماء للوطن لم يعد قضية المواطن الخاصة أو الشخصية بقدر ما كان مهمة السلطة التي تحدده وتقرره، تمنحه أو تمنعه ومع أن الانتماء موضوع مشترك إلا أنه لا يتحقق إلا على المستوى الذاتي بحيث يتمثله الفرد ويستدمجه في نفسه.

٣ – عمليات ادماج الشباب

ومهما يكن من أمر، فكل ما تقدم ينصرف إلى ما أطلقنا عليه منذ البداية طبيعة الوضع الراهن الذي تتجدد فيه عقلية الكبار أو الجيل السابق وتتأسس فيه معايير الفكر والسلوك التي يصنع منها الكبار نماذج الاحتذاء والمثل العليا التي يسعون إلى صوغ الجيل الجديد أو الشباب وفقا لمواصفاتها وشروطها ويبقى أن نتحدث عن عمليات ادماج الشباب في ذلك الوضع الراهن عبر قنوات مؤسسات التربية والتعليم ووسائل الإعلام.



تهدف هذه المؤسسات جميعا إلى نقل خبرات جاهزة دون المخاطرة بالمحاولة والخطأ وإعداد الفرد لكي يكون متجانسا ومتوافقا مع الوضع السائد ولا نتوقع من تلك المؤسسات أن تقدم شيئا مغايرا لما استقرت عليه الأوضاع في الفترات السابقة، فلا يمكن بطبيعة الحال أن يقدم الأب لولده ما يحس به الولد نفسه، بل يقدم له ما استقر في عاله هو، وأصبح أمرا راسخا لا خلاف حوله، فالتربية والتعليم بوجه عام يجريان في خط ذي اتجاه واحد يبدأ من الأكبر إلى الأصغر وحقائق الحياة تصدر عن مرصد واحد هو مرصد الكبار وليس لحياة الصغار أو رؤيتهم أي اعتبار في هذا الصدد.

وكما أدار الآباء من الجيل السابق ظهورهم للنخبة الحاكمة تفعل ما تشاء أو تراه في شئون الوطن، كذلك أدار الشباب ظهورهم للآباء لأنهم فشلوا في أن يكونوا قدوة ومثلا أعلى يجدر بالاحترام أو الاستماع إلى نصحه.

وإذا ما انخرط الشاب في التعليم سرعان ما يكتشف الهوة الهائلة بين الشعار والواقع فهدف التعليم المثالي خاصة إذا كان بالمجان هو إتاحة تكافؤ الفرص أمام الجميع. بعبارة أخرى، وضع كل المرشحين للمواطنة على بداية خط سباق واحد، غير أن ما يحدث أمر مختلف تماما فخط نهاية السباق هو كليات الجامعة التي أنيط بمكتب التنسيق مهمة بورصة الأوراق المالية في تحديده للمجموع الصالح لكل كلية في كل عام حيث تتفاضل الكليات بحسب

حجم الدخل المنتظر عند التخرج ومن ثم تتفاوت المجاميع المطلوبة من سنة لأخرى ففي فترة الستينات كانت الهندسة تحظى بالمجموع الأكبر، وما لبثت الطب والصيدلة أن تبادلت معها المواقع، ثم وجدنا السياحة الفنادق تحتل مكانة رفيعة أملا في تلقى نفحات سخية من العملة الصعبة.

وأخيرا حدث انقلاب في ظل البطالة المتفاقمة فارتفعت مجاميع كليات التربية التي تبشر بالحصول على الوظيفة في مدارس وزارة التعليم.

ولكن كيف يبلغ الشاب خط النهاية في ذلك السباق؟

لا تمضي الأمور يسيرة هينة، بل تنطلق في سباق لاهث أصبح فيه حقن المتسابقين بالمنشطات أمرا طبيعيا، وهذه المنشطات هي الدروس الخصوصية والمصاريف الباهظة في التعليم الخاص فالأماكن أو الأهداف محدودة ولابد من التغلب على الآخرين ودفعهم بعيدا عنها للوصول إليها. وعندما يجد مكانا في الجامعة ويحصل على شهادة التخرج بعد هذه الأهوال يفاجأ بأن الطريق لا ينفذ أو يؤدي إلى تحقيق أمل من آماله العريضة المشروعة. وفي أغلب الأحيان يدفعه الإحباط إلى اتخاذ موقف عدائي من الواقع الذي يرفضه وينكر القواعد المعتادة المقبولة للتعامل مع هذا الواقع المتجهم وحينئذ قد يقدم بسهولة على ارتكاب الجريمة أو يهرب إلى المخدرات أو يتخذ موقفا متطرفا من الدين.

وهو في كل ذلك يحس بالعزلة والغربة عن الوطن لأنه يدرك أنه وحيد تكاد تتخطفه الطير وأكبر الظن أن هذا الشعور راجع إلى إخفاقنا في تعليمه وتدريبه على أن يكون مواطنا منتميا مشاركا مسئولا.

وكيف كان ذلك؟ لننظر أسلوبنا في التعليم لاريب أنه يقوم على التعامل مع التلميذ أو الطالب بوصفه جوالا أو زكيبة تثقب قاعدتها ويغلق ثقبها بسدادة عند كل عام دراسي ليحشوها المعلمون طوال العام ثم تنزع السدادة عند الامتحان ليفرغ ما فيها ثم تغلق في العام التالي.

وهكذا حتى التخرج فتنزع السدادة ولا يبقى لدى المتخرج في جوفه العقلي معرفة نافعة أو أسلوب تفكير، أو شخصية متميزة.

أضف إلى ذلك حظر الاشتغال بالسياسة فهي أم الكبائر في الجامعة، فليس للطالب أن ينتسب إلى حزب من الأحزاب المصرح بها، وليس له أن يناقش أمرا أو يقترح حلا لمشكلة وطنية كبرى، وحسبه خدمة البيئة والدعوة إلى وقف تلوثها.

ولقد علمنا أن ثوراتنا وكفاحنا ضد المستعمر كانت في معظمها على يد الطلاب كما شاهدناها في أفلام السينما دعك من كتب التاريخ المترعة بالتفاصيل وأسماء الشهداء والمعتقلين.

كيف نحول بين شبابنا وبين المشاركة في شئون وطنه إن علينا أن ندربه على إدراك ما يدور في وطنه وعالمه ومناقشة الآراء والمقترحات المختلفة لحل مشكلات وطنه بحيث يكون واعيا بالصعاب التي يمر بها وطنه، ويكون قادرا على التحمل والصبر والمبادرة على مواجهتها بدون ذلك، سيتفاقم إحساس الشباب بالغربة عن بلده وسيتحين الفرصة للهجرة منها لأنه لا يحس بالانتماء لها أو يشعر بالأمان فيها وقد نجح حتى الآن في صنع جيتوات (جمع جيتو) خاصة يتحدثون فيها بلغتهم الجديدة (روش طحن) ويرقصون على إيقاع أغنياتهم الصاخبة وأرجو ألا يستبد بهم الشعور بالعزلة فيحملهم على المطالبة بالانفصال! ■

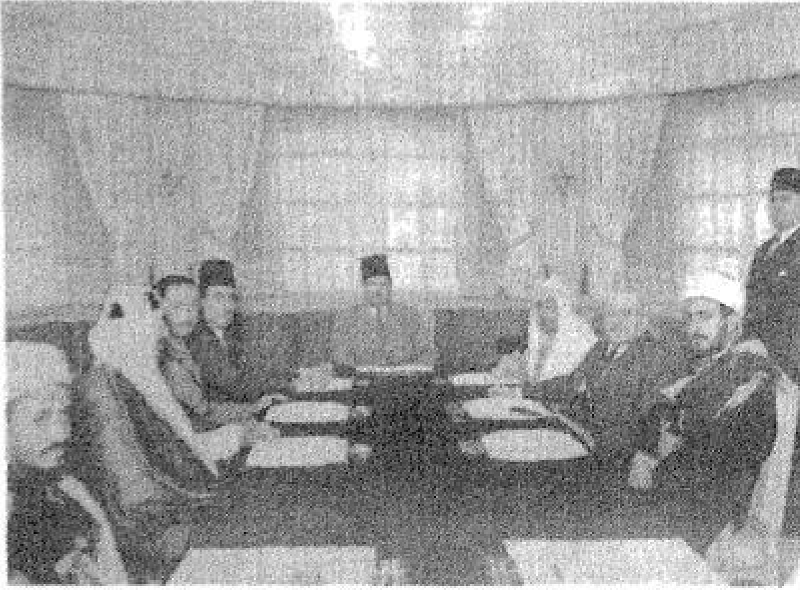
العروبة

ليست عرقاً حتى ننكرها!

بقلم
د. عاصم الدسوقى

إن الذين يقولون بعدم عروبة مصر ويدعون إلى الفرعونية وينادون بإعادة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية بدعوى الأصالة، يقعون فى وهم كبير ولا يدرون أنهم يتطوعون لخدمة أهداف العولمة فى محو الشخصية القومية، ولخدمة أغراضها فى تفكيك الكيانات الكبرى التى تعتز بقوميتها. وإذا نجحت دعواهم بتشجيع من أركان النظام العالمى الجديد وسدنته فسوف لا تعود مصر إلى فرعونيتها كما يحلمون، بل سوف تعود إلى ما قبل الملك مينا الذى نفخر به موحد الوجهين القبلى والبحرى!!.

قبل إعلان جامعة الدول العربية فى مارس ١٩٤٥ وقيام مصر بدور أساسى فى إنشائها كانت العروبة أحد تيارات الهوية المطروحة على ساحة التوجهات الفكرية فى مصر منذ مطلع القرن العشرين على الأقل، إذ كانت هناك دعوة الجامعة الإسلامية التى نادى بها جمال الدين الأفغانى فى إطار مواجهة الإستعمار الأوروبى للعالم الإسلامى، والرابطة الشرقية التى يدعو أصحابها إلى تكاتف الشرق لمواجهة الغرب الإستعمارى، والفرعونية التى تبلورت مع اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون (١٩٢٢) ومن ثم الحنين إلى إستعادة شخصية مصر الغابرة، ثم رابطة البحر المتوسط التى تولاها طه حسين عميد الأدب العربى



بدأت مصر تحتضن قضايا العروبة منذ تأسيس الجامعة العربية ١٩٤٥، والنص على أن تكون مصر مقرها

ويلور أركانها فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر (١٩٣٨) وخلاصتها أن مصر تنتمى إلى ثقافة البحر المتوسط اليونانية - الرومانية أكثر من الثقافة العربية، وهذا يفسر قيامه بإنشاء قسم الدراسات اليونانية واللاتينية (الدراسات الكلاسيكية) فى كلية الآداب لتنمية تلك الثقافة فى وجدان المصريين. ولا ننسى فى هذا الخصوص رابطة وادى النيل (مصر والسودان) التى تولى أمرها الحزب الوطنى زمن مصطفى كامل وتلقفها من بعده أحمد حسين زعيم مصر الفتاة.

ومن الطبيعى أن يكون هناك أنصار لكل توجه من هذه التوجهات يدخلون بالضرورة فى جدال كبير دفاعا عن الفكرة التى يؤيدونها، ويجتهد كل منهم فى استخدام الدين والتاريخ والإجتماع والأنثروبولوجيا والجغرافية لإثبات صحة توجهه، وكانت مصر قبل العمل بقانون الجنسية المصرية فى عام ١٩٢٩ ولاية عثمانية فى إطار الرابطة الإسلامية - الشرقية رغم الإحتلال البريطانى (١٨٨٢) ورغم إعلان استقلالها فى ١٩٢٢ وإصدار الدستور فى ١٩٢٣ الذى خلا من نص بشأن الهوية.

ومن الملاحظ أن من بين تلك التوجهات جميعا حظت الرابطة العربية بنقد شديد ومتواصل منذ فترة مبكرة بدأ بالهجوم على العصب الرئيسى للعروبة ألا وهو الفصحى، وتعظيم العامية والدعوة لأن

تكون لغة كتابة كما هى لغة حديث. ففى عام ١٨٨١ دعا مدير دار الكتب المصرية زبيتا Spita وهو مستشرق فى مقاله «قواعد اللغة العربية» لاتخاذ العامية لغة الكتابة بدلا من الفصحى. وفى ١٩٠١ كتب مستشرق آخر وهو فيلمور Willmore تحت عنوان «العربية المحكية فى مصر» يدعو إلى الاقتصار على العامية أداة كتابة وحديث لأنها حية ومتطورة عكس الفصحى الجامدة وعلى أن تكون بحروف لاتينية. وفى فبراير ١٩٠٢ نشرت المقتطف مقالا دون توقيع تحت العنوان نفسه يساند دعوة فيلمور للعامية مؤكدا على أن إرتباط المسلمين باللغة العربية ليس ضروريا فهناك مسلمون كالأتراك لا يتكلمون العربية.

وانضم قاسم أمين إلى هذه الدعوة فأيد فى كتابه «كلمات» (١٩٠٨) الدعوة للعامية بحجة عجز الفصحى عن مواصلة التقدم ونقل الأفكار كما دعا إلى تسكين أواخر الكلمات وعدم التقيد بالإعراب. كذلك فعل أحمد لطفى السيد فكتب فى صحيفتى المقتطف والمقطم (١٩١٣) قائلا: إن الفصحى لم تعد اللغة التى تتناسب مع روح العصر. ثم كتب سلامة موسى فى وضوح وصراحة فى الهلال (١٩٢٦) قائلا: إن الفصحى لغة بدوية رجعية والعامية لغة حضارية، والثقافة بنت الحضارة وليست بنت البداوة. وتلاه طه حسين فى الهلال (يناير ١٩٣٤) وطالب بإصلاح الفصحى لأنها بحالها لا تصلح لغة للتقدم والرقى. وفى العدد نفسه دعا أحمد أمين للعامية بدعوى أن الفصحى من أكبر المشكلات التى يعانى منها الأديب. ولو أن الدعوة للعامية مسألة أقدم من هذا بكثير جدا ولكن لم يكن لدعاتها هدفا سياسيا معينا مثلما حدث فيما بعد، فقد وضع يوسف المغربى (المتوفى ١٦١٠) قاموسا العامية المصرية ولم يكن يجد بأسا فى الكتابة بها بل لقد كتبت نوادر جحا بالعامية فى منتصف القرن السابع عشر (١٦٥٠).

ويبدو من ظاهر الحوادث بعد أزمة طابا عام ١٩٠٦ بشأن ترسيم حدود لولاية مصر العثمانية – الإنجليزية أن اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر كان يشجع إيجاد «جنسية» مصرية تشمل كل من يقطنون مصر بصرف النظر عن المعتقد والعرق والأصل. ومن هنا حفلت الأعداد الأولى من صحيفة «الجريدة» (وقبل إنشاء حزب الأمة بنحو عام) بافتتاحيات تحت عنوان «الوطنية فى مصر» دعت إلى إيجاد جنسية مصرية لاتتعارض مع الرعوية العثمانية. فلما استولت جماعة الإتحاد والترقي على الحكم فى الدولة العثمانية فى يوليو ١٩٠٨ وبدأت سياسة التتريك التى مهدت لإلغاء نظام السلطنة وإعلان الجمهورية أخذت «الجريدة» تعلن بقلم أحمد لطفى السيد ويلسان حزب الأمة (١٩٠٨ – ١٩٠٩) عن «المصرية» التى أساسها المنفعة والمصلحة وعدم الذوبان فى الجامعة الإسلامية. ثم

اتضحت فكرة «المصرية» هذه عند محمد على علوبة أحد الذين انشقوا على الوفد وانضم إلى الأحرار الدستوريين عندما صرح فى ١٩٤٠ بخطأ فكرة الوحدة العربية وأنها غير قابلة للتنفيذ وغير مجدية ولا يصح إضاعة الوقت فى مناقشتها أو مجرد التفكير فيها، وأن أقصى ما يمكن تحقيقه إقامة وحدة ثقافية بين الأقطار العربية (مجلة الرابطة العربية فى ٦ مارس ١٩٤٠) أو إقامة تعاون روحى بين «الأمم العربية» كما يقول محمود تيمور (الهلال فى ديسمبر ١٩٤٠).

الشقيقة الكبرى

وبإقامة الجامعة العربية فى مارس ١٩٤٥ والنص على أن تكون مصر مقرها وأن يكون أمينها العام مصريا أصبحت مصر زعيمة العرب أو الشقيقة الكبرى فى أقل الأحوال، وبدا أن سؤال الهوية قد حسم لصالح عروبة مصر فتوقف الهجوم على العروبة. وأكثر من هذا بدأت مصر تحتضن قضايا العروبة فنجد بعض أعضاء مجلس الشيوخ (جلسة ٢٨ مايو ١٩٤٥) يطالبون الحكومة بالنظر فى خير الوسائل لمواجهة إنزال قوات فرنسية مسلحة فى سوريا ولبنان لفرض معاهدة عليهما مما يتنافى مع سيادتهما ويخالف ميثاق الجامعة العربية وصرح النقراشى رئيس الوزراء بأنه رأى أن يتصل بحكومات بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية للمحافظة على سيادة البلدين.

وفى الوقت نفسه حذر البعض من المحاولات التى تبذلها القوى الإستعمارية لإعطاء الجامعة العربية صبغة دينية وإبعادها عن صفتها القومية ونبه إلى خطورة الفكرة التى تنادى بإخراج مصر من الجامعة العربية بدعوى أنها ليست عربية لأن فى هذا تفريقا للصف العربى الذى يجب أن يتوحد ضد الإستعمار (كتاب عبد المعبود الجبيلى وشهدى عطية الشافعى «أهدافنا الوطنية» ١٩٤٥). ثم كان اشتراك مصر فى حرب ١٩٤٨ لإنقاذ فلسطين من يد الصهيونية خطوة ملحوظة فى طريق عروبة مصر.

عروبة مصر

وعلى هذا فإن عروبة مصر كانت أمرا محسوما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ لكن الجديد والأهم أن جمال عبد الناصر جعل من العروبة منهجا أساسيا ومرجعية حاكمة فى السياسة. وفى هذا الخصوص تم النص فى دستور ١٩٥٦ فى مادته الأولى على أن «مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة والشعب المصرى جزء من الأمة العربية». وخاض عبد الناصر معارك ثورة يوليو ضد الغرب الإستعمارى وضد الإقليمية والعنصرية باسم القومية العربية. وهنا تعاظمت العروبة وتوارت الهويات الأخرى. لكن خصوم العروبة وأعداؤها لم يركنوا إلى اليأس بل كانوا يتحينون الفرصة للطعن فى العروبة بطريق غير

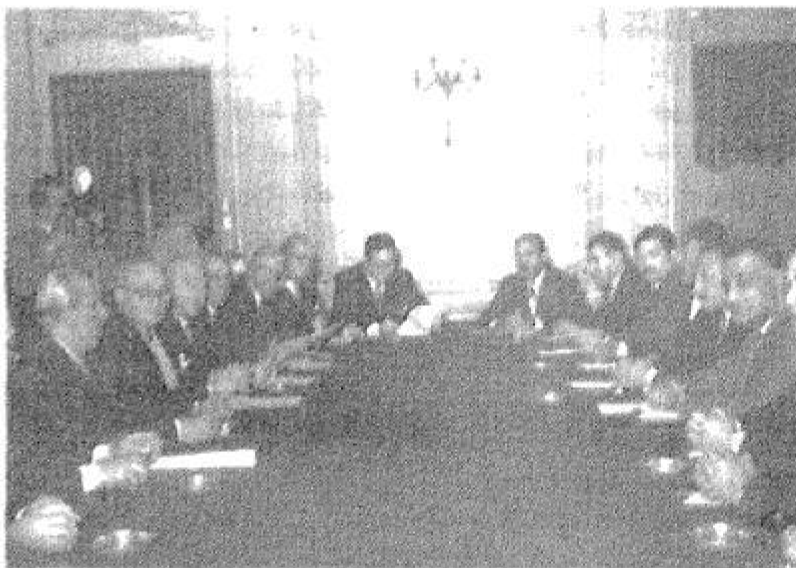
مباشر، ففى عام صدور دستور ١٩٥٦ يقرر سلامة موسى فى كتابه «الأدب للشعب» أن الفصحى لا تصلح للشعب الديموقراطى لأنها لغة الملوك والأمراء والفقه الإسلامى والأدب العربى لا الأدب المصرى، والعامية هى اللغة الديموقراطية التى تعبر عن الشعب. ويبدو واضحا أن سلامة موسى كان يردد ما ذهب إليه لويس عوض من قبل حين نشر ديوانه بلوتو لاند فى ١٩٤٧ مؤيدا العامية ولأن الفصحى لغة السادة والعامية لغة العبيد وهى إشارة خفية وغير مباشرة إلى السادة هنا هم الغزاة العرب والعبيد هم المصريون. وفى هذا الإطار يمكن فهم استخدامه للعامية عندما كتب «مذكرات طالب بعثة» فى عام ١٩٤٢ ونشرها فى ١٩٦٦.

وفى كل الأحوال فمن الملاحظ أنه بعد صدور دستور ١٩٥٦ انكمش حجم خصوم عروبة مصر وانفتح المجال واسعا لأنصار عروبتها ففى عام ١٩٥٦ أصدر محمد مصطفى عطا كتابه «نحو وعى جديد» يدعو فيه إلى قيام إتحاد عربى مكين يواجه الأحلاف المطروحة على الساحة العربية. ويكتب على رفاعى محمدى - مفتش الوعظ العام بالأزهر - كتابه «وحى النهضة الوطنية فى الخطب المنبرية» ويقول: إن ثورة مصر أيقظت وعى العرب لأن مصر كانت دائما محط آمال العرب. وفى ١٩٥٧ يكتب مصطفى عبد اللطيف السحرتى كتابه «إيديولوجية عربية جديدة» مؤكدا أن مصر ولدت بعد الثورة بوعى جديد وعمت أرجاءها روح القومية العربية التى تتوائم مع التطور التاريخى لمصر وخصائصها الوجدانية والروحية والثقافية.

وبعد إعلان وحدة مصر وسوريا (فبراير ١٩٥٨) تتوالى الكتابات عن عروبة مصر ففى عام ١٩٥٨ يكتب إسماعيل القبانى عن الوحدة الثقافية العربية، وفى عام ١٩٦٠ يكتب حسين نصار «مصر العربية» ويكتب صلاح عبد الصبور «أفكار قومية» ويكتب على حسنى الخربوطلى «المجتمع العربى» ولمعى المطيعى «المجتمع العربى» وأميل شوقى «فى مجتمع عربى جديد» ومنير الشريف «حب العرب لقوميتهم» وتنشر دراسة للأدب فى ظلال القومية العربية بإشراف محمد قدرى لطفى.

وهكذا ظل المصريون يرون فى العروبة رداء يصون ذاتهم، وسياجا يحمى مصالحهم الإستراتيجية البعيدة فى ظل قيادة جمال عبد الناصر، ودخل أعداء عروبة مصر الشقوق، وينست القوى الكبرى وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية من نزع العروبة عن مصر.

فما الذى قلب الأمور وشجع خصوم عروبة مصر على الظهور مرة أخرى ليقولوا بفرعونيتها وبعدم عروبتها وبضرورة التخلص من آثار الاحتلال العربى الذى دام طويلا!!.



توالت الكتابات عن عروبة مصر ، خاصة بعد إعلان وحدة مصر وسوريا في ١٩٥٨

مزايدات!

يبدو واضحا دون لبس أو مزايدات أن الخطوة الأولى فى طريق نفى عروبة مصر بدأت مع ذهاب السادات إلى القدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ بصرف النظر عن النيات الطيبة وراء هذه الزيارة إذ ثارت مناقشات حادة بين المثقفين حول تأثير التوجهات الجديدة على عروبة مصر، فكتب توفيق الحكيم داعيا إلى حياد مصر فى الأهرام (٣ و ١٢ مارس ١٩٧٨) وفي الأخبار (١٨ مارس ١٩٧٨)، وأيده فى ذلك حسين فوزى سندباد مصر فى الأخبار (٢٢ مارس ١٩٧٨)، وكتب لويس عوض فى ٧ أبريل «الأساطير السياسية» حيث اعتبر أن الوحدة الإندماجية بين العرب نوعا من الأساطير السياسية لأنها تفترض أن شعوب المنطقة من الخليج إلى المحيط أمة واحدة ليس فقط ثقافيا وحضاريا ولكن عرقيا وعنصريا فتصبح العروبة والحال كذلك فى رأيه لونا من ألوان النازية، مع أنه يعلم تماما أن العروبة لم تك يوما أحد الأعراق التى حددها علماء الأجناس البشرية فى العالم؟!.

ثم جاءت اتفاقية «السلام» مع إسرائيل فى مارس ١٩٧٩ لتصيب عروبة مصر فى مقتل خاصة مع النص القائل بأن للاتفاقية أولوية على إلتزامات أحد الطرفين تجاه أطراف أخرى، مما يعنى فى أبسط الأحوال نسف إتفاقية الدفاع

العربى المشترك. فلما أبدى بعض زعماء العرب امتعاضهم مما حدث وشكلوا جبهة الصمود والتصدى ونقلوا مقر الجامعة العربية من القاهرة وعينوا أمينا لها غير مصرى خلافا للميثاق رماهم السادات بالجهل والحماقة ومضى فى طريقه غير مبال. وقد أدت هذه السياسات إلى انتعاش خصوم عروبة مصر فتجدد حديث الشكوك حول عروبة مصر مرة أخرى وراجت الأفكار التى تقول بأن مصر خسرت كثيرا بعروبتها وأنها أقحمت نفسها فيما عاد عليها بالضرر. وأذكر فى هذا الخصوص أن أحد أساتذة التاريخ الحديث أعلن أنه سوف يكرس بقية عمره للكتابة عن مصر المصرية وليس مصر العربية التى خسرت كثيرا بالإنتماء العربى.

ثم أقدم صدام حسين على غزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ وأعلن ضمها للعراق فانقسم العرب فيما بينهم حول تقدير هذا التصرف ما بين منتقد ومؤيد، ثم زاد الانقسام حدة عندما اصطنعت الحكومة الأمريكية «تحالفا» دوليا لإقصاء القوات العراقية عن الكويت. وآنذاك كان جدار برلين قد تحطم (نوفمبر ١٩٨٩)، وبدأ تفكيك الإتحاد السوفييتى، وكذا قوميات البلقان (١٩٩٠ - ١٩٩١)، وأعلن الرئيس الأمريكى (بوش الأب) عشية الاستعداد لضرب القوات العراقية (مارس ١٩٩١) تدشين ما أسماه «الجلوبالية Globalism» أى النظام العالمى الجديد المعروف بين جمهرة المثقفين بالعولمة».

العولمة.. وتدمير الشخصية القومية

وبدأ المراقبون يتعرفون تدريجيا على مظاهر هذه العولمة وملامحها فيما شاهدوه من تفكيك الكيانات القومية إلى دول جديدة على أسس انثروبولوجية لغوية أو عرقية أو دينية حسب مقتضى الحال. ولنا أن نراجع على سبيل المثال تفكيك كل من يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، وسلخ جزيرة تيمور الشرقية من إندونيسيا، والعمل على تفكيك السودان، والإعداد لتفكيك العراق ودول قومية أخرى وخاصة العربية منها والإسلامية على الأسس نفسها، وبات معروفا أن العولمة تعنى تدمير الشخصية القومية القائمة على وحدة اللغة ووحدة العقيدة وخاصة فى البلاد العربية - الإسلامية. والهدف البعيد من هذا النهج إضعاف الكيانات القومية الكبيرة لإتاحة الفرصة واسعة أمام رأس المال فى دول الغرب الأوروبى - الأمريكى لتوسيع استثماراته كيفما يشاء بعد أن تكون منظمة التجارة العالمية قد تمكنت من إلغاء كل الحواجز وإسقاط كل القيود تحت شعار تحرير الإقتصاد والمنافسة الحرة.

ثم إزدادت «العولمة» وضوحا بالهجوم الأمريكى على أفغانستان (٧ أكتوبر ٢٠٠١)، ثم بغزو العراق (مارس ٢٠٠٣)، ومساندة إسرائيل التى تقوم منذ وصول شارون الحكم فى نهاية عام ٢٠٠٠ بعولمة

فلسطين المحتلة عن طريق تمزيق أوصالها للقضاء على مشروع الوطن الفلسطيني عمليا ومحوه من ذهن الفلسطينيين أنفسهم ومن ذاكرة العرب نهائيا.

وأمام غول العولمة هذا الذى أصبح يهدد الرابطة القومية والدينية.. العربية والإسلامية على وجه الخصوص.. عاد أعداء عروبة مصر من جديد إلى الظهور على المسرح يسندهم مناخ العولمة الذى يحول دون تقارب عناصر القومية الواحدة، ويحتمون فى رداء جماعات السلام وحتمية المثول للواقعية. واستجاب هؤلاء وأولئك للنداء الأمريكى (أو فهموا الفولة كما يقول العامة)، وشرعوا يكتبون ضد عروبة مصر بهدف أن تنسلخ عن قوميتها حتى لقد قالوا بأن مشكلات مصر الاقتصادية سببها الانتماء العربى.

ولكى يسند العنصريون الجدد فكرتهم أجهدوا أنفسهم كثيرا فى إثبات أن المصريين ليسوا عربا، وإنما هم «مصريون»، وكأن العروبة عرقا، وهذا غير صحيح، بل إن العروبة رابطة قامت على أساس اللغة. فقد أورد ابن عساكر فى تاريخه مقولة النبى محمد صلى الله عليه وسلم «ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم.. وإنما هى باللسان فمن تكلم العربى فهو عربى»، وذلك حين أنكر جماعة من العرب على سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى أن يكونوا عربا يحسب لهم حساب ويمتازون بوضعية خاصة بين الصحابة أو حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا يعنى أن العروبة لا علاقة لها بالعرق منذ البداية.

كما ذهبوا إلى القول بأن انتشار الإسلام بين المصريين لا يعنى إقصاء لغتهم الأصلية والتكلم بالعربية، ويدللون على ذلك بأن الإسلام انتشر فى بلاد فارس وظل الفرس يتكلمون لغتهم الأصلية، وانتشر بين الأتراك لكنهم لم يتكلموا العربية، كما أن سيادة الإنجليزية بين الأمريكيين لايعنى أنهم إنجليز أصلا، وكذلك الحال بالنسبة للإنجليزية والفرنسية فى بلاد القارة الإفريقية، واعتقدوا بذلك أنهم قد برهنوا علميا على دعواهم وأقاموا الدليل على صحتها. وفاتهم أن يتعرفوا على الأسباب الكامنة وراء احتفاظ شعوب اعتنقت الإسلام بلغاتها الأصلية، وتخلى شعوب أخرى عن لغاتها وتبنى اللغة العربية، وذلك فى ضوء مفهوم المنحنى الحضارى للشعوب، واستسهلوا القول بإرغام المصريين على التكلم بالعربية.

كما لم يلتفت هؤلاء إلى المصلحة التى ترفضها الجغرافية - السياسية والتى لابد وأن تجعل المصريين عربا بالمنفعة وبعيدا عن «شبهات» العرقية و«الإكراه» اللغوى. وفى هذا الخصوص.. أليست أوروبا عدة لغات وعدة أعراق وعدة مذاهب وعقائد ومع ذلك أقامت شعوبها الاتحاد الأوروبى والسوق الاقتصادية الواحدة ذات العملة الواحدة ولم يقل أحد الأوروبيين إن أوروبيته «الجديدة» تقضى على وطنه الأم حتى يتبرأ منها!!.



بوش وسياسة نسف الجسور مع العرب

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

فى الرابع عشر من شهر إبريل الماضى وقف الرئيس الأمريكى جورج بوش إلى جوار صديقه العزيز مجرم الحرب أرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل ليواصل إمعانه فى التنكيل بالشرعية الدولية. تعودنا من سياسته أن تكون بلا أساس من قواعد القانون الدولى التى تعارفت عليها الأمم المتحضرة، أو قرارات صادرة عن المنظمة الدولية الأم. ألم ينفذ عدوانه على العراق على هذا النحو مدعياً أنه ونظامه يمثلان خطراً داهماً بسبب ما فى حوزته من أسلحة دمار شامل لم يتمكن من أن يظهر لنا منها بعد احتلاله للعراق «مثقال ذرة» أو «حبة خردل»؟

بمنتهى البساطة صرح الرئيس الأمريكى فى ذلك المؤتمر الصحفى بأنه «من غير الواقعى أن تكون نتيجة مفاوضات الوضع النهائى عودة كاملة وتامة إلى خط هدنة ١٩٤٩»، وأكد أن أية تسوية نهائية للقضية الفلسطينية يتعين أن تضع فى اعتبارها عناصر جديدة على الأرض، وأضاف: «إن إسرائيل لها مطالب بشأن بعض أراضى الضفة الغربية التى يقول الفلسطينيون أنها أراضيهم»، ومضى يقول مانصه: «هناك وقائع جديدة على الأرض تشمل وجود تجمعات سكانية إسرائيلية كبيرة فى الضفة الغربية، وعلى هذا فإن أية تسويات نهائية يجب - من وجهة نظره - أن تراعى تلك التغيرات الديموجرافية، وتكون مقبولة لدى الجانبين.

أما حق العودة فقد تحدث بوش بصورة تنفى أى حق فى عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى داخل حدود ١٩٤٨، وقال أنه سيتعين التوصل إلى حل لمحنتهم من خلال إقامة دولة فلسطينية وتوطين اللاجئين فيها وليس فى إسرائيل. تضمنت تصريحات الرئيس الأمريكى تكراراً لمواقف رسمية سابقة تؤكد معنى الانحياز المطلق لدولة إسرائيل كدولة «يهودية»، ولم يفته أن يستمر فى التلويح بجزرة الدولة الفلسطينية غير محددة المعالم التى يتعين على الفلسطينيين قبل أن ينعموا بجنتها أن يجتثوا «الإرهاب» من بين صفوفهم بحيث يصبحون بلا حول ولا قوة عندما يحين أوان رسم معالم هذه الدولة.

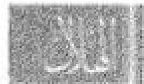
فى كلمات قليلة إذن أقر رئيس الدولة العظمى فى عالمنا بأن القوة يمكن أن تضيع حقوقاً، وتنشىء حقوقاً، ولم يفته أن يؤكد على دعمه للعنصرية بتأكيده على الطابع اليهودى لدولة إسرائيل، فأبناء الشعب الفلسطينى الذين

طُردوا من أراضيهم بالقوة الغاشمة عبر السنين بدءاً من عام ١٩٤٨ ومروراً بعام ١٩٦٧ وانتهاءً بمايحدث منذ سنوات لايستطيعون العودة إلى وطنهم وفق كلمات الرئيس الأمريكي حتى ولو كانت قرارات الدنيا كلها وقواعد قانونها الدولي فى صفهم، بينما المهاجرونَ الغرباء الذين قد لايكون بعضهم قد قضى على أرض فلسطين أكثر من شهور قليلة لديهم الحق في الاحتفاظ بما استولوا عليه من أراض فلسطينية بالقوة المسلحة على الرغم من كل قواعد القانون الدولي، وعلى الرغم من أن ديباجة قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ونصه والمناقشات التى دارت قبل إقراره تنفى جميعها أى حق لهؤلاء الغاصبين في الاحتفاظ بما استولوا عليه، بل إن أرض فلسطين مازالت مستباحة لأى مهاجر يهودى لم تربطه بها علاقة أصلاً لجرم الحرب الذى يحكم إسرائيل فى الالتزام بتحقيق أمن إسرائيل كدولة يهودية فى إشارة واضحة وخبيثة لفكرة خطيرة ستكون لها تداعياتها المستقبلية المشئومة هى فكرة النقاء العنصرى.

حدث هذا فى بساطة شديدة عبر دقائق قليلة من مؤتمر صحفى جمع بين الرجلين فى واشنطن يوم الرابع عشر من أبريل الماضى، كان وقع الصدمة شديداً لكن المفاجأة ما كان ينبغى أن تكون كبيرة. مبعث الصدمة ربما يعود إلى أننا تعودنا أن نستمع إلى خطاب سياسى أمريكى رسمى يلتزم على استحياء بقواعد القانون الدولي والقرارات الدولية ذات الصلة ونراقب فى الوقت نفسه سياسة تأييد شبه مطلق لإسرائيل، ولعل الأمل كان يحدو بعضنا دوماً – أو على الأقل من حين لآخر – فى أن يحدث من التغيرات يوماً مايجذب السياسة العملية – ولو قليلاً – إلى الخطاب السياسى الرسمى، لكننا فى الرابع عشر من أبريل الماضى أدركنا أن أوان التطابق بين الخطاب الرسمى والسلوك الفعلى قد حل. بدا مذاق هذا التطابق مراً كالعلقم فى حلوق العرب وقد اختار الرئيس الأمريكى لإخراجه وقتاً شديد الفجاجة والاستخفاف بأصدقائه العرب.

غير أن أركان المفاجأة فى مضمون ما تم بدت غائبة، فقد تعودنا لعقود على منحنى صاعد من منظور تأييد إسرائيل ميز السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الصراع العربى – الإسرائيلى. لم يشذ رئيس أمريكى واحد عن هذه القاعدة، وإن بدا نفر قليل منهم قادراً على أن يقول «لا» جزئية لإسرائيل هنا أو قضية هناك سرعان ما كان التخلى عنها – أى عن «لا» المعارضة – يتم لأسباب معروفة، ووصلت الإدارة اليمينية الحالية فى البيت الأبيض إلى ذروة من ذرى هذا التأييد خاصة فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر . وقد نذكر أن الرئيس الأمريكى قد وقف فى يونيو ٢٠٠٢ ليلقى بخطاب كارثة مثل نقلة نوعية هائلة فى السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل، ففى ذلك الخطاب المشئوم أعاد بوش وللمرة الأولى فى سجل تلك السياسة تكييف الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى باعتباره صراعاً ضد الإرهاب، وبالتالى فإن مصدر الأزمة لدى بوش كما ظهر من خطابه لم يكن هو احتلال جاثم على صدور الشعب الفلسطينى منذ ١٩٦٧ – بل منذ ١٩٤٨ – وإنما وجود حفنة من الإرهابيين ترتهن السلام، على رأسها قيادة إرهابية مسئولة عن هذا كله. ولم يكن هؤلاء الإرهابيون المقصودون فى خطابه سوى فصائل المقاومة الفلسطينية الباسلة، ولم تكن قيادتهم سوى تلك القيادة التى بات إعتدالها مضرب الأمثال. وعليه فإن أى تقدم نحو السلام الأمريكى بات مرتهناً بدوره باجتثاث الإرهابيين وقيادتهم، أى بالقضاء على فصائل المقاومة وإجراء إصلاحات داخلية من شأنها أن تقضى بالضرورة إلى تغيير القيادة الفلسطينية حتى ولو أعاد الشعب اختيارها، وكانت هذه هى المقدمة المشئومة للإلحاح الأمريكى على إصلاح تحتاجه الدول العربية بحق وإن كانت وصفته الأمريكية بدت طريقاً لاستكمال التبعية للولايات المتحدة أكثر مما بدت طريقاً لحياة ديمقراطية سليمة.

شغلتنا الإدارة الأمريكية بعد ذلك بخارطة طريق ملغومة مؤسسة على الأفكار السابقة – أى على أن نقطة البداية هى القضاء على الإرهابيين وقياداتهم – لكن الثمرة فيها للفلسطينيين تمثلت فى حدود «غيرمحددة» لدولة «مؤقتة» مع غياب تام للحديث عن مستقبل المستوطنات القائمة طالما أن أقصى ما تضمنته خارطة الطريق ارتبط بتفكيك «المراكز



الاستيطانية المتقدمة» التي أقيمت بعد مارس ٢٠٠١ فقط، وتجميد النشاط الاستيطاني. أما قضية اللاجئين فتحدثت الخارطة عن إيجاد حل عادل ومنصف و«عملي» لها. إلى أن جاء الرئيس الأمريكي في مؤتمره الصحفي مع حليفه مجرم الحرب ليضع العلامات بوضوح على الخارطة: لا عودة لحدود ١٩٤٩، وعلى الفلسطينيين أن يقبلوا واقع الاستيطان، وأن يتخلوا عن حق العودة لوطنهم طالما أنهم سوف يعطون دولة لا يعلم إلا الله مساحة الأرض التي ستقام عليها ويستطيعون بعد ذلك أن يمارسوا فيها حق العودة كما شاءوا.

لم يكن هناك جديد نوعياً إذن في موقف الرئيس الأمريكي، وأقصى حديث ممكن عن الجديد هو أن تصريحاته الأخيرة مثلت امتداداً طبيعياً لتطور الموقف الأمريكي كما عبر عنه في خطابه في يونيو ٢٠٠٢ وفي خارطة طريقه التي جسدت لاحقاً فلسفة هذا الخطاب، وإن بقيت الفجاجة صارخة والاستخفاف بالعرب عامة وبالأصدقاء منهم خاصة هائلاً.

لم يكن هناك توقيت فيما يبدو أكثر إلحاحا لممارسة تلك الفجاجة وهذا الاستخفاف في الوقت الراهن، فالرئيس الأمريكي يعاني من ورطة حقيقية وضع نفسه فيها في العراق بسياسة بنيت على الأسس نفسها: مجافاة أبسط قواعد القانون الدولي والقرارات الدولية ذات الصلة ناهيك عن الكذب، وهي ورطة مرشحة لمزيد من التعقد مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية التي ستحل بعد شهور قليلة، وهو لا يستطيع أن يتحرك بسهولة - إن استطاع الحركة على الإطلاق - بعيداً عن يمينه المسيحي المتعصب أو عن اللوبي الصهيوني ذي الأنياب التي يمكن أن تدمي حملته الانتخابية.

دفاع بوش:

لم يكن العرب وحدهم هم الذين أصابتهم الصدمة من جراء تصريحات الرئيس الأمريكي، ومن الأمور الجديرة بكل احترام وتقدير حقا تلك الرسالة التي وجهها ما يربو على خمسين دبلوماسياً أمريكياً سابقا من ذوي الخبرة بشئون المنطقة إلى الرئيس الأمريكي اعتراضا على سياسته المعلنة في مؤتمره الصحفي مع شارون، في تلك الرسالة التي تعكس بحق عقل الدبلوماسية الأمريكية وضميرها بدا أن كاتبيها يعارضون سياسة رئيسهم على نحو أكثر جذرية من دوائر عربية عديدة، فقد أفاضت الرسالة في نقد سياسة بوش كونها أيدت خطة شارون التي تتحدى قرارات مجلس الأمن.. التي تقضي بأن تعيد إسرائيل الأراضي المحتلة، وتتجاهل القوانين الدولية التي تعتبر المستوطنات الإسرائيلية غير شرعية، وتهزأ بقرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الذي تم تبنيه في ١٩٤٨، والذي يؤكد حق اللاجئين في أن يعودوا إلى ديارهم، أو يتلقوا تعويضا مناسبا عن فقدان ممتلكاتهم وعوناً لإعادة التوطين في بلد مضيف إذا اختاروا أن يفعلوا ذلك، ولفت نظري أن دبلوماسيين أمريكيين رفيعي المستوى يتحدثون عن القرار ١٩٤ وعن حق العودة في وقت بات يتهم فيه البعض منا من قبل دوائر عربية رسمية وغير رسمية بأنه غير واقعي أو حتى مفارق لعصره إذا تحدث عن حق العودة ناهيك عن التمسك به.

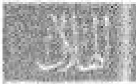
في الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي زادت رسالة الدبلوماسيين الأمريكيين حديثا صريحاً عن رفض تأييد بوش المطلق للاغتيالات غير القانونية التي يرتكبها شارون، وجدار إسرائيل الذي يشبه حائط برلين وإجراءاتها العسكرية القاسية في الأراضي المحتلة، واستبعاد الفلسطينيين من المفاوضات الأمريكية - الإسرائيلية - وأشارت كذلك إلى الآثار بالغة الخطورة لمواقف بوش واستشهدت بقول ياسر عبد ربه وزير الإعلام الفلسطيني السابق تعليقا على هذه المواقف: «أعتقد أن الرئيس بوش أعلن موت عملية السلام اليوم»، بل زادت بأن وصفت هذا القول بأنه يعبر عن رد الفعل السائد عند الناس، كذلك أشارت الرسالة إلى أن خطة شارون تضعف خريطة الطريق للسلام، «وتنقض سياسة أمريكية قائمة منذ وقت طويل في الشرق الأوسط».. وتبرهن على أن الولايات المتحدة ليست شريك سلام غير متحيز، وحذرت من أن هذه السياسة تضع الدبلوماسيين والمدنيين والعسكريين الأمريكيين الذين يؤدون مهماتهم في الخارج في موقف يتعذر الدفاع عنه، بل وينطوي على خطورة، ناهيك عن أنه يكلف الولايات المتحدة «صدقيتها ومكانتها

وأصدقاءها».

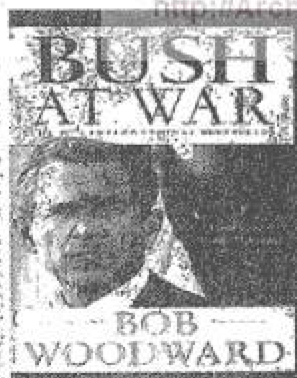
أدرك بوش فيما يبدو أو لعل أحداً قد نبهه إلى أنه نسف بموقفه هذا ما تبقى من جسور بين الوطن العربي والإدارة الأمريكية الراهنة، وأنه حتى أولئك المسئولين، والمثقفين العرب الذين مازالوا يتمسكون ببعض دعائم هذه الجسور التي نجت من عملية بوش التخريبية لابد أنهم في موقف بالغ الصعوبة أمام الرأى العام العربي، ولذلك بدأ دفاعاً واسع النطاق عن نفسه حاول أن يصل من خلاله إلى الرأى العام العربي، لكن دفاعه كشف عن مزيد من الارتباك والمراوغة ناهيك عن عدم الفهم، يقول جورج بوش على سبيل المثال في حديثه إلى صحيفة الأهرام الذى نشر في ٨ مايو الماضي: «إنني مندهش إلى حد ما يا سيدى من أن النقاش قد بدأ بالفعل حول النتائج النهائية في الوقت الذى لم يبدأ فيه بعد إنشاء الدولة، هو إذن مندهش من نفسه لأنه هو تحديداً الذى بدأ هذا النقاش باستباق كل شيء وحديثه عن عناصر الواقع التي يجب أن تنعكس على تسوية قضيتي المستوطنات واللاجئين ، ويجيب على سؤال لرئيس تحرير الأهرام كتلميذ خائب يكتفى بقول نعم أو لا عندما يسأل سؤالاً بالغ التعقيد، قال له إبراهيم نافع: «إن حق اللاجئين في العودة إلى أراضيهم والحصول على تعويضات منصوص عليه من الناحية القانونية في عدد من قرارات الأمم المتحدة فاكتفى الرئيس الأمريكي بأن قال «نعم» ليراوغ بعد ذلك في إجابته عن السؤال التالي قائلاً: إن قضية اللاجئين هي إحدى قضايا الحل النهائي وهذا أمر يتم التفاوض عليه بين الفلسطينيين والإسرائيليين مكررا بعد ذلك مقولته عن عودة اللاجئين: ما سوف يحدث هو أن عندما تقوم دولة فلسطينية فإنه سيكون من حقهم العودة إليها ، فالحل التفاوضي الذى يحاول أن يختبىء خلفه لا يمكن أن يتضمن إذن عودة اللاجئين إلى ديارهم الأصلية، وعندما يسأل عن اتفاقه مع مقولة أن الوقائع العملية القائمة على الأرض تعني ضم أراضي الآخرين يجيب إجابة طريفة لا يمكن توقعها:

«أعتقد أن ما يعنيه ذلك هو أنك سترى مع مرور الوقت ومع قيام دولة فلسطينية أن الضفة الغربية سيقيم فيها فلسطينيون.. كأنه لا يدرى أنهم يقيمون فيها بالفعل، وأن ذلك لا علاقة له بدولته الموعودة وكأنه يستكثر على أصحاب الأرض أن يقيموا في أرضهم والتي سبق أن أشار إلى أنهم «يقولون» إنها أرضهم، سئل بوش في موضع آخر : «هل توافقون على منح الفلسطينيين خطاب ضمانات مشابها «لخطابه لشارون» ينص على أن أى ضم لأراضي الضفة يجب أن يكون محدوداً للغاية وأنه يجب على إسرائيل أن تنسحب من كل الضفة الغربية تقريباً بما يتسق مع قرارى مجلس الأمن رقمي ٢٤٢ ، ٣٣٨، وكانت إجابته: «لا سوف أقوم بتكرار الأمور التي قلتها علنا اليوم في خطاب أقوم بتوجيهه للفلسطينيين» ، وعندما يتصور المرء أنه يعني ما ذكره بشأن الطبيعة التفاوضية لأى تسوية نهائية – بغض النظر عن القيود التي وضعها بتصريحاته على عملية التفاوض – سرعان ما يطالع باقي إجابته وهي (أى الأمور التي قالها علنا): إنني أعتقد أن هناك فرصة، وإنه من المهم أن تعثر السلطة الفلسطينية على قيادات مؤمنة بالإصلاح لديها الاستعداد التقدم ولعب دور قيادى، أى أن رسالة ضمانات بوش لإسرائيل تتحدث عن أرض يتم استيعابها وشعب يحال دونه ودون العودة إلى وطنه، بينما رسالة ضماناته للفلسطينيين تكتفى بمطالبتهم بتغيير أنفسهم استثماراً لفرصة شارون الذهبية.

ماذا نحن فاعلين إزاء هذا التحول الخطير وتداعياته المقبلة؟ تعود العرب دائما أن «يظهروا مزيداً من المرونة كلما حلت بهم الخطوب ، مع أن دروس التاريخ تفيد بوضوح أن المرونة مع طالبي الهيمنة – ناهيك عن الاستسلام لهم – لا تفضي إلا إلى مزيد من فتح شهيتهم لاستكمال التهام الضحية، تكتب هذا المعنى بوضوح دماء، أراقتها الآلة العسكرية الإسرائيلية ، ودماء أخرى زكية سوف يريقها الصهاينة وقد اطمأنوا إلى أن سيد العالم قد أخلى لهم الطريق تماماً كي يرسموا عليه خريطتهم كما يشاءون إلى أن يقيض الله سبحانه وتعالى المقاومين من أبناء هذه الأمة أن يوقفوا هذا العبث بقيم الإنسانية ومصائر الشعوب إنه على نصرهم لقدير. ■



بقلم
محمد يوسف عدس



مؤلف هذا الكتاب هو «بوب وودوارد» نائب رئيس تحرير «واشنطن بوست» .. عمل مراسلا صحفيا لأكثر من ثلاثين سنة .. وألف ثمانية كتب .. إثنان منها أعتبرا من أكثر الكتب مبيعا فى أمريكا .. كتب عن الرئاسة الأمريكية أربعة كتب ، كما كتب عن البنتاجون .. والمخابرات المركزية والمحكمة العليا .. اكتسب خبرة كبيرة وشهرة مرموقة من كتابته ولقاءاته العديدة مع الرؤساء وكبار القادة السياسيين على اختلاف مواقعهم ومنازعهم .

يقول عن كتابه : إنه قصة الرئيس بوش خلال المائة يوم التى أعقبت الهجوم الإرهابى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م .

مصادر معلوماته عن مجريات الأمور فى هذه الفترة يحددها بثلاثة مصادر رئيسية :

أولها : مذكرات عن خمسين اجتماعا لمجلس الأمن القومى إلى جانب اجتماعات أخرى مهمة نوقشت فيها واتخذت القرارات المتعلقة بالحرب .

ثانيها : مذكرات أخرى ويوميات ووثائق اقتبس منها فقرات لاستكمال أجزاء من هذه القصة .

ثالثها : مقابلات صحفية مع أكثر من مائة شخصية قيادية فى مجالى اتخاذ القرارات وتنفيذها .

معظم هذه الشخصيات تمت مقابلتها أكثر من ست مرات .. إما للمتابعة أو لمزيد من التحقيق فى واقعة أو خبر معين . وقد سمح أكثر من قابلهم بتسجيل أحاديثهم .. فيما عدا بعضهم الذى اشترط مسبقا عدم ذكر اسمه فى الكتاب .

أما الاستنتاجات والأفكار والانفعالات التى تسببها لأصحابها فقد جاءت إما عن طريق الملاحظة المباشرة أو عن طريق صديق أو زميل على معرفة وثيقة بهم .

التقى المؤلف بالرئيس بوش مرتين : الأولى فى سبتمبر ٢٠٠١ لمدة تسعين دقيقة ، والثانية فى ٢٠ أغسطس ٢٠٠٢ م وذلك بمزرعة الرئيس الخاصة فى كروفورد (تكساس) لمدة ساعتين وخمسة وعشرين دقيقة . يقول : إن الرئيس قدم فى هذا اللقاء الأخير إجابات محددة ومفصلة عن ردود فعله تجاه الأحداث وعن منطقه فى تبرير الحرب.

ويختم «وودوارد» مقدمة كتابه بقوله : «هذا هو جهدى فى الحصول على أكبر قدر من الحقيقة».

يحتوى الكتاب على ٣٨٢ صفحة تدور جلها حول الحرب الأفغانية فيما عدا ثلاثة وأربعين صفحة الأخيرة تناولت الإعداد للحرب العراقية .

يستعرض المؤلف فى بداية الكتاب شخصياته الرئيسية كأنه يقدم شخوصاً مسرحية : ثلاثة وعشرون شخصية من الولايات المتحدة على رأسهم الرئيس جورج دبليو بوش ، وثمانية من حلفاء أمريكا فى أفغانستان .

وكأى قصة أخرى تنطلق من نقطة

درامية يصف لنا المؤلف لقطة رومانسية عن اللحظة الحاسمة فى عقل بوش عندما قرر أنه ذاهب إلى الحرب لا محالة :

الجانب «الجوانى»

قصة الحرب على أفغانستان بوجهها «البرانى» تكاد تكون معروفة بتفاصيلها لكل من تابعها عبر الفضائيات العالمية والصحف . ولكن الجانب الأهم من هذا الكتاب - فى نظرى كقارئ ومحلل هو الجانب «الجوانى» (ولا أقول السرى بالضرورة) لهذه الحرب ، وأعنى بهذا على وجه التحديد : الخطط والأفكار والمقترحات التى وضعت أمام مجلس الحرب وكيف دار حولها الحوار والأخذ والرد ، وكيف تطورت الأفكار والخطط فى ضوء الاحتكاك بالواقع الجارى وردود الأفعال داخل الولايات المتحدة وخارجها يوما بيوم.

المؤلف معنى أكبر عناية بالشخصيات المحيطة بالرئيس بوش والتى تتدافع من حوله لدفعه فى مسارات واتجاهات بعينها أو العدول عنها .

رامسفيلد

من أبرز هذه الشخصيات «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع الذى كان له أكبر الأثر فى دفع الأمور تجاه الحرب فقد كان أول من التقط الفرصة السانحة وأول من عبر عن المزاج النفسى الذى سيطر على الرئيس بوش وهو الرغبة العارمة فى انتقام فورى موجع ، عندما أكد لبوش : «أن الولايات المتحدة قد تعرضت للهجوم وأنا كوزير للدفاع سأحضر إليك فى أقرب وقت لكى نبدأ الحرب» ورد بوش على الفور وبوضوح شديد : «هذا بالضبط ما أريده».

يتعمق المؤلف فى خلفية رامسفيلد السياسية والمزاجية ، فيكشف لنا عن طموحاته السابقة فى الرئاسة الأمريكية منذ عهد الرئيس فورد حيث كان يرى فى بوش الأب منافسا قويا ينبغى إزاحته من الطريق فعمل على أن يحد من نشاطه السياسى بإسناد ادارة المخابرات المركزية إليه ، وكان يقلل من شأنه حيث قال عنه إنه رجل علاقات عامة وليس لديه سياسات ذات قيمة ولا أهداف واضحة ، ويرى أن «الذى ليس لديه هدف كبير يرتكب جريمة كبيرة ».

ورامسفيلد - فيما يصفه المؤلف - عنيد يزادد عناده عندما لا تتحقق طموحاته تحقيقا كاملا ، وكان اهتمامه فى الشهور الثمانية الأولى بوزارته «الحالية» يدور حول نقطتين ، أولهما : أن القوات المسلحة لابد من إعادة بنائها وتطوير قدراتها الدفاعية ضد الصواريخ ، وردع الإرهاب ومواجهة التهديدات الجديدة على منشآتنا الفضائية وأنظمة المعلومات .

ثانيهما : أنه كان يصف لكل من يدور فى فلكه أو يقترب منه قراءة كتاب «روبرتا وولشتتر» بعنوان «بيرل هاربر : تحذير وقرار» بل كان يهدى نسخا من هذا الكتاب إليهم ويوصيهم بالتركيز على مقدمته التى كتبها «توماس سيلنج» . وهذه نقطة على جانب من الأهمية ، فالمقدمة تحتوى على نقد شديد لتخبط الإدارة الأمريكية وأخطائها التقليدية عندما تقتصر فى تقديراتها للأخطار على الاحتمالات القريبة أو المألوفة ولا يمتد خيالها إلى الأخطار بعيدة الاحتمال .. ثم إذا بها تفاجأ بوقوع الكارثة فجاة ولا تدرى ماذا تفعل إزاءها ! . فهل كان رامسفيلد يهيئ الأذهان لوقوع كارثة قريبة على غرار كارثة بيرل هاربر؟!.. المؤلف لم يتعمق فى هذه النقطة كثيرا ، ولكنها قد تثير لدى القارئ تساؤلا حول الظروف التى لا تزال غامضة فى قضية الهجوم التى لا تزال غامضة فى قضية الهجوم على برجى التجارة العالمية والبنتاجون فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م .

رجل مفتون بذاته

يمدنا الكتاب بوقائع كثيرة تكشف عن جوانب مثيرة فى أخلاق رامسفيلد وأسلوب معاملته مع الآخرين : يقول أحد الضباط من الذين عملوا مع رامسفيلد بصفة دائمة بأنه «رجل مفتون بذاته إلى حد الجنون ولكنه يخفى هذه الحقيقية بذكاء شديد ، وأنه يضرب

خصومه بلا رحمة وفي نفس الوقت يحرص على إظهار انطباع الهدوء وضبط النفس وكأنه لم يفعل شيئا .

وقال عنه آخر : إن أي شخص يعارض رامسفيلد فهو في خطر وقد يكون مصيره أن يمسح من الوجود» .. «إنه يطرد جنرالات كبار من مكتبه وهو يقول موبخا : «عد إلى للحديث مرة أخرى عندما تعرف عن أي شيء تتحدث» يقول المؤلف : «لعل ذلك راجع إلى ثقته بنفسه أكثر مما ينبغي وإلى شكوكه في كفاءة مرءوسيه» .. «ويبدو في نظر الكثير من العاملين في البنتاجون أنه لغز كبير» .

ويقول أحدهم : «إن رامسفيلد يكره استخدام اللغة الإسلامية السائبة التي تفتقر إلى التحديد .. ويكره الأخطاء في كتابة التقارير التي تقدم إليه .. ويريد أن تكون يده محيطة بكل شيء .. ولا يجب أن يذهب أحد جنرالاته بأي معلومة أو يقدم استشارة إلى الرئيس إلا من خلاله هو ..» .

وسوف يلحظ القارئ لهذا الكتاب أن مجمل التعليقات التي صدرت من المحيطين برامسفيلد توحي بأنه يتمتع بعقلية دكتاتور صغير .

كان رامسفيلد يبحث عن أي معلومات مفيدة في وثائق وزارته عن أفغانستان يمكن أن تساعده في وضع خطة ناجحة لغزوها كما وعد الرئيس ، ولكنه لم يجد ما يشفي غليله .. ولعله قد أدرك من البداية أن هذه الحرب هي بالضرورة حرب وكالة المخابرات المركزية التي تملك كل المعلومات عن أفغانستان ، وأن دور الجيش فيها دور محدود .. فهذه البلاد قد تم تدميرها من قبل خلال سنوات طويلة من الحرب ضد الاحتلال السوفييتي ثم الحرب الأهلية ، فلم يعد فيها أهداف مرموقة يمكن التصويب عليها وقصفها وإحداث فرقعات مدوية تأخذ بالألباب وتعصف بالخيال مثلما حدث في الهجوم على برجي التجارة العالمية بنيويورك .

كذلك كان يدرك منذ البداية أن الهدف الرئيسي المعلن وهو القضاء على تنظيم القاعدة وإحضار بن لادن «حيا أو ميتا» كما يشتهي الرئيس ليس من شأن الجيوش ولا تستطيعه .. فهؤلاء الناس يعيشون في أكواخ من الطين وفي خيام وكهوف جبلية ، وينتقلون بسهولة في أرض تعرفهم ويعرفونها ، والباحث عنهم سيكون كالباحث عن إبرة في كومة من القش .

خطط الغزو العراقي

أكثر من هذا أن رامسفيلد - فيما يبدو - كانت لديه خطط مبدئية لغزو العراق جاهزة لتفعيلها في الوقت المناسب وكان يتمنى أن يقنع الرئيس بوش بأن يبدأ حربه على الإرهاب بالعراق لا بأفغانستان ، فكان دائم الضغط في مجلس الحرب على موضوع حرب العراق أو على الأقل فتح جبهتين للحرب إحداهما في أفغانستان والثانية في العراق في آن واحد ، ولطالما أدلى بتصريحات إعلامية أن الولايات المتحدة تستطيع أن تحارب في أكثر من جبهة واحدة وتنتصر . ولكنه كان يواجه - في مجلس الحرب - بصد متواصل من جانب بوش وتشيني وكولين باول ، ومع ذلك لم ييأس فظل يلح على هذه النقطة كلما تبدت له نقاط ضعف في خطة الغزو الأفغانية .

كان إدراكه المبكر بإمكانية فشل الحرب الأفغانية في تحقيق أهدافها المعلنة يدفعه بعنف نحو العراق .. ومن تبريراته : أنه إذا بدا قصور في تحقيق الأهداف العسكرية في أفغانستان فإن إنجازات الغزوة العراقية سوف تعوض - في الإعلام - الإخفاقات الأفغانية أو تبعدها عن مجال التركيز الإعلامي .

رامسفيلد لم يكن لديه أدنى شك في أفكار نائبه «بول وولفويتز» الذي كرس جهده لجعل العراق هي الهدف الأول والأساسي للحرب على الإرهاب . وكان يخطط لغزو العراق سيناريوهات مفجعة ، منذ فترة من الوقت ، من هنا جاءت مقولة رامسفيلد الملحة .. فتح جبهة عسكرية أخرى - الآن وليس فيما بعد - مادامت العراق واردة بالضرورة

على أجندة الرئيس في حربه على الإرهاب »

بوش

كان الرئيس بوش مثل أبيه مثابرا على إملاء مذكرات يومية يودع فيها أفكاره وملاحظاته .. وكانت له أيضا تجليات أفضى فيها بمكنون صدره في لقاءات حميمة مع «بوب وودوارد» نقتبس بعضها لما له - في نظري - من دلالات كاشفة :

- لقد وقعت اليوم «بيرل هاربر» القرن الواحد والعشرين .

- هذه حرب لابد فيها من استئصال أعدائنا وتدميرهم .

- أنا لست عسكريا .. أعترف بذلك . ولذا لابد لي من الاعتماد على مشورة ونصائح : رامسفليد وشيلتون ومايرز وتنيت .

- إنني الآن رئيس في حالة حرب .. والجنود والمواطنون والعالم كله يسلطون عيونهم على مستوى رد الفعل والطاقة الدافعة له والقناعة التي تدعمه .

- أما بالنسبة للفكرة الشائعة عني عند الناس من حيث أنني خفيف الوزن .. لا أعبأ بالتفاصيل .. متحفظ .. منطو على نفسي .

وربما أيضا جاهل .. وأنني كما يقولون (التكساني المخمور) فهذه كلها أفكار وشائعات يجب تبديدها بقوة . وسوف يعرف العالم أنني شخص آخر .. ربما ستكون صورته شيئا لا يصدقه عقل !

وعندما تحدث بوش إلى قيادات الكونجرس في البيت الأبيض قال لهم: «هذه ليست عملية واحدة وإنما قد تتلوها عمليات أخرى .. ولذلك سوف تستمر الحكومة في الحرب إلى أجل غير مسمى . وقال أيضا :

«ليس العدو مجموعة واحدة بعينها ولكنه حالة عقلية تبث كراهية عميقة .. إنهم يكرهون المسيحية ويكرهون اليهودية .. إنهم يكرهون كل شيء إلا أنفسهم .. ودول العالم عليها أن تختار» .

فإذا كان هذا الكلام يدل على شيء فإنما يدل على حالة عقلية انتابت بوش في هذه المرحلة عبر عنها بعبارته المشهورة «إرهاب إسلامي» ورد فعله على هذا الإرهاب هو «حروب صليبية» . ويصف كولين باول هذه الحالة من الغضب والهياج النفسي بقوله : «إن الرئيس قد مل العبارات الخطابية .. إنه يريد أن يقتل شخصا ما !!» .

چورج تنيت

كان يتصرف مدركا أن الغزوة الأفغانية لعبته هو قبل أي شخص آخر . فهو يملك كل المعلومات وكل الملفات ويعرف طريقه بوضوح . ومن ثم فقد كان دائب السعي لاستكمال عدته صلاحيات جديدة تطلق يده للعمل دون خوف من معقبات ، وأموال يرشو بها الحلفاء ، ودعم سياسي ودبلوماسي وعسكري من الرئيس وبطانته .

كان يريد من الرئيس على وجه التحديد أن يصدر قرارات تحله من كل قيد قانوني وأخلاقي تعوق رجاله عن الاغتيال والبطش والتنكيل بالأعداء .. وكان يريد تسهيلات في دول الجوار لتحريك رجاله وقواته الخاصة في أراضيها على الأخص مطارات لطائرات «بريديتور» الموجهة بدون طيارين .. وقد منحه الرئيس كل ما يحتاج إليه بسخاء وبلا أدنى تحفظ .. وقام بتكليف أجهزة إدارته بالتفاوض مع دول الجوار خصوصا باكستان وأوزبكستان .

حروب سرية

في جلسة من جلسات مجلس الحرب جاء «تنيت» ليعرض إنجازاته في مجال الحرب على الإرهاب خارج أفغانستان فتبين من حديثه أنه مع رجاله يقودون حربا سرية في ثمانين دولة حول العالم في محاولة لاختراق أجهزة مخابرات هذه الدول وأنظمتها الأمنية . وهنا صاح بوش : جهد رائع يا «تينت» .

واستكمالا لدور المخابرات الأمريكية في تتبع المشتبه في علاقتهم بتنظيم القاعدة أشار «تينت» إلى إجراء اتصالات مكثفة بدول مهمة مثل مصر والأردن وبلاد أخرى في إفريقيا، ووصف هذه البلاد بأنها لا تراعي عادة

Will Europeans try to help the Americans in Iraq—or gloat over



هل يساعد الأوروبيون الامريكين في العراق أم يتفرجون عليها بشماتة

الحريات المدنية ولا تلتزم بالإجراءات القانونية ومن ثم تجد طلبات الـ«سى آى إيه» استجابة فورية وترحيبا من السلطات فى هذه البلاد.

اجتمع «تينت» مع رجاله ليشرح لهم مهمتهم الجديدة فى أفغانستان فقال: «أمامكم مهمة واحدة أساسية .. انطلقوا للبحث عن أعضاء القاعدة واقتلوهم .. إننا سندمرهم .. أحضروا بن لادن .. أريد أن أرى رأسه فى صندوق لأطلع الرئيس عليها .. لقد حصلنا على صلاحيات جديدة بلا حدود للقتل والاغتيال» !

أقرأ وكأننى أمام مشهد من أفلام آل كابونى.

أما فى أفغانستان فإن جهود جورج تينت تحتاج إلى وقفة قصيرة. حيث نجده يعرض سياسته أمام مجلس الحرب بصراحة لا مواربة فيها .. إنه يعتمد على التناقضات التى تفرزها التركيبة العرقية وتاريخ الصراع القبلى، للسعى نحو تفكيك الجبهة الداخلية والقضاء على المقاومة، ويمتد اهتمامه إلى الحرب الدعائية فهو صاحب الخط الدعائى الذى تبنته وسائل الإعلام الأمريكية داخل أفغانستان. ذلك الخط الذى يصور الغزو الأمريكي على أنه صراع دموى بين الأفغان من جهة والعرب الدخلاء من جهة أخرى.

وأن ما تفعله أمريكا هو المساعدة فى تحرير أفغانستان من ديكتاتورية طالبان وتنظيم القاعدة .. يقول «تينت»: «يجب أن ينسى الأفغان أن العرب قد جاءوا إليهم لتحريرهم من الاحتلال السوفييتى .. فالعرب هم الغزاة وهم الأعداء الغرباء» .. ويضيف «لقد اتصلنا بآلاف القبائل وكانت رسالتنا إليهم أن أفغانستان يجب أن تنهض ضد

العرب .. لقد خان الملا عمر ووقف مع الجانب الخطأ» ، ويعود «تينت» مرة أخرى ليؤكد فى حديثه «إننا نحتاج إلى تصوير هؤلاء العرب على أنهم هم الدخلاء والغرباء .. إننا نرصدهم ونرصد مواقعهم وأجهزتهم ونسعى لتدمير بنيتهم الأساسية .. نريد من الأفغان أن يستهدفوا العرب ويقتلوهم .. إنهم هم المشكلة ، وليس الأمريكيين» .

وقد أبرز تينت نقطتين مهمتين فى الدعاية الجديدة لتسويقها فى العالم: إن هذه ليست حربا ضد الإسلام ، ولا ضد الأفغان .. وأكد للرئيس بوش أن لديه معلقين مسلمين فى كل مكان مكلفون بالقيام بهذه المهمة الدعائية لحساب الولايات المتحدة !!

أضاف رامسفيلد - فى هذه الجلسة - قوله : «إننا نريد مخابرات نشطة تقوم بتنفيذ سياستنا فى التفريق بين طالبان والقاعدة ومحاولة صرف طالبان عن الالتفاف حول الملا عمر» .

«أما الرئيس بوش فقد فاجأ الجميع باقتراحه ضرورة أن تكون أولى قذائفنا فى أفغانستان من الطعام والدواء للشعب الجائع .. لابد من الأخذ فى الاعتبار الجانب الأخلاقى فى الحرب .. هناك نظام أخلاقى أنزله الرب ولا ينبغى أن نتغاضى عنه» !

ويعلق المؤلف على هذا بقوله : «لقد وافق الجميع على هذا الاقتراح حتى رامسفيلد نفسه صاحب القلب المتحجر» .

سوف يلاحظ القارئ أن هذا الكلام كله إنما هو خطاب إعلامي لتحسين صورة الغزو الأمريكي في أمريكا وخارجها .. حتى تسمية الغزوة الأفغانية بأنها عملية «العدالة المطلقة» جرى تعديلها بسبب اعتراض علماء الإسلام عليها باعتبار- أن العدالة المطلقة من اختصاص الله وحده ولا يستطيعها أحد سواه .. ومن ثم اقترح رامسفيلد تسميتها ENDURING FREEDOM .

استجابة مثيرة

كان كولين باول مكلفا بالاتصال بحكومات آسيا الوسطى وباكستان بصفة خاصة إلى جانب دول أخرى ونجد فى كلام باول الصريح فى مجلس الحرب نقاطا تستحق التأمل فقد كشف عن مدى الإذعان بل التهافت الذى ابدته السلطات الحاكمة فى هذه البلاد إلى حد يصعب فهمه أو تصديقه .. قال: «إن رئيس طاجيكستان بدون أى شروط ولا تحفظات وبلا ثمن قدم للأمريكيين كل ما طلبوه ، ولم تكن لديه سوى رغبة واحدة هى أن يبقى الأمر سرا وأن تكون الاتصالات معه هو بصفة شخصية . أما باكستان وهى الأكثر أهمية فى الحرب الأفغانية فقد كانت استجابتها مثيرة لذهول كولين باول نفسه . فقد كانت العلاقات الأمريكية الباكستانية متوترة منذ إعلان امريكا مقاطعتها لباكستان فى أعقاب إعلانها عن تجاربها النووية . وكان باول يرى أن أى عمل ضد أفغانستان أو القاعدة لن يكتب له النجاح إلا بمساعدة باكستان .

أعد أرميتاج مساعد وزير الخارجية قائمة ناقشها مع باول تشتمل على سبعة مطالب ، منها مطالب بعينه كان باول وارميتاج يعلمان أنه لا يمكن تنفيذه فى الولايات المتحدة نفسها ، ذلك هو منع كل تعبير يشتم منه دعم للإرهاب ضد الولايات المتحدة، قدم أرميتاج هذه المطالب مدونة فى ورقة واحدة إلى الجنرال محمود أحمد مدير المخابرات الباكستانية وقال له : «هذه المطالب ليست للمناقشة أو التفاوض» ثم تبع ذلك مكالمة من كولين باول إلى الرئيس برويز مشرف، قال له: «نحن فى حاجة إلى من يقف بجانبنا ويحارب معنا» .. ولدهشة باول سمع صوت مشرف على الطرف الآخر من الخط يقول له بلا تردد : «إن باكستان سوف تساند الولايات المتحدة فى كل هذه المطالب السبعة» . ولكى يثبت جديته طرد محمود أحمد من إدارة مخابراته ، فهو معروف بعلاقاته الحميمة مع طالبان وكانت له تحفظات على الحرب الأمريكية أشار

إليها فى كتاب نشر له فيما بعد .

توجه مشرف إلى البيت الأبيض لزيارة العتبات المقدسة وعندما حظى بلقاء الرئيس بوش أبدى له مخاوفه العميقة أن تتخلى عنه الولايات المتحدة فى النهاية فنظر إليه الرئيس فى عينيه وقال له «أخبر الشعب الباكستانى أن رئيس الولايات المتحدة لن يتخلى عنكم.

وكان بوش صادقا فيما وعد فهو لا يستغنى عن باكستان نفسها ولكنه يستطيع أن يستغنى عن مشرف ويستبدله بغيره عند الضرورة .. ثم إن الكلام المعلن لا يدل على حقيقة المكنون فى الضمائر .. فالإعلام الأمريكي يثنى مثلا على الديكتاتور الأوزبكستانى فى العلن لأنه سمح بمنح قواعد بلاده الجوية للأمريكيين . ولكن تينت فى مجلس الحرب يلعنه ويصفه بأنه «متسول سخيف» ، وذلك لأنه اشترط فقط بعض التسهيلات المالية والمساعدات لبلاده .

فى مجلس الحرب والقادة بمعزل عن أعين المتطفلين وفى لحظات الانطلاقات العفوية تتكشف بعض مكنونات الصدور ، وتتضح حقائق لاتجد طريقها عادة إلى العلن ، خصوصا عندما يصفون الشعوب الأخرى أو الشخصيات التى تعمل معهم .. إنهم حلفاء وأصدقاء فقط أمام الكاميرات أما فيما بينهم وبين أنفسهم فشىء آخر : إسلام كريموف رئيس أوزبكستان وصفه تينت بأنه متسول سخيف ، وسخر كولين باول من الأوزبكيين لأنهم يطلبون أكثر مما يستحقون : « اتفاقية دفاع مشترك وتعاون ودعم اقتصادى وحب ، ويريدون برهانا على دوام هذا الحب !».

حامد قرظاى هو رجل المخابرات الأمريكية البشتونى ، وهو كما وصفه تينت «مفيد» لأنه لديه مهارات فى العلاقات العامة وأنه يستطيع إقامة علاقات مع الأشخاص الآخرين بسهولة . أما قائد قوات التحالف الشمالية فاسمه عندهم «فهيم الزئبق» لقدرته على المراوغة وهو شديد الطمع فى المال والمناصب .

وعن الشعب الأفغانى والسخرية بثقافته يقول أحدهم :

« أنت لاتستطيع شراء الأفغانى ولكنك تستأجره فقط لبعض الوقت حتى يأتى شخص آخر ليدفع ثمنا أكثر ! .. إنه عالم لايعرف الولاء الدائم ولا نصف الدائم .. ولوردات الحرب الأفغان وراء أمرين : عندما ينضب المال عندك أو عندما يتخلى عنك النصر» .

وقف العمليات فى رمضان !

وعندما رفع بعض القادة العرب التماسا إلى البيت الأبيض لوقف العمليات العسكرية فى شهر رمضان الكريم قال بوش فى مجلس حربه : « علينا أن نجد حلا لحكاية رمضان هذه» .. واقترح ارسال قوافل اغاثة وحث طالبان على أن يسمحوا بمرورها إلى الناس .. فإذا رفضوا يكونوا هم الذين انتهكوا شعائر الإسلام ولسنا نحن» . وسرعان ما جاءه التعزيز من وولفويتز على لسان الجنرال فرانكس القابع فى قطر ، والذى التمس النصيحة من أصدقائه العرب فى المنطقة فأفتوا له بجواز الحرب فى رمضان قالوا : إن الحرب لم تنقطع فى شهر رمضان خلال سبعة وثلاثين عاما من النصف الثانى من القرن العشرين بالمنطقة ، وكان القتال معظمه بين عرب وعرب آخرين ، وأمسك بوش على الفور بالهاتف واتصل بولى العهد السعودى فقال له « إن أمريكا لن تتوقف عن الحرب فى رمضان».

كولين باول والملف العراقى

رحلت قوات طالبان عن كابول واختفت فى الجبال ودخلت قوات التحالف الشمالى والقوات الأمريكية الخاصة إلى العاصمة .. هنا شعر الأمريكيون أن أفغانستان لم يعد فيها أهداف عسكرية ذات قيمة كبيرة وأن المرحلة التالية بما تشتمل عليه من عمليات مطاردة لفلول طالبان والقاعدة وتأمين كابول كلها لاتنطوى على مايثير شهية الإعلام ولا تشكل انتصارا بل قد تأتى بهزائم وانتكاسات

ينبغي تحويل الأنظار عنها .. ومن ثم برز ملف العراق بقوة وإلحاح .. وكانت فرصة رامسفيلد ونائبه وولفويتز مهندس السيناريو العراقي .

كان البعض يريد من بوش أن يتريث قليلا حتى تستقر الأوضاع في أفغانستان ، وتتبين تداعيات الغزو وعلى الأقل تحقيق وعد الرئيس وأمنيته في إحضار بن لادن حيا أو ميتا .. من هؤلاء كان جورج تينت وكولين باول .. ولكن الرئيس لم يلتفت إلى نصائح هؤلاء فقد كان مدفوعا بعقيدة غريزية أنه يحقق رسالة هبطت عليه من السماء ، ويؤمن بأنه رجل القدر الذي بعثه الرب لتغيير العالم بقوة السلاح !

ولكن كولين باول كان أكثر الجميع استمساكا بموقفه المعارض لحرب العراق ، ويرى أن هذه الحرب سوف تجلب على أمريكا مشاكل لا قبل لها بها، ورأى أنصار الحرب ضرورة إبعاده عن أضواء المسرح في مجلس الحرب فاخترعوا له مهمة دبلوماسية يعلمون أنها محكوم عليها بالفشل مسبقا : أن يذهب إلى شارون لاقناعه بتهدئة الأوضاع في فلسطين والانسحاب من أراضي السلطة الفلسطينية التي اقتحمها مؤخرا .

وبذلك تتهيأ الأجواء لغزو العراق .. وفي الوقت نصحه كل من ديك تشيني ورامسفيلد أن يتجاهل عرفات ولا يلتقي به .. لم يقتنع باول بهذه النصيحة فشارون وعرفات هما طرفا الصراع وأي تهدئة جادة لايمكن أن تأتي بدون عرفات .. فلما التقى بعرفات قامت القيامة في الإدارة الأمريكية وأصبح الجميع ضده .. وسخر منه شارون وعاد الرجل يخفي حنين ، وأصبح منبوذا .. لايجد الفرصة للتعبير عن رأيه في الموضوع العراقي بمجلس الحرب .. ولم يجد مفرا من أن يطلب مقابلة خاصة مع الرئيس على انفراد لاقناعه بوجهة نظره التي تتلخص في النقاط التالية :

سوف يتزعزع الاستقرار في الشرط الأوسط .. وستكون الأنظمة الصديقة في مصر والسعودية والأردن في حرج شديد وستتعرض للانهيار ، وسيزداد الغضب والإحباط ضد الأمريكيين .. وستغير الحرب كل شيء في الشرق الأوسط .. وستقضي على جهود التعاون في محاربة الإرهاب ، وستعوق كل العلاقات السياسية والدبلوماسية والاستخباراتية والاقتصادية .. وستكون تكاليف احتلال العراق بعد النصر العسكري باهظة جدا ..

وسيصل التأثير السلبي على الاقتصاد إلى الداخل الأمريكي .

سأل باول الرئيس مستنكرا : كيف ستكون صورة أمريكا في العالم وهي تنصب جنرالا أمريكيا ليحكم دولة عربية - مكارثر في بغداد!؟

والنجاح المطلوب من هذه الحرب ، ما هو معياره ؟ من السهل أن تقول إننا قادرون عليه عسكريا ، ولكنك لن تصل إلى نجاح حقيقي فأزمة الشرق الأوسط لاتزال قائمة وملحة ، ويتطلع العرب والمسلمون إلى حل سلمي لها .. وقد يستخدم صدام أسلحة الدمار الشامل ! .. إننا لم نعثر بعد على بن لادن ولا الملا عمر في أفغانستان .. وعند صدام كل الحيل والمكر للاختفاء فلا نستطيع العثور عليه !

كلام حكيم لرجل مخلص لبلاده وهو وزير خارجيتها ومن خلفه خبرة عسكرية في الجيش لمدة خمسة وثلاثين سنة وقد شارك في إدارة حرب الخليج الثانية ، وكان مستشارا سابقا في مجلس الأمن القومي ولكن من يقرأ ومن يسمع !! الخطأ القاتل الذي وقع فيه كولين باول يتجلى في واقعتين :

أولا : أنه بحسن نية صدق أن إدارته تريد حقا حلا سلميا للقضية الفلسطينية .

والثاني أنه كان يؤمن بمصداقية أجهزة مخابرات بلاده التي «استغفلته» عندما قدمت إليه تقريرا مزودا بالصور الدالة على امتلاك العراق أسلحة دمار شامل فلما عرضه على مجلس الأمن أثار سخرية العالم عليه .. وثبت فيما بعد بالدليل العملي أنه لا توجد أسلحة دمار شامل بالعراق وأن التقرير كان مزيفا .

فى الواقعة الأولى صدق ما أعلنه بوش بنفسه أمام العالم فى كلام صريح موجه إلى شارون عندما قال : «على الإسرائيليين أن ينسحبوا فورا .. وعندما أقول انسحبوا فورا فإننى أعنى ما أقول..!».

وفى الواقعة الثانية صدق مخابرات بلاده وكأنه لا يعلم أنه جهاز صناعته الكذب والتلفيق .. ويبدو أن منافسى كولين باول من أنصار غزو العراق وتركيع العرب قد أوغروا صدر بوش عليه وأرادوا أن يدفعوه إلى الانتحار السياسى .

بوش فى آخر لقاء

يكشف «وودوارد» عن حقيقة مشاعر الرئيس بوش تجاه كولين باول فى حديث طويل معه لم يذكره بخير ولم ينسب إليه ميزة أو إنجازا إلا فى واقعة واحدة وهى نجاحه فى باكستان .. سأله وودوارد عن إسهامات كولين باول فأجابه بكلام كثير ملتو عجيب قال : «باول دبلوماسى .. ومن الطبيعى أن يكون لدى الرئيس دبلوماسى ما ..!» ثم انتقل إلى الحديث عن نفسه فقال : «أنا أعتبر نفسى دبلوماسيا .. ولكن لا يبدو أن أحدا يلحظ هذا .. لا أدرى لم؟!» وأخذ بوش يتراوح فى حديث مرتبك غامض لا معنى له قال : «أنا أدعى أننى دبلوماسى .. ولكن مهما يكن الأمر فإن «باول» شخص دبلوماسى ولديه خبرة فى الحرب .. دعنى أتذكر له شيئا .. نعم لقد وجدت شيئا .. إنه كان ممتازا مع مشرف .. فبمفرده استطاع أن يجتذبه إلى قافلتنا .. نعم كان ممتازا فى هذه المهمة .. كذلك كان مهتما بفكرة أن يؤلف تحالفا فى حرب أفغانستان .. ثم تحول بوش سريعا لينهى الكلام عن باول فاقترح أن يذهب مع المؤلف إلى نزهة بالمزرعة ، وقفز إلى سيارته الخاصة وتبعه كلبه «بارنى» إلى المقعد الخلفى ليستأنف الحديث فى الهواء الطلق .

يقول «وودوارد» : لقد كرر بوش خلال المقابلة الحديث عن غريزته أو ردود فعله الغريزية اثنتى عشرة مرة .. وكرر عبارة «أنا لا أتبع الإرشادات المدونة فى الكتب إنما أتصرف وفق دوافعى الجوانية» ، وكان من الواضح لى أنه مفتون بمركزه كرئيس وسياسى وقائد عام للقوات المسلحة .. وكثيرا ما كان يكرر عبارة «أنا كرئيس» أو «ينبغى على الرئيس .. كذا» . كذلك يتضح من كلامه أن له رؤية خاصة تنطوى على طموحات قدرية فى إعادة تنظيم العالم واستخدام الضربات الاستباقية إذا لزم الأمر ، وينحو إلى الانفراد بالعمل لتقليل معاناة البشر وإقرار السلام فى العالم على حد زعمه. وهو يفعل كل هذا مدفوعا بإيمان بغريزته المقدسة فغرائزه هى دينه الثانى .

يتحدث بوش كثيرا عن خصائصه كرئيس موهوب من نوع فريد فيقول : «أنا نوع من الناس يحب أن يتأكد أن كل المخاطر خصوصا فى الحرب قد جرى تقديرها بدقة ، وينسى أحيانا ما قاله آنفا فيتناقض مع نفسه دون أن يدرى .. قال مرة : «إن العالم يرقبنا عن كثب ولكنه سوف يذهل بالنتائج التى سنحققها فى العراق» . ثم ينقض هذا فى موقف آخر حيث يقول : «أنا لم أطلع بعد على مقترح لخطة ناجحة لغزو العراق .. وعلى أن أكون صبورا ودقيقا» .

بدأ غزو العراق فى ١٩ مارس ٢٠٠٣ وسرعان ما سقطت بغداد وانهار النظام العراقى ، وأعلن بوش نهاية العمليات العسكرية وتم احتلال العراق ، وكان هذا أقصى ما تستطيعه الآلة العسكرية الأمريكية .. ثم بدأت تداعيات الغزو تتوالى : فظهرت مقاومة عراقية شرسة ، وأخذت تتعاظم الخسائر الأمريكية فى الأرواح والمعدات ، وأدركت أمريكا أنها فى مأزق كبير ، فإذا بها تعود إلى الأمم المتحدة التى نبذتها من قبل واحتقرتها .. واضطرت أمريكا إلى استخدام لغة جديدة غير التهديد والتحقير ، وأصبحت تستجدى المساعدة من الدول الأخرى ، أسهم الرئيس تتدنى فى الرأى العام الأمريكى ويقف رامسفيلد وولفويتز وتشينى فى قفص الاتهام . ■

دائرة حوار

حقيقة المشروع الأمريكى عن «الشرق الأوسط الكبير»..!

بقلم

د. محمد عبد الشفيع عيسى

أثار المشروع الأمريكى عما أسموه «الشرق الأوسط الكبير» جدلا واسعا على المستويين الرسمى والشعبى فى الوطن العربى. ونسهم فى هذا الجدل بمقالنا الحالى اعتمادا على النص المترجم إلى العربية والمنشور بجريدة «الحياة» اللندنية يوم ١٣-٢-٢٠٠٤ . ونقدم فى هذا المقال قراءة فى هذا النص، وليست قراءة كاملة له. وهى قراءة «نقدية» وليست قراءة وصفية أو حيادية بالمعنى التقليدى، علما بأنه لايوجد «حياد» أصلا فى الحياة الثقافية لأى مجتمع. فكل قراءة تعبر فى الحقيقة عن «موقف معين لصاحبها، مع وجوب أن تتوافر فى تلك القراءة الاشتراطات العلمية والموضوعية الواجبة. ونلخص قراءتنا على هذا النحو فى الحقائق التالية:



أولا: إن المشروع موجه بصورة دقيقة ومحددة إلى دول الوطن العربى بالذات، رغم الإشارات العديدة إلى ما أسموه «الشرق الأوسط الكبير» والذى عرفوه بأنه يشمل البلدان العربية بالإضافة إلى باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا وإسرائيل.

ولم تتوجه نصوص المشروع بشىء إلى «إسرائيل» ولم تطالبها بأى استحقاق فى أى مجال من المجالات الخاصة بما أسموه النواقص الثلاثة فى دول المنطقة، وهى: الحرية، والمعرفة، وتمكين النساء،

ويذكر المشروع بوضوح هنا – استنادا إلى تقرير مؤسسة «فريدوم هاوس» الأمريكية العام ٢٠٠٢ – أن (إسرائيل البلد الوحيد في الشرق الأوسط الكبير الذي صنف بأنه «حر»).

ولعلنا نكتفي بالإشارة إلى أن إسرائيل – بغض النظر عن الجدل حول شرعية وجودها عن طريق الاستعمار الصهيوني لفلسطين أصلا – تقوم حاليا باستعمار استيطاني واحتلالي لبقية فلسطين التاريخية، بالإضافة إلى الممارسات السياسية ذات الطابع العنصري الصريح ضد (الأقلية) العربية في إسرائيل سعيا إلى تكريس إسرائيل كدولة (يهودية) – فضلا عن انعكاسات التفرقة العنصرية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية لعرب ١٩٤٨ .. كل ذلك بالإضافة إلى ما يشوب النموذج الإسرائيلي للممارسة السياسية من عيوب جوهرية ناجمة عن عدم التوازن بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وعن إفساح المجال باستمرار أمام صعود أكثر التيارات عنصرية وتحكمها في عملية اتخاذ القرار السياسي عبر آليات (توزيع الأدوار) و(سياسات المساومة والتوفيق).

ونعود إلى الإطار الجغرافي للشرق الأوسط (الكبير) لنرى أن إضافة الدول الأربع: باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا (وجميعها دول إسلامية) لايغير من الأمر شيئا: وهو أن المشروع يوجه خطابه الفكري والسياسي إلى الدول العربية دون غيرها، وهو ما يتضح من جميع الإشارات الصريحة للواقع الراهن، واستحقاقات التغيير، في نص المشروع.

التدخل الأجنبي بشكل أكبر

ويدعونا هذا إلى التساؤل عن سر تخصيص مثل هذا المشروع للبلدان العربية دون غيرها وفي هذا الظرف التاريخي بالذات .. أهو التمهيد لتعميق التدخل الأجنبي – بصورة أشد مما هو متحقق الآن..! – في الشئون الداخلية للوطن العربي، ليتحول إلى اختراق وتغلغل نظامي ومباشر، وعن طريق حمل أوروبا لتصير شريكا أمريكيا مفضلا في ذلك..؟!

ثانيا: يقرّ الكثير من المثقفين العرب – ونحن منهم – بأن الوطن العربي قد أفلتت منه فرصة تاريخية كبرى لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية عبر نصف القرن الماضي، وهو مايتضح من تتبع جميع مؤشرات هذه التنمية.

ويرى تيار ثقافي رئيسي – ونحن منه أيضا – أن هذا الواقع المأساوي وليد نوعين من العوامل: أولهما العوامل الخارجية، وخاصة إقامة إسرائيل حيث تسببت على الأقل في أمرين:

١ – إضفاء الطابع العسكري على الحياة السياسية العربية، إذ أدى الصراع العربي الإسرائيلي ومضاعفاته المستمرة، بصورة مباشرة وغير مباشرة، إلى تعميق الاعتماد على المؤسسة العسكرية كآلية رئيسية محركة لبناء النظم السياسية .. وأدى ذلك إلى المساهمة في التضييق على الهامش

الديمقراطى الضيق أصلا، بفعل عوامل بنيوية سابقة من العهد الاستعمارى وما قبله.

٢ - تزايد الإنفاق على التسلح، أو محاولة التسلح، فى المجالات التقليدية وفوق التقليدية، بالإضافة إلى العمل على اقتناء بعض الرموز التسليحية التى قد توحى بتقريب الشقة فى ميدان الردع غير التقليدى مع إسرائيل.

وقد أدت «العسكرة» و«نفقات التسلح» إلى التأثير سلبا على مسيرة التنمية العربية، انطلاقا من الممارسة الإسرائيلية فى نهاية الأمر وإلى حد كبير.

أما النوع الثانى من العوامل المحددة للتنمية فهى العوامل الداخلية والتى تتمثل فى الاختلالات الجوهرية للأبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية فى الوطن العربى، والتى تترجم حالة (الضعف والانقطاع الحضارى) التى أعقبت مرحلة (الازدهار الحضارى العربى الإسلامى).

التفاوت الاجتماعى والطبقى

وتتجلى أبرز اختلالات البنية الاقتصادية فى ضعف وتخلخل الهيكل الاقتصادى وانعدام العدالة فى توزيع الثروات والدخول. أما اختلال البنية الاجتماعية فيتجسد فى التفاوت الاجتماعى والطبقى الواسع. وأما البنية السياسية فتعانى من احتكار السلطة بيد فئات اجتماعية تستند إلى مزيج من أسانيد تقليدية للشرعية كتملك الثروة العقارية والمالية أو السيطرة على أجهزة العنف أو الاعتماد على العصبية العائلية والقبلية أو (المناطقية)، أو توجيه الوعى الاجتماعى والثقافى عبر قنوات معينة.

وتعود هذه الاختلالات بدورها إلى أسباب أعمق منها، ترتد بعيدا فى التاريخ.

ثالثا: إن (مشروع الشرق الأوسط الكبير) يتذرع، شأنه شأن المبادرة السابقة لما سمى (بالشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط) - بالتقرير العربى للتنمية الإنسانية والصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى عامى ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣.

وهذه قصة أخرى يطول الحديث فيها. فقد أخذ يصدر هذا التقرير منذ عامين، وأسهم فى إعداد أوراقه الأولية عدد من أفضل الباحثين العرب. ولكن يؤخذ على هذا التقرير عيبان رئيسيان:

١ - أنه أرجع مظاهر التخلف العربى إلى العلل الداخلية وأهمل أو استبعد بشكل رئيسى العلل الخارجية. وطالما نبه بعض الكتاب إلى هذا العيب الجوهرى منذ اليوم الأول لصدور ذلك التقرير ومن بينهم جلال أمين ونوال السعداوى، ولكن القائمين على أمر هذا التقرير لم يقدروا هذا الجانب حق قدره، وإن اعترفوا ببعض الأخطاء المنهجية مثل الاعتماد المفرط على تقارير المؤسسة الأمريكية (بيت الحرية).

وقد أدى هذا العيب إلى خلل جوهرى تال فى بنية التقرير، وتوجهاته البحثية، وأدواته التحليلية - مما أتاح لصقور الإدارة الأمريكية الحالية والذين يسمون (المحافظين الجدد المجانين) الاعتماد على تعميماته الجارفة لإدانة مسيرة التطور

العربي بمجملها، وليس مجرد إدانة نماذج الممارسة القائمة.

٢ - إن التقرير العربي المذكور لما يسمى بالتنمية (الإنسانية..!) قد تراجع عن بعض الإنجاز الفكري لتقارير التنمية (البشرية) التي يصدرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لأعضاء الأمم المتحدة ككل منذ أكثر من عشر سنوات. فقد كانت هذه التقارير الأخيرة تقترب نسبياً من الحقيقة في العالم (الفقير) عن طريق التركيز على مشكلة (الفقر) بمظاهرها المختلفة، وبيان المظاهر المختلفة لهذه المشكلة ومن بينها سوء توزيع الأصول - أصول الثروة كالأراضي - والدعوة إلى شعار (مهاجمة الفقر) أو (تخفيف حدة الفقر) كهدف رئيسي للعمل الاجتماعي.

وصحيح أننا نرى أن تقارير التنمية البشرية نفسها لم تصب كبد الحقيقة، فلم تعط الاهتمام المناسب لقضية الاختلال الهيكلي وبالتالي ضرورة التحول الهيكلي وإعادة توزيع الثروة والدخل في البلدان الفقيرة، ولكن تلك التقارير كانت أقرب إلى الواقع من ذلك التقرير الجديد الذي أخذ يعطي نفسه سمتاً لامعاً بالإشارة البراقة إلى صفة (الإنسانية)، كما أخذ يقفز فوق الواقع قفزاً ويحرق المراحل، بالوصول مباشرة إلى محاولة تطبيق المقاييس الأمريكية للحرية ومجتمع المعرفة وتمكين النساء..!

وياليت المشروع الأمريكي عن (الشرق الأوسط الكبير) قد أخذ ذلك التقرير (الإنساني) كما هو، بل إنه أخذ منه ما يناسبه، وطرح جانباً أو قلل من أهمية ما لا يتفق مع توجهاته الفكرية والسياسية، وبطريقة انتقائية معيبة.

رابعاً: إن المشروع الأمريكي عن (الشرق الأوسط الكبير)، اتفاقاً منه مع معطيات تقرير (التنمية الإنسانية العربية..!) لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، حدد ثلاث أولويات هي: تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح، وبناء مجتمع معرفي، وتوسيع الفرص الاقتصادية.

وبداية، فليس من الواضح كيف تسهم أمريكا وأوروبا في تحقيق هذه الأولويات في الدول العربية..؟ هل بالضغط السياسي؟ أو بالأدوات العسكرية؟ أم بالإقناع؟ وقد فتشنا في النص عن شيء من ذلك فلم نجد سوى أداة رئيسية - هي تقديم التمويل اللازم لتشجيع العمل بسياسات معينة في مجال الأولويات الثلاث المذكورة، وأن يتم ذلك بصورة مباشرة من خلال الدعم المالي المقدم للجمعيات الأهلية والمنظمات أو المؤسسات غير الحكومية أو لبعض أجهزة الدولة إن لزم الأمر.. وفي التحليل النهائي، فإن ربط المعونة بالأولويات الأمريكية هي الأداة المقترحة لتحقيق ما يسمونه بالإصلاحات. وهكذا تعطى سياسة المعونة الانتقائية والمشروطة، الأولوية كأداة للسياسة الخارجية الأمريكية، مع السعي إلى جعل الدول الغربية عامة فاعلاً مشاركاً مباشراً في الشئون الداخلية للدول العربية، عن طريق (شراكة) مفروضة مع حكوماتها أو عليها.. أي أن يصبح العامل الخارجي، فاعلاً داخلياً، عن طريق الاختراق الخشن أو التغلغل الناعم سيان..!

وهكذا يمكن أن نجد - فى حال تطبيق المشروع الأمريكى - مزيدا من التداخل بين الأطراف الخارجية - الأمريكية والأوروبية - وجمعيات حقوق الإنسان ودعم أو تنمية الديمقراطية والجمعيات النسائية وهيئات إقراض الشباب والمنظمات النقابية والمهنية فى البلاد العربية .

هذا كله من حيث الشكل أو الأسلوب.

أما من حيث المضمون والاتجاه فإن الإصلاحات ذات الأولوية فى المشروع الأمريكى لا تركز على القضايا الجوهرية التى تتبناها بعض القوى الوطنية العربية مثل: الإصلاح الدستورى والقضاء على جذور الفساد وتأسيس ثقافة وطنية حقيقية ومواجهة الخلل فى توزيع الثروات والدخول والتنمية الجذرية للقطاعات الصناعية والعلمية والتكنولوجية للاقتصاد الوطنى - لا ليس هذا كله مما يرد فى نصوص المشروع الأمريكى، وإنما نجد توصيات مكررة، تم مسخها من خلال الممارسات المعيبة للتمويل الأجنبى والمعونة الخارجية فى الفترات الماضية، فاستنفدت الغرض منها .

بعض هذه التوصيات المكررة الممسوخة يركز على جوانب عامة، مثل الدعوة إلى دعم قدرات القطاع الخاص (دون إشارة إلى الدور الحاسم للدولة ووظيفتها العامة أو الاجتماعية)، وإلى رفع الحواجز على التعاملات المالية بين الدول (ونرى أن عدم وجود الضوابط على حركة رأس المال الأجنبى كان من بين عوامل الأزمة الآسيوية لعام ١٩٩٧) ودعم إطلاق حرية الخدمات المالية (ونرى أن فى اتفاقات الجات مايكفى وزيادة) وتشجيع إقامة المناطق الحرة..! وتشجيع الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية مع اهتمام خاص باتفاقية الملكية الفكرية واتفاقية المشتريات الحكومية (ومن المعروف أن هاتين الاتفاقيتين تعملان فى خدمة الشركات الأمريكية عابرة الجنسيات فى المقام الأول وخاصة شركات الأدوية ومؤسسات الاستشارة الهندسية ومقاولات الإعمار).

والبعض الآخر من التوصيات يركز على جوانب جزئية وكثير منها مطبق بالفعل وليس فيه من جديد أو من مفيد فى كثير من الأحيان، مثل: رعاية أمريكا وأوروبا لبرامج تبادل زيارات أعضاء البرلمانات، وتعزيز لجان مراقبة الانتخابات، وتدريب النساء على المهارات الانتخابية، والمساعدة القانونية والقضائية، وبرامج تبادل زيارات الصحفيين وتدريبهم وتشجيع جمعيات حقوق الإنسان وزيادة التمويل (الأجنبى) المباشر للمنظمات غير الحكومية من قبل مؤسسات مثل (مؤسسة الدعم الوطنى) .

خامساً : من المعروف أنه بانهيار الاتحاد السوفييتى أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى (الكاسب الأكبر)، وكان هناك كاسبون بدرجات متفاوتة فى شرق آسيا وربما فى غيرها، ولكن (الخاسر الأعظم) كان هو العالم الإسلامى والوطن العربى والإقليم العربى - الإفريقى. وتعود جردة المكاسب والخسائر إلى جملة أسباب تاريخية

معقدة، على الصعيدين الداخلي والخارجي.

هذا كله معروف. ولكن التسليم بهذه الحقيقة شيء، واتخاذها مطية للتوصل إلى استنتاجات تحطم ثقة الأمة في نفسها شيء آخر .

المرتبة الأولى عالميا

لهذا لم نفهم كيف ولماذا استنتج (التقرير العربي للتنمية الإنسانية) أن سجل الوطن العربي هو الأسوأ على المستوى العالمي (ويضيفون أحياناً : باستثناء إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى) - وذلك فيما يتعلق باستخدام الإنترنت مثلا أو مشاركة النساء في المقاعد البرلمانية. وكما يقتبس المشروع الأمريكي من ذلك التقرير فإنه (من بين سبع مناطق في العالم حصلت البلدان العربية على أدنى درجة في الحرية في أواخر التسعينات وأن قواعد البيانات التي تقيس «التعبير عن الرأي والمساءلة» أدرجت المنطقة العربية في المرتبة الأدنى في العالم - وأن العالم العربي لا يتقدم إلا على إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى على صعيد تمكين النساء)...!!

وفي سبيل ردنا على مثل هذه الأطروحات نستغرب بداية كيف وقع محررو تقرير (التنمية الإنسانية العربية) في أحابيل بعض المؤسسات البحثية الأمريكية، رغم أن عددا من أولئك المحررين إحصائيون محترفون يعرفون على وجه الدقة، كيف يمكن التلاعب في البيانات الأولية عن طريق التصميم المتحيز للمعايير والمؤشرات ، وعبر «الشراك الخداعية» للمقاييس الإحصائية والتحليل الإحصائي عموما..

ورغم معارضتنا لمجمل السياسات العربية الرسمية، فهل من الحقيقة العلمية المجردة أن الدول العربية هي الأسوأ على الصعيد العالمي في مجال (التعبير عن الرأي والمساءلة) مثلاً؟ وعلى مقياس الحرية أيضاً..؟ وأية حرية بالضبط..؟ وهل تشمل أعمال التحرر من محاولات الهيمنة الأجنبية؟ ثم .. أي استخدام للإنترنت؟ وهل كل استخدام له، وأية مشاركة برلمانية للنساء تمثل تقدماً على مقياس المعرفة أو التمكين؟.

وما معنى أن مجموع الناتج المحلي الإجمالي المجمع للدول العربية أقل من إسبانيا - تلك العبارة التي ذكرها الرئيس الأمريكي ثم كررها المشروع الأمريكي الحالي..؟.. علماً بأن الوطن العربي ينتج من باطن ثرواته الطبيعية وزراعته وصناعاته، بينما تعتمد إسبانيا في شطر كبير نسبياً من ناتجها على السياحة. وعلماً بأن إسبانيا قد تلقت دعماً سخياً من الاتحاد الأوروبي لتأهيلها للانضمام إلى عضويته منذ سنوات، بينما الدول العربية عانت من الاستعمار الأجنبي (بما فيه الإسباني) عقوداً متطاولة..؟.

ومع العلم - في الختام - بأن جماهير الوطن العربي وأجياله الشابة تسعى إلى تنمية جذرية وشاملة ، وبدايتها التحرر الحقيقي من كل صور الهيمنة الأجنبية . ■

دائرة حوار

حسن حنفى

والفكر الفلسفى الغربى

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

(١)

يتحرك إنتاج الدكتور حسن حنفى الفكرى الغزير، بل الذى ربما كان أغزر مما ينبغى، على عدة محاور سأختصرها هنا على تناول محور واحد منها هو ترجماته لنماذج من الفكر الفلسفى الغربى، مع التركيز على نموذج واحد من هذه الترجمات.

لكن الحديث عن ترجماته لا يكتمل بدون إشارة، مهما تكن سريعة، إلى المحاور الأخرى التى ترتبط بها الترجمات من قريب أو بعيد، والتى تصنع منظومة متكاملة، وإن لم تخل من تناقضات داخلية. وربما كان أقوى نقاد هذه التناقضات هو الدكتور فؤاد زكريا الذى يتساءل: «كيف يمكن لمؤرخ يريد تحديد الموقف العام لحسن حنفى من هذه المسألة ويظل محتفظا بقواه العقلية سليمة بعد أن يتراقص مع كاتبنا فى حلقة المتناقضات الجنونية التى تدور فيها معالجة الموضوع؟» (زكريا الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة).



حسن حنفي

وعلى حين اتفق تماما مع الدكتور زكريا في نقده للدكتور حنفي أرى (رغم ما قد يبدو في قوله هذا من غرابة) أن مرد هذه التناقضات كون حنفي «فنان» بقدر ما هو مفكر. والفنان لا يلتزم دائما بالاتساق المنطقي وإنما قد تحفل كتابته، كما يلاحظ التفكيكيون، بالتناقضات وازدواج الدلالة والقول بالشيء ونقيضه في آن واحد. وتحضرني هنا مقالة نافذة للدكتور صلاح قنصوة عن كتاب حنفي «علم الاستغراب» توحي بهذا البعد الفني في كتابة مفكرنا، يلاحظ قنصوة أن الكتاب ذو بناء درامي يعتمد على الصراع بين البطل (الأنا) والخصم (الآخر) ويستخدم لقطات استرجاعية (فلاش باك) مع خيال مغرق واصطناع لتقنيات السرد عن طريق راو، وقرب الختام تتحقق فيه العدالة الشعرية حين يثب العرب - بدل الغرب - إلى مكان الصدارة! (انظر مقال قنصوة في كتاب «جدل الأنا والآخر»: إعداد وتقديم د. أحمد عبدالحليم عطية).

المحاور الرئيسية لحسن حنفي

أعود، بعد هذا الاستطراد، إلى المحاور الرئيسية لعمل حنفي وهي ستة: إلى مشروعه الفكري الكبير - التراث والتجديد - الذي يتحرك على ثلاث جبهات: الموقف من التراث القديم أو نقد تراث الماضي، الموقف من التراث الغربي، الموقف من الواقع المباشر (تحليل الواقع الموضوعي) أو نظرية التأويل، وموقفه في هذا المشروع يعبر عنه قوله في مقدمة كتاب «من العقيدة إلى الثورة»: «أنا فقيه من فقهاء المسلمين، أجدد لهم دينهم وأرعى مصالح الناس»، فهو يقف على الطرف المقابل لمن يسميهم «فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس» ممن انشغلوا بالقشور عن اللباب، ويدعو إلى إسلام ثوري هو عنده «الخطاب الثالث الغائب في عصر الاستقطاب الفكري» (انظر مجلته «اليسار الإسلامي» التي لم يصدر منها إلا عدد واحد يتيم في يناير ١٩٨١ وقد أصبحت الآن أشبه بما يسمى في الإنجليزية: عجائب الأدب curiosities of literatuer التي يتسابق على اقتنائها جامعو الكتب القديمة والنادرة a Collector's iten، وكأنما يرمي حنفي إلى شيء قريب من لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية عند كاميلو توريز وأقرانه، مؤسسا للاهوت مواز في الإسلام، بل ساعيا إلى تحويل اللاهوت إلى

أنثروبولوجيا، وتوجيه النظر من السماء إلى الأرض بعد أن استقرت لدينا عقائد الألوهية والتوحيد والنبوة والثواب والعقاب وخلود النفس.

مشروع التراث والتجديد

ومشروع التراث والتجديد يتجلى، من زوايا مختلفة، في كتب حنفي الأساسية قضايا معاصرة، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، دراسات إسلامية، من العقيدة إلى الثورة (في خمسة مجلدات)، دراسات فلسفية، حوار المشرق والمغرب (بالاشتراك مع د. محمد عابد الجابري)، هموم الفكر والوطن، جمال الدين الأفغاني، الدين والثورة في مصر (في ثمانية أجزاء)، ويتواصل في مقاله من أحدث ما نشر: مقالة «الروح والجسد في القرآن الكريم» في مجلة «المحيط الثقافي» (نوفمبر ٢٠٠٢).

٢ - أعماله في التحقيق والتقديم والتعليق، وهذه تشمل: «المعتمد في أصول الفقه» لأبي الحسين البصري، «الحكومة الإسلامية» للإمام الخميني، «جهاد النفس أو الجهاد الأكبر» لنفس الإمام.

٣ - سعيه إلى تأسيس «علم الاستغراب» وذلك في سفره الضخم الموسوم بـ «مقدمة في علم الاستغراب» (أكثر من ثمانمائة صفحة) انطلاقا من إيمان صاحبه بأننا نميل إلى «إعطاء الآخر (الغربي) أكثر مما يستحق وإعطاء الأنا أقل مما تستحق» وسعيا إلى جعل الآخر موضوعا للمعرفة وليس مصدرا وحيدا لها، والهدف من هذا العلم الجديد - أو الذي يعده حنفي جديدا - هو «القضاء على ظاهرة التغريب في ثقافتنا المعاصرة» (حنفي، حوار الأجيال، دار قباء ١٩٩٨، ص ٣٦٩).

٤ - مساجلاته الفكرية مع أسلافه الأقربين ومعاصريه، وهو ما يتمثل في كتابه «حوار الأجيال» وكتابات أخرى. لقد كتب حنفي عن الطهطاوي وعلال الفاسي وميشيل عفلق والصادق النيهوم وإبراهيم فوزي وأحمد أمين وطه حسين ومحمود قاسم وعثمان أمين وتوفيق الطويل ومحمد أبوريدة وجمال حمدان وزكي نجيب محمود وعبدالرحمن بدوي وشكري عياد ونصر أبوزيد وقاسم أحمد وغيرهم، وكتاباته هذه نموذج رفيع للحوار الفكري الموضوعي الذي طالما شكا أمثال زكي نجيب محمود وفؤاد زكريا من افتقار حياتنا الثقافية إليه، ومنطلق حنفي في هذه المراجعات لأفكار السابقين والمعاصرين يجمله قوله في مقالة عن نصر حامد أبوزيد:

«لا تعني المراجعة كيل المدح أو الذم للكتاب وصاحبه. فقد جاوز الفكر العربي والبحث العلمي في أوطاننا هذا الذي برع فيه القدماء والمحدثون، المديح والهجاء، شعرا ونثرا، علانية وسرا. فالمؤلف عالم ومواطن جاد والمراجع كذلك، والقضية مشتركة، والهم لدى الجميع، والصواب صواب الاثنين، والخطأ خطأ الاثنين. كما لا تعني المراجعة بيان الصواب والخطأ،


زكي نجيب محمود


فؤاد زكريا

الصواب لتأييده والثناء عليه، والخطأ لنقده والتحذير منه، فتلك مراجعة المتفرجين وليس اللاعبين، والعاجزين وليس القادرين. إنما تعنى المراجعة المشاركة فى إنتاج النص بما هو عمل جماعى، وبمسئولية جماعية. القضية قضية الجميع، والمسئولية مسئولية الجميع» (حنفى، حوار الأجيال، ص ٤١٠).

وأعلى تجليات هذا النوع من المراجعة ربما كان متمثلا فى مقالة حنفى العظيمة عن عبدالرحمن بدوى. هنا يحرك الناقد حججه ضد الفيلسوف المتأله (ولسنا ننكر عظمته) حجة وراء أخرى مثلما يدفع قائد عسكرى بارع فى ميدان القتال بفرقة وراء أخرى، كل فرقة منها تتمم عمل سابقتها وتكسب أرضا جديدة، إن نغمة هذه المقالة من الوجهة الأدبية الخالصة، وبصرف النظر عن مضمونها الفلسفى، تجعل منها آية أدبية من آيات الجدل الفكرى واصطراع الأفكار وتلاحم الأنظار.

٥ - كتاباته فى النقد الأدبى التطبيقى، على قلتها، ومن أمثلتها ورقته غير المنشورة عن الفلسفة والرواية فى أدب نجيب محفوظ، وورقة أخرى عن البعد الفلسفى فى روايات محفوظ، ومقالته الضافية «الرسم باللغة والكتابة بالجسد» (مجلة القاهرة ، يونيه ١٩٩٣) عن رواية راوية راشد «هوس البحر». ولا تستحق الرواية هذا البحث العميق ولا التحليل النافذ فهى عندى - كأغلب كتابات الروائيات النساء - ليست بشىء، أو ليست بشىء كبير (من القلائل الذين وجهوا النظر إلى نقد حنفى الأدبى فاضل الأسود فى مقالته «حسن حنفى: وقائع للإبداع خارج الفلسفة» فى كتاب «جدل الأنا والآخر»).

٦ - كتاباته بالفرنسية وعلى رأسها أطروحاته الجامعية عن «مناهج التفسير: دراسة فى علم أصول الفقه» و«تفسير الظاهريات: الحالة الراهنة للمنهج الظاهراتى وتطبيقه على الظاهرة الدينية» و«ظاهريات التفسير: محاولة وجودية هرمنيوطيقية ابتداء من العهد الجديد» (تحت الطبع)، وكتاباته بالإنجليزية: «الحوار الدينى والثورة: مقالات عن اليهودية والمسيحية والإسلام»، «الإسلام فى العصر الحديث» (فى جزءين)، وهذه الكتابات بحاجة إلى دراسة مستقلة ، وليت أحد تلاميذ حنفى أو أصدقائه - ممن يجيدون الفرنسية والإنجليزية - يعكف على نقل هذه الأعمال إلى اللغة العربية على نحو ما نقل د. إمام عبدالفتاح إمام أطروحة أستاذه زكى نجيب محمود «الجبر الذاتى» من

الإنجليزية إلى العربية.

لحسن حنفي كتب ومقالات غزيرة عن الفكر الفلسفي الغربي من أهمها:
- قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر (الطبعة الأولى ١٩٧٧/ الطبعة الثانية ١٩٨٢/ الطبعة الثالثة ١٩٨٨).
- دراسات فلسفية (١٩٨٨) وبه مقالة ممتازة عن «ثورة الجماهير عند أورتيجا إي جاسيه».
- أونامونو والمسيحية المعاصرة (مجلة الفكر المعاصر، يناير ١٩٦٩).
- الدين في حدود العقل وحده لكانط (مجلة تراث الإنسانية، العدد ٢، المجلد السابع، سبتمبر ١٩٦٩).
- بين ياسبرز ونتشه (مجلة الفكر المعاصر، أكتوبر ١٩٦٩).
- القاموس الفلسفي لفولتير (مجلة تراث الإنسانية، العدد ١، المجلد الثامن، مارس ١٩٧٠).
- هيجل والفكر المعاصر (مجلة الفكر المعاصر، سبتمبر ١٩٧٠).
- محاضرات في فلسفة الدين لهيجل (مجلة تراث الإنسانية، العدد ٤، المجلد الثامن، د. ت.).
- جيل دولوز: مفكر ما بعد الحداثة (مجلة أوراق فلسفية، يناير - يونيه ٢٠٠١).
- الظاهريات أم ما بعد الحداثة: نهاية البداية أم بداية النهاية؟ (مجلة أوراق فلسفية، ديسمبر ٢٠٠١)
- مواد : اسبير Spir ، أوديموس، أوريجين، أوستفالد، أونامونو أو يكن، أبريتيه، برنار الشارترى، برنار الكليرفوى، بومبوناتزي، بونافنتير، بيل في : معجم أعلام الفكر الإنساني، المجلد الأول (وهو سفر نفيس من أسف أن لم يصدر منه جزء ثان) تصدير د. إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.

ونقل أربعة كتب إلى اللغة العربية هي:
- نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط («المعلم» لأوغسطين، «الإيمان باحثا عن العقل» لأنسليم، «الوجود والماهية» لتوما الأكويني) (الطبعة الأولى ١٩٦٨/ الطبعة الثانية ١٩٧٨/ الطبعة الثالثة ١٩٨١).
- رسالة في اللاهوت والسياسة لاسبينوزا (الطبعة الأولى ١٩٧٣/ الطبعة الثانية ١٩٧٣/ الطبعة الثالثة ١٩٨١).
- تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى للسنج (الطبعة الأولى ١٩٧٧/ الطبعة الثانية ١٩٨١).
- تعالى الأنا موجود لجان بول سارتر (الطبعة الأولى ١٩٧٧/ الطبعة الثانية ١٩٨٢).

الترجمة وشخصية المترجم

وعند حنفي، كما يقول في مقدمة ترجمته لاسبينوزا:
«إن اختيار نصوص بعينها للترجمة في حد ذاته تأليف غير مباشر، ويكون المترجم في هذه الحالة مؤلفا بطريق غير مباشر، قد يكون الدافع لاتباع هذا المنهج - التأليف من خلال الترجمة - هو حساسية الموضوع بالنسبة لبعض

الطوائف التي ترى فيه تعديا صارخا على حقوقها أو جرأة على عقلية مجتمع ما لم يبلغ من التطور والتنوير ما يستطيع به تقبل الموضوع الجديد بسهولة ويسر، أو تعبيرا للمترجم عن نفسه من خلال الآخرين حتى تتحول القضية من الذاتية إلى الموضوعية. مهما يكن من شيء فالترجمة المختارة اختيارا دقيقا لما يناسب العصر واحتياجاته هي في صميمها تأليف يرتكز على التاريخ الحضاري، والترجمة الهادفة تخدم نفس الغرض الذي يسعى إليه التأليف الواعي للداعية» (رسالة في اللاهوت والسياسة، تأليف سبينوزا، ترجمة وتقديم د. حسن حنفي، مراجعة د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١، ص ٥).

ويقول في فصله عن عبدالرحمن بدوي: «اختيار الأعمال المترجمة في ذاتها دليل على شخصية المترجم وتوحده مع أبطال الأعمال الأدبية» (حنفي، حوار الأجيال، ص ٣٢٠).

وبتطبيق هذا المفهوم على ترجمات بدوي نجد أنها تومىء إلى مناطق أربع من اهتماماته:

اللاهوت المقارن - فكر التنوير الأدبي - النقد التاريخي للكتب المقدسة (النقد الأعلى أو النقد السامي higer criticisn بترجمة محمد عناني - ومن خير المداخل إليه مقالة حنفي «مدرسة تاريخ الأشكال الأدبية» بمجلة «ألف» (العدد الثاني، ربيع ١٩٨٢) - الفينومينولوجيا الوجودية.

ومنهج حنفي في الترجمة ، كما يقول في تصديره لكتاب «نماذج من الفلسفة المسيحية»، يمثله قوله شئت أن أجمع بين الترجمة الحرفية والترجمة المعنوية على السواء، ولكن يبدو أني كنت أقرب إلى الحرف مني إلى المعنى حرصا على النص الأصلي وعلى الإبقاء على مصطلحات العصر الوسيط وتعبيراته وهي أهم ما يميز طابعه الفلسفي» (نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة وتقديم وتعليق حسن حنفي، الطبعة الثانية ١٩٧٨، مكتبة الأنجلو المصرية، الصفحة الأولى من التصدر.

ومع التزامه الدقة البالغة يعمد أحياناً إلى إضافة بعض كلمات بين قوسين على سبيل الإيضاح، وقد يستخدم الأداة «بل» وهي لا توجد في اللغة اللاتينية ولكنه يستعملها تمشياً مع الأسلوب العربي، ويورد معجماً للمصطلحات والتعبيرات الفلسفية باللاتينية والفرنسية والعربية (تحدث بعض ترجماته - عن غير قصد منه - تأثيرا هزليا كأن يترجم كلمة Uidditas - الماهية - إلى «الهوهو» وهي أشبه بنبحة الكلب!).

وفي مقتطفاته من العهدين القديم والجديد يعمد إلى تنقيح الترجمة العربية الشائعة (وهي ركيكة لكن ركاكتها لاتخلو من فتنة) كما ينقح - يحالفه التوفيق - بعض التعبيرات ليجعلها أقرب إلى بلاغة العربية. «قال الجاهل في قلبه ليس إله» تتحول عنده إلى «حدثته نفسه أن ..».

وفي ترجمته لعنوان سارتر Tran-

scendantei de l'ego (تعالي الأنا) يضيف كلمة «الموجود» ليصبح العنوان «تعالي الأنا موجود» وهي إضافة موفقة ربما كانت - كما يلاحظ الدكتور حسين عبد القادر - «أغلب الظن إدراكا منه كامنا لقصديه سارتر انتقالا من الأنا أفكر عند ديكارت إلى معناها الثرى عند هوسيرل والفينومينولوجيا» (انظر د. حسين عبدالقادر، «الإنسان» والقضية: مقابلات لما تكتمل، في كتاب «جدل الأنا والآخر» ص ٣٢٤. وفي الأصل بعض أخطاء مطبعية صوبتها هنا).

وأكتفي من ترجمات حسن حنفي، على سبيل التمثيل، بالإشارة إلى ترجمته لمحاورة القديس أوغسطين «المعلم» فلننتقل إليها.

ليس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) بحاجة إلى تعريف فمؤلف «الاعترافات» و«مدينة الله» وغيرها من الأعمال البذرية Seminal واحد من مؤسسي الفكر الديني المسيحي وواحد من آباء الوجودية المؤمنة ورائد لفن الترجمة الذاتية الروحية والفكرية. ونقلته - بعد عمر من الخطيئة الحسية - إلى المسيحية وقصة اهتدائه في سن الثانية والثلاثين من التجارب الروحية الشهيرة (وكذلك مقولته - وهو يناضل ضد رغبات البدن من أجل التطهير - «ارزقني العفة .. ولكن ليس بعد!»).

اجتمع في أوغسطين - كما يلاحظ أحد نقاده - الموروث العقلي للعالم القديم في أحسن صوره والشعور الديني المميز للعصور الوسطى. ونستطيع أن نرى في صفحاته النقلة من العالم القديم إلى عالم جديد. فذهنه التحليلي يتابع رحلته عبر جزر غريبة متناثرة صوفية المانويين، شكية الفلاسفة الأكاديميين، قدرية المنجمين، إلى أن يجد له مستقراً في الكنيسة (انظر: أوغسطين في «منتخبات نورتون من الروائع العالمية» تحرير مينارد ماك، الناشر : نورتون، نيويورك ١٩٨٥، الطبعة الخامسة ص ٩٩٤ - ٩٩٥).

اختار حسن حنفي أن يترجم لأوغسطين محاورة «المعلم» . ويعرف المترجم بظروف إنشائها فيقول :

«المعلم من مجموعة المحاورات الفلسفية التي كتبها أوغسطين في أول عهده بالتفكير الفلسفي سنة ٣٨٩ بعد أن قبل طقس العماد أخيراً على يد القديس أمبرواز في ميلانو سنة ٣٨٧ ونزح إلى مسقط رأسه في أفريقيا عاكفا على نفسه ومؤسسا بذلك أول دير افريقي.

ومحاور أوغسطين هو أديودات Adeodat «ابن خطيئة» كما يسميه، وهو من أوائل من انتسبوا إلى ديره. كان عمره وقتئذ ستة عشر عاماً. ويؤكد أوغسطين في اعترافاته أن ابنه قد قال بالفعل كل ماورد على لسانه في المحاورة إذ أن ذكاءه يفوق ذكاء الكبار خاصة وأن المحاورة كلها كانت جزءاً من تثقيفه الأدبي الذي تعهده به أبوه» (نماذج من الفلسفة المسيحية، ص ١٠ -١١).


عبد الغفار مكاوي


عبد الرحمن بدوي

ويصطنع النص شكل المحاورة الأفلاطوني وهو الشكل الذى تابعه - فيما بعد - لوسيان (محاورات الموتى) وباركلي وهيوم وآخرون. وتنتشر في تضاعيفه إشارات (من تراث أوغسطين الوثنى) إلى خطبة لشيشرو» وأبيات من «إنيادة» فرجيل وهجائيات پرسيوس ومسرحية ترنس Andrea (لايترجم حنفى العنوان بأكثر من أندريا والمقصود «فتاة جزيرة أندروس» أو «الأندرية»).

وفى مقدمته لترجمة المحاورة يربط حنفى فكر القديس أوغسطين بمفكرين آخرين مثل الغزالي وكركجور وبرجسون وهوسرل وبولتمان وذلك على نحو مقنع لاتعسف فيه ولا تعمل.

والمحاورة من قسمين . أولهما عن قيمة الكلمات والثاني عن عجز اللغة عن التعليم . ويشكل هذان القسمان جزءا أول مداره «مناقشة حول مداول اللغة». أما الجزء الثاني فيحمل عنوان «المسيح هو المعلم الوحيد للحقيقة».

وتطرح المحاورة عديداً من الأسئلة المعرفية واللاهوتية واللغوية والأخلاقية : كيف تدل العلامة على علامة أخرى وتتميز عنها؟ هل هناك علامات تدل على بعضها البعض وكيف تتم التفرقة بينها؟ هل توجد مترادفات؟ (من أهم المفكرين الأدباء الذين وجهوا النظر إلى مشكلة الترادف اللفظي أبو حيان التوحيدى في الشرق، وكولردج في الغرب) إلى أى شيء تنتبه النفس، إلى الكلمة بوصفها علامة أم إلى الشيء المعنى؟ أيهما أفضل الشيء المعنى أم العلامة؟

ومن القضايا التى تطرحها المحاورة: الغاية من اللغة تعليما وتذكيراً، نفع الشك فى ضرورة العلامات للتعليم ، إمكانية تعليم بعض الأشياء دون علامة، العجز التام لكل من العلامات واللغة عن التعليم، الكلام يعطى اعتقاداً لا علما بالأشياء، المسيح - وهو الحقيقة - هو المعلم الداخلي، دور التساؤلات، عجز اللغة عن إيصال الحقيقة. المسيح يعلم من الداخل ولا يعطى الكلام إلا منبها خارجياً؛ وكلها قضايا تقع من اهتمامات الفكر الغربي الحديث - فى مباحث المعرفة واللغة بخاصة - فى الصميم.

وتنتهى المحاورة إلى نتيجة يلخصها قول أديودات لمحاوره:

«إننا لا نحصل من الكلمات إلا على التنبيه على التعلم، ولا تكشف لنا اللغة عن فكر المتحدث إلا فى النزر اليسير، وإن أردنا الحقيقة فإن هذا المعلم هو الذى يعلمنا عن طريق كلمات خارجية أنه موجود فى داخلنا» (نماذج من الفلسفة المسيحية ، ص ٩٩).

ترجم حسن حنفى المحاورة عن

ترجمة فرنسية للأصل اللاتيني. وصعوبة النص لاتحتاج إلى فضل بيان.وقد ألمح المترجم إلى نماذج منها في مقدماته : «إن كلمة جماد»، مثلا، في اللاتينية تختلف من حيث الجنس Gender عن مقابلها في العربية؛ وعدد المقاطع في الكلمات اللاتينية يختلف عن عددها في الكلمات العربية المناظرة؛ وثمة جناس لفظي في كلمات لاتينية لا يوجد مايقابلها في الكلمات العربية، إلخ..

واجه حنفي هذه الصعوبات كلها بأمانة وشجاعة، وقدم لنا نصا عربيا أقرب إلى السلاسة رغم صعوبة الفكر، واختلاف الإطار المرجعي، واختلافات النصين صوتاً ودلالة وتركيباً. ولو عرضنا ترجمة حنفي لنص أوغسطين على ترجمته لنصوص أنسليم والاكويني لوجدنا أن من أكبر منجزاته حفاظه على النغمة Tone الفكرية والنفسية والأسلوبية لكل من هؤلاء المفكرين الثلاثة : إنه ينجح في أن ينقل إلى القارىء العربي مذاق الفكر الأوغسطيني الذي يلتحم فيه الانفعال العارم وقوة العقل، ومذاق فكر أنسليم بابتهالاته الدينية الحارة وقلبه الحجج العقلية إلى رؤى صوفية، ومذاق الفكر الأكويني الذي يقوم بتعميد أو تنصير، حجج أرسطو وتحقيق الالتحام بين مقولات الفكر الأرسطي (وقد مرت بمرشح ابن سينا وابن رشد) ودقائق اللاهوت الروماني - الكاثوليكي. إن أوغسطين، في هذه الترجمة، لايشتبه بأنسليم أو الأكويني، وإنما يظل كل منهم - وإن جمعتهم أرض اعتقادية مشتركة - محتفظاً بطابعه الخاص ومذاقه المتفرد.

في ترجمة حنفي لمحاورة أوغسطين، وغيرها هفوات يسيرة كأن يقول في ترجمته لسطور من قاموس فولتير الفلسفي : «هم قوم مسخهم سيرسيه إلى خنازير» (حنفي، القاموس الفلسفي لفولتير، مجلة تراث الإنسانية، مارس ١٩٧٠ و ص ٨٩). وسيرسيه أنثى لا ذكر، فهي (بحسب مايقوله هوميروس في «الأوديسة») ابنة هليوس (الشمس) وبرس، وكانت ذات قدرات سحرية مسخت بها رجال أوديسيوس إلى خنازير. وفي مواضع أخرى يرسم حنفي اسمي مدينة Tgre و Smyrna حرفياً : «تاير» وسميرنا» غير مدرك - فيما يبدو - انهما بالعربية «صور» و«أزمير» على التوالي.

لكن هذه المآخذ الضئيلة ليست بشيء بجانب إنجاز حنفي الكبير مترجماً، فهو من تلك الطبقة الممتازة من أساتذة الفسفة التي نقلت آثارا فكرية جليلة إلى لغة الضاد : زكي نجيب محمود وعبد الرحمن بدوي ومحمد فتحي الشنيطي وفؤاد زكريا وأحمد فؤاد الأهواني وعبد الغفار مكاوي وفؤاد كامل وسائر إخوان ذلك الطراز. ويظل حنفي (رغم كل ما يمكن أن يؤخذ على فكره) نموذجا رائعاً لالتقاء الفكر الفلسفي الغربي والتراث العربي الإسلامي في عقل تركيبي خلاق.

قلت : رغم كل ما يمكن أن يؤخذ على فكره، إذ لا مفر (على مودتي الشخصية له) من أن أختم هذه المقالة بنغمة سلبية. إن المآخذ على فكره من جانب أقرانه المفكرين كثيرة، وإن اقترنت في الغالب

بتقديرهم لعلمه وأصالته ونشاطه . فالأستاذ محمود أمين العالم (فى كتابيه : «الوعى والوعى الزائف فى الفكر العربى المعاصر» و«مواقف نقدية من التراث») والدكتور جابر عصفور (فى سلسلة مقالات بجريدة «الحياة» من ٢٧/٢/١٩٩٤ أعيد نشرها فى مجلة «الثقافة الجديدة») يتساءلون فى صدد كتابه «علم الاستغراب»: أهو استغراب أم تغريب معكوس؟ وعندهما أن الكتاب ضرب من آليات الدفاع يسعى به الشرق المظلوم إلى الثأر من الغرب الظالم.

والدكتور نصر حامد أبو زيد (فى كتابه : نقد الخطاب الدينى) يأخذ على كتابات حنفى غلبة الأيديولوچى على الإبستمولوجى. والدكتورة يمنى الخولى تأخذ عليه تضخيمه من شأن الفينومينولوچيا ومطابقته بينها وبين القومية التحررية وتتساءل : «هل الفينومينولوجيون الغربيون – ومنهم ألفردشوتس صاحب الفضل فى الدعوة إلى تأسيس علم اجتماع فينومينولوجى .. أقرب إلينا وأحرص علينا دوننا عن سائر فلاسفة المناهج الأخرى فى الغرب؟! هل ينتسب إيدموند هوسرل إلى عدنان؟ أم تراه قد صاهر قحطان؟» (الخولى، «المنهج فى مشروع «التراث والتجديد»، مجلة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلة ٥٦، العدد٢، إبريل ١٩٩٦، ص ١٥٢).

من العدل أن يسجل المرء سعة صدر حسن حنفى إزاء ماوجه إليه من نقدات، وهو ما ذكره الدكتور چورج طرابيشى – أحد نقاد حنفى – فى مقابلة معه بمجلة «المحيط الثقافى» (ديسمبر ٢٠٠٢) على النقيض من ضيق صدر د. عابد الجابرى بنقد طرابيشى . لكن كاتب هذه السطور لايستطيع أن يقبل الخلط الشنيع فى بعض أقضية حنفى ، وجمعه مالا يجتمع، كأن يكتب : «إن الماركسية دين إسلامى كما أن الإسلام أيديولوچية ماركسية» مشوها بذلك كلاً من الإسلام والماركسية فى سبيل مفارقة لافتة. ولا أقبل إهانة حنفى لياسبرز العظيم (وهو ، على مركزيته الأوربية المسرفة ، من أكثر المفكرين نزاهة خلقية ووضوح قصد) حين يكتب: «إن الفرق بين موقف نتشه وياسبرز من المسيحية هو الفرق بين الصراحة والنفاق» (حنفى، بين ياسبرز ونتشه، مجلة أوراق فلسفية، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٤٧).

وأرصد ، محزونا، ابتعاد حنفى المتزايد عن المنظور الهيوماني العلمانى واقترابه من منظور سلفى أصولى وهو نفس المنحنى المحزن الذى أجده – بدرجات متفاوتة – فى التطور الفكرى لطه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وزكى نجيب محمود وعبد الرحمن بدوى واسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وخالد محمد خالد ومصطفى محمود وغيرهم.

إن تراجع هؤلاء المفكرين عن منطلقاتهم الثورية الباكرة أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث وفاتحة النزعات الانفلاتية الراهنة. ■

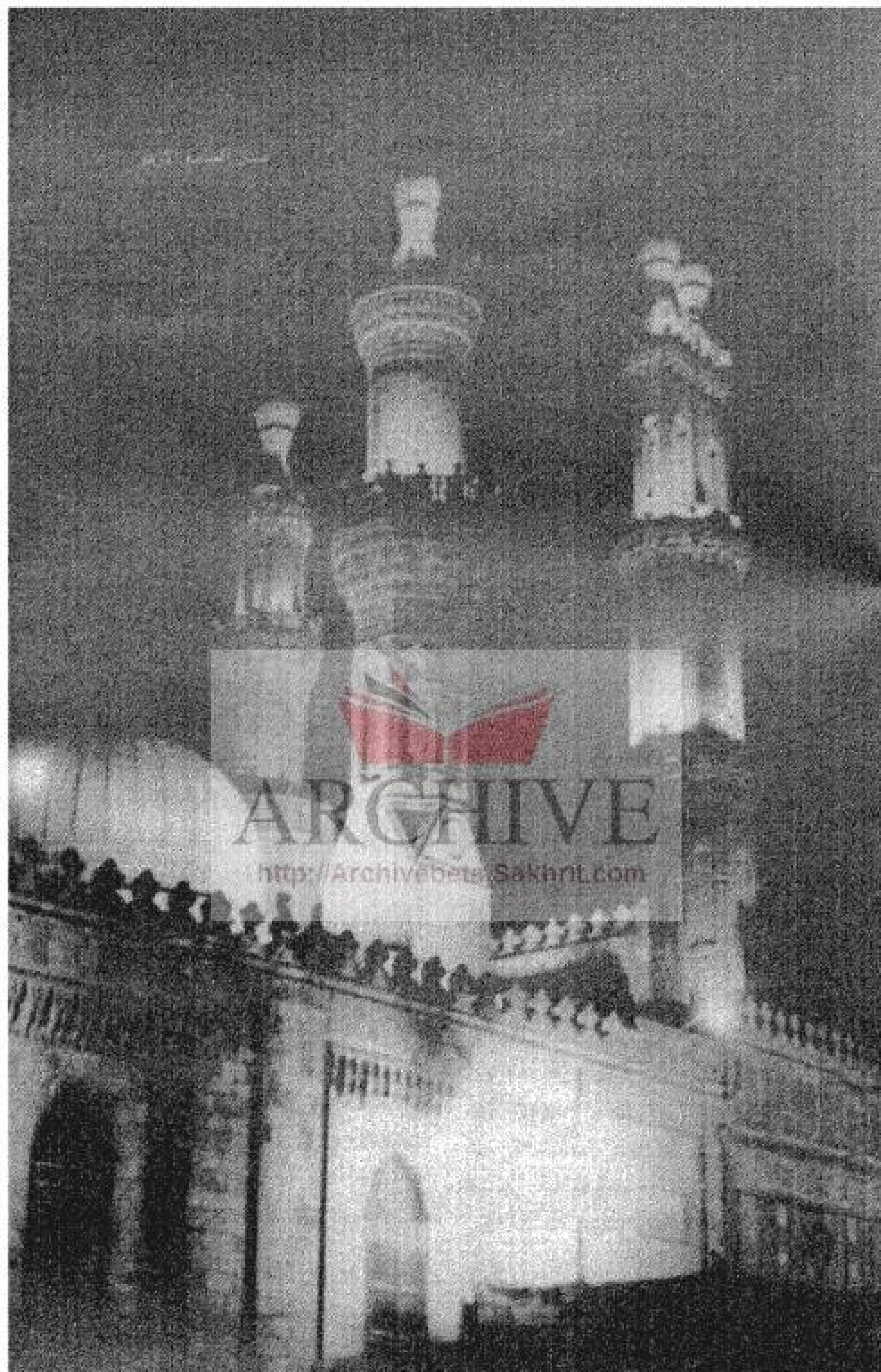
علي مبارك يصف الأزهر

بقلم
د. محمد رجب البيومي


علي مبارك

إذا نظرنا إلي أعمال علي مبارك باشا الإدارية عجبنا كيف اتسع عمره السعيد لهذه الأعمال الخارقة فى عدة وزارات وإدارات، وكيف كان الرجل بارع الجهد فى التربية والتعليم والهندسة والأشغال والمواصلات، لقد أدى ذلك بجهد جبابرة لا يعلمون أنهم جبابرة لأن جبابرة العلم فضلاء حكماء. لا يرسلون اللغو الصاخب، كما يرسله جبابرة الحروب والسياسة وهم أبقى على الزمان أثراً، وأعظم نفعا، بل إن تسعة وتسعين فى المائة من جبابرة الحرب والسياسة يفسدون ولا يصلحون، وتعمى نفوسهم فتكون بلادهم أول ما يصيبون من الهلاك والدمار!

أقول إن هذه الأعمال الإدارية الرائعة لا تترك مجالا قصيرا للتأليف العلمى. والبحث النظرى، فكيف إذا كان هذا المجال فسيحا ممتدا يشمل مجلدات تقع فى عشرين جزءا تحت عنوان واحد، كما يشمل مختلف الفنون من تربية وهندسة وقصة! أجل مارس الرجل القصة الطويلة فى جزءين كبيرين كما فهم مدلولها فى منهجه الإصلاحى، وأصبح رجال الفكر يفسحون له مجالا رائعا فى مضمار التفكير العلمى كما يفسح رجال الإصلاح الاجتماعى هذا المجال فى مضمار التقدم الحضارى! أقول ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد كما قال أحد الشعراء.





حديث اليوم يقتصر على ما كتبه المؤرخ العظيم عن حالة الأزهر الاجتماعية والدينية في عصره . والرجل لم يتعلم في الأزهر، وإن عاني في سبيل تعليمه أكثر مما كان يعانيه طلبة الأزهر من بلاء، إذ شق بأظفاره الناعمة طريقه الوعر بين الأشواك والصخور على طراوة العمر ، وصغر السن دون نصير غير همة عالية اندلعت في نفس العصامي الصغير ، كما يتألق الكوكب الساطع في الليل لعيني مدلج وحيد يتخبط وحده في ظلام حالك فيهديه الطريق ، لقد هرب الطفل من بلده شريدا ينام في المغارات، وينتقل من صعب إلى صعب بوحي من إلهامه حتى اهتدى إلى مدرسة القصر العيني دون مرشد غير هاجس من ضميره ، فكانت أولى خطوات النصر الحقيقي في سجل حياته ، ومنها عرف الدرجة الأولى في السلم الممتد إلى ذروة النجاح ، وأخذت الدرجات تسعى إلى قدمه مرحبة مزهوة حتى أبلغته إلى الأوج ، فاحتل القمة في تواضع العلماء لا في شموخ المتكبرين !

وقد نشأت في الأزهر متعلما ومعلما، وعرفت من تاريخه الحافل منذ أكثر من ألف عام ما يعرفه الأزهري المولع بتاريخ معهده ، ولكني حين قرأت ما كتبه على مبارك عن الأزهر في كتابه «الخطط التوفيقية» علمت الكثير مما كنت أجهل ، بل علمت أن الذين كتبوا عن هذه الفترة من حياة الأزهر قد اغتصبوا كل ما قال دون أن يشيروا إليه ، ومنهم من نقل السطور سطرا سطرا دون أن يذكر المرجع أو المؤلف ، فأصبح هو المرجع الأول للدارسين ، كما سيجيء ، وهو داء فاتك عند بعض أهل العلم ، وإن جاز ذلك قبل عصر المطبعة ، فكيف يجوز بعد أن صارت نسخ الكتاب الواحد تبلغ الآلاف !! وتزدحم بها خزائن المكتبات؟!

الالتحاق بالأزهر

لم يتحدث على مبارك طويلا عن كيفية الالتحاق بالأزهر وتقديم الطلب الخاص بالمبتدئ ، وإفساح المكان له ، كما تحدث غيره ، بل هجم على الحديث عن الحالة العلمية بدءاً فذكر أن الطالب يأتي في سن البلوغ أو المراهقة ويكون قد حفظ القرآن في بلده قبل المجيء، فإذا وفد غير حافظ اشتغل بالحفظ قبل الالتحاق، إذ يعقد له امتحان خاص بالحفظ وهو إجازة المرور ، فإذا تم التصديق على التحاقه، انتظم في الدراسة كما يشاء ، فالطالب لا يتقيد بدرس أو بأستاذ ، بل يجلس في إحدى الحلقات العلمية التي يهتدي إليها بمشورة الكبار من زملائه ، ويجلس الأستاذ على كرسي خشبي، وله مكان جوار العمود اشتهر به فلا يحتله سواه ، كما له طلبته الذين يعرفون مكانهم الخاص بالحلقة ، صغيرة كانت أو كبيرة، ويبدأ الأستاذ درسه بالبسملة والحمد لله

لم يكن الطالب يتقيد بدرس أو أستاذ ، بل يجلس في إحدى الحلقات العلمية التي يهتدي إليها بمشورة الكبار من زملائه

والصلاة على نبيه، وقد ظل هذا البدء متصلا حتى هذا العهد ، والتلاميذ يعرفون الكتاب الذي يشرح الأستاذ عباراته ، فيفتحون الملازم لتابعته ، ويسألونه كما يشاءون، ولكل طالب حريته التامة في السؤال ، وفيهم من كبار السن من يحاولون المباهاة بما يسألون ، فيأتون بأسئلة عويصة يتحتم على الأستاذ أن يجيب عنها بإشباع . وقد عرف ذلك من قبل ، فهو يتهيأ تهيؤا تاما في إعداد الدرس ليلاً دون إبطاء ، أما الطلاب فقد كانوا مثل الأستاذ تماما يقرأون الدرس الذي سيشرح في الغد قراءة مستوعبة ، ويجتمع النبهاء منهم في الرواق أو في صحن المسجد ليتداولوا الرأي فيما غمض من العبارة أو انبهم من القضية، حتى إذا استوثقوا من كل فكرة ، حضروا إلى الدرس وقد عرفوا غوامضه التي لم يهتدوا إلى حلها، فأحسنوا الاستماع ، وقد يبدو لهم من قول الأستاذ ما لا يرتاحون إليه من التوجيه، فلا يجدون حرجا في مناقشته بجد ، وقد يعارض الأستاذ اتجاههم ولكن بالحجة التي لا تدفع لأن المنافس مسلح بالدليل ، وإذا علمنا أن الأستاذ كان يشرح في كتب معقدة ذات تعبيرات صارمة ، وذات اكتناز في العبارة أدركنا مدى الصعوبة التي يعانيها الأستاذ والطالب معا ، وقد أدركت في عهد الأزهر النظامي بعض ما يمثل هذا الاتجاه ، إذ كان الزملاء يقرأون الدرس المقرر قبل الحضور ، ويعدون ذلك وسيلة

لاستيعاب ما يقول الأستاذ على وجه دقيق ، ولعل من أعجب ما قرأت في هذا المجال ما رواه الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين عن شيخه الأستاذ عمر الشيخ أستاذ علم الأصول بجامع الزيتونة بتونس ، حيث تعرض لشرح كتاب المواقف لأول مرة وهو من أعقد الكتب تأليفا ومادة ، فرأى أن يختار من توابغ طلابه من يسهرون معه كل ليلة لقراءة الدرس المنتظر فيتفاهم معهم وكأنهم أساتذة مثله حتى يتفقوا جميعا على فكرة محددة ، وكان من شمائله النبيلة أثناء الشرح بالجامع أن يقول للطلبة إن هذا رأى زميلكم فلان وقد وافقناه عليه بالأمس !! فهل ترى إخلاصاً للحقيقة العلمية أبلغ من هذا الإخلاص؟!

وقد صدرت حواش كثيرة في هذا العهد تدور حول شروح للمتن العلمي المقرر للطلاب ، هذه الحواشي الضخمة مثل كتب الباجوري والأمبابي والدسوقي لم يكتبها الأستاذ في منزله منعزلا عن طلابه ، بل كان يشرح المتن والطلاب ينقلون الشرح عنه فإذا مضى العام تهيأ لهم مما كتبوه مؤلفا كبيرا ، فيأتي صاحب المطبعة ليختار النسخة الواضحة مما كتب الطلاب فينشرها وتذيع في الوسط الأزهري وفي غيره من الأوساط العلمية ، ويرى الأستاذ ذلك شيئا طبيعيا ، بل يشجع عليه لأن دروسه أصبحت علماً ينتفع به وإذا مات الميت انقطع عمله إلا من ثلاث أحدها «علم ينتفع به» كما جاء في الحديث الشريف !

ويظل الطالب طالبا مدى يبلغ أكثر من عشر سنوات ، فإذا أنس من نفسه الكفاءة العلمية التي ترشحه للتدريس ، أعلن ذلك لزملائه الطلاب ، ولمشايخه من الأساتذة فحددوا موعداً للجلوس أمامه كي يشرح الدرس الذي يقررونه له ، فإذا بدأ القول ، توالت عليه الأسئلة من كل صوب ، وعليه أن يجيب عن كل سؤال دون تردد، وتمتد الجلسة حتى تحين الصلاة ، فيقوم الجمع لأدائها ، ثم تنعقد ثانية وتتوالى الأسئلة والإجابة وفيها ما يدق ويعمق ، فإذا وفق الله الطالب في جميع الإجابات كان ذلك شهادة له، يجوز بعدها أن يكون صاحب حلقة ، وأن يجتمع حوله الطلاب ، وكأنه نال درجة علمية ذات تقدير رسمي .

يقول علي مبارك (وكان لا يتصدر للتدريس إلا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر وتلقاها من أفواه المشايخ ، وصار متأهلا للتصدر، حلالا للمشكلات ومعضلات المسائل ، فلا يحتاج لاستئذان إلا على جهة الأدب والبركة ، وإنما يعلم بعض المشايخ والطلبة فيحضرون درسه. ويتراكمون عليه ، وهو يتألق في الابتداء ، ويسلك فيه طريق الإغراب والتوغل وبعض الحاضرين يتعصب عليه . والبعض ينتصر له ، وإذا

تلعثم فى إجابة ربما أقاموه ومنعوه من التصدر وإذا عاند ربما ضربوه» .

قد تكون هذه وسيلة دقيقة لاختيار الطالب ، ولكنها محفوفة بالمكاره ، إذ ربما تكالب عليه خصومه فأعنتوه لا ليعرفوا مقدرته العلمية ، بل ليسقطوه عن عمد ، وللكثرة فى هذه المناسبات قوتها فى الصخب والتشويش فتطيح الأصوات المحايدة ، وينتهى الأمر بالحبوط والخذلان ، كما أنه من الناحية الأخرى قد يجمع الطالب أنصارا من المشايخ والزملاء يبلغون حد الكثرة ، والناس هم الناس ، فيتفقون على نوع من الأسئلة يعرف الطالب إجابتها قبل الاختبار ، ويبدى الجدارة فى الإجابة عنها وقد ألم بها من قبل ، فينجح فى الاختبار دون استحقاق !!

الامتحان الرسمى

شعر الشيخ مصطفى العروسى بما يوجه لطريقة اختيار المدرس من اعتراضات جدية ، فرأى عقد امتحان فعلى للطالب على نحو أفضل ، وفوجىء بالعزل من المشيخة فرأى خلفه الشيخ محمد المهدى العباسى أن يسير بالموضوع إلى غايته فاستأذن الخديو فى إصدار قانون خاص لكل من يريد التدريس من المستجدين ، وجمع مجلسا من كبار العلماء لتحديد مواد هذا القانون ، فتم الأمر على اختيار ستة من المشايخ الكبار للامتحان على أن يمثلوا المذاهب الفقهية المشتهرة ، أما مواد الامتحان فلا تترك للأسئلة دون ضابط كما كان يفعل من قبل ، بل لابد من الامتحان فى أحد عشر فنا ، وهى العلوم المتداولة بالأزهر وقد حصرت فى التفسير والحديث والأصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق على أن من شروط من يتقدم أن يقدم طلبا يصرح فيه بأنه حضر هذه العلوم على الأساتذة . ولا يبحث الطلب على الفور إلابعد أن تمضى فترة للتأكد مما ذكره الطالب ، ومما ييسر الأمر أن يتقدم بشهادة يوقع عليها جمع من المشايخ أقلهم ثمانية مقررين أنه حضر هذه العلوم بمرأى عيانهم ، فإذا تم ذلك عين له فى كل فن من الفنون السابقة يوم خاص يمتحن فيه، فيقضى أحد عشر يوما فى امتحان متصل ، وينعقد الامتحان فى بيت شيخ الجامع . (هكذا قال على مبارك ولعله يريد فى مقر عمله الرسمى بالأزهر) ومن الأسلوب المتبع اذ ذاك أن يجعل الطالب مدرسا يقوم بشرح المادة للأساتذة بدءا.. وهم بمنزلة الطلبة فيبدأ القراءة وتتوالى عليه الأسئلة ليجيب ، ويستمر الامتحان طيلة اليوم ولا ينقطع إلا لنحو الصلاة أو الغذاء ، فإذا وفق الممتحن للإجابة فى الفنون جميعها كتبوه فى الدرجة الأولى وإذا أجاب فى أكثر الفنون نال الدرجة الثانية ، وإذا لم يصل

إلى الأكثر بل أجاد في النصف فقط أخذ الدرجة الثالثة، وتصدر له شهادة ترسل إلى المعية الخديوية للتوقيع عليها ، وتخلع عليه فرجية وشريط مقصب ، ويدفع عند السفر نصف الأجرة فقط حين يقدم هذه الشهادة التي منحت له ! هذا ولا يمتحن في العام أكثر من ستة طلاب ، فإذا تقدم أكثر من هذا العدد كان الترجيح في الاختيار لاعتبارات هامة مثل التقدم في السن أو الشهرة بالعلم ، والوجاهة في مجتمع الطلاب!

سار الامتحان على هذا النحو ، في عهد علي مبارك ولم يطرأ عليه من التغير ما يعصف بجوهره ولكل شئ آفته ، ومن ذا الذي ترضى سجاياه ، فقد كانت بعض الأغراض الشخصية تتدخل في تقدير الممتحن وقد تميل به إلى الفوز دون استحقاق أو الهبوط الظالم دون جريرة ، وهذا ما لم يذكره علي مبارك تأدباً منه حذر الإساءة لمن يسميهم أهل الفضل ، ولكن الشيخ سليمان رصد الحنفي ، ذكر في كتابه الشهير «كنز الجوهر في تاريخ الأزهر» مظهراً من مظاهر التحيز الصارخ ، يوم امتحان الشيخ محمد عبده ، إذ تقدم لنيل الدرجة العلمية بعد أن ذاعت آراؤه الإصلاحية في التعليم ومجالسته لجمال الأفغاني وتشبعه بآرائه الفلسفية وقد روى عنه أنه أفتى برأى للمعتزلة يخالف رأى الجمهور ، فثار عليه الشيخ عليش شيخ المالكية ، واستدعاه ، وسأله كيف تقلد المعتزلة فقال له الشيخ ببسالته المعهودة إذا كنت تركت تقليد الأشعري فلن أقلد المعتزلة لأني صاحب اختيار أتبع قوة الدليل ! فغضب الشيخ عليش وانتصر له محبوه ، وفي يوم الامتحان أصر الشيخ وله مقامه المشهود على إسقاطه يقول صاحب (كنز الجوهر في تاريخ الأزهر) ص ١٦٧ .

«كان امتحان الشيخ محمد عبده مناظرة لا اختبارا ، وكان بعضهم قد حلف بالطلاق أنه لن يأخذ درجة التدريس ، وأصر على على ذلك ، ولكن الشيخ العباسي شيخ الأزهر قال : إنه لم يمتحن أمامه مثله ، وطلب إعطاءه الدرجة الأولى ، وتعقد الموقف ، وقام أحد المشايخ وكتب له الدرجة الثانية ، وختم الورقة ، ومر بها على المشايخ فوضعوا أختامهم من بعده ، فوافقهم الشيخ العباسي كرها» .

وإذن فلم يخل الامتحان من غرض، والذين يذكرون هذا الامتحان فيما كتبوا من تاريخ الأستاذ الإمام ينحون بالسخط الشديد على الشيخ عليش ، ويعدونه رمز الجمود ، والحق أن الرجل لا يتبع الهوى ولكنه يعتصم بما يراه الحق ، وقد كان موقفه شجاعاً في الثورة العرابية إذ كان أول من أفتى بمروق الخديو توفيق وحين أخفقت الثورة وهو على فراش المرض الأخير لقي أقسى الإهانات ، ورمى به إلى قصر العيني فلم يجد من يسعفه ثم

رميت جثته وكأنه حيوان لا إنسان ' وهذا ما قرره على مبارك نفسه فيما جاء بالخطط التوفيقية ' وقد ذكرت ذلك من قبل في مجلة الهلال !

الحالة الاجتماعية

وفق على مبارك فى تصوير الحياة الاجتماعية لطلاب الأزهر تصويراً لا يتاح إلا لمن لابس هذه الحالة ملابسة ذاتية ، ولعله اختار من كبار الأساتذة من وصف له الأمر وصفا تاما ، فقد ذكر من عادات طلاب الوجه البحرى أنهم يذهبون إلى بلادهم أثناء العام الدراسى وبخاصة فى فترة الإجازات المتعارفة حينئذ ومنها إجازة مولد السيد البدوى وشهر رمضان فيأتون بالمؤونة المناسبة ، وفيهم من يأتيه زاده الشهرى بوساطة القادمين من القرى إلى القاهرة لزيارة الأولياء ، وأكثرهم يسكنون بالأزهر نفسه لقلة المتاع ، وينشرون الخبز فى صحن الجامع كى يجفف بحرارة الشمس كما ينامون فى الصحن صيفاً وفى الأروقة والمقصورات شتاء لتجنب البرد ، والذين يسكنون خارج الأزهر فى حجر متواضعة زهيدة الأجر يباشرون ما يتطلب من الأعمال الضرورية كطبخ الطعام ، وغسل الملابس ، وطعامهم المعتاد هو الفول المدمس والكرات ، أما أهل الصعيد فيأتون بمؤونة تكفى لنصف العام من خبز مقدد بالنار وسمن وجبن ودقيق ، كل بحسب مقدرته ، وإذا فرغ الزاد كتبوا لأهليهم كى يرسلوا ما يتيسر ، ويسكنون الرواق الخاص بالصعايدة ، ويظلون تسعة أشهر دون سفر للأهل نظراً لبعد المسافة ، وقد يتزوج الطالب أثناء زيارته السريعة ويترك زوجته فى حمى أمه وأبيه حتى يعود بعد عام في الزيارة القادمة فينفقوا عليها كأنها ابنتهم ، ومنهم من يظل طيلة أعوام الدراسة بالقاهرة دون أن يزور أهله في العطلات السنوية فإذا انتهى من الزيارة بعد أخذ الدرجة كتب لأهله كي ينتظروه بعد هذا الأمد الطويل فيتلقونه بالزغاريد وإقامة الأفراح ! وأهل الصعيد أكثر تقشفا من أهل الوجه البحرى ، ويختلفون فى الزى - ما عدا العمامة - تبعاً لاختلاف بلادهم ، وأهل الثراء منهم على قلتهم النادرة يلبسون الثياب المفرجة (الواسعة) من الجبب والقفاطين والشرابات فى أرجلهم مع الأحذية الجيدة .

هذا عن المصريين ، أما أهل الأقطار الخارجية من الهنود والسنارية (السودان) والأتراك فهم أنعم عيشا من المصريين ، وأنظف ثياباً ، إذ لهم مرتبات مالية تكفى وتقنع ، كما يحملون من بلادهم نقوداً كثيرة ، والفقير منهم قليل . ويأتون كبار السن فوق العشرين ، وأكثرهم يسكن أروقة الأزهر مع النظافة فى المأكل والمفرش، وإذا قلت نقودهم تيسرت لهم من تبرعات الأمراء

والموسرين لأنهم ضيوف !

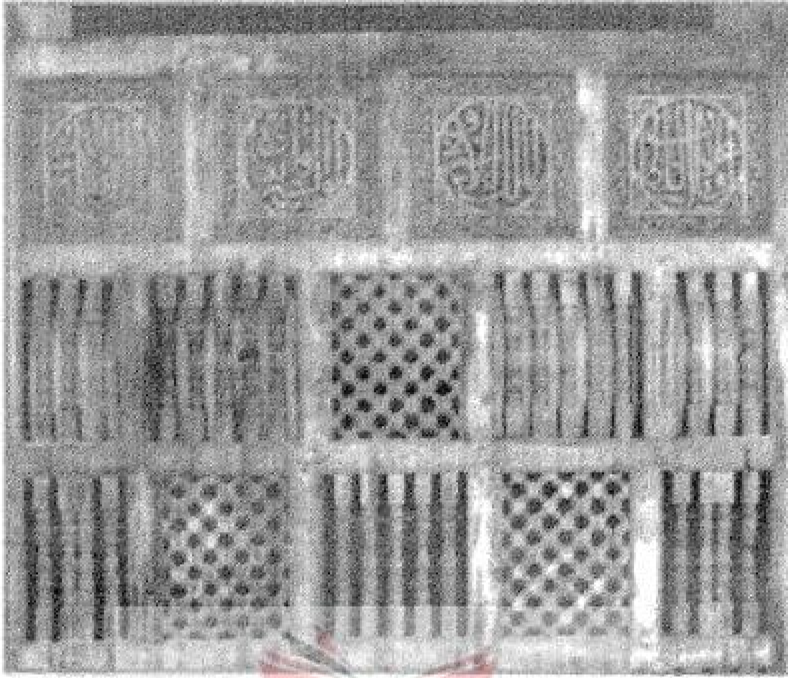
ومن عادة أهل الشام إذا أتم أحدهم رسالته الدينية وعزم على السفر أن يقيم مأدبة حافلة لأصدقائه وأساتذته المختارين ، فتوقد الشموع بالرواق طيلة الليل ويطاف عليهم بالقهوة والشربات ، وتلقى القصائد فى وداع المسافر العزيز ، وكلها تنويه بعلمه وما أحرزه من النجاح وما يرجى له مستقبلا من خدمة الدين ونشر حقائق الإسلام !

كما أن من عادة الطلاب - مصريين وغير مصريين - أن يحتفلوا بانتهاء المقرر آخر العام فيأتوا بالمباخر والقماقم يفوح منها الطيب ، وروائح العطور وذوو اليسار يحضرون الفواكه والفطائر الصغيرة . ثم يبدأ الحفل بتلاوة شيء من كتاب الله ، ويرش الماء المورد أثناء القراءة وينثر عليهم اللوز والتمر ، فإذا انتهى الحفل هرعوا جميعا لتقبيل يد الشيخ الذى قام بالتدريس ومنهم من يلقى القصائد فى مديحه !

وإلقاء القصائد ظل متوارثا حتى أيامنا ، وفى كتاب البدائع للدكتور زكى مبارك قصيدة ألقاها من نظمه فى ختام دروس الشيخ يوسف الدجوى بالأزهر إذ كان الأستاذ مدرسا للمنطق وكان الطالب من نابغى التلاميذ ولعلى شاركت فى مثل ذلك حين كنت طالبا بمعهد الزقازيق وقد نسيت ما نظمت . ولكنى قابلت بعد عشرين عاما أحد أساتذتى فذكرنى بقصيدتى ، فجاملته مجاملة طبيعية ، وقلت أسفاً إن القصيدة فقدت منى فقال : هى لدى ، وتفضل بإرسالها ، وقد استرسلت فى هذه الناحية لأقول إن طالب القسم الثانوى كان ينظم القصائد المقبولة بالأمس وأكثر مدرسى اليوم لا يستطيعون قراءة القصيدة صحيحة ! فاللهم غفرانك .

على أنى لمست فى كتاب (الخطط التوفيقية) عطفا وتسامحا كبيرا فى تراجم من تحدث عنهم من علماء الأزهر ، فهو يخلع عليهم أحسن الألقاب ، ويعزو إليهم كثيرا من الفضائل وينقل عن الجبرتى فيما تحدث به عنهم فى عصره ، فيحذف النقدات الجارحة التى لم يكن الجبرتى يتحرز منها ، مع أنه أزهرى صميم ! ولكن وجهة هو موليها ! على أن على مبارك لم يكن يكتفى بما قال الجبرتى بل أخذ يبحث عن الأحفاد ليأخذ عنهم ما لم يبلغه من غيرهم ، ففى ترجمته للشيخ حسن العطار ، ذكر أنه لم يجد عنه ما يشفى الغلة ، ثم علم أن ابنه «أسعد» لا يزال على قيد الحياة ، فاتصل به ووجد لديه ترجمة لوالده جمعها له «بعض فضلاء الوقت ممن سمع منه أو نقل عنه أو وجد مكتوبا مشتتا فى مؤلفاته» وإذن فالرجل لم يترك جهداً ما فى كتابة كل ما يعينه من أمور البحث الدقيق !

ويعض الذين يهولهم كثرة مؤلفات



لم يكن الأزهر منارة للعلم فقط ، بل كان طرازا معماريا خاصا

الرجل الكبير يقولون إن غيره من العلماء قد ساعده فى تأليفها ، وذلك احتمال قد يرد ، ولكنه لا يغمط فضلا لرجل خارق فى كل اتجاه ، وكتب فى مجالات شتى من فنون القول ، فلو خلص له مما كتب نصفه لكان مثلا رائعاً فى البحث والتنقيب ، ونحن نرى الآن من الأساتذة الكبار من يستعينون ببعض تلاميذهم فى مباحث شتى ، ولا تكون هذه الاستعانة موضع نقد يوجب التشهير ، والمرء قليل بنفسه !

أعظم ما آلمنى فى حياة على مبارك أنه تلقى أزمات كثيرة فى حياته دون أن يكون أحد أسبابها ، ولكن تعاقب ذوى الأمر على الدولة كان بعض الدواعى الحافزة لاضطهاده ، إذ يغضب التالى على كبار موظفى الحكومة لأنهم كانوا عون سالفه، وهم فى الواقع كانوا عون الأمة ، وبناة نهضتها ، وقد كان يقابل الموقف بشجاعة صابرة ، ويقوم بما يوسد إليه مهما انخفضت درجته عن كفايته ، وكأنه أحد الذين خاطبهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بقوله :

وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه
ليطحن لا يعنيه حلو ولا مر

نجيب محفوظ مظلوماً

بقلم
مصطفى الحسينى

بلغ نجيب محفوظ التسعين. أطال الله عمره وبلغنا أمنية الاحتفال بمئويته بحضوره.
احتفلت القاهرة - وربما غيرها، بتسعينيته، أو حاولت. الأرجح أن الثانية هى الأقرب إلى الصحة. لأن الاحتفال جرى كأنه احتفال بأيقونة، دون لياقة الاعتذار لمحتفى به.

- ١ -

لا يحتفى بكاتب له قامة نجيب محفوظ بمقالات التقريظ والإشادة بمآثره. إنما يحتفى به بنظر جديد فى مجمل عمله وأثره، خصوصاً وأنه قد أعلن أنه «ختم» قوله. حتى لو كان القول الأخير تدللاً منه، أو تعبيراً عن سأمه بما أخذ به نفسه من نظام دقيق يعينه على الكتابة، أو عن ملل إحساسه بأنه ما عاد قادراً على التعامل مع العالم الذى امتد به العمر ليعيش فيه غير قادر على معايشته بقدر ما تغيرت معالم العالم ووتيرة الزمان. أو عن رغبة فى أن ينفض يده من ما كتب عليه - حرفة الأدب، بعد أن أخذت بناصية حياته لما يزيد، ربما كثيراً، عن معدل الأعمار فى بلده. لا حصر ولا نهاية للدوافع الممكنة لقول مثل ذلك القول، يصدر عن رجل مثله.

أى شىء إلا أن يكون معينة قد نضب.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



المهم في هذا السياق أننا إذا أخذناه بقوله، فإن كتلة أثره تصبح بيدنا وبيد التاريخ. ولا يجوز أن يفوتنا أنها مادة الحفاوة به.

الحفاوة الصحيحة والمفيدة تكون بنظر جديد في هذا الأثر. النظر الجديد ليس بالضرورة إعادة نظر، أي معاودة تقييم ما سبق أن قيل فيه، يستوى إن كان نحو تأكيده أو مده على استقامته، أو الإضافة إليه أو تقويمه. فالنظر الجديد ريادة: التنقيب فيما لم يسبق اكتشافه أو كشفه.

هناك مجالات أخرى: منها مكانه في الحياة العامة للبلاد. رأى النقاد بعض أثرها في عمله: المرئي من ذلك الأثر والمخفى، المنطوق والمهموس، البارز والغائر، الطافي والغاطس في التلافيف. هل يمكن تتبعها في حياته اليومية والاجتماعية والجارية التي عاشها كما يعيشها غيره من الناس، والتي لابد أنه عاشها بحساسية تختلف عن حساسية عامة الناس؟

هناك مجالات أخرى، منها الكشف عن مصادره ومنابعه فوق ما كشف منها. منها تتبع تأثره بمن سبقه وجايله وعاصره من المفكرين والأدباء وغيرهم من أصحاب الفنون، والرسم والنحت والتمثيل والغناء، وغيرها. ألم تكن جماعة انتقاها من هؤلاء هم صحبة حياته؟ ألم يكن ما اصطحبت به حياة القاهرة من صخب الفن والثقافة والنجوى والهمس به - على مدى قرن كامل أو يزيد، باعتبار أن ما سبق ميلاده لحق به في صباه وشرخ شبابه - بعض مادة ذاكرته الواعية وبعض منابع الحساسية التي أسهمت في تشكيل وجدانه ووعيه ومنها تسربت إلى ما قرأنا له؟

من تلك المجالات استكشاف أثر ما عاصره من تغيرات الحياة في أدبه ورصد ذلك الأثر وتحليله. تغيرات الحياة لا تقتصر على ما يعنى السياسة و«أوضاع البلد» على نحو ما يشيع بين عامة الكتاب، إنما تشمل ما جرى في «أحوال الدنيا» في القرن العشرين الذي هو قرن حياة نجيب محفوظ. ما جرى على تلك الأحوال لا يقف عند الأحداث الكبرى التي هي سياسة في الأساس: حروب ومنازعات وصراعات وتحالفات ومسالمات. إمبراطوريات قائمة تنهار وترثها أو تشغل حيزها من الجغرافيا والتاريخ إمبراطوريات أخرى أو دول ودويلات عدة. دول ومجتمعات وشعوب تنقسم على نفسها أو تقسم رغما عنها وقد تعود إلى وحدتها أو تعاد أو لا تعود ولا تعود. دول تنشأ وغيرها

● أخطر ما في الاحتفال بنجيب محفوظ هو تحويله إلى مجرد أيقونة دون اعتذار للمحتفى به.

تضمحل... إلى آخر ما عندك وما هنالك من هذا القبيل. إلا أن هذا النوع من التغير الذي يقع كله في أفق «السياسة» - على خطره - لا يعدو أن يكون أثرا لتغيرات أخرى أكثر عمقا ونتيجة من نتائجها. التغيرات الأبعد غورا هي ما توفر للإنسان من مزيد معرفة بالكون وما فيه وما يعتمل في غير المنظور من مكوناته. تلك التغيرات الأكثر عمقا هي التي أسهمت بالدور الأكبر في تكوين التغيرات السياسية التي هزت العالم وفي صياغتها على النحو الذي شهده الناس ورصده التاريخ، هي ما لحق بمنظومات القيم ومفرداتها، ما غير معايير الأخلاق ومقاييس المنطق، ما خطأ ما كان صوابا وصوب ما كان الإجماع أو الغلبة منعقدين على خطئه. ما حرم ما كان مباحا وأجاز ما كان مستهجنا وربما حبذه .

شهد قرن نجيب محفوظ كثيرا من ذلك، بل ما يفيض منه عن طاقة المتابعة والإدراك، ناهيك عن الاستيعاب. وذلك كفيل بأن يكون منبعا لاستثارة لا تجافي فضلا عن أن تقاوم. كما أنه قد يكون مصدرا لاضطراب عظيم يعصف ببعض المستقر في حياة المجتمعات وأفرادها .

ولا ريب أن بعض ذلك قد جرى على الكاتب المبدع مثل ما جرى على غيره من الناس وفوق ما جرى عليهم وأعمق أثرا .

ومن يدقق سيجد من ذلك أبوابا تؤدي إلى ما تنفتح عليه الأبواب.

أليس ذلك أجدى على تاريخ الأدب وأخصب في صناعة النقد وفنه وأكثر فائدة لأجيال من الكتاب ناشئة وآتية وأولى بإعانتنا على فهم أنفسنا ومجتمعنا الذي نسجت أعماله من بعض خيوطه على نحو ما أمسك بها؟

***

- ٢ -

غير أن أمر النحو الذي جرى به الاحتفال بنجيب محفوظ أخطر في دلالته على نظرنا إلى حياتنا وما نأخذ به من طرق وما نعتمد من قيم، أخطر من مجرد القصور في الحفاوة بحياة كاتب كبير مثله. فأسلوب تلك الحفاوة ليس إلا واحداً من أعراض ذلك النظر. درجنا على تحويل أشخاص تاريخنا - خصوصاً في فصليه القريب والمعاصر - إلى أيقونات ورموز للسوء والشر؛ نتعبد أمام هذه ونلعن تلك. والحصيلة أن هؤلاء الأشخاص التاريخيين جميعاً معبودون وملعونون في الوقت نفسه بحكم ما يتميز به النظر إلى التاريخ من خلاف وانقسام. وفي الأحوال كلها معبودون أو ملعونون دون عمق نظر ولا جهد تمحيص ولا فسحة للجدل.

التاريخ أحداث تقع للناس وعليهم في المكان والزمان. وهي أحداث متصلة في عمق ما تحت سطحها الظاهر، حتى وإن بدت منفصلة أو متباعدة. وقيمة

التاريخ في عبرته التي يعوقها التصنيم والترميز.

***

في تاريخنا الحديث استولى على ألبابنا ما زعمنا في كتب تاريخنا أنه محاولة محمد علي في مطلع القرن التاسع عشر بناء «مصر حديثة». لم نتوقف لنفحص حاجة البلد إلى تحديث أو لحاق بالعصر قوامه مشروع عسكري توسعي. لم ننظر في شرعية حروب الاختيار» التي شنها محمد علي على الدولة العثمانية. لم ننظر في جدواها بالنسبة للمشروع الذي ننسبها إليه: هل أفادت البلاد أم ألحقت بها الضرر؟ هل كان صاحب المشروع يدرك ما ننسبه إليه؟ أم أن هدفه لم يكن يعدو إقامة مملكته «المستقلة» عن الباب العالي؟ على ماذا يدل «الكسب» الأكبر الذي حصل عليه في التسوية التي أعقبت هزيمة جيشه - أن يبقى حكم مصر في سلالته؟

هذه كلها وغيرها كثير لم يلتفت إليه كتاب تاريخنا الحديث الذي يكتفي بأسطورة أن محمد علي كان يريد «تحديث مصر» و«اللحاق بالعصر». لكن «القوى الخارجية» تآمرت عليه وقضت على المشروع العظيم.

ثم تحولت الأسطورة إلى أيقونة تحكمت بتاريخنا اللاحق.

***

أعجبتنا وقفة أحمد عرابي أمام الخديوي توفيق وأسرتنا محاولاته الباسلة لمواجهة الغزو البريطاني للبلاد. تحول أحمد عرابي إلى أيقونة بينما كان يستحق ما هو أفضل من ذلك وأجدى علينا في التاريخ. كان يستحق أن ندرس في تجربته النواقص التي أدت إلى فشلها وهزيمتنا. لكننا جعلنا من الرجل العظيم مجرد أيقونة، إن تمثلنا بها كان سعينا إلى الديمقراطية مجرد وقفة تتكرر عند احتدام الأزمات: هبات في وجه حكام مستبدين، لا يبقى منها إلا الرمز. وإن تمثلنا بها في الحرب، حدث لنا ما حدث في حروبنا جميعاً منذ «الثورة العرابية» كما يسميها ذوو الرصانة من المؤرخين، أو «هوجة عرابي» كما سماها الفلاحون. حروب دون خطة للنصر ولا خطة للتراجع المنظم عند الانكسار ولا خطة للتفاوض بعد انتهاء الحرب بالانتصار أو الانكسار.

وهكذا..

هذا بعض وجه من مشكلتنا مع الوعي بالتاريخ. وربما لذلك يتحول تاريخنا إلى عبء علينا بد أن يكون لنا عبرة ومرشداً.

وسنرى مثل ذلك في تعاملنا مع شخص نجيب محفوظ ومع



● الاحتفال بنجيب محفوظ يكون بالنظر الجديد في مجمل عمله والكشف عن مصادره ومنابعه

أدبه، خصوصاً منذ حصوله على جائزة نوبل.

قبل حصوله على الجائزة، كنا نتعامل مع أدبه دون شخصه. في هذا عدل لكل أديب.

لكن حدثا جسيما في تاريخنا المعاصر - زيارة أنور السادات للقدس وما ترتب عليها ، دفعت بعضنا إلى التعامل مع « شخص» نجيب محفوظ. لم يكن في هذا بذاته جور عليه. فهذا شأن «الشخص العام وحاله عندما يتعرض مباشرة للقضايا العامة، خصوصا عندما تكون من قبيل ما للموقف من إسرائيل من خطر. فقد أيد نجيب تلك الزيارة صراحة ودافع عنها . يمكن القول إنه عندئذ وضع نفسه في مدار الانقسام الوطني من حوله. ولم يحاول إنصافه أي من الذين أخذوا عليه موقفه ذاك ولا من الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن ذلك الموقف، إنصافه بالبحث في تاريخ جيله من نخبة المثقفين عن ما «يؤصل» لموقف من هذا القبيل. خصوصا أنه لم يكن فريدا في هذا السياق. على الدرب ذاته كان غير قليل من صفوة جيله من الذين يمكن تمييزهم بمنظور مختلف عن المنظور «القومي العربي» إلى انتماء مصر الثقافي وهويتها، يذكر منهم على سبيل المثال: توفيق الحكيم ، حسين فوزي وطه حسين ولويس عوض وغيرهم .

محاولة التأصيل من هذا المنظور كفيلة بالارتقاء بالجدل حول الموقف من الصهيونية ومشروعها ومن إسرائيل ومن التزام مصر بالقضايا العربية من مستوى الجدل حول هذا الشخص أو ذاك إلى مستوى البحث في تيار من الثقافة المصرية تشربت منه أجيال ومازال ذا وجود وأثر في حياتنا.

أدى غياب ذلك «التأصيل» بالذين طالما نظروا إلى نجيب محفوظ باعتباره راوية الوطنية المصرية، إلى أن أخذوه بأعنف الكلام والاتهام.

كما أدى الغياب نفسه بهم إلى ابتلاع كلامهم واتهامهم ما أن حصل الراوية على جائزة نوبل.

حوله الجائزة إلى «أيقونة» حتى في أعين شانئيه!

وكان الاحتفال ببلوغه التسعين مناسبة ملائمة لإنصافه بتأصيل موقفه ذاك في التيار الذي ينتمي إليه وانتمى إليه كثرة من صفوة أبناء جيله، والتعرض لذلك التيار من ثقافتنا وتاريخها بالنقد الذي يضعه في مكانه الصحيح بين الصواب والخطأ.

لكن «الأيقونة» ضيعت فرصة ماتزال واردة، على أي حال.

ولا يعزي عن هذا التقصير القول الصحيح بأن ما يبقى من نجيب محفوظ للتاريخ هو ما أبدع من أدب. لكن هذا الأدب لا يستوفي ما يستحق من فهم دون وضعه في سياق التيار الثقافي الذي انتمى إليه صاحبه.

وقد يصلح هذا موضوعاً مستحقاً لمؤتمر من المؤتمرات الكثيرة التي يعقدها المجلس الأعلى للثقافة أو غيره من المؤسسات. ■





تأملات فى عالم علاء الأسوانى

بقلم
د. جلال أمين

ها هو الدكتور علاء الأسوانى يعطينا هدية أخرى، هى مجموعة ممتازة من القصص القصيرة بعنوان «نيران صديقة» نشرتها له دار ميريت للنشر منذ أسابيع قليلة بعد أن أهدانا من قبل روايته الممتازة أيضا «عمارة يعقوبيان».

وبعد أن قرأت هذه المجموعة الجديدة من القصص القصيرة تبين لى كم كان علاء الأسوانى موفقا أيضا فى اختيار عنوانها، فهاتان الكلمتان البسيطتان «نيران صديقة» تحملان دراما بشرية كاملة.

أن يموت الإنسان أو يصاب لا بيد عدوه بل بيد صديق أو قريب كان المتوقع أن يقدم له الدعم والعون فإذا به يكون هو مصدر عذابه أو موته.



هذا هو بالضبط موضوع أكثر قصص هذه المجموعة. ففى قصة بعد أخرى نجد أن مصدر عذاب البطل وشقائه صديق قريب إلى قلبه أو زملاء له فى نفس الفصل فى المدرسة، أو أستاذ قديم له فى الكلية كان المنتظر أن يقدم له العون على مصاعب الحياة فإذا به يكون مصدر هوانه وذله، بل قد يكون مصدر العذاب فى القصة، الأم أو الأخت أو الزوج. معظم القصص تدور إذن حول نوع

أو آخر من القسوة، والقسوة تصدر فى معظم الأحوال عن أشخاص كان المفروض أن يكونوا أصدقاء أو محبين فإذا بهم، وعلى غير المتوقع، لاتصدر منهم إلا «نيران صديقة».

ليس هناك جديد بالطبع فى أن تدور قصة حول القسوة من الأقرباء أو الأصدقاء، فما أكثر القصص المشهورة التى تدور حول صورة أو أخرى من القسوة الصادرة من زوج أو زوجة، من أخ أو أخت، أم أو أب أو عاشق أو معشوق لايرجع تميز هذه المجموعة القصصية إذن إلى مجرد تناولها لهذا الموضوع، فما هو السبب الحقيقى لتميزها؟

هناك أولا امتلاك علاء الأسوانى القدرة على الحكى الناجح للقصة، التى أثبتها بجدارة فى رواية «عمارة يعقوبيان» ومعرفته بما يسمح به شكل القصة القصيرة ومالا يسمح به، وامتلاكه لناصية اللغة العربية دون أى تقعر، مع القدر اللازم من روح الدعابة، والضرورى حتى فى أكثر المواقف مأساوية، كل هذا واضح ومفروغ منه، ولكن الجدير الآن بالذكر هو ما يلاحظه قارئ هذه القصص القصيرة من أن مصدر القسوة فيها (كلها تقريبا) ليس سببا عارضا أو استثنائيا، بل هو مصدر ثابت ومشترك بين الناس جميعا، أو يكاد يكون كذلك.

إن هذا القاسم المشترك بين كل حالات «النيران الصديقة» فى هذه المجموعة، هو فى رأيى مايضفى عليها جاذبية وقوة لايمكن الفكاك منها. القسوة من الأقرباء والأصدقاء ليست صدفة، ولاشيئا عارضا، بل نابعة من أعماق النفس البشرية، ومن ثم فهى أكثر عمومية وانتشارا بكثير مما قد نظن. فلأضرب على هذا مثلا أو مثلين من هذه القصص فى قصة «حصة الألعاب» قد تبدو المشكلة فى البداية بسيطة جدا لاتتجاوز حالة سمنة مفرطة بُلى بها أحد التلاميذ، وتمنعه من الاشتراك فى الألعاب الرياضية خوفا وهلعا من الاضطرار إلى ارتداء الملابس الرياضية التى تكشف سمنته المفرطة بكل أبعادها أمام كل العيون. ولكن مدرسا جديدا للألعاب، لايتحلى بنفس حساسية المدرسة السابقة، يجبره على ارتداء ملابس الرياضة، وكان هذا وحده كافيا لإطلاق كل المشاعر الخسيسة والدنيئة لدى بقية التلاميذ ليس بين هؤلاء التلاميذ أى شخصية أكثر سفالة من الآخرين، فكلهم تلاميذ عاديون، ولكن لديهم كلهم استعداد طبيعى للإفادة، من مصائب الآخرين، ومجاراة أقرانهم فى العبث والسخرية من أى زميل سيئ الحظ. إنهم ليسوا مجموعة من السفلة بأى حال من الأحوال، إنهم فقط شياطين صغار ينهشون الفريسة إذا وقعت، ويمارس كل منهم قدراته وإمكانياته على

حسابها. حاول التلميذ المسكين (واسمه الدواخلي) كل الأساليب لإنقاذ نفسه من هذا المصير، بالامتناع عن ارتداء ملابس الألعاب مرة، وبالضحك مرة، وبالقيام بدور المهرج الذي يسخر من نفسه مع الساخرين مرة فباءت كل جهوده بالفشل وتنتهي القصة كما يلي:

«توقف الدواخلي عن المشي، وطوّح ذراعيه بقوة ليضربنا، لكن ضرباته طاشت كلها، فأخذ يحدق فينا وفتح فمه ليقول شيئا .. ثم ارتعشت شفتاه وأجهش بالبكاء».

***

فى قصة أخرى بعنوان «أختي الحبيبة مكارم» ليس هناك أكثر من خطاب من رجل إلى أخته. هو يعمل، مع زوجته، مدرسين فى إحدى بلاد النفط فى الخليج، بينما الأخت مكارم تسهر على رعاية أمهما المريضة فى القاهرة. وتفهم من الخطاب أشياء كثيرة أخرى، أهمها أن الأخت كتبت لأخيها تطلب منه مساعدة مالية تمكنها من نقل الأم إلى مستشفى خاص حيث إن الرعاية مفقودة فى المستشفى المجانى، فجاء رد شقيقها وثيقة رائعة للتدليل على دناءة كاملة مغلفة بعبارات النفاق والتدين الكاذب. القسوة هنا من ابن على أمه، ومن أخ على أخته، فهي نيران «صديقة» تماما، ولكنها أيضا، وهذا هو الشيء المهم في نظري، والذى يجعل لهذه القصة تأثيرا مضاعفا فى نفس القارىء، لاتعبر عن شيء عارض أو حالة استثنائية. الرجل كاتب الخطاب وغد بلاشك، ولكن ما أكثر الأوغاد الذين سافروا للعمل في دول النفط أو غيرها، أو بالأحرى ما أكثر من سافروا إلى دول النفط بغية ادخار بعض المال ليحلوا به مشكلة حقيقية، فحوّلهم تراكم المدخرات إلى أوغاد، ولابد فإنهم كتبوا لذويهم خطابات كثيرة من نوع خطاب «أختى الحبيبة مكارم».

***

مجموعة قصص علاء الأسواني تضعنا إذن وجها لوجه أمام مواقف شديدة القسوة، ولكنها بكل أسف شائعة في حياتنا وإن كنا لانحب عادة الاعتراف بوجودها. انظر مثلا ذلك المنظر المرعب في قصة «الذى اقترب ورأى» حيث تقترب الجدة العجوز من الأم المريضة بالسرطان وهي راقدة على سريرها، وقد فقدت شعرها بسبب أدوية السرطان فغطت رأسها بمنديل لإخفاء ماحدث، وقد ظهرت على وجه الجدة ابتسامة وشغف «كذلك الذى يلوح على وجه طفل يقدم على لعبة مثيرة فيها خطورة ومتعة. دنت جدتى حتى حاذت أمي الراقدة ولم تأبه لصياحها الذى تعالى، وانحنت عليها ومدت يدها وجذبت المنديل عن رأسها فانكشف عاريا، ونظرت جدتى لأمي وقالت بصوت واضح

(الله، هو راح فين شعرك؟) ولما دخلت عليها بعد لحظات كانت أمي تعوى بالبكاء وتصرخ (إنت إيه اللى معيشك لحد دلوقتي؟ موتي بقى وريحينا).

لايمكن أن تترك مثل هذه الصور من صور القسوة هذا الأثر البالغ القوة فى نفوس قارئيها، لولا معرفتهم بأن هذه الصور موجودة بالفعل فى الحياة، وبكثرة، وليست على نحو استثنائي أو لسبب غير مألوف، بل لأسباب تتعلق بما يسمى أحيانا «بالحالة الإنسانية» أو الطبيعة البشرية، التي تتسم بجوار جوانبها البالغة القوة والجمال بجوانب أخرى شديدة القبح والسفالة.

***

هناك قصص قليلة أخرى، تتعلق بالقسوة أيضا، ولكنها ليست قسوة إنسانية قليلة، بل القسوة فى نظام الكون، كحتمية حلول الشيخوخة محل الشباب، أو استحالة استعادة الماضي الجميل بعد حلول الموت، أو استحالة أن يعيش المرء حياة طبيعية بعد أن يصاب بعاهة مستديمة كفقد ساق أو ذراع، هكذا يصوِّر لنا علاء الأسواني فى قصة «مدام زتامنديس .. صورة أخيرة» مايفعله الزمن بالإنسان . وفى قصة «جمعية منتظرى الزعيم» استحالة استعادة الماضي، وفى قصته البديعة «عزت أمين اسكندر» استبسال الإرادة الإنسانية فى مواجهة قدر قاس، حيث يحاول هذا الطالب من طلاب الصف الأول الإعدادي، أن يعيش حياة طبيعية بين زملائه وكأنه لايختلف عنهم على الرغم من فقده لساقه فى حادث، فيحاول ركوب دراجة بعكازه وساقه الصناعية التى يغطيها بنطلون المدرسة.

***

كان طبيعيا تماما أن يذكِّرنى بإعجابى واستمتاعى بهذه القصص بإعجابى واستمتاعي القديم بقصص يوسف إدريس فرحت استعيد بعض قصص يوسف إدريس فى ذهني، وأعدت قراءة بعضها. لم يكن يوسف إدريس مشغولا بهذين النوعين من القسوة، بل كان مشغولا بنوع مختلف تماما، وإن لم يكن يقل عنهما ضراوة وإيلاما. كان يوسف إدريس مشغولا بقسوة النظام الاجتماعي، بما يمكن أن يصنعه الفقر بالناس، وما يمكن أن يولده الانقسام الطبقي بين فئات بالغة الثراء وأخرى بالغة الفقر، من مساخر ومتناقضات تجلب الضحك أحيانا والدموع أحيانا أخرى، أو الضحك والدموع معا، وقد تجلت عبقرية يوسف إدريس على الأخص فى تصوير هذه المساخر والمتناقضات الناتجة عن الفقر والانقسام الطبقي، ووجد بين يديه فى مصر، فى منتصف القرن العشرين، معينا لاينضب وكنزا زاخرا بموضوعات لقصص وحكايات لاتنتهي تدور كلها تقريبا، على الأقل فى السنوات العشر

الأولى من انتاجه ،أي من مطلع الخمسينات إلى مطلع الستينات، حول هذا الوضوع. ولكن شيئا مهما كان قد حدث خلال هذه الفترة .كانت ثورة ١٩٥٢ قد قامت، وفعلت ما فعلت في التقريب بين الطبقات وإزالة المرتفعات الشاهقة من الثراء وردم الحفر السحقية من الفقر. صحيح أنه لم يمض على قيام ثورة يوليو ٥٢ وقت طويل حتى بدأت عوامل جديدة تعمل على إعادة التناقضات الاجتماعية من جديد وظهور مظاهر للتفاوت الشديد في أنماط الحياة، قد لاتقل في مساخرها عما كنا نعرفه قبل ١٩٥٢، ولكن يبدو أن شيئا مهما يميز هذه المساخر الجديدة عن المساخر القديمة.

إذا أردت أن تتعرف على بعض هذه الفوارق المهمة فلتقرأ رواية علاء الأسواني «عمارة يعقوبيان» التي ظهرت منذ ثلاثة أعوام (عن دار ميريت أيضا ثم عن مدبولي) نعم هناك تناقضات اجتماعية صارخة تجلب الضحك والدموع معا، ولكن هناك فارقا مهما بين التناقض الاجتماعي عند علاء الأسواني وبينه في عالم يوسف إدريس، كان الفقير في عالم يوسف إدريس، الذي يمثل في الواقع فقراء ماقبل ١٩٥٢، يائسا تماما من أي إصلاح، فاقدا تماما لأي أمل في أن يأتي المستقبل بشيء مختلف عن الماضي. أما الفقر في عالم علاء الأسواني، في نهاية القرن العشرين، فهو وإن لم يكن بنفس ضراوة فقر ماقبل ١٩٥٢، فإنه مع ذلك أكثر مرارة، إذ أنه جاء مقترنا بخيبة أمل شديدة، خيبة أمل المتعلم الذي كان يظن أن الشهادة الجامعية ستجلب له وظيفة محترمة فلم تجلبها له، وخيبة أمل الفتاة المصرية الشريفة بطبعها فاضطرت، رغم ذكائها وطموحها وشهادتها المتوسطة، إلى قبول الزواج من شيخ عجوز هو الوحيد الذي أبدى لها بعض العطف الحقيقي، وذلك بعد أن فقدت حبيبها الحقيقي الذي هزمه النظام الاجتماعي والسياسي الجديد هزيمة ساحقة.

لم يكن ثمة مفر أمام قصصي مصري موهوب بعد مرور ٥٠ عاما في مصر منذ قيام ثورة يوليو، إلا أن يصف التناقضات الطبقية في صورتها الجديدة، وهو مافعله علاء الأسواني ببراعة في «عمارة يعقوبيان»، ولكن كان من المفهوم أيضا أن يلقي بنظره إلى مساخر وتناقضات أبعد وأعمق وأكثر دواما من التناقضات الطبقية، فإذا به يجد كنزا آخر لاينضب في مختلف مظاهر القسوة التي يتسم بها الإنسان حتى في أحواله الطبقية جدا، إزاء أصدقائه وأقرب المقربين إليه، ناهيك عن مختلف مظاهر القسوة التي يتعرض لها الإنسان باستمرار من نظام الحياة والموت. ■

أقوال معاصرة


مريد البرغوثي


بيل كلينتون


سميح القاسم

● «لم يكن عجيبا أن يعبد المصريون فرعون، ولكن العجيب أن فرعون آمن حقا بأنه إله»

الأديب نجيب محفوظ

● «الإنسان لا يتعرف على نفسه كشخصية وهوية ما لم يشعر أن له فردا أو جماعة، امتدادا في المكان والزمان»

المفكر المغربي عبدالسلام بنعبد العالي

● «لا يكتب لأي عمل فني النجاح إذا لم تكن فيه حصة للأجيال القادمة»

علاء بشير
فنان تشكيلي عراقي

● «أغلب نقادنا العرب، لا يعرفون كيف يقرأون قصيدة»

الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي

● «الرجل العربي لا يحقق انتصاراته إلا على المرأة»

الأديب المصري عبدالسلام العمري

● «العنف يبدأ في الرؤوس ، قبل استخدام الفؤوس»

عالم النفس السلوكي ف . ب سكيني

● «اللجوء إلى القرآن الكريم لإرهاب الآخرين أمر غير مقبول على الإطلاق»

عبدالله بدوي
رئيس وزراء ماليزيا

● «عانيت كثيرا في حياتي، والآن أعاني أشد من ذلك في الكتابة عنها»

بيل كلينتون
الرئيس الأمريكي السابق

● «حتى يفوز العراقيون علينا أن نخسر»

دافيد بروكس
صحفي بالنيويورك تايمز

● «الأمم المتحدة تتناول طعامها على الواقف، توزع المسكنات والضمادات للشعوب المنكوبة والأقطار التي ضربها الزلزال»

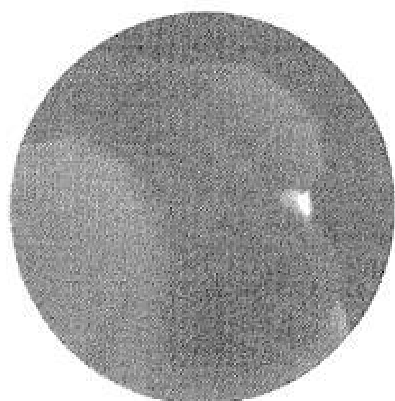
الشاعر الفلسطيني سميح القاسم

● «الاعتراف بالآخر ضرورة وجود، ولو تجردنا من أثر الغرب سنخرج للشارع عرايا»

المفكر اللبناني علي حرب

● «رأيت أمي تحارب وظهرها «للحيطة» للحائط، ومع ذلك فازت رغم كل الصعاب»

راؤول غاندي عن انتصار حزب أمه سونيا في انتخابات الهند الأخيرة



الحمام
ومناهج التقدم والتخلف

بقلم
د. نبيل حنفي محمود

لم يكن نهار الأحد الثاني والعشرين من شهر فبراير الماضي قد انتصف، حين هاتفت الأستاذ/ مصطفى نبيل: رئيس تحرير «الهلال»، لأمر متعلق بمقالي في عدد مارس ٢٠٠٤م من «الهلال»، باغتني سؤال رئيس التحرير في ختام الحديث: هل طالعت ماكتب عن الحمام في «الهيرالد تريبيون» مؤخراً؟، فأجبت بالنفي وأنا في حيرة مما رمى إليه رئيس التحرير بسؤاله هذا، وعندما طالعت ماكتبته ماري بوشيه تحت عنوان «التاريخ المقدس للحمام الزاجل» في عدد الجمعة ٣٠ يناير ٢٠٠٤م من «الهيرالد تريبيون»، تضاعفت حيرتي وازدحم عقلي بأسئلة اختزلتها في سؤالين بعد التدبر والتفكير، تبلور السؤال الأول في الصيغة التالية: ما الذي جذب الأستاذ مصطفى نبيل لقراءة موضوع كهذا؟، وأما ثاني الأسئلة... فان عقلي طرحه بالنص التالي: أي دافع حفز «الهيرالد تريبيون» لتقديم موضوع كهذا وفي ذلك التوقيت؟، إن الإجابة عن هذين السؤالين هي موضوع المقال الحالي.

يعد الحمام من أكثر ما ذكر في الكتب - علمية كانت أو أدبية - من طيور الأرض، وذلك لتعدد ما حبا الخالق عز وجل به هذا الطائر من مزايا، نذكر للوهلة الأولى من هذه المزايا حسن الطعم وبديع الشكل وجميل الصوت، وهو أحد طيور الفصيلة الحمامية من جنس كولامبا Co-lumba ونوع بالمبس Palumbus. وينتشر الحمام في جميع بقاع الأرض وإن كثر في المناطق الحارة والمعتدلة، ومن أشهر أنواعه: حمام الغابة Wood Pi-geons- اليمام البري Wild Doves ويمام الصخر Rock Doves، ومن المعروف أن يمام الصخر هو أهم هذه الأنواع، لأن استئناسه أنتج للبشرية كل أنواع الحمام الأليف.

إن أهم ما حوته حافظة الكتب من حقائق علمية وتاريخية عن الحمام، هو ما كان من اتخاذه وسيلة لنقل الرسائل أو البريد السريع، فقد ألهم الحمام الإنسان بقدرته الفذة على العودة لعشه كي يستخدمه في نقل الرسائل، إذ يمكن للحمام الصغير الذي تربى في عش خاص ونقل بعيدا عنه لمسافات طويلة النجاح في التوصل لمكان عشه إذا ما أطلق من الموقع الذى نقل إليه، وهو ما أثبته كمال الدين محمد بن موسى الدميرى (١٣٤١ - ١٤٠٥م) في معجمه الشهير «حياة الحيوان الكبرى» بقوله: ومن طبعه (أي الحمام) أن يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ. ويحمل الأخبار ويأتي بها من البلاد البعيدة في المدة القريبة. وفيه ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد» (الدميرى: حياة الحيوان الكبرى - طبعة كتاب الجمهورية - ١٩٩١م - ص٤٤٦)، وتأتي بعد ذلك سرعة الحمام لتكون السبب الثاني في اختياره لحمل الرسائل، حيث تبلغ سرعته في المتوسط ما بين ٤٨ و٩٦ كيلومترا في الساعة، والسرعة القصوى التي سجلت لحمام الرسائل تبلغ ١٥٣،٤٤ كيلومتر في الساعة (موسوعة المعرفة ص ١٩١٢)، إن أحدا لا يستطيع الجزم الآن بمن وأين ومتى بدأ استخدام الحمام في نقل الرسائل، وإن كانت جمهرة مفسري القرآن الكريم قد أجمعت على أن نبي الله نوح - عليه السلام - هو أول من أرسل الحمام في مهمة من بنى البشر، حيث تقول روايات المفسرين إن نبي الله نوح أطلق حمامة بعد توقف الطوفان لتبحث عن أرض تصلح لرسو سفينته ، فعادت الحمامة لنبي الله حاملة في فمها غصنا من أغصان شجرة الزيتون (شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي الجامع لأحكام القرآن - طبعة دار الغد العربي - ١٩٨٩م - المجلد الرابع - ص ٣٣٦٣)، ولكن الثابت في مصادر التاريخ الإسلامي أن صاحب دمشق السلطان نور الدين محمود ابن زنكي والذي توفي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م هو أول من اتخذ حمام الرسائل من الملوك (أبو الفداء إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية - طبعة دار الغد العربي - ١٩٩١م - المجلد السادس - ص ٨٠٤)، وقد شهد العصر المملوكي تنظيم نقل البريد بالحمام بين أطراف الدولة المصرية، حيث امتدت شبكة حمام الرسائل فيما بين القاهرة وقوص (عاصمة الصعيد) ودمياط والاسكندرية ومدن الشام الكبرى وحتى نهر الفرات، ومما يفهم من حديث تقي الدين المقريزي في الجزء الثالث من خططه أن الرسائل التي يحملها الحمام كانت غالبا من ورق خفيف وتوضع تحت جناح الطائر، ولقد استدعى تنظيم البريد فيما ذكره المقريزي أن ينقل الحمام الرسائل لمسافات محددة بين مراكز معدة لذلك، ولكن التاريخ يحفظ أخبارا من

حمائم طارت عائدة إلى أعشاشها لمسافات لا يصدقها العقل، ومن ذلك ما حدث فى الخامس عشر من شهر يونيه سنة ١٩٣٢م، عندما أطلقت حمامة من مدينة أراس الفرنسية (إلى الشمال الشرقى من باريس)، لتصل إلى عشها فى سايجون بفيتنام بعد أربعة وعشرين يوما اجتازت خلالها ١٠٦٤٠ كيلومترا (فى خط مستقيم على الخريطة)!، لقد عمل الحمام بنقل الرسائل خلال قرون طوال من تاريخ الانسانية وحتى إلى ما بعد منتصف القرن العشرين المنصرم، وبالرغم من أن وسائل الاتصالات الحديثة حلت الآن محل الحمام فى نقل الرسائل والمعلومات، فإن الحمام مازال يطير حتى الآن فى أنحاء متفرقة من العالم ميمما صوب عشه، حيث حل سباق الحمام الآن محل نقل الرسائل، وغدا سباق الحمام رياضة محببة فى كثير من دول أوروبا وأمـــريكا، وبالرغم من أن الأرض أصبحت الآن كتابا مفتوحا أمام عدسات الأقمار الصناعية والطائرات، إلا أن قدرة الحمام العجيبة على العودة في كل الظروف إلى عشه مازالت مثار تساؤل العقل البشرى، فأولتها مراكز البحث فى كثير من دول العالم المتقدم قدراً كبيراً من الاهتمام، لأغراض قد يكون الخفى منها أكبر من الظاهر، ولعل فيما نشرته صحيفة الأهرام فى عدد السبت ٢٢ مايو ٢٠٠٤ ما يكشف السر وراء اهتمام الغرب باستجلاء تلك القدرة لدى الحمام، يقول الخبر المنشور بالأهرام إن الوثائق السرية البريطانية التي كشف عنها مؤخرا أوضحت أن وزارة الطيران البريطانية خططت في إثناء الحرب العالمية الثانية لتدريب الحمام على حمل كبسولات محملة بالبكتيريا و الهبوط بها في أرض العدو. لقد شكلت تلك الأبحاث عن قدرة الحمام إضافة هامة لعلم سلالات الطيور، وإن فى عرض نتائج البعض من الأبحاث التى أجريت فى تلك المراكز لاستقصاء أسباب تلك القدرة لدى الحمام عرضا مبسطا هنا، إن فى ذلك ما يكفى لإحاطة القارئ علما بسمات منهج التقدم الذى رفع الغرب إلى المكانة التى يحتلها الآن.

منهج التقدم

حظيت دراسة أسلوب الحمام فى العودة لعشه باهتمام واسع فى الدراسات التى أجريت على سلالات الطيور بدول الغرب، حيث ألهم التراث المتداول من حكايات لا حصر لها عن عودة الحمام إلى عشه فى ظروف قاسية وعبر مسافات شاسعة العديد من العلماء أفكاراً لتجارب أجريت لاستجلاء كنه غوامض تلك القدرة، وقد تم خلال هذه التجارب تطوير العديد من الطرق الدقيقة لاختبار الكيفية والسمة المميزة لمختلف وسائل الاستشعار التى يمكن للحمام الاستعانة بها.

قدم جولد Gould فى عام ١٩٨٢م، وصفاً لنمط عودة الحمام إلى عشه، فقال بأن الحمام يدور عند إطلاقه محلقا عدة مرات حول مكان الإطلاق، ثم يوجه الطائر نفسه بعد ذلك فى اتجاه مستقل ليطير فى مسار مستقيم نسبيا ومبتعداً عن موقع إطلاقه، يقول جولد بأن الاتجاه الأولى الذى يتخذه الحمام عند طيرانه مبتعداً عن موقع إطلاقه يتفق وبدقة مع الاتجاه الحقيقى لموقع العش، ولا يظل هذا الاتجاه ثابتا مع تكرار إطلاق نفس الطائر من موقع الاطلاق ذاته لأكثر من مرة، تم إطلاق اسم الاتجاه الزائل Vanishing bearing على الاتجاه الأولى الذى يتخذه الحمام فى طريق عودته لعشه، ومن الأهمية بمكان القول بأن قيمة الاتجاه الزائل عند موضع ما أثناء طيران الحمام يختلف بمقدار طفيف عن الاتجاه الحقيقي للعش عند هذا الموضع، ويعرف هذا

الاختلاف عند كل موضع على طول مسار طيران الحمام على أنه ميل أو انحراف موقع الاطلاق. أثبت جولد أن معظم التجارب التى أجريت على عودة الحمام لعشه قد اعتمدت على واحدة أو أكثر من طرق الاستشعار الخارجي الملائمة لطيران الحمام، ويعد استخدام الحمام لموقع الشمس وحاسة الشم والشواهد الأرضية بالاضافة إلى المجال المغناطيسي للأرض أكثر ما تناولته تلك التجارب من طرق الاستشعار بالدراسة، وباستخدام القياسات المشار إليها قبل ذلك هنا مع بعض القياسات الأخرى، فإنه يمكن تحديد مدى إسهام كل طريقة من هذه الطرق تجريبيا في نمط عودة الحمام الى عشه.

بدأت التجارب التى أجريت على استخدام الحمام للشمس كوسيلة استشعار منذ بداية خمسينيات القرن العشرين. ففي عام ١٩٥٠م قام كرامر Kramer بتدريب مجموعة من الحمائم على كيفية استخدام الشمس لتحديد موقع للطعام فى اتجاه معين، وعندما عكس كرامر صورة الشمس مستعينا على ذلك بمجموعة مرايا، فان ذلك تسبب فى انحراف توجه الحمام نحو موقع الطعام، وفي تجربة أخرى... وجد هوفمان Hoffmann أن الحمام يستخدم الشمس لتحديد الاتجاه بتناسق مع ساعته الداخلية، والساعة الداخلية هى التى تعطى الكائن الحي الاحساس بتعاقب الليل والنهار، فعندما قام هوفمان بتغيير توقيت استيقاظ الحمام بتعريضه لضوء صناعي، فيما يعرف بطريقة تغيير الساعة الداخلية، فإنه وجد أن اتجاه عودة الحمام قد انحرف بمقدار ١٥ درجة في مقابل تغيير قدره ساعة واحدة فى توقيت استيقاظ الحمام، وقد فسر هوفمان هذا الانحراف في اتجاه الحمام بانه يعادل الفرق بين الوضع الزاوى الحقيقي للشمس والوضع الذى استنبطته ساعة الحمام الداخلية، ونتيجة لما قدمته تجربة هوفمان من حقائق، فان ماتيوس Matthews قال فى عام ١٩٥٣م بأن الحمام يحدد اتجاه موقعه باستقراء قوس الشمس لتحديد مدى ارتفاع الشمس فى الموقع الذى أطلق منه، ومن ثم يقارن الحمام بين ارتفاع الشمس فى هذا الموقع وبين الارتفاع المختزن فى ذاكرته لشمس منتصف اليوم فى مكان عشه، فإذا كان ارتفاع الشمس فى موقع الاطلاق أعلى منه فى مكان العش، فان ذلك يعني للحمام أن موقع إطلاقه يكون إلى الجنوب من مكان العش!، أى أنه يجب أن يتوجه فى عودته لعشه باتجاه الشمال!، وأما إذا أحس الحمام بأن ارتفاع الشمس فى موقع الاطلاق أدنى من مثيله الذى يذكره فى مكان العش، فان ذلك يترجم لدى الحمام بأن موقع الاطلاق يحل شمالا من العش!، وهو ما يوجب أن يكون اتجاه العودة الزاحف نحو الجنوب!، وتستمر نظرية ماتيوس بعد ذلك فى تحديد الوجهتين الأخريين - الشرق والغرب - لعودة الحمام، فتقول النظرية بأن الشمس إذا ما ظهرت منخفضة فى السماء طبقا لساعة الحمام الداخلية، فإن الطائر يدرك أن موقع عشه يكون إلى الشرق من مكان إطلاقه، وأما إذا كانت الشمس مرتفعة، فإن ذلك يدل على أن موقع العش يكون إلى جهة الغرب. وبالرغم من أن نظرية ماتيوس أسست على فروض لها من القوة والاقناع ما يسمح بفهم أدق لنمط عودة الحمام، إلا أن نتائج اختبارها الذى تم على يد كيتون Keeton فى عام ١٩٦٩م أوضحت أن هذه الفروض بعيدة عن الصحة، وأن الحمام الذى غيرت ساعته الداخلية.. استخدم الشمس كاتجاه وليس كإحداثيات ثنائية الأبعاد من أجل استشعار الاتجاه!، وبقول أخر فإن الحمائم التى غيرت نمط

استيقاظها نجحت في الاتجاه الذي يجب أن تسلكه عائدة لعشها، ولكن التأثير الوحيد لتغيير توقيت استيقاظها تمثل في عدم تمكنها من تحديد اتجاه العودة بدقة .

في مجال استخدام الحمام لحاسة الشم كوسيلة استشعار لتحديد طريق العودة إلى العش، فإن نتائج التجارب المتاحة حاليا تكشف أن حاسة الشم تمثل قانونا حرجا في الدوال المؤسسة لخريطة الحمام الملاحية، في البداية وقبل الحديث عن التجارب، فإنه من المهم الحصول على إجابات حول كيف ولماذا تتغير الروائح بيئياً أثناء الطيران؟، إن ذلك يحدث بسبب الفروق البيئية، وهي فروق تنشأ من اختلاف ديناميات الغلاف الجوى بين موقع وآخر، مما يجعل الإحساس بالروائح بدرجات أكبر أو أقل من مكان لآخر مصدراً للمعلومات الملاحية التي يستخدمها الحمام أثناء طيرانه، والتدليل على ذلك .. فإنه إذا افترض أن الحمام الايطالي يتميز عن الحمام الألماني في سباق العودة إلى العش، فإن إطلاق الحمام الايطالي في ألمانيا وإطارة الحمام الألماني في إيطاليا سوف يظهران فروقاً في أداء نوعي الحمام، إن نتائج تجربة كهذه تدعم افتراض كيتون الذي طرحه في عام ١٩٧٤م، وينص هذا الفرض على أن العوامل البيئية وبالأخص الروائح البيئية تصلح لأن تكون أساساً للمعلومات المطلوبة لخريطة الحمام الملاحية التي يطير بهديها .

لم يلق الدور الذي يمكن أن يلعبه الاستشعار البصري في عودة الحمام إلى عشه اهتماما مماثلاً لما لقيته أنواع أخرى من الاستشعار، وكان مرد ذلك لنتائج بعض التجارب القديمة، فعندما جهز الحمام في تلك التجارب بعدسات مكسوة بالثلج وبما يضمن تحييد الاستشعار البصري، فان الحمائم التي شاركت في تلك التجارب تمكنت من العودة إلى أعشاشها بدقة كبيرة!، وعندما وضعت نتائج تلك التجارب إلى جانب الحقيقة المعروفة من أن للحمام القدرة على العودة إلى عشه من مناطق لا يعلم شيئاً عن معالمها الأرضية، فان ذلك كان دافعاً لصرف التجارب على عودة الحمام إلى اتجاه آخر، بيد أن ماجاءت به بعض التجارب الحديثة مؤخراً من نتائج، جعلت الاستشعار البصري لدى الحمام يأخذ من جديد مكاناً لائقاً على خريطة البحث في هذا المجال، نذكر من هذه التجارب الحديثة ... تجربة أجراها شابيل وجويلفورد Chappell & Guilford في عام ١٩٩٧م. لاختبار قدرة الحمام على استخدام شواهد أرضية أثناء بحثه عن الطعام داخل مبنى مغلق، حيث أظهرت نتائج التجربة أن الحمام يستطيع بالفعل أن يستدل بشواهد أرضية خلال بحثه عن الطعام، وذلك شريطة أن تكون تلك الشواهد ثلاثية الأبعاد أي مجسمة وليست ثنائية الأبعاد كالصور مثلا!، وفي نفس العام - ١٩٩٧م - جاءت نتائج تجربة أخرى أجراها بيرت Burt وآخرون لتؤكد نتائج شابيل وجويلفورد، في تلك التجربة ... أتاح بيرت وفريقه البحثي للحمام مشاهدة موقع إطلاقه لمدة خمس دقائق وقبل أن يطير منه عائداً لعشه، ثم قارن بيرت ومن معه من باحثين سرعة عودة مجموعة الحمائم التي شاهدت الموقع قبل إطلاقها بالسرعة التي حققتها مجموعة أخرى لم تتح لها فرصة مشاهدة موقع الاطلاق، فأظهرت النتائج أن مجموعة الحمائم التي شاهدت موقع الإطلاق قبل الطيران قد قطعت المسافة إلى العش بسرعة أكبر من سرعة المجموعة التي لم تر موقع الإطلاق قبل التجربة بحوالي ١٦٪، لذلك أمكن للباحثين القول بأن الشواهد الأرضية المرئية تعد عنصراً من عناصر قدرة الحمام

على تبين طريق العودة، ولو أن أنواع الشواهد الأرضية والسمات المميزة لها - والتي يعتمد الحمام عليها في إنشاء خريطته الملاحية - لم تتضح بعد للباحثين.



ألهمت قدرة الحمام في العودة إلى عشه بصورة جيدة حتى في الأيام الغائمة التي تختفي فيها الشمس الكثير من الباحثين بالعديد من الأفكار، ومن هؤلاء الباحثين ويليام كيتون William keeton الذي قال في عام ١٩٦٩م بأن الحمام يستخدم الشمس في الأيام المشرقة لاستنباط المعلومات الاتجاهية المطلوبة لعودته إلى عشه، وأضاف كيتون إلى ذلك أن الحمام لابد وأنه يحوز ثمة إحساسا ثانويا بمساره، وقد افترض كيتون أن هذا الإحساس يمكن أن يكون بمجال الأرض المغناطيسي، ولتأكيد نظريته ... قام كيتون في عام ١٩٧١م بلصق قضيب ممغنط على جسم كل حمامة من مجموعة حمائم أطلقت لتعود إلى عشها، وقد أظهرت التجربة أن الحمائم التي حملت القضيب الممغنط فشلت في العودة إلى العش عندما أطلقت من مواضع إطلاق مجهولة لها قبل التجربة وفي جو معتم وملبد بالغمام، وقد نجحت هذه المجموعة من الحمائم - المزودة بالقضيب الممغنط - في العودة إلى العش أثناء الأيام المشرقة وبالرغم من حدوث مشاكل بسيطة في طيرانها، لذلك يمكن القول بعد هذه التجربة أن المجال المغناطيسي للقضيب الممغنط الذي تحمله الحمائم يتداخل مع نظامها الطبيعي للملاحة الجوية، مما جعل كيتون يستنتج أن الحمام يعتمد على نظامي توجيه أثناء طيرانه، الأساسي منهما يعتمد على موقع الشمس والثانوي يستلهم المجال المغناطيسي للأرض، وقد أوضح كيتون أخيراً ومتفقاً في ذلك مع مجموعة أخرى من الباحثين، أن التوجيه المغناطيسي في الحمام يعد فطريا، وأن الحمام يستخدم التوجيه المغناطيسي لتقويم أو معايرة التوجيه الشمسي خلال عودته لعشه، مما يعد تفسيراً لإخفاق الحمائم الصغيرة في استخدام التوجيه الشمسي لتحديد المعلومات الاتجاهية خلال رحلتها الأولى، وذلك لقصور خبراتها ولعدم طيرانها قبلا بواسطة تحسس المجال المغناطيسي (جولد ١٩٨٢، كيتون ١٩٧٤)، إن التجارب التي تمت خلال العقود الثلاثة الماضية على الاستشعار المغناطيسي لدى الحمام لاحصر لها، وهي تجارب استهدفت على سبيل المثال دراسة التأثيرات المحتملة لوجود مجال مغناطيسي صناعي ولحدوث العواصف المغناطيسية على قدرة الحمام في استنباط خريطة فضائية Spatial map يستهدي بها في ظروف الأجواء الماطرة أو الملبدة بالغمام، قامت تلك التجارب أيضاً بالربط بين التغيير في خصائص المجال المغناطيسي الأرضي وبين التغير في الاتجاه الزائل لحمام التجارب، بل وحاولت تلك التجارب أن توضح أيا من مركبات المجال المغناطيسي يستخدمها الحمام للاستدلال على الاتجاه، وبالرغم من ذلك فإن الحقائق الكاملة عن الاستشعار المغناطيسي لدى الحمام مازالت في حاجة لمزيد من البحث والاستقصاء.

استخدم ولراف Wallraff في عام ١٩٩٠م ماباحت به التجارب من نتائج لصياغة نظرية متكاملة حول اهتداء الحمام لعشه، قال ولراف بأن الدلائل تؤكد أن عناصر الخريطة الفضائية التي يستخدمها

الحمام لتحديد موقعه تجمع بين الاستشعار عن طريق الشم والشواهد المرئية والمغناطيسية، بينما يجيء إحساس الحمام بالاتجاه من موقع الشمس والمعطيات (المواصفات) المغناطيسية للموقع، وبالطبع فان نظرية ولراف لاتقدم إجابات قاطعة لبعض علامات الاستفهام التى طرحتها بعض التجارب. ومما لاشك فيه أن نتائج تلك التجارب التى تواصلت خلال النصف الثانى من القرن العشرين لم تقدم بعد تفسيرا نهائياً وحاسماً لقدرة الحمام الفذة فى الاهتداء لعشه، ولكن الشيء المؤكد الذى يمكن للمطلع على نتائج تلك التجارب أن يستخلصه، هو أن تقنية تلك القدرة تعد أمراً بالغ التعقيد يتطلب مزيداً من الجهد والبحث لاستقصاء غوامض تلك القدرة التى تجعل الحمام طائراً أكثر سحراً ومنفعة.

منهج التخلف

عندما حضرت فى مساء الخميس السادس والعشرين من شهر فبراير الماضى جلسة للعلاج بالحمام، لمع فى عقلى بريق الفهم لما رمى به الأستاذ مصطفى نبيل من سؤالى عما كتبته «الهيرالد تريبيون» عن الحمام، وأدركت فى نفس الوقت الهدف المستتر وراء مقال «الهيرالد تريبيون» فى ٢٠٠٤/١/٣٠، وعرفت أيضا سر اهتمام رئيس تحرير «الهلال» بقراءة مقال «الهيرالد تريبيون»، عقدت الجلسة التى حضرتها فى غرفة الاستقبال بمسكن جار لى يشغل منصباً مرموقاً فى أحد أجهزة الدولة الحساسة، حين كنت أحملق - والأسى يملأ قلبى - إلى جارى الجالس على كرسى فى منتصف الغرفة، وهو يمسك بيده حمامة صغيرة نزع الريش من مؤخرتها ويلصق شرج الحمامة بموضع السرة من بطنه العارى، كان عقلى يحلق بعيداً خارج الغرفة يسترجع ماكتب بالصحف والمجلات عن موضوع العلاج بالحمام الذى شغلت به مصر والمصريون فى شهر يناير الماضى، ولما كنت أنفر من الغيبيات بطبعى وأعتقد فى حتمية المنهج العلمى بحكم عملى، فإننى لم أعر ماكتب عن حكاية العلاج بالحمام اهتماماً آنذاك، ولما انتهت جلسة العلاج «الحمامى» بالفشل ولم تنفق الحمامة كما يزعمون، فإننى غادرت مسكن الجار المكتئب لما أصاب كبده، لأبحث عما نشرته الصحف والمجلات من موضوعات عن العلاج بالحمام، حيث وجدت فى التحقيق الذى نشر بالعدد رقم (٤١٣٥) من مجلة «المصور» الصادر فى ٢٠٠٤/١/٩م ما أشبع فضولى، ناقش التحقيق الذى أعده الكاتب الصحفى «عزت بدوى» واختار له العنوان التالى: «لماذا تموت الحمامة؟!! - الخرافة والحقيقة فى علاج فيروس (سى) بالزغاليل!!» ما وصل إليه الأمر فى مجال البحث العلمى والطب بمصر وكثير من دول المنطقة، بدأ التحقيق بالحديث عن مصدر الفكرة وصاحبها، فاذا به طبيب متخصص فى علاج أمراض الجهاز الهضمى والكبد وعضو بجمعية مرضى الجهاز الهضمى والكبد والجمعية الطبية الأمريكية والأوربية وحاصل على ماجستير فى طب المناطق الحارة عام ١٩٧٦م- (المصور العدد ٤١٣٥ - ص ٢١)، قال الطبيب فى التحقيق المنشور بمجلة «المصور» إنه أخذ فكرة علاج المرضى بفيروس (سى) من أحد الأعراب المقيمين فى جنوب سيناء، ثم قام الطبيب المؤهل والدارس بعد أن تلقى طريقة العلاج الجديدة بتحويل عيادته بإحدى عواصم محافظات الدلتا لمعالجة مرضاه بأنثى (زغاليل) أى صغار الحمام، كانت الفكرة العبقرية للعلاج العصرى الذى أهداه البدوى

مقطوعا لطبيبنا الهمام تقوم على إلصاق فتحة شرج الحمامة التي نزع من حولها الريش ببطن المريض عند منطقة السرة. وإن هي إلا دقائق أو ثوان حتى تموت الحمامة جراء انتقال الفيروس اللعين - فيما يزعم الطبيب - من كبد المريض إليها. هنا يجد المرء نفسه في مواجهة سيل من الأسئلة لايجد لها إجابة عند الطبيب وأستاذه الأعرابي، ولعل النماذج التالية من هذه الأسئلة تكشف للقارئ بعض الجوانب اللامعقولة في علاج الطبيب والأعرابي. كيف يعبر الفيروس من كبد المريض إلى شرج الحمامة؟. لماذا يقتصر العلاج على أنثى صغار (زغاليل) الحمام؟. ألا تصلح الذكور لنفس المهمة؟، ولماذا ينفرد الحمام بين طيور الأرض بهذه الخاصية؟. ألا يصلح طائر آخر كالأوز أو البط ليحل محل الحمام في علاج مرضى الكبد؟. أسئلة لا حصر لها لم يتوقف مريض - مهما بلغ علو مستواه الاجتماعي أو الثقافي - ليسأل نفسه أو الآخرين عنها، وإنما اندفعت الكثرة الغالبة من المرضى - الذين أهلكهم المرض وقضى علاجه الباهظ على مدخراتهم - تتعلق بعلاج رخيص كهذا ينأى بهم عن جشع الأطباء وشركات الأدوية

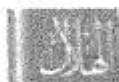
لم يكن أمر العلاج الجديد ليمر هكذا دون أن تتصدى الجامعات وأجهزة الدولة المختصة لفحصه وبحث فكرته، وها هو الدكتور صالح محمود صالح . عميد معهد الكبد القومي بجامعة المنوفية يتحدث عن العلاج الجديد قائلاً : «إنه لشيء مهين على مهنة الطب في مصر أن نتحدث عما يسمى بالعلاج لمرضى الكبد بالحمام، وأن ندخل في جدل علمي حول (خرافة) ونحن في بداية الألفية الثالثة» (المصور: العدد ٤١٣٥ - ص ٣٣)، وفيما يعد اتفاقاً في الرأي مع عميد معهد الكبد . تساءل الدكتور أحمد مسعود أستاذ أمراض الجهاز الهضمي والكبد بكلية طب الأزهر، «هل هناك عاقل واحد يصدق أن الحمامة تمتص الفيروس من كبد المريض؟» (المصدر السابق)، وجاء التفسير العلمي لحكاية العلاج بالحمام على لسان الدكتور أحمد شوقي العقباوي ، أستاذ الأمراض النفسية بطب الأزهر، تحدث الدكتور العقباوي ، في تحقيق مجلة «المصور» قائلاً «إن هذا العلاج ليس سوى خرافة، يمارسها طبيب متخصص ويقدمها في ثوب يسمى بالعلم الزائف، مستغلاً العقل الجمعي العربي الذي تسيطر عليه الخرافة باعتبارها مريحة وتعد بالخلاص السهل من أي أزمة، لأن المجتمع كله يسيطر عليه الفكر الخرافي والاستهواء، وهو التصديق بدون مناقشة» (المصدر السابق)، وفي النهاية جاء رد الدولة على العلاج المزعوم متمثلاً في قرار وزارة الصحة إغلاق عيادة الطبيب، وكان رد الأستاذ الدكتور عوض تاج الدين، وزير الصحة حاسماً على من طالب الوزارة بالبحث عن الحقيقة في العلاج الجديد، حيث قال د. عوض تاج الدين: «لن نشكل لجانا علمية لبحث خرافات» (المصدر السابق).

عندما فرغت من قراءة السطر الأخير من تحقيق «المصور» ، أدركت أن ضياع فلسطين وسقوط العراق وما سيأتي بعد ذلك، لم يكن محض مصادفة أو عثرة تقال منها الأمة بالمظاهرات والشعارات، وإنما ما نحن فيه هو هزيمة حضارية بمعنى الكلمة وبكل ماتدل عليه، هزيمة حضارية لن تقوم لنا منها قائمة إلا بإطلاق روح الأمة الخامدة من خلال تطبيق منهج التقدم. ■

قراءة في صفحات الوجع والمقاومة المصرية

بقلم
صافي ناز كاظم

في ٢٨ يونيو ١٧٩٨ - الموافق لشهر المحرم ١٢١٣ هجرى - ضربت مدينة الاسكندرية بالغزو البونابرتى ، الذى جاء على رأس حملة احتلال استمر ثلاث سنوات و ٢١ يوما من ١٧٩٨ حتى ١٨٠١ (من السبت ٩ صفر سنة ١٢١٣ هجرى حتي ليلة الجمعة ٢١ صفر سنة ١٢١٦ هجرى ، كما يذكر الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار» جزء ٢ ص ٤٨٠). تصدى حاكم الاسكندرية ، الشهيد محمد كريم ، للغزو فى بطولة مثالية انتهت باعتقاله وإرساله مخفوراً إلى نابليون بونابرت فحكم بإعدامه أو دفع فدية باهظة خلال ١٢ ساعة يقتل بعد انتهاء المهلة فوراً . هذا الحدث يرويه المؤرخ العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ ، طبعة دار الجيل ، بيروت» قائلاً : «... فاشتد غيظهم عليه فأرسلوا وأحضروه إلى مصر وحبسوه ، فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرات فلم يمكن ، إلى أن كانت ليلة الخميس فحضر إليه مجلون وقال له : المطلوب منك كذا وكذا من المال ، وذكر له قدراً يعجز عنه وأجله اثنتى عشرة ساعة ، وإن لم يحضر ذلك القدر وإلا يقتل بعد مضيها .





فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمد المحروقى فحضر إليه بعضهم فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث وصار يقول : اشترونى يا مسلمون ، وليس بيدهم ما يفتدونه به ، وكل إنسان مشغول بنفسه ومتوقع لشئ يصيبه .. .. فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة ، ويقدمهم طبل يضربون عليه وشقوا به الصليبة إلى أن ذهبوا إلى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحاً وضربوا عليه البنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ورفعوه على نبوت وطافوا به بجهات الرميلة والمنادى يقول : هذا جزاء من يخالف الفرنسيس . ثم إن أتباعه أخذوا رأسه ودفنوه مع جثته . وانقضى أمره وذلك يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول » - (من سنة ١٢١٣ هـ الموافق ٦ سبتمبر ١٧٩٨ م) .

***

فى كتابه المرجع : «... ودخلت الخيل الأزهر» يهدى محمد جلال كشك صفحاته إلى : «سليمان الحلبى بطل الوحدة العربية يوم كان طريقها عبر الأزهر» - (الشهيد سليمان الحلبى ، قاتل المحتل كليبر ، الذى تم إعدامه على الخازوق على يد الفرنسيين ، ولقبه فى فرنسا حتى الآن هو «الارهابى») .

«... ودخلت الخيل الأزهر» ، مجلد يقع فى ٣٤٥ صفحة من القطع الكبير ، إصدار الدار العلمية ببيروت ، سلسلة المكتبة السياسية ، طبعة أولى ذو الحجة ١٣٩١ ، يناير ١٩٧٢ ، مقسم إلى تسعة فصول ، غير خطبة الكتاب والمدخل والهوامش والمراجع . فى تقديم الكتاب يقول المؤلف «الخلاف حول تفسير التاريخ ليس ظاهرة ترف ، ولا هو مجرد خلاف حول تفسير الماضى ، بل هو فى الدرجة الأولى خلاف حول الطريق إلى المستقبل ... والأمم تهرع إلى تاريخها فى لحظات محنتها ، تستمد منه الإلهام والدعم النفسى ، بينما يلجأ خصومها دائما إلى تزييف التاريخ وتشويهه لتضليل الحاضر وإفساد الطريق إلى المستقبل .

والذين يروجون بعد هزيمة ١٩٦٧ للدور التحضيرى والتحريرى الذى لعبه غزو البلدان المتقدمة للشرق المتخلف ، هم فى الحقيقة يطرحون إجابة - غير مباشرة - للجماهير المعاصرة . وهذا الكتاب محاولة للكشف عن هذا التزييف لدعم اتجاه إعادة الثقة للأمة بمستقبلها»

***

تتميز كتابة محمد جلال كشك

بالحيوية التي تصل بك أحيانا كقارئ إلى حد الإرهاق ، كما تتميز بالحضور الوهاج الذي يجمع بين غزارة المعلومات ، وعمق التحليل ، والقدرة على الربط والمقارنة بين زوايا الرؤية ، والمبارزة الجدلية في كل اتجاه مع خفة ظل حادة يعرف كيف يوظفها في قفزات سريعة ويصوبها إلى مكانها المطلوب برشاقة ودقة متناهية . قراءة كتاب مثل «... ودخلت الخيل الأزهر» هي في حقيقتها معايشة كاملة لطقس وسخونة حدث الغزو البربري الذي شنه نابليون بونابرته في حملته على مصر صيف سنة ١٧٩٨ ، مسحوباً بكل توتره وآلامه وأوجاعه وغيظه إلى أحداث زماننا المعاصرة ، وهي قراءة تحطيك إلماماً بكتابات أخرى لأمثال : الجبرتي في «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وكريستوفر هيرولد في «بونابرت في مصر» والرافعي في «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر» وآلن مورهيد ، و د. لويس عوض ... الخ . يستعين بكل هؤلاء وغيرهم - كأنهم حاضرون في راحة يده - مستشهدا بهم أو شاهداً لهم أو عليهم ، خارجاً في كل مرة برؤيته الخاصة المخلصة مصقولة متلألئة ناصعة واضحة بلا أي التواء أو مواربة أو تحفظ . يكتب متلذذاً بالكتابة والقضية ، متحمساً ، فينتقل إليك الشغف مهما قاومته أو عاديته ، هو منغمس كل الانغماس في موضوعه - كأنه سيكون آخر ما يكتب ، وأنت لابد منغمس معه كأن كتابه سيكون آخر ما تقرأ .

ولقد عاني محمد جلال كشك من لصوص النقل : هواة البحث المسلوق المسروق الذين استباحوا جهده ، واغترفوا بوفرة من مؤلفاته ، حصاد بحثه المضنى وخلاصات تحليلاته ورؤيته ، وتعاملوا مع مؤلفاته كأنها فولكلور مجهول المؤلف من حقهم أن ينشلوه بل وينهبوه من دون أن يطرف لهم جفن ، وقد كان هذا يحدث في حياة الرجل ويشكوه إليّ قائلاً : «ياريت حتى ينقلوا صح» ، أما وقد توفاه الله في ٥ /١٢/١٩٩٣ فلكم أن تتصوروا ماذا يحدث عندما يخلو الجو للصوص .

***

كتب جلال كشك « ... ودخلت الخيل الأزهر» مستنفراً للرد بالحجة والتفصيل على المنحنى الفكرى الخطير للدكتور لويس عوض ، المعادى للإسلام والعروبة حضارة ودينا ، والدكتور لويس عوض قائد ماهر ثقيل الوزن للأوركسترا

الفرانكفونى الداعى لتغليب الثقافة الغربية لسحق الشخصية الإسلامية العربية لمصرنا المحروسة . وكان قد شطح بالعزف التغريبى منذ زمن إلى ذروة اعتبار الحملة الفرنسية نقلة «حضارية» واعتبار الخائن المعلم يعقوب من رموز البطولة المصرية الساعية إلى تحريرها بمساندة الغازى الأجنبى . ويا ليت جلال كشك كان معنا ليرى ما رأيناه عام ١٩٩٨ من احتفالات ورثة الخائن يعقوب بذكرى مرور ٢٠٠ سنة على دخول خيل بونابرته الأزهر التى يصفها الجبرتى ساردا « ... وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالى الظهر واستمر إلى المساء وأصدر بونابرت أمره إلى الجنرال بون بأن يبيد كل من فى الجامع . ودخلوا الجامع عنوة وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع .. والودائع والمخبئات بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه » .

- الجبرتى ج ٣ ، مأخوذ من «ودخلت الخيل الأزهر» ص ٢٣٤

***

فى الفصل الثانى ، ص ١٢٥ يقول الأستاذ محمد جلال كشك تحت عنوان «نابليون والمهمة الحضارية» «رغم كل البيانات والمنشورات والتحليلات التى صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية .. فإن نابليون كان صريحا وواضحا فى تحديد مهمته فى مصر عندما قال سأستعمر مصر ، وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين . إن ست سنوات تكفينى للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيراً طيباً .. ولو سارت الأمور سيراً طيبا ... لكان نابليون قد استورد المزيد من العمال والنساء . . ثم الفلاحين ... وهذا المخطط للاستعمار البشرى لمصر تحدث عنه نابليون صراحة فى مذكراته فى سانت هيلانة وهو يتحدث عن أحلامه فى مصر ، وما يمكن أن يحدث فيها من رخاء وتقدم بفضل ضبط مياه النيل وتضاعف عدد السكان أربع مرات بفعل المهاجرين الكثيرين من اليونان وفرنسا وإيطاليا وبولنده وألمانيا ..... لكن الأمور

لم تسر - لنابليون - سيراً طيباً لأسباب عديدة أهمها وأخطرها أن الشعب المصرى ، أن أولاد العرب ، أمة الإسلام رفضت المهمة الحضارية لنابليون ....» وهذه الجملة الأخيرة يقولها الأستاذ جلال كشك بتهكم شديد لأنه لم يكتب مؤلفه هذا «ودخلت الخيل الأزهر» ، إلا لكى يثبت كيف كانت مهمة نابليون وحشية ، عنصرية ، بربرية وأبعد ما تكون عن «المهمة الحضارية » ! بل إنه ص ١٣٠ يعمم الحكم حول : «... الازدواجية التى تتميز بها الثورية الغربية ، فهم ثوريون يتغنون بالأناشيد الثورية فى شوارع باريس ، بل وعلى ظهر البوارج الفرنسية ... ولكنهم لا يجدون أى تناقض بين المقاطع التى تتغنى بالحرية والإخاء والمساواة والتى ترددها حناجرهم الجماعية وبين ذبح الشعوب غير الفرنسية واحتلال بلادها ونهب ممتلكاتها .. هذه الازدواجية ، هى التى مكنت أوروبا من إنجاز تطورها فى اتجاهين : تحرير مجتمعها ، واستعمار مجتمعات الآخرين بذات الجماهير التى قاتلت الاستبداد فى بلادها ، وفرضت الاستبداد والعبودية على الشعوب الواقعة جنوب أو شرق الجنس المتحضر ..... » وفى ص ١٧٧ يقول الأستاذ جلال كشك «وكتّاب الحملة الفرنسية أصدق فى الحديث عن شعور الشعب المصرى ، وعن العلاقة التى قامت بين المحتل وشعب المستعمرة .. فالمسيو مارتان يقول : لم يترك الأهالى وسيلة لقاومة السلطة الفرنسية إلا واتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية لهذه المقاومة ... وقد اتخذ المصريون شعارهم ... وهو أن مقاومة الاضطهاد هى أقدس واجبات الشعب .... وقال .... كبير أطباء الجيش الفرنسى فى مذكراته : لقد تكلموا كثيرا ... عن حفلات عيد الجمهورية الفرنسية ، وتأثيرها فى نفوس المصريين ، على أن كاتب هذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما فى سكان القاهرة .... أما المسيو ريبو فقال : كانت هناك عقبات وطنية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد - (الفرنسيين) - فقد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف الأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها .... لذلك كان الوجه البحرى بالرغم من احتلاله وانهزامه ، غير خاضع ولا مستسلما ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مرّ بها الجيش الفرنسى ورفعت علم الثورة .... وقال:

كان الجنود - الفرنسيين - يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة - المصرية - كانت كحية ذات مئة رأس ، كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى بلد آخر ..... أخطأت حسابات الحملة الفرنسية تقدير مدى الرفض الذي سيجابهها من الشعب المصري ... » ويقول جلال كشك ، تعقيباً على كلام للأستاذ الرافعي خاص «بظاهرة» المقاومة «العجيبة» التي أبداها الشعب المصري ضد الحملة الفرنسية حتى أن الرافعي أكد أنه من الصعب أن نجد لهذه المقاومة شبهاً «كانت مصر مازالت بكراً لم تلوثها أمراض تحديث كاذب ، لذلك هب شعبها ، في أروع مقاومة ، سجلها تاريخ القرن التاسع عشر كله ، للغزو الاستعماري الغربي».

***

تقرأ في كتاب «ودخلت الخيل الأزهر» عناوين يختارها الأستاذ جلال كشك بعناية مثل : «الدجال يدخل القاهرة» ، «المقاومة والتنكيل» ، و «ثارت مدينتي» - (القاهرة) - ، «تنظيم الثورة» و «مع الثورة» ، «ثورة القاهرة الثانية» ، «محاولة تمزيق الوحدة الوطنية» ... الخ . وتأتي خلال القراءة فقرات له مثل . «وتاريخ الحملة الفرنسية في مصر ، يسجل يومياً مدى المقاومة الباسلة التي بذلها الفلاحون المصريون ، والعامة في المدن ، والنخبة الوطنية ممثلة في الشيوخ والتجار والأعيان ، مدى المقاومة التي بذلوها ضد استقرار الجيش الفرنسي ولإفساد رسالة نابليون الحضارية .....» ومثل «لنتذكر دائماً أن نابليون هو أول حاكم لمصر تجرأ على إعدام العلماء المصريين . ونابليون هو الذي أمر : أغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة» . ومثل : « ... واضح أن نابليون كان يفضل أن يتم النهب بالوسائل العصرية .... ولكن ثورة القاهرة الأولى جاءت تكشف عن التترى المتخفي في ثياب القرن التاسع عشر ...» ، ومثل : «وجميع المؤرخين المعاصرين للحملة الفرنسية ، والذين جاءوا بعد عشرات السنين ، يجمعون على وصف جماهير الثورة - المصرية - بالزعرنة والغوغائية والدهماء ... وهذا يؤكد أصالتها» . (ثورة القاهرة الأولى أكتوبر ١٧٩٨) - وفي ص ٢٣١ نقرأ : «أما بونابرت فقد ثار غضبه وهو في مقر قيادته بقصر الألفي ، فأمر مدفعية

القلعة المعززة بمدافع الهاويتزر والمورتار ، بأن تسدد المدافع إلى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء ، هي مركز الثورة ... ولم يكن الأزهر الذي صب نابليون نيران الثورة الفرنسية عليه ، يمثل فقط القيادة المباشرة لثورة أكتوبر ١٧٩٨ ... بل كان قيادة الأمة كلها ، تاريخياً وواقعياً ومستقبلياً ، لذلك كان الحقد عليه والتركيز على سحقه مسجداً وجامعاً ومجاورين ومشايخ ونفوذاً .....»

وفي ص ٢٣٥ نقرأ « .... وكانت نية نابليون متجهة إلى هدم الجامع الأزهر ...... بتاريخ ٢٣ أكتوبر - (١٧٩٨) - يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن ، وترفع الحواجز والأبواب التي كانت تسد الشوارع .... ثم بدأت العدالة الثورية الفرنسية في الاقتصاص من الثوار البلديين ، سواء في القاهرة أو في الأقاليم . بعقوبات رهيبة شرفتنا ورفعت قدرنا ، كما وصفها تترى فرنسي ! »

وهنا يقول جلال كشك : «ومن أجل المزيد من التشريف ورفع القدر أصدر نابليون للجنرال برتييه : تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح . فليؤخذوا إلى شاطئ النيل بعد هبوط الظلام ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر .» ثم يعقب الأستاذ جلال كشك : «وفضلاً عن هؤلاء المسجونين ، أعدم في القلعة ثمانون عضواً من ديوان الدفاع ، الذي تزعم الثورة ..... وتم قطع رؤوس ستة من المشايخ ... بل إعدام شيخ طائفة العميان بتهمة القيام بعمل مسلح ضد المدفعية الفرنسية . ..

ولا يخجل إمام من أئمة المدرسة الاستعمارية مثل ميرولد من تبرير جريمة نابليون ، بأن يخلع على هؤلاء المشايخ أوصافاً تحريضية مثل . لا جدال في أن هؤلاء الرجال كانوا أشد رجال الدين المسلمين تعصباً وتهييجاً للجماهير ......» !

ويذكر الأستاذ محمد جلال كشك ص ١٩٨ تلك الواقعة : «إنتصر أهالي المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود في معسكرهم يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالي البلاد المجاورة، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية ، فهاجموا الجند، ونادت المدينة بالثورة رجالاً ونساء ، وكان النساء يحرضن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين ...»

وفي دمياط : « .... لا يأمن الجندي

الفرنسي على حياته إذا هو ذهب إلى حي الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصاة في حي الأروام» . - (ص ٢٠٠) - ، «وعند جزيرة فيلة - أنس الوجود قال الجنرال بليار : حمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ، ويحثون التراب في وجوهنا .....» - ص ٢٠٣ .

المقاومة من الإسكندرية حتى أنس الوجود . رجال ونساء وصبية . وكان التنكيل الصارم هو القرار النابليوني الحرق والتدمير والإبادة ، والصياغة التاريخية ينقلها جلال كشك ص ٢١٣ هكذا «..... وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف .....» .

وفي ص ٢٤٠ يقول : «قال المسيو بوريين ، سكرتير نابليون الخاص في مذكراته : سيق المسجونون إلى القلعة، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام إثنى عشر سجينا كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل . واستمر ذلك ليالي عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية .....» ويعلق جلال كشك قائلاً : «وإذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة في إعدام النساء الثائرات ، فأي عذر وأي منطق يخفي عار من يتصدون اليوم لتزوير تاريخ هذا الشعب فيجعلون من .... الخروج مع العسكر الفرنسيين في ثياب خليعة وتهتك خلقي ، بداية حركة تحرير المرأة ، ويغفلون عن عمد اشتراك المرأة المصرية في أعمال المقاومة في الريف المصري ، واشتراكها في قيادة الثورة بالقاهرة على نحو دفعت معه حياتها ثمنا لهذا الاشتراك ، فأعدمت قيادة الثائرات بحد السناكي في القلعة أو أغرقن في النيل ... دون أن يسجل تاريخ الحملة الفرنسية حادثة انهيار واحدة للمجاهدات الباسلات ....» ، والمعروف أن الخليعات من النساء ، اللاتي كن يصاحبن العسكر الفرنسي ، كن يدللن من الفرنسيين بالكلمة الفرنسية «شارمنته» - أي اللطيفة - وقد تحولت هذه الكلمة على ألسنة المصريين من «شارمنته» إلى الكلمة الشعبية المعروفة التي تنعت بها المرأة الساقطة : «شر مـ ..... » !

ارتفع الكثير من أبناء مصر وبناتها شهداء المقاومة الباسلة للحملة الفرنسية ، والغالبية هم الشهداء والشهيدات مجهولات الأسماء ، لكن يظل هناك

البعض من الذين سجلهم الشيخ المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بأسمائهم في كتابه «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ، الجزء الثاني ، تحت عنوان «من مات في هذه السنة - (١٢١٣ هـ الموافق ١٧٩٨ ، ١٧٩٩ م) - من الأعيان ومن به ذكر في الناس » ص٢٧٦ ، اختار من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

١ - « .. ومات العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري ، قرأ على والده وتفقه وأنجب ولم يزل ملازما لدروسه حتى توفي والده فتصدر للتدريس في محله ، واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم ، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار يملي ويفيد ويفتي على مذهبه ، ويأتي إليه الفلاحون من جيزة بلاده بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوى في الدعاوى التي يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضي ، وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه ، ويستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه .... واشتهر ذكره وكان جسيما عظيم اللحية فصيح اللسان ، ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيس .. ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ولم يعلم له قبر».

٢ - « ... ومات الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح القانع الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الشافعي الأزهري ، تفقه على أشياخ العصر .... وتصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالجوهرية وبالمشهد الحسيني ويحضر درسه فيه الجم الغفير من العامة ويستفيدون منه .... وكان حسن الإلقاء سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة مقبلا على شأنه ، ولم يزل ملازما على حالته حتى اتهم في إثارة الفتنة وقتل بالقلعة شهيداً بيد الفرنسيس في أواخر جمادى الأولى من السنة ، ولم يعلم له قبر » - (حوالي نوفمبر ١٧٩٨) .

٣ - « .. ومات الشاب الصالح والنبيه النالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصيلحي الشافعي الأزهري ، حفظ القرآن والمتون وحضر دروس أشياخ العصر .... وأنجب وأملى دروساً بجامع الكردي بسويقة اللالا ، وكان مهذب النفس لطيف الذات حلو الناطقة مقبول الطلعة خفيف الروح ولم يزل ملازماً على حاله ، حتى اتهم أيضا في حادثة الفرنسيس وقتل مع من قتل شهيداً بالقلعة» .

٤ - « .. ومات العمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان .... وقتل فيمن قتل بالقلعة ولم يعلم له قبر...».

٥ - «ومات الأجل المفوه العمدة الشيخ إسماعيل البراوي بن أحمد البراوي الشافعي الأزهري ...... وكان قليل

البضاعة إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنساوية وقتل مع من قتل شهيداً ولم يعلم له قبر غفر الله لنا وله .».

٦ – «ومات الأمير ابراهيم بك الصغير المعروف بالوالي وهو من مماليك محمد بك أبي الذهب .... ولم يزل فى سيادته وإمارته حتى حضر الفرنساوية ووصلوا بر إنبابه ، ومات هو فى ذلك اليوم غريقا ، ولم تظهر رمته وذلك يوم السبت سابع صفر من السنة » . – الموافق يوليو ١٧٩٨ .

٧ – «ومات أيضاً الأمير أيوب بك الدفتردار وهو من مماليك محمد بك .... وكان ذا دهاء ومكر .... ويشترى المصاحف والكتب ويحب المسامرة والمذاكرة وسير المتقدمين ، ويواظب على الصلاة فى الجماعة ويقضى حوائج السائلين والقاصدين بشهامة وصرامة وصدع للمعاند خصوصاً إذا كان الحق بيده ، ويتعلل كثيراً بمرض البواسير وسمعت من لفظه رؤيا رآها قبل ورود الفرنسيس بنحو شهرين تدل على ذلك وعلى موته فى حربهم . ولما حصل ذلك وحضروا إلى بر إنبابه عدى ... قبل بيومين وصار يقول أنا بعت نفسى فى سبيل الله ، فلما التقى الجمعان لبس سلاحه بعد ما توضأ وصلى ركعتين وركب فى مماليكه ، وقال اللهم إلى نويت الجهاد فى سبيلك ، واقتحم مصاف الفرنساوية وألقى نفسه فى نارهم ، واستشهد فى ذلك اليوم وهى منقبة اختص بها دون أقرانه بل ودون غيرهم من جميع أهل مصر» .

– ص٢٨٥ من المصدر المذكور سابقا –

.... وطوبى لشهدائنا فى كل زمان ومكان. ■

ربيع ثاني ١٤٢٥هـ يونيو ٢٠٠٤م

كلمات عاشت

– الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزاهدين سياسة ، وللعارفين تكرمة .

يحيى بن معاذ

– كل فلسفة في الحياة تبدأ بإحساس أو شعور عميق ، أو مزاج شخصي .. وتنتهي برأي

ألدوس هكسلي

– لا أريد لبيتي أن يكون مسورا من جميع الجهات ، ولا أريد أن تكون نوافذي مغلقة وأريد أن تهب عليه ثقافات كل الأمم ، ولكني أنكر على أي منها أن تقتلعني من جذوري

غاندي

عشيقة نابليون فى مصر

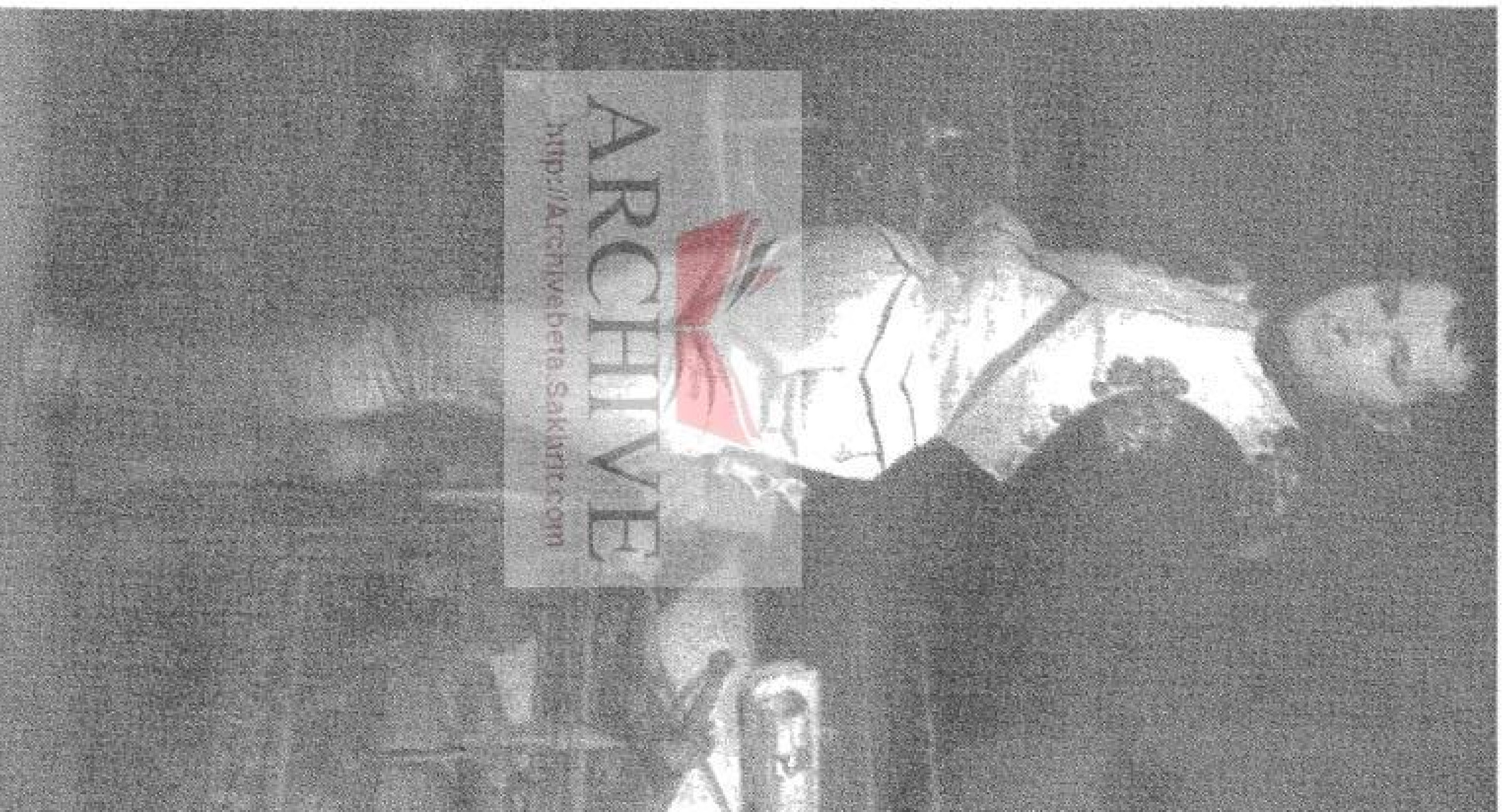
رغم أن نظرية (كارليل) حول دور الأبطال أصبحت مردودة، إلا أن البحث عن وثائق أو خفايا هؤلاء الأفراد أو القادة ماتزال تغرى ، بل مايزال لها دور فى قراءة واستقراء التاريخ، وحينما يكشف الدارس فى هذا العصر وثيقة جديدة تعيد النظر فى موقف تاريخى فليس معنى ذلك أن التاريخ مازال تحت سيطرة الأفراد كما كان يبدو فى القديم.

● أحلام (بوناتراب) في رسائل ولوحات (بليلوت)

● السيدة التي تخفت في زي الرجال ثم تخلت عن زوجها وأصبحت عشيقة نابليون

بقلم
د. محمد المهدى

٩٣
الهلال
ربيع ثاني ١٤٢٥هـ - يونيه ٢٠٠٤م



نابليون بونابرت - لوحة من مقتنيات متحف اللوفر الفنان دافيد

فنابليون حينما جاء إلي مصر عام ١٧٩٨ كانت وراءه (٤٧) سفينة حربية، و٩٧ سفينة نقل .. ارتفع العدد بعد ذلك ليصل إلي أربعمائة سفينة.

الحملة كانت ٣٠.٠٠٠ رجل منهم ٢٤ ألفاً من الجنود والباقي من المدنيين ... أطباء، ومهندسون ، ودارسون، وعلماء... وأيضاً ثلاثمائة امرأة متخفية في زي الرجال بعيداً عن أنظار السفينة القائدة، سفينة L'ORIENT (لوريان) الشرق التي وقف في مقدمتها ذلك القائد المتواضع الهيئة البالغ من العمر آنذاك تسعة وعشرون عاماً تاركاً وراءه في باريس تاريخاً حربياً حافلاً رغم قصر مدته ، وزوجة لعوب تكبره بستة أعوام اسمها (جوزفين).

من أسرار نابليون التى لاتزال تغرى بالبحث أيامه الأخيرة فى جزيرة (سانت هيلانة) التى عاشت تحت سيطرة ضابط انجليزى حاقد، تساءل التاريخ منذ وفاة نابليون ... هل قتل؟

ومن له مصلحة فى قتله ؟ الانجليز؟ أم أسرة البربون العائدة إلي حكم فرنسا بعد نفيه؟ أو أقرب الناس إليه؟

منذ ما يقرب من نصف قرن صدر كتاب (جوزيف ايوث) عن أيام نابليون الأخيرة فى سانت هيلانة، أثبت أن نابليون تناول (الزرنيخ) فى طعامه ، ثم صدر كتاب آخر لطبيب سويدى اسمه (فور شيفيد) أكد بعد تحليل بعض شعرات رأس نابليون أنه مات مسموماً، وصدر في الثمانينات من القرن الماضى كتاب ثالث تحت عنوان (هل قتل نابليون؟) كتبه (بنى وردر) و(دافيد هايجوت) يؤكد أيضاً وفاة نابليون مسموماً بالزرنيخ الذى تناوله علي فترات بعيدة وفي جرعات صغيرة جداً استهلكت معدته تماماً ... وجاء زمان تحليل الحمض النووى فأصدر فى عام ٢٠٠٠ المؤرخ (برونو روى هنرى) كتابه (نابليون لغز مقبرة عام ١٨٤٠).

أثبت فيه بالفحص أن الجثة المدفونة فى الانفاليد بباريس والتى سلمها الإنجليز للفرنسيين عام ١٨٤٠ هى ليست لنابليون!

ومن أسرار نابليون الأكثر فى تاريخنا الوطنى أيامه فى مصر ، هل وضع خطته متكاملة قبل رحيله فى ليلة ١٩ مايو ١٧٩٨؟

هل كانت الخطة تشمل مصر والشام لتصل إلى الهند؟

هل كانت تشمل مصر وشمال أفريقيا وجزء من البحر الأبيض؟

ماهى الوثائق التى بقيت بعد رحيل الحملة من قصر الألفى بك الواقع فى حى الأزبكية؟

ماهى الرسائل التى تركها فى بيت عشيقته (بولين) التى أسكنها بالقرب من قصره؟

العثور على رسائل ولوحات (بولين)

العلوم الإنسانية والعلمية صارت مترابطة في زماننا ، فالعلوم الإجتماعية ودراسة العادات والتقاليد وسلوك الأفراد صارت كلها وثائق تاريخية، وقد يشهد جندي بسيط حادثاً خطيراً لم يشهده قائداً أو دارس، يصبح الجندى وثيقة تاريخية ، وتصبح الورقة التى احتفظ بها فى طيات ثيابه ثم بين أوراقه العتيقة وثيقة تاريخية، وقد تتعدد الوثائق، وتتراكم فوق

طاقة الفرد الدارس، هنا يستعين بالكمبيوتر ليحصي ويعطي استقراء بالسلب أو الإيجاب.

تحدث أحد الدارسين مؤخراً على عثوره على عدد من رسائل نابليون التي أرسلها لعشيقته (بولين) التي عاش معها أثناء وجوده في مصر، وتحدث بيت من بيوت الفن عن عثوره على لوحات رسمتها (بولين) في حواري القاهرة، وتحدث مصدر ثالث عن تأكده من أن (بولين) كانت حاملاً من نابليون بعد رحيله المفاجيء عن مصر، وأنه هجرها لطموحات في الانجاب من إمرأة سلالتها ملكية، أو على الأقل نبيلة، ابن أسرة كورسيكا المتواضعة كانت تراوده أحلام الملوك، وسلطان الأباطرة في مطلع شبابه، نسي الثورة وشعارها الثلاثي وتبلورت في داخله الشخصية التي رسمها الأديب (ستندال) في قصته (الأحمر والأسود).

بليلوت الجميلة!

بولين هي بليلوت، اسمها مشتق من كلمة Belle أي الجميلة عرفت نابليون لمدة عام أو أقل أثناء وجوده في مصر قدر لهذا العام أن يكون مشحوناً بالذكريات والوثائق، طموحات نابليون الغربية والشرقية، وعذاباته الخاصة أمام (جوزفين) وكل النساء، عمرت بولين إلى ما يقرب من نهاية القرن التاسع عشر، رحل كل الشهود وماتت قبل رحيل نابليون الثالث عن باريس بعام واحد ١٨٦٩.

مرجريت بولين من مدينة (كركاسون) كانت تعمل في محل لبيع القبعات أصلها متواضع، أحلامها أيضاً متواضعة تعرفت على ضابط شاب اسمه (جان فوريس) ابن شقيقة صاحبة المحل، اتفقا على الزواج، أتما الاتفاق في فترة كانت الأحداث في باريس تجرى بسرعة، لقد دخلها الضابط الصغير نابليون منتصراً على النمسا وإيطاليا، وعقد صلح (كامبوفورميو) ١٧٩٧، وانقذ حكومة الإدارة التي يتزعمها (مارا) صار جنرالا بطلاً في الخارج والداخل، جاء مشروع مواجهة انجلترا بحملة الشرق لقطع طريقها إلى مستعمراتها متفقاً مع رغبات الأعضاء الكبار في حكومة الإدارة للتخلص من بطل الساعة.

جرت الاستعدادات للحملة في موانيء مرسيليا، وطولون، وجنوا، وكورسيكا. واستدعى عدد من المسرحين من قوات نابليون، وكان بينهم (جان فوريس) الذي لم يمض على عرسه أكثر من أربعة أشهر في كركاسون، وألحق بكتيبة القناصة الثانية والعشرين بقيادة الجنرال (لاسال)، وحدد موقع رحيله من ميناء طالون.

كانت أوامر نابليون صريحة ... يمنع صحبة النساء كزوجات أو رفيقات، أو عاملات، لقد حملت له حروبه في إيطاليا الكثير من الذكريات السيئة بسبب صحبة النساء، وعلى رأسهن زوجته (جوزفين) التي بدأت قصة علاقتها بالضابط هيبوليت شارل في هذه الرحلة، جوزفين تركت نابليون في إيطاليا ولحق بها شارل إلى باريس، وبدأت الشائعات.

في عرض البحر، وبعيداً عن سفينة (لوريان) التي كانت تحمل الجنرال القائد بدأت تتكشف الأمور لقد تسربت ثلاثمائة امرأة إلى العديد من السفن تخفين في زي المقاتلين الرجال، وكانت بينهن (بولين)

زوجة الضابط (جان فوريس).

فى أول مايو ١٧٩٨ وصلت السفن الفرنسية إلى الإسكندرية وكانت ملحمة بطولية زعيمها محمد كريم. زحفت الحملة بقواتها على صور متفرقة من الإسكندرية إلى دمنهور ، ومنها إلى القاهرة ، ويحكى لنا العديد من رجال الحملة من علماء إلى جنود ، كما حكى لنا الجبرتى فى يومياته عن العذاب الذى لقيته قوات نابليون فى محاولة زحفها، مقاومة الفلاحين وبدو الصحراء العطش، والجوع، والمطاردة، وقدر للضابط فروبس وزوجته بولين أن يصحبها إحدى الفرق على أقدمها من الاسكندرية إلى القاهرة فذاقا الأمرين..

فى القاهرة جعل نابليون قصر الألفى بك فى حى الأزبكية (حى الارستقراطية) العثمانية المملوكية آنذاك مقر قيادته، وكان نصيب فرقة فوريس فى حى بولاق على ساحل النيل، حى بعيد نسبياً عن مقر القيادة والأهم عن مقر النشاط، والطموح والسهرات، والعلاقات. أراد فوريس وزوجته الاقتراب من عالم الأضواء فاستأجرا منزلاً فى حى الحسين. خرجت النساء الفرنسيات سافرات، ماجنات فى طرقات القاهرة.

لقد انكشف أمر حضورهن خلسة، وتسامح الجنرال نابليون المعروف بتدليل جنوده فى حياتهم الخاصة، وصرامته وعنفه فى ميدان القتال، ورغم ما قيل من عذاب نابليون لتيقنه من خيانة زوجته جوزفين إلا أنه كان يقول ... «الحب لعبة الضعفاء». وكان يعجبه قول قيصر ... سمعة الامبراطور لاتحتمل مجرد الإشاعة، كما أعجبه قول بركليس خطيب اليونان الشهير ... لقد خلقت النساء لإمتاعنا، وتربية أولادنا!

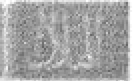
نابليون فى القاهرة

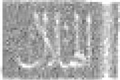
رسم الجبرتى صورة دامية لحياة الفرنسيين فى القاهرة، أطلقوا على نابليون بونابرت اسم (بونا تراب) وسلط عليهم نابليون رجلاً رومياً أسمه (برطلمين) أذاقهم المر، تفنن فيما بعد فى تعذيب وخوزقة سليمان الحلبى بعد قتله كليبر، وعرف بين أهل القاهرة بـ (فرط الرمان) وبعد قصته مع الحلبى اختفى من القاهرة، قتلوه ومزقت جثته ووزعت على الكلاب.

وسط هذا الجو ظل نابليون لفترة معزولاً عن عالم عسكره داخل قصر الألفى . يتردد عليه العلماء والقواد ... بورين سكرتيره . والعلماء برتوليه، وفوريه، ولارى، وجبير، وجومار ... يطلق عليهم الفرنسيون (الحمير) فقد كانوا يستخدمون الحمير فى تنقلاتهم بين مقر القيادة فى الأزبكية، ومقر إقامتهم فى بيت السنارى فى السيدة زينب.

فسر بعض المؤرخين خروج نابليون من عزلته كنوع من رد الفعل بعد وصول رسائل من شقيقيه جوزيف، ولوسيان يبلغانه بسوء سلوك زوجته جوزفين ، ويطلبان منه الانفصال عنها. والحقيقة أن نابليون كان مشغولاً ومهموماً بمشاريعه التوسيعية.

فى ليلة ضاق نابليون بالوحدة، إطمأن بعد أن أخلت قواته الطرقات بالقمع على أثر ثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨، فخرج ليلاً ، دخل ملهى (تيفولى) الذى أقامه أحد التجار الفرنسيين فى حى





ربيع ثاني ١٤٢٥هـ - يونيه ٢٠٠٤م

كارولين شقيقة نابليون - أجريت الفحوصات على خصلة شعر من سلالتها لإثبات أن الجثة المدفونة في الإنفاليد ليست لنابليون

الأزبكية، هناك التقى بـ (بولين) كان عملياً معها فدعاها إلى قصره. وكانت سهلة القياد فقبلت، في ليلة الدعوة كتب نابليون رسالة موجهة إلى الضابط فوريس للسفر فوراً إلى الإسكندرية ومنها يبحر إلى فرنسا لتسليم عدد من الرسائل السرية إلى حكومة الإدارة في باريس، ولم يكن هناك مفر من القبول والتنفيذ.

في ليلة سفر الزوج بدأت علاقة نابليون ببولين صريحة فاجرة، أصدر أوامره بإعداد سكن خاص لها بالقرب من قصره، أوقف على خدمتها المملوك يوسف، والخادمة أمينة ، ثم لحق بهما مملوكه الخاص (رستم) الذي صحبه في رحلة حياته، كان يخرج معها علناً في طرقات القاهرة وتشاركه حفلاته.

قبل الجميع الوضع دون اندهاش حتى (أوجين دي بوهارنيه) ابن زوجته جوزفين، فقد كان يصحبه في حملته ، كان في السادسة عشر من عمره، وارتبط بنابليون أكثر من ارتباطه بأمه.

عرفت (بولين) في القاهرة بالجنرالة ، وأحياناً بالملكة الجمهورية، وأحياناً سيدة الشرق ، أو كليوباترا.

ونعود إلى الزوج (فوريس). خرجت سفينته خفية من ميناء الإسكندرية، فقد كانت شواطيء مصر آنذاك محاصرة بقوات الانجليز بعد هزيمة الفرنسيين في أبو قير البحرية، لم تبعد سفينة فوريس كثيراً وكان اسمها (شاسور) أي الصياد، عن شواطيء الإسكندرية إلا ووقعت في أسر سفينة انجليزية اسمها (ليون) أي الأسد.

وقع (الصياد) في فم (الأسد). وكانت مفاجأة حينما واجه فوريس القائد الانجليزي، أنهم يعرفون اسمه، ويعرفون وجهته، ويعرفون مهمته ... ويعرفون نوايا نابليون مع زوجته . أرادوا السخرية من الموقف فادعوا أنهم تسامحوا معه مقابل تعهده بعدم قتال الانجليز مستقبلاً، أطلقوا سراحه حتى تستكمل قصته مع نابليون قمة دراميتها في القاهرة .

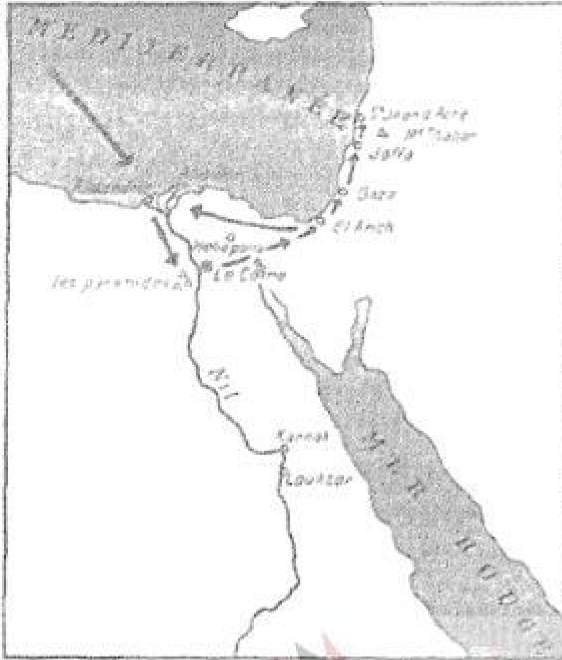
اسرعوا بإنزاله إلى ساحل الإسكندرية، هناك سلم نفسه لقائد الحامية الفرنسية (مارمون) وطلب منه الإذن بالعودة فوراً إلى القاهرة. مارمون كان يعلم خفايا الأمور فقد شاعت قصة كليوباترا الجنرالة ووصلت إلى الإسكندرية، بل عبرت عن طريق الانجليز إلى باريس وأوروبا .

رفض مارمون سفر الضابط فوريس إلى القاهرة، لكن الضابط الشاب تسلل خفية ووصل للقاهرة، لم يجد بولين في بيتها، لجأ لصديقه جاكومان فصدمه بكل الحقيقة، ظل فوريس مختبئاً في بيت صديقه إلى أن كانت المفاجأة الجديدة ، في أحد حواري القاهرة كانت بولين تتسوق مع المملوك يوسف شاهدها فوريس فهجم عليها بكل ما في قلبه من مرارة وألم. أوسعوه ضرباً وقادوه إلى مركز قيادة الحملة، ظل محتجزاً لعدة أيام، وفي نهايتها وجد نفسه أمام قاضي الأحوال الشخصية بتهمة الاعتداء على زوجته وصدر حكم طلاق بولين من الضابط فوريس. وفور سماعه الحكم تم ترحيله إلى الإسكندرية ومنها أقلته سفينة من السفن التي كان يسمح الانجليز أحياناً بتسللها أو خروجها من أيديهم

بهـدف مـا ، إلى مرسيليا.

علاقة شاذة ونهاية متوقعة

حينما وصل فوريس إلى بلدته كانت قوات نابليون تغزو الشام من غزة إلى يافا وتوقف عند عكا من ٢٠ مارس إلى ٢٠ مايو ١٧٩٩ خلال هذه الفترة أرسل لبولين في القاهرة عدة رسائل وهي التي عثر عليها، وكان يعتقد سابقاً أنها أحرقتها في لحظة يأس، رسائل تناولت أحلام نابليون وطموحاته في احتضان العالم وامتلاكه والتصرف فيه.



خريطة توضح طريق نابليون في غزو الشام

هل يصل إلي الخليج العربي ومنها إلي إيران فالهند كما فعل الإسكندر فيحقق المستحيل ويضرب الإنجليز؟

هل يستكمل زحفه في الشام ليصل إلى تركيا ومنها إلي شرق أوروبا ومنها يدخل باريس وقد احتضن بحيرة البحر الأبيض كما فعل الرومان من قبل؟

وبولين ... أين تراها في سطور رسائله . لقد وعدها . سيطلق جوزفين الخائنة ويتزوجها.

تتبدد أحلام نابليون أمام عكا. لقد جاء ذكر الانجليز، والعثمانيين ، وأهل الشام، وأحمد الجزار، والطاعون ، ولكنه لم يذكر شيئاً عن الهزيمة والتراجع.

عندما عاد للقاهرة دخل من باب النصر ، وأقام الاحتفالات ، أراد أن يوهم أهل القاهرة . ولكن الأخبار كانت قد وصلت وسبقته لقد تراجع نابليون ، لذلك لم يتردد في أن يذهب لقوات العثمانيين في أبي قير البرية ليستعرض أمام المصريين وأهل الشام نصراً سهلاً في ٢٥ يوليو ١٧٩٩.

نابليون كان يدرك خطورة حصاره في مصر ، كان يفكر في العودة مراراً ولم تكن (بولين) جزءاً من مشاريع البقاء فما باك بالعودة، وعندما اطلع على صحف فرنسية سربها الانجليز إلى الإسكندرية والقاهرة تتحدث عن سوء الأحوال

السياسية في باريس لم يتردد في اتخاذ قرار العودة.

ولم يخطر في باله مجرد إخطار بولين بالأمــر ، فالقضية خطيرة وسرية، وبولين مـجـرد قطرة في بحر الطموح.

سافر نابليون سراً في ٢٤ أغـسـطس ١٧٩٩، وظلت (بولين) تنتظر وعندمـا علمت بالحقيقة لجأت إلي كليبر قائد الحملة بعد نابليون ، طلبت تدبير رحيلها إلى فرنسا ، ساومهـا ، أراد أن يحل محل نابليون في القـيـادة والفــراش، رفضت وأصرت على الرحـيـل، ورحلت في أكتوبر على ظهر سفينة أمريكية.

خـلال فـتـرة الانتظار انتجت (بولين) عدة لوحات لوجـوه، وجـواري، وابنيـة القاهرة، وعرفت أنها حامل. حملها كان أملها . تريد العودة إلى باريس لتـبلغ نابليـون ... سيطير فرحاً، سيتوجها زوجة ، ستـحـل مـحـل جـوزفين، وربما توجها ملكة علي كل فرنسا ... هكذا كانت تحلم.

في باريس تبددت كل الأحلام. حاولت

قناع لرأس نابليون بعد وفاته

الاتصال بنابليون ولكن دون جدوى سكنت مدينة (سان كلو) وفي عام ١٨٠١ تزوجت من (هنري دي رانشوب) سافرت معه عدة أماكن وكان نابليون يتابع حياتها من بعيد ، وانتهى أمرها إلى الطلاق كما انتهى أمر نابليون مع جوزفين إلى الطلاق عام ١٨٠٩.



بولين بريشتها

تعرفت (بولين) على شاب آخر، وسافرت معه إلى البرازيل، بينما تزوج نابليون (ماري لويز) ابنة امبراطور النمسا التي أنجبت وحيده (فرنسوا لويس نابليون) المعروف باسم نابليون الثاني، وأن لم يقدر له تولي الامبراطورية التي وضع نابليون تاجها على رأسه عام ١٨٠٤.

عادت (بولين) إلى باريس وأقامت صالوناً أدبياً وتفرغت للرسم والكتابة بقية حياتها ويبقى السؤال حائراً .. أين ذهب حملها؟

ويتبع هذا السؤال تساؤلاً آخر، هل إذا كانت قد أنجبت طفلاً أكان يقبل نابليون بزواجها وتتويجها وجعل إبنها ولياً لعهده؟

الحقيقة أن نابليون ابن أسرة كورسيكا الفقيرة نسى أصله. تحكم في القادة والملوك، ولبس التاج، وأمسك بالصولجان وتسمى بالإمبراطور ووزع أفراد عائلته ملوكاً على أوروبا. نابليون بعد ذلك ما كان ليقبل أن يتزوج ابنة (غسالة) مجهولة الأب.

هكذا قدر لـ (بولين) أن تعرف نابليون لمدة عام واحد في مصر، وأن تكون بعد ذلك شاهدة القرن بكامله، فقد شهدت أيام عز نابليون، وذله، وموته، وعودة رفاته إلى باريس أيام لويس ١٨، وشارل العاشر، ولويس فيليب، وأن تموت في سن الثانية والتسعين أي قبل رحيل آخر سلالة نابليون بعام واحد ... نابليون الثالث ، بعد ثورة الكوميين عام ١٨٧٠. ■

من ذخائر الكتب العربية

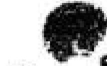
مصالح الأبدان والأنفس

بقلم
د. فيصل الحفيان

نحن أمام كتاب مختلف، أقل مايقال فيه إنه «علامة» فى التراث الطبى الذى تركه المسلمون، فهو أول كتاب عربى فى حفظ الصحة أو ما يسمى اليوم بـ «الطب الوقائى»، وهو ثانياً أول كتاب عربى يخرج بالنفس ومباحثها من دائرة الفلسفة والأخلاق إلى دائرة «الطب»، وهو ثالثاً أول كتاب عربى يربط بين صحة البدن والنفس، ويؤكد تشابك أسبابهما فيما يعرف اليوم بـ «الطب النفجسمى»، مستخرجاً ذلك الخيط الدقيق الذى يقول: إن الإنسان ليس بدناً مستقلاً ولا نفساً مستقلة، البدن والنفس ليسا جزيرتين منعزلتين، بل هما كائن واحد متشابك متداخل، لايمكن أن تخلص أحدهما من الآخر، فإذا ماصح البدن صحت النفس، والعكس صحيح، وإذا ما مرض البدن مرضت النفس، والعكس أيضاً صحيح.

وإذا كانت بعض الكتب تعرف قيمتها وأنت تقرؤها، وتدرك جهد صاحبها وعيناك تتعاور سطورها، فإن بعضها يأسرك قبل أن تطالع أول كلمة فيها. إنها تلك التي يخطف بصرك عنوانها، ويشي لك بما تحته. فكرة عبقرية تعكس عبقرية صاحبها، إشراقة ومضت فى لحظة، أو سحابة من جهد وخير اختزنت فى داخلها ماء كثيراً، ثم أمطرت خيراً وعشباً وخضرة.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي
كتاب مصالح الأبدان والأنفس عن أبي زيد



٤٧٤١



الورقة الأولى من المقالة الأولى من المخطوط (أ) وعلاماته

كتاب «مصالح الأبدان والأنفس» لأبي زيد البلخي واحد من الكتب الأسرة الخاطفة الواشية العبقرية، وصاحبه عالم عربي مسلم عاش قبل نحو أحد عشر قرناً، وتجاوز بفكرته العبقرية وكتابه الفذ من تقدمه من العلماء، كما سبق من جاء بعده منهم، وسجل بتجاوزه وسبقه نقطة مضيئة في تاريخ العلم العربي الإسلامي، ستظل في ميزانه وميزان الحضارة التي ينسب إليها إلى قيام الساعة.

* * *

مثل هذا المقال العجل لايمكن أن يضع الكتاب وصاحبه في الإطار الذي يستحقه، ولن يبل - بالتأكيد - عطش القراء، لكنه سيلفت النهمين منهم للرجوع إليه، ويستحث الباحثين المتخصصين على الاطلاع على صفحة جديدة مشرقة من كتاب العلم العربي الإسلامي، هذا العلم الذي يعاني اليوم أكثر من أي وقت مضى، من مثلث ذهول بعض أبنائه، وحقد بعضهم، ونكران الآخر.

لقد بقي الكتاب حتى وقت قريب مخطوطاً لاتطاله الأيدي، وإن طالته فإن التعامل معه دونه مصاعب، أولها القدرة على قراءة المخطوط وفهم لغته، ومن حسن الحظ أن الباحث التركي المعروف د. فؤاد سزكين مدير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت (ألمانيا) قد اختار واحدة من النسختين الخطيتين الباقيتين للكتاب ونشرها (في طبعة محدودة) بطريقة التصوير الضوئي، وجاءت هذه الطبعة على الرغم من صعوبة الوصول إليها، وعدم معرفة الكثيرين حتى المتخصصين لها أول الغيث، فقد التفت إليها باحث متخصص في تاريخ الطب الإسلامي، هو د. محمود مصري (من سورية)، وقام بدراستها دراسة وافية وحقق نصها تحقيقاً متميزاً، وأعد فهارس وافية لها، وتبنى نشر عمله المكتب الاقليمي لمنظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط

بالقاهرة ومعهد المخطوطات العربية «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم»، بالقاهرة أيضاً . والكتاب الآن على وشك الصدور.

قلت «أول الغيث» لأن ثمة عملاً متصلاً بالكتاب، وإن لم يشمله كله، قد صدر حقاً عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض. (عام ١٤٢٤هـ). هذا العمل انتهك حرمة الكتاب، إذ اكتفى بنشر بعضه، بحجتين واهيتين: الأولى «طول الدراسة (أى الكتاب» وخاصة المقالة الأولى منها» والثانية «واعتباراً (كذا) إلى كون المعلومات التى جاءت فى هذا الجزء قد تجاوز الزمن بعضها» وبناء على ذلك فقد اتفق الباحثان (د. مالك بدرى أستاذ بالمعهد العالى للفكر الإسلامى والحضارة بماليزيا، ود. مصطفى عشوى أستاذ بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن – السعودية) على «دراسة المقالة الثانية دراسة مستفيضة .. نظراً لما تشكله من إضافة علمية .. ولما تقدمه من معلومات وتصورات قد تكون منطلقاً لبحوث عملية أخرى فى مجال علم النفس والطب النفسي والصحة النفسية بصفة خاصة».

والحق أن كلا الحجتين أوهى من الأخرى، فلا الطول – إن صح – يسوغ الحذف من نص المؤلف ، ولا تجاوز الزمن لبعض ما ورد فى هذا النص يعطى الحق بإسقاط عصارة فكر عالم محترم، فنحن ندرس النتاج المعرفى فى سياقه الزمانى والعلمى العام، ولا نحاكمه أو نحكم عليه بمقاييس جاءت بعده بقرون .

وعلى أية حال فإن الباحثين – فيما يبدو – كانا يدركان ماسلف أن قلناه، فاعتذرا فى المقدمة قائلين : «وليس معنى هذا إهمال المقالة الأولى أو الجزء الأول من الكتاب، بل إننا قد تعرضنا لأهم الأبواب التى وردت فى هذا الجزء، واستعرضنا أهم الأفكار الواردة فيه، على أن تتم دراسة هذه المقالة بصفة مستفيضة فى وقت لاحق .. وإخراجها لجمهور القراء كجزء من تاريخنا الطبى».

– ١ –

الفكــــرة

كتاب مصالح الأبدان والأنفس يتغيّا فى النهاية رعاية الإنسان وحفظ صحته البدنية والنفسية، فكيف ينظر صاحبه (البلخى) إلى هذا الكائن؟ هذا سؤال مشروع نمهد بالإجابة عنه لفكرة الكتاب وأبعادها وغاياتها وما حققته.

١ – ١ جوهر الإنسان

إن الإنسان – كما يراه البلخى وهو الفيلسوف المسلم – كائن مميز ، خصه الله سبحانه وتعالى بقوة التمييز – يقصد العقل – ، هذه القوة هى التى تجعله قادراً على أن يعرف ما ينفعه، فيسعى إليه ليجتلبه، ويعرف مايضره فيحيد أو ينأى عنه ليجتنبه، وبذلك – الاجتلاب والاجتناب – تصلح حياته وأخرته ، ويحرز الخير فى العاجلة والأجلة . الخير إذن خيران : خير فى الدنيا ، وخير فى الآخرة، والإنسان مطالب بالسعى فى حياته العاجلة (الدنيوية) لتحقيق الخير فى حياته لنفسه ولمن حوله ولما حوله.

والإنسان فى جوهره : عقل ونفس وبدن، أما العقل، فهو الذى ميز الله به الإنسان من غيره من مخلوقاته فى هذا الكون الفسيح، وبه حمله المسئولية التى ألقاها عليه. وأما النفس والبدن فهما – على حد تعبير البلخى – «قسما كونه، وسببا وجوده فى هذا العالم». والبلخى يفكر فى كتاب يخدم به نفس الإنسان وبدنه، فعلى الرغم من خطر قوة التمييز ودورها فى حياة الإنسان ، فإن النفس والبدن هما «الآلة» التى تمكنه من اجتلاب الخير واجتناب الضر ، لنستمع إليه، وهو يقول فى السطور الأولى من مقدمة كتابه ، بعد أن حمد الله وصلى على نبيه الكريم:

«وآلته – أى الإنسان – فى اجتلاب المنافع واجتناب المضار : نفسه وبدنه. فبصلاحهما يتهيأ له بلوغ الواجب من ذلك عليه، إذ ليس للإنسان سواهما، وهما قسما كونه وسببا وجوده فى هذا العالم».

هذه الآلة «النفس والبدن» تقوم بمهمة خطيرة ، توازى مهمة العقل، أو تقترب منها،

ولهذا كان لابد من السعي لصلاحها، حتى تمكن الإنسان من تأدية الواجب الذى عليه، فإذا ما صلحت الآلة، أو بعبارة أخرى صلحت النفس والبدن، كانتا وسيلة إلى مايريد. هما إذن مكونا الإنسان، وهما فى الوقت نفسه سببا وجوده، إنهما الوسيلة (الآلة)، وإنهما الغاية.

هذه الرؤية للإنسان ولمهمته تدفع كل عاقل إلى أن يبذل ما فى وسعه ليضمن صلاح بدنه ونفسه، والبلخى يريد أن يضع دستوراً لهذا السعى ، يقول:

«فلذلك يحق على كل عاقل أن يعمل جدّه واجتهاده فى ما يستديم به سلامتهما وصحتهما، ويدفع عنهما عوارض الأذى والآفات، وحوادث العلل والأسقام، وألا يفيت نفسه حظاً من العلم بالأشياء التى يوصل بمعرفتها واستعمالها إلى صلاحهما، وأن يجعل ذلك من أهم أموره إليه، وأولاها بأن يقصر عنايته عليه».

وكما كانت النفس والبدن هما مكونا الإنسان وسببا وجوده، فإن السعى ينبغى أن يكون لصلاحهما وتدبيرهما معاً.

١ - ٢ : اشتباك النفس والبدن

إن كلمة السر فى فكرة البلخى التى أثمرت كتابه هى ذلك الربط الوثيق بين البدن والنفس، ولذلك فإن النص السابق، وليس إلا نموذجاً، يحرص على أن يجمع بينهما (سلامتهما وصحتهما، ويدفع عنهما، إلى صلاحهما).

وإذا كان هذا النص (السابق) فى مقدمة الكتاب العامة، فإنه فى المقدمة الخاصة بالمقالة الثانية وهى تصنيف الكتاب ، والخاصة بمصالح الأنفس ، يعود إلى تأكيد هذا الربط ، ويؤصله، ويزيده وضوحاً، لنستمع إليه ، وهو يقول:

«إن الإنسان لما كان مركباً من بدن ونفس، صار يوجد له من قبل كل منهما صلاح وفساد، وصحة ومرض وسقم، وأعراض تعرض له فى صحتهما فتفسدهما عليه، وينسب إليه (الضمير للبدن أو للنفس) خصوصاً».

ويبلغ الوضوح مبلغه فى موطن آخر حيث يقول مسوغاً إقدامه على جمع مصالح الأنفس مع مصالح الأبدان مخالفاً بذلك عادة الأطباء:

«غير أنهم وإن لم يفعلوا ذلك، ولم تجر العادة به منهم، فإن إضافة تدبير مصالح الأنفس إلى تدبير مصالح الأبدان أمر صواب، بل هو مما تمس الحاجة إليه، ويعظم الانتفاع به لاشتباك أسباب الأبدان بأسباب الأنفس».

لقد أصاب كبد الحقيقة ، باستخدامه مصطلح «الاشتباك»، وعبر بدقة عما يريد ويعود مرة أخرى إلى ما سبق أن قرره، فيكمل

«فإن الإنسان إنما قوامه بنفسه وبدنه ، وليس له قوام إلا باجتماعهما». ويوضح «الاشتباك»، حتى لايترك مصطلحه مرسلا بالقول

«وكما أن البدن إذا سقم وألم وعرضت له الأعراض المؤذية منع ذلك قوى النفس من الفهم والمعرفة وغيرهما أن تفعل أفعالها على وجهها، ويتفرغ معها الإنسان للقيام بما يقلقها ويؤذيها، كان فى ذلك (أى فى سقم النفس) مايشغل الإنسان عن الاستمتاع باللذات البدنية، وأخذ شىء منها على سبيله، ووجد عيشته مكدرة، وحياته منغصة عليه . بل ربما أداه تحامل الآلام النفسية عليه إلى الأمراض البدنية».

إنه اشتباك يجعل من النفس والبدن شيئاً واحداً، يمرض البدن فيؤثر مرضه على النفس، وتمرض النفس فتؤثر على البدن، وأكثر من ذلك فإن الآلام النفسية إذا ما اشتدت أدت إلى مرض البدن حقيقة.

١ - ٣ : الأعراض النفسية ألزم

على أن الأعراض النفسية ألزم للإنسان، وأكثر اعتراء له، كما يرى البلخى، ذلك أن البدن قد يسلم فى أكثر أيام العمر ، وليست النفس كذلك، فمن يخلو من الحزن، أو الغضب ، أو غير ذلك ، فى أكثر أيام حياته؟

١ - ٤ : حفظ الصحة أولا

واستكمالاً لخيوط الفكرة فإن البلخى يفرق بين أمرين : حفظ الصحة، أو ما يسمى اليوم بـ «الطب الوقائى» وإعادة الصحة، وهو ما يطلق عليه «الطب العلاجى» ولابد من استخدام

النوعين معاً من أجل صحة النفس والبدن، لكن الحفظ مقدم، فاستدامة سلامتهما وصحتهما لاشك أعلى درجة، فإذا ما هجمت عوارض الأذى والآفات، وحوادث العلل والأسقام، كان لابد من «الدفع»، والمعالجة. وإنما كان «الحفظ» مقدماً، لأن به يسلم الإنسان من أكثر العلل والأمراض مدة حياته، ويعيش سعيداً لا يكدره ألم، ولا ينغص صفوه عرض.

فكرة البلخي تركز على ما هو أهم «حفظ الصحة»، أما إعادة الصحة بعد فقدها، فإنها تدخل في صناعة المداواة، وليست داخله في نسيج الفكرة الأساس. «وليس ذلك من الغرض الذى قصدناه على شيء» لكن لا بأس من أن تختم المقالة الأولى الخاصة بمصالح الأبدان بـ «باب فى تدبير إعادة الصحة» ، وأن يخصص الباب الثالث من المقالة الثانية الخاصة بمصالح الأنفس لـ «تدبير إعادة صحة الأنفس إذا فقدت إليها» . وهذا وذاك لا يشغل إلا مساحة وجيزة، تحقق الغاية فى تعريف المعنى بصلاح بدنه ونفسه بما يلزمهما من التدبير.

– ٢ –

التجلى

كيف تجلت الفكرة «العبقرية» التى كانت تدور فى رأس صاحبها؟ لقد تجلت فى الكتاب «مصالح الأبدان والأنفس»، ولعل العنوان نفسه بكلماته الثلاث يشى بمنطلقاته، فما هو إلا عمل علمى يهدف إلى أن يحقق مصالح أبدان الناس ، وذلك بتعهدها وصيانتها فى وقت صحتها من آفات الحر والبرد، وأذى الجوع والعطش، ويمعالجتها بالأدوية فى وقت علتها ، وأن يحقق مصالح أنفس الناس، ويحفظ قواها على سبيل الصلاح والاعتدال، ونفى الأعراض التى تصيبها.

٢ – ١ البناء

لما كانت الفكرة أساساً قائماً على تدبير مصالح آلة الإنسان، أعنى بدنه ونفسه ، فإن التجلى (الكتاب) انقسم قسمين، أو جعل فى مقالتين : الأولى فى تدبير مصالح الأبدان، والثانية فى تدبير مصالح الأنفس.

ثم إن الأولى صيغت فى أربعة عشر باباً:

الأول فى الإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تعهد الأبدان، ومنفعة ذلك وعائدته.

والثانى فى وصف أوائل الأشياء، وبدء طبيعة الإنسان وخلقته وتركيب أعضائه.

والثالث فى تدبير المساكن والمياه والأهوية.

والرابع فى تدبير ما يقى الحر والبرد من الأكنان والملابس.

والخامس فى تدبير المطاعم.

والسادس فى تدبير المشارب.

والسابع فى تدبير المشمومات.

والثامن فى تدبير النوم.

والتاسع فى تدبير المياه.

والعاشر فى تدبير الاستحمام.

والحادى عشر فى تدبير الحركات الرياضية التى يحتاج إلى استعمالها فى حفظ الصحة.

والثانى عشر فى تدبر مايتبع الحركات الرياضية من غمز البدن ودلكه.

والثالث عشر فى تدبير السماع.

والرابع عشر فى تدبير إعادة الصحة.

ويلاحظ أن الأول يرمى إلى بيان ضرورة تعهد الأبدان ، وثمرة ذلك، والتعهد يكون بأمرين : حفظ الصحة عليها إذا كانت موجودة، وإعادتها إليها إذا فقدت . أما الثانى فهو فى وصف أوائل الأشياء، وبدء طبيعة الإنسان، وتركيب أعضائه. والغاية منه التأسيس أو ذكر الأشياء التى تجرى مجرى الأصول والأوائل فى العالم ويقوم تدبير بدن الإنسان ونفسه عليها ، من مثل الأجسام التى خلق منها جميع ما على الأرض وتحتها ، (النار الهواء والماء والأرض)، وجهات العالم، والرياح، والفصول ، وساعات الليل والنهار، وأخلاط أبدان الناس والحيوان، وطبقات عمر الإنسان، وتسمى الأصول السبعة، وكل أصل ينقسم أربعة أقسام (يكون المجموع ثمانية وعشرين قسماً).

ثم إن الأبواب من الثالث حتى الثالث عشر

فى حفظ بدن الإنسان وتهيئة الظروف المناسبة له وما يقوم به حتى تستدام صحته. أما الباب الرابع عشر فهو الباب الوحيد فى العلاج أو المداواة.

المقالة الثانية خاصة بمصالح الأنفس، وهى ثمانية أبواب

الأول (مثل نظيره فى المقالة الأولى) فى مبلغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس.

والثانى فى تدبير حفظ صحة الأنفس عليها.

والثالث فى تدبير إعادة صحة الأنفس إذا فقدت إليها (نظير الباب الرابع عشر فى المقالة الأولى)

والرابع فى ذكر الأعراض النفسانية وتعديدها.

والخامس فى تدبير صرف الغضب وقمعه.

والسادس فى تسكين الخوف والفزع.

والسابع فى تدبير دفع الحزن والجزع.

والثامن فى الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس.

ويلاحظ أن البابين السادس والسابع فى موضوع واحد تقريباً (الخوف والفزع) و(الحزن والجزع) لكن الأول يدخل فى حفظ الصحة أو الوقاية، والثانى يدخل فى إعادة الصحة أو العلاج.

هذا هو البناء العام للكتاب، وهو بناء منهجى يعكس - على بساطته - قدرة واضحة على التنظيم، يضاف إلى ذلك أن الكتاب مكتوب بلغة عربية سهلة، وفى الوقت نفسه رصينة صحيحة.

وإذا كان هذا هو البناء، فما عسانا نجد فى داخله من علم ومعرفة، تجعل منه إضافة فى تاريخ العلم، وسبقاً يخلدانه ويخلدان صاحبه. ذلك هو موضوع الفقرة التالية:

٢ - ٢ : المحتوى

لاشك فى أن البلخى اعتمد على المعارف الفلسفية والطبية السابقة التى كانت سائدة فى عصره (المعارف اليونانية)، وبخاصة فى مجال طبيعة الكون والإنسان (ما يعرف بالأجسام أو العناصر الأربعة وطبائعها وما خلق منها، وحصة الإنسان منها، والأخلاق التى ركبت فيه، وأجزائه، وأعضائه الداخلية والخارجية، ووظائفها، ودورها فى إدامة حياته ونموه، والقوى التى منحها الله لها لتدبير أسباب غذائه) وهى مقولات تجاوزها العلم الحديث، لكننا لانستطيع - كما قلت سابقاً - أن نحاكم رجلاً عاش فى القرن الثالث والرابع الهجرى بما توصلنا إليه نحن اليوم، بعد نحو إثنى عشر قرناً وعلى أية حال فإن فى ثنايا «مصالح الأبدان والأنفس» كثيراً من الإشارات العبقرية التى تكشف عن رؤية نافذة، تستحق الإجلال والإكبار وتدعو للإعجاب. ولنبدأ بتعقب هذه الإشارات بإيجاز شديد على وفق ترتيب الكتاب نفسه.

(أ) مصالح الأبدان :

يعنى البلخى بما يحيط بالإنسان (البيئة)، ويحدد مفرداتها بـ المساكن، والمياه، والأهوية (جمع هواء)، ويربط بين اختلاف هذه المفردات، واختلاف أجسام الناس وتكوينهم وألوانهم وألسنتهم وأخلاقهم، ويرجع تفاضل الناس إلى تفاضلها. وهذا ربط يتوافق تماماً مع ما يقول به علماء البيئة اليوم.

ومما يتصل بالبيئة مايتعرض له الإنسان من حر وبرد، وهنا ينصح بتوقى أذى الحر المفرط والبرد المفرط، سواء على ظاهر بدنه أو باطنه، وينبه - فى إشارة ذكية - إلى أن أكثر الأعراض (الأمراض) الخارجية (يريد التى ترد من محيط الإنسان) إنما مصدرها غلبة الحر أو البرد على الهواء الذى يتنسمه ويتقلب فيه، كما أن الأعراض الداخلية سببها غلبة الحرارة أو البرودة على أغذيته من طعام وشراب. وواضح هنا تأثره بنظرية العناصر الأربعة، لكن ذلك لاينفى صواب ماذهب إليه جزئياً، خاصة فى ما يتعلق بالأعراض الخارجية. وإذا كان ينصح بالاحتراس من أذى الحر والبرد بالملابس والأكنان (جمع كن، وهو مايستتر به) فإنه بفطنته يلفت إلى ضرورة عدم المبالغة حتى لايضجر، فإن ذلك ليس محموداً، إذ إن تفنيق (تنعيم) البدن وترقيق الجلد يجعله غير قادر على مقاومة العلل والأمراض، كأنه يشير إلى ضرورة اكتساب المناعة، وهو ماعبر عنه بـ «أن يوقح الإنسان بدنه وجلده على الاحتمال»، على

أن البرد أكثر ضرراً بالإنسان، وإن كان الحر أسرع إهلاكاً.

وأفضل الثياب من وجهة نظره: القطنية، لمناسبتها جميع فصول السنة، فالكتان والإبريسم، والأول أنسب للصيف، وأما الصوف فهو أصلح للشتاء.

ويؤكد في غذاء الإنسان على الاعتدال، في إشارة واضحة إلى أن الجوع والشبع يؤديان إلى العلل، ويشبه حال الإنسان مع غذائه بحال المصباح الذي يمد من الدهن (الزيت) بقدر ما يحتاج إليه ليبقى متقداً، فإذا قطعت عنه مادة الدهن أو غرق فيها، فإنه يطفأ سريعاً.

والأغذية ستة أنواع اللحمان والألبان والبيض والحبوب والثمار والبقول، والأقوى هي اللحوم إلا أنها صعبة الهضم، تليها الألبان التي تتسم باللطف، لذلك صارت غذاء للأطفال وصغار الحيوان، لكن الاقتصار عليها ليس محموداً إلا لمن جرت عادته من الأمم بذلك. وهذا لفتة أخرى، فالعادة تغلب حكم الطبيعة أحياناً حتى تجعل النافع ضاراً والضار نافعاً.

والبيض من جنس اللحم واللبن، وبياضه غذاء ثقيل وخيم، وصفاره شريف نافع. أما الحبوب فتتميز بسهولة هضمها، وأجودها الحنطة. والفواكه والثمار قليلة الغذاء، وأفضلها العنب والتين، ولا ينبغي الإكثار منها. والبقول هي أيضاً قليلة الغذاء، صعبة الهضم.

والماء أصل الأشربة كلها، فهو قوام الحياة، لايستغني عنه كائن حي.

أما المشمومات (الروائح) فإنها نافعة في حفظ الصحة وإعادتها، فما كان منها طيباً مما تستلذه حاسة الشم فإنه يقع في باب حفظ الصحة، وما كان كريها فإنه يدخل في الدواء. ويلمح البلخي في هذا السياق التأثير العجيب للروائح، سواء على الأبدان أو على الأنفس، فبعضها يهلك، وبعضها يخدر، وبعضها يصيب بالهوس، وبعضها يصيب بالصداع.

والنوم حاجة ضرورية للإنسان، به يستريح من التعب، ويستعيد قوته، ولذلك فإن الإفراط في السهر يؤدي إلى ذبول الأعضاء وقحول الجلد وغئور العين وفتور النفس. وإذا استمر الإنسان في هذا السهر باختياره، أو على الرغم منه، فإنه يسرع في إهلاكه. ويلحظ هنا أيضاً اختلاف طبائع الناس في القدر الذي يحتاجونه من النوم. كما يلحظ علاقة النوم بفصول السنة. فالإنسان في الصيف أحوج إليه من الشتاء، وفي الخريف أحوج إليه من الربيع. والليل أفضل لأن الله خلقه للسكون والراحة.

والجنس حاجة ضرورية للإنسان، وجميع الحيوان، تعطيه قوة تأتي في المرتبة الثانية بعد الغذاء، فهو سبب التناسل، لكن الاقتصاد فيه مطلوب، إذ الإسراف يؤدي إلى الهلاك والعطب، شأنه في ذلك شأن الغذاء الذي تؤدي التخمة فيه إلى السقم.

والضعف الجنسي عنده علاجان: نفساني، جسماني. والإكثار من الأدوية يؤدي إلى النهكة (التعب) والذبول. ولذا فإن الأغذية أفضل.

والنظافة دليل على لطافة حس الإنسان وطهر أخلاقه. ولذلك فإن مرفق الحمام مرفق عظيم، يعد من أشرف أبواب التدبير التي تعود بالمنفعة على الأبدان ومصلحتها. وهو لاينظف البدن من الخارج فحسب، ولكن من الداخل أيضاً. ويجمع إلى ذلك اللذة النفسية التي تتمثل في خفة البدن وطيب النفس وانشراح الصدر والسرور.

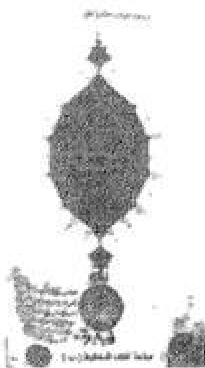
والحمام أيضاً علاج لعلل متضادة. وهو نافع في جميع فصول العام، وفي جميع أوقات الليل والنهار مالم يمنعه مانع، وإن كان أصلح الأوقات وقت الغداة، ويجتنب دخوله عقب الامتلاء من الطعام والشراب، والجماع، والحجامة والفصد، والأدوية المسهلة، والمشي المتعب. كما يجتنب دخوله مع هيجان الأعراض (الانفعالات) النفسية، كالغضب، أو الفزع، أو الغم المفرط، أو الخوف المقلق.

الحركة (الرياضية) مهمة أيضاً في حفظ الصحة، بل إنها تقوم مقام أشرف العلاجات



وأكثرها نفعاً. وهنا يلحظ البلخي أن كثيراً من أهل الدعة والرفاهية الذين تقل حركتهم يصابون بأمراض مزمنة مثل النقرس وغيره. والمشي أفضل أنواع الحركة. وهذا يتفق مع مايقوله الأطباء اليوم. وأفضل الأوقات للرياضة أول النهار. والكلام رياضة إذا لم تتح حركة الجسد.

ومن مظاهر العناية بمصالح البدن تدبير ماأسماه البلخي «السماع»، ويقصد الغناء والألحان، ويبدو أنه تردد بين أن يجعله في مصالح الأبدان، أو يجعله في مصالح الأنفس، ذلك أنه ليس من المصالح البدنية المحضة، بل هو بأن يقع في مصالح الأنفس أولى، وذلك لما نجده يؤثر فيها من الآثار العجيبة بهزها وتحريكها، حتى يموجها - مرة بفرط الإطراب، وأخرى بفرط الإشجاء - إلى هيئات عجيبة وأريحيات مغيرة للإنسان عن الحالات التي تتقدمها، ثم إنه جعله ضمن مصالح الأبدان لأن لها فيه حظاً وافراً من المنافع، وذلك على الرغم من أن أبلغ تأثيره في النفس. وإنما حسم أمره بهذه الصورة لأمرين:



الورقة الأولى من المخطوط (ب) وغلافه

أولهما أن حظ الأبدان من السماع يتحقق في حال حفظ الصحة، لأن الطعام والشراب يكون أهنأ وأجمع وأعمل في إنمائها وحسن تغذيتها.

وثانيهما أن حظها يتحقق أيضاً في حال إعادة الصحة إذ جرت عادة الحكماء وقدماء الأطباء على مداواة كثير من الأعلاء (المرضى) بإسماعهم أصواتاً لذيذة.

هذا التنازع، تنازع السماع بين الأبدان والأنفس هو الذي جعله يؤخر الكلام فيه إلى آخر أبواب مصالح الأبدان، حتى يكون قريباً من مصالح الأنفس، مع أن مرتبته تقترن بمرتبة الأشربة.

والسماع - كما يراه البلخي - يجمع بين كونه حكمة ولهواً، ولذته لا يلحق الإنسان منها مثل شأن لذات الطاعم والمشارب والمناكح وغيرها .. ذلك أن لذته روحانية، وتلك جسمانية.

وفضيلة السماع لاتكتمل إلا بثلاثة: الصوت الحسن، وجودة اللحن، وجمال المعاني. والمعاني التي ينبغي الحرص عليها تلك التي تحرك قوة الحرية وقوة الشجاعة. أما

التى تحرك قوة الشهوة فلا ينبغى الميل إليها كل الميل.

(ب) مصالح الأنفس :

تحفظ صحة الأنفس عليها بأن تصان من الأعراض الخارجية والداخلية، الخارجية ترد عن طريق السمع والبصر فتحرك في الانسان غضباً أو فزعاً أو خوفاً أو غماً، والداخلية تأتى عن طريق التفكير في أمور تؤدى إلى غضب وخوف ونحوهما.

ولعل أهم مايسجل للبلخي في هذا السياق تأكيده ما يلي

- عدم تعريض النفس للأعراض التى تحركها وتهيجها على حد تعبيره، إذ أن صحتها فى أن تكون قواها ساكنة.

- عدم التفكير في ما يحرك ويهيج، مما يشغل القلب ويقسم الضمير.

أما كيف يفعل الإنسان ذلك فإن الاعتماد - كما يرى - على قوة العقل أو التفكير في اتجاهين - أولهما يمكن تلخيص كلامه فيه بأنه «الرضا» وذلك بأن يقنع الإنسان نفسه بأن الدنيا مجبولة على أن لاتعطيه مايشاء، دون شائبة من تنغص وتكدر. وثانيهما أن يعرف الإنسان قدرته على الاحتمال، فلا يعرضها لما هو فوق طاقتها.

ويبدو واضحاً اهتمام البلخي بتأثير الانفعالات على الصحة النفسية، وتعويله على التفكير في تجنب اضرارها.

ولم يغفل البلخي عن تأثير مايصيب النفس في البدن، فالغضب مثلاً يؤدى إلى الارتعاش واصفرار اللون، وشبيه بذلك مايفعله الفزع والخوف . ولا يكتفى برصد هذه الأعراض المباشرة الظاهرة، بل يشير أيضاً إلى سخونة البدن أو برودته. وتقبيح شكله، وهو مايعبر عنه بالقول «ويحدث فيه (الجسم) أحداثا موحشة المناظر».

إن رأس الأعراض المؤذية «الغم» ، فهو مقدمة الغضب والجزع وكل مكروه. وإذن فإن رأس العناية بمصالح النفس هو الاجتهاد في نفى «الغم» واجتلاب السرور.

ويبدو أن «الغضب» أكثر الأعراض اعتراء للإنسان، ويحتاج في تدبيره وقمعه إلى تدبير من الداخل والخارج. فتدبير الخارج عن طريق الاستماع لمن يعظ وينصح والاستجابة له، وتدبير الداخل بالتفكير في وقت سكون النفس بأخطار الاستسلام له.

وأشد أنواع الخوف والفزع ذلك المرتبط بحدوث حادث يصيب نفس الإنسان مباشرة كالتلف والألم الشديد، والناس ليسوا سواء في احتمال الخوف، كما أنهم ليسوا سواء في درجة الغضب، وكما الاحتمال لقمع الغضب في التفكير، كذلك الخوف والتفكير هذا الذى يركز عليه البلخي، هو مايسمى اليوم بـ «العلاج المعرفى».

وفى مقابل عرضى الخوف والفزع يأتى الحزن والجزع. الأولان باتجاه المستقبل، أى أنهما يعرضان من توقع مكروه . والأخيران باتجاه الماضى، أى أنهما يتولدان من فوت محبوب، لكن ثانى كل منهما أعلى من أولهما، فالفزع إفراط الخوف، والجزع إفراط الحزن. فإذا ما اجتمعا على إنسان «لم يبقيا له لذة حياة ولا طيب عيش».

وكما كان السماع شركة بين مصالح البدن والنفس، فإن أحاديث النفس ووساوها ليست خالصة لأعراض النفس، فهى عرض خاص، ونفهم هنا من كلام البلخي أن هذه الشركة ترجع إلى أنه قد يكون ناتجاً عن الوراثة، وهو ما عبر عنه بالقول : «وهذا العرض قد يوجد مرة في الإنسان من قبل الطبع».

والوقاية من الوساوس تكون بـ «حيل من خارج النفس» وأخرى من داخل النفس. هذه الأخيرة تتمثل في تجنب الوحدة والفراغ واللجوء إلى الأصدقاء»، وتتمثل الأولى في التفكير وإقناع النفس بأنها وساوس باطلة، وأن عليه أن يتعودها .. الخ.

* * *

كان ذلك عرضاً شديد التركيز، ولا أبرئه من بعض الخلل نتيجة ذلك، فالغاية كانت - كما قلت - هى إشارات تهدى إلى الطريق،

لكنها لاتدخله، لاستحالة ذلك فى مثل هذا المقام.

- ٣ -

الدلالة

من الحق الذى ينبغى الاعتراف به أنى لست طبيباً ولا نفسانياً، وقراءتى للكتاب جاءت من باب أنه «تراث»، ولذلك فإنى سأستعين فى تقويمه، بما قاله المتخصصون، فهم أقدر على ربطه بما جد فى ميدان الطب، والطب النفسى، والوقوع على دلالته أو دلالاته الحقيقية فى سياقه المعرفى.

٣ - ١ إن الكتاب يعد فى رأى د. فؤاد سزكين «أول محاولة لجمع مسائل ذلك الفرع من الطب الذى يعالج الأمراض النفسية، مع التطرق إلى الطب النفسى العضوى والعلاج النفسى» ولما كان د. سزكين قد دخل إلى الكتاب من باب تاريخ العلوم أيضاً فإنه قد ترك أيضاً «البت النهائى فيما إذا كان هو رائد الطب النفسى للباحثين المتخصصين».

وقد سبق البلخى فى رأى د. مالك بدرى (هو أستاذ علم النفس) عصره بأكثر من عشرة قرون، ولو قرأ النفسانيون المسلمون كتابه بتدبر لكانوا هم الرواد للعلاج السلوكى والثورة المعرفية فى ميدان العلاج النفسى، ولما أضاعوا عشرات السنين فى التقليد الأعمى لنظريات وممارسات غربية فاشلة أو قليلة الجدوى على الفكر الإلحادى الرافض لروحانية الإنسان .. من مثل السلوكية المتطرفة والتحليل النفسى الفرويدى الذى سيطر على نظريات العلاج النفسى وتطبيقاته فى الغرب لأكثر من سبعين سنة.

كما أن تركيز البلخى الشديد على دور العوامل النفسية فى الصحة والمرض النفسى والجسمى يجعله كأنه من متخصصى الطب السيكوسوماتى والشمولى الحديث.

ويوافق د. مصطفى عشوى مالكاً فى أن تأكيد البلخى ارتباط البدن بالنفس لاشتباك أسبابهما، هو أمر مهم للغاية فى الصحة النفسية، ويعد من النظريات الجديدة فى الطب وعلم النفس.

٣ - ٢ : استطاع البلخى التفرقة بين المرض النفسى أو العصاب، والمرض العقلى أوالجنون، وصنف الأعراض النفسية تحت أربعة أصناف الغضب، ثم الخوف والفزع، ثم الحزن والجزع، ثم الوسواس. هذه الأصناف - كما يقول د. مالك - تحوى أهم الفصول التى يدرسها طلاب علم النفس المرضى وعلم نفس الشواذ فى الجامعات المعاصرة تحت باب الاضطرابات العصابية. كما صنف الاكتئاب بأنواعه المعروفة . وهو أمر لم يسبق إليه ، ولم يأت أحد بمثله إلا بعد تسعة قرون.

كما استطاع البلخى أن يتوصل إلى أهمية «التفكير» فى علاج الاضطرابات النفسية، والتفكير هذا هو الذى يطلق عليه «العلاج المعرفى».

- ٤ -

هـو

لقد أخذنا الكتاب من صاحبه ، وعشت الفكرة عيوننا عن مبدعها، فمن هو أبو زيد البلخى هذا؟

ولد البلخى عام ٢٣٥ هـ فى مدينة تسمى بلخ، وتوفى عام ٣٢٢ هـ. وقد شغل منزلة رفيعة بين علماء عصره فى علوم كثيرة: التاريخ والجغرافيا والطب والأدب والنحو والسياسة والفلسفة والرياضيات والتنجيم والهيئة (الفيزياء» وترك نحو ستين كتاباً. لم يبق الزمن منها إلا القليل. تلمذ لفيلسوف العرب الكندى، وتلمذ له أبو بكر الرازى وقال عنه ياقوت الحموى : كان معلماً الصبيان، ثم رفعه العلم إلى مرتبة علية»، وقد عُدّ واحداً من متكلمى العالم الثلاثة: الجاحظ وعلى بن عبيد الريحانى، وهو . ويكفى ماقاله فيه أبو حيان التوحيدى: لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم و.. علم أنه بحر البحور، وعالم العلماء، وما رئى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه».

وما أحسب أن شيئاً يقدم الرجل ويعرِّف به ، مثل كتابه الذى طوفنا معه.

(*) باحث فى التراث، ومنسق برامج معهد المخطوطات العربية بالقاهرة. ■

أمس: العرب يعرفون عن العالم ما لا يعرفه سواهم. اليوم: لا يكاد العرب يعرفون ما يجرى حولهم!

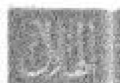
بقلم
مصطفى نبيل

لماذا كانت المعرفة العربية متميزة وسباقة فى الماضى.. ولم تعد اليوم كذلك؟!

بالأمس كان العرب يعرفون عن العالم مالا يعرفه سواهم، واليوم لايكاد العرب يلاحقون التغيرات السريعة، أو يدركون طبيعة مايجرى حولهم!!

وفى الماضى، ظل الكثير من أنحاء العالم مجهولا حتى قدمه الرحالة والجغرافيون العرب. وهناك أمثلة ثلاثة واضحة على ذلك..

خريطة العالم
القديم كما
تصورها
الجغرافيون
العرب الأوائل



فتناول البيروني الهند سنة ١٠١٢م وما يدور فيها، فمن يقدم لنا اليوم مايجرى فيها من نهضة علمية، وعمل شعبي ديمقراطي متقدم؟!

وقدم لنا أحمد بن فضلان «الفايكنج» أصل الأنجلو سكسون، ورسم لهم صورة البرابرة المتوحشين سنة ٨٧٨م، فمن يقدم علاقة مايجرى اليوم في العراق بهذا الماضي!

وتناول حسن الوزان أو «ليون الأفريقي» أفريقيا في القرن السادس عشر، وهي القارة التي ننتمي إليها، ولكنها بعدت، فلا تجد من يلاحق أحداثها ويندر من يعرف تفاصيل مايدور فيها!.

يقول المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في كتاب «الأدب الجغرافي العربي»، «قدمت لنا الجغرافيا العربية لوحة رائعة، وأظهر الجغرافيون العرب الدور المهم الذي لعبوه في تطوير علم الجغرافيا، ويبدو هذا واضحا فيما قام به البيروني... وابتدع الشرق تلك الشخصية الخالدة شخصية «السندباد البحري» الذي ترتبط أسفاره بالأدب الجغرافي، وواضح الاتساع الهائل في مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب، عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم، وترك العرب وصفاً مفصلاً لجميع البلدان»..

ويضيف .. «إن أول مرة أمكن فيها التعرف على أعماق أفريقيا بوصف تفصيلي كان في المؤلفات العربية .. ولم يكن كل ما أتوا به صحيحاً، فكان لديهم مثلاً تصور أن الأنهار الكبرى تنبع من الفردوس!، فأعمالهم تارة علمية دقيقة، وتارة شعبية تجمع بين ماهو واقعي وما هو أسطوري، وفيه المتعة وفيه الفائدة. ولا يوجد لذلك مثيل لأدب أي شعب معاصر لنهضة العرب».

الحضور الحي

يقف على قمة الجغرافيين والرحالة البيروني. والذي زار الهند عام (٩٧٣هـ - ١٠١٢م)، وترك لنا كتابه «ما للهند من مقولة مقبولة». ومازال لهذا الكتاب حضور حي، فكثير مما أورده مازال قائماً ..

وفتح هذا الكتاب للقارئ نافذة يطل منها على ذلك العالم المجهول بكل مافيه، وهو عالم يتمتع بحضارة عريقة وثقافة متفردة.

وقد كان عالماً مرموقاً، جاء من خوارزم، ونبغ في كل علوم عصره، وأتقن من اللغات اليونانية والفارسية والهندية، يصفه ياقوت الحموي بقوله .. «لايكاد القلم يفارق يده، وعينه النظر، وقلبه الفكر» له ثقافة موسوعية تظهر في كتاباته وملاحظاته الحصيفة. وقامت شهرته على كونه جغرافيا.

ويدلنا البيروني على الدافع لكتابة هذا الكتاب المهم، وهو الاستجابة لأحد العلماء حتى يصحح أخطاء روايات العوام. ويأخذ البيروني على الأمة الإسلامية جهلها بأمور هذه البلاد، فيتقدم ليسد هذا النقص، والذي يفسره بالاختلاف في اللغة، والتباين الديني بين الهند وفارس.

فماذا هو قائل لو ظهر شاهدا على هذا العصر؛ عصر ثورة المعلومات، وسرعة



الاتصالات، وتزايد أدوات المعرفة، ووجود القارات والصحف والإنترنت والفضائيات؟!!

ويقدم للقارئ العقائد المنتشرة فى الهند، ويقول عن تناسخ الأرواح «التناسخ علم الهنود، فمن لم يعتنقه لم يكن منها... وأصل هذه العقيدة أن الأرواح لاتفنى، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان. وقد جاء بهذه العقيدة «مانى» الفارسى الذى نفى إلى الهند (قدمه أمين المعلوف فى رواية حدائق النور)، كما تحتل الفلسفة الخلقية فى الهند مساحة واسعة فى اهتمامات الكتاب، ففى عقيدتهم أن الخلاص بالعلم ولا يكون إلا بانتزاع الشر، والانتصار على الشهوة والتحكم فى الغضب».

ويلفت نظره نظام الطبقات الصارم، ويذكر أن السياسة والدين اجتمعا على تصنيف الناس فى مراتب وطبقات تحول دون الاختلاط والمساواة، ويفيض فى تقديم كتبهم الطبية النفيسة، كما يشير إلى كتاب «ينج تنتر» وهو كتاب «كليلة ودمنة»، وأنه تردد بين الهندية والفارسية والعربية حتى يجذب القارئ إلى مذهب المانوية.

ولعل ذلك هو الذى أدى إلى إعدام عبد الله بن المقفع مترجم الكتاب إلى العربية.

ويتناول عاداتهم مثل عدم حلق الشعر، وتضفير اللحى وشرب الخمر على الريق، وقيام النساء بأمور الحراثة والرجال فى راحة، ويرتدى الذكور ملابس النساء، كما أن لهم فى الزواج عادات خاصة، ولاطلاق عندهم، وللرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ويصل عدد زوجاته إلى أربع، ولا تتزوج المرأة بعد وفاة زوجها.

(ونشرت قصور الثقافة النص الكامل لكتاب البيرونى، وقدمته الهلال فى مارس ٢٠٠٤).

الليالى البيضاء

أما رحلة أحمد بن فضلان إلى الشمال بحثا عن الضياء فتعبر عنها لوحة شهيرة للرسام هنرى سميرادسكى فى متحف الأرميتاج فى بطرسبرج، وهى تصور أحد الوقائع التى وصفها ابن فضلان فى رحلته، باخرة تبحر فى النهر المقدس وهى تحترق، تحمل الزوج المتوفى وتصاحبه جاريته حبا ووفاء، حتى تشتعل فيها أعمدة اللهب!

كما أشعلت الصور التى أوردها ابن فضلان خيال الروائى الأمريكى مايكل

كرايتون، فكتب روايته التى حافظ خلالها على الوقائع التى صورها ابن فضلان، «أكلة الموتى»، وترجمت الرواية إلى اللغة العربية، ونشرت فى روايات الهلال فى مايو ١٩٨٥.

وحولت هوليوود الرواية إلى فيلم سينمائى شهير هو «الفارس الثالث عشر».

كما نشر نص الرحلة د. سامى الدهان فى دمشق.

وجاء الاهتمام الكبير بهذه الرحلة، لأنها ألقت الضوء على حياة الكثير من الشعوب منهم الصقالبة والفايكنج فى فترة مجهولة من التاريخ المدون والمعروف.

وهى تسد ثغرة فى معرفة ماضى الشمال، وتشمل الرحلة العادات والتقاليد فى ذلك العصر البعيد أى فى القرن العاشر الميلادى.

لاحظت أول مرة الاهتمام برحلة ابن فضلان لدى زيارتى إلى جامعة هلسنكى فى فنلندا، فكان علماء الشمال أول من لفت نظر الدوائر العلمية إلى أهمية هذه الرحلة.

والرحلة - أى رحلة - تتطلع إلى المجهول، والبحث عن الجديد .. ويذكر المستشرق الألمانى فرهنى .. «إن تاريخ روسيا وما جاورها فى العصور القديمة غير معروف، وهو لايزال غامضا فى الكثير من جوانبه .. وإذا كانت الدول الغربية قد أغفلت روسيا، فإن العرب والشرقيين قدموا البلغار والصقالبة فى عصور مجهولة تماماً.. وبذلك فتح العرب عيون الغرب على معارف عجيبة فى الكون من أقصى الهند والصين وحتى المحيط..»

وتصف رسالة إبن فضلان بالفعل بلاد الروس والبلغار أيام الخليفة المقتدر بالله أبى الفضل (٢٩٥هـ)، كما تتناول الصقالبة سكان الشمال على أطراف نهر الفولجا. وهى معارف لاتوجد فى مرجع سواه.

وكان أحمد بن فضلان ضمن بعثة دبلوماسية تحت رئاسة سوسنى الراسى إلى ملك الصقالبة، وبقى ماسجله فى تقرير كتبه إلى الخليفة، ولم يعرف مضمون ماكتبه مرة واحدة، بدأت معرفة رسالة ابن فضلان من خلال مانقله منها ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان».

فمرت البعثة فى طريقها إلى بلاد الصقالبة بهمدان والرى ونيسابور ومرو وبخارى، ثم سارت البعثة مع نهر جيحون إلى خوارزم عند بحر أرال، وعبروا صحراء أوست أورت، ثم نهر يايت ووصلوا إلى حوض نهر الفولجا.

واستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً غنية بالأحداث والمغامرات، وجمع رسموس سنة ١٨١٤ بعض أطراف هذه الرحلة وترجمها إلى الروسية مما أورده ياقوت الحموى، ونقلها نيكلسون بدوره إلى الانجليزية.

ثم عرفت بكاملها عندما أدى الكشف عن مخطوط الرسالة فى عشرينيات القرن العشرين، وساهم فى زيادة المعرفة والاهتمام بالتفاصيل الإضافية التى لم يوردها ياقوت الحموى.



وحصل المعهد الآسيوى للاستشراق فى بطرسبرج سنة ١٩٢٤ على النسخة الخطية للرحلة التى عثر عليها فى «مشهد» بإيران.

ويصف الكثير من الغرائب والعجائب فى الشمال . قصر الليل وطول النهار، أى الليالى البيضاء فى بلاد الشمال فى بطرسبرج وفنلندا والسويد والنرويج «رأيت النهار عندهم طويلاً جداً، يطول مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار» ويدهشه خلال رحلته وجود النساء إلى جانب الرجال، عريا، ويدعوهن إلى التستر، ويغطى وجهه حين تكشف النسوة عن عوراتهن».

ويضيف مستعرضا بعض عادات أهل الشمال .. «ينزل الرجال والنساء إلى النهر يغتسلون عراة، لايستتر بعضهم من بعض، ولايزنون، ومن زنا منهم، ضربوا له أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة، ثم تعلق كل قطع منه على شجرة.'»، وهذه مجرد شذرات من وصفه.

أما لوحة الأرميتاج، فكانت نقلا عن الفقرة التالية التى جاءت فى رسالته .. ويسألون الجواري من على استعداد للموت مع سيدها، خلال رحلته إلى الملأ الأعلى، وعندها تشرب الجارية وتغني، وتركب السفينة التى جعل فيها خمر وفاكهة، ويدفعون الجارية بعد أن تودع صاحباتها، ثم يحرقون الخشب أسفل السفينة، وهي تتجه إلى الأفق البعيد، حتى تصبح رماداً تذروه الرياح».

وتصور رواية كرايتون اختطاف ابن فضلان من جماعة الفايكنج (أصل الأنجلو سكسون سكان بريطانيا والولايات المتحدة). ويصف حياة الوحشية البربرية التى يعيشونها.

يقول كرايتون فى مقدمة روايته.. «يعد هذا المخطوط أقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الاسكندنافي، وهو بذلك وثيقة فريدة من نوعها تصف أحداثا تفوق الخيال.

وهناك تباين كبير بين النظرة الأوربية الأولى والقديمة والتى رسمها رجال الدين، الذين نظروا إلى الفايكنج نظرة رعب خاص .. مائة رأس معمم بحديد الفولاذ فوق العنق، ومائة لسان لاسع بارد لا يصدأ، صفيق وقح كل منهم لايسلم من أذاهم أحد.

وجاء إبن فضلان وتجاوز وحشيتهم لكي يظهر نظام القيم لديهم، والأثر الأكثر وضوحاً لفنهم الوثني، ولطاقتهم التي لاتعرف الملل»..

في بؤرة الصراع

وثالثة الرحلات التي أضاءت فترة مجهولة من تاريخ أفريقيا هي رحلة حسن الوزان أو ليون الأفريقي.

وهو الرجل الذي وجد نفسه في بؤرة الصراع بين الشرق والغرب.

كانت البداية خروجه فاراً من غرناطة في الأندلس التي ولد بها، ثم اجتاحتها قوات فرناند واليزابيث عام ١٤٩٢ ولجأ إلى فاس في المغرب، وهو أحد ضحايا سقوط الأندلس.

كما شاهد في مصر سقوط دولة المماليك، ودخول سليم الأول غازيا البلاد، وشهد شنق طومان باى آخر سلاطين المماليك عند باب زويلة، ويشيد في كتابه «وصف أفريقيا» بشجاعته، ويتكرر الإخفاق في كل من غرناطة والقاهرة، وعاش في بؤرة الصراع سواء بين العرب أنفسهم في المغرب ومصر، أو بينهم وبين الأجنبي.

وأخيراً .. يقع أسيراً عام ١٥٢٠م، ويختطفه القراصنة من صقلية بالقرب من جزيرة جربه، ويقدمه خاطفوه إلى البابا ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١)، ويعيش في رعاية البابا ثلاثين عاماً، وأطلق عليه البابا اسمه فأصبح «ليون الأفريقي»، ولعل ماأبقاه في روما كل هذا الوقت، شغفه بالمعرفة في بواكير النهضة الأوروبية وفي ظل عائلة المديتشي، وكان يجيد اللغة الإسبانية وتعلم اللغتين الإيطالية واللاتينية ، واغترف المعرفة من مكتبة البابا، وهو عربي النشأة واللسان، ولكنه كتب «وصف أفريقيا» باللغة الإيطالية!

وبعد أن استفاد من كل كتاب وقع بين يديه ، تمكن من الإفلات عائداً إلى تونس.

وبالتالي لم يكن مستغربا أن يجعله الروائي أمين المعلوف بطلا لأحد رواياته التي أطلق عليها اسمه الافريقي «ليون الأفريقي»، وقد عرف عن المعلوف ولعه بتاريخ العصور الوسطى ومعالجته للعلاقة بين الشرق والغرب. والمعنى بالتأثير والتأثر بينهما. ويتناول قصته وهو ذاته العربي الذي يعيش في باريس ويكتب بالفرنسية، فيروى قصة حسن الوزان منذ مولده سنة ١٤٨٨م وحتى اختفائه من روما سنة ١٥٢٦م.

ويبدأ عمله الدرامي بالقول على لسان حسن الوزان.. «ختنت بيد مزين، وعمدت بيد أحد البابوات، وعشت الحكمة في روما، والصبابة في القاهرة، والغم في فاس، والبراءة في غرناطة».

ويعد حسن الوزان آخر العلماء الذين نشأوا في ظل الحضارة العربية في الأندلس، كما يعد كتابه «وصف أفريقيا» من المصنفات المهمة التي أسهمت في التعريف ببعض المناطق الأفريقية ، فبعد رحلة ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٨م)، والتي تمثل وثيقة اعتمد عليها البحث الجغرافي في دراسة الأقطار الأفريقية والآسيوية في القرن الرابع عشر، جاء

بعده حسن الوزان بقرن ونصف القرن وأكمل تلك المعرفة، ويكاد كتابه أن يكون المرجع الوحيد الذي يقدم مجاهل أفريقيا لكل دارس.

ويصف المستشرق الروسي كراتشكوفسكي حسن الوزان، بقوله .. «إن الوصف الجغرافي عنده يتميز بالدقة ولعل معرفته بعدة لغات مكنته من الإطلاع على مؤلفات العصور الوسطى». ويضيف .. «إن أهمية كتاب «وصف أفريقيا» في تلك الملاحظات الشخصية التي تشكل الجزء الأساسي من الكتاب

ويعتبر كتابه فتحا جديدا بالنسبة لذلك العصر، حتى لو اقتصر على تقديمه لما يقرب من أربعمائة اسم لمواضع جغرافية مختلفة، مع معطيات دقيقة وجديدة، ورغم مرور ثلاثة قرون، لم يستطع أن يتجاهله باحث يتناول أفريقيا..».

ويرى بعض الباحثين العرب، أنه ألف هذا الكتاب بالعربية ثم أتمه وترجمه في روما إلى الإيطالية، ولم يعثر أحد على الأصل العربي، إلا أن عبد الله عنان يذكر أن النص العربي، كان معروفا حتى أواخر القرن السادس عشر في مكتبة بينللى الإيطالية..

يقول الوزان حول منهج كتابه .. «هذا على وجه ماأبصرته من الأشياء الغريبة التي علقت بذهني عن أفريقيا التي عبرتها من أقصاها إلى أقصاها، ودونت تلك الأشياء التي رأيتها بعيني رأسي، ومالم أره فقد جهدت من أجل الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم».. وانتهيت من تدوينه في شهر مارس عام ١٥٢٦م».

وهذه بعض الأمثلة مما جاء في الكتاب، يقول عن مصر .. «إنه ركب النيل من القاهرة إلى أسوان، ثم عاد إلى قنا، واجتاز الصحراء إلى البحر الأحمر». ويصف سكان القاهرة بقوله .. «سكان القاهرة على جانب كبير من الظرف والمرح، حديثهم ممتع، ولكن علمهم قليل(!)، ولا يغادرون بلادهم، وعلى الرغم من أن المدارس مزدحمة بالطلاب، لايستفيد منهم إلا النزر القليل..».

هكذا كانت المدارس في القرن السادس عشر وحتى اليوم

ويبدي في خاتمة كتابه نيته للعودة وعزمه عليها .. «وإني أعتزم بعون الله، حينما أعود من أوروبا إلى وطني، أن أخص كل هذه الرحلات بالوصف..».

وعاد إلى بلاده ووصل إلى تونس، ولم يعرف بعدها عنه شيء وترجمت رحلاته إلى كل لغات العالم، ولم يوجد باللغة العربية إلا مؤخرا عندما ترجمه عن الفرنسية في الغرب، كل من د. محمد حجي ود. محمد الأخضر.

وبعد ...

مازالت الحياة العلمية في الشرق تحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام. وقد تدهورت عندما اقتصر الاهتمام على العلوم الدينية وإغفال غيرها من العلوم، ومرة أخرى منذ فصلت العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية رغم ارتباطهما، فما أحوج المهندس إلى الموسيقى، وما أحوج الروائي والشاعر إلى المعمار، وما أحوج الطبيب إلى العلوم الاجتماعية . ■

صاروخان

فارس الكاريكاتير السياسى !



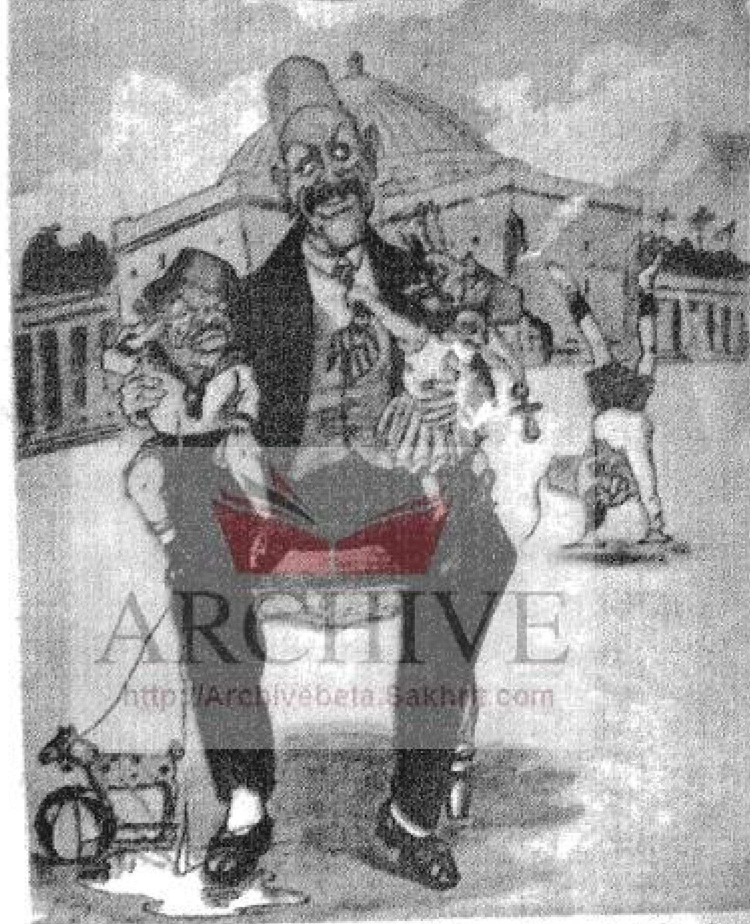
● الأرمنى الضاحك
الذى أصبح «المصرى أفندى» !
● عندما يصبح
الكاريكاتير
السياسى صاروخا مدمرا !

بقلم
محمد رضوان



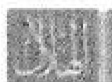
ارتبط اسم فنان الكاريكاتير «صاروخان» بتاريخ الكاريكاتير فى مصر، حيث يعتبره كبار فنانى الكاريكاتير أنه الأستاذ والرائد، باعتباره أول من مصّر فن الكاريكاتير، وعبر من خلاله عن ملامح المواطن المصرى بوضوح، وعكس أفكاره، وجسد شخصيته وعاداته وتقاليده.

ويكفى أنه ابتكر شخصيته «المصرى أفندى» الذى عبر على لسانه عن قضايا الوطن والمواطن المصرى والحياة المصرية السياسية والاجتماعية والفكرية خلال خمسة عقود منذ حقبة الثلاثينات حتى منتصف السبعينات عاصر خلالها الأحداث الساخنة فى العهدين الملكى والجمهورى بدأ من عهد الملك فؤاد الأول مرورا بعهد فاروق الأول ملك مصر والسودان حتى عصر جمال عبدالناصر ثم عصر السادات الذى رحل فى منتصفه «يناير ١٩٧٧»



الوفد بين الحزب الوطني والأحرار الدستوريين ؟!

صاروخان - روز اليوسف - ٢٩ مايو ١٩٢٨



ENTRE DEUX FEUX

صاروخان - "هذه الحرب" ١٩٤٠

ԱԶԳԵՐՈՎ ԿՌՈՒՏԸ

بياكلها بعنيه !

والغريب أن هذا الفنان الموهوب الذى مصّر ملامح الشخصية الكاريكاتيرية وأعطاها ملامحها المصرية الأصيلة لم يكن مصريا. بل جاء إلى مصر من باطوم ببلاد القوقاز سنة ١٩٢٤ بحثا عن فرصة عمل فى مجال الكاريكاتير وذلك فى مغامرة مثيرة تستحق أي تروي وتقص.

من هو صاروخان

ولد الكسندر هاكوب صاروخانيان فى أول أكتوبر ١٨٩٨ ببلدة أردانوج بأقصى شمال تركيا الواقعة ضمن مقاطعة «باطوم» التابعة للإمبراطورية الروسية يومئذ.

وكان صاروخان ثالث أبناء زاديك صاروخانيان الذى كان يعمل تاجرا للأقمشة ثم انتقل بأسرته عام ١٩٠٠ إلى مقاطعة باطوم، وارتبط الكسندر بأخيه «ليفون» حيث عشقا الرسم وبعد ان التحقا بالمدرسة الروسية تقابلا مع معلم الرسم الذى زرع فيهما حب الرسم إلا أن الأحداث السياسية أجبرت الأسرة على الانتقال إلى استانبول حيث أسس والده هناك تجارة فى النفط القوقازى وهناك التحق الأخوان الكسندر وليفون بالمدرسة الكاثوليكية وقاما بتأسيس جريدة أسبوعية منزلية من أربع صفحات تنفذ كلها يدويا فكان ليفون يقوم بكتابة المادة الصحفية وجمع المقالات، أما الكسندر فكان يقوم برسم الصور الكاريكاتيرية ولكن جاء عام ١٩١٥ ليحمل مأساة دامية لأسرة صاروخان.. حيث شهد هذا العام مذابح الأرمن وراح ضحيتها ضمن من راح والد الكسندر ووالدته وأخواته الثلاث.

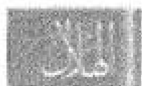
وفى نوفمبر ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى خرج الكسندر من المدرسة ليعمل مترجما للغات الروسية والتركية والإنجليزية بالجيش البريطانى واستطاع نشر بعض رسوماته الكاريكاتيرية فى بعض الجرائد والمجلات الأرمينية.

وبعد دخول قوات الغازى كمال أتاتورك إلى أزمير قرر الكسندر وأخوه الفرار من تركيا خوفا على حياتهما فاتجها إلى بروكسل حيث أعادا إصدار مجلتهما الكاريكاتيرية أسبوعيا والتى استمرت لمدة ثلاث سنوات وبعد احتراف الكسندر للرسم الكاريكاتيرى اتجه إلى فينا لينهي دراسته بمعهد الفنون الجرافيكية.

وفى فينا جرى لقاء مع شاب مصرى مغامر كان نقطة تحول فى حياة الكسندر وفنه.

لقاء فى فينا

كان ذلك عام ١٩٢٤ حيث التقى فى فينا بالشاب المصرى المثقف الثرى عبدالقادر الشناوى الذى كان يدرس فى



المستقبل



صاروخان - المستقبل ١٩٢٩

١٢٤

الهلال

ربيع ثاني ١٤٢٥هـ - يونيه ٢٠٠٤م

فينا فنون الطباعة تمهيدا لإصدار صحيفة فكاهية في مصر بعد عودته.. واتفق مع الكسندر على حضوره إلى مصر ليعمل معه في إصدار الصحيفة الجديدة.

وبالفعل ركب صاروخان السفينة المتجهة إلى مصر ونزل بميناء الإسكندرية في ٣١ أغسطس ١٩٢٤.

وبعد محاولات شاقة عثر على عبدالقادر الشناوى في مدينة المنصورة وبالفعل صدرت الصحيفة وبها رسومات صاروخان الفكاهية لكن الصحيفة توقفت بعد صدور العدد الثاني.. واستطاع صاروخان التعرف على الجالية الأرمينية بالقاهرة فأخذ يرسم في مجلة السينما الأرمينية منذ يناير ١٩٢٧.

ولكن حدث لقاء آخر مع كاتب مصرى شاب كان نقطة تحول أخرى في مستقبل صاروخان الصحفي.

التابعي و صاروخان

كان ذلك في نوفمبر ١٩٢٧ حيث التقى بالكاتب الصحفي محمد التابعي رئيس تحرير مجلة روزاليوسف في ورشة بريزبريان للتصوير والرنكوغراف. فطلب منه التابعي أن يرسم غلافا لمجلة روزاليوسف ، فرسم صاروخان عدة صور كاريكاتيرية بالألوان قدمها للتابعي الذي أعجب بها ونشرها كغلاف لمجلة

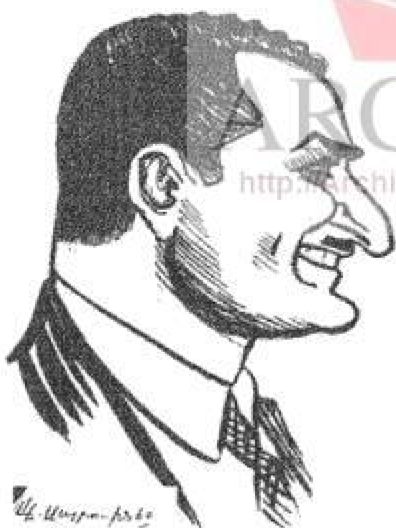


صاروخان - آخرساعة - ١٩٣٤

روزاليوسف لينافس بها رسومات «سانتيس» الرسام الأسباني الذي كان يعتبر أكبر رسام كاريكاتير في مصر يومئذ ، وكان يرسم صور مجلة «الكشكول» التي كانت أكبر مجلة سياسية في ذلك الحين.

ثم طلب محمد التابعي من صاروخان أن يرسم صورا سياسية للزعماء المصريين، وأحضر له التابعي صور هؤلاء الزعماء الفوتوغرافية وأخذ يشرح له الأوضاع المطلوبة لهؤلاء الزعماء، ونجح صاروخان في التعبير عن المواقف السياسية المطلوبة





١٢٦
الهلال
ربيع ثاني ١٤٢١هـ - يوليه ٢٠٠٠م

فاكتسحت رسوماته رسوم سانتيس لأنها كانت تتفوق عليها بالحيوية والحركة وخفة الدم المصرية.

وبرسومات صاروخان وقلم التابعي أصبحت روزاليوسف أوسع المجلات السياسية انتشارا فى مصر، وأصبحت رسوم صاروخان تزعج الزعماء السياسيين وتثير المشاكل!

نجم الكاريكاتير السياسى

وأصبح «صاروخان» هو نجم الكاريكاتير السياسي الذي كان أبلغ من ألف مقال.

وشهدت مجلة روزاليوسف العديد من رسوماته الكاريكاتيرية اللاذعة منذ ٢ مارس ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٣٤ حيث انتقل فى هذا العام إلى مجلة آخر ساعة مع محمد التابعي ثم انتقل إلى أخبار اليوم منذ ١٩٤٦ حتى وفاته أول يناير ١٩٧٧. وكانت رسومات صاروخان تنقلها بعض مجلات أوروبا وأمريكا، كما كانت رسوماته حديث العالم العربي كله. لأنها كانت رسومات جريئة تسخر من الزعماء والقادة وتهزأ من الطغاة. ورؤساء الحكومات.

ويذكر مصطفى أمين أنه سأل صاروخان عن سر بعض المرارة فى رسوماته التي كان يغطيها بابتسامته الدائمة. فذكر أن صورة المذبحة التي تعرضت لها أسرته ظلت ساكنة فى وجدانه، ولذلك كنت ترى بعض رسوم صاروخان تضحك وتبكي فى وقت واحد. تجمع بين السخرية والمرارة.. ولذلك سماه مصطفى أمين «الرسام الضاحك الباكي» لأنه أحيانا كان يضحك البلد كلها وقلبه يبكي!

المصري أفندى

وقد نجح صاروخان بالاشتراك مع فكر محمد التابعي والسيدة روزاليوسف فى ابتكار شخصية نمطية كاريكاتيرية فى مصر، تعبر عن العقل والمزاج العام للشعب المصرى هى شخصية «المصرى أفندى» التى أصبحت أشهر شخصية سياسية على المستوى الجماهيرى، وهى شخصية الموظف البسيط ابن الطبقة المتوسطة الذى يتمتع بخفة الظل والسخرية اللاذعة الذكية يرتدى بذلة كاملة ونظارة كثيفة كرمز لثقافته وكثرة اطلاعه وبيده المسبحة أسقط عليها صاروخان كل الأفكار والآراء السياسية والاجتماعية التى تحمل النقد اللاذع للأوضاع السياسية والاجتماعية محليا وعربيا وعالميا وبذلك أصبح كاريكاتير المصرى أفندى مؤشرا لاتجاهات الريح السياسية وللأحوال الاجتماعية والفكرية، ويذكر ناصر عراق فى دراسته المخطوطة عن «تاريخ الرسم الصحفى فى مصر» أن أول صورة لشخصية «المصرى أفندى» نشرت على غلاف

الصرخة



١٢٨

الهلال

نوع السند والتأييد ؟!

تقول الوزارة بلسان صحفها أنها تحكم مستندة الى تأييد الامة المصرية !

صاروخان - الصرخة ١٩٣٠

مجلة روزاليوسف يوم ٧ مارس ١٩٣٢ وكان لرسومات صاروخان تأثير فعال في معركة الأحزاب السياسية ومناوئه الإنجليز والقصر قبل عام ١٩٥٢.

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ واكبت ريشة صاروخان الأحداث والقضايا التي مرت بها الثورة والتحولات السياسية والاجتماعية والمعارك السياسية والعسكرية التي خاضتها مصر تحت زعامة جمال عبدالناصر.

ولحسه المصري العربي القومي واخلاصه لقضايا مصر السياسية منحه الرئيس جمال عبدالناصر الجنسية المصرية سنة ١٩٦٠.

هذا، وقد اختير صاروخان ضمن أربعة عشر رساما كاريكاتيريا عالميا ممن حملت رسومهم رسالة السلام.

وقد شهدت صفحات مجلات روزاليوسف (١٩٣٢) والمستقبل، ١٩٢٩ - ١٩٣١، والصرخة، ١٩٣٠ - ١٩٣١، وآخر ساعة (١٩٣٤) ثم صحيفة أخبار اليوم (١٩٤٦) العديد من رسومه الكاريكاتيرية المعبرة، وظل يحمل ريشته حتى رحل عن الحياة في يناير ١٩٧٧.

شهادات

وهناك عدة شهادات لدور صاروخان الكبير في فن الكاريكاتير المصري، ودوره في الانفعال بقضايانا السياسية والاجتماعية والقومية.

يذكر مصطفى أمين أن رسومات صاروخان كانت «تهزأ بالحكام وتسخر منهم . تاره تصورهم كقطع شطرنج يلعب بها الملك والإنجليز ، وكانت صوره تهاجم القصر والإنجليز والاستعمار والديكتاتورية.. وكانت رسوماته الكاريكاتيرية في بعض الأحيان أشد قسوة من سلسلة من المقالات».

ويذكر الفنان حسين بيكار أن صاروخان هو أحد أعمدة فن الكاريكاتير المصري مع سانتيس وعلى مفتي ورخا.

ويعترف الفنان رخا بفضل صاروخان الذي ولد على يديه فن الكاريكاتير المصري الأصيل.

أما شيخ الصحفيين حافظ محمود فيذكر أن صاروخان نحت بدأب صخرة الكاريكاتير وبنى لها معبدا في شارع الصحافة.

أما فنان الكاريكاتير زهدي فيقول عن صاروخان وهو يرثيه متحدثا عن اثره في فن الكاريكاتير المصري. «يصح القول ، بأن من جاء بعده من رسامين.. تأثروا بأسلوبه واستخدموا نفس طريقة تصميمه للحركات والتعبيرات ، وبعضها وصل إلى حد النسخ الكامل.

«فلقد كان الكاريكاتير المصري الحديث يحتاج إلى اثبات جنسيته ، بريشة مصرية، وبأسلوب مصري..



﴿هذه الصورة لا تحتاج الى تفسير ومما لا شك فيه ان لسان حال الرجال المجتمعين حول هذه الحسناء
﴿شك علينا ... طوّلي بالك ... استني حتى نخلص و بعدين تحكمي﴾

والعجيب أن الكاريكاتير المصرى ولد على أيد غير مصرية ، وكانت مصر وقتها تتلمس طريقها نحو الاستقلال عن ثقافة الغرب.

«ولئن كان أسلوب «سانتيس» في البداية فرنسي الذوق، وأسلوب «رفقى» الحالم الأكثر تعبيرا عن الذوق الشرقى واذا كانا قد وضعا أصول الكاريكاتير المصرى. فإن صاروخان هو الذى حمل كل ما فيهما من خصائص ، وخرج بما حمل إلى الشارع تعلم منه ما يحتاجه القارىء المصرى أو المصرى أفندى.. وبهذا امكنه أن يتخلص من سيطرة أسلوب سانتيس عليه ليخطط أسلوبا مختلفا تماما عن الأصل المنقول عنه.

ثم يقول الفنان زهدى عن صاروخان:

«كانت لصاروخان مهارة فائقة وقوة ملاحظة فى تخليص الملامح الشخصية التى تركها لنا سجلها فى رسوم كاريكاتيرية للزعماء والمشاهير فى مصر لقد تخلص صاروخان من فخامة الأسلوب ومظهريته المتعمدة . وذلك حتى يستجيب للمطالب الملحة لماكينة الطبع واحتياجات الصحافة المتلاحقة والتى لا ترحم.

ثم يختتم الفنان زهدى شهادته عن صاروخان بقوله:

لقد مات رائد الكاريكاتير المصرى، بعد أن ترك فى ذاكرتنا أعدادا لا حصر لها من الأشكال الكاريكاتيرية المعبرة، بأسلوب لم يكن موجودا من قبله. ولكنه سيعيش ما عاش فن الكاريكاتير الجميل».

* * *

وبعد ، فقد كان صاروخان رائدا متميزا لفن الكاريكاتير المصرى ، واستطاع بمهارة أن يعبر عن ملامح الشخصية المصرية من خلال شخصية «المصرى أفندى» بحيث وجدت تعاطفا من جميع مستويات الشعب المصرى ، فكانت هذه الشخصية الاعتبارية صاروخ التعبير الوطنى في جميع مراحل النضال الوطنى فكان القراء يفتحون المجلة او الصحيفة ليعرفوا نبض الشارع السياسى.

ولم تكن شخصية «المصرى أفندى» وحدها بل كانت هناك عشرات من الشخصيات التى رسمها بكل تعبير قوى فكانت ريشته هى ريشة فنان متمكن قوى اللمسة رائع التعبير يلمس فيها دائما حرارة الانفعال وقوة التناول والحركة ولذلك أحس القارىء أنه أمام فنان مصرى الروح حساس بنبض رجل الشارع والموظف ولسان حال السياسى والوطنى .. فنان مصرى حتى النخاع وان كان مولده فى بلاد القوقاز!

إنه الأرمنى.. الذى أصبح «المصرى أفندى»! ■

نساء هذا الوطن

بقلم
مجيد طوبيا

«من حلاوة الروح» اسم على مسمى لرواية من تأليف الأديبة صفاء عبد المنعم - تذكروا هذا الاسم - مكتوبة بلغة عامية سلسة عفوية (ومحكمة الصنع) حتى تشعر أن المصريين ابتدعوا هذه اللغة خصيصا من أجل القص والحكى وبناء الرواية نفسه متدفق فى تلقائية (ومحكم الصنع) .

تدور أحداث الرواية أو دردشاتها فى دار قديمة متهالكة مكونة من سبع حجرات، فى كل حجرة أسرة كاملة، عدا حجرة صغيرة مغلقة دائما تسكنها العفاريت ، وأخرى يسكنها شاب صغير ضائع فشل فى التعليم بسبب عشقه للسينما وفريد شوقى ، وتمنيه أن يكون مثله ، يضرب ويحب ويشرب ، ومعه فلوس ، ويبوس بنات جميلات ، لكن الحال انتهت به إلى صائع ضائع يعمل أى شىء ليعيش .. لكنه يصف البيت بأسلوب بديع هكذا :

- «أول أوضه تقابلك أوضة أم رامي، قصادها بالضبط أوضة بدر ، تخش حبتين تلاقى حوش كبير في وسطه طرمبة خربانة .. جنبها أوضة «زنة» وقصادها أوضه صغيرة (مغلقة دائما ويظنون أنها مسكونة بالعفاريت) .. تخش حبتين تلاقى أوضة «حسنة» كبيرة وواسعة وليها منور كانت حسنة مأجراه تنيم فيه العيال فى الصيف .. قدامها بالضبط وبعرض البيت أوضة لوزة مرات عبده ، ليها شباك ع المنور ، والعيال ولاد حسنة كانو دايما يبصو عليها منه ، تحود يمين من بعد أوضة لوزه ، تلاقى طرقه فى اخرها أوضتى».

المرأة هي العصب

وطن صغير مهمش، كل غرفة فيه منسوبة إلى امرأة ، وليس إلى زوجها أم رامي، بدر ، زنه ، حسنة، لوزة . ذلك أن المرأة في هذا المجتمع تخدم في البيت وتكدح خارجه ، فهي عصب الأسرة ، وكثيرا ما تتحمل الإنفاق وحدها عندما يتعطل الزوج الكسول مدمن المخدرات ، ومع ذلك يتعدى عليها بالضرب !

أين يقع هذا البيت ؟ لن نعرف إلا ابتداء من صفحة ١٠٠ والرواية كلها في ١٧٥ صفحة قطع متوسط وحتى اسم الحي سيظل مؤجلا إلى قرب النهاية ، لنبقى أسرى هذا الوطن الصغير ورعاياه الفران والجزماتي وخادمة البيوت وعامل المجاري وبائعة الخبز البايت ، وأم رامي المسيحية جاءوا وتغربوا من ديارهم - الصعيد أو الدلتا - بحثا عن الرزق ، يعيشون معا ، يتشاجرون كثيرا ، ثم يجلسون معا يأكون من طبق واحد ..

وهم رغم الفقر والجهل فلاسفة ، لكل منهم وجهة نظر في الحياة . بعضهم مذهبه «خراب يا دنيا عمار يا مخي» . والبعض طيبون «بيبصو لبعيد لكن مش قادرين يعملو حاجة» والبعض من طينة «إحبيني النهاردة وموتني بكره»

والمصيبة أن جميع سكان البيت ، أزواج وزوجات وأولاد وبنات (وبعض الضيوف أحيانا) يشتركون في دورة مياه واحدة «حمام واحد مالهوش باب ، وعشان الواحد يروح له لازم يفضل يتكلم بصوت عالي من أول الطرقة ، أو يتنحنح ويكح ، لوحد رد يرجع ، ما ردش يكمل ويخش كانت دايما الميه ملياه . عشان كده بنحط قالبين طوب ، وآخر ما زهقنا عملنا سقالة من الطوب نمشي عليه ، صف طويل فوقه لوح خشب . يبقى الواحد ماشي والميه حواليه ، كأنه هايعدي النيل ، ويا سلام لوحد حب يروح الحمام بالليل ، وأصلا البيت مافيهوش نور ، تبقى حوسه ، يعني لازم الواحد يشمر هدومه ويمسكها بأسنانه ، ويفضل يخوض في الميه ، وهو عمال يقول يا ساتر استر يارب . إن عدى ووصل للعين بالسلامة ، الفرحة تنسيه ياخد باله وهو راجع ، فيروح واقع مدبوب على بوزه ، وتبقى ليله ، يفضل يصرخ ويصرخ وينده على حد ينجده ، الكل يخاف ويكش ، لحسن تكون العفاريت اللي في الأوضه المسكوكة طلعت وهيا اللي بتنده !

نساء هذا الوطن الصغير

نبدأ بحسنة، واسمها الكامل حسنه حسان عبد المحسن حسن ، من جروان منوفية . زوجها أبو السعود ابن عمها . تحكي عنه قائلة

- كان أبوه يطلع مع جده عبد المحسن السوق ، وينفخو المعيز .. وساعات كانو يبيعوها على أنها عشار . جه ابن عمي زعل من أبوه وجده ، وقال لهم ده نصب ده حرام ، ضحكو وقالو له : روح شوف لك معزه اتجوزها .. واتجوزني .. كنت فلاحة وصغيرة.. وفضلت بلاد تشيلنا وبلاد تحطنا .. يخرج الصبح يقفل عليا بالقفل ، يحط الأكل والشرب ويقول خايف عليكي يا حسنة، البلد دي (القاهرة) واعرة واحنا أغراب .. ويوم ورا يوم خلفت العيال .. وهو ماشالش القفل إلا لما العيال ابتدت تكبر وتخرج للشارع ويروحو المدرسة ، واحنا كبرنا والحلاوه انطفت ..

مشكلة حسنة أنها جميلة ، وتستحم كثيرا .. وزوجها يعمل في تسليك المجاري طوال

الليل بأجر ثلاثة جنيهات :

ثلاثة جنيه يا عالم يقضو إيه وإلا إيه ؟ .. دا الواد سعد امبارح واخد خمسين قرش لوحده ، والواد حسن عايز شورت للألعاب ، والمخفية بطة عايزه تروح المدرسة السنة الجاية ، ونبوية الفحله طول النهار تنكس في الزبالة ، تلم صفيح وإزاز وورق وتبيعه، أهي بتجيب قرش والا قرشين..

لأجل المساعدة ، فهي تساعد الجيران المستورين في مقابل «رغيفين أو طبق طبيخ بايت» ومشكلتها أنها جميلة ونظيفة : «هو أنا باتباها بحلاوتي» : قالت ذلك عندما ضبطت جارتها «زنة» زوجها الفران علوه وهو «يبيص على حسنه من شق الحيطة وهي عريانه في الطشت» .. فكانت خناقة !!

أما «زنة» فهي صعيدية من الأقصر ، عصبية دميمة وأكبر من زوجها بكثير . عندما تأتي حماتها «سعدة» في زيارة مفاجئة ، ولا تجد الترحيب المناسب ، تلومها قائلة .

- مالك بتتكلمي من غير نفس . أنا حماتك وخالتك ، أم البغل اللي قانيكي .. وأنا اللي جايه مشتاقة وبايته أخبز في الرغفان (جمع رغيف) وانضف في الزفر!!

زنة اسمها الحقيقي بخيته (وشتهرتها زنة لأنها زنانة) .. خالتها وحماتها اسمها الحقيقي «داهية» وعندما ترملت ، وطافت في الدنيا بطفلها «علوه» لتقوم بتربيته بعيداً عن الفقر والدم ، أطلقت على نفسها إسم «سعدة» وصارت تعمل مثل الرجال : «شلت قوالح ، شلت دره .. شربت البرد والمطر وشراويد الصيف ، في عز بؤونه والحر .. وعمري ما عمرت في مطرح» .

عندما كبر ابنها علوه عادت إلى البلد لتزوجه ، وجدت أن أختها (أو بخيته) قد مات زوجها فتزوجت أخاه ، مات فتزوجت الأخ الثالث ، مات فتزوجت الرابع ! .. وكل واحد انجبت منه عدة بنات !

وكانت بخيته المسكينة مات عريسها ليلة زفافها برصاصة غادرة ، فصارت أرملة دون دخلة ، وبقيت في البيت حتى بلغ علوه السادسة عشرة وعادت به أمه ، وطمع في إرثها ، فرن للخبز البلدي ، فتزوجها وانجب منها ابنتين ، ثم خسر الفرن في القمار ، وصار عاملا بالأجر ، أي «راح الفرن ، وبقيت بخيته» ! .. وأمه تريد أن «تربي دكوره» وليس شخاليل (أي بنات) .. تريده أن يتزوج على بخيته إن لم تنجب له الولد. مأساة زنه (بخيته) أنها عندما انجبت الولد الذكر ، مات حرقا بعد أن حاول زوجها التخلص منها ، ثم طلقها !! فأخذت ابنتيها ورحلت ، والدنيا ليل «عيني عليكي يا خالة زنه!» .

راح الفرن وبقيت زنه !! ومثلها لوزه ، تربية عمتيها العانستين المستورتين ، نصحتاها بالزواج من ابن عمها ، لكنها اختارت ابن خالها المقيم بالقاهرة ، لأنها تريد أن تزور السيدة زينب . تقول لوزه عن جهاز عرسها :

- جابولي سرير نحاس بعواميد ، ولحافين حرير أطلس خالص ، ملولي البيت حاجات .. حرير على تفته على رمش العين ، هدوم لو فضلت ألبسها فيها العمر كله ماتخلصش !

ماتت العمتان وسرق ابن العم إرثها ، وعادت من العزاء لتجد الأمير زوجها قاعد في البيت عاطل من غير شغل .. واضطرت إلى بيع جهازها قطعة قطعة ، وتنتقل من

حجرة إلى أخرى أرخص ، إلى أن استقرت فى غرفتها الحالية .. وعملت شغالة فى بيوت مصر الجديدة ، واستحلى زوجها العيش على كدها ومن عرقها "

أما أم رامى فاسمها صباح ، صعيدية مسيحية ، وزوجها سراج «أعور وأصلع ، وقد عقلة الصباع ، والواحدة تكسره على ركبتها ، ولسانه زفز ، وسكرى "» . تحكى عنه صباح:

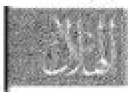
– كان عنده ورشة كبيرة ، ورشة جزم . وسمعت إنه فرفور حيلة أمه وأبوه وبتاع نسوان . وأنا كنت بطه ، حسنة دى ولا حاجة .. كنت بنت على سبع صبيان . أبويا قال نجوزه صباح، يساعدنا واهى تتاوى .. واتجوزته من غير ما اشوفه عشان الورشة . شفته من هنا ولهاليب قادت فى جتتى . قطعت هدومى وشعرى ، وكببت الجاز على نفسى . لكن كان سهم الله نفذ .. واحنا ما عندناش طلاق '

وبعد أن أنجبت رامى ثم ألفت ، اكتشفت أن زوجها خسر الورشة فى القمار من مدة ، وشغال فيها بالأجر ، دون أن يخبرها خشية أن تهجره . «طب أسيبه وأروح فيه ؟ . اتنين وأمهم مين يشيل همهم . بعدها عزلت من البيت ، وفضلت من بيت لبيت ، وبقيت اشتغل معاه ، أعمل له الجزم فى البيت ، وهو يقعد ع الناصية يصلح نعل ، يصلح كعب ، يدق مسمار» .

عندما كانت صباح تسكن فى حى شبرا ، كان أخوها يسكن فى دير الملاك «وفى يوم وكنت لسه والده الواد رامى ، جه أخويا فى عز طلقه القياله .. ضحك وقال . أنا دبحت النهاردة ، خدى اللحمة دى أطبخى ، كل سنة وأنتى طيبة ، النهاردة مولد العدرا .. حبيت على إيده .. وقلت له خيرك سابق يا خويا ، أنا طابخة ، والحلة ع النار . قام دخل الدروه اللى ورا السرير وراح كاشف الحلة اللى على الوابور .. ورجع يعاتبنى ، بتكدبى على يا بنت أبويا ، طابخه بساريا» .. طب والعدرا ما أنا ماشى إلا لما تطبخى وتنادى ع العيال ياكلو قدامى».

لكنها فى الموسم التالى تعرف أن أخاها الحنون مات : «مات وخد كل حاجة حلوه معاه ، والضحك غلى» . ثم تبعه أخوها الثانى !

كل هذا الفقر ، مع بسالة النساء ونذالة الأزواج ، اجتمع فى بيت واحد .. وارفع راسك يا أخى "



موقع هذا الوطن الصغير

شخصيات تعمل من طلعة النهار حتى الليل ، وتكمل عشاءها بالنوم . وطن صغير فى بيت متهالك ، نظل مندمجين مع مواطنيه ، لا نعرف عنهم شيئا خارجه إلا ذكرياتهم القديمة ! ثم نعثر على أول إشارة صفحة ٩١ ونعرف أننا أواخر عام ١٩٦٦ . ثم إشارة أخرى عندما تزورهم امرأة عجوز اسمها «أم عكاشة» ترملت مبكرا ، وعملت وكدحت وانفقت على أولادها الذكور حتى اتموا تعليمهم .. لكنها تفتقد الصغير «مهدى» ، فهو بعد أن أنهى تعليمه أخذوه الجيش .. ثم اختفى .. وقالوا أنه فى حرب اليمن!

تطيب حسنه خاطرها ، وتحكى لها عن ابن أختها الذى شارك فى حرب اليمن وحكى لها عنها - «يا خالتى الحرب دى أهوال ، اللى شفناه فى اليمن مش معقول نشوف زيه !!

كنا بنضرب في بعض ، مش عارفين مين مع مين .. حرب مالهاش معنى كنا لما نزهق ندك البلد بالي فيها دك ، نجيب عاليها واطيها .. وكانوا لو شافوا حد منا يضربوه» !

ابن أختها هذا رجع من اليمن سليما ، لكنه راح في دقيقة واحدة : «ماهم بينجو من الحرب ويموتو موته تانية .. كان مسطح ع القطر ، وقام وقف وماخدش باله ، طب وقع والقطر فرمه .. واختي في البلد فرشت جنب طربته ونامت .. النار كاويه الكل !» .

ثم كانت النكسة الكبرى بهزيمة ١٩٦٧ . يوم الحزن الكبير ، وكنست الحرب الجدعان : «بقي مصر أم الدنيا ، اللي الرسول دعى لها ، يحصل ليها كده !! لأ ومن مين ؟؟ من شوية يهود!!» .

وبدأت عجائب وغرائب النكسة : انشقت الأرض في الاسكندرية وبلعت عروساً مع عريسها .. امرأة قتلت ابنها بمساعدة عشيقها .. «اثنين في سوق سمكه ، عاملين نفسهم شحاتين ، وبيخطفو العيال ويدبحوهم ، قال إيه في المسله كنز (مسلة عين شمس) ومش هيطلع إلا بدم أربعين عيل دكر!» .

ذات ليلة لم تعد نبوية الفحلة ، وجلست أمها حسنه تولول ، فنصحتها أم عكاشة قائلة : «اندرى ندر للسيدة ، ولا قولي شالله يا عدرا ، يا أم المسيح ترجعي الغايب ، ياللي المطرية حمتك وآوتك ، انتي وابنك .. وابقى روحي عند الشجرة وملسي عليها .. قومي يا بت نلحق المغرب في سيدك المطراوى» ..

الآن نعرف موقع وطنهم الصغير من القاهرة ، قرب شجرة مريم ، وأرض البلسم ، ومسلة عين شمس .. وكانت نبوية بنت حسنه قد صاحبت فتى من المهجرين ، الذين توافدوا على الحي بعد النكسة ، من مدن القناة والعريش ، فبدأ الغلاء ! وسكنت معهم في البيت مهجرة بعيالها اطلقوا عليها اسم «أم جلامبو» .. تبكي حالها لهم شاكية :

- كنا ساكنين في حي الأربعين ، جوزي كان بمبوطي قد الدنيا ، وأبويا كان بيشتغل في الكنال .. انضربنا واتبهدلنا .. قمنا شيلنا العيال وهاجرنا . أنا جيت المطرية ، وأمي سافرت بلادها عند اخواتها . وأختي راحت الصعيد عند أهل جوزها . آه لو شفتو اللي شفناه . لما نار جهنم تبقى فوق روسنا ، وطيارات العدو ماليه السما زي المطره .. وترخ على روسنا كنابل .. اللي بيوتهم اتهدت ، واللي تجارته راحت ، واللي عيالهم ماتو .. كل ده ومش طايقينا وسطيكم ، وانتو هنا وسط آهاليكم ولا خسرتوش حاجة ؟!

وشعر الفقراء بالغلاء «وكل حاجة هاتبقى بالبطاقة» .

ثم فجأة صارت الدنيا مقلوبة «والناس - مابين مصدق ومكذب - ماليه الشوارع بيقولو العدرا ظهرت» .

ابتسامة الرئيس

في بداية الرواية يعود أبو السعود زوج حسنه من عمله الليلي في تسليك المجارى ، يجلس أمام غرفته لتناول الافطار قبل أن ينام ، ومعه العديد من سكان البيت يفطرون ، وإذا به يقول لهم الكلام العجيب التالي :

- افطرو .. نهاركم قشطه .. عيش سخن وجبنه قريش ، وفجل وجرجير طازه ، جايبه معايا من القصر !! انتو عمالين هنا تتخانقو والريس طول الليل سهران !! ربنا

يعينه ، أنا شفته كان البكابورت اللى فى جنينة القصر طافح ورحت أسلكه بص لى الريس من الشباك وضحك ، وشاور لى وقال «خلى عنك» '' وسمعته بينده على الجناينى ويوشوشه ، وبعد شويه لقيت الجناينى جاى وفى إيده كباية شاى سخنة ، وبيضحك ويقول «الريس باعت لك» وادانى سيجارة . أنا فرحت ، وفضلت أدعى له لحد النهار ما طلع وأنا ماشى كان لسه صاحى شاورت له بايدى وحييته ، قام ضحك وحيانى . ولما قربت من الباب لقيت الجناينى جاى يجرى وبيحط فى إيدى فلوس .. ساعتها بس عرفت قد إيه الريس بيحب الناس الغلابه»'

يجدهم لا يصدقونه ، فيقسم :

– والله العظيم دا حصل ، وادى الفلوس كمان أهه

تسأله زنه إن كان قد أخذ الفلوس فيقول

– حد يقدر يرفض حاجة باعتهاله الريس ؟' إنتى كنتى عايزاهم يودونى فى داهية''

هذا الريس الذى ابتسم لعامل المجارى زوج حسنه ، وقال له «خلى عنك» نتأكد فى نهاية الرواية أنه يقصد جمال عبد الناصر شخصيا !! .. ومن رعاياه هؤلاء البؤساء الذين عاشوا فى بيت له دورة مياه واحدة .. ولم تذكر المؤلفة بالكلمات المباشرة أن هؤلاء الرعايا المطحونين من سلالة عريقة ، يعكسها الحى الذى فيه بيتهم ، حيث المسلة الفرعونية فى عين شمس ، أو «أون» التى أشعت منها أقدم جامعة فى التاريخ ، والتى تتلمذ فيها فلاسفة الإغريق ، وحيث شجرة مريم التى استظلت بها العائلة المقدسة ، وحيث الشيخ المطراوى '

تنتهى الرواية عام ١٩٧٠ مع موت عبد الناصر ، وبكاء الجميع عليه . بكت فيه أم عكاشة ولدها الشهيد ، وحسنه ابنتها الصغرى ، وأم رامى أخويها .. وتشتت سكان البيت ، رعايا الرئيس .. تفرقت كل أسرة تجاهد وتعافر . وكانت المجارى طافحة فى حديقته ''

جيل مظلوم مظلوم

قرأت أيضا للأديب الصعيدى خالد اسماعيل رواية «عرب النيل» وغيرها ، ورواية «أغنية الدم» للأديب جمال زكى مقار ، ومجموعة قصصية للأديبة التائهة راضية أحمد «حلم دافئ»، ولغيرهم كثيرين . منهم من توقفوا بسبب قسوة الواقع والاهمال !

فى الستينات قال نجيب محفوظ إننا (أى جيلى) نشق طريقنا فى الصخر بأظافرنا ، وأنا أقول إن الجيل الجديد يشق طريقه بأصابع منزوعة الأظافر . لا يجدون من يقف إلى جوارهم – وشكرا لمصطفى نبيل رئيس التحرير الذى التفت لهم أخيرا – لكن إعلام الريادة لا يهتم إلا بلاعبى الكرة والممثلين والممثلات (مع احترامى لهم) .. ربما لأن على أكتافهم تبنى الدول العظيمة . وليست على اكتاف العلماء والمبدعين ، فهؤلاء بدعة من بدع الغرب . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هكذا صرخ من قبل مؤرخونا العظماء من أمثال المقريزى وابن إياس والجبرتى .

يمام يسافر حتى.. المرار!

شعر
محمود أحمد المصلي

تسافر (بيروت) فينا
ولسع الشتاء
يحاصر قلب الورود
يلف المدائن
وتشعل (بغداد) حزناً .. دفينا
نسير ..
وقد سلبونا اليقينا .
وقد علقوا فوق نوافذ دجلة ..
جرحاً لعينا !
فكيف عصافير (قانا)
تودع أوكار صبرا - شاتيلا؟!
وكيف المخاوف
تمارس فينا طقوس الهزيمة ؟!
غداً سوف أرسم فيك مكاني
فشدوي بباب الرجوع معلقاً
سيشنق في الليل الحزين
يودع (ليلي)
و(ليلى) تنام ..
كمثل قرنفلة في دمانا !
وتبعث فينا الحنين
و(ليلى) تنام ..
على صدر الفرات
وصدر الفرات لايستكين !
فهذا يمامي ..
يسافر حتى المرار !
يعانق كل السواحل
يعانق قلب النخيل
فمن ذا يدق الطبول
ويسرج خيل المعز ؟!
ومن ذا يعيد لقدسي الظلال الوريفة،
ويفـــرش ثانيـــة بهـــاء الصـــلاة؟!!

الشاعرة جليلة رضا

هل أحبت الشاعر إبراهيم ناجي؟



بقلم
وديع فلسطين

ولدت الطفلة جليلة فؤاد رضا في حي الدرب الأحمر في ٣٠ ديسمبر ١٩١٦ ، أما الشاعرة جليلة رضا فقد جاءت ولادتها الحقيقية في دوحة الشعر في حفل التأبين الذي أقيم للشاعر الدكتور إبراهيم ناجي في عام ١٩٥٣ . فقبل هذه المناسبة لم يكن أحد يسمع بهذه الشاعرة، وإنما كانت تدخر هذه المفاجأة إثباتا لشاعريتها التي هزتها وفاة أستاذها وموجهها إبراهيم ناجي .

بعد وفاة إبراهيم ناجي في ٢٤ مارس ١٩٥٣ قررنا نحن الملتفين حوله في حياته أن نقيم له حفل تأبين، ورحبت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة بإعارتنا قاعتها الرئيسية. واصطف المؤبنون على المنصة في صفين متوازيين، وكانت تجلس أمامي مباشرة على المنصة سيدة ملتحفة بالسواد ينسرح شعرها الأسود الفاحم وراء ظهرها. وكانت السيدة الوحيدة بيننا، فحسبتها من سيدات الأسرة وأنها ستلقي كلمة شكر باسم عائلة ناجي في ختام الحفل. ولكننا فوجئنا بعريف الحفل يدعو الشاعرة جليلة رضا لإلقاء قصيدتها في تأبين ناجي. ووقفت جليلة بكل ثقة وألقت قصيدة رائعة بكت فيها الشاعر بصدق وحرارة. وتساءلنا جميعا من تكون هذه الشاعرة؟ ومتى عرفت إبراهيم ناجي؟ لابد أنها كانت قريبة منه لأن حزنها عليه كان عميقا.

وهي تساؤلات أجابت عنها جليلة رضا في سيرتها المنشورة بعنوان «صفحات من حياتي».

المريضة الشاعرة

كانت جليلة رضا تقيم في عام ١٩٥٢ في حي شبرا عندما هاجمتها آلام مبرحة في الأمعاء لم يفلح في علاجها الأطباء الذين ترددت عليهم. فأشارت عليها صديقة بأن تجرب طب الدكتور إبراهيم ناجي، لأن عيادته قريبة من بيتها تحتل ركنا من شارع شبرا الرئيسي مع شارع ابن الفرات الفرعي. فتوجهت إلى العيادة وهناك رأت حلقة دائرية من شباب الأدباء تحيط بالطبيب الذي كان وقتها في الرابعة والخمسين من عمره في حين كانت جليلة رضا في السادسة والثلاثين.. وقد وصفت ناجي قائلة «كان الرجل ضئيل الحجم نحيلا بعيدا عن الوسامة ذا مقلتين واسعتين حائرتين، فيهما نظرات الصقر وبراءة الطفل وهما تدوران مع الدائرة كموج وسط دوامة. ولعل الشباب المحيط بناجي حسيني



إحدى المعجبات به . فأفسحوا لي مكانا بينهم، ووقفت أستمع إليه وإليهم وحانت فرصة فقلت «إن عندي الكثير من هذا الكلام». ولأول مرة يلتفت إلى الشاعر الكبير، يلتفت إلى صاحبة هذه الجملة في لهفة وتفرس صائحا . «هاتي قولي ما عندك» . قلت: «لا أستطيع، فأنا مريضة جئت للكشف عليّ، ولكنني دونت مثل هذا الكلام في نوتة صغيرة عندي في البيت». وتم الكشف . وودعني الطبيب مؤكدا على ضرورة إحضار هذا «الكلام» في الزيارة المقبلة.

وتقول جليلة رضا إن ناجي تصفح في المرة التالية النوتة وقرأ بعض ما قرأ قولي:

مضت الأيام تجري بين هم وعذاب
وسهرت الليل وحدي في شجون واكتئاب
لم يكن قلبي يحوي غير آمال كبار
كفراش حائرات بين ليل ونهار
كنت كالزهرة حسنا كل ما حولي نعيم
أنشد اللهو وأسرى بين طيات النسيم

وهنا صاح ناجي قائلا: «مرحى مرحى، هذا ناجي الصغير. هذا شعر، شعر تنقصه دراسة العروض والقراءة. تعالي» وجذبها بشدة إلى مكتبة عريضة تتوسط حجرة العيادة وفتح مصراعيها قائلا: خذي ما تشائين من كتب الشعراء. فقالت في حيرة ولكني لا أعرف الشعر ولا الشعراء. ولكن ناجي طفق يلتقط كتبا من هنا وهناك ويكتب الإهداء. حافظ إبراهيم ، خليل مطران، الأغاني، وغيرها.

وعندما سألته جليلة رضا عن كتاب العروض قال لها: اسألي عنه في مكتبات شارع محمد علي. وتقول جليلة «خرجت هذه المرة وأنا مشحونة بانفعالات مبهمة عنيفة. وسرعان ما عكفت على دراسة العروض. وبدأت أنظم الشعر، وأطلع الشاعر الكبير عليه. وما من مرة أطلعت ناجي على قصيدة لي إلا وكان رأيه يدفعني إلى مزيد من الكتابة.

ثم تعترف جليلة قائلة. ولأول مرة سمحت لرجل غريب أن يزورني في بيتي. كان بيتي في طريق عيادته، فكان يمر عليّ بعد انتهاء عمله. وكان يتحدث إلي مبتهجا دون توقف في صوت متعجل متحمس، وبيدين صغيرتين عصبيتين دقيقتين تعيدان وتكملان في صمت ما تفوه به الشفتان، وكنت معجبة به وهو يتكلم دون أن أنظر إلى وجهه . كان يسمعني أشعاره الرومانسية المجنحة، وكان يكاد ينسى نفسه وهو يلقيها. أية قوة في شاعر عبقري لا يحس وجود نفسه؟ أية ثقة يحملها في الكلمات

الهاربة من عقله وقلبه؟ ومن حين إلى حين يعتريه شبه صمت. ماذا كان ينتظر؟ هل أصفق له وأنا الوحيدة المستمعة؟ هل أصفق وأنا معلقة بين سحر الأحلام الطائرة وجلستي الساكنة الخجلي؟ حقا، إن بعض الشعراء يظل مراهقا مهما كبر . فما من وقت لدى الشاعر كي يغير نفسه. كنت عقب خروجه أحس بشحنة خلاقة. كنت أحس أحاسيسه فأقلد حركاته وسكناته. وأخذني الغرور، فتطلعت إلى نشر ما أكتب، وفاتحت ناجي في الأمر».

رأى العروضيين

وفي حين كان ناجي يحتفي بشعر جليلة رضا بلا تحفظ ويشجعها على مواصلة الدرب الذي اختارته لنفسها، كان «للعروضيين» رأي آخر في هذا الشعر. فعندما عرف ناجي أن جليلة رضا ترغب في نشر قصائدها على الملأ، اتصل بصديقه الشاعر محمد الأسمر «١٩٠٠ - ١٩٥٧» الذي كان يقيم بدوره في حي شبرا ويشرف على الصفحة الأدبية في جريدة «الزمان» المسائية لمحررها جلال الدين الحمامصي «١٩١٣ - ١٨٨» وأوصاه بهذه الشاعرة.

وتقول جليلة رضا إنها توجهت إلى عنوان الشاعر الأسمر الذي وصفته بأنه كان محاسبا قانونيا ومهندسا حريصا على وضع البناء فوق أسس سليمة راسخة. ولكن الأسمر، على خلاف ناجي الذي كان يقفز كعادته مهللا أمام شعر جليلة قائلا: ليس في الإمكان أحسن مما كان وكانت تعترى الشاعرة فرحة دافقة إزاء هذه الجملة المنتظرة من ناجي - استقبل شعر جليلة عابسا مزمجرا وقال لها. ماذا تريدين أن تقولي؟ أنا لا أفهم شيئا مطلقا. فاستولت عليها رعشة خوف وحزن، ولكن بقى الأمل يطغى على عوامل اليأس.

وعندما جاء الصيف سافرت جليلة مع ابنيها إلى رأس البر، فكان ناجي رفيقا معها ومجاملا لها. فودعها عند القطار، وهي لفتة من لفتاته الإنسانية النبيلة احتفظت له بها وراسلته من هناك، وأرسل هو لها خطابين سلمتهما فيما بعد إلى رابطة الأدب الحديث عندما بلغها أن الرابطة ستطبع كتابا عن ناجي بعد وفاته . وعندما عادت من المصيف كانت تنتظرها مفاجأة، حيث أطلعها ناجي على قصيدة «الرحيل» التي كانت ملهمته فيها، لقد وافقت مرتين على أن تخرج مع ناجي بعد إلحاحه، الأولى إلى فندق سميراميس القديم قبل هدمه، والأخرى إلى نقابة الصحفيين. وكان

مطلع قصيدته.

هنا سميراميس، هل تعلمين

وها هنا بالأمس طال السهر

وهى قصيدة بحثت عنها فى دواوين ناجى المنشورة فلم أعثر على نصها.

وتقول الشاعرة إن هذا هو كل ما كان بينها وبين الشاعر إبراهيم ناجى. من ناحيته عناية أستاذ بتلميذته، ومن ناحيتي حب أخوى صادق وإعجاب بشعره الرقيق.

وبعد عام واحد من التواصل بين جليلة رضا وإبراهيم ناجى، قرأت ذات صباح نعيه على صفحات الجرائد، فاعتراها ذهول، وانتابها دوار، وتأكد لها أنها لن تقوى بعد ذلك على نظم الشعر، حيث ولى الحافز ومضى المشجع.

فى رثاء ناجى

ولما اقتربت ليلة الأربعين اتصل بها المرحوم محمد ناجى - شقيق الشاعر وكان ضريرا - ودعاها إلى إلقاء قصيدة رثاء فى حفل التأبين الذى أقامته رابطة الأدب الحديث، ولأول مرة خرجت جليلة من عزلتها، ووقفت أمام الجمهور وألقت قصيدة حازت الإعجاب، فاستعادت الثقة بنفسها، وعادت إلى النظم، وتوالت بعد ذلك الندوات والاجتماعات سواء فى مصر أو فى الخارج.

وفى صيف العام التالى كانت جليلة تصطاف فى رأس البر، وكانت ذكرى الراحل تلم بها فتقدر فداحة مصابها فيه، وأحست بالغربة بعدما وجدت فيه الأخ والناصح، وكان شعرها قد تأثر كثيرا بشعره، فنظمت أبياتا جاء فيها:

هاهى الشمس تهاوت فى سماها غارقة
وعلى الأفق غيوم جلليات خافقة
ناشرات فوق ذاك اليم أكفان الفناء
تابعات ظل نعش كان رمزا للضياء
حائرات بين أجواء الفضاء الشاهقة

* * *

وهنا فى أضلعى قلب جريح فى شروده
كان بالأمس له ضوء وإشعاع فريد
فخبا.. ويا! كيف يخبو ذلك النجم الرفيق
أين أمسى؟ كيف أخطو والدجى ملء الطريق
ما لعينى أن ترانى أو لقلبى أن يقود

عرفت جليلة رضا الشاعر إبراهيم ناجى فى عام ١٩٥٢ فى فترة محنته القاتلة، حيث كان قد فصل من وظيفته كمدير للإدارة الطبية بوزارة الأوقاف فى مذبحة التطهير بدعوى أنه غير منتج!.. وكنت بدورى قد اعتقلت فى شهر أكتوبر من نفس العام دون توجيه اتهام معين إلى وإن قيل وقتها إننى مغضوب علىّ من الثورة مع أننى لم أكتب حرفا

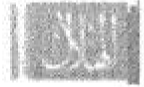
ضدها. وكانت تجمعني مع ناجي «رابطة الأدباء» التي أنشئت في عام ١٩٤٥ فكان هو رئيسها وكنت وكيلها، وطوال السنوات التي عاشتها هذه الرابطة باجتماعاتها الأسبوعية لم نصادف جليلة رضا بين من كانوا يترددون على الرابطة، فقد كانت بالنسبة للمجتمع الأدبي نسيا منسيا، ولم تخرج من قوقعتها وعزلتها إلا بعد حفل التأبين المشهود. فأخذت تنشر شعرها في مجلات منها «العالم العربي» التي كان يحررها زميلنا أسعد حسني وكانت القاسم المشترك في معظم الندوات الأدبية إلى أن اختارها عزيز أباظة باشا (١٨٩٨ - ١٩٧٣) مقرر لجنة الشعر عضوا في المجلس الأعلى لرعاية الآداب كما منحت جائزة الدولة التشجيعية للشعر بفضل ديوانها «العودة إلى المحارة».

هي والرجال

كان الشعر هو الملاذ الذي تلجأ إليه جليلة رضا في رحلة طويلة أضنتها كثيرا إلى أن رحلت عن عالمنا عن ٨٥ عاما في ١٢ مارس ٢٠٠١. لقد أتعبها الحب كثيرا في حياتها، فهي تطلبه ولكنها لا تناله إلا لكي يفلت منها أو ترفضه. فهي تقول في مقدمة سيرتها الذاتية «أنا أحب الصدق، أحبه بكل ما أملك من مشاعر، لذلك لا أستطيع أن أحب أحدا من الرجال الذين صادفتهم في حياتي».

أما الرجال الذين صادفتهم في حياتها باعترافها فهم زوجها رجل القضاء الذي لم تطق الحياة معه فانفصلت عنه، وهناك الحبيب السكندري الذي عرفته في صباها وحيل بينها وبين الاقتران به، وهناك من أشارت إليه بحرف «ق» وبحرف «أ» بل إن زواجها من الشاعر عبدالله شمس الدين (١٩٢١ - ١٩٧٧) صاحب نشيد «الله أكبر فوق كيد المعتدي» الذي لم يدم إلا أسبوعا واحدا لم تشر إليه إلا بحرف «ع»، كما أن زواجها الثالث والأخير من محمد السوادي الناقد البرلماني لجريدة «البلاغ» وناشر جريدة «السوادي» قد اكتفت بالإشارة إليه بحرف «س» وهناك شاعر أشارت إليه بحرف «م» وهو من مجموعة الشعراء الشباب الذين طارحوها الهوى المزعج حتى هجتهم بقصيدة قالت فيها:

يا معشر الشعراء أثخنتم فؤادي بالجراح
ضاق الوجود بظلكم والأرض ناءت والبطاح
اليوم تجتمعون كالغربان تنعق في صباح
فلقد وجدتم قصة في الليل تروى للصباح



ربيع ثاني ١٤٢٥هـ - يونيه ٢٠٠٤م

ولا تكتم جليلة رضا حبها لراهبة في مدرسة الراهبات التي أودعتها أسرتها في قسمها الداخلي حتى في الإجازة الصيفية لكي تبقى بعيدة عن المؤثرات العاطفية إذا ما عادت تستأنف حبها مع الحبيب السكندري الأول. أما حبها الوحيد الذي تفانت في هدهدته والصبر عليه، فهو حبها لابنها المسكين «جلال»، الذي أصيب بتخلف عقلي عقب حمى داهمته في طفولته، وبقيت جليلة مشدودة إلى هذا الابن، محتملة هياجه وإيذاءه لنفسه، بل محتملة إهانات القوم بوصفها بأم المجنون، وعندما بلغ الأربعين من عمره سقط في الشارع ميتا وهو بصحبة شقيقته ثريا. لقد كان «جلال» بالنسبة إليها هو الحياة والتحدي والأمل والعمل. وبعد فراقه قالت: «والآن، لا شئ .. خواء.. خواء في قلبي وفي عيني، وأخشى أن يصيب الروح هذا الخواء» .

ولعل الشخص الوحيد الذي أسعد جليلة رضا وألهمها وشجعها ووقف إلى جوارها ولم يكن إلا بلسما لحياتها المضطربة هو الشاعر إبراهيم ناجي الذي أسبغ عليها من عاطفته ووجدانه وحفاوته ما سدد خطاها في رحلة الحياة وأعانها على التبريز في الشعر وأكسبها منزلة اجتماعية وشهرة عريضة، وهو ما لم يكن ليتأتى لها لولا أستاذية ناجي وحنانه ورعايته لهذه الشابة الموهوبة وهي لم تنس لناجي هذا الفضل، وتمنت لو استطال تواصلها معه لولا أن تواصلها معه لم يزد على عام واحد كان فيه ناجي في أسوأ مراحل عمره، ومع ذلك تحامل على نفسه وتعهد هذه الشاعرة الناشئة بكل الحب الخالص والرعاية السابقة فلا غرو أن تكون أول قصيدة تطالع بها الشاعرة الجمهور العام في مرثيتها لهذا الرجل العظيم وفاء منها لذكراه، واعترافا بجميله وإكبارا لشخصه، ولا يضيرها أن يقال إنها أحبته وهل تملك غير هذه العاطفة تمنحه إياها؟ □

حكم وأمثال الفراعنة

إن المناصب لا تدوم .. فالعرش الذي تجلس عليه اليوم .. جلس عليه بالأمس من سبقك .. وسيجلس عليه غدا من سيخلفك أو يأتي من بعدك ، ولا يدوم إلا أعمالك الصالحة التي انجزتها وأنت جالس علي العرش.



قصة قصيرة

بقلم
د. مصطفى رجب
بريشة
ولاء وهبى

ليس من الأهمية فى شىء أن تكون الأزرار متحدة النوع ، مادام واضحاً أن لون الجلباب واحد ، تلك البقع الشاحبة التى تتعاون لترسم دائرة على كل كتف ، يستطيع المتأمل المدقق أن يكتشف أنها بفعل الطبيعة .. ما ألعن أن يدمن الإنسان طعاماً واحداً ، ترى هل يشقى «البهوات» بأكلهم اللحم يومياً كما نشقى نحن بأكل الجبن ثلاث مرات يومياً معظم السنة ، ومرتين يوميا فى موسم نضج الباذنجان والفلفل..؟ ... اللحم !! ... أذكر بوضوح آخر مرة ذقته فيها .. يومها أعلن فى البلدة عن قدوم بعثة حكومية «لتعفير» بيوت الفلاحين ... كانت الحكومة وقتها تحارب القمل والبق والبراغيث اللعينة التى تمتص دماءنا فى شراهة «وتنط» بعيداً دون أن نتمكن من الإمساك بها ... يومها ... - يوم أن ذقت اللحم آخر مرة - ماتت عنز جارتنا أم العز بعد أن أكلت حشائش حملتها إليها صاحبتها من حقل

مـرشـوش بـالمبـيـدات الحكومية ...

– ومـــازالت اللجنة الاقـتـصـادية المشـتـركـة المشكلة من الأحـــزاب الـسـيـاسـيـة تواصل اجـتـمـاعـاتها للبحث عن بدائل إلغـــاء الدعم ، ومن المنتظر أن ...

– اقفل الراديو ...

– فـيـه مـبـاراة بعـد النشرة يابا .

– فيه إيه ؟

– مباراة ...

– إيه ؟

– لعب كورة يابا ...

– كـــورة إيه ؟ اقـــفـل الراديو يا ابنى ...

– لا يـابا .. اعـــمـل مـعـروف ... دى مـبـاراة قومية .

– مين ؟

– مصر هتلعب يابا...

– يا أبن الكلب ... هو إحنا مـافيش ورانا حـاجة غير اللعب ؟

– يابا ... اعمل معروف

...

بعـد غـد الـسـبت ... يكون قد حل موعد القسط الأسبوعى ... جنيه وريال من ثمن الجلباب ، جنيـه ونصف من ثمن الراديو ، الراديو ترف لم يكن لازمـا لولا زوجـتى المريضـة التى تحتاج إلى تسلية ، يقضى الولدان الكبيران يومهما فى مقـاومـة اللطع فى حـقـول القطن ، وهى وحـيـدة فى المنزل وهذا «المفـحـوص» ليس يعنيـه شىء سـوى اللعب ، المدارس تفـسـد الأطفـــال الآن ، إنـهـم يعلمـــونهم فى المدارس «الكورة» ويطلبـون منهم شـراء «فـانلات» وهذا مايغيظنى.

طبيبة الوحدة الصحية رفضت بقـاء زوجتى فى المستشفى نهائيا حجزتها أسبوعا ثم طردتها فطابور المنتظرين للحجز أكبر من عدد سرر المستشـفـى ، معظم المنتظرين دخـول القسم الداخلى سينعمون بأكل الرز، لا أنسى طعمه يوم حجزوا زوجتى .

حتى البرشـام الذى كـانوا يوزعـونه على المحجوزين قيل لنا إن فيه غذاء وشفاء وصحة ...

– وتؤكد الحكومة أنه لا مسـاس بمحـدودى الدخل ... وأن الإجـــراءات التى يقترحها صندوق الـ ..

– يابا اعمل مـعـروف سـيب الراديو .. مـصـر هتلعب بعد النشرة .

هل تلعب مصر فـعلا؟ مؤكـد أن هذا الولد يعـبث بى ... إن الحكومة لايمكن أن تلعب ، أخواه الكبيران يكسبان لأنهما لم يلتحقا بالمدرسة أما هو فليس يهمه غير ...

– الله يخرب بيتكم ... كورنر تانى ؟

– يخـرب بيت مين يا ولد ؟

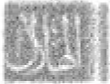
– الله حـى .. هـوب ... هوب .

– انت يا بجم ؟

– يامسهل .. ياللا ..

– ....

– يابا اعمل مـعـروف سـيب الراديو ... مـصـر بتلعب حلو .. ■



حلم جميل.. وواقع أليم

أمانى عبد الحميد

تصوير: شرين شوقى

عم «شوقة»، عم «صبرة»، عم «طه»، أسماء يجهلها الكثير منا. فلم تعد صنعتهم، الموروثة أبا عن جد، لها مكانة بيننا كما كانت فى الماضى. وبرغم أنهم وغيرهم من الصنايعية تشربوا حرفتهم فى ظروف صعبة مغايرة لظروف النشأة الأولى. إلا أنهم بصبرهم ودأبهم وحبهم لفنهم التلقائى عبروا بإيمانهم بما يصنعون بحوراً من الإهمال وصولاً إلى شطآن مترامية ظنوا أنها نقاط أمان لهم. لكنهم استبصروا الحقيقة. فالأمر لايعدو سوى بعضاً من المظاهر الاحتفالية أو الاحتفائية التى لا تحمى حرفتهم أو صنعتهم من الموت، ولا تخلق من بعد أيديهم أصابع ماهرة تحمل وتجيد حرفة أو صنعة متوارثة منذ سنين.

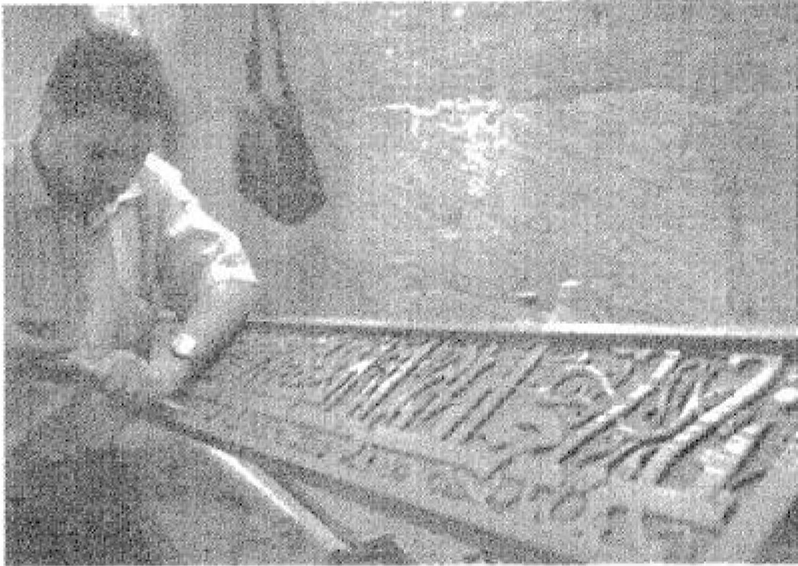
لا يتركون احتفالا تشهده القاهرة إلا ويشاركون فيه بمواكبهم الاحتفائية متباهين بفنونهم أمام حشود المارة. هكذا كانت أحوال أهل الحرف والصناعات وأهل السوق والحوانيت خلال القرون الماضية. ينتهزون أى مناسبة حتى يقيموا حفلاتهم الاستعراضية. ففى الاحتفال برؤية هلال رمضان والتى يطلقون عليها اسم «موكب ليلة المحتسب» يتباهى شيخ كل طائفة بأعداد تلاميذه وبفنونهم ومهاراتهم خلال ليلة لا تنام فيها البلاد. حيث لا يقدر أحد على منع زوجته من الخروج فى هذه الليلة. ولا أن يسألها أين كانت؟ حتى أطلقوا على الاحتفال

يونس ابن عم طه أشهر صناع فن الخيامية في مصر


عم مختار حصل على المركز الأول في مهرجان باكستان للحرف ، لتميزه في النقش على النحاس

«بعيد النسوان» لأن أهل القاهرة يسهرون خارج ديارهم حتى الصباح. وخلاله يخرج أبناء الحرف راكبين جيادهم المسرجة بسروج مزركشة يتهادون فى طرقات القاهرة بملابسهم السمورية وطرورهم المزينة يتبعون موكب المحتسب من باب العزب بالقلعة مروراً بكل الطرقات والحوارى حتى بزوغ الفجر. تسير بحذاهم فرق العازفين والمطربين والراقصين تصحبهم مواكب المضحكين التى يطلقون عليها مواكب السخرية. حتى المشعوذين يكون لهم نصيب من الاحتفال. ووسط المواكب المتلاحقة يتصدر شيخ كل طائفة الموكب الخاص بها. يتبعه تلاميذه يحملون معهم بتفاخر شديد بعضاً ممن يتقنون صناعته. فصناع السيوف يسيرون مستعرضين أسلحتهم ، والنحاسون أوانيهم النحاسية والتناجر والقدور بزخارفها البراقة. حتى الصاغة يسيرون مبتهجين بمظهرهم المبالغ فيه مستغرقين فى الجواهر والذهب والحلى. كذلك الخياطين ونساجو الكسوة الشريفة وكل من له صنعة أو حرفة... وغير ذلك من مظاهر الاحتفال كما جاء ذكرها من كتاب «سياحتنامة مصر» للرحالة التركى أولياچلبى... وظلت للطوائف الحرفية حضورها القوى فى المجتمع المصرى، فى الاحتفالات الدينية والمناسبات الاجتماعية أو حتى موالد الأولياء الصالحين وأفراد الأسر الحاكمة وذلك خلال العصر الفاطمى ومن بعده الأيوبى والمملوكى.

وأما العصر العثمانى فكان له تأثير



الأويما، تفريغ الخشب ، من الحرف المهددة بالاندثار

سلبي على ازدهار الحرف وتطورها . فبدأ في فرض تأثيراته على المنتج الحرفي علاوة على ترحيل عدد من أمهر الحرفيين إلى الأستانة. حتى وصل عدد المرحلين إلى حوالي خمسين حرفة بصناعها. وإن كان أشد أوقات اضمحلالها فكان مع وصول الخديو اسماعيل إلى الحكم الذى استهواه الذوق الأوروبي الغربي. وقام بتشييد قاهرته الأوروبية بأيدى أصدقائه الأوروبيين، فبنى دار المعارف، دار القضاء العالي، دار الأوبرا، واستورد من الخارج المنسوجات والأثواب والمعدات والتحف والأواني والمجوهرات المتماشية مع الطابع الجديد مما أثر بالسلب وضرب في مقتل جميع الحرف التقليدية واليدوية. وانتهى أمرها تماماً مع قيام الخديو توفيق باصدار أوامره باطلاق الحريات للصنايعية باحتراف أية مهنة يريدونها. فحلت الجماعات الاختيارية محل الطوائف . وأصبح العمال يتنقلون بين حرفة وأخرى دون التزام بتقاليد تقيدهم.

فهجر كثير من الصناع والحرفيين مهنتهم مع تغير الأحوال وعدم اهتمام الناس بشراء منتجاتهم خاصة مع ارتفاع أسعارها أو لأن الأذواق لم تعد كما كانت في الماضي. واندثر بالفعل عدد كبير من المهن التي لم تعد نرى لها وجود أمثال ذلك نساجوا كسوة الكعبة، وتحولت كثير من تلك المهن إلى حرف متحفية نجد بعض صناعها متناثرين داخل طرقات شوارع القاهرة القديمة داخل خان الخليلي أو عند قصبة رضوان، يمارسون حرفتهم أمام

أعين الزائرين العابرين الذين يسعون إلى الفرجة والاستمتاع ببعض أعباق التاريخ فقط لا غير . فخرجت الحرف اليدوية والتقليدية والشعبية من طور الفن الفطرى المتوارث إلى أطر أخرى تختلف كثيرا عن نشأتها الأولى كفن تميزت به الأيدى المصريه الماهرة .

حفاظا على ما تبقى

لا تكف وزارة الثقافة متمثلة فى قطاع الفنون التشكيلية عن الإحتفاء بالحرف التقليدية واليدوية، إما بإقامة مهرجانات خاصة بها (المهرجان القومي للحرف التقليدية والشعبية فى عام ٢٠٠١ وعام ٢٠٠٤) أو إنشاء مراكز متخصصة فى أحد أنواعها مثل مركز الخزف بالفسطاط، دار النسجيات في حلوان، مجمع الفنون بمدينة ١٥ مايو، مركز الحرف التقليدية بسبيل السلطان محمود - وكالة الغورى لإحياء الحرف التقليدية.....).

وخلال فترة الخمسينيات تبنت وزارة الثقافة خلال تولى الدكتور ثروت عكاشة سياسة لاحيائها وحمايتها. بدأت بإقامة مشاغل للحرفيين داخل وكالة الغورى فى عام ١٩٥٨، أملاً فى الحفاظ على ما تبقى من الصناع المهرة. حيث بدأت متطلبات السوق تعصف بهم. فكانت الحرف مقصورة على ورش خان الخليلى. القائمة على نظام الصبية الخاضع لقوانين العرض والطلب. وبدأ يعانى من التخلى عن شيوخ الصنعة نظراً لغلو أسعار أيديهم، مقابل الاكتفاء بأنصاف المهرة بالانتاج السريع غير المتقن قليل التكلفة الذى يزغلل أعين السائحين. ومنذ آنذاك لا تكف الوزارة عن الافتخار بحفاظها ورعايتها للحرف. ورغم مرور ما يزيد عن ستين عاما على حركة إعادة البعث التى نجحت فى لم شمل عدد من الصناع المهرة، إلا أن الواقع لم يختلف كثيرا عما مضى بل قد ينذر بالخطر. فقد تحولت الجهود إلى محاولات للبحث عن سبيل لتسويق منتجات الحرفيين الباهظة السعر . والتى لم تعد الوزارة تحتمل ارتفاعها أو حتى إعالة صانعيها . ولا تملك القدرة على توظيفهم بعقود تعترف بها الدولة وتكفل لهم حياة كريمة (يتم تعيينهم على بند عمال الخدمات أي عمال النظافة!!) وظل الحرفيين وبمنتجاتهم داخل حوانيت فى انتظار الفرج.

ومع استمرار الوضع فقد عدد كبير منهم الصبر والدأب وفضل الرحيل إلى عالم آخر يكسب منه قوته، رافضاً أن يتحول إلى مجرد أنتيكة تتباهى بها الوزارة فى الاحتفالات الدولية أو حتى داخل بعض الأماكن التي يتردد عليها علية القوم. فقط لتذكر الزائر بما تمتلكه من مسحات تراثية قديمة تثرى المكان وتعبقه بروائح التاريخ الغابر !!

أحلام صابرة

داخل وكالة الغورى أقامت وزارة الثقافة مركزا لإحياء الحرف التقليدية منذ عام ١٩٥٨ احتشد داخلها عدد من الصناع يمثلون الحرف المختلفة ويصل عددها إلى عشرين حرفة مثل الخيامية،



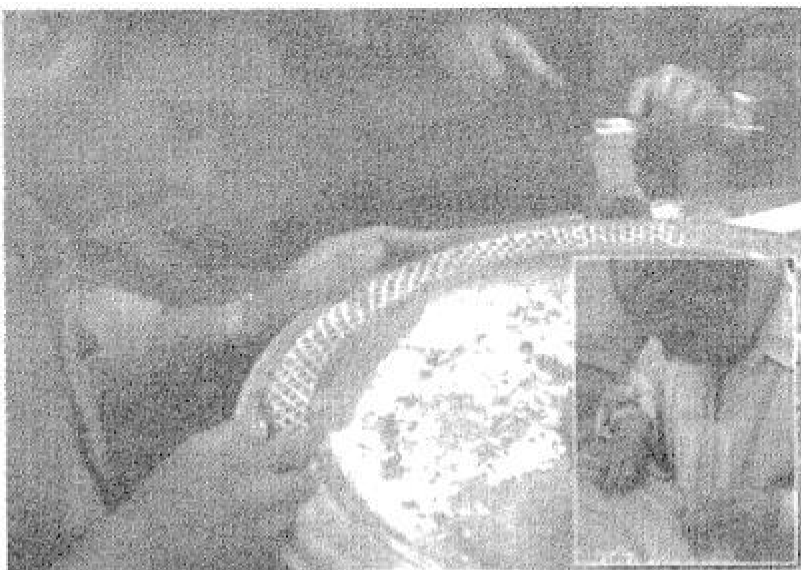


شبابيك الجص المعشقة بالزجاج الملون فن متوارث من العصر الفاطمي



الشفتشي احد فنون الحلي الشعبي

التطعيم بالصدف، فنون الأرابيسك، التكفين بالفضة، الحلي والمصاغ الشعبي، النقش على النحاس، النجارة الدقيقة ،الزجاج المعشق بالجص... أقدمهم عم عبدالمعبود صبرة المتخصص في التطعيم بالصدف منذ مايزيد عن ثلاثين عاماً. تعلمها على أيدى أشهر الصدافين محمد أبو العينين وعمر عبدالنبي وسعيد عبدالمجيد. لا يزال يملك بصيص من البصر ليمارس حرفته بصبره المعتاد. وإن كان يرى أن المهنة «على أصولها» لم يعد لها مكان. «الورش الخاصة تشتغل في البلاستيك وليس بالصدف الطبيعي.. إنتاجهم غير متقن .. أما نحن فلا أحد يريد التعلم ولا يملك الصبر على حمل الإرث...» كلماته لا تختلف كثيرا عما قاله عم مختار سليم وعم حسن شوقة المتخصصان في الرسم والنقش على النحاس منذ ثلاثين عاماً . يقومان بزخرفة الصواني والأواني النحاسية التي تشتريها الوكالة في السوق لأنه لم يعد هناك حرفي لتصنيعها!! الجميع يؤكدون على أنه منذ خمسة عشر عاما كان بعض الحرفيين وغير الحرفيين يترددون على الوكالة راغبين إما بالتعليم أو حتى لإتقان الصنعة لكن أعدادهم تناقصت حتى لم يعد هناك أحداً راغباً في ذلك، سوى عدد من تلاميذ المدارس المهنية والحرفية أو أولئك الذين يشاركون في برامج تمولها وزارة الثقافة سواء بمفردها أو بالتعاون مع جهات أو وزارات أخرى. مثال (مشروع اليونسكو لتعليم الشباب وطلبة المدارس الغير



عم صبرة آخر أجيال الصداقين في مصر

قادرين على المعيشة ولتزويد الدخل، على الحرف اليدوية والتقليدية) .

وبالوكالة يعمل يونس طه ابن عم «طه أحمد» أشهر الخيامين في مصر، ورث المهنة عن أبيه وعمه ويعمل فيها منذ عشر سنوات يرى أن السوق أصبح يعج بقطع الخيامية رديئة الصنع، فيقول القطعة الواحدة تأخذ منى حوالى ثلاث شهور لتصميمها وتنفيذها فى حين فى المحال التجارية نجدهم قد يخيط الصنيعى حوالى عشر قطع فى اليوم الواحد لتحقيق الربح السريع، وبجواره يجلس عدد من الشباب الذي بدأ العمل منذ سنوات لا تتعدى السنة أو الثلاث سنوات مثل سامح حرفى الحلى الشعبى أو كما يطلق عليها «الشفتشى» وأحمد حرفى الفضة والذهب وهما يمتلكان أو يعملان كغيرهما داخل بعض الورش الخاصة المنتشرة فى كل صوب، حيث اجتذبت المراكز المتعددة التابعة لقطاع الفنون التشكيلية عدد كبير من عمال الورش خلال ساعات الصباح التى لا يعملون خلالها . المنطق الذى يؤمنون به أن يوم الحكومة لا تزيد عدد ساعات العمل فيه عن ستة أو ثمانية ساعات الأمر الذى يتيح لهم التفرغ باقى اليوم لورشهم وأعمالهم الخاصة. وإن كان الشباب الحرفى يرى أن العمل الخاص مربح . فالأجرة اليومية قد تبدأ من ٢٠ جنيه وترتفع إلى ٤٠ جنيه للعامل أو الحرفى الماهر. لكنه عمل يفتقر إلى الأمان. فيمكن الاستغناء عن العامل فى أى لحظة طبقا لأحوال السوق .



الفخار كفن تلقائي هل يمكن لورش العمل والفنانين التشكليين أن يحييوه مره أخري ؟

قبل الاندثار

داخل مركز الخزف بالفسطاط موطن الخزف والفخار القديمة. أقامت هناك وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ أيضا مركزا كلفت به الفنان سعيد الصدر ليشرف عليه كان دوره يقوم على الاتصال بفنانى المنطقة لتبادل الأفكار والخبرات معهم ضمن خطة للحفاظ على القيم الجمالية للتراث الشعبى للخزافين التلقائيين والفنانين. وفى عام ١٩٩٥ قررت الوزارة تطوير المركز وإعادة انشاؤه وتزويده بالمعدات والأفران وذلك على مساحة ٢٤٠٠م فى المنطقة التى يطلق عليها «الفخرانية» بمصر القديمة. مضت سنوات التطوير سريعا وقف المركز مرة أخرى فى وجه كثير من الصعاب. كما يقول على إبراهيم مدير مركز الخزف : أن المكان يفتقر للأيدى العاملة أو الحرفيين القادرين على التنفيذ لدينا عدد كبير من المصممين يصل عددهم إلى أضعاف عدد الحرفيين الذين يعملون بأيديهم والذين لا يتعدون أربعة أشخاص فقط مقابل أربعين من المصممين» القطاع يوفر جميع المعدات والأفران والتى يصل ثمن الواحد منها إلى أكثر من خمسة عشر ألف جنيه بأنواعها (العضوى، الغاز الكهربائى) ورغم ذلك يصر القطاع على تعيين الحرفيين ضمن بند عمال الخدمات أى عمال النظافة!! الأمر الذى يصيب الكثيرين بالألم لفنانى الحرف اليدوية. مما يجعل كل من يحترف المهن والحرف التقليدية والتراثية فى حالة مقاومة ومقاتلة من أجل البقاء.

وبرغم أن تلك الحرف اجتذبت عددا كبيرا من الجمعيات والرابطات الأهلية التى جمعت بين أهل كل حرفة أو صنعة، جميعها رفعت شعار رعاية الفنون التراثية وحمايتها من الاندثار. وكما يحكى لنا الفنان نبيل وهبى مدير جمعية «أصالة» أن الشعارات القديمة التى تصر جميع الجهات الحكومية والأهلية على ترديدها مثل الحفاظ على الحرف التقليدية، حماية التراث من الاندثار، ورعاية المهن الفنية التلقائية حتى الموت، كلها شعارات هدفها المعلن قد يكون ثقافى وتربوى لكن للأسف قد تتحول تلك الأهداف إلى الوقوع فى الشرك وتسير وراء الربح التجارى التسويقى. فبعد أن كان الهدف الحقيقى هو خلق أرضية حقيقية لممارسة المهن والحرف ودفع الأجيال الجديدة إلى اقترافها، نجد أن الشعارات تحولت إلى مجرد محاولات لسد الخانات وليس إيجاد حلول حقيقية. ويكفى أن الحرفيين يدخلون فى الميزانية العامة جنبا إلى جنب الكناسين وعمال النظافة ولا أحد يملك الجرأة فى الاعتراف بأنهم حرفيين وعمال فنيين. ويضيف «وهبى» أن الجمعيات الأهلية قد تكون أكثر تحرراً من اللوائح الحكومية والبيروقراطية. لكنها أيضا لم تستطع تحقيق أية انجازات يمكن أن نلمسها بطريقة جذرية. وهنا يؤكد الفنان عبدالمحسن الطوخى أن مستوى المنتج هو المتضرر الوحيد. فالمنتجات لم تعد كما كانت فى الماضى. فالحرف والحرفيين تم خنقها داخل إطار البيع والشراء. ففى الماضى الحرفى أو الصنايعى لم يكن يخيط قطعة خيامية أو ينقش آنية نحاس أو قطعة فضة لمجرد أن قطع تُعرض فى الأسواق. لكنها كانت بالنسبة له قطعة فنية تحقق لذاته رضاء نفسيا وفنيا أولا.

ثم يتباهى بجمالها أمام منافسيه من الحرفيين. أم اليوم فالكل يتسارع من أجل إنتاج أغزر وبالتالى ربح أسرع وأرخص ثمنا.

وللأسف ابتسرت المهن التراثية القائمة على اتقان الصانع وعلى المنتج اليدوى ذو القيمة المرتفعة إلى مجرد منتج أو سلعة تحمل مواصفات سوق العرض والطلب، أى ذات التكلفة القليلة والسعر الزهيد والجودة المنعدمة.

ففى الماضى كانت طوائف الحرف والصناع تتباهى بصناعاتها وبجمال فنونها ومدى اتقانها، أما اليوم لم يعد يملك عم «شوقة» أو عم «صبرة» وعم «طه» الكثير ليتباهوا به أمام العابرين والزائرين. أحلامهم بازدهار الصنعة وتوريثها لأجيال من التلاميذ النجباء تم ابتسارها إلى مجرد احتفالات ومهرجانات تقام كل عام لاستعراض بعض القطع من هنا أو هناك تعود مرة أخرى إلى الدواليب والأدراج إلى حين انعقاد مهرجان جديد داخل سرادق منصوب فى مكان آخر!! ■



عباس محمود العقاد — محمود تيمور — أحمد أمين — الرافعي

أدب الاعتراف

بين الرفض والقبول

بقلم
أحمد حسين الطماوي

الاعتراف والكتمان، فى الشرق يتنازعهما قولان مأثوران هما : من أقر بذنبه غفر له ربه .. وإذا بليتم فاستتروا، والغالب علينا الكتمان والتحفظ. لأننا فى الشرق ، لا نستطيع أن نجهر بالمعاصي والذنوب. وإذا اعترفنا فإنما نعترف بصغائر بسيطة ونقائص قليلة لا تنزل المعترف من عليائه، ولا تؤثر فى حيثيته ، ولا تعرضه للاحتقار الشديد . وقليل منا اعترف بالكبائر والخطايا الجسيمة علي طريقة جان جاك روسو، ذلك أن الاعتراف بالذنوب والعيوب يحتاج من المرء إلي جرأة، ويقظة ضمير، وقدرة على ترويض النفس بالشجاعة لتكشف عما يغشاها ، وتفضي بما في طواياها بصدق وصراحة دون أن يتلاعب بها الخيال وتشتط في التهوين او التهويل



طه حسين — ميخائيل نعيمة — عبد الرحمن شكري — توفيق الحكيم

وكثيرون من كتابنا لم يكتبوا لا فى الاعتراف ولا فى الكتمان . ولاشك أن هؤلاء من أنصار الكتمان، وهناك نفر من فريق التحفظ تناولوا هذا الموضوع وجاءت اراؤهم مؤيدة للتستر وصيانة الأسرار، ورأوا أن العيوب يجب أن تكون غائبة عن غيرهم مثل العقاد ومحمود تيمور. فالعقاد تناول الموضوع فى كتابه «مراجعات» وآثر التكتم والتحفظ على ما خفى واستتر، وعندما باح، باح بطريقة غير مباشرة وذلك فى روايته «سارة» إذ اختفى وراء شخصية روائية وسجل قدرا من اعترافاته . وفى هذه الحالة يصعب ان نقول إن شخصية «همام» هى شخصية العقاد. لأن الرواية تدخل ضمن الأعمال الفنية المتخيلة. أما تيمور فهو من فريق المتكتمين ، وعندما طلب منه محرر الهلال أن يوافيه باعترافاته ضمن ادباء آخرين. كتب مقالا تحت عنوان «اعترافاتي» وقال في نهايته : «ما أخالك إلا أنك تعفيتى من أن أفضى إليك باعترافات تسرى فيها الشوائب من كل جنب». وهذان المثلان يتجاوبان مع القول « إذا بليتم فاستتروا » وقد يكون مع المتحفظين حق، لأنهم يخشون الزراية بهم . وازدراء الناس لهم . وما أكثر الطعنات التى يتلقونها من أناس آفاق أفهامهم محدودة .

الاعترافات والسير الذاتية

والاعترافات ضرب من ضروب السير الذاتية . وإذا كانت معظم السير الغنائية التى بين أيدينا تحفل بالأحداث الظاهرة . والمناظر البادية. والأطوار الخارجية . والاخبار والأفعال البارزة، وغيرها مما يبلور جوانب التفوق والامتياز فى الشخصية ، فإن أدب الاعتراف يعنى بالنفس وأطوارها الداخلية. وأسرارها الكامنة، وثوراتها واضطراباتها وهمومها

الغالبة، ويهتم كذلك بنواحي الضعف فى الإنسان أمام اللذات ، وجوانب الضعة والقصور ، حتى ينتهي الأمر الى ذكر المساوىء والسقطات مع تحليل الدوافع وذكر المحرضات على اقتراف الآثام .

وعلى هذا فإن السير الشخصية الخالية من الاعترافات المدهشة ، والبوح الذى يحملنا على التأمل ، ليس لها من غرض إلا تطويب الناس لصاحب السيرة، وتمجيدهم له ، ولهجهم بذكره. أما الهدف من السير الاعترافية فهو إظهار النفس فى طبيعتها الأصلية. وإبراز ضعفها وعللها. والمعترف حين يفعل ذلك لا يصوغ هجاء مرا لنفسه. وإنما هو يناجي نفسه فى أحوالها المتباينة .

ويحاسبها ويذكر مثالبها بغية تحريرها من ارهاقها . كما أن النفس تكون فى أخصب حالاتها وهى تنفض عنها اقذارها. وتفتح أبوابها لتلقى أثقالها وتسفر بعد أن كانت محجبة .

اعترافات قديمة

والأدب والفكر العربيان القديمان لا يخلوان من اعترافات مختلفة ، وحسبنا ذكر امثلة قليلة . منها اعترافات أمرىء القيس، فى ثنايا قصائده المنسوبة إليه بغرامياته ومغامراته وعربدته مع النساء مثل قوله :

سموت اليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

فهو يتسلل الى حبيبته بعد انقضاء أوقات السمر والسهر بخطوات خفيفة الوقع حتى لا يلحظه أحد من أهلها، ومن هذا كثير فى شعره. وما اقترفه عبدالله ابن الدمينة مع عربية من ناحيته وماقاله فيها من شعر يصور لقاءه بها كان سببا فى مصرعه .

أما التراجم الاعترافية فنذكر منها .. «المنقذ من الضلال» للامام الغزالى، الذى صور فيه رحلته من الشك الى الايمان ، و«التعريف» لابن خلدون الذى اعترف فيه بمغامراته السياسية وتقلباته واشتراكه فى مؤامرات ضد أمراء بعضهم أحسن اليه مثل الأمير الموحدى محمد صاحب بجاية الذى قبض عليه وأودعه السجن وطلب ابن خلدون الإفراج عنه بقصيده مدح طويلة لم تشفع له .. وغيره، هذا عدا قبوله أن يكون فى خدمة تيمور لنك التترى ألد أعداء العرب والمسلمين . وكل هذا مقابل المناصب الكبيرة والمغانم الوفيرة .

وقد تأتى اعترافات عارضة فى ثنايا كتب مفكر من المفكرين لها دلالتها . فإذا ضممنا بعضها الى بعض أمكننا تكوين صورة أخرى لذلك المفكر تعبر عن الوجه الآخر له، ومن هؤلاء أبو حيان التوحيدى الذى لا يسعنى أن أذكر كل ما وقعت عليه من اعترافات ، ويكفى ان نذكر بعضها ، فمن المعروف عن أبى حيان شغفه بالذم والقدح، وقد خص ابن العميد والصاحب

بن عباد بكتاب أطلق عليه «مثالب الوزيرين » جردهما فيه من المزايا، وانتقص من أدبهما وحط من أخلاقهما بما يجعل القارىء يزرى بهما. ويعترف التوحيدى بأنه جمع فيما كتبه عن الصاحب نتيجة خصومة، ومن هنا كان ما قيده عنه إملاء من نفس حاقدة، لذلك وقع بعيدا عن الحق والصدق . فعندما سأله الوزير ابن سعدان عن الصاحب قال فى الامتاع والمؤانسة : «إنى رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه فى معاملتي.. وشديد الغيظ لحرماني. فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب. او عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق، والصدق به أخلق». وهو اعتراف باتباع الهوى، وعدم النزاهة عند إصدار الحكم على شخص، وبالغلو فى الذم ، كما أن هذا الاعتراف من شأنه أن يعمل على تعديل الحكم الصادر من التوحيدى على الصاحب بن عباد. ويبدو ان حياة الحرمان التى عاشها ابو حيان مع علو قدره فى الفكر ، وتيسر أحوال كثيرين ممن دونه في المكانة العلمية ، ولدت فى نفسه الحقد، ودفعته الى الثلب والذم .

ولم يكن أبو حيان زاهدا فى الدنيا وإنما طامع فيه، لذلك تقرب الى الوزراء والكبراء ليحقق مطامعه، يقول : «والرفاهية مطلوبة والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة»، فهو ينشد الرفاهية لا الحياة العادية ويطلب الحظوة عند السادة مهما كانت الوسيلة .. بكل حول وقوة . ويعترف بأنه سعى الى الوزراء ليبلغ مكانة عليا يحسده الناس عليها، فهو يسامر الوزير ابن سعدان ويتصرف معه فى الحديث «كل ذلك أملا فى جدوى آخذها، وحظوة أحظى بها ، وزلفى أميس معها، ومثالة أحسد عليها..»، ولكى يحقق ذلك تكلف وتزلف وتهافت حتى ظهر ضعفه ، ولاح غرضه ومدح ابن سعدان ونزهه عن كل عيب. بل نراه يعترف اعترافا صريحا بأنه تقرب للناس وحط من قدر نفسه لينال شيئا منهم وأنه اضطر «إلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لايحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح فى قلب صاحبه الألم» ، ومرد مأساة التوحيدى الى الفرق الشاسع بين حياة رافهة رغدة تمناها وحياة شقية شجية مارسها ، ولم تنفعه الحكمة التى تعلمها وتفوه بها ، ولم يجد حتى من يعزيه فى مأتم حياته ومأساته فأقدم فى نوبة يأس على إبادة كتبه بالنار .

الاعترافات الحديثة

أما الأدب العربى الحديث فقد عرف من الفصول والمقالات والكتب الاعترافية قدراً أوفر، وهذا راجع الى التحرر الفكرى بقدر ، وإلى التأثر بالآداب الأوربية التى تتقبل بلدانها هذه الموضوعات بيسر ، ولكن مع ذلك فالتحفظ والتكتم مازالا

قائمين .

وإذا اقصينا التراجم الذاتية ذات الصبغة السياسية ، فإننا نلغي سيرا ذاتية وجدانية الطابع مثل «الاعترافات» لعبد الرحمن شكري و «أنا» للعقاد و «الأيام» لطه حسين و «سبعون» لميخائيل نعيمة ، و«حياتي» لأحمد أمين و«مذكراتي» لعبد الرحمن الرافعي ، و«مذكرات محمد لطفي جمعة» .

ومعظم هذه السير مدونة وفقا للتسلسل الزمني، ومشتملة على حوادث مؤلفيها ونوازعهم وما امتلأت به أيامهم . هذا الى جانب انهم أطروا انفسهم بطريقة غير مباشرة . ونشعر اثناء قراءة بعضها ان هناك جانبا أخفاه صاحب السيرة ، فالاعترافات فيها شحيحة باستثناء اعترافات شكري وسبعون نعيمة .

وإذا نظرنا في هذه السير نجد الرافعي يعترف في فصل من مذكراته جاء تحت عنوان «اعترافاتي» بحيائه الشديد وتورطه في الحب أيام شبابه، وعناده وبيانه ليس عمليا ولا واقعيا ولايريد ان يفهم الحياة على حقيقتها ، بل إنه يؤثر الخيال على الحقائق، وهي اعترافات على بساطتها تتناقض مع عمل الرافعي واتجاهاته الوطنية، وثقافته التاريخية، فهو محام يتعامل مع القانون ، وحزبي (الحزب الوطني) يشتغل بالسياسة ، ومؤرخ يتناول الحقائق ، وكل هذه الاشياء مواد علمية وعملية وحقائق تاريخية ، فكيف يكون خياليا ، إن الحقائق التي يستند اليها في أوقات عمله ويشغل بها فراغه يجب أن تقضي على الخيال وتصرعه، ولكن هذا ما يقوله ويعترف به .

وتصل فقرات من هذه التراجم الى درجة الاعتراف بالتقصير والإخفاق مثل ما جاء في أيام طه حسين (الجزء الثالث) حيث يقول عن نفسه : «كلفه استاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية في فرنسا بعد سقوط نابليون، فاقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع .. ثم كتب عنه ما أتيح له أن يكتب وقدمه الى الاستاذ.. وجاء يوم النقد فاستعرض الاستاذ ما قدم اليه من الواجبات ناقدا ساخرا منددا متندرا موبخاً بعض الطلاب أحيانا حتى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن القى اليه واجبه معقبا بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط .. «سطحي لا يستحق النقد» .. وهذا اعتراف محدود .. وكنا نود من طه حسين ان يبين لنا عقيدته عندما قال في مطلع شبابه ..

لو كان لي في الناس حكم نافذ
ألزمت بالإفطار كل الناس

بل كان عليه ان يفسر سلوكه عندما قال :

أنا لولا سوء حظي
لم أكن إلا ابن هاني

وابن هاني هو ابو نواس . لقد رسم طه حسين في أيامه لوحات فنية تشرق

فيها نفسه دون ان يظهر المخبوء . ويذكر ما تناساه ، فهو يحضر ويغيب.

ولعل اكثر هذه الاعترافات إثارة وصراحة ما دونه ميخائيل نعيمة في سيرته الذاتية «سبعون» فقد استدعى ماضيه أيام الشباب ورأى نفسه وهو يعاشر ثلاث نساء، واحدة روسية واثنتين امريكيتين توثقت بينه وبينهن العلائق، ومع الوقت أخذ كل منهم من الطرف الآخر حقوق الجسد وحقق رغباته . وكانت النتيجة فقد عفافه معهن، واستمرأ الحياة المرنقة معهن في هدأة الليل سنوات موصولة . ولم يفته ذكر تفاصيل هذه العلاقات والإغراءات التي حركت طبيعته . ودفعت غريزته حارة واثبة نحوهن، وحاول ان يفلسف هذه العلاقات المحرمة فزعم انه في ظل وحدة الوجود، فإن الوجود يأخذ ويعطى مع بعضه البعض، وكان نعيمة يؤمن بوحدة الوجود وليس بثنائية الله والعالم او الخالق والمخلوق . وهو مبرر ضعيف وخاطىء ولكن الإنسان في سبيل الخلاص من آلام الإثم والحسرة التي تخلفها الأفعال الشائنة يقول مايعتقد أنه يعيد اليه الاتزان بعد الاضطراب ، او يغالط في الحقائق لتصفو نفسه بعد أن تراكمت عليها الغيوم الداكنة .

ومهما يكن من أمر فإن كاتبنا نعيمة بتسطيره لهذه الاعترافات يستكمل أبعاد سيرته الذاتية . ويكشف عن عالم الباطن ، ويظهر قوته عندما يعري نفسه ويبرز نواحي ضعفه .

اعترافات عبدالرحمن شكري

وعبد الرحمن شكري (١٨٨٦-١٩٥٨) هو أبو الشعر الحديث او من أبنائه الكرام. كون مع العقاد والمازني المذهب الحديث في الشعر الذي عرف خطأ فيما بعد باسم مدرسة الديوان، وهو شاعر مجدد وجداني وله ديوان ضخم مكون من ثمانية أجزاء غير كتب الصحائف ، والثمرات ، والاعترافات، وحديث إبليس ، والحلاق المجنون ، الى جانب قصائد ومقالات كثيرة، واعترافات شكري ليست سيرة ذاتية وافية تبدأ بالمولد وتنتهي يوم كتابتها، كما هو الحال في السير الذاتية ، إنها اعترافات من أولها الى أخرها تتجه دائما إلى الباطن وتستظهر الخفايا . فالنفس في اعترافات شكري هي المتحدثة عن هواجسها وسوء ظنها وشكلها وسائر ماساهم في تشكيلها ، إن الاعترافات صوت الباطن، وليست شكل الظاهر .

وشكري كغيره من بعض رجال الفكر يتردد بين الشك واليقين ، وبين الإيمان والانكار، ويعترف بأنه كان« في بداية حياته متعبدا قارئا لكتب الزهاد والمتعبدين، ملما بكرامات الأولياء ، ولم يمنعه هذا من مواقعة الشهوات، ثم تملكته الحيرة وغشيت نفسه غواشي الشك والجحود ، واشتدت أزمته، فإذا أباح الإنكار فإنه لا يفسر شيئا ولا يقنع ويورثه اليأس والحزن ، فكان يهيم «في شوارع

المدينة ليلا لأن الليل أشبه بما كنت فيه من اليأس والحزن، وكنت انظر الى النجوم وهى تنظر إلى بحزن واشفاق وأسألها عن الحياة والموت، عن البقاء والفناء عن الله والإنسان ، عن الدنيا والآخرة فتنظر الى بإشفاق، ولكنه لم يظفر بشيء وصارت الحياة اثقل من الكابوس فى نظره او كأنها حلم فظيع يروعه ، وهكذا تلم به الخواطر السود فتهدم أركان الايمان فى نفسه وتجعله يائسا. وأخيرا أب الى الايمان وتوصل الى ما أسماه روح الوجود يقول :

«وقد رجعت الى الايمان لأستفيد منه شيئا جديدا فعلمنى أن للوجود روحا كبيرة.. وأن هذه الروح توحى إلى أرواح الأفراد بما تريد ولها من المقادير جنود».

وأخذت نفسه تهدأ وتستكين الى الايمان ، وفى شعره يقول:

سكنات الايمان برء من الحز..

ن وملوى لهارب من قضاء..

بل رأى أن الايمان بالله ضرورة وحاجة لعظم الشر، وأن الإنكار لا يعين على الخير. ويعترف شكرى بشدة الحياء وكان هذا من أسباب فشله، ويعترف بضعف إرادته ويرد هذا الى التربية فهو لا يعرف الإقدام والتحدى، وكان شكرى مفرطا فى الحذر فلا يطمئن الى صديق وهذا ما أفسد عليه لذة الحياة، والاستمتاع بمحادثة الناس ، هذا عدا سوء الظن الذى لازمه ولم يستطع التغلب عليه، وقد أبعدته ظنونه عن الناس ، وأبعدت الناس عنه فعاش فى عزلته توجهه ظنونه ، وشكرى يضيق بالنقد وحين قرأ نقدا لقصيدة من قصائده خيل إليه ان مؤامرة تحاك ضده ، والحياة عنده نكتة باردة وهذا من تشاؤمه .

ولا يمكن أن نأتى على كل اعترافات شكرى الذى قال عنها د. مندور: «ومن يقرأ هذا الكتاب لا يمكن إلا أن يفكر فى اعترافات كبار الأدباء من أمثال روسو وجيته وشاتوبريان ، بل وتحليلات وتأملات كبار المفكرين والأدباء من امثال باسكال ومرسيل بروست ، حتى ليخيل إلينا أن هذا الكتاب يعتبر من أهم وأعمق وأجمل الوثائق النفسية التى ظهرت فى الأدب العربي الحديث. بل نعتقد أنه يرتفع إلى مستوى أمثاله من مؤلفات كبار الأدباء العالميين» ..

اعترافات النساء

ولبعض الكاتبات والشواعر العربيات سير ذاتية منها «يوميات عائدة » لى زيادة، و«على الجسر» لبنت الشاطىء و «رحلة جبلية - رحلة صعبة» و«الرحلة الاصعب» لفدوى طوقان و«حملة تفتيش - اوراق شخصية» للطيفة الزيات و«صفحات من حياتى» لجليلة رضا، ولأنى ابحث فى الاعترافات وليس فى السيرة الذاتية ، فإن المرأة العربية كانت تحتال بطرق شتى لتفضفض عن قلبها وإذا كان أغلب الرجال لم يكشفوا عن سقطاتهم فهل

تنتظر من المرأة أن تكون اكثر جسارة وصراحة من الرجل فى هذا المجتمع الشرقى . ومع ذلك فقد وجدت المرأة فى كتابة الرسائل الغرامية متنفسا لها ، ولم يدر بخلد مى زيادة مثلا أن خطاباتها الغرامية ستنتشر يوما ويعرف بها القريب والغريب ، ومن هنا أودعت فيها كلمات عاطفية لاهبة ، وكانت لونا من الاعتراف .

ولما كان بعض الرجال يتخفون خلف شخصية روائية او قصصية ويسجلون ما استتر من حيواتهم علي نحو ما نقرأ فى بعض أعمال توفيق الحكيم عودة الروح وعصفور من الشرق ويوميات نائب فى الارياف وسجن العمر . فإن مى زيادة صورت الحب الشاذ فى المدارس الدينية التى تعلمت فيها ومنها قصة «عائدة تتذكر» ضمن كتابها، «سوانح فتاة» وتصور فيها التلميذة عائدة وهى تغار على الراهبة أوجنى من فتاة أخرى كانت الراهبة المعلمة أخذتها بين ذراعيها واتهمت عائدة معلمتها بالخيانة . وتؤكد وداد سكاكيني وعبد اللطيف شرارة ان عائدة هى مى . وقصة الحب فى المدرسة ، وموضوعها تلميذة تغار على تلميذة صديقتها من خطيبها ، وهناك قصص أخرى تتوارى فيها مى تحت أسماء وهمية ، وهى اعترافات خفية، ولم تكن مى هى المرأة الوحيدة التى باحت بمكنون عواطفها فى خطابات ، فقد تبعتها فدوى طوقان ، وبعثت برسائل الى ابراهيم نجا وأنور المعداوى ، وهذه الخطابات اختفت فى ظروف غامضة ، ولكن بقيت خطابات المعداوى اليها التى نشرها رجاء النقاش فى كتابه عن فدوى والمعداوى .

وإذا كانت المرأة قد توارت وراء خطابات وحكايات ، فإنه بمرور الوقت صارت اكثر جرأة ، وتمثل سيرة جليلة رضا خطوة واسعة من هذا المجال ، فقد سردت فى سيرتها المعلنة والمنشورة، «صفحات فى حياتي» أطرافا من حياتها العاطفية، ولم تجد حرجا فى التصريح بمن أحبتهم وأحبوها وإن رمزت لكل عاشق بحرف . فهذا «غ» وذلك «م» وغيرهما «أ» وإنك تقلب صفحات عديدة من كتابها ، فإذا بك أمام مهج رهيفة وغيرة قاتلة ، وغرام يتجدد وقلب يتقلب بين عشاق كثيرين ..

والاعترافات التى يفضى بها الكتاب والشعراء تساعد الذهن على تفهم عالم الفؤاد، لأن اغوار النفس العميقة متشعبة ومستوعبة لتناقضات كثيرة يصعب علي غير صاحبها سبرها وفهم غوامضها . كما أنها تلقى أضواء هادية إلى أدابهم وفنونهم . إذ توضح امورا تفتقر الى الايضاح ، وتفسر اشياء تحتاج الى تفسير، وتمدنا بمعارف لا قبل لنا بها وتذكر ملابسات مواقف وقضايا تعمل على تعميق النظر فيها ، بل قد تساعد على خلود الشخصية .ألا نذكر كثيرا جان جاك روسو ؟ ■

الفراغ والعدم وأمراض الإبداع

بقلم
محمود قاسم

«كل ما عليك أن تفعله هو أن تنظر إلى كل شىء حولك باعتباره فراغاً»

هذا هو الحل المؤكد الذى ينقله إليك كل المصابين بالاكتئاب ، خاصة من الأدباء والفنانين ، كعلاج فعال لواحد من أهم امراض العصر الحديث .

القلق والاحباط ، والتوتر النفسى ، هى أمراض ثلاثية بالغة القسوة ، ولا شك أن أول زبائنها هم المبدعون ، الذين يجدون أنفسهم بين ضفتى رحا متسعتى الهوة . النجاح الساحق ، والنسيان المظلم. وعلى كل منهم أن يتأرجح بين الطرفين حسب درجة إبداعه من ناحية ، وحسب حركة ودورات عجلة الزمن بكل منهم .



فيليب لابرو ... سعاد حسني

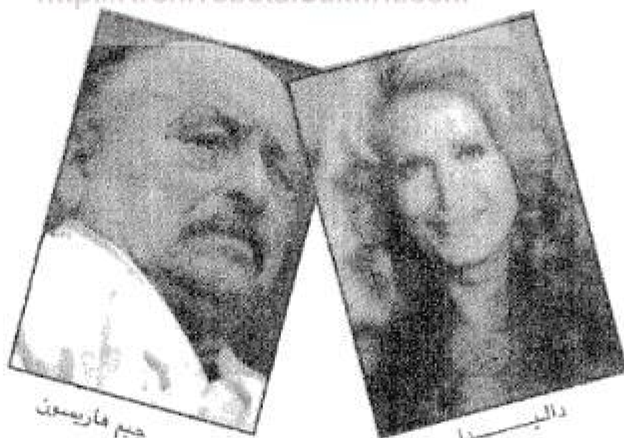
حول هذا التأرجح المميت عبر الروائي الفرنسي فيليب لابرو عن تجربته الخاصة مع التوتر والاحباط في كتابه الأخير «السقوط سبع مرات والنهوض في الثامنة» فكان الكتاب بمثابة شهادة حقيقية علنية لما يمكن أن يصيب الفنان عندما يقع في هذه الدائرة اللامتناهية .

أكدت مجلة لوبوان ، وفي تقدم تحقيقها عن «الضغط النفسي» إن هذا المرض يصيب فرنسياً من بين كل خمسة أشخاص . وأن اعراض المرض تبدأ بترديد صاحبه بعض العبارات منها «أنها سقطة .. أنا أنهار ، أنا المياه القذرة التي تتناثر في اطراف الحوض» ، وتبدو عيونهم زائغة وكأنهم يرقبون آفاق العدم .

فيما قبل ، كانت هذه الأعراض تسمى بالكآبة ، وقيل إن أول من يصاب بها هم غير المؤمنين ، لاقتناعهم بأنه لا جدوى من الإقامة في الحياة . لكن الأمر تغير ، وصار الضغط النفسي يجد زبائنه في مختلف الطبقات والكائنات الاجتماعية الإنسانية ، وصار اليأس والإحباط مسكوناً في الكثير من البشر من حولنا .

وقد رصد القرن العشرين الكثير من هذه الحالات في مجالات متعددة من الإبداع ، منهم الروائي الأمريكي سكوت فيتزجيرالد ، صاحب رواية «جاتسبي العظيم» .. والياباني يوكيوميشيما ، والراقص اللبناني كيغام، والروائي الامريكي ويليام ستايرون ، والأديب المصري شريف عليش ، وأيضا سعاد حسني .

أصحاب هذه الاسماء عرفوا ألمع لحظات النجاح ، لكنهم انتهوا بزيارات متكررة إلى العيادات النفسية، وانتهت حيوات الكثير منهم بالموت المأساوي وهم يحسبون أنه من الأجدى «الانزلاق بهدوء شديد نحو العدم» .. مؤمنين أن النهاية المحتومة أفضل بكثير من البقاء في


جيم ماريسون
داليـــــدا

الحياة ، وأن العدم هو المصير المؤكد للإنسان .

لم أعد أرغب في شيء ...!؟

لم تكن الدلائل تشير إلى أن أيا من هذه الشخصيات ستكون نهايتها هي الموت الاختياري ، فقد نجحوا جميعا في بعث البهجة لدى الناس طوال القرن الماضي سواء في مجال التأليف الأدبي ، أو التمثيل ، أو الغناء أو التلحين ، والأديب الفرنسي فيليب لابرو، الذي كان آخر من أصابته الحالة ، هو كاتب ناجح ، وشخص مثالي ، تولى رئاسة تحرير العديد من المجلات ، وهو زوج نموذجي ، وأب للعديد من الاطفال ، كتب الرواية ، والمسلسل التليفزيوني والسيناريو السينمائي ، وحصل على العديد من الجوائز ، وليس هناك ما ينقصه : وسامة ، صوت جميل ، ونجاح متواصل ..إنه يذكرك ببطل فيلم «تدبير الأمور» لايليا كازان ١٩٦٨ ، الذي يمتلك كل أسباب السعادة ، ومع ذلك انطلق بسيارته الصغيرة كي يناطح حافلة ضخمة ، ويدور أسفل سقفها البالغ الضخامة .

ليست هناك أسباب محددة واضحة لدفع التوتر النفسي إلى نفسية أصحاب كل هذه الأسماء أو على الأصح فإن الأسباب الملحوظة هنا تبدو غير تقليدية ، فلم يفقد أحد منهم ابنا غالياً ، أو حبيباً أبدياً ، أو أن أحدهم جاءه فشل حاد بعد نجاح ساحق . ويبدو ذلك واضحاً في حالة لابرو ، فهو يمتلك كل ما يحسده السعداء عليه ، لكن فجأة تخلى لابرو عن وظائفه ، وابتعد عن الكتابة وسقط – إن كان هذا التعبير صحيحا – في وادي الضغط النفسي . وصار لابرو «الرجل الرائع» مجرد شبح إنسان . وصار خائراً ، خجولاً مما يفعل ، رغم أنه لم يتخل عما يفعله البشر : الأكل ، الشرب ، تنفس الهواء، الحب .

وحسب مجلة «لوبوان» ، فإن هناك عشرات التسميات لمثل هذه الأمراض ولذا فإن توصيف حالة ما يختلف تماما عن الأخرى ، وقد أوردت المجلة اسماء عديدة وتشخيصات يصعب ترجمتها ، وتحتاج إلى متخصص متابع لاحداث الدراسات والأبحاث .

والجدير بالذكر أن ما حدث لفيليب لابرو ، قد نبه الأوساط الثقافية في اوروبا إلى أن هذه الأمراض قد وجدت ضحاياها الأبديين من الفنانين والكتاب، وأنه من الواجب إعادة تكريمهم ، ومنهم الروائي الامريكي ارنست هيمنجواي ، والكاتب والمخرج الفرنسي رومان جاري الروسي الأصل .

وقبل أن نتوقف عند أشهر حالات الأرق النفسي لمشاهير العالم ، فإننا نقتبس بعض العبارات التي وردت في كتاب لابرو ، ومنها :

«فقدان الرغبة ، لم أعد أرغب في شيء ، ولم أعد أتذوق شيئا ، الأكل مجرد بروفة ، والشرب عقاب ، لم يعد لثمرة اليوسفي مذاقها ، ولم تتناثر رائحته عبر حلقومي . وتترك القهوة مذاقاً مراً، ويبقى اللحم في الطبق غير مشتهيا فيه ، لن اتناوله بعد اليوم . صار السكر مراً ، وتسبب الشيكولاته الغثيان

، ولم يعد الملح مملحاً . يقال إن العناصر الأساسية للغذاء فقدت رغباتها ومنذ ذاك الحين لم أعد آكل شيئا ، حتى شرب الماء صار لا يلزمني، سوى جرعات قليلة ، الطعام صار يصفع معدتي ، فلم أعد احتمله ، إذن عليّ أن اتوقف عن فعل أشياء كثيرة ، كنت أحبها» .

أنا .. شخص محبط

ويقول لابرو في مكان آخر من كتابه المؤلم: «صار الوجه نحيلا ، وبدا الجسد النحيل يتسربل في ملابسه المتسعة ، ينظر إليّ الناس بعينين زائغتين ، ولم يعد قادراً على الابتسام. وهناك تجعيدات تزداد يوما وراء آخر في زاويتي الفم . وتبدو ملامحه مختلفة تماما . لم تعد لدىّ ذكريات تبعث على الضحك» .

وقد بدت شدة الحالة في ضمائر التعبير التي يستمر لها الكاتب تعبيراً عن حالته ، فهو تارة يتكلم عن نفسه بـ «أنا» ، وأخرى بـ «هو» كأنما هذا الأخير شخص غريب تماما عن «الأنا» المقصودة ، أو كأنه يصف شخصا لا يعرفه بالمرة .

مثل هذه الحالة لم تختلف كثيرا عما أصاب ويليام ستايرون ، صاحب رواية «اختيار صوفي» التي حازت على جائزة بوليتزر عام ١٩٧٩ ، وتحولت إلى فيلم شهير عام ١٩٨٣ ، وزار مصر في صحبة ارثر ميللر عام ١٩٨٢، ولم يعرف كاتب امريكي المجد الأدبي في النصف الثاني من القرن العشرين مثلما حدث مع ستايرون (٧٩ سنة) ، حالة الكاتب لم تكن تتنبىء بالمرة أنه سيرتد ، وهو في قمة الضغط النفسي :«سكاكين المطبخ المرتبة في الدرج لم تعد بالنسبة لي سوى وسيلة مؤكدة للوجود» ..

صار ستايرون يرى الأشياء من حوله بمنظور مختلف ، سيىء، فالجراج هو مكان نموذجي لاستنشاق ثاني أكسيد الكربون ، والبانيو ، هو أفضل ما يمكن أن نجمع فيه رغاوى الدماء . وستايرون لم يكن كاتب الصدفة ، فقد نجح دوما برؤياه القصصية في أن يحظى باهتمام النقاد والقراء ، ولا يمكن أن نقول إن تقدمه في السن كان سببا لهذا الاحباط والتوتر اللذين أصاباه . فقد توقف الكاتب عن تعاطى الخمر ، لكنه ظل يتردد على المصحات النفسية ، وحول تجربته مع التوتر كتب عدة مقالات ونصوص أدبية مؤخراً ، سوف تصير بمثابة ناموس للذين عاشوا مثل هذه التجربة .

تقول مجلة لوبوان إن مصرياً قديما مجهولا ، كتب منذ أربعة آلاف سنة أن «الموت هو اليوم أملي الوحيد»، بما يعني أن العصر الحديث مجرد وريث وفي ، نقل إلى ابنائه من هذا الجيل خبرات الازمنة الغابرة ، تلك الأزمنة التي دفعت الكثير من المشاهير إلى أن يعيشوا مثل هذه الحالات منهم: الملك الفرنسي لويس الخامس عشر ، (١٧١٠ - ١٧٧٤)، والأديب جيرار دونرفال (١٨٠٨ - ١٨٥٥) ، والفيلسوف الاجتماعي اوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) .

أما أبرز المعاصرين الذين توقفت

عندهم المجلة . فهناك المطربة المصرية الأصل داليـــدا (١٩٣٣ - ١٩٨٧) ، والمخرج السينمائي كلود بيرى (٦٩ سنة)، والرياضي البرتو سالازار (٤٥ سنة) والمطرب ذو الصوت الصداح ميشيل دلبيش (٥٧ سنة) صاحب الأغنية الشهيرة «المطلقون» .. والممثلة شارلوت رامبلنج ، نجمة مهرجان كان عام ٢٠٠٣ ، التي رددت «ذات يوم . لم اعد استطيع المقاومة ، عندما وجدت نفسى أمام الفراغ» ..

لقد رددت شارلوت هذه العبارة عام ١٩٩٤ ، بعد سبع سنوات من العزلة الاختيارية، مؤمنة أن عليها أن تبحث عن الموت كى تولد من جـديد . وفى هذه الفترة عرفت الممثلة ما اسمته بـ «عالم مجرد مجهول» أو «صخب مرعب ، تحمل فيه كل مخاوف أجدادنا» ..

الجدير بالذكر أن لشارلوت رامبلنج أختا ماتت وهي في الثالثة والعشرين من مرض مشابه .

الإنسان قطعة لحم
في سوبر ماركت

أما أبرز الأدباء المعاصرين الذين أصابتهم مثل هذه الحالة فهناك الامريكي جيم هاريسون (٦٧ سنة) صاحب رواية «أساطير الخريف» التي تم تحويلها إلى فيلم قام ببطولته براد بيت عام ١٩٩٥ . لقد اختار هاريسون أن يعيش كافة حياته في عزلة ، أسوة بزملاء آخرين له ، بالغى الموهبة ، منهم سالينجر، وتوماس بينشون ، وذلك تحت شعار: «لا تنس قط أن الحياة أشبه بذنب لا يستحق أن يعيش» ..

الرجل الذي ردد هذه العبارة ، وجد متعة الحياة في الصيد ، والكتابة ، والتجوال ، والطعام والشراب، ورغم ذلك فقد اجتاز سبع محن من التوتر النفسي ، ساقته جميعا إلى المصحات النفسية بالعدد نفسه ، وتحت تأثير حبات الفاليوم التي تناولها كعلاج كان يردد عبارات مثل: «أنا أشبه بقطع لحم نيىء معلقة في سوبر ماركت» ..

مثل هذه الحالات ، لم تكن بعيدة عن كتاب كثيرين ، ومبدعين ، في عالمنا العربي ، خاصة مصر ، ربما كانت هناك أسباب لكاتب كبير ، توفى منذ عدة أعوام ، مر بحالة من الاحباط الشديد بسبب المرض ، وفي الاسابيع الأخيرة من حياته رفض تماما تناول الدواء ، ومات في أشد حالات الاكتئاب ، وهناك فنانة كانت كل الظروف تؤكد أنها صارت صريعة لهذا المرض ، وأثير حول وفاتها جدل ، في أن موتها منتحرة قد يدفع بها إلى أنها فعلت شيئا ضد العقيدة ، لكن بلا شك فإن الذين يقومون بمثل هذه الإدانة لم يمروا قط بمثل هذه الحالات البالغة الألم ، وقد رأيت ذلك بعيني هذه الأسابيع لكاتب يرقد في سريره ، يرفض تماما استقبال زواره، والحياة ، وهو يتألم بشدة ، وإذا كانت مجلة لوبوان قد ذكرت اسماء المبدعين الذين دخلو دائرة رؤية الفراغ بدلا من الأماكن ، فإن العرف الاجتماعي في مصر ، يحول تماما دون ذكر الاسماء. ■

لغويات

ديوان: الأصل والدلالة

بقلم: د. الطاهر أحمد مكي

تقول الرواية: إن عامل عمر بن الخطاب على البحرين، وتعنى إذ ذاك كل ساحل الخليج العربى الغربى من الكويت حتى مسقط، حمل إليه خراجها، وكان يبلغ خمس مائة ألف درهم، فاستعظمها عمر، وأمر بوضعها فى المسجد، وجعل عليها حراسا، فأشار عليه بعض من كانوا يعرفون مايجرى فى فارس والشام ومصر، أن يخصص لذلك صحفا يدون فيها أسماء الجيش من الجند والمقاتلة وأهل العطاء، وما لكل واحد، وأن يجعل الأرزاق مشاهرة، وأن يدون فيها مايرد من الخراج والأموال، وسمى ذلك المجموع من الصحف ديوانا، وكان هذا أول ديوان فى الإسلام، أقيمت على نحوه دواوين فى البصرة والكوفة تكتب بالعربية، وأخرى فى الشام تكتب بالرومية = (اليونانية) وفى العراق بالفارسية، وفى مصر بالقبطية، وعربت فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، ماعدا مصر فقد تم تعريب دواوينها فى ولاية عبدالله بن عبدالملك، فى خلافة الوليد بن عبدالملك، عام ٨٧ هـ = ٧٠٥ م.

يقول أبوجعفر النحاس، وهو عالم مصرى (ت ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) إن معنى الديوان: الأصل الذى يرجع إليه، ويعمل بما فيه، ويقول ابن عباس: إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب.

ويقال دون هذا أى أثبته واجعله أصلا.

واختلف فى أصل الكلمة: سيبويه (ت ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) شيخ النحاة، وهو فارسى الأصل، يرى أنها من أصل فارسى، ويوافقه فى هذا العالم اللغوى الأصمعى (ت ٢١٥ هـ = ٨٣١ م) وهو عربى النسب، ويرى المرزوقى (ت ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م)، أن اللفظ عربى مأخوذ من دونت الكلمة إذا ضبطتها وقيدتها، لأنه موضع تضبط فيه أموال الناس وتدون.

وفيما أرى الحق مع سيبويه والأصمعى، لأنهما أسبق تاريخا، وأقرب إلى ولادة الكلمة، ويضعف رأى المرزوقى أن الفعل صيغ من الاسم، جاء بعده ولم يسبقه، وأن المصادر الأولى تذكر الاسم ولاتشير إلى الفعل.

مع انتشار الكتابة، وكثرة التقييد، وسهولة الحصول على الورق، اتسع استخدام الكلمة فأطلقوها على شعر الشاعر يجمع فى كتاب، وتم هذا فى القرن الرابع الهجرى فيما أرجح، ثم أصبحت تطلق على كل كتاب، وتوسع الفاطميون فى مصر فى استخدامها، وأصبحت تعنى إدارة أو مصلحة فهناك: ديوان الجيش أو الجهادية، والكسوة والطراز، والأحباس، والرواتب، وأضيف إليها فى العصر المملوكى ديوان الإنشاء، وفى العصر التركى منح اللفظ لقب أفندى فأصبح: ديوان أفندى، أو أفنديس بالتركية، ويعنون به الديوان العالى فى عاصمة الخلافة أو ديوان الخديوى فى مصر.

بعض القبائل العربية فى جنوب الصعيد (المطاعنة مثلا فى مركز إسنا) يطلقون الكلمة على المكان الذى تعده القبيلة لتلاقى أبنائها للمشاورة أو المسامرة أو استقبال الضيوف والزائرين، ولشىء قريب من هذا تستخدم الكلمة فى الكويت، وتعرف بالديوانية. ■

نحن والأجداد

بقلم
د. صبرى منصور

تظل علاقة الفنان بالتقاليد الفنية - فى جميع مجالات الفنون - من أدق إشكاليات تحقيق ذاتية الفن المصرى، وبلورة سماته الخاصة، وإبراز شخصيته فى ساحة الإبداع الفنى العالمى. ولقد كانت تلك العلاقة وإدراك طبيعتها، وتحديد ملامحها محل التباس الفهم من جانب معظم المبدعين والنقاد. وعلى الرغم من أن البعض من هؤلاء قد استطاع - بعمق موهبته وفرط حساسيته الثقافية وصدق رؤيته الإبداعية - أن يقتنص سر هذه العلاقة، وأن يأتى إبداعه مجسدا لها ومحققا لمعناها الإيجابى، ونذكر من بين هؤلاء المبدعين سيد درويش فى الموسيقى، ومحمود سعيد ومختار والجزار وندا فى الفن التشكيلى، ونجيب محفوظ فى الرواية، ويوسف إدريس ومحمود دياب فى المسرح، وصلاح عبدالصبور وأمل دنقل فى الشعر، وشادى عبدالسلام فى السينما، وحسن فتحى ورمسيس ويصا فى العمارة .

تشكيل :
أحمد عبد الوهاب



إلا أن قضية ارتباط الفنان بتراث أمته باعتباره كيانا ثقافيا متكاملا يجب الاتصال به والامتداد بخيوط منه وإثرائه تتعرض لعوامل إضعاف عديدة، بل ويسعى البعض جاهدا لإفنائها والقضاء عليها انتصارا لأشكال فنية ممسوخة، واتباعا لنماذج غريبة على كياننا الثقافى . ولقد ساهمت عوامل عديدة فى خلط الحقائق، واختلال المعايير التى يلحظها الراصد المدقق لنمو حركة الإبداع الفنى الحديث فى مصر.

التقاليد الفنية والتقليد

وعادة ما ينظر فى وسطنا الثقافى إلى الفنان المرتبط بالتقاليد الفنية المتوارثة على أنه متخلف عن ركب التطور والتجديد، فعند مدعى الحداثة أن الفنان يكون حداثيا حين يأتى إبداعه مشابها للنماذج الفنية الغربية وخاضعا لمعاييرها، مع أن ذلك فى واقع الأمر تقليد سافر ينتقص من قدرة الإبداع المصرى على التميز وينفى وجوده أصلا.

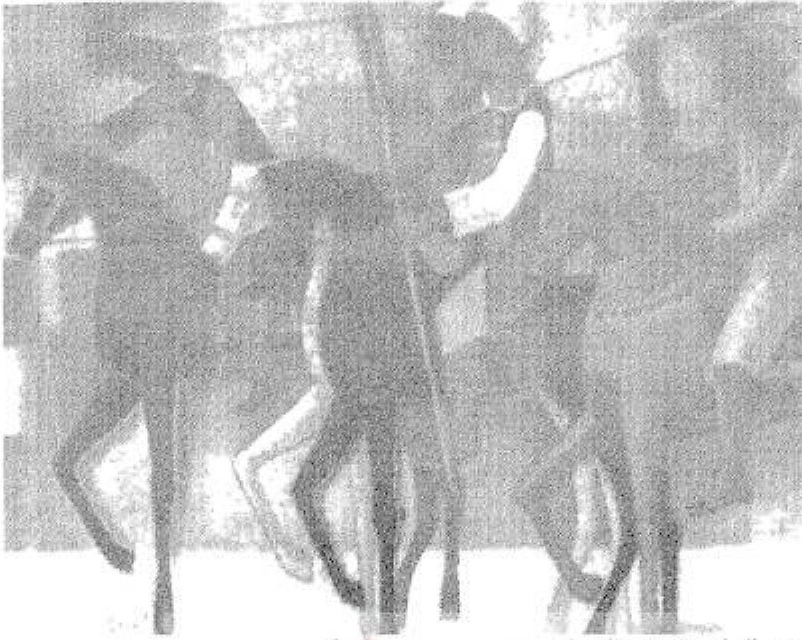
ويوضح المفكر زكى نجيب محمود فى إحدى مقالاته الفرق بين كلمتى التقليد والتقاليد اللتين تأتيان من مادة لغوية واحدة، إحداهما هى صيغة المفرد، والأخرى هى صيغة الجمع، إلا أن استعمالهما قد أسبغ على كل منهما معنى مختلفا أشد الاختلاف. إذ أن التقليد مرفوض رفضا قاطعا فى دنيا الفن والأدب وكافة صور الإبداع، إذ لا يجوز قط لمبدع فى أى ميدان أن يقلد أحدا سواه، وحتى إذا كان المبدع منتميا إلى مدرسة فنية بعينها فإنه ينبغى ألا يجاوز فى تبعيته هذه حدود الإطار العام للمدرسة، أما الكلمة الأخرى وهى التقاليد فعلى العكس من ذلك، إذ لا أتصور عصرا فى تاريخ أى فن من الفنون فى أى بلد من بلاد الله إلا ويكون نشاطه الفنى ملتزما بالتقاليد الأساسية لذلك الفن عند أسلافه، ولا يجوز لفنان مصرى مثلا أن يدعى المصرية إذا لم يستطع أن يقدم فنا يمكن أن يتسق مع أسلافه فى تاريخ فنى واحد».

كما يرى زكى نجيب محمود أننا إذا كنا اليوم نستأنف عملية الإبداع الفنى بعد قرون من الانقطاع فإن أول ما ينبغى أن نراعيه هو إحياء التقاليد عند الفنان المصرى على امتداد عصور التاريخ ثم نجدد فى إطار تلك التقاليد، وأنه بغير هذا الاقتران بين تقاليد الماضى التى تصنع الهوية الممتدة عبر التاريخ وبين التنويعات الجزئية التى نضيفها لن تكون هناك سبيل إلى المحافظة على الهوية القومية مضافا إليها التنوع الحضارى. ويؤكد المفكر الكبير بأن الفنان الذى يتعذر عليه أن يصب إبداعه فى إطار من تقاليد الإبداع كما عرفت فى تاريخه القومى فإنه يكون قد قضى على إبداعه بالحرمان من الدخول فى هذا التاريخ، وذلك لأن التيار التاريخى فى أى مجال فنى وفى أى بلد ينتظمه خيط خفى يربط التيار كله من


سيدات نوبيات - مصطفى أحمد مصطفى

المنبع إلى المصب، وهو بهذا يؤكد على أن أي تجديد، أو تحديث يجب أن يقوم على قاعدة من التقاليد الفنية المصرية، وإلا سيكون شيئا دخيلا ومفخما .ولن يجد له مكانا داخل الشق العام.

أما الناقد والشاعر الإنجليزي الشهير ت. س. إليوت فإنه - في كتابه «مقالات في النقد الأدبي» يرى أن خير ما في عمل الشاعر وأكثر أجزاء هذا العمل فردية هي تلك التي يثبت فيها أجداده الشعراء الموتى خلودهم، ويوضح أن ذلك ليس في فترة المراهقة الفكرية للشاعر وإنما في فترة نضوجه الكامل. ويفسر اليوت معنى التقاليد بأنها ليست اتباع الطرق التي سار عليها الجيل السابق، أو إحراز النجاح الذي سبق إحرازه في أجيال سابقة، فتلك رؤية ساذجة إذ أن للتقاليد مغزى أعمق من ذلك بكثير، والإنسان لا يرث التقاليد وإنما عليه أن يبذل مجهودا كبيرا إذا أراد اكتسابها، وهي تتضمن أول ما تتضمن الحاسة التاريخية، والتي لاتعني إدراك ماضي الماضي فحسب وإنما حاضرة أيضا. تلك الحاسة التي هي حاسة اللازمني والزمني معا هي التي تجعل من الكاتب كاتبا تقليديا، وهي التي تجعله في نفس الوقت يعي مكانه داخل نطاق هذا الزمن، ويعي عصريته

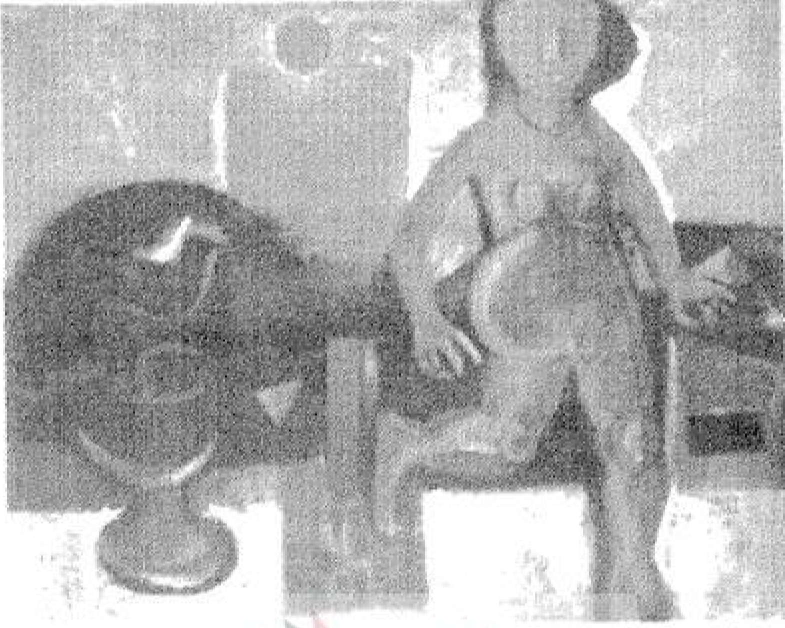


رقص الخيل - سيد عبد الرسول

وعيا مرهفا، كما يرى اليوت بأن معنى الشاعر أو الفنان لا يستمد منه وحده، وإنما هو تقدير للعلاقة التى تربطه بالشعراء والفنانين الموتى.

ويحدد الفنان والمفكر حامد سعيد مفهوم التراث الفنى المصرى بأنه ليس مجموعة من الآثار الفرعونية أو المسيحية أو الإسلامية فقط، وإنما هو مجموعة التقاليد التى تحدد خصائص الشخصية الفنية المصرية، وهى ليست الماضى بكل ما فيه من أخطاء وضعف، وإنما هى مجموعة صوابات الماضى تتواصل من جيل لجيل، وهذا التواصل يخلق رؤية شاملة للحياة وللوجود. ويفرق حامد سعيد بين نوعين من العالمية فى الفن، حيث توجد عالمية مزيفة ونجدها فى المعارض الدولية والرسمية فى البلاد الرأسمالية حيث الكل متشابه ويتبع آخر موضة، وهذه يتبعها أذكياء الفن عندنا. وهناك عالمية حقيقية تكمن فى تحقق شخصية كل فنان وكل بلد من خلال حريته فى الخلق والإبداع بدون تبعية.

كما يكشف نجيب محفوظ عن مدى أهمية التراث وتأثيره فى تكوينه الأدبى. إذ كانت له قراءاته الواسعة فى التراث الأدبى المصرى والعربى، كما اطلع على أمهات الكتب والملاحم الشعبية ، كما اعتبر دراسة مصر القديمة وتاريخ آدابها وأساطيرها جزءا أساسيا من دراسته للتراث. وذلك بالإضافة إلى تراث



من الزار - زكريا الزيني

الآداب الأجنبية، وقد كان لكل ذلك تأثير على ما أبدع من أعمال أدبية لأن التراث جزء حيوى فى تكوين الأديب والفنان.

فكرة إحياء القديم

إن فكرة إحياء تراث فنى ما وفقا لتغيرات ثقافية واجتماعية هى فكرة صحيحة يثبتها تاريخ الفن نفسه، فمادة الفن مادة لا تفنى بمرور الزمن، وهى قابلة دائما للاستيحاء والامتداد بعناصر منها وفق منظور جديد. وفى تاريخ الفن الأوربى عاد الفنانون فى فترتين تاريخيتين مختلفتين - بل ومتباعدتين بمسافة زمنية لعدة قرون - إلى التراث الفنى اليونانى واستلهموا مثالياته واعتنقوا مبادئه الفنية، مرة فى القرن الخامس عشر أثناء عصر النهضة، ومرة أخرى فى نهاية القرن الثامن عشر حين ظهرت الكلاسيكية الجديدة. كما اعتمد فنانو المكسيك فى القرن العشرين على قاعدة تراثية فى صياغة فنونهم الحديثة. وعلى مستوى الفنانين وإمكانية عودتهم لإحياء أو استنباط قيم فنية جديدة من خلال تراث الماضى فإن بيكاسو زعيم التجديد والتمرد فى الفن الأوربى الحديث تشهد مراحل عديدة من حياته الفنية رجوعا متكررا لفنانين وطرز سالفة، مثل أعماله التى استوحى فيها لوحات لڤيلاسكيند وجويا وأيضا الطراز

اليوناني.

كيف يبدع الفنان ؟

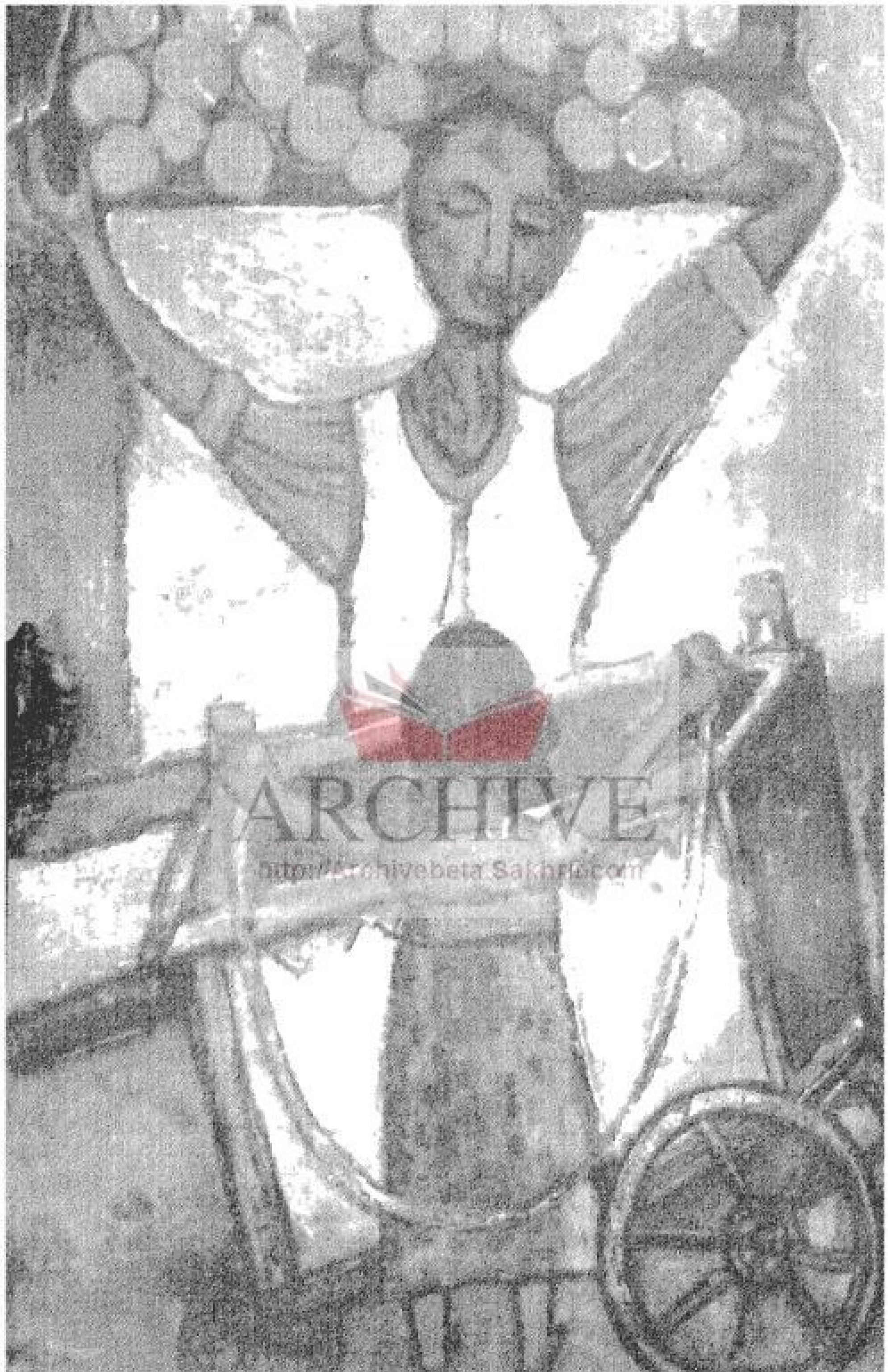
ماذا يفعل الفنان وهو بصدد تحقيق فكرته الفنية التى تلح على خاطره وكيف يخرجها إلى حيز الوجود؟ فالفكرة تحتاج إلى شكل تتجسد فيه ، وإلى أسلوب فنى ينظم علاقاتها ويحدد هيئتها ويجمع عناصرها وفق نسق معين. والتطور الطبيعي والمنطقى أن يتأثر الفنان فى بداية تجربته الفنية ببعض الأساليب والطرق لفنانين آخرين من القريبين إلى نفسه وذوقه الفني، (ومثالنا على ذلك أيضا بيكاسو الذى اقتفى أساليب فنانين آخرين فى فترة تكوينه الأولى كان منهم جوجان وفان جوخ ولوتريك) وبعد ذلك وفى خلال فترة النضج يبدأ الفنان فى تلمس أسلوبه الخاص، ويمضى فى استكماله عبر الأعمال والتجارب المتواصلة ، إلى أن تتوفر لديه تلك القاعدة الأسلوبية الخاصة به والتى يستدعيها حين تكتمل لديه فكرة عمل فنى جديد يود تجسيدها.

ويتساءل المرء حين يواجه أعمالا فنية عديدة - ليس في مجال الفنون التشكيلية فقط وانما فى بقية الفنون الأخرى - عن ماهية النسق الفنى الذى انطلق منه الفنان، وعلى أى أسلوب ارتكز فى إبداعه، وخاصة اذا كان فى مرحلة النضج الزمنى وانتهى من مرحلة الإعداد والتكوين. ومما يدعو إلى الأسف تجد أن الفنان قد استدعى إلى ذاكرته تقاليد فنية غريبة علينا ومقطوعة الصلة بنا، وهو ينسلخ بروحه من الكيان الفنى المصرى فيأتى عمله مسخا ثقافيا عديم القيمة.

درجات من التعبير عن الخصوصية

وهناك من يظن - خطأ - أن فى مصرية الموضوع والأشكال مبررا كافيا لاكتساب الخصوصية المصرية وإسباغ الهوية القومية على الأعمال الفنية، فليس تناول موضوع محلى هو وحده الكفيل بذلك، وإنما الأهم منه هو الأسلوب الفنى وطريقة المعالجة، فتلك الطريقة هى التى توحى بالإيقاع وتجسد الروح، كما أنها تتضمن الخيوط التى تتصل بالكيان الثقافى للبلاد وتقاليدها المستمرة فى الزمان. ولقد كانت هناك دائما فى حركتنا الفنية التشكيلية درجات متنوعة من الارتباط بتراث مصر وتقاليدها الفنية، وتفاوتت ما بين النقل الحرفى أو شبه الحرفى لعلامات التراث وأشكاله وعناصره، وذلك فهم يسىء إلى التراث نفسه لأنه تقليد مباشر لا يمكن أن يرقى للشكل الأصلى وإنما يشوهه. وهناك من قام باستخدام ملامح تراثية ومزجها بالاتجاهات الأوروبية بغية الوصول إلى تحقيق مفهوم الأصالة والمعاصرة، مثل الفنانين الذين توسلوا بالحروف والزخارف العربية وألبسوها لباس الفن التجريدى. وذلك أيضا مفهوم سطحى لتناول التراث أو تحقيق المعاصرة فى

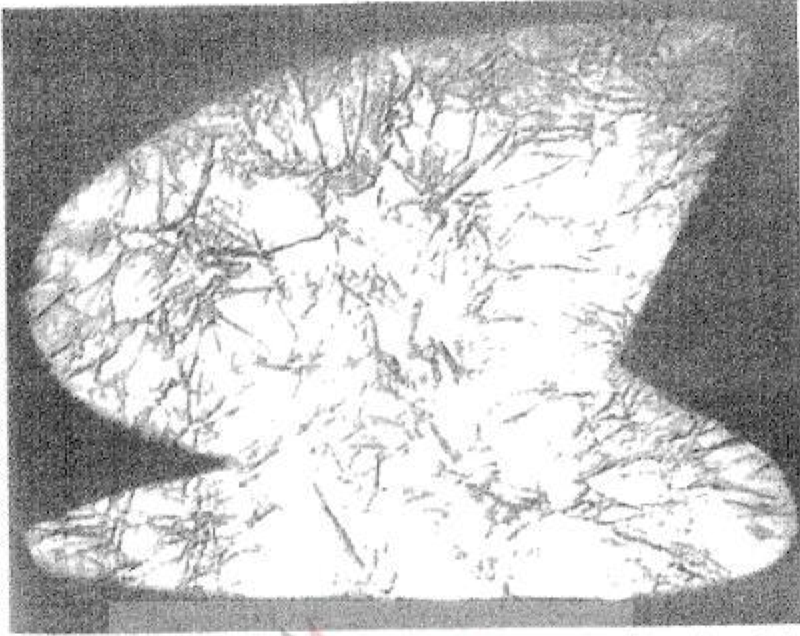
الخبز الشمسى - تحية حليم





المحكمة الشرعية - أدهم وانلي

الإبداع، وهناك من استلهموا روح التراث نفسه وإيقاعه الدفين في مزيج متكامل غير مصطنع، يشعرك به دون أن يكون منفصلا عن سبيكة الإبداع ومقوماته. وهذا الفريق الذي يتزعمه محمود سعيد في التصوير ومختار في النحت قد نجح في أن يضع الأساس لفن مصري حديث، ورغم أن هذا الفن مازال في طور التشكل والتكوين إلا أنه يمنح الأمل في أن المصريين قادرون على تحقيق شخصيتهم الفنية وتأكيد قدراتهم الإبداعية المتميزة. وذلك لايعني أن هناك وصفة سحرية يتبعها الجميع، فكل فنان يجب أن يكون له أسلوبه الشخصي ورؤيته الذاتية داخل الكيان العام، وذلك يسمح بدرجات لا نهائية من التنوع وفق حساسية كل فنان ومقدار موهبته ومدى إمكانياته وسيطرته على أدواته الفنية. إذ أن طبيعة العمل الفني أنه عمل متفرد وهذا هو سر إقبالنا عليه وإعجابنا به وهكذا فإن كل تجربة فنية لا تشبه على الإطلاق تلك التي يثيرها فينا عمل فني آخر. فالعمل الفني في المقام الأول يأتي انعكاسا لانتماء الفنان الواحد الفرد لقومه ولأمته، لكن سحر الإنتاج الفني أنه برغم فرديته وتفرده وخصوصيته البالغة إلى أقصى الحدود، فإنه إنسان عام بحيث يتلقاه أي إنسان في أي بلد وفي أي عصر فيرى فيه حقيقة الإنسان حتى وإن يكن إنسانا من شعب آخر



الهمزه - حامد عبد الله

تختلف طرائقه فى الحياة.

العادات النقدية الخاطئة

ولقد سادت حياتنا الثقافية عادات نقدية يجب إعادة النظر فيها وتقويمها حتى تأخذ مسارها السليم والصحيح من أجل بناء كيان ثقافى مصرى يتسم بالابتكار والتجديد والحداثة دون أن يفقد ذاته أو تطمس هويته. فإذ كان على الفنان حين يلتمس تجسيد تجربته ورؤيته الثقافية فى عمل فنى أن يتمثل تقاليد بلده، وأن يجد الوسيلة للانتماء بشكل أو بآخر لكيانها الثقافى المتصل حتى يأتى عمله ضمن السياق العام وحلقة من حلقاته . فإنه على الناقد - وهو بصدد التحليل والتقدير - أن يتمثل أيضا هذا الكيان الثقافى، ولا يبحث فى الأعمال التى يتناولها عن ملامح الشبه بينها وبين نماذج الكيانات الثقافية الأخرى، وعليه أن ينقب فى الإبداع الفنى عن أصالته وأسباب ارتباطه بعناصر الخصوصية الثقافية المصرية ومدى الابتكار والإضافة إليها، ويجرى مقارناته بين القديم والجديد ، فهو بذلك يساعد على تدعيم كيان مصر الثقافى ويحافظ على نموه الطبيعى السليم فى اتجاه تجسيد فن مصرى حديث لا يقلد الآخرين، وإنما يكون إضافة حقيقية للإبداع الإنسانى .■

حركة الفن اليوم واستلهام التراث

بقلم
د. محمد عرابي

تزخر حركة الفن المصرى اليوم بالعديد من المعارض الفردية والأحداث الفنية النوعية ويأتى الصالون الأول لفن الرسم بمركز الجزيرة للفنون في مقدمتها، وذلك لما له من أهمية خاصة تكمن فى تأكيده على أقدم وأهم وسائط التعبير الفنى، الذى كاد ينزوى تحت ركام ما أتت به الحداثة وما بعدها من وسائط وتقنيات تكنولوجية مستحدثة لا يطولنا منها سوى شوائبها أو قشورها السطحية لعدم قدرتنا على النفاذ إلى جوهرها، أو لرغبتنا الدائمة فى الاستسلام للتبعية بدعوى الأخذ بأسباب الحداثة والمعاصرة أو العالمية، وذلك باستعارة قوالب جاهزة تكتسب سيادتها من القوة السياسية لمجتمعاتها، فمن فرط ما يظهر على سطح حركتنا الفنية من تلك الشوائب نكاد نشعر بأن فن الرسم والتصوير وغيرهما من وسائط التعبير الفنى المشابهة قد اختفت من الوجود، وتأتى فكرة هذا المعرض فى حد ذاتها لتمثل دعوة لتصحيح الأوضاع والمسارات، فبغض النظر عما ينطوى عليه من قيم فنية فهو يعيد لفن الرسم هيبته ودوره فى حياتنا الفنية، فلا يمكن لنا أن نغفل دوره في تاريخ حركة الفن العالمية منذ بداياتها المبكرة أو حتى دوره فى إعداد الفنان قديماً وحديثاً، فهو الوسيط الأول لخبرته البصرية والفنية المؤهلة لامتلاك الحساسية الفنية للمبدع، كما لايمكن أن نغفل قدراته وطاقاته التعبيرية والإبداعية كوسيط تعبيرى له استقلاليته، ويمتلك فى ذاته أسباب بقائه واستمراريته رغم ما يستجد من وسائط تعبيرية أخرى .



شاهد في ذاكرة - زينب السجيني

يمثل الصالون بانوراما واسعة لحركة الفن المصرى الحديث والمعاصر بأجيالها المتعاقبة فيصبح فى مجمله مادة ثرية للتعرف على مساراتها وما تنطوى عليه من رؤى فنية، ربما تشترك فى ملامح عامة وتتنوع فى إطار تيارات تسير متوازية أو متقاطعة، ومن جانب آخر يبدو كصورة تم التقاطها بأشعة فوق صوتية أو ما شابه من تقنيات تصوير ما تحت السطح فتبرز الحقيقة المخبأة وتعين مواطن السلامة والعطب بوضوح وجلاء، ولعل هذا هو الهدف غير المنظور، الذى يتحقق بوضوح ما جاءت به لوائح الصالون من محددات تتمثل فى المساحة وحصر عناصر العملية الإبداعية فى قيم الأبيض والأسود فى إطار مفهوم فن الرسم، حيث يكون الخط هو البنية الأساسية للتجربة الإبداعية بما يحمله من دلالات مركبة، ويأتى الجزء الأول من هذه

الصورة ليمثل الأتجاهات الفنية لمدرسة فن الرسم المصري الحديث عبر الأساليب الفنية التي جاء بها راغب عياد ومحمود سعيد وحامد ندا والجزار وسعيد العدوي وغيرهم .. والتي التصقت في معظم الأحيان في خصائصها الفنية بفن التصوير إذ يغلب عليها النزعة التشخيصية في إطار لغة رمزية ارتبطت بالحياة المصرية بأبعادها الثقافية والتراثية، وذلك باستثناء رسوم تحية حليم واحمد عثمان ومحمود سعيد التي ارتبطت بالمظهر المرئي لواقع الحياة المصرية .

غلبة التشخيص

وتوضح الأعمال المعروضة امتداد هذه الاتجاهات التأسيسية في تجربة فن الرسم المصري بكل تنويعاتها التي يغلب عليها - كما ذكرنا - لغة التشخيص سواء كان ذلك في إطار واقعي يبدو خافتا في هذا المعرض، أو في إطار رؤى خيالية رمزية تعلو نبرتها وتسود ويتقاسمها مدرستان من حيث الغرض الفني : أولاهما مدرسة الرسم الصحفي والثانية تجعل من فن الرسم لغة مستقلة، وتشمل رؤى متنوعة بين ما يمكن أن نطلق عليه مجازا الاتجاه الشعبي وبين التي يعلو فيها صوت التعبير ويجور على الشكل بمعالجات فنية تتشابه أحيانا وتتمايز أحيانا أخرى، والجانب الثالث من هذه الرؤى يتمثل في أشكال خيالية ربما ترتقي إلى مرتبة الفكر الأسطوري، ويجوار هذا تظهر بعض الأعمال التي تجتمع على تصوير الإنسان المعاصر ومدي تأثره بالآلة التكنولوجية الحديثة.

وتظهر على استحياء المدرسة الواقعية في هيئة رسوم أولية أو تكوينات تنتهج نهجاً مدرسياً في اختيار الموضوع أو معالجته، ومنها ما يمتلك ملامح فنية خاصة، وأما اللافت للنظر هو تقلص مساحة المدرسة التجريدية التي تتمثل في عدد محدود من الأعمال المعروضة .

مستوى هواة ومبتدئين

ومن جانب آخر يكشف المعرض عما يعتري الحركة الفنية من ضعف الخبرة وعدم وضوح الرؤية وتبلورها الذي يظهر في الكثير من الأعمال المعروضة، إذ لا تتجاوز مستوى خبرة الهواة والمبتدئين، إذ كان من الممكن استبعادها للارتقاء بمستوى القيمة الفنية للعرض، خاصة أن كم الأعمال المعروضة يفوق مساحة العرض المتاحة بمركز الجزيرة، حيث جاءت الأعمال متراصة ومتجاورة بصورة لاتتيح للعين فرصة التأمل والرؤية السليمة ، وربما يكون هناك سبب آخر لضعف المستوى وهو ظاهرة عزوف الفنانين عن ممارسة فن الرسم وخاصة

الواعين للفنانة مها الشايب



فى الأوساط الشبابية نظراً لانجذابهم نحو الوسائط والقوالب الفنية المستحدثة، وهذا ما يمكن ملاحظته أيضا عند متابعتنا لصالون الشباب عبر دوراته المتعددة، حيث تتقلص مساحة الرسم فيها عاما بعد عام، ولا نهدف هنا إلى قصر الخبرة على الجوانب الحرفية أو التقنية التي تمكن الفنان من محاكاة البعد الثالث للطبيعة وعناصرها وإنما نقصد مجموعة التجارب والممارسات العملية سواء كانت على المستوى التقنى أو الحياتى أو الثقافى أو الخبرات البصرية، التى تجتمع لتشكل قوام ونوعية الحساسية الفنية التى تؤهل الفنان إلى الولوج فى عالم الإبداع مسلحاً بفهمه العميق لأسرار الشكل ووسائطه الفنية.

وفى مقابل الأبيض والأسود فى معرض فن الرسم الجماعى، يتجلى فن التصوير فى بعض المعارض الفردية بقاعات العرض الخاصة أو قاعات المؤسسة الثقافية، يبرز من بينها معرضان لما لهما من دلالة خاصة تدور فى سياق معرفى يميز كل منهما بملامح فنية خاصة، ويشتركان فى رؤيتيهما لمفهوم الزمن التى تتضح بصورة مباشرة من عنوان كل منهما، حيث تقدم المصورة زينب السجينى فى «قاعة الزمالك للفن» أعمالها تحت فكرة» مشاهد من ذاكرتى»، ويقدم فارس أحمد فارس تجربته فى إطار «الزمن والحلم» أو الزمن الذى يحلم به كما نفهمه من النسخة الإنجليزية The Time I Dream With فإذا كانت زينب السجينى لديها الحنين لما فى ذاكرتها من صور تحمل معانى إنسانية ربما ترتبط بخبراتها الحياتية الخاصة التى لاتخلو من تأثرها بحركة مجتمعها، نجد فارس يحلم بالزمن القديم الذى يبدو بعيداً إلى حد ما عن عالمه الذاتى أو الآنى .

عالم زينب السجينى

التقيت بعالم زينب السجينى الفنى بخان المغربى فى غضون تسعينيات القرن المنصرم، وبدت ملامحه حينها تتبلور فى لغة رمزية مرتبطة بأبعاد إنسانية محورها تلك العلاقة المتزاملة بين الإنسان والسمك وما يشير إليه من دلالات رمزية متعمقة فى الوجدان المصرى تتمثل فى الخصوبة والنماء والوفرة وغيرها من المعانى التى تدعونا إلى التفاؤل وحب الحياة، حيث كانت تكويناتها تبشر برؤية فنية تتبلور فى أسلوب رحب واضح المعالم ويمتلك خصوصيته من صدقها وما ينطوى عليه وجدانها من مشاعر إنسانية تفيض

عمل مركب لفارس أحمد فارس



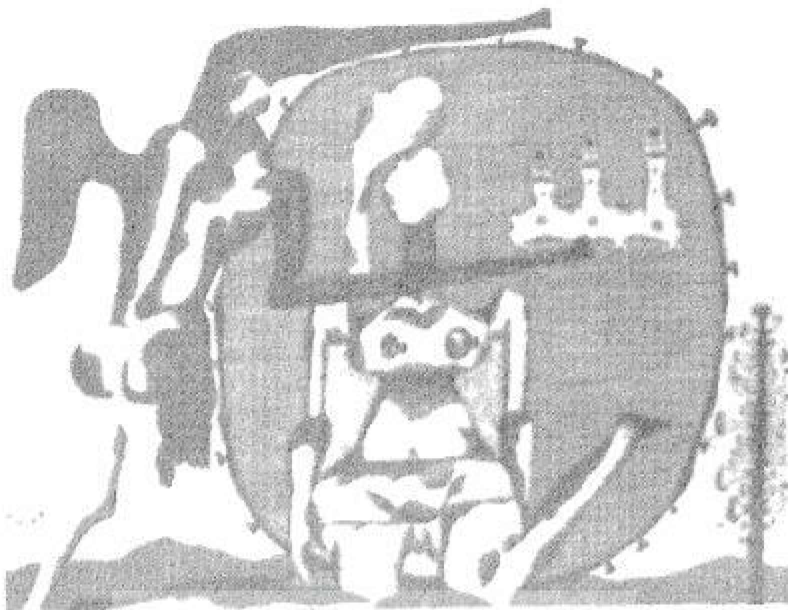
بالحياة، وهذا ما يتأكد في معرضها الحالي، حيث تظهر رحابة أسلوبها في مرونة الشكل وقدراته التعبيرية العالية، إذ أنها تعتمد بصورة أساسية على الطاقات التعبيرية للجسد الإنساني، الذي ينحصر في ملامح المرأة، التي تسيطر بحضورها المتوهج والجذاب على تجربتها فتمثل موضوعها أو قضيتها الأساسية، فهي لم تصور امرأة بعينها وإنما تجسد رؤيتها للمرأة في إطار ملامح ثقافية خاصة تحيا في ذاكرتها عبر خبراتها الحياتية، فتمثل واقعا محدداً بسياقات أجتماعية وثقافية ترتبط بالحياة المصرية، وهذا ما يمكن إدراكه من الملامح الظاهرة لصورة المرأة في أعمالها، إذ تبدو خارجة من قلب الحياة الشعبية متخمة بأزمنتها العميقة، ومحملة بملامح تجاربها الحياتية، حيث تظهر في زيها الأبيض أو البرتقالي أو الوردي محتمية في أخت لها، أو في علاقة حميمة مع سمكة خضراء، وفي أحيان أخرى تظهر مجتمعة مع رفيقاتها في سفينة مصرية الطابع والبناء المعماري، وهي تبحر على سطح النيل، ربما تشير إلى رحلة الحياة، حيث تظهر النساء منتشرات في شرفات طوابق السفينة... متقافزات في براءة الطفولة وحلمها رغم ما تحمله من خبرات السنين، وذلك عبر ما يظهر على وجوههن من علامات الدهشة والتساؤل، وهن يراقبن حدثاً ما

على ضفة الحياة الأخرى، التى ربما يكون المشاهد أو المتلقى أحد عناصرها، وهنا تتجلى ملامح أسلوبها الفنى مصرى الطابع والإيقاع متفرداً بسمات خاصة رغم ما يبدو عليه من ملامح التأثر بمعالجات فنية حديثة أو قديمة، حيث ترتبط بالفن المصرى القديم من حيث معالجة الضوء الذى ينتشر فى جميع أرجاء الشكل ولا يترك من الظلال سوى أقل قدر ممكن يسهم فى التأكيد على الشكل وفى تحديد علاقته بما يجاوره، ولا يفوتنا أن نذكر ما تتمتع به رؤيتها من مسحة نسائية تبيح بمشاعر الحب والحنان والأمومة والعطف .

فارس.. واستلهام الماضى

أما «فارس» فيبدو طامحاً فى مجال التجريب والبحث عن رؤية فنية تمتلك أسباب المعاصرة بخروجها عن الإطار التقليدى للوحة التصويرية أو النحت البارز كما تعلمناه من الفن الأوروبى الحديث، فهو يزاوج بين النحت البارز والتصوير فى إطار بحثه عن الأزمنة المصرية القديمة مستلهماً علاماتها ورموزها الفنية، وخاصة تلك التى تتميز بالبساطة والفطرية التى تمثلت فى رؤية الفن القبطى الشكل وما ترتبط به من سياقات معرفة تربطه بالفن الشعبى، حيث المعالجة الفطرية للشكل المنحوت سواء كان على مستوى فن النحت وجمالياته أو كان على مستوى نسب الشكل الطبيعى، كما يستعير بعض الصور الرمزية بغض النظر عن دلالتها، فتبدو أشكاله فى النهاية كأيقونات قديمة يلعب تشكيلها وعلاقاتها دوراً مهماً فى تعظيم قيمة القدم وفى الوقت نفسه يبدو العمل معاصراً من حيث الفكرة الفنية، واستخدام الخامات المتنوعة من حديد وخشب وألوان زيتية.. فيبدو موفقاً فى بعض أعماله وخاصة فى القدرة على التأليف بين الخامات المتنوعة فى إطار كل موحد، حيث تطويع الأشكال والعناصر والمعالجة الفنية لرؤيته فتذوب خصائصها وتنصهر فى ذاته وتخرج متآلفة وفقاً لقانونه الخاص، كما نراه فى بعض الأعمال الأخرى مازال منبهراً بالأشكال المستلهمة، فهو يسلك طريقا شائكاً يستوجب الحذر والمثابرة حيث يطرح من جديد إشكالية سبر أغوار التراث كأحد مسببات تأصيل الفن المصرى التى نشأت مع بداياته الأولى، ولكنها هنا تبدو متأثرة بمعطيات الحداثة وما بعدها .

وفى قاعة نقابة الصحفيين لمسة وفاء للفنانة مها الشايب التى انسحبت من عالمنا، تاركة لنا من روحها إشراقاتها متجلية فى تجربتها الفنية القصيرة



تكوين - للفنان سمير الدمطي

بمقياس الزمن والطويلة بمقياس الخبرة والأفكار، حيث يكشف معرضها عن خبرة متنوعة فى استخدام الخامات التصويرية وفهم عميق لخصائصها، التى تنوعت بين خامات التصوير الجدارى من الزجاج المعشق أو الفسيفساء، وهى خامات عصية قلما نجد من يروضها للتعبير والإحساس مثل مها الشايب، وكذلك نجدها ترتاد فن الكولاج وتشكل عبره أعمالاً فنية تتناول فيها موضوعات مستلهمة من الحياة اليومية المعاصرة، حيث التوفيق بين قصاصات الصحف أو الصور وبين الرسم بالأحبار فى صياغة فنية تتمتع بحساسية مرهفة فى معالجة الشكل وعلاقاته الفنية، كما تستخدم خامات تصويرية مستحدثة مثل «الأكلريك» عبر معالجة فنية معتمدة على خبراته العالية فى تحليل العناصر الطبيعية وتبسيطها وإخضاعها لرؤيتها الفنية التى تغلف أعمالها المنفذة بتقنيات مختلفة بمسحة رومانسية رقيقة تربط بينها وتوجدها .

وهكذا نرى صورة الفن المصرى فى هذه الأيام تنطوى على أبعاد إيجابية يجب التأكيد عليها . ■

هـــوليوود

تعود إلى تمجيد الحـــروب

بقلم
مصطفى درويش

منحت اليونان القديمة عالمنا حس الدراما، والرغبة المتطلعة فى التفلسف، وإلقاء الاسئلة المتعلقة بالفكر والضمير. ويعرف عن الملحمتين اليونانيتين، الإلياذة والأوديسية انهما، بإجماع الآراء، من بين الآيات التى أنجزتها الذهنية اليونانية القديمة، وذلك لبساطة الحكايات التى ترويانها، ونضرة هذه الحكايات وإنسانيتها. وثمة من الأسباب مافيه الكفاية للاعتقاد بأن الملحمتين، هما من نظم رجل لم يكتب أناشيده، أغلب الظن، بعد أن وضعت حرب طروادة أوزارها بأعوام قليلة، بل بعد أن سكنت ريح هذه الحرب الضروس، بقرون طويلة من عمر الزمان.

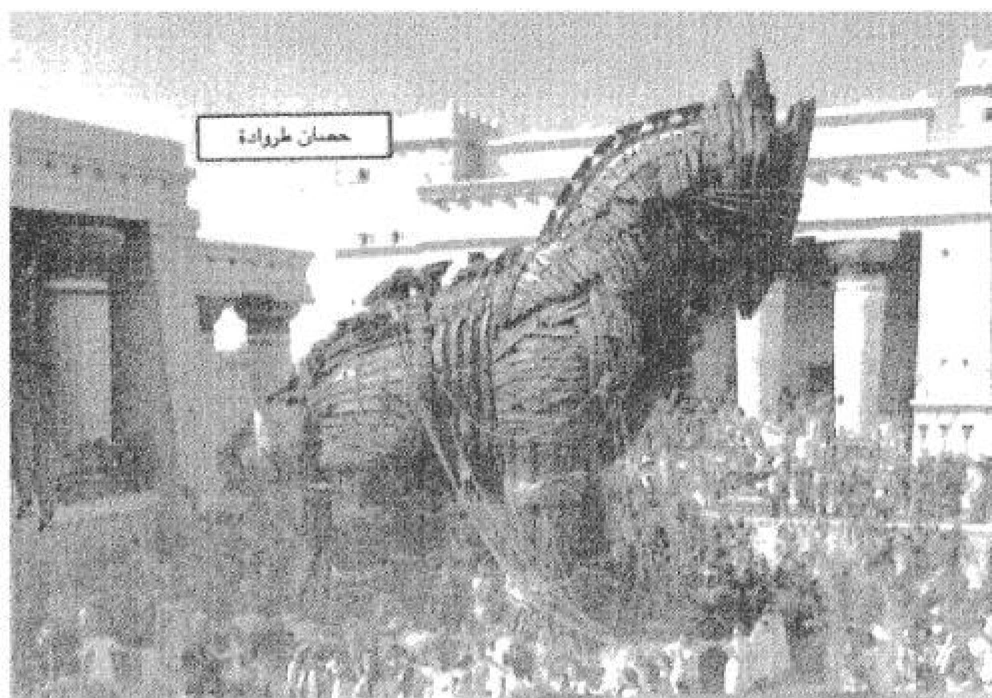
وهذا الرجل هو «هوميروس» الذى جاء دنيانا عام ٨٨٤ قبل الميلاد، حسب تحديد المؤرخ «هيرودوت»، صاحب المقولة التى صارت مثلاً «مصر هبة النيل».

وفى الالياذة أنشد هوميروس موضوعاً قائماً بذاته كامل الوحدة، هو غضب «أخيل» بطل الأبطال.

ولم يقص فيها تاريخ حرب طروادة



براد بيت في دور (أخيل)



باريز وهيلين

هيكتور بطل طروادة

براد بيت – أخيل أجره خمسة عشر مليون دولار

التى استمرت عشرة أعوام، بل تناول حوادث الأيام القليلة الأخيرة من حصار المدينة، حيث مجد فعال البطولة والشجاعة والولاء.

قصة المدينتين

ومما يعرف تاريخيا عن طروادة واسبرطة غريمتهما الأولى فى الحرب أن طروادة كانت فى يوم من الأيام مدينة ذات ثروة أكبر، وسلطان أضخم، وعظمة أوسع من أى مدينة من مدن شبه الجزيرة اليونانية، وأمثال دول المدن هذه، فى آسيا الصغرى (تركيا حالياً).

قد توطد سلطانها ورسخت أسس دولتها عن طريق الضراوة والجشع والاستيلاء على أملاك الغير بالقوة والغلب، وذلك لأن أقوامها من هؤلاء القبائل الرحل، الذين كانت حياتهم ترتكز إلى السلب والنهب، واخضاع العشائر الوادعة من الزراع، واجبارهم على دفع الجزية فى شكل جبايات بنسبة مما ينتجون.

أما اسبرطة فكانت مدينة لها شىء من الأهمية التجارية، قبل أن تكون أثينا حتى مجرد قرية صغيرة بزمن طويل.

حب من نار

وكما جاء فى الأساطير، حسب نظم هوميروس لها، حل «باريس» بن «بريام» ملك طروادة ضيفاً على «منيلوس» ملك اسبرطة.

ولم يرع حقوق الضيافة حينما سلب زوجته «هيلين»، وفر بها إلى طروادة، متحصناً وراء الأسوار .

حرب استباقية

ومهما يكن ماحدث بالفعل، فان هذا الغزو الطروادى لأرض يونانية قد شحذ الشعور القومى اليونانى، لأول مرة فى التاريخ، فاتحد أهل القبائل من دول المدن في الشاطيء الغربي من بحر ايجة، وأعلنوا حرباً على طروادة، لم تضع أوزارها حتى اكتسحوا المدينة فى نهاية الأمر، بفضل المكر والدهاء.

وكان من بين الدوافع الأخرى للحرب تعاظم شأن طروادة، حتى لم تصبح شيئاً يهدد هذه المدن اليونانية فقط، بل أصبحت أيضا خطراً يتهدد هذه المدن بالدمار.

ومن هنا، اتحاد كلمة «أثينا» و«اسبرطة» و«طيبة» و«كورنثة» و«سلاميس» و«بيريه».. وكل من ورد ذكرهم فى النشيد الثانى من الألياذة، ضد طروادة.

والقتال المذكور فى الألياذة نوعان: المبارزات الفردية بين الأبطال. ثم القتال الجماعى بالأقواس والنشاب والسيوف والحراب.

وذروة القتال فى «الألياذة» هى

المبارزة بين «هكتور» و«أخيل».

صراع الأبطال

ولقد كان «أخيل» بطل الأرجوسيين (المقصود بهم اليونانيين).

إلا انه كان قد تشاجر مع الملك «إجامنون» القائد العام للارجوسيين. ونتيجة لذلك أحجم عن القتال.

أما لماذا تشاجر مع «أجامنون»: فذلك لأن الملك كان قد آثر نفسه بفتاة أسيرة سبيت في بعض الغارات، وسبق لاخيل أن اختارها من بين جميع السبايا.

ولكن غضب «أخيل» يبلغ مداه، حينما يقتل أعز أصدقائه، وخيرة رجاله «بترومكس» على يد «يوفور بوس» الذى طعنه فى ظهره، حينما كان يحارب «هيكتور» ابن الملك «باريام»، والأخ الأكبر «لباريس».

وهنا يقرر «أخيل» العودة إلى الميدان للقاء هيكتور.

وفي هذا الموضع تبلغ «الالياذة» ذروتها التي تحبس الأنفاس، وتمسك القلوب في الحناجر.

تدخل الأرباب

ولقد كان أهل طروادة، رجالاً ونساء، يشاهدون ما انتهى إليه أمر هذا النزال من فوق الأسوار.

واليونانيون بدورهم وقفوا صفوفاً فى جنبات الساحة ينتظرون نتيجة النزال.

وعندما يمتشق «أخيل» حسامه ليلقى «هكتور» عن قرب بعد أن أخطاه رمحه، تسرع «مينرفا» ابنة زيوس رب الأرباب، من غير أم، وربة الحكمة والسلام والحرب الدفاعية والاشغال الأبرة من غزل ونسج وتطريز وتصوير بالخيط، أقول تسرع فترد إلى أخيل رمحه، فيتلقفه ثم يرسله فيخترم عنق «هكتور» الذى يتوسل إلى أخيل وهو يلفظ انفاسه الأخيرة، ألا يمثل بجسمانه وأن يتلطف فيرسله إلى أهله ليدفنوه بما يستحق من مراسم التكريم.

ولكن «أخيل» يرفض الرجاء، فيمثل بجثته يسحبها من أعقابها مربوطة وراء عجلته، اتقاء للشر الذى قد يلحقه القتيل، فيما لو بقى جسمه سليماً، وتشفيا وأرواء لظمأ الانتقام.

أما لماذا سارعت «مينرفا» الى انقاذ «أخيل» على الوجه سالف البيان: فذلك لانه نصف إله اليست أمه «ذيتيس» ابنة رب الأعماق.

وغني عن البيان أن كل ما تقدم لا يعدو أن يكون حديثاً من احاديث التاريخ، وقد امتزجت وقائعه، ببعض أساطير الأغريق.

الاحتقار

أما جانب السينما فيه، فابدأ وقائعه

بفيلم للمخرج السويسرى الذائع الصيت «چان لوك جودار» اسمه «الاحتقار».

فذلك الفيلم الرائع، قد عرض فيه «جودار» للأعمال السينمائية وكيف تنتج فى هوليوود، حيث مصنع الأحلام.

فحبكته تدور وجوداً وعدماً، حول ما يثيره صنع فيلم مأخوذ عن «أوديسية» «هوميروس» من توتر وقلق سببه اختلاف المقاصد والأهداف. فمخرج الفيلم المزمع انتاجه سينمائى جاد «فريتز لانج» بلحمه ودمه، ولا عجب، فهو بنفسه، ولا أحد غيره الذى كلفه «جودار» بأداء الدور.

وكما فى الحياة التى عاشها فى هوليوود أعواماً طوالاً، يعانى من الصراع مع منتج الفيلم، فهو يريد الحفاظ على روح النص الأدبى المكلف بترجمته إلى لغة السينما، وهو نص الأوديسية، ملحمة هوميروس.

الضحايا

فى حين أن المنتج لا يهتم بالروح، كل الذى يهمه هو تطعيم الفيلم بالجنس وبحوريات البحر، وتحديث قصته بإضافة بعض بهارات، تضفى نكهة سيكولوجية معاصرة على علاقة «أوديسيوس» بزوجته «بينيلوب» التى يضرب بها المثل فى الطهر والصبر والوفاء.

ووسط دوامة الصراع هذه يقف كاتب السيناريو حائراً، أيهما يرضى، المخرج أم المنتج.

كما يفقد زوجته الحسناء (بريجيت باردو) التى سرعان ما ترتمى فى أحضان المنتج الصفيق، وبئس المصير، إذ سينتهى بهما الفيلم مقتولين فى حادث تحطم السيارة التى كان الاثنان يستقلانها فى رحلة غرام.

وكأن صاحب الفيلم بهذا الختام الدال على فشل مشروع ترجمة الملحمة إلى لغة سينما سوقية، وكأنه به يريد أن يقول أن ملحمة هوميروس، أحق بالترجمة إلى لغة سينمائية أرقى مستوى، وأرفع منزلة.

حسن الاختيار

والحق أن جنوح «جودار» إلى اختيار تلك الملحمة كى يدور حولها الصراع مريراً فى فيلمه «الاحتقار» قد صادفه التوفيق إلى حد كبير.

فما أكثر الأفلام المأخوذة عنها مباشرة أو المستوحاة منها بشكل أو بآخر.

وأرجح الظن انه لا يوجد بين الأعمال الأدبية التى أبدعها الخيال فى عصور موغلة فى القدم، عمل يستطيع أن يقف نداً للأوديسية فى هذا المجال.

والذى قاله جودار فى الاحتقار مستوحياً الأوديسية ومحاولات تشويهها،

في الامكان فوله بوحي من الالياذة، وترجمانها إلى لغة السينما، المشوبة هي الأخرى بعيب التشويه لها.

وفيلم «طروادة» الأخير، لصاحبه المخرج الالماني «وولف جانج بيترسن»، وإن كان يعد واحداً من أفضل الأفلام المستوحاة من إلياذة هوميروس إلا انه لم يسلم من بضعة عيوب، انتقصت من قيمته الفنية، رغم المجهود الكبير الذي بذله المخرج، وطاقم الفيلم، ورغم ما يقال من أنه صرف على انتاجه مائتا مليون من عزيز الدولارات

اختزال مخل

فبادئ ذي بدء اختزلت الأعوام العشرة التي دامتها حرب طروادة إلى عشرة أيام!

وهذه الحروب في يومها الأول، وليكن الإثنين، تبدأ بقيام الأمير الطروادي باريس (أورلاندو بلوم) باختطاف هيلين (ديان كروجر) من اسبرطة، مما يثير غضب زوجها الملك مينيلوس (براندان جليسون) الذي سرعان ما يطلب مساعدة أخيه الملك اجامنون (برايان كوكس) وأغريق آخرين.

وتحت قيادة أجامنون تعبر الجيوش المجيشة بحر ايجة في اليوم التالي الثلاثاء، إلى حيث طروادة المحصنة بأسوار شاهقة كالجبال

ولأن الوصول إلى الشاطئ الاسيوي تم ليلاً فالمعارك الطاحنة مع الطرواديين لم تقع إلا أثناء يومي الأربعاء والخميس

وكالمعتاد نشر «أخيل» بطل الأبطال الرعب في قلوب الطرواديين، ففروا طلبا للنجاة، محتمين بالأسوار.

وكان من نصيبه في الغنائم سبية جميلة بريسيس (روز بيرن).

سر الغيرة

إلا أن العجوز «أجامنون» الذي يغير من بطولات الفارس المغوار، وشعبيته منقطعة النظير ينازعه في امتلاك السبية الجميلة، فيغضب «أخيل»، ويعتزل في خيمته، معتزماً العودة مع رفاقه البواسل إلى اليونان.

وفي اليوم التالي الجمعة، حدث أمر لم يكن في الحسبان. امتطى «باتروكلوس» (جاريت هيدلوند) جواد ابن عمه «أخيل» في غفلة منه، مرتدياً لباسه.

وفي ساحة الوغى طلب منازلة القلب الشجاع هيكتور (أريك بانا) ابن ملك طروادة الأكبر، الذي أرداه قتيلاً.

وفي سورة غضب نازل أخيل غريمه هيكتور، ليرديه قتيلاً، ويمثل بجثته على نحو يشيب من هوله الرضع في حجور الأمهات.

ولا تمر سوى بضعة أيام على مقتل هيكتور، إلا ويكون قد عصف بطروادة وأسوارها، وسط طبول الانتصار، ورنين الأبواب العزافة، وصهيل الخيول الزاحفة وصليل السيوف.

أنين وحصان

وفي دوى الانتصار، أنين حزين، وليد مقتل الملكين اجامنون وبرايام (بيتر أوتول)، و«أخيل» الذي جاءه الموت بسهم صوبه باريس الى كعبه كما جاء في الأساطير.

كل ذلك جرى خلال عشرة أيام، لا عشرة أعوام، حتى حصان طروادة الذي لم يرد له ذكر في الألياذة، تطوع كاتب سيناريو الفيلم «داڤيد بنيوف» باضافته، نقلاً عن الاديسية.

فبدونه ما كان في وسع اسبرطة وحلفائها العصف بأسوار طروادة، وتدميرها بحيث لم يبق منها سوى اسم مدينة وحصان يجرى على كل لسان.

ومن غرائب السيناريو الأخرى.

لغة العصر

أولاً أن أخيل لا يجيئه الموت وسط الأحداث كما جاء في الألياذة، وإنما يجيئه والفيلم على وشك الانتهاء.

وحكمة ذلك ظاهرة، فالموت المبكر لأخيل ويؤدى دوره النجم براد بيت، مؤداه اختفاء النجم المدفوع له أجرا، ربما فاق الخمسة عشر مليون دولار، في منتصف فيلم عماده نجم شباك، حبيب الملايين، وعند مصنع الأحلام لا يعلو صوت على صوت الأرقام. وثانياً أن أحداً من الأرباب والربات لم يظهر في الفيلم.

فباستثناء «ثيتيس» (جوليا كريستى) التي ظهرت، لبضع ثوان، لا بوصفها ربة، وإنما بوصفها أم «أخيل»، لتحرضه على الحرب، طريقاً للمجد وخلود الذكرى، باستثنائها لم يحدث أى لقاء مع أى رب أو ربة، عكس الألياذة الزاخرة بوجودهم، وكأنهم ناس من الناس.

كعب أخيل

ومن هنا، دهشنا لموت أخيل لمجرد إصابته في كعبه! وذلك لأن أحداً لم يقل لنا أن «أخيل» محصن ضد الموت، لأن أمه غمسته في ماء مقدس يحميه من الفناء، وفاتها أن تغمس كعبه لأنها كانت ممسكة به فأصبح نقطة ضعفه الوحيدة، التي قد يجيئه الموت من خلالها، إذا ما عرف سرها الأعداء.

يبقى لي أن أقول أن طروادة «بيترسن» من نوع الانتاج الضخم.

أعطيت له امكانيات هائلة، واشترك في تمثيله حشود كبيرة من المكسيكيين لان الفيلم صور في المكسيك ومالطا.

ومع ذلك، رأيناها لم تصب بتوتر المسحور بالوقوف، ربما لأول مرة، أمام الكاميرا، ولم تنطق بأنها تتحرك على خطوط مرسومة بالطباشير.

تمثيل جميل

ولعلى لست بعيداً عن الصواب، إذا ما جنحت إلى الإشادة بمشهد في الفيلم مؤثر ومثير للمواجع، وأعني به مشهد ذهاب «بريام» الملك الطاعن في السن (أوتول نجم لورنس العرب)، ووالد هيكتور فريدا وحيدا، مستخفيا في ظلام الليل، يدب بين خطوط اليونانيين، ليتوسل إلى أخيل كي يسلم إليه جثمان ولده، وذلك في أسلوب عادى مستقيم لطيف، مشرق البيان، لا يلبث «أخيل» معه إلا أن يدفع اليه بجثمان - هيكتور - معسولا، معمورا في الحنوط والطيب، محمولاً بما هو أهل له من تجلة وإجلال.

وختاماً، أرى من اللازم أن أشير إلى ما يقوله الفيلم في البداية من أنه، على مر الزمان، خاض الرجال حروباً، بعضها من أجل السلطة، والبعض الآخر من أجل المجد والشرف أو من أجل الحب.

لأبدى تعجبي من إغفال واحداً من أهم أسباب الحرب، ألا وهو السلب والنهب، واستغلال الأخر بقوة الحديد والنار.

وهنا لا يفوتني أن أذكر أن الفيلم في جوهره يمجد الحرب باعتبارها حتماً، مقدوراً، تؤخذ بها الدنيا غلابا!! ■

حكم وأمثال الفراعنة

- قبل أن تقدم على عمل يجب أن تعرف ما تريد وتعد الوقت الكافي للمشورة والدراسة والتفكير.
- فرص الحياة يعطيها الاله لكل انسان فاذا أحسن استعمالها مده بفرصة اكبر واذا اساء استعمالها تخلت عنه السماء .
- الزهرة الجميلة التي تتمتع برؤياها في طريقك تركها من قبلك ولم قطفها فاروها واعتن بها ليتمتع بها من يأتي بعدك .
- من يضرب الضعيف علي ظهره يعرض ظهره ليضربه عليه من هو اقوي منه .
- صانع الخزف الماهر هو الذي يختار المقبض الملائم للإناء الجميل الذي يصنعه .
- احترس من أن يخط قلمك علي البردي ما يسيء للغير حتي تكسب رضا الاله وتقدير الناس

المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

العوج

عوجت المذيعة رأسها .. لا أقول أمالتها فقد جاءت العوجة مصحوبة بكلام أعوج مستفز وعلى مدى حوالى ثلاث دقائق واصلت مط الكلام وتقطيعه فى تنويعات تشى بالاستهزاء الجارح.. ذلك أنها بدأت بالاستفهام الاستنكارى من غياب موقف عربى موحد.. وأتبعت ذلك بتصور ابتكرته حضرتها وقد قذفت به فى وجهنا متسائلة.. هل يمكن أن يكون الحل أن تختص بعض الدول العربية ذات الشأن بالانفراد باتخاذ قرارات فيما بينها عوضا عن فشل مجموع الدول العربية فى تحقيق ذلك؟!!

أما ماتلا ذلك، فهو أن مذيعة البرنامج الناطق باللغة الإنجليزية - لأنه يقدم على قناة النيل الدولية - قامت باستضافة إثنين، أحدهما سفير سابق والآخر مسئول كبير سابق فى أحد أجهزة الدولة العليا..

المهم أن السؤال الذى طرحته حضرتها كان.. ما الذى يجعل إسرائيل تتمادى فى البطش والفتك بالفلسطينيين بلا رادع؟!

ولقد مضى الضيفان فى الإجابة على السؤال، والمهم أن الكلام تطرق إلى

أمور شتى أرى أن أهم ما جاء فيها، هو حديث المسئول الكبير عن أساليب الردع - غير النووى - تلك التى شرحها بأنها القدرة الإنتاجية للمجتمع بما يمكنه من إيجاد مكان للسلع المصرية فى الأسواق الأجنبية، فلقد دلل المتحدث على كلامه، بأن مصر جاء عليها حين من الدهر - فى الستينيات - بلغت صادراتها ما يزيد على ما تصدره كوريا الجنوبية حاليا.. وتوقعت أن تقوم الست المذيعة ببلورة أهم ما جاء على لسان ضيفيها من كلام، لإيجاد صلة ما، أى صلة، للربط بما قدمت به للموضوع، لكنها خيبت ظنى، والأرجح أنها تاهت ودليلى على ذلك أنها بعد المقدمة الطويلة للبرنامج والسؤال الذى طرحته على الضيفين كانت لا تفعل أى شيء سوى أنها كانت تنتهز كل فرصة ممكنة للمقاطعة، ، وهى حين تقاطع لا تنطق بأى كلام مفيد، وإنما تبتلينا بواحد من تعليقاتها الساخرة المستهزئة.. وهى أثناء ذلك وعلى طول البرنامج ، تأتى بحركات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بموضوع الكلام ، فهى تارة تسوى شعرها المنسدل بيد، وتارة أخرى تمر بكفها على الذراع العارية كأنها تمسح عنها شيئا قد علق.

ما هذا بالضبط؟! أى عبث هذا الذى رأيت وأين أجهزة المتابعة والرقابة سواء على مستوى قناة النيل الدولية أو على مستوى القنوات كافة ولماذا تختار «المتفرجة» أن يكون هذا الموضوع هو محور مقال هذا الشهر.

الإصلاح

لا أخفى على القارىء الكريم، أن أول ما تبادر إلى ذهنى بعد انتهاء البرنامج المشار إليه هو أن الواجب يفرض علىّ أن أقول لتلك المذيعة إنها وأمثالها سبب مباشر فى الحال الذى تناولته حضرتها بمنتهى التهكم والاستهزاء. قد تبدو العلاقة بعيدة، ولكنها عندى وعند غيرى من الغالبية العظمى الصامتة ، هى علاقة جد وثيقة، فالزمن الذى أشار إليه الضيف الكريم، والذى كانت تحقق فيه مصر اكتفاء ذاتيا من السلع - خاصة السلع الاستراتيجية - لم يكن يسمح لنوعية تلك المذيعة أن تظهر على المشاهدين بهذا القدر من التبجح والاستهزاء.. فى ذلك الزمان الذى كانت اشتهرت لمصر فيه سلع تتلقفها الأسواق الأجنبية لجودتها . كان هناك وعى بأهمية الجودة وتطبيق المواصفات .. وكان ذلك يسرى على المذيعات كما كان يسرى على قائمة طويلة من السلع المتميزة.. لم تكن أى سلعة تحظى برواج لأنها من إنتاج أصحاب النفوذ، وكذلك لم تكن المذيعات يظهرن على الشاشة بفضل صلات



القرابة أو النسب..لكن المهم هنا وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد فعلينا جميعا أن نسأل أنفسنا .. كيف نجرؤ على الحديث عن الإصلاح وقد تشابكت المصالح والمحسوبيات والإكراميات إلى هذا الحد الذي جعل المعروض على فضائياتنا يأتي في ذيل القائمة في أي استطلاع للرأي يجرى داخل البلاد أو خارجها..

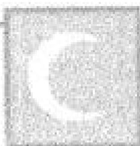
هل هذا هو الوقت؟!

نعم هذا هو الوقت الأنسب لتسمية الأشياء بأسمائها ، وهو الوقت الذي يفرض أن يبدأ كل منا بمحاسبة نفسه قبل أن يعلو له صوت بأي نقد من أي نوع، أو أدنى مطالبة بأي درجة من درجات الإصلاح.

ونظرا لما يتردد حاليا عن قرب خصخصة الإعلام أو كمرحلة أولى خصخصة بعض القنوات الإذاعية والتليفزيونية . فلاشك أن الأمر يتطلب تقليص عدد العاملين بتلك القنوات.. وحتى لو كان الهدف ليس الخصخصة وإنما "التطوير.. فإن أي محاولة للتطوير لا يمكن أن تتم في ظل هذه الأعداد الهائلة من العاملين.. والعالمون بأبجديات علم الاقتصاد يعرفون أن كفاءة الإنتاج تقل مع كل زيادة لعدد الأفراد اللازمين للعمل، أي عمل، وبصرف النظر عن نوع المنتج.. ولذلك فإن الباحثين الإعلاميين يستطيعون إجراء العديد من الدراسات ، في كل أنواع الإنتاج الإذاعي والتليفزيوني، وليتهم ينشرون النتائج التي تفصل علاقة مستوى الجودة بعدد العاملين اللازمين لها. اما عن مستوى هؤلاء العاملين ، فغني عن القول أن لكل عمل مواصفات ومعايير تتحكم في جودته صعودا وهبوطا يرتبط دوما بدرجة الالتزام بها.

والمقصود باختصار أن الضرورة تلزم بالاستغناء عن العدد الزائد عن الحاجة ، وإذا ظلت الأمور على حالها. فمعنى ذلك أن معيار الاستغناء سيظل «شخصيا» والنتيجة المتوقعة – لا قدر الله – أن تبقى المذيعة موضوع المثال وأمثالها باركين على أنفاسنا على حساب غيرهم ممن قد لا تتوفر لهم نفس الأسانيد «الشخصية».

هل يمكن أن يأتي يوم نجد فيه مؤسسة أو محطة أو قناة إعلامية تقوم بتطبيق القانون . وتمتنع عن تشغيل أقارب العاملين حتى الدرجة الرابعة؟؟ ■



كتاب الهلال

نحو خريطة جديدة لمصر

بقلم

د. محمد رياض

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

يصدر ٥ يونيه ٢٠٠٤م



صنعاء.. الوجه الآخر

بقلم

د. إبراهيم إسحاق

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ يونيه ٢٠٠٤م

كشكول أبوهادى

تأليف

محمد حسين مروة



من بين أكثر الكتب شيوعا في تراثنا الأدبي العربي، تلك المصنفات الأدبية التي تحتوي على مختارات شعرية ونثرية تتضمن الحكم والأمثال، والملح والفكاهات، والنوادر التاريخية والنصوص المختارة والتي لا تفقد جدتها ويزداد الطلب عليها كلما مرت الحقب والعصور، ومن بين هذا النوع وأكثرها شهرة «عيون الأخبار» للدينوري، و«العقد الفريد» لابن عبدربه و«المستطرف في كل فن مستظرف» لشهاب الدين الأبشيهي وغيرها.

وكان أشهر مصنف في هذا المجال في العصر الحديث «الكشكول» للأديب الفقيه بهاء الدين العاملي من أدباء القرن السادس عشر الميلادي.

وقد صدر مؤخرا كتاب من هذا اللون تحت عنوان «كشكول أبوهادى» وهو من تأليف الحاج محمد حسين مروة «أبوهادى» وهو ابن الجنوب اللبناني ، وقد قام بإعداد هذا المصنف الأديب جواد صيداوي وراجعه وأشرف عليه كل من الأستاذ كريم مروة، والسيدة نجاح طاهر.

وقد احتوى كشكول أبو هادي على العديد من المختارات الأدبية شعرا ونثرا، تتضمن الحكمة والمثل، والطرفة والمعلومة مع العديد من الفقرات عن تاريخ جبل عامل في الجنوب اللبناني وسائر المناطق اللبنانية مع ايراد مختارات من أعمال كتابها وشعرائها بخلاف مختارات من ابداعات الأدباء العرب وأدباء المهجر.

وقد تصدرت للكتاب مقدمة للأديب جواد صيداوي معد الكتاب ثم تعريف بالكتاب والمؤلف لشقيقه الأستاذ كريم مروة الذي ذكر أن شقيقه محمد حسين مروة «أبوهادى» يتحدر من أبوين ينتميان إلى عائلة مروة الجنوبية الشيعية الاثنى عشرية، التي تعود في جذورها التاريخية إلى قبيلة حمدان اليمنية.

وقد تواكب إصدار هذا المؤلف في العام الماضي سنة ٢٠٠٢ مع الاحتفال بالعيد الثمانين لمؤلفه «ولد عام ١٩٢٣».

ويكتسب هذا المصنف أهمية خاصة لكونه يحتوي على العديد من الفقرات المفيدة والطرائف الباسمة مستقاة من تراثنا الأدبي العربي قديمه وحديثه وهو لون محبب الى قراء العربية في كل زمان ومكان خاصة لإنسان هذا العصر الذي يفضل الانتقال بسرعة من طرفة الى فكاهة الى معلومة الى حكاية الى مثل سائر، وهو في كل هذا يستمتع ويستفيد ويتفاعل.

أصدر المهرجان القومي العاشر للسينما المصرية عدة كتب ضمن فعالياته التي استمرت خلال الفترة ما بين ١٩ - ٢٧ ابريل الماضي وذلك بالتعاون مع صندوق التنمية الثقافية، قدم من خلالها سيرة ذاتية للشخصيات المكرمة خلال المهرجان وهم، رءوف توفيق، نادية شكري، أنسي أبوسيف، عزت العلايلي ومنها :



الصورة السينمائية بالوسائل الرقمية

المؤلف : سعيد شيمي

يبحث في فهم جذور نظرية الصورة الفوتوغرافية والتى هى الأساس فى الصورة السينمائية . ومنها ينطلق إلى الصورة المكونة بالوسائل الإلكترونية الرقمية أو كما يطلق عليها صورة «ديجيتال» ويشرح «شيمي» التطور التاريخي بداية من صور السينماتوغراف، وحتى السينما بالإلكترونيات ويسميها سحر الصفرات الرقمية ويذكر في كتابه أن السينما فن رفيع وترفيهها وستبقى دائما تمتعنا وتبهرنا وتسلينا والاختلاف الذى يحدث الآن وفى فترة وجيزة فى طريقة استقبال وتسجيل صورها على أوساط أخرى غير النظرية الفوتوغرافية . ويضيف أن الوسيط الجديد الإلكتروني معروف منذ مولد الراديو والتليفزيون ولكن زاد الأهتمام به سينمائيا عندما أثبت أنه وسيط صالح و جيد فى أعطاء صور متحركة رغم أن به مزايا وعيوب ... وفى الجزء الأخير من الكتاب يستفيض «شيمى» فى توضيح نقاط الضعف التى قد تشوب التصوير الرقمى الحديث ويقدم آراء السينمائيين العالميين فى السينما الرقمية من مديرى تصوير ومخرجين وكتاب سيناريو ومبدعى مؤثرات خاصة وبصرية وأصحاب معدات سينمائية ومعامل . ويختتم كتابه برؤية مستقبلية لواقع السينما فى ظل استخدام التكنولوجيا المتقدمة .



رءوف توفيق - الرسم بالكلمات

المؤلف :عصام زكريا

يسرد العلاقة المتصلة بين الصحفي عصام زكريا ورئيس تحرير مجلة «صباح الخير» السابق رؤوف توفيق . يلتقط بعض التفصيلات الخاصة بعصام وطريقة رؤيته لكاتب كبير ومؤلف لعدد من الكتب المتخصصة فى شئون السينما . عن طريق التوقف عند بعض المحطات الرئيسية في حياته . فنجده يبدأ كتابه بذكرياته الأولى بالسينما وبرؤوف توفيق . ثم يفرد حوارا كبيرا شاملا معه حول بعض التحولات المهمة مثل مهرجان كان السينمائي، رئاسة مهرجان الأسكندرية السينمائي بعض الدراسات النقدية المنشورة له . وفى القسم الثانى يقدم «زكريا» مقاطع من الدراسات النقدية التى قدمها رؤوف توفيق مثل مقال عن أخر فيلم عربي جيد، نادى السينما .. الحدث الفنى الذى عاش، «خيبة السينما المصرية في التليفزيون» . ويقدم فى ختام الكتاب مختارات من كتابات توفيق الاجتماعية والسياسية . ويرفق بعض الصور الشخصية التى تمثل أهمية لرؤوف توفيق كسيرة ذاتية وفيلموجرافيا .





نادية شكرى .. سيدة الصحبة

المؤلف : صفاء الليثى

قصة حياة وكفاح المونتيرة نادية شكرى التى لم تكمل تعليمها الثانوى . لكن عملت مع حسين عفيفى ورشيدة عبدالسلام . وساهمت فى عمل مونتاج أفلام بين القصرين وفجر يوم جديد ، وأدهم الشرقاوى ، وأصبحت تمثل الجيل الرابع من العاملين فى مهنة المونتاج . ويبلغ رصيدها حوالى ٦٥ فيلما محتلة بذلك المرتبة الثالثة بعد رشيدة عبدالسلام (١٧٢ فيلما) ، وعنايات السايس (٧٩ فيلما) . يتناول الكتاب وجهة نظر نادية شكرى فى فن المونتاج وعلم التحليل وقواعد تحديد [illegible]ات وطرق القطع التى تشكل الوحدة الطبيعية للغة السينمائية .

ويسرد أيضا ذكرياتها مع كبار الفنانين أمثال حسن الإمام ، محمد خان ، عاطف الطيب ، إلى جانب استعراض لأهم الأفلام التى قامت بعمل مونتاج لها مثل «خلى بالك من زوزو» ، «السكرية» ، «ضربة شمس» ، «أحلام هند وكاميليا» ، وغيرها .



أنسى أبوسيف .. واحد من البنائين

المؤلف : سيد سعيد

أنسى أبوسيف أحد أهم البنائين فى السينما المصرية يعمل مهندساً للمناظر داخل البلاتوه ، يقول عنه الكاتب هو الفتى الذى يصنع من خلاء البلاتوه الموحش مدنا وسفنا ومقاهى ، وحوارى وقصور وحانات .

الكتاب يمتلىء بالحوارات الحميمية التى جمعت الاثنين معا ، سيد سعيد وأنسى أبوسيف . تطرقت إلى عدة موضوعات مثل الديكور السينمائى ودلالاته الفنية الجمالية ، وذكريات أبوسيف عن العمل فى أهم الأفلام التى شهدتها السينما المصرية مثل «المومياء» وشادى عبدالسلام وصلاح مرعى ، تصميماته لملابس فيلم أخناتون الذى لم يرى النور حتى اليوم ، وعدد من الأفلام التى نال عنها جوائز مثل «أوهام الحب» ، «الحب فى زنزانة» ، «عيون لاتنام» ، «الكيت كات» ، «سارق الفرح» ، «يوم مر ويوم حلو» ، «عرق البلح» .. وغيرها .

ويستعرض الكتاب مختارات فى مقالات كتابها أنسى أبوسيف مثل «ذكرياته مع صلاح مرعى» ، «جلسة نبيلة وذكرياته مع شادى عبدالسلام» . ويقدم الكتاب عدد كبير من الرسومات لديكورات أفلامه وملابس بعض الشخصيات التى إبتكرها .



عزت العلايلى ملح الأرض .. وحلوها

المؤلف : د. حسن عطية

سياحة فى عالم عزت العلايلى الفنان والشخصيات والأقنعة التى برع فى أدائها أمام عدسات كاميرا السينما . ومواقفه الفكرية والفنية المعلنة والتى يجسدها سواء فى أفلامه أو عبر الأحاديث الصحفية التى يجريها .

يبدأ بسرد تاريخه الإنسانى منذ الولادة والأسرة التى تربى العلايلى وسطها فى درب الملاح بحى باب الشعرية . والبيئة التى كونت وعيه بالفن والناس خلال تنقله مع أسرته ما بين الأسكندرية بحى محرم بك وأحياء القاهرة القديمة ، ودراسته بالمعهد العالى للتمثيل

العربي وعمله في مدرسة «النواوين» بشارع المبتديات ويقدم بداياته مع المسرح المصري بداية في فرقة يوسف وهبي وحتى مسرح التليفزيون . ودخوله عالم السينما وكتابته لسيناريو فيلم «الاختيار» عن قصة قصيرة لنجيب محفوظ وإخراج يوسف شاهين . وخلال الستينات بدأ «العلايلي» يؤكد على وجوده على شاشات التليفزيون خاصة بعد دوره الشهير في فيلم يوسف شاهين الشهير «الأرض» . الذي تحول بعده إلى نجم متميز . يقدم الكتاب رؤية تحول شاملة لأهم مراحل حياة العلايلي الفنية خاصة الأدوار التي اشتهر بها في السينما مثل الرجل المجهول ١٩٦٥ ، قنديل أم هاشم ١٩٦٨ ، ٢ وجوه للحب ١٩٦٩ ، السيد البلطي ١٩٦٩ ، ويقدم الكتاب بجرأة الفترة التي شهدت تراجعا لمساحة أدوار «العلايلي» بعد فترة وجود قوية خاصة مع ظهور أفلام سينمائية ذات توجهات سياسية مثل «زائر الفجر» ، «الكرنك» ، «على من نطلق الرصاص» ، «بيروت يابيروت» . ويسرد أهم ملامح الشخصيات التي اشتهر بتقديمها العلايلي . مثل دوره في «أهل القمة» و«قيدت ضد مجهول» و«الكافير» و«انفجار» و«الغيبوبة» و«السقامات» ، وفي الختام يقدم الكتاب فيلمجرافيا كاملة لأفلام عزت العلايلي وعدد من الصور لأهم الشخصيات التي قدمها .



بوش في بابل

تأليف : طارق علي
ترجمة : د. فاطمة نصر
الناشر : إصدارات مطور

يقدم هذا الكتاب قطعة من النسيج القشيب، سداها يأتي من الماضي إلى الحاضر، راصدا أحداث التاريخ الداخلة في معادلة التفاعل المنتجة للأزمة العراقية، ولحمتها ملامح المواطن العربي الذي كان بسلبيته مكونا رئيسيا لهذه الأزمة، فليس كل ما حاق بالعرب من كوارث كان نتيجة التدخل الأجنبي فقط، فطالما استغل الغرب المستعمر مواطن الضعف العربي ليحقق انتصاراته .

ورغم أن هذا الكتاب صدر قبل ما أعلنته الصحافة الغربية من صور للانتهاكات والتجاوزات، التي يرتكبها المستعمر الأنجلو أمريكي ضد العراق أفرادا ودولة، فإن المؤلف يرى أن وجه التاريخ الذي لم يتغير هو الاستعمار العسكري، والاستغلال الاقتصادي، والامتهان والإذلال الجنسي والثقافي من قبل الإمبراطوريات قديمها وحديثها، ونظرة سريعة لكتب التاريخ نعود منها بمشاهد المغول وهم يسلكون نفس الطريق مع بغداد الأمس

ويرى المؤلف أن الإحتلال في العراق مازال في مرحلة الطفولة، ويدعمه من العرقيين نظام عميل، ويضطلع به بعض النشطاء، يروج للاحتلال باعتباره «تحريرا» وخلاصا من الاستبداد، بعد أن نسق مع الساسة الأنجلو أمريكيين في أحد فنادق لندن قبل الغزو ليقرروا مصير العراق بعد التحرير .

والكاتب يأمل أن تتجنب المقاومة العراقية أخطاء الماضي، وألا تسمح بتكرار المآسي التي سمحت بحدوث الإحتلال الإنجليزي للعراق من قبل .

– إن أخطاء المنطقة العربية، والتي يرى المؤلف أنها تجسدت في العراق، تمثلت في استبداد الحاكم وتنكيله بمعارضين من ساسة وعسكريين ومثقفين، وكذلك شيوع الانقسام والطائفية وروح الخيانة، وهي ما أضعف بغداد أمام التتار بالأمس وأمام مستعمري اليوم..

كما يشير المؤلف إلى أن طمس النظام في واشنطون – عن عمد – الفروق بين المقاومة من أجل التحرر والإرهاب، ليتم له ما يريد من قمع في العراق.. إن هذا الطمس لهو اللهب الذي سيؤدي إلى انضاج الموقف وبلوغه مرحلة النهاية لهذه الأزمة .

التكوين

أعيش بروح المتصوف دون أنانية

محمود عبدالحليم

نشأت فى أسرة محافظة متواضعة بحى السيدة زينب، حيث ولدت ودرست حتى تزوجت من الفنانة عايدة عبدالعزيز، وخرجت من حى السيدة زينب إلى حى المنيرة، شارع إسماعيل سرى لأبنى حياة مستقلة.



كانت أسرتى منذ ولادتى مكونة من ثلاثة إخوة رجال وبنتين وكان دورى فى هذه الأسرة رقم ثلاثة، حيث كان يسبقنى فى العمر الأخ الأكبر ثم الأخت الكبرى، ثم أنا وبعد ذلك يأتى الأخ الأخير والأخت الأخيرة كان الوالد موظفا بمصلحة الأملاك الأميرية، فضلا عن أنه كان طموحا لتربية أبنائه، فكان خير مشجع لنا جميعا على الدراسة حتى ولو كلفه ذاك أكثر مما كان يحتمله دخله

أحمد عبد الحليم مع وزير الثقافة

مما دعاه إلى بذل المجهود الكبير فى سبيل زيادة دخله حتى يواجه كل احتياجات أبنائه، وهذا مثل طيب للأسرة المصرية التى تبذل قصارى جهدها من أجل أن ترى أبناءها فى وضع أدبى ومادى أحسن مما هى عليه .. وهناك مثل شائع وهو شعبى يؤيد هذا السلوك وهو أن الآباء دائما يحبون أن يروا أولادهم أحسن منهم .. ورغم حبى وتقديرى واحترامى لأبى وأمى رحمهما الله إلا أن مثلى الأعلى كان أخى الكبير محمد، وطبعا هذا الشعور يرجع لمبررات سأذكرها فيما بعد.

محمد الأب الثانى

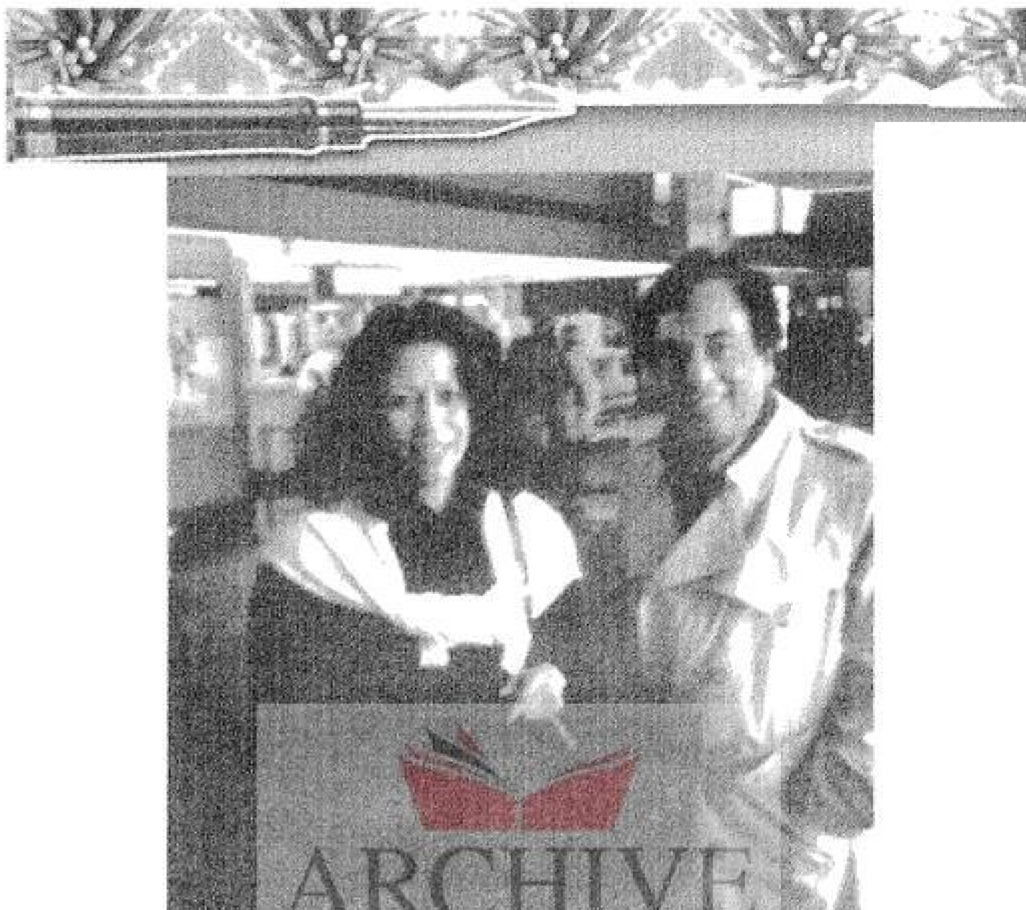
أخى الكبير محمد كان يكبرنى بسنوات عديدة فكان عمره عندما ولدت حوالى خمسة عشر عاما فكان هذا الفارق الكبير فى العمر سببا مباشرا فى أننى كنت أعتبره أبا ثانيا لى، وهكذا مرت الأيام إلى أن أصبح عمرى أحد عشر عاما، فتزايد شعورى بالحب والاحترام لهذا الأخ الكبير إذ كان بعد

حصوله على التوجيهية يعمل في نفس المصلحة التى كان يعمل فيها أبي ولم يتمكن من الدخول للجامعة لاستكمال دراسته لإحساسه بالمسئولية تجاه أسرته وإخوته فكان معينا لأبى في سد كل احتياجات الأسرة، ومن هذه التركيبة الإنسانية نبت في داخلي شعور بقوة الانتماء إلى ذلك الأخ والنموذج المثالي الذي كان له فضل كثير عليّ.. فكان هذا الأخ الكبير يحب الكتابة للمسرح كما كان يحب التمثيل حتى وصل به الأمر إلى استغلال شقة في بيتنا المتواضع الذى كنا نمتلكه في لقاء زملائه من أقرانه وإقامة تدريبات على مسرحيات مختلفة، وكنت في هذا العمر الصغير ما بين العاشرة والحادية عشرة تابعا لأخي الكبير في روحاته وغدواته بل في حضور التدريبات وكنت خير معين له في تنظيف المكان وإحضار الشاي له ولزملائه، كما كنت أنتظر اللحظة التى يأتى فيها أخي مع زملائه لأراقبهم بتمعن في كل نقاشاتهم وتدريباتهم مما أثر في نفسي، ومن جملة تلك اللقاءات ترسبت في نفسي محبة وعشق فن المسرح والتمثيل لكنى كنت خجولا للغاية ولم استطع التعبير عن مكنون نفسي، حتى أخي الكبير ما كان يدرى هذا الحب لذلك الفن واكتفى فقط


مع حفيده

بأنني كنت مساعدا له في تهيئة المكان وخدمته ومجموعته بكل ما يطلبونه.

وفي ذات يوم أصيب أخي بمرض في صدره انتقل على أثره لمستشفى الصدر بحلوان وظل فيه حوالي أربعة أشهر عاد بعدها إلى منزلنا فجأة قائلا إنه جاء إلى المنزل ليموت فيه .. ورغم حزنى الشديد عليه فإننى لم أتمكن في ذلك الوقت من التعبير عن إحساسي بالضياع .. فقد أغلقت الشقة وماتت كل الحركة الدائبة في التدريبات واللقاءات وأصبح المكان قفرا كالصحراء الجرداء، وفي اليوم الموعود، ناداني أخي الكبير وهو في سكرات الموت



وقــال فى تهـدج «خــذ بالك من أبيك وإخوتك» ثم راح فى سبات عميق وهدأت روحه بعد معاناة قاسية مع المرض لمدة ستة أشهر، وكانت والدتى قد سبقته ولم أرها وهى تموت حيث كنت مـريضـا بالمسـتـشـفي وخـرجت فى يوم ذكـرى الأربعين وفوجئت بخبر موتها حيث إن أهلى لم يريدوا إخـبـارى بموتهـا وأنا مـريض، فـأنا لم أرها وهى تموت ولكنى رأيت أخى الكبير وهو يحتضر .. فكان لهذا الموقف أشد الأثر فى نفسى.

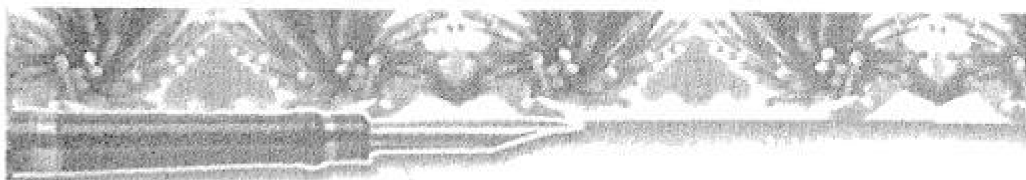
عبرة الموت

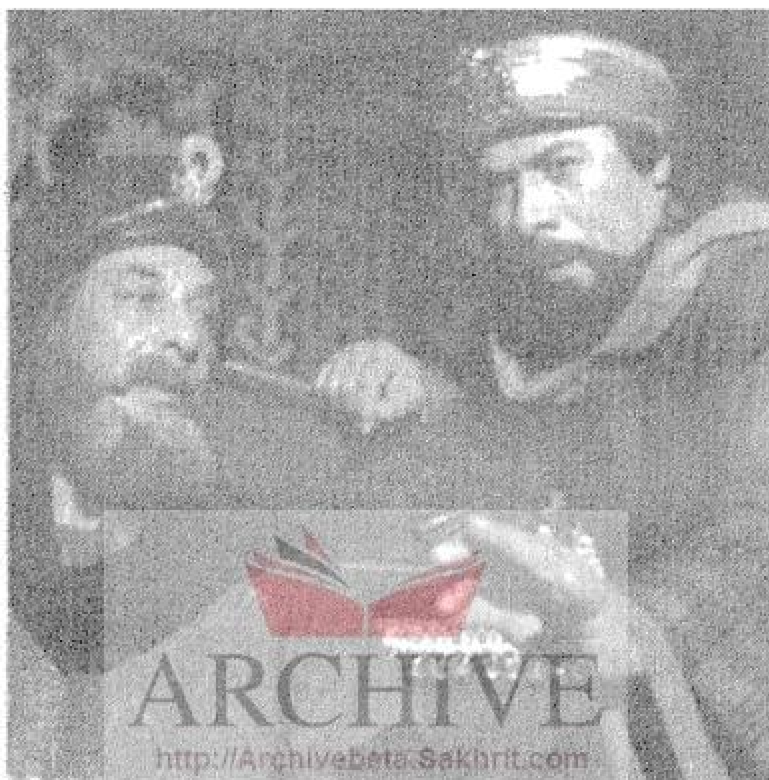
لاشك أننا فى سن الحادية عشرة لانعرف الموت إلا بالاسم إلا أننى عرفته وأحسست به طوال حياتى وأكسبتنى تلك التجربة روحا جديدة مؤمنة بالحياة والموت،

ومن ثم عشت وأعيش بروح المتصوف ودائما في لقاءات صحفية أقول «لو لم أكن فنانا لكنت متصوفا» كما أن هذا الموقف الحزين المؤلم أعطاني درسا مفيدا ونافعا بأن الحياة ليست دائمة وأن الإنسان ينبغي أن يعطي ويعطي ويعمل ويبدع حتى يترك وراءه إرثا فنيا يشهد له الجميع، وتلك هي الحياة الحقيقية: العمل والعمل حتى يعيش الإنسان بأعماله وحسن معاملته مع الآخرين دون أنانية وبدون حب الذات.

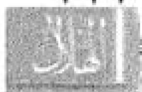
وجهتني ظروفي إلى أن استكمل الرسالة التي عشقتها في داخلي وبدون أن يستشعرها أخي الكبير .. لكن يظل الفضل لهذا الأخ النموذجي الذي زرع في نفسي حب الفن المسرحي.

كنت في السنة الثانية الثانوية بمدرسة على باشا مبارك، إذ تأكدت عندي روح التخاطب مع زملائي وأفصحت لهم عن مكنون كياني من عشقي للفن فضلا عن بداية قراءاتي لبعض كتب أثارت اهتمامي، وكانت البداية مؤلفات المنفلوطي التي أثرت في نفسي لدرجة أنني حفظت بعض الفقرات منها ثم تتابعت قراءاتي لبعض المسرحيات العالمية ومنها هاملت التي كان لها صدى في وجداني وعقلي خاصة المونولوج الذي يبدأ «أكائن أنا أم لست كائنا» واسترسل هاملت في الحديث عن الموت الذي عرفته صغيرا، وكان لهذا الأثر العميق في نفسي مما جعلني أعشق الفلسفة التي تحدث فيها الفلاسفة عن الحياة والوجود والعدم وهو ما جعلني قادرا على استيعاب أمور ما كنت أعرفها لولا المصادفات التي واجهتني في مقتبل عمري والتي غذت روحي ووجداني وعقلي .. ومع كل هذه الأحداث فلم أتأثر بها إلا في الحدود التي تحفظ على الايمان بمعتقداتي الدينية وتقاليد وأعراف مجتمعي، وخلقت مني كل هذه المركبات إنسانا معتدلا يحتكم إلى عقله ووجدانه بل في كثير من الأحيان إلى العقل الذي يعتبره الله سبحانه وتعالى المصفاة لكل ماهو سلوك أو رد فعل لأنه بدون العقل يكون الإنسان غريزيا أقرب مايكون إلى الحيوان وتتابعت الأيام وقدمت في نفس الفترة نفسي إلى فريق المدرسة الذي كان له نشاط مسرحي، ثم جاءت لحظة الاختبار وكنت قد اخترت فقرة طويلة من كتاب المنفلوطي العبرات تتكلم عن الفقراء والعرايا والمساكين إلا أن المجموعة التي كانت تستمع لي تهامسوا فيما بينهم وأخذوا يبتسمون مما أثر على استرسالي فغضبت وانصرفت دون أن





مع الفنان أحمد ماهر في مسلسل (الحب قبل السيف)



أسمع رأيا، وهذا يؤكد فرط حساسيتي تجاه الآخرين ولم أقترب من هذا الفريق أبدا واختفيت عنهم وذلك لإحساسي بأني لم أعجبهم، وبدا لي فيما بعد أنهم أرادوا أن أنضم إليهم من زميل لي بالمدرسة إلا أنني رفضت الانضمام لمجرد فهمي خطأ ردود فعلهم، وتعلمت من هذا الموقف شيئا مهما وهو تفهم حالة المتقدم للاختبار أو الامتحان والذي يحتاج إلى رعاية إنسانية بما تعنيها من معنى دون الاستخفاف به أو مجرد الإشارة بشيء قد يفهمه المتقدم خطأ، ومع كل هذا فقد ترسب في كياني الإحساس بالإصرار نحو تفجير هذه الطاقة الداخلية وذلك بالتحاقي

بالمعهد العالى لفن المسرح العربى فى ذلك الوقت، وكان هذا عام ١٩٥٢ إذ كان على رأس ذلك المعهد الاستاذ الراحل زكى طليمات، وكنت قد حصلت على الشهادة الثانوية وأعددت نفسى لهذا الامتحان أو اختبار قدراتى، وفعلا أديت الاختبار أمام أساتذة كبار منهم جورج أبيض والشاعر الكبير عزيز أباظة وانتظرت نتيجة الاختبار إلا أننا فوجئنا كمتقدمين بتعليق النتيجة بل إلغاء الامتحان نفسه نظرا لخروج الراحل زكى طليمات فى ذلك الوقت من منصبه كعميد فى حركة التطهير أثناء ثورة يوليو ٥٢ نتيجة ملابسات اعتبرتها الثورة سببا فى خروجه من وظائف الدولة، وأعادوا الامتحان من خلال لجنة أخرى وتكاد تكون هى نفسها إلا أن قيادتها كانت لعميد جديد وهو الراحل ممدوح أباظة بدلا من الراحل الاستاذ زكى طليمات ونجحت فى هذا الامتحان، وقبلت بالمعهد كطالب .. هذا بالطبع أشعرنى بالثقة الكبيرة فى نفسى المحتشدة بكل الحب لفن التمثيل وأننى أصبحت فى يد محترفين قادرين على توجيهى الوجهة الفنية السليمة بما يساعدنى على السير فى هذا المجال دون تخبط أو عشوائية، وهذا فعلا ماتم، وكان ضمن رفقائى الزميل والصديق الراحل كرم مطاوع والعبقرى الفنان الراحل نجيب سرور وآخرون منهم الفنان القدير جمال إسماعيل وأيضا الفنان الكبير منير التونى والفنان الدكتور حسن عبدالحميد مما يؤكد أن كل هؤلاء موهوبون استطاعوا بعد تخرجهم أن يشقوا طريقهم الفنى باقتدار وشكلوا فى الحركة المسرحية جيلا جديدا استطاع أن يجسد لونا بارزا فى حركة التجديد المسرحية.

أثناء الدراسة بالمعهد وفى السنة الثالثة بالذات وصل الأستاذ الفنان الراحل نبيل الألفى من فرنسا وقد أسند له التدريس بالمعهد بجانب كونه مخرجا بالمسرح مع زميله الأستاذ الفنان حمدى غيث، وأصبحت أنا وكرم مطاوع تلميذين له مما أفادنا كثيرا وفتح لنا آفاقا ساعدتنا على التفكير فى ضرورة استكمال دراستنا الفنية فى أوروبا .. وهذا فى حد ذاته يؤكد كرم الأستاذ الراحل نبيل الألفى الذى كان يتعامل معنا بأسلوب فريد، فلم يكن بخيلا فى عطائه، بل أعطانا من مخزون علمه وفنه الكثير حتى تشبعنا بأسرار هذه المهنة الشاقة التى تحتاج بشكل أو بآخر إلى قدرة عصبية ونفسية وعضلية.

وأحب أن أسجل من خلال سرد تكوينى حبى ووفائى لهذا الأستاذ النبيل



الأمير نبيل الألفى رحمه الله تعالى فهو كان بحق مفتاح أبواب كثيرة نفذت من خلالها إلى عالم جديد متسم بجمالية الإبداع وإذا كان صديق العمر كرم مطاوع وأنا قد نجحنا فى حياتنا الفنية فالفضل يعود إلى الأستاذ الجليل نبيل الألفى.

هذا الرجل الفنان دفعنا إلى التفكير فى السفر للتزود بالعلم بل وقف إلى جانبنا فى الترشيح قولا وفعلا.

أذكر ذات مرة أنه كان يشاهد مسرحية من إخراجى فى مسرح الطليعة وفوجئت به واقفا وحاولت أن آتى له بكرسى ليجلس عليه إذ كان المسرح ممتلئا ولا مكان للجلوس وكان قد أتى متأخرا حوالى عشر دقائق لكنه رفض وقال جملة مهمة مازالت حروف تلك الجملة ترن فى أذنى حرفا حرفا «عقابى للتأخير عن المسرح هو وقوفى حتى تنتهى المسرحية» ورغم إلحاحى عليه إلا أنه تشدد فى الرفض ورضخت لتشدده هذا مما أثار فى نفسى شعورا غريبا تجاه هذا النبيل وهو انضباط حضور المتفرج فى موعده وحتى تكون للمسرح قدسيته، ومن هنا تنبهت إلى أهمية احترام المتفرج لأسرة العمل الفنى وأيضا احترام المسرح للمتفرجين وذلك بانضباط فتح الستارة فى الميعاد المحدد حتى يشعر المتفرج نفسه باحترام هذا المسرح بما يساعده على ضرورة الانضباط فى الحضور وذلك قبل الستار.



الفنانة عايدة عبد العزيز مع حفيدتها

وكانت البداية

بعد التخرج فى المعهد عام ١٩٥٦ حاولت المحاولة الأولى فى الإخراج وذلك بالجامعة «كلية الطب البيطرى» وذلك بمسرحية «كاليجولا» للكاتب الفرنسى ألبير كامى، وكان بطلها الفنان الدكتور حسن عبدالحميد الذى كان من طلبة الكلية نفسها بجانب كونه زميلا فى الدراسة بالمعهد وذلك فى عام ١٩٥٨، ومع تلك المحاولة أحسست بأننى أمتلك بعض المكونات التى تؤهلنى بأن أكون مخرجا

وبالطبع لن يكتمل هذا إلا بالدراسة الدقيقة التي تساعدني على المضي قدما نحو المزيد من الفهم المتأني لعلوم المسرح التي يكون من أثرها القدرة على التصدي لإخراج أية مسرحية ومن أي نوع كانت، وفعلا تم ما كنت أحلم به وهو السفر إلى لندن للدراسة بالأكاديمية الملكية لفن الدراما «فني التمثيل والإخراج».

كنت في عام التخرج ١٩٥٦/٥٥ قد تعرفت على زوجتي الفنانة عايدة عبدالعزيز حيث كانت في السنة الأولى وكنت في السنة الرابعة، والسبب في ذلك كان أيضا الأستاذ نبيل الألفي حيث كان يقوم بالتدريس في السنة الأولى والسنة النهائية فأرسلها إلي كي تحصل مني على مشهد تمثيلي كان في حوزتي لتتدرب عليه، وفعلا أعطيته لها، ومن هنا كانت البداية مع تلك الزميلة التي كانت من أول لقاء لها محل اهتمامي وسؤالي عنها مما أدى هذا إلى شعور بالحب لزميلة أحسست من خلالها أنها ستكون زوجة العمر وفعلا تم الزواج، وكان أسرع زواج إذ ما بين التعارف والزواج ستة أشهر فقط وخرجت من المعهد بشهادتين .. شهادة الزواج وشهادة المعهد وبدأنا نشق معا مشوار الحياة.

وفي هذه السنة بالذات ١٩٥٦ مثلت على المسرح القومي شخصية سليمان الحلبي في مسرحية كفاح الشعب من إخراج أستاذي نبيل الألفي بدلا من الراحل كمال يس الذي كان مشغولا في نفس الوقت مع المسرح الحديث كواحد من مؤسسي هذا المسرح .. وقد تلقيت نقدا فنيا كان في صالحي إلى درجة كبيرة أشعرني بالثقة الكبيرة.

كنت أحاول محاولات كثيرة بضرورة السفر إلى خارج البلاد للتزود بعلوم المسرح من عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦١ الذي تم فيه إنشاء مسرح التليفزيون، وكان أن انضممت إلى الفرق الثلاث الأولى التي تكونت في بداية مسرح التليفزيون حتى يأتي الفرج بسفري إلى الخارج، وفي نفس الوقت رشحني الفنان الراحل كمال يس للتمثيل في مسرحية «العش الهادي» للراحل توفيق الحكيم والتي نجحت فيها نجاحا باهرا خاصة وأن الدور كان كوميديا على ضوء النقد الذي أبرز إمكانياتي في ذلك الوقت كممثل كوميدي، وربما لو ركزت في ذلك الوقت على استمرارية التمثيل دون التفكير في السفر لاستكمال الدراسة لكنت واحدا من الممثلين المرموقين، وهذا رأيي الذي استخلصته من واقع الظروف الفنية التي مررت بها.

السفر إلى لندن

المهم أن زميلي الفنان كرم مطاوع كان

قد سافر في عام ١٩٥٨ إلى إيطاليا في بعثة لدراسة التمثيل والإخراج وتمنى لي بنفسه السفر أيضا إلى الخارج حتى نحقق طموحاتنا وندخل معا في حركة المسرح من أجل التجديد والتحديث.

فعلا سافرت متأخرا إلى لندن عام ١٩٦١ أنا وزوجتي وأبنائي إذ كانوا أطفالا وهما شريف ونهال والتحقت بالأكاديمية الملكية لفن الدراما بلندن لدراسة التمثيل والإخراج كما التحقت عايدة أيضا بالبريتش دراما ليج لدراسة فن الحركة والتمثيل وحققت في دراستها نجاحا باهرا.

في نهاية الدراسة لفن التمثيل كان عميد الأكاديمية في ذلك الوقت قد رشحني للتمثيل وذلك في دور عطيل إذ تقررت المسرحية كاملة علينا كأحد المشروعات للتخرج في قسم التمثيل، وعندما علمت ذلك انتابتني حالة من الخوف والوجل لتمثيل هذا الدور باللغة الإنجليزية، وكنت على وشك الذهاب إلى عميد الأكاديمية لأخبره بإعادة ترشيحي لدور صغير بدلا من عطيل الدور الرئيسي المحوري إلا أن عايدة تصدت لي وأجبرتني على الإصرار بالتمسك بهذا الدور وقالت لي عايدة بالحرف الواحد في ذلك الوقت «لولا ثقة العميد والأساتذة بك ماكانوا ليرشحوك، فكن على مستوى تلك الثقة وثق في نفسك».. كانت هذه الكلمات بمثابة الدواء الذي شربته فاكسبني ثقتي بنفسي ولولا وجودها معي ماكنت لأتجرأ على قبول هذا التحدي الكبير، وقد قامت بمساعدتي وذلك في تحفيظي شعر شيكسبير.

لاشك أن الشريكة في هذه الحالة كان لها دور كبير استطاعت من خلاله أن تقف بجانبي ولايمكن أن أنسى هذا مدى الدهر ومدى العمر في هذه الحياة.

عندما قمت بتمثيل دور عطيل كان رد الفعل النقدي إيجابيا بما جعلني أتزود بالثقة الكبيرة التي دفعتني على العطاء دون كلل أو ملل.

دخلت بعد ذلك مرحلة الإخراج التي شكلت في نفسي قدرة على التصدي لبعض الأعمال التي تستهويني وأتفاعل معها من خلال تركيبتي الثقافية والمعرفية وفهمي العميق لمعطيات المسرح وماينبغي تقديمه للمسرح، فالمسرح المصري على وجه الخصوص يحتاج إلى مسرحيات تتشكل موضوعاتها من نسيج يهتم بقضايا السواد الأعظم من الناس.

العودة من البعثة

عدت بعد ذلك الشوط الكبير أنا وعايدة وأولادي إلى القاهرة في فبراير ١٩٦٧ وكان الراحل نبيل الألفي عميدا للمعهد العالي للفنون المسرحية في ذلك الوقت، وقمت بالتدريس في ذات المعهد،

وفى نفس الوقت أبحث عن طريق لأخرج للمسرح بعدما تشبعت بالدراسة الأكاديمية فى هذا المجال..

كان الراحل يوسف إدريس مديرا لقطاع الدراما فى ذلك الوقت بهيئة المسرح وقابلته فى يوم ما قبل نكسة ١٩٦٧ وتحادثنا معا وشرحت له دراساتى فى الخارج بلندن فتحمس لى فى ذلك الوقت وأعطانى مسرحية «ليالى الحصاد» للراحل محمود دياب الذى لم يكن معروفا فى ذلك الوقت اللهم إلا من خلال عملين سبق أن قدما بالمسرح وهما «الزوبعة» فى أحد أقاليم القاهرة و«البيت القديم» أو «البيت الكبير» على ما أعتقد.

أخرجت هذه المسرحية للمسرح الحديث الذى كان يديره فى ذلك الوقت الراحل محمود مرسى وقد أثارت جدلا كبيرا فى الأوساط الفنية مما ساعد على إلقاء الضوء على شخصى إذ قدمتنى هذه المسرحية للجمهور من ناحية وللأوساط الفنية من ناحية أخرى.

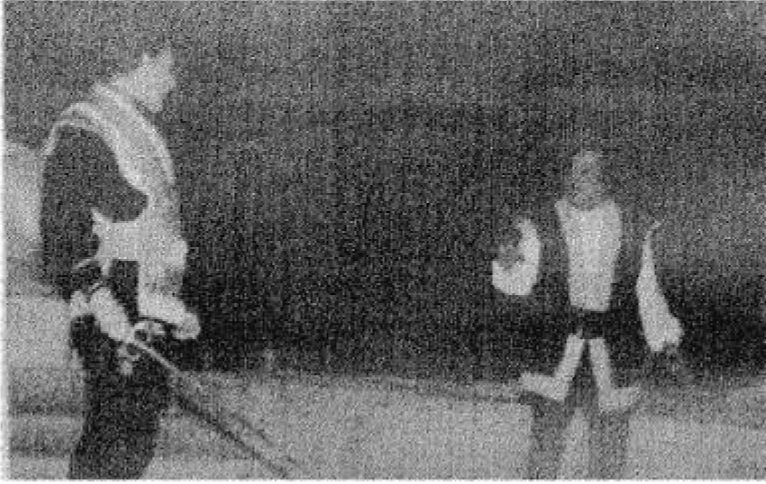
تابعت بعد ذلك القيام بإخراج عديد من المسرحيات منها «ملك يبحث عن وظيفة» و«تحت المظلة» و«العمر لحظة» على سبيل المثال لا الحصر.

وأهم النشاطات التى واجهتها نشاط مسرح المائة كرسى ضمن مجموعة من الكتاب والفنانين التشكيليين منهم عبدالمنعم سليم وأحمد فؤاد سليم وصالح رضا إذ أخرجت بعض المسرحيات التى نبهت كل العاملين فى المسرح إلى محاولة التفكير فى إيجاد مسارح تجريبية كمسرح القهوة والقرية والسرادق وما شابه ذلك مما ساعد على فتح مجالات أخرى يجد فيها الشباب المتعطش للمسرح آفاقا جديدة تعبر عن نشاطهم.

أستاذ للمسرح

لاشك أن المسرح قد أخذ كل وقتى وعمرى إلا أننى فى الوقت نفسه كنت أمثل بين الحين والحين وخاصة فى السينما التى بدأت فيها بأدوار رئيسية كفيلم يوميات نائب فى الأرياف من إخراج الفنان الاستاذ توفيق صالح وفيلم الحب والصمت مع نبللى ونور الشريف وعدة أفلام أخرى وبعض أعمال التليفزيون والإذاعة.

فى عام ١٩٧٤ ذهبت إلى الكويت أستاذا بالمعهد العالى للفنون المسرحية عند بداية إنشائه وذلك لمدة سنتين فقط إلا أنها امتدت إلى اثنين وعشرين عاما أخرجت فيها عددا من المسرحيات للمسرح المحترف كما أخرجت لمسرح الطفل الذى وجدته مجالا من أهم



عبد الله غيث وأحمد عبد الحليم في ماكبث

المجالات، كما أخرجت مشروعات بكالوريوس المعهد على مستوى احترافى وخرج من بين يدى سبع عشرة دفعة شكل طلابها فى النهاية أجيالا جديدة من نجوم المسرح والتليفزيون والمسئولين فى دوائر الثقافة والإعلام وذلك على مستوى منطقة الخليج، وقد يبدو لأى مهتم أن هذه الفترة الطويلة ابتعاد عن المجال الفنى فى القاهرة، وهذا حقيقى إلا أن الحقيقة المهمة هى أن النشاط الفنى كان مستمرا فى مجالات التدريس والإخراج مما ساعد على تزودى بالمعرفة الفنية التى من وجهة نظرى تعتبر زادا استطيع من خلاله التصدى لأى عمل فنى بروح الواثق بنفسه، وكان مجمل ما أخرجته بالكويت حوالى ثمانية وثلاثين عملا.

عدت إلى القاهرة فى عام ١٩٩٦ وأخرجت منذ حضورى مسرحية «الطيب والشرير» للكاتب الفريد فرج ثم مسرحية «الملك لير» لشيكسبير ومسرحية «جواز على ورقة طلاق» للكاتب الفريد فرج، كما أنى أقوم بالتدريس بأكاديمية الفنون وجامعة حلوان بما يؤكد أن الإنسان الفنان أو أى إنسان يظل يعطى ويعطى طالما أن فى داخل نفسه أحلاما يريد أن يحققها من خلال عشقه وحبه للفن. ■

حول مقال «الهلال وأنا»

جاءتنا رسائل حول مقال «الهلال وأنا» لكاتبه مصطفى الحسيني ونشر في هلال مايو ٢٠٠٤.

الأول كتبه الدكتور سامي منير عامر الاستاذ بكلية التربية جامعة الإسكندرية ويقول: إن كاتب المقال شأن كثيرين من القراء يعترف في صراحة ممتزجة بالإعجاب بأن متعة قراءة الهلال متعة كبيرة، قل أن تنافسها، ولا حتى أن تضاهيها متعة قراءة أية مجلة ثقافية عربية أخرى، وبين لنا صفات بعض المجلات الثقافية العربية الأخرى التي رأى فيها ظواهر غريبة عسيرة الفهم .. وهذا كما يخيل إلىّ هو ما دفعه إلى تفضيل قراءة «الهلال». بالاضافة إلى أن كثيرين ممن يكتبون دوما بالهلال تتسم كتاباتهم كما، يقول الحسيني، بأنها تتداول مع القراء، ولاتقف منهم موقف المعلم، أو تفرض عليهم حكمة ما .. هؤلاء الكتاب تقرأ عندهم (الحاضر ناظرا إلى المستقبل، وتقرأ الحاضر متأملا ما به من قصور تعيد النظر إلى الماضي، وتعيد النظر فيه (ص ٢١٦).

وأنني أتحفظ حيال رأى الأستاذ مصطفى الحسيني في كتابة الكاتبين الجليلين الشيخين د.رجب البيومي والاستاذ وديع فلسطين إذ أنه يرى في كتاباتهما ماضيا، مهما بلغ ليس نموذجا للحاضر والمستقبل والقدوة (ص ٢١٦) وإن مايدعوني إلى التحفظ هو أن مانستخلصه - نحن القراء - من كتابات هذين الجليلين وغيرهما إنما يتحكم فيه تأويلنا لما قد قرأناه، وهذا التأويل أمر نسبي، تفرضه ثقافة القارىء التي إما تقربه من محبة أشياء، وإما تباعد بينه وبين محبة أشياء أخرى.

وعلى اختلاف نوعية مايين ما يكتبه كلا الرجلين، فإن عينيهما على حاضرنا وما يرجوانه له من مستقبل زاهر، يصلح حافزا لنا في تقويم مسار حياتنا المتداخلة المتسارعة والمتصارعة.

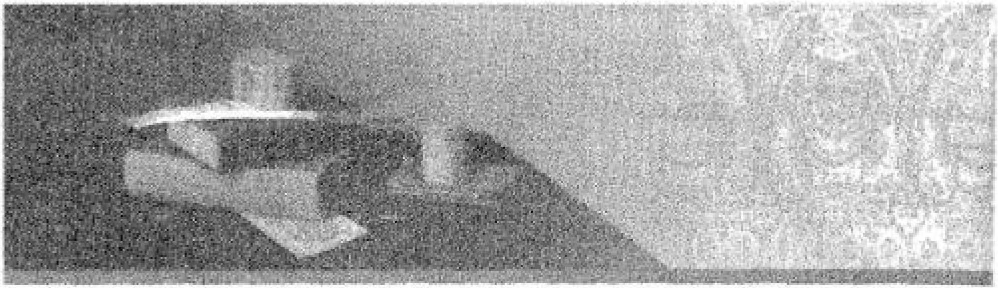
● أما عبدالله محمد فيقول إن أول ما أقرأ من مواد الهلال ما يكتبه هذان الأديبان الكبيران لألتمس فيما يكتبانه المتعة الفنية والذهنية ومقارنة الماضي بالحاضر، واستلهام العبرة في «أسمار الماضي» لمواجهة المستقبل وبناء المستقبل الجديد على قواعد الماضي الراسخة.

إن دعوة كاتب المقال ببساطة شديدة، هي هدم الماضي بحجة أنه «أسمار» ونسيان تاريخنا وأعلامنا الذين سماهم بعض المفكرين «ملح الأرض».

كما يقول مازن مؤمن بأن صاحب مقال «الهلال وأنا» أشار إلى عدم الاهتمام بالكتاب من العرب في الوقت الذي نشرتم فيه موضوع الغلاف عن عرائس الجزائر والقصة لكاتب من حلب بسوريا، ومقال جميل للكاتب الفلسطيني سليمان أبو ستة كما كتبت الناقدة صافي ناز كاظم موضوعا عن الرحباني، فضلا عن هذا المقال المهم حول القصة الكاملة لحماس والتي كتبها د.عادل غنيم. وفي هذا المكان (أنت والهلال) نشرتم كلمة رقيقة لسناء على من السعودية بعنوان «أم كلثوم فنانة خلدها فنها».

فكيف يقول مصطفى الحسيني إن الهلال تغفل هذا الجانب؟.

مجرد سؤال!



في كل يوم مجزرة

في كل يوم مجزرة ... لاتحتويها مقبرة
لرجالنا ونسائنا ... وصغارنا كم غرغرة
أين الصدى يا إخوتي ... ما ردكم .. لم لم نرد؟
الظالمون تكاثروا ... وظلامهم ما أكثره
أين الردود عليهمو ... والصائحات المنذرة؟
ثوروا عليهم ثورة ... كونوا عليهم معصرة
قتلوا الكثير بأرضنا ... كم من عيون ممطرة
كم أي دمع هاطل ... من ناظرات مبصرة
كم من دم متسائل ... من أعين متحيرة

حسن أبو الفيط
كفر المصيلحة - منوفية

أوصاف غريبة!!

أفرد المقريزى شيخ المؤرخين العرب في القرن الخامس عشر الميلادي فصلا في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» عن ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم، وقد هالنى ما كتبه المقريزى من أوصاف ونعوت عن المصريين، وهى رؤية بالغة السوء للشخصية المصرية والتى وصفها بأنها قليلة الصبر والجلد، كثيرة الكذب والسعي الى السلطان، وذم الناس، ورجالهم كثيرو النساء، ونساؤهم سريعات الحمل، ويغلب عليهم الجبن.

أليس من الواجب ونحن نعيش نشر ذخائر الكتب العربية والتراث العربى أن نعرض هذه الصور الغريبة معلقا عليها بشروح وهوامش تزيل أى لبس، وترفع أى تناقض؟

عمرو عبدالمنعم حموده
برما - مركز طنط

الهلال :

ماجاء في رسالتك من صفات غريبة حول المصريين وبالطبع هى للمقريزى، فلا أعتقد أنها موجودة في مجتمعنا الآن .. والسؤال ما أهمية نشر كل هذه الإساءات للمصريين في وقت لاتتوقف أجهزة الإعلام الغربية عن الهجوم علينا؟!

حلل الربيع

حلل الربيع قصيدة عذراء … برزت بلفظ فى سناه بهاء
ألقت معانى فى تراكب فذة … فى حلة سجدت لها البلغاء
لمعت ببارق ثغرها جذلانة … فتهللت لجلالها الفصحاء
وبدت برائق سبكها مثل الضحى … في فتنة أخذت بها الحسناء
بسمت فبان جمال عنصر أصلها … كسواد خال قد جلاه ضياء
وتماوجت ببيانها فى رقة … في مشية وكأنها الورقاء
وتخطرت بلياقة فى طبعها … ثم انثنت وكأنها هيفاء
فرشت خمائل فى بساط مونق … ودنت فقلت الروضة الغناء
غنت بلحن مطرب فى شجوها … وشدت فقلت الجنة الفيحاء

حواش مصطفى بن بكير
غرداية - الجزائر

قراءة في عدد مارس

حينما تصلنى الهلال أتصفحها على الفور.. ولى عدة ملاحظات أبديها:

سعدت بنشر مقال «مصر من نافذة قطار» في عدد مارس من الهلال وبصورة جميلة. وعلى الرغم من تأخر وصول العدد إليّ إلا أنه وصل.. ولا أقول مجاملة إن مانشرته الهلال بقلم محفوظ عبدالرحمن عن أم كلثوم ورامي انفردت به الهلال عن غيرها من المجلات الشهرية الأخرى، ونفس الملاحظة تنسحب على مقالى العقاد، ودعني أبدى سرورى وسعادتى بمقال رئيس التحرير عن الراحل الكريم د.سيد عويس، فمن خلال ما كتب عنه أعاد لنا مصطفى نبيل جانبا جميلا من ذكريات الستينيات مع هذا الرائد الكبير ودراساته (العلمادبية) التى تنبض بحرارة الحياة حلوها ومرها، وأعادتنا إلى جانب آخر من مفرداتها رسوم صلاح جاهين فى مقال عبده جبير.

فقط أتساءل .. هل قست الكاتبة صافى ناز كاظم بعض الشىء على «أمر صنع الله».

فى هذا العدد «هلال مارس» الكثير مما يستحق التعليق.

د.محمد المهدى - الكويت

جبران خليل جبران

ديسمبر ١٨٨٣ - إبريل ١٩٣١

اعلن أخيرا في استراليا عن منح جائزة الشاعر المهجري العربي الكبير جبران خليل جبران لأحد الشخصيات الفكرية البارزة وذلك عن جمعية تحمل اسم جبران في استراليا.

ولد جبران خليل جبران في إحدى القرى اللبنانية في عام ١٨٨٣ م في قرية اسمها «بشري»، وقد أمضى سنوات التعليم الأولى في بيروت، لكن الحياة في لبنان آنذاك لم تكن تحتمل، حيث كانت نسبة كبيرة جدا من الأسر سواء في الريف او المدن، تعيش في ضنك شديد، وتفقد انسانيتها بين الفاقة والعوز.

هاجر مع أسرته إلى أمريكا الشمالية بعد اعتقال والده، إلا أنه عاد إلى بيروت ليكمل تعليمه، ثم رجع إلى أمريكا، حيث بدأ يعرف كشاعر يكتب باللغة الإنجليزية وتعرف جبران على زملائه في المهجر، وتجلى في قصائده ذلك الميل الحميم إلى الجذور، وكان عاصفة وثورة أدبية بكل المقاييس، وهو ما وضعه في قلب الريادة الشعرية الحديثة في مستهل القرن العشرين، وصارت له مدرسة أدبية تسمى باسمه، تخرج فيها مئات التلاميذ على امتداد الوطن العربي ورغم الرغبة الجارفة في التجديد، وتنقية شرايين الكتابة الأدبية، إلا أن جبران ومثله إيليا أبوماضي وميخائيل نعيمة قد حافظوا على جوهر اللغة ويعتبر جبران أشهر كاتب عربي في العالم، وانطوت ثقافته على عناصر رئيسية هي ثقافة عربية إسلامية ومسيحية.

ولجبران مؤلفات كثيرة من أشهرها «النبي» و«الموسيقى» و«دمعة وابتسامة» وغيرها من الأعمال، ويعتبر كتاب «النبي» من أهم اعماله الأدبية وترجم إلى لغات عديدة قبل إنها وصلت الي ٢٧ لغة في العالم، ووزع منه في أمريكا وحدها اربعة ملايين نسخة، لما يتضمنه من صور في فلسفة الحياة والكون، و ما انطوى عليه، من عمق تعبيري وعذوبة باللغة. ولعل الأديبة مي زيادة من أشهر النساء في حياة جبران . فقد توثقت بينهما صلات الحب عن طريق المراسلة المتبادلة، واستطاعت أن تفجر احاسيسه على نحو مغاير، وأن تدفعه للبوح والكشف عن أغوار ذاته، ودامت علاقتهما ومراسلتهما قرابة عشرين عاما دون أن يلتقيا مرة واحدة!

بعد رحلة طويلة من العطاء، رحل جبران في ١٠ ابريل ١٩٣١ ، وكان قد أوصى برسومه ولوحاته الى ماري هاسكل لتتصرف بهما كما تريد، وما كان منها الا أن أرسلتها إلى بلدته. وبقيت ماري مخلصة لجبران بعد رحيله، وماتت بعد قليل عانسا عمياء!

الصلة

محمود وأحمد وسناء ... أسماء يعرفها قلبي
صور في الروح معطرة ... بعبير الألفة والحب
أنفاس طاهرة ورؤى ... تتكوكب في الأفق الرحب
وتدور وتركض وتغني ... وتشد يد الأمل الصعب
فيها الأيام مسافرة ... لبلوغ الحلم بلا درب
وبها التاريخ يعود فلا ... يفتقد الشيب بعين صبي
أبنائي، والأبناء لنا ... غدنا المنقوش على الذهب
أغصان الفرحة في دمنا ... تمتد محلقة الشهب
نجتاز لأجلهمو محنا ... ونبث الألفة في العجب
ونودعهم قلنا بهمو ... خيط يتعلق بالسبب

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

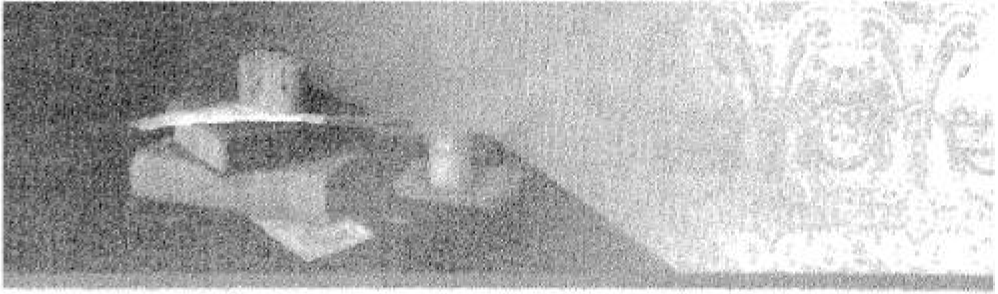
رحيل مفكر كبير

فقدنا واحدا من مفكرينا ومبدعينا وأحد كتاب «الهلال» الدكتور محمد بلتاجي حسن في الشهر الماضي بعد رحلة عطاء، قضى منها ٥٨ عاما في رحاب كلية دار العلوم، طالبا ومعيدا وأستاذا ورئيس قسم ثم عميدا للكلية في الفترة من ١٩٨٦ الى ١٩٩٥.

حصل د. بلتاجي على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٩ في كلية دار العلوم في الشريعة الإسلامية وسافر الى معظم الدول العربية والإسلامية محاضرا وأستاذا في الشريعة الإسلامية، وأشرف على حوالي ٦٠٠ رسالة ماجستير ودكتوراه، وكان عضوا بمجمع البحوث الإسلامية وترك اكثر من ٥٠٠ بحث في الشريعة و ٦٠ كتابا من بينها «في أحكام الأسرة» ٤ أجزاء، وبحوث مختارة في السنة عام ١٩٩٧

رجب عبدالحكيم بيومي الخولي

القاهرة - المعصرة - المنشية الجديدة



تحرك خافقي

أتاني لفظها عطرا لطيفا ... فأشعل في الهوى معنى نظيفا
دعاني للنخيل لكي أغني ... غناء مبدعا حرا عفيفا
قرأت النخل تاريخا عميقا ... وأمجادا تضيء لنا الحروفا
عيون ها هنا امتلأت هياما ... فتسمن ذلك الوهج الضعيفا
قطيف كلها بستان حب ... ربيعه ما أتى يوما خريفا
تحرك خافقي بحرا فبحرا ... ليرسم في المدى الوله الشغوفا
أسافر كي أرى أشكال قلبي ... فصارت كلها أدمى قطيفا
قطيف الحب هذا جذر شوقي ... لما هواك قد قهر الظروفا
بداخل خافقي اليامال حرف ... يشحن للهوى صوتا لطيفا
أناشيد الخليج فصول زرع ... بغير العشق تأبى أن تضيفا
تضيف إلى القطيف نهار عشق ... فانطق في شواطئها الدفوفا
على شطآن أحضان. وشوق ... قطيف الحب تيممت الألوفا
فكل سفينة في البحر عاشت ... لتنبت في الغرام لها رصيفا
لماذا لا تطوف بأرض فكر ... وفيها العقل ما ارتاد الخسوفا
رجال الخط مجد بعد مجد ... لخير فضيلة رصوا الصفوفا
بعلم نير ورعوا المعالي ... وداروا للغد الآتي النزيفا

عبدالله علي الأقزم
السعودية - القطيف

اعتقال وول سوينكا



خبر اعتقال وول سوينكا الكاتب النيجيري المعروف والحاصل على جائزة نوبل في الآداب، أصاب كل المثقفين بالاستياء والغضب، نظر لمكانة هذا الكاتب والمفكر الافريقي العالمي الكبير.

فهو بلا شك يرفض ما يحدث الآن في نيجيريا من صراع عقائد من قتل ودمار لهذا البلد الافريقي تري ماذا يفعل زملاؤه الحاصلون علي جائزة نوبل ؟

وهل يعلن أديبنا الكبير بالمثل نجيب محفوظ وغيره من الحاصلين على نفس الجائزة استياءهم مما يحدث للكاتب الكبير.. تجاه هذه السقطة الكبيرة في حق مثقف عالمي؟ .



نعمة نصره

ابتسامة

قام من نومه بعد صلاة العصر، بعدما دخلت زوجته الغرفة، وفتحت شباك الشرفة لتنشر غسيل طفلها ابن السبعة شهور. ولما رأته - زوجته - يدعك عينيه، ويتمطى قليلا - وهو نائم على ظهره - جلست على حافة السرير، وقبلته على خديه، وابتسمت. ونتفت شعره من ذقنه الطويلة. توجع قليلا لكنه ابتسم بصعوبة بالغة مدركا أنه العقاب على تركه شعر ذقنه، وفرد ذراعيه ليحتضنها مجاملة.. لكنها قالت.

- أنا مسمعتش الكحة بالليل.

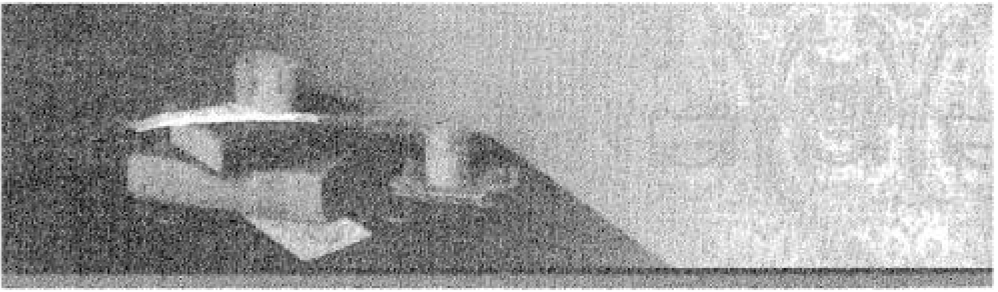
حرك رأسه ناحيتها . علامة الموافقة، واعتدل تركته زوجته يكمل قيامه من تلك النومة الطويلة، لما سمعت بكاء ونداء طفلها المستميت، ورغبته الطفولية القائمة على الونس والاحتياج.. على الرغم من شبعة فقط. يريدها بجواره.. ذلك إحساس لا يغتفر لطفل لا يدرك . هذا الإحساس يشعر الزوج بالمرارة والمقت في آن واحد. هو - الزوج - أيضا يحس بالاحتياج.. لكنها - الزوجة - تفضل طفلها . هذا الإحساس ينمو بداخل الزوج، يعكر صفوة، ويقلب مزاجه الرائق قليلا، ويغير سحنته ، ويبدلها . لكنه - الزوج - لما تنشط ذاكرته، ويعي الأشياء على حقيقتها يدرك أنها غلطته، ويتمتم صوت مسموع لنفسه كان مالي ومال الجواز، ويدرك أن رغبته في امتلاك أنثى هي التي دفعته إلى ذلك الإحساس المر ولما يشرب قهوته، ويسمع دندنة الأغاني ويتلاشى كرهه قليلا يحب ذلك الطفل المفعم بالحيوية. وبالابتسامة الرائعة التي توشك أن تقلعه من كيانه الغامض والمتوتر هذا الطفل يدرك تماما ما يريده. وهو - العاقل - لا يدرك ما تعنيه هذه الحياة. هذا الطفل يحافظ على حمايته باستعباد أمه. لكنه يعطيها أمومة تستحقها. أما هو فإنه يدرك أن الحياة تهرب منه يقتلها بالتأمل والتفكير والوصول إلى معنى. ربما يكون المعنى خاويا لكنه في النهاية مجبر على ذلك.

لما دخن سيجارتين وابتلع القهوة المرة، داعب طفله ، ونسي ما كان يفكر فيه، ولما انتهى من مداعبته - والطفل يطلب المزيد - وهم بالرجوع إلى غرفة المكتب، وجلس على الكرسي المبطن أدرك أنه مسجون ومستعبد هو الآخر من هذا الطفل. ليس للطفل قدرة على ذلك.. لكنه الإحساس - إحساس الطفل فقط - الذي ينكر كل فكر وكل فلسفة. تلك هي البراءة بمعناها الواسع والجميل

بعد فترة صمت ، قام وشد باب الغرفة عليه.. لكن الطفل لم يتركه لحاله، وخبط على باب الغرفة مرات عديدة.. محاولا إخراج كلمة.

- ب...ا . ب...ا.

فتحت الزوجة الباب، وغمزت لزوجها بعينيها، وزحف الطفل نحوه.. ساعتها فقط ، أحس بفكرة غامضة تفسر له هذا الانجذاب، وهذا الاستعباد. فكرة ، أنه شاهد مراحل نموه - هو -



إلا تلك الفترة، وارتاح لذلك التفسير وتمدد على الأريكة.. مبتسما هذا المرة بصفاء، لاحظت زوجته تلك البسمة.. وعلى الفور قالت:

- زى بسمة ابنك.

أدرك مرادها وانصرف شاردا.. منشرحا لأغنية فرحة يبثها الراديو عن طيب خاطر لتلك اللحظة

ممدوح عبد الستار - كفر الزيات - قرية الدلجمون

الصقر المغير

مفتتح

إنك لو علمت
حتى فى يومك ماهو لسلامك
ولكن قد أخفى عن عينيك
ستأتى أيام ويحيطك كل أعدائك

بمترسة

وسوف يهدمونك وبنيك فيك
ولن يترك بك حجر على حجر
لأنك لن تعرفى ماهو زمان

افتقادك

(عيسى عليه السلام)

النص

تتهدمين
وتظل نظرتك الخجولة تنتظر
وإلى متى تتألمين
وأنا أترقب الحدث الكبير
قسما بمن هلكت وتحت ترابها
أبنائها وبناتها
والطير والغصن النضير
قسما بمن شهد الزمان
صمودها
ياقدس ياروض العبير
سأظل أنشد من على وتر لك
ولأمة عربية فخرت بك
سأظل أنشد أينما
وجد المناضل والنصير
وأراك يا أرض الكنائس حرة
وأرى الجموع تصب كالمطر الغزير
فلقد أبيت بأن يبيعك..
تاجر وسماسرة
ولقد أبيت بأن يسارمك الأمير
أنى مشى - الكل يهتف خلفه
وأنا هنا عبد فقير
ثمرى ضئيل يابس
جسدى نحيل معدم
لكن بربك - ها أنا
ستريننى وقت الجهاد
كما ولو صقرا مغيرا
فتهدمى
ستظل نظرتك الخجولة تنتظر
صحو الضمير

صابر صبرى معوض

الكلمة الأخيرة



أهمية أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب

بقلم: أبو المعاطي أبو النجا

بغض النظر عن الإجابة غير المحسومة للسؤال القديم المتجدد حول: أيهما شرط مسبق لوجود الآخر؟ هل الفرد أو الأفراد المتميزون هم الذين يصنعون المؤسسة، ويرعون مسيرة ازدهارها، أم أن المؤسسة، وهي في نهاية الأمر لا تعدو أن تكون مجموعة من النظم والتقاليد الجيدة، هي التي تفرخ الفرد أو الأفراد المتميزين؟ وتهيئ الفرصة لاستمرار وجودهم.

وبغض النظر مرة أخرى عن المعنى السائد للصدق والكذب وعن إدراكنا أن مجرد الالتزام الحرفي بمعنى الصدق قد تنتج عنه كوارث تفوق أحيانا أي نتائج للكذب؟ فإننا نعني هنا بالكذب ذلك القول الذي يخبر بخلاف الواقع بقصد تحقيق نفع خاص لقائله، أو بغرض تحقيق إساءة لشخص آخر يريدها ذلك الكذوب لأمر يخصه أو يرضيه بعيدا عن أي واقع أو حقيقة.

بعد كل هذه التحفظات فإننا نعود إلى نقطة البدء، وهي التأكيد على أهمية أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب!

ودعونا نتأمل ما الذي يحدث حين نواجه في المؤسسة رجلا نتوقع منه أن يكذب، بادئ ذي بدء، فإننا نشعر بالارتباك حين نتلقى منه أي إجابة لأي سؤال ونبدأ نفكر ونحن مرتبكون، في أي جزء من حديثه يكمن الكذب، فالكذابون وبخاصة الكبار منهم ينثرون في كلامهم الكثير من الصدق القوي لتمرير أكاذيبهم، ثم نبدأ نفكر في حقيقة دوافعه لهذا الكذب، فلعل صحة تقدير هذه الدوافع أن تعيننا على تحديد منطقة الكذب في كلامه، وتحديد خريطة البحث عن هذه الدوافع يدخلك في أرض كلها ألغام ومتاهات تعرف كيف تدخلها ولكنك لا تعرف كيف تخرج منها!

فقط تخيل نوع وحجم الجهد الذي أنت مدعو لبذله لمجرد التعامل مع رجل واحد في المؤسسة تتوقع منه أن يكذب؟

وتخيل الجهود التي عليك أن تبذلها لو كان في المؤسسة الكثير من الكذابين!

وتخيل ماذا يمكن أن يبقى لديك من الجهد والطاقة، لكي تعمل به في المؤسسة العمل الأساسي الذي جئت إلى المؤسسة لكي تقوم به، ولكي تقوم المؤسسة بدورها كذلك!

ولا تقل ربما كان هذا كله جائز في الماضي، أما الآن ونحن في عصر ثورة المعلومات، فليست المعلومات بهذه الندرة ولا بهذه الصعوبة وثمة آليات ومعايير لاختبارات الصدق والكذب وثمة أكثر من وسيلة وأداة للبحث عن الحقيقة وكل هذا صحيح، ولكن كل هذه القوى والإمكانات متاحة للصادقين والكذابين. وإمكانات تزييف الحقيقة في عصرنا لا تقل عن إمكانات العثور عليها ولذلك فإنه يبقى من المهم جدا أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب! فكرنا في هذا كله، وأنا أسمعهم يتكلمون كثيرا في هذه الأيام عن ضرورة الإصلاح، وكيف نبدأ به في أوطاننا العربية ولعل البداية الحقيقية أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب، لا يرغب في أن يكذب! ■



وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران



لربط ابناء المهجر بالوطن الام
ولخدمة الجاليات العربية وحركة السياحة



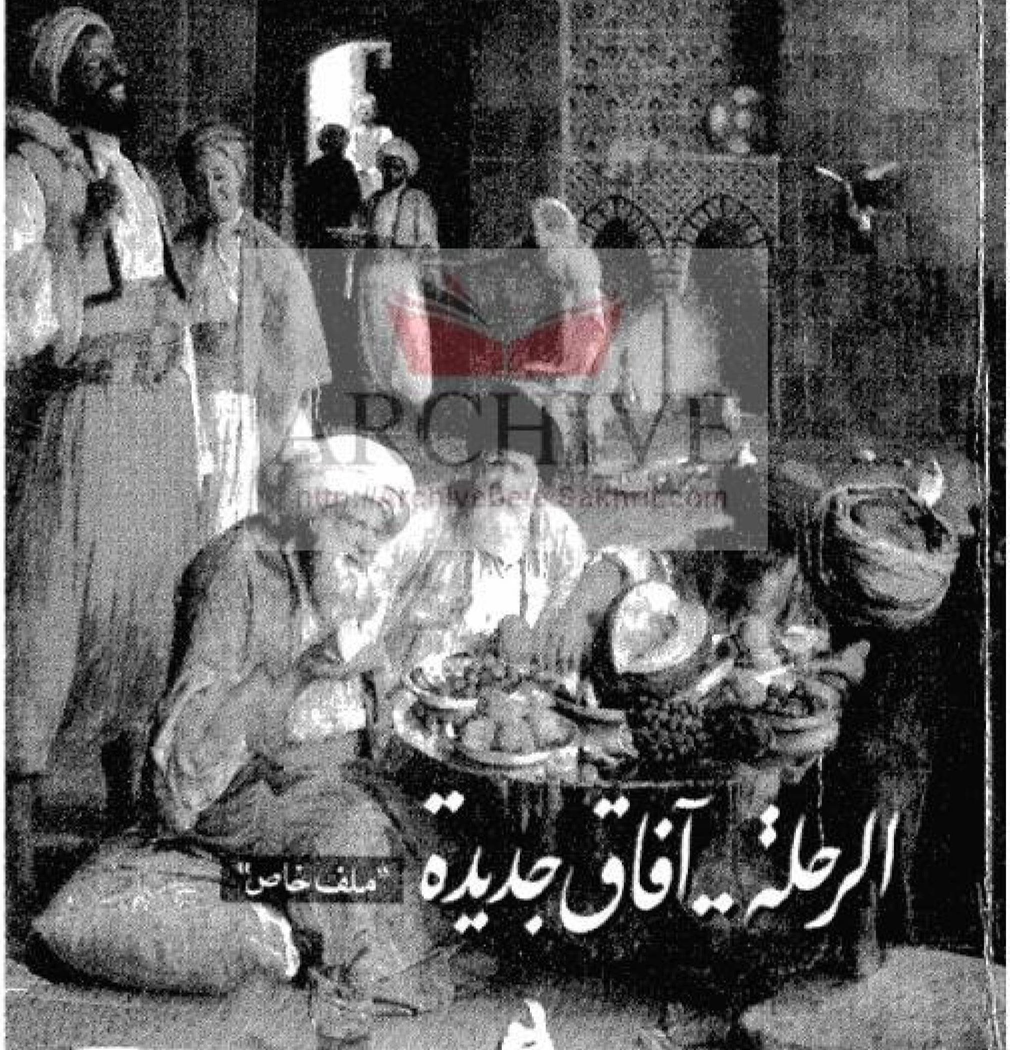
كنــــدا
رحلات مباشرة بدون توقف
بين القاهرة و مونتريال
اعتبارا من اول يونيو
الثلاثاء و الخميس
بأحدث طرازات الطائرات
قيام القاهرة الساعة 13:45

مصر للطيران
اهلا بك ... ضيفا عزيزا
www.egyptair.com.eg

الهلال

يوليه ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

- بوش والشرق الأوسط ثورة أم ورطة؟
- تحولات المفكرين .. طه حسين والعقاد وزكي مبارك
- أدباء وعشاق



لوحة وفنان



لوحة فى إطار الاستشراق

للفنان الفرنسى : ماتيس

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة جماد أول ١٤٢٥ هـ - يوليو ٢٠٠٤م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت الإدارة ٣٦٢٥[illegible] - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



أدباء وعشاق :

كاريكاتير :

جولة المعارض :

الأبواب الثابتة

وديع فلسطين ورسالة نبيلة متواصلة

فى شهر أكتوبر ١٩٩٧احتفلنا على صفحات الهلال ببلوغ الأستاذ وديع فلسطين الرابعة والسبعين، إذ كان مولده فى اليوم الأول من ذلك الشهر عام ١٩٢٣، اعترافا بنبوغه وتقديرا لمشواره المخلص فى خدمة الأدب والثقافة العربية، على طول مسيرته الصحفية والنقدية التى بدأها فور تخرجه من الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٢، وحين دعوناه لينضم إلى أسرة كتاب الهلال، بعد اغترابه الطويل - إن جاز لنا هذا التعبير - فى النشر خارج مصر، أرض ميلاده فى مدينة أخميم بصعيد مصر، ابتسم فى رفق منوها إلى أنه سيكون بتلبيته - مسرورا - هذه الدعوة قد خطا خطوته الأولى للنشر فى الهلال على الرغم من صداقاته لعدد كبير من كتاب ورؤساء تحرير سابقين لهذه المجلة العريقة، ومنهم على سبيل المثال، الأساتذة حبيب جماتي، وفكرى أباظة، وسلامة موسى، وطاهر الطناحي، وصالح جودت.. الخ، بالإضافة إلى صاحب الدار إميل زيدان، وحين سألناه عن السبب، قال: لم أعرض نفسي ولم يطلب مني. وهكذا فزنا بأسبقية الكسب الثقافى والأدبى حين نشرنا للأستاذ وديع فلسطين «مقالته الأولى» فى الهلال، عدد فبراير ١٩٩٨، وكسبنا انتظامه الثرى معنا على مدى ست سنوات حتى الآن. والهلال تعتز بباقة كتابها كلهم ، وفى صدارة هذا الاعتزاز لابد أن يأتى اسم وديع فلسطين، إننا فى الهلال، ومع القراء، نسعد بحكاياته وذكرياته وطرائفه التى ترسم لنا ملامح عصر ثقافى وأدبى ، لم نكن فيه ، بشخوصه وحوادثه وساحاته فيعطينا مع المتعة والتشوق والتلذذ الكثير من الحكمة والعبرة والعزاء !



هو بلاشك فنان شهادة أدبية على زمن أدبى وصحفى وثقافى يأبى إلا أن ينقل إلينا أنفاسه التى لاتزال لديه ساخنة، فهو لايكتب إلا عما عرفه ولسه سمعا وكلاما ومصاحبة، فلا عجب أن تحس منه النبض الحي فكأنك صرت بدورك صديقا ومشاهدا لما عرفه ولسه وصاحبه . فى موسوعته، «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره»، التى صدرت العام الماضى فى مجلدين فاخرين عن دار القلم بدمشق، والتى تضم فى مجملها ٩٣ شخصية بين شاعر وقاص وناقد من كل أنحاء الوطن العربى، بل من كل أركان العالم أينما كان بها كاتب باللغة العربية، أعاد لنا وديع فلسطين زهوة «فن التراجم» الذى كاد يختفى من ساحتنا الأدبية.

يعقد وديع فلسطين بيننا وبين الشخصية التى يكتب عنها علاقة إنسانية حميمة تجعلنا نبدو وكأننا قد سكنا وعشنا معها ردحا كافيا من الزمن.

ومهما كانت الشخصية محسوبة على نسق فى التفكير أو موقف فى السياسة، نختلف معها أو نعاديها، نجد أننا نتقبلها على الرغم من الخلاف أو العداء، فهو قادر فى كل الأحوال أن يجذبنا إليها بحنين إنسانى يروض، بظرفه ولطفه وأناقته، نفورنا الفكرى أو السياسى فيكسر من حدته، ولانكون مغالين لو رأيناه، بسبب ذلك، «ملك» فن كتابة رسم الملامح الشخصية للأعلام الذين قد نعرفهم أو الذين نتعلم منه معرفتهم وندرك كم كان ضروريا أن نتبين إنجازاتهم ومعاناتهم.

تحية لأستاذنا، وزميلنا، وصديقنا وديع فلسطين وهو يواصل رسالته النبيلة قاطعا إثنين وستين عاما وراءه فى بلاط الصحافة منذ طرق أبوابها وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة.

المحــــرر



بوش والشرق الأوسط

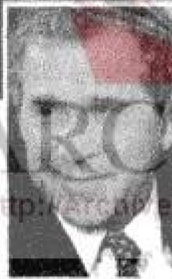
ثورة أم ورطة ؟!

بقلم
جميل مطر

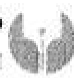
فى أمريكا ورطة بدأت بورطة حرب وتحولت إلى ورطة حكومة، ومن ورطة حكومة إلى ورطة دولة هى الأعظم والأقوى فى عالمنا المعاصر.

أما عن مظاهر الورطة فيقول الجنرال زينى القائد السابق للقوات الأمريكية فى الشرق الأوسط فى حديث أدلى به إلى محطة CBS ،أهل الشرق الأوسط لا ينظرون الآن للولايات المتحدة على أنها تعد بتغيير ديمقراطى إيجابى لكن ينظرون إليها كغزاة صليبيين جدد.. وكقوة احتلال.

الاحتلال الامريكى للعراق


جورج بوش


كونداليزا رايس



وقبل أن يصرح زينى بهذه التصريحات كانت استقصاءات الرأى تعلن عن تجدد الكراهية فى كل أنحاء العالم لأمريكا وخاصة بعد حادثة تفجير محطة القطارات فى مدريد وانسحاب إسبانيا من قوات التحالف. أحد المسئولين البولنديين عبر عن شعور أبناء شعبه جميعاً فى كلمة واحدة، قال «خدعونا». وفى إسبانيا تساءلوا «هل يساوى هذا التحالف حياة ٢٠ جنديا إسبانيا» ويقول تقرير مركز بيو فى الاستقصاء المشترك الذى قام به مع صحيفة الهيرالد ترابيون أن أغلبية فى الأردن وباكستان وفى المغرب وفى أنحاء أخرى من العالم الإسلامى وبينهم ٣١٪ من الأتراك صارت تجد مبرراً للعمليات الانتحارية ضد الأمريكيين وتوضح هذه الاستقصاءات أن نسبة تراجع وانحسار

التأييد للحرب على العراق كان فى بريطانيا ثم فى فرنسا وفى ألمانيا وعندما سئل الناس فى ألمانيا عن ثقتهم فى أمريكا أبدى الشعور بعدم الثقة فيها ٨٢٪ من الألمان و٧٨٪ من الفرنسيين و ٥٨٪ من الإنجليز.

لقد فقدت الولايات المتحدة بعد عام من الحرب على العراق عديداً من الأرصدة جمعتها فى سنوات التسعينيات وبلغت ذروتها فى أعقاب حادث تفجير برجي نيويورك . فقدت الولايات المتحدة رصيدها من الهيبة والاحترام، وفقدت مصداقيتها كدولة هى الأقوى عسكرياً ترشح نفسها لقيادة العالم، وفقدت مصداقيتها كمبشر للديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وتغيير الشرق الأوسط ليصير على شاكلتها.

ويعلق فرانك ريش الكاتب فى صحيفة نيويورك تايمز على أعمال التعذيب الأمريكية فى معتقلات العراق فيروى قصة تبدو غير حقيقية عن شاب عراقى سأل جندياً أمريكياً فى بداية الحرب على العراق عما سيحصل عليه العراقيون من الأمريكيين فى ظل الاحتلال . يقول ريش إن الجندى الأمريكى أجاب بأن العراقيين سيحصلون على الديمقراطية. عاد الشاب العراقى يسأل عن صحة ما يقال من أن الديمقراطية تأتى عادة مع «خمر وجنس» تجاهل الجندى السؤال ، وتولت قيادة الاحتلال الأمريكى الإجابة . يقول ريش، إن الشاب كان على حق فى سؤاله . فقد كان الخمر والجنس يفرضان على المعتقلين الذين يجرى تعذيبهم فى سجن أبو غريب، فى نفس الوقت الذى كان الرئيس بوش يتحدث فيه، ويفخر، عن قواته المسلحة التى ذهبت إلى العراق لتغرس الديمقراطية والقيم المتحضرة ثم تنشرها فى كل أنحاء الشرق الأوسط .

الغضب الشعبى !

لم يعد فرانك ريش ووليام فاف وتوماس فريدمان ومادلين أولبرايت وزبنيو برجنسكى يمثلون أقلية تحملت تهمة الخيانة للوطن لأنها تجاسرت وانتقدت السياسة الخارجية الأمريكية فى زمن الحرب. ما كان يمكن حتى فى ظل خيالات غير مسبوقة وتعتيم بلا نظير وكذب بلا حدود أن يستمر أطول مما استمر سكوت الأمريكيين وامتناعهم عن انتقاد إدارة بوش . لقد تجاوزت هذه الإدارة كل المسموح به، ومازالت شخصيات فيها تكذب وتناور وتهدد، مازال الرئيس بوش يقول إن حربه على العراق لاتختلف عن حرب أمريكا على النازية والفاشية فاشتاط الأوروبيون غضباً . لم يغضبوا لأن الرئيس بوش قارن بين الحربين فى مناسبة عظيمة



بالنسبة لهم ولضحاياهم وضحايا أمريكا، وهى يوم التحرير والإنزال، ولكنهم غضبوا لأن القائد الأعلى للحضارة الغربية سمح لنفسه بأن يقرأ خطاباً حرره ولاشك عون من أعوانه الأغبياء لم يقرأ عن حساسيات الحلفاء فى أوروبا، وعن حال الغضب الشعبى الهائل على الرئيس بوش وحكومته.

• إن المسألة الأمريكية» أعقد مما يتصور الكثيرون، والأخطاء التى ارتكبتها الجماعة المسيطرة فى واشنطن لن يغفرها المؤرخون حتى وإن غفر الناخبون. لقد نتج عن الحرب على العراق عمليات متعاقبة من «استنساخ» تنظيم القاعدة. صارت القاعدة كالقطر على أطراف الصحراء لم تعد التنظيم الهرمى الذى أعلن بوش الحرب عليه بعد ٩/١١، فالخلايا صارت تنظيمات وتفرعت التنظيمات خلايا جديدة، وكلها قديمها وحديثها، يتغذى على غضب شعبى عارم على السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، ويتغذى أيضا على عجز دول المنطقة عن الدفاع عن شعوبها وأراضيها وعقائدها وثقافتها أمام قوى الغزو الأمريكى، فتجاسرت منظمات العنف وأصبحت تطرح نفسها كخيار أوحد فى غياب أى دور للحكومات، وليس سراً أن كل حكومات المنطقة وبخاصة الحكومات العربية، صار يقلقها الغضب الشعبى على أمريكا تماما كما يقلقها التعاطف مع تنظيمات العنف. وكانت نتيجة هذا القلق أن أصابت الجرأة أو الانفعال حكومات المنطقة فانتقدت مشاريع الإصلاح القادمة من الخارج مستبدلة بها بسرعة هائلة مشاريع « نابعة من الداخل »، وبعد فضيحة أبوغريب ازدادت جرأة فبدأت تتراجع عن وعود الديمقراطية وأعلن بعضها أن ديمقراطيته أحسن من ديمقراطية أمريكا التى تنفذها فى العراق.

أمريكا تفقد مصداقيتها

لقد فقدت أمريكا مصداقية القائد الأعظم الذى أراد أن يقود بمفرده وضد رغبة حلفائه، فقدتها عندما عادت بطرق ملتوية تطلب مساعدة الحلفاء فى تخليصها من ورطتها فى العراق، وفقدت مصداقيتها كقوة أعظم تستطيع فى أى لحظة أن تشن حربا استباقية ضد إيران أو كوريا الشمالية أو سوريا وتكسبها. وفقدت مصداقية القدرة على كسب حربها على الإرهاب، بعد أن تسببت بأخطائها المتعددة والمتفاقمة فى كوارث ارتكبها الإرهابيون فى تركيا وإسبانيا وهم الآن يهددون دولاً أخرى فى أوروبا، وبخاصة دولة برلسكونى.

وتوقفت أمريكا عن كسب أصدقاء جدد، على مستوى الدول ومستوى الأفراد، لا تخفى الصين، كما كشفت روسيا مؤخراً، عن أن إدارة الرئيس

بوش تعمل بكافة الطرق لإثارة الفوضى فى الحياة السياسية الاقتصادية لكل منهما .. أقل القليل من الحكومات العربية مازال مطمئنا إلى تحالفه مع أمريكا ، فالخطر على الاستقرار الداخلى يتضاعف مع كل خطأ يرتكبه الحليف الأعظم. انسحب كثيرون من رواد الليبرالية الجديدة فى العالم العربى بسبب فقدانهم ثقة الشعوب، ومن لم ينسحب عاد «يوطن» ليبراليته عن طريق ممارسات وتنازلات مشينة. وكثير من حلفاء أمريكا فى حلف الأطلسى مترددون فى الاستمرار تحت قيادتها، وبعضهم من الحلفاء الجدد من شرق أوروبا، وفى الفناء الخلفى لأمريكا، أى فى أمريكا اللاتينية، انعقد أول مؤتمر قمة يضم زعماء أوروبا وزعماء أمريكا اللاتينية قالوا هناك إن ما حدث فى السجون العراقية على أيدى القوات الأمريكية ليس أقل وحشية مما حدث ويحدث فى هندو... وجوانتانامو ونيكاراجوا وشيلى ... لومبيا وغيرها على أيدى القوات الخاصة الأمريكية وخريجى مدرسة الأمريكتين العسكرية، واستمعوا جميعا إلى شكاوى تعبر عن انهيار الثقة فى الجار الأعظم. أين كل هذا من ثقة جماعة الرئيس بوش فى نفسها عندما تولت شئون واشنطن فى العالم؟!

أظن أن أمريكا فقدت السلطة الأخلاقية اللازمة لفرض إرادتها على العراق أو أى بلد عربى آخر، أو أى بلد على الإطلاق، بل وحتى القوى والمؤسسات داخل الولايات المتحدة ذاتها. هناك فى واشنطن حاليا حرب تصفيات مشتعلة بين أجهزة وأفراد ومؤسسات فى النخبة الحاكمة، وقد توقع أحد المحللين الأمريكيين بأنها ستشهد قبل الانتخابات سقوط رموز كثيرة، وتحققت توقعاته فسقط جورج تينيت رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA وسيعقبه آخرون.

لماذا هذه الورطة؟

لماذا فشلت إدارة الرئيس بوش فى مغامراتها الشرق أوسطية وبخاصة حربها على العراق؟ لماذا هذه الورطة؟.. الاجتهادات كثيرة وأعتقد أن بعضا منها يستحق الاهتمام. اشترك مع الذين يقولون إن هناك هوسا فى قمة السلطة فى الولايات المتحدة بالهندسة الاجتماعية. وأقصد بالهندسة الاجتماعية، هذا الفرع من علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد السياسى الذى يهتم بفكرة قدرة الولايات المتحدة أو واجبها إقامة بنية عالمية سياسية وأخلاقية جديدة وابتكار أيديولوجية تتماشى مع التحولات الدولية التى أعقبت انهيار نظام القطبين وإنجازات وتعقيدات العولمة، مثلا هناك

ـهوس فى واشـنـطـن بفـكـرة صـنـع نـظـام إقليمى جـديـد فى الشـرق الأوسـط يـبـتلع الجامعة العربية أو يضعفها إلى حالة اللافـاعليـة أو العـدم ، إن أمكن. الهندسة الاجتماعية هى فرض التـغـيير، بإصرار وتعمد وضمن خطة موضوعة سلفاً.

وأشترك أيضا مع المجتهدين الذين يلقون بمسئولية الفشل الأمريكى على الخـوف «المرضى» من الإرهاب. فـقـد استطاعت النخبة المسيطرة فى واشنطن سـحب الإرادة ثم الروح من الجـسـد الأمريكى، ليصبح المواطن أكثر طاعة فى الاستجابة لتوجيهاتهم وأكثر مرونة الأمر الذى يسهل عملية إعادة تشكيل فكره، هذا الخوف الجماعى أدى إلى قمع أصوات الانتقاد والمعارضة للحرب وكل بادرة هدفت لتغيير المسار وتخليص البلاد قبل وقوع أزمة مـحـقـقـة، واستطاعت هذه الإدارة بفضل انعدام الإرادة الجماهيرية، بسبب الخوف من الإرهاب، أن تسن ترسانة كاملة من القوانين تحد من حرية الفرد الأمريكى وتخرق خصوصياته وتجعله فى النهاية كقطعة شطرنج تلعب بها أقلية حاكمة ميولها فى الواقع، غير ديمقراطية ، إن لم تكن أقرب إلى الفاشية.

وأخطأت أجهزة الإعلام. أخطأت حين سمحت للقيادات العسكرية والمدنية أن تفرض عليها التعتيم على الأخبار السيئة التى كانت تخرج كل يوم من العراق ومن دهاليـز واشنطن، ويفـرض الرقـيب العسكرى عدم إذاعتها. كانت الميديا الأمريكية تعرف الكثير عن الأخطاء فى العـراق وعن سـوء تصـرف الضـبـاط والجنود وعن عدم كفاءة القوات الأمريكية بشكل عام وعن إهدار الأموال والفساد والرشـوة والتـعـذيب فى السـجـون والمعتقلات ولكنها استجابت لنداء «الوطنية» وللزعم بأن نشر ما يسىء للرئيس بوش أو للقيادة السياسية سيعرض حياة الجنود الأمريكيين فى الخارج للخطر، لذلك كنت أحد الذين ثمنوا غـاليـا الاعـتـراف الذى نشـرته صحيفة النيويورك تايمز منذ أيام قليلة بتقصيرها المتعمد فى تغطية أخبار العراق خلال السنة الماضية واعتذارها عنه، ولا شك فى أن إخفاء الحقائق عن الرأى العام الأمريكى كان سببا مباشراً فى تضخيم الصدمة الهائلة التى تلقاها، ثم عبر عنها الرأى العام، نتيجة نشر صور التعذيب فى سجن أبوغريب وغيره.

وعلى الجانب الآخر من الخـوف من الإرهـاب نجـحت إدارة بوش فى زرع شوفينية مخيفة حتى بالمعايير الأمريكية، لقد شاركت أنا شخصيا فى أكثر من مؤتمر ولقاء حضره أمريكيون من النواب والشيـوخ ودبلومـاسيـون من وزارة الخارجية وصحفيون وأساتذة جامعات، وكانت مفاجأة أن أسمع نغمة واحدة

يرددها كل هؤلاء عندما يناقشون السياسة الخارجية الأمريكية في ظل حكومة بوش، لم يكن الأمريكيون في أي يوم هكذا نمطيين ولم أعرفهم هكذا منساقين ومسحوبي الإرادة والرأى الشخصي، هذه الشوفينية دفعت المسئول الأمريكي، ديمقراطيا كان أو جمهورياً، إلى تأييد السياسة الخارجية لحكومته دون التوقف لحظة واحدة للتفكير في مدى ما يمكن أن يتسبب فيه هذا التأييد «الأعمى» من كوارث لأمريكا وشعبها.

الإمبراطوريون والمتدينون

تلك كانت أهم أسباب الورطة الأمريكية الراهنة حسب الاجتهادات السائدة، ومع ذلك، أتصور أن هذه الأسباب وحدها ما كانت حققت هذه النتائج الكارثية لو لم يوجد أشخاص في السلطة يمثلون مصالح معينة وأفكارا متطرفة ومستعدون لاستغلالها، ولتسهيل التعريف بهم قمت بتصنيفهم على النحو التالي: أولاً الامبراطوريون، أي هؤلاء الذين يحلمون منذ زمن بإقامة دعائم إمبراطورية طويلة الأجل تحكم العالم وتعمل على ألا يقوم فيه طرف منافس، ولاشك أن في مقدمة المنتمين لهذا «الصنف» الرئيس جورج دبليو بوش ودونالد رامسفيلد وكوندوليسا رايس وإلى حد ما ريتشارد تشيني. في

الصنف الثاني يجتمع المهووسون دينيا، وهؤلاء يعتقدون أن لأمريكا رسالة يتصور بعضهم أنها رسالة صليبية ويتصور البعض الآخر أنها رسالة أخلاقية نابعة من تقاليد حضارة الغرب، هنا أيضاً يوجد الرئيس بوش ومعه وزير العدل أشكروفت وآخرون من الذين يزينون للرئيس أنه ظل الله على الأرض، وأعتقد أنه حين نتحدث عن مسئولية المهووسين دينياً يجب أن نشير إلى هؤلاء الذين يعتقدون أن الله سيرفعهم إلى السماء ويترك بقية الناس يقتلون بعضهم بعضاً. ويقول الجنرال بويكين أحد قادة الهوس الديني «لقد اختار الله الرئيس بوش وجنوده ليحاربوا الأشرار باسم المسيح»، ومن المهووسين أيضاً السناتور ديلاي الذي يشبه بوش بالمسيح، «فكلاهما قوقازي أبيض»، وبما أن الشرق أوسطي صار في عرف هؤلاء مرادفاً للإرهابي، فلن يعترف هؤلاء المهووسون بأن المسيح كانت ملامحه شرق أوسطية. إن أعضاء هذا التيار، تيار الهوس الديني، مسئولون عن زيادة التوتر بين الحضارات في العالم وبخاصة بين دول العالم الإسلامي والولايات المتحدة، هنا لا يجوز نسيان الدور التخريبي الذي لعبه الأكاديميون الأمريكيون الذين دأبوا في العقدين الأخيرين على الكتابة في الأصول الثقافية في العلاقات الدولية وصولاً إلى أطروحتي

نظام الحضارات ونهاية التاريخ، ثم سيل الكتابات الشريرة المتدفق حتى الآن.

الأصدقاء

ثم يأتى صنف أصدقاء الولايات المتحدة، أو أصدقاء الرئيس بوش الوالد أو الإبن، الذين لأسبابهم الخاصة شجعوا حكومة الرئيس بوش الابن على الدخول فى هذه الحرب دون أن يحذروه من تعقيدات الشرق الأوسط وغموضه ورماله المتحركة. أقول هذا وفى ذهنى أصدقاء معينون للولايات المتحدة أعرف أنهم الأدرى بكل هذه التعقيدات والرمال والغموض. على رأس هؤلاء قادة سياسيون فى المنطقة العربية ومن دول إسلامية وكذلك طونى بلير رئيس وزراء بريطانيا. بالدرجة نفسها يتحمل المستشارون من العرب الأمريكيين المسئولية. هؤلاء ادعوا أنهم متبحرون فى دقائق السياسة العربية وحقائقها وبخاصة فى شئون العراق واستعدوا لتوجيه النصح والرأى والخطط القصيرة والطويلة الأمد. من هؤلاء أكاديميون تسببوا فى إلحاق ضرر جسيم ليس فقط بالسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط، ولكن بإدارة الرئيس بوش وسمعة الولايات المتحدة الخارجية، وأشعلوا نيراناً حقيقية فى ساحة العلاقات الأمريكية العربية. أذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر عجمى ومكية وفندى. وأن ننسى فلا يجب أن ننسى الدور الهائل، والمستمر حتى هذه اللحظة، للنفطيين الأمريكيين الذين قضوا أعواماً طويلة يحثون فيها إدارات متلاحقة فى الولايات المتحدة على احتلال مناطق إنتاج النفط أو للاستفادة من حروب تنشب فى هذه المنطقة لصالح شركات معينة وأفراد بعينهم فى الحزب الجمهورى. اشتغل هؤلاء ومهدوا لوصول الرئيس بوش إلى الحكم بداية، ثم ركزوا بشكل خاص على الحرب على العراق من أجل تحقيق مصالح لشركات نفطية سواء فى عملية إمدادات القوات الأمريكية أو فى التلاعب فى أسعار النفط فى السوق الأمريكية. كثيرون من هذا الصنف يحيطون بالرئيس بوش، وكلهم، فيما يبدو، خاضعون إلى سلطات نائب الرئيس ريتشارد تشينى وتوجيهاته الدقيقة.

المغامرون والأفاقون

ثم هناك المغامرون والأفاقون العراقيون. وقد انكشف أخيراً الدور الذى لعبه هؤلاء الأفاقون وأدى فى النهاية إلى أن وليم سافاير المعلق الأشهر فى نيويورك تايمز وأشد الأمريكيين اليهود كراهية للعرب ديانات وثقافة وشعوبا وقيادات وتاريخا أطلق عليها «حرب القبائل الأمريكية». اشتغل المغامرون والأفاقون لسنوات طويلة لغرس صورة معينة عن الوضع فى العراق وتسريب معلومات مزيفة أو صحيحة ووضع تصورات مختلفة أغلبها وردى وعلى غير

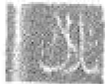
أسس عن مستقبل الحرب إن نشبت، بهدف تشجيع الولايات المتحدة على اتخاذ قرار الحرب. ويتضح الآن أنهم كانوا يلعبون لصالح طرف أمريكى ضد أطراف أمريكية أخرى، ولصالح أكثر من طرف من أطراف المعادلة الشرق أوسطية وأحياناً بعلم هذه الأطراف، وكانت النتيجة كما نراها، انكشاف عمليات تجسس أو خيانة.

المدنيون اليهود

يبقى الصنف الأخير وهو الذى كان يشير إليه الجنرال زينى حين قال «المسئولون عن الفشل فى الشرق الأوسط وفى العراق مدنيون فى البنتاجون وخصوصاً اليهود منهم، وعلى رأسهم نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتش ومساعد الوزير للشئون السياسية وكلاهما من المحافظين الجدد». ويستطرد زينى موجهاً حديثه إلى المشاهدين الأمريكيين «هذه الشخصيات رأت فى غزو العراق وسيلة للاستقرار فى الشرق الأوسط ولمساعدة إسرائيل. لقد شجعوا وساعدوا على ذلك حتى أنهم زوروا معلومات استخباراتية تخدم أهدافهم ومصالحهم».

فى هذا الصنف يقع بول ولفوفيتش ودوجلاس فيث وسكوتر ليبى. ويختلف المحللون الأمريكان وبعضهم من غلاة المحافظين الجدد الذين أفاقوا أخيراً عندما شعروا أن مواقفهم منذ عام قد يدفع ثمنها الحزب الجمهورى فيخسر انتخابات التجديد النصفى فى نوفمبر القادم وقد يخسر أيضاً رئاسة الجمهورية. أحدهم وهو مارك هلبرين كتب فى افتتاحية فى جريدة وول ستريت جورنال وهى الجريدة التى يشبهها الأمريكيون بجريدة برافدا السوفيتية بمعنى أنها الناطقة بلسان النخبة الحاكمة فى واشنطن، «يشكو من الحقيقة التى لا مفر منها وهى أن الحرب قد أديرت بعدم كفاءة من جانب هذه المجموعة فى البنتاجون، وهى مجموعة احتقرت بشكل متعمد التاريخ والاستراتيجية والفكر، ولم تضع اعتباراً كافياً للجندى الأمريكى» ويضيف قائلاً «يبدو أن خسائرنا البشرية المتفاقمة لم تؤثر حتى الآن لتهدئة غرور هذه القيادة المدنية».

ويختلف البعض حول ترتيب أعضاء هذه القيادة المدنية من حيث مدى الضرر الذى تسببوا فيه للولايات المتحدة الأمريكية. يقول الجنرال تومى فرانكس قائد حملة العراق إن دوجلاس فيث مساعد نائب وزير الخارجية الأمريكى «هو أغبى رجل على سطح الأرض» كما جاء فى كتاب بوب وود وورد «خطة الهجوم». يقول فرانكس إن هذا الرجل شكل مجموعتى عمل بعد ٩/١١ لتقرأ كل التقارير المخابراتية والدبلوماسية

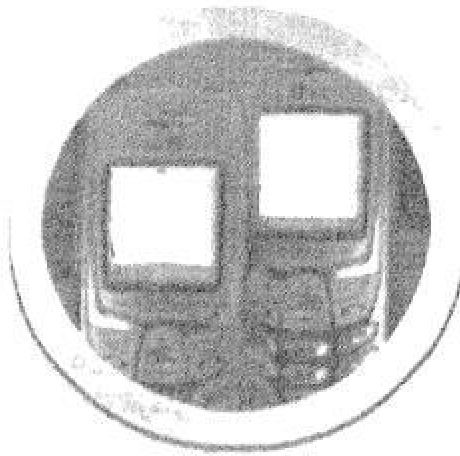


والصحف العربية على امتداد اثنى عشر عاماً ليثبت أن هناك صلة بين صدام حسين وتنظيم القاعدة، وقام بتزييف نتائج الدراسة وأرسلها إلى مكتب ريتشارد تشيني الذى استغلها ليدفع الولايات المتحدة نحو الحرب. «إن مكتب فيث هو الذى كان يحصل من أحمد الجلبى وزملائه فى المؤتمر الوطنى العراقى أولا بأول على معلومات زائفة عن أسلحة الدمار الشامل فى العراق».

والمعروف أن كولن باول وزير الخارجية كان يطلق على مكتب فيث فى البنتاجون «مكتب الجستابو». ويقال إنه قبل الحرب على العراق طلب فيث تشكيل فريق من القانونيين لإعادة تفسير اتفاقيات جينيف لصالح استخدام أساليب عنيفة مع المعتقلين. والمعروف أيضاً أن والد فيث واسمه دالك فيث كان عضواً فى منظمة «بيتار» الصهيونية الإرهابية فى بولندا والتى قام على أساسها حزب الليكود. ويتردد أن جريدة وول ستريت جورنال طلبت من كولن باول تقديم اعتذار عن عبارة «مكتب الجستابو» بحجة أن أبوى فيث ماتا فى غرف الغاز النازية، وأن العرف جرى بعدم المساس بالأشخاص المولودين لضحايا هتلر. ما لا يعرفه الكثيرون أن فيث تلميذ ريتشارد بيرل الملقب بأمير الظلام بسبب كراهيته للعرب والمسلمين ومعظم شعوب العالم، وأنهما اشتركا معاً فى إقامة التحالف التركى الإسرائيلى. وفى سنة ١٩٩٦ اشترك فيث فى فريق عصف فكرى فى إسرائيل ودعا فى هذا الاجتماع إلى الإطاحة بصدام حسين بهدف «تغيير الشرق الأوسط وبناء شرق أوسط جديد». وفى عام ١٩٩٧ دعا فى مقال له فى مجلة كومنترى اليهودية الأمريكية، إسرائيل إلى إعادة احتلال الأراضى الفلسطينية وإلغاء اتفاقية أوسلو. وفى مايو عام ٢٠٠٠ وخلال الحملة الانتخابية للرئاسة الأمريكية دعا إلى الاستعداد لغزو سوريا.

أختم بفقرة من تصريحات الجنرال زينى. قال متحدثاً عن القيادة المدنية والعسكرية الراهنة فى واشنطن، «لقد فرضوا علينا استراتيجية فيها ثغرات وعليهم أن يرحلوا. لو كنت قائداً للمؤسسة العسكرية وكان هذا أدائى لقدمت استقالتى. حان الوقت لتغيير الخطة فى العراق ومساءلة المسئولين عن وضع هذه الخطة لأن ما حدث حتى الآن فشل كبير».

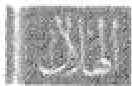
ومازال فى الولايات المتحدة من يقول إن الرئيس بوش يقود ثورة فى السياسة الخارجية الأمريكية، سوف تفرز آثارها فى المستقبل القريب. ■



المحمول وتداعياته الاجتماعية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

فى الهاتف المحمول اندمجت تقنيات عصر الفضاء مع تكنولوجيات ثورة الاتصالات، وسمح لنا بالعودة إلي أنماط الاتصال الطبيعية والأكثر إنسانية قبل المجتمع الصناعى، عندما عشنا فى مجتمعات محلية صغيرة ومستقرة، وتمتعنا ببهرجة الكلام والثرثرة داخل شبكة اجتماعية متكاملة ومحكمة. وتعيد الثرثرة بالمحمول إحساسنا بالمجتمعية والعلاقات الحميمة، وتساعدنا فى تخفيف الضغوط والعزلة التى تتميز بها الحياة الحديثة السريعة جدا، والتى أصبحنا فيها مقيدين فى كمية ونوعية الاتصال بشبكتنا الاجتماعية. فالهواتف المحمولة هى حبل نجاة اجتماعى فى عالم ممزق، تسود فيه القطيعة.



جماد أول ١٤٢٥هـ - يوليو ٢٠٠٤

وموضوع الثرثرة عموما جذب انتباه الباحثين فى علم النفس الاجتماعي، والانثربولوجيا، والسيكولوجي، والسيسولوجي، حتي الفلاسفة تورطوا فى النقاش، وأغلب الدراسات أبرزت الوظائف الاجتماعية والنفسية الإيجابية للثرثرة منها مثلا: تسهيل بناء العلاقات الاجتماعية، تكوين المجموعات الاجتماعية الملتصقة (العلاقات الوطيدة)، توضيح المركز والمكانة الاجتماعية، تعزيز القيم المشتركة، حل النزاعات والصراعات. ويذهب فيلسوف أخلاقى إلى حد الادعاء بأن الثرثرة تحسن معرفتنا وفهمنا للطبيعة البشرية، وتكتسب صلاحية الفضيلة المقدسة! ومهما كانت المنزلة الأخلاقية للثرثرة،

أثبت بعض علماء النفس أن الثرثرة غريزة إنسانية راسخة ، تؤدى وظيفة حيوية وعلاجية اجتماعية ، وحاولت الدراسات استكشاف الدور الذى تلعبه الهواتف المحمولة فى هذا السياق، وهل الهاتف النقال أصبح المكافىء المعاصر لسياج الحديقة الذى يمنع الغرباء والمتطفلين؟! وهل جعل الناس تعيش حياة أكثر سرعة ومزق وفتت وجزأ المجتمعات المحلية المتماسكة أم العكس ؟ وكيف أثرت الهواتف المحمولة على طريقة ثرثرتنا ؟! سنحاول فى هذه العجالة التمهيد للاجابة عن تلك الأسئلة على أمل استكمالها فى المستقبل .

التحرر من البيئة المحلية

منذ زمن طويل قبل اختراع الهواتف المحمولة ، والكتب ، وأجهزة الراديو ، والتليفزيون ، والفيديو ، والكومبيوترات والأدوات الأخرى ، فتح الطريق للأفراد لتحرير أنفسهم (عمليا وأيضا نفسيا) من بيئتهم الاجتماعية الفورية بتفويضهم وتمكينهم أن يحققوا الكثير من الحاجات السيكولوجية والمادية بدون الارتباط والاعتماد على الآخرين فى الجوار . فقراءة كتاب، على سبيل المثال ، تدل على أن هناك واحدا جلس يمتص الأفكار والمشاعر الموجودة فى الكتاب ، وعادة لا يتقاسم ويتشارك مع الأفراد الآخرين الحاضرين معه فى نفس المكان ، أو المبنى أو المجتمع تلك الأفكار والمشاعر ، وهكذا تناقصت قدرة الفرد على الاتصال والتعلق بالآخرين الذين يحملون نفس التجارب المشتركة . بطريقة مماثلة ، الناس فى الأماكن الحضرية يمكن أن يتهربوا من أى تفاعل مع الأغراب المحيطين بسهولة أكثر من خلال قراءة جريدة ، أو استخدام مسجل بسماعة وأيضا الانشغال بالمكالمات فى الهاتف المحمول، وهى كلها أنشطة مرئية يمكن أن تستخدم للاتصال بالآخرين الذين لانجد مدخلاً لمحادثتهم ، وساهمت الهواتف المحمولة فى توفير استراتيجية للأفراد للدفاع عن فضائهم الضئيل الخاص ، وسهلت لهم التمتع بحق الخلوة فى المناطق المزدحمة بالسكان ، والتى تفيض عادة بالإزعاج ، والمتطفلين والأغراب المجهولين . وإذا كانت النساء بصفة عامة لايحببن إظهار أنفسهن وحيدات فى الأماكن العامة ، لأن هذا قد يبين أنهن وحيدات بدون علاقات اجتماعية ، أو يأخذ عنهن انطباعا سيئا حول مكانتهن الاجتماعية ، أو يتركن فى وضع مكشوف يستغل من الذكور الأجنبية ، فإن الهاتف المحمول يخفف هذه النتائج ، ويصبح مفيدا إلى حد ما، لأنه يمكن أن يحمل الرسالة للأغراب تقول : أنا امرأة وحيدة فعلا ، لكن لست بمعزل ، فأنا مازلت فى محيطى الاجتماعى ، وأستطيع الاتصال به . وعندما نقارن قراءة الجرائد أو الاستماع لموسيقى المسجل ، مع استخدام الهواتف المحمولة نجد أن استخدام الأخيرة طريقة أكثر عدوانية للتحرر والانفصال عن الآخرين ، لأن

مكالمات الهاتف المحمول محتمل أن تزعج خصوصية الآخرين بالجوار ، خاصة تحت الظروف التى لايكونوا فيها غير قادرين أن ينسحبوا (على سبيل المثال فى المطاعم أو الحفلات والقطارات) .

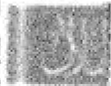
اللعب بالمحمول !

وينشأ عن اتصالات المحمول ظاهرة رفقاء الرنات ، وهى دائرة تفاعلية ضيقة يتبادل الفرد معهم الرنات ذات المعنى ، والمفهومه بينهم ، وبينت الدراسات عدم أهمية الموضوعات التى يتم تبادل الرنات أو المكالمات حولها ، وأنها لاتستحق الاهتمام الخاص بها ، واتضح من دراسات أخرى أن العديد من رجال الأعمال يستخدمون هواتفهم المحمولة كوسيلة للغياب المتعمد عن الجو المحيط بهم وإبقاء الناس الآخرين فى مأزق ! ويقول أحدهم : إذا وصلت وحضرت اجتماعا لا أعرف أى شخص فيه ، أماطل بهدوء باللعب فى هاتفى المحمول! واجعل الآخرين فى الخارج يرسلون لى أى رسالة ، أعلن فيها للحاضرين أنى مشغول ولازم أغادر المكان ! من ناحية أخرى ، أصبح إغلاق الهاتف المحمول طريقة جديدة لإظهار الاحترام للرفاق أو للافصاح عن احترام المناسبة . ومن مضامين المحمول أن الناس قد يكونوا أكثر ميلا إلى تجاوز التجاور الفيزيقى مع الأشخاص الذين ليس معهم أى علاقة أو لديهم علاقة سلبية بهم ، وهذه الوظيفة حاسمة خاصة للأفراد الميالين إلى تنمية شبكات كثيفة من التفاعلات الاجتماعية بشكل منتظم بعيدا عن مواقعهم المكانية الحالية . على سبيل المثال ، المراهقون فى كل الثقافات الإنسانية ميالون لاستخدام الهاتف ، لتوليد شبكات كبيرة من المعارف ، ويتجاوزن حدود العائلة والأماكن التى ولدوا فيها ، حيث تكتسب جماعات الأقران فى المجتمع المعاصر مركزية ومصداقية وأهمية أثناء فترة المراهقة .

على المستوى المنهجى ، نستنتج أن الهاتف المحمول يخفض الدرجة التى يمكن من خلالها أن نتوقع أى علاقات سببية بين الموقع المكانى والعلاقات الاجتماعية . على سبيل المثال : رؤية ٢٠٠٠ مثقف يشاركون فى مؤتمر كبير قد لايخبرنا أى شىء عن احتمال انتشار التفاعل المتبادل بينهم ، لأن معظمهم مستغرقا تماما ، معظم الوقت بالمكالمات التليفونية ، أو ملايين الريفيين الذين يهاجرون إلى مدينة كبيرة ولا يملكون عقلية وثقافية المدينة ، لوحظ أن معظم هذه الملايين تبقى مغروزة بإحكام فى مكانها الأصلى ، ومرتبطة بمجتمعاتها المحلية باتصال هاتفى يومى مع أقاربها المتروكين فى المناطق الريفية .

الانغلاق بدلا من الانفتاح

الوظيفة الرئيسية من التجمعات المباشرة القائمة على الاتصال وجها لوجه هو التعرض لصداقات جديدة ، وإقامة تفاعلات اجتماعية غير متوقعة . والهواتف المحمولة تستطيع بسهولة أن تحمى الفرد



فى التجمعات المباشرة من مثل هذه العلاقات الطارئة المتقلبة : بالهروب إلى عالمة الضيق القائم على علاقات اجتماعية ذاتية ومسيطر عليها ومتوقعة ومألوفه جدا (بأقرباء مقربين أو أصدقاء) ، وتنخفض فرص تكوين صداقات جديدة . ويؤكد علماء الاجتماع أن الفرد يملك فى اليوم الواحد طيفا واسعا من الأشخاص فى تفاعلات تلقائية وعشوائية ، لكن يبدو أن الفرد يتحرك فى المجتمع من خلال شبكة اجتماعية من الأفراد المتشابهين معه . وهكذا فالهواتف المحمولة تدعم الميول نحو الانغلاق بدلا من ميول الانفتاح : وذلك من خلال تقليل فرص تكوين أصدقاء جدد . وإمكانية اختيار العلاقات الاجتماعية التى نرغبها ، والتى توصلنا لخلق مسافات أكبر مع الغرباء أو شبه الغرباء . بعبارة أخرى الهاتف المحمول يفتح الطريق لادامة العلاقات التقليدية جدا بمجموعة معينة تحت الشروط الجديدة من القابلية المرتفعة للحركة والتشتت الجغرافى . والهواتف المحمولة تتيح نوعا من الاتصال التخيلى الافتراضى ، وفى الوقت نفسه تتفاعل مع خصائص ما قبل الحداثة حيث كان الناس لايتحركون بعيدا ، ويعيشون فى بلدات وقرى صغيرة قرب بعضهم البعض ، ويعرف كل شخص الآخر .. الخ، لكن هذا الاتصال التخيلى بالمحمول أصبح لايرتبط بموقع معين كما كان فى الماضى . وبينما يتناقص تدخل وتطفل الغرباء باستعمال المحمول ، نجد دوائر الصداقة القائمة تزداد عمقا من خلال كثافة أعلى من الاتصالات بصرف النظر عن الوقت والمكان فتتم صيانة وإدامة تلك الدائرة . فالهاتف النقال يعنى أن دائرة الأصدقاء متوافرة دائما، برسالة قصيرة يمكن أن ترسل. مثل هذه الميول للانغلاق الاجتماعى مدعمة بحقيقة مهمة عند مقارنة أرقام الهواتف الثابتة المعلنة والمنشورة دائما فى دفاتر الهاتف للعامة ، مع أرقام الهاتف المحمول التى يعرفها عادة دائرة ضيقة فقط من الأصدقاء والمعارف المختارين ذاتيا ، ولذلك لا نتوقع فى الهاتف المحمول ما يحدث فى الهاتف الثابت من مكالمات إعلانية وتسويقية من الفنادق والتأمينات والمؤسسات المختلفة لترويج بضاعتهم حيث يستطيعون الوصول لك من دليل الهاتف العام . ومستعملو المحمول هم الذين يستطيعون التقرير بأنفسهم من هم الذين يعلنون لهم عن أرقام هواتفهم ، فهم يمتلكون وسائل جديدة للسيطرة على حرية الوصول إلى دائرتهم الداخلية «أقرب الأصدقاء» من خلال الاتفاق على رموز معينة (رنات) بين المعارف . ووصفت شابة الطريقة التى تستعمل بها هاتفها لكى تتوسط العائلة فى ترتيب الزواج المحتمل ، بأنها إذا كانت تحب خطيبها ستعطيه رقم هاتفها المحمول ؛ أما رقم الهاتف الثابت سيستعمل فى الاتصالات التقليدية والعائلية بين الخطيب وعائلتها! فالمحمول أعطى القدرة للاحتفاظ بالعلاقات

الاجتماعية الأساسية عبر المسافات ، ويستطيع مسايرة الميول النفسية الارتدادية ، مثل الوقاية من التجارب المؤلمة في البيئات الأجنبية بالقدرة على الاتصال بإحكام إلى الأحباء في البيت : وهكذا، فالمحمول يوظف كمهدىء للبالغين ويخفض مشاعر الوحدة في الأماكن المكشوفة في أي وقت . والهاتف المحمول يجعل عملية التحرير الاجتماعي تدريجية وأقل إيلاما ، ويسمح للآباء والأطفال للاحتفاظ بقنوات اتصال تعبر الوقت والمسافة والمكان ، وهكذا عندما يزيد الأطفال من التحرك المستقل ، وتزداد أوقات غيابهم من البيت ، يستطيع الهاتف المحمول التخفيف من عملية التحرير ويجعلها عملية تدريجية أقل ألما ويسهل أكثر بقاء الأطفال على اتصال بآبائهم برابطة صريحة . ونتيجة لكل ما سبق ربما يصبح الأشخاص أقل ميلا لتطوير دائرة تفاعلاتهم وبالتالي كفاءاتهم الاجتماعية في التكيف مع اللقاءات غير المتوقعة ، أو المشاركة في محادثات بعناوين موضوعات طارئة ، أو في تشكيل انطباع وحكم سريع حول ناس نلتقي بهم حديثا ، أو التعلم بسرعة كيفية التصرف في التجمعات والمجموعات الجديدة . في الواقع نحن في حالة مأزق صريح ! لأننا مستمرون في فقد القدرة على المفاوضات الاجتماعية . والهاتف المحمول ساعد أيضا على الارتداد إلى الحالة الدائمة للتبعية الطفولية من نفس الدائرة الضيقة .

وجعل الأشخاص قد ينسون بسهولة الاعتماد على حكمهم وذاكرتهم وتفكيرهم ، لأن المحمول وفر لهم بسهولة شركاء اتصال آخرين كمصادر للرأي والنصيحة ، وعادة من دائرتهم الاجتماعية الضيقة . لدرجة أن بعض الباحثين ابدوا القلق الشديد على مثل هذا الربط بين المحمول وبين اضعاف قدرة الناس في الاعتماد على ذواتهم ، وجعلهم غير قادرين على العمل لوحدهم ، ويتركونهم معتمدين عليه كمصدر للمساعدة والنصيحة، فالشخص بهاتفه المحمول محاصر وأقل انكشافا أمام الفرص الطارئة والمغامرات والمفاجآت أو الحوادث العرضية . نفس الشيء تأثيرات الهواتف المحمولة على المحيط الاجتماعي أصبحت مرئية كأداة تقنية جديدة لأشغال أوقات الفراغ . في اليابان ، يستعمل العديد من الناس هواتفهم المحمولة لإمضاء وقت الانتظار لأنهم في أغلب الأحيان يكونون مبكرين في مواعيدهم ويتجنبون التأخير . ولكنهم مازالوا يستعملون الطرق القديمة لشغل وقت الانتظار مثل قراءة المجلات الهزلية والصحف . وأوضحت دراسات أخرى أن هناك احتمالاً في تناقص حصول ووصول الشخص حامل المحمول إلى المعلومات من العالم الأوسع (أخبار سياسية أو إعلانات تجارية) ، لأن فرصته زادت في الحصول على تلك المعلومات بالاتصال مع الأصدقاء الأقرب من خلال المحمول . وإذا كانت الهواتف المحمولة تدعم العزلة بتعزيز

الشبكات الاجتماعية الذاتية السيطرة ، يجب ألا يدهش أحد ، أن المحمول يحفز أيضا ظهور الفروق فى الثقافات الفرعية ، ومثل هذه الفروق مرئية بشكل رئيسى بين مجموعات الأعمال : حيث يركز البالغون على النداءات الصوتية (الرنات) ، بينما اعتنق الشباب إرسال الرسائل النصية القصيرة بأكواد ورموز لغوية معينة لاتنفتح للدخلاء ، وأصبح للصغار فولكلورهم الخاص ، وثقافتهم المخفية أو المخفية جزئيا عن البالغين فى استعمالات المحمول ، على نقيض من ذلك الهاتف الثابت الذى روج وأنشأ الكثير من الأشكال اللغوية والتعبيرات العامة جدا (ومثال على ذلك : الاجابة بصيغ مثل «هالوا» ، «حالا» بسرعة الخ) ، فالهاتف المحمول سهل ظهور العادات اللغوية الخاصة والمميزة لدوائر القرابة والصداقة ، ومن المحتمل أن يبقى على الثقافة التقليدية ويميزها بالمعانى المدعومة برموز لغوية . والاتفاق على الرموز والأكواد فى رسائل المحمول النصية SMS يكون بين ١ - الشركاء القريبين جدا الذين يشتركون فى نفس الثقافة الضيقة لاستعمالات اللغة ومعانيها الرمزية ، لأنهم على معرفة بها منذ وقت طويل (مثل الرجال والنساء والمسنين) ٢ - بين الأشخاص الذين يشتركون فى نفس الثقافة الفرعية اللغوية (ومثال على ذلك : الشباب الذى يتكلم نفس المفردات) ٣ - الأشخاص الذين ينشغلون فى الأشكال القياسية أو الروتينية من التعاون أو الصفقات والعمليات التجارية ، حيث بضعة كلمات ضرورية فقط تكفى لإرسال رسائل واضحة والتوصل إلى اتفاق .

وظائف الأدوار الاجتماعية التكاملية

تساعد الهواتف المحمولة على تخفيض الاجهاد الناشىء عن متاعب الأدوار الاجتماعية بطريقتين مختلفتين تماما ، الأولى تجزئة وتفكيك الدور الاجتماعى ، والثانية بزيادة قدرة تجميع وتخزين وتنسيق الأدوار المتنوعة العفوية ، فالمجتمعات الحديثة تتميز ، بأن أفرادها يدمجون عددا من الأدوار المختلفة ، بحيث تنمو خاصية الفردية إلى الدرجة التى يدرك كل شخص خصوصية مجموعة أدواره الاجتماعية التى تميزه ، والمسارات الخاصة بها عبر الزمن ، وما يتطلبه كل دور من تواجد طبيعى فى مكان معين (موقع عمل ، شقة خاصة ، مسجد ، كنيسة ، مدرسة الخ) والهاتف المحمول يعطى الفرصة للتغيير السريع للدور الاجتماعى بدون تغيير الموقع المكانى ، ويسهل التوافق والتناغم بين واجبات الأدوار المختلفة ، ويوفر التكاليف الاحتكاكية المرتبطة بنشاطات التحرك والانتقال والسفر وتضييع للوقت . هكذا، تستطيع النساء مثلا الاشتغال فى «التربية من على بعد» أو بمعنى أدق القيام بدور الأم من على بعد ، أو تمارس عملها الوظيفى من على بعد ، أثناء قيامها

بالعمل المنزلى فى البيت : حيث يسمح الهاتف المحمول لهن بالتواجد فى منازلهن وتأدية العمل الوظيفى فى نفس الوقت ، بمعنى أن النساء من خلال المحمول يعملن فى «نوبات متوازية» بدلا من النوبات المضاعفة . والمفارقة أن الهاتف المحمول يمكن أن يسهل الإدامة والتأكيد (بدلا من الإزالة) على الأشكال التقليدية من تقسيم العمل بين الجنسين ، لأن أزواج الأمهات الناجحات واللاتى يمارسن الأمومة من على بعد ، قد يجدون المنطق والحجة لتجنب الواجبات العائلية . وعلى النقيض من السينما وأجهزة الإعلام الأخرى التى تجبر الأشخاص لتضمين أنفسهم أثناء الوقت المحدد للتعرض الذى يمتد وقد يستغرق ويمتص وقت الفراغ ، العكس فإن النقص فى وجود وقت الفراغ هو الذى يجعل الناس ميالين لاستخدام المحمول بتركيز ، ومن ناحية أخرى يجب ملاحظة أن القدرة على أداء أدوار اجتماعية متقلقة ومتزامنة ، تزيد أو تنقص وفقا للإمكانيات التقنية للهاتف المحمول ، فالفيصل الدقيق بين لعب الأدوار المحلية والأدوار من على بعد ، متوقف أولا على إمكانية المستقبل للرسالة سماع صوت الشخص المتصل ، وثانيا ، القدرة على إدامة الأدوار المحلية ستعاق بجدية إذا أصبحت نداءات الهاتف المحمول معتمدة على تقنيات الميلتميديا التى تتضمن قنوات اتصال بصرية أيضا . والهاتف المحمول ، من نواح عديدة ، يمثل نقيض هواتف الفيديو التى يرى فيها المستقبل المتصل، حيث تتطلب هواتف الفيديو التثبيت فى موقع معين ، بينما نستطيع التجول بالهاتف المحمول ، وفى الهاتف الفيديو المستخدم مجبر على الانتباه إلى الشريك الآخر فى المحادثة ، بعكس المحمول المستخدم أكثر حرية لتنفيذ النشاطات المتوازية أثناء الاتصال ، المكالمة فى الهاتف الفيديو حدث محدود المعالم بشكل واضح ، بينما فى الهاتف المحمول معالمها أقل وضوحا ، وتستطيع أن تقتحمنا وتتطفل علينا فى الحافلة ، أو فى المطعم، أو فى المسجد والكنيسة . هكذا ، تأثيرات المحمول على وظائف الأدوار الاجتماعية هى السبب الجوهرى الرئيسى لتبنى الهاتف المحمول ، حيث تزيد قدرة المحمول على إدامة وصيانة الأدوار الاجتماعية الواسعة الانتشار والتى تتطلب مشاركة وانغماسا غير محدود ، وهى أيضا مفيدة لحفظ الأدوار الواسعة الانتشار المستفيضة التى تتطلب بأن صاحب المنصب تقريبا يجب تواجده طوال الوقت ، لأن مثل هذا التوفر والتواجد ييسر حرية الحركة والتنقل مع الانغماس فى النشاطات الاجتماعية أو الخاصة الأخرى . وهكذا، أمهات يستطعن استعمال الهواتف المحمولة لرعاية أطفالهن ، فهن على اتصال معهم طوال اليوم ، حتى عندما يتواجدن فى العمل أو على السفر ، وأطباء العائلة يمكن أن يكونوا متوفرين إلى مرضاهم حينما

يحتاجوا لهم ، حتى إذا كان الطبيب فى حفلة عشاء أو موقع خاص آخر ، بنفس الطريقة، المدراء يستطيعون حفظ دورهم القيادى الذى يتطلب تواجدهم على مدار الساعة ، ويمنعون عمليات التفضيل والتحيز التنظيمى عندما يوفدوا ممثليهم إلى موظفيهم .

السيطرة على إمكانية الوصول

من غير المحتمل أن يعرض الناس أنفسهم لكل نداءات المحمول طوال الوقت ، فهم يمارسون كنترولاً وسيطرة على إمكانية الوصول بدرجة أعلى بالمقارنة بالهواتف الثابتة فى المنازل ، ومثال على ذلك : تقرير متى يفتح ويقفل الهاتف المحمول ، معالجة درجة صوت الجهاز ، تحديد الدائرة الاجتماعية التى تعرف رقم الهاتف ، أو المعالجة الانتقائية لترشيح النداءات المرحب بها ، أو النداءات غير المرغوبة، فيسمع الأشخاص غير المرغوب فيهم «إشارة مشغول» حتى لو كان الهاتف مفتوحاً . هذا الخيار الأخير يعتمد على وظيفة تعريف هوية المتصل، على سبيل المثال ، المراهقون يتجنبون اتصالات الآباء عندما تكون هناك صعوبات اجتماعية ولا يلبون نداءات آبائهم ، وإذا واجهوهم ، يقولون ببساطة بأن بطاريتهم كانت ميتة أو بأنهم ما سمعوا المحمول يدق ! ويتوفر فى المحمول أيضا استراتيجية مساومة وتسوية مفيدة ومجهزة بقدرة الهواتف الرقمية لخزن أرقام النداءات القادمة ، وترتيب المكالمات التى لم يرد عليها وفقا لوقت استقبالها ، لكى يختار المستخدم فيما بعد الوقت الملائم للرد عليها . وهناك طريقة هروب أخرى ، وهى استخدام الرسائل النصية (SMS) وتترك إلى المستلمين متى يستجيبون لها ، وهذا يعطيهم وقتا لتصميم ردهم بعناية ، لكى يعكس مواقفهم الأصيلة واتجاهاتهم الحقيقية ، بدلا من تأثير العوامل الخاطفة المتقلبة ! وفى المستقبل ربما ترى هواتف محمولة تعطى الامكانية لمستخدمها على ترتيب الرسائل القادمة وفقا لمعامل الوصول حيث تعطى درجة بين صفر إلى ١٠٠ للرسائل القادمة وفقا للرغبة المستخدم للرد عليها ، ويستطيع المتصل التعرف على الدرجة التى أعطاها المستلم الرسالة ، التى تبين مدى رغبته فى الإجابة ، ورغبته فى أن تكون المكالمة قصيرة أو أكثر تطويلا ! فالهواتف المحمولة فى المستقبل ستصمم لإعطاء رد فعل دقيق للشخص المتصل وتبين له مدى الترحيب به !

المسئولية الشخصية والسيطرة الاجتماعية

العديد من التقنيات الصاعدة أخيراً «تشجع» وتزيد البدائل المتوفرة أمام الأشخاص أو المجموعات الاجتماعية ، لكن فى كل الحالات ، مثل هذه المكاسب فى الحرية والاستقلال يوازيها زيادة ملحوظة فى المسئولية الشخصية والسيطرة الاجتماعية ، لأنهم يواجهون

توقعات اجتماعية خلال تفعيل هذه الخيارات الجديدة ، ومطالبين فى الوقت نفسه بتشريعها وتبريرها أو حذفها ، ومن الجوانب السلبية للهواتف المحمولة زيادة المسئولية الشخصية ، حيث تنخفض الاستفادة من أعذار مثل: «أردت بالتأكيد أن أدعوك ، لكني ما كنت قادراً على ذلك لأنى لم أجد هاتفاً عاماً» ، فمن النتائج الاجتماعية الأكثر وضوحا للاتصال اللاسلكى ، أنها تجعلنا أكثر مسئولية نحو أفعالنا، ونحو الناس المسئولين أمامهم ، وأصبحنا أكثر خضوعا إلى الضبط الاجتماعى . وهكذا فالحريات التى اكتسبناها بأن نكون قادرين على الاتصال بأي شخص من أى مكان وفى أى وقت ، على الأقل عطلت جزئيا بالمسئوليات المتزايدة لتلبية النداءات القادمة ، والإبقاء على الاتصال بالأقارب والأصدقاء الذين يتوقعون أن نتصل بهم .

تبديد فرحة اللقاء

تتجلى العلاقات الاجتماعية المثالية فى تناوب واضح بين التفاعل والكمون، حيث الشركاء المنفصلين قد يستظهرون ببساطة التفاعلات السابقة مع الشركاء الغائبين ، ويتخيلونهم فيما يفعلونه حاليا ويفكرون ، ويعدوا أنفسهم للقاءات مستقبلية . مثل هذه التوقفات والانقطاعات التفاعلية قد تكون ضرورية جدا للتفكير وإعادة النظر أو للتهدئة بعيدا عن العواطف الحرجة ، أو ردود الأفعال التلقائية أكثر من اللازم ، والتى قد توصلنا إلى نتائج غير قابلة للنقض ، ويمكن أن نتجنبها والوجود الإنساني غني بالتأكيد بمشاعر الشوق أو الحنين إلى الوطن ، وبتجارب عدم الأمان والقلق حول ما قد يفعله الآخرون ، وبالحزن عند مفارقة الأحبة والبهجة عند رجوع الأحباء الغائبين ، والهواتف المحمولة تميل إلى تسطيح مثل هذه التذبذبات والموجات العاطفية : ومثال على ذلك : المحمول يجعل الوداع أقل إثارة لأننا نستطيع «البقاء على اتصال» دائما ، والمحمول يبدد الإثارة والشوق والغبطة المقترنة برؤية عودة الغائب مرة ثانية ، لأن الفراغ الذى خلق بالغياب الطويل ملأ بالرسائل البريدية الالكترونية ، ونداءات هاتف المحمول ، ورسائله النصية SMS ، وجميع الاتصالات الأخرى . واستعمال المحمول جعلنا نفقد السمات الإيجابية لأوقات البعد والفراق ، والتي ملأها المحمول بالثرثرة حول الأفكار ، والمغامرات الممكنة ، وملاحظة الأحداث ونظم ورتب التدفق الصريح داخل العلاقات الاجتماعية ، وأصبحت لحظات عدم الاتصال بالمحمول فى الفراق ثمينة جدا ، لأنها تنظم شبكة من العلاقات الداخلية إيقاعها الوجود أو الغياب .

توسيع العلاقات الخارجية والروابط الاجتماعية الضعيفة

أوضحت نتائج الأبحاث أن الهاتف عموما ، يوسع الشبكات الاجتماعية بشكل واقعي بين الأشخاص بإضافة الاتصالات التى لم تحدث فى الواقع . على سبيل المثال ، يساعد الهاتف الفرد أن يكون على اتصال بأقرباء لايحب رؤيتهم ، أو إلى الأصدقاء والمعارف الثانويين الذين لم

يتزاور معهم ، وهكذا الهاتف المحمول يستطيع المساعدة لتوسيع الدوائر الخارجية للعلاقات الاجتماعية : حيث ينشط «الروابط الضعيفة» التى تنشط فقط تحت ظروف معينة جدا مثال على ذلك البحث عن شغل أو شقة . وهذه القدرة تجعل الهواتف المحمولة مفيدة خصوصا للأشخاص الذين يعيشون فى عالم متعدد الارتباطات والعلاقات المتعددة والعابرة غير الثابتة أكثر من كونها علاقات قوية ، وطيدة بأشخاص الدائرة الداخلية أو التقليدية . ويسهل الهاتف المحمول الاتصالات بالأشخاص فى أوقات لايحبون فيها أن يظهروا ويقدموا أنفسهم بشكل بصرى، مثل صباح أيام الاجازات التى يتحرر فيها الناس من الرسميات ولايحبون الغرباء رؤيتهم فى هذا التحرر !

كلية الوجود

وأخيرا بعد هذه العجالة المختصرة لبعض التداعيات الاجتماعية للمحمول، نستطيع القول أن الهواتف المحمولة ظاهرة غريبة جدا ، كلية الوجود ، موجودة فى كل مكان ، حيث ورد فى تقرير نشرته رويتر فى ٢٥/٢/عام ٢٠٠٤ ، تبين فيه أن نصف سكان العالم سيستخدمون المحمول عام ٢٠١٥ (أربعة مليارات شخص) ، ارتفاعا من نحو ١.٢ مليار عام ٢٠٠٤ . وانه بحلول عام ٢٠٠٨ سيصبح عدد مستخدمى الهواتف المحمولة ملياري شخص . وتبين احصاءات مركز المعلومات بمجلس الوزراء فى مصر أن هناك حوالى ٥ ملايين مستخدم للمحمول حتى عام ٢٠٠٣ .

هذا ورغم تساوى كل الناس فى استخدام الهاتف المحمول ، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن استعماله مازال يصادف بعض المقاومة ، خصوصا بين أصحاب الثقافة العليا ، وكبار السن ، والنساء ، وتتفاوت الأسباب من الخوف التكنولوجى «التكنوفوبيا» إلى الخوف من السيطرة على الاشعاعات الصادرة من المحمول. لكن من الناحية الأخرى انتشر المحمول بسرعة بين الصغار ، ووصل للمجموعات العمرية الصغيرة جدا ، وأيضا بين الناس العاديين الذين ليس لهم أسباب خاصة لرفض أداة مفيدة . ومن ناحية أخرى استعمال الهواتف المحمولة لها تكاليفها المتزايدة أيضا ، هذه التكاليف فى بعض الحالات أصبحت عبئا اقتصاديا ، يؤدى إلى ديون مرهقة ، خاصة ارتفاع تكاليف هاتف الأطفال . وهذا ليس بالضرورة شيء سيىء لكن ما زال للهواتف المحمولة نفقة ثقيلة ، قد تؤثر عكسيا على اقتصاديات الأسرة ، وازعم أننى من القلة التى لاتستعمل المحمول ، ليس بسبب ثقافى أو عمرى أو اقتصادى ، ولكن لسبب جديد تماما ، لم تطرحه الدراسات الاجتماعية ، وهو كلما احضر تليفونا جديدا لاستعماله ، يتم الاستيلاء عليه من قبل أولادى ، كرمز لاقتحام دور الأب وتجاوز سلطته، وكان الحل هو مقاطعة المحمول نهائيا! ■

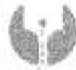
أطفال الشوارع

أطفال فى خطر!

بقلم
د. أحمد شوقى العقباوى

مازال الاهتمام باحتياجات الطفولة، رغم دخوله دائرة الرعاية الدولية، بعيداً عن أن يكون مكوناً أساسياً في خطط التنمية الوطنية. وفى ظل وعى بأن تنمية الطفولة ليست مجرد مشروعات اجتماعية واقتصادية على المستويين الحكومى والأهلى، فإن هذه التنمية تتطلب صياغة سياسية شاملة متعددة الأهداف ومتكاملة مع غيرها من السياسات التنموية، حتى نضع أساساً لمجتمع سليم، تتقلص فيه الآفات الاجتماعية.





والحقيقة أن الاهتمام بالطفل قد بلغ حده الأقصى بعقد القمة العالمية للطفولة في عام ١٩٩٠، تلك القمة التي صدرت عنها الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل، والتي صدق عليها معظم دول العالم. غير أنه من سوء الطالع أن يكون نفس التاريخ هو بداية استفحال ما سمى بالنظام العالمي الجديد، الذي رفع شعار العولمة، واعتمد مجموعة من القيم الاقتصادية، التي من شأنها، ليس فقط توسيع الفجوة بين الفقراء والأغنياء، وإنما ضم الطبقة الوسطى، صاحبة الأغلبية، إلى عالم الفقراء المعوزين.

لقد أدت زيادة معدلات الفقر وانتشار البطالة وتضخم أسعار متطلبات المعيشة والخدمات الاجتماعية إلى التآكل التدريجي لهذه الطبقة وهو ما انعكس على العلاقات الأسرية، ومن ثم ظهرت السلبيات الاجتماعية التي أصابت في الأساس أطفال الأسر الفقيرة والمعدمة. وتتابعت الدراسات التي اهتمت بالأطفال، وكان من نتائج ذلك ظهور مفهوم «الأطفال في ظروف صعبة» الذي تبنته الأمم المتحدة من خلال منظمة اليونيسيف، التي تبنت أيضا في السنوات الأخيرة مصطلح «الأطفال المحتاجون لحماية خاصة».

وإذا كان المصطلحان يشيران إلى الظروف التي ينشأ فيها الأطفال، فمن المهم التأكيد على أن هذه الظروف الصعبة هي دائما خارجة عن إرادة الأطفال أنفسهم، في الوقت الذي يعتبر الفقر من أهم العوامل المشكلة لتلك الظروف، دون إسقاط عوامل أخرى مثل المأوى الملائم والرعاية الأسرية.. ومن المهم أيضا أن نقول إن الطفل المشرد هو إفراز طبيعي لتلك الظروف.

طفل الشوارع

وليس هناك أدنى شك في أن الإنسان السوي هو نتاج أسرة سوية سليمة تنعم بالدفء العائلي واستقرار الوضع المادي، والعكس أيضا صحيح، فالطفل المشرد الملقى في الشارع، هو ظاهرة ترتبط بالظروف الاقتصادية والاجتماعية المتردية، لذلك فإن التصدي لظاهرة «طفل الشوارع» لا يمكن أن يكون ناجحا إلا إذا كان على أساس نظرة كلية تحلل الظاهرة وتعالج أسبابها الجذرية في نفس الوقت. كما يجب أيضا النظر إلى الظواهر الاجتماعية على أساس طبيعتها من حيث إنها مترابطة في شبكة من علاقات السببية المتداخلة، فعمالة الأطفال، وتعاطي المخدرات والاتجار فيها، والتسرب الدراسي، وارتباط كل هذا بالفقر وأزمة الإسكان والتفكك الأسري يغذي كل منها الآخر.

وظاهرة أطفال الشوارع ظاهرة حديثة نسبيا في مصر، ارتبط ظهورها وانتشارها بتزايد معدلات الفقر والاستبعاد الاجتماعي كأحد النتائج السلبية لسياسات الإصلاح الاقتصادي التي تعتمد، كما تقدم، الاقتصاد الحر فلسفة بالاضافة إلى التنمية غير المتوازنة بين الريف والحضر، والتي زادت من معدلات الهجرة الداخلية إلى التجمعات الحضرية.

وعلى الرغم من شيوع مصطلح



الأطفال المشردون فى الشوارع ظاهرة ترتبط بالظروف الاقتصادية والاجتماعية المتردية

«أطفال الشوارع» فإنه لا يعنى معنى محددا لدى المهتمين، ولذلك نجد الظاهرة تحت مسميات مختلفة مثل «التسول»، «التشرد»، ولكن فى الأغلب الأعم كان التركيز من حيث المدلول على علاقة قوية للطفل بالشارع. وفى هذا الاطار أعتبر طفل الشارع هو ذلك الطفل الذى عجزت أسرته عن إشباع حاجاته الأساسية الجسمية والنفسية والثقافية كنتاج لواقع اجتماعى اقتصادى تعيشه الأسرة، في اطار ظروف اجتماعية دفعت بالطفل، دون اختيار منه، إلى الشارع كمأوى بديل معظم أو كل الوقت بعيدا عن رعاية وحماية أسرته، يمارس فيه أنواعا من الأنشطة لإشباع حاجاته، معرضا طوال الوقت للخطر والاستغلال والحرمان.

ولقد أدى الاضطراب فى تحديد تعريف للظاهرة إلى عدم معرفة الحجم الحقيقى لها بشكل دقيق، حيث تشير الإحصاءات المتوافرة إلى عدد الأطفال الذين تم القبض عليهم وتسجيلهم فى أقسام الشرطة، على أن المراقبين لهذه الظاهرة يؤكدون على تزايدها وانتشارها فى مراكز حضرية أخرى بالاضافة إلى المدن الرئيسية الكبرى التى تشهد كثافة أطفال الشوارع. ولقد أوضحت الدراسات حول هذا الموضوع أن كل أو الغالبية العظمى من أطفال الشوارع قد أتوا من عائلات تقع تحت حد الفقر المدقع وأن معظمهم أتوا من الريف أو من المناطق الهامشية الحضرية الفقيرة التى هاجرت إليها العائلات الريفية للبحث عن فرص أفضل للعيش.

أسباب الظاهرة

وظاهرة أطفال الشوارع ظاهرة ذات جذر عميق، ترفدها وتتسبب فى وجودها

عناصر مغذية منها الأزمات الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية ولهذا فإن محاولة الاقتراب منها وتحليلها لابد لها من البحث عن هذه الأسباب وعلاجها. هذا مع الأخذ في الاعتبار أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية مثل التعليم والعلاج والإسكان والبطالة ومحدودية الدخل هى أوعية مستطرقة يغذي كل منها الآخر ويرفده.

وفى كثير من الدراسات التى تناولت ظاهرة أطفال الشوارع كان التركيز على التفكك الأسرى والفقر كأهم سببين من الأسباب الملازمة للظاهرة. والحقيقة أن هذين السببين غالبا ما يأتى أولهما نتيجة للأخير، فأغلب حالات التفكك الأسرى تأتى نتيجة عجز الأب عن الوفاء باحتياجات الأسرة، فيلجأ إلى الطلاق. ولعدم كفاية مظلة الضمان الاجتماعى، فإن المرأة تضطر للزواج، ويضطر الأطفال بسبب إحساسهم بالرفض وسوء المعاملة من الشريك الجديد إلى الهروب إلى الشارع فى أغلب الأحيان.

ولا يمكن إهمال عامل الفقر فى تسرب الأطفال من التعليم، فارتفاع تكاليف الدراسة، وانتشار الدروس الخصوصية وضعف القدرة الاستيعابية للمدارس وازدحام الفصول، والعلاقة المتوترة بين الطالب والمعلم كلها أشياء تؤدى إلى هروب الطفل من التعليم ليتلقاه الشارع بالترحاب.

ظاهرة عالمية

وأطفال الشوارع فى أوروبا، وخاصة فى ألمانيا، يشكلون أزمة فى المجتمع يسعي المسئولون هناك إلى معالجتها بوسائل تربوية واجتماعية واقتصادية، بينما تمثل الاقطار النامية مشكلة معقدة جدا، فأطفال الشوارع فى هذه البلدان يمثلون «شعبا داخل الشعب» إذ أن كل طفل من اثنين فى أمريكا اللاتينية هو من أطفال الشوارع، وهم أطفال وأحداث معظمهم من غير مأوى أو رعاية عائلية، يتجمعون فى الشوارع والأزقة والعقارات المهملة، بعد انفصالهم عن أسرهم تماما، ويمارس بعضهم الأعمال البسيطة، بينما يغرق معظمهم فى مستنقع الفراغ مما يؤدى إلى الوقوع فى براثن الجريمة وتعاطى المخدرات.

وفى النهاية نقول إن طفل الشوارع جدير بإعادة النظر فى أمره من أجل الخروج بتشريعات تهتم به من منظور حقوق الطفل، وأن الظاهرة جزء من الآثار السلبية المعاصرة لنهج التنمية عن طريق الاقتصاد الحر. كذلك فإن غياب الدراسات الميدانية المسحية لتحديد حجم الظاهرة هو أهم سلبية تعترض التدخلات الرشيدة التي يجب أن تأخذ فى الحسبان ظروف الأسرات التى تعتبر - كما تقدم - منبع الظاهرة، وظروف مجتمع الشارع الذى يتفاعل مع هؤلاء الأطفال، وهى ظروف خطيرة تجعل هؤلاء الأطفال دائما.. أطفالا فى خطر. ■

السودان

وآفاق المستقبل

بين آمال الوحدة والتنوع وتداعيات الانفصال

بقلم
مصطفى نبيل

اتفاقية السلام بين حكومة السودان والحركة الشعبية، تعتبر - كما يتصور البعض - نهاية الصراع الطويل الدامي الذي أنهك السودان، واستنزف موارده، وراح ضحيته مايزيد على مليوني نسمة من أبناء جنوب وشمال السودان، إنما هي بداية نوع آخر من العمل لايقل أهمية وخطورة .. إنها بداية بناء سودان حديث.

فمضى زمن الصراعات المسلحة، التي لم تتوقف في السودان منذ الاستقلال سنة ١٩٥٦؛ وحتى اليوم، سوى نحو عشر سنوات عقب اتفاقية أديس أبابا، وأخذ السودان خلال هذه الفترة الطويلة، «يأكل بعضه بعضا» على حد تعبير أحد الإنجليز!!

وبدأت المعركة ضد التخلف والقبلية والأمية، وضد التمييز، معركة الفكر الجديد في مواجهة ذلك الفكر الذي لايحلو له سوى النظر إلى الخلف.



كان السودان - ولا يزال - غنيا بثرواته الزراعية وموارده الطبيعية
فهل يمكن استثمار ذلك لتنمية وتطوير السودان الموحد



حقا .. إن د. جون قرانج قائد الحركة الشعبية ينادي بوحدة السودان، ويصر في ذات الوقت على النص على حق تقرير المصير، وهو بذلك عكس سلفه جوزيف لاجو، الذي طالب بالانفصال ثم عقد اتفاقية الوحدة في أديس أبابا.

وتصور البعض أن قرانج في مطالبته بوحدة أراضي السودان، إنما يمارس ألاعيبه السياسية التي أتقنها، ولكنه نجح بخلفيته الماركسية في ضم عدد من الشخصيات السياسية في الشمال، وعلى رأسهم د.منصور خالد، وهو السياسي السوداني الذي كان سكرتيرا لعبدالله خليل رئيس وزراء السودان الذي سلم الحكم للفريق عبود، ووزير الشباب ثم الخارجية في حكومة نميري، وبعدها أصبح جزءا من التجمع الوطني الذي يضم حزب الأمة والحزب الوطني الديمقراطي، ورغم الهجوم الذي شنه على حسن الترابي وحزب المؤتمر الشعبي، عاد واتفق معه في مواجهة حكومة البشير، ونجح في إقامة جبهة واسعة من أحزاب الشمال والجنوب في مواجهة حكومة الخرطوم، وعلاوة على ما قام به في براعة سياسية إلا أنه يدل على الاعتراف بالآخر رغم التباين في المواقف السياسية.

ومما يزيد الأمل في أن يصبح الاتفاق الجديد مدخلا للتحول الديمقراطي، وإقامة نظام ديمقراطي تعددي.

وصحيح أن اتفاقية السلام هي اتفاقية بين «جنرالين» أنهكهما القتال، وتأكد لكل منهما، أنه لن يستطيع تحقيق أهدافه بالسلاح، جنرال الخرطوم وجنرال الجنوب وأخذ كل منهما يفقد تميزه كحامل للسلاح!

وصحيح أيضا .. أن قرانج يعتبر اتفاقية السلام التي أمهرها بتوقيعه، خطوة تكتيكية نحو تحقيق برنامجه، والخفي من هذا البرنامج أكثر من المعلن!.

ولكن يكفي الاتفاق على رفض استخدام العنف، والعمل على قيام عقد اجتماعي جديد يضم في رحابه كل أبناء السودان.

وصحيح مرة أخرى .. أن الحركة الشعبية التي يقودها الجنرال الدكتور قرانج هي حركة تحمل السلاح ضد الحكومة المركزية، ومع ذلك تعترف بها الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الأفريقية المتاخمة لجنوب السودان، أما ياسر عرفات قائد حركة التحرير الفلسطينية، فتعتبر المقاومة الفلسطينية التي يقودها «إرهابا»!

فالضعف من جانب العرب يؤدي إلى القبول بازدواجية المعايير. وصحيح .. أن هناك سلبيات حول مدى تمثيل قرانج للجنوب، وحكومة الخرطوم لتمثيل القوى السياسية المختلفة في الشمال، ففي الشمال اتخذت حكومة الخرطوم الكثير من الخطوات نحو الديمقراطية والتعدد، ولكنها خطوات لم تكتمل، واتخذت خطوة إيجابية نحو الترحيب بعودة القيادات السياسية من الخارج، ولكنها لم تشترك في المسئولية والقرار أو حتى في حضور توقيع الاتفاق في كينيا.

وفي الجنوب، هناك قوى سياسية

وقبلية لم تمثل فى الحركة الشعبية، فمثلا يوجد مايزيد على ٥ر٢ مليون سودانى من الجنوب، غادروا الجنوب هربا من الجوع والموت، ويعيشون فى معسكرات وحول العاصمة وموزعين على مدن الشمال، علما بأن الجنوب - حسب إحصاءات عام ١٩٩٠ - مليون مسلم و٨٠٠ ألف مسيحى والباقى ديانات أفريقية متعددة، ومعروف صعوبة إجراء إحصاءات صحيحة خلال الحرب الأهلية . .

وتقول هذه الاحصاءات إن سكان السودان ٩ر٢٤ مليون نسمة، مسلمون ٧٢٪ ومسيحيون ٤٪ وأديان أفريقية ٢٤٪، وتصل تقديرات تعداد السكان اليوم إلى ٣٠ مليون نسمة، وهناك من يعتقد أن عدد سكان الجنوب يفوق عدد سكان الشمال، واللغة المشتركة هى العربية بلهجة محلية والوصول إلى الأرقام الصحيحة أمر بالغ الصعوبة، فالحركة بين الحدود وإلى دول الجوار لاتنقطع.

كما وقعت انقسامات داخل الحركة الشعبية، منها خروج لام أكول وزياك مشار من الحركة الشعبية وانضمامهما إلى حكومة الخرطوم، ومن ناحية أخرى ينتمى جون قرانج إلى قبائل الدنكا رعاة البقر وأكبر قبائل الخرطوم، وهناك اتهام لها بأنها لاتتيح فرصة أمام القبائل الأخرى للمشاركة فى الثروة والسلطة.

وربما كان عقد مؤتمر دستورى يضم كل القوى السياسية فى الشمال والجنوب، يعيد التوازن ويدفع الدماء فى شرايين اتفاق السلام، ويعيد التوازن بين الأقاليم المختلفة وبالتالى إلى الخريطة السياسية السودانية.

وبقدر العمل الذى يغير الواقع السودانى الحالى بقدر إبعاد شبح انفصال الجنوب، والذى يشكل خطرا على السودان وعلى المنطقة بأسرها، والتى تنتقل عدواه إلى الغرب والشرق وغيرهما، كما تنتقل ذات العدوى إلى كينيا وأوغندا والدول الأفريقية المجاورة.

والذين يخافون انفصال الجنوب فى السودان، يؤمنون بعجز القوى السياسية المختلفة عن الاتفاق على إقامة الدولة العصرية التى تساوى بين المواطنين، مهما اختلفت ثقافاتهم أو دياناتهم أو أعراقهم، ويدركون أنه فى الماضى كانت الدول الأفريقية تركن إلى قرار منظمة الوحدة الأفريقية التى وضعت قاعدة الحفاظ على الحدود كما رسمها الاستعمار، وعدم المساس بها، حتى تتجنب تلك الدول المنازعات، وتوارت القاعدة بعد استقلال اريتريا وقيام دولة جديدة فى القرن الأفريقى..

ولانتوقف كثيرا أمام بنود وتفاصيل الاتفاق، فالمهم وقف نزيف الدم ووقف إهدار موارد السودان، وعودة التوازن بين أقاليم السودان.

العصا والجزرة!

ولعب التدخل الخارجى وبالتحديد الأمريكى دورا بارزا فى الوصول إلى هذا الاتفاق، واستخدمت الولايات المتحدة سياسة العصا والجزرة باقتدار، وعينت مبعوثا خاصا للسلام هو جون دانفورث فى سبتمبر ٢٠٠١، وحددت مواقيت لوضع حد للنزاع، وعقب نجاح دانفورث أصبح المندوب الدائم للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة.

وقام السفير الأمريكي تشارلز سنايدر بدور مماثل .. وطالما كان هذا الدور يسعى إلى وقف القتال، فعليه أن يكمل الطريق في الحفاظ على وحدة السودان التي تساهم في الاستقرار في القرن الأفريقي.

يقول مركز الدراسات الأمريكي، إن السودان يعتبر بلدا مهما لتطبيق دعوة الرئيس بوش، لإدخال الديمقراطية والانفتاح، وما تردد عن العراق يتردد عن السودان، في تأثير مايجرى على أرضه فيما حوله ..

ويضيف مركز الدراسات الأمريكي في أحد تقاريره .. «إن سياسة الإدارة الأمريكية قامت على أساس «دولة واحدة ونظامان»! أي مع وحدة السودان، وبقيت هويته، وهي القضية التي لايملكها الآخرون مهما أوتوا من القوة والجلبة.

ابحث عن النفط!

ومن أسباب التحرك الأمريكي النشيط، ما ظهر من أن السودان ترقد على بحيرة من النفط تمتد من الجنوب إلى غرب السودان.

وتوصلت أمريكا إلى معلومات حول الاحتمالات الواعدة في الجنوب والجنوب الغربي، ففي السابق كان التنقيب يقتصر على منطقة البحر الأحمر..

وقبل قيام حكومة الإنقاذ تم توقيع أهم اتفاق للنفط مع شركة شيفرون الأمريكية، ولعب بوش الأب دورا أساسيا في الوصول إليه.

وينتج السودان اليوم ٣٠٠ ألف برميل يوميا، تصل إلى ٥٠٠ ألف برميل في نهاية العام، والأهم من ذلك اكتشاف احتياطي كبير، تقدره الدراسات بأنه يفوق الاحتياطي في السعودية، وأكبر من احتياطي إيران.. إذن فلابد للصراعات المسلحة أن تتوقف.

وأصبح على قوى الضغط وشركات النفط أن تتحرك، وخاصة بعد أن حصلت كل من الهند والصين وماليزيا على بعض الامتيازات، وخاصة أن شركة شيفرون الأمريكية قد أنفقت مايربو على بليون دولار في التنقيب وفي تمويل مشروع مد خط الأنابيب. ونتيجة الاقتتال بدأت «شيفرون» في تقليص أعمالها منذ فبراير ١٩٨٤.

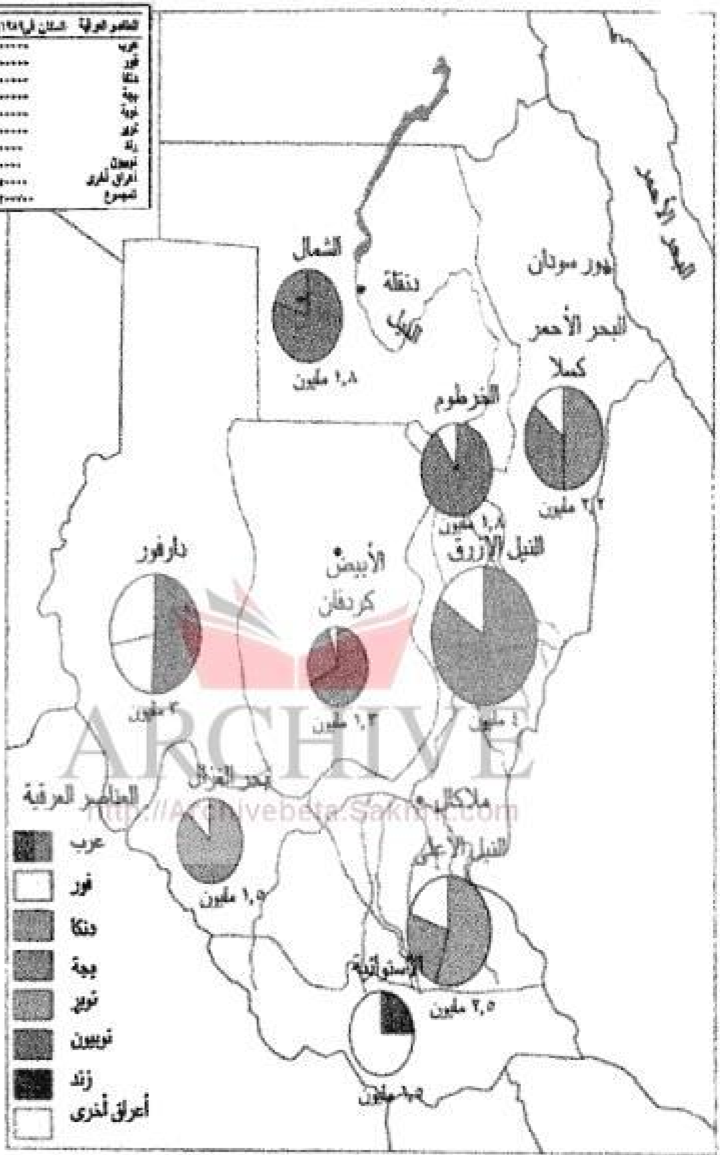
وتتوق الشركات الأمريكية لاستئناف العمل في حقول النفط، وتنفيذ الاتفاقات القديمة والحصول على اتفاقات جديدة.. ويساهم النفط بذلك في وحدة السودان.

ذكريات سودانية

زرت السودان الكثير من المرات، ولي فيه الكثير من الذكريات، وربطني بأهله الكثير من الصداقات، وكأي مصري للسودان لديه مكانة خاصة، وآمنت بضرورة التواصل والتبادل بين القاهرة والخرطوم، فالروابط التاريخية بعيدة الجذور، وتاريخ مصر والسودان متصل وممتد.

وأول فكرة راودتني في تأليف كتاب كان حول السودان. وأول رحلة نويت القيام بها كانت إلى السودان.

وتابعت خلال عملي الصحفي أحداثه، وكثيرا ما انتقلت أتابع تطوراته، وانتقلت في العديد من مدنه، ومازلت أذكر أن جوبا كانت أكثر المدن التي زرتها فقرا، وارتبطت بعلاقة وثيقة بالكثير من سياسييه، إسماعيل الأزهري، ومحمد أحمد محجوب، والشيخ علي عبدالرحمن،



خريطة توضح التوزيع العرقي في أقاليم السودان

والتقيت أكثر من مرة بالرئيس الأسبق جعفر نميرى، كما التقيت بجوزيف لاجو بعد توقيع اتفاقية أديس أبابا، ونشرت في المصور لقاءاتي بكل هؤلاء.

وكم أثار إعجابى وتقديرى بساطة وكرم الشعب فى السودان، أقول ذلك، لأسجل الخبرة المتراكمة من متابعة هذه الأحداث.

المثلث الشرير!

أقول .. لم تعد المسألة هى وحدة السودان، ولا انفصال الجنوب، بل هى ضرورة الخروج من المثلث الشرير الذى حجز داخله التاريخ السودانى منذ الاستقلال.

وأطراف هذا المثلث، القوى الحديثة الناشئة والتى نجحت فى القيام بانتفاضتين شعبيتين، إحداهما سنة ١٩٦٤ والثانية سنة ١٩٨٥، ضد الحكم العسكرى لكل من عبود وبعده نميرى، يعقب الانتفاضة انتخابات وتتولى الأحزاب التقليدية الطائفية الانصار والختمية الحكم، يعقب ذلك انقلاب عسكرى وهكذا.

وهذه الصراعات تدخل ضمن الصراع بين القديم والجديد، وقيام سبع عشرة محاولة انقلابية فاشلة، وتكاد تكون القوات المسلحة السودانية هى المؤسسة الوحيدة التى تجمع بين صفوفها مواطنين من كل أنحاء السودان.

ولم تعمل الأحزاب التقليدية التى تداولت الحكم فى الخرطوم، أن يكون لها امتداد فى الجنوب، كما أن معالجة الفجوة الواسعة بين الخرطوم وبقية الأقاليم خطوة ضرورية فى طريق إقامة السودان الجديد.

وأدت معادلة الحكم القديمة إلي أن يراوح السودان مكانه، وبقيت الطرق الصوفية مركز الثقل السياسى فى السودان.

ومن جانب أخر اقتصرت أحزاب الجنوب على المنطقة الجنوبية وربما تتغير هذه الصورة فى المستقبل، وفى المسرح الجديد الذى أقامته اتفاقية السلام، فتنتشر وتتواصل قوى الحداثة فى كل أرجاء السودان.

وينعكس ذلك على البنية الاقتصادية.

فلم تعد القضية بعد ما يقرب من نصف قرن على الاستقلال، هى الوحدة أم انفصال الجنوب، بل خطوات تطوير وتحديث السودان والتى تأخرت طويلا، فالسودان أكبر الدول الأفريقية على الإطلاق والذى تزيد مساحته على دول غرب أوربا مجتمعة، لايوجد لديه شبكة مواصلات برية تجمع شتاته.

على أية حال .. تصاعدت الآمال يوما فى أن يتحول السودان إلى سلة غذاء العالم، المال العربى، والعمالة المصرية السودانية، والأرض السودانية فى منطقة تشمل جنوب دارفور وجنوب كردفان وشمال بحر الغزال واستغلال مليون فدان لإنتاج الحبوب، ففى السودان تنوع ليس له نظير، ولم تر هذه المشاريع النور! ويواجه السودان الأوسط والشمالى مشكلة الجفاف والعطش فهو بعيد عن نهر النيل، بينما الماء بوفرة فى جوف الأرض، وكثيرا مايتعرض البشر لأخطار الموت ظمأ.

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول



لوحة من السودان تصور معارك الكر والفر فى عصر الاستعمار بريشة فرانك فيلو

والسودان غني بثرواته وموارده ومعادنه مثل النحاس والذهب والفضة واليورانيوم ولكن غياب القدرة وكفاءة الأداء السياسى يعطل ذلك الاستخدام.

وأهم تحد واجه حكوماته بعد الاستقلال، هو إنشاء شبكة طرق تربط أطرافه المترامية، ومازالت الطرق المعبدة لاتتجاوز٨٪ من ٢٠ ألف كيلومتر، والسكك الحديدية ٥٥٠ كيلومترا فقط، ومساحة السودان نحو إثنين ونصف مليون كيلومتر، وساحل السودان على البحر الأحمر يبلغ طوله ٧٢٥ كيلومترا.

والسودان قلب القارة الأفريقية، ورمزها فما يعانيه من مصاعب هى ذاتها التى تعانى منها دول القارة السمراء بقدر أو آخر، ويطمح السودان أن يكون الجسر بين العرب وأفريقيا، ويحوله التخلف والتعصب إلى جدار عازل، حان موعد سقوطه.

وتقف التنمية والتطوير على رأس مهمات السودان الجديد، فهناك قصور واضح فى القيام بمشروعات تستهدف لم أطراف السودان، وعندما يقوم الحكم المحلى ببعض هذه المشروعات تجدها إقليمية ضيقة، لا ترتبط بين موطن المشروع وبقية أنحاء الوطن.

وحان الوقت لتنتقل الكثير من السلطات من المركز إلى المحليات ومن المركزية إلى اللا مركزية، وحدود السودان الجنوبية تصل إلى ٢٠٠٠ كيلومتر،

ويمثل الجنوب ٢٨٪ من المساحة الكلية للسودان، أي ٧٠٠ ألف كيلومتر مربع، ٤٠٪ منه مراع و٣٠٪ أرض زراعية، و٢٣٪ غابات و٧٪ مسطحات مائية، والحدود مع الدول الأخرى بلا معالم طبيعية، تقسم القبائل ويسهل عبورها.

ومما يساعد على استمرار وعزلة بعض مناطق السودان، قصور وسائل النقل، والانتقال إما عن طريق البواخر النيلية البدائية أو الطيران، وحتى مواصفات قضبان السكك الحديدية فهي تختلف عن المواصفات العالمية، وتختلف قضبان السكك الحديدية في مصر عن مثيلاتها في السودان، حتى يحول الاستعمار البريطاني من تواصل البلدين..

وبسبب صعوبة المواصلات، نشأت أجيال في بعض المناطق التي لاتفرق بين الوحدة والانفصال، وظلت مناطق في الجنوب وفي الشمال وفي شرق وغرب السودان تعاني من تخلف ملحوظ، وبعضها أصبح وكأنه متحف بشري على ما كانت عليه الحياة في فجر التاريخ.

والغريب أن الفروق العنصرية بين سكان الشمال والجنوب أقل بكثير من تلك الفروق بين قبائل الجنوب المختلفة، كما أن السودان امتصت العناصر المهاجرة إليها، ولم يعد بها خلافات عنصرية وإنما خلافات ثقافية.

وليس غريبا أن تسعى القوى الاستعمارية والصهيونية إلى إضعاف السودان ونشر الفرقة بين أبنائه، وترجيح الملامح الانفصالية في أقاليمه، وتجاهل العوامل التي تجمع شتاته، وهو تحد يحفز أبناء السودان على الدفاع عن وحدته.

وحان الوقت لترصد الميزانيات التي كانت تنفق في الحروب، من أجل مشروعات ربط مدن السودان وأقاليمه بعضه ببعض، وتقدر المحافل الدولية احتياجات السودان خلال السنوات الخمس المقبلة، بـ ١٦ مليار دولار.

قناة جونجلي

إذا عدنا قليلا إلى الوراء نجد أن بداية التمرد في الجنوب، كانت الهجوم على معدات مشروع إقامة قناة جونجلي، وأعقب ذلك الإعلان أن من أهدافها إسقاط اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر، والبروتوكول العسكري مع ليبيا، وطالبت الحركة بإلغاء تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة دولة مدنية.

وسنرى في الأيام المقبلة، هل يلتزم د.جون قرانج بتعهداته التي أطلقها في القاهرة، بإعادة العمل في القناة، وقد كانت قناة جونجلي هي موضوع أطروحة الدكتوراه التي حصل عليها من إحدى جامعات الولايات المتحدة، وذكر في القاهرة «أن القناة لها منافع شتى تعود على أهالي المنطقة بالنفع، فضلا عن مصر».

وهي القناة التي تساهم فيها مصر، وتقوم في منطقة أعالي النيل، وتنقل المياه إلى مجرى جديد يقضي على المستنقعات بين جونجلي وملكال والتي ستقلل الفاقد والبحر وتوفر خمسة ملايين متر مكعب من المياه سنويا.

ويبدأ المشروع بعد اتصالات ومفاوضات طويلة بين القاهرة والخرطوم، وبناء على طلب الحكومة السودانية، وبناء على اتفاقية مياه سنة ١٩٥٩ التي تقدم طريقة مواجهة زيادة الحاجة لمياه النيل،



فتاتان من قبيلة « الدنكا » أكبر قبائل السودان والتى ينتمى اليها جون قرانج

وتنص المادتان ١و٢ فى الفقرة الثالثة على أنه فى حالة احتياج أى من البلدين إلى المزيد من المياه لمقابلة المتطلبات الزراعية، أن يقوم بتنفيذ مشروعات أعالى النيل لاسترداد المياه الضائعة بفعل البخر فى منطقة السدود ومستنقعات بحر الجبل وبحر الغزال ونهر سوباط.

وطالب السودان بتطبيق هذا الجانب من الاتفاق، وطالب مشاركة مصر بنصف تكلفة المشروع، وبدأ المشروع بناء على ذلك، وبعد اتفاق السلام تتزايد فرصة إعادة العمل فى المشروع، باعتباره أحد مشروعات المستقبل، والذى يظهر نوايا الأطراف المختلفة.

وأخيرا..

إن التحدى الذى يواجه الحركة الوطنية السودانية بجميع طوائفها، هو تحد كبير وفى فترة زمنية محدودة بست سنوات، لايجوز أن يضيع منها شىء، يعمل خلاله السودانيون على مايوحدهم، لا مايفرقهم.

وبناء السلام بعد هذا الماضى الدموى، يحتاج إلى الكثير من الحنكة والاعتراف بأن السودان دفع غاليا نتيجة مثلث الجهل والتعصب والتطرف، وأن يعترف أيضا بأن الحركة العربية فشلت فى وضع حد لبعض مشكلات الأقليات فى بعض البلدان العربية.

نعم .. إنهم يريدون السودان أفريقيا، ولكنه سيظل أفريقيا وعربيا.. ■

دائرة حوار

صفحة من تاريخنا الأدبى المعاصر

تحولات: العقاد وزكى مبارك وطه حسين ومنصور فهمى

بقلم

د. محمد رجب البيومى

هذا المقال رد علي مقال د. ماهر شفيق فريد الذي نشر في العدد الماضي والذي اتهم فيه عددا من المثقفين أمثال طه حسين والعقاد وزكي مبارك ومنصور فهمي بالتحول عن منطلقاتهم الفكرية..

يقول الدكتور ماهر شفيق فريد فى ختام مقاله بعدد الهلال (يونيه ٢٠٠٤) ما نصه:

«وأرصد محزونا ابتعاد حنفى المتزايد عن المنظور الهيومانى العلمانى واقترابه من منظور سلفى أصولى وهو مثل المنحى المحزن الذى أجده بدرجات متفاوتة فى التطور الفكرى لطه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وزكى نجيب محمود وعبدالرحمن بدوى، وإسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وخالد محمد خالد ومصطفى محمود وغيرهم.

إن تراجع هؤلاء المفكرين عن منطلقاتهم الثورية الباكرة أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث، وفاتحة النزعات الانفلاتية الراهنة».

وقبل أن أناقش هذه الكارثة التى توهمها الكاتب، أريد أن أسأله أما فكر ساعة واحدة فى إجماع هؤلاء الكبار حقا على العودة إلى الطريق الصحيح، وفيهم بالنسبة إليه أساتذة أساتذته، أيكونون جميعا مع قاماتهم العالية الرفيعة مخطئين، ويكون وحده المصيب الذى اكتشف الكارثة الأليمة فى الرجوع إلى الحق، مع أن الرجوع إلى الحق من أمهات الفضائل التى اشتهرت بين الباحثين! أيكون وحده المصيب؟!


طه حسين

ثم لا أدرى كـيف جـاء اسم المازنى بين هؤلاء ؟!..
والرجل لم ينحرف لحظة واحدة فيما كتبه من مقالات ملأت أمهات الصحف فى عصره! بل كان أحد الذين عارضوا هذا الاتجاه!! لقد كان عليه أن يرجع إلى أقوال هؤلاء يناقشهم فيما يراه سبب هذه الكارثة، ليوضح مبلغ ابتعادهم عن الصواب، أما أن يدينهم جميعا فى عدة أسطر ليترك الغافل من القراء فى حيرة من أمرهم وأمره فهذا موضع العجب الشديد وسأقوم أنا بإيضاح بعض الحقائق التى يجب أن تعلن فى هذا المقام أو أقول بعض الحقائق لأن جميعها تخرج عن نطاق مقال محدود فى مجلة الهلال.


منصور فهمي

وسأبدأ بالأستاذ العقاد، لأنه غير هؤلاء جميعا، فهو لم يكتب كلمة واحدة تسىء إلى ما سماه الدكتور ماهر المنظور السلفى بل دافع عنه فى بعض آثاره المشهودة، ولكن الذى أخذ عليه بغيا وعدوانا أنه اتجه إلى الدراسات الإسلامية بعد أن كان بعيدا عنها فى بارح شبابه! وهذا الاتجاه وحده هو الذى جعل الدكتور ماهر ومن تبعهم بغير إحسان، يعدون العقاد منحرفا! إذ كان عليه فى رأيهم أن يكتب عن بيكون وشيكسبير وتوماس هارد أما أن يكتب عن محمد بن عبدالله! فتلك هى الكارثة حقا!

وقد دافع العقاد عن هؤلاء بمنطقه الصارم الذى لا يُفَل، وأذكر أنه رد عليهم بمقال لم يقع تحت يدى الآن، فقد طال العهد به حتى جاوز الستين من الأعوام، ولكنى أذكر منه أنه أكد أن فرويد اليهودى حين كتب عن موسى، وأن رينان المسيحى حين كتب عن المسيح لم يوصفا بالرجعية والجمود، بل ظل كتاباهما موضعا للمناقشة العلمية الهادفة ايجابا ورفضا ولكنه حين كتب عن عبقرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاق به من يضمرون للإسلام الكراهية باطناً حين لا يجرؤون على إعلانها ظاهرا، وإذا كان كتاب أوربا مثلهم المرموق فلماذا لا يتكفئون فى جحورهم، وهم يرون أنبياء الله مجال الاهتمام عند سادتهم موضع الاحتفاء والتنويه! هذا بعض ما بقى فى ذهنى من حديث العقاد، أما ما عثرت عليه من قوله فى هذا المجال، فهو ما أنقله عن مجلة الرسالة بالعدد ٥٧٩، ١٩٤٤/٨/٧ :

الدعاة المغرضون للمذاهب الهدامة:

«إن الدعاة المغرضين للمذاهب الهدامة يكرهون الكتابة فى بعض الأمور ثم لا يجسرون على الجهر بعلة الكراهة، لأنها تصرف عنهم الأسماع والعقول، فيحاولون



الوصول إلى أغراضهم من طريق غير طريق العقول، يكرهون الكتابة عن عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، وعن الأدب واللغة والدين، يكرهون الكتابة عن كل ما يحيى فى الأمم نخوة وطنية، أو نخوة روحية لأنهم لا يريدون إلا أن يشعروا بطبقة واحدة لا تجمعها بالآخرين جامعة دين ولا وطن يكرهون ذلك لكنهم يخرسون دون الجهر بما يكرهون.

ويقول العقاد فى موضع آخر (الرسالة عدد ٥٧٧، ١٩٤٤/٧/٢٤).

«إن الروح العربى لازم جدا فى هذا العصر لأن المذاهب الهدامة التى تهدد مستقبل الأمة كلها تأبى أن تكون للأمم نخوة قومية أو نخوة دينية، ولهذا نحن نكتب عن خالد بن الوليد، وعلى بن أبى طالب، وعمرو بن العاص، وكل بطل من أبطال التاريخ والأصرح من هذا كله والأكثر كشفا للنقاب عما يكن، هو ما صرح به الدكتور زكى مبارك رداً على الدكتور محمد مندور إذ كان قريب العهد ببعثته إلى باريس، وقد رجع ليحمل معولا يهدم به ما يراه موضعا للهدم فى منطقه الخاص، فكتب يقول فى مجلة الثقافة:

«ما بال معظم كتابنا قد انتهوا بالكتابة عن محمد؟ أهو إيمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخر ذلك ما نرجوه، وإنما هناك أمر لا شك فيه وهو أنا وصلنا من التزمت حدا تبرأ منه كل الأديان على السواء».

هذا ما نقله الدكتور زكى مبارك عن صاحبه، وقد فنده بقوله ببعض التصرف نقلا عن العدد ٤٧٦ من الرسالة «معنى هذا أن الكتابة عن الرسول ضرب من المتاعب، وأنها دليل على ابتلاء الجمهور المصرى بالتزمت والجمود، والحق أن عصر النبوة يحتاج إلى دراسات تاريخية، وأن ما كتب فيه لهذا العهد ليس إلا تباشير لدراسات تستغرق مئات المجلدات لأن ذلك العصر كان مطلع نهضة إسلامية إنسانية تركت أعظم الآثار الروحية فى المشرق والمغرب.. ولو نظرنا فيما كتب الأوربيون فى مدى عشرين سنة عن شاعر من شعراء الأساطير مثل هوميروس لوجدنا عنايتهم به تفوق عناية العرب بتاريخ حياة الرسول فى مدى أجيال مع العلم الوثيق بأن الرسول العربى ترك فى الوجود آثاراً تفوق من سبقه من الأنبياء بلَهْ الشعراء.

وواجه الدكتور زكى مبارك الموقف المشبوه بصراحة حازمة حين قال:

«لم يقل أحد أن هيكل كان رجعياً حين ترجم لجان جاك روسو، ولا قال قائل إن العقاد كان رجعياً حين ترجم لابن الرومى، ولا قال قائل برجعية طه حسين حين ترجم لأبى العلاء المعرى ولكن الرجعية أصابت هؤلاء الأساتذة حين شغلوا أنفسهم بتاريخ عصر النبوة لأنه مصدر من المصادر الدينية.. إن تاريخ عصر النبوة لم يأخذ من عنايتنا كل ما يستحق لأنه ليس مصدر ثروة روحية فحسب، وإنما هو مصدر ثروات

أدبية واجتماعية وتشريعية، وصدور هذه المباحث من غير رجال الدين الرسميين معناه أن كل مسلم مسئول عن شرح أغراض الدين الحنيف».

وننتقل من الحديث عن العقاد إلى الحديث عن اتجاه الدكتور هيكل، وشغفه بالحديث عن عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة، فقد كفانا أن نجهد أنفسنا في البحث عن تعليل ذلك حين اعترف بتطوره الفكري في وضوح سافر لا يحتمل اللجاج! وحديثه مسجل في كتاب (في منزل الوحي)، ولكننا سنشير إليه بما يبرز مدلوله دون انتقاص.


زكي نجيب محمود

مقالات تمجد الحضارة الحديثة


عباس محمود العقاد

لقد رحل الدكتور هيكل إلى باريس بعد أن أتم دراسة الحقوق في مصر ليجد الأقلام هناك تمجد الحضارة الأوربية، وتنحى باللائمة على تأخر الأمم الإسلامية، وتدعو إلى نهضات شرقية عن طريق الاحتذاء الأوربي وبخاصة وطن الحرية والعدالة والمساواة فرنسا صاحبة الثورة الشهيرة، فتأثر الشاب الطموح بما قرأ، وأخذ يرسل مقالات تمجد الحضارة الحديثة، كما خص جان جاك روسو برسالة تقدر ريادته الاجتماعية والسياسية، وتعد العقد الاجتماعي الأساس الأول للديمقراطية المنشودة، وحين رجع إلى مصر، وإلى الحديث في اندفاع مع نفر من زملائه وجدوا في جريدة السفور متنفسا لأحلامهم المرغوبة، ثم قامت الحرب العالمية الأولى تعلن دمار الحضارة الأوربية، وإفلاسها الشائن، كما أن إصرار المنتصرين على تقسيم الشرق إلى مستعمرات تخضع للاحتلال الظالم لم يبق أملاً في أدعياء الحرية والمساواة، وهنا اتجه هيكل بتفكيره وجهة ثانية هي الاهتمام بالحضارة الفرعونية، والدعوة إلى إحياء تاريخ الأجداد ليكونوا رادة البعث الجديد، وجعل هيكل يزور المعابد والآثار القديمة في أطراف الصعيد والجيزة والفيوم والشرقية ممجدا هذه الآثار ومحررا فصوله المسهبة عن ارتقائها الزاهر، وكان الرجل في حقيقة أمره باحثا عن الحقيقة ينشدها، تلك الحقيقة التي تأخذ بساعد أمته وتنقلها من التخلف إلى النهوض، ولكنه بعد سبح طويل في هذا الماء المتلاطم، وجد أن دعوته إلى الفرعونية لا تمت إلى روح الشعب المعاصر بعد أن تغيرت لغته ودينه وتقاليده عن حالها الأول، وفكر مرة ثالثة، فوجد أن مصر الإسلامية لا يمكن أن تصعد إلى أوج العزة والسعادة إلا ببعث عربي يعيد المجد السالف، وهذا ما عبر عنه الكاتب الكبير حين قال في (منزل الوحي) ص ٢٤:

«لقد حاولت أن أنقل إلى أبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعها هدى ونبراسا، لكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض لا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة فيه، فانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلا لوحى هذا العصر، ينشىء فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العلمى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة ورويت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة، تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين».

وإذن فقد اهتدى الدكتور هيكل إلى الغاية السعيدة بعد خطوات تعثرت فى مبدئها، ثم واصل السير حتى بلغ الشاطىء فى اطمئنان، وهو فى هذا العناء المتصل بحثاً عن الحقيقة، وتطلعا إلى أفق يشرق بالضياء، له من أعلام التاريخ فى القديم والحديث، زملاء تطلعوا إلى الأفق البعيد، وما راعهم عناء السير، ولا وعثاء الطريق حتى انجلى الصباح لعيونهم المتطلعة، فحمدوا الله على غب السرى، فرحين . أيقال بعد ذلك إن الاهتداء للحق أكبر كارثة حاقت بالفكر الحديث؟!

الشبه قريب بين دكتور هيكل ومنصور فهمي

والأمر فى الدكتور منصور فهمى قريب الشبه بالدكتور هيكل، بل كاد يقاربه تماما! لأن منصور فهمى رحل إلى باريس كما رحل الدكتور هيكل، وكان شابا حدثا لم يكمل تعليمه العالى فى مصر، وقد تلقفه المستشرق اليهودى (ليفى بريل) فاختار له أن يكتب رسالة الدكتوراه عن المرأة فى الإسلام، وهو موضوع لا يمكن أن تكون بحوث المستشرقين وحدها كافية لإنضاجه على الوجه الصحيح، بل إنها العامل الأول لنشوزه عن سواء السبيل، وكأن المستشرق المغرض أراد برسالة منصور أن تكون بنشوزها السافر المرجع الأول لمن يريد البحث عن منزلة المرأة ، فأوحى له من الأراجيف حول رسول الإسلام ، وتعدد زوجاته، ما أثار زملاء منصور فى باريس، فأرجفوا به فى مصر بعد نوال الدكتوراه، فعاد ليجد عاصفة حادة حالت دون انتمائه السريع إلى هيئة التدريس بالجامعة، وقد اعترف الدكتور الشجاع بتورطه فى البحث دون استعداد، وأنقل هنا بعض ما ذكره فى مجلة (حياتك) الصادرة فى ديسمبر ١٩٥٨ «كانت رسالتى فى الدكتوراه عن المرأة فى الإسلام، فاندفعت أكتب بحرارة الشاب المندفع ويظهر أنى انحرفت قليلا حيث كانت معلوماتى عن الإسلام طفيفة، وحين قوبلت فى مصر بضجة كبرى ازددت عنادا، ثم كتب الله لى أن أجلس طويلا مع بعض مشايخ العلماء، من ذوى الأفق الواسع والصدر الرحيب من أمثال الشيخ حسونة النووى والشيخ مصطفى عبدالرازق، والشيخ على سرور الزنكلونى، وهم

الذين يمثلون رجل الدين الحقيقى فى عقولهم وعلومهم فبدأت أخلص من الزيغ لأعود إلى حظيرة الدين والحمد لله».


محمد حسين هيكل

وقد زاد على ذلك فى موضع آخر، نشر بمجلة لواء الإسلام شوال سنة ١٣٧٨ هـ إذ تحدث بإعجاب عن لقائه بالشيخ حسونة النووى شيخ الأزهر الأسبق فقال «إنه أرشدنى إلى قراءة القرآن وصحيح البخارى باهتمام وجدية فوعدته بذلك، واستحييت ألا أفى بعهدى فعكفت على قراءة البخارى، وعجبت لغفلتى الأولى إذ وجدت حكما ونظما، وأخذت أقارن ذلك بما درست من فلسفة، فوجدت ما جاء به (محمد) أعلى من كل فلسفة، وأن الإلهام الصادق يبدو من كل حديث فشهدت أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله».


زكى مبارك

كان اطمئنان منصور لما وصل إليه من حقائق الإسلام، دافعا له أن يهدى الشباب الغافل إلى تعاليمه. فانضم إلى جمعيات كثيرة منها جمعية الشبان المسلمين، وجمعية مكارم الأخلاق، وجمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية، ليكون الخطيب البارز فى ندواتها المتوالية، وكان يمتاز بين خطباء هذه الجمعيات وأكثرهم من علماء الأزهر باتجاه غير معهود لأن دراسته الفلسفية قد أمدته بمقارنات كانت جديدة على الجمهور فى إبانها فجعلت لقوله مذاقا خاصا، فهو مثلا يقول فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى بجمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦٠ هـ.

«إذا صح لأهل الفلسفة والتاريخ عند ذكر سقراط أن يقولوا إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض يعنون بذلك أن وجهة العلم قد غيرها هذا الفيلسوف إذ كانت مقصورة على البحث فى حقائق الهيئة والنجوم والأفلاك فحولها سقراط إلى البحث عن حقائق الإنسان ونفسيته ومسلكه، كذلك يصح لمؤرخى الديانات أن يذكروا ذلك الحدث العظيم حين حول محمد بن عبدالله، معاملات الناس فى الدنيا ومعايشهم الجارية فيها فرفعها من خفضها الأرضى، ووجه مسامها الدنيوى وجهة عالية، فجعل فى شتى معاملات الناس بعضهم بعضا، صلة بالتعبد والتقوى، وجعل فى شتى مساعيهم، ومكاسبهم جوانب ترتبط بأمر الله، حين يحبب لعباده ابتغاء الأحسن فيما يعملون، وبذلك رفع محمد صلى الله عليه وسلم أديم الأرض إلى وجه السماء».

وقد جعل من منابر قاعة يورت التذكارية، والجمعية الجغرافية، والمجمع العلمى المصرى مجالا للحديث عن الإصلاح الاجتماعى، وموضعا لتصحيح ما أخطأ فيه من قبل فى رسالته عن المرأة، وأنا بالجزء الخامس من موسوعة النهضة الإسلامية،

سجلت بعض ما قاله في هذه الندوات، فليت شعري أيكون رجوع منصور فهمي إلى الحق إحدى الكوارث الكبار التي حاقت بالفكر العربي الحديث؟!

ويأتي الحديث عن طه حسين، وأنا أتحدث عنه مكرها، ويودي لو تجاوزته، ولكن الدكتور ماهر قد ذكره، لذلك سأحاول الإيجاز المبتسر عن شطحاته الأولى، لأطيل بعض الشيء في ما أذكره من اطمئنانه لدينه بعد أن جاوز عهد التوثب والجموح.

طه حسين وكتاب في الشعر الجاهلي

تحدث الدكتور في كتاب الشعر الجاهلي عن أمور تتعلق بالقرآن وإبراهيم عليه السلام كانت موضع الاستنكار والثورة، لأن البحث لم يكن يتطلبها أصلا، بل أقحمت إقحاما لتحدث الضجيج الذي ينشده، ثم عاود الحديث في محاضرات ألقاها على الطلاب تصف القرآن بما ليس فيه مما نتخطاه دون تعقيب، حتى إذا فات زمن الطموح البراق، ثاب الدكتور إلى التؤده فأصدر كتابه (في مرآة الإسلام) ليعصف بكل ما قذفه من الشبهات الواهية، فاليهود في هذا الكتاب أميون لا يعرفون القراءة كالعرب تماما، والأحبار منهم كالعامة أميون، وهم بذلك لا يملكون أدنى تأثير ثقافي، ويعجزون كل العجز أن يدلوا لرسول الله بما يؤيد دعوته ، وقد قال الدكتور فيما قبل إن اليهود كان لهم تأثيرهم في القسم المدني من القرآن، فجاء اعترافه بأميتهم الشديدة ماحيا لكل ما قال، وإذا كان القصص القرآني في رأيه السابق يميل إلى الاقتضاب وعدم استيفاء الغرض فإن الدكتور في مرآة الإسلام قد خطأ ذلك كله، وقال عن القصص القرآني إنه يمضي في هدوء ومهل لأنه يتجه إلى إثارة التفكير والاعتبار والتروية تارة، وتارة أخرى يميل الأسلوب إلى التأثير الوجداني فتقصر الآيات وتسرع، وتتسق الآيات وتتجسم وتتكرر عبارات بعينها في آخر كل قصة، ولا يفرغ القارئ من قصة، حتى تعاجله قصة أخرى تجري على هذا النسق الآخذ، يقول الدكتور «وإنك ترى من جمال اللفظ، وروعة الأسلوب واتساق النظام ما يسحرك ويبهرك، ويملك عليك أمرك كله فإذا أنت خاشع لما تسمع أو تقرأ، معجب به مستزيد منه حتى حين يستأثر بك العناد».

وقد بلغ الدكتور موضع الإصابة البلاغية الدقيقة حين قال عن إعجاز القرآن «إن اختلاف مذاهب القول في القرآن دليل قوي من دلائل الإعجاز، فللقرآن وحدته من حيث إنه يدعو دائما إلى أصول معينة.. وهذا التنوع في مذاهب القول هو الذي يسميه أصحاب البيان في اللغة العربية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز في القرآن، وملاءمته لكل مذهب من مذاهب القول لما فرغت من الحديث».

هذا هو طه حسين حين فاء إلى الصواب فمحا بضوء الصباح ظلام الليل!

أفيكون بذلك قد أسهم فى أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث؟!


عبد القادر المازني

أما الأستاذان على عبدالرازق وخالد محمد خالد فأحب أن أتحدث عنهما معا لأنهما عالمان فاضلان من نابهى علماء الأزهر، وقد سبق الأستاذ على عبدالرازق بكتابه (الإسلام وأصول الحكم) ثم قفى على أثره الأستاذ خالد بكتابه (من هنا نبدأ) والكتابان ينزعان عن قوس واحدة ترمى إلى فصل الدين عن الدولة، وتعد الخلافة والحكم أمرين مدنيين لا يتصلان بالإسلام، إذ هو علاقة روحية بين العبد وربه، وقد صدرت كتب قيمة ترد على الأستاذ على عبدالرازق بأقلام الكبار من شيوخ الدين، مؤيدة بالمنطق معتصمة بالدليل، وكان للسياسة الداخلية فى مصر اتهام كبير فى اشتداد الجدل، فعرف الأستاذ مما كتبه ناقدوه كثيرا مما لم يكن يعلم، وأيقن أنه حاد عن الصواب، وأحمد الله أن وفقنى للقاء الأستاذ، فناقشته بأدب بالغ فى وجهة نظره مناقشة الطالب الصغير للأستاذ الضليع، ففاجأنى بأنه لم يقل إن الإسلام صلة روحية، وأنه أعلن ذلك فى مجلة رسالة الإسلام الصادرة فى رمضان سنة ١٣٨٠ هـ يوليه سنة ١٩٥١، وكان الأمر غريبا جدا علىّ، فأخذت أبحث عن العدد المشار إليه حتى وقع فى يدى، وقرأت منه هذه الفقرات


علي عبد الرازق

«فقد زعم الطاعنون أنى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت عليهم بأنى لم أقل ذلك مطلقا، لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره، ولا قلت شيئا يشبه هذا الرأى أو يدانيه، أقول ذلك ليذكر الأستاذ الكبير - يريد أحمد أمين - أن فكرة روحانية الإسلام لم تكن لى رأيا يوم نشرت هذا البحث المشار إليه».

وإذن فقد تراجع الأستاذ عن رأيه المدون فى كتابه ص ٦٩ وما بعدها، ولعله نسى ما كتب، وهو أمر يحدث كثيرا، والعجيب أن نفرا من القائمين على نشر ما يسمونه كتب المواجهة فى وزارة الثقافة، أعادوا نشر كتاب الأستاذ، وهم يعلمون أن صاحبه تراجع عن مضمونه، يعلمون ذلك لأنى أشرت لهذا التراجع فى مجلة الثقافة وغيرها، كما أن صديقى الدكتور محمد عمارة قد طلب منى أن أصور له نسخة من مقال الأستاذ فى مجلة رسالة الإسلام ففعلت، ونشر التراجع فى أكثر من مقال، وأكثر من كتاب!

وتراجع الأستاذ خالد لا يحتاج إلى دليل لأنه نشر كتابا تحت عنوان (دين ودولة) أعلن فيه ما جاء من الخطأ فى كتاب (من هنا نبدأ) كما أراد أن يكون إعلان الخطأ على أوسع نطاق فنشر فى جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ ١٩٧٧/٨/٢٣ مقالا قال فيه بعد أن أشار إلى ما دونه فى كتاب (من هنا نبدأ).

(وإنى لأرجو أن يكون كلامى هذا تصحيحا لرأى أبديته من قبل فى كتابى (من هنا نبدأ) إذ قلت يومها إن الدين لا يعنيه أن يكون دولة، ولا يعنيه أن يتدخل فى بناء الدولة وكنت يومها متأثرا بتصور مسيحى عن الحكومات الدينية، لاسيما تلك التى قامت فى ظله الكنيسة بأوربا فى عهود الظلام ناسيا يومها أن الإسلام مختلف جدا، وأن الدولة بشكلها ومضمونها كانت تعنيه إلى أبعد مدى، وأنه خاطبها بمسئولياتها كما خاطب الفرد والجماعة بمسئوليتهما، وفى الإسلام بالذات لا يمكن عزل الدين عن الدولة إلا إذا أمكن عزل الدين عن الدين).

فهل تصحيح الخطأ كارثة أو أن السكوت عن التصحيح كارثة؟ هو كارثة طبعا عند من أعادوا نشر كتاب (من هنا نبدأ) فى بيروت بعد وفاة الراحل الكريم، إذ يصرون على تثبيت خطئه لحاجة فى نفس يعقوب!

وكما جمعت بين الأستاذين على عبدالرازق وخالد محمد خالد، أجمع بين الدكتورين عبدالرحمن بدوى وزكى نجيب محمود لتشابه واضح بينهما، مبدأ وخاتمة، فالدكتور عبدالرحمن بدوى لم يدرس الثقافة الإسلامية فى مطلع حياته فى كتب التراث العربى، بل اتجه إلى مؤلفات الاستشراق فكانت وحدها طريق معرفته أو خطئه فى فهم الثقافة الإسلامية، وإذا كنا نعرف أن الاستشراق يذهب إلى خلو الفكر العربى من التفسير الفلسفى، وأن الثقافة اليونانية هى التى احتلت عقول من ينتسبون إلى الفلسفة من المسلمين، حتى إن علم الكلام فى رأيهم مستمد من فلسفة اليونان، فإذا تحدثوا عن التصوف الإسلامى نسبوه إلى الفرس أو الهند، إذا كنا نعرف ذلك فقد ظهرت مؤلفات الدكتور بدوى الأولى تدور حول هذا المدار، وخاصة فيما كتبه عن التصوف والصوفيين، ثم سافر إلى فرنسا، وناقش تلاميذ الكبار من المستشرقين الذين رحلوا عن الحياة، وقرأ أصول كثير من المخطوطات العربية، فعرف مقدار الخطأ البالغ الذى وقع فيه، حين اعتمد على الدراسات الاستشراقية وحدها، ووجد أخطاء كثيرة تتطلب التصحيح، فقام برد الأخطاء الاستشراقية بالمنطق، وتطلع إلى تصحيح ما كتب القوم عن رسول الله من أخطاء متعمدة ولم تجىء عفوا فكان بذلك مثالا للباحث عن الحقيقة! فعل ذلك وهو فى فرنسا وكتبه بلغة القوم مهاجماً افتراءاتهم بسيوف لا تفل، أفيكون بعد ذلك سببا فى كارثة علمية لحقت بالفكر العربى الحديث؟! أما الدكتور زكى نجيب محمود فقد اعترف اعترافا صريحا أنه فى عهده الأول لم يقرأ كتابا واحدا لعلم من أعلام المسلمين، وكل ما قرأه عن الفكر الإسلامى

جاء عن الاستشراق، ثم هداه الله إلى قراءة كتب الغزالى وابن رشد وأبى حيان التوحيدى وأبى سليمان المنطقى وابن حزم الأندلسى فوقف على نماذج رائعة من ثمار الفكر الإسلامى، وعرف أنه كان بعيدا عن منهل دافق يتدفق بالنفع العلمى الجزيل، وقال إن تأخر اطلاعه على هذا التراث الحفيل دفع به إلى تسجيل أخطاء تتطلب التصحيح! هذا الاعتراف الصادر عن نظرة متأمل، لن يعجب الذين يحاولون تجريد الفكر الإسلامى من كل تفوق علمى ساهم فى الرقى العلمى، وعده القوم كارثة علمية لحقت بالعالم العربى وأدت إلى إرهاب المتطرفين.


خالد محمد خالد

ولن أسهب فى موقف الدكتور مصطفى محمود، لأن الواقع الراهن قد أيد صوابه حين خرج عن الماركسية، وعدها وباء اكتسح الناس، لأن الماركسيين أنفسهم قد عرفوا ذلك، وأعلنوه فى ثورة عارمة هدمت المقررات والثوابت التى شوهت الحقائق، وخدعت الأفهام ردحا من الزمان، فليت شعرى أنكون ملكيين أكثر من الملك حين نأخذ على الدكتور مصطفى محمود رجوعه إلى الصراط القويم!


مصطفى محمود

لم يبق غير الأستاذ إسماعيل مظهر، وقد كان الرجل صادقا بينه وبين نفسه حين تحمس لنظرية أصل الأنواع وأصدر مجلة العصور لتأييدها، فكان الثانى فى هذا المجال بعد الدكتور شبلى شميل، وباع عقاره الذى ورثه عن أبيه لينفق على مجلته ومؤلفاته الخاصة بهذه النظرية، ثم جرت بحوثه فى جامعات أوربا وأمريكا تنقد هذه النظرية، وتجتث أصولها بالبراهين، فقرأها الأستاذ مظهر لأنه طالب حق، وليس مبشراً مستأجراً لترويج مذهب، ووقعت فى يده كتب إسلامية لم يكن ألم بها من قبل، فأشاد بها، فكان ممن أسلم وجهه لله وهو محسن!

بعد هذه الحقائق التى حاولت إيجازها قدر المستطاع، وقد تركت الكثير مما جاش فى صدرى منعاً لإملال القارىء، بعد هذه الحقائق أقول، كان الدكتور ماهر شفيق فريد فى غنى عن هذه السطور البعيدة عن الصواب التى ختم بها مقاله، إذ لم يكن السياق فى حاجة إليها، ولعله يتأمل فيما بعد معانى الكلمات تأملاً دقيقاً! فلا يقذف بمثل قوله (أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث) لأن أمثال العقاد وهيكل وطه حسين ومنصور فهمى وزكى نجيب محمود والمازنى إذا كانوا سببا لأكبر كارثة! وهم أعلام العصر دون نزاع فإن الإجماع الراسخ على زعامتهم العلمية لم يجىء من فراغ أو زيف بل جاء عن رسوخ ويقين! والكارثة كل الكارثة أن نجهل مكانهم الرفيع. ■

طه حسين

ومعاصروه

مواقف إنسانية في حياته



بقلم

د. محمد الدسوقي

يأخذ البعض على عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أنه كان شديد الخصومة مع من يخالفه في الرأى، وقد يتخذ هذه المخالفة ذريعة للنيل منه أو الإساءة إليه، ويضربون مثلا لذلك بما كان بين العميد والدكاترة زكى مبارك، أو بين العميد ومصطفى صادق الرافعى، ولكن الحقيقة أن العميد لم يكن يرى في الخصومة الفكرية وسيلة للعداوة التى تحمل على الكيد، أو التآمر، فقد كان إنسانا رقيق الشعور طيب القلب، يستجيب لكل طارق، ويسمع لكل شكوى، ويصدق بكل ما يسمعه، وكان يتألم أبلغ الألم إذا قرأ خبرا عن كارثة أو حادثة، ومن ثم كانت أخبار الحروب تزعجه كل الإزعاج، وكذلك أخبار المجاعات والأوبئة.

وقد حدثني العميد كثيرا عن علاقته بطائفة من اعلام عصره، وكيف أحسن إلى بعضهم، بيد أنهم لم يدفعوا بالتي هي أحسن وتآمروا عليه، ومن هؤلاء الدكتور أحمد أمين والدكتور عبدالرازق السنهوري، فقد كان الأول يعمل بالقضاء الشرعي، وكان يضطر إلى الذهاب إلى بعض المناطق النائية: «وقد سعيت لنقله إلى كلية الآداب، وكان يلجأ إليّ في علاج مشكلات أبنائه في التعليم، وكنت أعاونه ما استطعت ، وأذكر أني يسرت لبعض هؤلاء الأبناء فرصة السفر إلى الخارج للدراسة على حساب الدولة».

«أما الثاني فقد ساعدته في الترقية إلى درجة أستاذ، ثم في تعيينه قاضيا بمحكمة المنصورة المختلطة، وبعد مدة طلب مني أن يعمل في قضايا الحكومة، وتبين لي بعد ذلك ان الدكتور أحمد أمين تنكر لي وانضم إلى الدكتور السنهوري في التآمر ضدي، فقد كان النقراشي مع النحاس ثم انشق عليه وانضم السنهوري إلى النقراشي، وخاصة في السياسة، وحين عين وكيلا لوزارة المعارف مع النقراشي أخذ يكيد لي ويتآمر وأنا لا أدري.

لقد أحسنت إلى كليهما وكنت أعمل على تحقيق ما يطلبان مني، ولكنهما انقلبا عليّ ومكرا بي ولست أدري سببا لهذا».

سلوك زكي مبارك

وأما ما يقال من أن الدكتور طه كان من وراء خروج زكي مبارك من الجامعة فإن هذا غير صحيح فقد قال لي العميد: إن خروج زكي مبارك من الجامعة يرجع إلى سلوكه الشخصي، فمثلا ذكر لي فؤاد سراج الدين أنه كان ينجح في الامتحان حين كان يدرس بكلية الآداب قبل ان يتلقى دروس كلية الحقوق - فقد كان النظام في ذلك الحين يفرض أن يدرس طلبة كلية الحقوق في كلية الآداب بعض المناهج في اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق - ذكر لي فؤاد أنه كان لا يذاكر علوم الآداب، وكان ينجح بفضل مجاملة زكي مبارك له.

وقلت للعميد: وما رأيكم فيما يذهب إليه البعض من أنكم عملتم على إقصاء الدكتور أحمد ضيف من الجامعة، وشغلتم أنتم مكانه ، وأنكم وقفتم من الدكتور على العناني موقفا مماثلاً ؟ ورد العميد في حماس وانفعال وأقسم أن هذا كذب، وأني ما سعيت للإضرار بأحد في سبيل منفعة خاصة ، والحقيقة أن الجامعة بعد أن أشرفت عليها الدولة وأصبحت رسمية عينت فيها أستاذا ، فغضب الدكتور ضيف والدكتور عناني لعدم تعيينهما كما عينت وأنا لم أسع

للتعيين فى درجة أستاذ، والملك فؤاد هو الذى اقترح تعيينى فى هذه الدرجة فما يقال من أننى سعيت للإضرار بأحد فى سبيل مصلحة خاصة غير صحيح.

الهروب من طه حسين

وفى لقاء فى منزل العالم الجليل، والباحث الضليع والمفكر الثبت الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة، وعلى مائدة العشاء الفاخرة التى تعبر عن الكرم الحاتمى دار حديث فكرى بين الحاضرين وفيهم المغربى والتونسى والسورى والمصرى، وتناول هذا الحديث فيما تناول طرفا من المواقف الإنسانية للعميد، فقد قال الدكتور الشكعة: لقد التحقت بكلية الآداب طالبا بقسم اللغة العربية، ودرس لنا الدكتور طه حسين الأدب العربى فى سنوات الدراسة الأربع، وكنت أناقشه معترضا على بعض ما يثيره من قضايا وآراء، ومنها نسب المتنبى، فالعميد كان يذهب إلى أن هذا الشاعر مجهول النسب، فهو لقيط ولكنى عارضت فى هذا وقلت إن المتنبى ليس مجهول النسب فهو ابن شرعى لأبيه، وما كان العميد يرد على اعتراضى أو يفند رأيى، وفى السنة الثانية حذرنى زملائى .. مما قد أتعرض له بسبب مناقشة العميد فيما يبديه من آراء، ومنهم من قال لى : إنه سيخرب بيتى، وفكرت مليا فى الأمر، فقررت ترك قسم اللغة العربية والالتحاق بقسم التاريخ ورحب بى رئيس هذا القسم، وهو الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم الذى كان عميداً للكلية، ومكثت نحو شهر ونصف أدرس فى قسم التاريخ.

وفى يوم أخبرنى عميد الكلية أنه يريد الحديث معى فى أمر مهم، وكانت المفاجأة أن هذا الأمر يتعلق برغبة الدكتور طه حسين فى لقائى، ولم يذكر لى الدكتور إبراهيم سببا لهذا، فقلت: لعله يريد أن يعيدنى إلى قسم اللغة العربية فأرجو منك أن تحمينى، فقال عميد الكلية: لا أحد يستطيع أن يحميك من طه حسين!

ويستطرد الدكتور الشكعة قائلاً: وشعرت بشىء من القلق والخوف ولم أجد بدا من الذهاب إلى الدكتور طه فى مكتبه بالكلية، فقال لى بعد تحيته:

من أذن لك بترك قسم اللغة العربية، فقلت: أنت يا أستاذى ، وكنت قد قدمت طلب التحويل إلى سكرتير الدكتور طه ، فريد شحاته، فوقع عليه بخاتمة دون أن يأخذ رأيه فيه - فقال: لم آذن لك، عد إلى قسمك، وانتهى اللقاء، وتركت قسم التاريخ، وواصلت الدراسة بقسم اللغة العربية، وعرفت من زملائى أن الدكتور طه سأل عنى، لأنه لم يعد يسمع صوتى معترضا أو مناقشا، فلما قيل له بأنى انتقلت إلى قسم التاريخ أصر على


أحمد أمين


عبد الرزاق السنهوري


مصطفى الشكعة

أن يعيدني إلى قسم اللغة العربية، ثم قال الدكتور الشكعة، ومرت الأيام بعد تخرجي في كلية الآداب، وأهديت إلى أستاذي عميد الأدب العربي أول كتاب ألفته وكان بعنوان «قطوف من الأدب والفن» وجلست معه نحو ساعتين في بيته، غمرني فيهما بمشاعر الأستاذية الواعية والأبوة الحانية والعطف الكريم.

ويذكر الدكتور الشكعة أن العميد سئل يوما عن أفضل ما كتب عنه فقال: ما كتبه مصطفى الشكعة، وذلك لأني كتبت عنه نحو ثلاثين صفحة دون أن أذكر فيما كتبت كلمة صريحة عن فقد بصره، وإنما كنت أقول: يقرأ له، لأن طه حسين كان يضيق بالحديث بأسلوب مباشر عما تعرض له في طفولته الباكرة، فعاش طول عمره كفيفا.

الدكتور طه والرافعي

وتطرق الدكتور الشكعة بعد هذا إلى ما كان من طلبة قسم اللغة العربية من استياء مما قاله الدكتور طه عن مصطفى صادق الرافعي، وقد تجمهروا أمام مكتبه، وتحدث بلسانهم الطالب مصطفى الشكعة، وقال لهم العميد: لقد تعجلتم في الحكم، وكان عليكم أن تنتظروا حتى أفرغ من الحديث عن الرافعي في المحاضرة القادمة، وفي هذه المحاضرة أثنى طه حسين على الرافعي ثناء طيبا، وأفاض في الحديث عن الحرية وأهم خصائصه ومنزلته في الأدب الحديث مما أذهب من نفوسنا ما ألم بها من قبل من ضيق وانفعال، وحمل ابنة الرافعي، وكانت طالبة بالكلية على أن تذهب إلى العميد لتشكره على ما قاله عن والدها، وقد قال لها أنت يا زينب في مرتبة ابنتي أمينة، فأنا في حكم والدك، ولعلك لا تشعرين بحرج، إن احتجت من أبيك شيئاً.

وقد قال لي العميد: إنه سعى لمنح ابنة الرافعي مجانية التعليم بالجامعة.

ولم يكد الدكتور الشكعة ينتهي مما قصه على الحاضرين من موقف الدكتور

طه منه ومن الرافعي، حتى تحدث الأستاذ الدكتور محمد على مكي أستاذ الأدب الأندلسي ، فقال: بعد تخرجي في كلية الآداب أعلن عن عدة بعثات كان بعضها في صميم تخصصي، وقدمت الأوراق المطلوبة ، ثم ظهرت نتيجة الترشيح دون أن يكون أسمي ضمن الذين رشحوا، فكتبت رسالة مطولة إلى الدكتور طه حسين، وكان وزيراً للمعارف ، وأشرت في رسالتي إلى أني أحق من سواي، ولكن يبدو أن الترشيح يخضع لمعايير غير علمية، وأن علاقة معرفة أو قرابة لمن يتقدم لبعثة بشخصية مسئولة من أهم مسوغات الترشيح، ونشرت الرسالة صحيفة أخبار اليوم، فقد كان لها موقف مناوىء من حزب الوفد، وبعد نحو أسبوعين تلقيت برقية لمقابلة وزير المعارف، وقال لي الدكتور طه بعد لقائه:

لقد أخطأت فيما كتبت، وما كان لك أن تتهم الوزارة بالمجاملة في الترشيح، وكان يمكن أن تقدم للمساءلة القانونية بسبب ما جاء في رسالتك، وكان ردي على الوزير أني على استعداد لتحمل مسئولية ما جاء في رسالتي ، كما أني سأرفع قضية على الوزارة لأخذ حقي، وعقب طه حسين على ما قلته بقوله: لا تغضب، فهناك اعلان جديد لبعثة وأنني مرشح لها، وكانت هذه البعثة إلى أسبانيا لدراسة الأدب الأندلسي.

وسافرت إلى أسبانيا دون أن أعرف حرفا واحدا في اللغة الأسبانية ، وعكفت على دراسة هذه اللغة حتى أتقنها، ثم حصلت على الدكتوراة في فترة زمنية لم تتجاوز أربع سنوات .

وقال الدكتور مكي عن كتاب مستقبل الثقافة.. إن الحملة الظالمة على هذا الكتاب حالت دون الإفادة مما اشتمل عليه أفكار وآراء إيجابية وما أكثرها، ولم نصل حتى الآن إلى تحقيق بعضها.

وجاءت تعليقات بعض الحاضرين على ما قصه كل من الدكتور الشكعة والدكتور مكي، لتؤكد أن طه حسين كان إنسانا سمح النفس واسع الصدر، محبا للخير، فكان لا يبخل على من يسعى إليه طالبا عونه ومساعدته ببذل ما يستطيع بذله لبلوغ مايريد، وما كان الاختلاف بينه وبين غيره في الرأي باعثا على المكر السيىء والحقد الأرعن والكيد الخبيث، وما كان يؤلمه أشد الألم إلا إساءة من أحسن إليهم، وانصراف بعض أصدقائه ومن كانوا يلوذون به في العقد الأخير من عمره، وبعده نكرانا للجميل وعقوقا وهو شيء فظيع على حد قوله رحمه الله . ■

أقوال معاصرة

● «الوزير في مصر يأتي إلى وزارته، وهو لا يعرف لماذا أتى، ثم يخرج منها، بالمنطق نفسه، فلا يعرف لماذا خرج!!»

د. كمال أبو المجد
وزير الإعلام الأسبق

● «الفقر أسوأ أسلحة الدمار الشامل على الإطلاق»

الرئيس البرازيلى
لويس سيلفا

● «فى أى حرب تخوضها، ومهما كانت الخطة التى وضعتها لها، ستجد أن الأمور لا تجرى حسب الخطة»

تونى بلير
رئيس وزراء المملكة المتحدة

● «أتخيل مجتمعا يقوم على الاعتراف بالرغبات، وليس إنكارها»

الروائى الفرنسى الكسندر جاردان

● «لا يوجد فى القانون ما يعرف بالجرائم الدينية سوى عدد قليل من النصوص التى تجرم ازدراء الأديان، وهذه لا تحتاج إلى شرطة خاصة من أصحاب العمائم»

د. محمد نور الدين فرحات

● «الأوزان الشعرية العربية ثروة ايقاعية فريدة ، تميز الشعر العربى عن سواه فى العالم، إنها أجنحة حرية لا قيود تقليد»

الشاعر الفلسطينى
سميح القاسم

● «العرب يتصرفون وكأنه ليست هناك فائدة من أية محاولة لاقناع الناس بأفضلية الشعب العربى والمجتمع العربى والقيم العربية والاسلامية»

المستعرب والمترجم الألمانى روجرآلان

● «أنا سعيدة بفن الشعر الذى أتاح لى أن أقول الكثير، بأقل عدد من الكلمات»

الشاعرة الرومانية
كارولينا اليكا

● «الإنترنت أصبح مركزا من مراكز المعرفة غير المسبوقة، فهو يدون التاريخ، ويطور العلم، ويفتح أبواب الحوار دون قيد، إنه بحق أخطر منجزات العصر الحديث.

العالم الأمريكى سيرف فينتون
المعروف فى الأوساط المعلوماتية بـ «أبو الإنترنت»


د. كمال أبو المجد


د. محمد نور فرحات


الشاعر سميح القاسم

جسر بين الأجيال

الروائى الكبير بهاء طاهر يقدم :

رواية عين القط لحسن عبد الموجود

بقلم
بهاء طاهر

أود أولا أن أشكر أسرة مجلة الهلال لاحتفائها بالجيل الجديد من كتاب القصة والرواية. ذلك دور يليق بهذه المجلة الثقافية الرائدة والمتجددة باستمرار، يعطى للمرء الأمل وسط الكثير مما يدعو للإحباط فى حياتنا الثقافية الراهنة، الأمل فى أنه مازال هناك من يهتم بصوت المثقفين والإصغاء إلى رسائلهم ومحاولة إيصال هذه الرسائل إلى جمهور أعرض لا يجد فى وسائل الإعلام إلا ما يغيب الوعى ويصرف الانتباه عن أى شىء جاد أو حقيقى فى حياتنا .



ومجلة الهلال العريقة تواصل أيضا بعملها هذا تقليداً استنته منذ زمن بعيد . فإنى لأذكر مثلا أنها قد خصصت فى عام ١٩٧٠ عدداً خاصاً لكتابات جيلنا الذى كان وقتها فى أول الطريق، وكانت تلك دفعة حقيقية لنا وأتمنى أن يكون هذا العدد (وأعداد أخرى مماثلة) دفعة لجيل من المواهب التى تضيف بالفعل جديدا رائعاً إلى الإبداع الروائى دون أن تلقى ما هى جديرة به من الاهتمام. ولقد أتيح لى قبل

هذا المقال أن أكتب أو أن أتحدث فى ندوات عن بعض هذه المواهب الجديدة مثل مىّ التلمساني وشحاتة العريان ود. علاء الأسواني وياسر عبداللطيف، وأعرف أن هناك أسماء كثيرة أخرى لكتاب وكاتبات من الجيل الجديد يسعدنى دائما أن أتعرف عليها وأن أتحدث عنها، فهؤلاء هم **مستقبل الأدب القادم** الذى يبشر بإضافات بالغة الثراء للإبداع الروائى، وهو شئ يفرح له كل محب للأدب.

* * *

هذا وبعض الروايات علامات، علامات فى مسيرة كتابها تشير إلى تحول كبير، وإذا ما تصادف أن كانت هذه الرواية هى الأولى لكاتبها فهى بشارة بمولد روائى يرجى منه الكثير فى مقبل الأيام، ولا أتردد فى القول بأن رواية «عين القط» لحسن عبدالموجود رواية علامة بهذا المعنى، وأدعو من قلبى أن تتحول البشرى إلى واقع تكسب بفضله روائيا ممتازاً فى مستقبل قريب.

تخلص الكاتب أولا فى هذه الرواية من عيب يشوب الكتابات الأولى للشباب وهو الرثاء للذات. فإذا كانت مجموعته القصصية الأولى «ساق وحيدة» تكشف عن حساسية مؤكدة، بل مفرطة، إزاء الألم الإنسانى، وتقع فى فخ الإدانة المباشرة للقيم وللشخصيات التى يكرهها الكاتب، فهو فى هذه الرواية الجميلة يتجاوز ذلك ليطل على العالم بعين الفنان الحقيقى التى ترى كل جوانب الصورة وتترك للقارئ مهمة الإدانة أو التبرئة أو التعاطف أو تعليق الحكم. و«عين القط» أنسب عنوان وأنسب وسيلة لهذه الرؤية.

فعين القط لماحة، جوالة، سريعة الحركة، ترى وترصد تجاور الأشياء وتناقضها دون أن تتطوع أو تبالى بالتفسير أو الحكم على ما ترى. ولكن نتيجة هذا الرصد المدهش والمتتابع للجزئيات وللشخصيات كما يسجله الروائى يفجر فى وقت واحد الفكاهة والأسى والمفاجأة والتعاطف والغضب ويجعل القارئ شريكا للقط وللروائى فى لملمة مئات أو آلاف الصور المبعثرة ليكون بنفسه فى النهاية لوحة جدارية لتلك القرية التى نعرف عنها فقط أنها فى الصعيد وأنها تجاور نجع السناوى.

وربما كان أول عنصر أحب التوقف عنده هنا هو عنصر الحس الفكاهى أو المفارقة النابعة من تتابع الأحداث. ليس فقط للإشادة بقدرة الكاتب على خلق هذه المواقف بدرجة عالية من التلقائية والنجاح دون أى تصنع وإنما لأن رصد المفارقة والجانب الفكه فى الحياة فى اطار وقائع مؤلمة فى حد ذاتها هى شهادة للكاتب، أى كاتب، على المقدرة على تجاوز ذاته لرؤية الحياة فى تكاملها حتى ولو كان هو نفسه مصدر الضحك. ولنأخذ مثالا من مقطع صغير فى الرواية بلغة الكاتب نفسه:

« فى كل مرة يقابلنى سعفان يسألنى واد مين إنت؟ وحينما أجيبه يبدى تهللا ويقول إبقى تعال بيت عمك. وبعد أن اعتبرته عمى وذهبت بالفعل إلى بيته سأل زوجته «واد مين؟» أخبرته، فنظر إلىّ قائلا عيال إيه ولاد الكلب دول.. مالكمش بيوت تقعدوا فيها؟!».

هذا المقطع هو من رواية تتضمن أحداثا من بينها القتل والمعارك التى يدوى فيها الرصاص ويسقط الجرحى وهموم أخرى لا حصر لها ولكن انبثاق الفكاهة المفاجئة والعفوية وسط تلك الأحداث دليل على قدرة الكاتب على رؤية الحياة من جوانبها المختلفة، وهى من ثم دليل على النضج . والفكاهة بطبيعة الحال ليست هى الوسيلة الوحيدة لتقديم هذه الرؤية المتكاملة، فلكل كاتب طريقة فى رصد مفارقات الحياة، ولكنى أشير فقط إلى أن حسن عبدالموجود قد اختار هذا المنهج فى روايته الأولى وأنه حقق فيه نجاحاً باهراً

وتحضرنى بهذه المناسبة عبارة أذكرها كثيراً للمسرحى الفرنسى الشهير «جان لوى بارو» يقول فيها إن الملهاة أشد حزنا من المأساة. قول صادق تماما، فقد ابتسمت كثيراً وضحكت أحياناً وأنا أقرأ هذه الرواية ولكن الانطباع النهائى الذى تركته فى نفسى هو نوع من الأسى على أبطال أو شخصيات تلك القرية المنسية وعلى القرية ذاتها وتلك كما قلت هى شهادة للكاتب .

* * *

بطل هذه الرواية إذن وراويها هو قط اسمه قط وهو يتحول فى بعض الأحيان إلى قط حقيقى أو يتقمص قطا حقيقيا يرى العالم بعينه . وفى المشاهد التى يروى فيها كشخص حقيقى أو كطفل فهو يسرد لنا الأحداث بشكل مباشر ومحايد ويقدم لنا الشخصيات الأخرى بلمسات سريعة كما يراها بعين طفل فى حدود العاشرة من عمره. هناك أسرته - والده الصارم القاسى فى أكثر الأحيان، وأمه التى تحنو عليه وتصدق (على عكس أبيه) أنه يتحول بالفعل إلى قط حقيقى عندما يحل الليل، وهناك أيضا جده، وزوجة جده لأبيه ، وعمه - وهم يسكنون جميعا فى بيت واحد. أما جدته لأبيه فتسكن مع عمته فى بيت مستقل . وهذه الشخصيات القريبة هى محور الأحداث فى الرواية، وإلى جانبها حشد من الشخصيات الأخرى تكمل صورة القرية والأحداث، أبرزها «حناوى» الخفير بطل النميمة وإثارة الفتن. ولن ألخص الرواية أو أحداثها لأترك للقارئ متعة اكتشافها ولكنى أريد الإشارة فقط إلى الاختلاف فى منهج السرد بين ما يحكيه الراوى عن الأحداث التى يراها مباشرة وتلك التى يراها حين يتقمص القط. قد لا يكون الاختلاف فى الرؤية كبيرا - فعين الطفل الراوى هى أيضا عين لاقطة كعين القط. ولكن الاختلاف فى الإيقاع ملحوظ تماما، حيث تتتابع المشاهد والجزئيات بسرعة دون فاصل أو تمهيد ، ويمكن أن نقارن مثلا بين مشهد لقاء الراوى بحناوى فى أول الرواية حيث يجسد فى مشهد متكامل وطويل نسبيا (بالمقارنة مع بقية الرواية) شخصية ذلك «الخباص» الذى يحاول أن يستدرج الأطفال لمعرفة أسرار البيوت ، كما يجسد احتقار أطفال القرية له . وفى مقابل ذلك مشهد آخر يستغرق نفس الحجم تقريبا فى الرواية ولكنه من منظور القط ويحفل

بجزئيات ومواقف متعددة غير مرتبطة يراها القط الذى ينتقل من «عشة الفراخ» التى يرصد الحركة داخلها، إلى وصف تفصيلى للسلم وللفرن، إلى مشهد بين عباس السائق وعشيقته، إلى جلسة فى محل سعد حلاق القرية وشاعرها... إلخ. (ص ٦٤ من طبعة دار ميريت للرواية) .

تفجير اللغة الشاعرية

ولا أريد أن أترك مسألة اللغة والإيقاع قبل الإشارة إلى أن حسن عبدالموجود يحقق من خلال البساطة المتناهية فى الأسلوب جواً شاعرياً حقيقياً يغلف العمل بأكمله، تحاول روايات حديثة أخرى تحقيقه عن طريق ما يوصف بتفجير اللغة أو المقاطع شبه الشاعرية أو الغنائية التى تتخلل النثر الروائى وكثيراً ما تفسده .

ومسألة أخرى كان يحبها أستاذنا يحيى حقى ، وهو على حق، أى استخدام كلمات عامية ذات جرس خاص لا يتحقق من خلال الفصحى مثل جسمه «مسهوج» أى (محموم)، أو (الرصاصة «زوّت» جنب ودنى) وتأتى مثل هذه الألفاظ فى مواضعها دون إسراف أو رغبة مفتعلة فى الإدهاش فتنقل للقارئ جوّ القرية ولغتها المميزة وتكسب الأسلوب تفرداً خاصاً .

وفى سياق هذه الملاحظات السريعة عن رواية عين القط أود الإشارة إلى أننى قد توقفت عند نقطتين محددتين أثناء قراءتى لها :

أولاهما هى شخصية حناوى الذى يبدو منذ اللحظة الأولى أو المشهد الأول فى الرواية شرا مطلقاً - فهو يؤلب الأهالى على بطرس الحلاق ثم يكون بعد ذلك سببا فى قتل ابنته ، وهو يؤلب نصف القرية من الفلاحين على نصفها الآخر من «الحلب أو المساليب» . ويبدا لى ذلك دون دافع محدد غير حقد دفين فى النفس ضد الضعفاء بالذات . وقد سألت نفسى إن كان ذلك مبررا فى الإبداع الروائى ثم تذكرت أن هذا الشر الطليق هو جزء من حقائق الحياة حتى وإن لم نجد له التبرير داخل الرواية ذاتها. ألا يتساءل القراء والنقاد حتى الآن مثلا عن سر حقد (ياجو) على عطيل فى مسرحية شيكسبير الشهيرة دون أن يتوصلوا إلى دافع مقنع غير أنه هو ذلك الحقد الطليق ؟

أما الملاحظة الثانية فهى أننى لم أكن مرتاحا فى أول قراءة للرواية إلى نهايتها التى بدت لى مفاجئة ومبتورة، لكننى فى القراءة الثانية وجدتها نهاية مفتوحة قد تكون منطقية، فإذا جاز استخدام كلمة الصراع لوصف علاقات الشخصيات فى هذا العمل، فإن الصراع يظل مفتوحا فى واقع الحياة وفى الرواية على حد سواء .

على أن هاتين الملاحظتين لم تؤثرا أبدا على استمتاعى بهذه الرواية الفاتنة التى أتمنى كما قلت منذ البدء أن تكون فاتحة لإبداع جديد ومستمر يسعدنا به حسن عبدالموجود . ■

الرقابة والمرقوبون

بقلم
محمد مستجاب

فى بدايات عصر السادات - لا أذكر تاريخها بالتحديد، سعدنا سعادة لا مثيل لها حينما صدر الأمر الديموقراطى بإلغاء الرقابة على الكتب والمجلات، ومع نشوة السعادة الممتدة اتضح لى أن الرقيب - فى موقعه الإدارى - كان قد أفرخ عدداً مذهلاً ممن يراقبون دون احتلال موقع رقابى، وأن مواجهة أمر الرقيب - مع كل صلابته العسكرية التى لا تحاور ولا تناقش - أسهل ألف مرة من مناقشة - إن استطعت الوصول إليه - ذلك الذى يجمع صفحات المطبوعة فلا يرتاح إلى بعض الفقرات المنتزعة من سيولة النص: (ليلة الفرح صمم البطل أن يصلى فى وقت لا يتوقع منه الرب ذلك) مع أن مسرى القصة يبرز أن بطلها مضطرب عقليا من أول سطر (كم أذنا للحمار؟ الإجابة: اثنتان، وللبقرة؟!).

وهى أسئلة سانجة يحاول طارحها معرفة لماذا قتل - وفتك - بطلها بعروسه بعد الصلاة - بل والتهم جزءاً من صدرها ورقبتها فى حنان بالغ الرقة، وهذا ما جعلنى أواجه رقابة غامضة وراء رئيس التحرير، تثير جدلاً رافضاً لمثل هذه النصوص: الوصية الحادية عشرة - إعلانا لانتهاء عصور الوصايا العشر، خمسة مألهم الجنة : مستجاب الأول لأن جهنم لم تكن اكتشفت بعد، وأم آل مستجاب لأنها أم آل مستجاب، وبعد ضوضاء خافتة مثيرة للتوتر: أجد القصة منشورة كما كتبتها تماماً.. بعد قلق واختناق، قال لى المرحوم يحيى حقى - أستاذنا المعلى الأعظم - أو سن المحراث الذى فتح لنا

تربة الكتابة المستعصية لينجب أشجار يوسف إدريس - قال لي حينما كان رئيساً لتحرير مجلة المجلة في آخر أيامه - وأيامها أيضا - (أنا لن أنشر لك هذه القصة.. لكنك أنت اكتب بانطلاق) وظل ممعناً في وجهي كي لا أستفسره عما يقصد من انطلاق، وهذه اللحظة التي لن تتجاوز الدقائق كانت ذات تأثير ساخن وأساسي في كتاباتي حتى الآن.

المراقب المفتعل

إلا أننا نحن المرقويين لم نستغل إلغاء الرقابة بالمعنى الراقي على أعمالنا، ففي الوقت الذي انتشرت أسراب الرقباء في خلايا النشر - دون أن يكونوا رقباء - قام بعضنا باستخدام فرصة هذه الحرية في الوصف المثير الوضيع للممارسات الجنسية ، أو استعمال ألفاظ بالغة الانحطاط، أو السلوك الذي يوقع جهاز استقبالنا في دائرة الاشمئزاز، مع أن الفن الحقيقي - أي التعبير المتسامي الراقي - يتيح لمن يدرك ذلك: أن يعبر عما يريد من مواقف ومواقع بالغة الحساسية: بطريقة متفاعلة تعلو على الاسفاف، والبحث الرخيص عن الشهرة الأرخص.

وبينما كنت أضع هذا المقطع، تذكرت حينئذ أن الرقباء الغامضين يمكنهم أن يدفعوك أن تكون مراقباً مرقوباً مضطرباً، فمنذ سنوات قليلة - ربما أربع سنوات - بدأ الاهتمام الدافق بفن كتابة الرواية في المجلس الأعلى للثقافة، فكتبت في أحد مقالاتي: أن ذلك راجع إلى أن الشعر يجد مؤسسة عربية في الاحتفاء به: شعراً وشعراء، وفي الوقت نفسه هناك مؤسسات عربية أيضاً - بعضها في مصر - اهتمت بفن الابداع على كافة مستويات الشعر والقصة والرواية والمسرحية، إلا أنها المرة الأولى التي تقوم فيها هيئة مصرية بالاحتفاء والاحتفال بفن الرواية فقط، فإذ بنا جميعاً نحن كتاب القصة القصيرة بالذات نقوم بتوجيه سجادة الصلاة إلى مذبح الرواية، فإذ بالقائم بالمراجعة في المجلة يرفع هذا المقطع دون أن يدري أن المقال قد انهار لعدم صياغة مقطع بديل، فطلبت من الله أن يساعدني ويقف معي ضد هؤلاء الرقباء المنتشرين بين المكاتب والمطابع في دور النشر، فإذ بي - بعد أسبوعين أعرف أن هذا المراقب المفتعل تم نقله بسرعة للعلاج بالخارج.

ليس عودة للرقابة

ولذا فإن أمر الرقابة قد يكون أفسح مجال التعبير بإلغاء الرقيب المعلن، أو الذي يؤدي واجب وظيفته خالصاً بمفهومه السياسي والأخلاقي والديني - والعنصري أيضا، لكنه تركنا في موقف حرج، ليس فقط إزاء ما كنا نأمله في جو الحرية، ولا ما ترتب عن ذلك من قراءتنا كتاب (لعبة الأمم) للأمريكي

كوبلاند (والذى أرجو أن يعاد نشره لتكتشفوا طريقة فك الأنظمة المعادية للغرب مثل الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا وغيرهما - قبل أن تتفكك هذه الأنظمة وتنحل وتتحلل وتتساقط بفعل هؤلاء الذين يعملون فى الخطوط الخلفية لأى نظام - وبالطبع فإن الكتاب ترجم إلى العربية عام ١٩٦٨)، ولكن الأخطر من أى رقابة فى بلادنا هو ما نقوم به نحن الكتاب الذين قام بعضهم بأنواع من الكتابة تثبت أننا - بالفعل - فى حاجة إلى رقيب، هؤلاء الذين نجح أن يكون بعضهم عضوا فى اتحاد الكتّاب دون قدرات فنية، وأخلاقية، ووعى بمعنى ومسئولية الفن الراقى، حتى أن بعضهم يطبع بطاقة - أى كارت - التعريف بنفسه: عضو اتحاد الكتاب، ويقوم بتذييل مقالاته وقصصه وأشعاره بصفته عضواً فى اتحاد الكتاب، ثم تتوالى هذه (التعريفة) الهابطة فى كل ما يرد وينشر حولهم فى صحف ومجلات معلومة أو مجهولة أو هابطة، وفى الأفراح والعزاء، وعلى واجهة الشقة التى يسكنها: فلان الفلانى - عضو اتحاد الكتاب، فهل يمكن لعضو اتحاد الكتاب هذا أن يدرك أن الطبيب لا يستخدم عضو نقابة الأطباء تعريفاً بنفسه، ومثله المحامى والصيدلى والمهندس، إلا فى ظروف تخص الاقرار المباشر بمسئولية النشاط المهنى، ومسئوليته فى التحقيقات وحيثيات التحكيم واستصدار وجهات النظر فى قضايا لها خصوصية تدفع بالانتماء إلى النقابة أو التنظيم أو الاتحاد إلى قانونية المواجهة؟

وليس هذا دعوة لعودة الرقابة، لكنه الاحساس المرير مما أقرأ للبعض فى ذاك النشر المتناثر مثل ريش ذيول الديوك فى المشاجرات داخل العاصمة والأقاليم، ولا أقصد ما قد يكون وضيعاً - فى النشر ، وغير أخلاقى ، بل ما قد يكون هابط الذوق أيضا، وهابط المستوى الفنى.

وهذا أمر لا يدركه كلاهما: الرقيب السرى المشار إليه دون أن يمتلك صفة رقابية ناجمة عن مفاهيم اجتماعية وعواطف دينية متخلفة، ولا هؤلاء أصحاب القلم والورق دون ابداع حقيقى.. حتى فى أدنى حدود الابداع.

وبدلاً من أن أسعى بحثاً عن حل: بدأت أفكر أن أكون أكثر تخلفاً كى أصبح رقيباً، أو ضابط شرطة نقطة مترو الأنفاق، أو عاملاً فى معمل يقع أسير لقطة فى فيلم دون إدراك للمعنى الشامل لكل اللقطات، أو مراقباً - وليس رقيباً - فى فندق يهيمن على الأدوار العليا الفاخرة، لكنه يمارس رقابته برقبة منحنية إلى الأدوار السفلى التى يقع فيها ويتصارع: المراقبون والمرقوبون .. أمين. ■

لغويات

كافة

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

معناها جميعا، ولا تجئ إلا مفردة منصوبة على الحال لمن يعقل، في نهاية الجملة. في القرآن الكريم: «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» (سورة البقرة، الآية ٢٠٨).

وفي سورة التوبة، الآية ٣٦ «وقاتلوا المشركين كافة».

وفي السورة نفسها الآية ١٢٢: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة».

وجمهرة النحاة لا يجيزون استخدامها مضافة ، فلا يقال :كافة الناس ، ولا تلحق بها الألف واللام ، فلا يقال الكافة.

وهذه الأحكام غالبة، وليست مطلقة، فهي لم تجئ آخرا في الآية القرآنية: «وما أرسلناك إلا كافة للناس» (سورة سبأ، الآية ٢٨).

وجاءت مضافة فيما روى عن عمر بن الخطاب في كتاب له: «وجعلت لآل «بني كاكلة» على كافة بيت المسلمين لكل عام مئتي مثقال ذهبا إبريزا».

ويروى عن القاضي أبو بكر بن قريعة حين استثبت عن شئ حكاه قوله: «هذا ترويه الكافة عن الكافة».

حاول النحاة تخريج الآية القرآنية التي جاءت على غير القاعدة بتأويلات لا مبرر لها، وتوقفوا عند قول عمر وخطئوا القاضي وهم في كل الحالات يسقطون الاعتبارات البلاغية أحيانا والملامح الايقاعية التي تتطلب صوغ الجملة على نحو معين أحيانا أخرى.

نعم نحن نرى معهم أن كافة تجئ منصوبة مفردة حالا آخر الجملة، ولكن لا يخطئ المرء إذا ما جاء بها على نحو ما صنع السابقون، واستخدمها مضافة أو معرفة بالألف واللام أو لم تكن آخر جملتها إذا تطلبت ذلك صياغة جملة معينة، أو لنكتة بلاغية كما يقول القدامى. ■

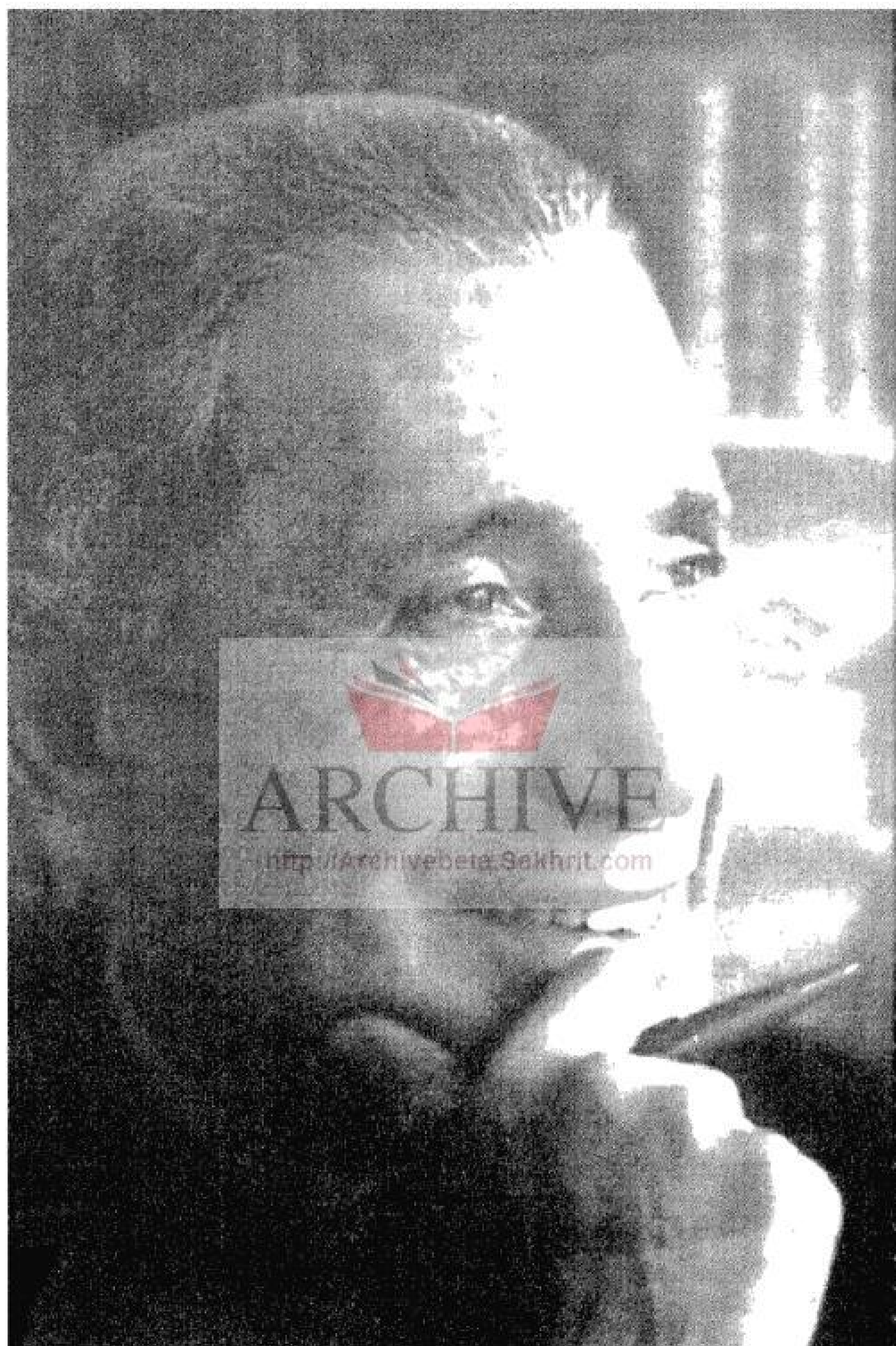


هيكل مؤرخاً

مطلوب مؤسسة تحمي الوثائق التاريخية

بقلم
د. رءوف عباس

لعل أهم مايميز محمد حسنين هيكل - إلى جانب قدراته المتنوعة - حسه التاريخي، وحرصه على أن يقدم رؤيته لتاريخ الفترة التى عاصرها فى الصحافة والسياسة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وما ترتب عليها من نزوع نحو تصفية القضية الفلسطينية لصالح المشروع الصهيونى. وجاءت رؤيته للتاريخ (كما عاصره) فى سلسلة من الكتب التى نشر معظمها بالإنجليزية، وحرص على أن يصوغ بقلمه طبعتها العربية، مضيفا الكثير من المعلومات والملاحق الوثائقية التى لاتحتملها الطبعة الإنجليزية، والتى تتخذ أساسا لطبعات أخرى تصدر باللغات الأوروبية الأخرى، وبعض اللغات الآسيوية. فهو عند صياغته للطبعة العربية لكتاب نشر أصلا للقارىء الأجنبى، قدم للقارىء العربى خطابا يتناسب مع الرسالة التى يريدها أن تصل إلى أصحاب العلاقة الذين يخصهم ما يكتبه، ويسعى من وراء ذلك إلى تنمية الوعى بالتاريخ عندهم.



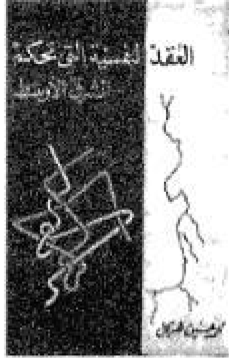


● المؤرخ يستقى مادته من مختلف المصادر ويقوم بتحليلها واستقرائها، واستخلاص النتائج منها

والرجل حريص تمام الحرص على أن يؤكد في مقدمات كتبه أنه ليس مؤرخا، ولم يقصد بما كتب أن يقدم بحوثا تاريخية تلتزم الأصول المنهجية التي تقيد عمل المؤرخ، ولكنه يقدم رؤيته الذاتية لأحداث عاصرها، وشهادته لحوادث أتاح له قربه من صانع القرار (جمال عبدالناصر ثم السادات) أن يراها تتشكل أمام ناظريه، وأن يشارك -أحيانا- بنصيب ما في صنعها.

وهذا التحفظ الذي يؤكده هيكل لقرائه في مقدمات كتبه، يعبر عن فهم عميق لصناعة المؤرخ الذي عليه أن يستقى مادته من مختلف المصادر ويقوم بتحليلها واستقرائها، واستخلاص النتائج منها، فهيكل يريد بذلك ألا يلزم نفسه أمام القارىء بما يلتزم به المؤرخ . كما يتم هذا التحفظ عن إدراك عميق - من جانبه - للفارق الكبير بين التأريخ، وتسجيل الشهادة التاريخية التي تعبر عن الرؤية الذاتية لصاحبها، والتي تعطي له الحق في تناول وقائع لامصدر لها سواه، ولا تلزمه بإقامة الأدلة المادية على دقتها، أو حتى صحتها.

ولايعني ذلك أن تلك الشهادات التي تطغى على الكثير من كتابات هيكل تجعل مما يكتبه نوعا من المذكرات الشخصية، فالمذكرات لاتلتزم موضوعا محددا إلا في حالات نادرة مثل مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية مثلا، أو مذكرات الجنرال ديجول عن الحرب ذاتها، أو مذكرات هنرى كيسنجر عن فترة خدمته في البيت الأبيض. أما كتابات هكيل فتغطي موضوعات شتى تبدو قائمة بذاتها ولكنها ترتبط ارتباطا وثيقا ببعضها البعض، وتتصل حلقاتها اتصالا وثيقا، من حرب فلسطين ١٩٤٨ إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ومن سياسات الهيمنة على الشرق الأوسط كما مارستها القوى الاستعمارية التقليدية إلى مخططات الهيمنة كما وضعتها الولايات المتحدة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتتقاطع مع هذا كله سياسات القوى الكبرى في عصر الحرب الباردة، وحركة التحرر الوطني في العالم العربي وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.



وتتعدد تبعا لذلك الميادين والمسارح التى شهدت تلك الوقائع والأحداث: مصر، والوطن العربى، وإفريقيا، والساحة العالمية.

رؤية الكاتب الذاتية

وكل كتاب من كتب هيكل يدور حول حدث معين محوره تاريخنا القومى المعاصر، وإطاره صراع القوى الإقليمية والدولية، يتضمن رؤية الكاتب الذاتية لذلك الحدث، ويسجل شهادته لما يراه من بعض مكوناته، ويتضمن عرضا مستفيضا لوجهات نظر ومواقف مختلف الأطراف التى شاركت فى صنعه، ولايقتصر على تسجيل المواقف التى شهدها الكاتب أو اطلع على أخبارها .. وهنا يكمن الفرق الكبير بين كتابات هيكل التاريخية والمذكرات الشخصية التى لايكاد يخرج صاحبها عن إطار الأحداث التى شارك فى صنعها، وتغلب عليها الذاتية، والطابع الدفاعى التبريرى على نحو لانجده فى كتابات هيكل.

ولايعنى هذ أن هيكل قد أفرغ كل مافى جعبته فى تلك الكتب، ثم «استأنن فى الانصراف»، فرغم القيمة الكبيرة لهذه الكتب تظل هناك مساحة عريضة لمذكرات شخصية (لعلها عنده فعلا ويحجم عن نشرها) يقدم فيها -للتاريخ- خلاصة تجربته الشخصية فى عالمى الصحافة والسياسة، فمثل هذه المذكرات (لو رأت النور) تعين المؤرخ فى وصل ما انقطع، وتجسير الفجوات فى رواية تاريخنا المعاصر.

ألوان من الكتابة التاريخية

ورغم أن هيكل تبرأ فى مقدمات كتبه - كما أشرنا - من أن يحسب على زمرة المؤرخين، ونفيه أن يكون قصده من وراء ما كتب «كتابة التاريخ»، فما فعله - فى حقيقة الأمر - لايبعد كثيرا عن عمل «المؤرخ»، وما كتبه يمثل لونا على درجة كبيرة من القيمة من ألوان الكتابة التاريخية. قد تكون هناك بعض الهيئات هنا وهناك، قد تتفاوت نظرة المشتغلين بالبحث التاريخى إزاءها، فيرقى بها البعض إلى درجة الأخطاء، وقد يغلو البعض الآخر فينزل بها منزلة الخطايا، ولكن تظل لها قيمتها، وتظل مصدرا لا غنى عنه لكل من يهتم بدراسة تاريخنا المعاصر.

ولا ريب فى أن نفى هيكل لتقمص دور المؤرخ يعكس إدراكه الدقيق



● مارس هيكل مهمة «المؤرخ»، فقارن المادة «الثمينة» المصرية التي بين يديه، بما جاء بالوثائق البريطانية والأمريكية، ليصوغ رواية «تاريخية»

والعميق لخصائص الكتابة التاريخية التي يجب أن تستمد مادتها من المصادر الأساسية، وهنا نجد هيكل لايكتفي بما بين يديه من مادة محلية تمثلت في وثائق رئاسة الجمهورية وأجهزة الأمن القومي التي لازالت «محرمة» على المشتغلين بالبحث التاريخي، لايكتفي بذلك، بل يعمل على استخدام وثائق الأطراف الأخرى التي كانت لها علاقة بالحدث، فجمع عددا هائلا من الوثائق البريطانية والأمريكية، سواء ما كان منها رسميا أو خاصا، مستفيدا - بذلك - من نظم الأرشيف الوطني، وإتاحة الإطلاع على الوثائق بعد مرور ٢٥ عاما على الأحداث التي تتناولها والقوانين الخاصة بحق الحصول على المعلومات، وهي كلها أمور يفتقر إليها أرشيفنا القومي الذي يعاني فقرا شديدا في وثائق العصر الملكي، ويخلو تماما من وثائق الثورة.

وهكذا، نجد هيكل يمارس مهمة «المؤرخ» من هذه الناحية، فيقارن المادة «الثمينة» المصرية التي بين يديه، بما جاء بالوثائق البريطانية والأمريكية، ليصوغ رواية «تاريخية» يضفي عليها قدرا كبيرا من الحيوية بما يستخدمه من مصادر - أخرى - لم تتح لأحد سواه - مثل اللقاءات الشخصية، والأحاديث الشفهية مع صناع القرار، وكذلك الرجوع إلى المذكرات الشخصية والتصريحات الصحفية، فهو يقدم في نهاية المطاف صياغة للواقعة لاتختلف عما يفعله المؤرخ المحترف الذي يملك ناصية منهج البحث التاريخي من حيث المصادر والأدوات، وأسلوب إعادة بناء الحدث.

فما يفعله «المؤرخ» المحترف لايختلف عن ذلك كثيرا، إذ يجمع مادته من مصادرها الأساسية، ويقوم بترتيبها وفق نسق منهجي معين يعكس - إلى حد كبير - ثقافته ورؤيته الذاتية، ثم يقدم صورة قلمية للحدث الذي يتصدى لكتابته، تعبر عن تصوره له، استنادا إلى فهمه الخاص لما بين يديه من مادة، فالكتابة التاريخية هنا ليست عملا ماديا آليا، ولكنها تتضمن الكثير من الإدراك والتمثل، والتعبير عن فكر صاحبها، ولا أظن أن هيكل كان بريئا من ذلك كله، بل أراه لايختلف عن «المؤرخ» من حيث طريقة العمل والأدوات اللازمة له. وإن كان هيكل قد



تخلص من الكثير من القيود التى تحكم حركة المؤرخ.

من هذه القيود إبراز الدور الشخصى لهيكل، وطغيانه - أحيانا - على رواية الوقائع، فالمؤرخ يتعامل مع حدث لم يكن طرفا فيه، أما هيكل فوضعه مختلف، ولانستطيع أن نطالبه بالتخلص من ذاتيته، بل - على العكس - نجد فى هذا اللون من الكتابة ما يضىء الكثير من بقع الظل الكثيفة التى تغطى الحدث، فهو لايروى الأحداث كما يرويها من شهدها على الورق ورآها من الخارج ولكنها يرويها رواية «الشاهد» الذى كان فى قلب الحدث.

ومن هذه القيود التى تخلص منها هيكل الاعتماد على مصدر واحد - أحيانا - فى واقعة بعينها، وخاصة إذا كان المصدر شفهيا، فلا يملك «المؤرخ» أن يفعل ذلك دون أن يعرض نفسه لسيل جارف من النقد، وغالبا ما يستخدم المؤرخ عبارات تنم عن الحذر الشديد، وتتضمن الكثير من التساؤلات إذا اضطر أن يستخدم رواية لاسند لها إلا مصدر واحد، أما بالنسبة لهيكل فتسجيل الرواية أحادية المصدر يعد «شهادة» لاتخلو من قيمة، عندما تتاح الفرصة لمقارنتها بما قد يتم التوصل إليه من مصادر أخرى.

أستار من الظلال

وأخيرا تخلص هيكل من قيد التخلص من أسلوب الانتقاء عند بناء روايته للحدث، فيغفل أشياء أو يسدل عليها أستارا من الظلال، بينما يلقى أضواء ساطعة على غيرها من الأشياء، فمثل هذا الأسلوب الانتقائى للوقائع أو مكوناتها لا يُقبل من المؤرخ، ولكنه من السمات المتواترة فى كتابات أصحاب الشهادات التاريخية وكذلك أصحاب المذكرات.

على ضوء ذلك نستطيع أن نفهم الدوافع التى جعلت هيكل يحرص على أن ينأى بنفسه عن الانتماء إلى «المؤرخين»، وينفى عن كتاباته صفة «التأريخ»، ولكن ما قدمه من أعمال تعد - فى رأيى - مصدرا مهما لا يستطيع أى مؤرخ جاد يعنى بتاريخ مصر المعاصر أن يتجاهله أو يهون من شأنه. فلا مناص للمؤرخ من أن يستخدم هذه الأعمال، ويتعامل معها بهذه الصفة، ويخضعها - كما يشاء - للنقد والتحليل المنهجى، تماما كما لايمكّنه إهمال أعمال عبدالرحمن الرافعى التى تتناول تاريخنا القومى فى النصف الأول من القرن العشرين، مع اختلاف المستوى والقيمة بين عمل الرجلين، فلم يتح لعبدالرحمن الرافعى الفرص التى



أتيحت لهيكل، واقتصر عمله على رصد الوقائع اعتمادا على المادة المحلية وحدها فى أغلب الأحوال، ولم تكن له معرفة هيكل بالسياسة الإقليمية والدولية، وكان - فى أغلب الأحوال - «مراقبا» خارجيا، وليس مشاركا فى صنع الحدث.

ورغم أن عبدالرحمن الرافعى لم يسلم من النقد المر الذى وجهه إليه «المؤرخون» إلا أنهم - بلا استثناء - لم يسقطوا أعماله من اعتبارهم، بل لايستطيع المنصف منهم أن ينقص من قيمتها رغم ماقد يكون له عليها من مآخذ.

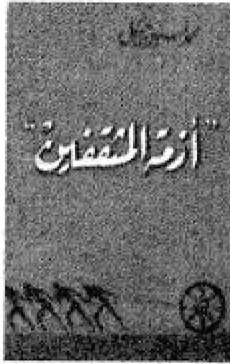
جهد يفوق طاقة المؤرخ

وكتابات هيكل التاريخية ملأت - دون شك - فراغا كبيرا فى المكتبة العربية، وتمثل جهدا يفوق طاقة وجهد المؤرخ الفرد، ولابد أن يكون الرجل قد استعان بعدد من المعاونين فى جمع الوثائق الأجنبية وترتيبها، وتجهيزها للعمل عليها، وكذلك ترتيب المادة الوثائقية المصرية، أما الكتابات بهذا الأسلوب المميز فهى من عمله وحده، ويدخل فى ذلك اختيار المادة وتنظيم الاستفادة منها.

وتكمن قيمة هيكل فى الوثائق المحلية التى أتيح له الحصول على نسخ مصورة منها، وكذلك فى الشهادات التى أوردها للأحداث التى شارك فى صنعها أو كان شاهدا لها أو مراقبا عن قرب، هذا فضلا عن اللقاءات والأحاديث الشفوية التى كان طرفا أساسيا فيها وخاصة مابرويه عن عبدالناصر والسادات وبعض الشخصيات الأمريكية والأوروبية، فهذه كلها مادة مهمة يستطيع «المؤرخ» أن يستخرج منها الكثير والكثير من الدلالات والاستنتاجات التى قد تختلف عما توصل إليه صاحبها من نتائج.

وإذا كان المقام يضيق هنا عن تحليل مضمون كتابات هيكل التاريخية، فلا مناص من أن نشير - بهذه المناسبة قضية مهمة سبق أن تناولناها فى مناسبات أخرى فى مقالات وأحاديث صحفية، كما تناولناها فى لقاء مع هيكل جاء بدعوة كريمة منه فى صيف ٢٠٠١، بعدما تم افتتاح مقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية الذى شيده الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى من ماله الخاص، ووهبه للجمعية، عندئذ طلب الأستاذ

● تكمن قيمة هيكل فى الوثائق المحلية التى أتيح له الحصول على نسخ مصورة منها، وكذلك فى الشهادات التى أوردها للأحداث التى شارك فى صنعها



محمد حسنين هيكل أن يلتقي ببعض أعضاء مجلس الإدارة، ورتب اللقاء الصديق الكاتب الصحفي أحمد الجمال عضو الجمعية.

وفي ذلك اللقاء أثرنا مع هيكل موضوع الوثائق التاريخية التي يحتفظ بنسخ منها لديه، وهي - دون شك -تفوق من حيث الكم ما استخدمه في كتبه، وطلبنا منه أن يودع هذه النسخ المصورة دار الوثائق التاريخية القومية، وقلنا له: إن ذلك العمل يوفر خدمة جليلة لتاريخ هذا الوطن تتوج مابذله من جهد في تسجيل هذا التاريخ في كتبه.

حديث حول الوثائق

ودار بيننا وبينه حديث شيق حول أهمية تاريخ مصر المعاصر وخاصة فترة الأربعينات والخمسينات وكذلك تاريخ المنطقة وفهمنا أنه لايريد التحدث «بصراحة» حول موضوع الوثائق، فحاولنا توجيه الحديث إليها، وكانت حجته أن ما لديه ليس وثائق رسمية بل صور منها، وأنه يخشى أن يكون مصيرها التلف والإهمال والضياع إذا سلمها لهيئة حكومية، ولمح إلى إمكانية ايداعها هيئة خاصة إذا ضمن أن تكون موضع الرعاية.

فأبدينا استعدادنا أن نخصص لها المكان اللائق بها في مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. وانتهى اللقاء دون أن نحصل منه على موقف محدد من الاقتراح، وحاولنا التواصل معه، وقدمنا له دعوة لزيارة الجمعية والقاء محاضرة بها، وتركنا له تحديد الموعد الذي يلائمه، ولازلنا عند موقفنا بعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء.

***

إن الجهد الجليل المهم الذي بذله هيكل في تسجيل رؤيته وشهادته لتاريخنا المعاصر، لايكتمل إلا باتاحة ما لديه من وثائق للباحثين عن طريق إيداعها إحدى الهيئات العلمية التي يطمئن إليها. فقد حصلت دار الوثائق التاريخية القومية على مجموعة كبيرة من الوثائق الأمريكية والبريطانية، ومازالت الوثائق المصرية لتلك الفترة قابعة عند الأستاذ هيكل يتطلع الباحثون إلى اليوم الذي يتاح لهم استخدامها، وستظل يد الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ممدوة إذا شاء الأستاذ اختيارها مقرا لمجموعته الوثائقية. ■

كنت في جنوب أفريقيا

بقلم
صنع الله ابراهيم

كان من حظي أن زرت جنوب أفريقيا عشية ثلاثة أحداث من أهم أحداث تاريخها الحديث : أولها هو الاحتفال بمرور عشر سنوات على الاستقلال أو الديموقراطية كما يسمونه، ويعنون بها نهاية عصر التفرقة العنصرية وسيادة الرجل الأبيض، والثانى هو انتخاب رئيس جمهورية جديد من بين عدة مرشحين ، بينهم واحد يهودى (أبيض بالطبع) ، أسفر عن اعادة انتخاب الرئيس مويبكى، والثالث هو الاستعداد لتقديم ملف المونديال.

وقبل السفر بأيام تنبهت إلى أننى لاأعرف إلا القليل عن هذا البلد الأفريقى. وتذكرت أنى قرأت منذ عدة سنوات عن رحلة قام بها الدكتور صبرى حافظ الأستاذ بجامعة لندن إلى جنوب أفريقيا فى ١٩٩٥ ، بعد عام واحد من إستقلالها، وسجل تفاصيلها فى واحد من أمتع كتب الرحلات التى قرأتها وصدر سنة ١٩٩٩ بعنوان مرايا الذات الأخرى فى سلسلة أصوات أدبية التى كان يرأسها الكاتب الصديق محمد البساطى.

بحثت عن الكتاب فى مكتبتى فلم أجده وتفضل الكاتب الصديق جرجس شكرى بإعارتى نسخته وعدت أقرأ عن البلاد التى سأزورها بعد أيام.



طوال ٨٠ سنة لم يكن الرجل الأسود قادرا علي الانتقال من مكان إلي آخر دون تصريح المرور الكريه

تركة الرجل الأبيض

عرفت أن مساحتها خمسة أضعاف مساحة "بريطانيا" أو قدر مساحة "هولندا" و"بلجيكا" و"ايطاليا" و"فرنسا" و"ألمانيا" مجتمعة. ليست صحراء وانما خضراء عامرة بالثروات الطبيعية ويعيش عليها أربعون مليونا منهم ثلاثون من السود ، وخمسة ملايين من البيض ومليون من الأسيويين الهنود، وثلاثة ملايين ونصف من الملونين.

ولا تتمتع هذه المناطق بالكهرباء أو المياه النقية أو الصرف الصحي. وتنبعث منها رائحة كريهة يمتزج فيها عرق الانسان برائحة الصتان وعفونة الأشياء العطنة وفضلات البشر والحيوانات بالإضافة إلي رائحة الخمارات التي تبيع أغلي الخمور المستوردة بأسعار رخيصة، وهي سياسة متعمدة تهدف إلي تحطيم شخصية الانسان الأفريقي.

هذه هي التركة الثقيلة التي خلفتها سياسة العزل العنصري الشائنة. وقد لفت "صبري حافظ" النظر إلي التطابق بين هذه السياسة والتخطيط الاسرائيلي الذي يعتمد علي الطرق الالتفافية التي تخدم المستوطنات وتحاصر القوي الفلسطينية في الوقت نفسه وهي السياسة التي بلغت أوجها الآن ببناء الحائط العازل الشائن. وكما هو الحال في "فلسطين" لم يكن مسموحا للسود بمغادرة مناطقهم أو الاتصال بمناطق سوداء أخري إلا بموافقة الرجل الأبيض. ولهذا أقيمت المناطق الخالية الجرداء بين المناطق المخصصة لكل جنس علي حدة وفقا لقانون التسكين العرقي الذي لا يسمح لأي جنس بالسكن بجوار الجنس الآخر.

دوربان ، مارس ٢٠٠٣

بعد رحلة شاقة عبر عدة عواصم أفريقية ("نيروبي" و"الخرطوم" ثم "جوهانسبرج") هبطت بي طائرة خطوط "جنوب أفريقيا" في مدينة "دوربان" . وألفيت نفسي في مطار

يضارع في الفخامة وجودة التنظيم أهم مطارات أوروبا ، وتتردد فيه التعليمات بثلاث لغات: الأفريكانية القريبة من الهولندية و الانجليزية ثم لغة "الزولو" الأفريقية. ومع ذلك تعطل الكمبيوتر الذي يعمل عليه موظف أسود وانتظر عشرات المسافرين اصلاحه وهم يوجهون إليه نظرات الاتهام . فالكاونتر القريب الذي تجلس خلفه بيضاء ذات عيون زرقاء كان يعمل في كفاءة تامة. وقد سبق أن سجل "صبري حافظ" في كتابه ما لاحظه من محاولات التخريب التي يقوم بها البيض عن عمد للتشكيك في قدرات السود. وسجل أيضا أن المدينة تضم أكبر تجمع هندي خارج "الهند". وأن الهنود امتنعوا عن مساندة السود في معركتهم ضد الحكم العنصري الأبيض، واهتموا بالتجارة وصنع الثروة، ولهذا فهمت موقف المرافقة/ السائقة ذات الأصل الهندي التي أقلتني من المطارعبر طرق ممهدة تحكمها القوانين الانجليزية الصارمة. فلم تخف عدم رضاها عن الأوضاع وشكها في قدرة السود علي ادارة البلاد.

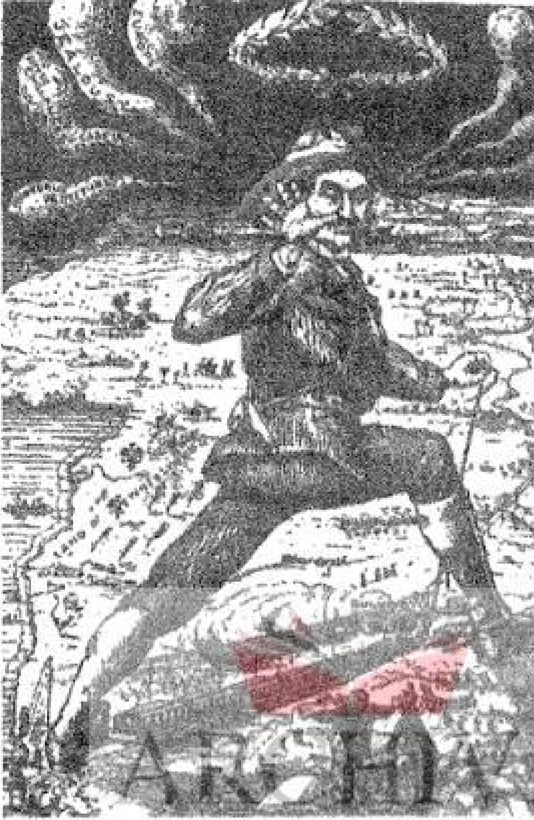
وتقع " دوربان" -التي اشتهراسمها عندما احتضنت منذ سنوات قليلة مؤتمرا عالميا ضد العولمة الرأسمالية -- علي الشاطئ الأفريقي الجنوبي . وهي مدينة نظيفة حديثة تتناثر فوق ساحلها الفنادق الحديثة الأمريكية الطرازالتي تطل مباشرة علي المحيط الهندي. ويكثر بها البيض ذوو الأصول الانجليزية الذين يقيمون في فيلات وقصوروسط طبيعة ساحرة بينما يقيم أغلب السود في عشش من الصفيح . ولم يكن يحق لهم أيام العزل العنصري المشي علي الرصيف الذي خصص للبيض وحدهم.

أقمت في فندق "هوليداي إن" ، وهو نفس الفندق الذي أقام به "صبري حافظ" منذ سنوات، وتلقيت مثله التحذير من الابتعاد عن كورنيش الشاطئ الرئيسي خوفا من عنف السود. وكان الفندق مزدحما علي غير العادة بسبب اقتراب موعد دوري كأس العالم في رياضة الرجبي . وامتلأت مصاعده ردهاته بمئات من رياضيي "جنوب أفريقيا" الشبان البيض الذين يتحدثون اللغة الأفريكانية ويتميزون بأجسام شديدة الضخامة تذكرك علي الفور بالأبقار الهولندية. بينما أحاطت بالفندق "قطعان العاهرات" ، علي حد وصف الصحف التي حذرت الرياضيين منهن.

المكاشفة والصراحة

ومنذ اللحظة الأولي، تلحظ درجة عالية من الصراحة الفريدة في تناول القضايا لعامة دون التقيد بـ لد لموروثات الغبية التي تنبع من تقاليد متعفنة وأوهام دينية. وتتجسد هذه الظاهرة في التليفزيون (الذي حرم البيض البلاد منه حتي عام ١٩٧٦) والصحافة ومثالها صحيفة "الديلي نيوز" الواسعة الانتشار والتي نشرت علي صفحتها الأولي يوم ٢٣ مارس نبأ اغتيال الشيخ "ياسين" وتصريح "عرفات ": " أنا التالي ". لكن المانشيت الرئيسي لها كان : " بيع الزوجات من أجل الطعام! " وجاء تحته أن الرئيس "مويبكي" صدم أثناء زيارته لاحدي ضواحي "دوربان" الفقيرة في غمار حملته الانتخابيةعندما أخبره السكان بأن الرجال العاطلين يعرضون زوجاتهم في الشوارع من أجل البقاء علي قيد الحياة. وصدم "مرة ثانية عندما عرف أن المنطقة محاصرة بواسطة المجرمين الذين يرهبون السكان وأن المخدرات منتشرة بين الأطفال.

والواقع أن البطالة تقع علي رأس المشكلات التي تواجهها "جنوب أفريقيا" الآن. وكان حزب المؤتمر قد وضع عشية الاستقلال خطة طموحة لبناء مليون منزل جديد



كاريكاتير انجليزي من عام ١٨٩٠ يصور أحلام "سيسيل روس" الاستعمارية . فها هو يخطو فوق أفريقيا بينما يشق القطار طريقه من "كيب تاون" إلي "القاهرة" عبر أراض يسيطر عليها الانجليز.

وتحقيق التعليم المجاني للجميع ومد الكهرباء والمياه، وأمل "مانديلا" زعيم الحزب ورئيس أول حكومة ديموقراطية (ولد سنة ١٩١٨) أن يتلقي العون من العالم الرأسمالي الغربي في تنفيذ هذه الخطة. لكن أمله لم يتحقق فغير "مويوكي" الخطة في ١٩٩٧ إلي إعادة الهيكلة والتركيز علي تشجيع الاستثمارات الدولية والاستثمارات الخاصة دون القطاع العام، وهي خطة انتقدها الكثيرون داخل الحزب وخارجه وخاصة النقابات التي دعت إلي مزيد من الانفاق العام والحد من تشجيع القطاع الخاص.

وتتصل بقضية البطالة قضية الجريمة. فمانشيتات الصحف اليومية تعلن عن جرائم قتل واغتصاب وسرقات بنوك وسيارات .أما الشرطة فهي عاجزة عن فرض الأمن لأن خبرتها الأساسية لا تتجاوز مكافحة النشاط السياسي. وفي صدر الصفحة الأولي من الصحيفة المذكورة نبأ عن صبي في الخامسة عشرة سرق رغيفا من الخبز يساوي أربع "راندات" ونصف أي حوالي نصف دولار، فاعتدي عليه صاحب الحانوت بمقبض جاروف ثم ضرب رأسه في الحائط مما أدي إلي وفاته بعد عدة ساعات. وفي حادث آخر بنفس اليوم هاجم ستة لصوص منزلاً وأغرقوه في وابل من الرصاص فقتلوا رب الأسرة (٦٢ سنة) واستولوا علي ما قيمته ٢٠٠ دولار.

ويمثل " الايدز" واحدة من أهم مشاكل البلاد. فمنذ خمس سنوات أعلنت ادارة الصحة أن قرابة أربعة ملايين أي ١٠ بالمئة من السكان مصابون به. ويتزايد انتشار

الوباء بسرعة وخصوصا بين النساء،مما يؤثر علي الاقتصاد لأن المصابين من الشريحة الشابةأساسا. وقد تردد أن "مويوكي" لم يوافق علي برنامج الدواء الذي يمكن أن يبطئ نمو الوباء. أحفزني كتاب "صبري حافظ" و مشاهداتي الشخصية علي أن أسعي وراء تاريخ البلد. وهو تاريخ مأساوي بكل المعاني وتتقاطع مفاصل مهمة منه مع التطورات في كل من "مصر" و"فلسطين". فقد عرف الجنوب الأفريقي حضارة مزدهرة منذ عشرات القرون قبل أن يصل إليها الرجل الأبيض لاستغلال الماشية والمناجم ، في صورةشركة "الهند الشرقية الهولندية"عام ١٦٥٢ وكما زعم الصهاينة بأن "فلسطين" أرض بلا سكان زعم الهولنديون الذين قرروا الاستقرار في "جنوب أفريقيا" أنها هي الأخري منطقة خالية من السكان.

وكان من سوء حظ الأفريقيين أن مناجم الماس والذهب الغنية اكتشفت بعد قرنين، واعتمدت علي العمال السود الذين هاجروا من قراهم الفقيرة. وفضلا عن إعطائهم أجورا تافهة، وضعهم البيض في عنابر داخل المناجم كي لا يسرقوا الماس. هكذا وضعت اللبنة الأساسية لتخريب الانسان الإفريقي عن طريق تدمير بنية القبيلة ثم بنية الأسرة الأفريقية بعزل الرجال في أماكن عمل بعيدة عن أسرهم وقراهم. وفي نهاية القرن التاسع عشر أقامت الشركات الانجليزية مزارع السكر وجلبت لها ١٥٠٠٠ هندي نشأت علي أكتافهم الجماعة الآسيوية.

قانون العيب ..لديهم أيضا!!

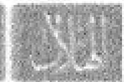
وفي بداية الخمسينيات أصدر البيض قانون المعتزلات الذي قسم السكان إلي أربع مجموعات عرقية هي البيض والهنود والملونون والسود وحكم علي كل مجموعة بالسكني في منطقة محددة وتبعه قانون العيب الذي حرم العلاقات الجنسية بين الأعراق المختلفة تحريما باتا.

وقد تحدث "فرانك شيكانا" أحد القسس السود بعد ذلك بثلاثين عاما عن تجربته في ظل الأخوة المسيحية البيضاء، وذلك في كتاب بعنوان "لا حياة لي" صدر عام ١٩٨٨. وكان يتدرب ليكون قسيسا مع بعض المسيحيين البيض. قال إن زملائه البيض احتفظوا له بكوب من الصفيح بينما كان يستعملون أكوابا من الخزف. "ثم طلبوا مني ألا أستخدم المرحاض المجاور لمكتبي وأن أصعد إلي الطابق الأعلي . وعندما واصلت استخدامه جاءني وفد خاص أخبرني بأن إخواني المسيحيين منزعجون لأني أواصل استخدام المرحاض". وانتهي الأمر بأن وضعوا قفلا علي بابه ووزعوا علي أنفسهم مفاتيحه.

أدرك الثوار أن العمل السلمي لم يعد بذي جدوي. واستخدم "مانديلا" المثل الأفريقي القائل "لا يمكن مقاومة هجمات الوحش الهائج بالأيدي العارية وحدها". وانتقل الي العمل السري مشكلا منظمة "رمح الشعب" التي ركزت علي العمل المسلح وشنت هجماتها الأولي في ١٩٦١ ضد محطات القوي الكهربائية والمكاتب الحكومية. واشتهر "مانديلا" بنجاحه في الافلات من الشرطة إلي أن قبض عليه في كمين سنة ١٩٦٢وحكم عليه بالسجن خمس سنوات. وبعد عامين حكم عليه مرة أخري بالسجن مدي الحياة وذاع الدفاع السياسي الذي ألقاه في المحاكمة.

البيض يتجاهلون العالم

رغم قرارات الأمم المتحدة وموقف الرأي العام العالمي تمكن البيض من تجاهل





مراحيض من الحديد في المعسكرات التي خصصها البيض لسكني السود

العالم لأنهم كانوا أقوياء عسكريا (بخبراء من "إسرائيل" ومساعدة فرنسية نووية) واقتصاديا إذ كانوا أغنياء في "الأربعة الكبار" وهم الكروميوم والكوبالت والمنجنيز والبلاتين التي لا يمكن بدونها بناء محرك نفاث أو سيارة أو قطار أو مصفاة بترول أو محطة كهرباء أو صناعة طعام أو كومبيوتر أو غرفة جراحة. وتلقي البيض مساندة خاصة من "بريطانيا" و"الولايات المتحدة" و"اليابان" و"ألمانيا الغربية" التي حالت دون إتخاذ الأمم المتحدة قرارات حاسمة ضدهم. كما استفادوا من الحرب الباردة ومن أزمة ١٩٧٣ النفطية التي رفعت أسعار الذهب مما عاد على مناجمه بأرباح طائلة.

الانتفاضة الثانية بالحجارة

لكن الوضع ما لبث أن تبدل إذ تباطأ النمو الاقتصادي في الثمانينيات نتيجة المقاطعة التجارية والتهديد بالعقوبات الدولية والاضطرابات السياسية والاجتماعية الداخلية ثم آثار التفرقة العنصرية نفسها. ولعب الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية والأحزاب الشيوعية العالمية والحركات الثورية المجاورة (التي أسقطت حكم البيض في"أنجولا" و"موزمبيق" ثم في"زيمبابوي") دورا هامافي ذلك.

البحث عن مخرج

وفي ١٩٨٦ اعلنت الحكومة الطوارئ وشكلت عصابات من السود العاطلين تسببت في تشريد ٧٠ ألفا من السكان وقتل المئات. وبلغ عدد المعتقلين في ١٩٨٦ حوالي ٣٤٠٠٠ لكن كل هذا لم يأت بنتيجة وبدأت الحكومة العنصرية تبحث عن مخرج جديد. فوجدته - أو تصورت أنها وجدته- في "مانديلا".

كان "مانديلا" قد صار في تلك الأثناء قائداغير منازع للسجناء السياسيين في جزيرة "روبن"، وممثلا لهم لدي الإدارة وذلك بفضل جهوده من أجل تحسين ظروف السجن وتشجيع السجناء علي الدراسة. وذاعت شهرته في الخارج حيث نظمت حملات المطالبة بالافراج عنه وصاراستمرار وجوده في السجن مصدر حرج للحكومة البيضاء.

نقلت السلطة "مانديلا" - بعد أكثر من عشرين سنة في السجن وقد أصبح الآن يقترب من السبعين-من جزيرة "روبن" إلي سجن قريب من العاصمة وبدأت تتحدث إليه بصورة غير رسمية عن المستقبل ، وأمرت مدير السجن أن يأخذه في جولات بالسيارة حول "كيب تاون" بل وتركوه مرة في السيارة دون حراسة. وقال "مانديلا" في مذكراته: "استمتعت بهذه الرحلات وأدركت" أنهم يريدون تعريفي بالحياةالعادية وتعويدي علي الاستمتاع بالحريات الصغيرة حتي أصبح راغبا في المساومة من أجل الحصول علي الحرية الكاملة".

وفي ١٩٨٩ سعي الرئيس الأبيض "بوثا" ونائبه "ديكليرك" إلي الالتقاء به سرا وعرضا عليه الحرية بشرط أن يعتزل العمل السياسي لكنه رفض.

سياسة جديدة

أصيب الرئيس "بوثا" بجلطة في نفس العام وأجبره وزراؤه علي الاستقالة وحل "ديكليرك" محله وهو من سلالة "البوير" وابن لأحد مهندسي سياسة "الأبارتيد". وكان يعتبر من المحافظين المؤمنين بالفصل العنصري. لكنه فاجأ بلاده والعالم في أول خطبة له في فبراير ١٩٩٠باعلان الحاجة إلي سياسة جديدة واعلان شرعية الأحزاب السودا ،والافراج عن مئات السجناء السياسيين بما فيهم "مانديلا" و"سيسولو"،استعداده للعمل مع كافة الجماعات السياسية لوضع دستور جديد يعطي حقوقا متساوية لكل جنوب أفريقي.

كانت حساباته أنه يستطيع إنقاذ السلطة البيضاء من مأزقها بمشروع ماكريسمح للسود بالمشاركة في السلطة تحت سيطرة البيض. وظن أن انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفييتي سيكون عاملا مساعدا.

وجري الافراج عن "مانديلا "فتجمعت حشود هائلة أمام بوابات السجن في قلب "كيب تاون" لتسمعه يتحدث لأول مرة منذ قرابة ٣٠ سنة. أعلن أنه لن يخفف من جهوده لاسقاط سياسة الفصل العنصري كما طمأن رفاقه في المنفي (كي لا يظنوا أنه يجري اتفاقيات خاصة مع ديكليرك) بأنه سيواصل الكفاح تحت قيادة حزب المؤتمر. لكنه في الشهر التالي حضر اجتماع قيادة الحزب التي انتخبته نائبا للرئيس ثم صار الزعيم الفعلي.

شبح الحرب الأهلية

في نهاية ١٩٩١وافقت الحكومة البيضاء علي الإجتماع بالأحزاب السوداء لمناقشة وضع دستور جديد يعطي حقوقا متساوية لكل المواطنين،وواجه كل من "مانديلا" و"ديكليرك" صعوبات هائلة في السيطرة علي مؤيديهم.

كان بين مؤيدي "مانديلا" المتعجلون الذين أرادو ديموقراطية كاملة علي الفور بينما طالب كثير من أتباع "ديكليرك" بتأجيل التغييرات أطول مدة ممكنة. وطالب أتباع "انكاثا" باتفاق خاص يعطيهم السلطة في منطقة "الزولو" وشنوا حملة ترويع ضد أتباع حزب المؤتمربمساعدة الشرطة البيضاء. وفي نفس الوقت هددت جماعة بيضاء متعصبة باغتيال "مانديلا "والكفاح من أجل وطن للبيض. و في ١٩٩٢ اضطر وفد حزب "المؤتمر الأفريقي" للانسحاب من الإجتماع وظهر شبح الحرب الأهلية علي الأبواب.

بادر"مانديلا" بالاتصال ب"ديكليرك" ووقعا وثيقة تفاهم لخفض العنف واستئناف

المناقشات الدستورية وتم الإتفاق في ديسمبر ١٩٩٣ بعد أن أبدي قادة حزب المؤتمر استعدادهم لاعطاء البيض نصيبا في "جنوب أفريقيا" الجديدة مقابل إجراء انتخابات حرة علي أساس صوت واحد للشخص الواحد.

أبريل ١٩٩٤

خفف حزب المؤتمر من شعاراته الاشتراكية وأبدي استعداده للعمل مع الرأسمال الكبير. وأنتظم ملايين السود في صفوف ليدلوا بأول تصويت ديموقراطي في حياتهم في أبريل ١٩٩٤، وأسفرت النتائج عن انتخاب "مانديلا" (٧٦سنة) رئيسا و"ديكليرك" نائبا له. وفي حفل تنصيبه أعلن "مانديلا": "اننا نتعهد ببناء مجتمع يتمتع فيه كافة الجنوب أفريقيين، السود والبيض بالحرية بلا أدني خوف ... أمة من ألوان الطيف في سلام مع نفسها والعالم".

وبالفعل وجه "مانديلا" همه الأساسي إلي شعار "التصالح" ونجح في قمع محاولات تخريب الاتفاق من جانب "أنكاثا" والبيض. واستمرت حكومته حتي عام ١٩٩٦ عندما أعلن غضبه من رفض نائبه الأبيض "ديكليرك" اعلان الحقيقة بشأن علاقة حكومته بالتنظيم السري المسؤول عن أعمال العنف في بداية التسعينيات. وترك "ديكليرك" وزملاؤه البيض الحكومة. وحل مكانه "مبيكي"، زميل مانديلا في السجن لبعض الوقت وقائد الكفاح في المنفي.

الحقيقة والمصالحة

كان علي حزب المؤتمر أن يجد طريقا "للعفو دون النسيان". ووجد "مانديلا" الحل في اقامة "لجنة الحقيقة والمصالحة". لم تكن لجنة قضائية أو عقابية فقد سبق منح العفو لكثيرين من المشاركين في أعمال



الشاطئ والبحر للبيض فقط" باللغتين الأفريكانية والانجليزية

العنف والاضطهاد العنصري. لكن "مانديلا" امن بأهمية الكشف عن الحقيقة وكيف أن اعتراف المذنبين علانية بما فعلوه يمكن أن يؤدي إلي مصالحة حقيقية. رأس اللجنة شخص معتدل (سبق أن استنكر العمل المسلح) هوكبير الأساقفة الأسود "توتو". وأذيعت اعترافات كثيرة عن جرائم التعذيب والقتل البشعة التي ارتكبها البيض والسود علي السواء. ونشرت اللجنة نتائج عملها كاملة في عام ١٩٩٨رغم محاولات ازالة بعض فقراته.

الاعتزال

احتفل "مانديلا" بعيده الثمانيني في يوليو ١٩٩٨ مع زوجته الجديدة "مارا سا ماشيل" أرملة رئيس "موزمبيق". وكان قد طلق زوجته الثانية "ويني" في ١٩٩٦ بعد أن ساهمت في عدد من الفضائح الشخصية والسياسية. وفي ١٩٩٩أعلن اعتزاله مشيرا إلي أنه أصبح في الفترة الأخيرة دون سلطات حقيقية ملمحا إلي نائبه الطموح "مبيكي" الذي ترشح مكانه في انتخابات ذلك العام وصار رئيسا للجمهورية.

لكن "مانديلا " مازال حاضرا وسيظل بفضل شخصيته الفذة التي نجحت في قراءة الواقع المتغير وجمعت بين الصلابة والمرونة في مزيج نادر. لقد امن بأن هناك فرصة ذهبية لتحقيق الأماني السوداء دون خسائر كبيرة وتتمثل لا في استعادة البلاد كاملة وإنما في التصالح مع البيض وقبول واقع وجودهم في البلاد وانتمائهم إليها وسيطرتهم علي إقتصادها. ولا شك في أن عوامل كثيرة قد ساهمت في نجاح هذه الثورة السلمية وعلي رأسها قوة الجانب الأسود والاجماع العالمي والمساندة التي تلقاها الكفاح الأفريقي من المعسكر الاشتراكي السابق.

لقد انخدع كثيرون بالسطح الأبوي العطوف لشخصيته وعلي رأسهم الرئيس الأمريكي السابق "كلينتون". ففي عام ١٩٩٨ أعرب رئيس أقوي دولة في العالم عن استيائه للعلاقة بين "جنوب أمريكا" و"ليبيا" ورد عليه "مانديلا" قائلا إن من لا تعجبه هذه العلاقة يستطيع أن يقفز في حمام سباحة. وهو رد يذكرنا بتصريح "عبد الناصر" الشهير سنة ١٩٦٥ الذي قال فيه إن من لا تعجبه سياسة "الجمهورية العربية المتحدة" يمكنه أن يشرب من البحر.

مستقبل مهدد

ومع ذلك فان الحكم علي سياسة التصالح بالنجاح أو الفشل رهين بحل المشاكل المعقدة التي يواجهها الشعب الأسود من بطالة واغتراب وضياع. فمنذ بداية التسعينيات عندما بدا شبح هزيمة البيض في الأفق، عملت حكومة "ديكليرك" علي بيع ملكيات الدولة من مصانع ومؤسسات وأراضي - وهي التي تكونت علي مدي سنوات الاستغلال الإقتصادي الطويلة -- إلي أثرياء البيض وبأرخص الأثمان. وأصبح هؤلاء يتحكمون في شركات الغاز والكهرباء والتليفونات وغيرها. كما هرب الكثيرون منهم ثرواتهم إلي الخارج. والمضحك أن بعضهم اشتري- بأثمان بخسة - قصورا وأراضي زراعية في المجر والبلدان الاشتراكية السابقة التي طالما ساندت كفاح السود.

وأتاحت تلك الفترة أيضا الفرصة لظهور بيروقراطية سوداء انفصلت عن الشعب الأمر الذي يتضح من الصدمة التي شعر بها رئيس الجمهورية عندما حدثوه عن مأساة البطالة كأنما يسكن كوكبا آخر. وظهرت طبقة سوداء تملك السيارات الفارهة



التقطت هذه الصورة في "كيب تاون" سنة ١٩٨٥ وتمثل رجال الشرطة البيض يعتقلون أحد المتظاهرين السود

وتسكن في أحياء البيض القديمة ويذهب أولادها إلي مدارس الأغنياء. وقد تضمن برنامجي زيارة متعمدة لإحدي هذه المدارس في حي القصور والفيلات تضم ملاعب شاسعة وحمامات سباحة وهي مدارس مشتركة للبيض والسود. وقد اشتركوا جميعا في مظاهر النعمة التي بدت علي أجسامهم الممتلئة وبشراتهم الناعمة.

الديموقراطية كما يراها الكتاب

وقد عكس "مهرجان الكتّاب العالمي" السابع الذي دعيت إليه في مدينة "ديربان" كل هذه الأمور. والمؤتمر من تنظيم مركز الابداع في جامعة "كوازولو-ناتال" وهو الاسم الأفريقي لها. ويشارك فيه عدد من البيض التقدميين وعلي رأسهم مدير المهرجان "بيتر روفيك" (من أصول انجليزية). وقد اشترك في دوراته السابقة عدد من كتاب العالم المعروفين مثل "ادوار سعيد" و"وول سوينكا" و"أشيبي" و"بريتنباخ" و"نور الدين فرح" و"نادين جورديمر". فضلا عن "شريف حتاتة" الذي شارك في دورة سنة ٢٠٠٠.

تحدد لدورة هذا العام موضوع "الديموقراطية كما يراها الكتّاب". واقتصر التمثيل بها علي البلدان الأفريقية. وشارك من "جنوب أفريقيا" عدد متقارب من السود والبيض .لكن الأخيرين كانوا من المعروفين بمساندتهم لقضية السود وبما تعرضوا له من أذي في هذا السبيل مثل "ألبي زاكس" السبعيني وهو رجل قانون من أصول انجليزية فقد إحدي ذراعيه في انفجار سيارة مفخخة دبرته أجهزة الأمن البيضاء سنة ١٩٨٨.

وكان هناك تمثيل متساو للرجال والنساء بين الكتاب المشتركين. وبلغ عدد المشتركات من "جنوب أفريقيا" وحدها تسع كاتبات. ومن أبرزهن "سينديوي ماجونا" وهي ستينية سوداء خفيفة الظل حصلت علي شهادة الدراسة الثانوية بالمراسلة في الوقت الذي كانت تعمل فيه في الخدمة بالمنازل لتعول ثلاثة أطفال. وأخيرا حصلت علي الدكتوراه من جامعة "جنوب أفريقيا" وعلي درجة أخري من جامعة "كولومبيا" الأمريكية حول العمل التنظيمي الاجتماعي. وعاشت سنوات طويلة في "نيويورك" أثناء عملها في إدارة المعلومات العامة بالأمم المتحدة إلي أن تقاعدت أخيرا وعادت إلي وطنها.

هل يعفو الله عما سلف؟

ومنذ اللحظة الأولي بدا أن النسيان الكامل للماضي "عفا الله عما سلف" لا يحظي

بتأييد الغالبية. فقد تساءل أكثر من متحدث عما يحول دون "المجرمين" وتكرار جرائمهم طالما لم يتم عقابهم. ولم يقتصر التساؤل علي أبناء "جنوب أفريقيا" فقد رددته "يولاندة موجاكاسانا" (٥٠سنة)من "رواندا " التي فقدت كل أفراد عائلتها وبينهم أطفالها الثلاثة في مذابح ١٩٩٤العرقية، بين قبيلتي "التوتسي" و"الهوتو".

تحدثت هذه الكاتبة باللغة الفرنسية وتولي أحد المترجمين نقل حديثها إلي الانجليزية، اللغة السائدة. وتكرر نفس الأمر مع الكاتب الكونجولي "يوكا". وبدا الأمر غريبا: ممثلو بلدان أفريقية مختلفة يتحاورون بلغة المستعمر. العرض الرائع الذي قدمته الشاعرة والممثلة والمخرجة المسرحية وراوية الحكايات المعروفة في "جنوب أفريقيا" "جسينا ميلوفي" هي الحالة الوحيدة - فضلا عن فقرة الرقص الشعبي عند الافتتاح - التي ترددت بها عبارات من اللغات المحلية.

سرطان المنظمات غير الحكومية

وقد كرست "يولاندة" الرواندية حياتها بعد المذبحة للكتابة ولرعاية أطفال الضحاياالذين تبنت منهم ثلاثة أطفال. وشكلت مؤسسة "تذكر الإبادة العنصرية ومساعدة تعمير البلاد"ومركزها الرئيسي في "بروكسل" أما فرعها المحلي فهو من المنظمات غير الحكومية.

أما الروائية "يونيتي دو"من "بتسوانا" فقد عينت أول قاضية في المحكمة العليا في ١٩٩٨، وهي في مقتبل الأربعينيات وأم لثلاثة أطفال (من طليقها الأبيض)كبراهن تجاوزت العشرين. وتديرمركزا نسويا في قريتها فضلا عن عضويتها في جماعة "هيومان رايتس واتش" الدولية لحقوق المرأة.

وكان واضحا أن سرطان المنظمات غير الحكومية -التي تتلقي الدعم من مؤسسات غربية غير بريئة مثل "فورد" الأمريكية و"نوفيك" الهولندية وتمتص طاقة المناضلين السياسيين وتنقلهم من الشارع إلي المكاتب المكيفة- متغلغل في بنية البلدان الأفريقية.

الأقنعة المتعددة

اشتركت في منصة واحدة مع الدكتور "علي مزروعي" الكيني(٧١سنة)خريج "أكسفورد" الذي يوصف بأنه أكاديمي عالمي. فهو الآن مدير لمعهد الدراسات الثقافية العالمية في جامعة "برمنجهام" ب"نيويورك" وأستاذ بجامعة "جوس" في "نيجيريا" وبجامعة "كورنيل" الأمريكية ورئيس جامعة "كينياتا" للزراعة والتكنولوجيا في "كينيا" ومستشار للأمم المتحدة والبنك الدولي ومنظمة الوحدة الأفريقية واليونسكو وفضائيات واذاعات "بي بي سي" و" بي بي إس" و "إي بي سي" و "إن بي سي" و"صوت أمريكا".

لم يكن هناك ما يجمع بيننا علي الإطلاق ويبرر المنصة المشتركة. وبينما قرأت بعض المقتطفات من رواياتي عرض هو أفكاره عن مستقبل "أفريقيا "التي بسطها في أشهر كتبه "الأفريقيون تركة ثلاثية: الأوروبي ، الأفريقي ، الإسلامي" وهي أفكار أثارت بعض التندر من الحضور.

أكمل لي "كوفي أونو"الغاني السبعيني صورة المثقف الأفريقي بأقنعته المتعددة. فهو شاعر وروائي وناقد ،عمل إلي جانب "نيكروما" أول رئيس ل"غانا بعد



رسم يرجع إلي عام ١٨٢٠ يصور المزارعين الهولنديين (البوير) وهم يطاردون أفراد القبائل الافريقية، وأراد الرسام الهولندي الايحاء بأن الأفريقيين سرقوا ماشية البيض، ليبرر سلوك هؤلاء.

الاستقلال" حتي إسقاطه بانقلاب ١٩٦٦ فانتقل إلي المنفي وحصل علي الدكتوراه في الأدب من جامعة "نيويورك". وفي ١٩٧٥ قبض عليه بتهمة الاشتراك في انقلاب عسكري ثم عين سفيرا لـ"غانا" في "البرازيل" في ١٩٨٥ ثم "كوبا" في ١٩٨٩ وصار ممثلا دائما لبلاده في الأمم المتحدة من ١٩٩٠ إلي ١٩٩٤.

وجدته شخصا دمثا رقيق الحاشية خفيف الظل إلي أن وصفت مواطنه الأمين العام للأمم المتحدة بخادم الأمريكان، فثار ثورة عارمة. ولم يهدأ إلا عندما أبديت رأيا مشابها بشأن سلفه المصري. هنا تلاشت النعرة القومية ووافقني الرأي في الاثنين، وصرنا أصدقاء. فاعترف لي بأن أزهي فترات حياته كانت عندما خدم إلي جوار "نكروما". كما استنكر دفاع المناضل السبعيني "زاكس" في كلمته عن البنك الدولي. وعندما علقت علي قامته المنتصبة وأسنانه البيضاء السليمة وخفة حركته في الحذاء الرياضي قال إنه يلعب الجولف يوميا وتزوج أخيرا من فتاة صغيرة السن، وتمكنت أخيرا من الربط بين حلقات حياته وأدواره المتعددة.

صرخة ويني مانديلا

الكاتب الآخر الذي أثار اهتمامي هو "نيابولو نيبيلي" نائب رئيس جامعة "كيب تاون" والأستاذ المقيم بمقر مؤسسة "فورد" في "نيويورك" من سنة ١٩٩٨. وقد تخرج من "كامبردج" وحصل علي الدكتوراه في الفلسفة والأدبين الانجليزي والأمريكي من جامعة "دنفر" الأمريكية. وهو روائي معروف صدرت أحدث رواياته "صرخة ويني مانديلا" في العام الماضي ٢٠٠٣ وأعيد طبعها في مطلع هذا العام. وتصور تجارب أربع نساء سود من "جنوب أفريقيا"، قضين حياتهن في انتظار عودة أزواجهن، ثم التقين بـ"ويني مانديلا" أشهر المنتظرات.

وفي رد علي سؤال من أحد الحضور أكد "نيبيلي" أنه لم يلتق بـ"ويني ماندبلا" مطلقا نافيا أن يكون كتابه دفاعا عنها بصورة ما. وابتسمت لنفسي في سخرية العارف الخبير. لكن الحوار أثار اهتمامي بالرواية إذ تبينت منه أن أسلوبه الفني يموه الحدود القائمة بين التخييل والواقع، وبين أشكال الابداع المختلفة من قص وسيرة ومقال. كما إنه يستخدم الوثائق. اشتريت نسخة من منصة البيع وقرأت. وكانت مفاجأة. ■

ذاتنا في مرآة غيرنا

مصر



في عيون الرحالة

مشاهد مصر من ٤٥٠ ق.م حتى القرن العشرين

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

ظلت مصر دائما - باعتبارها الشرق والغرب ونقطة لقاء ثقافات متراكمة الطبقات عبر العصور - تستأثر باهتمام أجيال من الرحالة الأجانب الذين كتبوا عن مصر الفرعونية، وعن الحقبة الإغريقية الرومانية، خاصة كليوباترا، وعن مدرسة الإسكندرية والثقافة الهلنستية، وعن مصر في العصر الحديث، للشاعر الفيكتوري ألفرد تنسون قصيدة يتغنى فيها بهزيمة عرابي في التل الكبير، وصولا إلى يومنا هذا.



أحد شوارع القاهرة

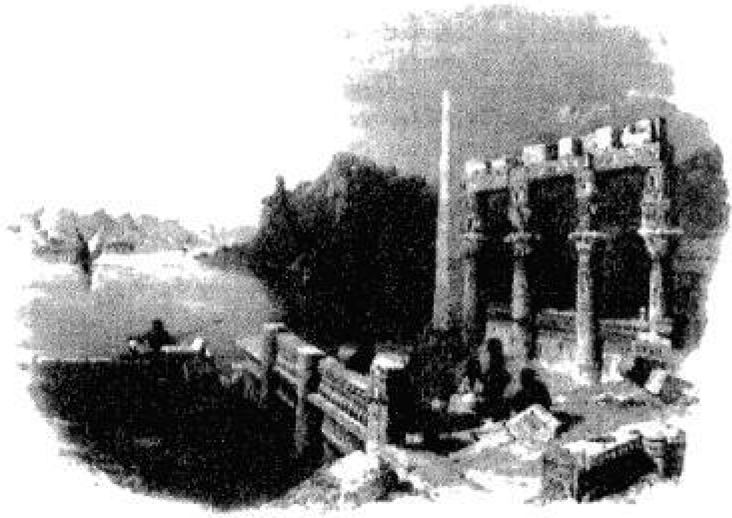


والوقوف على هذه الكتابات أمر شائق لا لأنه يرضي غرورنا القومي أو يجعلنا نشعر بأننا ملء الدنيا وشغل الناس، وإنما لأنه يرينا ذاتنا في مرآة غيرنا، ومن ثم يتيح لنا الفرصة كي نرى أنفسنا في ضوء جديد، متولين عيوبنا بالتقويم ومناقبنا بالرعاية، وقد كثر الأجانب الذين زاروا مصر منذ أقدم العصور «هيرودوت ومن تلوه» وكتبوا عنها آلاف الصفحات. ولاشك في أن من أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك موقع مصر الجغرافي الذي ما كان ليمكنها، حتى لو أرادت، من أن تعيش في عزلة عن العالمين، وحضارتها العريقة التي استرعت أنظار العلماء والأدباء «أنظر كتاب روبير سوليه: «مصر: ولع فرنسي»، وثرواتها الطبيعية التي أثارت جشع المغامرين والطامعين والمستعمرين. ومن ثم كثر وفود الأجانب عليها، الصالح منهم والطالح، ممن غادروها بانطباعات تتراوح بين السخط والرضى، وخيبة الأمل والأشباع.

وتشويق القراءة عن مصر في كتابات الرحالة الأجانب راجع قبل ذلك إلى ما لموضوع أدب الرحلات من قيمة باطنة متجددة، فهذا الأدب هو «جماع الأجناس الأدبية المختلفة، ففيه من الدراما والقصة والشعر والخيال، ويصبح بجاذبيته أداة تشويق القراء إلى جوانب المعرفة المتعددة»، «مصطفى نبيل، أدب الرحلات، مجلة الهلال، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٦٣ - ٦٤».

واليوم تصدر مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة سفرا جديدا في أكثر من مائتين وخمسين صفحة يحمل عنوان «السياحة عبر مصر: من ٤٥٠ ق.م. إلى القرن العشرين». من تحرير كاتبة إنجليزية هي دبورا مانلي التي تعد حجة في أدب الرحلات البريطاني إلى مصر، وقد عاشت زمنا في الهند وكندا ونيجيريا، ومؤلفة كتاب عن هنري سولت، القنصل البريطاني العام في القاهرة في مطلع القرن التاسع عشر، وكتاب «سكة حديد عبر سيبريا: منتجعات للسائح»، وأستاذة جامعية مصرية شابة هي الدكتورة سحر صبحي عبدالحكيم، أستاذ مساعد الأدب الإنجليزي بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وهي متخصصة في أدب الرحلات. وقد التقت الكاتبتان لأول مرة في عام ١٩٩٧ عند إنشاء «رابطة دراسة السياحة في مصر والشرق الأدنى» وهي جمعية تتخذ من المملكة المتحدة مقرا لها وكانتا، كلتاهما، من أعضائها المؤسسين. والكتاب محلى بعدد من الرسوم التخطيطية والصور من ريشة و.هـ بارتلت صاحب كتاب «مركب على النيل أو لمحات من أرض مصر» «لندن ١٨٤٩».

يضم الكتاب مختارات وفيرة مما كتبه عن مصر رحالة من بلدان مختلفة: هيرودوت وسترابو «اليونان» بليني الأكبر «روما» جيوفاني فيناتي وجيوفاني بلزوني «إيطاليا» شامبليون وشاتوبريان وبيبراوتي وجاستون ماسبيرو وكلود شافاري «فرنسا» رتشارد ليبوس «ألمانيا» بايارد تيلور ومارك توين «الولايات المتحدة الأمريكية» أميتاف جوش «الهند» ناصر خسرو «فارس» عبداللطيف البغدادي والمقدسي وابن حوقل وابن بطوطة وابن جبير وأحمد حسنين «من مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي من المحيط إلى الخليج». على أن نصيب الأسد في هذه المختارات إنما هو لرحالة وكتاب بريطانيين «فلورنس نايتنجيل مؤسسة التمريض الحديث، كبلنج شاعر الإمبراطورية البريطانية، إدوارد لين، لوسي دف جوردون، آرثر كونان دويل مبتدع شخصية شرلوك هولمز، توماس كوك مؤسس شركة السياحة المعروفة، ليونارد كوتريل، روبرت



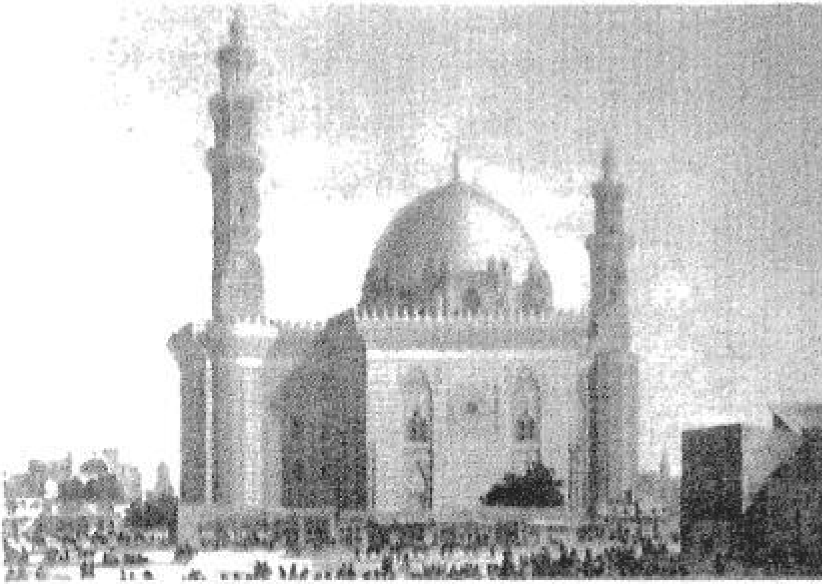
منظر لجزيرة « فيلة »

كيرزون ، وليم جولدنج ، وغيرهم»، وهذا أمر طبيعى بالنظر إلى وثاقة الصلة بين مصر - بوابة الهند، من طريق البحر الأحمر - والإمبراطورية البريطانية التى انتزعت أرض النيل من بين أنياب نابليون واستبدلت احتلالا باحتلال لأكثر من سبعين عاما.

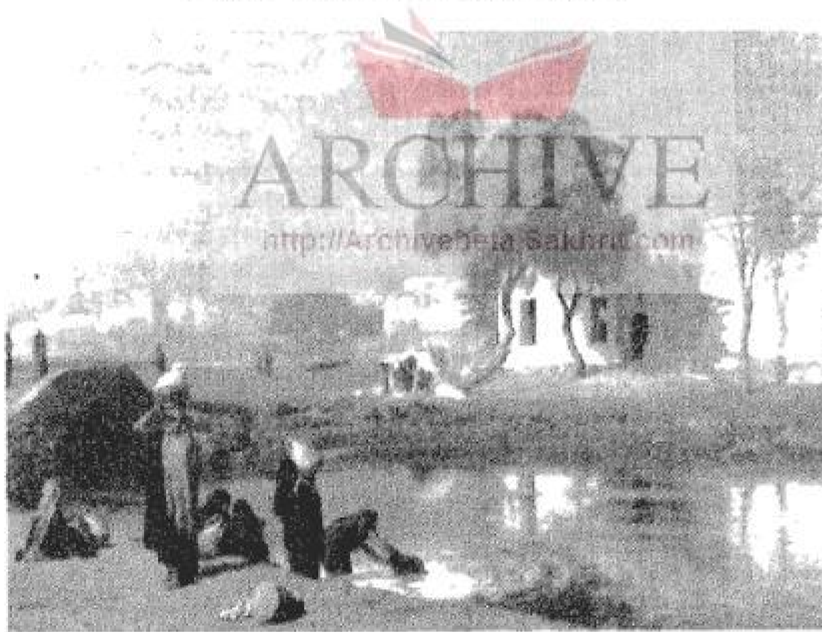
مصر هبة النيل

يبدأ الكتاب بنظرة عامة إلى مصر، هبة النيل كما وصفها هيرودوت. يقول أبو التاريخ فى ثانى كتبه التسعة: «إن مصر التى يبحر إليها اليونانيون أرض مكتسبة، وأنها هبة من النيل، والإقليم الواقع على مسافة رحلة مداها ثلاثة أيام جنوبى البحيرة «بحيرة موريس» يشبه هذه الأرض فى تكوينه «ربما يقصد المكان الذى يفصل فيه بحر يوسف من أصله عند ديروط». وإن كان هؤلاء الكهنة «كهنة هليوبوليس وممفيس وطيبة» لم يقولوا عنه حتى ذلك الحين شيئا من هذا القبيل. وهذه طبيعة أرض مصر، عندما تبحر إليها لأول مرة - ومازلت على مسيرة يوم من اليابسة - فإنك ستخرج طميا إذا ألقيت بالمسبار على عمق أحد عشر باعا «الباع حوالى ٦٦ قدما». وهذا يشير بجلاء، إلى أن الطبقة الطمية تمتد إلى هذا الحد. ثم تمتد مصر على ساحل البحر ستين «اسخنيوس» «مقياس إغريقى للمسافات يساوى فرسخين» وفقا لتحديدنا إياها من خليج «بلينثوس» «خليج مريوط» حتى بحيرة «سربونيس» «سنجة البردويل» التى يمتد بجانبها تل «كاسيوس» «كثيب القلس» والستون «إسخينوس» تحسب - على ذلك - ابتداء من هذه البحيرة.

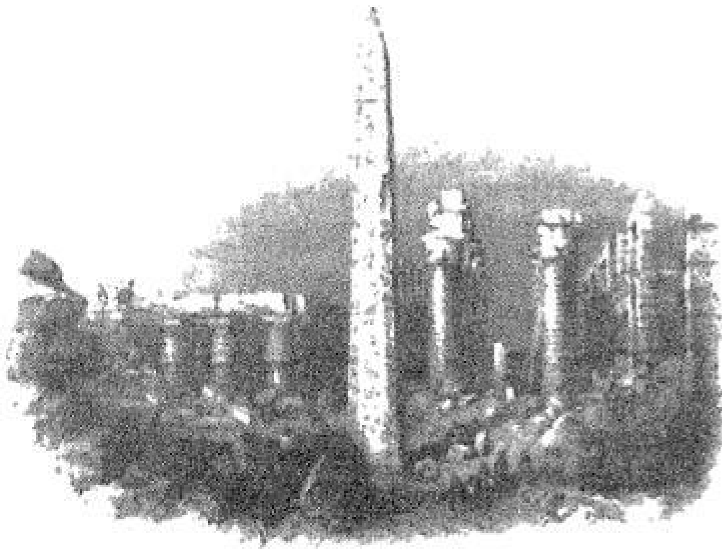
إن الذين يملكون الشىء القليل من الأراضى يمسحونها بالباع (الباع : ٦٦ قدما) ومن يملكون أكثر - بالاستاد «مقياس إغريقى للمسافات» وأصحاب الأراضى الواسعة بالفرسخ، وأصحاب الضياع المترامية الأطراف بالأسخينوس. ولما كان الفرسخ يساوى ثلاثين استادا ، والأسخينوس - وهو مقياس مصرى



صحن جامع ومدرسة السلطان حسن - باسكال كوست



بحر يوسف بالفيوم والفلاحات يملأن جرارهن - جيروم



معبد الكرنك

«يقصد أنه كان مستعملا فى مصر» – يعادل ستين استادا ، فلذلك يبلغ طول الجزء الممتد من مصر على ساحل البحر ٣٦٠٠ «إستاده».

ومن الشاطىء إلى مدينة «هليوبوليس» «نرى» مصر واسعة فى الداخل كلها منبسطة، ماؤها وفير، وطميها غزير، والسبيل التى قطعها الذاهب من البحر إلى مدينة «هيليوبوليس» تبلغ فى طولها «قدر» المدى، بين هيكل الآلهة الأثنى عشر فى أثينا. ومعبد «زيوس» الأولمبى فى «بيزا». ولو حسبنا طول الطريقين، لوجدنا أن الفرق بينهما طفيف، بل إنهما يكادان يتساويان، لأن الفرق لايزيد على خمسة عشر «إستاداً» . فالطريق من «أثينا» إلى «بيزا» تقل بمقدار خمسة عشر «استادا» عن الخمسمائة وألف «إستادا» بينما المسافة من البحر إلى مدينة «هيليوبوليس» تبلغ ذلك القدر بأكمله «هنا يخطىء هيرودوت، ذلك لأن البعد المضبوط بحساب اليوم لا يجاوز ١٦٥ كيلو مترا».

وتضيق مصر ابتداء من مدينة «هيليوبوليس» جنوبا، فعلى أحد جانبيها تمتد سلسلة الجبال العربية من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربى «يعنى ابتداء من «الجبل الأحمر» فجبل «المقطم» وامتداده إلى الجنوب مع انحراف إلى الجنوب الغربى»، ويستمر امتدادها فى اضطراد حتى البحر المسمى ببحر «إروترى» «أى البحر الأحمر، والمقصود هنا بالضبط الخليج العربى» . وهنا توجد مقالع الأحجار «يقصد المحاجر الجرانيتية عند أسوان» التى استخدمت فى بناء أهرام «ممفيس» «يقصد بتلك الأهرام كافة أهرام الدولة القديمة المنتشرة فى الصحراء الغربية بين «دهشور» و«أبى رواش»، وعلى طول امتداد «ممفيس» من جنوبى «البدرشين» إلى شمالى «المناوات» وصولا إلى «الفسطاط» على الشاطىء الشرقى للنيل» وفى هذا المكان يقف امتداد الجبال وتنحنى هذه نحو الجهات التى ذكرت «يقصد بذلك البحر الأحمر».

وأقصى اتساع لهذه الجبال من الشرق إلى الغرب يبلغ - كما علمت - مسيرة شهرين. وحدودها الشرقية تنتج البخور. هذه إذن هى الجبال الغربية، وعلى جانب مصر من جهة ليبيا تمتد سلسلة أخرى من الجبال الصخرية ، مغطاة بالرمال، توجد بها الأهرام، وهذه السلسلة تأخذ نفس اتجاه ذلك الجزء من سلسلة الجبال العربية الذى يمتد نحو الجنوب.

وإذن فالبلاد من بعد «هيليوبوليس» - باعتبارها جزءا من مصر - لم تعد عظيمة الاتساع. بل إن مصر تضيق لرحلة أربعة أيام تصعيدا فى النهر. والأرض الواقعة بين سلسلتى الجبال التى سبق الكلام عنهما عبارة عن سهل لا يزيد اتساعه فى أضيق أجزائه - كما يبدو لى - على مائتى «إستاد» «أى حوالى خمسة أميال» فيما بين الجبال العربية والجبال التى تسمى بالجبال الليبية، وبعدئذ تعود مصر إلى الاتساع مرة ثانية.

هذه إذن هى طبيعة البلاد. ومن «هيليوبوليس» إلى «طيبة» يستغرق الإبحار تسعة أيام تصعيدا فى النهر. وهى مسافة ٤٨٦٠ «إستادا» «هنا يخطئ هيرودوت إذ أبلغ البعد بين «هيليوبوليس» و«طيبة» ما يساوى بالحساب الحديث ٩٦٢ كم على حين أنه يعدو فى الواقع ٧٢٢ كم». والآن سأبين المسافة - وسط الأرض ، ومن البحر حتى مدينة «طيبة» فهى ٦١٢٠ «إستادا» «خطأ». والمسافة من «طيبة» حتى المدينة المسماة «اليفانتينا» ١٨٠٠ ستاد، « خطأ.. والبعد بين مدينة «طيبة» وجزيرة «الفيلة» لا يجاوز ٢٢٠ كم». «انظر هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة د. محمد صقر خفاجة ، تقديم وشرح د. أحمد بدوى، دار القلم ١٩٦٦».

ما سبق نظرة عامة إلى جغرافيا مصر يصحبنا الكتاب بعدها من الشمال إلى الجنوب مبحرين عكس مجرى النيل، ابتداء بالإسكندرية التى سحرت الرحالة الأجانب بمبانيها القديمة وتاريخها وتنوعها السكانى.

من هؤلاء الرحالة ابن جبير الأندلسى الذى كتب عن عجائب الإسكندرية «١١٨٣ م»::

«ومما أعجبنا به «حسن وضع البلد، واتساع أزقته ومبانيه، حتى إننا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه، ولا أعلى. مبنى ولا أحسن منظرا، ولا أحفل منه أسواقا.

ومن العجب فى وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها، وأعتق وأمتن، كما أن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض - ويمد بعضها بعضا.

وعاينا فيها أيضا من سوارى الرخام وألواحه - كثرة وعلوا واتساعا وحسنا - ما لا يتخيل بالوهم.

من عجائب مصر

ومن أعظم ما شاهدنا من عجائبها «المنار» وهو آية للمتوكلين وهداية للمسافرين لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بحر الإسكندرية ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا. ومبناه فى غاية العتاقة، والوثاقة - طولا وعرضا - يزاحم الجو سموا وارتفاعا. ويقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف. ذرعنا أحد جوانبه الأربع، فألفينا فيه خمسين باعا ونيفا ويذكر أن فى طوله أكثر من مائة وخمسين قامة، وأما داخله فمرأى هائل اتساعه: معارج ومداخل، وكثرة مساكن.

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره - العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه - المدارس التى أنشأها السلطان لأهل الطلب والتعبد الذين يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه، ومدرسا يعلمه

الفن الذى يريد تعلمه. وأجرا يكفيه فى جميع أحواله. ومحارس لحراسته وتأمينه.

واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مستشفى لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم. وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب - ايضا - فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يأنفون من دخول ذلك المارستان «المستشفى» - من الغرباء خاصة - وينهون إلى الأطباء ، أحوالهم، ليتكفلوا بمعالجتهم وهم فى بيوتهم» «أنظر كامل كيلانى، ابن جبير فى مصر والحجاز، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ١٩٨٧».

وينحدر السائح من الإسكندرية إلى دلتا نهر النيل التى ظل سكانها محتفظين بأنماط حياتهم وأساليب عيشهم دون تغيير تقريبا، عبر القرون، رغم ما طرأ على الإقليم من تغيرات جيولوجية مستمرة. وكما يلتقى ماء البحر المتوسط المالح بماء النيل العذب فى هذه المنطقة، كانت الحياة فى الدلتا أشبه بأمواج متتابعة متدافعة.

من هنا وجدنا المقدسى وناصر خسرو يرتدان زمنيا إلى الوراء لكى يصفا مدينة تنيس المزدهرة كما كانت تقوم يوما. ويروى رحالة آخرون - مثل جون فولر الإنجليزى - تاريخ رشيد ودمياط وجغرافيتهما، بينما يصف إدوارد لين المراكب وبحارتها بينما يصعد البرت فارمان - وكان قنصلا لأمريكا فى القاهرة ١٨٦٨ - ١٨٧٥ - إلى سطح إحدى هذه المراكب فعلا مبحرا عبر بحيرة المنزلة، ويتحدث أ. سميث «وهو قس أنجليكانى» عن حياة الطيور، بينما يشكو هيرودوت من لذع الحشرات!

ومن بين هؤلاء الرحالة نختار ناصر خسرو «١٠٠٣ - ١٠٨٨» الذى يبدأ فى سن الأربعين رحلة دامت سبعة عشر عاما فى أرجاء العالم الإسلامى، وزار مصر مرتين: الأولى لمدة ثمانية أشهر، والثانية لمدة عامين، وكان من المقربين إلى الخليفة الفاطمى المستنصر . يقول فى كتابه «سفرنامه» «حوالى ١٠٥٠ م» عن النيل وشئون المال:

«حينما يزيد ماء النيل يبعد الماء الملح من حول تنيس ، بحيث يصبح ماء البحر عذبا حتى عشرة فراسخ حولها، وقد بنوا بمدينة تنيس وجزيرتها صهاريج عظيمة تحت الأرض، وهى قوية البنيان وتسمى بالمصانع، فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء الملح من هناك، تملأ هذه المصانع من ماء النيل الذى يجرى إليها، وبتنيس مصانع كثيرة موقوفة، يعطى ماؤها للغرباء، وسكانها خمسون ألفا، ويرابط حولها، دائما، ألف سفينة، منها ما هو للتجار، وكثير منها للسلطان، ويجلب لهذه الجزيرة كل ما يحتاج إليه إذ ليس بها من خيرات الأرض شىء» وتجرى المعاملات فيها بالسفن لأنها جزيرة . ويقيم بتنيس جيش كامل السلاح، احتياطا ، حتى لا يستطيع احد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها. وسمعت من الثقات أنه يصل منها لخزينة سلطان مصر ، يوميا، ألف دينار مغربى. ويصل ذلك المقدار مرة واحدة، يحصله شخص واحد، يسلمه أهل المدينة إليه فى وقت معين، وهو يسلم بعد ذلك للخزانة فلا يتأخر منه شئ،ولا يجبى شىء بالعنف من أى شخص. وما ينسج للسلطان من القصب والبوقلمون يدفع ثمنه كاملا، بحيث يعمل الصناع برضاهم للسلطان، لا كما فى البلاد الأخرى حيث يفرض الديوان والسلطان السخرة على الصناع» ، «انظر د. يحيى الخشاب، سفر نامه لناصر خسرو، مجله تراث الإنسانية، المجلد الأول (٨) ٥ أغسطس ١٩٦٣».

وتحظى القاهرة - كما هو طبيعي - بالنصيب الأكبر من كتابات الرحالة، وجاذبيتها ترجع جزئيا إلى أنها تتغير في كل يوم. ومع ذلك تظل كما هي عبر القرون، إن المدينة التي زارها المقدسي قرب نهاية الألفية الأولى، وزارها ابن بطوطة في ١٣٢٦ م، هي عين القاهرة التي يعرفها زائروها وسكانها في يومنا هذا، وما على المرء إلا أن يحيد عن الشوارع المزدحمة إلى طراوة مسجد جانبي، أو إحدى الحارات الضيقة التي تفصل بين المباني، أو يدخل سوق العطارين، لكي يجد نفسه في قاهرة لازمنية لم تتغير كثيرا عما كانت عليه قديما.

هذا ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧ م) وهو سليل أسرة من طنجة، خرج للحج في ١٣٢٥ أملا أن يلتقي بكبار العلماء. ولكن حب السفر غلبه فقرر أن يسافر حول العالم. وبدأ أسفاره في ١٣٢٥ فزار مكة مرتين، كما زار مصر وشرقي افريقيا وآسيا الصغرى والقرم والقسطنطينية والهند والصين وعاد إلى مكة في ١٣٤٨ ثم زار إسبانيا وساح في غرب أفريقيا وأخيرا ألقى رحالة في مراكش، يقول عن القاهرة في كتاب رحلاته:

«ثم وصلت إلى مدينة مصر، هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الإقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل، وحليم وسفيه ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها.

ويقال لن بمصر من السقائين إثنى عشر ألف سقاء وإن بها ثلاثين الف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان، والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنارة إلى الإسكندرية، ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة، وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو» «انظر : المختار من رحلات ابن بطوطة - زيارة مصر أم البلدان، مكتبة الأسرة ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب».

وقد ظلت أهرام الجيزة وأبو الهول - كما لا حاجة بنا إلى أن نقول - دائما مثار عجب الرحالة الأجانب والأدباء الذين زاروها «ثاكرى، إبسن، فلوبير، الخ» ومن هؤلاء الرحالة عبداللطيف البغدادي «١١٦٢ - ١٢٣١» الذي كان عليما بالشعر والكيمياء والطب. وقد ساح في دمشق والقدس وحلب، وزار مصر مرتين حيث اشتغل بالتدريس في الجامع الأزهر. يقول في الفصل الرابع في كتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» «حوالي ١٢٠٠ م»:

«من الآثار القديمة الأهرام، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها، وهي كثيرة العدد جدا، وكلها ببر الجيزة، وعلى سمت مصر القديمة، وتمتد في نحو مسافة يومين، وفي بوصير منها شيء كثير، وبعضها كبار وبعضها صغار.. وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس.. وأما الأهرام المتحدث عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط، وبينها مسافات يسيرة، زواياها متقابلة نحو المشرق، واثنان منها عظيمان جدا وفي قدر واحد، وبهما أولع الشعراء، وشبهوهما بنهدين، قد نهدا في صدر الديار المصرية، وهما متقاربان جدا.. وأما الثالث فينقص عنهما بنحو

الربع.. وتجده صغيرا بالقياس الى الآخرين ، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه، وحسر الطرف عند تأمله. وقد سلك فى بنايه الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان، ولذلك صبرت على ممر الزمان، بل على ممرها صبر الزمان. فإنك اذا تبصرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد اخرجتها إلى الفعل مثلا هو غاية إمكانها». «أنظر د. شوقى ضيف، الرحلات، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٧».

وثمة وصف آخر للأهرام قدمه شمس الدين المقدسى «حوالى ٩٤٦ - ١٠٠٠ م» وهومن مواليد القدس، تعلم فى العراق، وطاف بأرجاء العالم العربى مسجلا ملاحظاته فى كتابه المسمى «احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» «حوالى ١٠٠٠ م» الذى يعد أصل مؤلفات الجغرافيين العرب، يقول عن عجائب إقليم مصر:

«فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة، شبه عماريتين «هودجين» ارتفاع كل وحدة اربعمائه ذراع فى عرض مثله، قد ملئ بكتابة يونانية «كذا» وفى داخلها طريقان الى أعلاها ، وطريق تحت الأرض.. وسمعت فيهما أشياء مختلفة، فمنهم من قال هما طلسمان، ومنهم من قال كانتا أهراء «مخازن» يوسف، وقيل بل كانت قبورهم.. ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما فمن كان يدعى قوة فى ملكة فليهدمهما، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما ، فتركهما، وهما أملسان بريان من مسيرة يومين وثلث لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر، وحولهما امثالهما عدة صغار. وهذا يدل على أنها مقابر» «أنظر د. شوقى ضيف، المرجع السابق».

أبو الهول - الأثر الرائع

ومن الأدباء الإنجليز الذين سجلوا وقفتهم أمام أبى الهول - هذا الأثر الرائع المروع - «الكزندر كينجليك (١٨٠٩ - ١٨٩١) فى كتابه «إيوثين أو آثار عدت بها من رحلة إلى الشرق» (١٨٤٤). يقول:

«قرب الأهرام، أكثر إدهاشا وأبعث على الرهبة من أى شىء آخر فى أرض مصر، يجثم أبو الهول وحيدا. حسن هذا المخلوق، ولكن حسنه لا ينتمى إلى هذا العالم. إن الوحش الذى كان يعبد يوما مسخ وهولة عند هذا الجيل. ومع ذلك يسعك أن ترى أن هاتين الشفتين بكل غلظهما وثقلهما ، قد صيغتا على نسق نوذج للجمال القديم - نموذج للجمال اندرج الآن فى مدرجة النسيان. طواه النسيان لأن بلاد اليونان قبست عن ثيسيريا «عن رغوة بحر إيجة اللامعة وعلى صورتها خلقت أشكالا من الجمال جديدة ، وجعلت بمثابة القانون بين البشر أن تكون الشفة القصيرة المضمومة فى كبرياء رمزا لعلامة الجمال وشرطه الأساسى عبر كل الأجيال القادمة. ومع ذلك فمازال باقيا جنس أولئك الذين كان جمالهم على نسق العالم الأقدم. وإن الفتيات المسيحيات ذوات الدم القبطى لخليقات أن يرمقنك بتلك النظرة الحزينة الجادة، وأن يقبلن يدك المحسنة بشفاه كبيرة ناتئة هى صورة طبق الأصل من شفتى ابى الهول» «ترجمة ماهر شفيق فريد».

يتقدم بنا الكتاب بعد ذلك إلى الفيوم، فالإبحار نيلا. فالأقصر فأسوان . فما وراء الشلال وبلاد النوبة، فالسويس وسيناء . فصحارى مصر. وينتهى الكتاب بتعريفات وجيزة بحياة الرحالة والكتاب الذين أدرج مقتطفات من أعمالهم . وببليوجرافيا.



لوحة تصور الخدم يساعدون سيدهم فى امتطاء حماره لجيروم



لوحة تخيلية لجيروم .. يتصور فيها رقصة السيف في يوم من حياة مصر الفرعونية ..

وعلى غنى الكتاب وتنوع - وما ينم عليه من درس علمي دقيق من جانب ديبورا مانلي وسحر عبدالحكيم - قد يكون للمرء أن يأخذ عليه أمرين أو ثلاثة.

فالمقتطفات - فيما يلوح لي - أكبر عددا مما ينبغي (قرابة ٢٧٠ مقتطفا) وأقصر مما ينبغي (بعض المقتطفات لا يجاوز أربعة أسطر). وربما كان من الأوفق أن يضم الكتاب مقتطفات أقل عددا وأكثر طولا بما يتيح للقارئ أن يراها في سياقها من أن تبدو هكذا منتزعة من مظانها ومقشورة كأوراق خرشوفة.

ومدينة الإسكندرية لا تحظى بمساحة تتناسب وأهميتها التاريخية والحضارية «لا أثر هنا لفورستر، ولا كافافي، ولا لورنس دريل، إلخ» على أننا نلتمس العذر للمحررتين فإن هذه المدينة الكوزموبوليتانية «وقد خلدها في أدبنا القصصي الحديث: إدوار الخراط ومحمد جبريل ومحمود عوض عبدالعال ومحمد حافظ رجب وابراهيم عبدالمجيد وغيرهم» بحاجة إلى كتاب مستقل، بل كتب.

وكما هو الشأن في كل كتب المقتطفات، يفتقد المرء نصوصا ود لو رآها ولكن قيود المساحة - وربما تكاليف حقوق الطبع - تحول دون إيرادها. إننا لا نجد ، على سبيل المثال ، شيئا من «رحلة الى الشرق» لجيرار دى نرفال، أو «راسلاس أمير الحبشة» لصمويل جونسون. او «رحلة إلى الهند» لفورستر أو «رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز» ، أو «مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر» لجوزيف مارى مواريه، أو «مذاكرت رحالة عن المصريين» لجون انتيس. أو «القاهرة حالمة لا تنام» لهانز ابندورفر. او «مصر أرض الوادى» لروبين فيدين. أو «القاهرة» لدزموند ستيوارت أو «حريم محمد على باشا» لصوفيا لين بول. «وكلها منقوله إلى العربية».

ولا أحسبني بحاجة إلى أن أقول إن كثيرا من هذه الكتابات يضع السم في الدسم، ويشتمل على نبرات مكتومة أو صريحة، من الاستعلاء العنصرى أو المصالح الاستعمارية أو التوجه الأيديولوجي أو المنظور الغربي المنحاز ضد الشرق عقائديا، أو فكريا أو عرقيا. وهو ما أماط عنه اللثام إدوارد سعيد في كتابه «البذرى»، «الاستشراق» (١٩٧٨) ومن تلوه من دارسي أدب ما بعد الكولونيالية، ولكن الحديث في هذا يطول، ومن واجبنا - وهو ما يحمد للمحررتين - أن نتعرف على كل ما قيل عنا، خيرا أو شرا.

***

والكتاب- في النهاية - إضافة قيمة إلي جهود علمية سابقة منها «باللغة الإنجليزية» كتابا إ. م. فورستر «الإسكندرية: تاريخ ودليل» و«فاروس وفاريلون» وكتاب جين لاجوديس بنشين» الإسكندرية مازال: فورستر ودريل وكافافي » (١٩٧٧) وكتاب الدكتور رشاد رشدى «سحر مصر للكتاب الإنجليز في القرن التاسع عشر» القاهرة ١٩٥١ ، وستصدر له ترجمة عربية.. بقلم جمال الجزيرى من المجلس الأعلى للثقافة في المشروع القومي للترجمة» وكتاب «تحت سحر مصر: أثر مصر في الكتاب في اللغة الإنجليزية منذ القرن الثامن عشر» لمرسى سعد الدين وجون كردمر «١٩٩١». فضلا عن كتابات عربية من أهمها سلسلة مقالات «من أحبوا مصر» لرشاد رشدى في كتاب «صوت مصر» «كتاب الجديد، مايو ١٩٧٥» وكان رشاد رشدى قد حصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة ليدز سنة ١٩٥٠ بأطروحة موضوعها الرحالة، الإنجليز في مصر في عصر محمد على. ■

إسلام الرحالة الغربيين ... قناع أم اقتناع؟!

بقلم
يوسف عبد الرحمن الذكير

توخياً للحذر من زلل الوقوع في منزلق الحكم علي الأمر من منطلق موقف مسبق . يقود إلي انتقائية أحادية النظرة، تبدي كل ما من شأنه إسناد الحكم، وتغفل بل وتخفي كل ما قد يفند أو يدحض ذلك الرأي وتحاشياً لشمولية تعميم ذلك الحكم علي الكل، فتأخذ البريء بجريرة المدان دونما بينة أو برهان، فلعل السبيل الأسلم يكمن في استعراض ظروف زمان ومكان سلوك أهم وأشهر الرحالة المستشرقين ممن أسلم

ولكن قبل السير في ذلك السبيل، قد يحسن تجهيز ركائب الذهن بمؤنة ملاحظتين تيسران السير وتمهدان السبيل.

أولاهما : أن الدين بالنسبة لأغلب الأوروبيين، اضمحل دوره منذ ما سمى بعصر التنوير، فتتالت موجات من الإلحاد والهزء بالدين بلغت أوجها في الثورة الشيوعية الروسية، بعدما بدأت، حسبما ذكره المؤرخون بالثورة الفرنسة وما تلاها ولعل في إسلام نابليون إبان احتلاله لمصر وارتداده عنه حال عودته إلى بلاده خير مثال ودليل على مدى اضمحلال أهمية الدين والإيمان في عقول الأوروبيين.

الملاحظة الثانية الجديرة بالاهتمام : تكمن في أن جميع من أسلم من الرحالة المستشرقين رام دخول المدينتين المكرمتين مكة والمدينة المنورة، المحرم دخولهما على غير المسلمين، أما من سبقهم من الرحالة النصارى إلى دخولهما فقد تخفى وتسمى بزيا، وأسماء المسلمين، ولا شك أن العديد منهم قد تظاهر بقراءة ما على المسلم من شعائر، خشية افتضاح أمرهم، مما كان له تأثير كبير على من ادعى الإسلام أو أعلن وأشهر إسلامه من بعدهم، إلى درجة لم تقف عند حدود الطرد بل وأدت إلى هلاك أحدهم!..

• **أولريخ جاسبار سيتزن**، رحالة ألماني مغامر، زار بلاد الشام عام (١٨٠٦)م، منقباً عن الآثار ومؤلفاً كتاباً عن رحلته وصف فيه مشاهداته وتجاربه مع قبائل البدو الرحل في بادية الشام والبتراء، تأثر به من قدم من بعده من الرحالة الأوروبيين. أشهر إسلامه عام ١٨٠٩م ليرافق بعثة الحج المصرية إلى الديار المقدسة فدخل مكة

المكرمة فى العشرين من شهر أكتوبر من تلك السنة ثم زار المدينة المنورة، ليكتب وصفاً عن الأولى ويرسم مخططاً مفصلاً عن الثانية!..

رحل بعدها إلى اليمن فعثر على العديد من الكتابات الأثرية ، لكنه دفع ثمناً غالياً لرحلته تلك وهل أغلى من الحياة ثمناً لرحلة؟ .. فقد ألقى القبض عليه هناك وأودع السجن ليقضى فيه نحبه، مسموماً حسبما قيل!..

فهل كان افتضاح زيف إسلامه ، أم أن الشك فى نواياه، وخاصة لما عرف عنه من رسم ووصف للأماكن التى زارها ، قد اتخذ برهاناً على اتهامه بالتجسس للغرب، وهو السبب فى نهاية حياته بتلك الطريقة المأساوية؟! إن كان فى شحة المعلومات وغموض الملابسات مالا يتيح الحكم فى سبب سجنه وموته على وجه الدقة واليقين ، فقد يكون الإتيان على ذكر سيرة حياته ونهايته، وإن كان بشكل خاطف، توطئة وتمهيداً لاستشراف صحة إسلام أربعة من أشهر الرحالة المستشرقين، أولهم كان معاصراً له، وحظى بشهرة واهتمام لا فى زمانه فحسب، بل وانكب على ترجمة أعماله نخبة من أبرز المؤرخين الأكاديميين السعوديين رغم مرور ما يزيد عن (١٥٠) عاماً على صدورها. فهو لم يكن موضوعياً يلتزم بالدقة والحيادية فى أعماله فحسب، بل نال الصيت والشهرة رغم أنه توفى وهو فى ريعان شبابه ، إذ لم يزد عمره حين مات فى القاهرة بالحمى التى أصيب بها أثناء رحلته الوحيدة إلى الأراضى المقدسة ، عن (٣١) عاماً!... ذلك هو الرحالة المستشرق المتعدد الأسماء والانتماء «**يوهان لودفيك بيركهارت**» **Johann Ludwig Burckhart**.

ولد «يوهان بيركهارت» عام (١٧٨٤)م فى مدينة لوزان السويسرية المحاطة بالخضرة والجبال المرصعة الذرى بالثلوج، سافر إلى ألمانيا ليتلقى تعليمه الأكاديمى فى «لاييزج» أولاً، ويكمله فى جامعة «توبنجن» لينتقل إلى بريطانيا مدرساً فى جامعات لندن وكيمبردج مغيراً انتماءه بحصوله على الجنسية البريطانية، ومعدلا اسمه إلى (جون لويس بريكهارت)، الذى لم يكن سوى التغير الأول من سلسلة تبديل وتعديل لأسمائه الخمسة!..

موضوعيته وحياده، فى كتاباته عن دعوة وأنصار الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رغم أن زيارته للحجاز كانت برعاية وحماية أعدائها، لم يحظ بإعجاب واهتمام من قام بترجمة أعماله من المؤرخين السعوديين فحسب، بل ربما كانت السبب فى التعاطف معه وترجيح صحة إسلامه، من قبل علامة الجزيرة الراحل «حمد الجاسر» «رحمه الله»، حينما قال عنه فى كتابه (رحالة غربيون فى بلادنا) مانصه.

«والغريب فى أمر هذا المستشرق - أو أمر الناس حوله - أنه رغم أدائه فريضة الحج وإكمال شعائره واختيار اسم يدل على إسلامه ... فقد كان ينظر إلى هذا الجانب من حياته نظرة شك وارتياب» ... إلا أن ذلك القول لايجب أن يحجب حقائق أخرى من ذلك المستشرق تثير الارتياب والشك، ورد ذكرها فى الكتاب ذاته!..

فمما ذكره علامتنا الجليل الراحل (حمد الجاسر) عنه فى كتابه ، أن (بيركهارت) قد حصل على مساعدة من (الجمعية الإفريقية) البريطانية ، بعدما وطد صلاته بأمثالها من الجمعيات، للقيام برحلة إلى (تمبكتو) لمرافقة حجاج تلك البلاد عند عودتهم من مكة، فغادر بريطانيا وهو فى الخامسة والعشرين من عمره إلى جزيرة (مالطة) بمظهر طبيب هندى يدعى (إبراهيم) ومن مالطة قدم إلى الشام!..

بداية مريبة تثير الشكوك، بلاشك، أكثر مما تدعو إلى الاطمئنان ، وتطرح تساؤلات منطقية مشروعة حول ما أعلن من أهداف ومن قام بتمويل رحلته!.. فإن كان الهدف هو مرافقة الحجاج إلى (تمبكتو) مثلما قيل ، فما الداعى للتخفى بمظهر طبيب هندى، وما الحاجة للتسمى باسم عربى هو (إبراهيم)، فتلك المدينة، لاتحرم زيارة غير المسلمين ولا

تمنع الأجانب من القدوم إليها، فلقد سبق أن زارها أوروبيون من جهات أخرى غير مرافقة الحجاج؟!.. ثم أن الشام لاتقع على طريق عودة حجاج تلك المدينة، بل وخارج إفريقيا التي هي محل اهتمام (الجمعية الإفريقية) التي قيل إنها مولت رحلته، ولا يخفى على أحد تغطية تمويل الرحلات من جهات لايرغب بالتصريح عنها تحت مسميات جمعيات جغرافية أو تاريخية!.. النقطة الثالثة الأكثر إثارة للريبة والشك، أنه لم يحاول الوصول إلى أفريقيا بعد قدومه إلى الشام بل أقام في مدينة (حلب) وتجول مع القبائل العربية في بادية الشام طوال سنتين، منتحلا اسمه الرابع (الشيخ حاج إبراهيم بن عبد الله اللوزاني) فأتقن اللغة العربية واللهجات البدوية وتعلم مبادىء الدين الإسلامي، فأين (تمكبتو) من كل ذلك؟.. بل وأين أهداف استكشاف أفريقيا، إن كانت (الجمعية الإفريقية) هي حقاً الممول الحقيقي لتلك الرحلة؟!.. التفسير الأقرب إلى المنطق يكمن فيما أورده العلامة الراحل (حمد الجاسر) في ذات الكتاب من أن (بيركهارت) قد اطلع على رحلة الألماني (سيتزن)، فسار على خطاه!.. مايرجح ذلك الاحتمال أنه سافر بعد ذلك إلى القاهرة، فتعرف على أرمني يدعى (بوصري) كما سماه المربون الأكاديميون د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي ود. عبدالرحمن عبد الله الشيخ، أو (بوساري) كما ذكره الدكتور عبدالله صالح العثيمين في ترجمتهم لمؤلفاته، فحروف اسمه الإنجليزية (Basari) تقبل الاحتمالين. كان ذلك الرجل الأرمني هو الطبيب الخاص لحاكم مصر آنذاك محمد على باشا، فتمكن عن طريقه، بعدما أعلن إسلامه، من الحصول على إذن للسفر، وخطاب توصية من محمد على باسمه الخامس (الشيخ إبراهيم الشامي)، إلى ولاته وحكامه في الحجاز آنذاك، بتسهيل أمره، وذلك بعد أن توطدت صلاته وحظي بمقابلات عدة مع حاكم مصر.

إلا أن من أشد مايثير الشك ويبعث الريبة، مما جاء في ذات الكتاب، كان ماذكره من أن محمد على باشا استدعاه إلى الطائف بعد وصوله إليها، ولم يكن قد مر على إقامة (بيركهارت) في مكة سوى (٤٠ يوماً). لما كان يراه في (بيركهارت) من أنه جاسوس إنجليزي يذهب إلى الهند ليقدم تقريراً عما شاهده في الجزيرة العربية، ومحمد على كما يعترف به أعداؤه قبل اتباعه، رجل لاينقصه الذكاء، ولا يخلو من حنكة ودهاء، وخبرة ومعرفة بالرجال، وقد قابله وتحدث إليه أكثر من مرة فلابد وأن يكون قد لمس منه ما أثار ظنونه وأوقد ريبته وشكه!..

: : :

ثاني أولئك المستشرقين هو الهولندي (كرستيان سنوك هورخرونيه C.Snouk Horgronje الذي ربما كان إسلامه وسلوكه وطرده من مكة المكرمة كان مثار جدال واختلاف حاد، منذ مايزيد على قرن من الزمان ومازال، لا يدانيه فيه إسلام مستشرق آخر!..

فلكل من قضية إسلامه ومسلكه وطرده، قصة مثيرة تستحق السرد، لا لتبيان مدى الخلاف حول كل منها فحسب، بل لإبراز ما كان من تلهف وتنافس وتكالب ما بين قمم المستشرقين الأوروبيين وولعهم للاستئثار بنوادر الآثار وريادة الجديد من الأبحاث وما يبذلون في سبيل ذلك من جهد ومكابدة، وتفان وتضحية، لا يدانيها أول الشأن من أهل البلاد أنفسهم، يشهد بذلك من لايضارعه آخر فيما سخر من حياته وماله في شد الرحال إلى أمهات المكتبات، علامة الجزيرة الراحل حمد الجاسر (رحمة الله عليه) في قوله:

«لقد كان لنا وللغربيين نمطان في حياتنا، عشنا عيشة شظف وشدة وفقر ومن لازم ذلك أن نكون أقوى صبراً وأشد جلداً على تحمل المشاق من أولئك الذين عاشوا عيشة ترف ورخاء ونعمة، ولكن الأمر بعكس ذلك.. فالعالم منهم يقطع نفسه.. متحملاً جميع مايعترضه من مشاق وما هكذا حالة

الباحث مناً!..».

كان حمد الجاسر من أشد منتقدى ذلك المستشرق ، ومن أبرز المشككين فى إسلامه دون أن ينكر فضله ومدى إعجابه بكتاباته، من خلال وصفه لما اطلع عليه من مؤلفه الشهير (صفحات فى تاريخ مكة المكرمة) بأنه من أمتع ماقرأه إن لم يكن أمتعها ، بل وأفاض وأسهب فى عرضه وثنائه على ذلك الكتاب. فإن كان للحق أن يقال ففى ما بذله المعربون لذلك الكتاب المهم من جهد واهتمام مايستحق كل تقدير وفى مابذلته إدارة الملك عبد العزيز من إخراج للكتاب مايوجب الثناء والإعجاب ، وخاصة لما جاء فى توطئة مقدمة الكتاب توطئة بلغت عشرات الصفحات، زانتها موضوعية وحيادية فى عرض ما للمؤلف (هورخرونيه) من فضل وما عليه من مآخذ، وملابسات كل من القضايا الثلاث محل الخلاف من تفاصيل ضافية ومعلومات وافية، ما يشكل خير مرجع ومدخل لاستعراض القضايا المثيرة الثلاث، بدءاً بعرض سريع موجز عن سيرة حياته وسلوكياته!..

ولد (هورخرونيه) فى هولندا عام ١٨٥٧م، وكرس نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية، وعلى وجه الخصوص الإسلامية منها فكانت أطروحته فى نيل شهادة الدكتوراه، بحثا بعنوان (الحج عند المسلمين وأهميته فى الدين الإسلامى). سافر بعدها إلى ألمانيا ليعمل تحت إشراف أحد أشهر أقطاب الاستشراق، البروفيسور الألمانى (نولدكه) والذى لم يكن له منافس فى عصره سوى الفرنسى الذى لايقل عنه أهمية وشهرة (أرنست رينان) .. منافسة ملامحها ستبرز من خلال ملابسات قصة طرد (هورخرونيه) من مكة المكرمة ، بتلك الصورة المفاجأة والطريقة الحازمة الحاسمة!.. كان قد دخل مكة تحت اسم مستعار هو (عبدالغفار)، ليؤلف عن تاريخها وأحوالها ، خلال الستة أشهر ونصف التى قضاها فيها ماعده المختصون قمة كتابات قمم الكتاب المستشرقين الأربعة (باديا وبيركهارت وبيرتون وهورخرونيه) عن مكة المكرمة..

ما أن صدر كتابه فى مجلدين بعد طرده من مكة حتى ذاع صيته واشتهر، فعرضت عليه جامعة (كيمبردج) الإنجليزية الشهرية ، كرسى أستاذ اللغة العربية ، كما عرضت عليه مناصب مماثلة من جامعات ألمانيا وهولندا، إلا أنه رفضها جميعاً، مفضلا العمل كمستشار للحكومة الهولندية للشئون الإسلامية فى مستعمراتها الإندونيسية!.. فى ذلك أول مايثير الدهشة والاستغراب بل والشك والارتياب!.. إذ كيف يفضل عالم باحث وظيفة مستشار فى جزر مستعمرات نائية، على أبرز المناصب العلمية فى أعرق الجامعات الأوروبية والتى تتيح له فرصة الاستمرار فى أبحاثه بما توفر من مناهل ومراجع ومصادر، إن كان هدفه حقاً البحث العلمى المجرد؟!.. ومما يزيد من حدة الشك والارتياب، أنه خصص فصلا كاملا من (٩٠) صفحة من كتابه الشهير فى تفصيل وتحليل أوضاع ونشاط الجالية الإندونيسية فى مكة فيما لم يخصص مايماثلها أو يدانيها منها عن أى جالية أخرى، بل وفصل فيه وحلل علاقة الحجاج الإندونيسيين لابعلمائهم فى مكة وحسب ، ولا مدى تأثرهم بما يجرى فى العالم الإسلامى من مقاومة للمستعمرين ، بل وعلاقة الحجاج بتشجيع الثورة ضد المستعمرين الهولنديين فى إندونيسيا . ومما زاد فى التشكيك فى أهدافه الحقيقية الخفية ورسخ الارتياب فى سلامة ما ادعاه من إسلام، هو تجسسه على المسلمين طوال السبعة عشر عاماً التى قضاها كمستشار للحكومة الهولندية فى إندونيسيا وتحريضه لحكومته بالفتك بالمسلمين والقضاء على ثورتهم ضدهم بقتل علمائهم وقادتهم، مما كان السبب الأساسى للاعتقاد بزيف ادعائه

الإسلام. فلو كان إسلامه أصيلاً لا غبار عليه، لما تم طرده من مكة المكرمة أصلاً، والذي كانت مسبباته بحد ذاته ، محل خلاف بين المهتمين.

عام (١٨٧٨)م اتفقت الحكومة الفرنسية مع عالم من منطقة الألزاس المتنازع عليها مع ألمانيا، يدعى (شارل هوبر) على السفر إلى الجزيرة العربية والتجوال فيها وتقديم تقرير عن منطقة نجد . وصل هوبر إلى تيماء فعثر أثناء تجواله على حجر أثرى أثار انتباهه، اشتهر فيما بعد بحجر تيماء (Tiema Stone).

عاد هوبر بعد خمس سنوات (عام ١٨٨٣) إلى تيماء بصحبة مستشرق ألماني يدعى يوليوس أويتنج Julius Euting الذي كثيراً ماشتكى في كتابه (رحلة داخل الجزيرة العربية) المعرب والصادر عن دائرة الملك عبدالعزيز، عن رحلته تلك من تهرب (رفيقه هوبر) من التعاون معه والتملص من إرشاده إلى مكامن الآثار في تلك المنطقة!..

تمكن هوبر في رحلته تلك من الحصول على ذلك الحجر بعد إرضاء صاحب المنزل الموجود الحجر على سوره، وإقناع أمير تيماء «عبد العزيز بن رمان» ، وافترق الرفيقان المتنافسان بعد ذلك.

اصطحب هوبر الحجر معه إلى حائل التي يحمل إلى أميرها آنذاك «محمد بن رشيد» هدايا من سيوف وأسلحة، يقول عنها العلامة الراحل (حمد الجاسر) إن أهل حائل مازالوا يذكرون منها (السيوف الهوبرية).

أودع (هوبر) الحجر أمانة لدى أمير حائل وأسرع بعدما أوجس خيفة من رفيقه الألماني (أويتنج) بالذهاب إلى جدة ليرسل صورة الحجر وملاحظاته عنه عن طريق القنصل الفرنسي، إلى قطب الاستشراق الفرنسي (أرنست رينان) عازماً العودة إلى حائل، لاسترداد الحجر ومحاولة حمله وإرساله إلى باريس.

كان توجسه في محله، إذ ما أن وصل الألماني (يوليوس أويتنج) إلى القدس، حتى أرسل بدوره ملحوظاته عن ذلك الحجر إلى قطب الاستشراق الألماني (نولدكه) يضمنها رسالة تقول إنه سيحاول الحصول عليه وإرساله لألمانيا!.. ما زاد أحداث القصة وتيرة وتوتراً وإثارة، كان مقتل (شارل هوبر) الفرنسي على يد مرافقيه وأدلائه، بعد خروجه من جدة!..

نفخ مقتل «هوبر» ضرام صراع الحصول على الحجر، فاستعان القنصل الفرنسي ، بمنفي جزائري يدعى «سي عزيز» الذي أخبره أثناء المساومة للاتفاق على أتعابه التي بلغت (٥٠٠٠) فرنك مقابل إحضار الحجر من حائل ، بأن شخصاً آخر دفع له ضعف ذلك المبلغ ليحضره له. حامت الشكوك حول (هورخرونيه) الذي كان في جدة آنذاك، لإتقان اللغة العربية وتوطيد علاقاته ، وإقامة اتصالاته لتمهيد دخوله إلى مكة ، فنفي علاقته بمقتله إلا أنه اعترف بإرساله خطاباً لأستاذه «أويتنج» مؤكداً له إمكانية وصول الحجر إلى جدة سالماً!... فما كان من القنصل الفرنسي إلا أن زود الصحف الفرنسية بتلك الأخبار والشكوك، لتصدر مقالة في جريدة الزمان (Le Temps) الفرنسية تناولت فيها مقتل هوبر ومحاولة سرقة الحجر من قبل الهولندي (هورخرونيه) فنقلت عنها الخبر جريدة إسطنبول العثمانية لتقول إن هناك هولندياً يتخفى تحت اسم (عبد الغفار) يحاول سرقة نقوش أثرية. أوعزت السلطات العثمانية إلى واليها في مكة المكرمة بطرد ذلك الهولندي فوراً دون إبداء الأسباب، فما كان من القائم مقام العثماني النائب عن الوالي الغائب إلا أن طلب منه المغادرة خلال ساعات مخفوراً بجنديين إلى جدة!..

تباينت ردود أفعال المؤرخين العرب تجاه تلك القصة ، ففيما أيدها الدكتور قاسم السامرائي والذي تربطه علاقات ويتقن لغة المستشرقين الهولنديين، فيما لمح لها خير الدين الزركلي في «الأعلام» حين كتب مانصه:

أما علامتنا الجليل الراحل (حمد

الجاسر) فقد رفض أن يكون حجر تيماء ومقتل الفرنسى «هوبر» سبباً فى إخراج (هورخرونيه) من مكة ، فقال عنها إنها قصة مختلقة، هدفها تغطية افتضاح أمره، وتمكينه من إكمال مهمته فى السفر إلى إندونيسيا والتجسس على المسلمين بادعائه الإسلام. وقد أورد فى ذلك حججاً لتنفيذ القصة ، إلا أنها للأسف لاتصمد أمام التمحيص والتدقيق!..

فقد ذكر عن مقتل (هوبر) ما حدثه به الأستاذ «فهد المارك» أن الأمير محمد بن رشيد أوعز إلى رجل من قومه يدعى «ابن شميلان» حين أوجس ريبة من تصرفات هوبر ، القيام بقتله إذا بلغ بلدة (العلا) خارج حدود بلاد ابن رشيد!.. ضعف تلك القصة لايكمن فى صعوبة تصديق ان الأمير محمد ابن رشيد بكل ماعرف عنه من حكمة وحنكة سياسية مكنته من التربع على سدة الحكم طوال مايزيد على (٢٦) عاما شهدت فيها البلاد أطول فترة من الاستقرار والازدهار، لا يعقل أن يغدر بضيف أهداه من ثمين الهدايا مابات حديث الناس فحسب، بل إن تسلسل الأحداث لو صحت تلك الرواية، لكان مقتل «هوبر» قبل دخوله إلى جدة التى إن وصلها تمكن من إبلاغ المعلومات للقنصل الفرنسى والإبحار منها هارباً، ولكن مقتله كان بعد خروجه مما يرجح بقوة أن السبب كان الطمع فيما حمل من أموال من القنصل الفرنسى لتغطية تكاليف نقل ذلك الحجر، والذى لم يمنعه من إحضاره معه إلى جدة إلا ربما قلة ما كان معه من أموال لتغطية تلك التكاليف والتى قد تكون السبب الأساسى فى حضوره إلى جدة ونيته بالعودة إلى حائل . أما القول بأن الحجر كان ثقيلاً يصل وزنه إلى (١٥٠) كيلوجراما مما حتم نقله إلى (العلا) لا جدة كما ورد فى القصة حيث نقل عن طريق السكة الحديد إلى دمشق ثم باريس ، فأول ضعف فى ذلك الفرض أن من يقدر على حمل الحجر على ظهور الجمال من (تيماء) إلى (حائل) ثم من (حائل) إلى (العلا) يستطيع إيصاله بنفس الوسيلة إلى جدة!.. أما ما ينقصه تماماً، فهو ما ورد فى هامش صفحة تلك القصة من تعقيب يقول : (فى ذلك التاريخ لم يكن خط سكة الحديد قد أنشىء بعد)..!

لكن تأييد أو تفنيد السبب فى طرده من مكة لايضعف مطلقاً رؤية شيخنا الراحل الجليل حمد الجاسر من زيف ادعاء (هورخرونيه) بالإسلام، فهناك دلائل قوية أنه لم يسلم أصلاً!!..

* * *

البولندي ليوبولد Leopold ، يمكن وصفه دون تردد بأنه الاستثناء!.. لا لكونه الرحالة الأوروبى الوحيد الذى كان يهودياً قبل أن يسلم ، ولا لأنه الوحيد من بين كل المستشرقين على الإطلاق الذى تسنم منصب مندوب دولة إسلامية فى الأمم المتحدة، وليس لأنه أسلم بعدما جرب العديد من المعتقدات والاتجاهات، بل لأنه الوحيد الذى يمكن القول عنه وبكل ثقة واطمئنان أن إسلامه لم يكن قناعا لتحقيق مآرب أو أهداف، بل نجم عن إيمان واقتناع!..

ولد «ليوبولد» فى مدينة (لوو Lwow) البولندية، والتى عرفت أيضاً باسم (لمبرج Lemberg) عام (١٩٠٠)م وكانت تلك المدينة آنذاك، تابعة للإمبراطورية النمساوية. عائلته لم تكن عائلة يهودية عادية، إذ كان لها تاريخ ارتباط عريق بالمؤسسة الدينية اليهودية، فقد ارتقى العديد من أسلافه سلالم المراتب الكهنوتية ، بل إن جده لأبيه كان حاخام مقاطعة «بوكوفينا» النمساوية آنذاك.

فى صباه وضح ميله لقراءة التاريخ والشعر والفلسفة وكان عليه حسب تقاليد عائلته اليهودية، تلقى العلوم الدينية العبرانية على يد مدرسين خصوصيين، فاتقن اللغة

العبرية وشيئاً من الآرامية، وتعلم العهد القديم، وعرف الفرق مابين تلمود بابل وتلمود أورشليم وهو ما زال في الثالثة عشرة من عمره، إلا أن ذلك التعليم غرس في نفسه بذرة الشك والارتياب!.. إذ بدا له الخالق حسب نص تعبيره، وكأنه إله مشغول البال بصورة غريبة، بمصائر أمة واحدة، لا كخالق الناس أجمعين!.. شكل ذلك الشعور المبكر بداية رحلة بحث مضني، طال سنين، حتى هداه الله إلى الدين اليقين.. حسب وصفه الأدبي البليغ في كتابه الشيق (الطريق إلى الإسلام) وإن لم يسلم من مبالغات تصل إلى حد الخيال في كثير من صفحاته .. كتاب تفرغ لكتابته عام ١٩٥٢ م بعدما استقال من منصب رفيع مهم يطمح ويطمع فيه الكثيرون!.. منصب الوزير المفوض لدولة باكستان الإسلامية لدى الأمم المتحدة، لكن جهده لم يخب، فقد ترجم الكتاب إلى أربع لغات أوروبية إضافة إلى الأوردية وأخيراً إلى العربية التي أعيد طبعه بها لرواجه، تسع مرات حتى عام ١٩٩٧م!..

نقطة التحول من حياة الضياع التي عاشها بل وقاساها في برلين، جاءت حينما استلم رسالة من خاله «دوريان» الذي كان طبيباً نفسياً يرأس مستشفى للأمراض العقلية بالقدس، إبان الهجرة المتزايدة لليهود إلى فلسطين .. شعوره بالغربة والعزلة، دفع خاله للبحث عن رفيق من أهله يؤنس وحدته، فبعث برسالته تلك إلى ابن أخته يعرض عليه السفر إلى القدس متكفلا بكل مصاريف الرحلة بما فيها تذاكر السفر ذهاباً وإياباً!.. ولكن ما أن وطأت قدماه أراضي البلدان العربية الإسلامية، حتى تملكته الدهشة مما رأى!..

طيبة، وسكينة، واطمئنان، لم يرها إبان كل مراحل حياته خلال كل ما عايشه في مختلف حواضر وعواصم مازار من بلدان!.. بدوي شاركه مقصورة القطار مابين الإسكندرية والقدس ما أن حان إفطار الصباح، حتى ابتاع من إحدى المحطات فطيرة شطرها نصفين ليتقاسمها معه دون معرفة سابقة، بعفوية وطيبة فطرية لم يعهدها من قبل!.. مشاهد ما رأى من نافذة غرفته في بيت خاله المطلة على باحة خلفية تتجمع فيها الأنعام الحاملة لخيرات أرياف فلسطين من فواكه وخضراوات، يديرها شيخ يترأس مجموعة من العمال .. ثيابهم رثة .. وطعامهم لايتعدى الخبز والجبن والزيتون .. يكدحون طوال اليوم.. لكن ما أن يرتفع صوت الأذان حتى يصطفون خلف شيخهم يؤدون الصلاة وعلى وجوههم ترتسم سعادة وسكينة وطمأنينة لم يرها من قبل، تجربة فريدة كانت بمثابة إطلالة جديدة قلبت رأسا على عقب كل مفاهيمه القديمة المستقاة من مؤلفات أوروبية وإعلام، يشوه الإسلام!.. ولكن كان عليه أن يمضي عدة سنوات قبل الاقتناع باعتناق الإسلام!!.. مضت أربع سنين وهو يعاني حيرة جذب وشد بين ما يسمعه من أصحابه ومعارفه في مقاهي برلين، وما يقرؤه ويراه أثناء تجواله في البلدان الإسلامية، في زياراته المتكررة، قبل أن يهديه الله إلى دينه القويم، إثر حادثة مؤثرة، رواها للشيخ عبدالله بن بليهد في فنا، مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، حسبما كتب في كتابه..! كان مع زوجته في إحدى عربات قطار الأنفاق في برلين، يجلس قبالته رجل وزوجته تبدو عليهما آثار النعمة والثرا.. ما لفت انتباهه كان العبوس والتجهم المرتسم على وجهيهما، لفت انتباه زوجته وتلفت فيما حوله، ليرى علامات القلق والشقاء لاتكاد تفارق وجهاً من الوجهين رغم مايبدو عليهما من مظاهر الغنى واليسر والثراء.. فأخذته الحيرة كل مأخذ، شعب لايكاد ينقصه شيء من الماديات.. ينعم بأرقى مستويات المعيشة في العالم .. ويتمتع بكل ما يخطر ولا يخطر على البال من ملذات.. ومع ذلك يرتسم العبوس والقلق والشقاء على الوجوه!.. ما أن عاد إلى بيته وألقى نظرة على مكتبه، حتى رأى نسخة مفتوحة من القرآن الكريم .. هم بإغلاقه

فوقعت عيناه على الآية الكريمة: «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم». فاعتراه صمت عميق، ثم التفت إلى زوجته قائلاً: (اصغي إلى هذا .. أليس هذا جواباً لما لفت انتباهك به في القطار؟) ..زال كل شك وتردد فجأة وغمرته سكينة وطمأنينة :. فسأله الشيخ البليهد عما فعله بعد ذلك فقال إنه ذهب إلى رئيس الجالية الإسلامية في برلين ليعلن إسلامه على يديه .. فما أن أتم الله نعمته عليه حتى غير اسمه إلى محمد أسد .. تعريباً لمقطع (ليو Leo) من اسمه السابق الذي معناه أسد.

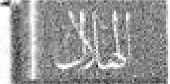
فهل يتسرب أدنى شك لمؤرخ أو باحث محايد ، إن كان إسلام محمد أسد كان قناعاً أم كان بعد تفكير وتأمل ومقارنة واقتناع ؟!.

* * *

وأخيراً نصل إلى آخر أشهر وأغزر من كتب وأطول من أقام في البلاد العربية من الرحالة الغربيين (هاري سانت جون فيلبي H.St.Jphn Philby) ، شهرته كانت أحد أهداف حياته التي حققها ، لا من خلال صلاته واتصالاته بأعظم رجال عصره ممن كان لهم دور حاسم في التأثير على أحداث ومجرى التاريخ كالملك عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل والسير بيرس كوكس وعشرات كانت لهم أدوار محورية فيما جرى من أحداث ، ولا من خلال عشرات المقالات التي نشرتها كبريات الصحف الغربية، أدى ما اكتنفها من جرأة وصراحة في معارضته السياسية الخارجية لحكومة بلاده إلى اعتقاله في الهند أثناء الحرب العالمية الأخيرة وإرساله إلى بريطانيا ليحتجز فيها لعدة شهور، بل قد لا يدانيه أحد فيما كتب عنه من أبحاث ومقالات وكتب!..

غزارة إنتاج قد يكفي لإبرازها الاستشهاد بما أورده الدكتور عبدالله الصالح العثيمين في مقدمة ترجمته لكتابه (بعثة إلى نجد) من أنها بلغت أكثر من ثلاثين كتاباً منشوراً وغير منشور وما ذكره العلامة الراحل (حمد الجاسر) من أنه رأى أثناء زيارته له بمنزله، غرفة مستطيلة مليئة بالأضابير، وصلت بعد وفاته (بطريقة أو أخرى!..) إلى مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني (St. Anthony) بجامعة أكسفورد فبلغت ما ملأ (٥٠) صندوقاً كما جاء نصاً في كتاب (رحالة غربيون في بلادنا)، لاشك بأنها تمثل كنزاً من المعلومات والوثائق لمؤرخي وبحاثة المستقبل!.. أما مدة إقامته وعدد رحلاته الاستكشافية فلا يضارعه أو يدانيه فيها أحد من الرحالة الغربيين قبله. فقد قضى عشرات السنين مابين العراق والأردن ومصر ولبنان والجزيرة العربية، إلا أن غالبيتها الأعظم والأهم، كانت برفقة ورعاية الملك عبدالعزيز آل سعود (رحمه الله)، التي هي أساس شهرته، فقد امتدت زياراته وإقامته على مدى (٤٦) عاماً منذ دخل العراق عام (١٩١٤م) وحتى وفاته في بيروت عام (١٩٦٠م)، قضى معظمها في الجزيرة العربية.

إن كان اعتداده برأيه وجرأته وصلابته قد تسببت في إبعاده عن العراق والأردن واعتقاله في الهند واحتجازه في بريطانيا من قبل الحكومة البريطانية، فقد كان لها أثر معاكس لدى الملك عبدالعزيز وإن كانت تصل إلى الحدة في النقاش والجدال، فقد كان رحمه الله من الحكمة وبعد الرؤية وسعة الصدر والأفق ما يثمن معه من يختلف معه، اتباعاً لصدق المأثور القائل (صديقك من صدَقك لا من صدّقك). إلا أن تلك الصراحة والجرأة، ربما تجاوزت حدودها إلى التكبر والعجرفة .. فالأستاذ محمد المانع يروي عن عجرفته أنه حينما حاول أخذ رأيه بكتاب



أرسله له أخوه عن الفضاء والكون باللغة الإنجليزية، رد قائلاً : (لاتهتم به فإنك بالتأكيد لن تفهمه!..) ، أما تكبره فيكفي الاستشهاد بما ذكره الشيخ حمد الجاسر من أنه حينما زاره مع أحد موظفي الديوان الملكي (الأستاذ إبراهيم بن معمر)، قابلهما بجفاء، حتى أنه تركهما جالسين صامتين فيما انشغل عنهما بكتاباته، رغم تحديده لموعد مسبق لمقابلتهما!.. ربما كان في ذلك الجانب من شخصيته السبب الأساسي في التشكيك بمقاصده وأهدافه لا في علاقاته وتشعب صداقاته واتصالاته فحسب، بل وفي اعتناقه للإسلام!..

كانت أول إطلالة لفيلبي على الإسلام من شرفة اللغة العربية حين تعلمها في الهند التي قضى بها سبع سنوات، إلى جانب تعلمه اللغتين البنجابية والأوردية، بعدما أتقن اللغتين الفارسية والهندوستانية. بجامعة كيمبردج التي التحق بها بعد تخرجه من كلية ترينتي بدرجة امتياز باللغات الحية الحديثة عام (١٩٠٧)م ، فأتاح له تعلم اللغة العربية الاطلاع على القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية، إلا أنه لم يعلن إسلامه حتى عام (١٩٣٠)م، فأثار ضجة واستغرابا، بل وشبه عدم تصديق، كما عبر عنها الأستاذ خير الدين الزركلي في الجزء الرابع من كتابه (شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز حينما قال:

«كنت أول من نشر خبر إسلامه، سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م وقد وصلت إليّ رسالة من الطائف إلى القاهرة من يوسف ياسين يقول فيها «قبل ساعة من كتابة هذه الرسالة أعلن فيلبي بجدة اعتناقه الإسلام.. اتصلت هاتفياً برئيس تحرير جريدة المقطم (خليل ثابت) وحدثته ويظهر أنه خشي الخطأ فنشره هكذا: أخبرنا الأستاذ خير الدين الزركلي أن المستر فيلبي أعلن اعتناقه الإسلام في جدة».. ويضيف أنه من ذلك اليوم أصبح فيلبي يرافق الركب الملكي في الحج وأكثر الأسفار، وهو ما أكده الدكتور عبدالله الصالح العثيمين نقلاً عن أوثق المؤرخين العرب والغربيين، ممن استشهد بهم في مقدمته الوافية عن حياة وكتابات فيلبي ضمن ترجمته لكتاب (رحلة إلى نجد).

أما تفاصيل وخلفيات اعتناق فيلبي الإسلام، فربما كان الأستاذ (محمد المانع) الذي أفرد فصلاً كاملاً عن فيلبي في كتابه باللغة الإنجليزية (توحيد المملكة العربية السعودية) والذي ترجمه ببعض التصرف المتفق عليه مع المؤلف، إلى اللغة العربية الدكتور عبدالله العثيمين، هو أكثر من أفاض وفصل تلك الخلفيات، حين قال:

«كنت حاضراً حين نوقش هذا الموضع (المقصود إسلام فيلبي) مع جلالته، فقال له الملك بأنه إن أصبح مسلماً، فسيجد ترحيباً وسيصحبه في أسفاره، بما فيها الحج إلى مكة المكرمة.. لكن فيلبي أبدى نوعاً من التردد.. ثم أخبر الملك أن زوجته لم تكن مرتاحة للفكرة!.. فعرض الملك عليه أن يدفع لها أربعين ألف جنيه إسترليني مقابل طلاقها، لكن فيلبي أجاب أنه لا يعتقد بأن زوجته مستعدة لبيعه مقابل ذلك الثمن، مع أني (والكلام للأستاذ محمد المانع) لا أعلم إن كان قد حاول ذلك معها على الإطلاق. ولاشك أن الملك كان جاداً في عرضه الذي يوضح أن جلالته قد أصبح يقدر مشورة فيلبي ونصائحه تقديراً كبيراً».

ويمضي (المانع) في السرد فيقول إن نور الإسلام قد طلع أخيراً على فيلبي عام (١٩٣٠)م فأعلن إسلامه وتسمى بعبد الله بناء على اقتراح الملك، ليحدث له أصعب امتحان لإيمانه، وهو الختان، الذي كان عملية بالغة الإيلام لرجل بالغ (وهي التي لم يذكر أحد أنها أجريت لرحالة قبله أشهر أو ادعى إسلامه). وكيف أنه أخذ فوراً إلى الطائف ليقضي بين ربوع جباله وطقسه المنعش فترة نقاهة دامت شهرين، وتعلم أصول العقيدة الإسلامية على يد أحد أشهر علماء المملكة آنذاك الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ

(رحمه الله) الذى عينه الملك عبدالعزيز لتلك المهمة.

أما فيلبى نفسه، فتراه يلمح إلى خلفيات مناقشاته مع الملك عبدالعزيز حول إسلامه، وإن لم يأت على مـــا أورده (المانع) من تفاصيل، فهو يؤكد أن الملك عبدالعزيز هو من سماه (عبدالله) بعد اعتناقه الإسلام ، إلا أنه يضفى مسحة درامية على وصوله إلى قراره النهائى باعتناق الإسلام، تحمل إيحاءات ما يشبه المعجزة الإلهية!!..

ويبدو أنه كان مهموما مشغول البال بما سيثيره إسلامه من شكوك وأقاويل تتمحور حول ما سيستفيد بعد إسلامه من مناصب ورواتب، فتراه يورد بشىء من التفصيل والتركيز رفضه لما اقترحه الملك عبدالعزيز فى مجلسه الخاص من منصب ، وامتناعه بإصرار عن تسلم ما جاء به وزير المالية بتوجيه من الملك من راتب شهرى يبلغ خمسين جنيها استرلينيا وهو أمر يؤكده (المانع) فى نقله عن الملك عبدالعزيز قوله إن هناك رجلين فقط لم يطلبا منه شيئا على الإطلاق.. أحدهما فيلبى.

ومن الجدير بالملاحظة أن جميع من شككوا فى إسلامه أو ارتابوا فى إيمانه ، لم يأتوا بحجة دامغة أو بينة ظاهرة، سوى ترديد استفادته من استمرارية ملازمة الملك عبدالعزيز فى حله وترحاله وخاصة إلى مكة المكرمة أيام الحج التى كان يحرص عليها أشد الحرص. فيما لم يأت أحد منهم بقرينة واحدة أو برهان على عدم التزامه بأداء شعائر الإسلام. ومن يقرأ ما كتب سواء فى ذلك الكتاب عن سيرة حياته بما شعر به من طمأنينة وسكينة بعد أداء طواف العمرة، أو جاء فى كتابه (حاج فى الجزيرة العربية) من تعلق بالإسلام من خلال وصفه بأنه الدين الذى انتشر ليكون نورا يهدى الملايين والملايين لا فى أسيا وأفريقيا بل وحتى فى أوروبا. وتصديه لتشويه من سبقه من الرحالة الغربيين فى دفاعه عن بئر زمزم بقوله (فهو بلا شك أقدس مياه الأرض وأطهرها، إنى لا أفهم تشويهاته لدى (بيرتون ووافيل وإلدون ورتر) وغيرهم، فإنه يطيب لى أن أضيف أن البئر محمية من أى تلوث ببناء يغطيها تماما)

أما بعض ما يؤخذ عليه من كتابات عن الإسلام من أنه يدعو إلى الديمقراطية من خلال الآية الكريمة من أن أمر المسلمين شورى بينهم وينادى بالاشتراكية من خلال الدعوة الى العدل والمساواة ، فما ذلك المأخذ فى حقيقته سوى دليل وبرهان على أن ما يطرح من مسميات معاصرة، ما هى فى حقيقتها سوى قيم أصيلة نادى بها الإسلام منذ مئات السنين!.

* * *

ويستخلص من ذلك العرض السريع أن علاقة الرحالة الغربيين بالدين الإسلامى الحنيف، مرت بمراحل ثلاث. أولاها التخفى بأزياء وأسماء إسلامية بهدف دخول المدينتين المكرمتين المحرم دخولهما على غير المسلمين، من أمثال (بيرتون الإنجليزى وباديا الإسبانى) . والثانية الإعلان أو التظاهر باعتناق الإسلام قبيل السفر إلى مكة مثل (بيركهارت السويسرى الأصل، وهورخرونيه الهولندى)، مما أثار الشك والريبة فى صحة إسلامهما. أما المرحلة الثالثة التى يمثلها محمد أسد (ليوبولد البولندى) وعبدالله فيلبى (هارى سانت جون فيلبى الإنجليزى) فإسلامهما لم يأت ارتجالا فجائيا، بل تبلور عبر سنين من التفكير والدراسة والمقارنة، مما لا يكاد يترك أدنى الهوامش للشك فى إسلامهما، وهو ما قد يفضى إلى استنتاج مهما قد يحمل بعض التفسير لما يمر به الإسلام من حملات تشويه وربط بالإرهاب دون غيره من الأديان فى حاضرنا المعاصر!.. ■



كارستن نيبور

أول رحالة أوروبي في بلاد اليمن السعيد

بقلم
عرفه عبده علي

منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والغرب يتطلع إلى إكتشاف «الآخر» والوقوف على أسرار الحضارات الأجنبية الغامضة .. وبدأ الحديث عن «نهضة شرقية» حاملة لـ «إنسانية جديدة» جديرة أن تثري الميراث اليوناني - الروماني ..

ومما لا شك فيه أن كتابات الرحالة الأوروبيين ومشاهدات الحجيج وتقارير الباحثين المغامرين والإرساليات والقناصل وضغوط المصالح السياسية - خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - قد أسهمت وبشكل فعال في إزدياد كثافة الوعي العام بالشرق !

ومن أهم هذه الرحلات تلك التي تعارف الدانمركيون على تسميتها آنذاك بـ «الرحلة العربية» وهم يعنون بها رحلة نظمت إلى بلاد اليمن خلال الفترة الفاصلة ما بين ١٧٦١ و١٧٦٧ والتي قام بتمويلها البيت المالك .



إن الخلفية لهذه الرحلة التاريخية هى فلسفة التنوير واجتهاداتها فى جمع وحصر المعارف الإنسانية بشكل منهجى منظم . وكانت هذه البعثة هى ثانى محاولة دانمركية بهذا الصدد . إذ أن الأولى كانت الرحلة التى قام بها الضابط البحرى فريدريك لويفيك نوردن (١٧٠٨ - ١٧٤٣) عام ١٧٣٧ بهدف التخطيط لعلاقات تجارية واسعة النطاق مع إمبراطورية الحبشة . وكانت نتيجتها الأساسية العديد من الخرائط والمعلومات عن بلاد مصر .

الرحلة إلى مصر

ظهر كتاب «نوردن» حول «الرحلة إلى مصر وبلاد أثيوبيا» فى عام ١٧٥٥ أى بعد وفاته بسنوات عديدة . وقد تميز بخرائطه الدقيقة لوادى النيل ، وهو ما ساعد على التخطيط للرحلة العربية بشرط أن تكون هذه الرحلة الثانية تكملة لرحلة «نوردن» . وبعد ذلك قرر المخططون أن تكون هذه الرحلة الثانية مستقلة تماما عن الأولى وأن يكون هدفها الرئيسى والوحيد البحث العلمى ، ويعود الفضل فى ذلك إلى شخصيتين من أبرز شخصيات ذلك هما البروفسور «يوهان دافيد ميشائيلس» من جامعة جوتنجن والآخر «يوهان هارتفيغ برنستورف» ممثل ألمانيا فى كوبنهاجن والمسئول عن سياسة الدانمرك الخارجية .

كان «ميشائيلس» مستشرقا ومن أبرز علماء دراسة الإنجيل فى عصره ، ومن المرجح أنه كان قد قرأ كتاب «نوردن» وأنه كان عارفا باهتمام ملك الدانمارك «فريدريك» الخامس» ومستشاريه بالعلوم والفنون . ولهذا عرض على «برنستورف» فكرة تنظيم رحلة علمية إلى اليمن أو «اليمن السعيد» وهى التسمية المتعارف عليها فى أدبيات العصر العلمية والمأخوذة عن التراث الرومانى .

وسرعان ما استجاب «برنستورف» لهذا الاقتراح وظل متمسكا به حتى بعد أن تغير شكله تماما بناء على استشارة العلماء الآخرين . وقد تقرر أن تنطلق البعثة من القاهرة وليس من مركز التبشير الدانمركى فى «ترانكيبار» على الساحل الجنوبى للهند، الشيء الذى ربط بينها وبين رحلة «نوردن» ربطا مباشرا . وقد كلف المشتركون فيها بجمع المعلومات لا بهدف دراسة الإنجيل فقط وإنما التركيز على احتياجات العلوم الطبيعية والجغرافية ، وقام «ميشائيلس» بوضع قائمة من الأسئلة العلمية طالبا من أعضاء البعثة توفير الإجابات الوافية عنها . وقد ظهرت هذه الأسئلة فى كتيب بعنوان «أسئلة موجهة إلى مجموعة من رجال العلم الذاهبين فى رحلة إلى بلاد العرب بأمر من صاحب الجلالة ملك الدانمرك» .

وشملت القائمة أسئلة مفصلة عن مجالات العلوم المختلفة منها التاريخ والتاريخ الطبيعى وعلوم اللغة . ومصدر الأمر الملكى إيذاناً ببدء الرحلة فى ١٥، ١٢، ١٧٦٠ على قاعدة أسئلة ميشائيلس والاقتراحات المقدمة من طرف العلماء الآخرين . وقد نصت

الفقرة العاشرة من القرار الملكي على ما يلي : «على أعضاء البعثة أن يكونوا في غاية الأدب مع سكان بلاد العرب وعليهم ألا يناقضوا تعاليم دينهم أو يقللوا من شأنه حتى فيما بينهم وبين أنفسهم» . ولم يكن السبب في اتخاذ هذه الاحتياطات هو المشاكل الدبلوماسية التي يمكن أن تنتج عن مثل هذا السلوك وإنما كان التسامح الذي كان الشعور المهيمن في ذلك الوقت والقاعدة المتبعة في كل المعاملات وخاصة مع الشعوب والأمم الأخرى .

ويتحدث «نيبور» عن مناقشة دارت بين أعضاء البعثة وبين أحد العاملين في السفينة التي نقلتهم من القسطنطينية إلى الإسكندرية فيقول : «تبين لنا من خلال النقاش أنه مسلم مؤمن بدينه إيماناً قويا ، وعندما حاول أحد أعضاء بعثتنا إقناعه بصحة الديانة المسيحية نهض واقفاً وقال : «الذين يؤمنون بغير الله ليسوا إلا ثيراناً وحميراً» ثم خرج وقد ذكرنا هذا الرجل البسيط بأنه علينا ألا نخوض في مثل تلك النقاشات وأن نترك كل واحد يعتقد أن دينه هو الأفضل» !

بدأت البعثة رحلتها على ظهر الباخرة العسكرية «جرونلند» من ميناء كوبنهاغن ، وفي ٢٠ نوفمبر / تشرين الثاني ١٧٦٧ ، لم يعد سوى كارستن نيبور ، وهو الوحيد الذي تبقى على قيد الحياة من بين كل أعضاء البعثة .

من القسطنطينية إلى القاهرة

استغرقت الرحلة من كوبنهاجن إلى القسطنطينية حوالي سبعة أشهر (أي من ١/٧ إلى ١٧٦٠/٦/٣٠) وذلك بسبب قوة الرياح المضادة مما اضطر السفينة إلى العودة إلى ميناء هلسنجور مرة أخرى . ويقول نيبور في مذاكراته : (عانى بحارتنا من الأحوال الجوية السيئة معاناة شديدة حتى أن بعضهم لاقى حتفه ، ومرض منهم حوالي ٣٠ شخصا) ولم تبدأ الرحلة فعلا إلا في ١٠ مارس ، لتسير في البداية في الاتجاه الخاطىء بسبب الرياح . وفي القسطنطينية استقل أفراد البعثة سفينة إيطالية طاقمها تركي وصلت الإسكندرية في ٢٦ سبتمبر عن طريق رودس ، وكانت السفينة تحمل معها جواز مرور وخطاب توصية من السلطان . كان أفرادها قد غيروا ثيابهم الغربية واستبدلوها باللباس الشرقي لأن الثياب الأوروبية «ستكون موضع تساؤلات كثيرة ، بل من المحتمل أنها كانت ستثير علينا تهكمات العامة من الناس» ، كما يقول نيبور .

وقام نيبور في الإسكندرية بالعديد من عمليات المسح لاقى خلالها بعضا من المصاعب وهو يقول (لاحظ أحد التجار الأتراك أنني أوجه الإسطرلاب باتجاه المدينة ، فدفعه فضوله الشديد إلى النظر من خلاله ، وقلق جدا عندما رأى برجا يقف رأسا على عقب . وقد نتج عن ذلك ظهور شائعات تقول بأنني أتيت إلى الإسكندرية لاقلبها رأسا على عقب . وكان هذا موضع حديث الناس في كل مكان وحتى في بيت الحاكم) .



لوحة تصور «كارستن نيبور» بالزى الشرقى

اضطر نيبور إلى التوقف عن المسح لهذا السبب معوضا برحلات متعددة إلى الدلتا . وفى الطريق إلى القاهرة قام بمسح لأحد فرعى النيل ورسم له خارطة . كذلك شرع فورسكال فى تدوين ملاحظاته العلمية وفى جمع عينات مختلفة من الحيوانات والنباتات وقد أقامت البعثة عامين فى القاهرة وذلك بعد وصولها إليها فى ١٠ نوفمبر . وكان السبب فى هذه الإقامة الطويلة ، الصراعات الداخلية بين أعضاء البعثة أنفسهم ، والتى أدت إلى استفحال الخلافات بينهم وإلى بروز الكثير من المشاكل التى عرقلت أعمالا كثيرة .

ورغم ذلك استمر العمل طبقا لمواد القرار الملكى . وقد واصل نيبور عمليات المسح ، ودرس فى القاهرة فرع النيل الثانى المؤدى إلى رشيد ، ووضع خريطة دقيقة للمدينة ، وقاس ارتفاع الأهرامات ، محصلا نتائج لا تختلف إلا بنسبة ٠,٥٪ عن النتائج الحديثة . كما نسخ بعضا من النقوش الهيروغليفية كانت هى أول من أمكن قراءتها . أما فورسكال فقد أضاف إلى مجموعته حوالى ١٢٠ نوعا جديدا، وجمع المئات من الحبوب ، واشترى فون هافن ٧٢ مخطوطا ورسم «باور نفايند» صورا معبرة عن الحياة اليومية من خلال الأدوات المستخدمة والماكينات والملابس الشعبية والآلات الموسيقية .

من القاهرة إلى جدة

رحلت البعثة فى ٢٨ أغسطس ١٧٦٢ بصحبة قافلة الحج السنوية من القاهرة إلى السويس لتبحر منها إلى جدة المرفأ الوحيد المؤدى إلى مكة .

وكان أفراد البعثة قد تطبعوا أكثر فأكثر بأسلوب الحياة الشرقية خلال إقامتهم فى القاهرة ، وقبل الإقلاع من السويس حاولت البعثة البحث عما كان يسمى فى أوروبا بجبل (المكاتب) والمنصوص عليه فى القرار الملكى ، وهو جبل كان العلماء يتوقعون العثور فيه على معلومات جديدة بخصوص رحلة بنى اسرائيل فى صحراء سيناء، غير أن بحثهم باء بالفشل ، وتمكن نيبور من نسخ بعض النقوش النبطية من القرن الأول

الميلادى .

أبحرت البعثة فى ١٠ أكتوبر على ظهر سفينة من سفن الحجاج تاركة السويس إلى جدة ، وواصل نيبور دراساته الفلكية سرا فى الطابق العلوى من السفينة . وشكلت هذه الدراسات مع ما لاحظه حول الشعب المرجانية القاعدة الأساسية لأول خريطة علمية للبحر الأحمر . وقد كان الجزء الشمالى منه مجهولا لدى الرحالة الأوروبيين ، ولذا فإنهم لم يكونوا يتجاسرون على السير فيه أبعد من جدة شمالا . وكانت هذه الخريطة هى الهدية التى قدمها «نيبور» إلى قبطان انكليزى فى فترة لاحقة . وهى التى اعتمدها البريطانيون فى إقامة طريقهم البريدى من أوروبا إلى الهند ، مجنبا إياهم الإبحار ومرورا بإفريقيا الجنوبية .

وطيلة الرحلة فى البحر الأحمر ، كان «فورسكال يصيد الحيوانات المائية ويعطيها لزميله» باورنفايند ليرسمها ، كما أنه أرسل من جدة مجموعة من النباتات والحبوب وأشياء أخرى من بينها أسماك وأصداف .

من جدة إلى اليمن

أبحرت البعثة من جدة فى مركب صغير إلى ميناء لحية فى اليمن . ثم سارت فى طريق البر على بلدة بيت الفقيه التى وصلتها يوم ٢٥ فبراير / شباط ١٧٦٣ . وفيها أقامت ما يقرب من الشهرين . وقد توطدت الصداقة بين «نيبور» و«فورسكال» . وهذا ما سهل عليهما القيام برحلات عديدة معا ،



الجامع الكبير .. فى قلب صنعاء القديمة

رحلات إلى سهول تهامة وإلى الجبال المحيطة بها . وقد كتب نيبور قائلا : «كنا نستأجر حمارين نركبهما بينما يظل صاحبهما سائرا على الأقدام وراءنا فهو مرشدنا وخادمنا بل وفى كثير من الأحيان مترجم لنا وكنا نحن قد أصبحنا من ذوى اللحى العربية المهيبة ونرتدى ثيابا طويلة بحيث كان شكلنا شرقيا إلى حد كبير . وحتى لا يشك أحد فى أننا أوروبيون ، أطلق كل منا اسما عربيا على نفسه ، وجعلت احتياطاتنا هذه صاحب الحمار يوقن

بأننا لسنا أوروبيين وإنما مسيحيون من الشرق) .

وقد واصل نيبور عمليات المسح خلال رحلاته إلى مخا وتعز وصنعاء راسيا بذلك القاعدة لإنجاز عمله الكبير الثاني : خريطة اليمن ، أساس كل الأبحاث الجغرافية عن المنطقة لفترة المائة سنة اللاحقة . كذلك استمر فورسكال في جمع النباتات . من بينها أصناف متعددة تجهلها العلوم الأوروبية جهلا تاما ، كما استطاع أن يجد شجيرة البلسم العربي التي يستخرج منها بلسم مكة ، الشهير في أرض كنعان وفي الشرق كله . ولم تكن أوروبا تعرف إلى أي نوع من النباتات ينتمي حتى ذلك الحين .

ويبدو من خلال مذكرات «نيبور» أن أعضاء البعثة كانوا على ما يرام على الأقل في بداية إقامتهم في اليمن السعيد . كما كانوا يتمتعون بحرية الحركة وبالإحساس بالأمان . ولم يلاقوا من السكان نفورا مثلما حدث لهم في تركيا أو في مصر . وقد كتب «نيبور» يقول: إن على الرحالة أن يعلم بأن الرحلة متعبة . غير أنها ليست أكثر إرهاقا من تسلق الجبال .

وقد بدأت المتاعب بعد ترك بيت الفقيه . ومنها حادثة «مخا» المضحكة والمبكية في الوقت نفسه، والتي وصفها «نيبور» في مذكراته بالتفصيل : بعد وصول البعثة مساء ٢٤ نيسان / ابريل إلى مخا ، كان من الضروري تفتيش المتاع الذي وصل من لحية مباشرة وبحضور حاكم المدينة . ورغم أن أعضاء البعثة طلبوا البدء في التفتيش بأدوات المطبخ وبالأغطية حتى يتمكنوا من أن يناموا بعد ذلك ، فإن التفتيش بدأ بأدوات العمل . وكان من بينها برميل صغير به أسماك من الخليج العربي . وقد رجا السيد «فورسكال» المفتشين بألا يفتحوا البرميل لأنه كان ممتلئاً بالكحول ولأن رائحة الأسماك التي به ربما تكون غير محتملة على الإطلاق . غير أن المفتش أصر على فتحه وبعد ذلك أخرج منه الأسماك وقلب فيه بواسطة عصاه الحديدية كما لو أنه كان يتصور العثور على أشياء ثمينة بداخله. وبرغم توسلات أعضاء البعثة ، فإن المفتش قلب البرميل رأساً على عقب . وهكذا امتلأ المكان برائحة الكحول والأسماك العفنة . أما القواقع التي كانوا قد لفوها بحرص شديد ، فقد نزعت لفائفها ، ومزق البعض منها بواسطة العصا الحديدية المدببة . وربما لم يكن العرب يتصورون أن بإمكان إنسان عاقل جمع مثل تلك الأشياء ولذا فإنهم تصوروا أن أعضاء البعثة أحضروها بهدف السخرية من الموظفين بل ومن الحاكم نفسه . واعتقد آخرون أن هناك أشياء ثمينة مخبأة بينها وأن أعضاء البعثة قد سحروهم بحيث أنهم لم يعودوا قادرين على رؤيتها . وبدا الحاكم غير مبال تماماً بما يحدث . وفي نهاية التفتيش أحضر صندوقا مخصصا لنقل القناني كان فورسكال يحتفظ فيه بنماذج من الثعابين المختلفة والتي كان قد قام بتحنيطها . وأثار هذا أيضا استغراب المفتشين ودهشتهم . وعندئذ قال أحد خدم الحاكم أن الفرنج قد جاءوا إلى اليمن لتسميم المسلمين . وحتى تلك اللحظة لم

يصدر عن الحاكم أي غضب أو أي سخط . كان يبدو مشفقا إلى حد ما على أعضاء البعثة ، غير أنه لما سمع أن الناس قد يكونون في خطر حتى ثارت ثائرته وهاج وماج وقال : «والله لن يبق هؤلاء الناس ليلة واحدة في مدينتنا» . ويضيف فورسكال في تقريره إلى لينيه : لكنه - أي الحاكم - غير رأيه في النهاية بعد أن أقنعه أصدقاؤنا بواسطة الهدايا الثمينة بحسن نوايانا . وهكذا انجلى عنه الإعصار الذي اجتاح نفسه . أن الجهل هو بالفعل أساس لحماقات كثيرة» .

وراحت المصاعب تشتد أمام أعضاء البعثة . وسرعان ما واجهتهم الملاريا التي راحت تحصدهم الواحد بعد الآخر

أمراض .. وموت .. وعراقيل !

توفي اثنان من أعضاء البعثة أثر عودتهما في نهاية نيسان / ابريل ١٧٦٣ إلى منطقة الساحل . وهما فون هافن (٢٥ مايو / أيار ١٧٦٣) في مخا وفورسكال (١١ يوليو ١٧٦٣) في جريم . وقد ذهبا ضحية نوع خاص من الملاريا اشتهر في اليمن بشراسته. وكان فورسكال في طريقه من جريم إلى صنعاء عندما باغته المرض .

ويحاول نيبور أن يخفي حزنه على صديقه فورسكال بالذات وراء تقريره الموضوعي عن الحادثة : «لقد حزنا حزنا شديدا على فقدانه ذلك أنه كان أكثرنا إجادة للغة العربية بل ولهجاتها المختلفة بسبب اختلاطه بعامة الناس أثناء جمعه للنباتات . وفي بعض الأحيان كان يقوم بدور المترجم لنا ، وكان مهتماً شديد الاهتمام بتسهيل أمور الرحلة علينا ، الشيء الذي أقنعني بأنه كان أكثرنا صلاحية للسفر إلى بلاد العرب . وقد تعود على أسلوب حياة السكان الأصليين بسرعة مدهشة . وهذا شيء ضروري للغاية بالنسبة لمن يريد قطع بلاد العرب مستفيدا ومستمتعاً في آن واحد .

وقد قرر أعضاء البعثة الآخرين بعد زيارة العاصمة صنعاء أن يغادروها إلى مخا ليستقلوا بعد ذلك المركب إلى بومباي ، محاولين تجنب الساحل اليمني الموبوء بالملاريا ، قاطعين بذلك رحلتهم التي كان من المتوقع أن تمتد عامين أو ثلاثة . ويسرد لنا نيبور أسباب قرارهم ذاك قائلا : «استقبلنا في صنعاء استقبالاً طيباً للغاية بل إن كثيرين من أهل البلد الخيرين حاولا إقناعنا بالبقاء بينهم وذلك بترك المراكب البريطانية تقلع بدوننا . وكان بودنا أن نستجيب إلى دعوتهم تلك . غير أن وفاة زميلينا جعلتنا عاجزين عن مواصلة دراستنا الطبيعية واللغوية.

أما أنا فقد كنت زرت من قبل العدد الأكبر من مدن المملكة الصغيرة كما أنني وضعت خريطة أساسية لليمن. وخوفاً من تكرار المصاعب والعراقيل والمضايقات ، ومن الأمراض التي يمكن أن تصيبنا من جراء تغير الجو والهواء والماء وبسبب الفروق بين السهول والجبال قررنا الإقلاع إلى الهند بهدف تأمين حياتنا ومذكراتنا وأوراقنا» .

أقلعت السفينة من «مخا» في ٢١



«المقيل» جلسات تخزين القات!!

أغسطس ، لكنها كانت قد تأخرت : ففي خلال السفر أودت الملاريا بكل من باورنفايند وبرجرين ، وتبعهما كرامر في فبراير ١٧٦٤ في بومباي ، ولم يبق إلا نيبور ، مرهقا ومريضا واستغرق وقتا طويلا للشفاء من المرض ، ونراه يفسر ذلك على أنه إنذار وتحذير إلهي فيقول : «أكاد أيأس من رؤية أوروبا مرة أخرى . لقد قررت أن التزم البقاء على قيد الحياة . وإذا ما أنا مت أيضا ، فمن يوصل الأوراق والوثائق إلى أوروبا . إني أخاف من أنها لن تصل على الإطلاق . ومخاوفي هذه هي التي جعلتني أقرر السفر في إحدى السفن المبحرة من بومباي إلى لندن» . ويستغل نيبور فرصة وجوده في الهند ليزور في مارس ١٧٦٤ مرفأ صرات التجاري في شمال الهند . ويكتب في مذكراته : «كنت مريضا جدا إلى درجة إني لم أتمكن من الشروع في رحلة العودة . وهكذا اضطررت للبقاء في بومباي طيلة موسم الأمطار . وقد قررت أن أعود عبر الطريق المرسوم لي والذي يمر من البصرة وذلك حالما أتعافى . لقد أرسلت الآن كل العينات وكل الوثائق التي جمعناها خلال رحلتنا . وأنا الآن أشعر بالاطمئنان» .

رحلة العودة :

غادر نيبور بومباي بعد أن أقام بها أكثر من عام بأكمله وكان ذلك في ديسمبر ١٧٦٤ ، ورحل شمالا عن طريق عمان والخليج العربي ، وفي ميناء بوشهر الفارسي شاهد الاستعدادات قائمة على وثاق لتسيير قافلة إلى شيراز ، فانتهز الفرصة ليحقق حلما قديما من أحلامه وهو يقول : (بالرغم من رغبتي الجامحة بالعودة إلى أوروبا إلا أنني لم

أرغب فى أن تفوتنى فرصة السفر إلى شيراز ومشاهدة إطلال برسيوليس على مسيرة يومين منها وهكذا قررت الرحيل مع القافلة فى ١٥ فبراير إلى داخل البلاد ، وبقيت مرتديا ثيابى الأوروبية التى كنت قد أتيت بها من الهند فى طريقى إلى برسيوليس ، لكنى قاسيت الأمرين من السفر مع القافلة بتلك الثياب القصيرة الضيقة) .

أمضى نيبور ثلاثة أسابيع فى أطلال ذلك القصر الملكى ، وكان الاسكندر الأكبر قد أشعل فيه النيران انتقاما من غريمته إمبراطورية فارس القديمة ، وهنا يقوم نيبور بثالث إنجازاته العظيمة ، فينسخ كل النقوش المكتوبة بالخط المسمارى بدقة فائقة جعلت من نسخته قاعدة لفك رموز هذا الخط بعد سنوات قليلة . غير أن هذا الإنجاز كان على حساب صحته ذلك أنه لم يراع انعكاس الشمس على المرمر الذى أتعب عينيه وتسبب فى إصابته بالعمى فى الشيخوخة . ويقول ابنه بهذا الصدد : (إن صورة هذه الأطلال انطبعت فى ذهنه طيلة العمر ، فكانت هى الجوهرة بين كل الحجارة الثمينة التى شاهدها فى رحلته) .

وصل نيبور فى أغسطس ١٧٦٥ إلى البصرة وتابع رحلته منها برا عبر العراق حتى بغداد التى وصلها فى يناير ١٧٦٦ وانضم هناك إلى عدة قوافل نقلته إلى الموصل ومنها إلى حلب التى غادرها إلى قبرص بناء على تعليمات القنصل برنستورف لكى ينسخ نقوشا كان يعتقد أنها فينيقية الأصل . وانتهز فرصة وجوده فى المنطقة ليزور الأماكن المقدسة ، فقاده طريقه مرة أخرى إلى حلب مارا بدمشق فى أغسطس ١٧٦٦ ، وقد أقام فيها حتى نوفمبر ليغادرها بصحبة قافلة إلى القسطنطينية ، التى وصلها بعد شتاء قارس فى فبراير ١٧٦٧ ، وهناك رسم خارطة للمدينة كان المرض قد منعه من رسمها خلال زيارته الأولى لها قبل أكثر من خمس سنوات . وبعدها أدار ظهره للقارة الأسيوية عائدا إلى أوروبا عن طريق البر ، عبر بولندا وشمال ألمانيا ، وقد توقف فى مدينة جوتنجن وزار بعضا من أسرته فى قرية التنبورج وهى القرية المجاورة للقرية التى ولد فيها ، وصل كوبنهاجن فى ٢٠ فبراير ١٧٦٧ ، وبادر إلى تنقيح ملاحظاته ونتائج تأملاته خلال الرحلة ليعدها للنشر فى كتاب .

وتقلد فى عام ١٧٧٨ منصب سكرتير الإقليم المسئول عن جمع الضرائب واستقر فى بلده ميلدروف حيث توفى فى عام ١٨١٥م .

وعندما عرض عليه أن يرفع مصاف النبلاء رفض العرض قائلا : (من يقبل مثل هذا العرض لابد وأنه يحس بأن أصله ليس بالنبل الكافى) .

نتائج الرحلة :

بإمكاننا تصنيف نتائج الرحلة إلى مجموعتين : هناك الأشياء العينية التى جمعت خلالها وأرسلت إلى كوبنهاجن ، أصناف مختلفة من الحيوانات والنبات ، مع عدد من المخطوطات العبرية والعربية وهناك المشاهدات المدونة كتابة والرسومات والخرائط ، والكتب التى طبعت على أساسها .

نرى أن البعثة قد تمكنت من الإجابة عن العديد من الأسئلة المطروحة عليها قبل مغادرتها الدانمرك . تطالعنا الإجابة على الاستفسارات اللغوية في مقدمة كتاب نيبور (وصف بلاد العرب) بينما نجد الإجابات عن الأسئلة في المجالات العلمية المختلفة متناثرة في نفس الكتاب . وظهر فيما بعد أن بعض نتائج الرحلة لها أبعاد تاريخية ، مثال الخرائط التي رسمها نيبور ونسخه للخط المسماري ، وأيضا إنجازات فورسكال في علمي النبات والحيوان، أما المخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية ، حيث أن هذه المجموعة لم تكن تحتوى سوى على عدد بسيط من المخطوطات قدمت كهدايا للمكتبة ومازال جزء كبير من مخطوطات فون هافن موجودا بها ويستخدم لأغراض البحث العلمي . ■

كارستن نيبور Carsten Niebuhr في سطور

ولد نيبور بمدينة «لودينجفورت» بإقليم هانوفر في ١٧ مارس سنة ١٧٣٣ ، كان والده مزارعا ، درس الرياضة التطبيقية بجامعة «جوتجن» كما درس علم الفلك على العالم الشهير «يوهان ماير» ودرس اللغة العربية بجامعة هامبورج، رحل إلى الدانمرك حيث صار ضابطا مهندسا في كوبنهاجن عام ١٧٦٠م .

أختير نيبور ضمن أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها «فريدريك الخامس» ملك الدانمارك إلى مصر وشبه الجزيرة العربية وسوريا .. ولولا أنه قرر مواصلة الرحلة والقيام بعمل جميع أعضائها الراحلين ، لما تحققت الأغراض العلمية من هذه البعثة .

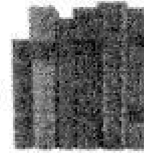
عاد نيبور عام ١٧٦٧ ومعه مادة علمية وفيرة ، عاش أولا في كوبنهاجن ثم في ألمانيا . وترك الخدمة بالجيش عام ١٧٧٨ ، وأصبح مستشارا ، ثم أميرا في دانيبروج عام ١٨٠٢ . واختاره المعهد الوطني الفرنسي عام ١٨٠٩ عضوا به .

وكان نيبور رحالة يتصف بالملاحظة الدقيقة ، وظهر ذلك في تدوينه لكل تجاربه ومشاهداته التي أودعها مؤلفاته :

- «وصف بلاد العرب» (كوبنهاجن ١٧٧٢) .
- «وصف الرحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة» وظهر في جزأين في كوبنهاجن (١٧٧٤ - ١٧٧٨) وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الدانماركية والفرنسية والانجليزية والهولندية . ثم صدر الجزء الثالث منه عام ١٨٣٨ (أي بعد وفاة نيبور) .

وقد ظهر الجزء الأول من الرحلة في كتاب بعنوان «رحلة إلى مصر» ونقله إلى العربية وقدم له الدكتور مصطفى ماهر (القاهرة عام ١٩٧٧) ، بالمقدمة تفصيلات مفيدة عن حياة نيبور ونبذة عن أعضاء البعثة الآخرين وعن مهمتها ونتائجها .

وكان نيبور قد نشر أعمال زميله عالم النبات «فورسكال» وأهمها «نباتات مصر وبلاد العرب» (١٧٧٦) . كما أمد مجلة المتحف الألماني بسلسلة من المقالات عن مشاهداته في الرحلة .. وتوفى في ١٦ إبريل عام ١٨١٥م .



من ذخائر الكتب العربية

رسالة ابن فضلان

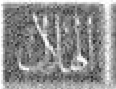
والدور الحضاري لبغداد في شمال أوروبا قبل ألف عام

بقلم
د. أحمد درويش



يحتفظ تراث أدب الرحلات ووصف المسالك والممالك فى الحضارة الإسلامية بكتاب صغير يحمل عنوان «رسالة ابن فضلان - أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة عام ٣٠٩هـ - ٩٢١م».

وهى رسالة تعد من أهم الوثائق التاريخية العالمية التى تقف شاهداً على الدور الذى لعبته بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية، فى نشر الحضارة والمدنية، قبل أكثر من ألف عام، فى أرجاء أوربا التى كانت تغرق فى ظلام التخلف والفوضى، ويسيطر على أجزائها الشمالية جماعة من اليهود من قبائل «الخزر» يسومون جيرانهم الصقالبة سوء العذاب، يذبحون أبناءهم، ويغتصبون نساءهم، ويهجمون عليهم من وراء جبال الثلوج متنكرين في فراء الدببة المتوحشة، ولم ينقذهم منهم إلا خبراء الدفاع من المسلمين وعلى رأسهم أحمد بن فضلان كاتب الرحلة الفريدة التى حظيت باهتمام العلماء والفنانين في الغرب قبل الشرق، وتجاوز الاهتمام بها دائرة المستشرقين المألوفة فى اهتمامها بتراث الشرق إلى دائرة الفنانين والسينمائيين، فصور الفنان الروسى هنري سميرادسكى وقائع رحلة ابن فضلان فى مجموعة من اللوحات ماتزال تزين جدران متحف لينتجراد أو سان بطرسبرج حتى اليوم.



والتفت صناع السينما العالمية إلى مشاهد البطولة والشجاعة والذكاء لدى رواد الحضارة الإسلامية، فأخرجت السينما الأمريكية منذ عدة سنوات، فيلماً بعنوان «الفارس الثالث عشر» ولم يكن هذا الفارس إلا «أحمد بن فضلان» الذى احتفظ له مخرج الفيلم باسمه، وصور بطولته فى إنقاذ الصقالبة من جيرانهم «الخزر» ولكنه لم يذكر بالطبع أنهم كانوا «يهوداً»! خوفاً من تهمة معاداة السامية!

فى الوقت الذى لم يلتفت فيه صناع السينما ولا مخرجو المسلسلات التاريخية عندنا إلى هذه البطولات والقيم، ومن قبلهم لم يلتفت واضعوا المناهج التاريخية والأدبية إلى مثل رسالة ابن فضلان لتبسيطها ووضعها بين أيدى تلاميذنا فى مرحلة التكون العلمى والعاطفى، لتكون عونا هم على فهم بعض جوانب حضارتهم وحافزا لهم على الاعتزاز بماضيهم ومحاولة تجديد حاضرهم.

استغاثة الصقالبة

وتبدأ قصة الرحلة التى أصلت الرسالة بكتاب ورد إلى الخليفة العباسى المقتدر بالله من قبائل الصقالبة، وهم من سكان الشمال فى أوربا على أطراف نهر الفولجا وعاصمتهم قريبة من مدينة موسكو، وفى هذا الكتاب، يطلب ملك الصقالبة من أمير المؤمنين المقتدر بالله أن يرسل اليه بعثة من قبله تفقهه فى الدين، وتعرفه شرائع الإسلام، وتبنى له مسجداً، وتنصب له منبراً يقيم عليه الدعوة للخليفة فى جميع مملكته، وتبنى له حصناً يتحصن فيه من أعدائه ملوك الخزر من اليهود الذين يعتدون على قومه، ويفرضون عليهم الضرائب يؤدونها عن كل بيت فى المملكة «جلد سمور» وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصباً.

ويتشكل الوفد الرسمى إلى بلاد الصقالبة من أربعة أشخاص، هم سوسن الروسى مولى نذير الحرمى، وتكين التركى، وبارس الصقلابى، وأحمد بن فضلان ومعهم دليل هو رسول الصقالبة وثلاثة من أعضاء الوفد من أصول غير عربية، كما تدل على ذلك ألقابهم، ويعرفون لغات البلاد التى سيمرون بها حتى يصلوا هدفهم، أما رابعهم وهو رئيس الوفد وبطله، أحمد بن فضلان فهو عالم باللغة والشريعة وفنون القتال وهو المتحدث باسم الوفد والمدبر لأموره، وقد حمل الوفد فيما حمل معه من الهدايا، كثيراً من «الأدوية» التى طلبها الصقالبة من بغداد عاصمة العلم والصناعات والحضارة آنذاك.

ورحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر عام ٣٠٩هـ الموافق ٢١ يونيو عام ٩٢١م منذ نحو ألف وثمانين عاماً، وظل مسافراً أحد عشر شهراً متصلاً - وصفها ابن فضلان وصفاً دقيقاً محكماً - حتى وصل إلى هدفه فى صيف عام ٩٢٢م (٣١٠هـ).

ويعد وصف رحلة الوصول، مجموعة من اللوحات الجميلة فى أدب الرحلات التى يتقلب فيها أبن فضلان فى سهول أسيا وأوربا الواسعة بين زمهرير الشتاء وزمهرير الصيف، ويصف لنا كيف أن شدة البرودة فى بعض المناطق كانت تجعل شعر لحيته الطويلة يتجمد فيصبح قطعة واحدة من الثلج يمكن أن تتكسر إذا اصطدمت بشىء، وأنه برغم كثرة الأغطية والأكسية والفراء، كان يلتصق خده حين ينام بالمخدة من شدة البرد، فيجد صعوبة فى فصلهما.

عادات وتقاليد

ويقف ابن فضلان كثيراً عند وصف العادات الاجتماعية والتقاليد للبلاد الأسيوية والأوربية التى يمر بها، وهو وصف يدل على مدى البدائية والتخلف، بالقياس إلى حضارة بغداد الزاهية فى تلك الحقب، فالمريض عندهم بدلاً من أن يعالج، يعزل فى خيمة، حتى يموت أو يبرأ، وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفرة كبيرة ثم ألبسوه ملابسه الحربية، وأجلسوه وأسندوا ظهره للحائط وجعلوا فى يده كوبا من الخشب مملوءاً بالنبيذ، وجمعوا أمواله فدفنوها معه ثم يجمعون دوابه فيذبحونها ويأكلونها جميعاً، ولكنهم يحافظون على جلدها ورأسها وأرجلها وذيلها، ويصنعون منها تماثيل على هيئة الدواب، ويجعلونها بجوار قبر الميت، حتى إذا ما نهض من موته، شرب النبيذ وركب هذه الدواب إلى الجنة، وابن فضلان لا يكف عن تنبيه القوم إلى سذاجة ما يصنعون، ويدعوهم بالحسنى إلى الإسلام وتبنى الحضارة والمدنية والتقدم.

ويتحدث ابن فضلان عن خرافة المعتقدات لديهم، فمنهم من يتخذ لنفسه اثنى عشر رباً، وطائفة تعبد الحيات، وأخرى تعبد السمك، وأخرى تعبد الأوز، لأنه تصادف أن صاح فى احدى المعارك على فريق فاهتزوا وفزعوا وانهزموا فأسندوا إليه قوة الألوهية.

أما العادات الاجتماعية فى روسيا فى ذلك الزمان، فقد وصفتها رسالة ابن فضلان، وصفاً مفصلاً، جعلت علماء الروس المعاصرين يعتبرونها «المرجع الأول» لتاريخهم فى هذه الفترة السحيقة، ووصف هذه العادات يدل على مدى التخلف الذى كانت تعيشه هذه البلاد، فى الوقت الذى كانت تعيش بغداد فيه أوج حضارتها ومدنيتها، فهو يصف التحلل والعرى عندهم، وأنهم ينزلون إلى النهر



فيغتسلون رجالاً ونساء وهم عراه وأنهم يجتمعون على السكنى فى بيت واحد، عشرة أو عشرون ولكل منهم سرير يجلس عليه، وحياتهم الزوجية عجيبة مكشوفة لا حياء فيها ولا عار مع قذارة فى الثياب والأبدان، فهم يغسلون وجوههم فى طست واحد يطاف عليهم به يرسلون فيه كل ما يخرج من أفواههم وأنوفهم، وأنهم يسجدون لخشب ركزوه فى الأرض، وقد صنع على شكل صور يستشفعون إليه ويتضرعون وله يتصدقون ، وهذه المشاهد كلها أخذها مخرج الفيلم الأمريكى، الفارس الثالث عشر، عن رسالة أبن فضلان.

مشاهد الموت الروسى

أما مشاهد دفن الموتى عند الروس، فقد فصلها ابن فضلان تفصيلاً مثيراً، فقد قص علينا مارآه بنفسه من مراسم دفن أحد عظماء الروس، وكيف أنهم عقب موته - يجعلونه فى قبره ويقفون عليه عشرة أيام حتى يفرغوا من اعداد ملابسه اللائقة برحلة الدار الآخرة، ثم يتم اختيار أحدى جواريه لكى تؤنسه فى رحلة الموت، ويتم الاحتفال بالتى تم اختيارها سبعة أيام، يتم فيها الغناء والرقص والشراب ووداع الجارية بطريقة بدائية متخلفة من خلال معاشرتها جنسياً من كل زعماء القبيلة لكى تحمل تحيتهم إلى الميت الراحل، فإذا كان يوم الاحتفال بحرق جثمان الميت وجاريته معه، شربت الجارية وغنت واحضرت إلى سفينة معدة لذلك الأمر، وأخرجوا الميت من قبره وجعلوا معه نبيذاً وفاكهة وعوداً للعزف، وألبسوه أجمل الثياب الفاخرة، وأدخلوه القبة، وجعلوا بين يديه المأكل والمشارب، ثم دفعوا الجارية بعد أن تودع صواحبها فخنقوها وقطعوا أضلاعها، ثم أحرقوا الخشب تحت السفينة، حتى تصبح رماداً تذروه الرياح وغرسوا فى موضعها خشبة عليها اسم الميت واسم ملك الروس. وهذا الوصف التفصيلى هو الذى استوحى منه الرسام الروسى هنرى سميرادسكى، لوحة الحريق، وهى إحدى لوحاته المعلقة فى متحف بطرسبرج.

لقد كانت رسالة ابن فضلان موضع اهتمام الجغرافيين العرب القدماء، من أمثال ياقوت الحموى، الذى نقل بعض فقرات منها، وعلق عليها، مستحسناً حيناً وناقداً حيناً آخر، ولكنه كان سبب شهرته الحقيقية، لأن الجغرافيين قبله، كانوا ينقلون عن الرسالة دون الإشارة إلى اسم صاحبها.

أما فى العصر الحديث، فقد كان المستشرقون هم أول من تنبه إلى أهمية هذه الرسالة انطلاقاً من المقتطفات التى

قرأوها عنها فى كتاب ياقوت الحموى «معجم البلدان» وفى عام ١٨١٤ جمع المستشرق راسموسن مقاطع من هذه الفصول وترجمها إلى الروسية ونقلها عنه إلى الانجليزية نيكلسون ، ثم كتب المستشرق الألمانى فرهن دراسة مطولة عن مشاهدات ابن فضلان فى بلاد الروس وأثبت أن بعض النقود العربية التى حملتها بعثة ابن فضلان، ماتزال موجودة فى متحف سان بطرسبرج وعليها إشارة عصر المقتدر، ثم ظهرت مخطوطة لرسالة ابن فضلان نفسها فى مدينة مشهد بإيران فعكف عليها المستشرقون بالبحث والتحقيق فى دراسات متتابعة، أشهرها دراسة وتحقيق، المستشرق الروسى كراتشوفسكى عام ١٩٣٩، ثم كانت الطبعة العربية فى سوريا بتحقيق الدكتور سامى الدهان فى أوائل الخمسينات من القرن العشرين، لتضع بين يدى القارىء العربى النص المحقق لرسالة تلقى الضوء على الجهد الحضارى الرائع للعرب فى تمدين أوربا، ومساعدة أبنائها على مقاومة عسف طائفة من اليهود بهم منذ أكثر من ألف عام، لكى تمتد جذور الصراع الحضارى، الذي تتعرض الأمة العربية والإسلامية، لواحدة من أقسى موجاته ضراوة وظمأ هذه الأيام. ■

تعريفات لاذعة

الضمير: صوت داخلى يحذرك من فعل الشىء بعد فعله !

الأفكار: فترات استراحة بين فصول العواطف فى مسرحية الحياة

الزواج: وسيلة ناجحة « لتقصير » عمر الرجل !

المديح: تجارة رابحة للمادح ، ومدعاة لسرور الممدوح وعطاياه !

البداوة والحضارة

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفى البداوة حسن غير مجلوب

المتنبى

سئل لقمان يوما : « ممن تعلمت الحكمة » ؟

أجاب : «من الجهلاء ، فكلما رأيت عيبا فيهم ، تجنبته ، » !


بوش الابن


موشى ديان

الذئاب لا تحتاج ذريعة للانقضاض !

بقلم
صافى ناز كاظم

أكثر من ستين عاما من الوعى، هى مشوارى فى هذه الحياة، من عمر الرابعة حتى أبواب السابعة والستين. بدأ وعيى على يد أمى تخطفنى، وأنا بين النوم والاستيقاظ المتسائل، لأستقر على حجرها فى المخبأ هرباً من غارات الحرب العالمية الثانية التى كانت تقصف الإسكندرية. ثم قرار والدى أن نحتمى بالقاهرة الأهدأ قليلا. ما أن تنتهى الحرب المدمرة عام ١٩٤٥ حتى تشتعل القضايا وتمور الشوارع بالمظاهرات، «الجلاء بالدماء»، هتافات الصغار قبل الكبار ضد المحتل الإنجليزى. نتعلم على وقود الغضب قصائد الشعر من إمرئ القيس «ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلى، بصبح...» حتى أبو القاسم الشابى «إذا الشعب يوماً أراد الحياة، فلابد.. ولابد.. ولابد». والقضايا: الجلاء، فلسطين، وحدة مصر والسودان!. نردد وراء أم كلثوم قصيدة شوقى: «وفى الأرض شرٌ مقاديره، لطيف السماء ورحمانها، حتى نصل إلى الحكمة: «ودعوى القوىّ كدعوى السباع، من الناب والظفر برهانها».


مارجريت تاتشر


دونالد رامسفيلد

وتمر حرب ١٩٤٨، التي كنا نسميها «حرب فلسطين»، وأنا أقوى وعياً. تضربنا عصابات الصهاينة بمساعدة المحتل الإنجليزي، وجيراننا اليهود آمنين، لا نمس لهم شعرة لأن نبينا أوصى على سابع جار، حتى وإن لم يختش أبناء هذا الجار على دمهم فيكتبون أمام كل «فلسطين للعرب» رداً وقحاً على الجدران «فلسطين لليهود». لم نخمشهم ولم نضربهم ولم نلعن حتى أبو خاشهم، ناهيك عن قتلهم ودك بيوتهم فوق رءوسهم. نظن الفرج والتغيير مع ١٩٥٢/٧/٢٣ فنفرح، ونتحد في عدوان ١٩٥٦ هاتفين: «مش خايفين م الجايين، كل الناس ح نحارب». عدوان ثلاثي: انجلترا وفرنسا وإسرائيل، فهل كان العدوان بسبب أبراج لديهم دمّرناها؟ أم هو التلمظ الوغد الدائم من الذئاب للعض ثم الالتهام؟ وتحل بنا هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ فيفرحون ويرقصون ويغنون شماتة علنية في كل مكان ويقول موشي ديان: كنت أستطيع الدخول حتى القاهرة لكنني لم أشأ أن أكون مسئولا عن إطعام عشرين مليون خنزير. وترسل لي صديقتي الإنجليزية من نيويورك تعبر عن مشاعر الألم التي انتابتها من مشاهد الفرح المقزز التي ملأت شوارع نيويورك مع الهياج ضد العرب والمسلمين.

وما نكاد نفرح بالعبور والنصر في ٦ أكتوبر ١٩٧٣، حتى نوقع في فخ السلام الخادع والاتفاقيات المهددة بالنقض. وعلى طول مشوار حياتي الواعية، تعودنا أن نسمع، مع أصوات الحق ومنطق العدل، أصواتاً تلوم الزعيم أحمد عرابي وتتهمه بأنه السبب في الاحتلال الإنجليزي لمصر ١٨٨٢، فلولاه لما .. كأن تربص الذئب الإنجليزي كان يحتاج إلى ذريعة. كأنه كان من المفروض أن يكتم أحمد عرابي صرخة الاحتجاج والكرامة

ويتحمل الصفعات والركلات صامتا خاشعا ساكنا. ولم نعدم بعد ذلك قضاة من لحمنا ودمنا يحكمون على فلاحى دنشواى بالإعدام شنقاً ثأراً لجنود المحتل الذين ماتوا بضربة الشمس بعد أن استباحوا بيوت القرية وأعشاش الحمام. ولم نعدم فى مقتل السردار لى ستاك عام ١٩٢٤ من يتهم الشباب المقاوم للاحتلال بأنه السبب فى غضب انجلترا وإنزالها العقوبات الجائرة على مصر والسودان. ولم نعدم عام ١٩٥١، مع المقاومة الفدائية ضد معسكرات الإنجليز فى القنال، مدرساً يدرس لنا التاريخ فى المدرسة الثانوية، يرد على حماسنا بقوله «إتلهى على عينك منك لها، إنجليز إيه اللى انتوا عاوزين تطردوهم، إنتوا تعرفوا تعيشوا من غيرهم؟.. ده حتى الإبرة بتستوردوها منهم». أكثر من ستين عاماً من الوعى، شالتنى وحطتنى عرفت فيها الكثير، لكن أهم ما عرفت كان معرفة أن الذئاب لا تحتاج ذريعة للانقضاض والفتك، حتى وهى تحاور الحمل وتعلنه بتهمة تعكير مياهها، تفعل ذلك للملاعبة والتسلية لا أكثر. وأمام الذئاب لا يجوز أن نكون حملانا ساذجة تصدق إلى حد الغباء، جدية الحوار ومنطقية الاتهام، ومن ثمّ نتعب أنفسنا بتكوين لجان تثبت للذئاب أن الإسلام دين حضارة وتسامح وأن للعرب الأفضال التى لا تنسى على حضارة الغرب. لقد أوصلنا الخنوع إلى الحد الذى جعل أهطل جاهلا مثل چورچ دابليو بوش يتجرأ ليأول لنا ديننا ويعرفنا به وفقا لما يتفق مع مصالحه وإلا...

أما السيدة «البارونة» مارجريت تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية السابقة فكانت قد انتقدت بشدة المسئولين المسلمين الذين لم يدينوا اعتداءات ٢٠٠١/٩/١١ بشكل كاف، على حد تعبيرها، وقالت إنها لم تسمع مايكفى من الإدانات من قبل رجال الدين المسلمين مؤكدة – ولا نعرف من أين جاءها التأكيد – أن الناس الذين دمروا البرجين كانوا مسلمين. وأكد لها زكى بدوى عميد الكلية الإسلامية بلندن ورئيس مجلس الأئمة والمساجد ببريطانيا أن البارونة لم تطلع على رد فعل المسلمين بشكل جيد، لأنهم صلوا للضحايا وأدانوا وقاموا بالواجب على أتم ما يعجب «البارونة» تاتشر. ولم أدر لماذا لم يقل لها أحد، ونحن كذلك لم نسمع منك جيداً إدانتك لسجل جرائم الإمبراطورية البريطانية، ومذابحها فى الهند عام ١٨٥٧ – للقضاء على الحكم الإسلامى بها الذى استمر ثمانية قرون – التى وصفها أحد الكتاب الإنجليز قائلا: «إن ضباط جيوشنا كانوا يقتلون المسلمين المجرمين من غير رحمة أو ألم كأنهم كلاب أو بنات أوى أو حشرات

خسيسة...» وكتب قائد القوات روبرتس رسالة إلى أمه فى ٢١ يونيو ١٨٥٧ يقول لها: «إن أهول طريقة للإعدام هى أن نرمى المجرم بالمدفعية، إنه حقا منظر هائل ولكننا لا نستطيع أن نتروى فى وقتنا هذا، إن هدفنا هو أن نثبت للمسلمين الأشرار أن الإنجليز هم سادة الهند!».

***

وزير الحرب الأمريكى رامسفيلد - الذى يشبه فى السحنة تماماً ماكنامارا مجرم فيتنام - ليس لديه أى مبرر يجعله يصدق غير شارون، فهل لدينا نحن أى مبرر يجعلنا نصدق الأمريكان؟ تصرخ الشابة الفلسطينية الحلوة: «هدموا الدار، واليوم أخدوا إبنى .. بدّى إبنى.. بدى إياه»، وتبكى، فهل سمعنا إدانة من البارونة تاتشر، ولو طفيفة؟. الأمريكى يرى فى ضرب المقاومة: «أخبار جميلة ممتازة.. هايل!» وتقف أم وأب يتحدثان عن ابنتهما المحتجزة فى البلاد المطحونة بالقصف الأمريكى، والمذيع لا يسألهما: وما الذى ذهب بها إلى مناطق القصف، متأثراً يعلن أن من بين الضحايا أمريكيين، أما أطفال العرب المقتولون على أرضهم فلا بواكى لهم. ونحن لا ننتظر من أعدائنا شفقة أو مواساة، كما قال أسخيلوس اليونانى من بُعد أكثر من ٢٥ قرنا: «كيف نرجو العدل من أيدى الجُناة» لكنا نرجو الخانعين - رهبان التثبيط - من أهلنا أن ينقطوا بسكاتهم! ■

حكم وأمثال الفراعنة

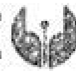
- أحلام القط اقتناص الفأر
- الغبى كالتيس الذى يطمع فى أكل الأسد فيذهب لاقتناصه ليكون فريسته
- فى الثورات يجلس الباطل مكان الحق فى قاعة العدالة .
- لا تجعل المعرفة والثقافة تؤدي بك الي الغرور فترى نفسك أكبر من حجمك
- أعرف نفسك ، يعرف الناس قدرك
- الغرور هو أن ترى ظلك أكبر من قامتك .
- الغني البخيل حارس كنز لا يمتلكه

الشاعر أبو شادي

وشعره في الملك فاروق والثورة

بقلم
وديع فلسطين

ليس الشاعر الدكتور أحمد زكي أبوشادي في حاجة إلي تعريف، وحسبه أنه هو الذي جمع شعراء عصره في جماعة أبولو برياسة الشاعر أحمد شوقي ثم الشاعر خليل مطران، وأنه علي مدي ثلاث سنين أصدر مجلة خالصة للشعر ودراساته ونقده هي مجلة أبولو، هذا فضلا عن عشرات من الدواوين والكتب التي أصدرها في حياته أو التي نشرت بعد وفاته في عام ١٩٥٥، وفي العام المقبل تمر خمسون سنة علي وفاته.



ولئن كانت الحياة العامة لأبي شادي قد انصرفت إلى الشعر ومشاغل الأدب، فإن حياته العملية كانت مشدودة إلى وظائف حكومية بوصفه طبيبا متخصصا في التحاليل مضطرا بحكم وظيفته الحكومية إلى تقبل أوضاع بيروقراطية وحزازات وظيفية لم يلبث أن ضاق بها بعدما تغالظت عليه، فقرر التحرر من هذه الأوضاع بالهجرة النهائية، ولما انتهت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥ وانتظمت الملاحة المدنية التجارية التي توقفت طوال فترة الحرب بسبب إخلاء البحار والمحيطات للسفن الحربية وحدها، مع خطورة تعرضها للإغراق بفعل طوربيدات ألمانيا النازية، حزم أبو شادي أمتعته وسافر مع أسرته في عام ١٩٤٦ إلى الولايات المتحدة ليبدأ حياة جديدة في الدنيا الجديدة - كما كانوا يسمونها.

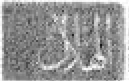
ولكن ابتعاد أبي شادي جسديا عن مصر لم يصرفه عن متابعة أخبارها وأوضاعها


أحمد زكى
أبـو شادى


الملك فاروق

من واقع ما كانت الصحف العالمية تنشره عنها، في حين كانت الصحف المصرية تحجب الأخبار تسترا منها على المباذل التى كان الملك فاروق غارقا فيها فى مغانى أوربا، بل كانت الصحف المصرية تصفه بالملك الصالح الورع، وتتجاهل سلوكه المشين فى الخارج

وما كان فى وسع أبى شادى - الذى استعين به كواحد من أساتذة فاروق عندما كان وليا للعهد - أن يلجم لسانه ويتخذ موقف المتفرج من تلميذه السابق الجالس على عرش مصر، فنظم عدة قصائد وصفها بأنها قصائد رمزية نعى فيها على الملك هذا السلوك المعيب، ونصحه بترك الغى، وحذره من أن عرشه سيبيد إذا لم ينزل على حكم الرعية ويصلح من أمر نفسه. وقد وافانى وقتها بهذه القصائد راجيا تدبير أمر نشرها، ولكن الرمز فيها كان أوضح من أن يخفى فتعذر نشرها فى مصر، ولكننى بعثت بها إلى صديقى ألبير أديب صاحب مجلة «الأديب» اللبنانية الذى تورع بدوره عن نشرها مخافة أن تمنع مجلته من دخول مصر.



ومن الإنصاف لصديقى الدكتور أحمد زكى أبى شادى أن أورد نماذج من هذه القصائد التى إن نمت على شىء فعلى الوطنية المتأججة فى صدر هذا الشاعر حتى بعدما هجر الديار، وبتر الحبل السرى الذى كان يصله بمصر واستغرقته الحياة الجديدة بكل تحدياتها وهمومها فى مهجره.

والقصيدة الأولى اختار لها أبو شادى عنوان «الكركدن» وهو الحيوان الضخم الذى يحاكى فى ضخامة جثمانه الملك فارق، ويعرف فى حدائق الحيوان باسم «وحيد القرن» وفيها يقول:

من دمعة الشعب ومن كده
ومن دم الأمة فى نرده

ممك الحد على صفوها
يا ليتها تملك من حده
كم يجعل الدين حبالاته
ليخنق المصلح فى مهده
قد عضه النحس وما عضه
إلا فم يرسف فى وجده
يمرغ الأمة فى رجســـه
ويسرق الأمة فى رفده
عاثت به ويأوشابه
فى قربه الجانى وفى بعده
منتفخا يمزح مستغرقا
فى اللهو، كالصائد فى صيده
كالكركدن الذى يزدهى
فى قبحه ، يسخر من قده
لم تعطه غانية قبلة
إلا كمن تهزأ من رشده
أو بادلته نكتة حلوة
إلا ومغزاها مدى نقده!

أحمد شوقى



***

حتام يا قوم ضلالاتكم
تمكن الفاجر من قصده؟
كنا نرجيه مثال الهدى
فأصبح الغاشم فى حقده
كنا نغنيه أغانى العلى
فأصبح المبدل من حمده
كنا نفديه بأرواحنا
فى روحه العالى وفى زهده
ما باله أضحى فتى ماجنا
الشارد الخادع فى وعده؟
حتام يستهزىء من مجدكم؟
حتام ، والخسة من مجده؟
حتام يسترسل فى غيه؟

حتام، والسوقه من جنده؟
حتام أعلاكم له صاغر؟
حتام، بل أهون من عبده؟
أعقلكم دون دفين الثرى
لو يعقل الميت فى لحده

أما القصيدة الثانية التي وصفها الشاعر بأنها رمزية فكان عنوانها «جنون البستانى» ومنها نجتزىء بهذه الأبيات:

ماذا أصابك أيها البستانى
وذويك؟ وماهذا الجموح الجانى؟
ضيعت غرسا صوحت أفنانه
وشغلت بين مهازل وغوانى
الليل ينفق فى القمار وفى الزنى
رجسان مأثوران للشيطان
كنانرى ذاك الشباب ملاذنا
مذ خاننا الجبناء، لا الحدثان
كنا نشيد به ونزجى حبنا
سمحا إليه، فشال فى الميزان
كنا نرى الوجه الصبيح كأنه
رمز لكل تطلع روحانى
كنا حواليه تطوف بفرحة
مترنمين بأعذب الإيمان
ماذا دهى هذى الغوالى كلها
وشخوصها مازلن فى وجدانى؟
كنا نزف اليك أحلام العلى
والآن ليس سوى الرثاء يدانى
ما بالكم صرتم زبانية، وقد
كنتم ملائكة ورسل حنان؟
هذا انتحار. لو دريت، فهل ترى
تدرى؟ أم استسلمت للبهتان؟
هيهات يفلح فاسق مستهتر
أو يستقل بعزة ومكان
مازلت أخلصك النصيحة، فاتعظ

وتحاشى من خروا الى الأذقان

فإذا أبيت، فأنت آخر هائم

ويظل ذكرك عبرة الأزمان

مهلا ومهلا أيها البستانى

ارجع لغرسك أيها البستانى

وثمة قصيدة ثالثة نظمها أبوشادى فى فاروق واصفا أياه بكافور الأبيض ومنها قوله:

أرجال؟ لا، ولا شبه رجال

من أحبوا لثم هاتيك النعال

بل صغار، كلهم محتقر

خبزه الذل وجدواه الضلال

كلما هانوا وزادوا صغرا

زاد كافور خبالا فى خبال

اسألوا أهل الدعارات، فكم

بادلوه الرجس فى غير ملال

تخذ الشعب له سخرية

واستحل الحط من قدر الرجال

فإذا الأحداث تبدى سره

نكبة جازت مهاوى الاحتمال

خليل مطران



وقرأ أبو شادى مديحا طويلا لأديب مصرى وصف فيه الملك فاروق بالفنان، فنظم قصيدة عنوانها «كافور الفنان» كان مما جاء فيها قوله:

تبارك الله، هل كافور فنان؟

وذلك العهر والإجرام إحسان؟

لقد خدعنا، وإلا فهو ذا مرض

والفجر كالسقم ألوان وألوان

من ذا أحدث تنبيها وموعظة

والقائدون لنا صم وعميان

ماذا دهى الشعب فى أقلام قادته

كأنما هى للغربان عيدان

من ذا أحدث والأيام شاهدة

مهازلا مالها وصف وتبيان؟

من ذا أحدث والأحرار قد خرسوا

وليس بين جميع الناس إنسان؟
من ذا أحدث والظُّلاّم قد فرضوا
دين الطغاة كأن الظلم بهتان؟
من ذا أحدث والحكام أجمعهم
قد استقل بهم زور وبهتان؟
من ذا أحدث والمرجو متهم
ومن أنادى وخير الناس قد خانوا
استغفر الله . لا نور ولا أمل
ولا حياة . كأن الناس ما كانوا
الا فريق ضئيل لا يُحس به
وهل تمس هباء الأرض أوثان؟

مصطفى أمين



ونادى أبو شادى الملك فاروق أن يتخذ من حياة الخليفة العباسى المتوكل على الله عبرة، فهو قد اعتمد على بطانته وانتهى حكمه باغتياله بأيديهم . ومما جاء فى هذه القصيدة قوله:

يا من يوكل للأجانب ملكه
أترى نسيت نهاية المتوكل؟
ستضيع أنت وليس غيرك ضائعا
فجميعهم فى الخبث جد موغل
والشعب سوف يجىء يوم حسابه
ويثور ضد نهاية المستغفل
إنى نصحتك ، غير راج أن أرى
أملا يحقق لى وحلما يعتلى
لكنه داعى الوفاء لموطنى
مادمت رمز علاه وهو مؤملى
فإذا كفرت بنا فعدل اننا
نمضى بغير التاج للمستقبل
الآن فرصتك الوحيدة قبلما
نصغى إلى الداعى الملح المقبل
ولو اننى حاسبت نفسى بعدما
روعت فى يأس الطويل المبتلى
فرأيت سقمك لا علاج لمثله

الا زوالك فى الظلام المسبل

وزوال عرشك بعدما دنسته

ومحوت سؤدده بعهد أول!

هذا الشعر الصادق الذى أطلقه أبو شادى من مهجره ناصحا تلميذه السابق فاروق بأن يرعوى ويثوب الى رشده لم يصادف ترحيبا من جانب سدنة النظام، واتفق ان كان الصحفى مصطفى أمين يزور الولايات المتحدة وهاله ان يجرؤ مصرى هو أبو شادى على مقام الملك المفدى ، فأبرق إلى جريدة أخبار اليوم برسالة قال فيها إن الشاعر أحمد زكى أبا شادى تنكر لمصر وأخذ يهاجم رموز النظام فيها ويدعو إلى إقامة نظام جمهورى بدلا من النظام الملكى. فتلقف عباس خضر هذه البرقية، وحمل على أبى شادى حملة شعواء بل مسفة فى مقاله الأسبوعى الذى كان ينشره فى مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات.

ولا تسل عن فرحة أبى شادى بخلع فاروق. فنظم قصيدة كان مما جاء فيها قوله:

الشعب أزمع فارعوى الحدثان

وهوى الجناة مع العتى الجانى

ضاعت كرامتنا بهم، بل ضيعوا

رمزا وعنناه لخير زمان

جعلوا من الملك المرجى دمية

واستعبدوا الشعب الشقى العانى

* * *

فاروق ، يا من كنت أهتف باسمه

وأخصه بمحبتى وحنانى

يامن تألق فى الطفولة والصبا

بخلاله وجماله الفتان

يامن حسبناه مجدد شعبه

متوثبا بشعوره الإنسانى

يامن تيمنا ببسمة ثغره

وكأنها قبس من الفرقان

يا من تنافسنا لعزة ملكه

وكأن مصر وشخصه سيان

من بدل الوجه الوسيم عبوسة

والعدل ألوانا من الطغيان

أحمد حسن الزيات



كم قد أتيتك ناصحا ومحذرا
فنبذت تحذيرى وضاع بيانى
كم قد بذلت الجهد فى دفع الأذى
بوفاء مطبوع على الإحسان
متفانيا فى دعوتى، ومحاميا
عن أمتى، ومضحيا بكيانى
هموا بنى وطنى اذا ما شئتمو
تطهير دولتكم من الأدران
لا ترهبوا فى الحق لومة لائم
وتكلموا بصواعق النيران

وكان طبيعيا أن يوجه أبو شادى تحية الى الذين قاموا بالثورة لم تخل من «زفرة واجفة» بحسب تعبيره قال فيها:

يا أيها الأبطال هذا يومكم
لا تتركوه يسف للأوغاد
بل قدموا التاريخ قرنا كاملا
ركضا على الأغوار والأطواد
ودعوا التردد والتمهل بينما
زمر العدو تظل بالمرصاد
أيفوتكم عبر الزمان، وكم له
عبر، وصرخة طارق بن زياد؟
ستفوز مصر اذا ضربتم ضربة
تقضى على الأوثان والأصفاد
أو لا، فهذا العرس طلعة مأتم
دان، ويوم البشر يوم حداد.

أما صيحة طارق بن زياد المشار إليها فى هذه القصيدة، فقد وردت فى خطبة له قال فيها: «وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها عنكم إلى الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم».

كما وجه أبو شادى تحية عند قيام الجمهورية فى مصر، جاء فيها:

إذن مصر عادت تقتفى مجدها الأسمى
فياقبلى طيرى لها واشبعى لثما
ويافرحتى لا تكتفى بفريدة

من الشعر، بل كونى لها الأمل الجما
إذا الحكم للجمهور أصبح رائدا
أبى الحق أن يلقى به العار والظلما
وما العدل إلا للمساواة وحدها
فإن هى ضاعت ، صار ما دونها إثما
فيامصر عضى بالنواجذ حرة
على ما كسبت اليوم واغتنمى اليوما
إخاء وتنظيما وعلما وهمة
وفنا تهز الغافلين أو الصما
تبارك ربى حين ينصف أمة
تعاف ذليل العيش واليأس والنوما

ووجه تحية إلى قائد الثورة اللواء محمد نجيب جاء فيها:

أبا البلاد الذى تسمو البلاد به
جاها وحلما وتصريفا وأحكاما
إن التقشف لمابت تؤثره
أضحى غنى. وغدا نورا وإلهاما
أنت الذى لا الرئاسات التى ازدهرت
خانته يوما ، ولا أضغاث من ناما
أنت الذى أينما قد حل موكبه
حل التقى والهدى برا وإسلاما
فخر لمصر على الأدهار سيرته
ان الوداعة أسمت كل من سامى
أزجى إليك تحايا الشعر أنغاما
ووصفه الحر مثالا ورساما

كانت قصائد أبى شادى فى الثورة عامرة بأسباب التوجيه والإرشاد ، لا مجرد تملق وزلفى ، ولم يكد يسمع أن الثورة انقضت بعد ثلاثة أشهر من قيامها على بعض الأحرار واعتقلتهم ومنهم كاتب هذه السطور حتى نظم قصيدة وصفها فيها بالاخطبوط كان مما جاء فيها:

الأخطبوط أراه بدل شكله
كمحيطه، ولقد يظن صخورا
باللزعامة حين تحسب انها
تلهو به وتظنه مقهورا

يا أيها الزعماء ليس بنافع
إخلاصكم ، إن لم يكن مبرورا
هل تنكرون الظلم . ثم بعهدكم
يبقى الذى عانى لكم منكورا
إن الإساءة من عتى فاجر
ملأ البلاد مقابحا وشرورا
ند الإساءة من زعيم صالح
قتل المواهب جاحدا مغرورا

محمد نجيب



وانضم إلى أبى شادى الشاعر المهجرى زكى قنصل المقيم فى الارجنتين الذى نظم بدوره قصيدة وجهها إلىّ بعنوان «ياهزار الوادى» ولم أكن قد عرفته بعد، جاء فيها قوله:

ارفق بنفسك يا أديب الضاد
كم ذا تعانى فى الهوى وتعادى
ما أنت الا فرحة فى مأتم
أو مأتم فى فرحة الميلاد
هذا زمان الراكبين رؤوسهم
فى ملعب الشهوات والاحقاد
مالى اليهم حاجة ، فليحبسوا
أمطارهم عنى وعن أولادى
مادمت لا أغرى بسياراتهم
هيهات ، لن تطأ الهموم وسادى
ان السعادة فكرة فإذا انتفت
لم تستطع ثرواتهم إسعادى
النار والفردوس فى نفسى فلا
تتعب يد الجلاد والجواد!

ولو انتصحت الثورة بنصائح الشعراء، لما عرفنا النكسات والأزمات التى مازلنا نعانى منها إلى اليوم.



أدباء و عشاق

زكريا الحجاوى ومطربته الشعبية

خضرة محمد خضر

بقلم
يوسف الشريف

لا أكاد أعرف فى أوساط الأدباء والفنانين أو الصحفيين مثيلا لصديقنا وأستاذنا الراحل الفنان زكريا الحجاوى، لا فى عشقه للجنس اللطيف ولا فى مواصفات محبوباته، إذ كانت لديه حواس لاتخيب كما الرادار فى إنتقائهن بدقة، واستشعار كوامنهن الأنثوية المخبوءة وراء مظاهر الفقر أو خشونة الطباع، وأشهد من طول عشرتى له أنه كان ذا خبرة عفوية صادقة بأساليب البث العاطفى المتبادل مع هذه الأنماط الإنسانية العجيبة، وكن وياللعجب يستسلمن طوعاً لحديثه المنغم بالوداد وآيات ظرفه، وبالحكايات والأساطير وألوان الفنون الشعبية التى نذر حياته للتنقيب عنها وجمعها من ربوع الريف والصحراء والبرارى و.. ولعلى أحسب أن اشتباكه فى غرام المطربة خضره محمد خضر إلى حد خوض معمعة الزواج بها، إنما كان بمثابة قمة جبل الجليد الظاهر فحسب لكم وألوان عنترياته العاطفية المثيرة، والأكثر مدعاة للدهشة أنه لم يكن يخلف وراءه فى نفس المحبوبة نفسها إذا مادعى الداعى للفراق والوداع سوى متعة إجترار الذكريات السعيدة!





الحجاوى وفرقته فى معهد السينما

كنا نتحلق دوما بزكريا الحجاوى منذ منتصف الخمسينيات كما لو أنه شيخ طريق ونحن الأتباع، أو صاحب رسالة أو فيلسوف ونحن الحواريين، وأنا لم أشهد سوى الفصل الختامى الذى انتهى بهدم مقهى محمد عبد الله الشهير الذى كان يطل على ميدان الساعة بالجيزة، ونهوض عمارة شاهقة على أنقاضه تشغلها الآن عيادات للأطباء ومكاتب للمحامين، لكنى استوعبت مافاتنى من السيرة العطرة للمقهى ونجومها وصعاليكها من الأدباء عبر مارواه صديقنا الكاتب الساحر محمود السعدني - شفاه الله - فى كتابه الممتع «مسافر على الرصيف» وكيف كان زكريا الحجاوى يدير فى أحد أركان المقهى ندوته المعرفية المسائية شبه اليومية، ولم تكن مقصورة على الحوار فى شئون الأدب فحسب، بل كانت أيضاً مدرسة للثقافة والفن والصحافة، واستكشاف المواهب الجديدة فى هذه المجالات وتعميرها .. وأسماء المبرزين من خريجي تلك المدرسة بلا حصر .. وبينهم الدكتور يوسف إدريس ومحمود السعدني ورجاء النقاش والدكتور سمير سرحان ورسامى الكاريكاتير أحمد طوغان وصلاح چاهين والأديب الأردنى غالب هلسا والشاعر

السوداني محمد الفيتوري وغيرهم كُثر ، وكلهم بدأوا مشوارهم بعد قدومهم من كل فج عميق للتعرف على الحجاوي والاستمتاع بسحر حديثه وحكاياته واكتشافاته المبهرة في أضابير التاريخ ودروب الأدب والفن الشعبي!

بعدها انتقل زكريا الحجاوي بندوته وروادها إلى مقهى «سان سوسيه» ملتقى كبار الموظفين والأعيان وتجار القطن والخواجات «الأجاريج» بالجيزة، وأحياناً في كازينو «شهريار» المجاور لسينما شهرزاد على كورنيش النيل في مواجهة كوبري عباس، وكثيرا ما كان يصحبنا إلى ندوة صديقه الأثير والناقد الشهير أنور المعداوي للاستمتاع بأجوائها الأدبية والإبداعية الزاخرة، وكانت تتخذ من مقهى «إنديانا» المطلة على ميدان الدقي مقرا لها، وتتميز عن قهوة محمد عبد الله بروادها من اللاجئين السياسيين وأساتذة كلية الآداب، اذكر من بينهم أبو الأحرار اليمنيين القاضي والشاعر المناضل محمد الزبيري والدكتور عبد القادر القط!

على أنني أدركت مبكراً إثر انجذابي إلى الدائرة المغناطيسية للشخصية الكاريزمية التي كانت للحجاوي والولوج إلى عوالمه المثيرة، مدى مصداقية المثل القائل «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب»، فما أن كان يمسك بطرف الحديث حتى يتدفق ويفيض ويبدع ، ونحن من حوله وكأن على رؤوسنا الطير إلى حين يستكمل الحبكة الدرامية لقصة ما أو تجربة شخصية .. وعندئذ يبدأ الحوار والتعليق، والتواصل من حيث انتهى!

أذكر ذات ليلة أن زكريا الحجاوي روى على مسامعنا تفاصيل واقعة لها العجب حدثت له بالأمس .. وقال إنه كان يمشي الهوينا جيئة وذهابا فوق كوبري عباس، وتلك كانت عادته عندما يحلو له التفكير في شاغل من شواغله الشخصية أو الأدبية .

كان الطقس شتاء والوقت في الهزيع الأخير من الليل، وأنوار المصابيح الخافتة وكانت تضاء عهدئذ بالغاز تضفي على الطبيعة الساحرة مسحة من الرومانسية.

فجأة اقتربت منه سيارة، فلما توقفت إلى جانبه تبين له أنها ماركة «بنتلي» الفاخرة التي كان يقتنيها الأثرياء، ونجوم السينما عهدئذ، حتى سمع صوتا أنثويا رقيقا يناديه .. يازكريا .. يازكريا .. فلما اقترب يستطلع الأمر كانت دهشته بلا حدود.. إذ كانت كوكب الشرق أم كلثوم!

سلمت عليها بحرارة - يقول زكريا إذ كانت تربطني بها صداقة قديمة وحميمة وسألتني : إنت فين يابو الزيك.. والله لك

وحشه ومشتاقة أشوفك وأسمعك .. ولما عرفت إنك بتمشى الأيام دى لوحدك بالليل على كوبرى عباس جيت أعملك مفاجأة ،وقلت لها: والله ياست القلوب عند بعضها .. وقالت أم كلثوم : طيب ماتركب ياأبو الزيك .. مستنى إيه؟

لكنى أبيت .. إذ كانت ترتدى فستان سواريه وتتدثر ببالطو من الفرو الثمين و.. وقلت لها أنا مقدرش أركب وإنتى لابسة أفرنجى!

عندئذ قالت لسائق سيارتها فى حزم : على الزمالك بأسطى: ومن ثم عدت إلى المشى والتفكير جيئة وذهابا فوق كوبرى عباس، ومضى على ماأعتقد زهاء الساعة أو أكثر، حتى عادت السيارة «البنتللى» تقترب منى وتتوقف إلى جوارى والسيدة أم كلثوم تنادى على فى رقة: إركب ياأبو الزيك .. وكانت قد غيرت ملابسها «الأفرنكة» وارتدت ثوباً من الملس الفلاحى الفضفاض، وقد تدلى من أذنيها حلق «مخرطة» وبينما طوق جيدها «بنطنطيف» من الذهب البندقى المصقول.. فلما تأكدت أن أم كلثوم تهيأت فى المظهر والمخبر الشعبى الذى يستهوينى .. عندئذ فقط ركبت!

دهشنا بالطبع لتلك الواقعة العجيبة، وتفاصيلها المثيرة، وباعه العاطفى العريض إلى حد اقتحام قلب أم كلثوم الحصين، ورحنا نتخيل ماجرى فى سهرته الباهرة معها .. لكنه قطع علينا الاسترسال فى الخيال وقال : والله العظيم ماحصل أى شىء مما رويته الآن و.. أدركنا وهو القاص والروائى العتيد، أنه كان يمارس علينا تدريب عضلاته الذهنية فى فنون الخيال والإبداع ، ومدى تأثيره كحكاء بارع على مستمعيه .. لكنه كشف من حيث لايقصد عن النموذج الذى يشتهيه فى أى من محبوباته؛ إذ كانت دائماً أو غالباً فيما بعد أربعينيات العمر، ممتلئة الجسم، ترتدى الملابس الشعبية، وفى حاجة إليه حتى يرعاها ويصون عرضها ويروى عطشها الأنثوى الخجول!

محشى البازنجان فى شبرا

كنت قريباً منه فى كثير من صولاته وجولاته، وكم سافرت معه وفرقته للفنون الشعبية إلى العديد من مدن وقرى الدلتا والصعيد، ورغم أننى كنت مشاغباً وفضوليا فى مقتبل شبابى، إلا أنه لم يفرغ معى صبرا عبر الاسهام فى صياغتى نفسياً واجتماعياً وثقافياً، واشهد أنه كان حانياً فى توجيهاته ونصحه لى وكثير من تلاميذه بشكل غير مباشر، كأن يروى قصة من التاريخ أو من تأليفه تشى بخطأ ارتكبته أو نزوة استبدت بى، إذ كان معياره للحرية موصول بحرية الآخرين، وكان يقول دائماً عامل الناس بمثل ماتحب أن يعاملوك به، والحقيقة إنه كان أكثر الذين جبلوا بين

ظرفاء المثقفين في ذلك الزمان بالسماحة والمحبة الخالصة للناس والولع بخدمة الموهوبين الضائعين على نحو خاص.

وكان قد اطمأن إلى جانبي فلم أعد أشي بمغامراته العاطفية لمحمود السعدني توأم روحه، حتى وقع عليه إختيار منطقة الجيزة التعليمية عام ١٩٦٤ لتأليف وإخراج أوبريت غنائي راقص احتفالاً بالعيد السنوي للمحافظة.

خلال البروفات رأيت زكريا الحجاوي وقد خلع الجاكتة وراح يدرب الطالبات على الرقصات الشعبية ، وكيف تميل النخيل مع هبات النسيم بجذعها كاملا من أسفل، وليس كفروع الأشجار من أعلى، وبين حين وآخر يفرغ الراحة من العمل، حيث كان بانتظاره مدرسة شابة غاية في الرشاقة والبشاشة وهي تقدم له كوباً من العصير المثلج، أو تجفف عرقه المتصبب بالفوطة!

كان واضحاً أن هذه المدرسة تحاول أن تنسج أو نسجت شباك الغرام بالفعل حول زكريا رغم أنه ظل يتجنب في حضوري الالتفات لها أو الاهتمام بها عامداً متعمداً، فلما سألته عن «موقفه من التجنيد» وهي كانت العبارة المتداولة بيننا للإستفسار عن الأحوال العاطفية قال: دي ياأبو حجاج «مسلوعة» ولابسة بلوزة «شبونيز» وبنطلون «هيلنكا» وقصة شعرها «الاجارسون»، وأنا كما لعلك تعرف، لايستهويني سوى المرأة الخام اللي على الفطرة!

وقد كان صادقاً بالفعل، حين وقع في غرام أرملة تدعى «أنيسة»، وكانت الخياطة التي تحيك ملابس فرقة الفنون الشعبية التي كان تتبع الثقافة الجماهيرية إبان رئاسة الكاتب سعد كامل لها، وكان زكريا قد جمع عناصرها من المطربين الشعبيين والمداحين والعازفين والراقصين، وهو الذي وضع لها نصوص الأوبريتات والأغاني والرقصات، ثم طاف بها مختلف المحافظات، فلما استوى عودها ورسخت أقدامها غامر ونجح كما لم يتوقع أحد حين قدم عروضها على خشبة مسرح الأوبرا.

وكنت قد سمعت عن بعد بقصة غرامه المشبوبة بأنيسة، حتى صحبني وصديقنا المشترك الظريف عباس الاسواني المحامي إلى منزلها في شبرا، وهناك تأكدنا أنها كاملة الأوصاف الانثوية والمواصفات الشعبية التي تستهويه، وعرفنا أنها استنجدت به، ثم استنجد بنا حتى أتدخل باعتباري صحفيا والأسواني باعتباره محاميا لإتخاذ مايلزم لإنقاذها من ورطة توصيل التيار الكهربائي إلى شقتها بطريقة غير مشروعة!

ولم تكن هذه المشكلة بيت القصيد بالنسبة لنا، إذ كان شاغلنا أن نرى

ونسمع زكريا الحجاوى وهو متلبس بحالة من حالات غرامه الخفى، حيث خرجت علينا السيدة أنيسه تتثنى ببدانتها فى جلباب من الكستور المشجر، وقد زججت حاجبيها وكحلت عينيها، ثم فوجئنا بها تدعونا لتناول الغذاء، وكان محشى من البازنجان وملوخية وفرخة محمرة!

وعندئذ راحت أنيسة تناول زكريا بأصابع يدها البضه الواحدة تلو الأخرى من حبات أصابع محشى البازنجان، بل وتقربها من فمه ، وكلما قال لها : كفاية يا أنيسة، كانت تلح عليه فى دلال: تعدمنى ياسى زكريا!

على أنه لم تمض أسابيع حتى أدركت أن زكريا قد سئم أنيسة، فلم يجد فيها إشراقة الإلهام والإبداع على حد قوله بمعنى أنها كانت تفتقر إلى الذكاء وخفة الظل حتى يواصل معها الحديث، وتلك كانت التجربة العاطفية الوحيدة على حد علمى التى ينخدع فيها بالظهر عن المخبر.

الطلاق من جزار الجمال

والشاهد ان قصة زواج زكريا الحجاوى بالمطربة الشعبية خضرة محمد خضر تحتاج لإستعادة تفاصيلها العجيبة إلى استعارة الاسلوب السينمائى المعروف بـ «الفلاش باك»!

لقد كانت خضرة درة إكتشافاته للأصوات الشعبية الأصيلة المخبوءة، إذ كانت تنتمى لأسرة عريقة من غوازى ريف بلدة سنباط، مديدة القامة، متينة البنيان، صوتها جهورى، ونفسها طويل، وقدراتها عجيبة فى الإنتقال لمهارة وحذق وسهولة من الجواب إلى القرار والعكس، فضلاً عن حفظها لكم هائل من تراث المواويل والملاحم الشعبية، مما جعل زكريا يطير بها فرحاً وإعجاباً، وراح يتعهدها برعايته وتوجيهه وتليين طبعها العشوائى الخشن، حتى أصبحت بطلة فرقته وزينتها وجوهرتها الثمينة، وكما قدمها لأول مرة فى حفلات سرادقه الشهير بحى الحسين خلال ليالى شهر رمضان المبارك، تحققت شهرتها الواسعة عبر العديد من الأغانى الشعبية التى تضمنتها المسلسلات الإذاعية العديدة التى كتبها .. وكان لها موال شهير تبدأ به الغناء فى الحفلات بناء على طلب الجمهور ومطلعه «لا.. لا.. للا.. لاه».

من إعجاب زكريا بفن خضرة وصفاتها الجمالية الأسرة التى راق لها مزاجه الشعبى، كان طريقها سالكا إلى قلبه حتى تربعت فيه وتمطعت ولم تبرحه إلا بعد ضبطه متلبسا بزواجها، حيث إحتكم الأمر بالفراق البائن الذى لا رجعة فيه، عبر تقاليد الطلاق فى أوساط الغجر والغوازى، حين جرح كل منهما ساعده والتصق الساعد بالساعد وامتزج الدم بالدم، فلم تعد تجوز له زوجة ولا عشيقة!

ورغم كل ماشتملته قصة زواج زكريا

الحجاوى من وقائع وتفاصيل، الا أنها ظلت غائبة عن علم أسرته وعن أصدقائه المقربين، حيث أكمل حبكتها الدرامية باختفائه فجأة دون سابق إنذار ولا سبب معروف أو عنوان معلوم زهاء شهر كامل، بل إن صديقه القديم أنور السادات - وكان رئيساً آنذاك لمجلس الأمة - كلف الجهات الأمنية بالبحث عنه دون جدوى!

لكن تشاء تصاريف القدر أن أعثر شخصياً على زكريا الحجاوى الهارب، وأن اكتشف سبب غيابه بالصدفة البحتة، حين ذهبت كالعادة لزيارة صديق العمر الجميل الأستاذ مصطفى نبيل فى منزل أسرته، وكنا وقتئذ قد التحقنا منذ سنوات بمهنة الصحافة ولم نتزوج بعد.

كانت لمصطفى غرفة خاصة تطل على الحديقة، حين شهدت لقاءاته الحوارية مع أصدقائه فى السياسة والأدب والفن وسماع الموسيقى الكلاسيك أذكر من بينهم الأديب وحيد النقاش والقاص نجيب الكيلانى والمهندس محمد محمود شرابى والكاتب الصحفى صلاح المراكبى والدكتور محمود عبد الفضيل أستاذ الاقتصاد.

عبر باب الغرفة الذى يفضى إلى الحديقة، لمحت الدكتور ياسين عبدالغفار أستاذ أمراض الكبد وهو كان يرحمه الله زوج شقيقة مصطفى نبيل - يدخل إلى الفيلا ويصحبته زكريا الحجاوى بينما المطربة خضرة تتأبط ذراعه و..

لم أكن فى حاجة إلى من يفسر لى الموقف بكل تفاصيله وخفاياه، فمن جهة ادركت أن زكريا قد وقع فى شباك غرامه بخضرة إلى حد الولوج معا إلى ساحة الزواج، ومن جهة ثانية تأكدت أن سبب الزيارة إنما للاحتفال على العشاء بهذا الزواج، إذ كان زكريا والدكتور ياسين تربطهما صداقة حميمة منذ الأربعينات عبر الإسهام المشترك فى الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال البريطانى والقصر الملكى، ومن هذه الصلة لعب زكريا الحجاوى دور همزة وصل التعارف بين مصطفى نبيل والأستاذ أحمد بهاء الدين.

وتذكرت واقعة مهمة لاتزال فى حاجة إلى التنوير بها وتسجيلها فى صفحات التاريخ، فعندما جرى إعتقال أنور السادات فى سجن الاستئناف إثر إتهامه فى حادث إغتيال أمين عثمان، بادر أربعة من أصدقائه إلى حبك وتنفيذ خطة لتهريبه، وهم زكريا الحجاوى والدكتور ياسين عبدالغفار وكان نائباً انذاك بمستشفى قصر العينى، ومعاون المستشفى الأديب محمد على ماهر، والضابط المغامر حسن عزت الذى حمل أنور السادات فى السيارة اللورى التى

قادها بنفسه حتى منزل أسرة الحجاوى بالمطرية دقهلية حيث اختفى شهورا تحت إسم مستعار، اشتغل خلالها سائقاً وموردا للطوب والرمال والزلط!

والقصة انتهت كما نعلم بجزاء سنمار، حيث كان فصل زكريا الحجاوى أول قرار يتخذه أنور السادات بعد تكليفه بالاشراف على صحيفة الجمهورية، وهو الذى لعب الدور الأساسى فى اختيار الكتاب والمحررين وتنظيم العمل الصحفى واجراء بروفات الطبعة الأولى على غرار تجربته السابقة عندما كان سكرتيراً لتحرير صحيفة المصرى و.. وتلك قصة أخرى تروى.

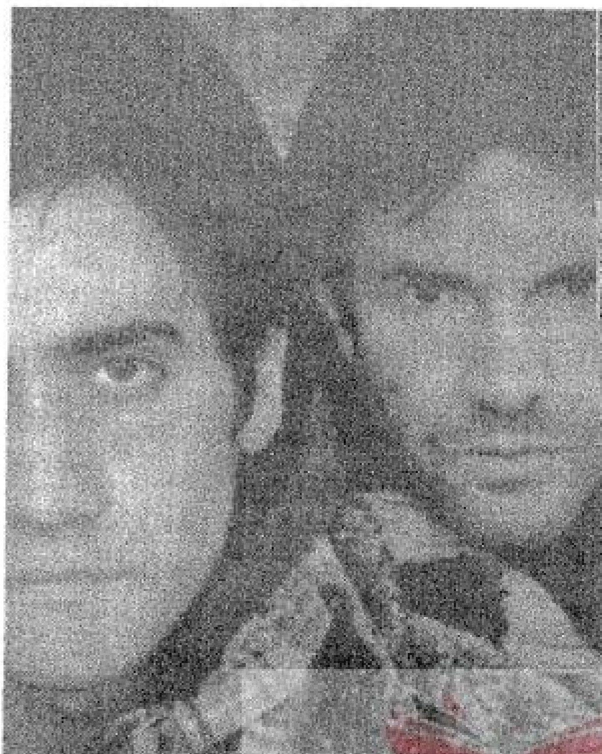
وكان للسادات قد روى جانبا من القصة بعد وقوعها بنحو ثلاثين عاماً عندما ذهب خصيصاً إلى المطرية لافتتاح متحف زكريا الحجاوى فى نفس المنزل الذى استضافه فترة هروبه، ثم شهوده أوبريت «عاشق المداحين» على الذى يروى السيرة الذاتية لزكريا الحجاوى ومشواره الفنى على مسرح السامر الذى حمل إسمه منذ تلك الليلة .

لكن السادات تحاشى فى حياة زكريا أى ذكر لفضله وهو الذى أخذ عنه الكثير من العبارات والحكم والأمثال التى كان يزين بها أحاديثه وخطبه، وهكذا عندما صور كتابه «البحث عن الذات» إنبرى محمد على ماهر ساخراً وقال: كان أولى بالسادات أن يختار للكتاب عنوانا آخر هو البحث عن الملذات!

ويبقى فى السياق شهادة الفنان التشكيلى صلاح العنانى، وكنت قد التقيته لأول مرة بعد رحيل زكريا الحجاوى بنحو عشرين عاماً، وبادرنى قائلاً : أعرف علاقتك الحميمة بالعم زكريا عبر كتاباتك عنه، ولعلى أضيف إلى معلوماتك أننى كنت شاهداً على زواجه بالمطربة خضرة، إذ كنت انذاك من سكان حى إمبابة ولم ازل فتى يافعاً، عندما سمعت هيصة وزمبليطة، وعندما خرجت من منزلى استطلع الأمر، رأيت العم زكريا فى جلباب داكن من الصوف المقلم، وشال مزركش من الحرير يتدلى من عنقه، وقد غطى رأسه بطاقية من الصوف يلتف حولها كذلك شال أبيض من الحرير، بينما خضرة تتأبط زراعه وهى فى فستان الفرح والطرحة الريفية، ويحف بهما موكب كبير يضم أعضاء فرقته وهم يمسكون بالورود والشموع ويعزفون ويطلقون حناجرهم بأغنيات الزفاف السعيد .. و.. تابعت الموكب حتى دخولهما منزل الزوجية فى إمبابة! ■



مايكل مور .. منتصراً في كان



نهاية العالم فى بعد الغد

مصنع الأحلام ضد بوش والرقابة ضد الجميع!

بقلم
مصطفى درويش

أغرب غرائب مصنع الأحلام فى هوليوود، وما أكثر غرائبه، هجمته المبكرة على الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين، بمناسبة اقتراب مجيء يوم الحساب، وأعنى به ذلك اليوم الذى يدلى فيه الناخب فى الولايات المتحدة بصوته، إما مؤيدا لسياسته، أو معارضا لها .

وفيما يبدو ، فتلك الهجمة قد وصلت إلى ذرى غير مسبوقة فى تاريخ الانتخابات الرئاسية، التى لابد من اجرائها، بحكم الدستور الأمريكى، كل أربعة أعوام .



ليلى علوى مع ابنها الشقى (يوسف شعبان) فى « بحب السينما »

فقبل بضعة أسابيع، شارك مصنع الأحلام، ولأول مرة، بفيلم تسجيلى فى المسابقة الرسمية بمهرجان كان .

المفاجأة الكبرى

ويوم اعلان الأسماء الفائزة فى تلك المسابقة، ولدهشة الكثير، كانت جائزة المهرجان الكبرى (السعفة الذهبية) ، من نصيب الفيلم التسجيلى الأمريكى .

وأن يفوز فيلم تسجيلى بسعفة المهرجان، أمر لم يحدث منذ ثمانية وأربعين عاما، بالتمام .

فذلك المهرجان لم يعتد منح سعفته لمثل هذا النوع من الأفلام .

الاستثناء الوحيد فى تاريخه الطويل حدث عام ١٩٥٦، حيث فاز بالسعفة الفيلم التسجيلى «عالم الصمت» لصاحبيه المخرج «لويس مال» والقائد «جاك ايف كوستو» المتخصص فى علم أعماق البحار والمحيطات .

وفيلمهما بعالمه الغريب، منبت الصلة بالسياسة، لم يعرض لها لا من قريب، ولا من بعيد .

وعكس ذلك تماما كان حال الفيلم الفائز بالسعفة، قبل بضعة أسابيع، فكل لقطة من لقطاته تشع سياسة معادية للرئيسين بوش، الأب والابن .

ولا غرابة فى هذا، فمما يعرف عن «مايكيل مور» مخرج الفيلم الفائز، أنه

يناصب آل بوش العداء.

البيض الأغبياء

ولقد سبق له أن أفصح عن عدائه هذا بمؤلفين لقيا نجاحا كبيرا فى سوق الكتب، هما «رجال بيض أغبياء» و«دود.. أين وطنى»، فيهما – كما فى «فهرنهايت ٩/١١»، فيلمه المتوج بالسعفة الذهبية – سخر من بوش وآله، وحاول جاهدا فضح سياسته الخارجية لا سيما ما كان منها متصلا بعلاقة آل بوش الحميمة بآل بن لادن الواسعى الثراء.

والأهم ما كان منها متصلا بعلاقة الرئيسين الأب والابن باحتكارات النفط الكبرى، وتأثير ذلك على سياسة الولايات المتحدة الخارجية، التى اتسمت فى عهدهما بالجنوح إلى المزيد من العدوان، وآية ذلك احتلال العراق، وقبله، أفغانستان .

عصر الجليد

ولم تكد تمر سوى بضعة أيام على مفاجأة «كان»، حيث جرى تتويج فيلم «مور» بواسطة لجنة تحكيم تحت رئاسة «كوينتين تارانتينو»، ذلك المخرج الأمريكي الذائع الصيت، بفضل دموية أفلامه، وآخرها «اقتل بيل» الذى كان جزؤه الثانى معروضا خارج مسابقة المهرجان.

حتى كان يعرض بعد تلك المفاجأة، بمشارق الأرض ومغاربها، وفى وقت واحد، فيلم روائى طويل، من ذلك النوع الضخم الذى ينفق مصنع الأحلام على انتاجه ببذخ، يصل إلى عشرات الملايين من عزيز الدولارات .

حتى انه يقال من بين ما يقال إن تكاليف انتاجه ارتفعت إلى رقم فلكى، يقدر بمائة وخمسين مليون دولار .

وذلك الفيلم هو «بعد الغد» لصاحبه «رولاند ايميريش»، ذلك المخرج المنحدر من أصل ألمانى .

وقبل بضعة أعوام، عملت هوليوود على اجتذابه لها وكعهدنا بها، نجحت فى ذلك .

فكان أن صنع لحسابها ثلاثة أفلام، «يوم الاستقلال»، «جودزيللا» و«الوطنى» بطولة «ميل جيبسون»، الممثل والمخرج الفائز بأوسكار عن إخراجه «قلب شجاع» .

الكارثة القادمة

وفى فيلمه الرابع «بعد الغد» ينتقد «ايميريش» بطريقة غير مباشرة سياسة «بوش» الابن الخاصة باستغلال الطاقة، دون ضابط أو رابط، لا سيما ما كان منها متصلا بالنفط .

وهى سياسة انتهت بالولايات

المتحدة منسحبة فى مستهل عهده، من اتفاقية دولية، استهدفت حماية البيئة من ارتفاع حرارى، قد يؤدى إلى اختفاء الحياة من على سطح كوكبنا، الا وهى اتفاقية «كيوتو»، عاصمة اليابان القديمة فى سالف الزمان .

ولن أعرض بالتفصيل للكارثة التى حلت بكوكبنا نتيجة الارتفاع الحرارى فى الفيلم، فذلك شئ يطول.

عناد البغال

وإنما أكتفى بأن أقول، بأن الحكومة الأمريكية فى واشنطن، وفقا للسيناريو الذى كتبه المخرج مع «جيريمى ناخمانوف»، قد فوجئت بالكارثة، رغم نذر كثيرة، أذكر من بينها سقوط الثلوج فى نيودلهى عاصمة الهند، غرق اسكتلندا، وظواهر أخرى تشير إلى عودة عصر الجليد .

ولأنها فوجئت بكارثة لم تكن تنتظرها، ومن ثم لم تكن قد استعدت لها، فهى بلسان نائب رئيس الجمهورية تنكرها مخلصة، ثم متكلفة، ثم مكابرة، ثم تضطر إلى الاعتراف بما ليس هناك بد من الاعتراف به، ثم تتخبط فى مواجهة الكارثة، فيكثر خطؤها، ويقل صوابها .

وفى نهاية المطاف تلتجئ إلى جارتها الفقيرة المكسيك، طالبة منها السماح للأمريكيين الفارين من زحف الجليد، باللجوء إليها . بعد عبور نهر ريوجراند، طلبا للنجاة من موت أكيد .

وهنا، قد يكون من المفيد أن أذكر أن المخرج قد اختار لأداء دور نائب رئيس الجمهورية المنكر، المكابر: والذى أدى بإنكاره، ومكابرته إلى موت الرئيس قد اختار لأدائه ممثلا يشبه إلى حد كبير «ديك شينى» نائب الرئيس الأمريكى الحالى .

وأنه فى أحد لقاءاته مع الصحفيين فى أوروبا، عبّر «ايميريش» بصراحة عن أمله فى ألا يمر شهر نوفمبر القادم، الا ويكون «بوش» متهزما فى الانتخابات الرئاسية، مغادرا البيت الأبيض، مفسحا الطريق لرئيس جديد .

الفرعون الصغير

كما لا يفوتنى أن أذكر أنه - أى «ايميريش» - يعد العدة لاخراج فيلم عن «توت» الفرعون الصغير .

وأرجح الظن ، أنه لن يصوره فى ربوع مصر، موطن توت عنخ آمون .

فلابد أنه وصل إلى علمه، وما أسرع الوصول فى زمن ثورتى المعلومات والاتصالات ، أن صانعى الأطياف على ضفاف النيل يعانون من رقابة معادية

للتنوير، وحرية التعبير .

وأن موزعي الأفلام الأجنبية لا تقل معاناتهم من هذا العداء.

ولعله لا يزال مندهشا مما سمع عن أفلام تعرضت للاضطهاد، آخرها «٧ ورقات كوتشينة» ، بمقولة أنه خال من الفكرة والمضمون ، وقبله «باحب السيما» ، وعند هذا الفيلم أقف قليلا، لأقول إنه بسبب موقف متشدد من الرقابة المعادية لكل ما هو جديد ، اضطر أصحابه إلى عرضه على نفر من المتذوقين لفن السينما والنقاد، لأخذ رأيهم ، بأمل إذا كان إيجابيا ، أن يكون ذا تأثير على الرقابة، فترخص له بالعرض العام .

جرىء وفريد

والحق أن الفيلم ، وهو عن سيناريو «لهاني فوزي» ، ترجمه «أسامة فوزي» إلى لغة السينما ، قد امتعنا، نحن جمهور العرض الخاص، بساعتين من الفن السابع، أزالتا صدأ النفس، ونقلتا إلى أفق عال من التذوق لعمل سينمائي مدهش، فيه من الجدة والصدق الشئ الكثير .

وليس غريبا أن يكون له علينا كل هذا التأثير فمما يعرف عن صاحبيه «هاني» و«أسامة» أنهما مقلان، ربما لأنهما جادان ، يريدان أن يقولا شيئا جديدا ، بعيدا عن التكرار والاستسهال

«فهاني» رصيده من السيناريوهات التي تحولت إلى أفلام، خلال أحد عشر عاما، لم يزد على أربعة أفلام روائية طويلة، أولها «أرض الأحلام» .

أما أسامة فلم يخرج ، خلال ثمانية أعوام ، سوى ثلاثة أفلام هي «عفاريت الأسفلت ١٩٩٦» ، «جنة الشياطين ٢٠٠٠» و«باحب السيما».

ولعلي لست مغاليا إذا ما جنحت إلى القول بأن كل واحد من أفلامهما السبعة ، سواء رضينا عنه، أم سخطنا عليه، سيعتبر من علامات السينما المصرية في مستقبل الأيام .

وفيلمهما الأخير «باحب السينما»، ينفرد بجرأة قل أن يكون لها مثيل، فيما ينتج من أفلام، في ظل رقابة لا تقيم وزنا لحرية التعبير .

فأحداثه تدور وجودا وعدما حول أسرة قبطية تعيش في حي شبرا .

الاستبداد والعناد

الأب (محمود حميدة) رجل متزمت، يكره السينما كراهة التحريم، يعتبر كل شئ متصل بالفن رجسا من عمل الشيطان .

والأم (ليلى علوي) ناظرة حائرة، تشقى في المدرسة نهارا، وتكد وتكدح

على آلة الحياكة ليلا، محرومة من إشباع رغباتها المشروعة بسبب جنوح شريك حياتها إلى اعتبار المضاجعة لغرض، غير الخلفة، من المحرمات.

ليس في حياتها المقبضة ما تهتم به، سوى ذلك الزوج المتخلف، المناهض لكل ما هو جميل.

وابن صغير (يوسف عثمان) متعلق بالسينما، وابنة في عمر الزهور متعلقة بابن الجيران.

والصغير هو الشاهد على العصر، بذكرياته عن الصراعات داخل الأسرة، تروى بلسان الممثل «شريف منير»، وصراعه مع أبيه الذي يحظر عليه الذهاب إلى السينما، محور من محاور الفيلم، إن لم يكن محوره الرئيسي.

وذلك الصراع ينتهي بالصغير منتصرا، بموت الأب بالسكتة القلبية، وتسلل التليفزيون إلى البيت، حيث كان ممنوعا، من منطلق رجعي، قوامه العناد والاستبداد.

طيور الظلام

وأعود إلى «ايميريش» صاحب مشروع فيلم «توت» لأقول إن دهشته ربما تضاعفت عندما جاءه خبر تخريب الرقابة لمهرجان الفيلم الكندي الثاني الذي بدأ يوم التاسع من يونيه (حزيران) في مركز الابداع بعرض «الغزوات البربرية»، فيلم المخرج ديني أركان، الفائز بأوسكار أفضل فيلم أجنبي وسيزار أفضل فيلم أجنبي جرى عرضه في فرنسا، وجوائز أخرى لا عد لها ولا حصر.

أما كيف خربت الرقابة المهرجان، فذلك بقيامها بمنع عرض انحدار الامبراطورية الأمريكية الذي أخرجه صاحب «الغزوات البربرية» قبل ثمانية عشر عاما.

وبتهديدها بمنع عرض فيلم لنفس المخرج، سبق عرضه في مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، قبل بضعة أعوام، وهو «يسوع مونتريال».

وفي الحق، أن هذا التخريب انتهى بصاحب الفيلمين إلى امتناعه عن الحضور إلى القاهرة، احتجاجا على بربرية حالت بين فيلمه «انحدار الامبراطورية الأمريكية» وبين أن يشاهده جمهور خاص لا يزيد عدده عن بضع مئات.

والأخطر أن تلك البربرية قد سارت بالتبادل الثقافي مع بلد صديق القهقرى، رجعت به إلى وراء بدلا من أن تمضي به إلى أمام. ■



المسرح الأمريكي في الهناجر

بلدتنا.. «بلدتهم»

بقلم
مهدى الحسينى

إنها لمسافة طويلة يقطعها المرء بفكره بين مدينة «جروفر كورنرز» في ولاية «نيوها مبشاير» الأمريكية وبين أى مدينة مصرية صغيرة، ليس عبر المكان وطبيعته وسماته فحسب وإنما عبر جوهر الزمن ومكوناته من بشر ونظم وفكر وثقافة وإرث وتاريخ وسلوك وإيقاع وعمل وإنتاج وحياة إجتماعية وطبيعية سواء عقدنا المقارنة بين الحالين سنة ١٩٠١ وحتى ١٩١٣ أى قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة، أو عقدناها اليوم في مطلع الألفية الثالثة.



هنا لا يصح أن تسقط عقولنا ضحية لفكرة ماكرة مؤداها أن العالم أصبح عبارة عن قرية كونية واحدة بفعل التقدم المذهل في سبل الاتصال ونظم المعلومات متجاهلين أن هذا التقدم مازال تحت سيطرة القوى المهيمنة على مقدرات العالم فتحرم منه الأطراف لحساب المركز.

ولذا قامت ثورات وحروب تحريرية في مناطق شتى من العالم (مصر السودان - الصين - المكسيك - أمريكا

اللاتينية - الهند - فييتنام..).

قلت ما سبق ردا على نظرية الأدب والفن العالمي التي تعبر عن فكرة الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، بينما الصحيح هو أن يحيى حقي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ويوسف الشاروني ونجيب سرور والفريد فرج ونعمان عاشور وغيرهم هم أبناء لتاريخهم وثقافة أمتهم في أزمنة محددة وأمكنة بعينها وبقدر عمق تعبيرهم عن شعبهم وبيئتهم وظرفهم الانساني والتاريخي يعيش أدبهم وفنهم وينتشر ويبقى ويخلد وكذا الأمر بالنسبة لكل من شكسبير وسيرفانتس وبلزاك وتولستوى وتشيكوف وطاغور ولوشين وسونيكا وماركيز وغيرهم.

مسرحية إنسانية

لهذا ومن الناحية النظرية على الأقل لا يمكن المضاهاة بين شخوص وأحداث وحياة أي قرية أو مدينة أمريكية وبين حياة أي قرية أو مدينة مصرية أو هندية أوبلقانية أو إفريقية أو لاتينية، فالبشر غير البشر والحياة غير الحياة.. والأحلام غير الأحلام، ولهذا أيضا فإن تلك الفكرة التي روجها البعض أن مسرحية بلدتنا هي مسرحية إنسانية تتمتع بروح شمولية تخاطب كل البشر في كل زمان وكل مكان، هي فكرة زائفة، بل هي فقط مسرحية أمريكية ذات هوى وهوية أمريكية صرف، وإن زعمت التأمل الفلسفي الميتافيزيقي في الحياة والموت بعبارات غائمة وفضفاضة ففي حين يحلق النص المسرحي في معاني أن الحياة جميلة، وأن الموت جميل أيضا، وأن علينا أن ننظر إلى الحياة من وجهة نظر الموتى، يتجاهل المؤلف عمدا معاناة البشر من الظلم والحرب والاستغلال ومصادرة الأفكار والحريات والأماني المشروعة ويغضي البصر عن ذهاب الألوف بل والملايين إلى المقابر من جراء الحروب والفقر فهو يقدم صورة وردية رقيقة للحياة وللموت، مع أن الحياة ليست جميلة كلها وليس الموت نهاية محتمة على إطلاقها فهناك من يموتون قهرا قبل الأوان وبفعل فاعل، والحقيقة نحن ضد فكرة الموت أيا كان، وكفاح العلم والبشر سوى كفاح ضد الموت أيا كانت أسبابه.

تتجاهل المسرحية التي كتبها: «ثورنتون وايلدر» سنة ١٩٣٨ (بينما يدفع الصراع الأمبريالي العالمي البشرية نحو الحرب العالمية الثانية) أربعة عقود من الاضطهاد العنصري والتفرقة العرقية والدينية والظلم الاجتماعي الذي جرى في أمريكا بعد تراجع الموجة الديمقراطية التي أعقبت الحرب الأهلية ١٨٦١/٦٥ وحيث عربدت جماعات الطلوكلاكس كلان في جميع أنحاء أمريكا فتشنق الزنوج على الأشجار وتدفنهم أحياء وتحرقهم بالقار ثم ظلت ظلال هذه الأفعال المشينة تتردد بعد ذلك حتى هزيمة فييتنام والانتصار النسبي لحركة الحقوق المدنية وأيضا لم يكن الزنوج هم الضحايا الوحيدون للبنية الاجتماعية العنصرية الرأسمالية البيضاء المتعصبة بل كانت هناك فئات أخرى كالعرب واليهود والآسيويون واللاتين والكاثوليك القادمين من جنوب أوروبا فضلا عن الأعداء القدامى أعني الهنود الحمر.

قدم المؤلف الأميركي صورة لمدينة أمريكية مسالمة رتيبة منتظمة متوازنة سيمترية وهي صورة زائفة ولا شك، ولا يشفع لها الحديث عن الحياة والموت المثاليين أن تسمها بالروح الانسانية ولكن يبدو أن المسرحية قد أعدت للتصدير فكما يقول الناقد الأميركي فاسيل حين تم عرض المسرحية ألمانيا فى أعقاب الحرب الثانية: «لقد ارتبط مستقبل ألمانيا سياسيا وعسكريا ارتباطا يكاد يكون دائما بأمريكا وكان مما يبعث الطمأنينة فى قلوب الألمان أن يتوهموا أن حلفاءهم الأمريكان من أمثال أهل مدينة «جروفز كورنرز» مواطنون طيبون بسطاء أرق من أن يطلقوا صاروخا من صواريخ الحرب المدمرة وحتى ولو انطلقت مثل تلك الصواريخ فإن ذلك لن يغير من الموقف كثيرا ولن يفقدهم الأمل وهكذا يكاد الناقد فاسيل يتهم أدب وايلدر بأنه مؤامرة سيكولوجية واسعة النطاق لاحتلال عقول الألمان كما احتلت بلادهم وأنه برسمه هذه الصورة الزائفة يتغفل الأوروبيين ويصرفهم عن الاطلاع على أعمال فوكنر وتنيسي وليامز وغيرهما هؤلاء الذين يواجهون واقع الحياة الأمريكية بما ينطوى عليه من فزع وحقد وكراهية.

القهر الأمريكي

إذن يكون عرض مسرحية بلدتنا فى بلد - أو بلاد - تعانى من القهر الأمريكي شأن ذو وجهين أحدهما سياسي والآخر فني، وهنا لا يمكن أن نتجاهل الظرف الخاص جدا الذى تمر به مصر والبلاد العربية مع التأكيد على فلسطين والعراق!! فنحن الآن فى وضع أشبه من ناحية ما بوضع ألمانيا المهزومة بسبب الحرب الثانية. لذا فإن تقديم هذه المسرحية هنا أى القاهرة وثلاث عواصم إقليمية مصرية والآن أى فى ظل تلك الظروف السياسية والاجتماعية القاسية أمر يجب النظر إليه بحذر وعناية شديدين.

والأمر هنا موكول للحركة الفنية المسرحية المصرية والعربية خاصة النقاد الذين ألقى عليهم مسئولية كبيرة وليس الأمر مصادرة أو مقاطعة أو تهجم أو تجريح وإنما هو أمر رأى وحوار ونقد خاصة إذا تعلق باتفاقيات تبادل ثقافى وبعلاقات دولية تربط مصر بجميع دول العالم بما فيها الولايات المتحدة فإذا فرض أن سافرت مسرحية «سليمان الحلبى» لألفريد فرج والتى تدين الحملة الفرنسية إلى باريس فماذا يكون موقف الحكومة هناك؟ وإذا سافرت مسرحية «موليود البلد» أو مسرحية «ليلة مصرع جيفارا» لميخائيل رومان إلى هوليود فماذا يكون موقف الحكومة الأمريكية؟ وهكذا فإننى هنا أعنى المعاملة بالمثل إذ نسلم الأمر للنقد والنقاد والمفترض فيهم إذا كانوا نقادا حقا أنهم الضمير الوطنى الواعى لأى حركة مسرحية، وللأسف فقد اطلعت على أغلب ما كتب فى الصحافة المصرية فوجدته لم يتجاوز سوى الشجب أو التأييد.. كالعادة بينما يكون عليهم تحليل النص وتاريخه وتحليل العرض وعناصره الفنية وتحليل ردود الفعل عند المشاهدين وادراك الوعى لديهم من عدمه.

منظومة التبرير اللغوية

والعجيب أن بعض ممن هاجم

العرض، وقام بترديد بعض الشعارات (النضالية)!! يتعامل فى أداء عمليات الدوبلاج لمسلسلات «والت ديزنى» وأعلم أن آخرين كانوا يتمنون أن تقع العملية كلها بين براثنهم وما عليهم إلا تشغيل منظومة التبرير اللغوية والتنظير الفكرية الكفيلة بأن تقلب الأسود أبيض والمر حلوا ولكن هؤلاء الآن يتقولون على العنب فيصفونه بأنه حصرم، وآخرون هاجموا العرض لمجرد المزايدة السياسية مع شكى الكبير فى أنهم حضروه أو أكملوا مشاهدته فكلامهم لا ينتمى للنقد المسرحى، وأما الذين نادوا بمقاطعة العرض لمجرد أنه أمريكى فقط رد عليهم «سيث جوردون» متسائلا: لماذا لا ينادون بمقاطعة الأفلام الأمريكية التى تحتل دور السينما فى القاهرة والبضائع الأمريكية التى تهيمن على السوق المصرى؟ وقال لهم بالحرف الواحد: «إذا كنتم تهاجمون سياسة الرئيس بوش الخارجية فأنا ضد سياسته الخارجية والداخلية أيضا»، إذن فالأمر ليس أمر كلام وشعارات وحماس وإنما الشأن شأن منهج يجيب عن سؤال كبير هو كيف نتعامل مع الآخر.. خاصة ثقافته؟

أما القول بأن عرض بلدتنا الذى يجمل وجه أمريكا القبيح جاء ردا على عرض «اللعب فى الدماغ» الثورى الوطنى الاشتراكى.. إلخ.. إلخ، فكما بينت فى هلال مارس الماضى أن هذا العرض المزعوم عبارة عن تحصيل حاصل تجاوزته التليفزيونات والصحف العربية كاشفة عما هو أعمق وأخطر منه فما بالكم بمظاهرات أنصار الشعوب فى قلب أمريكا وأوروبا ومختلف أنحاء العالم؟ وليس الأمر هو الهجوم على أمريكا فكثير منا يعلمون أن زعماء ونظما بأكملها أعطتهم المخابرات الأمريكية الميكروفونات والكاميرات وورق الصحف ومحطات البث والمطابع كى يهاجموا الولايات المتحدة جنبا إلى جنب الأسلحة والمعونات والحسابات السرية فى البنوك، إن النقد لم يكن فى الصميم ولم يعكس وعيا عميقا ولا جديدا وإنما كان تصفية وتفريجا للعواطف المكبوتة تجاه أمريكا لذا فهذه المسرحية هى الوجه الآخر لمسرحية بلدتنا.

أما هؤلاء الذين اكتفوا بالصمت فليس من المؤكد أن لهم رأيا وموقفا إيجابيا ضد الهيمنة الثقافية الأمريكية بل أظن أن كل همهم هو الحفاظ على مصالحهم وعلاقتهم وما يمكن أن يعود عليهم.

إذن فالسؤال الآن: هل نقاطع؟ هل نتصل؟ فى أعقاب هزيمتنا سنة ١٩٦٧ نادى أحد أساتذة الأدب الانجليزى بإلغاء مقرر الأدب الأمريكى على طلبة كليات الآداب ولعله قرر ذلك بالفعل وأظنه لم يكن يدرى أنه بذلك قدم خدمة كبرى للأجنحة الرجعية فى الولايات المتحدة، فالأدب الأمريكى عامة والمسرح خاصة هو أكبر وثيقة إدانة للبنية الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع الأمريكى منذ يوجين أونيل وحتى ادوارد أولبى وأكبر منفعة تمنحها الحركة الثقافية والمسرحية المصرية لنفسها هو قراءة هذه الأعمال وتقديمها بأمانة ووعى على المسرح، وإننى لأحيل القارئ إلى النصوص ذاتها دون حاجة إلى ضرب الأمثلة.

أما مسرحية بلدتنا فأظنها خارج السياق الفكرى للنصوص المسرحية الأمريكية، حقا نحن فى حاجة لأن نتعرف على الثقافة الأمريكية الحقيقية من وجهها الثورى والانسانى وليس الذى تصدره لنا هوليود والمؤسسات اليمينية الصهيونية المضللة الأمريكية.

العرض المصري الأمريكي

لا يصح عند مشاهدة العرض أن نبدأ بالإدانة وروح التشكك فالمخرج كما بينا ذو روح ليبرالية معارضة والممثلون من أبناء حركتنا المسرحية المصرية الساعية للفن وللحرية والمنتج هو مسرح الهناجر الذي يمارس مهامه فى حدود اتفاقيات التبادل الثقافى مع جميع الدول والهيئات الابداعية فى جميع بلاد العالم بلا تمييز وليس له فرقة ثابتة ولا ميزانية كبيرة إذ يتحرك فى حدود شباب المحترفين وأنصاف المحترفين والهواة.

أما الاختلاف فيتركز حول اختيار النص فى مثل هذا التوقيت الحرج (قدمه العصفورى لفرقة المسرح العالمى على مسرح الجمهورية سنة ١٩٦٤ دون أن يثير مثل هذه الضجة) وكان كما نعلم من المقرر تقديم هذا العرض قبل عامين أى قبل الغزو الاستعمارى الأمريكى للعراق ولكن د. هدى وصفى طلبت تأجيله مراعاة للظرف ولكن يبدو أن الظرف أصبح حالة مستمرة بتمادى الصهاينة فى فلسطين وجرائم الحرب الأمريكية فى العراق وكان الأمر يحتاج إلى دقة فى الحساب.

من ناحية أخرى لم يكن متصورا أن عرضا أمريكيا صغيرا يقدم لمدة ٦ أيام فى الهناجر وثلاثة أيام بالأقاليم يمكن أن يثير كل هذا اللغط لولا زحمة المزايدين ورياء الداهنين وجهل اللا مبالين وسكوت العارفين ولو أن النقد المسرحى قام بواجبه ولكنه لم يفعل بكل أسف.

قدم المخرج «سيث جوردون» العرض وفقا لما ورد فى النص تماما والنص محاط بأوصاف وتعليمات بين الأقواس قد راعاها المخرج بدقة ولم يلجأ إلى أى تفسيرات أو إضافات من عنده وكان من القدرة أنه قام خلال خمسة أسابيع أو أقل باختيار ٢٠ ممثلا من بين ٧٠ تقدموا للعمل معه، بعضهم محترفون وبعضهم أشباه محترفين وأما الباقين فهم هواة، وبالتعاون مع مساعدة عفت يحيى أنشأ ورشة لتحويل النص ترجمة د. محمد السعيد القن بالفصحى إلى العامية بمشاركة من جميع الممثلين ولم تكن الصياغة العامية موفقة فى تراكيبها واختيارات ألفاظها تماما ثم انفرد بتدريبهم على الأسلوب الأنسب للأداء الذى يراه غير مغرق فى العاطفية غير جانح للعقلانية فكان النتاج أداء حميما واضحا وبسيطا سهل الوصول إلى المشاهد ربما فاته بعض المؤثرات الكوميدية الخفيفة إلا أن الأمر راجع إلى الترجمة والنص العامى، وقد ساعده كثيرا امتثال الممثلين ومواظبتهم على غير عادتهم مع مخرج مصرى مع شئ من عدم الدقة فى المواعيد، ولما كان المؤلف يعتمد على التمثيل الصامت أو شبه الصامت عوضا عن غياب أغلب الديكور والاكسسوار وذلك كلفة أساسية فى فنون العرض، فقد برع الفنان الذوب فى دورية البروفيسير والمايسترو

وكذا كل من عزة الحسيني في دور مسز ويب وسلوى محمد علي في دور مسز جيبز وبالطبع الممثل والمخرج المخضرم محسن حلمي في دور دكتور جيبز وكذا الممثل المتمكن أحمد مختار في دور مستر ويب.

أما الوجه الجديد فقد كان أداؤه دور «جورج» بمثابة تقديم مناسب لقدراته في أداء أدوار الفتى وغيره من الأدوار وكذا الممثلة الشابة داليا الجندي لولا ضعف أدائها الصوتي وميلها للسمنة اللذين عوقا إظهار وعيها العميق للشخصية التي تمثلها إميلي بالإضافة إلى الممثل اللافت جلال العشري والأداء الواعي عند طارق سعيد.

أما الممثل سيد رجب فقد أدار العرض المسرحي كما أراد المؤلف والمخرج لدور الراوي باقتدار وتمكن جديرين بالثناء وكذا كان مجموعة الشباب البادئين والكورال على مستوى العرض أن بصمة الشكل المسرحي هنا سوف تبقى ماثلة في العين والذاكرة لزمن طويل.

وحيث أصر المؤلف على عدم وجود ديكورات عبرت بعض المقاعد وقطع الأثاث والبوابات والستائر البسيطة عن تغير الزمان والمكان على نحو خال من أي لبس أو خلل وكذا كانت كفاءة الإضاءة والمؤثرات الصوتية والموسيقى المسجلة ولعبت الملابس من تصبيم «جنيفر فرجسون» دورا أساسيا في تجسيد شخصية العرض وتصوير اختلاف الزمن دون الوقوع في أسر الطرز والتاريخ.

وأهم ما يلفت الأنظار هو مضي فصول العرض الثلاثة في أقل من الساعتين بما في ذلك استراحتان في إيقاع متماسك مشدود رغم الطابع اللا درامي واللا ملحمي للنص أي رغم الطابع القصصي الخالي من السرد ذي الطبيعة المسرحية مع خلو النص من أي عقبات أو صراعات أو تحولات أو منحنيات أو أحداث درامية أو حتى حوادث ربما يكون الفصل الثالث هو وحده الذي يوجد به شئ كهذا حين حاول التعرض لفكرة الكوت وعلاقته بالحياة حين تصر اميلي البطلة بعد موتها على استرجاع تفاصيل يوم كامل من حياتها السابقة.

وفي النهاية تعود إلى مكانها في مقبرة القرية بين الذين سبقوها إلى الموت هكذا صاغ المخرج مشهد المقبرة ببساطة واقتدار حين جعل الموتى يجلسون في تصلب وسكون على صفوف الكراسي وهم في زي الحداد، ينطقون كلماتهم الباقية في المطلق بلا حياة بينما يسير المشيعون تحت شمسياتهم السوداء في حزن ووقار في الجانب الآخر من الخشبة.

أظنني فيما سبق قد أصبت قدرا ما من النجاح في طرح أغلب ما أثير حول هذه المسرحية وعالجت نقديا جوانب من العرض ولكنني أؤكد أن تاريخ الثقافة المصرية على الأقل منذ رفاعة الطهطاوي لم يعرف الانغلاق والقطيعة مع الآخر فليست بلدتنا هي أول مسرحية أمريكية يقدمها المسرح المصري وليست آخر مسرحية. ■



المتفرجة

قراءة الوجوه... والأفعال

بقلم
مرفت رجب

ظهر الرئيس بكامل أناقته المعتادة.. محتفظا بربطة العنق، على عكس ما فعل بقية رؤساء الدول أعضاء مجموعة الثمانية الكبار الذين بدأوا اجتماعاتهم فى التاسع من يونيو ٢٠٠٤ وسط ترقب سكان الأرض كافة.. وقد تباينت بساطة المظهر، حسب الرسالة التى يريد كل رئيس دولة أن يؤكدها.. سواء في أذهان زملائه فى نادى حكام العالم.. أو فى أذهان بنى وطنه.. أو أذهان عموم الناس فى كافة أنحاء الأرض..



لكن أحدا لايمكن أن يفوّت هذه الرسالة التي حرص عليها الرئيس الفرنسي جاك شيراك حين توجه إلي أولى الجلسات، وعلى طول الخط.. محتفظاً بملابسه الكاملة.. ومعها موقف فرنسا المتماسك من القضايا المطروحة على بساط البحث.. وعلى رأسها بالطبع الموقف في كل من العراق وفلسطين، ولابد أن هناك من انشغل بالبحث عن إجابة للسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح.. من الذي يعطي التوجيه بشكل الملابس ودرجة «البحبحة» أو التجاوز عن التقاليد المتبعة في اجتماعات على هذا المستوى من الرفعة؟ أو السؤال الآخر الأهم، ما هي الرسالة التي يُفترض أن نفهمها من مثل هذا السلوك؟ هل المطلوب مثلاً أن نفهم أن الرئيس الأمريكي يريد أن يعمم على زملائه -أعضاء نادي حكام العالم- جواً من الارتياح لعله يخفي التوتر الظاهر من ملامح وجهه في معاندة صارخة لمحاولة الابتسام الفاشلة على طول الخط.. أم أنه -خلافا لآراء المحللين السياسيين الأمريكيين والأوروبيين- يريد أن يوهم بأن الامبراطورية الأمريكية مازالت متماسكة، قادرة على فرض إرادتها على العالم بالرغم من مضاعفات الفشل والأكاذيب التي تواترت على شاشات العالم صورها الدافعة لتثبت في الأذهان وقائع الانهيار المخزي للامبراطورية الأمريكية..

وكما خابت فكرة التظاهر بالمرح في تأكيد آخر لخيبة المستشارين الذين أوحوا بها، فقد جاءت صور الأمريكيين المودعين للرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان لتؤكد حزن الشعب الأمريكي وبكاءه الحار على مجد غابر، وحاضر مكثف لصدمات لا يمكن مواجهتها إلا بالبكاء.. ومن سوء حظ المتظاهرين بالمرح أن نشرات الأخبار في كل أنحاء العالم ظلت على مدى ثمانية وأربعين ساعة تجمع بين الحدثين، قمة الثمانية الكبار، وبكاء الأمريكيين المودعين لريجان إلى مثواه الأخير، ولم يكن صعباً على أحد أن يتبين سر حرارة بكاء الأمريكيين!!

بين الواقعية .. والخيبة

يتكرر إدراك حجم وفداحة الخيبة في كل يوم تحاول أن تتابع فيه ما يعرض على الشاشات العربية.. فما لم يكن المعروض نشرة أخبار أو برنامجا إخباريا، فهناك غياب تام لأي إشارة أو إدراك لما يجري من أحداث دامية بفعل الغزو الأمريكي للعراق والتصفية الإسرائيلية للفلسطينيين وتسأل نفسك ما



هو المقصود بالضبط من هذا التغييب؟! هل المقصود هو الايحاء بأن كل شئ تمام ؟!.. أم بأن ما يحدث لإخوتنا فى العراق وفلسطين خارج حدود اهتماماتنا.. أو أنه لا يؤثر فينا من قريب أو بعيد؟.. ما معنى هذه البرامج السطحية التافهة والمسلسلات الرديئة الأكثر تفاهة.. كيف يمكن أن نبتلع هذا الانفصال الكامل عن مشاعر الناس وأفكارهم؟ كيف يمكن أن نستسلم لهذا التناقض الأليم حين نقارن بين ما يعرض على شاشاتنا وبين ما تعرضه الشاشات الأوروبية.. إذا أخذنا الشاشات الفرنسية على سبيل المثال نجد خطين رئيسيين يحكمان كل ما يعرض من برامج ومواد برامية.. فأما عن البرامج.. فالثابت أن كل البرامج تحرص على الإشارة إلى ما يحدث فى العراق وفلسطين بصرف النظر عن موضوع البرنامج.. حتى برامج المنوعات فما دام هناك ضيوف من الفنانين والشخصيات العامة أو الصحفيين والمفكرين وعلماء الاجتماع أو أساتذة التاريخ فلابد أن ترد الإشارة..

ولابد أن يوجد مجال للتعليق والتصريح بإدانة ما يحدث على أيدى الأمريكيين فى العراق، والإسرائيليين فى فلسطين.. هذا قاسم مشترك لا يغيب عن أى برنامج، وفى المقابل نجد الخط الثانى هو الحرص على التأكيد على أن الاعتراض على السياسة الأمريكية شئ والاحتفاظ بأواصر الصداقة مع الشعب الأمريكى شئ آخر.. ولذلك فلقد لاحظت زيادة واضحة فى الحضور الأمريكى فى برامج التليفزيون الفرنسى فبرامج المنوعات تحرص على أن يكون الفنانون الأمريكيون حاضرين سواء كانوا من المغنين أو الممثلين أو المخرجين، مع الحرص على الحفاوة اللائقة وأوضح مثال بالطبع هو احتفاء البرامج الفرنسية بالمخرج الأمريكى مايكل مور قبل وبعد فوزه بالسعفة الذهبية لمهرجان «كان ٢٠٠٤»، وكذلك تفعل برامج الندوات وعلى رأسها برنامج «Riposte» الذى استضاف نائباً أمريكياً من أعضاء الكونجرس ليتوسط حلقة نقاش وسط سبعة من الخبراء والمفكرين الفرنسيين، والمعنى من كل ذلك واضح بالطبع، ألا وهو الحرص على مناقشة ما يدور بأذهان الناس من أفكار ومخاوف، وكذلك الحرص على عناصر القوة فى العلاقات بين الشعوب، عسى أن ينجح

الفن والثقافة فيما خابت فيه السياسة والسياسيون.

والآن..

وخلاصة القول فإذا كان البرامجيون فى التليفزيون غير قادرين على القيام بهذا الدور فإننى أدعوهم للاستفادة من القنوات الفضائية الفرنسية المتاحة لهم ليتعلموا الواقعية فى غير مبالغة ودون أى صراخ.

أما عن الأعمال الدرامية.. فإن الأفلام الروائية وكذلك التسجيلية التى يعرضها التليفزيون الفرنسى هذه الأيام لم تنتج خصيصاً لتليق بالتكيف مع الجو العام السائد فى الدنيا.. ولكنها من إنتاج جيد يتناول ألوانا من كفاح الأفراد والشعوب فى مواجهة مصاعب خاصة أو عامة.. لكن المهم أن مشاهدتها تشد من أزر الإنسان وتجعله أكثر قدرة على مواجهة واقعه الشخصى وواقع بلاده المحكوم بالمأزق..

ولذلك فإننى أطالب التليفزيونات العربية بأن تكف عن إذاعة الموضوعات التافهة وأن تبحث فى الدفاتر القديمة.. ففيها من الأعمال الدرامية مستويات جادة فى الموضوعات والتمثيل والإخراج، هى بالتأكيد أكثر ملاءمة لواقعنا.. هذا بالطبع إن توافرت الرغبة فى تضييق الهوة التى تفصل بين الناس والشاشات، ذلك أنها إن لم تفعل فإن الصورة الواردة فى بداية هذا المقال تكفى للتأكيد على أن الحقيقة مكشوفة للدنيا كلها رغم كل ألاعيب التتويه والتعتيم!! ■

كلمات عاشت

● السوس الذي ينخر في الفن هو النفاق والفنان لا يمكن أن يصل الي أعلي مراحل الإيداع الا إذا احتفظ بكبريائه واعتزازه بنفسه وكرامته.

أحسان عبد القدوس

● عقل الرجل فى رأسه أما عقل المرأة ففى قلبها.

شكسبير

● الكلمة والفكرة ووجهة النظر هي التي تؤلف رأيا عاما

كامل الشناوي

قصة قصيرة

قصة : سعيد الكفراوي
بريشة : ولاء وهبي





كانت تخرج من الباب الضيق إلى الحديقة الزهرية، مسارعة يحوطها الكلف في ريتشموند، كانت ترتدي معطفها الرمادي، على فستان من القطيفة الزرقاء، ولم شعرها في حزمة خلف ظهرها، وتشرد عيناها إلى بعيد بنظرة زائغة مثل باحث عن شيء ضاع منه، ثم تضغط على شفتيها في ألم.

هي متأكدة أنها ستجن، لذلك عندما تخرج إلى زهرات الماتيولا الحمراء همست لنفسها: أن عليها أن تقتل شخصا آخر.

صرخت مثل حيوان جريح حين رأت زوجها الذي يرجوها باستعطاف ذليل أن يعود بها.

كان القطار يغادر المحطة، وصلصلة الجرس تروع الهدوء الذي يحاصر المكان، ثمة عائدون من لندن يغادرون المحطة متوارين في ملابسهم التي تشبه ملابس الحداد.

همس صرخت فيرجينيا «إني أموت هنا» إن هذا المكان يقتلني، لم يجد الزوج من فعل يمارسه إلا أن يربت على ظهرها، لكنها بيدها تدور كابوسها المروع وسوف تتحسس الأشياء، ربما للتخلص من التحكم لأشخاص يعانون من



الألم».. كان حزينا من أجل فرجينيا، وكان لا يعرف ما هو الشيء الذي يؤلها؟.

عادت الأصوات إليها حين جلست تحت ظل الشجرة.. كانت تلك الأصوات تخصها وحدها، تنبع من دمها هي، ذلك لأنها ومن قديم تمارس جحيمها الذي منحته روحها كل عاطفة. قالت: إنه لابديل من قتل شخص آخر»، بدت في صمتها وهي جالسة على المقعد الخشبي في حديقة المنزل، وحيدة الروح إلى الحد الذي جلعها تتشبث بأحلامها القديمة وممعنة الإصغاء لتلك الأصوات التي تنبثق مع الضوء فيتردد بداخلها ذلك الرنين الذي يأتي من عند قوس الباب الذي يطل على الهاوية . تود فرجينيا النفاذ من أفق الرصاص المحاصر لتهرب من أبديتها التي تستدعيها في كل يوم.. ضربات البيانو الصاعدة بعزف «فيليب جلاس» وسطوة نغم الكونشرتو الحزين الذي يحلل مشهدها اليومي بتلك الشفافية التي تعكس في روحها جريان النهر نحو ابديته.

لم تستطع أبدا، وعبر سنوات من وحدتها أن تدفع



عن نفسها إحساسها الدائم بأنها جنت، وتعيش الآن اختلاط حياتها . تلك الطفولة على عشب لندن، والمكوث على البحر مع اختها، وتجلي شمس المغيب على الموج. لم تعد قادرة على مقاومة صوت داخلها الذي تجيبه كل يوم «لقد منحتني كل السعادة الممكنة»، وعادت تضغط شفتيها بقسوة ناظرة لشلال الضوء الذي ينير الزهرات.

حين كانت تهبط سلم البيت الداخلي متأملة الكتب المبعثرة، والكراسي المنزوية في الأركان، وتصغي بإمعان لصوت الموسيقى المنبعث من الجرافون الموضوع بالقرب من النافذة ، وترى خادمات البيت يقطعن اللحم بضربات السكاكين الحادة، وتسمعهن يهمسن عن جنونها ..قالت لهن إن البلد التي تبيع التوابل بعيدة كأنها آخر بلاد الحلم.. صمتن، ولم يجبن عليها. ونظرن ناحيتها بنظرة المحبين.. ابتسمت من أن فزعها الدائم شيء طبيعي لمثل من في حالتها، وربما كان جزءا من القانون الأزلي للطبيعة، وأنه وعلى نحو لا تستطيع التحكم فيه. ينبع من وعيها بأن الحياة والموت شيء واحد.. صمتت، وفكرت: لقد خانتها الظروف، وتلك الصور التي دائما ما تجسدها الكلمات، وسحبتها من حياتها التي كانت تتسم بالألفة إلى ذلك العالم المحتشد بالجنون.

عادت تكرر بين نفسها «على أن أنجز يوم هذه السيدة التي تود إقامة حفلها المربع». نفرت فيزيقيا، واضطربت رأسها، الا انها عادت تحادث نفسها بصوتها الهامس «إنها الساعات التي عشتها، ومضت حاملة الحنين، وكلمات ذلك الكتاب الغامض».

فردت رجلها على الأرض المعشبة، وبدت كأنها في غفوة، وهي تستند برأسها على جذع الشجرة. رفعت رأسها وألقت به على

حاجز المقعد الخشبي. تذكرت أنها كانت قد قالت لزوجها: إنها عثرت على الجملة الأولى لكتابها الملتبس»، وسمعت نفسها تهمس: انها لا تعرف أين تذهب بها الكتابة؟ لحظتها اعطاها الزوج ريشة الكتابة، واخبرها: أن عليها أن تكتب مادام الأمر يخلصها من قلقها.

كانت وحيدة فرجينيا المعذبة، جالسة تتأمل آخر نهارها ، الأشجار في حديقة المنزل. تجلس مسالمة مدركة بعمق قلبها معنى: انك لكي تعيش مع الآخرين، عليك أن تتخلص من إحساسك بأن من مهامك أن تغير العالم.

فكرت في اختها التي عذبتها كثيرا .. الحجرات المقبضة.. والنزهات على شاطىء البحر.. والرغبات المحرمة! «أنت تؤذينني» الحفلات المسائية بحشد النساء الجميلات. وهي منزوية هناك في لندن، تتأمل لوحة على الجدار، وتراكم الثلج على النافذة، وتسمع صوت الريح. كانت تنفصل عن العالم وتتعاطى عقاقيرها لتقاوم اكتئابها المزمن. همست: لن يتركني أحد. عليّ أن أكف عن أحلامي، وأن أذعن آخر الأمر لتلك الأصوات التي تأتي من حيث لا أعرف.

اختها في البيت تجهز حقائب السفر.. وتقف أمام المرآة متأملة نفسها في زهو، وتعدل قبعتها الإنجليزية، وتسمع من الخارج صوت صغارها: خالتي فرجينيا.. خالتي فرجينيا تعالى معنا إلى لندن.. لاتزال الأخت تتأمل نفسها، واثقة من إحكام سيطرتها على تلك المسكينة بالخارج التي تعرف أنها تعيش اسيرة لأصواتها الداخلية، وتعيش بذهن مشوش يضنيها طوال ما تعيشه من عمر.

صوت جرس الكنيسة في الظهيرة الأبدية، «أي صوت هذا؟».. همست فرجينيا. لم تعد تبكي طفولتها القديمة لكنها لا تكف عن التفتيش في عمق روحها، تلامس جسد أخيها المحرم الذي كرهته كثيرا، وحرّم عليها الرجال ، مغادرة متعهم، نافرة منهم، كل هذا الألم جعل روحها تعيش المها الدائم فيما بقي لها من سنوات.

نظرت اولاد الأخت قادمين.. الولدان الخنزيران والبنت الصغيرة الملاك نادت بصوت نحيل واهن:

«انجليكا».

خيل لها كأن البنت تحلق فوق أشجار الحديقة.. هي ترتدي ثوبا أبيض من الدانتيلا مثل عروس صغيرة، وتركب على ظهرها جناحين مثل الملائكة. الأخ المحشو باللحم مثل جسد متخم يحمل على كفيه طائرا ميتا، وكانوا قادمين نحو فرجينيا وهي تذعن لمشهدهم، وتغادر شرودها وتتأملهم.

صرخت انجليكا الملاك:

«خالة فرجينيا الطائر مات».

لا أحد يستطيع أن يحرر روحها عندما سطع الموت على الحديقة.. موت طائر هو موت لكل كائن.. نهضت من على المقعد ثم خطت مسلوبة الإرادة حيث الطائر الميت.. كان طائرا صغيرا مثل لعبة، يستقر على جنبه ومستسلما لقدره، رافعا رجليه ناحية السماء.. أخذت فرجينيا الطائر ثم تهاوت على العشب عندما داهمها الموت المفاجىء.. كأنني اقبض على مصيري.. غاصت بكل جفونها في لحظة قداسها الجنائزي، وعادت اجراس

الكنيسة تقرع من فوق، من هناك بالقرب من القبة ذات المعمار البولوفينى التى تشرف على الحى القديم بالمدينة البعيدة على النهر، والتى كثيرا ما تقرع أجراسها فى السكون فجأة فتضرب القلب بالخوف والمواجع.

وضعت الطائر على الأرض المعشبة، وظلت تتأمله بشغف الفراق، وكأنها تود دفع الموت الفاجع الذى فاجأها.

قالت: إنها لم تنتبه إلى الوقت جيدا، وأنها لم تحترس من الموت أبدا.

قالت دعونا نصنع قبرا للطائر، ثم اكملت، هناك وقت للموت. فى الخلف تمثال لامرأة عارية تقف بين أشجار الحديقة المزهرة، كمن يطوح الريح بشعرها.. التمثال فى النهار الرصاصى مشبع برائحة الموت.

قالت البنت ذات الجناحين:

«مات الطائر ليصنع قبره.. هيا لنساعده على أن يصنع قبره». دخلت فرجينيا إلى داخل البيت عندما سمعت رنين الهاتف يتواصل فى الصمت، وشعرت بصوت هادر



لخطيئة متوقعة، بعد قليل سوف تضرب اليد المدربة أصابع البيانو بألحان جنائزية لفيليب جلاس، أنكأت على ألمها وقالت.. إنها قضت عمرها كله لا تعرف سوى الكتابة. وكانت

تدرك أنها من وقت بعيد انها قد جُنت، وأنها كانت تستر هذا الجنون بذلك الصمت، وذلك الهدوء الغامض، الذى يتجلى فى مظهرها، حين تضع يدها فى جيب معطفها الرمادى الذى سوف تموت بداخله. ظلت تفتش عن عناوين فى دفترها، وعن أرقام الهواتف بعيدة لكل هؤلاء الذين تود أن تهاتفهم. راجعت كل الأسماء، وحين لم تجد أحدا يستحق المجازفة أغلقت الدفتر ومضت تصعد إلى الدور الثانى كانت تتسمع لخطواتها مثل لحن رتيب فوق الدرج الخشبى.. حجرات مقبضة، وجدران بيضاء شاحبة، كانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما. همست لنفسها «ابكى قليلا.. البكاء يغسل الروح».. وعادت تتأمل السجادة المفروشة على الأرض برسومها الأسطورية. وعادت، وبكت وسط الحجرة، وتذكرت أنه بعد سنين من لحظتها سوف ينهض من كتابها ذلك الشاعر الذى نخره المرض. والذى تحدثه السيدة ذات الاسم المشهور. والتى أقامت على شرفه حفلة لم يحضرها

والتى تنصت الآن لإحدى أغنيات شتراوس الحزينة عبر هؤلاء المحتفين، الذين يرتدون البذلات السوداء، وينظرون من خلال نظاراتهم الى الأضواء الخفيفة المنبعثة من الجدران. خطت ناحية حجرة نومها وتأملت فراشها التى لم تنم عليه من سنوات بجوار زوجها الطيب. تفكر الآن فى ذلك الشاعر، وتتأمل مصيره، وتعرف أنه سوف ينهض من فراشه ويتجرد من ملابسه ليلقى بنفسه من النافذة. تندهش فرجينيا من تقاطع المصائر، وتدرج على نحو حزين مدركة أن طرائق الموت متعددة، لكنها تفضى إلى فعل واحد. عادت تهمس لنفسها كان على ألا أكتب هذا. فتحت خزانة بالحائط. تأملت كل أشياءها بحنين غامر، وسمعت المطر يهطل فوق أشجار الحديقة. شغلت الفونوجراف فصدحت موسيقى باخ بحزنها الجليل. التمع أمام عينيها وميض من ضوء خفى. همست لنفها: لابد أنه هناك. وطاف بخيالها شبح اختها المغادرة والتى دائما ما تترك رماد سجائرها فى الأركان. هبطت ثانية الى الحديقة ورأت البنت ذات الجناحين وكأنها تتهيأ للطيران، وعادت تتأملها بحزنها الذى يليق بما هى فيه.

هطل المطر بغزارة، وأرعدت السحب فيما برقت السماء من ناحية الشمال. سماء سوداء تحلق فى جنباتها طيور متخبطة تقترب من الأرض وسرعان ما تعلو مروعة بصوت الرعد والتماعات البرق.

سألت البنت فرجينيا:

«ماذا يحدث عندما نموت؟».

أجابتها:

«نعود للمكان الذى جئنا منه».

قطعت فرجينيا ثلاث وردات من الحديقة وضعتها بجوار الطائر، ثم أسندت رأسها على الأرض تتأمل عين الطائر المحدقة على الفراغ، واستسلمت للحظتها وبدت كأنها غافية، أو كأنها تحلم بتلك السيدة التى ترتدى معطفها الرمادى على فستانها ذى الزهور الملونة وهى تحث خطاها، حاملة على ظهرها تاريخا من العزلة، والنوبات، وفقدان الوعى، وموهبة الخيال التى لا يباريها موهبة.. سمعت نفسها تهمس.. دائما السنين بيننا.. القوقع.. الساعات.. صفير القطار.. السيدة دالاواى تتجه الآن ناحية النهر - بمعطفها الرمادى وفستانها المزهر - لتلاقى مصيرها، وحين تكون على الشاطىء تجمع الاحجار الصغيرة وتدسها فى جيب معطفها حتى يقاوم طفو جسدها ويكون أثقل على الماء ويهزمه، ويخترق الطحالب وأسماك القاع الضالة، والنباتات الهائمة، وصوت قرع اجراس الكنيسة، وعزف موسيقى.. «فيليب جلاس» فى مشهد الموت الأخير:

سمعت نفسها تهمس لنفسها:

«الم اقل إننى علىّ أن أقتل أحداً». ■



نبيل السلمى

انعطافة مبهجة ومهمة !

محيى الدين اللباد

عندما نشر «نبيل السلمى» (١٩٤١- ١٩٨٧) أول كاريكاتور له -فى جريدة «الشعب» القاهرية- كان عمره ١٩ عاماً، وكان ما يزال طالباً بكلية التربية الفنية بالقاهرة، وعاشقًا لعمله الذى تملكته هوايته منذ الصبا. كان نبيل ابنًا مهذبًا لمعلم من محافظة سوهاج بصعيد مصر، ولذا ربما كان يبحث فى الكاريكاتور عن فرصة للتعبير عما لا يستطيع الإفصاح عنه مباشرة وعينه فى عين غيره: الإفصاح عن الحلم بالشقاوة والمشاغبة وتجاوز حدود التعقل والانضباط والحياء. ولابد أن اختيار الكاريكاتور كان يلبى -أيضاً- لنبيل الشاب مطالب موهبته كرسام يملك القدرة على التواصل مع الناس بالرسائل التى تحملها رسومه.

كان جيلنا محظوظاً مرتين: الأولى بوجود أساتذتنا الكبار فى فلك النجومية العالى تسطع علينا أنوارهم البهية، والثانية:





« لاعب ١٩٦٠ »

الدكتور للجنة الاختيـــار : لازم تختاروا اللعيب ده .. « ده مخه كله كورة » !



« بعد تفجير فرنسا للقنبلة الذرية »

ديجـول ـ دلوقت اقدر اقابلكم

جريدة «الجمهورية» ١٩٦١

●●●





رسم ملون لعبد السميع رسمه خصيصاً هدية لنبيل السلمى فى قياس بطاقة بريد، يمثل الرسم عبد السميع يصب فى عقل نبيل خبرة سنوات عمره التى عتقت لستين عاماً.

بإمكان أن نذهب إلى هؤلاء الأساتذة في صحفهم، وندق أبوابهم، ونسألهم المشورة وتقييم أعمالنا الساذجة الكتعاء. وكان أغلبهم يتكرمون علينا بالمشورة، والنصيحة، والتوجيه، وأحياناً -إضافة إلى كل ما تقدم- بكوب شاي.

في عام ١٩٦٠، ذهب «نبيل السلمى» إلى «عبد السميع» (١٩١٦-١٩٨٥)، وأطلعه على بضع وريقات رسم عليها كاريكاتورا. كان الرسام الشاب فخوراً بأنه قد طبّق فيها الشرط الأساسي الذي كانت تتنافس في تكرار نشره أركان هواة الرسم بالصحف: «ارسم رسومك بالحبر الشيني».

وكان «عبد السميع» قد انتقل إلى جريدة «الشعب» من «أخبار اليوم» التي كانت قد اختطفته من «روزاليوسف» عام ١٩٥٤، بعد أن خسر (هو وكثير من الناس في مصر) المعركة مع نظام الضباط «الأحرار» حول الديمقراطية التي اشتعلت ثم خمدت في ربيع ذلك العام. وكان الرسام المخضرم قد خاض تلك المعركة امتدادا لمعركته الكاريكاتورية البطولية على غلاف «روزاليوسف» ضد النظام الملكي وحزب الأغلبية الوفد، وهي المعارك التي جعلت من «عبد السميع» زعيماً شعبياً، وأحد من مهدوا لحركة الجيش التي قامت في يوليو ١٩٥٢.

وعندما أغلقت جريدة «الشعب» عام ١٩٦٠، انتقل «عبد السميع» مع رئيس الجريدة «صلاح سالم» إلى جريدة «الجمهورية» ليصبح رسامها السياسي الأول، وأخذ معه «نبيل السلمى» إلى هناك.

في ذلك الوقت، كانت مدرسة «روزاليوسف» و«صباح الخير» الكاريكاتورية في عز لياقتها وتألقها ولفتها للأنظار، وكان فرسانها شباناً صغاراً، بعضهم لم يتخرج بعد من كلية الفنون الجميلة (مثل رجائي ونيس). وقدم هؤلاء نغمات جديدة حديثة في الكاريكاتور، ولم يعد أبطال رسومهم شخصيات رمزية كتبت أسماؤهم على ملابسهم بخط كبير. ولم يكن فيها نبرة زاعقة ولا صراخ هادر، بل كان أبرز ما فيها العبث الجديد الذي كان يلطم أنظمة التوقع الذهني فجأةً وبقسوة تفضي إلى صدمات وضحكات عالية الجودة. ولم تكن رسوم هؤلاء الفرسان الشبان تحكي مباشرة في السياسة، ولكن رساميها كانوا هم السياسيون.

ولم تعد تلك الكاريكاتورات الشابة تُرسم بالفرشاة العريضة المثقلة بالحبر الأسود، بل أصبحت تؤدّى بأقلام تحبير ذات سنون شعرية رفيعة حسب موضات مدارس التشكيل الحديثة، وبتصميمات جرافيكية على أحدث مدارس الاتصال البصري آنذاك. لذا تخلى «عبد السميع» عن فرشاته العنيفة، وعن شخصياته القديمة، واشترى قلماً شعريا للتحبير وأوراقاً ناعمة الملمس، وبدّل توقيعه بآخر

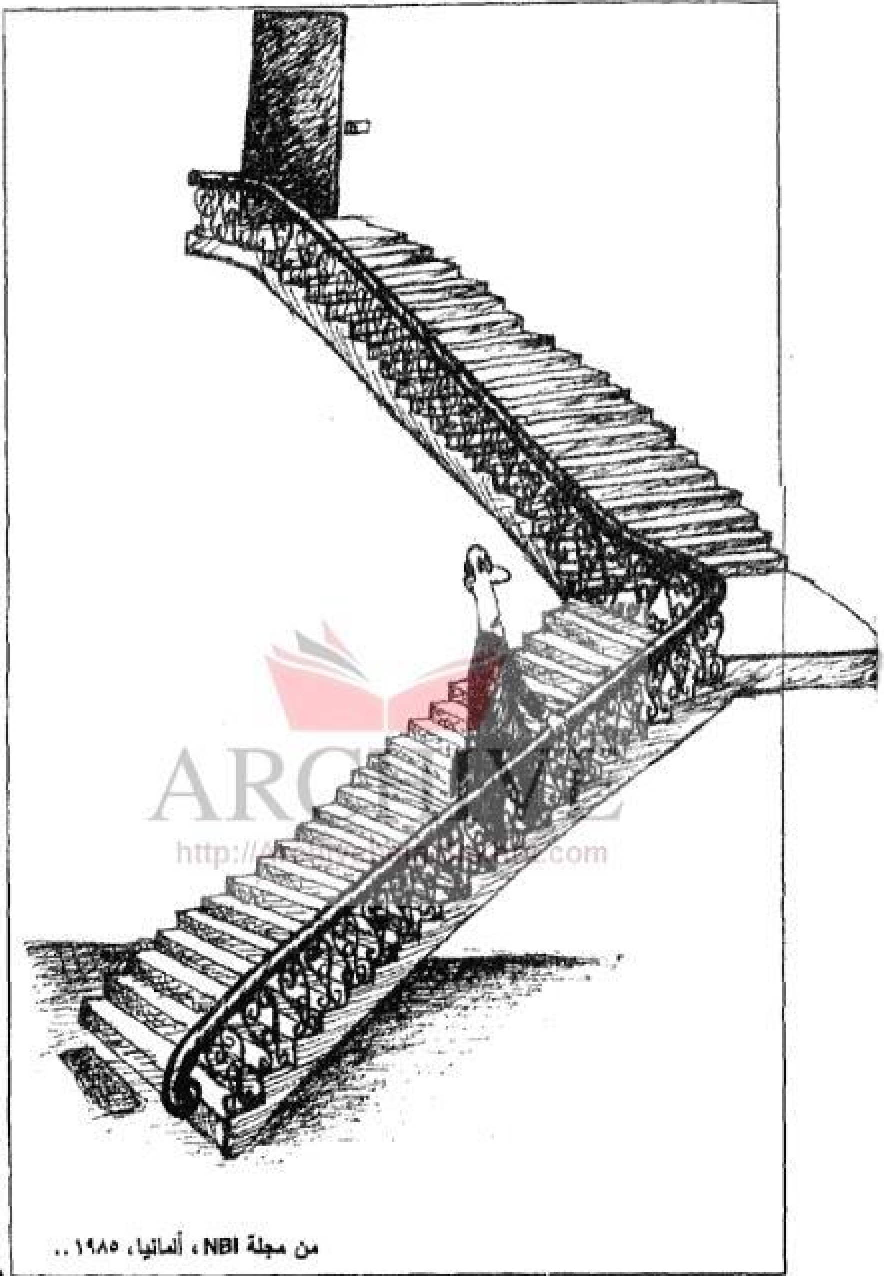
•••



جريدة «الوطن» ، الكويت.

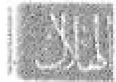


من كتاب «تحت ظلال الأهرامات» ، ألمانيا.



من مجلة NBI، ألمانيا، ١٩٨٥ ..

•••



جماد أول ١٤٢٥هـ - يوليو ٢٠٠٤م

من كتاب «فكاهات الدخان»، نبيل السلمي، ألمانيا، ١٩٨٤.

كتبه بأسلوب حديث واضح، وترك التوقيع الانفعالى للثائر القديم.

كان الأستاذ -حينذاك- فى حاجة إلى تلاميذ من الرسامين اليافعين الذين درسوا المدارس الحديثة فى فن الرسم والتصوير، يعطيهم خبرته السياسية والمهنية، ويشاركونه البحث والتجريب والتحديث. وكان «نبيل» و «ماهر» على رأس تلك المجموعة التى تقاسمت مع «عبد السميع» مرسماً مشتركاً يزاولون فيه التصوير الزيتى والرسم الملون.

وبالفعل استفاد «نبيل السلمى» من أستاذه «العجوز»، وتشرب قدراً معتبراً من خبرته السياسية والفنية، وطرائق البحث عن الفكرة الكاريكاتورية وتطويرها. وأضاف الرسام الشاب إلى هذه الخبرات خبرات أخرى حصلها من إطلاعه على المدارس الحديثة -آنذاك- فى الكاريكاتور والرسوم المتحركة والتصميم الجرافيكى، وبدأ «نبيل» كاريكاتوراً حديثًا جديداً.

أعطى «عبد السميع» المساحات لتلميذه «نبيل» بقدر واقتصاد وحكمة حماية له من الانزلاق فى الاستسهال والاعتياد على الثياب الواسعة: عمود واحد للكاريكاتور الاجتماعى وعمودين -كحد أقصى- للكاريكاتور السياسى.



أحسن كاريكاتور فى ألمانيا ١٩٨٤، نبيل السلمى.

كانت بصمة «عبد السميع» واضحة على الرسوم التى طلعت بها جريدة «الجمهورية» للرسامين الشابين «نبيل السلمى» و «ماهر داود». وكان الشابان -بحكم شبابهما وانتمائهما إلى سنوات الستينيات المحملة بالتغير والتبدل- مشغولان بجدول أعمال مختلف، واهتمامات مغايرة، وكانا متحرران ومعفيان من تاريخ مجيد ثقيل يحمله أستاذهما: ميراثه عن أستاذه العظيم «صاروخان»، وتجربته الطويلة والمركبة -بالأسود والأحمر- على غلاف «روزاليوسف» وصفحاتها.

وبموازاة السياسة، اتجه الشابان إلى صفحات الرياضة، حيث شكلا فيها ثنائيًا ناجحًا يرسم فى فيها مساحة عريضة مهمة، بتوقيع مشترك: «ماهر-نبيل». وشكل هذا الثنائى نجاحًا جماهيريا صاخبًا، لا سابق له سوى ثنائى «حاكم-مصطفى حسين» فى جريدة «المساء» فى أواخر الخمسينيات.

●●● وبعد جولة دار فيها الرسامان الشابان فى باريس وبعض عواصم الدول «الاشتراكية» معًا بعد حرب ١٩٦٧، بدأ استقلال كل منهما عن الآخر. ونجحت جراحة فصل التوأم الكاريكاتورى السيامى بيسر وصحة.

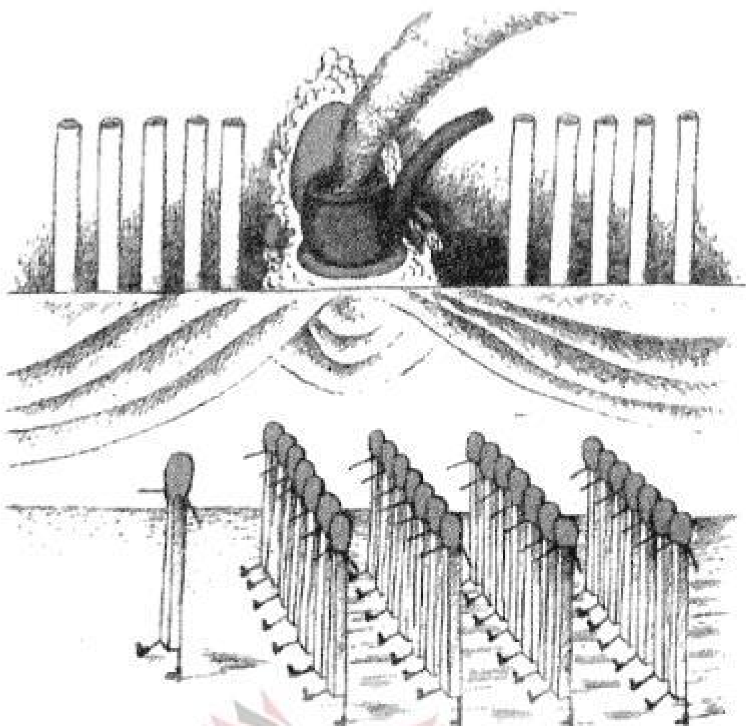
رسم «نبيل» كتابًا نشر فى ألمانيا عام ١٩٧١ بعنوان «تحت ظلال الأهرام»، أنجز فيه ميوله الجديدة فى الكاريكاتور الجرافيكى الذى يبحث القارئ عن الفكرة فى ثنايا الرسم وليس فى تعليق أو حوار يصاحبه. وسيعجب الألمان بذلك الكتاب الذى دارت رسومه حول آثار الفن المصرى القديم، حتى أنهم شجعوه على الاستقرار فى عاصمتهم برلين للعمل هناك.

وبدءًا من ١٩٧٤ يقيم «نبيل» في برلين، حيث تزوج من أستاذته التى درّست له اللغة الألمانية فى القاهرة، واستقر معها ١٠ سنوات أنجبا خلالهما ابنتهما «ريم»، وكان «نبيل» -خلال تلك السنوات- قد تحول إلى نجم كاريكاتورى، يعرف أغلب الألمان اسمه وأعماله. وقد اختير رسم «نبيل» على أحد أغلفة مجلة «أويلين شبيجل» كأحسن رسم كاريكاتور فى ألمانيا لعام ١٩٨٤.

وفى العام نفسه، أصدر «نبيل» كتابه الكاريكاتورى الثانى فى ألمانيا «فكاهات الدخان»، وفى العام ذاته أيضًا، انتقل «نبيل» إلى الكويت ليعمل رسامًا ومصممًا فى مشروع الكمبيوتر العربى «صخر». وفى الكويت أصدر كتابه

من كتاب «جملوتر»، الكويت، ١٩٨٦.





من كتاب «فكاهات الدخان»، نبيل السلمى، ألمانيا، ١٩٨٤.

من مجلة NBI، ألمانيا، ١٩٨٦.



الكاريكاتورى الثالث «جمليوتر».

وأقام «نبيل» فى الكويت ثلاث سنوات، رسم خلالها الكاريكاتور السياسى فى جريدة «الوطن» هناك، كما رسم الكاريكاتور فى جريدة «الجماهير» الصادرة لجمهور الرياضة.

كانت ألمانيا فرصة واسعة انفتحت أمام «نبيل السلمى» ليجرب ويلعب على حريته، وليتحرر من إسار وظيفة رسام الكاريكاتور فى جريدة يومية شبه حكومية، فى عصر لم يكن أزهى عصور الصحافة فى الجانبين السياسى والمهنى على السواء. ووجد أن باستطاعته الرسم كما يهوى، وحسب أشواقه وأهوائه ونزواته التى احتفظ بها طويلا فى درج مغلق، لكنها جميعًا ظلت حية تتردد فيها الروح.

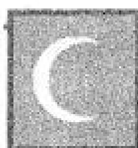
وتشكل رسومه فى الفترة الألمانية علامة هامة تختلف عما تعودنا الاطلاع عليه فى الكاريكاتور العربى والمصرى؛ فهى رسوم يجوز أن نخلع عليها ألقابًا من شاكلة: الكاريكاتور «المثقف» - «الذهنى» - «الجرافيكى» - أو «الهادئ». وتعنى كل هذه الألقاب أنها رسوم مغايرة لإنتاجنا المحلى ولعقلية منتجيه ومستهلكيه. وتتميز بتفوق العنصر التشكيلى فى العمل، وبالأداء الذكى والبليغ. ويمكن للقارئ اللبيب أن يلتقط فى كاريكاتور «نبيل» فى الفترة الألمانية نزوعًا متشائمًا، وانشغالاً ملحًا بلغز الموت، وتناولاً مكررًا للجانب العبثى فى الحياة.

أما رسوم «نبيل» فى جريدة «الوطن» الكويتية، فقد كانت أنضج أعماله فى الكاريكاتور السياسى، وأقربها إلى ما كان يريد. إذ اتسمت كاريكاتوراته «الكويتية» بالمرح والعاطفية والحرارة، ويسر الأداء، وطريقة التفكير المناسبة للتواصل مع جمهور عربى عريض بدا أن الرسام يعرفه جيدًا ويعرف لغته وروح فكاهته. كانت رسوم الكويت أنضج وأحدث من رسوم «نبيل السلمى» فى جريدة «الجمهورية» فى الستينيات وبداية السبعينيات، كما كانت أكثر حرارة وتفهمًا للقارئ المحلى، ومثلت انطلاقة مبهجة ومهمة فى الكاريكاتور العربى.

وفى صيف ١٩٨٧، زار «نبيل» أسرته فى برلين. وفى طريق العودة إلى الكويت، مر على القاهرة ليوم واحد قضاه بين إخوته وأخواته وأصحابه، وعاد إلى الكويت. وفى فجر الرابع من يوليو ١٩٨٧، توفى «نبيل» إثر نوبة قلبية بينما كان يستعد للنوم، واضعًا ذراعيه تحت رأسه، ومبتسمًا.

وعلى الرغم من مرور ١٧ عامًا على رحيل «نبيل السلمى» عنا، نجد رسومه ما زالت حاضرة مشرقة، إذ لا زالت الصحف والمجلات (خاصة المجلات الثقافية والأدبية) تكرر نشرها. كما نجدها أحيانًا على أغلفة كتب حديثة صدرت فى ألمانيا، أو أغلفة بعض الرسائل الجامعية الألمانية التى تتناول شأنًا مصريًا أو عربيًا ■





كتاب الهلال

عن الكاريكاتير و الأغاني والإذاعة

بقلم

د. على الراعى

يصدر ٥ يوليو ٢٠٠٤م

رئيس التحرير

مصطفى نبيل



أيام القبوطى (الرؤية والمتاهة)

بقلم

سهام بيومى

تصدر ١٥ يوليو ٢٠٠٤م

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

قطر الندى

شعـــر
أحمد خميس

أحْضَانُ هذا إلفجرِ ضمّتْ فى الرُّبى قَطْرَ النّدى
وتأنّق الصّبح الهَنىُّ على المجالى .. والمدى
لمّا بدتْ فى حسنها شمس البها (قطر النّدى)
ألحسْنُ كِبْرٌ للجمالِ .. وأَوْرَقت ألوانه
دفئاً .. يدير على القلوب نسائمَه
والسّحرُ .. كلُّ السّحر أقبل طيّعاً سلطانه
يهدى إلى هذى العيونِ تمائمَه
فإذا المقادير تمدُّ إلى خطاويها اليدا
لمّا بدت فى حسنها شمس البها (قطرُ النّدى)

★★★

دورى بأعطافِ الصّباح الشّاعرىّ .. المُجْتلى
وتمايلى .. ميْلَ الضّياء على انسكاب المخمل
وتدلّلى .. يا قبلة النّور الطّرىّ .. تدلّلى
فاليوم .. يصدح بالبشائر شاعر متفرّد
يصغى له قلب الزّمانِ ويخفقُ
واليومَ .. يزهو منعماً هذا الصّباح الواعد
وتفيض بالحبّ العيونُ .. وتُغْدِقُ
وصحائفُ التّاريخ حرّاس .. وعهد .. وفدا
لمّا بدتْ فى حسنها شمس البها (قطرُ النّدى)

★★★

بغداد نـــادت .. فاشرأبت للنداء القـاهره
أثرى منابرهـــا البشير على القرى والحاضره
في موكب لم يدر أوله الزمـــــان وآخره
وكأنما أغرى بوادى النيل لحن .. وصدى
رقص الوجـــود لـــه وغـــنى وارتوى
وشدت عذارى الضفتين «الحنه يا قطر الندى
شباك حـــبيبى ياعـينى جلاب الهوى»
وتســابق النبأ الحبيب يزف هــذا الموعدا
لما بدت فى حسنها شمس البها (قطر الندى)
طافت بأرض الرافدين كمـــا يطوف المرسل
فى صمـــتها حكم المشيب وقـــوله المتفضل
فتواكبت همم المعـــالى .. تستـــزيد وتنهل
ضمت إلى شرف الأصالة والعصور الباهره
قلبـــا يميل إلى النهـى قبل الهـــوى
من سلسل النيل العظيم.. من الروابى الطاهره
شـــب العطـاء علـى يديهـــا واستوى
وغدت قلوب العارفين بما أفاضـــت سجدا
لما بدت فى حسنها شمس البها (قطر الندى)
حورية الالهام.. يا شغل الأمانى الدافئه
يا موجة .. عرف الجمال بشاطئيها مرفأه
وسما إلى عرش الفتون .. يضم أحلى لـؤلؤة
قسما بطيفك يستثير بنا الخيال المترفا
ويهـــدهد الأشـــــواق فى ليـــلاتنا
ما غاب ذكرك عن أهازيج الرواة.. وما غفا
عـــن رقصـــة النشـــوة فى أعمـاقنا
وحكاية .. طارت بها الأيام فنا خالداً
لما بدت فى حسنها شمس البها (قطر الندى)

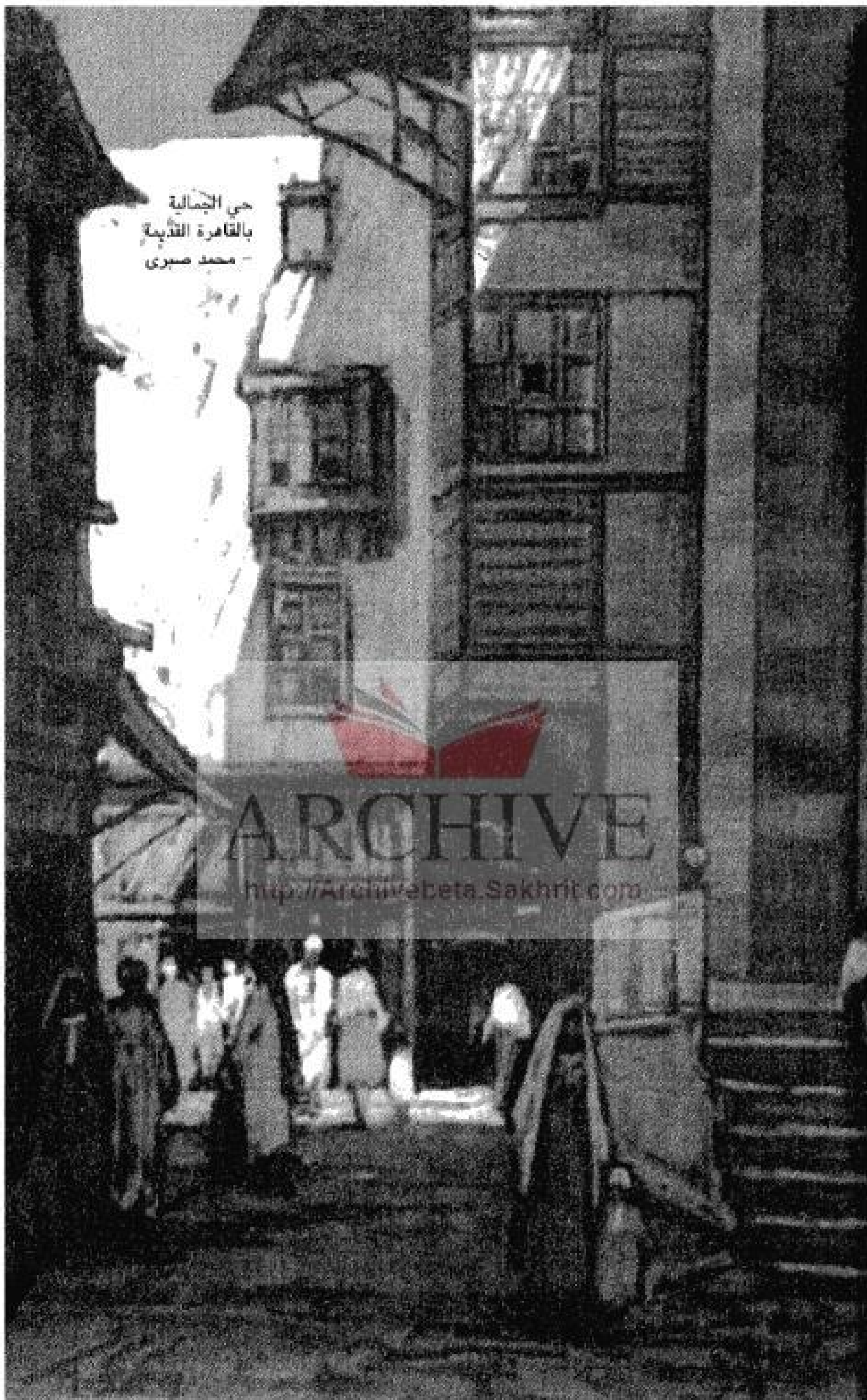
هل مازالت بلادنا تمتلك السحر الفنى؟

بقلم
د. محمد عرابى

هذه المرة من جولة المعارض سنركز على بعض الحالات، التى تتخذ من البيئة المصرية مصدراً للإبداع والاستلهام، وذلك فى إطار مفهوم وتقنيات تبدو فى ظاهرها تقليدية، حيث تتخذ من فن التصوير فى سياق مفهوم تمثلى أو تناظرى يرى الطبيعة بأبعادها الثلاثية مجالاً للتعبير الفنى وتجسيد الأفكار المعنوية أو الحالات الشعورية، أو تجسيد موضوعات فنية تقليدية تكتسب أصالتها فقط من ذات الفنان بما يضيفه إليها من سياقات معرفية جديدة.

وفى ظل حالة الفن اليوم فى بلادنا وما يشوبها من أفكار مغلوطة، يتسم من يرتاد هذه الموضوعات بجرأة وشجاعة لأنه إذا رأى فى فن المنظر ضالته أو رسم بعض الموضوعات الطبيعية الأخرى فربما يبدو تقليدياً، وإن كان محظوظاً فسيسار حوله جدل طويل عقيم بين معارض يرى أنه رجعى متخلف أو خائن ويسحب منه رخصة الإبداع وربما رخصة الحياة، وبين مؤيد يرى فى مهارته وجديته أصالة وانتماء لمصريته، وبين هذا وذلك وجهة نظر أخرى تحتكم للعمل الفنى ذاته وما يحمله من مضمون.

ولم يكن اختيارنا للنماذج أو التجارب التى سنعرضها مدحاً لها أو ذماً، وإنما لكونها علامات مهمة لامتداد ظاهرة فنية عمرها يقترب من مائتى عام أو أكثر من عمر التجربة البشرية الحديثة، أو ربما تمتد فى عمق التاريخ إلى العصور القديمة، وهى مازالت مستمرة فى حياتنا المعاصرة رغم ما



حي الجمالية
بالقاهرة القديمة
- محمد صبرى

يعترضها من اتجاهات فنية ترفض كل ما له صلة بظاهر الحياة.

فن المنظر بين الحرفة والإبداع

لقد لفت المستشرقون في القرن التاسع عشر الانتباه إلى أهمية طبيعة الشرق العربي بمعطياتها المرئية والثقافية كمثير إبداعي يجدد الحياة في فقرات التجربة الغربية المتيبسة، وكانت مناظر الحياة في مصر وشمال أفريقيا وفلسطين والشام هي المدخل الذي جذب فيما بعد «دلاكروا» ومن بعده سيروزييه وإميل برنارد وماتيس وغيرهم من الذين استلهموا روح المكان بالشرق العربي وما أفرزه من قيم ثقافية وأشكال فنية، وعلى إثر ذلك أصبح المنظر الخلوي العمود الفقري لحركة التصوير المصري منذ بداياتها الأولى، وارتبطت غايته بتصوير الحياة المصرية ظناً في أن ذلك سيقود إلى تأصيل الفن المصري، فأصبحت مشاهد الحياة الشعبية في القاهرة أو غيرها، أو مشاهد النيل والحياة الريفية هي الموضوعات التي أسست ملامح مدرسة المنظر في الفن المصري الحديث، الذي استمر متفاعلاً مع حركة الفن العالمية يأخذ عنها الكثير ولا يعطيها سوى النزر اليسير متمثلا في مجهودات فردية ممن تمسكوا بهويتهم وصدقوا مع أنفسهم.

ورغم ما تموج به حركة الفن اليوم من أفكار فنية - تصيب وتخطيء - ترى أن الحداثة والتجدد يتعارضان مع ما هو تقليدي من حيث الموضوع أو الأسلوب أو الشكل الذي يرتبط بصور تناظرية، وتضع المنظر ضمن هذه الموضوعات التي تم تجاوزها فتنكر شرعية وجوده في هذا الزمان جملة وتفصيلاً، إلا أنه مازال يجذب العديد من الفنانين على مستوى الأجيال المتعاقبة لدرجة أن يصبح ظاهرة فنية، ربما تعود لأسباب متعددة يمكن حصرها في محورين: أولهما يكمن في ثراء البيئة المصرية بمعطياتها المرئية وما تثيره من قيم استاطيقية عبر ما تكنه في ذاكرتها الزمانية من خبرات ثقافية متنوعة تكسبها ما يؤهلها من حيوية تأسر الفنان وتفجر طاقاته الابتكارية، وأما الثاني فيتلخص في وجود شريحة من مستهلكي الفن في مصر ترتبط اللذة الجمالية بفعل دوافع سيكولوجية ثقافية - بالبعد التناظري أو التمثيلي الذي يحمله المنظر الخلوي وما يشير إليه - عندها من ارتباط القيمة الفنية بمعايير الدقة والمهارة ووضوح الشكل، وربما يكون للحياة المدنية أثر خفي في هذا الشأن، وذلك لما تضغط به على النفس بعزلها عن



فراخ الفيوم للفنانة الهولندية برونيللا هوك

الطبيعة الأم، نظراً لقولبة الإنسان فى أنماط صناعية ميكانيكية مادية تزيد مساحات الانفصال بينهما فتشتد جذوة الحنين فيجد فى مثل هذه الأعمال ملاذه ليسعد بلحظات لقاء واندماج مع بيئة معينة فى زمن معين يفتقدها فيستحضرها عبر الفن، ولعل هذا ودوافع أخرى يفسر وجود تفضيلات جمالية طويلة الأمد معينة من الموضوعات أو الأساليب الفنية أو الفنانين أو أنماط معينة من البيئات الريفية أو المدنية، ويضع فن المنظر الخلوى ضمن هذه التفضيلات طويلة الأمد.

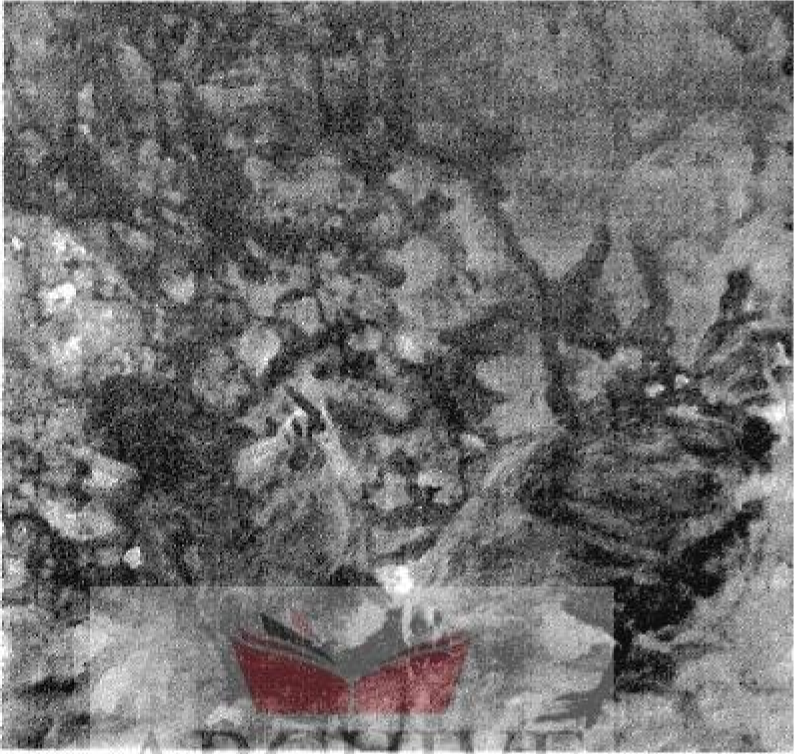
وفى سياق استمرارية أو استدامة فن المنظر فى حركة الفن المصرى وفى ظل الفن الحديث بمفهومه الواسع يجتمع ثلاثة من محترفيه يمثلون ثلاثة أجيال متعاقبة وهم محمد صبرى مواليد ١٩٢٠، وحسن عبدالفتاح مواليد ١٩٤٠، وإبراهيم غزالة ١٩٦٠، ويقدم كل منهم تجربته الخاصة التى لا شك فى أنها تبلورت فى ظل سياقات معرفية تشترك وتختلف وفقاً للمكونات الثقافية

العامة والخاصة لكل منهم.

ويظهر محمد صبرى فى ثوبه التقليدى المألوف ويقدم مناظره من القاهرة القديمة والمغرب وإسبانيا.. ثلاثة أماكن مختلفة لكل منها ملامحها الواقعية المحددة لهويتها المكانية والثقافية، التى تذوب فى إطار أسلوب فنى لا يقيم للتوترات الداخلية وزناً، إذ يبدو عالمه الداخلى رائقاً نظيفاً معزولاً تماماً عن الأجواء الخارجية وصراعاتها، أو مجرداً من معظم الأبعاد الحياتية وسياقاتها المعرفية ما عدا خبراته الفنية فى إطارها الأكاديمى بجمالياتها التقليدية التى يمتلك ناصيتها مع تقنية ألوان الباستيل إلى حد ربما لا يبارى، ويطبع أعماله بجمال زخرفى خالٍ من المتغيرات الزمنية وتفاعلاتها مع المكان بعناصره مجتمعة، فهو يصور أماكن مختلفة فى زمن واحد يخلو من توترات الحياة العصرية، إذ تظهر أشخاصه فى أزياء تقليدية قديمة كما تتأنق عمائره بمسطحات وخطوط نظيفة جديدة لا يعتريها أى مما أصاب وجه القاهرة القديمة حديثاً من آثار الشيخوخة أو تشوهات معطيات زماننا المعاصر، وهو بذلك يكون كلاسيكياً بما تظهره أعماله من نزعة مثالية تجميلية، فلا شك فى أنه متفرد بأسلوبه وخبراته مع تقنية الباستيل التى أسرته برقتها فى موضوعات محددة منذ بداياته حتى الآن .

«برونيللا هوك»
ومغامرات فراخ الفيوم

نستغرب أحيانا نحن الشرقيين حينما نرى الإنسان يأنس للطير أو الحيوان ويحنو عليهما ويأمن لهما، وعلى النقيض من هذا نراه حذراً متوجساً عدوانياً فى علاقاته مع بنى جنسه، إذ يمشى فى الأرض فساداً يقتل الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، ويدمر العمران ويشعل نيران الشر لتأكل الأخضر واليابس، هذه التداعيات طفت على سطح الوعى فور تعرفى على تجربة الفنانة «برونيللا هوك» التى تقدمها فى خان المغربى تحت عنوان «مغامرات فراخ الفيوم»، إذ تعيد إلى الأذهان تلك العلاقة الأزلية بين الإنسان والطير والحيوان، التى كان لها - فى العصور القديمة - مبرراتها الفكرية والعقائدية، ولها أيضا مبرراتها النفعية المستديمة، وفى عصرنا الحاضر تكتسب مبررات نفسية تختلف من ثقافة إلى أخرى وفقاً لأنماط الحياة، وتشير إلى درجة عالية من التناقض إلى حد الاستغراب والارتباك وربما الارتياب، إذ يقف العقل البشرى رغم ما وصل إليه من علم فى عجز أمام تلك الحالات



لوحة أخرى من معرض مغامرات فراغ الفيوم - برونيللا هوك

بما تتسم به من غموض ولا معقولية، وخاصة فى تلك المجتمعات التى سيطرت عليها التكنولوجيا، حيث يعيش إنسانها فى حالة من الاغتراب والقلق الروحى لافتقاده للتواصل الإنسانى المباشر مع بنى جنسه والعالم الطبيعى الذى أصبح معزولاً عنه فى قوالب صناعية سياسية اقتصادية.

وتقدم لنا الفنانة «برونيللا هوك» عبر الفن فصلاً درامياً من هذه العلاقة يحمل أبعاداً إنسانية جديرة بالاهتمام والتأمل، لعلنا ندرك ما وراءها من أبعاد غائبة، فهى تتسم بالعصرية بدوافعها النفسية والفكرية، التى تجعل من الفراغ موضوعاً فنياً خالصاً يطرح العديد من الأسئلة تحتمل إجاباتها الكثير من التأويل، ففى أعمالها ترتقى الفراغ من دورها الهامشى فى المناظر

الريفية، وتأخذ أهمية كبرى تتوازى وأهمية الإنسان فى العمل الفني، الذى كان محور العملية الإبداعية وقانونها الجمالى فى التجربة الغربية، إذ تكتسب صفاتها الإنسانية من المستوى الواقعى فى التجربة حينما نعلم أنها تقوم بدور الونيس ورفيق الرحلة لصاحبتها «برونيللا» - مواليد ١٩٥١ - وهى وحيدة مغتربة بوادى الفيوم بعيداً عن وطنها وأسرتها منذ ٢٠٠٢، وتفتقد أخواتها اللاتى كن معها فى منزل العائلة بلندن كما أنها فقدت أمها حديثاً، فتجد نفسها وحيدة فى عالم مختلف بجغرافيته ومعطياته المرئية والثقافية وتحمل بداخلها مشاعر الغربة، الأمر الذى دعاها إلى ابتكار حل لمشكلاتها باقتناء سبع «فروجات» من أحد مزارع الفيوم، وأعطت لكل منها اسم إحدى أخواتها، وتمضى معظم أوقاتها فى محادثتهن ومراقبتهن، وهذا الحل الابتكارى لأزمتها يبدو لنا غريباً وربما لا يأتى إلا من روح مبدعة خلاقة، ولكن إذا أمعنا النظر نجده بدائياً بسيطاً تمارسه فتيات مصر فى الريف أو المدينة وخاصة جليسات المنزل أو المتهنات لمهنة الزراعة، فرغم اختلاف الهدف والغاية إلا أنه يشير إلى احتياج نفسى ربما ينبع من مشاعر الوحدة أو الاحتياج لونيس آمن يصون الأسرار، فربما ينعم الإنسان الحديث من علاقاته بالكائنات الأخرى بنوع من السعادة ينبع من الإحساس بأمان وحرية يفتقدهما فى حياته اليومية فى سياق المنظومة الاجتماعية ومعاييرها القيمية، وقد يتشابه هذا مع ما يتم من علاقات إنسانية وهمية عبر شبكة «الإنترنت» وبصورة أخرى يتشابه مع فكرة التخفى فى حفلات التنكر حيث التحرر من الأقنعة الاجتماعية المحددة لهوية الفرد بارتداء قناع يكسبه هوية مجهولة ينعم من خلالها بقدر من الحرية، فمثل هذه الأفكار تنبع من دوافع نفسية اجتماعية، وفى حالة «برونيللا» يأتى الفن متمثلاً فى التصوير ليجمع بين عالمين مختلفين غير متكافئين وربما يتكاملان فى سلام وتآخ رغم أن أحدهما يمتلك أسباب التفوق الذهنى والعضلى، فهل يدوم هذا السلام المؤقت؟.. ففى حقيقة الأمر أن ظهور هذه العلاقة عبر الفن الآن يعد أمراً مدهشاً يحتمل الكثير من التأويل فى ظل سياق عالمى يفتقر إلى السلام والأمان ويستثير غرائز التوحش والافتراس الخامدة أو التى هذبتها حكمة الحضارة، وهنا تأخذ تجربة الفنانة الإنجليزية أهميتها فى كونها تشير إلى أزمة الإنسان المعاصر من

كل أبعادها، فتمثل احتجاجاً بليغاً على ما آلت إليه حالة الإنسانية من ترد على أيدى الساسة ومن وجهة نظر أخرى حينما نحصر التجربة فى طبيعة العلاقة النفعية المادية بين طرفيها، وذلك فى ضوء نظرية البقاء للأقوى، التى تحكم عالم اليوم بنظريات استعمارية جديدة، فسنجد أنفسنا أمام تساؤلات أهمها: هل هى محاولة خادعة من الإنسان الأقوى صاحب العقل والذاكرة التاريخية لفريسته الفراخ المدفوعة بغرائزها؟.. أم أنها لعبة استعمارية خادعة تتوازى وثقافة التمويه والتخفى تحت ستار السلام وحقوق الإنسان والحيوان وغيرها.

ويعد هذا الطرح الذى يبدو مدفوعاً بسياقاتنا المعاصرة التى لا تخل من الحذر والشك والارتياب، نعود ونتجرد من كل هذا وننظر لأعمال «برونيللا» على أنها نابعة من رؤية خالصة مدفوعة بخبرة إنسانية حياتية بريئة، تنتقل فيها القيمة النفعية للفراخ إلى أخرى معنوية نفسية جمالية فى إطار لغة فنية لها دلالاتها الرمزية بفعل معالجات الخط واللون وتوظيف طاقاتها التعبيرية وإمكاناتهما الوصفية لتجسيد أجواء لها ملامح مكانية زمانية خاصة تقترب من الطبيعة مجردة من واقعها المألوف، إذ نرى «برونيللا» متمثلة فى فروجها بين رمال صفراء أو فى وسط العواصف ورياح الخماسين بين الأرض والسماء، أو تحت أمواج بحر زرقاء، أو فى قلب حمم بركانية حمراء، فهى فى جميع الأحوال تحيا فى طبيعة تتدفق صياغاتها الفنية بدلالاتها الطبيعية والرمزية من مشاعرها مباشرة، متأثرة بالمعطيات المرئية لبيئة جديدة عليها تخضع لشمس قوية يسطع ضوؤها فيجعلها متباينة مع تلك الأجواء الباستيلية التى نجدها فى أوروبا الغربية، فأصبحت الفراخ وما تحيا فيه من أجواء تجسيداً للتجربة الشعورية للفنانة «برونيلا» مع الحياة المصرية عبر رحلاتها وجولاتها فى ربوعها المختلفة، فتتدفق إيقاعاتها اللونية من طاقة روحية غامضة، فتقترب من هؤلاء الرمزيين أمثال «أديلون ريدون» فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذين خاضوا تجربة مقاومة الثقافة المادية التى سيطرت على الحياة الأوروبية فى ذلك الوقت، ويبقى المكان هو المثير الإبداعى لتجربة «برونيلا» التى من أحد جوانبها تذكرنا بتجربة المستشرقين مع مصر ومعطياتها البصرية مع اختلاف الهدف أو الغاية.

وهكذا بين برونيللا الإنجليزية والمصرى محمد صبر تتجلى الموضوعات التقليدية للطبيعة فى سياقات معرفية متمايزة وتكتسب كل منها خصوصيتها من ذاتية صاحبها. ■

أشعار لها أنغام

بقلم
فرج العنتري

ثابت أن ارتباط الشعر بالموسيقى له تاريخ طويل يمتد من أحقاب البداوة الأولى للمجتمعات حتى الآن وقطعاً لما بعد الآن، وفى حال من العمومية التى سادت وتسود كل الشعوب الناهضة بدون استثناء. وبذلك فلا ولن تأخذنا الدهشة إذا ما وجدنا أن نفس كلمة «شاعر» العربية ثابتة فى كلمة «شارو» Sharu الدالة على «رئيس جوقة الإنشاد» فى اللغة الآشورية»، وأن كلمة «شيرو» Shiru التى كانت تدل على «الترتيلة» فى اللغة الآشورية، أيضاً لها نفس الدلالة فى كلمة «شعر» العربية، وأن كلمة «زمارو» Zamaru الآشورية تتناظر كذلك مع مفهوم كلمة «زمراه» Zimrah الدالة على كل من صيغتى «الأغنية» و«المزمور» فى اللغة العبرانية، كما تتناظر مع نفس كلمة «زمر» العربية.

ونفس هذا التلازم نجده متحققاً كذلك فى اللغات الأوروبية إذ أن الكلمة الانجليزية القديمة Glee التى كانت تدل فى حينها على شخصية «الموسيقار» Musician، إنما صدرت أصلاً عن كلمة Gelo التى كانت تدل على «الشاعر المنشد»، وأن تسمية «التروبادور» الإسبانية Trobadors قد استولدت لدلالتها مسميات مختلفة التهجي فى كل من جهات شمالي وجنوبي فرنسا وإيطاليا وفى ألمانيا هى على التوالي: تروفير Trouveres، مينسترال Minstrels –، مينيسنجر Minesingers، ماسترنجر Mastersinger، ولنا نحن العرب أن نتباهى هنا بأن الأصل فى نشأة وظهور المصطلح الإسبانى «ترو بادور» إنما هو راجع بشهادة التاريخ إلى المصطلح «العربى»، «طرب دور» الذى كان يشير إلى «دور الطرب»!!

وأما عن قيمة وفاعلية ذلك «الشاعر المنشد» بين ذويه، فإن نشاطه لم يكن يقتصر وحسب على تمديح الرؤساء والحكام، وإنما كان عليه أن يولى أكبر اهتماماته الإنشادية إلى صوغ فن «التأريخ المنغوم» لتخليد بطولات الصناديد، وعلى بثه فى وجدانات وذاكرة الجماهير بأسلوب حماسى يعتمد على مؤثرات تعبيرية من قوة التلفظ والتفخيم، وعلى المبالغات فى التصوير، وبمراعاة دقة التحرى فى سرد

تفاصيل الوقائع من مبتدئها إلى منتهاها ، ومع ذكر أدوات القتال ومصادر صناعتها؛ وبالعمل أساساً على ذم الأعداء بأقبح وأوجع معايبهم ... . وبكل ذلك سنجد هذا الدور بحسب مفهومنا العصري أشبه شيء بمحطة إرسال إذاعية توجه مواد برامجها المنتقاة إلى متسع الجبهة الداخلية في مناسبات السراء والضراء وحين البأس وهي مدعومة بنوع من صدح التنغيم الملائم والباعث على الانتفاضة في أوقات التعبئة العامة لسبب أو لآخر.

وبهذا المفهوم حاز «الشاعر المنشد» في مجتمعه التاريخي أعلى مستويات التجلة والتقدير، وإلى الحد الذي كان يستحيل في كثير من المجتمعات الأوروبية القديمة أن توكل مهمته لغير طبقة «الأحرار»، ويكفي شاهداً على مراعاة هذا الامتياز أن البريطانيين المشهورين منذ القدم بوجوب التزامهم بمراعاة الفروق الطبقية، كانوا يضعون مرتبة «شاعرهم الموسيقار» Gleeman تاليا في المراسم على طبقتي النبلاء Scop والحاشية، وهذا مع ماثبت من أن شاعرهم الغنائي هذا كان محترفا يؤدي فنه نظير الأجر، بل وكان يمارس إلى جانب إنشاده ضروبا من حركات التقافز الاكروباتي، ومن ألاعيب الحواة الذين يضعهم مفهومنا العصري في زمرة «المحبظين» أو في مستوى «الأديب الأدباتي»!!

وفيما يتعلق بأقدم نماذجنا العربية للحقبة البدوية يمكننا أن نستشهد بالدور المشهور لشاعر نجد وفارسها عنترة العبسي المتوفى حوالي سنة ٦٠٠م إذ أنه في بطولاته القتالية وحسبما جاء في نص أشعاره كان:

فتى يخوض غمار الحرب مبتسما
وينثني وسنان الرمح مختضب
إن سل صارمه سالت مضاربه
وأشرق الجو وانشقت به الحجب

وبأنه أثناء معاركه كانت صورة معشوقة قلبه تراوده في معمعان قتاله الدامي فيناجيها والسيوف تنوشه من كل جانب في قوله:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم!!

وكذلك نجد في أشعار عمرو بن كلثوم - سيد بني تغلب وشاعرها - آيات تعبيرية لا ضريب لها قط في منتهى الشموخ بذويه بني تغلب إباء وبطشاً وكرما وزهوا ورجولة بل وحتي لطفولتهم فيما يلي من معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
وقد علم القبائل من معد

إذا قبــــب بأبطحـــــها بنينــــــا

بأنــــــا المطعمـــــون إذا قـــــدرنا

وأنــــا المهلكـــــون إذا ابتلينــــــا

وأنـــــا المانعـــــون لمــــا أردنــــا

وأنــــــا النـــــازلون بحيث شـــينا

وأنـــــا التــــاركون إذا ســـخطنـــا

وأنــــا الآخـــــذون إذا رضـــــينا

ونشـــرب إن وردنــــا المــاء صـــفوا

ويشـــــرب غيـــرنا كـــدرا وطيـــنا

وإن بلـــغ الفطـــام لنــــا وليـــد

تخـــر لـــه الجـــبابر ساجديـــنا

وحسب الدلالة لصورة هذا الشموخ التغلبى أن تشير إلى أن طفلهم الرضيع لايكاد يبلغ سن الفطام حتى تمنحه القصيدة مراسم انحناء كل رؤوس الأكابر فى زمانهم!!

فإذا انتقلنا إلى نماذج من النظم الانشادى فى فجر الإسلام لأمكننا أن نجد ضمن التجهيزات الميدانية فى جيش المشركين لغزوة أحد طاقما كوراليا من نساء قريش بقيادة « المايسترو » هند بنت عتبة التي تولت مهمة ضبط وربط التوقيع لإنشاديات التحريض والتحميس بدقاتها على طبل الدف فى عبارات واعدة بمتعة الثواب النسائى الشهى مكافأة لحيازة النصر، وإلا فبالعقاب الفاضح والطلاق القاطع إن حدثت الهزيمة فى النص المشهور:

نحن بنــات طـــارق   نمشـــى على النمـــارق

مشى الخطا البوارق   والمسك فى المفـــارق

إن تقبلـــوا ، نعانــق   ونفـــرش النمـــارق

أو تدبـــروا نفـــارق   فـــراق غيـــر وامـــق

زوج المـولى طالــق   والعــار منــه لاحــق

وما أن كادت بوادر النصر تميل فى البداية لصالح الجيش الإسلامى حتى ضاعفت هند بنت عتبة من وخز لذعات التحميس بكورالها الزاعق:

ويهـا ، بنى عبد الدار   ويهـــا، حمـــاة الأديـار

ضربا بكل بتار

فكان أن انعكست النتيجة بأن دارت الدائرة على المسلمين فعلا كما هو معروف!!

وكذلك تحدثنا السيرة الطيبة عن فاعلية القدوة المثلى فى نموذجية الصمود بغزوة «حنين» عندما أعجب المسلمين كثرتهم «فلم تغن عنهم من الله شيئاً وضاقت عليهم الأرض بما رحبت» فولوا مدبرين أمام المشركين من هوازن، وتركوا رسول الله وحده يجالد منفرداً وهو يصيح بدوى نشيده:

أنـــا النبـى لا كـــذب   أنـــا بن عبـــد المطلـــب

ففعلت صيحاته الأفاعيل فى النفوس الأبية من آل بيته ومن الانصار فرجعوا جميعاً ، ونازلوا فجالدوا حتى أنزلوا بالعدو أوجع هزيمة تاريخية ساحقة.



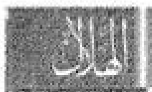
وإذا انتقلنا إلى محصول حياتنا المعاصرة من أشعار وأنغام المقاومة في الإباء، ولتحقيق الحياة الانسانية الحرة والكريمة بعد أن ضاقت بلادنا ذرعا من وطأة معاناة الكبت والظلم الاجتماعي، ومن وجود المحتل الانجليزي في قاعدة قنالنا، سنجد سعير السخط الجماهيري مدويا في سنة ١٩٥١ بأيات النشيد الذي ابتعثته أحداث الفدائيين في منطقة قنال السويس قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، والذي كان قد انحبس إرساله إذاعيا فما تم الإفراج عنه إلا في يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢، وتعدلت في مطلع أبياته صيغة ضمير المخاطب من «كنت» إلى «أنت» بالصراحة المباشرة، وبالعنوان الصريح بأنه «نشيد الحرية» لمصر، في نظم كامل الشناوي وميلوديا وغناء محمد عبد الوهاب، وبالتوزيع الأوركسترالي والهارموني للفنان الايطالي جوليو لاباتي، وبالمقدمة الحيوية المشهورة التي ظلت حتى الآن شعاراً لنشرة الأخبار في إذاعتنا، وبما يلي من ضدع الشعر وصدح التنغيم في هذه الأبيات:

كنت في صمتك مرغم
كنت في حبك مكره
فتكلم ، وتألم، وتعلم كيف تكره
عرضك الغالي على الظالم هان
ومشى العار إليه وإليك
أرضك الحرة غطاها الهوان
وطغى الظلم عليها وعليك
قدم الآجال قربانا لعرضك
واجعل العمر سياجاً حول أرضك
وإذا ما هتف الهول بنا
فليقل كل فتى إني هنا
أنا يا مصر فتاك، بدمي أحمي حماك، ودمي ملء ثراك

***

بلدي، لاعشت إن لم أفتد
يومك الحر بيومي وغدي
نازفا من أعدائك ما
نزفوه من أبي وولدي
آخذاً حريتي من غاصبيها
سالبيها ، وبروحي أفتديها
هات أذنيك معي ، واسمع معي
صيحة اليقظة تجتاح الجموع
صيحة شدت ظهور الركع
ومحت أصداؤها عار الخضوع
أنا يا مصر فتاك ، بدمي أحمي حماك ، ودمي ملء ثراك

***



أنت إن لـم تتحـرر بيـدى يا بلـدى
فسأمضـى أتحـرر من قيـود الجسد
لا أبالـى الهـول ، بـل أعشـقه
لا أبـاليـه وإن مت صـريعـاً
إنـه لـو لـم أكـن أخلقـه
لأرى فيـه ضحايانـا جميعـاً
فاحتـرم بالذكـر ذكـرى شهدائك
بذلـوا أرواحهـم بـذل السخى
وانتقـم إن هـنا أزكـى دمائـك
وهنـا أمـى واختـى وأخـى
فى دماهـم أمـل النـيل توحـد
فى دماهـم دم عيسـى ومحمـد
أنا يا مصر فتاك ، بدمى أحمى حماك ، وبمى مله ثراك

***

ومع حدوث المعجزة الكبرى بتأميم قناة السويس - قناتنا! - فى سنة ١٩٥٦، قامت قيامة العدوان الثلاثى بضم شمل الاستعمارى التعس على خائب الرجاء الصهيونى لاستردادها، فهب الشعب كل الشعب بالسلاح وبنضال بذل الأرواح على مارش أبيات نشيدنا الوطنى التاريخى من نظم شاعرنا صلاح جاهين وموسيقارنا كمال الطويل ، وبحنجرة أم كلثوم العرب ، وترديد كورالات شعبنا:

والله زمان ياسلاحى   اشتقت لك فى كفاحى
انطق وقل أنا صاحى   ياحرب ، والله زمـان
والله زمان ع الجنـود   زاحفـة بترعـد رعـود
حالفه تروح لم تعـود   إلا بنصـر الـزمان

***

هموا وضموا الصفوف   شالوا الحياة ع الكفوف
ياما العدو راح يشوف   منهـم فى نـار الميدان

***

يامجـد ، يا مجـدنا   ياللى انبنيت عنـدنا
بشـقانا وكدنـا   عمـرك ماتبقـى هوان

وهو النشيد الذى قررته حكومة الثورة شعاراً رسمياً لمصرنا ، وظل كذلك إلى أن ألح الصهيونى الليكودى مناحم بيجين على تغييره فى عهد الرئيس أنور السادات، فتم استبداله بنشيد بلادى بلادى الذى جهزه وقاده اللواء الموسيقار محمد عبد الوهاب لأول مرة فى مراسم استقبال الرئيس السادات من كامب ديفيد سنة ١٩٧٨، فظل معنا النشيد الجماهيرى الذى كانت قد استولدته قيامة العدوان الثلاثى بمقذوفاته التعبيرية من نظم عبد الله شمس الدين ولحن محمود الشريف لأداء المجموعات الكورالية، وبالتالى اتخذته الشقيقة ليبيا نشيدها الرسمى بنفس نصه ولحنه:



الله أكبـــر فـــوق كيـــد المعتـــدى
والله للمظـــلوم خيـــر مـــؤيـــد
أنـــا باليقـــين وبالســـلاح سأفتـــدى
بلـــدى ونـــور الحـــق يسـطع فى يدى
قـــولـــوا معـــى ، قـــولـــوا معـــى
اللـــه اللـــه اللـــه أكبـــــــر
الله فوق المعتدى
يا هـــذه الدنيـــا أطلـى واسـمعى
جيش الأعـــادى جـــاء يبغـى مصرعى
بالحــــق ســـــوف أرده وبمدفعـــى
وإذا فنيـــت فســـوف أغنيـــه معـــى
قـــولـــوا معـــى ، قـــولـــوا معـــى
اللـــه اللـــه اللـــه أكبـــــــر
الله فوق المعتدى
قـــولـــوا معـــى الويـــل للمســـتعمـــر
والله فـــوق الغـــادر المتكبـــــر
الله أكبـــر يابـــلادى كبـــرى
وخـــذى بناصـــية المغيـــر ودمـــرى
قـــولـــوا معـــى ، قـــولـــوا معـــى
اللـــه اللـــه اللـــه أكبـــــــر
الله فوق المعتدى

ولدينا أيضاً تعابير النشيد الرسمى الخاص بثورة المليون شهيد الذين رووا بدمائهم تراب الوطن الجزائرى الشقيق وهو نشيد مفعم بتوكيدات القسم الثلاثى على حيازة النصر أو الشهادة فى أشعار أبو عبد الله صالح، وموسيقى محمد فوزى الحو وللأداء الجماهيرى بما يلى:

قســـمـا بالنـــازلات المـــاحقـــات
والدمـــاء الزاكيـــات الطاهـــــرات
والبنـــود اللامعـــات الخافقـــات
فى الجبـــال الشامخـــات الشاهقـــات
نحن ثرنـــا فى حيـــاة أو ممـــات
وعقـــدنا العـــزم ان تحـــيا الجـــزائر
***
نحن جنـــد فى ســـبيل الحـــق ثرنـــا
وإلى اســـتقلالنا بالحـــرب قمنـــا
لم نكن يصـــغى لنـــا لمـــا نطقنـــا
فاتخـــذنا رنـــة البـــارود وزنـــا
وعزفنـــا نغمـــة الرشـــاش لحـــنا

وعقـــدنا العـــزم أن تحيا الجـــزائر

***

نحـن من أطفـــالنا نصـــنع جنـــداً
وعلـــى أشلائنـــا نصـــنع مجـــدا
وعلـى أرواحنـــا نصـــنع خـــلدا
وعلى هـاماتـــنـا نرفـــع بنـــدا
جبهـــة التحـــرير، أعطينـــاك عهدا
وعقدنـــا العـــزم أن تحـــيا الجـــزائر

***

صـرخة الأوطـان فى ســاح الفـــدا
إسـمعوهـا واســتجيبـوا للنـــدا
واذكروهـــــا بدمـــاء الشـــهدا
واقرأوهـــا لبنـــى الجيـــل غـــدا
قـــد مددنـــا لـك يامجـــد يـــدا
وعقـــدنا العـــزم أن تحـــيا الجـــزائر

***

وعن أوجاع فلسطين التى تتداعى لهـا بالروح وبالدم والسـهر كافة شعوب القومية العربية حتى تنهض موفورة العافية والكرامة على أرضها، وبكامل حقها كدولة عاصمتها القدس، نستعرض فيما يلى نفثات حارة عنها ولها من المختارات فى نظم الابنودى، ولحن بليغ حمدى، وتوزيع على إسماعيل، وأداء عبد الحليم حافظ والمجموعة، وفى «كلمة لكل الدنيا»:

ياكلمتى لفى ولفى الدنيا طولها وعرضها
وفتحى عيون البشر ع اللى حصل على أرضها
على أرضها طبع المسيح قدمه
على أرضها نزف المسيح أله
فى القدس، فى طريق الآلام، وفى الخليل
رنت تراتيل الكنايس فى الخلا، صبح الوجود إنجيل
نفضل نضيع فيك لأمتى ياطريق الآلام
ولأمتى فيك يمشى جريح
ولأمتى فيك يفضل يصيح
مسيح وراه مسيح على أرضها
تاج الشوك فوق جبينه
وفوق كتفه الصليب !

***

دلوقت ياقدس ، ابنك زى المسيح غريب
تاج الشوك فوق جبينه وفوق كتفه الصليب
خانوه نفس اليهود!!

ابنك ياقدس، زى المسيح لازم يعود
على أرضها لازم يعود، على أرضها لازم يعود.

***

وعن «دق أجراس العودة» فى نظم ولحن وأداء الرحابنة العظام عاصى ومنصور وفيروز التنغيم فى سمع شرقنا الأوسط، سينطلق استهلال النشيد فى أسلوبه العسكرى بصياح من نفير الاحتشاد، فتحدو فيروز فى تعجل آمر ينفعل له الرجال بردود من تحمس الاستجابة:

المجموعة :

سيف فليشهر فى الدنيا ، وتصدح أبواق تصدح
» » » » » » »
» » » » » » »
الآن الآن وليس غدا ، أجراس العودة فلتقرع
» » » » » » »

فيروز :

أنا لا أنساك فلسطين ويشد يشد بى البعد
أنا فى أفيائك نسرين أنا زهر الشوق أنا الورد

المجموعة :

سندك ندك الأسوار نستلهم ذاك الغار
ونعيد إلى الدار الدار نمحو بالنار النار
فلتصدح أبواق تقرع قد جن دم الاحرار

فيروز :

الآن الآن وليس غداً : ....

المجموعة:

.... أجراس العودة فلتقرع

فيروز :

الآن الآن وليس غداً : ....

المجموعة:

.... أجراس العودة فلتقرع

وقد لايتبقى من عرض النماذج إلا توصية عامة وهامة فى شكل أنشودة ختامية من نظم أحمد شفيق كامل وموسيقى كمال الطويل وإنما لأداء جموعنا من المحيط إلى الخليج بفهم، وإدراك ثورى قومى مبين:

خللى السلاح صاحى صاحى
لو نامت الدنيا، صاحى مع سلاحى
سلاحى فى إيديه ، نهار وليل صاحى
بينادى ياثوار ، عدونا جبار
خللوا السلاح صاحى ... صاحى ... صاحى!! ■

أم كلثوم أكبر من الحب

بقلم
محمد التهامى

تناول الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن بفنه واستاذيته ومقدرته الفائقة على التناول ما سماه خفايا قصة الحب بين رامى وأم كلثوم وذلك فى مجلة الهلال عدد شهر مارس ٢٠٠٤

وقد كتب الأستاذ محفوظ قصة وسيناريو مسلسل أم كلثوم وهو تلك التحفة الفنية التى أعادت إلى الأذهان صورة جميلة حية نابضة من تاريخ مصر الحديث بما حفلت به من تحركات وسكنات عظماء ذلك العهد الجميل فى مجال الغناء والموسيقى والأدب والاجتماع وحتى السياسة .

ولذلك فهو أجدر وأقدر من يكتب عن هذه القصة وخاصة وهو بما جبل عليه من شغف بالإتقان ومقدرة عليه تابع كل المراجع المتاحة وعايشها ثم صاغ المقال عن قصة الحب وهو يضع فى ثناياها الخطوط واللمسات التى تحدد معالم شخصية أم كلثوم وهو فى هذا المجال يقول : «أم كلثوم هى أشهر امرأة عربية بعد شجرة الدر» .



ويقول : إن أحمد رامي هو البطل الثاني للقصة ، أي أن أم كلثوم هي الشخصية الأولى .. ويقول : إن أم كلثوم كانت أقل استعدادا لقصة الحب فقد شغلها ولا شك أنها تتحول من مطربة ريفية تائهة بين القرى إلى مطربة مهمة في العاصمة .. ويقول عن أم كلثوم في أول عهدها بالقاهرة إنها كانت تلبس ملابس الرجال .. ويقول : تقول أم كلثوم في شهادتها : ووعد رامي أن يزورني بعد أيام في منزلي بعابدين ليقدم لي القصيدة بعد إتمامها .. ويضيف وهي صيغة لا نعرف منها إذا كان هو الذي اقترح أم هي التي دعته ونميل إلى الثانية لحياء رامي .. ويقول : وقدم العاشق تضحيته الكبرى بالتحول إلى ثقافة الشعر بالعامية ولا نعرف هل تجاوبت أم كلثوم أم توقفت عند استثمار هذا الحب وخاصة وأنه بغير زواج ليظل مصدر إبداع كبير .

وهكذا استطاع الكاتب الكبير أن يضع يده على أقدس أسرار أم كلثوم هذه الظاهرة البشرية الغريبة التي تفاعلت فيها معطيات بيئة مصرنا مع قدرات الموهبة الفطرية النادرة فصاغت حياة عبقرية قدمت فناً رفيعاً وسخرت كل طاقات الإنسان لتحقيق الهدف النبيل ، إذ كانت أم كلثوم لا تعرف شيئا ولا تأبه لشيء إلا للفن الذي اعطته كل مشاعرها واحاسيسها وقلبها وفكرها وعقلها وطاقتها بكل جهدها وأعطاها هو حتى أرضاها وأسعدها وكانت كثيرا ما تقول : «إني أحسدكم لأنكم تسمعون أم كلثوم وليتني استطيع أن اكون معكم لأسمعها» .


الشيخ محمد رفعت

وأم كلثوم كقامة مصرية عربية عالية وثروة فنية غالية ومعلم من معالم نهضتنا الحديثة في مجال الفن حين يكون الفن عاملا مؤثرا في جميع نواحي الحياة تستحق منا الكثير من الدراسة والتأمل واستخلاص العبرة الكبرى في أن الإنسان إذا أخلص وتفانى وبذل كل طاقته سيصل حتما إلى مبتغاه .

وليتنا نستطيع أن نعطي لفن أم كلثوم .. وقد أصبحت في ذمة الله .. من متابعة ودرس وتمحيص وتكريم وترويج وتمكين تجعله يشع ثقافة فنية تسبغ على جديدنا أصاله وتعطيه بريقا يتخطى الزمن ويؤكد الهوية في مجال الحداثة ففي غناء أم كلثوم ثروة فنية لا تقل عما في دراميات شكسبير التي غذا بها الانجليز ثقافة العالم وقالوا إنها إحدى دعائم الامبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس .

ولا يقتصر الأمر على إقامة التماثيل والمتاحف ولا على ترديد الأغانى كما هى بل يتعدى ذلك إلى دراسة جميع جوانب الإبداع الفنى ومحاولة تطويره لأن وثبات تطوير الغناء المعاصر عندنا الآن أصبحت وثبات عشوائية إلى المجهول فهى تنقل المتعة بالغناء من حاسة السمع إلى حاسة البصر وتجور على دور الكلمة وتجعل الموسيقى لا معنى لها وتحول الأغنية إلى رقصة «استربتيز» تكاد تفضى إلى إلغاء الغناء وتحويله إلى مجرد رقص .

وقد فتنت بأغانى أم كلثوم منذ نعومة أظفارى وتابعتها فى كل حفلاتها وقد تسنى لى فى أوائل الستينات أن اشارك فى حفل تكريم لها أقامه معهد الموسيقى العربية ابتهاجا بشفائها وعودتها من أمريكا وقد شارك فيها شعرا العقاد ورامى وكامل الشناوى وبيرم التونسى وغيرهم ، واذكر مطلع قصيدة العقاد وكان :

هلل الشرق بالدعاء

كوكب الشرق فى السماء

لو بقدر السرور نشدو

سبقناك فى الغناء

وكانت قصيدتى :

حدثونا يا صفوة الفن منا

ما الذى أطرب الوجود فغنى ؟

ولماذا تنغمت خطوات

لركاب الزمان فانساب لحنا ؟

ولماذا تزينت هذه الأرض

وأبدت من سحرها ما رأينا ؟

إن عرفتم وقد رأيتم أجيبوا

أو أجيبى يا أم كلثوم عنا

فيك سر من خالق الكون أدرى

بخفايا سرائر الكون منا

وقد أعجبت أم كلثوم بالقصيدة وأتيح لى من الاتصال بها ما عرفت به من بعض جوانب شخصيتها ومنطلقات أفكارها ودوافع تصرفاتها الكثير وقد طال الأخذ والرد بيننا طويلا حول أن تغنى شعرا لى أثرت أنا أن يكون وطنيا وأصرت على أن يكون عاطفيا وطال الأخذ والرد حتى اختارت أبياتا من قصيدتى عن فلسطين ومطلعها :

إن الذى زيفوه كله كذب

ما لليهود بدار أهلها عرب ؟

وقد اختارت بيتا من أخريات القصيدة لتبدأها به هو :

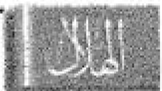
قد أذن الفجر فارتاح الألى صبروا

كم جن بالفجر سهران ومرتقب

وقد غيرت العبارة الأخيرة من البيت فجعلتها كم حن للفجر سهران ومرتقب

ولم تسعفها الأيام حتى تغنيها مع أنها كانت متحمسة لها وقد كررت أكثر من مرة - والله شاهد - قائلة : «إن حلمى الكبير أن أغنى للعرب فى تل أبيب»

ومن شدة افتتانى بغناء أم كلثوم كنت أحلم بأن تكون لها مدرسة تتبنى فيها



المواهب وتنميها على طريقتها وتشجعها وكتبت ذلك فى جريدة الزمان التى كنت أعمل بها فلم يعجب ذلك أم كلثوم وقالت لى أن أصحاب بوادر المواهب يستعجلون المكاسب ولا يتحملون المعاناة الواجبة ويظنون أن الطريق مفروش بالورد وضربت مثلا - وقد نشر رأيها هذا فى الصحف فى حينه بوالد نجاة الصغيرة - وقد لقبت بالصغيرة حينذاك لتمييزها عن المطربة نجاة على .. الذى يقدمها إلى الجمهور على صغر سنها وعدم تفرغها للدراسة فى المعاهد الموسيقية ولو تفرغت للدرسة لحققت نجاحا اكبر .

كانت أم كلثوم تعرف مدى ما بذلته فى سبيل التكوين وتذكره جيدا وتقدره وتعتز به وقد ذكرت أنها فى جلسة عائلية مع أحد رؤساء وزراء مصر (مصطفى النحاس) وحرمه (زينب الوكيل) وأحد أصدقاء الأسرة (فكرى أباظة) قالت لها حرم الرئيس :

- يا بختك يا أم كلثوم فقد أصبحت غنية جدا .

- لا يا سيدتى أنت أغنى منى .

- أغنى منك !! هل تبادليننى ؟

- نعم أبادلك ولكن بشرط أن استبعد من ثروتى (هرش العدة)

- ما هو هرش العدة ؟

- أى أن استبعد ما كسبته بعرق جبينى .



ابرهيم ناجي

إن أم كلثوم كانت تعشق الغناء إلى حد الهوس والفناء فيه والترهب فى محرابه وجعله المحور الذى تدور حوله كل عناصر حياتها كانت تقول بفرح شديد إنه من الغريب جدا أن بعض الأطباء فى مصر كانوا ينصحون بالتوقف عن الغناء للعلاج بينما الأطباء فى أمريكا كانوا يرون أن الغناء علاج لى ، وكانت تغنى وتستغرق فى الغناء وتتفنن فيه حتى وإن لم يدرك الجمهور أبعاد هذا التفنن فهى تغنى لنفسها.. قلت لها يوما وأنا أحاول إثارة غيرتها من منافسها الأكبر : إنى سمعت فنانا يعيد ويكرر عبارة واحدة فى الأغنية ٦٥ مرة قالت : عرفته ولكن هل فهمت من التكرار اختلافا فى المعنى ؟ إنه يقول فى إحدى المرات «آه لو كنت معى» ويطيل فى التاء كأنه يضيف إليها ألفا وكأنه يخاطب المثنى فهل هذا ما يقصده ؟ أم أنه تكرار عشوائى .. فقلت لها وأنت أيضا تكررين طربا وانسجاما فقالت نعم أنا أكرر ولكن لا أكرر إلا بتغيير المعنى وأنا فى هذه الليلة - وكانت ليلة الحفلة الشهرية - سأغنى أغنية فيها عبارة «واسلم الروح إليك» وسأكررها ثلاث مرات وأريدك أن

تتابع ثم تقول لي ماذا فهمت .

وبعد الحفلة وسماعي الأغنية سألتني عما فهمت من تكرارها لعبارة «واسلم الروح إليك» ثلاث مرات .. وفي الحقيقة لم استطيع الإجابة بأكثر من إعجابي الشديد بما سمعت فقالت : يا سيدي وأنت من متابعي غناء أم كلثوم ومثلك الكثيرون لا تدركون أبعاد التصرف في أداء معاني الكلمات وإيحاءاتها ودلالاتها ومعانيها مما يجعل أم كلثوم تغني لنفسها وحدها بالرغم من كثرة المعجبين المتحمسين لما يسمعون .. إني انطق كلمة «واسلم» في المرة الأولى فاضغط على جميع الحروف بدرجة واحدة سريعة مما يفيد معنى السلام والتحية وفي المرة الثانية أضغط على حرف اللام بشدة مما يفيد تسليم الأمانة وفي المرة الثالثة أمد حرف الواو بما يفيد الإستسلام .

وفي أغنية أخرى شرحت أداء عبارة «صبرت سنين على بعدك» فقالت: إنها تغني كلمة سنين في المرة الأولى بطريقة عادية لا تضغط على أي حرف فيها بما يفيد المرور العادي للزمن مع أمل اللقاء وفي المرة الثانية تطيل حرف الياء مع الضغط على حرف النون بما يفيد طول زمن الانتظار مع مرارة الاحساس بالبعد وفي الثالثة تطيل حرف الياء ولا تضغطه على النون بما يفيد طول الإنتظار مع اليأس من اللقاء .

وهذه الأغاني وغيرها مسجلة وموجودة وتسهل مراجعتها للتأكد من صدق هذا الشرح مما يوضح جمال وعبقرية الفن في غناء أم كلثوم التي يجب أن تلفت الأجيال إلى عظمتها ونبوغها .

أما ما ذكره الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن من استثمار أم كلثوم القدرة الفنية عند الشاعر أحمد رامي وتوجيهه إلى الإبداع باللغة العامية التي كانت تريدها ثم عدم زواجها منه بالرغم من حبهما الكبير لضمان استمرار توهج الحب في الإبداع فهذه حقيقة أدركها الكاتب بحدسه ولو كان جالس أم كلثوم واستمع إلى خفايا أسرارها لأدرك أنه أصاب كبد الحقيقة بحذافيرها .. فقد كانت أم كلثوم تكرر كثيرا : أن أهم ثمرات الحب هي ما يبدعه المحبون من فن .. فالحب زائل أما الفن فهو الباقي .

وقد كان الشاعر ابراهيم ناجي يحلم ويحاول أن تغني أم كلثوم من شعره في حياته وكان كثير التردد عليها وقراءة شعره لها ولكنها لم تستجب له ويشاء القدر أن تغني له بعد وفاته أشهر أغانيها «قصيدة الأطلال» وقد جمعتني جلسة في معهد الموسيقى العربية مع الشعراء صالح جودت وابراهيم ناجي ومصطفى عبدالرحمن ودار الحديث عن إصرار أم كلثوم حينذاك على غناء شعر أحمد رامي فقط رغم وجود الكثيرين من الشعراء

المعاصرين المجيدين واقترح صالح جودت وأصر الحاضرون على أن أحمل تساؤلهم هذا إلى أم كلثوم وقد كان فقالت أم كلثوم بعد فترة صمت : سأقول لك ما لم أقله لأحد : إنى أغنى شعر رامى لأنى اعتقد أنى ملهمة هذا الشعر وأن لى يدا فى إبداعه وإنى أعرف كل وجه اليقين كل خفايا دوافعه .. وقد تأثرت كثيرا عند سماعى هذا الكلام حتى قلت شعرا مرتجلا اسمعتها إياه فور سماعى لقولها مع إنى عادة لا أرتجل الشعر وهذا الشعر هو :

يا مبدع اللحن توحيه وتلهمه
وأعذب الشعر ما غناه ملهمه
قد صغته مرة فى قلب قائله
وصغته مرة فيما ترنمه
فأنت تعرف ما لم يبد قائله
وأنت تكشف ما يخفى ويكتمه
فكم سمعنا من الأنغام ما عجزت
عنه القوافى وحارت كيف تنظمه
إن قصر اللفظ عن معنى يراد به
فلحنك الحلو للمعنى يتممه
إن دق معنى وجدنا فى تصوره
فأنت تفهم ما فيه وتفهمه

وهكذا امتدت شخصية أم كلثوم فى تجلياتها الفنية حتى أنها تكاد تشارك فى التأليف وتتفنن فى الأداء وتطوع حروف الكلمات للمعانى المختلفة وتجعل من الغناء عالما فنيا يجمل الحياة ويشيع المتعة بها


محمد عبد الوهاب

ويبث السعادة فيها وتلك أقصى غايات الفن.

وأم كلثوم فضلا عن النعمة الربانية فى طبيعة صوتها وأدواته وفضلا عن اجتهادها المستميت فى سبيل تطوير الموهبة وفضلا عن تجاربها التى لا تحصى فى لقاءاتها مع مختلف الشخصيات من جميع الأوساط وتأثرها بهم وتأثيرها فيهم إلا أنها كانت تدير هذه العلاقات مع الناس بحكمة ومقدرة بالغة وحسن تصرف .. فهى التى غنت أمام الملك فاروق فى حفلة النادى الأهلى : «واحنا معانا بدر طالع فى ليلة قدر» وحصلت على وسام (صاحبة العصمة) إلا أنها - حسب قولها - رفضت الغناء للملك فى التليفون بينما غنت فى التليفون لطفلة غريبة عنها مريضة فى المستشفى حتى تنام .

وكانت تتخير لصداقتها ، وإذا صادقت أحبت فقد كانت صديقة لأسرة محمود فهمى النقراشى باشا وكانت ترى فيه الرجل الوطنى الصادق النزيه ولما اغتيل تأثرت تأثراً كبيرا وبكت طويلا وطلبت منى أن اكتب شعرا فيه أنفاس الرثاء حتى تغنيه وألحت علىّ فكتبت مطلعا

لقصيدة يقول :

عهدتك لا تضن ولا تغيب

رويدك أيها الأمل الحبيب

ولكنى كنت أعرف أنها مغالية فى أحزانها وأنه انفعال وقتى فلم استرسل فى الكتابة وقد غضبت منى غضبا شديدا واتهمتنى - على حد قولها - بالخوف من الإخوان .

كانت أم كلثوم مغرمة جدا بشعر التراث تحبه وتتخير منه وتتعمق معناه وتسأل عن خفاياه وكانت تحفظ قصيدة ابن الرومى فى المغنية (وحيد) .

خليلى تيمتنى «وحيد»

ففؤادى بها معنى عميد

غادة زانها من الغصن قد

ومن الظبى مقلتان وجيد

وكان يعجبها جدا قوله «وتغنى كأنها لا تغنى» وكانت تنتقد من يرهقون أنفسهم فى الغناء وتقول إنهم يرهقون المستمعين معهم .

وكانت تتعمق معانى الكلمات وتعيش فيها معايشة صادقة عميقة جدا وكانت تقول إنها وهى تغنى «وإذا رحمت فأنت أم أو أب .. هذان فى الدنيا هما الرحماء» .. تتذكر أمها وتهطل دموعها ولكنها مع كل هذا العمق كانت قادرة على أن تنتقل من حال إلى حال فى لحظة ، ففى غنائها من قصيدة أبى فراس «وأذرفت دمعاً من خلائقه «الكبر» تخفض رأسها والدموع فى عينيها ثم ترفعها فى شموخ عند كلمة «الكبر» وفى رباعيات الخيام «يا عالم الأسرار علم اليقين» ترتفع فى رقة كلمة الأسرار حتى تصير خيطا رفيعا جدا من النور ثم تهبط فجأة بقوة شديدة فى كلمة «علم اليقين» .

كانت أم كلثوم تضحك كثيرا عندما كانت ترى بعض المغنيات يحاولن تقليدها فى الإمساك بمنديل عند الغناء وتقول إنى لا أمسك المنديل اعتباطا أو كنوع من أنواع (الديكور) ، ولكن حقيقة الأمر أنى استغرق فى الأداء بكل أعصابى ومشاعرى وأحاسيسى وأبذل غاية الجهد إلى أن يتفصد العرق من كفى وكنت وأنا صغيرة أغنى وأنا ارتدى ثوبا من القطيفة كان أبى يشتريه بأغلى الأثمان فى وقتها وكنت أجفف عرق يدى اثناء الغناء فى ثوبى مما يؤثر فيه وكان أبى يؤنبنى على ذلك حتى تصادف وجود أحد الأصدقاء فاقترح أن أمسك منديلا اثناء الغناء أجفف به عرق كفى ، وقد كان وأصبح ذلك ملازما لى وكنت اتخير المناديل فأصبح ذلك مظهرا من مظاهر الأناقة.

كانت أم كلثوم معجبة بقراءة الشيخ محمد رفعت للقرآن وتحب سماعة لقدرة الصوت وبراعة الأداء وحسن استثمار الموهوبة فى تقصى المعانى ، وقد حدث مرة أن كان الشيخ رفعت يقرأ فى سرادق بجوار منزلها فى الأربعينيات وكان الوقت

شتاء وكانت تعانى من البرد ولكنها فتحت النافذة ووقفت بها طيلة القراءة حتى أصيبت بنزله برد عانت منها مدة طويلة .

اعتقد أننا بالرغم من كل ما قيل وما كتب عن أم كلثوم ومسيرتها الفنية وعطائها الكبير ستظل فى حاجة ماسة لكثير من الدراسات لغنائها كظاهرة بارزة ومميزة من الظواهر الفنية فى تراثنا الغالى الذى يلمع فى تاريخنا المعاصر ويصبغ ثقافتنا ويثرى هويتنا ويميزنا عن غيرنا بما فيه من رومانسية طاغية الجمال والتأثير وما به من إرساء لقواعد فن رفيع له أثره البالغ فى أذواق الناس وسلوكياتهم .

وخاصة وأنه كما قدمنا فإن الوثبات الحديثة خرجت بالغناء عن المألوف خروجا شديدا كاد يقضى عليه ولابد من التشبث بالغناء الحقيقى حتى تعود السيطرة إلى غناء أم كلثوم التى لا تزال أغانيها حتى الآن مسيطرة على السوق بالرغم مما يبذل اعلاميا فى الترويج للحداثة الرعناء .

وفى الفترة الذهبية التى تسيد فيها الغناء عندنا فى أوج سلطانه الرفيع بأغانى أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش واسمهان وعبد الحليم حافظ وغيرهم ، بدأت ملامح التغيير العشوائى على استحياء فى ملامح الخروج فى بعض أغانى مطربة لبنانية شهيرة ، وقالت أم كلثوم فى حينها إن هذا تستطيعه كل انثى مغنية أو غير مغنية وتقول إنها فى غنائها بيت أحمد شوقى - كما سبقت الاشارة ..


محفوظ عبد الرحمن

وإذا رحمت فاتت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء

كانت تتذكر أمها وتنسى نفسها فتطيل فى همزة الرحماء دون أن تشعر ولكنها سرعان ما كانت تعود إلى نفسها وتشعر بالخجل - على حد قولها - وتسرع فى الأداء بإحساس الفنان الملتزم المسئول أمام الجماهير ولما لمعت تحت الأضواء مطربة جزائرية كبيرة وكانت ترتدى ثوبا له (ديكولتيه) واسع كانت أم كلثوم تسخر من ذلك قائلة : إن هذه المطربة تغنى باكتافها .. وبديهى أن فى كلام أم كلثوم هذا بعض دوافع الغيرة وخشية المزاحمة لأنها بشر .. ولكنها كانت بهذا تحاول الوقوف أمام التيار الجارف للانحدار فى مجال الغناء الذى اكتسحنا هذه الأيام .

ولا يسعنى أخيرا إلا أن اشكر الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن الذى فتح لنا باب الحديث عن أم كلثوم فى مجلة الهلال رائدة الثقافة والعلم والمعرفة . ■

التكوين

ليست الحياة إلا تكوينا متصلا على مدار الأيام والتجارب

د. هدى وصفي

ثمة صعوبة ما فى مسألة الكلام عن الذات ، فأن تتخذ من نفسك موضوعا هو أمر ينطوى على تجربة شاقة ، ولذلك كنت أتردد دائما فى الإقدام عليها ، وهذا قد يرجع - ربما - لتكوينى الأكاديمى ، وعادات البحث العلمى التى نشأت عليها ، والتى تجعل «الموضوع» شيئا خاضعا لأشكال من التأمل الصارم تتقصى خطوطه السلبية والإيجابية والتطورية ، تأمل مشروط بالقدرة (المدربة) على اتخاذ مسافة فاصلة بين الذات والموضوع ، أما أن تصبح الذات هى نفسها موضوع التأمل فهذا بالتأكيد أمر صعب .

ولذلك حينما طلبت منى مجلة «الهلال» أن أكتب عن تكوينى الفكرى والمهنى ، لا أخفى أننى ترددت قليلا ، وذلك لأن التقاط نقاط منفصلة على مسار زمنى متصل يمكن أن يكون بالنسبة لى عملا صعبا ومراوغا ، فهو يفترض مسافة وهمية بين حياة متكونة عشتها قبلا ، [illegible]ذات تراها فى لحظة مفارقة ، هى أنا ، الآن .





ولكنى غالبت ترددى ، وقد استهوتنى الفكرة وأغرتنى على الكتابة، ليس استرجاعا لزمن أو استدعاء لوقائع بل تأملا متسائلا عن الأيام التى عشتها ، والتجارب التى مررت بها ، والخطوات التى سرتها فى طريق لم تكن محددة ولا واضحة ، ولكنها تدريجيا تحددت واتضحت ، أو هكذا آمل أو أظن .

وانتبهت إلى جمال الاقتراح ودقته اللغوية المتمثلة في تلك المفردة الموحية : التكوين وفكرت أن تكون البداية مستوحاة منها، فليست الحياة إلا تكوينا متصلا ودائما على مدار الأيام والتجارب ، الوجوه والوقائع والتفاصيل والذكريات ، بهذا المعنى ، فإن التكوين يظل بالنسبة لى مشروعا دائما ، يكاد يكون يوميا ، ويظل احتمالا لا خبرة منقضية ويظل رهانا لا فعلا متحققا .

ولعلنا نذكر التسمية التى وضعها الدكتور شكرى عياد لتكون دالة على حياته ومشروعه الفكرى : العيش على الحافة . إلا أننى نقيضا لذلك – وليس هذا اجتراء على مقام الدكتور شكرى – عشت فى وسط الطريق ، فى قلب التزاحم والناس والعمل اليومى والإصرار المثابر ، البحث العلمى عندى



د. هدى بعد أن منحها جمال عبد الناصر وسام عيد العلم الثامن

التكوين

ليس مراجع وافتراضات وإجراءات منهجية فقط ، ولكنه سؤال اجتماعى ، والعمل الثقافى ليس استهواء نخبويا ولكنه مشروع أطرحه واختبره فى الشارع والمسرح والجامعة .

وهكذا ، أكتب الآن مركزة على فواصل أو نقاط أراها دالة على تكوينى ، بالمعنى الذى أشرت إليه ، أى باعتباره فعلا متجددا وممارسة متصلة ويومية ، وليس فعلا منقضيا أو خبرة مكتملة .

ولكن طالما أن الحديث هنا يدور حول التكوين فليس ثمة ما يمنع محاولات التذكر عبر طرح السؤال المرة تلو الأخرى : ما الذى أثر فى تكوينى ؟ وإلى أين يفضى بنا هذا السؤال لو جعلناه موضوعا للتأمل ؟ كيف تشكلت ما سمى فيما بعد بشخصية «هدى وصفى» ؟

وهل تختلف الصورة التى يرانى بها الآخرون عما أعتقد فى داخلى أنها صورتى ؟ ولكن إذا كان أمر كهذا يفصح عن نفسه بوصفه طبيعيا تماما من ناحية المبدأ ، فإلى أى مدى يظهر هذا الاختلاف ؟ .. لا أدرى .

لكل شىء نهاية

أتذكر - بجلاء - أن المواجهة المبكرة مع الموت كان لها أثر شديد العمق فى نفسى ، لقد حصدت هذه المواجهة أكثر من مرة ، ففى طفولتى فقدت الأب ، والجدة ، ثم الخال الذى كان بمثابة بديل للأب ، وكان هذا قاسيا على نحو خلف أثرا دائما ، بحيث أصبح أى «فعل» يرتبط لدى بسؤال معلق حول نهايته ، فكما أن هناك تراكما لا يمكن إنكاره ، فإن كل «فعل» يمضى بلا توقف نحو نهاية ما تخصه، ولا أستطيع القول أن مسألة النهاية هذه كانت أمرا معطلا فى حياتى ، بل بالعكس ، فقد بدت وكأنها تفجر منابع لا تنضب للتأمل ، وتحفز على محاولة مستمرة ، ولا تكل ، تجاه المزيد من الأمانة والصدق فى «الفعل» ، سواء مع الذات ، أو مع العالم ، أو مع الناس . ففى قرارة النفس هناك إيمان عميق ، لا ينحصر فى الانتماء الدينى فحسب ، إيمان بأن ثمة تكلفة لكل فعل ، ثمة ثمن أو مقابل سواء للخير أو للشر ، وبالتالى ، فأيا كانت النهايات التى تمضى نحوها الأفعال ، فهى لا تتساوى قط ، وقديما كانوا يرمزون لهذا النوع من الإيمان بالآلهة نمسيس، ولكن بغض النظر عن ذلك ، فهذا الأمر مستقر تماما فى قناعاتى ، وبالطبع فمثل هذه الأفكار قد تبدو الآن بوصفها مثالية أكثر مما ينبغى ، أو قد تبدو كأمور تم تجاوزها فى أذهان الشباب والأجيال الجديدة ، ولكننى انتمى لهذه المنظومة من القيم على أية حال .

الصدق مع النفس ، الاعتقاد بأن





أثناء حفل تسلمها وسام فارس للفنون والآداب من الحكومة الفرنسية - ١٩٩٧

الأشياء لا مفر من أن يكون لها نهاية، وأنه يوجد دائما ثمن للخير، وثمن للشر، كل هذه الأفكار تعمقت لدى عبر العلاقة بالأب الذى كان رجل قضاء، ففى الفترة القصيرة التى عايشته خلالها، كان حريصا على تعليمى أشياء مرتبطة بالجدية والتواضع والنزاهة، بالإضافة إلى ما ترسب فى ذهنى عبر ما كان يحكى عن مواقفه، فعندما قرر الارتباط بالوالدة التى كانت تنتمى إلى أسرة من الصعيد، علم أن للأسرة بعض المشاكل القضائية، فتنحى عن الدائرة القضائية لمدة عام كامل لكى يتقدم لطلب يدها.

كان للحكايات دائما دور ما، ووجود بارز فى مرحلة الطفولة، حكايات عن أفراد العائلة، أو حكايات مأخوذة عن القصص الدينى، حكايات عن البشر وأحيانا عن الحيوانات، ولكنها جميعا كانت ترسم ملامح عالم ما من جهة، وتشكل منظومة القيم التى حكمت سلوكى فيما بعد من جهة أخرى.

شهادة جهد

كانت والدتى تنتمى لأسرة صعيدية من النوع الذى علمت فيما بعد أنه يسمى

الإقطاعي، ولكن هذا لا ينفي أن أباها كان مثالا للجد، والعمل، فقد ترك والده وذهب إلى منطقة في الصعيد اشترى فيها ما كان يسمى وقتها بالتفتيش، ثم قام باستصلاح مساحات كبيرة من الأرض مطبقا فكرة دق الآبار الارتوازية، كما كان في الوقت نفسه رجل صناعة، واجه الإنجليز في مرحلة بنائه مصنعا لصناعة السكر في القصب في الصعيد، كما واجه الرئيس «محمد نجيب» عندما تردد الحديث عن بناء مصنع للحديد والصلب في القاهرة، مناديا بضرورة بنائه في أسوان، حيث الخامة متوافرة وسهلة الاستخراج، وكانت له الكثير من المواقف الشجاعة والتي أثرت فيّ تماما، خاصة وأنه قد ظل على قيد الحياة إلى أن تمت خطبتي، أي أنني قد عاصرته أكثر من أبي.

وهناك موقف لن أنساه قط فعندما كان ابني في الصف الأول بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، رأيت معه كتابا عن موارد مصر الطبيعية، وكان اسم جدي مذكورا بهذا الكتاب بوصفه أحد الذين أضافوا لرقعة مصر الزراعية، وبالطبع كان هذا مبعث افتخاري وسعادتي بهذا الجد، ولكنه أيضا رسخ اعتقادي بأن الأفعال تنتهي، ولكنها لا تنسى.

تعلمت ولعبت بالفرنسية

كانت والدتي قد تلقت دراستها بالإنجليزية ثم بالفرنسية، ولكنها كانت تفضل التعليم الفرنسي، وبالتالي التحقت بمدرسة فرنسية حيث تعلمت - إلى جانب مواد الدراسة التقليدية - عزف البيانو، والباليه، ولعب التنس، كما مارست اهتمامي بالمسرح لأول مرة، كانت لدينا راهبة من أصل أيرلندي شغوفة بالمسرح، وخاصة المسرح الشكسبيري وأذكر أنها جعلتنا نقدم عرضا لنص من نصوصه على مسرح المدرسة (وبالمناسبة فقد حصلت فيه على دور صغير)، ولم نقدم العرض بإنجليزية اليوم، بل قدمناه بلغة شكسبير القديمة الأصلية.

وفي البكالوريا الفرنسية كان لدينا العديد من المواد الإضافية التي ندرسها بالعربية، مثل الفلسفة الإسلامية، والجغرافيا، والتاريخ، وذلك إلى جانب مواد مثل الجبر وحساب المثلثات، والعلوم الطبيعية، وكتب مثل «مدخل إلى العلم التجريبي» «لكلود برنارد»، ولكنني أحببت كثيرا دراسة المنطق والأخلاق.

منذ البداية كان لدي نهم شديد للقراءة، وأتذكر أن إحدى الراهبات قالت لي «لا يوجد الآن كتاب في المكتبة لم تقرئيه،





مناقشة رسالة الدكتوراه التى قدمتها بعنوان «تيارات النقد الفرنسى بين حربين»

ولذلك لم يعد لدى شىء أعطيه لك اليوم»

تدرجت فى القراءة بالعربية والفرنسية حسب المراحل السنية ، كانت هناك حكايات الأطفال ، ثم القصص والمجلات المصورة ، والكتب التى تقدم السلوكيات الإجتماعية ، ثم مرحلة قراءة الروايات العاطفية التى تأثرت فيها بخالة لى كانت شغوفة بهذا النوع من القراءة ، كانت تلك القصص تعلى من شأن الكرامة فى العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك بدأت أهتم أكثر بقراءة الكتب الدينية على نحو يبحث فى بلاغة اللغة نفسها ، وربما بدا هذا غريبا ولكنه يعود إلى تأثرى بالوالد

الجامعة أم الزواج

كان ثمة قدر من المعاناة والصراع فى مسألة التحاقى بالدراسة الجامعية، فبسبب عدم وجود الوالد إلى جانب الانتماء الصعيدى كانت والدتى ترى موضوع الجامعة أمرا ثانويا ، كنا شقيقتين فقط وبالتالى فقد كانت مسألة زواجنا بالنسبة لها هى الموضوع الأكثر أهمية ، كانت والدتى قد رفضت أن تعيش مع الجد ، وأصرت على البقاء وحدها ، وكرست حياتها لتربيتنا، ولكنها كانت

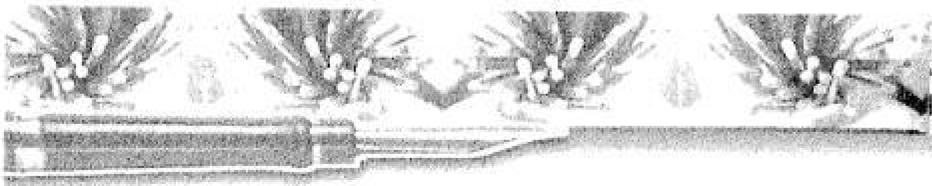


تحمل عبئا كبيرا، فهي امرأة، وتعيش مع ابنتين، وتعتقد أن الكل يتوقع عدم نجاحها في تربيتهما بسبب عدم وجود رجل. ولذلك كانت دائما تحاول أن تكون أكثر صرامة. ولن أنسى أبدا أن إحدى صديقاتها بعد أن شاهدت فيلم «أين عمري» (وكانت أمينة رزق تؤدي دور أم وحيدة وصارمة تعيش مع إبنتها) قالت لها «اذهبي إلى السينما لترى نفسك». ولكن تلك المشاكل لم تمنعني في النهاية من الذهاب إلى الجامعة، وهذا يعود لتدخل د. لويس مرقص صديق الأسرة الذي كان يشغل منصب وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس، والذي وقف إلى جانبي وأقنع والدتي بأنني سأكون تحت رعايته.

وبعد انتهاء الدراسة الجامعية كان هناك صراع آخر بشأن مسألة العمل، فقد تخرجت من الجامعة بتفوق، وصدر قرار بتكليفي كمعيدة بقسم اللغة الفرنسية، وكنت في هذه الفترة قد تزوجت، ورفض زوجي أن أعمل، فليس لديهم في أسرتهم إمرأة تعمل، ولكن والد زوجي وقف إلى جانبي وكان له فضل أن يقنع زوجي بقبول فكرة عملي.

أعجبت بعبد الناصر

كنت دائما شديدة الإعجاب بجمال عبد الناصر، وقد كان هذا موقفا مضادا للأسرة التي كانت قد أضيرت خلال الفترة الناصرية. وقد زاد ارتباطي بالرئيس عبد الناصر لأنني حصلت على الليسانس بتقدير امتياز وكان لي الشرف أن أمثل كلية الآداب في عيد العلم حيث قلدني عبد الناصر وساما. ولكن فيما بعد تراجع هذا الإعجاب، فقد علمت أشياء كثيرة لم أكن أعلمها وقتها، وأصبحت أدرك أن هناك أخطاء عديدة في التجربة الناصرية، وأهمها على الإطلاق هو افتقاد الديمقراطية، وبالتالي فقد بدأت أتفهم موقف أسرتي إلى حد ما. كان لدينا تجمع عائلي دائم كل يوم أحد، ومع تناول الغداء يجري دائما الحديث عن الأرض التي أخذها الإصلاح الزراعي. حديث متكرر إلى درجة مملة حول من كانوا يعملون لدى الجد وأصبحوا يمتلكون الأرض. وكان لدي يقين بأنه من حق الذي يزرع الأرض أن يمتلكها، ولكن مع الأيام بدأ يتضح أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة، خاصة بعدما شاهدت ما حدث لوالد زوجي الذي كان أحد رجال الصناعة العصاميين، بنى مصانع خضعت للتأميم ثم أصيب بمرض خطير، وبدأ يذهب إلى لندن للعلاج، ولم يكن يستطيع أن يأخذ معه نقودا، فكانت الفواتير تصل، ثم ترسل إلى الحراسات، وتستغرق وقتا طويلا حتى يتم صرفها، مما جعل أسرة زوجي تمر بظروف شديدة



القسوة أفضت إلى موت والده .

بعد حصولي على الليسانس بدأت أجهز للماجستير فى المسرح المقارن ، واخترت «محمد عثمان جلال وموابير» كموضوع لبحثي ، وبعد ذلك بدأت بالتدريس فى معهد النقد الفنى بأكاديمية الفنون بناء على طلب من الفنان عبد السلام الشريف الذى كان عميداً للمعهد ، وكانت لديّ رغبة قوية فى أن لا أقصر نشاطى أو علاقتى بالثقافة على العمل باللغة الفرنسية ، فقد كنت أعرف ما هى القدرة على امتلاك لغتين ، ولذلك سعدت عندما قمت بالتدريس بالعربية فى أكاديمية الفنون ، ثم فى معهد الفنون المسرحية بعد حصولى على الدكتوراه .

وهناك تواريخ أخرى مهمة فى حياتى خاصة رئاستي لقسم اللغة الفرنسية لآداب عين شمس ، وحصولي على وسام فارس فى الفنون والآداب من الحكومة الفرنسية ، وأيضا حصولي مؤخرا على وسام ضابط فى الفنون والآداب من نفس الحكومة .

ولكن مسألة الموت ظلت بالنسبة لى بمثابة أمر يومى وأساسى ، بمعنى أنها تصاحبنى منذ أن أستيقظ إلى أن أنام ، على نحو يجعلها ميطنة لسلوكى وتأملاتى على مدار اليوم بأكمله ، وربما لو لم أكن أتمتع بشخصية تفاؤلية ، أو على الأقل ديناميكية ، لكانت قد أصابتنى بالإكتئاب ، أو عدم القدرة على العمل أو الفعل ، ولكن هذا جعلني أيضا شديدة الحرص على تحقيق الاتساق مع النفس ، والارتباط بالروحانيات ، فمازلت أحرص إلى الآن على الصلاة بصفة يومية ، ربما ليس بالشكل التقليدى ، ولكن هذا يحدث بشكل أساسى .

التراث والشعور بالندية

ومنذ البداية كنت شديدة الاهتمام بموضوع «صورة الذات والآخر» ، وقد تأثرت منذ أن كنت صغيرة بتلك الأحكام التى نطلقها بوعى أحيانا وبدون وعى أحيانا أخرى عن الآخر بوصفه الأفضل والمتفوق ، وعن الذات بوصفها تحتوى على أغلب المساوئ ، وقد أفضى هذا التأثر إلى تنمية الشعور بمسألة الندية تجاه الآخر ، بحيث أصبح لدى توجه جذرى سواء فى أبحاثى أو سفرياتى لعدم قبول ما يقال دون نقاش وتمحيص ، ولابد من أن تطرح الأمور على نحو يحتفى بالندية ويكرس لها ، وبالطبع فهناك أمور كثيرة كانت بلادنا ضحية فيها على أكثر من مستوى ، ولكن هذا لا يبرر أى إحساس بالضآلة أو قلة الشأن ، فلا شك أن لدينا ثروة بشرية هائلة وعمقا تاريخيا بلا نظير ، وكثيرا ما شعرت أثناء حواراتى مع بعض الأصدقاء والصديقات من فرنسا أننا موضع إعجاب

على نحو ما ، وقد يبدو الأمر وكأننى أتكلم بشكل عاطفى ، ولكن الحقيقة أنه بالرغم من التدهور الحادث حاليا ، فلدينا منظومة من القيم الحضارية والثقافية التى لا يجب أن نتغاضى عنها أو نتجاهلها .

أعود إلى مسألة امتلاك لغتين والدور الذى تفرضه على صاحبها بأن يسعى لبناء جسر من التواصل المعرفى بين ثقافتى هاتين اللغتين ، فعندما سافرت فى إحدى السنوات للتدريس بجامعة أكس أن بروفانس الفرنسية ، حرصت على تدريس المسرح المصرى ، وقدمت بانوراما واسعة حول مسرح الستينات كان لنجيب سرور فيها نصيب الأسد ، وبالإضافة للترجمات التى قمت بها ، فقد جعلنى هذا أشعر بأننى كما ساهمت فى تقديم المسرح الفرنسى والثقافة الفرنسية فى مصر ، فقد قدمت أيضا المسرح المصرى والثقافة المصرية فى فرنسا .

فصول وتغيير المناخ النقدى



ومن التواريخ التى تعتبر مهمة للغاية فى تكوينى الثقافى ارتباطى بمجلة فصول ، والتى بدأت مع نشأتها فى عام ١٩٨٠ ، حيث حفزت هذه المجلة مجموعة من الأكاديميين للكتابة بالعربية لأول مرة على نحو منتظم ، وأنا أقصد هنا تلك المجموعة التى تشملنى مع فريال غزول ، وأمينة رشيد، وسيزا قاسم ، وغيرهن، فقد كنا نكتب بالإنجليزية أو الفرنسية ، ولكن ارتباطنا بهذه المجلة التى ولدت عملاقة جعلنا نبدأ فى مرحلة جديدة من استلهام المناهج النقدية الحديثة ، وأتاح لنا أن نقوم بدور فى استخدام معرفتنا لتنمية ثقافتنا ، وتنمية عطائنا النقدى والفكرى .

وربما كان هناك الكثير من النقد الذى تم توجيهه لمجلة فصول ، مثل الاتهام بالعجمة وما إلى ذلك ، ولكن لا أحد يستطيع إنكار دورها فى تغيير المناخ النقدى ، وتغيير آليات التفكير فى العلاقة بالنص ، والعلاقة بالنقد على نحو أفضل وأكثر جدية وعلمية ، ليس فى مصر فقط ، بل فى الثقافة العربية بصفة عامة ، ويسعدنى ويشرفنى أننى كنت ضمن الكتيبة التى اشتركت فى هذا العمل ، ثم أصبحت نائبا لرئيس التحرير أثناء مرحلة د. جابر عصفور ، والذى عندما اعتذر عن رئاستها أصر د.سمير سرحان (شفاه الله ومتعه بالصحة والعافية) على أن أخلفه فى رئاسة تحرير المجلة .

أيضا كان لقائى مع الفنان الوزير «فاروق حسنى» بمثابة لحظة فارقة فى نشاطى بالعمل الثقافى ، فأصبحت منذ عام ١٩٩٠ ممثلة لوزارة الثقافة (كخبيرة من الخارج) لدى اليونسكو ، ثم عملت بمهرجان القاهرة للمسرح التجريبى

كرئيس للجنة الترجمة الفرنسية ، ومديرا للمهرجان ، ثم توليت رئاسة مركز الهناجر للفنون (والذى افتتحه رئيس الدولة) ثم مديرا للمسرح القومي على مدى ست سنوات قدمت فيها ٤٢ عرضا ، وأصبحت عضوا بالمجلس الأعلى للثقافة ، والمجلس الأعلى للجامعات ، وسكرتير عام نادى القلم الدولي .

وبصفة عامة أعتقد أن دورى الحقيقى هو أن أكون مع الناس ، مع المواطن ، وليس مع السلطة ، حتى وإن كنت أعمل بها ، ففى رأيى أنه ينبغى دائما أن نعرف ونهتم بما يريده الناس وما يشتكون منه ، وقد حاولت دائما أن أطبق هذا على قدر معرفتى التى قد تصيب ، وقد تخطىء ، وأشهد أن الفنان الوزير فاروق حسنى كان يبدى دائما سعة صدر تجاه أى خلاف ، ولم أشعر يوما أنه ينزعج حتى وإن تجاوزت فى بعض ملاحظاتى ، فهو فى قرارة نفسه يتمتع بسماحة فى استقبال الرأى المخالف أو المعارض .

أنا على يقين كامل بأن مصر تحتوى على عناصر إبداع شديدة القوة ، ولا تحتاج سوى إلى مناخ مناسب لكى تبرز وتمنحنا عطاءها ، وهذا ما أسعى قدر استطاعتى لتحقيقه فى مجلة فصول ، ففى العددين الأول والثانى قدمت خمسة أصوات شابة بعضها من القاهرة ،



صورة فى اليونسكو أثناء تمثيل مصر فى ملف التنمية الثقافية

وبعضها من الجامعات الإقليمية ، وقد حدث شىء رائع عندما قدمنا فى فصول عددا عن «ثقافة الصورة» ، فطلبت إحدى البلاد العربية استضافة كل المجموعة التى اشتركت فى الندوة، وأعادوا تنظيمها بنفس المحاور ، وهو أمر أسعدنا كثيرا . فعبر هذا الحديث المتواتر عن فقدنا لدورنا الريادى فى الثقافة العربية يأتى هذا الحدث ليثبت أنه لازال لدينا ما نقدمه .

أحيانا أشعر أننى أخطأت بعدم جمع إنتاجى النقدى والعلمى فى كتب، بالرغم من أن لدى إنتاجا بالفرنسية صدر عن

الكوين


د. هدى وصفي .. البدايات الأولى

منشورات «لافيت» في مرسيليا ، ومنشورات «أكت سود» في باريس ، ولي ترجمات من وإلى العربية والفرنسية ومقالات وأبحاث تشمل مسرحيات ودراسات عن كل من يوسف إدريس ، وسعد وهبة ، وتوفيق الحكيم ، ونجيب سرور ، وطه حسين ، إلى جانب دراسات عن سارتر ، وورولان بارت ، وجان ريكاردو ، وترجمات لمسرحيات من يوشسكو ، وسالاكرو ، وكانتور ، إلى جانب كتاب «النقد الأدبي» والذي أخذ مسارا جيدا ، فقد أعيدت طباعته أكثر من مرة كما سمعت أنه يستخدم جيدا في بعض البلاد العربية . هذا فضلا عن العديد من الملفات والأبحاث التي قدمتها إلى اليونسكو ونشرت تحت توقيع «سنوية مصر» .

المستفاد من العمل في الحياة الثقافية أنه لابد للمرء ، أن يعمل ضمن منظومة قيم يؤمن بها ، وأهمها الصراحة ، والصدق مع النفس قبل الصدق مع الآخر ، فأنا مؤمنة بمقولة «ماذا يفيد الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه» .

ولا أنكر أنني في بعض اللحظات عانيت من اختلاف الرأي في العمل الثقافي والناتج عن سوء الفهم في أحيان كثيرة ، وخاصة عندما بدأت فعاليات عام مصر فرنسا آفاق مشتركة ، فقد تعرضت لهجوم ظالم ، ولكن ماهي الأيام تثبت أن ترسيخ العلاقات الثقافية مع فرنسا قد وطد من مواقفها النزيهة تجاه قضايانا ، خاصة في العراق وفلسطين .

ولكنني أخلص في النهاية أن الدرس

يشكل مركز الهناجر بالنسبة لي تجربة أساسية ، ابتداء من فكرته الأولى ثم التأسيس وحتى المواسم والتجارب المتعاقبة . كانت رؤيتي ولازالت هي إنشاء مركز ثقافي قائم على وحدة الفنون وتداخلها ، وعلى تعدد الأنشطة واختلاف الاجتهادات . ولذلك حرصت على وجود الندوة مع المعرض التشكيلي مع العرض المسرحي مع الأمسيات الشعرية ، بحيث يصبح المركز مكانا للحوار وليس فقط



مكانا للعرض ، مكانا للتساؤل بالمعنى الثقافي والإجتماعي وليس مكانا للمشاهدة العابرة . ومن هنا ، كان اهتمامي بالورش المسرحية والتجارب العملية تأكيدا لضرورة التجريب والبحث عن صياغات مغايرة ، لأن الثقافة في تصوري قائمة في جوهرها على نقد القوالب والأنماط الثابتة وتجاوزها اتصالا مع حركة الأجيال وتدافع الأفكار والاتجاهات المختلفة . وهكذا - أصبح مركز الهناجر الآن جزءا فاعلا من المشهد الثقافي الراهن ، يموج بعمل يومي وحوارات دائمة .

وبتلك المنهجية والرؤية ، كانت تجربتي في المسرح القومي الذي توليت إدارته لمدة ست سنوات ، مع إدراكي طبعا للاختلاف النوعي بين المسرح القومي والهناجر ، فالأول مؤسسة ثقافية ذات تاريخ ورسوخ ومكانة . ولكن فكرة المسرح المتحاور مع واقعه ظلت شاغلي الدائم ، وكذلك إعطاء الفرص لمبدعي الأجيال الجديدة دون هيمنة أبوية أو وصاية زائفة ، بهذا التصور ، قمت بإدارة القومي وقدمت مجموعة من العروض المختلفة حرصت دائما في اختيارها أن لا تكون منفصلة عن محيطها الاجتماعي ، وكان امتلاء المسرح يوميا أثناء العروض شاهدا ، ودالا على اجتذاب المشاهدين مرة أخرى للمسرح ، ليس فقط من أجل المشاهدة ثم الانصراف دون أثر ، ولكن من أجل تعميق العلاقة بين المسرح والواقع ، والتحاور بين المبدع والمشاهد .

ربما أعبر الآن عن طموح أكثر مما أعبر عن تجربة متحققة ، ولكني سعيت لأن يكون الطموح واقعا والرغبة في الإضافة والتجاوز إمكانا قائما : وفي كل ذلك ، لم تكن الجامعة غائبة ، فقد يكون العمل الثقافي تجربة وطموحا ورهانا ، ولكن الجامعة حياة بالنسبة لي : طالبة وباحثة وأستاذة . في قاعاتها تعلمت وعلمت ، عشت وسعيت لا لنقل الخبرة فقط ولكن لإثارة التساؤل والرغبة في البحث لدى الطلبة . وكنت أشعر دائما أن البحث موصول بالحياة حتى ولو بدا جافا ، علميا، وكنت أشعر كذلك أن الحياة متصلة بالمعرفة ، وإلا كانت مجرد تراكم أوقات واختلاف أماكن .

وما بين تجربتي في العمل الثقافي وحياتي في الجامعة ، تكونت لا عبر فواصل أو مراحل منفصلة ، ولكن عبر العمل اليومي ، والمسرح وقاعة المحاضرات والمؤتمرات العلمية ، ولذلك لم أكتب عن تكوين منته وإنما كتبت عن تكوين متصل مع دوام الأيام. ■



أنت والهلال

• عاطف مصطفى

الدكتور محمد رجب البيومي

فى افتتاحية العدد الماضى طالعتنا كلمة المحرر التى تتناول أستاذنا الفاضل الدكتور محمد رجب البيومى، الذى اعتبر البعض مقالاته لونا من أقاصيص السمر، وهذه رواية آحاد وسط الكم الغفير الذى ينتشى بمتعة مقالاته، التى تريك الماضى موصولا بالحاضر، متطلعا الى الآتى من الزمان.

فها هو فى هذا العدد يتحدث عن علي مبارك يصف الأزهر، وفي المقال يرينا كيف كان التعليم فى الأزهر فى نهاية القرن التاسع عشر: الالتحاق به، التعليم ، الامتحان، ونيل اجازة التدريس. وليس المقال أقصوصة سحر، فهى ترينا لونا من الحياة العلمية لتأخذ منه سلبا أو إيجابا.

محمد السيد نمير

وعن نفس الموضوع يكتب الأستاذ عمرو عبدالمنعم حمودة الصديق الدائم للهلال فيقول «الدكتور محمد رجب البيومي، من المقاليين العظام الذين أبدعوا فن المقالة الأدبية، بما فيها من المتعة والتسلية، ولا تخلو من الحكمة والموعظة ، وسمو العرض ووضوح الفكرة ، فضلا عن ارتباطه بالماضي والحاضر والمستقبل في لحظة زمنية واحدة، ترتقع بالقارىء إلى آفاق إنسانية رحبة.

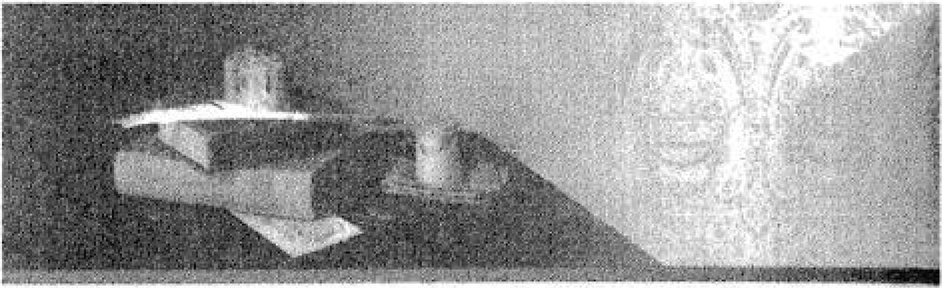
أنظر ما كتبه الدكتور البيومي فى عدد سبتمبر ١٩٦٠ من الهلال عن شخصية لا تنسى، المقرىء محمد رفعت بلبل الفردوس، وكيف أبرز عبقرية الشيخ وأسرار حنجرته الذهبية.

وانظر إلى مقالاته الأخيرة في الهلال وكيف يتخير المقالات التى تناقش قضايانا الراهنة، يلقى الضوء ويبين الخطأ ، بكل حماس الشباب وغيرة المحبين للوطن

ووصلتنا رسالة أيضا من تونس خطها محمد جويرو - منزل جرب ولاية المنستير - تونس، يتعجب ويتألم لما ورد في مجلة الهلال - عدد مايو - الماضى وقال بالحرف الواحد من قول يعادي الحقيقة.. نطق به السيد مصطفى الحسيني بأنه لا يستسيغ مقالات كل من الأستاذين الجليلين محمد رجب البيومي ووديع فلسطين، لأنهما في نظره متشبثان بالماضي، ولا يتحدثان إلا على ما فات.

وقال محمد جويرو إننى أقرأ للسيد الجليل محمد رجب البيومى منذ أكثر من ثلاثين حولا فلم أجد فيما كتب ويكتب إلا الحث على الجد والاجتهاد والمضى قدما إلى الأمام ، كما أنه فتح نوافذ وشرفات نطل منها على ماض نأخذ فيه الصالح لنستفيد منه وننميه . ونطرح الطالح الذى نبت سقمه وبان عواره.

سيدى البيومى فصاحة وبلاغة، ونصاعة بيان.. انه من مدرسة المغفور له



احمدحسن الزيات.. انه زينة الهلال وتاج من النضار الخالص الوهاج على مفرقها.

فنحن فى مغربنا العربى نتهافت على «الهلال» يجذبنا إليها كتابها الأخيار وعلى رأسهم الشيخ الوقور محمد رجب البيومى، الذى أرجو ألا ينفعل بما سطر مصطفى الحسينى من رأى يعادى الحقيقة والواقع.

يتمخض قلمى غضبا

(١)
أضحك من شدة خوفى
أكره وطن الخوف
ليس لأنى أدفن صرخات الغربة
فى عتمة جوفى
ليس لأنى أخشى سطوة مجلسنا العرفى
ليس لأنى
أخشى المبنى للمجهول.. ولا جزم الحرفُ
ليس لأنى أخشى أى فواصل
ليس لأنى أخشى
أى جدار فاصل
لكن من أجل الطير الصادح،
أشتاق نبوءة حتفى
من أجل النخل السامق .. يا وطنى
كيف أعيش بخوفى؟!
(٢)
ألهذا لا تكتب اسمى؟!
اسمى عبدالناصر
ألهذا تستبعدنى؟!
من أوج جبال الأطلس جئت أناصر
– أين أبوك العربى
أنا لست بقاصر
– ولماذا لا ترتجف أمامى؟!
أنا لا أخشى جيشا
لا يعرف ماذا يحاصر
(٣)
كلب ينبح خلف قطيع الأغنام
ينبح
ينبح
حتى ضجت أوردة الليل
وضجت كل الأجرام
يهرع كل رعاة الغنم المنفى
وتهرع حتى الأيام
سألوا الكلب المذعور
لماذا تنبح خلف الأغنام
ردد فى غيظ
أنبح
أنبح من كثرة غرف الإعدام!!

عبدالناصر أحمد الجوهري
عضو اتحاد كتاب مصر

أنت والهلال

ملاحظات حول كتاب رفاعة الطهطاوى

أشكركم لاختيار كتاب رفاعة الطهطاوى «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» لاعادة نشره، كما اشكر رئيس التحرير على كتابته لهذه المقدمة القيمة التى تناولت بإيجاز شديد، سيرة أحد الرواد الأوائل لنهضة مصر الحديثة فى عصر محمدعلى، وكيف مزج الشرق بالغرب، واحتفى بالغرب دون ان يفقد ذاته

وما أحوجنا فى هذه الظروف الدقيقة التى نمر بها الى أكثر من نموذج لذلك المثقف المستنير، المهموم بقضايا امته. والقادر على الانفتاح على الآخر للحاق بالعصر الذى نعيشه

لكن هناك ملاحظات سلبية على بعض ما كتبه رفاعة الطهطاوى أرجو ان يتم تفسيرها فى السياق التاريخى فى الطبعات القادمة

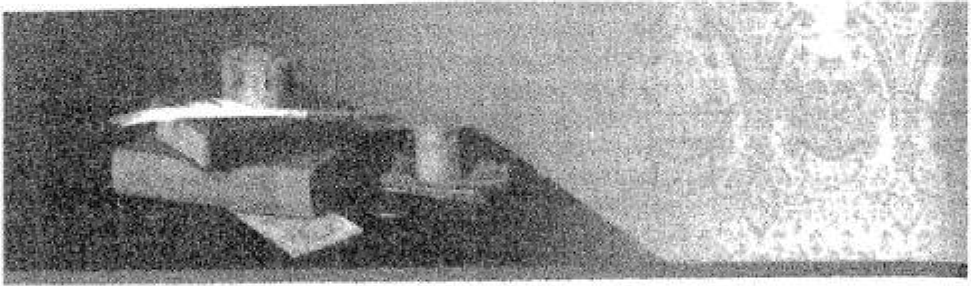
د. حسام مصطفي فهمي

شوك

من جنى؟!!
أنت
أم أنا؟!!
من جنى؟!!
ربما ينبت الشوك بين الورود
وينبت ورد على المنحنى
من جنى؟
سال دمى هنا
ربما زرت فى الليل نورك الملهما
فانحنيت على العشب
أقطف السوسنا
من جنى لست أدرى
أنت أم أنا؟!
ربما
يرجع الحب فجأة
كما جاء فجأة
وانمحى
ربما



شريف الدمناوي



المحكمة الدستورية ونقد معاهدة السلام!

المحكمة الدستورية والتى نراها بناء ضخما على نيل مصر فى الطريق الى المعادى، يظن الإنسان العابر انه بناء من احجار ضخمة فقط، ولكن من يتأمل أصحاب الحقوق او المهتمين بالانسان وحقوقه وما يصدر عن هذا البناء من أحكام تحمى الانسان فى أهم قيمة ألا وهى الحق، من يتأمل هذه الاحكام. يعلم انها لا تقل ضخامة وروعة عن البناء الضخم الفخم

نتناول واحدا من احكامها : نقلا عن كتاب د. فاروق عبدالبر عن دور المحكمة الدستورية المصرية فى حماية الحقوق والحريات، فى حكم حول المعاهدة المصرية الاسرائيلية وعدم دستورية بعض المواد التى اشترطت عند تأسيس الاحزاب، ان لا يكون من ضمن مؤسسيها او قادتها من يقوم بالدعوة الى التحبيذ او الترويج باية طريقة من طرق العلانية. لمبادىء او اتجاهات او اعمال تتعارض مع معاهدة السلام تقول: وحيث انه وان كان من المقرر طبقا لقواعد القانون الدولي العام، أن المعاهدات الدولية التي يتم ابرامها والتصديق عليها. واستيفاء الاجراءات المقررة لنفاذها. لها قوتها الملزمة لأطرافها.. الا ان ذلك لا يضفى على المعاهدة حصانة تمنع المواطنين من مناقشتها، ونقدها وابداء رأيهم فيها.. وهكذا يقف القضاء المصرى شامخا.

هاني اللوباني - عمان - الأردن

لم يعد عبثا

ليس فى القلب مكان لجـــراح ... غسق الليل. وقد أفل الصبـــاح
مـــا رعـــاه الأمس حلمـــا أسيرا ... فى غـــدوهم، وقبـــض للرياح
طائر يشـــدو ليشكو راقصـــا ... ألما، حـــتى لقـــد هيض الجناح
مـــولع يذكـــر أيام الرضـــا ... قـــبل أيام سلو ورواح...

مـــا عسى عيش شريد فى الحيـــاة ... يشفق الصبح له كـــالأمسيـــات
حـــبنا - سكن يســـرى مـــا بنا ... لم تزل ترنو اليـــه ذكـــرياتى
آه من لوعـــتـــه.. لكنه ... مطلع الفـــجـــر.. هو الخلد. لذاتى
هو ينبـــوع فـــان جف فـــما ... يفتن الشـــوق ســـوى عـــبـــراتى

حـــبنا كـــالطفل نرعـــاة وليـــدا ... حـــين أفضى للصبـــا راح بعيـــدا
مـــشرق الشـــمس له حـــرية ... كـــيف فى مـــغربها تضحى قيـــودا
كم تداوى الناس بالصـــبـــر فـــما ... هز عـــرش الحـــسن. او رقق غـــيـــدا
فـــقـــد الكون سنا نضـــرتـــه ... وذبول الأرض لا ينبـــت عـــودا.

د. أحمد بديع

قصة قصيرة ازدواجية

نصحه بكتابة المقالة.. تردد، كتب القصة وأحس أنها مجاله الأثير.. يمكن أن يعبر عن آرائه من خلالها، ويقول ما يريد.. تردده دفع الأستاذ إلى القيام ودخول الحجرة القريبة.. غاب قليلا، إنها حجرة المكتبة.. عاد إليه حاملا بعض الكتب فى يده.. على وجهه افترشت الثقة وهو يقول:

– ما هى المراجع التى ستحتاجها فى كتابة مقالاتك المطلوبة.. غاص فى بحر الحيرة.. بالأمس كان ينصحه بكتابة القصة قائلا: إن الإبداع هو الباقى.. هو الخلود.. الآن ماذا حدث؟.. لماذا التغير.. هل هو المال.. المقال الصحفى مكافأته أكبر .. ربما.

عاد إلى البيت يحمل الكتب .. وضعها على المكتب.. راح ينظر إليها.. أخرج أوراقه وأمسك القلم وبدأ فى كتابة قصته الجديدة

فرج مجاهد عبدالوهاب – شربين – دقهلية

أحمد عبدالحليم ممثلا فى إذاعة الإسكندرية

حرصت الهلال على أن يكتب أعلام من عصرنا فى شتى مناحى الثقافة عن عوامل «التكوين» التى أسهمت فى بناء شخصياتهم بدءا من د.عبدالقادر القط ومرورا بالدكتور أحمد أبوزيد وغيرهما الكثير.

ولا غرو أن سار الفنان أحمد عبدالحليم فى عدد يونيه الماضى على نفس المنهج فى حديثه عن أحد العالم فى علوم الإخراج المسرحى فى مصر والعالم العربى المرحوم نبيل الألفى.

وأرى لزاما على زميلا للفنان أحمد عبدالحليم – إن سمح – فى فن التمثيل أن أذكره بتلكم السنوات التى قضاها بيننا فى مدينة الإسكندرية (منذ أواخر الخمسينيات حتى أوائل الستينيات) ممثلا إذاعيا بأول إذاعة محلية فى مصر – إذاعة الإسكندرية، وقد أنشأ فيها الإذاعى الكبير حافظ عبدالوهاب قسما للتمثيليات الإذاعية، وكان أحمد عبدالحليم واحدا من هذه المجموعة.

ومن قبل أحمد عبدالحليم كان ضمن هذه الجماعة الفنان المخرج المسرحى حسن عبدالسلام والممثلان البارعان جمال إسماعيل وعثمان محمد على.

وبذلك يكون التكوين لزميلى الفنان أحمد عبدالحليم قد اكتملت صورته فيما يمكن أن يكون قد سقط سهوا عن قلمه

د. سامى منير عامر – كلية التربية – جامعة الإسكندرية

مسرح

يعقوب صنوع

١٨٣٩ - ١٩١٢

ولد يعقوب صنوع فى ١٨٣٩/٤/١٥ فى حى باب الشعرية بالقاهرة.. أمه مصرية ووالده من أسرة إيطالية هاجرت إلى مصر، وكان والده يعمل مستشارا للأمير أحمد يكن باشا.

وبالرغم من أنه كان يدين باليهودية، فقد حفظ القرآن والإنجيل والتوراة، وكتب الشعر والزجل فى سن مبكرة.

أرسله الأمير أحمد يكن ابن أخت محمد على فى بعثة إلى إيطاليا لمدة ٣ سنوات ١٨٥٢ - ١٨٥٥ وكانت سنه وقتها ١٣ سنة درس خلالها اتجاهات المسرح الإيطالى والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة.

بعد عودته من إيطاليا وجد التربة مهيأة لغرس بذور الفن المسرحي فى مصر.

ولد مسرح يعقوب صنوع عام ١٨٦٩ عام الاحتفالات بافتتاح قناة السويس، وولد هذا المسرح على منصة مقهى موسيقى كبير فى الهواء الطلق بحديقة الأزبكية بالقاهرة حيث قدمت مسرحية من فصل واحد، كتبها يعقوب صنوع واستقبلت بحفاوة كبيرة شجعته على الاستمرار فى النجاح.

قدم خلال عامين متتالين ٣٢ مسرحية، عالج فيها قضايا البسطاء من عامة الشعب بأسلوب نقدى اجتماعى هادف.

من أشهر تلك المسرحيات: «الضرتين»، «غندور مصر»، «أنيسة على الموضة»، لم يكتف بالنقد الاجتماعى، بل بث انتقاداته ضد القصر، فأغلق الخديو مسرحه، مما جعله يترك الكتابة المسرحية، واتجه إلى الكتابة فى الصحف الوطنية، ولكثرة انتقاداته للخديو تجاهلته الصحف، فأصدر صحفا خاصة به تكتب بأسلوب ساخر لاذع، تتخلله النكتة والكاريكاتير للوصول إلى وجدان الشعب المصرى.

عين عام ١٨٦٣ مدرسا للغات الأجنبية فى مدرسة المهندسخانة، لكنه فقد هذه الوظيفة بعد غلق مسرحه عام ١٨٧٢م وشجعه جمال الدين الأفغانى على إصدار صحيفة حققت نجاحا غير عادي، فقد وصل عدد نسخها إلى ١٥ ألف نسخة وهو رقم كبير بمقاييس ذلك العصر.

ندد بالتدخل الأجنبى الذى ترتب على الديون التى اقترضها الخديو إسماعيل ولهذا نفى من مصر، فاستقر فى باريس، حيث واصل نشاطه الصحفى والدعاية للقضية المصرية فى فرنسا وكان معروفا بأسماء متعددة: أبو نضارة، وأبو زماره، والحاوى، كما أطلق عليه موليير مصر الذى ساند ثورة عرابى.

البسمة الحانية

دعيني أراقص فيك الهوى / وأجمع ألحانك الغافيه
فإني رأيتك مثل النجوم / ومثل الطيور مع الساقية
ومثل النسيم هفا وانتحى / يضل مع الخصلة الحانية
فلا تسألوا الشمس ماذا جرى / لقلبي، لن تفهموا ما بيه
ولكن سلوا القلب عن خفقة / إذا ما استقرت به «داليه»
يتمتم أذكارها كل صبح / وعند الظهيرة والأمسية
أغازل طيفاً يراقص قلبي / طروباً بلون السما الصافية
وقال المتيم في حبها / جمال، وطهر، عفاف هيه
أعذال قلبي لا تحسدوني / على نعمة من عطا ربية
ودعواتكم فليبارك هوانا / نقياً، طهوراً، وأن يحميه
وينعم علينا بذرية / تعيد صلاحاً وقدساً ليه

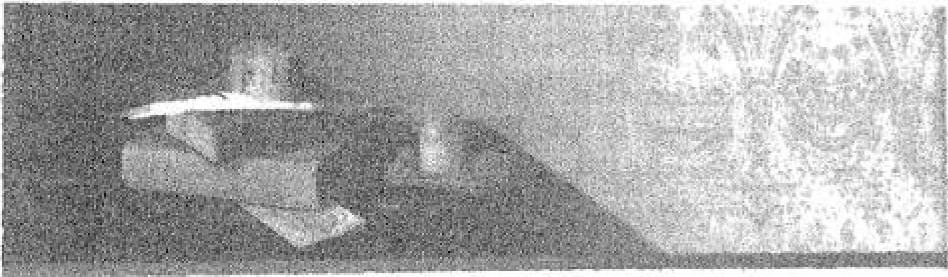
أحمد محمد الدماطي
الشهداء - المنوفية

شاعر عذري

جميل بن معمر شاعر عذري، نشأ في البادية، وأحب ابنة عمه بثينة وعرف بها، وقال فيها شعرا كثيرا، صادق عفيف، ولما شكاه أهلها إلى الوالي أهدر دمه، فلجأ إلى مصر في ولاية عبدالعزيز بن مروان، وتوفي بها سنة ٨٢ هجرية، ومن أشعاره التي قالها في بثينة:

ألا ليت أيام الصفاء
ودهر تولى يابثين تعود
وإن قلت ردي بعض عقلي
أعش به قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت
طالبا ولا حبها فيم يبيد يبيد

محمد أمين عيسوي - الإسماعيلية



في الوطن العربي.. التركيز على الدين والسياسة والرياضة؟

إذا كان لدينا هدف هو معرفة تنمية وتطور رأى مجتمع، فإن المعيار الذى يتم الرجوع إليه هو عقل الفرد، وما أنتجه من فنون وآداب وفكر وعلوم وتقنية، وما قام به من أبحاث ودراسات، وما أثبته من جودة صناعات، وغير ذلك من متغيرات الحضارة.

وهناك وضعان ويمكن اعتبارهما شرطين، لابد من وجودهما لوصول إبداع الفرد المؤشر الحضارى، الذي يحتوى هذه المجالات: الأول امتلاك الفرد للوعى والثقافة، والثانى وجود بيئة اجتماعية تتفاعل مع هذه المتغيرات الحضارية.

فى المجتمعات العربية المعاصرة نجد ازدياد نسبة الاهتمام بالتركيز على مجالات بعينها مثل الدين أو السياسة، أو حتى مجالات هامشية مثل الرياضة، حيث طغت هذه المجالات على عناصر الثقافة والإبداع والحضارة، وأدت إلى تكون بيئة اجتماعية مغلقة بدائرة مفرغة من المفاهيم العميقة.

حمد الراشد - الرياض - السعودية

الشعر ومكانته المتميزة

تعلمنا -- أيام الطلب -- أن الشعر ديوان العرب لأنه يسجل شتى أخبارهم وحروبهم، باختصار يسجل حياتهم العامة والخاصة على السواء، وتتجلى مصداقية الشاعر حينما يستطيع أن ينسج على منوال هذه الحياة قصيدة تتسم بالتفرد فى البناء والصدق فى محاكاة هذا الواقع الذى تحياه قبيلته على نطاق خاص .. وقبائل أخرى على نطاق أعم.

وحالة العموم المشار إليها أعلاه قلما كان يلتفت إليها الشاعر، وذلك لشيوع النزعة القبلية التى كانت ترغم الشاعر بحكم الولاء القبيلة أن يراها فى أعلى المراتب، ويرى غيرها دونها أو أسفل منها.

ألم يقل «عمرو بن كلثوم التغلبى» فى معلقته الشهيرة:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

هذا عن القديم .. وإذا نظرنا -- جادين -- إلى الشعر فى عصرنا الحديث .. فرغم تقدم الإنسان ومدنيته إلا أن الشعر مازال باقياً .. يتمتع بمكانة مرموقة .. كفن أول من فنون العربية .. وإن نافسته الرواية قليلا .. وادعى البعض أنها سجل الحياة اليومية .. وادعى آخرون أن زمن الرواية قد أزف .. وزمن الشعر قد توارى إلى الخلف مفسحاً المجال لهذا الفن الذى يكثر من البوح .. والذى يعتمد على (تفاصيل التفاصيل) وهذه ثمة أساسية من سمات الحكى التى يتسم بها البناء الروائى

وليعتبرنى أولئك النفر رجعيا فى نظرتى وليرمونى بما يحلو لهم أو يروقهم من النعوت، فأنا وبصريح العبارة .. بحكم حبى الجنونى للشعر .. أقول: إن بيتاً واحدا من الشعر يعبر عن هموم الإنسان المعاصر لهو خير ألف مرة من رواية ملحمية

الكلمة الأخيرة

مسلمون ومسيحيون همسة عتب



بقلم: د. أحمد بسام ساعي

في آخر استفتاء أجرته القناة الثانية البريطانية BBC2 وبثته مساء ٢٦/٢/٢٠٠٤ خلال برنامج مطول بعنوان: كيف يفكر العالم حول الله؟، تبين أن ٤٦٪ فقط من البريطانيين يؤمنون بالله، مقابل ٤٢٪ من الروس، و٩٨٪ من الإندونيسيين، و٩٦٪ من اللبنانيين. والأطرف من كل ذلك، بل الأكثر إثارة للحزن والشفقة، أن ٣٧٪ من البريطانيين صرحوا بأنهم يؤمنون بلاعب كرة القدم (بيكام) أكثر من إيمانهم بالله..

إن هذه الحقيقة تدعونا هنا في الوطن العربي إلى المزيد من التقارب بين المسلم والمسيحي. أقول (المزيد) لأن التعايش الأخوي بين أبناء الديانتين ما فتىء حيا على مدى أربعة عشر قرنا، وبنوعية يكاد يتفوق بها حتى على التعايش الديني في الغرب، في ظل ديمقراطيته المتفوقة وتعدديته الثقافية والعرقية، ولكن مستوى هذا التعايش كان باستمرار في ارتفاع وانخفاض تبعا للتقدم الفكري والحضاري في هذا الوطن، وكذلك تبعا للأحداث والظروف السياسية المحيطة، داخل البلد، وغالبا خارجه، ومعظمها طارىء وسريع، إن هذا ينطبق أيضا على الغرب، فالتعايش بين الأديان بعد ١١ أيلول/سبتمبر لم يعد عنده كما كان قبل هذا التاريخ.

لقد شهد العقدان الخامس والسادس من القرن الماضي، بشكل خاص، تقاربا واضحا بين المسجد والكنيسة، مع بعض الاستثناءات هنا أو هناك، ولاسيما مع تقدم المدّ الشيوعي الزاحف، حتى بات المسلم المؤمن حريصا على مساعدة الكنيسة لاجتذاب المزيد من الشباب إليها، وبات المسيحي المؤمن حريصا على مساعدة المؤسسة الإسلامية لاجتذاب المزيد من الشباب إلى الله، وكان هذا التعاون يبرز أشد مايكون في الأزمات الإنسانية التي تمر على البلاد.

وأذكر خلال حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل، وكنت أؤدي آنذاك واجب خدمتي العسكرية في القوات السورية، أنني كنت أذكر زميلي في المهجع، الضابط المسيحي، لأداء صلاته الصباحية، كما كان يوقظني في الصباح لأداء صلاة الفجر في وقتها، وكان كل منا يشعر بأن صلاة الآخر ستساعده حقا في مواجهة الأزمة مادمنا نتوجه في صلاتنا إلى الإله الواحد نفسه.

وتذكرني هذه الواقعة بقصة أحدث عهدا، فلقد حدث أن بعض الأخوات من المسلمات الملتزمات في بريطانيا مررن بأزمة شعرن خلالها بالحاجة إلى من يرعاهنّ روحيا في ملتزيهن، وحين لم يجدن رجل دين مسلما في البلدة ذهبن إلى الكنيسة لبث همومهن هناك لأحد القساوسة الطيبين الذي ظل على اتصال بهن بعد ذلك لمدة طويلة.

إن من المهم اليوم، ونحن نرى انهيار العلاقة بين الإنسان الغربي وكنيسته، أن نعمل هنا في الشرق، مسلمين ومسيحيين، على إصلاح تلك العلاقة وترميمها، لأن تدهورها هناك كان ينعكس باستمرار سلبا على تعامل الغرب معنا، وبقدر ما يقترب الغرب من كنيسته، ويزداد فهما لمسيحيته، يزداد اقترابا وتفهما للإسلام ولشعوب العالمين العربي والإسلامي.

وانظر إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كيف كان يوصي اليهود في خلافته بالتزام قواعد دينهم، ولاسيما بشروط يوم السبت:

يروي الترمذي عن صفوان بن عسّال -رضي الله عنه- أن يهوديين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال: لاتشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولاتأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود ألا تعتدوا في السبت.

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة













طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الاسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت: ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٩١٩٧ . فاكس: ٢٠٢/٢٥٩٩٦٥٠ ج.م.ع -
٤ شارع بدوي محرم بك - الاسكندرية .

الهلال

أغسطس ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

مستقبل علاقة الرجل بالمرأة العربية

العراق وثورة العشرين

.. ما أشبه الليلة بالبارحة

العالِمْ والسلطان!

ناسك النحت.. ملحمة مصرية



عبد الهادي الوشاحي

لوحة وفنان



اللوحة: النحاس - القاهرة ١٨٨٤ الفنان: شارلز ويلدا

الهلال

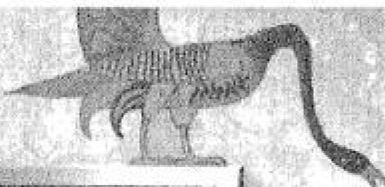
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة جماد ثاني ١٤٢٥ هـ - أغسطس ٢٠٠٤م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس





تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

شهادات الجيل الجديد من الأدباء .. جزء خاص ..

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

ثقافة المستقبل

نطالب الوزارة الجديدة فى مجال الثقافة بالتالى.. لا نود أن تكون الوزارة الجديدة استمراراً لسياسة الوزارة السابقة، ولكن بروح الشباب والنظرة إلى المستقبل ينبغى أن تكون أهدافها، حتى نحقق للوطن النهضة التى تدفعه قدما إلى الامام، ولنضع للأجيال القادمة حضارة على أسس راسخة نستمدها من الجهد والعمل والإخلاص.

وهذه السياسة لكى تكون فيها روح الشباب، والذى يؤهلها لتحقيق النجاح اللازم، لابد لها من مجالات ثلاثة.. التعليم والثقافة والإعلام وفى التعليم.. نحن فى عصر المعلومات، وثورة المعلومات والاتصالات، وينبغى أن يراعى ذلك فى التدريس للنشء من البداية، ويكون للكمبيوتر دور أساسى، بحيث نواكب العصر الذى نعيشه الآن، لأن طرق التعليم ووسائله مختلفة تماما، بطريقة جذرية عما كنا نشاهده فى القرن الماضى، فلابد أن نضع فى الاعتبار التركيز على الوسائل الحديثة فى التعليم، حتى ننطلق إلى آفاق المستقبل فى العلم والمعرفة بروح شابة وثابة.

ولا ننسى أبدا تلك المشكلة المستعصية التى لا نجد لها حلا حتى الآن، وهى مشكلة الأمية، التى فشلت وزارات متتابعة فى القضاء عليها، وفى مرات كثيرة سمعنا وعودا وقرأنا عن برامج لمحو أمية نصف المجتمع - تقريبا - وأكثرهم من النساء!

أما فى مجال الثقافة، فهناك إيجابيات تحققت فى السنوات الأخيرة، من بينها مشروع القراءة للجميع وإصدارات مكتبة الأسرة، وكذلك مشروع الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الذى شهدنا ثماره، ومن بينها ترجمة الإلياذة باللغة العربية من لغتها الأصلية، ولأول مرة، فضلا عن العديد من الكتب التى صدرت.

ولابد فى ظل هذا التغيير أن نلمس الجهود التى تقوم بها الثقافة الجماهيرية، وقصور الثقافة على مستوى مصر كلها، ونرى أجيالا من المبدعين الشباب وهم يحملون مشاعل الثقافة، لتستعيد مصر دورها الريادى والذى بدأت انطلاقته فى ثلاثينيات القرن العشرين، وقبل أن ينقضى هذا القرن بسنوات بدأ مؤشر الثقافة

ينحسر ويتراجع، ولم نعد نرى الأديب المصرى الواعد الذى يشار إليه بالبنان، كما كان يحدث أيام طه حسين والعقاد وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم، ومحمد مندور وزكى نجيب محمود، وأخيرا نجيب محفوظ ويوسف إدريس ويبقى أن هناك قصورا فى مجالات مهمة، مثل السينما التى تراجعت للوراء بشكل يحتاج إلى تدخل سريع، خاصة أن مصر كانت رائدة فى هذا الميدان الحيوى، وحققت على مدى ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن نهضة مهمة، ويكفى أن صناعة السينما فى مصر كانت تجىء فى نفس مرتبة محصول حيوى هو القطن الذى كان يصدر إلى كل بلاد العالم.

الآن لم تعد هناك سينما جادة تعكس حياة ومعاناة المواطن بصدق، ولكنها لا تقدم إلا التافه من الموضوعات، بحجة أن الجمهور يريد ذلك النوع من الأفلام، لكن من المفروض أن السينما لها رسالة، خصوصا أنها الفن المحبب للجماهير.

وهذا ينسحب على المسرح وعلى الفن التشكيلى، وكذلك فن الغناء والموسيقى ... مع التغيير الذى تشهده مصر الآن يصبح المثلث الذهبى التعليم والثقافة والإعلام وينضم إليها ضلع رابع وهو المساجد والكنائس وكلها تؤدى دورا مهما فى رفع ذوق الناس وطريقة سلوكياتهم والإعلام الصادق يؤدى بلا شك الدور المهم فى حياة أمتنا، وهو الذى يكشف الحقائق وصدقها، ولابد فى هذه المرحلة المهمة فى حياة مصر أن يلعب دورا أمينا وبناء، ويبرز سلبيات كل من يخون أمانة الوطن، ويكون النقد بناء، وتعود للكلمة قدسيتها، لكى نلمس أن التغيير قد حقق شيئا مفيدا، وأن هذه الوجوه الشابة من وزرائنا، لديها الحماس للعطاء للوطن خاصة أن العالم من حولنا يسير بخطوات متسارعة، ولا ينبغى أبدا أن نظل «محلك سر» وتعدادنا السنوى يزيد أكثر من مليون، ولا نعرف كيف نسيطر على هذا المأزق التاريخى الخطير!

والسؤال الذى يطرح نفسه.. هل هذه الوزارة الجديدة، سوف تستطيع فعلا أن تقدم جديدا فى ميدان الثقافة؟ وهل تستطيع أن تقدم لطموحات الوطن والمواطن ما ينشده من إصلاح ورقى؟!

وأقول .. لابد أن ندرك أن التكنولوجيا هى أداة للمشروع الوطنى، وأنها وسيلة لتحقيق هذا المشروع وليست غاية..

وهذا يحتاج إلى تطوير كل أدوات العمل الحكومى فى كل مرافقه وإداراته

المحـــرر

سوينكا

الأديب والسياسة فى أزمنة القمع

بقلم
جميل مطر

عاد من المنفى وبعد أيام من وصوله إلى لاجوس اشترك فى مظاهرة احتجاجا على الأوضاع المتدهورة فى نيجيريا . أثارت عودته ثم اعتقاله لبعض الوقت فى أحد أقسام شرطة لاجوس ، أثارت من جديد بين المثقفين الأفارقة عموما والنيجيريين خاصة قضية علاقة الأديب بالسياسة . السياسة جعلت سوينكا أحد أبرز الأدلة الحية على تعقد العلاقة بين الأديب والسياسة . وأعتقد أن السياسة ، هى التى حصلت لسوينكا على جائزة نوبل ، وليس فقط وفرة وعظمة إنتاجه الأدبى . يعتقد سوينكا أنه فى أجزاء كثيرة من العالم لايختار المثقف أو الأديب بإرادته الحرة الكتابة فى السياسة أو يسمح بأن تتسرب السياسة إلى ضميره ومنه إلى ما يكتبه . يقول إن الاختيار الحر هو خاصية من خصائص المثقفين المرفهين الذين يعيشون فى مجتمعات مستقرة ومسالمة . أما الأدباء فى هذا الجانب من العالم فالسياسة مفروضة عليهم فرضا منذ اللحظة التى يقرر عندها الأديب التفكير فى طباعة ما كتب من أجل نشره .



الأديب النيجيرى وول سوينكا

أرى فى سيرة سوينكا ومسرحياته ومقالاته ما يستحق منا التأمل . فكثير من أدبائنا العرب يتعاملون مع السياسة بشكل يوحى بأنهم يطلبون وظيفة فى الحكومة ولا يوحى بأنهم يعملون للتغيير أو الإصلاح أو زرع أفكار مختلفة عن الأفكار السائدة فى المجتمعات التى يعيشون فيها . كتب هنرى لويس غيتس يصف سلوكيات المثقفين فى دول كثيرة بأنها أشبه ما تكون بألعاب يؤديها فنانون على مسرح عرائس السياسة . فى هذا المسرح يتحول الأديب إلى دمية تحركها وتتلاعب بها أياد لاتظهر للناس ، يوجد بيننا من يردد أن الدولة استطاعت أن تؤمم كل شىء ، بمعنى أن كل شى فى المجتمع صار جزءا من عالم السياسة «سيسواء» العلاقات الاجتماعية ووضع المرأة والعلاقة الزوجية وعلاقات العمل، ولكنهم قبل أى شىء آخر «سيسوا» الكلمة فى مشوارها بين كاتبها وقارئها ويعتقد سوينكا أن هذا صحيح ولكن فقط بمعناه التافه السطحى ، وينقل عن جورج أورويل عبارته الذكية «إذا كان كل شىء سياسيا فهناك بعض الأشياء أكثر سياسية عن غيرها» .

ويختلف سوينكا عن كثيرين من معاصريه الذين أعلنوا انشقاقهم وانتقدوا سياسات حكوماتهم وأفكارها ومبادئها ، يختلف مثلا عن سولشنتسين . فقد كان هذا الأخير مشاكسا ومهاجما وشديد الانتقاد . سوينكا ليس بهذه الأوصاف ، ولكنه أيضا لم يكن مثل بوريس باسترناك الذى ناضل ضد الطغيان بأسلوبه الخاص . تجاهل الطغيان وأشاح بوجهه عن الفساد وقام بتحصين نفسه، أى بتحصين فضائه الشخصى، ضد ما كان يسميه «ملوثات السياسة» على شاكلة تلك الأحماض التى يستخدمونها فى تذويب المواد الصلبة .

دخل سوينكا السياسة ، أو تعامل معها ، حين شعر بأنه مطالب بالرد والتفاعل مع واقع انهيار بلاده . عندها تغيرت حياته ، مثله فى هذا مثل بعض الأدباء فى عالمنا العربى والإسلامى الذين تعرضوا لنفس الموقف حين شعروا أن الموقف فى بلادهم بلغ حدا خطيرا من التردى والانكسار فأصبحت المواجهة واردة إن لم تكن واجبة . تجدهم يتحولون

بالتدريج من الطباع الهادئة أو الشاردة أو الرقيقة إلى نوع من طباع التوتر والانفعال السريع وأحيانا الغضب الشديد . كثيرون تغيرت طباعهم عند لحظة الانتقال من الأدب النقى إلى الأدب «المسيس» ، قليلون هم الذين أفلحوا فى العودة إلى نقاء عالمهم الخاص ، وأقل من هؤلاء استمروا فى المواجهة مع عالم ينهار أمام عيونهم ، وكثيرون جرفهم التيار فصاروا كالأحجار التى يعريها الفساد ويحدث فيها أفعاله فتتساقط نحو عمق سحيق أقرب شبها إلى الصورة التى تخيلها دانتى لجهنم.

* * *

ينتمى وول سوينكا إلى شعب اليوروبا . ولهذا الشعب حضارة فريدة . هم كالمصريين القدماء جدا برعوا فى فن النحت إلى حد أنه يقال أن قدماء اليوروبا نحتوا منظومات راقية من الأساطير المتكاملة فى شكل تماثيل كما فى أشكال من الأساطير والقصص المتناسقة . هذه الحضارة المتصلة لم يؤثر فيها بشكل حاسم اختطاف عشرات الآلاف من أبناء اليوروبا إلى الأمريكتين لاستخدامهم عبيدا للمستعمرين البرتغاليين والأسبان والفرنسيين . فقد استطاع هؤلاء العبيد، بالنظر إلى عمق التقاليد وشموليتها وتناسقها ، التأقلم بسرعة مع الديانة الكاثوليكية حتى صنعوا منها مسيحية خاصة بهم . أخذوا من الكاثوليكية أسماء القديسين فأطلقوها على آلهتهم التى تركوها خلفهم فى أفريقيا . أعادوا بعث الالهة القديمة فى شكل قديسين . وفعل شعب يوروبا فى افريقيا الشىء نفسه عندما وصلت إليه الكاثوليكية . كذلك استخدموا تراث الطب الافريقى فى هاييتى واستمروا يمارسون بعض مظاهره . صنعوا عالما سريا وأطلقوا عليه الفودو ، وما دمية الطين التى يستخدمونها لحرق الروح الشريرة التى تسكن المريض سوى إحدى الممارسات الطبية الموروثة ، وهى ممارسة ليست بعيدة كثيرا عما يمارسه المصريون حتى يومنا هذا . وقد نجح سوينكا فى نقل هذه الصورة إلى مسرحيته «السلالة القوية» عام ١٩٥٩ .

وقد اهتم سوينكا فى كثر من كتاباته بالأصول الأسطورية للأديان ونقاط التقائها ، والعلاقة بين الدين والحضارة ، ويشهد علي ذلك كتابه بعنوان «سكان المستنقع» الصادر عام ١٩٥٨ وكذلك كتابه حول «السلالة القوية» وكتابه «الأسطورة والأدب والعالم الأفريقى» الصادر عام ١٩٥٦ . يقول إن الأساطير تنشأ من محاولة الإنسان إخراج مشاعره من أعماقه وتوصيلها إلى الآخر ويعتقد اعتقادا جازما ، واستمر عليه حتى الآن ، أن إرادة الإنسان بعيدة كل البعد عن

مفهوم الاستسلام ، وأن إنسان اليوروبا الذى تربى فى أحضان ديانته القديمة بعد مزجها بالكاثوليكية يعتبر أن المصير توجه ذاتى وليس مسألة موضوعية أو من صنع قوى خارجية . عندما يتحدث سوينكا عن الدين وتأثيره فى الدراما الافريقية يقول إنه لايمكن فصل الدين عن غيره من الأشكال الحضارية والثقافية فى أى مجتمع إنسانى ويضرب المثل بكل أفريقيا وليس فقط بيوروبا . لابد أن يكون لأى جانب من جوانب الثقافة أصول مغروسة فى الدين من أوله إلى آخره . أما الاختلافات التى استعارها الإنسان من خارج هذا المجتمع فليست أكثر من اختلافات فى الشكل . هناك اختلافات فى الصلوات بين هذا الشعب الأفريقى وأى شعب آخر ، أو فى الاحتفالات والمهرجانات أو فى طرق وأساليب العلاج ، إلا أنه لاخلاف فى النهاية على أن الدين هو المكون الثقافى والحضارى الأعظم لكافة المجتمعات .

• • •

الدين فى أفريقيا ليس ظاهرة منفصلة عن بقية الظواهر الأفريقية ولم يكن فى أى يوم ، ولن يكون ، مؤسسة قائمة بذاتها . الدين ممارسة بأذرع متعددة تمتد إلى العلاج ، والتعليم ، والعائلة ، والسياسة ، والتجارة . تمتد فى طريقين . طريق ينقل من الدين قواعد وقيم وأساليب تعامل إلى تلك الجوانب المتعددة فى المجتمع ويعود حاملا قوة جديدة وفكراً جديداً من المجتمع إلى الدين . وفقا لهذا التصور يصبح منطقيا القول إنه إن صح المجتمع صح الدين ، وإن تدهور المجتمع تكلس الدين وتوقف عن العطاء وعن التجدد . ويعتبر البعض أن الأديان الافريقية كاليهودية الأولى حيث لم يكن الدين ينفصل عن الثقافة والحياة والتاريخ وحيث لايمكن فصل الفرد الإسرائيلى القديم عن العلاقة الأزلية التى تربطه ب «يهوه» . عند اليوروبا كما أنه فى الإسرائيلية المبكرة وربما عند بعض المذاهب الإسلامية ينظر إلى الحضارة باعتبارها حضارة شاملة Total Culture ، كالمظلة تنشر ظلها على كافة أطراف المجتمع وتفاصيله .

ولا يخفى سوينكا اشمئزازه من مفهوم الصدام الحضارى حتى قبل أن يصبح هذا المفهوم عنوانا لحرب ضروس بين الغرب من ناحية والعرب والمسلمين من ناحية أخرى . ففى عام ١٩٧٢ كتب سوينكا فى مقدمة أروع مسرحياته «الموت وفارس الملك» يقول «أن خطورة عبارة صدام الحضارات أنها بمجرد استخدامها ولو أكاديميا أو نظريا تصبح فى نفسها رخصة لممارسة الصدام الحقيقى والفعلى . تفترض عبارة صدام الحضارات وجود مساواة فى أى موقف تقف فيه الثقافة الغربية وثقافة الآخر على أرضية هذه الأخيرة . هذا الرأى جدير بأن نعرف معناه ونقدره خصوصا بعد أن تحولت احتكاكات قديمة بقدرة قادر

لتصبح صداما حضاريا بين الغرب من ناحية والعرب والمسلمين من ناحية أخرى حدث هذا مجددا عندما اجتمع الغرب على خطة إدخال إصلاحات في الشرق الأوسط ، أي في العالم العربي والإسلامي ، وهو الإصلاح الذي يعني، طبقا لشكل المواجهة المطروح بها ، ووفقا لأساليب العمل المقترحة في البرامج التي اتخذت في قمة الثمانية في ولاية جورجيا الأمريكية ثم في قمة استنبول ، أن ساحة هذه المواجهة الجديدة هي الشرق الأوسط ، وأن أدوات هذه المواجهة واردة من الغرب . صدام حضاري يجري على أرض العرب والمسلمين وليس على أراضي الغرب أو أراضي طرف ثالث . ينطبق الشيء نفسه على ما فعله الاستعمار الغربي في أفريقيا ، فقد خاض صداما وفي تسمية أخرى كانت شائعة وتعود ذائعة «خاض إصلاحا» أسلحته القوة والعنف والدين الغربي ضد تقاليد وممارسات وديانات أفريقية على الأرض الأفريقية . وانتهى «بالمأساة الافريقية الراهنة» .

* * *

نعود إلى الأديب والسياسة والعلاقة بينهما . هذه العلاقة ليست علاقة مجردة وليست نمطية . إنما تختلف العلاقة من أديب إلى آخر حسب طبيعة الدولة التي يعيش فيها هذا الأديب . ففي حالة وول سوينكا عاش وتربى في نيجيريا وانتمى إلى شعب يختلف عن بقية شعوبها ، وكأي شخص آخر من أبناء نيجيريا تعرض للقمع وإلى تدخل العسكر من حين إلى حين في حياته الأدبية والشخصية . وتشهد هذه التجربة على أنه يوجد ما يشبه القانون العام في السياسة وبخاصة في الدول النامية أو حديثة الاستقلال ، ينص القانون على أن العسكر يتدخلون في الحكم في حالتين : إذا أحسوا بقرب وقوع فوضى شاملة في الدولة ، وإذا أحسوا بقرب قيام نظام سيمارس الديمقراطية الحقة . الملفت للنظر أن الحالتين لاتختلفان كثيرا عن بعضهما عند معظم المؤسسات العسكرية في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، بل وهناك ما يقال في هذا الصدد حتى بالنسبة للمجتمعات الغربية المتقدمة . ولدينا المثال في ثورة اليمين الأمريكي الجديد «والمتعسكر» فكرا وممارسة.

أكاد أردد مع آخرين الرأي الذائع بأن الأديب أمريكيا كان أم أفريقيا أم عربيا مشدود ، أراد أم لم يرد ، إلى السياسة ، يشتد جذبه أو انجذابه إليها كلما تأزمت أمور الدولة وتدهورت أحوال الحكم .

لمن يستجيب الأديب في عالمنا ، هل يستجيب لنداء الشعوب أم لأوامر السياسيين وكيف أجاب وول سوينكا ؟

* * *

كيف يمكن لأديب أو مثقف في وزن

وول سوينكا الحائز على جائزة نوبل للسلام أن يتفادى طريق السياسة أو الاصطدام بها أو التعامل معها فى ظل وجود أنواع متفاوتة من الرقابة على الإنتاج الأدبى والثقافى ؟ فى افريقيا ، كما فى العالمين العربى والإسرائيلى ، يولد الأديب وقد حاصرت قلمه أجهزة الرقابة وعيونها . وفى افريقيا أكثر من غيرها بتسييس الادباء ليس فقط لاكتساب قدرة أكبر على التعامل مع رقابة الدولة ، ولكن أيضا لأن للمثقف الافريقى مكانة كبيرة عند عامة الشعوب الافريقية ، الأمر الذى يزيد من قابلية المثقفين للاستجابة إلى نداءات الشعوب التى تتطلع إليهم لتخليصها من الاستبداد أو على الأقل من تدخل السياسة فى حياتها اليومية . إن هذه المكانة التى يحظى بها الأديب الافريقى لها علاقة بأديان افريقيا التقليدية والمكانة التى يحظى بها من يعلم أكثر عن الأجداد والأساطير وخبايا الكون وطبيعته ، هؤلاء كانت لهم دائما مكانة القداسة بشكل أو بآخر .

فى عام ١٩٩٤ أبلغت الشرطة النيجيرية وول سوينكا أنها لن تتمكن فى المستقبل من حمايته من الاغتيال دون أن تحدد مصدر التهديد ، فسافر إلى الخارج ، ومن هناك هاجم سونى أباشا الحاكم العسكرى لنيجيريا ونظامه الفاسد . وتحت وقع غضب سوينكا الشديد على هذا النظام العسكرى صدر كتابه «جرح القارة المفتوح» وعندما جاء بابا جندا إلى الحكم على رأس نظام ديمقراطى استبشر سوينكا خيرا . ولم تمض شهور قليلة إلا وتبين أن بابا جندا جسد فى شخصه الدولة النيجيرية . اعتبر مواردها الأخاذة وموقعها بين الأمم وقوتها انعكاسا لقوته الشخصية ومكانته بين رؤساء افريقيا . بمعنى آخر تأكد لسوينكا أن السلطة مفسدة وأن باباجندا الذى جاء إلى الحكم ليقضى على الفساد فسد هو نفسه بسبب ضخامة السلطة وهولها . توحدت نيجيريا بمواردها ومساحتها وقوتها مع شخصه وثروته الشخصية . ويختلف باباجندا عن الرئيس أباشا فى أن هذا الأخير كان مستعدا أن يجعل نيجيريا خرابا ليبقى فى السلطة. أباشا كان يفتقر إلى أى رؤية للدولة والمجتمع ، بل وكان يسخر من مساعديه الذين ينصحونه بتشكيل رؤية. فى عهده تدهورت نيجيريا وتفسخت العلاقات بين شعوبها وانهارت القيم التقليدية وتوقفت عملية التلاقح بين التقليدى والحديث مخلفه تصدعا هائلا فى منظومة الأخلاق العامة للنيجيريين .

كان الجنرال أباشا ، حسب تعبير سوينكا ، «فارا محاصرا فى جحر من الأنفاق المتصلة» كان مثل سائق سيارة على طريق سريع إذا أتى إلى مخرج من

الطريق أعمته الأضواء المنبعثة من أى سيارة قادمة فى وجهه فيتجمد ويصيب الشلل تفكيره ، عندئذ يفقد المقدرة على تقدير قوة هذا الضوء القادم ومعرفة مصدره وكيفية التعامل معه ، ويعجز عن التفكير فى احتمال أن يساعده هذا الضوء على التفلت من الضياع والظلام اللذين يشلان حركته ، ويجمدان التطور فى البلد التى يتولى مسئولية حكمها ، همدت نيجيريا فى ظل أباشا وامتد الفساد ليلحق بالجسد الثقافى فيها ويجر أدباءها ومثقفيها وفنانيها عامة وسياسيها خاصة إلى حضيض العفن والأنانية والاستغلال والانتهازية ، وتراجعت مكانتها بين الدول الافريقية ودول العالم النامى وفى العالم كله .

* * *

ويصب سوينكا جام غضبه على هؤلاء الذين أطلق عليهم تعبير «قطعان الاستعمار» ، هؤلاء السائرون فى فلك أوروبا وأمريكا أو فى فلك الدول العربية والإسلامية ، يرى فيهم غباء ونفاقا وعدم كفاءة وفسادا بل وأيضا ميولا سادية ، هؤلاء أفارقة ولكن فقدوا البراءة الافريقية حين هرولوا وراء منفعة مادية عاجلة أو منصب سياسى . وينعى سوينكا سمعة أدباء ومثقفين لم يكونوا راغبين فى السياسة ولكن فرضت عليهم السياسة فرضا عندما سلمتهم الشعوب مسئولية إنقاذها من السياسيين ففسدوا وفقدوا ثقة الناس بهم . وقد تكررت الظاهرة فى مجتمعات كثيرة بحثت عن فنانين ومثقفين لارشادها وقيادتها وتخليصها من فساد السياسيين وسطوتهم واستبدادهم . حدث هذا مع فكلاف هافيل فى تشيكوسلوفاكيا وماريو فرجاس يوسا فى بيرو وجوموكينياتا فى كينيا ، وهو فى الأصل عالم انثروبولوجى ، وليوبولد سنغور وهو فى الأصل شاعر ومثقف . لا أحد من هؤلاء كان راغبا فى السياسة ولكن لا أحد منهم استطاع رفضها . بعضهم فسد وفقد براءته ، وأقلهم صمد .

وربطة الأديب مع السياسة خصص لها سوينكا رائعته «الموت وفارس الملك» التى صدرت فى عام ١٩٧٣ والتى سبقت الإشارة إليها ، وإن لم تكن المسرحية الوحيدة التى تعرض فيها سوينكا إلى فكرة أن السلطة ، حتى فى القرية ، مفسدة لأخيار الناس وأفاضلهم ، وتدور قصة فارس الملك حول قرية مات ملكها . واستعد فارسه المخلص ليلحق به فدعا أهل القرية إلى الاجتماع فى السوق وقال لهم ، لقد مات كلب الملك ومات حصان الملك وجاء دورى لالحق بمليكى . ثم نادى على ضاربى الطبول ليدقوا طبولهم ، بينما يتهيأ لقتل نفسه . هنا تدخل سيمون بلكنجس الحاكم البريطانى للقرية ليمنع الانتحار . فالانتحار عمل يخالف القانون البريطانى الذى يعتبره عملا همجيا ،

وتردد فارس الملك ، وبعد التردد بدأ يتعاون مع الحاكم . فحق عليه وعلى شعب القرية المهانة والذل ، أظن أن سوينكا أراد أن يقول أشياء كثيرة بعضها قد يفيد في فهم المرحلة الراهنة التي يمر فيها عالمنا العربي والإسلامي . أكاد أسمعه يقول مثلا إن الاستعمار حين جاء إلى افريقيا حرك المياه في كل اتجاه . ومع ذلك وبعد قرن أو أكثر، يبدو أنه لم يفلح في أن يصبح سدا يمنع تدفق نهر التقاليد ، وإن كان قد ترك آثاره داخل النهر وعلى جانبيه وعند مصبه، لم يتوقف حنين الأديب أو المثقف إلى الوفاء والطبول والانتحار ، وفي الوقت نفسه لم يرتو عطشه إلى ارضاء الغرب والحياة في كنفه مستمتعا إن أمكن أو متذمرا إن عجز .

أراد سوينكا أن يقول إن الانتحار الذي يحرمه الاستعمار وترفضه الحداثة يعني في التقاليد الافريقية ما لا يعنيه عند الغرب ، الانتحار هو حلقة الوصل بين عالم الاحياء وعالم الأموات، وعالم يتجاهله الناس ، وهو عالم الذين لم يولدوا بعد . الانتحار خلاص من القمع والظلم والفساد. يسعى سوينكا إلى إبراز مغزى الحياة في افريقيا التقليدية التي اصطدمت بالاستعمار الغربي . فمن خلال المواجهة التي نشبت بين فارس الملك الذي أراد الانتحار ليلحق بمليكه في عالم الأموات ، والحاكم البريطاني الذي يريد أن يفرض عليه عالم المستقبل الذي أتى به ، أي عالم الحضارة الغربية ، يريد سوينكا أن ينقل إلى القارىء الافريقي أولا والغربي أخيرا فكرة أن كل مواجهة من هذا القبيل هي في حقيقة الأمر لحظة انتقالية وإن كانت طويلة وممتدة يتعذب فيها الأفارقة لأن مؤسساتهم التقليدية أصابها الوهن تحت ضربات الاستعمار الغربي وألعاب السياسيين والحكام الجدد ، أما المؤسسات الغربية التي جاءت لتحل محل المؤسسات التقليدية فقد تأكد عجزها عن ملء الفراغ وإشباع حاجة الافريقيين إلى استعادة الأمن والسلام والراحة .

* * *

تجرأ سوينكا ، أو تهور في وقت من الأوقات ، ودعا إلى نزع جذور الديانتين الوافدتين إلى افريقيا وهما الإسلام والمسيحية والعودة إلى الديانات التقليدية . أكد كثيرا على فكرة أن الحضارة الشاملة النقية هي حضارة الديانة التقليدية التي عرفت التسامح والتعددية وسلام الروح . ويبدو لكثير من النقاد أن سوينكا وقع في الفخ الذي يحذر منه . فهو يدعو إلى التسامح ويبشر به ولكن عن طريق اللجوء إلى عدم التسامح عندما يقرر ضرورة نزع جذور الديانات الوافدة من خارج افريقيا ، علما بأنه يعرف أكثر من غيره أن الديانتين الوافدتين إلى افريقيا تجذرتا بالفعل في القارة وأصبحتا أقوى وأوسع وأكثر انتشارا من الديانات التقليدية . ولكن هناك من يرد

على هذا بالقول إن قوة الديانات التقليدية الافريقية تظهر بوضوح فى ممارسات الشعوب الافريقية لعباداتها الحديثة . فقد نجحت شعوب افريقيا فى أن تسرب التقاليد وممارسات من الديانات القديمة إلى الديانتين الوافدتين ، ثم أن هذا النقاء الذى يدعو إليه سوينكا هل هو حلم يمكن تحقيقه؟ وهل وجد هذا النقاء فعلا فى أى وقت من التاريخ فى حضارة شاملة أو حضارة غير شاملة ؟ ألا يجد الإنسان متعته الحقيقية عندما يختار العيش على حدود الثقافات واللغات والأديان وليس فى قلبها . فعند هذه الحدود يوجد التسامح والهدوء والنقاء ، وعند هذه الحدود قامت الحضارات المتوقدة نشاطا ؟ ألم تكن حضارات الحدود أقدر من غيرها على فهم الحضارات الأخرى المتاخمة ، أى على فهم الآخر والتعامل معه ؟

يختلف سوينكا عن أقرانه عربا ومسلمين . لم يستسلم للسياسة خوفا أو شهوة وإنما تعامل معها من موقع قوته كأديب ، أى كمثقف تحترمه الجماهير أكثر مما تحترم رجل السياسة . جائزة نوبل لم تغيره أو تجمده . رفض سوينكا أن يجعلها سقفه الأعلى ، لا بعده سقف ولا مجد. ولم تخفه نوبل أو من وراءها وأمامها من دول ودور نشر ونقاد أدب وسياسيين وعمالقة فى امبراطورية الإعلام . أذكر له مواقف ضد تقاليد جائزة نوبل غير المنطوقة ، أذكر له ذهابه إلى الأراضى الفلسطينية المحتلة بل ووقوفه ساعات مع الواقفين من تلاميذ المدارس والمرضى والفلاحين والحوامل عند نقاط التفتيش . قال بعدها إذا كنت قد عدت شخصيا بشىء من هذه الرحلة فهى أنه قد ازداد الرعب عندى من أن التدخل فى شئون البشر والعالم سببه أن بعض القادة السياسيين من أمثال شارون يتمتعون بسلطات عسكرية غير محدودة . لقد كتبت منذ شهور فى مجلة افريقية عما شاهدته . كتبت أن حكومة إسرائيل تمزق اربا قلب عرفات وكبده وتطعمهما لأطفاله . وتعجبت كيف يمكن أن يفشل إنسان فى أى مكان فى العالم من التنبؤ بعواقب هذه العملية الوحشية . تذكرت وأنا عند نقاط التفتيش علامات الغضب وغليانه لدى شعب بيافرا أيام الثورة ، وكيف أن شعور المهانة لدى الفلسطينيين والاذلال ، كشعور شعب بيافرا حينذاك. كلاهما نستطيع لمسه وقياسه وتقدير وزنه . هذه المساكن فى غزة وغيرها تحولت تحت القصف والاحتلال والاذلال إلى مواقع لتربية سلالات جديدة من بشر فاقدى الإنسانية . إنه إرهاب الدولة الذى تعترف به دول ، ويسكت عنه المثقفون الجدد .

* * *

هؤلاء المثقفون الجدد من عرب ومسلمين أراهم شديدى الشبه بمفكرين وأدباء وردت سيرتهم فى رائعة سوينكا

«رقصة الغابات» تتحدث المسرحية عن الدورة المتكررة للغباءات مركزة على غباء الطبقة الافريقية الحاكمة وغباء بعض المثقفين، هؤلاء الذين رباهم الاستعمار الغربي وانطلق بعضهم يدعو إلى «الزنجوية» كأيديولوجية خاصة بافريقيا. وكان رد الفعل للمسرحية صاخبا. فقد غضبت الطبقات الافريقية الحاكمة وغضب أدباء افريقيا ومثقفوها وقاطعوا سوينكا. لم يغضبوا لأن سوينكا اتهمهم بالافتقار إلى الأمانة وسوء استخدام السلطة والفساد والزحف وراء السياسة والحكام، ولكن لأنه أطلق عليهم لقب «الطرزانات الجدد» أظن أن سوينكا كان يقصد أن بعض أبناء هذه الأيام ومثقفيها يريد فى آن واحد الراحتين: راحة التقاليد وراحة الغرب وحداثته، فينتهى بأن يعيش منبوذا من عالم التقاليد وعالم الغرب معا، مثل فارس الملك الذى يريد أن ينتحر فينضم بطلا إلى عالم التقاليد أو يتعاون فينضم تابعا إلى عالم الحداثة فينتهى مهانا ذليلا ومعه مجتمعه وأهله. أم أن سوينكا كان يقصد تجسيد عجز المثقف الافريقى عن العيش فى مجتمع تقليدى وعجزه بالقدر نفسه عن العيش فى مجتمع عصرى.

حديث سوينكا عن الفلسطينيين والاسرائيليين أثار فضولى من جديد حول موقف المثقفين الجدد، وبخاصة الطامحين إلى نوبل أو الحاصلين عليها، من مسألة المدنيين الأبرياء. مرة أخرى أسأل نفسى وأتردد فى الاجابة، إذا اختار الشعب الفلسطينى الحرية والاستقلال وطرد الاحتلال واستعد لدفع ثمن هذا الاختيار، فمن هذا الذى يحق له فى تلك الحالة الحديث عن فلسطينيين أبرياء وفلسطينيين غير أبرياء؟ هل يعنى هذا التمييز أن الفلسطينى الذى اختار الحرية والاستقلال وطرد الاحتلال غير برىء؟ وفى هذه الحالة أى صفة سنصف بها الفلسطينى الذى رفض هذا الاختيار، الفلسطينى الذى يريد بقاء الاحتلال؟ هل نصنفه فى خانة الأبرياء؟ ثم أين هم الأبرياء فى شعب اختار بإرادته الحرة أن يفرض الاحتلال على شعب آخر ويستولى على أراضيه ويهينه ويذله ويحرمه من كل الحقوق الإنسانية؟ لقد أوقع السعى لإرضاء الغرب المثقفين الجدد، فى افريقيا كما فى عالمنا العربى والإسلامى، فى ورطة أخلاقية وسلوكية جعلتهم بالفعل يبدون أكثر شبها بشخصية «طرزان» صاحب النداء المدوى والسلوكيات المتناقضة.

بلغ وول سوينكا السبعين منذ أيام، وأعلن أنه لن يسكت عن الكلام المباح وسيواصل حربه مع السياسة والسياسيين. ■

مفارقة السجن والحرية !

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

فى مسرحية أنطون تشيكوف «الشقيقات الثلاث» يقول الضابط فيرشينين :

«من أيام قليلة كنت أقرأ مذكرات وزير فرنسي سجين حكم عليه بسبب فضيحة قناة بناما يا للفرحة ، يا للجذل ، اللذين يتحدث بهما عن طيور كان يراها خلال قضبان نافذة السجن ولم يكن ، وهو وزير . يلحظ الطيور قط . أما الآن وقد أطلق سراحه فقد عاد إلى سابق إهماله للطيور» (ترجمة د. على الراعى) .

هذه الأمثولة الرمزية الصغيرة تحفل على وجازتها بالدلالات : وهى تسجل حقيقة هامة عن الطبيعة البشرية ، كما ترصد طرازين من الناس : طراز لا يتعلم شيئا من تجربة السجن ، وهى من أمر تجارب الحياة وأكثرها إيلاما ، بمجرد انتهائها ، وطراز آخر ، لا تذكره الأمثولة ، ولكنه مضمر فيها - يتعلم منها الكثير .

وفى ظل غيبة التقاليد الديمقراطية - بدرجات متفاوتة - عن أجزاء كثيرة من عالمنا العربى حظيت تجارب السجن والاعتقال والتعذيب بنصيب وافر من اهتمام أدبائنا الذين عرف كثير منهم هذه التجارب معرفة مباشرة ، واكتوى بنارها ، ودفع ثمن تمسكه بمبادئه من حريته وقوته وصحته ومصير أسرته ، بل دفع أحيانا حياته ذاتها ثمنا لها .

إما بموت ناجز سريع ، أو وهو الأشق - بموت بطيء من جراء ما اجتمع عليه من أمراض فى فترة الاعتقال ، وهى أمراض ظلت بلا علاج أو كان علاجها صوريا سطحيا ، تفاقمت من جراء سوء الأحوال المعيشية ، وعمل السخرة الشاق ، والإهانة البدنية والمعنوية ، وهزال الغذاء ، والتكدس فى زنزانات ضيقة تعوزها التهوية وتنتشر فيها الروائح الكريهة وتمتد العدوى من سجين إلى سجين وتمرح الحشرات والهوام فى جنباتها، وبدء حملات التفتيش المفاجئ ، والحرمان العاطفى والجنسى ، والامتهان المستمر لآدمية السجين وإنكار حقه فى شيء من الخصوصية كى يمارس عملياته البيولوجية الطبيعية ، من قضاء حاجة أو غيرها .

إن السجن هو عالم السدود والقيود كما يقول العقاد الذى ظل نزيل سجن مصر العمومى (قره ميدان) تسعة أشهر من ١٣ أكتوبر ١٩٣٠ إلى ٨ يوليه ١٩٣١ . وإذا كانت تجربة السجن مؤلمة لأى إنسان ، بصرف النظر عن فداحة ذنبه ، فإنها أشد إيلاما بالنسبة للأديب المفكر الذى هو أكثر المخلوقات حاجة إلى ممارسة حريات التنقل والتفكير والكتابة والكلام والاختلاط بكافة الشرائح الاجتماعية .

ومن الأدباء والمفكرين والمناضلين السياسيين المصريين الذين كتبوا عن هذه التجربة : د. عبد العظيم أنيس ، وطاهر عبد الحكيم ، ود. لطيفة الزيات، ومحمود السعدنى ، وفتحي فضل ، وعلي الشوباشى ، وسعد زهران . وعن هؤلاء السبعة أتحدث هنا متوخيا غاية الإيجاز

عبد العظيم أنيس

يهدى عالم الرياضيات النابغ والناقد الأدبى الدكتور عبد العظيم أنيس كتابه «رسائل الحب والحزن والثورة» (مكتبة روز اليوسف ١٩٧٦) إلى ذكرى زوجته الراحلة السيدة عايدة ثابت المحررة بجريدة «المساء» وقد ماتت موتا مأسويا ، عبثيا فى آن فى أكتوبر ١٩٧٥ إذ عقرها كلب ضال وهى فى مطار القاهرة تنتظر عودة زوجها من سفر إلى الخارج . ويضم الكتاب واحدا وثلاثين خطابا من الكاتب ، وتسعة عشر خطابا من الزوجة إلى جانب خطاب منها تلقاه وهو فى الدانمارك فى أغسطس ١٩٦٥، وكانت ابنتهما حنان على وشك أن تولد . كانت رسائله موقعة باسم «كامل» - وهو اسم الشهرة الذى عرف به فى محيط الأسرة - أما رسائلها فكانت - على سبيل التقية - تتخذ صورة رسائل من أخت إلى أخيها ، وتحمل توقيع «عنايات» . ورسائله مكتوبة من معتقل القلعة ، وسجن الواحات الخارجة ، وسجن مصر ، وسجن الإسكندرية ، وأوردى أبو زعبل (الأوردى كلمة تركية معناها : معسكر،

وفى رواية أخرى : ملحق) .

تغطى الرسائل الفترة من أول يناير ١٩٥٩ إلى ٤ ابريل ١٩٦٤ وتضم بعض قصائد للمؤلف مثل قصيدة «الطائر الحزين» وقصيدتين بالعامية هما «العودة» و«السندباد» . كما تضم رسالة من المؤلف إلى لطفى الخولى . ولا يغيب البعد الثقافى والإبداعى والنقدى ، بطبيعة الحال ، عن خطابات الزوجين : فهما يذكران شعر ناظم حكمت (الذى توفى أثناء فترة الاعتقال) . كما أن أنيس يكتب فى مجلة الحائط التى كانت تصدر بالمعتقل مقالات ترد على آراء للويس عوض ويوسف إدريس ، ويستمع إلى شروح الدكتور حسين فوزى للموسيقى الكلاسيكية فى البرنامج الثانى«البرنامج الثقافى الآن» بالإذاعة وإلى موسيقى موزار . وحين تصله بعض أعداد مهربة من مجلتى «المسرح» و«الكاتب» يكتب : «إن مقالات رشاد رشدى فى مجلة المسرح هى من أسوأ ما قرأ الإنسان فى السنين الأخيرة عن مشكلة الفن ، وهذا الدفاع البشع عن مسرح وأدب اللامعقول أمر محزن تماما . فالغريب أن المجلة تحوى عددا من الأبحاث الممتازة الجديرة بالتقدير باستثناء مقالات رئيس التحرير التى هى دعوة صريحة إلى عزل الفن عن المجتمع والعالم وإنكار كامل للرسالة الاجتماعية للفن والجانب التعليمى فى المسرح ، ومحاولة دؤوبة لهدم موقفنا وموقف برخت من الفن والمسرح .. على أن الأسوأ من مقالات رشاد رشدى فى مجلة المسرح هو مقالات أحمد عباس صالح فى مجلة الكاتب ، إن هذا الإلحاح فى الهجوم على الماركسية كنظرية وعلى الماركسيين المصريين يدعونا إلى التساؤل : لمصلحة من يتم هذا الهجوم ؟ وماذا يستطيع أن يقدم الكاتبان بدلا من الماركسية ؟» (ص ١٤٦) .

أما الهجوم على فكر رشاد رشدى فهو وأمر مفهوم ، إذ أنه يقف مع عبد العظيم أنيس (ومحمود أمين العالم) على طرفى نقيض ، وأما الشجار مع محمد عودة وأحمد عباس صالح فخلافات عائلية ليس لمثلى (وأنا تلميذ لإليوت ورشاد رشدى قديم) أن يتدخل فيها .

طاهر عبد الحكيم

صدرت الطبعة الثانية من كتاب طاهر عبد الحكيم «الأقدام العارية» عن دار ابن خلدون (بيروت) فى ١٩٧٨ . وفى الكتاب قدر كبير من الرطانة الماركسية التقليدية ، ولكنه ذو قيمة تاريخية باعتباره تسجيلا للعلاقة بين النظام الناصرى والشيوعيين المصريين فى فترة محددة هى ما بين يناير ١٩٥٨ ومايو ١٩٦٤ . وفيها اشتدت وطأة

أجهزة عبد الناصر على الحزب الشيوعى المصرى ، كما اشتدت على الإخوان المسلمين وسائر الفئات المعارضة .

والكتاب - إذا كان لى أن أستعير عبارة من الشاعر الدكتور حسن فتح الباب - يسمى الوجوه بأسمائها ، فهو يشير إلى أشخاص أحياء وراحلين بأسمائهم ، ويقدم شهادته للأجيال المقبلة . لقد قضى المؤلف فترة اعتقاله فى أوردى ليمان أبو زعبل ، ثم رحل إلى سجن الواحات الخارجة . وهو يروى قصصا كثيرة عن زملائه فى الاعتقال وكان منهم الشاعر الفلسطينى معين بسيسو الذى يورد له المؤلف قصيدة عنوانها «المرتد» عمن يرتدون عن مبادئهم تحت وطأة التعذيب ، أو الإغراء المادى أو الضغوط النفسية ، أو الضعف البشرى العادى ، أو غير ذلك من الأسباب (لا أشارك طاهر عبدالحكيم ومعين بسيسو إدانتهما لمن يضعفون - وإن شاركتهما إعجابهما بالصامدين - فإن للحم والدم البشريين طاقة لا يستطيعان تجاوزها ، وما أنا من المفرغين فى قوالب الأبطال ! . ويشوب الكتاب مرارة عميقة - ومبررة - من تجاوزات العهد الناصرى . كما تشوبه هفوات معرفية من مثل قول المؤلف إن سيزيف عذب «لأنه حمل نار المعرفة للبشر» (ص ٢٧٨) . والصواب، طبعا ، بروميثيوس . أما سيزيف فكان عذابه ، بدحرجة الصخرة إلى أعلى ثم سقوطها إلى أسفل باستمرار - راجعا إلى أنه أفشى أسرار زيوس الإلهية ، وخدع الموت مؤقتا فأفلت من النزول إلى العالم السفلي لحين من الوقت ، وكان يسرق المسافرين ويقتلهم .

لطيفة الزيات

كتاب لطيفة الزيات المسمى «حملة تفتيش : «أوراق شخصية» (كتاب الهلال أكتوبر ١٩٩٢) آية من آيات السيرة الذاتية التى تزيل الحواجز بين الماضى والحاضر ، الزمان والمكان ، الذكرى والرغبة . فالجزء الأول منه مؤرخ فى مارس ١٩٧٣ ، والجزء الثانى مؤرخ فى ١٩٨١ . وفيما بين هذين الجزءين فصول مؤرخة فى ١٩٦٧ و١٩٦٣ و١٩٥٠ و١٩٦٢ و١٩٧٣ بهذا الترتيب . وثمة لمحات عن طفولة الكاتبة ، وزواجها الأول وزواجها الثانى ، وكفاحها السياسى .

وعنوان الكتاب «حملة تفتيش» - كما تلاحظ زينب العسال فى أطروحتها الجامعية القيمة «تفاعل الأنواع فى أدب لطيفة الزيات» - يومئ إلى مستويين : «مستوى مادى : يشير إلى حملة تفتيش واقعية (فى السجن) ومستوى معنوى : يشير إلى غوص الراوية فى أعماق ماضيها ، واستدعاء فترات متباينة من



فترات عمرها» . لقد دخلت الكاتبة السجن مرتين : مرة فى العهد الملكى فى مارس ١٩٤٩ بتهمة محاولة قلب نظام الحكم ، ومرة فى سبتمبر ١٩٨١ بتهمة التخابر مع دولة أجنبية .

أما المرة الأولى فقد عرفت فيها الحبس الانفرادى شهورا على ذمة التحقيق فى سجن الحضرة بالاسكندرية إلى أن أفرج عنها فى يوليه ١٩٤٩ ، بحكم مع إيقاف التنفيذ، بتهمة الانضمام وآخرين إلى تنظيم شيوعى .

وأما المرة الثانية فكانت فى سجن القناطر وكان من زميلاتها فى السجن، إلى جانب عضوات التيار الإسلامى ، الدكاترة أمينة رشيد وعواطف عبدالرحمن ونوال السعداوى ، وقد راهنت سلطة السجن على حدوث صراع بين «الإسلاميات» و«التقدميات» ولكن خاب الظن فقد جمع الشعور المشترك بالظلم بين النزيلات وكون جبهة متحدة فى مواجهة القمع الساداتى .

وتفرد لطيفة صفحات لتجربة زواجها من الدكتور رشاد رشدى (دون أن تسميه) وكذلك تجربة زواجها الأول .

وتستحيل تجربة السجن - بين يديها المبدعتين : يدى الفنانة - إلى بورة لاهبة حارقة تنصهر فيها الأبعاد الشخصية والقومية والإنسانية ، وتتعلم كيف تكون شرسة وعنيفة فى مواجهة الشراسة والعنف . وتوجز الدرس الذى تعلمته فى هذه الكلمات المضمخة بعبق الشعر وعبير الفن :

«يحيل السجن القفازات البيضاء الحريرية الناعمة إلى قفازات ملاكمة تصيب الهدف إصابة مباشرة ، يختزل السجن الإنسان إلى المقومات الأساسية للوجود ، والمقومات حبلى بكل الإمكانيات ، وتصبح أرضا صخرية ، وخضراء يانعة الخضرة ، نارا وماء ، طينا تدوسه الأقدام ، وخزفا يحكى قدرة الإنسان على خلق الجمال وإعادة خلق ذاته . فى السجن تصبح شرسا وجميلا» (ص ١٦٣ - ١٩٦٤) .

محمود السعدنى

ربما كان «الطريق إلى زمش» (كتاب

اليوم ١٩٩٣) لمحمود السعدنى هو الكتاب الوحيد فى قائمتى المختارة الذى تعلو فيه نبرة الفكاهة ، وإن تكن فكاهة أسيانة مشربة بالدمع لقد فصل الكاتب من جريدة «الجمهورية» لأنه حمل رسالة من الحزب الشيوعى العراقى الذى كان مقيما فى دمشق أنذاك - عام ١٩٥٧ - لتوصيلها إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم عمل سكرتيراً لتحرير مجلة «روز اليوسف». حملته المباحث إلى سجن القلعة حيث وجد نخبة من أبرز الكتاب والفنانين المصريين : أحمد رشدى صالح ولويس عوض ولطفى الخولى وفتحى خليل وزهدى وجمال كامل وألفريد فرج وغيرهم ومن القلعة نقلوا إلى معتقل الفيوم وكان فى الأصل معسكرا للجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم نقلوا إلى سجن الواحات حيث ألف بعض زملائه تنظيما باسم زمش وتولى منصب سكرتيره العام . وفى النهاية أعيد إلى معتقل الفيوم إلى أن أفرج عنه وعاد إلى عمله بروز اليوسف وفى السنوات التى أعقبت ذلك سافر إلى لندن بابنته المريضة هالة حيث أجريت لها عدة جراحات .

وفى الكتاب نوادر كثيرة تمتزج فيها الفاجعة والفكاهة مثل قصة «هابيوس كوربوس» التى غدت الآن مشهورة ومالها من دلالة على شخصية لويس عوض : ذلك المفكر العظيم الذى كان - من بعض النواحى - أقرب إلى غرارة الطفولة ومثاليا ساذجا يعيش مع صفحات الكتب أكثر مما يعيش على أرض الواقع . ويخيل إليه أن القانون الرومانى القديم (معناه فيما يقول السعدنى : «أبرز الجثة» والأدق : هات السجين ، بشحمه ولحمه ، إلى المحكمة كى ينظر القاضى فى مدى مشروعية احتجازه) لابد سار هنا ، وأنه سيكفل لهم الخروج إلى عالم النور بعد يوم أو يومين على الأكثر» . وقد صدق السعدنى - بحس ابن البلد المصرى الشعبى حين رد عليه قائلا : «تصدق بالله ، لو هابيوس كوربوس جه هنا ، هيحبسوه معانا .. وهياكل ضرب ماكلوش حرامى فى مولد ، هابيوس كوربوس مين يا عمنا ، إن كان اعتمادك على هابيوس كوربوس دا ، يبقى مش هنخرج من هنا غير يوم القيامة» (ص ٣٣) .

فتحى فضل

فى كتابه «الزنزانة» (مكتب النيل للطبع والنشر ١٩٩٣) يروى فتحى فضل تجربته فى السجن بتهمة طبع كتاب «مسافة فى عقل رجل» لمؤلف (لا يسميه فضل صراحة ويقتاد إلى مباحث التهرب من الضرائب ، قسم المصنفات الفنية ، حيث يجرى تحقيق مع مؤلف الكتاب ومعه . ويمثل أمام النيابة فتقرر حبسه

والمؤلف على ذمة التحقيق أربعة أيام واستدعاء موزع الكتاب محمد مدبولى للتحقيق . ويمثل مع المؤلف أمام المحكمة فيصدر الحكم بمد حبسهم خمسة عشر يوما ، وفى الحجز ينضم إليهما محمد مدبولى .

وتختلف تجربة فتحى فضل عن سائر التجارب الواردة هنا فى أنه لم يكن رهين سجن سياسى ، وإنما فى حبس احتياطى عام تعامل فيه مباشرة مع «عكارة المجتمع فى قاع المدينة» (ص ٦) من المتهمين بجرائم الرشوة والاختلاس والتزوير والتزييف والتدليس والنصب والاحتيال . أما تهمته .. ومؤلف الكتاب - فكانت «الاشتراك مع آخرين فى الترويج لهدم السلام الاجتماعى للدولة وازدراء الأديان» . وقد صدر الحكم العسكرى من محكمة أمن الدولة العليا طوارىء بالسجن ثمانى سنوات مع الشغل وغرامة ألف وخمسمائة جنيه لكل من الثلاثة : المؤلف والطابع والموزع . وفى البداية حكم عليه بالافراج مع دفع كفالة خمسة آلاف جنيه ولكنه رفض أن يدفعها أهله محدودو الموارد ، وعاد بإرادته إلى ليمان طره . وفيما بعد حكم عليه بكفالة ألف جنيه مع استمرار حبس مؤلف الكتاب . ويعود إلى بيته فيجد أجزاء كتاب «وصف مصر» - لعلماء الحملة الفرنسية ، وكان يقرأ فيه حين ألقى القبض عليه - مازالت فى مكانها كما كانت حين تركها وانظر إلى دلالة العنوان فى ضوء التجربة بأكملها : «وصف مصر»!

ومن الأمور الأخرى التى تميز فتحى فضل عن سائر الكتاب الذين أتناولهم هنا أنه أقلهم انخراطا فى التجربة ، وأقربهم إلى الوقوف منها موقف المراقب أو المشاهد أو المتفرج . إنه دائما متباعد خطوة أو خطوتين ، لقد شاقته النماذج البشرية الغريبة التى التقى بها فى الحبس (نشالون ، لصوص ، قتله ، قوادون ، مزيفو نقود، تجار مخدرات ، مومسات ، إلخ) إلى الحد الذى يقول معه : «كانت عندى رغبة خفية ولهفة على استمرار حبسى حتى أستكمل غربلة النماذج البشرية الفريدة المدهشة والجرائم النادرة التى لم استمع إليها بعد» .

على الشوباشى

تضم رواية الأديب الراحل على الشوباشى المسماة «قبض الريح» (سلسلة روايات الهلال ، مارس ٢٠٠٢) قسما مسمى «ذكريات فى سجن الواحات» . والمؤلف هو ابن الأديب الكاتب محمد مفيد الشوباشى (أما من أحد يتذكره اليوم ؟) ، وقد عرف الابن تجربة الاعتقال أكثر من مرة أطولها الفترة من أول يناير ١٩٥٩ إلى ٩ مايو

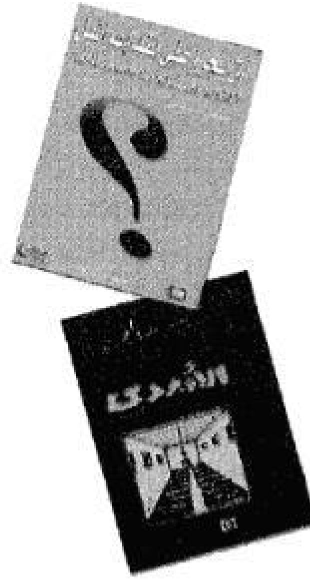
١٩٦٤ . وهو يبدأ هذا القسم ويختمه ، فالذكريات ذات بناء دائرى - بمقولة لينين : «السجن مدرسة الثوار» واختار أن يركز فى كتابه على جانب أهمله غيره، أو لم يمسوه إلا مسا هينا ، هو «ألوان النشاط التعليمى والثقافى والإعلامى والرياضى والترويحى ، ونشاط تنظيم الأحوال المعيشية التى كان المسجونون يقومون بها فى ظروف كثيرا ما كانت صعبة» (ص ١٧٠) .

قضى الشوباشى عام ١٩٦٢ فى سجن الواحات الخارجة حيث أقام المعتقلون «جامعة» تدرس مبادىء الإنجليزية والفرنسية ، والرياضة البحتة ، وأطلقوا عليها اسم الشهيد شعبان حافظ ، أحد قادة أول حزب شيوعى مصرى فى أوائل العشرينيات . كان الدكتور عبد العظيم أنيس يدرس الرياضات المتقدمة لاثنين اختارا دراسة هذه المادة : الدكتور فائق فريد والأستاذ محمد سيد أحمد أما محاضرات الاقتصاد فكان يلقيها الدكاترة فؤاد مرسى وإسماعيل صبرى عبد الله وفوزى منصور . ومارس محمد مستجير عملية الترجمة . وكان من المعتقلين أيضا من الصحفيين والفنانين والأدباء : عبد الستار الطويلة وحسن فؤاد وصبحى الشارونى وألفريد فرج وصلاح حافظ (رئيس تحرير «روز اليوسف» الأسبق) وعبد الحكيم قاسم وحمزة البسيونى وداود عزيز ومجدى نجيب وفؤاد حداد وابراهيم فتحى وفيليب جلاب . أما سجن القناطر فضم إنجى أفلاطون ومحسنة توفيق وغيرهن .

ويذكر الشوباشى أن ألفريد فرج ألف فى السجن مسرحية «حلاق بغداد» وعددا من القصص القصيرة ، وأن رجال الأمن صادروا - عند إلقاء القبض على المهندس فوزى حبشى عام ١٩٧٥ - مخطوط كتاب مهم كان الدكتور لويس عوض قد كتبه فى السجن وتم تهريبه بعنوان «حول قانون الذاتية أو الرد على فردريك إنجلز» ، ويضيف الشوباشى قائلا : كان هذا المخطوط الذى لم يكن قد نشر بعد هو النسخة الوحيدة من كتاب الدكتور لويس عوض ، ونرجو أن يعثر عليه رجال المباحث العامة فى أضابيرهم ، خاصة وأنه كتاب ينقد جانبا مهما من أفكار أحد كبار منظرى الشيوعية ، وهو بذلك يمكن أن يكون مساعدا لهم فى «مكافحتهم» للشيوعية ، وبصرف النظر عن ذلك فأفكار الدكتور لويس عوض ، سواء اتفقنا أو اختلفنا معها ، جديرة بأن يقرأها المثقفون» (ص ٢٠٩) .

سعد زهران

ويحتل كتاب سعد زهران المسمى «الأوردى : مذكرات سجين» الصادر



حديثا عن المركز الثقافي العربي (بيروت الدار البيضاء ٢٠٠٤) مكانا مهما بين هذه الأعمال لما يتميز به من توثيق دقيق وتحليلات عميقة وأسلوب أدبي رفيع . ويصدره بقوله «الحرية كالحب والمعرفة نفقدها حين نغفل لحظة عن النضال من أجلها» .. أودع في البداية معتقل القلعة ثم ذهب إلى الأوردي (ليمان أبي زعبل) في منتصف يونيو ١٩٦٠ . وكان من زملائه في الاعتقال : فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله وإلهامي سيف النصر ومحمود العالم وعبد العظيم أنيس ولويس عوض .

ويحفل الكتاب بصور مروعة لامتهان آدمية المساجين ، أهونها الذباب في الحساء ، والسوس في حبات الفول ، والتقاط كسرات الخبز من صناديق القمامة . ويسجل المؤلف كيف كان الجلادون يأمرون ضحاياهم دائما بأن ينظروا إلى الأرض ويحرمون عليهم رفع أعينهم مفسرا ذلك بأن الجلاد - لفرط شعوره بالذنب في أعماقه يخشى مواجهة عيني السجين ورؤية ما تجمع فيهما - والعين مرآة النفس لا تكذب - من غضب وحقد ورغبة في الانتقام . كما يروي قصة تكاد تكون سريالية لشدة غرابتها وطابعها السحري الشائه (الجروتسكي) بطلها الشاويش أمين تومرجي الأوردي . كان الشاويش يعمل في أحد السجون العمومية ، وذات ليلة اشتد المرض بأحد المسجونين فحضر الطبيب ووجده قد فارق الحياة فكتب محضرا بذلك وترك للشاويش أن يقوم بتشريح الجثة في اليوم التالي . وأدع سعد زهران يكمل القصة :

«وصل الشاويش أمين إلى السجن في الصباح ليجد جثة السجين المتوفى تنتظر التشريح .

ولكن ، يالعجب ، حين ضرب الشاويش أمين المشرط في بطن المتوفى، بدأت الجثة تتحرك !! أدرك الشاويش بسرعة أن طبيب السجن أخطأ في تشخيص الحالة . لم يكن السجين قد توفي وإنما كان في حالة غيبوبة بسبب شدة المرض ، فلما ضرب المشرط

أحشائه ، حركة الألم .

لم يتردد الشاويش أمين لحظة . اتجهت يداه المهولتان بسرعة نحو عنق السجين وكتم أنفاسه حتى أجهز عليه !! وهو يصيح بانفعال شديد : ارقد يا ابن الكلب ! ارقد : الدكتور كتب فى الأوراق الرسمية أنك مت . موت يا ابن الكلب . حاتعمل مشكلة للدكتور . موت .. موت .

حدث هذا على مرأى ومشهد من اثنين من المسجونين العاديين ممن يعملون نوبتجية فى مرافق السجن» (ص ١٦١) .

مفارقة السجن والحرية

كتب جان بول سارتر عن سنوات المقاومة ضد الاحتلال النازى لفرنسا ، وقد كان من المشاركين الفاعلين فيها : «لم نكن فى يوم من الأيام أحرارا قدر ما كنا فى تلك الأيام» .

وأحب أن قوله هذا - الذى يبدو لأول وهلة مفارقة غير معقولة - ينطوى على حكمة عميقة ، ويمكن أن ينسحب على الأدباء الذين تحدثت عنهم ، وذلك على نحو شبيه بما نجده فى مفارقة الناقد التفكيكي الأمريكى بول دى مان الذاهب فى كتابه «العمى والبصيرة» إلى أن ناقد الأدب إنما يتوصل إلى أعمق استبصاراته من خلال نوع من العمى النقدى عن هذا الجانب أو ذاك من جوانب العمل الذى ينقده .

فالسجن بما يضعه على حركة السجين وتصرفاته من قيود - يحرره من انشغالات الحياة اليومية ، ويوفر له وقتا كافيا للتنقيب فى أعماق ذاته وتقليب موقفه على شتى جوانبه ومواجهة النفس بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف ، أنانية وإيثار ، وإيمان وشك . إن الحبس - والانفرادى منه بخاصة - من أعون الأمور على الانكفاء على الذات ، واستبطان الدخائل ، واستعراض تجربة المرء بكل أبعادها . وهى - إذا اقترنت بنزاهة عقلية من جانب السجين ، كما يفترض فى سجين الرأى - قمينة أن تضع الذات فى الميزان ، وتقييم تصرفاتها بقسطاس عادل مستقيم لا يميل إلى هذا الجانب أو ذاك ، وتيتح للمرء أن يرى ذاته تحت شمس الحقيقة الحارقة، بلا أقنعة ولا أصباغ.

هذه - إذن - هى مفارقة السجن والحرية : إننا بالسجن نتوصل إلى نوع من التحرر - التحرر من أفكارنا المسبقة ، وتحيزاتنا الوجدانية ، وموروثاتنا الثقافية التى لم نخضعها من قبل لفحص أو تمحيص . ومن خلال كوة الزنزانة الضيقة قد نرى رقعة زرقاء من السماء ، أو منديل سحابة كالعهن المندوف ، أو طيور محلقة توقظنا على معنى الحرية والانعتاق . ■

صرخة

ويني مانديلا

بقلم
صنع الله إبراهيم

اقتصرت إحدي جلسات مهرجان الكتاب العالمي السابع الذي عقد في دوربان بجنوب أفريقيا في الأسبوع الأخير من شهر مارس الماضي علي مناقشة أحدث روايات الكاتب الجنوب أفريقي الأسود نيابولو نيبيلي التي تحمل إسم «صرخة ويني مانديلا».

والكاتب نائب رئيس جامعة كيب تاون وأستاذ مقيم بمؤسسة فورد في نيويورك منذ سنة ١٩٩٨. وقد حصل علي الدكتوراه في الفلسفة والأدبين الانجليزي والأمريكي من جامعة دنفر الأمريكية. وصدرت الرواية في العام الماضي ٢٠٠٣ ولاقت نجاحا كبيرا فأعيد طبعها في مطلع هذا العام. وتصور تجارب أربع نساء سود من جنوب أفريقيا، قضين حياتهن في انتظار عودة أزواجهن، ثم التقين بـ «ويني مانديلا» أشهر المنتظرات.



وينى مع مانديلا لحظة خروجه من السجن فى ١٩٩٠ بعد ٢٨ سنة به


مانديلا مع زوجته الجديدة


الكاتب الجنوب إفريقى نيابولو نيبيلى

الرواية قصيرة في ١٢٠ صفحة تتميز بلغة شاعرية وعمق سيكولوجي وتروي قصة الدمار الذي أحدثه الرجل الأبيض في بنية المجتمع الأفريقي والذي يفسر ظواهر العنف والمخدرات والضياع ويمثل قنبلة على أهبة الانفجار. لكنها في الوقت نفسه تقدم تجربة كونية عرفناها في مصر والعراق وفلسطين وليبيا والأردن والسعودية والمغرب وتونس والجزائر وكل مكان تعرض فيه الإنسان للضغوط التي دفعته إلى الهجرة وتعرض فيه أصحاب القضايا للقهر والموت والتعذيب وتعرضت فيه النساء لدراما الانتظار وآلامه.

ومن الناحية التقنية تقدم الرواية تجربة هامة في توسيع حدود فن القص، إذ تموه الحدود القائمة بين التخييل والواقع بالجمع بين أشكال الابداع المختلفة من قص وسيرة ومقال، كما أنها لا تعبأ بالمحظورات المعهودة في أدبنا العربي لأنها صادرة عن ثقافة مختلفة، لها بالتأكيد قيم انسانية أسمى من قيمنا.

يقول الكاتب في مدخل الرواية: «هذا عمل من أعمال الخيال يستشهد بمقتطفات غير تخيلية من نصوص مذكورة في نهاية الكتاب» وتضم هذه النصوص عدة مؤلفات عن «مانديلا» وزوجته فضلا عن «الأوديسة» وكتاب «مانديلا» الشهير «المسيرة الطويلة إلى الحرية» الصادر في ١٩٩٤ وكتاب زوجته «ويني» الصادر عام ١٩٨٤ بعنوان «جزء من روحي ذهب معه». وحرص المؤلف على أن يضع هذه المقتطفات في النص بين علامات تنصيص. كما استخدم الخط المائل للوثائق التي أوردها وعلى رأسها رسالة «ويني» إلى عشيقها وكلمة «مانديلا» في قضية الطلاق التي رفعها ضد زوجته.

سجل حافل

و «ويني مانديلا» واحدة من النساء الأفريقيات اللاتي سجلن تاريخا حافلا من الكفاح ضد قوانين التفرقة العنصرية. ففي عام ١٩٥٦قادت النساء تظاهرة من ٢٠ ألف امرأة في «بريتوريا» قلب السلطة البيضاء طالبن بأن يتاح لهن الحياة مع أزواجهن وأطفالهن المعزولين في مناطق العمل.

أما «ويني» فقد بدأت رحلتها الكفاحية بعد سجن زوجها. وطوال فترة السجن التي استمرت ٢٧ عاما تعرضت للسجن عدة مرات لكن سنوات حياتها الأخيرة شابتها الفضائح وشهدت انفصالها عن زوجها بعد الافراج عنه.

فخلال فترة غياب زوجها في السجن شيدت في مدنية «سويتو» السوداء الفقيرة قصرا فاخرا أشبه بالقلعة، و استولت لنفسها على مئات الألوف من التبرعات التي قدمتها «بناظير بوتو» و «دوس سانتوس» رئيس أنجولا للحركة النضالية كما شاركت في أعمال

استثمارية مريبة (بعضها مع «عمر الشريف») وتعرضت لماكمات عديدة آخرها قبل شهور من زيارتى فى قضية نصب.

بنات « بينلوب »

ويستهل المؤلف روايته واصفا إياها بأنها كتاب تخيلى عن حياة المرأة الأفريقية يروى قصص أربع من النساء المجهولات وأشهر امرأة من «جنوب أفريقيا»، كن ينتظرن .

ثم يروى قصة «بينلوب» بطلة «الأوديسة» الشهيرة التى انتظرت زوجها ١٩ سنة تحملتها بفضل الإيمان ، رفضت خلالها الاستجابة لطلاب يدها فاحتلت مكانها فى الأدب العالمى رمزا مطلقا للزوجة «المخلصة والصادقة». ذلك أن القاعدة السائدة عن دور المرأة فى الزواج هى الإخلاص الأبدى للزوج..

وطوال قرن تعرضت ملايين من سلالة «بينلوب» الجنوب أفريقيات للاختبار بسبب غياب الرجال لفترات طويلة من الزمن بتأثير القوانين الاستعمارية التى خلقها الجوع الامبريالى إلى عمال للمناجم والمصانع أو مدرسين وموظفين للمكاتب الحكومية أو التى أودعتهم السجون والمنافى.

دعونا نتأمل الحياة المتخيلة لأربع من سليلات «بينلوب» : «الجلوس على حافة الفراش بعد حمام المساء ، وحيدة فى غرفة النوم. تنتظر. تترك يدها تنزلق فوق الدهان الذى تبسطه فى رقة فوق الجسد. متلكئة فوق النهدين تحتضنهما. تنزلق فوق الصدر وفوق الفخذين حتى الركبة. ثم بين الركبتين خلال الفخذين، تفرجهما حتى يستسلمان من تلقاء نفسيهما. وأخيرا تستقر السبابة ظهرا لظهر فوق الفرج بينما ينضغط الفخذان من جديد».

أهناك لحظة تصبح فيها عودة الزوج المرجوة مبعث رهبة؟ عندما يصبح التحمل هدفا فى ذاته؟ بلا شئ يعقبه. عندما لا تعود المرأة التى وقعت فى شباك الانتظار فى حاجة إلى عودة رفيق رجل منذ زمن بعيد وأصبح ذكرى لم تعد تستدر عاطفة؟.. عندما يخلق تيار الحياة فى ظل الانتظار مغريات عديدة؟ .. لماذا يجب أن يعود الآن الرجل الذى ذهب من زمن بعيد؟ لماذا لا تبدأ المرأة المنتظرة فى وضع مشاريع دائمة دون زوجها؟

.. هذا هو ما يعطى «بينلوب» جنوب أفريقيا هذه النظرة المتميزة. تلك النظرة المتفرسة ! إنها حملقة عين تتسلل بنعومة صارمة وثابتة. نظرة كرم نابع من الإصرار . وفى لحظة يأس، عندما يحرك الزلزال داخلها الرغبة فى تواصل عميق.. يبدو عليها الضعف وتسقط التحصينات.. وينفسح المجال لنظرة عدم مبالاة.لكنها لا مبالاة تربطك. بل أنها تثير الروع. إنها تنضح بجوهر الجمال .. ليست فقط فى تلك العينين البنيتين . إنها التجعيدة الطيعة فى الجبهة ، التحفظ الناطق بالثقة فى النفس، الشفاه المزمومة: كل ذلك يؤلف التحديقة التى تمسك بالظرف

الحياتي خلال زمن يقاس بحالة الانتظار.

طقس الشاي

يروى المؤلف القصص المتخيلة لأربع نساء ثم يجمعهن سويا فى لقاء أسبوعى لشرب الشاى. وفيما بعد تنضم إليهن «وينى مانديلا». وتقترح إحداهن – «ديللى»– أن يتحدثن عن «وينى» وتبرز قصاصة صحيفة أحضرتها من مخدعها تضم نص الرسالة التى بعثت بها «وينى مانديلا» الحقيقية إلى عشيقها ونشرتها الصحف، وهى بتوقيع صلف ألفت أن تستخدمه فى أمثال هذه الرسائل كى تتجنب ذكر اسمها:

« .. عندما أفكر فيما حدث، أستفظع خيانتك. لقد كنت على استعداد للتصديق على تصريح «تيريزا» فى «سيتى بريس» بأنك انفصلت عنها بسببى بينما من الواضح تماما أنها تخلت عنك تماما فى فبراير ١٩٩٩ عندما وجدتك راقدا مع «نوكسوليزى» صباح ذلك السبت. هل تذكر كيف كنا عاشقين ؟ كان بوسعك ياحبيبى أن تأتى إلى بوجه لا ينم عن شئ كأن شيئا لم يحدث بل وفى أحيان كثيرة كنت أنا السبب فى شجاراتك مع «تيريزا» حتى عندما تلفتت هى لـ «بيوملا» وقالت لها ذلك الهراء وكيف أنك لم تتزوجها بسببى، لقد قمت بحمايتها ووقفت فى صفها.إنها تيريزا هذه بتاعتك، التى أدخلت «بيوملا» فى الأمر كله، وأنت اليوم تهيننى وتقول إننى التى فعلت؟.. عندما أنتهى من أمرك سوف تتعلم بعض الأمانة والإخلاص وتعرف ماذا يعنى خيانة الثقة بالنسبة لامرأة .

تكذب على وتقترح أن تكون لك علاقة بأخرى للتغطية على علاقتنا.. أفهم وأعرف كيف كان من الصعب على تقبل هذا الواقع لكن سرعان ما أدركت أن حبى الشديد لك اضطرنى للموافقة معك رغم أنى مازلت أرتعد من كونك تكذب ...

لقد أرغمتنى معاملتك الخسيسة فى الليلة الماضية أن أريك مرة أخرى كيف أن بوسعى أن أفعل المثل تماما. دالى ، أنا لا أرجوك شيئا ولن تجعل منى «تيريزا» أخرى ، وأنت فى حاجة لأن تقرأ الفقرة الأخيرة من خطابها إلى «نوكسوليزى» لتعرف كيف أنك مهووس بالكذب. ما يجب أن تعلمه هو أننى لن أتيح لك أبدا أن تحط من شأنى إلى هذه الدرجة مرة أخرى..إنها أنا..»

ديللي تتكلم

ثم تواصل «ديللى» : «هاهو الأمر كله فى الصحف . كل شئ ! ياإلهى ، رغم أنها حاولت التعبير عن رغبة محبطة... لقد تدرب زوجك على أن يعيش بدونك وحافظ على جلال منزلته الفائق. لقد حماه السجن وحوله إلى قديس. لم تكن لديه نساء يعرضن أنفسهن أمامه. أما أنت فقد كان لديك مالا يحصى من المعجبين: رجال على استعداد لأن يخاطروا بحياتهم فى الهاوية الفاصلة بين الشهرة

والخيانة. الاختيار الأخلاقى لديهم حفزتها متعة تحويل رجل مشهورإلى ديوث وفى نفس الوقت نفسه الرغبة فى الحصول على الشهرة من جراء ذلك .دفعوك لأن تنتهبى فرصتك. ولكى تحدى من المخاطر كان عليك أن تجمعى سطوة سياسية كبيرة تكفى لأن تضعك خارج الانتقاد عندما يحل الخوف منك محل الحكم الأخلاقى.

..«أوبيفيبا»، أى الجماع(باللغة الدارجة) . «بوتيكاتسى». ياله من كلمة موجودة فى كل لغة. وتبعث إلى الذهن معنى العلاقة الجنسية الصرفة بين رجل وامرأة. علاقة ليلة واحدة. جولة سريعة. «تسا- تسا». اغتصاب . جنس بلا التزام. .. رغبة جسدية حارقة لدى رجل فى أن يضخ المنى .. وبعد أن يقذفه ينهض ويمضى بعيدا وهو يربط أزراره ، الة لم يعد لها فجأة أية فائدة.

إنه إذ ينهض ويمضى بعيدا يترك عادة شخصا يشعر بالهجران، شخصا يتشوق إلى إيماءات ولمسات تضفى الشرعية على الأمر ، وتبث طمأنينة الرفقة ..الابتعاد يعلن التخلص من شئ تم استخدامه وإلقاؤه أرضا.. هذه هى اللحظة التى يتحول فيها الاغتصاب إلى فعل دائم . بمجرد انتهاء الغزو الجسدى ، يصبح احتلالا طويل الأمد..

(...) هذا هو معنى الكلمة. ممارسة عشوائية وعنيفة للجنس دون عبء المسئولية.. تستخدم الكلمة كسباب وإهانة. يقولها لك شخص فى غضب . ومعناها: «لينكحك شخص بعنف وازدراء ويضخ منيه ثم يمضى بعيدا» ..

بالطبع أحيانا ما ترغب امرأة فى مثل هذا النوع من الممارسة. وقد شعرت أحيانا أنى أستخدم فانتازيا الوقوع فى الحب لتبرير رغبة حقيقية فى الجنس البحت.. وينبع ذلك من شعور عنيف بعد الاتصال . وربما نساء كثيرات من المنتظرات يعرفن هذا الشعور. طبقات وطبقات من مفهوم عن احترام الذات والانتماء للكنيسة والمشاركة فى طقس الشاى ، يسقط عنك تدريجيا مع الزمن. ويصبح الانتظار معركة بين رغبتك فى الإبقاء على هذه الطبقات وميلك المتزايد لأن تمتنعى عن مقاومة تحللها مع الزمن.

قصة حب

.. هل كنت تعرفين المقدر لك عندما وقعت وأنت فتاة صاعقة الجمال فى الثالثة والعشرين - فى حب الملاكم والسياسى الشهير الوسيم، «نيلسون»؟ أنت فتاة القرية التى كانت فى طفولتها -كما يقال- دائما فى رفقة الصبية ، تلعبين ألعابهم ، تقاتلين بالعصى ، ..تلكمين الوجوه بقبضة اليد .. تركبين الظهور العارية للجياد والماشية . صلبة العود ولا مبالية.

قيل لنا إنك تأثرت بموت أمك. عندئذ توثقت علاقتك بأبيك الذى كان متحفظا فى علاقته بأطفاله. لم يحتضن أيا منهم أبدا أو يوجه إليهم كلمة حب. لكنك صرت قريبة منه بالرغم من ذلك

عندما توليت مسئولية المساعدة فى تنشئة أشقائك الصغار.

أردت أن تصبحى ناشطة اجتماعية فذهبت إلى «جوهانسبرج»، مدينة الذهب.

هناك التقيت بالرجل الذى هز كيانك .. فتح خيالك وعقلك وجسدك أمام مستقبل من الزواج والشهرة والسطوة.

أجل ادخل عشيقك وصديقك ومعلمك وأبوك إلى حياتك وأقام منزلا على أعمدة الحب والسلطة.. كان منزلك سلسلة من مواعيد وسيارات تظهر فجأة لتقلك إلى مختلف الأماكن.. تتذكر «سالى موتلانا» ذات مساء: «تلقيت مكالمة تليفونية بأن أتوقع زائرا. دق الجرس فى الثامنة مساء، وكدت أقع ميتة عندما رأيته هو، يقف فى الخارج».

قال: «أريد منك معروفا.. أن تحضرى لى وينى».اندفعت إلى منزلها وقلت لها تجملى بأقصى ما تستطيعين فهناك شخصية هامة تريد رؤيتك. ركبنا السيارة وقدتها إلى غرفة فى نهاية المنزل. سألته هى مازحة : هل تريد أن تقتلنى؟. ثم سمعت ضحكات السعادة من الاثنين. تركناهما منفردين ثم أخذنا «نيلسون» إلى البلدة قرب منتصف الليل». حياة من التخطيط والفرار إثارة التدبير والتحايل الاختفاء التنكر.

«وينى» أيمكنك الحديث عن تلك الليلة؟.. هل تبادلتما الحب؟.. بينى وبينك كامرأة من المستحيل ألا تكونا قد فعلتما.. سمعتك «سالى» تضحكين كيف كان أمره؟ أتمنى لو كنت أمامى الآن لأرى عينيك الواسعتين اللامعتين عندما تعكسان الشقاوة والمانعة للكشف بينما تنمان فى الوقت نفسه عن الاقرار، ضحكتك التى هى طريقتك الوحيدة فى الإفصاح عن سنواتك.

سنواتك ليست فى نظراتك والمحملة بالعاطفة لكن لا تنم عن شئ. سنواتك فى ضحكتك. ضحكتك يمكن أن تكون هازئة، حسية ، موحية بالاغراء، ساحرة. ويمكنها أن تكون باردة وخبيثة..وأيا كانت الرسالة التى تبعث بها ضحكتك ، تظلين جميلة..فجمالك يمكن أن يوحى بالرصانة والرعب فى آن واحد.

أجل ، طالما فكرت أنك تحتاجين إلى لافتة فوق جبهتك .. تقول: «احذروا جمالى» !

وهاهو «نيلسون» قد رحل . «نيلسون» بتاعك و«نيلسون» بتاعنا! وبدأت تنتظرين، وانتظرنا معك.

وتهدد السحر بالتبخر لكنك تمسكت به. وقفت إلى جانبه.. وبدأت عناصر بلاغتك تتشكل.. الاعتقالات المتكررة ، الاتهامات ، المحاكم ، الاستجوابات والتعذيب، السجن ، القيود ، المحظورات ، الإبعاد ، والغياب المستمر لزوجك. المصل الواقى لمعاناتك كان شعورك بأنك تثيرين الإعجاب والخشية وازدياد إحساسك واستمتاعك بسطوتك.

وسرعان ما ذاب خوفك من النتائج .

تمسكت بالوقوف إلى جوار زوجك بامتصاص صورته السياسية داخلك. صار تبجحك طقسا يرمز إلى الانتماء المتفانى لقضية عامة...

هل تذكرين الميجور «ثوينيس سوانيبويل»؟ الذى كان مصدر رعب كل المعتقلين؟ أعتقد أنه كان نقطة التحول فى حياتك. معاملة الميجور «سوانيبويل» المتوحشة لك. يقال إنك صرت فاقدة للإحساس بالزمان والمكان بعد أسابيع وأسابيع من التعذيب... أنت المأساة التى شكلها «سوانيبويل» من نيران غرفة التعذيب. هكذا ولدت الشخصية التى تعرف كيف تتألق على الخوف والرعب، وتفوقت فى فن التبرير بلا حدود.

.. يقولون إن كلماتك تحولت فى لحظة معينة إلى بيانات سياسية «حب بلادى» ، «البلاد التى أكافح من أجلها». تعبيرات قوية ورغم ذلك تنتابنى الشكوك عندما أسمعها..

نسبوا إليك الكثير من القبح : خطف الأطفال وتعذيبهم ،الاحتفالات والموتى ، الاغتيالات، الإرهاب والتهديدات ، كل هذا كان له فى ذهنك تبرير واحد: «البلد الذى تحبينه»، «الملايين من أبناء شعبى » كل هذا باسم زوجك. هكذا احتفظت به فى غيابه بالقرب منك رغم أنك ربما تكونين قد عبرت الخط الفاصل وبدأت تتمنين غيابه الدائم. لا يجب أن يعود فأنا ملكة العش!

..هناك أيضا بالطبع كل هؤلاء الشبان فى حياتك. عشاق؟ سائقون؟ حراس ؟ فيما عدا من أكدت الرسالة المنشورة وجوده ، يعيش الآخرون فى عالم من الشائعات غير المؤكدة.

..لقد حاولت لجنة «الحقيقة والمصالحة» تجسير الهوة بين البراءة القانونية والمسئولية المعنوية فى تقرير بعنوان: «تحقيق خاص فى نادى «مانديلا» لكرة القدم» ..ألقى نظرة على بعض ماجاء به:

« تبينت اللجنة أن «لولو سونو» قد اختطف بواسطة أعضاء النادى يوم ١٣ نوفمبر ١٩٨٨ وأخذ إلى منزل السيدة «مانديلا» حيث تعرض لاعتداءات جسيمة. تبينت اللجنة أن السيدة «مانديلا» كانت تعرف بأمر الاعتداءات. تبينت اللجنة أن السيدة «مانديلا» – فى صحبة السادة . .و أعضاء آخرين من النادى– أخذوا «لولو سونو» إلى منزل والديه ، حيث رفضت السيدة «مانديلا» أن تعيد «لولو» إلى والده .. وأنها قالت له إن إبنه سيؤخذ إلى حيث يمكن للحركة أن تتعامل معه. وتبينت اللجنة أن «لولو سونو» قد قتل بواسطة «جيرى ريتشاردسون» ، أحد المقربين من السيدة «مانديلا» . وكان «ريتشاردسون» أيضا صديقا وجارا لـ«لولو سونو» ومدربا لنادى كرة القدم..

لقد حدث كثير من القتل بعد عودة «نيلسون» إلى البيت. البيت؟.. أكان هو «البيت» الذى عاد إليه «نيلسون

مانديلا»؟..

أين كنت فى تلك الليلة التى بدأت فيها الوحدة الثانية لـ «نيلسون» والتى تحولت فيما بعد إلى قرينة إثبات فى قضية طلاق مؤلمة؟

« منذ لحظة عودتى من السجن ، لم تدخل المدعى عليها غرفة النوم أثناء يقظتى. ظللت أقول لها: «انظرى ، الرجال والنساء يناقشون عادة أكثر المشاكل حميمية في غرفة النوم . لقد قضيت وقتا طويلا فى السجن . هناك قضايا كثيرة وأغلبها بالغ الحساسية. أحب أن تتاح لى فرصة المناقشة معك». لكنها لم تستجب مرة واحدة .. وكنت أكثر الناس وحدة خلال إقامتى معها (من نص شهادة «نيلسون مانديلا» أمام المحكمة في قضية الطلاق التى رفعها).

«وينى مانديلا» تتحدث:

... الرحيل ، الانتظار ، العودة، كم أنثى مصيبات! الأعمدة الثلاثة لحياة امرأة جنوب أفريقيا. أنا أيضا رأيت نيلسون بتامى يذهب، ثم انتظرته، ثم عاد .. هل تتذكرون عودته؟ كنت معه على شاشة كل تليفزيون فى العالم عندما خطا خارجا من السجن فى زهو.

.. عندما خرجت معه من بوابات السجن واصلت انتظاره !

الانتظار!.. حياتك الداخلية يتم اعتصارها بواسطة اهتمام جماهيرى باسمه أو بالنيابة عنه. وبدأ التفريغ حتى قبل اعتقاله. بدأ بالغزو المنظم لما كان لدينا من أحلام عن الحياة العائلية. أردت أن أهيئ بيتا له. وينى ربة منزل! بالطبع ، غريب أن أقول أنى كنت أسعى لأن أكون كذلك في ذلك الحين. من هى المرأة التى لاتفعل ..

لكن ملاذنا لم يتحقق. فقد كانوا يأتون عند الفجر ويدقون على بابنا ، ثم يبدأون ما أسموه البحث عن محظورات. ويتركون منزلنا دائما وكأن الفيلة تقاتلت به. رجال الشرطة «البوير» (الأفريكانر أو البيض من السلالة الهولندية) الأجلاف ...أبناء الميجور «ثوينيس سوانيبويل» أستاذ التعذيب. علمهم كيف يعتمدون على تأثير إحداث الفوضى على ذهن تعود النظام. الفوضى المتعمدة يمكن أن تستخدم كوسيلة تجعلك ترغب فى مزيد من النظام، إنها تضمن الإذعان المستمر لقانون من السيطرة المهيمنة. يجرونك من النظام لترغب فى المزيد منه.

.. من التفريغ التدريجى لحياتى بزغ قانون مقاومتى،.السخط على النظام بدلا من الحنين إليه...صرت تجسيدا للفوضى.

أوه ، «نيلسون» !

..سأشارك الآن فى لعبتكن بأن أتحدث إلى نفسى..

«وينى» تتحدث.

« وينى » ؟ أين أنت ؟

أعرف أنك أينما كنت فتليفونك

الخلوى فى يدك.....

أتتذكرين ؟ ما كتبته أنت عن تلك المرة. عندما طلبوا منك أن تعدى له حقيبة لأنه مسافر فى رحلة طويلة :« كانت هذه هى المرة الأخيرة التى رأيته فيها كزوج.. لم تكن هناك فرصة للجلوس ومناقشة قراره بالالتزام الكامل للثورة».

وبعد سنوات كثيرة قال إنه لم يجدك عندما احتاج إلى الحديث معك فى غرفة النوم .أخذته منك حياة مشحونة . فبماذا كنت أنت مشغولة عندما تركته عند عودته وحيدا فى غرفة النوم؟

.. عندما حكموا عليه أصبحوا حلفاءك. أصبح الفضاء فسيحا أمامك لتلمعى من خلال فرصة لتلمعى بنفسك. .شعرت بمزيج من الغضب والقلق وتوازع الانتقام..زوجة الزعيم المسجون غاضبة!

انظرى إلى النصب التذكارى لسطوة الغضب، وغضب السلطة. مدن السود القذرة فى مواجهة ضواحى البيض الغنية،.. أفران الغاز فى «داتشو» مقابر وكالة المخابرات الأمريكية فى أرجاء العالم، «الكلوكلوس كلان»، وطقوسها المرعبة، المتحف الكنسى من الجماجم فى «رواندا» ، الأطراف المقطوعة لشعب «سيراليون» ، القنبلة النووية على «هيروشيما»،نقاط التفتيش الإسرائيلية. النصب التذكارى الضخم الذى أقامه البيض تذكرة للسود بعبوديتهم ..انظرى إليها فى كل أنحاء العالم : الإرهاب تحت ستار الدوافع الأخلاقية.

وقد أقمت نصبك التذكارى الخاص بك..«نادى نيلسون مانديلا المتحد لكرة القدم». غضبك كان وسيلتك للتغلب على الوحدة. كنت غاضبة من الجماهير التى لم تقدر حكمة السير فى ركابك. وكنت مصممة على أن يتبعوك، أيا كانت النتائج. ولسوف يتبعونك بواسطة الاختطافات والرشاشات والتعذيب الذى تعلمته جيدا من الميجور «سوانيبويل».

... كل أعمال الاضطهاد والقمع تخلف تركة. فى ظل «نادى كرة القدم» انتشرت أعمال اختطاف الفتيات والاغتصاب الجماعى ثم سارقو السيارات الذين يقتلون دون تفكير ويبيعون سرقاتهم من أجل شراء الملابس والأحذية ذات الماركات الشهيرة. يتجمع مناضلو الحرية السابقون فى جماعات من لصوص ناقلات الأموال .. وجماعات تجمع أموالا باسم النضال لتشترى لنفسها السيارات الفارهة والمنازل لأنفسها.

والآن إلى غرفة التعذيب الميجور «ثوينيس سوانيبويل».. قولى لنا ماذا ترين؟

« أوكى ، إليكم ما أراه. أنا خارجة من أول احتجاز لى وراء القضبان. قضيت هناك وقتا طويلا حتى فكرت أنى لن أخرج أبدا .. الاستجوابات الطويلة بلا نهاية .. وأسمع صراخ النساء الأخريات فى الزنازين الأخرى . ماذا يفعلون لهن ؟ هل يغتصبونهن؟ هل

أوصلوا القضبان الكهربائية إلى فروجهن؟

لقد نجوت من هذا النوع من التعذيب ، لكني أنزف دما. ماذا أحدثت لكماتهم في جسدي ...هل سيمكنني انجاب طفل آخر؟

ميجور «ثوينيس سوانيبويل». أفكر فيك دائما ..هل أصبحت ابنتك؟.. نكحت العنف لتنتجني.. وعندما تعب أخيرا من القسوة وتركنا نغادر قلعته، حملت داخل جسدي، كالحامل، الثقل المرعب للوحدة والغضب المحتدم.

.. وفي «براندفورت» (المقاطعة البيضاء التي تم نفي «ويني» إليها) ذقت السلطة لأول مرة ..أدركت أني أملك القدرة على تغيير الأشياء ..أدخل الحوانيت المحرمة على السود وأرقب أمارات الذعر على وجوه الزبائن البيض المذهولين في بعض الحالات يغادرون جميعا بمجرد دخولي وينتظرون في الخارج حتى أنتهي ، أصبح ملكة المتجر إلى ما شئت.

أجل ، كان حضوري مهيبا ، تعدى الأمر أكثر من الذعر الذي رأيته على وجوه البيض . فقد رأيت أيضا الخوف والعجز . والغباء.

وأعترف لكم الآن ..بأني استمتعت بمتعة أن يخافني الآخرون... أغرمت بدخول متاجر البيض : سوداء طويلة جميلة شهيرة و مرهوبة الجانب.

لكن كانت هناك أيضا لحظات من الوحدة العميقة.. أكون بمفردي في المنزل..ويدهمني الإحساس بأني تقاعدت دون رغبة مني . في تلك اللحظات لم يكن هناك من أبرز له سلطتي ، سوى نفسي وكنت بلا قوة أمام وحدتي . تلك هي اللحظة التي صرت فيها فريسة لرغبة مجنونة. جسد أنثوي يغذيه حب فوق الوصف دون أن يكون له موضع. عذاب لا يمكن سبر غوره .. تلك هي اللحظات التي رغبت فيها في شخص أحبه بعمق ويأخذني بقوة ويحملني إلى العدم ...لماذا يعذبني أحد بأسئلة عن الرجال في حياتي؟..

انتهت دراما «براندفورت» في «سويتو» حيث أتقنتها . أنا طفلة الميجور «ثوينيس سوانيبويل» التي ولدت في غرف تعذيبه، ونموت في «براندفورت» ثم نضجت في «سويتو»، تحديت العالم وحدي، نأيت بنفسي عن المنتظرات الأخريات.ومن حين لآخر أخلق المزيد منهن بانتزاع أزواجهن. كنت أنا قانون النضال. أنا التعريف للبطولة المنتظرة.. وسيطرت على الرجال : السائقين ، الحراس الشخصيين، المختطفين ، القائمين بالتعذيب، القتلة، اللاجئين، مشعلي الحرائق ، الجواسيس ، العشاق، الرفاق، العبيد، الانتهازيين..سيطرت عليهم جميعا، أنا ملكة براندفورت» . جاءوا إلى راغبين ..انتهازيون. كلاب هائجة . رجال ! احتقرتهم جميعا. عدا «نيلسون» .

كنا في حاجة لأن نحب من جديد:

أصعب فترة من الانتظار ، بداية النهاية للانتظار، جاءت عند اقتراب موعد

الافراج عنه.

ذكرى جسدى أبقت على حياته لأنها أبقت على رغبته. تشبثه بى أبقى على الأمل، وقد ظل يحبني ويرغبني بنفس النقاء المخزون فى الذاكرة.

وماذا عني ؟ هل أتذكر جسده؟ ترعبني الإجابة. ترعبني لأني ، مع مرور السنوات، فقدته. أصبحت زياراتي له فى السجن بيانا سياسيا أكثر من كونها تواصلا حميميا. وأعتقد أنه أدرك الأمر. ضاع الكثير.

..ومع اقتراب يوم الافراج عنه ... أصبح الأمر يبدو لى كما لو أن عودته كى يقود الشعب إلى الحرية ستعنى نهاية حريتى ..

«نيلسون»، الحقيقة هى أن بوسعى أن أمسك بيدك أمام الناس وأغادر السجن فى صحبتك ، لكن ما كان بوسعى أن أواجه القرب من جسدك فى انفراد غرفة نومنا.. فأنا وأنت لم نعد نحيا فى نفس الفضاء من المشاعر والخيال والرغبة...

.. بينما كنت تغيب جسديا عني باطراد، لم يكن جسدى هو الذى كنت تحلم به ، لكن فكرتك عنه.

«نيلسون» كنا فى حاجة إلى أن نقع فى الحب من جديد.

بينلوب تظهر من جديد

يختم الرواية فصل صغير ، يجتمع فيه الجميع مع «وينى» فى رحلة بالسيارة إلى مدينة «دوربان». وتستوقفهم فى الطريق امرأة بيضاء تبحث عن تاكسى يأخذها إلى المدينة فيأخذونها معهم تقول لهم إنها سافرت كثيرا وكانت دائما على الطريق منذ أكثر من ألفى عام.

قررت السفر بعد عودة زوجي من غيبته التى دامت ثمانية عشر عاما، ليثنى على «إخلاصي وصدقي» .. وفى الصباح التالي لليلتنا الأولى معا بعد ١٨ سنة ، قرر «أوديسيوس» أن يتركنى من جديد ليقوم بطقوس التطهير فى أعقاب ذبحه الوحشى لطلاب يدى. حسنا، لقد ذهب. لكن لم يذكر أحد أبدا أنى عند عودته كنت قد ذهبت. ذهبت فى رحلة تطهيرى. لم يكن يحق له أن يمضى هكذا فى ذلك الصباح المخصوص الذى كنت فيه لا أزال أتعلم مذاق عودته. كان يجدر به أن يبدى حساسية أكبر. كان يجب أن تكون عودته ليس فقط لليونان وإنما إلى أنا أيضا ... وقررت أن أقوم برحلتى الخاصة.

إن رحلتى تمضى فى عالم يتزايد فيه الوعى، يتعلم فيه العالم أن يصبح أكثر ادراكا بوجودى لا كحلية يضعها «أوديسيوس » فوق المدفأة وإنما كقوام جوهرى فى تحديد وتعريف الحرية الإنسانية. أسافر حول العالم وإلى أماكن سمعت فيها النساء عني ، لأحاول تحريرهن من عبء الإخلاص غير المشروط الذى وضعته أناعلى أكتافهن» .

ومع آخر كلمة لها تغادرهن وتختفى فى رحلتها السرمدية: رحلة الوعى. ■

من جحيم الواقع

غناء الجسد

عودة إلى عهد الغوازى والعوالم

بقلم
د. محمد رجب البيومى

كاد عصر الغوازى أن ينقرض، وقد كان لهن شأن فى أوائل القرن الماضى إلى أوسطه، فهن مصدر بهجة العامة من القرويين فى الأفراح، وكانت ظاهرة التحلل والاندفاع إلى المجون والخلاعة من أبرز صفاتهن، ولكن لا يلمن على ذلك، لأن الواحدة منهن تكاد تكون مقطوعة من جذرها، فلا يعترف بها أب أو أم، وقد تركت بين أيدى المتكسبين باللهو فى الأفراح والموالد لتقوم بدورها، ولن تأخذ من الأجر أكثر ما يكفى مؤونة الطعام والملبس، وهى راضية بذلك.

الذين يقرأون تاريخ مصر الحديث من مبدئه فى عصر محمد على يعرفون أن هؤلاء كن ترفيه المباهج والأعراس، وقد ذكر المستر ادور وليم لين فى كتابه الذائع «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم» أنهن يرقصن سافرات فى الطرق العامة لتسلية أخلاط الناس، وعندما يحتفل فى الحريم بعرس أو ميلاد طفل كن يرقصن أمام المنازل، ولا يسمح لهن بالولوج إليها، وقد يدعون لتسلية الرجال فى بعض محافل الأنس مع نفر من الخلعاء، فتظهر ملامح الفجور فيما يأتين من الحركات، وبعضهن لا يلبسن عند الرقص أمام الرجال غير «السنتيان» وثوب شفاف شق صدره إلى منتصفه، وقد تسلسل بهن الزمن حتى رأيناهن فى القرن الماضى فى الحفلات الموسمية،





ثم جاءت السينما بمشاهد راقية للممثلات في الرقص والغناء ضاعفت من منزلة الغوازى فأخذن يجدن أدوارهن فى القرى الفقيرة لمناسبات تدعو إلى البهجة كما عرفت مقاه خاصة فى روض الفرج وكلوت بك بإحياء ليال لهن يردها الحشود الهمل من الصناع والعمال، وتقدم الزمن فأخذن فى الانقراض النسبى، وأغنى الراديو والتليفزيون فى محافل العامة عن الكثيرات فكن يودعن فى غير أسف واشتياق.

غوازي الفضائيات

ولم تكن ندرى أن عصر

«غوازى» زمان كن يرقصن فى الطرق العامة وأمام المنازل ولا يسمح لهن بدخولها

الغوازى سيرجع ثانية فى عصر القنوات الفضائية الآن فيما يسمى بغناء الجسد ، إذ أصبح الجسد وحده بتبذله الشائن ، وتسفله المنحدر هو كل شئ لدى هؤلاء ومن تسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة، ألاّ نطلق على فتيات القنوات لفظ المطربات بل نردهن إلى طبيعة أفعالهن الشائهة فيطلق عليهن غوازى القنوات، إذ أن الجامع بين أولئك وهؤلاء هو الإغراء الجنسى فحسب، وإذا كان غوازى الأمس فقيرات يكتفين بالكفاف مظهرا ومخبرا ، فموضع الخلاف الوحيد بينهن أن غوازى القنوات مترفات مدللات يظهرن بمظهر الثراء الفاحش، فى أحاديثهن وصورهن فى الصحف والمجلات، لأن الشاشة تكاد تجردهن من الملبس تماما ليتحدث الجسد عن كل شئ، وقد كنت أسائل نفسى حين أرى فتاة تتجرد من الضرورى الألزم من الملبس، ثم تحتضن فتى على شاكلتها ، ويهويان معا إلى حمام سباحة لا يظهر غير رأسيهما وهما ينطقان بما يحيانه غناء وهو هذر مقيت ، أقول كنت أسائل نفسى، أليس لهذه الغزية الجديدة أب غيور يرى ابنته فى أسوأ موضع يستقبح فتعصف برأسه نخوة، أليس لهذه الغزية أخ شاب يخشى أن يعيره زملاؤه بما تبديه أخته من الانحراف فيثور فى المنزل طالبا رد شقيقته إلى الصواب؟! هل ماتت النخوة فى النفوس إلى حد لا تستقبح القبيح بل تباركه وتصطفيه؟... ثم ماذا سيكون من أمرها فى المستقبل؟ أيوجد شاب حر يسمح لنفسه بالاقتران بها فى عقد شرعى صحيح وهو يرى ما سقطت فيه من الابتذال؟ إن الواقع المشاهد أن الذى سيقع فى شركها زوج من فصيلتها المنحرفة، ولن تستمر حياتهما الزوجية دون عواصف تهب فتعجل بالانفصال، وقد رأينا شواهد من ذلك تتكرر كل حين! لقد كانت «الغزية» القديمة لا ترضى عن نفسها فى أكثر أحوالها ، وتتمنى الخلاص السريع على يد رجل يرثى لبلواها فينقذها من الضياع ، أما «الغزية الجديدة» فتتباهى بهذه المخجلات، وتتقرب للصحافة وأدوات الإعلام كى تكون ذات حظوة فى الدعاية والإعلان ، وكأنها أصبحت من نجوم الفن الرفيع بحيث تقاس بمطربة عظيمة كأم كلثوم! أينكر القارئ أن أذكر أم كلثوم فى هذا المجال؟ إنى أذكره لأن أحد الأغرار من المتملقين كتب موازنة بين إحداهن وأم كلثوم ، ولم يند وجهه خجلا وهو يكتب هراءه الماجن! وكيف يخجل من قوله والأفعال الشائنة القبيحة لم تعد موضع خجل ، بل تؤدى على رءوس الأشهاد! فهل نعيب الأقوال؟

اقتحام المنازل

إن خطورة هذا السقوط لا تقف عن حد! لأن القنوات الفضائية قد اقتحمت

المنازل وأصبحت مصدر البهجة والاستروح! وبآثرها المريع ضاع كل توجيه خلقي أو إرشاد ديني! فبالله ما يكون سلوك الطالب الناشئ إذا رأى مظاهر الدعارة أمامه تدعوه إلى اقتراف الإثم، والبحث عنه، أيجديه أن يأمره والده بالبعد عن الانحراف، أيجديه أن يسمع في دروس التربية الدينية بالمدرسة آيات الاستقامة والعفاف، وهي مع ذلك لا تشرح، ولا تترك تأثيرها الصحيح! دع الشاب المراهق ، وانظر إلى الطفل الذي تفتح عينه على مظاهر القبلات والأحضان، وما ينقضي موقف حتى يليه ما هو أخطر وأفدح! لقد كان الطفل من قبل يسمع قصص الجدة والأم، الداعية إلى حسن السلوك فيستجيب، أفيستجيب الآن وقد أفتن القائمون على هذا العبث في محو كل ما يوحي بالانضباط ، وما تركوا الأطفال وشأنهم، بل كان من برامج هؤلاء تمثيليات خليعة يمثلها الأطفال على الشاشة فيحتضن الطفل طفلة، ويبادلها القبلات لقد وصل الهوان بالنشء إلى هوة لا يرجى منها النجاة! أذكر أن بعض الإعلانات الاذاعية أرادت أن تروج لنوع من الجبن ، فأتت بعلبة تضم سبع قطع، وأحضرت طفلا يأكلها . وكلما أكل قطعة زاد نموه حتى أصبح على الشاشة رجلا بعد التهام القطع جميعها، وشاهد ذلك بعض الأطفال فأحضر علبة الجبن وجعل يأكل فلم يقدر على غير أربع قطع، ثم ذهب إلى أمه يقول لها إنه لم يكبر ولم تطل قامته كما طالت قامة آكل الجبن في القناة! وذعرت الأم وجعلت تحدثه بأنه يرى أكاذيب تخالف الحقيقة! فإذا كان هذا تأثير علبة الجبن في نفس الطفل البرئ فأي تأثير تحدثه قبلات وأحضان وارتماء على الأرض في أوضاع تنكرها الأخلاق .. ! إننا إذا استمر الوضع المنكر في اتجاهه الشائن فسنهوى إلى الانحلال!

استهجان عام

وألفت القارئ إلى ظاهرة غريبة لا أجد لها مثيلا بين الظواهر الاجتماعية، ذلك أنك تصادف إجماعا يكاد يكون كليا على استهجان هذا السقوط الفني الكريه، فما تحدث صديقا عن ألمك مما تشاهد من هذا الانحلال الوضيع حتى تراه قد انفجر كالبركان لاعنا هذا التيار الجارف المبيد، فتحس أنه لا يشاركك شعورك فحسب، بل يحمل في نفسه أضعاف ما تحمل من الغضب والحفيظة ، وإذا قلت إني لم أجد مع طول الوقت إنسانا يرحب بهذا المروق، وأنا صادق صادق تماما ، مما يدل على أن هناك رأيا عاما يقف أمام هذا البلاء الساحق كما في صفحات الجرائد على اختلاف اتجاهاتها تنفيس مريح عن هذه المشاعر

إذ توالى النقد عاصفا بكل هذه المخزيات، أقول إذا كان الاجماع هكذا على فساد هذا الاتجاه، فلماذا لا نجد صدا عمليا يقف فى وجه هذا الخزى السفيه ؛ لدينا نقابات فنية متعددة يتحدث القائمون عليها بنفورهم القوى مما يرون ويسمعون، ولدينا جمعيات دينية واجتماعية تصم هذا العمل الشائن وتدعو بالثبور والوبال على من أذاعوه وروجوه . ولدينا مجلسا شعب وشورى لا نجد من أعضائهما من يستريح لهذا المنكر الصريح، فلماذا لا يتحرك هؤلاء فى منظومة واحدة أمام وباء يعصف بكيان المجتمع دون أن يسلم من شره صغير أو كبير، قد يقال إن فى استطاعة الأب أن يغلق هذه القنوات ويحرم بلاءها، ولكن ذلك إن استمر وقتا فلن يدوم، لأن المراهقين يتطلعون ، وكل ممنوع مرغوب، ومن السهل إذا صدق العزم أن يقدم ذوو الأمر والنهى طلبا إلى القائمين على القنوات العربية، يبصرونهم بما إخالهم لا يجهلونه، فإذا استجابوا فقد حوصر البلاء، وإذا لم يستجيبوا فلابد من التشهير بهم فى الصحف والإذاعات الحكومية حتى يهيج عليهم الرأى العام، فيقاطع ما يبغونه من الإعلانات التى لم تنشأ هذه القنوات إلا ابتغاء الكسب السريع عن طريقها، وهو كسب حرام إذا جلب التفكك والانحلال.

ولأول مرة على مدى عمرى الطويل أرى ما يسميه بعض الكاتبين الأفاضل بالرقص الأفقى وهو ألا تغنى الراقصة واقفة بل تنام على الأرض وتتلوى وتتماجن شبه عارية، ثم يأتى من يداعبها وقد ارتمى فوقها، يعرض هذا الآن كثيرا كثيرا وحين رأيته لأول مرة كدت أفقد شعورى وجعلت أتساءل أهذا غناء راقص أم دعارة صريحة وقد سجل ذلك فى أشرطة وأخذ ينتشر فى الأسواق على نحو يدعو صريحا إلى الفاحشة! أما الكلمات التى تتألف منها الأغنية فقد فقدت تماما أى معنى، إذ المهم هو المنظر الإباحى وحده ، وتخيل إلى أن هذا التطور الفنى القاتل أصبح هدفا مقصودا لذاته، فقد اختفت من الساحة تماما كل أغنية تدعو إلى غير الحب الماجن، وكأن العلاقة الجنسية قد أصبحت كل شئ فى الغناء، وكانت لدينا أغنيات وطنية واجتماعية ودينية وأناشيد حماسية فانمحى ذلك كله فيما نراه فى هذه الفضائيات العابثة حتى فى المواسم الاجتماعية كعيد الأم لم نعد نسمع أو نرى ما كنا نسمع ونرى من قبل، مما يؤكد أن هناك هدفا مرسوما لتسويغ الإباحية باسم الفن ، وأعود للغوازى فأذكر أن فى بعض أغانى هؤلاء ما كان يترك الحب إلى المسائل الاجتماعية كمحاربة المخدرات، وزواج الصغيرات

الفقيرات بالشيوخ الكبار مثل «ماخدش العجوز أنا» فإذا كانت أغاني العوالم قد تخطت مسائل الجنس في أحيان متوالية إلى مشكلات المجتمع ، أفيجوز أن نهمل هذه اللمحات الواعية، ونقصر الغناء على الأحضان والقبلات والنوم على الأرض في مواضع قد يأنف منها الحيوان، إن بعض خطباء المساجد قد أعلنوا في صراحة أن هناك مخططا أجنبيا يدعو إلى تدمير قواعد الدين تحت ستار

العولمة باصطفاء هذه الفضائح المندية، وتقديمها على أنها نموذج من الفن البديع المتجاوب مع العصر، وأنا مع هؤلاء مهما وصفوا لدى المتحللين بالتزمت والرجعية لقد كنا ننكر هز البطون والأرداف والخصور ونعد ذلك انحدارا سوقيا لا صلة له بالفن فماذا نقول عن الارتماء على الأرض وقبلات من يحوط المرتمية بذراعه ، وكأنه في مخدع الزوجية أليس ذلك هو العهر الصريح؟! إن العالمة أو الغازية الجاهلة ، التي لم تتخرج في كلية أو معهد عال لم تبلغ من الوقاحة أن تنام ويرتمي فوقها صديقها المنحل ، ولو بعث أجدادنا من القبور ورأوا هذه المخزيات لآثروا أن يرجعوا إلى الأجداث بعد أن انحدرت المثل إلى ما تحت الحضيض!

رسالة الفن

لقد احتفلت القناة المصرية هذا العام بليلة عيد الميلاد فأقامت حفلة ساهرة، كانت مطربتها إحدى هؤلاء الجريئات، والمناسبة الدينية الجليلة


تحولت أغاني العوالم من مشكلات المجتمع إلى الأحضان والقبلات

كانت تدعو إلى احترام الذكرى العاطرة شكلا وموضوعا في وقت حزين مؤلم سالت فيه دماء الغدر الشنيع بفلسطين والعراق ، وبلغ التأزم ببعض النفوس أن امتنع أصحابها عن سماع نشرات الأنباء كيلا تتضاعف أشجانهم بما يرون ويسمعون ، أفما كان من المنتظر أن يختار القائمون على الحفلة الساهرة من يبرعون ومن يبرعن في محاكاة القصائد القديمة المناسبة، فتأتى من تحاكى فيروز في قصيدة «القدس لنا» ويأتى من يحاكى محمد عبدالوهاب في قصيدة «أخى جاوز الظالمون المدى» يختار من الشباب من يغنى قصيدة على محمود طه «عيد الميلاد» التي تصور رسالة المسيح في المحبة والسلام! لو تم ذلك لكان الفن ذا رسالة في تهدئة النفوس واستراحة الخواطر ولأعادت الشاشة ذكرى الحفلات العاطرة التي أحيتها أم كلثوم حين كانت تغنى روائع الشعر العربي لأمثال شوقي وحافظ وأبى فراس الحمداني وإقبال ممن لاتزال قصائدهم ترن في الآذان على جناح الحمامة الصادحة أم كلثوم ، ولكن مفاجأة الجمهور بهذا العبث كان مدعاة لسخر هازئ، ونقد صارم قامت به الصحف الملتزمة في اليوم التالي استنكارا لهذا العبث وكأن القائمين على الحفلة قدتناسوا رسالة الإعلام والفن معا وانصرفوا مع الشباب العابث في استثارة الأهواء وإشاعة مظاهر الهبوط والإسفاف في أكرم المناسبات!

لقد أشرت إلى حفلات أم كلثوم لأسجل هذه النهضة الفنية الملتزمة التي نترحم عليها الآن، تلك التي جعلت الأميين من العامة يرددون أشعار شوقي معجبين، وأذكر أني في تلك الأيام رأيت من يحضر إلى منزلي ممن لايقرأون ولا يكتبون ، هو نشوان طرب لما سمعه من تغريد أم كلثوم في قصيدة «ولد الهدى»، وذهلت حين أخذ يسألني عن معنى قول الشاعر «والوحى يقطر سلسلا من سلسل» فأخذت أذكر له ما يقرب الصورة على نحو يستسيغه إدراكه المحدود ، وحين قال لى إنه تأثر بالقصيدة لدرجة باعدت بينه وبين القوم طيلة الليل «وأنا أعلم حقيقة إدراكه» حين ذلك تذكرت أبا تمام الشاعر العباسي وقد سمع مغنية فارسية تشدو بلغة لا يفهمها فأدركه من الحنين ما عبر عنه بقوله:

ولم أفهم معانيها ولكن
شجت كبدى فلم أجهل شجاها

وأحب أن أقول للواتي يتخالعن ويتمايلن أثناء الغناء، إن المطربة الأصيلة لا تجعل من الحركات العابثة عونا للإجادة والاستحسان ، فالصوت الجميل وحده سيد الموقف تماما، وما كانت هذه

الخلاعات الماجنة إلا انتقاصا مزريا لما تؤديه من غناء له احترامه الأصيل، ونحن نقرأ عن شهيرات المطربات فى العصر العباسى أنهن لم يكن من هذا الطراز المملول، فالشاعر الكبير ابن الرومى يصف مطربة عصره «وحيد» فى قصيدة تكاد تكون من أحسن ما قال فيقول عنها:

تتغنى كأنها لا تغنى

من سكون الأوصال وهى تجيد

فهذه التى تؤدى بارع النغمات ، ورائق المعانى تعتمد على صوتها وحده، وهى فى سكونها الملتزم تتغنى وكأنها لا تغنى ومع ذلك هام بها الجمهور هياما عبر عنه ابن الرومى فى قوله:

عيبها أنها إذا غنت الأحرا

ر ظلوا وهم لديها عبيد

وبعد ، فلا ينكر أحد على أن أصف هؤلاء بما ينطبق عليهن دون إجحاف، لأنى فى الجهة المقابلة ، رأيت من أدعياء القلم من يفرد لهن الصفحات فى المجلات الفنية إطراء وتمجيدا حتى ليرتفع بهن إلى مستوى المجيدات النابغات ممن اشتهرن بالجودة والإبداع ، وفى هؤلاء من يتحدث عن النجمة «اللامعة» التى لم تمض عاما أو عامين فى مسيرتها الفنية، حديث المبهور ويقدم للقارئ حوارا يتضمن تاريخها الفنى! الذى لا حقيقة له ، ثم تظهر الصورة على الغلاف مبهرة مشيدة بالنجمة المتألقة! وإطلاق وصف النجمة أو النجم على المطرب المبتدئ إسفاف يحتاج إلى تصحيح لأن النبوغ لا يأتى بين يوم وليلة بل يحتاج إلى عناء طويل، حتى يؤتى أكله المستطاب وكذلك أصبح لدينا نجوم فى الغناء ونجوم فى الكرة أيضا ، تمتلئ الصحف بأنبائهم فتشوه الحقائق وتجعل منهم قدوة سيئة للشباب ولا أدرى كيف يكون لدينا نجوم فى الكرة ونحن لم نحرز انتصارا واحدا فى ميدان التسابق العالمى كما لا أدرى كيف تصبح المستهترة العابثة نجمة ساطعة لأنها ابتذلت ملبسها وأسفت فى غنائها! فإذا كنت قسوت فى هذا المقال فلن أعدو الواقع فى شئ! ولعل الذين يتملقون هؤلاء المراهقات الهابطات يدركون أنهم يفقدون تقدير المنصفين ويصمون أنفسهم بما ينبغى أن يتنزهوا عنه من الانحدار والهبوط ، إن صاحب القلم ذو رسالة أمينة فى التوجيه والتنويه فإذا لجأ إلى التملق الرخيص ، فقد أساء إلى نفسه عن يقين وقد اسمعت لو ناديت حيا! ■



هل تعمل مؤسسات المجتمع المدنى فيما بينها لتعديل وضع المرأة فى العالم العربى ؟

مستقبل المرأة العربية فى ظل النظرة الغربية

بقلم

د. نيفين عبد المنعم مسعد *

كان انعقاد ورشة عمل «جمعية ملتقى تنمية المرأة» يومى ٣٠/٦ و ١/٧/٢٠٠٤ بعضا من رجع صدى ، لما أثير حول وضع المرأة العربية فى فكر الإصلاح الغربى عامة والأمريكى خاصة ، الذى اعتمد مبدأ «احترام النساء» ضمن المبادئ الاستراتيجية فى مفهوم الأمن القومى الأمريكى ، بعد أحداث ١١ سبتمبر ، وهو ما أكد عليه ريتشارد هاس وزير التخطيط السياسى السابق بوزارة الخارجية ، حين قال إنه لا ديمقراطية فى بلدان تحرم نصف سكانها من هذه الديمقراطية ، وإنه فى البلدان التى تتبع فيها النساء الرجال، يكون هؤلاء الرجال أنفسهم تابعين لغيرهم.

---

* أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة



فات على المؤتمرين من دول الثمانية أن ما يصلح لمجتمع لا يصلح بالضرورة لغيره من المجتمعات !!



في هذا الإطار نعرض لوضع المرأة العربية في مبادرات الإصلاح الغربية المختلفة، وصولاً لخطة مجموعة الثماني لدعم الإصلاح في الشرق الأوسط الكبير وشمال أفريقيا والتي نشر نصها في صحيفة الحياة اللندنية في ١١ / ٦/ ٢٠٠٤ وهذا من خلال ثلاث مجموعات من الملاحظات: المجموعة الأولى ملاحظات إطارية أي تخص البيئة التي تطرح فيها أفكار الإصلاح والمجموعة الثانية ملاحظات مضمونية أي تتصل بجوهر الإصلاحات المطلوبة لوضع المرأة والمجموعة الثالثة ملاحظات تنفيذية أي تنصب على الوسائل المطروحة لإنجاز هذه الإصلاحات .

وقبل الشروع في استعراض المجموعات الثلاث من الملاحظات ، تجدر الإشارة إلى نقطتين توضيحيتين، نقطة ترتبط باستخدام الأطروحات الغربية - وللأمانة أيضاً الوثائق العربية - لمفهوم الإصلاح بالتبادل مع مفهوم الديمقراطية. والديمقراطية شكل لنظام الحكم، بينما الإصلاح هو وسيلة من وسائل تعديل الوضع الراهن وكما هو واضح فإن المعنيين غير مترادفين، خصوصاً أن من حق كل من يعدل الوضع الراهن أن يدعي أنه يقوم بالإصلاح سواء كان ذلك في اتجاه نظام ديمقراطي أو حتى في اتجاه نظام غير

ديمقراطي .

ونقطة أخرى تتعلق بغموض مصطلح الشرق الأوسط وهو غموض مزمن لازم المصطلح منذ استخدم لأول مرة في مطلع القرن الماضي، وساعد على استمراره خضوعه للمصالح السياسية التي يخضع لها تضمين هذا القطر أو ذاك في المصطلح أو إخراجه منه . وهكذا وجدنا أن تعريف الشرق الأوسط الكبير في مبادرة بوش قد شمل جميع البلدان العربية بالإضافة إلى كل من باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا وإسرائيل. بينما ضاق تعريف الشرق الأوسط الكبير في مبادرة الدول الثماني عن شمال أفريقيا ، كما يستفاد من الوثيقة ذات الصلة والتي حملت عنوان: «شراكة من أجل التقدم ومستقبل مشترك مع منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا»، وحرف الواو يعني أن شمال أفريقيا لا يمثل مكوناً من مكونات الشرق الأوسط وإن ألحق به .

الملاحظات الإطارية : جدل الداخل والخارج الاحتلال / السيادة

١- أكدت المبادرات الغربية على أهمية أن تنبع رؤية الإصلاح من الداخل ضماناً لنجاحها . ورد هذا التأكيد بوضوح في نص المشروع الفرنسي - الألماني عندما حذر من تجاهل الخصوصيات الوطنية للدول والأخذ بمقاربات شديدة العمومية لقضية الإصلاح . كما جاء التأكيد نفسه بشكل قاطع في نص وثيقة الشراكة الصادرة عن مجموعة الثماني والتي ذكرت أن التغيير لايمكن فرضه من الخارج ولا ينبغي ذلك، وأن كل بلد له تفرده الذي يجب احترامه بشرط ألا يستغل التذرع بالخصوصيات القطرية لمنع الإصلاح ولقد استخدم مصطلح «الشراكة» الذي حمله عنوان الوثيقة، والذي تناثر في العديد من أوراق المبادرات الغربية وأفكارها، ليوحي بأن دور الخارج يقف عند حدود مشاركة الداخل في الأخذ بالبرامج الإصلاحية التي يرتضيها لنفسه .

ومع ذلك فإن الانتقال من مفردات مشروعات الإصلاح إلى مضامينها يظهر أن الرؤية الإصلاحية المطروحة على المرأة العربية هي رؤية غربية. يتضح هذا المعنى من تبني مدخل الخصخصة في إصلاح الوضع الاقتصادي العربي بشكل عام، وفي إطاره وضع المرأة بشكل خاص، وذلك على الرغم من أن المرأة العربية هي الطرف الرئيسي الذي يدفع فاتورة الخصخصة، فالنساء هن أول من يتم تسريحه من العمل عندما يتم تحويل إدارة الهيئة أو المؤسسة من القطاع العام إلى القطاع الخاص. وهن اللاتي يضطررن إلى العمل في ظل ظروف غير آمنة كتوظيفهن بعقود تجدد سنوياً ولا ترتب لهن تأمينات اجتماعية، أو كإجبارهن على العمل دون توفير دور حضانة لأطفالهن وبعدد أكبر من عدد ساعات العمل ... إلخ. وبالرغم من تلك الحقيقة فإن مختلف وثائق الإصلاح

تشدد على دور القطاع الخاص فى دفع عجلة النمو الاقتصادى . فلقد اعتبر المشروع الامريكى للشرق الأوسط الكبير أن تجسير الهوة الاقتصادية بين دول الشرق الأوسط والعالم المتقدم يتوقف على «إطلاق قدرات القطاع الخاص» . كما أن خطة مجموعة الثمانى لدعم الإصلاح تنص على أن الدول صاحبة الخطة «تلتزم بدعم جهود الإصلاح فى المنطقة »، «خصوصاً فى اتجاه تعزيز الديمقراطية والمشاركة المدنية وحكم القانون وحقوق الإنسان واقتصاد السوق المفتوح».

كما أن معنى طرح رؤية غربية لعملية الإصلاح يتضح من مراجعة آليات تمكين المرأة التى وردت فى بيان الحقائق الصادر عن مكتب شئون الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية فى ١٨ / ٦/ ٢٠٠٣ فلقد كان فى مقدمة تلك الآليات دعوة خمسين سيدة عربية إلى الولايات المتحدة لمشاهدة الانتخابات الأمريكية التشريعية والمحلية النصفية عن كثب وبغض النظر عن مدى تمثيل تلك النخبة النسائية، التى سبق أن وصفها كولن باول فى مبادرته بأنها تضم «٥٥ زعيمة سياسية عربية»، فعلاً للمرأة فى المجتمعات العربية، فإن الرسالة التى يحملها استقدام هؤلاء النسوة، هى تعرفهن على أبعاد التجربة الديمقراطية الأمريكية، تمهيداً لنقلها إلى بلدانهن . كذلك فى إطار شراكة باول يلفت النظر تعهد المبادرة بدعم مشروع الملاحقة القضائية لمرتكبى جرائم الشرف فى الأردن. وأتصور أن المعنى الذى يتبادر إلى ذهن المواطن البسيط المتدين سواء داخل الأردن أو خارجه، هو أن الإجراء الأمريكى لا يعدو كونه تشجيعاً لانتشار الرذيلة فى المجتمع، أو فى القليل إخضاع معنى الحرية الشخصية لمنظومة القيم الغربية. هنا أيضاً كانت وثيقة الإصلاح تقرأ المنطقة العربية من خارجها وليس من داخلها، لأنها لم تتبين معنى الشرف فى المجتمعات العربية، ولم تتصور أن تدخلها لمعاقبة مرتكب جريمة الشرف يزيد من التعاطف الشعبى معه، ولا يمثل رادعاً بالضرورة، تماماً كما هو الحال فى قضايا الثأر .

٢- أشارت المبادرة الفرنسية الألمانية إلى ضرورة تحقيق تسوية سلمية للنزاع العربى الإسرائيلى واعتبرت هذه التسوية بمثابة «أولوية استراتيجية لأوروبا» وبدونها «لن تكون هناك أى فرصة لتسوية المشاكل الأخرى فى الشرق الأوسط». وقد عادت وثيقة الشراكة من أجل التقدم لتردد الفكرة نفسها بشئ من التفصيل أساسه الالتزام بقرارى الأمم المتحدة ٢٤٢و ٣٣٨ وبيان اللجنة الرباعية الداعى إلى دولتين إسرائيلية وفلسطينية . لكن فى الحالتين كان هناك تصميم على عدم التذرع بالسعى نحو التسوية لتعطيل مسيرة الإصلاح والتطور الديمقراطى . ومن هنا استبقت وثيقة الشراكة تسوية النزاع العربى - الإسرائيلى بالإعلان عن أن فرنسا تدعم تطوير حقوق المرأة

فى الأراضى الفلسطينية (والمغرب والجزائر وتونس... الخ) وأن اليابان تساند تحسين الدور القيادي للمرأة الفلسطينية (والأردنية والمصرية) ومثل هذا الإعلان يثير إشكالية حقيقية ، وذلك أن المرأة الفلسطينية التى يهدم بيتها وتشرد أسرتها وتجرف أرضها، وتحرم هى وزوجها من التردد على عملهما فى ظل سياسة غلق المعابر، لاينتظر منها أن تكون مهيأة للمشاركة السياسية، ناهيك عن ممارسة دور قيادى فى مجتمعها،هل ثمة من يمارس دوراً قيادياً في المجتمع الفلسطيني إلا حركات المقاومة برجالها ونسائها؟ عندما يسلب الحق فى الحياة الذى هو مظلة لسائر الحقوق بتفريعاتها المختلفة ، يتعذر الحديث عن مشاركة أو قيادة .

الملاحظات المضمونية : الإصلاح السياسي يأتى أولاً

١- منذ تحدث أول تقرير للتنمية الإنسانية العربية فى عام ٢٠٠٣ عن ثلاث فجوات تعانى منها البلدان العربية مقارنة بالدول المتقدمة صار الاستشهاد بالنواقص العربية الثلاث لاستكمالها ملازما لمعظم الوثائق والتصريحات الغربية المنادية بالإصلاح . ومعلوم أن التقرير المشار إليه قد رصد نقصاً عاماً فى الحرية السياسية وبشكل خاص حرية المرأة حيث لايتجاوز تمثيلها النيابى ٣,٥ ٪ من مجموع الأعضاء، ومحدودية فى معدل النمو الاقتصادى حتى ليقل الناتج المحلى الإجمالى لعموم الدول العربية عن نظيره الإسبانى، وشمول الأمية نحو ٤٣٪ من أبناء تلك الدول، فضلاً عن التدنى الشديد فى نسبة الإنفاق على البحث العلمى (٠,١٤ ٪) فيما تنفق إسرائيل (٢,٥٣٪) .

لم يكن فى المعلومات المتضمنة فى التقرير جديد يصدم المطلع علي أحوال الوطن العربى فتقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان، والتقرير الاقتصادى العربى، والتقرير الاستراتيجى العربى الخ تنطق بمثل ما نطق به تقرير التنمية. لكن مشاركة الأمم المتحدة في إصدار هذا الأخير، وترجمته إلى اللغة الإنجليزية كفلتا له ذيوعاً واسعا .

والتزاما بتجسير الفجوة ثلاثية الأبعاد بين الشرق الأوسط والعالم المتقدم، رصدت شراكة باول دفعة أولى قيمتها ٢٩ مليون دولار لتمويل النمو الاقتصادى بواقع ٨ ملايين دولار، وتحسين المعرفة بواقع ٧,٤ مليون دولار، وتوسيع آفاق الفرص السياسية بواقع ١٣,٦ مليون دولار. وكما يتضح من توزيع بنود الميزانية السابقة فإن تعزيز المشاركة السياسية يكاد يكون قد استقطع حوالى نصفها ، والإنفاق المالى يعكس ترتيب الأولويات، أى أولوية المتغير السياسى على المتغيرين الاقتصادى والمعرفى . بطبيعة الحال يمكن الاتفاق بل لا يمكن الاختلاف مع الطرح الذى تتبناه الأفكار والمبادرات الإصلاحية ومؤداه أن الإصلاح عملية شاملة متكاملة . لكن يمكن المحاجاة فى أن الإصلاح السياسي هو الرافعة التى ترفع عالياً مختلف أبعاد التنمية أو ما

عبر عنه بوش الابن فى مبادرة الشرق الأوسط الكبير من أن «الديمقراطية والحكم الصالح يشكلان الإطار الذى تتحقق داخله التنمية».

وفيما يخص المرأة على وجه التحديد يمكن القول أولاً إن إنجاز الإصلاح السياسى فى الدولة (أ) أو الدولة (ب) لا يؤدى بالضرورة إلى تحسين وضع المرأة سياسياً ، والدليل على ذلك أن إجراء بعض الإصلاحات السياسية فى عدد من بلدان الخليج لم يترتب عليه انتخاب أى امرأة فى الانتخابات القطرية والبحرينية، بحيث إن المرأة الوحيدة التى دخلت المجلس البلدى فى قطر فازت بالتزكية، كما لجأت القيادة فى البحرين لأسلوب تعيين المرأة فى مجلس الشورى لمواجهة عدم انتخابها . وكانت سلطنة عمان استثناء فى هذا الخصوص حيث فازت المرأة بالانتخاب، بل إن النموذج الكويتى الذى كان هو الأسبق فى إجراء الإصلاح السياسى من كافة بلدان الخليج، تعثرت فيه محاولتان لمنح المرأة حقوقها الانتخابية، ومازالت المحاولة الثالثة (الحالية) لم تتبلور نتائجها بعد ثم إنه يمكن القول ثانياً إن الإصلاح السياسى حتى إن هو أتى بنتائج إيجابية لوضع المرأة سياسياً، وهذا وارد بطبيعة الحال، فإنه ليس من المؤكد بالضرورة أن يقود إلى إصلاح وضعها الاقتصادى، فمن الممكن أن تصل المرأة إلى المراكز الوزارية، وتتمتع بعضوية المجلس التشريعى والمجالس المحلية أو البلدية، لكن يتأثر وضعها الاقتصادى والاجتماعى سلباً نتيجة خصخصة خدمات التعليم والصحة والمواصلات مما يزيد من أعبائها المادية والمعنوية كزوجة وأم . أكثر منذ ذلك فإن المرأة قد تُمكّن من حقوقها الانتخابية والحزبية،لكن تكاثر واجباتها لايترك لها الحيز المطلوب من الوقت لممارسة هذه وتلك . وقد سبق لإحدى الدراسات عن أسباب عدم المشاركة النسائية فى الانتخابات التشريعية المصرية، أن وضعت بينها السبب الخاص بصعوبة الظروف الاقتصادية للمرأة .

٢ - مثلما انحاز الفكر الإصلاحى ووثائقه للسياسى على حساب الاقتصادى والمعرفي، فإنه انحاز في إطار الإصلاح السياسي للآلية الانتخابية. يتضح ذلك بالنظر إلى البند الخاص بتعميق الديمقراطية وتوسيع المشاركة العامة في الحياة السياسية والحياة العامة في خطة مجموعة الثماني لدعم الإصلاح، فمع أن هذا البند يتضمن الدعوة لإجراءات من قبيل إصلاح النظامين الإدارى والقضائى، والحرية الإعلامية إلا أن التدريب (النسائى خصوصاً) على خوض الانتخابات يحتل أهمية محورية بين سائر آليات إقامة النظام الديمقراطى وتفعيل المشاركة السياسية للمرأة. وبافتراض أن هناك نية حقيقية لاحترام نتائج صناديق الاقتراع، حتى وإن جاءت لصالح ممثل أو ممثلة تيار سياسى لاترتاح إليه، وربما تعاديه، الولايات المتحدة، وبافتراض الالتزام بأقصى قدر

ممكن من الموضوعية فى احترام إرادة الشعوب العربية فى اختيار من يمثلها، فإن الانتخابات لا تصنع الديمقراطية، وهى عبارة سبق أن رددها ريتشارد هاس . فالانتخابات قد تكون نزيهة لكن لاتعكس الإرادة الشعبية كما تعبر عنها مختلف القوى السياسية التى يحتمل أن تقاطع الانتخابات، كما يحتمل أن تشارك فيها بإرادة مشوهة وليست مزيفة بالضرورة، وهذا يعنى أن الانتخابات الديمقراطية التى تجرى فى ظل ثقافة غير ديمقراطية لايعول عليها فى الإصلاح. والانتخابات الديمقراطية التى لاتفضى إلى تداول حقيقى للسلطة تسهم فى تكريس حكم الأقلية .

الملاحظات التنفيذية : المجتمع المدنى هدف الإصلاح وأداته

١- فى مبادرته عن الشرق الأوسط الكبير ذكر بوش الابن أن الداخل هو القوة الحقيقية الدافعة للإصلاح، وأن المنظمات التمثيلية هى أفضل وسيلة لتمكين الإصلاح من الداخل، ومن هنا اقترح أن تسعى مجموعة الثمانى لتطوير منظمات المجتمع المدنى فى المنطقة مع تركيز خاص على المنظمات المعنية بحقوق الإنسان والإعلام والمرأة والواقع أن مثل هذا التصور يعكس أحد أبعاد السؤال الذى واجهه دعاة الإصلاح - الحقيقيون والمغرضون - بمناسبة فتح ملفه ، والسؤال هو التالى: هل يمكن للأنظمة العربية أن تقوم بالإصلاح؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن للإصلاح أن يأتى بقرار فوقى؟ والسؤال على النحو السابق إثارته ليست من نوع الأسئلة ذات الإجابة الواحدة، فالإجابة قد تكون بنعم على أساس أن النظم العربية لم يعد أمامها اختيار، وأنها تتجه إلى الإصلاح وظهورها إلى الحائط خاصة بعد انتقال المطالبة بهذا الإصلاح من الداخل إلى الخارج، الخارج الإقليمى وأهم منه الدولى . والإجابة قد تكون بلا على أساس أن مقتضى الإصلاح توزيع السلطة وليس تركيزها، وسيادة القانون وليس الاستثناء منه، وحرية الإعلام وليس احتكارها، والتعددية السياسية وليس الاتجاه الواحد، ومثل هذه القرارات يتعذر على المسكين بزمام القوة اتخاذها لأنها تتضمن عصفاً بمكتسباتهم بدرجات تضيق أو تتسع بحسب طبيعة النظام ودرجة انفتاحه السياسى . كما أن الإجابة قد تحمل شيئاً من سابقتيها، على أساس أن شراكة «ما» بين النظم ومجتمعاتها المدنية يمكن أن تحقق الإصلاح المطلوب . يعزز ذلك أن المنظمات غير الحكومية تكتل المصالح وتعبئها وتعبر عنها، لكن السلطة هى التى تتخذ القرار فى النهاية .

وفى كل الأحوال يظل من مفارقات فكر الإصلاح ومبادراته، أن الوثائق تتحدث عن شراكة، وفى الوقت نفسه تنحاز للمجتمع المدنى، ومن جهة ثانية فإنها تدلل على نماذج الإصلاح السياسى فى المنطقة العربية وتستشهد

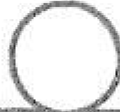
بحالات قطر والبحرين والأردن والمغرب، لكن الحالات الثلاث الأولى وقع فيها الإصلاح أساساً بواسطة النظم الحاكمة، فيما أفسحت الحالة المغربية مساحة أكبر لتأثير المجتمع المدنى رغم الانتكاسة التى منيت بها تجربة تداول السلطة فيها .

٢ - إذا تجاوزنا علاقة السلطة بالمجتمع المدنى إلى ماهية مؤسسات المجتمع المدنى نفسها ، ومنها العاملة فى مجال تنمية المرأة، يصبح السؤال المثار هو : ما هى قدرة هذه المؤسسات على الوصول إلى الفئات المهمشة والمرأة فى عدادها؟ وإلى أى حد تعكس برامج عملها أولويات هذه المرأة؟ وهل تنسق فيما بينها بحيث تمثل مخرجاتها تراكماً تفيد منه المرأة أم تمثل قضية المرأة ساحة للتنافس والتضارب فيما بينها ؟..

إن المتابع لنشاط بعض المنظمات غير الحكومية المهتمة بالمرأة، وخصوصاً بمشاركتها السياسية، يلحظ أن لهذه المنظمات جمهورها النسائي الذى تختلف مكوناته اختلافاً طفيفاً من نشاط إلي آخر، الأمر الذى يعنى إعادة تدوير ناتج تلك المنظمات فى نطاق قلة محدودة من النساء . كما يمكنه أن يلحظ أن بعض تلك المنظمات ليست أقل نخبوية من نظمها ولا أكثر توافقا فى اتجاهاتها بالضرورة منها مع تلك النظم .

***

الخلاصة أن قضية الإصلاح السياسى وفى إطارها إصلاح وضع المرأة أكثر تعقيداً وتشابكاً من كل ما انطوت عليه مبادرات الإصلاح الغربية . فالإصلاح يختلف مضمونه باختلاف السياق المحيط به، فما يصلح لمجتمع لايصلح لغيره بالضرورة . أعلم أن هناك حساسية شديدة لدى البعض من استخدام مصطلح «الخصوصية» فى تبرير الاختلاف فى هذا التفصيل أوذاك عن تفاصيل النموذج الغربى والنموذج الأمريكي بشكل محدد . لكن الحقيقة أن هناك بالفعل خصوصية لانملك إنكارها، وإلا فما القول فى التجاء الولايات المتحدة إلى أحد أبناء أكبر القبائل العراقية لرئاسة العراق الديمقراطى الحديث الذى يراد تصدير نموذجه إلى الخارج؟ وما القول فى احتفاظ المرأة الأفغانية بشادورها على الرغم من الإطاحة بنظام طالبان الذى سامها سوء العذاب؟.. إن لكل مجتمع منطقه فى الحركة الذى لايخضع لصالح الخارج وحساباته الدقيقة، ومن هنا تنبع أهمية التدرج فى الإصلاح خصوصاً فى قضية المرأة إذ ليس من مصلحة أحد من دعاة الإصلاح أن ينظر المجتمع إلى النساء اللائى يستفدن من المبادرات الغربية نظرة شك وربما رفض، تماماً كما كان ينظر هذا المجتمع إلى حاكمه الذى لا هو اختاره ولا قبل التجديد له سنين عدداً ■

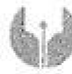


دائرة حوار

هوامش حول تاريخنا الأدبى المعاصر

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

تحدث الدكتور : محمد رجب البيومى – في عدد الهلال الماضى – عن التحولات التى جدت فى فكر أدبائنا الكبار الذين ازدهى بهم النصف الأول من القرن الماضى، وكيف أنهم مع تعمقهم فى الفكر، وتقدمهم فى العمر، وتمرسهم بالدراسة الأصيلة عرفوا وجه الحق فيما يتصل بحضارة الإسلام، وأصالة الدين،وسلامة العقيدة، فعادوا إلى تلك الحضارة يغترفون من نبعها الصافى، وإلى أصالة الدين يجلون جوانبها ، ويتخذونها مادة لدراساتهم ، وموضوعاً لأبحاثهم، ومجالاً لفنهم وإبداعهم – وقد اكتفى الدكتور رجب فى هذا الصدد بالإشارات التى تؤيد نظرته ، وتؤكد أن أولئك الرواد إذ سلكوا هذا المنهج لايمكن اعتبارهم مرتدين إلى الوراء، وإنما كانوا يبحثون عن الحقيقة، دون أن تبهرهم حضارة الغرب، أو تخدعهم أبحاث المستشرقين !



وقد وقف الدكتور رجب عند هذا الحد من القول : رصداً لحقائق وتسجيلا لواقع ، وتحليلاً دقيقا لدوافع وآثار ذلك الاتجاه منهم الذى خالفوا فيه – من بعض النواحى – ما كانوا قد اتجهوا إليه فى بادئ الأمر.. وما كان يشوب فكرهم مع مطالع الشباب من خلط واختلاط وزيغ عن الحق من بعض الوجوه


عباس محمود العقاد


طه حسين


توفيق الحكيم


زكي نجيب محمود

في بعض الأحيان .

ولنا أن نضيف إلى ذلك حقيقتين أخريين نرى أنهما على قدر كبير من الأهمية، وما نحسب أنهما غابتا عن الدكتور رجب، ولكن ضيق المساحة هو الذى حـــال - ولاشك - بينه وبين الاسترسال فى القول حتى يبلغ غايته!!

أولى هاتين الحقيقتين تؤكد أن اهتمام تلك الكوكبة من أبناء مصر فى تلك الفترة بحضارة الإسلام وأصالة العقيدة الإسلامية ، وسمو الشريعة الإسلامية أصولاً ومناهج وأحكاماً واتساعها لشئون الدين جنباً إلى جنب مع شئون الحياة، واهتمامها بأمور الروح بقدر اهتمامها بمطالب الجسد، وأحوال المادة .. هذا الاهتمام الكبير منهم لم ينسهم للحظة واحدة أمور العالم الذى نعيش فيه ، ولا أحوال الحضارات الأخرى التى تخالطنا، فكانت دراساتهم وأبحـــاثهم تمتـــد فى نفس الوقت إلى فلسفات الغرب ، وما يجدُّ فيها من اتجاهات، وما يسودها من تيارات، حتى أننا فى عالمنا العربى- كنا بفضل أولئك الرواد - نتابع الحياة الفكرية فى الشرق والغرب - على حد سواء - متابعة متصلة لانتخلف فيها - لفترة ما - عن مسار الفكر العالمى، فهو مطروح فى مقالات وأبحاث سهلة ميسرة أمام القارئ العربى، الذى كان بوسعه أن يتابعه، بل ويلاحقه، ثم يجرى ما يجرى من مقارنات بين حاضر وماض، وشرق وغرب، وأفكار سبقنا إليها من نعتز بهم، وأفكار وردت إلينا - من هنا ومن هناك!!

***

هذه الموسوعية التى ميزت روادنا والتى لم تقف بهم عند استعادة الماضى، بل امتدت لتساير العصر، وتواكب أحداثه وتطوراته، كانت هى الحقيقة الأولى التى

رأينا أن نوجه النظر إليها .. فكما تحدث العقاد عن (حقائق الإسلام) تحدث عن (أباطيل خصومه) وكما تناول بالدراسة عباقرة الإسلام، فإنه تناول بالدراسة والتحليل كثيرين من أدباء وفلاسفة الفكر الأوروبى، وكما تناول بالدراسة (الديمقراطية فى الإسلام) فإنه عرض لفلاسفة الحكم فى القرن العشرين، وكما كانت عبقرية محمد موضوعا لواحد من أهم مصنفاته - فقد كانت عبقرية المسيح مجالا للعرض والدراسة والتحليل وكما تناول بالبحث والدراسة الأدب العربى، فقد كان (القصص الأمريكى) أحد اهتماماته .. وكما عرض لشعر وسيرة ابن الرومى وأبى العلاء وعمر بن أبى ربيعة، فإنه لم يهمل دراسة شكسبير وبرناردو شو وغيرهما من عباقرة الأدب الإنجليزى، وإذ عرض لابن سينا، فقد عرض لكثيرين من فلاسفة الغرب وناهيك عن دراساته عن الشيوعية والصهيونية والنازية .. وغيرها !!

وقد نكتفى بهذا المثال دون أن نعرض لسواه من المفكرين الموسوعيين ممن لا يتسع المجال لتعدادهم وعلى رأسهم طه حسين وزكى نجيب محمود وزكى مبارك، ومحمد حسين هيكل ..!

***

ولا أدرى لم جرى اغفال توفيق الحكيم فى هذا المجال ! هل اعتبره الدكتور رجب - مسايراً فى ذلك بعض من سبقوه - غير داخل فى زمرة الرواد المفكرين فهو روائى - مجاله الفن بصفة عامة، والأدب المسرحى بصفة خاصة .. ؟ ذلك ظن أستبعده، وأرى أن اغفاله كان راجعا إلى أن المقال كان يكتفى بالإشارة ولم يتسع ليتناول الجميع بالحصر والإحصاء .. وإلا فمساهمات الحكيم فى الفكر أكبر من أن يمكن إغفالها ..حتى أدبه المسرحى فقد حرص على أن يرتاد فيه عوالم عديدة ومتباينة من الفكر والفن فكما عايش أهل الكهف وشهرزاد وسليمان الحكيم فإنه قد عاش مع «أوديب» و«عصفور من الشرق» و«أيزيس» .. وكما صور (الورطة) ورسم صورة (اللص)، وقدم المسرح المنوع ومسرح المجتمع فقد تحدث عن (الطعام لكل فم) و(ياطالع الشجرة) و(بنك القلق) و(الدنيا رواية هزلية)، وكما قدم «الرواية» و«القصة القصيرة» و«المسرحية ذات الفصول العديدة أو ذات الفصل الواحد»، قدم (المسرواية)وكذلك قدم المقالات النقدية والبحوث الاجتماعية بل لقد عرض لتفسير

القرطبي فاقتبس منه قطوفاً قدمها في مجلد كبير يضم بين دفتيه ما قاله القرطبي في موضوعات محددة .. !

وكان في كل ذلك لايفرق بين ماض وحاضر بين شرق وغرب بين دين ودنيا فقد ارتاد تلك المجالات جميعها مبدعا، ومفكرا، وباحثاً مما لاينبغي أن تفوتنا الإشارة إليه ونحن نشير إلى الرواد الكبار الذين كانوا كواكب الفكر في القرن الماضي، وبصفة خاصة في نصفه الأول .. ومازال إبداعاتهم حية بيننا، نقطف ثمارها ونروي منها أشواقنا إلى الفن والعلم والمعرفة ..!

* * *

هذه واحدة أما الأخرى التي يهمنا أن نشير إليها، فهي منهاج أولئك الرواد في تناول موضوعاتهم، وعرضها على قرائهم : فقد كان لكل منهم خياره المتميز، وأسلوبه المنفرد، الذي وإن امتاز بالأصالة، فإنه كان علامة صادقة على صاحبه، وعلى ذاتيته .. حتى وإن كان التناول لذات الموضوع ..

فسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كانت من الموضوعات الأثيرة، التي عمد كل من أولئك الرواد إلى تناولها وعرضها، وتصويرها في أعمال متميزة، وإبداعات متفردة، ومصنفات مبهرة ما تزال رغم مرور ما يقارب ثلاثة أرباع القرن يعاد طبعها فتلقى من قراء الأجيال الحاضرة مالقيته من آبائهم - وأجدادهم - من إكبار وحب وإعجاب، فضلا عن التقدير!اوربما كان مما يجب ملاحظته أنها جميعا تلقى نفس التقدير والإقبال مع اليقين بأن أيا منها لا يغني عن سائر المصنفات، بل ربما كانت قراءة أحدها هي التي تغرى بالبحث عن كل ما كتبه الرواد الأخرون عن ذات الموضوع ..!

فالدكتور هيكل وإن كان رجل قانون وسياسة ، إلا أن اهتماماته الفكرية والتاريخية جعلته يحتل مكانا متميزا بين رواد الفكر وأرباب القلم، ومن ثم كانت كتاباته عن جان جاك روسو، وكانت ترجماته للعديد من الشخصيات من الشرق والغرب، كما كانت محاولاته الأدبية في عالم الرواية والقصص القصيرة حتى لقد شرع يصوغ التاريخ الفرعوني في صور قصصية هذا القلم الدارس والمتمرس والذى احتل مكانه في عالم الفكر والإبداع ، كما احتله من قبل في عالمي القانون والسياسة، جذب اهتمامه تناول السيرة النبوية - ثم من بعدها سيرة الخلفاء الراشدين بالدراسة والعرض، فكان أن أقدم عليها منتهجا أسلوبا غير مسبوق هو أسلوب البحث

العلمي الدقيق، فهو وإن رجع فى تناوله السيرة النبوية إلى مصادرها المعروفة من القرآن الكريم والسنة الشريفة وكتب السيرة - والمغازى - المعروفة فإنه حرص فى نفس الوقت على مراجعة ما كتبه كتاب الغرب، وما عرض له بعضهم من دراسات وأبحاث كان بعضها منصفا وبعضها الآخر كان مغرضا ثم استخلص من ذلك كله أحداث السيرة، ووقائعها مع حرصه الكامل على التحليل العلمي والدراسة المقارنة، مع التجاوز عن كل ما يحتمل الشك أو رآه موضع ريبة، أو يتنافى مع العقل والمنطق ثم كان فى صياغته لما خلص إليه سلس العبارة ، جميل التعبير، يقدم لكل قول دليله، ولكل حادثة أسانيدها، مع الحرص على التسلسل الدقيق، والعرض الواضح، وفى أسلوب جميل وبليغ مع البعد عن الألفاظ المهجورة ، والتعبيرات الغامضة ثم عمد فى ختام كتابه إلى تقديم خاتمة فى مبحثين تناول فيها الحديث عن الإسلام حديثا يرسى أصوله، ويتناول أسسه، ويرسم صورة كاملة شاملة لملامحه ومنهاجه كدين وحياة .. وفى دراسة يقرؤها المتخصص فيجد فيها الجديد، ويقرؤها غير المتخصص فتوسع من أفقه وتزيد من معارفه - وعلى ذلك فقد تميز منهاج هيكل فى كتابه «حياة محمد» بالدقة والشمول، وباليسر والسلاسة ، ويربط سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بما جاء به من دين كان أساس حضارة عمرت وسوف تعمر طويلا..

***

وكان طه حسين حريصا على أن يتناول هو الآخر السيرة النبوية . وقد تناولها مرتين - وليس مرة واحدة - كانت الثانية هى تلك التى أشار إليها الدكتور رجب فى مقاله الأخير، عندما أصدر الدكتور طه حسين - فى المرحلة الأخيرة من مراحل إنتاجه - كتابه الذى ينبئ عن تعمق فى السيرة النبوية ودرس مؤصل للإسلام دينا وشريعة وعقيدة ومنهاج حياة ونعنى به كتابه مرآة الإسلام الذى ضم كتابين أولهما: عرض فيه السيرة النبوية والدعوة وتاريخها عرضا مباشرا على نحو مجمل وإن اكتفى بالملامح الرئيسية إلا أنه كان صادقا فى تصويره، جميلا فى تعبيره شاملاً فى إلمامه - وكان الثانى من الكتابين هو التعبير الصادق عن عنوان الكتاب : مرآة الإسلام .. ففيه كان الدرس، وكان التحليل والبيان والتأصيل للإسلام عقيدة وشريعة ..

أما المرة الأولى التى تناول فيها طه حسين السيرة النبوية، فكانت فى وقت مبكر، وقد جاءت على نسق غير مسبوق، لفت الية النظر ، واستحوذ على الإعجاب حتى لقد أثنى على ذلك العمل كبار قرنائه - وعلى رأسهم العقاد - وإذ كان هذا العمل لايتناول السيرة النبوية على نحو مباشر وإنما يتناول ما سبقها من إرهاصات، ثم ما أشاعته فى الجزيرة العربية من أصداء، ولما ابتعثته فى النفوس من أفكار وأحاسيس - فلذلك اختار لها عنواناً لافتاً ومعبراً فى نفس الوقت على هامش السيرة وقد ضم الكتاب بأجزائه الثلاثة العديد من الصور التى تنوعت مادة وموضوعا فكما صورت جانبا من سيرة جد الرسول عليه الصلاة والسلام - فقد ضمت صورا عن العديد من النساك والكهنة وغيرهم ممن نذروا أنفسهم لرصد ظهور الرسالة ومقدم الرسول، بل ولم يقف ذلك التصوير عند عالم البشر، بل تخطاه إلى عالم الجن، حيث صور حياة وقصص البعض منهم وجاءت تلك الصور فى دقة ملامحها وتسلسل أحداثها وفنية أسلوب عرضها، وسلاسة عباراتها وجمال تعبيراتها وروعة تصويرها لما تضمنت من أحداث، وما اشتملت عليه من حوارات - على نحو فيه من البراعة والفن والقدر الكبير ومن هنا يحق لنا أن نقرر أنها وإن كانت عملا إبيبا إبداعيا إلا أنها لتعلقها بالسيرة النبوية على نحو أو آخر اكتسبت تميزا وسموا جعلها متميزة - بين سائر إبداعات طه حسين الأدبية بسمات خاصة ومكانة رفيعة .

***

وهكذا وقد تفرد طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) أسلوبا ومنهاجا وإبداعا ، فقد كان ما قدمه العقاد فى هذا المجال مختلفا تماما عن كل ما سبقه من تصوير أو حديث عن السيرة النبوية، ومن ثم فقد جاء العقاد متفرداً، إذا اختص أحد جوانب الرسول بدراسته وبحثه، وهو جانب (العبقرية) حيث اختار من مواقفه - عليه الصلاة والسلام - ومن تصرفاته وسلوكه ومنهاجه - ما يكشف عن هذا الجانب، ويثبت كم كان محمد إنسانا عبقريا يحسن التصرف، موهوبا يبدع القول - ويؤدى الرسالة ، وينهض بالأمر على خير وجه .. وكيف كان فى كل موقف سامى الفكر، واسع الأفق ، بعيد النظر، عميق الفهم والتقدير للأمور - وفى نفس الوقت كان رقيق الشعور، رحيم القلب، يقدر الحسن، ويؤثر الجمال فى كل مناحى الحياة - ولم يكن العقاد فيما أطلقه من

صفات وسمات إلا مقدما لكل من ذلك بما هو ثابت فى صحيح السيرة من وقائع وأحداث وأحاديث، يوردها، ويقدم بها لما يخلص إليه من ملامح لعبقرية صاحب السيرة الذكية.. وكان ذلك كله فى عرض شيق، وأسلوب دقيق، وعبارات مركزة، ومنطق موصل صحيح .. حتى إذا ما اتصل الأمر بالمشاعر والأحاسيس رقت العبارة، ودقت الألفاظوجاءت التعبيرات شاعرية موحية .. وهكذا جاءت هذه الدراسة لعبقرية محمد مبرزة لجوانب مهمة، وكاشفة لقرائها عن نواح جديرة بالإحاطة .. حقيقة بالاهتمام، تسمو بالرسالة وبالرسول إلى ما يليق بهما من إكبار ومحبة وتقدير ..

***

وخير ما نختم به هذا العرض الوجيز هو ذلك العمل الفنى البديع، ونعني به كتاب توفيق الحكيم عن (محمد) عليه الصلاة والسلام - قدمه فى أسلوب تمثيلى يضم العشرات من المناظر المتتالية يرسم فى كل منظر منها إحدى الصور أو المواقف صورة من حياة الرسول، أو مما هو متصل بها، وقد صيغت فى أسلوب حوارى ينطق فيه الأشخاص بما يعبر عن الأحداث، ويحكى الوقائع فيما يتبادلون من أحاديث أو ما يعبرون عنه من انفعالات.. تتفق مع الموقف .. وتروى الحدث وتربط ما بين الأحداث ..!! .

وهكذا تتوالى المناظر وتتابع الحوارات فى صورة معبرة وناطقة فى نفس الوقت .. ومن جملة هذه المناظر المتتابعة تتكامل ملامح صورة حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ناطقة، معبرة، تروى الأحداث، والأحاديث، وتصور كل ما مر بهذه الحياة الحافلة الخصبة من خطوب، ومحن وما تحقق فيها من انتصارات، دون أن تنسى أن تصور مجالس التشريع أو القضاء، أو سواها من المجالس التى كانت هى المدرسة التى لقنت الصحابة أسس الرسالة ومبادئ الإسلام على نحو حفظ التاريخ تفاصيله، وحرص المسلمون على تسجيل دقائقه كاملة .. ومن هنا فقد جاء هذا العمل القائم على الإبداع الفنى، والأسلوب التمثيلى، والحوار الروائى عملا غير مسبوق - متميزا - فى الواقع - بسمتين أساسيتين : أولاهما : دقة رواية وقائعه، وتوثيق ما ورد على لسان الرسول - عليه الصلاة والسلام - وصحابته من أحاديث - واكتمال تفاصيل السيرة على النحو المتفق عليه مما يبعد عن مواضع

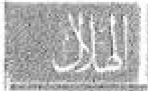
الخلاف، وبما لايخرج عما هو ثابت في صحيح الأحاديث وصادق الروايات والسمة الثانية هي التوافق مع النسق الفني، بما يكون في الامكان إخراجه على المسرح فيما لو توافرت الإمكانيات، وأمكن الوصول إلى حلول مرضية للتغلب على ظهور شخصيات الرسول عليه الصلاة والسلام، والصحابة لما هو مجمع عليه من عدم جواز ظهور تلك الشخصيات على المسرح .. بما يقتضي التفكير جديا في إيجاد البديل ..

***

على أننا لم نتعرض لما أبدعه الشعراء في السيرة النبوية، وكم تنوعت وتعددت روائعهم، التي مازلنا - وسنظل - نرددها مأخوذين مسحورين مكتفين بما أوردناه من إشارات عما أبدع بعض الكتاب والمفكرين من ثمار تؤكد ثبوت أقدامهم، وعمق تفكيرهم، وصدق إيمانهم وكيف عرفوا الحق فنصروه، وكانوا هم القادة والرواد الذين لايكذبون الأهل بل يقودونهم إلى الخير، وسلاحهم في ذلك عقول مبصرة، ومواهب أصيلة زودت بمعارف موسوعية لاتعرف حدا تقف عنده، ولانهاية لما تبذل من جهد، أو لما تقدم من فن وإن كان هؤلاء قد مضوا عنا فقد خلدوا بيننا - بمازلنا نقطف من ثمار فكرهم وجهدهم وفنهم . ومن ثم فإنه ليبدو بعيدا عن الحق ومخالفا للحقيقة أن يقال أن هذه النهضة الفكرية التي أحيت الماضي وقدمته نابضا ناطقا وفي ذات الوقت ربطت بينه وبين حاضر الفكر وما يسود العالم من تيارات - هي ردة إلى الوراء، أو نكسة عن التقدم !! فذلك قول يقوم على التسرع في الحكم والحيدة عن الصواب وإنكار ما هو حق من القول، وإهدار ما كان صادقا من الجهد وعميقا من الفكر، ورائعا من آيات الفن والإبداع .. وهو ما لانرضاه ولايرتضيه المنصفون !!

***

على أن ما ذكرناه فيما سلف لا يعني بحال أن أولئك الرواد قد بلغوا الغاية فيما قدموا وأن أعمالهم ليس فيها ما هو موضع نقص أو قصور، أو أنهم لم يخطئوا في بعض ماقالوا، ولم يجانبوا الصواب أبداً .. فهم فيما قدموا وأبدعوا كانوا شأنهم شأن سائر البشر يصيبون ويخطئون، يجدّون ويهزلون، ولكننا نأخذ بالغالب من أمرهم فنقول أنهم كانوا قادة مبدعين في معظم ما قدموا ■





دائرة حوار

التحول والجمود بين المفكرين

بقلم
حلمى النمنم

جمع د. ماهر شفيق فريد فى جملة واحدة بين طه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وزكى نجيب محمود وعبدالرحمن بدوى وإسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وخالد محمد خالد ومصطفى محمود وغيرهم وقطع بأنهم جميعا تحولوا من المنظور «الهيومانى العلمانى» الى المنظور «السلفي الأصولى».

واعتبر تراجع هؤلاء عن «منطلقاتهم الثورية الباكرة» هو «أكبر كارثة شهدها الفكر العربى الحديث وفاتحة النزعات الانقلابية الراهنة»، الهلال، عدد يونيه ٢٠٠٤.

ويبدو أن د. محمد رجب البيومى، اتفق مع د. ماهر فى معظم قراراته السابقة إلا فى نقطة واحدة حيث رأى أن تلك التحولات كانت بمثابة عودة إلى «الطريق الصحيح» وأنها تمثل «الرجوع الى الحق»، الهلال عدد يوليو ٢٠٠٤.

ولا يملك القارىء إلا أن يقدر الجهد الذى بذله د. رجب البيومى فى البحث وجمع النصوص للتدليل على أفكاره، غير أنه انساق مع د. فريد فى عدة أمور تحتاج التوقف والمساءلة، فقد رادف بين الهيومانية والعلمانية، رغم أن الفارق بينهما ليس هينا، دع عنك الآن أنه استعمل المصطلح الأجنبى «الهيومانية» دون أن يحاول استعمال مقابله العربى «النزعة الانسانية» أو مقابل آخر يراه هو، ورادف أيضا بين السلفية والأصولية، والفارق شاسع بينهما وحالة العداء على الأرض، بين هذين التيارين واضحة. ولا أعرف كيف جزم بأن هؤلاء جميعا تحولوا إلى ما أسماه «السلفية الأصولية» وأنهم كانوا على «الهيومانية العلمانية»؟

من جانبى أقطع بأن مفكرا مثل د. زكى نجيب محمود لم يتحول نهائيا، وقد

سألته فى ذلك قبل عام من وفاته فنفى بشدة، ذلك أن زكى نجيب قدم «الوضعية المنطقية» وهى تمثل منهجا للتفكير ولا تحمل فكرة بذاتها، والذى حدث أن د. زكى أعمل منهجه هذا منذ السبعينيات الأولى فى التراث العربى الإسلامى، خاصة فى كتابيه عن المعقول واللامعقول فى تراثنا وتجديد الفكر العربى، ولو أنه تحول بالمعنى الذى يراه د. فريد فبماذا نفسر مقاله الذى نشر قبل سنوات قليلة من وفاته بعنوان «ردة فى عالم المرأة» وأثار عليه التيار الإسلامى فى مصر والعالم العربى؟


نجيب محفوظ


طارق البشري

ومن يقرأ كتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل يجد أن الرجل لم يترك نزعته العقلانية فى تناوله لحياة النبى، راجع مثلا فهمه لحادث الإسراء والمعراج بل إن د. هيكل أكد فى مقدمة حياة محمد أن الكتاب «دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة، خالصة لوجه الحق..» ولا يمكن لمن يقرأ «الفتنة الكبرى» للدكتور طه حسين أو حتى «مرآة الإسلام» أن يتصور للحظة أن تلك كتابات «سلفى أصولى» ولو أن الباحث راجع مقال د. طه حسين الذى نشر بجريدة «الجمهورية» فى صيف عام ١٩٥٥ بعنوان «حق الخطأ» لأدرك أن الرجل لم يتراجع خطوة واحدة عن أفكاره الأولى، كان المقال فى الدفاع عن الشيخ عبدالحميد بخيت الأستاذ بجامعة الأزهر، وكان قد تعرض لعنت شديد من إدارة الأزهر وتم فصله من الجامعة بسبب رأى أبداه حول فريضة الصيام. ونفس الأمر لمن يقرأ كتاب العقاد «التفكير فريضة إسلامية» أو العبقريات وتناوله لعدد من شخصيات الإسلام فضلا عن كتابيه حول الإنسان فى القرآن والديمقراطية فى الإسلام.

والواقع أن معظم هؤلاء المفكرين تأثروا بالمناهج والأفكار الغربية سواء منها العقلانى أو الإنسانى أو العلمى وأعجبهم فيها التركيز على الإنسان كقيمة والمجتمع ككيان مستقل عن السلطة السياسية، ولا يحق للأخيرة أن تتسلط على الناس وتستبد بهم، ثم راحوا يتأملون مجتمعهم وثقافتهم على ضوء تلك

المناهج والأفكار ومن ثم فإن هذا لا يعد تحولا بل هو أقرب الى التطور أو النضج، كان ذلك في سلوكهم العام أيضا وليس في أفكارهم فقط، لنتأمل مفكرا مثل د. هيكل حين شغل فترة من الوقت مقعد وزير المعارف العمومية، مطلع الأربعينيات، فإنه قرر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» على طلاب المدارس الثانوية ككتاب مطالعة .. وأظن أن الذى قام به د. طه حسين وهو وزير المعارف يقترب من الحالة الثورية وليس السلفية الأصولية، وقد راجعت في «الوقائع المصرية» جميع القرارات التي أصدرها د. طه حسين وهو وزير للمعارف في حكومة الوفد الأخيرة فوجدت ان ما سعى إليه هو نفسه ما نسعى إليه اليوم من محاولة محو الأمية ومجانية التعليم فضلا عن انه استصدر مرسوما ملكيا بتأسيس جامعة في الصعيد باسم محمدعلي، جامعة أسيوط فيما بعد، فهل يمكن القول ان هذا الرجل كان آنذاك «سلفيا اصوليا»!!

الأخذ بالشبهات

والواقع أن الحكم على الكتاب والمفكرين بهذه الطريقة هو نوع من أخذ الناس بالشبهات وتناولهم بما هو رائج عنهم وليس تناول الباحث المدقق، مثل الزج باسم د. مصطفى محمود بين هؤلاء المفكرين واعتبار أنه تحول إلى السلفية الأصولية – أصدر أحد السلفيين كتابا يكفر فية د. مصطفى محمود – بل إن د. رجب يقول إن الواقع الراهن أيد صواب د. مصطفى محمود حين خرج عن الماركسية والمؤكد أن د. مصطفى لم ينخرط يوما في أي تنظيم ماركسي وتثبت كتاباته أنه لم يكن متأثرا في أي مرحلة من حياته بأفكار ماركس، وكتابه الذى أثار ضجة وصودر ليس فيه إلحاد كما قيل، ومن يقرأ كتاب «الله والإنسان» سوف يكتشف أنه خليط بين بعض جهالات عوام المسلمين ورذاذ من بعض الأفكار والكلمات الوجودية التى تطايرت على المقاهي بين أشباه المثقفين في الخمسينيات من القرن الماضي، ولا يجب أن تكون تقارير الرقباء والبصاصين هي المعيار الفكرى الذى نحتكم اليه ونحاسب الكاتب على أساسها وإلا لانتهينا إلى ان د. طه حسين شيوعي لأنه أصدر كتاب «المعذبون في الأرض» وهو ما قال به ضباط القلم السياسى في العهد الملكي، بل إن الملك فاروق نفسه اعترض في بداية الأمر على اختياره وزيرا للمعارف معتبرا أنه «شيوعي»!!

قضية التحول

على أن الأهم من ذلك هو قضية التحول أو تطور الكاتب والمفكر من موقف إلى موقف ومن فكرة إلى أخرى، وانقسم الرأى العام الثقافي إلى جانب عبر عنه د.ماهر بأن ذلك التحول يعد كارثة فكرية وجانب يمثله د. رجب البيومي ارتآه خيرا

وفضيلة!!

الوضع الصحيح أن يكون الكاتب والمبدع فى حالة جدل دائم مع واقعه وثقافته بل مع أفكاره هو الخاصة، وهنا يصير التحول والتطور واردا ويعد علامة ايجابية ولعل الذى يستحق النظر اليه باستهجان هو جمود المفكر وليس تحوله أو تطوره، الجمود يتحول إلى أصولية مع الوقت، وهناك أصولية فى معظم التيارات الفكرية وليست وقفا على تيار بعينه ، وتاريخ الفكر الإنساني عرف الكثير من التحولات والتطورات التى طرأت على كبار الفلاسفة والمفكرين والمبدعين فى مختلف الثقافات الإنسانية وعبر مختلف مراحل التاريخ، والفترات التاريخية التى غلبها الجمود والثبات، تعد عصور الظلام والتأخر.


أبو حامد الغزالي


محمد عبده

الذين يدرسون فلسفة أفلاطون يعرفون جيدا أن محاورته، «القوانين» هى تطوير وتحول عن بعض آرائه ومواقفه السياسية التى دونها فى محاورة «الجمهورية» والذين تخصصوا فى «هيجل» يدركون أن فلسفته شهدت عدة مراحل وتطورات، بل إن فيلسوفا وأديبا غربيا حقق شهرة فى عالمنا العربى هو «جان بول سارتر» شهدت حياته تحولات وانقلابات فكرية بلغت حد التضارب، هو واحد من رموز الوجودية بكتابه الذى ترجمه إلى العربية د. عبدالرحمن بدوي «الوجود والعدم» ثم انقلب الى الفكر الماركسى بكتابه «نقد العقل الجدلى» ولم يعتبر الوجوديون تحوله كارثة ولا رآه الماركسيون فتحا عظيما، بل هو امر متوقع بالنسبة للفكر بالمعنى الحقيقى للكلمة، ولماذا نذهب بعيدا فنحن جميعا نعرف الفيلسوف الفرنسى «روجيه جارودى» وتحولاته العديدة فقد كان ماركسيا ثم حاول تطوير هذا الفكر بكتابه «الواقعية الاشتراكية» وأخيرا انقلب على هذا كله واعتنق الإسلام.

القول بأن طه حسين وهيكل والعقاد وزكي نجيب تحولوا إلي أصولية سلفية إجحاف وأخذ بالشبهات

على مستوى الفكر العربى الإسلامى فإن التحولات بين الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية عديدة، وكانت الطرق مفتوحة للمتكلمين والفقهاء بين المدارس والمذاهب يروحون ويجيئون بلا حرج ولا لائمة، هل نذكر هنا أن الامام الشافعى عدل فى مذهبه الفقهى حين جاء الى مصر والتصق بأهلها وواقعها..؟

وهل نذكر - أيضا واصل بن عطاء الذي تحول عن مدرسته وامامه الأشعرى ليؤسس مذهبا جديدا هو المعتزلة؟!!

وفي الفكر العربي وثيقة مهمة لجملة من التحولات مر بها مفكر واحد هو أبو حامد الغزالي الملقب حجة الإسلام تتمثل في كتابه، صغير الحجم عظيم القيمة «المنقذ من الضلال» حيث أثبت فيه شكوكه العميقة وحيرته بإزاء العديد من المذاهب والمدارس الكلامية والفلسفية التي عرفتها الثقافة الاسلامية، حتى استقرت في نهاية الامر على مرفأ التصوف والزهد. وفي فكرنا الحديث مر الاستاذ الامام محمد عبده بتجربة شبيهة تعرض بسببها الى العديد من الانتقادات والمآخذ بين علماء الأزهر ورجال الحركة الوطنية.


جان بول سارتر


روجيه جارودي

التحول بحد ذاته ليس مدانا ولا هو خطيئة وكما ورد من قبل في هذا المقال فإن الجمود هو المعيب، وللأستاذ العقاد كلمة مهمة في هذا السياق، رغم أنه أوردها في سياق آخر بروايته سارة يقول «ذو الوجه الواحد ميت، وذو الوجهين منافق»..

التحول لا يعني خطأ الفكرة

وتحول الكاتب عن فكرة ما، لا يعني بالضرورة خطأ تلك الفكرة ولا يلغيها، ذلك أن الفكرة بعد أن تظهر تستقل عن مبدعها، ولا تبقى ملكا له، إلا بالمعنى المادى، لقد اجبر جاليليو على التراجع عن فكرته حول دوران الأرض، ولم يمنع ذلك التراجع الإنسانية من ان تستفيد علميا وعمليا من تلك الفكرة، ولنأخذ هنا نموذج نجيب محفوظ فقد تحول من كتابة المقال الفلسفي الى فن الرواية وتقلب بين المذاهب الروائية ، بدأ بالرواية التاريخية ثم اتجه الى الواقعية والحقها بالفلسفية والنفسية ويكتب حاليا ما يمكن أن نعتبره أقصوصة الرمز والإشارة. ولم يكن التحول معناه إلغاء ما قدمه من روايات سابقة، مازالت الرواية التاريخية تكتب وكذلك الواقعية حتى وإن تركهما هو..

وقيمة بعض الأفكار في الأثر الذى تحدثه، والأمر المؤكد أن

كتاب الشيخ على عبدالرازق «الاسلام واصول الحكم» قد أجهض نهائيا احلام الملك فؤاد فى أن يكون خليفة المسلمين وان يرث ذلك الطاغية الدولة العثمانية واليوم ليس هناك من يقول - إلا قلة - بأن الامة الاسلامية لا تصلح بدون الخلافة، بل هناك شبه اتفاق على أن الإسلام لم يحدد نظاما معينا للحكم، ملكيا أو جمهوريا أو خلافة، بل ترك هذا الأمر لاختيار عموم المسلمين، وهذا هو لب ما جاء فى كتاب الشيخ على عبد الرازق، وان صح أنه تراجع عن فكرته فإن هذا لا يلغيها وليس معناه انها - حتما - فكرة خاطئة!


طه حسين


محمد حسين هيكل

وتشهد حياتنا الفكرية الراهنة بعض التحولات الناتجة عن تطور ومعاناة فكرية، لعل أبرزها نموذج المستشار طارق البشرى الذى حرص على أن يدون تحوله ودوافعه إلى ذلك فى مقدمة خاصة بالطبعة الثانية من كتابه عن الحركة السياسية فى مصر بين ١٩٤٥ و ١٩٥٢، وكان شجاعا مع ذاته وأمينا مع قرائه وجمهوره، لم يدلس عليهم وشريفا مع مجتمعه وثقافته، لم يتاجر بمسألة التحول ولم يحولها الى بوتيك او بيزنس فاستحق الاحترام والتقدير من الذين يختلفون معه قبل الذين يوافقونه.

فى المقابل هناك موجات من الانقلابات لأولئك الذين امتطوا كل منبر وركبوا كل موجة، فإن سادت الماركسية كانوا الرفاق العظام والمدافعين عن البروليتاريا.. المنددين بالبرجوازية الصغيرة والكبيرة فإذا انهار الاتحاد السوفييتى اندفعوا الى الإسلاميين بجوار الامراء الجدد، منظرين وموجهين، واذا ارتفع صوت القومية العربية واشتد المد الناصرى كانوا الثوريين المنادين بألا حرية لأعداء الشعب فاذا تراجع ذلك المد عاد إليهم وعيهم ليكونوا فى مقدمة الانفتاحيين والمنظرين لدعوة مصر اولا واخيرا.. اما اذا جاءت الرياح الأمريكية العاتية فإنهم، بقدرة قادر، يصيرون ليبراليين جددا أو دعاة الإصلاح والمنادين بالعولمة، والشرق الأوسط الكبير.!!

وهؤلاء يستحقون الرثاء، وربما الازدراء! ■

التحولات الجادة في حياتنا الفكرية محدودة وما نراه انقلاب ومجاراة للموضات السائدة

شخصية العدد

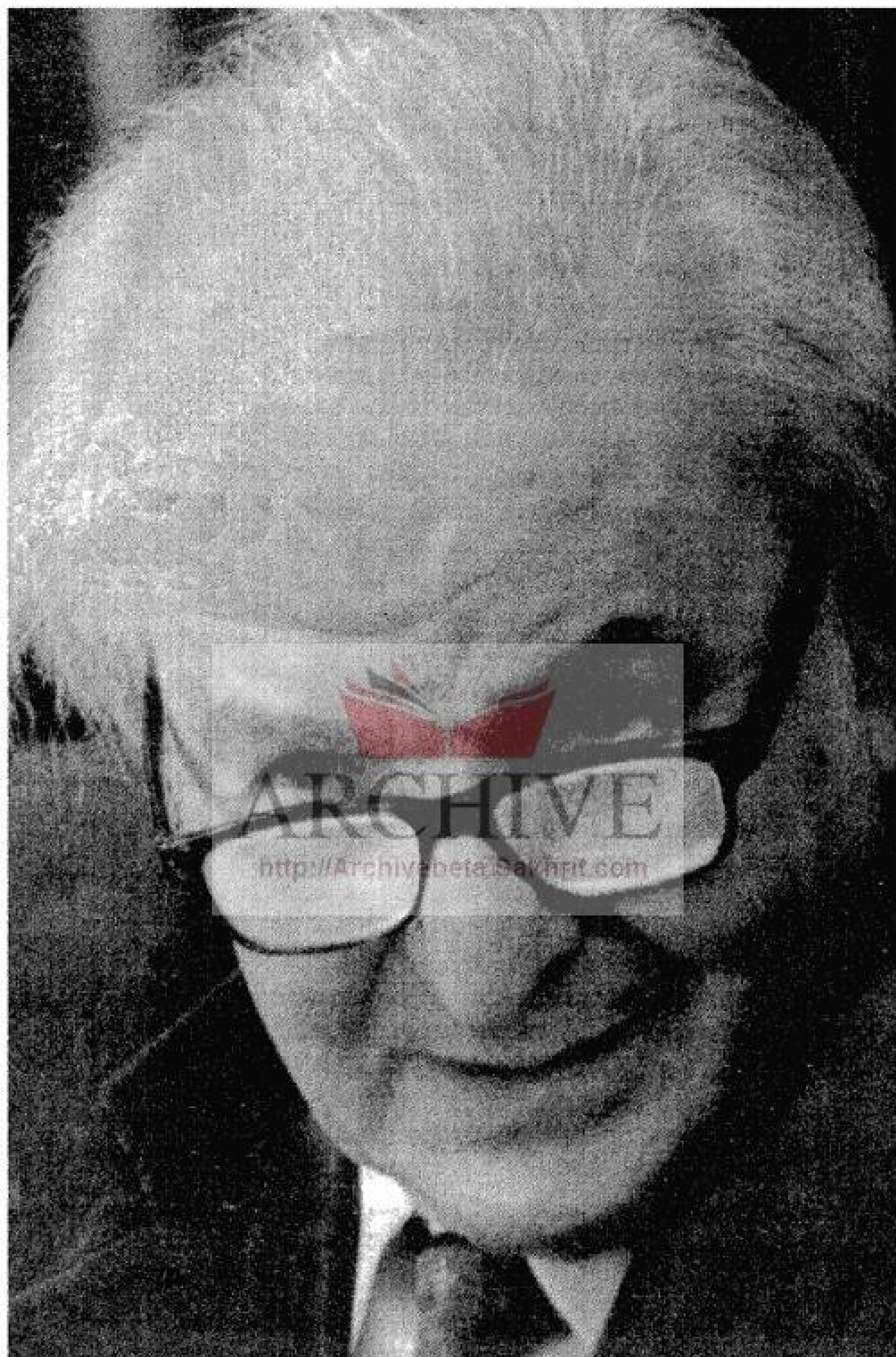
دكتور حمدى السيد

رحلة التفوق من الطب إلى السياسة

بقلم
ربيع أبو الخير

فى مستشفى «همر سميث» أكبر مركز لجراحة القلب فى بريطانيا ، وأول مستشفى يستخدم القلب الصناعى كان الطبيب المصرى الشاب يتابع حالة مرضاه ، يدخل إلى المرضى حجرة بعد حجرة ، يزرع الأمل فى قلوبهم .. ويطمئن على سلامة شرايينهم بعد أن أجرى لهم أخطر العمليات الجراحية.

فى كل حجرة كان يدخلها يلتف حوله مجموعة من الأطباء الإنجليز ، يستمعون باهتمام بالغ لكل كلمة يقولها .. كان يشرح ويفسر ويشخص لهم حالة كل مريض يقف بجوار سريره وحتى فى داخل غرف العمليات ، كان جراحو مستشفى «همرسميث» يتابعون بعقولهم وأعينهم يد هذا الجراح البارع وهو يمسك مشرط الجراحة ليجرب عمليات القلب .. يصلح العيوب الخلقية .. ويوسع الشرايين .. ويعالج الأزمات القلبية المفاجئة لينقذ حياة عشرات بل ومئات المرضى.





كان ذلك في بداية الستينيات .. وكان الطبيب الشاب هو الدكتور حمدى السيد استاذ جراحة القلب ونقيب الأطباء والبرلماني القدير الذى يترأس لجنة الصحة بمجلس الشعب.

منذ أن انضم الدكتور حمدى السيد لفريق الجراحين في مستشفى «همرسميث» الشهير كان يواصل عمله ليل نهار متنقلاً ما بين غرف الجراحة وأسرة المرضى ومعامل التحاليل وأقسام الأشعة .. يتابع كل حالة أجرى لها جراحة في القلب حتى يخرج مريضة معافاً من المستشفى .. انتقل حمدى السيد لهمرسميث بناء على توصية من استاذ بريطاني شهير اكتشف موهبته وبراعته في الجراحة .

• ولم تمض سوى شهور قليلة حتى تولى هذا الطبيب المصرى الشاب الاشراف وحده على قسم كامل داخل هذا المستشفى الكبير .. كما كان يتولى تدريب الأطباء الإنجليز .. وبعد انقضاء السنة الأولى من عمله بالمستشفى كان يعمل معه مساعدان أحدهما بريطاني والآخر هندى ، وبعد ذلك بستة أشهر حصل د. حمدى السيد على أكبر شهادة في انجلترا في جراحة القلب والأمراض الباطنة وهي شهادة لم يحصل عليها سوى ثلاثة أطباء في بريطانيا في ذلك الوقت.

○ عمل في أكبر مركز لجراحة القلب في لندن عام ١٩٥٨ بناء على توصية من أستاذ بريطاني شهير.

***

حياة هذا الطبيب المصرى كانت تحفل بمواقف عديدة من الألم والأمل ، وتؤكد أن الإرادة البشرية تمكن صاحبها من اجتياز كل العقبات وتقفز به فوق الصعوبات كى يصل إلى هدفه وإذا كانت عبقرية الدكتور حمدى السيد في جراحة القلب تستحوذ على إعجاب الناس وخصوصاً الذين كانوا على صلة بعمله وإنجازاته ، فإن قصة حياته تعد تجربة فريدة وثرية ومثل يحتذى به في الإصرار والعزيمة للوصول إلى الهدف المنشود.

لقد ولد حمدى السيد من أبوين فقيرين في قرية ميت الخولى ، وهي قرية صغيرة من قرى الدقهلية .. انتقل من قريته ليعيش في المنصورة حتى حصل على الابتدائية ثم التحق بمدرسة المنصورة الثانوية.

وطوال سنوات إقامته في المنصورة كان ما يصله من نقود من والده يكاد يفي الاحتياجات الضرورية .. وكان على الطالب

النابغة أن يعيش فى حدود هذه الإعانة الشهرية من والده لمدة خمس سنوات كاملة .

***

وعلى الرغم من تلك الظروف التى كان يعيشها هذا الطالب بالمدرسة الثانوية فقد عكف على دراسته بجد واجتهاد حتى حصل على الشهادة التوجيهية شعبة العلوم . ولم يكن دخوله الجامعة أمراً هيناً ولا متاحاً فى ذلك الوقت .. فمن أين له بمصاريف الدراسة علاوة على تكاليف المعيشة فى القاهرة.

ولذا صمم حمدى السيد على استكمال دراسته الجامعية ووضع هدفاً وحيداً نصب عينيه ، وهو أن يفوز بمجانية التعليم الجامعي ، ولم يكن يكفى الحصول على تلك المجانية تفوق الطالب فى التوجيهية ، بل كان عليه أن يجتاز بتفوق امتحان المسابقة التى تنعقد للناجحين فى التوجيهية.

وخلال عدة شهور قليلة كان الطالب الحاصل على التوجيهية من المنصورة قد انكب على دراسة الكتب الأدبية والتاريخية .. درس كتاب تاريخ الأدب العربى للمرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وراح يجمع أعداد مجلة السياسة الإسبوعية التى كان يصدرها الدكتور هيكل ، ويدرس المقارنات التى انعقدت بين شوقى وحافظ وتقدم حمدى السيد إلى امتحان المسابقة ، ونجح بتفوق باهر ، وكان ترتيبه الثانى بين الناجحين وبذلك ضمن أن يتعلم بالمجان فى كلية الطب التى يعشقها.

وكانت مفاجأة سارة أن يحصل بعد نجاحه فى امتحان المسابقة على المكافأة المقررة بالنسبة له وكان قدرها عشرون جنيها .. لقد كان هذا هو أكبر مبلغ من المال يصل إلى يده دفعة واحدة.

ويذكر د. حمدى السيد أنه اشترى من هذا المبلغ أول ساعة فى حياته .. وأنفق ما تبقى فى شراء ملابس جديدة له .

***

ويمر عام بعد عام ويزداد الطالب النابغة علماً ويبهر اساتذته بتفوقه ونبوغه وفى عام ١٩٥٢ تخرج فى كلية طب قصر العينى ثم حصل بعد ذلك على دبلوم الجراحة وعين معيداً بالكلية، وظل يشتغل بالجراحة لمدة خمسة أعوام ثم سافر عام ١٩٥٧ فى بعثة إلى ادنبره ثم اسكتلندا .. وهناك حصل على شهادتى الزمالة والتخصص فى الجراحة .. وفى منتصف عام ١٩٥٨ انتقل إلى لندن وبدأ يتجه للجراحة ، واجتهد حتى حصل على شهادة تخصص ثانية فى الجراحة وبدأ يجرى أخطر العمليات الجراحية مثل جراحات إصلاح التشوهات الخلقية فى القلب وتوسيع الشرايين.

***



○ نجاحه في مسابقة مجانية التعليم فتح الباب أمامه للالتحاق بكلية الطب.

○ رفض أن يكون العمل النقابي لحساب تيار أو حزب معين.

لم تشغل جراحات القلب وأوجاعه د. حمدى السيد عن الاهتمام بقضايا الوطن السياسية والاقتصادية ، فقد انخرط فى العمل السياسي مروراً بالاتحاد الاشتراكى حتى الحزب الوطنى ، علاوة على عضويته بمجلس الشعب منذ سنوات طويلة، علاوة على رئاسته للجنة الصحة بالمجلس.

وتحت قبة البرلمان لم تهدأ صولات وجولات هذا البرلماني البارع الذى خاض معارك كثيرة داخل المجلس ودافع بقوة من أجل خروج قانون ينظم زراعة الأعضاء ولم تهدأ محاولاته ومناقشاته حتى خرج قانون زراعة القرنية الذى فتح باب الأمل أمام آلاف المصريين الذين يتهددهم شبح العمى وفقدان البصر.

دافع حمدى السيد بحرارة من أجل قانون التدخين .. وناقش بموضوعية قضية الجامعات الخاصة وغيرها من القضايا السياسية والاجتماعية.

ومن موقعه كنقيب للأطباء استطاع أن يفصل بين كونه قيادى بالحزب الوطنى وتعامله مع المنتمين للإخوان المسلمين داخل النقابة ولعل أبلغ رد له عندما سئل كيف تتعامل مع المنتمين للإخوان المسلمين وأنت عضو بالحزب الوطنى الذى يتعامل بقسوة معهم !! «إننى أتعامل معهم كما أتعامل مع جميع التيارات فى النقابة .. النقابة ليست حزباً ولكنها مؤسسة نقابية لها مهام واضحة هى الارتفاع بشأن المهنة ورعاية أفرادها علمياً ومادياً واجتماعياً .. لكن نرفض أن يكون العمل النقابي لحساب تيار أو حزب معين فالنقابات ليست وسيلة للوصول إلى الحكم وهذا لا يمنع كوننا جزءاً من القضايا القوميـــة وليست الحزبية ... وعندما يكون أحد أعضاء النقابة من الإخوان المسلمين فى مشكلة فأنا أول من يدافع عنه وسوف أفعل ذلك مع الطبيب الشيوعى والطبيب المنتمى للحزب الوطنى.. النقابة جزء من تيار قومى وليست جزءاً من في تيار معين بعينه.

***

خاض نقيب الأطباء معارك شرسة ضد تجاوزات كليات الطب الخاصة لأنها لم تستكمل مواصفات التعليم الطبى .. وكان صريحاً وشجاعاً لم ترهبه سطوة رجال الأعمال عندما أعلن على الملأ أن المجتمع سوف يدفع ضريبة تجاوزات كليات الطب الخاصة وذلك بإضافة أطباء جدد لم يتم تدريبهم التدريب الكافى

وهذا سيزيد من مشكلة أخطاء الأطباء التي نعاني منها.

لم يدافع حمدى السيد عن أخطاء الأطباء بل أكد مراراً أن الأطباء ليسوا ملائكة وليسوا معصومين من الخطأ ولكن هناك تجاوزات .. وفى مقابل ذلك توجد لجنة آداب المهنة مهمتها التصدى لهذه الأخطاء وتوقيع العقوبات على المخطئ .. كما لدينا قضاء يتصدى للأخطاء الطبية الجسيمة إضافة إلى رقابة وزارة الصحة.

ولأنه يحمل هموم المهنة فوق رأسه .. فإنه يحذر فى كل مكان أن ثمة تحديات تواجه مهنة الطب وينبغى التصدى لها .. أولها ضرورة تطوير التعليم الطبى لأكثر من ٦٠ ألف طالب فى ١٨كلية طب، أعداد كثيفة أكثر من قدرة الكليات من معامل ومدرجات وأسرة وتعليم.

وثاني هذه التحديات هو استكمال منظومة التعليم الطبى وتطبيق برامج التدريب الجيد أثناء السنة التدريبية المكملة للتعليم الطبى ما قبل الترخيص بمزاولة المهنة وثالث هذه التحديات إعداد الطبيب للممارسة المستقلة للمهنة بحيث ينخرط فى برنامج تدريبي يمتد إلى خمس سنوات على الأقل قبل السماح له بالممارسة المستقلة للمهنة .. ورابعاً إعداد الطبيب للمنافسة على المستوى القومى والعالمى .

***

وبشجاعة الجراح كان للدكتور حمدى السيد نقيب الأطباء مواقف حاسمة مع معارضى قانون نقل وزراعة الأعضاء .. بح صوت الرجل فى مناقشات المؤتمرات العلمية وتحت قبة البرلمان لدرجة أنه وصف معارضى صدور هذا القانون بأنهم يريدون العودة بمصر قروناً إلى الخلف وأنهم يقتلون الحق فى الحياة دفاعاً عن أوهام كاذبة عن حقوق الموتى.

مواقف الرجل لم تهتز ولم يتراجع عن مبادئه عندما أعلن أن مئات الألوف من المصريين المصابين بالبلهارسيا وفيروسات «بى» و«سى» وغالبيتهم من الفقراء والمعدمين لن يكون بمقدورهم مواصلة الحياة بدون إجراء عمليات نقل كبد .. العملية مكلفة وتصل تكلفتها إلى حوالى نصف مليون جنيه .. وفى غياب قانون ينظم نقل وزراعة الأعضاء فهؤلاء المرضى الغلابة محكوم عليهم بالموت .. أما الأغنياء فهم يسافرون للخارج يزرعون الكبد ويعودون لممارسة حياتهم العادية.

ولكونه جراح قلب كان موقفه حاسماً أمام جماعة أخلاقيات المهنة التى ترفض خروج قانون نقل الأعضاء.. وكانت حجته القوية أن عمليات نقل صمامات وشرايين القلب من المتوفين حديثاً وبعد اثنتى عشرة ساعة من الوفاة تنقذ آلاف من مرضى التشوهات الخلقية وصمامات القلب وإنها تجرى فى مصر بكفاءة عالية وعالمية .

***

كان أمل رئيس لجنة الصحة بمجلس الشعب أن يخرج قانون التأمين الصحى إلى النور فى أقرب وقت وقبل انتهاء الدورة الأخيرة لمجلس الشعب .. لأن القضية تهم أكثر من ٣٨ مليون مصرى تشملهم خدمات التأمين الصحى بشكل ما من الأشكال .. القانون القديم للتأمين الصحى كما يراه د. حمدى السيد عفا عليه الزمن لأنه ليس قانوناً واحداً ولكنه أكثر من قانون . هذه القوانين متضاربة بل ومتناقضة فى نقاط كثيرة.

فمنذ صدور قانون التأمين الصحى عام ١٩٦٤ لم تتحرك آلياته بشكل فعال لصدور أكثر من قانون بعد ذلك .. فهناك قانون للعاملين بالدولة ، وقانون لعمال القطاع العام .. وقانون لأصحاب المعاشات .. ناهيك عن قانون التأمين الصحى لتلاميذ المدارس وقانون المواليد وحتى قبل سن المدرسة ما دعا إليه البرلمانى الطبيب أن يتم توحيد كل هذه القوانين فى قانون واحد ينظم ويرتب خدمات التأمين الصحى ليشعر المواطن المصرى أنه يحصل على خدمة طبية متميزة.

وكان أهم ما دعا إليه د. حمدى السيد أن يتم الفصل بين مؤدى الخدمة أى هيئة التأمين الصحى ودورها فى تحصيل الرسوم والاشتراكات وكانت وجهة نظره أن تتحول هيئة التأمين الصحى إلى جهة مشرفة ضامنة لأداء خدمة طبية متميزة وأن تقوم بتأجير هذه الخدمة من خلال المستشفيات الحكومية والجامعية والقوات المسلحة والخاصة والاستثمارية ويقتصر دور الهيئة فى ضمان معدلات الجودة .. وأن يتم تحريك اشتراكات التأمين الصحى الذى لم يطرأ عليها أى تغيير منذ سنوات طويلة مما يمكن الهيئة من القيام بدورها ليصبح التأمين الصحى مكاناً أكثر أماناً وفعالية فيما يتعلق بخدماته فى التشخيص والعلاج طبقاً لمواصفات الجودة العالمية.

مواقف د. حمدى السيد فى القضايا القومية الصحية والسياسية والاجتماعية كثيرة ومتعددة ولعل أبرز ما تتصف به هذه المواقف هو الثبات والانحياز الدائم للفقراء ومحدودى الدخل وقوة الإصرار على مناصرة الحق والوقوف فى صف التنوير والتقدم .. ولهذا فلن تهدأ معارك هذا الرجل ولن تثبط عزيمته أمام قوى التخلف والرجعية. ■



● معاركه مستمرة حتى يصدر قانون نقل وزراعة الأعضاء لإنقاذ حياة المرضى الفقراء.

أقوال معاصرة

● «الحاكم المطلق لا يجد حرجا فى الاستجابة للمطالب الأجنبية، حتى إذا لم تحقق لبلاده مصالح وطنية».

الصادق المهدى
رئيس وزراء السودان الأسبق

● «لواستعملوا جهاز كشف الكذب عند مدخل قاعة البرلمان، لبقيت خالية طول الوقت »

بول سايكس
رجل الأعمال البريطانى

● «الديمقراطية ليست بضاعة غربية، بل عملية عالمية لتنظيم الاحتياجات السياسية على أساس من المساواة» .

د . عبدالعزيز سعيد
الأستاذ بالجامعة الأمريكية بواشنطن

● «الديموقراطية مطلب عاجل تقنيا ، وليس فقط أخلاقيا».

الفيلسوف ألفن توفلر

● «العلمانيون العرب لا يزنون وزن ذبابة بالمقارنة مع وزن الفيل الذى يزنه الأصوليون فى المجتمعات العربية المعاصرة» .

المفكر السورى جورج طرابيشي

● «الدولة فى القلب ومرض مجتمعنا فى الرأس، والرأس هو الدولة» .

المفكر اللبنانى كريم مروة

● « الترجمة تخون النص الأصلى، وتفقده الشئ الكثير من جوهره بسبب اختلاف اللغات والثقافات فيما بينها» .

د . أحمد عتمان
أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية بجامعة القاهرة والمشرف على الفريق الذى قام بترجمة «الإلياذة»

● «أعمال العقل لا يزال ممكنا ، بشرط ألا يغلق المرء عقله وينفتح على باقى العقول» .

الفيلسوف الألمانى يورجين هيرماس

● «أنا مجرد لعبة فى يد الريح تدفعنى نحو المجهول الذى دائما ما يحمل جديدا» .

الأديب الفرنسى ميشيل بوتور

● «النقد هو الحل الوحيد لمواجهة تجاوزات الفن» .

الأديب ادوار الخراط

● «كل الذين يحاصروننا صباحا، ومساء فى واجهات الصحف والفضائيات أراذل ، لا يتمتعون بخفة دم، ولا روح» .

حجازى رسام الكاريكاتور


الصادق المهدي


ادوار الخراط

من وحى

مذكرات
أشرف
غربال

صعود وانهيار علاقات مصر وأمريكا

مصر وأمريكا بين ناصر والسادات من المعاندة إلى المسالمة !!



بقلم
د. عاصم الدسوقى

تظل علاقات مصر بأمريكا زمن عبدالناصر وزمن السادات ضمن الملفات الغامضة في تاريخ مصر السياسى منذ صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. فكثيرا ما كتب خصوم عبدالناصر ورددوا أنه قام بانقلاب لحساب الولايات المتحدة الأمريكية !!.. واستندوا فى هذا إلى أنه كلف كلاً من قائد الجناح



أشرف غربال



عبد الناصر



كيسنجر



غلاف مذكرات أشرف غربال

على صبري والقائمقام عبدالمنعم أمين بإبلاغ السفارة الأمريكية بأن حركة الضباط أمر داخلي وأن التزامات مصر الدولية محل احترامهم، وما كان من قيام السكرتير الأول بالسفارة الأمريكية «جوزيف سباركس» بإبلاغ اللواء محمد نجيب تقدير وزير خارجية أمريكا لحركة الجيش، ثم إعلان الرئيس ترومان اعتراف حكومته بحركة الجيش. فلما بدأت أزمة العلاقات بسبب موقف الحكومة الأمريكية من تسليح مصر وبناء السد العالي وتأميم القناة وقضية فلسطين، والصراع مع إسرائيل وتصدى عبدالناصر للسياسة الأمريكية وفضح موالاتها لإسرائيل علنا، تراجع هؤلاء الخصوم عن هذا الاتهام ولكنهم أبوا أن يمتدحوا الرجل حتى لمجرد شجاعة المواجهة.



ومع هذا تبقى أسرار انهيار علاقات عبدالناصر بأمريكا وتحسنها أيام السادات حبيسة الوثائق التى لم يكشف عنها بعد، أو تلك التى لاتزال حبيسة صدور شهودها حسب موقع كل منهم فى دائرة المسئولية. ومن الذين أباحوا بمكنون صدورهم أخيرا أشرف غربال، الذى قدر له أن يرأس بعثة رعاية المصالح المصرية فى واشنطون بعد قطع العلاقات بين البلدين بسبب حرب يونيه، حيث أمضى هناك سبعة عشر عاما «من ٦ يناير ١٩٦٨ تاريخ وصوله واشنطون حتى ديسمبر ١٩٧١ ثم من ٦ ديسمبر ١٩٧٣ بعد حرب أكتوبر وحتى نوفمبر ١٩٨٤»، أى أنه كان شاهدا على تطور العلاقات المصرية الأمريكية بكل تداعياتها من أزمات وانفراجات، وعاصر خلالها خمسة رؤساء لأمريكا «جونسون، ونكسون، وجيرالد فورد، وكارتر، وريجان»، وهذا هو موضوع المذكرات التى نشرت فى مطلع هذا العام «٢٠٠٤».

ولكن قبل أن نمضى مع أشرف غربال فى أجواء الاتصالات السرية وخفايا العلاقات كما شاهدها، لابد من إطلالة سريعة على أبعاد تلك العلاقات منذ قيام الثورة حتى يمكن متابعة أسباب الأزمة مع عبدالناصر ، وعوامل تحسن العلاقات أيام السادات، إذ لا شىء ينشأ من فراغ..!!

فور قيام الثورة أعربت الخارجية الأمريكية عن أملها فى أن يقبل محمد نجيب إقامة صلة ما بمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط التى كانت محل ترتيب أمريكى - بريطانى منذ منتصف عام ١٩٥١، وفى هذه الحالة يحصل الجيش المصرى على أسلحة وعتاد وذخيرة أفضل. ولأن بريطانيا كانت قد أوقفت شحن السلاح مع الأمريكان فى مشروع هذه المنظمة مقابل الحصول على معونات اقتصادية وعسكرية. وفى أواخر أكتوبر ١٩٥٢ حضر كيرمت روزفلت رجل المخابرات الأمريكية إلى القاهرة وعرض على عبدالناصر مشروع المنظمة وكذا الاعتراف بإسرائيل مقابل السلاح، لكن عبدالناصر طلب فصل بعضها عن بعض مع تأجيل مسألة إسرائيل.

معارضة مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط

وكرر عبدالناصر طلب السلاح دون ربط شحنه بموضوع الدفاع عن الشرق الأوسط والاعتراف بإسرائيل، لكن بريطانيا بضغط من إسرائيل نجحت فى إقناع أمريكا بأن جلاءها عن مصر ينبغى أن يتوقف على انضمام مصر لمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط. ومن هنا جاء وزير خارجية أمريكا «جون فوستر دالاس» إلى القاهرة فى ١١ مايو ١٩٥٣ ومعه مشروع المنظمة وكذا تحقيق مصالحة بين مصر وإسرائيل، وربط تقديم السلاح والمعونات الاقتصادية بهذين الشرطين. لكن عبدالناصر ظل يعارض هذا المشروع بعناد ملحوظ بل لقد صرح فى ١٩ ابريل ١٩٥٤ بأن رفض أمريكا امداد مصر بالأسلحة قد يضطره إلى الاتصال بالسوفييت، كما أعلن فى ٥

سبتمبر ١٩٥٤ «أن مصر ضد الاستعمار الغربي وضد السيطرة الشيوعية ولن تحكم من لندن ولا من موسكو بل من القاهرة وبأيدى أبنائها».

غير أن أمريكا مضت فى طريق إنشاء منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط باسم حلف بغداد «٢٤ فبراير ١٩٥٥»، وبعد اعلانه بأربعة أيام هاجمت إسرائيل قطاع غزة برغم هدنة رودس «فبراير ١٩٤٩»، وبدا أن الغرض من الهجوم اكراه مصر على الانضواء تحت لواء الحلف.

وعلى هذا بدأت سحب الأزمة تتجمع فى أفق العلاقات إذ كرر ناصر طلب توريد السلاح وتقديم المساعدات الاقتصادية وتمويل بناء السد العالى دون شروط سياسية، وأصرت الحكومة الأمريكية على شروطها، وزاد من الأزمة انتقاد ناصر لمشروع أيزنهاور «يناير ١٩٥٧» المعروف بالفراغ فى الشرق الأوسط، وإعلان الوحدة بين مصر وسوريا، ثم مساندة مصر لثورة اليمن «سبتمبر ١٩٦٢»، وقرر الرئيس جونسون أن تكون اليمن مصيدة لعبدالناصر. وعلى هذا بدأت الحكومة الأمريكية فى ممارسة كل أنواع العقاب على مصر حتى يتخلى عبدالناصر عن مشروعاته، ومن البدايات فى ذلك المنهج عدم تجديد اتفاقيات شراء المواد الغذائية التى كانت سارية المفعول حتى ٣٠ يونيو ١٩٦٦، وتحريض الشركات الأمريكية على عدم تمويل مشروعات التنمية فى مصر وكانت شركة آلكو Alco تفكر فى تمويل إنشاء مصنعين للأسمدة فى مصر «مايو ١٩٦٦». ثم يقع عدوان يونيه ١٩٦٧ وتقطع مصر علاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية لمساندتها إسرائيل.

أمريكا والتدخل فى شئون العرب

كان عدوان يونيه فرصة للحكومة الأمريكية للتدخل فى شئون العالم العربى حسب موازين الحرب الباردة وفى ضوء التحالف الأمريكى - الإسرائيلى فى ١٩٥١، ورغم قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين إلا أن الاتصالات السياسية ظلت قائمة عن طريق قنوات سرية، فقد كان عبدالناصر يرى أن الولايات المتحدة دولة عظمى لا يمكن الاستغناء عنها وفى الوقت نفسه لم يكن يريد التضحية بالسوفييت بعد الخدمات الأساسية التى قدموها، وقد استخدم عبدالناصر فى قناة الاتصال السرية كل من علوى حافظ وحسن صبرى الخولى، واستخدم الأمريكان عدة شخصيات منها يوجين بلاك وجون ماكلوى «البنك الدولى للإنشاء والتعمير» وروبرت أندرسون «وزير الزراعة»، وديفيد روكفلر «رئيس بنك تشين منهاتن»، ومايلز كوبلاند وكيرمت روزفلت رجلا المخابرات السابقين، ورجل الأعمال جيمس بيرتزول الذى لم يحسن نقل الكلام بحذافيره فتم الاستغناء عن خدماته.

وكانت خلاصة هذه الاتصالات السرية أن الحكومة الأمريكية «رئاسة جونسون ونكسون» كانت تتمسك بإقامة سلام كامل بين مصر وإسرائيل عن طريق مفاوضات مباشرة، وإنهاء حالة الحرب رسميا، وانسحاب إسرائيل من أراضى مصر فقط مع وجود دولى فى شرم الشيخ، وتفهم متبادل حول مستوى

التسليح فى منطقة الحدود، وإيجاد حل لمشكلة اللاجـئين الفلسطينيين على أســاس اخـتـيــار كل لاجىء بشكل شخصي وسرى المكان الذى يفضل أن يعيش فيه وتكون العودة لإسرائيل «عرب ١٩٤٨» أحد الاختيارات المحتملة.

إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل

أما عبدالناصر فكان يوافق على إنهاء حالة الحرب وليس إقامة سلام، وأنه لا يمكن أن تبدأ مباحثات إلا بعد أن تلتزم إسرائيل سلفا بالانسحاب الكامل من الأراضي التى احتلتها، كما ربط مرور إسرائيل بقناة السويس بحل مشكلة اللاجئين. وبالنسبة لحجم السلاح على الحدود فلم يوافق على تجريد كل سيناء من السلاح، وأن أبدى استعداده لنزع سلاح منطقة الحدود المشتركة على الجانبين بدرجة واحدة من حيث الطول والعمق الداخلى.

ومع ثبـات مـوقف الطرفين من المشكلات القائمة وتناقض كل منهما بطبيعة الحال اقتنع عبدالناصر بعبثية انتظار الحل السـيـاسي للوضع وأنه لابديل عن الحرب، ومن ثم بدأت حرب الاستنزاف بأول طلقة فى الثامن من سبتمبر ١٩٦٨ عبر قناة السويس. وفى اليوم نفسه قررت أمريكا تزويد إسرائيل بطائرات F4، ولم تعد تعترض على احتلال إسرائيل للأراضى العربية. وكان ما يزعج أمريكا فى هذا الخصوص قيام الاتحاد السوفيتى بتسليح مصر حتى لقد قال جونسون للرئيس السوفييتى كاسجين: دع العرب يقاتلون إسرائيل بقبضة يدهم. وبعده كان نكسون يقول إنه لولا إعادة تسليح السوفييت للعرب ما كانت هناك مشكلة تستدعى قلق أمريكا.

بين كيسنجر وروجرز

ولقد أكدت مثل هذه الأقوال أن الإدارة الأمريكية تنظر إلى مشكلة الصراع العربى - الإسرائيلى من زاوية العلاقات الأمريكية - السوفييتية، وتجاهل قضايا الأرض المحتلة واللاجئين المشردين، واختزال المسألة فى تسليح السوفييت للعرب الذين يكرهون إسرائيل، بل لقد استقر ذهن الإدارة الأمريكية أن قرار مصر أصبح فى يد السوفييت!! .. وكان كيسنجر مستشار الأمن القومى فى عهد نكسون يعبر عن هذا الاتجاه على حين كان وليم روجرز وزير الخارجية يعمل على الإبقاء على العلاقات الودية قدر الإمكان مع العالم العربى، ومن هنا كان كيسنجر على غير وفاق مع روجرز، وكان يدفع بالسياسة الأمريكية لصالح إسرائيل حتى أنه عندما تقدم روجرز بمشروعه (١٩٦٩) الخاص بوقف إطلاق النار وقبله ناصر ورفضته إسرائيل لم يفكر نكسون فى تأييد وزير خارجيته وتركه نهبا لهجوم الدوائر الصهيونية.

وفى النهاية انتصر خط كيسنجر خاصة بعد أن أصبح وزير الخارجية، وكان ذلك يعنى نجاح الدوائر الصهيونية التى ينتمى لها بشكل أو بآخر فى توجيه السياسة الأمريكية، وهو أمر لفت نظر أشرف غربال حيث اهتم بإبراز تغلغل العناصر الصهيونية فى كافة الإدارات الأمريكية.. فمستشار جونسون للأمن القومى والتر روستو وأخوه يوجين مساعد وزير الخارجية من أعتى العناصر

الصهيونية، وكذا آرثر جولدبرج المندوب الدائم فى مجلس الأمن، وريتشارد هولمز مدير عام وكالة المخابرات الأمريكية. وكانت هذه العناصر تعمل على التخلص من أى مسئول يبدى تقديره لوجهة نظر العرب، ومن ذلك إقصاء روبرت برنجر مساعد وزير الدفاع لشئون الشرق الأوسط الذى اعترض على اشتراك ضابطين إسرائيليين فى اجتماعات تعقد فى البنتاجون، ووليام سكرانتون حاكم بنسلفانيا الذى اختاره نكسون مبعوثا خاصا للشرق الأوسط، لمجرد أنه صرح بأن الإدارة الأمريكية ستكون أكثر توازنا عما مضى بالنسبة للشرق الأوسط، وأيضا ويليام فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ بسبب تصريحه عن خطر اللوبى الصهيونى، حيث أسقطوه فى الانتخابات، وكذلك فعلوا مع السيناتور تشارلز بيرس وبول فندلى عضو الكونجرس عن ولاية الينوى. ولما صرح جيرالد فورد الذى خلف نكسون بأن أمريكا ستعيد تقييم سياستها فى المنطقة، تصدى له اللوبى الصهيونى فتراجع عن تصريحه. وفى هذا الخصوص تذكر أشرف غربال أن صديقه ريتشارد باركر رئيس قسم مصر بالخارجية قال له يوما إن استمرار السياسة وليس تغييرها فلسفة أمريكية صعب التراجع عنها. وهذا يعنى فى التحليل الأخير أن الحكومة الأمريكية تتمسك بسياساتها، وتعمل على تنفيذها بمختلف الطرق والوسائل مهما طال الزمن، ولا يمكن أن تتراجع مهما بدا للآخرين أنها تتراجع.

المفاوضات للحل الشامل

وهكذا.. لما تولى السادات الحكم خلفا لعبدالناصر لم تغير الحكومة الأمريكية توجهاتها بل لقد كان رأيها حتى أغسطس ١٩٧٣ الذى أبلغته للسادات عن طريق إيران أن الحل الجزئى مع انسحاب أيا كان مداه أفضل من بقاء الوضع على ما هو عليه. كما أبلغته عن طريق رومانيا أن الحل الشامل يكمن فى مفاوضات مباشرة مع إسرائيل على أن تحرر مصر نفسها من قيود المشكلة الفلسطينية.

وفى تلك الأثناء كان أشرف غربال قد ترك واشنطون فى ديسمبر ١٩٧١ وأصبح مساعدا لمستشار الأمن القومى «حافظ إسماعيل» ثم اختاره السادات مستشارا صحفيا وأصبح ضمن الدائرة القريبة التى شهدت الإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣. ويبدو من سياق الحوادث كما يسوقها غربال فى مذكراته أنه قام بدور مهم فى صياغة موقف السادات تجاه الحرب وتجاه التسوية السياسية للصراع مع إسرائيل. فقبل بدء عمليات أكتوبر بأسبوع وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ دعا السادات لاجتماع فى بيته بالجيزة حضره خمسة عشر واحدا من كبار المسئولين بينهم أشرف غربال فيما يعتبر مجلس الأمن القومى الموسع.

وفى هذا الاجتماع قال السادات إن القيام بعمليات عسكرية من شأنه أن يحرك القضية ويكون بمثابة دقات إنذار تشعر إسرائيل وأمريكا بأن موقفنا جدى فى تحرير الأرض، وفى هذا الاجتماع قال أشرف غربال العائد من واشنطون بعد خمس سنوات هناك «إن الحرب ستكون قصيرة المدى، إذ أن الدولتين

العظميين لن تتركا الوضع يتفاقم بين الطرفين وستعملان على حصرها فى حدود (ص ٩١).. وأنه فى حالة قيام الحرب ستكون لتحرير أراض محتلة وليس الأراضى المحتلة لأن الخط الذى ستصل إليه القوات المصرية سيكون هو الخط الذى تبدأ عنده المفاوضات سواء كان على حسابنا أم على حساب العدو (ص ٩٢).

ويلاحظ أن أشرف غربال هو الوحيد الذى تكلم فى هذا الخط الاستراتيجى على حين كانت مشاركة الآخرين مشاركة مقتضبة تأكيدا على ما يقوله السادات. كما يلاحظ أن خمسة أعضاء من بين الخمسة عشر لم يتكلموا على الإطلاق وهم: حسين الشافعى، وعبدالعزيز حجازى، وسيد مرعى، وحافظ إسماعيل، وعبد القادر حاتم. وأكثر من هذا فإن أشرف غربال قبل أن يعود إلى مصر فى نهاية ١٩٧١ كان قد بلور فكرته بشأن الصراع العربى - الإسرائيلى بضرورة القيام بإجراء عسكرى يجعل إسرائيل تفيق من غطرستها ويجعل الولايات المتحدة تفيق إلى مسئولياتها عن سلام المنطقة (ص ٧١).

الحرب لتحريك القضية

وعبرت القوات المصرية قناة السويس واقتحمت خط بارليف وتحقق ما اقترحه غربال من تحريك القضية، إذ اندفع كيسنجر للتدخل فى إطار فلسفة التوازن وانتهى الأمر كما هو معروف بمباحثات كامب ديفيد وعقد اتفاقية مارس ١٩٧٩. ولقد رأى غربال فى مسار التسوية السياسية للصراع نجاحا للسادات، وبدا سعيدا فى نهاية مذكراته لأن «مصر المسالمة نجحت فى جذب العرب نحو صداقة أوسع مع الولايات المتحدة، وبدء» عملية التطبيع حتى قبل أن تلتزم إسرائيل بإقامة سلام مع الفلسطينيين فى مدريد، ثم يعرب عن أمله فى نهاية المذكرات بأن يسرى على الجولان ما حدث فى سيناء.

والحق أن تحليل أشرف غربال للعلاقات المصرية الأمريكية والنتائج التى انتهت إليها وإدارة الحرب والتسوية السياسية يختلف فى نقاط جوهرية عما أورده آخرون من معلومات ووجهات نظر على سبيل المثال ما ذكره محمد إبراهيم كامل فى كتابه «السلام الضائع»، وعبدالمنعم واصل قائد الجيش الثالث فى مذكراته، ووالتر بوين فى كتابه «حرب الساعة الثانية»، وكتابات هيكل من قبل وأبرزها كتابه «أكتوبر السلاح والسياسة». وكان غربال قد لاحظ بعد عودته من أمريكا فى المرة الأولى أن هيكل قريب من تفكير السادات، وأن الخلاف الذى حدث بين الرجلين يرجع فى تقدير غربال إلى أن هيكل شعر بأن السادات أبدى استعداده للمضى فى طريق كيسنجر بعكس أفكار هيكل (ص ١٨٧).

وتبقى الحقيقة الكاملة ضالة الباحث الذى يسعى إليها وإن كان البحث عن الحقيقة فى كثير من القضايا كمن يبحث عن القط الأسود فى الحجرة الظلماء!!. ■

نشأة الإمبراطورية

بقلم
مصطفى الحسينى

لا تعدو السياسة الخارجية الأمريكية الجارية، التى تتصف بعدوانية استفزازية، أن تكون تطبيقا للمبادئ التى قامت عليها تلك السياسة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

لا يعنى هذا أنه «ليس تحت الشمس جديد». القصد هو التنبيه إلى أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تنفرد بسمة لم تتوافر لدولة أخرى فى التاريخ، تلك السمة هى أن أسسها، أى المبادئ التى توجهها، كانت موضوعاً لصياغة واضحة واعية منذ أن فرض التطور الداخلي لتلك الدولة أن تكون لها سياسة خارجية، بما تعنيه من نظرة إلى الذات تنبنى عليها مواقف حيال العالم خارجها : حقائقه ووقائعه وقواه، وتتميز بأنها تنظر إلى عناصر العالم الذى تراه من موقعها فيه وموضعها من تاريخه، باعتبارها ثوابت - تعرض لها أو تعتريها التغيرات بل قد تجتاح بعض مظاهرها - لكنها تبقى فى نهاية المطاف: ثوابت.



لم تعرف قوة كبيرة أخرى في التاريخ المدون سمة مثل تلك السمة، لا الإمبراطورية الرومانية ولا إمبراطوريه الإسكندر المقدونى، فى العصور القديمة، ولا الإمبراطورية البريطانية ولا الإمبراطورية الفرنسية ولا الإمبراطورية الروسية، فى طوريها - القيصرى والشيوعى، فى العصور الحديثة.

قامت تلك الإمبراطوريات السابقة فى التاريخ على الإمبراطورية الأمريكية على ما يمكن وصفه بأنه «تفاعل القوة والفرصة» دون تصميم يسبق ظهور الفرصة، ناهيك عن خلقها، ودون مبدئ مرشد أو موجه.

لعل مرجع تلك السمة التى انفردت بها الإمبراطورية الأمريكية هو النشأة الفريدة لتلك الدولة، فهى الدولة الوحيدة فيما نعرف من تاريخ التى جرى تصميمها باعتبارها «مشروعا»، جرت مناقشة أسسه ووجهة تطوره ونموه مناقشة مصممة بين أطراف «نخبة» تعتبر نفسها «صاحبة المشروع»، أطراف لكل منها منطلقاته وتصوره لمصالحه ضمنه، تختلف المنطلقات والمصالح وتصوراتها، لكنها تتبادل الاعتراف بحق كل منها فى أن يؤثر فى بنائه وآليات حركته حسب وزن مصالحه وكفاءته فى التعبير عنها، ما يوصف عادة بأنه قوة الحجة أو ضعفها.

غنى عن الذكر أنه كانت هناك أطراف مستبعدة من تلك النخبة التى دار بينها جدل حول تصميم «المشروع الأمريكى»، رغم أنهم كانوا موجودين على الأرض، ولهم مصالح جديرة برعاية المشروع، بحكم كونهم بالضرورة قوة يعتمد عليها فى بنائه، أبرز تلك الأطراف هم «العبيد» الذين جلبوا من أفريقيا، وكانت قوتهم البدنية - وكما سيرى التاريخ فى ما بعد - وقواهم الإبداعة أيضا من قبل تحررهم والاعتراف لهم بأى حقوق - من أهم مصادر الطاقة التى أعتمد عليها «المشروع».

إن القارئ للتاريخ الأمريكى، سيلفت نظره، دون ريب، ذلك الجدل الذى دار فى أوساط تلك النخبة التى أقامت «المشروع الأمريكى»، والذى اتخذ أشكالا متعددة، بعضها لايخلو من جدة وطرافة، لم يقتصر الجدل على الخطابة التى ترمى إلى تحريك «العامة» فى تجمعات ومظاهرات توجه للقيام بأعمال يحرضهم عليها الخطباء، ولم تكن هناك، بعد انتصار الثورة محاكمات تنتهى بالإعدام تحت حد المقصلة، كما حدث فى الثورة الفرنسية. ولم تكن هناك مذابح تشهدها الكنائس وملوك يقتلون


روزفلت


كيندي


بوش

داخل قصورهم كما جرى فى الثورة «الديمقراطية» الإنجليزية .

على خلاف هذه وتلك، كان ما دار حول صياغة المشروع الأمريكى من جدل، «جدلا» لا يتجاوز قواعد الجدل وحدوده، لأن أطرافه كانوا يدركون مصلحتهم كشركاء، وأن لا مصلحة لأى منهم أن يفيض الجدل إلى الهوامش، أى الجماعات التى استبعدت عن وعى وعن قصد، ناهيك أن يخرج عن مقتضيات صفته باعتباره جدلا بين شركاء .

لذلك أدى ذلك الجدل إلى تسوية كبرى بين أطرافه مازالت قائمة ومرعية وفعالة:

رؤى المثاليين توفر غلافا لمصالح الواقعيين الطموحين الطماعين.

تلك التسوية هى ما أنتج «المشروع الأمريكى» كما نشهده اليوم، هى ما أنتج الدستور الأمريكى الفريد فى المبدأ الذى يسترشد به، حيث يختلف المبدأ الديمقراطى الأمريكى عن نظيره الأوروبى الذى صاغته الثورتان الإنجليزية والفرنسية : فبينما يقوم الميدان على التمايز بين الأغلبية والأقلية، يركز المبدأ الأوروبى على حقوق الأغلبية ويركز نظيره الأمريكى على مسئولية الأغلبية عن حقوق الأقلية . مع التسليم بأن مرجع القياس لكل منهما هو الشركاء فى «المشروع» دون المستبعدين منه ، فى الحال والاستقبال.

ذلك الجدل هو أيضا ما أنتج الأسس التى قام عليها بناء القوة الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية، رغم أنها صيغت وأعلنت فى العام

١٧٩١، عندما توجه أول وزير للخزانة في تاريخها إلى البرلمان (الكونجرس) بـ «تقرير عن الصناعات» قال في مقدمته إنه «وجه اهتمامه إلى موضوع الصناعات، وعلى وجه الخصوص إلى وسائل تطويرها على نحو يجعل الولايات المتحدة غير معتمدة على الدول الأجنبية في الإمدادات العسكرية وغيرها (وأن) كل دولة تتطلع إلى تلك الأغراض العظمى عليها أن تسعى أن تمتلك في داخلها أساسيات الإمداد الوطني جميعا والتي تشمل مواد الإعاشة والسكن والكساء والدفاع».

ومازالت تلك الأسس قائمة ومرعية حتى اليوم، رغم أن الولايات المتحدة أضحت على قدر من القوة غير مسبوق في تاريخ الأمم، يجعلها قادرة على الحصول على ما تريد أو تشاء من خارجها دون عناء. ورغم ما تكرره واشنطن كل يوم عن «حرية التجارة» ودفاعها المستميت عنها.

***

يمكن القول إن السياسة الخارجية الأمريكية التي تستحق هذا التعريف قد تأسست في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

قبل ذلك التاريخ كانت السياسة الخارجية الأمريكية، إن جاز أن توصف على هذا النحو تكاد تكون محصورة في أمور ثلاثة:

١ - «اتقاء شر» بريطانيا التي كانت القوة الدولية الأولى وصاحبة السيادة السابقة على المستعمرات الأمريكية التي استقلت عنها وشكلت نواة الولايات المتحدة الأمريكية.

٢ - تجنب الانغماس في الصراعات الأوروبية طالما بقيت أوروبا بمنجاة عن الوقوع تحت السيطرة المنفردة لواحدة من دولها.

يرجع هذان العنصران إلى ما استخلصه «الآباء المؤسسون» من دروس حرب الاستقلال «عن بريطانيا»، إذ لولا الصراع البريطاني الفرنسي ما انتصرت «قوات الاتحاد» على القوات البريطانية، حيث فرضت فرنسا حصارا على بحر الشمال أدى إلى انقطاع الإمدادات عن القوات البريطانية غرب الأطلسي.

٣ - التعاون مع القوى البحرية الأخرى في مقاومة القرصنة لحماية طرق التجارة وهو ما قادها إلى عقد معاهدات مع بلاد بعيدة مثل المملكة المغربية وسلطنة عمان.

في أواخر القرن التاسع عشر تفتحت عيون الولايات المتحدة على أن اقتصادها بلغ حدا من التخمة يهدد عجلاته بالتوقف عن الدوران، إذ

أصبحت المنتجات الاقتصادية مهددة بالكساد وانهيار القيمة مالم تتوسع السوق. كانت السوق الداخلية قد بلغت حد التشبع. ولم يكن واردا عند النخبة التى وضعت أسس الدولة وتوارثت إدارتها توسيع تلك السوق داخليا بإدخال فئات اجتماعية أخرى دائرة مستوى أعلى من الاستهلاك، لأن من شأن ذلك تغيير التوازن الاجتماعى وإدخال شركاء جدد غير مرغوب فيهم إلى «المشروع».

لم يكن من حل لأزمة تخمة الإنتاج فى الاقتصاد الأمريكى سوى التوسع الخارجى. فى ذلك يبدو واضحا الفرق بين الدافع إلى التوسع فى الحالة الاستعمارية الأوروبية وبين نظيرتها الأمريكية .

فى الحالة الأوروبية كان الافتقار إلى ما يحتاجه الاقتصاد من المواد الخام والحاجة إلى تخفيف ضغط التزايد السكانى بتصدير «الفائض» إلى المستعمرات، هما الدافع إلى التوسع الخارجى . بينما فى الحالة الأمريكية، كان الدافع الأساسى هو الحاجة إلى تصدير المنتجات إلى أسواق «مضمونة حصريا»، من بلد غنى بالمواد الأولية مازال «يستورد» سكانه .

لكن كان من شأن حل أزمة تخمة الإنتاج بالتوسع الخارجى أن يواجه عقبة وأن يقع فى مفارقة .

العقبة هى مدى استعداد القوى الدولية المستقرة والمسيطرة لقبول شريك جديد فى الغنائم الاستعمارية، فى وقت لم تكن الإمبراطوريتان القويتان: البريطانية والفرنسية تقران للولايات المتحدة بصفة القوة الدولية .

أما المفارقة فكانت فى ما أشاعته النخبة - الآباء المؤسسون - من مثل عليا تتميز بها «أول ديمقراطية فى التاريخ» فى صدارة تلك المثل أن ليس من أخلاقها أن تستولى على بلاد أخرى وتحكم شعوبا أخرى .

(فى ذلك الزمن لم يكن أحد يلتفت إلى التناقض بين تلك الادعاءات وبين واقع الاعتماد على الرقيق كوقود للاقتصاد، مثلما لم تجد الجمهورية التى أقامتها الثورة الفرنسية تناقضا بين «الحرية والإخاء والمساواة» فى الداخل والاستعمار فى الخارج) .

فى الحالة الأمريكية فى ختام القرن التاسع عشر، وفرت التسوية الكبرى التى توصل إليها «الآباء المؤسسون» قبل قرن من الزمان سبيلا للتغلب على العقبة وحل المفارقة معا، ستكون المثاليات غلافا للمطامع .

***

فى ١٨٩٨ كانت فى كوبا ثورة

للاستقلال عن الإمبراطورية الإسبانية، وكانت كوبا على درجة من القرب من الأراضى أمريكية لاتستطيع ضمائر المثاليين الأمريكيين معها السكوت عن معاناة الكوبيين .

هكذا بدأت مؤسسات أهلية أمريكية تقديم «المعونات الإنسانية» للكوبيين، تحملها سفن إلى شواطئ الجزيرة .

فى سياق تلك العملية الإنسانية، احترقت فى ميناء كوبى سفينة من تلك السفن، وسرعان ما اتهمت دوائر أمريكية إسبانيا بتدبير الحريق لتنطلق الأصوات الداعية إلى الرد على «العدوان الإسباني» لم يطل الوقت بالحكومة الأمريكية برئاسة ويليام ماكنلى (الذى استخار الرب قبل أن يتخذ قراره) حتى أرسلت أسطولها لتأديب إسبانيا وطردها من كوبا وتحرير شعبها من ربقة استعمارها . وما أسرع ما احتلت القوات الأمريكية الجزيرة التى ذهبت لتحريرها . وكان أول أعمالها تصفية قيادة الثورة التى تدخلت لمناصرتها .

ومن كوبا انطلق الأسطول الأمريكى يطارد الأساطيل الإسبانية عبر المحيط الهادئ من أقصى غربه على مشارف البحر الكاريبى إلى أقصى شرقه، حيث تتداخل مياهه مع مياه بحر الصين الجنوبى، وفى طريقه يستولى على الجزر التى كانت تحتلها إسبانيا .

انتهت تلك المطاردة إلى الفلبين التى كانت - مثل كوبا - فى خضم ثورة ضد الاستعمار الإسبانى. ومثل ما حدث فى كوبا، حدث فى الفلبين: التدخل العسكرى لنصرة الثورة ومساعدة شعب الفلبين على تحقيق استقلاله، ثم محاكمة قيادة الثورة بتهمة «التمرد» على القيادة العسكرية الأمريكية واحتلال الفلبين .

ويشير عدد غير قليل من أكثر المؤرخين الأمريكيين رصانة إلى الاشتباه فى أن إحراق سفينة المعونات الإنسانية فى الميناء الكوبى، كان من تدبير بين مؤسس الصحافة الشعبية الأمريكية ويليام راندولف هيرست - الذى كان يروج أن صحفه ليست مجرد وسيلة لنشر الأخبار، بل إنها تصنعها - وبين تيودور روزفلت الذى كان آنذاك نائبا لوزير الأسطول والذى مالبث أن أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى ١٩٠١ بعد اغتيال الرئيس ما كنلى بعد شهور من بدء ولايته الرئاسية الثانية .

هكذا وضع حجر الأساس للإمبراطورية الأمريكية التى لم تصف نفسها بهذا الوصف أبدا وبقيت تتباهى بأنها لم تشارك أبدا فى التاريخ الاستعمارى .

لكن الاستيلاء على الفلبين وضع

الولايات المتحدة الأمريكية على أبواب الصين، حيث سيولد المبدأ الذى تقوم عليه السياسة الخارجية الأمريكية حتى الآن.

وقد عرف ذلك المبدأ باسم «الباب المفتوح» ليبقى أساسا للسياسة الخارجية الأمريكية منذ ذلك التاريخ.

ولعل من مفارقات تطور ذلك المبدأ، أنه عند صياغته كان يرمى إلى تسوية قائمة على المساواة بين الأطراف الدولية «صاحبة المصلحة» فى موقع من المواقع أو فى ظل وضع من الأوضاع. ثم وصل - مع نمو القوة الأمريكية - إلى تفسير مؤداه أن يكون «الباب مفتوحا» أمام الولايات المتحدة وحدها، على نحو ما تحاول الولايات المتحدة الآن تحقيقه فى العراق، عن طريق الادعاء بأن الدول التى عارضت شن الحرب هناك، ليس لها الحق فى المشاركة فى المغانم الاقتصادية المنتظرة من العملية التى تسمى «إعادة إعمار» ذلك البلد .

وستعتبر حصيلة الجدل الدولى الدائر حول هذه المسألة - على نحو ما يجرى حول قرارات الأمم المتحدة الخاصة بمستقبل العراق - إعادة تفسير متفق عليه لذلك المبدأ : «الباب المفتوح»، كما ستعتبر مقياسا لمدى نسبية القوة الأمريكية غير المسبوقة أو إطلاقها، كما تصورت الولايات المتحدة وهى فى طريقها إلى تلك الحرب .. ■

كلمات عاشت

• لا أدب إلا أدب اللغة الفصحى ، والذين يستخدمون العامية والتعابير العامية ليسوا واقعيين، وإنما هم عاجزون .

• ليس من الضروري أن ينحط الأدب ليصبح شعبيا ، وليس من الضروري أن يبقى الشعب حيث هو جاهلا غافلا يشقى بالخمول والجمود.

طه حسين

• كل مذهب جديد إنما هو تعبير عن حركة تعم عالم الفكر وتطلب الانطلاق ، فلا تقتصر على فن دون فن .

يحيى حقي

لأن الناس لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الموت والبؤس والجهل ، قرروا ألا يفكروا فيه ، ليعيشوا سعداء.

باسكال



العراق وثورة العشرين

ما أشبه الليلة بالبارحة!

بقلم
سيد أبو زيد عمر

يجمع المؤرخون على أن ثورة العشرين كانت الأساس الذى بنى على دعائمه كيان العراق الحديث، فهى التى أرست وحدته الوطنية واستقلاله السياسى، وبعثت فى أوصاله فكرة الوحدة العربية، وأيقظت فى حسه الشعبى مشاعر النفور من الاحتلال، ورفض الهيمنة والضيم.

لقد كان العراق منذ أزمنة بعيدة صاحب حضارة زاهرة، ومسرحا لحياة الأنبياء.. يونس ونوح وإبراهيم عليهم السلام، ولم يكن شعبه فى أى وقت إلا شريكا لشعب مصر فى وضع الحروف الأولى لكل العلوم والفنون والقواعد والقوانين، فلم يكن هناك غيرهما يرسيان كتفاً لكتف معالم الإنسانية منذ فجر التاريخ.

لقد وقع الاحتلال البريطاني للعراق، حين غزاه عام ١٩١٤ في نفس الأخطاء التي تكررت من الغزاة والمحتلين لبلادنا عبر العصور، فقد تصوروا أن استخدام أساليب الكذب والخديعة سوف تمكنهم من الالتفاف حول شعوبنا وتخديرها والسيطرة عليها، ولقد وضح من عبر التاريخ أن العنجهية والعنصرية وضحالة المخبر قد أوقعتهم في شر أعمالهم، واعترف بعض قادتهم بأنهم قد ضللوا أنفسهم لنقص في معلوماتهم عن السكان وطبائعهم وأمزجتهم وتقاليدهم، فسرعان ما كشفت الشعوب أباطيلهم وخدعهم، وبدلاً من أن يعودوا إلى طريق الصواب، فإنهم يقعون عادة في الخطأ الاكبر بأن يتصوروا أن الإفراط في استخدام القوة يمكن أن يكسر إرادة الشعوب وأن ينهي مقاومتها، ولم يدرك الغزاة إلا في وقت متأخر أن الظلم والعنف والجور إنما تزيد من تماسك هذه الشعوب وصلابتها واندفاعها إلى التضحية والفداء، تصوروا أنهم بمقدورهم استخدام سلاح التفرقة والوقيعة واتباع أساليب الرشوة وشراء الذمم، الا أنه في النهاية ينقلب السحر على الساحر .

احتلت بريطانيا العراق بقصد إزاحة العثمانيين عن الخليج العربي وحماية



الشريف حسين بن علي

منشآت النفط في المنطقة فقد انزلت قواتها في الفاو في سبتمبر ١٩١٤، غير أن هذه القوات لم يتسن لها الاستيلاء على بغداد إلا بعد مرور ثلاث سنوات ونصف حيث واجهت مقاومة عنيفة من القوات التركية والأهالي .

بيانات كاذبة !!

وعلى أثر سقوط بغداد يوم ١١ مارس ١٩١٧، أصدر قائد القوات البريطانية الجنرال ستانلي مود بياناً إلى الأهالي في بغداد ابتداه بأن «جيوشنا لم تدخل مدنكم وأرضكم بمنزلة قاهرين أو اعداء بل بمنزلة محررين»، وأن الهدف من ذلك «تأمينهم من الظلم وأن أمنية الحكومة البريطانية هي أن تحقق ما تطمح اليه نفوس فلاسفتهم وكتابهم، ولسوف يسعد أهالي بغداد حالهم ويتمتعون بالغنى المادي

والمالى بفضل أنظمة توافق قوانينهم المقدسة ومطامحهم القومية والفكرية.. ودعوة الأشراف والمتقدمين فى السن وممثليهم إلى الاشتراك فى ادارة مصالحهم».

لقد كان هذا البيان جزءا من السياسات التى اتبعتها بريطانيا فى تعاملها مع العرب عامة والعراق بوجه خاص، والتى أدت بطبيعتها إلى الثورة ضد الاحتلال فى العراق إلى أن تحققت أمانى الثوار فى ذلك الوقت. ويمكن لنا أن نوجز أسباب قيام هذه الثورة فيما يلى :

أولا:

تغلغل الشعور القومى فى نفوس العرب، وتزايد ايمانهم بمبدأ التحرر من الهيمنة الأجنبية، ومن أجل ذلك نشأت «جمعية العهد» عام ١٩١٣، والتى شرع فى تكوينها عزيز على المصرى فى الأستانة كجمعية سياسية سرية تستهدف توحيد صفوف العرب وجميع كلمتهم، وانضم اليها لفيف من العراقيين والسوريين، وتكونت لها فروع فى بغداد والموصل والبصرة والشام وبيروت .

وعندما شعر الوطنيون فى بغداد بضرورة تأليف جمعية سياسية سرية تأخذ على عاتقها انقاذ البلاد من براثن الاحتلال البريطانى قاموا بإنشاء «جمعية حرس الاستقلال» فى نهاية فبراير ١٩١٩، وكانت هذه الجمعية تعقد جلساتها فى أغلب الأحيان برئاسة السيد محمد الصدر، وكان من أهدافها أن تسعى وراء استقلال البلاد العراقية استقلالاً مطلقا وأن يكون أحد أنجال الشريف حسين ملكاً دستورياً ديمقراطيا على العراق، وأن تبذل قصارى جهدها فى سبيل ضم المملكة العراقية إلى البلدان العربية الأخرى الراغبة فى الوحدة، «وأن تبدأ قبل كل شئ بتوحيد كلمة العراقيين على اختلاف مللهم، وان تبذل أقصى ما يمكن من الجهود للقضاء على كل بواعث الافتراق فى الدين والمذهب».

ثانيا :

ضرب الحلفاء بوعودهم للشريف حسين عرض الحائط، تلك الوعود التى وردت فى رسائله المتبادلة مع مكماهون، غير أن بريطانيا من جهتها لم تنفذ ما وعدت به الشريف حسين من السماح بإقامة الدولة العربية الكبرى التى تشمل الحجاز وفلسطين والعراق وسوريا، مكافأة له على قيامه بالثورة ضد الدولة التركية، بما سمى بالثورة العربية الكبرى، وعلى العكس من ذلك فقد

تكشف أن وزير الخارجية البريطاني بلفور أصدر وعداً لليهود لإقامة وطنهم القومي عام ١٩١٧، كما أن بريطانيا وفرنسا قد عقدتا اتفاق سيكس / بيكو الذي اقتسمتا فيه مناطق النفوذ في بلدان كانتا قد وعدتاها بمنحها الاستقلال، واذا بهما يقرران في ابريل ١٩٢٠ وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ووضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

ثالثاً:

عدم وفاء بريطانيا بما وعدت به، وأكدته في البلاغ البريطاني الفرنسي في ٧ نوفمبر ١٩١٨ والذي ينص على : «أن الغاية التي ترمي إليها كل من بريطانيا وفرنسا .. تحرير الشعوب تحريراً تاماً ونهائياً وتأسيس حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من رغبة نفس السكان المحليين ومحض اختيارهم» .

فقد اقتصر ما قدمته للعراقيين في يناير ١٩١٩ على صيغة المجلس البلدي تحت رعاية بريطانية ويكون من مهامه «التنظيف / الصحة العامة/ اسعاف الفقراء / الطرق / المتنزهات / الأسواق/ الحرف / تخطيط الدور / والتجارة النهرية.

بمعنى ألا يكون للعراقيين أي صلة بشئونهم الدفاعية والخارجية والأمنية والمالية. ومن الطريف أن ترد قوات الاحتلال على اعتراض القوى الوطنية على هذه الصيغة بأن تدريبهم على مبادئ الادارة الحديثة الصحيحة يستغرق وقتاً، ويجب أن يتم بتؤدة، «وأن التسرع يؤدي إلي ارتباك الأمور وتشتت الآراء وفقدان الاتحاد وهو الذي جلب المصائب والرزايا على الممالك الأخرى، كإيران، ولا غرو في ذلك فإن في العجلة الندامة وفي التأني السلامة» (من خطاب الحاكم الملكي العام يوم ٢٩ / ٥ / ١٩١٩)

رابعا :

تزييف إرادة الشعب العراقي، فقد وجدت سلطات الاحتلال انه لا مناص من أن تبدي تجاوباً شكلياً أمام التحرك الشعبي في مختلف أرجاء العراق الذي اتخذ سبل تقديم الالتماسات والعرائض ووضح آنذاك ميل الأغلبية إلى استقلال العراق في نطاقه الجغرافي الكامل، وأن تكون حكومته عربية لايشوب توجهاتها أية شائبة، وأن يتولى أحد أنجال الشريف حسين إمارة العراق، على أن يكون مقيداً بمجلس تشريعي وطني كسائر الأمم المتمدينة، غير أن الكولونيل ولسن قد أبرق إلى حكومته مدعياً بأن الأكثرية في العراق لاترغب في تبديل

الحكم القائم وأن الأقلية ترغب فى أمير عربى، بمعنى أنه قد زيف إرادة الشعب العراقى ولم يقدم الصورة الصحيحة لرغباته ومطالبه .

خامساً :

تناقض الأقوال مع الأفعال، إذ أنه رغم اعلان سلطات الاحتلال مراراً أن القوات البريطانية قد جاءت لمحاربة تركيا «ولاتضمر للأهالى سوى كل خير وفلاح»، فقد كانت الممارسات البريطانية من جهة أخرى شديدة الوطأة على السكان من حيث اللجوء إلى العنف، وجمع الطعام عنوة واشغال العقارات دون رغبة مالكيها، واستخدام وسائل النقل، وتقييد حق السفر والتجول، وعدم السماح بنقل المتوفين إلى المراقد المقدسة، وتعالى الموظفين على الأهالى واتباع السياسة الاستعمارية المألوفة من حيث معاملة الناس بخشونة، وإذلال المترددين على مكاتب الادارة وامتهان الكرامات، واحتكار التجارة، حيث يشترون السلع بالبخس ويبيعونها للأهالى بأعلى الأثمان واستعانوا بأسوأ العناصر التى شاركتهم هتك الأعراض والحرمات، «وازعاج العقائل فى خدورهن». «فضلاً عن ارتكاب المنكرات وابتزاز الأموال، وعمت الفوضى بحيث لا يأمن أحد على نفسه مما قد يحدث فى أى وقت من رجال الاحتلال ومعاونيهم .

سادساً :

انتهاء المداولات التى جرت بين رجال الدين فى كربلاء والنجف والكاظمية وسامرا إلى تغليب الرأى الذى يعتقد بأن الإسلام لا يجتمع مع السيطرة الأجنبية تحت صعيد واحد مهما كانت الأحوال، وأنه على كل مسلم أن يستميت فى الدفاع عن نفسه وبلده، فقد نحت أغلبية المجتهدين من العلماء والطلاب، ولاسيما العرب منهم، إلى ضرورة اللجوء إلى الحرب للدفاع عن النفس والعرض .

سابعاً :

فشل سلطات الاحتلال فى كسر النظام القبلى، إذ جاءت محاولات تقليص نفوذ شيوخ العشائر وتعمد إهانتهم والحط من قدرهم بنتائج عكسية ذلك أن أفراد تلك العشائر يعتقدون أن سلطة الشيوخ تكاد تكون سلطة مقدسة، ولذلك ينصاعون إلى أوامرهم دون نقاش ويتفانون فى خدمتهم .

ثامناً :

فرض الضرائب والرسوم التى أثقلت كاهل الجميع، وشروع سلطات الاحتلال فى جمع تبرعات لم تكن اختيارية بأى حال، ولأغراض لا تهم الأهالى كثيرا كبناء الملاجئ للجنود فى بريطانيا، أو

إقامة تمثال للجنرال مود فاتح بغداد (ذلك التمثال الذى حطمته الجماهير العراقية يوم ثورة يوليو ١٩٥٨) .

غبن شديد

إذن لم تكن ثورة العشرين وثبة من فراغ دون أية اسباب أو مقدمات أو انها جاءت بمثابة اندفاع عشوائى دون وعى أو إدراك فقد كانت لها - كما سبق أن أوضحنا - دوافعها المباشرة وغير المباشرة، كما أن المناخ العربى العام كان ملهما وموحياً، فقد ألهبت الثورة العربية فى الحجاز المشاعر القومية، ورفعت الثورة المصرية عام ١٩١٩ لواء الاستقلال والحرية وشعر الوطنيون فى العراق بحجم الغبن الذى ألحق ببلادهم إزاء احتلاله المباشر من قبل القوات البريطانية، فى الوقت الذى أقيمت فيه الحكومة الفيصلية فى الشام .

حاول قادة الثورة فى العراق فى البداية أن تصل مطالبهم إلى سلطات الاحتلال عبر المظاهرات السلمية والاجتماعات المسالمة، وتقديم العرائض وإرسال الرسائل إلى الحكام البريطانيين فى العراق، مؤكدين رغبتهم فى الاستقلال، والمطالبة بعقد مؤتمر يجتمع أعضاؤه فى عاصمة البلاد بغداد، وتكون مهمته تاليف حكومة عربية يرأسها ملك عربى مسلم.



ونستون تشرشل

إن هذا المسلك السلمي والحضارى قد انتهى على يد قادة الاحتلال البريطانى، دعاة الحرية والديمقراطية، إلى اعتقال ونفى قادة الثورة وكان من بينهم الشيخ محمد رضا الحائرى نجل الإمام الحائرى الشيرازى.

كانت الشرارة الأولى للثورة عصر السبت ٣٠ يونيو ١٩٢٠ حين دخل مدينة «الرميثة» عشرة من أبطال الثورة لإنقاذ الشيخ شعلان أبو الجون، الذى كان قد وقع رهن الاعتقال بعد أن رفض تعنيفاً قاسيا من الحاكم البريطاني للواء الديوانيـة، بل وكان قد رد على ذلك التعنيف بالقول «إن السياسة التى تتمشى أنت وحكومتك عليها ستجر الدولة البريطانية إلى الهاوية حتماً، لا سيما والبلاد تغلي غليان المرجل». فقد قام العشرة المذكورون بإخراج البطل من

سجنه وقتلوا اثنين من الشرطة بسراى الحاكم .

حكومات محلية

واشتعلت الثورة في أنحاء العراق ، والتى استمرت أكثر من ستة شهور، سيطر الثوار خلالها على أغلب المدن والقرى فيما بين الفرات الأوسط وامتدت جنوباً حتى الناصرية وشمالاً حتى لواءى كركوك وأربيل، وأسس الثوار حكومات محلية فى بعض هذه المدن، كما قطعوا خطوط المواصلات وحاصروا الحاميات البريطانية .

لم يكن لدى العراقيين غير الأسلحة البدائية على حين أن الجيوش البريطانية كانت مجهزة بأحدث الأسلحة والمدافع، ورغم ذلك اضطر البريطانيون إلى الاستعانة بالمزيد من القوات التى جلبت على عجل من الهند، واستخدمت الطائرات والمدرعات لقصف الثوار الذين لم يكن فى أيديهم غير البنادق والسيوف وبعض المدافع الرشاشة التى غنموها من جبهات القتال .

وبلغت خسائر القوات البريطانية والتابعة لها ٢٢٦٩ بين قتيل وأسير وجريح، طبقاً لتقديرات قائد الجيوش البريطانية فى العراق (ايلمرهالدن). وقدرت خسائر العراقيين بحوالى ٨٤٥٠ بين قتيل وجريح .

ويعيد التاريخ نفسه حين يذكر تفاصيل بسالة الرجال فى الفالوجة ويعقوبة وغيرهما من مدن العراق وتضحياتهم بالنفس والنفيس.. وحين يذكر قيام الطائرات البريطانية بقصف مسجد الكوفة وهو غاص بالعباد والنساك من رجال ونساء، ويصدر بلاغ عسكرى بريطاني في أعقابه يدعى أن «العصاة» الذين يحتمون بالمسجد قد أطلقوا النار على الطائرات البريطانية.. وحين يقف الإمام محمد تقى الحائرى الشيرازى متحفظا فى البداية داعيا إلى النضال السلمى لاقتضاء الحقوق، إلى أن فاض الكيل فأصدر فتواه فى يونيو ١٩٢٠ «بأنه يجوز للعراقيين التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الانجليز عن قبول مطالبهم» ، ويأمل أن يقترب اليوم الذى يفيض فيه كيل الأئمة الحاليين.. وحين يشير برسى كوكس المعتمد السامى البريطانى آنذاك إلى الصداقة الراسخة بين بريطانيا والبارزين من الأمراء كشيخ الكويت وأمير نجد وأهميتها لدعم الوجود البريطانى فى العراق ..

ويعيد التاريخ نفسه من جانب آخر حين يستعين الحاكم البريطانى فى كركوك بلفيف من الطالبانيين برئاسة الشيخ حميد لمهاجمة الثوار فى كفرى وتعيينه قائم مقام عليها .

إرادة قوية

لقد حققت الثورة أهدافها بكل المقاييس، إذا ما وضع في الاعتبار درجة التطور الاجتماعي في بلد عربي كالعراق الذي لم يكد يخرج من خيمة الدولة العثمانية، والظروف الدولية المحيطة، فقد كانت بريطانيا في أوج جبروتها وسيطرتها على أراض تمتد حيث لا تغرب عنها الشمس. رغم ذلك يأبى الشعب العراقي إلا أن يفرض إرادته ويضطر الاحتلال البريطاني إلى أن يبحث عن سبل لاحتواء الموقف .

تصور السيد برسي كوكس أنه يمكن أن يشغل الشعب عن قضية الاستقلال بإقامة حكومة عراقية مؤقتة يرأسها السيد/ عبدالرحمن النقيب ويعاونها مجلس استشاري من شخصيات تمثل العائلات العراقية المعروفة وذلك إلى أن يتم انتخاب مؤتمر عام يقرر شكل الحكومة الدائمة. إلا أن هذا الاجراء وإن طوى صفحة الحكم البريطاني المباشر فقد فتح صفحة الحكم البريطاني المستتر، فقد كانت هذه الحكومة تعمل تحت رئاسة المعتمد البريطاني وتمتثل لأوامره، كما أن سلطاتها اقتصرت على الشئون المدنية تاركة الأمور السيادية كالخارجية والدفاع للسلطات البريطانية. وكانت هذه الحكومة في النهاية جسرا هزيلا بين الاحتلال والشعب العراقي الثائر، ولم يكن بمقدورها أن تهدئ من ثورته. ولم تجد الحكومة البريطانية في نهاية المطاف سوى أن ترضخ لمطالب الشعب، ووقع الاختيار على الأمير فيصل لتولى عرش العراق، واصفة الحكومة التي تشكل في هذا الإطار بأنها دستورية، نيابية، ديمقراطية، مقيدة بالقانون.

وأقيم حفل تتويج الأمير الهاشمي يوم ٢٣ أغسطس ١٩٢١، وهو يحيط به السيد برسي كوكس المعتمد السامي، والجنرال هولدن قائد القوات البريطانية في العراق وكولونيل كرنواليس المستشار الخاص للأمير، وتضمن خطاب الملك فيصل بمناسبة توليه «ترتيل آيات الشكر للأمة البريطانية.. والفخامة المندوب السامي.. وللحكومة البريطانية لاعترافها به ملكا للدولة العراقية المستقلة.. وقد صرحت مراراً بأن ما نحتاج إليه لترقية هذه البلاد يتوقف على معاونة أمة تمدنا بأموالها ورجالها، وبما أن الأمة البريطانية أقرب الأمم لنا وأكثرها غيرة على مصالحنا، فإننا نستمد منها ونستعين بها وحدها....» .

لقد وجد ونستون تشرشل بعد تعيينه وزيراً للمستعمرات في فبراير ١٩٢١ أن تنصيب حاكم عربي يدين بالولاء ويرتبط

بمعاهدة توضح أوجه التعاون مع بريطانيا، والمساعدة على إقامة جيش وطني ينفق عليه من الخزينة العراقية، أوفر نفقة من الاحتلال المباشر الذى يثير عادة مشاعر السكان. لقد توهم تشرشل أنه قد وجد الصيغة السحرية التي تظل بها العراق تحت الهيمنة البريطانية من خلال الصنائع والأتباع .

ولا غرو إذن أن يواصل هذا الشعب الأبى فى نضاله الدائم نحو الحرية الإستقلال، وأن يثب وثبته الكبرى عام ١٩٤١، وأن يقوم فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ بالإطاحة بكل البنيان الملكي والذى كانت بريطانيا قد وضعت أسسه وأركانه. ولا غرو أيضا أن يرفض الشعب العراقى الاحتلال الأمريكى البريطانى فى وقتنا الحاضر مهما كانت الأسباب والدوافع وأن يقف شامخاً كعادته لا يقبل ظلماً أو ضيماً، مباهياً الأمم بحجم ما يمكن أن يقدمه من تضحيات ، وأن يرغم هذه القوى العاتية إلى التراجع بحثاً عن شتى الصيغ والتحايل للخروج من الورطة التي وضعوا أنفسهم فيها .

ولعل هذه مناسبة لكى نترحم على شهداء ثورة العشرين، وشهدائنا فى كل مكان الذين روت دماؤهم الطاهرة أرضنا العربية، وأن نقول لهم فى مثواهم الطيب، إن لهم أن تستقر أرواحهم، ذلك أن أولادهم وأحفادهم مازالوا على العهد يسيرون على نفس الدرب ولن تسقط راية الكرامة والحرية والاستقلال. ■

كلمات عاشت

• أمور من كانت فيه لم يستقم له أمر منها : التواني في العمل ، والتضييع للفرص ، والتصديق لكل مخبر.

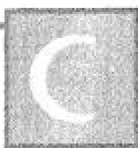
من كتاب كليلة ودمنة

• العقل هو نسيج الوجود وجوهر التاريخ ومضمون الواقع.

هيجل

• إن مايسميه الإنسان فى هذه الدنيا عبقرية ، هو الحاجة إلى الحب ، وكل ماعدا ذلك لا جدوى منه .

ألفريد دي موسيه



كتاب الهلال

سعد زغلول في الأدب المصري

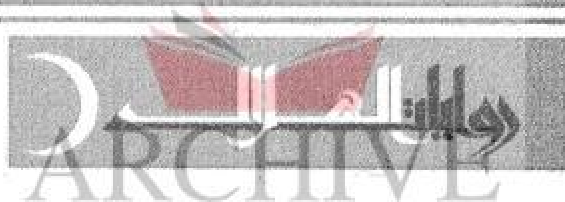
بقلم

مصطفى بيومي

يصدر ٥ أغسطس ٢٠٠٤م

رئيس التحرير

مصطفى نبيل



ربيع حار
(رحلة الصبر والصبار)

تأليف

سحر خليفة

تصدر ١٥ أغسطس ٢٠٠٤م

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

رتق ثقب العولمة

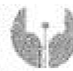
وبناء الإمبراطورية الأمريكية

بقلم

د. رءوف عباس

تعددت التحليلات، وتنوعت الاجتهادات في تفسير هذه الموجة العاتية من سياسة الهيمنة التي تتبعها الولايات المتحدة الأمريكية، مستخدمة كل مالديها من إمكانات من القوة العسكرية، إلي الضغوط السياسية، إلي اللعب بورقة الاقتصاد في إطار اقتصاد عالمي يعطيها وضعا مركزيا علي درجة خطيرة من التأثير.

وقد شهد شهر أبريل ٢٠٠٤ صدور بعض الكتب التي أماطت اللثام عن بعض تفاصيل مادار في البيت الأبيض ووزارة الدفاع (البنتاجون) حول مجريات الأحداث بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولكن أخطر ما صدر في ذلك الشهر ذاته كتاب توماس بارنت Thomas Barnett الذي قدم فيه إطارا شاملا لاستراتيجية الامبراطورية الأمريكية حمل عنوان: «خارطة البنتاجون الجديدة: الحرب والسلام في القرن الحادي والعشرين».



وترجع أهمية الكتاب إلى الموقع الخطير الذي يحتله صاحبه في صناعة القرار الاستراتيجي بوزارة الدفاع الأمريكية، فهو كبير الباحثين في الاستراتيجية بمركز دراسات الحرب البحرية بكلية البحرية الحربية الأمريكية، واختير منذ نوفمبر ٢٠٠١ حتى الآن للعمل مستشارا للاستراتيجيات المستقبلية بمكتب «تطوير القوات» الملحق بمكتب وزير الدفاع، فهو العقل المفكر

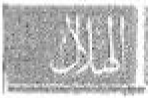
المعاون للأدميرال آرثر سيروفسكى مدير المكتب فيما يتصل بالرابطة بين التغيير فى مجالات الأمن الدولى ومشروع تطوير القوات الأمريكية، كما يعمل توماس بارنت مستشاراً استراتيجيا لبعض الوكالات الفيدرالية المهمة وبعض المؤسسات المالية الكبرى وغيرها من قلاع قطاع الأعمال، بما فى ذلك بورصة الأوراق المالية بوول ستريت.

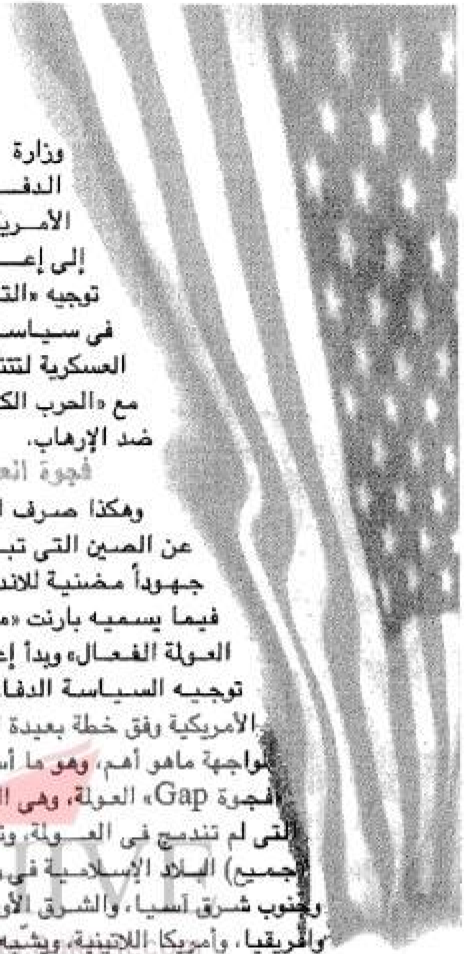
ونشر عدداً من المقالات عن موضوعات تتصل برؤيته الاستراتيجية فى الأعوام ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٤ بصحف ومجلات مهمة مثل النيويورك تايمز، والواشنطون بوست، والكريستيان سايتس مونيتور، والبروفيداتس جورنال، واسكواير، وجميعها صحف تعبر عن اليمين المحافظ، وتعد منابر للتعبير عن طموحاته وسياساته، كذلك نشر توماس بارنت عشرة أبحاث علمية فى السنوات الأربع الأخيرة بعدد من المجلات المتخصصة فى الدراسات الاستراتيجية تتناول أطرافا من القضايا التى ضمنها كتابه الجديد «خارطة البنتاجون الجديدة: الحرب والسلام فى القرن الحادى والعشرين»، وألقى العديد من المحاضرات منذ العام ٢٠٠٣ على عدد محدود من كبار الموظفين بالإدارة الأمريكية، وكبار ضباط الجيش والبحرية والطيران، ورجال المال والصناعة، وبعض عناصر المفكرين، وقادة الرأى العام من رجال الإعلام، وهى محاضرات عرض فيها الاستراتيجية الجديدة، وتناقش حولها مع الحضور، ولاريب فى أن ترتيب هذه اللقاءات تم عن طريق مكتب وزير الدفاع، لإقناع مختلف دوائر القوة بأهمية الاستراتيجية الجديدة لهم ولبلادهم، واختارته مجلة سكواير ليحتل المركز الثالث بين ٢٥ شخصية اعتبرتهم من «بناة المستقبل» (نوفمبر ٢٠٠٣).

وهكذا نجد أنفسنا أمام شخصية تلعب دورا فى صياغة الاستراتيجية الأمريكية الجديدة، وتعبر عنها فليس توماس بارنت مجرد باحث أكاديمى فى مجال الاستراتيجيات المستقبلية، ولكنه مشارك أساسى فى صناعة هذه الاستراتيجية من خلال وضعه بمكتب وزير الدفاع الأمريكى.

القدرة على خوض الحروب

فإذا انتقلنا إلى الكتاب نجده يبدأ بانتقاد مدرسة الاستراتيجية الأمريكية التى ترى العالم من زاوية الدول الكبرى وقوتها العسكرية، وعلاقاتها ببعضها البعض من خلال تلك الزاوية الضيقة، على زعم أن ضبط الأمور من هذه الناحية يضع أوضاع العالم فى نصابها الصحيح، وغلبة هذا الاتجاه على النظرة إلى القوة العسكرية الأمريكية من حيث قدرتها على خوض غمار حروب كبيرة ضد «القوى الكبرى»، والتعامل على هذا الأساس فى القضايا الأمنية على الساحة الدولية فتجمع بين القوة ذات القدرات التكنولوجية العالية، مع توفر القدرة على خوض غمار «حروب صغيرة» أو القيام بعدد من «العمليات العسكرية» فى أى بقعة من العالم، حدث هذا قبل أن تطوى صفحة الحرب الباردة، وظل كذلك بعد سقوط الاتحاد السوفييتى وانفراط عقد حلف وارسو تحسبا لصعود قوة الصين، حتى وقع حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ليدفع





وزارة الدفاع الأمريكية إلى إعادة توجيه «التحول» في سياستها العسكرية لتتناسب مع «الحرب الكونية» ضد الإرهاب.

فجوة العولمة

وهكذا صرف النظر عن الصين التي تبذل جهوداً مضنية للاندماج فيما يسميه بارنت «مركز العولمة الفعال» وبدأ إعادة توجيه السياسة الدفاعية الأمريكية وفق خطة بعيدة المدى لمواجهة ماهو أهم، وهو ما أسماه «فجوة Gap» العولمة، وهي البلاد التي لم تندمج في العولمة، وتضم (جميع) البلاد الإسلامية في وسط وجنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ويشبه هذه «الفجوة» التي استعصت على العولمة بثقب الأوزون، فهي تمثل «ثقبا كبيرا» في عصر العولمة، وتعد مراكز للتهديد والإرهاب الدولي، ومن هنا تأتي أهمية «تحول» السياسة الأمنية الأمريكية لخدمة أستراتيجية «رتق» هذا الثقب بتحويل هذه البلاد «المبعثرة» لحاق «بمركز العولمة الفعال»، وعلى أمريكا أن توجه جهودها العسكرية لتضييق هذه «الفجوة» وتصفية الصراعات الإقليمية، وإدماج تلك البلاد في «العولمة» فإذا تقاعست أمريكا عن القيام بذلك، وانكفأت على شئونها الخاصة، فسوف يتآكل بسرعة وضعها الدولي، وتلقى العولمة مصيرا مؤسفا على يد نحو ثلث سكان العالم فمن يعانون التخلف ويصدرون العنف مما ينعكس سلبيا على الولايات المتحدة ذاتها، ويؤثر على «نمط» حياة الأمريكان، وغيرهم ممن يحتلون «مركز» العولمة، والعمل على تضييق الفجوة بكل السبل لايعني عنده مواجهة العالم الإسلامي أو غير المسيحي بدوافع دينية «صليبية» أو دوافع «خيرية» إنسانية، ولكن «العمل المباشر» لمعالجة الفجوة ضرورة «أمنية» للولايات المتحدة وللعالم الذي ينشد حياة أفضل يسودها الأمن والسلام.

تضييق فجوة العولمة

ولكنه يرى أن القوة العسكرية لاتكفي وحدها لرتق «ثقب» العولمة أو تضييق «الفجوة» لأن عدو الغرب اليوم ليس «دولاً» أو «حكومات» أو «جيوش» بعينها، ولكن الغرب يواجه اليوم منظمات عسكرية كالقاعدة يقودها أفراد يهيمون على وجوههم في مختلف أرجاء العالم، مستفيدين من الظروف السياسية والاقتصادية المتدنية في بلاد «الفجوة» وبذلك أصبح لزاما على أمريكا بعد سقوط الاتحاد السوفييتي (امبراطورية الشر) أن تعمل على إسقاط «أنظمة الشر»، وأن تطارد وتصفي «الزعماء الأشرار»، ولابد أن تقترن الاستراتيجية (الدفاعية) الجديدة بعيدة المدى باستراتيجيات أخرى مثل التجارة الدولية، واتجاهات الهجرة والتحكم في أسواق الطاقة الدولية، وحركة الأموال المتجهة إلى بلاد «الفجوة» على

شكل استثمارات مباشرة أو معونات.

وعلى حين يشيد بارنت بإدارة بوش التي وضعت استراتيجية «التحول العسكري» لمواكبة المتغيرات الدولية بعد حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فإنه يأخذ عليها عدم التحرك بطريقة فعالة لشرح هذه الاستراتيجية للشعب الأمريكي والحلفاء الأوروبيين لإقناعهم بحقيقة الأوضاع الدولية وخطورة إهمال «فجوة» العولمة على أمن العالم وتهديده لهم من النواحي الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تصاعد الإرهاب، وتدفق المهاجرين إلى بلادهم، مما يؤثر سلبيا على مستوى معيشة شعوب «مركز» العولمة.

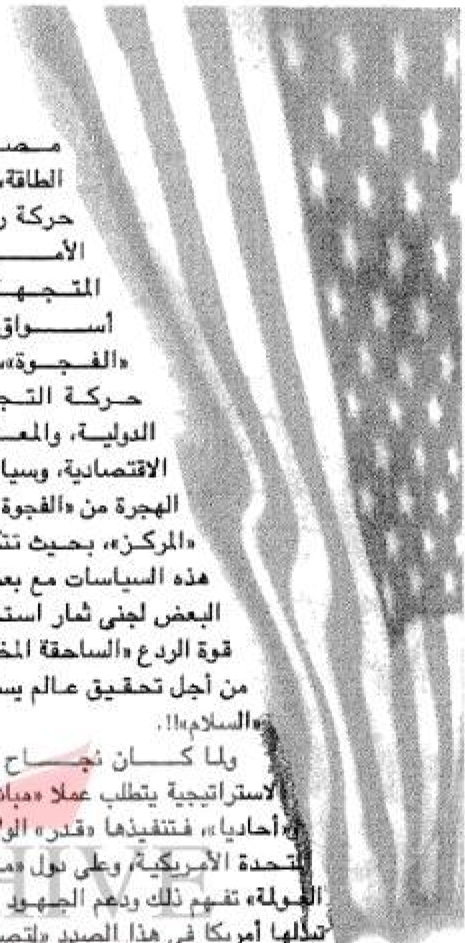
الاعتقال لمجرد الشبهة

ويرى المؤلف أن إهمال شرح الاستراتيجية الجديدة للشعب الأمريكي مسئول عن المعارضة التي تلقاها سياسة إدارة بوش، فيما يتعلق بقانون «الوطنية» وماترتب عليه من تضييق على الحريات الشخصية للمواطنين، وتعرضهم للاعتقال بمجرد الشبهة، وما تواجهه سياسة «الضربات الاستباقية» من نقد، وعنده أن هذه الإجراءات الاستثنائية ضرورية لضمان تنفيذ الاستراتيجية الدفاعية الجديدة، وأن قيام أمريكا بالضربات الاستباقية لمصادر الخطر في الحرب ضد الإرهاب، يتم الآن نيابة عن «مركز العولمة» كله، وأن على بلاد المركز الأخرى أن تدرك أهمية هذا العمل وتقدم له الدعم، وأن أحد أغراض تأليفه هذا الكتاب توعية مواطنيه (الأمريكان)، وشعوب «المركز» بأهمية الاستراتيجية الجديدة وضرورة تبنيها.

ويقتضى تنفيذ هذه الاستراتيجية بعيدة المدى - في رأيه - استيعاب درس التدخل في العراق لإسقاط نظام صدام، فالقوات التي قامت بهذه المهمة أثبتت عدم قدرتها على إرساء دعائم السلام، ولذلك لابد من إعادة تنظيم وزارة الدفاع على «قواعد جديدة» تلائم متطلبات العصر الجديد، متطلبات القرن الحادي والعشرين، بحيث تنقسم القوات الأمريكية إلى قسمين كبيرين «القوة الساحقة المرعبة التي تعتمد على البحرية والسلاح الجوي، ومهمتها التحرك الدائم في مناطق «الفجوة» وتوجيه الضربات الساحقة، والقوة الأخرى «قوة إدارة النظام» تختص بتصدير الأمن إلى مختلف أرجاء «الفجوة» بصفة دائمة، وأن يتم وضع قواعد جديدة لعمل كل من القسمين الكبيرين، يتوافق مع متطلبات العصر، وبفضل هذه الاستراتيجية «الدفاعية» بعيدة المدى، يتم «رتق» فجوة العولمة ويتحقق السلام في أرجاء الأرض، ويرى أن التهاون في تطبيق هذه الاستراتيجية سوف يؤدي إلى تقسيم «مركز العولمة الفعال» إلى عدة مراكز: أوروبا، وآسيا، وأمريكا مما قد يؤدي إلى الصراع بين هذه المراكز والإضرار بالجميع.

قوة الردع لتحقيق السلام

ويتضمن القسم الثاني في الاستراتيجية الجديدة، ما أسماه «قوة إدارة النظام» حسن إعداد وتدريب العناصر «الموالية» في بلاد «الفجوة» حتى تكون على درجة من الكفاية لتوجيه بلادها نحو «مركز العولمة الفعال»، كما تتضمن شقا خاصا بآليات التحكم في



مـصـادر الطاقة، وفي حركة رؤوس الأمـوال المتـجـهـة إلي أسـواق دول «الفـجـوة»، وفى حـركـة التـجـارة الدوليـة، والمعـونات الاقتصادية، وسياسات الهجرة من «الفجوة» إلى «المركـز»، بحيث تتكامل هذه السياسات مع بعضها البعض لجنى ثمار استخدام قوة الردع «الساحقة المخيفة» من أجل تحقيق عالم يسوده «السلام»!!.

ولما كـان نجـاح هذه الاستراتيجية يتطلب عملا «مباشرا» «أحاديا»، فتنفيذها «قدر» الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى دول «مركز العولمة» تفهم ذلك ودعم الجهود التى تبذلها أمريكا فى هذا الصدد «لتصدير» الأمن إلى العالم!.

ويحـرص المؤلف على إبداء روح التفاؤل حول هذه «الوصفة» العجيبة التى يرى فيها «علاج» مشكلات العالم، وإيجاد صيغة جديدة اجتماعية ـ سياسية ـ ثقافية تصنع فى أمريكا وتفرض على الدنيا كلها فى القرن الحادى والعشرين فى عالم لا فكاك فيه من «العولمة»، وهى تعنى «الهيمنة الأمريكية» على شئون الدنيا كلها، وصبغها بالصبغة الأمريكية، فهو لايحدد لأوروبا دورا فى هذه الاستراتيجية سوى دور الاقتناع بأهميتها ومساندتها، ولايرد أى ذكر للأمم المتحدة فى استراتيجية، ولا حتى فكرة استخدامها كأداة لدعم وتغطية بناء الامبراطورية الأمريكية، ولعله كان فى ذلك «براجماتيا» صريحا، فلا يجد أن ثمة حاجة إلي الأمم المتحدة بعد التحول فى الدور «الدفاعى» الأمريكى، وأمام «القوة الساحقة المرعبة» والقوة الأخرى «إدارة النظام» التى تتحكم فى الاقتصاد العالمى ومصادر الطاقة، والأطر القانونية المنظمة لذلك كله.

ولايعنى إقلال المؤلف من شأن الصين كمصدر للخطر على مشروع الهيمنة الأمريكى، واعتبار الهند أيضا ضمن «مركز العولمة»، أن استراتيجية الهيمنة الأمبراطورية الأمريكية لن تطالهما وغيرهما من البلاد التى تقف حجر عثرة فى طريق هذه الاستراتيجية، ففى استراتيجيات التحكم فى مصادر الطاقة، والاقتصاد العالمى ما يضمن بسط الهيمنة الأمريكية على الجميع.

ونموذج «العولمة المركزى» المثالى عند بارنت هو الولايات المتحدة بالطبع، وهو النموذج الذى يهدف ـ فى نهاية الأمر ـ إلى تعميم نظامه الاجتماعى- السياسى ـ الثقافى فى هذا الكوكب. وهو نموذج يعانى أزمة «اندماج» فى «العولمة» بقدر لايقل عما تعانيه منطقة «الفجوة» أو «ثقب العولمة» (على حد تعبيره) سواء على الصعيد الاجتماعى (الفقر وتدهور الخدمات الاجتماعية والتميز العنصرى) أو على الصعيد الثقافى (ضعف التعليم العام، والجهل الشديد بأمور العالم، وشيوع القيم المرتبطة بثقافة العنف)، كما أن آليات تنفيذ استراتيجية القرن الحادى

والعشرين عصفت بإرث الليبرالية فى أمريكا المتمثل فى الحريات الشخصية فى إطار تطبيق «قانون الوطنية» الذى جعل النظم الأوتقراطية الاستبدادية فى عالم «الفجوة» تتنفس الصعداء، وتجد تبريرا مناسبا لطغيانها طالما كان «النموذج» الأمريكى يتيح استخدام نفس الممارسات المقيدة للحريات «الرقابة والاعتقال بالشبهة» والتعذيب وامتهان كرامة المواطن باسم حماية الوطن.

خطة بناء الامبراطورية

ترى مـــاذا يكون الموقف من تلك «الفجوة» فى أمريكا ذاتها، وما آليات إدماج الطبقات الاجتماعية الأمريكية التي تعيش حياة العالم الثالث، «فى مركز العولمة» هل ستستخدم القوة الساحقة المرعبة؟ أم سيكتفى بقوة «إدارة النظام»؟! بل ما مدى صبر المواطن الأمريكى على تمويل خطة بناء الامبراطورية من كده، طالما أن عائدها يصب فى خزائن أقطاب المحافظين الجدد الذين يملكون الجانب الأكبر من أسهم شركات السلاح والبترول والمصالح المالية الكبرى؟!

من الغريب أن الكتاب صدر فى ابريل ٢٠٠٤ الذى شهد مأزق الولايات المتحدة فى العراق، وفضح حقيقة إدعاءات «التحرير» و«حماية حقوق الإنسان» بعد كل ماتسرب عن معاملة السجناء فى العراق، وما اتضح من علم الرئيس الأمريكى بوجود «لوائح» للتعذيب مستخدمة منذ حرب فيتنام، وما كشف عن صدور تعليمات وزير الدفاع الأمريكى تطبيقها فى سجن أبوغريب، لقد شهد ابريل فضيحة المشروع الأمريكى الامبراطورى أمام العالم كله، فضلا عن المعارضين للحرب فى أمريكا ذاتها الذين كتبوا «فى ابريل» مقالات فى صحف مختلفة يكشفون فيها التزام إدارة بوش التى يديرها المحافظون الجدد بالأجندة الاسرائيلية فى الشرق الأوسط، وتوجيههم للعمل العسكرية نيابة عن إسرائيل وبالرجوع إلى مستشارين من ضباطها، ويعلنون ـ صراحة ـ اعتراضهم على ذلك، الربط بين مصالح الولايات المتحدة ومصالح إسرائيل، ويرون فى ذلك ضررا بالغا ببلادهم، ناهيك عن نتيجة الاستفتاء التى أعلنها الاتحاد الأوروبى (فى فبراير) والذى رأى غالبية المشاركين فيه أن أمريكا وإسرائيل هما مصدر التهديد للسلام العالمى.

ولاشك فى أن صدور هذا الكتاب ـ فى هذا الوقت ـ بالذات وما صاحبها من تصريحات المدعى العام الأمريكى فى وسائل الإعلام من احتمال توجيه القاعدة لضربة جديدة داخل أمريكا، إنما تهدف إلى إثارة مخاوف المواطن الأمريكى حتى يعطى تأييده لسياسات المحافظين الجدد، ويجدد لبوش الدورة الرئاسية الثانية.

بقى أن نعى نحن الذين وقعوا فى «ثقب» العولمة حقيقة مايدبر لنا، وأن نسعى جاهدين للفكاك من مخالب الهيمنة الأمريكية، ووضع الاستراتيجيات البديلة لتحقيق هذه الغاية والخروج من المأزق الذى وضعتنا فيه أمريكا، فلا تكفى عبارات الشجب والاستنكار والرفض، بل يجب تنمية حركة المناهضة للامبراطورية الأمريكية، وإصلاح نظمنا السياسية بالقدر الذى يحقق تماسك جبهاتنا الداخلية، ودعم المنظمات الإقليمية والدولية لتحقيق هذه الغاية. ■

عبدالبديع عبدالحي

ملحمة مصرية

بقلم
د. محمد عرابى

لم أبالغ إذا قلت ان عبدالبديع عبدالحى يعد ملحمة مصرية بكل المقاييس، فهو فلاح مصرى عاش فى جلباب جرانيتى لا يفله الا ازميله وروحه المبدعة الخلاقة، رغم ما مر عليه من متغيرات كلها تصب فى زعزعة حضارة عمرها سبعة آلاف عام. فتجربته بكل ما فيها من آلام واحزان وافراح تعد نموذجا لكفاح الانسان المصرى من أجل التمسك بحريته وهويته وبقائه وكبريائه.

ويأبى فى آخر أيامه معنا أن يرحل



فى صمت دون أن يترك وراءه علامات استفهام عديدة حول حياته المتخمة بالعمل والمثابرة والعزيمة والإصرار والشقاء، أو حول رحيله المفاجىء المثير للدهشة والمفزع، ففى كلتا الحالتين تعد رحلته ادانة لضمير امة فقدت صوابها واتزانها وقدرتها على تقدير الامور ووضعها فى نصابها.. فماذا كان يفعل الشيخ اكثر من ان يهب حياته بطولها فى سبيل الوفاء لفنه وبلده لكى يجد يدا عادلة عطوفة مقدرة تمتد إليه وتنتشله من اليأس والعجز وتضعه فى منزلة تعينه على استكمال عطائه، وتحفظ لنا تراثه الزاخر بالابداع ليكون شاهدا على الروح المصرية الخلاقة المبدعة التى لم يخفت بريقها رغم ما يعترضها عبر تاريخها من فترات مظلمة أو تيارات معاكسة.



عبدالبديع عبدالحى



بورتريه رأس فتاة بمنديل

خبر غريب فى زمن فاتر

منذ أن افترقت عن رفقاء رحلة العمر التى شهدت ميلادها بتزاملنا فى تدريس الفنون الجميلة بالمنيا بالانتقال للعمل بفنون الأقصر منذ عام ٢٠٠٠م وحبانى الله بلقاء سنوى معهم فى يوم من أيام شهر يوليو احتمى بهم وأسعد معهم باستعادة زمن براءتنا الجميل، تلك القيمة التى كادت تفارقنا تماما، أو ربما ليس لها معنى فى هذا الزمن، ففى مساء يوم الثلاثاء الموعود ٧ يوليو ٢٠٠٤، وفى غمرة احتفالنا باللقاء تسرب إلينا خبر رحيل عمنا عبدالبديع عبدالحى المثال المصرى المعروف ولغرابة الخبر اعتبرته مزحة أتى بها أحد الخبثاء محبى ومثيرى «المقالب» ، ولكن أثره غاص فى أعماق النفس دون إبداء ما يوازيه من تعليق، ويبدو أن هذا كان إحساس الجميع ما عدا مصدر الخبر، الذى علمت فيما بعد أنه قد عرفه عن صحيفة المساء، وربما كانت المهمة التى اجتمعنا من أجلها قد ساهمت مع حالة السفر التى كنا عليها فى إضفاء حالة من الفتور تجاه هذا الخبر، وبعد الانتهاء من عملنا المقصود ، وتفرق كل منا إلى حيث سبيله خلت النفس من نشوة «اللمة» أو «الونس»، وصرت بمحطة أسيوط لا أملك سوى الغربة وانتظار قطار العودة إلى الأقصر، وفى غمرة هذا ينتفض الحدث وتتضخم بشاعته بصورة مفزعة باستدعاء مايقترن به من تلك البشاعات التى قبحت وجه هذا الزمن وامتصت بريقه فأجد الصورة أمامى قاتمة خانقة، فلا مناص من انتظار الغد لمعرفة حقيقة الحدث لعلى أجد ما



فتاة من البازلت



الفنان الراحل في آخر أيامه

يريح النفس، وكنت على يقين أن وسائل الإعلام لن تتجاهل مثل هذا الحدث بالتأكيد أو النفى، خاصة وأن مساحات الإعلام المرئية وأجناسها الأخرى قد اتسعت كماً فى هذه الأيام وأن الشيخ فنان كبير معروف، وأنه مجنى عليه رحل جراء جريمة اقترفها المجتمع فى حقه، وأخذت أبحث عن حقيقة الحدث وتأكدت صحته بما جاء بصفحة الحوادث بالأهرام، وتوالت بعض المقالات من المهتمين بالفن بحكم التعاطف المهنى الذى كفل لهم الوعى بقيمته، وكنت ومازلت انتظر اهتمام الدولة ممثلة فى أجهزتها المعنية بصورة تتكافأ مع القيمة الثقافية والفنية التى ابتكرها لنا الشيخ عبدالبديع الراحل الباقى، وأما مايثير الاستغراب فهو عدم تدارك الأجهزة الإعلامية الأخرى لقيمة الشيخ، الأمر الذى يفصح عن خلل بائن فى المعيار القيمى للمجتمع بصفة عامة والنخبة المسئولة بصفة خاصة، ويتأكد هذا الخلل حينما نقارن الموقف الإعلامى الفاتر دائما تجاه الفنون التشكيلية ممثلة فى هذه اللحظة فى رحيل الفنان الكبير بمواقفه الأخرى حينما يقيم الدنيا ويقعدها لرحيل مطربة أو راقصة أو إحياء ذكرى سينمائى أو مرض فنان ممثل أو غير هذا من تلك المهن، التى ترتبط بعالم الفرجة، وهذه قضية مهمة تحتاج إلى لفت الانتباه لعلنا نراجع أنفسنا، المشكلة الأخرى واجهتنى فى كتابة هذا المقال



في صومعته وبين أحضان منحوتاته وتماثيله صنع على «الرف» فراشا له

وهي ندرة المادة العلمية أو الوثائقية سواء كانت مصورة أو مكتوبة عن فنان معروف عمره يقرب من التسعين عاما؟!!!!

تعرفت عليه حينما وطئت قدماى أحد دور السينما التى تعد رمز المدنية الحيوى فى وجدان معظم الريفيين، فبينما كنت أجلس أحملق فى محيطها المظلم أترقب ظهور الفيلم المقصود ظهر وجه الشيخ بشعره النافر الأبيض الذى يغطى رأسه ويكاد يغطى معظم وجهه الأسمر، عيناه كانتا تنظران للحجر الغشيم الذى يرفعه على العربة الصغيرة كما العاشق الذى يصغى لما تسره إليه معشوقته متأملا مترقبا للامحها التى تلمع فى ذهنه وخياله، ولم يكن وجهه غريبا بل مألوفا وكأنى أعرفه منذ سنين، وتكمن دلالة هذه اللحظة فى إشارتها إلى نهاية زمن كانت السينما تؤدى فيه دورا مهما فى انتقاء القيمة الفنية والثقافية وتأصيلها فى وعى المجتمع الناهض آنذاك، زمن كانت تؤمن فيه النهضة بالفن وأهميته فى حركة المجتمع وتطوره، زمن كانت لديه معايير انتقائية واضحة يحرص دائما على سلامتها ويدرك أهميتها فى تأكيد وترسيخ القيم الرفيعة الأصيلة بوضعها فى منازلها الصحيحة .

يتمتع شيخنا بنفس راقية وحس صادق فى انتمائه لبلده ومهنته وعشيرته من الفنانين ، فحينما كنا نطلب منه أن نأخذ أعماله، التى يرشحها للعرض فى احتفاليات ومؤتمرات فنون المنيا، كان يقول «يا بنى كتر خيركم .. متحملوش همى أنا هجيبها بنفسى.. محبش أتعب حد.. المنيا دى بلدى» ونراه، يأتى فى ميعاده بصحبة أعماله يحمل على وجهه

علامات الرضا والحب والاعتزاز بنفسه وهويته .

مشواره مع الفن

كان منذ البداية يعشق الجهاد والعمل الشاق، أصيب بالضيق وخيبة الأمل حينما تحطم حلمه الكبير فى نيل شرف العسكرية برسوبه فى كشف الهيئة «النظر» فعاش حلمه بصياغة تماثيل صغيرة يتخيل فيها نفسه فى زى جندى فى سلاح المدفعية أو المشاة أو الفرسان أو الحدود، وصاغ أول تمثال فى هذه المجموعة من قرن بقرة بمطواة صغيرة، وفى عام ١٩٤٢ قرأ فى الأهرام عن وجود المتحف الحربى بالقلعة فتوجه بتماثيله إليه والتقى بالدكتور عبدالرحمن زكى أستاذ العمارة الإسلامية وعالم فى العمارة الحربية بالتحديد ، الذى رحب بهذه التماثيل الصغيرة وكانت هذه الواقعة بداية مشواره الفنى، هذا كما يروى الشيخ فى حوارات موثقة أجراها معه بعض السادة النقاد أو المشتغلين بالصحافة الفنية.


لمسات أخيرة يضعها عبد البديع بحنان وحب على وجه «ملكة»

فى رعاية هدى شعراوي

ولد عبدالبديع عبدالحى فى زمن كانت تمر فيه مصر بحالة ثورية تبلورت معالمها فى ثورة ١٩ التى لا شك فى أنها كانت تأكيدا لحالة المد القومى والبحث عن الشخصية المصرية، فهو من مواليد مدينة ملوى بالمنيا ٢٠ يونيو ١٩١٦ وينتمى إلى مجتمع الأسر المصرية فقيرة الحال وغنية النفس والروح، وفى السابعة من عمره بدأ العمل طباخا لدى أحد وجهاء ملوى ثم انتقل للعمل فى بيت سيدة يذكر لها ما تتمتع به من ثقافة رفيعة وحب ورعاية للفنون الجميلة، كما أنها قادت الحركة النسائية فى ثورة ١٩١٩، السيدة هى

عبد البديع عبد الحي



انهماك تام فى النحت على البازلت لينتج جوهرة من جواهره

هدى هانم شعراوى، التى التقطت برهافة حسها الموهبة الفنية المتميزة التى تنطوى عليها أعماق عبدالبديع، وكفلت له رعاية أدت إلى إبراز هذه الموهبة فى حيز الفعل الإبداعى، ومنذ أن عرف طريقه إلى الفن وبدأ رحلة كفاح طويلة شاقة تتوازى مع مسيرة كفاح المجتمع المصرى، ومثل أجداده القدماء اختار التعامل مع أحجارهم الصلبة والعصية التى تتطلب خبرات تقنية عالية وجهدا خارقا لا يقدر عليه سوى الفرسان أو الفلاحين، الذين يهبون أنفسهم للتحدى ويقدسون بذل الجهد والعطاء ولا يحسبون حسابا إلا لشرف المهنة والأمانة، فهو الذى رفض أن يبيع تمثاله «ست الحسن» الذى حصل به على جائزة مختار عام ١٩٤٤ لوالد الملكة فريدة وأهداه للسيدة هدى شعراوى التى ألحقته بقسم الدراسات الحرة فى مدرسة الفنون الجميلة حينما كان عمره ٢٧ عاما، فهو من الذين ينسبون الفضل لأهله، وشملته السيدة برعاية حميمة لدرجة أنها عرضت عليه السفر للدراسة بإيطاليا على نفقتها الخاصة أكثر من مرة ولكنه فضل البقاء فى مصر والاستمرار فى عمله كمثال مصرى بإصرار منقطع النظير فيحصل على جائزة مختار للمرة الثانية ١٩٤٥ والثالثة ١٩٤٨ وفى عامى ١٩٤٩م، ١٩٥٠م حصل على منحة مراسم الأقصر، وعقب المنحة انتقل للعمل فى نفس المراسم لعدة

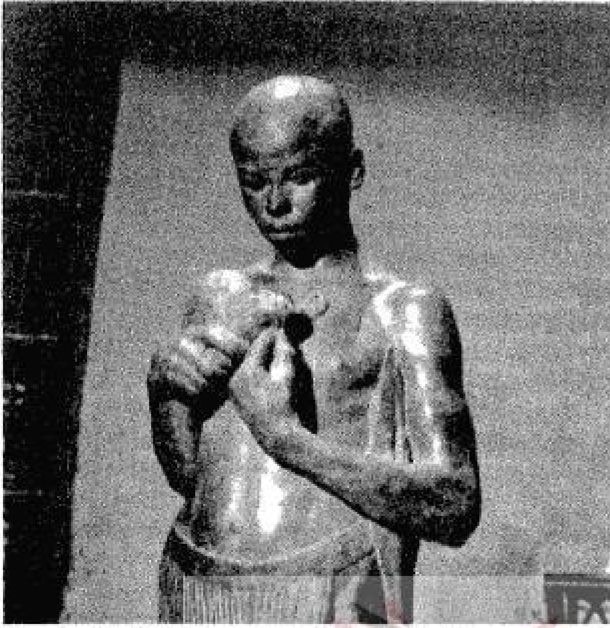
سنوات، فلا شك فى أن فترة إقامته بالأقصر كان لها أثر عظيم فى تجربته الفنية إذ أتاحت له فرصة دراسة النحت المصرى القديم، والتى تظهر آثارها بوضوح فى تجربته الفنية ابتداء من تعميق إحساسه وحبه واحترامه لنحت أعماله فى الخامات الصلدة والأحجار العصية بصفة خاصة وتطويعها لتجسيد أفكاره الفنية ومنها الجرانيت والديوريت والبازلت والصوان والكوارتز وما يشابه هذه الأحجار العتيدة التى بلا شك تتطلب خبرات تقنية عالية خاصة عندما تنحصر أفكاره فى إطار أسلوب تشخيصى يهدف للتأكيد على القيم العضوية لموضوعاته الطبيعية سواء كان العمل يجسد إنسانا أو حيوانا أو طائرا أو كان يضم تكوينه عنصرين أو أكثر.

الحجر ومعنى الخلود

وقد كان عبدالبديع يكن احتراما جليلا للخامة ويستفيد من إمكانياتها الذاتية أقصى استفادة ممكنة إلى حد أن تصبح لديه ليست مجرد مادة جامدة بل معنى للخلود والبقاء والعناد والانتصار وتحقيق الذات وفى هذا المقام يقول عبدالبديع:

«اخترت الحجر لأنه يعيش، وصعوبة الحجر علمتنى الكثير علمتنى الاحتراس والحذر والصبر وقوة الاحتمال وعدم التسرع فمثلا لو شلت حتة من الحجر مش هاقدر أرجعها تانى شوفوا أعمال الفراعنة، النحت الحقيقى هو النحت فى الحجر» وتتميز أعماله برشاقة وصرحية ربما تمهدهما فى تكوينات النحت المصرى القديم.

فمع احترامه لخصوصية الخامة نراه يعالج أسطح أعماله وعلاقاتها العضوية برؤية تمتلك القدرة على التبسيط والاختزال والمحاكاة بصورة يبدو أنه اكتسبها من معايشته للفن المصرى القديم، التى لا تخلو من إغراءات جماليات الرؤية الطبيعية التى تعرف عليها من خلال مخالطته لتلاميذ المدرسة الغربية من الفنانين المصريين، التى تأصلت بدايتها عند التحاقه بقسم الدراسات الحرة وعمله كصانع نماذج بكلية الفنون الجميلة بالزمالك، حيث كان لهذه الفترة أثرها البالغ فى بلورة مفهومه ورؤيته لفن النحت، الذى أصبح عنده ليس مجرد حرفة أو صناعة تماثيل جامدة ساكنة وإنما هو براعة تجسيد الحياة وطاقاتها النابضة عبر مادة صلبة قوية بمقاومتها للفناء، وهنا تكمن القيم الجمالية للعمل النحتى، فعبر دراسته بالقسم الحر تزاوجت موهبته الفطرية مع معارفه الجديدة عن المدرسة الغربية وما تتسم



ملامح متناهية الدقة رغم قسوة الحجر

به من أبعاد واقعية طبيعية، التى تركت آثارها على أسلوبه الفنى حيث الاهتمام بالتفاصيل التى تؤكد واقعية الشكل وتعطى له هويته ومعطياته الحسية وملامسه الطبيعية، مثل ليونة الجسد وانسياب الشعر وثنيات القماش وتفاصيل القسمات والنسب الطبيعية، الأمر الذى جعل منحوتاته تنبض بكينونة الحياة وحسيتها، وكان للفنان الكبير جمال السجينى رأى فى هذه المسألة يؤكد قوة وأصالة موهبته الفطرية التى أضفت على أسلوبه مذاقا مصريا رغم أنه كان يعارض دراسته فى إطار المدرسة الإغريقية الرومانية، إذ كان يرغب فى «أن يكون لعبدالبديع برنامج آخر يختلف عن الباقين، ويجب إبعاده عن دراسة التماثيل الرومانية والإغريقية لأن مصريته فى فطرته» وذلك على حد قول الفنان ناجي كامل نقلا عن مقال للأستاذ مكرم حنين. وبسؤاله عن استفادته من دراساته بالفنون الجميلة روى للأستاذ مكرم حنين: «طبعا فرق كبير كنت الأول أنحت بالبركة، ولكن بعد دخولى الفنون قسم النحت أصبحت أنفذ التمثال

بالطين ، وإن لم يعجبنى أهدمه وأبنيه من تانى، وبعدين أعمل قالب وأصبه جبس ، ثم أنفذه بعد ذلك فى أى خامة خالدة، جرانيت، رخام، خشب، فن النحت له مراحل لازم نحترمها، علشان كده عملوا الفنون الجميلة، وعلى كده لازم الفنان يتأمل فى كل التفاصيل ويعمل عدته بنفسه وكل خامة ولها اللى يناسبها».

كان عبدالبديع يمتلك حسا انتقائيا يتمتع بحساسية فنية عالية فجاءت موضوعاته معبرة بقوة عن خصوصية الحياة المصرية كما تحمل من جانب آخر خبراته الحياتية التى تحمل بين طياتها معايشة حقيقية لزمانه فأضفت على أعماله مضمونا معاصرا لا يخلو من الوعى بالخطر والألم، ففى عام ١٩٥٠ نحت تمثال لعبة السيجة، وهى لعبة منتشرة بين الفلاحين فى القرى المصرية تنحدر من أصل فرعونى كما يرى البعض، ونحت تمثال الصبى والسلم والثعبان فى عام ١٩٥١م، ونال به الميدالية الذهبية فى معرض انعقاد أول مؤتمر إفريقى آسيوى.

أثرى عبدالبديع عبدالحى الحياة الفنية المصرية والعربية والعالمية، ولاقت أعماله الإعجاب والتقدير من جمهور النخبة والعامة فى مصر وخارجها، وأخيرا يعطى لنا درسا مهما حينما يرى أنه: «يجب أن يدرس الطلبة فى قسم النحت فى الفنون الجميلة الإيقاع بتاع النحت، لأن دراسة النحت زى دراسة النوتة الموسيقية والإيقاع، وبعدين ياخدو طابور عتالة يعنى يتعلموا إزاى يتعاملوا مع الحجر ونقله من مكان لآخر.. الطالب زى المراية يلقط ويتعلم».. جاء هذا الدرس فى حوار أجرته معه الناقدة فاطمة على. شكرا لكل من لم يدخر جهدا فى الحفاظ على ذاكرة مصر. ■



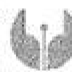
طفل سودانى من الحجر البازلت

النقد العربى
بين القومية والعالمية

بقلم
د. عبدالعزيز حمودة

الأزمة :

بداية اعترف أن مصطلح «أزمة» أصبح ممجوجا مثيرا للملالة بعد أن فرغ من معناه ، وفقد قدرته بالتالى على إثارة أية رغبة حقيقية عند الكثيرين للخروج من الأزمة وإيجاد حلول لها . ويرجع ذلك إلى أسباب عدة فى مقدمتها، بالطبع ، كثرة تردد المصطلح فيما يجب وما لايجب ، من ناحية ، ثم لأن الموقف العربى فى بداية القرن الحادى والعشرين يزخر بالأزمات التى تحاصرنا فى كل اتجاه : أزمة الهوية العربية فى مواجهة الثقافة المهيمنة، أزمة الكينونة ذاتها بعد أن أصبح الكثير من ثوابت الثقافة العربية عرضة للتشكيك فى صلاحيتها لمواكبة روح العصر ، بل أزمة بقاء الأمة العربية فى مواجهة ضغوط مستمرة وصلت إلى حد استخدام القوة العسكرية لفرض النموذج الثقافى والحضارى الغربى باعتباره ، كما يقولون لنا كل يوم ، النموذج الأمثل والنهائى.


ورغم ذلك لا أملك إلا أن استخدم مصطلح «الأزمة» فى توصيف واقع النقد العربى اليوم بعد أن وصلنا ، بعد ما يقرب من قرن من التأثر بالاتجاهات النقدية الوافدة ، إلى طريق مسدود . لقد حققنا قطيعة معرفية مع تراث البلاغة العربية - أى انفصلنا عن جذورنا النقدية بعد أن أوصلنا الآخر الثقافى إلى قناعة بدونية العقل العربى - دون أن ننجح فى إنتاج نقد عربى حداثى أو ما بعد حداثى يسهم فى تيار النقد العالمى، واكتفى البعض منا بأن يقتات على فتات المشاريع والاستراتيجيات النقدية الغربية رافعين شعارا براقا يقول بعالمية الفكر وسموه فوق النعرات القومية . تلك هى معطيات الأزمة كما أراها ، وكما تفرغت لرصدها ودراستها لما يقرب من عشر سنوات اليوم . وليس من قبيل التباهى أن أسجل هنا أن كتابى «المرايا المحدبة» (١٩٩٨) و«المرايا المقعرة» (٢٠٠١) صدرا قبل أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ والتى كشفت عن النوايا الحقيقية للنظام الدولى الجديد بقيادة الولايات المتحدة تجاه الثقافة العربية ، وقد صدر الكتاب الثانى على وجه التحديد قبل تلك الأحداث ببضعة أيام فقط . لقد أطلقت فى الكتابين الكثير من صرخات التحذير مما هو قادم .

العلمية والعالمية

من الواضح أن المشهد النقدى العربى يشهد تمحورا محددا حول الهوية القومية والعالمية . كان المشهد النقدى قد عاش لما يقرب من عقدين ، منذ منتصف السبعينيات عامة وبداية الثمانينيات خاصة - ولن أعود هنا إلى خمسينيات مجلة «شعر» البيروتية التى ثارت حولها الكثير من الشبهات - حالة احتكار صال فيها البنيويون العرب وجالوا . وقد أدى ذلك الاحتكار إلى تبنى المشروع البنيوى الغربى - بكل تنويعاته بل تناقضاته أحيانا - باعتباره المنقذ من الضلال للنقد العربى . وبصرف النظر عن مصير المشروع البنيوى وما آل إليه من فشل سريع داخل الثقافة التى أفرزته ، فإن ما يهمنا هنا هو ارتباط ذلك المشروع النقدى فى أذهان أصحابه الأصليين ثم فى أذهان الحداثيين العرب الذين نقلوا عنهم بعلمية النقد وعالمية الفكر الإنسانى وارتفاعه فوق الاختلافات الفردية والقومية .

ومن جانب الإنصاف العلمى للحداثيين العرب الذين احتضنوا البنيوية باعتبارها وسيلة انقاذ للعقل العربى من هوه التخلف فإن علمية



النقد كانت بالفعل نقطة انطلاق المشروع البنيوى برمته ، وبدون الدخول فى تفصيلات يعرفها المتابعون لاتجاهات النقد الأدبى ، فإن البنيوية الأدبية - أى تحليل النص الأدبي لغويا - كانت تطمح منذ البداية إلى تحقيق درجة من العلمية تحاكى علمية البنيوية اللغوية فى تعاملها مع النص اللغوى ، وأحيل القارىء هنا ، إذا شاء الاستزادة، إلى الكثير فى «المرايا المحدبة» و «المرايا المقعرة» . وقد كانت «علمية النقد» هى التفسير الحقيقى لما أسماه الناقد العربى الكبير جابر عصفور بـ «فتنة البنيوية» ، وهى «فتنة» كان لها الكثير من المبررات فى الظرف التاريخى الذى حدث فيه ذلك الانبهار بالحداثة الغربية عامة ، وبالمشروع البنيوى خاصة .

و«الظرف التاريخى» فى حد ذاته يبرىء الحداثيين العرب من أية شكوك قد يراها البعض قرينة التحول البنيوى، فقد تصرف البنيويون العرب من منطلق الرغبة الصادقة فى «تحديث» العقل العربى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، ففى أعقاب تلك الهزيمة حاسب المثقف العربى نفسه فى قسوة وتوصل إلى نتيجة منطقية وهى أن الهزيمة العسكرية كانت هزيمة للعقل العربى بالدرجة الأولى . وهكذا اجتاحت العالم العربى « حمى» مشروعة للتحديث . وهنا حدث الخلط المؤسف بين مصطلحى «التحديث» و«الحداثة» ، فالتحديث كمصطلح modernization يعنى كسر القوالب الجامدة التى تعوق حركة المجتمع إلى الأمام ، يعنى نبذ الفكر الخرافى ، وتبنى المنهج العلمى ، والاستفادة الكاملة من الإنجازات العلمية فى مجالات العلوم الطبيعية والتطبيقية . وبدلا من تبرير التخلف وترسيخه عن طريق الترويج فى المنابر الدينية لفكرة أن الإنسان الغربى مقدر عليه أن يكدح ويشقى داخل المناجم والمصانع لينتج السيارة الفارهة والطائرة السريعة والقطار الفاخر بينما الإنسان العربى مقدر له أن يتمتع بما ينتجه العقل الغربى ، فإن التحديث يعنى ، بدلا من ذلك ، أن ينتج العقل العربى نفسه أدوات تحضره وازدهاره .

ومن هنا ، كان من المنطقى فى ضوء ذلك الخلط الواضح بين مصطلحى «التحديث» و «الحداثة» أن يقول بعض الحداثيين العرب فى ردهم على رفضى لنقل نسخة الحداثة الغربية إلى الثقافة العربية إن هذا الرفض يعتبر دعوة إلى التخلف والعودة إلى الوراء لأننى ، كما قالوا ، أصبح كمن يدعو لركوب الجمال فى عصر السيارات والقطارات والطائرات !! إلى هذا الحد وصل الخلط بين المصطلحين، فأصبحت الحداثة الغربية تحديثا والتحديث حداثة .

والواقع أن الحداثة أمر آخر مختلف، ومثلثها الغربي معروف: الحداثة الحضارية والحداثة الثقافية والاجتماعية ثم الحداثة الأدبية والنقدية. وبدون إطالة، فإن الحداثة الحضارية تتمثل في التحولات الكبرى التي طرأت على المجتمعات الغربية في القرن الثامن عشر وفي مقدمتها الثورة الصناعية التي هزت الكثير من الثوابت وأحدثت الكثير من التحولات. وربما تكون هذه الحداثة الحضارية هي نقطة الالتقاء الوحيدة بين «التحديث» و«الحداثة» على أساس أن تلك المرحلة كانت بداية نبذ الفكر الخرافي والغيبي وتبني المنهج العلمي والاستفادة الكاملة من إنجازات العلوم الطبيعية والتطبيقية. باختصار ارتبطت الحداثة الحضارية بسيادة العلم. ما يهمنا هنا هو تأكيد العلاقة العضوية بين الحداثة الحضارية، باعتبارها الضلع الأول أو قاعدة المثلث وبين الضلع الثاني وهو الحداثة الاجتماعية والثقافية والسياسية. لقد أدت الثورة الصناعية الكبرى إلى خلق علاقات وتكوينات اجتماعية جديدة وهجرة من الريف إلى المدن ومراكز الصناعة، وبالتالي إلى خلق علاقات ومفاهيم سياسية جديدة مثل سقوط مفهوم الحق الالهي للملوك. وسوف تصل التحولات الجديدة على محور ضرب السلطة الغيبية غير المبرهنة تجريبيا وعلميا إلى مرحلة رفض وجود الله ذاته مع بداية القرن العشرين. هذه التحولات الجوهرية أدت بدورها إلى ظهور حساسية فنية وأدبية جديدة تمثلت في صعود نجم الرجل البسيط واحتلاله بؤرة الأحداث في الرواية والمسرح الواقعيين، وهذا هو الضلع الثالث والأخير والذي يؤكد ذلك الارتباط العضوي بين أضلاع مثلث الحداثة الغربية.

الهوية القومية

إن الجزئيات الموجزة السابقة تؤكد الهوية الواضحة لحداثة الغربية، بأضلاعها الثلاثة، فهي حداثة أفرزتها تحولات جذرية في المجتمعات الغربية بدءا بالثورة الصناعية ومرورا بالعلاقات والتكوينات الاجتماعية والسياسية وانتهاء بالحساسية الجديدة التي فرضت قيما ومعايير تقييم خاصة إبداعا ونقدا. وقد كان تطور الحداثة الغربية، على مستوى أضلاعها الثلاثة وفي كل مرحلة من مراحل تطورها، يتم عبر سلسلة مترابطة الحلقات يصعب فصل حلقة منها عن الأخريات، والأمثلة على ذلك كثيرة أبرزها ارتفاع نجم «العلم» والعلمية ثم سقوطه، فقد أدت الثورة الصناعية إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة مؤثرة هي طبقة العمال التي ارتبط ظهورها، من جانب آخر،

بصعود نجم العلم والتفكير العلمي . وتكفل المتغيران الجديدان بتوجيه ضربة قاتلة إلى الفكر الغيبي القائل بالحق الإلهي للملوك وإلى سلطة الكنيسة . وكان من الطبيعي أن تنتهي تلك التغيرات إلى ظهور أنظمة سياسية جديدة تهدف إلى تحقيق سعادة الفرد والإنسان البسيط ، وهكذا جاءت إلى الوجود الأنظمة الديمقراطية الحديثة والاشتراكية . أما على المستوى الاقتصادي فقد جاءت إلى الوجود أيضا أنظمة حديثة مقابلة مثل الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية .

وقد صاحب ذلك كله انهيار «الطابو» التقليدي الذي حجر على حرية العقل الإنساني ووضع دوائر حول قدرته على التفكير . فأدى الفصل النهائي بين سلطة الكنيسة والدولة وتراجع الفكر الغيبي إلى تطورات سريعة متلاحقة في الدراسات الفلسفية انتهت في بداية القرن العشرين ، على يد نيتشه على وجه التحديد، إلى القول بموت الله . وكان من الطبيعي أن يصعد نجم العلم ليشغل الفراغ الجديد ويصبح الاله البديل ، وحينما تكفلت حربان عالميتان بتبديد الأوهام القائلة بقدرة العلم الجديد على تحقيق السعادة للإنسان سقط إله العلم هو الآخر ليحل محله «الفراغ» ، الفراغ اللانهائي القائم على الشك في جميع السلطات الموثوق بها والإحالات المرجعية الثابتة التي يمكن الارتكان إليها . وساد العالم ، ويسوده حتى اليوم، جو من الشك العام والشامل في كل شيء . والفراغ والشك كانا ، في جزء كبير منهما ، موضوع كتابي الأخير: « الخروج من التيه » «دراسة في سلطة النص » (٢٠٠٢) .

هل يمكن القول حقيقة بأن المدارس النقدية التي أفرزتها تلك الحداثات الغربية والتحولات الفلسفية عبر قرنين من الزمان، مدارس لاتعرف الهوية؟ ولابد أن نأخذ بعين الاعتبار ، قبل أية محاولة لإجابة متسرعة ، أنه يصعب الفصل - إن لم يكن من المستحيل - بين الفلسفة الألمانية مثلا ، وبين الكثير من القيم والمفاهيم والمصطلحات النقدية التي سادت الساحة الغربية لما يقرب من نصف قرن حتى اليوم ؟ وهل يمكن القول بأن المقولة الفلسفية القائلة بافتقار الكون إلى محور أو نقطة ارتكاز مرجعية يمكن على أساسها تفسير الكثير من الفكر المعاصر تتساوى مع حقيقة علمية مثل «حديد + أكسجين = أكسد حديد » في موضوعيتها وتجردها وسموها على حقائق واختلاف الهويات القومية ؟

المشهد النقدي العربي والفراغ

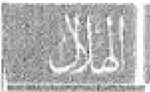
من حق الحداثيين العرب أن نعترف لهم بأنهم «أنقذوا شرف النقد العربي»، كما قال بذلك الراحل الكبير لويس

عوض فى أواخر الثمانينيات فى سياق حديثه عن النقاد الأكاديميين . نعم استطاع النقاد الأكاديميون ، وهم حداثيون فى غالبيتهم ، إنقاذ شرف العقل العربى فى السنوات التالية لهزيمة يونيو ١٩٦٧ حينما بعثوا الحياة فى المشهد الثقافى العربى الحزين فى أعقاب تلك الهزيمة . ولكن ، وبعد ما يقرب من ربع قرن من «أحادية الصوت» التى وصلت إلى حد قهر الأصوات المعارضة واتهامها بالسلفية أحيانا والرجعية والجهل أحيانا أخرى، من حقنا أن نختلف معهم ، ولا أبالغ إذا قلت إن التطورات الأخيرة على الساحة العربية وبعد تكشف أطراف المؤامرة الغربية ضد الثقافة العربية تدعونا إلى أكثر من الاختلاف ، وتحديدا إلى التحذير المتكرر من خطورة ما حدث داخل المشهد النقدى العربى لما يقرب من ربع قرن . وشرعية التحذير المتكرر تؤسسها عملية محاسبة بسيطة للحداثيين العرب ومراجعة لنتائج مشروعهم النقدى .

إن أبسط قواعد المحاسبة والمراجعة اللتين اتحدث عنهما تفرض سؤالا لا مفر منه : هل نجح الحداثيون العرب فى «تحديث» العقل العربى بعد ربع قرن من الانفراد بالصوت النقدى؟ وحتى نكون أكثر تحديدا : لقد تحول الأكاديميون العرب ، وبكل حسن النية الذى لا ننكره على أحد منهم ، إلى الحداثة الغربية أو تحديدا إلى المدارس النقدية التى أفرزتها الحداثة الغربية ، بهدف تحديث العقل العربى . فهل كان العقل العربى الذى تعامل مع سقوط بغداد أكثر تقدما وعصرنة من العقل العربى الذى تعامل مع هزيمة يونيو ١٩٦٧ ؟ ولا أظن أننا بحاجة إلى تأكيد ما هو واضح عيان : إن العقل العربى - والمثقف العربى على وجه التحديد - الذى تعامل مع سقوط بغداد فى أبريل ٢٠٠٣ كان أكثر تخلفا وتشرذما وعجزا عنه فى يونيو ١٩٦٧ ، بل عنه فى أى يوم مضى فى تاريخنا الحديث، وقد وصل إحساس الكثيرين منا ، ونحن نعيش حالة العجز الكامل فى مواجهة الغول القائم ، إلى حالة اليأس المطبق .

لنرجع إلى الوراء قليلا لنتعرف على حقيقة ما حدث وما أوصلنا إليه :

١ - لقد تبنينا النتائج دون أن نعيش المقدمات التى أدت إلى تلك النتائج داخل الثقافة الغربية ، متعللين فى ذلك ، بالطبع ، بعالمية الفكر وإنسانيته وسموه فوق فوارق واختلافات الهويات القومية . وقد توقفنا من قبل ، وفى إيجاز كاف ، عند الأضلاع الثلاثة للحداثة الغربية ، وقلنا إن قاعدة المثلث هى الثورة الصناعية



الكبرى ، وما أدت إليه من تحولات جذرية ، اجتماعية واقتصادية وسياسية وفلسفية ، أفرزت في نهاية الأمر المشاريع والاستراتيجيات النقدية التي ارتبطت بالحداثة وما بعد الحداثة الغربيتين . فأين بدأنا نحن ؟

لقد بدأنا بالضلع الثالث والأخير للمثلث الحداثي وهو المشاريع والاستراتيجيات النقدية التي أفرزتها الحداثة وما بعد الحداثة الغربيتين ، متناسين أن التحولات الكبرى ، على مستوى الضلعين الآخرين للمثلث الحداثي الغربي ، هي المقدمات التي أدت بصورة حتمية إلى تلك النتائج الأخيرة على الساحة النقدية . وهذا منطق لاتستطيع دعاوى عالمية الفكر وإنسانيته أن ترده أو تدحضه . أي أن الحداثة الأدبية والنقدية التي تبنيناها حداثة أفرزتها تغيرات في العلاقات الاجتماعية التي أفرزتها الثورة الصناعية في مجتمعات غير المجتمعات العربية . وهكذا حينما ننقل المفاهيم والمصطلحات الحداثية عن ذلك الآخر المختلف فإننا ننقلها بعوالقها المعرفية ، وهي عوالق فلسفية في جزء كبير منها ، فتجيء تلك المفاهيم والمصطلحات غريبة عن الثقافة العربية ، من ناحية ، وتزيد من عزلة الحداثيين العرب وتحولهم إلى نخبة ثقافية يخاطب بعضهم بعضا في ابتعاد واضح عن ثقافة الشارع العربي ، من ناحية ثانية..

هل ينكر أحد مثلا أننا لم نمر بثورة صناعية عربية ، وأننا لحقنا بالثورة الصناعية الغربية من ذيلها ؟ ذلك في الوقت الذي استطاعت قوميات أخرى أن تلحق بتلك الثورة وتتحول إلى قوة مؤثرة في تيار تلك الثورة المستمرة . أليس غريبا أن العالم العربي بكامله ، بإمكانياته المادية الهائل ، لم يستطع ، بعد نصف قرن من الدعوة إلى إنشاء صناعات عربية ، لم ينجح في إنتاج سيارة عربية ، على سبيل المثال لا الحصر ؟ ذلك في الوقت الذي استطاعت دولة مثل كوريا الجنوبية – ولا نقول اليابان – والتي لم يكن لها وجود تقريبا في منتصف القرن الماضي ، التحول من «التجميع» إلى التصنيع وإغراق السوق الآسيوية والأفريقية والأوربية والأمريكية بسيارات كورية الصنع . أما نحن فقد توقفنا تماما عند مرحلة «تجميع» أجزاء المنتجات الأجنبية من كل شكل ولون . إننا في حقيقة الأمر نعيش «ثقافة التجميع» صناعيا وفكريا . لقد اكتفينا عربيا بتجميع المنتجات الصناعية ورضينا لأنفسنا أن نقتات على فتات فكر الآخر ثقافيا .

٢ – مع التسليم الكامل بحسن النية من جانب الحداثيين العرب وبصدق رغبتهم في «تحديث» العقل العربي إلا

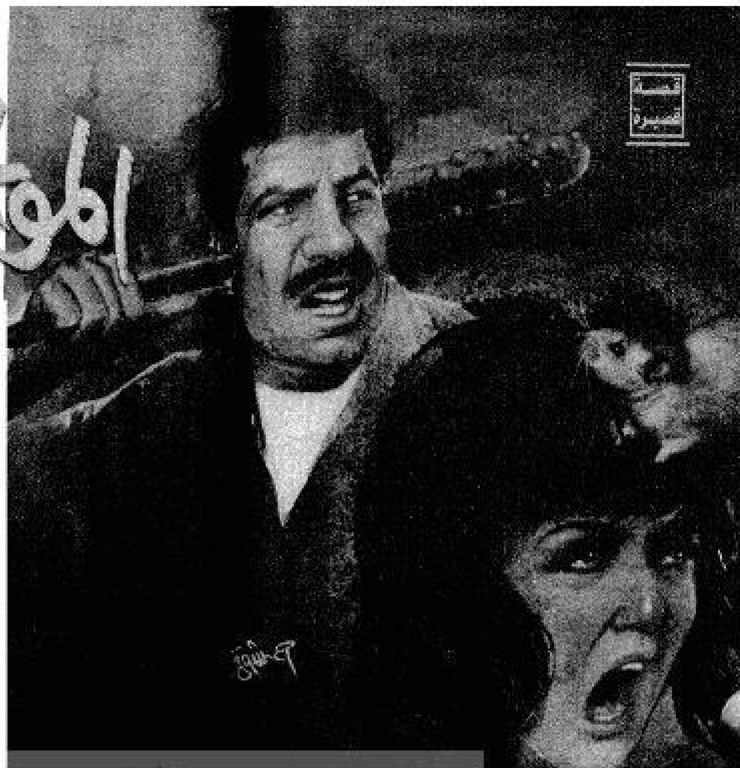
أن النتائج جاءت على عكس النوايا بالكامل . إذ أن كل الشواهد ، والدراسات التى ظهرت فى السنوات الأخيرة عن أنشطة أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية فى العالم الثالث منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية خير مثال لذلك ، هذه الشواهد تؤكد أن الاستراتيجية الثقافية كانت تقوم أولا على خلق إحساس لدى الشعوب المختلفة بتدنى ثقافاتها وتخلفها ، ثم تحسين صورة الولايات المتحدة ثانيا ، وأخيرا إقناع تلك الشعوب بتبنى النموذج الحضارى الغربى ، والأمريكى على وجه التحديد ، باعتباره النموذج الأمثل والنهائى ، وقد تأكدت أبعاد المرحلة الأخيرة ، أو ما يمكن أن نسميه بالمؤامرة على الثقافات القومية ، فى السنوات القليلة الماضية ، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على وجه الدقة. معنى ذلك أن تبنى المشاريع النقدية الحداثية وما بعد الحداثية الغربية كان فى مرحلة مبكرة تمهيدا للتبعية الثقافية للغرب ، وترسيخا لهذه التبعية فى السنوات الأخيرة ، أما الحديث عن عالمية الفكر فقد تأكد للجميع أن هذا على وجه التحديد ما كانت المخابرات الغربية تسعى إلى اقناعنا به طوال الوقت، ولسنا بحاجة إلى ترديد المقولة الاستخبارية الأساسية التى ترى أن مقياس العمل المخابراتى يتمثل فى اقناع «الآخر» بأنه توصل من تلقاء نفسه إلى ما يريدون اقناعنا به .

٣ - منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وما تبع ذلك من غزو العراق فى بداية محاولات فرض النموذج الثقافى والحضارى الغربى الأمريكى على العالم العربى بالقوة ، وتكشف أبعاد ما كان يحدث حسب تخطيط محدد منذ سنوات ، أصبح النقد العربى فى موقف لايحسد عليه . لقد أصبح يعيش حالة الفراغ الكامل . فالحداثيون العرب بدأوا يمارسون - أو بعضهم على الأقل - حالة من الشك فى جدوى النقل عن ذلك الآخر المهيمن ، والمتمردون على الحداثة يتعرضون لحملات الاتهام بالرجعية والسلفية من ناحية ، ويعيشون حالة «فراغ» الساحة الثقافية من أية نظرية نقدية عربية ، من ناحية ثانية .

فى نهاية هذه السطور أود أن أؤكد أننى لست ضد الحداثة فى حد ذاتها ، لكننى أرفض نقل الحداثة الغربية إلى التربة العربية دون إدراك لاختلاف الثوابت والمتغيرات بين الثقافات المختلفة . ما أدعو إليه على وجه التحديد هو تطوير حداثة عربية لاترفض الآخر ولا تنفصل عن الجذور ، والحداثة العربية هى «الهوية الواقية» فى عصر أصبحت فيه الثقافة هى خندق المقاومة الأخير ضد الابتلاع . ■

المواجهة

بقلم
فؤاد قنديل



قصة قصيرة

لم أكن أعلم أنه تغلغل في كيانها إلى هذه الدرجة، وأنه استولى على وعيها ولا وعيها بصورة بلغت هذا الحد من الفزع

في منتصف الليل صرخت:

– ماما.. ماما

قفزت من الفراش بعد أن دارت فتحية بورثين بعيداً عن سبيل.. لحقت بها قبل أن تقع، لكنني لم أستطع وأنا مفزوع ومندهش أن أحول بينها وبين الوقوع على ركبتيها وذراعيها، ورأسها يرتطم بالأرض، ولا أكف عن قولي:

– ماذا بك.. ماذا جرى؟

والحقيقة أنني كنت أبذل جهداً جهيداً لأمنع نفسي من الضحك، وأنا لم أتعود أن أمنع نفسي.

ظلت تصرخ:

– ماما.. آه يا ماما.

. تذكرت أنني حذرتها عدة مرات أن







تقـول: يا مـامـا وهي في الخامسة والثلاثين.. زوجة ولها أولاد وعلى ذمة رجل.

على نور السـهـراية الشـاحب الذى يصلنا منهكا من الصالة عاونتها على العـودة إلى السـرير، وهى تشـعـر كـأن سيـارة مرت عليها.. لاتزال تضع يدها على وجـهـهـا فى مـحـاولة لطرد آثار الحلم، وأنا أقول:- خير إن شاء الله.. بماذا حلمت؟

- به.

- من هو؟

- ألا تعرفه؟

- من هو الذى أعرفه وهل كنت معك فى الحلم؟

.. عادت تولول وتقول:

- آه يا ماما.

- ياستى قـولى.. مـا الذى حدث؟

- كـان يجـرى ورائى ويصـعـد على قـدمى، وحاولت إبعاده عنى، لكنه صعد إلى صدرى ووجهى، فصرخت..

فـهـمت وأحـسـست بالخـزى، جلست على السـرير لأجـمع أمـرى.. ألهذه الدرجة أنا عاجز عن قتل فـأريعيش فى الشقة من عشرين يوما وأتركه يتحرك متى يشاء وكيف يشاء.

طعنة بالغة فى رجولتى أن تصل خطورة بقـائه وأثره التعس إلى درجة أن تحلم به زوجتى، ثم تصرخ وتحاول الفرار منه وتسقط من الفـراش وأنا إلي جـوارها أنعم بالغطيط العالى.. كما قالت هى بعد ذلك.

سمعنا به لأول مرة فى المطبخ، فـأخـرجنا كل محتويات المطبخ قطعة قطعة وقضينا فى ذلك نحو السـاعـة ورأينا فـقط ذيله فتأكدنا أنه فأر، ولكننا لم نستطع الإمسـاك به أو طرده، فاكتشفنا بعد ذلك أنه انتقل إلي حجرة الأولاد المجاورة، الحجرة مملوءة بالأثاث المكدس، ولا نريد التفريط فيه.. إلى جوار السرير وتحته توجد حلة السمن «وطشتين» غسيل

وفوق الدولاب وضعنا حقائب بها ملابس الشتاء، وطقم صينى جهزته زوجتى للبنت، وبعض الصور الكبيرة والأحذية التى لا يهون علينا أن نرمى بها مع القمامة، ونخجل أن نعطيها لأحد المحتاجين.

فى يوم آخر عكفنا جميعاً للبحث عنه فى حجرتهم، نصف نهار دون جدوى، لأن الفرصة كانت أمامه كبيرة للتحرك والنفاذ إلى أماكن لا يدخل إليها أى طفل ولا أية أداة من أدوات الطرد.

بقى الحال على ما هو عليه.. يقضى نهاره فى حجرة الأولاد حتى منتصف الليل ثم يتحرك إلى المطبخ فيسهر فيه حتى السادسة والنصف بالضبط.. لم يخلف موعده يوما.

كان فى البداية يتنقل متخفيا، فأصبح يمر سريعاً أمامنا ونحن فى الصالة جلوس، وبعد أيام قلت سرعته فى العبور، إلى أن غدا يمضى متسكعا كأنه يتمشى على النيل أو فى بيت أبيه.

فرح الأولاد برؤيته وسموه: فرفر.

أخذ يتصنت ليسمع اسمه وهم ينادونه به، ويتبادلون التوقعات، ولابد أنه سمع الصغير كريم وهو يطلب منى أن أربط له فرفر بحبل ليصحبه معه إلى المدرسة أو مركز الشباب.

لابد أنه سمعهم يتحدثون عن أوصافه.

فمنهم من قال:

– لقد رأيت بطنه البيضاء..

وآخر يقول عن عينيه: صغيرتان كحبتى خرز

أما زوجتى فقد قالت:

– لم أر فى حياتى ذيلا بهذا الطول.

وقال واحد منهم وأظنه الأصغر:

– لقد رأيت أصابعه الصغيرة.. إن يده كيد النونو.

.. منذ عدة أيام حدثتنى قائلة أنها اضطرت لإعادة صلاة الصبح مرتين عندما مر من أمامها عائدا فى موعده من المطبخ.

كانت قد انتهت من الركوع واستعدت للسجود، وكان هو بالضبط يمر فلم تستطع أن تهبط برأسها إلى الأرض، سلمت وخرجت من الصلاة واستغفرت ربها.

لما دخل إلى مقره النهارى.. عادت للصلاة، لكنها فوجئت بطيفه يعود إليها، وتراه من جديد وهو يمر مترنحا ثقيل الخطى، هل كان يعب من زجاجة «السبرتو» الموضوعة تحت الحوض!

لاحظت ذبوله وهزاله وتساءلت:

– ربما لم يجد ما يأكله فى المطبخ؟

قلت:

– على أية حال أنا لا أقدر فى هذه الأيام أن أنفق عليه لدى الأطباء.

صاحت:

– أنا لم أفكر فى هذا.. إنك لا تأخذ الموضوع مأخذ الجد.

فاندفعت قائلا:





- ولماذا لم تتركى الصلاة على الفور وتضربينه مادام هذا حاله!

تراجعت قائلة:

- أضربه!

- كانت فرصتك للحصول على المجد.

- كيف أقترب منه وهو حى وأنا لو رأيته ميتا لمت رعباً.

تزايد التعاطف الأسرى معه يوماً بعد يوم، ودفع إلى الظلام والتلاشى رغبتى في التخلص منه سواء بالعنف أو باللين.

الأولاد يتحدثون عنه ويسخرون منه أحيانا أو يعجبون بمهارته ورشاقته، خاصة بعد أن أحضرت مصيدة ووضعت فيها الجبن والطماطم وهو يراها دون أن يعبأ وأحياناً يدخل إليها ويلتهم ما بها ثم يخرج دون أن تفلح فى القبض عليه، الأمر الذى يعد تواطؤاً خطيراً من المصيدة.

كنت قد عزمت إذا قبضت عليه المصيدة أن أشعل النار فيه، ويراه الأولاد ليشهدوا مصير كل من يهدد حياتنا، لكن ذلك لم يحدث..

وضعنا له سم الفئران فى كل مكان.. ودسسنا له التوكسافين فى الأركان ونثرناه على الأطعمة الجذابة، وهو يمر بكل ذلك مرور المتعفف، وقد يتذوق منها ما لا يؤذى المعدة أو يعكر المزاج أو يلوث الشفاه القرمزية، وما لايؤثر على الجسد المشوق والحركة الرشيقة.

كل الحيوانات حتى أحقرها يعلو ويعلو.. يتعلم ويتثقف ويعتبر، إلا المسكين الإنسان.. لم يكن ينقص هذا الفأر إلا أن يلبس بدلى ويتعطر بعطر زوجتى..

أتذكر حركاته وهو يمشى فى هدوء وثقة خاصة فى الأيام الأخيرة قبل الحلم مباشرة.. كانت لحركاته لغة الاعتزاز ومشيته مشية الجنود.. وكان كمونه كمون الواثق لا المتوجس أو المهدد ولا المستنفر..

وكان قعوده قعود المطمئن الذى لا يبالى، وكان- والحق يقال- ذا نظام مستتب كالليل والنهار.

من منا يا ترى تحت الحصار.. هو أم أنا؟

رأيته فى حجرة الأولاد على الجدار هائلا وعظيما..

يلبس تاجا ويرفل فى ثياب تبرق وتنبسط حواليه، وشواربه تطول حتى لايحدها الإطار، تتعلق بصدره النياشين والأوسمة ويده الصغيرة ترتفع نصف ارتفاعة لتحيى فى كبرياء الجماهير التى لابد محتشدة أمامه خارج الصورة.. دائماً خارج الصورة وهى تتلوى من السعادة بطلعته وبهائه.

أحسست أنه سيعيش معنا إلى نهاية العمر وربما يتبعنى وأنا ذاهب إلى الجنة.

هل تراه ضل طريقه ولا يعرف بابا للخروج من المستنقع النظيف، أم أرسله الله خصيصاً إلينا ليبدأ من بيتنا مشروعاً لتوحيد كل مخلوقاته، ودمجها، جميعاً فى مخلوق واحد. الغزالة والفأر وفرس النهر والعصفور.. الحمار مع البرص والإنسان.. الفيل والنمر والذبابة مع البلبل والسلحفاة.. الكل يعيش ويندمج ويتشكل تشكيلا جديداً واحداً متفرداً، ثم تمر الأيام فيصبح أعزل ويائساً وضامرا وتغدو الطريق معبدة للتلاشى والفناء.. ما هذا الهراء، ما هذه العبقرية!!. لعنة الله عليه وعلىّ..

جاء بعض الأولاد من أصدقاء أبنائى بدعوة منهم طبعاً لمشاهدة فأرهم.. فوجدوا صورة لفأر علقتها دينا على الحائط وقالت لهم:

- إن أبى يفكر فى أن يزوجه ليملأ علينا البيت.

وقالت نهى:

- لا أمل إلا بإحضار قطة.

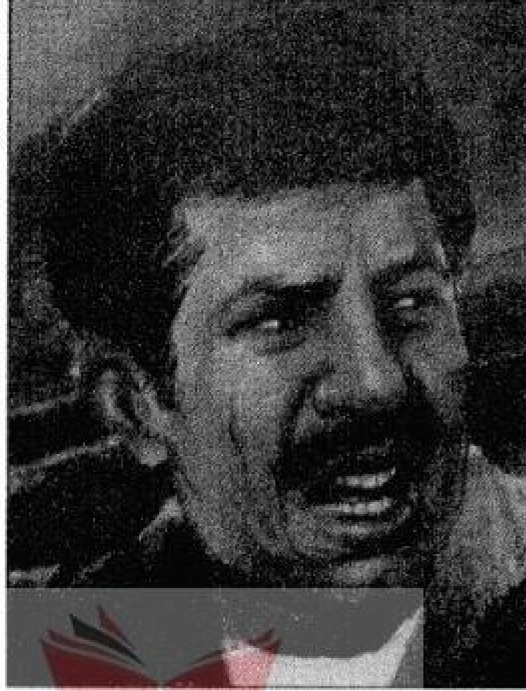
نهى تحب القطط وقد أحست أن القدر يستجيب لرغبتها ويسهل لها الحصول على قطة، إذ بعث إلينا بهذا الفأر البارد الذى لا يحن إلى المناطق الخربة ولا إلى أهله، ويبدو أن له طموحات حضارية ساذجة.

نقل كريم هذه الصورة عن زيارة أصدقائهم إلى أمه، فترسب فى كيانها الموضوع كله كشئ استقر بيشاعته فى حياتها، فكان حلمها الذى هزنى بعنف وأدهشنى أيضاً لأنى تصورت أنه أصبح واحداً من العائلة أو على الأقل هناك رأى عام يوافق على وجوده.

وضعنى الحلم مباشرة فى مواجهة مع الفأر إما أنا وإما هو.. أنا لا أخشاه أبدا، بل إننى أستطيع التقاطه كما تلتقط الحرباء الذبابة.. لكن المطلوب فقط هو أن أراه، فإما أتضاءل تماما إلى أن أصبح فى حجمه وأبحث عنه فى حجرة الأولاد، أو أسهر طيلة الليل فى المطبخ أنتظره لنعقد الحوار اللازم.

الغريب أنه لم يفكر فى تغيير مقره الليلى أو النهارى ولا زيادتها وظل بعيداً عن حجرة نومنا.. حريصاً على عدم استفزازى وبذلك ضمن البقاء.

بعد حلمها المستفز وتأملى مرآة رجولتى قررت



عمل أي شيء لبعث الطمأنينة في السيدة حرمنا ذات القلب الخفيف، والتي رفضت أن تشاركني المهمة ولو بصفة مراقب.

الساعة تجاوزت الواحدة.. إذن هو الآن في المطبخ.. أضأت النور وجلست على الأرض أمام بابه وفي يدي الشبشب وفي يدي الأخرى كوز ماء لإلقائه عليه حال خروجه لإعاقته عن الاندفاع في الجري، ثم الانقضاض عليه بالشبشب.. هذه هي الأفكار الحربية وإلا فلا..

أصخت وتسمعت وبعد نحو نصف ساعة من الصمت والصبر والتحدي وصلتني أول إشارة إنه داخل البوتاجاز، بسيطة أشعلت الفرن وجلست أنتظر وقد رفعت إلى أقصاها درجات الاستعداد.

سمعت ما يشبه حك الأقدام.. مضت الدقائق والحرارة ترتفع ولا يوجد إلا طقطقة واهنة.. ومرت نحو نصف ساعة دون خروجه.. الحرارة اشتدت.. أمعنت التصنت ساعدني صمت الليل على جلاء سمعي كل شعره في جسمي وكل عصب يشاركني الاستماع.

اكتشفت أن ما أتصوره حركة ما هو إلا تأوهات البوتاجاز تحت تأثير النار، أطفأته وانتظرت، ثم فتحت الفرن لعلي أجده مشويا أو حتى مقليا.. لكن مع الأسف.

ذهبت إلى حجرة الأولاد فوجدتها مغلقة بإحكام على غير العادة، إذن هو لم يستطع الذهاب إلى مقره الليلي، ولن أستطيع تحقيق الخلاص بالمأمول هذه الليلة.

دخلت حجرتي أفكر.. لماذا أغلق الأولاد الباب.. تواطؤاً وحرصاً على حياته أم إحساسا بالبرد، أم

سهوا.. هو بالطبع ليس تواطؤاً لأنهم إذا كانوا يحرصون على حياته فسوف يتركونه يذهب إلى المطبخ، حظه.

ألفيت زوجتى منكمشة ومنطوية على نفسها مفتوحة العينين فى انتظار الخبر، لكنها لم تسألنى لأنها لم تسمع طلقة واحدة ضد العدو.. استدارت وأعطتنى ظهرها.. تمددت إلى جوارها أفكر فى خطة جديدة لم يكتمل تفكيرى فيها.. لأنى نمت.

فى الليلة التالية وحتى لا تروح على نومة ضبطت المنبة على الساعة الثانية وتأكدت أن الأولاد تركوا الباب مواربا ولو لبضع سنتيمترات.

انشق الوجود كله فجأة ومزقتنى صرخة زوجتى، فقفزت مرة واحدة فى خفة أسطورية إلى وسط الحجرة وتأملت الموقف.. شهقت زوجتى شهقة الموت، وأشارت بحاجبيها لأبيدها كانت قد أضاءت المصباح.

وجدت أمامى الفأر واقفا على قدميه وذيله، كانت له عيون خرزية أراها بوضوح حمراء لامعة وشوارب فضية وفم أحمر مدبب وصغير.. بطن بيضاء وظهر رمادى معتم.

تلفت نحوى ونحوها.. يا نهار أسود، فوق السرير بينى وبين زوجتى، ولابد أن مر عليها وعلى، وإلا لماذا استيقظت.

حاولت أن أتأكد أنه ليس حلما.. وتذكرت سريعاً حلم الليلة الماضية لأنه فقط.. تيقنت أننا نعيش فى الحقيقة.. الحقيقة البشعة بكل تفاصيلها وثقلها ووحشيتها.

تجمدت فى مكانى، ووقف هو يحدق فينا، ويتلفت ويعبث بيديه فى شواربه، ويفتح فمه الصغير الأحمر كأنه يتثاءب، فأرى أسنانه الصغيرة، ليزداد فزعى من هذا الصغر الغريب فى كل شئ وأنا أقبض يدى بشدة فتصرخ عضلاتى تحت لحم ذراعى وأرى يديه مربعة الأصابع بالغة الضآلة فيتعاظم رعبى من هذه الضآلة الشرسة.

كانت زوجتى قد تكورت، وجلست كلها فوق جزء صغير من الوسادة، ويدها على فمها تمنع نفسها من أن تغضب بأنفاسها، وهو هناك فى طرف السرير. وأنا فى وسط الحجرة متحفزا كما المارد لكننى أنحنى قليلاً لأستعد للخطوة التالية التى لا أعرف بالضبط ما هى،، كنت لا أزال أفتش عن عقلى وأعصابى، وقدمى لا أحس بهما وهما فى الأرض مغروستان.

هل كان يا ترى يدرك كثافة المصير؟

أم أنه يراه ويطمئن.

.. كانت ظلاله المهيبة تنتصب وراءه على الحائط، بينما كان يعبث فى شواربه ويمصمص شفتيه ولا يعبأ. ■

في مديح اللعب

بقلم
عزت القمحاوى

الكتابة كالحب ، سر غامض . وبينما يستطيع العشاق أن ينخرطوا فى تجاريهم دون الحاجة إلى تأمل إن كانوا يكررون ماسبق أن عاشه غيرهم أم لا ، يجد الكاتب نفسه مطالبا بإيجاد إجابته الخاصة للغز : ما الكتابة ؟

سؤال صعب ، ولو استطاعت البشرية الإجابة عليه بشكل حاسم لأنقذت عددا من الضحايا على مر التاريخ يفوق ضحايا الحروب .

القراء لايقدمون هذا العون . فعبر تاريخ الكتابة عرفت كل الآداب تقريبا كيف تتشكك فى أصالة الكتب الأكثر مبيعا التى لا تلبث أن تخلد مع كتابها إلى النسيان .. تاريخ الكتابة العربية ليس استثناء فى هذا الأمر ، لكن الوضع اختلف اليوم ، حيث تشترك الكتب الجيدة مع الرديئة فى قلة التوزيع . ولا أعرف إن كان هذا بالأمر السيىء أم الحسن ، فقد جعلت ظاهرة «موت القارىء» الكاتب أكثر حرية ولكنه أصبح أكثر مسئولية أيضا ، لأن عليه أن يجد طريقه فى الظلام التام ، ليس هذا فقط ، بل عليه أن يتفادى العمى الذى يمكن أن تسببه أضواء النقد القادمة من الاتجاه المعاكس .

لايمكن للكاتب إلا أن يستشعر نوعا من الريبة تجاه كثرة من الكتابات النقدية تحاول أن تشد الكتابة بعيدا عن الكتابة ؛ إذ تقفز على جماليات الإبداع وتصنع منه بديلا لنشرة الأخبار ، عندما تتخذ من حجم المعلومات التى تتضمنها رواية أو مجموعة قصصية عن مكان معين أو جماعة بشرية معينة معيارا للجودة .



حتما الكتابة فى مكان آخر ، لأن إلقاء الضوء على حياة مجموعة بشريه او كشف ممارسات اجتماعية أو سياسية أمر يقوم به التحقيق الصحفى بشكل أفضل مما تستطيع رواية ، بينما يستطيع التحقيق التليفزيونى أن يقدم ذلك موثقا بالصوت والصورة . ولا يمكننا أن نتهم بسهولة النقد بمعاداة الكتابة ، ولكن «النقد الصديق» مثل النيران الصديقة فى الحروب ، بوسعه أن يوقع القتلى فى صفوف الحلفاء .

هل يمكن أن نتلمس العون لدى الكتاب المجيدين ؟ ربما يهتدى الكاتب إلى نوع من الحدس الخاص ، من خلال محاولة البحث عن أسباب البقاء فى المبدعات الإنسانية الكبرى : ألف ليلة وليلة، دون كيشوت ، البحث عن الزمن المفقود ، الأخوة كرامازوف ، مائة عام من العزلة ، الطبل الصفيح وغيرها . مع ذلك يبقى الكاتب محكوما بقدره الخاص ؛ لا تضمن مراقبة كل الكتابات الجيدة مولد كاتب مجيد ، مثلما لايمنع وجود أعداد كبيرة من الأولياء القديسين ميلاد مذنبين جدد .

ما الكتابة ؟!

يؤرقنى السؤال كلما تذكرت بإشفاق – مثل دكتاتور طيب – [illegible] روايات وقصص قصيرة مكتملة لا أعرف سر التحول الذى أفسد علاقتى بكل منها ، وأوصلنا إلى هذا الشقاق .

وبدون التوصل إلى إجابة ستبقى أبواب زنازينى مفتوحة ، لا للإفراج عن المسجونين السابقين ، بل لاستقبال نزلاء جدد ، فكثيرا ما أجد نفسى فى مرحلة ما من الكتابة مدفوعا إلى التوقف والانصراف عن عمل بدأته ، دون أن أدعى قدرة على القتل تمزيقا وحذفا ، فألجأ إلى الحل الوسط : أتركه سجينا فى ذاكرة الكمبيوتر ، على أمل إما أن يتهذب وينصلح فأستكمله ، وإما أن تتدمر ذاكرة الكمبيوتر فتموت الكتابة فى حادث عارض دون مسئولية منى .

محاولات سرية

هكذا صار عندى عدد كبير من المحاولات السرية وأربعة علنية ، لماذا أفلتت هذه الأربعة ؟ هل كانت هذه المحاولات الناجية محظوظة لأنها وجدت من عطف الأصدقاء الذين قرأوا مخطوطاتها ما جعلها تنجو من مصير التجارب الأخرى ؟ لكن عطف الأصدقاء – رغم أننى أعول عليه كثيرا – لا يأتى إلا عندما أستنفد كل جهودى وأسير باتجاههم بمخطوط كامل بقليل من كثير من الخوف ليقرأوا ويضعوا بأنفسهم حداً لمخاوفى فيصدر الكتاب .

مع ذلك ، ما من ضمانة على أن المنشور هو الأكمل ، مثلما لايضمن أى دكتاتور أن يكون بعضا من أقرب ندمائه أشد عداء له من أخطر مسجونيه .

ما الكتابة ؟

يوما بعد يوم يزداد اللغز صعوبة ويتضاعف شكى فى جدوى ما أفعل ، ولكننى وجدت أخيرا طريقة التوازن : إن معرفة أوديب لحل اللغز لم تنقذه من المصير المحتوم !

لتبق الكتابة سرا ، ولكن بوسعى أن أتلمس خيطها الهش والرفيع ، كما فى الحب ، من سعادتى الشخصية .. أتأمل محاولاتى فى الكتابة ، واكتشف أن سعادتى تتجلى فى روح اللعب . وأن هذه الروح كانت منذ البداية – ودون أن أدرك – القيمة العليا والشرط الوحيد الذى يحدد نوع ما أكتبه رواية أو قصة أو نصا ، وهى أيضا مايحدد إذا كنت سأصل بهذه المحاولة أو تلك إلى النهاية أم أتخلى عنها فى منتصف الطريق وأحتفظ بها سرا من أسرارى الشخصية . ■

كتابة تحت الحصار

بقلم
سحر الموجى

سمعني صديقي الشاعر وأنا أحدثه عن انغماسي في كتابة جديدة منذ فترة ليست بالطويلة . وكان مندهشا «كيف تكتبين في خضم كل هذه الانشغالات!» . أعرف أنه يعرف جيدا أنني أعمل في أكثر من وظيفة ولكل منها متطلباتها وضغوطها . ولكنني رددت «علي أن أصبح أكثر واقعية وألا أنتظر مساحة من الوقت المتصل كي أكتب» .

ربما لا أستطيع أن أعمم حالتى على زملاء وزميلات فى طريق الكتابة الصعب، ولكننى أعرف أن الكثيرين منهم يعملون كثيرا وطويلا كى يلبوا متطلبات الحياة واحتياجات الكتابة أيضا . متطلبات الحياة هذه نفهمها . أما احتياجات الكتابة فربما تحتاج هذه النقطة لشرح لهؤلاء البعيدين عن المجال

إن معظم كتاب هذا الجيل ينشرون على نفقتهم الخاصة وحتى إن لم يفعلوا فهم لايتلقون منها أى عائد مادى . لماذا يكتبون إذن ! الحقيقة أننا نكتب لأننا نرى الكتابة طريقا للفهم . فهم للذات وفهم للآخر وتعبيرا عن موقف من الحياة . ولأن الكتابة لاتوفر العائد المادى يدعم الكاتب ويجعله يعلن أنه يعمل بالكتابة وتوفر له ساعات من البحث والتأمل يحتاجها كل من يعمل. بالفكر لايصبح هناك العديد من الاختيارات إلا أن تعمل فى وظيفة أو اثنتين حتى تعيش وتكتب .

والحقيقة أننى لا أتعامل مع الأمر بأى قدر من المأساوية أو العويل . على العكس أنا متوائمة مع الواقع الذى أعيش . متوائمة لدرجة أننى أحاول أن أفسح وسط الانشغالات بعضا من الوقت والمساحة النفسة للكتابة . وهذه

الرواية التى بدأتها ولا أعرف إلى أين تذهب بى قد ولدت فكرتها داخلى منذ أكثر من أربع سنوات . أرجأتها حينا حتى أنتهى من رسالة الدكتوراه وحينا آخر لأننى أود الاحتفال بأول وقت أعيه بلا مذاكرة (فلقد وعيت على الحياة وأنا أذاكر حتى تلك اللحظة) وحينا للقراءة للرواية أو لانشغالى فى مشاريع عمل هامة . وكنت مع بدايات هذا العام أشعر أن هذا هو عام كتابة هذا النص . ولكن هل تواتى الظروف «سأجعلها تواتى» . هذا ما قلته لنفسى وأنا متوجسة منى ومن الحياة .

وبدأت أواجه نفسى ببعض المناطق الجوانية لدى التى أحتاج التصالح معها . عددت هذه النقاط وبدأت أواجهها واحدة تلو الأخرى . ربما يتساءل أحد القراء عن العلاقة بين الذات والكتابة . ليس لدى إجابة حاسمة إلا يقينى أننى لن أستطيع كتابة هذا النص إلا بعد أن أخطو إلى منطقة نفسية أنضج وأكثر توازناً مما كنت عليه، كان علي أن انظر إلي السنوات القليلة الماضية وأقيمها وددت أن أري المناطق التى تخليت عنها طواعية والأخرى التى سمحت لها بالتحكم فى ولم أكن واعية بها وربما أستطيع استشراف مسالك أطرقها . وقطعت شوطا فى هذا الاتجاه لدرجة أننى أحيانا كنت أضبط نفسى فجأة أتحدث إلى بصوت عال . صوتى يطمئننى أننى أتصالح أكثر وأفهم أكثر .. وحدثت اللحظة السحرية يوما عندما انتصرت الرغبة فى الكتابة على الخوف من عجزى . وكانت تلك اللحظة فى منتصف إبريل «أقسى الشهور» كما يقول ت.س. إليوت إذ أنه شهر تفتح حيوات جديدة من موات سابق . وجدتنى أكتب .

وجدت شخصيات الرواية تظهر لى فى أوقات العمل وأثناء قيادة السيارة فى حر القاهرة وزحمتها . تصاحبنى حتى مع الانشغال . وتأخذ موقع الصدارة وأنا أعيش بعض الصراعات الإنسانية وسوء الفهم بينى وبعض القريبين منى . وبعد أن يأتى الليل أوقد شمعتين وأعلو مع موسيقاى إلى زمن وشخوص تأتى من داخلى وإن كانت تأخذ وقتها فى التشكل . العتمة المطبقة تنزاح رويدا وتفسح مجالا لملامح ما أن أتبينها حتى أسارع فى تدوينها قبل الزوال . وقبل أن أنام أكون قد خططت لليوم التالى . عمل ومهام لابد من إنجازها ولكن عندما يأتى اليوم التالى وأجد شخوصا وأزمنة تلاحق تفاصيل اليوم العادية أو التى كانت عادية قبل بدء الكتابة يبزغ داخلى يقين أننى بالفعل فى حالة كتابة حتى لو كانت تحت الحصار. ■

تجليات الزمان والمكان لمدينة دمياط في روايتي (الغرق) و(نوة الكرم)

بقلم
نجوى شعبان

في شهر مسري/ أغسطس بينما تميل شمس العصاري كانت النسائم القوية تذرو الرمال الناعمة وتفتت الأصداف لتلقيها على مصد أنشأته إنشاء وهي الكثبان الرملية الهلالية في مصيف الجربي بدمياط حيث ستبدأ جدتي دفن جسمها في حمام الرمل لعلاج الروماتيزم، استأنفت الجدة حكايتها وهي تتضو بعض ثيابها في حجرة حفرت في بطن الكثيب..

تجتر ذكرى مواسم الفيضان العفية الزاخرة بأسراب سمك السردين السمينة، مع مؤانستي لها تلتمع عيناها حنينا، يتصبب وجهها وجسدها عرقا في الدفن.. تقول كطفلة فرحة أنها رأت «الدراقيل» في موسم السردين الذي يعكس أضواء خافتة على سطح كل من البحر والنهر على حدة وأيضا بعد اختلاط مياههما في لسان رأس البر، وتحكى عن طيور النورس التي تظهر في سماء دمياط فقط في هذا الموسم.

أينما وليت وجهك تجد المياة تضمك فأنت في دمياط، التي نحت أسمها من «الماء باللغة الهيروغلوفية» ثم أتى «أي مدينة المياه أو مدينة مجرى المياه» وقبل قرون كانت ذات ثغرين: نهرى وبحرى كشبه جزيرة يحدها شمالا بحر الروم/ البحر المتوسط، نهر النيل، بحيرة المنزلة، ويا لثرائهم جميعا، فالصيادون القدامى كانوا يرتجفون فرقا لدى انبثاق نافورة من النيران على فترات متباعدة في بحيرة المنزلة ويرون هذا من أعمال الجن والشياطين، غير منتبهين إلى أن رائحة النيران تشير إلى النفط المخبوء في قاع البحيرة، وفي الملتقى الثقافي الأول الذي عقد بمحافظة دمياط في شهر سبتمبر الماضي يؤكد نيافة الأنبا بيشوى مطران دمياط مكتنز بالآثار القبطية.. أما البحر فهو انفتاح على العالم ومكمن التعرض للغزو والغارات.

لما كبرت قليلا، حدث أن صعدت سلالم حجرية مرهقة لبيت حجرى عتيق وعال يعود إلى قرون مضت دلفت إلى شرفة في الدور الأعلى، فشعرت بشئ غريب: تتغللنى بهجة ساكنة وإحساس لم أسمه يومها - الحرية- وبأنى أعرف أشياء لم يسبق لى أن سعيت لمعرفتها حقا، .... و .... وأن هذه اللحظة لن تتكرر كثيرا ولأنى أفكر بمنطقية اعتبرت أن المشهد البانورامي لمدينة دمياط الذي يبدو

واضحا من الشرفة هو السبب، غير أني بدأت السؤال والاستفسار والقراءة، ولم يكذب حبوري أنذاك فخلفي في هذا المشهد كانت تقع قصبة الثغر في القرن السادس عشر ومسجد البحر والوكالات والقيساريات التجارية والخانات ومكاتب القناصل الأوروبية بدمياط وبحذاء النيل البيوتات الثرية لأعيان دمياط: كبير التجار، القاضي، كبير الصاغة، يهودي الجمرك أرمني الصرافة قبودان ثغر دمياط، وعلى مدى الشوف «سوق اللبن» القديم وبه كنيسة «مارجرجس» التي بنيت في القرن ١٧ تضم عظام القديس مارجرجس مزاحم، عن يساري يقع سوق الحسبة الذي لايزال يحمل اسمه حتى الآن حيث كان المحتسب وشيوخ الطوائف كافة، هذه الطوائف التي اقتضتها الحاجة من قبل الحرفيين في مصر والتي كانت تعد شكلاً أوليا لممارسة ديمقراطية من بيئتنا، وفي البعيد تربض أوقاف السلطان قنصوه الغوري فوق جزيرة القصبي التي طمرتها الفيضانات... وثمة خليج يخاصر المدينة ويصب قرب قرية شطا.. البيت الحجري في طفولتي أعاد لذهني الأحجار الضخمة التي ألقاها الظاهر بيبرس لإغلاق مدخل مصب دمياط أمام السفن التجارية الكبيرة تحسبا من أية هجمات حربية بعد الصليبيين فدمياط هي مفتاح النيل الموصل لقلب مصر .. في هذا كله أحب دمياط التاريخ، إذ كانت مدينة كوزموبوليتانية وبها ثغرين تجاريين وتضارع مدينة البندقية أنذاك تعرف بنسيجها الدقيق كالحرير والقباطي وكسوة الكعبة المشرفة وقلعة عسكرية حصينة صدت الكثير من هجمات الصليبيين التي أرخ لها، وغارات القراصنة التي لم تسجل بوضوح فهي في حكم المهمل والمهمش، ولأن الأهالي من البحارة هم من يتصدون منذ ما قبل الميلاد وحتى عصر الحكم العثماني للقراصنة.. فليس من المستبعد أيضا أن يكون من بين سكان المدينة قراصنة، وبخاصة أن حركة القرصنة في بحر الروم كانت تعكس بدقة مدى توازن أو اختلال القوى لدول في حوض البحر المتوسط، ولا ننسى الأصول الشامية (الفينيقية) والقبرصية واليونانية لأهل دمياط .



لما تراجعت قيمة دمياط بعد حفر ترعة المحمودية سنة ١٨٢٠ على أيام محمد علي، تكاثفت الخسارة بحفر قناة السويس وقيام مدن بورسعيد والإسماعيلية.. لكن تاريخ دمياط وجغرافيتها يرشحانها كمكان لايتطلب الضعف واليأس والاستسلام فأبدعت عقول أهل دمياط صناعات جديدة كصناعة الحلوى والأحذية وتحول كل بيت إلى مصنع صغير لغزل الحرير، وحتى التربة استفادوا من عيوبها بزراعات غير نمطية.. إنها مصر مصغرة... ولننظر تحايل البطلة «ليل» كي تكسب عيشها في ظل ظروف اقتصادية ضاغطة... وإذا طفح الكيل تتمرد شخصيات الرواية وناس دمياط عبر النقش بالأنامل وبالروح، بالنقش سواء على المخبوزات على الخزف، على أقدام الناس وعظامهم، الكتابة وصناعة الأحبار، كبعد وجودي وإن لم يؤتيا أثرهما الفوري أو القريب تمردوا عبر النزق كما في ليلة يوم القيامة في الخرابة التي حاوطتها المياه فيما بعد لتندثر، في هذه الليلة سخر الدمايطة بخيالهم الطافي من السلطان والوالي وكبار العسكر العثمانلية بتقليد لبسهم الخلع السلطانية من فرو السمور، وأبرز المشوهون عيوبهم الجسمانية بفخر لا يدانية سوى عشق نرسيس لجسده

وجماله ولم ينسوا الرقصات المعربدة فى ضوء القمر الفضى.. ثملوا وانسلطوا عاشوا لحظة خارج زمان الوعى والمنطق، لحظة فى بؤرة منطقة الظل والعتمة فى الجماعة: لاشعورهم ميتافيزيقا البحر تغمرنى بتجلياتها اللانهائية فى شعابه وفى أعماقه، فى طيات تياراته، فى صخب وسكون أمواجه، رياحه، وأنوائه، فهل دخلت عرض البحر بعبور مياهه المعتمة أحيانا، أم كررت لفظة البحر ٦٥ مرة عبر صفحات الرواية علنى أتوحد مع موسيقاه الأداجو والكريشندو فى حركة الأمواج أصف أنواء الكرم (موجة واحدة كالجبل داهمت سفن القافلة فردمتها، بعثرتها، أماجتها ففقدت الاتجاه والتوازن، انفتح كهف داخل الأمواج، فظلت تدور حول بعضها، حتى توقفت الرياح والأمطار واصطخاب الأمواج مخلفة البرد القارس، أحدث ارتطام سفن القافلة ببعضها البعض خسائر أفدح من أنواء الكرم نفسها، تتطوح سفينة لتأخذ اتجاه العرض فتأتى أخرى مندفعة تضربها فى منتصفها لتتحطم وتغرق فى حين تتهشم مقدمة الثانية وتتسرب المياه إلى جوف السفينة.. كانت سفينتنا الأحسن حظا، إذ لفظت إلى البحر كل مئونتها والبضائع فى الخن وبعض البحارة والتجار ثم استوت متوازنة ثم مالت يمينا فانزلقت اندفاعات الأمواج إلى البحر من جديد.

وفى الحلم الرئيسى فى الرواية يعن للبحر أن ترسم خطوط القدر عبره (أمال رأسه فى إغفاءة مباغتة، فزع منها غيث وقد ظنها أعواما، رأى نفسه يطفو على سطح البحر وحيدا، والطريق إلى رودس لايزال طويلا .. طويلا هل سيقطع هذه المسافة سباحة فى هذا الشتاء القارس، يرتجف من صقيع المياه .. هاهو الآن فى رودس يبحث عن نور الدين، النار تلتهم الجزيرة، ما إن تقع عيناه على مبنى حتى تدكه النيران، يترك الحى المحترق مخلفا وراءه أسواره وبوابته وقد ضربتها الصواعق، يتجه إلى جبال قريبة : إنه الطريق، البيوت مخفية وسط تدرجات الجبل، حتى هذه تشتعل ورأى دار صغيرة ذات قبة باقية على حالها يقف على بابها صبى، أشاح بوجهه إلى جهة أخرى، ثم صرخ : كيف لم أعرفه، إنه نور الدين، عاد ولم يجد الدار ولا الصبى).

وفى هدوء قبل الكارثة (على صفحة ماء ساكن بلا زبد، ضربت مجاديف سفينتنا على غير هدى فى الظلام السمع الرهيف للمجدفين أيقظهم من سبات الاطمئنان، فأبلغوا الريان .. أمر بدوره بإيقاظ الأعور الذى صعد إلى سطح السفينة، رغم أن له عينا واحدة، كان ذا قدرة لاتوصف على الإبصار فى الظلام، إذ ينظر إلى الشئ من جانب عينه مما يعطيه صورة أوضح من توجيه النظر المباشر الشئ نظر الأعور فى اتجاه الظلمة البعيد، وحرك عينه المبصرة الوحيدة ذات اليمين وذات اليسار وإلى أعلى وإلى أسفل، ثم توجه إلى القائد) .

وكما نصح جدى حفيده ذات يوم بعيد فى طفولتى، استدعى غيث فى نوبة إغماءة الترجمان مع أصداء التراتيل، شأنه شأن معلم يقول ياولدى الموج أنواع ثلاثة مثل مواقف الحياة الصعبة، موجة عالية، عالية كجبل تظنها غادرة، تتراجع إلى الوراء فتضربك بعنف، فقط لو وقفت مكانك، فإنها ستتجاوزك، ويتلاشى هياجها وتصبح ساجية حال مرورها بك .

حاول غيث الوقوف فى الماء، شعر كأن دوامة تسحبه إلى أسفل، ففزع وجدف بطاقة الهلوع ياولدى، ثمة موجة عالية، إذا تراجعت للوراء أكلتك، ولو قذفت بنفسك داخلها، وتركت نفسك للتيار ستنجو حتما، اقتحمها واسبح مع التيار، ليس ضده .

فعل غيث ما أوصاه به الترجمان فوجد نفسه مبتعدا كثيرا عن سفينة

القراصنة والتى تراءت كمنقذ وحيد ودونا حتف محتوم .

يا ولدى الموجة الأخيرة صاخبة عنيفة كالقدر الذى لامفر منه، فارم صيدك من السمك وأدوات صيدك ركز اهتمامك على الحفاظ بيديك على دماغك ورقبتك ستقصد الموجة العنيفة دمك، ستصدمك بالصخر ويمتلئ جسمك بالجروح والرضوض لكنها لو تعرف : أقل الخسائر .

ياولدى، لاترفس فى البحر الرفس انهاك للطاقة واهدار لها، وثمن فعل هذا جد باهظ .

وإذا كانت جدتى تنتظر النوارس فى موسم الفيضان والسردين، فكان طائرى الذى تعلقت به هو «الغر» طائر مهاجر ألوانه بين الأبيض والأسود يأتى من شمال أوروبا إلى سواحل مصر الشمالية سعيا للدفء ، ومع توقى لمشاهدة أسرابه كنت أخشى أن يقع ضحية إرهاق طيرانه آلاف الأميال فيجرى صيده بسهولة ببنادق الرش أو شباك الصيد بنبات المخيط الذى يفرز مادة صمغية يلتصق بها الغر الذى اتخذته عنوانا لروايتى الأولى كرمز إلى الارتحال والاستقرار معا، وكل شخصيات الرواية كذلك: مهاجرة، مرتحلة ومقيمة فى «الغر» اهتممت بشخصيات لم تنتزع فقط من أوطانها، بل وليس ثمة أمل فى العودة إليها، مثل الصديقة الأرمينية لصافيا الجدة التى كانت تعمل بالتطريز الذى يمنحها مأثرة معرفة الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمرأة من درجة تطريز ملابسها .

لهذه الأسباب كتبت الروايتين عن مدينة دمياط/ التاريخ، ليس لأنها مدينة طفولتى التى تختلف كثيرا عما قلته آنفا، فتاريخ على هذا النحو يأتى بحمولته من الغواية بالحرية وارتياد المنطقة خصيبة غير مجرفة فى فن الرواية .. وأهدانى مولد الست دميانة/ سانت دميانة وبعض ممارسات الورع أو الهوس الدينى الذى يصل حد الإغماء، أهدانى بعض مفاتيح لشخصية المتطهرة أمونيت .. وإذا كان التاريخ لا يعيد نفسه إلا لمن لم يقرأه جيدا، من هنا أرادت هذه الشخصية أن تبتعث الأجل والأجمل والأجدى، حتى لا نعانى مجددا من القطيعة المعرفية عن ماضينا التى أرهقتنا ولاتزال، لنتساءل كل يوم عن هويتنا!!! أصرت أمونيت على أن يدون الترجمان العامية القبطية وفق ما تنطقهامرأة عجوز فى الصعيد ونقل هذه إلى العامية العربية، أو بشكل أدق العامية المصرية .

وهنا استعير وصف د. ثناء أنس الوجود فى وصفها لدمياط فى الرواية بأنها «واسطة عقد» من حيث المكان ففى لحظة تاريخية فى القرن السادس عشر يمتد فضاء الحكى من دمياط إلى المشرق وتمتد إلى الصحراء فى الغرب وإلى القسطنطينية وإلى البحر المتوسط (بحر الروم) وتنزل ناحية الجنوب فى الصحراء حيث القبائل الذاهبة للتجارة شمالا وجنوبا، وحيث قبائل الحجيج.. فى مسعى لفتح نوافذ الحكاية على أكثر من هواء لكى يدخل لاقتناص اللحظة ومحاولة الاحتفاظ بها.. هل اللحظة مهددة حتى أستطيع أن أقتنصها؟ إن الوجود مهدد، ومهدد فى العمق، والحضارة موجودة ولكن عملية النقش تعمقها .

أخيرا أقول لو سألونى عما كنت أبغيه فى مستقبلى المهنى كبديل للصحافة والكتابة، لرددت من فورى :

– العمل بالبحر .. بحار/ بحارة ؟
– ممكن
– قرصان/ قرصانة ؟
– جائز .
– دولفين ؟
– عز الطلب . ■

ذلك الشيطان الذي بداخلي

بقلم
محمد إبراهيم طه

(١)

لايمكنني بشكل محدد أن أرصد متى دخلت عالم الأدب، فإن ثمة إرهاصات وعلامات لايمكن التغاضي عنها، كالذهاب إلى الكتَّاب مبكراً، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وإجادة بعض قواعد اللغة العربية، والنشأة في عالم قروي لامحدود، خصب وثري ينهض أساساً على الحكي: من السمر وحواديت الجدات الخرافية إلى السير الشعبية والليالي الدينية.

وليس من قبيل التباهي أيضاً أنني لا أعرف إن كانت بواعث الكتابة هي الشغف بأطباء دخلوا عالم الأدب، أم هي أحلام اليقظة التي كنت أسرح فيها طويلاً متخيلاً نفسي كاتباً، أم هي المفارقة، لأن ولداً ولد وتربى في قرية، ونزل ترعها وأنهارها وجرى على مدقاتها وامتهن مرغماً جميع الأعمال الحقيرة ثم تطلع ذات يوم لأن يتم تعليمه ويدخل كلية مرموقة ويتزوج امرأة بيضاء وينجب أطفالاً ويبني بيتاً، لتكون المفارقة بين الواقع والطموح هي الباعث على الكتابة، غير أنني لم أعد أميل إلى هذه النظرة فقد فتر - منذ وقت طويل - شغفي بالأطباء الأدباء، وتخطيت أحلام اليقظة، وزالت أسباب المفارقة، ومازال الكائن الذي بداخلي - والذي لا أنتبه لعبثه كثيراً - يفاجئني بنسجه الدءوب لحكايات لا أملك إلا أن أنظر إليها وابتسم.

(٢)

(أغنية للنهر) قصتي القصيرة الأولى المكتملة الأركان والتي كتبتها منبهراً بهذا الاكتشاف: إن البساطة في اللغة والتناول ليست بالضرورة مرادفاً لبساطة العالم الذي تحكي عنه. فبإمكانك تناول أعقد العوالم والقضايا بذلك التناول البسيط. كان ذلك في منتصف الثمانينات، وكانت تحكي عن طفل قروي في كتَّاب الشيخ يعشق النزول إلى النهر، بينما يحظر سيدنا - ضمن مئات المحظورات - النهر على صبية الكُتَّاب. ولأن الأمر جد لا هزل، والكتَّاب ليس سويقة، فإنه يرسم نجمة على ظهر الولد، فإذا نزل النهر انمحت، عندئذ يأمر فيوضع الولد في الفلكة، والفلكة لمن لايعرف هي أقسى أداة للعقوبة عند سيدنا، وهي عبارة عن خشبة بها حبل توضع قدما الولد فيها ويبرم الخشبة ولدان قويان ويرفعان حتى يحكم الحبل

الخناق على قدميه اللتين تصيران في مواجهة سيدنا فينهال بعصاه الطويلة بشراسة. انضرب الولد ورسم سيدنا النجمة، لكنه حاول عصر ذات اليوم النزول إلى النهر كي يبرد قدميه الملتهبتين في مائه الأخضر حيث لاثعابين ولاجنيات، إنما فقط عشب أخضر. تمحى النجمة فتمتد يده التي صارت مدربة إلى آخرها ليرسم بنفسه النجمة على ظهره، غير أنه لايلبث أن ينتهي حتى يأخذ أنفار الشيخ العائدون هدومه، لتوصيلها إلى زوجة أبيه ويمشون به إلى سيدنا، وحين يعود عارياً تهدده زوجة أبيه بأنها سترسله من باكر إلى حقول الشيخ، وأنها ستقول لأبيه، فيدخل عاريا أسفل الحرام الصوفي لتتنابه الكوابيس فيضربه الخولي بالعصا حين يتباطأ في جني الشيخ، يهرب فيطارده سيدنا بشكله القبيح وزوجة أبيه فلا يجد مفراً سوى القفز في النهر، ليصحو على الدماء تملأ وجهه وهو مكوم أمام الفرن.

أغنية للنهر كما يبدو لأول وهلة من عنوانها توق إلى التخلص من قهر سيدنا وسلطة زوجة الأب وسلطة الخولي، ورغبة ملحة في ممارسة الحياة بحرية تامة حتى ولو كان ضربه أو غرقه ثمناً لهذه الحرية. لكنني كنت معنيا بتقديم مفردات عالم القرية كما هي مستكشفاً الجمال الخفي فيها.

التقنية بسيطة : سرد بضمير المتكلم من خلال خمسة مقاطع على لسان طفل، ولغة بالغة العذوبة والصفاء والبساطة، فصحى في السرد وعامية ريفية في الحوار.

(٣)

في منتصف التسعينات تجمعت لديّ مجموعة قصصية أسميتها : (توتة مائلة على نهر)، وكنت سعيداً أيضاً بهذا الاكتشاف : إن عذوبة التناول هي الأفضل في مقابل قسوة الواقع، فحرصت أن يسيطر عالم الريف لأنني أقف منذ فترة طويلة في منطقة بالغة العذوبة والثراء وهي عالم القرية، الريف بموروثه الشعبي وشوارعه الضيقة وحاراته ومقابره ومدقاته وترعه، وكنت أحاول أن أثبت مقولة مفادها أن عالم الريف مازال قادراً على إثارة الدهشة، ويصلح منفرداً لأن يكون بناء لأعمال درامية وروائية دون الاحتياج إلى عالم المدينة.

وكنت مهتماً في هذه المجموعة بإدارة الصراع بين العلم من جهة والأسطورة والخرافة والموروث الشعبي من جهة ثانية، فاكتشفت في قصة « عقد عقيق » وأنا أدير الصراع بين الطب الحديث والطب الشعبي الريفي، من خلال طبيب أمراض نساء وقابلة، تلك الخاصية الفريدة للقرية المصرية التي لايتعايش فيها العلمي بجوار الأسطوري والخرافي فقط بل يتداخلان ويتضافران بشكل لاينبىء في القريب عن إزاحة أحدهما للآخر.

(٤)

كشف الشيطان الذي بداخلي نفسه حين لفت نظري إلى أن (توتة مائلة على نهر)، المجموعة الأولى لم تتسع لما أردت قوله عن الريف، لطبيعة القصة القصيرة التي لاتسمح للكاتب بالغوص داخل مساحة عريضة وإعطاء صورة كلية، فجاءت (سقوط النوار) التي اتبعت في تقنيتها بناء يطلق عليه سمير درويش بنية نقطة الارتكاز، وهي قصة صغيرة تدور أحداثها في الزمن الحاضر، ينطلق منها السرد إلى الماضي ويرتد إليها كلما تطلب الأمر، وهي بنية أتاحت لي تناول فترة طويلة جداً ، أغوص من خلالها في ردهات الماضي البعيد والقريب وانتقل

بانسيابية ونعومة عبر الأزمنة والشخصيات والأحداث دونما تقيد بتتابع أو سببية، خاصة إذا كان الارتداد للخلف في الرواية هو الهدف ، واستيعاب هذا الكم من الأساطير والطقوس والموروثات الفرائبية، عندما يلتقى طالب فى كلية الطب بزميلة له ويعيش معها علاقة حب، تتكشف أثناء تنامى هذه العلاقة أشياء مبهرة حين يحكي عن قريته وعن جدته بغداد وأبيه عبدالفتاح يونس وخاله عز الرجال، عن الكتّاب وعن سيدنا وعن المقابر والقراءات والرواتب ، وعن مقامات الأولياء وعن أمه رحمة، ويتضح من خلال السرد أن مريم الحرايرى سورية من أب سورى وأم مصرية، ولدت أيام الوحدة، وبعد الانفصال عاد أبوها إلى سوريا، وطلقت أمها لتتزوج بأخر فتعيش مريم وحدها بعيدة عن الأم والأب وتتعرض مريم لأزمة صحية إذ تصاب بسرطان الدم ولا يكون ثمة أحد بجوارها سوى الراوى، ولا يكون ثمة ملجأ سوى الهروب إلى الماضى بحلاوته، حيث خاله عز الرجال ذلك الولد الأسطورى الذى يفعل أشياء خارقة، فيعوم عكس التيار، ويتسلق الشجر كأنه يتسلق السلم، ويبنى أفراناً، ويجلب الحناء لأول مرة إلى القرية، ويختن الجمين، ويخرج فى أول سابقة من الكتّاب وحده دون أن يكون باستطاعة أحد إعادته إليه، حتى أنه يتماهى مع شخصية جمال عبدالناصر فيحتفى يوم موته. لا يتوقف عند ذلك، بل يهيأ للراوى حين يتمشى أمام جامع جمال عبدالناصر فى شارع الخليفة المأمون أنه لو حدق بداخله سيجد خاله واقفاً عارى الصدر مكللا بالصفصاف يتقاطر الماء منه كأنه صعد لتوه من النهر يبتسم. كما تجتر مريم الحرايرى ذكرياتها عن أبيها المحبط لانتهاء الوحدة، مقارنة بين ماض جميل وحاضر قبيح يطالبونها فيه بدفع مصاريف الدراسة بالدولار لأنها ضمن الأغراب، وتتزوج أمها من رجل يبالغ فى كراهيته لها حتى أنه يسمى مولودته من نفس الأم مريم، وكأنه يريد مريم أخرى خالية من العقد والمشاكل، يزداد المرض وتتفاقم الحالة حتى أنها تقرر الذهاب مع الراوى إلى قريته لتسقط كنوارة بين الحقول رافضة العلاج من مرض نهايته محتومة، سعيدة بعلاقاتها الجيدة مع أناس يحبونها وقرى تكتشفها.

(٥)

كلاهما كالفريك لايحب الشريك الروائى الذى بداخلى والطبيب، وأيهما - على انفراد - بإمكانه ابتلاعى طول الوقت، سواء بالقراءة والدراسة والتدريب الطبى المستمر، أو متابعة الإنتاج الأدبى فى مصر والعالم العربى والعالم ثم اقتناص الوقت للكتابة، وكم هو شاق وأنا بينهما أتنقل، طبيب نصف الوقت وأديب نصف الوقت، متعتى فى عذابى، وعذابى فى عشقى الجامح لضدين يتنازعاننى طول الوقت.

(٦)

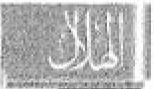
يعيش الروائى داخلى فى عالم معتم، غائم وغامض يستعصى على الوصف والشرح والتفسير، يفتقر إلى السببية أو المنطق، عالم كبير لكنه مغلق كصندوق بدائى مفعم بالهواجس والخيالات والأساطير والخرافات والأفكار الشاردة، يحاول أن يتوصل إلى القوانين الخفية التى تحكمه والوصول إلى المنابع الحقيقية للحكمة والروح والعقيدة، فينطلق إلى المستقبل بنفس السهولة التى ينطلق بها إلى الماضى، ويطوف فى أرجاء هذا العالم دون اعتبار لحواجز أو حدود حين يغافلنى كشيطان ويمتطى أياً من

الأساطير أو الخرافات التي تجابهني كل يوم ولا أنتبه إليها، بدءاً من إغلاق زوجتي باب الحمام جيداً حتى لاتخرج إلينا العفاريت، إلى تمتمة أمي بالرقية وتلاوة التعاويذ خشية الحسد، التطير من بعض الألفاظ والكلمات العابرة، وزلات اللسان، مروراً باعتقاد الباعة في أول بيعة حتى ولو كانت بسعر زهيد وسعيهم الحثيث إلى إتمامها وعدم رفضها الذي قد يعني نذير شؤم للبائع ، إلى المشاهرة التي لاتؤدي إلى جفاف اللبن فقط، بل جفاف الجسم كله، والإصابة بالعقم، ويتتبع قوة المعتقد الذي لايخالطه الشك بدءاً من ختان الإناث والصد وإمكان الأذى والربط والسحر إلى تنبيهي حين أتوجه إلى النوم أن لايكون اتجاه رأسي إلى القبلة التي لايدار المرء إليها إلا في الموت.

كمهتد في ليل صحراوي بالنجوم، يقتفي الروائي الذي بداخلي هذه الخيوط المراوغة ، ومعتبرا أن أي عمل روائي يخلو من الجاذبية والإدهاش لايعد عملا ذا أهمية ، فيتجنب الاستطراد ويجعل السرد مكثفا ويضفر بلا اصطناع الموروث الشعبي والتاريخي والديني بأجواء الرواية، ويقدم الإنساني على الأيديولوجي، ويقدم الواقعي الذي لايتاخم الأسطوري فقط بل ينافسه، فلا يشعر المتلقي أين ينتهي الواقع ولا أين تبدأ الأسطورة .

لم تكن الرؤية واضحة منذ البداية كما هي الآن، لكنها مرت بمحطات ومراحل، فبعدما كان الروائي بداخلي شغوفا وسعيداً باكتشافه أن البساطة في التناول ليست دائماً مرادفاً لبساطة العالم الذي يحكي عنه في «توتة مائلة على نهر»، أو أن عفوية التناول هي الأمثل في مواجهة قسوة الواقع في «سقوط النوار» انتقل في «الركض في مساحة خضراء» انتقالا مشروعا تحت وطأة الملل وخشية التكرار إلى محطة أخرى، عندما اكتشف أن الأخذ عن الواقع وحده مهما كانت عفوية التناول وبساطته لاتكفي، وأنه وهو المهموم بمتعة القراءة والإدهاش رأى أنه يجب أن ينتقل الآن إلى محطة أخرى، كانت لها إرهاصاتها في أعمالي الأولى، ألا وهي إفساح المجال أكثر للخيالي والأسطوري، فجاءت «الركض في مساحة خضراء» جامعة بين قصص واقعية تنتمي إلى المرحلة الأولى، وقصص أخرى بها تلك المسحة فوق الواقعية، إلى أن وصلت الذروة في روايتي «العابرون» تلك التي اختلفت تماماً عن سقوط النوار، في العالم والأشخاص واللغة والرؤية، حيث خيم ذلك العالم الروحي والخيالي والصوفي والسحري والخرافي غير المحدود، فاختلط السحر والشعوذة بالكرامات والمشاهدات، والحلم بالواقع ، والمعراج الروحي بعوالم من الجنون والتشوش.

باختصار، يرى الروائي الذي بداخلي - والذي بإمكانكم الاتفاق معه أو الاختلاف - أنه لاتوجد رواية جديدة، ، منقطعة الصلة بالمنجز الروائي، بل إنه يرد ببساطة أشد الروايات تجريباً وأكثرها قطيعة مع الماضي إلى كتابات أخرى سابقة مصرية، أو عربية أو عالمية. لاتوجد رواية جديدة تماماً، إنما رواية تتسم بسمات خاصة ومميزة، خاصمت الترهل، واعتنت بالبناء واللغة، واستفادت من جميع الأساليب الروائية السابقة، بنفس القدر الذي استفادت من السينما والفنون التشكيلية والمسرح والصحافة، أكرر، لاتوجد رواية جديدة وإن وجدت أصوات جديدة ومميزة . ■



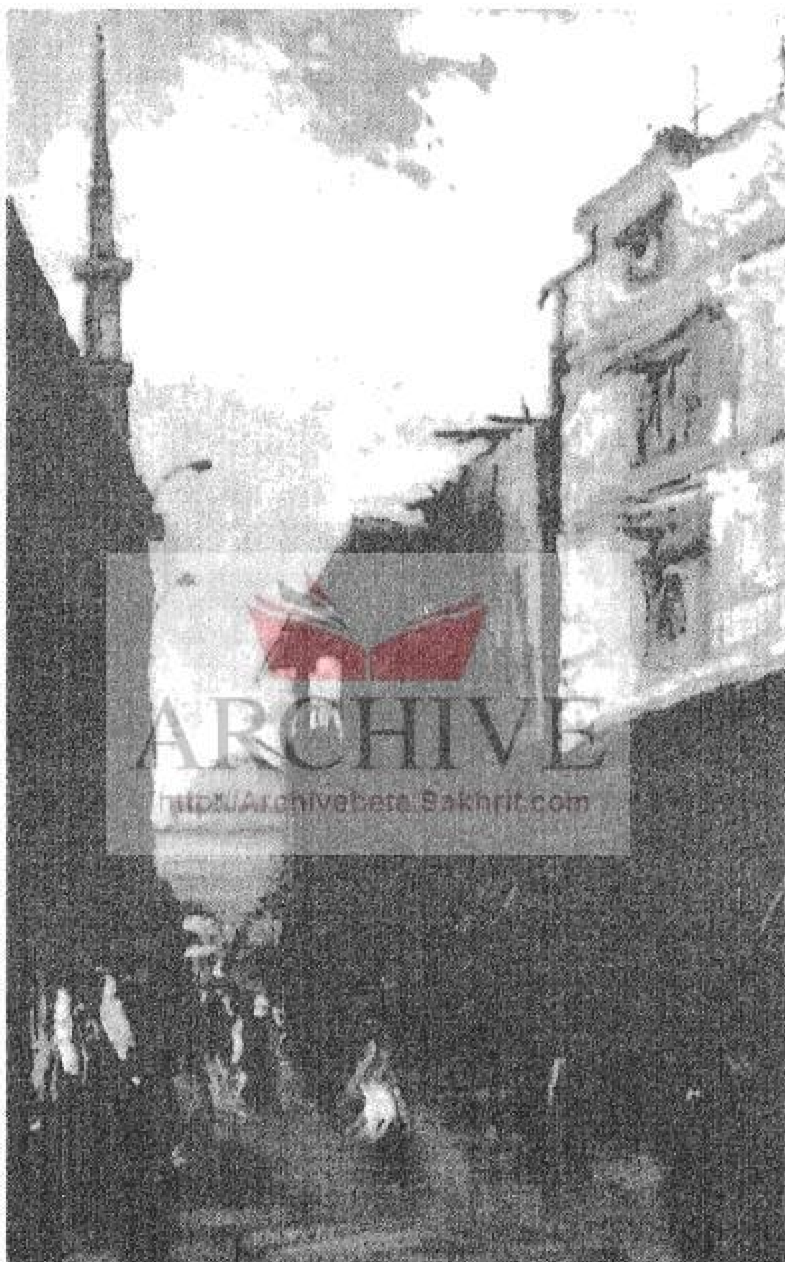
تأملات فى الفن

المصرى الحديث

بقلم
د. صبرى منصور

ستظل هناك حاجة دائمة إلى مراجعة الإبداعين الفنى والثقافى للأجيال السابقة، والبحث عن عناصر التميز والأصالة فيهما، ولن يتكون لمصر بنيان ثقافى متصل الحلقات إلا بتراكم العوامل الإيجابية لهذا الإبداع جيلا بعد جيل. وأشدّ ما يدعو للقلق فى مسيرة مصر الثقافية - منذ بدأت صحوتها فى مطالع القرن العشرين - علامات الانفصال عن ماضينا الثقافى القريب وما تم فيه من خطوات بناءة، ناهيك عن ماضينا البعيد الذى لا يكترث به المصريون، فلا يمثل لهم قيمة ولا يحتل أدنى مكانة فى وعيهم الثقافى، وذلك الانفصال فى رأينا كان سببا فيما تعانيه الحياة الثقافية فى مصر اليوم من انكسار وتدهور تفصح عنه ظواهر عديدة ليس فى مجال الفنون التشكيلية فقط وإنما امتد إلى حياتنا الفكرية والثقافية .

«منظر» للفنان حسني البناني – عام ١٩٦٤



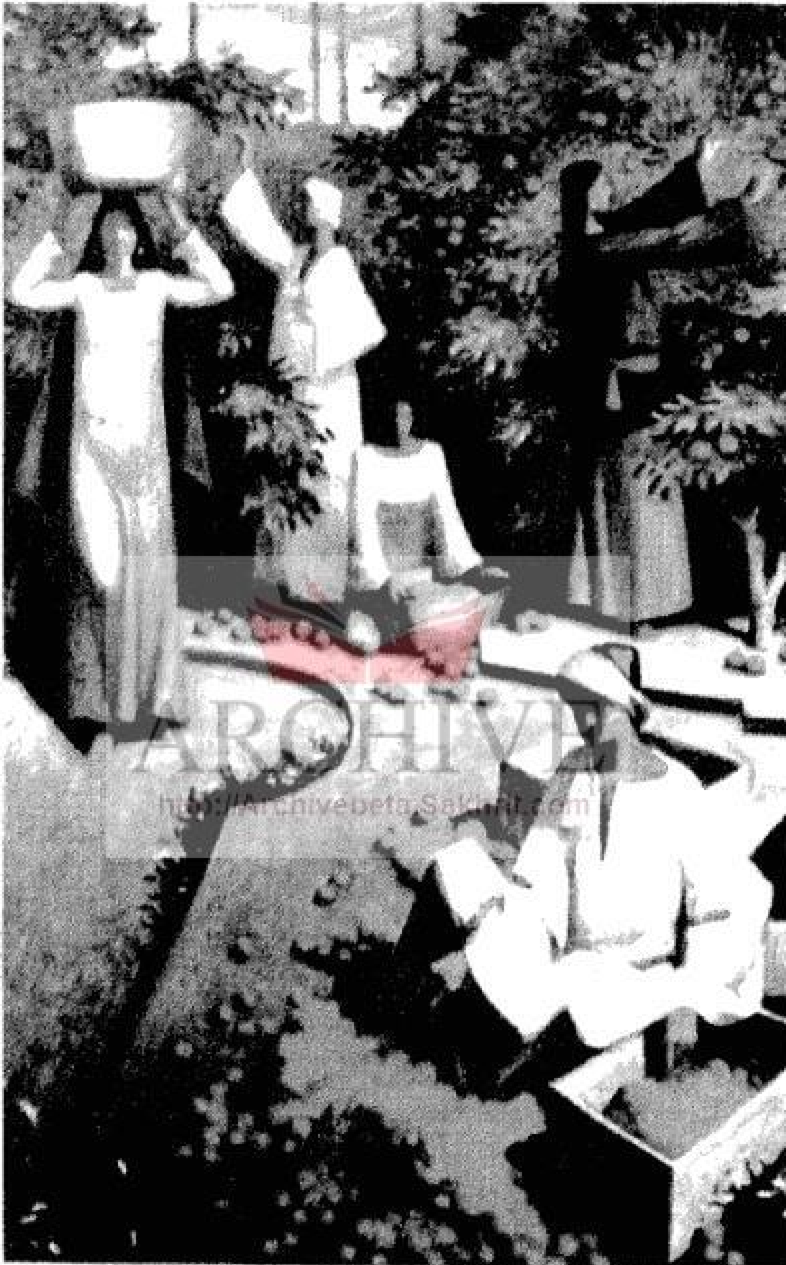
والتنقيب والبحث عن عناصر التميز فى الإرث الثقافى الفنى القريب لا يعنى تقليده أو السير على هداه، وإنما الامتداد بخيوطه واثرائه والإضافة إليه، فمثلما يحتاج الأفراد الموهوبون إلى بناء خبراتهم الذاتية بما يكفل وضوح واستقلال شخصياتهم الإبداعية ونضوجها واكتمالها، فكذلك يحتاج الإبداع الفنى لأمة من الأمم، لكى يأتى إبداعها فى مجمله ذا قيمة متفردة وحضور يضيف إلى الحضارة الإنسانية ويثرى أبعادها.

ما بعد جيل الرواد

لقد قام ثلاثة من جيل الروّاد هم محمود سعيد وراغب عياد ومحمود مختار بوضع أساس متين للفن المصرى الحديث، وعلى الرغم من أنهم بدأوا من فراغ ثقافى وفنى، وأن دراستهم للفن كانت على أصول أكاديمية أوربية، إلا أنهم استطاعوا أن يبلغوا فى إبداعهم الفنى درجة عالية من القيمة الفنية الرفيعة، حين أدركوا أهمية أن يأتى إبداعهم متسقا بشكل أو بآخر مع الكيان الثقافى المصرى الذى يمثل روح الأمة ووجدانها، وكانت لديهم القوة الذاتية التى تحميهم من التقليد وتجعلهم فى منأى عن مسايرة اتجاهات الفن الأوربى بتنويعاته المتعددة. وهكذا كانت لوحات محمود سعيد ذات الأسلوب الفنى الفريد فى صياغته وتركيبه والذى لا تخطئه العين، ويفرض حضوره بين مختلف الرؤى الفنية شرقا وغربا، وكذلك كانت لوحات راغب عياد ذات الطابع الشعبى ومحاولة اتصاله بالفن المصرى القديم، كما اتخذت أعمال محمود مختار الأخيرة نفس الاتجاه فى تمثاليه الخماسين ونهضة مصر وتمثالى سعد زغلول.

وبعد جيل الرواد بدأت حلقة الفنانين المصريين فى الاتساع، وأثمرت صحوة الثلاثينات السياسية والفكرية أجيالا جديدة تؤمن بلغة الفن وتدرك قيمته كنشاط إنسانى ذى قيمة حضارية راقية، وازداد الاتصال بالغرب الذى كان يغلى بآثار الحرب العالمية الثانية وما أسفرت عنه من تحولات فكرية تجسدت فى اتجاهات فنية متمردة وثائرة على كل ما هو قديم. وتتابعت أفكار التجديد بسرعة تتلاءم مع إيقاع التغيير فى البنية الثقافية والاجتماعية لهذه المجتمعات الأوربية، كما بدأت فى نفس الوقت تطل مظاهر الثقافة الأمريكية الجديدة التى تحاول أن تفرض وجودها على الساحة الثقافية والفنية فى ظل تنامى مظاهر القوة والتفوق للأمة الجديدة.

«جني البرتقال» للفنان بيكار - ١٩٩٢



وفي ظل الثقافة الغربية التي أولت الفن التشكيلي - في سياق تطورها الحضاري المتصل منذ عصر النهضة - أهمية كبرى ، مما أتاح له تكوين قاعدة راسخة وحصيلة زاخرة بشتى مظاهر التفوق تجلت في إبداعات فنية متوالية تكشف عن قدرة إنسانية لا تقل في عظمة انجازها وروعته عما قدمه العلم من اكتشافات، في ظل ذلك كله كان طبيعيا أن تتجه انظار الفنانين المصريين نحو الغرب، حيث إنهم يفتقدون في بلدهم مثل هذا المناخ الزاخر بالأفكار والتصورات، وهكذا فرضت القوة الثقافية الغربية نفوذها - دون احتلال فعلي - وغزت العقول الأفئدة ، وأضحى الغرب وما يصدر عنه من أفكار هو قبلة المثقفين والفنانين المصريين على اختلاف توجهاتهم الفكرية والفنية، فتبنوا الاتجاهات والأساليب الجديدة رغم اختلاف ظروف نشأتها وأسباب ظهورها، واتبعوا مناهجها الفكرية والنظرية، بل أصبح العديد من الفنانين المصريين ملكيين أكثر من الملك حين استمرت مظاهر تبعيتهم لأي اتجاه فني غربي حتى بعد أن يهجره أصحابه إلى اتجاهات أكثر جدة. وهكذا سوف نجد أن جميع المدارس الفنية الغربية كان لها ممثلوها بين الفنانين المصريين، وقد حظيت الاتجاهات التي تلتزم بالشكل الواقعي بأكبر قدر من التقليد والمسايرة، كالكلاسيكية والواقعية والتأثيرية حيث كان لها جمهور أوسع يستطيع تقديرها والإعجاب بها، في الوقت الذي تبنى فيه الفنانون المتمردون من أصحاب الفكر الثوري الاتجاه السيريالي الذي اختلط الأمر في فهمه عند عامة المتذوقين فأصبحوا يطلقون صفة السيريالية على أي عمل غير مفهوم أو يصعب تذوقه وفهم أبعاده، وتبنى فنانون آخرون الاتجاه التجريدي بدعوى أنه كان آخر صيحة فنية في الغرب وعللوا انتماءهم لهذا الاتجاه بأن الفن الإسلامي هو فن تجريدي في أساسه، وكان هناك بدرجة أو بأخرى إشباع للفن المصري والفن الشعبي، وفي السنوات الأخيرة استطاع الفن التجميعي أو التركيبي أن يجتذب إليه عددا لا بأس به من شباب الفنانين.

ولكن إلى جانب ذلك التوجه نحو الغرب كان هناك توجه آخر حاول أن يجد طريقه وسط هذا الزخم الفني ووسط الضجيج الذي يحدثه المقلدون، فلقد ساعدت الموهبة الفردية الذاتية لبعض الفنانين على مقاومة الذوبان في محيط الآخرين، فالموهبة الفردية تحاول

«ثورة الألوان» للفنان كنعان - ١٩٨١



١٥١
الهلال
جماد ثاني ١٤٢٥هـ - أغسطس ٢٠٠٤م

دائما أن تحقق نفسها وأن تثبت وجودها المستقل، ولا تقبل التشبه بأحد أو تقتدى نموذجا، وصاحب هذه الموهبة يدرك أن الفن الذى يبدعه هو فى النهاية رسالة نابعة من ذاته تحمل رؤيته الشخصية وحلمه الخاص، وهى رسالة يوجهها - فى المقام الأول - لمجموعة الناس الذى ينتمى إليهم ويشاركهم حياتهم الوجدانية ويتكلم بلغتهم الثقافية، وأنه فى الوقت الذى يعبر فيه عن نفسه فإنه يعبر أيضا عنهم وعن أحلامهم ووجدانهم. ولم تعدم الحركة الفنية فى مسيرتها القصيرة وجود هؤلاء الفنانين الذين يعدون فى رأينا من أضافوا إضافة حقيقية، ليس لفن بلدهم على المستوى المحلى فقط، وإنما تمتد قيمة إضافتهم الى المستوى العالمى أيضا بتلك الصور والتخيلات المبتكرة التى لا تشبه أحدا، وإنما تقدم نموذجا جديدا وفريدا لخيال إنسانى وذلك هو عصب أى عمل فنى ذى قيمة فنية رفيعة.

مواهب متفاوتة القيمة

وتتداخل عوامل عديدة ومتشابكة فى تكوين الفنان القادر على تقديم نموذج متميز للإبداع الفنى، فبالإضافة إلى تلك المنحة الإلهية التى يهبها الله لبعض البشر وتخلق لديهم قدرة طبيعية خاصة على الإحساس الفنى، فإن هناك الدراسة الجادة والمتعمقة لمجال إبداع الفنان وقدرته على السيطرة التقنية والحرفية فيه، وكذلك مقدار ثقافته وإلمامه بشتى نواحى الإبداع الفنى الأخرى، وتجربته الدائمة حتى ينضج أسلوبه وتتضح شخصيته ، إلى جانب ملاحظته الدقيقة والمتفحصة لإبداع الآخرين وإدراك ما يميزه أو ينتقص من قيمته. وفى النهاية مدى ذكائه ولماحيته. وإذا اختل جانب من هذه الجوانب فإنه يؤثر بالسلب على ما يبدعه الفنان ويجعله ناقص القيمة غير مكتمل الأركان، وإذا كان من الطبيعى ألا توفر الحياة نفس الإمكانيات لكل البشر بنفس القدر، فسوف يجد المتأمل للإنتاج الفنى لجيل ما بعد الرواد درجات متفاوتة من القيمة الفنية، فعلى سبيل المثال نجد أن هناك فنانين قد بلغوا مستوى عاليا من مهارة الأداء، وهم يستعرضون فى أعمالهم إمكانيات حرفية لكنها لا تقدم جديدا ، وإنما هى تنويعات على أعمال سبق رؤيتها بشكل أو بآخر، ولا تقتصر الامكانيات الحرفية العالية هنا على الاتجاهات الواقعية أو الأكاديمية فحسب وإنما تشمل أيضا اتجاهات فنية أكثر حداثة ، ومن هنا يمكن لنا أن نجمع العديد من ذوى الأساليب المختلفة لكنهم

صورة شخصية للفنان صبري راغب بريشته - ١٩٦١



«تكوين خرافي» للفنان حامد ندا - ١٩٨٤



١٥٤

الهلال

جماد ثاني ١٤٢٥هـ - أغسطس ٢٠٠٤م

ظلوا يدورون فى فلك الصنعة أمثال كامل مصطفى وحسنى البنانى وعبدالعزيز درويش وصبرى راغب إلى جانب كنعان وفؤاد كامل ومصطفى الأرناؤوطى وسيف وأدهم وانلى. وهناك مجموعة أخرى كانت لها إضافة محدودة لما هو موجود بالفعل على ساحة الإبداع العالمى وأتاحت لهم موهبتهم القدرة على إظهار بصمتهم الذاتية، ومن بين هؤلاء نجد سمير رافع وكمال خليفة والسجينى وصلاح عبدالكريم وعز الدين حمودة ومصطفى أحمد وسيد عبدالرسول ورمسيس يونان.

وتظل المجموعة الأقل عددا هى التى رفضت الانسياق إلى التيار العام المندفع نحو مسايرة اتجاهات معروفة، ونأت بنفسها عن تقليد أساليب الآخرين، ومن أهم ممثليها تحية حليم والجزار وندا، وعلى الرغم من أن الأخيرين فى بعض مراحل تجربتهما الفنية وبتأثير من الجلبة والضجيج الذى أحدثه مروجو التقليد والمسايرة قد حاولا إبداع أعمال تتمشى مع أساليب الحداثة الأوروبية - كما فعل الجزار فى أعماله التجريدية التى لم تستمر طويلا - إلا أن مجمل تجربتهما تعكس شخصية فنية مكتملة الأركان والأبعاد، وعن موهبة فردية تكشف عن خصوصية عناصرها وأشكالها، وتقدم نموذجا مثاليا للفن مصرى مستقل الطابع رفيع القيمة.

معيار القيمة

ومن أكثر الأمور مدعاة للحيرة لدى الكثيرين من نقاد الفن ومتذوقيه، هو المعيار الذى يستند إليه ويمكن على ضوئه أن تتحدد قيمة العمل الفنى، وتتداخل عوامل عديدة فى اللبس والخلط مما يؤدى إلى فقدان القدرة على التقدير السليم، ومن بين هذه العوامل شهرة الفنان وذيوعه فى وسائل الإعلام، ووجاهة منصبه، أو قدرته على التقليد المتقن لنماذج وأساليب معروفة سلفا وتم تقييمها وأصبحت راسخة، وتلك كلها عوامل لا تصمد فى وجه الزمن الذى يعد من أهم عوامل اختبار القيمة للعمل الفنى، فبعد مرور السنوات يبقى العمل عاريا من أية اعتبارات جانبية ولن يفيده إلا ما يحتوى عليه من قيمة فنية أصيلة، وهكذا يظل المعيار الذى ينأى عن سوء التقدير فى مجال الفنون هو ما يتحقق فى العمل الفنى من قيم فنية وجمالية تبلور رؤيا ذاتية لا شبيه لها فى صياغة فريدة شديدة الخصوصية والتميز، فهى بهذا تكشف عن خبرة إنسانية جديدة تغذى الروح وتشبع الوجدان. ■



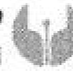


جناية (حسين) على أبيه (أحمد أمين)



بقلم
صافى ناز كاظم

فى الذكرى الخمسين لرحيل الأديب والمثقف الرائد أحمد أمين، كتب ابنه «حسين أحمد أمين» مقالا رآه حسنا ورأيته جناية على واحد من كبار رواد الأدب والنقد والثقافة العربية فى النصف الأول من القرن الماضى.



ولد أحمد أمين فى الأول من أكتوبر سنة ١٨٨٦ وتوفاه الله ١٩٥٤/٥/٣٠، قبل أن يكمل عامه الثامن والستين بخمسة أشهر. وعلى طول مشوار عمره، القصير نسبيا فى هذه الحياة، لم يتوقف أحمد أمين لحظة عن حمل هموم الوطن والتفكير والتخطيط والسعى لتحقيق ما رآه، من وجهة نظره، سبيلا للنهضة من أبواب التربية والمعارف والتثقيف والتأمل فى

سابق التاريخ من «زعماء الإصلاح» للاسترشاد بتجاربهم لعلاج أزمات الحاضر. أصاب أو أخطأ، قليلا أو كثيراً، لا عتب ولا ملام، فالإخلاص مؤكد، والحماس متوقد، والنية صافية، والالتزام دقيق، والتفاني ظل حتى النهاية، تشهد بذلك قائمة مؤلفاته الـ ١٦٠، التي تتصدرها مجلدات: «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظهر الإسلام و«يوم الإسلام»، و«حي بن يقظان»، و«قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية»، و«الأخلاق»، و«حياتي»، و«فيض الخاطر»، و«زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، و«النقد الأدبي»، و«الصعلكة والفتوة في الإسلام»، وغيرها، مع ما أصدره من كتب مدرسية، رفيعة المستوى مازال جيلي يفخر بمعارفها منذ مرحلة الثانوية: «المنتخب من الأدب العربي»، و«المفصل في الأدب العربي»، و«المطالعة التوجيهية»، و«تاريخ الأدب العربي»، بالإضافة إلى ما اشترك في نشره من كتب مثل: «الإمتاع والمؤانسة»، و«ديوان الحماسة»، و«العقد الفريد»، و«الهوامل والشوامل»، و«خريدة القصر وجريدة العصر».

قال عنه الدكتور إبراهيم بيومي مدكور في مقال له تحت عنوان: «أحمد أمين ... المربي»: «إن ثقافة أحمد أمين من تلك الثقافات الخصبة المتعددة الألوان، فكان أديبا ولغويا، فقيها ومحدثا، مؤرخا ومحققا، أخلاقيا واجتماعيا، فيلسوفا ومتصوفا...»

ووصفه الأستاذ أحمد حسن الزيات، وقد صادقه أربعين سنة: «... كان إذا ألف كتابا أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقيا وراء كلماته وخلال سطوره، يعرض عليك الصور، ويقرر لك الآراء، بطلعته الباسمة في غير افترار، ولهجته الحازمة في غير أمر، وعقله القوي في غير صلف، وطبعه الحيي في غير ضعف، وأسلوبه الهادئ في غير فتور، فلا تدري أتقرأ أم تسمع، وكتاب في يدك أم رجل معك». ويتابع الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: «... لم يظفر كتاب من الذيوع والانتشار والتأثير بمثل ما ظفرت به مجموعة الكتب التي أصدرها أحمد أمين حين أصدر (فجر الإسلام) عام ١٩٢٩، وتبعها بضحى الإسلام في ثلاثة أجزاء، ثم الظهر في أربعة أجزاء. فقد طبعت أجزاؤه الأولى ست مرات، كل طبعة منها بضعة آلاف. وأصبح الفجر والضحى والظهر مرجع كل طالب، ومرشد كل باحث، والمنارة التي يهتدي بها الناظر في التاريخ الإسلامي وحضارته».



يشهد الدكتور طه حسين لأحمد أمين: «كانت حياته كلها مغالبة، لم تستقم له الأمور على ما أحب فى يوم من الأيام منذ كان صبياً يختلف إلى الكتاب حتى أصبح شيخا يختلف إلى مجالس الزملاء والأصدقاء فى المجمع اللغوى، وفى لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكانت أحكامه على أموره كأحكام غيره من الناس تخطئ وتصيب، ولكنها كانت تتفق دائما على شئ واحد وهو أنها كانت تصور له الأمور على غير ما يحب أن تكون وتدفعه إلى الجهاد والمقاومة والمغالبة... كان يريد أن يغير الدنيا من حوله ... فكنت تراه دائما قليل الرضا كثير السخط، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن يكون متصلا ... وربما تندر به زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه فى شئ كثير من الحب والرفق فسموه (العدل) ونادوه بهذا الاسم وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث، حتى كاد العدل يصبح له اسما ثانيا.......................

وحياة أحمد أمين قصة من أعظم القصص الحية روعة وأعمقها تأثيرا ومن أعظمها حظا من البراعة. وانظر إلى هذا الصبى الذى نشأ فى أسرة متواضعة من الأسر المصرية وفى حى متواضع من أحياء القاهرة، وينشأ نشأة كأشد ما يكون تنشئ الشباب تواضعا فيدرس فى المدرسة المدنية ثم يتحول عنها إلى الأزهر ثم يتحول إلى مدرسة القضاء ثم يصبح قاضيا تتقاذفه المحاكم الشرعية فى أرجاء مصر ثم يعود مدرساً فى مدرسة القضاء ثم يرد بعد ذلك إلى القضاء الشرعى، وهو فى أثناء هذا كله قلق لا يعرف اطمئنانا ولا استقرارا، لأنه يجهل نفسه ويحاول أن يعرفها فلا تتهيأ له هذه المعرفة كما يريد، هو يلتمس نفسه فى كتب الفقه وفى علوم الدين كلها فلا يجدها، ويلتمس نفسه فى الأدب العربى وفى اللغة العربية فلا يجدها... هو يبحث عن نفسه، ويعلم أنها قريبة منه يوشك أن يلمسها أن يمد إليها يده، ولكنه يمد إليها يده مرة ومرة فلا يجدها ولا يلمسها إنما يحس أنها بعيدة عنه أشد البعد. وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التى أضل فيها نفسه فيتصل ببيئات المطربشين وينشئ معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر. ويأخذ فى تعلم اللغة الإنجليزية... وألقاه فى يوم من أيام

حيرته تلك ... وإذا هو ضيق بعمله فى القضاء أشد الضيق، وإذا هو طامح إلى شئ مجهول لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد... ونفترق فى ذلك اليوم وقد أزمعت فى نفسى أمراً، فإذا كان الغد تحدثت بما فى نفسى إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد، فإذا كان المساء دعوت أحمد إلى لقائى، وعرضت عليه التعليم فى الجامعة فيشك غير طويل ثم يستجيب. ولا يكاد يستقر فى كلية الآداب شهراً وبعض شهر حتى يجد نفسه تلك التى طال البحث عنها وشقى بالتماسها أعواما طوالا. وانظر إلى آثاره العلمية التى دفعته الجامعة إلى إنشائها فسترى نفس أحمد أمين واضحة كأقوى ما يكون الوضوح، وسترى شخصيته ماثلة قوية تفرض نفسها فرضا....»

وإذا كان طه حسين قد زاد وأعاد فى ميل أحمد أمين إلى الحزن والتبرم، فإن الدكتور عبدالرزاق السنهورى لا يتردد فى أن يعلن عن «جانب المرح» الذى استقطبه فى شخصية أحمد أمين حين التقاه أول مرة فى مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩٢٠: «.... كان إذ ذاك شابا معمما، يبدو على وجهه من أمارات الجد والرزانة ما يجعل مظهره يزيد على سنه، لولا دعابة عرفت عنه، وفكاهات ظريفة يتحدث بها إلى سامعيه من وقت إلى آخر، فكانوا يضحكون لها ويكون هو أول الضاحكين. ولعل هذا القليل من المرح هو الذى كان يلطف من حدة الجد فى حياته، وكان إخوانه وزملاؤه من أجل ذلك يستلطفون عشرته، ويستطيبون صحبته...»، ويؤكد الدكتور عبدالوهاب عزام على هذا الجانب المرح الباش فى شخصية أحمد أمين فيسرد فى ذكريات رحلات معه: «... وأتيح لى أن أسافر مع الأستاذ أسفاراً ندبتنا لها الجامعة ... سافرنا فى أول بعثة من الجامعة إلى البلاد العربية، زرنا سنة ١٩٣٠ فلسطين وسوريا، وسنة ١٩٣١ العراق، وكان الأستاذ رئيس السفرتين . وكان لنا فى السفرة الأولى فكاهات، منها أنى والصديق الأستاذ العبادى نظمنا أبياتا نصف فيها الأستاذ وأحد الأصحاب، وسمينا الأبيات القصيدة المكتّمة، ولما بلغنا حلب أخبرناه بها ولم نطلعه عليها، فقال ضاحكا: سأشرحها قبل أن أسمعها!»

يرسم الرائد الروائى الأستاذ محمد فريد أبو حديد ملامح شخصية أحمد أمين بائثا: «عرفت الأستاذ أحمد أمين أول شبابى، وتعودت منذ أربعين عاما أن أراه جانبا هاما من عالمى الذى أعيش فيه، فمنذ خلا مكانه فى الحياة شعرت

بأننى قد فقدت بعض عالمى،

....

ولكن أحمد أمين خلف لنا صورة باقية خالدة نتأملها كما نتأمل المعانى الأبدية، وهى صورة لا يعتريها الفساد الذى يعترى الأجساد ولا تساورها الدوافع الدنيا التى تساور مادة الأرض، صورة هادئة يحيط بها السلام الشامل، وتحتل مكانها بين الحقائق، منزهة عن العواطف البشرية متجردة من الغايات والتحيز. ونحن إذ نتحدث... عن أحمد أمين، إنما نتحدث عن هذه الصورة الخالدة المقيمة إلى الأبد فى عالم الصور المجردة التى تتكون منها معالم الطريق الإنسانى نحو الكمال، والتى تتكون من مجموعها عقائدنا ومثلنا العليا ومقاييسنا الخلقية والاجتماعية والفلسفية. وسوف يتحدث الكثيرون عن أحمد أمين .... لأنه منذ رحل عن دنيانا صار صديقا للجميع، زميلا لأجيال جديدة لم تخلق بعد....

....

....

أجد فى الكتابة عن أحمد أمين لونا من الغبطة التى طالما نعمت بها فى مصاحبته ومحادثته ومناقشته ومعاطاته المودة، ولأنى أستمتع فى أثناء الكتابة بتأمل صورته واستعادة ذكريات مجالسه السمحة ومواقفه الكريمة .... عاش أحمد أمين حياة مليئة خصبة، لأنه أراد أن تكون حياته مليئة خصبة. وقد كان من أحب كلماته إليه عند ذكر أفذاذ العظماء الذين وهبوا حياتهم لخير الإنسانية، أن يقول عنهم إنهم عاشوا حياة عريضة ، وكثيراً ما سمعته يتمنى تلك الأمنية لنفسه فى صوت خافت كأنه يحدث بها الأقدار فى ضراعة وخشوع، وكان أكثر ما يخشاه فى آخر أيامه أن تمتد به الحياة طولا بغير أن تحتفظ بعرضها وخصبها، فلم يرض أن يستمع إلى نصح المشفقين عليه من الجهد وكان يجيبهم قائلا إنه لا يريد الحياة إلا من أجل ذلك الجهد. وقد رأيته قبيل وفاته بأيام قلائل، وكان عند ذلك يستعد للسفر إلى الإسكندرية، وهو ظاهر البشر تشتمله هزة قوية تشبه هزات الشباب إلى التمتع بالحياة. وما كانت هذه الهزة القوية إلا من أجل تحفزه للعمل فى أيام الصيف المقبلة ليضيف فيها إضافة جديدة إلى تراثه الأدبى الجليل. وقد رأيته مراراً كما رآه كثير من الأصدقاء فى أيام مرضه عندما كنا نخشى عليه فقد البصر وهو طريح الفراش، وكان من أشد آلام المرض عليه أنه قضى أيامه ولياليه ساكنا لا يمتع نفسه بمواصلة العمل وبذل الجهد. وأغلب ظنى أنه كان

فى ساعاته الأخيرة يشعر بسعادة كبرى إذ تبين له آخر الأمر أن أمنيته قد تحققت وأن خواتيم حياته كانت مثل أوائلها عريضة عظيمة الخصب كما كان يريد..

وقد خيل إلى عندما بدأت الحديث عن أحمد أمين أننى لن أجد مشقة فى تعرف أسرار تلك الشخصية الفذة وتحديدها، إذ أننى عرفت الرجل وخبرته وامتدت صداقتنا عشرات من السنين وقفنا خلالها فى مواقف شتى تكشف عن الطبائع الكامنة وتمتحن خفاياها، ولكنى عندما بدأت أجمع شوارد الذكريات لأستخلص منها الوصف الذى أطمئن إلى صدقه تجلت لى الحقيقة العجيبة التى تتجلى لنا دائما إذا ما حاولنا أن نحدد أقرب الأشياء إلى أذهاننا وأوضح المشاعر فى نفوسنا، فمن أصعب الأشياء أن نوضح الواضح فى أذهاننا وأن نعبر عن المشاعر القوية الماثلة فى نفوسنا

....

ولقد كان لأحمد أمين فى نفسى مكانة كريمة منذ عرفته، وكان له فى قلبى من المودة ما يجعلنى أرى شخصيته دائما من خلال مودتى، فهل أستطيع هنا أن أقرر أن من أبرز مميزات شخصيته مقدرته على إثارة الثقة والمودة فى قلوب الأصدقاء؟..............................

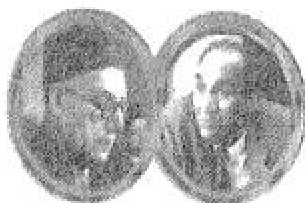
....

كان أحمد أمين يتوسط أصدقاءه وكأنه يجرد من نفسه لكل منهم شخصا يناسبه ويلائمه، وإن كان الأصدقاء أنفسهم يختلفون فيما بينهم فى الطباع والميول. وقد كان لهذه المقدرة على الألفة والإيحاء بالثقة أكبر الأثر فى قوته الدافعة، التى كانت دائما تؤثر فيما حوله. كان دائما يتعاون ويثير فيمن حوله روح التعاون، وكان دائما صادقا مخلصا ويثير فيما حوله روح الصدق والإخلاص، وكان صريحا عادلاً ويوسع صدره دائما للصراحة والعدالة..............................

....

....

كان عظيم البشر مرح النفس ولكنه مع هذا كان شديد الجد ولم يخل من بعض التشاؤم، وكان زاهدا فى مظاهر الحياة.... يحب التمتع بالحياة... متواضعا إلى أقصى حدود التواضع، ولكنه كان أحيانا يتعالى إلى حد الكبرياء.... ينعى على الأسد سطوته ولكنه يرثى للأسد الجريح..... ولست أنكر أنى رأيته يوما يختار لونا من الألوان الزاهية، التى كانت تميز زى



الشـيـوخ فى تلك الأيام، ولكنه مع هذا كان يبدو أنيقا من أثر الانسجام بين هدوء طبيعته وهدوء ظاهره...... لم يعتمد فى حياته على شئ سوى أصالته، وقت أن كان الكثيرون يعتمدون على مناصرة الأقوياء أو معاونة الأولياء، فقد شق أحمد أمين طريقه وحيداً فرداً..» .

لم يرتح أحمد أمين لمهنة القضاء الشرعى، وكانت حيثيات رفضه، كما كتبها هى: «ظللت فى القضاء أربع سنين .... سنة فى قويسنا، وسنة فى طوخ، وسنتين فى محكمة الأزبكية، ومع ذلك فلم أستمرئ القضاء ولم أسعد به، كل ما أراه أسر قد خربت، أما الأسرة السعيدة فلا أراها، زوجة تطلب نفقة من زوجها، وزوج يطلب الطاعة من زوجته، فيحكم بالنفقة على الزوج فإن لم يدفع فيحكم عليه بالحبس.... ويحكم بالطاعة على الزوجة، فإن لم تستسلم نقلت بقوة البوليس إلى بيت زوجها، وظللت أحكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها ... كيف تؤخذ المرأة من بيتها بالبوليس وتوضع فى بيت الزوج بالبوليس كذلك؟ وكيف تكون هذه حياة زوجية؟ إنى أفهم قوة البوليس فى تنفيذ الأمور المادية كرد قطعة أرض إلى صاحبها، ووضع المحكوم عليه فى السجن، وتنفيذ حكم الإعدام، ونحو ذلك من الأمور المالية أو الجنائية، أما تنفيذ المعيشة الزوجية بالبوليس فلم أفهمه مطلقا، إلا إذا فهمت حبا بالإكراه أو مودة بالسيف، ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد لا بالضمير، وبما فى الكتب والقوانين واللوائح لا بالقلب، وكنت أشعر شعور من يمضغ الحصى أو يتجرع الدواء المرير....» .

يسترجع الدكتور أحمد زكى علاقته مع «أحمد أمين : الصديق»، فتبدو عائدة نحو خمسين سنة إلى الخلف عندما كان أحمد زكى صبيا يأخذه والده لزيارة منزل الشيخ إبراهيم فى القلعة: «... وأحمد أمين، لو كمل اسمه، لكان أحمد أمين إبراهيم. وذهبت معه، ورأيت القلعة ، وأحسب أن تلك كانت أول رؤية لها . ومن القلعة دلفنا إلى مسجد الشيخ الرمّاح. ومن المسجد دلفنا إلى حارة من حارات مصر، التى كانت فى تلك الأيام مأوى الناس حين يسكنون ويريحون . والحارة طويلة ظليلة، ساكنة هادئة، يغلب عليها الظلام أكثر ما يغلب النور لضيق فى مسلكها، وطول فى مساكنها. ثم نقف، أنا ووالدى، عند نهاية الحارة

المسدودة، أو ما كاد أن يكون نهايتها، عند بيت ارتش الماء أمامه، ودخل والدى ودخلت وراءه، فوجدنا الشيخ فى حجرة إلى اليمين وقد جلس يقرأ، ووجدنا أولاده، قد تفرقوا فى حجرات الدار السفلى، كذلك يقرأون . والقراءة منها المسموع، ومنها الخفيض الذى لا يسمع . وهى لا شك كانت قرآنا، أو كانت فيما اتصل بالقرآن من حديث أو فقه، فالكتب كانت صفراء، وكذلك الجو وسكونه فى الدار، مع شدة الظل فيها ، كان يوحى بأن الدراسة كانت من الجد بحيث أنها لم تسمح بدخول الكثير من النور. وخيل إلىّ أن هذا الشيخ الجالس، فى تلك الحجرة اليمينية، لا يفتأ يرقب ما يجرى فى ردهة الدار وحجراتها من دراسة، وأن طاعة أبنائه له لم تكن طاعة بنوة فحسب، بل كانت فوق ذلك ، وأكثر من ذلك، طاعة تلمذة لمعلم، على الرغم من حدوثه وتوقره، صارم . وانتهت الزيارة وما أحسب أنى فى هذه المرة عرفت من أحمد أمين شيئاً، إلا أنه أحد إخوة ثلاثة ، يكبروننى، أنا الصبى، بنحو عشر من السنوات فما فوقها، وأنهم طلبة أزهريون ، لأب أزهرى عالم تقى نابه.... صارم». وتأتى الزيارة الثانية من جانب الشاب أحمد أمين إلى بيت الفتى أحمد زكى، فى طرف من أطراف بولاق يطل على النيل: «.... ودق الباب، ودخل علينا الشيخ أحمد أمين، جاء يزور والدى، وكانت توثقت بينهما علاقة فكر. كان والدى ثائر الفكر، شيخا، وكان أحمد أمين ثائر الفكر ، شابا، والتقى المزاجان. واطلع أحمد أمين فى تلك الزيارة على ما كنت أصنع، ودخل فيما كان بين يدى من مسائل فى الهندسة عرفت منها أنى أمام شيخ غير من عرفت من أطرزة المشايخ، وحسبت أن أحمد أمين كان فى حديثه فى الهندسة.... به بعض التيه، بأنه، وهو الشيخ المعمم، يستطيع أن يجادل ولو صبيا مطربشا فى علم من العلوم الحديثة.... والذى تعلمه أحمد أمين..... فى مدرسة القضاء الشرعى، وعاطف بركات ناظرها ....

....

وأذكر أنى أسير والشيخ أحمد أمين ، على كوبرى بولاق، نتنسم ما كان يهب من الشمال من ريح فى الصيف باردة، وكان معنا نفر هم الأعضاء الأولون الذين منهم تكونت لجنة التأليف والترجمة والنشر، وعلى رأسهم أحمد أمين، وكانت الحرب العالمية الأولى قائمة، وكان أعضاء اللجنة مطربشين، إلا عمامة واحدة، علوا بها فوق الطرابيش، للذى كان تحتها من رأس ناضج، ومن قلب وقور حساس. وتأثر صاحب العمامة فيما تلا من السنين

بأصحاب الطرابيش، وتأثر أصحاب الطرابيش بصاحب العمامة، واتصل هذا الأثر أربعين عاما كاملة، فقد ظل أحمد أمين رئيسا للجنة التأليف، وينتخب بالإجماع عاما بعد عام ، أربعة عقود من السنين انتهت بوفاته. وتحولت الصداقة التى بيننا، من صداقة أسرة ، إلى صداقة أسرة ممزوجة بصداقة عمل، وصداقة أمل، وصداقة جهاد. وتنتهى الحرب العالمية الأولى، وتقوم الثورة المصرية – (عام ١٩١٩) – فنرتب فيما بيننا .... المظاهرات، ونرتب الهتافات. وأراني، أنا وهو على رأس فئة للمعلمين فى مظاهرة، تحمل علما ضخما ثقيلا . أحمله فأتعب، فيحمله عني، وهو الشيخ، حتى يتعب، وتركنا الهتاف لغيرنا.............................

....

وكان يحب فى شبابه التوت الإفرنكي، المعروف بالفراولة أو الشليك، وكنت أحبه، وإذا به يوما يشترى فى الجزيرة، فيما يلي كوبرى قصر النيل، بمبلغ كبير، مقداراً من الشليك عظيما، لا يكفي واحداً، بل يكفى عشرين. قال: إذا اشتاقت نفسك إلى شئ، وكرهت منها أن تشتاق كل هذا الاشتياق، فلا تمنعها تأديبا لها، ولكن أغرقها به إغراقا. اجعلها تأكل حتى تعاف، فقد يكون فى ذلك إبراء لها مما تشتهى، من الحلال.

....

وفى اشتداد علته الأخيرة زرته....

وكان الوقت صباحاً ، وصعدت إلى حجرته، وكان وحده، فراعنى منظره، كان منظر من يئس من الحياة فترك تقليم الحياة وتهذيبها . قال: كيف تزورني فى هذه الساعة وروما تحترق. قلت: إن البلد الذى يحرقه أهله،..... بلد حل به غضب الله . وتذاكرنا الخيبة، وتذاكرنا أمور الأجيال، وقمت إلى روما، أشق لنفسى طريقا فى لهبها.

وجاء آخر لقاء .

كان هذا فى أمسية ، بدار لجنة التأليف. وانصرف الناس وبقيت معه وحده وإذا بنفسه تغيم فجأة كما تغيم السماء، وكنت أعرف ذلك من وجهه وقبل أن يتكلم. وأخذ يتكلم، ويذكر الحياة وقلة جدواها له بعد الذى كان .... وتتأخر سيارته فأحمله فى سيارتي، وأسرع لأقوده فى الظلام عند باب بيته وهو يهبط من السيارة فإذا به ينادى الخادم حتى يرفع عني كلفة إسناده ناحية الباب، وبعد ٣٦ ساعة يدق التليفون فى مكتبي: إن أحمد أمين قد مات تواً. وأسرع إلى بيته، فلا أجد أحداً. لقد تفرق أولاده فى تجهيز الجهاز فلم يتخلف منهم فى البيت أحد . وأصفق وليس من يرد. والبيت هادئ ساكن، قفر

لولا الحديقة، وأحضرت لنفسي كرسياً كان في الحديقة وجلست . وأنظر إلى تلك الغرفة العليا ، وأنا أعلم أن أحمد أمين مسجى فيها، ولكن لا سبيل إليه

....

....

ظن أحمد أمين أن الحياة عافته وأنها هجرته، والحق أنه هو الذي عافها، وهو الذي احتقرها في أيامه الأخيرة واحتقر ناسها. حضرنا حفلا في سفارة العراق، عصر يوم، وازدحمت السفارة بضيوفها، وهناك التقيت بأحمد أمين . ظهر في هذا الحفل بما لم يجر الناس على أن يظهروا عليه في الحفلات: الذقن لم تحلق من أيام، والقميص مفتوح الصدر، وليس بياقته رباط، والهندام كله يكاد يهزأ بالحاضرين. ودلف إليّ في الحفل صديقي إميل زيدان، قال لي: ماذا جرى لأحمد أمين؟ قلت: ذهب عنه احترام الدنيا. فقال إميل قولة من أحلى ما يقال في هذا الموقف، ومن أصدق ما يقال، قال: بل إن أحمد أمين ارتفع عن المجتمع، فلم يأبه فيه بما يصنع.....» .

* * *

مقتطفات اخترتها بعناية من شهادات أصدقاء أحمد أمين، كتبوها عقب رحيله، وكلهم من النخبة الأدبية والفكرية والثقافية لعصر النصف الأول من القرن الماضي .

شهادات مفعمة بصدق المحبة والمودة والتقدير والإجلال لواحد من رعيلهم الفذ، يكبرهم في سنوات العمر، بعامين أو ثلاثة أو عشرة، أجمعوا على إخلاصه وعدله ودماثته ولطف معشره وظرف حديثه، ولمسنا أنهم كانوا معه إلى اللحظات الأخيرة، لم يهجروه ولم يتنكروا له، كما زعم ابنه حسين أحمد أمين في مقاله الذي نشره بجريدة القاهرة ٢٠٠٤/٦/١ بمناسبة ذكرى والده الخمسين. ولقد تعمدت أن أهرع إلى كتابات هؤلاء الأصدقاء، خاصة الأستاذ محمد فريد أبو حديد، والدكتور أحمد زكي ، والدكتور عبدالرزاق السنهوري ، والدكتور عبدالوهاب عزام، لأدفع عن أحمد أمين «جناية» ما كتبه عنه ولده المغرم بالوقوع في الأخطاء ، ولو كان أحمد أمين على قيد الحياة وقرأ ما كتبه سيادة ابنه السفير حسين، لفعل به كما فعل حين سمعه يفشل في القراءة السليمة: ضربه بالجريدة ثلاث ضربات على فمه، وهو يكرر في حزن: «كسفتني يا ولد .... كسفتني.....» .

* * *

رحم الله أحمد أمين ورحم أصدقاءه المخلصين، وأبقى ذكرهم وذكراهم في الخالدين . ■



محاولات لرأب الصدع بين الوطن والمهجر



إيليا أبو ماضي



جبران خليل جبران

بقلم
وديع فلسطين

بعد غياب كبار الشعراء والأدباء الذين قامت على أكتافهم النهضة المهجرية فى أمريكا الشمالية والجنوبية بوفاة إيليا أبى ماضى (١٨٨٩ - ١٩٥٧) وميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) وجبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) ونعمة الحاج (١٨٨٩ - ١٩٨٨) وندرة حداد (١٨٨١ - ١٩٥٠) وعبدالمسيح حداد (١٨٩٠ - ١٩٦٣) ورشيد أيوب (١٨٧١ - ١٩٤١) وكلهم فى أمريكا الشمالية وشفيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦) وفوزى معلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠) والشاعر القروى رشيد سليم الخورى (١٨٨٧ - ١٩٨٤) والشاعر المدنى قيصر سليم الخورى (١٨٩١ - ١٩٧٧) وإلياس فرحات (١٨٩٣ - ١٩٧٦) وجورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٧٨) وزكى قنصل (١٩١٦ - ١٩٩١) وإلياس قنصل (١٩١٤ - ١٩٨١) ونظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) ونبيه سلامة (١٩٠٨ - ١٩٩٤) وميشال مغربى (١٩٠١ - ١٩٧٧) وشكر الله الجر (١٩٠٧ - ١٩٧٥) وعقل الجر (١٨٨٥ - ١٩٤٥) وكلهم فى أمريكا الجنوبية.

بعد غياب هؤلاء مرَّ الأدب المهجرى فى مرحلة المحاق، ولاسيما لأن الأجيال الجديدة من المهاجرين انصرفت فى غالبيتها إلى ممارسة المهن التى تخصصت فيها من هندسة إلى طب إلى الكترونيات إلى صناعة إلى بحوث علمية، وهلم جرا وتضاءلت الأنشطة الصحفية والأدبية فى المهجر بل أكاد أقول إنها انعدمت. ومما ساعد على ذلك أن الهيئات العربية الرسمية تجاهلت المهجريين تماما بل بادرت بإلغاء تجربة إنشاء وزارة للهجرة لانتفاء الغرض منها. وهى إن أبدت أحيانا اهتماما بالمهجريين، فهو اهتمام لا ينصرف إلى الأدب أو الفكر بل



ميخائيل نعمة إلياس فرحات

إلى جانب الاستثمار، لأن كثيرين من العرب المهاجرين نجحوا فى تكوين ثروات وفى اكتساب خبرات متطورة تتوق البلدان العربية إلى الاستفادة منها. حتى الجامعة العربية، ولديها منظمة متخصصة فى الثقافة والعلوم والتربية منظمة (الألكسو) فهى غير معنية بالمهجر أو بالمهجرين، ولم تحاول إنشاء أى صلات بهم على أصعدة الثقافة والعلوم والتربية.

وفى الحين بعد الحين يدور حديث حول ضرورة إنشاء «لوبى» عربى فى الولايات المتحدة يضطلع بدور نشط أسوة باللوبى اليهودى، ولكن لم تتخذ أى خطوات جادة فى هذا الاتجاه، ربما لأن كثيرين من المهجرين صاروا يتبرأون من أصولهم العربية بعد ١١ سبتمبر حتى لا تبطش بهم إجراءات الأمن الغاشمة فى «العالم الجديد» ناهيك عن أن كثيرين منهم خرجوا من بلادهم إما مطرودين أو فارين من أنظمة انكشارية، فباتوا ينفرون من كل محاولة لتذكيرهم بعروبتهم أو بأن عليهم دورا يضطلعون به فى مهاجرهم للدفاع عن قضايا أمتهم والتعريف بحقائق أوضاعها.

وعلى الرغم من هذه الصورة الكئيبة للعلاقة بين الوطن والمهجر، فإن هناك محاولات لرأب الصدع - وهى محاولات فردية لا تحظى بأى تشجيع أو حتى مباركة رسمية - تسعى إلى مد جسور بين المهاجرين وأوطانهم الأصلية. واجتهد فى هذا المقام فى رصد ثلاث من هذه المحاولات الفردية التى وقفت عليها، عسى أن يكون فى التعريف بها ما يستنفر همة الجهات المسئولة فتسدى لها شيئا من المؤازرة تمكينا لها من أداء رسالتها دون انتظار أى جزاء.

مجلة «السنونو» لنهاد شبوع

والمحاوله الأولى هى التى تقوم بها سيدة سورية تقيم فى حمص أنشأت منذ عام ١٩٧٣ رابطة لأصدقاء المغتربين وأصدرت مجلة غير دورية أطلقت عليها اسم «السنونو» وهو الطائر الذى لا يكف عن النزوح من مكان إلى مكان أنأى منه. وبفضل هذه المجلة تسعى «نهاد شبوع» إلى الربط بين هؤلاء المغتربين والوطن واستطاعت أن تتواصل مع عرب يقيمون فى كندا والبرازيل وشيلى واستراليا وفرنسا والولايات المتحدة ونيجيريا، فلكل مغترب أيا كان الموطن الجديد الذى اختاره لإقامته، اهتمام ترعاه هذه السيدة المجاهدة نهاد شبوع، فتخاطبه فى مجلتها لا باللغة العربية وحدها بل كذلك باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

والمجلة كتاب حافل يصدر فى نحو ١٥٠ صفحة ويضم مقالات ودراسات تهم المهجرين لكى يبقوا على - صلة ولو روحية بالوطن الأم مخافة أن تستولى

عليهم العجمة فى ديار هجرتهم وتنفصم عراهم تماما مع منابتهم الأولى.

وترفع «نهاد شبوع» فى مجلتها وفى رابطة أصدقاء المغتربين شعارا موحيا هو «وطن مقيم مشوق، ووطن مغترب عائد أكثر شوقا» وهى تخاطب قراءها بعبارة بليغة فتقول «هل تستأهل رابطة أصدقاء المغتربين فى حمص - بما نسجت وبما أنجزت - خلال الثلاثين أو ما قبل الثلاثين من الأعوام أن تظل حضورا مشعا ينفذ إلى ذاكرة أجيال المستقبل وإيمانهم؟ وهل من الهدى والحكمة أن نظل وإياهم على هذا الجسر عابرين»؟

وبمناسبة مرور ثلاثين سنة على إنشاء رابطة المغتربين تنادى الغيُورون عليها إلى إقامة احتفال حاشد تحدثت فيه «نهاد شبُوع» فقالت: «أنا وطن وغربة يفصلهما ساعات فقط فى زمنكم الذى يحتفل بعيدى الثلاثين، أنا بيت حلم يتسع لبدايات ولا يعترف بنهايات، أنا جمالية اللقاء بعد قطيعة العشاق وترف الحزن الباذخ بعد كل وداع «منعطفا بعد آخر، أتسلق حبكم المدهش فى كل حضور والمندهش فى كل غياب، شكرا لكم شكرا لحضوركم عيدى عيدكم فمن أنا سواكم»؟

أفلا تستحق نهاد شبُّوع راعية هذا النشاط الأممى الموصول تشجيعا من ذوى الشأن حتى تتمكن من مواصلة أداء رسالتها دون توقف أو تعثر؟ إن ثلاثين عاما من البذل والعطاء والتضحيات ينبغى أن تحظى ولو بمباركة من المجتمع.

مجلة «كلمات» للدكتور رغيد النحاس

أما المحاولة الثانية لربط المغتربين بالوطن، فقد صدرت من استراليا التى هاجرت إليها وإلى نيوزيلندا بل إلى جزر المحيط الهادى أعداد كبيرة من المغتربين العرب، ويتصدى لهذه المحاولة الأديب الدكتور رغيد النحاس المقيم فى مدينة «شرى بروك» فى ولاية نيوسوث ويلز فى استراليا. وقد اكتشفت أن الدكتور النحاس هو حفيد الشيخ أحمد عارف المزين صاحب مجلة «العرفان» المشهورة التى كانت تصدر فى صيدا بلبنان والتى واصل إصدارها بعد وفاته نجله نزار المزين وكان صديقا لى. وبوفاته تعثرت هذه المجلة بعدما عمرت طويلا.

وبدوره ارتأى رغيد النحاس أن التواصل مع المغتربين لا يتحقق بصورة منتظمة إلا من خلال مجلة دورية تصدر بالتناوب بين اللغتين الإنكليزية والعربية لكى تؤدى رسالتها حتى لدى المغتربين الذين أنستهم الغربة لسانهم العربى.

وخلال أربع سنين، أصدر النحاس ١٨ عددا من مجلة «كلمات» مطبوعة طباعة فاخرة وتكاد تخلو من الأغاليط على الرغم من أنها تطبع فى استراليا وليس فى أى بلد عربى.

ويقول الدكتور رغيد النحاس «أؤكد إيماننا بأهمية الدور الذى تلعبه مجلة «كلمات» مع تواضعه على الصعيد الفكرى والجمالى، ونسعى فى نفس الوقت لجعل هذا الدور مهمة أساسية من مهمات التواصل البشرى فى هذا الزمن الذى انتهك فيه الفكر والعدالة ومقومات الحرية والديمقراطية من قبل فئة قليلة تتحكم

بالعالم متسترة بنفس هذه القيم وداخل ثوب شرعية الدولة... ما أصعب موقف من اتخذ الفكر وسيلة للوجود وسلاحا للبقاء وذلك عندما يبدو صامتا ساكتا، لكننا نؤمن أن الغلبة ستكون للعقل في آخر المطاف مهما طال الزمن، وأن الصرخة الصامتة في الأعماق ستسحق يوما جبروت التافهين .إن العالم الحر بحاجة إلى وسائل اختراق ثقافي مثل مجلة «كلمات» بالإضافة إلى كل الوسائل العلمية والتقنية والدبلوماسية. بالفكر وحده نستطيع شحن الرأي العام العالمي بحقيقة الأمور لأن الخطوة الأولى هي أن نجعله يصغي إلينا ثم أن يكون فعلنا فيه طويل الأمد ناتجا عن قناعته بمصداقيتنا».

ولئن كانت مطامح مجلة «كلمات» ومحررها الدكتور رغيد النحاس على هذا القدر من الانطلاق - ولا أقول الشطط - فإن المؤكد أن أحلامنا تتفق مع أحلام النحاس وأن أمانينا لا تختلف عن أمانيه.

هذا وتمثل مجلة «كلمات» في مصر الأديبة السورية منى الدروبي.

أقباس من الأدب المهجري

أما المحاولة الثالثة فيضطلع بها في البرازيل الأديب نعمان حرب الذي أخذ على عاتقه أن يحيي الأدب المهجري لا في أمريكا اللاتينية وحدها بل كذلك في القارة الاسترالية.

فقد انبرى نعمان حرب لنشر سلسلة من الكتب اختار لها عنوان «أقباس من الأدب المهجري» للتعريف بأدباء وشعراء من جيل تال لجيل العمالقة الذين أوردنا أسماء بعض منهم في صدر هذه المقالة.

واستطاع نعمان حرب حتى الآن أن يصدر أحد عشر كتابا في هذه السلسلة لشعراء في البرازيل منهم فارس بطرس وشفيق عبدالخالق ونبيه سلامة ونواف حردان وأنجال عون وشكيب تقي الدين، وفي فنزويلا ومنهم جورج يوسف شدياق، وفي الأرجنتين ومنهم الشاعر حنا الجاسر والدكتور عبداللطيف الخشن، كما نشر «السجل الذهبي لأدبائنا المعاصرين في البرازيل وفنزويلا» وفي مشروعه - ولعله تحقق - أن ينشر أقباسا لشاعرين في استراليا هما شويل بعيني ونعيم خوري وفي البرازيل للشاعر إبراهيم سلمان.

وقد تهيأ لي أن أطلع على أقباس الشاعر جورج يوسف شدياق المقيم في فنزويلا فألفيته شاعرا مجيدا، وصفه الشاعر السوري عبدالله يوركي حلاق (١٩١١ - ١٩٩٦) بأنه شاعر الشوق والحنين. وفي رأيي المنصف أن هذا الشاعر الموهوب قادر - ولو بمفرده - أن يحيي دولة الشعر في المهجر بعدما أخنى عليها تعاقب الأيام. ففي شعره سحر الكلمة ونشوة العاطفة وخصب الروح ودفق الوطنية.

***

اجتهدت في هذه العجالة في التعريف بهذه المحاولات الفردية الثلاث التي ينبري للاضطلاع بها ثلاثة من أصحاب الرسالات بجهد أكاد أصفه بأنه جهد انتحاري لأنه يفتقر إلى مؤازرة المجتمع وهل استطاع المجتمع أن يكفل لمجلاته الأدبية البقاء والاستمرار ونحن نراها تتساقط واحدة بعد الأخرى؟. ■

وقفة ضد الزيف

فى مسرح جديد

بقلم
د. أحمد شمس الدين الحجاجى

قرأت المسرحيات الثلاث «شمبانيا.. شمبانيا» و«الجدار الثاني»، و«مواطن عالمى» ذات الفصل الواحد وهى تمثل حلقة واحدة أقرب إلى أن تكون مسرحية واحدة، صحيح أن الشخصيات مختلفة والموضوع مختلف غير أنها تعبر عن أزمة الإنسان المعاصر بعمق وحدة، فالفنانة كاتبة المسرحية هدى شعراوى عشقت فن المسرح منذ صغرها وتوجهت نحو دراسته وممارسته دون توقف، مثلت فى أكثر من عمل كما قامت بالإخراج والنقد، وكان لها دور مميز وواضح فى كتابة المسرحية.

وأهم ما يميز كتابتها المسرحية أنها فضلا عن إدراكها للحركة المسرحية الحديثة وتطورها فإنها تميزت بحس إنسانى عال، فهى مهمومة بأزمة الإنسان المعاصر وتحكم الآلة فى حياته، والقوى الرأسمالية التى تحاول أن تجعل منه عاجزا، مسلوب الإرادة، فاقد الحرية.

وقد اتجهت فى كتابة مسرحياتها الثلاث إلى الرمز فلم يكن الرسم الواقعى للشخصية، أو بناء الحدث المسرحى بشكل تقليدى قادر على أن يحمل المضمون الذى تريد أن توصله إلى جمهورها، لذا كان اللجوء إلى الرمز ضرورة، فنقلت عالم مسرحها إلى عالم ما وراء الواقع ليمثل الواقع، فالمكان فى المسرحيات الثلاث يعبر عن تهويمه تقدم غربة الإنسان، ففى مسرحية الجدار الثانى تدور أحداث المسرحية فى مدينة الموتى، وهى جزيرة ثلجية معزولة.

المستويات التى تشكل منها الجزيرة الثلجية عبارة عن مجموعة من الأشجار الضخمة، وقد قطع الجزء المورق منها بشكل حاد وواضح فبدت الأجزاء المقطوعة شبه دوائر متناثرة عبر الجزيرة الثلجية تتحول فى لحظات إلى بقع حمراء، فتبدو الجزيرة كثوب زفاف ناصع

البياض، وقد تناثرت بقع الدماء فى عالم الموتى.

عالم ما وراء الطبيعة

وفى مسرحية «شبمانيا.. شمبانيا» يتحدد المكان بجناح للجميلات المهذبات، يبدو هذا الجناح نقلة مختلفة عن عالم الموتى ولكنه متحد معها، فهنا حركة مرتبطة بالمواجهة بين الطبيعى والمصنوع، بين الإنسان والقوى الآلية المتحكمة، فمازالت أرضية المسرح تقع فى عالم ما وراء الطبيعة داخل العالم نفسه.

وتعود مسرحية «مواطن عالمى» بالإنسان إلى الأرض فى منزل المواطن.. جدرانه شديدة البياض.. نافذة بطول الخلفية، تظهر خلفها الحديقة، يشع ضوء النافذة مباشرة نحو المكتب، ومع هذا الاختلاف لم يبتعد المكان كثيرا عن الأماكن الأخرى، فمازال العالم مرتبطا بتهويمة كونية تحدد سلوك شخصياته.

ويكمل الزمان الجو الذى تدور فيه الأحداث، فالزمان فى مسرحية «الجدار الثانى» لحظة فى الزمان لا تترك ليست فى الحاضر ولا فى الماضى ولكنها صباح الغد حيث حفل تطهير حقيقى وكاذب، وفى مسرحية «شمبانيا.. شمبانيا» يتحدد الزمن بلحظة «من شوية صغيرة» ويتحدد الزمان فى مسرحية «مواطن عالمى» بالفجر، وذلك ليجعل لحظة الحدث عامة مرتبطة بحركة الضوء المختلطة بين الليل والنهار. وعلى هذا فالزمان فى المسرحيات الثلاث زمن واحد ومكان متفاوت، الهدف منه هو أن تدور الأحداث فى دائرة واحدة تجعل الرموز قائمة فى عالم الإنسان فى عقله وفى حياته ومن هنا كانت الشخصيات



هدي شعرواى

داخلة إطار الفانتازيا، ففى مسرحية «شمبانيا.. شمبانيا».. العالم الإنسانى يتصارع.. الأخ يصارع أخاه، والإنسان لا يتوقف عن الصراع للحصول على مكاسب من الآخر بينما القوى الخارجية متربصة به. تحول كل شيء حوله إلى جمال صناعى يفقد فيه الإنسان الروحية. يبهر الإنسان بهذا الجمال وهو غير متبين أن الجمال الحقيقى بجانبه «فنصر بيه» يقاوم أخاه ويغتصب حقه. والفتاة حسن تقوم بدور الخادمة له. وفى محاولته استلاب حقوق من حوله يأتى شوكت. ومع نيللى وهما يلعبان دورا فى تمزيق البناء الأخلاقى والاجتماعى للمجتمع وهما لا يدركان أن هناك قوة أكبر قادمة من الخارج فرضت وجودها على «نصر بيه» وعلى الجماعة حاملة معها نماذج جمالية خارجية لصور بلا روح من صور «جينالولوبريجيتا» و«إيرين باباس» و«إليزابيث تيلور». الجمال الذى حدد شكل الجمال فى العالم المصنوع وينبهر

نصر بيه بهذا الجمال ويأخذ فى التطلع لامتلاكه ويقبل أن تزيف صورته، وشكله ويستنسخ منه عدداً غير قليل من الرجال حتى يستطيع أن يتمتع بكل الجميلات غير أن هذا الاستنساخ ينتهى به إلى أن يكون استنساخه لكلاب تعوى.

وهو غير مدرك أن الجمال الحقيقى موجود فى الفتاة الطيبة حُسن. حتى إنه لم يصدق أنها بهذا الجمال حينما تغير ملابسها وتهتم بشكلها وحين يدرك أن الفتاة الجميلة التى تقف أمامه هى حُسن لا يعود إلى صوابه فإن العالم الغربى بكل ما فيه من زيف يقف بينه وبين الحقيقة.

وهذا ما يحدث ولكن ببناء مخالف وأحداث مغايرة فى مسرحية «الجدار الثانى» فالحدث فيها يتم فى عالم الموتى الذى تسيطر عليه شخصيتان الغندورة والسيد غازى، فالغندورة ذات القلب الحاصل على الميداليات البلاتينية.

وغازى صاحب المنظومة الخاصة بالحريات تلك المنظومة التى يريد أن يطوق بها عنق العالم.

آلام الإنسان

فهو الوحيد فى عالم الموتى الذى يملك حرية العمل فى هذا العالم. موتى متعددون وتحت الاختبار جديرون بدرجة الصفر الشرفية ليقدم الموتى المبتدئون. ويأخذ الموتى فى الحركة بلا حياة يدخلون المسرح الذى يزداد جمالا مع فقده للحيوية من خلال الشرائح المعدنية الرقيعة جدا... المعقدة.. ذات الأشكال المختلفة والألوان والأشكال كأنها ترمز إلى خفايا النفس البشرية. فالموتى مازالوا يعيشون فى عالمهم الماضى يذكرون بعض آلامهم الصغيرة وهى آلام الإنسان العادى. العلاقة بين الفرد والآخر، والشكوى تزداد ولا أحد يسمع، بينما الحدث الأساسى يستمر وهو تحكم غازى فى عالم الموتى فهو يراقص من يريد وجولييت تتصارع معه وهى تحت رحمته بينما الحديث عن الهجرة واللجوء إلى جزيرة الحريات. وتجارة السلاح والجنس.. العالم الآخر هو عالم الإنسان الذى يعيش فيه الإنسان وحيدا فهناك جدار بينه وبين الحقيقة، فالحياة موت والموت حياة، وسيطرة المتحكمين قائمة فى عالم الموت وعالم الأحياء.

وفى مسرحية مواطن عالمى يقع الاختيار على أحد المواطنين ليكون هو الشخصية الممثلة للمواطن العالمى وتبدأ القوى تحدد لهذه الشخصية مكانتها بالدخول إلى عالمه، وعالم اسراره، وأجهزة الدعاية تحاصره وتكشف له عن هذا العالم بكل القوى الممكنة ليعرف هذا العالم، فتستخدم قارئة الفنجان والكف والودع حتى تتكامل رؤيتها له، وإذا به يبدو مقززا مكروها من كل البشر من ابن عمه وابنة عمه، وتكشف فتاة الدعاية للمواطن الذى يفترض أن يحصل على جائزة المواطن العالمى، كم هو كئيب ومتعب ومقزز..؟ وقد أحيط ويحاط بقوى من العفاريت والقطط المزعجة، عالم من الحساد، فتاة الدعاية تحركه نحو الهجرة.

فقد كتب عليه فى نظرها أن يهاجر إلى بلاد لا تعرفه ولا يعرفها وأن يكون آخر

السلالة، فهو المواطن العالمى ولكن فى النهاية يرفض، فقد سمع صوت صديقه ليعود به إلى الوطن، صديقه الذى استشهد، إن يذكره أن أحلامهم لم تمت وأن خطواتهما المنتظمة فى الحياة تؤنس المسيرة، ولقد كان الجسد الذى لم تر سواه فتاة الدعاية محقا فى دهشته حين ظل غير مصدق أن الرأس قد تم بتره عنه.. بل كان صمود الجسد وشموخه يؤكد أن بمقدورنا أن نكون.. الجسد الذى يخيل لى أنه قد تهاوى هشاً.. كان فى الحقيقة بصمة تلون وجه التاريخ.. بعبارة شديدة الوضوح أن بمقدوره أن يكتب اسمه على حدود الوجود وعلى هامش حدود الوجود وعلى هامش حدود حدود الوجود.

مواطن العولمة الجديد

وهنا تتراجع القوى المعادية للمواطن والتى تريد أن تجعل منه مواطنا عالميا رافضا لعالمه.. مواطن العولمة الجديد.. بلا طعم ولا روح ولا حياة وقد أعلن أنه مواطن ابن أرضه وبلده تتراجع القوة الموجهة لسلب الإنسان روحه ووطنه ويظهر ظلهم بين أشجار الحديقة لا يجرؤون على الاقتراب من النافذة ولكنهم مازالوا يفكرون بطريقة أخرى لدخول بيت المواطن.

وعند الحديث عن الشخصيات فى المسرحيات الثلاث يلعب الكورس دورا واضحا واتخذ اسم الأجهزة: وقد كان لها فى مسرحية الجدار الثانى حق البحث وعقد الصفقات والتحليل وحق إصدار القرارات والمراقبة وقد بدأت المسرحية بظهور الجوقة «الأجهزة» لتطلب الهدوء بينما يفتح الستار ببطء ثم توضح لنا طبيعة الشخصيات وهى تعلن:

«على الموتى الحاصلين على درجة الصفر الشرفية الذين يتمتعون بالإقامة فى جزيرة الحريات حضور جلسات التطهير عبر صمتهم الأبدى».

وتختم الجوقة «الأجهزة» المسرحية وينسدل الستار ببطء:

بقولها نفس الكلمة التى بدأت بها المسرحية.

الرجاء الهدوء.. فتكررها أربع مرات.

وتبدأ مسرحية شمبانيا.. شمبانيا بنفس الكورس «الأجهزة» لتنطق بنفس الكلمات الرجاء الهدوء وتختمها أيضا بنفس الكلمات.

ولا تختلف مسرحية مواطن عالمى فى بدايتها ونهايتها عن وقفة الكورس ليبدأ المسرحية وينهيها بنفس الكلمات.

إيقاع الغربة

وشخصيات المسرحية الأساسية فى «الجدار الثانى» شخصيات محددة «الغندورة» وغازى ثم الموتى والغندورة وحدها التى تملك فى هذا المجتمع حق الحلم وحق تحقيق الحلم ولكن «غازى» هو السيد التى تحاول أن تحصل منه «الغندورة» على حقوقها فهى تتحول معه إلى «جولييت» وتغار حين يراقص واحدة من الموتى أو يهتم بها ولعل أهم شخصية من شخصيات الموتى هو المريض وخياله فهما اللذان يصنعان روحاً حية تقاوم الموت فى المسرحية فهما الشخصيتان اللتان غيرتا إيقاع الغربة فى المسرحية فهما القادران على أن يسحبا نفسيهما من عالم الموت ومن «الجدار الثانى

الحاجز للحياة».

أما مسرحية «شمبانيا.. شمبانيا» فتنقسم إلى عالمين عالم بيونك صناعي. وعالم إنساني والشخصيات الصناعية مسيطرة أما الشخصيات الإنسانية فهي منقسمة قسمين: احدهما تابع للشخصيات الصناعية والآخر منقسم عليها وإن لم تكن لديه القدرة على المواجهة.

وقد فرض «نصر بيه» سيطرته على جميع الشخصيات الإنسانية، على أخيه إبراهيم وبجواره شخصية شوكت ونيللى اللذان يريدان أن يحصلا على مكاسب من كل الأطراف. أما شخصية حسن فهي شخصية الفتاة الساذجة الطيبة المغلوبة على أمرها ولكنها تقف في مواجهة القوى الصناعية والمزيفة لتنافس بجمالها الشخصيات الصناعية وتقوم بعملية المواجهة فهي تحاول أخيراً مع «نصر بيه» وإبراهيم التخلص من الزوائد التي تحد من قدرتهم.

أما في مواطن عالمي فتتعدد الشخصيات التي تحاول أن تجذب شخصية المواطن إليها. فتاة الدعاية وأسلوبها المسيطر على المواطن لتجذبه نحو العالمية - وتخطى حدود مكانه وتقبل فرديته وشعوره بأنه مخلوق محسود عليه أن يعيش مواطناً عالميا في مكان آخر. وتشارك شخصيات لها مواصفات محددة تعرف باسمها. قارئة الفنجان وقارئة الودع وقارئة الكف والقط الأنثوى الذي يمثل الغواية السريعة في مجتمع متطور صناعي.

والشخصية الأساسية التي تدور حولها المسرحية لاتظهر على المسرح وهي شخصية الصديق الذي يقوى تذكره موقف الإنسان المواطن للثبات أمام قوى التغيير.

إحباط المؤامرة!

فما إن تحاول قوى الدعاية أن تجعله وحيداً مبعداً عن أهله وناسه حتى يتذكر صديقه الذي تتحدد شخصيته فهو قد كان متزوجاً وأنجب طفلين إلا أنه كان مشغولاً طوال الوقت بحمله الأبدي أن ينضم إلى كتيبة الدفاع عن شرف انتمائها إلى مسيرة البشرية، تذكره هذا وتذكره لخطيبته ابنة خالته التي أجل زواجها من أجل وقفته مع هذه الكتيبة، صحيح أنه فقد الحبيبة. لكن القوة الجديدة التي تريد أن تسلبه حق المواطنة في وطنه ليصبح مواطناً عالمياً تتهمه فتاة الدعاية في موقفه ومع كل المواجهات التي قامت بها وأتباعها كانت وقفة الإنسان المواطن بفضل موقف صديقه محبطة مؤامرة تحويله عن أرضه وأهله ووطنه.

وعلى هذا فإن المسرحيات الثلاث تمثل وقفة التزام ضد العولمة وضد تردى الإنسان.

فالكاتبة صاحبة موقف إنساني نبيل وموقف وطني مخلص أرادت أن تستخدم الرمز لتقول الكثير إلى الإنسان المصري والعربي ما لا يستطيعه التعبير المباشر ولا الكتابة المسرحية التقليدية أن تقوله. إن الإنسان في حاجة إلى أن يعيد النظر في كل القيم التي قدمها لنا الغرب لنعود أسياداً لوطننا حكاماً على مقدرتنا فلا تخدعنا البهرجة ولا الزيف المقدم لنا. ■

لغويات

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

يلتقي كل خميس مساء في نادي جماعة دار العلوم كوكبة من محبي الثقافة عامة، والعربية خاصة، شباب وكهول، رجال ونساء، عاشقين ومحترفين، يتحاورون حول قضايا بلا شطئان، وكان مما ألقى به شاب أنه حائر في ضبط لفظى قبل وبعد، على كثرة تواليهما في الأحاديث اليومية، والكتابات الصحفية، والمقالات الأدبية، فكل الحركات الإعرابية تتعاور آخرهما: الضمة والفتحة والكسرة دون أن يعرف لذلك قاعدة.

وتأملت السؤال فوجدت الشاب على درجة كبيرة من الصواب، لأن الأمر نفسه عرض لي، ولكن مع الدربة والممارسة يستطيع المرء أن يستخدمهما دون أن يخطئ، أما التعليل، ومعرفة الصواب عند الشك، وهو يعرض للكثيرين، فيحتاج إلى شئ من الدرس والمراجعة ومعرفة القاعدة اللغوية التي تحكمهما:

قبل وبعد من حيث ضبط آخرهما لهما - إجمالا - حالتان :

أن يكونا مضافين فيضبطان بالفتح نصبا على الظرفية، أو يجران بالكسرة إذا سبقهما حرف جر، في القرآن الكريم «كذبت قبلهم قوم نوح .... فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون» .

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي :

ويا وطني لقيتك بعد يأس
كأني قد لقيت بك الشبابا
أدير إليك قبل البيت وجهى
إذا فهت الشهادة والمتابا

الحالة الثانية ألا يكونا مضافين ولا منونين فيبنيان على الضم، في القرآن الكريم:«لله الأمر من قبل ومن بعد».

وقد وقف النحاة أمام حالتين خرجتا عن القاعدة النحوية المقررة، في قراءتين من غير القراءات السبع، الأولى قرئ فيها: «لله الأمر من قبل ومن بعد» بالخفض من غير تنوين، ويعللون ذلك بأن المضاف إليه محذوف، ولكن وجوده ثابت ومقدر، ومعنى الآية : من قبل الغلب ومن بعده. والقراءة الثانية «لله الأمر من قبل ومن بعد» بالخفض والتنوين، وذلك يعني أن الإضافة غير مقدرة لأنها لاتجتمع والتنوين .

وفي مواجهة مثل هاتين الحالتين أنا أفضل قاعدة نحاة البصرة التي ترى الالتزام بالقاعدة دائماً، وما خرج عنها من كلام العرب يحفظ ولا يقاس عليه. ونوجز قاعدة الكلمتين في : إما مضافة فتنصب بالفتحة ظرفا، وتجر إذا سبقها حرف جر، وإما غير مضافة فتبنى على الضم.

وهذه القاعدة تطبق أيضا على أسماء الجهات الست : شرق وغرب، وشمال وجنوب، فوق وتحت، ولفظا أول ودون، من غير تفرقة أو تمييز . ■

بعد السقوط

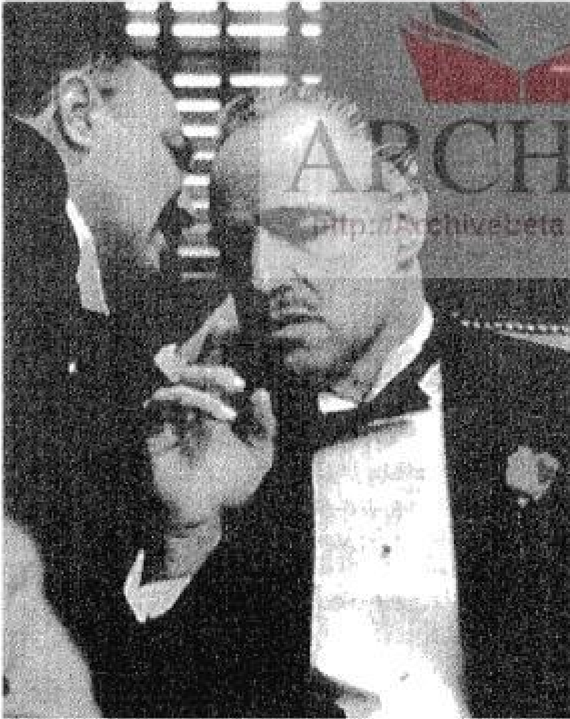
من الأب الروحى إلى تيتو وخالتى فرنسا

بقلم
مصطفى درويش

كانت نيويورك أول مدينة تضاء بنور الكهرباء، ومع ذلك فليست هى، وإنما باريس التى أطلقوا عليها مدينة النور. والآن، وبالتحديد هوليود، باستديوهاتها الكبرى، هى مركز انتاج أكثر الأفلام تأثيرا فى مسار السينما.

ومع ذلك، فباريس، لا هوليوود، هى عاصمة السينما، لا تنافسها فى هذا اللقب مدينة أخرى فى مشارق الأرض ومغاربها.

فهى الوحيدة بين جميع مدن كرتنا الأرضية التى يعرض على شاشات دور السينما فيها، خلال الأسبوع الواحد، ثلاثمائة فيلم أو يزيد.





كما أنها، والى عهد قريب، كانت تنفرد بوجود دارى عرض للأفلام المصورة بطريقة الايماكس، وست عشرة مكتبة متخصصة فى بيع كل ما يتصل بالثقافة السينمائية، وبفضلها تنتشر المعرفة بلغة العصر الحديث.

شارع المتعة

ولست مغاليا، إذا ما جنحت إلى القول بأنه لا يوجد شارع يضارع الشانزليزيه فى عدد دور السينما .

فهذا الشارع الذى يبدأ شرقا من متحف اللوفر، ويعتبر فى نظر البعض، أعظم محور مدائنى فى العالم، لامتداده فى خط مستقيم من قوس النصر (الكاروسيل) المشيد تكريما لانتصارات نابوليون بونابرت (١٨٠٨) مرورا بحدائق التوليرى، حتى ميدان الكونكورد، حيث مسلة الفراعين، فميدان شارل ديجول (الاتوال)، حيث قوس النصر.

ومنه ، ولعدة أميال، تحت مسميين آخرين «لاجراندارمى» أى الجيش العظيم، وشارل ديجول، يمتد الشانزليزيه حتى قوس الدفاع.

هذا الشارع الفريد يزدان بواحدة وستين دار سينما، وهو عدد يفوق عددها فى القاهرة، بكثير .

ومن هنا اختيارى مدينة النور وشارعها الفريد ليكونا قبلتى، أزورهما من حين لآخر، كى استزيد من فن لم نؤت من العلم به الا قليلا.

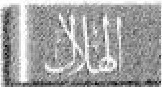
ومن عجب أن آخر زيارة لهذه المدينة وشارعها ذى الواحد وستين دار سينما كانت قبل ثلاثة أعوام، وبالتحديد قبل الحادى عشر من سبتمبر ، ذلك اليوم البغيض الذى جرى فيه تدمير برجى مانهاتان، بوحشية منقطعة النظير.

صيف المحاكاة والتهريج

فى هذه الأثناء وقعت أحداث كثيرة، آخرها بدء موسم الصيف السينمائى بأفلام قوامها إما محاكاة الأفلام الأمريكية دون حياء، أو التهريج الرخيص، ويخبر فاجع طيرته وكالات الأنباء مفاده أن النجم «مارلون براندو» قد جاءه الموت فى الأول من يوليه، اى قبل شهر بالتمام.

ولقد شاءت لى الأقدار أن أجدنى فى مدينة النور، وشارعها الفريد، بعد ستة أيام من إعلان وفاة النجم الكبير، وبعد بضع ساعات من معاناة مشاهدة فيلمين من هجمة الصيف «تيتو» و«خالتى فرنسا» .

ونظراً لضيق المجال، فلن أعرض للأفلام الثلاثة التى أتيح لى أن أشاهدها فى باريس وهى (فهرنهايت ٩/١١) الفيلم الفائز بسعفة مهرجان كان (٢٠٠٤) «والتعليم السئ» أول فيلم أسبانى يفتتح به هذا المهرجان «ولا تقولى شيئا»، رائعة المخرجة الاسبانية «إيكيار بولان»، والفائزة



بست جوائز جويا، وهى المقابل الأسبانى لجوائز أوسكار .

مكتفيا بالعرض لسيرة «براندو» باختصار وبالعرض «لتيتو» ، «وخالتى فرنسا» بأقل الكلام .

إفساد المواهب

وابدأ «ببراندو» لأقول أن أداء الممثل على خشبة المسرح، وأمام عين الكاميرا قبل تقمص براندو لشخصية ستانلى كوفالسكى فى عربة اسمها الرغبة على خشبة المسرح وشاشة السينما غيره بعد تقمصه لها . فلقد أحدث براندو، والحق يقال، ثورة فى الأداء، بطريقة تقمصه لشخصية «ستانلى» وشخصيات أخرى، اذكر من بينها على سبيل التمثيل شخصية الأب الروحى «كورليونى» فى الجزء الأول من ثلاثية «الأب الروحى» ، وشخصية الأمريكى الضائع فى «التانجو الأخير فى باريس» وشخصية الجنرال الأمريكى «كورتز» المصاب بلوثة العظمة فى «نهاية العالم الآن» .

وكالمعتاد ، فى كل ما يتصل بنجوم هوليوود المتعددى المواهب، لم تؤت هذه الثورة ثمارها بالكامل.

فسرعان ما بددت مواهب «براندو» فيما لا ينفع من الأفلام، بالإغراء بالمال .

ولعل خير مثال على ذلك، أن يعرض عليه الظهور فى فيلم



«كريستوفر كولومبس - الاكتشاف»، قبل ثلاثة عشر عاما، وأن يكون ظهوره لمدة عشر دقائق لا تزيد، ومقابل هذه الدقائق القليلة، يحصل على خمسة ملايين من عزيز الدولارات، أى بواقع خمسمائة ألف دولار عن الدقيقة الواحدة .

ومقابل هذه الملايين الخمسة يرتضى أن يتقمص شخصية «كوركيمادا» رئيس محاكم التفتيش فى أسبانيا ، ويرتضى أن يلبسه مخرج الفيلم فى سبيل تقمص هذه الشخصية البغيضة ثوبا فضفاضا، جعل من جسمه البدين، وهو يقترب من السبعين ، مسخا منفوخا، بحيث بدا ، وكأن المخرج أراد أن يتخذه هزؤا .

والآن إلى الفيلمين المصريين تيتو وخالتى فرنسا، لأقول أن أولهما لايعدو أن يكون محاكاة لأفلام الحركة الأمريكية فى أسوأ حالاتها.

سينما الاستسهال

ولا غرابة فى هذا، فمما يعرف عن صاحب «تيتو» المخرج «طارق

العريان» أنه يفضل الطريق الأسهل، ألا وهو اقتباس القصة والسيناريو والحوار ومشاهد التصوير .

وتصبح المسألة عنده مجرد عملية تفكيك لبعض الأفلام الأمريكية، الزاعقة فى تجاريتها، ثم إعادة تركيبها ، مع قدر لا يستهان به من التلفيق .

وخير مثل على هذا النوع من الاقتباس ، الأقرب إلى المحاكاة، «الإمبراطور» فيلمه الروائى الأول، المأخوذ عن «الوجه ذو الندبة» لصاحبه المخرج الأمريكي «برايان دى بالما» .

فهو فى حقيقة الأمر صورة طبق الأصل من الفيلم الأمريكى «مع استبدال أحمد زكى» ، بالنجم «آل باشينو» وإضافة بعض التوابل التى تجعل «للامبراطور» مذاقا مصريا، من بينها أذكر على سبيل المثال المطرب الشعبى «كتكوت الأمير» .

وفيلمه الرابع والأخير «تيتو» فيه من داء المحاكاة الشئ الكثير فهو كما قال عنه الناقد طارق الشناوى فيلم أمريكانى، تجميع مصرى، وذلك رغم أن المخرج يزعم فى العناوين أن فيلمه مأخوذ عن قصة من تأليفه .

انعدام الخيال

والحق أنه ليس فى القصة خيال، فهى قصة ملفقة، والسيناريو الذى حولت إليه ، مفرط فى السذاجة .

وكل ذلك حال بين المخرج وبين أن يحدد لفيلمه طابعا واضحا .

فأحداث «تيتو» تدور ، وجودا وعدما، حول أولاد الشوارع، وكيف يجعلهم عدم مبالاة المجتمع مجرمين.

فتيتو لص منذ أن كان صغيرا، وداخل إصلاحية الأحداث تحول إلى مجرم لا يشق له غبار (أحمد السقا) وخارجها واصل حياة الإجرام.



والمعنى الذى يتمحور حوله الفيلم، هو التوبة فبعد حياة مليئة بجرائم يشيب من هولها الرضع فى حجور الأمهات، يلتقى صدفة بشاب واسع الثراء (عمرو واكد) .

ولأمر ما ، غير مفهوم، يثق فيه هذا الشاب من أول لقاء، ثقة عمياء.

وعن طريق هذا الشاب، يلتقى بفتاة الأحلام (حنان ترك) فيقع فى غرامها من أول نظرة عين .

وهى الأخرى تبادله غرام بغرام.

وها هو ذا، وقد أصبح صاحب مطعم مشاركة مع الشاب الواسع الثراء . وعلى وشك الزواج من فتاة الأحلام . يستيقظ ضميره، يحاول أن يقطع كل صلة بينه وبين عالم الاجرام

فشل التوبة

باختصار يحاول ألا يكون من الضالين ولكن يحول دون ذلك ماضيه المشين . والعريان وإن حاول أن يجعل فيلمه يدور حول معنى النجاة بالتوبة، الا أنه فشل أن يقدمه لنا بجلاء ومنطق واضح يترتب لاحقه على سابقه . عجز أن يبث فينا الإحساس بمأساة أولاد الشوارع، متمثلة فى «تيتو» ونهايته الفاجعة .

فتيتو هذا كما رسم شخصيته السيناريو منذ أن كان صغيراً، ضائعا، محروما من الحنان، ولا تطهره التوبة من هذه العيوب .

فالمطعم الفخم الذى يمتلكه مشاركة مع الصديق المفاجئ الواسع الثراء، ممول بفلوس جاءته عن طريق الإجرام وهو يستعمل هذا الاستغلال للمال الحرام، ولا يدخله فى عداد الآثام .

وعند اقترابه من النهاية، حيث يموت مقتولا بمئات الطلقات، يوصى حبيبة قلبه (حنان)، بأن تأخذ ما عنده من مال حرام، وتنفقه فى أوجه الخير، خاصة على الأولاد المعذبين فى بر مصر!!

وبدلا من ذلك، فلقد كان واجب «العريان» حين يترجم قصته إلى لغة السينما، أن يعيد تركيبها، فيجعل منها قصة صراع داخل «تيتو» بين ماضيه وحاضره، وحتمية الانتهاء الفاجع لهذا الصراع .

دكان بقالة

ولكن شيئا من هذا لم يحدث وتحول الفيلم إلى دكان بقالة، فيه من كل صنف... إثارة وحب وتشويق ومطاردات، وانفجارات وطلقات نارية عمال على بطال .

ولم يحاول المخرج أن يستغل أى عنصر من هذه العناصر التى ازدحمت بها قصته، استغلالا معقولا يرفع من شأن فيلمه، ولو قليلا ، وكانت بعض المشاهد فاشلة تماما، مثل مشهد مطاردة «تيتو» حتى كوبرى إمبابة، حيث قفز إلى النهر

كطرزان في سالف الزمان، لينجو من مطاردة الشرطة إلى حيث يلتقي بزعيم العصابة (خالد صالح)، ويسلمه ما تم سرقته من أموال .

كلمة أخيرة عن «تيتو» وممثليه، قبل الانتقال إلى «خالتي فرنسا» .

(السقا) و(حنان) ، كلاهما يدور حول نفسه كممثل، لا يتقدم إلى أمام

اكتشاف نجم

أما (خالد صالح) في دور ضابط الشرطة زعيم العصابة، كان لامعا، ارتفع إلى مستوى في التمثيل ليس له ما فوقه .

ومثلما يدور (السقا) و(حنان) حول نفسيهما تدور (عبلة كامل) حول نفسها، ويتراجع تمثيلها في «خالتي فرنسا» بنسبة متوالية هندسية .

والفيلم الذي تراجع فيه تمثيل (عبلة) على هذا النحو يبدأ بصوت رواية «بطة» (منى زكي) يحكي تاريخ عائلتها غير المشرف في عالم الردح والنشل، وذلك من خلال عرض مصور سريع، لاهث ينتهي مع اختفاء العناوين وهي، أي «بطة» تستهل حكيها المثير بليلة تكوينها في رحم أمها .

وكيف عكرت خالتها فرنسا صفو ليلة دخلة أختها، عندما سمعت تأوهاتها، فظنتها تأوهات ألم، في حين أنها كانت تأوهات من فرط لذة الاستمتاع بفحولة العريس .

وفجأة تنتقل «بطة» بحكيها إلى أوتوبيس ، حيث جاء أمها المخاض، فولدتها بعد حمل تقلصت مدته إلى سبعة شهور .

ثم إلى أوتوبيس آخر، حيث ضبط والداها، وهما يحاولان نشل أحد الركاب .

فكان أن زج بهما في أحد السجون ، حيث مكثا زهاء عشر سنوات .

سوء التربية

وأثناء وجودهما ، وراء القضبان، تكفلت بأمر تربية، أو بمعنى أصح إساءة تربية «بطة» خالتها فرنسا وما أن تم الإفراج عنهما، حتى حملت أم «بطة» ومرة أخرى جاءها المخاض في الأوتوبيس ، حيث ولدت بنتا ثانية، أسمتها «وزة» .

وبحثا عن أبواب الرزق الحرام ، شدا الرحال إلى مكة المكرمة ، حيث أديا فريضة الحج، ومعها قاما بنشل العديد من حجاج بيت الله .

وكالمعتاد ، تركا ، أثناء غيابهما في بلاد الغربة، فلذتي كبدهما «بطة» و«وزة» في رعاية خالتهما فرنسا وفيما هي منهمكة في النشل مع «بطة» ، وتنشئة «وزة» جاءها خبر وفاة والديهما في حادث على الطريق ، أثناء عودتهما إلى أرض الوطن ، بعد أداء مناسك الحج والنشل في مملكة

الصحراء.

ومع انتهاء «بطة» من حكيها لتاريخ عائلتها، حتى اختفاء والديهما بالموت أثر حادث أليم، وهو تاريخ مشين بكل المعايير.

حاول صاحبا الفيلم كاتب السيناريو «بلال فضل» والمخرج «على رجب» جاهدين أن يدغدغا حواسنا بحدوتة تافهة، فيها الشئ الكثير من ألوان الردح والسباب، وما إلى ذلك من مستلزمات أفلام هذه الأيام.

وحتى يشدا أعصابنا، ويعلقا عيوننا ببياض الشاشة وسوادها، افتعلا صراعا بين «بطة» وخالتها فرنسا.

عناد البغال

«فبطة» تريد لإختها الصغيرة «وزة» أن تتعلم لأن العلم نور، ويبتعد بها عن طريق الفساد وتريد لنفسها حياة بمنأى عن الضالين، قوامها العمل وكسب العيش الشريف، بعرق الجبين ولكن الخالة فرنسا تأبى ذلك باصرار وعناد كعناد البغال تريد لهما أن يستمرا معها في طريق الضلال.

كما افتعل كاتب السيناريو والمخرج صراعا آخر بين قوتين.

إحداهما شريرة متمثلة فى عصابة تقوم بتهريب السموم البيضاء إلى بر مصر المحروسة، ويرأسها رجل أعمال. واسع الثراء (سامى العدل) والأخرى خيرة متمثلة فى ضابط شرطة همام، لا هدف له سوى انقاذ البلاد والعباد من شر مستطير يهدد الشباب ببلاء كبير.

فتى الأحلام

ولأمر ما، وقع اختيار الضابط الهمام على «بطة» لتكون شغالة وفى نفس الوقت جاسوسة مدسوسة فى القصر المنيف، حيث يقيم رئيس العصابة، وكما فى حكاية سندريللا تلتقى «بطة» فى القصر بفتى الأحلام (عمرو واكد) الذى يقع فى حبها، وينقذها من البؤس والشقاء.

ولن أحكى ما حدث بعد هذا اللقاء السعيد، فذلك شئ يطول. وإنما أكتفى بأن أقول بأن صاحبى الفيلم كعهدنا معهما فى سابقة فيلمية لهما، هى «صايع بحر» قد انتقلا بنا من شئ سخيف إلى شئ أشد منه سخفا

وختاما، يبقى لى أن أقول أنه ما أن ينتهى ونخرج من ظلام القاعة إلى ازدحام الشارع، حتى يختفى تماما من شاشة ذاكرتنا، فلا يبقى منه شئ، لا فكرة، ولا تأمل، ولا أثر يمس القلب.

ومعروف أن الفن الحقيقى هو ما بقى منه شئ جميل فى نفس المتفرج، يزداد جمالا كلما بعد عنه، وفصلت بينهما أيام النسيان، التى تطمس التفاصيل، ولا تبقى إلا الجوهر الجميل. ■

رخا

إثبات خطأ نظرية مأمون أفندى !

بقلم
محيى الدين اللباد

عرفت مصر الكاريكاتور بمعناه الحديث (منشوراً فى مجلات وصحف مطبوعة) مع مجلة «**أبو نظارة**» التى أصدرها **يعقوب صنوع** عام ١٨٧٨. وكان ذلك الكاريكاتور بدائيًا، رسومه ساذجة، وتناوله الموضوعات فج، لكنه كان الأول من نوعه فى تاريخ الصحافة المصرية. ومرت عدة عقود قبل أن تستقبل مصر -بعد ثورة ١٩١٩ بقليل- ثلاثة من الرسامين الأجانب الأكاديميين المحترفين ستتأسس على أيديهم -وعلى الأصول- مهنة الكاريكاتور فى الصحافة المصرية: الإسبانى **خوان سانتيز** الذى أتى ليعمل أستاذاً فى مدرسة الفنون الجميلة المصرية، ثم ظفر به الصحفى سليمان فوزى ليجعل منه الرسام الأول لمجلة «**الكشكول**» عام ١٩٢١. بعده جاء إلى مصر التركى **رفقى** رسام الساحة العسكرية المتمكن لتختطفه «**دار الهلال**» لمجلتيها «المصور» و«**الفكاهة**». وأخيراً جاء الثالث الأرمينى **ألكسندر صاروخان** عام ١٩٢٤، وقدمه صاحب ورشة زنكوغراف إلى **محمد التابعى** الذى التقطه ليرسم غلاف «**روزاليوسف**». وهكذا أسس الرسامون الخواجات العظام فن الكاريكاتور فى مصر على مستوى مهنى رفيع لم يتوفر لدولة عربية أخرى.


محمد عبد المنعم رخا

فى نفس العام الذى صدرت فيه «**الكشكول**» بمستواها الفنى والمهنى المتميز (١٩٢١)، كان فصل السنة الرابعة (ب) فى مدرسة باب الشعرية الابتدائية يشهد موقفاً تاريخياً آخر: **مأمون أفندى** مدرس الرسم والحساب وضابط الكشافة بالمدرسة يقف إلى جوار «قمطر» يتجاور عليه تلميذان يجيد أحدهما الرسم بدرجة لافتة النظر، ويحمل اسماً غير مألوف هو «**فريبون**» (رسام

الإعلانات النابغة فيما بعد). ويسأل المدرس النابغة الصغير: «أنت اسمك غريب شوية، إنت من أى بلد يا شاطر؟». ويجيب التلميذ: «عيلتنا جات من إيران يا افندي!». ويهتف المدرس مهللاً: «أهو كده! أنا دايما أقول ما فيش مصرى فنان بطبعه أبداً». وينقبض التلميذ الآخر وينكمش فى «القمطر». وقد ذبحته نظرية ذلك المدرس التافه، تفور داخله رغبة حارة فى مقاومة تلك النظرية المهينة لكرامته وكرامة وطنه.

لم يكن **مأمون أفندى** التافه والغبى يدرك أن هذا التلميذ المصرى الذى جرح مشاعره الوطنية والشخصية سيكون رسام الكاريكاتور المصرى الأول الذى سيمصر هذا الفن وينقل ريشته إلى أيدى الرسامين المصريين، مفتتحاً طريق مهنة سوف يتعلق بها القراء ويتابعون أعمال رساميها مفتونين. بل إن هذا التلميذ سيصبدر على نفقته -فى سن التاسعة عشرة- مجلة الكاريكاتور «**اشمعنى**» فى مطلع عام ١٩٣٠، ولم يكن يعرف أن هذا الفتى سيكون نجماً ساطعاً فى سماء الصحافة المصرية قبل أن تمر ١٥ عاماً على ذلك الدرس المخزى الذى هتف به **مأمون أفندى** التافه الغبى والسخيف. وكان التلميذ الذى لم ير معلمه فيه أى قدر من النجابة، هو الرسام «**رخا**»!.

ولد **محمد عبد المنعم رخا** فى نوفمبر ١٩١٠ فى سنديون (محافظة القليوبية)، ابناً للشيخ **السيد أحمد رخا** القاضى الشرعى فى المدينة. ولم يكد الصغير يبلغ العام والنصف حتى رحل أبوه عن الحياة، فانتقلت الأسرة إلى حى باب الشعرية القاهرى حيث جرت فى مدرسته الابتدائية واقعة **مأمون** أفندى التافه الغبى السخيف والمنسحق.



مجلة «اشمعنى» عام ١٩٣٠

وقع رخا منذ صباه فى غرام الرسم والكاريكاتور تحديداً، وغرق فى هواه منصرفاً عن الدروس وعن كتب المدرسة، محولاً اهتمامه وإعجابه إلى المجلات والكتب المصورة، مثل: مجلة «الأولاد» وكتاب «القراءة الرشيدة»، اللذين خلبا لبه وألباب كثيرين من مجايليه (ابحث عما قاله كل من الرسام **بيكار** والروائى **نجيب محفوظ** عن تلك المجلة وذلك الكتاب وما فعلاه بوجدان كل منهما!).

وانتقل التلميذ الواقع فى هوى الرسم إلى المدرسة الخديوية الثانوية، حيث دلله بعض أساتذتها اهتماماً ببراعته فى الرسم، لكن لم تفلح تلك المعاملة الخاصة فى تخفيف علاقته الفاترة بالدروس، فغادر المدرسة غير آسف

مولياً وجهه شطر سوق الكاريكاتور ليدخله من أوسع أبوابه.

في الطريق إلى سوق الكاريكاتور، مر رخا بسوق الخضار في باب اللوق، الذي كان الطابق الثاني من مبناه مقسماً إلى غرف صغيرة تشغلها ورش ومشاغل ومحترفات ومكاتب للإيجار، فاستأجر رسامنا إحداها، لتكون مقره الذي ينجز فيه عمله، ويأتي إليه من يطلب منه الرسوم للصحف والمجلات ولغير ذلك من أعمال.

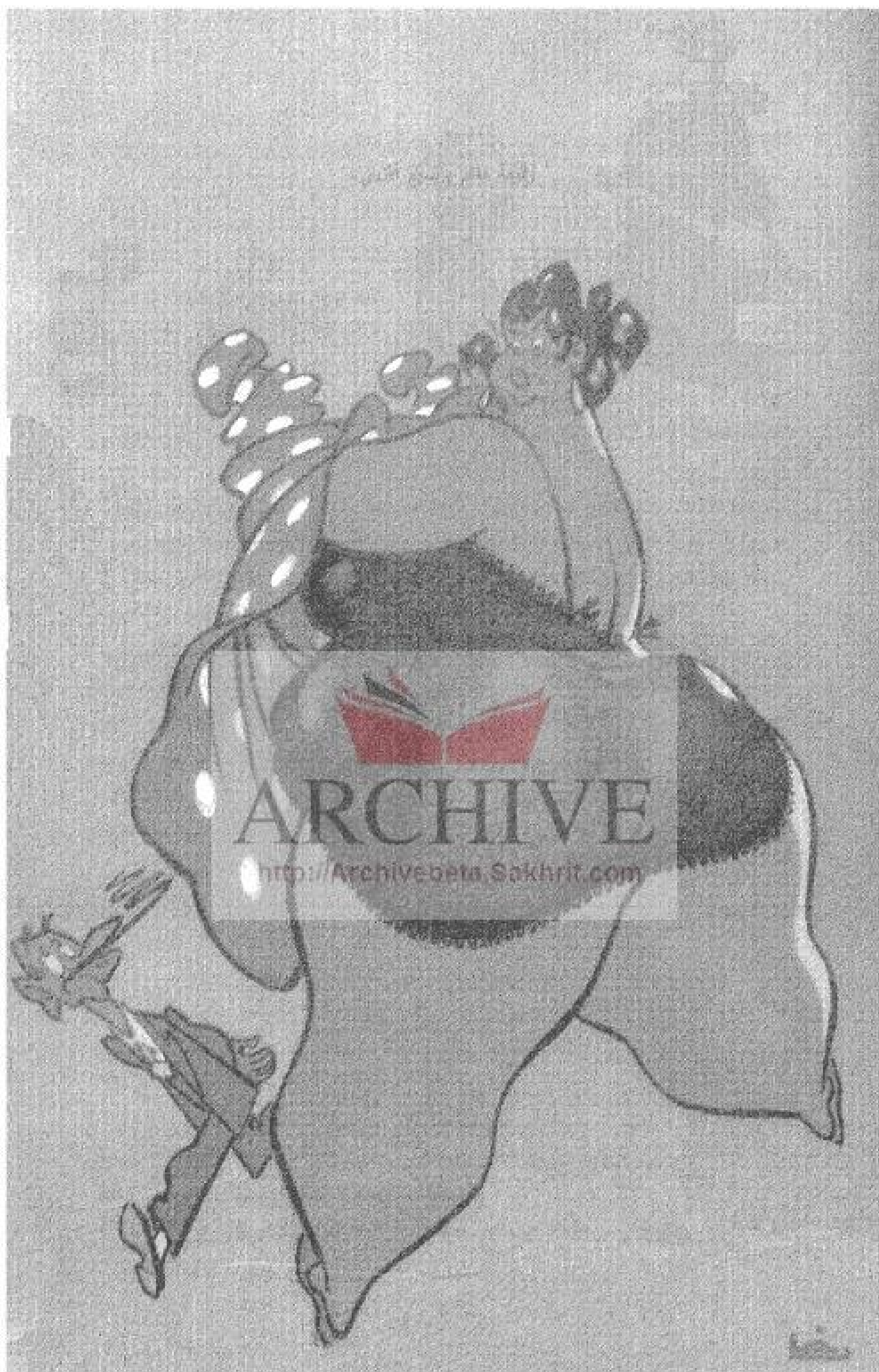
ذهب رخا إلى يونس القاضي (كاتب الأغاني المعروف ومؤلف نشيد «بلادي بلادي»)، وعرض عليه رسومه، فاختار أحدها ونشره في مجلته «الفنان». وكانت تلك هي التجربة الأولى للرسام في نشر رسومه في الصحافة الحقيقية. وفي واحدة من مطابع الصحف، التقى رخا برئيس تحرير «روزاليوسف» محمد التابعي، الذي أخذ منه رسمين ونشرهما في «روزاليوسف» على غلافها الأخير.

كان رسامو الكاريكاتور المصريون -حينذاك- أحراراً يعملون في الصحف والمجلات دون ارتباط وظيفي أبدي كما هو واقع اليوم. بل كانوا عصافيراً تزقزق متقافزة من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى أخرى. كانت المساحات التي تطلب الكاريكاتور في صفحات الصحف شاسعة، وكان الرسامون المجيدون المعروضون قلائل، ولذا كان من المقبول أن يرسم الرسام في أكثر من مجلة وجريدة. وكثيراً ما حدث أن رسم أحد الرسامين كاريكاتوراً على مقاس الخط السياسي لإحدى المجلات، ثم يذهب بعد ساعة إلى مجلة أخرى من اتجاه سياسي معاكس، حيث يرسم كاريكاتوراً ضد الكاريكاتور الآخر الذي رسمه في صباح اليوم ذاته. وقد حكى رخا أن هذا الأمر كان رائجاً وشائعاً في المهنة، وأنه كثيراً ما عاش هذا التناقض. لكنه حكى في أكثر من مناسبة ولقاء أن هذا الأمر كان متسقاً مع طبيعة الأحزاب السياسية الكبرى في تلك الفترة. تلك الأحزاب التي لم تكن الخلافات بينها حقيقية أو مبدئية، بل كان الخلاف الأساسي بين كل الأحزاب: «من منهم أجدر بتولي الحكم الآن». ولذا كان الكثيرون يرون مهنة الكاريكاتور -رغم صعوباتها وشروطها القاسية- أشبه باللعبة المربحة المسلية التي لا خطر من ورائها.

إلا أن رخا لم يسلم من مخاطر تلك «اللعبة المسلية»، حين وقع في مطب كبير كلفه -وهو في الثانية والعشرين- أربع سنوات من عمره قضاها في السجن محكوماً بتهمة «العيب في الذات الملكية».

كانت مجلة «المشهور» قد صدرت (١٩٣٣) وعلى غلافها كاريكاتور رسمه رخا ويسخر فيه من رئيس الوزراء. وبين ثنايا الرسم المطبوع كانت هناك عبارة كتبت بخط دقيق جداً ومصغر لا تلحظه العين العابرة: «فليسقط الملك ابن الـ.....!». كان الملك هو فؤاد الأول، وكان رئيس الوزراء ووزير الداخلية هو إسماعيل صدقي ولي القمع والإرهاب وعدو الحريات وربيب

●●●



بدأ ابن البلد شخصية حافياً ... وقلت أحواله في تحسن، حتى صار عملاقاً يلبس الحولة!

الاحتلال، وكان البوليس السياسي هو الذي دس تلك العبارة في الرسم بيد بعض عملائه، بينما كان رخا رهن التحقيق حول الرسوم التي نشرها في العدد السابق من نفس المجلة.

قضى رخا في السجن سنوات الحكم الأربعة كاملة، وخرج بعدها ليعمل في «روز اليوسف» عام ١٩٣٦، كما عمل عام ١٩٣٩ في جريدة «الوفد» التي نشرت رسومه على الصفحة الأولى في سابقة لم تحدث في الصحافة المصرية من قبل، وتكرر الأمر نفسه ونُشر رسم رخا على الصفحة الأولى لجريدة «البلاغ» المسائية. ورسم رخا في مجلة «الاثنين» بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٤ تحت رئاسة **علي أمين**، وتركاها معاً عند تأسيس جريدة «أخبار اليوم». ويقول **مصطفى أمين** في بابه «فكرة»:

حين كتب يعني رخا: «ما من مجلة أو جريدة ظهرت في الثلاثينيات أو الأربعينيات أو الخمسينيات ولم يكن فيها صور رخا الضاحكة الساخرة».

ظل رخا في دار «أخبار اليوم» ٤٥ عاماً متصلة منذ عام ١٩٤٤ حتى وفاته ١٩٨٩، فرسم في «أخبار اليوم» الأسبوعية و«الأخبار» اليومية والأسبوعيات «آخر ساعة» و«آخر لحظة» و«الجيل»، وعلى صفحات هذه الصحف والمجلات اختلق رخا شخصياته الكاريكاتورية التي شغف بها القراء حباً، فصارت أيقونات شعبية ذائعة الصيت، حتى أن تلك الشخصيات جرى اقتباسها في عدد من الأفلام والمسرحيات والأعمال الإذاعية والاسكتشات الكاريكاتيرية في حفلات الزفاف وفي الموالد الشعبية.

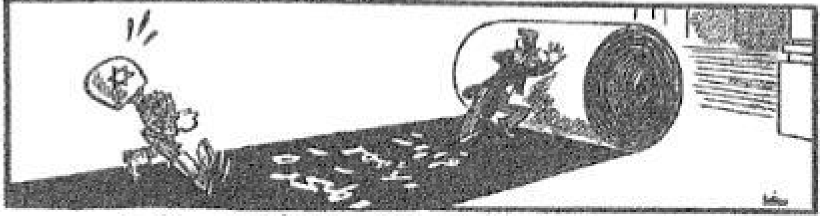
ابتدع رخا شخصيات: "ابن البلد" "رفيعة هانم" "السبع افندي" "حمار افندي" "الرفص افندي" "قرفان افندي" "ابن العرب" "سكران باشا طينة" "بنت البلد" "سي سيد" "كروان الإذاعة" "الغالية" "العسرس".

ظهر ابن البلد للمرة الأولى عام ١٩٤١ على صفحات مجلة «الاثنين»، وكان ابن البلد شخصاً ضئيل الجسم ضعيف البنية، رث الثياب، يلبس جلابية ويضع كوفية رخيصة حول رقبته. بدأ ظهوره وعلى رأسه «طربوشاً» قديماً منحنياً بالعرض مثل ذلك الذي رأيناه على رأس **محمود شكوكو**، ثم تحول إلى طاقية بحائط من كثافة تبرز من تحتها ذؤابة من شعره. لم يكن مظهر **ابن البلد** يلبس بأنه فلاح أو صاحب صنعة بل مجرد إنسان صغير، ظهر حافياً، قرابه قليلة ترافق بعضها حذاءه برقبة. ويمكن أن يحمل لك اسمه الذكر الشخصية بصورته، إذ كان اسمه في البداية «الفلق»، ... نجد **ابن البلد** بعد ثلاثة عقود وقد ضربت المصائب والأحداث والأزمات والانكسارات التي ألمت بالأمة، وبالذات بعد ١٩٦٧، نجده وقد رسمه رخا عملاقاً أشعث، ... عجوزاً غاضباً، تظهر عروق رقبته التي صارت شديدة النحافة، يحمل وجهه تعبيرات غاضبة ساخطة، ويمسك بعصا طويلة وغليظة في الأخرى، منتفضاً في وضع ينذر بالشر، ويطالب الأمور.

كم انتظر الكاريكاتير المصري -مرتقباً وطوال نصف قرن- إلى مثل رخا ليستطيع دلالة تخلو من أي انتقاد أو سخرية حقيقية أو حتة دم بل تسخر من مواهب الرسامين لواكب تهليل ومنافقات لا تحمل من الكاريكاتير شيئاً.

***

كان ثنائي **رفيعة هانم والسبع أفندي** واسع الانتشار، إلى حد أن أطلق الناس على كل بدينة **رفيعة هانم**، وعلى كل ضئيل منكسر أمام زوجته **السبع أفندي**. وكان **حمار أفندي** هو الغبي الذي لا يفهم في السياسة، ويكون رضاه عن أمر ما دليلاً على فساد ذلك الأمر. كذلك كان الحال مع **سكران باشا طينة**. أما **ميمي بيه** الرقيع المتخنث، فقد كان رمزًا للطبقات العليا المرفهة التي لا تعمل. وكان **كروان الإذاعة** هو كنية **محمد بك فتحي** مدير الإذاعة المصرية في



رخا على مساحة الكاريكاتور العريضة في صفحة «أخبار اليوم» الأخيرة

ذلك الوقت.

أما **بنت البلد**، فقد كانت ست كل تلك الشخصيات: هيفاء فارعة، ونموذجًا للست المصرية ذات الجاذبية الخاصة والأنوثة المتفردة. قدم رخا هذه الأنثى الشهية في لوحات ملونة عملاقة تشهد بحساسية الرسام وبراعته النادرة. واستطاع بعض من تابع **بنت البلد** التي رسمها **رخا** على صفحات **«آخر ساعة»** في الخمسينيات، أن يلمح فيها منافسة قوية وتسابقًا دؤوبًا يدوران بين **رخا** وبين اثنين من الرسامين الأجانب كانت **«آخر ساعة»** قد نشرت لوحاتهما الملونة لهيفاوات أوروبيات على صفحاتها من قبل: الأمريكي **ناقيد رايت** والإسباني **فارجاس**. منافسة وتسابق: أينا الأبرع والأقوى، وأي نسائنا هي الأشهى والأمضى أنوثة. وربح **رخا** السباق!

تحولت **بنت البلد** على يد **رخا** –في فترة المنافسة الضارية تلك– إلى فتاة ذات قدّ رشيق مبالغ في استطالته حسب مقاييس النموذج الأنثوي الغربي حينذاك، الذي اعتبر طول الساقين والفخذين دليلاً على حسن حظ المرأة، وقدرتها على جلب السعد. ومع الساقين



رائد القمر: انتم اللي غلط .. أنا متأكد إن القمر هو اللي على إيدي الشمال!



«الميكرو» لف
بنت البلد: دى موضة
مش قصير يا دلعدى!

والفخذين الطوال، كان هناك الخصر النحيل والحوض الخصيب والصدر الناهد المتماسك، الذى تنعكس على كرويته التماعات الضوء الساقط وأيضاً على حدود الفخذين والحوض. **صوفيات لورينات** يحطن أجسامهن بالملاية اللف السوداء التى اختصر **رخا** طولها فى أحد رسومه، وجعلها -فقط- تغطى النصف الأعلى لبنت البلد اللعوب! وتضع هؤلاء **الصوفيات اللورينات** «البرقع» المخرم على النصف الأسفل للوجه المليح، و«العروسة» الذهب القالصو فوق الأنف، والمنديل «أبو أوية» على الرأس، والحلق «المخرطة» فى الأذنين، والخلخال فى «خُنّاقة» القدم. أيقونة إيروسية ناجحة فى عصر لم تكن صور النساء الملونة الرقمية المعالجة بالتقنيات العالية قد أصبحت متاحة بالوفرة الغامرة كما هو الحال الآن. كان **رخا** يقدم **بنت البلد** كما تمنيناها، بعد الحرب العالمية الثانية، حين غمرته وغمرتنا نوبة الإعجاب الكونية بالنموذج الغربى (والأمريكى بالذات)، والتى اجتاحت حتى معايير ذكورنا فى اشتهاء الإناث. لقد رسم **رخا** كل هذا ببراعة وحساسية أسطى كبير: وأى براعة! وأى حساسية!

وتعكس رسوم **رخا** المبكرة تأثراً بالسائد من الكاريكاتور الغربى الذى كانت تنشره بعض الصحف والمجلات المصرية مثل «**اللطائف المصورة**» وبالرسامين الأوروبيين المتمصرين، وبالذات منهم **رفقى وصاروخان** الذى لم يسلم من التأثر به واحد من الرسامين المصريين العاملين فى سنوات التماعه. تعلم رخا من أستاذه الأرمينى حركة الخط وحيويته، وتنوعه بين الغلاظة والنحافة باستخدام أكثر من نوع وسُمك من سنون التحبير، التى ضغط عليها بعنف ودراية كبيرة، ولعله كسَّر المئات من تلك السنون على خطوطه الباهظة القوة مثلما «تكسرت النصال على النصال» فى الشعر العربى من قبل.

وتتبع رخا أعمال أستاذه مستكشفاً فيها الرهافة والحساسية التى تجعل ذلك الخط يضج بالحركة والارتجاف ويجسم الأشكال التى يرسمها، والذى يجعل قارئه يشعر أن تحت تلك الملابس المتموجة جسم بشرى تطقطق عظامه، وتنقبض عضلاته وتنبسط، وتسرى فيها دماء جارية نشطة، وتمتد فيها شبكة أعصاب تموج بالشحنات وموجات الانفعال.

وسيظل **رخا** يعمل بجد وبهمة مطوراً كاريكاتوره العصامى، مضيفاً إليه -بانتظام- نتائج تجاربه الممتدة واكتشافاته المستمرة وحصاد حساسيته الشخصية المتجددة. وفى منتصف الأربعينيات، كانت تأثيرات **صاروخان** قد اختفت من رسومه، وأصبح الأستاذ وتلميذه زميلان يعملان سوياً فى دار «**أخبار اليوم**»، ويتشاركان فى واحدة من حجراتها.

وستبدأ رسوم **رخا** فى ذلك الوقت، تنحو نحو الاهتمام بالتصميم وبالقيمة الجرافيكية والتيبوغرافية، وأصبحت رسومه تكوينات محكمة وأنيقة، تتكون من أشكال مقصوصة (باترونات) من الأسود تتصارع مع مساحات بيضاء، ويحيط بالحلبة إطار أسود سميك. أما الشخوص، فقد كانوا دمًى بديعة التصميم، وعبقرية التلخيص، وتضج بالحيوية والحركة، فى

حين تنعم بالتوازن!.

ويتجلى اهتمام **رخا** بالقيمة الجرافيكية والتصميم في رسومه، كما يتجلى في خطه الذي كتب به الكلمات المكتوبة ضمن رسومه، والذي تميز بأسلوب شخصي مميز في كتابة خط حديث مبتكر سهل القراءة، امتد تأثيره إلى بعض مصممي المجلات المهمين من الأجيال الأحدث.

وتكفي متابعة توقيع الرسام على أعماله لتتعرف على ذوقه الجرافيكي الأنيق. وقد أبدع **رخا** -في أواخر الثلاثينيات- تصميمات جميلة لاسم «**روزاليوسف**» على غلافها. وكان أحدها ما اعتمد عليه **أبو العينين** في الخمسين ليجعل منه شعاراً ثابتاً على غلاف المجلة.

وبعدها، صمم **رخا** اسم مجلة «**آخر ساعة**» الراقص الذكي الذي جعل من التاء المربوطة



فيه ميناء ساعة. وكذلك كان اسم «آخر **لحظة**».

...

رسم **رخا** الكاريكاتور لستين عاماً متواصلة، ولا تزال رسومه تجعلك -بمجرد النظر إليها- قادراً على استحضار صور الحياة السياسية المصرية وروائحها ومذاقها وضجيجها في فترة ما بين عشرينيات القرن الماضي وثمانينياته.

عمل **رخا** بهمة عالية وبغزارة، وعاش بالطول والعرض، وأنفق ما كسبه بأريحية، وضحك كثيراً، واستمتع بعمله ونجاحه وببساطة كثيراً. وظل حتى اليوم الأخير محتفظاً ببنية مصارع ضخم معتزل، أو رباع أثقال تحول إلى التدريب. واحتفظ بشعر رأسه سليماً لم ينقص شعرة. وظل شعراً كثيفاً طويلاً يستطيع أن يمشطه إلى الخلف حتى نهاياته، وإن كان قد استحال تاجاً أبيض تاماً بلا استثناءات.

عاش سعيداً، راضياً، مسالماً، محبوباً، ومحبا لغيره. لم يخض معارك ولم يتمترس في عداوات، ولم يكرهه أحد ولم يكره أحداً. في حين أنه ربما كان عليه -في الحياة وفي الكاريكاتور- أن «يتعلم كيف يكره» لمواجهة العنف والمظالم التي يعج بها واقعنا الخشن والصعب ■

حكاية

أسمهان

أميرة الغناء العربى

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

إن جاز أن تكون للغناء العربى ملكة متوجة فى القرن العشرين ، فإنها أم كلثوم بلا جدال ، وإن أمكن أن تكون هناك أميرة لذلك الغناء فى القرن المنصرم الذى شهد أزهى وآخر عصور تألقه ، فإنها كانت بلا مراء وبرأى كل نقاد الغناء ومتذوقيه : آمال الأطرش التى عرفت باسم أسمهان ، والتى تمر فى الرابع عشر من شهر يوليو الماضى الذكرى الستين لرحيلها .



أذنت الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر لسنة ١٩١٧م بحلول شتاء تلك السنة وبغروب شمس الدولة العثمانية، تلك الدولة التي أظلت قبل هذا التاريخ بسنوات طوال معظم المعروف من معمور الارض، كانت الدولة العثمانية تتلقى في تلك الأيام من شهر نوفمبر - مع شركائها من الألمان والنمساويين والمجريين - الهزيمة تلو الأخرى من جيوش الحلفاء على كل الجبهات في الحرب العالمية الأولى ، كان فرار القوات التركية أمام تقدم الحلفاء يحدث على كل جبهات القتال ، ويتم ذلك الفرار عبر كل وسائل النقل المتاحة ، ومن بين هؤلاء الفارين من تركيا .. الامير فهد الأطرش (١٨٧٥ - ١٩٤٤م) وأسرته ، عمل فهد الأطرش - من لدن السلطان العثماني - حاكما لمنطقة ديمرجي من أعمال أزمير في أقصى الغرب من تركيا ، وعندما تهاوت دفاعات الأتراك أمام تقدم القوات اليونانية ، هرب الأمير فهد بأسرته .. حيث تمكنت الأسرة من الصعود إلى باخرة أقلعت بالهاربين تجاه السواحل اللبنانية في يوم السبت ١٩١٧/١١/٢٤م ، وعندما لاحت في الأفق ملامح الشاطئ اللبناني ، وكان ذلك في صباح الأحد الخامس والعشرين من نوفمبر ، هاجمت الام الوضع زوجة فهد الأطرش : السيدة عالية حسين المنذر (١٨٩٥ - ١٩٦٧م) ، وقبل أن تلقى الباخرة مرساتها عند الساحل اللبناني ، كانت السيدة عالية قد وضعت بمساعدة بعض المسافرات طفلة جميلة ذات عينين خضراوين في زرقة ، ونظرا لملابسات ميلاد الطفلة .. رغب والدها في أن تسمى «تجربة» ، ولكن والدتها أصرت ومن منطلق ما عايشته الأسرة من أحداث أن تسمى «أمال» ، وقد أنفذت الأم ما أردات .

مواصلة الهرب

تولى الأمير فهد الأطرش عدة مناصب قضائية بسوريا في عهد الاحتلال الفرنسي للشام بعد هزيمة الدولة العثمانية في عام ١٩١٨م ، حيث عمل رئيسا لمحكمة الاستئناف في السويداء ثم في درعا ، وعندما إختار الدروز فهد الأطرش ليكون مندوبا لعشيرته لدى سلطات الاحتلال الفرنسي ، رحل فهد بعائلته إلى بيروت - مقر الحاكم الفرنسي لكل الشام - حيث أقاموا في حي السراسقة عند بعض أقاربهم ، وعندما صدر قرار سلطة الاحتلال الفرنسي في عام ١٩٢١م بتعيين فهد الأطرش معتمدا للدروز لدى الفرنسيين ، عاشت أسرة فهد الأطرش ببيروت في بحبوحة تصل إلى حد الترف .

عندما استعرت نيران الثورة ضد الاحتلال الفرنسي في جبل العرب أو جبل الدروز بقيادة سلطان باشا الأطرش - الشقيق الأكبر لفهد الأطرش - في عام ١٩٢٢م ، إنضم فهد إلى الثوار من أهله في قتال الفرنسيين ، بينما هربت عالية حسين بأبنائها فؤاد وفريد وآمال من السويداء إلى دمشق ثم إلى بيروت ، ولما نمي لعلمها سعي الفرنسيون وراء أطفالها لاتخاذهم رهائن كوسيلة لاخضاع آل الأطرش الذين يقودون الثورة في الجبل، فإنها حملت أولادها وغادرت بيروت في أحد أيام شتاء سنة ١٩٢٣م ميممة شطر مصر ، لتبلغ القاهرة في صباح يوم شتائي من الأيام الأخيرة لسنة ١٩٢٣م ، وبعد تدخل شخصي من الزعيم سعد باشا زغلول ، لضمان عالية وأبنائها الذين

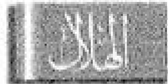
لم تكن بحوزتهم وثائق هوية أو جوازات سفر .

سنوات الشقاء

فى القاهرة .. وبعد أن نفذ ما حملته عالية معها من نقود ومصوغات، لم تجد زوجة فهد الأطرش بدا من أن تعمل ببعض الأعمال الصغيرة مثل صناعة مناديل الرأس للسيدات ، ولما كانت عالية جميلة الصوت وتجيد العزف على العود، فإن الحاجة أسلمتها للغناء في أفراح وسهرات الأسر الشامية أولا ، ثم إنتهى بها الأمر بالغناء في ملاهى روض الفرج (فوميل لبيب : فريد الأطرش ... لحن الخلود ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص١٦ - ١٨) ، بل إن هناك بعض المصادر تقول بأن عالية حسين قد غنت أيضا فى الإذاعات الأهلية ، وهو ما ذكرته فرجينيا دانيلسون بقولها: «ومن بين الفنانين الذين قدموا أعمالهم على موجات هذه الإذاعات (والتى يقال إن عددها قد زاد على المائة) : علية حسين وأولادها فريد وآمال الأطرش» (فرجينيا دانيلسون : صوت مصر أم كلثوم ، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ٢٠٠٢م - ص١٣٧) ، ولكن الأمر المؤكد فى إحتراف عالية حسين للغناء بالقاهرة ، هو ما تحدثت به إبنتها آمال إلى محمد التابعي من أن أمها قد سجلت بعض الأسطوانات فقالت : «وكانت أمى قد عبأت بعض إسطوانات بأغانيها» (محمد التابعى : أسمهان تروى قصتها ، الكتاب الذهبى ، دار روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص٤٥).

لذلك ... تحول منزل عالية حسين - التى طلقها زوجها غيابيا بعد هربها إلى مصر - إلى ملتقى لكبار أهل الغناء بالقاهرة من أمثال داود حسنى ومحمد القصبجى وزكريا أحمد ومحمود صبح وفريد غصن ويوسف بدروس ، ممن جذبتهم مواهب الأسرة الموسيقية والغنائية ، وفى سهرات تلك الأيام بهرت آمال - التى كانت تلميذة آنذاك بمدرسة الراهبات فى حى شبرا - أسماع الجميع ، حتى أن داود حسنى فاضت عيناه بالدموع عندما استمع إلى الصغيرة آمال وهى تؤدى بالسماع أحدث أغنيات أم كلثوم فى ذلك العهد ، منذ تلك الليلة ... تبنى داود حسنى آمال الأطرش فنيا بعد أن أطلق عليها إسم «أسمهان» تيمنا بمطربة العجم الشهيرة ، وعن داود حسنى ... أخذت أسمهان أصول الموسيقى وطرائق الغناء (فوميل لبيب : المصدر السابق ، ص٥٠) .

بدأت أسمهان إحتراف الغناء وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، حيث يذكر الكاتب الراحل محمد التابعى أنه استمع إليها فى عام ١٩٣١م بصالة مارى منصور فى شارع عماد الدين (محمد التابعى : المصدر السابق ، ص١٤) ، وخلال عامين أو أكثر قليلا تغنت أسمهان فى مرحلتها الأولى مع الغناء بأغنيتين لداود حسنى وبعدة أغنيات لمحمد القصبجى ، وقد تميزت تلك الأغنيات جميعها بطابعها التقليدى وبعدم نضج صوت أسمهان ، التى لم تتجاوز وقتها بعد السادسة عشر من عمرها ، ومن الأغنيات التى لحنها لها محمد القصبجى نذكر : «كنت الأمانى» و«فى يوم ما أشوفك راضية عنى» وهما من تأليف يوسف بدروس و«أين الليالى التى سببت سقمى» من شعر إسماعيل باشا صبرى (محمود كامل : محمد القصبجى ... حياته وأعماله ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص١٤٨ - ١٥٦) ، وجاء ختام هذه المرحلة فى عام ١٩٣٣م - بزواج أسمهان من ابن عمها الأمير حسن



الأطرش . زعيم الدروز وحاكم جبل العرب من قبل سلطات الاحتلال الفرنسى ، حيث رحلت أسمهان إلى السويداء لتقيم مع زوجها وتنجب ابنتها الوحيدة : كاميليا .

سنوات الانطلاق

بحلول عام ١٩٣٨م .. كانت أسمهان قد استنفدت كل رصيدها من الصبر على قيود الزواج ، فتحينت فرصة لزيارة والدتها وإخوتها بالقاهرة، لتعود إلى عالم الغناء، والأضواء، من جديد وتفر من قيود الزواج وأسره ، وبعد أن تحررت من زواجها الأول بطلاقها فى القاهرة من زوجها الأمير حسن الأطرش فى مطلع عام ١٩٣٩م ، مضت أسمهان فى مرحلتها الثانية مع الغناء والتى شهدت أجمل ما غنت على الإطلاق ، ففى الأول من شهر نوفمبر من عام ١٩٣٨م ... أطلقت أسمهان من إذاعة القاهرة أغنيتها الخالدة «يا طيور» وهى من نظم يوسف بدروس وألحان محمد القصبجى (الراديو المصرى : العدد ١٨٩ - ١٩٣٨/١٠/٣٠م) ، وقد حملت أعداد مجلة «الصباح» الصادرة فى شهر يناير من عام ١٩٣٩م إعلانات عن أغنية أسمهان الجديدة : «المحمل» وهى من إصدارات إسطوانات بيضافون ، وأغنية «المحمل» هى نفسها أغنية «عليك صلاة الله وسلامه» بعد أن تغير اسمها فيما بعد ، والأغنية من تأليف بديع خيرى وألحان فريد الأطرش ، وقد تغنى بها فريد للمرة الأولى فى الإذاعة - وقبل أن تسجلها أسمهان على إسطوانة - مساء السبت ٢٠ رمضان ١٣٥٧هـ الموافق ١٩٣٨/١١/١٢م (الراديو المصرى : العدد ١٩٠ - ١٩٣٨/١١/٥م) ، وبانتهاء عام ١٩٣٩م كانت أسمهان قد بلغت ذروة شهرتها بما قدمت فى هذا العام من



أسمهان «آمال الأطرش» فى طفولتها

أغنيات ، ومن هذه الأغنيات ما قدمته الإذاعة للمرة الأولى ونوهت عنه بخبر فى مجلة «الراديو المصرى» ، كان عنوان الخبر «أسمهان تطربكم بأغنيتين جديدتين» وجاء فيه : «تذاع إسطوانتان جديدتان للفنانة أسمهان ، الأولى مونولوج (نويت أدارى آلامى) من نظم الأستاذ يوسف بدروس وتلحين الأستاذ فريد الأطرش ، والثانية مونولوج (دخلت مرة فى جنينة) من نظم الأستاذ عبدالعزيز سلام وتلحين الأستاذ مدحت عاصم ، استمع لهاتين الأغنيتين فى مساء الثلاثاء ١٩ الجارى (أى ديسمبر ١٩٣٩م) فى تمام الساعة السادسة والنصف» (الراديو المصرى : العدد ٢٤٨ - ١٩٣٩/١٢/١٦م - ص٢٠) ، وقبل أن يستمع جمهور إذاعة القاهرة إلى هاتين الأغنيتين الجديدتين من أسمهان ، كان شدوها الساحر فى فيلم محمد عبدالوهاب الأخير - فى تلك السنة - «يوم سعيد» مازال عالقا فى آذانهم وعقولهم ، حيث غنت وبدون أن تظهر صورتها بالفيلم أغنية

«محلاها عيشة الفلاح» ، وشاركت عبدالوهاب فى غناء أوبريت «قيس وليلى»

كان عام ١٩٤٠م عاما حاسما فى مسيرة أسمهان الفنية ، فقد واصلت فى هذا العام تقديم المزيد من الأغنيات، فقدمت من ألحان شقيقها فريد أغنيات مثل : «كفاية أشوفك» والتى قدمت من إذاعة القاهرة مساء الأحد ١٧/١١/١٩٤٠م ، و«حبيت وكان فى حبك أمل» وكانت إذاعتها الأولى بصوت أسمهان مساء الأربعاء ١٨/١٢/١٩٤٠م ، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن أغنياتها لذلك العام لم تكن مقصورة على ما قدمه لها شقيقها فريد ، وإنما شهد ذلك العام تقديمها لروائع أخرى لكبار ملحنى عصرها ، ومن ذلك قصيدة الأخطل الصغير (بشارة الخورى) الشهيرة : «اسقنيها بأبى أنت وأمى» وهى من ألحان المبدع الكبير محمد القصبجى ، على أن عام ١٩٤٠م شهد أيضا من الأحداث الفنية المهمة فى حياة أسمهان .. عودتها إلى ألحان رياض السنباطى بعد فترة إنقطاع .

على أن نشاط أسمهان الفنى فى عام ١٩٤٠م لم يكن وقفا على تسجيل الأغنيات فقط ، وإنما إمتد ليشمل تمثيل فيلمها الأول : «إنتصار الشباب» مع شقيقها فريد ، ويعد «إنتصار الشباب» فى رأى كل نقاد السينما العربية إحدى العلامات المهمة فى تاريخ الفيلم الغنائى العربى .

اللعب بالنار

لم يقف تأثير ما حملته أيام عام ١٩٤٠م من أحداث فى حياة أسمهان عند تسجيل الأغانى والتمثيل للسينما ، وإنما أثمر ذلك أيضا وقوعها فى شرك السياسة والسياسيين ، ففى مطلع ذلك العام التقت أثناء إقامتها فى فندق ميناهاوس بأحمد حسانين باشا : الأمين الأول للملك فاروق ثم رئيس الديوان الملكى ، وقد تمخض هذا اللقاء عن إعجاب متبادل بين أسمهان ورجل البلاط الملكى القوى ، وعندما نمى إلى علم القصر الملكى أمر ذلك الإعجاب ، فإن أسمهان لم تجن منه سوى المتاعب ، حيث كان من المعروف للعامة قبل الخاصة آنذاك ما يربط بين حسنين باشا والملكة نازلى - والدة الملك فاروق - من علاقة عاطفية توجت بالزواج العرفى (محمد التابعى : من أسرار الساسة والسياسة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٨م، ص ١٦٦ - ١٦٧) ، لذلك لم يكن غريبا أن يستدعى الأمير الاى مصطفى ثابت (مدير قلم الجوازات) أسمهان إلى مكتبه بوزارة الداخلية فى صباح الأربعاء ٢٥/١٢/١٩٤٠م ليخبرها أن تصريح إقامتها بمصر قد إنتهى ، وأنها يجب أن تغادر البلاد فى خلال أسبوع من تاريخ إستدعائه لها (محمد التابعى : أسمهان تروى قصتها ، ص١٠٣) ، ولكن سعى محمد التابعى لدى رئيس الوزراء : حسين باشا سرى أثمر إلغاء قرار وزارة الداخلية طرد أسمهان من مصر .

توثقت عرى التفاهم والمودة بين أسمهان ومخرج فيلمها الأول : أحمد بدرخان أثناء تصوير الفيلم ، وهو ما انتهى بزواجهما عرفيا فى ١٠/٣/١٩٤١م ، ولكن الزواج لم يدم كثيرا ... حيث انتهى بالطلاق فى ٣٠/٤/١٩٤١م بعد مشاجرة بين الزوجين إثر عودة بدرخان إلى المنزل ثملا (محمد التابعى : المصدر السابق ، ص١١٧) ، كانت أسمهان خلال الشهور الأولى من عام ١٩٤١م مهددة بالطرد من مصر ، ولعل زواجها من أحمد بدرخان

كان فرصتها الأخيرة - آنذاك - للبقاء بمصر والمضى فى طريق الغناء والتمثيل، فلما ضاعت تلك الفرصة بالطلاق، ضاقت بها الدنيا حتى جاءتها فرصة أخرى لم تكن تخطر لها ببال، آنذاك - فى مطلع صيف ١٩٤١م - كانت بريطانيا تعانى وحلفاءها فى الحرب العالمية الثانية من فداحة الخسائر فى الشام على يد قوات حكومة فيشى المتحالفة مع دول المحور، لذلك لجأ بعض رجال السفارة البريطانية بالقاهرة ومعهم الجنرال كلايتون: رئيس المخابرات السرية البريطانية فى الشرق الأوسط وبتعليمات من لندن، إلى أسمهان - لكونها درزية ومطلقة زعيم الدروز - كى تقنع زوجها وعشيرتهما بمناصرة الحلفاء ومعاونتهم فى طرد عملاء الألمان من الشام (محمد التابعى: المصدر السابق، ص١٢٦)، لأجل ذلك وضع الإنجليز تحت تصرف أسمهان أربعين ألفا من جنيهات ذلك الزمان (!) لتوزيعها على زعماء العشائر فى جبل العرب، وعندما وصلت أسمهان إلى الجبل فى مطلع يونيو ١٩٤١ حاملة معها عرض البريطانيين للدروز بمناصرة الحلفاء فى الحرب، فإن زوجها السابق: حسن الأطرش ربط موافقته على العرض البريطانى بموافقتها على العودة إليه، فلما وافقت أسمهان على العودة لزوجها .. طيرت الصحف النبأ فى مصر وكل المنطقة، ومن ذلك ما نشرته صحيفة «المصرى» فى عدد الأربعاء ١٩٤١/٧/١٦. نقلا عن المراسل الحربى لوكالة الأنباء الفرنسية المرافق لقوات فرنسا فى الشام، قالت الصحيفة عن عودة أسمهان لزوجها الأول: «احتفل فى ٣ يوليه فى دمشق بزواج الأميرة آمال الأطرش المعروفة فى عالم السينما المصرية باسم أسمهان بابن عمها الأمير حسن الأطرش من رؤساء القبائل فى جبل الدروز»، وعندما دخل الحلفاء لبنان بعد أسابيع من ذلك الزواج، احتفل بزواج أسمهان - للمرة الثانية - من الأمير حسن الأطرش احتفالا تاريخيا حضره الجنرال كاترو (المندوب السامى الفرنسى بالشام) والجنرال سبيرس (سفير بريطانيا فى سوريا ولبنان) وأقيمت المهرجانات والاحتفالات (الصباح: العدد ٩٣١، ١٩٤١/٧/٢٧م، ص١٥).

مضت أسمهان تعب من الحياة عبأ، فقد أتاح لها عملها مع الحلفاء وزواجها من الأمير حسن الأطرش الذى أصبح وزيرا للدفاع السورى بعد دخول الحلفاء إلى سوريا، أتاح لها ذلك مصادر للانفاق على حياة إتسمت بالترف والسرف وتوزعت بين السويداء ودمشق وبيروت والقدس، وحينما يأس حسن الأطرش من صلاح حالها وخضوعها لقيود الزواج، فإنه طلقها للمرة الثانية.

النهاية

وصلت أسمهان فى القاهرة وأثناء تصوير فيلمها الثانى والأخير: «غرام وانتقام» ما اعتادته من حياة الانطلاق والسهر، وهو ما تعارض مع ما عرف به أحمد سالم من حدة فى الطباع وغيرة شديدة، وفى إحدى مشاجرات الزوجين فى الأيام الأولى من شهر يوليو ١٩٤٤، أشرع أحمد سالم مسدسه فى وجه أسمهان، فاستغاثت أسمهان بالأميرالاى سليم زكى: مدير أمن القاهرة، فأوفد مدير الأمن البكباشى محمد إبراهيم إمام لإصلاح ذات البين بين الزوجين، وفى محاولته انتزاع المسدس من يد أحمد سالم .. أصيب البكباشى إمام وأحمد سالم .. كل برصاصة، وعندما استقرت حالة الجريحين الصحية، وانتهت أسمهان من

تصوير معظم مشاهد فيلمها الأخير ، تاقت نفسها إلى أجازة تستعيد فيها هدوء نفسها ، فطلبت من إدارة ستوديو مصر بعد إنتهاء العمل فى يوم الخميس ١٩٤٤/٧/١٣م أجـــازة لمدة ثلاثة أيام تذهب فيها إلى مصيف رأس البر ، وحاول البعض من الممثلين (مثل يوسف وهبى) إثناءها عن الذهاب إلى رأس البر وأن تستبدل بها الاسكندرية ، إلا أنها أصرت على ما إنتوته .

فى الثامنة والنصف من صباح الجمعة ١٩٤٤/٧/١٤م ومن أمام (الفيلا) التى تملكها وتقيم بها فى شارع الهرم ، استقلت أسمهان وبرفقتها صديقتها وسكرتيرتها مارى قلادة سيارتها الخاصة ، وهى سيارة من طراز (الكورد) .. تحمل رقم (٧٦٥٤) ويقودها السائق فضل محمد نصر ، وهو يعمل سائقا منذ فترة طويلة فى ستوديو مصر ، وكان سائقا خاصا لأحمد سالم : زوج أسمهان عندما كان مديرا لستوديو مصر (!) ، وقبل الحادية عشرة بدقائق وعند قرية (سرنقاش) من أعمال مركز طلخا بمديرية (محافظة) الغربية (آنذاك)، اصطدمت السيارة بحفرة كبيرة نتجت بعد أعمال حفر تمت بعرض الطريق لإمرار ماسورة تحمل الماء من ترعة الساحل إلى أرض أحد كبار الوزراء المطلة على الطريق (!) . كان اصطدام السيارة بالحفرة من القوة بدرجة أطاحت بالسيارة إلى أعماق الترعة ، وبينما تمكن السائق فضل من القفز من باب السيارة الأمامى ، وقبل أن تهوى إلى الماء ، لقيت أسمهان ومارى قلادة مصرعهما غرقا فى الجزء الخلفى من السيارة ، عندما فشلت جهودهما فى فتح أبواب السيارة المغلقة عليهما .

بينما كانت التحقيقات الأولية وردود الفعل الأولى للحادث تتوالى فيما تبقى من نهار الجمعة ١٩٤٤/٧/١٤ من ساعات ، كان مدحت عاصم يستحث العمال بالعمل معهم فى حفر قبر لاسمهان فى قطعة أرض إبتاعها شقيقها فريد فى مدافن الأمام الشافعى بعد الحادث مباشرة ، وفى الحادية عشرة من صباح السبت ١٩٤٤/٧/١٥م توقف المرور تماما بوسط القاهرة ، عندما تحرك موكب جنازة أسمهان فى شارع فؤاد الأول (٢٦ يوليو حاليا) متوجها إلى مسجد أبى العلا للصلاة عليها ، غص موكب الجنازة الشعبية بآلاف المشيعين يتقدمهم شقيقها فريد والموسيقار محمد عبدالوهاب وجمع من الموسيقيين، كان الحزن يومها على أسمهان ومازال حتى اليوم كبيرا ، فليس فى كل يوم ترحل عنا أميرة كهذه !

من قتل أسمهان ؟

انطلقت الشائعات والأقاويل فى المجالس وعلى صفحات الصحف بعد رحيل أسمهان ، ودارت كلها حول موضوع واحد ، هو الإجابة عن سؤال واحد : من قتل أسمهان ؟ ، وبداية .. فإن الشائعات والأقاويل أسقطت تماما بصياغة السؤال إحتمال القضاء والقدر فى حادث السيارة ، وقد أحصى الكاتب سعيد الجزائرى - وبعد قرابة نصف قرن من رحيل أسمهان - ستة من الأفراد والشخصيات المعنوية ممن تحركهم دوافع مقبولة ومنطقية للتخلص من أسمهان ، ضمت قائمة الستة التى توصل إليها سعيد الجزائرى كلا من : شقيق أسمهان : فؤاد الأطرش - القصر الملكى - الملكة نازلى - أم كلثوم - أحمد سالم والمخابرات البريطانية (سعيد الجزائرى : أسمهان ضحية الاستخبارات ، دار رياض الريس ، لندن ، ١٩٩٠م ، ص٢٢٣ - ٢٢٤) ، كانت لكل واحد من الشخصيات الستة أسبابه المعقولة والقوية

من جهة المصلحة المؤكدة فى إزاحة أسمهان ، ولكن أيا من الوثائق الدافعة لم يكشف عنها خلال ما مضى من سنوات بعد رحيل أسمهان لتأكيد الاتهام بحق أى من الشخصيات التى ضمتها قائمة سعيد الجزائرى ، لقد اتفقت كل الشائعات والأقاويل - التى دارت حول من قتل أسمهان - على أن السائق فضل محمد نصر كان أداة التنفيذ الذى اعتمد عليها من قام بذلك من الشخصيات الستة ، ولقد أدانت محكمة طلخا فى حكمها الصادر فى الأيام الأولى من شهر أغسطس سنة ١٩٤٤م هذا السائق بتهمة الإهمال المقترن بوفاة أسمهان وصديقتها ، وقضى حكم المحكمة بحبس السائق شهرين مع النفاذ (الصباح : العدد ٩٣٣ ، ١٠/٨/١٩٤٤م ، ص٢٢) ، كانت حيثيات هذا الحكم هو ما ثبت فى التحقيقات من أن السائق قاد السيارة بسرعة جاوزت المائة من الكيلو مترات فى الساعة ، أما أسباب تلك الحيثيات فقد تمثلت فى قوة إرتطام السيارة بالحفرة وفى توقف ساعة السيارة عند الحادية عشرة إلا عشر دقائق ! (الصباح : العدد ٩٣٠ ، ٢٠/٧/١٩٤٤م ، ص٢٤) ، وأيا ما كان الأمر .. فقد إنطوى سر وفاة أسمهان بوفاة السائق الذى أطبق صدره على ما يعرف عن الحادث ، ولم يتبق أمام المهتمين بوفاة أسمهان ... سوى انتظار ما قد تبوح به أقبية الوثائق السرية للمخابرات الأجنبية فى قابل الأيام من أسرار حان وقت فضح سترها

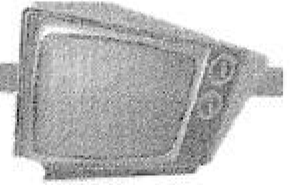
فى ميزان النقد

لم يختلف إثنان - فى حالة من الاتفاق نادرة - من نقاد الغناء العربى أو متذوقيه حول جمال صوت أسمهان وقيمته ، فأما جمال الصوت .. فإنه منحة



.. فى ريعان الشباب - ١٩٤٢

ربانية عملت فيه قوانين الوراثة عملها ، حيث ورثت أسمهان وشقيقها فريد جمال الصوت عن أمهما ، التى كانت جميلة الصوت ومارست الغناء كما جاء فى أول المقال ، علما بأن أسرة الأم قدمت صوتا آخر يتصف بالجمال هو صوت خليل حسين : شقيق الأم الذى توفى فى مقتبل عمره ، وأما قيمة صوت أسمهان العالية .. فإنها تجيء من امتزاج أسلوبى الغنائين العربى والغربى فى هذا الصوت النادر ، فقد تمرس صوت أسمهان بأصول الغناء العربى على يد أمها وكوكبة الموسيقيين الكبار من أصدقاء أسرتها من أمثال داود حسنى ومحمد القصبجى ومحمود صبح وفريد غصن ، إضافة إلى ما تميزت به الصغيرة أمال من حافظة مذهلة استوعبت كل ما غنته كوكبة مطربى ومطربات ذلك الزمان من ألحان تتسم بالأصالة والعروبة ، بينما عمل إتقانها لفنون الغناء الغربى التى تلقتها عن راهبات مدرسة الراهبات بشبرا ، على إستكمال هذا المزيج النادر من إسلوبى الغنائين العربى والغربى فى صوت قل أن يجود الزمان بمثيل له . ■



المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

الفضح!

لم يخطر ببالى أن توجيه تهمة الخيانة إليها سيؤدى إلى هذه السلسلة المعقدة من التحولات فى حياة فكرية. كما لم يخطر ببالى أننى سأصبح أسيرة لها، لا أقوى على تركها لحظة، فهى توالى إحكام سيطرتها على ذهنى ومشاعرى، بينما هى تصارع ما يفاجئها من ضغوط.



لم أكد أطمئن بموافقتها على الزواج من عادل، وهو الذى يحبها ويقدر تفردها، كإنسانة تكرس نفسها لرعاية أبيها وأخيها بعد فقد الأم، ككاتبة مبدعة، تأبى أن يتطاول أحد على ما كتبت فيعدل أو يضيف، حتى وإن كان ذلك هو الطريق الوحيد إلى «الشاشة» وبنفس القوة ترفض أن تدفع ثمنا لا يليق بكرامتها، وإن كلفها الأمر أن توصد «الإذاعة» أبوابها فى وجهها بالكلية.

ظللت أتابعها، وهى ترشف من كأس الحب بعد زواجها من عادل، وبالرغم من

الألم الشديد الذى أصابنى وأنا أتتبع التحول المرير الذى زحف على علاقتهما، إلا أننى لم أصدم حين ترك لها البيت، بحجة أن أمه المريضة فى حاجة إليه أشد. كما أننى لم أدهش من انصراف أبيها عن القراءة فى الشأن الثقافى، ليستغرق فى التعبد وقراءة القرآن الكريم، يلوذ به من هم مراقبة ما يطرأ على «فكرية» من تغيرات يعجز عن صد تداعياتها المدمرة لحياة ابنته الغالية.

ورغم كل ما أصابنى من أسى، إلا أن شعورا متناميا بالسرور بدأ يغمرنى، ومع حلول الغبطة أدركت الأسباب:

أولا: أن فكرية، ومن حولها من شخوص رواية «امرأة بين الرجال» يفوزون جميعا بثمار خبرة مبدعتهم فيما سبق لها من كتابة للشاشة. فلقد كتبت لنا «وفيه خيرى» «امرأة بين الرجال» بتقنية كتابة «المشهد» للشاشة. ولنا أن نظل نعجب من قدرتها على تحجيم اللقطة لتأتى بها غاية فى الدقة والقصر، أما عن تتابع اللقطات وأساليب الوصل والفصل بينها، ففى ذلك تكمن موهبة الأستاذة فى إحكام بناء شخوص وأحداث روايتها فى أقل من مائتين وخمسين صفحة، مختزلة من الأفكار والمشاعر ما يغرى بكتابة مئات أخرى من الصفحات.

ثانيا: أن اختيار «فكرية» بطلة لـ «امرأة بين الرجال» وكونها واحدة من عموم بنات مصر المكافحات الموهوبات، جاء على يد كاتبتنا المبدعة ليأخذ بألباب قارئها، وهو يكتشف قدرتها على النفاذ إلى أعماقنا جميعا، والإحاطة بملابسات الإحباط الذى أصابها، ونحن نصارع مع «فكرية» أصابع الأجانب وهى تتسلل إلى مؤسساتنا فى بدايات التحول إلى اقتصاد السوق خاصة أنه معلوم للكافة أن ذلك التحول لم يقتصر على بلادنا وحدها، وإنما تشعبت غوائله وهى تصيب معظم بلدان العالم، سواء فى الفترة التى شملتها الرواية - من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٠ - أو بعد ذلك بقليل أو كثير، وهكذا نتبين أن «فكرية» أصبحت على يد وفيه خيرى بطلة على المستوى الإنسانى، عالمية بمعنى الكلمة، بالرغم من كونها مصرية صرف، أو ربما من أجل ذلك.

ثالثا: لا يقتصر حذق المؤلفة على شخصية البطلة، ذلك أننا نجد «الرجال» أطراف الصراع فى الرواية وقد ظهرت ملامح شخصياتهم فى مواقف تعمق فهمنا لكل منهم فيسود التعاطف ويمتنع الشعور بالغيظ أو العداء. وبنفس البراعة جاءت كل شخصية مكتملة الملامح



بوضوح يجعلك قادرا على التعرف عليهم بين أهلك وجيرانك وزملاء العمل، وما ينطبق على البطلة ينطبق على زوجها «عادل» الذى تدهمه الأحداث وتلقى بظلالها الكثيفة على نفسه السمحة الطيبة، وتجعله ينسحب ويتقوقع، وكما تأثرت البطلة بالتغيرات السياسية والاجتماعية التى شملت المجتمع بعد ١٩٧٦، كذلك تأثر عادل، وإن تباينت أشكال التأثر والتحول.. وفى تصورى أن شخصية «عادل» ستظل لسنين طويلة مقبلة موضوعا للدراسة والتحليل الأدبى الكاشف للتحولات النفسية بفعل الأحداث السياسية والقرارات الاقتصادية.

رابعا: عرفت الكاتبة كيف تجعلنا نتفهم ونتعاطف مع كل شخوص الرواية بفضل قدرتها على حسن اختيار ما تلتقطه من أفكار ومواقف كاشفة لأبعاد الشخصية وكأن رسالتها مركزة فى الدعوة للفهم والتحذير من التصنيف والإدانة، والمثال الأوضح هنا فيما نقلته لنا من معاناة فكرية من القطيعة التى أصابت علاقتها بأعز أصدقائها بعد أن أدانوها بالخيانة وغلقوا فى وجهها الأبواب، لكن فكرية لم تكف عن معاودة الطرق، وكأنما هى بذلك تعاود السعى إلى منابع قوة أفلتت من بين أصابعها. وإذ يصيبنا الجزع نواجه أنفسنا بالسؤال: كيف كان يمكن لمصير فكرية أن يتغير؟

الخصام

ومع أن الأوساط الثقافية عبرت عن احتفائها بثانى روايات وفيه خيرى وعقدت لذلك ندوات عديدة علت فيها نبرة الحفاوة، وتعددت أصوات المحللين المهتمين، إلا أن الكاميرات كانت غائبة. وبالتالى لم نر أثرا لهذه الإضافة الثقافية على أى من شاشاتنا .. لا الشاشات الأرضية ولا الفضائية ولا المتخصصة وهو ما يجعل السؤال مطروحا.. إلى متى هذا الخصام بين الشاشة والإنتاج الثقافى المتميز من إنتاج أدبى وموسيقى وغناء وفن تشكيلى وفنون الأداء الدرامى المختلفة، بل إننى أجد السؤال يجر أخا له لصيقا يستفسر عن أسباب استمرار عملية السقوط التى تعيشها التمثيليات المعروضة على الشاشات المصرية.. ومتى يبدأ الإجراء الذى يستجيب لصراخ المصريين «كفاية بقى.. قرفتونا» متى

توقف مهزلة الإنتاج الدرامى وكوارثه المتعاقبة.. ومتى يوقف نزيف المال الضائع فى الصرف على إخراج نصوص هزيلة معيبة تدين كل الأطراف المشاركة فى عملية إنتاجها وإخراجها على الشاشة ومتى يفيق فنانو مصر وممثلوها الذين كانوا مبدعين، ولكن ، ويكل أسف وصل بهم الحال الآن لأن أصبحوا بالجملة وجوها مملة لا تستحق حتى نظرة شفقة، فلقد كان المتوقع أن يترفعوا عن المشاركة فى هذا الإنتاج الهزيل الهابط المترهل، كما كان من المتوقع أن ينتبهوا إلى أنهم تحولوا إلى شلة يتكرر ظهورها فى تتابع خال من أى مبرر ولقد أصبحوا بذلك أطرافا فيما يشبه المؤامرة على الدراما التليفزيونية المصرية التى كانت متميزة .. كانت .. زمان.

أما الآن فلا أحد يلتفت إلى ساعات العمل التى تهدر فيها مئات الألوف من الجنيهات لأن ممثلا «تافها» أو ممثلة صايعة تأخرت وتعطل التصوير.. والآن تتم كتابة النصوص تفصيلا على ما يسمونهم بالنجوم وهم لا يدركون أن هذا التفصيل حرقهم بالجملة!

والآن يجلس ألوف الممثلين المصريين فى بيوتهم بلا عمل ومعهم عشرات المخرجين المجيدين من أجيال متعاقبة تربت على الإجادة والتميز وهم بذلك أطراف غير مقبولة وغير مؤهلة لسوق «الخيانة».

والآن أيضا تحفل الساحة الأدبية بعشرات الأعمال الجيدة الجديرة بأن يلتفت إليها المخرجون وكتاب السيناريو.. وبالمناسبة ألا يمكن أن نطرح على أنفسنا السؤال :

لماذا كتبت وفية خيرى «امرأة بين الرجال» فى شكل رواية ولم تكتبها فى شكل السيناريو وهى صاحبة ما يزيد على الثلاثين سيناريو لمسلسلات وسهرات درامية وأفلام ، يكفى أن نذكر منها التليفزيون «وسط الزحام» إخراج علية ياسين حلقات متصلة منفصلة، «زوجات صغيرات » إخراج مجيدة نجم «هي في عينيه» «هو في عينيها» إخراج نور الدمرداش وغير ذلك كثير.

ومن الأفلام «القاهرة ٣٠»، «القضية ٦٨ » و« سقطت في بحر العسل » والثلاثة من إخراج صلاح ابو سيف. وإلى أن تجدوا الإجابة ستبقى رواية «امرأة بين الرجال» لسنين طويلة قادمة «مدرسة» فى الكتابة تشهد لبدعتها وتؤهلها لأرفع الأوسمة. ■

هوامش ثقافية

● في غيبة «وجود تنظيمات شعبية» تستطيع تنظيم الناس وتوحيد مواقفهم إزاء قضايا بعينها نترك المسألة للمبادرات الفردية وكل شخص له مبرراته الخاصة سواء للمشاركة أو المقاطعة.

بهاء طاهر - أخبار الأدب

● المسرح الأمريكي شيء وسياسة أمريكا الخارجية شيء آخر، واعتقد أن الشعب العربي أدرك منذ فترة طويلة أن آداب وفنون الشعوب شيء وأن سياسة الدول شيء آخر فكون بريطانيا أعرق الدول الاستعمارية، وأنها استعمرت الهند ومصر ودولا أخرى كثيرة في أفريقيا وآسيا لم يمنع الشعوب المستعمرة من دراسة شكسبير وتقديم رواياته.

لويس جريس - صباح الخير

● أمنية ليست مستحيلة ونحن في فترة الإصلاح من الداخل أن تصبح لعائلة الإعلام المرئي والمسموع نقابة مهنية قوية مستقلة تدافع عن العاملين فيها كما دافعوا عنها حتى في أحلك الأوقات وليت النقابة تظهر في العيد السبعين.

كامل زهيري - القاهرة

● كل جماعة ثقافية وهي تتعامل مع ما جدّ في حاضرها من مواجهات، إنما تتعاطى من مخزون ثقافتها وتسحب من رصيدها الفكري العام المتراكم عبر العصور والذي يتكون منه التشكيل العقلي والنفسي لهذه الجماعة، عقائد ومواريث وخبرات تاريخية.

طارق البشري - وجهات نظر

● من المحزن حقا ألا يستقي الإنسان أخبار العالم من مصادر إعلامه الوطني ولكن تلك هي الحقيقة المفجعة الآن، لقد كان الأمر قسريا قبل عصر الفضائيات، عندما كان الأمر حكراً على وسائل الإعلام المحلية، وكان التشويش يتم أحيانا على بعض الإذاعات، ولكن الأمر تغير الآن تماما مع ظهور الفضائيات، فإذا لم أجد ما يلبي معرفتي فالأمر لا يكلف إلا ضغطة زر في جهاز التحكم، النوافذ متجاورة والانتقال من نافذة إلى أخرى يتم في أقل من ثانية.

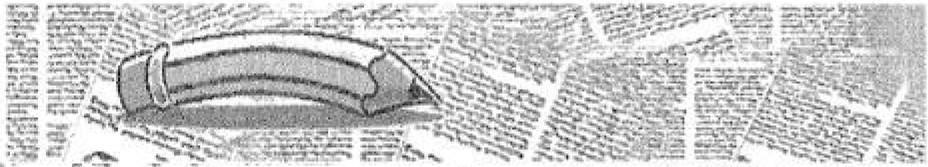
جمال الغيطاني - أخبار الأدب

● على المثقف أن ينزل من برجه العاجي إلى الشارع والواقع ويحتك بالجماهير ليعيش قضاياها ويبحث عن العلاج ولا يكتفي بتوصيف المشاكل والرجوع إلى أصولها التاريخية فهو مطالب بأن يقترح حلا.. والتاريخ لا يحل المشاكل فحلها اليوم في الجغرافيا والديموجرافيا.

أمين هويدي - العربي

● إن تجديد قانون الضبطية القضائية الذي يمنح عددا من شيوخ الأزهر الضبطية القضائية الصادر في بداية الستينات من القرن الماضي يعد محاولة لبعث الروح في قوانين صدرت خلال حقبة تاريخية كان هدفها عسكرة كل قطاعات المجتمع بما فيها الأزهر وشيوخه وحنين لماض أليم كتم على أنفاس الفكر ووضع المفكرين والمثقفين خلف أسوار السجون، ولكن المدهش في الأمر أن يتم تجديد هذا القانون ونحن في القرن الحادي والعشرين.

د. عبدالمنعم تليمة - الأخبار



● سرقة الأفكار دليل على الكسل العقلي ويتفشى ذلك في أنصاف الموهبين وعديمي الموهبة لأنهم عاجزون عن خلق إبداع جديد ويصبحون مثل الطفيليات التي تعيش على جهد الآخرين وكل مواهبهم تقليد من سبقهم وللأسف معظمهم مقلدون بلا مقدرة وتكون النتيجة أعمالا شديدة الضعف وللأسف سوق الدراما اتسعت لكل من هب ودب يكتب دراما وكل من فك الخط يصبح مؤلفا بعد أن يقلد الكبار دون تمييز أو خصوصية.

أسامة أنور عكاشة - الجمهورية

● التعبير الفنى أشمل من الفكر، لأنه يعبر عن التجربة الإنسانية بجوانبها الفكرية والعاطفية والغريزية، ودائرة التعامل معه أوسع بكثير من المتعاملين مع الفكر، لذلك كثيراً ما يعرف سبيله إلى وسائل التعبير الجماهيرية، فيصل تأثيره إلى الأميين أنفسهم ومن أجل ذلك يجب أن يراعى الحياء والأدب والذوق ولن يضيره أن يراعى ذلك.

نجيب محفوظ- أخبار الأدب

● إن حرية «التفكير والإبداع» حق طبيعي لكل مفكر ومبدع.. لكن هذه الحرية لا يمكن أن تكون مطلقة، بل يجب أن تكون مشروطة بشرطين الأول امتلاك الصنعة والآخر حضور الضمير فحرية الفكر ليست حقا إلا للمفكر يستطيع أن يكتب فيقدم لنا أفكاراً واضحة كاشفة مبنية على أساس منطقى سليم.

الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي - أخبار الأدب

● يكفى المبدع مراقبة ضميره ومعرفته بمسئوليته تجاه المجتمع وتجاه نفسه واسمه ولا حاجة له للرقباء من الخارج فلا أعتقد أن هناك مبدعا يرضى لنفسه أن يدخل فى صراع مع المجتمع بسبب مخالفته لعاداته وتقاليده، لذلك يجب فى الأصل ألا توجد رقابة على أى أعمال فنية.

يوسف القعيد - الأهرام العربى

● لا يوجد فاصل حقيقى بين المبدع والناقد وكلما تقارب الإثنان كلما كان ذلك فى مصلحتهما معا والكتابة الإبداعية تصبح معضلة عندما تدخلنا إلى مناطق جديدة لسنا معتادين عليها وذلك ما يحير النقاد. لذلك لابد من الاعتماد على العمل ككل دون تجزئته.

د. شريف حتاته - أخبار الأدب

● اللغة تقوم فى أساسها على حاسة السمع وتزيد من قدرتها بحاستى البصر والحركة «الكتابة» ومن هنا يكون مدخلنا الأساسي لحماية اللغة العربية وتأصيلها هو محو أمية الأم وتعليمها خاصة فى مرحلة الطفولة والإنجاب.

د. محمود محفوظ وزير الصحة الأسبق - الأهرام

● السرقات الأدبية جرائم مخلة بالشرف، عندما تمتد ظاهرة السرقة إلى الطائفة التى اصطفاها الضمير الإنسانى لمهمة أساسية، هى تسخير مواهب الإبداع لما يمجد الجميل والخير ويحقر الشر والقبح، فإن هذا يمثل طامة كبرى تستحق وقفة حاسمة تحتاج إلى عقاب رادع.

عبدالعال الحمامصى - القاهرة

التكوين

كل الأبواب مفتوحة للخيال

إبراهيم عبد المجيد

١ - البيت

لم يكن أبى يدرك أنه وهو يحكى لنا، أنا وأختى الكبرى وأمى، حكاياته الخرافية عن الأبطال الشعبيين، أنه يفتح لى بابا أبديا للخيال.. كان حكاء ماهرا يعرف أين يسرع بإيقاع القص، وأين تتجمع الخيوط لتصبح عقدة مثيرة ننتظر حلها ثم كيف يحلها فى اللحظة التى تكاد فيها أنفاسى أن تنقطع، وكان ينتقل من الحكايات الشعبية العربية إلى الحكايات فى الريف، القرية التى خرج منها على مشارف الحرب العالمية الثانية للقرن الماضى، وهنا كانت أمى تشترك معه وتكتشف، بعد أكثر من خمس عشرة سنة على خروجها من القرية، أن معلوماتها كانت ناقصة عن الأحداث، فتسأله مثلا وكأن فلانا فعل ذلك لأنه كان يهدف إلى كذا وكيت، ياسلام، ويقدم لها الأدلة وتنتهى الدهشة، ولكن بعد أن يقوم كل الناس الذين حكى عنهم أمامى شخصيات حقيقية تكاد تمشى حولى، وتكاد تذهب معى إلى النوم، كانت تأتى معى إلى النوم حقا.





إبراهيم عبد المجيد مع وزير الثقافة فاروق حسني ود. هدى وصفي لدى تسلمه جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية

لم أكن قد بلغت السادسة من العمر بعد، أذكر ذلك جيداً، وقد أدركت بقوة من خلال هذه الحكايات أن هناك عالمين، عالم الحقيقة وعالم الخيال، أما الحقائق فهي حولي، لكن الخيال هو الأكثر امتاعاً، شخوص تتمتع بالقوة والذكاء والطيبة ويحبها كل الناس.

كان بيتنا أحد البيوت في مساكن عمال السكة الحديد بكرموز بالإسكندرية، وهي مساكن تقع على ترعة المحمودية، بين كوبري كرموز وكوبري كفر عشري، أمامها ترعة المحمودية حيث كانت طريقاً للنقل النهري وللتنزه في العصاري، كان النقل النهري ينقل معه نوتية من الصعيد يجلسون بيننا نحن الأطفال يحكون لنا حكايات النيل والصعيد وعرائس النيل والريح المواتي والريح المعاكس، وخلف البيوت تقع منطقة واسعة من خطوط السكك الحديدية تأتي إليها القطارات من الدلتا كلها إلى الميناء، والقطارات تأتي وتذهب في عالم واسع مثير، القطارات تقول إن العالم كبير فسيح الأرجاء، وخلف القطارات تقع بحيرة مريوط، وكان جوار المساكن قبو يؤدي إلى البحيرة يعبر منه الصيادون وباعة السمك والمشترون، وكل هؤلاء بالنسبة لنا عالم آخر من الخيال ما لبثنا نحن الأطفال بعد أن تجاوزنا السادسة أن دخلناه في الصيف ونحن نذهب نصطاد السمك في البحيرة، أو في الشتاء ونحن في طريقنا إلى مدارسنا بالقباري حيث يتوجب علينا أن نمشي بين قضبان السكك الحديدية وبين أرصفة البضائع التي تأتي إليها القطارات من الدلتا أو من الميناء.

كانت ترعة المحمودية تحمل إلينا ثلاث

رسائل، حكايات النوتية، ومشاهد العشاق في المساء على الزوارق للفسحة، وجثث القتلى القادمة مع التيار من الريف، وكانت في الأغلب جثث لسيدات أو بنات ولم يكن يمر عام دون أن تصل فوق المياه جثة داخل جوال تستقر في الإسكندرية بعد أن رفضت كل القرى التي مرت عليها أن تستقبلها. كنا نعرف مبكرا جدا أن وراء هذه الجثث أحداث تتعلق بالشرف، لقد كتبت كثيرا عن ترعة المحمودية، بل أن رواية كاملة مثل «ليلة العشق والدم» تدور أحداثها على شاطئ الترعة، ومعظم أحداث رواية «طيور العنبر» ومشاهد هامة وحميمة من رواية «لا أحد ينام في الإسكندرية»، لقد صارت الترعة أحد المعالم المهمة في أدبي إذا جاز لي القول بذلك، وكأنني كنت أخشى عليها من الزوال، لذلك أنا سعيد جدا اليوم وقد قام محافظ الإسكندرية النشيط اللواء المحجوب بإعادة إحياء للترعة وإعادة الحياة لشاطئيها بحيث تصبح مكانا للراحة والنزهة كما كانت قديما وأفضل مما كانت، ويبقى بعد إصلاح الشاطئ تنظيف الترعة وعودة فلائك النزهة والفسحة إليها، ياله من مكان.

شغلت السكك الحديدية بعد ذلك كثيرا من رواياتي، وخاصة روايات «الصياد واليمام» التي تدور معظم أحداثها في منطقة السكك الحديدية خلف المساكن ومنطقة الأرصفة، وكذلك رواية «المسافات» التي شغلت منطقة بعيدة على تخوم المدينة تقع بين الصحراء وبحيرة مريوط، وشغلت المساكن نفسها مركز الأحداث في رواية «طيور العنبر»، كما احتلت السكك الحديدية وعمالها مساحة كبيرة من رواية «لا أحد ينام في الإسكندرية»، وفي كل هذه الروايات وعشرات من القصص القصيرة لم يكن المكان كما هو، بل صار شيئا آخر مسكونا بالسحر والخيال. منذ البداية انفتحت الأبواب على الخيال كما قلت من قبل.

٢ - الشارع والسينما

كان الشارع آمنا، لا سيارات تمر. لا زحام، واليوم الذي تمر فيه سيارة يصبح يوما تاريخيا في الحي، وإذا تصادف أننا رأينا السيارة نصفق لها سعداء، وكان جوار المساكن ثلاث محلات للبقالة والخضر، تجدها حية في رواية «طيور العنبر» ورواية «ليلة العشق والدم» جوار هذه المحلات يجلس عمال شركات الملح والصودا والزيوت الممتدة على المحمودية، وبعض الصيادين، وعدد من عمال السكك الحديدية، ولا عمل للجميع إلا الحكايات. حكايات حكايات حكايات ونقاش حول الأحداث الجارية بعد ثورة يوليو.. يضحك المتناقشون ويحتدون ويختلفون ويتشاجرون ثم يتركون المكان سعداء. فيما بعد أدركت أن كل معلوماتهم السياسية والاقتصادية كانت خطأ كاملاً، واندهشت من ثقتهم الجميلة من أفهامهم وفيما يفهمونه. كان خلف الجميع روح من الطيبة والتسامح.

أخذتني أمي التي كانت أكثر اهتماما من أبي بتعليمي في المدارس، كان أبي يعتمد عليها في ذلك، ويكتفي بالقصص التي يحكيها لنا، من التراث أو من القرآن الكريم، أخذتني أمي إلى مدرسة في حي



كرموز كانت «روضة» باسم تلك الأيام ، أو حضانة بأسماء هذه الأيام، كانت هذه الروضة تسمى «مدرسة الشيخ عبدالله» ملحق بها عدد من الفصول الابتدائية، وصاحبها هو الشيخ عبدالله نفسه، رجل دين، وكانت الروضة لاتزيد عن حديقة نمضي فيها معظم اليوم، نحن الأطفال الذين لم نصل إلى سن السادسة بعد، كان باب الروضة مفتوحا على شارع كرموز، الذي لا يمر فيه إلا الترام، أما السيارات فهي شبه معدومة. وذات يوم خرجت من الباب المفتوح ومشيت إلى الأمام، طفلا صغيرا لن يذهب بعيدا، كان أمام الروضة تقريبا، متعامدا مع شارع كرموز، شارع باب الملوك، عرفت اسمه فيما بعد، مشيت فيه أتفرج على المحلات، بعد مسافة قصيرة وجدت أمامي سينما، لم أكن أعرف أنها سينما، وجدت زحاما من الناس، الصبية والشباب، بملابس شعبية، بيجامات وجلاليب في أكثرها، وعلى الحائط أفيشات صور الأفلام، ولم أكن أعرف أنها أفلام، وقفت مع الناس الذين بدأوا يدخلون من الباب، وسمعت الحديث حولي عن الفيلم، فعرفت أنها سينما، مشيت معهم إلى الباب لم يقل لي أحد إن الدخول بتذاكر، ولصغر سني لم يلحظني الرجل الذي يقف بالباب، دخلت مع الداخلين ، وجدت مقاعد طويلة، دكك ورائحة أرض مغسولة والناس تجلس فجلست، بعد قليل اطفئت الأنوار الهادئة، وبدأ الفيلم، ياله من سحر شعرت به ذلك الوقت، أذكر أنه كان فيلما لشادية وكمال الشناوي، أو شادية وفريد شوقي، لا أذكر بشكل مؤكد إلا شادية التي أحببتها جدا،



مع ابنه إياد في إحدى ندوات معرض الكتاب بالقاهرة

ولازلت أحبها حتى اليوم، من منا لم يحب شادية، من جيلي على الأقل؟

صار الأمر عاديا كل يوم ، تصل بي أمي إلى الروضة ثم تتركني عند الباب، بعد قليل أخرج أنا إلى السينما ، أعود من السينما إلى الروضة قبل الساعة الواحدة، تأتي أمي لاستلامي تجدني ألعب في الحديقة، لا أنا شعرت بخطأ ما ولا الروضة وطبعا لم تعرف أمي شيئاً حتى جاء يوم أرادت أن تأخذني من الروضة قبل الموعد فلم تجدني. قامت القيامة وأخذت أمي صاحب الروضة إلى قسم بوليس كرموز الذي يقع أمام السينما، سينما مصر، أو سينما النيل، كما نسميها لأنها تقع في شارع النيل، وهناك رأوني خارجا من السينما، حكيت لهم القصة كأنها شيء عادي، لم أتصور أن ذلك قد يسبب ألما لأي أحد، واندهشت من الذعر الذي على وجه أمي، كان خوفها عليّ عظيما، حيث مات لها من قبل ولدان ثم ولد



إبراهيم عبد المجيد فى أوكرانيا مع الشاعر محمد أبو دومة والمستشرقة إليجا فلاسوفا ، وبجواره أحد المترجمين

بعد مولدى. كان بالابتدائى ولد اسمه سيد صقر، لا أنساه رحمه الله. كان من المساكن نفسها فعهدت أمى بى إليه لا يتركنى أذهب إلى السينما، لكن سيد اكتشف أننى آخذ مصروفا قرش تعريفة، أى خمسة مليمات، وهو كذلك يأخذ المصروف نفسه، إذن هو يستطيع أن يدخل السينما إذا أخذ مصروفى وأضافه إلى مصروفه، وهكذا كان يأخذ مصروفى كل يوم وندخل السينما، هو بقرش صاغ وأنا مجانا من بين الناس، وأصبح الخيال العجيب للسينما هو زادى اليومى الذى لم ينقطع أبداً.

فتحت لى السينما آفاقا جديدة جبارة من الخيال مشت معى فى كل حياتى . أمضيت ربع حياتى تقريبا أيام الصبا والشباب فى السينما، حفظت كل سينمات إسكندرية الشعبية وسينما الدرجة الثانية، وفيما بعد صرت ضيفا على سينمات الدرجة الأولى، كانت السينما هى عاملى الفنى الأول، وكنت أرى الفيلم ثم أبحث عن الرواية التى أخذ عنها، خصوصا الأفلام الأجنبية، بعد أن دخلت المدرسة الاعدادية وعرفت اللغة الانجليزية وصرت أقرأ مقدمة الأفلام الإنجليزية، وأعرف أسماء الممثلين والمخرجين والأدباء، من السينما عرفت ديستويفسكى بعد أن شاهدت فيلم «الإخوة كارامازوف» الأجنبى، و«الجريمة والعقاب» العربى الذى مثله شكرى سرحان وأخرجه إبراهيم عمارة، من السينما عرفت جوجول بعد أن شاهدت فيلم تاراس بولبا ، لاحظ أن بطل الإخوة كارامازوف هو الممثل يول برينر وبطل «تاراس بولبا» هو أيضا يول برينر، والحقيقة أن يول برينر كان من الممثلين الذين خطفوا قلوبنا فى الخمسينات والستينات هو وبيرت لانكستر وكيرك دوجلاس ومارلون براندو وروبرت تايلور

وجريجورى بيك وانتونى كوين وآلان لاد وتونى كيرتس وجاك ليمون وجاك بالانس وجيف شاند، وقائمة لا تنتهى انضم إليها فيما بعد ستيف ماكوين ووارن بيتى وجيمس كوبرن وجان بول بولمندو وآلان ديلون. كما خطفت قلوبنا مارلين مونرو وأفا جاردنر وأودرى هيبورن وكيم نوفاك وجين مانسفيلد وبريجيت باردو وجين مورو وناتالى وود بطلة «روعة على العشب»، يا إلهى يكاد ينفطر قلبى من أجلها حتى الآن وقد تم الفصل بينها وبين حبيبها وارت بيتى فى فيلم من أعظم أفلام إيليا كازان، كذلك كانت ناتالى وود بطلة الفيلم الرائع «قصة الحى الغربى» الذى كنا نطارده فى السينمات أينما حل.

تحتل السينما مساحة كبيرة من رواياتى، بيت الياسمين، ولا أحد ينام فى الإسكندرية وطيور العنبر.. لقد كان حزنى شديدا ولايزال على السينمات التى هدمت فى الإسكندرية ابتداء من السبعينات، حيث بدأ المد الغشيم للرأسمالية الطفيلية الجاهلة التى أبادت السينمات لتحويلها إلى عمارات ثم المد الجاهلى الرجعى الذى اعتبر السينما حرام وحول السينمات إلى مسارح أفراح.. لقد تم هدم أكثر من ثلاثين سينما بالإسكندرية، ابتداء من سينما النصر بالدخيلة والهلال بالقبارى حتى سينما المنتزه الصيفى مرورا بسينما النصر والجمهورية بكرموز وراغب وسينما الشرق وكونكورديا وكوزمو وماجيستيك والهمبرا وبارك وريتس وريكس بالمنشية ومحطة الرمل وكذلك سينمات باكوس، قيس وليلى، والأنفوشى، التتويج، وكامب شيزار، أوديون ولاجيتيه وغيرها وغيرها. كانت السينما هى بيت المتعة السهلة بالنسبة لأبناء الطبقات الشعبية، وبالنسبة لى كانت بيت الخيال المفتوحة نوافذه على الأدب، على الروايات بالذات التى أخذت عنها كل هذه الأفلام الجميلة.

هكذا انفتح القلب على الخيال إلى الأبد.

٣ - المدرسة

كانت المدرسة الحقيقية لى هى مدرسة القبارى الابتدائية، وهى مدرسة أميرية، قبلها كانت أمى قد ألحقتنى بمدرستين غير حكوميتين، الأولى مدرسة الشيخ عبدالله، أيضا الابتدائية بشارع التجارة بحى كفر عشرى، والشيخ عبدالله هنا هو عبدالله النديم الأديب الثائر إبان الثورة العرابية، والمدفون فى تركيا للأسف، كانت المدرسة تحمل اسمه وكانت فى الحقيقة هى بيته السابق، لقد تم هدمها فيما بعد فى عملية مشبوهة.. من يحافظ على بيوت الثوار فى بلادنا؟. بعد هذه المدرسة ألحقتنى أمى بمدرسة ابتدائية جديدة تحمل اسم صاحبها هى مدرسة الغندور الابتدائية بالقبارى، أمضيت فى مدرسة الشيخ عبدالله السنة الأولى وفى مدرسة الغندور الثانية والثالثة، ثم انتقلت ابتداء من السنة الرابعة إلى مدرسة القبارى الحكومية. فى مدرسة القبارى الابتدائية أحببت اللغة العربية. كان يدرسها لنا مدرس عجوز اسمه الأستاذ زعفرانى، كان أنيقا فى ملبسه ولا أعرف لماذا كان اهتمامه كبيرا بى.. لقد توسم فى النجابة فى اللغة العربية وقد كنت أفضل تلميذ فى

اللغة العربية، وتشجعت واشتريت بمصروفي صحيفة كل يوم صرت أقرأ منها على زملائي في الفسحة أو في الحصة الخالية وهكذا عرفت أسماء كتابنا الكبار، طه حسين والعقاد وسلامة موسى ومصطفى أمين وإن لم أفهم شيئا مما يكتبون ذلك الوقت، لكنني أحببت اللغة العربية، وحين انتقلت إلى المرحلة الاعدادية بمدرسة طاهر بك الاعدادية بالورديان تحول هذا الحب إلى قراءة ممتعة لفن الرواية، في ذلك الوقت كان لدينا حصتان في الأسبوع للقراءة الحرة في المكتبة، في هاتين الحصتين قرأت أعمال كامل كيلاني ومحمد سعيد العريان ومحمد فريد أبو حديد ومحمود تيمور ثم أول رواية لنجيب محفوظ، رواية كفاح طيبة، كان التلاميذ المتفوقون يحصلون في عيد العلم على هدايا في مجموعة من الكتب أو المجلات الهامة، وكنت دائما من بين هؤلاء التلاميذ فحصلت على مجموعات من أعداد مجلة المقتطف، يا إلهي، وأعداد من كتاب المنتخب من أدب العرب، يا إلهي مرة أخرى، يالها من ثروات فكرية في عمر مبكر، كانت الأحداث السياسية في ذلك الوقت على أشدها كل يوم في بداية الستينات، وكان المدرسون يتبارون في نقل روح الثورة الينا في خطبهم السياسية الصباحية في طابور المدرسة، وكانت بالمدرسة جماعات للخطابة وللشعر وللكشافة والجوالة والرحلات، وعلى أبواب المدرسة باعة المجلات، والكتب القديمة، كانت المدرسة الابتدائية من قبل حريصة على أن تصحبنا كل شهر في رحلة إلى إحدى دور السينما الكبيرة بالإسكندرية، غالبا كانت سينما فريال التي رأيت فيها مع المدرسة الابتدائية أفلام مثل الوسادة الخالية وأبوحديد وطريق السلام «هل تعرفونه؟ لعمر الشريف وفاتن حمامة عن قضية فلسطين» وفي المدرسة الاعدادية استمرت هذه الرحلات، وأكثر منها، كانت المدرسة تحضر لنا الفيلم لنشاهده في المدرسة، في المدرسة شاهدت فيلم موعد مع الحياة وفيلم موعد مع السعادة وغيرهما.. يا للمدارس الجميلة زمان.

٤ - أول رواية !

شيء لا يصدق، فجأة وأنا جالس على شاطيء ترعة المحمودية أقرأ في رواية رومانسية فكرت أن أترك المكان بسرعة إلى البيت، وجدت نفسي في الحقيقة أغلق الرواية التي انتهيت من صفحاتها الأخيرة وأنهض مأخوذا شبه ذاهل من المكان إلى البيت لأبدأ في كتابة رواية جديدة، في البداية كانت بي رغبة أن أعيد كتابة الرواية الرومانسية التي قرأتها، وما أن بدأت حتى وجدت نفسي أكتب رواية جديدة، لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة بعد، وكنت حصلت على الاعدادية، وكنا في إجازة الصيف، واكتشفت نوعا جديدا من الفرح والبهجة ينسكب في روحي وأنا أكتب، أؤلف كتابا جديدا، أغلقت على نفسي باب حجرتي ورحت أكتب بشراهة وجزل عميق، صرت أفعل ذلك كل يوم لعدة ساعات أخرج بعدها كأني خارج من كهف مسحور، لقد صرت مؤلف.. ياإلهي، أي نوع من البهجة هذا الذي اكتشفته؟ انتهت الإجازة



الصيفية وقد انتهيت من روايتين ساذجتين طبعا، لكن فيهما اكتشاف رائع لعظمة الابداع.. اندفعت أكثر فى القراءة والكتابة ورحت أقلد الكتب التى أقرأها، اكتشفت محمد عبدالحليم عبدالله ويوسف السباعي، وقلدت رواية الجنة العذراء، ورواية سلوى في مهب الريح لمحمود تيمور، ورواية أنا الشعب لمحمد فريد أبوحديد، ومجموعة هذه النفوس ليوسف السباعي.. لم أكن قد اكتشفت العالم الروائي الكبير لنجيب محفوظ بعد، والذى حين سأكتشفه ستتحول حياتى تماما.

فى ذلك الوقت لم تكن الجامعات بالمجان، وكان والدى على وشك الخروج إلى المعاش، وفكرت أنه لن يستطيع أن يواصل معى التعليم إلى الجامعة، فأخذت طريقا آخر للتعليم ودخلت مدرسة إسكندرية الثانوية الصناعية، وكانت مدرسة جديدة وكنا نحن أول دفعة ندخلها، كان الجو كله حزن فى البيت على هذا الاختيار من طالب نجيب، لكنى أدركت جسامة التعليم وقررت أن أختصر الطريق ثم أذاكر من جديد والتحق بالجامعة، وقد كان، التحقت بالمدرسة الصناعية قسم الكهرباء، وكان القسم الذى يختار الطلبة المتفوقين، وكان مجموعى فى الاعدادية يزيد على الثمانين فى المائة، وهذا كان يعتبر شيئا عظيما جدا ذلك الوقت، بعد أن دخلت المدرسة الصناعية، قسم الكهرباء، الذى لم أحبه أبدا ولم أفهم فيه شيئا إلا توصيل مصباح فى المنزل، قام جمال عبدالناصر بإلغاء المصروفات فى جميع مراحل التعليم، لكن فات الأوان، كنت التحقت بالمدرسة الصناعية، وكانت سنوات الدراسة الصناعية هذه من أخصب فترات القراءة في حياتي، كنت أذاكر أسبوعا واحدا أو أسبوعين آخر العام وأنجح لما أتمتع به ذلك الوقت من قدرات عقلية جبارة على استيعاب المواد النظرية، الرياضية بالذات، كنت أذاكر أسبوعا أو أسبوعين وأمضى العام كله فى القراءة والاستعارة من أربع مكتبات بالإسكندرية ، مكتبة المدرسة ومكتبة البلدية ومكتبة قصر ثقافة الحرية، ومكتبة بائع الكتب «عم سيد» فى محطة الرمل حيث كنت أستعير منه الكتب أقرأها وأعيدها نظير مبلغ زهيد.

فى ذلك الوقت أسعدنى الحظ بحضور ندوات بقصر ثقافة الحرية، كانت أهمها ندوة المرحوم محمد مندور تحدث فيها عن المذاهب الأدبية، التى عرفتها لأول مرة، وعن ثقافة الكاتب. توقفت عن الكتابة بعد ذلك لسنوات ورحت أقرأ فى المذاهب الأدبية وتاريخ الأدب والنقد الأدبى وفى الفلسفة والتاريخ وعلم النفس، وهنا اكتشفت طه حسين، ومنه اكتشفت البير كامى وكافكا ونجيب محفوظ وأندريه جيد وغيرهم، اكتشفت نجيب محفوظ بعد أن قرأت عنه فى كتب طه حسين النقدية فدخلت عالم محفوظ السحرى ولم أخرج منه حتى الآن.. أغنانى عن كثير من الكتاب المصريين، وحببنى فى القاهرة التى سافرت إليها قبل أن أنهى دراستى الثانوية وأحاول الحياة فى الجمالية ثم سأفشل وأعود بعد أسبوعين لأواصل تعليمى بالإسكندرية حتى إذا ما انتهيت من الجامعة بعد ذلك بسنوات أتيت إلى القاهرة منذ عام ١٩٧٤ وحتى الآن

والسبب محفوظ وليس أحد آخر.

حصلت على دبلوم الصنايع عام ١٩٦٤، وكان على أن أنتظر ستة أشهر حتى أتم الثامنة عشرة وهى السن القانونية للعمل الثابت فى الدولة، بعد ذلك التحقت بالعمل بمشروع الثورة الكبير فى الإسكندرية، أعنى شركة الترسانة البحرية بالورديان، كان رقم تعيينى خمسمائة واثنان وثلاثون ثم تركتها بعد ذلك عام ١٩٧٤ وعدد العاملين فيها اثنا عشر ألفا.. كنا نقوم ببناء الشركة وتركيب معداتها، الآلات وغيره، ثم انتقلت للعمل مدربا للكهرباء بمركز التدريب الملحق بالشركة ومدرسا فى الوقت نفسه لمادة الرياضيات، التفاضل والتكامل وحساب المثلثات والميكانيكا، وهى المواد التى كنت أحبها جدا، والتقيت بالصدفة بأحد الماركسيين القدماء الذين خرجوا من السجون والمعتقلات وكان يعمل مع مقاول يونانى فى التركيبات الكهربائية بالمشروع، كان هذا الرجل يرى معى دائما كتبا أقرأها فى فترة الراحة بعد الغداء، فاقترب منى وعرف أننى قارىء ممتاز للآداب والفلسفة فأرشدنى إلى الفلسفة الماركسية، وهكذا فتح بابا جديدا كبيرا وجبارا لمعرفة أوسع بالعالم، ودفعنى دفعا للانضمام إلى تنظيمات الدولة السياسية، منظمة الشباب بالتحديد، حيث كان بها عدد من الماركسيين الذين رغم عملهم فى تنظيم الدولة لم يتخلوا عن ماركسيتهم، على الأقل فى أوقات الصفاء.

تذكرت حلمى القديم، دخول الجامعة، وكان على أن أذاكر الثانوية العامة لكن وقعت هزيمة سبعة وستين فأخرت دراستى عاما ولونت حياتى بطعم المر.. ابتعدت عن تنظيمات الدولة، وعدت إلى الدراسة والتحقت بكلية الآداب عام ١٩٦٩، قسم الفلسفة وكانت الحصة الأولى فى مادة فلسفة السياسة أهم حصة فى حياتى، حيث هتف الأستاذ الدكتور عبدالمعز نصر، عميد الكلية، ومترجم هارولد لاسكى أثناء المحاضرة، وبالإنجليزية، قائلا ما معناه إذا أردت أن تكون مفكرا فعليك بالعودة إلى الأصول، أى لا تقرأ عن أفلاطون فقط ولكن إقرأ أفلاطون نفسه، ولا تقرأ عن سارتر فقط ولكن اقرأ سارتر نفسه، واستقرت النصيحة فى روحى فرحت جوار قراءة الأدب والإبداع أقرأ النصوص الفلسفية الأصلية والكثير منها كان مترجما للعربية، رغم قدرتى على القراءة بالإنجليزية، لكنى كنت أقرأ عن المذاهب بالإنجليزية أسهل مما أقرأ الأعمال الأصلية نفسها، فساعدتنى الكتب المترجمة كثيرا بدءا من محاورات أفلاطون حتى الوجود والعدم لجان بول سارتر.. كنت قبل دخولى الجامعة أعرف كل هؤلاء الفلاسفة وقرأت عنهم كتبا، خاصة كتب الدكتور عبدالرحمن بدوى، لكن أن تقرأ كتب الفلاسفة شىء آخر.

وكان طه حسين قد لفت نظرى بشدة إلى التراجيديا اليونانية فانكببت عليها بقوة، وكنت نشرت أول قصة قصيرة لى بالملحق الأدبى لجريدة أخبار اليوم بمقدمة للأستاذ محمود تيمور وكانت القصة الفائزة بالجائزة الأولى لنادى القصة



بالإسكندرية، كان ذلك عام ١٩٦٩ ورغم ذلك كان الوقت أكثر في القراءة، وانضممت إلى جماعة الأدباء بقصر ثقافة الحرية ومن هناك عرفت كبار الأدباء الذين كانوا يأتون إلينا كضيوف مثل الدكتور عبدالقادر القط الذي نشر لي في مجلة المجلة ومثل على شلش وبهاء طاهر الذي كان يذيع قصصنا ببرنامج بريد المستمعين بالبرنامج الثاني أيام مجده، لقد كان لهذا البرنامج أبلغ الأثر، برنامج بهاء طاهر، والبرنامج الثاني نفسه حيث كنا نستمع فيه كل أسبوع إلى مسرحية كلاسيكية بإخراج الشريف خاطر وإلى حديث الدكتور حسين فوزي في الموسيقى كل خميس أو جمعة فيما أذكر، كان البرنامج الثاني أكثر من جامعة بالنسبة إلى جيلي.

كانت أيام الجامعة ذات طعم خاص، فرغم أنني أكبر من الطلاب العاديين، لكن لم يكن الفارق يزيد عن أربع سنوات لا تظهر خصوصا أن كثيرا من الطلاب كانوا راسبين في الثانوية العامة، لم يكن هناك فارق ملحوظ بيني وبين الطلاب إلا في الثقافة، كنت أسبقهم بكثير جدا جدا، وكان الأساتذة لا يتصورون أنه يمكن أن يوجد طالب على هذه الدراية بالفلسفة والآداب، وهكذا كان مهيأ لي أن أكون معيداً أو أستاذاً، لكني لم أحصل على تقدير بسبب رداءة خطي وعدم قراءة الأساتذة للإجابات، إلا فيما ندر، في حالات مثل الدكتور أحمد أبوزيد مثلا الذي أخذت امتيازاً في مادته، وقليل من الأساتذة الآخرين، وكان الدكتور عثمان أمين يزورنا من القاهرة يوما في الأسبوع يدرس في الفلسفة الحديثة، ديكارت بالتحديد، فكنا نصحبه بالليل إلى شقة أحد زملائنا ويسهر معنا سهرة ممتعة وكم كان حديثه يفيدنا عن حاضر وماضي الثقافة المصرية ذلك الوقت.

سنوات الجامعة فتحت النوافذ على الإسكندرية الكوزموبوليتين، التي لم تعد كذلك، أي على البحر والأحياء الراقية في الرمل والملاهي الليلية وغيرها مما بقي من الإسكندرية الأجنبية فأضيفت خبرة جديدة إلى حياتي عميقة لم أنسها حتى اليوم، لكني كنت أتوق للانتهاء من الجامعة لأشد الرحال إلى القاهرة . كنت قد كتبت رواية «في الصيف السابع والستين» ولم أنشرها بعد، نشرتها في القاهرة بعد ذلك، وانتهيت من الجامعة وأنا أشعر أن حياتي في الإسكندرية قد وصلت إلى غايتها، ولم يعد ينقصني شيء إلا الوجود وسط المثقفين والأدباء بالقاهرة، وأتيت عام ١٩٧٤، بعد أن انتهيت من الجامعة بعام، هربت من الدراسات العليا على غير رغبة أساتذتي وحضرت إلى القاهرة التي جريت وراء سحرها المحفوظي من زمان، لكن القاهرة كانت قد تغيرت، كانت حرب أكتوبر قد جرت، والسادات يغير في الاتجاهات كل يوم، والحرب بينه وبين الكتاب. ولم تكن القاهرة مدينة أدب ذلك الوقت، بل مدينة سياسة واجتماع كل يوم، لكن تلك حكاية أخرى، المهم أنني أتيت هنا تسبقني قصص نشرتها في أهم المجلات ذلك الوقت، الطليعة والهلال والمجلة وبعض المجلات العربية، أتيت القاهرة كاتبا يعرف ماذا يريد.■

• عاطف مصطفى

أم كلثوم والأداء الصوتى

تحرك مقالات الهلال أمواج الثقافات المتلاحقة، بين قديم يتجددً من خلال معاصر يتنامى بين أقلام كتّاب الهلال وقارئيه.

ولعل ذلك - إنْ لم يكن هو بالفعل - مرده إلى تعدد مناهل المعرفة لدى المُسْهمين بكتاباتهم الثّرة فى استمرار ترسيخ وإعلاء صرح الهلال أقول ذلك بعد قراءتى للمَقال النقدى للشاعر محمد التهامى.

(أم كلثوم أكبر من الحب) فى هلال يوليو سنة ٢٠٠٤.

موضحا - من وجهة نظرى قارئا معترفا بالفضل - أن السر فى مكانة أم كلثوم هذه عند التهامى هو ما جاء فى ثنايا مقاله: - (أن أهم ثمرات الحب هو ما يبدعه المحبون من فن، فالحب زائل أما الفن فهو الباقى) ص ٢٠٢.

ولعل ما دعانى إلى اقتناص هذه المقولة (التى اعتبرها مفتاحا لهذا السر) هو ما كشفت به أم كلثوم عن منافذ الإبداع فى أدائها الصوتى، والذى ضمن لها الخلود الذى هو (أكبر من الحب) حين قالت للأستاذ التهامى: -

«.. يا سيدى، وأنت من متابعى غناء أم كلثوم، ومثلك الكثيرون، لا تدركون أبعاد التصرف فى أداء معانى الكلمات، وإيحاءاتها ودلالاتها ومعانيها، مما يجعل أم كلثوم، تغنىّ لنفسها وحدها، بالرغم من كثرة المعجبين المتحمسين لما يسمعون.. إنى كلمة «واسلم» فى المرة الأولى، فأضغط على جميع الحروف بدرجة واحدة سريعة مما يفيد معنى السلام والتحية.

وفى المرة الثانية أضغط على حرف اللام بشدة، مما يفيد تسليم الأمانة وفى المرة الثالثة، أمد حرف الواو، بما يفيد الاستسلام .

حين تحدثت أم كلثوم فى كلامها حديثا علميا صوتيا لغويا أعاد إلى أذهاننا ما سبق أن قال به ابن جنى (عالم اللغة الصوتى) فى كتابه الخصائص جـ٢ صـ ١٢٠، صـ ١٢١ متحدثا محللا للأداء الصوتى حين قال:-

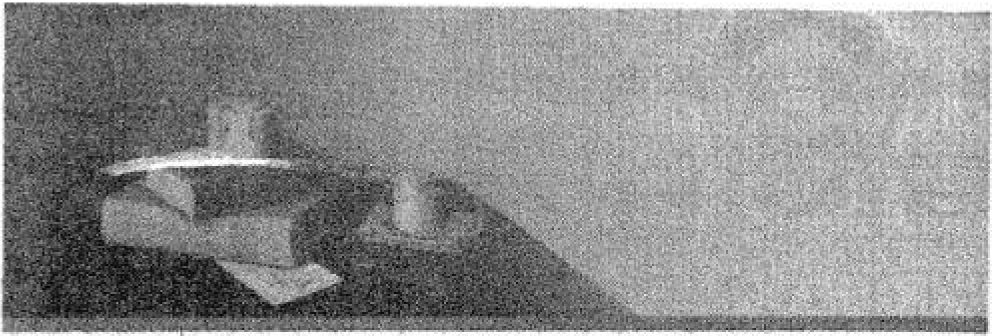
«.. وذلك أن تكون فى مدح إنسان، والثناء عليه، فتقول:-

«.. كان والله رَجُلاً فتزيد فى قوة اللفظ بـ «الله» هذه الكلمة، وتتمكن فى تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها .

وكذلك تقول: «.. سألناه فوجدناه إنسانا! وتمكّن الصوت بإنسان، وتفخمه، فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا أو جواداً أو نحو ذلك.

وكذلك إن وصفته بالضيق، فقلت: - «سألناه وكان إنسانا!»

وتَزْوِى وجْهك وتقطبه، فيغنى ذلك عن قولك: «.. إنساناً لئيماً أو لحزاً أو مُبْخِلاً، أو



نحو ذلك».

وهذا التحليل فى ثقافات القدامى يمتزج بمثله في ثقافة المحدثين محللين لما وراء الأداء الصوتي تحت عنوان (أسرار المواهب) فى كتاب «دفاع عن الأدب» لچورج ديهامل وترجمة د. محمد مندور ص ١٩٦، ص ١٩٧.

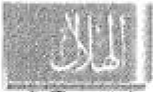
أقول إن هذا المزج - كما يخيل إلى - لم يكن خافيا عن كوكب الشرق أم كلثوم التي تعرض علينا ثقافة أصلائنا من المغنين الأكْفَاء لنكتشف ما نعانيه الآن من أصداء الأكفاء.

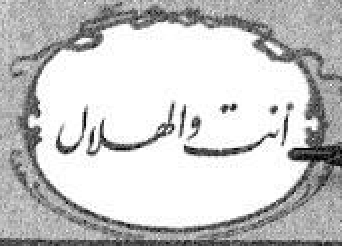
سامي منير عامر
كلية التربية جامعة الاسكندرية

قلت الوداع

ماذا دهاكْ؟
إن رحتَ تبحثُ..
فى ثنايا عشقنا
عن دفقة
قد أرقتْ قلباً هواكْ
وظللتَ ترتجفُ اشتياقاً..
فى جوارى صامتاً
وتلملمُ الأحزانَ في كنفٍ
سدى، كى لا أراكْ
ماذا دهاكْ؟
إن جفَّ عودكَ بالهوى
وارتدَّ وجدكَ تائهُ
واحتجَّ تيهكَ
عندما قَبّلْتُ فاكْ
وكأن وجهكَ غاضبٌ منى..
ترى هل كان وجهكَ..
أم صدى الأيامِ..
شابٌ ذا بذاكْ؟
أثقلتَ قولاً..
عندما قلتَ «الوداعُ»..
فإنني لا أرتجى من عالمى
شيئاً سواكْ
إن عاف قلبى دنيتى
بجمالها ووعودها
فانشقَ عنها واصطفاكْ
كيف السبيل إلى الخلاص..
وكلما أبصرتُ من حولى..
رأيتكَ تعتلى..
عرشَ الجمال..
وتسكن الأشجارَ..
والأمطارَ والأقمارَ والأفلاكْ

صابر صبري معوض
المنصورة





الرحلة وكتاب ادوارد لين

كانت «الرحلة.. آفاق جديدة» فى هلال يوليو الماضى اطلالة واسعة على عالم الرحالة والاستشراق فى دنيا العرب والشرق، جهد متميز يحسب للهلال، وكم كنا نود أن يعرض هذا الملف للمستشرق الإنجليزى الكبير ادوارد وليم لين (١٨٠١-١٨٧٦) عميد حركة الاستشراق فى القرن التاسع عشر، وكتابه «المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم، قام «لين» بأولى رحلاته الثلاث لمصر عام ١٨٢٥، وظل فيها سائحا متنقلا دارسا وباحثا ثلاث سنوات كاملة، وضع خلالها مخطوطته فى «وصف مصر» ضمنه مائة لوحة ولوحة، واعتبرها كل من اطلع عليها من الثقاة كتابا فريداً فى نوعه لو قدر له الإخراج وفى عام ١٨٣٣ قام لين بزيارة مصر مرة ثانية، وظل فيها حتى عام ١٨٣٥ فى سبيل إخراج كتابه عن المصريين المحدثين لجمعية نشر المعارف المفيدة، وقد لقى هذا رواجا قل إن عرف نظيره، وترجم إلى الألمانية، وتجاوزت شهرته أوروبا فطبع فى أمريكا مرارا نظرا لما انطوى عليه من دقة التصوير وأمانة الوصف وسلاسة الأسلوب.

وكتاب ادوارد وليم لين «المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم» يقدم رؤية فى أشمل وصف للحياة المصرية فى القرن التاسع عشر فى عصر محمد على، وهو تسجيل حى وتفصيلى دقيق للحياة اليومية للمصريين القاهريين من الطبقة الوسطى على وجه الخصوص.

عمرو عبدالمنعم حمودة - برما - غربية

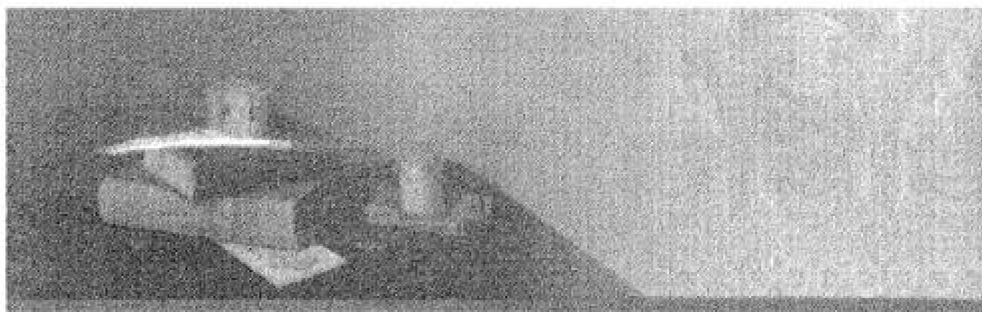
أخبار سارة لقراء الهلال

متي يظهر للنور المشروع المهم الذي ننتظره بشوق .صدور مجلة الهلال على اسطوانة ضوئية CD وهو كما تفضلتم بالكتابة عنه بالتعاون بين دار الهلال ومكتبة الاسكندرية .

متي تكون أعدادا الهلال الأولي بين أيدينا ؟

مازن يوسف

الهلال : ترقب أيها الصديق مازن أخبارا طيبة حول هذا المشروع الثقافى المهم مع بداية أكتوبر القادم



لغة واحدة لا تكفي!!!

لغةٌ واحدةٌ لا تكفي
كي تشرب صفو مواجيدي
أو تنضج صيف صباباتي
تحتلَ كياني
وتطرزُ ليل قصيدي بالألحان..
تستحلب ماءَ كرامتنا!
لغةٌ واحدةٌ لا تكفي ·
حتى تسكن طمي كتاباتي
أو تفتحَ نافذةَ الحرف
لكي تدخلَ كلُّ عصافيري
وتبيت على شجر اللغة الخائفة..
لغةٌ واحدةٌ لا تكفي
هذا وجعي،
يشتهي..
حليفك إنْ مرّ
فاخرجي من نخيل إشارات
واشهري في وجه الغيم،
سيوف معاناتي!!



محمود أحمد المُصلّي
شربين دقهلية



شروط الاستفادة من أعمال الآخرين!

لفت نظرى فى العدد الماضى ما جاء فى مقال «أطفال الشوارع» بقلم د. شوقى العقباوى، ولما كنت قد شرفت بإعداد «الاستراتيجية القومية لحماية وتأهيل الأطفال بلا مأوى (أطفال الشوارع) بتكليف من المجلس القومى للأمومة والطفولة، فقد اهتممت بقراءة المقال، ولدهشتى الشديدة وجدت أنه مأخوذ من الصفحات الأولى لبحثى الذى أعددته للمجلس وبنفس الأسلوب، مع تغيير مكان بعض الفقرات.

ورغم أننى أومن بأنه طالما خرج العمل العلمى إلى النور، فقد أصبح ملكية عامة لمن يريد الاستفادة منه، إلا أن هذه الاستفادة لها شروطها وأقلها الاشارة إلى المصدر المأخوذ منه، ولا يعتبر ذلك عيبا، بل إن قراءة المصادر واستعمالها والإشارة إليها يعتبر من قبيل النشاط العلمى، خاصة إذا كان كاتب المقال أستاذاً أكاديميا يعرف هذه القواعد جيدا.

من هنا فإنى لا أجد أى سبب لهذا الخطأ العلمى غير المغتفر، حيث كان يمكن له الإشارة إلى البحث كمرجع اعتمد عليه كليا مع الإشارة إلى اسمى كمؤلف.

شهيدة الباز
مستشارة في الاقتصاد السياسي للتنمية

قصة قصيرة

ما سيحدث

سأُوَدِّعُ المدينة إلى قرية أو أى مكان موحش خلاء، أختلى فيه بنفسى. إذاً، سأمشى على الطريق وحدى ولن تزعجنى العربات بضجيجها المتعب، سيتسع المدى لعينى لترى نهاية الطريق ولن يعترض الشوف ناطحةٌ من ناطحات السحاب أو يحجب نور الشمس عن عينى نظارة شمس واحدة اللون، ستختفى سنبلة الضوء التى كنت أقطفها من مصابيح أعمدة الكبارى العلوية، ذات اللون الأصفر الضبابى الخلاب فى حلكة المساء.

سأمضى إلى حجرتى أُوَدِّعُ صندوقها الخالى من أى شىء يبعث الدفء، ألملم أشلائى وحيداً، أيضا لن أجد من يلملمها معى أو يضمها إلى صدره بحنو وأمومة، حتى وأنا فى حجرتى سأجد الطريق مازال ومازلت أسيره، فأنا فى حجرتى وحيداً أغذ الخطى فى مربعها ذهاباً وإياباً، متخطياً الأميال وغير عابىء بالزمن، هكذا لن أجد من يسلم علىّ أو يربت على كتفى أو يعاتبنى أو حتى يدوس علىّ قلبى، فى الطريق وحدى سأنزع من صدرى سواداً خَلَّفَتْهُ أدخنة العربات فى المدينة، وسأسد أنفى عنها، بل سيمنعها عنى الطريق الطويل والفارغ من أى شىء، ولن أختنق بعد اليوم... لن أختنق... ولكن، ولكنى وقتها - ياللهول - سأكون قتيلاً، ستقتلنى الوحدة!

إسلام عوض حامد - بلقاس دقهلية

خ

الخليل بن أحمد الفراهيدى
مكتشف قواعد النحو والموسيقى
١٠٠هـ ١٧٥هـ

لغوى ولد بعمان ومات بالبصرة، ودرس اللغة والقرآن والحديث على أبى عمرو بن العلاء، عاش زاهدا يدرس اللغة، وقد بدأت حياته فى سنة «١٠٠ هجرية» أثناء خلافة عمر بن عبدالعزيز الذى أقام دولته على العدل وانتهت فى خلافة الرشيد، وقد عاصر خلال حياته التى امتدت ٧٥ عاما خلافة يزيد بن عبدالملك وهشام بن عبدالملك، حتى نهاية خلافة بنى أمية وقيام خلافة دولة بنى العباس.

أشهر تلاميذه سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل.

ويعد الخليل إمام نحاة البصرة فى القياس والتعليل النحوى، وعليه كان اعتماد سيبويه فى كتابه الذى سماه «الكتاب» والذى يعد دستورا للنحو استنبط علم العروض الذى استخرج منه خمسة عشر بحراً وزاد عليها الأخفش بحرا سماه الخبب، وعلى أثر ذلك استطاع ضبط أوزان هذه البحور، ووزنها على المقاطع والحركات، مستعينا بالموسيقى الذى ألف كتابا فيها على غير معرفة بلغة أجنبية، ومن أطرف ما روى عنه أنه كان يقضى الساعات الطوال ذاهلا عن نفسه، يرفع أصابعه ويحركها لضبط هذه الأوزان وتنسيقها.

افتتح الخليل عصر المعاجم فى القرن الثانى الهجرى بوضعه «كتاب العين»، فكان أول معجم عربى ظهر إلى حيز الوجود، ليحصر فيه المستعمل والمهمل من الألفاظ التى يمكن للعربية، أن تؤلفها من الحروف العربية، وقد رتب الحروف فيه وفق مخارجها بادئاً بالحلقية ومنتهيا بالشفوية، ونظم الكلمات تتبعا لحروفها الأصلية، وأهمل الحروف الزائدة، فاحتذاه جميع أصحاب المعاجم، وبوب الكلمات حسب صيغها إلى: الثنائى والثلاثى الصحيح والثلاثى المعتل والرباعى والخماسى فكان رأس مدرسة اتبعته فيها المعاجم، ونسج على منواله أكبر أساطين اللغة وأشهر الموسوعيين .

ويقع معجم «العين» فى نحو ٢٥٠٠ صفحة وله كتب أخرى هى : «معانى الحروف» و«جملة آلات العرب» و«تفسير حروف اللغة» و«كتاب العروض» و«النقط والشكل».

وقد ألف كتابا فى الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية كما أشرت سماه «النغم».

وقد عكف فى أواخر أيامه عام ١٧٥هـ على وضع قواعد الحساب والرياضة، وشغل بها واستغرقه التفكير، وهو فى المسجد فاصطدم على غير وعى بعمود، فشج رأسه وكانت نهايته.

أغنوية الربيع

مصابون بالزكام
غائبون فى الزحام
أريج الغبار
شذا الاندثار
والعيدان فى شتات
والحقل يمتص الرجاء
بعد الرجاء

****

الخبز سوط فى يد الجلاد
وعنان يتوارثه الملوك
ولأن الزهور لا تحيا فى النار
ولأن الخبز لا ينضج إلا بالنار
فمن قال أتى زمن الربيع

****

الربيع أخضر لا بلون الدم ورائحة الدمار
ينبلج الربيع شابا غير قابل للتصنيع
الربيع فى كف الرحمن
من بكى له
كى يهبه الربيع أو لا يضيع
من قال أتى زمن الربيع
الربيع حلم لا يحلمه النائمون
وحكمة لا يلقاها البائسون
وبد تؤوب فتقيم
الشتل كالجسد المجبور
يجلو عين الشمس
لينهض النهار
الربيع حقيقة
هل أبصرتم؟ من أين يأتى الصقيع
من قال أتى زمن الربيع؟
الربيع تماوج رؤوس الورود
على أوتار نسائم الحرية
وأوبة الفروع
ولوحة فنان لا يرسم بريشة التقليد
بل ينبض الانعتاق
انعتاق النفس من ربقة السبات
من قال أتى زمن الربيع؟
وقمرى الشادى مضغة بأنياب العقبان
والغربان تلهو بنتف زغب العصافير
يجوب الموت العتبات من كل حدب وصوب
أتى الجدب يركل وجه الجميع
فمن قال أتى زمن الربيع؟

السيد حسن عبد ربه - هولند

جوائز الدولة.. لمن؟!

* أثارت جوائز الدولة التى أعلنت هذا العام جدلاً واسعا بين المثقفين حيث تعجب البعض من منح الجوائز لبعض من الذين لا يستحقونها وأثاروا قضية المعايير الخاصة بمنحها، فبعض تلك الجوائز تمنح بمعايير بعيدة كل البعد عن الموضوعية والجدارة.
فإذا كانت هذه الجوائز تثير كل هذا الضجيج والاختلاف كل عام، فلماذا لا نضع

معايير محددة حتى يمكن تلافي ماتثيره من حساسيات واختلافات.

فالبعض يقول : إن هناك ما يسمى «بالتربيطات والضغط على المسئولين» في منح الجوائز والمحاباة والمجاملة والمصالح وأن مسألة الأحقية لم تعد واردة، فكيف نستطيع أن نحدد ذلك ونفرق بين المجاملة والنزاهة وبين الجدارة من عدمها.

إنها قضية يجب حسمها ويجب أن تصبح الشفافية هي شعار تلك الجوائز وجوهرها لأن الابداع يجب ألا يخضع لمعايير أخرى غير الجودة والجدارة والقيمة.

أحمد فتحي - القاهرة

البخل والبخلاء في الأدب العربي

رأى العرب في البخل خصلة مذمومة فاستنكروها فيم أبدعوه من أدب وشنوا حملة شعواء على المسكين البخلاء فأوسعوهم ذما وقدحا وسخرية وهجاء.. قال ابن الرومي في بخيل يدعى عيسى:

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي سيد مدينة بغداد أكثر المدن بذخا وثراء بخيلا شحيحا فأطلق عليه أبي الدوانق والدانق هو سدس الدرهم وذلك لأنه كان يمر على الصناع والعمال ويحاسبهم فيقول لهذا: أنت أتيت العمل بعد موعده فيخصم من أجره دانقا ويقول لذاك أنت انصرفت قبل انتهاء موعد العمل فيخصم من أجره دانقاً وبذلك لا يعطى لأي من العمال أجره كاملا ولما وصفه الناس بالبخل دفع عن نفسه هذه الصفة وقال: يزعمون إني بخيل وما أنا ببخيل لكنى رأيت الناس عبيدا للمال فمنعته عنهم ليكونوا عبيدا لي.

روى عن محمد بن الحسن العلوى أنه كان يريد القضاء على العباسيين وعلى رأسهم أبو جعفر المنصور وإقامة دولة للعلويين وقد أيده ووقف إلى جواره سديف الشاعر الذي قال:

إننا نأمل أن ترتد ألفتنا ... بعد التباعد والشحناء والمحن
وتنقضي دولة أحكام قادتها ... فينا كأحكام قوم عابدي الوثن
فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا ... إن الخلافة لكم يا بني الحسن

ولما بلغ المنصور ما قاله سديف غضب عليه وأمر بدفنه حيا..

محمد أمين عيسوي

الكلمة الأخيرة



حول التغيير

بقلم: د. أحمد مرسى

ربما تصبح هذه الكلمات غير ذات موضوع فربما سبقت الأحداث لكلمات عندما يصبح هذا العدد من الهلال بين يدى قرائه المتميزين، ذلك أنها تتناول موضوعاً يتداوله المصريون منذ وقت غير قصير، وأعنى بذلك التغيير .. التغيير. لقد أصبحت الكلمة وكأنها التعويذة السحرية التى تحل بها مشكلات المجتمع المصرى بين يوم وليلة .. والأمر ليس على هذه الدرجة من البساطة أو التبسيط بأى حال من الأحوال .. على أية حال أشعر باعتبارى مصرياً أن هناك حالة إنسانية يعيشها المصريون تضغط على فكرهم وسلوكهم وتجعل الكلمة بما تدل عليه من شكل ومضمون تمثل حاجة ملحة معنوية ومادية، بالنسبة لهم، كما تمثل أيضاً نوعاً من الأمل فى غد أفضل يتحقق فيه قدر من التوازن بين حاضر يعانون منه ومن سلبياته التى تمسك بخناقهم، وبين ما يطمحون إليه من رفاه وعدل، وتكافؤ وتكامل، وإتاحة الفرص أمامهم للاختيار والعمل، والتمتع بحياة تتوجها الصحة، ويقودها تعليم متقدم، وبحث علمي يرتاد أبعاداً تتجاوز القدرة على الحلم. وهكذا لا يصبح التغيير مجرد كلمة أو أمنية أو قفزاً إلى المجهول أو نوعاً من الخلاص لمجرد الخلاص والضجر واليأس من حالة مستعصية أو نكوصاً على الأعقاب لأن القدرة على التقدم إلى الأمام قد تم وأدها أو تكبيلها. وإنما يصبح التغيير تعديلاً ضرورياً فى علاقات القوى المؤثرة داخل المجتمع لصالح الأغلبية الصامتة فيه، وهى القوى المنتجة الحقيقية، بحيث تسمع كلمتها وتحترم إرادتها .. وبحيث تكون مشاركة حقيقية فى صياغة حياتها. ولعله لم يعد من المقبول التعلل - فى إطار ثورة الاتصالات المعاصرة والتى تتنامى يوماً بعد يوم، وتسير بعجلة متسارعة السرعة - بأن هذه المشاركة صعبة أو التعرف على حقائق ما يدور فى أى مكان أمر عسير.

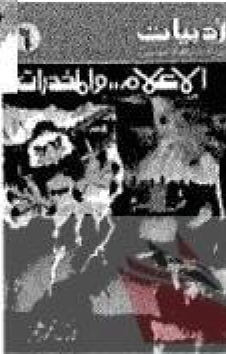
إن التغيير الذى يطمح إليه الناس يعنى أن تكون المشاركة فى الفرص المتاحة حقيقة واقعة لا يجوز الانتقاص منها أو تأجيلها .. ويعنى أيضاً أن يكون للناس تنظيماتهم الديمقراطية القوية التى يستطيعون من خلالها مناقشة أمورهم، وتشكيل حكوماتهم التى تخضع للمساءلة أمامهم، وتكتسب وجودها واستمرارها من قدرتها على تحقيق آمالهم وطموحاتهم.

وإذا سرنا خطوة أخرى فى محاولة شرح ما يعنيه التغيير فى هذا السياق، فإنه يعنى فيما يعنى الخروج من حالة العوز والفقر إلى حالة الاكتفاء ثم الرفاه، ومن حالة العزلة والسلبية إلى حالة المشاركة الفعالة، ومن حالة العجز والخوف إزاء ما يواجهه المجتمع من نقص فى الغذاء والمسكن وخلل فى التعليم، وتصاعد فى نفقات الخدمات الصحية .. الخ إلى حالة من الإحساس بالأمان والسلام والاطمئنان للمستقبل خاصة بالنسبة لأبنائه، وتجاوز الإقصاء والتهميش إلى تعميق الانتماء، وامتلاك أسباب القوة فى إطار استراتيجية واضحة المعالم محددة الخطوات تقوده على طول القرن الحادى والعشرين .. وإلا ....

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة













طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر؛ التوزيع بالقاهرة - المطابع ٨٠ - ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الأسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج م ع -
٤ شارع بدوى محرم بك - الاسكندرية .

الهلال

- ١١ سبتمبر واللعب بالعقول
- الفضائيات العربية .. إلى أين؟!
- السجن والحرية

جـزء خـاص

سبتمبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات



غرام الخديو والأمبراطورة

لوحة وفنان



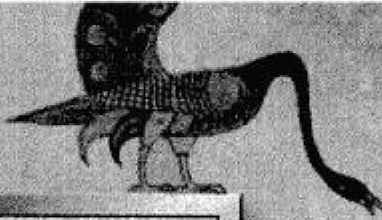
اللوحة: النداء للصلاة   الفنان: جان ليون جيروم

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة رجب ١٤٢٥ هـ - سبتمبر ٢٠٠٤م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة
سوريا ١٢٤ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات



الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبوطالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوروبا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

ميلاد جديد للهلال على C.D

تبدأ الهلال عامها الثالث عشر بعد المائة، وقد أعطت للفكر العربي وللثقافة عصارة مفكرين وأدباء مصريين وعرب في كل مجالات العلم والمعرفة، وكانت ومازالت منبرا للآراء البناءة والأفكار التي تحمل أمل أمتنا العربية في النهضة والرقي وتحقيق الطموحات التي ننشدها في ظل ثورة علمية يشهدها عالمنا المعاصر.

تبدأ هذا العام الثالث عشر بعد المائة ونحن نتطلع لإنجاز أهم مشروع ثقافي عربي يتم بين دار الهلال ومكتبة الإسكندرية من خلال الاتفاق الذي وقع في دار الهلال يوم ١٧ ديسمبر ٢٠٠٢ بين الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة والأستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير وبين الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية لتسجيل مجلة الهلال منذ صدورها عام ١٨٩٢ وحتى الآن على أسطوانات مدمجة «C.D».

وقدمت دار الهلال نسخة الميكروفيلم الخاصة بالمجلة، ومنذ ذلك الوقت وبعد أن تسلمه الدكتور يوسف زيدان مدير مركز المخطوطات يبذل جهد كبير بدءا من توفير كافة المعدات الحديثة والتي وصل ثمنها إلى ثلاثة ملايين جنيه، ومع العمل الدوب من خيرة العاملين ومن بينهم الدكتور محمد سليمان رئيس قسم النشر التراثي بمركز المخطوطات والأستاذان شريف المصري رئيس قسم الميكروفيلم بالمركز وأحمد زامل فني الكمبيوتر بالمركز نقترب من جني ثمار هذا العمل الرائع، والتعاون الثقافي البناء بين دار الهلال ومكتبة الإسكندرية ولتكون هذه هي أول مرة يصدر فيها لمجلة عربية، نسخة رقمية مع قاعدة بيانات ولكي يتم هذا الأمر قام مركز المخطوطات بإنجاز المشروع على ثلاثة مراحل:

* إعداد كشاف تفصيلي لأعداد الهلال منذ صدورها.
* عمل نسخة رقمية لكل أعداد الهلال منذ بداية صدورها عام ١٨٩٢ حتى الآن.
* هذه النسخة الرقمية قابلة للتوظيف بعدة أشكال فمن الممكن أن تتاح على الانترنت، ومن الممكن أن تخزن على أجهزة كمبيوتر بشكل Net Work، ومن الممكن إصدارها على C.D وهذه هي الخطوة التي تم الانتهاء منها بالفعل.

وأيضاً الخبر السار الذي نعلنه بكل الفرح أنه خلال هذا الشهر، سوف ينتهي مركز المعلومات من طرح نموذج للمشروع كاملا، على اسطوانة ليزر، فضلا عن ندوة



مكرم محمد أحمد ومصطفى نبيل أثناء توقيع العقد مع د.إسماعيل سراج الدين

تعقد بمكتبة الاسكندرية يحضرها الأستاذ مكرم محمد أحمد والأستاذ مصطفى نبيل والدكتور إسماعيل سراج الدين والدكتور يوسف زيدان ويدعى إليها الصحفيون والمهتمون بشئون الثقافة، احتفالا بهذه المناسبة والتي تشهد ميلاد أبرز مشروع ثقافى منذ افتتاح مكتبة الاسكندرية.

ثم يتوالى صدور المجلة فى نسختها الالكترونية كل عشر سنوات على أسطوانة.

عزيزي القارىء

إن هذا المشروع ليس الهدف منه الربح، ولكنه يهدف بالدرجة الأولى إلى توثيق الذاكرة الثقافية العربية، متمثلة في مجلة الهلال أولى هذه المجلات وأهمها، والتى تصدر بشكل مستمر حتى وصل عمرها إلى مائة وثلاث عشرة عاما مع الإبداع والتنوير .

الشكر والتقدير واجب لمكتبة الإسكندرية ولمديرها الدءوب النشط الدكتور إسماعيل سراج الدين، لهذا الجهد الكبير الذى بذل لكي يرى هذا المشروع النور، وما تم انجازه لهو دليل واضح على أن أحد سمات هذه المكتبة العملاقة، هو الاهتمام بتوثيق الذاكرة الثقافية العربية فى عديد من المشروعات الثقافية التى يقوم بها مركز المخطوطات فى الخرائط والمخطوطات والكتب النادرة.

لم يكن الهدف من وراء هذا المشروع المهم الربح، بقدر الحرص من الهلال على أن تكون بين يدى الباحثين والمراكز البحثية فى كل أنحاء العالم، خاصة وأنها ظلت منذ بداية صدورها فى حالة تجديد مستمر في كل مجالات الثقافة وفنونها، ومضت طوال مسيرتها حاملة مشعل العدل والحرية، تتواصل مع الأجيال التى حرصت على قراءتها والاستفادة من نبع فياض لا يتوقف عن الثقافة والمعرفة.

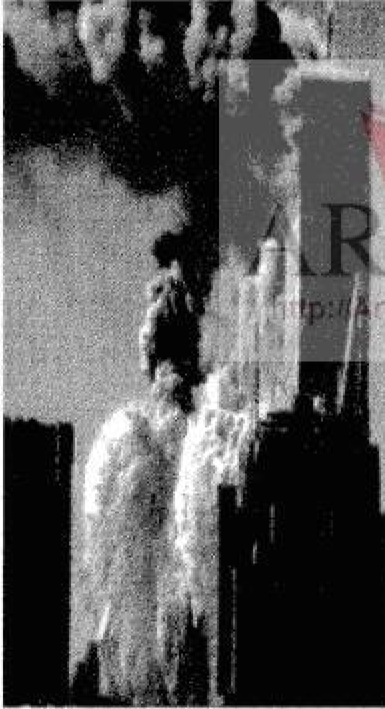
إن الهلال سوف تظل مواكبة للتحديث، بل وسوف تظل فى طليعة هذا التحديث والمعاصرة التي تحقق لقارئها العزيز ما ينشده من كل فنون الآداب والمعرفة.

المحــــــرر

اللعب بالعقول

وعالم ما بعد ١١ سبتمبر

بقلم
د. جلال أمين



فى منتصف الثلاثينات من القرن الماضى ختم على المثقفين الأوربيين شعور ثقيل بالكآبة والتشاؤم من مستقبل أوربا والعالم كانت السحب تتجمع منذرة بقرب نشوب الحرب من جديد ولم تكن الذكريات البشعة للحرب العالمية الأولى والملايين من ضحاياها قد فارقت الأذهان بعد وكانت أخبار الحماقات وانتهاك أبسط حقوق الانسان على يد الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا تزداد سوءا يوما بعد يوم فضلا عن تواتر الأخبار البشعة أيضا عن الحكم الستالينى فى روسيا وعن الحرب الأهلية فى أسبانيا واستمرار الأزمة الاقتصادية وازدياد حدة الكساد والبطالة فى العالم الغربى بأسره.


كان من الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تثور في أذهان المثقفين الأوربيين شكوك قوية حول صلاحية النظام الرأسمالي لتحقيق الرخاء والسلام وأن تفارقهم تلك الثقة المبالغ فيها والتي سادت القرن التاسع عشر في أفضليته الرأسمالية على أي نظام آخر بل وأن تعتريهم شكوك قوية في فكرة التقدم نفسها التي سادت أوربا منذ منتصف القرن الثامن عشر نتيجة لما شهدت أوربا منذ ذلك الوقت من تقدم باهر في مختلف العلوم وقيام الثورة الصناعية وانتشارها من بلد أوربي إلى آخر.

شكوك هكسلي وتنبؤات أورويل

كان من أوائل من عبروا عن شكوك قوية في فكرة التقدم الكاتب الانجليزي الشهير ألدوس هكسلي (Aldous Huxley) إذ نشر كتابا مدهشا في ١٩٣٢، حتى من قبل أن تتلبد سماء أوربا بغيوم الحرب، وقبل أن ترسخ الفاشية والنازية وتتفاقم فظائع الستالينية.

أعطى هكسلي كتابه اسما ساخرا هو عالم جديد رائع أو ياله من عالم جديد رائع! (Brave New world) وحظى الكتاب بانتشار واسع بمجرد ظهوره ثم توالت طبعاته عاما بعد عام.

في سنة ١٩٤٨ نشرت لكاتب انجليزي شهير آخر هو جورج أورويل (G.Orwell) رواية أطلق عليها اسما غير مألوف وهو ١٩٨٤ ولها شبه كبير برواية هكسلي وذاع أيضا صيتها وتكررت طباعتها عاما بعد عام. ومنذ ذلك الحين اقترن الكتابان في الأذهان إذ لا يكاد يرد بالذهن كتاب أورويل حتى يتذكر المرء أيضا كتاب هكسلي والعكس بالعكس ورغم مرور أكثر من نصف قرن على كتاب أورويل وأكثر من سبعين عاما على كتاب هكسلي نجد أن ذكر هذين الكتابين يتكرر بمعدل متزايد والاهتمام بهما يشتد ويزداد تكرار السؤال: هل العالم تقترب من صورة التي رسمها هكسلي للمستقبل أو تلك التي رسمها أورويل؟ هل كان الاثنان محقين في تنبؤهما بهذه الصورة المخيفة للعالم؟

ثم وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فإذا الاهتمام بهذين الكتابين يزداد وعندما حل عام ٢٠٠٤ الذي يكتمل به مرور قرن كامل على ميلاد جورج أورويل ضاعف من الاهتمام بذكراه ما كان لايزال سائدا من قلق بسبب ما وقع في سبتمبر ٢٠٠١ وما تلاه من تطورات خطيرة في السياسة الأمريكية وفي العالم بوجه عام فإذا بالمقالات الصحفية تتردد فيها تعبيرات كان قد صكها أورويل لأول مرة في روايته لوصف ما يمكن أن يكون عليه العالم في المستقبل والكتب الجديدة تصدر للإشادة بنفاذ بصيرة أورويل وصدق تنبؤاته ولكن يكتب البعض أيضا أن العالم الذي صوره هكسلي قبل أورويل بعشرين عاما هو الأقرب إلي ما يحدث في العالم اليوم وأن تنبؤات هكسلي هي الأقرب إلى الصدق وبصيرته هي الأكثر نفاذا.

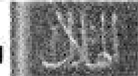
الأمر إذن جدير بالتوقف والتفكير فلا هكسلي أو أورويل كاتبان قليلا

الشأن ولا الذى يحدث فى العالم منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ سهل نسيانه وإذا كان أورويل قد اختار ١٩٨٤ عنوانا لروايته فلا يمكن أن نظن أنه كان يعلن أهميته كبيرة على تلك السنة بالذات أو أنه كان يمانع فى أن يكون عنوان روايته ٢٠٠١ أو ٢٠٠٤ بدلا من ١٩٨٤ وأما هكسلى فصحيح أن روايته تدور أحداثها بعد مرور ستة قرون على ظهور هنرى فورد ذلك الأمريكى الذى اشتهر بادخال تكنولوجيا الانتاج الكبير باستخدام ما يسمى بخط التجميع وعلى هذا يكون أمامنا نحو خمسة قرون أخرى قبل أن يحل موعد قدوم هذا العالم الجديد الرائع ولكن هذا التاريخ الذى اختاره هكسلى لا يجب أيضا أن نعلق عليه أهمية كبيرة وقد كتب هكسلى نفسه فى مقدمة طبعة ١٩٤٦ للكتاب، أنه لم يكن يتصور بالمرة أن يتسارع تطور العالم على النحو الذى حدث بالفعل خلال الأربعة عشر عاما التى مرت على ظهور الكتاب الأول مرة وأنه يجد العالم الآن أى فى ١٩٤٦ أقرب بكثير مما كان يظن إلى ما كان يتوقع حدوثه بعد عدة قرون.

فلنعد إذن التفكير من جديد فى الكتابين وفى العلاقة بينهما وبين ما بدأ يحدث فى العالم فى أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على أمل أن يزداد فهمنا عمقا للكتابين ولما يحدث فى العالم على السواء.

خوف وتشاؤم

إن هكسلى لم يكتب روايته عالم جديد رائع ولا أورويل كتب روايته ١٩٨٤ كمجرد تمرين للقدرة على التخيل والتنبؤ أو لمجرد التسلية بل كان كل منهما يقصد شيئا أخطر من هذا بكثير، كان هكسلى وأورويل كاتبين شديدى الجدية وعلى مستوى عال جدا من الالتزام الخلقى والاهتمام بقضايا المجتمع والإنسان بوجه عام كان كل منهما فى المقام الأول كاتب مقال وأهميتهما ككاتبى مقال أكبر بكثير من أهميتهما كروائيين وكان كل منهما يعرف هذا جيدا بل ويعرف أنه ليس روائيا عظيما ولا بالمستوى الذى كان يتمناه، فألدوس هكسلى يقول بتواضع محبب إلى النفس إنه ليس جوته أو دستيوفسكى وأنه يعرف جيدا أنه لم يولد روائيا وإن كانت آماله واسعة فى هذا الصدد وأورويل قال عن نفسه بعد أن أتم كتابة ١٩٨٤ أنه للأسف أفسد فكرة جيدة أى أنه لم يستطع أن يوفى فكرة الرواية حقها ومع ذلك لم يكف أيهما عن كتابة الروايات إلى جانب ما كانا يكتبان طوال حياتهما من مقالات فى شتى شئون السياسة والأدب والفكر ذلك أنهما رأيا لسبب أو آخر أن الرسالة الأخلاقية التى يريد كل منهما توصيلها للناس تصبح أقرب منالا عن طريق الرواية منها عن طريق المقال وقد كتب كل منهما روايته مدفوعا بشعور قوى جدا بالخوف والتشاؤم من المستقبل الذى يهدد العالم إذا لم نفعل شيئا لتجنب هذا المستقبل المظلم فما الذى كان يخيف هكسلى وأورويل إلى هذا الحد، وهل هناك أوجه للشبه بين هذا الذى كان يخيفهما إلى هذا الحد وما



يحدث فى العالم منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟ فلنحاول الإجابة على هذا السؤال مبتدئين بألدوس هكسلي.

* * *

كان هكسلي يكتب روايته فى ١٩٣١ ومن ثم كان قد شهد بداية الأزمة الاقتصادية العالمية وعاصر بوعى كامل مأسى الحرب العالمية الأولى التى فقد بسببها الكثير من أصدقائه وزملائه فى الجامعة ولم يمنعه من الاشتراك فيها إلا ضعف بصره الشديد ربما كان الأهم من هذا وذاك ما كان هكسلي قد توصل إليه من يقين بفكره الثاقب واتساع قراءاته فى مختلف فروع المعرفة مع قدرة مدهشة على الربط بين معارفه الواسعة فى مختلف هذه الفروع بأن يحرزه الإنسان من تقدم علمى وتكنولوجى واقتران هذا التقدم بزيادة غير معهودة فى عدد السكان لابد أن يؤدى لا إلى تقدم الديمقراطية وزيادة مساحة الحرية التى يتمتع بها الناس بل لابد أن يؤدى إلى عكس هذا بالضبط: إلى أفول الديمقراطية وتقلص ما يتمتع به الناس من حرية. ذلك أن التقدم العلمى والتكنولوجى لابد فى نظر هكسلي أن يؤدى إلى المزيد ثم المزيد من تركز السلطة فى أيدى عدد قليل من الناس إما بسبب استعداد طبيعى لديهم للاستبداد أو شغف زائد لديهم بفرض إرادتهم على الآخرين أو بسبب مزايا اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية حصلوا عليها بحق أو بغير وجه حق، المهم أن التقدم العلمى والتكنولوجى



جورج أورويل

يسمح بطبيعته بتركز السلطة والقوة فى أيدى قلة تقوم بفرض إرادتها على الآخرين والأدوات التى تستخدم فى فرض هذه الإرادة لا تقتصر على أدوات القهر المادى المعروفة فى مختلف عصور التاريخ من أسلحة وسجون وأدوات التعذيب الجسمانى بمختلف صورها بل أصبحت تشمل فى العصر الحديث صورا جديدة للقهر المعنوى عن طريق ما أصبحت تسمح به وسائل الإعلام والاتصال الحديثة من تأثير فى عقول الناس وميولهم وغسيل أدمغتهم وبث ما يريد المسكون بالسلطة نشره من أفكار ومعتقدات ومعلومات، كلا النوعين من القهر يجدهما قارئ رواية هكسلي ورواية أورويل على السواء ولكن بينما يركز أورويل تركيزا شديدا على وسائل القهر المادى والتعذيب كان اهتمام هكسلي الأكبر بوسائل القهر المعنوى وغسيل المخ.

السيطرة الإعلامية

نحن الآن نتكلم بسهولة ويسر عن سطوة وسائل الإعلام على عقول الناس

ونعتبر الكلام عنها من قبيل تحصيل الحاصل والمعروف للجميع وما أكثر الكتب التى ظهرت منذ خمسينات القرن العشرين لتلفت نظرنا إلى هذه الحقيقة ولكن كم كان ألدوس هكسلى ثاقب الرؤية وبعيد النظر عندما أدرك هذه الحقيقة بهذه الدرجة من الوضوح وكتب عنها فى مطلع الثلاثينات كان يقام القلة المسيطرة على مقاليد الحكم بما أسماه تشكيل عقول الناس منذ الطفولة (infant conditioing) يبدو له نتيجة حتمية للتقدم العلمى، بما فى ذلك تقدم علوم البيولوجيا وعلم النفس وهذا التحكم فى عقول الناس لا يبدأ مع بداية قراءة الصحف أو الاستماع إلى الراديو أو مشاهدة التليفزيون بل يبدأ منذ الميلاد بل وربما قبل ذلك أيضا ذلك أن هذا التقدم العلمى الذى أحرزناه والذى لابد أن نحرز أكثر منه فى المستقبل يسمح لنا بالتحكم فى جينات الإنسان على نحو يسمح بالتحكم فى جسم الانسان وعقله بما يتفق مع رغبات وخطط المسيطرين على وسائل هذا التحكم.

كان لدى هكسلى إذن أسباب قوية للتشاؤم بمستقبل الديمقراطية والحرية وللتخوف من الانسحاق التدريجى للفرد تحت وطأة نمو مجتمع نمطى تطبعه الآلة الأتوماتيكية بطابعها فيسوده تماثل رهيب فى السلوك والتفكير وتزول الفردية ويصعب فيه التمييز بين شخص وآخر.

فى ظل هذا التقدم العلمى والتكنولوجى لا يحتل هدف أو مبدأ مكانة اسمى مما تحتله الكفاءة (effi-ciency) والكفاءة تقاس فى نهاية الأمر بحجم السعادة أو بالأحرى بالمقياس الذى قال به جريمى بنثام (Bentham) منذ أكثر من قرنين وهو أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس وأكبر جريمة يمكن أن يرتكبها شخص هو ألا يكون سعيدا وفى الحالات الشاذة والنادرة التى يشعر فيها شخص بأنه غير سعيد أو غير راض عن نفسه أو يشعر فيها بالملل أو يتطلع إلى الحصول على شئ ليس من المتاح الحصول عليه هناك علاج حاسم وسريع ومضمون الأثر يطبق فى هذا العالم الجديد الرائع وهو تناول بضع جرامات من حبة اسمها سوما (Soma) تدخل من يتناولها فى غيبوبة لذيذة تمتد بضع ساعات أو حتى بضعة أيام يزول خلالها هذا الشعور بعدم الرضا ويعود بعدها الشخص إلى ممارسة حياته الطبيعية مثلما يمارسها سائر الناس.

سيادة قيم جديد

من الطبيعى أن تسود فى مجتمع كهذا عادات ومواقف جديدة فيما يتعلق بالجنس والحب والزواج وكذلك إزاء الأدب والفن والدين. ممارسة الجنس متاحة دائما وبلا أى قيد، المكروه فقط فى هذا المجتمع والباعث على الدهشة والاستغراب هو الاقتصار على ممارسة الجنس مع شريك واحد أو تركيز العاطفة الجنسية على شخص واحد أى الحب.

فالشخصية النسائية الأساسية فى الرواية تتخذ هذا الموقف الشاذ وغير المألوف وهو نفورها من التنقل فى

علاقاتها العاطفية بين رجل وآخر وكذلك موقف أحد أبطال القصة الذى يميل بكل قلبه إلى امرأة بعينها ولا يرغب فى غيرها. مشكلتهما إذن هى الوقوع فيما يشبه الحب ذلك الشعور غير المفهوم وغير المقبول فى مثل هذا المجتمع التكنولوجى المتقدم.

يترتب على ذلك أن الزواج أيضا شئ غير معروف ولا وجود للأسرة بل إن كلمتى الأب والأم قد نسيتا مع مرور زمن طويل على بدء انتاج الأطفال فى أنابيب أو زجاجات طبقا لمواصفات معروفة ومحددة مقدما واستخدام كلمة الأب أو الأم فى الكلام يثير فى هذا المجتمع مشاعر الخجل والحياء وتحمر لدى سماعهما الوجوه كالذى تثيره بعض العبارات الجنسية المكشوفة فى مجتمعاتنا التقليدية.

فى مثل هذا المجتمع يمكن أن نخمن أى نوع من الأدب أو الفنون يمكن أن يسود وموقف الناس من الدين فعندما يزور هذا المجتمع شخص متخلف وبدائى يسميه هكسلى المتوحش (sav-age) سبق أن قرأ فى وقت ما فى حياته بعض مسرحيات شكسبير وأغرم بها لا تثير تصرفات هذا الشخص وميوله واقتطافه لبعض مقطوعات من شكسبير إلا الاستغراب والسخرية فليس هناك فى هذا المجتمع مكان لمثل هذه العواطف التى يصفها شكسبير المهم هو السعادة أو اللذة وتجنب كل ما يعكر صفو المزاج، وهذا قد يتطلب الاستماع إلى موسيقى راقصة وصاخبة أو رؤية أفلام خيالية ولكنها ممتعة مما يعرض فى أماكن لها شبه بدور السينما الحالية ولكن هكسلى يسميها بدور إثارة المشاعر والانفعالات (feelies) والدين أيضا لم يعد له وجود فالناس هنا لا يذكرون كلمة الله فى حديثهم بل يستخدمون بدلا منها اسم رب العمل الأمريكى الشهير فورد الذى ابتدع أسلوب الانتاج الكبير والمتجانس تجانسا تاما وقد استفاد هكسلى هنا من الشبه بين اسم فورد وأحد التعبيرات المستخدمة فى الانجليزية للإشارة إلى الله (لورد Lord) فإذا بالناس فى مجتمع هكسلى الجديد يقولون يا لفورد! بدلا من قولهم يا لله! عندما يعبرون عن دهشتهم من شئ ما ويرصدون الأحداث بحساب السنوات التى تفصل بين وقوع الحدث وظهور فورد فيقولون إن حدثا ما وقع فى السنة العاشرة أو العشرين بعد فور كما يقال الآن أن حدثا ما وقع بعد كذا سنة من ميلاد المسيح!

التقدم إلى الوراء

هكسلى يسخر فى روايته من كل هذا والرواية، مأخوذة ككل، تعبر عن سخطه وعدم رضاه عن هذا المجتمع التكنولوجى المتقدم بل إنه يسخر سخرية واضحة فى بعض سطور الرواية من فكرة التقدم بأسرها وفى كتاب آخر له يصف التقدم التكنولوجى بأنه لا يزيد عن أنه مؤد بالمجتمع إلى السير إلى الوراء بكفاءة أكبر!.

فما الذى يغضب الدوس هكسلى بالضبط من هذا المجتمع التكنولوجى

المتقدم وما الذي يشعره بالسخط إلى هذا الحد؟ كان هكسلي يرى أن كل فرد من الناس يختلف عن كل الأفراد الآخرين فكما أنك لا يمكن أن تجد شخصا له نفس الوجه أو الملامح الجسدية بالضبط التي تجدها في شخص آخر، فإن التكوين النفسي والخلقي لا يتكرر أبدا بحذافيره من شخص وآخر إذا كان الأمر كذلك فإن معاملة مجموعة من الناس وكأنهم وحدات متماثلة يجوز معها ما يجوز في معاملة الأجسام المادية البحتة والمجردة من الحياة تنطوي على اعتداء على صفة الانسانية. الكفاءة التي يحققها ويطمح إليها المجتمع التكنولوجي الحديث هي إذن في نظر هكسلي كفاءة ميكانيكية بحتة تزيد من حجم السلع وتضاعف من حجم الثروة ولكنها تصيب الانسان في مقتل وتفقده ما يستحيل تعويضه. المبدأ النفعي (utilitarianism) هو إذن مبدأ شرير في نظر هكسلي على الأقل في صورته المجردة من أي غاية أو مبدأ أخلاقي فاعتبار الأشياء التي تجلب درجة معينة من الرضا أو السعادة متساوية بصرف النظر عن أي اعتبار أخلاقي أو قيمي هو موقف سيئ في نظر هكسلي لأنه يتعارض مع خصائص أساسية في الانسان.

هذا الموقف الأخلاقي من قضية التقدم الاجتماعي الذي اتخذه الدوس هكسلي منذ أواخر العشرينات من القرن العشرين وهو في نحو الخامسة والثلاثين من العمر وعبر عنه بقوة في ١٩٣٢ في روايته المشهورة وبقي معه حتى وفاته في ١٩٦٣ أدى إليه اجتماع بعض الصفات العقلية والنفسية النادرة فألدوس هكسلي ينتمي إلى أسرة فريدة بدورها اشتهرت ببعض الرجال العظام الذين جمعوا بين الذكاء النادر والشغف بالمعرفة وملكة تذوق الأدب والفن إلى جانب دقة البحث العلمي وصرامة المنطق.

وقد أدى به هذا الجمع بين الحاسة الأدبية والفنية الراقية وبين المعرفة العلمية الواسعة إلى فهم عميق لطبيعة المجتمع الحديث واتجاه سيره وفي نفس الوقت إلى كراهية عميقة للجوانب غير الانسانية في هذا المسار.

أمريكا نموذج هكسلي

كان من الطبيعي أيضا أن يدرك هكسلي أن هذا المجتمع التكنولوجي الحديث يجد أوضح مثال له في المجتمع الأمريكي كما رآه وقرأ عنه في العقدين الأولين من القرن العشرين كان قد قرأ بالطبع عن التطورات التكنولوجية المذهلة التي حققها الأمريكيون لاستغلال ثرواتهم الطبيعية الهائلة ولابد أنه رأى أثناء زيارته للولايات المتحدة في العشرينات من مظاهر انتشار الآلية وآثار المصنع الحديث المدمرة لنفسية العامل من ناحية والمثيرة لرغبات غير محدودة لدى المستهلك من ناحية أخرى، مثلما أثار انفعال شارلي شابلن الذي عبر عن سخط مماثل كسخط هكسلي، وفي الوقت نفسه تقريبا الذي كتب فيه هكسلي روايته الشهيرة، في فيلم شابلن الشهير أيضا «العصور الحديثة» (Modern Times).

لا عجب أن أصبح الاثنان، هكسلى وشابلن ، صديقين حميمين عندما انتقل هكسلى للاقامة فى لوس انجلوس فى سنوات الحرب.

كان من السهل أيضا على هكسلى أن يرى أن العالم كله يسير فى نفس الاتجاه الذى يسير فيه المجتمع الأمريكى، وأن مستقبل العالم هو مستقبل أمريكا، ولكنه كان يشعر دائما بأن هناك شيئا يمكن عمله، بل ويجب عمله، من أجل صنع مستقبل أفضل من هذا .

* * *

فى ١٩٤٦، عندما جلس هكسلى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ليكتب مقدمة لطبعة جديدة من الرواية، كان من الواضح تماما له، (ولابد أيضا لكثيرين غيره) أن العالم يسير نحو هذا المستقبل المخيف بخطى أسرع بكثير مما كان يظن. كانت الآلية قد انتشرت بسرعة تفوق ما توقع، وسيطرت على مجالات لانتاج السلع والخدمات، ووسائل الاعلام ونشر الثقافة على نحو فاق كل التوقعات . ناهيك عما كانت الحرب العالمية الثانية قد فعلته من تخريب وتدمير للأنفس والأموال. كانت صورة مستقبل العالم التى بدت لمثقفى ما بعد الحرب العالمية الثانية وللمثقفين الأوربيين على الأخص، أكثر كآبة وتدعو لتشاؤم أكبر بكثير مما بدت لهكسلى عندما كتب روايته فى أوائل الثلاثينات. لا عجب إذن أن أقبل الناس على قراءة الرواية بشغف أكبر بعد الحرب مما أبدوه قبلها، ولا تزال الطبعات الجديدة تظهر حتى الآن بعد مرور أكثر من سبعين عاما على الطبعة الأولى، وهى الوحيدة بين روايات وكتب هكسلى التى تحظى برواج فى الوقت الحاضر.

أدى هذا النجاح بهكسلى إلى أن يكتب كتابا آخر فى ١٩٥٧ بعنوان «عالم جديد رائع: نظرة أخرى» (Brave New World Revisited) أكد فيه تمسكه بالنبوءات التى وصفها فى ١٩٣٢ وتوسع فى شرحها، بالتحليل العلمى والمنطقى هذه المرة، وليس بالتحليل والأسلوب القصصى كما فعل من قبل، ولكنه لم يبد هذه المرة أقل تشاؤما مما كان. شرح أثر الزيادة الكبيرة فى سكان العالم بالمقارنة بالموارد، وأثر التقدم التكنولوجى فى زيادة درجة التدخل فى حياة الناس بالتنظيم والضبط والربط، وأثر نمو وسائل الاعلام والاتصالات فى زيادة القدرة على تشكيل أفكار الناس وتوجيههم فى الاتجاهات المطلوبة. وعندما توفى ألدوس هكسلى فى ١٩٦٣ كان اسمه قد اقترن اقترانا لا ينفصم باسم روايته (عالم جديد رائع) وأصبح يتكرر ذكر الاسمين، كلما حدث ما يثير الخوف مما يمكن أن يأتى به المستقبل.

* * *

وقد حدث مثل هذا فى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ رأى الناس أولا صور طائرتين مصطدمتان ببرجين عظيمين هما من أشهر وأعلى مبانى العالم، فتحيلهما خلال لحظات قصيرة إلى رماد وتراب. كان التقدم العلمى والتكنولوجى الذى جعل هذا العمل ممكنا، تقدما مذهلا حقا مما لم يكن متاحا عندما كان

هكسلي يكتب روايته، ولكن حجم الدمار المادي والنفسي الذى ترتب على هذا العمل كان مذهلا أيضا. التقدم العلمى والتكنولوجي يمكن إذن ، كما توقع هكسلى ، أن يكون سببا لمزيد من الخراب. ولكن انظر أيضا إلى دور وسائل الاعلام وتقدم وسائل الاتصال فى التحكم فى مشاعر الناس وتوجيهها فى الوجهة التى تحددها السلطة المركزية. الأخبار والتعليقات المتشابهة تصب فى آذان المستمعين ويتكرر ظهور صورها أمام أعينهم لتوصيل نفس الرسالة وتثبيت نفس الاعتقاد الذى يرغب الجالسون على قمة السلطة فى ترسيخه فى أذهان الناس. والنجاح الذى تحققه السلطة فى هذا الصدد نجاح باهر. فالجميع الآن يعتقدون فى وجود شئ اسمه «الارهاب» وإن كان غامض المعالم مجهول الهوية والعنوان، ومع ذلك «فالارهابى» يستطيع أن يرتكب أى عمل فى أى لحظة فى أى مكان. والشباب والشابات الأمريكيون يظهرون على شاشة التليفزيون ليعبروا فى براءة منقطعة النظير عن ثقتهم المطلقة فيما يقوله رئيسهم، مع أن هذا الرئيس نفسه، عندما يخطب أو يجيب على أسئلة الصحفيين، يبدو وكأنه يردد كلاما أعده له شخص آخر غير معروف الهوية بدوره

ووسائل الاعلام لا تخدع الناس فقط بنشرها أخبارا مختلقة وترديد تفسيرات واحدة لا تتغير ومعدة سلفا، بل تخدعهم أكثر، كما قال هكسلى فى مقدمة سنة ١٩٤٦، بتجنب الحديث فى أمور معنية وحظر تناول موضوعات حساسة قد يؤدى الكلام فيها إلى فضح الروايات الرسمية، أو على حد تعبيره «قول الحق شئ عظيم فعلا ولكن الأعظم منه، من وجهة النظر العملية، السكوت عنه» .

والمهمة كلها يجرى تسهيلها بإغراق الناس فى عالم من المتع والملذات والتشويق، لامتلاك السلع تارة، ولممارسة الجنس تارة، ولمتابعة المسابقات الرياضية أو أفلام الجريمة تارة.. الخ. والتخويف الذى يمارس أثناء ذلك يدور ليس فقط حول خطر التعرض للموت بسبب الأعمال الارهابية التى يمكن أن تحدث فى أى لحظة، بل وأيضا حول خطر فقدان هذا النمط الرائع للحياة (من استهلاك السلع وممارسة الجنس ومتابعة المسابقات الرياضية وأفلام الجريمة.. الخ)، إذ أن من أهداف الارهابيين الرئيسية القضاء على «النمط الأمريكى للحياة» الذى يشعرون بالغيرة الشديدة منه ويحسدون الأمريكيين عليه، وهو ما دفعهم إلى تفجير الأبراج ووزارة الدفاع الأمريكية، ولو وصل هذا إلى حد تضحية الارهابيين بأنفسهم .

العيش فى عالم خيالى

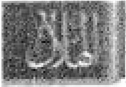
الناس فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر ، وعلى الأخص فى الولايات المتحدة الأمريكية، يبدون إذن ، كما تصور هكسلى فى ١٩٣٢، وكأنهم يعيشون فى عالم خيالى لا يمت للحقيقة بصلة: يستغرقون فى عمل ميكانيكى وروتينى فى الصباح، ولكنه بالغ الكفاءة، لكى

يلقوا بأنفسهم فى المساء، مرهقين وفاقدى القوى، أمام تليفزيون لا يكف عن تكرار أخبار ملفقة وتعليقات كاذبة ولكنها مدروسة بعناية، ومقترنة بصور جذابة تجعل تصديق الأخبار والتعليقات أمرا حتميا والشك فى صحتها مستحيلا، وترسخ فى هذه الأذهان المرهقة أفكارا بعينها عن الارهاب والارهابيين، وعن الاسلام والمسلمين، وعن روعة الحياة الأمريكية وجمالها، وأنه لا شئ فى الامكان أبدع مما هو كائن لولا ما يمكن للإرهابيين عمله لإفساد هذه الحياة. ولكن الحكومة وأجهزة الأمن متيقظة، ولا داعى فى الحقيقة للشعور بالخوف، أو بالأحرى، لا بأس فى الحقيقة من الشعور بالخوف والطمأنينة فى نفس الوقت. وإذا اشتد الخوف بالمرء فهناك على كل حال عقاقير ومشروبات تشبه فى تأثيرها حبوب (Soma) فى رواية هكسلى.

* * *

لا يمكن للقائمين بالسلطة، على الرغم من كل هذا، الاطمئنان الكامل إلى أن أحدا من الناس، وعلى الأخص من المثقفين، لن يتمرد على كل هذا ويدور بذهنه الشك فى أن ما يسمعه لا يطابق الحقيقة بالضبط، وأن هناك أمورا تخفيها عنه السلطة ووسائل إعلامها. هؤلاء الشكاكون لابد من التعامل معهم بطريقة أخرى غير مجرد التسلية وحبوب التخدير.

كان الحل الذى اقترحه هكسلى فى روايته هو النفى، أى عزل هؤلاء الشكاكين الخارجين عن صفوف هذه القطعان المسالمة من الناس ووضعهم فى جزيرة منعزلة. قد يكلم فيها بعضهم البعض، ولكنهم لا يتصلون فيها ببقية الناس ومن ثم يزول خطرهم. قد تبدو هذه الطريقة التى اقترحها هكسلى للتعامل مع المتمردين والمعارضين طريقة رحيمة أكثر من اللازم، ولكن يجب ألا ننسى أن رواية هكسلى كانت تكتب فى ١٩٣١ و١٩٣٢، قبل اتضاح خطر النازية والفاشية والستالينية. كان الكاتب المؤهل لوصف هذا الخطر والوسائل العنيفة الأخرى للتعامل مع معارضى السلطة والخارجين عن طاعتها، هو جورج أورويل الذى كتب روايته بعد رواية هكسلى بنحو عشرين عاما وقد وصف أورويل، مثلما وصف هكسلى، استخدام السلطة لوسائل الاعلام ومختلف وسائل الترغيب وغسيل المخ وتزوير الحقائق أو اخفائها ومسايرة عامة الناس لرغبات السلطة واستغراقهم فيما يعطى لهم من وسائل التسلية والمتع الحسية وإثارة الخيال، ولكن أورويل خصص مالا يقل عن ثلث روايته لوصف أعمال التعذيب ومختلف صور القسوة التى يمكن للسلطة ممارستها مع الخارجين على طاعتها، مما اتضح لنا أيضا إمكان حدوثه مما شهدناه فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولكن هذا يحتاج بلا شك إلى مقال آخر. ■



شمولية ديمقراطية:

مزيج خطير

بقلم
جميل مطر

◆ عندما شاهدنا لأول مرة مشهد دورة المياه فى فيلم العصور الحديثة الذى أخرجه ومثل فيه دور البطولة الفنان تشارلى شابلن، لم يخطر فى بالنا أن هذا الاختراع المذهل الذي تخيله هذا الفنان المبدع سوف يكون حقيقة واقعة نعيشها ونمارسها. فى هذا المشهد كان تشارلى شابلن يحاول أن يدخن سيجارة فى مواعيد العمل خلافا للقواعد فظهرت له على الحائط صورة مدير المصنع يزجره ويأمره بالعودة فورا إلى موقعه فى عمله. كان المشهد «خياليا» ومحفزا على التفكير فى المستقبل كنا فى ذلك الوقت نقرأ لـ هـ. د. ويلز وجول فيرن ونحلم بأشكال المستقبل، ونتساءل إن كنا سنعيش لنرى تحقيق هذه الخيالات والأحلام وتحولها إلى واقع معاش.

تذكرت فيلم العصور الحديثة وأنا أقرأ محادثة طريقة يتداولها الأمريكيون كرد فعل للقوانين المتعددة التى شرعتها إدارة الرئيس بوش لحماية الولايات المتحدة من تهديدات إرهابية محتملة، كلها بدون استثناء قلصت مساحة حرية الفرد العادى وكلها - بدون استثناء أيضا - سمحت لأجهزة متعددة فى الحكومة بالتدخل فى شئون المواطنين ومعرفة أدق أمورهم خصوصية وحساسية. كانت المحادثة بين عامل تليفون فى محل لصنع البتزا وأحد الزبائن. ودارت كالآتى:

عامل تليفون محل بيتزا: شكرا على اتصالكم بنا، هل لى أن أعرف رقمك القومى؟.

الزبون : مرحبا ، أريد أن أطلب بيتزا .

عامل التليفون : يجب أن أعرف أولا رقكم القومي يا سيدي.

الزبون : رقمي القومي ؟ نعم. انتظر لحظة هو ٥٤٦١٠٢ - ٤٥ - ٦١٠٢٠٤٩٩٨ .

عامل التليفون : شكرا لك ياسيد شيهان. أرى أنك تعيش في المنزل رقم ١٩٤٢ طريق ٢٣٠٢ - ٧٤٥، ورقم هاتفك النقال هو ٢٥٦٦ - ٢٦٦ وعنوانك الاليكتروني....

الزبون : لحظة من فضلك. كيف حصلت على كل هذه المعلومات .

عامل التليفون : أجهزتنا مربوطة بالشبكة القومية الأمريكية للمعلومات ياسيدي .

الزبون : وما هي هذه الشبكة .

عامل التليفون : هي شبكة متصلة بوزارة الأمن الداخلي. سيد أستلك هذه سوف تضيف ١٥ ثانية إلى الوقت المسموح لك لتتقدم بطلبك .

الزبون : نعم نعم. أريد أن أطلب زوجا من فطيرة البيتزا المضاف إليها كمية كبيرة من اللحم .

عامل التليفون : لا أظن يا سيدي أن هذه فكرة طبية .

الزبون : ماذاتعني ؟.

عامل التليفون : سيدي أن سجلاتك الطبية تشير إلى أنك تعاني من ارتفاع في ضغط الدم، وارتفاع شديد في نسبة الكوليسترول . وتقول الأوامر الصادرة لنا من هيئة الرعاية الصحية أنه غير مسموح أن نلبي طلبا يضر بصحتك .

الزبون : بماذا تنصح إذن ؟.

عامل التليفون : يمكنك أن تجرب البيتزا المصنوعة بفول الصويا وهي منخفضة الدهون . أنا متأكد أنها ستعجبك .

الزبون : ما الذي يجعلك تقول أنه سيعجبني شئ كهذا؟

عامل التليفون : حسنا يا سيدي. سأقول لك . أمامي معلومات عنك تقول أنك كنت في الأسبوع الماضي في مكتبة الحي الذي تسكن فيه، وطلبت استعارة كتاب عن الوجبات التي تستخدم فول الصويا. سيدي هذا هو ما جعلني اقترح عليك بيتزا من فول الصويا .

الزبون : حسنا حسنا .. ابعث لي إذن باثنين من الحجم العائلي .

عامل التليفون : ولكن هذا سيكون فائضا عن حاجتك يا سيدي أنت وزوجك وأربعة أطفال وكلبين. ولكن كما ترغب ياسيدي . سيكون الحساب مبلغ ٤٩,٩٩

الزبون : دعني اقرأ عليك رقم بطاقة الائتمان .

عامل التليفون : أنا آسف يا سيدي ولكني أخشى أنه سيتعين عليك أن تدفع نقدا . تقول المعلومات التي أمامي أنك تجاوزت المبلغ المسموح لك في كل بطاقاتك الائتمانية .

الزبون : سوف أذهب الآن إلى شباك صرف النقود في البنك المجاور لأسحب مبلغاً نقديا قبل أن يصل سائقكم إلينا .

عامل التليفون : لا يا سيدى حتى هذا لا ينفع فإن حسابك فى البنك مكشوف .

الزبون : لا بأس . أرسل البيتزا وسيكون النقد جاهزا كم ستأخذ من الوقت ؟.

عامل التليفون : حوالى ٤٥ دقيقة .

الزبون : سآتى بنفسى لآخذها.

عامل التليفون : يا سيدى كيف ستأتى وسيارتك سحبت منك لأنك لم تسدد أقساطها وحتى لو كانت معك فلا يوجد فى حوزتك ما تدفع لتملأ خزانها .

الزبون : إنك (عبارات غير مهذبة).

عامل التليفون : أنصحك أن تحتاط إلى ما تقوله ياسيدى، فأنت لم يمض عليك أيام قليلة منذ خروجك من السجن المحلى بسبب إساءتك إلى ضابط شرطة وإهانتك للمحكمة سيدى هل هذه أول بيتزا لك منذ عودتك إلى المجتمع ؟.

الزبون : (لا يرد) .

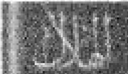
عامل التليفون : هل من طلبات أخرى يا سيدى .

الزبون : معى كوبون لتر مجانى من الكوكاكولا .

عامل التليفون : أسف ياسيدى . لا أستطيع أن أقدم لك أى مشروب غازى بسبب أنك تشكو من ارتفاع نسبة السكر فى الدم . وتعلم ياسيدى أن الدستور الجديد للولايات المتحدة يحرم ذلك. شكرا ياسيدى على اتصالك بنا .

* * *

انتهت المحادثة المزعومة . ولكنى، وبعد تجاربى السابقة مع مشهد صورة مدير المصنع يراقب دورة المياه وموظفيه، وكتب ويلز وفيرن وجورج أورويل وغيرهم، أصبحت أكثر حرصا واحتراما فى التعامل مع كل رواية أو طرفه أو محادثة تزعم أنها ترى المستقبل . كلنا نعرف أن احترام الدولة لأسرار وكوامن وخصوصيات المواطن الأمريكى - وكان مضرب الأمثال ومنتهى الآمال فى عوالمنا الديمقراطية وغير القانونية - يتدهور، فإذا كان المواطن الأمريكى الذى يستخدم البريد الالكترونى يعرف أن ما يقرأه ويشاهده ويرسله ويستلمه تراقبه وتنقل مضمون الرسائل المتبادلة أو نصوصها إلى جهات تعمل بالأمن والتجسس وصحافة التشهير والفضائح والشركات الكبرى . هذا المواطن الأمريكى نفسه قد يركب سيارة تحمل بطاقة الكترونية تنقل كل المعلومات عن موقع السيارة فى أى لحظة وسرعتها وحمولتها وحالتها الميكانيكية. فى الأصل كانت وظيفة هذه البطاقة إنذار الراكب بخطر أو بخلل ، وابلاغ جهات الإنقاذ بالمعلومات الضرورية. وفى الوقت نفسه وهذا ما يعرفه المواطن الأمريكى أو لا يعرفه ، إبلاغ أجهزة تهتم بتتبع تحركات المواطنين الأمريكيين أو تحديدا من تريد تتبعهم . ثم أنه فى الولايات المتحدة، كما فى غيرها ، لم يعد الفرد منا يعرف إن كان الجار فى المسكن أو فى المكتب أو فى الطريق يتحدث فى هاتفه النقال أم يقوم بتصويره بدون استئذانه، وأن هذه الصور يمكن أن تذهب فى اللحظة نفسها التى تلتقط فيها إلى جهات



مصلحة في معرفة مكان الفرد ومن في صحبته وماذا يفعل أو يفعلون .

كنا ونحن نتلقى دراستنا العليا في أمريكا الشمالية، كان هذا منذ سنوات غير قليلة ، نطمئن إلى أن التقارير الطبية التي يكتبها عنا الأطباء ويضعونها في ملفات ستبقى دائما وأبدا وبحكم القانون تقارير سرية، وليس لأحد حق الإطلاع عليها إلا بقرار صادر من قاضي محكمة وبرضاء المريض. والمعروف أن التقارير الطبية، إلى جانب نتائج الكشف والتشخيص ، تحتوي أيضا على معلومات أخرى أكثر من المعلومات عن المرض وتوصيفه وأدويته، فهي تحوي معلومات عن أقارب المريض لمعرفة مدى انتشار المرض في العائلة والأدوية التي تعاطاها المريض على امتداد حياته ومختلف الأمراض . ثم صدرت قوانين جديدة قبل وبعد ٩/١١، لم تعد بفضلها هذه التقارير تحظى بالسرية التي كانت تتمتع بها في السابق . وقد أثير الموضوع حديثا عندما طلبت وزارة العدل الأمريكية من بعض المستشفيات ملفات عن مئات السيدت اللائي أجرين عمليات إجهاض في المنطقة التي تقع فيها هذه المستشفيات . حدث أيضا أن طلبت وكالة التحقيقات الفيدرالية «بالمباحث العامة» من مستشفيات مدينة بتسبرج وأطبائها الإبلاغ فورا عن أي حادث أو أي إصابة «مشبوهة»، مثل مريض على جسمه طفح جلدي أو جريح فقد إصبعه أو عضوا في جسمه. وتدافع أجهزة الأمن عن هذا الطلب بالقول إن هناك احتمالات قائمة بأن يكون هذا الطفح أو هذا العضو الناقص نتيجة تعرض المريض إلى عناصر كيماوية أو بيولوجية بينما كان يستعد للقيام بعمل إرهابي مستخدما الكيماويات أو الأسلحة الجرثومية أو البلاستيكية. كما طولب الأطباء في الولايات المتحدة وفقا لقواعد «قانون الوطنية» الذي صدر في أعقاب ٩/١١ أن يقوموا بإبلاغ المباحث العامة الفيدرالية بنتيجة الفحص قبل أن يبلغوا المريض صاحب الشأن . ومعنى هذا الطلب أن يترك الطبيب مريضه في قاعة الكشف ويخرج ليتصل بالمباحث العامة ويبلغها بحالة المريض ثم يعود للمريض لإبلاغه. لم نعرف بعد إن كان الهدف إفساح الفرصة أمام أجهزة الأمن لاتخاذ إجراء ما، مثل اعتقال المريض أو فرض الرقابة عليه وقت خروجه من العيادة، أم أن هناك إهدافا أخرى .

وحدث بعد ٩/١١ أن طلبت وزارة العدل من الجامعات تقديم كافة المعلومات التي في حوزتها عن الطلاب الأجانب دون أن يعلم الطلاب بهذا الأمر . وقد قاومت بعض الجامعات، وقاومت أيضا وزارة التعليم الأمريكية تنفيذ هذا الأمر ، مؤكدة ضرورة صدور قرار من قاضي محكمة في كل حالة على حدة. في الوقت نفسه كانت إدارة الهجرة تطلب من جميع الجامعات الأمريكية معلومات عن ٢٠٠ ألف طالب أجنبي. واستجابت وقتها مائتا جامعة في أسابيع قليلة. أذكر ويذكر الكثيرون من الأجانب ممن درسوا

فى الولايات المتحدة أن الطالب الأجنبى كان فخورا بانتمائه إلى جامعة تستأذنه قبل أن تنقل معلومات عنه إلى أجهزة حكومية تختص بالأمن وبالهجرة والصحة ، أو إلى شركات خاصة تطلب هذه المعلومات للتعرف على إمكانات الطالب العلمية والذهنية لتوظيفه عندما يتخرج. ولم تتوقف عند هذا الحد حملة اليمين الحاكم فى أمريكا لتقييد حريات المواطن الأمريكى وانتهاك «عالمه» الشخصى والسماح بتداول المعلومات عنه ، أى تعريته أمام «الدولة» .

* * *

الجديد فى حملة اليمين الأمريكى لتقييد حرية الأشخاص وحقوقهم وخصوصياتهم هو هذا العقد الذى تكلف ١٥ مليار دولار لبناء شبكة من مصارف وقواعد معلومات مهمتها تتبع الزوار والسائحين الذين يصلون إلى أمريكا. تبدأ عملية التتبع قبل سفر هؤلاء الزوار من بلادهم ، وتستمر خلال سفرهم ، وتتواصل خلال إقامتهم فى الولايات المتحدة، وتبقى معهم لفترة غير قصيرة بعد عودتهم من الولايات المتحدة. يغطى هذا النظام الأمنى ثلاثمائة نقطة حدود جوية وبحرية وبرية تتقصى من أين جاء هؤلاء الزوار وإلى أين هم ذاهبون فى الولايات المتحدة الأمريكية؟ وأى تهديد يمثلون وماذا ينوون عمله بعد الزيارة؟ وقد اهتم الكونجرس وجماعات الحقوق الأمريكية بهذا النظام منذ بدأ مشروعا فى مكاتب وزارة الدفاع فى أعقاب ٩/١١ وأطلقوا عليه «زيارة الولايات المتحدة» "Visit USA" وكان السؤال الحساس وقتها إن كانت هذه الشبكة ستمس خصوصيات الزوار القادمين من الخارج كان الهدف من هذا البرنامج تحقيق قفزة هائلة فى مهمة «حماية الوطن» عن طريق استبدال الحدود الفعلية المادية بحدود خائلية «Virtual» باستخدام شبكة كبيرة من الحواسيب وأدوات الاستشعار وخصوصا البيولوجية . وتقرر أن تنتشر هذه الشبكة بحيث تغطى مواقع القنصليات الأمريكية فى الخارج وأى أماكن أخرى للحصول على التأشيرات، وتغطى بعد ذلك كافة المواقع التى سيذهب إليها أو يعيش فيها الزائر.

الحدود والزائر حيثما يكون

فى السابق كان حارس الحدود هو أول خط دفاع لحماية الولايات المتحدة والأمة الأمريكية من زائر معاد الآن أصبح هذا الحارس هو آخر خط فى حماية الولايات المتحدة من الزائرين المشبوه فيهم. إذ يكون الزائر قد مر بعشرات الحراس «الخائلين» «Virtual» فى القنصليات والبعثات الدبلوماسية والمراكز الاستخباراتية ومكاتب ووكالة التحقيقات الأمريكية فى الخارج، وكذلك الحراس فى داخل الولايات المتحدة . وبذلك، وبفضل هذه الحراسة المتقدمة لن تتجاوز مهمة حارس الحدود فى أمريكا مجرد التأكد من أن هذا الشخص هو نفسه الذى يدعى أن يكون وفور مغادرته هذا الخفر من مخافر حرس الحدود حتى تتم

ملاحقته بوسائل خائلية «Virtual» لتتبعه فلا يخطو خطوة في الولايات المتحدة الأمريكية إلا وهي محسوبة ومحسوسة في مكان آخر قد يبعد عنه آلاف الكيلومترات. أذكر أنهم فعلوا شيئا مازال رهن التحقيق، إذ سمحوا له أن يتجول في نيويورك بشرط أن يضع في معصمه إسورة مصنوعة من معدن مخلوط بمواد مشعة تبعث بإشارات إلى جهة مركزية تتتبع تحركاته. أصبح كل ما يفعله الزائر، بفضل هذه الوسائل وغيرها من الوسائل الأحدث، في متناول اجهزة الأمن الداخلي التي تعمل من خلال شبكة تغذيها عشرون قاعدة معلومات مرتبطة ببعضها وتتتبع ٢٠٠ مليون زائرا سنويا . هذا البرنامج يعني بشكل آخر ان النظام الأمني في الولايات المتحدة استطاع في ظل نظام ديمقراطي أن «يؤمم ويؤمن» الزائر الأجنبي فالحدود الأمريكية توسعت بفضل هذا البرنامج حتى وصلت «خائليا» إلى حيث انطلق هذا الزائر في رحلته إلى الولايات المتحدة. الحدود الأمريكية حسب النظام الجديد، تبدأ في المكان الذي يطلب الزائر فيه تأشيرة دخول الولايات المتحدة، ويظل داخل هذه الحدود طالما كان على سفر، ولا يفترق عن هذه الحدود إلا بعد وصوله عائدا من رحلته إلى بلده بفترة قد تطول أو تقصر. الحدود الزائر، حيثما يكون، لا يفترقان.

هذه الصورة أشبه ما تكون بشبكة أبراج مراقبة الطائرات، إذ تبدأ علاقة الطائرة ببرج المراقبة وهي مازالت على أرض المطار، أي قبل إقلاعها. لا تتحرك إلا بإذن من البرج وبعلمه. يتتبع حركتها على الأرض ثم في الجو، إلى أن يسلمها إلى البرج التالي، فهي إذن لا تختفي عن شاشات هذه الشبكة من الأبراج. كل برج يسلمها لبرج آخر. ولا يجوز أن تخرج الطائرة عن نطاق الشبكة، أما إن حدث وخرجت فالمؤكد أن تعلن الشبكة حالة طوارىء ويبدأ البحث عن الطائرة التي انقطعت اتصالاتها بالشبكة. صار المواطن، والزائر لأمريكا خاصة، مثل الطائرة غير مسموح له بالخروج عن نطاق الشبكة المخصصة لتتبعه. وإذا خرج أو خرجت انطلقت اجهزة الإنذار تحذر من كارثة محتملة.

يتجمع لدى شركات المعلومات الأمريكية كم هائل من المعلومات عن المواطن كنتيجة منطقية لاستخدام بطاقات الائتمان البلاستيك. هذا الكم الهائل يمكن أن تستفيد منه شركات التسويق والإعلان وكافة من لهم مصلحة في معرفة أدق التفاصيل عن كل مستهلك. يبدو هذا المشروع مفيدا في مجتمع تسود فيه السوق وتهيمن على كل شيء وتخضع فيه منظومة الأخلاق إلى منظومة السوق. إلا أن الإحساس بخطورة امتلاك هذا الكم الهائل من معلومات شخصية وخاصة جدا عن افراد المجتمع، يشغل بال قطاعات متعددة في الولايات المتحدة. كان يشغله قبل ٩/١١ ثم تفاقم الأمر حين ظهرت مؤسسات بأغراض ومصالح ليست تجارية مثل الحكومة وأجهزة الأمن

ووكالات الجاسوسية التي تصورت بعد ١١/٩ أن لها الحق في الحصول على أي معلومة عن أي إنسان واستخدامها دون العودة إلى صاحبها. قيل وقتها إنه تطور خطير يخرق حقوق الإنسان الأمريكي الذي يكفلها له الدستور ثم ازدات الخطورة عندما احكمت سيطرتها وهيمنتها على مقاليد الحياة في أمريكا جهات شديدة التطرف اليميني والديني.. ومعروفة شكوكها في جدوى الأساليب الديمقراطية خصوصا في أوقات الخطر وعدم الاستقرار.. بل إن هذه القوى الحاكمة المتطرفة لم تتردد عندما لاحظت حجم المواطن الأمريكي لإجراءات تقييد حرياته والتعدي على خصوصياته فلجأت إلى سياسة ترهيب المجتمع بادعاء، عن حق أو غير حق، أن خطر الإرهاب دائم وداهم وأن المواطن الأمريكي إن أراد السلامة فعليه أن يأتمن هذه القوى الحاكمة اليمينية على خصوصياته ويتنازل لها عن كثير من حرياته.. تأخذها لتفعل بها ما تريد لتحقيق أهداف أخرى خططت لها منذ زمن غير قصير، وبعضها أهداف لا علاقة لها بالأمن أو الإرهاب، مقابل وعد منها بأن تحمي أمريكا من بن لادن ومن القاعدة ومن محور الشر ومن هجوم نووي وكيماوي ومن صدام حسين، ومن أخطار أخرى تستجد دائما.

هي الآن تستعين بهذا الكم الهائل من المعلومات الشخصية الموجودة لدى الشركات. وتعد قانونا سيعرض على الكونجوس ومجلس الشيوخ يجيز لأجهزة الحكومة الارتباط بشبكات معلومات أجهزة الأمن في الحكومة الدخول مباشرة على شبكات معلومات هذه الشركات والحصول منها على ما تريد.. حدث منذ أسابيع قليلة أن طلبت أجهزة الأمن من نقابة معلمي الغوص معلومات عن كل متدرب تلقى تدريبا على الغوص في الولايات المتحدة . وبالفعل قدمت النقابة ملفات بمعلومات عن ٢ مليون متدرب. ومازال الكونجرس يعارض إنشاء جهاز فيدرالي تابع لوزارة الدفاع يتتبع كافة الاتصالات التي يقوم بها المواطن الأمريكي والإطلاع على نوعية ما يبحث عنه في الشبكة الإلكترونية وبريده الإلكتروني وحساباته المصرفية وزياراته للطبيب ورحلاته الداخلية والخارجية وطلبات التأشيرات واستخراج الجوازات. هذه المقاومة من جانب الكونجرس هي التي دفعت الحكومة لإعداد تشريع جديد يسمح لها بالدخول مباشرة على قواعد معلومات الشركات والجامعات والمستشفيات. حيث توجد بالفعل معظم المعلومات الشخصية جدا عن المواطن، فالمواطن لا يتردد في إعطاء الشركات معلومات شخصية عنه ولكنه يتردد في إعطائها للحكومة. هنا يمكن لهذا اليمين المتطرف أن يستغل هذه المعلومات ضد الذين يمارسون الإجهاض أو الشذوذ الجنسي أو انتقاد إسرائيل أو خصوم اليمين الأمريكي أو أعضاء الكنائس المتبرمة من هيمنة المسيحيين والصهيونيين ، وضد السياسيين والنواب

والشيوخ والإعلاميين وضد المهاجرين إلى أمريكا والزوار المقيمين فيها. وضد أي احتمالات مستقبلية لا يمكن التنبؤ بها الآن. ولكن يمكن بسهولة تصور ماذا يمكن أن يستفيد المتحكم في هذا القدر غير المسبوق من المعلومات عن المواطنين لخدمة أغراضه سواء كانت هذه الأغراض تخدم سلامة الإمبراطورية الأمريكية أو تخدم أهداف جماعة متطرفة تستولى بالتدريج على واشنطن لتنفذ مهاما تخريبية فيها وفي أنحاء متفرقة من العالم.

* * *

لماذا اهتمامنا بما يحدث للديمقراطية وحريات المواطن وخصوصياتهم وأسرارهم في أمريكا؟ نهتم لأسباب أربعة على الأقل: أولها أن كثيرا من القرارات والسياسات الأمريكية صارت تمسنا مباشرة، مثلنا مثل عشرات من المجتمعات، وربما أكثر لأننا في رأى جماعة الحكم في أمريكا نمثل خطرا مباشرا، ولأن لمنطقتنا مكانة خاصة عند القائمين على قطاع السياسة الخارجية الأمريكية، وخصوصا لدى جماعات المحافظين الجدد وغيرهم من أنصار اليمين المتشدد.. لذلك نهتم. ونهتم الآن أكثر لأن أمريكا على أبواب انتخابات رئاسية. ستفرز قيادة تحاول ترشيد السلوك الإمبراطوري أي بغطرسة أقل وتفهم أكثر أو قيادة تواصل ثورة الثور الهائج في هذا العالم الزاخر بالخزف.

ثانيا : نهتم لأن النخب السياسة الحاكمة في عالمنا العربي وكذلك الإسلامي متخوفة من النموذج الديمقراطي الأمريكي. وفي الوقت نفسه متطلعة إليه، وتزداد تطلعا كلما أصاب مكروها مؤسسات الديمقراطية وممارساتها في أمريكا. يتجدد الأمل عند هذه النخبة أن حملة الإصلاح ضدها ستخف وطأة مع كل تقييد لحريات المواطن الأمريكي وخصوصياته . أظن أنها لا تعرف أن لا صلة مباشرة بين حملة الإصلاح في الشرق الأوسط وأصول الديمقراطية أو ممارساتها في أمريكا.

ونهتم ثالثا : لأن أكثر المتفائلين بمستقبل تسود فيه درجة أكبر من التحرر السياسي في العالم العربي يخشون عواقب استحكام دائرة الخوف المتبادل بين العرب والمسلمين من ناحية والأمريكيين من ناحية أخرى. فالخوف يدفعنا ويدفعهم إلى مزيد من تقييد الحريات. وفي الناحيتين، هنا وهناك توجد قوى سياسية تعتقد أن الشعوب الخائفة تطمئن إلى الاستبداد وعدم التغيير وترفض تداول السلطة. والشعب الأمريكي خائف هذه الأيام.

ونهتم رابعا، لأن التجربة الأمريكية الراهنة رائدة بكل المعاني، وسيكون لتطوراتها ونتائجها آثار بالغة العمق والاتساع على العالم بأسره. إذ لم يحدث من قبل أن اجتمعت الشمولية والديمقراطية في نظام واحد. وإن اجتمعتا فسيكون أيضا لهما شأن عظيم في التاريخ السياسي العالمي. ■

الفضائيات العربية .. إلى أين ؟!

بقلم
د. نسمة البطريق *

لا يمكن التسليم بأن القنوات الفضائية العربية بقنواتها المتعددة التى تجاوت المائتى قناة بما تقدمه من مضمون ثقافى ومعرفى تدخل فى اطار أدوات المعرفة العربية أو اعتبارها وسيلة من وسائل توحيد الكلمة والفكر وتأكيد الهوية والذاتية العربية ونشر الوعى الاجتماعى والثقافى، أو يمكن اعتبارها واجهة ثقافية فكرية تعلن عن كوامن الفكر والثقافة والعلوم للأمة العربية وتاريخها وحضارتها، أو تعلن عن كوامن القضايا الثقافية الحالية والمثارة خاصة فى تلك الأيام الصعبة التى يواجهها الفكر الإسلامى والعربى من تحديات، فتقدم برامج تعزز الكيان العربى وتصبح واجهة تقف فى وجه الادعاءات الكاذبة والأقاويل التى تروج لها وسائل المعرفة التكنولوجية المتعددة الغربية والأجنبية منذ وقت طويل، أى منذ نشأة هذا النظام الفضائى الدولى فى بداية الستينيات، والذى مهد له التقدم العلمى الصناعى فى مجالات الأقمار الصناعية وفى مجالات التسلح والاتصالات.

فأصبحت القنوات الفضائية الدولية فى ظل النظام العالمى الجديد أحد أهم الآليات الهامة خاصة منذ بدايات القرن الحادى والعشرين لتدعيم رأى عام دولى يساند استراتيجيات الدول الكبرى وسياستها الاستعمارية، فالمعلومات وتكنولوجيا المعرفة الحديثة أدوات هامة فى يد القوى الكبرى لتغيير مسارات فكرية لقوميات وثقافات لها تاريخها المستقر وهويتها الراسخة.

* أستاذة الإعلام - جامعة القاهرة

ومن هذا المنطلق أصبحت القنوات الفضائية للتليفزيون أحد الأنظمة فى يد الدول المتقدمة لإحكام السيطرة الفكرية والمعرفية عن طريق إنتاج المعلومات لتدعيم استراتيجيات ومخططات عسكرية وثقافية وفكرية واقتصادية. فأصبح التقدم العلمى والصناعى واستحداث وسائل متعددة فى مجالات التسلح والمعلومات والاتصال الجماهيرى منذ الستينات من القرن الماضى مظهراً هاماً من مظاهر القوة والتسلط ليس فقط فى مجالات الصراع السياسى والاستراتيجية العسكرية بل وأيضا فى مجالات التحكم الأيديولوجى والثقافى والاقتصادى.

ولعل من أسباب إلحاح دول العالم النامى والعربى على وجه الخصوص منذ منتصف سبعينات القرن العشرين بالمطالبة بإدخال تكنولوجيا المعلومات والاتصال عن طريق مشروع القمر الصناعى العربى كان بهدف الدفاع عن القضايا المصيرية العربية وبصفة رئيسية القضية الفلسطينية، وللتصدى بصفة عامة لسيطرة الدول المنتجة للتكنولوجيا واحتكارها للمعلومات والأخبار.

غياب الاستراتيجية

ولكن ولعدة أسباب سياسية أخفق هذا المشروع العربى الكبير لغياب استراتيجية عربية متكاملة، فأصبحت الخدمات التى تؤديها نظم الأقمار الصناعية التليفزيونية فى ظل سياسات الانفتاح الاقتصادى والتجارى، وتعدد القنوات الخاصة العربية بشكل ملحوظ منذ التسعينات تدعم وتعزز وجهات نظر فردية تجارية هدفها الأول والأخير الربح المادى على حساب الكثير من الأهداف لتنمية الوعى الجماعى للقضايا المتعددة العربية الاجتماعية منها والثقافية والسياسية، فبدلاً من أن تقدم برامج تعمل على تعزيز الكيان العربى وتقف فى وجه الادعاءات الكاذبة التى تروج لها القنوات الفضائية الدولية فى الغرب الصناعى المتقدم لتغيير مسارات فكرية لقوميات وثقافات لها تاريخها المستقر وهويتها الراسخة، تعمل القنوات الناطقة بالعربية من جانبها على تفتيت الإرادة القومية وشرذمة الفكر، دون مبادرة جادة تهدف إلى وضع استراتيجية للمواجهة والتصدى لتلك المخططات الهادفة والمغرضة على المستوى المعرفى من خلال تلك





الفضائيات المتعددة.

والخطورة هنا أن الدول الكبرى المتقدمة تطوع بإتقان شديد ودراسة متعمقة هذه الوسائل التكنولوجية المتقدمة، تستغل الفكر والفن والثقافة الناعمة والآداب والألوان والأشكال لنسج مخططات طويلة المدى لتنفيذ استراتيجيتها التي قد تفوق الاستراتيجيات العسكرية في كثير من الأحيان عن طريق قوالب وبرامج تليفزيونية موجهة للدول النامية والعربية. وفي المقابل تقف الدول النامية والعربية تستقبل تلك البرامج، دون مبادرة جادة بوضع استراتيجية للمواجهة والتصدي لتلك المخططات، خاصة وأن القنوات الفضائية العربية المتعددة لم تعد أحد كماليات الحياة اليومية بل أصبحت ضرورة من الضرورات الاجتماعية التي يسعى إليها الفرد والجماعة في العالم العربي كوسيلة من وسائل الترفيه والتسلية وليس كوسيلة من وسائل التثقيف والتوعية. والذي يزيد من خطورة الموقف أن البيئة الاجتماعية في الدول العربية أصبحت بيئة طاردة للتجويد والإتقان والتفوق والإبداع العلمي والثقافي في مجالات صناعة الفكر والعلوم والثقافة.

وحتى ندرك خطورة هذا الوضع على ثقافة الأمة في عصر العولمة نؤكد على النقاط التالية:

تصور وغياب الخصائص البنيوية والهيكلية اللازمة لبناء شخصية الفرد والجماعة في مجتمعات الدول العربية وبصفة خاصة من حيث القدرات الإدراكية والمعرفية المؤثرة بشكل قطعي على قدرة الفرد على اختيار ما هو نافع ورفض ما هو ضار. فالشعوب العربية ينقصها الكثير من حيث التعليم والصحة والدخل المعقول القادر على مواجهة أعباء الحياة.. ولن نتطرق إلى خصائص المدينة وهياكلها الأساسية من حيث المرافق والمواصلات والخصائص المتصلة بالتخطيط العمراني وتوزيع السكان والالتزام بقرارات وقوانين تحافظ على الشكل العام للمدن والأحياء.. وكلها عوامل تعرقل قدرات الإنسان الخلاقة ومهاراته الدفينة.

سطحية المادة التليفزيونية

ولعل هناك نقاط أكثر خطورة، وترتبط بما خلفه العدوان العسكري على العراق، والممارسات المهدرة لحقوق الإنسان والمدمرة لكرامة وسلامة الشعب الفلسطيني، وكلها عوامل تفرض أوضاعاً غير مواتية للتنمية والتطوير، بل تضاعف من مزيد من الإحباط والاستسلام لتلك الثقافات الناعمة الخالية من كل ما هو هادف إلى التنمية الفكرية والتطوير. ولقد أثبتت الدراسات الاجتماعية المتعددة أن هناك علاقة بين هذه العوامل مجتمعة وعملية التعرض من قبل الأفراد للمواد التليفزيونية الترفيهية الأكثر سطحية واستخفاف بعقلية المشاهد. فالأفراد والجماعات تنجذب إلى تلك المواد السهلة المسطحة والأكثر ضحالة

بهدف تعويض النفس والتنفيس فى أوقات الكوارث والضغوط الاقتصادية والاجتماعية وعلى العكس تكون أكثر انجذاباً للمضمون التليفزيونى الراقى فى فترات الرخاء والازدهار الاجتماعى والثقافى والفكرى.

هذه النقاط مجتمعة لها عواقب وخيمة على الديمقراطية الثقافية إذ أن المعلومات والبرامج التجارية ودخولها ساحة الفكر والثقافة ستساعد على مزيد من ابتعاد الفرد والجماعة عن الواقع وتفقده السيطرة وعدم القدرة على مواجهته، مما يؤدى إلى انعدام المشاركة الايجابية للفرد إزاء مشكلات مجتمعه، وبالتالى تساهم تلك الثقافة الاستهلاكية وبطريقة غير مباشرة مساهمة فعالة فى تدهور المجتمع عن طريق تحطيم الإرادة الفردية وتلاشى أهم أركان الديموقراطية الاجتماعية والثقافية والفكرية وهى المساهمة والمشاركة الايجابية والفعالة تجاه قضايا المجتمع والإنسان .

تعرقل وظائف وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرى القومية ولعل هناك عوامل عديدة إضافية وأدوارها فى تعزيز التنمية الفكرية والاجتماعية. فبالإضافة إلى ما ذكرناه فى النقاط السابقة حول خطورة عدم القدرة على السيطرة والتحكم فى وضع سياسة واستراتيجية ثقافية وإعلامية قادرة على إتاحة وجود رأى عام قومى متجانس حول القضايا المحورية والأكثر إلحاحاً فى مجالات الاتصال الجماهيرى الثقافية منها بصفة خاصة، هناك عناصر أخرى قد تهدد كيان شعوب ومجتمعات العالم العربى، ولعل أهمها التعدد الملحوظ والمتنامى لأعداد القنوات الفضائية التى تعمل على مزيد من التغريب الفكرى والثقافى فى كثير من الأحيان وتؤيد اتجاهات وآراء متضاربة حول الأحداث والقضايا فدعائم الديمقراطية الفكرية والثقافية والاقتصادية غير مواتية وغير متاحة فى مجتمعات الدول العربية إلا بالكاد فى أضيق الحدود، ونقصد هنا فى إطار الفئات العليا والمتميزة فى السلم الاجتماعى .

فالديمقراطية الثقافية والفكرية كأهم دعائم وأركان التعبير والحرية الفكرية، والمؤكدة لعنصر المشاركة غير متاح، وكما أكدت مدارس الفكر الاجتماعى والسياسى الحديثة على أن تواجد هذا العنصر ليس فقط من أهم أدوات الديموقراطية ، بل هو شرط أساسى من شروط تطور عملية الإعلام والثقافة، فلن يرتقى ويتطور الإعلام والثقافة العربية فى غياب هذا العنصر المحورى فالمشاركة شرط أساسى لتطور الإعلام والثقافة العربية .

فوسائل الاتصال والمعرفة التكنولوجية الحديثة لا يمكن أن تؤدى وظائفها بطريقة فعالة إلا بتوافر عنصر المشاركة والتفاعل حول القضايا المحورية التى يعانى منها المجتمع بجميع فئاته، حتى يحقق التأثير الاجتماعى وتأكيد القيم والمفاهيم المختلفة، وتثبيت الهوية القومية، وتفسير القضايا الاجتماعية الحقيقية



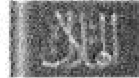
وشرحها للرأى العام القومى واقتراح أنسب الحلول لمواجهتها. وكلها محددات لفاعلية عملية الإعلام، خاصة فيما يتعلق بتلك القضايا المتصلة بالهوية القومية العربية والتنمية الفكرية والاجتماعية والثقافة الحديثة .

هذه الوظائف والأهداف إذا شابها بعض الشوائب المعرقلة أصبح الإعلام والثقافة ووسائلها المتعددة عديمة النفع وتنافت مع أهم مبادئ الديموقراطية الإعلامية والفكرية فى المجتمع، وأصبحت تبعاً لذلك مجرد شعار من الشعارات، وأصبح الفرد فى المجتمع منعزلا عن قضايا عصره وفريسة لمعلومات الدعاية المغلوطة التى قد تروجها بعض القوى المعادية للديموقراطية الفكرية والحرية السياسية داخل الحدود القطرية والإقليمية وخارجها وذلك بالتسلل إلى عقول الجماهير من خلال وسائل الإعلام والثقافة القطرية والإقليمية منها والدولية العالمية خاصة فى العصر الحديث، عصر التفوق والتطور فى تكنولوجيا الإعلام والثقافة والمعلومات .

انعكاس الاخفاق

لقد أخفق نظامنا الإعلامى العربى فى تأكيد الديموقراطية الثقافية والفكرية على المستوى القومى فانعكس كل ذلك على القدرة فى تحليل الواقع القومى بوضوح وشفافية. فلقد عمل على مضاعفة الكم فى اقتناء أعداد القنوات الفضائية المتراكمة دون وضع أى استراتيجية متكاملة لتنمية الشعوب العربية الاجتماعية والثقافية على الأقل. فأخفق فى نشر وتأكيد هويتنا الثقافية والفكرية لإخفاق سياستنا التعليمية والعلمية فى دفع عجلة البحث عن مسار فكرى قومى واضح تلتف حوله جميع الاتجاهات السياسية والثقافية. ولعدم نجاح قنواتنا الفضائية العربية وأيضا القومية فى تأكيد الذات الثقافية والفكرية بين أفراد الأمة العربية بالرغم من وجود العديد من العناصر الفعالة التى كان فى الإمكان الاستعانة بها.

فالقنوات الفضائية العربية التى جاوزت المائتى قناة والتى يتنافس ذوو الثروات الكبيرة على اقتنائها بهدف الربح السريع، عن طريق جذب الشباب بالدرجة الأولى من خلال الأغنية العربية التى لا يمكن أن نطلق عليها أغنية عربية تحمل فكر وواقع المجتمع العربي، ولكنها تجمع شتات وبقايا مجتمعات دخيلة بسلوكيات وممارسات وإيحاءات تزيد من القضايا العربية الأصيلة وتقضى تماما على أهم أركان الديموقراطية الثقافية والفكرية هذا من جانب والجانب الآخر الأكثر خطورة على المجتمع العربى هو أننا نصمم على



الاستمرار في التنازل عن تراث الأمة وثقافتها الأصيلة. والأغرب من ذلك أن اللقاءات المتعددة للخبراء والعاملين العرب في مجالات الإعلام والاتصال الجماهيري عندما يجتمعون في مناسبات عديدة تشجع القطاع الخاص على مزيد من التدخل والهيمنة على الإعلام والثقافة بحجة أن سمة العصر هي الانفتاح الاقتصادي، غير مدركين أن العصر هو عصر الهيمنة والسيطرة والتفوق بل وفرض الثقافات المتعددة ومن بينها الثقافات المغرضة والدخيلة التي لا تخلو من نوايا لها أهداف أصبحت واضحة للجميع. فالانفتاح الاقتصادي وتطبيق النظام الاقتصادي الحر في مجالات الإعلام والثقافة والمعرفة يمكن تحقيقه في دول عظمى وكبرى، أي يكون ذلك صحيحا في دول صناعية كبرى تتحكم في اقتصادياتها وسياساتها المكتملة البناء الاجتماعي والثقافي، ومن هذا المنطلق فمن حقنا أن ندافع عن ثقافة الأمة وأمنها الاجتماعي والفكري، خاصة في عصر ضعف فيه إنتاجنا الثقافي والفكري والعلمي للعديد من الاعتبارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، عصر أصبحت ثقافة الإعلان فيه هي المسيطرة والمهيمنة على مستقبل وعقول الشباب والأفراد .

من نلوم؟

ومن الغريب في الموقف الإعلامي الراهن أننا نلقي اللوم على الخطاب الإعلامي الغربي الذي يتآمر على هويتنا الثقافية دون أن نلوم في المقام الأول أنفسنا فنحن نتآمر على ثقافتنا وهويتنا وتراثنا المعرفي، بالعمل على تشجيع تمييع الإرادة العربية الواحدة وتفتيتها في شكل برامج تبث في قنوات متشابهة ومتضاربة تفرق الكلمة والصف الواحد، غير مدركين لخطورة عدم السيطرة على النظم التكنولوجية للمعلومات وعدم العمل على إيجاد آليات لتنظيم وترشيد نظم المعرفة التكنولوجية . فالتقدم التكنولوجي والصناعي خاصة في عصر أصبحت فيه تكنولوجيا الثقافة والمعرفة وتطويرها وتجديدها هي القادرة على تأكيد السيادة بالعمل الدءوب المتقن والمنظم لفرضها على دول خاملة ساكنة خاضعة لم تعد قادرة على إنتاج معلومات نافعة لشعوبها لتهالك هياكلها التعليمية والثقافية والمعرفية والبحثية والصحية والاقتصادية. وتفتيت الجمهور العربي حول آراء متضاربة وأفكار مسطحة خاصة البرامج الترفيهية والثقافية بعيدة عن الواقع فتبث ثقافات دخيلة بفعل ما تقدمه بعض قنوات الأفلام بل وحتى القنوات العامة من أفلام أجنبية دون اختيار لمضموتها ودون تخطيط زمني محكم يتواءم مع فئات الجمهور المستهدف، كل هذا يزيد من أزمة المشاركة الفعالة بل ويخلق نوعاً من التمرد على الواقع الذي تعيشه الأمة العربية من مآس وإحباطات لايمكن غض الطرف عنها فتتضاعف قضايا العولمة – كلما طغى المضمون التليفزيوني



المسطح – ذات الصبغة الاستهلاكية الإعلانية هدفها الأول والأخير مزيد من الربح المادى على حساب ثقافة العقل والمنطق وفكر يأخذ بيد الشعوب الضعيفة ويضاعف من وعيها البناء بالقضايا والمشكلات حتى تشارك فى عملية البناء والنهضة .

أصبحت الهوة التى تفصل بين الدول المتقدمة فى مجالات العلوم وصناعة التكنولوجيا والأقمار الصناعية لأهداف التسلح وتطوير عملية الاتصالات وجمع المعلومات وبين الدول الوسيطة والنامية والتى مازالت تسعى لإيجاد بعض المخارج والحلول للإصلاح فى مجالات البحث العلمى والتعليم والاقتصاد والقضايا الاجتماعية .. من اتساع وعمق هذه الفجوة فى مجالات العلوم والتكنولوجيا والصناعية امتدت إلى فجوة فى العلوم والمعرفة والمعلومات وأصبحت الدول النامية والعربية تعيش الآن فى عمق عصر جديد تتحكم فيه آليات كثيرة ومتداخلة، مزيج من الاقتصاد والسياسة والإعلام والثقافة لإحكام السيطرة والتحكم .

الاطار الفكرى

إن عدم التوازن فى عناصر تلك المنظومة سيؤدى إلى خلل فى التوازن القائم للنظام المعرفى داخل المجتمع المحدد، وتنقلب المعرفة التكنولوجية الحديثة القائمة على معلومات فى أغلبها لاتعبر عن فكر وثقافة الأمة إلى معلومات تهدد الإطار الفكرى والثقافى للمجتمع، خاصة إذا أضفنا عوامل أخرى على هذا النموذج، وتتمحور حول الدور الموجه الذى تقوم به القوى الاقتصادية والتجارية فى مجالات الفيلم السينمائى وتسويقة وفرضه من خلال سياسة محكمة فى الأسواق الداخلية فى العالم النامى والعربى على وجه التحديد، وفى مجالات إنتاج البرامج الدرامية والإخبارية والتسجيلية الخاصة الموجهة صوب الدول الإسلامية والعربية والنامية بصفة عامة والتى تأتى فى أغلبها من إنتاج وكالات الأنباء العالمية الأمريكية والشركات العملاقة لصناعة الفيلم الأمريكى وتسويقة فى الأسواق العالمية، هذا بخلاف الغزو الثقافى عن طريق فيلم الفيديو الذى يتلاءم مع وسائل التكنولوجيا الحديثة خاصة عبر الإنترنت وطرق المواصلات الإلكترونية الحديثة والمتعددة .. وكلها صيغ وأنواع للتسلط الفكرى والثقافى فى العصر الحديث، عصر التطور العلمى والصناعى والتكنولوجى، وعصر الهيمنة السياسية والاقتصادية والغزو المسلح . وعدم وضوح الرؤية فى تفسير مفهوم الأمن الثقافى والاجتماعى لعدم القدرة على تحديد عناصره الهامة والرئيسية لمواجهة التحديات المفروضة من النظام العالمى الجديد، والتحديات الدولية المستجدة .

خاصة على مستوى المنطقة العربية، ونحن نؤكد - كما أشرنا من قبل - أن أهم عناصر الأمن الثقافى والاجتماعى والإعلامى تنطلق من أهمية تكامل نظام للإعلام والثقافة المكتوبة منها والمرئية المسموعة قوامه التحديث فى مجالات الفكر والثقافة والإنتاج الغزير القائم على الديموقراطية الفكرية، فالأمن من خلال الثقافى والفكرى والأجتماعى هو منظومة يمكن تحقيقها فى العصر الحديث، عصر المعلومات الغزيرة ،إنتاج متوازن في المعلومات الموضوعية المتدفقة، القائمة على البحث والتحليل العلمى المكتوبة منها والمرئية المسموعة .

وهذا يؤكد على أهمية المعرفة والثقافة والفكر القائم على العمل الجاد والانفتاح الفكرى للتعبير عن فكر الأمة وقضاياها الحقيقية فى ظل المتغيرات الحديثة كأساس تنطلق منها المعلومات والمعرفة تطويعها فى مجالات وسائل الإعلام والثقافة بأشكالها الحديثة التامر على مقومات الشخصية العربية من الداخل، ولعل أخطر ما فى هذا المحور، هو التمادى والانقياد فى الاقتباس لمضمون غربى كالأغنية المصورة، وما تؤكده من سلوكيات هى فى الأساس إفراز طبيعى لتطورات فكرية غربية لاتشكل تحديات حقيقية بالنسبة للمجتمع العربى وشعوب الدول العربية فحسب، بل هى فى الواقع أهم وأخطر تحد يواجه ثقافة الدول العربية عامة فلم تعد تقليعة من التقليعات العابرة بل أصبحت أساسا يبنى عليها منظومة ثقافية وسلوكية وبصفة خاصة إعلانية للدعاية عن سلع استهلاكية كالملابس والسيارات وأسلوب الحياة الغربية متكامل، فيكفى أن نتابع فقرات الإعلان فى العديد من الفضائيات العربية، وفقرات العديد من البرامج، حتى وفى الإذاعات العربية التجارية، ليس فى الأغنية فقط بل فى بعض البرامج، لنؤكد على أن هذا النوع من التقليد السطحى والأسلوب الركيك وما يتخلله من استخفاف بحروف اللغة العربية الصحيحة والأسلوب الأمثل للنطق بالكلمات والاستهانة بأصول الحوار المتقن القائم على الجهد والاتقان والإعداد الجيد خاصة في البرامج الثقافية والتسجيلية، ويؤكد كل ذلك على أن هناك نظرة غير مدققة لمتطلبات المرحلة والتعبير الصحيح الرصين الذى يتعامل معها.

فإذا لم نسارع فى تغيير وتطوير سياستنا الإعلامية خاصة فى مجالات القنوات الفضائية العربية سيكون لذلك عواقب وخيمة على مستقبل ثقافة الأمة، قد تعصف بالشخصية العربية، وعناصرها الثقافية المستنيرة والأصيلة فنحن فى أمس الحاجة إلى العمل الجاد لتحليل وتفسير جوانب الشخصية العربية وتقديمها فى شكل يتلاءم مع متطلبات العصر الحديث، وإعادة إنتاجها من خلال تلك الوسائل التكنولوجية حتى يكون لنا اسهاماتنا الثقافية والفكرية الخلاقة ■

الانقسام الرقمى والديمقراطية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

انتهت فعاليات الاجتماع التحضيرى فى تونس للمرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات التى ستحتضنها تونس فى نوفمبر ٢٠٠٥.

صدر عن الاجتماع التحضيرى إعلان صحفى أكد توصل الاجتماع إلى اتفاق عام على المسائل التى ينبغى أن تشكل محور اهتمام قمة تونس نوفمبر ٢٠٠٥ وموافقتها على هيكلة العملية التحضيرية للمرحلة الثانية. وجدير بالإشارة أن هذا الاجتماع التحضيرى قد شهد مشاركة ٤٢٥ مندوبا يمثلون ١٢٧ حكومة والاتحاد الأوروبى و٢٧٢ مراقبا من ١١٣ منظمة تمثل المجتمع المدنى «القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية» اضافة إلى ٧١ مراقبا من ٣٣ منظمة دولية. وجاء فى الإعلان الصحفى تحت عنوان «الطريق إلى تونس»، أن «شعورا قويا ساد المناقشات بأن وقت العمل قد حان وأن قمة تونس لابد أن تتوجه نحو العمل، فقد تم التوصل إلى «المبادئ فى جينيف ٢٠٠٣ وحظيت بالموافقة واعتمدت خطة عمل تحدد الأهداف العليا من أجل إنشاء مجتمع للمعلومات يتسم بالشمول والعدالة». وكانت قضية الفجوة الرقمية من أهم القضايا التى ناقشها المؤتمر فى جينيف، ووضع لها الأهداف التى يسعى مؤتمر تونس فى ٢٠٠٥ إلى الاتفاق على صورتها التنفيذية، ونحاول هنا فى عجالة هذا العدد أن نلقى نظرة أكثر عمقا على الفجوة الرقمية التى تسود العالم.



• عدم المساواة فى توافر المعلومات!

• أين الريف من ثورة المعلومات؟!

• رؤية أخرى لظاهرة الانقسام الرقمى

• عدم المساواة فى الحصول على المعلومات

فى بداية القرن الماضى، فى ١٢ ديسمبر عام ١٩٠١، كشف جوجليلمو ماركونى **Guglielmo Marconi**، عن إمكانية الاتصال من خلال تقنية الراديو، وأرسل ثلاث نقاط، مرمزة بكود مورس للحرف «إس»، من مدينة كورنوال بانجلترا إلى نيوفندلند وهى ما تعرف الآن بكندا. وإرسال ماركونى عام ١٩٠١ يستحق الملاحظة هنا لسببين: أولا: المبتكرات الإبداعية التى رافقت هذا الإرسال الإذاعى المبكر كانت هى نفسها التى مكنت الإذاعة الحديثة، فالتقنية تقدمت وانطلقت فى خطوات سريعة معتادة فى تلك الفترة من القرن العشرين، وبعد خمس سنوات فقط، عبر البث الإذاعى التاريخى لماركونى المحيط الأطلسى.

وفوجئ مشغلو الراديو على السفن فى المحيط الأطلسى بسماع بث للصوت الإنسانى من أجهزة ماركونى المبنية بدلا من النقاط ووثبات رموز مورس، بعدها بثلاث سنوات، انتظمت أول محطة إذاعة كانت ترسل برامج الأخبار والموسيقى المسجلة فى ليل كل أربعاء إلى حفنة من سكان سيليكون فالى فى سان خوزيه، بكاليفورنيا، والذين اشتروا أجهزة للاستقبال الإذاعى من قبل للاستماع إلى محطات كانت هناك، وثانيا: الاتصال اللاسلكى الذى أتاحته تجربة ماركونى كان أكثر من مجرد تقدم تقنى فقط! فهو أيضا علامة فارقة مهمة للعولمة السريعة التى كانت إحدى أكثر الظواهر المهمة فى القرن الأخير، وكانت لها نتائج اجتماعية واقتصادية واسعة النطاق. وبمعايير اليوم، تعتبر تجربة ماركونى فى ارسال حرف «إس» برموز مورس من أحد جوانب المحيط الأطلسى إلى الجانب الآخر إنجازا بسيطا للغاية! لكن إرسال ماركونى الفورى الأول كان أول اتصال عالمى، وكان يعنى لدول المركز بداية مجتمع معلومات، فى حين أعطى إشارة لدول الأطراف ببوادر الانقسام الرقمى:

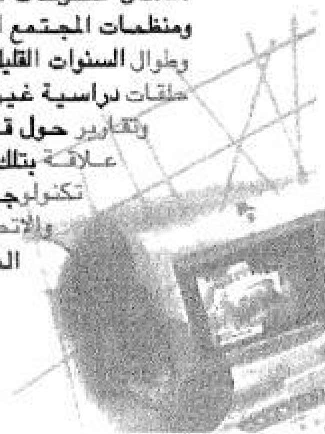
حول مفهوم الانقسام الرقمى

بالرغم من أن ظاهرة تفاوت المعلومات أو عدم المساواة فى المعلومات Information Inequality تناقش فى أغلب الأحيان تحت مصطلح فاقة المعلومات Information Poverty أو الانقسام الرقمى أو التقسيم الرقمى Digital Divide، أو أثرياء وفقراء المعلومات haves and have - nots أو الفجوة الرقمية digital gap، أجادل بأن هذه الشروط تستعمل أيضا فى أغلب الأحيان بشكل غير ناقد. وعندما يناقش الانقسام

المتزايد بين أثرياء وفقراء المعلومات، نجد بضعة مؤلفين نسبيا حاولوا الكفاح لتعريف المعنى الحقيقي لهذا المفهوم بغض النظر عن المصطلح. وربط أغلب المؤلفين مفهوم عدم مساواة المعلومات، بالحالة السيئة للمعلوماتية وملازمتها مجازيا إلى الفاقة الاقتصادية.

وبداية نوضح أن الهوة أو الفجوة الرقمية أو الانقسام الرقمي على صلة وطيدة بالفجوات والانقسامات التقليدية المعروفة منذ عقود، في الحضارة، والتنمية والاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا، والعلم، والاعلام... إلخ، وهي على علاقة وطيدة بالعولمة وأشكالها: التكنولوجية، والمعلوماتية والاتصالية، وبمفهوم القرية العولية ومستويات الشبكات: الدولية والإقليمية والمحلية والوطنية والقومية. وهذا كله امتداد لأطروحات السبعينيات والثمانينيات حول النظام الدولي (العالمي) الجديد، وفي المناقشات الأخيرة في مؤتمر جنيف حول الانقسام الرقمي، ارتفع العديد من الأصوات لتذكيرنا بأن انقسام التنمية هو أكثر رعبا في العالم، ويهدد فرص تحسين حياة ملايين البشر على هذه الأرض.

وبعد مرور قرن كامل على إرسال ماركوني ، احتلت ظاهرة ما يسمى الانقسام الرقمي مكانا مهما على جدول أعمال الحكومات ، والوكالات الدولية ، ومنظمات المجتمع المدني حول العالم . وطوال السنوات القليلة الماضية كان هناك حلقات دراسية غير معدودة ودراسات وتقارير حول قضايا مختلفة ذات علاقة بتلك الظاهرة، ووضعت تكنولوجيات المعلومات والاتصالات على أجندة العديد من وكالات الأمم المتحدة والعديد من الوكالات الإقليمية، وكانت الذروة في القمة العالمية للمعلومات التي عقدت مرحلتها الأولى في جنيف في ديسمبر ٢٠٠٣، والمرحلة الثانية في تونس ٢٠٠٥ مستضافة من قبل الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية نيابة عن الأمم المتحدة . وتركيز الجهود الدولية على ظاهرة الانقسام الرقمي لا يدعو للاستغراب، فإذا بحثت في محرك البحث جوجل google على الإنترنت عن ظاهرة الانقسام الرقمي Digital Divide هذه الأيام يعطيك أكثر من ٧٩٣,٠٠٠ إشارة لمواقع تتناول بالنقاش والبحث تلك الظاهرة .



وبغية تعريف الفجوة الرقمية على نحو أكمل، تشدد الدراسات على الإنترنت بأنه لا ينبغي أن يقتصر التعريف على عامل البلدان وعامل الثراء والفقر، وأن تؤخذ في الاعتبار عوامل أخرى منها الفروق القائمة بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية، واختلاف الأعمار، واختلاف مستويات التعليم، ومن ناحية العمر نجد أن التقدم العلمي والتكنولوجي الذي شهده القرن العشرون ، لا سيما في علوم الأحياء والكيمياء والطب، كانت من نتائجه زيادة متوسط عمر الإنسان في جميع أنحاء العالم. إذ يسكن العالم اليوم أناس تختلف أعمارهم اختلافا كبيرا، وتشكل فئة المسنين ، (فوق سن الستين) في هرم الأعمار حيزا كبيرا ، بل ويزيد باستمرار ، وكان هؤلاء السكان من الطبقات العاملة بالأمس، وكانوا يستخدمون في حياتهم الاجتماعية والانتاجية تكنولوجيات توصلوا إلى تصميمها وإجادة استعمالها واعتبروها عصرية في ذلك الوقت. ثم مضى الوقت، وتقدم العمر بهؤلاء السكان، فهرموا كما هرمت التكنولوجيا التي

يستعملونها والتي انتهى بها المطاف بأن جرفها تيار التنمية . وبدأت الأجيال الأكبر سنا تشعر بالحنين إلى الماضي وبالغربة وسط التكنولوجيات الجديدة. وبدأ في الظهور انقسام رقمي بين جيلين: جيل أصغر سنا من المولعين بالتكنولوجيا الجديدة والخدمات المصاحبة لها، يستوعبونها جيدا ويستعملونها بحماس، وجيل أكبر سنا من الذين يشعرون بالحنين إلى الماضي ويشاهدون بفتور العالم الرقمي يدور من حولهم . وهذه الفجوة الرقمية بين الأجيال هي واقع ملموس في البلدان المتقدمة والبلدان النامية على حد سواء. وأدى عاملان أساسيان إلى ظهور الفجوة الرقمية داخل الأسرة: المستوى الدراسي والأمية

ويلاحظ في أسر كثيرة وجود فرق كبير في المستوى الدراسي بين الآباء والأبناء. ففي حالات كثيرة لم يحصل الآباء إلا على قدر محدود من الدراسة يسمح لهم بمزاولة حرف بسيطة لا تستلزم معارف تقنية رفيعة المستوى ، ويسعون لتوفير الإمكانيات التي تتيح للأبناء الحصول على مستويات أعلى من الدراسة لم تتوافر للآباء من قبلهم . ويستعمل الأبناء في دراستهم الأكاديمية تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة باعتبارها من أدوات البحث والعمل . وطالما يجمعهم بيت واحد مع آبائهم، تفصل بين الآباء والأبناء الفجوة الرقمية سابقة الذكر . أما الأمية فهي من العوامل التي تزيد من حدة الفجوة الرقمية في الأسرة وتعاني منها البلدان الصناعية والبلدان الفقيرة على حد سواء فالأغلبية العظمى من الآباء في أقل البلدان نموا من الأميين الذين ليس بمقدورهم استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على عكس أبنائهم الذين يطلبون منهم ما يلزمهم من مصروف لإجراء اتصالات هاتفية أو لإرسال واستقبال رسائل بالبريد الإلكتروني في مقاهي الإنترنت وإجراء مراسلات دولية. وهكذا، فإن الثغرة الرقمية تزداد عمقا.

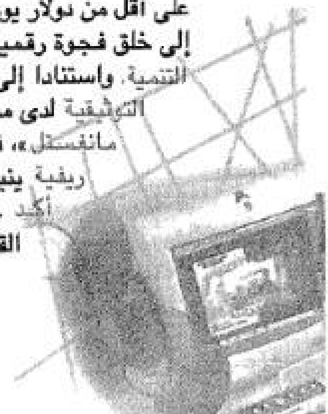
ومن ناحية الريف والحضر، يوجد دائما توزيع غير متكافئ في البنى التحتية للاتصالات بين المدينة والريف. فيلاحظ أن وفرة وسائل الاتصالات في المناطق الحضرية (مثل توافر الخطوط الهاتفية الثابتة والمتنقلة، ومقاهي الإنترنت، وأجهزة الحاسوب، وكبائن الهاتف العمومي، وآلات التصوير، إلخ) بالمقارنة مع الحرمان شبه الكامل الذي تعانيه المناطق الريفية، لذلك يمكن إعادة تعريف تعبير «الفجوة الرقمية» أو ظاهرة الانقسام الرقمي بحيث تؤخذ في الاعتبار عوامل الفروق بين المدينة والريف واختلاف الأجيال والمستوى التعليمي، بحيث يفهم من تعبير الفجوة الرقمية عدم التساوي في إمكانيات الحصول على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة بين البلدان المتقدمة الثرية والبلدان الفقيرة، وبين الجيل الأصغر سنا والجيل الأكبر سنا ، وبين الحضر والريف ، وهو موضوع عجالة هذا الشهر .

الفجوة الرقمية الريفية

منذ عام ١٩٩٥، يوجد حتى الآن حوالي ٦٠٦ ملايين شخص على الانترنت في العالم – يمثلون حوالي ١٠ بالمائة من سكان العالم ، منهم ٦٢ بالمائة في أمريكا الشمالية أو أوروبا الغربية، و٣١٪ في دول إقليم آسيا والباسفيك، ٧٠٪ منهم متركز غالبا في بضعة بلدان حوالي ٣ دول اليابان ، الصين ، كوريا الجنوبية (٥٦، ٥٠، ٢٦ مليون مستخدم على الترتيب). وبالكاد خمسة بالمائة في أمريكا اللاتينية. وواحد في المائة فقط في أفريقيا جنوب

الصحراء الكبرى، مع أنهم تقريبا نفس تعداد سكان أمريكا الشمالية وأوروبا، وستون بالمائة من البالغين الأمريكيين له اتصال بالإنترنت، بينما في أفريقيا، حوالي واحد بالمائة من السكان على الإنترنت - نصفهم في جنوب أفريقيا وعمليا لا شئ في المناطق الريفية البعيدة. ودعنا لا ننسى بأن ثلث سكان العالم لا تصله الكهرباء، وبلايين من سكان العالم لم يجروا أبدا مكالمة هاتفية واحدة، وهناك تقريبا ٩٨ بالمائة من الأميين البالغين على مستوى العالم في الدول غير الصناعية. وأن عدد الأميين البالغين في العالم تقريبا ضعف أعداد المتصلين بالإنترنت حول العالم، وهم ٦٠٦ ملايين مستخدم وهو ما يساوى تقريبا عدد الأفارقة الذين لا يجدون مياه شرب نظيفة ويعيشون على أقل من دولار واحد للفرد في اليوم، ويساوى أيضا ٣ أضعاف المائتي مليون جائع في أفريقيا، التي لا تصل الكهرباء لـ٨٠٪ من سكانها الذين مازالوا يعيشون في الظلام بصورة بدائية.

وفي يوم افتتاح أول قمة عالمية للمعلومات ١٠ ديسمبر عام ٢٠٠٣ حذرت منظمة الأغذية والزراعة «فاو» من أن ثورة المعلومات قد أهملت تماما نحو مليار شخص لم يستفيدوا من التحول في نظم المعلومات العالمية وهم على الأكثر من سكان الريف الفقراء، الذين يعيش أغلبهم على أقل من دولار يوميا. الأمر الذي أدى إلى خلق فجوة رقمية ريفية تعوق عملية التنمية. واستنادا إلى مدير المكتبة والنظم التوثيقية لدى منظمة «الفاو» «أنطون مانفستل»، فهناك فجوة رقمية ريفية ينبغي معالجتها. وقد أكد على ضرورة تركيز القمة العالمية المعنية بمجتمع المعلومات على فقراء العالم من سكان الريف، لا سيما وأن ما يزيد على ثلاثة أرباع السكان الأشد فقرا على ظهر الكوكب ممن تخلفوا عن اللحاق بركب التحولات المعلوماتية، هم معنيون بشكل مباشر أو غير مباشر بقطاع الزراعة.



ويذكر أن هناك أكثر من ٨٥٠ مليون شخص يعيشون في دول نامية بعيدا عن كم كبير من المعلومات والمعرفة ولا سيما فقراء الريف الذين يعيشون في عزلة عن كل وسائل الإعلام التقليدية وتكنولوجيا المعلومات والاتصال الحديثة التي بإمكانها تحسين سبل رزقهم ومعيشتهم. وإذا كانت المعلومات والمعرفة أساسيتان بالنسبة للديمقراطية، فهما شرطان للتنمية الريفية. إن سد فجوة المعلومات الريفية هو أمر لا يتعلق بالتقنيات فحسب، بل هو قرار سياسي بتسهيل الوصول إلى المعلومات. ويقول «فرانثيسكو تريخو» مدير المركز العالمي للمعلومات الزراعية لدى المنظمة: «إن هناك فجوة رقمية ريفية لا يتعلق سدها بتوفير المزيد من الحواسب، وأجهزة الراديو، والهواتف الجوالة فحسب». ويضيف قوله: «إن تيسير الوصول إلى المعلومات هو مسألة سياسية، وهذا يعني أنها تتطلب توافر الإرادة السياسية، والتعليم، والأموال».

الإنترنت للتنمية الريفية

وتركيز النقاش حول الانقسام الرقمي الريفي كشف عن مناطق جديدة من عدم المساواة العالمي ووضعت تصورات عن الفرص الجديدة للتنمية الريفية. على أية حال، الحماس في مناقشة تلك الظاهرة الجديدة لا يجب أن ينسينا الدروس التي تعلمناها في العقود السابقة حول الانقسامات الاجتماعية والاقتصادية الأخرى بين البلدان النامية والبلدان

الفنية. وإذا كان الفقر المنتشر بين الناس في دول الأطراف هو السبب الرئيسي لعدم وصول الناس إلى الإنترنت ، فهو أيضا نفس السبب لنقص المياه الصالحة للشرب، ونقص التعليم والرعاية الصحية والكهرباء والنقل. وإذا كان الاستثمار في الإنترنت يمكن أن يساعدهم على تحسين حياتهم ، فإن الاستثمار في مياه الشرب والتعليم والرعاية الصحية يحسن حياتهم أيضا. والتشابه الثاني بين الإنترنت وقضايا التنمية الريفية مثل التعليم والرعاية الصحية هو أهمية وضرورة المشاركة المحلية خاصة إذا كانت المشاريع ستعالج مشاكل محلية أو تكون ملائمة للقدرات المحلية ، فتاريخ التنمية الريفية يبين فشل كمية هائلة من مشروعات التنمية الريفية لعدم المشاركة والاستشارة المحلية بشكل كاف . ومشروعات الاتصالات ليست محصنة ضد الفشل لنفس السبب، وقد سمعنا عن قصص المجتمعات غير القادرة على الدخول في أسلاك الاتصالات التي تمر فوق رؤوسهم بسبب نقص الإشراف التنظيمي أو التقني البسيط ، أو قلة مهارات الصيانة .

وفي العقد الماضي، بذل المجتمع الدولي جهدا كبيرا وأنفق الكثير في تطوير الاتصالات . وظهرت مبادرات رئيسية أخذت تشجع خصخصة احتكارات الهواتف الحكومية، ودعت للاستثمار الأجنبي المباشر في ذلك القطاع وتفعيل المنافسة. والنتائج كانت مؤثرة في بعض المناطق، خصوصا في الخدمة الهاتفية النقالة المدفوعة الأجر مسبقا، والتي انتشرت بسرعة وأصبحت متوافرة – أولا في المراكز الحضرية . ولم تنجح فعليا الجهود في نشر الإنترنت وتقديمها في الدول الأقل نموا، خصوصا في المناطق الريفية البعيدة. وبينما تتفاوت الأعداد طبقا للطريقة التي تحسب بها ، وبنظرة سريعة في الإحصاءات نجد تقدما ضئيلا أحرز في انتشار الإنترنت ، وتبين الاتجاهات زيادة عدم المساواة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات وبسرعة متزايدة. وإذا كان الطريق الوحيد لتسخير وتوظيف طاقات الإنترنت هو عبور الانقسام الرقمي بتزويد السكان الريفيين من بلدان الدول غير الصناعية بالخدمات التي تتمتع بها الدول المتقدمة، يجب ألا نتوقع النجاح في ذلك خلال الفترة العمرية من حياتنا. لأن هناك الكثير من الأكاذيب المعسولة التي تكمن تحت جبل الثلج فهناك الكثير من العوامل المركّبة التي تعرقل انتشار الإنترنت بين أغلبية سكان العالم. فاليونسكو تقدر عدد الأميين البالغين في العالم بنحو بليون! تقريبا حوالي ٢٥٪ من سكان العالم! ومعظم محتويات صفحات الويب (٦٨,٤٪) خاصة العلمية والمهنية مكتوبة بالإنجليزية، وتتطلب مهارة القراءة بالإنجليزية! بينما هناك أكثر من ٦٠٠٠ لغة في العالم منتشرة بتواضع شديد على الإنترنت، فالإنجليزية هي المسيطرة حتى الآن، مع ١٢ لغة أخرى لها تمثيل له معنى، فالانجليزية في الأول تليها اليابانية ثم الألمانية ويعدها الصينية ثم الفرنسية في المركز الخامس بنسبة ٣٪، ثم الاسبانية في المركز السادس ٢,٥٪! وعلى الأقل ٢٠٪ من سكان العالم يتكلمون لغات غير موجودة على الإنترنت بالمرة أو موجودة بالكاد! ونتفق بداية على أهمية التكنولوجيا، لكن الخروج من مأزق الفقر، يتطلب المعرفة، والمعرفة لا تأتي من تقنيات التكنولوجيا، لكن تأتي من التجربة، ومن مضمون المحتويات المرتبطة وذات المعنى! سواء كان هذا المحتوى رقميا أو غير رقمي! فالمحتوى الذي يوضح أساليب زراعية مفيدة أو طرق عمل مبتكرة في

الأسواق المحلية، يمكن أن تتحول إلى معرفة تسهم في زيادة الإنتاج والحصول على أسعار أفضل، والمحتوى حول الطب التقليدي المتوافر محليا أو طرق التغذية يستطيع أن يساعد على حياة أطول وأفضل. ومحتوى حول الحقوق والواجبات والمسئوليات والاختيارات يعتبر شرطا أساسيا وضرورة ومحفزا للديمقراطية. من الواضح أن أنظمة توزيع المعرفة تصبح أكثر فاعلية عندما تبنى على أنظمة معلومات محلية مستعملة فعلا. هذه الأنظمة المحليّة لم تصنع من الأسلاك أو الليف الزجاجي، لكنّها أنظمة الاتصالات البشرية. هذا يعني أنه بالإضافة إلى بنية تحتية اتصالية، واستعمالات ناجحة للإنترنت سيندمج وسطاء المجتمع المحلي الريفي ومؤسساته والأشخاص الذين يستعملون الإنترنت ويعملون كجسر بينه وأعضاء المجتمع المحلي الريفي. ووسطاء المجتمع المحلي الريفي يجيئون من المجتمع نفسه. هم يمكن أن يكونوا قابلات، أو معلمين، أو مرشدين زراعيين، أصحاب الخبرة وكبار السن من القيادات الرسمية وغير الرسمية الذين يملكون مفاتيح الاتصال والقوة في نظام المعلومات للمجتمع المحلي، والخصائص التي تجعل وسطاء المجتمع جيدين تتضمن التلاصق والقرب من أفراد المجتمع، والثقة والمعرفة، وما يتضمن ذلك من القدرة على دمج تقنيات المعرفة حول تكنولوجيات المعلومات والاتصالات مع معارف السياق المحلي للبيئة التي ستوظف فيها. وهكذا، بينما الإنترنت هي واحدة من طرق الوصول للمعرفة، نجد الوصول المباشر إلى بنيتها التحتية ليس هو الطريق الوحيد لذلك في أكثر الحالات، ولا هو أفضل طريق للتنمية الريفية، فالاذاعة الريفية المحلية، ووسطاء المجتمع الريفي المحلي كالمدرسين والمرشدين والأطباء أظهروا قوة في الماضي وبالاستراتيجيات والسياسات الصحيحة، ويستطيعون لعب دور ضروري في المستقبل.



الإذاعة الريفية

تسعون سنة مرت على إنشاء أول محطة للإذاعة في العالم، ومازال الراديو هو وسيلة الإعلام الجماهيرية الأكثر مرونة وسهولة، والأرخص والأسهل وصولا، والأوسع انتشارا بالمقارنة ببقية الوسائل الاتصالية الجماهيرية المتوافرة بما فيها الإنترنت! والراديو في المناطق الريفية البعيدة يعتبر في أغلب الأحيان وسيلة الإعلام الجماهيرية الوحيدة المتوافرة. وانخفاض تكاليف الإنتاج والتوزيع الإذاعي جعل الراديو يملك القدرة على ترجمة العالم من المنظور المحليّ، ويشبع الحاجات المحليّة المعلومات. والراديو يتكلم لغة ولهجة المجتمع المحلي الريفي أكثر من أي وسيط اتصالي جماهيري آخر. والبرامج الإذاعية عادة ما تعكس المصالح والاهتمامات والاحتياجات المحليّة وهي تستطيع تقديم مساهمات مهمة إلى كل من التراث والتنمية الريفية وتطوير الثقافات واقتصاديات المجتمعات المحلية المحيطة. والراديو أكثر وسائل الاتصال محلية . في أمريكا اللاتينية، على سبيل المثال، بينما أكثر برامج الراديو تنتج محليا أو قوميا، نجد فقط ٣٠ بالمائة من البرامج تليفزيونية تجئ من المنطقة! و٦٢ بالمائة من تلك البرامج منتجة في الولايات المتحدة الأمريكية، لغة الكويتشرا، يتكلم بها حوالي ١٠ ملايين شخص في بوليفيا وإكوادور وبيرو، لكنها غائبة عن شاشات تليفزيون المنطقة، لكن في بيرو لوحدها ١٨٠ محطة إذاعة برامجها تستعمل لغة

الكويتشرا بانتظام. نفس الموقف صحيح في أفريقيا، حيث تنتج محطّات الإذاعة المحليّة برامجها وتتكلّم بمئات اللغات المحلية. والراديو أيضا متوافر جدا مع الجميع. بينما هناك فقط خطا تليفون لكل مائة شخص في أفريقيا بينما يوجد عشرون مستقبلا للبرامج الإذاعية بين كل مائة، حتى في المناطق الريفية البعيدة معظم العوائل تستقبل الخدمة الإذاعية ومحطات الإذاعة أيضا تتصف بالعمومية والانتشار فهي للجميع، وقبل خمس عشرة سنة كان هناك فقط عشر محطات إذاعة مستقلة (غير حكومية) في كلّ جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا؛ الآن هناك الآلاف، والعديد منها واقع في البلدان الصغيرة وتخدم المجتمعات الريفية المحلية. والسكّان الريفيون، نساء، وشباب، وأقليات عرقية ولغوية وحتى الأطفال استفادوا من الانفجار الإذاعي في أفريقيا، ويستطيعون رؤية أنفسهم المنعكسة في أجهزة الإعلام للمرة الأولى. أمريكا اللاتينية ما كان عندها نفس الهيمنة الحكومية على الراديو، لكنّها جربت ازدهار محطات الراديو المحلية والمستقلة في الثمانينات والتسعينات. ومنذ فترة طويلة قبل انفجار وإشهار الإنترنت، شاعت فكرة التقارب والدمج بين أجهزة الاعلام والاتصالات، مثل محطات الإذاعة المحليــة التي كانت تقوم بدور هاتف المجتمع المحلي الريفي، وخصصت ساعات عديدة يومية لإذاعة وإرسال رسائل شخصية، وإعلانات الوفاة والولادة، والدعوة إلى الحفلات، وطلب الغذاء والتجهيزات من القرى القريبة، وطلب المعونة الطبية المستعجلة والطارئة، حتى طلب النصيحة الطبية من الطبيب المحلي بصفة شخصية.

والعديد من محطّات الإذاعة المحلية في المناطق الريفية كانت تعمل من خلال الملتيميديا (الصوت والصورة) قبل أن ينتشر ذلك التعبير وأصبح له شعبية، وفي أغلب الأحيان كانت مركز الاتصالات بالمجتمع المحلي الريفي، من خلال نشاطات الاتصال العديدة بما فيها نشر المطبوعات، وإنتاج فيديو، وحتى تشغيل السينما. وفي المناطق الريفية البعيدة يعتبر الراديو هو المصدر الوحيد للمعلومات حول أسعار سوق المحاصيل، وهو الدفاع الحاسم ضد المضاربين، ويوظف الراديو في برامج الإرشاد الزراعي، ويعتبر آلية للتعليم الرسمي والتعليم غير الرسمي، ويلعب دورا مهما في حفظ اللغة والثقافة المحلية. والراديو في بعض أجزاء من العالم يعتبر هبة، وأمرا مفروغا منه، وفي أجزاء أخرى لا يرى أكثر من كونه ملحقا ترفيهيا في السيارات، وفي بعض مناطق من العالم يقوم بعدة أدوار: فهو وسيلة الإعلام الجماهيرية الوحيدة التي يستطيع غالبية الناس الوصول لها، وهو وسيط اتصال شخصي يقوم بوظيفة هاتف المجتمع المحلي الريفي، وهو أيضا مدرسة، ومركز اتصالات، وهو نقطة بداية اتصال المجتمع المحلي الريفي بالبنيان المعرفي العالمي، والراديو يمتلك طاقات وإمكانيات هائلة، قابلة للتوظيف من أجل التنمية الريفية. والراديو بآلياته المثيرة والتفاعلية والمتصلة بالواقع قادر على توصيل صوت المجتمعات المحلية المهملة، وتوسيع قاعدة المشاركة تفعيلا للعمليات الديمقراطية، ويتيح الفرصة لسكان المجتمع المحلي الريفي، للمشاركة في عمليات اتخاذ القرارت المؤثرة على حياتهم، ويحسن مستويات معيشتهم في النهاية.

بين الراديو والإنترنت

والخصائص الأربع الأكثر أهمية والتي ساهمت في جعل الراديو أنجح وسائط

الاتصال في مجال التنمية الريفية: (١) انتشاره وتغلغله، (٢) طبيعته المحليّة، (٣) طبيعته كوسيط شفوي و(٤) قدرته على تضمين المجتمعات المحلية والأشخاص في عملية اتصال تحقق تفاعلا اجتماعيا. والخصائص الثلاثة الأولى واضحة جدا، لكن من المفيد توضيح مفهوم اتصال يحقق تفاعلا اجتماعيا، لكي نميّزه عن التفاعلية، التي تتميز بها عادة الإنترنت وتشير إلى قدرة الأفراد المستعملين للإنترنت للتفاعل بطريقة مباشرة وفورية مع موقع ويب معين أو مع شخص آخر أو شركة أو مؤسسة من خلال البريد الإلكتروني مثلا. والراديو أيضا يمكن أن يحقق خاصية التفاعلية، عن طريق استعمال المكالمة الهاتفية في البرامج، أو برامج الميكروفون المفتوح على الهواء مباشرة، أو تبادل الرسائل، إلخ. على أية حال، برع الراديو في تحفيز الاتصال الاجتماعي التفاعلي داخل المجتمع المحلي الريفي، على سبيل المثال البرامج الإذاعية التي تتناول القضايا المحلية، وإعلام المستمعين عن أبعادها يحفز الاتصال التفاعلي بين أعضاء المجتمع المحلي الريفي، وبينما يستمرون في ممارسة حياتهم اليومية من المحتمل أن يؤدي هذا التفاعل إلى تطوير فهم مشترك عن مشاكل المجتمع المحلي الريفي والاقتراحات المناسبة لحلولها. ومع مرور الوقت تستمر هذه الاقتراحات، ويمكن أن تعقد لها حلقة مناقشة على شكل برنامج إذاعي آخر، وتناقش أكثر وتنقد وفقا لظروف المجتمع المحلي الريفي.

إن الإنترنت مميزة بالتفاعلية، والتقنية، إمكانيتها في هذا المجال أعظم جدا من الراديو. وهي أيضا مخزن للمعارف المفيدة، وبين ملايين من صفحات الويب هناك كمية كبيرة من المعلومات ذات العلاقة بقضايا التنمية الريفية. على أية حال، فإن موانع الوصول إلى الإنترنت هي معرفة القراءة والكتابة، سيادة لغات دول المركز، مدى ملاءمة المحتوى - فهي عقبات ساحقة حالية، ويجب أن نتغلّب عليها حتى يستطيع أغلب سكان العالم أن يملكوا القدرة على تصفح الإنترنت لإيجاد الحلول المناسبة لمواجهة مشاكل الفقر. والنماذج البديلة لمواجهة تلك العقبات، هي مراكز الاتصال ومقاهي الإنترنت، وتقديم الاستشارات للمشاريع، وبرامج الترجمة والكتابة والكلام، بعض من هذه البدائل الآن يجعل الإنترنت أكثر سهولة للوصول إليها.

دمج الراديو على الانترنت لعبور الفجوة الرقمية

الإذاعة لا تزال وسيلة الاتصالات الأسهل، والأوفر، والأكثر شعبية بالنسبة للمليارات من أبناء المناطق الريفية، حيث ترتفع معدلات الأمية وتنعدم مرافق الكهرباء، والهاتف، والإنترنت، وعملت منظمة الفاو في ميدان الإذاعة الريفية لمدة تزيد على ثلاثين عاما، وساعدت على إنشاء المحطات الإذاعية وتدريب المذيعين. وبالإضافة إلى ذلك فإن المنظمة تزود المذيعين بصحائف الحقائق عن قضايا الأمن الغذائي وتوفر المعلومات عن الأحوال الجوية، وعمليات مرحلة ما بعد الحصاد، ونظم الإنذار المبكر، وسلامة الأغذية، والتغذية. وبمقدور المذيعين استخدام هذه المواد في برامجهم الموجهة إلى المزارعين المحليين وتساعد المنظمة كذلك في ربط المحطات الإذاعية المجتمعية المحلية بشبكة الإنترنت وتدريب المذيعين على جمع المعلومات ونواستها



لاستخدامها في البرامج الإذاعية. وفي السنوات القليلة الماضية نفذت عددا من التجارب خلطت ومزجت ودمجت بين محطات الراديو المحليّ المستقل مع الإنترنت وخلقت نماذج جديدة تجمع مزايا الوسيطين، ففي أمريكا الشمالية وأوروبا العديد من محطات الإذاعة الريفية قدمت برامجها على الإنترنت، باستعمال برامج مشهورة ومتاحة ولها شعبية مثل برامج Windows Media Player,Real Audio . ويوجد موقع ويب يسمى Radio-Locator يدرج عددا من محطات الإذاعة المرتبطة بالإنترنت ولها صلات حاليا إلى أكثر من ٢٥٠٠ محطة إذاعة من المحطات العالمية. والعديد من هذه المحطات وسعت قدرتها في الوصول إلى المستمعين من خلال استعمال الإنترنت لتقديم برامجها إلى مستمعين بعيدين جغرافيا، لكن البعض يستعملون ويوظفون الخصائص التفاعلية للإنترنت لتقديم خدمة مضافة إلى المستمعين المحليين مثل مناقشة المستحدثات الزراعية الجديدة.

ورغم أن هذا النمط من الإذاعة المحملة على الإنترنت يناسب ظروف الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، إلا أن هناك ٧ تجارب مشابهة أقيمت في أفريقيا، والعديد من هذه التجارب قدمت في آسيا وأمريكا اللاتينية ودول الكاريبي في برامج التنمية الريفية مستغلة الإمكانيات الإبداعية التفاعلية للإنترنت لتحسين الاتصال الاجتماعي التفاعلي بالراديو، مثل محطة إذاعة كوستاريكا على شبكة الانترنت «فاير» إذاعة مجتمع محلي إلى المجتمع الدولي عن طريق بث صوت السيدات المحليات إلى المستمعين الدوليين من خلال محطات إذاعات الانترنت. وظهرت مشروعات التنمية الريفية التجريبية التي توظف الراديو المحمل على الإنترنت في بيئات متميِّزة جداً أو تبحث عن عنوان مختلف لطبيعة التجربة والمشاكل التي تواجهها. والانترنت وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة الأخرى غيرت الإذاعة في العالم النامي، ولكنها لم تجعلها أقل أهمية وإنما فتحت لها إمكانيات لم يتصورها أحد حتى الآن. فالمذيعون الذين كانوا يسافرون لساعات بل أيام للوصول إلى مكتبة عامة لإعداد برنامج، لديهم الآن اتصال فوري بالانترنت. وكالات الأخبار الإذاعية القطرية والإقليمية والعالمية جعلت الأخبار العالمية ووجهات النظر المختلفة متوافرة حتى بالنسبة للمجتمعات النائية. وساعد مزج الإذاعة والاتصالات التكنولوجية على تلاحم المجتمعات ببعضها برغم المسافات التي تفرضها الهجرة. وهذا التقارب بين الراديو والانترنت. يبشر باتخاذ أهمية وقيمة أكبر للإذاعة. وهنا نذكر أن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ليس لها فعل السحر في مقاومة التخلف ومحاربة الفقر – وإحداث التنمية في الريف، بل هي عامل محفز، ولها قدرة على تسهيل التكامل السريع للمناطق الريفية، وقادرة على المساعدة في تحسين وتطوير قطاعات التعليم والرعاية الصحية والزراعية والمشروعات الصغيرة، وأخيرا نكرر مرة أخرى أن عبور الفجوة الرقمية الريفية ليس بتوفير المزيد من الحواسب وأجهزة الراديو، وخطوط التليفون الأرضي والهواتف الجوّالة فحسب، بل هو مسألة سياسية، وهذا يعني أنها تتطلب توافر الإرادة السياسية، والتعليم، والأموال ■

علي عزت بيجوفيتش

حكيم البوسنة الذى رحل..

بقلم
محمد يوسف عدس

رحل عن عالمنا على عزت بيجوفيتش الرئيس السابق لجمهورية البوسنة والهرسك فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ٢٠٠٣، عن عمر يناهز الثمانية والسبعين، ولكن حياته الحقيقية كانت أطول وأعمق من ذلك بكثير، فالعمر الحقيقى لايقاس بعدد السنين وإنما يحسب بإنجازات الإنسان ونشاطه وفاعليته، وبتأثير فكره ومواقفه على مجتمعه وعصره، وفى هذه المجالات كلها كانت شخصية عزت بيجوفيتش نموذجا حيا وطرازا فريدا من البشر القادرين على التأثير والتغيير والقيادة.



حفلت حياته بالفكر والعمل والنشاط حتى السنوات التى قضاها فى السجن - بتهم ملفقة - لم تضع هباء، وإنما استثمرها فى كتابة واحد من أبدع أعماله الفكرية «فرار إلى الحرية» سطّره فى بضعة آلاف من الصفحات أودع فيها أعمق تأملاته فى الحياة والدين والفن والسياسة والفلسفة والأخلاق، وأعاد النظر فى بعض قراءاته السابقة وتقييمه للشخصيات والمواقف، لم يملأه السجن مرارة تجاه الحياة والناس، ولم يستسلم لليأس أو الاكتئاب بل زاده إيمانا بقيمة الحرية الإنسانية وجعله أكثر يقينا بأن الحرية هى أعظم


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هبة منحها الله للإنسان، وأن الدفاع عنها أنبل مهمة تكفّل بها الإنسان وهو مسئول عنها أمام واهبها الأعظم (الله سبحانه وتعالى).

لن أنتقم!

وعندما خرج من السجن وتم انتخابه في السنة التالية رئيسا لجمهورية البوسنة سنة ١٩٩٠ ظن البعض أن الفرصة قد واتته لينتقم من أعدائه الذين لفّقوا له التهم وزوّروا شهادة الشهود وحكموا عليه بعقوبة غليظة في السجن، ولكنه لم يفعل، فلما سأله بعض الصحفيين: ألا تنتقم ممن ظلموك الآن وقد تمكنت منهم؟ فأجاب بقوله: «لا أنتقم الآن ولا بعد ذلك. نعم إنني مازلت أشعر بالظلم ولا أستطيع أن أحمل نفسي على نسيان تجربة السجن المريرة، ولكني لا أنتقم أبدا.. فقد أصبحت الآن مسئولاً عن حياة الجميع وحرياتهم».

وبالفعل ظل خصوم عزت بيجوفيتش في وظائفهم لم ينتقم منهم ولم يمسسهم بسوء طوال رئاسته للدولة، لقد آثر كظم الغيظ والعفو وهو في ذروة السلطة.

أدرك عزت بيجوفيتش في وقت مبكر من حياته حقيقة الظلم والاضطهاد الذي يتعرض له شعبه المسلم سواء في عهد يوغسلافيا الملكية أو يوغسلافيا الشيوعية فدفعه هذا الإدراك إلى التنقيب عن جذور هذا الظلم في الفكر الغربي حتى أنه استطاع أن يستوعب أهم الأعمال الفلسفية لكبار الفلاسفة الأوربيين وهو لم يتجاوز بعد سن التاسعة عشرة من عمره، وربما كان هذا الإدراك أيضا وراء اتجاهه إلى دراسة القانون في مرحلته الجامعية كأداة للدفاع عن حقوق شعبه

الشيوعيون في البوسنة

بدأ النظام الشيوعي في عهده في البوسنة بهجوم شرس على الإسلام وتبين له أنه هجوم ظالم قائم على الافتراءات والأكاذيب والجهل فتصدى للدفاع عن الإسلام في خطاب علني أمام حشد من الجماهير في سراييفو، فاستقبله الناس بالاستحسان والتأييد والهتاف، وكان رد فعل السلطات الشيوعية فوريا، حيث ألقت القبض عليه وهو لا يزال على منصة الخطابة وأودعته السجن لمدة ثلاثة أعوام.

نُشر له كتاب بعنوان «الإعلان الإسلامي» سنة ١٩٨٣ جمع فيه عددا من المقالات سبق نشرها في عقد سابق، تتناول مشكلات العالم الإسلامي بصفة عامة وليس فيه ذكر ليوغسلافيا أو البوسنة، ومع ذلك اعتبرته السلطات تحريضا على الثورة، ومن ثم ألقت القبض عليه مع عدد من المثقفين المسلمين الآخرين ولفقت لهم تهمة الإعداد لانقلاب وإنشاء دولة إسلامية مقصورة على المسلمين، وكان نصيب عزت بيجوفيتش في هذه المحاكمة ١٤ سنة سجنا مع الأشغال الشاقة، لكنه قضى منها ستة أعوام فقط، واضطرت السلطات إلى الإفراج عنه تحت ضغوط الأوضاع التي أحدثت الانهيار المفاجىء للأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية سنة ١٩٨٩.

زعيم الجماهير

خرج عزت بيجوفيتش من المعتقل ليجد نفسه في قلب معركة من نوع

جديد، فقد كان دور الزعيم السياسي في البوسنة شاغرا، فدفعته الجماهير إليه دفعا لأنها رأت فيه أنسب الشخصيات لقيادة الشعب في مرحلة ما بعد النظام الشيوعي المتداعي أصبح عزت بيجوفيتش زعيما لحزب جديد هو حزب العمل الديمقراطي، كما أصبح في عام واحد بعد خروجه من المعتقل أول رئيس مسلم لجمهورية البوسنة (الديمقراطية)، اختاره الشعب في انتخابات تعددية حرّة.

كان المناخ السياسي في يوغسلافيا قد تغيرَ تغييرا شاملا حيث تراجعت الشيوعية لتنطلق القومية الصربية من عقالها، وهي أيديولوجية عنصرية قديمة تهدف إلى إقامة صربيا الكبرى الخالية عرقيا من المسلمين والكاثوليك.

لم يكن عزت بيجوفيتش راغبا في الانفصال عن الاتحاد اليوغسلافي رغبة كرواتيا وسلوفينيا في الانفصال، بل كان حريصاً على الإبقاء على يوغسلافيا موحدة في إطار ديمقراطي جديد يضمن الحرية والحقوق والخصوصيات الثقافية للجمهوريات والشعوب التي تشكل يوغسلافيا، وقدم في هذا مشروعا حاز قبول المجتمع الأوروبي، ولكن رفضته صربيا فانسحبت كرواتيا وسلوفينيا، وهنا خشي عزت بيجوفيتش أن تبقى البوسنة وحدها تحت رحمة صربيا، فأجرى استفتاء عاما صوت فيه شعب البوسنة لصالح الاستقلال، وقد اعترفت أوروبا كما اعترفت الأمم المتحدة بالدولة البسنوية المستقلة. ولكن في عشية إعلان الاستقلال هاجمت القوات الصربية البوسنة وبدأت حرب التطهير العرقي التي عرفها العالم في حينها (أبريل ١٩٩٢).

كاريزما بيجوفيتش

استطاعت البوسنة بقيادة عزت بيجوفيتش أن تكسب قلوب شعوب العالم بأسره بفضل جهاده وحكمته ونفاذ بصيرته، كان يعمل عشرين ساعة في اليوم فما اشتكى من مشقة العمل ولا أجهده كثرة السفر ولا طول السهر وكأنما قُدّت أعصابه من فولاذ. وهبه الله قلبا مؤمنا جسورا كان يقتحم به المخاطر والشدائد بيقين في النصر الذي لا سبيل إلى ردّه مهما بلغت قوة العدو وجبروته.

أقام عزت بيجوفيتش جيشا من لا شيء فإذا به يبلغ في نهاية الحرب مائتي ألف مقاتل، استطاع رغم سلاحه المتواضع أن يجمد خطوط المواجهة، وأن يُحيِّد مئات الدبابات الصربية، ثم تحول إلى الهجوم فأحرز انتصارات باهرة وقام بتحرير مساحات واسعة من الأراضي المحتلة وتمكن في النهاية من حصار مدينة بنيالوكا مقر قيادة العدو العسكرية، وعندئذ فقط تدخلت القوى الدولية بالقوة لوقف القتال ودعوة أطراف النزاع إلى المفاوضات حيث انحل الصراع باتفاقية دايتون للسلام.

أنشأ عزت بيجوفيتش - لأول مرة في تاريخ يوغسلافيا - نظاما ديمقراطيا، في الوقت الذي كان خصومه في صربيا وكرواتيا يمارسون حكما دكتاتوريا مستبدا، وقد انتخبه شعب البوسنة مرتين لرئاسة الجمهورية، ولكنه اختصر فترته الثانية في الحكم بالاستقالة من منصبه ومن زعامة الحزب، عندما أدرك أن القوى الغربية التي

تشرف على تنفيذ اتفاقية دايتون فى البوسنة تماطل فى تنفيذ الجانب المدنى من الاتفاقية خصوصا ما يتصل بإعادة إعمارها، وملاحقة كبار مجرمى الحرب الذين لا يزالون إلى اليوم طلقاء، وإعادة اللاجئين المسلمين إلى ديارهم التى طردوا منها فى المناطق التى يهيمن عليها الصرب والكروات.

وعندما حاول عزت بيجوفيتش حث دول الغرب على تنفيذ التزامها تجاه البوسنة، وردت إليه إشارات واضحة أن هذا لن يتحقق طالما هو موجود فى السلطة وفى زعامة حزب العمل الديمقراطى فاستقال مضحيا بمركزه مؤثرا مصلحة بلاده.

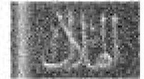
بلغ عزت بيجوفيتش من تقديره لقيمة الحرية الإنسانية واحترامه لحرية التعبير أنه رفض أن يفرض أى نوع من الرقابة على الاعلام والصحافة حتى أثناء الحرب، وكان هذا موقفا مثيرا لدهشة المراقبين سجلته المنظمات الدولية لحقوق الإنسان وأصدرت فى هذا كتابا مشهورا قارنت فيه بين هذه الحالة فى البوسنة وبين حالة القمع الاعلامى فى صربيا وكرواتيا المجاورتين.

وعي ودراية

وقد تنبأ عزت بيجوفيتش بأمور تحققت بالفعل مما يدل على نفاذ بصيرته وقدرته المذهلة على تحليل الأوضاع النفسية والتاريخية والاجتماعية للشعوب والمجتمعات: تنبأ بانهيار النظم الشيوعية تأسيسا على تناقضها مع الطبيعة الإنسانية فانهارت خلال ثلاثة عقود. وتنبأ باستمرارية الاضطراب السياسى فى صربيا إلى أجل غير مسمى، وهو ما يحدث حتى هذه اللحظة. وتنبأ بانتهاء الدكتاتورية بعد زوال نظام فرانيو توچمان من كرواتيا، وقيام نظام ديمقراطى متقدم وقابل للنمو والقوة وهو ما نراه الآن يتحقق فى كرواتيا. وتنبأ بأن النظام الديمقراطى فى البوسنة والهرسك سوف «يظل شعلة مضيئة فى ليل البلقان المظلم» وهذا ما نراه اليوم ماثلا أمامنا - ومن مذكراته التى نشرت سنة ٢٠٠٣م تحدث عن توقعاته لصورة العالم سنة ٢٠٣٠م فقال: ستكون أوروبا كيانا سياسيا واحدا، وسيكون الشرق الأقصى هو مركز العالم، وستفقد أمريكا سيطرتها فى العالم بسبب سقوطها الأخلاقى»، والإشارات على هذا المصير تتأكد فى مجرى الأحداث.

لم يدخل عزت بيجوفيتش عالم السياسة من باب الاحتراف أو الرغبة فى الشهرة والزعامة، فقد كان زاهدا فى هذا كله، وقد بقى فى قيادة الأمة مؤديا واجبه فى مقاومة العدوان ورده حتى أبلغ أمّته مأمنها وحقق لها السلام، ثم تخلى عن القيادة والسياسة لأجيال أخرى جديدة لمواصلة عملية البناء وكان طوال الوقت يتمنى - كما عبر هو بنفسه - أن يظل فى موقع المفكر المصلح ليدفع عجلة الإصلاح والتقدم بعيدا عن السلطة وعن المناصب.

عاد عزت بيجوفيتش بعد تخلّيه عن مناصبه الرسمية ليكتب سيرته الذاتية التى صدرت سنة ٢٠٠٣م فجاءت مزاجا من الأدب الرفيع والدقة الموضوعية، وقد أشرنا آنفا إلى كتابه الذى سطره فى المعتقل بعنوان «فرار إلى الحرية»، وله إلى جانب كتبه العديدة مئات المقالات



والمحاضرات والأحاديث الصحفية والخطب السياسية في بلاده وخارجها، وكان في كل ما كتب أو تحدث أو حاضر يعبر أصدق تعبير وأخلصه عن فكر حر وشعور بالمسئولية تجاه شعبه وتجاه الإنسانية، وبالتأكيد تجاه عقيدته الإسلامية التي يكن لها أعظم احترام ومحبة.

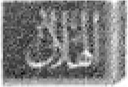
بين كتابين

تأثرت مسيرة حياة عزت بيجوفيتش بكتابين له: دخل المعتقل بسبب أحدهما كما أشرنا من قبل وهو «الإعلان الإسلامي»، وأما كتابه الثاني «الإسلام بين الشرق والغرب» فقد نال عنه جائزة الملك فيصل الدولية، وتُرجم إلى معظم لغات العالم الحية، واكتسب بذلك شهرة كبيرة، وأحدث دويا هائلاً في الأوساط الفلسفية والفكرية واحتفل به المثقفون في الشرق والغرب على السواء، ولم ينج بطبيعة الحال من هجوم الكارهين للإسلام والمفترين عليه من أمثال «هنري كيسنجر». العجيب في أمر هذا الكتاب أنه ظل حبيسا طوال عقدين من الزمن فلم يُنشر في وطنه الأم، ومنعت حكومة «ميتران» دخوله إلى فرنسا (بلد الحرية الفكرية) استنادا إلى قانون قديم يرجع إلى عشرينات القرن الماضي.

ولعل هذه الواقعة كانت حاضرة في ذهنه ضمن مواقف أوروبية أخرى تجاه الحرب في البوسنة عندما أجاب على أسئلة مندوب صحيفة «شبيجل» الألمانية في نوفمبر ١٩٩٤ حيث قال: «أود أن أصحح لك في نقطة واحدة وهي أن تسامحي الذي تشيد به في سؤالك ليس مردّه إلى كوني أوروبي كما تقول، وإنما مصدره الأصلي وقبل كل شيء هو أنني مسلم ثم بعد ذلك لأنني أوروبي» ثم يستطرد في السياق فيقول:

«لقد لاحظت من تجربتي في حرب البوسنة أن أوروبا لديها أوهام تعجز عن التحرر منها رغم الحقائق الدامغة، فقد دمِّرت أثناء هذه الحرب مئات المساجد والكنائس الكاثوليكية.. كلها بلا استثناء دمرها مسيحيون.. ولم يدمر المسلمون كنيسة واحدة، وقبل ذلك حكم الأتراك العثمانيون (وهم مسلمون) البلقان خمسمائة سنة فلم يهدموا كنيسة ولا أبادوا شعبا من الشعوب، وقد حافظوا على الآثار المعمارية وعلى الأديرة الشهيرة في جبال «فروشكاجورا» قريبا من بلجراد، ولكنها لم تصمد ثلاثة أعوام فقط تحت الحكم الأوروبي، حيث قام الشيوعيون والفاشيون بتدميرها خلال الحرب العالمية الثانية، ولم يكن هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجريمة من آسيا بل من قلب أوروبا... وحتى هذه اللحظة لم تبد أوروبا حساسية كافية ضد الفاشية المتصاعدة في البلقان، بل وقفت تتفرج على الدمار الذي ألحقه الصرب في البوسنة!.. إنني أعتز بأوروبا وأحمل لها كل تقدير.. فأنا أوروبي ولا يمكن أن أتخلص من جلدي.. ولكنني أقرر لك أن أوروبا تحمل عن نفسها فكرة أعلى بكثير من حقيقتها».

كان عزت بيجوفيتش نموذجا حيا للقيم الإنسانية الرفيعة في أعماله ومواقفه، وكان مثلا أعلى للسياسي المخلص الصادق ورجل الدولة الحكيم الملتزم بمبادىء الأخلاق، كما كان مفكرا عبقريا ملهما، وفيلسوفا إسلاميا من طراز فريد. ■



رؤيـــة جديدة للشـــاعـــر

محمود سامي البارودي

بقلم
د. محمد رجب البيومى

لم يأخذ محمود سامى البارودى حظه من الدراسة المنصفة ، مع ما كتبه عنه كبار الباحثين من أساتذة الجيل ، لأن محاكاته للسابقين فى نسج قصائده قد جعلته فى رأى أكثرهم صدى لغيره فحسب ، مع أنه فى نسجه العباسى قد رسم صورة حياته رسماً يصور مواقفه السياسية ، ومنزعه الخلقى، ومأساة مغتربيه ، وخلائق من اتصلوا به ، ومواضع لهوه فى صباه ، ووحشة روحه فى منفاه ، بحيث صار ديوانه المرجع الأول لترجمة حياته ! فهل تكون مجاراته للفحول السابقين ، داعية لوصفه بالتقليد فقط والقول بأنه رد علي الشعر ديباجته البيانية ، فهو قنطرة عبر بها الشعر من وضع إلي وضع فحسب ، مع أن هذه القنطرة جعلت للشعر نوافذ فنية فتحت المجال تصويراً وأغراضاً واتجاها، مع احتذائها المعترف به ، ولست فى هذا المقال متحدثاً عن فنه الأدبى ، ولكنى أتجه إلى جلاء صورة من مروءته النفسية . لا يتم الحديث عن شمائله دون الإشارة إليها ، وهى شمائل تجدها بارزة فى حيوات ذوى البيوتات العريقة من أمثال الشريف الرضى، وأبى فراس الحمدانى ، وأسامة بن منقذ إذ ينطق أشعارهم المباهية بها ، نطقاً صادقاً يؤكده ما سجل عنهم من مواقف أبية فى معترك الحياة .



وقد فاقهم البارودي فيما روى عنه من المآثر، ولن أتعرض إلى ما اشتهر منها، ولكني أشير إلى غير ما اشتهر، فأقدم أمثلة للأريحية النادرة، والهمة الشماء، رواها عنه عارفوه غير متزيدين! كما أنكر عن زوجته النبيلة ما ندر مثله في المحصنات! والذي ينظر إلى صورة محمود سامي البارودي في شبابه ومجده يرى من دلائل الهمة، ومشاهد الفتوة وشارات الإباء والعزة ما يشع بارزا في ملامحه، وقد زاده صدره المضئ بالأوسمة والنياشين مهابة وإجلالا، أما مشهده في شيخوخته بعد أن رجع من منفاه، وأصابه القدر في عينه فلا أرى وصفاً دقيقاً له أبلغ وأروع مما قاله الشاعر الكبير خليل مطران عنه، وقد زاره ذات يوم فتطارحا الشعر، واقترح عليه الزائر أن ينظم معنى طريفاً يخلده في بيتين من شعره فماذا رأى مطران من شأنه وهو يفكر مستجيباً لاقتراح مريده؟

يقول مطران «استوى ساكناً ساجيا، مسنداً ظهره إلى الحائط، وفكر غير منقبض المحيا ولا معنت الملامح، متهللة سماحة وجهه بأنوار الزوال بين بلج لحيته البيضاء المستديرة وقتم الناظرتين السوداوين اللتين تحجبان عينيه.

مرت به وبي دقيقة، وهو متمكن في تأمله، وأنا مسترسل مع خاطر أخطرته في قلبي رؤية الرجل على هذه الحال، فخيل إلى أنني لدى تمثال من تلك التماثيل التي أقامها صناع اليونان لبعض المتقدمين من حكمائهم، وتبدلت في ذهني الناظرتان السوداوان بالظلين اللذين يحيطان بالعيون المطبقة في تلك التماثيل.

وعاد إلى وهمي استطراقا قوة ما أبدعوه في تلك الأنصاب، حتى أعانوا بإتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية، وبينما أنا مستغرق الحواس بتلك الذكرى إذ تحرك الرجل تحرك من يعالج معنى مستعصيا فتنبهت تنبه دهشة كأني بالتمثال وقد تحرك».

هذا الوصف النثري الموجز الذي يفوق الشعر في قوة تصويره، يرسم جلال الشيب ووقار الشيخوخة بما لا

يغني عنه مقال طويل .

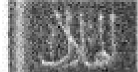
يقصده السائلون

وإذا كان هذا المقال خاصا بناحية من نواحي المروءة لدى البارودى ، فإني أذكر من دلائلها اللامعة أن منزله بعد عودته من منفاه ، كان مراد السائلين من ذوى الحاجة ، فقد علموا عن أريحيته قبل المنفى ما تردد صداه بين الناس ، فظنوا الرجل لا يزال يملك من الثراء ما كان يحوزه من قبل ، مع أن الدولة لم ترد له من عقاره غير اليسير ، ولكن الذى تعود البذل يراه فرضا محتوما مهما شح النبع ، وضاقت اليد ، والبارودى فى ذلك مثله مثل المعتمد بن عباد الملك الأندلسي الذى فقد عرشه ، وغدا أسيرا فى مملكة غير مملكته ، فلم يمنع ذلك المتسولين من الشعراء أن يقصدوه سائلين ، والملك الأريحي يجود من لباسه وطعامه وحليه ما يليق بهمته ، وقد ضاق بما يكابد بعد أن فرغ الوطاب، فقال من أبيات موجهة عن هؤلاء :

طلبوا الكثير من الأسير وإنه
لأحق منهم بالدراهم فاعجب !

كما يذكر من حساسية الشاعر البارودى المفرطة ، أن شاعراً شاباً قصده ، وأسمعه بعض شعره ثم سأله العون فأعطاه ، وسأله عن مسكنه فعرفه، فصمم على رد الزيارة له ، مجددا العطاء ، وكان الشاعر يسكن قريبا من السطح فى منزل متاكل السلالم ، فجعل الشاعر الكبير - وهو ضرير لا يبصر - يصعد حذرا متلمسا الحائط بيده ، حتى بلغ مآربه بعد جهد، وهى مجازفة تحملها هذا الأريحي النبيل ، ليرفع من مستوى صاحبه ، فيشعره أنه زميل رفيق ! وهذه النادرة لها من نظائرها طرائف ، قد تفوقها مغزى ، وإن شئت أمثلة منها فاسمع :

إن ما سأقوله منقول عن الوزير السياسى محمود فهمى النقراشي - نقله الدكتور زكى مبارك فى مجلة الرسالة بالعدد (٤٣٨) ١٩٤١/١١/٢٤، وكان النقراشي حينئذ وزيراً للمعارف والدكتور زكى مفتشاً للغة العربية بها ، فليس من المعقول أن يتزيد عليه فى روايته ، أو أن ينسب إليه ما لم يقل ! وملخص ما نشره الدكتور مبارك ، أن الشاعر الكبير قد تأكد من مصيره بعد إخفاق الثورة العرابية التى كان أحد زعمائها البارزين ، وقد استدعى أحد أصدقائه من أعيان الغربية ، ممن يعتقد فيهم الأمانة والوفاء ، فأودعه ذخيرة من الذهب كان يمتلكها مخافة أن يفتش رجال الاحتلال منزله، وينهبوها مغتصبين، فلا تفوز أسرته بطائل ، وقال له هذه الذخيرة وديعتى عندك ، فإن نفانى الإنجليز كما أتوقع ، ومت فى منفاى فهى لك ، وإن أرادت الأقدار أن أرجع إلى مصر حياً ، فالنصف منها لك جزاء حفظها ، والنصف لى ، ثم رجع الشاعر بعد سبعة عشر عاماً ، وكان عزاؤه أن يعيش فى بسطة من العيش بعد أن يأخذ النصف المدخر ، فيؤدى واجب الأريحية لمريديه ، ومن كان يكفل عيشهم قبل المنفى ،



وكانت الصدمة أليمة حين أنكر صديقه أن تسلم شيئاً من البارودى صغيراً أو كبيراً ، وقال له ، لو كنت تملك مالا ، لأودعته لدى أسرتك ، جاهلاً أن المال سيصادر لو فتش المنزل ، وكظلم الشاعر غيظه ، ولم يستطع أن يحصل على شئ!

أكرم المنابت لأحرار الرجال

ثم مرض هذا الخائن مرضه الأخير وكان الإمام محمد عبده على علم بخيانته التى لم يملك الدليل على إثباتها ، فسافر إلى طنطا ، وزاره على شفا جرف من الموت ، فقال له إنك ستلقى الله بوزرك ، وأن عليك أن تؤدى بعض ما ائتمنت عليه إن كنت قد أنفقت منه شيئاً ، والدنيا لن تغنى عن الآخرة ، وقد اقتنع المحتضر بكلام الإمام ، فطلب صرة ذهبية تحمل عشرة آلاف من الجنيهات ، وقدمها للإمام كى تصل إلى صاحب الحق ، وظن الشيخ أن شيئاً أحسن من لا شئ وأن البارودى سينفرج ضيقه المادى بما حمل إليه من ماله ، وفى ما أخذ عزاء عما حرم ، يقول الدكتور زكى مبارك:

«فماذا وقع ؟ لقد نظر البارودى إلى الصرة نظرة الليث الشبعان إلى الثمر المعطوب وصاح ، لن آخذ درهما من هذه الألوف ، ويجب أن ترد حالاً لسارقها قبل أن يموت لتكوى بها جنوبه وهو مرموس ، وله الويل إن وقع بصرى عليه يوم الحساب أمام الواحد الديان».

ثم قال الدكتور مبارك تعليقا على هذا الموقف:

«من المؤكد أن الشيخ محمد عبده ، قد طرب لإيمان البارودى ، وعظمة البارودى ، ومن المؤكد أن هذه الواقعة أقنعته بأن مصر لا تزال بعافية ، وأنها ستكون إلى الأبد أكرم المنابت لأحرار الرجال .

ورأيى الخاص ، وأنا لست أحمل كبرياء البارودى ، وارتفاع أوجه عن مستوى العامة ، أنه كان فى حل من أن يأخذ بعض ماله! وأن الخائن لن ينجو من عقاب الله ، وقد استحل ما ليس له ، فجزاؤه واقع واقع ، أخذ الشاعر الصرة أم لم يأخذ ، ولكن نفس الشاعر الأبى الشموخ من طراز نادر عزيز ، وقد صدق حين قال .

ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذي يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها
فلا عزني خال ، ولا ضمني أب
أسير على نهج يرى الناس غيره
لكل امرئ فيما يحاول مذهب

أنتقل إلى نادرة أخرى ذات دلالة صادقة على مروءة هذا الأريحى فقد كانت داره أثناء تولية الوزارات المختلفة محط أنظار السائلين من ذوى الحاجة ، وما عرف وزير فى عهده يفتح بابه لكل طارق غير اثنين هما البارودى ، وعلى مبارك . إذ كانا يستقبلان بعد العشاء كل زائر كبيرا أو صغيراً وقد كانت زيارة على مبارك فى أكثرها وقفا على رجال الأدب والتعليم ، فهو يناقشهم ويجادلهم حتى يمتد السهر حينما إلى منتصف

الليل ، أما زائرو البارودي فمن كل طبقة . وقد عرفوا سماحته فصاروا يمدون أيديهم إليه ، وهو يستمع إلى نداء الفتوة في أعماقه فيلبي ما استطاع تلبيته من حوائج القوم ، وقد لاحظ في ثلاثة أيام متوالية إنساناً يقف أمام منزله ثم لا يهرع للقائه ، بل يكتفي بالنظر المتوسل ، وكأنه يهاب المشافهة ، فأمر البواب في المرة الثالثة أن يأتي به ، وتلجلج السائل بدءا ، ثم قال إنه فصل من وظيفته تعسفاً ، وليس لديه ما يقتات به ، وكان أبوه من خدم الدائرة البارودية في إيتاي البارود ، وقد حظي بعطف والد الشاعر الكبير، وهو يريد من الوزير العمل على إعادته لعمله ، أو لعمل آخر ، فاسترجع الرجل ذكرى أبيه ، ومد يده إلى جيبه فنفحه بقبضة من الذهب يصلح بها حاله ، ثم يأتيه بعد أسبوع، وتشاء الأقدار أن يرتبك الجو السياسي ، ويعتقد البارودي أن الوزارة مستقيلة لا محالة ! فكلف رجال الأمن في الداخلية أن يبحثوا في كل مكان عن السائل ، وأن يحضروه في أقرب وقت ، وانطلق القوم في كل مكان يبحثون ويفتشون حتى عثروا عليه في بعض المقاهي، وفزع المسكين فزعاً أرعش يده ورجله فقد توقع شراً وراء هذا البحث إذ لم يخبروه عمن طلبه ، ثم وجد نفسه أمام البارودي ، فهدأ روعه قليلاً ، وقد فاجأه الأمير الأريحي بأنه أمر بالبحث عنه قبل أن تستقيل الوزارة بعد يوم أو أقل ، كي يفي له بما وعده. حيث هيأ له عملاً مناسبا بأجر موفور ، فبكى الرجل متأثراً ولم تمض ساعات حتى استقالت الوزارة ، فجعل زملاؤه يقولون لقد كنت شؤما على الوزير ، وهو ساذج يصدق الأراجيف ، فضاق ذرعا بما سمع ثم اتجه إلى منزل الوزير يتأسف لما نزل به، ويسأله الغفران ، فابتسم البارودي وقال له مطمئنا ، لقد كانت الاستقالة متوقعة منذ أسبوع ، وليس لك شأن بما كان ! وما دعوتك قبل انتهاء الموعد إلا لتتسلم العمل قبل ألا أستطيع شيئا! فخرج الرجل دهشا من مروءتين لا مروءة واحدة، إذ صدق الوزير وعده ، ثم عمل على ملاطفته ، وكأنه حميم قريب !

لقد وردت هذه الطرفة مبسوطة في كتاب (مفاخر الأجيال ، في سير عظماء الرجال) وهي تغني عن كل تعليق ! لقد فكر الرجل النبيل في وعد التزم به ، ولابد أن ينجز حر ما وعد!

ثم أعرض بعد هاتين النادرتين موقف محمود سامي من الشاعر الشاب حافظ ابراهيم فقد رجع إلى مصر من السودان محالا للاستيداع، وليس بيديه مليم واحد ، وقد ظن أن الجرائد التي كانت تنشر ما يبعث إليها من قصائده سترحب به فتختاره محررا بها له من أجره ما يكفيه ، ولكن الظن قد خاب ، ولم يجد ما يتبلغ به من العيش غير هبات شهرية من الاستاذ الإمام محمد عبده والإمام لا يملك غير راتبه ، وأكثره موزع على ذوي الحاجات من أسر الفقراء الذين لا يجدون ملجأ سواه ! فلم يجد شاعر النيل من ينقذه من بؤسه ،

وأرسل قصائده الشاكية فى الصحف دون أن تعطف عليه قلباً رحيما ، وكان مما قاله فى ذلك قصيدته الشهيرة التى جاء فيها ...

سعيت إلي أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما
سلام على الدنـــيا سلام مودع
رأي في ظلام القبر أنسا ومغنما
فهبي رياح الموت نكبا واطفئي
سراج حياتي قبل أن يتحطما
ويا قبر لا تبخـــل بـــرد تحية
على صاحب أوفى علينا وسلما

ثم لم يجد بدا من لقاء البارودى ليفصح له عن مأساته ، وهو يعلم مروءته، كما يعلم أنه يقدر شاعريته ، فامتدحه بقصيدة جيدة جاء فى افتتاحها الغزلى .

تعمدت قتلي في الهوي وتعمدا
فما أثمت عيني ولا لحظه اعتدي

والقصيدة من مبدعات حافظ ، لأنه عرف منزلة أستاذه فى الشعر، فحاول الارتقاء بفنه إلى أبلغ ما يستطيع حتى بلغ قوله.

أتيت ولي نفس أطلت جدالها
سيقضى عليها كربها اليوم أو غدا
فإن لم تداركها بفضل فقد أتت
تودع مولاها وتنتظر الـــــردى

يقول الأستاذ طاهر الطناحى راوى هذه القصة فى كتابه عن خليل مطران (فلما سمع البارودى هذين البيتين بكى بكاء حاراً ، وناشد حافظاً أن يحذفهما من القصيدة ، ثم نهض من مكانه ، وعاد وبيده ظرف به أربعون جنيها ، هى قيمة راتبه الشهرى المقرر له بالمعاش ، وقال لحافظ : إننى أبكى لأنى عشت إلى زمن يقدم فيه مثلى إلى مثلك هذا المبلغ الضئيل ! وقد أجاب حافظ رجاء البارودى فحذف البيتين !

استجابة لهاتف المروءة

لقد بكى البارودى لأنه تذكر زمنه الأول حين كان ينفح مستجديه جنيهات الذهب ثم هو يضطر إلى أن يتنازل عن معاشه الشهرى الذى هو كل ما لديه ، استجابة لهاتف المروءة الذى يصرخ فى أعماقه ! وهو هاتف أشد لذعا من الجمر لدى من يعدون مداواة الجراح النفسية من أقدس الواجبات ! وهم من الندرة بمكان !

ولا أترك الحديث عن البارودى دون أن أشير إلى وفاء زوجته الأميرة عديلة يكن ذات الخلق المثالى فقد كانت تماثله أريحية ومروءة وإخلاصاً ، وقد وقع الطير على شكله حين وفقهما الله تعالى لبناء بيت سعيد ، فقد جزعت أشد الجزع حين قدم زوجها الباسل إلى المحاكمة بعد إخفاق الثورة العرابية ، ورأت أن المحكمة قد اختارت للدفاع عنه محامياً مصرياً لا يرتفع إلى المستوى المنشود ، فباعت ما بالمنزل من حلى نادر ، ورياش فاخر ، ولبست السواد يغمرها من الرأس إلى القدم ، وأخذت بعض معارفها من كبار المسئولين إلى المحامى الإنجليزى المستر برودلى وهو ذو الصيت البالغ فى الدفاع عن المفكرين ، وكان مختارا للدفاع عن عرابى ، فلما رأى شدة إخلاصها وبالغ

أساها الذى يرتسم فى وجهها وحركاتها ناقشها فى الأمر الصعب، وبعده عن إمكانه فقالت إنها ستذهب إلى عقيلة المعتمد البريطاني لترجوها التوسط لدى زوجها فى هذا الأمر ، وسارعت إلي زيارة المعتمد فى منزله ، وقابلت زوجته التى تعاطفت معها ، فاستطاعت أن تظفر بموافقة اللورد ، وتم التغيير الفورى بحجة مرض المحامى المصرى المفاجئ ، وما كان لهذا الأمر أن يتم دون تدخل اللورد نفسه ، إذ كان هو الحاكم الفعلى للبلاد.

يقول المستر برودلى الذى لابس الموقف وعمل على نجاح مسعى الأميرة (لقد استنتجت مدى نفوذ زوجة محمود سامى البارودى ، تلك الزوجة المخلصة التى باعت متاعها الثمين عقب القبض على زوجها ، وارتدت الملابس السوداء الخشنة حزنا عليه ، وكانت تعيش على أمل أن تراه مرة أخرى عائداً إليها ، وحين علم محمود سامي في سجنه بما صنعت، طلب منى أن أحمل خطاباً لها يعلن مزيد امتنانه لسعاها الحرج الدقيق ، وحدد ميعاد السفر إلى المنفى ، فكانت جمهرة من النساء الفضليات يقفن لوداع الزعماء باكيات متحسرات ، وفى مقدمتهن الزوجة التى فقدت ثباتها فولولت صارخة ووقعت على الأرض مغشياً عليها عند قيام الباخرة حتى رحمها الناس وقد هدها الحزن بعد رحيله ، فماتت حزينة ملتاعة ، فوقع منعاها على المنفى المظلوم موقع الصاعقة ورثاها بقصيدة حارة من فرائد شعره قد اشتهرت بين أبناء العصر أقوى اشتهار ، وختمها بقوله:

هي مهجة ودعت يوم زيانها
نفسي وعشت بحسرة وبعاد
قد كدت أقضي حسرة لو لم أكن
متوقعا لقياك يوم معادى

هذا هو البارودى ، وهذه بعض مروءاته وتلك هى زوجه الأميرة حقاء الأميرة بوفائها ونبلها لا بأمها وأبيها! ■

كلمات عاشت

• «كما أن الأمواج تتكسر فى نهاية الأمر على الشاطىء كذلك تتحطم العواطف ، حين تبلغ آخر حدودها على صخرة الشعر»

دون جوان بايرون

• «غريب أن يكره الإنسان نفسه ، كأنما هو إنسان آخر»

جان بول سارتر

• «أن ينكر الإنسان نفسه ويرضى بالسير فى الحياة وراء نقاب يستتر به وجهه الحقيقي ، هذا هو الجحيم»

برنارد شو

أقـــوال معاصرة

• «استـيلاء الأغنياء على الجامـعات، ونقص تعليم الفقراء يعنى أن الحراك الاجتماعى فى الولايات المتحدة قد انهار»

الصحفى البريطانى «ويل هاتون»

• «القوانين المناهضة للعنصرية فى الولايات المتحدة لم تأت بجديد، إننا أحرار قبل أن يكون البيض أحرارا»

الأديبة الأمريكية السوداء «ماى هولاند»

• «حين يتعلق الأمر بالقضايا العربية، الفرق بين بوش وكيرى لا يتعدى الفرق بين الكوكا كولا والبيبسى كولا»

ناخب أمريكى من أصول عربية

• «مهمة المثقف مقاومة تأصيل الوهم وضلال الفهم»

الدكتور راشد المبارك
صاحب كتاب فلسفة الكراهية


منصور الرحباني

• «الوطن يفلت منا، ونحن غافلون»

الموسيقار اللبنانى منصور الرحبانى

• «الكسوف الاجتماعى يتم عندما تكف إرادة الفرد عن التشكل فيبهت كل شعاع وتنضب كل طاقة، ويدخل المجتمع فى ليل التاريخ»

المفكر العربى خالص جلبى


محمد جبريل

• «نحن المثقفين من يصنع الطاغية، لا ينشأ من فراغ»

الأديب السكندرى محمد جبريل

• «أعتقد أن أهم شئ بالنسبة للمرأة هو أن تتذكر أن مكانها فى البيت»

النجمة الأمريكية كيت هدسن

• «مجتمع المعلومات ربما يعلمنا أكثر من أى وقت مضى، ولكنه مجتمع قاتل للأساطير»

الصحفية الأمريكية كاترين فيلد

صورة صلاح الدين الأيوبي في الأدب الإيطالي الوسيط

بقلم
د. الطاهر أحمد مكي



تقدم لنا الآداب الأوروبية، الإيطالية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية، وربما غيرها أيضا، في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، شخصية صلاح الدين نموذجا عاليا للبطولة والمروءة والتسامح، سواء أكان هذا الإبداع خلقا جمعيا، وهو ما اصطلحنا على تسميته بالأدب الشعبي، أم حرره أدباء معروفون، حقق الكثير منهم شهرة، وخلودا، وكلاهما التقط مادته من الحكايات الشعبية التي رواها الجنود الصليبيون العائدون من المشرق إلى بلادهم بعد أن انتهت الحروب الصليبية، سمعوها من الجنود المسلمين أو من عامة الناس، أو قرأوها في بعض الكتب دون أن تكون مادة تاريخية موثقة، وشاعت بين الشعوب الأوروبية، وكل شعب منها وقف عند الجوانب والقيم التي تعنيه أو التي يحبها أكثر من غيرها، ورفض أو صمت عما رآه غير مناسب له، أو لا يتفق مع طموحاته السياسية والروحية.



ومن ثم ارتدى صـــلاح الدين الأيـوبـي في كـل أدب ثـوبـا، واتخذت الحكايات المتصلة به في كل أمة شكلا. تصرف فيها كل شعب على النحو الذي يرضى ذوقه، ويحقق غايته، دون منطق يربط بين أجزاء الحكاية، أو يحكم بنياتها، أو يأخذ في الحسبان إمكان حدوثها واقعا، وبداهة الصدق التاريخي ليس واردا هنا، لا سلبا ولا إيجابا.

بطل موقعة حطين

لقد بلغت عبقرية الإسلام السياسية والحربية قمة توهجها في العصور الوسطى في شـخص صـلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ - ١١٩٣ م) في صـورة Saladin، سلطان مصر، أو بابل، وخليفة بغداد، ومحرر القدس من الصليبيين، وبطل موقعة حطين، القائد الذي انتصر على ريتشارد الأول ملك إنجلترا، وفيليب الثاني ملك فرنسا، وأعاد الأراضي المقدسة عربية إسلامية كما كانت، وبعث الحمية في نفوس المسلمين، ووحد الشرق الإسلامي، وجعله قوة فاعلة في مواجهة الغرب المسيحي.

فيما بعد تغيرت الصورة والاتجاه ونسي الغربيون عداوتهم لصلاح الدين وما ألصقوه به، وبدأوا يركزون على أشياء في حياته أكثر نبلا، ويبدو فيها النموذج الأكثر روعة، ويعكس من الفضائل الإنسانية العليا أجملها. ويرى النقاد الأوروبيون أن اتخاذ شخصية صلاح الدين نموذجا مثاليا في مجتمعات مسيحية لا يعني - بالنسبة لهم على الأقل - أن ذلك انعكاس لحياته وعظمته واقعا، لأن أمجاده قامت كلها على تدمير حياة الصليبيين، وإخراجهم من الشرق الإسلامي عامة، وفلسطين خاصة، وإنما اتخذه المبدعون وسيلة للتعبير عن مواقف كانت موجودة في أذهانهم من قبل، وأماني ما أكثر ما داعبت خواطرهم، واستدعت اللحظة أو المصلحة أن تظهر بين شعوبهم وحكامهم في لحظة ما، وليكون لها هيبتها وتقديرها بين الجمهور، وأن تجد منه قبولا، تطلب الأمر أن يجيء التعبير عنها من خلال شخصية نموذجية، ولا بأس أن تحمل ملامح أسطورية.

وربما، فيما يرى المفكر الإسباني الكبير أمركو كاسترو، ترتبط بموقف ناقد من الكنيسة نفسها، فهي تلمح إلى أن روح الله يمكن أن تعبر عن نفسها من خلال عقائد ليست مسيحية بالضرورة، وهي فكرة التعبير عنها صراحة يوقع صاحبها في قبضة محاكم التفتيش القاسية، وكانت سائدة إذ ذاك في معظم البلاد الأوروبية.

ظاهرة تمجيد صلاح الدين

لا يكفي لتفسير ظاهرة تمجيد صلاح الدين في هذه الكتابات أن نقول إنه كان بطلا، وأن روح التسامح كانت

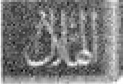
قد بدأت تهب على البلاد الأوروبية حينئذ، في مستويات متفاوتة، ومساحات تختلف من بلد أوروبي إلى آخر ، لأن الأمر أكثر من تسامح فيما يبدو، ولا يكفي أن يكون المرء بطلا محاربا، أو عظيما، لكي يصبح نموذجا للفضائل ، فجنكيز خان مثلا لم يستطع على الرغم من كل الفتوحات التي حققها، والحروب التي انتصر فيها أن يتسرب إلى روح التعبير الأدبي عند الشعوب المسيحية.

العلاقات بين مصر وإيطاليا

في الأدب الإيطالي كانت بداية الحديث عن صلاح الدين!

وأكثر من سبب يجعل الأمر طبيعيا ومنطقيا، فالعلاقات التجارية بين مصر ما بعد الحروب الصليبية والموانىء الإيطالية الشهيرة تواصلت وازدهرت، وصقلية، وهي جزيرة على مرأى البصر من إيطاليا، أصبحت منذ عام ٨٢٧ م جزيرة عربية إسلامية، واتخذ منها المسلمون قاعدة لهم لتهديد مدن جنوب إيطاليا، فخضعت لهم بارة على البحر الإدرياتيكي ، وظلت قاعدة للأسطول الإسلامي بعد فتحها عام ٨٤١ م، على امتداد ثلاثين عاما، وخضعت لهم مدن ترنتو وقلورية ونابلي ، وظهروا أمام مدينة البندقية ، وهددوا روما نفسها، وظلت قبضتهم على إيطاليا قوية، حتى أن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢ م) رأى من الحكمة أن يدفع الجزية للمسلمين على امتداد عامين، وأصبحت صقلية في أواخر عهدها الإسلامي ولاية مصرية تتبع الخليفة الفاطمي في القاهرة، واتخذ منها الأسطول المصري قاعدة لسفنه الحربية في البحر الأبيض المتوسط، وفي العهد الفاطمي ازدهرت الثقافة العربية في صقلية ، وحين استولى عليها النورمانديون في عام ١٠٩١م واصلت الثقافة العربية عطاءها إلى جانب ثقافات أخرى سالفة، يونانية ورومانية وعربية ، وكانت بالرمو العاصمة تتكلم ثلاث لغات، بين الطبقة المثقفة على الأقل: اليونانية واللاتينية والعربية، وملوكها أنصاف مشارقة يرتدون ملابس عربية فضفاضة ، ويحيطون أنفسهم بعلماء مشارقة، فلاسفة، وأطباء ومنجمين، وظل كبار الموظفين المسلمين في وظائفهم ، والنساء المسيحيات يرتدين ملابس شرقية، ويخرجن إلى الشوارع محجبات.

كان فيدريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠ م) يحكم صقلية وألمانيا ويحمل لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وبعد عام ١٢٢٠ م أصبح ملك بيت المقدس بزواجه عام ١٢٢٥ م من وريثة عرشها إيزابيل أف برين، ومن ثم كان يتمتع بأعلى نفوذ مدني في العالم المسيحي، وبعد زواجه بثلاث سنوات قام بحملة صليبية رابعة كان لها أبلغ الأثر في



تعميق معرفته بالثقافة الإسلامية، فكان فى حياته الرسمية وعاداته الشخصية «رجل» فى المشرق والأخرى فى روما ، وازدهر فى بلاطه كوكبة من الفلاسفة والعلماء، جاءوا من مصر وبغداد والشام، لصاهم طويلة، ويرتدون ملابس فضفاضة وكان اهتمامه بالعالم الإسلامى كبيرا، وتربطه بمصر خاصة علاقات سياسية واقتصادية قوية ويتبادل مع ملوكها الهدايا، ويتراسل مع عدد من الحكام المسلمين وعلمائهم حول قضايا علمية رياضية وفلسفية وهندسية وفلكية وعقيدية تحديا أو يطلب المعرفة. ولكن أعظم خطوة علمية أضافها فيدريك تأسيسه جامعة نابلى عام ١٢٢٤ م، وهى أول جامعة فى أوروبا أسست بقرار خاص، وأودع مكتبتها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية.

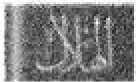
كانت صقلية نقطة التقاء بين ثقافتين: العربية الإسلامية والغربية المسيحية، ومهيأة بحكم مركزها لتكون مركز نقل علم العصور القديمة والعصور الوسطى إلى أوروبا، بحكم العناصر التى تسكنها، الإغريقية واللاتينية والعربية، واللغات التى تتكلمها، وفيها من يعرف اللغات الثلاث الأساسية، اليونانية واللاتينية والعربية، وجميعها تستعمل فى السجلات الرسمية والأوامر الملكية. وكان ملوك صقلية يحكمون جنوب إيطاليا إلى جوار صقلية فأصبحت هذه جسرا عبرت عليه مختلف عناصر الثقافة العربية إلى إيطاليا ووسط أوروبا، وكان التقدم العلمى فى صقلية يمثل بداية فجر النهضة فى إيطاليا.

بدأ الأدب الإيطالى يزدهر بتأثير من الأدب العربى ومن الأدب البروفنسى، الذى ولد بدوره فى أحضان الأدب العربى وجاء على شاكلته بناء ومحتوى ، فاحتذى الشعراء الإيطاليون فى نظمهم الزجل الأندلسى . فتركوا اللاتينية ونظموا فى الإيطالية العامية، وجاء بناء شعرهم وأوزانه تشبه الموشحات والأزجال الأندلسية إلى حد بعيد.

الأدب الإيطالي .. وصلاح الدين

ومن ثم ليس بدعا أن يكون الأدب الإيطالى أقدم أدب أوروبى تحدث عن صلاح الدين.

رأى الإيطاليون ، أو مبدعوهم إذا شئت، فى صلاح الدين سيدا عظيما لا يقل جلالا ونبلا عن الإسكندر الأكبر، وفى كتاب «مائة حكاية قديمة» Le Cent novele ontiche ويعرف أيضا باسم «حكايا Novelleno» فحسب ، وهو مجموعة من الحكايات جمعها مؤلف إيطالى مجهول، فى نهايات القرن الثالث عشر الميلادى لغايات خلقية، والتقطها مما رواه فرسان الحروب الصليبية من كل الأعراق، من أساطير وحكايات. ما يلقى الضوء على



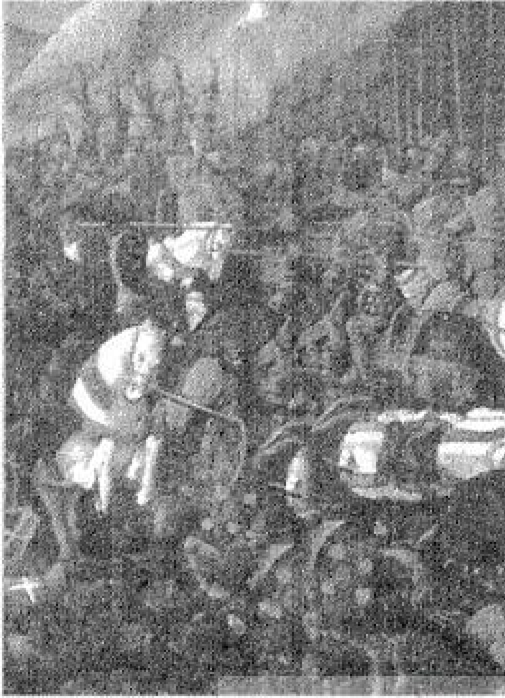
خصلتين رأت أنهما أوضح ما اتصف به صلاح الدين : الفطنة والحيلة، إلى جانب أنه سلطان عظيم، وكريم نبيل. سيد سخي، وتورد حكاية تدلل بها على ما ترى ، تقول:

أمر صلاح الدين ذات مرة بإعطاء صاحب حاجة مئتي درهم من بيت المال، فأخطأ الكاتب وخطها ثلاث مئة، وأراد الكاتب أن يصلح الخطأ. ولكن صلاح الدين أمر بأن تكتب أربع مئة، حتى لا يكون قلم خازنه أسخى منه.

وعن الحيلة تروى المجموعتان أيضا أن صلاح الدين التقى في النزال مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفي المبارزة فقد قلب الأسد جواده وأخذ يقاتل راجلا، فما كان من صلاح الدين إلا أن قدم له جوادا فليس صوابا أن يقاتل نبيل مثله راجلا، ولكن الملك شك في الأمر فترك الحصان لتابعه، فما إن صعد على ظهره حتى أسرع به هاربا إلى إلى معسكر صلاح الدين ، فقد كان الحصان مروضا على هذا.

المثل الإسلامي الأعلى

وفي الكوميديا الإلهية ذكر دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١م) كوكبة من حكماء العالم القديم وعظمائه وأبطاله وشخوص ملاحمه وأساطيره ، ممن تمنى أن يحشر في زمرتهم في الدار الآخرة، ولم يذكر في هذه الفقرة غير ثلاثة مسلمين: صلاح الدين الأيوبي وابن رشد وابن سينا .



الحروب الصليبية أثبتت أن صلاح الدين كان صاحب فطنة وحيلة، إلى جانب أنه سلطان عظيم

جاء باسم هذا الأخير مجرداً من أي صفة ووصف ابن رشد بأنه الذي صنع الشرح الكبير (لأرسطو)، ووصف صلاح الدين بأنه كان يقف بمفرده.. تراه أراد أن يقول إنه ليس مثل بقية الآخرين ، ليس وثنيا ولا مسيحيا ولا رومانيا ، وربما أراد أن يصوره بطلا أسطوريا ، فقد كان يراه المثل الإسلامي الأعلى.

يرى الإبداع الإيطالي أيضا أن صلاح الدين شخصية كثيرة الشك، لا تهتم بالمسائل الدينية، وتراه بعض الحكايات على حافة اعتناق الكاثوليكية، ويرى بعضها الآخر أنه اعتنق الكاثوليكية

فعلا، وأن المقام استقر به في إيطاليا واتخذها موطنا، وكلها حكايات تعبر عن الرغبات الكامنة في وجدان أصحابها، ولا تعتمد على أساس تاريخي

وقدم لنا الإبداع الإيطالي أجمل حكاية رمزية مرتبطة بصلاح الدين، وهي قصة «الخواتم الثلاثة» ، جاءت في شكل بدائي أولا في مجموعات القرن الثالث عشر، «تتفق» في الهيكل العام، ولكنها تتفاوت طولا وقصرا، وتختلف أحداثا وشخوصا، وفي شيء من تفصيلاتها، إلى أن جاء أديب إيطاليا الكبير بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥م) فحررها في صورة بالغة الروعة، بناء وتركيبا وأسلوبا ، وشغلت هذه الحكاية الفكر الأوروبي زمنا، وساحت عبر الآداب المختلفة، الفرنسية والانجليزية والألمانية ، وخلت منها تماما في أية صورة آداب شبه جزيرة إيبريا، الإسبانية والبرتغالية والقطلونية والجليقية، مما يشي بأننا أمام حكايات صيغت لغايات عملية، وجاءت وليدة انفعال حي أو خيال جامح، ولابد أن استعداداً خاصا توفر لإبداعها في المكان الذي تشكلت فيه.

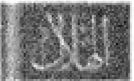
شغلت قصة «الخواتم الثلاثة» الحكاية الثالثة من حكايات كتاب بوكاشيو «الصباحات العشر Decameron» ، وجاءت تحت عنوان، «اليهودي» ملكي صادق وحكاية الخواتم الثلاثة التي تخلص بها من مأزق حرج أوقعه فيه السلطان صلاح الدين:

«بلغ السلطان صلاح الدين الأيوبي قدرا من الشجاعة والجسارة ارتفع به من طبقة العامة إلى عرش سلطنة بابل، وبفضل جرأته وشجاعته حقق انتصارات كثيرة على أمراء المسلمين والنصارى ، وقد استنفدت كثرة الحروب ورفاهية عيشه، كل ما كان يدخره في بيت المال، وفجأة احتاج إلى مبلغ ضخم من المال لم يدر من أين، وكيف، يحصل عليه بسرعة، ثم خطر بباله أن يهوديا غنيا يدعى «ملكي صادق» يعيش في مدينة الاسكندرية ، وأنه يقرض الناس من أمواله بالربا، فرأى السلطان أن من الممكن أن يجد العون عنده، ورغم أنه على ثقة من بخل اليهودي، وأن ذلك البخل سوف يمنعه من التطوع لمساعدته، رفض أن يلجأ إلى استخدام العنف معه».

صلاح الدين واليهودي

ولكن أزمته المالية اشتدت ، ولم يعد أمامه إلا أن يدفع اليهودي لمساعدته مهما كلفه الأمر من مجاملة أو مخاشنة، وأجهد فكره في البحث عن ذريعة تسوغ له إرغام اليهودي على إقراضه المبلغ المطلوب، مع المحافظة في الوقت نفسه على الحق والعدل ظاهراً.

استدعى صلاح الدين اليهودي، وأكرمه غاية الإكرام ، أجلسه إلى جانبه،



وقال له:

يا صديقي العزيز، أكد لي كثيرون من معارفي أنك حكيم متخصص في علم الإلهيات، وأود أن تبين لي أي دين من الأديان الثلاثة: الإسلام ، أو المسيحية، أو اليهودية هو الدين الحق؟

لم يكن اليهودي في الحقيقة عبيطا، وأدرك في الحال أن السلطان إنما يطرح عليه هذا السؤال رغبة في إذلاله، مهما كانت إجابته ، وأيا كان الدين الذي سوف يفضله من بين الديانات الثلاثة فإنما يعاون السلطان على نيل مآربه ، فقدح ذهنه، واستجمع فكره ليصل إلى جواب فيه البراءة التي يبتغيها ، قال:

مولاي، السؤال الذي طرحته عليّ سؤال جيد جعلني أفكر بعمق، ومادمت قد طلبت مني الإجابة ، فأرجو أن تسمح لي برواية هذه الحكاية القصيرة.

«لا أزال أتذكر الروايات الشائعة التي تروى عن غني نبيل عاش في قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان، وكان قد ادخر في خزائنه جواهر كثيرة وأحجارا كريمة نادرة، وكان عنده خاتم نفيس عجيب ، يفضله على سائر كنوزه، وأراد أن ينال هذا الخاتم ما يليق به من تقدير قيمته، وأن يبقى إلى الأبد ملك سلالته، وأوصى أن وراثه الوحيد من أبنائه من يستطيع أن يقدم الخاتم لأخوته مثبتا أنه ناله من والده، فيشرفونه ويكرمونه ويقدمونه عليهم، ويتركون له الميراث كله، وأوصى وارث الخاتم الأول أبناءه بمثل ما أوصاه به أبوه من قبل.. باختصار كان الخاتم ينتقل من وارث إلى وارث حتى انتهى إلى رجل كان له ثلاثة أولاد متساوون، في قوة الجسم وحميد السيرة، يطيعون والدهم دون أدنى معارضة، ولذا كان.. يحب كلا منهم حبه للآخر، وعرف الشبان الوصية الخاصة بالخاتم، وطمع كل واحد منهم في أن يفضل الآخرين وأن يكون الخاتم له.

وكلما خلا أحدهم بأبيه الطاعن في السن توسل إليه طالبا منه أن يعطيه الخاتم، ولما كان الرجل الطيب يحب أولاده دون تفرقة ، احتار فيمن يختاره منهم ويجعله وارث الخاتم، فكان يعد به كل من يتحدث إليه منهم، ويبحث عن وسيلة تمكنه من إرضائهم جميعا، وليبلغ هدفه بدأ ينفذ الخطة التالية في سرية تامة: أمر صائغا ماهرا أن يصنع خاتمين يشبهان الخاتم الأصلي تمام الشبه، حتى أن الأب نفسه كاد ييأس من تمييز الخاتم الأصلي عن الآخرين.. وعندما أشرف على الموت أعطى كل واحد من بنيه خاتما منها ، خفية عن أخويه،

بعد وفاة الوالد ادعى كل واحد من الأبناء أنه وارث الخاتم، ومن ثم فهو المفضل على الأسرة ، وتنازع الأخوة الأفضلية، وتعلل كل واحد منهم بتقديم

الخاتم الذى أعطاه والده إياه، وأخيرا انتهوا إلى أن تشابه الخواتم يحول بينهم وبين تمييز الخاتم الأصلى عن الخاتمين الآخرين، وأصبح تحديد الوارث الحقيقى قضية معلقة لا يمكن البت فيها.

ولايزال الأمر كذلك حتى يومنا!

وهذا هو رأيى بعينه يا مولاى فى الأديان الثلاثة، التى أنعم بها الله على أهل هذه الملل، وتلك الأديان التى سألتنى عنها، يعتقد أهل كل ملة بأن الأب خولهم امتلاك ميراثه، وأنه أنعم عليهم بالدين الحق، ومن عليهم بوصاياه الإلهية ليسيروا عليها، أما أن الميراث الإلهى من حق من، فمسألة ستبقى معلقة، كما بقيت قضية الخواتم الثلاثة دون أن يبت فيها.

براعة فى مواجهة صلاح الدين

«أدرك صلاح الدين براعة اليهودى الذى عرف كيف يتخلص مما وضعه فى طريقه من الشراك والحيل، وعزم على ترك التحايل ومصارحته بما كان يحتاج إليه، معترفا بما كان يعتزم أن يفعل به لو لم تنجده سرعة خاطره.. وما أظهره من ذكاء فى إجابته عن السؤال المطروح عليه، ولم يتوان التاجر اليهودى عن مساعدة السلطان فى كل ما طلب منه، ولم يكتف صلاح الدين بأن يرد لليهودى المال الذى أقرضه إياه فحسب، وإنما أغدق عليه أيضا الهدايا والعطايا، وشرفه وكرمه بأن جعله من حاشيته المقربين إليه وظل يعتبره صديقا من أصدقائه.

شغلت هذه الحكاية الفكر الأوروبى زمنا، وتعاورتها تفسيرات مختلفة، رأى فيها بعضهم دفاعا من اليهود عن دينهم، ورأى فيها آخرون تبشيرا من النصارى بعقيدتهم، وعدها كثيرون لونا من محاولة التآخى بين الأديان بعيدا عن سطوة محاكم التفتيش، وكانت قائمة على أشدها فى إيطاليا وغيرها من بقية بلاد أوروبا.

ونلتقى بصدى هذه الحكاية، فى هذا العصر، أو قريب منه، فى كتاب ألفه يهودى أندلسى، «سلمون بن فرجة»، من القرن الخامس عشر الميلادى، بعنوان: صولجان يهودا La Vara de Juda».

وجاء فى تحريره على نحو ما كانت عليه المؤلفات الإسلامية، والمؤلفات اليهودية التى احتذت منهجا «مجموعة من الحكايات ضاربة فى القدم، تعود إلى القرن الثانى عشر الميلادى، وموجزها:

سأل الملك بدرو الأول (١٠٩٤ - ١١٤٠م) ملك أرغون، وكانت أكثر ممالك النصارى تقدما وتحررا فى الأندلس، لتأثرها قبل غيرها، وأكثر من الجميع، بالحضارة الإسلامية، سأل يهوديا: أى الديانتين حق، المسيحية أم اليهودية؟



صــــــلاح الدين الأيوبي

فـرد اليـهـودي بـأن قص عليـه الحكاية التالية:

«منذ شهر تقريبا خرج جار لي في رحلة، ولمواساة أولاده ترك جوهرة لكل واحد منهم، ثم جاء الولدان لرؤيتي وطلبا مني أن أوضح لهما طبيعة الجوهرتين وقيمتهما والاختلاف بينهما، فرددت عليهما: لا أحد يستطيع أن يشرح لكما ذلك خيرا من والدكما، إنه جوهري حاذق، اسألاه وهو يقول لكما الحقيقة، ولأني قلت لهما هذا سبّاني وضرباني.

فهم الملك ما ترمي إليه الحكاية، ولم يغضب، وأثنى على ذكاء اليهودي، فقد كان التعايش بين الجماعات والأديان في الأندلس بجانبيه، الإسلامي والمسيحي، سائدا ومقرراً.

القصتين، مثل صور أخرى كثيرة وبسيطة، تعبر عن روح التسامح، رغم أنها جاءت بصدد الحديث عن بطل الحروب الصليبية تضيع ملاحظتها والإمساك بها، وفيهما حلت المشكلة الدينية بوصفها فضولا عقليا مستثيرا ببرود مثير، وبموضوعية وحياد، وعبرت عن قلق المسلمين القوي، وتململ اليهود الحذر في بيان وإيجاز..

وانفصلت عن شخصية الذي حكاها، فلم تعد مرتبطة به، وكانت على التأكيد طريقا إلى السببية الملحدة مع أنه لا بوكاشيو ولا مؤلف الحكايا -Novelli no كان ملحدا أوزنديقا علانية وإن كان يؤمنان بأن الله لا يتدخل في سير الموضوعات الإنسانية.

في وهج عصر التنوير تخفى عدد من الأدباء الكبار وراء قصة «الخواتم الثلاثة» اتخذوها وسيلة للتعبير عن رأيهم في المشكلة نفسها، دون أن يتعرضوا للملاحقة أو المآخذة، وكان أشهر هذه الأعمال مسرحية «ناتان الحكيم -Na than der weise» للشاعر والناقد الألماني جوتهولد إفرائيم لسينج -Gott hold Ephraim Lesing (١٧٢٩ – ١٧٨١م).

في البدء وقع الكاتب الألماني على الفكرة في كتاب «دقائق الأمور» للمفكر الإيطالي جيرولامو كاردانو -Girola

Cardano mo (١٥٠٥ - ١٥٧١)، وكان عالما رياضيا كبيرا، وطبيبا فيلسوفا، وباحثا متعمقا فى مشكلات الطبيعة والإنسان فقد جعل محور الباب الحادى عشر من كتابه حوارا بين وثنى ويهودى ومسيحى ومسلم، وكل واحد منهم يدافع عن معتقده الدينى، الوثنى يجادل اليهودى، وهذا يناقش المسيحى وينازع المسيحى المسلم، الذى يرد على المسيحى ردودا مقنعة بأدلة قاطعة مما دفع بعدد من المسيحيين إلى اتهام مؤلف كتاب دقائق الأمور بالكفر والزندقة ولكن ليسينج لم يشاركهم الرأى، ورأى أن الاتهام ظالم وأن الذين يكرهون الكتاب ويكفرون المؤلف لم يقرأوه وألف رسالة دافع فيها عن المؤلف الإيطالى وحاج الذين طعنوه فى دينه وأوحت إليه هذه المناسبة أن يعالج القضية مسرحيا وأن يتخذ من حكاية «الخواتم الثلاثة» التى أوردها الكاتب الإيطالى بوكاشيو أساسا لها ، وأن يتخذها وسيلة للرد على منتقدى كاردانو فى مقارنته بين الأديان، ويلحظ النقاد أن أفكار ليسينج فى المسرحية وكتبها عام ١٧٧٩، تختلف عنها فى المقالات التى نشرها من قبل شابا، وإن شئت فإن نظرته إلى الأديان فى شيخوخته اختلفت عنها فى شبابه، فهو فى المسرحية يدعو أتباع الديانات الثلاث إلى التقارب فيما بينهم عن طريق العمل المشترك، لتحقيق وصايا ربهم الذى يؤمنون به جميعا وأن هذا التفاهم لا يتحقق عن طريق الحوار والمناقشات والجدل، ودفاع كل منهم عما يؤمن به وإنما يتم عن طريق إنجاز الأعمال الصالحات التى أمر الله بها أتباع الديانات الثلاث، طبقا لما هو فى القرآن والتوراة والإنجيل، وهو عمل لما يتحقق عبر التاريخ إلا نادرا وكان التعصب وهو الغالب طريقا إلى ارتكاب جرائم بشعة، تغص بها المدونات التاريخية غذاها التعصب والابتعاد عن استخدام العقل الذى منحنا الله لنستخدمه قدر استطاعتنا لصالحنا، مع مراعاة صالح غيرنا من البشر، واستخدام العقل هو جوهر التنوير كما يرى الفيلسوف الألمانى عما نوئيل كانت.

ظل ليسينج متفائلا بمستقبل الإنسانية، رغم فظائع الحروب التى شهدها، مؤمنا بأن العالم يتطور نحو الأفضل لنمو القدرات العقلية عند الناس أجمعين والتخلص من قيود التقليد الأعمى وتغلب التربية العقلية المناسبة، وهو تفاؤل لم يصدق مع الأسف الشديد لا فى أيامه ولا ما فى بعدها، ولا أظنه الآن أقرب منالا وهناك قوة طاغية، مستبدة اسمها الولايات المتحدة الأمريكية، ترتكب أشد الجرائم هولا وفظاعة، من أشد القنابل فتكا، إلى أقسى الأسلحة النووية تدميرا، ومع ذلك

لا بأس أن تكذب وتغالط وتخدع، وهى تسوق العالم كله إلى الخراب والدمار.

أمير مسلم نموذجى

اتخذ ليسينج من حكاية «الخواتم الثلاثة» أصلا لمسرحيته، لكن المسرحية تختلف بداهة عن الحكاية فقد اتسع المؤلف بحبكتها عما هى عليه فى الحكاية ولم يكتف بإظهار صلاح الدين فى مواجهة التاجر اليهودى فوق المسرح وإنما ملأه بشخوص من الأديان الثلاثة واحتفظ من الحكاية بأمرين أساسيين مما ورد فيها: صلاح الدين بأخلاقه التى وردت فيها فهو أمير مسلم نموذجى بطل شجاع، تقى عالى الهمة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتسم بالتسامح ورحابة الصدر، وهى صفات أتاحت للتاجر اليهودى أن ينعم بالأمن والأمان فى مجلس صلاح الدين وفى مملكته.

والأمر الآخر: التاجر اليهودى ويتصف بالفطنة والحكمة حكمة لم يتعلمها من الكتب أو فى المدرسة وإنما صقلته بها صروف الدهر التى ابتلاه بها ربه القدير.

ومع أن الشخصية المسيحية غابت فى الحكاية تماما، فلتقى بها فى المسرحية فى مستويات مختلفة: البطريرك ولم يتعاطف معه المؤلف ووصمه بالتعصب الدينى وقسوة القلب وفارس صليبى أسره صلاح الدين ثم عفا عنه لأنه يشبه أخاه، واكتشف ناتان التاجر اليهودى أن هذا الفارس تربطه فعلا صلة قرابة بصلاح الدين، وجعل منه المؤلف جماع صفات فاضلة وأخرى قبيحة فهو يتصف بالشجاعة والكرم ولكنه يتصف أيضا بالتكبر والغرور وضيق الأفق.

وثمة شخصية مسيحية أخرى أعلى المؤلف من شأنها، ومن واقع تجربتى الذاتية اتفق معه تماما، وهى شخصية الراهب البسيط المتواضع المتسامح يتقرب إلى الله صدقا وبرا وقياما بأعمال الخير.

ولكن ليسينج متأثرا بروايات أخرى للحكاية، وتتصل بالسحر والقوى الخفية أضاف إلى الخاتم الأصلى قوة سرية خاصة، يصبح بها حامل الخاتم مقبولا عند الله، محبوبا من الناس، واثقا من قوته طالما كان يحمله.

* * *

أظنها إحدى المرات القليلة التى يعجب فيها شعب بأخلاق المنتصر عليه ومن ألحق به الهزائم.

إن الجبن تحت أى اسم أو صنفة أو راية، لا يخلق مجدا، ولا يصنع قوة، ولا يصد عدوانا، ولا يدخل صاحبه التاريخ

طبت حيا وميتا يا صلاح الدين! ■

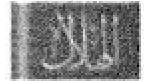
دائرة حوار

قبل فوات الأوان

علومنا الطبيعية الغائبة عن فرانكفورت

بقلم
د. مجدى يوسف •

أخيرا هلت علينا الجامعة العربية ببرنامج مشاركتها فى معرض فرانكفورت للكتاب فى أكتوبر القادم. وقد نشر على الإنترنت ، فإذا به يحتفى كل الاحتفاء بإسهامات أجدادنا الأوائل فى علوم الطبيعة، وذلك من خلال محور أعلنته فى يناير الماضى اللجنة المكلفة من الجامعة نفسها بتنسيق هذا البرنامج، وهو محور «عندما كان العلم يتحدث العربية» ، الذى أخذ عن سلسلة من الندوات سبق أن قدمها المركز الفرنسى فى القاهرة ليعرفنا بآيات تراثنا العلمى، الأمر الذى يجعلنا لا نعجب، بل لا نطمئن لأن يقدم لنا غيرنا تراثنا فى عقر دارنا، بينما نقف نحن من هذا الحدث موقف المتفرج، وكان الأجدر بنا أن نقوم نحن بهذا العمل .



• رئيس الرابطة الدولية لدراسات التداخل الحضارى - جامعة بريمن (ألمانيا)


عمرو موسى

أما الدلالة الأخرى والأهم لهذا المحور، فهي أننا كنا في الماضي أصحاب إسهامات جليلة في العلوم الطبيعية، أما نحن معشر العرب في لحظتنا الراهنة فليس لنا إسهام يذكر في هذا المجال، بينما صار العلم يتحدث اليوم اللغات الأوربية والانجليزية الأمريكية بعد أن كان يتحدث العربية في ماضي الزمان! وهو قول بحاجة للمراجعة، خاصة وأن اللجنة المنسقة للمشاركة العربية في معرض فرانكفورت قد باتت ضحية له حتى أنها لم تورد مثالا واحدا في برنامجها للإنتاج المعرفي، بل الإضافات العربية المعاصرة في مجال العلوم الطبيعية الحديثة. فلو حاولت اللجنة المذكورة أن تطلع - مجرد الاطلاع - على عناوين رسائل الدكتوراه في مجالات العلوم الطبيعية في الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية المنتشرة عبر كل الأقطار العربية لما استطاعت أن تتجاهلها مثلما فعلت في برنامجها الذي اقتصر على تقديم الأدب والفنون العربية المعاصرة، بينما تنكب تماما عن إيراد نموذج واحد للإضافات العربية في مجالات العلوم الطبيعية الراهنة. وكأننا نقول للألمان، ولعامة الغربيين ، إن التصور الشائع عندهم عنا صحيح بأننا نحن معشر العرب المعاصرين - على العكس من أجدادنا الذين أثروا العلم بمكتشفاتهم - لا نملك إلا الأدب والشعر وبعض الفنون التشكيلية التي يحاول معظمها أن يحاكي الفنون الغربية.. أما في مجال العلوم الطبيعية التي تمثل العصب الفاعل في صنع التاريخ الراهن للبشرية، فليس لدينا ما نقدمه، بدليل أننا نذهب بأيد خاوية في هذا المجال الخطير الأهمية إلى فرانكفورت . بل إننا نقدم على هذا النحو بأنفسنا أفضل الأسانيد للذرائع الإسرائيلية والأمريكية التي تبرر بها محاولات تدخلها في حياة شعوبنا العربية لتنقض على ثرواتها الطبيعية من ماء ونفط ومعادن إلخ، مصورة للشعوب الغربية أننا نحن العرب المحدثين، لا نملك من أدوات العلوم الحديثة ما ندير به شئون دنيانا بأنفسنا، فما نحن سوى معيدين لإنتاج المعارف الغربية الحديثة في مجال علوم الطبيعة التي هي الأساس الفاعل في عصرنا الراهن. ولعل من المؤسي حقا أن هذا التصور ليس فقط سائدا لدى الشعوب الغربية عنا، وإنما

تشاركهم فيه نخبة بائسة مستسلمة للهيمنة الغربية من المثقفين العرب أنفسهم، بل أن من بينهم علماء طبيعيين عربا هم أنفسهم - وهنا مصدر الطرافة المحزنة - منتجون لحلول غير تقليدية لإشكالات الحياة الطبيعية لشعوبهم، ولا داعي لذكر الأسماء.. ولعل هذا التصور السائد هنا وهناك هو الذى حدا بأعضاء اللجنة المنسقة للمشاركة العربية في معرض فرانكفورت أن تتجاهل الإسهامات العربية المعاصرة في مجالات العلوم الطبيعية . وهو أمر يتعلق على أية حال بصورة للذات تعاني من الإحساس بالدونية والخضوع للآخر «المتفوق» ما أشد حاجتها لعلاج سريع...

فبقدر ما تصبح صورة الآخر مبهرة عن حق أو عن باطل، بقدر ما تكون صورة الذات سلبية ولعل هذه الحالة الأخيرة هي التي تميز الخطاب الغربي المعاصر بإزائنا نحن العرب المحدثين، وهي التي يعيد إنتاجها لشديد الأسف كثرة من «مثقفينا» الأفاضل الذين صار كل ما هو غربي قبلة لهم بلا أي تمييز أو حس ناقد مغربل، وكل ما هو عربي عار من القيمة ولو كان مبدعا وجديدا في مساراته غير المألوفة. وليس الفريق الذى كلفته الجامعة العربية بوضع وتنسيق برنامج المشاركة العربية الذى سيقدمنا في فرانكفورت أفضل حالا (أنظر على سبيل المثال الحديث الذى أدلى به «رئيس اتحاد الناشرين العرب»، الأستاذ إبراهيم المعلم لـ «أخبار الأدب» في عددها الصادر بتاريخ ٢٣ مايو الماضي، والذى يقول فيه: إن الثقافة العربية «ضعيفة» ولكنهم - أي الفريق المنسق لبرنامج المشاركة العربية في فرانكفورت - سيقدمونها على نحو «مشرف» ، الأمر الذى اضطرني للرد على سيادته في عددين متتاليين من الصحيفة نفسها (٣٠ مايو،٦ يونيو ٢٠٠٤) ليس دفاعا عاطفيا عن أنفسنا، وإنما توضيحا لأوهام تعشش في أذهان مثقفينا حول واقعهم وواقع شعوب بلادهم. فعلى الرغم من كل التشوهات التي يعاني منها الواقع العربي المعاصر، إلا أنها تشوهات بادية للعيان ، أما تشوهات المجتمعات الغربية الراهنة فأكثرها ليس ظاهرا، وإنما يحتاج إظهاره إلى عين باحثة فاحصة وخبرة بالحياة في المجتمعات الغربية تزيد على سياحة عابرة لشهر أو لبضع سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة! ومع ذلك فمن منا يريد أن يغمط حق الغربيين في الاعتراف بمنجزاتهم في مختلف مناحي الحياة وجدهم في الإنتاج كافة، وهو جد أثمر ما صار يغرق البشرية كلها ببضائعه، التي هي معظمها لا تزيد على حزم من الأفكار والحلول المبتكرة. ولكن هل الابتكار حكر

على الشعوب الغربية وحدها؟ وهل شعوبنا العربية على اختلاف مسارات وخصوصية تطور كل منها خاوية من أى إبداع فى إشباع حاجاتها؟ إنى لا أقصد بالإبداع بيتا من الشعر، أو لوحة من الفن، وأنما أقصد الإبداع فى كل مناحى الحياة، المادى منها والمعنوى على حد سواء . بل إذا كانت الحاجة أم الاختراع كما يقال، ألا يكرس الكثير من إنتاجنا فى العلوم الطبيعية لسد احتياجاتنا؟ ألا يعمل فريق البحث الذى يقوده صديقنا الدكتور أحمد مستجير لتوفير رغيف الخبز من خلال استخدام هندسة الوراثة فى معالجة النباتات الاستراتيجية الرئيسية، حتى يمكن ريها بمياه البحر بعد معالجتها؟ أليس هذا ابتكارا؟! أو ليس إبداعا أن يكتشف الدكتور محمد رءوف حامد منذ أكثر من عشرين عاما فى ليبيا أن مادة استهلاك الهريسة، وهى نوع من الشطة الحارة التى يتناولها الليبيون مع كل وجبة تؤدى إلى امتصاص مختلف للدواء عن تلك المعايير التى وضعتها وعولمتها إدارة الغذاء والدواء الأمريكية، بل تخالف وتختلف مع ما اصطلح عليه فى علم الدواء الغربى من أن تناول الشطة يؤدى إلى قرحة الأمعاء، إذ اكتشف الدكتور رءوف حامد أنها على العكس من ذلك تساعد على الوقاية من قرحة الأمعاء من خلال تناولها بانتظام مع كل وجبة حسب عادة استهلاك الطعام لدى الشعب الليبى، حتى أن هذا الاكتشاف قد غير من معالم علم الدواء الغربى بعد مناقشته فى مؤتمرات الفارماكولوجيا فى النمسا، وسويسرا، واليابان (طوكيو)؟ أليس هذا إبداعا تعدى المجتمع العربى إلى كل أنحاء البشرية، حتى أن شركة تركية سطت على هذا الاكتشاف وصنعت بناء عليه دواء لعلاج قرحة المعدة والأمعاء ؟!!

أيستحق منا مثل هذا الإبداع أن نوليه ظهورنا حين نقدم أنفسنا للآخرين فى فرانكفورت، مقتصرين على عرض منجزات أجدادنا الأوائل فى مجالات العلوم الطبيعية تطبيقا لمقولة وضعها لنا بمكر ودهاء من أراد أن يوحى إلينا أننا «كنا» فى الماضى البعيد منتجين ومبتكرين فى مجال علوم الطبيعة، بينما نحن اليوم مجرد متلقين لما ينتجه الغربيون فى هذه المجالات الفاعلة فى التاريخ؟

اللهم قد بلغت

الحق أنى ما ادخرت وسعا منذ أن اطلعت على المحاور الرئيسية لمشاركة جامعة الدول العربية فى معرض فرانكفورت للكتاب عندما عرضت فى شهر يناير الماضى فى معرض القاهرة للكتاب ، ما ادخرت وسعا لتحذير أعضاء اللجنة الرباعية من مغبة الوقوع فى براثن ذلك المحور الذى يؤكد على إنجازات السلف فى مجالات علوم الطبيعة دونما إشارة لإسهامات العرب المحدثين، بل إنى خاطبتهم كتابة المرة تلو المرة ولكن أحدا

منهم لم يول ما قلت شيئا من الاهتمام .. حدث الأخ الدكتور المنجي بوسنينة منذ عدة شهور مضت، وكتبت إلى السيد محمد غنيم، المدير التنفيذى للمشروع – بناء على طلبه – فى التاسع عشر من مايو الماضى، ولم يصلنى منه حتى تاريخه رد على ما حذرت منه، ثم عدت وكتبت مرتين متتاليتين فى العشرين من يونيو الماضى، ثم بعدها بشهر، فى العشرين من يوليو للسيد عمرو موسى، أمين عام الجامعة العربية، باعتباره المسئول الأول عن تلك التظاهرة العربية فى معرض فرانكفورت، ولكنى لم أتسلم ردا على خطاباتى حتى تاريخه .

علماؤنا وإنتاجنا المعرفى

إن مجرد إلقاء نظرة عابرة على قوائم عناوين الرسائل التى نوقشت فى مجالات العلوم الطبيعية فى مختلف أرجاء العالم العربى لتكذب هذه الأسطورة القائلة بأنه ليس لدينا إنتاج معرفى وإضافات حقيقية فى مجال العلوم الطبيعية. فما على المرء إلا أن يذهب إلى أقسام العلوم الطبيعية فى مختلف الجامعات العربية ليتبين العكس تماما من ذاك التصور المعادى للذات. بل أكثر من ذلك أن المتفوقين من العرب فى مجالات يحتكر فيها الغرب المعرفة التخصصية – كالذرة مثلا – صاروا يغتالون من جانب أجهزة المخابرات الإسرائيلية والغربية حتى لا يحققوا لشعبهم ما يمكن أن يرفع عنه الابتزاز الحربى لتلك القوى الطامعة فى ثرواته الطبيعية، وفى مقدمتها الماء والنفط. وإلا فقل لى لم اغتالوا سميرة موسى، باحثة الذرة فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولم اغتيل يحيى المشد فى باريس .. حتى يتحقق لإسرائيل ولأمريكا الهيمنة التكنولوجية على الشعوب العربية؟ أم أن المشد وسميرة موسى قد اغتيلا لأنهما لم يكونا منتجين معرفيا فى مجال علم الذرة؟!! أليس من الواجب علينا أن نفرد لهما ولأعمالهما مكانا مميزا فى تقديم عرب اليوم فى معرض فرانكفورت ، بدلا من أن يتجاهلا تماما على هذا النحو المعيب؟! أوليس من حق مصطفى مشرفة أن يقدم بالمثل فى لوحة الشرف – شرف الإنتاج العربى فى مجال علوم الطبيعة – فى معرض فرانكفورت؟!! وهل يجوز إغفال عالم منتج فى علم الأدوية كالأستاذ الدكتور محمد رءوف حامد؟ وهل من الإنصاف أن يتجاهل عالم جليل كالأستاذ الدكتور حامد الموصلى، أستاذ هندسة الإنتاج فى كلية الهندسة، جامعة عين شمس، وهو الذى احتفى به الألمان أنفسهم لما يقوم به من مشروعات يشرف بنفسه على تنفيذها لتدوير الفضلات الزراعية فى الريف المصرى من خلال إقامة صناعات منزلية صغيرة تقوم بها سيدة الدار وهى فى بيتها، بحيث تدر دخلا محترما عليها وأسرتها من خلال

تحويل فضلات جريد النخل من عبء على البيئة إلى منتجات نافعة للمجتمع ومحققة لاعتزاز سيدة الدار في الريف المصري بنفسها وإنتاجها! إن الدكتور الموصلي عائد لتوه الآن من ألمانيا حيث دعته مراكز أبحاث هناك معنية بحلوله الإبداعية، كما سبق أن كرم في هولندا عام ١٩٩٧ على بحثه «منتج مثيل للأخشاب من جريد النخل» الذي حاز على الجائزة الأولى على أربعمائة وخمسين بحثا قدموا في المؤتمر الدولي للمواد في «ماسترخت»، ولكن السادة القائمين على تقديمنا نحن العرب المحدثين في فرانكفورت لا يعيرون أمثاله وأمثال الدكتور رءوف حامد أي اهتمام، إنما هم منهمكون في «مطالبة» الدول العربية بـ «دفع» حصصها في المشاركة العربية في فرانكفورت، نعم أن يدفعوا حصصهم كي نقول للغربيين إننا لا نزيد عن كوننا أهل شعر ونثر، وأننا قد خرجنا من التاريخ كأهل علم وبحث جاد فيما يدير شئون حياتنا في عالم اليوم.. بل إنهم حتى عندما تفتقت أذهانهم عن ذلك الزخم أو بالأحرى الشتات الواسع من الندوات الأدبية العربية لم يفكروا في أن يقدموا محاضرة منهجية واحدة تكون بمثابة البوصلة الهادية للمتلقي الألماني في استيعاب النماذج المطروحة عليه من الأدب والفنون العربية الحديثة في سياقاتها الخاصة، وعلاقتها بمختلف الآداب القومية الأخرى، بما فيها الأدب والفن الألماني المعاصر حتى لا يساء فهم ما يقدم بأن يسقط عليه ما هو نابع من سياقات ونظم قيمية ثقافية واجتماعية جد مختلفة. ولتوضيح ذلك أضرب على ذلك مثالا بـ «روالد دال»، المؤلف الروائي البريطاني من أصل اسكندينافي (توفي منذ بضعة أعوام)، فقد كان يصور الرجال العرب في رواياته من خلال زياراته القصيرة للبلاد العربية، بأنهم جميعا مصابون بالمثلية الجنسية لأنهم في أحاديثهم يلمسون بعضهم البعض في عفوية واضحة، بينما لا يفعل ذلك في مجتمعه سوى المثليين. ولعل محاضرة أو حديثا يوضح اختلاف شفرات التواصل الاجتماعي في سياقاتها الثقافية يمكن أن يوقي من الوقوع في مثل هذه «الترجمات» الخاطئة جملة وتفصيلا لا سيما وأن هنالك الكثير من الأفلام العربية التي ستقدم صورا من حياتنا في فرانكفورت «كتعويض» مستسهل، عن تقاعس الساحة هناك عن تقديم الإنتاج العربي المعاصر في علوم العصر: علوم الطبيعة.. فكأننا نقول للأمريكيين والغربيين ولإسرائيل: نحن أهل خيال وفن في أحسن الأحوال، أما أنتم فأهل علم فاعل في التاريخ، فتعالوا لتديروا لنا شئون حياتنا لأننا قاصرون عن أن نقدم لها الحلول الناجعة...!!!! فإذا كان هذا هو رأينا في أنفسنا فهل نعيب بعد ذلك على الآخرين أن يقفوا منا موقف المتفرج عندما يطمع فينا الطامعون؟!! ■

ثقافة عالمية أم ثقافة محلية؟

بقلم
د. محمد المهدى

- كيف يمكن الحفاظ على تراث الإنسانية من تدمير الحروب؟!
- كبسولة اليابان الحضارية حجر رشيد المستقبل. تحفظ التراث لأبناء عام ٦٩٧٠م
- مسلات مصرية سرقت أو أهديت لعديد من عواصم العالم فهل تعود؟
- نواة متحف اللوفر كونها فرنسوا الأول بالنهب أو الشراء من فنون إيطاليا المضطربة فى القرن ١٦م

فى المؤتمر العالمى الثانى للثقافة والذى عقد فى عام ١٩٨٣ م بالمكسيك تحت إشراف اليونسكو العالمى أثارت وزيرة الثقافة اليونانية الراحلة ملينا ميركورى قضية مهمة، هى المطالبة بإرجاع بعض القطع الفنية والأثرية الموزعة فى متاحف العالم إلى أصحابها . وطالبت على وجه التحديد المتحف البريطانى بإرجاع الوحدات الزخرفية «الإفريز» الذى كان يزين الـ «بارتينون» اليونانى حتى يستكمل البناء شكله الجمالى وتكامله .. وجاء وزير الثقافة الراحل عبد الحميد رضوان فطالب بدوره المتحف البريطانى بإرجاع لحية تمثال أبو الهول فهى كما قرر رجال الآثار والترميم لها دور مهم فى توازن عمارة التمثال بعد أن تهدد جزء من جسده بالإنهيار. مطالبة ميركورى والوزير رضوان أعادت إلى الأذهان قضية حضارية كبيرة أو أثارت التساؤل الآتى .. هل الأفضل للقطع الفنية أو النحتية أو الأثرية أن تبقى موزعة فى متاحف العالم الكبيرة كرسول حضارة، أو إعادتها إلى موطنها لتستكمل نفسها، وتستكمل وحدات غيرها فى الوطن الأم ؟ ويمكن أن يطرح التساؤل بتجريد آخر يتردد كثيراً الآن بخبث .. هل نسعى إلى ثقافة عالمية أم ثقافة محلية ؟



«إعداد اللوفر» عام ١٧٩٦

يثير هذا التساؤل مشاكل حضارية بل سياسية عديدة .. فما هو مفهوم الثقافة العالمية . من يحدد معالمها أو يشرف على تطبيقها ؟ إننا في عالم يتنمر فيه الكبار بالصغار . وربما كان الصغار كبارا بحضارتهم القديمة ولكنهم باتوا صغاراً بسطوة السلاح ، ولعبة السيطرة الدولية من جانب من صاروا كبارا . فرصة الاستغلال السياسي قائمة من خلال هذا النداء ، الأخطر فرصة التجاهل والحصار للحضارات التي تريد أن تتنفس أو تتبلور أو تعيد مجداً قديماً.

ثقافة عالمية أو محلية ؟

وكتب الشاعر والكاتب اللبناني صلاح ستيتيه - «يكتب الفرنسية ويعيش في باريس» حول هذه القضية فعرض لثلاث حجج يطرحها المؤيدون لفكرة إبقاء الآثار في متاحف العالم الكبيرة.

- أولها: ما يتعلق بالجانب الفني وهو توفر المناخ العالمي المناسب لحفظ هذا الآثار في المتاحف الكبيرة. حيث يتوفر فيها الإمكانات وأحدث الدراسات وأحدث الطرق للعناية بوسائل تقنية متطورة.

- ثانيها: ما يتعلق بالجانب الحضاري العالمي ، فهذه القطع بعرضها في المتاحف الكبيرة مثل اللوفر أو المتروبوليتان ، أو البريطاني، أو الأرميتاج .. تأخذ فرصة أكبر في تعريف العالم على حضارات مناطق بعيدة وربما منسية ، كما أنها تأخذ فرصة أخرى من دراسة الدارسين في أنحاء العالم .. من الغرب إلى الشرق.

- ثالثها: يتعلق بالجانب القانوني ، فحق التصرف في الآثار أو القطع الفنية في متاحف العالم الكبير أو حتى غيرها ليس متروكاً للعلماء أو أمناء هذه المتاحف الأمر يتعلق هنا بملكية الدولة لهذه

القطع وبالتالي لا يحق التصرف فيها إلا بحكم قضائي صريح.

تدمير الحضارة

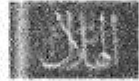
الفنون والآثار رمز الحضارات السابقة، أو ممثل حيوية ونشاط السابقين. الخيط الخفي السري الملموس والظاهر في آن. تعرضت للتدمير المقصود أحياناً وغير المقصود أحياناً أخرى. الجاهل أحياناً أو المتجاهل في أحيان أخرى. مدن كاملة ذهبت بما حوت من تراث وآثار.. طروادة على ساحل آسيا الصغرى، قرطاجة على ساحل أفريقيا «تونس» المغول خربوا بغداد ودمشق واقتربوا من القاهرة، آثار الإسكندرية ومكتبتها وما نهبه الرومان. مدن الأندلس بعد خروج العرب.. مدن أوروبا في حروب عديدة مريرة.

وفي عام ١٩٣٨ صنعت شركة «وستنجهاوس» الأمريكية كبسولة تحوي نماذج متعددة من حضارة القرن العشرين تم دفنها في أرض معرض نيويورك الدولي آنذاك، فكرتها تعريف الأجيال القادمة بالحياة في النصف الأول من القرن العشرين. حجر رشيد للمستقبل فلا ندري ما هو مصير البشرية بعد مائة أو ألف عام من جنون التسابق بالتسلح أو التسابق بالقفزات العلمية، أو التسابق للتعرف على كائنات أو حياة أخرى على كواكب بعيدة أو قريبة.

وفي عام ١٩٧٠ فكرت صحيفة يابانية اسمها «الماينشي» في إعادة فكرة الكبسولة بصورة متطورة موسعة مدروسة خاصة بالنسبة لأرض اليابان المعرضة في إنتاجها وحضارتها لكوارث الطبيعة التي تبتلع من البشر بالربع مليون. في معرض «إكسبو ٧٠» الياباني عرضت عدة كبسولات بعضها أعد للدفن وتركت تعليمات لإعادتها إلى سطح الأرض في عام ٢٠٠٠ والهدف من ذلك تزويدها بكل ما جد خلال هذه الثلاثين عام، على أن يعاد فتحها وتزويدها بالجديد كل قرن، وقد تم ذلك منذ ثلاث سنوات ونصف. ولكن الأهم كانت كبسولة الخمس آلاف عام. لقد أعدت للدفن على أن تترك إلى عام ٦٩٧٠. كيف ستكون الحياة آنذاك؟ كيف سيكون تصورهم للماضي؟ هل سيعتبرونها محاولة ساذجة من الأجداد فإن ما لديهم من معلومات وخبرات وإمكانات سيفوق التصور؟ هل سيعتبرونها حجر رشيد جديد يساعد على حل لغة القدامى وقراءة أفكارهم وحياتهم؟ هل ستتعرض للتدمير والتخريب قبل الأوان؟

قبل دفن كبسولة معرض أكسبو ٧٠ في حديقة «أوساي التاريخية اليابانية جرت دراسات عديدة من لجنتين الأولى تتكون من ٢٣ عالماً يابانياً لبحث الجوانب التقنية والأخرى من ٢٧ خبيراً وعالماً لانتقاء محتويات الكبسولة. أجرى استفتاء آنذاك لإشراك عامة اليابانيين فيما يوضع داخل الكبسولة، من مواد ونماذج لحضارة القرن العشرين بكاملها، وفي أفضل الأماكن لدفن الكبسولة، داخل اليابان أو خارجها.

كبسولة الخمسة آلاف عام كروية الشكل في داخلها ٢٩ حجرة محيطها الداخلي يبلغ متراً واحدا وسعتها ٥٠٠ ألف سنتميتر مكعب. في داخلها وضعت ٢٠٩٨ مادة من تراث الإنسانية، وفي ميدان العلوم الطبيعية ٧٤٢ مادة، وفي العلوم الإنسانية ٦٨٦ مادة، وفي الفنون ٥٩٢ مادة، إلى جوار مواد أخرى متنوعة



تبلغ ٠٨٧ ووضعت أسطوانة فولاذية تحت التمثال المدفون تحت الكبسولة بها تعليمات خاصة بفتحها .. وتكلف المشروع ثلاثة أرباع مليون دولار !!

ما الذى يريد إنسان القرن العشرين أن يبلغه لإنسان القرن الألف السادسة؟ .. تراوحت المقترحات بين الطموحات الثقافية الراقية ... نماذج من الإبداع الفنى والأدبى ، والموسيقى ، إبداع الإنسان الباقى فى الفن ، وبين نماذج بسيطة أو ساذجة ... طابع بريد ، أسنان بشرية .. ورقة إمتحان مدرسية ، قطعة نقد، رسوم أطفال . بعض الأطعمة المجففة ، ملابس ، حلى ، قراءات ، رسائل ، أدعية دينية .... هل عاد الإنسان إلى فكرة المقبرة ومنها عودة الحياة والبعث ؟ رمز جلجميش ورغبته المحمومة فى إطالة الحياة !!



الجوكندا (موناليزا)

سرقة الحضارة

فى فترة السيطرة الاستعمارية نصب الغرب نفسه حامياً للحضارات، حضارات الآخرين اعتبرها مقدمة أولية لحضارته ، جعل حضارة الغرب هى الذروة ، وحينما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٨٩٧ تفرغ عدد من علمائها للبحث عن حضارات الشرق القديم . كشفوا جوانب من الحضارة الفرعونية . كشف حجر رشيد . وصل خبره إلى الإنجليز وأدرك علمائهم أهميته العلمية لذلك كان من شروط الصلح بين الفرنسيين والإنجليز تسليم حجر رشيد للإنجليز ، وما يزال إلى الآن يتصدر قاعة المصريات فى المتحف البريطانى .

ومن الطرائف أن العالم الفرنسى شامبليون الذى فك رموز لغة هذا الحجر لم يطلع على الأصل فقد حالت العلاقات المتوترة بين الإنجليز والفرنسيين دون ذلك ، إطلع شامبليون على نسخة من الحجر نقلها أحد العلماء.

وكل ما تركته الحملة الفرنسية من كشوف أو آثار لم تنقل مع الحملة، ورثها الانجليز فيما بعد ، لقد استعان محمد

على بالفرنسيين في العديد من مشاريعه وسمح لهم بإعمال التنقيب ، نقل العديد إلى فرنسا ، ونهب العديد وكان قنصل فرنسا ينافس قنصل إيطاليا فى سرقة الآثار وبيعها .. كان لكل منهما عصابته ، وأسرة محمد على غافلة وأحيانا سعيدة لسعادة الأجانب بسرقة الآثار وتسريبها إلى خارج البلاد.

ولا تجد الآن متحفاً من متاحف العالم إلا وبه قسم للمصريات وإن كان اللوفر والبريطانى قد ابتلعا ما لا يحصى.

ولكن الأعجب هو سرقة معابد بكاملها أو مسلات ضخمة . والمسلات لها قصص عجيبة فقد أثارت اهتمام ودهشة رجال الفن والأدب وارتبطت عند الملوك بنوازع العظمة ، ووجدت معنى دينياً ملائماً عند رجال الدين والباباوات.

وتعرف روما أحياناً بمدينة المسلات بعضها حقيقى نقل من مصر، وبعضها مقلد ، فقد كان البابا (سستو) الخامس من المعجبين بتكوين المسلة المصرية فملأ روما بها .. ثلاث عشر مسلة منها سبع منقولة من مصر.

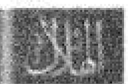
وفى فرنسا أربع مسلات أهمها وأشهرها الموجودة فى ميدان الكونكورد بباريس وتوجد واحدة فى ضاحية (فونتين بلو) وواحدة فى غابة)(فنسين) والرابعة في مدينة (أرل).

وفي لندن توجد مسلة معروفة باسم مسلة كليوباترا عند جسر وترلو على نهر التايمز. وفى نيويورك مسلة فى مواجهة نصب لينكولن داخل سنترال بارك وفى مواجهة متحف المتروبوليتان ، وخارج روما توجد مسلة فى فلتربى ، واثنتان فى فلورنسا واثنتان في استنبول.

مسلة لندن تعود لتحتمس الثالث نقلت إلى الإسكندرية ولذلك عرفت باسم مسلة كليوباترا ومنها نقلت إلى لندن ، أهداها اسماعيل باشا للإنجليز وقدرت تكاليف نقلها بسبعة آلاف جنيه تكفل أحد أثرياء الإنجليز بنقلها ، وضعت فى اسطوانة حديدية محكمة وقطرتها الباخرة (أولجا) ولكن عند خليج (بسكاى) بالقرب من أسبانيا انفصلت الإسطوانة وضاعت المسلة . شاء الحظ أن تعثر عليها سفينة أسبانية فنقلتها إلى لندن حيث أقيمت إلى الآن.

ومسلة نيويورك هى المسلة الثانية لتحتمس الثالث نقلت إلى الإسكندرية وعرفت بالتالى باسم مسلة كليوباترا كرفيقتها ، فى عام ١٨٦٩ وعند افتتاح قناة السويس وفى غمرة الحماس الجاهل أهداها اسماعيل باشا لمدينة نيويورك .. وكانت مشكلة . فكيف يمكنها عبور الأطلسى . رسى العطاء على (هنرى جورنج) فتعهد بنقلها . اشترى سفينة (دسوق) وأعدها خصيصاً لحمل المسلة وعبرت المحيط الأطلسى ونصبت فى يونيو ١٨٨٠ فى سنترال بارك . ومسلة ميدان الكونكورد في باريس تعود لأيام رمسيس الثانى الذى قام بتوسيع معبد الأقصر وأقام فى مدخله مسلتين أهدى محمد على إحداها لملك فرنسا لويس فيليب ونقلت فى رحلة هائلة من الأقصر إلى باريس ، وكان المقابل لهذه الهدية الحافلة ساعة ما تزال موجودة إلى الآن فى مسجد محمد على بالقلعة .

ومسلة الفاتيكان المقامة إلى الآن فى ميدان القديس بطرس نقلت إلى روما أيام الإمبراطور كاليجولا ، طمرت مع الزمن إلى أن اكتشفها البابا (سستو الخامس) الذى ميز روما بالمسلات ، وأقامها عام ١٥٨٩ . قام بالعملية ٩٠٠ عامل و ١٥٠



حصاناً ، و٤٠ آلة من آلات الرفع . قام المهندس المكلف بنقلها باثنتين وخمسين محاولة إلى أن أوصلها سالمة وسط الميدان واستغرق الأمر أربعة أشهر كاملة.

ولم يتبق لمصر بعد ذلك إلا أربع مسلات فقط ، اثنتان في معبد الكرنك وواحدة في معبد الأقصر والرابعة مسلة عين شمس بالمطرية ، وبعض مسلات قليلة الشأن ...



مسلة الكونكورد فى باريس

هل تعود المسلات من الشتات ؟

ملوك يسرقون !

وإفريز البارتينون الذي تحدثت مليتا ميركورى عن ضرورة عودته إلى اليونان ترجع قصته إلى أيام اشتباك الأتراك مع اليونانيين فى أوائل القرن التاسع عشر انتهز الفرصة لورد انجليزى اسمه (توماس بريك اليجان) وقام بتكليف عدد من العمال والفنيين بفك الإفريز عن واجهة البارتينون ، ونقله إلى انجلترا بحجة استفادة الفنانين والمعماريين بدراسة تكوينه الجمالى ، وحمايته من التدمير.

أثار هذا العمل بعض الأدباء والفنانين أنفسهم وكان على رأسهم اللورد بايرون وكان متحمساً للحضارة اليونانية ومتحمساً لاستقلال اليونان عن تركيا ، كما كتب يدين هذا العمل فى أواخر القرن التاسع عشر الشاعر اليونانى قسطنطين كافافيس.

ولكن الأعجب من قصة اللورد توماس قصة الملك فرنسوا الأول ، لقد سبق قصة اللورد بقرون ، كان نهماً فى اقتناء أعمال الفنانين من لوحات أو منحوتات أيام نهضة إيطاليا . وما يزال متحف اللوفر يحتفظ إلى الآن باوحة دافنشى الشهيرة (الجوكندا) كجزء من ميراث فنى ضخم تركه الملك فرنسوا الأول بل تعتبر مجموعته التى تركها من التماثيل واللوحات نواة اللوفر نفسه.

وحينما جاء ليوناردو دافنشى إلى باريس ١٥١٦ ليعيش فى حماية ورعاية فرنسوا الأول بعيداً عن الاضطرابات التى شملت ولايات إيطاليا كان متاعه

يحوى «الجوكندا» وغيرها من أعماله الفنية المميزة (العذراء والطفل والقديسة آن) ولوحة (القديس جان بابتيست) وأيضاً لوحة (باخوس).

مات دافنشي عام ١٥١٩ وورث فرنسوا الأول أعماله . صارت جزءاً من مجموعته والتي تحولت بعد ذلك إلى اللوفر.

شملت مجموعة فرنسوا الأول أعمالاً عظيمة أخرى لفنانين كبار من عصر النهضة . أعمالاً لأندريا دلا سارتو ولاسم آخر معروف لدينا هو (رفائيل) جند فرنسوا الأول سفيرة في روما لشراء أعمال الفنانين بطريق أو بآخر وكان له عميل اسمه (باتيستا دلا بالا) في فلورنسا انتهز فرصة حصار المدينة في عام ١٥٣٠ ونزل إلى طرقات المدينة يطرق الأبواب ويغرى سكان المدينة الذين يعانون من الحصار لبيع ما لديهم من أعمال فنية .. وأحياناً يهدد أو يتوعد بطرق غير شريفة ليصل إلى هدفه ويرسل لسيده في باريس مجموعة جديدة . ظل يمارس نشاطه إلى أن طمع في مقتنيات أحد سادة فلورنسا واسمه (بورجيني) دخل قصره بعد أن علم بهربه من المدينة ، وجد لسوء حظه الزوجة التى استعانت بأهل المدينة فقبضوا عليه وأودعوه السجن.

والعجيب في أمر هذا العميل أن بعض الأعمال التي جمعها لسيده فرنسوا الأول كانت تختفي بعد وصولها لباريس منها تمثال (هرقل) لميشيل انجلو وتمثال (هرمس والفلوت) لباندينلي وبعضها ظهر بعد ذلك في انجلترا ونراه اليوم في (الناشيونال جاليرى) بلندن .

فرنسوا الأول كان له عميل آخر من البندقية اسمه (بيترو ارتينيو) عرف باسم (ارتيان) أهداه الملك سلسلة ذهبية تزن أربعة كيلو جرامات كان حريصا على حملها دائماً ليثبت بها صلته بفرنسوا . استطاع في عام ١٥٣٨ أن يحصل على لوحتين للفنان (تيتيان) الأولى اسمها شرف الإنسان موجودة إلى الآن في اللوفر والثانية باسم التسبيح بعظمة الله.

وحينما بدأ فرنسوا يهتم بالنحت القديم علم باكتشاف منزل (نيرون) القديم في حفائر روما والذى احترق عام ٦٢م ، منزل حوائطه ذهبية مرسومة ، ملئ بالمنحوتات النادرة صعب على عملاء الملك تهريبها فأرسل الفنان باندينيلي لصب نماذج منها.

وفى باريس قام فنان آخر بإعادة صبها من البرونز وعرضت في قصر (فونتين بلو) وظلت تزينه إلى أن نقلت أيام الثورة الفرنسية إلى اللوفر وأعيدت الآن إلى مكانها القديم . أعمال فنية عديدة اشتراها أو نقلها أو نهبها فرنسوا الأول من إيطاليا المضطربة في القرن السادس عشر . من إنتاج عصر نهضتها الفكرية والفنية والأدبية واضطرابها وتفككها السياسي .. والآن هل يحق لإيطاليا المطالبة بإعادتها ؟ .. ربما نسمع بين الحين والآخر من يطالب بإعادة الجوكندا إلى إيطاليا ، ولكنها ليست إلا واحدة من آلاف فهل يحق عودة الجوكندا ؟ ... ما يزال السؤال مطروحاً .

اتفاقيات وتداخل بين الحضارات

ونعود لبعض ما جاء في مقال الشاعر صلاح ستيتية .. نراه يذكر اتفاقيات إعادة بعض القطع النادرة من آثار أو فنون .. اتفاقية بين فرنسا ولاوس عام ١٩٥٠ لإعادة بعض القطع للاوس ، واتفاقية أخرى مع الجزائر عام ١٩٦٨

لإعادة ٢٠٠ لوحة إلى الجزائر كانت معروضة فى معرض بين عامى ١٩٣٠ ، ١٩٦٢ . اتفاقية بين استراليا وحكومة غيانا الجديدة لإعادة بعض القطع الأثرية الى غيانا ، وبين هولندا وأندونيسيا لاعادة قطع أندونيسية ، وبين المكسيك وجامعة هارفارد لإعادة قطع من الحلى والجات إلى المكسيك ، وإعادة قطع أخرى إلى بنما ، وغواتيمالا ، وبيرو ، والكاميرون ، وسوريا ، واتفاقية بين فرنسا والعراق عام ١٩٨٠ لإعادة قطع كتبت عليها نصوص قانونية لها صلة بقانون حامورابى . وفى عام ١٩٨١ إعادة فرنسا إلى مصر تمثالاً لـ آمون . وفى صيف عام ١٩٨١ وبمعونة اليونسكو أعاد معهد لندن إلى اليمن بعض النصوص الحميرية ، فى نهاية عام ١٩٨١ أعادة انجلترا لكينيا جمجمة يتوغل عمقها التاريخى إلى مليونين من السنوات . وفى عام ١٩٧٥ قام أحد التجار الايطاليين بنهب كما هائلاً من آثار الاكوادور وبدد غالبيتها وفى عام ١٩٨٢ تم الاتفاق على إعادة ما بقى منها .

ويعد اتفاقية اليونسكو مع مصر عام ١٩٧٢ أصبح من حقنا المطالبة بالتحف التى أخذت منا بعد هذا العام ، وبالفعل عادت بعض التحف ولكن ماذا عن الكم الهائل خارج مصر ؟

اتفاقيات إرجاع الآثار أو الفنون إلى أصحابها رغم أنها تدخل فى قائمة أضعف الإيمان ، إلا أنها أثارت قضية سياسية مغلفة بحجج حضارية، فالحدود القومية لم ترسم فى أوروبا بصورة شبه متفق عليها إلا منذ قرنين تقريباً ثم بعد ذلك فى أنحاء العالم ، ومع ذلك إذا قلت مثلاً أن هناك قطعة أثرية من كورية فأى الكوريتين يحق لها استرجاعها ؟ وقس على ذلك تداخل الحدود فى عدد كبير من دول العالم المتنازعة ... وإذا كانت هناك قطعة أثرية من بخارى فهل تحق للمدينة أم تحق لمتحف سان بطرسبرج (لينينجراد) ؟ وإذا كانت هناك مخطوطة أموية انتقلت من دمشق للأندلس فهل تحق لسوريا أم للاسكوريال ؟ اتفاقيات إرجاع الآثار أو الفنون مهما تعددت ستظل محدودة أمام هذا الكم الهائل الذى توزع فى أنحاء متفرقة وأزمنة بعيدة . وربما لو عقدت اتفاقيات تكامل بين متاحف العالم لكان الأمر أكثر ايجابية فمجموعة هذا المتحف أو ذاك لا تكتمل ربما إلا بقطعة أو أكثر من متحف آخر ، وهذا أمره صعب الآن أمام الحدود السياسية الجديدة . فما بالنا بالطموح الخبيث الجديد الساعى للاندماج فى شرايين السلطة المفردة المنفردة باسم العولمة الامريكية.

وقد نحلم فنقول أن الأمم المتحدة يمكنها أن تحول فكرة كبسولة الحضارة إلى قاعدة حية على سطح الأرض ، أن تختار جزيرة من جزر المحيط الأطلسى ، تتنازل عنها انجلترا أو فرنسا أو امريكا تتحول بكاملها إلى متحف عالمى ، يحوى تراث الانسانية من أيام الكهوف الباقية فى ركن صغير من الأرض ، إلى أيام الكوكب التائه فى سديم هائل ، تشارك فيه دول العالم ، يعدها علماؤهم بعيدا عن المنازعات السياسية ، أو التساؤلات عن العالمية أو المحلية .. بعيدة عن سرقة الحضارة أو تدمير الحضارة .. حلم ربما يتحقق فى قرننا الجديد قرن حضارة المتاحف. ■

متحف

محمود خليل وحرمه

أماني عبد الحميد

تصوير: إبراهيم بشير

- ٨ مليارات دولار قيمة مقتنياته الفنية لأهم رموز المدرسة التأثيرية في القرن ١٩
- أهدى قصره للحكومة المصرية على الرغم من عشقه للفن وحبه للاقتناء

أحمد سامي مدير المتحف:

كان المحرك الأساسي لنشأة الحركة الفنية في مصر

محسن شعلان:

مقتنيات لا تقدر بثمن تخلد اسم صاحبها

يستوقف العابرين جمال القصر الفخيم بحديقته الرحبة، منهم من لا يملك الجرأة الكافية ليخترق السور الحديدي ويجوب الحديقة، لكن المشهد من الخارج يدفع الكثرين إلى دخول بوابة الزمن، يترك خلفه عالما قبيحا ويتجاوزه إلى عالم آخر، أجمل ما فيه الصمت والإعجاب بجلال خلق الإنسان المبدع

المكان هو متحف محمد محمود خليل وحرمه، أحد أهم المتاحف الفنية في مصر والشرق الأوسط. تفوق قيمة ممتلكاته والأعمال المقتناة داخله الثمانية مليارات دولار.. أما الزمان، يتوقف دوماً داخل ردهات القصر المتحفي، حيث يتجاوز عصرنا وعصر صاحب القصر، فالصمت والسكون هما أبلغ تعبير عن عظمة وجمال المكان ومقتنياته، وفي الوقت الذي تُعجب باللوحات والتحف النادرة التي يضمها، يستحوذ علينا الإكبار لذلك الرجل الذي


محمد محمود خليل


زوجته الفرنسية ايميلين هكتور


محمود خليل مع رئيس الوزراء علي ماهر


القصر الفخم المبنى على الطراز الفرنسي

عشق الفن وأنفق عليه بسخاء يفوق الخيال، ثم قدمه هدية لشعب مصر لقيمته الفنية التى لا تقدر بثمن.

داخل القصر المطل على أجمل البقاع النيلية اختمرت الفكرة داخله، وهو الرجل المحب للفنون والعاشق لاقتنائها، بل هو الجامع لكل ما هو قيم ونفيس ومع البدء فى بناء قصره فى عام ١٩١٥ اختمرت الفكرة داخله، وقرر أن يهب الحكومة المصرية ممتلكاته وثروته بالكامل المكونة من أهم وأثمن لوحات الفن التشكيلى فى العصر الحديث ، وظلت روحه طليقة بين عظمة لوحات ديلاكروا، رينوار، فان جوخ وتماثيل رودان.

رينوار.. صفقة رابحة..

وبرغم وضوح مراحل وتفاصيل حياته وحتى مماته إلا أن الغموض لايزال يغلف ذلك الشخص ذا الملامح القاسية - كما يبدو عليه تمثاله البورتريه بملامحه الصارمة وشاربه التركى - وبرغم مرور أكثر من نصف قرن على وفاته (ديسمبر ١٩٥٣) إلا أن الاندهاش هو الحالة التى تصيب الزائرين والعابرين لمتحف محمد محمود خليل، فمن ذلك الشخص؟ هو رجل سياسى بالدرجة الأولى ولد فى عام ١٨٧٧ لعائلة ارستقراطية ثرية سافر إلى

فرنسا ليدرس القانون بجامعة السوربون (١٨٩٧) وهناك تعرف على الفرنسية ايميلين هكتور الراقصة المغمورة التي كانت تدرس الموسيقى بمعهد الكونسرفتوار باريس.. أحبها وجمعهما حب الفنون والولع باقتنائها. فتزوجا في عام ١٩٠٣، ليقوما بشراء أولى لوحاتهما.. حيث نجد «خليل بك» يكتب في مذكراته «باريس ١٩٠٣ أربعمائة جنيه كاملة دفعتها ايميلين ثمناً للوحة امرأة رسمها رينوار، إنه مبلغ كبير لا أتصور أن يدفع كل هذا المبلغ في لوحه واحدة، لكن «ايميلين» تقول إننا رابحون في هذه الصفقة.. من يدري فقد نكون كذلك؟!» السنوات أثبتت أنهما كانا من الرابحين، فلوحة أوجست رينوار وصل ثمنها اليوم إلى ٤٠ مليون دولار!!



لوحة رينوار « الفتاة ذات رباط العنق » ، أولى لوحات المتحف وأشهرها

وهو أيضا رجل سياسي مقتدر شغل منصب وزير الزراعة وشغوف برئاسة مجلس الشيوخ المصري إلا أنه كان أحد اثنين تدين لهما الحركة الفنية في مصر الحديثة، الأول هو الأمير يوسف كمال منشيء مدرسة الفنون الجميلة، محمود خليل الذي وهب نفسه وقصره وثروته للفن، في وقت لم تكن فيه وزارة للثقافة ترعى الفن والفنانين.

ومن أهم أعمالهما معاً إنشاء أول جمعية محبي الفنون الجميلة في عام ١٩٢٣ التي ساهمت في تكوين جيل جديد من الفنانين كان لهم دور في خلق ذوق مختلف يواكب القيم العصرية وقتها، وأصبح خليل بك رئيسا للجمعية في عام ١٩٢٤ وحتى عام ١٩٥٢، وإن كان من أهم أدواره هو إقامة جسر بين الثقافتين المصرية -- والفرنسية، وهنا يحدثنا عن شخص «محمود خليل» الفنان أحمد سامي مدير المتحف ويقول إن الرجل كان راعياً للفنون عندما لم تكن هناك وزارة للثقافة، كان المحرك الأساسي وراء نشأة الحركة الفنية نظراً لصفته الارستقراطية ولتواجده السياسي القوي، وعندما كانت فرنسا قبلة الفن والفنانين نجح في بناء جسر قوي بين مصر وفرنسا، خاصة وأن ولع المصريين واتجاهاتهم كانت فرنسية النزعة نظراً لابتعادهم عن كل ما يتعلق بالثقافة الإنجليزية (ثقافة المحتل).

ويستطرد «أحمد سامي» بأن محمود







تمثال رودان الشهير « نداء السلاح » وعلى اليسار نموذجان من الرسوم الكاريكاتورية التي كانت تنشر على أغلفة المجلات المصرية

خليل هو أحد أبناء الطبقة الارستقراطية التي كان أبناؤها يحرصون على اقتناء اللوحات الفنية العالمية، حتى أن عدداً منهم كان لهم مجموعاتهم الفنية الخاصة، وكان أشهرهم التاجر اليهودى بنزيون صاحب سلسلة المحال التجارية، وكانوا يتبادلون اللوحات فيما بينهم ليستكملوا مجموعاتهم ومثال ذلك عندما قام محمود خليل باستبدال لوحة لـ كوربيه من بنزيون ليستكمل مجموعته التي تنتمي للمدرسة التأثيرية، ويضيف أنه للأسف لم تصل إلينا أى من تلك المجموعات الفنية التى كانت تمتلىء بها جدران القصور المصرية، خاصة وأن يهود مصر عندما هاجروا أخذو ممتلكاتهم ومقتنياتهم معهم، ولم تتبق داخل مصر سوى مجموعة خليل فقط!! وإذا علمنا أن كل من أبناء الطبقة الثرية كان مختصاً في مدرسة فنية بعينها فكما كان خليل بك مختصاً بأعمال المدرسة التأثيرية كان هناك من يهتم بالمدرسة الكلاسيكية وآخر بالمدرسة الكلاسيكية الجديدة أو بأعمال المستشرقين، وهنا يشير أحمد سامى أن حوالى ٧٠٪ من مجموعة خليل بك كانت تنتمي لمدرسة المستشرقين الذين زاروا مصر وقاموا برسمها، لكنه تخلص منها عن طريق إهدائها لكل من نادى محمد على (ولا تزال معروضة على جدرانه حتى



طه حسين كان أهم زواره وأصدقائه



اليوم) ومتحف كلية الفنون الجميلة جامعة الإسكندرية، وذلك حتى يظل قصره المتحفي يحوى أعمال المدرسة التأثيرية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر على يد عدد من الفنانين أمثال جوجان رينوار، فان جوخ، كورو، مونيه، فانتان لاتور، ديلاكروا، ريكاردو جوستاف، وتولوز لوتريك، ديجا.

وفي تفسير ولع محمود خليل بالفن كان المقربون منه وأصدقائه، يرون أنه وجد مثله الأعلى في عشق الفن الجميل، لا رغبة منه في الفخر أو الزهو، ولكن أملاً في وجود حياة سعيدة ومنارة للعقل، ومصباحاً للنفس، والدليل على ذلك تلبيته لرغبات زوجته ايميلين في شراء أية لوحة عالمية حتى ولو كانت غالية الثمن، واعتماده على ريشار موصيري سكرتيره وسمساره الذي يقوم بمتابعة المزادات العالمية ويشتري له اللوحات التي يرغب في اقتنائها.

ويحكي لنا أحمد سامي بأن محمود خليل حرص على اقتناء الأعمال الفنية التي أبدعها فنانون هم رواد اقترنت أسماؤهم بميلاد الاتجاهات والتحولات الفنية المتلاحقة التي شهدتها الحركة التشكيلية في أوروبا وخاصة فرنسا خلال القرن التاسع عشر، فلوحات المتحف البالغ عددها ٢٠٨ لوحات تعبر عن تلك الاتجاهات الفنية المختلفة إلا أن أكثرها ينتمي للمدرسة التأثيرية التي مهدت لظهور فنون القرن العشرين، كما حرص



لوحة تصور جامع عمرو على امتداد الأفق

محمود خليل على اقتناء مجموعة من الأعمال النحتية سواء تماثيل برونزية أو رخامية أو جصية لكبار مثالي القرن التاسع عشر ٤٠ تمثالا أمثال رودان، كاربو وبارى وهودون وكورديبيه، وإلى جانب ذلك يضم المتحف مجموعة قيمة من الفازات النادرة من فرنسا والصين واليابان وإيران، ومجموعة من المشغولات الفنية صغيرة الحجم التي اتقن الفنان الصيني صنعها من الأحجار الكريمة مثل الكريستال دى روش، الزمرد، المرجان، الجاد.

أعمال نابضة بالحياة

وإن كانت مشاهدة الأعمال الفنية تكفى لكى تصفو النفس أمامها، إلا أن الحكايات المروية عنها تزيدها بريقاً وروعة، ففى الدور الأرضى ترى تمثال «نداء السلاح» للفنان رودان أحد رواد المدرسة التأثيرية فى النحت، كانت أعماله من شدة تميزها تبدو للرائى كأنها نابضة بالحيوية، لدرجة أنه اتهم بقيامه بصب البرونز على موديل حى لرجل عار وذلك لعدم تصديق الناس وقتها بأنه قادر على أن ينحت أعماله بتلك الدرجة العالية من الشفافية والدقة والحيوية، ونظرة واحدة تكفى لتمثاليه «لفيكتور هوجو» و«بلزاك» لنشعر بذلك، أما اللوحة البيضاوية التى تمثل الأميرة دى فاجرام (مارى لويز) التى رسمها الفنان فينتر هالتر والذى رسم معظم الشخصيات الملكية فى أوروبا وكان الرسام المفضل لدى الملكة فيكتوريا لما تتميز به أعماله من لمحة رومانسية



لوحة جوجان - «الحياة والموت» أهم وأغلى وأشهر لوحات المتحف

ساحرة، وهذا ما ظهر في لوحة الأميرة الزوجة الثانية لنابليون بونابرت وهي ابنة ملك النمسا فرانسيس الأول والتي كانت زيجتها زيجة سياسية بحتة.

وفي الدور الأول وداخل غرفة ذات طلاء داكن اللون توجد لوحة أزهار الخشخاش للفنان فان جوخ وهي أهم لوحة داخل المتحف وذات صيت عالمي، وبرغم جمالها إلا أن أحمد سامي مدير المتحف يؤكد لنا أن «جوخ» عندما رسمها كان لايزال في مراحل التعليم الأولى في مدرسة الفنون!!

وفي الغرفة المقابلة لها نجد لوحة جوجان «الحياة أو الموت» أغلى لوحة في المتحف حيث يقدرها البعض بـ ٨٥ مليون دولار والبعض الآخر يقدرها بـ ٦٠ مليون دولار فقط!! وهي تجسد رؤية جوجان في الألم والاحباط الذي كان يعاني منه في حياته وتبدى ذلك من خلال علامات الأسى البادية على وجه حبيبته «ماري» ويعتبرها النقاد على مستوى العالم بأنها لوحة بلا أخطاء وجمالها يصل إلى حد الكمال الفني.

ولوحة درس في الغناء للفنان تولوز لوتريك هي قطعة فنية تجمع بين التأثيرية والتعبيرية، رسمها لوتريك عندما أقام في باريس وكان يتردد على ملهى «المولان روج» الطاحونة الحمراء، وبها تحدى أستاذه إدجار ديجا الذي كان قد رسم نفس الفتاتين خلال درس الغناء والعزف على البيانو، ومنها تفوق التلميذ على أستاذه في الاهتمام بالتفاصيل ونقل الاحساس الدافيء بالظل والضوء.

خصوصية ساحرة

الكثير من الحكايات لاتزال لوحات متحف محمود خليل تحتفظ بها، لا تبوح بها خلال زيارة واحدة، فهو متحف يزداد سحراً كلما مرت عليه السنوات، وعنه يحدثنا محسن شعلان رئيس الإدارة المركزية لقطاع المتاحف والقاعات الفنية، ويقول إن المتحف قيمته أصبحت من الصعب تقدير قيمتها بثمن، فكثير من لوحاته لا نستطيع أن نوافق على سفرها إلا في حالة استيفاء شروط التأمين عليها، مع العلم أن التأمين قد يصل إلى ملايين الدولارات، ويضرب لنا مثلا بلوحة جوجان «الحياة والموت» من اللوحات المطلوبة على



تمثال بورتريه لسعد زغلول للفنان اليوغسلافي بورفيتش



لوحة لماري لويز أميرة دي فاجرام ، للفنان الالماني فينتر هانز

مستوى العالم لكن ثمنها يصل إلى ٨٥ مليون دولار وبالتالي القيمة التأمينية باهظة جداً، لا يستطيع أي من المتاحف تحملها، لذا لم تسافر أو يتم عرضها في أي من متاحف العالم، لكنها ستسافر هذا العام إلى أسبانيا عندما تمكنوا من دفع قيمة التأمين عليها .

ويضيف شعلان أن متحف محمود خليل وحرمه أتاح الفرصة أمام محبي الفنون الجميلة في جميع أنحاء العالم لإعادة اكتشاف بلادنا بوجهة نظر أخرى مختلفة، فلم نعد نمثل لهم بلاد الأهرامات وأبو الهول فقط. بل أصبحنا شعباً متحضراً والدليل أن أحد أهم الرموز السياسية في بدايات القرن العشرين يهب كل مقتنياته وثروته المكونة من لوحات فنية للدولة ويطالب بتحويل قصره إلى متحف. ويشير إلى أن المتحف يضم مكتبة تحوي أهم الإصدارات والكتب القديمة في جميع فروع الثقافة والفن أغلبها باللغة الفرنسية كانت ضمن ما أهداه محمود خليل للحكومة المصرية.

وفي ختام جولتنا داخل متحف محمود خليل وحرمه يودعنا تمثاله الصامت وسط أشجار حديقته الوارفة.. ويتركنا والتساؤلات تشاغب عقولنا.. هل أيقن محمود خليل أن صفقته الأولى بشراء لوحة رينوار بـ أربعمائة جنيه لم تكن خاسرة بل رابحة جداً، وكانت فاتحة خير عليه، وهل بذل عمره وماله لمجرد الولع والهواية الغريبة الباهظة التكلفة؟ هل هو مجرد حب تملك؟ أم رغبة في الخلود؟ يبدو جلياً داخل قصره المتحفي الفخم أن حلمه الأول كان تخليد اسمه على اعتبار أنه أهم راع للفنون في مصر تناقلت اسمه الأجيال المتعاقبة من بعده.. وقد تحقق حلمه برغم وفاته في باريس ديسمبر عام ١٩٥٣. ■

الخديو إسماعيل
والإمبراطورة أوجينى

قصة حب عاصفة

بقلم
د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى *

اختلف المؤرخون والباحثون فى تفسير علاقة خديو مصر إسماعيل بإمبراطورة فرنسا «أوجينى»، فذكر البعض أنها كانت علاقة حب وغرام بين الإمبراطورة الفاتنة الغرناطية المولد [1] التى تحمل قسماتها أصولا شرقية، والتى استطاعت أن تضع على رأسها تاج الإمبراطورية الفرنسية بعد زواجها من «نابليون الثالث» إمبراطور فرنسا، وكانت ملتقى أنظار المعجبين، وموضوع تفنن الرسامين. وقال بعض آخر إنها كانت علاقة تبادل مصالح وعلاقات عامة من أجل جذب فرنسا إلى صف الخديو الذى كان يسعى للحصول على استقلال مصر عن الدولة العثمانية، وعلى إنشاء المحاكم المختلطة.

وفى هذه الدراسة سنحاول تلمس الحقيقة قدر الإمكان خاصة أن أسرار القلوب يصعب على أى قلم تناولها بدقة لحظة بلحظة.



* استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة القاهرة - فرع الفيوم



«أوجينى» تلك الإمبراطورة الحسناء ابنة الكونت الإسبانى «دون كابريانو قزمان» سليل الحسب والنسب والتى اقترن بها الإمبراطور نابليون الثالث في عام ١٨٥٣ بعد أن جذبه إليها جمالها المتألق وملامحها الفاتنة عندما رآها في إحدى الحفلات حيث كانت تتلقى تربيتها وتعليمها فى باريس بدير «القلب المقدس» وإسماعيل بن إبراهيم سليل أسرة محمد على الكبير الذى تولى أريكة الحكم فى مصر عام ١٨٦٣ وكان يسعى لانفتاح مصر على الغرب، ونقل قاهرة العصور الوسطى إلى قاهرة جديدة تساير الحديث دون أن تتخلى عن تلابيب الماضى، والذى كان إذا أحب لم يترك لحب بعده مجالا.

جرأة أوجيني

لقد تعرف خديو مصر على الإمبراطورة «أوجينى» أول مرة خلال زيارته للمعرض الدولى فى فرنسا عام ١٨٦٧، وكان لدى فرنسا جميع الأسباب التى تدعوها إلى استقبال الباشا بأبهة وفخامة فهو ناطق بالفرنسية، ومحب لفرنسا، وخريج مدرسة «سان سير العسكرية» الفرنسية.

ونتيجة لأن امبراطور فرنسا كان يعانى من آلام روماتيزمية فى ذلك الوقت ولم يحضر حفل استقبال الخديو، فقد استقبلت «أوجينى» إسماعيل الذى وقع فى حيرة أمام جرأة هذه الامبراطورة الفاتنة فقد طلبت منه أن يمنحها مجوهرات (آح حوتب) وبما أنه لا يستطيع الرفض الصريح أحال طلبها إلى ماريت «عالم المصريات الفرنسى الذى عمل فى خدمة الخديو إسماعيل» الذى اعتذر عن تلبية طلبها، وخشية من غضب الامبراطورة فقد منح الخديو أسرتها «دهبية» فاخرة ذات أشرعة مثلثة الشكل كان قد أحضرها خصيصا من مصر، وذلك لاستجلاب رضاها ومن هنا بدأ التعارف بينهما.

لقد كان إسماعيل يسعى لموافقة الدول الأوروبية على إنشاء المحاكم



(١) الامبراطورة أوجينى ولدت فى مدينة غرناطة بإسبانيا فى عام ١٨٢٦

المختلطة كما كان يسعى إلى أن تتفق كلمة الدول الأوربية على إعلان استقلال مصر ولما كانت فرنسا تبدى بعض التحفظات على ذلك فقد حاول إسماعيل عن طريق وزيره نوبار التقرب من رجال الحكم فى فرنسا عن طريق تملق الإمبراطورة الحسناء باعتبارها صاحبة الكلمة والسيطرة فى السياسة الخارجية الفرنسية حتى تساعده فى الوصول إلى مبتغاه. وقد نجح نوبار فى مسعاه فبعد مقابلته للامبراطورة أخبرها أن الخديو كلفه بالسؤال عما إذا كانت جلالتها سوف تتكرم بزيارة مصر بمناسبة افتتاح القناة «حيث يعتزم الخديو أن ينتهز فرصة تشريفها ليجعل حفل الاستقبال من الفخامة والروعة بحيث يتناسب مع مقام جلالتها » . وقد رحبت الامبراطورة بالفكرة وارتاحت لما أشار به نوبار من فخامة حفلات استقبالها مما جعلها تساعد نوبار فى انتزاع موافقة الحكومة الفرنسية على إصلاح القضاء فى مصر الذى يرمى إلى إنشاء نظام المحاكم المختلطة.

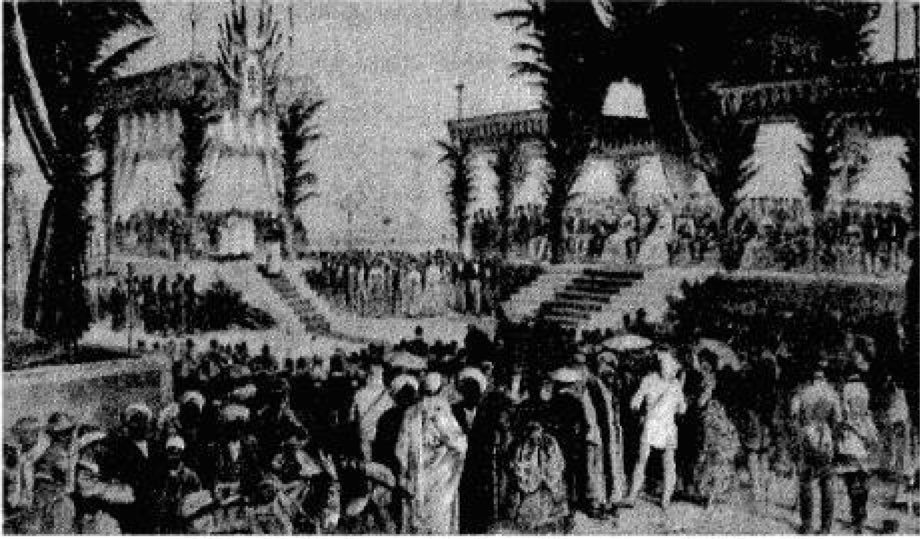
ضيافة الإمبراطورة

ولما سافر إسماعيل إلى أوربا لدعوة ملوكها وأمرائها لحضور حفل افتتاح القناة دعاها للحضور فقدمت إليه قبل موعد الاحتفال بثلاثة أسابيع ومعها حاشية تضم عشرين كونتا ودوقا غير زوجاتهم وبناتهم فأنزلها إسماعيل فى قصر الجزيرة الوسطى على النيل فى الزمالك، والذى بناه على عجل خصيصا لها ليكون لها مقاما خلال زيارتها لمصر، والذى روعى فيه أن يكون على الطراز الأندلسى كى تتذكر الإمبراطورة أصولها الإسبانية وتتذكر غرناطة تلك المدينة التى ولدت ونشأت وترعرعت بين جنباتها .

وقد اهتم الخديو بضيافة الامبراطورة بشكل يفوق الوصف فاختار لها بنفسه مائة من الوزراء وأعضاء الأكاديمية الفرنسية والأدباء والرسامين والمصورين والموسيقيين ليكونوا فى خدمتها كما طلب الخديو من ماربيت عالم المصريات أن يقوم بدور المرشد لها ، وأن يعد كتيبا لتتعرف منه على سمات الحضارة الفرعونية.

ولما رغبت أوجينى فى زيارة الأهرام أمر الخديو بتمهيد الطريق إلى ذلك الأثر الفرعونى، وجعله مسلوكا للعربات، وغرسه بأظل أنواع الشجر.

وعندما أعربت أوجينى عن رغبتها فى حضور عرس مصرى، صاح إسماعيل «يا لها من مصادفة سعيدة يا صاحبة الجلالة.. يقام الليلة بالتحديد عرس فى القصر» وسرعان ما استأذن الإمبراطورة فى انصرافه واستدعى موظفا شابا وقال له «أنت ستتزوج هذا المساء » وأقام لعرسه حفلا كبيرا فخما



حفل افتتاح قناة السويس الذى حضرته أوجينى وملوك ورؤساء الدول الغربية - ١٨٦٩

لأجل إرضاء الامبراطورة.

وتوالت الاحتفالات من أجل الامبراطورة آخذة بالألباب، ثم سافر الخديو معها بشخصه إلى الصعيد فى رحلة شبيهة بليالى ألف ليلة وليلة حيث امتلأت بصنوف من الأبهة والترف والفخفخة، وقد صاحب عالم الآثار الفرنسى «مارييت» الامبراطورة فى هذه الرحلة ليشرح لها تاريخ الحضارة المصرية، وبعد انتهاء الرحلة عادت «أوجينى» مع الخديو إلى القاهرة حيث أقامت فى قصر الجزيرة يومين زارت خلالهما متحف الآثار القديم فى بولاق، كما ذهبت إلى خان الخليلى والموسكى والقلعة، وزارت مسجد السلطان حسن .

اهتمام خاص

وخلال احتفالات قناة السويس التى استمرت أربعين يوما استجاب الخديو لرغبة الامبراطورة بأن تتقدم سفينتها المسماة «الايجل» أى النسر، سفن باقى المدعوين، ففى الثامنة من صباح يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ تقدمت سفينة الامبراطورة موكب السفن الست والأربعين التى تحمل ملوك وملكات وأباطرة وأمراء أوربا من بور سعيد على البحر المتوسط فى اتجاه السويس على البحر الأحمر، وكانت الامبراطورة واقفة على ظهر السفينة يحف بها كبار نبلاء فرنسا، ولما رست بها سفينتها فى المرفأ قصدها إسماعيل أولا؛ وهنأها بسلامة الوصول،

وأكد لها أن وجودها خير ما يتفاءل به، وأعرب لها عن شكره وارتياحه، لتفضلها بقبول دعوته .

وإلى جانب ذلك فقد خص الخديو الإمبراطورة «أوجيني» باهتمام خاص، فأجلسها بجانبه في المنصة الكبرى المخصصة للضيوف أصحاب التيجان، وما أن استقرت في مقعدها إلا وصدحت الموسيقات كلها بالنشيد الفرنساوي، كما تصدرت أوجيني وليمة العشاء التي أقامها إسماعيل لضيوفه في قصره بمدينة الإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر ١٨٦٩ وكانت تقام الزينات لها في أي جهة تحط بها، كما أمر الخديو بإعداد وتجهيز ديوان محافظة القناة لأجل إقامة الامبراطورة خلال فترة الافتتاح وأشرف بنفسه على تأثيث وفرش مكان إقامتها بأفخر الأثاث كما أقام الخديو مرقصا لجميع مدعويه تحت رئاسة الامبراطورة، بذل فيه العديد من صنوف البذخ والملذات ورقصت فيه الامبراطورة كما رقص الخديو وباقي المدعوين، وامتزجت الموسيقات بطرب الرقص والزينات المتألقة أنوارا، والبشر مرتسم على جميع الوجوه. وبعد حفلات افتتاح قناة السويس حضرت «أوجيني» حفلا بدار الأوبرا بعد أن ألف «مارييت» أوبرا عايدة ، وصمم الملابس والديكور ووضع الخطوط العريضة للإخراج مستوحيا كل ذلك من عصر الأسرة الثامنة عشرة أيام عز الفراعنة، وكلف الموسيقار الإيطالي «فردي» بتلحينها حتى يعرضها الخديو أمام ضيوفه ولكن «فردي» لم يستطع تلحينها بنفس السرعة واستبدل ذلك بأوبرا أخرى هي «ريجولوتو».

وزادت حفاوة الخديو بالإمبراطورة الحسناء لدرجة أنها عندما أبدت رغبتها في الطواف بالقاهرة على ظهر حمار رافقها الخديو في هذا الطواف .

لقد هام الخديو إسماعيل عشقا بامبراطورة فرنسا لدرجة أن أطلق اسمها على شوارع مدن القناة فكان في مدينة بور سعيد شارع يحمل اسم «أوجيني» ، وكان في الإسماعيلية شارع وكنيسة يحملان اسمها .

قلب أوجيني

وبعد هذا العرض فالسؤال المطروح هو هل نجح إسماعيل في الحصول على مبتغاه السياسي بالحصول على استقلال مصر أم نجح في الحصول على قلب الامبراطورة؟

الواقع أن الدول الأوربية التي استضاف إسماعيل حكامها بشكل فاق كل حد في الاعتدال والاعتياد، لا سيما وأن استقلال مصر السياسي التام كان غرضه المنشود، كانت لها حسابات سياسية غير ما كان يبتغيه الخديو، فرغم مجاملتها له وحضور ممثليها

لافتتاح القناة، فقد كانت هذه الدول لا تريد اغضاب الباب العالى بالآستانة بتأييدها استقلال مصر، مما أفقد الخديو لخطته، وإن كان قد نجح فى الحصول على قلب الامبراطورة التى أهدته علبة ذهبية عليها صورة إله الحب «مونجرام»، كما أنها بعد ذلك كانت شديدة الحزن عليه عندما فقد عرش مصر بعد حوالى عشر سنوات تقريبا من احتفالات افتتاح القناة.

وعلى الرغم من تقلب الأيام فى غير صالح الامبراطورة خاصة بعد أن فقدت عرشها وزوجها فى أعقاب الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا، ومع أنها باتت وحيدة تواجه قسوة الحياة فإنها لم تنس ذكرياتها مع الخديو بل ظلت وفيه له حتى بعد مماته فتذكر الأميرة جويدان زوجة الخديو عباس الثانى أنه فى أثناء حكم زوجها كانت أوجينى تزور مصر سنويا وتبدأ مقامها فى القاهرة بزيارة أرامل إسماعيل، ولكن شتان ما بين زيارتها لمصر خلال عصر إسماعيل وزيارتها فى أيام حفيده عباس الثانى حيث نزلت فى أحد فنادق القاهرة ضيفة مجهولة بعد أن كانت تسير فى طليعة ملوك أوربا وامرائها يوم افتتاح قناة السويس.

لقد عاشت أوجينى طويلا حيث أبطأ عليها الموت حتى قضت نحبها فى عام ١٩٢٠ عن عمر يناهز ٩٤ عاما. ■

كلمات عاشت

* «أنا لا أحس بعمرى فى أحيان كثيرة وحتى عندما أكتب لا يجول فى ذهنى أن أوجه كلامى إلى جيل معين، سواء كان جيلى أنا أم جيلكم أنتم الشباب»

يحيى حقي

* «من أجل أن تتحرر من نفسك، أن تنظر إلى نفسك أن تحكم على نفسك»

جان بول سارتر

* «فقدان الحياة شيء بسيط، لكن أن نرى معنى هذه الحياة يتبدد، فهذا ما لايمكن احتماله، لابد من مبرر للوجود، كى نستطيع أن نعيش»

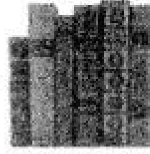
ألبير كامى

* «إن كل ما يبدو أخلاقيا، ليس بكل بساطة، إلا إحساسا جماليا»

جان أنوى - بيكيت

* «أغرب الغرباء من صار غريبا فى وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدا فى محل قربه»

أبو حيان التوحيدي



تاج العروس

لمحمد مرتضى الزبيدى

بقلم

د. عوض الغبارى *



كان التأليف الموسوعي فى مصر دليلاً علي تمكن المؤلفين من العلوم والمعارف التى ثقفوها، وكان للمؤلفات الموسوعية فيها دور عظيم فى الحفاظ على التراث العربى من الضياع بعد أن أحرق التتار المكتبة العربية فى بغداد، عاصمة الدولة العربية الإسلامية، ودمروا مظاهر عمرانها وحضاراتها. واتسق الطابع الموسوعى للتأليف مع الطابع الأدبى والثقافى والحضارى العربى فى مصر فى عصورها الإسلامية.

ولم يخل هذا الهدف النبيل من تأليف الموسوعات من إبداع أصيل، إذ لم يكن كله تقليداً لما سبق من تراث، وإنما صدر فيه الكاتب الموسوعي عن ذاته الأصيلة المعبرة عن ثقافة عصره. لقد كان لظاهرة التأليف الموسوعى جذورها فى الثقافة العربية ممثلة فى العصر العباسى خاصة، وامتدت إلى «مصر» فى عصورها الإسلامية، وأصبحت مركز الثقافة والحضارة العربية، فزخرت بالحركات العلمية، وقامت بدور أصيل فى الإسهام فى بناء الثقافة العربية الإسلامية فى تفاعل مستمر ومثمر مع منظومة العلوم والمعارف التى أسهمت بنصيب وافر فى تطور الحضارة الإسلامية والثقافة الإنسانية.

وقد فصل «محمود رزق سليم» فى موسوعته عن نتاج العصر المملوكى العلمى والأدبى (٨ مجلدات) العوامل التى أدت

*استاذ بكلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم اللغة العربية

إلى نشاط الحركة العلمية والأدبية في العصر المملوكي، وذكر أن مصر استطاعت فيه أن تكون لنفسها ثقافة تحمل طابعها، وتؤثر في الثقافات الأخرى (عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ، القاهرة، ١٩٤٩، المجلد الثالث، ص ١٦) وكان من نتيجة هذا تأليف موسوعات ضخمة في تاريخ مصر «كخطط المقريزي»، وكتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»، و«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» «لابن تغري بردي»، و«حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» «للسيوطي»، و«بدائع الزهور في وقائع الدهور» «لابن إياس»، وغيرها مما أسهم في اتساع مجال الدراسة التاريخية الموسوعية، وفي هذا السياق الحضاري الثقافي العلمي لمصر العربية الإسلامية على مر عصورها ألفت الموسوعات الكبيرة مثل «نهاية الأرب في فنون الأدب» «للنويري»، ويعد مصدراً مهماً لكثير من المعارف التي ينفرد بها.

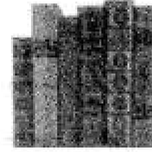
و«مسالك الأبصار» «لابن فضل الله العمري» موسوعة أخرى، وهو دائرة معارف في جغرافية العالم العربي والإسلامي. أما «خطط المقريزي» فموسوعة شاملة ودائرة معارف لتاريخ مصر وعمرانها وحضاراتها ومنشآتها، وكانت مثل هذه الموسوعات تتويجاً للحركة العلمية في مصر، وقد أمدت المكتبة العربية بكتب قيمة في مختلف ألوان العلوم والمعارف كالعلوم اللغوية التي توجت بتأليف «ابن منظور» لأكبر معجم لغوي عربي مثل معاجم اللغة في العصر المملوكي، وهو معجم «لسان العرب» الذي كان موسوعة لها قيمة كبيرة في جمع اللغة العربية، وتوثيق مصادرها الأصيلة الكثيرة امتداداً لنتائج ابن هشام وهو أكبر نحوي مثل نهضة الدراسات النحوية واللغوية في مصر في كتبه المشهورة «كمغني اللبيب» و«شذور الذهب».

ويعد «جلال الدين السيوطي»، بغزارة إنتاجه، وقيمة مؤلفاته العظيمة عالما موسوعياً جليلاً، وظاهرة فريدة في الثقافة الإسلامية، وقد ألف كتبا كثيرة في النحو واللغة. ويعد كتابه «المزهر في علوم اللغة» من أهم كتب اللغة في التراث العربي، فضلاً عن أهم كتبه في النحو «همع الهوامع»، و«الاقتراح في أصول النحو»، و«الأشباه والنظائر»، وغيرها مما اعتمد فيه على المصادر الأصيلة المتنوعة التي توضح ما كان للمكتبة العربية من دور مهم في بناء الثقافة بمعناها الواسع.

الزبيدي

في هذا السياق العظيم لمغزى التأليف الموسوعي توجت الدراسات اللغوية بالمعجم الأكبر في أواخر القرن الثاني عشر، إذا أبرز الإمام اللغوي «محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسني الواسطي الزبيدي المصري واليمني الأصل» (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ) كتابه المسمى «تاج العروس من جواهر القاموس» شرحاً «للقاموس المحيط للفيروز أبادي». (حسين نصار، المعجم العربي ، مكتبة مصر ، القاهرة، ط ثانية، ١٩٦٨، المجلد الثاني، ص ٦٣٩).

وقد نزل «الزبيدي» القاهرة في سنة ١١٦٧ هـ بعد رحلة علم حافلة من منشئه «بزبيد» إلى رحلته في طلب العلم وحجه مراراً، وأخذه عن علماء مكة، فحضر دروس شيوخ الأزهر في ذلك الوقت، وتلقى عنهم، وأجازوه وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه . (محمد سيد كيلاني، الأدب



المصرى فى ظل الحكم العثماني، دار الفرجاني، القاهرة طرابلس لندن، ١٩٨٤، ص ٢٨٦).

لقى «الزبيدى» كل الإكرام والإجلال فى جنوب مصر وشمالها، وحسنت حاله، ورغد عيشه، واشتهر ذكره عند الخاص والعام، ثم تزوج وسكن بعطفة الغسال مع لقاء مسكنه بوكالة الصاغة، وشرح القاموس فى كتابه «تاج العروس» ولما أكمله أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم، واشترى «محمد بك أبو الدهب» نسخة من تاج العروس بمائة ألف درهم عندما أنشأ جامعه المعروف بالقرب من الأزهر، وأودعه خزانة كتبه.

وقد شرع فى إملاء الحديث واشتهر فيه، وقرأ عليه علماء الأزهر «صحيح البخارى» مما جعل «الجبرتي» يشيد بدروسه ومكانته الرفيعة بين علماء مصر وجمهورها، وعلى رأسهم الأمراء الكبار الذين انجذبوا إلى مجالس دروسه، وواصلوه بالهدايا الجزيلة، والولائم الفاخرة، ثم كرمته الدولة بعد أن عظم أمره، واشتهر صيته فعينت له راتبا يومياً، ودعته الحكومة العثمانية لزيارة الأستانة سنة ١١٩٤ هـ.

وكاتبه «ملوك الترك» و«أمراء الحجاز» و«اليمن» و«الهند» و«الشام» و«العراق» و«شمال أفريقية» و«السودان»، وكثرت عليه الوفود والهدايا العظيمة من كل ناحية، وصارت له عند أهل المغرب شهرة واسعة ومنزلة رفيعة حتى كان أحدهم إذا ورد حاجا ولم يزر الزبيدي ولم يصله بشيء لا يعتبر حجه كاملاً (المرجع السابق، من ص ٢٨٧ إلى ص ٢٩٢).

تاج العروس

طبع «تاج العروس» فى طبعته الأولى بالمطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحمية سنة ١٣٠٦ هـ فى عشرة مجلدات ضخمة من القطع الكبير، وقد أشاد «الزبيدى» فى مقدمته «بالفيروز آبادى» وبقاموسه، وبين أخذه عن علماء مصر، وأشار إلى ثقافته الواسعة إذ برع «فى الفنون العلمية ولا سيما اللغة فقد برز فيها، وفاق الأقران، وجمع النظائر، واطلع على النوادر، وجود الخط، وتوسع فى الحديث والتفسير.. وكان واسع الرواية وله التصانيف الكثيرة النافعة الفائقة منها هذا الكتاب المسمى بالقاموس المحيط». (محمد مرتضى الزبيدى، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦ هـ/ المجلد الأول، ص ١٣).

يوضح الزبيدى مقصده من تأليف تاج العروس فيذكر أنه ولج طريق التصنيف من بابه الأعظم وهو اللغة العربية قائلاً: «فقد برت فنون العلم.. فصادفت أصلها الأعظم الذى هو اللغة العربية خليقة بالميل فى صغو الاعتناء بها، والكدح فى تقويم عنادها» (المصدر السابق، ص ٢).

ويصف القاموس المحيط الذى قام بشرحه فى معجمه بقوله: «أجل ما ألف فى هذا الفن لاشتماله على كل مستحسن من قصارى فصاحة العرب العرباء حيث أوجز لفظه وأشبع معناه.. ولعمرى هذا الكتاب إذ حوضر به فى المحافل فهو بهاء.. قد اخترق الآفاق مشرقاً ومغرباً» (المصدر السابق، ٢ - ٣).

ويشير الزبيدى إلى الهدف من تأليف (تاج العروس) إكمالاً لمسيرة العلماء الذين قاموا بشرح القاموس المحيط للفيروز آبادى بقوله: «فلما آنست من تناهي فاقة

الأفاضل إلى استكشاف غوامضه والغوص على مشكلاته، ولا سيما من انتدب منهم لتدريس علم غريب الحديث، وإقراء الكتب الكبار من قوانين العربية في القديم والحديث استسعيت . في وضع شرح عليه، ممزوج العبارة ، جامع لمواده بالتصريح في بعض، وفي بعض بالإشارة، وافٍ ببيان ما اختلف من نسخه، والتصويب لما صح منه من صحيح الأصول، حاو لذكر نكته ونوادره، والكشف عن معانيه، والإنباه عن مضاربه ومأخذه بصريح النقول، والتقاط أبيات الشواهد له مستمدا ذلك من الكتب التي يسر الله تعالى بفضله وقوفي عليها، وحصل الاستمداد عليه منه» (المصدر السابق، ص ٣).

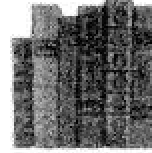
ويتضح من هذا أن هدف الزبيدي من تأليف تاج العروس كان إيراد جميع ما في القاموس المحيط وتحقيقه تحقيقاً علمياً، وشرحه والتنبيه على مراجعه والاستشهاد عليه. (حسين نصار، المعجم العربي، الجزء الثاني، ص ٦٤٠، وانظر المصادر التي ذكر الزبيدي أنه رجع إليها في تأليف تاج العروس، المجلد الأول، ص ٣، ٤).

منهج الزبيدي

ويوضح «الزبيدي منهجه في تأليف (تاج العروس) بقوله : ولم آل جهدا في تحري الاختصار، سلوك سبيل التنقية والاختيار.. فجاء بحمد الله تعالى هذا الشرح واضح المنهج كثير الفائدة سهل السلوك موصول العائدة.. وجمع من الشواهد والأدلة ما لم يجمع مثله لأن كل واحد من العلماء انفرد بقول رواه أو سماع أداه، فصارت الفوائد في كتبهم مفرقة، وسارت أنجم الفضائل في أفلاكها هذه مغربة وهذه مشرقة فجمعت منها في هذا الشرح ما تفرقه، وقرنت بين ما غرب منها وبين ما شرق، فانتظم شمل تلك الأصول والمواد كلها في هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل وأولئك بمنزلة الفروع.. وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت أو شددت أو رحلت.. وليس لي في هذا الشرح.. سوى أنني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من منطوق ومفهوم، وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير وطالب العلم منهوم، فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول لأني عن كل كتاب نقلت مضمونه فلم أبدل شيئاً فيقال «إنما إثمه على الذين يبدلونه»، بل أديت الأمانة في شرح العبارة بالفص، وأوردت ما زدت على المؤلف بالنص، (تاج العروس، المجلد الأول، ص ٤ - ٥).

وأبرز معالم منهج الزبيدي في «تاج العروس» جمعه واختياره وتبويبه لما ورد عن اللغويين، وقد مكنته من تحقيق ذلك ثقافته اللغوية الواسعة التي انعكست في ذكره للمصادر القيمة المتنوعة التي اعتمد عليها في مقدمته للتاج، تلك المصادر التي اتسعت وتعددت أبوابها وصارت أقرب إلى دوائر المعارف منها إلى مراجع معجم لغوي (حسين نصار، المعجم العربي، الجزء الثاني، ص ٦٤٢).

وفي مقدمته «للتاج» ذكر «الزبيدي» سبب تأليفه له قائلاً: «فإنني لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة الشريفة إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية.. وقد جمعته في زمن أهله بغير لغة يفخرون، وصنعته كما صنع نوح عليه السلام الفلك وقومه منه يسخرون، وسميته «تاج العروس من جواهر القاموس» وكأني بالعالم المصنف قد أطلع عليه فارتضاه.. ولم



من ذخائر الكتب العربية

يلتفت إلى حدوث عهده وقرب ميلاده). (تاج العروس، ص ٥).

فهو إلى جانب الهدف السامي من هدفه وهو حفظه للغة القرآن والحديث يضيف بعداً آخر إلى هدف تأليفه لمعجمه وهو دوره في النهوض باللغة العربية التي تدنت منزلتها بين أهلها خاصة في العصر العثماني، عصر الزبيدي الذي يشعر في أعماقه بأن دوره هذا عظيم يرضى العلماء وإن كان يسخط الجهلاء، إذا حاكموه بمعيار الحداثة فانتقصوا من شأنه لذلك (راجع المصدر السابق، الصفحة نفسها).

عشرة مقاصد

وفي مقدمة طويلة مشتملة على عشرة مقاصد تناول في المقصد الأول منها قضية اللغة:

وهل هي توقيفية أو اصطلاحية؟ كما تناول بدايات اللغة العربية وأول من تكلم بها.

وفي المقالة الثانية تناول في المقصد الثاني سعة لغة العرب موضحاً أن الذي جاء عن العرب قليل من كثير.

أما المقصد الثالث ففي عدة أبنية الكلام المستعمل والمهمل والصحيح والمعتل، والرابع في المتواتر من اللغة والآحاد، ويتناول كذلك المنقطع والضعيف، والفصيح وأكثر الحروف استعمالاً عند العرب وهي الواو والياء والهمزة وأقلها استعمالاً لثقلها على ألسنتهم وهي الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم العين ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم، ثم تناول ترتيب الفصاحة في الألفاظ والأبنية.

وتتعلق المقالة الخامسة بمقصد في بيان الأفصح، وأفصح الخلق على الإطلاق «سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم» وقد قال أنا أفصح العرب، وأنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش، ذلك أن الله تعالى «لما وضع رسوله صلى الله عليه وسلم موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها ثم أمده بجوامع الكلم».. (تاج العروس، ص٨).

وأفصح العرب «قريش» وذلك لأن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم «محمداً صلى الله عليه وسلم»، فجعل «قريشا» سكان حرمه وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى «مكة» للحج، ويتحاكمون إلى «قريش»، وكانت «قريش» مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، (المصدر السابق، الصفحة نفسها)، ويتناول المقصد السادس المطرد والشاذ والحقيقة والمجاز والمشترك والأضداد والمترادف والمعرب والمولد.

ومثاله فيما يتعلق بالمجاز أنه اثنا عشر نوعا أحدها التجوز بلفظ السبب عن المسبب، ثم الأسباب أربعة القابل كقولهم سال الوادي، والصوري كقولهم لليد إنها قدرة، والفاعل كقولهم نزل السحاب أي المطر، والغائي كتسميتهم العنب الخمر، الثاني بلفظ المسبب عن السبب كتسميتهم المرض الشديد بالموت، الثالث المشابهة كالأسد للشجاع، والرابع المضادة كالسيئة للجزاء الخامس والسادس بلفظ الكل

للجزء كالعام الخاص، واسم الجزء للكل كالأسود للزنجي، والسابع اسم الفعل على القوة كقولنا للخمرة فى الدن إنها مسكرة، والثامن المشتق بعد زوال المصدر، والتاسع المجاورة كالرواية للقربى ، والعاشر المجاز العرفى وهو إطلاق الحقيقة على ما هجر عرفا كالدابة للحمار، والحادى عشر الزيادة كقوله «ليس كمثله شيء»، و«أسأل القرية»، والثانى عشر المتعلق على المتعلق به كالمخلوق بالخلق). (المصدر السابق، الصفحة نفسها).

أما المقصد السابع ففى معرفة آداب اللغوى وأولها الإخلاص وتصحيح النية ثم التحرى في الأخذ عن الثقات وكذلك العناية بحفظ أشعار العرب مع تفهم ما فيها من المعاني واللطائف «فإن فيها حكما ومواعظ وآدابا يستعان بها على تفسير القرآن والحديث» كما بين الزبيدى طرق أخذ اللغة وروايتها.. (المصدر السابق، ص ١٠).

ويتناول المقصد الثامن مراتب اللغويين ويعرض لأئمة اللغة من البصريين والكوفيين، ويبين أسانيدهم ووفياتهم وكناهم.

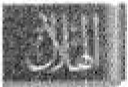
كما يتناول أول من صنف فى اللغة، ويأتى فى مقدمة أئمة اللغة «أبو الأسود الدؤلى» أول من رسم للناس النحو واللغة، وكان أخذ ذلك عن «أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه» وكان أعلم الناس بكلام العرب (المصدر السابق، الصفحة نفسها)، أما أول من صنف في جمع اللغة فهو «الخليل بن أحمد» الذى ألف كتاب «العين» المشهور.

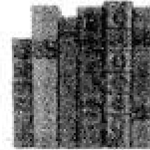
وقد تتبع الزبيدى المؤلفات اللغوية إلى عصره، واقفا على أهم المؤلفين، ودورهم فى مجال التأليف اللغوى، خاصة «الجوهرى» ومعجمه «الصحاح»، وابن منظور ومعجمه (لسان العرب) و«الفيروز آبادى ومعجمه القاموس المحيط «وقد خص الأخير بترجمة ضافية فى المقصد التاسع من مقدمته «للتاج»، عرض فيها لحياته ولمؤلفاته ، ثم أتبعه بالمقصد العاشر الذى تناول فيه أسانيده المتصلة إلى المؤلف، أى الطرق التى يروى عنها «كتاب القاموس» (حسين نصار، المعجم العربى، الجزء الثانى ، ص ٦٤٧) ثم يختتم الزبيدى مقصده العاشر الأخير فى مقدمته «للتاج» بشرح لمقدمة «القاموس المحيط للفيروز آبادي»، وقد وردت عبارة «الفيروز آبادى» بين أقواس تمييزا لها عن عبارة «الزبيدي» الذى قام بشرحها (وكان يدخل فى شرحه كل ما عن له من معنى إجمالى، ومسائل نحوية وصرفية ولغوية ودينية، والخلاف بين النسخ). (المرجع السابق، الصفحة نفسها).

ثمانية وعشرون بابا

وتأتى أبواب (تاج العروس) على غرار «القاموس المحيط» الذى بوبه «الفيروز آبادى» (فأورد فى كل باب من الحروف ما فى أوله الهمز ثم قفى على أثره بما فى أوله الباء وهلم جرا إلى منتهى أبواب الكتاب فقدم فى باب الهمزة إياها مع الألف عليها مع الباء وفى كل باب إياها مع الألف على الباءين وهلم جرا إلى منتهى فصول الأبواب، وكذلك راع النمط فى أوساط الكلم وأواخرها وقدم اللاحق فاللاحق) (تاج العروس، ص ٢ / ٢)

وهكذا اشتمل التاج على ٢٨ بابا على ترتيب أ ب ت .. إلخ، واشتمل كل باب على ٢٨ فصلا على ترتيب أ ب ت .. إلخ أيضاً ففصل الهمزة باب الهمزة يبدأ بمادة (أباءة) كعباءة أى أجمة الحلفاء، والقصب خاصة، وينتهى بمادة (الأينة) كالهيئة لفظاً





ومعنى وفصل الباء – باب الهمزة – يبدأ بمادة (بأبا)، وبأبا (به) إذا(قال له بأبى أنت)، وينتهى بمادة (بهأ)، وبهأ (به) أنس به وألف وأحب قربه، مروراً بمادة (بدأ) مثلاً، وهكذا وعليه يتضح مفتاح التاج لكشف اللغة من الفصول والأبواب إذ ورد فى بدايته: كل من أراد أن يعرف المراجعة فى القاموس فليحفظ هذين البيتين :

إذا رمت في القاموس كشفا للفظه ،
فأخرها للباب والبدء للفصل
ولاتعتبر في بدئها وأخيرها
مزيداً ولكن أعتبارك للأصل

وذلك أن القاموس أشتمل على ٢٨ باباً على ترتيب أ ب ت إلخ غير أنه قدم باب الهاء على باب الواو والياء، وأما فى الفصول فقدم فصل الواو على فصل الهاء، ثم إن كل باب من الأبواب المذكورة اشتمل على ٢٨ فصلاً على ترتيب أ ب ت إلخ أيضا إلا بعض أبوابه فإنه سقط منها فصول فإذا أردت أن تراجع كلمة فانظر إلى آخرها فإن كان همزة تكون فى باب الهمز، وإن كان باء تكون مذكورة فى باب الباء، وإن كان تاء تكون مذكورة فى باب التاء وهكذا وإذا أردت أن تعرفها من أى فصل من فصول ذلك الباب نظرت إلى أولها فإن كان همزة تكون مذكورة فى فصل الهمزة من ذلك الباب، وإن كان أولها باء تكون مذكورة فى فصل الباء من ذلك الباب، وهكذا، ولكن آخر الكلمة الذى تنظر إليه لتعرف منه الباب، وأولها الذى تنظر إليه لتعرف منه الفصل لا يعتبران إلا إذا كان من الحروف الأصول لتلك الكلمة، وإن أبدلت بغيرها دون الزوائد فإذا أردت أن تراجع على لفظة «أوقب» بمعنى جاع مثلاً لا تراجعها فى فصل الهمزة لأن الهمزة زائدة فلا تعتد بها وراجعها فى فصل الواو من باب الباء. وإذا أردت أن تراجع على لفظة «موهب» لاتراجعها فى فصل الميم لأنها زائدة وراجعها فى فصل الواو. وإذا أردت أن تراجع على لفظ «سكران» لاتراجع في باب النون لأنها زائدة مع الألف فراجعها فى باب الراء ولفظة «التقوى» لاتراجع عليها فى فصل التاء لأنها مبدلة من واو فتراجع فى وقى وكذلك التوراة أصل التاء فيها واو فتراجع فى «ورى»، وعلى هذا فقس والأسم الأعجمى والجامد تعتبر حروفه كلها أصول «كسمرقند» فهي من باب الدال وفصل السين، و«إبراهيم» من باب الميم وفصل الهمزة، ثم إذا رأيت فيه رسم «م» فهو رمز لعروف، ورسم ع رمز للموضع ، ورسم ج رمز للجمع ، ورسم جج لجمع جمع الجمع، ورسم ججج لجمع الجمع، الجمع، ورسم ة رمز للقرية، ورمز د رمز للبلده. (تاج العروس، ص ٢)

مادة التاج

وقد نهج مؤلف التاج على أن يصدر كل باب بكلمة قصيرة عن الحرف المعقود له هذا الباب فيبين مخرجه وصفته وإبدالاته وما إلى ذلك. (حسين نصار، المعجم العربي، الجزء الثاني، ص ٦٤٧) مثاله فى باب الهمزة قوله :(الباب لغة الفرجة التي يدخل منها إلى الدار، ويطلق على مايسد به ويغلق من خشب ونحوه، واصطلاحاً اسم الطائفة من المسائل مشتركة في حكم، وقد يعبر عنها بالكتاب وبالفصل وقد يجمع بين هذه الثلاثة (فصل الهمزة ويعبر عنها بالألف المهموزة لأنها لا تقوم بنفسها ولا صورة لها فلذا تكتب مع الضمة واوا، ومع الكسرة ياء،

ومع الفتحة آلفا) (تاج العروس، ص ٣٩)

وتتضح شخصية الزبيدى اللغوية من تحليل مواد تاج العروس حيث يموج هذا المعجم بالزيادات والمستدركات من المواد والصيغ والمعانى، كما يعنى بإبانة المراجع التي استقى منها المؤلف مواده، وخلافات اللغويين فى الروايات اللغوية، وإيراد الشواهد على اختلاف أنواعها، خاصة الشعر العربي والحديث الشريف، وجهد دءوب لضبط الألفاظ، ونقد بعض المواضع التي وردت فى القاموس المحيط للفيروز آبادي سواء فيما يتعلق بالمنهج أو بالمواد وتفسيرها (للتفصيل راجع حسين نصار، المعجم العربي، الجزء الثاني، من ص ٦٦٤ إلى ص ٦٧٣).

وللدلالة على ذلك اختار للقارئ العزيز مادة من تاج العروس من عنوانه، أعنى مادة (تاج) (والتاج الإكليل والفضة والعمامة والأخير على التشبيه (ج - رمز الجمع - تيجان وهو ما يصاغ للملوك من الذهب والجوهر والإكليل تيجان ملوك العجم (وتوجه) أى سوده وملك متوج (و) التاج (دار المعتضد بالله ببغداد .. وقصر بمصر للفاطميين يعرف بالتاج وتاجة اسم امرأة قال :

ياويح تاجة ما هذا الذى زعمت

أشمها سبع أم مسها لم

والتاجية مقبرة ببغداد نسبت إلى مدرسة تاج الملك أبى الغنائم والتاجية نهر بالكوفة وذو التاج لقب جماعة منهم أبو أحيحة سعيد ابن العاص وإمام تائج أى ذو تاج على النسب لأنا لم نسمع له بفعل غير متعد قال هميان بن قحافة !

تقدم الناس الإمام التائجا أراد تقدم الإمام التائج الناس

فقلب، وهذا كما يقال رجل دارع ذو درع .. ومما يستدرك عليه التاج للفضة، ويقال للصليجة من القصة تاجة وأصلها تازة بالفارسية للدرهم المضروب حديثاً وبنو تاج قبيلة من عدوان مصروف قال:

أبعد بني تاج وسعيك بينهم

فلا تتبعن عينيك ما كان هالكا

وتاج وتريج ومتوج أسماء، وتاج موضع معروف بمصر وهو المراد فى قول القائل:

رياض كالعرائس حين تجلى

يزين وجهها تاج وقرط

(تاج العروس، المجلد الثاني، ص ١٢ / ١٣)

ومن الظواهر البارزة فى التاج احتواؤه على ما كان فى أصله القاموس المحيط أو أكثر، والاستقصاء والعناية بالأعلام، والتوسع فى إيراد أسماء الأماكن والفوائد الطبية والمصطلحات العلمية والدقة فى الضبط والألتفات إلى الغريب والمولد والأعجمى من الألفاظ .

ومن الظواهر الجديدة فيه العناية بالمعاني المجازية عناية لامثيل لها فى معجم عام آخر، والألتفات إلى العامية تصور نواحى من اللهجة المصرية، ومن ظواهره الجديدة، أيضاً الالتفات إلى دلالة التراكيب (حسين نصار، المعجم العربي، الجزء الثاني، ص ٦٧٤ - ٦٧٧).

ويعد تاج العروس تاجا للمعاجم فهو أصح وأكبر وأشمل معجم احتوى على مالم يأت به أكبر المعاجم العربية من فوائد مختلفة استقاها من مراجعه الكثيرة مما ميزه خصوصاً فيما يتعلق بتصويره للروح المصرى (المرجع السابق، ص ٦٧٨ - ٦٧٩).

وهذا هو أثر مصر العظيمة فى نتاج نزيلها اليمنى العظيم . ■



الإبداع مغلولاً!

من سجن الضرورة إلى أفق الحرية

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

قد تسحق تجربة السجن روح الكاتب وبدنه، فلا يعمد إلى تسجيلها بل ربما عمد إلى تجاهلها كأنها لم تكن. وقد تكون - على العكس - حافزا على الإبداع ودافعا إلى الكتابة. والمعول - في الحالين - على مزاج الكاتب الفنى، وتوجهه الفكرى، وموقفه الأيديولوجى، والمناخ الخاص والعام الذى يعيش فى ظله ويتنفس هواءه، وقدرته على تحويل الخبرة الخاصة إلى رمز عام.

إن السجن قد يولد عملا إبداعيا عظيما، وقد لا يولد إلا عملا متوسط الجودة. والفيصل هنا هو موهبة الكاتب الفنية، فالسجن لايصنع من أديب محدود القدرات أديباً عظيماً، ولكنه قادر على أن يطلق طاقات كامنة فيمن يملك أصلا هذه الطاقات.

ولأضرب مثلين من أدبنا الحديث: العقاد صاحب «عالم السدود والقيود» وإدوار الخراط صاحب «طريق النسر»، للوهلة الأولى تبدو الموازنة بينهما مستغربة بل عصية على التبرير: فليس أبعد من هذين الإثنين مزاجاً وفكرا وتقنية، لكن كتابيهما ثمرة خبرة شخصية بالاعتقال السياسى، ومن ثم فهما - من هذه الزاوية على الأقل - قابلان لأن يوضعا فى كفتى الميزان.



عباس محمود العقاد



مصطفى لطفي المنفلوطي



إدوار الخراط



صنع الله إبراهيم



محمد البساطي



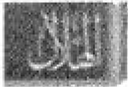
إبراهيم فتحي



العقاد (وهو مفكر كبير كنت في شبابي، ربما بنوع من عبادة الأبطال الكارلايلية، أنظر إليه بعين التقديس والآن، في شيخوختي، لا أكاد أجد فيه - باستثناء مرحلته الثورية الباكرة - ما يستحق عناء الرجوع إليه) لا يعدو أن يخرج سجلا باهتا لخبراته في سجن قرة ميدان مع بعض ملاحظات عن حياة السجن بعامة تتغيا غرض الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي (عبر رجاء النقاش - في بعض كتاباته - عن خيبة أمله في الكتاب)، أما إدوار الخراط (وهو عندي - إلى جانب أدونيس - أعظم أديب عربي في النصف الثاني من القرن العشرين والعقد الأول من هذا القرن الجديد) فيحيل تجربة السجن إلى خبرة غنية، متعددة الطبقات، حافلة بدلالات نفسية واجتماعية وفلسفية، وقد ظلت تختمر في وجدانه أكثر من أربعين عاما قبل أن يضعها على الورق.

الخبرة، هنا، واحدة أو تكاد: لكن الفارق هو أن العقاد (باستثناء لحظات قليلة أبرزها رائعته المسماة «نفثة»: «ظمآن ظمآن...») لم يكن فنانا بالجوهر وإنما بالعرض.

أما الخراط - وقدراته العقلية لا تقل عن قدرات العقاد، وإن سلكت دروبا مغايرة - فقد أخرج رواية هي عندي درة أدب المعتقلات في اللغة العربية، كل النماذج الأخرى تقصر عنها درجة أو درجتين أو



درجات.

إن قائمة أدب السجون، فى أدبنا العربى قديماً وحديثاً، طويلة بالغة الطول، فالمعتقلات قد ظلت دائماً، فى كل أنحاء العالم العربى، مضيافة فاغرة الفاه لا تشبع وإنما هى على استعداد دائما - كذلك الإله الشرقى القديم مولوخ - لابتلاع الضحايا من القرابين البشرية فى جوفها المستعر لهباً. هكذا تراكم حصاد غزير من ممثليه: الحطيئة، المتنبى، أبو فراس الحمدانى، أبو نواس، أبو دلامة، ابن زيدون، المعتمد بن عباد، ابن عمار، ثم - فى زمن أحدث - البارودى، وأحمد الصافى النجفى، والمنفلوطى وغيرهم (أنظر ملف «أدباء وراء القضبان» فى «هلال» يناير ١٩٧٣، وانظر كتاب «شعر الأسر والسجن فى الأندلس» لمؤلفه الدكتور بسيم عبد العظيم).

وفى يومنا هذا يحصى الدكتور جابر عصفور فى مقالته «جدار بين ظلمتين» (مجلة «العربى» أغسطس ٢٠٠٤) من الأدباء العرب المعاصرين الذين سجلوا تجربة السجن: عبد الرحمن منيف، إسماعيل فهد إسماعيل، ياسين رفاعية، نبيل سليمان، شاكر خصباك، فاضل العزاوى، فيصل حورانى، ملاحظا أن كتاباتهم تلجأ إلى «التفاصيل الواقعية المؤلمة مهما كانت قسوتها أو بشاعتها وتتأنى سرديا ووصفيا إزاء مشاهد التعذيب والتنكيل والقتل»، ولنا أن نضيف إلى قائمته قائمة لا تقل عنها طولا أذكر منها - روايات ومذكرات - بدون ترتيب: «أنا الشعب» لمحمد فريد أبو حديد، «العين ذات الجفن المعدنى» للدكتور شريف حتاتة، «القطار» لصلاح حافظ، «البصقة» للدكتور رفعت السعيد، «الأسوار» لمحمد جبريل، «نقوش على جدران زنزانة» لوليد رياح (فلسطينى)، «مذكراتى فى سجن النساء» للدكتورة نوال السعداوى، «سجناء لكل العصور» لفؤاد حجازى، «فى معتقل أبو زعبل» لإلهام سيف النصر، «رسائل سجين سياسى إلى حبيبته» لمصطفى طيبة، «سنة أولى سجن» لمصطفى أمين، مسرحية «القاتل خارج السجن» لمحمد سلماوى، مذكرات فريدة النقاش، إلى غير ذلك مما لا تعيه الذاكرة الآن.

وثمة أعمال يتخايل فيها شبح السجن أو المعتقل فى المؤخرة، باعتباره المآل، ولكنه لا يلعب دورا أساسيا فى القصة، وإنما موضع التركيز هو الحادثة التى سبقت السجن، أو مشاعر السجين فى الطريق إليه لأول مرة. من أمثلة هذه الأعمال «قصة فى سجن» ليحيى حقى و«الطريق إلى المعتقل» ليوسف الشارونى. وهناك أعمال لا يعدو السجن أن يكون فيها مجرد حيز مكانى، كالبيت أو المكتب أو الشارع، وإن يكن أكثر انغلاقا، يراد به نقل رسالة إلى المتلقى. مثال هذا النوع الأخير رواية توفيق الحكيم «عودة الروح» وهى رواية ساذجة التصور والتنفيذ معا، ليس لها، اليوم، أكثر من أهمية تاريخية. قرب ختام الرواية نجد محسن وعبده يوزعان منشورات وطنية فيقبض الإنجليز عليهما وعلى سائر أهل البيت: حنفى وسليم والخادم مبروك. ويساقون إلى سجن القلعة حيث نجد مشاهد لا تخلو من فكاهة (لا يستطيع أحد أن ينكر على الحكيم خفة ظله). ويرفض محسن الصغير - تضامنا مع أهله وقومه - أن يفرج عنه بمفرده، ثم يتسنى - بوساطة من مفتش الرى الإنجليزى الذى كان صديقا لوالد محسن - نقل الجميع من الزنزانة إلى مستشفى السجن حيث الأوضاع أفضل كثيرا. ويدخل الطبيب العنبر فيقع نظره على الشعب (كلمة الحكيم) راقدين الواحد تلو الآخر. ويتبين السحن والوجوه فإذا هو يذكرهم ويذكر منزلهم الذى عادهم فيه يوما فوجده أشبه بعنبر مستشفى، حين أصيبوا جميعا بالحمى الإسبانيولية، فيقف دهشا لحظة ثم يصيح مبتسما: «هو أنتم؟؟ ويرده هنا كمان جنب بعضكم؟! الواحد جنب أخوه؟!»، وهذه هى الرسالة التى تريد الرواية أن تنقلها: تضامن الشعب المصرى وتلاحمه، الكل فى واحد، فى زمن ثورة

١٩١٩.

على غير هذا المستوى يعالج كبار كتاب الغرب تجربة السجن: الشاعر الفرنسي ڤيون (وقد قارف أغلب الموبقات قبل أن يتم عامه الثلاثين) يجعل منه تجربة دينية عن الخطيئة والتكفير، دوستويفسكي وسولجونتسين يجعلان منه دراما روحية موصولة الوشائج بأعمق نوازع النفس وخفايا الضمير، وكنز يصور عذابات المسجونين أعواما طوالا، بلا أمل في الخروج إلى النور، في زنزانات سجن الباستيل، عشية قيام الثورة الفرنسية، وذلك في مخطوط الدكتور مان من رواية «قصة مدينتين» وإن شابتها شروخ في البناء والحبكة لا تجعلها من أفضل رواياته، أوسكار وايلد صاحب «من الأعماق» و«موال سجن ريدنج» يتعلم من تجربة سجنه كيف تكون النقلة من المستوى الجمالي إلى المستوى الأخلاقي والديني، وتخلي نزعته الهيدونية (اللذّية) الباكرة (كان من أكبر أعمدة مذهب الفن للفن في أواخر القرن التاسع عشر) السبيل لإدراك أعمق لمأساة الحياة ومعاناة المسحوقين والفقراء والمهمشين، الروائي الفرنسي المعاصر كلود إقلين يحيل الخبرة في روايته «السجين» (نقلها إلى العربية مصطفى كامل فودة) إلى استعارة مجازية مكتنزة بالدلالات ولكنها خالية من السرف العاطفي، وذلك من خلال تحكم دقيق في النغمة ونبرة الحكي.

لكن فلنعد إلى أدبنا العربي، إذ عسير بلوغ هاتيك جدا، تلك عليا مراتب الأدباء، إذا حورنا بيتا لابن الرومي. ثمة، لحسن الحظ، عدد من الأعمال الروائية والقصصية (والشعرية أيضا) تخترق قشرة السطح وتنفذ إلى أعماق غائرة من كيان الفرد وبنيان المجتمع. سأتحدث هنا عن ستة جوانب من هذه الأعمال: مناخ القهر العام؛ استشراء الفساد؛ التوثيق الدقيق لحياة السجن؛ إسقاط التاريخ على الحاضر؛ سيكولوجية التعذيب البدني والمعنوي، الفانتازيات الجنسية التي يخلقها حرمان السجين من إشباع غرائزه بالطرق السوية.

مناخ القهر العام

في أقصوصة محمد البساطي «حديث من الطابق الثالث» (جريدة المساء، ١٤ أغسطس ١٩٦٦) امرأة حاملة طفلها تأتي لزيارة زوجها السجين الذي يطل عليها من نافذة زنزانته بالطابق الثالث من مبنى السجن الضخم المستطيل. وثمة شرطي جامد يرمقها من فوق حصانه صامتا، وكأنه رمز للسلطة المطلة على المواطن من عل. وينادي الزوج، عاشور، على زوجته عزيزة ويخبرها أنه سينقل من السجن إلى سجن آخر بعد أربعة أيام، لكنه لا يتمكن من أن يراها جيدا إذ ثمة في الزنزانة وجوه أخرى تزاحمه على النظر. وحين يختفي للحظة يظل وجهان بالنافذة، يمد أحدهما ذراعه ويصنع بيده حركة بذيئة في الهواء. وتخفض عزيزة بصرها، وتتراجع إلى كومة حجارة إلى أن يعود زوجها.

ثمة ما يشبه الاجماع بين النقاد على غنى هذه القصة القصيرة ونجاحها - من خلال لغة محايدة مقتصدة خالية من الزوائد كلغة همنجواي أو شتاينبك - في أن تنقل أحاسيس المعاناة المستمرة الضاغطة، وجمود الإحساس وتبلده لفرط ما تعود على الإهانة والإذلال، وتشيؤ الوجدان الإنساني تحت وطأة ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية قاهرة.

يقول غالب هلسا - ذلك الروائي الأردني العظيم - إن القصة «تمثل خير ما في البساطي» («الأدب الجديد: ملامح واتجاهات»، جاليري ٦٨، أبريل ١٩٦٩، ص ١٢٣).

ويبرز إبراهيم فتحي سيادة منطق القهر في الموقف على كل المستويات: «يتحدث السجين مع زوجته عن الحياة والطفل والزرع وبناء البيت.. ويلعب زملاؤه معه دور الجلاد فيعابثون زوجته في بذاءة.. فالسجناء يضطهدون السجناء.. ولايزال راكب الحصان يحرس زملاءه وهم يسرقون سجائر

المساجين بعيونه المفضضة وحصانه النائم داخل البرج» («ملامح مشتركة في الإنتاج القصصي الجديد»، نفس العدد المذكور من جاليري، ص ١١٤). وعند خليل كلفت - القاص والمترجم واللغوي - أن القصة تصور «اغتراب المضطهدين المستغلين (بفتح الهاء والغين) الذين بنيت هذه السجون من أجلهم» («ملاحظات حول كتاب ٦٨»، جاليري ٦٨، أكتوبر ١٩٦٩، ص ٧٥).

استشراء الفساد

يتمثل هذا البعد على أجلى الأنحاء في رواية خيري شلبي «بغلة العرش» (دار ومطابع المستقبل ١٩٩٥). إن خيري شلبي المتخصص في سبر أغوار العالم السفلي لقاع المدينة (عبارة يوسف إدريس) يصور هنا عقابيل الانفتاح السداح مداح (عبارة أحمد بهاء الدين) في الحقبة الساداتية، وكيف صُنعت ثروات طائلة - على حساب الأغلبية الفقيرة - من العمولات والاستيراد والتصدير والدعارة والمخدرات والتهريب والعقود مدفوعة الثمن. والنتيجة التي تنتهي إليها إحدى شخصيات الرواية - فهي مجموعة مونولوجات تقوم على تعدد وجهات النظر واختلاف زوايا الرؤية باختلاف مواقع الرواة - هي أنه «لا توجد في الدنيا كلها ثروة بريئة. الثروة المنزهة عن الإثم لم توجد بعد ولن توجد» (ص ٧٧). وتستوحي الرواية الفولكلور الديني إذ تحلم كل الشخصيات - وكل منها تستأثر بفصل - بمجيء بغلة العرش: تلك التي تتوجه في ليلة القدر من كل عام، حاملة رأس قتيل، إلى دار الموعود لتجعله ثريا، ومن ثم يرغب الكل ليلتها في لزوم بيوتهم أملاً في أن تتوقف البغلة ببابهم. الكل: رجالا ونساء، شبابا وشيوخا، يرون أنفسهم جديرين بهذا الشرف السماوي، رغم أن كلاً منهم يعرف جيدا مدى ذنوبه وبعده عن أن يكون مستحقاً.

ولا يلبث أهل البلدة أن يبصروا البغلة قادمة عقب صلاة الفجر ثم تختفي فلا يدرون أين حطت ركائبها، وتروح تتمسح بعبد الرؤوف العصرة - وهو فراش في مدرسة البلدة العتيقة - فيوصد عليها باب داره وتجيء الشرطة لتلقي القبض على العصرة والبغلة معا. وتنتهي الرواية بانقشاع هذا الوهم الجماعي: فيتبين أن البغلة ليست موفدة من السماء وإنما هي بغلة الحاج على داوود، ورأس القتيل التي تحملها هي رأسه شخصيا وقد سطا عليه أبناء الليل للاستيلاء على ما كان يحمله من سبائك الذهب. هذا إذن هو خيط (لا أحب كلمة «موضوعة» التي شاعت ترجمةً لكلمة «تيمة») الرواية: صراع الوهم والحقيقة إزاء خلفية غنية بالتفاصيل السوسيولوجية من حياة بلدة ريفية مصرية في عقد السبعينيات أو نحو ذلك.

يواكب هذا الخيط ويزيده غنى تعليقات على تجربة السجن تنتثر في تضاعيف الرواية : الشيخ عبدالمقصود أبو غلاب يقول: «واعظ جاهل في نظري خير من سجان: وخطيب ساذج أفضل في النهاية من جلاد» (ص ٤٨) . ويبرر وجهة نظره هذه رغم إدراكه خطورة تعاليم الواعظ الجاهل والخطيب الساذج وتخريبهما للعقول، بأن «السجان والجلاد كلاهما أداة لتدمير الكرامة الإنسانية، وهذه في نظري جريمة لا تغتفر (ص ٤٩). وثمة إشارات إلى تعذيب الشيوعيين في المعتقلات (ص ١٥٠) ووصف لإلقاء القبض على شاعر شاب بتهمة «تنظيم حزب للبعث العراقي وأنني عميل لصدام حسين!!» ولكن السجن والتعذيب لا يكسران إرادته: «أحببت تعذيبي وسجني لسببين عظيمين كانا اكتشافين خطيرين بالنسبة لي: اكتشفت قدرتي على الصمود وحماية الكبرياء الجريح من السقوط في الوحل! واكتشفت حب الناس لي ذلك الحب الكبير! فلقد قامت الدنيا كلها تطالب بالإفراج عني، تندد بتعذيبي، تهز الأرض تحت أقدام الجلاد!» (ص ٢٠٠).

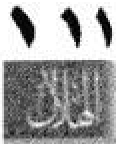
التوثيق الدقيق لحياة السجن

تمثل هذا التوثيق رواية صنع الله إبراهيم «شرف» (سلسلة روايات الهلال، مارس ١٩٩٧) وهي عندي ثاني أعظم

روايات السجون فى أدبنا بعد رواية الخراط، وإن ثار لغط حول مدى استفادتها من «زنزانة» فتحى فضل. إن أشرف سليمان (شرف كما ألفت أمه أن تنادى حبة عينها) شاب ينتمى إلى الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة، تعذبه - كما تعذب الملايين من أبناء جيله شبانا وفتيات - مظاهر الترف الاستهلاكى وأدوات المتعة التى جاء بها عصر الانفتاح واقتصاد السوق، ولكنه لا يملك - لمحدودية موارده - أن يستمتع بها، ومن ثم يكتفى بالفرجة عليها فى الفاترينات وعلى شاشة التليفزيون وفى الأحياء الراقية. ويشاء سوء حظه أن يتعرف أمام إحدى دور السينما على رجل أجنبى أشقر (يدعى أنه استرالى ثم تبين فيما بعد أنه إنجليزى) يقدم له تذكرة سينما زائدة عن حاجته ثم يصحبه إلى شقته فى الزمالك حيث يقدم له الطعام والشراب، ويتبين أن الإنجليزى جنسى مثلى يحاول الاعتداء على شرف (لاحظ دلالة الاسم الساخر!) فيقاومه هذا - تحت وقع المفاجأة - ويهوى بزجاجة خمر على صدغ مغتصبه فيقتله دون قصد منه.

يحدث هذا كله فى الفصل الأول (فصنع الله ابراهيم لا يضيع وقتا). وفى الفصل الثانى نجد شرف فى الحجز، وقد ألقى القبض عليه، وبدأت محنته المتطاولة التى سوف تستغرق أربعمائة وسبعين صفحة من القطع المتوسط . لقد وجهت إليه ظلما، تهمة محاولة سرقة الإنجليزى ثم قتله حين قاومه هذا الأخير. ويراوح الكاتب بين استخدام ضمير المتكلم وضمير الغائب، ويعمد - مستغلا موهبته الفائقة فى المحاكاة الساخرة وعنصر التهكم والتورية اللفظية والمعنوية - إلى تقديم صورة مفصلة دقيقة لحياة السجون، والنماذج البشرية المختلفة فيها (كم تبدو موهبة العقاد الفنية شاحبة بالمقارنة بما نجده هنا!) . وفى منتصف الرواية نجد جزءا توثيقيا طويلا يستمد مادته من الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون ويضم أوراق الدكتور رمزى بطرس نصيف - أحد نزلاء السجن - مع مسرحية عرائسية أعدها الدكتور وأخرجها بتمثيل سائر النزلاء، وحضور مأمور السجن وسائر الضباط والعساكر، وذلك بمناسبة «ذكرى الانتصار العظيم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣» وهذه المسرحية العرائسية التى تعرض صورا أليمة - مضحكة فى آن لتطورات المجتمع المصرى فى أعقاب الحرب، والتقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية، ومعاهدة السلام مع إسرائيل، وسياسة الباب المفتوح اقتصاديا، وموجات التطرف الدينى، آية من آيات الكوميديا السوداء، وهى تذكرنا ببعض مشاهد من «يوليسيز» جيمز جويس، وهو روائى نم صنع الله إبراهيم على معرفة بعمله منذ أخرج رائعته الأولى «تلك الرائحة» فى ١٩٦٦ وهى عمل كان نصيبه المصادرة فور ظهوره، وحس الفكاهة المرير يتخلل المشاهد من أول الكتاب إلى آخره (هاك نموذجا منه: «آخر دفعة من الشيوعيين - الذين تتيح لهم أفكارهم استشراف المستقبل - زودت المراحيض، على نفقتها، بسخانات كهربائية للمياه، أتيح استخدامها لجميع المساجين دون مقابل، وعندما أفرج عن أفراد الدفعة تركوها كما هى، لا عن أريحية وإنما لأنهم كانوا واثقين من عودتهم» (ص ١١٤) أما قصة «الاثنين هونجا حتى القتلى» فضربة عبقرية من ضربات الفكاهة، لا تقل عما نجده لدى بترونيوس أو رابليه، ولن أرويها هنا حتى يعود إليها القارئ بنفسه: ص٣٧٧ ثم ص٣٩١).

ويحشد الكاتب كل طاقات حواسه من بصر وسمع وذوق وشم ولمس لكى يرسم صورا تحفر ذاتها، بعمق، فى ذاكرة القارئ غير مغفل شيئا. حتى «الفساء والضراط» (ذلكما الموضوعان اللذان لا يفتآن يترددان فى هزليات سمير غانم الرخيصة بإلحاح) يغدوان هنا جزءا من تكوين فنى جميل، إذ تحيلهما كيمياء الفنان الصاهرة إلى شئ مغاير: «استسلم لغفو متقطع تسلى خلاله بالإنصات إلى النشرة الأخيرة ذات البناء الأوبرالى المؤلف من شخير (تمسك بطشة بقيادته وهو نائم) يتردد بين العويل



والحشرجة (حسب نوع الصور المصاحبة) تعترضه إيقاعات من زرطات متباينة الشدة (حسب نوع الطعام الذى أنتجها) ممتزجة بنداءات حراس السور الخارجيين فى أبراجهم المشيدة، معلنين عن وجودهم كل ساعة بصوت جهورى (يغالبون به خوفهم): واحد تمام، اتنين تمام، تلاتة تمام حتى ستة» (ص٦٠).

لئن كانت عبارة «الكاتب ضمير المجتمع» - وهى عبارة ابتذلت لفرط ما أسرف النقاد فى استخدامها - مازالت تعنى شيئا، وشيئا حقيقيا، لقد انطبقت على صنع الله إبراهيم، ومعه كوكبة من مجايليه أو الجيل التالى له كانوا - بدرجات متفاوتة - قرون استشعار الوطن وأجهزة إنذاره المبكر ضد الكوارث القادمة: جمال الغيطاني، يحيى الطاهر عبدالله، يوسف القعيد، خيرى شلبى، سليمان فياض، بهاء طاهر، ابراهيم عبدالمجيد، أحمد الشيخ، المنسى قنديل، علاء الأسوانى، محمود الورداني، سلوى بكر، محمد مستجاب، جميل عطية إبراهيم، عبدالسلام العمرى (هل لى أن أضيف أيضا ذلك الروائى فريد المذاق، وإن يكن من جيل أسبق قليلا: الدكتور على أبو المكارم؟).

وصف الدكتور صلاح فضل عالم صنع الله إبراهيم فى هذه الرواية بأنه «هذا الجحيم البشرى الذى يوازى عقاب الحشر ويرهص به» (الرواية الجديدة، ص٦٩) وذهب عبدالرحمن أبو عوف إلى أن الرواية لديه «أصبحت شهادة ووثيقة، ودليل عمل، وقانون إنقاذ.. إنها تقدم وتجسد وتصور حضور وتدنى وتآكل واقعنا وحياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى حاصرتها مخططات وسياسات تدميرية خارجية وداخلية أدت إلى مأساة مازالت تتابع أحداثها حتى اليوم» (قراءة فى الرواية العربية المعاصرة، ص١١).

إسقاط التاريخ على الحاضر

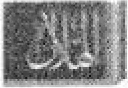
بطل هذه التقنية - كما لا حاجة بى إلى أن أقول - هو جمال الغيطاني، واحد من أكبر روائيي العالم العربي فى جيل ما بعد محفوظ، وصاحب الرائعة الباقية على الزمن «الزينى بركات». وقد سبقه إلى هذه التقنية، وعاصره فيها أو تلاه، روائيون من طراز محمد سعيد العريان صاحب «على باب زويلة» وسعد مكاوى صاحب «السائرون نياما» ومحمد جبريل صاحب «قلعة الجبل». اختار هؤلاء الروائيون جميعا فترة أواخر العصر المملوكي، وفتح مصر على يد العثمانيين، وهى فترة تدهور شامل لمرافق البلاد واضمحلال على كل المستويات، إذ رأوا فيها بعض مشابه من حقبة هزيمة ١٩٦٧ بما سبقها من مقدمات وما أعقبها من نتائج وفى مجموعته القصصية المسماة «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» (لاحظ قوله «عاش» لا «مات» التى كان القارئ خليقا أن يتوقعها) نجد عنوانا مسجوعا على طريقة الكتاب القدامى «هداية أهل الورى لبعض مما جرى فى المقشرة» ويبدأ النص بالحيلة المألوفة لدى كتاب الرواية منذ خط ثربانتس السطور الأولى من رائعته «دون كيخوته»: ادعاء الكاتب أن هذا مخطوط عثر عليه فى خزانة كتب أحد الجوامع القديمة بحى الجمالية. إننا نجد هنا ذكريات أمر (مأمور بالمصطلح الحديث) سجن المعصرة مع تحديد زمنى للفترة المعالجة يرجح أنها زمن السلطان الأشرف قايتباى، أو الأشرف قانصوه الغورى، آخر سلاطين المماليك. ونعلم أن السجن الذى يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله سمى بالمقشرة: «لأنه أقيم فى موضع كان يقشر فيه القمح . والعامة والسوقة والمشايخ وجميع أهل مصر يقولون إنه من أبشع السجون وأشدها هولا. يقاسى المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف. والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف بهم إذا دخلوه. ولو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سرا أو علانية وهم من بنائه يبتعدون: اللهم عافنا شره وبلاءه. وأسمعهم يقولون هذا فأسخر منهم لا يستبعد واحد منكم نفسه عن المقشرة. ربما اليوم وسط

عيالك وإلى جوار امرأتك، وفى الصباح فى أسفل طباق المقشرة» .

هكذا لا يعفى جو القهر الشامل أحداً، ولا ينجو منه شاب ولا شيخ. ويفد على السجن وارد جديد قوامه أربعون فلاحاً، يقعون فى قبضة الرعب المخيم: «ماهم بقية الذعر مصفين كأن على رؤوسهم الطير، قلت هذا إذا لم تمت مطعونا «بالطاعون» أو لم يمص الوطواط دمك.. وأعلم أن الوطواط فى المقشرة كالرجل والعقرب كالبغل» ويعاتب الشيخ مسعود الأمر على إذاقته المساجين صنوفاً من العذاب فيدافع هذا الأخير عن نفسه بأنه، وهو الأمر، لا يعدو أن يكون عبدالمأمور، سلطان البلاد الذى نسج شبكة أمنية محكمة حول عرشه تصد عنه أى تهديد أو نقد وسيزعم الأمر أن هؤلاء الفلاحين البائسين عربان مفسدون فى الأرض يحق إقامة حد الحرابة عليهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وفى غمرة هذه المظالم يتسلل الكاتب إلى الخوف الكامن فى أعماق الأمر ذاته (ذلك أن التعذيب يحط «أخلاقيا» بمن يمارسه أكثر مما يحط بمن يمارس عليه) : «الأمر لابد أن يدبر فى هدوء.. لو شاع وافتضح لاهتزت رأسى.. أى أيام سوداء فى انتظارى؟ كل سيوز السلطان علىّ بكلمة . أما أتابك العسكر نفسه فسوف يركبنى فوق بغل بالمقلوب ويجرسنى فى القاهرة كلها.. ارجموه، اضربوه، عذب ولدى، قتل رجلى قطع ذراعى، خوزقنى، أدخل خنجره المحمى فى رمانى ثلاثين عاما كاملة لأنه طمع فى امرأتى فحبسنى ليخلو له الجو وينالها.. الفاسق.. الزانى.. يارب الطف، يارب أعن» لا أمان لأحد فى هذا المناخ المريض، وإنما الأيام دول، والسلاطين والأمراء والأمرون والشرطيون كلهم - بتعبير أبى العلاء - كلاب تعاوت أو تغاوت لجيفة، ولواء الظفر معقود لمن هو أكثرها كلابا.

كان هذا الأسلوب الذى اعتمده الغيطانى، مستعينا بلغة المؤرخين من أمثال ابن إياس والمقريزى والجبرتى وغيرهم، اختراقة جديدة فى فن القص، مضت به إلى آماد أبعد مما صنعه أى روائى عربى سابق. من هنا كان إجماع النقاد على الاحتفاء بهذه التقنية، وفطنتهم إلى التوازيات التى يسعى الروائى إلى إقامتها بين الماضى والحاضر. كتب الدكتور عبدالحميد إبراهيم: «إن حكاية «المقشرة» لما تنته ، وهى ليست خبرا تاريخيا يروى للطرافة، ولكنها شئ متكرر فى تاريخنا له ظواهره وله أجزاؤه المكملة له » (القصة القصيرة من الإقليمية والتاريخية»، مجلة «المجلة» أغسطس ١٩٧١ ص٨١) ووصف جلال العشرى الأقصوصة «بأنها نوع من النثر الفنى الجميل الذى يتخذ من أحداث التاريخ شكلا، ومن وقائع الحياة مضمونا، ويصهر الاثنين معا فى لوحة فلمية، تذكرنا ببعض المقامات الأدبية، أو ببعض الفصول التى نطالعها فى كتب التاريخ (جيل وراء جيل، ص١٤٨) ووصف خليل كلفت القصة بأنها «ميلو دراما الرعب» وتساءل : «ما حاجة أبطال الغيطانى إلى السجون؟ إنهم دائما لا يعصون ولا..» وهم دائما أقزام أذلاء فاقدو أدنى كرامة آدمية أمام جلاديهم ورعب الشخصيات المضطهدة لا يلبث أن ينتقل إلى الكاتب نفسه، ويملأ عينيه وحواسه وعقله فيتحول إلى متعهد للشخصيات المرتعبة» (ملاحظات حول كتاب ٦٨) جاليرى ٦٨، أكتوبر ١٩٦٩، ص٨٠) أما شفيق مقار فيصف أقصوصة الغيطانى بأنها «قصة أخرى من قصص الاحتجاج والنذير الاجتماعى وهو ما يقتضيه شرف الفنان الذى ينقذ، برفضه للزيف، إلى واقع العصر ويطالع وجهه الحقيقى» ويقارن مقار بين أقصوصة الغيطانى وقصة كافكا «المستعمرة العقابية » عن «الجديد والقديم والذى بين بين»، جاليرى ٦٨، أكتوبر ١٩٦٩، ص١٠٦، ١٠٧). ■

البقية العدد القادم



السجن والسجان

في روايات نجيب الكيلاني

بقلم
د. حلمي محمد القاعود

تحظى مادة السجن والسجان في روايات نجيب الكيلاني بمساحة كبيرة كماً وكيفاً ، لعدة أسباب ، منها : تجربته الشخصية ، فقد دخل إلى المعتقل ثم السجن أكثر من مرة بسبب انتمائه إلى التيار الإسلامي ، ومن المفارقات أنه كان معتقلاً في صدر شبابه ، وخرج من السجن ليتسلم جائزة الرواية من الرئيس الأسبق «جمال عبدالناصر» ، ويعود إلى السجن مرة أخرى . ومنها غزارة إنتاجه الروائي (٤٠ رواية طويلة) والقصصي بصفة خاصة ، وهو ما منحه فرصة التناول المتعدد الجوانب لتجربة الاعتقال والسجن في أكثر من رواية وقصة .



نجيب الكيلاني

تمنيت أن تكون مادة السجن والسجان موضوع رسالة أكاديمية تستقصي جوانبها ومفرداتها وصياغاتها ، وسأكتفي في هذا المقال بعرض أهم الملامح البارزة لهذه التجربة ، ولعل ذلك يكون دافعاً لبعض طلاب الدراسات العليا كي تتحقق أمنيتي .

ويعد نجيب الكيلاني (١٩٣١ - ١٩٩٥م) من أغزر وأنضج كتّاب الرواية العربية المعاصرة، وقدم العديد من أنواع الرواية: التاريخية، الرومانسية / الواقعية، الواقعية الإسلامية، فضلاً عن الرواية الاستشرافية، التي تناولت حياة المسلمين خارج البلاد العربية، تحت الاحتلال الشيوعي لبلادهم، أو الاستبداد غير الإسلامي في أوطانهم.

ونجيب الكيلاني، كاتب ملتزم، والتزامه لم يؤثر على قضية الفن لديه، فقد استطاع بموهبته الفائقة التي شهد لها «نجيب محفوظ» وأشاد بها، أن يحقق المعادلة الصعبة بين الإلتزام والفن، وأن يرقى بمستوى التعبير إلى ما يمكن تسميته «السهل الممتنع»، ووظف لذلك أسلوبه الجميل، وشاعريته المرهفة، وثقافته الإسلامية والأجنبية، فضلاً عن تخصصه العلمي في مجال الطب.

وإذا كانت الأجيال الجديدة لم تطلع على معظم إنتاج نجيب الكيلاني بسبب غربته الطويلة خارج مصر منذ بداية السبعينيات حتى رحيله في أواسط التسعينيات، فقد أخذ بعض الناشرين في تقديم كتبه ومؤلفاته، واهتمت بعض الجامعات بتدريس عطائه، ومناقشة بعض الرسائل العلمية حول نثره وشعره جميعاً.

ليل وقضبان

ويمثل السجن والسجّان في روايات نجيب الكيلاني خطراً كبيراً وكرباً عظيماً على النفس الإنسانية التي تتوق إلى الحرية والأمل ومعانقة الحياة، ليس لدى السجناء أو المعتقلين السياسيين فحسب، ولكن لدى السجناء الجنائيين الذين يقضون عقوبة الحبس جراء ما اقترفوه من جرائم القتل أو السرقة أو الإختلاس أو الرشوة أو غيرها من الجرائم، ويتمنى السجين في كل الأحوال أن يدفع كل مايملك لقاء لحظة حرية يستمتع بها بعيداً عن الزنزانة الرطبة والحياة الصعبة والمعاملة المهينة والتعذيب الصارخ الذي يفضي إلى الموت في بعض الأحيان، لذا تنوعت صورة السجن وأحواله، والسجان ونماذجه في روايات نجيب الكيلاني، فهناك السجن الجنائي والسجن السياسي (المعتقل) والسجن الحربي، والسجّان العادي الذي يتعامل مع السجناء الجنائيين، والسجّان المباحثي والسجان المخابراتي، وهذه الصور وغيرها يقدمها نجيب الكيلاني من خلال منظور يرى عمق النفس البشرية في تقلباتها المختلفة وأحوال مدها وجزرها المتنوعة، مع ربط ذلك بمهارة بالعالم الخارجي وما يجرى فيه من وقائع تبكي الحجر!

في مهرجان طشقند السينمائي - على زمن الاتحاد السوفياتي - فاز فيلم «ليل وقضبان» المأخوذ عن قصة نجيب الكيلاني التي تحمل هذا الاسم، وقام ببطولته محمود ياسين، وسميرة أحمد، ومحمود مرسي، ومع أن أسباب الفوز تركز عادة على الصورة السينمائية المتحركة وما يرتبط بها من تقنيات وأداء، فإن السبب الحقيقي -

من وجهة نظرى - للفوز يعود إلى البناء الفنى فى رواية الكيلانى ، حيث تقدم صورة إنسانية شفافة لسجين من أبناء الصعيد (فارس) دفع وفقا للأخذ بالثأر فعوقب ودخل السجن ، وعاش حياة بائسة، حاول فيها أن يحافظ على كرامته وكيانه فى مواجهة سجان طاغية ، ومدير سجن شرس أمام السجناء ، ضعيف إلى حد الإنهيار فى بيته وأمام زوجه الشابة ، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على كرامته وكيانه ، فقد سقط فى أحضان الزوجة الشابة ، وارتكب الإثم ، وشعر بالهوان أمام نفسه قبل الآخرين ، واندفع فى الخطأ والخطيئة بتحريض امرأة مدير السجن ، حتى أعلن عن مقارفة الخطيئة وهو سكران ثمل أمام المدير ، الذى دبر له نهاية دامية داخل زنزانته حيث لقى مصرعه !

وذات صباح حزين قالوا إن فارس مات .

وزعموا أن السجان ذهب ليفتح زنزانة التأديب فى الثامنة صباحاً ، فوجده ملقى على الأرض الباردة ، وقد فارق الحياة ، بعد أن تقيأ دما .

وترصد الرواية رد الفعل على وجوه ضباط السجن والمساجين الذين يقرون أن «فارس» ليس أول سجين يموت ! كما أن طبيب السجن يمتنع عن تشريح الجثة ويترك الأمر للطبيب الشرعى الذى يقرر أن «فارس» مات مسموماً ، وسرى النبأ كالنار فى الهشيم داخل السجن ، وخرجت زوج المدير عن صمتها ودهشتها وذهولها وقالت :

- زوجى قاتل .. وأنا أعترف أننى أسلمت نفسى لفارس .

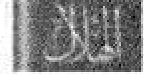
نزل الإعتراف كالصاعقة وتردد صداه فى أروقة السجن وأمسك المحققون بأطراف القصة كاملة ، وخاصة عندما انهار «الشلقامى» (السجّان المباشر) ، وقال من بين دموعه المتقاطرة :

- ماذنبى ؟ أنا عبد المأمور !!..

لقد حجز المدير والشلقامى فى أحد سجون القاهرة رهن التحقيق . ولكن الكيلانى يختم روايته ملخصا المأساة فى سطور :

«وعادت الحياة إلى السجن من جديد، الذاهبون إلى المحاجر السوداء ييممون وجوههم شطرها كل صباح ، ثم يعودون فى المساء منهوكى ، ضائعى الأحلام .. ومدير جديد يدخل السجن منتفخ الأوداج ، رافعاً رأسه فى كبرياء ، وفى الليالى السوداء ، يجلس السجناء القرفصاء ، يتحدثون عن ذكرياتهم وعن زوجة أحد المديرين ، الحسناء ، تلك التى عشقت سجيناً ، فدفع حياته ثمناً للحظات الغرام القصار .. وعن الباشسجّان عبد المأمور وعن عالم العبيد ... والضياع الرهيب ....» .

تركز الرواية على تحليل الدوافع والأسباب لما يجرى داخل السجن وخارجه، وتستبطن أعماق السجين والسجّان، وتقدم لنا نفس البشرية، وهى تتوق إلى الخير والطهر والفضيلة ، مع أنها وقعت فى حياة الإثم والجريمة والرذيلة .. وهذا التحليل وذلك الاستبطان يتمان تحت رصد دقيق ممتع



لما يجرى على ساحة السجن من قسوة تصل إلى حد البشاعة والقتل . إن هذه الساحة لاتعرف الرحمة ولا الشفقة ، ولا تعترف بما يسمى كرامة الإنسان . ومن خلال الرصد الدقيق الممتع نلتقى فى هذه الرواية وغيرها من روايات نجيب الكيلانى التى تناولت صورة السجن بعالم مواز لهذا السجن - قد يكون قائماً فى بيت السجّان نفسه (عبدالهادى بك) مدير السجن حيث صار سجنا لزوجه الشابة المحرومة ، وسجناً له نفسه حيث يرى فيه هوان نفسه وذلها بسبب عجزه الجنسى، واستسلامه المهين أمام المرأة التى خانته ومرغت شرفه فى التراب ، وقد يكون العالم الموازى للسجن أو الزنزانة هو الوطن بأكمله حين يحرم الناس من الحرية والكرامة والأمل جميعاً ، كما نرى على سبيل المثال فى هذه الرواية التى جرت أحداثها قبل عام ١٩٥٢ ، أو فى رواية «مواكب الأحرار» التى تعالج قسوة الاحتلال الفرنسى بقيادة نابليون على مصر والمصريين ، أو فى رواية «قضية أبوالفتوح الشرقاوى» التى جرت فى العهد الملكى ، أو فى روايات «رحلة إلى الله» و«حكاية جادالله» و«اعترافات عبدالمتجلى» و«ملكة العنب» وغيرها ، من الروايات التى جرت أحداثها عقب يوليه ١٩٥٢ .

مواكب الأحرار

فى «مواكب الأحرار» تبدو سلطة الاحتلال الفرنسى حريصة على إذلال الشعب المصرى وتمريغ كرامة المصريين فى التراب ، ولا يخفى «برتلمى» أحد شخصيات الغزاة الرئيسية فى الرواية كراهيته للشيخ السادات الذى يطيعه الناس ، ويمتثلون لكلامه وآرائه ، ويتمنى أن يمسك به ، ويمرغ جبينه «الطاهر فى التراب ، حتى يفقد المصريون قيادتهم المقاومة ، كما يتسنى «برتلمى» أن يقطع بعض الرءوس ويطوف بها فى الشوارع من آن لآخر ، ليقضى على كل أثر لمقاومة الغزاة .. ويترجم «برتلمى» وأتباعه هذا التمنى إلى واقع ، حين يشتبكون مع الثوار ، فيقتلونهم أو يمسكون بهم ويدخلونهم إلى السجون . وما جرى للحاج مصطفى البولاقى فى سجنه نموذج بشع لسحق كرامة الإنسان والزراية به من جانب معتد لايعرف معنى الأخلاق أو الرحمة أو الكرامة . كل مايعرفه هو القوة .. القوة الغشوم بكل قسوتها وبشاعتها وشناعتها .

كانت الزنزانة التى أدخلوه فيها شبه مظلمة . تفوح منها رائحة منفرة ، يسكنها تسعة من الرجال ، على الرغم من أنها لاتتسع لغير ثلاثة . إنهم فى أواخر شهر أكتوبر ، ومع ذلك فالحر شديد ، والأنفاس تكاد تختنق ، والظمأ يكاد يقتلهم ، هنا لا شىء اسمه الإنسان ، كل القيم العريقة تدبل وتحتضر ، والناس لاينظر إليهم فى هذا المكان إلا بوصفهم حيوانات لا قيمة لها ، ولا فائدة منها .. ولا ينادى على أحد باسمه إلا فى الأوقات العصيبة ، وقال أحد التعساء :

- أيها الرجال .. إننا هنا لانستطيع أن ننام أو نقضى حاجتنا .. لم أكن أتصور أن هناك شيئاً ألعن من الموت ، وها أنا أراه .. أيمكن أن نبقى هكذا طويلا ؟..» .

هذه صورة السجن أو الأسر تحت قبضة الفرنسيين الغزاة، لا تقتصر فحسب على ضيق المكان وضياع الكرامة وانسحاق الإنسان، بل تمتد لتشمل الطعام والشراب وحصة العذاب الرهيب التى تنتظر السجناء للحصول على الاعترافات، وليس لدى الغزاة المحتلين سوى السياط وانتزاع الأظفار، وحرق الأبدان بأسياخ من الحديد المحمى. إن برتلمى يتفنن في اختيار أبشع أنواع العذاب.

تتضمن هذه الصورة القاسية نوعاً من المشاعر الحميمة، بل مشاركة السجناء المعذبين آلامهم من جانب إخوانهم فى الزنزانة، مع إدراك أن السجن والتعذيب ثمن الحرية فى الأيام العصيبة، كما تتضمن نماذج لمن يقتلهم التعذيب ويقضى عليهم بلا رحمة.

والمفارقة أن «برتلمى» الجلاد الفرنسى الذى يقود عملية الإذلال والتعذيب فى السجون المصرية، يتأفف من رائحة المعتقل ومنظره بسبب المخلفات الآدمية الناتجة عن التعذيب، ولا يجد حلا لتنظيف المعتقل غير إرغام السجناء بوصفهم خدماً، ليقوموا بعملية التنظيف عن طريق المكانس والخيش والدلاء، ومن يشمئز منهم أو يتوان عن النظافة فالسياط كفيلة بتنشيطه.

ويتسامى «نجيب الكيلانى» فى صياغته لمشاعر السجناء الوطنيين وأحاسيسهم تجاه السجن، وإدراكهم أن لا حياة بدون حرية ولا كرامة بغير ثورة، فنطالع صياغات شعرية رقيقة على لسان الحاج مصطفى بعد أن افتداه قومه ودفعوا مبلغاً باهظاً ليخرج من السجن، وتصور «برتلمى» أن الرجل يمكن تجنيده للعمل لحسابهم:

قال كالحالم وقد شحب وجهه:

السياط على ظهرى تصرخ بالثأر.. وضحايا الظلام فى القلعة لهم نداء من نوع غريب أسمعه فيهز كيانى، ويحرق مشاعرى.. كنا بالنسبة لبرتلمى غير آدميين بالمرة، مجرد حيوانات.. لا.. لا.. أقل من الحيوانات.. أنتم هنا تتنفسون وتنامون وتمارسون حياة نظيفة.. إننى أدور بنظراتى فى أنحاء بيتى الرحب النظيف.. وأشم رائحة الشواء وأفعل مايحلو لى.. وهناك فى ذلك الوادى الرهيب.. القلعة.. مجموعة من الأبرياء يحيون أحط حياة.. سلم على الصبايا يا حاج مصطفى.. هكذا كانوا يودعوننى.. كانت العيون الدامعة ترمقنى فى أسى.. المصير المجهول المعذب يرتسم على الجباه الشاحبة التى هدها الظلام والرعب والتعذيب.. ماذا تقولين يا امرأة؟؟! أتريدين أن ألزم بيتى وأتناول طعامى وشرابى.. ثم أنام مرتاح الضمير، يا ليت!! صدى الأنين يدق ويتخلل روحى ودمى..»

قضية أبوالفتوح

ويسفر السجن عن نفسه فى رواية «قضية أبوالفتوح الشرقاوى» من خلال صورة طريفة لفلاح بسيط زعم أنه يعلم حقيقة ماجرى فى حادثة سقوط سيارة فى البحر العباسى. امرأة البك الكبير أخذت عشيقها وهربت معه. وصلا إلى منطقة مقطوعة على البحر العباسى. جلسا تحت مظلة القمر يشربان الخمر

ويمارسان الرذيلة . كانت بيضاء جميلة مثل الأميرات الفاتنات .. عبثا ماشاء لهما العبث .. نزلا النهر ليستحما .. «إن ربك لبالمرصاد» صدق الله العظيم .. سحبتها جنية البحر إلى الأعماق .. هرب العشيق ، ووقف على الشاطيء يلطم خديه نادى العاشق : «البر ياطالب الدفن» كما نقول نحن لكل غريق . أقبلت جثتها نحو الشاطيء بعد منتصف الليل ، أقبل الناس من كل مكان . استولى اللصوص على المجوهرات والملابس ، وساقوا العشيق عاريا إلى دوار العمدة .. ومن إلى المركز .. وانقلبت الدنيا رأساً على عقب : بوليس، نيابة ، خيول ، عربات باشوات ..

دخل أبوالفتوح إلى المعمة بمزاعمه ، التي تضمنت معرفته بتفاصيل الحادث الحقيقي ، ووقع تحت الاستجواب والتعذيب ، وجره الخفراء مربوطا بالحبال، وقد ركب ضابط وإثنان من الشرطة على الخيول وفي أيديهم السياط ، والمتفرجون يجرون هنا وهناك ليفسحوا الطريق أمام الخيول ، والكلاب تنبح ، والثيران تخور ، والحمير تنهق ، وأبوالفتوح يمضي كالنائم مغناطيسيا ولايدرى ماذا جرى في الدنيا «ياناس أنا برىء» لم أرتكب إثما .. لم أر شيئاً .. كله كذب في كذب .. أقسم بالطلاق أني لم أشاهد سوى السيارة والرجلين لابسي الطرابيش .. هذا كل مافي الأمر .. لكن الجمهور لايصدق مقولته ، ولا الحكومة أيضاً .

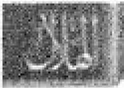
تفاعلت الحادثة ، واستغلتها الأحزاب السياسية القائمة ضد الحكومة التي تصر على أن هناك جثة ، والمباحث تستجوب أبوالفتوح الذي كان يتصور أن كذبته ستمضي بسلام ، ولكن التعذيب جعله لايستطيع التعرف على الجهات الأربع الأصلية ، وفقد من شدة الضرب القدرة على التركيز بل مجرد التفكير ، مما دفعه إلى الاعتراف بمشاهدة الجثة وهو لم يرها .!

وفي الرواية نجد سجناء سياسيين وآخرين جنائيين ، كما نتعرف على الفروق بين سجن «أ» الذي يخص السياسيين وسجن «ب» الذي يدخله الجنائيون أو السجناء العاديون ، ولكل منهم معاملة خاصة . وهؤلاء وأولاء كانوا مادة خصبة للمحامين للحملة على الحكومة من أجل اطلاق الحريات العامة ، وإنهاء الأوضاع الاستثنائية التي استغلتها بسبب الحرب العالمية الثانية .

ويلاحظ أن كذب أبوالفتوح الشرقاوى الذى أدخله السجن ، كان له عالم مواز آخر من الكذب قدمه الكاتب في سياق عرض مواقف الأحزاب والسياسيين الذين لايكفون عن الكذب وخداع الناس .

رحلة إلى الله

لعل أهم رواية عرضت للسجن والاعتقال بين روايات نجيب الكيلاني الكثيرة هي رواية «رحلة إلى الله» ، فقد كان شخصية أساسية فيها يحكي عن ظروف الأسر ومايجرى للأسرى من تحقيق وتعذيب ومفارقات تثير الضحك في عز المحنة والآلام . وللمرء أن يتخيل كل عذابات العالم مركزة في هذا السجن الذي يقوده الجلاد «عطوة اللواني» . إنه يصنع «أروع مجازر القرن العشرين» بالضرب ونهش الكلاب الضارية وحرق



السجاير المشتعلة والتجريد من الملابس والتعليق على العروسة ونزع الأظفار ، فضلاً عن الشتائم والألفاظ النابية والصفع على الوجه والقفا والركل بالأقدام ، والرعب هو الحالة التى تسيطر على جميع المعتقلين منذ جرهم حفاة ساعة القبض عليهم من بيوتهم ، حتى دخولهم السجن فى المنطقة المركزية .

يبدو أن أهم ما يلفت النظر فى صورة السجن فى هذه الرواية ، هو حضور المفارقة المضحكة المبكية ، ففى وسط الجو البائس الحزين ، الوحشى الضارى ، تثير شهوة التسلط على السجناء أو المعتقلين بعض الابتسامات المؤلمة إن صح التعبير .

منها مثلاً أن «عطوة الملوانى» الجلاد وقائد السجن ، بعد أن أمر بخمسين كرباجاً لأحد المتعقلين ، يتم تكرارها إذا لم يصبح مهذباً فى كلامه ، أى يتحدث كما يريد المحققون ، إنصرف إلى مكتبه، بينما انطلق صوت الميكروفون يردد أغنية «ياجمال يامثال الوطنية ..» صاح عطوة بأعلى صوته :

«كل السجن يغنى مع أم كلثوم ...» .

وجرى حاملوا السياط هنا وهناك بين جموع المتهمين يلهبون ظهورهم بالسياط ، ويحثونهم على ترديد الأغنية الشهيرة ، وامتزجت الآهات بالدموع وبالغناء ، وبعد دقائق أغلق الميكرفون ، وصاح عطوة مرة ثانية» .

– استمروا فى الغناء ياحيوانات ..»

وانطلق صوت السجناء مرددا الأغنية الوطنية . كان غناؤهم كالعويل أو الندب ، وكانت صورة الرئيس وهو يبتسم ويلوح بيده فى شموخ تطل على الجميع من فوق الحيطان .. وقال عطوة وهو يقهقه :

– «تعلموا الفن يابهايم ..» .

ومن هذه المفارقات أيضاً أن «عطوة الملوانى» كان يربى قطيعاً من الكلاب يحظى بحقوق تفوق حقوق المعتقلين بكثير، فطلب من أحدهم وكان شاعرا أن ينظم قصيدة فى الكلبة «توسكا» وطلب من أسراه أن يهتفوا لها «توسكا توسكا عاشت توسكا» .. ونتيجة الشعر والهتاف أمر عطوة بالسماح لجميع المعتقلين فى الحوش ، وفى دورة المياه لمدة ساعتين ، ولا مانع أن يستحموا ويغسلوا ملابسهم ، ويوزع على كل منهم قطعة صابون .

واختتم عطوة الحفل بفرقة الغناء ، وكانوا من السجناء ، كانوا حليقى الروس كالعادة ، يكلل الشحوب هاماتهم، وعيونهم تبتسم إبتسامات ذات معنى عميق ، ألاتهم الموسيقية عبارة عن «سلطانية» أو «قروانة» تستخدم للطعام وأكواب زجاجية داخلها حصوات أو ملاعق لإصدار أصوات واستخدمت القروانات بديلاً للطبلة ، بالإضافة إلى الأصوات التى تصدر عن الفم والتصفيق، وأخذ قائد الفريق يغنى للكلبة «توسكا» :

توسكا يا توسكا ياحبة عيني
يا للى سرقت النوم من عيني
خير إن شاء الله
دا بعدك والله
والله دا بعدك
دا بعدك والله
كان على عيني

كان على عيني !!

وأخذ الحماس عطوة بك ، فنحى توسكا جانبا ، وكانت تجلس بين يديه ، وأخذ يرقص على الأنغام في متعة وازداد التصفيق وترديد الغناء .. وفجأة سمعوا عطوة بك يقول :

– أنتم أوباش .. قليلوا الأدب .. كل كلب إلى زنزانته ..

وفي لحظات كانت السياط تلهب الظهور ، بما فيهم الشاعر ، وجوقة الغناء والموسيقي ، وفي لحظات أقفرت الساحة إلا من عطوة بك ورجاله وكلابه ، وأغلقت أبواب الزنازين .

لاشك أن هذه المفارقات قد أعطت صورة كريهة للسجن الحربي في إهدار آدمية المعتقلين السياسيين الذين وصفهم عطوة الملواني بالكلاب «كل كلب إلى زنزانته» بل وتفضيله الكلاب الحقيقية على هؤلاء الذين يضمون علماء ومدرسين ومهندسين وأساتذة جامعات ومحامين وغيرهم من أبناء الشعب المظلوم ، كما تكشف هذه الصورة عن منهج في السياسة ، لايعترف بالتعددية ولا يؤمن بالآخر ، ويرى في نفسه وحده الحقيقة المطلقة والخير المطلق ، وهو ماكذبته أحداث الواقع ومازالت تكذبه .

لقد صار التعذيب في السجن الحربي فنا قائما بذاته له خبراؤه وفلاسفته ، وله أصوله المدروسة التي استخدمت فيها التكنولوجيا وعلم النفس!

السجن مصنع التطرف

تتعدد صور السجان وتتنوع ، ولكن القاسم المشترك بين هذه الصور جميعاً هو القسوة والإنتهازية والوحشية التي لاتعرف معنى الرحمة أو الإنسانية .

وهذه الصفات الكريهة هي التي تحول السجناء أو بعضهم إلى طالبي ثأر ، وراغبي انتقام مالم يردهم دينهم وضميرهم وتسليمهم الأمر لله ، إنهم «مصنع التطرف» كما أطلق عليه «عبدالمتجلي» بطل رواية «اعترافات عبدالمتجلي» بعد أن عذبوه وجردوه من كرامته الإنسانية ، مع إنه كان رجلاً بسيطاً دفعته مثاليته إلى البحث عن الونش المسروق من ميدان التحرير بالقاهرة ، أواخر السبعينيات ، فكان نصيبه الاعتقال والتعذيب «هنا المدرسة التي يمكن أن يتعلم فيها الإنسان التطرف على أصوله إذا كان للتطرف أصول .. أنا شخصيا أعترف أنه تراودني خيالات رهيبة مجنونة .. يا إلهي !! ما عرفت ذلك الحقد الذي يعتمل في نفسي قبل ذلك .. أتمنى لو أن معي مثقابا كهربائيا «شنيور» لأغرزه في عيونهم وآذانهم وأمخاخهم ، ثم أجلس لأراهم يتعذبون .. بل ليتني أستطيع أيضاً أن أجدع أنوفهم، وأصلم آذانهم ، وأقتطع شفاههم بالمقاريض ، وأقص ألسنتهم وأرمي بها للكلاب الضالة .. مستحيل أن يحدث ذلك: لقد وضعوا عصاة في دبري .. لماذا لاتنقض صاعقة من السماء تحرقهم أو تداهمهم طير من أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ؟ أنا لا أعترف بالضبط حتى الآن لماذا يفعلون ذلك .. ولمصلحة من ؟؟ والكارثة أنهم يضحكون ولا يخالجهم أدنى ندم أو أسف ....» .

عباد المأمور

بالتأكيد هم يعلمون لماذا يفعلون

ولمصلحة من ؟ وهم يضحكون دون أسف أو ندم ، فالأسباب غالباً تعود إلى شخصياتهم أو إلى الأوامر التي يتلقونها ، وحين يحاسبون يقولون : «نحن عبدالمأمور» ..

فشخصية «الشلقامي» الباشسجان في «ليل وقضبان» يقول :

أنا عبدالمأمور ، فهو يعذب ويقتل بالأمر ويدبر مصرع «فارس» بمعرفة سعادة «عبدالهادي بك» مدير السجن ، وكلاهما كان يتفنن في إيذاء السجناء انطلاقاً من دوافع التعالي والكبرياء والرغبة في إثبات الوجود المفقود ، ضد هؤلاء الذين لايملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً لقد فقد مدير السجن وجوده في بيته وأزرت به زوجته التي خانته لعجزه ، وعدم حبها إياه ، فصب جام وحشيته على المساجين عن طريق زراعه اليمني «الشلقامي» الذي يبدو شيطاناً مريداً تجمعت فيه كل خصال الشر والأذى ، لدرجة أنه لم يتورع عن الاعتداء على سجين عجوز ، ولم يفكر يوماً في أخذ إجازة ولو ليوم واحد ، ويعد السجن عالمه الأوحد الذي يثبت فيه وجوده المفقود خارج السجن . إنه جبان ولكنه مجرم بالفطرة .

والأمر نفسه بالنسبة «لبرتلمي» السفاح الفرنسي ، الذي كان يتلذذ بقطع رءوس السجناء وإلقائها في النيل ليخيف المصريين وخاصة رجال المقاومة للحملة الاستعمارية الفرنسية لقد كان ضعيفاً وجباناً أمام حبيبته وأمام آخرين ، ولكن تربيته الاستعمارية العنصرية جعلته يغلو في تعذيب السجناء وقتلهم .

أما «عطوة الملواني» وهو الاسم الروائي لشخصية حقيقية – فقد كان مثالاً للوحشية والضعف في آن واحد ، كان مستبداً ومستكبراً ، لايقبل أن يرفض له طلب ، وتعلم من الحياة العسكرية أن يصدر الأمر فينفذ على الفور ، والأمر عنده لايحتاج إلى تكرار ، خطب الفتاة «نبيلة» واعتقد أنه ربح معركة كبرى كما يربح في لعب الورق الذي منه ولكن «نبيلة» تذل كبرياءه ، وتظهر ضعفه وتكشف جبنه ، حين تتأبى عليه بسبب الفارق الفكري والسلوكي بينهما .

لقد كان «فرعونا» بلا قلب داخل السجن الحربي ، وكان يكره أن يسمع كلمة الشرع أو الشريعة أو السنة ، مع أنه مسلم وأبوه عالم من علماء الدين .

كان يرى أن كلمات الشرع والشريعة والسنة لها مدلول واحد عنده فقط هو : العصيان والثورة المضادة و«زمن الدولة فوق كل اعتبار» كما يقول .

وكان يرى أن العالم فيه كثير من الأغبياء ، لأنهم يعيشون بين صفحات الكتب أكثر مما يعيشون في الواقع .

إنهم أغنام في منظوره يسوقهم بالسياط في السجن الحربي ، ويمزق في أجسادهم سبب نكبتهم الكبرى ، وهي القراءة !!

لقد كان على حق – كما يزعم – حين منع عنهم ، الكتب نهائيا ، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك مع خطيبته «نبيلة» التي تدمن القراءة .

لقد استعصت على «عطوة الملواني» الذي يركع تحت أقدامه أساتذة الجامعات ، وكبار الأثرياء ، وقدامى الباشوات والبكوات والوزراء في السجن

الحربي ، ويضرعون إليه طالبين العفو ، زارفين دموع الندم ! هل يعرفون من يكون بالنسبة للسلطات العليا خاصة ، وبالنسبة لأمن البلاد عامة ؟؟

«عطوة» لديه نزعة للقتل والسحق والتدمير ، لا يأبه بشيء ، حين يضغط سائق سيارته على الفرامل بسبب فتاة تعبر الطريق ينهره ويسبه ويأمره أن يدوسها بدلاً من التوقف ، ويهوى بيده على قفاه ، ولكنه يظل عاجزاً أمام «نبيلة» الفتاة التى لاتملك شيئا من قوته وسلطانه ، ولكنها تملك شيئا آخر يشعره بالعجز والغيظ فقط ، ومع أنه يستطيع أن يلصق بها تهما عديدة تضعها فى السجن ، مثل القيام بنشاط معاد لأمن الدولة ، أو الاتصال بجهات أجنبية ، أو العمالة للصهيونية ، ولكنه لايستطيع ، فقد كشفت نبيلة أعماقه الخربة وتاريخه المشين الملىء بالغش وقد كان تلميذاً بليداً يحاول الغش فى الإمتحان ففصلوه عاماً دراسياً .

لقد تحدته «نبيلة» وبصقت فى وجهه عندما يئست من إصلاحه وإقناعه بالاستقامة ، وقد حاول أن ينتقم منها بإدخالها السجن ومطاردتها واغتيالها ، ولكنها كانت المرأة التى هزمت عطوة الملوانى ، الجلاد الذى لايقهر ، قبل أن تقهره الأحداث السياسية والعسكرية فى البلاد .

إن «عطوة الملوانى» صورة حية لشخصية الجلاد ، الذى تهرأت نفسيته من الداخل ، وماتت روحه ، فارتكب كل الموبقات والشرور ، وخص بمعظمها هؤلاء المعتقلين الأسرى ، فكانت هزيمته أمام «نبيلة» ساحقة وفادحة !

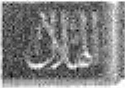
وإذا كان «عطوة» يمثل السجّان المخابراتى ، فإن «جادالله» يمثل السجّان المباحثى ، الذى يعيش حياة التمزق الداخلى والروحى ، ونال اللقب الأعظم «وحش السجون الحربية» الذى أدب المارقين ، وسفك دماء أعداء الحكومة من الشيوعيين والإخوان والوفديين والباشوات وغيرهم .

كان فى مقتبل حياته لصا منحرفاً ، يشك دائماً فى قيم الحياة النبيلة كالخير والشرف والحب .

ضبطوه يوماً يقبل طفلة (حفيدة الباشا) فتسابق خدم القصر وناظر العزبة كى يذبحوه ، لولا أن سيدة القصر رأت أن يكوى بالنار فى وسط رأسه ، ثم يجلد (١٠) منذ ذلك اليوم ترسبت فى أعماقه مئات المشاعر السجينة التى أهلته ليحمل الكرباج ويحظى بلقب «وحش السجون الحربية» .

لقد أذل المعتقلين وعمل بتهريب المخدرات واعتقل للتزييف وتزوير العملة ، وتحولت حياته الاجتماعية ، حتى ألقى القبض عليه ودخل إلى السجن وأصبح سجينا يعوى كذئب جريح داهمه داء الكلب ، وانتهى به المطاف إلى إلقاء نفسه من فوق سياج السجن لتنتهى حياة وحش السجون نهاية مأساوية فاجعة !

لقد نجح «نجيب الكيلانى» فى استبطان حياة الجلادين من خلال تتبع تاريخهم الإنسانى ، وأعماقهم الداخلية وسجل صورتهم الأمامية والخلفية فى إطار من البناء الفنى المتوازن ، فكانت شخصياتهم حية موارة بالقسوة والأسى فى آن واحد ! . ■

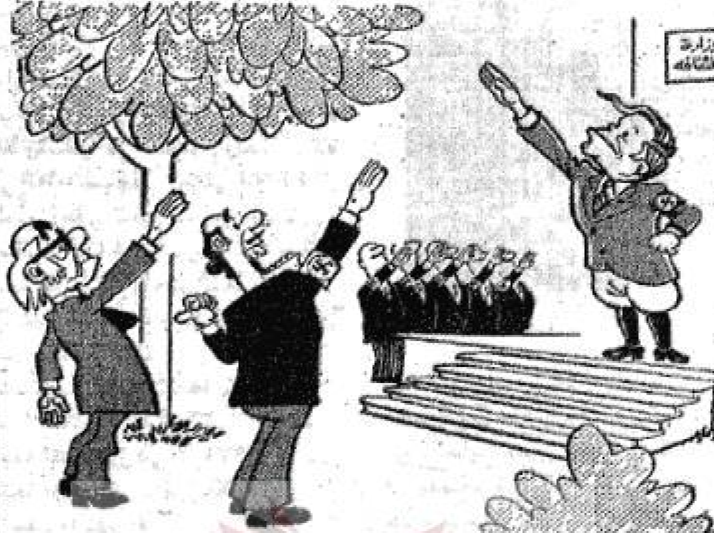


عن السجن والحرية

بقلم
صافى ناز كاظم

أشد نفسى شداً لأقوم أدون هذا الإرهاق الذهنى الذى نشأ من دوران ودوار ذكريات سمجة خطوت عليها وأغلقت ملفها حتى أنساها، وهى لاتنسى، لأرتاح فى المستقر، وإن كان دون الراحة ودون العدل.

لاتأتى محنة السجن، الاعتقال بسبب مايسمونه «جرائم» الرأى، من غير مقدمات. أولاً : لايقع فى الاعتقال بسبب الرأى إلا الإنسان «الحر»، والإنسان «الحر» هو غالباً، الإنسان «المثالى»، الذى يتصور أن ممارسته لحقه فى التعبير، وحقه فى التمسك بحقه، واجب مقدس وأمانة وطنية، ومصداقية أخلاقية. ثانياً : ليس كل «سجن»، سجنا، ففى أحوال كثيرة يكون ابتعادا عن سجن أشد مرارة وأكثر ظلماً: «قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه»، سجلها القرآن الكريم مقولة باترة فى الموقف الحاسم أمام غواية الطغاة. هذا لا يعنى أن السجن محبوب، لكنه يعنى أنه، على بشاعته، هناك ماهو أبشع منه ، ألا وهو، الخضوع للقهر والاستكانة للظلم، وتقبل الإذلال والانتهاك.



واجهني، فارس الرومانسية، يوسف السباعي ١٩٧١/٨ بمقولته الزاعقة: «مناخبرك ح أجيبها الأرض، واسم صافي ناز كاظم ده مش عاوزين نشوفه منشور أبداً»، ولا يسألني أحد لماذا قال ذلك، لأنني حتى الآن لا أعرف على وجه اليقين، وإن كانت هناك تخمينات منها أنني لم أشد بعبقريته المسرحية، ومنها أنه كان يتملق الرئيس الراحل أنور السادات ويسارع بإثبات ولائه بضرب كل من يتخيله من المعارضين المحتملين لعهده الجديد، خاصة أنه لوح لي في واحدة من مجادلاتي معه، بأنه يأخذ عليّ مساندتي لقضية الفلاحين في قرية كمشيش وغيرها، وسؤالي للرئيس السادات، في مؤتمر صحفي عقده في قصر عابدين مارس ١٩٧١، عن المحاولات التي كانت قد بدأت لنزع الأراضي من المعدمين، والتي كانت قد وزعت عليهم من قبل في مهرجانات صاخبة صفق لها الجميع وكان على رأسهم السادات والسباعي، ولكن ذلك التأييد السابق الذي قدمه السباعي لقضايا الفلاحين والفقراء والمساكين، (أنظر رد قلبي وأرض النفاق والسقا مات)، لم يمنعه من التشويح بوجهي وهو يؤنبني: «تقولي للريس الفلاحين؟ إنت مالك إنت ومال الفلاحين»!، ثم محاولته تلفيق علاقة سياسية بيني وبين السيد ضياء الدين داوود، الذي لم ألتق به في حياتي وكنت ومازلت من أشد خصومه، يهز رأسه: «وتكتبي بالضبط

زى كلام ضياء الدين داوود»، وأضحك: «أنا؟ عاوز تلبسنى صاحبك الذى كنت تتغدى وتتعشى معه وتصاحبه رائحاً وغاديا مع ابتسامة عريضة؟» فيعود بتلفيق جديد : «أنا أرفض تكوين خلايا فى دار الهلال ... إنت فى المصور وفيليب جلاب فى الأخبار هاجمتما عبد الحليم حافظ وشادية فى أسبوع واحد ... ده يبقى إيه؟»، سألته : «يبقى إيه؟»، قال صائحاً : «يبقى تنظيم شيوعى بينسق مع أعضائه!» أسقط في يدى: «أنا ياأستاذ يوسف أهز طولى وأخش تنظيم وأعمل خلايا لمهاجمة شادية وعبد الحليم؟». كان الجدل عبثيا مؤلماً مضحكاً أهبل مع يوسف السباعى منذ حل بدار الهلال رئيساً لمجلس الإدارة ورئيساً لتحرير مجلة المصور فى ١٩٧١/٨، وكان واضحاً أن الذئب قد قرر أكل الحمل من دون سبب وانتهى الأمر.

تم نقل مكتبى من موقعه العزيز لأشارك الزميلة مارى غضبان فى مكتب أصغر. رحبت بى مارى غضبان وتعاطفت معى فى معركة الصمود بوجه طغيان فارس الرومانسية، يوسف السباعى ، إلى أن جاءتنى تسأل ببراءة: «صافى ... هى بنت كلب شتيمة؟»، قلت باسمة: «على حسب موقعها من الجملة». قالت «أصل يوسف السباعى قال لى إنت ليه واقفة تدافعى عن بنت الكلب دى؟». قلت : «هنا يامارى موقعها يدل على أنها شتيمة».. واحترت بين الضحك والتألم من الإسفاف. قرر فارس الرومانسية أن يجد غطاء قانونيا لمنعى من النشر حتى يتماشى مع شعار السادات «لانكسر قلماً ولا .. الخ». رفع السماعة وخاطب إبراهيم عبد الحليم الماركسى الشيوعى ورئيس تحرير مجلة «دراسات اشتراكية»



جمال عبد الناصر

قائلاً : «ياأستاذ إبراهيم أنا ح أنقل الست دى عندك.» قال إبراهيم عبدالحليم: «على شرط ألا تكتب عندى فى المجلة». قال فارس الرومانسية : «إنت حر». تضاءل مكتبى ليصبح فى مدخل غرفة مكتب إبراهيم عبد الحليم، قلت له : «السباعى عاوز يضربنا ببعض، رغم اختلافنا أنا مستعدة أتعاون فى العمل ولو بالترجمة». قال بوجه صارم : «لا .. أنا كان شرطى ألا تطالبينى بالعمل». لم أفهم، أو فهمت بسرعة : «يعنى حضرتك تآمرت معه لكى يكون حرمانى من الكتابة والنشر بالمصور قانونياً؟» قال : «وطى صوتك»! خرجت وبدأت مجلتى، علقتها على الحائط خلف مقعدى، ووضعتها تحت زجاج مكتبى وكان منها كلمة للإمام الغزالى : «لقد خلقك الله إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة». جاءنى إبراهيم عبد الحليم وطلب منى رفع الأوراق من على الحائط ومن تحت البلورة. هذا الرجل كان قد سجن سنوات بسبب فكر يعتقده، صواباً أو خطأ، يقف أمامى رقيباً وسجاناً. قلت له : «لايصح كلامك هذا ..



عبد الحليم حافظ

أنت تعلم أنني مظلومة ومعتدى عليّ...»، تجهم وبدأت كلماته تشتد غلاظتها، استبدت بى العصبية من تراكم الإهانات وتضييق دائرة الحصار فأطحت بما كان أمامي ليتناثر على وجهه مع كلمات تنديد محقرة لدوره فى مساندة بغى يوسف السباعي.

فى تلك اللحظة صدر الأمر بتخزين مكتبي ومنعي من دخول دار الهلال. كان ذلك التمهيد لشيئين أختار بينهما: أن أذهب لفارس الرومانسية وأستجديه العفو والسماح وأستغفر عن ذنوب لا أعلمها، حتى إذا تم الانسحاق الكامل أعود، كما قال أحدهم، «وأنا اسمى المسحوق رابسو»، وأنفي مرغم، يشمشم الأرض والتراب والوحل ممنونة لفارس الرومانسية لأنه عفا عنى وقبل منى المذلة، أما الشيء الآخر فهو أن أقف، وحيدة، بضعفي، أدافع عن حقى فى ألا أقبل الظلم. لم يكن اختياري «الدفاع عن حقى» يعطينى إحساساً بالبطولة، كنت أراه بدهيا ولا بديل له. يأتيني مجيد طوبيا يستدرجني بالهجوم على تصرفات يوسف السباعي، فأنطلق، متصورة أننى اتحدث مع كاتب مؤيد للحق، ولا تمر أيام حتى أجد قصة له منشورة مفرودة على صفحات المصور، جائزة له من السباعي اشطارته في تسديد الطعنات الخفية، يعين ويصعد السباعي من يتوسم فيهم الصلاحية المطلوبة لترويج أكاذيبه وتلفيقاته من شهود الزور، وقد دخل، بعد التمهيد، إلى المقدمات التي تؤلف التهم الكافية لتضع خصومه فى القوائم المرشحة للاعتقال حين تأتى ضرورته، و«يجيب مناخيرهم الأرض» على حد تعبيره، وهو يهدد ويتوعد.

تراني والدتي مجروحة بآلام المنع من النشر والكتابة، فتقترح رحلة لأداء فريضة الحج، وأذهب بتأشيرة: «فى صحبة والدتها المسنة»، أطوف حول البيت الحرام منتحبة بالدعاء: «يارب على الحاكم الظالم، يارب على الجائر المفتون...»، يهزني منسك رمى الجمرات، إنه العهد أمام الله سبحانه وتعالى أن نرجم الشياطين أينما ظهرت وكيفما بدت وتبدت وتلونت وتشكلت. أعود من الحج فبراير ١٩٧٢ مغسولة الفؤاد قريرة العين، صاحية لواجباتي، مصححة لظهري ليتطابق مع باطني. مسلمة ملتزمة. يطلبني الشاعر للزواج، فأتزوجه تصديقاً لتقييمي النقدي له: «شاعر النبض الشعبي»، الذي يكتب الشعر الجميل وأجره الدائم الاعتقال والتشريد. فى نهاية عام ١٩٧٢، يتم القبض عليه وعلى مجموعة من الشعراء والكتاب والمحامين والطلبة، تصخب الجامعات بالمظاهرات والاحتجاجات ضد الإجراءات التي تتناقض مع شعارات مرفوعة عن الحرية والديمقراطية بديلاً عن طغيان مراكز القوى والقهر الناصري. نقابة

الصحفيين تشهد مزايدات وألاعيب تضيع فيها أصوات معادية لمراكز القوى ومعادية في الوقت نفسه للأكاذيب تحت شعار الديمقراطية. لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، وجدت نفسي مع اعتصام طلبة جامعة عين شمس ٣ يناير ١٩٧٣، أقول: «جئت أؤيدكم بنفسي فى اعتصامكم المعبر عن احتجاجكم السلمى على إجراءات الاعتقالات المنافية لحقوق الشعب فى التعبير التى يكفلها له الدستور...»، لم أكن أعرف أحداً منهم، طلبة وطالبات من كليات الطب والآداب والحقوق والتجارة وغيرها ... شباب يتراوح عمره بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين. نظرت إليهم نماذج طيبة من جيل مصر الصاعد الواعد، لم أسأل عن معتقداتهم أو انتماءاتهم التنظيمية وغير التنظيمية، لم أعرف ولم أكن أريد أن أعرف. وضعت نفسى راصدة للتاريخ، وصحفية متابعة لما تمور به البلاد. مؤيدة على هامش الاعتصام، الذى لم أشارك فى التخطيط له وليس لى يد به سوى مساندة الحق فى الاحتجاج على ضرب الحريات. عن هذه الواقعة ينقل الأستاذ عادل أمين المحامى، فى كتابه «انتفاضة الطلبة المصريين، ١٩٧٢ - ١٩٧٣»، التحقيق معى، بعد اقتحام الأمن المركزى للاعتصام صباح ١١/١/ ١٩٧٣، صفحات ٥٩٢ إلى ٥٩٦، ويأتى نص بيان، أصدرته وهربته من خلال أسوار جامعة عين شمس ٧/١/ ١٩٧٣، أقول: «فى اليوم الخامس لاعتصامى، تضامنا مع الاعتصام الطلابى لجامعة عين شمس، الذى مضى عليه الآن سبعة أيام، والذى يشكل باستمراريته وصموده الإرادة الرائعة والإصرار الجميل على المطلب الشعبى فى تحقيق الديمقراطية



يوسف السباعى

وترسيخ مبدأ الممارسة الصادقة الفعلية لحرية الفكر والتعبير عن الرأى، أعلن تضامنى مرة أخرى مع الحركة الطلابية النزيهة، أولا: بإدانة التشويه المتعمد لهذه الحركة الطلابية واحتجاجى، الخارج من صميم الوجدان الشعبى. هذا التشويه الذى تشارك فيه بالدرجة الأولى الصحف المصرية كجزء من حملة إعلامية المقصود بها ضرب الحركة الطلابية لغير مصلحة الشعب. ثانياً : أعلن إضرابى عن الطعام من يوم الإثنين الموافق ٨/١/١٩٧٣ تضامنا وتدعيما لقرار الإضراب عن الطعام الذى اتخذته المجموعة التى تمثل قوة الاعتصام الطلابى بجامعة عين شمس بقصر الزعفران، حتى يتم الإفراج عن جميع المعتقلين الوطنيين، الذين بدأت سلسلة اعتقالاتهم يوم الجمعة ٢٩/١٢/١٩٧٢، ولاتزال جارية ومستمرة حتى الآن». وقع هذا البيان فى يد ضباط مباحث أمن الدولة الذين كانوا يطوقون، مع الأمن المركزى أسوار الجامعة ويحاصروننا ونحن معتصمون بقصر الزعفران. عند اقتحام الاعتصام ألقى



ابراهيم عبد الحليم

القبض على جميع الطلبة والطالبات، وألقى القبض على بأسلوب أبدو فيه وكأننى كنت «الزعيمة» لحركة «التمرد» الطلابى. أخذونى إلى السيد فهمى، رئيس المباحث، فى مبنى لاظوغلى، وإذا بى أكتشف، لدهشتى، إلصاق تهمة «الشيوعية» بى. أشار السيد فهمى إلى طرحتى التى كنت أغطى بها شعرى: «لابساها ليه بيضاء، إلبسيها حمراء!» قلت: «ألبسها اللون الذى يعجبنى.» قال مستهزئاً: «عاملة بتدافعى عن الكادحين؟ مش إحنا اللى اسمنا صافى ناز، ومش إحنا اللى اسمنا كاظم»، قلت له: «بس إنتم اللى اسمكم جيهان صفوت رءوف!» – إشارة إلى زوجة أنور السادات – وتم إرسالى إلى سجن القناطر للنساء بتوصية خاصة بحبس انفرادى وتكدير» مستمر فى المعاملة ومع ٥٦ متهماً، من بين تهمهم «...إلقاء كلمات وأشعار فى اجتماعات عامة وترديد هتافات تضمنت .... التحريض علانية على قلب نظام الحكم وعلى كراهته والازدراء به بأن وصفوه بمصادرة الحريات والعجز عن تحرير الأرض وقبول الحلول الاستسلامية .....»، تمت إحالتنا جميعاً إلى «محكمة أمن الدولة العليا فى الجناية رقم ١ سنة ٧٣ أمن دولة الوايلى، كلى، ١٣١، سنة ٧٢ عليا».

مع هذا الاعتقال الأول تم تصنيفى أمنيا: «شيوعية»، وألصقت بى الصفة بتأكيد وتزكية من الأستاذ يوسف السباعى، الذى كان قد تعمد نقلى إلى جوار السيد إبراهيم عبد الحليم الماركسى، وكلاهما يعلم حق العلم براءتى التامة من هذا الانتماء . استمر اعتقالى ثمانية أشهر، وأنا أرى أننى لم أرتكب مايستوجب اعتقالى، فالاحتجاج السلمى من الحقوق الدستورية القانونية، وأنا لم أخرق القانون بأى شكل من الأشكال.

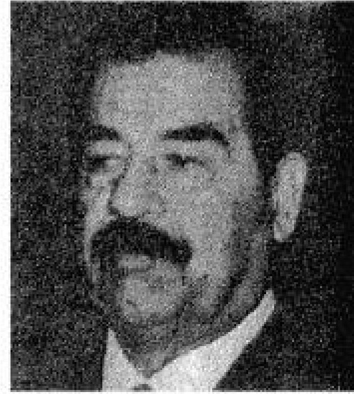
بعد الإفراج على وبقية المتهمين، كان من الطبيعى حفظ القضية الملفقة، لكن من سبق اعتقاله يظل مهدداً بالاعتقال إلى ماشاء الله فى ظل العهد الذى اعتقله أول مرة. وهكذا تم اعتقالى مرة أخرى ٢ يناير ١٩٧٥ وثالثة فى ١٩٨١/٩/٢، وتهمتى فى المرتين كانت تكوين تنظيم ماركسى، الأولى تحت اسم «اليسار الجديد» اتهمت بأننى المؤسسة له ومعى صلاح عيسى وشاهندة مقلد! ونسيت اسم التنظيم الآخر الذى اتهمت بتأسيسه فى هجمة ١٩٨١/٩/٢. كانت التهم أسخف من أن أفندها، فالماركسيون واليساريون الذين يتم اعتقالى معهم يعرفون قبل الجميع أننى لست منهم ، وكأن المقصود هو أن أسجن سجناً مضاعفاً، داخل قضبان الزنزانة وداخل مجموعة أنكرها وتنكرنى.

***

فى مايو ١٩٨٦ صدر لى كتاب «عن السجن والحرية» ، وبه فصل يحمل عنوان

الكتاب ومؤرخ ١٩٨٢/١٢/١ أقول في بعض مقاطعه: «السجن عندي لم يعد عنبر المتسولين المليء بالجرب والقمل والمميت صيفا وشتاء، ولم يعد زنزانة التأديب المهينة لحبس كلب، ولا زنزانة الحبس الانفرادي: التي هي في الأصل زنزانة لحجز المرضى بالجرب من الجنائيات. السجن عندي هو كل أشكال القهر والتعدي على حقوق المواطن التي كفلها له الدستور - أي دستور إن شا الله كان دستور صدقي باشا - سيظل بالدستور حد أدنى لحماية كرامة المواطن ولو بما يحفظ ماء وجه حكام الجور أمام الملأ العالمي . السجن عندي أن أكون مهددة في كل لحظة بمن ينتهك بيتي ويدخله رغماً عن أنفي ويعبث بأوراقي وكتبي وخصوصياتي وحرماتي ومن دون تصاريح أو أمر قبض أو أمر تفتيش أو حتى بطاقة هوية تؤكد أن هؤلاء الساقطين على رأسي هم فعلاً من مباحث أمن الدولة . السجن عندي هو الأحكام العرفية وقانون الطوارىء والقوانين الاستثنائية التي تبيح لوزير الداخلية اعتقال وسجن المواطن من دون إبداء الأسباب. عندما تم مد العمل بقانون الطوارىء أعددت شنطة لوازم السجن ووضعتها تحت مكتبي، ففي ظل قانون الطوارىء يكاد البرىء يقول خذوني . لقد سجنت ٣ مرات بلا ذنب - بمعنى أنني لم أتجاوز حقوقي الدستورية - وبتهم باطلة وتحت أسماء قضايا وهمية: فما الذي يمنع أن أسجن بعد ذلك ألف مرة ظلماً؟ ليس هناك ضمان يمنع اعتداء السلطة على حقوقي الدستورية، إن السلطة لاتتعامل معنا كمواطنين ولكن كرهائن أو أسرى تحت يدها وهي حرة تفعل بنا ماتشاء

.... إنني أقرأ القرآن كل ليلة قبل أن أنام وأنا أحكم إغلاق باب شقتي وأدعو الله أن يملأ بيتي حرساً من عنده يدافعون عني ضد شرطة الجور والظلم والافتراء ..... وعندما يتم اعتقالي يسكن قلبي سلام وأشعر أن السجن مكان يحفظني فيه ربي من شياطين الإنس والجن ومن الفتنة، وأعرف أن الله يريد أن يقيم الحجة على حاكم الجور حتى يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر. كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول على من ظلمها بالخوض في حديث الإفك : هلك فيّ فلان وهلكت في فلانة، كذلك دائماً يكون الأمر عندما يريد الله أن يهلك حاكماً أو غيره، يوقعه في فتنة الظلم، فيبغي ويفتري الكذب على الأبرياء ويفتك بهم حتى يحق عليه القول فيدمره الله تدميرا، أما المظلوم فتشرق عليه الشمس دائماً، حتى في الليل والسجن والقبر .... عندما اعتقلوني في ١٩٨١/٩/٢ لم أندهش ولم أحزن وقلت لابد أن الله يريد لي الخير ..... وحولت سجني واعتقالي إلى عبادة خالصة: ختمت فيها قراءة المصحف الشريف سبع مرات، وصمت أغلب الأيام، وصليت ليلاً ونهاراً ماشاء الله لي من الصلاة كما أحب، وكرست دعاء السجود، ودعاء لحظة الإفطار بعد الصيام ، ودعاء الليل ضد حكام الجور والظلم في مصر والوطن الإسلامي والكرة الأرضية. وتحول سجني إلى فرار إلى الله وهجعة في كنفه وخلوة للعبادة. وعندما ضاقت الزميلات العلمانيات بالضوء الذي أشعله ليلاً - لقراءة القرآن - في عنبر المتسولين، الذي ضمني معهن شهرا، جاءتني عقوبة من ضابط المباحث، بسبب وشاية إليه من نوال السعداوي،



صدام حسين

لتحويلي إلى زنزانة انفرادية. كانت عقوبة مريحة، فاصطنعت الغضب وأخفيت فرحتي في قلبي حتى لايتراجع عن القرار الذي قصد به تعذيبي فإذا به نعمة تنزل عليّ من عند الله. وكما قال الله سبحانه وتعالى : (يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)، كانت عقوبة الحبس الانفرادي برداً وسلاماً على صاقي نار، فقد التقت مع رغبتي في أن أكون بغرفة وحدي لا أطفىء فيها النور ليلاً أبداً. وكنت أردد : أليس الله بكاف عبده؟ بلى والله العظيم، فكما توقعت انتهى سجني بالخير لي ولمصر كلها، ولو لفترة شفى الله بها صدور المؤمنين وأذهب غيظ قلوبهم ....

....

لقد مللت حديث الإفك الذي أشاعوه عني بأنني شيوعية. هذا افتراء آلفه ولحنه وغناه كل من أراد إيذائي، وإنني لا أسامح من يخوض فيه وأدعو عليه وأسأل الله أن يقتص لي منهم جميعاً قصاصه العادل . ولقد قلت للمحققين في المرات الثلاث التي تم فيها اعتقالي بسبب هذه الكذبة السوداء: إنكم تروجون للشيوعية وتحترمونها وتدعون إليها حين تلصقون تهمة الشيوعية بكل إنسان ترونه فاضلاً يغضب للحق والخير والجمال ويتحدث عن الثورة والإنسان وحق المستضعفين وهلاك المستكبرين والمفسدين في الأرض . إنني لم أكن ماركسية أو شيوعية في يوم من الأيام ، وأعتبر الفكر الماركسي فكراً رجعياً لأنه يرجع بنا إلى ماقبل الإسلام، وأعتبر الشيوعيين متجمدين وضد التطور وسلفيين، لأنهم يتبعون أسلافهم الذين كذبوا الرسل وكفروا بآيات الله. نعم لقد كنت قومية متحمسة للقومية العربية والاشتراكية العربية كصيغة خلاص لجماهيرنا، ذلك وأنا متصورة أن الأساس في كل هذا الفكر هو الإسلام ومنطلقات الإسلام، ولكني تبت إلى الله بعد أن أثبتت لي تجربة عبد الناصر وصدام حسين وأمثالهما أن حركة القومية العربية تهادن الإسلام لمصلحتها لكنها كلما واتتها الفرصة، لاتضرب إلا الإسلام ولا تذبح إلا المسلمين . ولقد خرجت من هذا الفكر كما خرج يونس من بطن الحوت وهو مليم لأنه كان من المسبحين .... إنني بصراحتي وشجاعتي وثورتي على الظلم والجور والباطل لايمكن أن أكون إلا : مسلمة........»

وهذه هي «حريتي» الحقة. ■



دكتور

يونان لبيب رزق

والطريق إلى الجائزة

بقلم
د. لطيفة محمد سالم

لم يكن من المستغرب أن تأتى نتيجة إعلان جائزة مبارك يوم الاثنين ٢١ يونية ٢٠٠٤ بفوز المؤرخ الكبير الأستاذ يونان لبيب رزق بها فى العلوم الاجتماعية، وبالرغم من التخصصات المتعددة لهذه العلوم، فإن الجائزة واحدة فقط، ومن هنا يكون الحاصل عليها يستحقها، وخاصة أنها هذا العام حسمت مع الجولة الأولى التى حصد فيها الدكتور يونان أصوات الأغلبية الساحقة للمثقفين ، وهو أمر يشهد له من ناحية، ويسجل نزاهة الذين اختاروا من ناحية أخرى.

والسؤال الذى يطرح نفسه: لماذا التوحد فى الرأى، والاجماع على اختيار تلك الشخصية؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه عبر الصفحات القادمة.

لما كان من المسلم به أن الباحث فى التاريخ ينظر إلى الخلف، ليتنقل بين الأحداث، ويضع يده على الأسباب، ويسبر غور المكونات، ويغوص مع المؤثرات، مستخدما أدواته فى التحليل والنقد، ليصل بنا إلى النتائج ، فإنه يصبح لزاما علينا أن نهتدى بهذا المنهج عندما نتعرض للكتابة عن الدكتور يونان، وعندئذ لابد من العودة إلى الوراء، حيث البداية.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مع بزوغ شمس يوم الجمعة ٢٧ أكتوبر ١٩٣٣ ولد الطفل يونان في مناخ أسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى المثقفة، ولم ينشأ طفلا مدللا، إذ تركه أبوه ورحل عن الدنيا في مرحلة مبكرة من عمره، وكان هذا الابن هو الذكر الوحيد بين أختيه، ولقى الحنان من أمه مع الشدة والحزم، مما عمق في نفسه مدى أهمية المسئولية. وتدرج في تعليمه الابتدائي والثانوي بمدارس حي شبرا بالقاهرة. ولما كانت مكتبة الأسرة تضم رفوفها كتبا مختلفة النوعية، ودوريات لها وزنها، فقد اطلع على ما شد انتباهه، وذلك لشغفه منذ صغره بالمعرفة، وبالتالي وجد في هذه المكتبة ما يثريه ذهنيا، فقضى الأوقات معها، ومن ثم ترسخ حب القراءة داخله، مما أسهم في تشكيل شخصيته الثقافية.

وجاءت رغبته في الالتحاق بالجامعة، وتصميم أمه على ذلك، ليمثل نقلة في حياته .، فاختار كلية الآداب جامعة عين شمس، رغم تفوقه إبان المرحلة الثانوية في التخصص العلمي، ولكنه وجد مشاعره توجهه إلى هذه الكلية . ومعروف عنها أن من يتفوق فيها هو صاحب المثابرة والمواصلة على القراءة وتحصيل الثقافة من منابعها. كذلك فضل قسم التاريخ، حيث التحرك عبر الزمان والمكان، واستدعاء الماضي. وربطه ليس فقط بالحاضر، ولكن أيضا بالمستقبل، بمعنى الرؤية الشاملة للتفاعل بين البشر والأحداث ونتائجها. ومضت سنوات الدراسة ، وتخرج عام ١٩٥٥، وعمل مدرسا في التعليم الثانوي بمدينة الإسماعيلية ثم نقل للقاهرة.



● فضل قسم التاريخ، حيث التحرك عبر الزمان والمكان، واستدعاء الماضي . وربطه ليس فقط بالحاضر، ولكن أيضا بالمستقبل

التطلع

تشاء الظروف أن يؤسس الدكتور عزت عبدالكريم سمنار التاريخ الحديث بآداب عين شمس ويكون الباحث يونان أحد أبناء هذا السمنار، بل وأحد أبناء أستاذه فعرف على يديه كيف يكون الأستاذ صاحب المدرسة مع تلاميذه فيما يختص بالأخلاق والعلم والعطاء، وعليه أصبح يمثل له المثل الأعلى، ومن ثم اقتاد بمسيرته فيما بعد، وتمكن الأستاذ من أن يجند أبناءه الباحثين في دراسة تاريخ الوطن العربي، وذلك أثناء فترة المد القومي في الستينيات ووقع اختياره على تلميذه يونان ليتخصص في تاريخ السودان الحديث لأهمية هذا البلد بالنسبة لمصر، وبالفعل حصل على درجة الماجستير عام ١٩٦٣ في موضوع «العلاقات الخارجية للدولة المهدية (١٨٨٥ - ١٨٩٨)»، وعلى درجة الدكتوراه عام ١٩٦٧ في موضوع «السودان في عهد الحكم

الثانى الأول (١٨٩٩ ١٩٢٤)»، وفى إبان فترة دراسته للدكتوراه ألحقه أستاذه بالبعثة التعليمية فى السودان ليطلع على وثائق دراسته وينهل منها.

وبعد حصول الدكتور يونان على الدكتوراه، انتدب انتدابا كاملا من وزارة التربية والتعليم إلى كليته التى تخرج فيها للتدريس بها. ثم ما لبث أن التحق بسلك أعضاء هيئة التدريس بكلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٦٩، وتدرج فى الوظائف، فحصل على أستاذ مساعد عام ١٩٧٤، وأستاذ عام ١٩٧٩، وأستاذ متفرغ عام ١٩٩٤، وأستاذ غير متفرغ عام ٢٠٠٣.

أما عن المناصب ذات الصفة الأكاديمية والإدارية، فتمثلت فى رئاسته للقسم بكلية البنات بين عامى ١٩٩٠ - ١٩٩٤، ورئاسته لقسم الدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - إحدى منظمات جامعة الدول العربية - منذ عام ١٩٩٢ وإلى الآن. كما أسس «مركز تاريخ الأهرام» عام ١٩٩٢، وتولى من خلاله تحرير صفحة الخميس الأسبوعية التى تنشرها صحيفة الأهرام تحت عنوان «الأهرام - ديوان الحياة المعاصرة»، والتى لازالت توالى صدورها. أيضا فقد تمكن بعد أن أصبح مقررا للجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر التابع لدار الكتب منذ عام ١٩٩٧ وحتى الآن، من تفعيل دور المركز، مما أسفر عن حركة علمية متقدة.

ويسهم الدكتور يونان بدور بارز فى أنشطة علمية متعددة مثل الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، واتحاد المؤرخين العرب، ولجنة الترقية لأساتذة التاريخ، ولجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضوية كل من المجلس الأخير، والمجلس الأعلى للصحافة، والمجلس القومى للثقافة، والمجلس القومى للتعليم، واللجنة العليا فى المجالس القومية المتخصصة. وقد وضحت بصماته فى مختلف تلك المؤسسات، حيث له الرأى المستنير والمسموع.

أسلوب الكتابة

لم يشغل الدكتور يونان تعدد الأنشطة، وتشعب الاتجاهات من أن يولى وجهه شطر الاشتغال بالكتابة التاريخية التى تشهد له بأنه أعطاها مذاقا خاصا وطابعا متميزا. والواقع الذى علينا أن نسجله أنه لم يعتمد فحسب على الالتزام بالمنهج العلمى للبحث التاريخى، وإنما كذلك بتوأم آخر، اختلطت فيه عدة مؤثرات: موهبته المتألقة، وفكره المتيقظ، وحضوره الذكى، وحنكته الطويلة. ذلك جميعه انصهر فى بوتقة ذهبية، وأعطانا قسمات الشخصية المتناغمة التى ندركها سواء من خلال ما نقرأه عبر سطوره المنظومة، أم بأحاديثه الرصينة ذات التحليلات المبهرة.

وإنه لمن الصعب تصنيف الدكتور يونان أو نسبته إلى إحدى مدارس التاريخ المعروفة، لأنه أراد أن يكّون منهجا متفردا وحققه، إذ نجح وباقتدار وفطنة من أن يرسم لنفسه صورة استخدم فيها الألوان ذات الطبيعة المتآلفة



عاشق متيم بمصر، وكان ذلك من الأسباب الجوهرية التي جعلته يوجه كل اهتمامه وعنايته بتاريخها

والهادئة التى ارتكزت على خطين ، يكمل أحدهما الآخر، الأول ما اكتسبه من قراءاته ودراساته، والثانى ما يكمن داخله وفى أعماقه.، وهذا الخط كان معطاء معه . وأغدق عليه بسخاء، وحمل مكوناته الخاصة التى تفوق فى تنظيمها ، نرصد منها:

– العقلية التى يتغلغل فى كنهها الجانب العلمي، بمعنى أنه يعتمد دائما على الحسابات والنظريات، وبالتالي المقدمات التى تؤدى إلى النتائج.

– الميول الفلسفية، فهو يضع أمام الأحداث علامات الاستفهام، ويلجأ إلى القياس النفسي، ويحدد الأبعاد، محاولا – بقدر الإمكان – الخروج بإجابة تكون هى الأقرب للإقناع.

– الثروة الكبيرة التي يمتلكها من الأدوات ، ولها من الأهمية البالغة من حيث تعددطرق المعالجة والتناول ، وبالطبع يدخل تحتها الأسلوب الذى يتسم بالعمق والقوة، وفى الوقت ذاته يبتعد عن التعقيدات والغموض، ويتوخى السهولة والسلاسة.

التذوق الفنى، إذ تغمره اللمسات الجمالية التى تغدق عليه حسا عاليا، فتقصى الجمود جانبا.

– وأخيرا الحب والإخلاص والوفاء والتضحية التى يدخرها لوطنه مصر، فهو عاشق ومتيم بها، وكان ذلك من الأسباب الجوهرية التى جعلته يوجه كل اهتمامه وعنايته بتاريخها، فأمضى السنوات الكثيرة، يستحضر الوقائع المصرية، ويعيش داخلها، وتلتقط عيناه مختلف جوانبها. و«بحرفنة» بالغة، يضع يده على غير المعروف، وذلك بناء على يقين كامل بمنهجه، وشوق ولهفة على الكشف عن الجديد، وإيمان صادق بأن القدر قد اختاره لهذه المهمة الصعبة، فوهب نفسه لها على حساب أشياء أخرى. ولكن على جانب آخر، فإن مصر هى الأخرى حنت عليه، وأعطته المركز والشهرة، وأحاطته بالإجلال والاحترام. ومما لاشك فيه أن هذه المؤهلات قد بلورت شخصيته العلمية، فأصبحت له الملامح الخاصة التى جعلته رائدا فى الكتابة التاريخية.

طبيعة إنتاجه العلمي

عنى الدكتور يونان بتاريخ المؤسسات المصرية على مستوييها. الشعبي والدستورى، وكان وراء تلك العناية شعور بأن التاريخ السياسى قد جار على تاريخ المؤسسات التى تصنع السياسات. وبالنسبة للمستوى الأول «الشعبي» فإنه وضع فيه أربعة مؤلفات عن تاريخ الأحزاب المصرية، بدأها من وقت مبكر

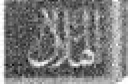
عام ١٩٧٠ بكتاب «الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ - ١٩١٤)» ، وصدر له بعد ست سنوات كتاب «الأحزاب المصرية قبل ثورة يوليه ١٩٥٢» . وبعد ثمانى سنوات صدر كتاب ثالث «الأحزاب المصرية (١٩٠٧ - ١٩٨٤)» وأخيرا كتاب «تاريخ الأحزاب المصرية» . وأهمية مثل تلك الأعمال، أنها بدأت فى وقت كان يتسم بحظر الأحزاب، وكل ما يتصل بها حتى المتعلق بتاريخها، ومن ثم جاء عملاه الأول والثانى فى ظروف تحيطها العقبات، وبالتالى أصبحت من المراجع الفريدة نتيجة لهذا المناخ.

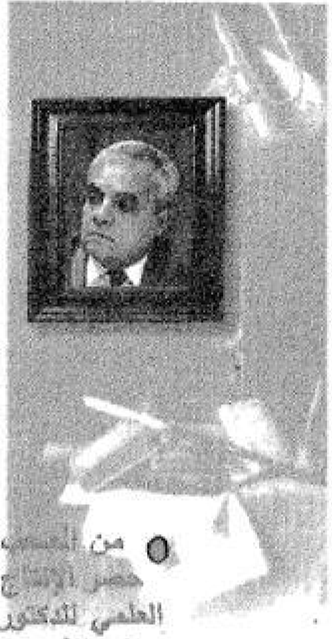
أما عن المستوى الثانى «الدستورى» ، فقد كتب كتابا يعد من الكتب المرجعية فى تاريخ المؤسسات . وهو تاريخ الوزارات المصرية (١٨٧٨ - ١٩٥٣)»، وكتابا آخر عن تاريخ «الخارجية المصرية (١٨٢٦ - ١٩٣٧)» وفى السياق نفسه ، كتب مؤلفا تحت عنوان «قصة البرلمان المصرى». ومثل هذا النوع من الدراسات يتطلب إلماما واسعا ليس فقط بالتاريخ السياسى، وإنما أيضا بالتاريخ الاجتماعى والتاريخ الإدارى ، بحكم أن كل ذلك يصب فى نهر المؤسسة، الأمر الذى تطلب الرجوع إلى الدوريات على نطاق واسع ، هذا من ناحية، وتطلب فى الوقت ذاته الرجوع إلى الوثائق البريطانية التى نجح فى الحصول عليها من دار المحفوظات البريطانية من ناحية أخرى.

وفيما يتعلق بالانتماء الوطنى، فإن الدكتور يونان بذل مجهودا واضحا فى الكتابة فى شتى الشئون المصرية، فاشترك مع آخرين فى وضع كتاب تحت عنوان «حرية الصحافة فى مصر (١٧٩٨ - ١٩٢٤)»، وكتاب ثان بعنوان «مصر والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)»، وألف كتابا ثالثا يحمل عنوان «الوفد والكتاب الأسود».

وكانت عنايته بقضايا الحدود المصرية ظاهرة فى عدد من مؤلفاته ، بدأت فى فترة مبكرة ببحثه المنشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٦٧ عن «أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابا»، ثم أصدر مؤلفه «الأصول التاريخية لمسألة طابا (دراسة وثائقية)» ، وتبعه بعد اشتراكه ضمن هيئة الدفاع المصرية فى قضية طابا وصدور الحكم لصالح الجانب المصرى ، بعمل يروى تجربته فيها بعنوان «طابا - قضية العصر»، ويكاد يكون هو الكاتب الوحيد الذى أرخ لهذه القضية الوطنية، كما شارك فى وضع «الكتاب الأبيض» الصادر عن وزارة الخارجية المصرية حول تلك القضية، ثم جاء عنوان الكتاب الأخير «مصر المدنية» ليسهم فى هذا الخط.

ولم تنقطع علاقة د. يونان بتاريخ السودان بعد انتهائه من رسالتيه للماجستير والدكتوراه، فاستكمل الطريق، وكتب العديد من المؤلفات منها «السودان فى المفاوضات المصرية - البريطانية ١٩٣٠ - ١٩٣٦)»، «قضية وحدة وادى النيل بين المعاهدة وتغيير الواقع الاستعمارى (١٩٣٦ - ١٩٤٦)»، كما





من أقلام مصر الإنتاج العلمي للدكتور يونان الذي هو متنوع ومتميز، وأيضا غزير. ورفوف المكتبات تشهد بذلك

وضع كتاب «مشكلة جنوب السودان» الذي ألفه مع آخرين، وكانت آخر أعماله في ذلك الميدان كتاب «الثوابت والمتغيرات في العلاقات المصرية السودانية». هذا فضلا عن بحوث في التاريخ السوداني نشرت في مجلة السياسة الدولية، منها «الثورة والصراع الحزبي في السودان (أكتوبر ١٩٦٩)»، «قيام وسقوط المهدية في السودان المعاصر (يونيه ١٩٧٠)»، «إيديولوجية الوحدة بين مصر والسودان (أبريل ١٩٧١)».

وأصبح التوجه العربي له المكانة لدى كتابات الدكتور يونان منذ عام ١٩٧٧ حين ألف مع الدكتور مفيد شهاب والأستاذ السيد ياسين كتابا بعنوان «الصهيونية والعنصرية»، أيضا شارك في أكثر من عمل في هذا المضمار، فكتب عن العلاقات العربية الأفريقية، والعلاقات العربية التركية.

وانتهز فرصة إعارته لجامعة محمد بن عبدالله بفاس بالمملكة المغربية (١٩٧٧ - ١٩٨١)، ووفقا للتوجه ذاته، ترجم كتابا ضخما عن تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠، ووضع كتابا عن تاريخ العلاقات المصرية المغربية حتى عام ١٩١٢. وخلال التسعينيات، شارك في تأليف كتاب «الكويت - وجودا وحدودا»، كما وضع كتابا تحت عنوان «قراءات تاريخية على هامش حرب الخليج»، وكانت آخر مؤلفاته في ذلك الصدد «موقف بريطانيا من الوحدة العربية (١٩١٩ - ١٩٤٥)».

ومن هنا يتضح أنه لم يقتصر في دراساته على أحد جناحي الوطن العربي دون الآخر، إذ تناول الجانبين. بعد أن رأى أن المكتبة تفتقر إلى مؤلفات عن العلاقات العربية - العربية، بينما هناك أعمال كثيرة عن العلاقات العربية الأوروبية، خاصة مع الدول التي استعمرت البلاد العربية.

الهلال .. المحطة الأولى

وكتب الدكتور يونان في الصحافة منذ فترة مبكرة. فقد نشر في مجلة الهلال أولى مقالاته عام ١٩٦٥، ثم تتابعت كتاباته في السياسة الدولية والمصور والأهرام، مما أسهم في معرفة القارئ به وإعجابه بأسلوب معالجته للموضوعات التي تناولها.

وتأتي رحلة الدكتور يونان مع الديوان، تلك التي بدأت أولى خطواتها يوم الخميس ١٥ يولية ١٩٩٣، حين نشرت الأهرام أول حلقة من السلسلة التاريخية المعروفة «الأهرام - ديوان الحياة المعاصرة».

وتجاوز الديوان الآن خمسمائة وخمسا وخمسين حلقة، وكل منها يعد دراسة مستقلة ذات طبيعة علمية تتحلى بالتبسيط، وذلك لكى تمكن القارىء من فهمها ومتابعتها، وهى تسعى لنشر الوعى التاريخى بين جموع قراء الصحيفة العريقة من المصريين والعرب، ثم إنها من الكتابات القليلة التى تنشر بالأهرام . وفى الوقت ذاته تنشر مترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى الأهرام ويكلى، هذا فضلا عن الأهرام الدولى والأهرام العربى، مما يتيح الفرصة للمصريين غير المقيمين فى مصر والعرب لتتبعها ، بالإضافة إلى الأجانب الذين يرغبون فى معرفة التاريخ المصرى للاطلاع على بعض فصوله.

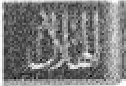
وقد صنف الدكتور يونان ما نشر من حلقات فى موسوعة ضمت حتى الآن عشرة كتب، وامتدت بين عامى ١٨٧٦ - عام صدور الصحيفة العتيدة - وعام ١٩٢٤. وجاءت بالترتيب: الكتاب الأول (١٨٧٦ - ١٨٨٢)، والكتاب الثانى والثالث (١٨٨٢ - ١٨٩٢)، والرابع والخامس (١٨٩٢ - ١٩٠٠) ، والسادس والسابع (من مطلع القرن العشرين إلى قيام الحرب العظمى عام ١٩١٤) ، والكتاب الثامن «١٩١٤ - ١٩١٨) ، والكتابان التاسع والعاشر (١٩١٩ - ١٩٢٤).

ومن الموقع نفسه ، وفى إطار الديوان ، وضع عملين ، أولهما بمناسبة مرور ١٢٥ عاما على صدور الأهرام تحت عنوان «الأهرام - سنوات التكوين» والآخر بالمشاركة مع المجلس القومى للمرأة يحمل عنوان «المرأة المصرية بين التطور والتحرر (١٨٧٣ - ١٩٢٣)»، وقد حصل الكتاب الأخير على جائزة أحسن كتاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب لعام ٢٠٠٢.

ويجمع الكثيرون على تفرد هذا العمل، حقيقة أن الاستعانة بالدوريات كأحد مصادر البحث التاريخى أمر قديم، ولكن أن تستخدم دورية بعينها كمصدر لكتابة تاريخ مصر والعالم، وعلى المستويات المختلفة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية والصحافية، فإنه الأمر الذى اختص به الدكتور يونان، كاتب ديوان الحياة المعاصرة.

والواقع أنه من الصعب هنا حصر الإنتاج العلمى للدكتور يونان الذى هو متنوع ومتميز، وأيضا غزير . ورفوف المكتبات تشهد بذلك الكم من المراجع التى ربت على الأربعين كتابا، والأبحاث المنشورة فى المجلات العلمية المتخصصة والمحكمة والتى اقتربت من المائة والخمسين بحثا.

ولما كان من المعروف ان كيان الأستاذ الجامعى يرتكز على شقين، الأول إنتاجه العلمى المتميز، أما الآخر فهو المدرسة التى يضع أساسها ويقيم قواعدها ويضم بين صفوفها التلاميذ الشغوفين بالانتماء لها، لينهلوا من معارفها، وبالتالى عندما يشتد عودهم، يوكل إليهم الدور ليستكملوا المسيرة على الدرب نفسه، فقد نجح الدكتور يونان فى إعداد هذه المدرسة التى أصبحت لها من





لعضوية للدفاع عن قضية طابا فتولى جمع الوثائق وكتابة الفصول التاريخية من المذكرات القانونية

الدعامات ما يمكنها من البقاء، ويحرص على تغذيتها ، وضخ الدم الجديد لها من خلال سمنار الثلاثاء الأسبوعي الذي يعقده في كلية بنات عين شمس، ودائما ما يتسم ذلك اللقاء بالديمقراطية في الحوار، حيث تدور المناقشات في مناخ هادئ، وفعال وإيجابي، فهناك الرأى والرأى الآخر، بالإضافة إلى ما يلمسه المنتمون إلى السمنار من صفات تتمتع بها شخصية الأستاذ، فهو الإنسان الذي يمتلك الصدر الرحب، ويفيض قلبه بالحنان، وفي الوقت ذاته فإنه الحازم والحاسم والملتزم ، مما يثرى المكان بالألفة، والدفء والاحترام والتقدير الذي يسود بين الجميع.

ومن هذا المكان، خرجت الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه التي أنجزت على يديه، لتحمل بصماته، وتكون الدليل على إشرافه الصادق وعطائه المتفرد، والذي أمتد إلى مؤسسات علمية أخرى، وبطبيعة الحال فقد أدلى بدلوه في اللجان الخاصة بالمناقشة والحكم على رسائل كثيرة، وعلى صعيد آخر، فإنه شارك في تقييم الإنتاج العلمي للمتقدمين إلى لجان الترقية الخاصة بأعضاء هيئة التدريس في الجامعات العربية.

الدور القومي

إذا انعطفنا على الجانب القومي، نجد للدكتور يونان موقعه المتميز على الخريطة القومية، حيث اختارته وزارة الخارجية المصرية بصفته مؤرخا لعضوية الدفاع عن قضية طابا، فألقيت على عاتقه مسئولية جمع الوثائق وكتابة الفصول التاريخية من المذكرات القانونية التي كان يقدمها الجانب المصرى لهيئة المحكمة الدولية بين عامي ١٩٨٦ - ١٩٨٨. وتنقل أثناء تلك الفترة بين دور الوثائق العالمية في كل من إنجلترا وتركيا والسودان، وكذلك تردد على دار الوثائق القومية بالقاهرة. ونجح تماما في الحصول على ما في بطونها من أسرار. وقد اعتمدت عليه هيئة الدفاع المصرية في القضية بشأن دعم الجانب التاريخي الذي كان له دور حاسم في كسب القضية، وذلك إبان جميع مراحلها، من إعداد المذكرات الثلاث التي ألحق بكل منها ثبت بالوثائق كلف بوضعه، إلى مرحلة المرافعات الشفوية التي انعقدت في جنيف خلال شهر أبريل عام ١٩٨٨.

وأدى هذا النجاح الذي أحرزه في طابا إلى أن تستفيد منه وزارة الخارجية المصرية، وأن يكون ضمن الوفد المصرى في مؤتمر مدريد عام ١٩٩٠، إذ رأت الوزارة الاستعانة به خبيرا في

الشئون الخاصة بالتاريخ فى أعمال المؤتمر.

وعلى الدرب نفسه، اختير عضوا فى وفد المفاوضات المصرى حول قضية حلايب، وفى المفاوضات التى جرت مع الجانب السوداني على ثلاث جولات أثناء عامى ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ ونظرا للعلاقات التاريخية بين مصر والسودان ، كان دوره أساسيا فى هذه الجولات، وأرسلته وزارة الخارجية المصرية فى تلك الفترة إلى لندن للحصول على الوثائق المتعلقة بالحدود بين البلدين الشقيقين ، وكتابة المذكرات عنها والتى تحتفظ بها إدارة السودان بالوزارة ، لتعتمد عليها فى أى طرح مقبل للقضية.

وبناء على هذا الدور القومى المشّرف، جاءت عضوية الدكتور يونان فى مجلس الشورى لفترتين متتاليتين بقرار جمهورى أول عام ١٩٩٥، وقرار جمهورى آخر عام ٢٠٠١ . وقد استطاع من خلال موقعه أن يثرى المناقشات ، ومما يذكر أنه لم يكن ذا حزبية متعصبة، وإنما - وكما يردد دائما - هو مصرى حتى النخاع، ووفقا لهذه الهوية، مضى فى خدمة وطنه الغالى.

وأخيرا إذا ما أظهرت لنا المرآة الجانب السيكلوجى للدكتور يونان، نجد أنه صاحب شخصية متوازنة ورحبة، يتحلى بالأخلاق الرفيعة، والنقاء النفسى، والشفافية المرهفة، والتسامح، وحب الخير والسعى إليه مهما كانت مسالكه صعبة. وبفضل هذه الإمكانات، توثقت علاقاته بالآخرين، الذين ارتبطو به ، حافظوا على تلك الصلة ذات الخيوط الحريرية التى ستبقى دائما وأبدا ، طالما أن هناك قلوبا تنبض.

ونتيجة لنشاطه العلمى، ودوره فى العمل العام، حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٥، وكان من أول أبناء جيله الذين فازوا بها . وفى أكتوبر عام ٢٠٠٢، وعندما قررت مؤسسة الفكر العربى - وهى مؤسسة عربية - أن تمنح عددا من الجوائز لأهم المبدعين فى الأمة العربية ، كان هو المصرى الوحيد الحائز على جائزتها.

وفى الحقيقة ، فإنه عبر رحلة الدكتور يونان الطويلة والتى مازال يمخر عبابها ، لم يكن الطريق مفروشا بالزهور والرياحين فقط، وإنما أيضا هناك الصخور التي تغلب عليها بفضل توفيق الله وجده واجتهاده وصبره وكفاحه، من أجل أن يحقق رسالته، ويجعل التاريخ، وخاصة تاريخ مصر محببا إلى النفوس التى أصبحت متشوقة لتعرف المزيد على يديه. ولعلى بعد هذه الصفحات أجبت عن السؤال الذى طرحته فى البداية، وأكرره فى النهاية، لماذا التوحد فى رأى المثقفين وإجماعهم على اختيار شخصية الدكتور يونان لبيب رزق ليفوز بجائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٤؟ إنه يستحقها وبجدارة، وبذلك أصبح أول مؤرخ يحصل على أرفع جائزة تقدمها مصر لأبنائها المخلصين الأوفياء. ■

الانسحاب

من الحياة الفكرية

بقلم
وديع فلسطين

لا تنطبق المواصفات الوظيفية على كل مشتغل بالفكر والثقافة والأدب، ولئن جاز للموظف فى سلك البيروقراط أن يحال إلى التقاعد فى السن المحددة قانونا، فإن هذه القاعدة لاتسرى على كل من يحمل قلما ويطالع الجماعة بآثاره المنشورة، فالحياة الفكرية لاتعرف الإحالة إلى المعاش، ولايقدم الكاتب أو الأديب على إغماد قلمه لأن عمره الافتراضى قد انتهى ببلوغه هذه السن الحاكمة، ولكن مادام صاحب القلم هو السيد الآمر فى مصيره الأدبى - فى مجتمع حر يتيح له حرية التعبير عن رأيه - فله إن شاء أن يعتبر أن رسالته قد اكتملت وأنه أدى واجبه على خير ما يشتهى وآن له أن يستريح فى سنى العمر المقدر له أن يعيشها، وله من ناحية أخرى أن يواصل العطاء مادامت أوضاعه كلها تيسّر له ذلك.

على أن عامل السن ليس هو العامل الوحيد الذي يملي على الأديب أن ينسحب من الحياة الأدبية، فهناك عوامل أخرى، منها ماهو شخصي، ومنها ماهو مجتمعي، تدفعه دفعا إلى الانسحاب من دنيا تضطرب فيها المقاييس الأدبية، وتحتدم فيها المعارك التي تدور حتى حول البديهيات، وتختلف فيها مذاهب الفكر واتجاهاته.

فمن الأدباء من أحرق كتبه مثل أبي حيان التوحيدي، ومنهم من أنهى حياته بنفسه مثل الشاعر فخري أبو السعود (١٩١٠ - ١٩٤٠) الذي دمرته الوحدة بعد الانفصال عن زوجته الإنجليزية وغرق ابنه الوحيد بطوربيد صوبته غواصات النازي على سفينة كانت تنقل الأطفال الإنجليز إلى كندا هربا من الإغارات الألمانية على المدن البريطانية، ومنهم الأديب إسماعيل أحمد أدهم (١٩١١ - ١٩٤٠) الذي عثر على جثته على شاطئ الإسكندرية، وقيل إنه انتحر وقيل إنه قتل بسبب رسالته المطبوعة بعنوان «لماذا أنا ملحد»، ومنهم الأديب الشاعر اللبناني خليل حاوي (١٩٢٥ - ١٩٨٢) الذي انتحر احتجاجا على الحرب الأهلية في لبنان، ومنهم الأديب الأمريكي إرنست همنجواي (١٨٩٨ - ١٩٦١) الذي لم يعلل أحد سبب انتحاره، ومن الأدباء من انتهت حياته بفاجعة لا إرادية مثل الشاعر صالح شرنوبي (١٩٢٤ - ١٩٥١) الذي افترسته عجلات قطار الدلتا، ومثل الباحث جاك تاجر الذي صرعته عجلات مترو مصر الجديدة.



ايرنست همنجواي

بل إن هناك من راودته في فترة من حياته فكرة الانتحار، ومنهم طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) وعباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤).

الانسحاب وأسبابه

على أن هناك أدباء آثروا الانسحاب من الحياة الأدبية لاعتبارات تتعلق بكل منهم، فالعلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧) لم يستكمل دراسته في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بسبب اختلافه مع طه حسين، وهجر مصر إلى السعودية، ولدى عودته آثر الاعتكاف في داره على كتبه وأوراقه نائيا بنفسه عن الوظائف الحكومية وغير الحكومية، باستثناء قبوله العمل مديراً لتحرير الطبعة العربية من مجلة «الريدرز دايجست» على مدى ست سنين بناء على إلحاح محررها صديقه فؤاد صروف (١٩٠٠ - ١٩٨٥) كما أن الشاعر عبدالرحمن شكري (١٨٨٦ - ١٩٥٨) انسحب بهدوء من الحياة الأدبية عندما هاجمه تلميذاه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبدالقادر المازني (١٨٩٠ - ١٩٤٩) هجوما شرسا في كتابهما

«الديوان» ووصفاه بأنه «صنم الألاعيب» بل شككا في قواه العقلية، وعندما عاوده الحنين إلى القلم، نشر طائفة من الفصول في مجلة «المقتطف» بعنوان «نظرات في النفس والحياة» وكان يوقعها بالحرفين الأولين من اسمه «ع.ش» وكنت وقتها من المسئولين عن تحرير مجلة «المقتطف وكان شكري ينهانا عن الإعلان عن اسمه الصريح ككاتب لهذه الفصول، ولشكري مقالات أخرى كثيرة نشرت في مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) وكان يوقعها بإمضاء «قارىء» في حين كان الزيات يعلن أن المقالات «لأحد أساطين الأدب الحديث» وله مقالات في مجلات أخرى جمعها أستاذنا الكبير الدكتور محمد رجب البيومي في كتاب عنوانه «دراسات في الشعر العربي» بتكليف وموافقة من الشاعر شكري.

ومن الذين انسحبوا من الحياة الأدبية الروائي عادل كامل الذي زامل نجيب محفوظ وعبدالحميد جودة السحار (١٩١٣ - ١٩٧٤) وعلي أحمد باكثير (١٩١٠ - ١٩٦٩) في إنشاء «لجنة النشر للجامعيين» وعندما أدرك هذا الروائي - الذي بات شبه مجهول - أن الأدب لايطعم خبزا، انصرف إلى مهنة المحاماة يحقق من خلالها طموحه المادي وكنت أزوره في مكتبه في الحين بعد الحين إلى أن صفى أعماله وأغلقه ليلحق بزوجته وابنتيه بعدما هاجرن إلى الولايات المتحدة، وانقطعت بعد ذلك أخباره تماما.

وليس من الحقائق المجهولة أن



محمود شاكر

الشاعر إبراهيم ناجي (١٨٩٨ - ١٩٥٣) كان قد قرر الانصراف نهائيا عن الشعر والأدب، بل سافر بقصد الهجرة إلى إنجلترا كاحتجاج صامت على الحملة الشعواء التي جردها عليه طه حسين والعقاد عند صدور ديوانه الأول «وراء الغمام»، ولكنه ارتأى بعدما هدأت نفسه الثائرة أن يواجه أزمة النقد لا بالاستسلام ولكن بالتحدي، فعاد من هجرته يتابع أداء رسالته ويفرض على الحياة الأدبية احترام صنيعه الأدبي.

زوال عصر الشموع

وكنت في فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي أعاني من الانكشاريات المتغالظة، فقررت بدوري الانسحاب من الحياة الأدبية ، وكتبت رسائل إلى الأصدقاء الذين كانوا يواصلونني برسائلهم الأدبية مودعا إياهم قائلا لهم إن الأمية أسلم، وها قد عدت أميا! وأشفق عليّ وقتها الأديب الشاعر السوري الدكتور زكي المحاسني (١٩١١ - ١٩٧٢) فوجه إليّ قصيدة على صفحات مجلة «الأديب» اللبنانية كان مما جاء فيها قوله:

حكم أقدارنا بأنا شمع
ما ملكنا إطفاءها نحن قسرا

فمازحته قائلا إن عصر الشموع قد أخلى مكانه «للكلوبات» والغاز الطبيعي ثم الكهرباء والفلورسنت واقتصرت مهمة الشموع على حفلات العرس تحملها الوصيفات حول العروس في ليلة جلوتها!.

وهناك من آثر الهجرة النهائية إلى الخارج مثل الأديب العراقى الدكتور صفاء خلوصى (١٩١٧ - ١٩٩٥) الذى اختار اكسفورد للإقامة فيها، ومثل الأديب الشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢) - ١٩٥٥) الذى اختار أمريكا للإقامة الدائمة فيها، وهناك عدد لايحصى من الذين ركبوا مراكب الهجرة إلى كل أنحاء العالم لاعتبارات تتفاوت من حالة إلى أخرى. وكان الدكتور محمد صبرى السوربونى (١٨٩٠ - ١٩٧٨) يفكر بدوره فى الهجرة النهائية إلى فرنسا ليحقق هناك مشروعات علمية تعذر عليه تحقيقها فى الوطن.

رسالة المخطرمين

ولكن عندما يجيء الانسحاب من الحياة الأدبية بعد تكريم من أرفع مستوى، فهو مايدعو إلى العجب. فالأديب التونسى الكبير أبو القاسم محمد كرو الذى استكمل عامه الثمانين فى أول يوليو المنصرم، فاجأ المجتمع الأدبي فى بلاده ببيان نشره بعنوان «وداعاً أيها القلم وآخر الكلمات» استهله بقوله «مهداة إلى جميع الذين يحملون عنى أمراضاً فى نفوسهم، داعياً التاريخ أن يحاسب الجميع بالأفعال لا بالأقوال».



عبد الرحمن شكري



عادل كامل

وختم بيانه بقوله: «أما أنا وقد بلغت الثمانين سنة وزهاء الثمانين كتاباً، فأعلن بأننى لن أكتب حرفاً بعد الآن ولن أرد على أحد مهما كان . أما حقوقى كافة فأنا متمسك بها، تأتى لي أو للورثة طوعاً أو عن طريق المحاكم. واللهم أشهد بأنى، قد بلغت وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

ولقد جاء انسحاب أبى القاسم محمد كرو من الحياة الأدبية بعد منحه الجائزة المغاربية الثقافية الكبرى التى تمنحها حكومة تونس لأديب فرد تميز بإنتاجه الغزير وبخدمة الثقافة على مدى سنوات عمره تتويجاً لكفاحه الأدبى والفكرى

واعترافاً بأياديه على الثقافة عامة.

وأثار انسحاب العلامة كرو من الحياة الأدبية عاصفة من الاحتجاجات نشرتها الصحف التونسية داعية إياه إلى العدول عن قراره لأن الرسالة الأدبية ليست لها نهاية يتم الوقوف عندها. ومن ناحيتي راجعت أخانا كرو قائلاً: إن دور المخضرمين من أمثالنا في المرحلة الحالية هو التذكير في المقام الأول بفضل الذاهبين الذين تجهلهم الأجيال الطالعة وتصويب الأغاليط الفاحشة التي يتورط فيها الكتاب والوقوف في وجه التيارات الهابطة التي تحاول هدم قواعد الضاد. وكان تعليقه هو أن الأغاليط قد فشت حتى في الدراسات الجامعية، ولن يسعفه العمر مهما امتد في الاستدراك على هذه الأغاليط. أما محاولات هدم حصون الضاد فقد تأخر أوان التصدي لها.

إفساح الطريق للشباب

ومن ناحية أخرى، أعلن الصحفي الأديب المغربي عبد الكريم غلاب الاستقالة من رئاسة تحرير جريدة «العلم» المغربية والانسحاب من الحياة الفكرية تماماً. والغريب أيضاً أن هذا الانسحاب جاء بعد تكريمين ظفر بهما غلاب في الفترة الأخيرة، إذ منح بدوره الجائزة المغاربية الثقافية الكبرى من حكومة تونس، كما أصدرت الدكتوره سعاد الصباح كتاباً تذكارياً عنه قدم إليه في حفل كبير. ولأنني مبتوت الصلة بعبد الكريم غلاب، مع أنني أتابع نشاطه عندما كان يدرس في مصر، وقرأت كتبه «القاهرة تبوح بأسرارها» و«الماهدون الخالدون» و«الشيخوخة الظالمة» فلست أعرف على وجه التحديد أسباب انسحابه من الحياة العامة، اللهم إلا إن كان مراده إفساح الطريق أمام الشباب خشية اتهامه بأنه يقف عقبة في سبيل أجيال جديدة تطمع في أن تتوافر لها فرص التقدم والارتقاء. ولا أحسب أن عنصر الشيخوخة هو الذي أملى على غلاب الاستقالة من الحياة العامة، فهو يعترف عند تسجيل سيرته بأنه مازال شاباً يرفض الشيخوخة التي نعتها بالظلم.

أما الطبيب الروائي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي، فقد أزمع هو أيضاً الانسحاب لامن الحياة الأدبية التي يعشقها كهواية ولكن من ممارسة الطب في عيادته الخاصة في مدينة الرقة البدوية في شمال سوريا. وهو بذلك تفرغ للأدب، فرحبت بذلك دوائره في سوريا. وإن لم يجد مثل هذا الترحيب من مرضاه الذين كانوا يجدون في طبه نزعة إنسانية، وهي نزعة كادت تختفي بعدما تحول الطب إلى «بزنس» وتجارة ومشروعات استثمارية.

وإن كنت شخصياً سأفتقد طبه لأنني كنت أقول دائماً: إنني جربت أدبك ولم أجرب طبك! ولكن شاءت الظروف أن أصاب بتسمم غذائي أثناء زيارتي لدمشق من بضع سنوات فأسعفني العجيلي بطبه، وابتاع من جيبه الخاص ثمن الأدوية التي قدمها إلى ولولا طبه الذي ودعه الآن لودعت الدنيا في دمشق الفيحاء ولانضممت بدوري إلى المنسحبين بلا عودة! ■



بقلم
حمدى رزق

■ ثلاث حركات للتمرد تطلب العدل والمساواة بقوة السلاح

■ مليون نازح ينتظرون الغوث قبل أمطار الخريف

■ دور الترابي وقرنق ومنظمات الإغاثة في إشعال الحريق



موفد الهلال حمدي رزق بصحبة المصور شرين شوقي في معسكر «أرض متى» غرب دارفور

النازحون مأساة إنسانية قوامها مليون سوداني، تركوا الحلة «القرية» بعد أن حرق الجنجاويد «القطاطي»

بفعل فاعل تم تدويل قضية دارفور، وتحولت ، جنينة الغرب ، إلى جهنم يكتوى بها السودان، ومرورا بنيالا والفاشر اندلع التمرد من ، جبل مرة ، صاخبا يقتلع الحرث والنسل، وفى الظهر ،جنجويد ، مثل الجن والعفاريت يحرقون ويقتلون .

جنة السودان أصبحت رهينة تطاولها ،لاندكروزر، التمرد، وخيول الجنجويد، ومروحيات الجيش وتحولت لساحة قتال ولا تزال .

أزمة دارفور لم تنته، وأمامها شوط طويل بين كر وفر، وسلام دارفور يبدو بعيداً يتوه بين اتفاقيات لا تحترم، وتوقيعات بالحبر البارد يمحوها البارود الساخن .

ومأساة دارفور شاخصة فى عينى طفل صغير يطل من عدسة الكاميرا يعلن للعالم أنه جائع، محروم، خائف، مذعور يطلب العفو والرحمة والغذاء والدواء .

،الهلال، تفتح ملف دارفور بالكلمة والصورة عبر موفدها إلى غرب السودان حمدى رزق الذى قضى ١٣ يوما - بصحبة المصور شرين شوقى - متنقلا بطائرة انتينوف صغيرة ما بين مطارات نيالا، وجنينة والفاشر والخرطوم، زار معسكرات النازحين فى أرض متى ،غربا، وقلما ، جنوبا، وأبو شوك ،شمالا، ، التقى وزراء الأزمة وسلاطين وولاة دارفور الكبرى فى ولاياتها الثلاث ،غرب وشمال وجنوب، استقصى أحوال التمرد، وتحسس آثار الجنجويد، استشرف مستقبل مفاوضات ،أبوجا، بالعاصمة النيجيرية بين الحكومة والمتمردين و ،بحث أسباب انهيار مفاوضات ،ابشى، و انجمينا، فى تشاد، ، واديس ابابا ، فى اثيوبيا وما هى مؤشرات نجاح مفاوضات ،أبوجا، الحالية؟

ويجيب موفد ،الهلال، على أسئلة دارفور الكبرى:

• من حرك المتمردين إلى الثورة طالبين العدل والمساواة؟

• وما دور الحركة الشعبية لتحرير السودان ،حركة د.جون قرنق، فى تمرد الغرب؟

• وما علاقة التمرد باعتقال الدكتور حسن الترابى رئيس المؤتمر الشعبى ،المعارض، فى الخرطوم؟ وهل تآمر الترابى على الحكومة فى الغرب؟

• لماذا تأخر الجيش السودانى هذه المرة فى حسم المعركة ؟

• وماذا عن التورط الدولى فى أحداث دارفور ودور فرنسا والولايات المتحدة والترويج فى إشعال الأزمة ؟

• وأخيرا كيف تحل إشكالية عدم الثقة بين الحكومة والأمم المتحدة فى هذا الملف الذى بدأ قبليا وانتهى دوليا بشكل رشح دارفور لأن تكون القضية الساخنة الأولى فى أفريقيا طوال العام الماضى وامتدت لتأكل أيام العام الجديد ؟!!

أحفر شبرا، تتطرش الميه متراً.. يقول أبناء «جنينة» إحدى حواضر دارفور الكبرى. جنينة عاصمة ولاية غرب دارفور، وهى بالفعل اسم على مسمى، وكما قال مرافقى لو بقيت معنا حتى تهطل أمطار الخريف لشاهدت سندسا أخضر منبسطا بطول وعرض الصحراء الرطبة، هنا كل شيء وفير، ماء وخضرة ووجه حسن.

يراهنون هنا على هطول الأمطار لتغسل ذنوب المتمردين، ودماء الضحايا، ويطلبون الخير من السماء بعد أن ضاقت بهم الأرض بما رحبت، يدعون الله بكل اللهجات المحلية -نحو ١٠٠ لهجة- أن يمنحهم السلام والمحبة اللذين حرما منهما طويلاً.

لا يعرفون ماذا جرى لهم، وماذا يجرى هناك فى الريف، قرى أحرقت، ورجال خُطفوا، ونساء أغتصبن. هكذا يرددون فى وجه كل من يقابلهم لا يملون تكرار ذلك، تعوزهم التفاصيل ولكنهم يعرفون جيداً كلمات تشى بالحالة التى أصبحت عليها دارفور، المتمردون لا يظهرون والجنجويد أيضاً لا يظهرون، دارفور تعيش كابوسا لا يراه أحد، كابوسا ثقيلا يعشش فى معسكرات النازحين، أكثر من مليون نازح تركوا منازلهم وقراهم حذر الموت ولديهم قصة واحدة «الجنجويد» وهى قصة على ما يبدو طويلة طول جبل مرة الذى يمتد ١٠٠ كيلو متر رابطا شمال دارفور بجنوبها مادا قدميه فى غربها، يحتله التمرد ويجلس فوق قمته.

جنجويد

جنجويد هى كلمة السر هنا، مكونة من ثلاثة مقاطع، «جن» ومعناها «رجل»، يحمل مدفعاً «جيم ٣» ويركب جواد «ويد»، مجرد سماع هذه الكلمة تحيلك مباشرة لذكريات قطاع الطرق الأليمة، وفى كل قرى دارفور يطل شبح «الجنجويد» الذى يهاجم بلا رحمة.

«بتول على» فتاة سودانية خريجة جامعة الخرطوم وتعمل موظفة فى الإذاعة، تركت عملها وعادت إلى قريتها ووجدتها حطاماً وركاماً بعد حريق الجنجويد ونزحت بتول مع النازحين حتى وصلت إلى معسكر «أرض متى»، وتقول: نحن نخاف الجنجويد، إنهم يضربون كالبرق ليل نهار، يسلبون كل شيء، أعرف أنهم سرقوا أبقارنا، ٤٠٠ بقرة أحصيناها، إنهم يغتصبون النساء ويقتلونهن!!

رفضت بتول ذكر أسماء المغتصبات لأنه عيب (شينة) الأمر الذى دعا مرافقى للتشكيك فى الرواية كلها وقال هذه هى المعلومات التى تستند إليها منظمات حقوق الإنسان ولا تستقيم على قدمين!!

سكان القطاطى

بتول تعيش ضمن ٤١ ألف نازح يضمهم المعسكر الذى يشبه قرية أفريقية صغيرة وكل أسرة تعيش فى «قطية» مفرد قطاطى، وهى بيوت طينية بأسقف من «البوص» مائلة ودائرية لمنع تراكم المطر فوق سطوحها التى أحال الطقس لونها إلى الأسود لون ليل المعسكر الدامس.

وما تقوله بتول يتردد صداه فى كل مكان نتحرك إليه، وفى معسكر «قلما» بمنطقة «بليل» بولاية جنوب دارفور تسمع عجبا وقصصا يشيب لها الولدان من النازحين الذين شردهم الجنجويد عن قراهم، ورغم محاولات الحكومة الحثيثة لإعادتهم إلى قراهم قبل حلول الخريف «موسم الأمطار» للحاق بزراعتهم التى

بارت إلا أنهم يرفضون العودة - وكما تقول أسماء حسن من «شويوكى» محلية جنينة لن نعود حتى نأمن شر الجنجويد، إنهم يحرقون كل شىء حتى المساجد!!

بين خوف بتول، وخوف «أسماء» تقع ولايات دارفور الثلاث، بين فكى الكماشة «جنجويد ومتمردين»، وتحت وطأة قصف إعلامي مركز من جانب وكالات الأنباء الغربية التى تستقى معلوماتها من منظمات الإغاثة التى تعمل فى كل اتجاه، من إغاثة النازحين حتى التشهير بالحكومة فى كل المحافل، ومن صميم العقل (عين العقل) أن الحكومة لم تطرد تلك المنظمات بل فتحت الباب أمامها خوفاً من العقوبات الدولية التى أصبحت قاب قوسين أو أدنى وطمعاً فى المساعدات التى يجلبونها.

ثورة بولاد

التمرد فى دارفور ليس جديداً، وتمرد داؤود يحى بولاد «ثورة بولاد» فى مطلع التسعينيات ضد ثورة الإنقاذ الإسلامية - ولايزال ماثلا فى الأذهان، أيضا تمرد الإسلاميين فى الغرب - على جبهة الانقاذ - ليس أوله ولا آخره بولاد، فعديد من قادة التمرد الحاليين محسوبون على ثورة الانقاذ وأبرزهم الدكتور خليل إبراهيم رئيس حركة العدالة والمساواه الذى كان وزيرا ولائيا فى حكومة الانقاذ قبل استقالته وانشقاقه على النظام ، وإذا كان مصير بولاد الإعدام بعد تحالفه مع حركة قرنق فى الجنوب، فإن قادة التمرد «حاليا» حظوا بالعفو العام من الرئيس عمر البشير وأطلق سراحهم لتهدئة الخواطر وتهيئة المناخ لمفاوضات ابوجا أيضا النهب المسلح ليس دخيلا على دارفور، وسجلات الشرطة ترصد ٦٩٥٨ بلاغا بالنهب المسلح بين عامى ١٩٧٨- ٢٠٠٠ كان نصيب إقليم دارفور منها ٥٣٢٥ بلاغا أى بنسبة ٧٧ فى المائة من مجمل البلاغات!

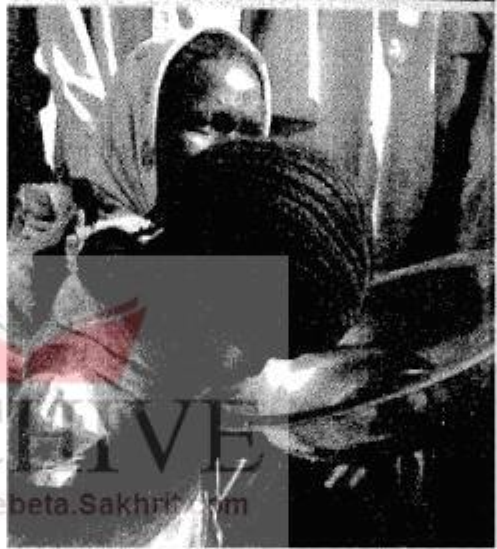
والقبلية فى دارفور ليست خافية فحوادث الاحتراب القبلى تزيد بمعدل ١,٥ فى المائة سنوياً، وهى ظاهرة لم تقلق أحداً خاصة أن هناك أكثر من ٥٠٠ قبيلة تسكن دارفور، ما بين رعاة ومزارعين، وما بين الرعاة والمزارعين كثير من التعديات على الأرض والزرع وهذا ما كان يتكرر دون مخاطر تهدد



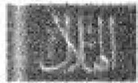


حكايات التطهير العرقى والإبادة الجماعية والاغتصاب الجماعى لا تجد سندا فى أرض الواقع وإن تداولتها الأفواه





أطفال النزوح وجع في قلب السودان



بانفصال دارفور كما جرى أخيراً، الأمر الذي يشي بأن للعبة وجها آخر قبيحاً هذه المرة!

والانفلات الأمني أيضا ليس بجديد على الأسماع كما يقولون، ومحاولات إعادة الأمن والنظام متمثلة في محاولة جمع السلاح من رجال القبائل وفي إعلان حالة الطوارئ بالإقليم في أعقاب مؤتمر بسط الأمن الشامل في «نيالا» عاصمة «حاضرة» جنوب دارفور في ديسمبر ١٩٩٧ وفي استخدام القوات المسلحة حتى الطائرات في تعقب الجناة وردعهم كما يجري الآن .

كل هذا معروف وأشبه بعلكة - بلبانة - في أفواه الجميع هنا ولكن ما يستلفت الانتباه هو انتشار الأسلحة الحديثة والإقبال الشديد على اقتناء أشدها فتكاً سواء في أيدي الجنجويد، أو قوات التمرد، حتى القبائل المسالمة قررت تسليح شبابها حماية لعرض القبيلة الذي دأب التمرد والجنجويد على اغتصابه، والبندقية الآلية سجلت ٢٠٠ ألف جنيه سوداني نحو ٨٠ دولارا أميريكيا وهو سعر رخيص يشجع على اقتناء السلاح .

أيضا يلفت النظر دخول المثقفين ساحة المعركة القبلية وتطوير القضية من حالة احتراب قبلي إلى حالة مظالم، ومطالب لإعادة توزيع الثروة، بل ودعوة لاستقلال الاقليم كما حدث في مؤتمر «أيشي» بتشاد الأمر الذي شكل تحولاً في القضية، وحفز الحكومة على إنهاء التمرد بالقوة قبل أن يتمثل بالجنوب خاصة أن أصداء اتفاق نيفاشا تصم الآذان .

عرب وزرقة

في دارفور أكثر من ٥٠٠ قبيلة منها القبائل العربية مثل الرزيقات والتعايشة والحبانية، والأفريقية (الزرقة) مثل المساليت والبرتي والداجو والفور والزغاوة والأخيرة متهمة باحتضان التمرد كما أن الحكومة متهمة باحتضان الجنجويد .

الزغاوة هي بيت القصيد الآن، والحاج عطا المنان والي ولاية جنوب دارفور يؤكد أن التمرد الأخير بدأ بين

قبيلة الزغاوة «الأفريقية» وقبيلة أولاد زيد «العربية» ورغم أنه تمت معالجة الوضع قبليا عبر «الأجاويد» -الحكم العرفي- ودفع الديات «الجوديات» فإن تدخل قطاع الطرق وأهل النهب والسلب واستغلالهم الأجواء القبلية المتوترة أدى لحدوث استقطاب حاد بين العرب والزغاوة - الأفارقة مما حدا بمقاتلى الزغاوة متحالفين مع المساليت والفور (مثلث مفز) للتمرد وطوروا أساليبهم وأشعلوها ناراً في المنطقة، وامتدت نيران التمرد إلى قبائل دار قمر وبني مرة، ولم تنفع المؤتمرات المحلية ولا تدخلات الإدارة الأهلية «السلاطين والولاة » فى إجهاض حركة التمرد التي كانت انفلتت من عقالها.

ما لم يقله الحاج عطا أن اقتحام المتمردين مطار الفاشر فى شمال دارفور وتخريب ٤ طائرات» انتنوف» ومثلها «أبابيل» على أرض المطار وذبح نحو ٧٥ من القوة المرابطة لحماية المطار، واختطاف اللواء إبراهيم البشرى من الجيش السودانى «ثم إطلاقه بعد دفع فدية كبيرة وتدخل السلاطين والولاة فى المنطقة»، كان ايذانا بدخول الجيش المعركة ويؤكد اللواء عبد الرحيم حسين وزير الداخلية ومسئول الملف الأمنى المفوض من الرئيس البشير فى دارفور أن الجيش أجلى التمرد عن مناطقه، وحوله إلى عصابات في الهواء ليس لها مكان على أرض دارفور!!

حلم الزغاوة

والسؤال: لماذا الزغاوة؟ ولماذا التمرد؟

يطلقون على قبيلة الزغاوة لقب «اليهود السمر» فهم معروفون بين أهل السودان مثلما يعرف أهل دمياط فى مصر بقدرتهم على جمع المال واستثماره وتكوين المؤسسات الاقتصادية وينظر السودانيون بكثير من الشك تجاه مسلك تلك القبيلة التى تشكل ١٧ فى المائة من جملة سكان شمال دارفور «نحو المليون نسمة» ويقولون إن هدفهم الوصول للسلطة ويحركهم حلم «دولة الزغاوة الكبرى» التى تلم شتات الزغاوة من تشاد وليبيا وأفريقية الوسطى، وفروعها فى نيجيريا والكاميرون ومالى والنيجر ويساهم الزغاوة فى رواج تلك الصورة برفضهم الزواج من خارجهم، وأن كان ولابد فمن زوجة بيضاء« من مصر أو ليبيا» للوجاهة الاجتماعية بعد جمع المال الكثير ويوجدون بكثرة فى شمال وغرب دارفور ويقل وجودهم فى الجنوب، وظلوا يعملون فى ركاب الحركة الإسلامية «جبهة الإنقاذ» وبرزوا فى مواقع السلطة لحدود تولى أحد أبرز رموزهم -الشفيع أحمد محمد- أمانة حزب المؤتمر الوطنى الحاكم فى الخرطوم قبل تولى الدكتور حسن الترابى الأمانة «كان ذلك قبل انشقاق الترابى» ومن رموزهم فى الخرطوم اللواء التيجانى آدم الطاهر وزير البيئة الاتحادية، وأحمد بابكر وزير التربية والتعليم فضلا عن وزير السياحة

ويقول مراقب من أهل المنطقة أن الزغاوة ظلوا يتحالفون مع حكم الإنقاذ حتى حدث الانشطار بين الترابى والبشير - فى ٩ ديسمبر ٢٠٠٠ - فانفلتوا وانضموا لحزب الترابى -المؤتمر الشعبى- الذى استغلهم فى حربه ضد حزب البشير «المؤتمر الوطنى»، ويقال إن الترابى بإشارة من إصبعه يستطيع إشعال ثورة فى الغرب، وأنه بمجرد الانشقاق حاول الترابى السفر بعد أيام إلى الفاشر «عاصمة شمال دارفور» إلا أنه منع من الوصول للطائرة فى مطار الخرطوم وبعدها تم اعتقاله كما اعتقل

الطيارون من أبناء الغرب لعدم تنفيذ الأوامر بقصف دارفور لإنهاء التمرد!

الدكتور مصطفى عثمان وزير الخارجية السوداني يقول: صحيح إن الزغاوة قبيلة كبيرة وتاريخهم معروف، وكل انقلابات تشاد انطلقت من دار الزغاوة، حتى الرئيس التشادي إدريس ديبي من الزغاوة لكن موقف ديبي إيجابي، ورفض مطالب استقلال دارفور التي قال بها المتمردون في مؤتمر « أبشي» للوساطة وإيقاف إطلاق النار في سبتمبر ٢٠٠٣.

ويعلم ديبي أن الزغاوة قادرة على زلزلة الحدود التشادية -السودانية كما أن رفع مطلب تقرير المصير مزعج في منطقة مضطربة مثل تلك المنطقة، وما يجري في غرب السودان يؤثر على شرق تشاد فالحدود مفتوحة والدليل أن العطور الفرنسية «بماركاتها الشهيرة» تباع في أسواق «نيالا» بجنوب دارفور مهربة من تشاد فما بالك بالأسلحة الخفيفة والثقيلة .

الزغاوة رشحت نفسها لقيادة القبائل الأفريقية وأطلقت تمرداً يرفع شعارات التهميش والإقصاء، وأطاحت في أولى جولات الصراع بنحو ٧٢ ضحية في صراعها مع قبيلة أولاد زيد، وعدد ضحايا الصراع كلية من الحكومة والتمرد والمدنيين يحدده الدكتور مصطفى عثمان بحوالى ٥ آلاف بينهم ٤٨٦ من قوات الشرطة!

سؤال لماذا التمرد تجيب عليه حالة مطارات المنطقة، فمطار الجنينة «غرب دارفور» ذو مهابط ترابية وتحتار في تفسير كيفية الهبوط والإقلاع منه بسلام، ولكن الطيارين الروس مهرة في قيادة طائرات «الانتنوف» على تلك المهابط الرملية، وإلا لكانت رحلتنا للآخرة وليست لجنة الغرب .

لا أحد ينكر أن دارفور بعيدة، تبعد حوالى ١٥٠٠ كيلو متر عن العاصمة، وأن تذكرة الطائرة إلى الجنينة -غرب- تصل إلى ٨٠ دولارا، مقابل ٤٠ دولارا للأتوبيس و٢٠ دولارا للقطار الذي يتحرك مرتين في الأسبوع والسيارة تحتاج ليومين لتصل إلى هناك، ربما هذا أدى لعزلة الإقليم الذي ربما كان يتصل بأسوان في مصر أكثر مما يتصل بالخرطوم عبر درب الأربعين الذي تسير فيه قوافل الجمال أربعين يوماً وليلة من دارفور حتى دراو في أسوان .

تلقى دارفور تحية الصباح على دراو وليس على الخرطوم!!

رعاة ومزارعون

في دارفور الكبرى حسب - آخر تعداد - تعداد ١٩٩٣ م يعيش حوالى ٤,٧٤٦,٤٥٦ نسمة ينتمون لقبائل شتى كالفور ، البنى هلبة ، التنجر ، البرتى ، الهبانية، الزغاوة، الزيادية ، الرزيقات ، المساليت ، المعالية، التعايشة ، الميدوب ، البرقد ، المسيرية، العريقات، العطيفات ، الفلاتة ، القمر، بنى منصور ، التعالبة ، الدروق ، الصليحاب، الميما ، الترجم ، المراريت ، الهوارة والجوامعة ..

ويحترف معظم أهل دارفور الزراعة والرعى كحرفتين أساسيتين ، ويتحرك معظم المواطنين بحيواناتهم في أراض واسعة يتراوح مناخها من السافنا الغنية إلى المناخ الصحراوى ، وتبعاً لذلك تختلف درجات الغطاء النباتى ، وتتوافر المياه باختلاف فصول السنة مما يتحتم معه حركة الرعاة في المنطقة طلباً للكلأ والماء الأمر الذي يسبب احتكاكات ونزاعات بين القبائل التي تعتمد في معيشتها على الزراعة وتلك التي ترعى الماشية والأغنام والجمال ، لكن سرعان ما يتم احتواء هذه

الاحتكاكات أو الاشتباكات بواسطة أعيان القبائل المختلفة .

وكنتاج طبيعي للظروف الطبيعية التي اجتاحت المنطقة في الأعوام السابقة مثل الجفاف والتصحر فقد ظهرت خلافات ونزاعات بين القبائل التي تمارس الزراعة وتلك التي تحترف الرعي .. وقد كان من الإفرازات السلبية لهذه الظاهرة أن لجأ بعض الأفراد إلى تكوين عصابات النهب المسلح التي روعت دارفور بولاياتها الثلاث.

معظم قبائل المنطقة لها امتدادات طبيعية في الدول المجاورة لإقليم دارفور الكبرى ، وتكاد تكون الحدود الجغرافية السياسية بين هذا الأقليم ودولة تشاد وكذلك أفريقيا الوسطى شبه منعدمة ، وذلك بسبب التواصل الاجتماعي والتجاري ، والاختلاط الأسري للقبيلة الواحدة في دارفور ومثيلتها في تشاد أو أفريقيا الوسطى . ومن المؤكد أن هناك حراكاً سكانيا مستمراً في هذه المنطقة عبر مختلف الحقب التاريخية امتد من غرب افريقيا وإلى الشرق حتى الهضبة الأثيوبية.

أدت الانفلاتات الأمنية ، والاضطرابات السياسية في الدول المجاورة لإقليم دارفور عبر التاريخ إلى نزوح عدد كبير من قبائل تلك البلدان ، خاصة تشاد وأفريقيا الوسطي إلى إقليم دارفور ، وقد استقرت أغلب تلك القبائل بأرض الإقليم ، ساعد في ذلك التداخل الأسري واللغوي والتاريخ المشترك للمنطقة التي كانت مملكة واحدة فيما يسمى بالسودان القديم والذي يمتد من السنغال وغامبيا على المحيط الأطلسي إلى أثيوبيا في أقصى شرق القارة الأفريقية.



في رحلة البحث عن الأمان.. الجنجاويد أمامهم والتمرد من خلفهم والأمل في البقاء يدفعهم للابتسام رغم المحنة

ومن إفرازات النزاعات التشادية الداخلية منذ أوائل السبعينات ، وكذلك الحرب التشادية الليبية، فضلاً عن القتال الذي استمر في جنوب السودان لعقدين من الزمان انتشار الأسلحة بمختلف أنواعها وتكديسها لدى المواطنين في بيئة يصعب على الدولة والوجود الحكومي تعقبها ، وقد تفاقمت هذه المشكلة في الفترة الأخيرة عندما برز استخدام الأسلحة المتطورة بواسطة عصابات النهب المسلح التي أضحت تقلق مضاجع المواطنين .

وفي الحقب الماضية جرى عقد الكثير من مؤتمرات الصلح بين العديد من قبائل دارفور مثال ذلك :

قمر وزغاوة ، البرتي والميدوب، أولاد منصور وأولاد قايد (من قبيلة المهرية) ، الهرية وبني هلبة ، الرزيقات والمعاليا ، القمر والفلاتة، الزغاوة والميما.

غير أن هذه المؤتمرات لم تحقق الغايات المرجوة منها ، وتعود أسباب

ذلك لعدم إيصال التوصيات والقرارات إلى القواعد ، كما أن للطرف الثالث فى بعض الأحيان أهدافاً خفية (مثل دعم عصابات النهب المسلح ، وتجار السلاح) ، فضلاً عن أن الكثير من تلك التوصيات والقرارات تعثر أمر تنفيذها عبر مختلف العقود لأسباب مختلفة.

حركة قرنق

على صعيد آخر شهد إقليم دارفور الكبرى استقطاباً حاداً فى مختلف عهود الأنظمة الديمقراطية حيث مارست مختلف الأحزاب السياسية ، وبخاصة الحزبان الكبيران (الأمة والاتحادى)، استقطابا لأغراض حزبية اتسم بالطابع القبلى ، ومساندة قبيلة على حساب قبيلة أخرى ، الأمر الذى عرض تماسك النسيج الاجتماعى فى الإقليم إلى الضعف ، وأوجد مناخاً من عدم الثقة فيما بين قبائل الإقليم.

ومنذ بداية نشاط الحركة الشعبية فى جنوب السودان ، سعت الحركة إلى إيجاد موطئ قدم لها فى الإقليم عن طريق تجنيد بعض أفراد القبائل ، وتسليحهم ، خاصة قدامى المحاربين الذين كانوا يتبعون للفصائل التشادية وقد انقطعت بهم السبل مستفيدة من التداخل السياسى فى المنطقة ، وموقف النظام السياسى التشادى السابق «نظام حسين حبرى» الذى أراد أيضاً أن يخلق حاجزاً أمنياً لمنع المقاومة المعارضة لحكمه والتى أيضاً وجدت لها بعض المساحة فى مناطق دارفور بحكم التداخل القبلى والأمنى . وكانت أولى التدخلات الفعلية للحركة الشعبية قد بدأت فى أوائل التسعينات من القرن الماضى فيما سمى بحملة داؤود يحى بولاد فى مناطق دارفور التى تم وأدها فى مهدها .

ولقد واصلت الحركة الشعبية هذا الاستقطاب مع تطور الحرب فى جنوب البلاد ، وشمل ذلك الفترة الأخيرة التى تزامنت فيها تطورات الأوضاع فى دارفور مع مفاوضات السلام الجارية بكينيا وذلك بهدف ممارسة الضغط على الحكومة خاصة ما يتصل بشأن المناطق الثلاث المتنازع عليها .

على صعيد آخر ، تعرضت دارفور الكبرى ، وشمال الأقليم بوجه خاص إلى موجة الجفاف



المشهورة في سبعينات وثمانينات القرن الماضي والتي امتدت لأكثر من عقد من الزمان، ونجم عنها مجاعة في أكثر من موقع في الإقليم ، وأدت إلى حراك سكاني هائل من شمال الإقليم إلى جنوبه الذي يتمتع بموارد طبيعية أفضل بكثير من تلك التي تتوافر في إقليم الشمال . وكان من الافرازات السالبة لهذا الحراك السكاني قيام تنظيمات مسلحة متباينة الأهداف ، منها ما هدف للدفاع عن القبيلة ومصالحها والحفاظ على ممتلكاتها رعياً كان أم زراعة ، ومنها من وجد في عدم الاستقرار مناخاً ملائماً لتأسيس تنظيمات للنهب المسلح خدمة لمصالح ذاتية وفردية . ولقد وجدت هذه التنظيمات دعماً من بعض مثقفي الإقليم بالداخل والخارج الذين استغلوا هذه المتغيرات التي شهدها الإقليم مما أدى إلى نشأة عدد من التنظيمات ، وخدمة لأجندة وأطماع شخصية أو سياسية أو كليهما معاً .

العدالة والمساواة

المعارضة المسلحة في دارفور تتمثل في ثالوث من الحركات تشكل مثلثاً غير متساوي الاضلاع يطبق على دارفور من كل الاتجاهات ، الأولى حركة تحرير السودان « قطاع دارفور» وهي حركة ينتمي معظم أعضائها لفرع تورا من قبيلة الزغاوة ، وينحصر نشاط هذا التنظيم في مناطق دار زغاوة (أمبرو - كرنوي - أبو قمرة - الطينة) ، ويتزعمها المحامي عبدالواحد محمد نور من «الفور» وأمينها العام منى أركو مناوي من «الزغاوة» ، وهذه المجموعة بدأت بمطالب ذات طابع محلي دون أن تقرن ذلك بأية أبعاد أو مطالب سياسية ، غير أن هذا الوضع تغير بشكل فجائي في اتجاه معاكس تماماً في الآونة الأخيرة بسبب تدخل عناصر من حزب المؤتمر الشعبي (حزب الترابي) من بينها سليمان جاموس ، وأبو بكر حامد ووضعت قائمة شروط أبرزها قسمة السلطة والثروة على نسق مطالب حركة قرنق .

الثانية حركة العدالة والمساواة وهي فرع آخر من قبيلة الزغاوة ، وتسمى (زغاوة كوبي) ، وتوجد في مناطق كلبس، وجرجيرة وطنباية على الشريط الحدودي مع تشاد ، ويتزعمها د. خليل إبراهيم أحد رجال الترابي ويقال إن تلك الحركة هي الجناح العسكري لحزب المؤتمر الشعبي . ورغم أن هذه المجموعة بدأت كفئة تسعى لتحقيق التنمية المتوازنة لإقليم دارفور فإنها جنحت لأغراض وغايات سياسية في الآونة الأخيرة بتبنيها الواضح لأطروحات المؤتمر الشعبي ، كما نجحت هذه المجموعة في تحقيق تنسيق عسكري وسياسي مع المجموعة الأولى (حركة تحرير السودان) ودفعت بها لتأجيج القتال ، وترويع المواطنين ، وتعريض حياتهم وممتلكاتهم للخطر . كما تسببت هذه المجموعة في إفشال مفاوضات أنجمينا ومن بعدها مفاوضات اديس ابابا بطرحها لقضايا ومطالب لم تكن واردة أصلاً في اتفاق «أبشي» الإطاري الموقع بتاريخ ٣ سبتمبر ٢٠٠٣ م بين الحكومة وحركة تحرير السودان.

ثالثها الاتحادي الفيدرالي الديمقراطي وهو أحد الأحزاب السياسية في فترة الديمقراطية الثالثة ، وأسسه المهندس أحمد إبراهيم دريج الذي تقلد العديد من المناصب كان آخرها حاكم إقليم دارفور في أواخر عهد الرئيس الأسبق جعفر نميري . والمهندس أحمد إبراهيم دريج من أبناء قبيلة الفور ، وقد انضم بحزبه إلى التجمع الوطني الديمقراطي المعارض برئاسة مولانا محمد عثمان الميرغني غير أن تياراً من هذا الحزب قاده نائبه د.شريف حرير سلك نهجاً مغايراً وتبنى

حركة تحرير السودان وأصبح متحدثا باسمها فى كل المحافل الدولية .

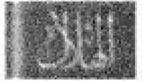
أبو شوك

ربما لايعلم الكثيرون من نازحي معسكر «السلام» فى محلية « أبو شوك» بالفاشر عاصمة ولاية شمال دارفور ما يجرى من فوق رؤوسهم ، أو يعلمون من هم قادة التمرد، كما أن نفراً قليلاً منهم الذى يعي الأزمة الحالية ، كما أن أحدا من ٤٢ ألف نازح يضمهم المعسكر لايعرف أن مجلس الأمن فى حالة إنعقاد مستمر ليناقش قضيتهم وانتهى لمنح حكومة الخرطوم ثلاثين يوما (مهلة أولى) لتفكيك أزمة دارفور، مؤكدا أنهم لايعرفون من تفاصيل أزمتهم التي أصبحت دولية سوى الخوف والرعب من شبح الجنجويد الذى سكن قلوب هؤلاء قبل أن يسكن قراهم التي يرفضون العودة إليها لأن الجنجويد هناك، يفضلون العيش هنا فى معسكرات النزوح لأنهم فى أمان .. ويشيرون دائما بالدعاء لبيض البشرة « الخواجات» الذين يعملون فى صفوف المنظمات الطوعية والإغاثية التي تستحث الخطى لتأمين المعونات الإنسانية والغذائية والطبية قبل الهطول الكثيف لأمطار الخريف .

ورغم أنهم فى أمان الحكومة ومعسكراتها التى نظمتها وتشرف على ادارتها «قواتها النظامية» فإنهم يعطونها ظهرهم ولا يتحدثون عنها أبدا بخير بل يكيلون لها الاتهامات باعتبارها راعية الجنجويد الذين حرقوا «الحلة» وسرقوا «الذهب» وقتلوا «الشباب» واغتصبوا «النساء» فى عرف هؤلاء الحكومة والجنجويد واحد ، ويطالبون بقوات دولية للحماية والمطلب الأخير على لسان النازح زكريا هارون عوض من «جبل سي» والذى ينتمى إلى قبيلة «ميماوى» إحدى القبائل الافريقية والذى فقد ثمانية من أفراد أسرته ، وجاء إلى المعسكر باكيا ليجلس تحت سقيفة – خيمة – مع عشرات من الرجال النازحين ، خرجوا عصر هذا اليوم إلى العراء للونسة فى الظل الذى ترطبه رياح الشمال هربا من جحيم الخيام التى احتوت فى قعورها الساخنة النساء اللاتي تفرغن لطبخ «الدخن» لسد جوع الأطفال.

هطول أمطار الخريف وحده مشكلة ومنظمات الإغاثة تستنجد بالمجتمع الدولى لإغاثة الموقف قبل أن تتقطع طرق المواصلات وتمتلىء الوديان ويصبح من العسير الحركة بين المعسكرات التى تحوى نحو المليون نازح منهم 231 ألفا فى ولاية شمال دارفور وحدها فى 7 معسكرات منها إثنان فى الفاشر ومثلها فى كتم ، وثلاثة فى محلية كبكابيه ، جميع من فيها من النازحين يرفضون العودة وإن عاد منهم حسب التقديرات الولائية فقط 7 آلاف وهو رقم ضئيل يؤكد أن العودة متعثرة بسبب رعب الجنجويد الذى يخشى منه هؤلاء .

فى الأسبوع الأول من مايو الماضى زرت معسكرات النزوح ثم عدت اليها فى الأسبوع الأول من أغسطس ، بفارق ثلاثة شهور كاملة مرت على دارفور وكأن شيئا لم يتغير ، نفس الخوف يسكن القرى التى خوت ونفس الشكوى ونفس القصص التى تبدو خيالية بعض الشيء ، وشفاهية دائما فعندما يتحدث زكريا هارون الميماوى عن الطائرات التى تطارد الافارقة من أعلى يبدو الأمر مثيرا للخيال، فأين هو هذا الطيار الذى يفرق بين العربي والافريقى فى دارفور من على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، وعندما يتحدث ابراهيم موسى عن إلقاء الأطفال فى آبار المياه دون ذنب أو جريرة ، تبدو الأمور فى حاجة للجان تقصى حقائق مثل التى تحركت من





الاتحاد الاوروبى فى الأسبوع الأول من أغسطس ويصبح من المستحسن موافقة الحكومة السودانية على السماح لمثل هذه اللجان بالخوض فى أدغال دارفور لأن ما يقال حسب والى ولاية شمال دارفور لايمت لدارفور بصلة ، ويضيف الوالى عثمان كبر فى حزن بالغ أن الذى اسمعه فى وسائل الإعلام الامريكية والاوروبية وحتى بعض الفضائيات العربية يؤكد أننى لا أعيش فى دارفور .. وهم الذين يقيمون هنا، إنهم يتكلمون عن دارفور أخرى غير التى أعرفها، ما يسردونه من فظائع وكوارث ومصائب تؤكد أنها ليست دارفور، يرسمون صورة قاتمة وموغلة فى القتامة، نعم هناك مشكلة فى دارفور وهناك نزوح ولكن ليس بالصورة التى يرسمونها.

الوالى يقول: إنهم يرفعون «قميص دارفور» ليغطوا على اخفاقهم فى مناطق أخرى ، وللتغطية على أهداف سياسية غير مرئية ، فى ظنهم أن عودة بوش إلى البيت الأبيض ستكون على حصان من دارفور ورائحة النفط الذى ينبعث من أرض دارفور تزكم الأنوف وبريق اليورانيوم يزغلل العيون ويتحد لن تكون كبش فداء لفضائحهم فى أبو غريب ولفشلهم فى الصومال والعراق !!

فور وتنجر

فاطمة وحليمة ، وكل النساء والاطفال يعيشون فى معسكر السلام بابى شوك ، ويبدو أنهن جميعا من حسنى الحظ فالمعسكر مازال بعيدا عن الأوبئة والأمراض ، ويؤكد مديره الفاتح عبد العزيز عبد النبى أن ٨٠ فى المائة من نازحي المعسكر البالغ عددهم ٤٢ ألف من النساء والأطفال جاءوا من مناطق كتم وكبكابية وكورنوى واويله . وجبل سى وينتمون لقبائل الفور والتنجر والبرتى وقليل من قبيلة الزغاوة ويقول: إن فى المعسكرات تمازجا وانسجاما كاملين وليس صحيحا أن القبيلة التى تعانى منها دارفور انتقلت إلى المعسكر.

النازحون فى المعسكر حسب ورقة أعدتها لجنة تشجيع العودة الطوعية للنازحين بولاية شمال دارفور جرى حصرهم وتصنيفهم وقدرت أعدادهم فى الولاية بحوالى ٣٠٠ الف نازح منهم ٦٩ ألفا

بمعسكر «ابو شوك» بمدينة الفاشر وحوالى ٦٢ ألفا بمعسكر «كساب» بمدينة كتم وحوالى ٢٥ ألفا بطويلة ومثلهم بمعسكر «زمزم» بالقرب من مدينة الفاشر وتتوزع البقية على معسكرات أخرى مثل كبكابية وسرف عمره ، ويتلقى هؤلاء خدمات جيدة وغوثا مباشرا بما فى ذلك الرعاية الصحية والتعليم فى ظروف الطوارئ.

خلاف هؤلاء هناك نازحون - على الطريقة السودانية - داخل المدن مع أقربائهم وهؤلاء تحركوا من مواقعهم والتحقوا بأهلهم فى المدن والقرى الأخرى الآمنة وتقاسموا معهم المكان والغذاء وهؤلاء لا يمكن حصرهم إلا ببذل جهد مضاعف من جانب الحكومة وعددهم قد يفوق - فى تقدير اللجنة - أعداد النازحين فى المعسكرات كثيرا.

أما اكثرية المتأثرين بالنزاع المسلح فقد ظلوا محاصرين فى مواقعهم وهذه الفئة الأخيرة تشمل القطاع الأكبر من المتأثرين بالحرب فى دارفور وهم فئة بقيت فى مواقعها فى ظروف إنسانية سيئة بسبب الحرب وانقطاع الطرق وانعدام الأمن وفوات خريف العام الماضى عليهم . ويبقى هؤلاء فى مواقعهم دون مؤونة ودون أمن ودون غوث من أحد

••

رواية شائعة يرويها أهل دارفور عن آخر ملوك الداجو الذى ركب «التيتل»، تقول الرواية: إن آخر ملوك «الداجو» كان ظالما باطشا غير رفيق بالرعية ، وأنه أمر شعبه بنقل جبل وضمه إلى بقية جبال الداجو وأن الناس قد ماتوا كثيرا جراء سقوط وانهيار الجبل عليهم ، ومن ظلمه أيضا أنه كان يخصى الرجال ويستأصل ذكورهم ، ويلغ به الغرور والعجب أن طلب من والدته أن تريه المخرج الذى أتى منه إلى الدنيا فهو شخص غير عادى ولابد أن يكون مخرجه الذى أتى منه إلى الدنيا كذلك غير عادى ومختلف عن مخارج الرجال الذين قهرهم .

غضبت الأم لذلك وتدبرت الحيلة مع الرعية وكبر عليها أن تكون هى سبب شقاء أمتها لإنجابها لذلك الطاغوت المستبد وجعلت أمر الخلاص منه كفارة لها من ميلاده ! ، ولما سألها للمرة الثانية وأعاد عليها طلبه ردت عليه أنه مازال كالعامة ولا يميزه عنهم شىء كثير، ذلك أنه مازال يمتطى ما يركبه العامة فطلب من أمه سبيل ذلك التمايز، فاقترحت عليه أن يلزم الرعية باحضار حيوان (التيتل) ليكون مركبه أبدا . فجىء بالتيتل سليما ملجما مسرجا واركبوه عليه بعد أن حزموه بسيور الجلد واوثقوا ربطه عليه ، فلكزوا الوحش وفكوا لجامه ، فانطلق لايلوى على شىء بين الأشجار والأدغال، والملك الأحمق يتمزق ويصيح فيزيد من جفول الوحش ، والداجو يتبعون الأثر تغمرهم الفرحة والابتهاج ، وكلما وجدوا قطعة من لباسه وجزءا من أشلائه وضعوا قرية واستقر جزء منهم هناك ، فتفرقوا هم أيضا لحمقهم ومحوا دولتهم بالتشتت .

رواية سمعتها فى سوق نيالا الرئيسى حيث تفوح من الحوانيت البدائية أرق العطور الفرنسية التى تهرب عبر الحدود التشادية إلى أسواق حاضرة ولاية جنوب دارفور ، رواها لى مرافقى العجوز وهو يصف تمرد دارفور بالحمق الذى يوازى حمق الملك راكب التيتل ، وحمق الحكومة فى معالجة الأزمة بالشكل الذى يجعلها مثل شعب التاجو مشتتة مبعثرة الجهد والصف فى مواجهة أزمة ستعصف بكل السودان من غربه حتى شرقه وإن سكن الجنوب مؤقتا . ■

لغويات

روى النضر بن شُميل المازني: دخلت يوما على المأمون في سمره، وعلىّ إزار مرقّع فقال لي: يا نضر، ما هذا التقشف؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ، وحر مدينة مرو كما ترى، فأحببت أن أتبرّد بهذه الخلقان (أى الملابس القديمة)

ثم جرى الحديث في ذكر النساء فقال المأمون: حدثنا هُشَيم بن بشير.. عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان في ذلك سَداد (بفتح السين) من عوز».

قلت: يا أمير المؤمنين، صدق هشيم. حدثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن الحسن بن علي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيّما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان في ذلك سِداد (بكسر السين) من عوز».

وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا ثم قال: يا نضر كيف قال هُشيم سَداد (بفتح السين)، ولم يقل سِداد (بكسرها) وما الفرق بينهما؟

قلت: يا أمير المؤمنين: السَّداد بفتح السين: القصد في الدين والسبيل، والسِّداد بالكسر من الثغر والثُّلمة، وكل ما سددت به شيئا فهو سداد

قال المأمون: وتعرف العرب ذلك؟

قلت: نعم، قال الشاعر:

أضاعوني، وأيّ فتى أضاعوا
لِيوم كريهــة وسِـــداد ثغــر

قال المأمون: قبّح الله اللحن. قلت: يا أمير المؤمنين إنه لحن هشيم، وكان هشيم لحانة، فاتبع الأمير لفظه، وقد تتبع أخبار العلماء.

•••

ولكن المادة اللغوية أوسع مما ورد في الحكاية. يقال: سدّ (بفتح السين) الشيء: استقام وأصاب، فهو سديد

وسدّ عليه باب الكلام: منعه منه وسدّد السهم إلى الصيد وجهه إليه. وسدّد صاحبه: علّمه وهداه. وسدّد ماله: أحسن العمل به. وسدّد عليه القول: نقضه.

والسَّداد: الاستقامة والقصد والصواب من القول والفعل.

والسّدّ: الحاجز بين الشيئين، والبناء في مجرى الماء ليحجزه.

والسِّداد (بكسر السين): ما سددت به خللا، يقال سداد القارورة لما يسد فمها. وسداد من عوز، ومن عيش لما يسد الحاجة.

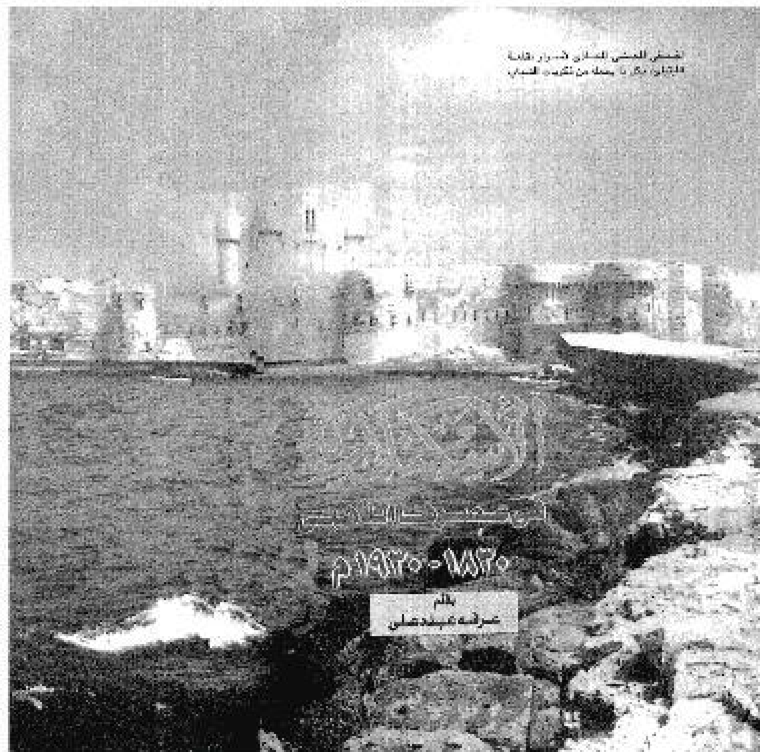
وأقر مجمع اللغة العربية ما ارتأته لجنة المصطلحات الطبية من:

السِّداد: جلطة دموية، أو كتلة من البكتريا أو جسم غريب آخر، يسد وعاء دمويا.

والسُّداد (بضم السين) داء يسد الأنف فيمنع دخول الهواء، وكل ما يسد مجرى في البدن.

والانسداد التاجي: انغلاق الشريان التاجي بجلطة دموية.

د. الطاهر أحمد مكي



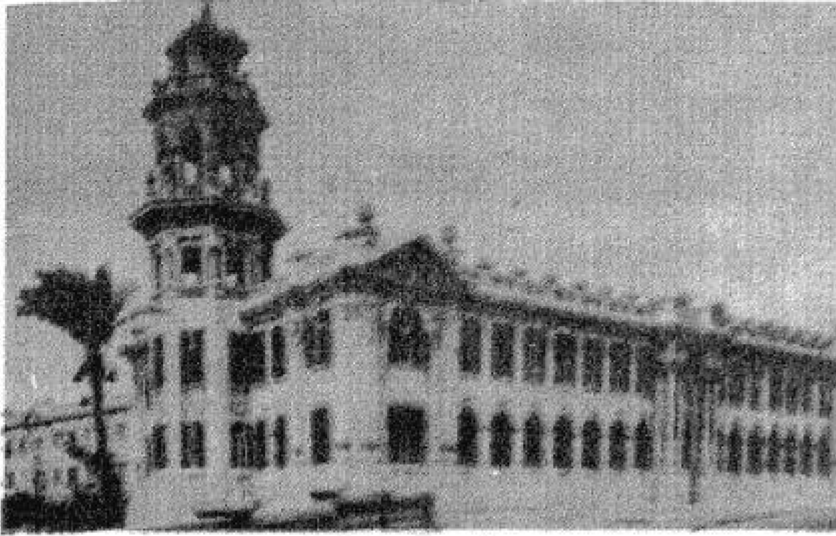
- مدينة ساحرة أجنبية ومصرية !
- رسمها كفافى وداريل ونجيب محفوظ

لكل مدينة شخصيتها وزمانها ... ولمدينتنا «الإسكندرية» أزمنة وشخصيات، إنها مدينة ذات هوية خاصة .. صنعت أزمنة، وصنعت حضارة، وفيها انصهرت ثقافات، وبداخلها تفاعلت حضارات .، وبقيت الإسكندرية !

الإسكندرية .. مدينة تختلف .. لأنها خلبت ألباب كل من أتى إليها سواء لقضاء بضعة ليال أو الذين لم يغادروها قط!

وكل من سعى للكتابة عنها، حاولوا أن تكون كتاباتهم شامخة .. تماماً مثل الإسكندرية وشواهد عزها القديم .





سراى رأس التين فى ١٨٩٨ م

ومن بين هؤلاء البروفيسور «روبير البير - Robert il-berta رئيس قسم التاريخ المعاصر للبحر المتوسط بجامعة بروفنس بفرنسا ومدير مركز الدراسات التاريخية المتوسطية المعاصر (CEHMC) يقدم لنا فى دراسته هذه «الإسكندرية ١٨٣٠ - ١٩٣٠ أسطورة المدينة المتوسطية» صوراً من التفاعلات الحضارية لمجتمع الإسكندرية .

- فى تلك الفترة الذهبية - ولم يجنح للخيال، بالرغم من جانبيته فى حديثه عن موطن الذكريات .. وما أعمق الشجن الذى ينبض فى كلماته الصادقة المعبرة عن نشوة ذكرياته .. وماض ساحر نسجته خيوط حلم رائع !..

يقول رزيير

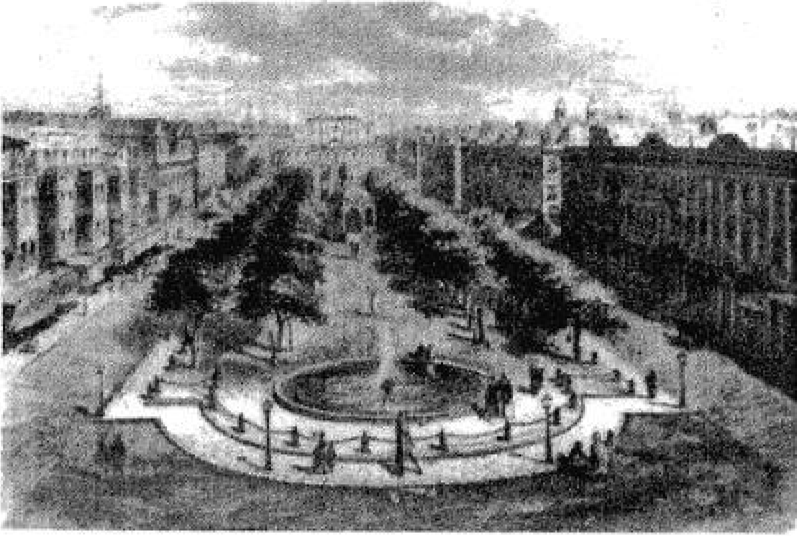
هى كذلك الإسكندرية مثل بعض مدن العالم النادرة، فلا يمكن أن نذهب إليها اليوم دون أن نتزود ببعض الذكريات

ودون أن تتفاعل بداخلنا أحلام العظمة القديمة .. التى تتولد من ذكر اسمها - وصور لميناء عالمى زاخر منذ عصر الشاعر اليونانى قنسطنطين كافافى (توفى ١٩٣٣) وحتى الكاتب المعاصر «نجيب محفوظ» دون أن تنسى ديريل DURRELL أو تسيركاس TSIRKAS(مؤلف قصة مدينة يجرفها التيار) الإسكندرية ، اسكندريتنا الحديثة، إنها المدينة ، توليفة لحظة ، مفارقات تلتقى فى تعبير واحد : مدينة متوسطية ...!

ولكن ماذا يعنى ذلك بالضبط؟ أغنية الحنين إلى الماضى .. الإسكندرية، فى نفس الوقت مدينة ساحرة ومناضلة، تاريخية وجديدة أجنبية ومصرية، حدودية ومدخل ..

وبتتبعها على مدار المائة عام من عظمتها ، من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٣٠، ربما نستطيع ، أو نحاول أن نلقى الضوء





ميدان المنشية (القناصل - محمد على باشا) فى ١٨٨٠ م

على هذه الفكرة المتوسطية، وربما نحاول أن نحاصر حدود الأحلام !

موطن التخيلات :

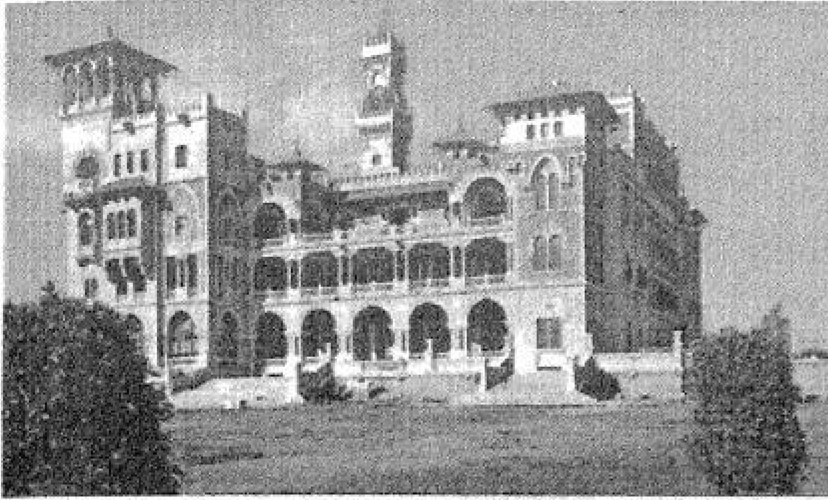
ولأن الأمر يتعلق بحلم ، أو بتخيلات، وأن المدينة تستسلم لنا ، أولاً من خلال صورها أو على الأقل، تلك الصور التي نقلها إلينا آخرون عن هذه المدينة ... بدءاً بالرحالة مروراً بالسائح حيث لايوجد ما يراه، إلا بعض الآثار المعزولة، ومتحف جميل، ولكن أيضا مدينة حيث يجب التوقف والتذوق ، تشعر فيها بشيء يذكرنا بمارسيليا أو بجنيس (Genes)بميناثها ولكن أيضا بهندستها المعمارية التي توحي بأن الإنسان قد قام بجولة فى حوض البحر الأبيض المتوسط

وفى نفس الوقت، توجد الأسواق، والشوارع القديمة المقسمة إلى طرق غير نافذة .. تعلن عن الشرق، هذه إذن مدينة ذات أصول عديدة، وشعبها ملون، وهى باب أغلق على الغرب وانفتح على الشرق .. ولكنها أيضا «لقاء»!

الإسكندرية الفريدة .. الزاخرة بالتاريخ .. مدينة المائة عام ١٨٣٠ - ١٩٣٠ التى استوعبت فى غضونها وأبدعت كل ما أنتجته عالمية المواطن وطريقة تفكيره العالمية الثقافية للإسكندرية كانت البوتقة التى تنصهر فيها أفكار وتوجهات التجمعات الأجنبية..

تتحدث فيها أربعة أو خمسة لغات وتصدر فيها صحف بالفرنسية أو بالإنجليزية وبالعربية وبالروسية وأيضا باليونانية، وبالإيطالية وتقريباً بالأرمنية وحتى باللادينو!

وتتم اللقاءات خاصة على أرصفة المقاهي، وفى محلات الحلوى، وأيضاً فى الكازينوهات أو على الشاطىء .. بلاج الرمل الأنيق .. هناك أيضا البلاجات الشعبية حيث تتساوى الطبقات، وحيث تستطيع أن تتخيل الألعاب «كاموس»



قصر المنتزه شيده الخديو عباس حلمي الثاني في ١٩٠٠ م، وكان مقرا صيفيا للملك فاروق

الشـبـاب المتـمـصـر، على الشـاطئ الأنفوشي.

وهـذه اللقـاءات تتـولد عنهـا لقـاءات أخـرى، وهـذه الصـورة تعكس ثقـافـة هؤلاء الذين يقـومـون بعـمليـة مـسح للمـدينـة، دليـل، أو قـصـائد شـعرية في مـتناول اليـد، وقـراء دليل «فـورسـتـر Forster» أصـبـحـوا يـسـتظلون كثيرين.

نجد فيها المدينة اليونانية تحت المدينة الحديثة والطريق الكانوبي، تحت شارع رشـيـد، والفنار تحت قلعـة «قـايتـبـاي» ونعـرف أن قـبـر الإسكندر تحت كنيـسـة النبي دانيـال ونعـرف منهـا الأسـوار العظيمة التي ترجع إلى العصر العربي .. وفي العصور الوسطى كان الرحالة الذين يتوقفون بالإسكندرية لايفوتهم الاستمتاع برؤية عمود بومبي .

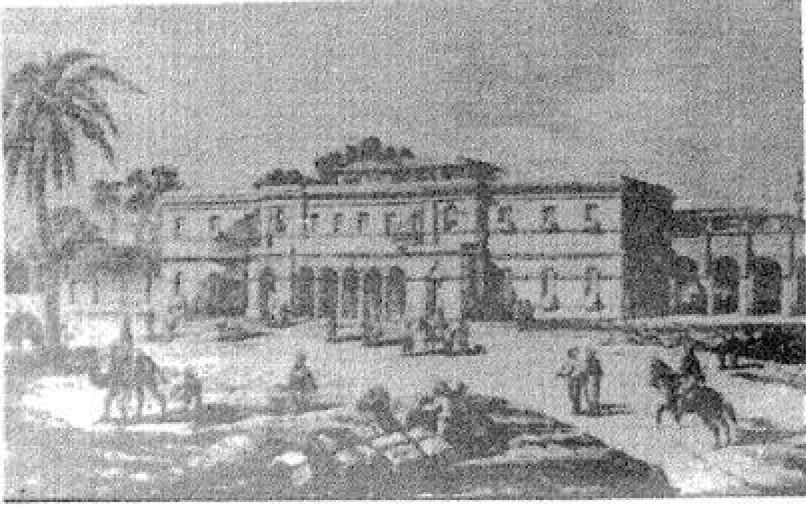
صورة الماضي

وصـورة هذا الماضي قـد اخـتـفـت، ونتناولها اليوم بحكايات نصفها حقيقي، ونصفها خيالي ..!

أنفاق المدينة ذات الخزانات الضـخمة .. سراديب الموتى المتعددة .. إذا كانت من الماضي اليوناني، فلم يبق شئ يذكر، فموطن الخيال لم يزل موجوداً فبأي شئ يزدهر ..؟!

كل ذلك خلق كـوكـبـة من النجوم المتألقة أو العابسة، حيث يسود الضوء تماماً .. لكن ذلك لم يكن اللون الأزرق ولا عرائس البحر المتوسط، لكنها سـمـاء خانقة تتسم بالحنين إلى الوطن، موقع هاجمته الرياح، رياح رواية نجيب محفوظ «مـيـرامـار» أو السطحـيـة المتـوغلة في قـصـيدة كافافي - Cavafy المدينة والتي يمكن أن تحـدثنا بـبـسـاطة عن الإسكندرية : ولن تجد بلاداً جديدة، ولن تكتشف شـواطئ جديدة . المدينة سوف تتبعك وسوف تزحف في نفس الشوارع وسـيـتـقـدم بك السن وأنت في نفس الأحياء، وسيشتعل رأسك شيباً وأنت في نفس المنازل!

اللون الأزرق في ذاكـرة هؤلاء الذين



محطة الإسكندرية القديمة في ١٨٥٦ م

رحلوا ولم يزل في كل مكان، الصيف في العجمي أو في سيدي بشر يظل مشبعاً بالحنين إلى الماضي .. استخدمه «نجيب محفوظ» كلوحة ديكور، تلاعب فيها بكلمات وطنية !

ينطلق هنا الفجور على القصور الخادع وتنزلق الرغبة من البحر تجاه المنازل المغلقة وتجاه الحارات، حيث يصحب الشاعر اليوناني الفتيان Ephabes الذين يؤنسون لياليه !.

هذه الكوكبة المتألقة من الصور تنسج خيوط حلم رائع .. ولكنها أيضا على شئ أخر، مهما يكن ما يشعر به ساكن المدينة الحالي، فهي تدل على وجود المدينة التي تفرض عليه بلا اكتراث .. المهم أننا نجد فيها كل ما يعمق التفاعلات الحضارية والاتجاه نحو المدينة الحديثة إذن هذا هو ما يجب أن نفهمه .. !

كيف تسنى لهذه المدينة أن تصبح رمزاً هكذا؟

كيف لهذه المدينة، والتي خلفت من حوالي قرن من الزمان تقريباً استطاعت أن تتزود بقلب يخفق بأجيال من الرجال والنساء، واستمرت في إحياء مركز ظل صامداً بكل إصرار وعزم ؟

المدينة الحديثة :

هذه المدينة، لأنها جديدة، لم يكتب عنها تاريخ حقيقي .. فلنذكر على الأقل أنه في عام ١٧٩٨ .. في نفس اللحظة التي استقرت فيها الفرق الفرنسية أمام الميناء، لم يكن المشهد العام يتجاوز ضيعات تكمن بين جزيرة فاروس (pharos) والتي أصبحا شبه جزيرة وأطلال الأسوار العربية، حيث لم يتبق سوى قرى معزولة في كوم الشقافة أو في باب رشيد .

ومع السبعة آلاف نسمة سكانها تركت ذكرى مريرة لجنود بونابرت: ضحايا الأسطورة الإغريقية وبعد مضى عدة سنوات، أعاد شمبليون الكرة فكتب قائلاً : «جميع الأوصاف التي يمكن أن تقرأها .. قد لاتعطي أي فكرة عنها، إنه

وجود حقيقى للنقائض ونجد أنفسنا فجأة فى عالم جديد .. ممرات ضيقة تحدها حوانيت صغيرة مزدحمة بالناس من كل لون ، وكلاب ضالة ، وإبل مربوطة ببعضها كالمسبحة وصيحات مبحوحة مختلطة بأصوات النساء، وأطفال نصف عرايا، وأتربة خانقة، ومن هنا، ومن هناك سيد أنيق هذا ما نسميه شارع من شوارع الإسكندرية !

الفضل لإسماعيل باشا ..

استطاعت المدينة الحديثة أن تشكل نفسها كتب «اكزافيه مارميه - xavierMarmier» أن كل ما يأخذ بالألباب فى الحياة الأوروبية تجده هنا .. بينما «ايبرس - Ebersa» أصابته الدهشة عندما شاهد بعض الإبل فى الإسكندرية !! وعند بلوغ حركة الإصلاح والتجميل ذروتها احتدم النقاش حول هوية المدينة وانتمائها؟ جدل قديم .. يذكر «لاتور - Latoura» أن الإسكندرية بالتأكيد ليست مدينة أوروبية، غير أن أهل القاهرة يأبون أن يروا فيها مدينة مصرية ..!

ويشهد جمال الإسكندرية وسحرها الخاص على أنها تضم مجتمعاً، ليس كمجتمع مصر الإسلامية، الذى تعد القاهرة «زهرة مدائنه»..

وإلى عهد إسماعيل «رجل قناة السويس والقروض التى أعطت للاحتلال الإنجليزى شرعيته» يعود الفضل فى البناء الحالى للمدينة وتحديثها حيث تم ترميم الأسوار القديمة وانتقل وسط المدينة على أطلال المدينة اليونانية البائدة، التى شيدت فى المنطقة المعروفة باسم «بيلوبونيز- pelopo-nesea»

الغرب، نحو القبارى والمكس، أنشئ ميناء كبير وفى الشرق، بدأ العمل فى إثنين من الأحياء الراقية: أولاً الرملة، ثم الإبراهيمية .

والسنوات التالية، لن تشهد إلا تخصيص مساحات للبناء ، خاصة فى كوم الشقافة، وغزو للشاطىء ، وتصنيع القبارى والمكس، حيث حل حجر صحى جديد محل القديم الذى أنشأه «كوست» فى الشرق.

هذه الحركة، كان لها آثرها بسرعة انجازها القصوى، وحجمها الكبير، ولامجال لشرحها هنا، ولكن من الواضح أن التطور لم يغير وجه المدينة فقط، لكنه أوجد مجالات جديدة للعمل، فى الواقع كانت الإسكندرية بالنسبة لمحمد على الواجهة البحرية لقوة غازية ومقراً لترسانته فوضع نصب عينيه ثلاث متطلبات :

- الميناء وتجديد وتقوية الحصون القديمة.
- الأجانب الذين استقبلوا كمحركات لعملية التحديث ومعهم حى الجنوب الشرقى .
- السلطة السياسية، ومعها رأس التين وقصر سعيد باشا فى القبارى .

ابان عملية التغيير الحضارى الشامل، وعلى وجه التحديد بداية من عام ١٨٦٠ انتقل تشييد القصور والفيلات نحو «سان ستيفانو» فى الشرق ثم «المنتزة» واتسع الميناء وسحب معه كل غرب المدينة .

وأصبح الحى العربى، أحد أحياء الميناء القديمة كميناء مرسيليا قبل الحرب العالمية الثانية!

أما بالنسبة للحى الأوروبى، فقد احتوى المظاهر المدنية الحديثة، مع بورصة القطن والكنائس وأيضاً المقاهى، ومحلات الحلوى، والمطاعم والفنادق والمسارح فى المقدمة مسرح «زيزينيا» ثم



شاطيء ستانلى باى فى ١٩٣٠ م

بعد ذلك دور السينما .

إذن فالأمر يتعلق بمدينة ذات طراز أوروبى، مع حلول بداية عام ١٩١٥، مدينة مصرية جعلت المصريين مجرد «ديكور» فحسب .. ! على الأقل ذلك الانفجار الذى حدث عام ١٨٨٢ عندما انهمرت قذائف القصف البريطانى وغضبة شعب حطم المحلات، وأحرق الفيلات !..

مدينة مستعمرة لاتريد أن ترى نفسها على ماهى عليه، ولكن الوضع العام يحدثنا عنها من حيث توزيع الكثافات مع ثلاثين إلى أربعين مالك فى الهكتار فى حى الميناء واثنين إلى ستة من الملاك نحو الجنوب الشرقى، فى الأحياء الراقية .

ولا غرو أن كان هناك تباين فى الطرز المعمارية المختلفة للمساكن، من المنازل التركية بالأنفوشى إلى العمارات الأوروبية التابعة الشركة «لوبون» وشارع رشيد، أو المساحات الصغيرة التى خصصت لصغار الموظفين والعمال الأرمن بكوم الشقافة ويوجد أيضا تعارضات فى تخطيط المدينة، خاصة بالنسبة للحارات، والطرقات الواسعة التى حددتها لجنة الأراضى بالمجلس البلدى مع ما تم تخطيطه وتحديده من الأوقاف !..

العصر الذهبى :

نشأ تضاد بين المدينة، والمساجد والمقاهى كالتضاد بين الجلبات والجاكت/وهذا التباين أو التضاد كان واضحاً بين الطوائف العرقية : حى عربى «نيجرو» كما كتب دبريل، وحى أرمنى، وحى يونانى، الخ .. فضلا عن ذلك وبالرغم من هذه الأمور المتضادة يمكننا أن نحدد «العصر الذهبى» للمدينة الحديثة أو أوج عظمتها ما بين عام ١٨٣٠ - ١٩٣٠ أكثر تحديداً ما بين طموحات محمد على والسنوات ستة وثلاثون وسبعة وثلاثون (المعاهدة الإنجليزية - المصرية واتفاقية مونترو) أى ما بين الانفتاح الأول على أوروبا ونهاية الامتيازات الأجنبية !

الأجانب اسهموا في تطور المدينة وجعلوا منها مدينة متوسطية . ومع التسليم بأنهم أجانب، لاتربطهم بأوطانهم إلا روابط شكلية، فهم أيضاً، قد شيدوا بمصر صناعات حقيقية، لم تتوقف انشطتهم سواء في مجال تجارة الميناء، أو في بورصة القطن، فمن جهة، قد أقاموا مجتمعات صناعية مهمة، مثل صناعة الدباغة والمطابع، وشركات البناء، ومن جهة أخرى فقد استثمروا جزءاً كبيراً من ثرواتهم في هذا المجال، حيث قامت حركة أعمال غاية في النشاط في مجال البناء أكثر منها في مجال التجارة

المؤكد أن الإسكندرية قدمت الخدمات الأساسية بشبكة من التجار الذين يعملون في مختلف القرى المصرية، ولكن السوق الذي كانت تقدمه المدينة كان في حد ذاته كبير الأهمية.

إذن مدينة مستعمرة بكل تأكيد ولكن لا نستطيع بصورة كاريكاتورية أن نقول ذلك فالمصائر الفردية ترتكز على المصير الجماعي !

المجلس البلدي المدهش !

لكنها أيضا مدينة ، بالمعنى الحقيقي للكلمة، بمجلسها البلدي «المدهش» حيث لا تستطيع أي جنسية أن تحصل على أكثر من ثلاثة مقاعد يمثلونها والذي يؤكد سلطة حقيقية منتخبة تسوس المدينة في أدق التفصيلات، وتلك هي الظاهرة التي - بدون شك - تفرد بها والتي تسمح بأن تجعل الإسكندرية مختلفة عن أي مجتمع مصري - بشخصيتها المتميزة. وأكثر من ذلك أنه في هذه البوتقة تم تحضير ثقافة صنعت من إلتقاء اللغات والأديان .

هنا تكمن أصالة الإسكندرية وعراقتها وذلك بكل بساطة لم يكن نتيجة لعالمية الفكر والمواطن بل أعمق من ذلك بكثير !

ومن شارع فرنسا، حتى سوق العطارين ومن الغرب إلى الشرق ومن المكس إلى الرملة أشكال للاتصالات .. حتى لو لم يستطع الجلباب أن يتجاوز مكانه المفضل!

إذن فهو التحضر، دون أن نبلغ تحقيق التوفيق بين المذاهب هذا المبدأ المثالي الذي طالما كان حلم القرن الثاني : «الانتقائية Ecigctismeå†»بكل ما تحتويه الكلمة من معان من هذا ما تحدثنا عنه فنون العمارة المتألقة حتى أنك لتجد فيها ذوق رفيع .. شاليهات الرمل ذات الأسقف المنحدرة وبنك دي روما، الذي بناه الإيطالي «جورا» على طراز قصر «فارنيز» وحتى قصر «موريسك» للأمير إبراهيم أو الكنيسة «الرومانية» التي تخص الطائفة الكاثوليكية الرومانية، وكانت من طراز فوضوي إلا أنها تعطي للنظرة الإيطالية أو الفرنسية شعوراً بالوحدة.

إذن فهي وحدة تتجاوز المتناقضات، فنحن أبعد ما يكون عن المدينة الاستعمارية و«التمييزية» حسب فكر «ليوتي» أو «بروست» مبتعدين أيضاً عن بورجوازية البورصة والقطن بعداً تاماً عما أرادوا أن يصفوه !

هؤلاء اليونانيون والإيطاليون والشرقيون(باستثناء الفرنسيين والنمساويين ونادراً جداً الإنجليز) قد إنصهروا في طائفة واحدة بالإضافة إلى السوريين واللبنانيين، واليهود من الرعايا المحليين، الذين إجبروا على الهجرة فيما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦١م.

وقد أدى ذلك أيضا إلى تشكيل القوى في مصر الحديثة ، فالحزب الشيوعي المصري لم يتسن له الميلاد إلا هنا . ومصيره الممزق والمحطم، هو صورة مما آل إليه كثير من جوانب هذا



مبنى «البورصة»، أشهر معالم الإسكندرية والذى هدم بعد مائة عام على إنشائه فى ١٨٧٧ !! وهو الذى أعلن منه عبد الناصر تأميم قناة السويس في ١٩٥٦ م

المجتمع !

من عبد الله النديم إلي جمال عبد الناصر :

من الإسكندرية خرج عبد الله النديم، خطيب الثورة العرابية، ومنها أيضا خرج جمال عبد الناصر وسيد درويش وسيف أدهم وانلي والعشرات من أعلام الفكر والفن .. ويرى البعض أنها لم تتوائم مع مصر .. لكنها فقط تواءمت مع البحر ..!

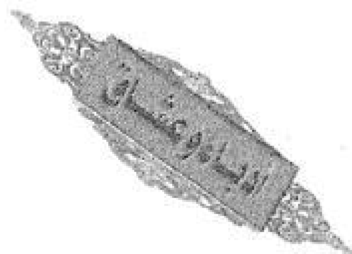
فى السنوات التى أعقبت عام ١٩٣٠ اتجهت المدينة نحو الانغلاق على نفسها وهى التى تأثرت كثيراً بالعادات والتقاليد الأوروبية كانت تجهل تصاعد المخاطر، وتخفى حذرها فى مواجهة انتهاء الامتيازات الأجنبية التى أعلنت إلغاء المحاكم المختلطة عام ١٩٤٠ م.

حينئذ رفضت الطائفة اليهودية – وهى أيضاً كان لها أثر فى تشكيل الإسكندرية – أن تضع فى حسابها أن مصيرها قد انتهى !

من الإسكندرية، أعلن عبد الناصر تامين، قناة السويس، قد يكون «سخرية من التاريخ» ..! ومن الإسكندرية أيضاً تابع وضع «الأموال الأوروبية» تحت الحراسة وأصبح الأمر يتعلق بإغلاق الباب وإعادة الميناء إلى البلد، وقطعه عن البحر!!

وإذا كان جمالها يحدثنا عن مرسيليا أو عن جينيس – Genes† فذلك بدون شك – لأن المدينة المتوسطية لم تكن تماماً مسألة فن بناء، إنها مسألة اجتماعية، واقتصادية وسياسية .. إنها زمن انقضى من التاريخ ..!

*Le Miroir Egyptien "L' imagineire Createur D'Histoire L'Egypte de pharaon au Saint Simonisme "Marseille,Robert ilbert:" Alexandrie1830-1930 Le Mythe de la ville Mediterraneenne." ■



الصداقة العاشقة

بين لطفى جمعة.. وأوجستا دامانسكى

بقلم
أحمد حسين الطماوى

بين الصداقة والعشق تعادل أو شبه تعادل، فإذا كان العشق انفعالا غلابا، فإن الصداقة توازن نفسى، والصداقة بين الرجل والمرأة ودادة مشرقة وديعة، فإذا قويت واتسعت، وحفلت بالمغريات مع طول الصداقة وكثيرا مايحدث هذا، صارت هوى مستعرا. والشاب بطبعه لا يطيق العيش فى الهدوء الدائم، والجو الساكن البارد، وإنما تدفعه أهواؤه إلى السباحة فى البحر الهادر الموّاج، وإن تاق يوما إلى جدول هادىء الخرير.

والصداقة العاشقة، التى عرف بها جمعة علاقته بأوجستا تعنى الجمع بين الهوى المشبوب المستعر، والوداد الهادىء، وأعتقد أن هذا ما كان بين الصديقين العاشقين أوجستا وجمعة، فساعة للقلب وساعة للعقل.

وقد عالج الكتّاب قصص الحب العربية قديما وحديثا، ولكنهم لم يولوا نفس العناية لقصص الحب العربية الأجنبية، التى أحب فيها عربى أجنبية.

والواقع أن أدباء كبارا خالطوا أجنبيات، ونشأت بينهم وبينهن قصص حب بعضها كلل بالنجاح والزواج، وبعضها الآخر من نوع الحب الحر الذى دام فترة وتوقف



رجب ١٤٢٥هـ - سبتمبر ٢٠٠٤م



يرد على خاطرى فى هذا المقام حب جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) لمارى هاسكل التى كان يصفها بأنها «خارقة البنيان» إلى جانب ميشلين، وغرام ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) بروسية أو بالأحرى أوكرانية تدعى «فاريا»، وبأمريكيتين هما «بيلا» و«نونيا»، وعلى بك كامل فهمى الذى عشق فرنسية «مرجريت» وتزوجها ثم أطلقت عليه الرصاص، وحوكمت، وحصلت على البراءة مما أثار الصحافة المصرية، ود. صبرى السربونى (١٨٩٤ - ١٩٧٨) الذى تصبى سوزان جيرار واقترن بها، وانجب منها، ثم انفصل عنها، والشاعر عبدالرحمن صدقى (١٨٩٦ - ١٩٧٣) الذى استمال إيطالية وتزوجها، ولما فارقت الحياة رثاها بديوان شعر «من وحى المرأة»، ثم استمالته «إلتى» الايطالية وتزوجته ومات فى حياتها.. وغير ذلك كثير. ونضيف إلى هؤلاء محمد لطفى جمعة (١٨٨٦ - ١٩٥٣) الكاتب الموسوعى الذى تبادل الحب أو ما سماه «الصداقة العاشقة» مع الأديبة الروسية «أوجستادامانسكى فيليبوفنا» والتى ساهمت مساهمة فعالة

لطفى جمعة

أوجستا دامانسكى

في تكوينه الثقافي عندما كان يتلقى العلم في فرنسا .

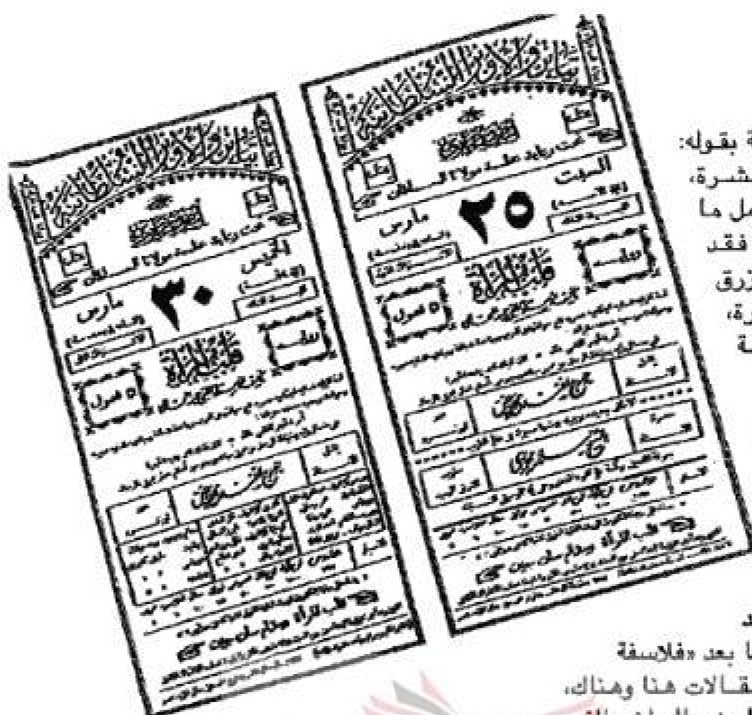
بين الأديب المصري والكاتبة الروسية

كان لطفي جمعة منضما إلى الحركة الوطنية، ومن شبيبة مصطفى كامل ، ومن أعوان محمد فريد في أوروبا، ومن تلاميذ الشيخ محمد عبده، وكان قد التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في العام الدراسي ١٩٠٨ وهو العام الذي فارق فيه مصطفى كامل الحياة، وبهذه المناسبة أقيم في مدرسة الحقوق حفل تأبين للزعيم، ألقى فيه لطفي جمعة خطبة أشاد فيها بمصطفى كامل وحمل على المحتلين، فرفته المستر «هيل» ناظر مدرسة الحقوق، فشد الرحال إلى فرنسا حيث التحق بكلية حقوق جامعة «ليون» .

لم يكن «جمعة»، عندما سافر إلى فرنسا، تلميذا فحسب ، وإنما كان صحفيا يكتب في «اللواء» وفي مجلة «القبس» التي كان يصدرها : محمد كرد علي وإلى جانب ذلك كان قاصا أصدر مجموعة قصصية هي «في بيوت الناس» سنة ١٩٠٤، وروائيا أصدر رواية «في وادي الهموم» ١٩٠٥ ومازالا موضع اهتمام الدارسين لفني القصة والرواية، عدا جهوده في مجال الترجمة إذ ترجم «تحرير مصر» عام ١٩٠٦ وعدة روايات في سلسلة «روايات الشعب» . مما يبين أنه كانت لديه حصيلة ثقافية قبل الذهاب إلى أوروبا، وهذه الحصيلة مهدت له سبل الثقافة الرفيعة في الفنون والآداب والعلوم النظرية .

وانتظم جمعة في دراسة القانون بليون، واستطاع أن يحيط بالفرنسية، ونظرا لقرب سويسرا من ليون فقد سافر إلى مدينة لوزان السويسرية للراحة والسياحة في صيف عام ١٩٠٨، ونزل في أحد بنسيوناتها ، وشاءت الأقدار أن يتعرف على السيدة أوجستا والتي دعته إلى زيارتها في الفندق الذي تحل فيه، ولبى الدعوة، وأحسنت استقباله، وحدثته في التاريخ والأدب والسياسة وتولستوي والفن، وقد بهرته ثقافتها المتنوعة والعميقة، وتفتحت عواطفه لجمالها، ويبدو أن كلا منهما تأثر بالآخر يقول إنها «تبطن الحب والولع، وأخذت تتلوى في وحدة الليل وضوء القمر..» إلى أن قال إن «شعور المرأة كان فيها قويا مبادرا ملبيا، وكفاها أن تراني فترة قصيرة.. حتى شغلت بي وتلمستني وتسأل عني..» أما شعوره هو نحوها فلم يكن أقل من ذلك يقول: «حصل لي من الانفعال ما يحصل لكل شاب يخلو بإمرأة شابة جميلة ذكية محروما من مثل تلك الخلوة..» . ويفهم من هذا الكلام أن نظر كل منهما إنسرح في الآخر، وصبا إليه، فلا جرم أن تداخلت مشاعرهما، وتراكبت أحاسيسهما، وكان يمكن أن تتنامى هذه المشاعر، ويدوم الوصال، ويتحقق النوال، لولا أنه التبس على أوجستا كلمة فاه بها جمعة، وردت عليه بما أغضبه، فأنهى اللقاء، وبارح المكان دون أن يبرم معها اتفاقا على لقاء قريب أو بعيد، وافترقا وكأنه لم يسمر أحدهما للآخر .

كانت أوجستا سيدة روسية من مدينة «مويلف» منفصلة عن زوجها، وتقيم مع طفلها في بنسيونات سويسرا، وتعمل بالترجمة نظرا لأنها تجيد عدة لغات منها البولونية والألمانية والفرنسية والايطالية، وتراسل بعض الصحف في روسيا مثل البرافدا وجازيت البورصة، وكانت تكبر جمعة بنحو ثماني سنوات،



إعلان عن بدء عرض رواية «قلب امرأة» لجورج أبيض وسلامة حجازي

وقد وصفها جمعة بقوله: «كانت بيضاء البشرة، جميلة العينين، وأجمل ما في عينيها لونهما فقد كانتا كالمخمل الأزرق الضارب إلى الخضرة، ولها جلسة خاصة ورغبة في الفتنة».

عطاء ثقافي

فارق جمعة السيدة، واتجه إلى باريس، وتنقل في مدن أخرى، وجد في القراءة، وأخذ يعد لكتابه الذي ظهر فيما بعد «فلاسفة الاسلام» وكتب مقالات هنا وهناك، وشارك في مؤتمر الحزب الوطني الذي عقد في جنيف عام ١٩٠٩، وغابت صاحبته عن ذهنه، ولكن الله «يجمع بين الشتيتين» بعد أقل من عامين ففي مارس ١٩١٠ ذهب إلى جنيف للنزهة، ونزل في بنسيون راسين في ضاحية بيتي لانسي الذي كانت تنزل به أوجستا، وهي مصادفة، فالتقيا وتعاتبا، واعتذرت له، وزكت مشاعرهما، وجادت شفاههما بما في نفسيهما من حب، ونهضت بعد استقباله لتعزف له على البيانو قطعاً موسيقية لتشايكوفسكي وديبوسي، وهل السرور عليهما، وتواصلت منذ ١٩ مارس ١٩١٠ اللقاءات بينهما.

وقد عثر فيها جمعة على الكنز الثقافي الذي يشتمل على جواهر الفنون والعلوم والآداب وأفاد من مواهبها ومعارفها وخبراتها. ومن هذا ما كانت تقرؤه له من مؤلفات رامبو والفونس دوديه وفلوبير وهرفيو وأميل فاجيه ورينان، وتحثه على قراءة مسرحيات فولتير وقصصه، ومؤلفات جان جاك روسو، وفيما بعد كتب عن «رامبو» و«رسو». وعرفته بالأدب الروسي وتاريخه وبالأدباء الروس مثل تشيكوف وأندرييف، وتطيل معه الحديث عن تولستوي، وتحضر الكتب إليه وتشوقه قبل القراءة بتلخيصها ليكون على بينة منها فقد «كانت راسخة القدم في الآداب الأوروبية عامة، وتتعقب النقد الأدبي في الكتب والمجلات» على حد قوله.

بل كانت تهديه الكتب مثل كتاب «مرجكوفسكي» في تاريخ النهضة الايطالية(رينسنس)، وتصحبه إلى المتاحف ومعارض الرسم، والمكتبات الكبيرة، وإلى بيت الشعب في سويسرا

ليستمع إلى خطب ومحاضرات جان درويس أستاذ الأدب في السربون، وسباستيان الذي يشبه خطباء اليونان والرومان القدامى، وأرشدته إلى قراءة مجلة «مركوردي فرانس» يقول: «لم أكن سمعت بها ولا قرأتها فكان اهتدائي إليها ظفرا لي ومصدر معرفة واسعة بالأدب والفنون الجميلة» وفيما بعد استطاع أن ينشر مقالا فيها.

ويتواصل عطاء السيدة فتنبهه إلى أهمية علم الفلكلور، وفيما بعد كتب عدداً من المقالات عن النكت والخرافة والسحر والتمائم..، وجد حتى وضع معجما في لغة الطوائف السرية، أو ما يعرف بيننا باسم «السيم» أو «اللحن». وقد جمعت هذه الكتابات فيما بعد، وصدرت في كتاب عنوانه «مباحث في الفلكلور» ١٩٩٨ ولم تقتصر جهودها على ذلك فحسب، وإنما حملته إلى كازينو الكورسال ليشهد رقص ايزيدورا دنكان التي يمثل رقصها «شعر الحركة الانسانية» على حد قول أوجستا وقد دون جمعة دراسة عن راقصة البالية دنكان. وكانت تحثه على الذهاب إلى بايروت بألمانيا ليشهد ويسمع أوبرات فاجنر.

وكانت السيدة تترك إبنها في سويسرا لمربيته، وتذهب إلى جمعة في ليون وتقيم معه فترة الامتحان لتلخص له الكتب القانونية حتى يسهل عليه استيعابها.

الأمير لمكيافيللي

ولا يمكن أن استعرض كل ما أعطته أوجستا لجمعة من فكر وفن وعلم، ولكن أقف عند ترجمته لكتاب «الأمير» لمكيافيللي، فقد ذهب جمعة إلى أنه نقله عن الايطالية، بمساعدة من أوجستا، وقد كان جمعة ملما بالايطالية، ولكن لا أعتقد أنه يتقنها إلى درجة أن يترجم عنها كتابا مثل «الأمير» وأدلتي كثيرة، منها أن إشاراته في كتاباته إلى الأدب الايطالي نادرة، وليست مثل إشاراته إلى الأدبين الفرنسي والانجليزي اللذين كان يعرف لغتيهما حق المعرفة، وليس من المعقول أن يتعلم جمعة الايطالية ليطلع فيها على كتاب واحد أو كتابين ، ومنها أنه يقول في «تذكار الصبا ص ٢٨٨ وذهبنا (أي جمعة وأوجستا) إلى المكتبة العامة بفلورنسا فاعانتني على قراءة القوائم كتالوج، وأخرجنا منها الكتب الخاصة ببحوثنا وأهمها عن النهضة» فلو كان يعرف الايطالية حقا لما عاونته في قراءة قائمة أو كتالوج ، وهناك أدلة أخرى. والراجح أن السيدة أوجستا قامت بالجهد الأكبر في ترجمة الأمير وتقريب معانيه إلى الفرنسية، وعن فرنسيتها نقله إلى العربية، أو قابلت النص الايطالي على الترجمة الفرنسية، ولم ينكر جمعة جهودها، وإنما أهدى ترجمته لكتاب الأمير إليها اعترافا بفضلها .

وفي صيف سنة ١٩١٠ حصل جمعة على شهادة الليسانس، ورأى أن يصطحب بهذه المناسبة أوجستا إلى شمال ايطاليا للاستمتاع بروائع الفن، وقد أمضيا شهرا شاهدا خلاله ما أبدعه الراسم والنحات في الشوارع والكنائس والمتاحف والمعارض وزارا القصور العتيقة، وبيت مكيافيللي، وبينما هما في هذه النشوة وصلت إلى جمعة برقية تفيد ضرورة قدومه إلى باريس للإعداد لمؤتمر الحزب الوطني، ولم يجد بدا من تلبية نداء الوطنية، أما أوجستا فقد غضبت وفهمت أن البرقية مفتعلة ومدبرة

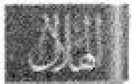
ليتخلص منها، وأثناء العودة ألقت بنفسها بين فوارق عربات القطار لتنتحر، فأمسك بها ، وكاد يسقط معها لولا لطف من الله، وانتهى الأمر بأن أوصلها إلى لوزان بسويسرا. واستأنف هو سفره إلى باريس .

القطيعة

وعند هذه النقطة يمسك جمعة عن الكلام في «تذكار الصبا» دون أن يتم قصته مع صاحبته، وقد بحثت في الدوريات القديمة لأقف على شئ يكون جمعة كتبه لإتمام حكايته، وأخيرا وقفت على نحو أربعين رسالة نشرها جمعة في «البلاغ الأسبوعي» ١٩٣٠ و«مجلة الرابطة العربية» ١٩٣٩، ولم يكن ابنه رابح يعلم عنها شيئا باستثناء واحدة، ويزعم جمعة أن هذه الرسائل من أديبة روسية تدعي أوجستا بعثت بها إلى عشيقها لدوفسكي أولدفيج، ولدفيج هو أقرب الأسماء الأوروبية إلى لطفي، وتحكي هذه الرسائل قصة الحب كاملة بين جمعة وصاحبته، وكنت أعتقد أنها خطابات حقيقية مترجمة، والراجح أنها مستوحاة من رسائلها ومن علاقته بها، والحاصل أن جمعة جاء إلى مصر في نهاية سنة ١٩١٠، وتبادل الود مع أوجستا عبر رسائل، وأن المعشوقة حضرت إلى مصر في مطالع سنة ١٩١١ وأقامت مع صاحبها في «منشية الصدر» خمسة أشهر، ثم غادرت مصر وهي محنقة غاضبة، لأن خالة جمعة جاءت إليه من طنطا ووبخته على تمسكه بهذه المرأة، ولا ندري شيئا عن طبيعة العلاقة بين الحبيبين، ففي مسرحية «قلب المرأة» يقول لورنزو (جمعة) لويلف (أوجستا) : أنك قرينتي مدى الدهر.. واجعلي أمره سرا» والزواج إشهار ومراسيم وليس كلاما فضفاضا، ولا توجد أوراق تفيد الزواج أو الطلاق، وفي «تذكار الصبا» يقول لها ص ١٩٠ «نحن لسنا مرتبطين بالرباط المقدس» .

ويبدو أن أوجستا كانت تزمع الزواج من صاحبها وهو ما لم توفق إليه في مصر، وأرسلت إليه تعاتبه، وتخبره أنها كسرت في مصر، وبأنه ضحى بها ليرضي خالته، وكان من الصعب البناء على هذه النتيجة المخيبة لآمالها، ومما أضعف العلاقة بينهما انصراف جمعة إلى التدريب على المحاماة، وإعداد كتبه المؤلفة، والمترجمة للنشر، ففي سنة ١٩١٢ صدرت له كتب «حكم نابليون» «ليالي الروح الحائر» «الحكمة الشرقية» «الأمير» والكتابة في مجلات مثل «البيان» و«الزهور» . ولا شك أن المجد الأدبي شغله عن الحبيبة، فأرسلت إليه تشكو الوحدة والبرودة والألم، وتستحثه على الذهاب إليها، وطال الزمن دون لقاء يجدد العواطف، فجاءت رسائلها تقول له في صراحة: «إن ما كان في نفسي فيما مضى نحوك ذهب، فاتق ألم الاجتماع بي، وقني حسرة اللقاء بعد فوات الحب.. إنسني بغير ضغن ولا حقد ، ولا تسع في مقابلتي فلا نفع من اللقاء بعد السلوان» بل تخبره بأنها عرفت غيره ولا خير له فيها، وويل للرجل من امرأة سلت حبه .

وكان على جمعة أن يعمل بنصحها، ويطوي صفحتها، ولكن العاشق في حالة الحب العارم، والغيرة الشديدة لا يستمع إلى نصيحة أو مشورة، فغافل نفسه في صيف ١٩١٢ وذهب إلى زيارتها في «فيفي» بسويسرا، ولقيته في بهو المنزل متذمرة ساخطة مؤنبة له على مجيئه، واستفزه نفورها منه، وتمالك نفسه



وحاول أن يسترضيها فلم ترض، وأعطته ظهرها، ودلفت إلى حجرتها، فغامت نفسه في غياهب يأسه وترك المكان وهو شارد النظرة، ولم يرها بعد ذلك أبداً .

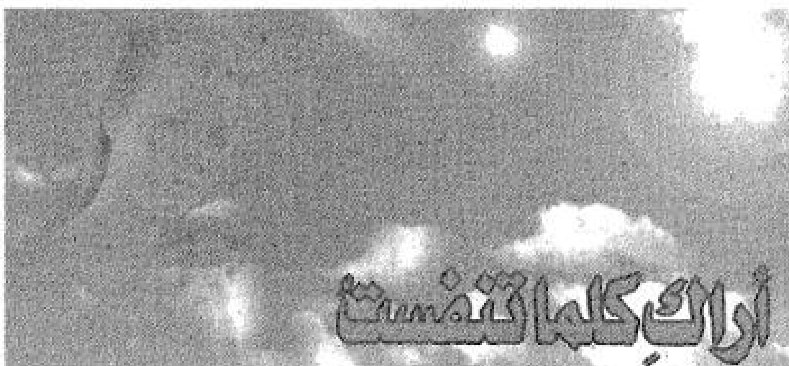
قلب المرأة

وقد ترك فيه هذا الموقف كدرا، وملأه حقداً عليها ، ولم يستطع أن يميز بين ماله ومالها، أو يحد من كراهيته لها، وجاهد نفسه وهو في غمرة الألم والغضب لعله يطبب قلبه، وأخيرا وجد في الفن متنفسا لتفريغ أزمته النفسية، فكتب عنها مسرحية «قلب المرأة» وصورها في صورة بشعة، وجعلها ! امرأة عاهرة ماكرة متلونة، يتقلب قلبها، ويتحول إحساسها من عشيق إلى آخر لأتفه الأسباب، وفي كل هذا يردد شجو قلبه، وجلال إحساسه بكرب اجتاحه. والمسرحية نفسية تحلل العواطف، وتستبطن المشاعر، وتتناول الشك والغيرة، والمؤلف ينظر فيها إلى المرأة ببغض ، ويصور عيوبها الأخلاقية ونقائصها، ويطلعنا على نواحي ضعفها، وينتقدها بكلمات مباشرة، وهو لا يعمل على إمتاعنا بمشاهد روايته وإنما يحذرنا من قلب المرأة .

وقد مثلت فرقة الشيخ سلامة حجازي وجورج هذه المسرحية في شتاء ١٩١٦ على مسرح دار الأوبرا، وكانت موضع تعليق وانتقادات من كتاب مثل د . محمد حسين هيكل وإبراهيم رمزي ومحمد تيمور، وقد طبع المجلس الأعلى للثقافة المسرحية ضمن مسرحيات أخرى عام ٢٠٠١ وقدم لها د . سيد علي اسماعيل .

وإذا كانت صورة أوجستا في «قلب المرأة» شائهة، فإن صورتها في «تذكار الصبا» الذي كتب عام ١٩٤٧ وطبع عام ١٩٩٩ زينها الإنصاف، وللزمن دوره في الأحكام على الشخوص بعد فترة طويلة من انتهاء أدوارهم في حياتنا، فقد اعترف الرجل في هذا الكتاب بأنه حصل معارفه من معارفها، وأنه ثمرة ما غرسته فيه، بل يعترف بأنه أساء إليها في «قلب المرأة» يقول: «تفتحت في ظلها كل مواهبي ورغائبي ، وتجسدت كل حقائق الحياة في نظري بفعلها وقوة إيمانها، وأرشدتني إلى مطالعات ودراسات لم أكن أنالها بدونها، وأعانتني في قراءات وتحصيل علوم وسهرت على سهر الشقيقة والزوجة والأم الرؤوم، ولكنها حيال هذه النعم كلها أدنتني بفعلة واحدة من الموت المحقق لولا عناية الله ورحمته.. وأخرجتني من حلم الأديب إلى غيظ المنتقم فكتبت «قلب المرأة» وبالغت في تسويد صحيفتها وما كان ينبغي لي أن أفعل «وفي موضع آخر يقول : لقد صنع الله مني رجلا جديدا على يديها وبفضلها» هذا ما أفاده عربي من أجنبية، فماذا أفاده غيره من حب عربية، غير ما سطره عن جمالها ودلالها وإقبالها وهجرها .

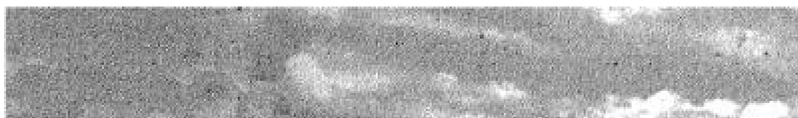
ويخيل لي أن جمعة ظل فترات طويلة مشتغلا بأوجستا ، ولم يمض عليه يوم لم تمر بخاطره، فقد كتب عنها مقالات ، ونسب إليها قصصا، وذكرها كثيرا في مذكراته المطبوعة، عدا كتابة قصة حبه لها ثلاث مرات، الأولى في قلب المرأة والثانية في تذكر الصبا والثالثة في الرسائل الغرامية التي نشرها ونسبها إليها، وما دونه عنها في ساعات الصفاء ليس إلا مناجاة لروحها. ■



أراكِ كلما تنفست

شعر: د. هيثم الحويج العمر - سوريا

أراك في البحيرة السارحةْ ... تجففين دمعة جارحة
أراك في شقائق المنحنى ... تفرقها السحابة الجامحةْ
أراك في رواق نجم الدجى ... إلهة وإلهة صادحةْ
في كل شاطئٍ لنا قصة ... حروفها زوارق سابحة
في الشرق بسمة تضئ الضحى ... في الغرب منك دمعة ذابحة
كالماس إسمك الشجيّ الندا ... يحيط بي فيروزةٌ سائحة
وصوتك الملائكيّ الصدى ... منبعث من نجمة سارحة
من البحار والربا قادم ... ومن غدير خلق البارحة
ماذا أقول إن قطفت المنى؟ ... مشاعري مثل الضحى واضحة
كتبتها على النجوم التي ... تصافح الكواكب النازحة
وكيف لا أكتبها وهي في ... شغاف قلبي دائماً صائحة؟
أنت أنا .. قصيدة بوركت ... لتجرح الزنابق الجارحة
وتسعب العبيرَ فوق المسا ... جداولاً .. ما أجمل الرائحة
أراك في قصائد البحتري ... وفي رؤى الفرزدق الكاسحة
وفي حقول الشام صفصافة ... تهدي الصفاء خضرةً صادحة
أراك في دمى إذا سرتَ في ... درب رأى أشواقك السابحة
أراك في البنفسج المشتهى ... شهية براقة صالحة
أراك كلما على جذعها ... رتلت العصفورةُ الفاتحةْ



• مصطلحات النقد أشبه ما تكون بأزياء ملابس السيدات ، فهي تظهر فجأة ثم تستمر فترة ثم تختفي ثم تظهر نظريات أخرى جديدة ، ونحن بكل أسف حينما نأخذ بنظرية نقدية من هذه النظريات نأخذ بها بعد أن يكون قد هجرها أصحابها وماتت في أرضها .

د. ناصر الدين الأسد
الأهرام

• اللغة العربية تعاني بالفعل من مشكلة قائمة ألا وهي الهوة الثقافية القائمة بين لغة التواصل المستخدم في الحياة اليومية واللغة الفصحى فكثير من الناس يخطئون في قواعد استخدامها ، بما يؤكد على ضرورة تطويرها وإعادة صياغتها على أيدي خبراء متخصصين لتمكن العرب وغير العرب من فهم قواعد اللغة العربية واستخدامها بسهولة .

د. جابر عصفور
الأخبار

• نحن في حاجة لأن نعيد للغة العربية مكانتها اللائقة من خلال إعادة النظر في العملية التربوية برمتها ، وتأهيل المعلمين لأن اللغة العربية في حد ذاتها مرنة ترفض الجمود ، وقالت مالاتستطيع أي لغة في الأرض أن تقوله فهي بالفعل طورت نفسها من عشرات السنين على امتداد المدن من البصرة والكوفة حتى الأندلس ، بينما كان ذروة التطور والازدهار في مصر .

خيري شلبي
أخبار اليوم

• لاشك في أن إهمال اللغة العربية انعكس بصورة واضحة على مستوى الإبداع في الشعر والقصة والرواية والأغنية .. لقد صارت اللغة الفصحى غريبة في كل هذه المجالات .. ومنذ سنوات مضت كان استخدام بعض الكلمات العامية في قصة أو رواية مثار قلق بين المبدعين الكبار ، ولكننا الآن نقرأ روايات كاملة ليست فيها جملة واحدة باللغة العربية الفصحى .. وهذا يحتاج إلى مراجعة من كبار مبدعينا ونقادنا ، حتى لايأتي يوم لا نرى فيه عملا إبداعياً باللغة الفصحى .

فاروق جويدة
الأهرام

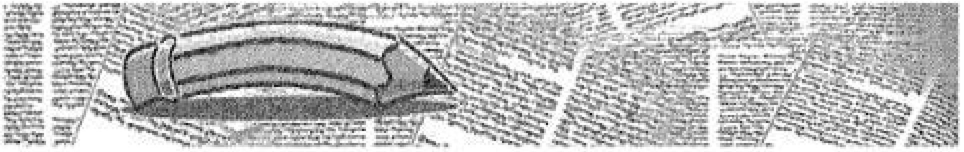
• اللغة العربية من أقوى اللغات بنية وقدرة على التطور واستيعابا للمصطلحات المستجدة بأسس لغوية معتمدة ، ويتكلم بها مئات الملايين يعيشون على أرض شاسعة تمتلك ثروات هائلة .

د. عبدالحي عباس
مجلة العربي

• الثقافة في العالم العربي تأخذ بعداً غريبا نظراً للضغوط التي وقعت على المثقف والمثقفين ، وأدت بالتالي إلى عدم فهم «الثقافة المستنيرة» بشكل يسمح لهذه الفئة في قيادة المجتمع لخلع التخلف من رأسه أولا ، وأن يكون المثقف نتاج لثقافة مستنيرة بعيدة عن سلطان الحكم .

د. صالح رضا
أخبار الأدب

• الحضارة البشرية في جوهرها حضارة واحدة تتقدم فيها العناصر المشتركة يوما بعد يوم ، وعصراً بعد



آخر لأنها أكثر إنسانية وقدرة على التواؤم والتطور وتتراجع الخصوصيات الضيقة وتذبل وتموت. أو تثبت إنسانيتها فتتجاوز حدودها المحلية والإقليمية وتفرض نفسها على البشرية وتصبح ملكا للجميع.

أحمد عبدالمعطي حجازي
الأهرام

● المجتمعات العربية مهددة، إن لم تكن تعيش بالفعل في ظل انشقاق ثقافي ومعرفي عميق يقسم المجتمعات إلى نصفين، إلي لغتين رغم أنها لغة عربية واحدة وعقلية رغم وجود عقل جمعي وفكري واحد، وثقافتين رغم عباءة ثقافية وحضارية وقيمية واحدة.

صلاح أحمد سلامة
وجهات نظر

● ليس هناك شك في أن الأوضاع السياسية في العالم عامة - وفي منطقة الشرق الأوسط خاصة - قد حالت دون الوصول إلي مانبتغيه من تقدم وازدهار لأن هذه الأوضاع قد عرقلت صرف الأموال العامة في الميادين التي تدعم النمو الاقتصادي والمشاركة في بناء الحضارة الحديثة بما في ذلك التعليم والبحث العلمي.

د. فاروق الباز
العربي

● إن دور المجتمع المدني أصبح ملحا، خاصة أن القاعدة العريضة من المواطنين مازالوا يؤمنون بالوحدة ويقيمون الإنسان على أسس خلقه وعمله وسلوكه ومبادئه وليس على دار العبادة التي يمارس فيها شعائره، وهذه الأغلبية لايجوز أن تظل الأغلبية الصامتة.

د. ليلى تكلا
الأهرام

● مفهوم الحرية هو أمر مختلف لدى كتاب الصحف، فإرادة القلم التي يستخدمونها لاتصبح طيعة إلا عندما تعبر عن كل مكنونات النفس من رضا وغضب، والكاتب الصادق غاضب دائما، لأنه ينظر إلى الواقع بعين انتقادية لاتهدأ، وهو لذلك في حاجة إلى حجم أكبر من الحرية حتى يمارس فيها غضبه على كل مظاهر السلبية.

أحمد الجارالله
رئيس تحرير السياسة الكويتية
العربي

● المثقفين الحقيقيين المؤهلين للنقد عددهم قليل ومحدود، فالغالبية أميل إلى الفوقانية والسطحية، ولكن أجد عددا من النقاد (من جيل الوسط والشباب) يملك مؤهلات الانخراط في معارك نقدية جادة لو أتيحت له أدوات النشر والإعلام.

د. ماهر شفيق فريد
الأهرام العربي

● المناداة بأن نحيي اللغة العربية أمر واجب ومشروع ومرحب به، بل هو شعار يجب أن يرفعه كل متكلم بهذه اللغة من أجل المحافظة عليها والعمل على تطويرها، وجعلها قادرة على الوفاء باحتياجات الحاضر ومطالب العصر.

فاروق شوشة
الأهرام العربي

السينما بين عوكل ولينين

بقلم
مصطفى درويش

«وداعاً .. لينين» كان آخر فيلم أجنبى أشاهده ، فبعده ، لم أشاهد سوى أفلام مصرية ، أذكر من بينها «عوكل» لصاحبه المخرج «محمد النجار» ، و «غبى منه فيه» لصاحبه المخرج الشاب «رامى إمام» .

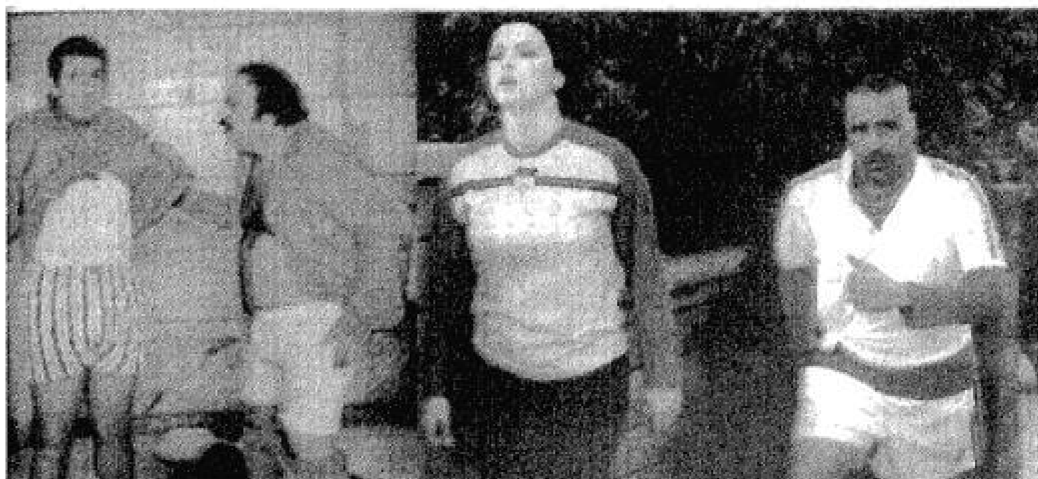
والأفلام الثلاثة ، بما فيها «وداعاً .. لينين» لا يجمع بينها سوى أنها من نوع الملهاة.

وفيما عدا ذلك ، فالفيلمان المصريان و «وداعا لينين» على طرفى نقيض.

فكلاهما انحدر إلى «الفارس» ، وهو بالعربى التهريج .

فى حين أن الفيلم الأجنبى ، وهو ألمانى ، صاحبه المخرج «وولف جانج بيكر» . من ذلك النوع الساخر الذى يقطر مرارة مع الضحك ، وينقد أسلوب الحياة فيما كان يسمى ، قبل خمسة عشر عاما ، بألمانيا الشرقية ، أو الديموقراطية ، نقدا لاذعا ورقيقا معا .

هانى رمزى غبى منه فيه — محمد سعد أو عوكل ونور





وأبدأ «بوداعا .. لينين» لأقول عنه باختصار شديد . إنه قد اكتسح مهرجان جوائز الفيلم الأوروبى ، فى دورته السادسة عشر ، حيث حصد ستا من أهم جوائزه ، أذكر من بينها جوائز أفضل فيلم وممثل وسيناريو .

إلا .. مصر

واحتل رأس قائمة ايرادات سوق السينما فى ألمانيا ، حيث شاهده ، خلال عام ٢٠٠٣ ، ستة ملايين ونصف المليون متفرج ، وهو رقم مذهل بكل المعايير .

كما أن حقوق توزيعه فى مشارق الأرض ومغاربها قد بيعت ، لتشمل ثمانى وستين دولة ، ليس بينها مصر ، لسوء حظنا .

وعلاوة على ذلك ، كان بين الأفلام غير المتكلمة باللغة الإنجليزية التى جرى ترشيحها لجائزة الأكاديمية البريطانية (بافتا) المخصصة لهذا النوع من الأفلام ، وهى جائزة معادلة لأوسكار .

جدة موكل ، يؤدى دورها محمد سعد



أما لماذا الاختصار ، فذلك لأنه لم يكتب «لوداعا .. لينين» أن يعرض لا فى أرض مصر ، ولا انطلاقا من الفضائيات العربية المنتشرة انتشار أشد الأوبئة فتكا ، أثناء عصور الظلام....

أما لماذا حرماننا من مشاهدته ، فذلك لأنه فى أقل الكلام ، فيلم جاد ، أراد صاحبه أن يقول من خلاله شيئاً ، ينفع الناس ، وتحقق له ما أراد وبطبيعة الحال ، فليس ثمة جدوى من الحديث بالتفصيل عن عمل سينمائى ، لن يشاهده أحد فى بر مصر ، أو مع التفاؤل الشديد ، لن يشاهده ، رغم أنه جاد ومفيد ، سوى نفر قليل .

انهيار الجدار

ومهما يكن من أمر الحقيقة فى هذا التقدير ، فالفيلم يتمحور حول فتى يعيش فى برلين الشرقية ، تدخل أمه الوفية للاشتراكية كما كانت تبقى فى ألمانيا الديموقراطية ، فى حالة غيبوبة ، وذلك قبل بضعة أيام من سقوط سور برلين .

فإذا ما بدأت تفيق شيئاً فشيئاً ، بعد ثمانية شهور من انهيار السور ، حذر أطباء المستشفى الفتى من خطر إخطار أمه ، بواقعة الانهيار ، لأنها ، من هول الصدمة ، قد تنتكس فتموت .

وانقاذا لأمه ، تفتق ذهنه عن فكرة بارعة ، أن يعمل على إزالة كل ما يرمز للرأسمالية الغربية التى كتب لها الانتصار ، من المسكن ، حيث تقيم ، فيحول بهذه الحيلة ، بينها وبين العلم بالخبر الفاجع ، اختفاء ألمانيا الديموقراطية من الوجود ، دون أن تترك أثرا ، وكأنها ما كانت دولة ذات كيان ، فى يوم من الأيام.

الوهم الكبير

وطبعا ، لم يكن أمراً سهلا ايهام الأم بدوام الحال ، وكل شئ فيما كان يسمى بألمانيا الديموقراطية ، قد تغير تغيرا جذريا ، بدءا بالمعلبات والمشروبات وانتهاء بالسيارات ووسائل الإعلام.

أما كيف نجح الفتى فى ايهام الأم بأن شيئاً لم يتغير ، ويبقيها مخدوعة ، حتى يجيئها الموت ، وهى راضية مرضية ؛ فذلك أمر ما كان فى وسع صاحب الفيلم أن يقنعنا به ، لولا سيناريو محكم البناء ، زاخر بألوان من خفة الروح ، ويصور شديدة الحيوية والتألق لذلك الجزء من ألمانيا الذى طواه النسيان .. ومتى ؟ فى فترة ما قبل انهيار سور برلين وما بعد ذلك الانهيار.

هذه هى الخطوط العامة لفيلم فريد، أراد صاحبه أن يبين بأسلوب سهل ، منساب ، كيف تحجب الحقائق، وكيف تمنع الرؤية الصحيحة للأشياء بحيث لا يبقى أمامنا إلا اتجاه واحد ، وصورة واحدة ، هى ما ترسمه لنا سلطات محفوفة بدوى الطبول ، تسكرنا بخمرة الأوهام.

أهلا .. بالتفاهة

والفيلمان المصريان عكس ذلك تماما



هانى رمزى غبى منه فيه

، كلاهما لا يعدو أن يكون لغوا أشبه بالهذيان.

«فعوكل» يقوم بناؤه على قصة ملفقة وسيناريو ساذج .

ومن أولى لقطات الفيلم ، وكأن صاحبه «النجار » يدعونا إلى عدم الاهتمام بالقصة ، فلا نفكر فى ضعفها أو قوتها ، لأن الغاية الحقيقية من الفيلم عرض نجمه محمد سعد ، بوصفه مهرجا ، ولا شئ آخر ، سوى ما فى وسعه أن يقدمه من بهلوانيات تندرج ، حسب ظنه ، فى باب التمثيل .

والواقع ، أن قصة «عوكل» من ذلك النوع من القصص الذى لا يقطر إلا تفاهة.

موضوعه سبق للسينما عندنا ، وعند غيرنا أن تناولته فى العديد من الأفلام.

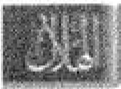
فهى عبارة عن صراع عادى بين الخير والشر الأول متمثل فى الشخصيتين اللتين تقمصهما «محمد سعد» فى الفيلم ، شخصية «عوكل» سمكرى السيارات وشخصية جدته العجوز التى يحلو لها من حين لآخر أن تقول عنه مفاخرة أنه ابن بنت بنت بنتها.

وكذلك متمثلا فى شخصية كل من نور التى تقع فى غرامه ، رغم صعلكته ، وربما لبراءته الأقرب إلى الهبل فى أغلب الأحيان .

تركيا والإسلام

و «حسن حسنى» عمدة المصريين فى تركيا ، وابو «نور» اليتيمة من الأم، التى جاءها الموت أثر حادث أليم.

أما الشر فيمثله «طلعت زكريا»



شقيق خطيبته المقامر بعرق جبين «عوكل»، والمتاجر بأخته، يبيعها لأكثر من خطيب .

كما يمثله «سامي العدل» ، بوصفه زعيم عصابة من عتاولة الإجرام..

«كالمعتاد ، ينتهي هذا الصراع ، بتغلب الأخيار على الأشرار ، بعد مفاجآت وأحداث كثيرة ، مثيرة ، لجمهور مروض ، يؤثر أن يضحك ويكركر ، وأبدا لا يفكر.

ولن أعرض لقصة الفيلم بالتفصيل ، فذلك شئ يطول ، وإنما اكتفى بأن أقول.

أولا: أن كاتبى السيناريو «سامح سر الختم» و «محمد نبوى» افتعلا ، والفيلم يقترب من منتصفه حادثا على الطريق ، أتاح لهما أن ينتقلا «بعوكل» ، دون أن يدرى ، من القاهرة إلى تركيا ، وبالتحديد «استنبول» عاصمة خلافة آل عثمان.

وكعهدنا بالأفلام التى ينتقل صانعوها بأحداثها من مصر المحروسة إلى ربوع أوروبا ، أو غيرها من القارات، لم يستطع صانعو «عوكل» أن يصوروا من معالم هذه المدينة الأسطورية ، ومفاتنها ، إلا أقل القليل .

فبدت بعض المشاهد ، وكأنه قد جرى تصويرها عندنا ، على أرض مصر.

والأغرب ، والمثير للعجب العجاب أن أكثر من مشهد فى الفيلم يوحى بأن تركيا بلد ليس دين شعبه الاسلام...

فأول مشهد على أرضها ، عبارة عن لقطات لحشد من المعزين ، يستمع لوعظة يلقيها أحد القساوسة ، وأمامه تابوت داخله «عوكل» يغط فى نوم عميق..

وفى مشهد آخر . لأحد الأفراح باستنبول ، يفاجأ «عوكل» ببطن العروس ، منتفخا ، وكأنها حامل فى شهرها الأخير .

وعندما يستفسر من «نور» عن هذا الأمر الشديد الغرابة .

تجيب فى هدوء تام . أن ما رآه أمر طبيعى ، فالعادات والتقاليد هنا ، أى فى تركيا ، تبيح للفتاة أن تحمل ، قبل عقد القران !!

ثانيا : أن محمد سعد يدور حول نفسه، وشيئاً فشيئاً ، تعود به الخطى إلى وراء.

خيبة الأمل

توقعت له أن يتقدم إلى أمام ، كما تقدم «جيم كاري» ، ذلك النجم الأمريكى الذى بدأ مشواره مع الأطياف مهرجا .

غير أنه سرعان ما تحول إلى ممثل قدير ، تسند إليه بطولة استعراض ترومان، أحد أهم أفلام تسعينات القرن العشرين.

وكم خاب توقعى ، فهو ليس له شغل أو مشغلة فى «عوكل» إلا امتحان صبرنا، بمزيد من الإلحاح والمبالغة فى

الأداء ، بقصد أوحد هو التهريج والكاريكاتور الرخيص .

أما الصدق والاقتراب من الواقع ، ولو قليلا ، أما الذوق المهذب ، فلا مكان له فى قاموسه السينمائى ، غير الملتزم بأى قواعد أو أى أصول من أى نوع كان.



هانى رمزى وحسن حسنى فى غبى منه فيه

ولعل خير مثل على التهريج وسخفه فى «عوكل» تلك المشاجرة التى استعرض فيها محمد سعد عضلاته ، بوصفه عجوزا حيزبون ، فتراه أو تراها تتبادل الكلمات مع خطيبة عوكل وشقيقها الشرير ، حتى تنتصر عليهما فى نهاية الأمر.

وعلينا ، نحن المتفرجين المعذبين بالفيلم ، أن نصدق هذا الهراء المحطم للأعصاب .

نكات أم سخافات

وهنا ، لا يفوتنى أن أذكر مثلا آخر، تلك الكلمات التى تنقصها البراعة الرائعة اللماحة فى استخراج النكات ، والتخم بها أكثر من مشهد فى الفيلم.

ومن بين هذه الكلمات ، أذكر ما جاء على لسان الجدة «أطاطا» «محمد سعد»، وهى تندب حظ حفيدها ، المختفى ، دون أن يترك أثرا ، ودون سابق انذار .

«يا ترى يا عوكل أنت جعان ، ولا شبعان ، رجب ولا شعبان»!!

ومن هراء «عوكل» أنتقل إلى هراء أشد وطأة ، هراء «غبى منه فيه» .

زحف الغباء

فمن أولى لقطاته ، يقول لنا صاحبه «رامى إمام» أن «هانى رمزى» بطل الفيلم من ذلك النوع الذى يضرب به

المثل فى الغباء.

ومادام هو كذلك ، أى متفوقا فى كم وكيف الغباء بحيث يضرب به المثل ، فتصرفاته ، من ثم ، تدخل فى باب اللا معقول .

ولا غرابة ، والحالة هذه ، إذا ما دعانا صاحب الفيلم إلى عدم الاهتمام بالقصة ، لا نفكر فى ضعفها أو قوتها، لأن الغاية الحقيقية من «غبى منه فيه» ، أن نعطى عقولنا اجازة لفترة قصيرة ، تتيح لنا أن نضحك ، ونقهقه ، بمناسبة وغير مناسبة ، كالبلهاء.

وفيما لو أن المراد من أفلام «رامى إمام» قد تحقق على النحو الأمثل ، أى استبد بالجمهور الضحك دون أى تفكير، فذلك النجاح مؤداه ، بحكم اللزوم ، فتح جميع أبواب الصعود والارتقاء أمام المخرج الشاب ، وإتاحة الفرصة لنجم الفيلم ، كى يسترد جمهوره الذى كسب ثقته بعد طول عناء.

وسرعان ما فقده ، لا لسبب سوى سوء الاختيار .

سر الصعود

فمما يعرف عن «هانى» أنه لم يصعد إلى مصاف نجوم الملهاة ، إلا بفضل نجاح فيلمين ، سقطا فنيا .

أولهما «فرقة بنات وبس» لصاحبه «شريف شعبان» ، ذلك المخرج المتخصص فى صنع أفلام منقولة ، دون أى تصرف أو اجتهاد ، من أعمال سينمائية أمريكية ، تحقق لها من النجاح الشئ الكثير فهذا الفيلم يعد خير مثل على ذلك النوع من النقل الأعمى ، فلقطاته لا تعدو أن تكون محاكاة للقطات «البعض يحبونها ساخنة» ، تلك الرائعة التى أبدعها المخرج الأمريكى الذائع الصيت «بيلى ويلدر» ، وذلك قبل نصف قرن إلا خمسة أعوام .

واسند الأدوار الرئيسية الثلاثة فيها إلى كل من «مارلين مونرو» ، «جاك ليمون» و «تونى كورتس» .

وقد حل محل هؤلاء النجوم الثلاثة، عند عملية استبدال الفيلم المصرى بالفيلم الأمريكى كل من «أميرة فتحى»، «هانى رمزى» و «ماجد المصرى».

أما الفيلم الثانى الذى جاء «لهانى» بالنجومية ، فهو «صعيدى رايح .. جاى» لصاحبه المخرج محمد النجار.

وارجح الظن أن نجاح هذين الفيلمين نجاحاً فاق كل التوقعات ، رغم سقوطهما فنيا ، كان له أثره الكبير على اختيارات «هانى» فيما بعد ، للأفلام.

ومن هنا ، حماسه لتقمص شخصية تعانى من غباء شديد ، متبعا فى ذلك خطى كل من «جيم كارى» و «جيف دانيلز» فى «غبى وأغبى منه» ، ذلك الفيلم الذى أخرجه «بيتر فاريللى» قبل عشرة أعوام ، وفيه تقمص النجمان الأمريكيان شخصيتى صديقين ، القاسم

المشترك بينهما هو الغباء.

التشوية والتقبيح

ولأمر ما ، لعله تصور «هاني» ومعه «رامي» المخرج الشاب ، ويا ليتهما ما تصورا ، أن أحد أهم توافر شروط الغباء في الشخص ، هو ألا يكون وسيما .

فعندهما ، فيما يبدو ، كلما كان الغبي مشوها ، قبيحا ، كان ذلك دليلا ، ما بعده دليل ، على أنه في الغباء لا يشق له غبار.

ومجرد توافر التشوه والقبح ، يغني عن ادعاء الغباء ، عن طريق الأداء المقنع.

فوفقا لقول جاء على لسان «هاني» في أحد أحاديثه الصحفية ، أنه يكفي أن يغير شكله عن طريق وضع طقم أسنان ، وانقاص وزنه أكثر من عشرين كيلو جراما ، ووضع دعامات خلف أذنيه، حتى تظهر شخصية الغبي طبيعية، دون عناء .

وفاته أن أحدا من ملوك الملهاة لا في سالف الزمان ، ولا في أيامنا هذه ، قد قبح شكله ، كي يبدو غبيا .

الحق ، أن هاني بتقبيح وجهه ، قد هفا هفوة جسيمة.

فاعتماده على تقبيح خلقته ، قد انحدر بأدائه إلى مجرد تشويح منفر بالذراعين ، وتلعيب مقزز للحاجبين ، وتحريك سئ للرأس إلى الجهتين كل ذلك مصحوبا بصوت عال ، خال في أكثر من حين من الذوق المهذب وليد الحياء .

مشاهد مقززة

وهنا ، أجد من اللازم أن أشير باختصار إلى مشهدين مثيرين للاشمئزاز.

أولهما مشهد تجشئه مراراً ، أثناء قيامه بالشرب من قارورة مياه غازية ، في حضور حبيبة قلبه «نيللي كريم» ، التي من أجل الحصول على موافقة أبيها الموسيقار على زواجها به ، تحول من إنسان شريف إلى لص غير شريف ، مرة يشارك «حسن حسني» في عمليات السرقة ، ومرة أخرى يشاركه فيها «طلعت زكريا».

وثانيهما مشهد إصابته في الجزء الحساس من جسمه ، بعد الانتهاء من التبول ، وما أكثره في الفيلم ، وتوجعه من الألم الناجم عن الجرح ، بشكل مثير للتقزز ، ثم ظهوره دون سروال ، وقد جرى تغطية الجزء المجروح بضمادات بيضاء .

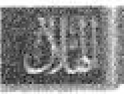
كل ذلك ، لا لغرض سوى انتزاع الضحك من أفواه متفرجين ، جرى ترويضهم على الاستمتاع بالإسفاف .

كلمة أخيرة

استثناء غريب

أدى «طلعت زكريا» دوره كغبي ، يفوق غباؤه غباء «مهني» دون أن يشوه خلقته ، أداه على خير وجه .

كان، والحق يقال ، آلة جميلة ، طيعة، في فيلم شديد الافتعال ، خال من أي وجه من أوجه الجمال !! ■







وأجهزته

بقلم
مهدى الحسينى

هذا العنوان أخذناه عن أستاذ علامة هو الدكتور محمد مندور حين كتب عن «الثقافة وأجهزتها» شارحا طبيعة عمل هذه الأجهزة والمسئوليات الملقاة على عاتقها وواجباتها تجاه تنوير الأمة وإمتاعها متعة رفيعة باقية . وها نحن هنا نبغى اتباع خطاه فى محاولة للنظر إلى أجهزتنا المسرحية ومدى ملاءمتها للقيام بالمهمة النبيلة المرجوة.

فرقة رضا فى إحدى رقصاتها

ليسمح لنا القارئ أن نقص عليه جانبا مضيئا من تجربة فريدة فى تاريخ الإدارة الفنية فى مصر لم يمض عليها نصف قرن، أعنى تجربة واحد من أبرز أساتذة الجيل الواعين الأطهار، ففى عام ١٩٥٦ كان الأستاذ يحيى حقى مديرا لمصلحة الفنون (نواة وزارة الثقافة)، حين صادف الأستاذ توفيق حنا المثقف المصرى المعروف أحد الحلاقين فى مدينة الأسكندرية الذى سرد عليه - ضمن ثرثراته التقليدية - حكاية عن بحيرة وصيادين وفتى وفتاة، ولما أعجب الأستاذ بحكاية الحلاق فإنه سارع إلى تدوينها ونشط إلى القاهرة ليعرضها على مدير مصلحة الفنون الذى تلقفها، حيث كان يبحث حينها عن «تيمة» شعبية مصرية صميمة يتوفر لها من الخيال والجمال ما يجعلها صالحة كأساس لعمل غنائى استعراضى ذى نكهة شعبية نفاذة، فى حين كان زكريا الحجاوى وحاشيته وعلى أحمد باكثير بثقافته الواسعة وقدراته المتعددة ورغبته العميقة فى الارتباط بالوجدان المصرى، ونجيب محفوظ بموهبته الفذة ومصريته الأصيلة، هؤلاء كانوا من أبرز المترددين على «مصلحة الفنون» كأمل فى قيام كيان إدارى يرعى الثقافة والمثقفين، فطلب منهم صاحب القنديل معالجة مسرحية لهذه الحكاية الشعبية الصغيرة، وكذا كان الأمر مع الموسيقارين

الكبيرين أحمد صدقي وعبدالحليم نويرة ، والشاعر الغنائي عبدالفتاح مصطفى ، ثم الموزع قائد الأوركسترا إبراهيم حجاج ، ثم نجمة أخاذة متعددة المهارات شاملة القدرات والمواهب هي نعيمة عاكف التي لم يطل بريقها حتى اختطفها الموت في عز شبابها وجمالها وعطائها ، وعلى ما أظن كان تصميم الديكورات لصلاح عبدالكريم والأزياء لعبد الغني أبو العينين .. هذا إذا لم تخني الذاكرة . ومن جانب آخر كانت هناك جماعة أو أسرة فنية على رأسها المهندس حسن فهمي أستاذ الهندسة والباحث اللغوي وعميد معهد السينما المفكر والفنان والد كل من نديدة وفريدة فهمي فنانتي الرقص والاستعراض اللتين ارتبطتا بشابين موهوبين من أسرة محملة بالمواهب، هما الفنانان علي ومحمود رضا ، التحقت هذه الأسرة شريكا بنصيب وافر من الثقافة والخبرة والتفرد بالعمل الجديد «يا ليل يا عين» هذا الاستعراض المسرحي الفولكلوري المصري الشهير الذي لم يأخذ حقه من ليالي العرض حتى سافر لتشارك به مصر في مهرجان الشباب بموسكو سنة ١٩٥٧ ، بقيت لنا منه بضع مقطوعات موسيقية لازالت في مكتبة الإذاعة تصادف أن سمعت إحداها لعبدالحليم نويرة بعنوان (المنزلة) ولم أكن أعلم حينها أنها إحدى مقطوعات «يا ليل يا عين» فسحرتني حتى أني رأيت لون الماء وحركة الموج وانعكاسات النجوم


يحيى حقي

والكواكب والصيادين والمراكب والبحارة ونسيم البحيرة وتغيرات الريح!! كل هذا في مقطوعة واحدة ؟!!

قالت لي سوزان الحجاوي إن والدها استضاف الموسيقار الكبير في بلدتهم وطاف به أرجاء البحيرة وناسها حتى عادا فائزين بتلك المقطوعة الرائعة، ولكننا - ويا للأسف - لا نحفظ لهذا التاريخ المقدس قدسيته وجماله فقد قدم الأوبريت في الشتاء الماضي بصورة غاية في السوء، وأيضا بقت لنا فرقة رضا التي خرجت لنا من رحم يا ليل يا عين .. وهكذا بدأ فن الشعب يأخذ مسارا جديدا بين فنوننا .

إذن هذا هو المنتج المسرحي ، لا يضع اسمه على تذكرة أو إعلان أو كتيب ، بل يتوارى بكل تواضع خلف العمل الفني ، يلقي الضوء على المبدعين وأصحاب المواهب ويساندهم لا يرجو شيئا إلا العمل الفني ونجاحه. هكذا كان يحيى حقي .

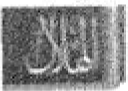
توسعات في الحركة المسرحية

كم خسرنا حين تم دمج فرقتي/ شعبتي : الفرقة المصرية للتمثيل

والموسيقى (الفرقة التقليدية القديمة) مع فرقة المسرح الحديث (الشباب الجدد والعائدون من البعثات) في فرقة واحدة هي فرقة المسرح القومي بقيادة أحمد حمروش وبمعاونة لجنة رفيعة لاختيار النصوص مكونة من د. محمد مندور، ود. محمد القصاص، د. عبدالقادر القط، أ. فتوح نشاطي، أ. نبيل الألفي، نعم خسرنا المنافسة الشريفة بين جيلين ونوقين وثقافتين، حبذا لو جربت الدولة في إدارتهما أسلوبين في التمويل وحساب الإيراد، أحدهما يقوم على التمويل الكامل ونظام المرتبات والدرجات الحكومية والثاني يقوم على الإعانة لتغطية تكاليف العروض مع توزيع العائدات وفقا لنظام الحصص وللائحة داخلية تضعها الجمعية العمومية للفرقة، غير أن حسن النوايا والظنون هنا لم تقدر هنا أننا كنا مقبلين على مرحلة صارمة تم الإعداد لها جيدا، ألا وهي مرحلة تأميم الفكر والثقافة والفن وهيمنة الرقابة والقرارات الجمهورية والأحكام العرفية على العقول والسلوكيات دون مهاودة فضلا عن تراكم جبال من البيروقراطيين الصغار والكبار وعمالة القوى العاملة (فنان بالتعيين أو النفوذ أو الواسطة .. لا الموهبة) هؤلاء سوف يجثمون على صدر الحركة الفنية وكاهلها فلا تستطيع حراكا إلا وهي تحمل ثقلهم على كاهلها حيث تذهب نسبة كبيرة من ميزانيات العروض كمرتبات وحوافز لهؤلاء الطفيليين الذين توحش بعض منهم ولا يحمل إلا مؤهلا متوسطا - خاصة حين أصبحوا أعضاء في التنظيمات السياسية الحكومية - فأخذوا يعبثون بالمال العام مكونين الثروات والنفوذ وبؤر الفساد.

كما تم تضييق الخناق على الفرق المستقلة وأهمها فرقة المسرح الحر، وفرقة جمعية أنصار التمثيل، فلم تعد تمنحهما إعانات كافية، ولم تؤجر لهما المسارح بإيجار رمزي كما كان في الماضي، ولم تدعمهما ببعض المهمات المسرحية من دار الأوبرا أو مسرح الأزبكية، بل ورفعت سعر الضريبة على التذكرة والإيراد العام، وأجبرت فرقة رضا على بيع نفسهما للدولة التي لم تعد تطيق صوتا ولا مؤسسة مستقلة في الإنتاج الفني أو الثقافي، أما فرقة الريحاني فلم تعد ذات قيمة تذكر - إلا موهبة أبطالها الذين بقوا بعد وفاة الريحاني وتوقف بديع خيري عن الكتابة - ولم يساعدها على الاستمرار إلا ملكيتها للدار الفنية الوحيدة التي بقيت بعد مجد عماد الدين وهي سينما ريتز أي مسرح الريحاني.

ثم أنشأت الدولة مسرح التليفزيون من أربع شعب (عشر فرق) هي المسرح الحديث والمسرح الكوميدي والمسرح العالمي ومسرح الحكيم، كل ذلك لتأكيد هيمنة الدولة على الحركة المسرحية، وأيضا تثبيت سياسة الكم، وسحب الأرضية من تحت أقدام الفرق المستقلة،



وربط الفن بالإعلام ، حيث زعموا أن مسرحيات فرق التليفزيون كلها سوف تسجل وتبث على شاشات التليفزيون الذى ولد عملاقا !! غير أن الواقع العملي يقول إن عددا متميزا من المسرحيات (غير المرضى عنها) لم يتم نقلها تليفزيونيا ، كما أن بعض المنقول قد محيت أشرطته ، ونفس الأمر كان يتم مع المسرح القومى .. ومازال . ضمت هذه الفرق العشر عددا من الفنانين الموهوبين وكثرة من غير الموهوبين ، كما تكاكأت اللجان الرقابية وغير الرقابية وكتبة التقارير وراصدوا النكت والقفشات ذات المعانى المزدوجة والنمامين المتطوعين ، وكل طامع فى ملاليم السلطان (لم يعد هناك ذهب) خنق كل هؤلاء المبدعين الحقيقيين .. إلا قليلا . واستقطبت الأجهزة ومراكز القرار وأصحاب حق التوقيع على الشيكات والمكافآت .. قطاعا كبيرا من العاملين فى المجال ، خاصة وأنهم ليسوا فنانين حقيقيين أصحاب فكر ورسالة وخبرة وتاريخ ، وهم - بحكم أنهم نكرات فنية وإنسانية - يحلمون بسطوعهم فى كادرات الشاشة الفضية، حيث تلمع شخوصهم البائسة وأعمالهم التافهة ، كما أصبحت التقارير الأمنية أحد شروط التعيين المعروفة بغض النظر عن الكفاءة ، وشرط غير معلن لن يتم التعامل معهم من خارج الجهاز الحكومي أو على نحو مؤقت ، فى ظل الهيمنة التامة للدولة على الإذاعة والسينما والتليفزيون .. والمسرح



الفريد فرج

، وكثيرا ما أصبحت المصائر والأفكار والأعمال فى يد هذا الفرد أو ذاك . غير أننى استثنى فردا مثل يحيى حقى الذى لا يتكرر إلا نادرا ، من حيث التجرد والطهارة والتمكن والوعي ووضوح الهدف ، فى زمن أصبح فيه التعامل مع هذه الدولة والرضوخ التام لمشيئتها قدرا يرضخ له الجميع ، فكان أن لعب نفس دوره حين وضعوه رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» لعب دور الاكتشاف والتوجيه والرعاية .

رغم كل هذه الظروف الاستثنائية من حيث سيطرة الدولة الشمولية علي كل مقدرات العملية الإنتاجية المسرحية: الإدارة - المال - دور العرض - المهمات المسرحية - لجان القراءة - مؤسسة النقد - الرقابة - التعليم الأدبى والفنى - النقابة - الدعاية - الشخصيات المؤثرة - الإعلام ، رغم هذا فقد لعب مسرحيون مخلصون وشرفاء دورهم الإبداعى ، ولو بدافع فردى أو شخصى ، وفى حدود الممكن والمسموح ، فخرج

علينا ومن حصيلة كل ما سبق ما يطلق عليه اسم مسرح الستينات ، وهو ليس خيرا كله ولا شرا كله أيضا ، بينما لم تكف الدولة عن إظهار عيونها الحمراء من حين لآخر كي يرعوي فنان أو آخر، في ظل سلطات مطلقة معلنة أو خفية تتدخل في اختيار الأعمال والأشخاص وتحدد آليات التشغيل وتوجهات الإنتاج وأبعاده ، مدعومة بقرارات المنع والاستبعاد والتجاهل وأحيانا الفصل .. هذا بينما يقبع في السجن والمعتقل عدد لا بأس به من المبدعين المسرحيين وغير المسرحيين .

***

أما عن السبعينيات فيبدو أن أيد غريبة سمح لها بالتدخل ، مع انفضاض الجمهور عن أغلب عروض مسرح الدولة (في أسبوع واحد من يناير سنة ١٩٧٢ صدر قرار بإيقاف ثلاث عروض ناجحة هي «ماراصاد» لبيتر ڤايس إخراج أحمد زكي بمسرح الطليعة ، «وقولوا لعين الشمس» لنجيب سرور إخراج توفيق عبداللطيف بالمسرح القومي ، «وجواز على ورقة طلاق» لألفريد فرج إخراج عبدالرحيم الزرقاني بالمسرح الحديث بحجة أنها لم تحقق النصاب المطلوب) فبعد تجميد الأجور بما لا يتناسب مع الارتفاع الفادح في الأسعار وبالتناقض التام مع ما تتطلبه حياة الفنان العصري من مصروفات ضرورية مثل شراء الكتب وأجهزة استماع ومشاهدة وصحف ومجلات ومتابعة العروض الأجنبية والعروض السينمائية بالإضافة إلى مصروفات أخرى تتعلق بضرورات حسن المظهر وسهولة التنقل والانتقال، بعد هذا الشظف في العيش ظهرت اغراءات مسلسلات البترو دولار تحملهم جماعات إلى ستوديوهات بدأت من الخليج ووصلت إلى لندن ، يعودون بعدها وقد تقاضوا أجورا لم يكونوا يحلمون بالحصول عليها سواء من مسرح الدولة أو من التليفزيون والإذاعة المصرية ، وفي حين انتشر المقاولون (المنتجون المزعومون) وكأنهم أرسلوا من جهات نجهلها خصيصا لافساد الحياة المسرحية والفنية المصرية بل وأرواح الفنانين وعقولهم الأمر الذي أدى إلى اختلال في القيم الشائعة في الوسط الفني ، في حين بدا رائد عظيم مثل توفيق الحكيم كاتبا غير مرغوب فيه ! فما الحال مع نعمان وألفريد وسرور وغيرهم من صناع الفكر في مسرحنا المصري !!؟

ثم ظهرت بوادر التشجيع الخفي لما يسمى بمسرح القطاع الخاص (كبديل للمسرح المستقل الذي صنع الفن المسرحي قبل ثورة ١٩١٩ وما بعدها حتى الخمسينيات)، وكأن الدولة التي أممت المسرح والفن والثقافة ترغب في تسليم جزء من (العهدة) لمقاولي القطاع الخاص من المضحكين والمهرجين والسفهاء ، وأخذت وسائل الإعلام - خاصة التليفزيون - في التسامح مع

إنتاج هذا القطاع بعد أن كانت تكشر في وجوههم !! . وقد يندهش البعض .. وقد لا يندهش البعض الآخر ، إذا كان يعتقد أن الانغلاق «أ» والانفتاح «ب» وكلاهما وجهان لعملة واحدة ومرحلتان متعاقبتان بالضرورة ، كما أن الذين صنعوا الأول هم أنفسهم الذين صنعوا الثاني .

لكن لم تخل السبعينيات من ايجابيات حيث تمكن فنانون وكتاب من إثبات حضورهم الابداعي في حياتنا المصرية مثل صلاح عبدالصبور ونجيب سرور وسمير العصفوري وعبدالرحمن الشافعي وغيرهم ، غير أننا نؤجل الحديث عن مسرح الثقافة الجماهيرية مسرح الشعب في الأقاليم لمقال قادم .

الأجهزة المسرحية اليوم

بديهي أن اليوم ابن الأمس القريب أو البعيد ، ومعاناة المسرح المصري والمسرحيين اليوم ناجمة من واقعنا المباشر والآني كما أنها راجعة لسياق تاريخي تبدت ملامحه المكشرة عن أنيابها بمجرد عبور الحكم أزمة العدوان الثلاثي : «لا صوت يعلو فوق صوت السلطة وأجهزتها ورجالها» ، فبعد أن أممنا الصحافة ودور لنشر والمطابع ودور العرض وشركات السينما والفرق المسرحية وتمت سيطرتنا على المسرح والمسرحيين ، لا يوجد أحد يمكنه أن يعمل خارج هذه المنظومة الصارمة التي يديرها أهل الثقة لا أهل الخبرة» .

واليوم يهيمن على الحركة المسرحية



صلاح عبد الصبور

قطاعان : عام وخاص (هذه اللفظة الرديئة تستخدم كبديل للفظة المستقل أو الأهلي أو الوطني) ورغم أننا لا ننوي في هذا المقال الخوض فيما يتعلق بهذا القطاع الخاص تفصيلا ، إلا أننا نستسمح القارئ في أننا سوف نشخصه مؤقتا وسريعا برأينا أنه مسرح رخيص وسياحي ، لا يستطيع أن يقدم عملا رائدا مثل «الناس اللي تحت» التي قدمتها فرقة المسرح الحر سنة ١٩٥٦ ولا زقاق المدق سنة ١٩٥٨ ولا أن يقدم الأعمال الرائعة التي قدمتها فرقة أنصار التمثيل مثل : «ثم غاب القمر» للأمريكي جون شتاينبك في إطار الحملة ضد النازية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، ولا حتى كوميديات الريحاني المحملة بالنقد الاجتماعي ، ولن أحدثهم عن روائع محمد تيمور وسيد درويش والريحاني وعزيز عيد حين قدموا أوبريت «العشرة الطيبة» الذي أمر المندوب السامي بإغلاقها ثم أشاع بواسطة الطابور الخامس أن الريحاني (المنتج)

قام بإغلاقها غيرة من نجاح سيد درويش الذى فاق مسرحية الريحانى المجاورة «ولو» !!! إن هؤلاء الجدد يديرون الظهر تماما لحياة الشعب وقضاياه ولتاريخ الأمة ونضالها ، بينما لا يستطيعون الزعم أنهم يقدمون فنا ولا حرفة . إن الأغلبية الساحقة من منتجى هذا القطاع الخاص يتحسسون جيوبهم حينما يتعاملون مع ثقافة مسرحية جادة ، ورغم زعم البعض منهم أنه يقدم عروضا محترمة، إلا أننا نتمنى أن يقوم فى مصر مسرح مستقل وحر ووطنى ، لهذا نكتفى هذه المرة بمناقشة أجهزتنا المسرحية التابعة للدولة أى ما يسمى مسرح القطاع العام وتوابعه .

قطاع المسرح (العام)

وينقسم الآن إلى المسرح القومى (ومقره مسرح الأزبكية) المسرح الحديث (ومقره مسرح السلام) ومسرح الطليعة (ومقره مبنى عشوائى قرب العتبة خلف مسرح الأزبكية) مسرح الشباب (ويقال إن مقره مسرح ميامى أو أن ليس له مقر أصلا لأن مسرح ميامى تحت الإصلاح إلى ما شاء الله) ومسرح الطفل (ليس له مقر بعد سقوط مبنى مسرح متروبول منذ حوالى عشرين سنة ولكنه يستخدم مسرحاً صيفياً صغيراً على شاطئ النيل بالمنيل) ومسرح العرائس (ومقره مسرح العرائس بالعتبة) والمسرح الكوميدى (ولا ندرى له مقرا ولا عنوانا) ومسرح الغد (ومقره تابوت معمارى طفيلى تكفل بسد المدخل الطبيعى والباب الرئيسى لمسرح البالون لذا يجب هدمه وإزالته وإزالة كل المبانى الطفيلية فى هذه المساحة ككل) .. هذه هى حصيلة القاهرة ذات الـ ١٥ مليون مواطن الذين يقطنون مدينة متضخمة متورمة متمددة من الصف والتبين وحلوان جنوبا إلى شبرا الخيمة فقليوب وطوخ شمالا ، ومن المطرية وعين شمس والمرج والزيتون فى المشرق مع ميل قليل إلى الشمال إلى مطار القاهرة ومدينة نصر والقاهرة الجديدة .. إلخ .. إلخ .. ثم شرقا مع ميل قليل إلى الجنوب ، ناهيك عن مدن طفيلية مثل العاشر من رمضان والسلام والنهضة وغيرها فيما بين الشرق والشمال ، ثم ننزلق إلى المعادى والمعادى الجديدة حتى نصل مرة أخرى إلى ١٥ مايو ، وبالطبع تدخل القاهرة التقليدية والقاهرة العشوائية داخل هذا الإطار الرخو ، حتى ننتقل غرب النيل إلى إمبابة وملحقاتها الكثيرة من طناش إلى كفر حكيم ، ثم العجوزة والدقى وميت عقبة وبين السرايات وبولاق الدكرور وما خلفها إلى الصحراء فالجيزة وجنوبها حتى منيل شيحة لنمضى غربا حتى مدينة ٦ أكتوبر وما قبلها من شوارع الهرم وفيصل إلى مدينة الأهرام .. وكل ما نهبته الطرق والمبانى والفنادق من ثروة زراعية وقرى ! فلاحين وأرض وحقول وحدائق وترع ومصارف . تلك هى القاهرة التى لم تعد معزية ولا فاطمية ولا مملوكية أو عثمانية .. ولا حتى خديوية ، مدينة مشوهة بلا مركز ولا قوام ولا طابع

، بل مدينة الفوضى وفقدان الملامح واضطراب الجدوى وقلة الفائدة . غير أن امتاع السكان المساكين الضحايا والمجرمين معا وإيقاظهم وإعادة الوعى إليهم مسئولية كبرى يختص المسرح والمسرحيون جانبا هاما منه ، وبث الجمال والحياة الصحية والصحيحة فى قاطنى هذه المساحة غير الفارغة (عذرا للمخرج الإنجليزى بيتر بروك) يقع على عاتق حركتنا المسرحية ككل ، وهذا قدرنا شئنا أم أبينا مادمنا نعمل باسم أبى الفنون جميعا .

ولأننى أخصُّ هنا ما يسمي بقطاع المسرح فإنني أتساءل : كيف إذن لهذه الدور المسرحية القليلة عددا وعدة ، الضيقة سعة الفقيرة جمالا أن تقدم هذه الخدمة الجليلة ؟ وكيف إذن لهذه الفرق صورية التكوين أن تقوم برسالتها تجاه الفن والجمهور ؟ إن مسافة شاسعة تقع بين مهامها المكلفة بها فى حيثيات قرارات إنشائها ، وبين الواقع الفعلى والامكانية العملية المتاحة عند التنفيذ ، وثمة مسافة أخرى بين هاتين .. وبين القدرة الحرفية والوعى الابداعى .

ولكى لا نبحر فى الأمانى ونتصور يوتوبيا إدارية وفنية لهذا القطاع نقترح - عمليا - ما يلى :

١ - بالنسبة للعمالة يتم ما يلى :

أ - لا يلتحق إنسان فى عمل فنى بالقطاع أو أحد فرقه إلا بعد اختبار حتى ولو كان متخرجا من أكاديمية الفنون أو أقسام المسرح والأدب بكليات الآداب أو كليات التربية الفنية أو النوعية والفنون الجميلة .

ب - حصر العمالة الزائدة وإبعادها عن الفرق والمسارح إلى وزارة القوى العاملة (هناك اقتراح بإنشاء وزارة لمحو الأمية والخدمة العامة من الزائدين عن حاجة الوزارات والأجهزة والهيئات) .

جـ - إعادة النظر فى الأسس المالية التى يتم التعامل بها حاليا ، حيث يتم تحويل الحوافز والمكافآت والعقود إلى شباك التذاكر ليأخذ حصته منه وفقا لكفاءته وعمله وحضوره الجماهيرى وطبقا للائحة توضع خصيصا لذلك .

د - وضع الموهبة - لا المؤهل - فى المقام الأول وإلغاء شرط الحصول على شهادة مسرحية للحصول على عضوية الفرق أو النقابة .

٢ - بالنسبة لعمق المجال الجماهيرى :

أ - أن تتجول العروض فى مسارح الأقاليم - بخلاف المصايف - ويوضع ذلك فى صميم الميزانية ، خاصة وأن لدى الثقافة الجماهيرية ١٦ دارا للعرض يتراوح مستواها بين الجيد والممتاز قياسا على دور عرض العاصمة ، فضلا عن دور أخرى صالحة فى الجامعات

والجمعيات الأهلية .

ب - أن تبنى الدولة دور عرض جديدة فى المناطق المحرومة مترامية الأطراف من العاصمة والمدن الكبرى

جـ - أن تشجع الحكومة القطاع الأهلى (الخاص) على بناء دور عرض ، بإعفاءات ضريبية عن تكاليف الإنشاء ، وخفض ضريبة الملاهى .

د - صرف إعانات ومكافآت ومساعدات فى صورة جوائز تمنح فى مسابقات سنوية بين الفرق .

هـ - يتم تزويد وتطوير دور العرض بأحدث أجهزة الصوت والإضاءة والمقاعد وتلافى عيوبها الهندسية .

٣ - بالنسبة للبنية الإدارية والإشراف البرامجى والرقابة المالية :

أ - يقوم بإدارة القطاع مجلس إدارة يتكون من مديرى الفرق الذين يعينهم وزير الثقافة ومثلهم فى العدد من كبار الشخصيات الثقافية المعنية بالمسرح ويرأس هذا المجلس علم من أبرز الشخصيات المسرحية المرموقة ، شرط أن تكون قرارات مجلس الإدارة الذى ينعقد شهريا - بالتصويت وملزمة لرئيسه دون أى انفراد منه بالقرار ، هذا ويتبع المجلس إدارات مالية وإدارية وخدمية ذات طابع عمومى لا ينتقص من استقلالية الفرق .

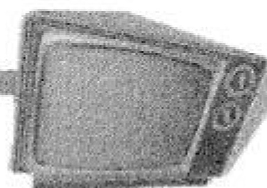
ب - أن يكون لكل فرقة مدير بعينه وزير الثقافة أو مجلس إدارة القطاع إذا ما فوض فى ذلك .

جـ - أن تنعقد الجمعية العمومية للفرقة سنويا لتضع البرنامج السنوى للفرقة فى موسميين أحدهما سنوى والآخر صيفى مع خطة التجول فى الأقاليم وفقا لحيثيات قرار هذه الفرقة أو تلك ولطابعها المميز ومهامها ووظيفتها العضوية فى الكيان المسرحى ككل .

د - أن تنتخب الجمعية العمومية للفرقة مكتبا فنيا من خمسة أعضاء برئاسة مديرها يمثل كافة أطراف الفرقة (رجالاً ، نساء، فنانين، مخرجين، أخصائيين ، فنيين) .

هـ - أن يقوم المكتب الفنى بتكوين مكتب استشارى للدراماتورج مهمته قراءة النصوص ومتابعة العروض وفنون الدعاية وخدمة العروض التدريبية والاستعداد للمشاركة فى المسابقات والمهرجانات .

وأخيرا ، لم يزل أمامنا الكثير كى نتناوله بالفحص والتحليل والرأى ، فهنا فقط قمنا بالتعامل مع قطاع المسرح ■



المتفرجة

الحرمان

بقلم
مرفت رجب

أحكمت الفتاة سيطرتها على أذهاننا ونسجت بكلامها ضفائر بهجة وألم ، ولما انهمرت منى الدموع أفزعتنى .. لم يكن الموقف يسمح بالاستسلام فقد تشتت تركيزا بلغ ذروته مع أول عبارة نطق بها أول الأساتذة إذ بدا كحامل كشاف يتنقل به فى منجم حافل بالجواهر. ومع كل توجيه للكشاف ، تتلألأ أمام أعيننا جوهرة من فيض ما جمعت الفتاة فى رحلة البحث والتحليل التى استغرقت منها ما يزيد على أربع سنوات ..

فمن هو الأستاذ ومن هى الفتاة وما علاقة الجواهر بانهمار الدموع ؟!!

حين يفقد المرء رغبته في الكلام فيتحول إلى حالة من الخرس يقال إن ذلك من أعراض العصاب ، ومن أعراضه الإصابة بالشلل الهستيري أو القلق أو الاكتئاب أو اضطرابات النوم أو الأرق أو اضطرابات الكلام أو الهذر أو التقلص اللاإرادي في عضلات الوجه أو الكوابيس أو الهلوسة أو ما شابه ذلك من الاضطرابات المضاعفة للشخصية .. ولذلك يحلل العلماء العصاب بأنه مرض شعوري يؤدي إلى انقطاع جزئي للصلة بالواقع ، أما سببه فيحدده هنري لوفلين Henry Laughlin بأنه «صراع داخلي لايجد حلا فيؤدي إلى اضطراب في التكيف الشعوري» .

وحين يسمع المرء كلاما من هذا النوع ، لايملك قدرة على حبس ما يتبادر إلى ذهنه من حالات رآها رأي العين وقد يكون السبب في كل منها واضحا وقد لايكون، المهم ، إن كان هذا يسري على البشر وهم يصارعون تقلب الأزمنة ، فماذا عن حالهم في مواجهة الحروب ، وبالأخص ، ماذا عن الجنود الذين يخوضون الحرب .

أتصور أن أول ما يتبادر إلى ذهن القارىء الكريم ، هو حال المقاتلين في العراق أو في فلسطين ، ومعهم ما يحدث لنا جميعا ، ومن الواضح أن ذلك كله فعل فعله في دفع الباحثة المصرية «منى رضوان» لاختيار موضوع بحثها لنيل درجة الدكتوراه من قسم اللغة الانجليزية وآدابها بجامعة القاهرة : فقد جاء عنوان رسالتها «ملامح من العصاب في ثلاثية الحرب لبات باركر Aspects & Neuroses in Pat Barker's War trilogy.

الإضافة

لم تفاجئني الدموع وأنا أسمع كلام الدكتور مصطفى رياض في تقييم البحث وتأكيده على أن الباحثة قدمت جهدا علميا فيه إجابات لكل ما يطرأ على الذهن من أسئلة وتنويهه بأنها لم تدع حجرا إلا قلبته مفتشة عن المعاني ولآلئها وشهادته بأن استمتاعه بقراءة رسالة منى رضوان لم يكن أبدا ليقل عن متعة قراءة ثلاثية بات باركر .. لم تكن الدموع مفاجأة ، فقد كانت كل عبارة تصدر عن الدكتور مصطفى رياض تعلي من قيمة البحث وفي نفس الوقت تعمق تقديرنا لجهد الباحثة .. وكان كلامه وهو المستضاف من جامعة عين شمس ليشارك في مناقشة الرسالة بجامعة القاهرة خير استهلال لساعتين متصلتين نعم فيهما الحضور بالقاعة رقم «١٣» الشهيرة بقسم اللغة الانجليزية بآداب القاهرة بدفقة فخر واعتزاز بشبابنا وجامعاتنا وأساتذتنا ..

ولقد ظللت على مدى الأسابيع الثلاثة التي فصلت بين حضوري لتلك المناقشة وكتابة هذه السطور أفكر ، كيف يمكن لي أن أنقل لكم هذه الدفقة المنعشة للروح . كيف يمكن لي أن أنقلها لكم بالكامل .. عليّ هنا أن أعترف أن الفكرة طرأت مع أول عبارة جاءت في مناقشة





الباحثة .. وأعترف أيضا بأن السبب المباشر وراء تلك الدموع هو يقيني أنني مهما اجتهدت فسيكون ما أكتبه قاصرا عن الوفاء بالغرض ، أين الكاميرا ؟ ولماذا تغيب مثل تلك المناقشة عن شاشاتنا ؟ هذا هو ما حفز الدموع فانهمرت وإن أردت حبسها خاصة عندما أكدت الدكتورة عايدة محمد الشعراوى الاستاذة المتفرغة بقسم اللغة الانجليزية بآداب القاهرة وجاء تأكيدها بأوضح عبارة قاطعة بأن بحث منى رضوان هو بحث جديد غير مسبوق فى تاريخ القسم، وأنه إضافة فعلية يعتد بها .. أما الأستاذ الدكتور فيصل عبدالقادر يونس رئيس قسم علم النفس بجامعة القاهرة والمشارك فى لجنة المناقشة فقد بين لنا نوع الجهد الذى بذلته الباحثة لتتمكن من تحليل وتقييم ما ورد فى ثلاثية باركر من أنواع العصاب . وكان من حق الدكتورة جليلة راغب أن ينالها حظ وافر من الغبطة التى شملتنا ونحن نتابع المناقشة فهى الأستاذة المتفرغة بالقسم، وهى المشرفة على رسالة منى رضوان ومن حقها أن تعتز وتفخر بتلميذتها التى عرفت كيف تختار موضوعا لبحثها يميزها ويحفزنا لقراءة الرسالة التى أتمنى أن تترجم إلى العربية ليجدها القارىء بين دفتى كتاب يكون إضافة للمكتبة العربية كما جاءت الرسالة إضافة لمكتبات الجامعات التى ستتبادلها وفقا لقرار لجنة المناقشة التى منحت الباحثة درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى ..

الأفلام الأجنبية على الفضائية المصرية

وهى طبعا من المضحكات المبكيات.. فأنا لاأفهم سببا واحدا يجعل قناة فضائية مصرية تخصص من أوقات بثها ما يتيح إذاعة الأفلام الأجنبية .. هل يحتاج المصريون أو غيرهم من أبناء العروبة المقيمين خارج الأوطان إلى هذه النافذة على الأفلام الأجنبية ؟!! ألم يفكر أحد فى هذه الكنوز من تسجيلات مناقشات الرسائل الجامعية لتكون نافذة للعالم يطل منها على الإضافات الفكرية والعلمية لشبابنا وأساتذتنا وجامعاتنا .. صحيح أن القناة الثالثة كان لها برنامج يغطى الرسائل الجامعية .. ولكنه من فرط تكرار تغيير موعد إذاعته قتل .. أتصور أن فى الرسائل الجامعية من الوفرة وتنوع المضمون ما يكفى لتخصيص قناة فضائية تضطلع بهذه المهمة ، وبإمكان مثل هذه القناة أن تنتقى ثلاث رسائل فقط كل يوم تلحق بكل منها ثلاثة برامج تسجيلية واحد حول الباحث والثانى حول موضوع البحث والثالث حول لجنة المناقشة ، على أن تتكرر إذاعة كل مجموعة ثلاث أو أربع مرات على مدار الأسبوع بما يكفل وصولها للمشاهدين فى أوقات مختلفة من الصباح والمساء وفترة السهرة ، كما هو متبع فى القنوات الفضائية الدولية

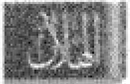
المتخصصة في كل أنحاء العالم (وليس في بلادنا بعد) ولست من التهور بأن أدعو إلى فتح هذه القناة غدا ولكن الحكمة تقتضى البدء بتخصيص وقت لإذاعة رسالة جامعة كل يوم على أن يكون البث على واحدة من القنوات الأرضية التى تصل إلى عموم البلاد ويتكرر البث على الفضائية المصرية مصحوبا بترجمة حسب جهة التلقى (حين يتيسر ذلك وأرجو ألا يكون أملا بعيد المنال) .

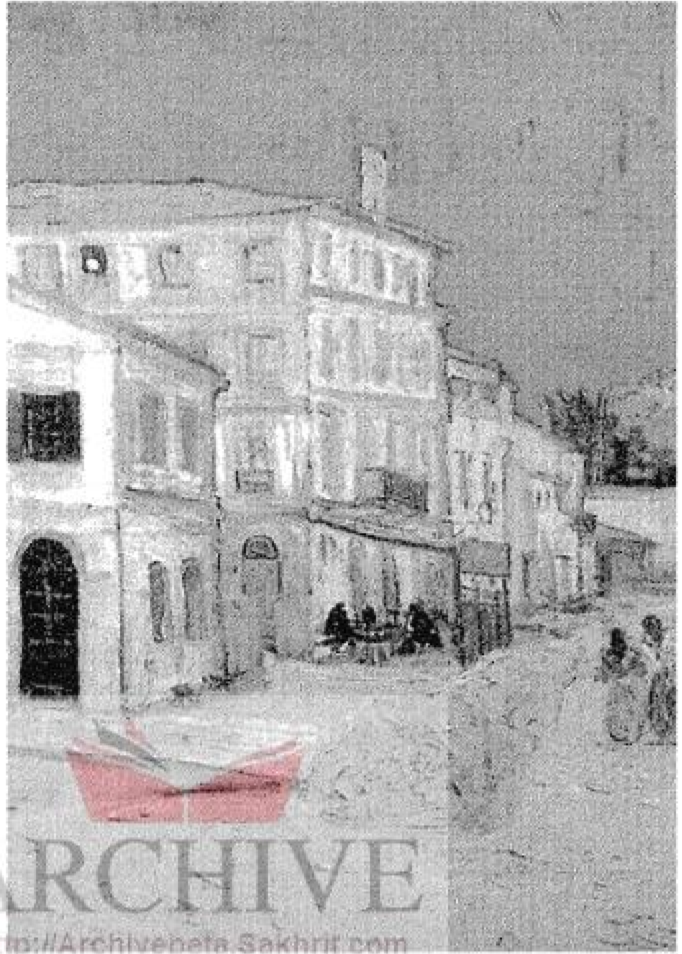
المثال

إننى مدينة للباحثة المصرية الشابة «منى رضوان» إذ جاء حضورى لمناقشة رسالتها لنيل الدكتوراه حافزا التعجيل بكتابة الاقتراح السابق بيانه ، وهو أمر طال انشغالى به ، وجاءت رسالتها مثلا نموذجيا لما يكمن فى الفكرة من إمكانات .. فهذه واحدة من عموم بنات مصر .. حركتها هموم الأوطان فضبطت بوصلتها على رسالة الكاتبة «بات باركر» فى إدانة الحروب فعكفت على تحليل أنواع العصاب التى فصلتها صاحبة الثلاثية .. فقد رأت الباحثة المصرية أن إنجاز الكاتبة الانجليزية يكمن فى أنها ركزت على ما تحدثه الحروب من دمار فى نفوس الجنود وبالأخص فى أن الروائية البريطانية اختارت زاوية جديدة فى كتابة الثلاثية، هى زاوية نقل الأحداث من وجهة نظر د. ريفرز Dr. Rivers وهو طبيب نفسانى فى عالم الواقع - يحكى عن حالات اضطراب نفسى لبعض من مرضاه وهو بذلك يكشف عن أغلب ما هو سائد من إصابات بالعصاب نتيجة الحرب ولقد حكت الروائية الانجليزية للباحثة فى حوار تكبدت منى رضوان مشقة السفر إلى لندن لإجرائه وشرحت لها فيه لماذا اختارت هذا المنهج فى الكتابة عن الحرب العظمى ، قالت إنها تعرف أن هناك كتبا كثيرة كتبت عن هذه الحرب حكى فيها الكتاب عن أحداث الحرب كما لو كانوا هناك ولكنها أرادت أن تقدم شيئا مختلفا .. وهو من وجهة نظر من يعرف الكثير عن الخنادق .. مع أنه لم يكن أبدا هناك .. إنه د. ريفرز .

ومع أن الكاتبة الانجليزية بات باركر كروائية بريطانية حصدت عديدا من الجوائز عن كل من الروايات الثلاث المكونة لثلاثيتها الشهيرة عن الحرب العظمى .. إلا أن باحثتنا المصرية هى أول من قام بدراسة شاملة عن العصاب فى تلك الثلاثية واعتمدت فى بحثها على آراء عديد من أطباء النفس الممارسين فترة الحرب وبعدها وضمت إليهم عددا من المؤرخين والنقاد لنجد قائمة من اعتمدت على آرائهم تضم د. ويليام ريفرز وسيجموند فرويد وارنست سيمل وبن شيبرد ووندى هولدين وايرك ليد وغيرهم كثير .

ألا ترون معى أن فى مثل ذلك من المتعة والاضافات المعرفية ما يجدر بأن يكون له مكان على شاشاتنا يحرك مع المتعة دوائر فكر فيه من الايجابية ما يدرأ عن نفوسنا غوائل الحرمان النفسى والروحى الجائمة . ■





قصة قصيرة

مسائل عائلية

بقلم
مصطفى نصر

رجب ١٤٢٥هـ - سبتمبر ٢٠٠٤م

أعد حقيبة سفره فى المساء، وضع بها الهدية التى سيقدمها إلى أخته بمناسبة زفافها مساء الغد فى دمنهور، أمسك بالهدية:

- ما رأيك ؟

قالت زوجته فى جفاء :

- حلوة .

- ستعجب بها أختى كثيراً .

لم تجبه. قامت فى تكاسل. هكذا هى منذ أن تزوجته . سنوات يحايلها ويراضيها على أمل أن تصفى وتقنع بحياتها معه، لكن دون فائدة .

تزوجها بعد موت أختها الكبرى التى تركت له ولداً صغيراً فى حاجة إلى رعاية وإلى أم يثق فى أنها لن تعذبه أو تنال منه، وأين سيجدها، وهو يعلم أنها كانت تحنو على الولد وترعاه طوال مرض أختها وبعد أن ماتت.

أنجبت منه ولداً آخر. حاولت كثيرا أن تتخلص منه لكنها لم تقدر. جاء

الولد رغم كل ما فعلته، تحملها زوجها ولم يظهر لها ضيقه بها رغم ما تفعله. كل يوم مطالب جديدة لكى تثير مشاكل معه. الشقة فى حاجة إلى بياض، تريد أن تغير بلاط دورة المياه.. الخ وهو رغم ظروفه الصعبة يوافقها يقترض من أخيه وأمه وأصدقائه: ماذا سيفعل؟ المشكلة فى الولدين أين سيذهب بهما؟ لقد كان يخاف على الولد الأكبر، فإذا بولد آخر يأتى فيسبب له مشكلة ثانية.

ابتسم لها عندما عادت. قال :

– أول مرة سأفارقك منذ أن تزوجنا.

لوت رقبتها بعيدا عنه ولم تجب. عندما أعلن عن رغبته فى حضور حفل زفاف أخته فى دمنهور وضرورة بياته خارج البيت، كان يود لو ناقشته أو اعترضت على سفره، لكنها – كعادتها – لم تعلق. أحس بأنها فرحة لأنه سيتركها وحدها، قال:



– ما رأيك لو أتيت معى أنت والولدان؟

قالت فى ضجر :

لا .. سأبقى فى شقتى.

رغم مشاكلها معه، تعامل الولد – ابن أختها – معاملة حسنة وكأنه ابنها. والولد يحبها ويرتاح لها كثيرا. وهذا الذى يهمه. المهم أن يأمن على الولدين معها.

فى الصباح الباكر أيقظ الولدين رغم اعتراضها وضيقها من ذلك. قبلهما، الولد الأكبر ابتسم له وتعلق فى رقبته وقبله. لكن الأصغر بكى ثم أكمل نومه بعد ذلك.

ابتسم لها وداعبها:

– ستوحشنى ياجميل.

لم تجبه قال :

لن أتأخر، ليلة واحدة لا أكثر .

سارت خلفه تريده أن يسرع بالخروج لكى تغلق الباب خلفه وتعود إلى نومها .

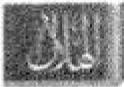
★★★

مر الوقت ككل يوم، انشغلت بعمل البيت وبالولدين، لكن قلقا – لا تدرى سببه – ظل يصاحبها وهى جالسة فى مدخل الحمام لتغسل الأوانى كعادتها.

اقترب موعد عودته من عمله. هى قبل الثالثة بقليل تسمع صوت احتكاك حذائه على درجات السلم . ثم صوت جرس الباب. تعرف دقته، تقول لابنها ساخرة :

ابك شرف .

تقف متكاسلة، تفتح له الباب. يحمل دائما أكياس الفاكهة، وبيده الأخرى كيس الخبز.. عمله قريب جدا من البيت، لكنه يذهب إلى سوق الخضار ليشترى ما يلزم البيت، لايريد أن يتعبها هذه المرة لم تسمع



صوت الجرس، وتذكرت أنها لم تسمع صوته ولا مرة واحدة طوال اليوم، لم تأت أمها ولا أحد من إخوتها.. حتى الجارات اللائى كن يطلبنها للحديث، أو لأى شىء آخر، لم تأت منهن واحدة. أحست بالخوف. هل حدث شىء فى الخارج وهى مع الولدين لم تحس به؟

أسرعت إلى الراديو، أدارته، كل شىء فيه كما هو. أغانى عادية فى إذاعة الشرق الأوسط، ونشرة الأخبار كادت تنتهى فى البرنامج العام.

سيأتى هو بعد قليل ليخبرها بما حدث، سيقول لها عما لاقاه فى السوق وعن عمله: الزوجة التى تأتى بالخضار لتعده هناك، وعن زميله عبدالحميد أفندى ونوادره مع المديرين فهو يشترى لهم ما يلزمهم و«يسمسر» فى الأسعار. تسمع - هى - دون أن تتجاوب معه. لكنها تحس الآن بأنها كانت تهتم بما يقول، وتريد أن تعرف آخر أخبار عبدالحميد أفندى، ولا تظهر هذا له.

دقت ساعة الحائط ثلاث دقات، وهو لم يأت. قالت للولد الكبير:

- لقد نسيت. أبوك فى دمنهور اليوم، فى فرح عمتك.

عرض عليها أن تحضر الحفل، تأتى بالولدين وتبات ليلتها لدى أمه، لكنها عارضت بشدة، فهى لا تحب أهله وتقاطعهم، (إذا كانت لا تحبه هو، أستحب أهله؟!

عندما يدخل الشقة، يغسل الطماطم والجرجير بنفسه، يتحدث عن فوائدهما وأنهما يساعدان على الهضم، ولولاهما لتعب وأحس بالامساك. كانت تمل حديثه وتضيق به.

بعد ذلك تضع الأشياء فوق مائدة السفرة، ويقف هو لشى اللحم أو تحمير السجق أو الكبدة، لابد أن يفعل شيئا فى المطبخ. يتحدث مبتسما - رغم عبوسها الدائم - يذكر عبدالحميد أفندى وهم جلوس أمام المائدة. طلب منه المدير أن يشترى له سمكا من «حلقة السمك» فسمسر جنيهين كاملين هذا غير أجرته من المدير. تريد أن تقول له «لكن دى سرقة» .. تحاول أن تقولها، لكنها لا تستطيع، فيكمل هو وكأنها سألته وسمعها: عبدالحميد غلبان،



لديه أولاد كثيرون في مراحل التعليم المختلفة وراتبه ليس كبيراً.

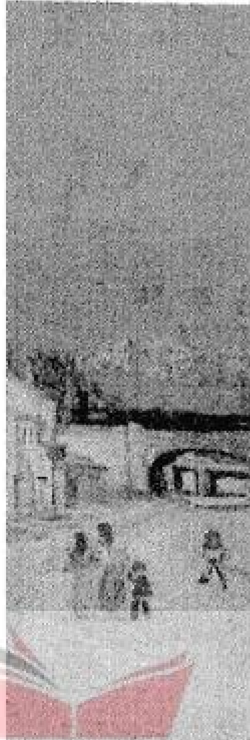
قال الولد الكبير: أريد أن آكل.

مر الوقت دون أن تحس، تقترب الساعة من الرابعة ولم تأكل لا هي ولا الولدان، هي لا تحس برغبة في الأكل.. فما ذنب الولدين، قامت لتعد الطعام لهما.

كان زوجها بعد أن يتناول طعامه يصلي، ويرتاح قليلا.. ثم يخرج إلى عمله الآخر، لكي يسدد الديون التي كانت هي سببا في توريطه فيها بطلباتها التي لا تنتهي.

تنام - هي - قبل أن يعود، تضم الولدين إليها وتنام، لكن هذه الليلة النوم يعاندها.

وحدها في الشقة الكبيرة، تسكن الدور الأول العلوي، طوال الوقت تسمع صوت احتكاك الأحذية والشباشب بدرجات السلم القريبة من باب شقتها، لكنها الليلة لا تسمع شيئا.



أرادت أن تقف وتفتح الباب لترى ما يحدث في الخارج، لكنها خافت، حدثت حالات سرقة كثيرة في الحي، آه لو علم اللصوص أنها وحدها في الشقة مع الولدين الصغيرين.

يعود هو من عمله الآخر قبل الحادية عشرة بقليل، يفتح الباب بمفتاحه ويصيح على الولد الأكبر.. تتثاءب متظاهرة بالرغبة في النوم، يقدم الحلوى للولدين ولها.. ثم يسرع إلى المطبخ ليغلي اللبن وبعد العشاء الخفيف قبل أن يخلع ملابسه، أحيانا.. يتناولون العشاء وأكواب اللبن الساخن فوق السرير. خاصة في الشتاء. آه.. لقد نسيت أن تشتري لبنا للولدين، ظنت انها ستجد من يشتريه لها منذ أن تزوجت، وزوجها هو الذي يأتي به من البائع.

تابعت باب الشقة، رأته يدخل ممسكا بكيس اللبن ووجهه متسع بابتسامة، غطت وجهها بالغطاء من الخوف. بكت. قال الولد الأكبر: ما الذي يبكيك؟

- والدك لن يأتي الليلة.

- لكنه قال لك هذا قبل أن يسافر.

بكت طويلاً وهي تراه يتحرك أمامها في كل أجزاء الشقة يحدثها مبتسما وهي لا ترد عليه. ■

التكوين

نشأت قادراً على التسامح... وتقبل الآخر وفهم تعدد وجهات النظر

محمد الجوادى

كنت دائما أسأل نفسى ماذا عساى أكتب أو أقول لو أن مجلة الهلال سألتنى أن أكتب هذا الفصل العظيم الذى عنوانه «التكوين» وهل حقا يأتى علىَّ مثل هذا اليوم؟!

ولكن حياتى تمضى أسرع منى ومن تصورى فقد جاء هذا اليوم بينما أنا أفكر فيه ولم أصل إلى قرار. غير أنى حينما نظرت فى بعض ماكتبت من قبل لاختار بداية للحديث عن التكوين (على نحو ما يفعل السينمائيون) وقع اختيارى على يوم الأربعاء الذى يسبق بدء العام الدراسى الثالث الإعدادى بيومين حين عين لمدرستى الإعدادية ناظر جديد لم يكن قد تولى الأعمال الإدارية قبل هذا.





الجوادي يتسلم جائزة التفوق في الثانوية من محمد عبد السلام الزيات نائب رئيس الوزراء ١٩٧١

جاء الناظر الجديد إلى اجتماع المدرسين المنعقد يوم الأربعاء السابق على بدء الدراسة وفي بدء تأمل لأعمال الإدارة المدرسية بتحسس العناصر التي لابد أن تستوفى في بداية الدراسة، وأخذ يجري ما تسمت في العسكرية «التتميم» على هذه الوظائف التي تشمل طابور الصباح والخطابة ورفع العلم وتنظيم دورة الطلاب من أرض الفناء إلى الفصول .. إلخ.

لم يكن الناظر قد تولى عمله إلا قبل أربعة أيام فقط .. وبعد ثلاث أو أربعة بنود من البنود التي كان حضرة الناظر يراجعها مع المدرسين، لم يكن أمامه إلا أن يثور ثورة عارمة ويقول: وما لزوم حضراتكم جميعا إذا كان هذا الطالب هو الذي يتولى أمر كل شيء في المدرسة؟ وبعد أن هدأت ثورة الناظر، قال له الوكيل: أظن أن سيادتك قد سمعت عن هذا الطالب وعن نشاطه، ثار الناظر مرة أخرى وقال إن هذا ليس هو الموضوع، وإنه يهمه أن يكون هناك أستاذ مسئول عن كل شيء، وبدأ أحد الأساتذة المخضرمين على الناظر مقترحا أن يعود إلى ما بدأ فيه ويسجل أمام كل مهمة اسم الأستاذ المسئول عنها .. وبعد فترة أقصر عاد الناظر إلى ثورته لأنه وجد الأساتذة المسئولين عن المهمات الجديدة وهم يذكرون اسم الطالب نفسه كعامل حاسم في نجاح مهماتهم.

عاد الناظر يكرر ثورته، وعاد الوكيل يتحدث عن أهمية أن يقدر الناظر مواهب هذا الطالب، فما كان من الناظر إلا أن فتح محفظته وأخرج منها ظرف خطاب صغيرا وبداخله كارت شخصي وقال للمدرسين: هل تعرفون ما هذا؟ إنه التهنئة

الوحيدة التي تلقيتها بتعييني في هذا المكان، وانتهينا من هذا الطالب الذي تتحدثون عنه، وله كروت مطبوعة باسمه.. وانفرجت أسارير أساتذتي لكن الناظر كان لايزال في ثورته على هؤلاء الذين تركوا مهامهم جميعا لطالب واحد وما يمثله هذا من خطورة إذا ما غاب هذا الطالب.

أقفز من هذه الواقعة الى ثلاثة أسابيع تالية حين فوجيء حضرة الناظر عندما عرف أنني الذي أعدل جدول المدرسة مع كل تغيير يحدث بانتقال المدرسين من المدرسة وإليها، وكان المدرس الأول المسئول عن الجدول قد عبر عن كامل ثقته في وفوضني في أن أفعل ما أشاء وقتما أشاء، وأن أغير ما أريد وقتما أريد وأن أخبره فقط بما أريد إذا عجزت عن تحقيقه، و ذلك من خلال الجدول الأساسي الموضوع في حجرة وكيل المدرسة وذات مرة فوجئ الناظر بأن أحد الأساتذة يستدعيني لإتمام التعديل(!) وعجب حضرة الناظر وأبلغه المدرس الأول المسئول عن الجدول بنهى إلى الناظر أنني فقط من له الحق في تغيير وتبديل جدول المدرسة وأنني المسئول عن الجدول في حالة انشغاله.. والناظر يضرب كفا بكف ولكنه مع هذا يأمر لي بزجاجة من المياه الغازية حين كانت تمثل مكافأة.

في العام التالي كنت قد انتقلت إلى المدرسة الثانوية، محققا أغلى أحلامي المبكرة وهي أن أصبح طالبا بمدرسة المتفوقين الثانوية النموذجية في عين شمس، وكان هذا حلما قديما وعزيزا على نفسي، وبدأت تلقائيا أبذل جهدا متصلا لأستحوذ على كل الصلاحيات التي كانت لي في المدرسة الإعدادية، واضعا في اعتباري أن المسئوليات في مدرسة «الدولة» المخصصة للمتفوقين تفوق تلك التي في مدرسة «المدينة» بنفس القدر من النسبة والتناسب بين «المدينة» و«الدولة»، وبالفعل وفي خلال ستة أشهر كنت مفوضا بصلاحيات المدير والناظر والمدير والوكيل وغيرهم بعد انتهاء اليوم المدرسي للقسم الداخلي.

●●●

ظللت طوال رحلة تفوقي العلمي أحلم بأن أكون مهندسا معماريا يبدع وينسق ويخطط وينظم ويجمل، ويشارك في صياغة المعايير القومية للجمال.. وقد كان تفوقي البارز في قراءة وفهم العلوم الرياضية مضرب الأمثال فمع أنني كنت لا أزال في أوائل المرحلة الثانوية فقد كنت أجد نفسي في قراءة الكتب الجامعية المرجعية من تلك المراجع المكتوبة باللغة الانجليزية في علوم الرياضيات وأنا في هذه السن، وكم كانت سعادتي وأنا أقرأ وأفهم الرياضة واللغة الإنجليزية في الوقت نفسه، وأدركت أن تعلم العلم - أي علم بغير لغته - ليس مشكلة إذا ما كان الإنسان قادرا على الفهم.

نشأت في بيت ومكتبة عالم دين هو والدي المغفور له الشيخ محمد الجوادي الذي ينتمي إلى المذهب الشافعي بحكم تعليمه الذي توجه بحصوله على أعلى الشهادات وهي شهادة العالمية، وكان على أن أعرف منذ مرحلة مبكرة أن هناك

مذاهب أخرى، وأن هذه المذاهب تختلف مع مذهب والدى فى كثير من التفصيلات الشرعية المتعلقة بالدين نفسه، الذى هو أول الثوابت. وإنى أذكر بكثير من الفخر أيضا أن والدى كان واسع الأفق جدا فيما يتعلق بالاختلافات الفقهية، على الرغم من أن مكتبته لم تكن تحوى بالطبع إلا على مراجع الفقه الشافعى، ومن ثم فقد عرفت منذ مرحلة مبكرة أهمية بل ميزة بل عبقرية المشى فى طريق واحد مع التنبيه فى كل خطوة إلى الاتجاهات والتفريعات، وعلى هذا النحو مضيت فى تربيتى متمتعا بقدرة فائقة وعميقة على التسامح وتقبل الآخر وفهم تعدد وجهات النظر، على الرغم من أننى كنت على الدوام بحكم تفوقى والتزامى واستحواذى على ثقة أساتذتى أتمتع بسلطات دكتاتورية غير محدودة.

على أننى أستطيع أن أذكر الآن ما لم أدركه إلا فى مرحلة متأخرة من فضل والدى علىّ فى تربية حاستى الفنية وما يتصل بها من قدرات نقدية وجمالية، والحقيقة أن والدى كان مولعا بالموسيقار محمد عبدالوهاب راح الأوائل والأخرين، وكان حتى فى صورته وبروفيله وملابسه شبيها تماما بعبد الوهاب.. بل إن الأكثر مدعاة للعجب أنهما كان يشتركان فى نفس الاسم، ولا أظن أن جدى عبدالوهاب قد سمى ابنه على اسم الموسيقار. أما والدتى فقد كانت توزع إعجابها بين فايزة أحمد وأم كلثوم، وكان إعجابها بأداء الممثلين يتأثر بالقيم التى يتبنونها بحيث إن نقدها وتذوقها كان قيميا فى المقام الأول والأخير، ولعل هذا قد أثر فى آرائى الأدبية والفنية من حيث لا أدرى، ولازلت أتذكر أنها اصطحبتنى لحضور آخر مسرحية قامت السيدة أمينة رزق ببطولتها، وظلت لأيام كثيرة تعبر عن إعجابها باستيعاب الفنانة العظيمة للدور والنص على الرغم من تخطيها التسعين.

لم أعرف فى صباى الفراغ ولا أوقات الفراغ، وأحيانا ما أسأل نفسى هل أستطيع أن أجد من الأساليب التربوية ما يتيح لغيرى من أبناء الأجيال القادمة ما من الله به علىّ فى سالف أيامى؟!

كنت دائما من أنصار أن عمل الغد لابد أن ينتهى اليوم، ولم يكن عندى أدنى استعداد فى أى وقت من الأوقات لتأخير أى عمل إلى اليوم التالى، وكنت على الدوام أحب أن أكون فى أول الصفوف، وقد عادت إلى شريط الذاكرة صورتى وأنا جالس فى مقدمة زملائى فى المركز الثقافى الفرنسى فى أوائل التسعينيات وكنت حينئذ مدرسا فى كلية الطب، ولكن هذا لم يكن يمنعنى من الاجتهاد إلى أقصى حد كالتلميذ الصغير، فكنت فى كثير من الأحيان أنتهز فرصة الفسحة فيما بين أول الدرس وآخره للانتهاء من الواجب المنزلى الذى سنقدمه فى الحصة التالية لأنى كنت أخشى ألا أجد له الوقت المناسب فى خضم مشاغلى وكان زملائى من الكبار والصغار على حد سواء يبتسمون.

ظل الدأب والاجتهاد ملازمين لى حتى عندما كنت أقوم بتأليف كتبى، فمع أنى كنت أجهد نفسى أشد الإجهاد فى الرجوع إلى المراجع والمصادر، وفى إعادة كتابة كل الفصول تقريبا مرة ومرتين، وفى تعديل

كثير من الألفاظ لتكون أكثر دقة فى التعبير عما أريد. إلا أنى فى الحقيقة كنت أحاول أن أسرع فى شىء مهم وهو صدور الكتاب نفسه، وأذكر أنى كثيرا ما كنت أذهب المطبعة سواء الحكومية أو الخاصة بصفة شبه يومية حتى أؤدى ما على من واجب تصحيح البروفات أو مراقبة الإخراج والترتيب أو حتى إعداد الفهرس أو نبذة الغلاف.

وحين كنت أتولى سكرتارية مجلس القسم لم أكن أبرح مقر الاجتماع حتى أكون قد سجلت المحضر وأعددته للاعتماد، وحين كنت أشارك فى تقدير الدرجات لم أكن أبرح المكان المخصص للامتحانات حتى أنتهى من واجبى تماما ولم أسمح لنفسى فى أية امتحانات شاركت فيها فى كلية الطب أو غيرها بأن اصطحب أوراق الاجابة الى بيتى بل كنت أنتهى منها فى المعهد العلمى نفسه فى اليوم نفسه.

الصدق

بدأت مع الزمن اعتقد تدريجيا أنه ليس هناك من سبيل إلى الراحة فى هذه الدنيا سوى الصدق، وأن الصدق هو خير الأخلاق على الإطلاق، وأن الصدق كذلك هو أكثر الصفات الذكية فائدة للناس فى حياتهم اليومية، وزاد هذا الاعتقاد يوما بعد يوم حتى أصبحت أحرص على أن أكون نموذجا للصدق المطلق، وأذكر أن واحدا من أصدقائى النوابغ كان يقارن بين ثلاثة من الزملاء يؤدون عملا طبيا واحدا يقتضى بعض التمويه من أجل النجاح، وكان يقارن بين طريقة كل من الأساتذة الثلاثة فى التمويه والإنكار، فلما سئل عن وضعى اذا ما قورن بالثلاثة قال ما معناه: انه يموه بزيادة جرعة الصدق حتى يصل إلى الصدق المطلق، الذى لايصدق أحد وجوده حتى لو كان أمامه

البيئة الفكرية

أتيحت لى منذ منتصف السبعينات فرصة رائعة للاتصال بالمجتمع المصرى فى مستوياته العليا وقد تدعم هذا الاتصال عندما بدأت وضع كتابى الأول عن الدكتور محمد كامل حسين وقد اقتضانى تأليف هذا الكتاب اتصالا مباشرا بعدد من العلماء الكبار الذين زاملوا كامل حسين فى مراحل حياته المختلفة وكان فى مقدمة هؤلاء الدكتور حسين فوزى المعروف بلقب السندباد وكان العالم الكبير زميل دفعة محمد كامل حسين فى الطب، وقد ظلت علاقتى به طيلة أكثر من عشر سنوات وحتى وفاته، وأذكر أنى عندما زرته فى باريس عام ١٩٨٣ دعانى إلى قضاء يوم فى بيته فلما كنا نخرج فى المساء كان يتوقف عند بعض البيوت ليقول لى هنا سكن العالم المصرى فلان وهنا سكن الفيلسوف المصرى فلان، وأذكر أنه روى له قصة طلاق فيلسوف مصرى شهير من زوجته الأولى وكانت فرنسية، وقد روت السيدة الفرنسية بنفسها القصة من وجهة نظرها بالطبع للدكتور حسين فوزى كرجل مثالى فى تحضره وفهمه للعلاقات الانسانية وهو الذى ظل على وفائه وحسن معاملته لزوجته الفرنسية التى توفيت على الإسلام.

وقد قادتنى معرفتى بالدكتور حسين فوزى إلى معرفة لاتقل عنها أهمية فى



الرئيس مبارك يسلم الجوادي جائزة الدولة التشجيعية في الأدب - ١٩٨٣

حياتي وهي معرفتي بالأستاذ توفيق الحكيم الذي كان زميل عمر حسين فوزي، وأذكر من لمحات ذكاء توفيق الحكيم كيف أنه اكتشف وفاة شريكة حياة الدكتور حسين فوزي من أحد الخطابات التي أرسلها الدكتور فوزي له، حين ختم الخطاب بسلامه دون أن يذكر سلام زوجته (بيان) كما هي العادة المعتادة بين الرجلين، وقد أفادتني معرفتي بالأستاذ توفيق الحكيم كثيرا جدا، وبالإضافة إلى هذا الكثير فقد نلت من مكتبته عددا لايستهان به من الكتب التي لم أجدها في مكتبة غيره، ولا في أي مكتبة أخرى، ومن هذه الكتب مذكرات المستشار حسن عبدالغفار التي قدمت دراسة لها في كتابي «مذكرات رجال القانون والقضاء» ومن الكتب التي وجدتها في مكتبة الحكيم كتاب طبع في عدد محدود من النسخ للمهندس أمين محمود العقاد، وهو رجل مثقف من مدينة الزقازيق كان يراسل الصحف العربية بموضوعات قيمة، وفي هذا المخطوط دراسة قيمة لبعض النقاط الخلافية في ترجمة بعض مسرحيات شكسبير، وهي تنم عن ذوق أدبي رفيع ومعرفة عميقة باللغة الإنجليزية، وفيما بعد [illegible] أن يرسل لي هذا المهندس العظيم خطاب تقدير لفكرة كتبتها، وقد وصلني الخطاب أثناء حضوري اجتماع مجلس القسم في الزقازيق فعرضته على أستاذي الدكتور لطفي وسألته بعض مايعرف عن هذا الرجل المثقف فأجاب بتقدير عميق لمستواه، وسألته هل يعرفه وهل يعرف عمره؟ فقال لي إنه الشقيق الأكبر لزميله الدكتور صلاح العقاد وكان أحد ألمع الأسماء في علم الأشعة على مستوى العالم العربي، وأنهم كانوا ينادونه «بأبيه أمين» وكنت قد عرفت الدكتور صلاح هذا

من صديق ثالث فى فترة مرضه، وقد عرفت الثالث عن طريق أستاذ صديق رابع وهكذا كانت شبكة علاقاتى بالمثقفين والأساتذة يقود بعضها إلى بعض.

المجتمع العلمى المصرى

يجدر بى أنى أعرف أننى صادفت من المجتمع العلمى المصرى ترحيبا وتشجيعا لايقل عما صادفته فى المجتمع الأدبى والثقافى ولازلت أذكر على سبيل المثال أننى حصلت على عضوية المجمع المصرى للثقافة العلمية بأسرع من حصولى على عضوية اتحاد الكتاب وكان من حظى أن أكون أصغر الأعضاء فى تاريخ هذا المجمع كما كنت أصغر الأعضاء فى تاريخ اتحاد الكتاب.

كانت علاقاتى العلمية ولاتزال بمثابة البديل الأول والأيسر أمامى وأذكر فى هذا الصدد أننى كنت ألتقى بالدكتور «بول غليونجى» حين يذهب لعيادته فى الصباح الباكر قبل أن تنطلق الوظائف والعمال إلى مواقع عملهم كنت أسأل نفسى هل يأتى على الوقت الذى أمارس فيه العمل فى عيادتى فى مثل هذا الوقت المبكر، وأظن أننى سأفعل هذا عن قريب أن شاء الله.

ومما ينبغى لى أن أذكره بكل امتنان أن علاقاتى بأساتذتى فى كلية العلوم ظلت تحظى بأهمية لاتقل عن علاقاتى بأساتذة الطب ذلك أن الأولين فى مجموعهم يتمتعون بحب حقيقى للعلم لم يفسده التعامل المادى الذى يضطر إليه الأطباء بحكم احتكاكهم المستمر بكثير من عوامل الحياة، ولازلت أذكر بكل اعتزاز علاقتى بمجموعة من أساتذة وعمداء كليات العلوم فى مقدمتهم د. عبدالحافظ حلمى الذى كان عميدا لكلية علوم عين شمس حين كنت طالبا فى علوم القاهرة ود. محمد فوزى حسين عميد كلية علوم القاهرة وقد كان رئيسا للجنة التى منحتنى لقب الطالب المثالى على مستوى الجامعة وكنت قد فزت به على مستوى كلية العلوم، وكان لفوزى هذا قصة غريبة أدين بالفضل فيها للدكتور «عبدالقادر منصور» أستاذ الكيمياء، ووكيل كلية علوم القاهرة لشئون التعليم والطلاب فقد صمم مندوب اتحاد الطلاب على أن يعرقل فوزى باعتبارى من طلبة كلية الطب البشرى وليس من طلاب كلية العلوم نفسها ولهذا أعطانى أقل درجة فى الشريحة المخصصة للاتحاد، ولكن وكيل الكلية الشريف الهمام لم يسمح لمثل هذه الخطوة أن تعرقل الفوز الذى كان شبه محسوم من واقع تقديرات الآخرين وصمم على أن يعطى مندوب الاتحاد درسا فى خطورة التعسف فى استعمال الحق وهو ما لايزال يسم سلوك كثيرين من أصحاب القرارات فى وطننا العزيز، ومن العجيب أننى بنوال لقب الطالب المثالى على مستوى الجامعة أحرزت نقطة مهمة فى صالح نقاط كلية العلوم التى فازت فى ذلك العام بالكأس العام لأنشطة الكليات على مستوى الجامعة كلها.

والحقيقة أن فترة الجامعة كانت بالنسبة لى فترة حافلة بالأنشطة الرياضية إلى جانب الأنشطة الثقافية والفنية والاجتماعية التى لا أزال على عهدى بها لكن أكبر نقطة مهمة فى هذا النشاط هى أننى كنت فى المرحلة الثانوية ثم فى الجامعة أحرص على ألا أتولى نفس اللجنة

فى اتحاد الطلاب فإذا كنت فى هذا العام مرشحا للجنة الثقافية والفنية فإننى فى العام الثانى أحرص على الترشيح للجنة الاجتماعية وهكذا ... ولم يحدث أن رسبت فى أية انتخابات لاتحاد الطلاب بل كنت على الدوام صاحب أكثر الأصوات أو ثانى أكثر الأصوات، وكنت اكتفى فى فوزى باتحاد الطلاب بالفوز على مستوى القاعدة ولم أكن رغم حداثة سنى مقتنعا بأهمية التصعيد على مستوى لجان الكلية والجامعة فقد كنت أعتقد أن المسألة فى هذا المستوى مسألة حرفة أو صناعة انتخابات ولم يكن عندى من الوقت مايمكن أن أضحى به فى هذا النطاق الضيق من التربيطات والعلاقات الحزبية .. وإذا قيل لى اليوم أو أمس إن هذا «قصر ذيل» فأنا فخور بهذا الذيل القصير الطاهر، ويكفينى بعض السمعة العالية التى كنت أتمتع بها.

فى جامعة القاهرة كان أساتذة الآداب والعلوم الإنسانية يعرفوننى جيدا كما كان أساتذة الأنشطة من كل الكليات يعرفوننى ويبشروننى بمستقبل واعد وكان فى مقدمة هؤلاء، صنديد الأنشطة الطلابية ورجل الجوالة العظيم د. على المرسى الذى ظل مسئولا عن الأنشطة الطلاب لفترة طويلة ولايزال يواصل عطاءه من خلال كثير من الجمعيات العلمية .

ولازلت أذكر من شباب أعضاء هيئة التدريس الذين أشرفوا علينا فى الأنشطة مجموعة كان بعضها قريبا منا فى السن وفى الحياة ومن هؤلاء، د. أحمد مرسى رئيس دار الكتب الحالى و د. عبدالحليم نور الدين الذى أصبح عميدا للآثار ورئيسا لهيئة الآثار ود. اسماعيل منصور استاذ الطب البيطرى الذى تعمق فى دراسة علوم الشريعة والفلسفة إلى حد كبير ود. مصطفى الشريف.

كما أذكر أن بعض هؤلاء وصلوا إلى مناصب الوزارة مبكرا لكننا كنا نعرف أنهم يمارسون الإشراف على الأنشطة الطلابية من قبيل الطريق إلى الوزارة وإلى دست الحكم وهكذا كنا نعاملهم بذكاء المصرى الذى يدرك رغبة هؤلاء، ويذكرهم بحقوقنا، ومن العجيب أن كل هذه الطائفة قد وصلت بالفعل إلى الوزارة وبأسرع مما كانوا هم يتصورون، ولا أريد أن أذكر الاسماء.

بطولة الجامعة فى السلة

لا أريد أن أنسى جزئية مهمة فى نشاطى فى الجامعة وهى أنى كنت أحد أعضاء الفريق الذى فاز ببطولة جامعة القاهرة فى كرة السلة، وكثيراً مايروق لى أن أقص هذه القصة لما تمثله من أهمية خاصة ذلك أننى أنا وزملائى من المصريين لم نكن نستطيع أن نحصل على هذه الكأس بسهولة لكن طبيعة الدراسة فى كلية الطب كانت تتيح لنا وجود عدد لابأس به من زملاء أفارقة من طوال القامة وكان فى فريق كرة السلة اثنان من هؤلاء، وهكذا فإننا كنا نضمن الفوز مبكرا لكن ظروف الدراسة فى كلية الطب وحرص الزملاء جميعا على تفوقهم كان يحول دائما وأبدا دون وجود الفريق بأكمله وبالاحتياطى، وهكذا كانت (صديقتنا) مشرفة التربية الرياضية. (ولم تكن تكبرنا بكثير من السنوات لأنها قد عينت لتوها بعد تخرجها بينما بعضنا يكبرها فى السن بحكم وجود سنة خامسة طب

الهلال

وسادسة طب والمؤجلين في سنة سادسة طب.) كانت هذه الشرفة تبحث عنا بإبرة حتى يكتمل الفريق، وفي المباراة النهائية كان عددنا هو الحد الأدنى الذي يسمح للفريق فيه باللعب، وهكذا فلو أنني، أو واحداً من زملائي الذين لعبوا هذه المباراة النهائية كان قد تخلف لاعتبر فريق الطب منسحباً، ولو أنني أو لو أن الواحد الحرج هذا قد حضر افرَّنا بالمباراة.. وهكذا يمكن أن نقول إن العبد لله الذي هو أقل الفريق شأناً كان السبب في الحفاظ على الكأس لكلية الطب بدلا من أن تكون الكلية منسحبة.. وبهذه الواقعة أضرب المثل على الأهمية الكبرى التي يمكن أن ترتبط بالوجود أو الحضور في حد ذاته....

دوري ثقافة الطلاب

على أنني أكون مقصراً في حق نفسي إذا أنا تغاضيت عن الدور الذي كنت ألعبه فيما كان يسمى بدوري ثقافة الطلاب الذي كان يقوم في جوهره على معلومات ثقافية، أذكر أن هذا الدوري الذي حققت فيه مع فريقي العلوم والطب الفوز عامين بعد عام هو الذي أعطاني السمة التي لا أزال أجني ثمارها في مجتمع كلية الطب ومن حسن حظي أن زملائي وهم من كريمة المجتمع على جميع مستوياته كانوا أكثر مني بمراحل في وعيهم بقيمتي، واعترف أنني لم أكن أصدقهم تماما على الرغم مما جبلت عليه من الغرور والادعاء، وكان هؤلاء الزملاء الأفاضل لا يبخلون عليّ بكثير من النصح في كثير من الأوقات وأذكر بكل اعتزاز أنني مدين لكثير من هؤلاء بمعظم ما وصلت إليه، فقد علموني الاعتزاز بشخصي وبما أعمل مهما كان، والحرص على مكانتي مهما كلفني ذلك من خسائر مباشرة على المستوى الوقتي والعاجل، وهكذا يمكنني القول إنني بفضل خسائر مبكرة تقبلتها راضياً حققت كثيراً من النجاحات أو بالأحرى حافظت على قيمة كثير من النجاح الذي حققته فيما بعد والذي كانت إماراته منبئة عن حدوثه عاجلاً أو آجلاً كما كان زملائي يقولون لي.

علاقتي بأساتذتي

على أن علاقتي بأساتذتي الكبار في تخصصات عديدة كانت تتسع بأكثر مما أتصور كلما بحثت أو ألفت أو شاركت في نشاط علمي ويكفي أن أذكر أن كتابي عن مجلة الثقافة، قد أتاح لي الفرصة للمعرفة المباشرة والحوار المباشر مع ما لا يقل عن سبعين من الشخصيات المصرية، كما أذكر بكل فخر أنني تلقيت التهنئة على فوزي بجائزة الدولة التقديرية من أكثر من أربعمائة أستاذ في الطب وفي غير الطب، وقد أحصيتهم بالفعل، وكانت سعادتي بإحصائهم متعة لا تقل عن متعة الفوز، وقد أفادتني هذه العلاقات المتجددة والمتصلة على المستوى الشخصي والفكري والاجتماعي.. لكن الفائدة الكبرى التي تعلمتها من أساتذتي المتعددين كانت هي أن أعنى بالقيمة، وليس هذا بالانجاز السهل وقد تعلمت هذا الدرس مبكرا جدا وكنت فيه محظوظا إلى أبعد حدود الحظ لأني لم أنشغل على الإطلاق بأي أمر تافه ولم أسمح لنفسي أن أعبث، وإن كنت



مداخلة الدكتور الجوادي في أحد مؤتمرات الجمعية المصرية لأمراض القلب - ١٩٩٦

أسمح لها باللعب، والفرق بين اللعب والعبث كبير جدا.

كنت ولازلت أعتقد أن أكبر إنجازاتي في الحياة هو الحفاظ على محبة وصداقة كل زملائي وقد أنعم الله علي بهذه النعمة.. التي استمرت على مدى كل سنوات دراستي منذ الابتدائية وحتى الجامعة وعلى الرغم من أنني لم أكن على الدوام الأول على أول دفعتي إلا أن دفعتي في كل مراحل تعليمي تعرف باسمي بل إن زملائي من أوائلي هم الذين كانوا يفعلون هذا بكل الحب والتقدير، وأذكر من هؤلاء كثيرين لا أريد أن أنسى واحدا منهم فأكون مذنبا أو منكرا لفضله وفضلهم علي كثير.

وربما كان شقيقي الدكتور أحمد مدير مستشفى القدس للعيون في مقدمة هؤلاء بروحه الفلسفية وبقراءاته العميقة وبلغته الانجليزية الراقية التي تفوق لغتي، وبإدراكه الإنساني لكثير من الحقائق، كانت مساعدته لي فوق الوصف، وكانت نصائحه تفوق مساعداته، وكانت فوائد نقده تفوق فوائد نصائحه، وإذا كان هناك شخص عظيم وراء كل مدع للعظمة فإن شقيقي أحمد استشاري العيون هو الشخص العظيم وراء مدعي العظمة الذي هو أنا.

كذلك أذكر بكل الخير شقيقتي الصغرى د. زينب مدرسة علم الاقتصاد في جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا وقد عملت مديراً لمكتبي طيلة سبع سنوات متواصلة كانت فيها بمثابة الملاك الحارس والقلب النابض والعين اليقظة، ولا تزال علاقتي بكثير من أساتذة الطب رجالا وسيدات قائمة على المودة والتقدير اللذين يكنهما هؤلاء لهذه الشقيقة، وأذكر أن بعض أساتذة الجامعة وموظفيها في الزقازيق كانوا يتصورونها بمثابة شقيقتي الكبرى التي احتضنتني وتولت تربيتي!! بينما البعض من الذين قابلوها وجها لوجه يتصورونها ابنتي التي ربيتها. وكانت الحقيقة بين التصورين أو في المتوسط الحسابي لهما. ■



• عاطف مصطفى

المطلوب من نقادنا التحديث وليس الحداثة!

هاهو الدكتور عبدالعزيز حمودة يحاول أن يزيد من تبصرتنا من خلال مقالة المنشور فى الهلال الماضى (النقد الغربي بين القومية والعالمية) وهو خلاصة لجهد متصل بدأه بـ (المرايا المحدبة) التى ضخمنا فيها من قيمة النقد الحداثى، وثناه بـ «المرايا المقعرة» التى أعادت إلى النقد العربى اعتباره، وانتهى إلى الخروج من هذا التيه الذى أراده لنا النقد الحداثى (حيث سجنت البنوية اللغة). وجعل د. حمودة السلطة للنص ، وموضحا خطأ الحداثيين العرب حيث بدأوا بالضلع الثالث والأخير للمثلث الحداثى، وهو المشاريع والاستراتيجيات النقدية، التى أفرزتها الحداثة، وما بعد الحداثة الغربيتين للمثلث الحداثى العربى، متناسين المقدمات التى ولدتها العلاقات الاجتماعية للثورة الصناعية، فكان من نتيجتها الحداثة الغربية التى بهرت نقاد الحداثة العرب ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ من هلال أغسطس ٢٠٠٤ وكذلك المرايا المقعرة من ص ٢٨٢ إلى ص ٤٨٦.

والحقيقة النهائية - فى رأى الناقد الدكتور عبدالعزيز حمودة - هو أن نقدنا العربى المتجسم فى البحث عما وراء لغة البلاغة، يحثنا على أن نعترف بالسلطة للنص (الخروج من التيه ص ٢٨٠) وبما قيل حوله عند القدماء، خاصة البلاغى العربى الفذ عبدالقاهر الجرجانى (ص ٣١٠) حتى يمكننا أن نهتدى إلى طريق متجددة تعيننا على التحديث وليس الحداثة (كما يقول حموده بمقاله بالهلال ص ١٢٠) لأن تلك الحداثة تفرض على تابعيها الانبتات عن أصولهم، متناسين هويتهم الواقية التى قال بها العقاد (الخروج من التيه ص ٣١٥ / الهلال أغسطس سنة ٢٠٠٤ ص ١٢٥) ليسايقوا ما تريده لنا العولمة التى جعلت من الحداثيين العرب رسلا إلى خلق إحساس لدى شعوبهم المختلفة بتدنى ثقافاتهم وتخلفها وأن على تلك الشعوب أن تتبنى النموذج الحضارى الغربى الأمريكى على وجه التحديد (الهلال ص ١٢٥).

وأضيف إلى كلام حمودة - نتيجة لهذا التآمر العولمى الثقافى - ما أصبح شائعا فى مصطلحاتنا المفروضة علينا يوميا فى أحاديثنا مما يندرج تحت مقولة (هات من الآخر) التى تعمل على تغييبنا عن التفكير فى أصول ما يقال لنا، وبذلك نخوض مع الخائضين. ويحق علينا أن نجيب عن قوله تعالى: «ما سلككم فى سقر»؟!

د. سامي منير عامر - كلية التربية - جامعة الاسكندرية

هيا استعدوا

كـــفـــوا عن الجـــدل الطويل	وعن انتظار المســـتـــحـــيـــل
لن تـأخـــذوا حـــقـــا لكم	منهم بلا ركض الخـــيـــول
لن تسـتـعـيـدوا مـا لكم	الا بـعـــود لـلأصـــول
لن تســتطيــعــوا دونما	عـــمـــل بصف لا يـمـــيـــل
تتـــصـــورون تصـــورا	وتحـــلـــون بـــلا حـــلـــول
وتحـــاولـــون تـطـــورا	من غـــيـــر مـــا عـــمل جليل



هل تحسبون عدوكم ... برضاه يعطي؟ يستحيل
فلتجبروه على الذى ... ترضون انتم.. ذا السبيل
هيا استعدوا كلكم ... من بعدما دقوا الطبول
دقوا فدقوا مثلهم ... متوكلين على الوكيل
لابد من حرب هنا ... سترونها عما قليل
كفوا وعن كل المنى ... الا وانتم بالخيول
ماذا تخافون انطقوا ... بالحرب ذا صمت ذليل
ان كان غول الحرب يخشى ... فالبديل اشد غول
لكن غول الحرب يحلو ... لانتصار او وصول
والنصر يحلو والشهادة ... فلنكن عزا يصول

شعر : حسن أبو الغيط

من واقع الحياة

حضرت أربع ندوات على التوالى بنادى أدب دمنهور.. والذى يعقد تحديدا فى الثامنة مساء الأربعاء من كل أسبوع.

واكتفيت فى الندوتين الأوليين بشرف الاستماع إلا أننى بحكم موهبتى وجدت فى نفسى رغبة عارمة فى الندوة الثالثة فى إلقاء إحدى قصائدى «بنت جميلة» فلم يعلق عليها أحد.

اللهم إلا بعض التعليقات الجانبية القريبة من الاستظراف.. والبعيدة تماما عن روح النص.

وفى الأسبوع الأخير جئت متأخرا قليلا عن الميعاد، لأجد عددا محدودا من الشعراء يرأسهم شاعر ناشئ، وكل إليه رئيس النادى تقديم الندوة نيابة عنه، فقدمنى.. أخيرا.. وألقيت قصيدتى «وجهان» وعلق الزميل الشاعر على بعض القصائد وتجاهل تماما قصيدتى بحجة أنه نسينى.. وبحجة أننى أجمع بين العامية والفصحى.. وبالتالى حدثت لهم «لخبطة».

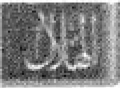
– معقول هذا، أنسى مرتين على التوالى؟ يا للمصيبة أن يحدث معى أنا بالذات هذا!!!
رغم أننى أحل ضيفا عليهم كل أسبوع.. ورغم تحملى لتبعات السفر ، والشاعر الزميل الذى قدم الندوة يعانى نفس ظروفى، وكان واجبا عليه ان يقدر ذلك.

أضف إلى هذا أن الزميل رمانى بهذا السؤال الداهية: هل هذه قصيدتك؟!!!

فقلت له وأنا أبتسم ابتسامة صفراء لا معنى لها: نعم هى قصيدتى.

وأدرت له ظهرى العريض.. وتوجهت شطر باب الخروج دون أن أسلم عليه.. حتى (سلام الشقايف) العارض!!

السيد التحفة
شبراخيت – شارع احمدعرابى



مواسم

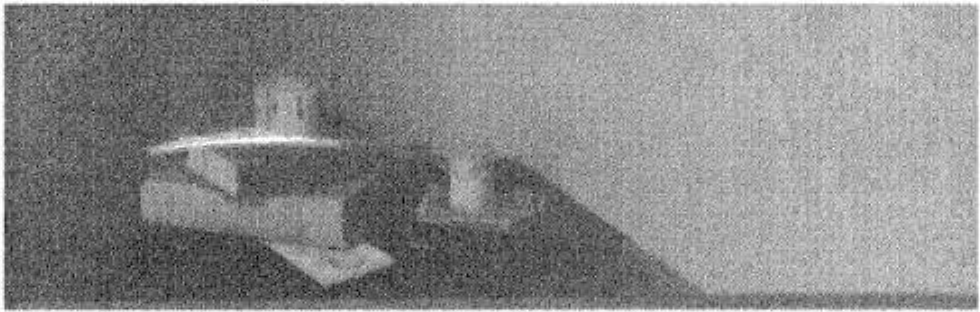
يطعم الليل رافرحا .. فمن ابر — في عشق صفوى أتت لليل افراح
كل الليالي تعافت حينما حضنت — صفوى الحبيبة ابدان وارواح
فكيف لا تحضن الأرض السماء وفي — اعراس صفوى الثرى بالعشق فواح
عطر النكاح مسرات يحفزها — الى التألق والابداع الحاح
صفي التقارب ارواحا فغسلها — عطرا فسمدها بالحب فلاح
هذي القلوب على اصداء بهجتها — بالود والحضن والتقبيل ترتاح
غنى السرور اذا لم تبق في دمه — احقاد نفس وظلماء واتراح
لم يفشل الموقف الأسمى وفي يده — من مهرجان الصفا نور وانجاح
بنك التزاوج لم يخسر بضاعته — وعنده من زواج السهم ارباح
قد صحح الوضع حب هائل وله — تخضر من مرة الأشواق الواح
هنا بصفوى فؤاد بين اوردة — في أبحر العشق غطاس وسباح
على جباه شعاع العشق قد بقيت — صفوى فيقصدها ليل واصباح
من طاقة النبض في اسلاك قافية — يضيء منها إلى العشاق. مصباح
مواسم ها هنا فتح لكوكبة — ما بين قوسين تزويج وإصلاح
روح السماوات ما فاضت حلاوتها — الا وفيها من الاعراس افرح

عبدالله علي الاقزم
السعودية - القطيف

هدم الشوامخ

كنت أشاهد أحد البرامج التليفزيونية في إحدى القنوات الخاصة المنطلقة من القاهرة ولاحظت أز مقدم البرنامج ومعه ضيف شبه دائم ممن كانوا يشتغلون بالغناء لاحظت أنهما يتناوبان الهجوم على موسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب ويحاولان هدم هذا الهرم الشامخ في موسيقانا العربية بصورة مستفزة. وزعم هذا الموسيقار السابق الجهبذ أن اليونسكو قد رصدت أكثر من ٦٠ عملا فنيا سرقها محمد عبدالوهاب وصدقه الحاضرون ، وانبرى احد الشباب المندفعين ليؤكد أن هؤلاء الشوامخ الذين كانوا بمثابة الرموز والقدوة قد اكتشفنا أنهم لصوص!

لقد استفزني هذا الموقف الرخيص واستفز معي ملايين من عشاق موسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب صحيح أن محمد عبدالوهاب في بداية حياته الفنية قد طعم موسيقاه ببعض المعزوفات العالمية في لحنين او ثلاثة على الاكثر وكانت تلك ظاهرة ذلك العصر سواء في الموسيقى أو الأدب او الفن التشكيلي أو في السينما في لحظة بزوغ النهضة الفنية والثقافية في مصر خاصة في مطلع القرن العشرين لكن أعمال عبدالوهاب التالية كانت أعمالا شامخة يكتب لها الخلود.



إن مثل هذه السموم التي تحاول تشويه رموزنا الشامخة لن يكتب لها البقاء وستذهب مع الريح وتبقى رموزنا ثابتة شامخة لا ينالها عواء يشمل هؤلاء الأدعياء الموتورين .

إبراهيم سالم – القاهرة

قصة قصيرة

أقدام نحيلة شائهة

هاهي الأقدام الجميلة لصغار بني الإنسان، تغوص – حتى الركب – وسط أقراص الطين العملاقة، توقف الاعتماد – منذ فترة – على الخيول، ليس من سبب واضح لذلك، سوى التكلفة ربما.

ومن غيره بديلا يكون؟

ذلك الموضوعة كفه اسفل خده في انتظار الفرصة؟ فرصة احتلاله لمحل الحيوان في بعض الأعمال، يظنه يغتنمها – الفرصة – لا تنتبه حواسه لاغتنامها هي له الا بعد انتهاء الجدوى!

تنتهي عادة خدمة الحصان برصاصة في الرأس، ترى بأي رصاصة تتعلق تلك المصائر الصغيرة؟

ملتصق وجهي بزجاج السيارة، من قريتي – التي تحتل بقعة من شاطىء النيل – إلى المدينة – محل العمل – أدمنت عيناي الحملقة، تعيد قراءة كل ما يقع في بروز النظر:

البرسيم اليابس الهزيل، القنوات الظمأى للماء، أشجار الكافور المصفوفة العجوز، راكبي الدراجات، والسيارات النصف نقل، والحمير، والمترجلين إلى الحقول أو المدارس أو..

يبدو كل شيء مفهوما – أول الأمر – كما لو كان كتابا اقرأه للمرة الألف.

عند اللوحة الأثيرة – لأطفال الطين – تعيد حواسي القراءة، تنبو (شخابيطها) كلوحة (سريالية) عويصة الفهم، إلا لذوي الأفهام – الذين لست منهم على ما يبدو تتراص أبدانهم الصغيرة كعربات قطار بطيء، عليل ينتقل خطوهم كليلا فوق دوائر كبيرة من الوحل، أسمالهم الباليه مشمرة . ترتبك فوقها الخطوط الباهتة والورود الذابلة ناشفة العرق، تدور بهم ارجلهم كما تدور الرحى. وصرخة الملاحظ المحذرة سيف على الرقاب، ترتفع عيونهم المغرورقة عن الطين، تصطدم بشاربه الغليظ ، وسحنته المرعبة، والسوط الطويل في يده.

تنسحب نظراتي – عبر زجاج السيارة – تحط عند سيقانهم النحيلة العارية، الا من طبقة الوحل. يمس صدري مسا كهربيا، تمتد ايديهم بأطراف أكمامهم تمسح جباهم وأنوفهم.

فاجأني صوت جاري الذي ادهشتني متابعته – قال:

هذه اول خطوة في صناعة الطوب. ,

قلت –لا إراديا :

ولكن الصغار.

قاطعني تساؤله :

ما بهم؟

فى الفراغات الكائنة بين أقراص الطين، على طول الطريق، تبقى أعداد كبيرة رهن الانتظار ، مسلطة عيونهم على الحركة فوق الأقراص.

انكفأ احد الدائرين على وجهه، اطلقت حناجر المنتظرين تهليلة صاخبة، احتلت رأسى الدهشة لذلك التهليل.

قال الجار:

سيحل احدهم محله.

قلت:

أليس الأجر لكل الـ..

قاطعنى:

استحضرت آذانى صوت جدى، وهو يحذرنى - ذات يوم - من لمس اصابعى لبراعم اللبلاب النابت ، صاح:

اللمس يوقف النمو يا ولد.

اوشكت الخواطر ان تتداعى.

نبهتنى حلقة المنتظرين التى انضربت حول الملاحظ سريعا، تفقدت يده ابدانهم، ثم دفعت بأعلاهم كتفا داخل الوحل.

كرر لسانى - لا اراديا - كلمات الجد:

- اللمس يوقف النمو.

رمت عيناى نظرة عميقة احاطت بتلك القطعان الموحلة من الصغار، وتردد بداخلى تساؤل غامض:

ترى هل يدركهم النمو؟!

فكرى داود - دمياط

أقصوصة

مقاومة

نظر فى يده.. كان الشحم يلوثها .. تثاءب.. وضع ظهر يده على فمه.. نظر حوله .. الغبار يملأ المكان.. خرج إلى شرفة العنبر.. خفت ضوضاء الماكينات التى تزعق ليل نهار.. نظر إلى أعلى.. وجده بدرا يتوسط السماء.. لست وحدك السهران. لولا برودة ديسمبر لخلع ملابسه واستحم فى أشعته الفضية السخية.. نظر فى ساعة يده .. ولم يتبق على طلوع الصباح الا ساعات قليلة وتنتهى وردية الليل.. تحسس قدميه.. قاوم الروماتيزم الذى استقر بهما اخيرا.. دعك عينيه.. ادار وجهه ورمى بنفسه وسط موجات الزعيق الهادر .

فرج مجاهد عبدالوهاب - شربين - دقهلية

س

سيبويه ٧٥٦-٧٩٦

هو ابو بسر عمرو بن عثمان بن قنبر.. وسيبويه هو لقبه الذى اشتهر به، إمام نحاة البصرة، وقيل إن ولادته كانت بالبيضاء من مدن شيراز، واختلف فى موضع وفاته وتاريخها، والأرجح أنه مات بشيراز.

تتلمذ سيبويه على يد عديد من الشيوخ والعلماء أولهم عبقرى العربية وإمامها الخليل بن أحمد الفراهيدى وهو أكثرهم تأثيرا فيه، فقد روى عنه سيبوية فى الكتاب ٥٢٢ مرة، وهو قدر لم يرو مثله، ولا قريبا منه عن أحد من أساتذته، وهو ما يجسد خصوصية الأستاذية التى تفرد بها الخليل بن أحمد دون سائر أساتذة سيبويه.

عاش فى البصرة منذ أن دخلها إلى أن صار فيها الإمام المقدم، وقد ذاع صيته واشتهر ثم دعى إلى بغداد وحاضرة الخلافة، وفيها أعدت مناظرة بين كبار النحاة، سيبويه ممثلا لمذهب البصريحين والكسائى عن الكوفيين وأعلن نبأ المناظرة، وكانت مؤامرة قد دبرت ضد سيبويه وأتت بثمارها، حيث انتصر عليه الكسائى، فى قضية لغوية بعد أن ساعده على ذلك جماعة من الأعراب.

كان سيبويه لا يتصور بفطرته النقية أن يمتد الشر مدنسا محراب العلم والعلماء، فحزن حزنا شديدا، وقرر وقتها أن يرحل عن هذا المكان، إلى مكان آخر ليس فيه حقد ولا أضغان ورحل الى خراسان، حيث أصابة المرض، ولقى ربه وهو مازال فى ريعان الشباب، لم يتجاوز عمره الأربعين.

ويعد «الكتاب» الأثر الوحيد له. وإذا ذكر «الكتاب» مجردا من أى وصف فإنما يقصد به كتاب سيبويه.

و«الكتاب» بمثابة خزانة للكتب، احتواها بالقوة فى ضميره، وتمخض عنها الزمن بالفعل، من بعد وفاة سيبويه ، فإذا الأئمة.. كلهم تلاميذ فى مدرسته، وإذا المؤلفون جميعا لا يجدون إلا أن يناقشوه، ويفسروه ويعلقوا عليه ويصوبوه ويخطئوه، ولكنهم مع ذلك يدورون فى فلكه ، حتى أصبح هو المصدر الفريد لعلمى النحو والصرف بالإضافة الى علم الأصوات.

والكتاب يقدم مادة النحو الأولى موفورة العناصر، كاملة الشخصيات لايكاد يعوزها الا استخلاص الضوابط. وتصنيع الأصول على ما تقتضى الفلسفة المدروسة والمنطق الموضوع.

وكان فى تصنيف الكتاب يتجه الى فكرة الباب كما تتمثل له، فيستحضرهما ويضع المعالم لها . ثم يعرضها جملة أو احادا، وينظر فيها تصعيدا وتصويبا، يحلل التراكيب ويستخلص المعنى المراد، وفى خلال ذلك يوازن ويقيس، ويذكر ويعد، ويستفتى الذوق، ويستشهد ويلتمس العلل، ويروى القراءات، واقوال العلماء، إما لمجرد النص والاستيعاب وإما للمناقشة وإعلان الرأى.

النصف الأقوى

الزوجة الأم، الحبيبة ... أيامها شجن وطيبه
في حجرها كبر الهوي ... وترعرعت فيه الخصوبه
فهي الحياة بدونها ... اعمارنا سنه جديبه
اوطاننا في بعدنا ... عنها الشذي ريح غريبه
وصباحنا شمس ابتسا ... متها علي نهر العذوبه
يحكون ان حقوقها ... ما بيننا اصبحت سليبه
فالحق مختنق علي ... احداقها والصبر غيبه
عجبا فما للام في ... ابنهائها تلك المصيبة
ولها عطاء وارف ... لاقت مياسمه هبوبه
فتكوكبت اقمارها ... فهي السماء المستجيبه

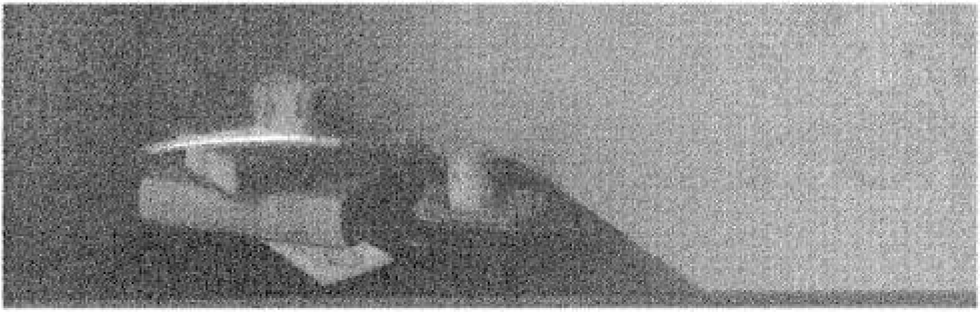
عبدالرحيم الماسخ
نجع الماسخ - المراغة - سوهاج

جرجي زيدان وتحية الشعر

يقول الشاعر الزجال:

صاحب مطبعة التأليف ... من يومك قارىء حريف
بحار في بحور الأفكار ... ولا غير دراعاتك مجاديف
في ثقافتك فقت المعقول ... ويكتبك عايش على طول
واللي بيقرالك بيقول ... اسلوبك شيق وظريف
وكلامنا عن صحفي شهير ... متمكن وتاريخه كبير
ومؤرخ إنتاجه غزير ... وروائي وإبداعه كثيف
موهوب ومثقف فنان ... ومكافح جي من لبنان
وهلاله منور للآن ... ومغطي البندر والريف

وجرجي زيدان كاتب وصحفي ولد في بيروت سنة ١٨٦١ في اسره رقيقة الحال فعمل وهو في سن صغيرة في محل يصنع الاحذية ثم في مطعم والده. شغف بالقراءه والاطلاع في سائر مجالات العلم والمعروفة ، جاء إلى مصر في أعقاب الثورة العرابية



ليستكمل دراسته للطب، لكنه لم يفعل، بل اتجه الى الادب فعمل محررا بجريدة الزمان ثم اسس دار الهلال التى أصدر من خلالها مجلة الهلال وبعد وفاته سنة ١٩١٤ واصل ولداه اميل وشكرى إصدار العديد من المجلات منها المصور والاثنين والكواكب.. اصدر جرجى زيدان عدد من الكتب منها المملوك الشارد، الحجاج بن يوسف، العباسة، اخت الرشيد، شجرة الدر ورحل فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤.

محمد أمين عيسوي - الإسماعيلية

مع الأصدقاء

● عفاف عثمان - الكويت : قصيدتك «عدالة السماء» جيدة وهى بالطبع المحاولة الأولى .. واصلى قراءة الشعر، فكما تعلمين هناك شروط لاكتمال القصيدة فنيا وحتى يمكن نشرها.

● ابراهيم حسن منصور - البحيرة: وصلت الينا مساهمتك المتمثلة فى عدد من القصص القصيرة، وسوف تنشر واحدة منها فى عدد قادم.

● فتحى ابراهيم السيد - طنطا غربية : فكرتك عن تغيير الخطاب إلى أوروبا ، حتى يمكن ان يفهموا قضايانا. بدلا من احساسهم الدائم باننا نصدر الارهاب اليهم جيدة. ولكن اهم أصموا آذانهم وقرروا ان يكيلوا لنا التهم ليل نهار، حتى يحققوا مآربهم وأهدافهم المكشوفة!

● محمد الشريف - الاسكندرية - الشاعران محمود درويش وسميح القاسم يعدان من ابرز شعراء المقاومة، وكان شعرهما منذ اكثر من ثلاثين عاما وهو وقود الثورة الفلسطينية.. وانا معك اتساءل اين شعرهما؟.. ولماذا اختفى هذا الشعر الذى كان يحرك الحجر؟ على الرغم من أن المقاومة لم تتوقف بعد ومثل هذا النوع من الشعر ضرورى الان.

● هيثم المعاودة - الأردن : وصلتنا رسالتك التى تطلب فيها بعض اعداد الهلال . سوف نحرص على ارسالها بالبريد، اما عن روايات الهلال وكتاب الهلال فيصدران يومى ٥، ١٥ من كل شهر ميلادى .

ونشكر الأصدقاء: على محمد منصور - دمياط ، إسلام حامد محمود المنصورة - والى مأمون نور - قنا - سماحة أحمد السيد -رشيد - سامى الملا - قطر - سمير خالد على - الاقصر - مهرة ابراهيم داود - السويس.

الكلمة الأخيرة

مشاغبات صافي ناز.. وحسين أمين !!



بقلم : محمود أحمد

كان يمكن لـ «صافي ناز كاظم» أن تكتب مقالا بديعا عن مفكرنا العظيم الراحل أحمد أمين، وأن تسجل فيه شهادات زملائه ومعاصريه وتلامذته من أعلام زمانه، وممن أعقبهم من عارفي فضله، بدءا من طه حسين، وانتهاء بعبد الرزاق السنهوري ومحمد فريد أبو حديد.

وقد فعلت ! فقدمت لنا مقالها ذلك الممتاز الذي طالعنا في «هلال» أغسطس الماضي. ولكن «صافي ناز» لم تكتف بذلك ! وإنما هي استغلت الفرصة لكي تجعل من المقال مناسبة «المشاغبة» حسين أمين السفير السابق، والكاتب الموهوب، ونجل أحمد أمين نفسه !

و«المشاغبات» بين صافي ناز وحسين أمين متبادلة منذ فترة، وإن كانا لا يلجآن إليها إلا في أوقات متباعدة.

في مقالها الأخير في «هلال» أغسطس حصرت صافي ناز مشاغبتها لحسين أمين في نقطتين إثنتين. أولاهما، العنوان الذي بدا مستفزا : جناية (حسين) على أبيه (أحمد أمين). أما الثانية فتمثلت فيما جاء بالفقرة الأخيرة من المقال والتي تضمنت الإشارة إلى أن الجناية مقصود بها بعض ما كتبه الابن عن أبيه. وفيما عدا هاتين الإشارتين لن يعثر القارئ على أثر آخر من مظاهر المشاغبة التي يوحي بها، على نحو خاص، العنوان المستفز.

على أن «مشاغبات» الدبلوماسي العتيد والكاتب الموهوب حسين أمين لـ «صديقته» اللدود تبدو مختلفة على نحو ما، خاصة عندما يروق له أن يتناول «في العمق» بعض ما يختلفان فيه من موضوعات. ولعل المقال الضافي الذي نشرته له صحيفة «الحياة» اللندنية قبل عدة أشهر يصلح مثالا جيدا في هذا السياق. في هذا المقال الذي تجلت فيه روح «المشاغبة» نجد حسين أمين يتوجه إلى صافي ناز بنصيحة أن تكتفي بالكتابة في النقد الذي تحسنه وتتفوق فيه، وأن تبتعد بصورة خاصة عن الكتابة في «الإسلاميات» التي تطرقها بين الحين والآخر. فالموضوع الأول — النقد الأدبي والفني — في تقديره وتقييمه على نحو لم [illegible] يتوافر لغيرها [illegible] دراستها ومتابعتها، واهتماما، وتعبيرا. أما الموضوع الآخر — الإسلاميات — فإن صافي ناز تطرقه، حين تطرقه، بعاطفة دينية قد تكون جياشة متدفقة لكن تناولها لما تكتب فيه لا يكون بالضرورة هو تناول المتمكن الذي يمتلك الأدوات اللازمة لمعالجة مثل هذه الموضوعات المهمة.

•••

يمكننا أن نلاحظ، مع ذلك، قدراً من «الود» في ثنايا هذه المشاغبات المتبادلة بين كاتبينا البارزين. على سبيل المثال، نجد حسين أمين — في مقاله ذلك المشار إليه — ينتهز فرصة ليروي واقعة تشي بما تكنه صافي ناز له من ود، من الواضح أنه يبادلها إياه. يقول إنهما التقيا في إحدى المناسبات وفجأة اقترب منهما شخص ثالث هو الدكتور سعد الدين إبراهيم، فإذا بصافي ناز تواجه القادم قائلة بصراحتها المشهورة ما معناه — وفقا لما جاء في مقال السفير — إنها تختلف مع حسين أمين ولكنها لا تكرهه «أما أنت فإنني لا أطيقك»! ويكاد القارئ يلمس ما تنطوي عليه روايته لهذه الواقعة من رضا وارتياح.

في المقابل، يطالعنا هذا التعبير أو الصياغة «المتفقة» من لوم له بأنه «جنى» على أبيه كما جاء، صراحة، في عنوان المقال ولكنها صراحة لا تجرح، ربما تخدش، ولكنها لا تدمي وهو ما سيجعل القارئ يرحب بهذه «المشاغبات» الحميمة، ويستمتع بها أيضا !!

الهلال

- الارهاب هذا الاختراع العجيب
- متى يتوقف «الاهدار»؟!
- من يكسب الرأى العام!

اكتوبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات





القراءة
فى عصر الكومبيوتر

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة شعبان ١٤٢٥ هـ - أكتوبر ٢٠٠٤م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات





تصميم الغلاف الفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٥٥ دولارا. أمريكا وأوروبا وآفريقيا ٦٠ دولاراً. باقى دول العالم ٧٠ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

الهروب إلى الأمام!

لا أحد يعترض على «التجريب» بأى صورة من صوره ، أو معنى من معانيه ومصطلحاته ، فى الفن والأدب ، فضلا عن العلم ، فإن التجربة الناجحة تفتح بابا واسعاً للتقدم . ومن جرب شيئاً فانتفع الناس بتجربته قدم خيراً كثيراً ، وهناك شعار مشهور اسمه «التجربة والخطأ» .. ومن الخطأ يتعلم الناس وتنجح التجارب ..

ولكن التجربة الجديدة ينبغى على الأقل أن تكون قائمة على استيعاب التجارب العظيمة التى مرت بالإنسانية ، والتى تراكمت على مر التاريخ ، فإن التغير والتطور والتقدم لا يوجد معلقا فى الفضاء بلا جذور فى الأرض ، ولا يمكن لمن يجهل تجارب الأولين أن ينجح فى التجريب بلا علم ولا هدى..

أقول ذلك بمناسبة المهرجان السادس عشر للمسرح التجريبى الذى أقامته وزارة الثقافة ، فما جدوى التجربة والخطأ فى المسرح أو فى غيره إذا لم نستفد بها ، وما معنى التجربة إذا دأبنا على تكرارها؟!

لم يتح لجمهور المسرح التجريبى أن يستفيد شيئاً ، لسبب بسيط هو أن هذا الجمهور نأى عن عروض هذا المسرح التجريبى ، الذى أقيم للمرة السادسة عشرة هذا العام ، وكان له فى الأعوام الماضية دورات متتاليات انصرف عنها المشاهد أيضاً ، وربما عدم توافر المترجمين وتقديم معظم العروض باللغات الأجنبية هو ما أدى إلى انصراف الجمهور .

وحضر جمهور قليل العدد لمشاهدة مسرحيات التجريب العجيبة التى توافد أصحابها من كل أرجاء الأرض ونزلوا ضيوفاً على وزارة الثقافة . هذا فى الوقت الذى اقتطعت من ميزانية الثقافة الجماهيرية ستة ملايين جنيه.

وانصراف الجمهور من حوله ، يدعو للأسف وليس الشماتة.. فلا يكاد يوجد ناقد للمسرح له وزن إلا وتناول سلبيات هذا المهرجان وأبدى اعتراضه عليه ، ولم يتغير !! ،

وزخر المهرجان بتجاوزات فنية وثقافية ، كما زخر بعروض هزيلة من مختلف قارات العالم مع غياب الفرق التجريبية الأكبر والأفضل ، وظهر كأنه مهرجان لكل من «هب ودب» أو تجمع دولي للهواة مع رحلة مجانية لزيارة الأهرامات.

ولا تمل وزارة الثقافة من التجريب في المسرح ، وتتحدث عن حل أزمة السينما وأزمة المسرح ، وبدلاً من حل الأزمة تهرب إلى الأمام..

والمسرح التجريبي ، كما هو معروف ، خطوة متقدمة بعد رسوخ المسرح ، ونجاح عروضه ، وعودة الحياة إلى أعماله .

وأين نحن من هذا الذي يجري ؟، يرأس لجنة التحكيم مخرج أمريكي ، وأعضاء اللجنة هولندي وهندي وياباني وفرنسي وصيني وبرازيلي وكندية وإيطالية ومخرج جزائري ومصري فنان تشكيلي وليس مسرحياً! وتجري عروضه على أرضنا .

ويكرم المهرجان ناقدا بريطانيا ومخرجا بولنديا ومخرجا إيطاليا وممثلة فرنسية وفنانا نمساويا وكاتبا بلجيكيا وممثلة أمريكية .

وهل وصلنا إلى «المسرح .. عابر القارات» ، مثل الشركات متعددة الجنسيات ؟ وقفزنا إلى محطة «المسرح في زمن ما بعد الحداثة» ، ولم نتوقف لا عند قبل الحداثة ولا حتى الحداثة !!

ومن حقنا أن نسأل : ألم يكن الأجدى أن تجرب الوزارة نشاطها حول حل أزمة المسرح ، والبحث عن أسباب انصراف الجمهور عن المسرح الجاد ؟!

ويبدو أن البعض يرى أن «الدنيا مسرح كبير» كما كان يهتف يوسف وهبي ، ومادامت الدنيا مسرحا ، فكل شيء قابل للتجريب فوق خشبة المسرح، ، أهو تجريب أم تحديث للجمود ، وكل تجريب قابل للفشل ، وكل فشل يمكن تجرعه مثل الدواء .

وكل تجربة وأنتم بخير !

■

المحــــــرر

هــل آن الأوان

لعلاج الأهدار؟!

بقلم
د. مصطفى سويف

منذ أكثر من عشر سنوات (فى مارس سنة ١٩٩٣ على وجه التحديد) نشرت فى هذه المجلة الغرّاء مقالا عن أبعاد التخلف الاجتماعى ، تحدثت فيه عن الإهدار باعتباره واحدا من أخطر هذه الأبعاد. وقلت فى هذا الصدد ما يأتى: «يقصد بالإهدار هنا إضاعة ما يمكن أن ينّمى فيتعاظم نفعه. يصدق هذا القول على كل ما يمتلكه المجتمع من ثروة مادية وبشرية . وفى هذا الصدد لا تعوزنا الأمثلة، بل تنتابنا الحيرة إذ نحاول الاختيار من بين المعروض أمامنا مما لا يكاد يقع تحت حصر». هذا ما قلته منذ أكثر من عشر سنوات .

وأسأل نفسى الآن : أين نحن من الشهادة التى ينطوى عليها هذا القول؟ وتأتينى الإجابات من خلال شهادات متعددة لا شهادة واحدة.



شهادات فى أمر الإهدار :

من هذا الموقع أدعو القارئ إلى صحبتى فى الطريق إلى الإجابة عن السؤال المطروح وستكون رحلتنا سلسلة من الوقفات نستمع فيها إلى شهادات من عدد من مواطنينا ممن يعنيهم الشأن العام .

١ - شهادة أولى : (أحدث الشهادات)

فى شهر أغسطس سنة ٢٠٠٤ نشر الأستاذ نبيل على مقالا فى مجلة «وجهات نظر» بعنوان «نزيف العقول العربية .. رؤية معلوماتية». يدور المقال حول الثورة العاصرة فى تكنولوجيا المعلومات وما يصحبها من هجرة أصحاب العقول المؤهلة وخاصة من أبناء الدول النامية حيث يشيع توظيف طاقاتهم النقارة إلى الدول المتقدمة حيث تعنيا بتوظيف هذه الطاقات . ويختم الكاتب حديثه بقوله: «كل ما قيل حتى الآن من حديث نزيف العقول فى العالم النامى ينطبق ... على وطننا العربى...

وسنركز فى هذه الشطرة على بعض الملامح الخاصة بالمشهد العربى...» ويشير الكاتب هنا إلى ملمح رئيسى واحد تحيط به مجموعة من الشروط تزيد من صعوبة التحدى الذى تواجهه البلاد العربية. فأما عن الملمح فيتلخص فى أن هجرة الأدمغة العربية تتسم بأن هذه الأدمغة ترحل هنا كما يقول الكاتب بلا تذكرة عودة. ثم يضيف أن الإحصاءات تؤكد مدى تدنى نسبة العائدين من بين هؤلاء الراحلين «مقارنة بالصين والهند وماليزيا ... وتركيا». هذا عن الملمح. وأما عن الشروط التى تزيد من التحدى كما تواجهه البلاد العربية فتتلخص فى شرطين لابد لنا من مواجهتهما: الشرط الأول «أنه لا أمل فى إحداث تنمية عربية مستدامة دون توافر أهم عناصر بنيتها التحتية، ألا وهى العنصر البشرى، خاصة حالة المهارات العليا». والشرط الثانى أن «التحدى التكنولوجى الإسرائيلى والفجوة الرقمية بينها وبين البلاد العربية (يفرض) مزيدا من الاهتمام بقضية نزيف العقول». جدير بالذكر أيضا أن هذين الشرطين ينطبقان على حالتنا فى مصر، هنا والمدى الذى تمتد إليه الكاتب.

٢ - شهادة ثانية :

جاء في جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ مايو الماضي ما نصه :

«سادت حالة من الغضب أمس جلستي مجلس الشعب الصباحية والمسائية. واستنكر النواب عدم حصول الملف المصري على أي صوت في تصويت الفيفا. وطالب الدكتور زكريا عزمي عضو المجلس بالتحقيق في أسباب ذلك. ودعا إلى تقديم كشف حساب إلى المجلس. وقال إن ما حدث يُعد إهداراً للمال العام يستوجب المساءلة».

٣ - شهادة ثالثة :

وفي الأهرام أيضا بتاريخ ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٣ نشر المعلق الإعلامي المعروف الأستاذ محمد صالح مقالا متوسط الحجم بعنوان: «ملايين مهدرة على دراما فاقدة القيمة»، تناول فيه المسلسلات التليفزيونية التي عرضت في شهر رمضان السابق على هذا التاريخ. وجاء في ختام المقال ما نصه : «إن ما أصبح عليه حال الدراما التليفزيونية هذا العام والإنفاق المجنون بسبب ما يتقاضاه بعض العاملين بها ، والشللية في اختيار الممثلين، مع تجاهل الكثيرين، في حاجة إلى تدخل وزير الإعلام .... ليعيد إليها انضباطا وقيما غابت إلى حد كبير في العديد من مسلسلات هذا العام».

٤ - شهادة رابعة :

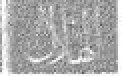
وفي الأهرام كذلك بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠٠٣ نشر الأستاذ إسماعيل الفخراني مقالا بعنوان: « اقتصادنا وثقافة الهدر» استهله بقوله: «من المستحيل لأي اقتصاد مهما كان قويا أن يستقر أو ينمو في ظل ثقافة الهدر. ومن منطلق الشفافية فإن اقتصادنا القومي يمر بأزمة، ولا أرى لها سببا أكبر من التبديد والهدر لمقوماته...». وعلى امتداد المقال أخذ الكاتب يضرب الأمثلة لنماذج الهدر في حياتنا، فبدأ بموضوع المخدرات ، ثم انتقل إلى إهمال رصف الطرق وترميمها وهو ما يؤثر في سرعة استهلاك مركبات النقل الخاص والعام وتعويق حركة المرور، ثم انتقل إلى موضوع السحابة السوداء، وختم المقال بقوله: «إن ثقافة الهدر باتت تهددنا في كل شئ حتى في لقمة العيش» .

٥ - شهادة خامسة :

في سنة ٢٠٠١ نشر الأستاذ الدكتور محمد أبو الغار كتابا بعنوان «إهدار استقلال الجامعات» عرض فيه بقدر معقول من التفصيل الخطوات التي خطتها السلطة الحكومية في عملية إهدار استقلال الجامعات (قبل وبعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢) . وأوضح المؤلف كيف أن هذا الإهدار جاء مقترنا بالتدهور الملحوظ في الأداء الجامعي بشقيه البحث والتعليم.

٦ - شهادة سادسة :

في فبراير سنة ١٩٨٩ نشر الكاتب الكبير الأستاذ السيد ياسين مقالا في مجلة الأهرام الاقتصادي بعنوان: «إعارة إلى الأبد» تحدث فيها عن موضوع إعارات أعضاء هيئات التدريس في الجامعات المصرية إلى البلاد النفطية (العربية)، فقدم في هذا المقال لوحة أدبية (أو ما يمكن أن يسمى دراسة حالة) تعبّر تعبيرا بليغا عن موضوع الإعارات وما ينطوي عليه من إهدار اجتماعي متكامل. وقد استند الأستاذ



ياسين فى رسم هذه اللوحة إلى رواية نشرها الأديب المبدع الأستاذ علاء الديب، تثير عديدا من القضايا الاجتماعية الخاصة بهجرة العقول المصرية إلى الخارج من خلال قناة الإعارة .

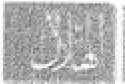
الدلالة الرئيسية لهذه الشهادات :

هذه ست شهادات مختلفة، قدمها ستة كتّاب أفاضل فى تواريخ متفرقة تقع على امتداد الخمس عشرة سنة الماضية (أى منذ ما قبل شهادتى بأربع سنوات) بدءاً من سنة ١٩٨٩ وحتى أغسطس من عامنا الراهن ٢٠٠٤، وتشهد كل منها (على غير اتفاق سابق بين أصحابها) بحقيقة الإهدار كما يقع فى مجالات حياتنا الاجتماعية المختلفة، من الشباب والرياضة، إلى الإعلام، إلى عالم المخدرات، إلى إدارة الطرق والمرور، إلى الجامعات، وكما يكشف عن نفسه (أى الإهدار) فى مظاهر مختلفة، منها نزيف العقول (من خلال الهجرة الصريحة والإعارات)، وإهدار المال العام (نقداً وعينا)، وإهدار استقلال الجامعات ، جدير بالذكر أن هذا الإهدار كما ورد ذكره فى مجموع الشهادات التى عرضنا لها يتناول ثروتنا القومية بشقيها المادى والبشرى. وأظن أنه من الواضح للقارئ أن البنود التى أوردناها ليست سوى أمثلة لبنود أشمل من ذلك كثيرا ، حتى لقد تكلم أحد السادة الشهود عما أسماه «ثقافة الهدر» ، وقال «إن ثقافة الهدر باتت تهددنا فى كل شئ حتى فى لقمة العيش». ومن الواضح أيضا أن هذه الشهادات الست التى أوردتُها يمكن زيادتها أضعافا مضاعفة، ولكن ربما كان الأفضل فى هذا المقام العمل بالقاعدة القائلة «خير الكلام ما قل ودل»

أسئلة وتعليقات :

تثير هذه الشهادات عدداً كبيراً من الأسئلة والتعليقات. ولست أدّعى أننى قادر على أن أقدم فى هذا المقال الإجابات الشافية أو التعليقات الوافية. ولكن كل ما أرجوه أن تحرك أسئلتى وتعليقاتى مزيدا من علامات الاستفهام والتعقيبات فى نفوس القراء وعقولهم عسى أن يتحقق من ذلك مزيد من الوعى الفعال الذى يجد طريقه بصورة أو بأخرى إلى قدر من الفعل المؤثر أو الخلاق .

والسؤال الذى يفرض نفسه مباشرة فى هذا الموضوع من المقال هو: إلى متى يظل الحال على ما هو عليه؟ الشهادات التى أوردتُها تغطى الخمس عشرة سنة الماضية، وتشير جميعها إلى أحداث وقعت قبل صدور هذه الشهادة أو تلك، كما أن هذه الأحداث امتدت إلى ما بعدها. ومعنى ذلك أن شواهد الإهدار تتوالى وتتراكم آثارها منذ عقود، خذ مثلا موضوع استقلال الجامعات ، فقد بدأت معاول الإهدار تفعل فعلها فيه منذ أوائل القرن الماضى (منذ معركة «الشعر الجاهلى» حول طه حسين) ، ولا نزال نرصد كل يوم ضربة معول جديد . وخذ موضوع إعارات أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات ، وهذا بدوره يجرنا إلى موضوع هجرة العقول... إلخ هذه الموضوعات كلها يصدق عليها (بأشكال وبدرجات مختلفة) ما قلناه عن إهدار استقلال الجامعات . ظاهرة الهدر بصورتها العامة إذن مستمرة منذ عقود ، رغم الأضرار المباشرة





وغير المباشرة التي تنجم عنها، ورغم الشكاوى التى لاتفتأ تصدر بشأنها من بعض الكتّاب أحيانا، ومن بعض أعضاء مجلس الشعب أحيانا، ومن المواطن العادى أحيانا ثالثة، لذلك يحق لنا جميعا أن نتساءل: إلى متى يظل الحال على ما هو عليه؟ أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج أولا إلى الإجابة عن سؤال آخر: من أين يستمد الإهدار عندنا طاقة الاستمرار هذه؟ أو ما هي الآليات والعمليات الفاعلة فى هذا الهدر؟

الآليات الفاعلة فى الهدر:

فى هذا المقام يحسن بنا ألا نقف عند مثال محدد بعينه، بل يلزمنا أن نقف عند ما يمكن اعتباره الآليات والعمليات الأساسية التى قامت وتقوم وراء نماذج الإهدار التى أشرنا إليها جميعا، وقد أوردنا (من خلال الشهادات الست التي ذكرناها) ثلاثة أنواع من الإهدار: إهدار المال العام، وإهدار العقول (أو ما يعرف بنزيف الأدمغة)، وإهدار استقلال الجامعات.

فأما فى موضوع المال العام فهناك آليتان أساسيتان، هما: الشللية، وإدراك المال العام على أنه المال السايب، وهو ما يغرى بسوء التصرف.

وأما فى موضوع إهدار العقول فالآلية الأساسية تتمثل فى التلاقى بين مصلحتين انتهازيتين، هما: مصلحة الطالب، أعنى طالب السفر الذى يحلم بتغيير وضعه المالى/الاقتصادى تغييرا جذريا سريعا بغض النظر عن أشياء أخرى كثيرة (مثل مصلحة الأسرة ومصلحة العمل.. إلخ)، والمصلحة الثانية هي مصلحة السلطة التي اكتشفت في موضوع الإعارات (أو الهجرة الكاملة، أو تصدير العمالة.. إلخ) صيغة ممتازة لضرب عدة عصافير بحجر واحد، من هذا القبيل الإقلال المصطنع من حجم البطالة، وتقليل الأصوات الساخطة على سوء الأحوال المعيشية فى الداخل، والتشتيت أولا بأول لبعض ذوى العقول الواعية/النافذة وإلهاؤهم ببعض المكاسب الأنانية، بالإضافة إلى فتح الباب أمام مجيء الدولارات من تحويلات المعارين والمهاجرين إلى ذويهم والمتعلقين بمصالحهم فى الداخل.

وأما فيما يتعلق بإهدار استقلال الجامعات فالآلية الأساسية هي البطش باسم السلطة، سلطة الحكومة هكذا صريحة في معظم الأحوال. وقد اختلفت التبريرات من عهد إلى عهد، ولكن تعددت العهود والبطش واحد.

الآليات الفاعلة فى الإهدار بأنواعه الثلاثة التي أوردناها إذن هى: الشللية، وإدراك المال العام على أنه مال لا صاحب له، والتقاء مصلحتين انتهازيتين (مصلحة الحاكم ومصلحة المحكوم)، والبطش باسم السلطة. ولاشك فى أن هذه الآليات تتداخل أحيانا فيما بين بعضها بعضا، ولكن مع ذلك تظل لكل منها هويتها.

عود على بدء

وأعود الآن إلى السؤال الذى بدأت به هذا المقال: أين نحن من الشهادة التى قلتها منذ أكثر من عشر سنوات عن الإهدار كواحد من أسوأ أبعاد التخلف فى حياتنا؟ الشهادات الست التى أوردتُها تقدّم الإجابة واضحة لا لبس فيها: لايزال الإهدار مستشريا فى كثير من جنبات حياتنا. ويترتب على هذه

الإجابة مباشرة سؤال جديد:

هل نحن نتحرك «محلك سر»؟ (ومن يدرى ربما نتحرك أحيانا إلى الخلف!).

فإذا كان الأمر كذلك فلابد من إثارة سؤال يبدو شديد الجذرية، لكنه سؤال مناسب تماما لهذا الموضع فى تسلسل عناصر المقال: لماذا نكتب؟ أعنى أنا وأمثالى من السادة أصحاب الشهادات التى أوردتها والشهادات المماثلة التى أوردها. نعم، لماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟

الكتابة العامة: الأهداف والوسائل:

يأتى فى مقدمة أهداف الكتابة العامة، وخاصة فى مجال النقد الاجتماعى، إسهام الكاتب بجهده الفكرى فى تغيير بعض الأوضاع الاجتماعية إلى ما يعتقد أنه الأفضل. وفى السبيل إلى ذلك يستعين الكاتب بعدد من الوسائل، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ثلاث وسائل هى:

(أ) تحديد التغيير المطلوب، موضوعه، واتجاهه، ودواعيه.

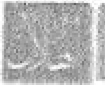
(ب) اقتراح الحل، واقتراح الصورة التى يؤمل فى حلولها بعد التغيير.

(جـ) بيان الأضرار فى الحاضر والمستقبل الناجمة عن بقاء الحال على ما هو عليه.

هذه هى الذرائع الرئيسية التى يتقدم بها الكاتب لبيان حقيقة التغيير الذى يطالب به وأهميته، وأسلوب الكاتب فى ذلك هو الخطاب المكتوب، وهو أسلوب متحضر ما فى ذلك شك. وهذا بالضبط مانلمسه فى مجموعة الشهادات التى أوردتُها. وقد أصدر أصحاب هذه الشهادات شهاداتهم كخطابات موجهة إلى من بيده سلطة اتخاذ القرار، بالتصريح أحيانا وبالتلميح أحيانا أخرى. ومع ذلك فقد ذهبت خطاباتهم ولاتزال تذهب أدراج الرياح، فلا من استجاب، ولا من وعى، ولا من سمع. فكأننا إذن بكتاباتنا العامة نلهو، ونشرك القراء معنا فى نوع من اللهو العبثى!

فى هذا الموضع المفصلى من المقال أجد من واجبى أن أوضّح نقطة بالغة الأهمية، وهى تتعلق بالمنطلق الذى أكتب وأتكلم انطلاقا منه، فى موضوع الإهدار هذا، وأعتقد أن غيرى من الكتّاب يكتبون ويتكلمون انطلاقا منه كذلك (وهو ما أستشفهُ من الشهادات التى أوردتها).

نحن نكتب من منطلق المشاركة الإيجابية فى الحياة الاجتماعية. ولمزيد من الإيضاح: نحن ندرك الحياة الاجتماعية على أنها فى جوهرها مشروع كبير، يتعاون أعضاؤه بأدوارهم الاجتماعية فى تسيير الحياة فى نطاقه بأفضل قدر من السلاسة، سواء أكان هذا التسيير على سبيل النمطية، أو على سبيل التغيير أو التطوير. وللتعاون فى هذين السبيلين أساليب ووسائل يختار كل منا من بينها ما يتناسب والدور الموكول إليه. من منطلق هذا المنظور نتكلم نحن الكتّاب (الملتزمون). وهذا يعنى أننا لا نتكلم من منطلق النقد العدوانى، ولا من منطلق الإملاء، ولا من منطلق ادعاء الوصاية، ومرة أخرى نقول: نحن نكتب من منطلق المشاركة فى تسيير دفة الحياة فى المجتمع بالقدر الأمثل من السلاسة. ذلك لأننا نعى المعنى الإيجابى للانتماء، ونعى ما يترتب على هذا المعنى من التزام،





ونعي كذلك عواقب الاحتقان، الذى هو عكس السلاسة.

الرسالة المرجوّة من هذا المقال:

على أى حال أعتقد أنه آن الأوان لكى أضع النقاط على الحروف فى الموضوع:

فالرسالة التى يحملها المقال الراهن إلى كل من بيده سلطة اتخاذ القرار فى موقع ما يمكن تلخيصها فى النقاط الآتية:

أولا: أن الإهدار حقيقة واقعة فى حياتنا الاجتماعية/ السياسية/ الاقتصادية.

ثانيا: أن هذه الحقيقة تقع على مشهد منا جميعا، نحن الذين نتكلم ونكتب، وغيرنا كذلك ممن يقفون فى صفوف الأغلبية الصامتة.

ثالثاً: أن هذه الحقيقة تطال معظم مجالات حياتنا الاجتماعية.

رابعا: أن هذه الحقيقة تمتد لتشمل ثروتنا القومية، المادية والبشرية والمعنوية.

خامسا: أن هذه الحقيقة تناولها ولايزال يتناولها بالشكوى المكتوبة والمنطوقة عدد من رموز الفكر لدينا من ذوى التوجهات التوجهات الاجتماعية/ السياسية المتباينة.

سادسا: أن الهدر بأبعاده الحالية، وبتراكماته التى وصل إليها فى جميع المجالات التى ينخر فيها لا يمكن أن يستمر هكذا إلى مدى طويل قادم، لأن الدلائل تشير إلى أن كثيرا من المؤسسات أصابها خراب شديد من جراء ذلك بحيث باتت عاجزة عن أداء وظائفها وهو ما يدخل بنا على غير وعى منا فى مزيد من التخلف.

سابعا: لمعالجة ظاهرة الهدر بأبعادها الحالية يجب أن نتعلم كيف ننظر إلى الظاهرة فى كيانها الكلي المتكامل، وأن نتخلى عن النظر إليها فى هذه الجزئية وحدها أو تلك، لأن هذه النظرة الجزئية من شأنها أن تشتت وتبدد الجهود التى ينبغى أن تتجه إلى اقتلاع الجذور الفاسدة الكامنة وراء المظاهر.

ثامنا: أن الامتناع عن الاستجابة بالصورة الواجبة (من حيث التوجه والتوقيت) لأصحاب الشهادات المخلصة محبط لهم وللتيار العقلانى فى الإصلاح كما يمثلونه. وهو فى الوقت نفسه إهدار لفرصة الاستفادة ممن لا يطلبون جزاء ولا شكورا.

تاسعا: أن الحكم الرشيد (فى أى مستوى من مستوياته) يجب ألا يضيق بالنقد الاجتماعى/ السياسى، بل أحرى به أن يعتبره مكملا لمهامه الأصلية التى تستهلك عادةً معظم وقته وجهده، ويضيّق مجال رؤيته شاء أم أبى، فإذا بالنقد الاجتماعى/ السياسى يفتح أمامه نافذة لرؤية جانبية يشهد من خلالها مشهداً لم يكن يحسب له حسابا.

عاشرا: يجب التنبه إلى طبيعة المرحلة التاريخية التى نمر بها الآن، نحن فى مصر فى الوطن العربى، فى الشرق الأوسط. وهى فترة تتسم أساساً بانفتاح شهية قوى عالمية متعددة إلى عودة الاستعمار، كما تتسم بالاستماتة فى السعى العملى لإشباع هذه الشهية. ولها فى هذا السبيل أساليب تستغل بها نقاط الضعف استغلالا ماهراً فى الدولة التى يتقرر افتراسها.

ولا أظن أن الإهدار بالصورة التى يمارس بها لدينا يمكن أن يكون رصيداً إيجابيا لنا فى مواجهة الأمواج العاتية. ■

أقوال معاصرة

« تخلفنا ثقافى، نحن نريد أن نجيب عن أسئلة الأبناء والأحفاد بأجوبة الأجداد » !!

المفكر السورى جورج طرابيش

« الحرية كشفت عن عمق التدهور الروحى الذى قادنا إليه الاستبداد »

فاتسلاف هافيل الأديب التشيكى ورئيس الجمهورية السابق .

« التهديد بالفوضى يأتى من داخل مجتمعات فقيرة تعرف كيف تتناسل وتتكاثر، ولاتعرف كيف تؤمن وجبة الغداء أو العشاء»

المفكر غسان الإمام

« علينا أن نعمل بجد ودأب، حتى يفهم الناس ضرورة الاحتفاء بالاختلافات بين بنى بشر، وليس إدانتها »

المخرج الأمريكى ستيفن سبيلبرج

« إذا كنا نعرف جيداً أننا، كعرب، مستهدفون فلماذا نفعل ما يغرى الآخرين بنا ؟ »

الأديب نجيب محفوظ

« من الطبيعى أن تظهر السلبيات فى حركة الحياة الدائمة، لأنه لايمكن أن تكون الحياة مثالية، ودائما هناك هنات وهنوات »

فنان الملهاة السورى ياسر العظمة

« أعتقد أنه لايوجد أحد مؤهلا حقا لرئاسة الولايات المتحدة »

تيريزا هاينز
زوجة «جون كيرى» مرشح الحزب الديمقراطى لرئاسة الولايات المتحدة

« عدم نشر وبث انجازات الإرهابيين، يخنقهم، فيموتون بالسكتة التعتيمية.»

مارجريت تاتشر
رئيسة الوزراء الأسبق

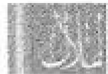
« المشاركة السياسية أصبحت رفاهية لايقدر عليها الباحثون عن رغيف العيش »

السفير مخلص قطب
أمين عام مجلس حقوق الإنسان فى مصر


فاتسلاف هافيل


ستيفن سبيلبرج


مارجريت تاتشر



المثقف العربى والمستقبـــــل

بقلم
جميــل مطــر

تحـديات كـثـيـرة تواجـه الإنسـان العـربى فى حاضره. وإن استمرت محاولات التغيير فى المجتمع وفى الدولة وفى الموارد وعلى مـسـتـوى الفـرد بالمعدلات الراهنة فالأغلب أن هذه التـحـديات لن تتخلى عنا وستواصل معنا المسيرة نحو المستقبل، وستنضم إليها مشكلات وتحديات أخرى جديدة لا نستطيع التنبؤ بها من الآن فـأكـثـرها من صنع متغيرات لا نراها.



غـيـر جـائز إهمـال تحـديات المستقبل لأن بعض متغيرات المستقبل لم تظهر بعد علي شاشة الحاضر، فمهمتنا كباحثين أو مجتهدين أن نكشف عن الظروف الملائمـــــة للاستعداد للتعامل مع المستقبل ونعمل علي تشكيل وعي بأهمية هذا الاستعداد رغم كل الأجواء المناوئة. نعرف أن الفرد الساكن كالمجتمع الساكن، كالفرد البائس والمجتمع البائس، يكره المستقبل، ولا يثق به ولا يتمناه. مشكلات هذا الساكن أو البائس أو اليائس لن يحلها - من وجهة نظره - إلا قوة من وراء الطبيعة، أي من وراء الحاضر ومن وراء المستقبل، ولذلك يحاول باستمرار تأجيل مواجهتها. ويزداد إقباله علي التأجيل كلما تكالبت مشكلات الحاضر وتراكمت السلبيات وشلت أدوات وقوي التغيير وكلما ازداد المجتمع بؤساً وازداد الفرد يأساً تعمق الشعور بالكراهية للمستقبل، وكثيراً ما يتجاهله الفرد كلية، ويستعيض عنه بأحلام عن حياة أخري في عالم آخر

كله سعادة ووفرة، أو متناسخاً في مكان آخر وزمن وجسد آخر. «حياتي حاضري»، هذا الشعار يؤمن به اليائس والظالم معاً، اليائس ليأسه وتشاؤمه والظالم لخشيته أن يفقد في المستقبل مميزات الحاضر وامتيازاته ونعمه ووجاهته.

عند التفكير في التحديات التي تواجه الإنسان العربي تبرز عشرات المسائل التي تتسبب في تعقيد المسالك نحو المستقبل. ووجدت نفسي أعبر عن هذه المسائل في صيغة ثنائيات ما لم نحل تناقضاتها أو تداخلاتها سنبقى في حاضرنا ساكنين لا نتحرك، أو نزداد تدهوراً نحو أعماق أشد انحطاطاً.

أبدأ بثنائية «العصر الذهبي والحاضر البائس». أقصد بالعصر الذهبي هذه الإشارات المحمومة أحياناً والتي تتخلل معظم خطاباتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية وحتى الاقتصادية عن أيام مضت، يدعي الفرد أنه كان فيها أحسن حالاً مما هو عليه الآن. الإنسان في مجتمعاتنا العربية الذي يعيش ظروفاً قاسية يتحدث غالباً عن «عصره الذهبي». هذا العصر الذهبي ليس واحداً في كل الأحوال ولا عند كل الناس. هناك الحنين إلى الماضي. وأمره مقبول ومفهوم. وأحياناً قد يكون من المفيد تشجيع الناس على هذا الحنين إلى الماضي. فالحنين وسادة يضع الإنسان رأسه عليها من أجل لحظات تخفف معاناته أو تجدد طاقته. وهو مفيد لأنه يرطب جفاف الحاضر ويهدئ من جفائه وقسوته. والإنسان خصوصاً الكادح أو المظلوم لا يتذكر عادة إلا الجانب الطيب في هذا الماضي، وتختفي من ذاكرته الجوانب المظلمة أو القاسية.

العصر الذهبي

ولكن ليس كل خطابات العصر الذهبي حنيناً إلى الماضي. فهناك بين المشيعين للعصر الذهبي من يمكن تسميتهم بالأيديولوجيين. هؤلاء يمثل العصر الذهبي قاعدة معتقدهم السياسي أو الديني أو القومي أو الوطني. يضفون على هذا الزمن مسحة قداسة تجعل الاقتراب منه بالنقد خروجاً غير لائق عن هذه العقيدة أو مساً بها، ويعتبرون الأيام أو العهود التي لا تنقل حرفياً عن العصر الذهبي أياماً وعهوداً خارجة عن التاريخ، إن لم تكن خارجة عن العقيدة. هنا تكمن خطورة تقديس العصر الذهبي، فالحاضر إن لم يندرج في إطار العصر الذهبي فكراً وممارسة مرفوض. وهكذا المستقبل. ويرى هؤلاء المتشيعون أن المخططين والمبدعين والمفكرين الذي يتصورون مستقبلاً لا يعتمد منظومات العصر الذهبي إنما يقودون شعوبهم إلى التيه والضياع.

على الجانب الآخر من الثنائية يوجد الحاضر. هنا أيضا يوجد نوعان من التفكير. نوع يقدس الحاضر ونوع يراه مرحلة نحو شيء آخر، أو يراه قابلا للتطوير. الحاضر بالنسبة لمتطرفيه أمر واقع، لا بديل له. وبالتالي يجب تقديس الحاضر تحت عنوان الواقعية. ومن يخرج عن هذا الإطار فقد مس الاستقرار والتقدم بالسوء مسا خطيرا.

هؤلاء المتزمتون في فهم الحاضر، كالمتزمتين أيديولوجيا في فهم الماضي تحت عنوان العصر الذهبي، لا يؤمنون بالتغيير، وبالتالي يندر أن يوجد شخص يقدس الحاضر وتنطبق عليه الصفة أنه إنسان تقدمي أو متحرر أو عصري. أما الإنسان العربي الذي نحلم بتكاثره حاضراً ومستقبلاً، فهو إنسان يعيش في الحاضر بولع وحب ولكن بدون تقديس، ويحن إلى الماضي في لحظات سعادته أو بؤسه بدون أن يقدس هذا الماضي أو يستدعيه ملازماً لحاضره، يؤمن بالتغيير أي بالبحث المستمر عن أهم متغيرات المستقبل الراقدة في حاضره، فبإيمانه بالتغيير يضع لبنات المستقبل ويساهم في صنعه. إن التطلع إلى المستقبل ووضع رؤية مستقبلية شرطان لا غنى عنهما لحاضر يبشر بالتحسن والارتقاء، ويسعى لانفتاح حقيقي وليبرالية رشيدة.

وكما أن بعض أنصار العصر الذهبي متزمت أيديولوجياً وبعض أنصار الحاضر متزمت أيديولوجياً أيضاً (كالواقعيين المفرطين في واقعيتهم)، فهناك أيضاً المستقبليون المتزمتون، وإن كانوا غير أيديولوجيين. هؤلاء يطلق عليهم أحياناً اليوتوبيون الذين يبنون مستقبلاً خيالياً ويحلمون بأوضاع لا جذور أو أساس لها في الحاضر. العلماء الذين يتحدثون اليوم عن مستقبل تجرى فيه محاولة صنع كائن بشرى، ليسوا يوتوبيين لأنهم يستعدون بالفعل لاختراق حاجز الممنوعات «المستقبلية». هؤلاء يضعون هدفاً معيناً ومعه في الوقت نفسه برنامج أو خطة للوصول إلى هذا الهدف. اليوتوبيون، على العكس، هم الذين يؤمنون بتحقيق المستحيل ولم يعدوا له. يحلمون فقط. بمدينة فاضلة أو عالم مثالي.

الحنين إلى الماضي

نعيش في وقت معاناة من تعقيدات قضايا تتعلق بالمجتمع وبالفرد في آن واحد. مجتمعاتنا ليست في أفضل أحوالها والفرد العربي في أسوأ أحواله. وفي مثل هذه المراحل من تطور المجتمعات يصبح الإنسان أشد ميلاً إلى الحنين إلى الماضي أو العودة إلى العصر الذهبي. عندئذ يبدع الإنسان في تصوير هذا الماضي، ويتفنن في طرق إعادة بعثه. فجأة يصير هذا الماضي

أكثر بهجة وأوفر رخاءً وأعم عدالة وأزهى أياماً، إمبراطورية تمتد من أقاصى الشرق إلى أقاصى الغرب، وفى ظلها يسود العدل المطلق والسلام الكامل. وتزداد الدعوة إلى الماضى الذهبى مع ازدياد عجز الفرد والقيادات عن إحداث التغيير. أما الفرد غير العادى «وهو المتميز سلطة أو ثروة» فمصلحته فى استمرار الحاضر، أى الوضع القائم. وفى سعيه لحماية سلطاته ومصالحه سيقاوم التغيير وسيكره الدعوة للاستعداد للمستقبل، ولكنه مستعد لدعم بعض تيارات الماضى الذهبى لمواجهة تيارات التغيير ثم ينقلب عليها، ومستعد لدعم بعض التيارات الناطقة باسم المستقبل لمواجهة أيديولوجيات العصر الذهبى ولكنه لن يتأخر فى الانقلاب عليها ومحاربتها حين يتحقق له النصر على تيارات الماضى الذهبى. وأحياناً يلجأ إلى تشجيع جماعات «الهوس» لإلهاء الناس وتشتيت الطاقات الفكرية بعيداً عن ساحة أزمات الحاضر وتعقيداته.

***

أحد أهم التحديات، القائمة والمستمرة معنا، هو التخلص من تأثير هذا التراوح بين الماضى والحاضر. لقد توقف تقدم التعليم وربما تدهور بسبب هذا الخلاف. يقال إن الجامعات كانت فى وقت من الأوقات مجانية والأساتذة كانوا على مستوى غربى راق، وأن التعليم كان للنخبة فقط. ويقال إن الكتب كانت تصدر بدون رقابة، ووجدت حرية أوفر للتعبير والبحث العلمى. كان المجتمع يثور ويتمرد ويقف إلى جانب حرية التعبير وحرية النقد وحرية الكلمة. وفى عصور أزهى كانت حركة التأليف والترجمة على أعلى مستوى، وتبادلنا مع أوروبا أفكار الحضارتين الإغريقية والإسلامية. ولا يضير الحكومات العربية نزوع البعض إلى «استحلاب» هذا النوع من الحديث عن «العصر الذهبى» أو الحنين إلى الماضى، وهى غير معنية إن كان هذا النزوع يعطل مسيرة التقدم ويعرقل تحديث الأفكار والعقائد.

نعرف أن الحنين إلى الماضى يفيد قضية التغيير أو الإصلاح عندما تجرى مقارنة الماضى بالحاضر أو عند استخدامه كمجموعة دروس يؤخذ منها ما ينفع لتفادى تكرار تجارب سابقة تسببت فى مشكلات أو أدت إلى كوارث. بمعنى آخر يمكن استخدام الماضى كمعمل تجارب عن المستقبل، ولكن يجب تفادى استخدامه كجهاز لقياس جدوى ما نقوم به لتطوير الحاضر واستعجال المستقبل، أو لنعيد إنتاجه فى حاضر «ماضوى» أو فى ماض مبعوث.

عندما نتحدث عن العصر الذهبى

والحاضر والمستقبل وعندما نتحدث عن المثقف والسياسة وعن الأمن والحرية فإننا في الواقع نتحدث عن تحديات الفرد المشارك في المجتمع أو الفرد المثقف بالمعنى الواسع. فالمثقف يرتبط في مجتمعاتنا بالسياسة منذ اللحظة التي تفرض الظروف عليه الارتزاق من «ثقافته» أو عندما يتولد لديه الطموح لبث أفكاره ومعتقداته على عدد أكبر من الناس أو حين تقرر السلطة السياسية والمجتمع، معاً أو كل على حدة، منحه صفة «مثقف». ومع ذلك أظن أن المواطن العادي في مصر على سبيل المثال استطاع أن يحرر نفسه من عدد من قيود السلطة السياسية على عكس المثقف الذي فشل في معظم محاولاته تحرير نفسه. تحرر الإنسان العادي لأن السلطة السياسية نجحت خلال العقود الأخيرة في تحرير نفسها من كثير من مطالب الفرد العادي وواجباتها تجاهه. نلاحظ أن ملايين غفيرة من المصريين لم تعد لها علاقة وثيقة بالسلطة كالعلاقات التي قامت على امتداد عقود كثيرة، وربما قرون. اللافت للنظر أن المواطن المصري العادي، الفلاح والعامل والموظف وابن الطبقة الوسطى الكادحة، وهي طبقة جديدة في مصر، صارت تفصله عن السلطة السياسية مسافة واسعة إلى حد غير مسبوق في التاريخ السياسي والاجتماعي المصري. أما المثقفون فمازالت علاقاتهم بالسلطة قوية. قليل من المثقفين هم الذين يحاولون الابتعاد عن السلطة ومسالكها وإغراءاتها، وأقل منهم المثقفون الذين نجحوا في قطع علاقاتهم بها. وزاد حرص السلطة السياسية على توثيق روابطها بالمثقف عن طريقين: الاختراق الأوسع لمساحته الشخصية، وزيادة درجة اعتماده عليها وخوفه منها.

شكوى متبادلة!

في أوقات سابقة، كانت علاقات المواطن المصري بالسلطة متعددة ووثيقة ومتصلة بحياته اليومية. كانت هناك التسعيرة التي تفرضها الحكومة حماية للفرد العادي من جشع التجار وتقلبات السوق العالمية والمحلية، وألغيت واقعيا. كانت هناك حماية ضد الفصل التعسفي للعمال فرفعت الحماية أو قلت. كانت هناك رعاية صحية مجانية، ولم يبق منها إلا العنوان. وكانت هناك تشريعات تحمي المستأجرين الزراعيين والملاك الصغار، وهم الأغلبية الساحقة من الفلاحين، فتغيرت القوانين لصالح فئة قليلة العدد من كبار الملاك. كانت الحكومة مسئولة عن توظيف خريجي الجامعات والشباب فتنازلت عن هذه المسئولية وألقت بعبئها على القطاع الخاص، الذي عجز عن تحمل المسئولية

فـفـقـد ثقـة الفـرد العـادي. الخـلاصـة أن المواطن العـادى ضـعفت علاقتـه بالدولة، وأصبح نظريا أكثر اعتمادا على نفسه. الوجـه الآخـر لـهـذا التطور المهم هو أن الدولة اسـتـغنت عن دورهـا تجـاه الفـرد، وفى أحـيـان مـتـعـددة صـارت تقف منه موقف مخاصمـة ، أو على الأقل صارت تتـأفف منه وتشكو. ولا تـخـفـى أدبـيـات الدولة فى مصر ومنها الخطاب الرسمى، كمـا فى غيرهـا من الدول «المتوقـفـة» أن هذا الفـرد العـادى يشكل عبـئـا عليـهـا . تزدحم به المرافق العامة. ويستهلك المياه والكهرباء بأكثر مما يستحق ويحتـاج، وهو دائم الشكوى والإلحـاح على تلبـيـة حـاجاته، ولا يكف عن الإنجاب والتكاثر. وعاد يمارس هواية قديمة، هواية التمرد الصامت.

فى مـقـابل هذه العلاقـة المتنامـيـة الضـعف بين السلطة والفرد تقـوم الآن عـلاقـة قـوية وتزداد قـوة مع الزمن بين المثقف والسلطة السياسية. المفارقة هنا أنه فى ظل علاقة قوية بين الدولة والفرد العـادي كـانت الأغلبـيـة السـاحـقـة من الشعب مستفيدة، فالتسعيرة والقوانين ضد فصل العمال وحماية المستأجرين وصـغـار الملاك لم يقتـصـر عائدهـا على الفرد، بل كانت لكل الناس أو أغلبيتهم الساحقة ، بينما فى العلاقة القوية بين المثقف والسلطة تعود الفائدة إلى فرد بعينه وفى أحسن الأحوال جماعة بعينها داخل طبقة . أمامنا - إذن - تحدٍ غير بسيط. ففى وقت يتطلع فيه الفرد العادى الى المثقف واضـعـا فـيـه أمل الإصـلاح والتغيير، نجد المثقف وقد اشتدت حاجته إلى الدولة. وبالتـالى فـقـد بعض رصـيـد قـوته كـعنصـر تغـيـيـر. وسـبق أن طرح مثقفون موقفا من هذا التحدى يقوم على ضـرورة اندمـاجـهـم فى الدولة وتكثـيف دورهم السياسي مراهنين على أنهم أكثر قدرة على إحداث التغيير لو كانوا داخل السلطة ودائرين فى فلكها.

مـرة أخـرى يلح السـؤال كـيـف سـيـتمكن المثقف فى مـجـتمـعـاتنا من التأثير على عملية التغيير والإصلاح إذا لم يستقل عن السلطة صاحبة المصلحة فى عدم التـغـيـيـر أو فى إبطائه أو فى انتـقـاء مـا يناسـبـهـا . وإذا سلمنا بأن الاستقلال عن السلطة طلب غير واقعى. فهل يجوز الطلب إلى هذا المثقف ليواجه التـحـدى أن يضع مسـافـة تقلل قـدر الإمكان من هيمنة السلطة على سلوكياته وتصـرفـاتـه وإرادته. وأظن أن تجـربة الشهور الأخيرة ترجح أن المثقف العربى يواجـه صـعـوبات أكثـر مما توقـعنا فى محاولته قيادة عمليتى التغيير والإصلاح. والسـبـب يعـود إلى هذه الشـبـكة من العـلاقـات التى يقـيـمـهـا مع السلطة السـيـاسـيـة. ربما يبدو أن الدعوة التى

تصدى لنشرها عدد من المثقفين لإقناع زملاء لهم بتجسير الفجوة بين المثقف والسلطة، تتراجع لصالح نداء بالعودة عن هذه الدعوة والسعى لتوسيع المسافة الفاصلة بين السلطة والمثقف، إذا صدقت النوايا فى الإصلاح.

***

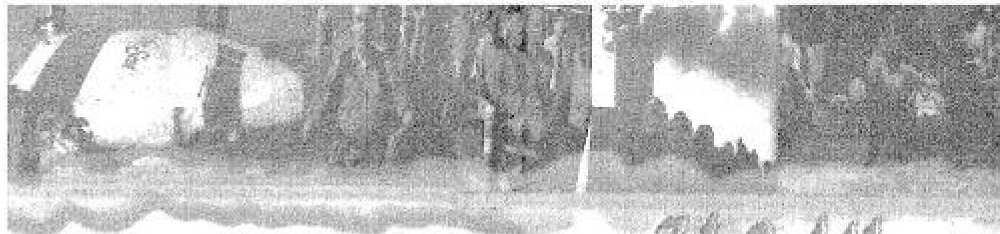
على امتداد نصف القرن الثانى كانت الحرية طرفا فى ثنائية ثالثة: ثنائية الحرية مقابل الغذاء والملبس والتعليم والتوظيف. لقد عقد أكثر من نظام سياسى عربى مع مواطنيه ما يشبه العقد الذى يسمح له «باستعارة» الجانب الأعظم من حرية المواطن مقابل أن تضمن له الحكومة حدا أدنى من ضرورات الحياة يسمح له بأن يحافظ على حد أدنى من الكرامة. والقوة القاهرة بأدوات القمع والإقناع معا. ولكن يبدو أن بعض معالم عقد جديد تلوح بالتدريج. وبناء على التجربة الأمريكية وتجارب أخرى فى الغرب نستطيع أن نتصور أن العقد الجديد سوف يسمح للدولة العربية بأن تعود لتستعير نفس الجانب الأعظم من الحرية الذى كانت تستعيره من المواطن فى عقدى الخمسينيات والستينيات وبعض السبعينيات مقابل غذائه وملبسه وتعليمه وتوظيفه. ولكن هذه المرة فى مقابل أمنه وأمن الدولة.

أصبح لدى معظم الأنظمة الحاكمة العربية والإسلامية المبرر الدولى لتستمر فى تكبيل حريات المواطنين، أو الزيادة فيه. فالدولة الأعظم حاملة رسالة نشر الديمقراطية وحرية الإنسان والحقوق الإنسانية تعلن بصوتها، وهو الأعلى فى العالم، أن ظروفا استثنائية جعلتها تتراجع عن بعض مبادىء هذه الديمقراطية وهذه الحقوق الأساسية من أجل هدف لا يقل سموا ورفعة وهو أمن المواطن الأمريكى. لقد وجدت أمريكا نفسها فى تناقض يتعين عليها حله. كانت قد قررت قبل شن الحرب على الإرهاب إحداث تغيير جذرى فى الشرق الأوسط. قررت أن يتم التغيير عن طريق إجبار حكومات العالمين العربى والإسلامى على تقليص نفوذها داخل مجتمعاتها، والسماح بمساحة واسعة من حرية المجتمع والمواطن. ودمج القوى الهامشية والعرقية والطائفية فى العمل السياسى، وتغيير القوانين لصالح دولة أقل قوة ومواطن ومجتمع اقل ضعفا. ثم وقعت احداث ٩/١١. لم تتغير نية تغيير الشرق الأوسط، بل على العكس تعمقت. ولكن تغيرت الأولويات. لم تعد حرية المواطن وتقليص سلطة الدولة تتصدر قائمة التغيير فى دول الشرق الأوسط. إلا أن هذا التغيير فى الأولويات لم يصل الى وعى الفرد إلا بعد ان كان قد رسخ

فى وعيه حقه فى الحرية الفردية والسياسية فى مواجهة السلطة السياسية. هذا الفرد لم تصل اليه بعد تفاصيل الانباء عن القوانين والتشريعات التى صدرت فى الولايات المتحدة لتقييد حرية المواطن وزيادة قوة الدولة، وخصوصا سلطات الأمن. ولكن وصل وبالسرعة الواجبة الى علم المسئولين فى العالم العربى والإسلامى أن أمريكا غيرت الاتجاه وها هى تقدم نموذجا للعلاقة بين السلطة والمواطن فى ظل حالة حرب طويلة مع الإرهاب، ولما كانت معظم دول الشرق الأوسط تعيش او تزعم انها تعيش حال إرهاب ممتد فقد وجدت الخلاص فى هذا النموذج وشجعتها اسباب منها اولا، عودة مفهوم اولوية الأمن فى ثنائية جديدة من اجل ضمان استمرار تسلط الدولة. ثانيا ان الامن صار مطلبا دوليا وليس فقط هدفا للسلطة او هدفا للمواطن، بمعنى اخر اصبحت مبادلة الامن بالحرية مطلوبة ومقبولة دوليا ايا كانت الإجراءات التى ستتخذها الدولة لتقييد حرية المواطن فى سبيل تحقيق الأمن. ثالثا وهو الأهم ان الأمن قدرة وكفاءة وامكانية يسهل توفيرها بآليات وتقنيات منها الامكانات البشرية والاتصالات الحديثة وقوانين الطوارىء والتشريعات على عكس الغذاء والمسكن والتعليم والصحة وغيرها من المطالب الشعبية التى عجزت دول العالم الثالث عن توفيرها بشكل مرض للمواطنين.

تحديات كثيرة تنتظر الإنسان العربى عامة والمثقف خصوصا، اخترنا ثلاثا منها تلخص بشكل ما الخيارات المطروحة عليه والضاغطة بشدة فى انتظار مواقف بشأنها، فى حال استمر المثقف على التزامه العمل لإحداث التغيير نحو مستقبل افضل من الحاضر. يتعين عليه اولا ان يتخذ موقفا من التطرف فى استدعاء الماضى وتقديس الحاضر والانغماس فى الهروب نحو المستقبل. ويتعين عليه ثانيا أن يتخذ موقفا من سعى المثقف الى الاندماج فى السلطة ومن النضال من اجل استعادة الفجوة الضرورية التى كانت تفصل بين السلطة والمثقف. وان يجيب على السؤال، هل كان تجسير الفجوة لصالح الوطن والتغيير والمستقبل، ام لصالح اقلية من المثقفين واهل السلطة؟

ويتعين عليه ثالثا ان يحدد لنفسه موقفا من آخر محاولة لإرجاء الحرية، متذكرا أنه كان طرفا مشاركا فى صنع العقد السابق حين سحبت الدولة منه جانبا عظيما من حريته وقدمت له فى المقابل غذاء وكساء ووظيفة. ■



الإرهاب

هذا الاختراع المدهش!

بقلم
د. جلال أمين

ياله من اختراع عظيم. إنه ليس جهازاً جديداً للاتصالات، كالراديو أو التليفزيون، ولا وسيلة سريعة من وسائل الانتقال، كالقطار أو الطائرة، ولا نوعاً جديداً من الأسلحة. بل هو فكرة، بل الأدق أنه مجرد «كلمة». ولكن هذه الكلمة يمكن عن طريقها تعبئة الجيوش، وترويج السلع، وتخفيض البطالة، وتوحيد فئات الأمة المتفرقة، وانجاح حزب أو مرشح معين دون غيره في الانتخابات، وتبرير حملات استعمارية جديدة.. الخ.

لا يمكن أن يكون صاحب الاختراع شخصاً واحداً، ولا هيئة بعينها، لأن هذا الاختراع يحتاج إلى تعاون أشخاص من تخصصات مختلفة وذوي مواهب متعددة. يحتاج إلى متخصصين ومتبحرين في علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد واللغويات وعلم النفس، وعلى الأخص في كيفية عمل العقل البشري، وهذا عالم غريب مليء بالأسرار والمتناقضات.

لابد أن الفكرة بدأت باكتشاف أن هناك حاجة ماسة لتخويف الناس. كان هذا الاكتشاف وحده اكتشافاً عبقرياً، إذ ليس من السهل أن تتبين لأول وهلة الفوائد العظيمة التي يمكن تحقيقها من وراء ذلك. الخوف يوحد بين الناس ويلهيهم عن المعارضة، ويجعلهم أسهل قياداً، ويضعف من قدرتهم على استيعاب البديهيات أو إدراك التناقض بين الأقوال والشعارات، ويجعلهم أكثر استعداداً لقبول الأوامر والتنازل عن الكثير من حرياتهم.

وليس هناك شيء أقوى أثراً وأشد فعالية في تحقيق كل هذه الأمور من الخوف من الموت.. فعندما تكون حياتنا أو حياة أولادنا معرضة للخطر يمكن أن نفعل كل ما يطلب منا وأن نتغاضى عن أشياء لم يكن يخطر ببالنا من قبل التغاضي عنها. راقب مثلاً تصرف ركاب قطار إذا صاح أحدهم بأنه وجد قنبلة تحت أحد المقاعد. لن يخطر ببال أحد أن يفكر في درجة احتمال الصدق أو الكذب في هذه الفرقعة، أو فيما إذا كان قائلها جديراً بالثقة أو غير جدير بها، أو أن يتساءل عن النفع الذي يمكن أن يعود على أي شخص من وضع قنبلة في هذا القطار.. الخ. المهم هو النجاة، ومن الممكن في هذه الظروف أن يتحول أي راكب في القطار إلى زعيم يصدر الأوامر إلى بقية الركاب بما يجب عليهم أن يصنعوه.

سياسة التخويف

إن إدراك الزعماء السياسيين للفوائد التي يمكن أن يجنوها من تخويف رعاياهم قديم بالطبع، ولابد أنه استخدم من قديم الزمان من جانب الزعماء الديكتاتوريين والديمقراطيين على السواء، وزاد استخدامه في القرن العشرين في الاتحاد السوفيتي، وعلى الأخص في عهد ستالين، وفي ألمانيا وإيطاليا على



يد هتلر وموسوليني، وفي بريطانيا على يد تشرشل، وفي الولايات المتحدة على يد روزفلت، فخوف ستالين شعبه من الرأسمالية، وخوف تشرشل وروزفلت شعبيهما من الشيوعية، وخوف هتلر وموسوليني شعبيهما من الشيوعية والرأسمالية على السواء. وقد استمر هذا التخويف المتبادل بين الرأسمالية والشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، لفترة كادت تقرب من نصف قرن، خلال ما سمي بالحرب الباردة، ولكن بسقوط النظام الشيوعي في دولة بعد أخرى منذ أواخر الثمانينات، كان لابد من العثور على مصدر جديد لتخويف الناس. بل لابد أن البحث عن هذا المصدر الجديد قد بدأ حتى قبل سقوط الشيوعية، إذ أن الأمر يحتاج إلى وقت، وقد يفقد مصداقيته ويصبح مفضوحاً إذا استبدل سبب التخويف بآخر بين يوم وليلة. كان لابد من بدء العمل على تنمية مصدر جديد لتخويف الناس منذ بدأ عصر الوفاق بين المعسكرين في أواخر الستينات، وقد أخذ الترويج لهذا المصدر الجديد، شيئاً فشيئاً، خلال السبعينات والثمانينات، وأعلن رسمياً أنه هو مصدر الخوف الرئيسي خلال التسعينات، ولم يبدأ القرن الواحد والعشرون حتى أصبح هو المصدر الرئيسي للخوف لدى الجميع، والمحور الجديد للسياسة الخارجية والداخلية على السواء. وهذا هو «الإرهاب».

***

لابد أن نلاحظ كم كان اختيار الاسم موفقاً. فكلمة «الإرهاب»، بعكس كلمة الشيوعية مثلاً أو الرأسمالية، أو النازية أو الفاشية، لا تشير إلى مصدر الخطر، ولا تصف طبيعته أو مكوناته، بل تشير فقط إلى نتيجته وهي التخويف. إنها لا تشير إلى سبب الخوف بل إلى أثر من آثاره. ويتضح هذا من مقارنة هاتين العبارتين: «الشيوعية مخيفة» و«الإرهاب مخيف». فالعبارة الأولى عبارة ذات معنى ولها مبتدأ وخبر يصف مبتدأها، أما العبارة الثانية فلا تقول شيئاً على الإطلاق، إذ أن الخبر (مخيف) لا يضيف شيئاً إلى المبتدأ (الإرهاب)، فكلاهما لهما معنى واحد، وكأنك تقول «الشيء المخيف مخيف».

كذلك فإنك إذ تشير إلى شخص بأنه «إرهابي» لا تخبرنا بشيء عن سبب الخوف منه أو عن عقيدته أو مصدر أفكاره أو عن صفاته الشخصية، أو نوع الأعمال التي يقوم بها، إنك فقط تشير إلى أثر هذه الأعمال وهو إثارة الخوف والرعب. وكأنك بدلاً من أن تقول إن تحت

المقعد قنبلة أو بندقية أو سكين حاد، تقول إن تحت المقعد شيء «مميت».

كلمة عبقرية

أقول إن اختيار هذا الاسم الجديد (الإرهاب) للتخويف، كان موفقاً، لهذا السبب بالضبط، أي عموميته وخلوه من المضمون، ومن ثم إمكانية استعماله في ظروف متباينة جداً ولوصف حالات لا يجمع بينها شيء إلا الرغبة في إثارة الخوف منها. وكأن الفرق بين هذا الاختراع الجديد (الإرهاب) والمصادر القديمة لإثارة الرعب (الشيوعية، الفاشية، النازية.. الخ)، هو كالفرق بين التليفون المحمول والتليفون الثابت في مكانه بلا حراك. «الإرهاب»، كالتليفون المحمول، يمكن استخدامه للوصول إلى أي شخص في أي مكان، وتغيير طريقة استخدامه لمواجهة أي احتياجات جديدة. «فالإرهابي» يمكن أن يكون في أفغانستان أو العراق أو لبنان، طبقاً للحاجة، ويمكن أن يكون عربياً أو روسياً أو إسبانياً، حسب الدولة المراد إخافتها، ويمكن أن يستخدم قنبلة لتفجير طائرة، أو سكيناً (أو حتى مقصا) لتهديد ركابها، أو بودرة قاتلة في خطاب لتخويف الأمريكيين.. الخ. والإرهابي يمكن أن يكون شخصاً واحداً يعمل بوحي من نفسه وحدها، ويمكن أن يكون تنظيماً سياسياً أو دينياً، كما يمكن أن يكون دولة بأكملها تعمل بالاتفاق مع شخص أو تنظيم إرهابي. وفي هذه الحالة تسمى دولة «مارقة»، وهو وصف لا يختلف كثيراً عن وصف «الإرهابي»، إذ لا يعني المروق أكثر من أنها دولة غير مرضي عنها، أيا كان سبب عدم الرضا.

والإرهابي قد يكون فقيراً معدماً أو ثرياً ثراء فاحشاً، مجرماً بطبعه أو متديناً ورعا أو وطنياً متعصباً، فالمهم ليس طبيعة الدافع الذي أدى به إلى العمل الإرهابي، بل فقط أثر هذا العمل في الناس. والفقير المعدم قد يكون مخيفاً مثل الثري واسع الثراء، والمتدين قد يتحول إلى مجرم والعكس صحيح أيضاً. أنظر إلى أسامة بن لادن مثلاً، لقد بدأ حياته شاباً لاهياً يتعقب النساء الجميلات في ملاهي بيروت، ثم انتهى إلى كهف في أحد جبال أفغانستان أو باكستان أو إيران. وبدأ حياته بالعمل لصالح الأمريكان ضد الروس، ثم تحول إلى العمل لصالح الفلسطينيين ضد الأمريكان. هو وأسرته واسعو الثراء لدرجة الدخول في علاقات مالية وثيقة مع أسرة الرئيس الأمريكي بوش، ولكنه قانع الآن بكسرة خبز وكمية من البلح في مخبئه المجهول. وقل مثل هذا عن صدام حسين الذي بدأ حياته صديقاً مقرباً إلى الأمريكيين،



يعاملونه باحترام بالغ ويشيدون بفضله ويغرقونه بالمعونات والأسلحة، ثم تحول فجأة إلى عدو لدود لهم يصفونه بالوحشية ويمطرونه بالقنابل.

قد تبدو هذه المتناقضات مستعصية على التصديق مما ينفر منه عقل أي شخص بالغ رشيد، ولكن الحقيقة أننا نبالغ بشدة في درجة العقلانية التي يتمتع بها حتى أكثر الناس ذكاء والمعية، ونقلل بشدة من قدرتنا على الجمع في الوقت نفسه بين المتناقضات. نحن نظن أن الأطفال فقط أو المعتوهين هم الذين يمكن أن يجمعوا في عقولهم الصغيرة بين الأشياء المتناقضة، كتصور عملاق ضخم يطير في الهواء، أو يدخل في قمقم صغير ثم يخرج منه، أو ساحر شرير يقوم بتحويل فتيات جميلات إلى بجع، أو ساحرة طيبة تقوم بتحويل مكنسة إلى عربة وحصانين.. الخ. ولكن الحقيقة التي لابد أن نعترف بها أننا جميعاً، حتى الكبار والعقلاء منا، يصدقون مثل هذه الأشياء طول الوقت. إني لا أقصد فقط استعداد الكبار والعقلاء منا إلى الاستماع إلى هذه القصص باستمتاع حقيقي والاستغراق في أحداثها، بل أقصد استعدادنا المستمر لاستبقاء المتناقضات في أذهاننا ولتصديق ما لا يستقيم مع أبسط قواعد المنطق. خذ مثلاً استعدادنا لتصديق أن الرئيس بوش قد اتخذ قراراً خطيراً مثل قرار غزو العراق، مع اعتقادنا في الوقت نفسه بأنه رجل محدود القدرات العقلية لدرجة تدعو إلى الرثاء أحياناً أو السخرية أحياناً أخرى، أو استعدادنا لتصديق أن رئيس وزراء بريطانيا قرر التدخل إلى جانب الولايات المتحدة بإرسال قوات بريطانية إلى العراق من أجل «انقاذ العراقيين من حكم ديكتاتوري» ، مع أن التاريخ السياسي كله يدل على أن تدخل دولة في شئون دولة أخرى أو شن حرب عليها لا يتم أبداً بناء على دوافع التعاطف الإنساني أو المحبة بل بناء على دوافع من نوع مختلف تماماً.

كذلك قبل الأمريكيون وغيرهم تلك المقولة التي كان يظن أن من المستحيل تصديقها وهي أن العقيد القذافي، رئيس ليبيا، يشكل خطراً على أقوى دولة في العالم، حتى تبين فيما بعد أن من أسهل الأمور إخضاعه أو دفعه دفعاً إلى أن يشيد بفضل أمريكا على العالم، أو تصديق أن صدام حسين كان بدوره يشكل خطراً على العالم، لامتلاكه أسلحة مخيفة لتدمير العالم تدميراً شاملاً، قبل أن يعلن أن هناك خطأ صغيرا

ارتكبته إحدى هيئات المخابرات أدى إلى تصديق هذا الأمر الفظيع.

الإقناع بالفكرة

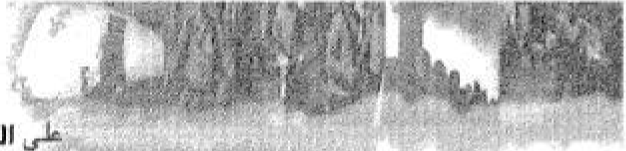
لابد إذن أن العقل الإنسانى يعمل بشكل مختلف جدا عما نظن، أو على الأقل عما يظن أكثرنا، وأن الحقيقة أن من أسهل الأمور إقناع الناس بكذبة كبيرة، من نوع تهديد «الإرهاب» لأمن وسلامة أقوى الدول، ولأمن وسلامة الناس فى كل مكان فى العالم، متى اتخذت بالطبع الخطوات والإجراءات اللازمة لذلك. فماهى هذه الخطوات والإجراءات اللازمة؟

أبسط هذه الإجراءات بالطبع هى «التكرار». ولكننا يجب ألا نستهين بأهمية هذا التكرار، أى الإلحاح المستمر وبلا انقطاع على وجود شىء اسمه «الإرهاب». ذلك أن هناك، فيما يبدو، ميلا غريبا لدى العقل الإنسانى للاعتقاد بوجود شىء ما، وجودا حقيقيا، طالما أنه توجد كلمة تدل عليه. فإذا قلت مثلا إن «الإرهاب شىء فظيع»، فأنت لا تصف فقط الإرهاب بالفظاعة، بل تقول أيضا إن الإرهاب شىء موجود، وتنفى أنه مجرد اختراع يراد به تضليل الناس. وإذا قلت إن معظم الإرهابيين مسلمون» فأنت لا تقول فقط شيئا سيئا عن المسلمين بل تقرر أيضا أن «الإرهاب» شىء واقع ولاشك فى وجوده. فإذا تكرر مرور مثل هذه العبارات بالأسماع أصبح من الصعب إنكار وجود الإرهاب، وانتقل عبء الاثبات من القائل بوجود الإرهاب إلى من يزعم بأنه غير موجود وأنه مجرد اختراع.

فما بالك إذا كان هذا التكرار يأتى عن طريق مختلف وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية؟ إن هذه الوسائل تكتسب مصداقية إضافية من طبيعة الجهاز الذى تستخدمه.. ذلك أن للتكنولوجيا الحديثة سحرا وجاذبية مستمرين على الأرجح من جهل معظمنا بالطريقة التى تعمل بها، ويضيفيان على ما تحمله من أخبار وتقارير مصداقية قد تفوق بكثير ما لها فى الحقيقة. هكذا ظلت للكتب المطبوعة بوسائل الطباعة الميكانيكية، فترة طويلة بعد حلولها محل الكتب المنسوخة باليد، ومازالت لها حتى الآن، مصداقية تفوق مصداقية ما كتب باليد، لمجرد أنها مرت من خلال آلات الطباعة.

وقل مثل هذا على ما ينقل عن طريق الإذاعة والتليفزيون، وكأن الأجهزة المستخدمة فى هذه الوسائل من وسائل الإعلام، لمجرد كونها تعمل «أوتوماتيكيا»، قد أصبحت «محايدة» لا تخضع لأهواء الإنسان وتحيزاته ومن ثم أكثر «موضوعية».

أضف إلى ذلك ما للجماهيرية من أثر فى إضفاء المزيد من المصداقية



على ما تحمله الكتب أو الصحف أو الراديو أو التليفزيون من أخبار وتقارير فهذه كلها تصل إلى أنظار وأسماع الملايين من الناس في الوقت نفسه، ومن مختلف الأجناس والألوان وفي مختلف الدول، فهل يعقل أن يكون ذلك الخبر الذي يلقى على هذه الأعداد الغفيرة من الناس خبرا مخترعا ومغشوشا؟ ولنفرض أنه كذلك، فهل يعقل أن كل هذه الأعداد الغفيرة من الناس التي صدقت الخبر وآمنت بصحته، مخطئة ومخدوعة، وأنا وحدي الذي على صواب؟

مجرد تكرار الخبر وانتشاره كافيان إذن لإضفاء المصداقية عليه. ولكن هناك أشياء كثيرة أخرى تضمن لمثل هذه الاختراعات والأكاذيب قبولا عاما. فيبدو مثلا أن الإنسان على استعداد لتصديق كذبة تتعلق بشيء يرغب فيه بشدة أو يخاف منه بشدة أكثر من استعداده لتصديق كذبة لا تتعلق بهذا أو بذاك. لهذا السبب، فيما يبدو، نحن على استعداد لأن نصدق بسهولة عبارات النفاق الكاذبة التي يوجهها إلينا البعض حتى ولو كانت غير معقولة او شديدة البعد عن الواقع، كأن يصف شخص صديقا له بأنه أعظم رجل صادفه في حياته أو أن يصف ناقد كتابا بأنه أفضل كتاب من نوعه. فما أسهل على الصديق أو على الكاتب الممدوح أن يصدق ما يقال له وما أقل استعداد أي منهما لتمحيص هذا القول أو ذاك للتحقق من مدى مصداقيته. كذلك يبدو استعدادنا كبيرا لتصديق ما يتفق مع خوفنا المستطير من أي شيء يهدد حياتنا أو حياة أولادنا. وفي الأمثلة الشعبية «من يخف العفريت يطلع له»، وهو قريب من القول بأن من يخف العفريت يصدق بسهولة وجود العفريت بالقرب منه، وأننا جميعا، من حيث إننا نخاف الموت، يسهل علينا تصديق وجود «الإرهاب».

هذا هو، على الأرجح، أهم سبب لهذا التغير الفظيع الذي طرأ على سلوك شعب كالشعب الانجليزي، إزاء ما يمنحونه من حرية لأطفالهم في الخروج بمفردهم إلى الشارع وفي مخاطبة الغرباء والتعامل معهم. فالإحصاءات تدل على أن الحوادث التي يتعرض لها الأطفال الانجليز، كالخطف والاعتداء الجنسي، لم تزد نسبتها في العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة عما كانت قبل ذلك، ومع ذلك تغير سلوك الانجليز إزاء أطفالهم من هذه الناحية تغيرا ملحوظا، ففرضوا عليهم سياجا أشد من الحماية وأصبحوا دائمي التحذير لهم من الثقة في الغرباء بل وأحيانا في الأقرباء، وذلك استجابة لما تكرر على أسماعهم من أخبار الخطف والاعتداء

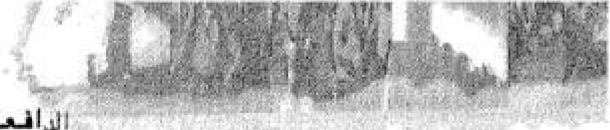
التي أصبحت وسائل الإعلام لا تكف عن ترديدها ووصف تفاصيلها.

هناك أيضا شخصية صاحب الاختراع أو الأكذوبة. فمن السهل علينا أن نهمل ما يقوله لنا رجل عليه كل سمات الهوس أو الجنون أو رجل اشتهر بالنصب والاحتيال، ولكن ما بالك برئيس للجمهورية أو رئيس للوزراء، أو زعيم سياسي ذي شعبية كبيرة أو رجل شهير من رجال الدين، أو صحفي فذ أو كاتب موهوب؟ ما بالك لو قال أحد من هؤلاء شيئا، ودأب على تكراره، مما قد يصعب تصديقه عادة ولا يتفق مع ابسط قواعد المنطق أو دروس التاريخ؟ ثم ما بالك لو صدر الخبر نفسه من هؤلاء جميعا في الوقت نفسه؟ تنكره أولا صحيفة عادية ثم صحيفة محترمة، ثم يؤكد صحته رئيس للجمهورية ورئيس للوزراء، ثم يكرره رجل دين شهير ويوافق عليه كاتب موهوب، ويستمر التأكيد والتكرار يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر. من الذي يمكنه بعد هذا أن يثير أي شك في صحة الخبر؟

الكذب الكبير

وقديما قيل لنا إن من الأسهل على الكاذب أن يخدع الناس بكذبة كبيرة من أن يخدعهم بكذبة صغيرة. وسبب ذلك أن الكذبة الكبيرة تحتاج من صاحبها إلى جرأة أكبر وخيال أوسع، وكلا الأمرين أكثر ندرة بالطبع ومن ثم فإننا أكثر استعدادا لافتراض الصدق في حالة الكذبة الكبيرة. ذكرني هذا بما كان يقوله لي بعض تلاميذي المحتالين، لمحاولة التخلص من الجلوس للامتحان في موعده وطمعا في تأجيله، بأن يزعم أحدهم بأن أحد أقربائه قد توفي فجأة وأن عليه التغيب عن الامتحان. كنت أشك على الفور إذا كان المتوفى المزعوم عما أو خالا أو جدا أو جدة، ولكني كنت أكثر استعدادا لتصديق التلميذ إذا زعم أن المتوفى أبوه أو أمه، إذ أقول لنفسي: «هل يعقل أن يتجرأ على اختراع هذه الكذبة الكبيرة جدا؟».

فإذا كانت الكذبة الكبيرة تتضمن إضرارا بشخص قائلها فالاستعداد لتصديقها يكون بالضرورة أكبر، لأن احتمال قيام شخص بإيذاء نفسه عمدا هو بالضرورة أقل. لابد أن هذا كان سبب قيام بعض الفلاحين المصريين أيام حروب محمد علي وإسماعيل خلال القرن التاسع عشر، عندما كانت نسبة القتلى والمفقودين في الحرب عالية جدا، بإحداث عاهة مستديمة بأولادهم، كقطع إصبع اليد أو القدم، أملا في إعفائهم من الخدمة العسكرية. ولكن تاريخ الاستعمار مليء بالأمثلة على فظائع مماثلة.



كتضحية دولة بحياة قائد عظيم من قوادها أو عدد كبير من جنودها فى سبيل ضمان استتباب الأمر لها فى البلد المستعمر، وهناك أمثلة كثيرة أيضا على تضحية دولة كبيرة بعدد من الأبرياء من أفراد شعبها وإلقاء التهمة على عدو يراد تبرير شن الحرب عليه أو اتخاذ إجراءات قاسية ضد رعاياه. الكذبة فى هذه الحالة كبيرة جدا ولكنها لهذا السبب نفسه تجد عددا أكبر من المصدقين. كان هذا، فيما اعتقد، هو سبب استعداد معظم الناس لتصديق الروايات والتصريحات الرسمية التى قيلت عما وقع فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وكان هذا هو السبب فى رأيى فى موقف صديق لى، هو أيضا كاتب شهير ويتصف بقدر كبير من الحكمة واستقلال الرأى، إذ استغرب بشدة ما قلته له عن رأيى فى حقيقة أحداث ١١ سبتمبر كان رده «وهل هذا معقول؟» أن تصل بهم الجرأة والاستعداد للتضحية بحياة هذه الآلاف المؤلفة من الأبرياء، لتحقيق أغراض بهذه الدرجة من الحقارة؟» قلت فى نفسى: «ها هو ذا رجل آخر، كان من المفروض ألا يصدق هذه الكذبة الكبيرة ولكنه صدقها».

***

ولكن بصرف النظر عن العوامل الدافعة إلى تصديق ما لا يستحق التصديق، هناك طبعا الفوائد الأكيدة التى يجلبها تصديق ما يقوله كبار الناس وعظماؤهم، ومناصرتهم وتأييدهم، فضلا عن فوائد السير مع التيار وعدم مخالفة ما أجمع الناس عليه. بهذا يمكن تفسير جزء كبير مما يكتبه الصحفيون والمعلقون على الإرهاب والإرهابيين. فعندما يكون الإرهاب والإرهابيون موضوع الساعة والشغل الشاغل للناس، لا يوجد شىء أكثر ضمانا لنشر ما تكتب ولتلقى الدعوات المستمرة للحديث فى الندوات والمؤتمرات واللقاءات التليفزيونية من أن تأتى فى كلامك بشىء عن أخطار الإرهاب وفظائعه، أو عن أسبابه النفسية والاجتماعية وجذوره التاريخية.

وكما أن هناك فوائد جمة من ترديد ما يقوله الجميع، فهناك أضرار محققة من مخالفتهم، خاصة أن هناك أساليب معينة ثبتت فعاليتها فى تخويف الكتاب والمعلقين من عدم الاستسلام للخوف. فى مقدمة هذه الأساليب وصف كل من يقاوم هذا التيار العام بأنه ينتمى إلى المؤمنين بـ «نظرية المؤامرة» ومن المفيد ان تلاحظ الشبه بين استخدامات فكرة «الإرهاب» واستخدامات نظرية المؤامرة. فكل منهما تعبير غامض غير محدد، يستخدم لوصف حالات

متباينة أشد التباين لتحقيق غرض واحد وهو التخويف، وإن كان التخويف في الحالة الأولى (الإرهاب) من الموت والدمار، والتخويف في الحالة الثانية (نظرية المؤامرة) من استهزاء الناس واحتقارهم. فأي شك فيما يقدم من تفسيرات رسمية لما يحدث يصنف على أنه ينتمي إلى «نظرية المؤامرة» ، مع أن قراءة التاريخ السياسي ، خاصة التاريخ الحديث، وبالذات التاريخ الحديث جدا، يقدم لنا أمثلة لا نهائية على تعارض ما تقوله التصريحات الرسمية ووسائل الإعلام مع أبسط قواعد المنطق، وعلى عادة السياسيين في أن يقولوا شيئا اليوم ليقولوا عكسه غدا. فإذا عبر أحد عن شكه في صحة ما يقوله السياسي اليوم أو غدا قيل باستهزاء هذه نظرية المؤامرة وهو وصف ثبتت فعاليته في إسكات اكثر الناس شجاعة وتسخيف أقوى الناس حجة، إذ إنه يحمل معنى يتجاوز بكثير مجرد الاتهام بالخطأ في التحليل أو التسرع في الحكم وينطوي على اتهام بالهلوسة والاستسلام للخيالات والأوهام. وقد وصل تخويف الكتاب والمعلقين من أن يتهموا بالايمان بنظرية المؤامرة إلى حد إحجام الكثيرين من أفضل الكتاب وأكثرهم جرأة عن البوح بكل ما يدور في أذهانهم من شكوك، كالاكتفاء مثلا في تعليقهم على أحداث ١١ سبتمبر بالقول بأن هذه الأحداث كانت «فرصة ذهبية» اقتنصتها الإدارة الأمريكية لتنفيذ مخطط شيطاني كان قد وضع قبل ١١ سبتمبر بسنوات، لتحقيق أغراض بعيدة المدى تتعلق بالنفط والسيطرة على مناطق مختلفة من العالم. المخطط إذن شيطاني، ولكن الشيطان كان عليه، ويا للغرابة، الانتظار حتى تتاح له فرصة ذهبية لتنفيذه، ذلك أن الزعم بأكثر من ذلك من شأنه أن يعرض المرء لذلك الاتهام الخطير وهو الايمان بنظرية المؤامرة!

لم يجد بعض الكتاب طريقة أخرى للتعبير عن شكوكهم من دون التعرض لاتهام «نظرية المؤامرة» الا الاستعاضة عن كتابة التحليلات والتعليقات السياسية بكتابة قصة او رواية خيالية يضع فيها الكاتب كل ما يعتقد في وجوده بالفعل، من مخططات شيطانية ومؤامرات. ولكنه يستطيع عند اللزوم ان يقول «هذه مجرد قصة خيالية» او ان يكتب في مقدمة الرواية ان كل شخصيات الرواية من صنع الخيال وأي شبه بينها وبين السياسيين القائمين بالحكم في الوقت الحاضر هو مجرد مصادفة بحتة.



من يكسب الرهان؟

بقلم
مصطفى نبيل

• إلغاء المسافات وعودة الزمن إلى الوراء!

• ثورة المعلومات صاحبتها ثورة فنون الخداع!

نجح التطور المذهل، الذى حدث فى ثورة الاتصالات والمعلومات، فى إلغاء فواصل المسافات، وظلت الأزمان كما هى، نجح فى تخطى المسافات، وتوقف الزمن، وكأنه لايمضى إلى الأمام، وعدنا إلى شريعة الغاب.

فمازال الصراع الدموى والوحشي قائما، وأضيف إليه صراع آخر لغزو العقول، واحتلال الأدمغة!..

وفشل الإنسان فى حل خلافاته بالحوار.



صاحب ثورة الاتصالات والمعلومات، تطور مواز لفنون الخداع والتضليل فى وسائل الإعلام الأمريكية.

ويصاحب الإنفاق الضخم على الجيوش الجرارة، إنفاق آخر من أجل السيطرة على العقول، والتأثير على الرأى العام، من أجل ضمان سيطرة السلطة الأمريكية فى الداخل، وفرض الهيمنة الإمبراطورية فى الخارج.

هذا بعد تزايد تأثير الرأى العام فى مسار الأحداث والسياسات المحلية والدولية، وفى تصورهم أن هذا الجهد الضخم يمكن أن يؤدى إلى نجاح الخداع والتضليل وقبول ما لا يقبل.

لذا لم يكن أمام وسائل الإعلام الأمريكية والإسرائيلية ومن يدور فى فلكهما، سوى أن توغل فى خلط الأوراق وخداع الرأى العام وتطوير فنون غسيل المخ!

ولم تتوقف «الميديا الأمريكية» لحظة عن التحريف والتلفيق ووضع السم فى العسل، فالسيطرة على البشر لا تكون بالقوة المادية وحدها، بل بالسيطرة على العقول والتلاعب بها، فمهما بلغ جبروت القوة المادية التى يمكن استخدامها ضد شعب ما، فلا يمكن أن تحقق أهدافها إلا إذا نجحت فى الوصول إلى أعماق ووجدان الناس، وأصبحت أهداف هذه القوة المادية تبدو مقبولة على الأقل لأولئك الذين يُرمى إلى خضوعهم، ومن هنا تصبح وسائل الاتصال أهم أدوات أصحاب القرار الجالسين على قمة السلطة، وأكثرها أهمية.

وهذا ما يفسر الأموال التى تنفق، والندوات التى تعقد، والفضائيات التى تقام والحيرة بين تلك التى تعمل بالوكالة وغير المباشرة، وتلك التى تعمل مباشرة مثل «سوا» و«الحرة» وغيرهما.

فللرأى العام دور ملموس فى تحديد مواقفها وسلوكها، ويتصور الذين يخططون من أجل الخداع وتغيير المعتقدات والآراء، أن ذلك قابل للتحقيق بالإعلام الذى يمارس بمهارة ومراوغة كبيرة.

ويأتى تطور فنون الخداع والتضليل فى الولايات المتحدة، لأنه لا توجد بها قيود على حرية التعبير، فكان من الضرورى أن يتطور فن الخداع وأن يصل إلى مستوى عال من الكفاءة وفعالية الوسائل التى يمكن أن تستخدمها لتقييد حرية التفكير، وفى

هذه الفنون تتركز أداة الحكم والسيطرة.

وتهدف وسائل الإعلام إلى التأثير وبقاء سيطرة الأقلية التى تلعب دوراً فى اتخاذ القرارات، الذين يشكلون نسبة قليلة لاتتجاوز فى المجتمع الأمريكى خمس السكان أما بقية الأهالى، فيصفهم والتر ليبمان ساخراً.. «قطيع الدهماء المشغول والمذهول».. وعلى هؤلاء الاقتناع والالتزام بالنظام، وهؤلاء هم الهدف لوسائل الإعلام الجماهيرية، التى عليها الإبقاء على القطيع من العامة فى انشغاله وذهوله!!.

وليس غريبا إدراك عدد من الباحثين خطورة التلاعب بالعقول، وتأثيره المدمر على السياسات القائمة وعلى مستقبل الديمقراطية، خاصة أن النظام الإعلامى الدولى القائم اليوم، والذى تشكلت بالفعل ملامحه، يبعد عن الإعلام المتوازى والعادل، فهو يعكس سيطرة وهيمنة القطب الواحد الأمريكى.

وقد دفع مختار أمبو مدير منظمة اليونسكو الأسبق منصبه عند محاولة مجابهة هذه الهيمنة، وعندما طالب بنظام إعلامى منصف، وتصحح وجود مراكز دولية إعلامية أخرى، ولكنها تدور داخل السياق الغربى بدرجة أو أخرى.

السم فى العسل

وزادت سطوة وسائل الإعلام على العقول والتحكم فى مشاعر البشر، وبرعت فى وضع السم فى العسل.

والملاحظ مساهمة التقدم العلمى والتكنولوجى فى إحكام هذه السيطرة على عقل ووجدان المتلقى، وإلى استمرار تطوير أدوات فرض السيطرة، فقد قامت ثورة الاتصالات والمعلومات على الأرض الأمريكية، وكلما تقدمت البشرية خطوة زاحمها نقيضها، فقد اتقنت الإدارة الأمريكية استخدامها لأهدافها، وزادت السيطرة على المعلومات والصور بواسطة الأدوات التقنية الحديثة ذاتها، وكلما تقدمت هذه الوسائل التكنولوجية الحديثة، ظهرت أشكال أكثر تعقيداً، فى فنون الخداع والتضليل، وهى تمثل وسيلة ناجعة للسيطرة، وخاصة عندما يكون التضليل الإعلامى هو الأداة الأساسية للهيمنة وغزو العقول، تغدو الأولوية لتنسيق وتنقيح الوسائل الفنية للتلفيق، ويجتذب هذا النوع من أنشطة التضليل أذكى المواهب.

حتى تكاد تكون مهمة «الميديا» هى تحريف وتلفيق المعلومات، بل وإخفاء بعضها «فاقة الأخبار رواتها».

وكما تحركت الجيوش الأمريكية لغزو العراق، انطلقت «الميديا»، موجهة

طلقاتها، من الصور والكلمات، إلى عقول أبناء البلدان العربية والإسلامية.

ويبدو أن دور وسائل الإعلام أصبح مسلما به، عقب تدابير مختلفة وإجراءات متراكمة وطويلة، وفي منأى عن الحوار، مما أضفى الاعتياد على هذه الممارسات، سواء عن طريق التخطيط المحكم أو عن طريق العقل الجمعي الخفي الذي يهدف إلى السيطرة على الداخل والهيمنة على العالم.

ويدرك الكثير من الأمريكيين خطورة الميديا في الداخل والخارج وأثرها على الديمقراطية وهذا رأي أحد نواب الرئيس الأمريكي السابقين.. يقول آجينو:

«الأنباء التي يتلقاها ٤٠ مليون مواطن أمريكي كل ليلة، يتحكم فيها حفنة من المسئولين في المؤسسة التي يعملون بها، ويتم تصنيفها على يد حفنة من المعلقين، لا يأخذون إلا بما يتفق مع تحيزاتهم، وهناك اتجاه إلى احتكار وسائل الاتصال وتركيز السلطة أكثر فأكثر في أيدي أقل فأقل، ولم يعد هناك مجال للتصديق الساذج بحياد صحفهم ومحطاتهم».

كما يقول أحد تقارير الكونجرس الأمريكي:

«إن الولايات المتحدة يمكنها أن تحقق أهدافها السياسية ومصالحها الدولية من خلال التعامل المباشر مع شعوب الدول الأجنبية بدلاً من التعامل مع الحكومات، فمن خلال وسائط الاتصال الحديثة يمكن أن نصل إلى قطاعات مؤثرة من الرأي العام، وأن نقوم بالتأثير فيهم، وتغيير اتجاهاتهم، بل يمكن في بعض الأحيان أن ندفعهم للسير في طريق عمل معين، بممارسة الرأي العام لدوره في الضغط على هذه الحكومات، وقيامه بدور ملحوظ وحاسم».

وأصبحت شبكات التليفزيون والراديو والصحف والمجلات والسينما مملوكة لمجموعة من المؤسسات المشتركة والتكتلات الإعلامية، وتضطلع بدور فعال في عملية الخداع والتضليل، حتى لقد تضخمت الإمبراطورية الإعلامية، وأخذت تواصل الاستيلاء على شركات أصغر حتى صار الأمر في أيدي عدد محدود من إمبراطورية ضخمة. كما اعترف أجينو.

ومازال الهدف هو أن يحتكر الإعلام الأمريكي الصورة والخبر والرأي، من أجل القضاء على روح التحدي عند الشعوب وبات من الضروري العمل على كشف بعض الوسائل التي يتمكنون خلالها من إخفاء وجودهم وحجب تأثيرهم.

زمن الخداع

يستحق رصد وكشف أساليب الخداع، الكثير من الجهد ومن الدراسات، على أمل زيادة المناعة لدى المواطن ولدى الرأي العام، وحتى تتمكن

وسائل الإعلام الوطنية من مواجهة وكشف أساليب هذا التضليل.

وأورد كتاب «المتلاعبون بالعقول» لشيلر، ما لاحظه الكاتب الأمريكي جورج جيربند ونشره فى مجلة «ساينتفك أميركان» أن السؤال لا يتمثل فيما إذا كانت أدوات الاتصال «الميديا» حرة، وإنما يتمثل فى كيف، ولأى هدف، وعن أى طريق، وبأى نتائج تتم ممارسة عمليات التوجيه والسيطرة التى لا مندوحة منها..» وهو ما يهم من يريد أن ينقب عن الخداع وأساليبه.

ولا يطمح هذا المقال سوى إلى رصد بعض جوانب هذا الفن المراوغ، ومتابعة بعض جوانبه، وهو دعوة إلى مزيد من الجهد فى هذا المجال.

أول ما يلفت النظر هو مدى التلاعب باللغة، واصطناع مصطلحات لا تعبر عن الحقيقة، وتخفى أكثر مما تظهر، وكما يذكر أستاذ اللغويات نعوم تشومسكى.. أن مصطلحات السياسة لها معنيان، أحدهما تجده فى القاموس، والآخر هو المعنى الذى يخدم سياسة وأيدلوجية الأقوى..».

ويمضى الأستاذ الأمريكى فى جامعة إم. آى. تى.. قائلا :

«...استراتيجية التدخل الأمريكية، ابتكار أقنعة تخفى حقيقة أهدافها، مما اقتضى ابتكار شكل ملائم من المصطلحات، والسعى إلى تجريد مفردات اللغة من معناها الأصلى، حتى تضع أقنعة كثيفة تخفى ما وراءها».

ويتناول تشومسكى «الإرهاب» أكثر المصطلحات خداعاً، ويروى الحكاية التالية.. «تحكى رواية القديس أوغسطين عن الإمبراطور الإسكندر الأكبر وحواره مع القرصان، يقول القرصان.. إن القتل والنهب بالجملة يسمى حربا مشروعة، ويسمى من يمارسها إمبراطوراً، أما القتل والنهب بالتجزئة فيسمى إرهابا، ويسمى من يرتكبها قرصاناً»، أى أن ما تمارسه الولايات المتحدة فى العراق وما تمارسه إسرائيل فى فلسطين يسمى حرباً، أما ما يمارس ضد كليهما فهو «إرهاب».

وهذه إحدى صور الانحراف بالرأى العام عن طريق التلاعب باللغة من أجل تحقيق أغراض خاصة.

وإذا كانت «الميديا» الأمريكية تطلق اليوم لفظ «الإرهاب» على المقاومة، فقد سبق وسمى الاحتلال فى العصر الاستعمارى السابق «حماية»، والنهب الاستعمارى «عبء الرجل الأبيض»، وأطلق لفظ الشرق الأوسط بدلاً من البلدان العربية، والقوات متعددة الجنسيات بدلاً من القوات الغازية الأمريكية والبريطانية، على أمل إضفاء

غطاء شرعى على الغزو والاحتلال.

ومهما اختلف المنظور التقنى لوسائط الاتصال، فتظل تلعب دوراً فى إخفاء الحقيقة عندما تصاحب براعة الصياغة لؤم القصد.

وقد سبق وتناول كل من د.عبدالوهاب المسيرى والراحل د. أحمد صدقى الدجانى فى العديد من الدراسات مسألة ضبط المصطلح هذه.

وحتى يؤدى التضليل تأثيره، لابد من إضفاء مسحة من الحياد، فيكون الخداع ناجحاً عندما يلمس المتلقى هذا الحياد، فمثلا لا مانع خلال الدفاع عن سياسة الاستيطان الإسرائيلية أن تنتقد «الميديا» شخصية رئيس الوزراء الإسرائيلى، أو أن تعرض وجهة نظر أخرى تنادى بضرورة تقييد الاستيطان، حتى تعطى هذه الآراء شبهة الموضوعية، أما فيما يتعلق بالعرب، فلم تنتقد إسرائيل يوماً على أعمالها الوحشية، وتصل المسألة بالنسبة لهم إلى الحياد بين الصواب والخطأ، وبين الحقيقة والضلال.

ويقتضى الخداع أيضا إدعاء تعددية الآراء فى إطار واحد، فحرية الاختيار لا توجد دون التنوع، فإذا لم توجد اختيارات واقعية يصبح اصطناعها ضروريا حتى لا تقدم رؤية أحادية الجانب للواقع!

والملاحظ أيضا نشر الأخبار بأسلوب يؤدى إلى شق وانقسام الشعوب، ويثير الفتنة بين الطوائف والأعراق داخل الوطن الواحد، وقد دأبت بعض الفضائيات على تصدير الأفكار الداعية إلى الانقسام والتى تهدد الاستقرار فى بعض هذه المجتمعات كأحد وسائل الضغط والسيطرة!

ومن حيل «الميديا» الأمريكية ومن يدور فى فلكها، التكرار الذى يصل بالمتلقى إلى الاعتياد، وعند الاعتياد لا يدقق المتلقى فى أهداف ما يقال، ولا تكتفى بنشر أخبار ملفقة، وبترديد تفسيرات واحدة لا تتغير، وإنما لا تتوانى عن إغفال وتجاهل المسكوت عنه!

كما تتوخى وسائل الاتصال الأمريكية إشاعة روح الهزيمة وضياع الأمل، والتى تترك لدى المتلقى الإحساس بالعجز، وتقرأ عددا من مقالات المعلقين الأمريكيين، فتلمح أن الهدف من وراء هذه التعليقات خلق الشعور بالدونية وتسريب حالة اليأس وفقدان الأمل لدى العرب والمسلمين!

ومن الحيل الأخرى نزع الواقعة أو الحدث من سياقه الطبيعى، وتشتيت البؤرة إلى أشتات متفرقة، بدلاً من تقديمه فى مجمله، والخلط المخل بين المقدمات والنتائج، وإخفاء المؤثر التلقائى والإلحاح على التبعى من مجريات الأحداث، والجنوح إلى النظرة الجزئية.

وأتقن الأمريكيون ذلك، ووضعوا له القواعد، ونما وترعرع لديهم فى ظل

شركات العلاقات العامة.

موجة السرعة!

وأيضا الاحتجاج بضرورة السرعه فى تغطية الخبر، وفورية تقديم الحدث، على اعتبار أن المادة الإخبارية سريعة الزوال، وتقدم «اللحظة» وتسجل وقائعها والتعليق عليها فور وقوعها، هى فى الواقع أداة طيعة تساعد على إخفاء بعض أبعاد الموقف، ولتذهب بعد ذلك الحقيقة إلى الجحيم!

فعندما يقع حدث أو تقع أزمة، يفتعل جو هستيرى محموم يبرر الخداع والتشويش، ويندفع بقوة القصور الذاتى الذى يعطل التأمل والعقل، ويؤدى إلى السلبية والتسليم بما يرى أو يسمع أو يقرأ.

ولعل ماوقع مؤخرا عند احتجاز أطفال إحدى المدارس الروسية فى شمال أوسيتيا أكبر شاهد على ذلك، ففى ظل جو محموم أعلن اشتراك عشرة من العرب فى تلك المذبحة المروعة، وتحول القول إلى حقيقة علق عليها من علق، وتبين بعد ذلك زيف هذا الادعاء.

ومن اهتم بالترويج لم يهتم بالنفى!

وكذلك ما أعلن عن قتل ٨٠ مواطنا عراقيا خلال عمليات القبض على عزة الدورى نائب الرئيس العراقى السابق، وظهر بعد ذلك زيف هذا الخبر.

وهناك حيلة معروفة: لصرف الانتباه عن المطلوب إخفاؤه، بتوجيه الاهتمام إلى قضية ما والعمل على أن تشد الأنظار ويتجه تركيز الرأى العام عليها، وهذا ما شهدناه من أجل صرف النظر عن ما يجرى فى العراق وعلى أرض فلسطين، وأثيرت قضية دارفور، وجاءت قضيتها الإنسانية لإخفاء ما يجرى هناك.

ودهشت دوائر عديدة فى الرأى العام من هؤلاء الذين يتحدثون بحماس عن قضية أهل دارفور، ولا يتحدثون بذات الحماس عن ضحايا الشعب العراقى والشعب الفلسطينى من المدنيين!

ومن الحيل المعروفة أيضا، التحيز لنوع خاص من الأخبار، وإعطاؤه الأولوية، فمثلا التركيز على الضحايا المدنيين للمقاومة، والسكوت عن الضحايا المدنيين الذين يسقطون تحت القصف والغارات الأمريكية والإسرائيلية.

وكما يتم حجب المعلومات أحيانا يتم أيضا تدفق المعلومات، التى يوفرها الكمبيوتر والإنترنت، لا فرق بين الغث والسمين، مع غياب الإطار الفكرى لهذه المعلومات، والذى بدونه تصبح بلا مغزى!

فالمعلومات تمثل سلطة لمن يستخدمها، وهى تقوم بالترويج لأفكار العولمة، والزعم أن هذه العولمة أدت إلى انصهار مختلف أنواع الاقتصاد فى سوق واحدة، سواء فى الريف أو البادية، الوطنى أو الإقليمى فى اقتصاد عالمى موحد، ويتجاهلون أن العالم يتحول إلى

جزر منفصلة، وإلى عالم تنتشر فيه الفاقة ويعم البؤس، ويكتظ بالمدن الفقيرة، مما يساهم في الاضطراب في العديد من أرجاء المعمورة، ومما ينذر بأخطار كبيرة.

فمع قيام فكرة العولمة، أو الإمبراطورية، يزداد تركز الثروة، وتتسع الفروق بين البشر، وتصبح الدعوة للانفتاح على السوق النقدية العالمية، عقيدة صارمة يجب أن يخضع لها الجميع، وإلا فقانون الغاب سيتولى العقاب وإعادة الانضباط.

ويملأ الإعلام الفراغ عن طريق الترويج لأسطورة أن الشر من طبائع البشر، وعلى الكل التكيف معه، فالعنف «أمريكي مثل فطيرة التفاح»!!

ولا يفوتني أن أذكر، أن أكبر أعوان «الميديا» المعادية، هو الكذب والتحيز والدعاية الفجة التي كثيراً ما تشيع في «الميديا» العربية.

وتظهر الكارثة الحقيقية عندما يواجه الإعلام الذي ينطق باسم العولمة، إعلام الدولة التسلطية التي تنشغل وسائل إعلامها بتكبير ما تراه أو تفعله أو يصدر عن الدولة، وتصبح وسائط الاتصال مجرد أجهزة دعاية، لا صوت يعلو صوت الحكومة، ولا صورة إلا صورة الزعيم، ولا رأي إلا رأيه.

وحتى عندما تنطق هذه «الميديا» بالحقيقة لا يصدقها أحد!! هنا تتخل الحكومة بشكل فج فتفقد تأثيرها، وهناك تأثير من نوع مختلف، يظهر الفارق بين البسيط والمركب، بين السذاجة والمراوغة!

وهناك أمثلة واضحة، عن مدى تمتع «الميديا» بالشفافية، فتابع الجميع تجربة حرب تحرير الكويت، ورأينا كيف غابت الشفافية وفرضت الرقابة في زمن الحرب التي أطلق عليها «الأمن الإعلامي في زمن الحرب»، وما جرى في حرب احتلال العراق، ولا مجال للتصديق الساذج بحياد صحفهم ومحطاتهم الفضائية.

وهناك عدد من الدراسات المهمة، حول الترتيبات التي أتخذت للحيلولة دون وصول المعلومات الصحيحة للرأي العام، ومن هذه الترتيبات مصاحبة المراسلين للقوات، وتقييد حركتهم، وإبعادهم عن المناطق الساخنة، وأحيانا بطريقة فظة لا تستبعد إطلاق النار عليهم، والملاحظ أنه حتى اليوم لم تظهر صور الدمار والقتل الذي وقع خلال الغزو الأمريكي للعراق!

وكما رأينا فشلت الإنسانية في استخدام ثورة الاتصالات والمعلومات لتبادل المعارف، ومن أجل التعاون والسلام، وتحولت إلى أداة لصراع الحضارات.

واليوم أصبحت معظم الدول العربية مستقلة، لها جيوش وثقافة، ولديها ثروات، ووسائل اتصال متعددة، علينا أن نحسن استخدامها. حتى نبذر الحب وتنتشر الكلمة الطيبة، بذوراً تحملها رياح المستقبل.

فذلك هو الأفضل والأبقى. ■

النهوض باللغة العربية

بقلم
د.محمد فتحى فرج •

اللغة هى مستودع التراث ووعاء الفكر، وهى ظاهرة إنسانية اجتماعية، تعرف بها الملامح المميزة لكل مجتمع فى كل عصر من عصور التاريخ، فهى كما يقول ابن جنّى فى كتابه «الخصائص»: أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم. على أن اللغة العربية لها خصوصية تتمتع بها دون سائر اللغات الأخرى تستمدها من كونها لغة القرآن الكريم، الذى لايزال عاملاً فى ضمير المسلمين على تأكيد أن العربية جزء من الحقيقة الإسلامية، وهى أيضاً إحدى دعائم عروبتنا الأساسية إن لم تكن أهمها على الإطلاق. وهذا الارتباط بين اللغة والعقيدة والهوية سمة تفردت بها اللغة العربية، مما جعلها محل استهداف أعداء الإسلام الذين يرمون إلى تقويض العقيدة فى النفوس بإعمال معاولهم لهدم اللغة العربية؛ لكونها سياج هوية الأمة، الذى يوجد بين عواطف العرب ومشاعرهم، فى الأفراح، والأتراح، فتؤلف بين أسلوب تفكيرهم وآدابهم وسلوكهم.

• أستاذ بجامعة المنوفية، شبين الكوم، مصر.



واللغة العربية، دون غيرها من سائر اللغات تتعرض بين الحين والحين - للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً - إلى حملات التشويه والتدمير، سواء من غير العرب من المستشرقين الأوروبيين أو ممن يسيرون في فلكهم من الناطقين بلغة الضاد، مثلما تعرضت قديماً لمن يُعرفون بالشعوبيين. فهي إذن حملة قديمة جديدة تستهدف في الأساس معتقداتنا وتراثنا وماضينا بل ومستقبلنا؛ لما لهذه اللغة - على وجه الخصوص - من الارتباط بالدين، ومن ثم هوية المسلم وتشكيل عقله ووجدانه وثقافته بوجه عام. فقد وقف الشعوبيون القدماء موقف العداء من لغة القرآن، وقد تصدى لهم علماء العربية، الواقفون على أسرارها في ذلك الوقت ومنهم ابن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) القائل: «وقد اعترض على كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة، في اللحن، وفساد النظم والاختلاف وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور.. فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون.

وقد منيت العربية الفصحى - كما يقول الدكتور رمضان عبد التواب - في العصر الحديث بخصوم حاقدين، وأعداء ألداء من الشعوبيين الجدد من أمثال المستشرق الألماني «تيودور نولدكه» وغيره، وليست تلك الهجمة الضارية إلا جزءاً من الهجوم على الدين الإسلامي الحنيف؛ لما فطن له أعداء هذا الدين من الارتباط الوثيق بينه وبين اللغة العربية الفصحى، ومن قبله كانت دعوة المستشرق الألماني «ولهلم سبيتا» إلى التحول من الفصحى إلى العامية، وقد وضع كتاباً أسماه: «قواعد اللغة العربية في مصر»، وكذلك المستشرق الإنجليزي «وليم ويلكوكس»، الذي كان يعمل مهندساً للري في مصر. أما المستشرق الشهير «ماسينيون» فكان يدعو إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وكان يدعو أيضاً إلى اللهجات العامية. وفي يقينهم أنهم إن أزالوا الفصحى عن مكانتها الراسخة في القلوب منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فقد أزالوا الحصن الأكبر من حصون هذا الدين الحنيف، ويغيب عنهم أن الله تبارك وتعالى هو الذي تكفّل بحفظها حين تكفّل بحفظ القرآن في قوله تعالى من سورة الحجر في الآية التاسعة « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون». ورغم ذلك لم تهدأ المحاولات الجادة الحاقدة، التي استهدفت اللغة العربية الفصحى، والعمل الحثيث نحو احلال اللهجات العامية محلها أملاً في اقتراب اللغة العربية من نهايتها، في المستقبل القريب، كغيرها من اللغات القديمة التي اندثرت،

أو بقيت آثارها البسيطة كاللاتينية والسنسكريتية، حتى أن «تشارلز فيرجسون»، العالم اللغوى الأمريكى المعروف، توقع أن تكون النهاية فى العام ٢١٥٠م عندما تظهر لغات رسمية عربية ترث الفصحى أمثال المغربية والمصرية والسورية والسودانية، كما يسميها. ولكننا نقول لهم هيهات هيهات مهما مكروا وفكروا ودبروا، وصدق الله تعالى إذا يقول: {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} الأنفال: ٣٠. ولن يستطيعوا أن يطفئوا نور القرآن بإخماد العربية: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون» الصف:٨.

وقد أوضح الدكتور حسين الهراوى منذ أوائل القرن الماضي أن الدعوة إلى العامية كانت إحدى الطرق التى تبناها المستشرقون ورواد الاستعمار منذ زمن قديم وكانت إحدى وسائلهم حتى لا يتفاهم المسلمون ولا يفهمون لغة قرآنهم.

الشعوبيون العرب

أما فى الوطن العربى فقد ظهر كثير من الكتاب فى العصر الحديث مما يدعون إلى العامية المحلية أو إلى كتابة العربية بحروف لاتينية ومنهم: سلامة موسى، وعبد العزيز فهمى، وأنيس فريحة، وسعيد عقل، وفائز جابو، ويوسف الخال، وشاكر خصباك، ويوسف العانى، وسعيد حوارنية وأخيراً بنْ زاغو فى الجزائر.

أما بن زاغو، وهو أحد الأساتذة الأكاديميين، الذين عهدت إليهم بوضع التصورات الخاصة بشأن إصلاح وتحديث التعليم، فوضع تقريراً يطالب فيه بتدريس اللغة الفرنسية اعتباراً من السنة الثانية من المرحلة الابتدائية، وإعطاء الأولوية المطلقة لتدريس جميع العلوم باللغة الفرنسية بدلاً من العربية. ومنذ شهور قليلة وردت أنباء من موريتانيا تفيد تراجع الدولة عن سياسة التعريب فى مراحل التعليم المختلفة والعودة إلى استخدام اللغة الفرنسية فى تدريس كل المواد العلمية، بعد أن كادت حركة التعريب، التى بدأت فى السبعينات من القرن الماضي، تُؤتى ثمارها الإيجابية بإقبال أعداد من السكان السود (الذين يتشيعون عموما للغة الفرنسية؛ لأنها تميزُهم عن أغلبية السكان العرب والبربر) على الفصول (المعرَّبة) وعلى المعاهد العربية: وقد يؤدى كل ذلك إلى آثار وخيمة على الشعور بالانتماء القومي، ذلك أن اللغة ليست مجرد أصوات أو ألفاظ منطوقة، أو كلمات مكتوبة، وإنما هى كيان متكامل من الفكر والوجدان والتراث والتاريخ والقيم الدينية والأخلاقية، كما أنها أداة اتصال وتواصل؛ ولذا فإن استبدال لغة بأخرى فيه إهدار لكل هذه الأبعاد، وانسلاخ المجتمع نفسه عن تاريخه وعن ماضيه وعن هويته الثقافية، كما أن فيه إضعاف لعلاقته الثقافية والفكرية مع الأقطار الأخرى التى تشترك معه فى تلك

اللغة، وفارق كبير أن يتعلم المرء اللغات الأجنبية لتكون وسيلة للتبادل الفكرى مع الثقافات المختلفة وبين أن يتبنى هذه اللغة أو تلك لتكون هى أداته فى التفكير والتعبير على حساب لغته الأصلية.

وأخيراً سيبويه المفترى عليه!

ولقد أضاف الأستاذ شريف الشوباشى إلى همومنا هما جديدا بدعوته تلك التى طلع بها علينا من خلال كتابه الأخير: «لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه»، وهو فى هذا الكتاب ينحو باللائمة على سيبويه ظنا منه أنه السبب المباشر فى تخلفنا اللغوى والتعبيرى ومن ثم الفكرى «والتقدمى»! فمن هو سيبويه الذى يريد أن يسقطه من عرشه؟ وهل يستحق ذلك؟ وهل هو حقا السبب فيما نحن فيه من التردّى اللغوى، والتعبيرى والفكرى إلى غير ذلك من ألوان وأطياف التخلف؟

وقبل أن تجيب عن ذلك نقول: إن اللغة ليست نحوا فقط ولكنها نحو وصرف وبلاغة وبيان وبديع وألفاظ وأساليب وصياغة. واللغة لا تنهض بذاتها وإنما بجهود أبنائها والناطقين بها، فهى مرآة جيدة تعكس أحوال المجتمع المتحدث بها، تتقدم بتقدمه وتتدهور بتخلفه، ويوم أن قُدنا العالم وسُدنا أركان المعمورة كان الناس من كل الأجناس يتسابقون لتعلم العربية، حتى ينهلوا من العلم العربى، وما قامت النهضة الأوروبية الحديثة إلا على العلوم العربية التى نقلها الأوروبيون ترجمةً، بعد أن تعلّم أقطابُهم العربية وأجادوها.

ونعود إلى العظيم سيبويه، الذى ظلم «دون وزر اقترفه، أو ذنب جناه إلا غيرته على العربية، وقد سبقه فى ذلك بعض أئمة النحو ورواده ومنهم: عبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى وأبو عمرو بن العلاء، ومنهم أيضا الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى، وهو من الأفذاذ وأصحاب الأوليات فقد وضع بحور الشعر العربى وطريقة تدوين معاجم اللغة، فضلا عن عبقريته فى النحو الذى استنبط أصوله وفروعه وعلله وأقيسته ما لم يسبقه إليه سابق. أما أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الذى أخذ عن أبى عمرو، فقد كان صاحب قياس فى النحو وله فيه مذاهب تفرد بها. ثم يأتى بعد ذلك «سيبويه» وهو عمر بن عثمان بن قنبر، أما «سيبويه» فهو لقبه الذى يعرف به، وقد ولد فى إحدى مدن فارس وهى «البيضاء» أما النشأة والإقامة فكانت بالبصرة. وقد تتلمذ على الخليل بن أحمد، وغيره من أئمة النحو، وقد ترك لنا كتابا فى النحو لم يضع له اسما ولا مقدمة ولا خاتمة. فأطلق عليه القدماء اسم «الكتاب»، على اعتبار أنه العلَم الذى لا يحتاج إلى تمييزه عما سواه باسم خاص - كما يقول الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه «المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى» - فإذا ذُكر اسم «الكتاب»، فى معرض الحديث عن النحو، فإنما يقصد به «كتاب سيبويه» ذاك، وهذا يشير إلى أهميته وعلو منزلته، وبهذه المناسبة نقول للسيد «شريف الشوباشى»: إن الرجل لم يسجِّل بكتابه قواعد، ولم يقرر أحكاما،

ولم يضع شروطا يكبّل بها «الشوباشي» أو غيره، وحتى لم يلتزم تعريف المصطلحات، ولم يرددها على وتيرة واحدة، بألفاظ محددة. أما ما يحتويه «الكتاب» فلا يعدو أن يكون فيضا غزيراً من الأساليب والمفردات، بعضها مأثور، وبعضها الآخر محدث، يعرضها سيبويه ليحللها ويدرسها، ثم يحكم على صحتها أو خطئها، أو يحسنها أو يقبحها، عارضا آراء شيوخه ولا سيما الخليل بن أحمد، فينتقدها أو يعلق عليها، أو يجعل منها تماما للمسألة التى يدرسها أو يعرض لها، مع فيض من الشواهد المتنوعة، بعضها آيات من القرآن الكريم، وبعضها الآخر من المأثور من شعر العرب، ومن الرجز، ولا يفوته أن يصحح نسبة الشواهد، التى يرى أنها منسوبة إلى غير أصحابها.

فما الذى صنعه سيبويه حتى نسقطه ونحمله أوزارنا وأخطاءنا وقد صدق فينا قول المتنبى:

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم

نعم العيب فينا ونلصقه بغيرنا ويعوزنا الفهم الصحيح لقضايانا، وما يحاك ضدنا.. فقد كانت مخاوفنا وجهودنا مركزة على التصدى للهجمة الشرسة على التنوع اللغوى العالمى، الذى يشمل ضمن ثرواته اللغة العربية، وذلك لصالح اللغة الإنجليزية، والغرب - خاصة الأمريكى - يجعل منه مدخلا للهجوم على التنوع العقائدى ذاته لاسيما وأن عقيدتنا ترتبط بلغتنا ارتباطا وثيقا، فى وقت تزداد فيه الحملة الرعناء التى توجه ضد العرب والإسلام ولغة القرآن، فى خطاب صراع الحضارات، ونهاية التاريخ، إلى غير ذلك مما يصطنعوه من آليات لضربنا جميعا من كل اتجاه.

وتأمّل معى إلى أى مدى يكون التناقض العجيب المريب.. ففى الوقت الذى يسعى فيه العدو الصهيونى لجمع شتاته اللغوى وإحياء موات موروثه اللفظى، يحاول البعض منا شرذمة اللغة العربية وتفتيتها إلى لغات محلية لا يفهمها إلا المجاميع المنعزلة، فهذه مغربية بربرية وتلك عامية مصرية وثالثة عربية خليجية دارجة... حتى تتقطع الأوصال بين أعضاء جسد الأمة، فيتفسخ ويتهاوى ويهلك، وتلك غاية أعدائنا وهدفهم المنشود.

العامية ليست لغة علم

أما بالنسبة لاستخدام اللغة العامية فى مجال العلوم التقنية فسيؤدى إلى كارثة حقيقية من جراء الخلط والتشويش، وانحسار الدقة وتلاشى التحديد، الذى يتميز به الأسلوب العلمى، والتعبير عن الحقائق والنظريات والتجارب والبحوث العلمية، فضلا عن افتقار العامية إلى إمكانات الاشتقاق والتوليد الذى تتميز به الفصحى لمسايرة التطورات العلمية التى لا تتوقف. وفى

حالات التقديم والتأخير، الذى تتميز به الأساليب العربية، فلن يكون من السهل تعيين الفاعل وتمييزه من المفعول مع اختفاء الإعراب، مما قد يترتب عليه من مشاكل لا تحمد عقباها، لا سيما فى بعض المجالات العملية كالكهرباء والميكانيكا والكيمياء التطبيقية إلى غير ذلك من مجالات تتطلب التحديد الصارم والدقة المتناهية، حيث أن أى التباس قد يكون قاتلا!

أما اختفاء «نون النسوة» فسوف يزيد الطين بلة، فالمقارنات مثلا بين نتائج الاختبارات والفحوص لمجموعتين من المرضى أحداهما من الذكور والأخرى من الإناث، سيحدث بصددها الخلط والتشويش تماما مثلما يحدث فى حالة الأحكام الفقهية والضوابط الشرعية التى تخص الرجال من نون النساء أو عكس ذلك، فسوف يعتورها الخلط وعدم التحديد الذى قد يفضى إلى آثار خطيرة .

هذا، فضلا عن أن الثروة اللفظية للعامية جدٌ فقيرة بالمقارنة إلى الفصحى، فقد تبين فى بعض الإحصاءات أنها لا تتجاوز الخمسمائة كلمة، بينما تتطلب الحياة العلمية المتنامية عشرات الآلاف بل ومئاتها من الكلمات؛ لنستطيع التعبير عن المدركات الجديدة المتطورة والمسايرة لحركة الفكر العلمى والإنسانى بوجه عام. وهذا الثراء اللفظى ميزة تتميز بها العربية وليس عيبا كما يظن الأستاذ «الشوباشى» فى كتابه المعجزة!

نعم.. لغتنا فى خطر، ولكن ليس معنى ذلك أن نلعنها ونلغيها ونستبدل العامية بها، ولكن الأجدى من ذلك أن نبحث بالطرق العلمية المنهجية لحل مشاكلها وتيسيرها على ألسنة وأقلام الناطقين والكاتبين بها.

إن الدعوة إلى اللهجات العامية بهدف القضاء على الازدواج اللغوى، واتساق الفكر مع اللسان وتبسيط القواعد بحذف معظمها، دعوة مشبوهة تؤدى إلى الانسلاخ عن العقيدة ونقض عُرى الدين، من خلال الانقطاع عن أهم نصوصه: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتراث الفقهى والشرعى والأدبى والفكرى المكتوب باللغة العربية الفصيحة، ذلك الذى يضرب فى تاريخنا إلى نحو ألف وخمسمائة عام. إنها باختصار دعوة لطمس معالم الهوية العربية الإسلامية وإلغائها، وهى فى النهاية دعوة مذمومة مسمومة فاشلة لا يمكن تنفيذها، وستنتهى قبل أن تبدأ، شأنها فى ذلك شأن سوابقها بل ولواحقها، أما ما تعهَّد الله به من حفظ قرآنه الكريم كما جاء فى قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» الحجر:٩. وحتى نستيقن من ذلك، فإنه مع كل تطور علمى، وتقدم تقنى، يتأكد ويترسخ هذا العهد القرآنى الناصع البيان، ليتحقق معه حفظ لغة القرآن، رغم أنف الحاقدين، وكيد الكائدين. ■

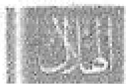
دائرة حوار

الوافد والموروث في الفن التشكيلي

بقلم
عدلى رزق الله

«الوافد والموروث» (•) مقولة شاعت فى الشارع المصرى الثقافى والسياسى منذ أن أطلقها فيما أعتقد صديق العمر المفكر الإسلامى طارق البشرى.

وثنائية «الوافد» من ناحية «والموروث» من ناحية أخرى توحى إلينا جميعا بالتناقض بين ضدين لن يلتقيا، فالوافد قادم من الخارج، لا علاقة لنا به، يروج له التنويريون منذ نهايات القرن التاسع عشر أو بدايات القرن العشرين. أما حفظة التراث، الحريصون على ما فعله وقاله الأجداد، فيتمترسون وراء أبنية ثقافية وتراثية لم تمتد إليها يد الآخر الغربى.



هذا فيما أظن تلخيص أمين - فيما أعتقد - لمقولتى «الوافد» و«الموروث» التى تجرى فى دماء الخلاف المعلن، والذى يصل أحيانا إلى السلاح من بعض الأتباع، فمظاهرات رواية «وليمة أعشاب البحر» أو الموقف من فيلم «باحب السيما»، أو الهجوم على رقبة كاتبنا الشيخ «نجيب محفوظ» والأمثلة كثيرة، والتوقف عندها قد لا يجدى السياق بل سيكون تكرارا مملا لا أرجوه لنفسى.

الوافد في الفن التشكيلي

منذ بدايات القرن ورحيل الرعيل الأول إلى أوروبا ممثلا فى محمود مختار أولا ثم راغب عياد ويوسف كامل، كان طابع الاستزادة من الغرب إحدى سمات

• سأتجنب الحديث عن أبناء جيلى، حتى أهرب من شبهة عدم الموضوعية لأن كل من تكلمت عنهم لا تنافس بيننا.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحركة الفنية الوليدة آنذاك . وأصبح الالتحاق بالتدريس بكلية الفنون الجميلة بعد ذلك هو أمل الموهوبين من أبناء الأجيال اللاحقة حتى تتاح لهم فرصة السفر إلى الغرب للتعلم والاستزادة.

تلك كانت البداية، التي قد توحى بالاتساق وأحادية المنبع، لكن تعالوا نناقش معا ما فعله الرواد الثلاثة بنا، وبالفن أيضا.

١ - حاول محمود مختار صاحب الموهبة الفذة مزاوجة «الفن» و«الموضوع» المصرى الهوى بانجازات النحت اليوناني. تجربة مثيرة، كان تمثال الخماسين هو قمة إنتاج الفنان، والموت المبكر حرمنا من واحد من أهم المواهب فى فن النحت.

٢ - استورد لنا يوسف كامل التأثيرية، بل بالأحرى لمسات من أعمال كلود مونيه، ثم بعض تعاليم المدرسة الإيطالية، وبدأ يوسف كامل طريق ما أطلق عليه التأثيرية ، بعد أن كانت شمسها قد غربت تماما فى فرنسا بلد المولد، وجاء سيزان ليعيد للوحة تماسكها، ويفتح الباب للمدارس الحديثة فى الفن مع بداية القرن العشرين، فى الوقت الذى كان يفعل فيه يوسف كامل وتلاميذه فعلهم ، كانت المدارس الحديثة تتوالى فى الفن الغربى من تكعيبية إلى تجريدية إلى سوريالية إلى تعبيرية.. إلخ.

وهنا يثور أول سؤال:

هل لو رسم فنان تأثيرى غربى بقرة وكوخا فى الريف المصرى يكون قد قدم لنا لوحة «مصرية»؟

من هنا وجب علينا التفريق بين «الموضوع» و«المضمون» وهى المشكلة التى يجب إيضاحها حقا لكننى اكتفى هنا بمحاولة تبيان أن رسم الموضوع المصرى لا يلد لنا فنا مصرى الهوى والهوية.

٣ - ثم نأتى إلى مقولة أطلقها راحلنا الرائد الثالث «راغب عياد» الذى قال بالحرف الواحد أثناء مغادرته للباخرة التى أقلته من الغرب ماذا قال لنا «راغب عياد»؟

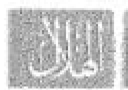
قال : سأرمى القبعة والقفاز إلى عرض البحر.

وهى جملة تدلنا على بداية الوعى الحق بأهمية معرفة نسيان الألف بيت شعر الذى نصحنا القدماء بحفظها. كما نصحونا أيضا بنسيانها كشرط واجب لكتابة الشعر.

كانت الحركة الفنية وليدة، وكانت الحركة الفنية فرحة بالجميع بنفس القدر، وبنفس ردود الفعل، وتساوى الجميع، ولم يبحث مؤرخو الفن أو نقاده عن التقييم ، وتبيان الاختلافات وقد آن الأوان لذلك.

هنا يجب التوقف لكى أصرح لكم بأننى لا أدعى القدرة على القيام بالتأريخ أو التقييم ، لكننى أطرح الأسئلة التى عاصرت تجربتى الفنية ، لعل كلمتى تكون «مساهمة فنان» يحاول أن يتسلح

زوراق الإبحار - كنعان



شعبان ١٤٢٥هـ - أكتوبر ٢٠٠٤م

بالوعي. وقد يكون في طرح الأسئلة وتلمس بعض الاجابات قدر - ولو يسير - من الفائدة.

وتتتالى ولادة الفنانين بعد الرعيل الأول. محمود سعيد. محمد ناجي، أحمد صبرى، حامد عبدالله، الجزار، تحية حليم، كنعان، صلاح طاهر، رمسيس يونان، فؤاد كامل - سمير رافع، حسن سليمان، آدم حنين، وأخرون كثر منهم ابو خليل لطفي، حامد نداء ولا تسعفني الذاكرة بأسماء كل من جاء إلى الحركة التشكيلية قبل جيل الستينيات والذي أنتمي إليه، والحصر ليس مسئوليتي بل هو مسئولية المؤرخ والذي لا أملك أدواته، كان همي من ذكر بعض هذه الأسماء اللجوء إلى بعضها لتلمس مشكلة «الوافد» و«الموروث».

ولنحاول قول جملة مختزلة تماما عن كل فنان ثم التوقف عند من يمثلون علامات على طريق الفن التشكيلي المصرى.

محمود سعيد، التزم بالتكنيك الغربي مع سكندرية الموضوع ونصاعة الموهبة.

محمد ناجي: تأثيرى اضاف بموهبته. ولا تقارن أعماله بيوسف كامل وتلاميذه.

أحمد صبرى: الأكاديمية الإيطالية، ولوحة الراهبة خير ما يمثله.

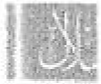
صلاح طاهر: بدأ اكاديميا تشخيصيا حتى نهاية الخمسينيات، سافر إلى أمريكا وعاد لنا باللوحة التجريدية وهناك من يختلفون على أسبقية لوحته التجريدية على لوحة كنعان والعكس أيضا.

كنعان: استورد لنا اللوحة التجريدية وخاصة الكولاج، ولم يستطع الهروب من الحروف اللاتينية المستخدمة في الأصل المنقول عنه أو الذي يمثل الذاكرة البصرية. موهبة تجريبية كما يجب أن تكون التجريبية.

وسنتوقف أكثر من ذلك عند التلخيص المخل لدى حامد عبدالله وتلاميذه ومنهم تحية حليم التي تزوجها لفترة طويلة، ثم رمسيس يونان وبعد ذلك الجزار، وسيأتي ذكر البعض عرضا مع هذه الأسماء الثلاثة.

حامد عبدالله.. أحد أهم المواهب، التي جادت بها الحركة الفنية في مصر. اقترب كثيرا من حس الفنان الشعبي دون الوقوع في آفة التقليد أو النقل والتي سنرى لاحقا أنها آفة من يدعون «الأصالة» أو الانضواء تحت راية «الموروث» علم البعض ومنهم تلميذته تحية حليم. اقترب من أعماله مواهب كثيرة لجاذبية سرى مثلا. في مجموعة شهادات الغضب لي شخصيا الكثير من الاستفادة بما أنجز.

نختلف جذريا مع مقلدى الفنان الشعبي، وناقلي التراث بتحريف ثقافي. وسنرى القانون أو المنهج المتبع لاحقا لمدعى الأصالة ومدمني التراث السابق



إنتاجه.

رمسيس يونان .. أنسن التجريد، وأضاف إليه، هضم التراث بما في ذلك فن القرن العشرين، وأضاف ولم يقلد هو أيضا.

الجزار .. وهو يمثل الموهبة الحوشية في الفن المصرى أبدع أجمل لوحاته قبل الرحيل إلى إيطاليا. «المجنون الأخضر» «الشيخة» إلى آخر تلك المجموعة العظيمة، ثم ذهب إلى طرق مسدودة حين حاول تحميل لوحته معنى سياسيا في «الميثاق»، وحين حاول رسم لوحات تهتم بالعلم.

ونأتى هنا للب موضوعنا، هؤلاء الذين يرتدون رداء التراث والعودة إليه، ونقل بعض «موتيفات» وأشكاله كنقوش المشربيات مثلا، أو نقل بعض رسوم الفن الشعبي وإعادة إنتاجها بخامة جديدة، أو بشكل منمق، ماهو القانون المتبع والنهج المستخدم.

«فصل الشكل عن المضمون، ووضع محتوى جديد به».

ثم ننتقل إلى من يستوردون لوحتهم من الغرب مدعين «المعاصرة» أو «الوافد» على حد تعبير صديقى طارق البشرى ماذا يفعلون:

«فصل الشكل عن المضمون، ووضع محتوى جديد به».

أين الاختلاف إذن؟

هذا هو السؤال الجذرى، وقد يفسر لنا هذا انتقال بعض الأسماء من معسكر

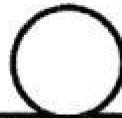


تكوين - صلاح طاهر

إلى الآخر، مما يثير التساؤل والدهشة عند البعض وأنا لست منهم.

ما المطلوب إذن.

ليس بثنائية «الوافد» و«الموروث» تحل القضية ولكن بهضم الموروث و«الوافد» معا، ثم خلق «لوحة جديدة» لم يسبق إنتاجها في أي ماض. سواء كان هذا الماضي محليا أو عالميا. يحمل هذا الجديد في دمائه كل «الموروث» بما فيه «الوافد» ثم إنتاج إجابات أو حتى طرح أسئلة وجودنا، وكفانا من هؤلاء الذين يحملون السلاح ضد بعضهم البعض وهم ابناء منهج واحد، حتى ولو بدا في الظاهر تناقض سيسقط فور التنقيب والتمحيص، وهو ما جاءتني به التجربة الفنية. ■



دائرة حوار

نقد الأدب العربي بين

أحمد أمين وزكي مبارك

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

تتميز الكاتبة «صافى ناز كاظم» فى كتاباتها بالأمانة والصدق، وعفة اللسان، فضلاً عن عمق الأفكار، وسعة الأفق، وشمول النظرة، كل ذلك فى صياغة جميلة، وعرض شيق ولها فى عنقى أنا بالذات دين كبير، فقد كان لعونها الكبير الذى قدمته لى - نصرة للحق - فضل كبير فى توفيقى - بحمد الله - إلى النجاح.

وقد طالعتنا فى عدد سابق من الهلال بمقال متميز عن «أحمد أمين» روت فيه سيرته العطرة بكل ما فيها من بذل وعطاء فى سبيل الدين - والعلم - والأخلاق - وتحقيق النهضة للأمة العربية نهضة شاملة تدفعها لتحتل مكانها اللائق بها بين الأمم ذات الشأن - كما أشارت إلى إنتاجه العميق وفكره المتميز وآثاره التى لاتزال هي المرجع فيما تناولته من أمور .. كما روت ما قاله عنه قرناؤه من ذوى الفكر وأرباب القلم - كل ذلك فى مقال لا يخطه إلا قلم مخلص يعبر عن فكر مستقيم، ولايصدر إلا عن نفس تحفظ للأوفياء وفاءهم ولذوى المكانة مكانتهم ..


أحمد أمين


زكي مبارك

وقد علقت على ما قاله عنه قرناؤه - بقولها: إنها شهادات مفعمة بصدق المحبة والمودة والتقدير والإجلال لواحد من رعيلهم الفذ - أجمعوا على إخلاصه وعدله ودماثته ولطف معشره وظرف حديثه ولمسنا أنهم كانوا معه إلى اللحظات الأخيرة لم يهجروه، ولم يتنكروا له كما زعم ابنه «حسين» فى مقاله الذى نشره بمناسبة ذكرى والده الخمسين ولقد تعمدت أن أهرع إلى كتابات هؤلاء الأصدقاء لأدفع عن أحمد أمين «جناية» ما كتبه عنه ولده المغرم بالوقوع فى الأخطاء..

وكل ذلك قرأته فى رضا وإعجاب ولا يسعنى إلا أن أثنى عليه ثناء المقدر والمقر للكاتبة بالفضل والتميز، وإن كان ذلك لا يمنعنى من أن أتناول فى حديثى ما أوردته الكاتبة فى صدر مقالها من حديث عن «جناية» حسين «على أبيه» أحمد أمين فما هى هذه الجناية ؟

وهل حسين حقاً هو الجانى ؟ وكيف يكون أبوه هو «المجنى عليـــه» ؟ وإذ كنا بصدد جناية أفلا يحتاج الأمر إلى محام؟ بالطبع نحن فى حاجة إلى هذا المحامى فبذلك يقضى الدستور إذ ينص على أن «كل متهم فى جناية يجب أن يكون له محام يدافع عنه» فقد كان مطلع مقالها هذه الفقرة:

«فى الذكرى الخمسين لرحيل الأديب والمثقف الرائد أحمد أمين، كتب ابنه «حسين أحمد أمين» مقالاً رآه حسناً ورأيته «جناية» على واحد من كبار رواد الأدب والنقد والثقافة العربية فى النصف الأول من القرن الماضى».

فماذا كتب حسين الابن عن أبيه؟ وما هو وجه الحق فيما كتب؟ وما هى «الجناية» المنسوبة إليه ؟

الحق أن حسيناً كتب كثيراً عن والده. بل إن له كتاباً يحمل عنوان (فى بيت أحمد أمين) والكاتبة طبعاً لاتعنى هذا الكتاب إنما تعنى المقال الذى نشرته جريدة القاهرة فى عددها الصادر فى أول يونيه الماضى وكان ذات المقال .. قد نشر من قبل فى إحدى الصحف العربية التى تصدر فى الخارج. وما أعتقد أن الكاتبة تأخذ على هذا المقال شيئاً مما تحدث به الكاتب عن أحمد أمين: رب الأسرة أو الإنسان أو الكاتب، أو الباحث، أو الصديق فما رواه الابن عن أبيه فى هذه النواحى ليس فيه ما يؤخذ عليه - فيما أعتقد - وحتى ما ذكره حسين فى مقاله من تنكر الأصدقاء لأحمد أمين فى أيامه الأخيرة وإن لم يرض الكاتبة، وسارعت إلى شهادات أولئك الأصدقاء تروى عنهم ما يؤكد تقديرهم الكبير لأحمد أمين.. فما أعتقد أنه هو الذى أثارها على الابن لأن الابن إنما يتحدث عن واقع عاشه مع أبيه فى أيامه الأخيرة وبخاصة لأن معظم هذه الشهادات إنما قيلت بعد وفاة أحمد أمين . وتلك عادة مصرية أن يكثر القول على الفقيد بعد انتقاله إلى العالم الآخر.

وإنما الذى أظنه - وليس كل الظن إثما - أن الذى أثار الكاتبة وأغضبها هو الفقرة التالية التى وردت فى مقال حسين

أحمد أمين.. فإن لم تكن هى هذه الفقرة بالذات، فقد كانت تلك الفقرة من أشد الفقرات إغضاباً لها إلى الحد الذى دعاها إلى وصف قول الابن بأنه «جناية» فى حق الأب، فما هى هذه الفقرة؟ هي الفقرة الآتية التي ننقلها بنصها عن مقال «حسين أحمد أمين» :

(وكنت أعجب لقلة نظره - نسبياً - فى الشعر العربى وضعف تعلقه به واحترامه له فهو يستنكر منه غلبة المديح، وبذاءة الهجاء، وجعجعة الفخر وتكلف المشاعر، وزيف الوصف، وأعتقد أن زكى مبارك كان محقاً حين اتهم والدى بالعجز عن استساغة الشعر العربي، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومي، وأبي العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً حقيقياً، وإنما جاء اتباعاً لرأي العقاد في الأول وطه حسين في الثاني، وتسليماً بحكميهما على الشاعرين).

حديث يتميز بالعمق

هذه هى الفقرة «المثيرة» إذ كيف يوصف أحمد أمين بأنه كان قليل النظر فى الشعر العربي، وهو من هو مكانة أدبية؟؟ فقد تحدث عن الأدب العربى حديثاً مستفيضاً وهو يتحدث عن فجر الإسلام ثم عن ضحاه فظهره .. وهو حديث يتميز بالعمق وسعة الأفق، وكان الشعر الحديث عن العربى يحتل العديد من صفحات تلك الموسوعة .. ثم إن أحمد أمين شارك بجهد كبير فى إعداد «المنتخب» الذى كان يدرس لطلبة المدارس الثانوية وكان يقوم على انتقاء أروع آيات الأدب العربى «شعراً ونثراً على مر عصوره.. ثم إنه قام بتحقيق الكثير من الكتب والآثار العربية وهى وإن لم تكن دواوين شعرية إلا أنها تحوى العديد من أشعار العرب ثم كيف ننسى أنه هو الذى قام على جمع وإحياء ديوان حافظ ابراهيم بعد وفاته، ولولا جهده لما وصل إلينا هذا الأثر النفيس لشاعر يعتز به أبناء العروبة جميعاً فكيف يتأتى بعد ذلك للابن أن يصف الأب بقلة نظره فى الشعر العربي؟ تلك ولاشك «جناية» اجتناها حسين على نفسه وليس على أحمد أمين !!

وخلاصة القصة أنه كان لأحمد أمين سلسلة مقالات نشرت فى مجلة الثقافة حملت أولاها عنوان (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) وقد نشرت بتاريخ ٩ / ٥/ ١٩٣٩ وكانت المقالة الثانية تحمل عنوان :(جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربى أيضاً) وقد نشرت بتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٩٣٩ ثم نشرت بعد ذلك ثلاث مقالات أخرى تحمل نفس العنوان : نشرت أخراها بتاريخ ١٢ / ٩ / ١٩٣٩ حيث ذيلها بعبارة «تم البحث» كما نشر أحمد أمين فى تلك الفترة مقالتين أخريين : أولاهما تحمل عنوان (الدين - الصناعى) نشرت بتاريخ ٣٠ / ٥/ ١٩٣٩ - أما الثانية فعنوانها (أدب الروح وأدب المعدة) ونشرت بتاريخ ٦ / ٦/ ١٩٣٩ .

الجناية !!

وعلى ذلك فنحن بصدد مقالات سبع يضمها تيار واحد، أو إطار فكرى متقارب نشرت جميعها فى مجلة الثقافة التى كان يصدرها أحمد أمين ويرأس تحريرها .. وهى - فى مجملها تحمل عنوان (الجناية) سواء كان الشعر الجاهلي هو الجانى أو سواه واللافت للنظر أن هذه المقالات قد أعيد نشرها فى كتاب (فيض الخاطر) فى جزئه الثاني وإن كان صاحب الكتاب قد أدخل تغييراً على عنوان مقالاته الخمس، إذ صار العنوان على هذا النحو (جناية الأدب الجاهلي أو نقد الأدب العربى)

فقد حرص على التخفيف من شدة العنوان الأول، ومن لهجته القاطعة. وكان من الطبيعى ألا ينتهى الأمر عند نشر تلك



حسين أحمد أمين　　صافي ناز كاظم

المقالات، فقد أثارت - عند نشرها - تعليقات كثيرة نشر بعضها أحمد أمين نفسه في مجلته. لكن أهم ما أثارته تلك المقالات كان رد الفعل عند الأديب الكبير المعاصر لأحمد أمين، ونعني الدكاترة - كما كان يسمي نفسه - زكي مبارك، فقد كان رد الفعل عنده حاداً وقوياً بل ومندفعاً كأنه السيل، فأنت ترى أن لهجة أحمد أمين هادئة وطريقة عرضه مباشرة، ويعبر عن أفكاره في يسر وبساطة فلا تحس لديه بانفعال أو ثورة، وإنما تحس بأنك مع عالم يناقش الموضوع بمنطقه ويعرض فكره بأسانيده ويبسط رأيه بشواهده، وعلى العكس من ذلك جاءت كتابات زكي مبارك حادة، وقاسية وتضمنت الكثير من الحواشي والإضافات، ولكنها مع ذلك ضمت العديد من الآراء التي لا يمكن لمنصف أن يتغافلها.

وكما حملت مقالات أحمد أمين عنوان (الجناية) فكذلك كان حرص زكي مبارك على أن يستعمل التعبير نفسه :(الجناية) وهو يعنون مقالاته، ولكنه ينسب الجناية هذه المرة إلى أحمد أمين نفسه، ومن ثم جاء عنوان تلك المقالات «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» .. وكما جمعت مقالات أحمد أمين في كتاب إذ ضمها كتاب «فيض الخاطر» - في جزئه الثاني - فقد جمعت مقالات زكي مبارك - ولكن بعد فترة طويلة - في كتاب طبع مرتين يحمل نفس العنوان الذي ظهرت به تلك المقالات في الرسالة .

التعبير عن الرأي

وإذا كنا نرى أن تلك المعركة جديرة باستعادة تفاصيلها، وطرحها على الجيل المعاصر، فليس ذلك لإعادة إشعال نار الفتنة بعد أن خمدت، فما اعتقد أن ذلك أمر متصور بعد أن تغيرت الاهتمامات، ولم تعد مثل تلك الأمور تهم الكثيرين ولكننا نرى أن أهميتها إنما ترجع إلى دواع أخرى، منها أن نعَرف أبناءنا بما كان عليه أسلافهم من اهتمام بأصولهم وتاريخهم وتطورهم وكيف كانوا يحرصون على التعبير عن آرائهم ويذودون عنها بكل قواهم- وكيف كانوا يعملون بكل قواهم لتزويد قرائهم بثمار جهودهم ويبذلون في هذا السبيل عظيم الجهد .وأيضا فإننا نعَرف أبناءنا أن أسلافهم كان فيهم كسائر البشر اندفاع غير محمود في بعض الأحيان - كما كانت فيهم أوجه نقص وقصور أخرى فلم يكونوا ملائكة أو كالملائكة وإنما كانوا بشرا من البشر، وإن كان كثيرون منهم سبقوا عصرهم بمراحل عديدة.

على أن إعادة الحديث عن تلك المعرفة يقتضي أن نعرض لحديث طرفيها الأساسيين - وإذ كان أحمد أمين هو البادئ فإن علينا أن نعرض أولاً لأفكاره التي حرص على طرحها في المقالات التي أشرنا إليها. وقد تميزت تلك المقالات بما تتميز به كل كتابات أحمد أمين: بساطة في الأسلوب - سلاسة في العرض - وصول إلى الهدف المرجو من أقصر طريق والمقالات كان عنوان خمسة منها عند نشرها لأول مرة (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) فماذا تضمنته تلك المقالات؟ وماذا تضمنته المقالتان الأخريان

اللتان أشرنا إليهما من قبل؟ ذلك ما نوجزه فيما يلي قبل أن نعرض لما قاله زكي مبارك تعليقاً على تلك المقالات - أو تشريحاً لها !! وقبل أن نعرض بعد ذلك ما قد نراه «وجه الحق» في هذا الموضوع الشائك..

نقد الأدب العربي

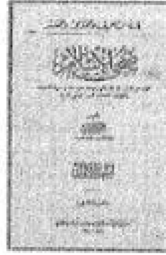
عندما نشر أحمد أمين هذه المقالات في كتابه «فيض الخاطر» أجرى تعديلاً في عنوانها على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه، فجعله (جناية الأدب الجاهلي أو نقد الأدب العربي) وربما كان هذا العنوان أوفى في دلالته من العنوان الأول، لأن تلك المقالات إنما تتناول في الواقع : نقد الأدب العربي في جميع عصوره، وتنتهي إلى أن أدبنا حتى المعاصر منه مازال متأثراً بالشعر الجاهلي، واقعاً في إساره، ولايصل أحمد أمين إلى هذه النتيجة إلا بعد تحليل، وعرض مطولين، ودراسة شاملة للموضوع من جميع جوانبه.

ونقطة البداية تدور حول صورة الأدب الجاهلي حيث يذكر أنها كانت (صورة صادقة لحياة العرب في جاهليتهم، فحياة الجاهلي - غالباً حياة ظعن ورحيل لذلك بدأ شعره بالوقوف على الأطلال، وبكاء الدمن وكان يرحل على ناقته فهو يصف رحلته، ويصف ناقته موضوعات شعرهم هي موضوعات حياتهم من فخر وهجاء، وغزل ورثاء، ومن نزل منهم منزلاً ذكر اسمه وتغنى به .. ومن استمتع بالخزامي والعرار، تغنى بالخزامي والعرار (نوعان من نباتات الصحراء) ومن صاد الوعل وصف صيده للوعل (جنس من الماعز الجبلية) يلتزمون الحقائق ويصدقون التشبيه والوصف، يجيدون وصف الشيء أكثر مما يجيدون وصف الحالة.

ذلك هو حال الأدب الجاهلي مؤتلف مع ظروفه متوافق مع بيئته غير أنه عندما جاءت الدولة الأموية فإن الوضع لم يتغير كثيراً عما كان عليه الأدب الجاهلي ويعلل أحمد أمين ذلك بقوله: (إن كثيراً من شعرائها لم تكن حياتهم إلا امتداداً للحياة الجاهلية .. فموضوعات الحياة هي موضوعات الحياة الجاهلية إن كان ثمة خلاف فهو أن الهجاء القبلي تحول إلى هجاء سياسي، والحياة الخشنة تحولت عند كثير من العرب إلى حياة نعيم ونغمات الشعر الموسيقية التي كانت تلذ الأمويين هي التي تلذ الجاهليين وإن كان للإسلام أثر كبير في حياة الناس.. كان له أكبر الأثر في أوساط الشعب ورجال العلم ورجال الأعمال وأقله في الشعراء فلا عجب أن يأتي الشعر الأموي مصبوغاً بالصبغة الجاهلية في الأوزان والقوافي والموضوعات والروح)

ولكن الذي أثار الكاتب هو حال الشعر في العصر العباسي إذ أنه يتعجب (أن يأتي الشعر العباسي على هذا النمط، وكثير من الشعراء فارسي، والحياة حياة فارسية في أكثر ألوانها والحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مخالفة كل المخالفة للحياة الجاهلية والأموية. فقد كان مقتضى هذا التغير أن يأتي الشعر العباسي صورة صادقة لهذه الحياة الجديدة، ولكن لم يكن كبير شيء من ذلك.. إنما جوهر التغيير أن يعدلوا أوزان الشعر بما يتفق ورقيّ آذانهم الموسيقية، وأن يصفوا أحوال عصرهم الاجتماعية والسياسية وصفاً صادقاً مستفيضاً، وأن يصفوا ترفهم وبؤسهم وصفاً تحليلياً صادقاً، وأن يتغنوا بأماكنهم وطبيعة بلادهم، وأن يصفوا مشاعرهم هم لامشاعر غيرهم.. وهذا الضرب لا نعثر عليه في العصر العباسي إلا في القليل النادر. أهم سبب في هذا عندي - جناية الأدب الجاهلي عليهم) .. ثم يقول: «ومهما اختلفت الأسباب فقد كانت هذه النتيجة: غلبة الأدب الجاهلي وسطوته، وتعبير الأدب العربي بكل

القيود التى قيد بها الأدب الجاهلي.. حتى لقد قال ابن قتيبة: ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين - ومما يؤسف له أن هذه الدعوى السخيفة لقيت نجاحاً كبيراً، وشلت الأدب العربى شلاً فظيعاً فى العصور كلها إلى اليوم».. ويضرب أمثلة لذلك من مهاجمة الجامدين لكل من حدثته نفسه بتجديد: هاجموا أبا نواس عندما دعا إلى عدم البكاء على البكاء والوقوف على الدمن، وهاجموا أبا تمام عندما انحرف عن المألوف قليلاً يابتكار بعض المعانى، والتعمق فيها، فقالوا: إنه خرج على عمود الشعر، وفضلوا عليه البحترى لأنه ألصق بهذا العمود - فكان من أثر دعوتهم تلك انعدام حركة التجديد فى الشعر، وعدم ملاءمته لروح العصر، وانحباسه فى قوالب تقليدية لا يتعداها.



وينتهي الكاتب إلى نتيجة مؤداها أنه كان لانتصار هذا الرأى الشديد المحافظة أسوأ الأثر فى الشعر.. من حيث الشكل ومن حيث الموضوع.

★ ★ ★

ويختم مقالته الأولى.. والتى انطوت على كل الأفكار الأساسية - بقوله: «لقد آن لنا أن نفك هذه الأغلال كما نفك قيود الاستعمار سواء بسواء، لأن الأدب الجاهلى يستعمر عقلنا وذوقنا فيشلنا شلل الاستعمار. وآن لنا أن يكون شعر كل أمة عربية، وأدب كل أمة عربية، صدى لشعورها وسجلاً لأحداثها، وتغنياً بعواطفها، وتوقيعاً على موسيقاها، وآن لنا أن يكون موضوع الشعر خلجات نفوسنا، وتمجيد طبيعتنا، وتاريخ مايحدث بين أيدينا، وهذا لا يكون ألا بتغير نظرتنا إلى الأدب، وتغيير برنامجنا فى الأدب، والتحرر من ربقة الشعر الجاهلى، وسيطرة الشعر الجاهلى».

★ ★ ★

ذلك ما كان يدعو إليه أحمد أمين.. وهو بعد أن بسط دعوته، وحدد أسسها راح يعمق منها، وبخاصة لما كان يلحظه من ظهور جماعة من العلماء فى أواخر الدولة الأموية وأول الدولة العباسية.. رفعوا من قيمة كل جاهل وغلوا فى تقديره، بما انعكس أثره على الأدب العربى فطبعه بطابع الأدب الجاهلى فى كثير من شئونه رغم اختلاف البيئات واختلاف العصور، فجاء الغزل العباسي وغير العباسى حزيناً بائساً لأن ذلك كان طابع الأدب الجاهلى وهو موضع العجب. فالغزل الجاهلى كان كذلك لأن أرض الجاهليين كانت بائسة فقيرة، فما بال الغزل العباسى وغير العباسى يأتى كذلك، والخير وفير، والحبيب قريب، وكذلك كان أدباء الجاهليين يفتتحون قصائدهم بالتشبيب إذا أرادوا مدحاً أو أرادوا هجاء أو أرادوا أى غرض، لأن هذا يتفق وذوقهم، فما بال الأدب الذى أتى بعد ذلك ينحو هذا المنحى وقد تغيرت الظروف.. وكان الشاعر الجاهلى يقطع الفيافى والقفار على ظهور الإبل فيصف عناءه ويصف طريقه الوعر ويصف هزال ناقته.. ولكن ما شأن مسلم بن الوليد وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والممدوح فى بغداد والمادح فى بغداد.. وكان الشاعر يرحل فى صحبه فإذا وقف على دار محبوبته استوقف أصحابه يعينونه على البكاء.. فما بال «حافظ إبراهيم» فى مصر ولا دار ولا أطلال ولا صحب يقول فى مدح الشيخ محمد عبده منادياً صاحبيه بأن يقفا به فى «عين شمس»، كما يشير أحمد أمين إلى أن تعبيرات العربى الجاهلى انتزع صورها كما انتزع تشبيهاته ومجازاته واستعاراته من بيئته

التى يعيش فيها.. ثم لما أتى - من بعدهم - تأثر بهم ودرج على أثرهم.. واستعمل تعبيراتهم.. فما لأدبائنا وهم لا يعيشون عيشة الإبل يستعملون ذات التعبيرات الجاهلية مثل: «ألقى حبله على غاربه».. «دون ذلك خرط القتاد».. «الصيف ضيعت اللبن»؟ فكيف يسوغ لمصرى أو عراقى أو شامى أن ينطق بهذه الأقوال التى قد لا يعرف شيئاً عنها.. إن ذلك التقليد كان له - فى رأى أحمد أمين - أثران سيئان جداً..:

أما أولهما: فإن استعاراتنا وتشبيهاتنا وقفت عند الاستعارات والتشبيهات الجاهلية.. فافتقر الأدب العربى فى باب التشبيهات والاستعارات التى تجارى الزمان.. وقفت جامدة كما تركها الأولون إلا فى القليل النادر.

والضرر الثانى: أن الأدباء ينطقون بما لا يعلمون، ويشبهون بما لا يبصرون ويتحدثون بما لا يفقهون، وإلا فكيف يجيز الكاتب لنفسه أن ينطق بالضب «حيوان من جنس الزواحف» وهو لم يره ويتغنى بريح الخزامى، وهو لم يشمها، وكيف يطلق الحبل على الغارب وهذا ليس فى حياته؟ وكيف يبكى الأطلال فى مدينة القاهرة؟

حب الجاهلية

ويلتفت أحمد أمين التفاتة فى غاية الذكاء وهو يقرر: «ومن غريب الأمر أن القرآن الكريم عاب الجاهلية وحقر من شأنها ورماها بفساد العقل وفساد الذوق، ثم كان من مزاياه الجليلة أنه عبّر تعبيرات إنسانية عالمية لا تعبيرات بيئة جاهلية، ومع هذا كله أشربت النفوس حب الجاهلية، ومجّد العلماء الأشياء الجاهلية، واستعبد الناس الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى وكان فى ذلك البلاء العظيم.. ومن هنا حق له أن يختم حديثه بمناشدته للأدباء والشعراء أن يستمدوا تشبيهاتهم واستعاراتهم مما بين أيدينا من مخترعات وألا يستعملوا ما لا يحسون ولا يعلمون من تشبيه!..

وفى مقال تال يلفت أحمد أمين النظر إلى ناحية أخرى يرى أن الأدب العربى قصر فيها لشدة تمسكه بتقليد الأدب الجاهلى وهى «أدب الطبيعة» فالأدب الجاهلى - فى رأيه - لم يعن العناية الكافية بجمال الطبيعة.. لقد أكثر الشاعر الجاهلى من وصف ناقته أو وصف صيده أو وصف فرسه لكنه لم يكثر من وصف منظر طبيعى جميل أخذ بلبه، أو ملك عليه نفسه وإن كانت قد رويت بعض القصائد الجاهلة فى وصف الرياض.. ولكن قائليها لم يقصدوا إلى جمال الروض قصداً ولم يقولوا ما قالوا فيها عمداً.. فقد ورد بعض الشعر الجاهلى من هذا القبيل فى وصف جمال الروضة تبعاً لا استقلالاً.

ويعلل أحمد أمين ذلك بأن سبب هذا القصور أن الطبيعة فى هذه البيئة طبيعة قاسية، لا طبيعة رحيمة، وطبيعة فقيرة لا طبيعة ثمينة: حر مهلك، وبرد قارس: وصحراء مجدبة وأرض شحيحة. جبال جرداء وأرض صماء أو رمال لا يستقر فيها ماء.. فكيف توحى هذه الطبيعة بالتغنى بالجمال.. ورغم ما حدث بعد ذلك فقد فتح الله الدنيا على العرب وملكوا محاسنها على اختلاف أنواعها.. فهل وفى الأدب العربى هذه المحاسن حقها. وهل أدى للجمال الطبيعى واجبه..؟ حتى فى الأندلس أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً.. فمن الحق أن شعراءها غنوا أكثر من غيرهم وتفننوا فى ذكر محاسن الطبيعة إيما تفنن.. ومع ذلك يقول أحمد أمين:

«ولكنى لا أكتم القارئ أنى قرأت كثيراً من شعر الأندلسيين فكان شعورى أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا فيه

الروح..».

ولا يدع أحمد أمين حديث الشعر الجاهلي قبل أن يوفيه حقه بحثاً ودرساً فيذكر أن العرب في جاهليتهم كانت نظرتهم الدينية نظرة وثنية وضيعة.. من أجل هذا نرى الأدب الجاهلي في الكثير الأغلب مادياً لا معنوياً ولا روحياً.. وقد تمثل هذا في تشبيهاته.. فهي مادية لاصقة بالأرض.. ومن مظاهر المادية الأرضية في الأدب الجاهلي شعرهم في المرأة.. فهم وإن أكثروا من الغزل والنسيب وافتتحوا به قصائدهم في كل غرض من أغراض الحياة .. إلا أنهم لم ينظروا في المرأة إلا إلى جسمها، لقد أدركوا تمام الإدراك جمالها الحسي، ولكنهم لم يدركوا جمالها الروحي..

ويختتم أحمد أمين هذا العرض بقوله:

«.. كل قارئ كريم يلحظ ما أردت من معالجة هذا الموضوع.. أردت أن يتحرر الأدب من قيوده التي تثقله، وأن يكون الحكم في أدبنا أذواقنا لا أذواق غيرنا، وأن يكون أدبنا معتمداً على شيئين: خير ما في الماضي مما يتناسب مع حاضرنا ويبعث على تحقيق أملنا في مستقبلنا. وعلى دراسة حاضرنا واستشقاق أدبنا منه لا أن نعيش في أدبنا على الماضي وحده، على الماضي الذي لا يتناسب وحاضرنا» ثم يقول: «ولا يتم شيء من ذلك إذا نظرنا إلى الخلف دائماً، ولا يكون شيء من ذلك إلا إذا كسرنا عمود الشعر الذي وضعه الأدب الجاهلي، وجعلنا بدل العمود الحجري، شجرة تنبض بالحياة، يكون أحد فروعها فقط الشعر الجاهلي، وأهم فروعها نتاج حياتنا الواقعية، وآمالنا المستقبلية.. إنما يكون ذلك كله يوم نزن الأدب العربي ككل أدب بموازينه الصحيحة من غير عصبية، ونصرح بالنقص في غير خجل، ونبني الجديد في غير هوادة، ونكسر قيود القديم في غير رفق..»..

التأثر بالأدب الجاهلي

ويختتم تلك الأحاديث جميعها بقوله: إنه يرى أن أكثر الأدب الجاهلي أدب تركيبي لا تحليلي.. فلو استعرضنا الشعر الجاهلي وجدنا أكثره يعنى بتصوير الأشياء صوراً عامة ولا يعنى فيها بالتفصيل والتدقيق.. وقد تأثر الأدب العربي كله بالأدب الجاهلي فكان أكثره أدباً تركيبياً لا أدباً تحليلياً، ونستعرضه فنرى أن فيه كل مزايا الأدب التركيبي وكل العيوب الناشئة من قلة الأدب التحليلي.. نرى مظاهر ذلك في ضعف القصة.. لأن القصة تحتاج بجانب الخيال الواسع إلى الإطناب في الوصف وتحليل الموقف وإجادة للعرض المفصل، كما نرى ذلك أيضاً في باب تراجم الرجال.. فإن الناظر إليها لا يعجب بهذه الثروة من حيث نظرها إلى المترجم كوحدة متماسكة ذات أجزاء مفصلة منسجمة، إنما هي حادثة هنا، وحادثة هناك، وشيء في خلقه بجانب شيء في شكله.. وحوادث جزئية جمعت حيثما اتفق..».. ولذلك فهو يرى أن الأدب العربي مسئول إلى حد كبير عن انحطاط المسلمين في العصور الوسطى وما بعدها.. ويقول: تعال معي نستعرض الأدب العربي من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.. فهل ترى ثائراً ثار بأدبه على الظالم، وحلل موقف الناس في بؤسهم تحليلاً دقيقاً؟ وهل ترى أديباً وصف مجتمعه وصفاً مستفيضاً يحرك النفوس؟ وهل ترى شاعراً رسم المثل الأعلى للحكام والمحكومين ودعا إليه؟ ويجيب على ذلك بقوله: إني مع الأسف لا أجد شيئاً من ذلك .

★★★

ولا يكمل طرح وجهة نظر أحمد أمين إلا بعد عرض مقالاته عن «أدب الروح وأدب المعدة» فهو وثيق الصلة بنقده الشعر

الجاهلي – وهو يقر في مطلع مقالته أن هذا اصطلاح يضعه هو لنوعين من الأدب يتميزان كل التميز ويختلفان كل الاختلاف وهو يعني بأدب الروح الأدب الذي يتصل بالعواطف السامية عند الإنسان فيهذبها ويرقيها ويغذيها، أما أدب المعدة فيريد به ذلك الأدب الذي يدور حول سد الرمق وملء المعدة واستدرار المال، وتحصيل القوت.. فبينما أن القرآن الكريم.. وباب الحماسة، وغزل كثير وجميل والعباس بن الأحنف، وأدب الطبيعة كلها آداب روح لأنها تنبعث عن عواطف نبيلة، وتبعث أيضاً على أعمال نبيلة ، فإن أدب المديح والغزل الفاجر، ومقالات الكاتب التي باعثها الأول ملء أعمدة من الصحف والمجلات والاستيلاء بعد على الأجرة.. كلها أدب معدة، بل وأنه يعد كثيراً من شعر الزهد أدب معدة لأنه يدور حول المعدة وإن كان سلبياً.. والفرق بين أدب الروح وأدب المعدة هو بعينه الفرق الذي أبانه في مقال سابق بين الدين الحق والدين الصناعي، فأدب الروح ينبعث عن النفس، ويدل على صاحبه، لأن أديب الروح لابد أن يغني بما في نفسه.. سواء كوفئ أو عوقب.. وسواء قرب أم شرد وسواء أعجب أم لم يعجب.. وبينما نجد أن أدب الروح جاء على نسق واحد.. ونمط واحد.. أما أدب المعدة فله ألوان كألوان الطعام: مديح إن أعطي، وهجاء إن حرم.. لذلك ترى الشاعر يمدح الرجل ويذمه، ويطريه ويهجوه، والرجل هو هو في قيمته، ولكن لم يكن هو هو في مائدته.

ويخلص أحمد أمين من ذلك إلى قوله أنه مما يؤسف له إنا إذا نظرنا إلى تاريخ الأدب العربي وجدناه ينحسر مع التاريخ شيئاً فشيئاً ليكون أدب معدة، فنرى في العصر العباسي طغيان أدب المعدة على أدب الروح.. ثم انظر بعد إلى الفن المبتكر في العصر العباسي وهو فن المقامات، فقد ابتدعها بديع الزمان الهمذاني، فلم يجعل محورها حباً ولا غراماً.. ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الروح، ولكنها كلها «أدب معدة» وجاء الحريري فجعل مكان أبي الفتح الاسكندري (بطل مقامات بديع الزمان) أبا زيد السروجي – وهو كصاحبه دناءة نفس، وخساسة حرفة.. ويتخذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكدي والسؤال.. كما انتشر بجانب أدب المقامات نوع آخر من أدب المعدة – بمعناه الحقيقي – هو «أدب التطفيل» فقد انتشرت صناعة التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادرهم.. وبقدر ما كثر في هذه العصور أدب المعدة – قل أدب الروح من غزل عفيف، أو وصف للطبيعة، أو ثورة نفس على سوء حال الشعوب!!

ويختم هذه المقالة بقوله:

«إن كان هذا مما يسوء، فقد كان مما يسر نهضة الأدب العربي الحديث، فقد بدأ يتحول من أدب معدة إلى أدب روح، تحول من أرستقراطية إلى ديموقرطية، ومن مديح إلى وصف، ومن مقامات إلى روايات تصف الحياة الاجتماعية للشعوب، ومن عواطف شخصية إلى عواطف شعبية أو عواطف عالمية.

***

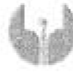
تلك هي أفكار – أو آراء – أحمد أمين حول جناية الأدب الجاهلي – الذي هو معظمه أدب معدة – على الأدب العربي بصفة عامة حتى وقت قريب، آثرنا أن ننقلها بنصها دون إضافة أو تعليق.. وهي الأفكار أو الآراء التي كانت موضوعاً لتعليقات موسعة ومطولة ومفصلة، وربما متجاوزة لحدودها في بعض المواضع للكاتب الكبير: زكي مبارك. ■

أكثر الرسائل الجامعية.. هيكل عظمى!!

بقلم
د. محمد رجب البيومى



لا أزال أذكر أثر الهيكل العظمى حين رأيته فى إحدى عيادات طبيب قروى لأول مرة واقفا فى صندوقه الزجاجى، وكنت لم أتجاوز العاشرة من العمر، ولكن المنظر الجهم المجرد من الدم واللحم، قد رجنى رجا، وبان الألم على وجهى، وكان معى والدى رحمه الله وهو فى كل أموره لا ينى يذكر ربه ويتحدث عن اليوم الآخر، وقد لاحظ انقباضى العابس فسألنى بماذا أحس؟ هل أشكو ألما، فقلت له: هذا الهيكل الواقف بعينه المنطفئة، ووجهه القاتم، وعروقه الخضراء الممتدة فى اليدين والرجلين يثير أعصابى كثيرا كثيرا، فقال لى بكل هدوء: هو أرحم من رؤية عظام المقابر المندثرة فى التراب، فقلت له كفى كفى: قال كلنا لله يا بنى، فاقرأ الفاتحة لتنتقل من حال إلى حال!



ولا أدرى لماذا تلوح لى صورة الهيكل العظمي كلما أقرأ بعض الرسائل الجامعية التى تهمى كالمطر هذه الأيام، فأنا أوازن بينها وبين ما كنا نعهد أيام الجد والغيرة العلمية، فأجدها كالهيكل العظمى تماما، قد جردت من ملامح الحياة تماما! فهى معلومات مرصوصة كيفما اتفق! وكما يخلو هيكل الصندوق الزجاجي من اللحم والدم والنبض خلت من الابتكار المتواضع فى تحليل الرأى ، ومن اطراد السياق فى تناول الموضوع، بحيث أصبحت «ملفا» يدون المعلومات من مصادرها، ولا يحاول أن يوجد الرباط بينها، وتضحك حين ترى الهوامش مليئة بالمراجع والمصادر، ومن بينها آيات كتاب الله، والأشعار المشتهرة فى دواوين الأعلام لا النكرات! وتقرأ ما تقرأ فتنتقل من غثاء إلى غثاء!

وكان الأولى بكاتب الرسالة أن يحمد الله على نوال الدرجة العلمية، ويحاول سترها عن أعين الناس ولكن الطالب قد اغتر بثناء لجنة المناقشة، وأكثرهم من طرازه فى عهد الطلب، فسارع بطبعها وذكر مباهيا أنها نالت مرتبة الشرف. ثم رأى أن ينتفع بها الطلاب فقرر جزءا منها فى مدرج، وجزءا فى مدرج آخر، وغالى فى الثمن مغالاة تدمى العيون، وقد أتاحت له أن يتحدث عنها لطلابه، عنها هى لا عن ما فيها فأمل وأفرط.

البحث بين الأصل والعرف

والأصل فى اختيار موضوع الرسالة الجامعية أن يكون تابعا من فكر الباحث، بحيث أتاحت له دراسة السنتين اللتين قضاهما فيما يسمى بالدراسات العليا أن يتشبع بموضوع معين بدأت عناصره تتجمع فى فكره، فجذبته جذبا قويا إلى معالجته، وألحت عليه إلحاحا كان مصدر دفع قوى لا يرد، هذا هو الأصل فى اختيار موضوع الرسالة، ولكن السائد المتعارف عليه أن يخرج الطالب من دراسته العليا، غافلا بعيدا عن كل تفكير فيما سيتناوله بالدراسة، وأساتذته مع ذلك حريصون على أن يتقدم للماجستير ليكون لهم أجر الإشراف فقط ! فالمسألة المادية لدى الكثيرين هى الهدف الأول فى سير الدراسات العليا لدى الجمهرة من أساتذة اليوم، وأقول الجمهرة لأنى أعرف نفرا قليلا يراقبون حق العلم فى مزاولة ما يعهد إليهم من الأعمال، فهم لا يقبلون الإشراف إلا على الطالب الجيد كما لا يقبلون أن يكون الموضوع مكررا لا يوحى بشئ جديد! فإذا تقدم الطالب المسكين لتسجيل موضوع الدراسة لجأ إلى أحد هؤلاء المتلهفين على الإشراف ليختار له موضوع البحث ، وصاحبنا كما هو شائع اليوم ليس له من الخبرة



العلمية ما يسمح باختيار موضوع موفق، وإذا كان لابد من الاختيار فهنا يأتى التحايل على اختيار موضوع يلوح فى مظهر الجديد الطريف، وهو مكرر معاد، ثم يسارع بتسجيله مع مباركة المنتفعين، أذكر أنى قرأت رسالة فى التاريخ الإسلامى عنوانها «الحالة الاجتماعية فى عهد الرشيد» وبعد أمد قريب، قرأت رسالة عنوانها «بغداد فى عهد الرشيد» والكلية واحدة فتاقت نفسى لمراجعة الرسالتين، فوجدت ما توقعت أن يكون، فالهيكل العلمى للأبواب والفصول متقارب والبدء بحياة الرشيد، وتسجيل مواقفه قد طغى طغيانا فاحشا على الرسالتين، وكأنه كل شئ فى الموضوع، وبعد ذلك لا تجد غير الحديث المعاد عن شخصية شهيرة تعددت فيها البحوث، وكثرت عنها المؤلفات أما البحثان فقد تما فى أقصر مدى يرتقب، وأما المناقشة فقد حفلت بالإشادة والتنويه، وأما الدرجة العلمية فكانت أعلى الدرجات وأرجو ألا يتهمنى أحد بالمبالغة ، فقد نشرت الجمهورية عن جامعة بالصعيد عنوانا ينبئ عن سرقة عشرين بحثا علميا فى جامعة واحدة تقدم بها المدرسون لنيل درجات الأستاذية والأستاذية المساعدة، فإذا كان هذا مذهب المشرفين على رسائل الطلاب، لا فى الاقتباس بل فى الاختلاس فكيف يرجى التدقيق منهم فى اختيار موضوع للطالب ثم فى مراجعة ما كتب، وتسديد ما تعثر فيه من الخطوات، ثم فى مناقشة البحث وإعطائه الدرجة المناسبة! هذا لن يكون ولعل القارئ الكريم على ذكر من مقالى الذى كتبته بالهلال منذ بضعة أعوام تحت عنوان «فيضان الدكتوراه إلى أين» فهو يغنى عن كل إسهاب!

مهارات الجمع والتحليل

وإذا أردت أن أفيض فى الإشارة إلى الموضوعات المكررة مضمونا والمختلفة اسما فقط فسأرهق القارئ بما لا مزيد عليه من الضيق والتبرم، فلأترك ذلك مع ذيوعه المخجل على مدى رحيب، كى أسأل عن وجه الجدية فى تسطير رسائل لا تعطى أدنى إضافة، ولا تحفل بأى استنتاج علمى مفيد، وإنما هى معلومات متراكمة، يجمعها مؤلف غير متخصص إذا وجدت أمامه المراجع. إننا نعيش فى عصر المطبعة منذ عدة قرون، هذه المطبعة التي يسرت العسير وسهلت البعيد بحيث أصبحت المصادر قريبة التناول ، وقد تعددت المكتبات فى كل معهد وكلية بل فى كل عاصمة من عواصم الاقليم فإذا كان المراد هو الحشد والتبويب فما أسهل وما أهون، أما إذا كان المراد هو التحقيق والتفسير

والتحليل فقد أصبح فى حكم المحالات!

أذكر أن أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد سمع عن كتاب أدبى ألفه مستشرق انجليزى يسمى «رفون جست» تحت عنوان «حياة ابن الرومى وأعماله» فلم يسترح حتى جد فى العثور عليه، وبادر بقراءته قراءة واعية، فلم يجد به شيئا غير الجمع والاستقصاء لما هو مدون من الأخبار والأحداث فكان ذلك موضع ملاحظته الناقدة إذ كتب عنه نقدا هادفا بمجلة «الكتاب» ديسمبر ١٩٤٥م قال فيه «أحاط المؤلف إما بالنقل أو الإشارة إلى كل نص له علاقة بالتاريخ، فذكر البلاد التى رحل إليها الشاعر، والأمراء الذين قصدهم بالمديح أو أنحى عليهم بالهجاء، والوقائع التى اتصلت بسيرة حياته، والمؤرخين الذين ترجموا له وجمع من ذلك كله ملفا حاويا للمعلومات المستطاعة».

ثم قال العقاد:

«وخلاصة ما يقال فى هذه الرسالة أنها ما شئت من نصوص وإشارات، ولكنها تتحرج عن بعد ذلك من كل تقدير أو تفسير، كأنه حوبة فى الدراسة التاريخية لا يجوز أن تلم بها الأقلام.. وهى مثال صادق لما يلتزمه المستشرقون، فخذ ما شئت من نصوص وأرقام وفهارس وهوامش وإشارات، ودع كل ما وراء ذلك من تقدير وتفسير، أو من تخريج وتفكير ».

هذا النحو التأليفى المرفوض من العقاد هو مع استنكار العقاد له أوفى هدفا وأبلغ قصدا من كثير من رسائل الجامعيين اليوم لأنه على الأقل أحاط بكل نص له علاقة بالتاريخ، حاويا للمعلومات المستطاع وجودها، وذلك ما لا يتم على وجهه المنشود فى هذه الرسائل إذ أنها شذور تجمع أشياء وتترك أشياء فليست بذلك ملفا كاملا.. والمؤلف بعد باحث حر، ليس وراءه مشرف، أو لجنة مناقشة، وقد وجد النقد من ناقد يرعى حرمة البحث ويقدر أبعاده ومراميه، وقد مات العقاد رحمه الله قبل أن تسيطر هذه التفاهات فى المحيط الجامعى، ولو أدركها لصاح واستغاث!

وأشير إلى ناحية ذات مغزى، فقد ألف الأستاذ الجليل أحمد شلبى كتاباً تحت عنوان (كيف تكتب بحثا أو رسالة) صادف رواجا هائلا، إذ قاربت طبعاته العشرين! لأن طلبة الرسائل المساكين قد ظنوا أن مجرد قراءة الكتاب، ستجعلهم أصحاب دراية تامة فيما يحاولون مع أن الكتاب وأمثاله لا تفيد غير صاحب الدراية العلمية بأساليب البحث، فهو يستوثق بما فيه، فى طريقه التأليفى على شريطة أن يكون قد قرأ من الرسائل

الجامعية الممتازة ما أعطاه انطباعا صادقا عن التأليف المنشود، فتكون هذه النماذج موضع المحاذاة الجادة في المنهج وطريقة التناول، والذى يعتمد على كتاب الدكتور شلبى ونظائره التى انتشرت الآن على نحو مستفيض، دون أن يحمل فى أعماقه بذرة الباحث التى تتهيأ للنمو المتصل بتكرار القراءة الفاحصة، والنظر المستوعب يكون مثاله مثال المقعد الكسيح الذى يقرأ كتابا فى تعلم «السباحة» فمهما قرأ الكتاب وامتصه امتصاصا فهو لا يستطيع أن يجازف بإلقاء نفسه فى الماء، لأن الأداة الأولى للسباحة مفقودة، وسيغرق لا محالة بمجرد مباشرة الماء كذلك تكون حال الذين لم يأخذوا من هذه الكتب غير معلومات عن تنظيم البطاقات، ونقل النصوص كاملة أو مبتورة، وطرق التهميش وعلامات الترقيم، وفهرسة المصادر والأبواب ونحن أبناء الجيل الماضى قد كتبنا الرسائل دون أن نقرأ هذه الكتب لأن مزاولة القراءة المتئدة لآثار الكبار من الباحثين قد أغنت عن هذه الكماليات غناء تاما! وإذا كان الذى يعرف الوزن العروضى لا يستطيع أن يكون شاعرا دون موهبة أصيلة، فكذلك من يهتم بنصائح هذه الكتب، دون أن تتقد فى صدره جذوة البحث الدافعة إلى



الكمال بحرارتها المشتعلة، وبعض المشرفين - جزاهم الله - يريدون أن يريحوا أنفسهم من كل مسئولية علمية فينصحوا الدارس المبتدئ بشراء هذا الصنف من الكتب، وكأنهم بذلك وحده قد هدوه سواء السبيل!

فحص وتقييم البحوث

وكنت أسأل نفسى حين أقرأ رسالة من هذا الطراز المؤسف، ماذا كتب الفاحص فى تقريره الذى رفعه عنها إلى المسئولين، والذى قضى بصلاحية الرسالة للمناقشة، فوفقنى الله إلى العثور على بعض هذه التقريرات فى جامعات مختلفة لا فى جامعة واحدة إذ كلنا فى الهم شرق، فقرأت القليل مما أستحسن وأحبذ، ولكن الكثير - وأسفاه - لم يزد على أن يكون فهرسا لموضوعات الرسالة، حيث ينص المقرر الجليل على أن الرسالة عدة أبواب وعدة فصول، ويذكر عناوين الفصول كما هى، ثم يقرر صلاحيتها للمناقشة، وهو بعمله هذا شبيه بمن يفهرس الكتب فى المكتبات، فيكتب عن كل كتاب موجزا مقتضبا لأبوابه، ولكنه لا يدّعى أنّه فاحص ناقد، فهو موظف يؤدى عملا نيط به، والمقارنة بين الحاضر المزعج والماضى المشرق، أليمة مفجعة، فقد وقع فى يدى أول تقرير عن أول رسالة فى

التاريخ قُدمت للجامعة المصرية سنة ١٩٢٠ منذ أكثر من ثمانين عاما، هذا التقرير لم يكتبه أكاديمي متخصص يُباهي بدرجته العلمية، ومكانته في هيئة التدريس بالجامعة، ولكن كتبه عالم جليل تخرج في مدرسة دار العلوم في أواخر القرن التاسع عشر، وزاول المحاماة الشرعية حيناً، فالتعليم بالمدارس الحكومية حينا آخرا ثم اختير بعد أن اشتهر بالفضل والعلم مدرسا للتاريخ بالجامعة المصرية خلفا للشيخ محمد الخضري، وكلاهما فرسا رهان في البحث والجدل، وألقى محاضرات ممتازة سجلتها صحيفة (الجامعة المصرية) في أوائل العشرينات! هذا العالم البحاثة المفضال هو شيخنا الأستاذ عبدالوهاب النجار الذي يقول الجارم فيه هذا البيت النادر

تذل له شموس القول طوعا

ويستخذي له المعنى المدل

إذ كان من الذين ناقشوا الدكتور أحمد بيلي في رسالة عن صلاح الدين الأيوبي، وكتب عنها تقريراً علميا نشره المؤلف في صدر كتابه، فبهرني أن يكون التقرير في اثنتى عشرة صفحة مستفيضة بما يدل على أن الفاحص قد هضمها هضما، واستوعبها استيعاباً دقيقا لا شيء بعده، وقد قسم التقرير إلى عناصر هي:

١ - هل أحسن صاحب الرسالة الاختيار.

٢ - المصادر التي استقى منها كلامه.

٣ - لغة الرسالة.

٤ - المؤاخذات اللغوية . وقد قال في خاتمتها إن الكثير مما ذكر قد يكون له مساغ في اللغة ولكنه حريص على الأجود الأمثل.

٥ - الرسالة كبحث تاريخي. وقد أفاض في هذا العنصر بما لا مزيد عليه.

٦ - الأمور التي تحتاج إلى محاورة سيتناولها أثناء النقاش في الحفل العام! فبالله ثم بالله، ماذا يقول الناقد حين يوازن بين تقرير كتب منذ أكثر من ثمانين عاما في بدء الدراسة الجامعية، وتقارير يكتب الواحد منها في أقل من صفحة لملء الفراغ!

مناقشات انتخابية

هذا عن التقارير (المحترمة) التي يكتبها أساتذة الجامعة في القرن الحادي والعشرين.

أما المناقشة نفسها، فقد أتيح لي أن أسمع خلاصات لها في حلقات (البرنامج الثقافي) أسمعها مضطرا، لأن نظري الضعيف لم يعد يسمح لي بالقراءة أثناء الليل، ولأني مصاب بالأرق الذي لا حيلة



لى فـيـه، حـين يكون ليلى كليل إمرىء القيس يتمطى بصلبه، ويردف أعجازا، وينوء بكلكل، وإذن فالاستماع للبرنامج ضرورة لا معدى عنها! وأكرر أن الجيد فى حلبات النقاش موجود فعلا، إذ يتم على أيدى أساتذة أصلاء لا أدرى ماذا يكون الموقف لدينا حين يبرحون الحياة ويتركون الحلبات لأكثرية تهتم بالقشور، ولا تصل إلى اللباب، وقد يكون فى هؤلاء من يخطىء الصواب فيقابل بالتصفيق، ومن يعدل خطأ بخطأ أسوأ منه فيقابل بالتصفيق، وكأننا فى حفل انتخابى يقوم به مهرج محترف مرشحا جمع أنصاره والأقربين للهتاف والضجيج، ولو أردت أن أضرب الأمثلة لسقطات شائنة مما سمعت لضاق شبر عن مسير!

وأسأل نفسي، ما علاج هذا الداء الوبيل الذى استشرى فى كل الجامعات لا فى بعضها فأجدنى وقد حاولت تشخيصه لا أستطيع تحديد الدواء الناجع، ومن أنا حتى أقوم بهذا العبء الثقيل، ولدينا مجالس للجامعات، ومجلس أعلى فوق هذه المجالس، كما لدينا المجالس القومية المتخصصة، تضم من الفضلاء من يجب أن ينهضوا بالعمل الجاد للخروج من هذه الأوحال؟ على أنى أقترح أن تكون مدة الدراسة العالية أربع سنوات لا سنتين وأن يكون للدراسات العليا كلية خاصة تجمع الأكفاء ممن لهم شهود علمي ملحوظ داخل الجامعة وخارجها ويستحسن أن يكون أعضاء المناقشة خمسة لا ثلاثة، كما يجب أن ينال الطالب درجة الامتياز فى ختام السنوات الأربع ولا يكتفى بما دونها وهذه مسكنات فقط، أما العلاج الحاسم فأتركه لذوى التجربة من الممارسين.

وإذا استمر الحال على نحو ما وصفت، فستفقدُ الدراسات العليا كيانها الحقيقى الذي شُرعت من أجله، وستعود شبيهة بما دونها من الدراسات فى الكليات والمدارس الثانوية، وما فى ذلك مغالاة، بل هو الواقع الأليم.

كان أستاذي الكبير أحمد شفيع السيد رحمه الله يقول الشعر لنفسه لا للقراء، وكان يكتب البيتين والثلاثة على الكتب التى يطالعها دون أن يهتم بجمعها، وقد قرأت ذات مرة قوله الناقد مسطراً فى مجلد كبير، اهتم مؤلفه بالكم لا بالكيف، فأوحى للشاعر أن يقول:

أصبح التأليف قصا
والتهاماً للمراجع
فإذا رُمت ابتكاراً
تجد الدار بلاقع!

وهكذا أكثر رسائل اليوم! فاعتبروا يا أولى الألباب! ■

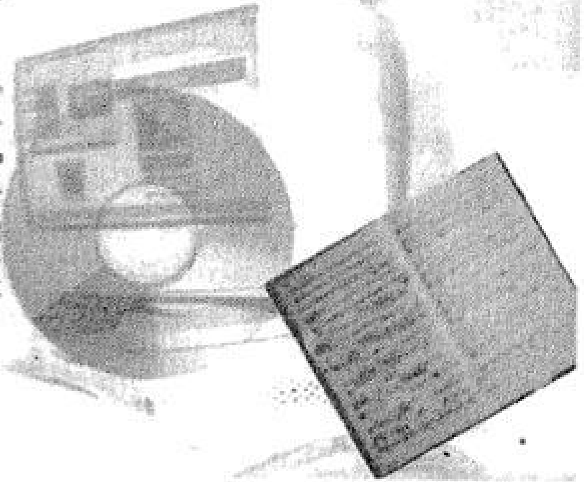
القراءة
فى العصر الإلكترونى

بقلم
د. أحمد محمد صالح

● هل أعلن الغرب موت المؤلف والقارىء والناشر؟!

وقفت طويلا أمام النتائج التى أظهرتها الدراسات الحديثة حول التأثير السلبى للتكنولوجيا الجديدة على القراءة، حيث أثبتت الأرقام تناقص عدد القراء نتيجة انتشار التليفزيون والإنترنت وألعاب الفيديو. وأوضحت أن ٥٠٪ من الشعب الفرنسى المعروف بولعه للقراءة أحجم عن شراء الكتب فى عام ٢٠٠٣، هذا بالإضافة إلى تزايد أعداد الذين يقاطعون القراءة. واستفزت تلك النتائج فضولى حول تداعيات تكنولوجيات المعلومات على مستقبل القراءة والكتابة فى العصر الرقمى، وحاولت استكشاف ذلك فى موضعين سابقين فى مجلة الهلال، تحت عنوان القراءة والكتابة فى خطر، وهل نعلن وفاة القراءة؟! وعجالة اليوم تستكمل استشراف مستقبل القراءة والقراء فى العصر الإليكترونى مع روجر تشارتير Roger chartier مدير قاعة إكولى Ecole des Hautes Etudes للموسيقى بباريس.

ومن أعمال تشارتير المبكرة التاريخ الحديث لأوروبا، وخاصة تاريخ التعليم، وتاريخ الكتب والقراءة. وحديثا هذه الأيام تركزت أعماله حول العلاقة بين الثقافة المكتوبة، وبين الآداب وخاصة المسرح فى فرنسا. ودراساته بصفة عامة تقع فى سياق المناطق البينية بين علم الاجتماع والفلسفة والأنثربولوجيا. وله كتاب مشهور مع كافالو جوغليمو Gugliemo cavallo عنوانه تاريخ القراءة فى الغرب



نشر عام ١٩٩٩، وكتاب عن اللغة وتطبيقاتها عام ١٩٩٧، وعن الثقافات والثورة الفرنسية عام ١٩٩٣. وروجر تشارتير Roger Chartier له ايضا مقالة مهمة منشورة على الإنترنت عام ٢٠٠٢ باللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية. يتناول إشكاليه القراء والقراءة فى العصر الإليكترونى، ويذكرنا فى بداية مقالته بالمقولة المشهورة التى كتبها رولند بارنيس Roland Barthes عام ١٩٦٨ وأعلن فيها موت المؤلف! وخلع عنه سيادته السابقة على اللغة، حيث انتشرت كتابات متعددة فى العديد من الثقافات، كلها فى حوار مع بعضها البعض بأسلوب احتجاجي وساخر، وأن المؤلف تنازل عن تفوقه وأوليته إلى القارىء. هذا الشخص الذى تتجمع عنده كل الآثار والنتائج المكتوبة، وأصبحت القراءة فى المكان أو القراءة المتنقلة أو الجمعية غير مستقرة وقلقة.



• مشروع رقمي متكامل تتبناه مكتبة الإسكندرية

موت المؤلف، والقارىء

وإذا كان رولند بارنيس أعلن وفاة المؤلف، فإن روجر تشارتير فى مقالته بعد أن أكد ولادة القارىء، تبعه فورا تشخيصا بموته، معتمدا على التحويلات فى ممارسات القراءة، حيث تظهر المعلومات الإحصائية التى جمعت من مسوح مختلفة فى دول أوروبا حول السلوك الثقافي - بينت بشكل حاسم - أنه بالرغم من أنها لم تشر إلى انخفاض عام فى النسب المئوية العامة للقراء لكنها أكدت على الأقل تخفيضا فى نسبة القراء الجادين heavy readers فى كل فئة عمرية، وبشكل خاص بين القراء المراهقين. لكن السياسات التحريرية عززت ملاحظات الاعتقاد فى وجود أزمة قراءة. وبدون استعراض الإحصائيات، يقرر روجر تشارتير، بأنهم فى فرنسا وأوروبا يشعرون بأزمة قراءة قاسية جدا فى مناطق العلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة فى الفلسفة والآداب، وإذا كانت أزمة القراءة متشابهة على جانبى الأطلنطى، حتى لو كانت الأسباب الأساسية ليست تماما نفس الشىء، فالعامل الأول فى أزمة القراءة فى الولايات المتحدة، هو التخفيض الصارم فى استملاك الدراسات بمكتبات الجامعات التى تآكلت ميزانياتها بسبب الاشتراكات فى النشرات الدورية التى تصل أسعارها فى بعض الحالات بين ١٠ و ١٥ ألف دولار فى السنة، لذلك تحفظ ناشرى الجامعة عن نشر الأعمال التى تعتبر متخصصة جدا مثل: أطروحات الدكتوراه، والدراسات والبحوث التخصصية، والأعمال العلمية. وأوروبا كلها فيها تحفظ مشابه، يحدد عدد العناوين التي تنشر وعدد النسخ لكل عنوان، هو نتيجة مباشرة لتقلص الجمهور الذى يشترى، والذى لا تهمه العناوين الأكاديمية فقط، فهى قطرة فى المبيعات وإذا كان روجر تشارتير، أعلن وفاة المؤلف والقارىء على جانبى الأطلنطى، فإن المنطقة العربية أعلنت من زمان موت المؤلف والقارىء والناشر. فمقولة «العرب لا يقرأون»، مقولة شهيرة، وتصدق اليوم أكثر من أى وقت مضى.

وأزمة القراءة والقراء فى المنطقة العربية لها أسبابها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ليس هنا مجالها، ولكننا نجملها تحت عنوان منظومة الاستبداد والتخلف، وهى تختلف تماما عن السبب الرئيسى الذى شخصه روجر تشارتير لأزمة القراءة، وموت القارىء، واختفاء القراءة على جانبى الأطلنطى، ويقرر أنها نتيجة حتمية لحضارة

الشاشات، وانتصار الصور والاتصال الإلكتروني. فالقرن الجديد حمل لنا جيلا جديدا من الشاشات، تختلف عن شاشات السينما أو التليفزيون ، شاشات تحمل النصوص، ليس النصوص فقط بالتأكيد، لكن أيضا الصور. ويمكن الآن استبدال المواجهة القديمة بين الكتاب، والكتابة والقراءة من ناحية، وبين الشاشة والصور، بمواجهة جديدة فيها وسطا جديدا للثقافة المكتوبة وشكلا جديدا للكتاب. ويزعم روجر بوجود رابطة متناقضة جدا بين كلية وجود الكتابة في مجتمعات أوروبا، ووساوس اختفاء الكتاب وموت القارئ»، ويطلب من القراء لفهم هذا التناقض، بالرجوع بالنظر إلى الوراء، وتقييم تأثيرات الثورات السابقة على وسائط الثقافة المكتوبة.

اللفائف والمخطوطة والإلكترون

ويرصد روجر شكلا جديدا من الكتاب فرض نفسه في القرن الرابع من العصر المسيحي، على حساب الشكل الذي كان مألوفا إلى القراء اليونانيين والرومانيين وهو اللفائف . وكانت المخطوطة هي الشكل الجديد، عبارة عن كتاب مكون من صفحات طويت وتجمعت وربطت. وبعناد وصعوبة أخذت المخطوطة تدريجيا مكان اللفائف التي حملت الثقافة المكتوبة حتى ذلك الوقت. وهنا نذكر القارئ بأن اللفائف ليست كالمخطوطات، لأن الأخيرة كتبت باليد، وغالبا على الورق «الكاغد» العادي، أما اللفائف فقد كتبت على نوع معين من الورق يصنع من نبات البردي، كما أن المخطوطات متعددة الصفحات والأوراق، أما البرديات فهي لفافة قد تكون طويلة أو قصيرة حسب الموضوع. وهذه التحولات هي نفس الحالة التي تعيشها البشرية الآن، فنحن على حافة تحويل مشابه كما يقرر روجر وأن الكتاب الإلكتروني سيستبدل أو أستبدل مكان المخطوطة المطبوعة التي نعرفها في مظاهرها المختلفة، كالكتاب، والمجلة ، أو الصحيفة؟. ويتوقع في العقود القادمة احتمال تعايش - ليس بالضرورة أن يكون سليما - بين شكلي الكتاب (المطبوع والإليكتروني) وبين الأنماط الثلاثة للكتابة وإرسال النصوص: وهي الكتابة المخطوطة باليد، والنصوص المطبوعة، والنصوص الإلكترونية. وتبدو هذه الفرضية أكثر معقولية من الرثاء حول الخسارة العضالة للثقافة المكتوبة أو الحماس المنفلت الذي يعلن الوصول الوشيك لعصر جديد من الاتصال الإليكتروني. وهذا التعايش المحتمل يتطلب منا أن نفكر في الطرق الجديدة التي ستبنى بها حقول المعرفة، ومعرفة قيود القراءة أو الشروط التي يجب توفيرها لقراءة الكتاب الإلكتروني، والنصوص الإليكترونية. وتطبيقا لمقولة «أن الشكل له تأثير على المعنى»، يؤكد روجر أن الكتب الإلكترونية ستعيد تنظيم الطريقة التي نعتمد بها على المصادر لعرض الحجج، وتستوجب الكتابة أو القراءة لهذا النوع الجديد من الكتب تغيير المعايير التي تستعمل لتقييم مصداقية أي معالجة كتابية أو خطابية مطولة، خاصة المعالجات المتعلمة. وفعلا بدأ المؤرخون الآن النظر إلى مختلف الأساليب التي تستعمل لمنح المصداقية إلى المعرفة وتداعياتها من خلال حالات الإقتباسات، والهوامش والاستشهادات أو الاحصاءات وهذه الطرق القائمة لإثبات صلاحية تحليل معين عدلت بشكل كبير، وتحولت من أن تكون ملحقة إلى منطق خطي واستنتاجي ، وأصبحت مفتوحة وعلائقية (كما في النصوص الإلكترونية) . بهذا المعنى، تكون الثورة في قيود وشروط إنتاج وإرسال النصوص تغيرت، وتحديدا تغييرا معرفيا. ويسترسل روجر ويبين أن الأعمال المكتوبة بنيت مع قدوم المخطوطة على أساس شكلها المادي: على سبيل المثال ، في زمن اللفائف كان العمل المكتوب تحمله عدة لفائف، الآن في المخطوطة يقسم الكتاب الذي يحمل العمل المكتوب إلى أجزاء أو فصول تضم كل العمل، بنفس الطريقة، إمكانيات وشروط الكتاب الإلكتروني

تستدعى إعادة تنظيم التركيب الخطى والمتسلسل فى الكتب المعاصرة ، التى مازالت تعتمد على شكل المخطوطة. ويبين روجر تشارتير فى مقاله أن الصيغة أو الفورمات الإلكترونية للنص الإليكترونى hypertext ، والقراءة الإليكترونية hyper - reading غيرت وعدلت العلاقة بين الصور والأصوات والنصوص المرتبطة إليكترونيا ، بطريقة لا خطية، وجعلت من الممكن عمليا وجود عدد غير محدود من الارتباطات بين النصوص . واعتبر الروابط والصلات هى المفتاح فى هذا العالم النصى الغير محدود، حيث تفتت الوحدات النصية يسهل القراءة ، ويمكن من ضمها سويا. وهكذا طرحت النصوص الإليكترونية مفهوم وفكرة الكتاب ذاته للمناقشة، لأن الفرد يميل فى الثقافة المطبوعة إلى الربط بين نمط الكتابة ونمط النص واستعماله المستهدف، وكذلك ترتيب وتسلسل المعالجة المكتوبة تعتمد على الوسط المادى الذى يحملها سواء كانت تلك المعالجة رسالة أو صحيفة أو مجلة أو كتاب أو أرشيف. وهذا ليس الحال فى العالم الرقمى حيث كل النصوص بغض النظر عن طبيعتها، تقرأ فى نفس الوسط (شاشة الحاسوب) وفى نفس الأشكال. وهذه «الاستمرارية» خلقت عدم وجود اختلافات بين الأنماط والأنواع الفنية للأساليب النصية المختلفة.

خصائص ملكية النصوص

وطالب روجر تشارتير فى محاضرة بإعادة تنظيم عالم الكتابة الرقمية كشرط ضرورى وتمهيدى للوصول إلى الإنترنت المدفوع. حماية لحقوق المؤلف الأخلاقية والاقتصادية. هذه الشروط مستندة على ضرورة التحالف بين الناشرين والمؤلفين، وهذا التحالف من المحتمل سيؤدى إلى تحويل عميق فى العالم الإلكترونى الذى نعرفه الآن، حيث ستتضاعف كفاءة الأنظمة الأمنية الإليكترونية التى تستهدف حماية الكتب الإليكترونية وقواعد البيانات . مثل هذا النظام مطلوب لمواجهة الطبيعة العشوائية المعلومات التى نحصل عليها بمحركات البحث. ومن ناحية أخرى يمكن فى المدى البعيد، أن ينقلب عالم التقنية الرقمية على رأسه. وتنشأ إمكانية فصل إرسال النص الإلكترونى عن الحاسوب سواء كان كمبيوتر شخصى أو نقال، أو كتاب إلكترونى من خلال اختراع الحبر و«الورقة» الإلكترونية! لقد طور الباحثون تقنية تحويل أى جسم بما فى ذلك الكتاب كما زلنا نعرفه ليصبح وسيطا لكتاب إلكترونى أو مكتبة إلكترونية، ومجهزا بمعالج دقيق أو يتم إنزاله من على الإنترنت وتنقيل صفحاته الحبر الإلكترونى الذى يسمح لنصوص مختلفة بظهور بالتوالى على نفس السطح ، وهكذا يمكن للنصوص الإلكترونية أن تعتق من قيود حبسها المتأصل على الشاشات كما تعودنا . ويساعد هذا التقدم التقنى كما يقول روجر على فصل الرابطة بين تجارة الآلات الإلكترونية والنشر على الإنترنت، والذى يعتبر مصدر ربح للبعض، حتى بدون تخيل هذه الفرضية للمستقبل. نسجل هنا اندهاشنا ونتساءل هل الكتاب الإلكترونى فى شكله الحالى سيكون قادرا على جذب أو إنتاج القراءة؟! والإجابة نجدها فى المقال الذى يبين أن التاريخ الطويل للقراءة يكشف بشكل أوضح بأن الثورات فى تبنى وممارسة المستحدثات تتخلف دائما، وأبطأ فى أغلب الأحيان من الثورات فى التقنية نفسها، فالطرق الجديدة للقراءة لم تتبع فورا اختراع الطباعة، بنفس الطريقة ، فئات المثقفون المختلفة التى ارتبطت بعالم النصوص الورقية، سوف تعانى وتبقى وتستمر مع الأشكال الجديدة للكتاب. وهنا من المفيد تذكير القارىء ، بعد اختراع المخطوطة واختفاء اللفائف ، استمر للكتاب نفس المعنى الذى كان مقصود وهو المعالجة الكتابية المطولة. علاوة على ذلك، فإن الثورة الإلكترونية، التى تبدو عالمية تعمق التباينات، بدلا من تخفيضها، فزادت فرص ظهور «أمية جديدة» ، والتى لم تعد تعرف بعدم القدرة على القراءة والكتابة،



ولكن باستحالة التمكن من الدخول والوصول والنفاذ إلى الإشكال الجديدة لإرسال وتوصيل النصوص الإليكترونية، وعلى أقل تقدير يمكن القول، ونتفق هنا مع روجر أن تلك الإشكال الجديدة ليست مجانية بعد، والمراسلة الإلكترونية بين المؤلفين والقراء، والتى تسمح بأن يصبح المؤلفين منفتحين باستمرار على تعليقات وتدخلات القراء، تسمح أيضا بإقامة علاقة بين المؤلف والقارىء، تلك العلاقة التى كان المؤلفون يطمحوا فى إنجازها مع الكتاب المطبوع وقبل العصر الإليكترونى، والآن أصبحت العلاقة بينهما أكثر حوارية، وأكثر مباشرة بين العمل وقراء العمل . وهى فرصة جذابة أيضا . لكن ذلك، يجب ألا يجعلنا ننسى بأن القراء والمؤلفين للكتب الإلكترونية مازالوا قليلوا العدد جدا، وتبقى الفجوة عظيمة بين الوجود الإستحواذى للثورة المعلوماتية وحقيقة الواقع لممارسات القراءة. التى مازالت مرتبطة بالأهداف المطبوعة والتى تسمح بالاستعمال الجزئى فقط للإمكانيات المتولدة بالتقنية الرقمية. ويحذر روجر ويقول: يجب أن نكون واضحين بما فيه الكفاية ولا نأخذ ما هو تخيلى كأنه حقيقة وواقع فعلى. إن الثورات المختلفة فى الثقافة المكتوبة كانت تحدث فى الماضى بطريقة مجزأة وغير واضحة، الآن أصبحت تلك الثورات آنية ومتزامنة، وإن ثورة النص الإلكترونى هى فى الحقيقة ثورة فى تقنية وإعادة إنتاج النصوص، وهى ثورة فى وسائط وأدوات الكتابة، وثورة فى ممارسات القراءة، وتتميز بثلاث ميزات رئيسية لها تأثيراتها العميقة على علاقتنا بالثقافة المكتوبة. أولا التمثيل الإليكترونى للكتابة عدل مفهوم سياق الكتابة بشكل جذرى، وكنتيجة لذلك تغيرت بنية المعنى. فالتلاصق المادى للنصوص المختلفة المجمعة فى كتاب واحد أو فى مجلة دورية تفسح المجال لتوزيعها النقال، ولبرمجتها فى إرشيفات معمارية من قواعد البيانات وتحولها إلى تجمعات رقمية. ثانيا: التمثيل الإليكترونى للكتابة أعاد تعريف الخصائص المادية للأعمال، لأنها نويت الرابطة المرئية بين النصّ والجسم الذى يحتوى النص، ولأنها أيضا أعطت القارىء، وليس المؤلف أو الناشر سيطرة أكبر على بنية النص فى إعادة ترتيبه وتبويبه وتنسيقه لظهور الوحدات النصّية التى ستقرأ. وهكذا تغير تماما النظام الكامل لفهم وإدراك ومعاجلة النصوص. ثالثا وأخيرا، عند القراءة على الشاشة، يعود القارىء المعاصر بعض الشىء إلى موقف قارىء العصر القديم، والاختلاف بأنّه يقرأ لفيفة تجرى عموما بشكل عمودى وموهوبة بالخصائص المتأصلة فى شكل الكتاب منذ القرون الأولى من العصر المسيحى: تقسيم الوثيقة وترقيمها، والفهرس، والجداول والقوائم، إلخ، وبذلك تكون الكتابة الإليكترونية دمجت بين نظامين سابقين وهما المخطوطة والكتاب المطبوع وأدت إلى علاقة كلية أصيلة مع النصوص. ويستمر روجر ويقول أن هذه التحويلات أعطت النصوص الإلكترونية أصالة القديم، لكنها أبدا لم تنجز خيال المعرفة الكاملة بتوفر كل النصوص التى كتبت وكل الكتب التى نشرت فى صورتها الإليكترونية، مثل ما يأملون فى مكتبة الإسكندرية، ويعدون بتوفير كل النصوص والكتب العالمية. وكما هو الحال مع ممارسة بلاغة الخطابة فى الأماكن العامة فى عصر النهضة حيث يتشارك الحضور مع الخطيب، يطلبون الآن تعاون القارىء، الذى يستطيع الآن أن يكتب فى الكتاب بنفسه، ويدخل على الأقل مكتبة من الكتابة الإلكترونية، يناقش ويجادل بحرية بدون قيود. وكما هو الحال فى عصر الطباعة، نجد أن عصر النصوص الإليكترونية مفعم ومشحون بالتوتّرات الرئيسية المستقبلية القابلة للتخيل بقوة أكثر: مثل انتشار المجتمعات المنفصلة، والتى تعرف باستعمالها للتقنيات الجديدة؛ ظهور قوة قبضة الشركات المتعددة الجنسيات على قوانين قواعد البيانات الرقمية وإنتاج أو توزيع المعلومات؛ بروز مؤسسات عالمية عامة، تعرّف بإشتراك كلّ

أعضائها في تبادل وجهات النظر النقدية، فالاتصال المجاني والفوري من علي بعد جعل من الممكن من خلال الويب أن تلد أي من هذه الحالات. لكن هناك أيضا آثار سلبية يمكن أن تؤدّى إلى خسارة الخصوصيات، وبالتالي تسبب هيمنة نموذج ثقافي واحد، إلى تدمير التنويع الثقافي. ومن الناحية الأخرى، ربما أيضا تؤدّى إلى نمو شكل جديد من بنية المعرفة، وتضيف إلى نقل العلوم القائمة، وبناء تجميعات للمعرفة من خلال تبادل الخبرة والحكمة، من خلال المراسلات أو المجلات الدورية الإليكترونية.

المكتبات في العصر الرقمي

ويتراجع روجر في الجزء الأخير من مقاله ويقول: الوسيط الجديد للكتابة لا يعني نهاية الكتاب أو موت القارىء. العكس ذاته قد يكون صحيحا!! بشرط إعادة توزيع الأدوار ضمن «اقتصاديات الكتابة»، والمنافسة (أو التكامل) بين أجهزة الإعلام المختلفة، وضمن العلاقات الجديدة بين المواد الثقافية وأشكالها الجمالية في عالم النصوص. ويتعجب روجر من أن النصوص الإلكترونية قد تكون قادرة على بناء بنية أساسية للتبادلات المكتوبة عبر فضاء عامّ تسمح فيه لكلّ شخص بالمشاركة.

والسؤال الذي تطرحه المقالة في النهاية عن كيفية تحديد دور المكتبات ضمن هذه التحولات العميقة في الثقافة المكتوبة؟!

وتناقش الإجابة إمكانيات التقنية الجديدة في القرن الحالي بالتغلّب على التناقضات التي طاردت دائماً علاقتنا بالكتاب، مثل حلم المكتبة العالمية تعبيرا عن الرغبة في الامساك وتجميع واختزان كل تجميعات النصوص المكتوبة القديمة والحديثة، وعلى مستوى كلّ المعارف المبنية. لكن الإحباط والتوتر رافق هذه التوقعّات العالميّة . وقد يفهم ذلك ضمن سياق المواقف نحو الكتابة طوال التاريخ، فقد بني هذا التوتر على أساس الخوف من الخسارة والعجز، وحكم هذا التوتر والخوف كل الأعمال التي وظفت في حماية تراث الإنسانية المكتوب مثل البحث عن النصوص القديمة، ونسخ الكتب النفيسة، وطباعة المخطوطات، وبناء المكتبات العظيمة، وتجميع دوائر المعارف والموسوعات، وفهارس وأدلة النصوص. وفسر روجر ذلك التوتر بأن النصوص معرضة دائماً للاختفاء، وتستلزم دائماً حفظها وصيانتها، وإن تلك المهمة لا تنتهي، لمواجهة الزيادات في تلك النصوص، من خلال عمليات إعادة إنتاج المخطوطات، والتي عرفت فيما بعد بطباعة الكتب، وساعد ذلك على وجود فيض من النصوص أقرب إلى الفوضى، وانبثقت وفرة تستطيع إعاقة المعرفة، لكن الآلات والمكينات قادرة الآن على فرز وتبويب وتصنيف وترتيب النصوص وهو ما نحتاجه للسيطرة على الزيادات الدائمة فيها، حيث يشارك في تلك العمليات: المؤلفون بأنفسهم الذين يحكمون على نظرائهم وأسلافهم، السلطات التي تقوم بدور الرقابة والدعم، والناشرون الذين ينشرون (أو يرفضون النشر)، والمؤسسات التي تخصص وتستثني، والمكتبات التي تحفظ أو تهمل وتتجاهل. إن المكتبات اليوم أو غداً تستطيع لعب دور حاسم. وفي الحقيقة، بدت الثورة الإلكترونية كأنها إشارة لموت المكتبات، فثورة الاتصالات، والنصوص الإلكترونية وفرت التراث العالمي المكتوب؛ ولم نعد نحتاج المكتبات لتكون المراكز الوحيدة لحماية وتوصيل هذا التراث. فكلّ قارىء، حيثما هو يقرأ، يمكن أن يستلم النصوص ويخلق بها مكتبة بدون حيطان، حيث الكتب والوثائق في شكلها الرقمي. يؤكد روجر أن هذا الحلم الجميل، يجب ألا يضللنا ويبهرنا، فهناك جهود ضخمة مطلوبة للتحويل الإليكتروني لكلّ النصوص الموجودة التي لم تنشأ بالحاسبات، حتى لا تتعرض للدمار، وربّما، أحد المهام الضرورية للمكتبات اليوم أن تجمّع وتحمي وتفهرس كل النصوص التي كتبت في الماضي، وتجعلها أيضا سهل الوصول إليها . وعلى مكتبات المستقبل أيضا حفظ النصوص الثقافية السابقة، والتي

تمثل الماضى فى نفس الفورمات التى وجدت عليها، وإلا بعد مرور الوقت ستفقد قيمتها الثقافية والتراثية! والمكتبات يجب أيضا أن تكون الآلات والأدوات التى تساعد القرّاء الجدد فى اكتشاف طريقهم فى العالم الرقمى، ويمكن أن تكون متعاطفة ويقظة مع حاجات وحيرة القرّاء وتستطيع لعب دور ضرورى فى تعليم الآلات والتقنية التى يحتاج لها القرّاء الأقل خبرة لكى يتقنوا الأشكال الجديدة للكتابة. وكما هو الحال مع وجود الإنترنت فى المدارس، حيث وجودها نفسه لا يبدد الصعوبات الإدراكية المتأصلة فى تعلّم الكتابة، كذلك الاتصال الإلكترونى للنصوص، فى حد ذاته لا ينقل المعرفة المتطلبة للفهم والاستعمال. كذلك القارىء الذى يبحر فى التقنية الرقمية بحثا عن النصوص يواجه خطر تزاحم وتراطم أمواج المعلومات ويحتاج دائما إلى ميناء ترشده، والمكتبة الحديثة هى الفنار الذى يرشد الملاحين المبحرين فى بحور المعلومات الرقمية. والدور الآخر لمكتبات اليوم والغدْ كما يرصده روجر هو إعادة تكوين المؤانسة أو النزعة الاجتماعية حول الكتاب، والتى فقدناها! حيث يعلمنا التاريخ الطويل للقراءة عبر القرون، أن القراءة أصبحت ممارسة صامتة وانفرادية، وعزلت نفسها أكثر وأبعد عن الروح الاجتماعية المشتركة للكتابة التى ساعدت على توحيد العواطف والصداقات، والجمعيات العلمية أو المجموعات المناضلة، فى عالم تعرف فيه القراءة بأنها علاقة خاصة وعميقة وشخصية بالكتاب، والمفارقة هنا، ربّما، منذ عصور القرون الوسطى، أن المكتبات تطلب دائما من القرّاء أن يلتزموا الصمت. والخلاصة أن دور المكتبات فى العصر الإليكترونى هو حماية الميراث المكتوب والإبداع الثقافى والجمالى.

المكتبات الرقمية والتراث العربى

وتحفزنا مقالة روجر تشارتير على التساؤل حول دور المكتبات الرقمية فى حفظ التراث العربى، وبداية نذكر أن للمكتبات العامة دور حيوى ومهم فى نشر الثقافة وتوفير مصادر المعرفة لجميع أفراد المجتمع، بل أنها تعتبر إحدى المؤسسات الثقافية التى يقع عليهاعبء كبير فى عملية رفع وعى المجتمع من خلال توفير وإتاحة مصادر المعرفة لمجتمع المستفيدين. وقبل الاجابة على التساؤل السابق وقبل الحديث عن المكتبة الرقمية أو الالكترونية والدور الذى يمكن لها أن تقوم به فى حفظ التراث العربى، يجدر بنا تبيان وايضاح الفرق بينها وبين المكتبة التقليدية. ويمكن ايجاز ما يميز المكتبة الرقمية عن المكتبة التقليدية فى نقطتين اثنتين: أوعية ومصادر المعلومات، وسبل إتاحة هذه الأوعية والمصادر. تتوفر أوعية ومصادر المعلومات فى المكتبة الرقمية على وسائط رقمية مخزنة فى قواعد معلومات مرتبطة بشبكة الإنترنت بحيث تتيح للمستفيدين الاطلاع والحصول على هذه الأوعية من خلال نهايات طرفية مرتبطة بقواعد المعلومات الخاصة بالمكتبة. هذه الطريقة تتيح للمستفيدين الاطلاع والحصول على أوعية ومصادر المعلومات فى أى وقت ومن أية مكان تتوفر فيه نهايات طرفية مرتبطة بتلك القواعد المعلوماتية. ومن أوراق الندوة الإقليمية حول توظيف تقنيات المعلومات والاتصالات فى التعليم برعاية الاتحاد الدولى للاتصالات، دمشق، يوليو ٢٠٠٢، نرصد منها مميزات المكتبات الرقمية، وهى: حفظ المعلومات من الكوارث وعوامل التلف الطبيعية والبشرية ويشكل أكثر فاعلية، وهى أقل تكلفة من المكتبة الورقية. وتسمح بتخزين كميات هائلة من المعلومات وإتاحتها للأفراد بتكلفة بسيطة فمثلاً أحدث طبعة لكتاب الأغانى صدرت عام ٢٠٠٢ تتكون من ٢٤ مجلدا، توفرها مكتبة الوراق الرقمية مع ٤٠٠ كتاب من نفس الأهمية على اسطوانة مدمجة CD ومع إمكانات البحث النصى. وتسهل المكتبة الرقمية الوصول إلى المعلومات بسرعة، بفضل التطور فى تخصصات الكمبيوتر ونظريات رياضية، وفيها برمجيات للتعرف

على الصور وتمييز الأصوات. وتسمح المكتبة الرقمية بتخزين أنماط مختلفة من المعلومات Multimedia بحيث نستطيع اليوم قراءة كتاب ما مع الاستماع إلى الشعر الموجود فيه ومشاهدة الصور كما هو الحال في موقع كتاب صور الكواكب وهو من المواقع التعليمية المرافقة لموقع الوراق. وتضع المكتبة الرقمية بيد المستخدم أدوات للتعامل مع المعلومات أكثر فاعلية من الأدوات التقليدية اليومية: التخزين والحفظ السريع والأرشفة والبحث، مع إمكانات متطورة في تحرير النصوص، ووضع العلامات والتعقيبات، وتوفر إمكانات متطورة في الطباعة، وتبادل المعلومات بالبريد الإلكتروني أو بـ FTP . وفتحت المكتبة الرقمية آفاقاً جديدة في التفاعل مع الآخرين بحيث يمكن للقارىء مشاهدة تعليقات القراء الآخرين لنفس الكتاب ومشاهدة تقييمهم له وأحياناً الدخول في مناقشة حية معهم أو من خلال تبادل الرسائل. مما لا شك فيه أن تطور تكنولوجيا المعلومات قد انعكس بشكل إيجابي على التراث العربي ولكن تبقى استفادة العرب من تكنولوجيا المعلومات ومشاركتهم في تطويرها محدودة . وفي مصر تبنت مكتبة الاسكندرية في حدود علمي اتجاها نحو امتلاك الأدوات التي تكفل لها الريادة في هذا المجال بدءا من تأسيس قسم لتكنولوجيا المعلومات إلى تبني خطط رقمنة المعلومات سواء كانت تخدم التراث أو تشارك العالم في التحدي الرقمي المعاصر. ومن تلك المشروعات التي قرأت عنها في النشرات الإعلامية المتصفح التخيلي للمخطوطات الذي يتيح هذا تصفح المخطوطات، على شاشات الحاسب الآلي بصورة تطابق المخطوط الأصلي، والمكتبة الرقمية للمخطوطات والتي صدر منها أول مجموعة على أقراص مدمجة، مشروع الشراكة بين مكتبة الأسكندرية والمركز القومي لتوثيق التراث الحضاري والبيئي: وهو مشروع يهدف إلى تقديم صورة متكاملة لمصر وتراثها. وأيضا المكتبة الرقمية العربية: هذه المكتبة تضم ٢٠ ألف كتاب في مرحلتها الأولى، وبدأت المكتبة في بحث توقيع اتفاقيات تعاون مع عدد من المؤسسات الثقافية العربية لتكوين هذه المكتبة. لعل أولها اتحاد الكتاب العرب ثم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت ونادي تراث الإمارات في أبو ظبي، وفي هذا الإطار قرأت عن اتفاقية لنقل محتويات أعداد مجلة الهلال الصادرة على مدى ١١٣ سنة على أقراص مدمجة (سي ديهات) وذلك لتسهيل توفير مادتها الثقافية والأدبية والعلمية والتاريخية للكتاب والباحثين وللجامعات والمراكز العلمية، وهناك الكثير من المشروعات التي تبشر بها النشرات الاعلامية عن المكتبة مثل مشروع المليون كتاب، الخدمة المكتبية المتكاملة بالرقمنة على الانترنت للاستفادة من الخدمات المختلفة في مكتبة الاسكندرية، مشروع التبادل المكتبي: وهو مشروع رقمي تتبناه مكتبة الاسكندرية يقال انه سوف يتيح لأي طفل في قرية مثلا الاطلاع على الأعمال العظيمة التي قامت بها البشرية من خلال المكتبة حيث سيتمكن هذا الطفل من الاطلاع عبر الإنترنت على الكتاب أو الفيديو من خلال المكتبة أو الفيديو الذي يريده. هذا غير الشراكة في أرشيف الانترنت، وهو مشروع طموح بدأ في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. كل هذه المشروعات الرقمية وغيرها لمكتبة الإسكندرية، لها قيمتها المعرفية الكبيرة بعد إكتمالها، لكني شخصيا كمواطن عادي لم أشعر بها خاصة عندما دخلت موقع المكتبة على الإنترنت، والذي اتسم بالبطء الشديد، ومعظم خدماته لم تكتمل أو تحت الإنشاء. ■



تحتفي مجلة الهلال بالكاتب الكبير رجاء النقاش، الذي تولى رئاسة تحريرها في فترة من عمرها المديد، فأسدى إليها الكثير.

الهلال

رجاء

المحب الغاضب

بقلم
فريدة النقاش

أن أكتب عن «رجاء النقاش» أخي وأستاذي فكأنما أكتب عن نفسي، وهل يكتب الانسان عن نفسه دون أن يكذب ؟

أذكر الآن جيدا الكلمات الأولى للرسالة التي كتبتها له حين سافر إلى القاهرة عام ١٩٥٢ ليلتحق بالجامعة، وكنا ما نزال في قريتنا «منشية سمنود» دقهلية قبل أن نشد رحالنا إلى العاصمة حتى نكون إلى جواره وندخل إلى الجامعة تباعا، نحن الأشقاء الثمانية من الأسرة الريفية المستورة بالكاد، والتي وجدت من التعليم قارب نجاة سيره أبي المدرس والشاعر «عبدالمؤمن النقاش» رحمه الله بمهارة وتفان، وكانت رفيقة عمره قد خذلته حين مرضت مرض الموت بعد وصولنا إلى القاهرة وكأنها لم تحتمل الغربة في مدينة بلا قلب فقررت أن تعود إلى الريف.





● حكاء من طراز فريد، يملك حسا ساخرا جميلا ويسأل كثيرا عن معنى السعادة!!

«الأديب الفاضل أخي الحبيب» هكذا بدأت الرسالة الأولى في حياتي .

فكرت طويلا في هذه الكلمات التي خيل إلي حينها أنني أبدعتها وحدي حين كنت أنظف زجاج اللمبة الجاز نمرة عشرة التي حذرتني أمي من كسرها .. وكنا نستعد لدخول الليل الذي طالما أحسسته شديد الحلكة في القرية إذ تنطلق فيه العفاريت والأشباح والجوارح دون خوف من عيون النهار والبشر كما كانت تحكي جداتنا ونصدقهن .

حدثت «رجاء» في خطابي عن ما قرأته ، فقد كان هو بعد أبي رحمه الله أول من أعطاني كتابا أذكر أنه كان رواية مترجمة للأمريكي «جون شتاينبيك» .. قال لي خذي واقرئي فلم أكف عن القراءة أبدا بعدها .

كذلك هو الذي اختار لي قبل أن يسافر فستانا أصفر جميلا مزينا بوردة حمراء لم أستطع أن أخبئها في كراسي كما يفعل العشاق لأنها كانت من قماش .. كان فستانا للعيد ارتديته لأجربه قبل أن يحل الصباح فلم يرق له أنه ليس مكويا فحمله الى المكوجي وعاد به لكي يليق الفستان بالملكة «فريدة» .. تلك الملكة الطيبة التي أنا سميتها ، وقد أحبتها «أمي» كما أحبها المصريون وتعاطفوا معها لأنها كانت مظلومة فهي امرأة فاضلة وبسيطة تتحمل العيش مع الملك الفاسد «فاروق» ولا تنجب سوى البنات . وكان الملك متلهفا لإنجاب وريث لعرش أسرة «محمد علي» ودستور العائلة لا يعترف بولاية النساء، فتزوج «ناريمان» التي أنجبت له ولي العهد.

لا أنسى الفستان الأصفر ولا الوردة الحمراء، وأفكر الآن فقط أن هذا هو سر حبي الغامر للون الأصفر والذي يحرك في سرورا غامضا وحنينا لماضي بلا هموم ملأته الطفولة بسعادة مجانية .

هل أحكي حين لدغتني عقربة ذات مساء وحملني هو بلهفة إلى حلاق الصحة لكي يخرج الدم الفاسد من ذراعي؟ أم حين حقنه الرجل نفسه بحقنة بنسلين - على ما أظن - فأغمي عليه، وكدت أموت خوفا وأخذت أصلي وأبكي إلى أن عاد إليه الوعي؟ أم حين تعرض للغرق ذات مرة وهو يصطاد في الترعة ومنعنا أبي جميعا من السباحة والصيد ولكن بعد أن كانت البلهارسيا قد لبدت في أجسادنا وأخذنا نعالجها حتى بعد أن نزحنا إلى العاصمة، وماتت «أمي بسببها»؟.

أخي رجاء محب للتأمل، وهو فضلا عن ذلك حكاء من طراز فريد، يملك حسا ساخرا جميلا، ويسأل كثيرا عن معنى السعادة، ويحتل الرضا من قاموس مفرداته مكانا مميزا، وإن كان هو ليس راضيا ، محبته غامرة وخصومته قاسية وشوقه للمعرفة بلا حد.

طالما سألت نفسي من أين يأتي «رجاء» بهذه العاطفة الجياشة

تجاه الفقراء والفلاحين على نحو خاص، هل هي تجربتنا نحن مع الفقر والأيام الصعبة التي عشناها والتي علمته الصبر والجلد والمثابرة، وملأته أيضا بالخوف على مستقبل من يحبهم ... أم أنها الثقافة الواسعة والمعرفة العميقة بتراث الأدب العالمي كنبع فياض لرهافة المشاعر .. وأقول لعله التفاعل الخلاق بين هذه العوامل مجتمعة .

وحين أسأل نفسي: ترى كيف نجونا بعد هذه الرحلة الطويلة الصعبة أجد أن «رجاء» هو بطل هذه النجاة.. إنها الصلابة التي تعلمناها منه حين عمل ليل نهار وهو طالب في الجامعة لنقف على أقدامنا ، وتحمل في صباه وشبابه الأول مسئوليات جسام ينوء بها الكبار، كنت أتأمله حين يعود ماشيا من جامعة القاهرة في الجيزة لبيتنا القاهري الأول في شبرا حتى يوفر قروش المواصلات ، ويعود مرة أخرى في المساء ماشيا أيضا إلى مقهى «عبدالله» في ميدان الجيزة ليلتقي «أنور المعداوي» الناقد الذي أنصفه هو بعد ذلك وكان صديقا حميما له ، وكان نفر من الأدباء الذين لمعت أسماؤهم في الحياة الثقافية بعد ذلك يلتقون كل مساء هناك .. وطالما راودتني نفسي أن أذهب لولا أن النساء لا يرتدن المقاهي الشعبية .

وكنت شاهدة على قصة حبه الأولى في بداية الخمسينات التي تألم بسببها كثيرا ، وكتب عنها «أحمد عبدالمعطي حجازي» قصيدته «الأميرة والفتى الذي يكلم المساء» ونشرها بعد ذلك في الديوان الأول «مدينة بلا قلب» الذي كتب له «رجاء» مقدمة ضافية تعد حتى الآن من أهم الدراسات النقدية عن شعر التفعيلة فضلا عن أنها قدمت «حجازي» تقديما يليق بموهبته الكبيرة .

كما أن «رجاء» هو أول من قدم للوطن العربي شعراء المقاومة الفلسطينية وعلى رأسهم «محمود درويش» في وقت لم يكن العرب يعرفون أي شئ عن فلسطينيي ١٩٤٨ الذين يعيشون في إسرائيل ويتعرضون للتمييز ويحتمون بثقافتهم ويقدمون ابداعا جميلا .. وقد تجاهلهم العرب الآخرون كأنما لينسوا النكبة التي حلت بهم .

***

ولولا أنني كتبت هذه الكلمات بعجلة وفي ظرف خاص جدا لكنت وضعت كتابا كاملا لا فحسب عن علاقتي الحميمة - بل والشائكة في بعض الأحيان - مع «رجاء» وإنما أيضا عن انتاجه الفني المتنوع والأصيل والذي جعله واحدا من أهم نقاد زماننا وهو يواصل مسيرة «طه حسين» و«العقاد» مضيفا تفرده الخاص. كنت سأكتب باستفاضة عن منهجه النقدي الانساني ، أو ما كانت «مي زيادة» قد أسمته بمنهج العطف النقدي الذي وإن كان يقرأ الأعمال الأدبية والفكرية بعين الناقد الذي يمتلك أدواته بما يمكنه من وضع النص والكاتب في المكان الصحيح ، فإنه يتسم أيضا بالمحبة الغامرة وهو يلتقط بمهارة مكامن القوة والموهبة ، ويظل يرعاها ويرعى صاحبها مهما كان مغمورا إلى أن يشتد عوده ، وينهض ، كما بحث في النص عن القيمة الانسانية العليا التي تنعكس من الشكل والأدوات .

يفرح «رجاء» أيما فرح لكل كشف جديد في عالم الأدب والفكر ويظل يفتش بدربة صياد اللآلئ الماهر الذي يعرف كيف يفرق بين الأصداف والمحار . وكم من كتاب لم يكن يعرفهم أحد وحين سلط عليهم رجاء ضوء محبته استطاعوا أن يشغلوا المكان اللائق في عالم قاس تقوده المصالح الكبيرة وحتى الصغيرة ، وتحكمه المجاملات والمقايضات . ساعدته على إنجاز هذه المهمة الجليلة الموضوعة دائما على جدول أعماله، قدرته الفائقة على الإحياء ، وكم من مؤسسات محصنة كانت قد ماتت وركدت وحين تولى قيادتها بث

فيها روحا وحياة، ودفع بها إلى متن الحياة الثقافية والفكرية فى مصر والوطن العربي ، إذ أنه يرى أن مهمة المثقف المصرى لا تكتمل إلا فى بعدها العربي وروحها القومية التقدمية الانسانية الخلاقة .

حين أعاد إدوارد سعيد قراءة كتابه العمدة الاستشراق بعد ربع قرن من صدوره مراجعا بعض الأحكام والفرضيات والتوجهات الفكرية فيه ، كتب يقول : لقد استقر بى المطاف على النزعة الانسانية فى شمولها وغناها. وأنا الآن حين أطل على عناوين كتب «رجاء» التى قرأتها أكثر من مرة، وتعلمت منها شأنى شأن الكثيرين، أقول إنه «رجاء» .

وعلى العكس من إدوارد سعيد - قد بدأ بالنزعة الانسانية مبكرا جدا منذ كتابه الأول الذى صدر وهو فى الرابعة والعشرين من عمره حين رأى فى الإنسان أرفع القيم ، واعتبره جديرا باجتهاده كى يصبح إنسانا، ويخرج من طور الوحش ، ودافع عن كرامته وحقه فى الحياة وحريته ، ووثق به وبقدرته - لو توفرت له الظروف المواتية - على أن يرتقى إلى ما لا نهاية ويسيطر على مصيره ، ويذهب إلى أقصى ما يمكن أن تحمله إليه مواهبه التي ستنفتح دونما قيود فى مملكة الحرية، هذا لو تخلص الإنسان إلى الأبد من ذل الخوف والحاجة وحينذاك سوف يقطع هذا الانسان كل صلة له مع الوحش ليغوص تاريخه الأول فى الأعماق الغائرة للوعى الانسانى . ورغم أن نجيب محفوظ المتشائم يرى أن الوحش قديم والانسان جديد فإن ثقة «رجاء» فى انسانية الانسان فى بلا حد .. ذلك الانسان الذي بوسعه دائما ان يصنع نفسه .. الم يفعل هو ذلك بالضبط ؟

وفى نزعته الانسانية تلك يمزج «رجاء» بين التراث العقلانى المجيد للثقافة العربية الإسلامية وصولا إلى عصور الاحياء والنهضة، وبين تراث حركة التنوير الأوروبية والفكر الاشتراكى بمدارسه المتنوعة وكلها تضع الانسان فى أعلى مكان، ذلك الانسان الذى يستحق الرحمة وليس العقاب ، بصرف النظر عن دينه أو جنسه ، عن لونه أو طبقته ، ومن كل هذه المنابع راكم «رجاء» شحنة نفور إضافية من الاستغلال والظلم وانسحاق الفقراء وإذلالهم.. وطالما دافع بحرارة عن مبادئ العدالة والمساواة وضرورة اقتسام الثروات بشكل نزيه لا يجحف أحدا حقه. ومن هنا كان حبه العميق لجمال عبدالناصر وحلمه ، ذلك الحلم الذى كان مثل صاحبه قصير العمر . عبدالناصر الذى أطل من شباك قطار كان يحمله إلى بلد فى صعيد مصر ذات يوم والتفت الى محدثه قائلا :

- ها نحن قمنا بالثورة قبل سنوات ومازال الفلاح يعيش على البصل والمش .. فمتى سنغير كل ذلك .. متى ؟
متى حقا ؟

* * *

كل سنة وأنت طيب «يارجاء» يا أخى الحبيب وأستاذى■



● يمزج بين التراث العقلانى للثقافة العربية الإسلامية وتراث حركة التنوير الأوروبية والفكر الاشتراكى بمدارسه المتنوعة

محمود عبد المنعم مراد

بقلم
صافى ناز كاظم



ولد فى ٢٦ يناير ١٩١٩، وتوفاه الله مساء الجمعة ٢٠٠٤/٩/٣ وبين التاريخين عاش أستاذى محمود عبدالمنعم مراد، الذى تعددت مهامه فى الحياة، فهو الصحفى، وهو الناقد، وهو الأديب، وهو الناشر، وهو المعتقل السياسى الذى دخل السجن وخرج منه، أكثر من مرة، دفاعاً عن حق الشعب المصرى فى «الحرية».

١٩٥٦، كان قد مضى عام على تدريبنا فى دار أخبار اليوم، أنا وزميلاتى فى قسم صحافة آداب القاهرة، حين عرفنا أن «محمود عبدالمنعم مراد» ، الشقيق الأكبر لزميلنا «على مراد»، قد انضم للكتابة فى جريدة الأخبار مؤسساً باباً جديداً بها عنوانه «أخبار الناس» . ننزل لنقابل الكاتب الكبير فى غرفته إلى جوار صالة التحرير بالدور الأول من مبنى الدار، نقول له: « أخوك على صاحبنا! » ، يشبه «صاحبنا» تماما ، ملامح التجهم نفسها وملامح أسد كوبرى قصر النيل، أقصر قليلا من «على» ، حزين، أسيف، قليل الكلام لكنه يعطينا قدرا من الترحيب الذى يمنع عنا الحرج . مرفوع عنه قرار المنع من النشر بشرط الكتابة بعيدا عن «السياسة». المطلوب الاستفادة منه ثقافيا فحسب! يتحول مكتبه تدريجيا إلى صالون أدبى وأجدها فرصة لأعرض عليه محاولاتى الناشئة فى كتابة الشعر، والقصة القصيرة، والخواطر. بالتدريج تنقشع السحب الرمادية التى كانت تبدو لنا معلقة فوق رأسه، ويظهر أن التفاف الشباب من حوله استطاع أن يبدد شيئا من حزنه وأصبح من الممكن أن نراه مبتسما. لم نكن قد بلغنا العشرين، وكان هذا ما نعنيه بكلمة «شباب» وكان هو بأعيننا من «كبار السن» قد بلغ الثامنة والثلاثين: يا اااه !

أقدم له دفاتر محاولاتى فى الكتابة: الأزرق، والأحمر، والأخضر. حين أنوه فى واحد منها : «٢٦ يناير ١٩٥٧، ذكرى حريق القاهرة» ، يعلق: «إنه يوم ميلادى» ، وهكذا عرفت منه يوم وسنة ميلاده .

- (يقول ابنه طارق إن تاريخ مولده هو ١٩١٩/٢/٥، ولكنى أكدت له أن لدى تسجيلا خطيا من والده يؤكد أن ١/٢٦ هو الأدق وليس ما تم تدوينه رسميا فى شهادة ميلاده!) .

فى الدفتر الأخضر، الذى كان عنوانه: «أحاديث إلى الرب ١٩٥٦ - ١٩٥٧»، أدون تاريخ ميلادى، ١٧ أغسطس ١٩٣٧، فيكتب فى صفحة كاملة: «حديث إلى ابنتى : يابنيتى، إنك تعودين بى إلى الوراء عندما كنت فى ليالى أغسطس ١٩٣٧، أكتب بنفس الطريقة التى تكتبين بها الآن! أواه! نحن الآن فى عام ١٩٥٧، أخشى ما أخشاه يابنيتى، أن تشغلك أشياء، ليست الآن فى حسبانك، عن هذه الثرثرة اللطيفة العميقة التى يحبك من أجلها ربك . كذلك أخشى أن تظلى تكتبين ثم ينتهى بك المطاف كما انتهى بى، كلام فارغ تافه، أكتبه كل يوم من طرف قلمى وما بداخلى يحرقنى ولا أستطيع الافصاح عنه ، لأن الناس لا يطيقون سماعه ... سأظل أرقبك من بعيد ويخيل إلى أنك ستفعلين يوما ما شيئا عظيما ، حقق أملى يارب »

. حين قرأت كلماته أدركت وقتها سر ابتسامته الساخرة التى كان يتلقى بها تعليقاتنا المعجبة بالباب الذى يحرره، ولم يكن يعرف أن وجوده بالدار كان قد أفاء علينا الفائدة والنفع والظل الظليل .

وفى الدفتر الأزرق كتبت ١٩٥٦/٥/١٩: « إذا جاء الخريف لا تطلب من الورد أن يبتسم » . فعلق ساخرا: «إذا جاء الخريف لن يكون هناك ورد على الإطلاق» !

ظلت غرفته مثل المسقاة للشباب المتعطش إلى الرعاية والتوجيه والتشجيع، وبعد سفرى إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٠، كتبت لى صديقتى زينب صادق تخبرنى باعتقاله لأنه لم يستطع أن يصبر على محاولة «تجفيفه» ، ولم يستطع أن يسكت رأيه الصارخ بين جوانحه. عدت عام ١٩٦٦ وعرفت أنه قد خرج من المعتقل وامتلك مع شركاء «دار المعرفة» للنشر والتوزيع بشارع جامع الشيخ شركس، هرعت فرحة إليه فأهدانى قاموس المنجد ١٩٦٦/٩/٢٩ – (مازال هو قاموسى الوحيد الذى أرجع إليه) – وكتب الإهداء مازحا: «إلى أستاذتى وأستاذة الجميع...... رغم أنف الجميع ... بمناسبة عيد ميلادها ....» مع هذه البشاشة البادية لم يغب عنى حزنه الأسيف المكتوم، وجلسته الهادئة، يطل من شرفة «دار المعرفة» ساهماً لساعات طويلة. كنت عام ١٩٦٦ قد بدأت أفهم ما لم أكن أفهمه ١٩٥٦ و١٩٥٧، لكننى لم أستشعر آلامه المبرحة إلا حين كابدت ١٩٧١ حتى ١٩٨٣/٣/٢٥، ما كان يكابده فى الخمسينيات والستينيات ، من منع النشر وقصف القلم .

كتب فى جريدة «المصرى» ما وصفه بعد ذلك بأنه « ... أخطر ما كتبت فى حياتى الصحفية، حيث كنت أكتب عن الحرية والديمقراطية فى عهد الدكتاتورية العسكرية، حين رفعت فيها الرقابة بضعة أسابيع... فكتبنا أهم وأعز ما كتبناه ... فى مارس ١٩٥٤» .

وقد سرد فى يومياته بجريدة الوفد ٢٠٠١/٦/٢١ بعضا من ملابسات تلك الصفحات العزيزة عليه متذكرا : «... كانت قد وقعت أحداث فى منتهى الخطورة بين صفوف قادة حركة يوليو ١٩٥٢، إذ دب الخلاف السياسى ، فى رأى البعض ، أو نشب الصراع على السلطة بين اللواء محمد نجيب وجمال عبدالناصر ومؤيديه من ناحية أخرى، فشهدت البلاد فى تلك الفترة وشهد المصريون ما لم يشهدوا مثله فى أى يوم من الأيام . كان القليلون من ضباط الحركة يؤيدون محمد نجيب .... أما أغلبية الضباط فكانت تؤيد مجلس قيادة الثورة وعلى رأسه جمال عبدالناصر

..... هكذا كان الخلاف بين الأشخاص وبين المبادئ التى يمثلونها، أقلية الضباط وأغلبية المدنيين مع الحرية والديمقراطية والنظام النيابى والأحزاب والبرلمان، وأغلبية ضباط القيادة ومعهم أقلية ضئيلة جدا من المدنيين يريدون استمرار النظام الثورى بكل ماله وما عليه، وكنا نحن فى جريدة المصرى أول من أيد الثورة صراحة وعلانية وبدون تردد ..... وعندما تفجر الخلاف بين الاتجاهين وقفنا فى (المصرى) مع الحرية والديمقراطية، فكتب أحمد أبو الفتوح مقاله الشهير، (إلى أين؟)، ومقالات كثيرة أخرى، وظللت أكتب كل يوم ... العمود الذى كنت أكتبه بعنوان (كلمات) .... ونتيجة ما كتبت .. أعتقلت، ثم خرجت بعد عام ونصف العام لأكتب فى صحيفة الأخبار...».

ويستطرد محمود عبدالمنعم مراد فى سرده : « فى ٥ مارس ١٩٥٤ أدى الخلاف بين ضباط مجلس القيادة إلى عودة محمد نجيب إلى رئاسة الجمهورية وجمال عبدالناصر إلى رئاسة الوزراء وإلغاء الرقابة على الصحف واتخاذ الإجراءات اللازمة لعودة الحياة البرلمانية والانتخابات الحرة، ولم تعلن هذه القرارت إلا بعد يومين، وفى اليوم السابع من مارس كتبت أول عمود أكتبه فى ظل القرارات الجديدة... فكتبت .... فى هذا اليوم الذى نشعر فيه برفع قيود الرقابة، لأول مرة نحس بضخامة المسئولية الملقاة على كواهلنا بعد أن توفرت لنا الحرية ..... ويشعر الكاتب وهو يمسك القلم بما يشعر به المحب ساعة اللقاء بعد قطيعة طويلة مضنية ....

....

وإذا كان الشعب يريد أن تكون الصحافة فى خدمته فليكن صاحيا لحريتها ذائدا عن حقها فى أن تعبر عن رأيه وتدافع عنه...» ، فى يوم ٨ مارس ١٩٥٤ واصل محمود عبد المنعم مراد كتابة أحلامه عن وسيلة الحاكم النزيه لتحقيق السعادة لأكبر عدد من المواطنين: « ..... لو كان الناس أحراراً آمنين يقولون ما يشاءون لعرف الحاكم .... كيف يحكم وكيف يحقق السعادة لأكبر عدد من الناس». وفى ١٩٥٤/٣/٩ كتب يعبر عن سعادته وتأثره بسبب الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين وأمله فى أن يتم الإفراج عن البقية الباقية: « .... نحن الآن نتأهب لإجراء انتخابات عامة لنختار ممثلين للشعب يضعون دستوراً للوطن، فالانتخابات القادمة يتوقف عليها مستقبل الأمة كلها وتحديد أنظمتها لأجيال...... ..... ومن أجل ذلك نطالب بالإفراج عن المعتقلين فوراً ، إنهم مواطنون ومن حقهم أن يشتركوا فى رسم خطوط المستقبل

ومناقشة المسائل العامة ، ومن حقهم أن يخرجوا أحراراً ويمارسوا حقوقهم العامة...».

اتهمه مقال نشرته جريدة الجمهورية ٩ مارس ١٩٥٤ بمهاجمة «الثورة» لصالح ملك طائش ماجن ، فكتب رده المنشور ١٩٥٤/٣/١٠ بجريدة المصرى تحت عنوان : «دفاع عن الشعب» قائلا: « .... إن الشعب المصرى المفترى عليه فى حاجة إلى دفاع طويل وخاصة هذه الأيام ، ففى المقال الافتتاحى لصحيفة الجمهورية الصادرة أمس... عبارات تستوقف النظر ... (مثل) كان الشعب كله عبيداً لملك طائش ماجن.... وكان الشعب أكثره عبيداً لسادة الإقطاع وصناع المظالم ..... وكان الشعب مسخراً لخدمة حفنة من عبيدى الأطماع ... ... ذلك بعض ما كتبته الجمهورية ... وقد يكون بعض هذا الكلام صحيحا لا خلاف عليه، فالثورة طردت الملك وحددت الملكية وألغت الأحزاب ، ولكن هل كان الشعب كله عبيداً لملك طائش ماجن؟ أم كان هذا الشعب يكافح ضد طغيان الملك وطيشه ومجونه فيصوب الرصاص إلى صدره ويلقى بأفراده فى غياهب السجون؟ هل كان الشعب كله عبيدا وهو الذى هتف بسقوط الملك وهو جالس على عرشه يحميه الحرس والبنادق والمدافع سريعة الطلقات؟ هل نسى الناس معارك كوبرى عباس والطلبة الذين أحرقوا صور الملك فى حرم الجامعة، والكتاب الأحرار الذين هاجموا الملك بأقلامهم فكان مصيرهم السجن والاعتقال؟ إن هذا التاريخ القريب لا يمكن أن يُنسى، ودماء الضحايا من أبناء الشعب لا يمكن أن تجف ، ونضال الشعب فى سبيل التحرر لا يمكن أن ينكر، وأسماء القتلى والجرحى والمشردين والمعذبين لا يمكن أن تحذف من سجل التاريخ.... كان الشعب فى كل أونة أبيا يكافح الظلم وهو أعزل، حراً يكافح الطغيان بالروح، كريما يهاجم الفساد بالقول والعمل ... . إن الشعب لا يريد وصاية أحد، ولا يريد ضمانا من الجهل أو الخطأ، ولكنه يريد حرية وبعد ذلك حاسبوه أى حساب تشاءون .... ».

* * *

كتب محمود عبدالمنعم مراد كل هذا وأكثر فى مارس ١٩٥٤، وكان الثمن باهظا، وكان يعرف ، لكنه لم يتردد فى العطاء، لأنه كان يعرف كذلك أن الجميع إلى رحيل ، ولا يبقى من الإنسان على الأرض إلا حقيقة سعيه ، وقد فاز من اختار السعى نحو الحق والعدل والخير وكرامة الإنسان ، وخاب من ارتضى أن ينصب نفسه، على خلق الله، جبارا مفتونا . ولله الأمر من قبل ومن بعد . ■

حقوق التأليف المغتصبة

بقلم
وديع فلسطين

هذا عنوان مُخفف، ولعل الأصدق والأصرخ أن يكون العنوان «لصوص الكتب» أو «السرقات الأدبية»، ولكننى تفاديت المعنى الجنائى المضمر فى عمليات سرقة الكتب وانتحالها.

ومع اتساع رقعة العالم العربى، وتقطع الأوصال بين مفرداته برغم وجود جامعة عربية منذ أكثر من نصف قرن ومنظمة عربية للتعليم والعلم والثقافة منذ أربعين عاماً، فإن التواصل الأدبى بين الدول العربية يعانى من التهرؤ بل الانعدام، مما يشجع طلاب الشهرة أو طلاب المال على انتحال صفات أدبية ليست لهم، وأيسر السبل إلى ذلك هو سرقة الأثر الأدبى على اعتبار أن السارق يقيم فى قطر، وأن صاحب الكتاب المسروق يقيم فى قطر آخر، اعتقاداً بأن هذه الفعلة لن تكتشف، ولا سيما لأن هناك أزمة فى القراءة لانشغال الناس بمآرب الحياة المادية المختلفة.

فإذا ما أميط اللثام عن سرقة علنية فاجرة، أصبحت فضيحة مدوية - ولو فى نطاق ضيق بحكم أن المجتمع الأدبى قد صار - مع الأسف - شديد الضيق، وحسبك أن تواجه الحقيقة الصادقة وهى أن ما يطبع من أى كتاب عربى لا يزيد على بضعة آلاف، بينما العالم العربى من خليجه الثائر إلى محيطه الهادر يعيش فيه قرابة ثلاث مائة مليون نسمة .



طه حسين



محمد حسن الزيات

وأحدث جريمة «سطو عريان» بتعبير أستاذنا العلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧) هي التي كشف عنها الأديب السعودي حسين محمد بافقيه حيث قام زيد من الناس، سواء باسمه الصحيح أو باسم مستعار، بالسطو علي كتاب كبير ترجمه عادل زعيتر (١٨٩٧ - ١٩٥٧) عن سيديو عنوانه «تاريخ العرب العام» الصادر عام ١٩٤٨، فرفع اسم المترجم العظيم ووضع اسمه في مكانه، ثم دفع بالكتاب بتمام نصه المسروق - حتي بالفصلات ونقاط الوقف - إلى ناشر أردني، فقام بنشره عن علم أو جهل مادام المترجم عادل زعيتر قد لقي وجه ربه منذ نحو نصف قرن، ولعله لم يترك ورثة ينوبون عن حقوقه، ولأن عملية السطو تمت بغباء شديد - إذ كان في وسع المترجم المزيف أن يعيد صياغة الترجمة بأسلوبه الخاص بما ينفي عنه تهمة السرقة ولكنه اختار الطريق الأسهل، وهو الاكتفاء برفع اسم المترجم الأصلي ووضع اسمه في محله - فقد وقف أمام الملا عارياً ويداه متلبستان بالجريمة النكراء، لقد كان يظن أن جريمته لن تكتشف، ولكن المقادير أخرجت له من بطن الجزيرة ناقداً شاباً هو حسين محمد بافقيه ففضح فعلته.

ينفرد بالكتب بعد وفاة شريكه

وكان محمد عبدالغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) قد نشر سلسلة من الكتب مع شريك له، وكان كل كتاب يحمل اسمي المؤلفين الشريكين دون تحديد للدور الذي اضطلع به كل منهما في التأليف، وبعد وفاة عبدالغني حسن خلا الجو لشريكه، فقام باستبعاد اسم عبدالغني والاقتصار على وضع اسمه علي جميع كتب السلسلة باعتباره المؤلف الأوحد، ظناً منه بأن هذه الفعلة لن تكتشف، ولا سيما لأن أبناء عبدالغني الخمسة هم بين طبيب ومهندس، فضلاً عن أنهم مهاجرون هجرة دائمة خارج البلاد، وأنّى لهم أن يكتشفوا خدعة الانتحال أو أن يلاحقوا المنتحل أمام القضاء، ومع ذلك، فقد قام أولاد الحلال بتنبيه أرملة عبدالغني إلى هذا التزييف الذي لم ينصب على

كتاب واحد بل على سلسلة من الكتب ومنها معجم «من أمثال العرب».

تزييف كتب التراث

وكنت في زمن البطالة القسرية بعد إغلاق الجريدة التي كنت أعمل بها وانسداد الأبواب الصحفية في وجهي بدعوى أنني مغضوب عليّ من الثورة، أحاول أن أرتق ما تهرأ من حياتي باحثاً عن أي كوة تخرجني من محنتي، عندما زارني مندوب لإحدى دور النشر اللبنانية وعرض عليّ أن أسهم في مشروع تضطلع به هذه الدار، يتمثل في نشر كتب التراث لقاء مكافأة مغرية قدرها مئتا جنيه عن كل كتاب، وكنت وقتها شديد الحاجة إلى هذا المبلغ بل إلى نصفه أو ربعه، فسألت المندوب عن المطلوب مني، فقال: إنه أمر جدّ يسير، ولا يكلفك إلا أقل جهد، فما عليك إلا أن تلتقط أي كتاب محقق من كتب التراث، بشرط أن يكون محققه قد انتقل إلى رحمة الله، وأن تجري فيه بعض التعديلات، كأن تضيف إليه هامشاً، أو تشرح معنى لفظة، أو تترجم للأسماء الواردة في تضاعيفه، أو أن تعلق على فقرة من فقرات الكتاب مُدعيا أنك عثرت على مخطوطات نادرة للكتاب موزعة في مكتبات أوروبا، وبهذا الصنيع يقتنع القارئ بأن التحقيق الذي قمت به يُعتد به! فقلت للمندوب: كيف للقارئ أن يثق في كتاب يحمل اسمي باعتباري محققاً له مع أنني لم أعمل بالتحقيق من قبل، وكل المحققين معروفون لطالبي كتب التراث؟ فقال: إن الناشر اللبناني على استعداد لإعفائك من هذا الحرج، وإصدار الكتاب غفلاً من اسم المحقق! وتوهم المندوب أنني اقتنعت بحججه ولاسيما لأن الإغراء المادي كان لا يقاوم، ولكنني قلت له إنني أعتقد أن هذا العمل يمثل جريمة أدبية وأخلاقية، وإنني لهذا أرفض المشاركة في هذا المشروع، ولكن إن رغب الناشر في الاستعانة بي كمترجم لبعض الكتب، فإنني على استعداد للقيام بهذا العمل مهما تواضعت مكافأته! فما كان من المندوب إلا أن انصرف متعجباً من رفضي لحبل الإنقاذ الذي رماه لي، ووعد بأن يهديني بعضاً من كتب التراث التي أصدرها الناشر، وتبينت عند تسلمها أنها لا تحمل اسم أي محقق!

الترجمة من الباطن

وزارني مرة زميلان صحفيان وقالا إنهما يقومان بدور «المترجم الشبح» لواحد من كبار الأدباء، فيترجمان له كتباً تنشر باسمه لقاء مكافأة هزيلة يدفعها لهما، وقالا إنهما ضاقا بهذه الترجمة من الباطن، وطلبا وساطتي لدى مستشار مؤسسة فرنكلن


محمود تيمور


عزيز أباظة

للنشر التي كانت تتوفر على ترجمة مئات من الكتب فقلت لهما: وما حاجتكما إلى وساطتي، اذهبا إلى المستشار واعرضا عليه خدماتكما ومؤكد أنه سيرحب بكما لأن من مصلحة مؤسسته أن تستعين بأكبر عدد من المترجمين لترجمة أكبر عدد من الكتب، ومادامت تعين مراجعاً لكل ترجمة، فسيكون في وسعها الحكم على قدرتكما في هذا الميدان.

وهكذا كف هذان الصحفيان عن نشاط الترجمة من الباطن لحساب أديب كبير، وصارا يترجمان كتباً تحمل اسم كل منهما.

اتهامات مرسلة

ولا يخلو الأمر من اتهامات مرسلة بالانتحال والسرقة تعرّض لها عدد من كبار الأدباء فقد اتهم الصحفي أبوطالب زيان (ت ١٩٨٦) القاص محمود تيمور (١٨٩٤ – ١٩٧٣) بأن وراءه كاتباً شبحاً يؤلف له رواياته وأقاصيصه، أو – في القليل – يقوم بضبط مؤلفاته ضبطاً لغوياً، وقيل وقتها: إن هذا الشبح هو محمد شوقي أمين (١٩١٠ – ١٩٩٢) الذي كان محرراً بمجمع اللغة العربية ثم انتخب، عضواً عاملاً فيه، كما اتهم الشاعر عزيز أباظة باشا (١٨٩٨ – ١٩٧٣) بأن شاعريته منتحلة، وأن وراء دواوينه ومسرحياته الشعرية «أباظين» يجملون صورته ويرفعونه درجات فوق شعراء عصره.

وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه الاتهامات شديدة البطلان، ولاسيما لأن أبا طالب زيان كان وقتها قد انتقل من فئة المصححين الأزهريين في الصحف إلى فئة الأدباء، وكان يعتقد أن مهاجمة كبار الأدباء من شأنها أن تكتب له منزلة رفيعة في الحياة الأدبية، ولنفرض جدلاً أن دواوين عزيز أباظة ومسرحياته الشعرية هي من عمل أباظيين مثل العوضي الوكيل (١٩١٥ – ١٩٨٣) أو محمود غنيم (١٩٠٢ – ١٩٧٢)، فهل يعقل أن يكون ديوان «أنات حائرة» الذي رثى به عزيز أباظة زوجته الراحلة من نظم شاعر آخر تلبّس شخصيته وتشرب بعاطفته المكلومة ونظم هذا الشعر؟ ولا كان محمود تيمور في حاجة إلى من يؤلف له رواياته وأقاصيصه وهو الذي خاض مع أخيه محمد تيمور (١٨٩٢ – ١٩٢١) هذا الميدان البكر في حياة أبيهما [illegible] تيمور

باشا (١٨٧١ - ١٩٣٠)، ولو فرض أن الأديبين أرادا الاستعانة «بكاتب شبح» فلعل الاستعانة بأبيهما كانت هى الأقرب إلى الاحتمال، وهي ما لم يحدث لأن الأب لم يكن راضياً عن اتجاه نجليه إلى كتابة الحكايات والقصص كما روى العلامة عجاج نويهض (١٨٩٨ - ١٩٨٢) نقلاً عن محب الدين الخطيب (١٨٨٧ - ١٩٦٩).

طلاب يترجمون كتاباً لأستاذهم

وهناك واقعة انفضحت على صفحات مجلتى «الرسالة» و«الثقافة» مؤداها أن الدكتور على إبراهيم حسن أستاذ التاريخ فى الجامعة المصرية، رغب فى ترجمة كتاب عن تاريخ الشرق الأدنى، فعهد فى هذه المهمة إلى بعض طلابه الذين أنجزوا العمل فى حدود معرفتهم القاصرة، ودفع المؤرخ بالكتاب إلى المطبعة دون أن يراجعه للاستيثاق من كونه ترجمة سليمة، وعند صدوره، انبرى له النقاد وساقوا أمثلة على غفلة المترجم وجهله أسماء المدن العربية، فمدينة حلب أصبحت «اليو» ومدينة اللاذقية أصبحت لاتاكيا، ومدينة القامشلى أصبحت كمشلى، ومدينة الإسكندرونة أصبحت الكساندريتا، وهلم جرا، واضطر المؤرخ إلى إعادة طبع الكتاب بعد مراجعته وتدارك ما فيه من أوجه القصور.

هل سرق سعودى قصيدة للصيرفى؟

وقد صدر فى المملكة العربية السعودية أخيراً كتاب عنوانه «من جهاد قلم» للأديب المجمعي عبدالله بن خميس، وفيه اتهم الشيخ عبدالعزيز الربيعي بأنه انتحل لنفسه قصيدة للشاعر المصرى حسن كامل الصيرفى (١٩٠٨ - ١٩٨٤) هنأ بها الشاعر عزيز أباظة فى مناسبة ما. والغريب أن هذه السرقة المزعومة حدثت فى حياة الشاعرين الصيرفى وأباظة، فلا هذا ولا ذاك أشار إلى هذه الواقعة - إن صحت - ولا نشرها ابن خميس إلا بعد وفاتهما ودون أن تنكشف فى حينها، وكنت وقتها على صلة طيبة جدا بالصيرفى وأباظة فلم أسمع منهما شيئاً عن هذه السرقة التى حدثنا عنها ابن خميس، ثم ما حاجة الشيخ عبدالعزيز الربيعي - وهو متمكن من الأدب شعراً ونثراً - إلى انتحال قصيدة بالغة ما بلغت روعتها؟ وفى اعتقادى الصارم أن الخصومة الشخصية هى التى حدت بابن خميس إلى سوق هذا الاتهام - كجزء من

جهاد قلمه - بعد عشرات من السنين من وقوعها؟!

محمد سيد كيلاني وورثة طه حسين

كان الأديب محمد سيد كيلاني (١٩١٢ - ١٩٩٨) يتمترس في دار الكتب منبشاً بين أوراق الصحف القديمة التي كادت تبلى بسبب القدم، وكان يقع في تنبيشه على دفائن مجهولة يخرجها إلى الناس في كتب موثقة، ووقع في أثناء بحثه على طائفة كبيرة من المقالات والقصائد المجهولة لطه حسين مما لم يقم طه حسين بجمعه في كتبه المنشورة، فأخرج سيد كيلاني عدة كتب تضم هذه المقالات والقصائد معتقداً أنه حقق بذلك خدمة كبيرة للباحثين في تراث عميد الأدب العربي، وكان الناشر الذي يتعامل معه كيلاني يدفع له مائتي جنيه عن كل كتاب.

ولكن عزّ على الدكتور محمد حسن الزيات وكيل ورثة طه حسين وزوج ابنته أمينة (ت ١٩٨٨) أن يرى سيد كيلاني يتكسب من نشر كتب مورثة دون إذن من الورثة، وطبعاً دون دفع حقوق التأليف لهم! فرفع عليه وعلى ناشر كتبه دعوى يطالبهما بأرقام فلكية تمثل حقوق التأليف والتعويضات معتبراً أن في نشر هذه الكتب اعتداء على حقوق المؤلف واستحلالاً لها دون وجه حق. وظلت الدعوى تتداول في المحاكم إلى أن تدخل بعض أولاد الحلال وأقنعوا رافعها بأن كيلاني لم يسيء إلى طه حسين بل خدمه وخدم الأدب العربي خدمة جليلة بإخراجه هذه الكتب المجهولة، ولولا جهده في البحث والتنقيب لبقيت هذه الآثار مطمورة في أوراق الصحف المتهالكة بفعل الزمن، وأن مكافأة كيلاني عن هذا العمل تعتبر ملاليم، وأن مقاضاته تحوّل العمل الأدبي إلى جريمة جنائية مع أن كيلاني لم ينسب هذا التراث إلى نفسه بل نسبه إلى صاحبه الأصيل وهو طه حسين، ومن حسن التوفيق أن وكيل الورثة اقتنع بهذا المنطق وتنازل عن دعواه، وكان قراره هذا صائباً.

★★★

هذه بعض نماذج عن حقوق التأليف، ما انتحل منها وسرق وزيف وما وصل أمره إلى القضاء، فلعل فيها من الدروس والعبر ما يعزز الدعوة إلى حماية الحقوق الفكرية ■

القيود والقضبان
فى عالم نجيب محفوظ

بقلم
مصطفى بيومى

لايتورط نجيب محفوظ في وصف مالا يعرفه، ومن هنا براعته الفائقة فى التجسيد الفنى الصادق للأماكن التى تعامل معها وعايشها وعاينها: البيوت بأنواعها، دواوين الحكومة، المدارس والجامعات، الفنادق والبنسيونات، المقاهى والعوامات. السجن لاينتمى إلى منظومة الأماكن التى يألفها نجيب ويدرك خباياها وأسرار طقوسها، فهو لم يخض تجربة السجن ولم يتعرض للاعتقال، ولذلك يمتلىء عالمه الروائى والقصصى بالسجناء، ويتوارى الاهتمام بالسجن - المكان.



غياب المكان لايعنى إغفال نجيب محفوظ لأهمية الموقع الذى يحتله السجن فى الحياة الإنسانية بشكل عام، وفى الحياة المصرية على وجه الخصوص، وفى روايتى «ليالى ألف ليلة» و«رحلة ابن فطومة» مايكشف عن طبيعة السجون فى التاريخين القديم والوسيط.

السجن الذى يلقى فيه «قنديل محمد العنابى» الشهير بـ «ابن فطومة» ظلما بلا جريرة، يقدم نموذجا متكاملا لما كان عليه حال السجون فى «دار الحيرة»، العصر الإقطاعي: وكان السجن عند مشارف المدينة فى منطقة صحراوية. وهو عبارة عن مكان متسع تحت الأرض، ذى منافذ ضيقة فى السقف، جدرانه من الأحجار الكبيرة، وأرض رملية، ولكل سجين سروال

لاغير وفروة، يكتنفه جو خانق ذو رائحة كدرة، نصف مظلم كأنه فجر لاتشرق فيه شمس. «رحلة - ٧٧».

فى جزيرة الشيطان

قد تختلف المعالم والتفاصيل من عصر إلى آخر، لكن السجن يبقى ملمحا راسخا فى تاريخ الحضارة الإنسانية، وفى قصته القصيرة الطويلة: «صباح الورد» يمتد اهتمام نجيب محفوظ إلى السجون الأوروبية الحديثة فى النصف الأول من القرن العشرين.

فى الثلاثينات يسافر «عثمان جمال إسماعيل» إلى فرنسا، وهناك يضطر إلى إطلاق الرصاص ليسترد نقوده التى خسرها على مائدة القمار: ثم وردت الأخبار بأنه قضى عليه بالسجن عشر سنوات فى جزيرة الشيطان. ياللهول! عثمان جمال إسماعيل فى جزيرة الشيطان! .. إنها الجحيم كما رأيناها فى فيلم بسينما أوليمبيا فكيف يتحملها الفتى الهش الرقيق؟. «صباح - ٣٠».

سجون الدول الغربية المتحضرة لاتقل قسوة عن سجون العصور التاريخية المظلمة، والسجن الفرنسى الشهير مضرب المثل فى الشراسة التى لانظير لها ولامثيل، والسينما هى الأداة العصرية الوافدة التى يتعرف من خلالها جيل نجيب على ثقافات الآخرين وسجونهم!.

السجون القديمة موضوع للقراءة، والسجون الغربية المعاصرة مادة فيلمية مثيرة، أما السجن فى الحياة المصرية


نجيب محفوظ

الواقعية فذو خصوصية يرصدها نجيب محفوظ من خلال تجسيده الفنى الصادق لرؤية الطبقات الشعبية وأسلوبها فى التعامل مع فكرة السجن، مايعيب أو يشين، والسجن فى الثقافة الشعبية السائدة ليس عارا يستوجب الإدانة ويدعو إلى الاستنكار.

السجن فعل اعتيادى

فى قصة «نحن رجال» تحتفل «عطفة شنكل» بالإفراج عن ابنها المعلم «جعدة»: كان فى الحقيقة عائدا من السجن، وليس عليه فى ذلك من بأس. فما من فتى من فتيان عطفة شنكل إلا وقد زار السجن مرة أو أكثر «همس - ١٦٧».

السجن فعل اعتيادى فى حياة سكان العطفة الشعبية، بل إن «جعدة» يفخر ويباهى به بعد أن تلعب الخمر برأسه فى حمى الاحتفال بخروجه: نحن رجال .. هل توجد جسارة بغير ثمن؟ هل الزناتى سلم؟ هل عنتر سلم؟ زلت بنا القدم ومايقع إلا الشاطر، ودفعونا إلى السجن .. السجن للرجال .. مايعيب إلا العيب .. يعيش السجن

للرجال .. «نفسه - ١٧٠».

لابأس في السجن، وليس «جعدة» بالحالة الاستثنائية، فالغالبية العظمى من أقرانه تعرف السجن وتتردد عليه وتتعامل معه كأنه مفردة من مفردات الحياة اليومية!. إذا كان المثل الشعبي المصري الشهير يذهب إلى أن «السجن للجدعان»، فإن قصة نجيب محفوظ المبكرة محاولة لترجمة المثل فنيا والبرهنة على صدقه!.

السجن لايشين المرء!

في «زقاق المدق» مايؤكد سيادة وهيمنة المفهوم المتسامح مع نزلاء السجون، فإذ تصر «سنية عفيفي» على إخلاء الشقة التي كان يقطنها الدكتور «بوشي» قبل سجنه، مدانا بجريمة سرقة متعلقات الموتى، يتطوع عم «كامل» بنقل أثاث السجين ومعداته الطبية إلى شقته، حيث يقيم وحيدا بعد مصرع رفيقه عباس الحلو: ولم يعاتبه أحد في ذلك، بل لعلهم عدوها من المكرمات، لأن السجن لم يكن مما يشين المرء في المدق «زقاق - ٢٨٧».

ارتكب «جعدة» و«بوشي» من الجرائم الثابتة ما يستحق عقوبة السجن، فهما ليسا من الأبطال الشعبيين الذين يريدون عدالة اجتماعية ضائعة، لكن سكان «العطفة» و«الزقاق» لايجدون غضاضة في سجنهما، ذلك أن العقوبة التي تعرضا لها لاتعني عقوبة اجتماعية تقود إلى المقاطعة والاحتقار والأمر نفسه يتكرر مع «عاشور الناجي»، البطل الأسطوري الذي يحقق العدل المفقود - على طريقته - ويراود المدينة الفاضلة. فالسجن الذي ذاقه عاما كاملا لايؤثر على شموخه وتفرده. كان في القفص مزهوا بحرارة القلوب من حوله، وتلقى زوجته «فلة» كل الرعاية والاحترام، ويأبى «عاشور» إلا أن يعلن أنه لايستحق ما ناله من العقاب. في اليوم الموعود، خرج «عاشور» من السجن وسط احتفالات صاخبة: صفق الناس وهللوا ورقصوا، ومن شدة الزحام قطعت العربة المسافة بين مدخل الحارة والزاوية في حوالي الساعة. «الحرافيش - ٨٤».

يخرج «عاشور الناجي» من قيود السجن إلى عرش الفتونة، ولايفكر أحد من خصومه وكارهيه في النظر إلى فترة سجنه كمرحلة تستوجب المعايرة وتدعو إلى التهوين من شأنه.

الموقف السلبي من السلطة وقوانينها الجائرة هو المبرر الذي يدفع البسطاء والعوام من الشعبيين، سكان العطوف والأزقة والحارات، إلى التعامل مع السجن في بساطة واعتيادية، والأمر عندهم أقرب إلى القدر الظالم المرتبط إلى حكومة بعيدة عن العدل والإنصاف.

تجربة السجن القاسية

وإذا كان عالم نجيب محفوظ يحفل بالعديد من السياسيين والمفكرين الذين عرفوا السجن والاعتقال، وينتمون إلى الاتجاهات والتيارات الوفدية والدينية والماركسية، في روايات «السكرية»، و«الشحاذ»، و«الحب تحت المطر»، و«الكرنك»، و«عصر الحب»، و«الباقي من الزمن ساعة»، و«حديث الصباح

والمساء»، فإنه يزخر أيضا بكثير من السجناء الذين لاتربطهم علاقة بالعمل السياسي، فهم يرتكبون جرائم، أو يتهمون بارتكابها، ويخوض تجربة السجن القاسية قبل العودة إلى الحياة بإيقاعها المتغير المختلف.

لا نعرف الكثير عن تفاصيل حياة هؤلاء الشخوص داخل السجون، لكننا نستطيع استخلاص رؤية بالغة العمق والشمول عن التأثير الذي يمارسه السجن من ناحية، والفلسفة العامة التي تحكم المنظر إليه من ناحية أخرى.

لعل «سعيد مهران» هو أشهر لصوص وسجناء عالم نجيب محفوظ، وبخروجه من السجن بدأت رواية «اللص والكلاب»: هاهي الدنيا تعود، وها هو باب السجن الأصم يبتعد منطويا على الأسرار اليائسة. «اللص - ٧».

لم يكن «سعيد» في حاجة إلى النصيحة المشفقة المزيفة التي يتطوع بها واحد من أنصار «عليش»: أنت قادم من السجن والعاقل من اتعظ. «نفسه - ١٢».

ذلك أنه يعي الدرس جيدا، ويتمنى في أعماقه ألا يعود إلى المكان الكئيب الموحش الذي غادره لتوه، وفي حوار دال مع الشيخ «علي الجندي»، يقول الشيخ ماينم عن إيمانه بوجود أنواع شتى من السجون:

- أنت لم تخرج من السجن.

فابتسم سعيد. كلمات العهد القديم تتردد من جديد. حيث لكل لفظ معنى غير معناه. وقال:

- يامولاي، كل سجن يهون إلا سجن الحكومة. «نفسه - ٢٦».

لايفكر «سعيد» في سجن الذات وخلاص الروح، فما يشغله بحق هو السجن المادي التقليدي الذي عاني من ويلاته وقاسى من مآسيه، وعندما يتجاوز «سعيد» حدود اللياقة اللغوية في حواره مع استاذه القديم الانتهازي رءوف علوان، يعتذر بسنوات السجن وما تركته من آثار: لم أتخلص بعد من جو السجن فيلزمني وقت طويل حتى أسترجع آداب الحديث والسلوك. «نفسه - ٤٤».

السجن والقهر

معاناة السجن وعذاباته لاتحتاج إلى براهين وأدلة واستدعاء الذكريات، فالجميع يعرفون معنى السجن وما فيه من قهر. يصطدم «سعيد مهران» بعد الإفراج عنه بحياة متجهمة قاسية: زوجة خائنة، ابنة تنكره، صديق غادر، أستاذ يصعد بانتهازية إلى القمة ويتركه في القاع، أليس أنه قد غادر السجن الصغير إلى سجن كبير؟! لم يعد «قلبه» من المفردات القابلة للتداول في سوق الكراهية التي يخوض في غمارها: حجزوه في السجن كما تقضي التعليمات. «نفسه - ٧٤».

هكذا يقول «سعيد» ساقرا للعاهرة «نور» الوحيدة التي تتعاطف معه وتضحي من أجله وتؤمن به!.

تبدأ رواية «اللص والكلاب» بخروج «سعيد مهران» من السجن، وتنتهي به مستسلما للموت والكلاب بلا مبالاة وتبدأ رواية «الطريق» بخروج «بسيمة

عمران» من السجن، وتنتهي بانتظار ابنها الوحيد «صابر سيد الرحيمي» لتنفيذ حكم الإعدام الذى لا مهرب منه.

خمس سنوات قضتها القوادة «بسيمة» في السجن، وتركت السنوات القاسية أثرا بالغا ملموسا على ملامحها وصحتها، تتسع الحياة داخل السجن لكل مافي خارجه، لكن التجربة المفزعة تدفع الأم إلى مراودة حياة جديدة مختلفة لابنها: أنت لم تخلق للسجون «الطريق -٩».

نهاية «صابر» تمثل امتدادا منطقيا أكثر مأساوية لنهاية أمه، ارتكب جريمتى قتل فى رحلته اليائسة، للبحث عن أبيه، الأب الجليل الغائب الذى يمثل رمزا ساميا غامضا لقيم الحرية والكرامة والسلام. السجن المؤبد، بديلا للإعدام، هو الأمل الذى يصعب تحقيقه، وتنتهى مغامرة «صابر» بالوحدة القاسية المفضية إلى الضياع الكامل: في السجن وحده، لا يزار من ليس له أهل. «نفسه ١٥٩».

الإعدام مصيره الحتمى، وغاية مايسعى إليه المحامى النشيط أن يصل بصابر إلى السجن المؤبد!.

دور السجن ومعناه

«اللص والكلاب» و«الطريق» هما الروايتان الأكثر أهمية فى التعبير عن دور السجن ومعناه فى الحياة الخواء التى يعيشها صغار المجرمين ممن يغادرون السجن إلى حياة بائسة، لاتختلف موضوعيا عن السجن الذي غادروه.

يعانى «بيومى» فى قصة «قاتل»، من أزمة طاحنة متعددة الوجوه، والأبعاد بعد خروجه من السجن: منذ خروجه من السجن وهو يعيش متسولا، قرش من هنا وقرش من هناك، بلا عمل، وبلا أمل، وهو ليس بأول سجن، ولا آخر سجن فيما يبدو. «دنيا - ٨٢».

«بيومى» مجرم صغير يرتكب جرائم صغيرة. ، وحياة الفقر تلازمه وتغلق أبواب الأمل فى وجهه، ليس السجن الأول، والقرائن كلها تشير إلى أنه سيعود إلى السجن من جديد: هذه ثالث مرة ينطلق فيها بعد سجن، لكن لم يجد الدنيا من قبل مغلقة الأبواب كما يجدها هذه المرة حتى لتحدثه هواتف نفسه البائسة أحيانا بأن يعود إلى السجن ليستقر فيه بقية العمر. وقبيل خروجه من السجن، أول مرة مات ابنه فى مستشفى الحميات، وحينما كان فى السجن آخر مرة اختفت زوجته، ولا يدرى أين ذهبت ولا مع من هربت، وقليل من النساء من يخلصن لزوج هوايته السجن. «نفسه - ٨٣».

بيومى لايهوى السجن بطبيعة الحال، لكنه المهرب الوحيدة من حياة بلا معنى يموت الابن، وتهرب الزوجة، ويفر العمل، ويتلاشى الأمل، ما أسهل أن يتورط «بيومى» فى جريمة قتل، مأجور بأبخس الأثمان، فلا بديل عن حياة الضياع بعد السجن، إلا الصعود والترقى فى عالم الجريمة!.

السجن .. مزيد من الانهيار

«سعيد مهران» و«بسيمة عمران» و«صابر سيد الرحيمى» و«بيومى» نماذج بشرية متنوعة، تجسد الضياع

الذى لا نجاة منه، حقيقة أنهم مجرمون مدانون لاتنفى أنهم بشر يكابدون ويتمزقون، دوافعهم إلى الجريمة مبررة وإن لم تكن مقنعة، وحياة الجريمة لاتنتهى بتجربة السجن الذى لايصلح ولايهذب، بقدر ما يدفع إلى مزيد من الانهيار.

فى «أفراح القبة» يتعرض «كرم يونس» وزوجته «مليحة الكبش» لتجربة السجن المؤلمة، فقد فتحا بيتهما للمقامرين المدنيين، وضبطا وأدينا، الجريمة لايمكن إنكارها بطبيعة الحال، لكن «كرم يونس» يتساءل متفلسفا ساخرا: لم نسجن فى بلد تستحق غالبيته السجن؟. قانون مجنون لايدرى كيف يحترم نفسه «أفراح - ٤٠».

القانون ليس مجنونا، ولايمكن أن يكون. «كرم يونس» لا يدافع عن نفسه ولاينكر جريمته،. فغاية مايقوم به هو الهجوم المضاد، وهدفه الحقيقى أن يدين الآخرين وليس أن يبرىء نفسه!.

ينفرد «جعفر الراوى» بخصوصية مثيرة فى منظومة سجناء نجيب محفوظ، فهو يأبى إلا أن يكون سجينا سياسيا على الرغم من إدانته بجريمة قتل: طالبت فى السجن باعتبارى مجرما سياسيا رغم أنه لاتوجد تفرقة فى المعاملة بين المجرم السياسى والمجرم العادى. تعرضت بسببه لعقوبة الجلد. «قلب - ١٤٢».

حفيد «الراوى» ينتهى به المطاف إلى القاع، وخاض عديدا من المغامرات التى تكشف عن جموح الإنسان وطموحه الذى يزال كل ثابت راسخ.

السجن لايعرف التمييز بين نزلائه، والمتأمل فى أحواله يعرف أن المكان الكئيب سيىء السمعة ليس إلا امتدادا للحياة بكل ما فيها من خير وشر وإنصاف وخلل.

فى بداية رحلة «صابر سيد الرحيمى» للبحث عن أبيه ، يقول له أحد المحامين:

- فى نيتى أن أكلف صديقا من ضباط البوليس ليتحرى عنه فى السجون.

وإذا يتساءل صابر مستنكرا:

- السجون؟

يرد المحامى كاشفا عن وعيه العميق بفلسفة السجن وطبيعة السجناء الذين يحيون بين جدرانه:

- السجن كالجامع مفتوح للجميع، وأحيانا يدخله إنسان لنبل فى أخلاقه لا لاعوجاج. «الطريق - ١٨».

كم فى السجن من شرفاء، وكم فى حياة الحرية خارجه من أوغاد، وقد يكون «سعيد مهران» لصا يستحق الإدانة والسجن، لكنه محق فى تساؤله المرير وهو يفكر فى عدوه اللدود «رءوف علوان»: أتدفع بى إلى السجن وتثب أنت إلى قصر الأنوار والمرايا؟. «اللص - ٥٠».

تمام العدل أن يسجن «رءوف»، ومن حق «سعيد» أن يرى فى حرية غريمه ظلما وخللا، وأن يسعى إلى إقامة العدل على طريقته، مثله فى ذلك مثل الأبطال الشعبيين الخارقين الذين لايشينهم أن يدخلوا سجون السلطة الظالمة!. ■

الإبداع يستشرف الحرية

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

في الجزء الأول من هذا المقال - المنشور في العدد الماضي - رصد د. ماهر شفيق فريد تجربة السجن لدي عدد من المبدعين، وقال فيما قدم، إن هذه التجربة قد لايعمد إلي تسجيلها عدد ممن خاضوها وإنما يتجاهلونها كأنها لم تكن، وقد تكون، علي العكس، حافزا علي الإبداع ودافعا إلي الكتابة، والمعوّل في الحالين علي مزاج الكاتب وتوجهه الفكري وموقفه الأيديولوجي والمناخ الخاص والعام الذي يعيش في ظله ويتنفس هواءه، وقدرته علي تحويل الخبرة الخاصة إلي رمز عام .

تناول د. ماهر عددا من المبدعين، تناولوا تجربة السجن ومفرداته في أعمالهم، وفي هذا المقال يواصل متابعة الظاهرة مع عدد آخر من المبدعين .

وربما كان أعمق تشريح لسيكولوجية التعذيب في القصة العربية الحديثة هو ذلك الذي نجده في رائعة يوسف إدريس القصيرة «العسكري الأسود».

تدور أحداث القصة في ظل الأحكام العرفية وعهود الإرهاب في أعوام ١٩٤٧، ١٩٤٨ . إنها قصة شوقي - طبيب شاب يعمل في المكتب الطبي لمحافظة القاهرة - منظورا إليها بعيني راو كان زميلا له في كلية الطب. لقد اعتقل الطالب الجامعي شوقي لممارسته نشاطا وطنيا وخرج من السجن وقد انطفأ البريق في عينيه، ولم يعد الشخص الذي كانه. وندرك من عبارات متناثرة - أن التعذيب الذي خضع له هناك هو المسئول عن تدمير روحه وفقدانه الثقة في كل شيء وكل إنسان. وهو يرفض أن يحدث الراوي عما جرى له وراء القضبان، ولكننا نعرف أن القائم بتعذيبه كان جنديا يدعى عباس الزنفلي، عرف باسم العسكري الأسود، وكان مجرد ذكر اسمه كافيا لإيقاع الرعب في قلوب السامعين. وتشاء الأقدار أن يرقد دوسيه العسكري - بعد سنوات كثيرة - على مكتب شوقي، الذي تصادف أن كان يومها الطبيب النوبتجي في فترة بعد الظهر، وبذلك تثور في ذاكرته كل ذكريات العذاب الأليم الذي لاقاه على يد جلاده، لقد تقدمت السن بالزنفلي، ولم يعد يرجى منه نفع لسادته. وتمكن منه المرض - بدنيا ونفسيا - فأصبح، ربما بتأثير ندم متأخر، «يعوي من كالذئاب ويهبهب كالكلاب»، وتدهورت أحواله الصحية، وصار في سنواته



يوسف إدريس — نجيب محفوظ — صنع الله إبراهيم

الأخيرة - كما تروى زوجته نور يعود من عمله «مضعضعا مطحونا كالمضروب علقة» وهو الضارب! وتطلب المحافظة توقيع الكشف الطبى عليه لإثبات عجزه الكامل تمهيدا لفصله من الخدمة ، ويقع على عاتق شوقى أن يذهب إليه فى بيته فى أعماق حوارى القاهرة، فيصحب معه الراوى وعبدالله التومرجي. وبلفتة فنية بارعة يصف إدريس حجرة الرجل المريض بأنها «لم يكن يضيئها غير نافذة صغيرة جدا قريبة من السقف كنوافذ الزنازين والسجون» . لقد انعكست الأدوار، وتبادل الجلاد والضحية المواقع. فأصبح الأول رهن زنزانة من صنع ماضيه المثقل بالذنوب والقسوة واللاإنسانية وتصدر عن العسكرى صيحات مذعورة، ككلب مسعور، يقطعها نشيج، ويتراجع بجسمه عن القادمين كأنما يريد أن يختفى فى الحائط.. بل إنه يغرس أسنانه فى لحمه ويعض نفسه فى حالة هياج لا يمكّن التحكم فيه . حدث هذا بعد أن ذكره شوقى، دون رحمة، بنفسه: «ما تستعبطش ما تعملش إنك ناسى.. مش فاكر العنبر.. مش فاكر علق الساعة خمسة.. مش فاكر دور تسعة. مش فاكر النبابيت .. مش فاكر الكرباج.. مش فاكر الدم.. فين كرباجك وديته فين.. فين صراخك ياوحش فين. فين نعل جزمتك الحديد.. فين كفك.. فين صوابعك.. فين النار فين.. بص لى وانطق واتكلم وصرخ.. صرخ زى زمان.. سمعنى صوتك.. صرخ ياعسكرى يا أسود.. بص لى وانطق واتكلم وصرخ.. ما تعملش ناسى وإن عملت أفكرك.. حالا أفكرك..» وكأنما لم يكن فى هذا الكفاية فإن شوقى فى ومضة زمن خلع جاكتته وقميصه ورفع فانلته لتبدو آثار التعذيب فى بدنه: لم يكن فى ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره، كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع فى هضاب مشملة وتكشف عن مناطق غائرة. فى قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع، ومشهد بشع يجعل القشعريرة تسرى فى جسدك، لا لمجرد مرآه، وإنما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التى أحدثت كل ما تراه.. لكأن ذئبا مجنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره فى ظهر شوقى نهشا وتقطيعا وفتكا . هكذا تسنى لشوقى فى النهاية أن ينتقم ممن دمره ودمر نفسه، ومن ثم خرجت اللجنة الطبية من بيت المريض دون أن يكتب شوقى قراره ، وإنما عهد بهذه المهمة للحكيمباشى.

وقرب نهاية القصة يقول الراوى عن شوقى: «بدأ خلال الأيام القليلة التى تلت ذلك شغوفا بإثارة الموضوع بمناسبة وبلا مناسبة، دائب التفكير فيه، يفاجيئنى مرة بقوله: أتعرف أنك حين تؤذى غيرك تؤذى نفسك دون أن تدرى، ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول: دع الضارب يضرب، فيده التى تضرب تمتد أيضا إلى ذات نفسه. ولم

يقتصر الأمر على التفكير. دخلت عليه يوما فوجدته منهمكا فى الكتابة، وما أن رآنى حتى جمع الأوراق محاولا أن يخفيها، ولكنى من بين أصابعه استطعت أن أقرأ عناوين فقرات: فلسفة العلقة.. الإيلام سلاح ذو حدين.. وعناوين أخرى كثيرة. وسألته فقال إنه بحث قد يطلعنى عليه يوما ما».

وتنتهى القصة بهذه الكلمات التى تمثل يوسف إدريس فى ذروة عبقريته. وتظل تطارد خيال قارئها طويلا:

«ولا أعرف لماذا كلما راجعت ما حدث لا أستطيع أن أنسى رغم كل ما رأيته وشاهدته، كلمة خيل إلى أنها عادية جدا وطبيعية ساعة أن سمعتها تقال، ولكنى لا أعرف لماذا ظلت تلح علىّ ولا تتركنى، الكلمة قالتها امرأة من اللاتى حضرن على صراخ نور، امرأة لعلها أم على الحسادة، وقالت ونحن نتأهب لمغادرة الحجرة وقد أصبح البقاء فيها أمرا لا يتحمله العقل وقطعة لحم عباس بين أسنانه ودماؤه تكاد تصبغ كل ما تقع عليه العين. سمعت المرأة تمصمص بشفتيها وتهمس للواقفة بجوارها: لحم الناس يابنتى.. اللى يدوقه ما يسلاه.. يفضل بعض انشاالله ما يلقاش إلا لحمه.. ألطف يارب بعبيدك.

سمعتها ورنت فى أذنى رنين الكلام الفارغ الذى نسمعه من خالاتنا العجائز لنسخر منه، ولكن لا أعرف لماذا لاتزال تلح علىّ...».

ومن عجب أن نجد ناقدا نافذ البصيرة - إلى جانب منجزاته المرموقة فى الترجمة - كالراحل محمد عبدالله الشفقى يخفق فى تذوق هذه القصة الفريدة فيكتب عنها بلهجة فاترة، بل تكاد تشى بالاستهانة: أما قصة «العسكرى الأسود» نفسها فتحكى كل شىء، وقد أراح الكاتب فيها نفسه من قيود كثيرة، فلم يلتزم الإيقاع الزمنى، على سبيل المثال، أثناء جلسة الراوى مع الطبيب شوقى فى مبنى المحافظة، وإنما عاد الراوى إلى البيت يكتب كل شىء بحرية، «العسكرى الأسود»، مجلة «المجلة»، أغسطس ١٩٦٣ ص ١٠٨)، كلا! إن كل كلمة فى القصة موظفة بدقة بالغة، وما يبدو على السطح من حرية متدفقة إنما هو حرية محكومة برؤية الكاتب للموقف، والنظر إلى الأحداث بعينى الراوى الذى يلعب دور الجوقة الإغريقية التى تراقب وتعلق وتحكم، أو هو صوت المؤلف كلىّ المعرفة المتوارى وراء شخوصه، أو هو القارئ الذى يتعرف على الموقف ويصفه محايدا تمهيدا لإصدار الأحكام.

حكاية تو

ثمة رواية أخرى يلعب فيها التعذيب دورا مهما هى «حكاية تو» سلسلة روايات الهلال. ديسمبر ١٩٨٧ للقاص سامق الموهبة فتحى غانم (انظر عنه كتاب «فتحى غانم قاصا» للدكتورة عفاف عبدالمعطى)، والمسرح هنا ناد خاص فى الاسكندرية يلعب اعضاؤه البريدج، ومن رواده ضابط شرطة متقاعد يدعى اللواء زهدى، وشخصيات أخرى أقل أهمية، وإن تكن تشغل، أو كانت تشغل - مكانا مرموقا فى السلم الاجتماعى: رءوف على وهو أحد مديرى البنوك القدامى، شكرى منصور وهو سفير سابق، سعد مراقب النادى، سعفان رئيس مجلس إدارة النادى. هذا هو معسكر العجائز، ويقابله معسكر الشباب الذى يضم لطفى - وهو محام تحت التمرين - وتو وهو شاب لم يجاوز الخامسة والعشرين: متوسط القامة، ممتلىء قليلا. رأسه ضخم، يرتدى القميص الملون والبنطلون الشارلستون، فى شكله بعض البهدلة وشعره الأسود الغزير منكوش فوق رأسه، شأن أغلب شبان النادى الذين يقلدون ما يرونه فى الأفلام وصور المجلات لشباب العالم فى هذه الأيام «ص ١١».

يسقط هذا الشاب على النادى وكأنه كائن قادم من الفضاء فلا أحد يعرف له أصلا ولا فصلا ويثير توجب استطلاع الراوى ويحار فى أمره: «توهمت أنه قد يكون نصابا، أو جاسوسا جاء ليتجسس علينا، أو لعله أحد رجال المخابرات أو

المباحث دخل النادى ليتتبع أخبار الأعضاء.. ومن بينهم كثيرون كانت لهم يوما علاقات بالسلطة، واشتركوا فى صراعات قديمة حولها، «ص ٥٧». أتراه يكون طالبا بكلية الزراعة - كما يدعى - أم أنه على صلة باللواء زهدى الذى يحتضنه ويوجد له، بموافقة مجلس إدارة النادى - وظيفة معاون لصالة البريدج يشرف على نظافتها وعلى أوراق اللعب وحجز الموائد وما إلى ذلك؟ ويسأل الراوى اللواء زهدى عن «تو» فيتهرب من الإجابة. ثم يتبين أن زهدى كان مديرا لأحد السجون فى أواخر الخمسينيات، وجاءته تعليمات من مصلحة السجون بالاستعداد لاستقبال دفعة من المساجين السياسيين كان من بينهم والد «تو» الذى كان عضو بارزا فى اللجنة المركزية لتنظيم شيوعى.. ويتولى شوكت - وهو خبير تعذيب تركى الأصل فى مصلحة السجون - عملية تعذيب المعتقلين بمشاركة زهدى ومباركته. فيموت والد «تو» تحت ضربات هراواتهم، ويتقدم إلى النيابة بلاغا تتهم شوكت وزهدى بقتل السجين، وتجرى لهما محاكمة تأديبية تسفر عن فصل شوكت من الخدمة، وإحالة زهدى إلى المعاش. وفيما بعد يفرج عن المعتقلين فى إحدى نوبات التقارب بين الاتحاد السوفييتى ونظام عبدالناصر.

ومن شخصيات الرواية - خارج النادى - امرأة هوى تسكن فى عمارة اللواء زهدى، تعرف باسم منيرة بيجو، وقد غدت الآن - اذا تقدمت بها السن - قواده تدير عددا من الفتيات، وفى بيتها التقى اللواء زهدى لأول مرة «بتو». وطلبت منه السيدة أن يساعده بالبحث عن عمل له، ويكتشف زهدى أن «تو» ابن ضحيته - وإن كان الإبن لا يعرف ذلك - فيقرر أن يساعده. بل يقوم منه مقام الأب، تكفيرا عن ذنبه، وأملا فى أن يكسب مثوبة فيه، وأن يكافئه الله بتيسير الأمور لابنه حسن الذى أصر على الهجرة إلى كندا رغم معارضة أبيه. هكذا تشتبك الخيوط، ويلم فتحى غانم على بصيرة وسيكولوجية حاذقة وإدراك للمتناقضات التى قد تشتمل عليها الشخصية الإنسانية. إن اللواء زهدى - الجلاد القديم - أب حنون يمد مظلة حمايته إلى إبن ضحيته. ومنيرة القوادة تعامل «تو» معاملة الأم الرؤوم وتسعى إلى مافيه صالحه. وتو وهو شخصية بالغة التعقيد يصعب حل خيوطها المتشابكة - مزيج من البراءة والشر، يقول له الدكتور الحمزاوى وهو طبيب نفسى - إن لعثمته سببها صدمات شديدة أصابته فى فترة الطفولة. ويصاب اللواء زهدى بذبحة صدرية فيلازمه «تو» ويعض الممرضات ويتولى زهدى الخوف من أن يبقى بمفرده مع تو (كان قد باح له فى لحظة ضعف أعقبت أول ذبحة صدرية أصابته بأنه قاتل أبيه). فهل تراه كان يخشى أن يقتله تو (باعطائه جرعة زائدة من الدواء مثلا) على سبيل الانتقام؟ وتصعد روح اللواء زهدى - بخيره وشره - إلى بارئها، فلا ندرى - على وجه اليقين - هل كان موته طبيعيا، أم أنه من عمل تو الذى كثيرا ما انفرد به فى مرضه.

وتضم الرواية تأملات ثاقبة فى الطبيعة البشرية، وما تحفل به من نقائض، وما تنطوى عليه نفوس البشر من نوازع الشر

يقول الراوى فى الفصل الخامس:

علمنى زهدى أنه إذا كان للإنسان تلك الآفاق السامية الرحيبة من الكرامة وعزة النفس والمثل العليا، وهى مجالات لا يستطيع أن يصل إليها حيوان آخر غير الإنسان. فإن الإنسان أيضا عنده استعداد للهبوط إلى هوة سحيقة من الانحطاط والسفالة والحقارة. يعجز الحيوان. بل تعجز الحشرة الدنيئة عن التردى فيها «ص ٤٦».

إن فتحى غانم - دارس الفلسفة وعلم النفس - قاص واقعى صارم، لا أوهام لديه عن الطبيعة البشرية، لا يطيق صبرا على رومانسية محمد عبدالحليم عبدالله وأشباهه (دعا فتحى غانم قصص هذا الأخير: قصص لمصمصة الشفاه) وإنما يتوغل

بمشرطه الطبي عميقا في النسيج البدني والنفسي إلى أن يمس أخفى الأعصاب ويصل الى أبعد الأركان.

الفانتازيات الجنسية

السجن، بما يفرضه على السجين من عزلة عن الجنس الآخر، مرعى خصب تتوالد فيه جراثيم الجنسية المثلية، وممارسات الاستمناء، وأحلام اليقظة والنوم على السواء، وتزدهر نوازع السادية والمانوكية معا. في إحدى روايات إبراهيم عبدالمجيد أو أقاصيصه - إن لم تخنى الذاكرة - يقيم المسجونون حفل زفاف لسجون جديد ضعيف إلى مجرم عتيد يلعب دور الذكر في الزواج المرتقب. سيقضى الجديد الليلة في زنزانة القديم: إنه حكم القوى على الضعيف.

وفي رواية صنع الله إبراهيم «شرف» نجد الجنس كما هو طبيعي، موضوعا أثيرا لدى السجناء يعبرون به عن ذكرياتهم ورغباتهم ومخاوفهم وإحباطاتهم وتحققاتهم، ويختلط فيه الواقع بالخيال، ويكون أحيانا سبيلا للانتقام من جلاديهم:

«قال إن زوجة سيادة المأمور، حسب كلام السجين، فتاة صغيرة ترتدى البنطلونات المحزقة وتقضى الوقت كله في تسريح شعرها ولا يوجد لديها أطفال وتعامل المساجين بقسوة.

أضاف: الظاهر إنها مراته التانية، وبيموت فيها.

حكى بلحة قصة زوجة ضابط كبير كانت زوجته تتصيد المجندين الذين أخذهم للعمل عنده في المنزل. كانت تنادى الواحد منهم وهي في قميص النوم وتطلب منه إصلاح حنفية الحمام وتقف خلفه وهو منحنى فوق الحنفية فيحتك جسمه بها عندما يتحرك ثم توجه إليه حديثا موحيا فتسأله مثلا إذا كان لابد من استبدال الماسورة بواحدة جديدة وكيف يمكن إدخالها في الحوض إلخ. وحكى آخر قصة ضابط وجد زوجته في حضن جندى مراسلة فقتلها.

عندما هجعنا أخذت معى زوجة المأمور وتصورتني أمسح لها بلاط مسكنها وهي تروح وتجيء، أمامى ببنطلون محزق وبلوزة تكشف عن صدرها. ثم أبدلت لها ملابسها وجعلتها في قميص النوم وخارجة فجأة من مخدعها فتتعثر في طرف السجادة وتقع على الأرض وأهب لنجدتها فأرفعها بين ساعدى أدخل بها غرفتها وأمددها على الفراش وأدلك لها كاحلها الذي التوى ثم أزيح الرداء عن ساقيها وأتحسسهما حتى فخذيها». (ص١٠٨).

وفي ديوان محمود أمين العالم «قراءة لجدران زنزانة» تقول الأنا المتكلمة:

زنزانتي تحولت زنجية
في أمسية زنجية
عارية .. عالية.. ممشوقة
كحية تفح أنثوية
رجراجة، مهتاجة، غناجة
وهاجة محمومة نارية.
تذيبنى عيونها، تمضغنى أسنانها
أظفارها الوحشية

إن زنزانة العالم هنا أشبه بليلة أبي العلاء المعري: عروس من الزنج عليها قلائد من جمان. ويعلق القاص الراحل شمس الدين موسى على هذه الأبيات بقوله: «إنه يرى نفسه في الزنزانة في مغامرة جنسية عنيفة، فهي امرأة زنجية شديدة الإثارة والفتنة، شبقة لا تشبع ويتوحد معها السجين في داخل التجربة، فهي المتعة الوحيدة له بين هذه الجدران الصامتة، ليس له غيرها، فهي في عينيه شديدة الإثارة وهاجة محمومة نارية، تلفحه بأنفاسها الحارة المحببة إليه فتأخذه من نفسه إلى عالم غريب غنى بالأسرار. فيكونان معا كتلة سديمية عديمة الملامح والتضاريس» (قراءة الجدران زنزانة»، مجلة «الآداب» «بيروت سبتمبر ١٩٧٤، ص ٦٥).

على أن أعظم تجليات هذا البعد الجنسي من أدب السجون إنما تتمثل - في رأيي - في أقصوصة يوسف إدريس «مسحوق الهمس» (من مجموعة «النداهة»).

ليس الجنس هنا مجرد حاجة بدنية - نفسية، أو ظاهرة بيولوجية، وإنما هو قوة كونية شاملة: قوة الليبيدو والفرويدي أو قانون الانجذاب الأبدي بين الذكر والأنثى، ذلك الذي يحكم عوالم الإنسان والحيوان والنبات جميعا. ليس إدريس هنا معنيا باللحظة الميكانيكية للجنس «التعبير لغالي شكري» وإنما هو - مثل وتمان ولورن وغيرهما من عظماء الكتاب- معنيٌ بالقوة الجبرية التي بها تنجذب الأقمار إلى كواكبها، ومدُ البحار إلى سلطان ربة القمر، والأرض إلى الشمس. لا يتوسل الكاتب إلى ذلك باستخدام كلمات طنانة أو مجردات كبيرة، وإنما بموقف عينيّ محدد قادر على توليد الدلالات وإرسال إشعاعاته في شتى الاتجاهات.

إن الراوي - وهو سجين - يُنقل إلى زنزانة أخرى ملاصقة لعنابر سجن النساء، وثمة حائط سميك من الأسمنت يفصل بين زنزانته وزنزانات جاراته. ويرمم له الخيال - تحت وطأة الحرمان المتطاول - صورة امرأة يسميها فردوس تقع على الجانب الآخر فيحاول - برغبة حارقة لاعجة - أن يتصل بها وذلك بالدق على الحائط ليعلمها بوجوده. ويمر أسبوع على ذلك دون أن يتلقى ردا. ثم لا يلبث أن يسمع ردا لأول مرة فيتقزز فرحا، ويروح يتخيلها مستخدما طريقة المساجين في التخاطب عبر الجدران: بوضع «كسرولة» الطعام الفارغة من ناحية فتحتها على الحائط وتقريب الفم من قاعها للتكلم، أو إلصاق الأذن به للاستماع. ويتعاظم تعلقه بها حتى يغار عليها من النساء الأخريات اللواتي يعشن معها في نفس الزنزانة. ثم ينقطع الدق، ويخبره الأومباشي عبدالفتاح في لحظة صفاء - - بعد أن رشاه الراوي بالمعلوم - أن كل السجينات رُحلن إلى سجن القناطر منذ أربعة أشهر، وأن الموجودين في العنبر «دول تراحيل، مرة رجالة، مرة ستات، تراحيل يومين، أسبوع، أسبوعين، وأنت وحظك..» أفقد كان الأمر إذن كله وهما؟ أكان على الجانب الآخر فردوس أم رجل لا يحمل شيئا من عبير الأنوثة؟ لا يجيب الكاتب عن هذه الأسئلة وإنما يدع النهاية مفتوحة، تاركا بذلك مضطربا واسعا للخيال، شأن الكاتب القديم الذي يعرف متى يتكلم ومتى يصمت.

ويكتب الراوي:

«كدت أقهقه قهقهة من فقد العقل، وفي ألف ناحية جرى عقلي يفكر: أليس من الجائز رغم آلام الحب المروعة ألا تكون هناك فردوس بالمرة، بل من يدري، أليس من الجائز أن الهمس المسحوق كان همس رجل، ربما كان يعتقد أنه يخاطب به أنثى؟! أو ربما فعلها أو فعلتها للتسلية وكسر الملل في وقت طويل متشابه؟».

إن عبارة «كدت أقهقه قهقهة من فقد العقل» تشبه - مع اختلاف السياق - خاتمة قصة سارتر «الجدار» (ترجمها إلى العربية د. سهيل إدريس) .

لكن فلنعد إلى أقصوصة إدريس. إن السجن عند «راوية» (ليس إلا كلمة «ممنوع» كبيرة وشاملة.. ممنوع كل شيء إلا ما يبقى عليك الحد الأدنى اللازم كي لا تموت).

وصورة فردوس تثير فيه هذه الخواطر:

«أحسست وكأنما أرى بعيني الحياة - لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة في ذهني - تتدفق غزيرة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء تنهال على سطح البحيرة الآسن الراكد البليد الذي آلت إليه بجسدي وأفكاري وأحلامي وانفعالاتي، مجرد وقع الكلمة على الأذن، النساء، ذلك التضاد القاهر المكهرب معك، المناقض تماما لك، الذي تحن إليه وترغبه تريده كما تريد الحياة نفسها، مجرد تصورك لأجسادهن المختلفة، لانبعاجاتها المثيرة، لملابسهن، حتى ملابس السجن الواسعة، روائحهن الخاصة، دائما خاصة كبصمات الأصابع، أصابع أقدامهن الصغيرة كالجرذان الوليدة المنكمشة على نفسها، أياديهن النحيفة زرقاء العروق،

العيون، عيونهن وإحساسك أنها عيون امرأة ورموش أنثي.. ترسل نظرات تدرك أنها نظرات أنثوية منتزعة من أعماق امرأة، ومرسلة إليك مضمخة بأنوثة تكون حتى شعاعات البصر - المرأة - الصدر الحنون والقلب الرحيم والكلمة الحلوة الرقيقة والأفخاذ التي يفقد بينها الرجل صوابه، بركان تفجر لا سبيل إلى إيقافه، قوى وافدة غريبة، ملايين من شحنات كهربية حية أحسست بها من منبع خفي في جسدي تتفجر كالنهر الغاضب في فيضانه يكتسح».

وتأتي لحظة التنوير (تعبير رشاد رشدي) في النهاية عندما يقول الراوي، وبكلماته يكتمل معنى الخبرة ويكتسب كل ما سبقها مغزاه:

«ليلتها، قبل أن أنام، قلت لنفسي: أليس هذا أروع ختام لقصة ذلك الحب، إنه على الأقل سيعفيني من آلام النهاية ومرارتها».

غير أن الشيء المذهل الغريب، الشيء الذي لم أتوقعه أبدا ولا يمكن أن يصدقه إنسان، حتى أنا نفسي لا أكاد أصدقه، إن القصة ظلت تعتريني وظل الألم ممدودا طويلا يعكر طعم الحياة في نفسي، وظلت «فردوس» حية في خاطري، أكثر حياة من كل من عرفت من النساء».

يقول أحمد نقاد إدريس - أنيس البياع في مقالة «صراع الأضداد في عالم يوسف إدريس»: «فردوس هي رغبة الخروج ورغبة الاتصال. ففي السجن تموت أشياء لكن تولد أشياء أخرى. البحث الدائم المتشنج أحيانا عن طوق النجاة حتى لو كان هذا البحث مجرد حلم لذيذ نصنعه لأنفسنا، وفردوس المرأة والجنس كانت طوق النجاة من الفزع والرتابة والانتظار» (انظر كتاب: د. يوسف إدريس بقلم هؤلاء، مكتبة مصر ١٩٨٦، ص ٢٠٨ - ٢٠٩).

حضور السجن المهيمن

في هذه الأعمال كلها، باعتبارها مرآة للواقع، نجد أن للسجن حضورا كليا مهيمنا. إنه ماثل شاخص في الخيال الشعبي والخيال الأدبي على السواء. والسجان - على اختلاف العصور - هو أداة السلطة التي تستخدمها في البطش بالخصوم وقمع أصوات المعارضة. يقول الفيلسوف ابن سينا وهو يدخل سجنه:

دخولي باليقين بلا امتراء
وكل الشك في أمر الخروج

ويقول الشاعر الشعبي المجهول:

أدحنا دخلنا السجن وبقينا في إيدين الحكام
في الأصل مجنون ما تفهم ياللي تعاند الحكام
أنا اللي قعدت في السجن شهرين عرفته باللي فيه
ياجاهل السجن اسألني وأنا أقول لك ع اللي فيه
أنا أسأل الله يكفينا شر السجن واللي فيه

(انظر محمد قنديل البقلي، «السجون قديما في الأدب الشعبي»، مجلة «المجلة»، أبريل ١٩٥٨، ص ٧٩).

وفي رواية نجيب محفوظ «السكرية» لا يفرق السجن بين الشيوعي والإخواني: فكلاهما خطر على من يتربعون على دست الحكم. إن عبدالمنعم يتنهد ويهمس بصوت لا يسمعه إلا أحمد:

- أيزج بي إلى هذا المكان لا لسبب إلا أنني أعبد الله؟!

فيهمس أحمد في أذنه باسما:

وما ذنبي أنا الذي لا أعبده؟

ويكتب أحمد عبدالمعطي حجازي في قصيدته «السجن»:

لي ليلة فيه
وكل جيلنا الشهيد
عاش لياليه
فالسجن باب، ليس عنه من محيد!

هل من سبيل للخلاص؟

قد يكون دخول السجن - في ظل غيبة التقاليد الديمقراطية شرقا وغربا - أمرا ليس عنه من محيد، ولكن استجابة السجين

لهذا الموقف تختلف من واحد إلى آخر. هناك من ينهار ومن يصمد. إن سلامة موسى – ذلك المفكر الوطنى الشجاع – لا يستطيع أن يغالب إحساسه بالمرارة فيقول فى الفصل المسمى «كفاحى الثقافى واختباراتى الصحفية» من سيرته الذاتية:

«ذات مساء، وكان ذلك فى ١٢ يوليه من هذا العام (١٩٤٦)، كنت نائما على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والفسق والقتل وحيازة المخدرات وغير ذلك. وكانت تهمتى أنى أفكر وأدعو إلى الجمهورية أو الشيوعية. وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى، فأرقت، وأخذت ذاكرتى تعرض لى فلم حياتى الماضية. فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى «المستقبل» لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن. وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف، وعددت نحو عشرين كتابا ألفتها لأبناء وطنى، أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية. ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة. وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر. وأخذت أكفر وأجتر التفكير، وعقلى يتضور من الألم، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز، فناولنى رغيفا للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق. وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان» (تربية سلامة موسى، المستقبل بالفجالة والإسكندرية، د. ت.، ص ١٨٨ – ١٨٩).

والملك لير فى مأساة شكسبير العاتية (كلمة محمد مندور المفضلة)، حين توشك أن تنغلق عليه أبواب السجن مع ابنته المخلصة كورديليا، يعلو على مدمن النشوة إذ يرى فى جدران السجن حائلا بينهما وبين عالم الشر والقسوة والجحود خارجه، فيخاطب ابنته بهذه الكلمات:

كلا كلا فلنرحل فورا للسجن!
ولسوف نغرد فى وحدتنا مثل طيور الأقفاص
وإذا طلبت الوالد بالبركة
فسيحنى هامته بل يركع كى يطلب غفرانك
ولسوف نعيش كذلك فنصلى ونغنى
ونقص أقاصيص الماضى
نضحك من أهل القصر بأثواب البهرج
مثل فراشات وشاها ذهب زائف
وسنسمع من أهل القصر التعساء حكايات القصر وأخباره
سنحادثهم ونجادلهم فيمن يكسب أو من يخسر
فيمن نال رضاء الحاكم أو خسر رضاه
بتظاهر أنا نفهم ألغاز الكون الكبرى
كعيون بثتها الآلهة لتعرف ما يجرى
وسنبقى أحياء داخل جدران السجن
حتى بعد زوال العظماء.. تلك الزمر المجتمعة
من يعلون وينخفضون كمد البحر أمام القمر الدوار!

(ترجمة د. محمد عنانى)

ويظل الإبداع فى النهاية (إذا كان لى أن أستعير شيئا من رطانة جابر عصفور النقدية، بعد تحويرها لتلائم غرضى هنا) هو سبيل المبدع إلى الانطلاق من سجن الضرورة إلى أفق الحرية. إن المبدع، حتى وهو يرسف فى أغلاله، قادر بالخيال على مجاوزة واقعه، والتحرر من قيوده، واستشراف أفق مضىء الجنبات، حر الأنسام ■

الصداقة والصديق

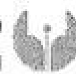
لأبى حيان التوحيدى

بقلم

د. أحمد درويش



يمثل على بن محمد بن العباس ، المعروف بأبى حيان التوحيدى ظاهرة فريدة فى تاريخ الأدب العربى ، الذى كان واحدا من أبرز أعلامه فى القرن الرابع الهجرى (ت ٤١٤ هـ) واستحق أن ينفرد عند القدماء بلقب، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ، ويزيد ياقوت الحموى على هذين اللقبين عند حديثه عن أبى حيان ، ألقابا أخرى مثل .. شيخ الصوفية ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، فرد الدنيا ، لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل حفظه ، واسع الرواية والدراية .



ولا يقل إعجاب المحدثين به عن إعجاب القدماء ، وها هو ذا المستشرق الألمانى آدم متيز ، مؤرخ الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى فى القرن الرابع الهجرى ، يعتبر أبا حيان التوحيدى ، أعظم كتاب النثر العربى على الإطلاق ولايزال الجزء الذى حفظه التاريخ من مؤلفات أبى حيان

التوحيدي، بعد أن أحرق معظمها بيديه في سن الشيخوخة، احتجاجا على عصره الظالم، الذي لايعرف قدر العلم والعلماء، مازال الجزء الباقي، موضع عناية الدارسين والمحققين في مختلف فروع المعرفة الإنسانية الفكرية والأدبية والاجتماعية والفلسفية والتاريخية، وهم يجدون في صفحاتها الباقية، كثيرا من الدلالات على الدرجة الرفيعة التي بلغها الأدب والفكر العربي في مرحلة تألقه الحضاري منذ أكثر من ألف عام.

تجربة حياتية

إن بعض مؤلفات أبي حيان مثل «الامتاع والمؤانسة» و«الهوامل والشوامل» و «المقابسات» و«رسائل أبي حيان التوحيدي» تحمل التفرد والثراء الفكري وغزارة المعرفة وكثرة التجارب، ولكن كتاب «الصداقة والصديق» يضيف إلى ذلك كله تجربة حياتية حافلة عاشها أبو حيان التوحيدي، قرابة قرن من الزمان، واتسمت في كثير من جوانبها بقسوة العيش التي كانت تشكل طابعا للفترة التي حكم فيها البويهيون وسيطروا على الخلفاء والعباسيين منذ دخولهم بغداد ٣٣٤ هـ واعتقالهم للخليفة العباسي المستكفي بالله، ومن بعده الخليفة المعتضد الذي أودع السجن حتى وفاته ٣٣٨، وقد ظلوا يعيثون في الأرض فسادا ويصادرون الأموال، ويضيقون على الناس في أرزاقهم طيلة مائة وثلاثة عشر عاما، وقد أشار التوحيدي إليهم في رسائله، ووصفهم بأنهم « أعجوبة الأعاجيب في اقتسام الملك، وانتشار الفوضى، ونبوع الفتنة والاضطراب والعبث بسلطان الخلفاء، والتحكم في مصائرهم على ما يحلو للمهيمن المتسلط من الولاة والحكام».

وشعرت طبقة الفقراء، وكان منهم أبو حيان وشيوخه من العلماء الأجلاء بوطأة الفقر، ولم يجدوا أمامهم، سوى دكاكين الوراقين، يعملون فيها في نسخ الكتب طوال النهار ولايكاد ما يحصلون عليه يسد رمقهم، وها هو أبو سعيد السيرافي، أشهر علماء عصره «ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش»، وها هو أبو حيان نفسه يكتب لصديقه أبي الوفاء المهندس، شاكيا حالة البؤس وقلة المأكل والملبس كما يقول في الامتاع والمؤانسة « إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص المرقع، وإلى متى التأدم بالخبز والزيتون».

ولقد بدت لأبي حيان التوحيدي بارقة أمل عندما وجد بعض كبار أدباء عصره، يتولون مناصب الوزارة في بعض أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة، فطمح في أن يرحل إليهم أملا في أن يسند إليه منصب كتابي رفيع، ينتشله من حياة الفقر، وحرفة نسخ الكتب، لكن تجاربه في هذا المجال اتسم معظمها بالفشل والاحباط ورد الفعل المتمثل في تسجيل التجربة بأسلوب أدبي رائع، حدث له هذا مع الوزير الحسن المهلبي وزير معز الدولة عندما سمع عن احتفائه بالأدب

والأدباء، فسافر إليه من بغداد إلى الري في بلاد فارس، ولكنه عاد خائبا، وتجدد لديه الأمل مرة أخرى في الوزير ابن العميد وزير ركن الدولة البويهي، وكان من كتاب العصر المشهورين، فلم يجد عنده بعد عناء الرحلة إليه، ما يعوض متاعب السفر، ويعطي الأمل في تخفيف مشاق الحياة، وانتهى به المطاف عند الصاحب بن عباد وكان بدوره وزيرا وكاتبا مشهورا، فشد إليه أبو حيان الرحال وعندما استقر في فناء القصر، وهو ينتظر قرار تعيينه كاتبا، جاءه غلام اسمه «نجاح» وهو خادم الصاحب بن عباد يجر خلفه عربة صغيرة، تحمل ثلاثين مجلدا، هي مجمل الرسائل الديوانية التي كتبها الصاحب بن عباد خلال عمله في الدولة وزيرا، وطلب من أبي حيان، أن ينسخها، ويأخذ أجر الناسخين، وأحبط أبو حيان من العودة إلى حرفة تفني البصر والعمر دون طائل. ولم يكن أمامه، سوى القبول على ضجر، لكنه جمع سخطه على الوزيرين الأديبين، وأصدرها في كتاب سماه «مثالب الوزيرين» حشد فيه مجموعة من المواقف الساخرة، والنفثات الناقمة، وقد ترددت أصداء كثير من تجارب أبي حيان في كتاب «الصداقة والصديق» إلى جانب رصده لتجارب الآخرين في عصره، وتأصيله لقيمة الصداقة ومسالكها الدقيقة وضروب الاخلاص أو التملق أو الزيف والتفاته إلى ناحية هامة في التراث الأخلاقي العربي، هي ما يمكن أن يطلق عليه آداب الخصومة، وما الذي ينبغي مراعاته عند وقوع الخصومة بين من كانا صديقين، أو حتى من لم يكونا صديقين.

الامتزاج المثالي

ويرسم أبو حيان صورة للامتزاج المثالي في الصداقة، بما كان بين ابن سياد القاضي وأبي سليمان السجستاني، حيث يقول لأحدهما: إني أرى بينكما ممازجة نفسية وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية وموافقة خلقية فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ ويستطرد الصديق في شرح أسباب الامتزاج فيرده إلي تبادل الثقة بلا حدود، وإلى توافق الطباع وخلجات النفوس، الذي يصل إلى حد الغرابة، فهما قد يتزاوران ثم يحدث بعد انصرافهما لكل منهما أشياء شبيهة بما حدث للآخر، حتى كأنهما شخص واحد في مكانين، وقد يرى كل منهما حلما مشابها لما رآه الآخر في نفس الليلة، وقد ترد على خاطريهما معا نفس الفكرة وهما متباعدان أو متقاربان، ويبلغ الصفاء بينهما أن أحدهما قد يعرف ما يدور في صدر الآخر قبل أن يبوح به حتى لنفسه ويشير أبو حيان - كما أشار الجاحظ من قبل - إلى أن طائفة الكتاب والعلماء يسود بينهم التنافس، فيحرمهم غالبا من صفاء الصداقة حين يقول: «وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتماري والتماحك، فربما صحت لهم الصداقة، وظهر منهم

الوفاء ، وذلك قليل » .

ويتحدث عن عذوبة الصداقة على ألسنة بعض الشعراء حين يقول لأصدقائه :

أنتم سروري ، وأنتم مشتكي حزني
وأنتم - في سواد الليل - سماري
أنتم - وإن بعدت عنا منازلكم
نوازل بين أسراري وتذكاري
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركم
وإن سكت ، فأنتم عقد إضماري
الله جاركم ، مما أحاذره
فيكم ، وحبي لكم ، من هجركم جاري

وهو يشير إلى أن الصديق المخلص من ألزم ضروريات الحياة ويذكر فى هذا الصدد قول الشاعر :

من لم يكن ذا صديق
يفضي إليه بسره
ويستريح إليه
في خير أمر وشره
فليس يعرف طعما
لحلو عيش ومره

وإذا كانت الصداقة تتطلب الثقة المتبادلة ، فإنها تتطلب كذلك أن يحفظ الصديق صديقه فى غيبته ، وأن يدفع عنه الأذى حتى دون أن يطلب منه ، وأن يقبل منه الاعتذار فى الهفوات التى تصدر عنه ، وإذا ما اشتدت الجفوة بينهما فعلى الصديقين أن يراعيا آداب الخصومة ، وفى هذا الإطار يورد أبو حيان التوحيدى ، قصة علاقة بين اثنين من أعلام عصره، هما القاضى أبو حامد المروزى وابن حروية ، كانا صديقين ووقعت بينهما جفوة ، لكن لايشوبها الغدر والدسيسة وكان القاضى يقول عن صديقه القديم: « إنى بباطنه فى عداوته ، أوثق منى بظاهر صداقة غيره ، وذلك لعقله الذى هو أقوى زاجر له عن مساءتى ، إلا فيما يدخل فى باب المنافسة» وهذا كلام عظيم فى تقدير أخلاق الرجال ، فهو يثق - رغم الخصومة - بباطن خصمه، أكثر مما يثق بظاهر الصداقة التى يبديها له بعض الآخرين ، لأنه يعلم أن خلق خصمه وعقله ، يمنعانه من الاسفاف والتدنى وإلحاق الضرر به ، إلا ما يدخل فى باب المنافسة .

إن كتاب أبى حيان التوحيدى «الصداقة والصديق» يمتد على نحو خمسمائة صفحة ، ليقدم نماذج رائعة لمواقف الصداقة والعتاب ، والتقلب ، والرياء ، والاعتذاريات ، ولوعة فقدان الصداقة التى تفوق أحيانا لوعة فقدان الحياة ، وألوان المصارحة ، والإيثار ، ومعالجة الضغينة بالحلم ، والصبر على الهفوات ، وغيرها من ضروب العلاقات الاجتماعية الدقيقة ، التى لايتوقف أبو حيان التوحيدى فيها عند علاقات عصره، وإنما من خلال بصره الدقيق وحسه المرهف ، وأسلوبه الرائع ، ينفذ إلى جوهر العلاقات الإنسانية ، فى كل زمان ومكان . ■

يوسف شاهين.. يجد ولدا !!

بقلم
مصطفى درويش

والخريف يقترب مؤذنا برحيل الصيف بحره اللعين، يكاد يختفى الفيلم المصرى من دور السينما بطول وعرض البلاد، تاركا فراغا لا تملؤه إلا أفلام مصنع الأحلام في هوليوود، ذلك المصنع المهيمن على سوق السينما العالمية فى مشارق الأرض ومغاربها.

وعلى كل، فآخر فيلمين مصريين جرى طرحهما فى سوق الأفلام، قبل تباشير رحيل الصيف بقليل، كانا لقطبين من أقطاب السينما على ضفاف النيل، أحدهما بدأ مشواره فى صناعة الأطياف، قبل أربعة وخمسين عاما، وارتفع رصيده من الأعمال السينمائية سواء كانت روائية أم تسجيلية إلى أربعين فيلما وفوق هذا أضاف إلى رصيده الإبداعى إخراج مسرحية، بغير لغة الضاد، خارج مصر، وبالتحديد الأم الرءوم فرنسا.





يوسف شاهين مع أبطال «إسكندرية - نيويورك»

هذا القطب هو «يوسف شاهين» أو «جو» مختصر اسمه عند المعجبين، المقربين، والوحيد نوعه بين المخرجين المصريين.

فهو أكثرهم شهرة وعالمية، بفضل المشاركة فى مهرجانات السينما، خاصة مهرجان «كان»، بدءا من فيلمه الثانى «ابن النيل» (١٩٥٢).

والأهم، هو انفراده، دون سائر المخرجين المصريين بتناول سيرته الذاتية سينمائيا فى ثلاثية، استهلها «باسكندرية ليه» (١٩٧٩) الفائز بجائزة التحكيم الخاصة لأحسن فيلم فى مهرجان برلين، وختمها «باسكندرية كمان وكمان» (١٩٩٠). وفيما بين فاتحة الثلاثية وخاتمتها، استكمل سيرته الذاتية بفيلم «حدوتة مصرية» (١٩٨٢).

رباعية بعد ثلاثية

والآن وبعد أربعة عشر عاما، ارتأى شاهين أن يتحول بثلاثيته إلى رباعية، فكان «اسكندرية نيويورك» فيلمه الأخير.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أن الأفلام الثلاثة السابقة على «اسكندرية نيويورك»، جاءت خالية من أية إشارة، تفيد من قريب أو بعيد أنه انجب ولدا ذكرا.

وكنا على يقين أو ما يشبه اليقين أن السماء قد أغنته عن الحرمان من الأولاد والأحفاد، بالبديل الذى يفخر به فنان السينما، وهو ما ابدعه من أفلام.



منيدى مع أمه العالمة

وكان من بين أسباب جنوحنا إلى اليقين أو ما يشبهه ما جاء على لسان «شاهين»، بمناسبة قيامه بإخراج الجزء الثاني من ثلاثيته أو رباعيته بمعنى أصح «حدوتة مصرية»، اذ قال:

«كان على أن اخضع لعملية جراحية في القلب ولقد أحسست أن الموت يواجهني، وهكذا وجدتني أتساءل ما الذي فعلته في حياتي حتى الآن؟

كان هذا هو السؤال المحوري، وشعرت أن سينمائيا لا يمكنه أن يغادر هذا العالم دون أن يترك أمارة وراءه تدل على عبوره هذا الكون، مثل خوفو الذي ترك الأهرام، وجارنا الذي خلف أطفاله، والمثل العربي يقول: «اللي خلف مامتش».

أما أنا فلم انجب ذرية، ولم أبن اهراما فما الذي سوف أتركه ورائي؟ بضعة أفلام، ولكن إذا كان للمرء أن يترك شيئا وراءه، فمن الأفضل له أن يترك الحقيقة حول حياته.

كنت في السادسة والخمسين وشعرت أنني عشت بما فيه الكفاية، لكي لا أعود في حاجة إلى اختراع الحكايات».

داء النسيان

وارجح الظن، ان «شاهين»، وهو يكتب سيناريو الجزء الأخير من رباعيته قد نسي او تناسى ما جاء على لسانه، قبل اثني عشر عاما. فها هو ذا يفاجئنا في «اسكندرية نيويورك» بما مفاده، أنه



... ومع حبيبته الصينية

أثناء زيارة أخيرة قام بها لنيويورك بمناسبة تكريمه، بعرض بعض روائع أفلامه، «وجي» هو الآخر بأن له ابنا. وان هذا الابن يكاد يكون صورة طبق الأصل منه، وقت ان كان شابا يدرس الدراما في بلاد العم سام.

ابن طرزان

والمدهش ان هذا الابن الذى وجده المخرج، كما وجد طرزان إبنا فى احد أفلام عقد الثلاثينات من القرن العشرين، اسمه «اسكندر»، وله من العمر عشرون عاما.

هذا، إلى أنه راقص ماهر لا يشق له غبار، مثله فى ذلك مثل المخرج أيام شبابه، وقت ان كان هو و«جنجر» (يسرا اللوزى) أم اسكندر يتبادلان الحب ألوانا.

أما لماذا اقتنع سريعا بأن «اسكندر» ابنه من لحمه ودمه، فذلك لأنه فضلا عن الشبه والموهبة الفذة، قد عاشر أمه النجمة «يسرا» معاشرة الأزواج أثناء إحدى زياراته للولايات المتحدة، قبل عشرين عاما بالتمام، أى فى نفس العام الذى ولد فيه فلذة كبده «اسكندر»، الامر الذى يؤكد أنه ابن حلال.

حب مستحيل

وكم كانت دهشتى عندما ظهر المخرج «شاهين» واسمه «يحيى» فى الفيلم حيث يؤدى دوره كبيرا «محمود حميده» وشابا «أحمد يحيى» الذى

الجديد ، وهو في الوقت نفسه يؤدي دور الابن «اسكندر».

أمـا لماذا دهشت! فـذلك لأنه، أي المخرج قد ظهر على الشاشة فرحا، يكاد يطير من السعادة، هو وزوجته العاقر «لبلبة».

فـأعجب العجب أن تحب زوجة أب «لبلبة» «اسكندر» حبا يفوق الوصف، تتمسك به، وتتمنى لو تستصحبه معها إلى أرض مصر، وكأنه ابن عزيز، ولا تنقطع عن البكاء من الفرحة، لأن زوجها المحروم من الذرية، بسببها، قد وجد ابنا.

عبادة الفرد

ولا يكتفي السيناريو بكل هذا الهراء المخالف لطبائع الأشياء، بل يزيد عليه تمجيدا للمخرج «يحيى»، أي «شاهين»، يذكرنا بعبادة الفرد أيام ستالين فهو الأول عندما يمثل، وعندما يرقص، وعندما يخرج.

بل هو الأول على كل الخريجين، في كل الدفعات، وفي كل السنين.

وإلى جانب تفوقه في العلم والفن، فهو رجل فحل، او «وحش» حسب الحوار الصريح مع «جنجر» حبيبة أيام الشباب، والتي تحول بها المجتمع الأمريكي الذي لا يرحم، إلى بائعة هوى، يتغنى «يحيى» بقلبها النبيل.

ولا يفوت السيناريو أن يعلو به إلى أعلى عليين بلسان أستاذته في معهد باسادينا بولاية كاليفورنيا «ماجدة الخطيب» فهو حسب اشادتها به يتكلم أربع لغات بطلاقة، ويجيد الكلام بالانجليزية أحسن منها، بل وأحسن من العميد.

الاستسهال والترهل

كما لا يفوته أن يضمن الفيلم مشهدا وثائقيا من حفل تكريم «شاهين» عن مجمل اعماله، والمناسبة الاحتفال باليوبيل الذهبي لذلك المهرجان وكذلك فمما يعاب على فيلم شاهين الأخير.

أولا أن السيناريو لا يقوم إلا على مصادفات، كان لابد من كثرتها ان تنحدر بالفيلم إلى مجرد ميلودراما فاقعة الألوان، تذكرنا بروائع وفواجع المخرج الراحل «حسن الإمام».

ثانيا أن الإخراج جاء مشوبا بعيبين رئيسيين.

احدهما الاستسهال ، ولعل خير مثال على ذلك تصوير المشهد الذي قام فيه «اسكندر» بالرقص على خشبة مسرح المترو بوليتان بنيويورك، تصويره في أحد المسارح التابعة لمركز الأوبرا بالقاهرة والعيب الآخر هو الترهل، فبعض المشاهد يمكن حذفها من الفيلم دون أن يؤثر ذلك على السرد الدرامي للأحداث ، وأضرب مثلا بمشهد قتل كارمن في باليه مستوحى من أوبرا كارمن «لجورج بيزيه». كم كان طويلا، ثقيلا، ولو كان الفيلم بدونه لما فقد شيئا، ولربما تحسن قليلا.

مخرج وأديب

أما القطب الثاني، فمشواره مع

الأطياف بدأ قبل سبعة عشر عاما.

ويفضل «فول الصين العظيم» ارتفع رصيده من الأعمال السينمائية بدءا من «الأقزام قادمون» «١٩٨٧» إلى خمسة عشر فيلما.

وباستثناء «مافيا» (٢٠٠٢)، فجميع أفلامه من ذلك النوع المسمى بالملهاة.

وأثناء فترة من مشواره، قاربت الأعوام الأربعة لم يخرج فيلما أو مسرحية، إلا وكان بطلها الأوحد «عادل إمام».

وفي فترة لاحقة لفيلم «اضحك.. الصورة تطلع حلوة» (١٩٩٨)، انحصر ابداعه، طوال ثلاثة أعوام، في إخراج أفلام. انفرد ببطولتها النجم الراحل «علاء ولي الدين».

ولأمر ما، لم يكن للنجم «محمد هنيدي» نصيب يذكر في رصيد «عرفة» من الأفلام.

فـفيما عدا دور صغير في فيلم «المنسي» قبل أحد عشر عاما، لم يلعب دورا آخر في أي من أفلام «عرفة».

لقاء السحاب

ولعل التقاء النجمين المخرج والممثل لأول مرة في فيلم يلعب فيه الأخير دور البطولة، لعله لم يأت من فراغ. فذلك اللقاء جاء بعد حدثين أولهما فشل فيلمين «لهنيدي» أحدهما «صاحب صحبه»، والآخر «عسكر في المعسكر» فكلاهما، كما هو معروف، لم يحقق ما كان مرجوا له من نجاح.

وثاني الحدثين، هو صعود «محمد سعد» إلى مصاف النجوم، بفضل «اللمبي»، وما حققه من نجاح فاق كل التوقعات.

والسؤال هل تحقق المأمول من لقاء السحاب؟

أول ما يلاحظ والعناوين تظهر تباعا على الشاشة أن قصة الفيلم من تأليف «عرفة» والسيناريو المستوحى منها، هو والحوار، من تأليف «أحمد عبدالله»، صاحب سيناريو «غبي منه فيه»، ذلك الفيلم المفرط في الابتذال.

سر التفاؤل

وفيما يبدو، فإن نجاح فيلمي «عبود على الحدود» و«الناظر»، وسيناريو كليهما من تأليفه، قد جعله محل ثقة «عرفة»، يأنس إليه، ويؤثره على غيره من أصحاب الأقلام، بل، ويتفاءل بقلمه، حتى ولو جرى بالكتابة عن بلد ناء كالصين.

وأيا ما كان الرأي في مؤلف السيناريو، فالأكيد أن «فول الصين العظيم» عكس «غبي منه فيه» جاء خاليا من اى ابتذال. فليس فيه، والحق يقال، لقطة واحدة تخدش الحياء، وذلك رغم انتساب «هنيدي» في الفيلمين إلى أسرتين، احداهما رجالها محترفو إجرام، والأخرى نساؤها عوالم مهنتهن الرقص والغناء.

ولا غرابة في ان يكون الفيلم فوق الشبهات.

القبلة حرام

فمما يعرف عن بطله «هنيدى» أن صعوده إلى سماء النجومية، بدأ بفيلم قبل عنه، وقتها. إن من بين أسباب نجاحه منقطع النظير أن شفاه أبطاله وبطلاته لم تتدنس بحرارة القبلات. ومن يومها، وهذا النوع من الأفلام ، يوصف بالنظافة.

اذن، فالقدر المتيقن ، ان فول الصين العظيم فيلم نظيف لم تنحدر الملهاة فيه إلى الاسفاف.

وهو يبدأ بمشهد طويل ، تتحرك فيه الكاميرا، دون قطع لترينا حجرة «هنيدى»، حيث ينام ، تطارده الكوابيس.

مجرمون وعوالم

وما أن ينتهي المشهد ، حتى نرى جد «هنيدى» ، وأعمامه الثلاثة، وكلهم عتاولة اجرام.

وسرعان ما نعرف أن الاعمام لم ينجبوا ذكورا، وان «هنيدى» ذكر العائلة الوحيد، الوارث لعرش الإجرام، والمعلقة عليه كل الآمال. ومن هنا اصرار جده «سامى سرحان» على تعليمه اصول الإجرام، وفنون القتال. وتدريبه على ذلك في بعض العمليات الإجرامية الكبرى، حتى يستطيع رفع راية العائلة عالية.

ولكن «هنيدى» شاب وديع، لا تجرى في عروقه دماء التجرمة، وانما دماء أخرى، ربما دماء امه العالمة «سهير البارونى».

الهروب الكبير

وطبعا تفشل تربية جده له، وينتهى به الأمر مطاردا من اعمامه، ومن افراد عصابة اخرى اشد إجراما، مما يضطره إلى طلب النجاة في احضان أمه، ملاذه الأخير.

وحتى يتخلص منه زوج أمه، وهو طباخ شهير، يرسله ، بدلا منه، إلى الصين للاشتراك في مسابقة عالمية للطهاة، ومعه رسالة توصية مكتوبة باللغة الصينية التي لا يفهم من رسومها شيئا.

وفيما بعد، نعرف عند وصوله إلى بر الصين سالما، ان هذه الرسالة ليست للتوصية، وإنما للإيذاء. فكاتبها، زوج الام، اراد بها ان ينبه السلطات الصينية إلى ان حاملها، اى هنيدى، مهرب مخدرات خطير.

قصة سخيفة

ولن احكى مغامرات الفتى هنيدى في الصين بالتفصيل ، فذلك شيء يطول.

وإنما اكتفى بأن اقول ان قصة مغامراته تنتقل بنا من شيء سخيف إلى شيء أشد منه سخفا وذلك يرجع، ولاشك، إلى بعدها عن الواقع، بعد السماء عن الأرض، فتفاصيلها ليست مستمدة من بيئتنا، وليست قريبة إلى نفوسنا، وليست نابعة من تقاليدنا وعاداتنا، وتصرفاتنا.

وهذا بالضبط ما يجعل أفلامنا فاشلة، ويتهدد السينما المصرية في مستقبل الأيام!! ■



إذا .. وإذن

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

منذ وعيت الكتابة لحظت أن إذاً (بالتنوين) وإذن بالنون معناهما واحد، ونطقهما واحد، ولكنهما تختلفان كتابة، وكنت أكتبهما كيف ما اتفق، لا أعرف لذلك قاعدة أهتدى بها، ولم أدرس الأمر فى أىٍ من مراحل تعليمى، فاخترت أخيرا أن أكتبها بالنون دائما اعتباطا، للتفرقة بينها وبين إذا الشرطية .

وأخيرا بدا لى أن أدرس الأمر، فوجدت أنها من حيث الإعراب تنصب الفعل المضارع بشروط ثلاثة:

* أن تكون صدرا فى الكلام، فإذا تأخرت أو جاءت حشوا أهملت.

* أن يكون الفعل الواقع بعدها مستقبلا ، فإذا كان فى معنى الحال بقى مرفوعا، تقول: إذن تصدقُ، جوابا لمن قال لك: إني أحبُك ، لأن أدوات النصب لا تعمل فى الأفعال الحالية الزمن .

* أن يكون الفعل متصلا بها ، فإن فصلت بينهما بغير الدعاء أو القسم أو النداء، بقى الفعل مرفوعا . تقول فى المثال السابق : إذن يا صديقى أحبُك .

أما حيث كتابتها بالألف أو النون ففيها مذاهب ثلاثة:

* أن تكتب بالألف دائما .

* أن تكتب بالنون إذا نصبت الفعل بعدها، وبالألف إذا كانت ملغاة .

* أن تكتب بالنون على أى حال .

والرأى الأخير أحب إلىّ، وهو الذى استخدمه دائما، للتفرقة بينها وبين إذا الشرطية، ولأن الضبط بالشكل فى المطبعة الحديثة مجهد، وكتابة فتحتين فى آخرها للإشارة إلى تنوينها جهد زائد، فتأكد عندى أن فى كتابتها بالنون تيسيرا ومزيدا من الدقة، ويا حبذا لو أخذ الجميع بهذا، ولهم فى تراث العربية مندوحة، تيسيرا على التلاميذ المبتدئين فى الإملاء.

وأتمنى على مجمعنا الموقر للغة العربية أن يتخذ فى هذا قرارا . ■

المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

أحزان شاهين في عيون السينما

ولما كان نطقها لإسمه واضحاً لا تخطئه الأذن .. حسمت أمرى على الفور.. وفى ثوان كنت قد عدت إلى مقعدى المواجه لشاشة التليفزيون، غير عابئة بمشروع إعداد القهوة .. ولا بالألم المبرح ينبعث من قدمى صاعداً كالبرق إلى رأسى من أثر ارتطام القدم فى قائم المقعد.. المهم أننى وصلت إليه قبل أن تكتمل الجملة «سيرچى توبلانا» فى مستهل برنامجها Les Yeux dans l'ecan العيون فى الشاشة ولما كانت عادتها أن تبدأ البرنامج بكلام عن ضيف الحلقة يظهر فيه صوتها على مشاهد فى شكل تقرير مصور فى حوالى دقيقة، فقد جاءت فى كل ثانية من تقريرها عنه بإضافة إلى بواعث السرور فى نفسى.. وما أحلى هذا الشعور يغمرك وأنت تراه مقدراً مكرماً على الشاشة الفرنسية الدولية.. وهو فنان من بلادى ..



وما أن انتهت دقيقة التقدير حتى رأيناه جالساً قبالة مذيعة البرنامج.. على وجهه ابتسامة رضا، وقد شملته حالة من وداعة وهدوء مغاير لما تعودناه من عصبية تغلب على كلامه، بصرف النظر عن الموضوع.. ومع تتابع

ردوده على أسئلة المذيعة علت نبرة الأسى، ومنه جاءت العبارات واضحة مرتبة بمنطق مقنع جعلنى أهتف بالعبارة «الله عليك وأنت حزين» والحمد لله أنه لا يسمعنى .. فأنا أشاهده فى القاهرة، والشاشة تنقل إلى حديثه من «كان» فى فرنسا ، حيث المهرجان الذى احتفى بأحدث أعماله «اسكندرية .. نيويورك» ومن أمارات الاحتفاء أن يكون يوسف شاهين ضيف الحلقة الخاصة من البرنامج موضوع الكلام . فما الذى جعلنى أرجئ الكتابة عن تلك الحلقة من البرنامج، وما الذى يميز البرنامج أصلا بما يجعلنى أصنف ظهور يوسف شاهين فيه على أنه من أمارات التكريم والاحتفاء ،، وهل يمكن - لا سمح الله - أن أجد على شاشاتنا برنامجا تصلح مقارنته ببرنامج «عيون فى السينما» Les yeux dans l'ecan من قريب أو بعيد..؟!!

منعا للإحراج

ربما يكون الأفضل أن أتجنب المقارنة - منعاً للإحراج - فمذيعة البرنامج تذكرك بمذيعات التليفزيون المصرى إبان الستينات .. لها شعر أسود، وعينان واسعتان، وهى بذلك بالطبع مختلفة عن مذيعات العقدين الفائتين عندنا وقد غلبتن آليات التصنع، فانصرفن إلى صبغ الشعر بالألوان الفاتحة، مع انحياز واضح للصفرة والحمرة، ولم تنج من ذلك العيون، بعد توافر الملون من العدسات اللاصقة ، والنتيجة أن فاتتهن العناية بموضوع النظر.. ومحتوى الرأس، فضاعت منهن زوايا الرؤية، ومعها كل ما يمت بصلة للمستساغ من الأفكار.. أما صاحبتنا الفرنسية فيبدو أنها تعلمت كيف تدرس موضوعها وتحتشد له، ثم ترتب ما برأسها من أفكار، وهى لذلك حين تنطق بالكلام ، يصدر عنها واضحا دون لبس أو مضغ لأى حرف قد يتوه معنى ، أما عيناها السوداوان الواسعتان فالنظرة فيهما رائقة فى ثقة، تزين المحيا ولا تغيب وجهة النظر ..

كذلك يبدو أن صاحبة هذا البرنامج خصت فن السينما باهتمامها.. فأنت لا تراها فى أى برنامج آخر.. لكنك تدرك بمتابعتها أنها تقضى الأسبوع كله فى البحث والدراسة والإعداد لما تقدمه فى هذا البرنامج الأسبوعى.. فطريقة طرحها للأسئلة وقدرتها على الصمت والإنصات وتأجيل الكلام إلى حينه ، تثبت أنها ليست مجرد بغبغان يعيد على الناس ما يلقنه له آخرون ..

وأما البرنامج ، والذى يقع فى ثلاثين دقيقة، فهو البرنامج الوحيد المختص



بالسينما على الشاشة الفرنسية الدولية..
TV5 بمعنى أنه الوحيد الذى تتصرف كل حلقة منه بالكلية للحديث عن مخرج أو كاتب سينمائى واحد، والحديث هنا ليس كلاما مرسلاً غير محدد الملامح أو الاتجاه .. إنما هو كلام متخصص فى فن السينما يناقش تقنيات وأساليب الإخراج ويتناولها بالتحليل والمقارنة اعتمادا على الفيلم المعين أو الأفلام التى يستدعيها البرنامج للعرض فيه، تغذية للحوار مع المخرج الضيف، بما ينقل للمتابع للبرنامج صورة لثراء الإنتاج السينمائى الفرنسى، وهو ثراء لا يقتصر على عدد ما يتم إنتاجه من أفلام وإنما هو يشمل كذلك ألوانا وتقنيات فى السيناريو والإخراج تروى عطش عشاق السينما فى جميع الأنحاء .

وإذا تأملنا ضيوف البرنامج من كتاب أو كاتبات للسيناريو أو من مخرجين للأفلام أو مخرجات، نجدهم لا يظهرون على شاشة التليفزيون بهذه الصفة إلا فى هذا البرنامج ، ذلك أن الأمر عندهم مختلف عما استشرى على شاشاتنا بالكلية من حشو للكلام بلا طائل، يجعلك ترى فى البرامجيين على الشاشات قطاع طرق، ينزلون على الفنانين نزول القناص يتعجل فعل الاقتناص بصرف النظر عن تكرار ظهور الفنان فى أكثر من برنامج يكرر - ربما - نفس الكلام ، فى أى موضوع أو بلا موضوع، المهم أن يكون من زمرة أهل الفن ، فالغرض الظاهر للكافة، هو ملء الوقت، بأى كلام، حتى لو كانت النتيجة الوحيدة هى الإيهام بالمبرر.. أى مبرر للوجود على الشاشة .. والنتيجة لا تكاد تجاوز ثالوث التغييب والتسطيح والتشويش والحق أن هذا يسرى على الرياضيين والمسئولين التنفيذيين بنفس شكل وقدر سريانه على الفنانين ، محققا نفس النتائج للثالوث الدامغ للمرحلة .

وقد يسأل سائل، هل هناك مثلا قرار يمنع ظهور المخرجين وكتاب السناريو فى برامج أخرى غير «عيون فى السينما» .. والإجابة هى طبعا بالنفى.. لكنهم إن ظهروا فى برامج أخرى فظهورهم ومشاركتهم محكومة بموضوع البرنامج .. يعنى لها معنى وهدف، وهم فى ذلك يعاملون كمواطنين فرنسيين على قدم المساواة مع مؤلفى الكتب والأطباء والفنانين التشكيليين والمهندسين وغيرهم من المهنيين .. والمثل عندى حين يكون موضوع البرنامج كتابا أو كتبا بعينها، وفى هذه الحالة تكون مشاركة الفنان

لأنه قرأ الكتاب وله فيه رأى يثرى الحوار فى الموضوع وهذا بالطبع فضلا عن البرامج التسجيلية أو المنوعات، وهى بدورها محكومة بنوع المنتج الفنى وأنواع الأداء فيه ..

إذن فبرنامج «عيون فى السينما» يعتبر نسيج وحده ، وتخصيص حلقة من البرنامج للكلام عن يوسف شاهين فى أحدث أفلامه «إسكندرية .. نيويورك» له من التفرد نصيب .. ومع أن يوسف شاهين بدا فى البرنامج مقنعا نافذ البصيرة، فالمؤكد أنك لا تصل إلى هذا الرأى بفعل عبارات الإطراء تضفيها عليه المذيعة «من جيبها» كما لو كانت مكلفة بحملة ترويج مدفوعة الأجر - كما هو الحال عندنا - إلا أنها مع ذلك صاحبة فضل، وفضل «المذيعة أنها حين خصت يوسف شاهين بهذه الحلقة من برنامجها «عيون فى السينما » كانت قد شاهدت فيلمه «إسكندرية .. نيويورك» يتضح ذلك من أسئلتها، وقدرتها على مناقشة آرائه بما أتاح لنا أن نستوعب حالة الفيلم وحالة يوسف شاهين كما تبدت من أول لقطة فى البرنامج الذى أظهره على هذا النحو من الحزن والأسى .. وهى بالمثل صاحبة فضل لأن برنامجها الذى أظهر هذا الوجه من وجوه يوسف شاهين، اختار من فيلمه لقطات حافلة بالبهجة ، تتفجر من سحر رؤياها ينابيع نشوة ومسرة، هى بالقطع كفيلة بتلطيف أى ألم، ومنه ألم قدمى التى أصبتها بفعل اللهفة على مشاهدة البرنامج .. ومنه تلقيت من متع المشاهدة ما أنسانى ما بى من وجع .. ومع ذلك كان قرارى ألا أكتب ..

الحالة

ظل كلام يوسف شاهين يتردد فى رأسى.. ومعه تلك المشاهد الرائعة التى عرضها برنامج القناة الفرنسية الدولية، ومعها يلح علىّ السؤال عن مكامن السحر فى موسيقى تلك الرقصة وألق مؤديها من راقصين وراقصات، وعن هذا النور المنبعث من الشاشة، وهم ينطلقون كالفراشات ، والبهجة تنتشر من حولهم، تشعر بها تغمرك وبالسكينة تغلبك.. وظللت أنتظر الفيلم لأتبين كيف أتى يوسف شاهين بهذه الصيغة لتكون أداته لينقل المشاهد لفيلمه بواعث حزنه وأسفه على ما أصاب الأمريكيين من طُيش وحماقة بدأت بهيروشيما لتصل إلى ما وصلت إليه فى العراق ومعها السكوت الداعم لما تقترفه إسرائيل فى فلسطين ، فقد كان هذا من بين ما قاله شاهين للمذيعة الفرنسية، ومنه أيضا ما نطق به من عبارات الحسرة على ضياع أمريكا التى عرفها وأحبها أيام ازدهار فنها الجميل فى عصر «فريد استير»

المتفرجة

وانحسار الموجة أمام الزحف الطاغي للعنف والغلظة كما فى أفلام «ستالونى» فأمريكا اليوم غريبة على شاهين ، لا يعرفها ، ولا يستطيع أن يظل يحبها .. (كما أننا مثله لا نستطيع) .

كان على أن انتظر من الشهور ثلاثة، حتى يعرض الفيلم بالقاهرة، وبفضل برنامج «عيون فى السينما» فعلت ما لم أفعله من قبل، ذلك أننى حرصت على حضور العرض الخاص، غير قادرة على انتظار أسبوع آخر ، حين يعرض الفيلم بجميع صالات العرض لأتأكد مما قرأته فى عينى شاهين ومشاهد الفيلم ،وكذلك مما قرأته فى أسئلة المذيعة وما نطقت به عيناها الواسعتان. والآن أستطيع أن أكتب بعد أن أكدت لى مشاهدتى للفيلم أن البرنامج كان أفضل تقديم له ، وأن شاهين يخرج علينا فى فيلم «اسكندرية .. نيويورك» بنبرة هادئة مقنعة ، تجعلك تهتف له هتافى وأنا أشاهده يتحدث فى البرنامج الفرنسى «عيون فى السينما» الله عليك ياشاهين وأنت حزين ..

وأستطيع بكل الارتياح أن أقول إن فيلم «اسكندرية .. نيويورك» سيكون علامة فارقة، ليس فقط فى سينما يوسف شاهين ولكن ذلك يشمل كل المشاركين فى صياغة هذا الفيلم رفيع المستوى، خالد يوسف المشارك فى كتابة السيناريو مع شاهين - وعبدالمنعم كامل مصمم الرقصات والفرعون محمود حميدة ويسرا وهالة صدقى ولبلبة ونيللى كريم ويسرا اللوازى وأحمد يحيى .. الكل بلا استثناء شارك فى نسج ضفائر يمتزج فيها الحب بالأسى كما تمتزج البهجة بالأسف .

أحسست بعد مشاهدتى للفيلم فى العرض الخاص بإحباط شديد حين وصل الفيلم إلى نهايته .. وما أحلى هذا الشعور الذى افتقدناه من زمن .. الشعور بأنك فى صحبة لا تريد أن تفترق عنها وفى حالة من الارتواء الفنى لا تقوى بعده على ظمأ ولم تمض من الأيام خمسة، إلا وكنت أكرر الزيارة ، لعلى من صحبة الائتناس أشبع ..

وكيف لك أن تشبع من هذه الصيغة التى صورها الفيلم مستوحاة من عين خيال البطل الشاب يحيى، فيخرج علينا بصورة غير مسبوقة لكارمن الأوبرا ، يقتطف منها ما يستدعى إلى الفكر أصولها العربية فى غير مواربة .. لا تتمثل فقط فى ملامح الراقصين وملابسهم وإنما فى الصيغة الموسيقية

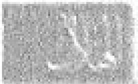
التي زاوجت بين موسيقى كمال الطويل (المصرى) وبيزيه (موسيقار فرنسا الذى عرفنا كارمن على ألحانه) . ولقد تعمد شاهين أن يستدعى فن وفكر كمال الطويل حين أهدى إليه الفيلم كما أهداه للمفكر العربى إدوار سعيد المولود لفلسطين والمتوفى مهاجراً إلى أمريكا .. ويأتى الفيلم كله تعبيراً عن سماحة وأصالة روحيهما فقد تركا لنا فى تراث الفن والفكر آيات هى من ثمار ثراء تعددت منابعه وامتزجت بعفوية وسلاسة امتزاج موسيقى الطويل وبيزيه ..

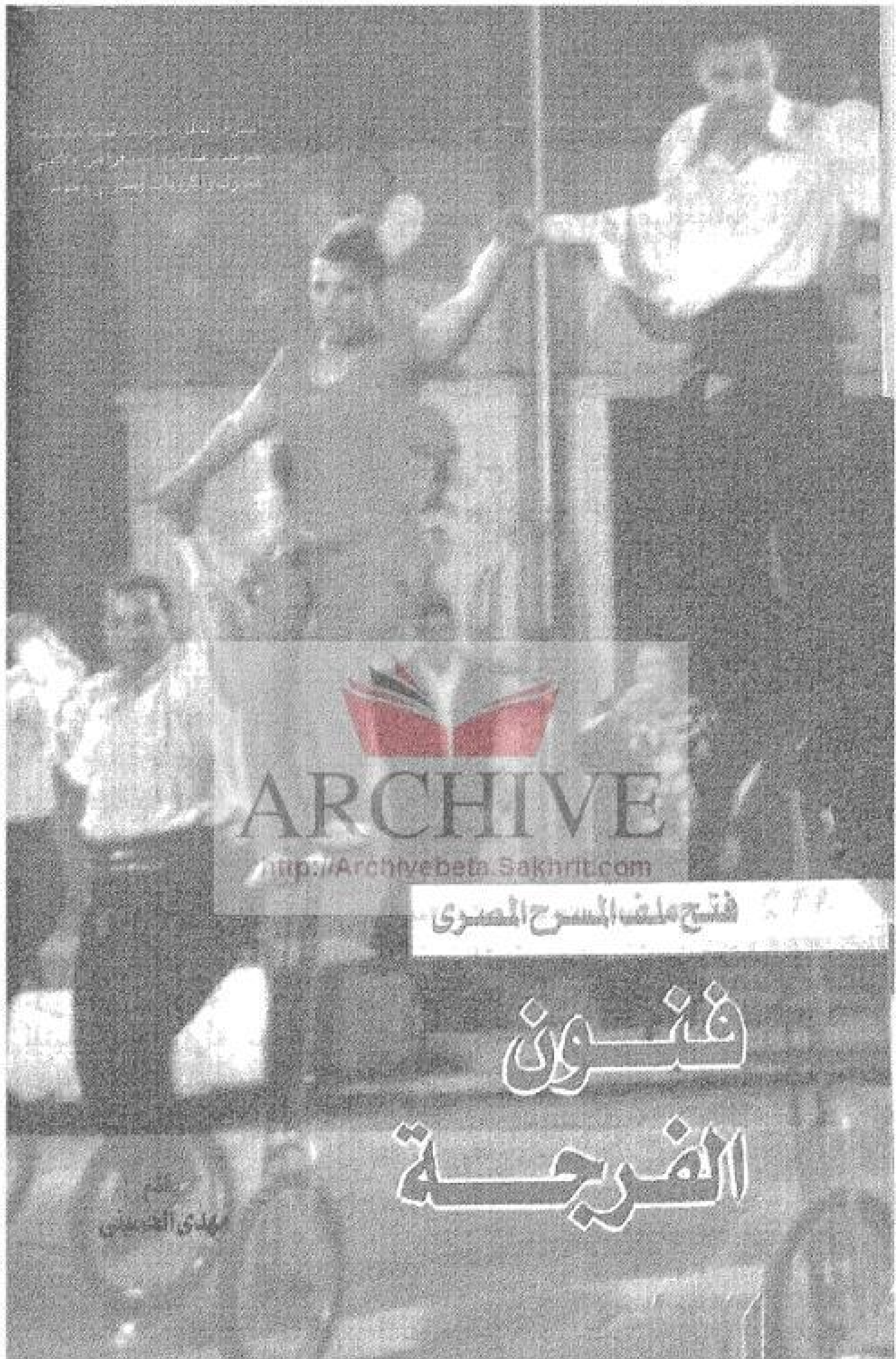
وإذا كانت هذه الصيغة فى التفكير من أفضال نشأة الإسكندرية التى فيها ولد شاهين وتربى لينعم بخليط الثقافات التى أنعشت أجواءها على مر العصور ، فإنه يضع لنا الصيغة المقابلة لثمار العيش فى نيويورك .. فقد أعطى دور البطل فى شبابه لأحمد يحيى وترك نفس الممثل يقوم بدور الابن من حبيبة الصبا ، وقد أعطته اسم اسكندر، لكنه لم يأخذ من أبيه سوى ملامح الوجه والقد ، باختلاف وحيد هو زرقة العينين ، يرثها من الأم الأمريكية ومن أمريكا يشرب قساوة الروح وأحادية التفكير ورداءة الطبع، مع أنه مولود من أم كانت من جميلات أمريكا ، تحصل على عقد من استوديوهات كولومبيا من أول زيارة ..

ولكن الحياة الأمريكية تطحنها وتحولها إلى مجرد كومبارس عاطلة معظم الوقت مما يضطرها لبيع جسدها الخمر والرجال ..

وحين ينتهى الفيلم على مشهد محمود حميدة يكاد يجر حمل جسده فى شوارع نيويورك المزدحمة، وقد فشلت آخر محاولاته لوصل حبال المودة بابنه اسكندر مع كلمات الأغنية «نيويورك بتقتل أى حنين ، والفرح بيخرج منها حزين » يكون شاهين قد بلّغ الرسالة .

لم يغادرنى سحر عينيها ، ومع كل مشهد من الفيلم كان إدراكى لمعانى نظرتها لشاهين يتعمق وبالمثل تتعمق معرفتى لمصادر أسئلتها إليه ودقة اختيار ما عرضه برنامجها «عيون فى السينما» من فيلم اسكندرية.. نيويورك .. كان من الواضح أنها اختيارات عين ثاقبة تقدر دور الموسيقى فى الفيلم وفى هذا لابد من التنويه بما خلقته موسيقى فاروق الشرنوبى ويحيى الموجى وهما يبعثان الألحان الأساسية فى أغانى «أهواك» لحليم وأنا قلبى دليلى للیلى مراد .. وزورونى كل سنة مرة لسيد درويش مضفرة بإبداعاتهما أما متى وكيف ولماذا فتلك أسئلة لاتجد إجابتها إلا فى عين خيال شاهين صاحب الرؤية «إسكندرية .. نيويورك» . ■




ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com
فتح ملف المسرح المصرى
فنون
الفرجة

«المصريون يحبون الفرجة» هكذا قال العلاّمة إبن خلدون، حيث لا يوجد مصرى إلا وجاب المواكب الشعبية والمسيرات الاحتفالية والمداحين والحكائين وشعراء الرباب وحلقات الذكر وألعاب التحطيب والرقص الشعبى وفنون العوالم، وشغف بالأراجوز وخيال الظل والمهرجين والأكروبات ومهارات السيرك الجوال والنقرزان والمراجيح والبيانولا والفتاة الكهربائية.. وغير ذلك من فنون الفرجة.

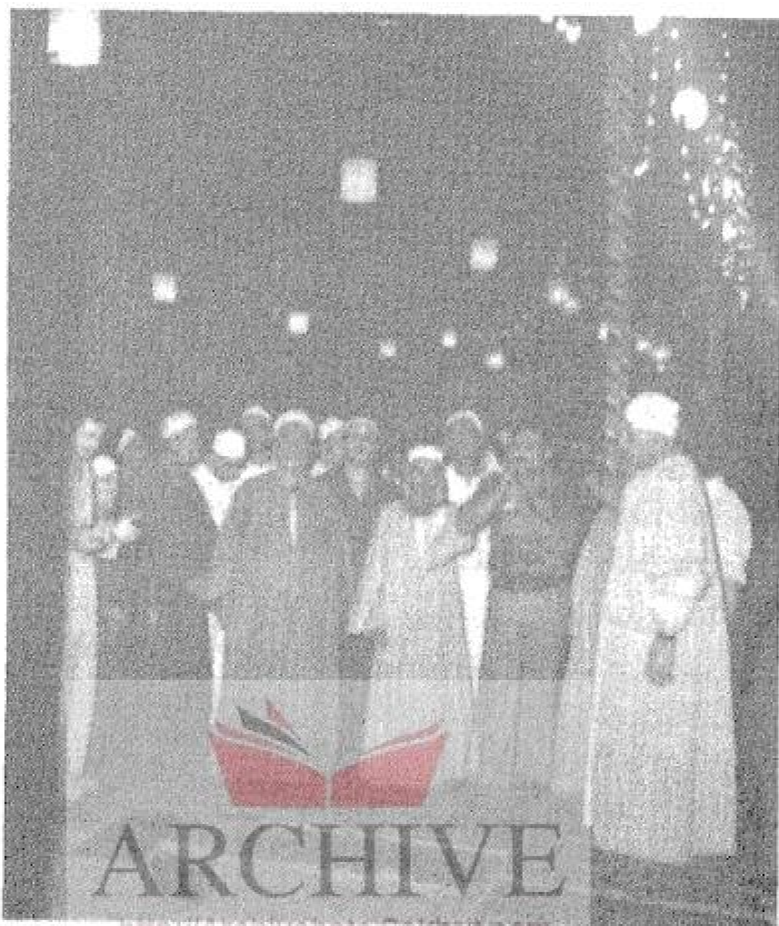
وخلال القرنين الماضيين - وفى حدود علمى - نشطت عائلات بأكملها لممارسة هذه الفنون فى كل ما يطرأ من مناسبات عامة وخاصة، ومنهم أولاد على الأحمر وعاكف وبغدادى والحوّ (الحلو) وكوتة وياسين وتوفيق ومازن، وقناوى وركابى، وعشرات أخر من الأسر الفنية الصغيرة التى شكلت ما يشبه الفرق الشعبية المتكاملة التى تقيم الأعراس وتحيى المناسبات كالطهور وأعياد الميلاد وليالى الذكر وطقوس الزار، كما تقدم فنونها فى الموالد والأسواق والسوامر والأحواش والأجران والمقاهى والساحات العامة.



ومع الرواج والانتعاش الاقتصادى الذى غمر البلاد بسلبياته وإيجابياته - ورغم كل المآسى - ابتداء من عهد سعيد باشا والى مصر آنذاك، برز عدد من هؤلاء الفنانين الشعبيين وانتزعوا بفضل مواهبهم ومساهماتهم اعتراف المجتمع بهم كفنانين مرموقين يشاركون فى أفراح الأنجال والأكابر والعمد، وواكب هؤلاء حركة المجتمع مثلهم مثل صنوع ومحمد عبدالرحيم المسلوب وسلامة حجازى ومحمد عثمان وعبده الحامولى وكوكبة الشوام الزائرين منهم والمتمصرين، فظهروا فى عروض المسارح ثم فى أفلام السينما المصرية الناهضة، ومع الانتعاش النسبى لزراعة وتجارة القطن أصبح بعض الفنانين الشعبيين نجوما فى أقاليمهم والأقاليم المجاورة، بل وجابت فرقهم المسرحية والاستعراضية الجائلة والمداحين والصييتة واللاعبون والمحبظون والمشخصاتية والمهرجون والخايلون أنحاء البلاد، وعلى سبيل المثال لم يترك سيرك حسن الحوّ (الحلو) مدينة إلا وزارها ولا مولدا إلا وأحيا لياليه التى لم تقتصر على ألعاب الحيوانات الضارية والأليفة بل وتقديم المونولوجات الانتقادية الساخرة والاسكتشات الغزلية والمقطوعات الموسيقية بآلات النحاس وألوان الرقص والغناء.

مدارس فنية

ويكاد يكون فى كل إقليم ومديرية (محافظة) معلمة أو عالمة لها دراية كبيرة بأسرار الفنون الموروثة والمستجدة، اشتهر منهن الفنانة «عايدة صابر» فى طنطا وكانت تملك دوارا كبيرا بالقرب من جامع السيد أحمد البدوى تقوم فيه بأدوار عدة: تعليم مختلف ألوان الفنون من عزف وغناء ورقص، إلى جانب القيام بدور متعهدة الأفراح والحفلات مكتشفة المواهب، ومنسقة البرامج الفنية فى مختلف المناسبات إذ كانت تدير فرقا فنية بأكملها، وهذا بخلاف دورها هى كفنانة عازفة لعدة آلات ومغنية وراقصة استعراضية، لهذا فقد تخرج من مدرستها فنانون لامعون مثل محمد فوزى وهدى سلطان، وعشرات من الموسيقيين والعازفين وفنانى الاستعراض والممثلين غيرهما. كذلك كانت هناك أيضا أخريات مثل



أغلب الفنانين الشعبيين لا يتمتعون بحماية نقابية

«الشيخة حجر» فى دمنهور التى قدمت لنا فنانا لامعا هو كارم محمود، وشاعرا غنائيا متميزا هو محمد ملوخية، وكذا كانت هناك «أم زتون» فى شارع صيام بالمنصورة ، و«زينب عصفور» بالأسكندرية، و«بخيتة» فى نجع أبو شجرة بمدينة سوهاج، و«بنات مازن» فى الأقصر و«فريدة ركابى» فى قنا.. وغيرهن من كاهنات معبد الفن، جنبا إلى جنب مع أحياء الفن مثل شارع محمد على بالقاهرة، وقيسارية جرجا، والعتبة الزرقا بأسيوط والبياصة بالأسكندرية، وكلها تزخر بأنواع الفنون والفنانين وصناع الآلات الموسيقية وكلهم من بنات وأبناء الشعب، يقدمون فن الشعب ويمتعونه

ويضيئون أيامه ولياليه السعيدة والصعبة سواء.

موروث أسري

والدرس المستفاد من هذه الفرق وهؤلاء الفنانين وتلك التجارب، يسفر عن حقيقة مهمة: هي أن «الأسرة».. أعني العائلة التي تحترف الفن هي مدرسة مصغرة متكاملة أو شبه متكاملة لتعليم هذه الفنون (راجع تفاصيل تكوين أسرة الفنان عازف العود والخطاط والرسام حسني البابا والد الفنانة الكبيرة الراحلة سعاد حسني والفنانة نجاة الصغيرة.. والجميع لم يلتحقوا بأي من معاهد الفن لهذا لم تصب مواهبم بأي أذى). فهناك محددات أربعة هي:

١ - الموروث ، ٢- المتغير الاجتماعي والثقافي ، ٣ - الموهبة الفردية والقدرات المتنوعة ، ٤ - السوق والعرض والطلب وفقا لمقومات الذوق وتغيراته. ولنأخذ من أسرة الحو (الحلو) مثالا: لقد خرجت لنا مطربين مثل محمد فوزي ومطربات مثل هدى سلطان ومطربا مثل محمد الحلوّ ومدربين للوحوش مثل حسن الحلو الكبير وأبنائه وأحفاده وأصهاره من فنانات وفنانين ولاعبي سيرك وأكروبات ومغنيات ومغنين وفنانات استعراض، وكذا آل كوته وأشهرهم الآن مروض الوحوش مدحت كوته، وآل بغدادي من مصممي الاستعراض والعازفين وراقصي الكلاكيت ومروضي الحيوانات الأليفة وأشهرهم إبراهيم بغدادي، أما آل عاكف فقد قدموا لنا نعيمة وصابرين وهند عاكف وهن غنيات عن التعريف بالاضافة إلى إبراهيم عاكف مصمم ومدرب الكلاكيت الشهير، وطارق عاكف الموزع الموسيقي المعروف، كما قدم لنا آل توفيق الطوخي وإبراهيم توفيق اللذين اشتهرا بألعاب الخطر ومهارات الدراجة البخارية «فيلم دائرة الانتقام» أما إبراهيم فكان يتقن العزف على خمسة آلات موسيقية وايقاعية ولا أحد ينسى شقيقتهما سميحة توفيق التي اشتهرت كإحدى ممثلات الإغراء البارزات في السينما المصرية.. وغيرهم.. وغيرهم من الأسر التي وهبت بناتها وأبناءها للفن كمتعة انسانية وكمورد رزق معا، فتملكوا روحه وتمكنوا من حرفته. كل

ذلك بدون معاهد أو أكاديمية.

الفرق الجائلة

أما عن الفرق لا الأسر الجائلة فاذكر عم فتحي والد الفنان إبراهيم فتحي (إبراهيم كولة) من أمهر وأشهر عازفي الصفارة اليوم، وكان الوالد عازف كمان ويعمل في مصانع كفر الدوار، ورغم أنه بوغت بآلة النسيج تبتر إصبعيه السبابة والوسطى إلا أنه لم يتوقف عن العزف قط بل بدل يدا بيد فأمسك القوس باليسرى المصابة بدلا من اليمنى السليمة!! وأما نجله فهو إبراهيم عازف (الكولة) الشهير، ولم يرحل الأب عن حياتنا إلا وقد اطمأن إلى أنه قد علم الفن لكل بناته وأبنائه كفن وكمورد رزق، كما أن هناك العديد من الأسر الفنية الصغيرة مثل أسرة «الشويكي» وهي أسرة متكاملة من حيث توفر المطربين والمطربات والعازفين والعازفات والراقصين والراقصات يحملون ميراثا فنيا يميز برامجهم عن باقي الفرق مما يجعلهم قادرين على إحياء ليلة عرس كاملة دونما تكرار أو ملل، وتوجد أسرة «مندي» التي تخصص أفرادها في المزمار (الدلتا) والطبل (العلبة) وقد مثلوا الفن المصري في مهرجانات وبعثات شملت أطراف العالم الأربعة، وهناك أسرة «العصلوجي» الذين تخصصوا في المزمار (التركي) أو (الشلبية) المصنوع من حفر أغصان المشمش أو شجر الليمون وغيره من الأشجار المعمرة ذات القطع الناعم المتين فقد يرث الآلة الواحدة خمسة أو ستة أجيال، وفي المقابل يوجد المزمار الصعيدي السبس، والأبا، ومنهم نجوم الفن الشعبي مثل خضرة وفاطمة وجمالات وهنايات شعبان وسيدة غريب وبدرية السيد وشفيقة وسعاد فريال وشادية وخيرية مازن، والششتاوي خاطر وأنور العسكري وعبدالغفار رمضان وزاهر يونس ويوسف شتا والحاج مصطفى مرسي (بتاع المرج) الذي لم يؤرخ حتى الآن لدوره المؤثر في تأصيل الفن الشعبي والحفاظ عليه، وأحمد سمسم وشمندي القناوي ومتقال القناوي، ومحمد مراد (عازف الربابة الذي لايبارى) ومصطفى عبدالعزيز (عازف الأرغول الذي عزف في أهم مسارح العالم) وإسماعيل حجاج (عازف الايقاعات الشعبية بكل ألوانها وأنواعها) والمداحين الشقيقين

محمد ومحجوب صبرة اللذين صاحبا أمهر المؤدين والمؤديات فى هذا اللون، أما عن شعراء السيرة والرواة والحكائين في صعيد مصر فهم أكثر من أن يحصوا (ومنهم شاعر السيرة النادى أحمد حسن الذى استقى منه د.عبدالحميد يونس رسالة الدكتوراه عن السيرة الهلالية) وكذا عازفى الرباب ولاعبى التورة (الصاجات بأحجامها وأشكالها ووظائفها الكثيرة) والغوازى والطبالين وعازفى الغاب الصعيدى والبدوى (المجرونة والجورمة ومختلف مقاسات الأرغول.. الخ).. فضلا عن أشهر المشخصين : أحمد العدل وحمام العطار وأحمد المسيرى وجورج دخول (كامل الأصلى) الذين استقى منهم الفنان على الكسار جل فنونه. كل هؤلاء فنانين مجيدين - ومن بينهم أفذاذ - تعلموا وكبروا وعلموا وأثروا فى العقل والوجدان، دون أن يلتحقوا بمعاهد فنية عليا أو إكاديميات (لاتعلم شيئا) هؤلاء لم يحصلوا على دكتوراهات (لا قيمة لها فى الممارسة الفنيةالعملية نظرا لأن المنهج مقلوب)، بل إن المفارقة تكمن فى أن بعضا من هؤلاء المتحذلقين يعتمدون فى مصادر مادتهم على مخزون هؤلاء البسطاء من جواهر ثمينة حفظها الزمن وورثوها فأسهموا فى صونها وأحيائها.

ظلم مجحف

ومن الظلم المجحف أن أغلب هؤلاء الفنانين الشعبيين لا يحظون بأى حماية نقابية أو تأمينية ضد المرض والعجز والشيخوخة.. والوفاة، وقد يمضى هؤلاء الفقراء إلى العالم الآخر حاملين معهم كنوزهم التى لم تنجح فى الاستدلال على كنهها والافادة منها، فتختفى - باختفائهم - أداب وفنون لن نستطيع تعويضها أبداء لأننا - ببساطة - لا نمتلك ملكات فى نفس رقى ورفعة ما يملكون . أضف إلى ذلك معاملة البعض منهم - أحيانا - كخارجين على القانون أو متشردين أو متسولين أمر يعكس نوعا من العماء الثقافى أوالحضارى ، بل تمت ضدهم بالفعل حملات مطاردة واجتثاث خلال مرحلة سابقة .

فى أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات فملأت بهم أقسام الشرطة وعنبر (حـ) فى سجن مصر القديم وسجن الحضرة بالأسكندرية وبعض السجون المركزية الأخرى فى الأقاليم،

فكم عانى (الأخنف) ساحر النقرزان وألعاب التوزان والحيلة من رطوبة الحجز. رغم أنه قدم ألوان مهاراته المعجزة فى الأفلام المصرية وفى السيركات المتجولة وعلى المقاهى ولم يشكل يوما ما أى خطر على الأمن والقانون، وبدلا من حمايتهم ورعايتهم ومحو أميتهم وتنويرهم والتفاعل معهم اضطهدوهم وحطوا من إنسانيتهم، إن يد القمع الثقيلة الغليظة لن تستطيع ابدا أن تدرك قيمة ما كان يحمله هؤلاء الفقراء المعذبين، على أميتهم - من تراث ثمين موروث ربما من آلاف السنين، فأضافت الأمة الى خساراتها خسارات فادحة جديدة.

ورغم كل هذه المحن، كان كثير من هؤلاء يعملون حسابا للزمن، فكان والواحد منهم يحرص على إتقان مهن أخرى غير الفن (سبب نكبتهم) فمنهم من عمل بالحدادة والسباكة والزراعة والبيطرة والترزى البلدى والتجارة والعطارة والعلافة والصياغة والنجارة وغير ذلك ولكن المثل ينطبق رغم كل هذا: «سبع صنايع والبخت ضايع» إذن لابد من تدخل الدولة لحماية البقية الباقية منهم، ليس فقط لأنهم مواطنون، بل أساسا لأنهم محملون بأثمن ما نملكه من كنوز معنوية.. إنه التراث الشعبى.

وفى مصر الآن عدد من الإدارات والمؤسسات الحكومية تدخل هذه الفنون الشعبية والاستعراضية فى اختصصها :

١ - مركز الفنون الشعبية.

٢ - المركز القومى للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية.

٣ - الإدارة العامة للفنون الشعبية بالهيئة العامة لقصور الثقافة (الثقافة الجماهيرية).

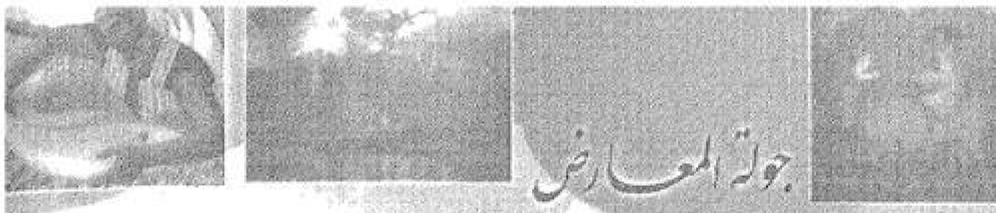
٤ - إدارة الحرف والثقافة المادية الشعبية بالهيئة العامة للفنون.

٥ - جمعية أصالة (أهلية).

٦ - ما يسمى باطلس الفولكلور.

٧ - لجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة.

٨ - قطاع الفنون الشعبية والاستعراضية. وكلها جزر معزول بعضها عن البعض الآخر فلا اتصال ولا تنسيق ولا تجانس ولا حتى تخاطب رغم أنها كلها تتبع وزارة واحدة . ■





من أعمال الفنان « فرغلى عبد الحفيظ» فى مرحلته التعبيرية

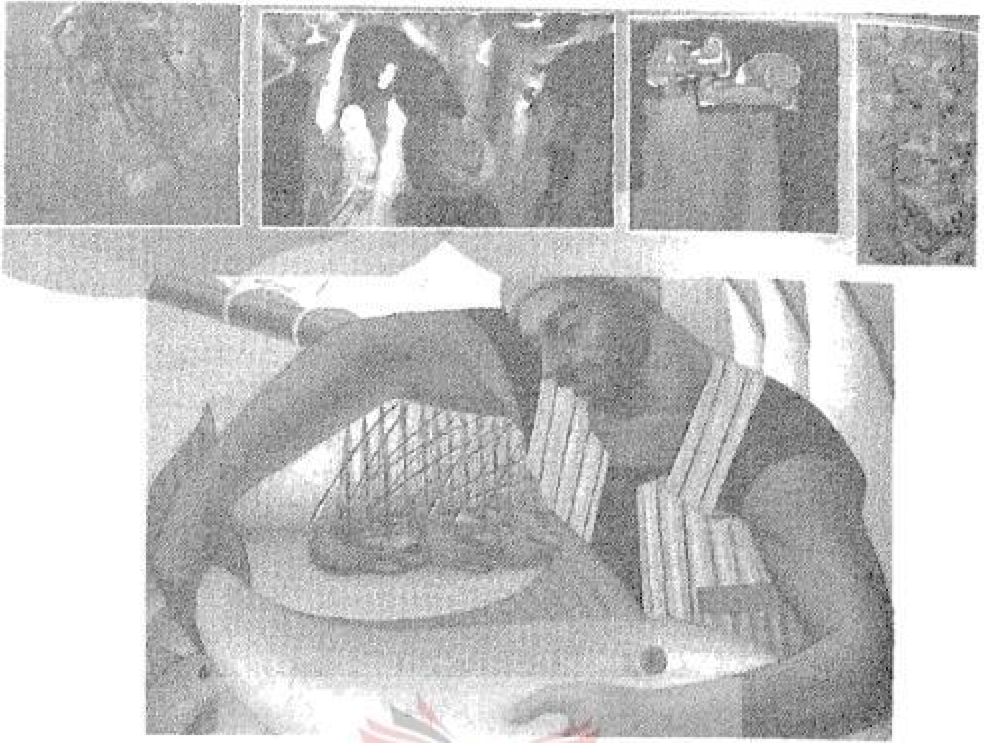
واقع الفن بين التغاير والسلبية

بقلم
د. محمد عرابى

شعبان ١٤٢٥هـ - أكتوبر ٢٠٠٤م

يبدو أن الصيف يترك آثاره على حركة الفن بدرجة تجعل مساحة المشاهدة محدودة نسبياً ، وعلى الرغم من ذلك هناك من المعارض التى تلفت الانتباه وتستحق الإشارة إليها لما تتضمنه من قيمة فنية رفيعة المستوي .. أو تشير إلي بعض المشكلات الراهنة التى تهدد الوجود الإنسانى وخاصة فى عالمنا العربي ، التى تتفاقم حلقاتها إلى حد أن تشعرنا باستدامتها ، إذ أدمنا أخبارها وآلامها وأحزانها إدماناً مخيفاً يصيب بالتبلد واللامبالاة أو فقدان الوعي .

وفى ظل هذا المناخ نجد أن الفن يعانى من أزمة الالتزام بالقضايا الحيوية التى تمس الكيان العربى بصفة عامة .



عمل للفنان «حامد عويس» يوضح أسلوبه المتميز الذى يحتفى بصلابة الشكل مع بساطة التكوين

ولهذا ولأسباب أخرى تتعلق بطبيعة الوعى الاجتماعى بالفن وتوجهاته المتأرجحة - التى يطول البحث فيها - قلما نجد من يقدم لنا رؤية فنية تمتع بصدق المضمون وأصالة الشكل الفنى وتفرده ، وخاصة حينما يكون موضوعها يتعلق بالقضايا الوطنية أو القومية ، هذه التداعيات أثارتها ماقدمته الفنانة إيمان البحيرى مدرس النحت البارز بفنون المنيا فى معرضها الأخير بقاعة قصر ثقافة المنيا ، الذى يعتبر بحق شهادة ميلاد لفنانة مهمة فى مجال النحت البارز الذى يعانى من انحسار خطير .

فهى تجيب عن السؤال الذى يشغل بال الكثير منا وهو «أين يقف فن الجماعة التى فرض عليها الكفاح والنضال المستمر من أجل استعادة حقوقها والحفاظ على بقائها ؟!! هل يتجاهل كل هذه الآلام والمعاناة ويقف محايدا خوفاً من الوقوع فى المباشرة بدعوى الحفاظ على عذرية الفن واستقلاليته ، ويسلك دروب السلبية التى تؤدى إلى التعمية ؟!! .

انحياز للواقع

بعيداً عن الأضواء والمزايدة تنحاز إيمان البحيرى بوضوح وصراحة وصدق للنضال العربى الواجب ، وتجسد صورة

بانورامية بليغة لانتفاضة الأقصى بما تنطوى عليه من معانى الصمود والتضحية ونبل الغاية ، ولاشك فى أن مسيرات الشهداء التى نشاهدها كل يوم عبر وسائل الإعلام كان لها عظيم الأثر فى صياغة هذه الصورة ، التى يمكن أن نلحظها فى العلاقات المكانية لعناصر مسيرة الشهيد والإيهام بأبعاد منظورية ، التى تتحقق أحيانا عبر مستويات الأسطح وما تحققه من إيقاعات ظلية ، وهذا على الرغم من تحوير الشكل وتجريده من التفاصيل الواقعية التي من شأنها أن تربط العمل الفنى بلحظة زمنية محددة ، فهى تقف فى مرحلة متوسطة بين التعبير الواقعى والرمزى ، الذى يميل إلى تكثيف المعنى واختصار الشكل برؤية واعية بدلالة الشكل ومكامنه التعبيرية .

فهى تجسد رؤيتها لانتفاضة الأقصى من منظور تأملى فلسفى هادىء يتجرد من أى احتمالات انفعالية من شأنها أن تؤدى إلى الخلط والالتباس ، أو الإفراط فى الغموض الذى يعكر جلاء التعبير ، إذ إنها تؤكد على نبل غاية الاستشهاد ، التى تعطى للمقاومة الفلسطينية مشروعيتها التى تعتمد بصورة أساسية على مبدأ الاستشهاد بمفهومه العميق الراسخ فى الوجدان العربى بمكوناته الثقافية الخاصة، التى تواجه اليوم حملات ضارية للقضاء عليها رغبة فى إخضاع هذه الأمة وتفتيت أوصالها ،

وتؤكد الفنانة على دور المرأة فى هذه الصورة إذ تظهر قوية متآزرة مع الرجل فى نضاله وتضحياته .

وما قدمته إيمان البحيرى يعد من زاوية أخرى بانوراما واسعة تذكارية لصورة كفاح الإنسان العربى بصفة عامة والفلسطينى بصفة خاصة .

اللجوء إلى الترميز

وفى أتلييه القاهرة يقدم رضا شحاتة أستاذ الأشغال بكلية التربية الفنية ، تجربة فنية عبر إطار تقنية الخيامية التى تعد تقليدية فى حد ذاتها ولكنها تكتسب صفة معاصرة عبر معالجاته الفنية ، التى تدور فى إطار الفن الحديث ، حيث التأكيد على القيمة الفنية والتعبيرية للون ، إذ تنتظم علاقاتها بلغة التجريد التى لاتخفى احتفاءها بالتعبير عن طريق الإيحاءات الرمزية التى تفصح عن نفسها بالتذرع ببعض العناصر التشخيصية ، حيث تتسرب المرأة بجسد يشوبه التحوير ، الذى يذكرنا ببعض الصياغات الجسدية ، التى أبدعها خيال بعض المصورين المصريين ، وتظهر بعض العناصر أو الموتيفات الشعبية متمثلة فى صورة حيوان أو نبات تتضافر مع الأجواء اللونية، التى تنتمى للغة التصوير لتضفى على أعماله مذاقاً مصرياً ، والدلالة الأخرى لهذه التجربة فى الإمكانيات الحديثة فى صياغة النسيج





من أعمال الفنان « محمد عبلة » ، حيث يظهر الخط مجرداً عن عدد من جمالياته التقليدية

بتقنيات لونية عالية الدقة مكنت مصممى المنسوجات والأزياء من تحقيق طموحاتهم التصميمية التى ليس من شك فى تأثرها بمعطيات فن التصوير الحديث، وخاصة تلك الاتجاهات التى أعطت أولوية للبحث فى العلاقات اللونية ، وخاصة اتجاهات التجريد ، وتلك التى انفتحت على عوالم الشرق وأفريقيا بفنونها التقليدية وما تتميز به من إيقاعات لونية جذابة وساحرة بصراحتها وقوتها ، وهذا يضفى تأثيره على أعمال رضا شحاتة بصورة إيجابية .

ورغم ظهور بعض العناصر ذات الدلالات الرمزية التى يمكن باجتهاد بسيط قراءة مدلولها إلا أن أعماله تظل محتفظة بأسرارها ، الأمر الذى يشير إلى اهتمامه البالغ بالصياغة الفنية ، فهى لا تحمل موضوعاً محدداً أو واضحاً وإن كانت تؤكد على امتلائها بحالات شعورية أو انفعالية ، يشارك فى تجسيدها اختياراته للأقمشة المستخدمة ودرجاتها اللونية وأسلوب معالجاتها الفنية فى تكويناته .

وفى جانب آخر من الفنون التشكيلية وفى أتليه القاهرة أيضاً يقدم المصمم أحمد شحاتة أستاذ مساعد بقسم الإعلان بالفنون التطبيقية ، تجربة فى التصميم عبر فن الكولاج باستخدامه «ورقاً ملوناً» يؤكد على خبراته التصميمية فى مجاله ، حيث يعتمد بصورة أساسية على العلاقات المساحية لبعض الأشكال الهندسية المتناقضة فى الهيئة بما فيها العلاقات اللونية أو علاقات الغامق والفاتح ، وتعد تجربته

هذه بحثا تشكيليا فى جماليات التصميم تحت ضرورة التباين أو التناقض فى عمليات إدراك الشكل وما ينتج عن هذا من قيم جمالية تخضع لمعايير تطبيقية .

أعراض صيفية

وأما فى بعض القاعات الخاصة فتظهر بالصيف تحديداً فكرة المعارض الجماعية ، التى تتميز ببعد بانورامى يتيح الفرصة للتعرف على قطاعات عريضة من ذاكرة الفن المصرى ، ففى قاعة الزمالك للفن يأتى معرضها الصيفى تحت عنوان «Masterpieces» ، حيث تعرض أعمالا منتقاه لثمانية من الفنانين المصريين أصحاب تجارب فنية راسخة ويمثلون اتجاهات مختلفة ، فتلتقى زينب السجينى مع حامد عويس فى معالجة فنية تحتفى بالشكل تحت موضوعات يكون الإنسان المصرى قوامها ومحورها ، ويلتقى مصطفى عبدالمعطى مع النشار فى اتجاههما نحو التجريد ، وأما فرغلى عبدالحفيظ وجاذبية سرى فيلتقيان فى رؤية تعبيرية يمتلك كل منها خصائصها المميزة ، ويقدم هذا المعرض وجهاً آخر للفنانة رباب نمر – فقد تعودنا فى السنين الأخيرة على إبداعاتها فى فن الرسم بالأبيض والأسود ، حيث تميزت أعمالها بلغة رمزية تظهر فيها المرأة والطيور ، وغيرها من العناصر بملامح متخمة بالتعبير والإيحاء ، فنراها فى هذا المعرض تقدم بعض أعمال التصوير التى تحمل ملامح مراحلها المبكرة ، حيث يلعب الوجه بقيمه التعبيرية دوراً مهماً فى هذه المرحلة الممثلة فى معرض صيف قاعة الزمالك .

ويقدم الفنان محمد عبلة صاحب التجارب المتعددة أعمالاً تنتمى إلى لغة التشخيص بمعالجة فنية قوامها الخط ، إذ يعمد إلى التخلص من جماليات الرسم التقليدية فيظهر الخط سميكاً يتحرك ويحدد ملامح أشخاص متزاحمة تبدو عليها ملامح المدينة .

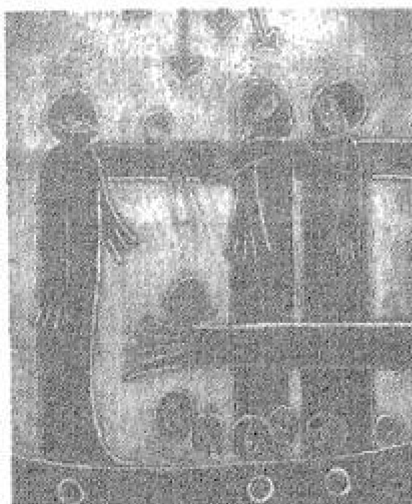
وعلى الرغم مما يتسم به صيف هذا العام من فتور فى حركة الفن إلا أن هناك ماينبض بروح الإبداع والالتزام ربما يشير إلى تفاؤل ما ، أو ينقلنا إلى مشكلات أخرى تتعلق بعلاقة الفن بالجمهور التى تعانى من فتور بصفة عامة ، رغم كل المحاولات التى تهدف إلى تضييق مساحة الهوة ، إلا أنها مازالت واسعة بصورة تجعلنا نعيد النظر ونبحث عن مشروعات يتوافر فيها مبدأ الدراسة المتأنية لتحقيق أغراضها المرجوة .

مسئولية صالون الشباب

ويأتى صالون الشباب للفنون التشكيلية هذا العام ٢٠٠٤ فى لحظات



من أعمال الفنانة «رباب نمر» مثال لملامح أسلوبها في التصوير الذي يميل للتعبير الرمزي



من أعمال الفنانة «زينب السجيني» تحفى بوضوح الشكل وتعطيه أبعاداً عاطفية

تاريخية فاصلة تجعلنا نولي له اهتماماً خاصاً، وذلك باعتباره أحد أهم فعاليات الفنون التشكيلية، التي تتبناها المؤسسة الثقافية في مصر، وأكثرها حساسية وتأثيراً في تكوين حاضر ومستقبل أحد أهم مجالات الإبداع الفني، التي تسهم في خلق الهوية المستقبلية لشعوبها بصورة تؤكد لها وحدتها ووجودها الإيجابي والفاعل في تحديد مستقبل البشرية، وفي ظل ما نمر به على المستوى المحلي والعالمي من تحولات كبرى يلتهب فيها الصراع من أجل البقاء وفرض النفوذ، وتتضح فيه النوايا الاستعمارية للدول الكبرى بجلاء لا يقبل الشك أو المراوغة ليس فقط على المستوى العسكري وإنما على مستوى الفكر والفلسفة، حيث نرى الفيلسوف «بوبر» بوصفه آخر التنويريين العظام.. لا يبرأ من وصمة الفكر الاستعماري ويناقش أحياناً حق الدول المتقدمة بل واجبها، في فرض وصايتها على الدول المتخلفة، ولتفكر ملياً: هل تعطيها الحرية أم ليس بعد!!.

ومن ثم فإن الظرف الراهن بأكمله يستوجب على كل من يتعامل مع صالون الشباب وخاصة في الأماكن المؤثرة في حركته أن يدرك خطورة دوره ومسئوليته في التنوير والتبصير بهوية الفن ومدى ضرورته في اللحظة الراهنة على المستوى المحلي والعالمي، فليس هناك من

شك فى أن صالون الشباب منذ نشأته قد أعطى الكثير لحركة الفن المصرى المعاصر، الأمر الذى ربما يكون قد قاد المسئولين إلى وضع حركة الصالون منذ نشأته حتى الآن بين أيدينا، وذلك من خلال تنظيم عروض لأعمال نجوم الصالون أى الحاصلين على الجوائز الأولى فى دوراته السابقة، بجوار المسابقة الرسمية لهذا العام، التى تم افتتاحها الخميس٩ سبتمبر بقصر الفنون بالجزيرة، وبغض النظر عن تحفظاتنا على فكرة النجومية فى الفنون التشكيلية ومدى وكيفية تحققها، إلا أن الفكرة فى حد ذاتها تشير إلى محاولة رسمية وليست جماهيرية فى إطار صناعة النجم، ومن ناحية أخرى تتيح للمتخصصين من نقاد وباحثين وفنانين أن يتأملوا برؤية متأنية مسيرة صالون الشباب عبر رموزه المختارة عن طريق المعايير التقييمية، التى تبنتها لجان التحكيم عبر دوراته المتتابعة، والتى أدت بدورها إلى إفراز هذه النخبة من الفنانين، التى تمثل بلاشك اتجاهات فنية مختلفة تشكل جانبا مهما من جسم وكيان الحركة الفنية المعاصرة، وربما يكون من الخطأ أن نقصر حركة الفن المعاصر التى شارك صالون الشباب فى وضع ملامحها على تلك النخبة التى أفرزتها لجان التحكيم، فمهما كانت نزاهتها وحياديتها فإنها تخضع لاعتبارات أو توجهات وانحيازات فكرية أو فنية، وهذا فى حد ذاته موضوع لا يسعه مقالنا هذا.

هدوء نسبي

وأما هذه الدورة على مستوى المسابقة الرسمية فتتصف بدرجة من الهدوء النسبى الذى ندركه من أول وهلة، وربما يعود فى المقام الأول لغياب ذلك الصخب، الذى كانت تحتشد به قاعات العرض بفعل سيادة أعمال التجهيز فى الفراغ وعروض فن الفيديو وغيرها من نتاج تلك الرغبة العارمة التى تتملك فكر ونفس الشباب فى التجريب والبحث عن الجديد والإثارة بما يشبه الثورة على كل ما يحتوى على النظام والترتيب والمنطق حتى كنا نشعر أحيانا أننا فى فوضى تشبه فى كثير من الأحيان فوضى تراكم النفايات والبقايا.. فما هو معروض فى هذا المجال الآن يتسم بدرجة من العقلانية، التى تفضى إلى الترتيب والنظام والحبكة التصميمية.

فمنها ما يتحرى نظام وطبيعة العروض المسرحية فى توزيع العناصر وطريقة بنائها مثل ذلك العمل الذى نطلق عليه من عندنا «برلمان امبراطورية الفئران البيضاء»، حيث تقتصر عناصره على تجمعات من تماثيل الفئران تنتظم فى استعراض مسرحى يخلق حواراً ميلودرامياً بطريقة تتضمن إسقاطات اجتماعية سياسية معاصرة تحتمل

التأويل، وخاصة حينما يتضمن العمل ملامسَ لغوية مكتوبة بلغات مختلفة تظل دلالتها الفنية والرمزية محصورة في فكرة اللغة مجردة من الدلالة اللفظية، ذلك الذي يضفي على الفئران البيضاء صفة إنسانية، والملاحظة الثانية تتلخص في تقلص مساحة التصوير أي الرسم والتلوين بمفهومه التقليدي وعلى اختلاف التوجهات الفنية سواء على مستوى اقتراب الرؤية الفنية من المرجعيات الطبيعية، أو على مستوى الولوج في عوالم الخيال والرمز والتجريد، فما هو معروض في معظمه يشير إلى درجات متفاوته من الموهبة، ومن ناحية أخرى يؤكد ضعف الخبرة بالدرجة التي تعوق التعبير وانحصار معظم الأعمال في موضوعات إنسانية بسيطة لا تتعدى رسم عنصر إنساني بدقة معينة أو اتخاذ الوجه الإنساني موضوعاً للتعبير، والبعض الآخر يذهب إلى التجريد فلا يتخطى العمل حدود علاقاته اللونية الظاهرة، وفي المقابل يأتي فن الرسم والقوالب الطباعية ليكون أكثر احتفاء بالتعبير، إذ يحمل مضمون اللحظة الراهنة، وذلك بصورة يكون فيها الإنسان الأبيض وما يحمله من واقع نفسي متخم بالهموم والانكسارات والاحباطات هو محور الكثير من الأعمال، التي يكون الأبيض والأسود مادتها الأولى في التعبير الفني، وهذا ما يمكن أن نراه في أعمال الزعيم أحمد محمود، وهيثم نوار، وإيمان إبراهيم، وهالة عبدالمنعم على سبيل المثال لا الحصر، حيث تسود النزعة التراجيدية بصورة تتسم بصدق التعبير في الكثير من الأحيان.

وأما إذا اقتربنا من الجوائز فنجد الانحياز يبدو واضحاً للتقنية ومهارة التشكيل بغض النظر عما يحمله العمل الفني من أبعاد تعبيرية وهي سمة لم يتخلص منها صالون الشباب حتى اليوم، فتذهب الجائزة الكبرى إلى أعمال وائل عبدالصبور في مجال فن الطباعة الذي لاشك في أنه يبرز مهارة فائقة وحساسية فنية عالية في استخدام أدواته الفنية في التشكيل وذلك بصورة تؤكد اهتمامه بالتقنية، وهناك من الأمثلة الكثيرة التي تؤكد وجهة نظرنا، أما مجال النحت فيتميز فيه أسامة مغوري الذي تؤكد أعماله المعروضة على موهبته الواعدة، وتمكنه من لغة فن النحت، التي يتجه بها إلى ما يمكن أن نطلق عليه بالتجريدية العضوية حيث بساطة السطح وثراؤه في نفس الوقت وذلك بصورة تسمح بالحضور الإنساني على المستوى الجسدي والعاطفي، فيدعوك إلى نوع من التأمل الصوفي في أعماله، وهكذا نفتح نافذة على صالون الشباب في دورته الحالية لتكون بمثابة دعوة إلى الحوار والدراسات الفنية لعلنا نضع أيدينا على الملامح المميزة للفن المصري المعاصر انطلاقاً من حركته الشبابية. ■

الصلح بين..

أم كلثوم وزكريا أحمد

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

تميزت الكثرة الغالبة من معارك نجوم الغناء بكونها معارك كلامية، قد تكون أسرار المهنة محور البعض منها، بينما يغلب التنافس والتحاسد على ما تبقى من تلك الكثرة، ولم تخرج وقائع هذا الصنف من المعارك الفنية عن التراشق بالتصريحات والاتهامات عبر وسائل الإعلام، ولكن هناك صنفاً آخر من تلك المعارك يبلغ الآحاد عدداً، ويتميز هذا الصنف القليل العدد عن الكثرة المشار إليها بأن أحداثه قد جرت فى ساحات المحاكم، لأن ما كان بين نجوم الغناء فيها لم يكن ليجد الحل إلا فى رحاب القضاء، وإلى هذا الصنف الأخير

ينتمى ما حدث بين أم كلثوم: ملكة الغناء العربى فى القرن العشرين وفى كل عصوره وزكريا أحمد: شيخ ملحنى العصر الذهبى للغناء المصرى والعربى فى النصف الأول من القرن العشرين.

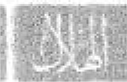
ترجع علاقة زكريا أحمد الإنسانية والفنية بأم كلثوم إلى سنوات البداية الفنية لأم كلثوم فى قريتها طماى الزهايرة بمركز السنبلاوين فى محافظة الدقهلية (الآن)، ويقول زكريا أحمد عن هذا اللقاء: «كان ذلك فى عام ١٩١٩م، كنت ذهبت إلى السنبلاوين بصحبة المرحوم الشيخ أبو العلا محمد المقرىء والمغنى الشهير، لإحياء ليلة من ليالى رمضان، وكان وجوه القوم يحتفلون بهذا الشهر المبارك إحتفالاً كبيراً»، فى تلك الليلة أسرّ عازف القانون محمد أفندى عمر إلى زكريا أحمد أن: «هناك فتاة صغيرة السن، جميلة الصوت تدعى أم كلثوم، ولو تعلمت أصول الغناء لأصبحت مطربة عظيمة»، وشاءت الأقدار أن يلتقى زكريا أحمد بالفتاة التى حدثه عنها عازف القانون فى حفلة أخرى أقيمت بنفس المدينة، ويصف زكريا ما حدث فى لقائه الأول بأم كلثوم قائلا: «وفى هذه الليلة قابلتها، وكانت بصحبة والدها وشقيقها، واستمعوا لى واستمعت إليها، ففرحت بها وتنبأت لها بالمستقبل الكبير، ونشأت بيننا صداقة وطيدة دفعتنى إلى أن أهدى إليها موشحاً وطقطوقة»، (صبرى أبوالمجد: زكريا أحمد، ص ٢٢٤ - ٢٢٥)، ويصف زكريا أحمد فى موضع آخر من مذكراته مدى إعجابه بصوت أم كلثوم فيقول:



أم كلثوم

زكريا

«منذ ليلتها، وأنا كالأصم لا أسمع إلا صوتها ، كالابكم لا أتحدث إلا باسمها، فقد أصبحت مفتونا بها، أحببتها حب الفنان للحن خالد تمنى العثور عليه دهراً طويلاً» (د. رتيبة الحفني: أم كلثوم معجزة الغناء العربي، ص ٩٠)، كان الاعجاب متبادلا بين الشيخ والنجمة الجديدة وأسرتها، وهو إعجاب عبرت عنه دعوة الشيخ إبراهيم البلتاجي: والد أم كلثوم.. زكريا لزيارة الأسرة بمنزلها في طماى الزهايرة، وعن تلك الدعوة يسجل زكريا أحمد من مذكراته ما يلي: لبيت الدعوة.. وتناولت الطعام على طبلية.. وجلسنا حولها على (كليم) لا أزال أنكر لونه الأحمر على أسود.. وابتلعنا أوزة كاملة.. ثم لعبنا (عشرة كوتشينة)، ومنذ هذا اليوم (الذى وافق العاشر من شهر يونيو سنة ١٩١٩م طبقا لمذكرات زكريا أحمد نفسه) وأم كلثوم ووالدها وشقيقها خالد يحضرون كل يوم لسماع غنائي في سراى أبى العينين «د. رتيبه الحفني: المرجع السابق»، ويعنى زكريا أحمد بسراى أبى العينين فى آخر حديثه سراى التاجر على أبوالعينين بمدينة السنبلاوين.



خطابات الصداقة

امتدت الصداقة التى بدأت بالإعجاب المتبادل بين زكريا أحمد وأم كلثوم إلى ما بعد انتهاء شهر رمضان لتلك السنة (١٣٣٧ هـ) وعودة الشيخ إلى القاهرة، حيث كفل البريد استمرار هذه الصداقة بين الريفية الصغيرة الموهوبة وأسرتها والفنان القاهرى المنشأ والمشرب والمقام ، ومن تلك الخطابات المتبادلة بين أم كلثوم وزكريا أحمد في بدايات صداقتهما، ذلك الخطاب الذى بعث به أم كلثوم لزكريا أحمد من طماى الزهايرة فى ١٦ يناير سنة ١٩٢٢، رداً على خطابه الذى أرسله إليها مع المدعو الشيخ محمد أبوزيد (كمال سعد: أم كلثوم وزكريا أحمد أمام القضاء، ص ٢٢٧)، كتب الخطاب على ورقة طبعت بأعلاها البيانات التالية: «العنوان التلغرافي: السنبلاوين - طماى - أم كلثوم» بأعلى يمين الورقة، وبعد ذلك يجيء سطر طبعت فيه كلمتان هما (طماى فى)، وقد كتب بخط اليد بجوار الكلمتين: ١٦ يناير، وبعد ذلك وفى السطر نفسه تجيء سنة ثم شرطة ومن بعدها الرقم ١٩ وكلها مطبوعة، وقد أضيف إليها الرقم ٢٢ بخط اليد للدلالة على السنة، وفى أعلى يسار الورقة طبع الآتى: «السيدة أم كلثوم إبراهيم - مقرئة السيرة النبوية الشريفة - بوستة السنبلاوين - طماى الزهايرة»، وفيما يلى نص الخطاب الذى تعبر بساطة صياغته المشوبة بالبعض من الأخطاء الإملائية عن حصيلة الموهبة الجديدة من التعليم، «حضرة المحترم الشيخ زكريا أحمد. دام. بعد (اهواكم) خالص السلام والسؤال عن صحتكم، ورد لى خطابكم مع الشيخ محمد أبوزيد، واتفقنا على الليلة حسب (خطبكم) والسلام. كاتبه. أم كلثوم».

ومن منطلق تلك الصداقة.. وجه زكريا أحمد الدعوة لأم كلثوم لزيارة القاهرة، فلما حضرت برفقة أسرتها وكان ذلك قرابة نهاية عام ١٩٢٢، أقام

لها حفلا حضرته مجموعة من أبناء الطبقة الراقية إضافة إلى مجموعة من أهل الغناء ضمت كلاً من الشيخ أبى العلا محمد والشيخ على محمود والملحنين محمد القصبجى ومحمد صبرى النجريدى، وكان نجاح أم كلثوم فى حفلها الأول حافزا لها ولزكريا أحمد على تكراره فى أماكن كثيرة، حتى أنها غنت بعد ذلك فى فترات الاستراحة بين فصول روايات على الكسار المسرحية (صبرى أبوالمجد: المرجع السابق، ص ٢٢٥)، لم يلحن زكريا أحمد أعمالا لأم كلثوم فى السنوات الأولى لإقامتها بالقاهرة، وربما يكون إنشغاله بالتلحين للفرق المسرحية خلال تلك الفترة سببا لذلك، ولكنه أحاط أم كلثوم بتشجيعه واهتمامه، بل وسافر وراء حفلاتها الأولى فى عديد من المدن المصرية، حتى حل عام ١٩٣١م وهو العام الذى قدم فيه زكريا أول ألحانه لأم كلثوم متمثلة فى طقطوقتىّ «اللى حبك ياهناه» من تأليف أحمد رامى «وهو ده يخلص من الله» من نظم بديع خيرى، مثلت طقطوقة «اللى حبك ياهناه أنذاك ثورة فى تلحين الطقطوقة التى كانت تبدأ وتنتهى بنفس النغمة أو المقام، حتى جاء زكريا أحمد وجعلها فى «اللى حبك ياهناه» تجمع بين نغمات عدة، أفرد إحداها - وهى نغمة الراست - للمذهب والختام ووزع باقيها على الأغصان (المقاطع)، ومضى زكريا أحمد بعد ذلك فى تجديده لفن الغناء العربى عبر ما أشجى به عشاق هذا الفن من أغنيات لأم كلثوم بلغت حتى نهاية عام ١٩٤٧م سبعة وستون أغنية، وذلك طبقا لإحصاء المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى بوزارة الاتصالات والمعلومات المصرية، كانت طبيعة الأمور فى نهاية عام ١٩٤٧م تقول بأن الصداقة بين أم كلثوم وزكريا أحمد - والتى قارب عمرها على الثلاثين عاما - ستتوثق عراها وتفيض على جماهير الغناء العربى بمزيد من الروائع التى باتت سمة أعمالهم المشتركة، ولكن الرياح جاءت فى عام ١٩٤٨م بما لا تشتهى سفن الجماهير المتعطشة لكل ما هو جديد وأصيل فى لقاء ألحان زكريا أحمد بصوت سيدة الغناء العربى فى ذلك العصر وكل عصوره، حيث تناثرت الأقاويل والهمسات بأن ثمة خلافا قد نشب بين زكريا أحمد وأم كلثوم.

الجذور

اعتنقت أم كلثوم منذ أن احترفت الغناء مبدأ فحواه أن حصولها على أعلى أجر فى سوق الغناء يعد معادلا لكونها المطربة الأولى، وقد طبقت ذلك المبدأ منذ أن خطت خطواتها الأولى فى عالم الغناء، حيث كان عقدها الأول الذى وقعته مع شركة جرامفون للاسطوانات فى عام ١٩٢٦م هو الأعلى فيما عرفه عالم الغناء آنذاك، حيث بلغ أجرها عن الاسطوانة الواحدة خمسين جنيها بالتمام والكمال، وهو ما يعادل ضعف أجر منيرة المهدية - المطربة الأولى عند ظهور أم كلثوم - عن الاسطوانة الواحدة!، وعندما أزاحت الإذاعة شركات الاسطوانات فى عام ١٩٣٤ لتصبح هى الناشر الأول للغناء، تحولت أم كلثوم بنشاطها الغنائى نحو الناشر الجديد الذى يتمتع بالحماية

الحكومية، ومنذ العام الأول في عمر الإذاعة.. طلبت أم كلثوم من مدحت عاصم - المسئول عن إنتاج الغناء والموسيقى الشرقية في الجهاز الإعلامي الوليد - الحصول على أعلى أجر بين المطربين والمطربات، فجاء عقدها الأول مع الإذاعة معادلا لعقد محمد عبدالوهاب الذي سبقها إلي ذلك، حيث نص العقدان على منحهما أجراً لكل منهما قدره خمسة وعشرون جنيها مقابلا لوصلة تتكون من أغنيتين جديدتين (فرجينيا دانيلسون: صوت مصر - أم كلثوم، ص ١٣٨)، وعلى أن يقدما وصلتين في كل شهر (د. حلمي أحمد شلبي: تاريخ الإذاعة المصرية، ص ٤٦)، واصلت أم كلثوم بعد ذلك إملاء شروطها على الإذاعة لتحقق لنفسها أكبر عائد ممكن مقابل ما تقدمه من غناء، فتعاقدت مع الإذاعة في عام ١٩٣٧م على بث عدد من حفلاتها الشهرية بثا حياً إلى جمهور الإذاعة، وذلك مقابل حصول أم كلثوم على نصف ثمن تذاكر الحفل مضافا إليها مبلغ خمسين جنيها عن كل حفل تبثه الإذاعة (فرجينيا دانيلسون: المرجع السابق)، وبالرغم من أن تلك التفاصيل كانت تعني حصول أم كلثوم عمليا على كل إيراد الحفل، إلا أنها استمرت في سياستها التي تمحورت حول حقيقة واحدة هي إعتصار كل ناشر لغنائها حتى آخر جنيه يمكن الحصول عليه منه، ومما ساعد على ذلك ما حققته أم كلثوم عند منتصف أربعينيات القرن الماضي من مكاسب نقابية وسياسية عززت من مكانتها لدى الجمهور وأمام مؤسسات الدولة، ففي عام ١٩٤٤.. أنتخبت أم كلثوم لمنصب أول نقيب للموسيقيين على رأس أول نقابة منتخبة للموسيقيين المصريين، وفي توقيت مقارب لفوزها برئاسة نقابة الموسيقيين.. تشرفت أم كلثوم بلثم يد الملك فاروق في حفل أحيته بالنادي الأهلي، فأنعم عليها ملك البلاد بنيشان (وسام) الكمال الذي تلقب حاملاته من الأميرات بصاحبات العصمة!، ثم اكتملت أسباب القوة عند أم كلثوم بحصولها - حوالي منتصف الأربعينات أيضا - على عضوية لجنة برامج الإذاعة، وهي اللجنة التي تتحكم فيما يقدم بالإذاعة من حيث توقيته وزمنه، فكان أن امتنعت عن الغناء بالإذاعة بعد ما حققته من انجازات نقابية وسياسية، وطالبت برفع أجرها عن الحفلة الواحدة من ١٧٥ جنيهاً إلى ٣٦٠ جنيها كاملة! (الراديو والبعكوكة: العدد ٦٦٧، ١٩٤٥/٤/١، ص١)، ثم قفز أجر أم كلثوم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ليصل إلى ذرا فلكية، حدث ذلك عندما فاوضها محمد عبدالوهاب بالنيابة عن شركة كايروفون - التي كان عبدالوهاب شريكا فيها - لتسجيل أغنياتها السابقة لتاريخ التفاوض (١٩٤٦م) وذلك في مقابل ألف من الجنيهات للاسطوانة الواحدة!. كذلك نص الاتفاق المقترح بين محمد عبدالوهاب وأم كلثوم على منح كل من محمد القصبجي ورياض السنباطي مائة جنيه عن كل اسطوانة، وعلى أن يكون نصيب زكريا أحمد مبلغا قدره مائتي جنيه عن الاسطوانة الواحدة (كمال سعد

: المرجع السابق، ص ٦٩) وبينما وافق كل من القصبجي والسنباطي على ذلك، فإن رفض زكريا لذلك كان قاطعا، فقد كان ما عرض عليه فتاتا إلى جانب ما تغترفه أم كلثوم من الإذاعة قبل الشركة الجديدة.

رياح الغضب

بلغت أم كلثوم في السنوات الأخيرة من عقد الأربعينيات من القرن العشرين ذروة عطائها وتأثيرها ، فقد قدمت في عام ١٩٤٨ م – على سبيل المثال – فيلمها الأخير «فاطمة» الذي تغنت فيه بتسع أغنيات لحنها كل من زكريا أحمد ومحمد القصبجي ورياض السنباطي بواقع ثلاث أغنيات لكل واحد منهم، أما عن تأثيرها .. فإنه بلغ في تلك الفترة حدا جعلها تطاول الوزراء رأسا برأس فلا يستطيعون ردها. ولعل فيما أوردته مجلة «روزاليوسف» بعددها رقم (١٠٧٠) الصادر في ١٩٤٨/١٢/١٥م، عما حدث بين أم كلثوم ووزير الشئون الاجتماعية حول حجز (بنوار شمال ممتاز) بمسرح الأزبكية ما يؤكد للقارىء مدى ما وصل إليه نفوذ أم كلثوم في تلك الفترة، أما ما حدث فإنه يتلخص في أن وزير الشئون الاجتماعية (جلال فهيم باشا) اتصل بموظف الحجز في مسرح الأزبكية ليحجز لنفسه وأسرته ذلك «البنوار» المخصص للوزراء، فلما أخبره الموظف أن أم كلثوم قد حجزت «البنوار» في وقت سابق لبعض أصدقائها، أمر الوزير الموظف بإلغاء حجز أم كلثوم وبأن يحجز «البنوار» كالعادة للوزير، وعندما اتصل موظف الحجز بالوزير في وقت لاحق ليخبره بأن أم كلثوم علقت على حجزه «للبنوار» بقولها: «إذا حدث هذا فهي ستمتنع عن الغناء»، فإن جلال باشا لعق كرامة منصبه وتنازل عن حقه في «البنوار شمال ممتاز» وارتضى لنفسه وأسرته «بنوارا غير ممتاز» !، لذلك لم تعر أم كلثوم رفض زكريا لعرض عبدالوهاب كثير إهتمام.

لم يكن زكريا أحمد هو الرافض الوحيد في ذلك العام لسياسة أم كلثوم في تعاملاتها المادية مع ناشري الغناء، وهاهم المطربون يهددون الإذاعة بالاضراب عن الغناء إن لم تستجب لمطالبهم، فقد تحدثت مجلة «روز اليوسف» في الصفحة رقم (٢٢) من عددها رقم (١٠٣١) الذي صدر في صباح الأربعاء ١٩٤٨/٣/١٧م عن اجتماع عقد يوم الثلاثاء ١٩٤٨/٣/٩م بنقابة الموسيقيين ، حيث رفع المجتمعون مذكرة بمطالبهم إلى كل من وزير الشئون الاجتماعية ومدير محطة الإذاعة، تلخصت تلك المطالب فيما يلي : أن تسترشد الإذاعة برأي نقابة الموسيقيين في تحديد أجور المطربين –إعادة النظر في نظام إذاعة الأشرطة الغنائية بالإذاعة ومعاملة كل مطرب بنفس نظام معاملة أم كلثوم – تحقيق العدالة في نظام توزيع أوقات الغناء – تمثيل نقابة الموسيقيين في لجنتي البرامج واختيار المطربين الجدد بالإذاعة – وأخيرا فصل أجر الغناء عن أجور التأليف والتلحين، ولم يغب عن مجلة «روز اليوسف» أن تذكر قارىء التحقيق المنشور بعددها رقم (١٠٣١) عن مذكرة المجتمعين بنقابة

الموسيقيين ، بأن أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب لم يكونا بين من اجتمعوا بالنقابة يوم الثلاثاء ١٩٤٨/٣/٩م من مطربين وموسيقيين.

وإزاء ما عم الوسط الغنائي من سخط تجاه ما تكشف عن الاتفاقات المميزة التي حبت بها الإذاعة كلا من أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب ، لم يجد محمد قاسم بك : مدير الإذاعة بدا من التحرك لمحاولة إمتصاص سخط المتعاملين مع الإذاعة من أهل الغناء، وكان من ذلك ما كتبت عنه مجلة «روز اليوسف» في عددها رقم (١٠٣٢) الصادر في ١٩٤٨/٣/٢٤م، تحدثت المجلة عن اجتماعين عقدا بين مدير الإذاعة وبين أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب - كل على حدة - لدراسة قرارات المجتمعين في نقابة الموسيقيين من أهل الغناء، فلم يسفر أي من الاجتماعين عن حل للأزمة ، بل إن المجلة أشارت إلى أن عبدالوهاب غادر مكتب مدير الإذاعة بعد الاجتماع غاضبا (ص ٣٥).

أوشك النصف الأول من عام ١٩٤٨ م على الانصرام، ولم تبد في الأجواء المصريةأية بوادر لحل الأزمة التي شغلت أهل الغناء . وعندما حاورت مجلة «روز اليوسف» مدير الإذاعة محمد قاسم بك حول تلك الأزمة، ونشرت المجلة ذلك الحوار في عددها رقم (١٠٣٩) الصادر في ١٩٤٨/٥/١٢م، فإن مضمون إجابات رئيس الإذاعة على ما طرحته المجلة من أسئلة حول الأزمة ، لم يخرج عن تكذيبه لما قال به البعض من أن الإذاعة قد أقرت مبدأ دفع مبلغ معين عن كل مرة يذاع فيها شريط لأغنيات أم كلثوم، وتهرب المدير خلال الحوار من إبداء رأيه في فكرة أن تدفع الإذاعة مبلغا معينا مقابل إذاعة كل شريط غنائي، لأن ذلك - وعلى حد زعم السيد المدير - لن يرفع من قيمة ما يحصل عليه المطرب من الإذاعة . وهكذا.. بدت السبل وقد سدت في وجوه الملحنين والمؤلفين وكل المطربين عدا أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب من أجل حصولهم على حقوقهم عندما حل النصف الثاني من عام ١٩٤٨م، فلم يعد هناك أمامهم من ملجأ على الأرض إزاء تحالف الإذاعة وشركة الاسطونات مع الاثنين الكبار في عالم الغناء سوى اللجوء إلى القضاء.

اللجوء إلى القضاء

اختصم زكريا أحمد في النصف الثاني من عام ١٩٤٨ كلا من الإذاعة وشركة كايروفون للقضاء، مطالبا بحقوقه المتأخرة فيما بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٤٧، عن إذاعة وتداول ألحانه لأم كلثوم وبعض المطربين والمطربات، وقد استند زكريا في دعواه إلى عقد وقعه مع الإذاعة إبان بدئها، حيث نص العقد على حصول زكريا أحمد على ٥٪ من أجر أي مطرب أو مطربة في مقابل تقديم ألحانه لهم بالإذاعة، وقد استثنى العقد أصوات أم كلثوم وصالح عبدالحي وطه الفشني، جاعلا المقابل الذي يحصل عليه زكريا نظير إذاعة ألحانه لهم محلا للتفاوض بينه وبين الإذاعة (كمال سعد : المرجع السابق ، ص ٧٠).

عمقت القضية التي رفعها زكريا

أحمد فى عام ١٩٤٨م من هوة الخلاف بينه وبين أم كلثوم، حيث كان معنى صدور حكم إبتدائى من المحكمة بقبول دعوى زكريا ، ومن ثم تحويلها إلى خبير، كان ذلك يعنى أن علاقة أم كلثوم بالإذاعة ستتأثر بشكل أو بآخر، وبمعنى آخر. فإن نهر النقود المتدفق من الإذاعة إلى حساب أم كلثوم قد وجد من يعترض مجراه ويحاول الانتقاص منه، فكان من الطبيعى أن تغضب أم كلثوم من زكريا ويحل بينهما الجفاء والخصام، وهو حال لم يكن يرضى بحال أصدقاء الطرفين وعشاق ثمار لقاء ألحان الشيخ بصوت سيدة الغناء، فأثمرت مساعى الأصدقاء صلحا فنيا كتبت عنه مجلة «روز اليوسف» فى الصفحة العشرين من عددها رقم (١١٩٠) الصادر فى ١٩٥١/٤/٣ ما يلى: «وقع صلحان فنيان هذا الاسبوع كانت أم كلثوم طرفا فيهما، الصلح الأول بينها و بين الشيخ زكريا أحمد ، وقد تم على أساس أن تقف أم كلثوم إلى جانبه فى قضيتى محطة الإذاعة وشركة كايرو فون، أما الصلح الثانى فبينها وبين الأستاذ رياض السنباطى.. وكانت الجفوة التى استمرت قرابة العام بين أم كلثوم ورياض السنباطى بسبب ما تردد فى الوسط الفنى من هجومه على أم كلثوم وتأييده - سرا - لقضيتى الشيخ ضد المحطة والشركة، ولكن ذلك الصلح لم يكن من الشفافية بمكان حتى يجلو ما علق بقلبى زكريا وأم كلثوم، ويرسى أساسا قويا لعلاقة قد تمتد لسنوات وسنوات، ومن الواضح الآن أن ذلك الصلح لم يتطرق إلى أساس المشكلة، حيث استمرت أم كلثوم تقبض من الإذاعة مقابل ما تتغنى به من ألحان زكريا فى حفلات حية أو عبر أشرطة مسجلة، فى الوقت الذى لم يكن بيد زكريا من شىء سوى تسجيل بيان ما أذيع من ألحانه وما دخل حساب أم كلثوم مقابلا لذلك، ولم يكن أمام زكريا من حل سوى اللجوء من جديد إلى القضاء، ليضيف أم كلثوم إلى خصميه فى القضية الأولى.

أدخل زكريا أحمد أم كلثوم خصما ثانيا مع الإذاعة فى الدعوى رقم ٣٥٢٥ لسنة ١٩٥١ «كلى مصر» ، والتى قدم محاميه : عبدالرحيم غنيم العريضة الخاصة بها إلى الدائرة الخامسة عشرة فى محكمة القاهرة الإبتدائية بتاريخ ١٩٥١/١٠/١٥م، وقد اشتملت تلك العريضة على الطلبات التالية: الزام المدعى عليهما (الإذاعة وأم كلثوم) متضامنين بأن يدفعا للمدعى «زكريا أحمد» مبلغ ٤٣٤٤ جنيها و ٦٦٦ مليما - إلزام السيدة أم كلثوم إبراهيم بأن تدفع للمدعى مبلغ ٤٥٦ جنيها وإلزام هيئة الإذاعة المصرية وحدها بأن تدفع للمدعى مبلغ ٨٨٩ جنيها و ٣٠٠ مليم، وذلك نظير حقوق زكريا لدى الإذاعة وأم كلثوم خلال الفترة فيما بين سنتى ١٩٣٧ و١٩٤٧ م (كمال سعد : المرجع السابق . ص ١١٠)، وفى أثناء نظر القضية حدث ما يستوجب تعديل صحيفة الدعوى، كان ذلك بسبب قيام الإذاعة بالاتفاق مع أم كلثوم على إحياء حفل بمسرح حديقة الأزبكية من مساء ١٩٥٥/٢/٣، حيث

شـــدت أم كلثوم فى ذلك الحفل برائعة زكريا أحمد : «الآهات»، وفيما بعد أثبت خبير انتدبته هيئة المحكمة أن جملة ما حصلت عليه أم كلثوم مقابل إحياء ذلك الحفل قد بلغت ١٠٢١ جنيها و ٣٨١ مليما، بينما كان نصيب الملحن ومن قبله المؤلف : لا شىء، وبناء على تلك الواقعة التى تمس القضية المعروضة أمام القضاء، قام محامى زكريا أحمد بتعديل الدعوى الأولى التى قدمها للمحكمة بدعوى جديدة حملت رقم ١٢٧٦ لسنة ١٩٥٥ م «كلي مصر» وذلك بتاريخ ١٩٥٥/٢/٢٧ م (كمال سعد : المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١١)، وقد قضت المحكمة فى جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٥٥/٢/٢٧م، برفض دفوع المدعى عليهما (الإذاعة وأم كلثوم) والخاصة بعدم قبول الدعوى وببطلان صحيفة الدعوى، وقد قضى حكم المحكمة أيضا بتأجيل الفصل فى طلبات المدعى «زكريا أحمد» لحين ورود تقرير الخبير الذى انتدبته هيئة المحكمة، وكانت المحكمة قد انتدبت الأستاذ محمد فتحى : مدير معهد الموسيقى الشرقى للإطلاع على برامج الإذاعة وحساباتها ، وتعد تلك القرارات للمحكمة بمثابة حكم إبتدائى لصالح زكريا أحمد.

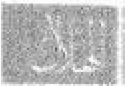
جلسة تاريخية

استمر نظر القضية أمام المحكمة حتى مطلع عام ١٩٦٠م، انقضت تلك السنوات فى تبادل المذكرات بين محامى زكريا أحمد وكل من محامى الحكومة (دفاع الإذاعة) ومحامى أم كلثوم ، وانقضت تلك السنوات أيضا فى طلبات التأجيل وتغيير الخبراء.. بل وفى تنقل القضية بين أكثر من دائرة فى المحكمة ، حتى جاء ميعاد حسم القضية فى ١٩٦٠/١/٢٥م بعد أن تأجلت ولآخر مرة فى جلسة ١٩٦٠/١/١٧م، كانت الدائرة المدنية المنعقدة برئاسة الأستاذ عبدالغفار حسنى وسكرتارية السيد محمد الرشيدى قد حددت الجلسة المنعقدة ظهر ١٩٦٠/١/٢٥م لمناقشة كل من زكريا أحمد وأم كلثوم فى القضية ، وفى الميعاد المحدد، حضرت أم كلثوم إلى مقر المحكمة فى سيارة محاميها: مختار قطب، اخترقت أم كلثوم بصعوبة حشود الجماهير لتدخل إلى المحكمة من الباب الخاص بدخول المستشارين والقضاة! وفى القاعة - حيث كان زكريا أحمد ينتظر مع محاميه : عبدالرحيم غنيم - تزاحم الجمهور المتطلع لحضور الجلسة، مما إضطر القاضى: عبدالغفار حسنى للاستعانة بحرس المحكمة لإخلاء القاعة من الجمهور، وقد وصف على الخواص فى موضوع كان عنوانه : «الصور تتكلم» وجاء بالصفحة العاشرة من عدد صحيفة «الأهرام» الصادر صباح ١٩٦٠/١/٢٦م ما حدث بالقاعة فقال : «استمرت المناقشة خمس ساعات ، بذل القاضى جهدا كبيرا، انتهى بعقد اتفاق خاص بينهما تفاهما فيه على التعاون المشترك بين الاثنين لخدمة الفن.. يقوم الاستاذ زكريا بتلحين ثلاث أغنيات لأم كلثوم بمبلغ رصد فى الاتفاق أنه سبعمائة جنيه عن كل لحن بحيث يتم

تلحين ثلاث أغنيات خلال عام ١٩٦٠م، وعلى هذا تنازل زكريا عن دعواه قبل أم كلثوم وإبرائها من الحكم الذى صدر له فى عام ١٩٥٨م ضدها هى والإذاعة بدفع ٢٠٠ جنيه عن أغنيتى «فرحة الشرق» و«حبيبى يسعد أوقاته». كما تنازل عن جميع طلباته ضد أم كلثوم فى قضايا الإذاعة وحفظ حقه فيما حكم له به ضد الإذاعة، أثبتت المحكمة هذا التنازل، وقررت تأجيل نظر القضية بالنسبة للإذاعة وللمطربين الآخرين لجلسة ١٣ مارس القادم، وهكذا أسدل الستار على واحدة من أشهر قضايا أهل الغناء، طالت مدة تداولها أمام القضاء لأكثر من تسع سنوات، وعندما انتهت بالصلح بين الشيخ وسيدة الغناء العربى.. كانت أسباب حدوثها قد انتفت بظهور جمعية المؤلفين والملحنين واستقرار الأسس القانونية لحق الأداء العلنى، ليعتدل ميزان الأمور.. فينال المؤلف والملحن حقوقهما المشروعة من استغلال المصنف، وينحصر حق المطرب فيما يتقاضاه عند تسجيل العمل وما يستحقه من عائد الطبع الميكانيكى.

من الخاسر؟

لم يمهل القدر زكريا أحمد كثيرا بعد جلسة الصلح التاريخية حتى ينفذ ما اتفق عليه من أعمال، حيث قدم لأم كلثوم بعد القضية لحنه الوحيد لطقطوقة «هو صحيح الهوى غلاب» التى نظمها محمود بيرم التونسى، وتغنت أم كلثوم بهذه الطقطوقة التى صاغها زكريا أحمد من مقام «الصبا» فى الحفل الذى أقيم مساء ١/١٢/١٩٦٠م ، إن مقام «الصبا» الذى صاغ منه زكريا لحن هذه الطقطوقة الخالدة تعجز عن أدائه جميع الأصوات الناعبة من حولنا الآن، بل إن الناقد الراحل كمال النجمى يذكر فى كتابه : «الغناء المصرى - مطربون ومستمعون» أن غالبية الملحنين يتجنبون التلحين من هذا المقام (ص ٣٩٨) ويذكر النجمى أن موسيقار الأجيال: محمد عبدالوهاب والملحن الكبير محمد القصبجى وكثيرا من ملحنى العصر الذهبى للغناء المصرى فى القرن العشرين كانوا يتجنبون التلحين من هذا المقام ، وحده زكريا أحمد وقلة من ملحنى ذلك العصر مثل فريد الأطرش وأحمد صدقى من نجحوا فى صياغة أغنيات كاملة من ذلك المقام، ولم تكن أصداء تصفيق الجماهير لنجاح «هو صحيح الهوى غلاب» قد انمحت من أذن زكريا أحمد، حتى وافته المنية فى ١٤/٢/١٩٦١م، وقبل أن ينفذ ما إتفق عليه مع أم كلثوم فى قاعة المحكمة، وبرحيل زكريا أحمد ومن بعده أم كلثوم.. لم يعد الأساس خلافهما - النقود - من قيمة يعتد بها، ولكن الخسارة عند جمهور الغناء الأصيل، كانت أفدح، فمن يعوض الجمهور عن سنوات تسع كانت ستتلألأ بروائع مثل هو صحيح الهوى غلاب؟، لا جواب!. ■





أفرينوه
إسماعيل باشا
والخديو عباس
بقلم
حسين الطماوي

الباحث فى مجال الطبائع البشرية يهفو إلى استقراء سير العشاق ليتعرف على أنماط السلوك، وأطوار النفوس، وأنواع الأمزجة، ويلم بالبواعث والأحوال، لأن الحب يكشف عن النزوع الطبيعى فى نفوسنا، وإرادة الحياة عندنا، ويؤثر فى السلائق، ويغير فى الطبائع، ولأنه عالم الأهواء الجامحة والنزوات الصاخبة، فإن الذات تنطلق فى رحابة من عقالها، وتعبر فيه على سجيتها، وفى هذا متسع للدرس والتأمل.

والباحث فى هذا المجال يجد صنوفا من الحب من بينها حب عاشق لمعشوق لا يبادله نفس الشعور مما يجعله منتكسا مرتدا إلى فراغ. والملاحظ أن العاشق الفاشل لا يروض نفسه على النسيان، وإنما يفضل أن يعيش محبطا خائرا ويطيب له أن يتحدث عن لوعاته، ويصرح بآلامه وأشجانه ظنا منه أن هذا قد يعطف المحبوب عليه، والحقيقة أن المعشوق الساهى لا تعنيه آلام العاشق المقهور، أسوق هذا الحديث لأننا نتناول هنا عدداً من العشاق يتبادلون مشاعر الحب بينهم، وهم إسماعيل صبرى باشا، والكسندرا أفرينوه والخديو عباس.

الكسندرا أفرينوه (١٨٧٢-١٩٢٧)

كانت الأميرة الكسندرا الخورى (نسبة إلى أسرتها) أو الكسندرا أفرينوه، (نسبة إلى زوجها) تقطن فى زيزنيا بالثغر السكندرى، وكانت أديبة شاعرة وكاتبة مسرحية ومترجمة لأنها تتقن الإيطالية والفرنسية، وصحفية أصدرت مجلة «أنيس الجليس» باللغة العربية، ما يقرب من تسعة أعوام (من يناير ١٨٩٨-١٩٠٧) ومجلة «اللوتس» بالفرنسية. وجريدة «الاقدام» التى أسندت تحريرها إلى الشاعر ولى الدين يكن ولم تعمر طويلا.

والكسندرا امرأة عصرية خفيفة الظل، تمارس الرياضة البدنية، وتركب الخيل، وتحتسى الخمرة وتدمنها، وتتغزل فيها قائلة: «رائدة السرور، ومنشئة اللهو، وجامعة الفرح إذا شربها الإنسان طابت نفسه، ولطفت أخلاقه، وحسنت محادثته، وأذهبت جفاءه وخشونته، وكثيرا ما تغير طباع المرء حتى ليصنع وهو شاربها فى يوم ما كان يعجز عنه

فى أيام...» (أنيس الجليس ١٩٠٠).

وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت كوكبة من النسوة العربيات المستنيرات المتحررات اللاتى نفضن عن أنفسهن غبار الماضى، وأشرقت عليهن أنوار المعرفة، وتفجرت فى أفئدتهن ينابيع الرجاء، وتراءت لهن صور جديدة للمستقبل، وأقمن فى بيوتهن أو قصورهن صالونات أدب وثقافة من أمثال مريانا مراش الحلبية، ومريم نمر، وياقوت بركات أو ياقوت صروف، ونازلى فاضل، والكسندرا أفرينوه، والتف حولهن عدد من الأدباء والمصلحين وناقشوا جميعا قضايامهمة فى الأدب والعلم والاجتماع والسياسة. وكان هؤلاء النسوة السافرات زينة هذه الصالونات وبهجتها، تتأنق الواحدة منهن وتتألق وتخطر بين ضيوفها فى رشاقة وخفة ثم تجلس بينهم وهى تفيض أنوثة وفى كامل زينتها، وكل عضو فيها مطل على عيون النظارة، وكان هذا المنظر الخاص المؤثر فى العواطف غير مألوف فى المجتمع، فلا جرم أن تعلق الشعراء أو بعضهم بهؤلاء النسوة أو ببعضهن، وجاءت أغانيهم تحمل الهوى والجوى.

كان رواد نادى الكسندرا يطرونها ويثنون على حسنها، ولم تكن تستنكر منهم أن يتغزلوا فيها، ولا تحتج إذا ذكروا فى غزلهم قدها المثمر، وحسنها البديع، وخدها الوردى، وثغرها المرصع، ولحظها الفتاك، يقول أمين الحداد (سركيس ١٩٠٦) وهو أحد رواد ناديها.

أري لك وجها يجمع الحسن كله
بديعا ورأسا يجمع الحلم والهدى
وقدا لو الأطيار تدرى ثماره
لما عليه كل طير وغردا
وخدا كأن الورد أبصر حسنه
وقد خامرته غيرة فتوردا

إلى آخره، أما الشاعر المرهف إسماعيل صبرى فيقول وقد استشعر لطفها وحسنها واستعذب حديثها

واسفري تلك حلي ما خلقت
لتواري بلثام أو خباء
وابسمي من كان هذا ثغره
يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء
وانزعي عن جسمك الثوب بين
للملأ تكوين سكان السماء

ولا يقف صبرى باشا عند هذا الحد وإنما يذكرها وهى تخطر فى مشيتها وترفع يدها وتخفضها

واخطري بين الندامي يحلفوا
أن روضا راح في النادي وجاء

ويعرب عن اعجابه بجسمها وانسياله فيقول من هذا الغزل المكشوف:

زيني الندي وسيلي في جوانبه
لطفا يعم رعايا اللطف رياه

وتأمل عبارته «سيلى فى جوانبه» التى تظهر أنه كان يطالع منحنياتها وأعطافها وحركاتها. والانسيال يعنى به انسيال لفظها ولحظها، واسترسال قدها فى سلاسة، وتمايله وتثنيه فى رشاقة وفى هذا ما فيه من التأثير والإثارة، وهى

بكل ما وصفه بها الشعراء تعرف كلمة السر التي تفتح القلوب.

إسماعيل صبري
(١٨٥٤ - ١٩٢٣)

كان إسماعيل صبرى باشا شيخ الشعراء إبان نشأة الكسندرا الأدبية محافظا للاسكندرية فى الفترة من فبراير ١٨٩٦ - نوفمبر ١٨٩٩. وفى خلال هذه الفترة عرف طريقه إلى حى زيزنيا حيث صالون الأميرة الكسندرا تسبقه شهرته الأدبية ومكانته الاجتماعية، وتكررت زياراته للصالون لصاحبته، وراقته فصاحتها وشاعريتها فاستمع إليها، ونبه جمالها عينيه فحدق فيها، وشيئا فشيئا تفتح بها قلبه، وثوى حبه لها بين جنبيه، ولم يمض طويل وقت حتى استمكن منه هذا العشق «وصار شغلا شاغلا»، ووجد نفسه يستلهمها، ويصوغ الشعر من وحيها ويقول:

هل النعيم سوي يوم أراك به
أو ساعة أقضيها بناديك
إن قابلتك الصبا في مصر عاطرة
فا يقيني أنها عني تناجيك
وأنها حملت في طي بردتها
قلبا بعثت به كيما يحييك

لكن هذا الشعر الذى طهره العفاف، ولابد أنه أطلعها عليه، لم يجعل نفسها تشف وترق، ولم يترك فيها أثرا، ولما كان ضيوف ناديها من الشبان والكهول فإن نظرها كان يتجه إلى الشبان، وهذا دأب المرأة سواء أكانت صغيرة فى العمر أم كبيرة، ولما كان صبرى باشا يكبر الكسندرا بنحو عشرين عاما، فقد أولت اهتمامها لمن دونه سنا، مما أثار حفظيته، فعاتبها ونبهها إلى مراعاة العدالة حين توزع التفاتاتها وكلماتها فى النادى يقول:

إن هذا الحسن كالماء الذي
فيه للأنفس ري وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده
دون بعض واعدلي بين الظماء

ولكن المحب لا يعرف العدل بين المعجين والمحبين، وإنما يميل إلى من استهواه وارتضاه، وكان شيخ الشعراء يرى فى مجاوبتها له عافية من مرض أحرق كبده، وراح ينشد الشعر لعله يطرب سمعها، ويرطّب قلبها: فتجازيه على حبه لها، بيد أنها أعرضت عنه، والمحب المقهور بطبيعته لا يمل من التماس الود، ومخاطبة معشوقه بالرفق، يقول صبرى:

يا راحة القلب يا شغل الفؤاد صلي
متيما أنت في الحالين دنياه

ومثل هذا القول يشفع عند محبوب يحب، ولكن إذا كان المحبوب تحلق روحه فى أجواء أخرى، فلا فائدة من النداءات وإن تكررت، وكان صبرى باشا ينشر فى بعض الدوريات مقطعات تتعلق بها، وأخيرا وقف على الحقيقة، فقد أخبرته بأنها لا تشاطره حبه لأن زمنه تولى.

ومعظم القصائد الغزلية المؤرخة قبل عام ١٩١٣ فى ديوان إسماعيل صبرى المطبوع عام ١٩٣٨ قيلت فى الكسندرا،

وتواريخ النشر لا تدل على تواريخ النظم، فقد ينظم الشاعر قصيدة أو مقطعة الآن، وتظهر في الدوريات فيما بعد. وأود أن أشير إلى أن ما قيل من أن مجلة «أنيس الجليس» توقفت عام ١٩٠٤ خطأ أو أنها تعطلت بعد مرور خمسة أعوام على صدورها خطأ أيضا. والقول بأن إسماعيل صبرى كان ينشر فيها شعره خطأ فلم ينشر فيها شيئا. وهناك من يخلط بين ما قاله صبرى باشا فى الكسندرا وبين ما قاله فى «مى زيادة». ويجب التنبيه إلى أن شيخ الشعراء لم يعرف «مى» إلا بعد أبريل ١٩١٢ أى بعد أن ألقت خطبتها فى حفل تكريم خليل مطران وذيوع صيتها وانعقاد صالونها نتيجة لشهرتها. وقد ذهب أحد الكتّاب الأفاضل إلى أن قصيدة صبرى

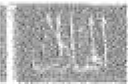
أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة
ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا
حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

قيلت فى «مى زيادة» والحقيقة أن هذا الشعر نشر عام ١٩١١ أى قبل أن يرى صبرى باشا «مى» والصحيح أنها قيلت فى الكسندرا التى نسيته. وأما «مى» فلم يكن بينها وبين صبرى باشا جزر وهجر، نعم نظم فيها الشعر ولكن كغيره ممن نظموا وكتبوا عنها، وقد ظلت على علاقة طيبة معه إلى أن فارق الحياة، وبعد موته رثته بمقال نشرته مجلة «المرأة الجديدة» (سبتمبر ١٩٢٣) وجمعته فى كتابها «الصحائف». وجو القصيدة يناسب الكسندرا التى لم تذكره فى حياته ولا بعد مماته إلاّ مرة واحدة عندما أخبرته بأنها لا تحبه لكبر سنه. وهناك أشياء أخرى يجب تصحيحها عن الكسندرا ولكن ليس هنا مجاله.

الخديو عباس وأمانة الحب:

وإذا كان إسماعيل صبرى من كبار رجال الدولة وشغل مناصب عليا مثل منصب النائب العام ومحافظ الاسكندرية ووكيل وزارة الحقانية (العدل)، فإنه ليس أعلى من عرفته الكسندرا، فقد كانت الأميرة الكسندرا على صلة وثيقة بكبار الشخصيات العالمية فى السياسة والكتابة.

ويكفى أن نشير إلى أن «لوبه» رئيس جمهورية فرنسا دعاها إلى حفلة راقصة فى قصر الاليزية، وأنعم عليها السلطان عبدالحميد بوسام الشفقة من الطبقة الأولى (غران كردون) وهو وسام لا تناله إلا نساء الملوك والوزراء بسبب خدمة أزواجهن، ومنحها مظفر الدين شاه إيران وسام «شرفت» وأنشأه خصيصا لها وأطلق عليها «نجمة الشرق» أو «كوكب الشرق» وبعث إليها صورته وعليها توقيعه، وأرسل إليها سلطان زنجبار بصورته وعليها توقيعه، وأعطاها البابا ليون الثالث عشر وسام القديس بطرس، عدا صلاتها بالملك إدوارد السابع ملك الانجليز وغيره من وزراء أوروبا والكرادلة والبطاركة ومن هذا كثير.. كثير.. وكانت على صلة بكبار كتاب فرنسا ومنهم شارل رو المؤرخ



والسفير ورئيس هيئة قناة السويس، وكان من كتاب مجلتها «اللوتس» الناقد الشهير جول ليتر وجول كلارسي أحد أعضاء المجمع العلمي الفرنسي.. إلى آخره. ويستطيع القارىء أن يتعرف على علاقات الأميرة الكسندرا بأعيان العالم والأوسمة التي حازتها .. فما كتبه عنها أحمد محرم وولي الدين يكن في (فتاة الشرق ١٩١٥) وخليل زينيه في «المصور» سنة ١٩٠٧، وكل هذا له دلالات كثيرة يعنينا منها أنها امرأة طموح، تتطلع إلى الشخصيات الكبيرة، فإذا تفتح قلبها فإنما يتفتح على شخصية لها وزن من ذكرناهم أو أقل قليلا. فلا يملأ عينيها محافظ مدينة يهديها القيل والقال.

وقد أخبرني محمد سيد كيلاني أثناء صحبتي الطويلة له أنها كانت تحب الخديو عباس (١٨٧٤-١٩٤٤) وفاتني أن أستفسر منه عن مصدره، وربماكان هذا صحيحا فهناك شواهد تؤيده، وقد ذكرالزركلي في «الاعلام» أن الملك فؤاد أمر بتفتيش بيتها ومصادرة ما فيه من أوراق وأمر بطردها من البلاد لصلتها الوثيقة بالخديو عباس، وسواء أكان هذا هو سبب طردها من مصر أم كان هناك من الأسباب غيره، فإن هذا يفيد بأن علاقتها بالخديو كانت علاقة غير عادية.

ومن يتصفح أعداد مجلة أنيس الجليس طوال فترة صدورها يجد مادة شعرية وافرة في مدح الخديو، وتهنئته بأعياد الجلوس، وسلامة الوصول من سفر، وحلول الأعياد، والشفاء من مرض، وإذا رزق بمولود إلى آخر هذه المناسبات. وكان الخديو يدعوها إلى حفلات رقص الباليه التي كان يقيمها في قصر رأس التين كل عام في هذا تقول:

أيا قصر رأس التين باكرك الصبا
وحييت ملهي للنفوس وملعبا
لنا فيك كل عام ليل كأنما
يرد علينا حسنه زمن الصبا

ويقول أحمد محرم وولي الدين يكن: «.... وما قصدت الأمير السابق (الخديو عباس) بمطلب إلا أجيب بالقبول، وكانت تذهب إلى قصره وتحظى بمقابلته كما يقابل عظماء الرجال، وقد أهداها صورته وعليها خطه دلالة على إعجابه بها.. كذلك نالت الميدالية الفضية من لجنة عيد الجلوس الخديوي» ولم تنل امرأة في زمن عباس الثاني ما نالته الكسندرا وكانت هناك هند نوفل وملك حفني ناصف وزينب فواز ووردة اليازجي وسعدية سعد الدين ولبيبة هاشم وغيرهن من الكاتبات والصحفيات والشواعر، وقد يكون كل ما صدر عن الخديو رداً على مدائحها له، أما هي ربما كان لها تفسير آخر.

ولا ينتظر منا القارىء أن نأتي له بدليل مادي ملموس لنبرهن على حب الكسندرا للخديو فلم يكن ممكنا لها أن تتغزل فيه على صفحات الصحف وهو أمير البلاد، وإذا كان لابد من شواهد أخرى فليقف عند مسرحيتها «أمانة

الحب»، وهي مسرحية مخطوطة ذكر أحمد محرم وولي الدين يكن أنها من تأليف الكسندرا، واستكشفها د. سيد علي إسماعيل وتفضل مشكوراً باعطائي صورة منها، وهي قيد الطبع.

وقد دأبت الشواعر العربيات على المواربة عند التعبير عن الحب، فقد بينت «مي زيادة» أن الشاعرة وردة اليازجي تنظم شعرا في صديقة والكلام فيه موجه إلى صديق لتكتم عواطفها، وأظهر سيد كيلاني في «فصول ممتعة» أن عائشة التيمورية إذا تغزلت في رجل ذكرت الحواجب والوجنات والخصر النحيل والأرداف المكتنزة، ويخلص إلى أنها «تقمصت شخصية الرجل وخلعت عنها أنوثتها» أي تتغزل في أنثى وتخفي ذلك، والكسندرا اختارت هذه الطريقة المواربة، ففي مسرحيتها «أمانة الحب» تبين أن الدونا ايميليا الأسبانية ابنة الدوق تعشق أمير البلاد الأسباني ولا تعرف إلى قلبه سبيلا، ويعشقها البارون ولا تكترث به. ويخيل إليّ أن ايميليا هي الكسندرا، والأمير الأسباني هو الخديو، والبارون هو محافظ الاسكندرية إسماعيل صبري، غيرت الأسماء الحقيقية، ونقلت الأحداث إلى أسبانيا، ومما تقوله ايميليا إلى الأمير الأسباني.

إذا كان الذي يهوي جميلا
بلا مال أما يكفي الجمال
وإن كان الحبيب جليل قدر
ايمنعه عن الحب الجلال
ألا يكفي الجمال لعقد حب
يكون به لقلبينا اتصال

في هذا الشعر تشعر العاشقة بالنقص وتدرك الفرق الشاسع بينها وبين الأمير، وتود أن تصرف ذهنه عن مكانتها الاجتماعية التي هي دونه وعدم ثرائها، وترى أن جمال المرأة خير قرين لجلال الرجل، فالرجل جماله في روعته وهيبته والمرأة جمالها في رقتها وأنوثتها ومن هنا لماذا لا يكون بينهما حب واتصال، فايميليا أو الكسندرا تعاني من البون الكبير بينها وبين الأمير الحاكم وترى أنه العقبة التي تجعل الأمير لا يحبها وهي في هذا الشعر ترى أن المرأة تعلو منزلتها بالجمال وليس بالمال وفاتها أن تذكر العلم.

وفي المسرحية يحب البارون ايميليا، أما هي فإنها جافية صادة له، ولما أتعبه الهوى قال لها:

بحق عينيك قفي واعطفي
وكلمي العاشق أو سلم
أولا فإني مالت حسرة
أقضي شهيدا في الهوي واسلم

وقول البارون هذا لايميليا قريب من قول إسماعيل صبري لالكسندرا:

أهاجرتي أطفئي
لواعج لا تنتهي
إذا قيل مات الأديب
بفاتنة أنت هي

أما الأمير فله معشوقة أخرى ويقول عن ايميليا

رماها الهوي في حب من لا يحبها
كما في هوي من لا تحب رمي بي

وأعتقد أن هذا البيت الذى قالته الكسندرا على لسان الأمير يلخص حكايتها مع الخديو أو حكاية الخديو معها، فهى تحبه وهو يحب أخرى. وفى نهاية المسرحية وبعد حيل فنية يتزوج الأمير من ايميليا وهذا الختام من المقتضيات الفنية فى التأليف المسرحى إذ لابد للمسرحية من نهاية. وكان مقدرا لهذه المسرحية النثرية أن تمثلها فرقة اسكندر فرح لذلك تضمنت أشعارا كثيرة ليغنيها الشيخ سلامة حجازى مغنى الفرقة. وهذه الأشعار مفيدة لأنها تعطينا صورا من الشعر الوصفى والعاطفى الذى نفتقده فى شعر الكسندرا المنشور فى «أنيس الجليس».

الكونتيسة النمساوية

ومهما يكن أمر العلاقة العاطفية بين الكسندرا الطامحة وأمير مصر عباس الثانى، فإن الأخير كانت له صبواته مع كونتيسة نمساوية فى قصر «شيبوقلى» بتركيا، وقد حدثنا محمود زكى باشا، ويظهر أنه من المقربين إلى الخديو عن هذه العلاقة فى مقال نشرته مجلة «مصر الحديثة المصورة» (فبراير ١٩٢٨) جاء فيه: «فى عام ١٨٩٣ ذهب الخديو عباس إلى الأستانة واستقبله السلطان عبد الحميد وبعد مضى أعوام كان الخديو فى قصره بـ «شيبوقلى» المشرف على البسفور وأنفق فى سبيل تجميله مبالغ كبيرة، وكانت إلى جانبه الكونتيسة النمساوية، ودار بينهما حديث طويل فى السياسة والخلافة وجمال قصر الخديو ثم قالت: لا جرم أن السعادة الحقيقية والهناء والصفاء إنما تكون فى المحبة وراحة البال لا فى مثل هذه القصور الجميلة، أو هذه المناظر الرائعة وجمع المال، وما كاد يسمع الجناب العالى هذه الكلمات حتى تنهد وأنّ قائلا: هكذا أنا أعتقد، وأن أعظم سلوى لى ليست هذه المناظر الجميلة فحسب بل صدق محبتك لى، فأنا أهنئك بهذه المنزلة العالية من اللطف والكياسة فضلا عن رقة الشعور والجمال الساحر الفتان والذكاء النادر وخفة الروح. وأشكر لك عنايتك بى».

ويضيف زكى باشا قائلا: «كانت الكونتيسة النمساوية آية فى الجمال، وكان شعرها الناعم الكستنائى النادر فى النمساويات، وعيناها النجلاوان تزيد سيماها الجميلة جمالا ورشاقة...» ثم يقول: «ومضت على هذه الحوادث عدة أعوام وجلس الجناب العالى بعد الحرب العمومية الكبرى فى قصر شيبوقلى وجرت هذه الذكرى فى خاطره فأخذ يترحم على عبدالحميد وعلى أيام الكونتيسة.. وعلى ملك أضاعه، وصار يردد تلك الجملة التى كان سمعها من الكونتيسة وهى أن السعادة الحقيقية والهناء والصفاء إنما تكون فى المحبة..»

ومرت الأيام بكل هؤلاء العشاق، وطويت أسرار كثيرة وبقيت فى الطروس آلام إسماعيل صبرى، وآمال الكسندرا فى استمالة أمير البلاد، وترحم الخديو على أيام الهناء مع الكونتيسة. ■

الفرص تتجدد دائمًا

بقلم
إبراهيم عبد المجيد



بدا الطفل الصغيرة الهشة تعجن في قلبه. شيء يريد أن يخرج من صدره. آهة. صرخة. دمعة. أي الرجال الضعفاء هو؟ أي الرجال الأقوياء. يعرف أن الحياة لا تعطي أحدا الفرصة طول الوقت. يعرف معنى القضا التراجيدي وعواقبه. لكن من ذلك الشيطان الذي جعل حياته ضيقة إلى هذا الحد؟ لا يستطيع أن يبني لنفسه حياة مرة أخرى، ولا يستطيع أن يهدم حياته. فسنته العجيبة إذن ليست أكثر من نزوة.

في البداية اعتقد أنه وجد نفسه قادرا على الابتعاد عنها هو الرجل الذي غادر الأربعين بخمس سنوات. لكنه دائما يقابلها في الطريق. في أماكن لا يتوقع فيها وجودها. بعد انقطاع طويل وجدها جالسة في المطعم اليوناني الصغير مع صديقة لها جوار سينما أوديون. ما الذي جعله يقرر دخول هذه السينما التي انقطع عنها زمنا طويلا ويعود لعادته القديمة. الغداء في المطعم اليوناني؟ لطالما فعل ذلك حينما كانت السينما تعرض الأفلام السوفيتية. سينما عجيبة حقا. اختارها السوفييت مدركين موقعها الممتاز. لكن الذي حدث أنه لم يتردد عليها الناشطون بل تردد عليها العشاق من كل الأعمار. طلبة مدارس وجامعات وموظفين وعمال وحرفيين مطرودين من الجنة من كل مكان على الشاشة كانت تجري وقائع الحرب العالمية الثانية دائما، وانتصار السوفييت دائما. وعلى المقاعد تجري وقائع الحب. أصوات الرصاص من الشاشة لا يسمعها أحد، وأصوات القبلات تدوي في كل مكان. لقد تخلت السينما عن أفلام السوفييت قبل البيريسترويكا بزمان.

– هل تدخلين هذا الفيلم الأمريكي؟

– أجل. جئتنا من أجله.

– إنه فيلم كاراتيه.

– نوع من الجنون. خروج عن المألوف. مللت الأفلام الجادة.

– وأنا أيضا.

تذكر أنه أخبرها يوما عن عادته القديمة في الغداء بهذا المطعم. هل تكون قد تذكرته؟ لابد. أحس ببعض الثقة. كانت هي قد حجزت مكانين لها ولصديقتها. وجد لنفسه مكانا بالكاد. حشد الصبية والشباب لا يصدق. وقفوا أمام السينما قليلا. رآها مسرورة كما يراها دائما. عيناها العسليتان لامعتان مزهرتان وشفتاها الصغيرتان الكثيرتان لا تكفان عن الابتسام البهيج. لقد عاد إلى جمال الفتى الرائق يكاد ينكمش أمام جرأتها مع أنه لو وضعها في صدره لاختفت تماما كيمامة صغيرة وادعة. هي حقا في حجم اليمامة وهو يشتهيها بعمق. يكاد ينحني يلتقطها قبة خاطفة في الطريق وأمام حشد المنتشرين تحت الشمس البيضاء. ليس هذا مناسبا لمن هو في عمره وهي أيضا ليست صغيرة في العمر، لكنها لا تبدو

أكبر من فتاة في العشرين. هى رياضية من زمان وهو كسول من زمان. لقد أمضت نصف حياتها في النادي، وهو أمضى كل حياته في السرير يخلق القصص الوهمية ويهيم مع أغاني عبدالحليم حافظ. في السينما لم يجد فرصة للجلوس جوارها. امتلأت السينما ووجد فكرة أن يطلب من الجالس جوارها أن يبدل مكانه معه فكرة سخيفة، تسلل بهدوء في الظلام خارجا. سيراها بالتأكيد مرة أخرى. فرصة ثانية من اللحظة التي يبدأ فيها في النسيان..

****

هذه المرة لا يريد أن ينسى. يختنق من عدم وجودها.

ما الذي يمنعه من البوح بالحب. لابد أنها تنتظر منه ذلك.

ذات الوجه الأسمر الصغير المستدير الطفولي، ذات الابتسامة العذبة البهيجة. ذات الجسد دقيق الخصر بديع التقسيم.

هذه امرأة خلقها الله فأحسن التكوين. قطعة نحت رومانية فوقها ثياب من تحتها تتسلل دعوات الحب. هي الإحساس القديم بأن العالم متسع أبيض مليء بالزهر والفراشات الملونة. هي عذاب السهر وانقضاء الليل بعين مفتوحة تستقبل نسمات الفجر بوداعة، باختصار هي الرومانسية القديمة معجونة بالاشتهاء. هكذا كلما رآها أحس بأن كلا منهما قد حل في الآخر، روحان في جسد كما يقال.. انه يشتهيها إلى درجة الارتباك في بيته. يكاد يخطىء أكثر من مرة وينادي زوجته باسمها رغم أنه لا علاقة بين اسميهما من أي نوع . صار يبذل مجهودا جبارا حتى لا يقع في هذا الخطأ، وتخلى، لا إراديا، عن عاداته الطيبة في الجلوس مع زوجته وأولاده والاستماع إلى الأغاني أو رؤية الأفلام القديمة بالتليفزيون. كان يفعل ذلك ليدفع ببعض القوة في ماكينة الزواج الهرمة، وكانت زوجته تعرف ذلك، ولكنها ترضى إذ تدرك انهما معا صارا ملكا للأولاد، أخذ ما لهم وانتهى الأمر. تقول هذه سنة الحياة فيسكت ويقول في نفسه هذا من أثر الحكومات العسكرية في العالم الثالث. ثم يبتسم ويقول، لابد أن هناك فرصة ثانية لتجديد الحياة.

****

يحتاج حقا أن يقول كلمة «أحبك». غامر وطلبها في التليفون. أتاه من الناحية الأخرى صوت غليظ. بالأصوات الرجالي البائسة. ولم يرد. في اليوم التالي ميز صوتا رجاليا آخر. الزوج والابن. لابد. وحين أتاه في المرة الثالثة صوت نسائي جميل ميز أيضا أنه ليس الصوت الذي يريده. انه صوت ابنتها. لكنها كانت أكثر شجاعة منه. طلبته في التليفون ووجدته.

- كنت أعرف أنك الذي تطلبني كثيرا هذه

الأيام ولا تتكلم.
قالت ذلك
فقال بألم.
- وحشتيني.
- انت أيضـــــا وحشتني.
- أريد أن أراك.
- أنت تعرفي عملي . ساكون هناك بعد أسبوعين حيث سنسافر كلنا إلى الغردقة.

لم يتردد. بعد ساعة عادت زوجته من مشوار في الخارج.
- ما رأيك أن نقضي أسبوعين في الغردقة؟
اندهشت جدا، ابتسمت.
- من أين لنا بالنقود؟
- لدي مبلغ كنت أدخره لمفاجأة كهذه.

رقص أطفاله طربا، وبانت السعادة على وجه زوجته. هذا مكان حالم طالما سمعوا عن جماله. البحر والعوم والغطس والصيد.

في الغردقة نزل بالفندق نفسه الذي تنزل فيه. في صالة الطعام رآها مع زوجها وأولادها ورأته مع أولاده. ابتسمت ونهضت فنهض بعدها بدقيقة. جسده كله راح يختلج.

وأمام باب المصعد وجدها واقفة.
- وحشتيني كثيرا.
- وأنت أيضا.

في المصعد لم يركب معها أحد.
- في أي دور تسكنين؟
- في الثالث غرفة ثلاثة أربعة أربعة.
- هذه هي المجاورة لنا تماما. نحن في غرفة ثلاثة أربع خمسة.
- صدفة جميلة.

قالت بصوت رقيق. توقف المصعد. أمام البابين المتجاورين للحجرتين توقفا. في اللحظة التي مدت فيها يدها تضع المفتاح في الباب مد هو يده فامسك بكفها الصغير الناعم، اختلجت يداها فانحنى وقبل اليد التي صارت باردة للغاية ثم تركها. أدارت المفتاح ودخلت غرفتها. فعل هو نفس الشيء، في غرفته أدرك أنه قام خلفها بلا هدف محدد. هو لا يعرف لماذا قامت قبله ولا يذكر أي انفعالات كانت على وجهها حين قبل يدها لأنه ببساطة لم ينظر إلى وجهها. ركز كيانه في هذه القبلة الصغيرة البسيطة.

سمع باب غرفتها يفتح من جديد ثم يغلق. سمع صوت قدميها تتجهان إلى المصعد. لم يخرج من الغرفة. سمع صوت توقف المصعد وتحركه. هل كانت تدعوه إليها وأخطأ الفهم؟. هكذا يكون قد ضيّع ما عاش ينتظره منذ ثلاثة أعوام أول لقائه بها. هو على كل حال غير نادم. لم يكن بقادر أن يفعل أكثر من قبلة على اليد. هي لم تشجعه أبدا. هل كان يريد شيئا غير ذلك حقا؟.

حين عاد إلى زوجته وولديه بالمطعم رآها تجلس مكانها بين زوجها وأولادها. كانت ترفع حينا عينيها نحوه وتبتسم. هي إذن لم تغلق النوافذ كلها وأمامه أسبوعان سيحاول فيهما من جديد. أجل. هناك فرصة دائما تتجدد بعد كل لقاء معها. ■

الشرطة

بين القانون والمعايير الإنسانية

بقلم
عبد الوهاب عبد الرزاق - بغداد

تطفو على سطح العلاقة بين الشرطة والمواطنين - بين الحين والحين - أحداث، تبدو فيها الشرطة متجاوزة دورها المتضمن في عبارة «حماية أمن وسلامة وممتلكات المواطنين»، وهي تجاوزات أقل ما توصف به في الدوائر الإعلامية أنها تصرفات من قلة غير مسئولة تسئ لأداء وشكل هذا الجهاز، وهو من هذه التجاوزات براء.

غير أنه على ما يبدو قد تجاوزت هذه السقطات، في كثير من الأحيان، الحدود المسكوت عنها، واتسع نطاقها لتتجاوز هذه القلة ولتقترب من الظاهرة العامة لطبيعية العلاقة بين الجهات الأمنية والشعوب.

بدأ الاهتمام بموضوع تجاوزات رجال الشرطة منذ فترة مبكرة، ولكنه تمثل أول ما تمثل في المؤتمر الخامس لمنع الجريمة برعاية الأمم المتحدة، والذي انعقد في جنيف عام ١٩٧٥، وبحث موضوع «الدور البارز للشرطة والأجهزة الأخرى المختصة بتطبيق القانون مع إشارة خاصة إلى التغييرات المتوقعة ومعايير الحد الأدنى للأداء الشرطي»، وتناول المؤتمر في ظل هذا العنوان مجموعة من الموضوعات أهمها علاقة الشرطة بالجمهور، والمعايير الأخلاقية في العمل الشرطي.

الأخلاق في العمل الشرطي

نال موضوع المعايير الأخلاقية في العمل الشرطي عناية متميزة بناء على طلب المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة، الذي وجه (لجنة منع الجريمة وضبطها) إلى أن تبحث مسألة «إعادة تقنين دولي لأخلاقيات الشرطة»

ثم أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ٣٢١٨ ناشدت فيه المؤتمر الخامس للأمم المتحدة لمنع الجريمة ببذل اهتمام عاجل بموضوع «إنشاء قانون دولى لأخلاقيات الشرطة والأجهزة الأخرى المرتبطة بتطبيق القانون وبالفعل ناقش المؤتمر هذا الموضوع فى إطار ثلاثة مشاريع أعدت حوله :

١- قانون للأخلاقيات تتبناه الرابطة الدولية لرؤساء الشرطة .

٢- المعايير الأخلاقية فى تطبيق القانون المقترح من قبل رابطة تطبيق القانون في الولايات المتحدة الأمريكية.

٣ - مشروع قانون أخلاقيات معد من قبل جماعة عمل من خبراء الشرطة اجتمعوا تحت رعاية الأمم المتحدة فى واشنطن .

وانتهى المشاركون فى المؤتمر إلى أن تعد لجنة من الخبراء خلال عام وثيقة جديدة بهذا الخصوص، وفعلا أنجز الخبراء واجبهم، وأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا برقم ٣٤ /١٦٩ بتاريخ ١٧ ديسمبر سنه ١٩٧٩ أعلنت فيه قواعد سلوك الموظفين المكلفين بتنفيذ القوانين، وهم رجال الشرطة وغيرهم من القائمين على أمر التنفيذ .

ضوابط عامة

أوصى المؤتمر السادس للأمم المتحدة لمنع الجريمة الذى انعقد في كراكاس عام ١٩٨٠ جميع المشاركين بتأييد إدراج بنود مذكرة قواعد السلوك في قوانينها المحلية، وجعلها في متناول جميع المعنيين، وتدرس أحكامها وغيرها من النصوص المتعلقة بحقوق الإنسان للعاملين على تنفيذ القوانين .

وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بنود المذكرة التى جاءت تلزم العاملين بالشرطة ويتطبيق وتنفيذ القوانين بعدة أمور منها :

- احترام الكرامة الإنسانية أثناء تنفيذ القوانين والمحافظة على حقوق الإنسان .

- لايجوز لرجال الشرطة أو القائمين على تنفيذ الأحكام استعمال القوة إلا فى حالة الضرورة القصوى .

- المحافظة على سرية ما فى حوزتهم من أمور ذات طبيعة سرية .

- عدم القيام بأى عمل من أعمال التعذيب أو غيره من أشكال المعاملة القاسية .

- عدم القيام بأى فعل من أفعال إفساد الذمة .

استعمال القوة

والجدير بالذكر أن لجنة منع الجريمة ومكافحتها فى هيئة الأمم المتحدة أعدت مبادئ أساسية بشأن استعمال القوة والأسلحة النارية من جانب رجال الشرطة والقائمين على تنفيذ القوانين،

ناقشها مؤتمر الأمم المتحدة الثامن لمنع الجريمة الذى انعقد فى هافانا عام ١٩٩٠، وأصدرت القرار رقم ٣٧ الذى اعتمد تلك المبادئ وأوصى باتباعها وتنفيذها على الأصعدة الوطنية والإقليمية مع مراعاة الظروف السياسية والاجتماعية لكل بلد وتقاليده، ودعا أيضا الدول الأعضاء إلى مراعاة واحترام تلك المبادئ فى إطار تشريعاتها .

وفى الحالات التى لامناص فيها من الاستخدام المشروع للقوة أو الأسلحة النارية يتعين على رجال الشرطة والمكلفين بتنفيذ القوانين مراعاة الآتى :

- ممارسة ضبط النفس فى استخدام القوة ومراعاة خطورة الجرم والهدف المراد تحقيقه .

- تقليل الضرر والإصابة واحترام وصون حياة الإنسان .

- كفالة تقديم المساعدة والإسعافات الطبية .

- كفالة إشعار الأقارب والأصدقاء المقربين للشخص المصاب .

الشرطة العربية

هذه العناية الأممية بالضوابط الأخلاقية فى عمل الشرطة كانت محل اهتمام مبكر من قادة الشرطة والأمن العربى، ففى أول مؤتمر لهم فى أبو ظبى عام ١٩٧٢، اتفقوا على تكليف لجنة خبراء عرب لوضع قواعد نموذجية لأخلاقيات الشرطة العربية بالاستعانة بالتراث العربى الإسلامى بهذا الشأن وبالفعل انجز الخبراء وضع تلك القواعد. وجرت مناقشها فى المؤتمر الثانى لقادة الشرطة والأمن العربى الذى انعقد فى عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية فى أبريل ١٩٧٤، وصدر بشأنها قرار تضمن الموافقة على الصيغة المقترحة واعتبارها أساسا صالحا لما ينبغى أن يتحلى به رجل الشرطة من آداب ومثل، والدعوة إلى تعميمها على أجهزة الشرطة ومعاهدها فى الدول العربية .

إن دور الشرطة فى المجتمع المعاصر يتميز بأنه دور مهم وفعال لايمكن الاستغناء عنه فى توطيد النظام العام ومكافحة الإجرام، يتكامل مع أدوار الأجهزة الرسمية الحكومية الأخرى ولايعمل مستقلا عنها فى أهدافه وغاياته، على أن يكون فى ظل السياسة العامة للدولة حريصا على آداب المهنة وأخلاقياتها، راعيا لكرامة الإنسان وحمايته والحفاظ على حقوقه فى جميع الأحوال، بما فيها حقوق المتهم بارتكاب جريمة .. إنه دور لايمكن أن يحقق أهدافه بمعزل عن تعاون الشعب واحترامه ورضاه .. ■

أين الحرية الأكاديمية للجامعة؟

بقلم
د. محسن خضر

كان المضمون التحررى بارزا عند إنشاء الجامعة الأهلية فى مصر، والتى تحولت فى نهاية المطاف إلى جامعة القاهرة. ومن الطبيعى أن يتسع مفهوم هذه النزعة التحررية سواء تحرير الوطن «الاستعمار الانجليزى» أو تحرير المواطن من كافة المعيقات التى تحد من تحقق جوهره الإنسانى، وصفته الاجتماعية كعضو فى المجتمع.

ويلخص القانون التأسيسى للجامعة المصرية هذا المعنى بتأكيده على رسالة الجامعة فى «ترقية مدارك وأخلاق المصريين على اختلاف دياناتهم، وذلك بنشر الآداب والعلوم».

ومع غلبة الفلسفة التنويرية على رسالة الجامعة - متأثرة بالنموذج الفرنسى للجامعة - كما تبرزها الفقرة السابقة فإنها جمعت بعد ذلك إلى جانبه النزعة التايلورية والفوردية بالنظر إلى الجامعات على أنها مصانع إعداد القوى العاملة والكوادر الفنية اللازمة لسوق العمل.

تستدعى بعض الوقائع الأخيرة المدخل السابق للتأكيد على أن الحرية الأكاديمية مقوم أساسى لنجاح الجامعة فى أداء رسالتها، مستوعبين اللحمة بين قوة الجامعة وقوة الوطن، واستقلال الجامعة واستقلال الوطن، وهو ما تلخصه عبارة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فى خطاب له سنة ١٩٤٠ مؤكدا على أن «قوة الأمة ومنعتها واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة، ليست آخر الأمر إلا نتيجة لتربيتها الجامعية.

شفافية الموقف

الوقائع الأخيرة التى أعنيها هو ترشيح جامعة الإسكندرية الدكتور عاطف عبيد والدكتور زكريا عزمى لجائزة مبارك [illegible] اعتذر عنه الأخير فى موقف يتسم بالشفافية يحسب له، رافضا هذا التر[illegible] أو معتذرا عنه - طالما هو فى منصبه الرفيع مما ينفى شبهة الحياد فى [illegible] الجائزة المذكورة، وهى الجائزة الأرفع



في الحياة الفكرية والعلمية في مصر نظرا لقيمتها المادية والأدبية.


د. زكريا عزمي

وكان د. زكريا عزمي قد اعتذر كذلك لجامعة الزقازيق عن ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٥.

وفي منتصف التسعينيات رشحت جامعة قاهرية كبيرة د. عاطف صدقي وكان رئيساً للوزراء، ود. أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب لجائزة الدولة التقديرية وأثناء وجودهما بالمنصب، وهو ما تصدينا له في حينه رافضين إياه بشدة لأنه يخل بقاعدة تكافؤ الفرص، ويضع لجان الجوائز في حرج وتحت ضغط أدبي نظرا لمناصب المرشحين ويصرف النظر عن جدارتهما في الفوز بالجائزة، وهو ما تمخض عنه عدم فوزهما بالجائزة لعام وقتها على أنها ذهبت إليهما فيما بعد.


د. يونان لبيب رزق

وفي تطور مشابه استبعدت جامعة عين شمس ترشيح المؤرخ د. يونان لبيب رزق لجائزة مبارك في العلوم الاجتماعية مفضلة ترشيح الدكتور على لطفي، رئيس مجلس وزراء مصر الأسبق، هذا الترشيح انحاز إلى الاعتبار السياسي على أساس الاعتبار الفكري، ولن نقلل من جدارة د. على لطفي وأستاذيته، ولكننا ننحاز إلى قوة المثقف، واستقلاليته، في حالة د. يونان لبيب رزق الذي يقف بمفرده لا يمثل إلا سلطة الثقافة والتي تراجعت أما ثقافة السلطة في الترشيح المذكور، مع احتفالنا هذا العام ببلوغه السبعين ولا يزال عطاؤه مستمرا داخل وخارج الجامعة.

مجاملة أصحاب النفوذ

ومن المدهش أن جامعة عين شمس، والتي تمثل صرحا أكاديميا ومؤسسة علمية شامخة إلا أن ترشيحاتها لجوائز الدولة غالبا ما ضلت الطريق لأنها جاملت أصحاب النفوذ والسلطة على حساب أصحاب الاستحقاق، وفي الوقت الذي تصر فيه على ترشيح مسئول تنفيذي وقيادة حزبية لجائزة الدولة في العلوم الاجتماعية باستمرار منحازة إلى ثقافة السلطة فإنها استبعدت من ترشيحها - مثلا - شيخ التربويين الدكتور حامد عمار - والذي فاز بالجائزة رغما عن ذلك، بالرغم من هذا التعنت لأن جمعية علم النفس هي التي رشحته، وهو ما يحسب لهذه الجمعية التي صححت بترشيحها خللا جسيما وقعت فيه الجامعة، ولا تزال تكرر نفس الأمر هذا العام مع استبعاد المؤرخ الكبير، وأحد صناع العقل المصري، د.يونان لبيب رزق والذي آثر الابتعاد عن هذه الحسابات مواصلاً أداء دوره الأكاديمي والفكري والثقافي سواء من خلال الجامعة، أو صفحة «ديوان الحياة المعاصرة بالأهرام» أو في أنشطة المجلس الأعلى للثقافة، والجمعية التاريخية المصرية.

في الغرب يذهب المسئولون وتبقى المؤسسة، أما في الشرق العربي فالمؤسسة

ملك المسئولين وتنهار معهم.

وما أحسبنا أن موقف جامعة الإسكندرية وجامعة الزقازيق وجامعة عين شمس يهز الثقة فى صدقية العقل الجامعى، وفى رسالتها التنويرية فى المجتمع، ويترتب على موقفها اهتزاز الثقة فى مكانة هذه الجوائز. ربما كان موقف د. زكريا عزمى أكثر سموا وشفافية ونزاهة من موقف المؤسسات التى رشحته سواء فى جامعة الزقازيق حيث مسقط رأسه أو فى جامعة الاسكندرية، وقد أدرك أن ساحته الحقيقية فى مجال العمل التنفيذى والسياسى، أما هذه الجوائز فيجب أن تمنح لمستحقيها من الذين يشتغلون بالعمل الأكاديمى والفكرى، والذين يستحقون تكريما أو تقديرا من أى جهة ولكنهم يفتقدون النفوذ الذى يضمن لهم حقهم المشروع والضائع.


د. عاطف عبيد


د. حامد عمار

فى كتابه الأخير «مستقبل الجامعة فى مصر» يبدى د. مصطفى عبدالغنى، الناقد والمفكر المعروف تشاؤما تجاه المسار الذى تتجه إليه الجامعة فى مصر المحروسة، ويرصد الكثير من جوانب الإنحراف ووقائع الفساد.

رسالة الجامعة

وهذا التشاؤم لا يمنعنا من أن نؤكد على إيماننا بالرسالة التى تؤديها الجامعة فى أى مجتمع، وتقوى هذه الرسالة كلما اتسعت مساحة الحرية الأكاديمية للجامعة، وتوفرت على استقلالها الأكاديمى فى حرية التفكير والبحث العلمى وفى القيام بمسئولياتها المجتمعية والإنسانية.

إن موقف النفاق والتزلف الذى تقدم عليه بعض القيادات الجامعية حين تقدم على ترشيح ذوى النفوذ لجوائز علمية صرفة أمر ينال من استقلالية الجامعة وقوتها ورسالتها، تلك الرسالة التى يوضحها مفكر مثل حامد عمار متمثلة فى قيم الجامعة القومية والإنسانية والمعرفية والأخلاقية، وتتجسد فى دعوتها للتجديد والتطوير، وللإنتاج المتميز والمبدع فى داخلها وفى خارجها، وإرساء قيم العقلانية والاستبصار واتساع الرؤية بحيث تشكل الجامعة بحق - فى رأينا - عقل المجتمع وضميره، وجهاز ترمومتره الحى، وعصبه النابض بالحرية والتقدم.

لهذا كله يلمؤنا الانزعاج من مستوى بعض القراءات والمواقف ومنها موقف الترشيح للجوائز - وما تمثله من انحراف المؤسسة عن جادة التفكير والطريق.

وربما نشير إلى واقعة ساخرة حينما أقدم أديب على الإضراب عن الطعام حينا، والتهديد بالانتحار من مبنى المجلس الأعلى للثقافة إن لم يمنح جائزة التفوق واضطر المسئولون لمنحها له اتقاء لكارثة وليس لجدارته. وكم ذا بمصر من المضحكات كما يقول شيخنا المتنبى.

نعم ما نريد أن تبقى المؤسسة الجامعية بعد أن يذهب المسئول، وليس العكس.

يوسف الصديق

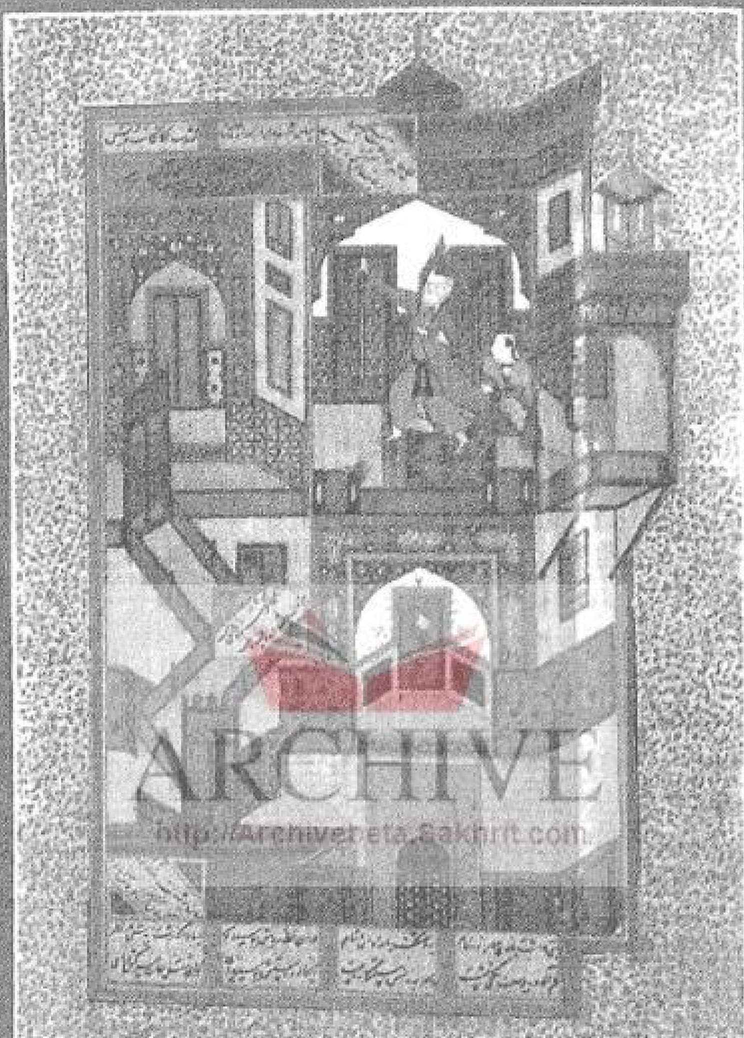
فى مصر

بقلم
سمير عطا

جاء إبراهيم أبو الأنبياء إلى مصر، وقضى فيها عدة أشهر، ثم جاءها يوسف وعمره اثنا عشر عاما وظل بها حتى مات وعمره مائة وعشرة أعوام، وجاءها يعقوب على أثر ابنه يوسف ومات فيها عن مائة وسبعة وأربعين عاما، وفيها ولد ونشأ موسى حتى خرج مع قومه، وإليها هرب عيسى وأمه، ومنها مارية القبطية التى رزق منها محمد عليه الصلاة والسلام بابنه إبراهيم.



جاء يوسف إلى مصر من فلسطين منذ سبعة وثلاثين قرنا، وكانت فلسطين آنذاك أرضا كنعانية يسكنها العرب.. رحل إليها يعقوب من أرض العراق فعبر هو وبنوه نهر الأردن، وبالقرب من شيكيم (نابلس) عاش يعقوب وبنوه.. وولد يوسف .. وبالقرب من شيكيم كانت البئر التى ألقى فيه حسبما جاء فى التوراة.. إلى الجنوب من نابلس عند سفح جبل جرزيم، لكن بعض المؤرخين العرب يشيرون إلى موقع آخر.. فيقول أسامة بن جعفر فى كتابه «الخراج» إن البئر تقع على الطريق من كفر ليلي إلى طبرية.. ويشير المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم» إلى ما يشبه ذلك..



١٧١

الهلال

وذكر ابن بطوطة فى رحلته أنهم قصدوا طبرية لزيارة الجب.. يقصد البئر.. وأنهم شربوا من مائها المتجمع من ماء المطر. وذكر القزوينى فى كتابه «عجائب المخلوقات» أن البئر تقع على بعد أربعة فراسخ من طبرية مما يلى دمشق.

فى قلعة صلاح الدين ، وداخل أسوارها، يتردد بعض المصريين على بئر هناك يقولون عنها إنها «بئر يوسف» وهم يعنون يوسف الصديق عليه السلام.. ويقولون إن هذه البئر هى التى ألقى فيها يوسف على يدى أخوته وهو صغير.. العامة دائما تستهويهم الخيالات فهذه البئر قد يصح نسبتها إلى يوسف صلاح الدين الذى استرد بيت المقدس من الصليبيين وليس إلى يوسف الصديق، فيوسف الصديق لم يأت إلى هذا المكان.. كما أنه لم يأت إلى منطقة سقارة حيث يوجد هرم زوسر المدرج - أقدم هرم فى الدنيا - وحيث توجد بئر أخرى يقول الأهالى هناك إنها بئر سيدنا يوسف.

وإذا رجعنا إلى سفر التكوين نجده يحدد البئر بالقرب من دوثان التى لا تبعد كثيرا عن شيكيم والسامرة حيث كان يمر بها طريق القوافل على بعد ٦ أميال غربى جنين.

حقد الإخوة

حقد أخوة يوسف عليه لأنهم رأوا أباهم يعقوب يفضله عنهم فى المعاملة ويؤثره بحبه.. «لقد كان فى يوسف وأخوته آيات للسائلين. إذا قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا. ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين».. لكن واحدا منهم - لأمر أراده الله - اقترح على اخوته أن يتخلصوا من يوسف، بإلقائه فى قاع البئر وتركه لمصيره.. «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين».. ألقوه فى البئر، وعادوا يكذبون على أبيهم وقالوا قد أكله الذئب فلم يصدقهم «قال.. بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ..».

«وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودات وكانوا فيه من الزاهدين».

كانت القافلة متجهة إلى مصر للتجارة فباعوه بثمن بخس كغيره من الأطفال الآسيويين الذين كانوا يباعون للخدمة فى البيوت المصرية فى ذلك الوقت.. وفى نيويورك .. فى متحف بروكلين.. بردية مصرية تشير إلى هذه الظاهرة حيث نجد عددا من الأطفال بيعوا فى مصر إبان حكم الأسرة الثالثة عشرة.. «وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا».. ونشأ يوسف فى بيت عزيز مصر الوزير فوطيفار نشأة طيبة ، وعرف بالحكمة وقدرته على تفسير الأحلام.



ثم أراد الله أن يمتحنه فجاءت امرأة العزيز تغريه بنفسها، لكنه رأى برهان ربه فصرف السوء عن نفسه ولم يستجب إلى ما تدعوه إليه.. فاتهمته عند زوجها الذى ائتمنه على أهل بيته، وقالت لزوجها «ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم».. فدافع يوسف عن نفسه، وتحقق العزيز من الأمر فظهر كذب امرأته قال: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم».. وتناقلت النسوة فضيحة امرأة العزيز لكنها استكبرت وظلت تراوده عن نفسها.. قالت: «لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين. قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه..» ونجحت امرأة العزيز فى الكيد له، فألقى فى غيابة السجن..

لم يكن عزيز مصر مصريا.. ولا امرأته.. كان حاكما أجنبيا من الهكسوس الذين اتسم عهدهم بالفساد والانحلال الذى لم يعهده المصرى ولا كان يرضى عنه أو يقبل فيه هوادة.. وفى متاحف العالم تتوزع برديات تشير إلى بشاعة أحاديث الإفك والخيانة فى نظر المصريين.. فى متحف برلين بردية تقول: «اسم الزوجة التى تتهم بالإفك يصبح مثلا على البشاعة».. وفى المتحف البريطانى بردية تشير إلى ولد يحكم بقتل أمه حين يشك فى أنه ابن غير شرعى فيأمر بإلقائها فى النهر ليأكلها التمساح وبردية أخرى تحكى عن فلاح يأمر بقتل زوجته وإلقاء جثتها للكلاب حتى يحرمها من الحياة حتى فى الآخرة عندما يكتشف أنها حاولت إغواء أخيه البرىء.. ويقول الحكيم آنى لابنه «إن البعيدة عن بعلها لتقول دائما لك أنى جميلة وفى غيبة الرقباء، تتصدى لك بشباكها.. ما أشدها من خطيئة تستحق الموت إذا المرء استجاب إليها».. نمط من السلوك الأخلاقى عرفه المصريون وعبر عنه السيد المسيح بقوله «بالكيل الذى تكيلون يكال لكم وزيادة» وشتان بين مجتمع يرضى بالسوء، ومجتمع يتعالى عنه ويعاقب عليه..

أمير أشنونى

ورأى الملك حلما.. سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان.. وسبع سنابل خضر وأخرى يابسات.. فاستدعى يوسف من السجن ليفسر الحلم.. قال يوسف: سوف تشهد مصر سبع سنوات من الخصب. تعقبهن سبع سنوات مجدبات.. ثم يعم الخير بعد ذلك.

وأشار يوسف على الملك بأن يعينه أمينا لخزائنه فى الأرض ليوفر من سنوات الخصب ما يستعينون به على سنوات الجدب «فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا ما تأكلون» وامتلأت مخازن الغلال استعدادا لسنوات القحط، وعين يوسف «أمير أشنونى» أى أميرا لمخازن الغلال، ومن لفظة شنونى انحدرت الينا كلمة «الشونة» أى مخزن الغلال .. ثم جاءت سنوات القحط .. شهدت مصر على طول تاريخها سنوات من الجدب نتيجة انخفاض النيل فلا ينبت زرع ولا يسمن ضرع.. فى عهد الدولة الوسطى – الأسرة الحادية عشرة

- أرسل أحد كبار الملاك لأمه يقول: «كيف أنت؟.. لا تقلقي على فإني حي وإن كان البلد يموت جوعا.. ألا يزال النيل شديد الانخفاض؟ لاتستائي لقلة ما أبعث به إليك فإن نصف الموت خير من الموت».. ويقف المرء متأملا هذا النقش الموجود على إحدى صخور جزيرة سهيل جنوبي أسوان.. اكتشف هذا النقش عام ١٨٨٨، وهو يصف مجاعة امتدت لسبع سنوات على عهد الملك زوسر سأل الملك وزيره الحكيم أمحوتب ماذا يفعل فأشار عليه بمثل ما أشار يوسف على ملك الهكسوس.. تقول اللوحة: «إنني حزين لأن النيل لم يفض في عهدي سبع سنوات فقلت الغلال وجفت الحقول وهلك كل ما يصلح أن يكون طعاما، وصار الرجل إذا استنجد بجيرانه هربوا منه ولم يأت أحد منهم لنجدته وصار الطفل يبكي والشاب يذبل والشيخ يغمى عليه، وصارت سيقانهم جميعا لاتحملهم، فهم مطروحون على الأرض وقد ألقوا بأذرعتهم متعارضة على صدورهم»..

دون هذا النقش في زمن البطالمة أي بعد عشرين قرنا من افتراض وقوعه. ولئن كان يحدد زمنا سابقا على عهد يوسف إلا أنه كان ترددا لما وصل إلى سمع المصري القديم من أصداء الماضي.

وامتد القحط فوصل كل أنحاء مصر وكثيرا من جاراتها حيث قلت الأمطار وجفت الآبار، كتبت «تاجة» ابنه «ذو شفار» من اليمن نقشا على قبرها تقول: «أنا تاجة ابنة ذو شفار.. أرسلت وكيلي إلى يوسف ولما تأخر في العودة إلي، أرسلت إليه وصيفتي ومعها مكيال من الفضة ليرده إلى مكيالا من دقيق.. ولما عجزت عن الحصول عليه أرسلتها بمكيال من الذهب..

في أرض جاسام

وجاء إخوة يوسف إلى مصر طلبا للحنطة والغلال بعد أن سادت المجاعة سوريا وفلسطين.. عرفهم يوسف وأعطاهم قميصه ليعودوا به إلى أبيهم فعرفه يعقوب وشد رحاله هو وبنوه إلى مصر.. «فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبواه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» وفي أرض جسم وتقرأ في النصوص المصرية جاسام (بالميم)، كان مستقر يوسف وإخوته وأبيه يعقوب.. وجسم هي محافظة الشرقية وعاصمتها مدينة الزقازيق تمتد من جوار أبي زعبل إلى البحر ومن برية جعفر إلى وادي الطميلات. هنا عاش يوسف وإخوته وأبوه على عهد الهكسوس الذين يطلق عليهم بعض المؤرخين العرب اسم «العماليق» واستمر حكمهم من ١٧٢٠ قبل الميلاد إلى ١٥٨٠ قبل الميلاد حتى تمكن المصريون من طردهم ومطاردتهم والقضاء عليهم قضاء لم يعد لهم ذكر من بعده.

ومن آثار تلك الفترة وصل إلينا «جعران» عليه أسماء لطائفة من الساميين كان منهم اسم «يعقوب ايل».. وفي تل الضبعة من أرض جسم عثرت بعثة نمساوية عام ١٩٦٨ على أطلال مدينة أواريس عاصمة الهكسوس.. على

بعد خمسة كيلومترات من مدينة فاقوس قرب الزقازيق، وتل الضبعة تل مستدير يبلغ قطره حوالى ٥٠٠ متر ويعتقد أنه كان جزءا من مدينة تمتد كيلو متر إلى الغرب وكيلو مترين إلى الشمال.

كشوف البعثات

ولاحظت البعثة أن جثث الموتى فى المقابر التى تم الكشف عنها لم تدفن ممتدة كما كانت العادة السائدة فى مصر ولكنها دفنت فى وضع مقرفص كالمولود فى بطن أمه، وهى عادة كانت منتشرة شرقى البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت وليست من عادات المصريين.

كما لوحظ أن المقابر كانت تحفر تحت أرضية المنازل وهى عادة غريبة عن المجتمع المصرى.

كما لاحظت عادة أخرى هى دفن الأطفال بعد حرقهم مما لم نعهده فى الحضارة المصرية فى أى عصر من العصور.. كما كشف عن بعض هياكل الخيل فى مقابر أواريس والهكسوس الذين أتوا بالخيل إلى مصر.

وفى محافظة الشرقية أيضا تشرف قرية «غيتا» من أعمال بلبيس على تل أثرى معروف باسم تل يهوذا، ويقال إن يهوذا ابن يعقوب - شقيق يوسف - قد دفن به، وله ضريح هناك يحتفل بمولده كل عام ، ومن قلب التل يخرج جدار أسود ربما كان بقايا جدران مخازن الغلال التى ابتناها يوسف فى ذلك الزمن السحيق ومن الملاحظ أن مؤرخا مثل المقريزى - أشهر مؤرخى مصر - قد أشار إلى هذه القرية فقال: إن يوسف وإخوته قد مروا بها وهى فى أرض ماشان - يقصد جاسان - وعاصمتها بلبيس، وقال ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان» إنه كان بها مشهد يسمى «صاع العزيز» يقصد عزيز مصر أيام يوسف.. وصاع يعنى مكيال واتخذت غيتا لفترة طويلة محطة راحة للحجاج من مصر وهم فى طريقهم لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالحجاز.

وبالقرب من منيا القمح ، على بعد ٦٠ كيلومترا منها تقع «قرية» شلشلمون.. هنا تدور بين الأهالى أحاديث عن وجود كنز تخفيه الأرض تحت قريتهم.. اسم القرية فى المصرية القديمة «شنشلمون».. كانت مقرا لروح آمون فى اعتقاد المصريين ومركزاً لأرض جاسان مر بها عمرو بن العاص عند فتح مصر بعد مسيره من بلبيس ووجدها مدينة كبيرة أطلق عليه إسم «بنى حرام» وهو اسم يثير التساؤل.. وبها مسجد أثرى قديم اسمه الجامع العمرى نسبة إليه.. ولأن الاسم ذو دلالة غير مستحبة فقد غيره الأهالى إلى لفظة المصرى القديم وسموها من جديد شلشلمون.. فى هذه القرية يتحدث الناس عن سرداب طويل يعتقدون أنه يؤدى إلى كنز مدفون فى أغوار الأرض.

وعندما توغل البعض فيه لم يروا إلا حجارة عليها كتابات مجهولة، لم يعرفوا

قيمتها ثم جاء أجنبى وقال لهم: أعطونى هذه الحجارة فأعطوها له.

والقرية تقوم على تل .. أى ضربة فأس فيه قد تقود إلى كهف أثرى مهم.. أوان فخارية أو تماثيل قديمة يسميها الأهالى «المساخيط» يقول البعض : إنهم كانوا من البشر وغضب الله عليهم فسخطهم على هيئة التماثيل.. وفى أحد مساجد القرية عمودان عليهما نقوش قديمة ترجع إلى هذا العصر.

أسنات زوج يوسف

وفى المطرية - على أطراف القاهرة - توجد قرية «نزلة الحصن» وهنا كانت تقوم مدينة «أون» أقدم مدينة فى التاريخ أو من أقدمها حيث يرجع تاريخها إلى ستة آلاف عام وتم اكتشاف آثار لخمسين منزلا بها.. كان الهكسوس يسيطرون على كل الدلتا وجزء من مصر الوسطى، والمصريون فى طيبة بالصعيد يتحينون الفرصة للخلاص منهم.

جاء يوسف إلى أون وتزوج من «أسنات» ابنة كاهن أون الكبير والذى كان يعيش فى واحد من هذه المنازل الخمسين.. وفى منزل آخر انتقل يوسف بزوجته.. فهل استمر فى الحياة فى أون بعد زواجه من أسنات حتى مات ودفن بها، أم عاد إلى أواريس عاصمة الهكسوس بمحافظة الشرقية؟ وأين إذن كان قبر يوسف؟ يقول النويرى فى كتابه «نهاية الأرب» إنه وراء الحرم.. ثم يقول فى موضع آخر إنه فى فلسطين.. وفى سفر التكوين أنه دفن فى شيكيم «نابلس» وكلها أقوال لا تتطابق مع استمرار بقاء يوسف فى مصر.

انتشرت قصة يوسف فى اللغات الشرقية وترجمت إلى بعض اللغات الغربية وتحولت قصته مع زليخة زوجة العزيز إلى أسطورة شاعرية.. وفى مكة.. نزلت قصة يوسف على النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة لتواسيه وتشجعه وتريه فضل الله على الصابرين حين اشتد أذى الكفار له ولأصحابه.

ومن سورة يوسف ، وهى أطول سور القصص فى القرآن الكريم، نرى دليلا من دلائل الإعجاز. لم يذكر الله عز وجل اسم فرعون فى آية من آيات السورة بل قال: «الملك» «وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف» .. «وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن».. «وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ....» فى حين أنه ذكر الحاكم المصرى بلقب فرعون فى قصة موسى.. وذلك يرجع تاريخيا حسب أدق ما توصلت إليه الكشوف الحديثة إلى أن لقب فرعون بما له من دلالة على ملوك مصر لم يكن ذائعا فى عهد يوسف، وأن حاكم مصر الذى دخل يوسف فى خدمته لم يكن مصريا وإنما أجنبى ومن ثم لم يكن ليلقب بما عرف به حاكم مصر فى عصورها القديمة.. وهو فرعون.

«ما فرطنا فى الكتاب من شىء».

صدق الله العظيم. ■

مدام هانو

صفحة صهيونية غامضة

بقلم
د. محمد المهدى

يتبادل المتهمون فى القضايا ذات الشأن العام الأقنعة فيما بينهم، ولذلك يتشابهون، وإن اختلفت قومياتهم وانتماءاتهم، فكلهم مخادعون، يصعدون على أكتاف ضحاياهم، مدعومين بقوى خفية، تجعلهم يفلتون دائما من الإدانة والعقاب ورد الحقوق لأصحابها.

وهذه ثلاث قضايا شغلت الرأى العام الفرنسى فى مطلع القرن الماضى، وعلى مشارف الحرب العالمية الأولى ومقدمات الثانية، والقضايا الثلاث اتصلت بالنشاط الصهيونى.

● «لاجازيت» كانت الواجهة لجمع الأموال والصفقات الربوية والمشروعات الوهمية.

● «هانو» خدعت العامة فدافعوا عنها رغم سرقتها لأموالهم بإغراء الفائدة المرتفعة.

● ما مدى مشاركتها فى أنشطة المنظمة الصهيونية...؟ وما مدى ما حصلت عليه من مساندة؟!



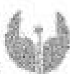
بعض الشخصيات المشاركة في نشاط لاجازيت



(هانو) فى مكتبها وزوجها السابق



مؤسسة «لاجازيت».. كانت تشغل مبنى ضخما فخما فى حى راق بباريس يعطى الإحساس بقوة مشاريعه.. مشاريع مالية إلى جوار النشاط الصحفى



القضية الأولى والثانية معروفتان، وإن لم تكشف كل جوانبهما، والثالثة لا تزال خباياها كثيرة. الأولى تعرف بقضية «دريفوس» ضابط فرنسى يهودى اتهم بالتجسس لحساب الألمان عام ١٨٩٨، يدان ويصدر عليه حكم بالنفى المؤبد. تقوم الدنيا وتقعد، وتنقسم بين مؤيد ومعارض، وترتفع راية الصهيونية التقليدية (معاداة السامية) أيام نشاط هرتزل والوكالة اليهودية. يكون من أشهر المدافعين عن «دريفوس» الكاتب الفرنسى المعروف «اميل زولا»، يكتب عدة مقالات تحت عنوان (إنى أتهم)، يتهم من أصدر الحكم، وينتهى الضغط الصهيونى بالعفو عن «دريفوس» عام ١٩٠٦.

يموت «زولا» ضحية قضية غامضة. فقد ظهرت وثائق تدين شخصا آخر بالتجسس... صهيونى أيضا، ومع ذلك ترتفع الرايات مهللة لـ «دريفوس» ولا تأتى بذكر لقصة الآخر.

القضية الثانية دارت عام ١٩١٤، عندما دخلت السيدة «كايو» إلى مكتب رئيس

تحرير جريدة «الفيجارو» الفرنسية وأطلقت عليه النار فقتلته لتشهيره بزوجها، «جوزيف كايو» رئيس الوزراء السابق ووزير المالية آنذاك. شهر به لنشاطه المالي المشبوه، خاصة مع مؤسسات صهيونية على حساب المصلحة القومية، منها نشاطه من خلال رئاسته للبنك العقاري المصري وكان مقره الرئيسي في باريس.

هذا البنك أقامته في مصر أسر يهودية هي «رولو، وسوارس وقطاوي» بالتعاون مع البنوك الفرنسية. ينقسم الرأي العام بين مؤيد ومعارض، ثم تبدأ الخيوط في الوضوح، فقد نجح الزوج في الانتخابات بعد حملة الدعاية القوية بالمال والنفوذ. بل تنتهي محاكمة الزوجة ببراءتها. تبين الرأي العام بعض أبعاد اللعبة فشيع الزوجة بهتافات السخط على «كايو» ومساندية. أدين بعد ذلك «كايو» أثناء الحرب الأولى لاتصاله بالألمان، ولكن صدر العفو عنه بعد الحرب.

مدام هانو

القضية الثالثة دارت عام ١٩٢٨ وبطلتها مدام «هانو» يهودية ملحدة نشاطها المالي صريح لا يعرف قومية ولا وطنية، وإن جاء باسم مؤسسة أصدرت صحيفة «لاجازيت دي فرانك ايه دي ناسيون».

GAZETTE, DU FRANC, ET, DES, NATIONS

هي موضوع حديثنا.

مؤسسة «لاجازيت» كانت تشغل مبنى ضخما فخما في حي راق بباريس يعطي الإحساس بقوة مشاريعه. مشاريع مالية إلى جوار نشاط صحفي، «هانو» كانت تسمى السيدة الرئيسة، مكتبها هو حصنها الخاص لا يدخله إلا المقربون وأصحاب النفوذ. الغرفة بسيطة خالية من الزخرف، أبوابها محصنة بعدة متاريس. كانت في الأربعين ممتلئة تميل للسمرة، شعرها قصير، مشغولة دائما بالمكالمات التليفونية، ملابسها بسيطة فضفاضة قد تشبه في مجملها ملابس الرجال. صوتها يتلون حسب الحاجة بين ناعم مع السلطة، وساخط مع المرءوسين. في المساء تخرج من مكتبها يصحبها السائق إلى فيلتها، تبدل بملابسها ملابس السهرة الأنيقة. تخرج ثانية للعشاء في أفخر المطاعم.. ثم سهرات وحفلات، ولقاءات خاصة صاخبة وقمار... تثير دهشة الجميع بجرأتها على مائدة اللعب حتى الفجر. تخرج تحث سائقها على الإسراع للعودة إلى فيلتها.

هكذا يوميا. نشاطها يثير قلق أصدقائها. يطالبونها بتخفيف الخطوات اللاهثة بين العمل والصفقات، واللهو واللعب.. تهز أكتافها وتقول هكذا يجب أن تكون المتعة بما يتناسب مع موقعي.

كانت تقولها بالانجليزية «ستاندنج» بطريقة ولهجة تكشف عن جذورها الاجتماعية.

«مارث هانو» تربت في حضيض المجتمع، تفلت منها في كثير من الأحيان كلمات دارجة سوقية خاصة عندما تستفز أو تثور. ولأنها يهودية فقد تزوجت صغيرة بأحد أبناء عقيدتها «لازار بلوش» يكبرها بكثير، تسلط عليها لفترة، ولكنها احتفظت بقوارتها فتخلصت منه كزوج بعد سنتين، وبدأت نشاطها المالي فاستعانت به لمهارته في شئون المال ليتولى بعد ذلك وكالة مشروعاتها في «لاجازيت» ويظل تابعا مخلصا باسم الموظف الأعلى.

بفضل مهاراتها في المضاربة زادت ثروتها، وبفضل قدرتها على انتهاز الفرص اشترت «لاجازيت» بسعر منخفض من رجل أعمال له اسمه في السوق.. اشترت المؤسسة والاسم، وجعلت في إدارتها الصحفية «بيير اديبرت». كاتب لامع ومناضل سابق. له نفوذه واتصالاته. بفضل جهوده صعدت الجريدة وأصبحت في مقدمة صحف فرنسا آنذاك.

في عام ١٩٢٨ بدأت بقايا أشباح الأزمة المالية في أوروبا والعالم .دعا بحث الفرنسيين عن الأمان الاقتصادي إلى


LES
CAPITALISTES-ÉPARGNANTS

الفضيحة فى صحف فرنسا والرأسمالية المساندة

المشاركة فى مشروعات «لاجازيت» المالية. أعطتهم الجريدة بأخبارها وعناوينها وهم الأمان والأمل، وحصلت على أموالهم لتصريف مشروعاتها ومضارياتها فى البورصة. ارتفع اسم «هانو» فى السوق، وزادت بركتها بين البسطاء. كانوا يدافعون عنها فى سذاجة كأنها قديسة لها «سر باتع» يرددون أنها فى رعاية إلهية واستثمرت «هانو» سرها الباتع بشكل واسع.

«الرعاية الإلهية» كانت تأتى من تكتل أصحاب رؤوس الأموال للقيام بلعبة نظرية مشتركة، يعرفون، بل متأكدون من نتيجة معركتها المصطنعة.

السر يكمن فى الايهام بقوة خفية وراء النشاط تضمن الفوز، الشراء وبصورة قانونية لحصص ضخمة تقود لارتفاع الأسعار. فى مؤسسة «هانو» يتم تجميع رأس المال أو تحصيل أموال المساهمين بإغراء الفائدة المرتفعة أو ما يسمى تخميرها فى الدنان دون ضمانات للمبالغ الصغيرة، ومع حق التعويض للمبالغ الكبيرة، وتبدأ المؤسسة فى توظيف الأموال فى مضاربات واسعة.

السجن والهروب

تضخمت عمليات «الجازيت» زادت الحصص، ارتفع الرقم الاحتياطى، ولم يكن الوقت كافيا لتغطية كل العمليات بصورة دقيقة مما أوجد ثغرة. أراد زوج «هانو» السابق وأحد المشاركين فى النشاط أن يجس نبض السوق فجند أحد المتخصصين فى تصيد الأخبار، والتقاط الأسرار، يدعى «جورج انكتيل» حمل تقريره إلى الرئيسة... أن الرأى العام بدأ يكشف اللعبة، ورجال الصحافة يعرفون الخبايا، يعتبرونك خطرا عاما يهدد مصلحة المجتمع.

«انكتيل» نفسه صاحب سمعة سيئة وسوابق، أدين فى عمليات مريبة، وكتابات فاضحة كان آخرها قصة خليعة طبع منها ٤٠٠,٠٠٠ نسخة عنوانها يكشف موضوعها «الشيطان يقود الحقلة». عندما بدأ التعامل مع «الجازيت» بدأت المساومة، طالب برفع أجره بصورة مبالغ فيها. رفضت الرئيسية فبدأت حملته المضادة خشى بعض زبائن «هانو» من أصحاب النفوذ على أموالهم فحركوا السلطات، وفتح باب التحقيق معها فى ديسمبر ١٩٢٨. ازداد انزعاج صغار العملاء، وخشى الناس على أموالهم بعد أن أغلقت «لاجازيت»، أما «هانو» فكانت ثابتة فى التحقيق. أودعت سجن «سان لازار» وتفرغت لإعداد ملف الدفاع وملف اتهام الخصوم.

تمتعت فى غرفة اعتقالها بامتيازات خاصة. الغرفة نفسها لها تاريخ من عام ١٩١٤. اعتقلت فيها مدام «كايو» صاحبة القضية الثانية فى حديثنا والتى قتل فيها رئيس تحرير جريدة الفيجارو، وأخرجها النفوذ الصهيونى كالشعرة من العجين. غرفة أنيقة مزودة بالرفاهية لا ينقصها إلا التليفون. أدارت هانو نشاطها من السجن، كتابة مقالات ومقابلات، وزبائن، وأصدقاء، ومحامين.. واستمرت فى الاعتقال ما يقرب

من عام.

نظرت قضية النزاع بين الرئيسة وخصومها في ١٤ يناير عام ١٩٣٠ «هانو» ضد «جورج انكتيل» و«ميمون عمار»، شخصية شرقية لم أستطع أن أعثر على أصله أو هويته أو دوره في القضية. كان يناصر «انكتيل» وأدخل في القضية. هانو في المحكمة بكامل زينتها. تتبادل الابتسامات مع رئيس المحكمة، أثار موقفها وكلماتها القارصة الخصم فانفجر «لست إلا وغدة استطعت أن أكشف قناعها. نصاب في ثوب امرأة» احتدت النقاشات تحولت الجلسة إلى مهزلة بين الخصوم والحضور. انفعل ميمون وتلفظ بألفاظ خارجة. أنهى رئيس المحكمة الجلسة، وصدر الحكم ببراءة «ميمون» وإدانة انكتيل وحبسه أربع سنوات لسوابقه.

خرجت الرئيسة منتصرة في جولتها ضد خصومها، وكان عليها أن تستعد بعد عودتها لسجنها لمعركتها الكبيرة.. اتهامها بالنصب والاحتيال العام. قضيتها إذن تتصل بالمصلحة العامة.. بالرأي العام. ولأنها تمرست بأعمال التلاعب بمشاعر الناس، وتحريكها حسب حاجتها، أعلنت «هانو» الاضراب عن الطعام في أول مارس عام ١٩٣٠. نقلت إلى المستشفى أخذوا في إطعامها بالقوة أو تغذيتها بالأنابيب. في مساء يوم ٢٤ مارس أحدثت ضجة مسرحية جديدة. توقفت سيارة أجرة أمام باب سجن «سان لازار»، وفجأة خرجت منه «هانو» متماسكة رغم ضعفها، تقدمت للباب وقرعت الجرس، وأصدرت أمرها لإحدى الحارسات.. «لقد سئمت عذاب المستشفى ارجعيني إلى زنزانتي».

ارتبك المشرفون على المستشفى الذي كانت تعالج فيه بعد خروجها المفاجئ. وفي الصباح انتقل الارتباك إلى سجن «لازار» الذي عادت إليه لقد وجدوا غرفتها خالية والنافذة مفتوحة وقد تدلى منها حبل صنعته من أغطية سريرها.. كانت هناك سيارة تنتظرها تحت النافذة أخذتها واختفت.

كيف أعدت خروجها من المستشفى وكيف عادت إلى السجن ولماذا؟ لماذا هربت من السجن بعد عودتها؟ كيف أعدت فصول المسرحية المتقنة الاخراج؟ لم تكتشف الأسرار، وظلت جزءا من غموض هذه المرأة .. وصلاتها مع السلطة وخارجها.

عودة النشاط

خروج «هانو» وهروبها بهذه السهولة أصبح مسار سخرية الرأى العام من رجال الدولة.. أثار أيضا الإعجاب بمهارة الرئيسة.. وصلت لهدفها، وعدل الرأى العام موقفه نسبيا، اضطرت الدولة تحت ضغوط خفية إلى تكوين لجنة قضائية قررت إطلاق سراح «هانو» مؤقتا، فقد ظلت قضيتها الكبرى ضد المصلحة العامة تحت القيد، وحددت جلسة في ٣٠ أكتوبر عام ١٩٠٣.

بعد حصول «هانو» على العفو العام لم تفكر في إعادة «لاجازيت» بعد أن ساءت سمعتها، أصدرت جريدة أخرى باسم فورس FORCES وتعنى القوى. سخر من الاسم بعض الفرنسيين على طريقتهم في تأويل المعنى فقالوا فورس FORC-ES وتعني أيضا المقص الذى تجز به فروة الشاة.

بدأت جلسات المحاكمة. فتح ملف «هانو» المالي المعقد وأعمالها المريبة.. كثرت الجلسات ووصلت إلى ثلاثين على امتداد خمسة أشهر. سئم الجمهور من متابعة الأرقام والتعقيدات والمصطلحات ولكنهم لم يسأموا من تأمل انفعالات هذه المرأة أثناء الجلسات، تجمع بين الشجاعة والبجاحة.. المراوغة والتلاعب.. التلميح والغمز والتهديد.. سلطات خفية وراءها تعطيها هذا التلون العجيب، وتبدو مستمتعة بدورها، وبهذا الاستعراض لطاقتها العقلية والجسدية.. تقوم وتجلس. تضع ساقا على ساق. تسجل الملاحظات، تناقش في عدة اتجاهات. تخرج منديلها المعطر، تتأوه، تبدى الامتعاض، تعلن السخط على ارتفاع الحرارة في القاعة..

تتنهد في دلال تسترخي على المقعد.

وجاءت النتيجة أيضا مثيرة للدهشة. السجن سنتان بعد هذه المناقشات الطويلة وبعد إدانتها من قبل المحكمة بوضوح في تلاعب الحسابات، وغموض العمليات وإخفاء الأرباح، والأعمال غير المشروعة ومشروعات وهمية، ونصب واحتيال، وبرئ «ادبيرت» رئيس التحرير وحكم على زوجها السابق بالسجن ثمانية عشر شهرا. صرخت «هانو» بعد الحكم فكشفت بعض الأبعاد الخفية.. «لا إنها البراءة هي التي أعلنها.. ستكون لنا جلسة أخرى».

في جلسة الاستئناف حصلت الرئيسة على ايقاف التنفيذ. استأنفت بالتالي نشاطها.. عملاء، شخصيات، تحركات مستمرة سريعة بسيارتها انتهت بها إلى حادث حطم ضلوعها وساقيها لم تتوقف استعملت عكازين وواصلت التحرك بين المكتب والبورصة والصحافة. عادت أيضا لنشاطها المريب ومشاريعها المشبوهة.. استدعيت من جديد أمام المحكمة في يوليو عام ١٩٣٤.

النهاية

الحالة في أوروبا تغيرت، القوى الخفية مشغولة، الرأي العام مشغول، هتلر يصعد نجمه في ألمانيا ويهدد. لم تثمر اتصالات هانو نتيجة ايجابية هذه المرة فصدر الحكم عليها بالسجن ثلاث سنوات اختفت لمدة ستة أشهر، وعندما قبض عليها أودعت هذه المرة في سجن مختلط لا تتمتع فيه بامتيازات طبقية صارت صديقة الوزراء، وأصحاب النفوذ مجرد رقم في السجن صودرت أموالها واختفت أخبارها من الصحف وأغلقت جريدة «فورس» كما أغلقت من قبل «لاجازيت» حاول محاميها أن يعطيها الأمل ولكنها بدت زاهدة يائسة.

في ١٣ يوليو عام ١٩٣٥ استطاعت جارتها في السرير.. عجوز لها سوابق في السرقة أن تسلمها خلسة لفافة صغيرة دستها بدورها في حاشية السرير سمح للسجينات بالسهر في هذه الليلة احتفالا بالعيد الوطني، طلبت هانو من جارتها أن تغني أغنيتها الحزينة نامت على صوتها وفي الصباح تأخرت في يقظتها. دفعوها لتقوم فاسترخت يدها خارج السرير وسقطت من كفها زجاجة سم فارغة من ثلاثة أرباعها وذهبت «هانو».

«هانو» كانت سيئة الحظ بالمقارنة مع أبطال قضية «دريفوس» عام ١٨٩٨ وقضية مدام «كايو» عام ١٩١٤. النشاط اليهودي والنفوذ الصهيوني كانا لهما فاعلية في القضية الأولى والثانية أما هانو كامرأة تعتمد هي الأخرى على المساندة الرأسمالية والنفوذ الصهيوني العالمي فقد جاءت نهايتها عام ١٩٣٥ في فترة تراخت فيها الرابطة الرسمية وهذه المؤسسات في فترة انشغل العالم بقضايا هتلر وتهديداته المباشرة في فترة انقسمت المنظمة الصهيونية على نفسها بين مؤيد لموقف انجلترا انتظارا لتنفيذ وعد بلفور بزعامة وايزمان وبين منشقين فيما يعرف بحركة التصحيحيين بزعامة جابوتنسكي الذي أعلن معاداته الواضحة لسياسة انجلترا المتراخية في وعودها وضرورة اعتماد اليهود على أنفسهم في تحقيق أطماعهم بعيدا عن الأنظمة السياسية.

ربما تكون هانو أدركت هذه الأبعاد أو على الأقل عرفت أن دورها قد انتهى ولم يعد هناك من يهتم بإعادة نشاطها أو على الأقل انقاذها، استسلمت لمصيرها وهربت من السجن الهروب الأخير.

رويت هنا طرفا من حياة «هانو» والأمر يحتاج إلى بحث عن وثائق تكشف امتداد نشاطها المالي إلى عالمنا العربي، فالاسم ليس غريبا علينا، تكشف أيضا صلاتها بالمنظمة اليهودية في باريس، وحركة الهجرة إلى فلسطين.

أما تشابه قصتها مع شركات توظيف الأموال لدينا فلا يحتاج لتصريح أو تلميح.

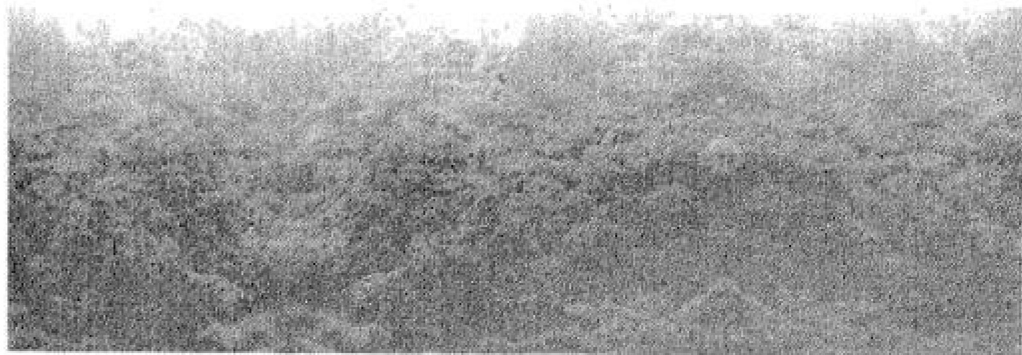
توشكى

شعر
أحمد خميس

يسـألون اليـوم عنى .. «من أنا» ؟
من أطار النوم عن صحرائنا
وأضاء الفرحة الكبرى هنا ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

أنا هذا الشعب .. عشاق المعالى .. والنماء
وتباشير الأمانى للغد .. المرتقب
وأيادينا على الفجر .. سلام .. وضياء
تنشر الحب ولاء فوق صدر الموكب

ولمن يسأل عنى .. «من أنا» ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»



عجبا يا نيل .. تأتى بالعطاء المغدق
وتبل الشوق فى صهد الرمال الظامئة
يا عناقا .. ضم أحضان الحبيب الشيق
فأحال الرمل وجدانا .. وروحا .. ورئه

تخبر العالم أنى .. «من أنا» ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

* * *

عزم أبنائى ما أبقى على الدرب محال
فنهضنا أمة ترقى إلى ما أنجزه
لم يكن وهما .. ولكن بعض أحلام الخيال
ثم أضحى فى فم الدنيا نشيد المعجزة

تشهد الأيام أنى .. «من أنا» ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

* * *

أقبل الخير كبحر الشعر فى أحلى قصيدة
وهو يلقى فى فم التاريخ ألحانا مجيدة
يتغنى بالروابى الخضر .. والدلتا الجديدة
واصلا ما بين أحلامى .. وأيامى السعيدة

حينما يسأل عنى .. من أنا
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»





الفكاهة

فى المسرح الشعرى عند شوقى

بقلم
د. مصطفى رجب

على الرغم من كثرة الدراسات التى قدمت عن أحمد شوقى وأدبه وشعره فإننا لانجد دراسة واحدة من بين هذا الكم من الدراسات تخصصت فى دراسة الفكاهة فى شعره بصفة عامة، فضلا عن أن نجد دراسة تخصصت فى الفكاهة فى مسرحه الشعرى ذلك الفن العظيم الذى يدين بوجوده كجنس أدبى استمر فى أدبنا العربى المعاصر لمؤسسه أحمد شوقى.

وفى السطور التالية سوف نتلمس بعض مواقف الفكاهة فى اثنتين فقط من مسرحياته الشعرية المتعددة .

الفكاهة فى مسرحية الست هدى :



تدور أحداث هذه المسرحية فى بيت يقع فى حى الخليفة فى منطقة السيدة زينب بمدينة القاهرة وزمنها عام ١٨٩٠ . وقد اختار شوقى الزمان والمكان بعناية ليقدم لنا من خلالهما فكرة تتلخص فى وصف حياة نساء ذلك العصر وكيف كان الرجل اللعبة المفضلة لديهن فبطلة المسرحية هى الست هدى وهى امرأة مزواج لديها ثروة ضخمة من الأطيان الزراعية والأموال وليس لها حظ من الجمال أو الجاه ولكنها تستمد قوتها من ثروتها فهى تتزوج وتطلق حتى تنتهى المسرحية بموتها بعد أن وقفت كل أموالها لجارتها أو بنات جارتها وبنت زوجها الأول وهكذا يصطدم آخر أزواجها واسمه السيد العجيزى وكان قد منى نفسه بأن يرثها وبدأ يتصرف مع أصدقائه النادمين والمسرحية من أولها لآخرها مسرحية فكاهية فمن الصعب أن نرصد ظواهر معينة للفكاهة فى تضاعيفها ، ولكننا سنختار لقطات فيها روح شوقى الشاعر الفكه .

ففى بداية المسرحية تتحدث الست هدى لإحدى جاراتها عن سر اهتمام جاراتها

وجيرانها بأمور زواجهما فتقول :

يقولون فى أمرى الكثير وشغلهم حديث زواجى أو حديث طلاقى
يقولون إنى قد تزوجت تسعة وإنى واريت التراب رفاقى
وما أنا عزريل وليس بما لهم تزوجت ، لكن كان ذاك بمالى
وتلك فدادينى الثلاثون كلما تولى رجال جئتنى برجال

وتستعرض الست هدى أزواجها واحدا واحدا فلا تثنى خيرا إلا على زوجها الأول - الذى ستوصى قبل وفاتها ببعض مالها لابنته - أما بقية أزواجها فكلهم تزوجوها طمعا فى مالها فهى تقول عن (على) زوجها الثانى :

وزوجى الثانى «على» لم يكن يصلح لى
ياليتنى لم أقبل
ذاك ، لمالى اختارنى واخترته لماله
ما كان إلا مفلسا وقعت فى حباله

وتذكر ما كان يتمتع به من صفات خلقية منفرة :

يرحمه الله ، وكان ذا بخر وكان إن يقعد وإن يقم نخر
وإن مشى تخرج أصوات آخر
يرحمه الله لقد عشنا معا من السنين الصاخبات أربعا
ثم مضى لربه لا رجعا
رحمة الله عليه جن بالنسل جنونا
ثم لما مات ، ما خلف لى إلا ديونا

وتقول عن زوجها الرابع وكان أديبا :

ولست أنسى زوجى الرابعا لا نافعا كان ولا شافعا
قالوا : أديب لم يروا مثاله ولقبوه الكاتب البارعا
قد زينوه لى ، فاخترته ما اخترت إلا عاطلا ضائعا

ثم تزوجت الست هدى بنقيب (يوزباشى) اسمه «قمر» ولم يكن حظها معه بأسعد من حظها مع سابقيه فهى تذكره بكل شر وتدعو عليه بألا يرتقى إلى رتبة رائد (صاغ) فتقول عنه :

لا عفا الله عنه ، لا غفر الله له لا ارتقى لرتبة «صاغ» !
لا عفا الله عنه ، قد كان لصا ، لم يردنى لكن أراد مصاغى

وتحكى هدى لصديقتها عن سبب كراهيتها للنقيب قمر ، فقد أحبته من جانبها حبا حقيقيا ، ولكنه كان سكيرا مقامرا فلم يكن يهمه منها إلا أن يأخذ من مالها ليشبع نزواته :

لحاه الله كان منى فؤادى وفاكهتى وريحانى وراحى
وكنت أحبه ويحب طينى ويحلم بالقلادة والوشاح
وكان مقامرا شريب خمر يجيء البيت فى ضوء الصباح
يكاد إذا تورط فى قمار يقامر بالنجوم وبالسلاح

ثم تحكى الست هدى عن زواجها بأحد الموظفين وتصفه بأنه كان نظيف الجيب كناية عن فقره :

وعشت عامين دون زوج ثم تزوجت بالموظف

لم أنسه منذ مات يوما ما كان أبهى ! ما كان أظرف !
كان خفيفا وكان حلوا ومن نسيم الربيع ألطف !
ما كنت أدرى إذا تولى أجيبه أم قفاه أنظف ؟!
وقد كان إلى جانب فقره مغرورا ، يحلم بأن يكون يوما وزيرا كبيرا :
رحمة الله عليه كان جخاخا كبيرا
كل يوم يدع البيت رئيسا أو وزيرا
ثم لايرجع لى إلا مثلما كما كان صغيرا
(جخاخا = كذابا فشارا)

وتنتقل الست هدى إلى زوجها الآخر (الشيخ عبدالصمد) ثم إلى زوجها من بعده وكان مقاولا اسمه مهدى .. إلى أن تصل إلى زوجها الحالى وهو عبدالمنعم المحامى وهو رجل سكير لايكاد يفيق .

وفى نهاية حديثها عن كل زوج تختم قصتها عن كل منهم بهذين البيتين :
عشت مع الشيخ نصف عام وكان عمرى عشرين عاما
ومات واختارنى سواه من ذا يرى فعلتى حراما ؟
أو بمثل هذين البيتين :
عشنا ثلاثا ثم افترقنا وكان عمرى عشرين عاما
طلقنى فالتمست زوجا من ذا يرى فعلى حراما ؟

وهكذا كانت فى كل مرة من مرات فراقها لأحد الأزواج بالموت أو الطلاق بنت عشرين عاما لاتزيد وترد عليها جارتها زينب فى نهاية كل قصة .
أجل تعيشين وتدفنينا حتى تصيبى منهم البنينا

الفكاهة فى مسرحية البخيلة :

تتلخص هذه المسرحية فى أن امرأة عجوزا اسمها نظيفة - لاحظ دلالة الاسم - كانت تعيش مع خادمتها (حسنى) وحفيدها (جمال) فى بيت قديم ويعانيان معها أشد المعاناة مما هى عليه من تقتير وإمساك . ويحاول سمسار اسمه «رشاد» التغرير بجمال ليزوجه فتاة من أحد البيوتات التى أخنى عليها الزمن فيوافق جمال متجاهلا الحب الصامت الذى تكنه له الخادمة (حسنى) وعندما تموت السيدة البخيلة يتسامع الجيران بنبأ خطير مؤداه أن السيدة العجوز أوصت بكل ثروتها لخادمتها فيفاجأ جمال بأن خطيبته تفسخ خطبتها منه وفى اللحظة نفسها تصارحه (حسنى) بأنها تتنازل له طواعيه عما ورثته لأنه الأحق بهذا فيسعد بهذا الدليل القوى على حبها إياه ، ويرضى بها زوجا وتكتمل سعادته عندما تصارحه الفتاة بأنها اتفقت مع العجوز على هذا (المقلب) لكى تعيد للفتى الطائش عقله ليحافظ على ثروته .

وفى المسرحية شخصيات أخرى هامشية مثل الطبيب عبدالسلام مرتضى المعروف بجهله وعلاجه لمرضاه على النواصى والطرقات .

ومن مواقف الفكاهة فى المسرحية ذلك الحوار الذى يدور بين رشاد (السمسار) وعزيز (وهو أحد أبناء الذوات التافهين) وكانا يجلسان على المقهى وقد جاء جمال فدار بينهما هذا الحوار :

رشاد : هذا جمال وحيد جدة بخيلة يا عزيز ، جلدة
عزيز : وعمرها يا رشاد ؟ رشاد : يربو على الثمانين

عزيز : تلك مدة .

وبعد أن يغرى رشاد السمسار صديقه عزيزا ابن الذوات بتزويج أخته من جمال الذى سيرث أموال جدته البخيلة يستمر الحوار بينهما فيمارس السمسار أسلوب التزيين الزائف والكذب والغش ليصل إلى هدفه ومرة أخرى يدور الحوار بينهما بهذا الشكل الذى تبدو فيه براعة الفكاهة عند شوقى :

عزيز : لم تقل لى عن الفتى ما أبوه ؟

رشاد : كان فخر الرجال .. كان مديرا

(ثم لنفسه)

كان والله يسكع الصبح والليل إلى كل حانة سكيرا

عزيز : والفتى كيف شغله ؟

رشاد : فى الدواوين .

عزيز : إذن قد نراه يوما وزيرا .

رشاد : لم لا ؟

(ثم لنفسه) :

إننى قلتها ومن أين أدرى ؟ ربما صار حاجبا أو غفيرا

ثم لعزيز :

لاتسلنى من أبوه يا أخى أو من الأم وسل ما جدته ؟

لا ولا ما شغله ؟ ما جاهه ؟ فى الدواوين ولا ما رتبته

فجمال فى غد أو بعده بوزيرين تساوى ثروته

بعد لحظة :

ولم لا وجدته نملة إذا وقفت أو مشت حصلت

وتدخل فى بيتها ما تصيب ولا يخرج الدهر ما أدخلت

لو انقلبت من جميع الجهات على القرش فى فمها ما انقلت

ترى المال فى بيتها فى الحاف وتحت البلاط وحشو الشلت

وتقدم لنا المسرحية حوارا بين شخصين مجهولين كانا يجلسان على المقهى فيما كان الطبيب الجاهل عبدالسلام مرتضى يجلس بالقرب منهما منغمسا فى قراءة صحيفة وقد أعطاهما ظهره فدار بينهما هذا الحوار الفكه :

الأول : من ذاك المطل من لحيته كالبغل من وراء مخلاة رنا

الثانى : تسأل عن ذاك الذى انحنى على صحيفة يقرأ وولانا القفا ؟

الأول : أجل .. أجل هذا القفا

الثانى : هذا هو الدكتور

الأول : من ؟

الثانى : عبدالسلام مرتضى

يقرأ ما صادف من جريدة من سطرها الأول حتى المنتهى

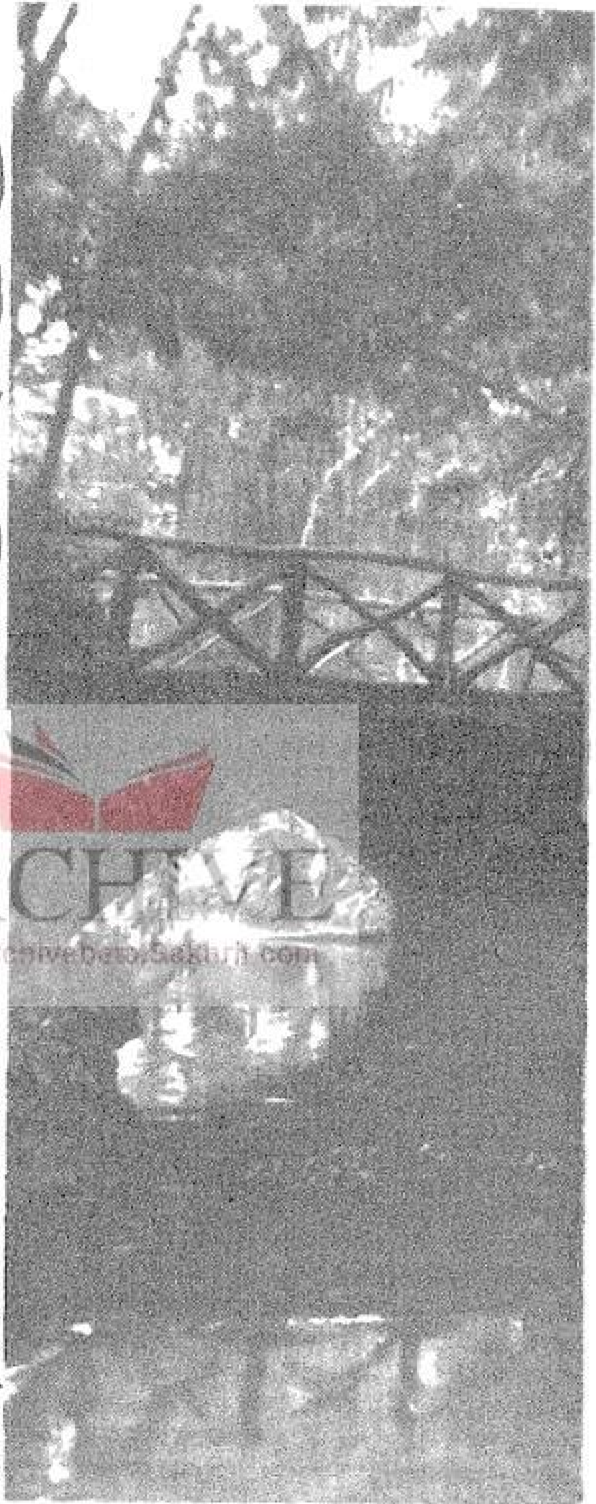
وتستوى صحف الصباح عنده وصحف ظهرن من عام مضى

تذاكر الدفن التى يكتبها فى الشهر أضعاف تذاكر الدوا ■

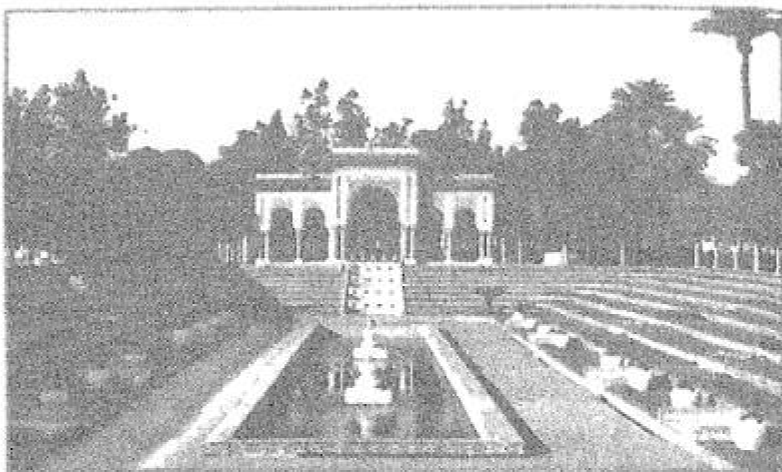
التطور الحضارى للحدائق والمتنزهات فى مصر

بقلم
د. نـوال المسيرى
ترجمـة
سـنـاء حنفى

ونحن نعـانى من التكدس العمـرانى، ونقص المسطحات الخضراء، تقدم هذه الدراسة مدى اهتمـام أهالى مـصـر المحروسة بالحدائق والبساتين. وهى صيحة لكى تهتم المدن المصرية بانتشار الحدائق وعودتها خاصة وقد بذل الأقدمون رعاية واهتماما فى إقامة هذه الحدائق.



حديقة الأورمان



حديقة الأندلس

أبرزت إحصائية أن نصيب الفرد في القاهرة من المساحة الخضراء ٧٠ سنتيمترا مربعا مقابل ٣٠ مترا في لندن و ١٢٠ مترا مربعا في فيينا.

وهناك علاقة واضحة بين ظهور مشاكل متزايدة وبين التقدم المدنى مثل الزحام ونقص الأماكن المفتوحة، ورغم تشابه المشاكل مازال المصطلح المستخدم يتنوع من دولة لأخرى. لذلك فمن المهم مناقشة مفاهيم أساسية معينة مثل المتنزه والحديقة والحديقة العامة في ضوء ما تعنيه هذه المصطلحات في الثقافات المختلفة وفي هذا المقال حاولت توضيح مفهوم هذه المصطلحات في العقلية المصرية وألقيت الضوء على الاختلافات المحتملة في التوجه بين مخططي المدينة والعلماء المتخصصين في دراسة تطور الإنسان وعاداته ومعتقداته وقد ركزت في المقال على القاهرة واستعرضت تاريخ حدائقها وأهميتها وتأثيرها في البيئة المحيطة بها.

النظرة التقليدية

القاهرة مدينة مليئة بالصعوبات اللانهائية والمشاكل غير المحدودة فهي تزدحم بالسكان الذين لهم خلفيات مختلفة بشكل كبير. ومن الصعب فهم الاختلافات في أساليب الحياة المعاصرة في القاهرة دون فهم أهمية التقاليد.. وبالنسبة لكل فرد يعيش في تلك المدينة تتجسد حدود هذه التقاليد بدرجات متفاوتة وهذه هي الظاهرة الأساسية التي تمنح المدينة ذاتيتها.

والمفهوم الغربي للمتنزه كقطعة بكر من الطبيعة لا يوجد تقريبا في مصر، فهناك اهتمام قليل بالحياة النباتية الطبيعية كما لا يوجد اهتمام كبير أيضا على المستوى المحلي سواء بالأصناف المحلية أو المستوردة. والثقافة الإسلامية لاتثبت الحب الشديد للبرية. فهي تصور الحدائق على أنها مسورة ومحمية من هذه الحياة البرية. كذلك فإن الزراعة في المنطقة شبه الاستوائية مصدر رئيسي للأمراض التي تنتشر عبر قنوات الري.

وفي مصر تمثل الصحراء نحو ٩٥٪ من مساحتها، لكن كل قطعة من أراضيها الصالحة للزراعة تمت زراعتها وريها وهكذا فإن كل النباتات تعطي انتاجا نافعا وتعد

كل منطقة خضراء تزرع وتروى مميزة عن الحدائق الطبيعية من حيث الحجم والحاجة للاهتمام.

ويعتبر مفهوم الحديقة العامة جديد نسبيا بالنسبة للعديد من المصريين فهي رفاهية وحلم يتطلع الفقراء إليه.. وهي رمز للجنة، وتصورها مطبوع في ذهن المسلمين، حيث أوضح القرآن الكثير من الوصف التفصيلي للجنة، ومن ثم فإن مفهوم الجنة يعتبر نموذجا للمبدعين ومخططي الحدائق في العالم الإسلامي.

وهناك شبه إجماع بين مؤرخي الفن أن الحدائق الإسلامية في الماضي كان يقصد بها أن تكون نموذجا لوصف القرآن لجنة الفردوس ولكن الحديقة كحقيقة مادية ليست الفردوس، وهي تمثل مساحة خاصة تنفصل عن الحياة العامة واقتحام الغرباء.. ومن ثم فإن مفهوم المتنزه له مضامين ثقافية في المدن المصرية. كذلك فإن مفهوم الحدائق العامة يختلف عن الخاصة وله مواصفات مميزة.

وكانت الحدائق في العصور المصرية القديمة ممتلكات خاصة للأسر الحاكمة وطبقة الصفوة والقصور الملكية لحتشبسوت وتحتمس الثالث واخناتون ضمت الحدائق، كما كان الرهبان المسيحيون يعيشون داخل أسوار، تضم خلفها حدائق واسعة وبساتين. والحكام المسلمون هم أيضا أنشأوا حدائقهم الملكية التي تتنوع في أنماطها وفقا لأصولهم. وبالتالي فإن هذه الحدائق كانت منتجعات ملكية وتأثيرها على العامة ليس له أهمية ويعتبر إنشاء الحدائق العامة في المدن الإسلامية ظاهرة حديثة.. وقد تم استخدام ١٪ من مجمل المسطحات في معظم المدن الإسلامية كحدائق عامة، وفي نفس الوقت تم التغلب على الحاجة للأماكن المفتوحة في الكثير من الحالات بسبب وجود حدائق خاصة في ساحات الديار.

وقد تم تفسير القرارات الإسلامية التي تتعلق بالتمييز بين الملكية العامة والخاصة في المدينة بشكل غير دقيق في القاهرة في العصور الوسطى، ونشأ عن ذلك عدد من الخلافات حول حقوق استخدام الحدائق العامة. وبصفة عامة كان حق الفرد أكثر أهمية من السياسات العامة. وأمدنا المؤرخون بالعديد من الأمثلة. فإذا قام الشخص بإقامة مبنى له بعض القيمة الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فيمكنه في هذه الحالة التعدي على المسطحات العامة بغض النظر عن القوانين الموجودة.

وعبر القرون تطور الشعور في مصر بأن الحدائق العامة التي تملكها الحكومة ليست ملكا للفرد . وعلى مدى قرون لم يتدخل عامة المصريين في صناعة القرار السياسي وبالتالي لم يتدخلوا بشكل فعال في تخطيط المدينة على الاطلاق. والسبب في ذلك قصور العلاقة بين دفع الضرائب والتطوير العام نتيجة سوء استخدام أموال دافعي الضرائب الموجهة للجهاز الحاكم وصعوبة توجيه انتقادات لذلك.

التعدي على الحدائق العامة

والمؤسسات الحكومية تسعى للاعتماد على المسطحات الخضراء العامة كمصدر سهل لإقامة مؤسسات الخدمات العامة. وتتنافس الوزارات المختلفة حول الأماكن العامة المفتوحة التي ليس لها فائدة، فتدعي كل منها حقها في استخدام المساحات الفارغة لأغراض خاصة بها. هذا الاتجاه التقليدي مسئول بدرجة كبيرة عن إزالة الحدائق العامة. ومن جهة أخرى يدعي كل من العامة والحكومة حقهم في التعدي على الحدائق العامة على أساس أن هناك المزيد من الاستخدام المفيد للمسطحات الخضراء العامة، والتي لا تنتج نباتات صالحة للأكل. وهكذا فإن المنافسة حول المسطحات



حدائق الأزبكية

الخضراء في القاهرة تتعامل مع المشاكل حول المفهوم والاستخدام ، كما ان القضية الأساسية لمجرد وجود مسطح أخضر في القاهرة مازال منطقة نزاع.

وتحتاج الحدائق في مصر إلى كل من الخدمة البشرية والبنية التحتية، والعامل الأكثر أهمية هو إمدادات المياه، ونظرا لأن معظم الحدائق العامة التي أنشأها الإنسان ليست جزءا من الثقافة فإن معظم مناطق الحدائق محصورة خلف الأسوار في ساحة المساكن التي لها ملكية خاصة. ومع ذلك فمع بداية القرن التاسع عشر ومع محاولات تحديث مصر ظهرت أفكار جديدة لإنشاء الحدائق العامة والمثال التالي يوضح تطور واحدة من أوائل الحدائق العامة في القاهرة.

حديقة الأزبكية

في عام ١٨٣٧ شجع محمد على على إنشاء حديقة عامة وذلك في إطار محاولاته لتحديث مصر. فقرر تحويل ميدان الأزبكية إلى حديقة خاصة كان هذا الميدان يمتلىء بالبرك التي تعد المصدر الرئيسي الحشرات التي تنشر الأمراض. وكان موقع هذه الحديقة يجاور الجاليات الأجنبية التي تفضل وجود الحدائق.. ولإكمال هذه المهمة صادر ٤٠ فدانا تمتلكها عائلات ثرية، وأمر المسئولين ببدء تحويلها إلى حديقة. وكان «مورتون بك» هو المهندس الذي أنشأها والذي سبق أن أرسله محمد علي للدراسة في أوربا وانتج في تصميم الحديقة النموذج الأوربي. وحرص من بداية إنشاء هذه الحديقة أن تلبي احتياجات الاجانب وقد تأكد هذا الاتجاه الغربي عام ١٨٦٧ على يد إسماعيل حفيد محمد علي والذي كان مفتونا بالثقافة الغربية وقد نظم إسماعيل حديقة الأزبكية وفقا للأسلوب الفرنسي وقلل مساحتها إلى ١٠ أفدنة وجعلها على شكل ثماني على نمط حديقة «موسكو» في باريس ووضع تصميمها المهندس الفرنسي باريليه بينما تولى عالم نبات ألماني زراعة الأشجار وقد أحيطت الحديقة بسور حديدي له أربعة مداخل يحرسها رجل من النوبة ومدخل لبيع التذاكر.. وتحويل اسماعيل حديقة الأزبكية إلى نسخة من حديقة باريسية كان يعد جزءا من خطة اكبر لإقامة أحياء حديثة

تناسب إقامة الجاليات الأجنبية. فأمر بهدم المنازل المحيطة بالحديقة وتعويض سكانها الفقراء، كما عرض إسماعيل نفس هذه الأرض بدون مقابل لمن يستطيع إقامة مبانى تحمل نمط الحى الغربى.. وباختصار أنشأ الحديقة الغربية على يد مصمم غربى فى أحد الأحياء التى يقيم فيها الاجانب وقد استفاد منها أيضا طبقة الصفوة من المصريين الذين يتطلعون إلى النمط الغربى فى الحياة والقادرين على دفع ثمن تذكرة الدخول.

ومع توسع مدينة القاهرة وتقلص الجاليات الأجنبية وتطوير أحياء الصفوة فى مناطق أخرى بدأ العامة يأتون للتنزه بتلك الحديقة اقترنت حديقة الأزبكية بالنسبة للمواطن المصرى العادى بالحرية والحياة الغربية، حيث تعنى الحرية التفاعل بين الجنسين وحرية التعبير وعلانيته. وقد وصف أحمد أمين حديقة الأزبكية فى السنوات العشر الأولى من القرن العشرين بأنها مكان للرذيلة وأن إسماعيل عندما خطط لها كان يفكر فقط فى التأثير على ضيوفه الأجانب ويقدم لهم نسخة لمدنهم. ومع ذلك فمنذ انفصال الحديقة تماما عن الثقافة المحلية أصبحت رمزا للانحلال الغربى، حتى السور الذى يحيط بها أصبح مكانا شهيرا للكتب القديمة.

ومع قيام الثورة وتولى الرئيس جمال عبدالناصر الحكم أصبح دخول الحديقة بدون مقابل، وقد أزيل سورها الضخم وأقيم سور آخر أكثر بساطة . وأصبحت الحديقة مكانا للتغيير بالنسبة للعائلات الفقيرة. كما أصبحت مكانا للباعة الجائلين.. وقد حققت النشاطات الاقتصادية أكثر استفادة من المكان العام. ومع ذلك فإن الباحثين عن الرزق كانوا يواجهون منافسا أقوى. فقد شهدت الحديقة تنافسا شديدا بين الهيئات الحكومية المختلفة حيث حاولت كل منها



سور الأزبكية

استغلال المكان لممارسة نشاطاتها.. فوزارة الثقافة أقامت العديد من المسارح للتسلية والترفيه.. كما أقامت وزارة الداخلية مبنى لبعض مكاتبها إلى أن يتم الانتهاء من إقامة مبنى دائم لها. وأخيرا قرر المجلس المحلى تحقيق سيولة مرورية فى المنطقة وذلك بعمل شوارع وسط الحديقة.. وتوقف استخدام الحديقة كمكان عام.. وكانت الشكوى الوحيدة من أولئك الذين يستخدمونها كمكان للأغراض الاقتصادية وتم تعويضهم بمنحهم مواقع أقل جاذبية.

وتاريخ حديقة الأزبكية وتصميمها والهدف من إنشائها والاستخدام الفعلى لها يشير إلى أن الحديقة العامة ليست مستقرة وهى تتغير مع تغيير التطور المدنى وتمر بتعديلات مستمرة حتى تفى باحتياجات روادها.. والاتجاهات نحو الترفيه تتغير مع الوقت. وحتى تستمر الحديقة يجب أن تتناسب مع العادات الاجتماعية المتغيرة للمستفيدين منها.

وحديقة الأزبكية ليست الوحيدة فى مصر فمن خلال جهوده المستمرة لتجميل القاهرة أقام إسماعيل باشا حديقة الحرية وحديقة الأسماك فى الزمالك وحديقة الحيوان والأورمان فى الجيزة. واستمر هذا

الاتجاه لبعض الوقت بين الصفوه.. فقد أقام ذو الفقار على باشا الذى كان مهندسا يعيش فى حلوان - الحديقة اليابانية فى حلوان وحديقة الأندلس فى الزمالك وأثناء نفس الفترة أقامت العائلة المالكة حديقة الزهرية. ولم تنشأ أى حدائق لها أهمية حتى عام ١٩٨٠ عدا حديقة المسلة التى أنشئت فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر.

وبعد انتصار عام ١٩٧٣ تحول الاهتمام إلى الشئون الداخلية للدولة وأصبحت الأولوية للبنية التحتية للمدينة وأصبحت للمياه والكهرباء والنقل والصرف الصحى الأولوية عن الاهتمام بإنشاء الحدائق العامة وكان تأثير سياسة الانفتاح محسوسا فى الثمانينات ومفاهيم مثل التلوث والحاجة للمسطحات الخضراء لتخليص المدينة من الهواء الملوث، أصبحت قضايا هامة للمناقشة من جانب صناع القرار والإعلام. وأدت شدة هذه المشكلة إلى إنشاء وزارة البيئة . وخلال العشرين عاما الأخيرة من القرن العشرين والأعوام القليلة بعدها شهدت ازدهارا فى الوعى بأهمية الحدائق خاصة على المستوى الإدارى.

التدرج الحالى للحدائق فى القاهرة

البناء التنظيمى لحدائق القاهرة متنوع ومعقد فهناك ثلاث محافظات ووزير الزراعة يتحملون مسئولية المسطحات الخضراء المتاحة للمواطنين فى القاهرة.. وكل منهم مسئول عن عدد من الحدائق على أساس طبيعتها وموقعها.

ورواد الحدائق العامة لا يدركون هذا الفصل الإدارى . ولا يتأثر رواد الحدائق خاصة من الأماكن الفقيرة ببعد الحديقة، ولكنهم يتأثرون بطبيعة النشاطات التى تقدمها والحدائق التى تشرف عليها وزارة الزراعة فى الأساس للحيوانات والنباتات والأسماك وقد أقيمت حديقة الحيوان عام ١٨٩١ فى محافظة الجيزة ويشير إليها عامة الشعب على أنها الحديقة أو الجنينة فى حين تحدد الحدائق الأخرى باسمها وهذه الحديقة تحتل أعلى مرتبة بين الحدائق على أساس شعبيتها وجاذبيتها التى تنتج ليس فقط من الحيوانات ولكن ايضا من نباتاتها.. وهى تضم أشجارا ذات ظلال ممتدة تسمح للكبار لسن فى العائلة بالجلوس تحتها والاستمتاع بوقتهم، فى الوقت الذى يلعب فيه الأطفال حولها او يراقبون الحيوانات وهى تعد حديقة العائلة وتستقبل حديقة الحيوان مجموعات من أطفال المدارس من جميع أنحاء مصر على مدى العام. وتشهد ازدحاما شديدا خاصة فى شم النسيم وفى الأعياد وذلك له تأثيره الكبير على النباتات والحيوانات!

وتوجد حديقة الأورمان بالجيزة أيضا وهى حديقة نباتية تضم أندر أنواع النباتات ونظرا لأنها تقع بالقرب من جامعة القاهرة فإن معظم روادها من طلبة الجامعة الذين يذهبون إليها إما للمذكرة أو للقاء أصدقائهم أو لعب الكرة ولاقترابها من حديقة الحيوان فإن عدد زوارها أقل كثيرا.

أما حديقة الأسماك فى الزمالك فقد أقيمت منذ ١٢٠ عاما وهى أكثر الحدائق شعبية بين طلبة المدارس الذين يستمتعون بمناظر الكهوف التى صنعها الإنسان وأنواع الأسماك المعروضة بداخلها.. وهى أيضا مكان مفضل بين طلبة الجامعات. ورغم جمال الحديقة وموقعها إلا أنها لا تجتذب صفوة المقيمين فى الزمالك ويفضلون مشاهدة المناظر الجميلة من نوافذهم، وهم يدركون أهمية المساحات الخضراء لكنهم يجدونها غير مناسبة لأسلوب حياتهم عندما يتعرض الأمر لقضاء وقت فيها.

ورغم أن حديقة الحيوان والأسماك تقعان فى أحياء مميزة إلا أن زوارهما من عامة الشعب.

وحتى ثلاث سنوات مضت كانت حدائق القاهرة تتبع هيئة التجميل والنظافة وهي الهيئة الموجودة في كل المحافظات وهذه الهيئة أصبحت مثقلة بمهام نظافة المدن. ومع تزايد الاهتمام بتخليص المدينة من التلوث بادرت محافظة القاهرة بخطة جديدة للحدائق العامة. بدأت عام ١٩٨٧ عندما أنشئت الحديقة الدولية في مدينة نصر. وميزانية هذه الحديقة الأساسية تأتي من تبرعات زعماء دول مختلفة الذين زاروا الموقع واختاروا المكان الذي يحمل اسم بلادهم.

ومع نجاح الحديقة الدولية وزيادة الوعي بأهمية الحاجة للمسطحات الخضراء في المدينة ومع تعيين محافظ كان أستاذا في مجال الزراعة قررت المحافظة عام ٢٠٠٠ إقامة كيان تنظيمي خاص وهو هيئة الحدائق الخاصة التي أصبحت مسئولة عن ٢٣ حديقة. هذه الحدائق الخاصة يمكن تحديدها كحدائق تراثية بسبب صفاتها التاريخية أو الثقافية أو الفنية ولها أهمية محلية أو قومية أو دولية والحدائق التابعة لهيئة الحدائق الخاصة تأتي على قمة المدرج الإداري، وتتلقى أقصى رعاية ولديها ميزانية منفصلة ، وينفق دخلها على المرتبات والصيانة للحدائق. والمصدر الرئيسي للدخل يأتي من قيمة التذكرة التي تبلغ جنيها واحدا وهناك سبع حدائق من ٢٣ حديقة قيمة تذكرتها خمسون قرشا وذلك لوجودها في مناطق منخفضة الدخل وهناك مصدر آخر للدخل يأتي من تأجير المقاهي والمسارح والنشاطات الترفيهية الأخرى، التي تساهم في بعض نفقاتها ويعمل في هذه الهيئة ١,٣٢١ موظفا من بينهم ٥٢٥ عاملا زراعيا.. هؤلاء الموظفون مسئولون عن ٨٥١,٩٦١ مترا مربعا من الحدائق، وثلاث من هذه الحدائق لها قيمة تاريخية وأهمية فنية وهي: حديقة الحرية في شارع التحرير التي أنشأها إسماعيل باشا عام ١٨٧٦ م وفي ذلك الوقت كانت مساحتها ٢٩ فدانا . ولهذه الحديقة أهمية تاريخية بسبب مساحتها وموقعها المتوسط. والدخول لهذه الحديقة كان بلا مقابل كما كانت ألعاب الأطفال متوافرة.. ولكن على مر السنوات تعرضت أجزاء من الحديقة لتدخل العديد من الهيئات منها نادي القاهرة ومتحف مختار وفندق شيراتون.. وقد أصبحت مساحة الحديقة تزيد بنسبة قليلة على سبعة أفدنة. وأثناء مرحلة الإنشاء لمترو الأنفاق استخدمت الحديقة كمخزن لمعدات البناء ويضم التصميم الآن كل من المظهر الطبيعي والهندسي بالإضافة للخطوط المنحنية التي تتبع الأشجار التاريخية.

والهدف من إنشاء الحديقة تغير أيضا : فهو فني ومثير للإعجاب وليس به مكان للأطفال فهي مكان للشباب للاستمتاع بالصفاء والجمال المحيط بهم والاسترخاء فوق واحد من مئات المقاعد المتوافرة في المكان. وهناك عدد من القيود التي يجب تنفيذها مثل عدم الجلوس على الحشائش وعدم السماح بتناول طعام او ركوب الدراجات داخلها. وهي تستقبل مائتي زائر في كل مرة وهو العدد الذي يتناسب مع المقاعد المتاحة في الحديقة.

والحديقة التاريخية والفنية الثانية هي حديقة الاندلس وقد أنشأها ذو الفقار باشا عام ١٩٢٩ كهدية لزوجته. وتطل الحديقة على النيل وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: الفردوس وله تصميم الأرابيسك ، والثاني على الطراز الأندلسي، وبه قاعة ملكية، والثالث القطاع الفرعوني وهو نسخة من التماثيل المصرية القديمة. وتغطي الحديقة مساحة ٨٠,٤٠٠ متر مربع. وهي مثل حديقة الحرية لا تستقبل عددا كبيرا من الزوار وذلك من أجل الحفاظ على قيمتها الفنية ولتحقيق هذا الهدف فإن تذكرة



الخديو اسماعيل

الدخول للقطاع الفرعوني يصل ثمنها إلى جنيه مصرى بينما يضاف ٥ جنيهات فى حالة الرغبة فى زيارة قطاعات أخرى.

والحديقة اليابانية فى حلوان هى الحديقة الثالثة فى التصنيف. وقد أنشأها ذو الفقار باشا عام ١٩١٧ وهو من سكان حلوان كهدية للسلطان حسين حيث اعتاد قضاء بعض الوقت فى منتجعه فى حلوان بجوار منطقة تتجمع فيها النفايات حولها ذو الفقار باشا إلى منطقة جميلة على الطراز الآسيوى بما فى ذلك العديد من تماثيل بوذا. وقد زحف العمران حول هذه الحديقة ووصلت قيمة تذكرة الدخول الى خمسين قرشا فقط فضلا عن انها تجتذب مجموعات مدرسية على مدار العام وذلك بفضل تماثيلها الرائعة والاهتمام بها.

وما نشهده الآن من الحفاظ على الحدائق التراثية وصيانتها يدل على أنه خلال السنوات الماضية حدث تطور فى المفهوم من قبل الاجهزة الحكومية فيما يتعلق بأهمية المسطحات الخضراء العامة فى مدينة القاهرة حيث تستقبل هذه الحدائق الرحلات المدرسية وأبناء الطبقة المتوسطة وفى المقابل تجد ابناء الطبقة العليا يفضلون الالتحاق بالنوادى المميزة والشهيرة أو يكون لديهم حدائقهم الخاصة بهم داخل فيلات او قصور يملكونها.

وقد شجع نجاح هيئة الحدائق الخاصة هيئة تجميل ونظافة القاهرة على إنشاء مجموعة من الحدائق التى سميت حدائق مميزة. وتوجد نحو عشر من هذه الحدائق فى أحياء محدودة الدخل ومنها حديقة الفسطاط التى تديرها الهيئة وهى تعتبر واحدة من أهم حدائق القاهرة ولها أهمية خاصة لمتنزه الأزهر.. وتغطى حديقة الفسطاط مساحة ٢٥٠ فدانا لم يتم تطويرها كلها بعد. ومثل متنزه الأزهر كانت مكانا للنفايات يدعى ابو السعود. هذه المنطقة كانت تشتعل فيها الحرائق دائما وتنشر التلوث فى المدينة وكانت المحافظة ترغب فى بادىء الأمر فى تحويلها الى مساحات خضراء وقد استخدمت تسهيلات الهيئة فى إنشاء هذه الحديقة ويقول مدير هذه الحديقة ان دخلها خلال السنوات العشر الماضية زاد على ١٦ مليون جنيه كما تشير التوقعات المستقبلية لمتنزه الأزهر فى مساهمته فى رفع مستوى الأحياء المتاخمة له خاصة وان مشروع الدرب الأحمر لإعادة التأهيل يهدف إلى تحسين الوضع الاجتماعى للسكان، وسيؤدى الى تحقيق الرخاء الاقتصادى ورفع مستوى التعليم والصحة.

ولكن من الضرورى ان يصاحب هذا التطور وجود برامج خاصة تهدف لزيادة الوعى العام فيما يتعلق بحماية هذه المنطقة والمساحات الخضراء بها على أن يتم البدء بأطفال المدارس مما يمكن الأجيال القادمة بأن تجنى أفضل فائدة ممكنة من تلك الموارد الثقافية والطبيعية. ■



هل يتم التنسيق الحضاري بلا قانون؟!

تحقيق : أماني عبد الحميد   تصوير: إبراهيم بشير

سمير غريب: نحن فى انتظار إقرار قانون التنسيق الحضارى من مجلس الشعب

د. جليلة القاضى: مركزية شديدة وإلغاء لدور المحليات

هجمة شرسة تعرضت لها مصر ومعمارها لأكثر من ثلاثين عاما بلا رحمة أو حتى شعور بالذنب، وأصبح التعدى على المبانى وواجهتها وعلى الشوارع والميادين ومدن بأكملها هو السلوك السائد والطبيعى فى جميع أنحاء مصر. فهل الجهاز القومى للتنسيق الحضارى سينجح فى مواجهة سلوكيات خاطئة ترتكبها الدولة قبل مواطنيها أم الأمر لن يتعدى سوى مزيد من الأحلام الوردية والمشروعات العملاقة على الورق. والقوانين الصارمة سوف تظل حبيسة الأدراج؟!

على مدى الزمن تمتعت مصر بسحرها الخاص وشخصيتها الثرية كالفسيفساء، وكانت ركيزتها عبقرية المكان، تنوعت ملامحها ما بين نهر النيل وصحاريها وواحاتها وحتى بين نجوعها وقراها ومدنها وأقاليمها وللأسف خلال الخمسين عاما الماضية بدأت هجمة شرسة لتشويه وجهها الجميل، وتحولت إلى الدولة الأكثر انتهاكا لقوانين البناء والتخطيط العمرانى، استبدل أهلها الجمال بالقبح بلا أدنى شعور بالخزى!!

ومع بداية حقبة الثمانينات من القرن الماضى، بدأت الأصوات تتعالى تطالب بوقف حملات التشوية والتعدى ولكن بلا استجابة! فالتغيير فى التركيبة السكانية داخل المدن أدى إلى ظهور طبقة «ريفى المدينة» الذين لاهم عاشوا فى قراهم وبيوتهم البسيطة، ولا هم استوعبوا قيمة المبنى المعمارى وطرازه، وأهمية احترامه، كذلك تبدلت الأنشطة التجارية

والاقتصادية مما جعل كثيرين من الأثرياء الجدد يتداخلون في المجتمعات الأكثر رقيا وأصبحت أماكن تمركزهم منطقة وسط البلد، الزمالك، جاردن سيتي، ليحولوا وجهها إلى يافطات وواجهات إعلانية بكل الألوان والأشكال بلا أدنى اهتمام بطبيعة المبنى وشكل بنائه الأصلي، والأمر المحزن أن الجهات الحكومية والوزارات والمصالح والهيئات التابعة للدولة - والتي من المفترض أن تكون النموذج الذي يحتذى به المواطن وتكون الأولى في احترام قدسية المكان- لم ترحم وجه بلادنا فكانت مبانيها والشوارع التي تطل عليها دائما الأقبح، تعج بالموظفين وتحتاج إلى توسعات وإضافة طوابق أو إغلاق لشرفات!! برغم أن معظم تلك الجهات التابعة للدولة تحتل أهم المباني والقصور التاريخية والتي تحمل قيمة معمارية وللأسف تعدت على تلك القيمة ودمرت جمالها بلا رادع. وبالتالي أصبح مركز المدينة داخل كل إقليم أو محافظة أشبه بمستعمرة قبيحة الوجه وعلى المواطن أن يعبرها بإذعان، ولا يملك حق التأمل أو مشاهدة مظهر جمالي يريح بصره، برغم أن دول العالم أجمعه تبذل قصارى جهدها من أجل الحفاظ على مبانيها القديمة والاهتمام بتراثها المعماري والعمراني.


سمير غريب

وبالتأكيد حالات الإهمال الشديد وانعدام الذوق الجمالي المعماري أصابت عدواها البشر أنفسهم. فانعدم الذوق العام خاصة مع تدني التوعية الثقافية وانحدار القيم الأخلاقية والسلوكيات التي يمارسونها وسط شوارعهم وواجهات مبانيهم. وأصبحنا نعاني من التلوث البيئي والسمعي والبصري علاوة على انتهاك جميع القوانين المعنية.

والبشر لم يعد يعنيهم جمال منازلهم أو شوارعهم أو حتى مدنهم، وانحصر اهتمامهم بارتفاع أو انخفاض الرصيف إذا وجد وتحولت واجهات مبانينا إلى خربطة ألوان وأشكال تنم عن مدى انحدار الذوق العام والتدهور البصري والجمالي لدى غالبية الشعب المصري.

أحلام وردية

في شهر أغسطس الماضي افتتحت السيدة سوزان مبارك الجهاز القومي للتنسيق الحضاري، ليقوم بالدور المفقود منذ خمسين عاما، وهو الحفاظ على الوجه الحضاري والبصري والجمالي للمكان، وفي كل مكان داخل مصر. (نجوع، قرى، مدن، صحاري، محميات طبيعية، الحدائق، المناطق الأثرية، والمناطق ذات القيمة المعمارية المتميزة).

الأحلام عريضة وقد تكون وردية .. تحاول أن ترسم خريطة جديدة لوجه



جزء تم تنفيذه من مشروع تطوير المسار السياحي بمدينة الأقصر

مصر .. المفقود وسط زحام القبح. لكن التساؤلات كثيرة خاصة أن ذلك الصرح العملاق استغرق أكثر من أربعة سنوات ليتم افتتاحه.

وبالرغم من ذلك ولد كبير الرأس بلا أيدى أو أرجل تمكنه من تحقيق تلك الأحلام، أكتمل بنائه من الخارج دون أن ينضج من داخله، صرح كبير أهدافه تصل شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لكنه بلا قانون أو صلاحيات أو حتى نراع رادعة لكل متعد ومشوه لوجه مصر، خاصة ونحن دولة أكثر مايقوم به أهلها هو انتهاك قوانين البناء والتخطيط العمرانى.

أولا .. صدر القرار الجمهورى بإنشاء الجهاز القومى للتنسيق الحضارى فى عام ٢٠٠١ وظل منذ ذلك جهازا حكوميا على الورق، برغم وجود دراسات مكثفة سبقت إعلان قيامه - أجرتها مجموعة متخصصة من المعماريين والمتخصصين فى مجال التخطيط العمرانى والهندسة المعمارية على مدى ثلاث سنوات برئاسة الدكتور فوزى فهمى دارت جميعها حول جدوى

إقامة ذلك الجهاز العملاق!!.

وعلى مدى أربع سنوات أخرى فى أعقاب صدور القرار الجمهورى بإنشائه تم إعداد مقر الجهاز داخل أسوار قلعة صلاح الدين الأيوبى بالقرب من محكى القلعة، بالاضافة إلى رسم هيكل إدارى وتنظيمى له، دون أن يصدر قانون التنسيق الحضارى المحتجز داخل مجلس الشعب طوال تلك الفترة!! وبالفعل تم افتتاح المقر والجهاز نفسه فى أغسطس الماضى، ليضم أربعة قطاعات رئيسية قطاع للدراسات والبحوث والسياسات وثانى للتخطيط والشئون الفنية وثالث للمشروعات والمتابعة وقطاع رابع للشئون الإدارية والمالية، دون أن يتضمن قطاعا للشئون القانونية على حسب قول رئيسه سمير غريب!!

قانون مع ايقاف التنفيذ

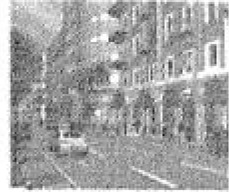
خلال سنوات الدراسة والإعداد لم يتمكن المتحمسين للجهاز وعلى رأسهم وزير الثقافة فاروق حسنى من دفع عجلة الحكومة لإصدار قانونه، فخرج الجهاز القومى للتنسيق الحضارى بلا صلاحيات حقيقية وبلا أدوات أو قواعد مانحة أو أيدى رادعة تستطيع منع المعتدين على المبانى أو الشوارع أو الأرصفة والميادين أو أيدى قادرة على إزالة التعديات التى يتعرض لها كل مكان فى مصر بشكل فج ومستفز!! فلا أحد يعترض أو حتى يتعرض للمساءلة القانونية.

ونظرًا لحالة الفوضى التى وصل إليها مظهر الشارع المصرى كان على كثير من المعماريين القيام بأبحاث ودراسات لرصد حالة المبانى والطرز المعمارية خاصة المناطق ذات السمة المعمارية المميزة أو الطرز التاريخية مثل عمارة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مثل وسط المدينة أو القاهرة الخديوية التى بناها الخديو إسماعيل،، بدءها الدكتور محمد شرابى بكتابه الكبير «القاهرة» وتوالت من بعده الدراسات والكتب، ومنها ما قدمته الدكتورة سهير زكى حواس فى كتابها القاهرة الخديوية ومشروع الدكتور جلال عبادة لتطوير شارع قصر النيل والدكتورة جليلة القاضى ودراستها حول القاهرة وخاصة التصور الذى وضعته لتطوير شارعى الألفى والبورصة بوسط البلد حيث قدمت مشروعا سبق أن استعرضناه بمجلة الهلال (سبتمبر ٢٠٠٢) حول اعادة استغلال الأماكن التراثية وذات القيمة المعمارية مع الأخذ فى الاعتبار السلوكيات الاجتماعية للتعامل مع الأمكنة العامة والامكانيات الاقتصادية المتاحة وكيفية الحفاظ على النسيج الحضرى والمعمارى .

مركزية شديدة

وفى لقائنا مع الدكتورة جليلة القاضى أوضحت أن اسم الجهاز غير مفهوم على الإطلاق، فماذا يعنى بكلمة





متى نرى شارع قصر النيل بوجه حضارى جديد ؟!

«الحضارى» أم أن المقصود هو الحضرى. وتقول «الجهاز الجديد ينحصر دوره فى إعادة تنسيق الفراغات والواجهات والشوارع والأرصفة والميادين وكل مايدخل فيما يسمى الفراغ . علاوة على التجميل». وإن كانت تنتقد ذلك مؤكدة أن ماسيقوم به الجهاز هو فى الأساس الدور المفقود الذى يجب أن تلعبه المحليات أو البلديات داخل كل محافظة أو مدينة. وبالتالى فسيكون على الجهاز أن يكون له فرع داخل كل مدينة فى مصر حتى يتسنى له القيام بمهامه بنجاح. وتشير أن فكرة إقامة جهاز بمثل ذلك الحجم الضخم والممتد فى كل مكان فى فكرة قد تقضى على التنافس بين المدن وفى الوقت نفسه تؤدى إلى تشتيت الجهود، لأنه سيقوم بتوزيع مجهوداته على كافة المحافظات فيكون نصيب كل منها هزيل. فى حين لو أن الجهاز احتفظ بدوره كمنسق بين المحافظات وبين وزارة الثقافة أو حتى المراكز البحثية وأقسام الهندسة والعمارة فى جميع الجامعات لكانت مجهوداته أكثر كثافة فى سبيل الصالح العام. إلى جانب تفعيل دور المحليات داخل كل محافظة، وحتى لاتتكرر مفاهيم المركزية الشديدة التى تعانى منها كافة الوزارت فى الحكومة المصرية .

وتطالب الدكتورة «جليلة» أن يكون للجهاز مجلس إدارة قادر على توجيه الجهاز القومى الوجهة الصحيحة بحيث يهتم بالأماكن التراثية والتى تحمل طرز

معمارية والتي دائماً تقف حائرة بين كونها أثر أو مجرد مبنى ذو قيمة تاريخية. حتى لايتم التعدي عليها.

وفي المقابل يؤكد الدكتور صالح لمعي مدير مركز احياء تراث العمارة الإسلامية ومؤسس جمعية أصدقاء القاهرة التاريخية ضرورة الاهتمام بالمشاركة الشعبية كجزء أساسي من عملية التنمية الحضارية، مشيراً إلى أن الإعتماد على وضع المخططات والقوانين لن يصل بالجهاز إلى الهدف المنشود، إذا لم ينبع التحرك من داخل المواطن إيماناً منه بالحفاظ على الصورة الجميلة لبلاده . وإن كان يرى أهمية تعليم الأطفال منذ المراحل التعليمية المبكرة بالسلوك الأصح في التعامل مع البيئة المحيطة بهم .. وفي الوقت نفسه ضرورة فرض عقوبات رادعة يتم تطبيقها على كل من يتعدى على القواعد والنظم المعمارية.

مهمة قومية

وفي مقابلة مع سمير غريب رئيس الجهاز القومي للتنسيق الحضاري أكد أن حجم الجهد المبذول داخل الجهاز منذ إعلان قرار إنشائه وحتى يوم افتتاحه يفوق الوصف. وإن كان يرى أنه برغم الدراسات المكثفة التي استمرت على مدى ثلاث سنوات قبل صدور قرار الإنشاء إلا أن الهيكل الإداري والتنفيذي صدر بلا إدارة قانونية أو مركز كبير للمعلومات الأمر الذي قد يعرقل عمل الجهاز لفترة.

وإن كان يؤكد أن مشروع القانون الذي لايزال قيد الدراسة بين جهاز التنسيق الحضاري ومجلس الدولة سيعطي القوة التنفيذية وصلاحيات ملزمة لجهاز التنسيق ، بل يتضمن بنود توضح المخالفات والتعديات والانتهاكات التي قد يتعرض لها المعمار والعمران في مصر . ويحدد الغرامات المالية والعقوبات التي قد تصل إلى حد الحبس وتنطبق أحكامه على كافة المدن والقرى والمحافظات والطرق وكل ما هو يمشي أو كائن حي أو حيوانات وطيور وحدائق ومحميات طبيعية .. فلا يجوز طبقاً للقانون وضع أية اشغالات في الفراغات العمرانية إلا بعد موافقة الجهاز على سبيل المثال وإن كان يرى أن قدرة الجهاز على إقناع الناس بأهمية الحفاظ على جماليات المكان تعني نجاح مهمته القومية في نشر الوعي بأهمية التنسيق الحضاري. كما يتوقف نجاحه على قدرته على التعاون مع مختلف الجهات الحكومية المعنية.

ويوضح مشروع القانون مهام واختصاصات الجهاز وأكد أن جهاز التنسيق الحضاري لن يعاني من المركزية الشديدة التي تعاني منها كافة الأجهزة الحكومية بل سيقوم على التعاون مع كل المحليات والمحافظات ولن يكون بديلاً عنهم. بل سيقدم خلاصة فكر الباحثين والعلماء المختصين في التخطيط

العمراني والمعماري، لتساعد المحافظات المحليات على تنفيذه، على اعتبار أنها الجهات المعنية بإصدارتراخيص البناء أو الهدم أو الإزالة أو التنكيس لأية مخالفات وإن كان ينتقد أن مشروع القانون -- الذي لم يتم إقراره حتى اليوم داخل مجلس الشعب -- لم يتضمن تحديداً للهيكل الإداري لفروع الجهاز في المحافظات حتى تتضح الرؤية حول كيفية التعاون المشترك ويضرب مثالاً بمشروع تطوير المسار السياحي بالبر الغربي بمدينة الأقصر، كنموذج للتعاون بين جهاز التنسيق الحضاري وجهاز مدينة الأقصر وضوابط كل مشروعاته المستقبلية. كما يعطيه الحق في العمل على إعادة تنسيق وتجميل المناطق المحيطة بالآثار أي العمل خارج حرم الأثر وعلاقة الأثر بالشارع والمناطق المجاورة له. كما خصص القانون باب خاص للمناطق ذات الطبيعة التاريخية والأثرية المتميزة مثل القاهرة التاريخية وعمارة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وفي حالة الخروج على القانون، يعطي لمفتشي الجهاز حق الضبطية القضائية علاوة على فرض غرامات وعقوبات قد تصل إلى الحبس،وسيكون له الحق في إزالة التعديات.

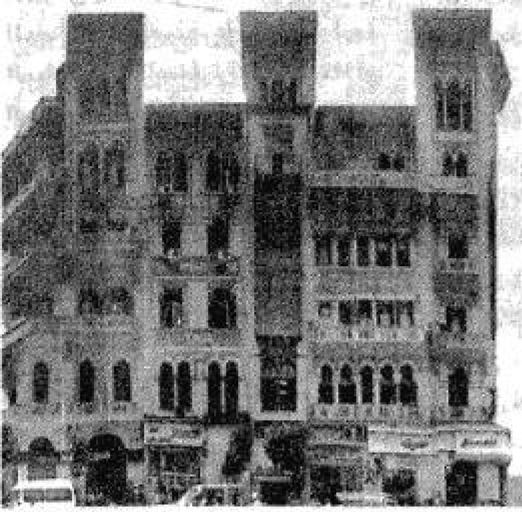
وعن مصادر تمويل جهاز التنسيق الحضاري أكد أن مشروع القانون يخصص له رسم دمغة سيتم فرضها على تراخيص أعمال البناء قيمتها ١٪ من قيمة الترخيص، كنوع من المشاركة في تمويل صندوق الجهاز، علاوة على أن الجهاز سيتعاون مع كل الجهات المعنية بالعمران في مصر مثل وزارات: التنمية المحلية، الداخلية الإسكان والتعمير، والأوقاف والثقافة والكهرباء، والموارد المائية بل ووزارات التربية والتعليم والتعليم العالي والشباب والرياضة.

إلى جانب ذلك يعطي مشروع القانون للجهاز الحق في تلقي الهبات والمعونات وعقد القروض لتمويل مشروعاته، كما ستكون قيمة الغرامات المفروضة على المخالفين جزء من تمويل صندوق الجهاز خاصة وأن ميزانيته قد تصل إلى ملايين الجنيهات..

وتوفيرا للجهد والوقت سيحتضن جهاز التنسيق الحضاري كل الاجتهادات والمشروعات والجهود الفردية أو الجماعية التي تمت قبل قيامه من قبل باحثين متخصصين سواء داخل الجامعات المصرية وأقسام العمارة أو مراكز الأبحاث العاملة في ذلك المجال.

تمويل أجنبي

وهنا تثار نقطة مهمة فمن المعروف أن هناك عددا من مراكز الأبحاث العاملة في حقل التخطيط العمراني والتوثيق المعماري تمت بتمويل أجنبي مثل (الاتحاد الأوروبي وفرنسا) أو بالتعاون مع بعض الجامعات الأجنبية المتخصصة في نفس المجال . وذلك نظراً





هل ينجح التنسيق الحضارى في الحفاظ على المبانى ذات القيمة التراثية ؟

لضخامة تكلفة تلك الدراسات. يؤكد سمير غريب أن أى تمويل أو مساعدة سيقبلها الجهاز طالما أنها خاضعة لقوانين واشتراطات أجهزة الرقابة الإدارية والجهاز المركزى للمحاسبات وتقوم على الشفافية . وبالتالى فإن الجهاز سيتعاون مع كل مراكز الدراسات والأبحاث سواء الأجنبية أو التى تقوم على تمويل أجنبى من جامعات من دول مثل فرنسا أو إيطاليا أو غيرها طالما ذلك فى صالح المهمة القومية للجهاز.

كما أكد أن الجهاز سيتعاون مع مركز التوثيق التراثي والحضارى والطبيعى التابع لمكتبة الإسكندرية والتى يشرف عليه الدكتور فتحى صالح لما يضمه من مادة وثائقية عن تخطيط المدن والشوارع فى مصر جميعها. مثل القاهرة ، بورسعيد، السويس ، وغيرها .

وبرغم كافة التصريحات التى أكدها رئيس الجهاز سمير غريب فإن القانون إذا ظل حبيس أدراج مجلس الدولة ولم تتحمس الحكومة لتقديمه خلال الدورة القادمة لمجلس الشعب فإنه لن يعدو سوى مجرد مشروع عملاق يعج بالأفكار الوردية الحالمة - التى تجعله يصل إلى حجم وزارة متخصصة فى مجال التنسيق الحضارى والعمرانى على الورق، ويتحول إلى مجرد صرح كبير بلا أيدى أو أرجل يتحرك بها ليصلح ما أفسده الزمن والتعديات وانتهاكات القوانين. ■

التكوين

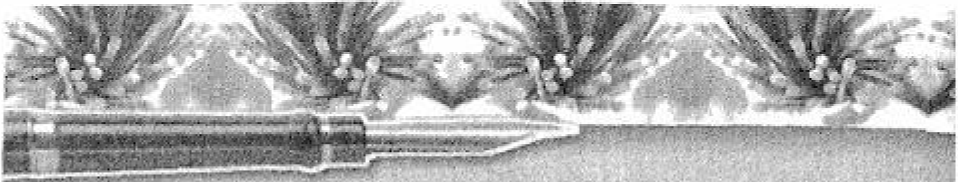
أمي هي سر نجاحي وتفوقي

أمال محمد علي

رحلتي مع التكوين بدأت في مجتمع الصعيد، الذي يعامل الفتاة معاملة تختلف تماما عن الولد، وكانت وسيلتي لكي أحقق ذاتي، هي الاجتهاد والنجاح، لأن الفشل معناه الحرمان من التعليم والجلوس في البيت انتظارا للزوج الموعود!

وكان وراء نجاحي في مشوار الحياة أمي التي ربت خمسة من الأبناء وابنتين، شقوا طريقهم في الحياة، وهي تتابعهم، وظلت تفعل ذلك، حتى وهي في سرير مرضها، حتى آخر يوم في عمرها!





أنا من الصعيد.. نشأت في مدينة المنيا، توفي والدى وعمرى لايزيد على ٠ عامين، كان لى خمسة إخوة أكبر منى، وأخت وحيدة.

نشأت في جو الأسرة الصعيدية بكل تقاليدها على الرغم من أن محافظة المنيا أقل قليلا من تشدد أهل الصعيد! وأمى التى تولت تربيتنا، كان حظها من التعليم قليلا، ولكنها كانت سيدة مستنيرة جدا، تؤمن بأن الفتاة ينبغى أن تحصل على قسط وافر من التعليم مثل الولد تماما.

كانت هذه الأم رقيقة وحنونا جداً، تمتلك قوة الشخصية والرأى السديد والفضل الأساسى فى تكوينى يعود إلى أمى، فهى التى أصرت على تعليمى أنا وأختى الأصغر منى، مثلنا مثل إخوتنا الذكور، ليس تعليما مرحليا، ولكن كل مراحل التعليم.

كان أبى عمدة قرية أبو عزيز مركز بنى مزار، ويقال إنه كان من أثرياء القرية، وكنا نعيش فى سعة وبحبوحة فى سراى كبيرة، ولكنه فقد كل أملاكه فى بنوك الرهونات التى كانت منتشرة فى الأربعينات، حيث تم الحجز على كل أملاكه، وتوفى - ربما - بسبب ذلك.

أخذتنا الأم لكى نعيش فى المنيا، وكانت أختى التى تصغرنى فى السن، عمرها لا يزيد على أربعين يوما، وكنت أقل من السنتين، والذى تولى تربيتنا بعد وفاة أبى، هو جدى والد أمى، وكان من رجال القضاء، ويمتلك عقلا راجحا مستنيرا.

وشاء القدر لى ولأختى أن نواصل تعليمنا، فى ظل هذا المناخ الصحى فى رعاية هذا الجد، وبفضل الأم التى كانت لا تفرق بين الولد والبنت، وربما لو عاش أبى، لكان قد رفض فكرة مواصلتنا للتعليم، وكان مصيرنا هو الزواج فى الصغر، كما كان يحدث فى الصعيد، فى ذلك الوقت.

كانت أمى تذكرنى دائما أنا وأختى، بأنه ليس أمامنا سوى الحصول على الشهادة والنجاح بشكل متصل ومواصلة التعليم، وبهذه الطريقة ربت لدينا الإرادة والإصرار.



إنعام مع والدتها وشقيقتها الصغرى إجلال



تكريم وجوائز مع أمينة السعيد و[illegible] وأحمد زكى وسعد لبيب و[illegible]، فى أحد مهرجانات المركز الكاثوليكى

التكوين

وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية التي مرت بنا بعد وفاة أبي المفاجئة، علمتنا أمي الصبر، وتحمل مشاق الحياة.

ورضيت بهذا الواقع، ووضعت نصب عيني أن التعليم شيء مهم جدا، وهو الذي سيكون خير دافع إلى تكويني، ولكي أشق طريقي في هذه الحياة الصعبة، بعد فقد والدي وتحمل أمي لهذه المسئولية الصعبة!

كنا كنا مسئولين عن بعضنا البعض، فأخي الأكبر حينما تخرج وبدأ يعمل، كان يساهم بمرتبه كله لكي نعيش، وحينما تخرج أخي الثاني تحمل نفس العبء ونفس المسئوليات، وأصبح لكل واحد منا دور في تحمل مسئولية الأسرة، وهذا بالطبع خلق لدينا تحمل المسئولية، وألا نكون عالة على أحد!

تعلمت في مشوار الحياة، ألا يتحمل أحد مسئوليتي، وليس من المفروض أن يتحمل أحد أعبائي، ويحمل أثقالي على عاتقي، بل ينبغي أن أكون أنا المسئولة عن نفسي، وهذا ما حدث بعد تخرجي في الجامعة.

لقد زرعت الأم لدينا إحساسا جميلا من خلال تعاملها مع الآخرين، فقد تولت تعليم فتاتين أتتا معنا من قريتنا للعمل في البيت، وأعطتنا الإحساس بأنهما ليستا أقل منا، فلا ينبغي الاستعلاء عليهما، وبالتالي خلقت لدينا الإحساس بالآخر.

في بداية تعليمي التحقت بالمدرسة الأولية لمدة عامين، ثم بالمدرسة الابتدائية، وكما أشرت كان التعليم بالنسبة لي مسألة حياة أو موت، وذلك هو ما غرسته فينا الأم والجد.

وكان معلوما لدي أنني لو رسبت أنا أو أختي، فسوف يكون مصيرنا البيت، هذا في حد ذاته كان سيفا مسلطا على رقبتي، وهو يعني أنه لابد من النجاح، الذي يعد حتميا وأساسيا في حياتي.

كنت أعتز بنفسي وأثق في قدراتي، وأذكر أن مدرسا من أقربائي حضر إلى منزلنا للزيارة، وطلب منه أن يتعرف على مستواي التعليمي، وحزنت جدا لهذا التصرف، واعتبرت ذلك إهانة لي. وفي المقابل نشهد هذه الأيام ظاهرة غريبة، وهي أن الطالب أو الطالبة، لا يتعرف على سطر واحد في المنهج الدراسي، إلا من خلال مدرس لكل مادة. بمعنى أنه كان وجود مدرس كما نشهده الآن، يعد إهانة للطالب أو الطالبة!

وإذا تحدثت عن اهتماماتي الثقافية في مراحل تكويني الأولى، أقول بأن مناخ البيت الذي نعيش فيه، كان يموج بالسياسة، من خلال إخوتي الخمسة، فبعضهم كان وفديا، وبعضهم كان من الإخوان المسلمين، والآخرون كانوا ناصريين.

أما أختي الأصغر مني، فكانت اهتماماتها أنثوية، حيث تعلمت التطريز والتريكو.

كنت أصغي لما يقوله إخوتي، في محاولة للتعرف على انتماءاتهم السياسية، خاصة أنهم كانوا يعدون بعض مجلات الحائط في البيت، وكانوا يتنافسون في إظهار آرائهم، وكنت أقرأ كل كلمة يكتبونها، ولكن كان لدي ميل للأمور

الأنثوية مثل الفتيات اللاتى هن فى سنى!

تمنيت أن أصبح صحفية

التحقت بمدرسة المنيا الثانوية، وبدأت أتشكل وجدانيا، ووجدتنى مسئولة عن الإذاعة المدرسية، وفى طابور الصباح كل يوم، كنت أقدم نشرة الأخبار. وبدأ يتكون داخلى ميل لأن أصبح مذيعة مستقبلا، أو أن أصبح صحفية.

وانصب اهتمامى على قراءة الكتب الموجودة داخل الفصل، وداخل مكتبة المدرسة، ومن بينها مؤلفات يوسف السباعى، وإحسان عبدالقدوس ومحمد عبدالحليم عبدالله، وطه حسين.

كنت مشهورة على مستوى المدرسة بأننى من أنبغ الطالبات، فى مادتى الجغرافيا والتاريخ، بالإضافة إلى كتابة موضوعات الإنشاء بشكل جيد جدا، وكنت أحصل على الدرجات النهائية فى تلك المواد، وعرفت بين زميلاتى بأن لدى ذاكرة فوتوغرافية، وأذكر أنه طلب منى وأنا بالصف الأول الثانوى، وفى مسابقة على مستوى المنطقة التعليمية فى المنيا كتابة موضوع عن كتاب «فلسفة الثورة» للرئيس جمال عبدالناصر من الذاكرة، وقد حصلت على المركز الأول، لأننى كتبت الكتاب، كما هو دون أن أبذل أى جهد، سوى كتابته، وكتبته كما هو، نفس الصفحة، ونفس السطر، وحتى ترقيم الصفحات، كأنه فوتوغرافيا سجلت داخل المخ، وقمت بنقلها على الصفحات، كما حفظتها ذاكرتى، ومنذ هذا اليوم وأنا أحب جمال عبدالناصر، بل أسجل هنا أننى ناصرية.

ومنذ الصغر وأنا من أشد المعجبات بالكاتب الكبير أحمد بهاء الدين رحمه الله، فأى مقال كان يكتبه، لابد من قراءته بعناية شديدة، وأحمد بهاء الدين، كان يعطينى السياسة فى «برشامة صغيرة»، وببساطة شديدة جدا، وكنت أحس بأنه يربط فى كتاباته الصحفية بين السياسة وبين المجتمع، وهذا سر إعجابى الشديد به، فقد نزل بالسياسة من برجها العاجى إلى رجل الشارع العادى.

ولما كبرت وقرأت لمحمد حسنين هيكل، أحسست أنه يكتب لمستوى معين من القراء.

الفتاة مسئولية في مجتمع الصعيد!

ولابد أن يخضع تكوينى لظروفى التى أحاطتها، ولو عدت إلى منزلى الذى عشت فيه فى بيئتنا الصعيدية، وأنا الأخت الصغرى لخمسة من الأولاد، شعرت ماذا يعنى الولد، وماذا تعنى البنت فى هذه البيئة المحافظة، وسألت نفسى، ولماذا هذه التفرقة؟

أحسست بكل الفروق، وأحسست بالقهر الإنسانى!

فحينما مات أبى تحول إخوتى الخمسة، إلى خمسة آباء، يتولون تحجيمى والحد من حركتى، لإحساسهم بأن البنت مسئولية، وياليت يتم زواجها وتستر، وياليتها لا تفهم شيئا ولا تبدو عليها أمارات الذكاء والتفتح!

لكن أختى الصغرى لم تشعر بهذا الإحساس، لأنها كانت تلعب نفس الدور المرسوم لها، أما أنا فكنت متمردة على

التكوين

هذا الدور، أو بمعنى آخر على القالب الذى ينبغى أن أوضع فيه أنا وأختى! تساءلت: ما هو الفرق بين عقليتى وعقلية أخى، ولماذا هذه الفروق، وهذا التمييز الذى أشهده فى التعامل، وفى وضع المرأة عموما داخل مجتمع الصعيد!

ولذلك فقد أحسست بقضية المرأة مبكرا داخل البيت المصرى.

أذكر وأنا فى المدرسة الابتدائية كان فى فصلى الدراسى خمس طالبات مسلمات، وثلاثون طالبة مسيحية، وكنت أرى أن الفتاة المسيحية زميلتى، تحصل على حريتها فى الذهاب إلى نادى المنيا، ويمكن أن تتحدث مع الأولاد بشكل عادى جدا، والبيت عندهم مختلط، على عكس ما يحدث فى منزلنا.

وقد طلبت ذات مرة أن أذهب إلى النادى، فرفض أخوتى هذا الطلب.

فى الجامعة

لما حصلت على الثانوية العامة، ووقتها حققت أعلى درجة فى مادة التاريخ على مستوى الجمهورية، وطلب منى أخوتى الالتحاق بكلية البنات، حيث لا يوجد بها اختلاط مثل باقى الكليات الأخرى، وكيف أود ألا تكون دراستى الجامعية استمرارا لدراستى الثانوية، كنت أود الدخول فى مجتمع جديد، وأتعرف على حياة جديدة تماما.

لكن أخى أخذ منى أوراقى وتقدم بها إلى كلية البنات، فغضبت من إصراره هذا وأضربت عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام، إلى أن وافقوا على التحاقى بكلية الآداب جامعة عين شمس قسم التاريخ وكان من بين أساتذتى، عدد كبير من المشاهير فى ذلك الوقت، من بينهم د. عزت عبدالكريم ود. أحمد عبدالرحيم مصطفى وغيرهما.

ولأن أمى كانت لها الكلمة العليا فى البيت، فهى التى أمرت بالتحاقى بهذه الكلية.

من أطرف ما حدث بعد انتقالنا إلى القاهرة، أن جدى، والد أمى كان يأتى إلى القاهرة، ويجلس عند خالتى التى تكبر أمى، وذات مرة أرسل لنا خطابا من المنيا باسم أحد أخوتى، فتأثرت أمى بشدة، وأصرت على أن يكتب اسمها هى على الخطاب بعد ذلك.

كان اسم أمى «سنية مختار» وكانت تعتز بهذا الاسم، ولذا فلا ينبغى أن يكتب اسم على أخى على الخطاب، فضلا عن أنها كانت تحب أن يناديها الجميع باسمها، وليس باسم أحد من أبنائها، كما كان يحدث فى ذلك الوقت. كانت أما ذات شخصية قوية تعتز بنفسها أيما إعزاز وللأسف الشديد فإن والدتى التى أثرت فى تكوينى وفى حياتى، مرضت لمدة ١٧ عاما بالروماتويد من بينها عشر سنوات على الفراش، وتوفيت وعمرها ٦٢ عاما، وكانت برغم مرضها الشديد تتابع كل واحد منا، حتى وهى على فراش المرض، وحتى آخر يوم من حياتها.

تدربت على الصحافة بدار الهلال

وفى الكلية وانطلاقا من عاداتنا، حورست علىّ التقاليد الصعيدية، بمعنى أنه

لو تم التقاط صورة فوتوغرافية مع زملاء لي، فلا يمكنني أن أذهب بهذه الصورة إلى البيت، وأيضا عملت سكرتيرة تحرير مجلة الكلية، وكنت كذلك لا أستطيع أن آخذ هذه المجلة المكتوب بداخلها اسمي إلى بيتنا، لأن معي زملاء يحررون هذه المجلة!

وأذكر أنني في السنة النهائية بكلية الآداب، كانت هناك رحلة إجبارية إلى الإسكندرية، ولابد من المبيت أثناء السفر، ولما علمت أمي وإخوتي بذلك، رفضوا سفري

في هذا الوقت كانت أسرتي كلها قد أتت إلى القاهرة في عام ١٩٥٦، في حين تخرجت عام ١٩٦١

وفي السنة الرابعة، أذكر أنني تدربت في دار الهلال في مجلة الاثنين والدنيا، ولمدة ستة أشهر وكان ذلك في عام ١٩٦٠، ووقتها كتبت عدة موضوعات لا يحضرني عنوان أي منها، ووقتها لم تكن توضع الأسماء كما يحدث الآن.

رحلة الحياة

كان التليفزيون في بداياته الأولى قد بدأ يكون كوادره وأعلن عن مسابقة لقبول مساعدات للإخراج من الجنسين، من مختلف التخصصات، ومن مختلف الكليات ولم يشترط كلية معينة، ضم امتحان هذه المسابقة ١٦٠٠ من خريجي الجامعات، ومن بينهم خريجو كلية الهندسة والطب، ونجح منهم ٦٣ من بينهم إحدى عشرة بنتا، واستطيع القول بأننا دخلنا العمل في التليفـــزيون في ذلك الوقت دون أية وساطات، والامتحان الذي شاركت فيه لم



مع المشير طنطاوي أثناء حفل وزارة الدفاع بمناسبة عرض فيلم «الطريق إلى إيلات»

تكن له علاقة بالفن، بل كان عبارة عن ترجمة لنص من الانجليزية إلى العربية، بالاضافة إلى المعلومات العامة، ثم أجريت لنا مقابلات وبعدها تم توزيعنا على مختلف الإدارات، وكان نصيبي إدارة التمثيليات والعمل بها مساعدة مخرج، بمعنى أن أول طريقي لنهاية مشواري جاء بالمصادفة، ولم أخطط له من قبل، وكان طموحي بعد التخرج أن أصبح إما صحفية أو مذيعة.

دخلت هذا المجال الجديد، على الرغم من أنني لا أعرف عنه شيئا، لكنه كان يحق شيئا مبهرا واكتشفت بأنني وجدت ما أهواه.. وقتها كان التليفزيون يتم بناؤه، وكانت إدارة التليفزيون في أحد المباني القريبة من شارع الشريفين.

بدايتي مع فن الإخراج

بدأت العمل بهمة ونشاط، وأول عمل لي مع المخرج محمود السباع، في تمثيلية بعنوان «هروب» تذاع على الهواء مباشرة،

وبدون تسجيل، وكانت من بطولة عمر الحريري وزهرة العلا وكان ذلك في عام ١٩٦١ .

بعد ذلك عملت مع الفنان محمود مرسي، ثم نور الدمرداش، ولأننا كنا نشكل الرعيل الأول من العاملين في التليفزيون كان هناك اهتمام كبير من المسئولين، حيث انتدبوا إلينا خبراء من الـB.B.C لكي يقدموا إلينا الخبرة، وبعد فترة ليست بالقصيرة، أرسلونا في دورات تدريبية في الخارج وكانت بعثتي إلى ألمانيا.

وفي بداية عملي في اليوم الأول بالاستوديو واجهت موقفا لا أنساه حتى يومنا هذا.. فقد كان بيدي «الاسكريبت» الذي كتبه المخرج محمود السباعي ويتضمن كل ملاحظاته التي تنفذ وقت العمل، وبدأت اقرأ «الاسكريبت» باهتمام شديد إلا أن زميلا لي وقف إلى جانبي وهو يقول لي.. إنها أشياء صعبة، ولن تستطيعي فهمها!

كان لهذه الكلمات السريعة وقع شديد عليّ، بالفعل هناك كاميرات يضمها الاستوديو، وكشافات للإضاءة وديكور وغير ذلك، كل منها له وظيفة خاصة، فالكاميرا لها دورها والاضاءة لها وظيفتها.. وتعليمات المخرج تنفذ حرفيا.

هنا بدأ تشكيل العقل، وفكرت في كيفية توظيف عقلي فنيا واستطيع القول بأنه منذ تلك اللحظة الحاسمة في حياتي بدأ تكويني الفني.

وسألت نفسي: هذا المجال الذي أعمل فيه الآن، والذي أصبح هو المستقبل بالنسبة لي، متصل بالسينما والمسرح، فحرصت على مشاهدة كل المسرحيات التي تعرض في ذلك الوقت، وكان مسرح التليفزيون قد أنشيء، وتمكنت من متابعة الحركة المسرحية النشطة، وكذلك متابعة ومشاهدة الأفلام السينمائية بشكل منتظم.

وبدأت أبحث عن الكتب التي تتناول التصوير والمونتاج، والتي تتحدث عن الدراما، أقوم بجمعها وقراءتها، بمعنى أنني بدأت عملية تثقيف ذاتي، وتنمية حرفة المخرج وهي مهنتي التي أعمل بها.

ذلك كله جعلني ألم إلى حد كبير بفنون المسرح وفي السينما بحرفية الكاميرا.

وبعد سنوات من العمل في التليفزيون ومعايشة المناخ الذي نعيشه، توصلت إلى ضرورة خلق الالتزام لدى الفنان فضلا عن أن الفنان لابد وأن يقوم بعمل علاقة قوية بينه وبين المجتمع ويعايش همومه ومشاكله، فضلا عن أن الفن يعتبر وسيلة لوضع هذه المشكلات في أجمل إطار، ويجعل المشاهد يشارك في حلها.

بدأت أحس بأن لي دورا وبأن لدي وسيلة، لابد أن تستخدم استخداما جماهيريا، وبأن هذا الاستخدام الجماهيري، لابد أن يؤثر على المشاهد، وهذا المشاهد لابد أن يكون له دور إيجابي في تطهير مجتمعه.

وقد ترجمت ذلك بعد عملي لمدة عشر سنوات في التليفزيون حيث التحقت بالمعهد العالي للإعلام، والذي يمنح خريجيه درجة

الماجستير.

كنت من أوائل الذين التحقوا بهذا المعهد، وحصلت على الماجستير عن رسالة عنوانها «الدراما التليفزيونية ودورها في التطوير الاجتماعي» سنة ١٩٧٢ بامتياز، وكان المشرف على الرسالة الدكتور إبراهيم إمام عميد المعهد، والإذاعي محمد فتحي.

هذه الرسالة شكلت عقلي وبدأت مرحلة جديدة في مجال الإخراج.

محطات

في رحلة التكوين كانت هناك محطات أود أن أتوقف عندها قليلا..

ففي سنة ١٩٦٥ كنت أول مخرجة لتمثيلية تليفزيونية بعنوان «نفوس حائرة».

ومن قبل كان الاخراج مقصورا على الرجال.. ولم تدخله المرأة على الإطلاق، لكن التليفزيون هو الذى فتح أبوابه، وكان هذا انعكاسا لمناخ الستينيات، والذى أكد على قدرات المرأة مثلها مثل الرجل تماما، والميثاق الذى أطلق مقولة في أحد بنوده «فلتسقط بقايا الأغلال التى تغل حركة المرأة» وهذا القد ترجم بشكل عملي، ليس في المجال العام، ولكن في المجال الخاص.

في الوقت الذى لاقت فيه تمثيلية «نفوس حائرة» استحسانا صدر قرار رجعي من الدكتور عبدالقادر حاتم وزير الإعلام في ذلك الوقت، بأن المرأة ممنوعة من إخراج الأعمال الدرامية، والسبب كما قال، إن الدراما عمل شاق على المرأة، وأن المرأة أرق من أن تتحمل مسئولية الأعمال الدرامية فضلا عن أن العمل الدرامي في المقام الأول قيادة، وكأن المرأة من وجهة نظره لم تخلق للقيادة!

وهنا أتوقف لأقول، إنه في هذا المجال المتطور، الذى تسوده كل الأفكار المستنيرة، والفكر الاشتراكي وغيره، يجيء الشخص المسئول عن الإعلام في مصر، ليصدر مثل هذا القرار ضد المرأة.

عموما فقد استمر هذا القرار لمدة عام، وكان عدد مخرجات الدراما قد تضاعف، وكان من بين زميلاتي المخرجات علوية زكي، علية ياسين وشويكار زكريا ومجيدة نجم.

وحينما جاء محمد فائق وزيرا للإعلام كان أول قرار أصدره، أن تعود المرأة للإخراج.

كنت قد نقلت إلى برامج المرأة، وخلال هذه الفترة ارتبطت بزميلي محمد فاضل، الذى كان يعمل في مراقبة التمثيليات، وخلال هذه الفترة وأنا أعمل في برامج المرأة، استطعت أن أقدم تمثيليات مهمة من بينها «في بيتنا مشكلة».

ثم بدأت أقدم أول عمل تعرف على الجمهور من خلاله ابتداء من نهاية عام ١٩٦٩ إلى عام ١٩٧٢ وهو «سيداتي آنساتي» لمدة نصف ساعة أسبوعيا.

بعد ذلك صدر قرار آخر من نور الدمرداش يمنع أي مخرج عمل تمثيليات من خارج مراقبة التمثيليات، فانطبق القرار علي وعلى يحيى العلمي، فتوقفت عن إخراج أي تمثيلية، وتفرغت لدراسة الماجستير التي تحدثت عنها من قبل.

وفي محطة أخرى من حياتي أؤكد من جديد أنني حرصت على أن أنمي نفسي في مجال العمل بكل الوسائل والطرق


إنعام وفاتن حمامة مع أسرة مسلسل «ضمير أبلة حكمت»


...وبين فريق العمل في «الطريق إلى إيلات»

وبالجهد الذاتي، ولا أنكر هنا أن زواجي من نفس المجال في الإخراج ساعدني كثيرا، فنحن الاثنين كانت لدينا طموحات مشتركة، وبالتالي أصبحت لدينا حصيلة من القراءات المشتركة في المجالين الفني والأدبي، بالإضافة إلى المشاهدات المشتركة أيضا، بمعنى أننا -- تقريبا - وخلال أربع وعشرين ساعة يوميا، نتحدث في الفن والعمل الفني كما أنني قرأت أثناء إعداد رسالة الماجستير عددا كبيرا من الكتب سواء في فن الدراما أو في الأدب، أو في النظريات الإعلامية مثل الرسالة والوسيلة والتأثير على سيكولوجية المشاهد في علوم الإعلام، وكيفية تغطية الموضوع الذي تقدمه من كل جوانبه.

كما حرصت على تقديم الجانب التطبيقي، كما حدث في الحلقات التليفزيونية «القاهرة والناس» والتي عرضت على مدى أربع سنوات، وعلى الرغم من أن اسمي لم يكن مكتوبا عليها، إلا أنني كنت أشترك في اختيار الموضوعات، وفي ترشيح الممثلين ومناقشة الموضوعات.

وكان مخرجو السينما في ذلك الوقت يتابعون أعمالي، خصوصا المخرج الكبير صلاح أبوسيف، الذي كان يعتبرني تلميذة نجيبة، وكان يشجعني باستمرار، وأيضا المخرج حسن الإمام، الذي كان يتصل بي دائما أول تليفون بعد أول حلقة أقوم بإخراجها في مسلسل أو تمثيلية وذلك في فترة الثمانينات.

ولو توقفت عند أعمال مهمة لي فإنني أذكر أول مسلسل أخرجته وكان ذلك في نهاية سنة ١٩٦٩ وحتى ١٩٧١ بعنوان «سيداتي آنساتي» وكان مسلسلا متصلا منفصلا، ثم توقفت لبعض الأسباب، ثم عدت لعمل مسلسل عام ١٩٧٦.

كنت أصغر مديرة إدارة وأنا في الثلاثينيات من عمري، وكنت أقوم بإخراج أعمال درامية، وأنا خارج مراقبة التمثيليات، إلى جانب عملي الإداري،

ودراستي التي حرصت على العناية بها

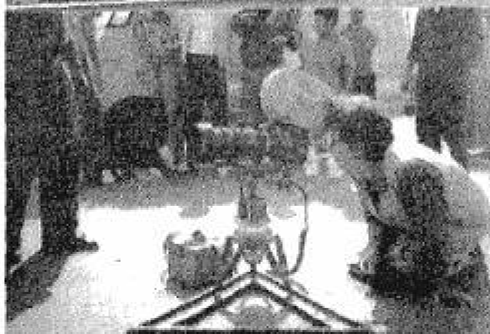
في عام ١٩٧٦ أخرجت تجربة جيدة جدا كانت بعنوان «لعبة كل الناس» كان يكتبها راجي عنايت، وكان يقدمها صلاح جاهين، وكانت تتناول نظرية في علم النفس، صدرت في نفس العام، قدمها راجي وحولتها إلى دراما، وكانت التمثيليات منفصلة متصلة، كل تمثيلية فيها لعبة نفسية.

وقدمت عددا كبيرا من الوجوه الجديدة من الممثلين والممثلات

في سنة ١٩٧٧ أخرجت مسلسلا للأطفال بعنوان «عودة السندباد» وكان أول توزيع موسيقي لعمار الشريعي، وكان حظ هذا المسلسل سيئا جدا، فمن المفروض بعد الانتهاء منه أن يوزع في العالم العربي ولكن حالت دون ذلك الزيارة المفاجئة للرئيس السادات إلى إسرائيل والتي أعقبتها مباشرة المقاطعة السياسية لمصر من كل الدول العربية.

وبدأت منذ عام ١٩٧٨ ولأول مرة أقوم بعمل المسلسلات المتصلة وتعاملت مع الأديبة فتحية العسال، وقدمنا أربع مسلسلات «حصاد العمر» ١٩٧٩.. «هي والمستحيل» ١٩٨٠، «الباحثة» ١٩٨٢، «حتى لايختنق الحب».

وخلال هذه الفترة قمت بعمل مجموعة سهرات تليفزيونية أخذت عنها ١٢ جائزة من مهرجان محلي، عقده التليفزيون لإنتاجه، وكانت الجوائز في عناصر الإخراج كلها، من ماكياج إلى ديكور، وملابس، وإضاءة وإخراج وتمثيل.



العمل الجاد والدءوب يكلل دائما بالنجاح والتقدير



يسعد مهرجان القاهرة العاشر للإذاعة والتليفزيون أن يمنح

أما الجائزة التي حصلت عليها هذا العام ٢٠٠٤، فهي جائزة التميز عن مسلسل أم كلثوم، وكأفضل مسلسل عرض خلال عشر سنوات هي عمر المهرجان العربي لاتحاد الإذاعة والتليفزيون الذي كانت بدايته عام ١٩٩٤.

وتبقى من عمري ٢٤ سنة من العمل المتواصل فيها ٢٠ تمثيلية سهرة وخمسة أفلام واثنا عشر مسلسلا من أبرزها «الحب وأشياء أخرى» «ضمير أبلة حكمت» «أم كلثوم» «قاسم أمين». ■

متى نشهد تعمير سيناء؟!

سيناء الحبيبة .. أرض الفيروز، ومهبط الديانات السماوية .. هذه المساحة الشاسعة من أرضنا الحبيبة، متى نرى الخطط الطموح والمشروعة التي تعمرها، لخيرنا، ولتكون مستقبل أبنائنا، ودرعنا الواقي على مر الزمان..

سؤال يلح علينا جميعا، ونتمنى أن نرى يد الإصلاح وقد امتد إلى كل ركن من أركانها.

خالد يحيى نويشي
المهندسين - الجيزة

الهلال: تناولنا أكثر من موضوع حول تعمير سيناء ومن بينها مقال بعنوان «التيه في دروب سيناء» يحث المسئولين على الإسراع بتنفيذ المشروع القومي لتنمية سيناء، وألا ينبغي أن نتذكر سيناء، حينما تهل علينا ذكرى أكتوبر العزيزة لابد للمسئولين أن يهتموا فعلا بهذا المشروع، ونضم صوتنا إلى صوت كل الغيورين على مصرنا العزيزة.. وفعلا .. «مازالت سيناء تئن وتشكو من إهمال أبناء الوادي، وسيحاسب هؤلاء الأبناء يوما على تقصيرهم في الاهتمام بها».

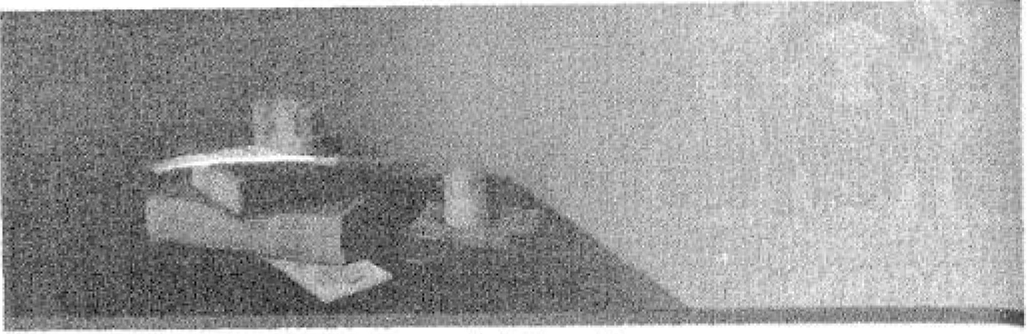
لاينبغي أبدا أن تظل مساحة تقرب من ثلث مساحة مصر بهذا الإهمال ونحن نعاني من مشكلات توفير رغيف الخبز الذي إذا توافر لأي مواطن ضمن حريته كاملة!.

وثائق أكتوبر ويوليه

يهل علينا شهر أكتوبر .. وعلى الفور نتذكر نصر أكتوبر الذي أعاد الكرامة للعرب وتحديدا في السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وبلا شك هناك موضوع يشغل بالي وبال كل الباحثين .. أين هي وثائق ثورة يوليو ١٩٥٢ والتي مر عليها ٥٢ عاما، وأيضا وفي مناسبة نصر أكتوبر العظيم .. أين وثائق هذه الحرب لنتعرف على جوانب كثيرة يود شبابنا الاستزادة منها في كل المجالات في هذه الفترة المهمة من حياة مصر.

ابراهيم حماد
باحث بكلية الآداب - القاهرة - قسم تاريخ

الهلال: لقد وعد الاستاذ محمد حسنين هيكل أن يقدم هذه الوثائق إلى مكتبة الاسكندرية، وتكشف هذه الوثائق الكثير الذي نود أن نعرفه ويعرفه أبناء هذا الجيل.



الجور العادل

قالت لاتسرف في مدحي ... فحديثك يعزف أوتاري
وكلامك لايعرف حجبا ... كرياح تهتك أستاري
وتدق طبولي تشحذني ... وتقيم الحرب بمزماري
وتردد في جوفي لحنا ... يسكرني ويزيد دواري
إطراؤك سيف يشطرني ... فترفق واحقن إهداري
ومضات جنونك ترجفني ... وحوارك يسهم في ضعفي
وشرودي يفضح أسراري ... يثنيني عن أخذ قراري
قررت فلا تضعف عزمي ... وكفاني تقلب أطواري
أنا لست نصيبك صدقني ... أأعاند عبثاً أقداري
وعيونك تجتاح صمودي ... وتهد قواعد أسواري
فطريقك لايلقى طريق ... فاتركني أكمل مشواري

د. عبد العاطي محمد محجوب
المعادي

قصة قصيرة

الحافلة

وجدتني مدفوعا بين الحشود مترقباً خلو مقعد ، في لحات دار بخاطري ما سأعانيه ، سخط في صمت ، فجأة كافأني الله بمقعد شكرته عليه بعد شعوري بشيء منها أمان كان مفقوداً . وسط عيون ، تنهشني في حسد ، أمتزج في مسامعي جدال .. سيدة تأمر شاباً بالابتعاد عنها قائلة : إن لي من يكبرونك عمراء !

ورجل لآخر : لقد هرست بحذائك قدمي

ليجيبه : الحافلة للشقاء ، فعليك بسيارة خاصة .

وتلك الآنسة الرقيقة تلقي بحقيبتها وحافظة أوراق أحاطتني بذراعيها وهي تنظر في عتاب إلى من لا يبالون ، وهذا الصبي يحملق بفضول مكتشفاً ما لم يدركه قرناؤه بعد . الفتاة ترمقني بابتسامة شكر مسبق ، دار الصراع في داخلي هل أتخلى عن مقعدي وأخلصها من القرود الشيقة ؟، ولكن سأكون بين هذه العظام النفرة فتنفذ إحداها ضلوعي تحطمها ، آثرت السلامة .. وحين دغدغ أريجها مشاعري اختلست نظرة !

لازال يكمن في عينيها الجميلتين أمل ، وحين أوشكت على النهوض راعني صوت متهدج لرجل : أرجوكم ردوا إليّ حافظتي ، لا يهم رزق الأولاد . فقط أوراق الأطباء . لعنت ترددي ،
لعت دمعة .. بعد أن قرأت في عينيه أسى واعتذار
والحافلة خلف قافلة تتهادى بعذابات البشر
وقد امتزج عطر النساء بعرق الرجال !!

محمود مكي خليل
«النوبة»

أنت والهلال

استلهام روح أكتوبر ١٩٧٣

يجيء شهر أكتوبر في كل عام .. ونتذكر انتصار العرب على إسرائيل في حرب السادس من أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣ .. ونتوقف دائما عند الدروس المستفادة من هذه الحرب التي أعادت إلينا الكرامة، خاصة بعد الهزيمة الغريبة في الخامس من يونيو ١٩٦٧، ولم تغفل لنا عين ولم نهدأ إلا بعد أن حققنا النصر الكبير .. في هذه الحرب تلاحمت القوة العربية، وشاركت الجيوش وشاركت الإرادة في هذا النصر، وكان سلاح البترول له أثره الكبير في أعقاب وقف القتال الذي لولاه لكانت لهذه الحرب شأن آخر، ولم تكن هذه هي إسرائيل المتغطرسة التي نراها الآن!.

لقد حفظت اسرائيل وأمريكا درس حرب أكتوبر، ووضعوا أيديهم على سر هذا التفوق وهذا الانتصار، وهو قوة العرب في وحدتهم ووقوفهم صفا واحدا.

ومنذ ذلك اليوم والهدف الأساسي هو فرقة العرب وتمزقهم، ولذلك ينبغي أن نتعرف على ذلك ونتوقف عند هذه الفرقة التي نعيشها الآن وضرورة أن يعيد العرب كل العرب ترتيب البيت العربي من جديد، لابد من توحيد الصف العربي، ولابد من الوقوف ضد هذه الفرقة التي تغذيها قوى خفية .. ونعي الدرس جيدا، ومايحدث في العراق وفلسطين وما يونون عمله في السودان، ومحاولاتهم ضد سوريا، كل هذا السيناريو حتى يفتتوا قوتنا التي تخيفهم، فأين نحن الآن من تلك الأيام الخالدة في السادس من أكتوبر ١٩٧٣، يوم أصبح الجيش العربي، هو سادس قوة على مستوى العالم في الاستعداد وقوة الردع.

ولايمكن أبدا أن نستسلم لما يحاك للعرب من مؤامرات، ولابد أن نعود إلى وحدتنا .. ووحدة الصف ووحدة الهدف والمصير.

د. جمال على العطار

ماهذه الأحكام المتسرعة؟!

تتابع ما يكتبه د. ماهر شفيق فريد بالهلال دوما، ولم نعهد فيه التسرع في إطلاق الأحكام وهو الأكاديمي المعروف لدينا، غير أنه في الفترة الأخيرة راح يطلق أحكاما غريبة ومثيرة.

فبعد أن أطلق في عدد يونيه الماضي حكمه المحزن حقا، بتراجع طه حسين والعقاد وهيكل والمازني وزكي نجيب محمود وعبدالرحمن بدوي واسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمي وخالد محمد خالد ومصطفى محمود على المستوى الفكري، وتراجعهم أكبر كارثة حاقت بالفكر العربي، وهو يقصد تحولهم إلى الكتابة في الفكر الإسلامي، وربما يقصد أيضا أنهم أسسوا لفكر الإرهاب الآن!!

وها هو في عدد سبتمبر الماضي يعود ويتسرع بإطلاق حكمه بأن أدونيس (الذي سماه البعض المخرب) وأدور الخراط أعظم أدباء العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، والعقد الأول من القرن الجديد، أي في الستين عاما الماضية.

هل هذا معقول؟! رفقا بنا ورفقا بالثقافة العربية من هذه الأحكام!!

طارق عبدالوهاب
المنصورة



ترانيم الأرض

جلسنا في رحاب الخوف
وتصحبنا مزامير الفراق
وتطعمنا الحياة ثمار صمت!
ورفرف فوقنا طير
ويحمل بين فكيه
حبوبا تصرع الدنيا
وتمضي !!
جرينا إذ بأنهار الأسى لاحت
فسرنا
إليها واغترفنا من
دماء النهر
كأسا للمنايا
جموع الناس حائرة
فأطفال رماها الموت أكلا
لجمع من كلاب..!!
وينمو غصن صبار
على الشطآن يبكي
فغصن الورد بالأشجار ولى
نظرنا للهلال فإذ به قد
مضى عنا..!
وأسراب النجوم
تلوح تصحبه!
تغنى
نشيدا للهوى الجاني!
ترانيم تبوح بها
عرائس هذه الأرض

زكريا عبدالمحسن علي

«أسيوط»

هكسلي وأزمة الحضارة الغربية

عرض الدكتور جلال أمين في مقاله «اللعب بالعقول وعالم ما بعد ١١ سبتمبر الماضي - لجانب من إبداع الدوس هكسلي (١٨٩٤-١٩٦٣)» الأديب الانجليزي، من خلال إلقاء الضوء على رائعته «عالم جديد رائع» وبذلك فتح بابا على أدب وفكر هكسلي الذي عبر عن أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، هذه الحضارة التي يقول عنها هكسلي بأنها قد دفعت الناس إلى التمرد على حياة الروح والاندفاع وراء المادة، وقصرت جهودهم على المتع والرغبات، وأعرضت بهم عن المثل العليا.

اشتهر هكسلي برواياته التي تبدي اشمئزازه وسخطه وتهكمه على العالم الغربي الحديث وحضارته ومنها «الحديقة العجيبة» سنة ١٩٢٣.

ومن خلال سطور «عالم جديد رائع» نادى هكسلي بالعودة إلى بساطة العيش وإلى الأمومة الصحيحة وإلى الأطفال ترعاهم أمهاتهم رعاية طبيعية، وإلى الريف الذي لم يلوث بالعلم والمادة، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وتقدم العلم المطرد يهددنا كل يوم؟ .. كيف يمكن للإنسان أن يعيش في مجتمع أقل كمالا، ولكنه أكثر حرية، وظل هكسلي عدة سنوات يفكر في الإجابة ، حتى استطاع في سنة ١٩٦٢ أن يخرج قصة جديدة

أنت والهلال

عنوانها «الجزيرة» وهى صورة لعالم أكثر إنسانية لعالم آخر ومغاير ومختلف عن عالمه الجديد.

وهو فى الجزيرة يصور لونا من الحياة يحد من غلواء عالم جديد ورائع لكنه ينتج روايته الجزيرة بعبارة اقتبسها من أرسطو تقول: «إن المدينة الفاضلة التى نتمنى لأنفسنا العيش فيها، ينبغى أن تكون محققة لآمالنا. بشرط أن نتجنب فيها المستحيل الذى لايطاق».

عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - مركز طنطا

كتاب مفتوح

وصلتنا هذه الرسالة من الأديب والشاعر اللبنانى الكبير سليم الرافعى ننشرها كما جاءت.

الأخ المعزز المكرم الاستاذ وديع فلسطين

كان الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول: تموت العربية فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم، ونحن نقول: تموت الثقافة العربية فى كل مكان وتحيا فى «دار الهلال»، وسيقول التاريخ: آية ذلك أن مجلة الهلال ترفع اسم الأديب الكبير البحاثة المؤمن بعبقرية قومه .. إلى الصفحات الأولى فتكتب تحت هذا العنوان: الاستاذ وديع فلسطين كلاما مستمدا من أصالة الروح المصرية .. هذه الروح التى صعدت مع الأهرام إلى مقام لايبلغه الأقزام فقد اعترفت بجهود مثمرة، فى حقل الأدب العربى:

مشرقيا كان أم مغربيا أم مهجريا، صادرة من مواطن يرى مصر حين يمتد بصره إلى أركان العالم الأربعة، يجد (الكلمة) التى عَبر بها القرآن الكريم عن السيد المسيح .. ما أجدرنا أن نستعير من القرآن فنقول: إن كلمة مصر هى جسد المسيح .. هى معجزة محمد .. هى رسالة (دار الهلال) فلو أعارنى (الأرز) قمته أيضا لوقفت شامخ الرأس معانقا جماجم أولئك الفينقيين الذين استرسلوا مع الإبداع المصرى وأهدوا إلى البشرية هذه الحروف .. هذه الألوف من الأفكار .. تجسدت بها الأمم فى هيكل الحضارة العالمية.

فلتسمح لى دار الهلال لأستعير منبرها وأخاطب الدماء الحارة التى تجول فى شرايين الأمة المصرية الخالدة .. كيف استحضرت هذه الدماء مغامرة الإنسان العربى فترنمت الأفواه بلوعة الجرح المقدس: ينزف فى متاهة تلك الصحراء المترامية .. أغلقت الأمة المصرية عليه موجة بعد موجة من نهر النيل العظيم فارتفعت مآذن مصر مثلما ارتفعت قامات النخيل فى آفاق الجزيرة العربية .. ويبدو لى أن الحقيقة ترتفع من مصر فالأوجه السؤال إلى التاريخ: هل الحقيقة هى قامة مصر؟

سليم الرافعى - طرابلس - لبنان

الكسائي

هو على بن حمزة بن عبدالله الأسدي الكوفي، نحوي ومقرىء، وكان أحد أئمة القراء السبعة.

قال يحيى بن زياد الفراء، إنما تعلم الكسائي النحو على الكبر، وكان سبب تعلمه أنه جاء يوما، وقد مشى حتى أعيى، فجلس إلى قوم فيهم فضل، وكان يجالسهم كثيرا. فقال: قد عييت . فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن!

فقال: كيف لحنت؟ فقالوا : إن كنت أردت «من التعب فقل أعييت»، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر، فقال «عييت» بالتخفيف، فأنف من هذه الكلمة، وقام من فوره وسأل من يعلم النحو، فأرشد إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفد ماعنده، ثم خرج إلى البصرة ولقى الخليل بن أحمد وجلس في حلقته، وحرص على تعلم النحو حتى نبغ فيه .

سأله عبدالرحيم بن موسى: لم سميت الكسائي؟

قال لأني أحرمت من كساء!

وقيل لأنه كان من قرية يقال لها كسايا، وقيل لأنه كان يتشح بكساء وكان يعلم الرشيد والمأمون من بعده.

له مؤلفات في شتى العلوم، فألف كتاب معاني القرآن، وكتاب القراءات وكتاب النوادر الكبير وكتابا في النحو وكتاب مقطوع القرآن وموصوله، وكتاب المصادر.

قال الشافعي رحمه الله «من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي»

وقال أبو بكر الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور، كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم في الغريب، وكان أوحد الناس في القرآن، فكانوا يكثرون عليه، حتى لايضبط الأخذ عليهم، فيجمعهم ويجلس على كرسي، ويتلو القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادىء.

كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد، فدعاه المهدي يوما وهو يستاك فقال له :

كيف تأمر من السواك؟

فقال: استك يا أمير المؤمنين

فقال المهدي: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم قال: التمسوا لنا من هو أفهم من هذا الرجل

فقالوا رجل يقال له على بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة، قدم من البادية قريبا، فكتب بإزعاجه من الكوفة

فساعة دخل عليه قال: يا علي بن حمزة.. فقال لبيك يا أمير المؤمنين

فقال : كيف تأمر من السواك؟

فقال: سُك فاك يا أمير المؤمنين

فقال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم

وقال كثير من العلماء: إن الكسائي سيدخل الجنة لأن الله غفر له بما قرأه من قرآن، ورؤى في المنام فقيل له مافعل الله بك: قال غفر لي بالقرآن

اختلف في تاريخ موته فالصحيح الذي أرخه غير واحد من العلماء والحفاظ سنة تسع وثمانين ومائة هجرية وهو بصحبة هارون الرشيد، وبقرية رنبويه من أعمال الري، ومات معه بالمكان المذكور محمد بن محمد بن الحسن القاضي صاحب أبي حنيفة، فقال الرشيد دفنا الفقه والنحو بالري.

أنت والهلال

أوجيني والخديو ودليسبس

صورة الغلاف المنشورة فى عدد سبتمبر الماضى توحى بوجود غرام بين الخديو والأمبراطورة وهذا غير وارد فى أى من المراجع عن حياتهما، بل إننى أشك كثيرا فى إمكانية حدوث ذلك، والعلاقات الغرامية لأهل القمة لها سياقها ومبرراتها، بل أكاد أقول إن لها قواعدها.

وأوجينى جاءت إلى مصر ليس من أجل سواد عيون الخديو، بل جاءت لكى تدعم فرديناند دليسبس، وكان دليسبس يحتاج إلى وجودها فى حفل افتتاح قناة السويس، إعلانا لمساندة فرنسا وأمبراطورها (زوج أوجينى) لمشروع القناة، خاصة أن انجلترا كانت ضد هذا المشروع ولم تنبهر الأمبراطورة كثيرا باحتفال الخديو بها لأنها عاشت فى البلاط الفرنسى الأصيل، الذى اشتهر بالأبهة والفخامة والاتيكيت المتحضر، وكان انبهارها بالدرجة الأولى بمشروع القناة، حيث أبحرت ولأول مرة فى التاريخ من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، وكذلك انبهرت بالتاريخ الفرعونى الذى رأت لأول مرة بعد أن قرأت عنه كثيرا فى طفولتها.

مهندس شريف سيد عفت
القاهرة - المهندسين

قطرة من ندى

قطرة الندى
تداعب النجوم فى أويقات السحر
وترسم البريق ضوءا
فى ثناياها الزهر
ترشق الدروب لألأ بالجانبين
فى ارتحالات السفر
تلامس الطيور .. ريشها ينضو الندى
فتستطير قطرة تناثرت على التراب
فشابهت هطل المطر
ترتمى بحضنها زرقة السماء
ينشد الأغانى سبطها



ضوء القمر
يداعب الليل الجفون .. ينيمها
يصحوا موقعا مع الندى الأماني
فوق أوتار السهر
يلثمها الهواء وتذروها رياح
من زهرة لزهرة لفراشة سكر الأنغام
تحملها لعين الشمس
تروى سنابل ضوئها الذهبي
يحضنها ماء الزهر

إسلام عوض حامد
بلقاس - دقهلية

قارئ قديم

وردت إلى الهلال رسالة صغيرة موقعة باسم «قارئ قديم» يقول فيها: فى مقال (متحف محمود خليل وحرمه)، بعدد الهلال الصادر فى الشهر الماضى، نشرت صورة كتب تحتها «محمود خليل مع رئيس الوزراء على ماهر» بينما الصورة تضم من اليسار: محمود خليل ثم إسماعيل صدقى باشا ثم أحمد ماهر باشا، فأرجو التنويه».

والهلال إذ تشكر «كرم قارئها» وحسن متابعته لما ينشر على صفحاتها تؤكد صحة ما جاء فى إشارته من أن الصورة بالفعل لأحمد ماهر باشا.

ملاحظة!

وهذه رسالة أخرى من صديق الهلال د. جمال على العطار يقول فيها: «أنا من قارئى مجلة الهلال منذ سنوات وسنوات، ومن المعجبين بها كثيرا .. ولكن لى ملاحظة بسيطة وهى الصمغ غير الجيد، الذى يتسبب فى تفكك المجلة وعدم انتظام أوراقها بعد القراءة..»

ونقول لقارئنا الجميل د. جمال العطار إننا معه نتمنى عودة الأوراق إلى تماسكها..»

- نعدك بتوصيل شكواك إلى مسئولى المطبعة فى قسم التجليد، ونتمنى معك أن نصل إلى حل يرضيك ويرضينا.

الكلمة الأخيرة

تحولات مالابارته

بقلم: محمد ناجي



فاجأني الإيطالي كورزيو مالابارته في السبعينيات حين اشتريت روايته «الانهيار التام» من سور الأزبكية.

تصفحت فيها قرشا وأنا لا أتوقع خيرا خلف غلافها الدعائي. غلاف يحترق نصفه الأسفل بلون أحمر صارخ، وتحت العنوان سطر يقول: «الرواية التي باعت (...) مليون نسخة في عام» .. وفي المكان بين القوسين رقم لا أتذكره الآن.

في التعريف بالكاتب أنه كان أحد أعمدة الإعلام الفاشي، مقربا من موسوليني ورئيسا لتحرير جريدته الرئيسية وعشيقا لابنته. وخلال الحرب العالمية الثانية تولى تغطية أخبارها في الجبهة الشرقية، وهناك انقلبت أفكاره ليصبح معاديا للفاشية ونصيرا للشيوعيين.

أملتني كل هذه المعطيات للتعامل مع الرواية باعتبارها عملا دعائيا اكتسب أهمية إضافية من الحرب الباردة الدائرة بين القطبين الكبيرين المتصارعين بعد انتصارهما في الحرب الثانية.

لكن التعامل مع الرواية أوصلني إلى نتيجة مختلفة. لقد أدهشني مالابارته حقا.

أغلب ظني أنه لم يقصد كتابة رواية، وأن اهتمامه الأكبر انصب على تصوير القلق الذي عصف بأفكاره، وهو يرصد مشاهد صغيرة في المناطق التي تابع سير المعارك فيها، متى رأى الخيول، العصافير، الفئران، ثم الذباب التي اجتاح أوروبا كلها بعد ذلك.

حكى ببساطة عن أمراء الحرب، الذين يقتلعون عيون أعدائهم حتى يسهل عليهم إحصاء القتلى، وأولئك الذين يسلخون صدور النساء ليجعلوا من جلودها كسوة لظهور كراسيهم ومساندها.

اعترف أن «الانهيار التام» كانت عملا مدهشا. وفاجأني مالابارته وأدهشني مرة أخرى حين قرأت له رواية «الجلد» في ترجمة لصلاح عبدالصبور.

ترجمة «الجلد» الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة محيرة ومربكة، فيها فجوات في السرد تجعلك تعتقد أن المترجم لم يقصد ترجمة الرواية كاملة، أو تجعلك تظن أن هناك مشاهد وأجزاء خضعت للحذف عند النشر بعد رحيل عبدالصبور.

وحين حدثت صديقا عارفا بلغة إيطاليا وآدابها عن الرواية أخبرني أنها في أصلها الإيطالي تزيد خمسة أو ستة أضعاف عن حجم الأوراق المترجمة والتي لا تتجاوز ستين صفحة.

المدهش في الترجمة المبتسرة التي قرأتها للرواية أن مالابارته يفاجئنا بفصل جديد من حياته القلقة حين انضم إلى القوات الأمريكية التي دخلت روما لتضع بصمتها الخاصة على عملية تحرير إيطاليا من الفاشية.

المدهش أيضا أن الكاتب يرصد شيئا آخر غير ما أسماه الأمريكيون «تحرير إيطاليا». إنه يرصد تلذذ ضباطهم بمشاهد الرعب والفقر والعهر في بلاده. وفي مشهد بالغ الدلالة يتحدث مالابارته عن تزاحم الأمريكيين على بيت للفواحش يقدم عرضا فريدا لعذراء إيطالية تقلب قوادة عجوز مكامن عذريتها أمام «ضباط التحرير» لتختلط الحدود بين «تحرير إيطاليا» وانتهاكها.

مالابارته الذي بدأ فاشيا قياديا احترق بنار القلق والبحث عن الحقيقة، وانبعث من رماده أديب بحجم إنسان حقيقي سجل شهادته عن حرب كونية رأى أنها «ككل حرب» هزيمة للإنسانية جمعاء، وأن الذين ماتوا فيها ماتوا بلا فائدة، لأن أوروبا لم تتحرر بعد.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ٨ / ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع: ١٠ / ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الإيحائي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت: ٦٨٣٣٧٩٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٩٤ فاكس: ٠٠٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠٠ ج م ع - ٤ شارع بدوي محرم بك - الإسكندرية

الهلال

نوفمبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

■ الأخلاق بين الدين والعلم

(رمضان جزء خامس)

■ مثقفات وراء القضبان

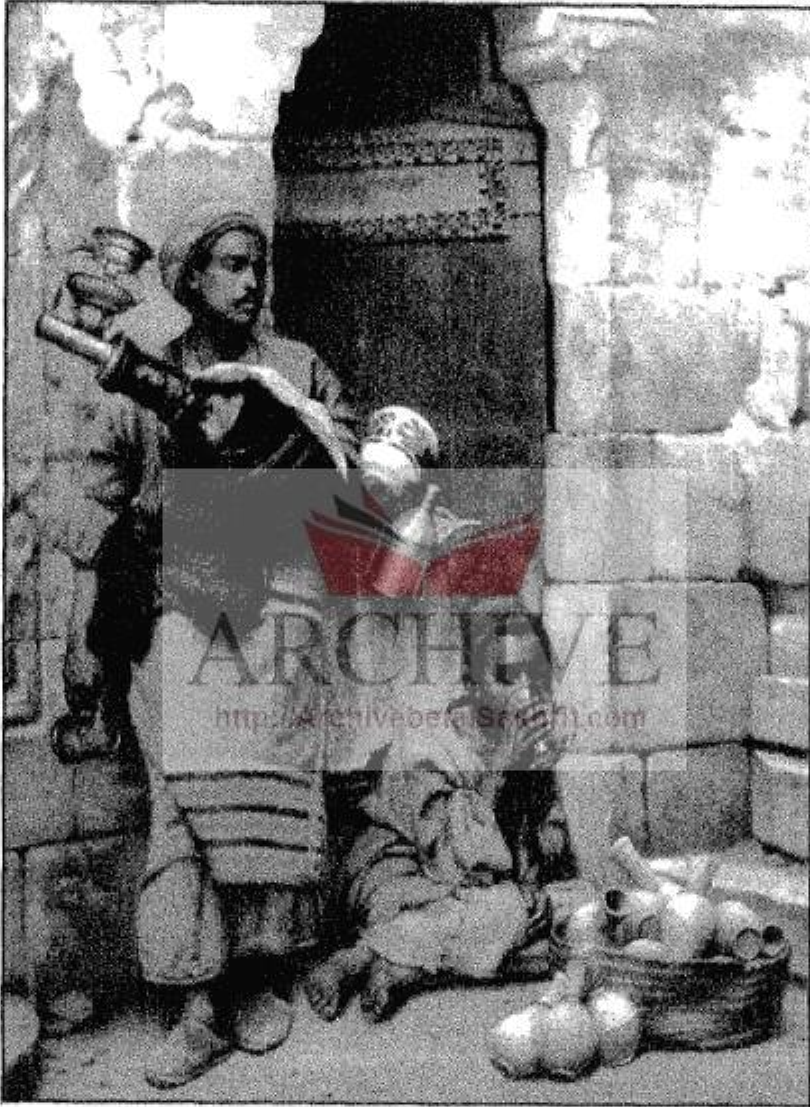
■ صراع الحضارات أم صراع الأصوليات؟

حي بن يقظان

وفلاسفة الإسلام



لوحة وفنان



اللوحة : بائع العرقسوس   الفنان : لودفيج دويتش

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

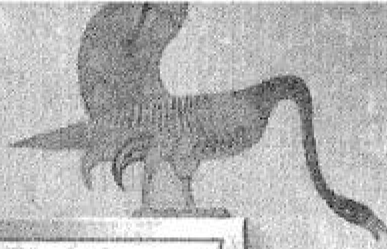
أسسها جورجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثالث عشر بعد المائة رمضان ١٤٢٥ هـ - نوفمبر ٢٠٠٤م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
الكاتبات ص.ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - التلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
تلكس: ٢٣٦٢٥٤٤٨ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٣ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

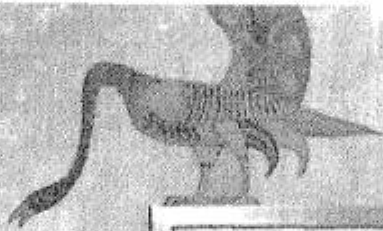


الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب
الرسم للفنان
محمد حجي

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٢٤ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.



الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

جائزة نوبل.. لمن؟!!

تعد جائزة نوبل، وهي أعلي الجوائز قدرا في العالم، هدفا لكل أديب ثابر واجتهد، وقدم من الأعمال الإبداعية ما يستحق الحصول علي هذه الجائزة.

وقد نالها أديبنا الكبير نجيب محفوظ عام ١٩٨٨، فيما كان يطمح في تحقيقها أدباء كبار من أمثال طه حسين والعقاد ويوسف إدريس ويحيى حقى وعبدالرحمن منيف وغيرهم من الأدباء العرب .. وكل ما نرجوه ألا يتوقف حصولها على أديب عربى واحد، بل ننتظر فى القريب أن يحققها أديب عربى آخر.

وفى أكتوبر من كل عام ينتظر المثقفون بكل شوق الفائز بالجائزة، ذلك الأديب القاص أو الشاعر، الذى سيصل إلى العالمية، وبمجرد أن يعلن سكرتير الأكاديمية السويدية اسمه، تتسابق وكالات الأنباء العالمية و«التيكرز» فى بث المعلومات الضافية، والأخبار عن ذلك الأديب الذى ربح ماديا وإعلاميا، وربما دونما التوقف عن أحقيته فى الحصول على هذه الجائزة «نوبل» وهل جاء الاختيار بعيدا عن الأهواء، أو الدعم من قبل بعض المنظمات، التى تحرص - وبشدة - على التدخل فى أمر جائزة نوبل لأغراض سياسية!.

وقد جاء فوز الأديبة النمساوية يلينيك (١٩٤٦) لتكون رقم عشرة بالنسبة للفائزات بجائزة نوبل من الأديبات على مستوى العالم كله، وجاء اختيارها على غير المتوقع.

فحينما ظهر سكرتير الأكاديمية السويدية أمام الميكروفون، وأعلن فوزها، خيم الوجوم - لأول مرة - على الحضور فى القاعة الكبيرة بالأكاديمية، ولم تسمع الصيحة المعتادة حينما ينادى على اسم الفائز «أخيرا تحقق الحلم»، ربما لأن أحدا لم يتوقع هذا الاختيار، خاصة وأنه جاء مخالفا للتيار السائد الخاص بالكتابة الواقعية، فضلا عن أنه وقع على كاتبة، تمثل مساحة أدبية صغيرة، كما أن أنتاجها الأدبى، لايعد من الأعمال الإبداعية الكبيرة المعروفة فى العالم. وهذا ما تناوله الكثيرون من النقاد عقب فوزها مباشرة، حيث تباينت ردود الأفعال. فمنها ما اتفق على جدارتها بالفوز، باعتبارها أحد الأصوات المهمة فى الأدب الناطق باللغة الألمانية، ومنها من تحدث عن



نجيب محفوظ



الفريدى يلينيك

أسلوبها، واصفا إياه بأنه أبعد مايكون عن الهارموني، فهي تخلط فيه بين الغضب والحياء، واليأس والفكاهة، وتستجوب الحاضر المستغلق للمجتمع النمساوى، دون أن تتخلى عن التجريب اللغوى، وتضعه فى صف الضعفاء والمهزومين، والأرواح الجريحة.

كما تهاجم الفريدى يلينيك من خلال كتاباتها كل شيء: الاستسلام للأمر الواقع والرضوخ، وحب الأمهات الخانق، والإباحية، والعنف الذكورى تجاه الأنثى، والسياسة، ومعاداة السامية وقد نفت تخليد الذات فى روايتها البورنو «اللذة» قائلة: «أنا لا أعتبر نفسى مثل هؤلاء الروائيات اللاتى يدرن حول الأنا، والذات بشكل مرضى!

وقد كتبت سيرتها الذاتية فى صورة رواية اسمها «عازفة البيانو» عام ١٩٨٣، تحولت إلى فيلم عام ٢٠٠١، ونال قسطا كبيرا من الشهرة.

أما قصتها «الشهوة» سنة ١٩٨٩ فالتحليل الاجتماعى فيها، يتحول إلى نقد فى الصميم للحضارة التى نحياها، وتبرز العنف الجنسى ضد النساء، وتعده من منطلق الثقافة الغربية، وهذا الخلط الموجود فى هذه القصة، وضحته بشكل أخف فى قصة أخرى، كشفت فيها تسلط الرجال، وكيف يمارسون هذا التسلط ببرود وبدون عاطفة..!

«يلينيك» من الصعب تعريف أسلوب كتابتها، لأنها تتحول بسرعة من النثر إلى الشعر، والايقاعات تختلف عندها فى التناول وفى السرد، كما تتضمن القصة عندها مشاهد مسرحية، كتبت عددا من المسرحيات واستقبلت استقبالا جيدا. وأول قصة كتبتها عام ١٩٧٠.

أبوها من أصل تشيكى يهودى، وأمها من أسرة غنية من فيينا، وكانت دراسة «الفريدى» فى جامعة فيينا.

ومن أغرب الأشياء أنها هاجمت بلدها النمسا، وطالما شوهت صورتها، إلا أنها تعتبرها مملكتها وسجنها، الذى لاتستطيع الاستغناء عنه .. وبرغم تربعها على قلوب القراء فى لندن وفى الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، إلا أنها لم تزر هذه البلاد!.

.. هذه الشخصية التى فازت بنوبل .. وبكل هذا التناقض والغرابة فى كل شيء .. ألا يجعلنا نتوقف عند الأسباب الحقيقية وراء حصولها على الجائزة؟!!

المحــــرر

حي بن يقظان

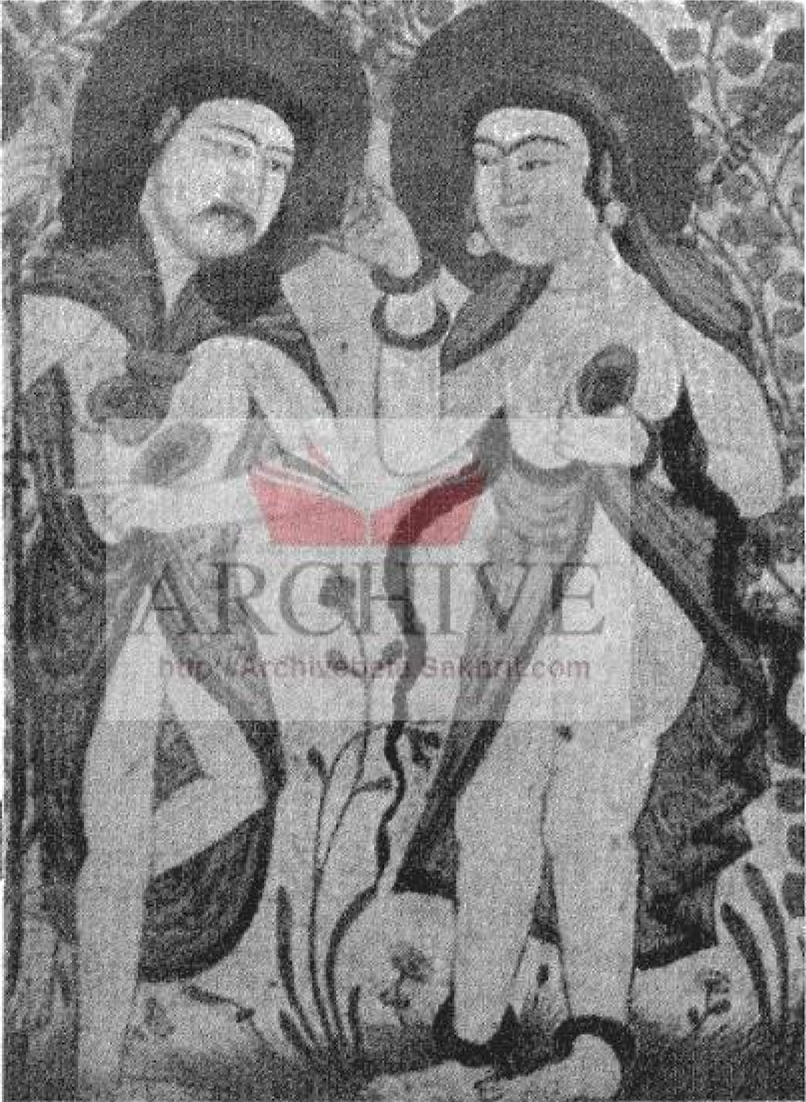
وفلاسفة الإسلام

بقلم

د. الطاهر أحمد مكي

أسهمت الحضارة العربية الإسلامية فى تطور الحضارة الإنسانية عامة، بإضافات ذات أهمية عظيمة، من بنات أفكارها، ولم تتأثر فيها بأحد، وفى مقدمتها «علم الأديان المقارن» ووضع أسسه العالم الموسوعى العظيم ابن حزم القرطبى (ت ١٠٦٤م) بكتابه الرائع «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، وقارن فيه بين الفرق والمذاهب الدينية المختلفة، فى شتى اتجاهاتها، بقدر ما سمحت له ظروف عصره من معارف وموضوعية، وهو أول كتاب فى بابه على مستوى الفكر العالمى كله.

والثانى «علم الاجتماع»، ووضع نواته المؤرخ العظيم عبدالرحمن بن خلدون (ت ١٤٠٦م) بكتابه «مقدمة فى علم التاريخ»، وهو من أسرة يمنية عربية أندلسية هاجرت إلى تونس حيث ولد، وعمل فى الأندلس والمغرب وتونس، وانتهى به المطاف فى القاهرة، أستاذا فى الأزهر، وكبير قضاة المالكية، وسفير السلطان المملوكى الناصر إلى «تيمور لنك»، وعرض فى هذه المقدمة لأول مرة نظريته فى التطور التاريخى التى تأخذ بعين الاعتبار طبيعة المناخ والبيئة الجغرافية والعوامل الأخلاقية والروحية وأثرها فى تكوين الفرد وسلوكه وإبداعه، ووضع نواة قوانين التقدم والتدهور، ويعد دون أدنى شك المؤسس الحقيقى لعلم



رسم من مخطوطة فريدة تتضمن الترجمة الفارسية لكتاب « منافع الحيوان »

الاجتماع، ويجمع النقاد في الشرق والغرب على أنه أكبر فيلسوف مؤرخ أخرجه العالم الإسلامي، ومن بين أكبر فلاسفة التاريخ في كل العصور.

والمعلم الثالث في قائمة هذه الإبداعات الفارقة العظيمة: القصة الرمزية الفلسفية، والتقى عندها خلقا وإبداعا وتطويرا وتجويدا ثلاثة من الفلاسفة المسلمين: ابن سينا، والسهروردي، وابن طفيل، وهي قصة «حي بن يقظان» وحملت الاسم نفسه عند ثلاثتهم.

ثلاثة فلاسفة

أما ابن سينا (ت ١٣٠٧م) ، وإليه ينصرف لقب الشيخ الرئيس إذا جاء مرسلا، فقد ولد في بلخ من أعمال تركستان، وعاش حياته كلها في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي، وتوفي في همدان في إيران، ولايزال قبره قائما فيها.

تجمعت في شخص ابن سينا جملة علوم عربية، فكان طبيبا وفيلسوفا ولغويا وشاعرا، ودرس الهندسة والفلك وأصول الدين والفن، وأتيح له وهو في السابعة عشرة من عمره أن يعالج نوح ابن منصور سلطان بخارى، وكان هذا يملك مكتبة نادرة، فانتهز ابن سينا الفرصة، وقرأ كل ما فيها، وكان قوي الذاكرة فوعى ما حوته، وحفظ أكثر ما قرأ، وبدأ التأليف ولما يبلغ الواحدة والعشرين من عمره، وتميز من بين مؤلفاته العلمية كتابان: «الشفاء» وهو دائرة معارف فلسفية، مؤسسة على كتب أرسطو وأفكاره كما عدلتها الأفلاطونية الحديثة، وكما فهمها علماء المسلمين، وعلى يده بلغت الدراسات الفلسفية غايتها، وأصبحت إلى حد ما شعبية بعد أن كانت مقصورة على طبقة محدودة من المثقفين، وقصيدته في النفس التي مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تدلل وتمنّع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت علي كره إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجّع

نالت شهرة في العالم الإسلامي لم تنلها قصيدة أخرى ذات مضمون فلسفي، وكان الصبيان في الكتاتيب يحفظونها إلى جوار القرآن الكريم، وأنا حفظتها صبيا مع رفاقي في الكتاب دون أن نفهم - بداهة - شيئا من مضمونها، ومؤكد أن الفقيه لم يكن بأحسن حظا.

والكتاب الثاني «القانون»، وهو في الطب، ويقدم لنا أدق صورة مرتبة عن الأفكار الطبية عند العرب واليونان، وكان أوفى مرجع من مراجع الطب القديم، وظل كذلك إلى عهد الموسوعات العصرية قبيل القرن التاسع عشر بقليل، واجتمعت له مزايا الإحاطة والتحري والاستقصاء والتنسيق، ويقول عنه نويرجر في كتابه المطول عن تاريخ الطب: «كانوا ينظرون إلى كتاب القانون كأنه وحي معصوم ، ويزيدهم إكبارا له تنسيقه المنطقي الذي لايعاب، ومقدماته التي كانت تبدو لأبناء تلك العصور كأنها القضايا المسلمة والمقررات البديهية»، وهو من أقدم الكتب العربية التي عرفت طريقها إلى المطبعة، فقد طبع النص العربي مع الترجمة اللاتينية لأول مرة في روما عام ١٥٩٣،

وكانت الترجمة اللاتينية التى قام بها جيرار الكريمونى عام ١١٨٧ رديئة، فأعيد النظر فيها، وتجشم العلماء كل مشقة لمراجعتها وتنقيحها، وفى الثلث الأخير من القرن الخامس عشر طبع خمس عشرة طبعة لاتينية، وأخرى عبرية، وظل ما بين القرن الثانى عشر والسابع عشر، أطول من أى كتاب آخر، أشهر مرجع فى الطب على امتداد العالم أجمع.

وإلى جانب هذين الكتابين الهامين له رسائل كثيرة فى التصوف والإلهيات، منها رسالة «حى بن يقظان» وهى التى تعنينا هنا.

وثانى الثلاثة السهروردى (ت١١٩١م) شهاب الدين يحيى بن حبش، وعرف بالمقتول تمييزا له عن آخرين حملوا هذا اللقب، درس الفقه فى مراغة، ثم انتقل إلى أصفهان، وكان متفلسفا صوفيا، وفى الأناضول تحت حكم الدولة السلجوقية أخذ يبشر بفلسفته «الإشراقية» التى يؤمن بها بين مريديه، وفى البدء كان يقتفى أثر ابن سينا الفلسفة، غير أنه سرعان ما تحول عنه إلى الأفلاطونية الحديثة.

كان السهروردى يتبع مذهب المشائين والرواقيين من اليونانيين، وشرح مذهب أرسطو وألف كتابا عظيما فى الفلسفة أسماه «حكمة الإشراق»، وفيه يفسر الضرورة والاختبار، والموجود والمعدوم، والهيولى والصورة، والجسم والروح، إلى غير ذلك، ويرى أن الحياة



والبواعث ليست إلا موضوعا منبعثا من الله، وأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وكان من أهل الكرامات وأصحاب الخوارق، ولكن إمعانه فى الفلسفة، ورأيه فى الحلول، وأن الله والعالم شىء واحد، وجهره بذلك فى حلب، ألب عليه الفقهاء والشعب، فتخلى عنه حاكمها بهاء الدين بن صلاح الدين، وأعدم وهو فى نحو السادسة والثلاثين من عمره.

إلى جانب كتابه «حكمة الإشراق»، وطبع فى إيران عام ١٣١٣ - ١٣١٥ هـ، له مؤلفات أخرى تتجاوز الثلاثين، فى الفلسفة والمنطق والتصوف وما وراء الطبيعة، بعضها باللغة الفارسية، وكلها عليها شروح كثيرة، مما يشى برواجها فى عصرها، ولم يطبع منها غير ما ذكرنا إلا كتاب «هيكل النور»، طبع فى القاهرة ١٣٣٥هـ.

وله قصة رمزية بعنوان «حى بن يقظان»، كانت مجهولة حتى زمن قريب، ولما تزل مخطوطة.

ونأتى إلى آخر الثلاثة، وقصته الأكمل، والأجمل، وكانت وراء الشهرة العالمية التى تمتعت بها، وتركت بصماتها واضحة فى أكثر من أدب أوروبى. إنه «ابن طفيل».

كان دنيا من العلم فيما درس وفهم وعلم، وعالما من الخبرة والتجربة فيما تولى وشغل من وظائف، تصفه المصادر العربية المختلفة بأنه الوزير الفقيه المقرىء المحدث اللغوى النحوى الطبيب

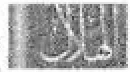
المهندس، الشاعر الكاتب الخطيب المتصوف، واحد عصره وفريد دهره، من أهل الحذق في الطب، والنظر في الجراحة، متحققا بجميع أجزاء الفلسفة، حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا، مع اتساع في العلوم الإسلامية، كان - باختصار - إحدى حسنات الدهر في ذاته وأدواته، شغل الدنيا في عصرنا الحديق عربا ومستشرقين.

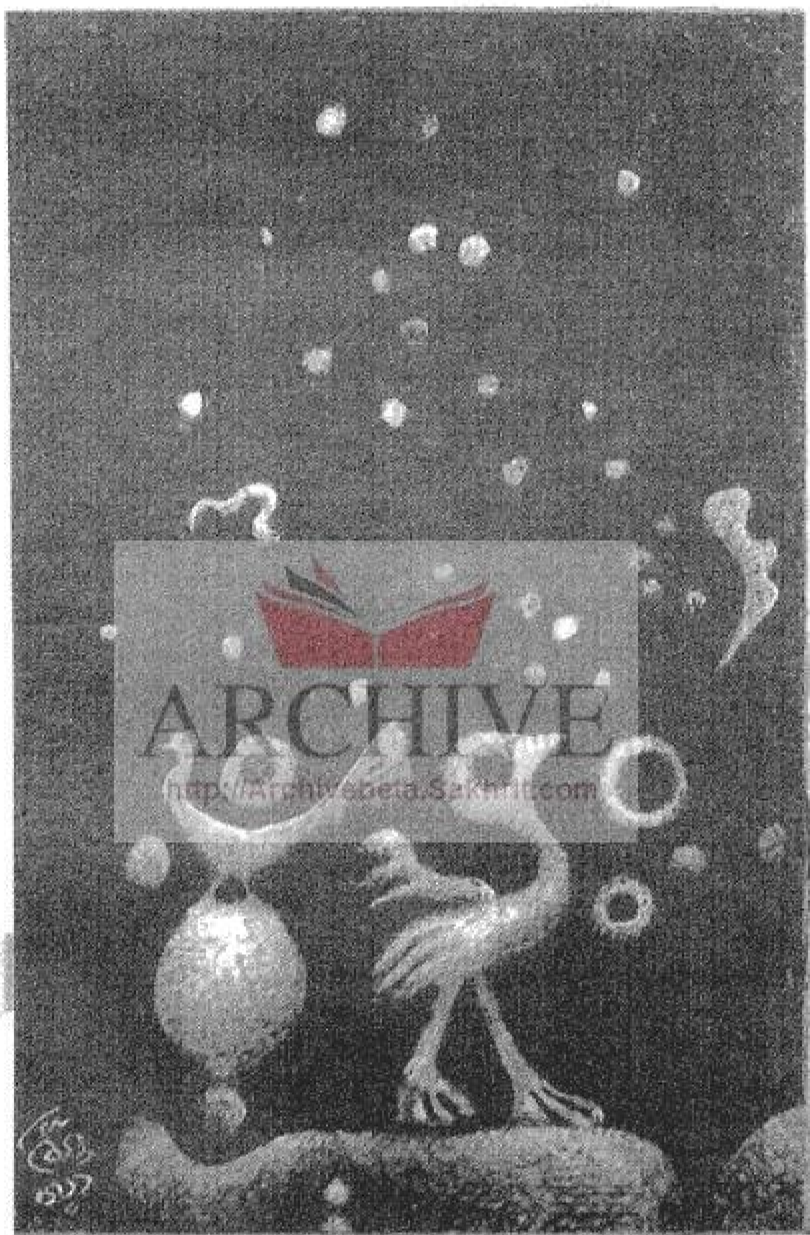
كان له مع الوزارة ترف ونفوذ، ومن الفقه وقار وتوقير واجتهاد، ومن تجويد القرآن جمال الصوت، ومن رواية الحديث قوة الذاكرة ، مع حساسية الشاعر ورقة خياله، ودقة المهندس وبراعة تصويره، وكل هذا يصبح في الطب دقة وضبطا، وفي التصوف شطحات ولوامع، ثم يعتزل الدنيا، ويتخذ داره على طريق، يسقي العطشان، ويطعم الجوعان، ويطمئن المجهد القلق، يأوي الطريد، ويخفف من أوجاع المزاني، ويعد أن أقبل على الدنيا وأقبلت عليه تبدل حاله، فأخذ على الشريعة إباحتها حرية التعامل والتملك الخاص، وجمع المال والإدخار.

اسمه كاملا: أبو بكر محمد بن عبدالملك بن طفيل القيسي (٥٨١ هـ - ١١٨٥م)، فهو عربي من قبيلة قيس العربية الشهيرة، وكان لها مكانة وعصبية وقوة في الأندلس والمغرب على السواء، ولعبوا دورا فاعلا في تصارع القوى في العدوتين، ولد في برشانة، قرية في مقاطعة وادي آش، وبعضهم ينسبه إلى هذه الأخيرة فيقولون الوادي آشي، وبعض المؤرخين المتأخرين ينسبه إلى قرطبة أو إشبيلية بوصفهما حاضرتي الأندلس على التعاقب، وأشهر مدن فيه. توفي قبل ابن رشد بثلاثة عشر عاما في مراكش عاصمة الموحدين، وحضر الخليفة جنازته.

نشأة موسوعية

ومع أننا لا نملك شيئا عن مصادر ثقافته صبيا فمن المقبول أن نتصور أنه تلقى من الدرس ما كان يتلقاه أبناء الطبقة الوسطى على أيامه، وحفظ لنا ابن خلدون في مقدمته خطوطها الرئيسية: تعلم القراءة والكتابة ، واستظهر شيئا من القرآن، وبعضا من عيون الشعر ، وقليلا من الحكم والأمثال ، وهي مجالات يتوقف مدى اتساعها وعمقها على مستوى ذكاء كل طفل وتفرغه ، وما سوف يتوجه إليه بعد المرحلة الأولى، فمن توقف عندها قنع بما تعلم، ومن طلب المزيد بدأ مرحلة أخرى يدرس فيها الفقه وتفسير القرآن، وتمرس باللغة العربية نحوا وصرفا وعروضا وبلاغة وفقه لغة، ولأن ابن طفيل كان يعد نفسه لمعرفة شيء عن الهندسة المعمارية ، وممارسة الطب، درس الرياضة، ووظائف الأعضاء ومبادىء الكيمياء وخواص العقاقير والأعشاب ودورها في الوقاية والعلاج، والمنطق والطبيعة والمباحث الأخلاقية والنفسية عند فلاسفة المسلمين واليونان، أو ما اصطلح على تسميته بالعلوم القديمة إذ ذاك، وتجلى وعيه بهذه العلوم واضحا في مقدمة كتابة «حي بن يقظان» فقد عرض فيها للفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة، وأتى على خصائص فلسفتهم وتناقضاتها، وموقفهم من أرسطو، مما يشي بتعمقه في الفلسفة الإسلامية





«وإياك أن تقبضهم زمامك، أو تسهل لهم قيادك»

وتفاصيلها.

كما يحدث دائما سوف يضيق الصبي النابه بقريته «برشانة» فيغادرها إلى «وادي آش»، وما يلبث أن يرى نفسه أكبر من هذه فيرحل عنها إلى غرناطة، ومن بعد هذه إلى عاصمتي العلم والأدب والفلسفة في الأندلس: قرطبة وإشبيلية. ولما اكتمل جسما وعقلا وخبرة رأى مكانه الجدير به مراكش، عاصمة الخلافة نفسها ، وفيها عاش بقية حياته كلها إلى أن لقي الله، فمشى الخليفة الموحدي في جنازته تكريما للعلم، وإجلالا للموت!

كان ابن طفيل في العاشرة من عمره تقريبا حين بدأ محمد بن تومرت مهدي الموحدين حركته الإصلاحية، فأعجب بالدعوة وفكرها وانحاز اليها، لأن ابن تومرت توجه بدعوته إلى الطلاب خاصة، في الجوامع والمدارس، معتمدا عليهم في التبشير بأفكاره التي تنكر التقليد، والسير وراء المذاهب الفقهية التقليدية، وتدعو إلى الاجتهاد، ومواجهة مشكلات العصر اعتمادا على القرآن والسنة مباشرة، ووجد هذا قبولا وإصغاء، فسقطت دولة المرابطين، وقامت على أنقاضهم دولة الموحدين، ووجد فيهم ابن طفيل فكرة ثائرة، واتجاها دينيا محافظا ومجددا في الوقت نفسه، شديد العناية بطلبة العلم، حريص على احترامهم ، وتيسير سبل المعرفة لهم، ومعاونتهم على العيش.

تنقل ابن طفيل في خدمة الموحدين، فكان كاتبا لواليهم في غرناطة، ثم صاحب حظوة في مجلس أبي يعقوب ابن عبدالمؤمن حاكم إشبيلية، وكان هذا يشغف بمجالس العلم، ويؤثر العلماء بصحبته، فلما تولى الخلافة اختار ابن طفيل طبيبا خاصا، وملازما له، وكان يندبه لبعض المهام الخاصة بالخلافة ويسفر بينه وبين العلماء من مختلف الأقطار ، ويدعوهم باسمه، وينبهه على أقدارهم، ويحثه على إكرامهم والتنويه بهم، وكان مجلسه حافلا بالحوار العلمي والدرس الفلسفي، وهو الذي أوعز إلى ابن طفيل أن يقوم بتلخيص جديد لشروح أرسطو ، يقرب أغراضها ، ويحرر ترجماتها مما يشوبها من غموض . غير أن ابن طفيل، وقد تقدمت به السن، رأى أن تلميذه ابن رشد أقدر للقيام بهذا العمل، فرشحه لهذه المهمة، فتولاها على خير وجه. وشهر بها، طيرت اسمه في الآفاق، وأصبحت كلمة «الشارح الأكبر» إذا جاءت مرسلة تنصرف إليه.

يلتقي الباحثون المحدثون عند حقيقة أن ابن طفيل ألف في الفلسفة والفلك والطب وأن تراثه ضاع، ولا نعرف منه غير «حي بن يقظان» ، وترد أحيانا في بعض المخطوطات وفي فهارسها تحت عنوان : «أسرار الحكمة المشرقية» (بضم الميم اسم فاعل من أشرق)، غير أنني أثناء ترددي على مكتبة القرويين في فاس - طيب الله ثراها وأكرم أهلها - في الستعينيات من القرن الماضي، وجدتها تضم أرجوزة لابن طفيل في الطب العام، مجهولة لا يرد لها ذكر عند أحد، في ١٤٨ ورقة، تحتوي على سبعة آلاف وخمس مائة بيت، وتحمل رقم ٤٠/٣١٥٨ ، وتعكس خصائص المؤلفات الطبية في عصرها ، من وصف التداوي بالأعشاب ومشتقات النبات ،

وفي تاريخ تطور الأدوية بين الصيدلة والكيمياء، وفي استقصاء أنواع المرض والداء.

أما وقد عرفنا بهؤلاء الفلاسفة الكبار، فلنعرض لرواياتهم ، هي التي تعنينا في المقام الأول.

ثلاث قصص

قصة ابن سينا خلاصتها أن جماعة خرجوا يتنزهون فعن لهم شيخ بهي الطلعة، أوغل في السن، وأخنت عليه السنون، ولم يهن منه عظم، ولا تضعضع له ركن، فنزعت إلى مخاطبته، وانبعثت من ذات نفسي إلى محاورته، وملت برفقائي إليه، فلما دنونا منه بدأنا هو بالتحية والسلام، وتنازعنا الحديث حتى أفضى بنا عن كنه أحواله، فقال: أما اسمي ونسبي فحي بن يقظان، وبلدي مدينة القدس، وحرفتي السياحة في أقطار العالم حتى أحطت بها خبرا، ووجهي إلى أبي وهو حي، وقد تلقيت منه مفاتيح العلوم كلها، فهداني الطريق السالكة إلى نواحي العالم، حتى رويت بسياحتي آفاق الأقاليم.

ويرمز ابن سينا بحي بن يقظان الى العقل، ويمضي في روايته:

ومازلنا نطارحه المسائل في العلوم، ونستفهمه غوامضها حتى خلصنا إلى علم الفراسة، وإنها لتدل منك «على عفو من الخلائق، ومنتقش من الطين، وموات من الطبائع، وإذا مستك يد الإصلاح أنقتك، وإن خرطك العار في سلك الذلة انخرطت، وحولك هؤلاء الذين لا يبرحون عنك، إنهم لرفقة سوء ولن تكاد تسهم



عنهم، وسيفتنونك او سيفتنونك أو تكتنفك عصمة وافرة».

يقصد ابن سينا بالفراسة علم المنطق، وسماه كذلك لأننا نعرف بواسطته الأمر المجهول الخفي من أحواله الظاهرة، ونعرف النتائج العويصة من مقدمات بديهية، وكذلك الفراسة، لأنها الاستدلال على الخفايا من السمات الظاهرة. وأما رفقة السوء التي تصحب المرء فهي الغضب والغرائز والشهوات وسائر الملكات البشرية، ويراها العقل رفقة سوء. ويضيف:

«وأما هذا الذي أمامك فباهت مهذار، يلفق الباطل تلفيقا، ويختلق الزور اختلاقا، ويأتيك بأنباء ما لم تزوده ، قد درأ حقها بالباطل، وضرب صدقها بالكذب، على أنه عينك وطليك، ومن سبيله أن يأتيك بخبر ما غرب عن جنابك ، وعزب عن مقامك، وإنك لمبتلى بانتقاد حق ذلك من باطله، والتقاط صدقه من زوره، واستخلاص صوابه من غواشي خطئه، إذ لابد لك منه، فربما أخذ التوفيق بيدك، ورفعك عن محيط الضلالة، وربما أوقفك التحير، وربما غرك شاهد الزور».

وهو في هذه الفقرة يتحدث عن قوة التخيل، ورمز إليها بشاهد الزور، لأنها قادرة على تشبيه الشيء بالشيء زورا وبهتانا لإيقاع الإنسان في الشر، وهذا التشبيه زور وباطل لاينشأ عن عقل وحكمة.

فقد يشبه الشيء بالشيء دون أن تكون بينهما علاقة قوية. ويمضي في

السرد فيصور القوة الغضبية ويضعها عن يمين المخاطب، لأنها أقوى من غيرها، ويضع الشهوانية على يساره، ووصفها بما طبعت به من قذارة وشبق، وأنها ملتصقة بالانسان التصاقا وثيقا، لا يبرأ منها إلا بعزبة تأخذه إلى بلاد لم يطأها أمثاله من قبل، يعني أنها لا منجاة منها إلا بمفارقة البدن بالموت. يقول:

«وهذا الذي على يمينك أهوج إذا انزعج هائجه لم يقمعه النصح، ولم يطأطئه الرفق، لأنه نار في حطب، أو سيل في صبب، أو قرم مغتلم، أو سبع ثائر».

«وهذا الذي على يسارك قذر شره قرم شبق، لا يملأ بطنه إلا التراب، ولا يسد غرثه إلا الرغام، كأنه خنزير أجيع ثم أرسل في الجلة، ولقد ألصقت بهؤلاء يا مسكين إلصاقا، لا يبريك عنهم إلا غربة تأخذك إلى بلاد لم يطأها أمثالهم» وحتى «حين تلك الغربة، ولا محيص لك عنهم، فلتطلهم يدك، وليغلبهم سلطانك، وإياك أن تقبضهم زمامك، أو تسهل لهم قيادك، بل استظهر عليهم بحسن الإيالة، وسمهم سوم الاعتدال، فإنك إن متنت لهم سخرتهم ولم يسخروك، وركبتهم ولم يركبوك» يعني أن على المرء أن يسلم قياد غرائزه وشهواته لعقله.

ولكنها لن تخضع لحكم العقل خضوعا تاما ما دامت الحياة، غاية الأمر أنه يمكن بالمجاهدة قمعها والتغلب عليها لا إماتتها.

ثم قال حي بن يقظان ردا على طلب السياحة: «إن حدود الأرض ثلاثة: حد يحوزه الخافقان، وقد أدرك كنهه، وترامت به الأخبار الجليلة المتواترة. وحدان غريبان: حد المغرب وحد المشرق، ولكل واحد منهما صقع، قد ضرب بينهما وبين عالم البشر بسور لن يعدوه إلا الخواص الذين منحوا قوة لم يمنحها البشر بالفطرة».

الصورة والهيولى

ويقصد بهذه الحدود المركبات المحسوسة في عالمي الأرض والسماء، وهي التي يجمعها الخافقان، ويقصد بحد المغرب الهيولى، وهو عند قدامى الفلاسفة مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل والتصوير في شتى الصور، ومنها صنع الله أجزاء العالم المادية. والمشرق ويقصد به الصورة، ولكل واحد منهما كنه وحقيقة، وقد ضرب بين حقيقتهما وعالم البشر سور لا يستطيع أحد أن يتخطاه بالفطرة والطبع، وإنما يتخطاه بالجد والتعلم والاكتساب، وهو ما يشير قوله: «إن تخطى هذا السور لا يتأتى للبشر بالفطرة، وإنما يتأتى بالاغتسال في عين فوارة إذا هدى إليها السائح فتطهر بها، وشرب من فورانها». ويعني بهذه العين المنطق الذي يحكم العقل ويهديه إلى الصواب. ثم قال: «وهذه العين تمد نهرا على البرزخ، من اغتسل منها خف على الماء فلا يغرق، واستطاع أن يرتفع إلى الشواهق دون أن ينصب، حتى يتخلص إلى أحد الحدين».

ويعني بالبرزخ أن يصير مددا للعقل بالمعارف المستعد لها، وهي ممدة للعقل بسبب استفادتها من الحس في الأوليات والبديهيات، ومعنى خف على الماء بلغ في علم المنطق درجة عالية، يطلع معها على

الحقائق من غير تعب، ويمضي فيصف لنا الحد الغربي أو الهيولى إذا شئت فقال:

«إن بأقصى المغرب بحرا كبيرا حامئا، قد سمي في الكتاب الإلهي عينا حامئة، وإن الشمس تغرب من تلقائها، وممد هذا البحر من إقليم غامر، فات التحديد رحبه، لا عمّار له، إلا غرباء يطرأون عليه، والظلمة معتكفة على أديمه، وإنما ينمحل المهاجرون إليه لمعة نور، مهما جنحت الشمس للوجوب، وأرضه سبخة كلما أهلت بعمار نبت لهم فابنتى بها آخرون، يعمرون فينهار، ويبنون فينهال، وقد أقام الشجار بين أهله، فأينما طائفة عزت استولت على ديار الآخرين وفرضت عليهم الجلاء تبتغي قرارا، فلا يستخلص إلا خسارا، وهذا دينهم».

«وقد تطرق هذا الإقليم كل حيوان ونبات، لكنها إذا استقرت به ورعته وشرب من مائة، غشيته غواش غريبة من صورها، فهذا إقليم خراب سبخ مشحون بالفتن والهيج والخصام والهرج، يستعير البهجة من مكان بعيد، وبين هذا الإقليم وإقليمكم أقاليم أخرى».

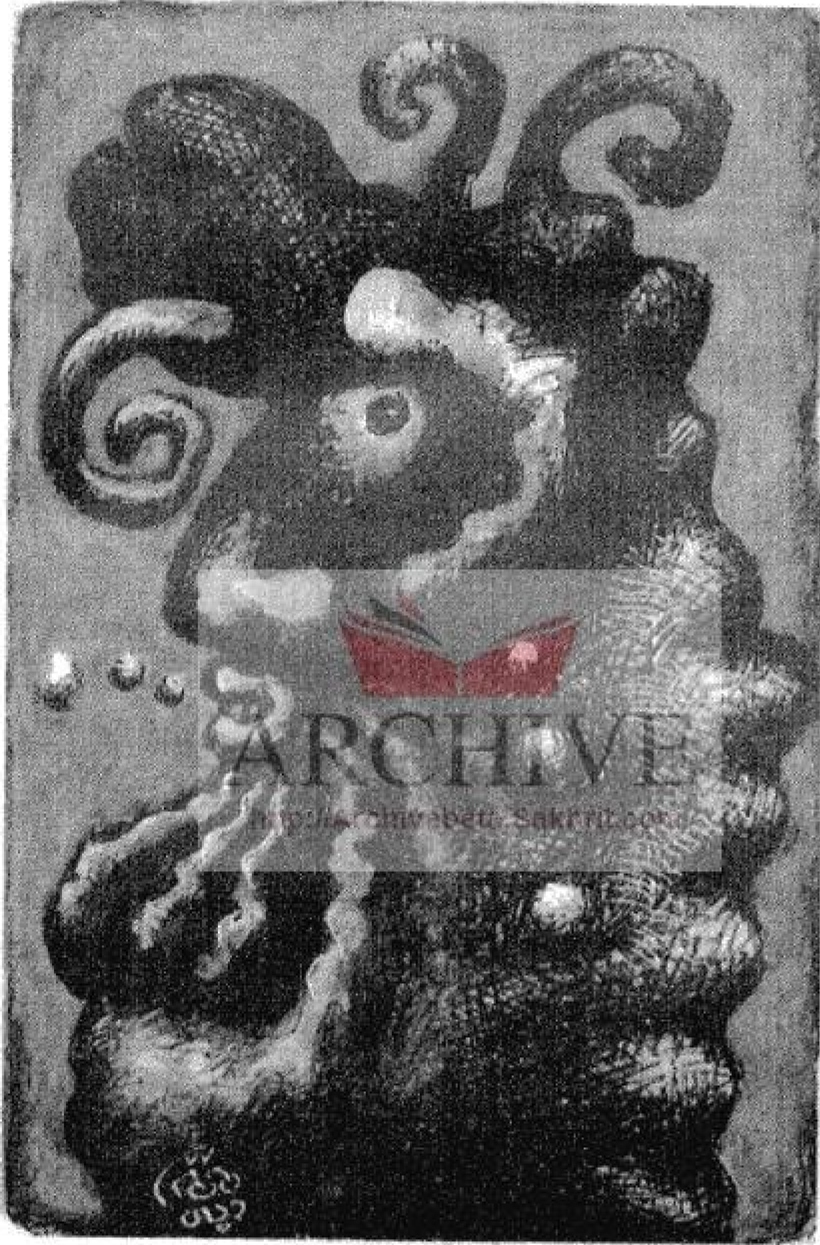
وهو يشير في هذه الفقرة إلى الهيولى، فغروب الشمس فيها يعني مصير الصورة إليها وملابستها إياها، وهيولى هذه الكائنات لا تستقر بها الصور، ولاتثبت فيها، ولا يستطيع أن يدخل هذا الإقليم إلا قوم مثقفون عمرت عقولهم بالفلسفة، تحصل لمحات من حين لآخر تضيء الحقائق كأنها الشمس المضيئة. ويمضي حي بن يقظان في



حديثه:

«لكن وراء هذا الإقليم، مما يلي محط أركان السماء، إقليم شبيه به في أمور، منها: أنه صفصف غير آهل إلا من غرباء واغلين، ومنها أنه يسترق النور من شعب غريب، وإنه مرسى قواعد السموات ومرسى قواعد الأرض ومستقر لها، لكن العمارة في هذا الإقليم [illegible]، لا مغاضبة بين واردها للمحاط، ولكل امة صقع محدود لا يظهر عليهم غيرهم غلابا، فأقرب معامرة منا بقعة سكانها أمة صغار الجثث، حثاث الحركة، ومدنها ثمان مدن، ويتلوها مملكة أهلها أصغر جثثا من هؤلاء، وأقل حركة، يلهجون بالكتابة والنجوم والنيرنجات والطلسمات والصنائع الدقيقة، والأعمال العميقة مدنها تسع مدن».

يعني ابن سينا بتعبير «إقليمكم النوع الإنساني»، وبالأقاليم الأخرى الممالك المعدنية والنباتية والحيوانية، وبالإقليم الشبيه» الأجرام السماوية، وأولها وأقربها إلينا القمر، وآخر الفلك التاسع، وفوقه إقليم آخر، وهو «علة العلل» وهو الله، وذلك جريا على الفلسفة اليونانية التي كانت تعتقد أن هناك أفلاكا تسعة تتسلط على الأرض، وأن النجوم التي تسبح فيها أعقل من الإنسان وأرقى منه، وأن وراء هذا «علة العلل» ويسمون هذه الأفلاك التسعة والعلة الأولى «العقول العشرة»، ويعد أن أتى على هذه الأفلاك وصفا، وهي: القمر وعطارد والزهرى والشمس والمريخ



« وإذا خرطك العار في سلك الذلة انخرطت »

والمشـــتــرى وزحل، عـرض للأبراج الاثنى عشر، وجعلها محطا، إذا كان مقدار سير كل منها بقدر لا يتعداه وأبعاد ما بينها ثابتة لا تتغير، «لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر، ولا الليل سابق النهار»، ثم أشار إلى الفلك التاسع، ويقولون عنه إنه لا يعرف مقداره لخلوه من الكواكب، «لم يدرك أفقه إلى هذا الزمان، لا مدن فيه ولا كور ولا يأوى إليه من يدركه البصر، ويعمره للروحيون من الملائكة، ولا ينزله البشر، ومنه ينزل على من يليه الأمر والقدر، وليس وراءه من الأرض معمور.

ثم يعود ابن سينا إلى عالم الأرض وسكانه، وقـــال: «إنه رتب على سكك خمس كسكك البريد، بها يختطف من يستهوى من سكان الأرض»، وهو يرمز بالسكك الخمس إلى الحواس الخمس، وباختطافها إلى غرق الإنسان في ناحية من نواحيها، ومنها ينتقل إلى الجانب المقابل، فيصف لنا عن طريق الرمز أيضا القوى المعنوية: القوة المتخيلة، والقوة الحافظة، والقوة العاقلة، والقوة الغضبية والقوة الشهوانية والنفس الإنسانية والقوة الوهمية، وغيرها.

وفي النهاية وصف الشيخ الرئيس قوما من أهل الأرض بأنهم أمة بررة، لا تجيب داعية نهم أو قرم أو غلمة أو ظلم أو حسد أو كسل، قد متعوا بالنظر إلى وجه الملك، وحلوا تحلية اللطف في الشمائل، والحس في الأذهان، والرواء الباهر والحسن الرائع، ويعني بذلك القوى العاقلة، وأطال الرمز في ذلك، ثم



يختمها:

«قال الشيخ حي بن يقظان: لولا تعزيي إليه، بمخاطبتك منبها إياك، لكان لي به شاغل عنك، وإن شئت اتبعني إليه والسلام».

قد ابن سينا برسالته الموجزة الرامزة أن يوضح قوة العقل وتميزه عما سواه من غرائز الإنسان وملكاته، وفضله في هدايته إلى الأفضل والأكمل والأجمل، إذا استمعت إليه، ووعيت مما يشير به عليك، موضحا علاقة هذا العقل الأرضي بالعقول السماوية العليا، ثم علاقة هذه كلها بالعقل العاشر، وهو العلة الفاعلة أو بتعبير آخر غير فلسفي هو الله واجد الوجود.

وتبقى ملاحظة أخيرة، وأولية في الوقت نفسه، لقد أراد ابن سينا أن يبث رسالة حي بن يقظان شيئا من أفكاره في الكون والحياة والموت، بعيدا عن شغب العامة وغوغائيتهم، فحررها مرموزة لا يفهمها إلا صفوة المثقفين، ممن تعنيهم متعة الثقافة العالية. وزاد من صعوبة الرمز وانغلاقه فيها إلى حد ما، أنه لا ينحدر من أصول عربية، ولم يعش في بيئة عربية خالصة، تساعده على أن يرمز دون غموض ملبس، ومع ذلك فإن الصبر على فهمهما يضيف إلى متعة القراءة متعة الاكتشاف.

ألا ندعو الآن إلى شيء من الغموض في الأدب شعرا ونثرا؟!

...

وفي عدد قادم نعرض للفيلسوفين الآخرين.



العرب والإنترنت والحرية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

هل الإنترنت تجعل العالم أكثر حرية ؟! البعض يجيبون نعم، وبقوة! مثل جون بيرى بارلو John Barlow من مؤسسة الحدود الإليكترونية، والتى أعلنت على العالم استقلال الفضاء التخيلى للإنترنت عام ١٩٩٦، وهو يؤكد على أن الإنترنت هى البيت الجديد لحرية العقل! وأن الفضاء الاجتماعى للإنترنت خالٍ من الاستبداد، ومن أى قواعد ملزمة، أو سبب حقيقى للخوف، أو لظهور تحيز وإجحاف بسبب الجنس أو العرق أو السلطة والقوة سواء كانت اقتصادية أو عسكرية، وأى فرد فى أى مكان فى فضاء الإنترنت يستطيع أن يعبر عن أفكاره ومشاعره الحقيقية كما يريد.



لكن هناك رأى معاكس يعبر عنه النقاد الاجتماعيون مثل هيربيرت شيلير Herbert Schiller أستاذ الاتصال المتقاعد في جامعة كاليفورنيا سان دياجو، في كتابه: عدم المساواة في الوصول إلى المعلومات، علاوة على محتوى المعلومات الفقير، لكي تزداد الأزمة الاجتماعية عمقا وانتشارا في الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى عدم القدرة على فهم المشاكل الوطنية مع فيضان متزايد من المواد التافهة والمثيرة، وغياب المعلومات الاجتماعية. وهناك أيضا روززاك Roszak, T، وهو من نقاد التكنولوجيا، أكد في أطروحته «عبادة المعلومات» الصادرة عن بيركيلي: جامعة كاليفورنيا ١٩٩٤ على الإمكانيات المتزايدة للحكومات لمراقبة الاتصالات وغزو خصوصيات الناس، وشن حرب عالية التقنية.

والاعتقاد أن الإنترنت ستخلق حتما نتائج محددة، سواء كانت نتائج جيدة أو سيئة، وهو ما يسمى تقنيا بمبدأ الحتمية determinist، كما ظهر ذلك في مقالة إيبرسول Ebersole، حتمية الميديا في فضاء الإنترنت والتي نشرت في أكتوبر ١٩٩٩ على الإنترنت، وهو ما عناه فينبيرج، Feenberg, A بالذرائعية وهي مذهب يقول إن فائدة الشيء هي التي تقرر قيمته، وذلك في كتابه «النظرية الحرجة للتقنية»، الصادر في نيويورك، مطبعة أكسفورد ١٩٩١، الذي قال فيه إن الاستجابة البديهية للحتمية التكنولوجية، تعرف بالذرائعية، وبكلمات أخرى تقول إن وجهة النظر التي تقول ان الإنترنت مثل أي تكنولوجيا مجرد أداة توظف طبقا للغرض المستهدف، من هذا المنظور، الإنترنت لا هي جيدة ولا هي سيئة، لكن محايدة جدا، وتأثيرها على المجتمع سيعتمد على كيفية نشرها وتوظيفها. ورداً على هذه المنظورات، ازعم انني من مؤيدي منظور كرانزبيرج Kranzberg, M. في مقالته عام ١٩٨٥: «عصر المعلومات: تطور أو ثورة؟» والتي نشرت في كتاب تقنيات المعلومات والتحويل الاجتماعي في واشنطن دي سي: الأكاديمية الوطنية، وفيها يؤكد على أن التقنية لا هي سيئة، ولا هي جيدة، وأيضا ليست محايدة! وقبل النظر في هذه النقطة، دعونا نتفحص أولا كيفية تأثير تقنيات الاتصال والمعلومات على مؤسسات حقيقية ونختار الأمثلة من ثلاثة سياقات مختلفة: الأعمال التجارية، والمدارس، والمجتمعات.

التعليم والتقنية

العلاقة بين التقنية والإصلاح التربوي كانت موضوع الكثير من التأملات الفكرية والقليل من الدراسات العلمية، ومن أكثر الدراسات المعمقة لهذه العلاقة، كانت دراسة ساندولز Sandholtz, J.H، ورينجستاف Ringstaff, C، ودوير Dwyer, D.C عام (١٩٩٧) والتي نشرت بنيويورك في مطبوعات Teachers College Press، تحت عنوان: التدريس بالتكنولوجيا، حيث أجرى المؤلفون دراسة لمدة عشر سنوات على نتائج استحداث الحاسبات في خمس مدارس أمريكية في السياقات الاجتماعية المتنوعة. وبشكل مثير للانتباه، جاءت نتائجهم سلبية وموازية لنتائج زويوف. فقد وجدوا أن عملية استحداث الحاسبات خلقت تغييراً ديناميا في العلاقات الاجتماعية، التي كانت ضرورية لاستغلال التقنية الجديدة بالكامل. والمعلمون الذين ما كانوا يستطيعون إقامة علاقات اجتماعية جديدة واجهوا إحباطا في استعمال الحاسبات وفي بعض الحالات هجروا استعمالها. والمعلمون الذين كانوا



قادرين على خلق علاقات اجتماعية أكثر مرونة في قاعات الدروس ويفعلون الأنشطة، والتعليم التعاوني، كانت لهم نتائج إيجابية. وأصبح الطلاب أكثر مشغولية وتحفيزا وتحمل مسئولية أكبر في عملية تعليمهم. وكما في الأعمال، فإن العنصر الرئيسي الذي يقرر نجاح الإصلاح كان رؤية المنفذية، التي تمثل معتقدات المعلّمين، التي تطوّرت بمرور الوقت وتأثّرت بكمّية الدعم التي حصل عليها المعلمون من المدراء، ومدى وصول المعلمين وطلابهم إلى الحاسبات، ونتائجهم الأولية التي حصلوا عليها من تقديم الحاسبات في قاعات دروسهم، بالإضافة إلى فلسفة المعلّم التربوية الدفينة.

وفي دراسة وارشاير، إم Warschauer, M، عام ١٩٩٩ عن التعليم الإلكتروني: اللغة، ثقافة، والقوة في التعليم العلى الخط. حيث درس التعليم المحسن عن طريق الإنترنت في ثلاث كليات وجامعات وجدت نتائج مشابهة. وبينت الدراسة بأنّ الطريقة التي قدّم بها المعلمون الحاسبات كانت معتمدة بشدّة على اعتقاداتهم حول التعليم وعمليات التعلم. والمدربون الذين آمنوا بالتعليم التعاوني المركز على الطالب استعملوا الحاسبات لتسهيل ذلك. والمدربون الذين آمنوا بالتعليم التعاوني المركز على الطالب استعملوا الحاسبات لتسهيل ذلك. والمدربون الذين فضلّوا حالة التعليم المتحكم من قبلهم حاول استعمال الحاسبات بطريقة ما تسهل ذلك. بكلمة أخرى، استعملوا المعلمون الحاسبات لمحاولة أداة أفضل لتطبيق رؤيتهم.

فالمعلمون الذين كانوا يديرون قاعة الدروس بطريقة أكثر مركزية وجدوا الإنترنت كانت أداة قويّة لتطبيق تلك، وهم سمحوا بأن تكون قاعة الدرس أكثر ديناميكية بالمقارنة بإمكانيات الاتصال غير المركزي الذي سمح به قبل الإنترنت. وفي هذه الأثناء، المعلّم الذي حاول استعمال الإنترنت على نحو مسيطر عليه جدا، واجه مقاومة من الطالب. والطلاب الذين كانوا يمارسون السلبية بدون الحاسبات والإنترنت كانوا أقل رغبة في تلك السلبية في قاعة الدروس المشبكة على الإنترنت. في هذه الحالة، بدلا من ترك استعمال الحاسبات، بدأ المعلّمون بإعادة النظر في معتقداتهم حول التعليم وعمليات التعليم بحيث يسمحون للطلاب بسلطة وسيطرة أكثر.

الأعمال التجارية بين الأتمتة (التشغيل الآلي) والمعلوماتية

من الأبحاث الأكثر تفصيلا على تأثير الحوسبة على العلاقات الاجتماعية في الأعمال التجارية أجرت من قبل سوشانا زوبوف Sushana Zuboff، الأستاذ في كلية الأعمال في هارفارد، وظهرت في كتابه عام (١٩٨٨) الذي نشر في نيويورك. تحت عنوان في عصر الماكينة الذكية: مستقبل العمل والقوة، حيث درس ثمان شركات أمريكية بتعمّق على فترة خمس سنوات في الثمانينات لتقييم تأثير الحوسبة التي أجريت على عملياتهم. لاحظ زوبوف مبدئيا أن العاملين توقّعوا أن الحاسبات سوف تساعدهم على أتمتة وميكنة مهامهم، لكن بينما تخفي الأتمتة أو التشغيل الآلي العديد من العمليات وتجملها في المشروع العامّ، نجد تقنية معلومات بدلا من ذلك تنير مثل هذه العمليات. بكلمات أخرى، تحسّن تقنية المعلومات معدل الإنتاج ليس بإزالة وتبديد

المعلومات والسيطرة من قبل الأشخاص (كما فى الأتمتة)، لكن بالأحرى بتوسيع الحصول على المعلومات ونشرها وزيادة دائرة الأشخاص المسيطرين عليها. واستعمل زويوف المصطلح informate (تبليغ ونشر أو توصيل المعلومات، أو التأهيل بالمعلومات أو اختصارا المعلوماتية) لوصف هذه العملية.

وأظهرت دراسة زويوف بأنّ الشركات التى كانت قادرة على صناعة التغيير فى الأتمتة إلى المعلوماتية من خلال تعلم كيفية تجريد أكثر للسلطة والسيطرة عليها فى كافة أنحاء موقع العمل، كانت أفضل قدرة على استغلال ثورة المعلومات، سواء كان ذلك مقاسا بمعدل الإنتاج المتزايد، أو بمدى هدوء العمليات الإدارية، أو مدى رضى المستخدمين. والشركات التى لم تستطع القيام بالتغييرات اللازمة للتحول من الأتمتة إلى المعلوماتية واجهت الكثير من المشاكل.

وأكد عامل التشتت الإحصائى فى دراسة زويوف على مقولة «إذا لم تترك الناس تنمو وتطور وتتخذ قرارات أكثر، فإن ذلك ضياع لإمكانيات البشر، وإذا لم تستعمل معرفتك ومهارتك، فأنت تضيع الحياة»، بل إن البعض مثل Huber, G.P هوبير، جى. بى. فى ورقته المنشورة عام (١٩٩٠) فى Academy of Management Review تحت عنوان نظرية تأثيرات تكنولوجيات المعلومات المتقدمة على التصميم التنظيمى، والتفكير واتّخاذ القرار، توقع بأنّ طبيعة تقنية المعلومات ذاتها ستسبب قيام الشركات بتغييرات فى تصميمها التنظيمى. لكن نتائج زويوف أوجدت دلائل مناقضة لوجهة النظر الحتمية هذه. فالشركات التى درست كل جوانب المعلوماتية، بعضها كان غير قادر على إجراء التعديلات الضرورية لاستغلال تقنية المعلومات بالكامل، وهكذا عانت من المشاكل. لكن تقنية المعلومات خلقت الشروط التى تأكّد أن أنواعاً معينة من التغييرات قد تكون مفيدة.

ونتائج دراسة زويوف تكمّل نتائج كلنج Kling, R وزومويدزيناس Zmuid Zinas,M عام (١٩٩٤)، التى نشرت فى Revue International de Sociolongie، تحت عنوان التكنولوجى والايدولوجى والتحولات الاجتماعية: دراسة حالة الحوسبة فى تنظيم العمل، التى فحصت تطوير ٤٠ مجموعة عمل على مدى ثلاث سنوات، ووجدوا مثل زويوف أن التحويلات فى الهيكل التنظيمى لم تكن موحدة ومتشابهة، لكنها اعتمدت على عوامل مثل الإيديولوجيات الإدارية الملائمة لتنظيم العمل، استراتيجيات تطبيق الغير التكنولوجى، التنظيم الاجتماعى للدعم التقنى والعمل القوّة المهنية للعامل ومجموعة العمل، ودرجة تكامل المستعمل ومجموعة العمل مع الحوسبة ، وظهر عنصر أساسى فى عملية التحويل هى مجموعة الاعتقادات والرؤى المرتبطة والتى توجّه فلسفات النتائج المطلوبة من منظمة العمل، ودور استعمال الحاسبات فى إنجاز تلك النتائج. ووجدوا أيضا أن تلك الرؤى فى موقع العمل ما كانت ساكنة، لكن أثّر عليها مجموعة من العوامل الاجتماعية والعوامل التكنولوجية.

الإنترنت والعرب

من الصعوبة الكبيرة دراسة تأثير الإنترنت على كامل المجتمع، لأن هناك العديد من المتغيرات التى تشترك وتؤثر وتفعل التغيير الاجتماعى الحضارى. وطريقة واحدة تجعلنا نختبر هذه القضية

...بان نفحص الحالة فى البلدان التى تحكم من قبل أنظمة استبدادية وسمحت بدخول الإنترنت، وهل نتج عن ذلك تغيرات سياسية واجتماعية؟! فى القاهرة يوم ٧ يونيه ٢٠٠٤، أكدت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان أن أغلب الحكومات العربية لم تستثن الإنترنت من القيود الصارمة المفروضة على وسائل الإعلام المختلفة، وأن تضييق ساحة العمل السياسى أثر سلبا على العديد من مواقع الإنترنت ومستخدميه. وقالت «الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان» فى أول دراسة تنشرها، والتى تعد أول دراسة عربية عن الرقابة على الإنترنت فى العالم العربى، تحت عنوان «الإنترنت فى العالم العربى: مساحة جديدة من القمع؟» أنه ضمن أحد عشر دولة عربية تضمنتها الدراسة، لم تتح حرية نسبية لمستخدمى الإنترنت سوى فى ثلاث دول هى الأردن والإمارات العربية المتحدة وقطر، وأن ثمانى دول ممن شملتها الدراسة تفرض قيودا أمنية شائعة بالعالم العربى، وكانت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، قد بدأت فى إعداد دراستها لتسليط الضوء على استخدام شبكة الإنترنت فى العالم العربى من حيث عدد المستخدمين وأسباب قلتهم، وأسباب تراجع اللغة العربية على الإنترنت، إلا أن المادة التى توفرت لديها من خلال ما نشر بوسائل الإعلام وبعض الدراسات الأجنبية التى أعدت عن الإنترنت فى المنطقة العربية وبعض اللقاءات الميدانية، قد جعلتها تعجل بإصدار تلك الدراسة، لتدق ناقوس الخطر وتؤكد انه على عكس المقولات الشائعة فإن الرقابة والمنع تعتبر ضمن السياسات المسئولة عن عدم انتشار الإنترنت فى العالم العربى بالإضافة إلى مشكلتى الأمية والفقر التى تعوق العديد من المستخدمين المحتملين عن النفاذ إلى شبكة المعلومات الدولية أو الإنترنت، وإن الحكومات العربية تتعلل دائما بحماية القيم الإسلامية والآداب العامة. إلا أن تلك الذريعة غالبا ما تستخدم كغطاء يتم تحته حجب المواقع التى تندد بممارسات تلك الحكومات سواء أكانت سياسية أو حقوقية، بل إن بعض الحكومات تحجب منتديات حوارية. وهى نتيجة منطقية لأن أغلب تلك الحكومات العربية معادية لحرية التعبير وحريات أخرى سياسية أو حقوقية. ونبهت الدراسة إلى أن بعض الدول تعتقل مواطنيها لمجرد تصفحهم لمواقع أحزاب أو قوى معارضة، بينما تنصب دول أخرى الفخاخ على الإنترنت لفئات اجتماعية بغرض الإيقاع بها، دون الأخذ فى الاعتبار مدى قانونية تلك الوسائل. وتفضح الدراسة زيف ادعاءات دولة مثل تونس تزعم أنها جديرة باستضافة اجتماع «المرحلة الثانية من قمة مجتمع المعلومات». وتطالب الشبكة العربية بألا يساهم المجتمع الدولى فى تدعيم أكذوبة حرية الرأى بتونس والتواطؤ فى زيادة معاناة المواطن التونسى من نظام حكم لا يقيم اعتباراً لقيم حقوق الإنسان أو حريات مواطنيه. وتقع الدراسة فى ٨٠ صفحة ويمكن الحصول على نسخ مطبوعة من مقر الشبكة إضافة إلى النسخة الإليكترونية المتوفرة على الإنترنت. والمتتبع للظروف والاعتبارات التى تحكم استخدام الإنترنت فى المنطقة العربية، سوف يجد نفسه بحاجة لإعادة التفكير مرة بعد أخرى إن كانت مقولة جون بيرى بارلو التى افتتحنا بها المقال، والتى أعلنت استقلال الفضاء التخيلى للإنترنت تصدق على مستخدمى

الإنترنت فى تلك البقعة من العالم أم لا؟ فعلى الرغم من النمو النسبى السريع لعدد مستخدمى الإنترنت فى المنطقة العربية، حيث يكاد عددهم يصل إلى حوالى ١٤ مليون مستخدم، وكذلك وصول تلك الخدمة لجميع بلدان المنطقة، إلا أن العديد من مستخدمى الإنترنت بالعالم العربى، قد بدأوا يطرحون بعض الأسئلة الهامة من نوع: هل تتمتع مراسلاتهم أو مشاركاتهم على الإنترنت بالحرية التى كانوا ينشدونها فعلا؟ هى يتيح لهم الإنترنت فعليا، مساحة من الحرية يفتقدونها بشكل واضح فى حياتهم، إزاء غياب الحريات الأساسية ضمن أغلب ربوع المنطقة؟ أى قانون سيطبق عليهم فى حال تجاوزهم الخطوط الحمراء التى تتحدد أساسا ضمن قواعد واعتبارات متغيرة باستمرار، وغير واضحة؟ ويرى العديد من المهتمين بحرية الرأى والتعبير أن الإنترنت قد أتاح فرصا واسعة أمام كم هائل من المواطنين فى مختلف بلدان العالم، ومن ضمنها البلاد العربية فى التعبير عن آرائها والإعلان عن أنفسهم، ولا سيما المجموعات التى لم يكن متاحا لها بالسابق التعبير عن نفسها وطرح أفكارها وهمومها لأسباب قد تكون سياسية «جماعات المعارضة السياسية يسارية وإسلامية أو جماعات حقوق الإنسان»، أو أسباب دينية «مثل الطوائف المختلفة» أو لأسباب ثقافية ودينية مجتمعة. وقد بدا واضحا أن تلك المجموعات قد استفادت فعليا من الإمكانيات الهائلة التى تتيحها شبكة الإنترنت لمستخدميها، لا سما المنتمين للرؤية الإسلامية، سواء كانوا منظمين ضمن مجموعات أم لا إلا أن تلك المجموعات وعلى اختلاف مرجعياتها قد أدركت سريعا، أن الحكومات قد دخلت بدورها حلبة الصراع وبدأت تبذل الجهد لتحكم حصارها على هذه الوسيلة الجديدة التى قد تسبب لهم بعض المشاكل نتيجة لتلك المساحة من الحرية البعيدة عن سيطرتها، فلجأت إلى الأساليب العادية التى تسم أغلب الحكومات العربية عند تعاملها مع مسألة حرية الرأى والتعبير وهو المصادر والرقابة، فضلا عن استخدامها للوسائل الجديدة والمتعلقة بهذا الوافد الجديد مثل تحكمها فى المنبع من خلال برامج الفلترة الإليكترونية، كما تلجأ بعض الدول إلى احتكار تقديم الخدمة مثل السعودية وتونس حتى شهور قريبة فضلا عن استخدام الحل الشائع والتقليدى، وهو تلفيق القضايا والزج بمن يتجاوز الخطوط الحمراء - غير المعروفة أصلا - داخل السجون بدعاوى واهية مثل الإساءة لسمعة الدولة، السب والقذف، أو لحماية الآداب والقيم العامة... إلخ. بل أن بعض الحكومات العربية قد اختصرت الطريق تماما بحرمان شعوبها أصلا من الاتصال بالإنترنت مثل حكومة الرئيس العراقى السابق صدام حسين، الذى برر منعه لاستعمال شبكة الإنترنت وحتى عام ٢٠٠٠ بزعمه أن شبكة الإنترنت «وسيلة دعاية أمريكية». ويبدو أن العديد من الحكومات العربية قد فاتها فى بداية استخدام الإنترنت أنه يمنح مساحة واسعة لكل مستخدميه، سواء كانوا مؤيدين لها أم لا، فراحت تطلق التصريحات الرنانة وتشجع الجهات الحكومية على استخدامه فضلا عن بعض الإعفاءات الجمركية على مستلزمات الكمبيوتر تشجيعا لمواطنيها على اقتنائه واستخدامه. إلا أن تلك السياسات التشجيعية سرعان ما بدأت تتراجع نظرا لأن شبكة الإنترنت، تمنح كل إمكانياتها لكل مستخدميها، دون أن تفرق بين حكومى ومعارض، ضابط أو ناشط

حقوقي، ديني أو لاديني، أسود أو أبيض، رجل أو امرأة... إلخ. لتبدأ مرحلة أخرى يمكننا أن نطلق عليها «لعبة القط والفأر»، بين أغلب الحكومات العربية ومستخدمي الإنترنت، ممن يسعون لكسر المنظومة القيمية السائدة، دينيا أو سياسيا أ ثقافيا، أو بمعنى آخر من يسيرون في عكس اتجاه الحكومات. وكعادة العرب ارتدت الإنترنت عباءة دينية، والتي انتشرت في منطقة الخليج العربي وامتدت لتطال العديد من البلدان العربية الأخرى، بل وبعض البلدان الإسلامية غير العربية مثل أفغانستان وباكستان والكثير من الجاليات العربية بأوربا وأمريكا الشمالية، ولذلك لم يكن الكثير ممن يطلع على إحصائيات حول المحتوى العربي على الإنترنت، ليقف كثيرا حول نسبة تلك المواقع بالنسبة للمواقع ذات المحتوى المختلف، والتي وصل تقدير البعض لها إلى ٦٥٪ من المواقع العربية، ويلاحظ أن الكثير من هذه المواقع قد نجت من الحجب والفلترة التي تلجأ لها العديد من الدول العربية، رغم ما يحمله الكثير من تلك المواقع من دعاوى الكراهية لفرق وجماعات إسلامية أخرى وهو أمر يعبر عن رضا تلك الدول عن مضمون تلك المواقع، أكثر منه إيمانا من تلك الدول بحرية الرأي والتعبير وتداول المعلومات وعلى الرغم من تراجع تلك الظاهرة بعض الشئ نظرا للتوسع الذي شاب كلا من عدد مستخدمي الإنترنت وكذلك عدد المواقع العربية على الشبكة، إلا أنها لم تختف تماما، وإن تحول البعض منها لاستخدام لغة أقل حدة في مواجهة الآخر، وتحول البعض الآخر والأكثر تشددا، إلى الحرص واستخدام أكثر من اسم ومستضيف، لاسيما بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر. وبدء ملاحقة الكثير من تلك المواقع المتشددة سواء من الولايات المتحدة و الحكومات العربية. ويمكننا أن نلحظ تخفيف حدة التشدد تلك، في مواقع عرفت بغلوها وتعصبها مثل موقع الساحة العربية، سوالف، بوابة الإسلام، اسلاموای، شبكة سحاب، وغيرها.

المعارضة العربية

ومثل الإنترنت فرصة جيدة أمام أحزاب وجماعات المعارضة العربية، حيث سمح للعديد منها بزيادة التواصل مع مؤيديها، فضلا عن كسب تعاطف وتأييد المزيد من المواطنين، نظرا لسيطرة الحكومات العربية على وسائل الإعلام التقليدية بشكل محكم، كان يصعب معه أن تخرج مقالة أو خبر أو تعليق يتضمن نقدا لسياسات تلك الحكومات، حتى وإن تم ذلك، ففي السجون العربية متسع للمزيد من الصحفيين وأصحاب الرأي. وكان من الملاحظ أنه مع زيادة القمع الذي تمارسه دولة ما ضد معارضيها، كانت أعداد المواقع المعارضة لها تزيد بدورها، خاصة وأن العديد من تلك المجموعات المعارضة وقد ضاقت بها أوطانها نظرا للقمع الشديد الذي تواجه به، قد لجأت للمنفى وراحت توظف كل الإمكانيات المتاحة لها بالبلدان التي لجأت إليها في محاولة حشد مؤيديها وفضح ممارسات تلك الحكومات وكان الإنترنت وسيلة هامة ضمن وسائلها. ومع قصور التشريعات القائمة عن التعاطي مع المستجدات التي طرأت على وسائل النشر، فعبر الإنترنت، يمكنك أن تنشئ موقعا من خلال حجز مستضيف HOST من دولة وتقوم بنشر موضوعاتك وأنت في دولة أخرى، ثم تقوم دولة ثالثة بالقبض عليك رغم أنك أثناء نشرك لتلك

الموضوعات، لم تكن دولة المستضيف أو الدولة التي قمت بالنشر فيها تعتبر ما نشرته هذا جريمة معاقب عليها. وتلك التعقيدات التقنية قد تلقي ظلالا من الشك تشوب عدالة المحاكمة لإحدى الجرائم التي قد تتم بواسطة الإنترنت.

ملخص الموضوع أن الحكومات الاستبدادية، من ضمنها الحكومات العربية سمحت للإنترنت في بلدانهم، فتحت ظروف مسيطر عليها، وفي معظم هذه الدول، تصل الإنترنت لنسبة مئوية صغيرة فقط من السكان ولو أن ذلك قد يكون بسبب التنمية الاقتصادية المنخفضة، أو مجموعة القيود الحكومية. وفي بلد استبدادية واحدة هي سنغافورة كان اختراق الإنترنت عاليا جدا، وهي تزودنا بمثال أفضل لفهم التأثير المحتمل للإنترنت حيث تبين في دراسة غاري رودان Garry Rodan (١٩٩٨) تحت عنوان الإنترنت والسيطرة السياسية في سنغافورة صدرت عن مركز البحوث الآسيوي في جامعة مردوخ Murdoch في استراليا، أوضح رودان كيف سعت سنغافورة من خلال خطة إستراتيجية منذ عام ١٩٩٢ لتطوير البلاد وجعلها جزيرة ذكية، من خلال شبكة سريعة وطنية توصل البث التليفزيوني، والهواتف والصور، والدروس التفاعلية، والأماكن الإلكترونية من الأعمال التجارية وغيرها، وأصبحت سنغافورة في ترتيب الدول في مقياس العولمة من أول الدول، وأكثرها انفتاحا على العالم الخارجي، وشكل النمو السريع للإنترنت فرصا إقتصادية كبيرة لسنغافورة وفي نفس الوقت تهديدا سياسيا خطيرا، حيث فتحت الأبواب إلى مجموعة من وجهات النظر السياسية والاجتماعية لا تسمح بنشرها عادة أجهزة إعلام البلاد المسيطر عليها بشدة ولصد هذا التهديد بدأت الحكومة تعليمات صارمة في وضع الإنترنت تحت السيطرة وأجبرت كل مزودي خدمة الإنترنت لمنع توفر محتوى مكروه (يتضمن ذلك المحتوى الذي يستطيع أن يثير سخطا ضد الحكومة أو يقوض الثقة العامة في إقامة العدالة).

هذه الرقابة الصارمة، اندمجت مع جهود حكومة سنغافورة نفسها في نشر وجهات نظرها على الإنترنت، وساعد ذلك على دعم مناخ الخوف والتخويف وخلق فرص جديدة لنشر الدعاية والمعلومات لصالح الحكومة. ونشرت جمعية «مراسلون بلا حدود» أن شركتي «ياهو» و«جوجيل»، اللتين يعتمد عليهما مئات الملايين من البشر للبحث عن الإنترنت، قد رضختا لطلبات الحكومة الصينية وتقومان بممارسة الرقابة على طلبات البحث عن المعلومات التي تردهما. وقالت الجمعية التي تضم مراسلين صحفيين أن الشركتين الأمريكيتين تقدمان تنازلات تمس حرية التعبير بصورة مباشرة ونددت جمعية «مراسلون بلا حدود» بهذا النفاق وطالبت بأن تتخلى شركتا «ياهو» و«جوجيل» عن سياساتهما غير المسئولة وأن تتعهدا باحترام حرية المعلومات حتى خارج الولايات المتحدة.

وجدير بالذكر أن قانون حرية الإنترنت العالمي The Global Internet Freedom Act الذي تطالب جمعية مراسلون بلا حدود بتطبيقه على الشركات الأمريكية الخاصة هو قانون أمريكي اقترحه النائب كريستوفر كوكس Christopher Cox على مجلس النواب الأمريكي الذي أقره في يونيو ٢٠٠٣ وكان غرض هذا القانون هو مكافحة الرقابة التي تمارسها أنظمة قمعية.

الإنترنت ليست رصاصة سحرية

والحقيقة مازال الوقت مبكر جدا



للحكم على التأثير الطويل المدى للإنترنت في الدول الاستبدادية ولو أنه من السهل ملاحظة النوادر الإيجابية في الكيفية التي يستعمل بها الناس الإنترنت للمساعدة على التغلب على، أو على أقل تقدير نشر وإذاعة القمع الحكومي والمجتمعي. فالمعارضون السياسيون، والشواذ والسحاقيات في الصين وفي الدول العربية يرتبطون ببعضهم البعض على الشبكة ويستعملون مستضيف HOST مقره في أمريكا وأوروبا، لإثبات حقوقهم السياسية وحقوقهم في حياة طبيعية، ووسائل الإعلام المستقلة في صربيا تعلن على المجتمع الدولي من خلال الإنترنت فضائح القمع الحكومي ومحاولات إغلاقها، ونشطاء اجتماعيون من كل القطاعات يستعملون الإنترنت للاشتراك في المعلومات وتنظيم الاحتجاجات والمظاهرات وينشرون أسبابهم.

إن الإنترنت وحدة بالتأكيد ليست رصاصة سحرية ستجرف وتزيح كل الظلم والقمع، لكنه يزود الجمهور بأداة مهمة يستطيع بها المساعدة على موازنة القوة من فوق.

نحو نظرية اتفاقية لتكنولوجيا الإنترنت

في تحليل الأمثلة السابقة من سياقات العمل، والتعليم والتربية ومن السياقات الاجتماعية والحضارية، يظهر نمط مشترك، أن الإنترنت لوحدها لا تحدث أي آلية، ولا يمكن تحديد نتائجها سواء السلبية أو الإيجابية مسبقا، حيث يعتمد تأثير الإنترنت على التحويلات والتغييرات الواسعة في السياقات المؤسساتية والاجتماعية لكن كما لاحظ كرانزبيرج في مقالته عام ١٩٨٥ كما ذكرنا في أول المقال، بأن التقنيات الجديدة في الحقيقة لا هي جيدة ولا هي سيئة، ولا تشير ضمنا إلى أنها محايدة وتصميم الإنترنت وتاريخها، انبثق من صناعة الاتصالات في الولايات المتحدة، الذي حمل معه انحيازا أكيدا. بعض مظاهر هذا الانحياز قد يرى سلبيا لفرص الحرية الإنسانية، فالاستعمال الكامل للإنترنت يتطلب وصولا عادة إلى مصادر مثل (حاسبات، خطوط هاتف، اللغة الإنجليزية، إلخ) وهذا متوفر فقط لأقلية من الناس في العالم. بهذا المعنى، الإنترنت تستطيع تصعيد ظاهرة عدم المساواة في الحصول على المعلومات والقوة لكن في معنى آخر، الإنترنت هي الوسيط الأكثر تحررا وإبداعا، فأولئك الذين يدخلون الإنترنت ويملكون اللغة وهجائية الكمبيوتر ومهارات الاتصال يستطيعوا استلام، وتبادل، ونشر كمية لم يسبق لها مثيل من المعلومات بدون امتلاك واستعمال قنوات الإعلام الجماهيري الرئيسية بالضرورة، لذلك عندما تدخل بدايات الإنترنت مجتمع ما تساعد على إحداث تغييرات جوهرية في الدينامية الاجتماعية وبينما تنتشر الإنترنت، يصبح الاتصال من تحت ممكنا ومتاحا من كل الأنواع ويعلن التحدى إلى أولئك الذين يريدون فرض السيطرة من فوق. وكما لاحظ زوبوف في كتابه عام ١٩٨٨ الذى نشر في نيويورك تحت عنوان في عصر الماكينة الذكية لاحظ أن عمليات نشر وتوصيل المعلومات informating أكثر عمومية، لكن قوة عملية النشر والتوصيل المستمدة من الإنترنت تضع المعرفة والسلطة على خط اصطدام معا فعندما يكون الناس قادرين على نحو متزايد في الوصول إلى المعلومات، والاتصال بسهولة

مع الآخرين فى مجتمعهم أو حول العالم، وينشرون وجهات نظرهم بشكل مستقل، يصبحوا عادة أقل رغبة فى أن يقبلوا سيطرة اعتباطية على حياتهم من فوق. لكن هذا نفسه لا يضمن حرية سياسية، فأولئك الذين فى السلطة يستطيعون أيضا استعمال الإنترنت أيضا لمراقبة ومهاجمة المواطنين أو المستخدمين، لكن الحرية تبدأ ليست فى الهيئات التشريعية، ومجالس إدارة شركات، أو الإدارات التربوية، لكن الحرية تبدأ فى الروح الإنسانية. وفى كل مرة يستعمل الناس الإنترنت للوصول إلى معلومة منعت عليهم من قبل، ويتصلون بشخص كان يصعب الوصول إليه سابقا، أو يتواصلون من أعماق قلوبهم فى المشاركة فى الرسائل ونشرها، حيث لم يكن ممكنا أن ينشروها قبل الإنترنت، أعتقد بأن كل ذلك يقوى ويدعم الروح الإنسانية على مقاومة السلطة من فوق.

الإنترنت لن تكون بساطا سحريا نركبه إلى الحرية، أو تكون المصعد إلى الحرية، ولكنها مصعد متعطل، لأنه يجب أن تستعمل السلالم خطوة خطوة، فدخول الإنترنت يستطيع بداية رج مؤسسات المجتمع بعنف ومساعدة الناس على أن يروا ويدركوا الإمكانيات التى لم يروها ويدروكها من قبل. ودخول الإنترنت أيضا يستطيع أن يساعد على تسهيل الإمكانيات الجديدة لمكافحة وعرقلة الحرية الإنسانية لكن الحصول وإحراز الحرية الإنسانية يجئ فقط من العمل الشاق لإنجاز التغيير الشخصى والمؤسساتى. وفى بعض الأحيان، ممثلى السلطة، سواء السياسيين أو كبار رجال أعمال، أو المدراء التربويين، يكون عندهم منظور مستقبلى فى الكيفية التى تستطيع بها الإنترنت نشر وتوصيل المعلومات لمجتمعاتهم ومؤسساتهم ويطلقون الإصلاحات التى تنقل القوة والسيطرة إلى الأشخاص فى القاعدة (الناس اللى تحت) فى أغلب الأحيان سيكون أولئك الناس اللى تحت - مواطنين، عمالا، طلابا، معلمين - هم الذين يخطفون ويمسكون الإمكانيات والقدرات التى تعطيهم إياها الإنترنت ولم يعهدوها من قبل لأنفسهم ويكافحون من أجل الحصول على القوة والسيطرة والحرية، وفى أغلب الأحيان ضد المقاومة من فوق.

والإنترنت، مثل التقنيات الأخرى، ستكون موضعا للنضال، والكفاح، كما هو مقترح من قبل النظرية الحرجة من التقنية وهو ما عناه فينبيرج بالذرائعية وهى مذهب يقول إن فائدة الشئ هو التى تقرر قيمته، وذلك فى كتابه النظرية الحرجة للتقنية الصادر فى نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩١. وقال فيه إن الاستجابة البديهية الحتمية التكنولوجية تعرف بالذرائعية، وبكلمات أخرى نقول إن وجهة النظر التى تقول إن الإنترنت مثل أى تكنولوجى مجرد أداة توظف طبقا للغرض المستهدف من هذا المنظور، الإنترنت لا هى جيدة ولا هى سيئة، لكن محايدة جدا، وتأثيرها على المجتمع سيعتمد على كيفية نشرها وتوظيفها.

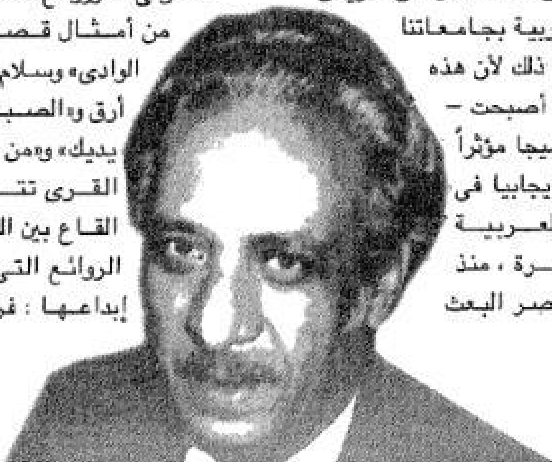
ونزعم فى النهاية أن تقنيات المعلومات الجديدة تزود الإنسان بوسائل قوية للمساعدة على جعل القرن الحادى والعشرين الأكثر حرية للإنسانية، سواء فى سياقات تربوية، أو مهنية أو اجتماعية حضارية. لكن لإنجاز مثل هذه الحرية تتطلب نضالا وكفاحا والتزاما، فى مدارسنا، ومواقع عملنا، ومجتمعنا. ■

البعد الغائب في تدريس اللغة العربية

بقلم
د. سعد دعبيس *

لعنا .. لا نكون مبالغين فى التصور .. حين ندعو إلى ضرورة إسهام الفنون المعاصرة فى تطوير حياتنا العلمية ، ونحن حين ندعو إلى ضرورة الارتباط الوثيق بين الفنون المعاصرة ، وتدريس اللغة العربية بالجامعات ، لا نريد أن نقحم على الثقافة العربية بعامة ، واللغة العربية بصفة خاصة ، دعائم ليست ضاربة بجذورها فى واقعنا الحياتى المعاصر ، نحن لا نريد القفز على ثقافة المجتمع العربى ، بل .. نريد صحوة ثقافية تجعلنا نعيد النظر فى كثير من المسلمات ، إن إلفنا لبعض المقولات النقدية ، أو الاتجاهات الأدبية ، ومرورنا عليها يوميا .. دون تأملها ، ودون إعادة النظر العميق إليها .. هذا الإلف اليومى للأشياء والمناظر ، والنظم والآراء ، يمكن أن يقود مسيرتنا الفكرية والأدبية .. إلى العقم .. إلى التجمد والتحنيط .. فى ثلاجة الصوت الواحد والرأى الواحد .. ثم .. السير .. نياماً .. فى متاحف التاريخ ؟

إن الفنون المعاصرة .. لا ينبغى أن تنفصل عن تدريس اللغة العربية بجامعاتنا العربية ، ذلك لأن هذه الفنون قد أصبحت – فعلا – نسيجا مؤثراً ، وفاعلاً إيجابيا فى لغتنا العربية المعاصرة ، منذ بدايات عصر البعث والإحياء .. على يد المسرحيات الشعرية «لشوقى» ، وروائع الشعر العربى المغناة من أمثال قصائد : «يا جارة الوادى» و«سلام من صبا بردى أرق» و«الصبا والجمال ملك يديك» و«من أى عهد فى القرى تتدفق» و«ريم على القاع بين البان والعلم» تلك الروائع التى التقى فى إبداعها : فن الشعر ، بفن



الموسيقى والغناء ، والتى تعانق فى ظلها شعر (شوقى) بمصر وشعر (الأخطل الصغير - بشارة الخورى) بلبنان ، والعبقرية الموسيقية والغنائية لمحمد عبد الوهاب ، وأم كلثوم ، وفيروز .. وغيرهم !

اللغة ملتقى الفنون

إننا ندعو - وبكل قوة - إلى أن تعود هذه الفنون المعاصرة .. مرة أخرى .. وبأسلوب جديد ومنهج جديد .. لتؤدى دورها .. فى تدريس اللغة العربية بالجامعات العربية .. ومما يؤسف له .. أن هذا الدور غائب» .. فى الواقع التدريسى الآن .. وغائب أيضا .. فى تفكير بعض المثقفين .. بل .. وفى أذهان كثير من الأكاديميين المتخصصين ! إنهم يظنون حين يسمعون عن قضية تدريس اللغة العربية بالجامعات ، أن المقصود بتلك العبارة تدريس علوم اللغة والنحو والصرف ، وبعض النصوص الأدبية بالإضافة إلى البلاغة والنقد الأدبى والعروض .. وهذا تصور خاطىء .. لأن اللغة العربية المرتبطة بمتغيرات العصر - فى اعتقادنا وتصورنا - بالإضافة إلى المواد السابقة - هى أيضا * ملتقى ثقافات عديدة ، وفنون معاصرة ، لها أهميتها فى تشكيل اللغة ، وبنائها الفكرى والتعبيرى والجمالى .. نعم هى ملتقى خصب .. وجميل ورائع .. أيضا لفنون الموسيقى والغناء والمسرح والسينما والقصة .. بل و(الأوبرا) .. أيضا .. ويحضرنا الآن فى هذا الصدد ، مثال من الشعر العربى المعاصر ، وهو (أوبرا الأرض العالية) للشاعر المصرى الدكتور / عبده بدوى ، وكانت أول (أوبرا) تصاغ فى شعر عربى رائع ، عن قضية الإنسان والأرض فى (كينيا) وقام بصياغتها الموسيقية ، الموسيقى المصرى سليمان جميل والموسيقى الإيطالى (فيتوريوباربيرى) ! ثم .. ما هو أخطر من ذلك .. أن الشعر العربى المعاصر .. على يد ذلك الشاعر (عبده بدوى) قد استطاع أن يعانق التأليف (السيمفونى) فى عمله الشعرى الرائد (محمد .. قصيد سيمفونى.. !) وقد صدر هذا العمل الإبداعى سنة ١٩٦٩م عن دار (المصراتى للطباعة والنشر ليبيا) وقدم له الشاعر بمقدمة أوضح فيها الدوافع النفسية والفنية التى حفزته إلى ذلك الإبداع المتميز فقال : «لا شك فى أن كل جديد فى الميادين الفنية يبهر ويهز ، فكل عمل





* الأستاذ بكلية التربية - جامعة عين شمس

فني ما لم يكن إضافة ، فإنه يظل دائماً .. معانقاً للموت .. ولعله من هذه النقطة ، كان إحساسي دائماً بأن الشعر العربي قد طفح بالغنائيات ، فهو لأصالته في النفس العربية ، ولامتداده على رقعة كبيرة في الزمان والمكان يكاد يكون غابة مستقلة .. يكاد يكون عالما مستقلاً .. ! لهذا كنت أعتقد أن كل تطوير للقصيدة العربية القديمة ، يجب ألا يغفل هذه النفس العربية التي أتت كل هذه الثمار ، وفي الوقت نفسه يجب أن تكون امتداداً له ، وما أظنني إلا وكنت وفيا لهذا الاتجاه ، حين تخيرت من عدة سنوات أن أقدم أول (أوبرا) باللغة العربية عن قضية الإنسان والأرض في «كينيا» بعنوان «أوبرا الأرض العالية ..!» وبعد فترة من الزمن وجدتني أحن إلى تقديم عمل جديد يسير في هذا الاتجاه ، وحين تحدثت في هذا طويلا مع الموسيقي (رفعت جرانه) استقر رأينا ، على أن نقدم قصيدا سميفونيا ، يدور حول حياة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وقد أشار عليّ بأنه يوجد عند الفنان التشيكلي (سيف وانلي) عمل «فريد» بعنوان «الملك دواود» (King David) من أعمال الموسيقى الفرنسي (أرثر هونجير) ومن شعر (رينيه موراكس) .. وحقاً لقد بهرني هذا العمل ، وقادني إلى العديد من الخطوات ، وإن كنت لم أستطع أن أجري الغناء على لسان النبي محمد عليه الصلاة والسلام – ثم يوضح الدكتور عبده بدوي بعد ذلك ، الحركات الخمس التي يتكون منها هذا القصيد السيمفوني وهي .. كما أوضحها .

الحركة الأولى : وتضم مقدمة تلخص الفرح الأكبر المنتظر للعالم ، كما تقدم الإحساس بتداعي الحضارات القديمة ، والانتظار لشيء جديد !

الحركة الثانية : تقدم الحياة في مكة ، والتصدع الذي أصابها من الداخل ومن الخارج ، وكيف أنه بميلاد النبي يكون النذير ، لا بترميم المجتمع المتداعي ، ولكن بخلقه من جديد .. بميلاد جديد ..

الحركة الثالثة : تدور حول تلك الحياة التي عاشها النبي في مكة ، وكيف تلقى رسالته ، ثم كيف يهاجر .. لا هربا ، ولكن لتكون رسالته في متناول الحياة !

أما الحركة الخامسة والأخيرة: فتصور فتح مكة – وبعبارة أخرى – فتح الحياة وكيف أصبح الإسلام رسالة جديدة متكاملة ، تأخذ طريقها بعمق في الرحلة المستمرة للزمان والمكان ، فبرحيل النبي .. لا يرحل الإسلام .. وإنما يأخذ طريقه إلى عدد من المعاقل ، لعل في مقدمتها جميعا : قلب الإنسان .. وعقل الإنسان !

نحو الدرامية

ويمكن أن نشير هنا إلى أن ارتباط الشعر «بالدراما» ، وجد منذ نادى (أرسطو) في كتابه «فن الشعر» بنظرية «المحاكاة» فالشعر عنده يقتصر فقط على

الشعر المسرحي ، والشعر الملحمي ، ومن الملاحظ لدى كثير من النقاد المعاصرين ، أن القصيدة العربية الحديثة تتجه اتجاهاً واضحاً نحو (الدرامية) سواء في مضمونها النفسي والشعوري والفكري ، أو في بنائها الفني .. ومن ثم يرى الدكتور / على عشرى زايد أن أبرز «التكنيكات» التي استعارتها القصيدة المعاصرة من المسرحية هي :

(أ) تعدد الأصوات والشخصيات .. حيث نرى الشاعر المعاصر .. أحيانا .. يميل إلى تجسيد بعض أبعاد رؤيته في صور أشخاص تتصارع وتتحاور ، ومن خلال تصارعها ينمو بناء القصيدة وتبرز دراميتها .

(ب) الحوار .. وهو أيضا «تكنيك» مسرحي آخر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتكنيك تعدد الشخصيات في القصيدة، حيث يفترض الحوار وجود أكثر من صوت ، أو أكثر من شخصية في القصيدة ، ومن ثم فهو في الغالب يستخدم «تكنيكا» إضافيا مع تعدد الأصوات أو الشخصيات ، ولكنه في بعض القصائد يستخدم باعتباره تكنيكاً أساسياً ، ويتضاءل دور تعدد الشخصيات إلى جواره ..

(جـ) الكورس – أو – الجوقة – وهم جماعة المنشدين أو المغنين في المسرحية الإغريقية القديمة ، وقد ظل «تأثير الجوقة في القصيدة المسرحية المعاصرة ، تأثيراً واضحاً ، مع تطوير لوظيفة الكورس «إذ أصبح الشاعر نفسه – أحيانا – يقوم بدور (الكورس) كما يبدو في إحدى قصائد «صلاح عبد الصبور» وهي قصيدة مذكرات الملك عجيب بن الخصيب» .

دور خطير

إن بعض الناس لا يدركون الدور الخطير الذي يمكن أن تؤديه الفنون المعاصرة في تطوير حياتنا المادية والروحية والفكرية ، وكم نحن في حاجة إلى إيقاظ وعي الناس بأهمية فن المسرح – مثلا – إذ لا تقتصر أهميته على إبداع تصور جديد للحياة فقط ، بل تتجاوز ذلك .. إلى تطوير حياة الناس ، وتهذيب مشاعرهم ، وتطهيرها من الانفعالات الضارة .. إن أهمية هذا الفن .. لتنمية الوعي الإنساني ، وتربية الذوق الجمالي ، تنبثق من رسالته الخطيرة التي يؤديها للمجتمع .. تنبثق منذ أقدم الأزمنة من نظرية «التطهير» عند أرسطو ..

لقد كان الفيلسوف يرى أن الجوهر الرئيسي للدراما يتمثل في نظرية (المحاكاة) أي :

محاكاة أفعال البشر ؛ لأن كلمة «دراما» عنده تعني «الفعل» والفعل هو روح الإنسان – أو – لنقل : روح الإرادة الإنسانية ، لأن الحكاية – أو «الخرافة» التي هي سدى المسرحية ولحمتها . (وهي كذلك في الملحمة) تمثل لنا الإنسان وهو يعمل ، والعمل هو : غاية الإرادة ، وبدونه

تصير الإرادة مجرد إمكانات لا وزن لها ، والعلم يدفع الإرادة إلى العمل ، والمحاكاة وهى موضوع الفنون جميعها، وسيلة من وسائل العلم !

وقد سما (أرسطو) بمفهوم «المحاكاة» فى الشعر والفن إلى درجة عظيمة من التقدير الاحترام ، فالنون عنده - كما يقول الدكتور / محمد غنيمى هلال - تحاكى الطبيعة فتساعد على فهمها ، والفن شأنه شأن النظم التهذيبية والتربوية ، يكمل ما لم تكمله الطبيعة ، ويتمم ما عجزت الطبيعة عن إتمامه لأنه فى محاكاته يكشف عما ينقصها ، والفن يجارى الطبيعة ، ويهدف إلى أغراض ، وله مناهج يقصد من ورائها إلى إكمال ما فى الطبيعة بوسائلها ، فالطبيعة فيها الحصان لخدمة الإنسان والفن يصنع السرير والبيت وغيرهما..

رسالة المسرح

لقد كان مفهوم (أرسطو) للمسرح من أوائل الإشارات الواعية التى دقت جرس الإنذار المبكر للخطورة التدميرية للمسرح التجارى المعاصر ، هذا ما يتجلى فى تساميه برسالة المسرح التربوية والتهذيبية ، فلكل من المأساة والملهاة عنده غاية أخلاقية أوضحها فى حديثه عن نظرية «التطهير» فى المسرح، فالملهاة حين تحاكى الفعل الهزلى الناقص تطهر نفسية المشاهدين بالسرور والضحك ، وفيها نوع من التطهير ، هو : مداواة الشيء بضده ، وكذلك الشأن فى المأساة التى تحقق لشاهديها هدفاً نفسيا ، حين تثير الخوف والرحمة ، وما شاكلهما من انفعالات ، فى نفوس المشاهدين ، فتؤدى إلى تطهيرها منها ، وفى هذا تكمن القيمة الأخلاقية للانفعالات التى تثيرها فنيا المسرحيات والشعر والفن بعامة ، وبهذا يكتسب المرء دربة وصلابة واعتدالا ، ويتزود بذلك للحياة الواقعية ، فيقوم عواطفه ، ويعتدل فيها، وينزع منها ما هو ضار بأمثال من رثينا لحالهم فى المأساة ، فالمأساة تطهير» للرحمة والخوف ، وما يتصل بهما مباشرة من الانفعالات .. وهذه هى رسالة المأساة من الناحية الأخلاقية ، وهذا هو رأى (أرسطو) فى الرسالة التربوية والتعليمية والأخلاقية لفن المسرح !

إن الفن هو الوسيلة المثلى لإيجاد التوازن بين الإنسان والحياة ، بين الإنسان والعالم الذى يعيش فيه ، وإن أخطر وظيفة للفن - كما يرى «إرنست فيشر» فى كتابه «ضرورة الفن» - أن الإنسان بالفن يسعى إلى الخروج من جزئية حياته الفردية إلى كلية يرجوها .. إلى كلية تقف فرديته بكل ضيقها .. حائلا دونها .. إنه يريد أن يتحدث عن شيء أكثر من مجرد «أنا» .. شيء خارجى .. ومع ذلك هو جوهرى بالنسبة إليه ،إنه يريد أن يحوى العالم المحيط به ، ويجعله ملك يده ، وهو - عن طريق العلم والتكنولوجيا - يمد هذه «الأنا» المتطلعة المتشوفة لاحتواء العالم ، إلى أبعد مجرات

السماء ، وإلى أعمق أسرار الذرة ، كما يربط - عن طريق الفن - هذه «الأنا» الضيقة .. بالكيان المشترك للناس .. وبذلك يجعل «فرديته» اجتماعية .. فالفن وسيلة للاندماج في الواقع .. وسيلة الفرد إلى الالتقاء بالعالم ، والتعبير عن رغبته في التمرس بالتجارب التي يمر بها .. !

ليس الفن - إذن - كما يتوهم بعض الناس - مجرد ترفيه رومانسى حالم ، وهروب من واقع الحياة ومع أننا في حاجة إلى الاستمتاع برؤيتنا ورؤية بعض الفنانين - أحياناً - لرومانسية الحياة وعذريتها . فإن وظيفة الفن دائماً : أن يحرك الإنسان في مجموعه ، أن يمكن «الأنا» من الاتحاد بحياة الآخرين ، ويضع في متناول يدها ، ما لم تكنه ، ويمكن أن تكونه .. !

ومن هذا المنطلق الذي يؤكد خطورة تأثير الفنون في الواقع الاجتماعي ، يرى (إرنست فيشر) أن أخطر وظيفة لفن المسرح هي : تدريب الناس على تغيير الواقع ، ويستشهد على صحة ذلك الرأي بقول رائد المسرح الملحمي (برتولدبريخت) .

«إن مسرحنا يجب أن ينمى لدى الناس متعة الفن والإدراك ، ويجب أن يدربهم على الاغتباط بتغيير الواقع .. لا يكفى أن يسمع متفرجونا .. كيف تحرر (بروميثيوس) .. بل يجب أيضا .. أن يتدربوا على تحريره .. والاغتباط بهذا التحرير .. يجب أن نعلمهم في مسرحنا .. كيف يشعرون بكل الفرحة والرضا اللذين يشعر بهما المكتشف والمخترع ، وبكل النصر الذي يستشعره الفائز على الطغيان .. !

ضد العربية !

إننا نستقبل الآن طلابا في جامعاتنا العربية ، ربما يكون بعضهم قد تأثر بحملات دعائية تخريبية ضد الثقافة العربية ، واللغة العربية .. بل .. وضد الانتماء العربي والهوية العربية .. إنهم يتعرضون كل يوم .. عبر الأقمار الصناعية ، و(الإنترنت) لحملات التغريب والتطبيع والعولمة ، تلك العوامل التي تعمل الآن على تحطيم مقومات الأمة العربية من داخلها ، مثلما تفعل الخلايا السرطانية بالجسم، وتتمثل هذه العوامل في بعض برامج أجهزة الإعلام ، وهجوم بعض مسرحياتها غير المبرر على اللغة العربية والثقافة العربية ، ودعوة بعض الكتاب إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، ودعوة فريق آخر إلى إحلال العامية محل الفصحى ، ثم تجيء هذه السيطرة المستعلية لمدارس اللغات الأجنبية ، وما نشأ عنها من نظرة دونية إلى المدارس الوطنية لدى بعض الطلاب وأولياء أمورهم ..!

كما تعرض هؤلاء الطلاب - أيضا - في مناهج تعليمهم إلى تلك الانفصالية الحادة بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية ، وما أدى إليه ذلك من فقر في

محصولهم اللغوى العربى من مصطلحات العلوم التجريبية ، وبخاصة حين أبعدت اللغة العربية عن أن تكون لغة التدريس لهذه العلوم فى الجامعة ..!

ترى .. أى ظلم رهيب وقع على اللغة العربية الفصحى .. وأبنائها المعاصرين .. حين يجهلون أنها اللغة التى وحدت فى ثقافتها بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية . على نحو ما نجد فى ثقافة (ابن سينا) و(الكندى) و(الفارابى) حيث جمعوا فى ثقافتهم بين الشعر والفلسفة من جانب .. والطب من جانب آخر ، بل .. وأضاف أحد هؤلاء الثلاثة .. إبداعاً آخر فى مجال الموسيقى .. ولكن .. وما أقسى ثنائى المسافات والأبعاد بين رؤية هؤلاء الأعلام للثقافة .. ورؤيتنا نحن المعاصرين .. ها نحن أولاء نستقبل الآن طلابا جامعيين تعرض كثير «منهم لهذه الحملات التغريبية أو - التخريبية - وثبت لدى الكثير منهم ما يقرب من الإيمان بعقم اللغة العربية، وواجبنا الآن حين نتعامل مع هؤلاء الطلاب محاولين تقديم اللغة العربية إليهم ، أن نحاول تقديمها بمنهج جديد ، ورؤية جديدة .. ولنتساءل أولا : كيف نخترق هذا الحصار الرهيب الذى حوصرت به اللغة العربية المعاصرة فى قلب الطالب العربى ووجدانه .. كيف نزيح عن قلب هذا الطالب الجامعى وفكره .. هذه التصورات الظالمة ؟ كيف نقنعه بأن اللغة العربية هى : اللغة الموسيقية الشاعرة .. لغة الحق والحب .. والجمال .. لغة الحضارة التى أخرجت أوروبا ذات يوم من عصور الظلام إلى عصر التنوير - أو كما قال المؤرخ الفرنسى (جوستاف لوبون) : «الحضارة العربية التى مدنت أوروبا» .

الأمل فى الفنون المعاصرة

لابد - إذن - من استخدام أساليب حضارية جديدة تراعى متغيرات العصر .. إن القدر المشترك بيننا وبين هؤلاء الطلاب هو الفنون المعاصرة .. إنهم يحبون .. إلى حد ما - فنون : المسرح والموسيقى والغناء والسينما .. فلنتسلل إليهم - فى بداية تعاملنا معهم - من هذا القدر المشترك بيننا وبينهم ، من خلال ما يحبون ويألفون ، يجب ألا نفاجئهم بالتغيير الشامل ، بالجوانب الصعبة القاسية فى اللغة العربية - حسب تصورهم الخاطىء - ولنقدم لهم فى بداية عهدهم بالجامعة فى العام الأول ، ، مقرراً لثقافة العربية ، لجميع طلاب الجامعة - سواء طلاب الكليات الإنسانية أو الكليات التجريبية - بحيث يجمع هذا المقرر بين مختارات من روائع الأدب العربى ، ومختارات من الإشراقات الحضارية العربية ، واللحظات المضيئة فى تاريخ الأمة العربية ، ومختارات مبسطة من تاريخ العلوم عند العرب ، ومختارات من مسرحيات وروايات الخيال العلمى ..!

نعم .. فلنقدم لهم - مثلا - مختارات من روائع الشعر العربى «المغناة» ، لشوقى وحافظ إبراهيم ، ونزار قبانى ، وبشارة الخورى (الأخطل الصغير) ، ومحمود حسن اسماعيل وعلى محمود طه

.. وغيرهم .. مع تحليل فنى مبسط للجوانب التعبيرية واللغوية والفنية لهذه القصائد - بعد تقديمها أو تقديم مقاطع منها بصوت أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب وفيروز وغيرهم .. بحيث يتعانق فى دراسة هذه القصائد : الشعر الجميل، واللحن الموسيقى، والصوت العذب، والتحليل الفنى السهل البسيط والتدريب على إنشاد الشعر، والتدريب على السلامة اللغوية، وصحة النطق والأداء .. !

ولنقدم لهؤلاء الطلاب أيضا : نماذج من الشعر المسرحى، لأعلام شعراء المسرح، بحيث تقدم هذه المسرحيات، أو مشاهد منها، مؤداة أداء مسرحيا، ثم يعقب ذلك أو يتخلله حوار حول خصائص الدراما» فى هذه المسرحيات، وتدريب الطلاب على تمثيل بعض مواقفها، وسلامة النطق والأداء، وضبط النص ضبطا جيداً، والتلخيص الكتابى لأحداثها ومواقفها، وتقديم نقد موجز لها .. !

كما يمكن أن نعتمد على مختارات من المسرح التاريخى .. فى تقديم رؤية واعية منصفة .. وجذابة ومشوقة .. لتاريخنا العربى .. قديما وحديثا .. على نحو ما نجد .. فى بعض مسرحيات على أحمد باكثير، وعبدالرحمن الشرقاوى .. وغيرهما !

أليس من العجيب .. حقا .. أن بحور الشعر العربى فى علم «العروض» وهو علم موسيقى الشعر لا يقدم لطلاب أقسام اللغة العربية فى جامعاتنا العربية .. من خلال ألحان موسيقية تساعد الطلاب على تقطيع أوزان هذه البحور، وعلى أن يحفظوا - لا شعوريا - تفاعيل كل بحر من هذه البحور ؟؟ وما أيسر دراسة هذه البحور عن طريق ألحان الموسيقى .. وما أصعبها عن الطريق الذى يتبع الآن فى تدريسها .. إنه من العجيب حقا .. أن تقدم موسيقى الشعر بشكل تجريدى معقد .. بينما .. لدينا وسيلة سهلة وميسورة .. تصل إلى الدارس بأيسر السبل، وتتفق مع طبيعة هذا العلم .. ألا .. وهى : الموسيقى !!

إننا حين نهمل فن الموسيقى فى تدريس ما يتصل بها من علوم اللغة العربية .. نهمل فنا ينفرد بتلك القوة السحرية غير المنظورة .. ونقول مرة أخرى .. مع ذلك الناقد (إرنست فيشر) :

«إن الفن هو أداة «سحرية» للسيطرة على دنيا واقعية .. لكنها .. لا تزال مجهولة .. وإن الفن لازم للإنسان حتى يفهم العالم ويغيره .. وهو لازم «أيضا بسبب هذا السحر الكامن فيه..»

وأخيراً .. آمل أن تثير هذه الدراسة .. حواراً جادا .. حول ما أثير فيها من قضايا .. ذلك لأنها قضايا وجودنا ومصيرنا .. وكينونتنا .. وحين يكون الأمر متعلقا بلغتنا الجميلة تكون القضية : نكون .. أولا .. نكون ..!!

وفى البدء .. دائما .. كان القلق .. وكان التساؤل .. وكان الحوار .. وكانت إنسانية الإنسان ! ■

في أصول السياسة الخارجية الأمريكية

الباب المفتوح

نظرية (حق) الولايات المتحدة في الاستيلاء على العالم

بقلم
مصطفى الحسيني

قد لا تعي ذاكراتنا من أسماء وزراء الخارجية الأمريكيين أكثر من هؤلاء الذين تولوا ذلك المنصب بعد الحرب العالمية الثانية. ولعل أبرزهم وأكثرهم حضورا في الذاكرة العامة اثنان: جون فوستر دالاس الذي احتل ذلك المركز على مدى ولايتي الرئيس دوايت أيزنهاور، بين ١٩٥٣ و ١٩٦٠ . وهنري كيسنجر الذي تولى وزارة الخارجية بفضل الحرب العربية - الإسرائيلية في ١٩٧٣ أو على حسابها، كما على حساب سلفه ويليام روجرز، حيث استطاع الإطاحة به مستخدما موقعه الذي اختاره له الرئيس ريتشارد نيكسون فور توليه الرئاسة في مطلع ١٩٦٩ . فكان كيسنجر أول من جمع بين أكبر منصبين في السياسة الخارجية والأمنية الأمريكية وآخرهم حتى الآن.

يبــــقى الأول - دالاس، فى الذاكـرة العـامـة عنوانا على الحرب الباردة التى تولى منصبه وهى ناشبة، بل بعد أن تجاوزت تلك الحرب واحدة من أشد أحداثها حدة وخطراً - الحصار الذى فرضه الاتحاد السوفيتى فى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ على العــاصـمــة الألمانية المقسمة - برلين.

أما كيسنجر، فيبقى فى الذاكرة العربية بسبب دوره فى تصفية ما كان قابلا للاستثمار لصالح العرب من نتائج حــرب ١٩٧٣. أمـا على النطاق الدولى الأوسع، فربما يبقى كيسنجر - المتأثر بالمستشار النمسوى فى منتصف القرن التاسع عشر كليمنس فون ميترنيخ - واحدا من أبرز من ينسب إليهم النصر الغربى فى الحرب الباردة.

فكمـا وضـع مـيـتـرنيخ نصب عينه «إعـادة النظام القـديم» فى أوروبا، أى طى بساط الثورة الفرنسية وما أحدثته فى القارة العتيدة من ذبذبات جـعـل كـيـسنجـر هدفـه طى بسـاط الثـورة الشيوعية التى انتصرت فى روسيا فى ١٩١٧ واتسعت تأثيراتها فى الجغرافيا إلى أنحاء العالم وفى الزمان ماتجاوز - فى زمن كيسنجر - النصف قرن

وعلى خلاف ميترنيخ الذى فشل فى تحقيق هدفه وفر من الميدان « لاجئا إلى بريطانيا قبل أن يعتزل السياسة بوسع كيسنجر أن يدعى قسطا من النجاح فى طى البساط الشيوعى .

***

رغم المكانين البــــارزين اللذين يشغلهما اسمى دالاس وكيسنجر فى تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية (وفى تاريخ العالم الراهن) فإن كلا منهما - فى مرحلته - كان يبنى على أساس قائم ومستقر ومتين لهذه السياسة تم أرسائه قـبل مـولد أى منهـمـا ولعل الذاكـرة المعاصرة فى شأن السياسة الخارجية الأمريكية لاتستحضر أسم جون هاى الذى أحتل المنصب نفسه لحوالى سنوات سبع حاسمة فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكيه امتدت من ١٨٩٨ حتى وفاته فى ١٩٠٥ .

فى تلك السنوات السـبع ترك هاى «بصمة تأسيس» واسعة وقوية فى تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية فى طور انتقال ذلك البلد من ما يمكن تسميته «مرحلة التـأسيس للقوة» إلى المرحلة «تأسـيس الإمـبـراطورية» التى مـازالت مـعنا حـتى اليوم وقد تبقى إلى أجل

يصعب اليوم التنبؤ به.

بل يمكن القول أنه مثلما كان جورج واشنطن وتوماس جيفرسون وألكسندر هاملتون وشركاؤهم هم «الآباء المؤسسون» للولايات المتحدة الأمريكية فإن تيودور روزفلت ووليام ماكنلي وجون هاي وشركاؤهم هم الآباء المؤسسون لإمبراطوريتها .

ومن مفارقات كتابة تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية أنه ينكر ذلك الطور الإمبراطوري الذي مازال جاريا منذ ما يزيد على قرن من الزمان، بل إنه يتعزز ويتوسع وضمن هذه المفارقة أن التاريخ الأمريكي يعتبر أن من فضائله أنه - على خلاف التاريخ الأوروبي - يخلو من الماضي الكولونيالي، ربما لأن ذلك التاريخ يثبت أن الإمبراطورية يمكن أن تقوم دون دنس الكلونيالية . ورغم أنه حتى بهذا المعنى فإن الولايات المتحدة مازالت «تملك» جزرا استولت عليها من إسبانيا، لم تضمها ولم تعترف لها بالاستقلال .

***

تصلح شخصية جون هاي وحياته مادة روائية منسوجة بأكثر من خيط مأساوي فقد عمل على قرب وثيق مع ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين انتهت حياة أثنين منهما بالاغتيال وتميز الثلاثة بجرعة استثنائية من بعض الخصال التي تلزم رجل السياسة، وفي حالتهم، كان أهمها الخفاء والمكر - ولعلهما متلازمان . ولم يكن شئ منهما ينقص هاي نفسه .

ولم تخل حياة هاي الخاصة من المأساة، إذ فقد ابنه الوحيد (بالإضافة إلى ابنة)، في حادث عارض - وهو في شرخ شبابه .

إلى ذلك كان جون هاي شاعرا وكاتبا روائيا ساخرا، وإن نشر هذا اللون الأخير تحت اسم مستعار .

بدأ حياته في السياسة في عمر مبكر في وظيفة كانت في حينه غير مرموقة وإن كانت بالغة الأهمية، كان أحد أثنين تشاركا وظيفة السكرتير الخاص للرئيس أبراهام لينكولن غني عن الذكر أن ولاية ذلك الرئيس شهدت أصعب أدوار تاريخ الولايات المتحدة - الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) التي اندلعت بعد أسابيع من توليه الرئاسة وانتهت قبل ٥ أيام من



مصرعه .

غنى عن الذكر أنه لابد قد تعلم كثيرا من عمله على تلك الدرجة من القرب، مع لينكولن .

فى ١٨٩٨، تولى الرجل نفسه منصب وزير الخارجية للرئيس ويليام ماكنلى، ليشهد مصرعه بعد ذلك بسنوات ثلاث . وكان من عادة ماكنلى أن يغلف أخطر قراراته ب «الرضا الإلهى»، إذ كان يبدى عدم موافقته عليها عندما تقترح عليه، ثم «يستخير الرب» الذى دائما فى تلك الحالات - يلهمه صواب مالم يكن موافقا عليه وكانت مهمة هاى الحساسة هى وضع الصيغ الدبلوماسية لتلك «الاختيارات الربانية».

بعد اغتيال ماكنلى، أكمل نائبه تيودور روزفلت ولايته الثانية التى كانت فى مطلعها وبقى هاى فى منصبه حتى وفاته، بعد ما يقرب من سنة من ولاية روزفلت الثانية .

ويجوز القول أن تيودور روزفلت واحد من دائرة صغيرة «حبلت» بفكرة الإمبراطورية الأمريكية، وفى وقت كان الكثيرين من أبناء جيله فى الحياة السياسية والفكرية الأمريكية ينفرون منها أشد النفور وينكرونها أقوى النكر لكنه أضاف إلى ذلك أنه دفع بالأحداث فى اتجاهها فى وقت كان نائبا لوزير البحرية فى عهد سلفه ماكنلى، وأنه استكمل «فتح» ما قامت عليه من أراض وبلدان عندما تولى الرئاسة

***

فى ١٨٩٨، وجه وزير الخارجية الأمريكية فى عهد الرئيس ويليم ماكنلى لسلو من المذكرات الدبلوماسية إلى حكومات كل من بريطانيا وألمانيا وروسيا واليابان وفرنسا - على هذا الترتيب باعتبارها القوى الخارجية المشتبكة فى صراع على الصين، التى كانت عندئذ ضعيفة وممزقة.

كان ظاهر تلك المذكرات أنها صيغة لفض الاشتباك بين تلك الدول، إذ كان جوهرها يتلخص فى نقطتين:

١- تعتبر الصين بلدا مفتوحا أمام المصالح الأجنبية على قدم المساواة بين الدول الساعية إلى تأسيس مصالح أو الحصول على امتيازات .

٢ - أن أى امتياز تحصل عليه واحدة من الدول ينسحب على أوضاع بقية الدول ذات المصالح فى الصين .

بالطبع كانت الأطماع التى تنطوى عليها تلك السياسة مغلفة بالحديث عن

الحرص على سلامة الصين ووحدة أراضيها ووحدتها الإدارية. عرف مضمون تلك المذكرات باسم «سياسة الباب المفتوح» واقترنت باسم مبتدعها جون هاى .

***

أتى ذلك فى وقت كانت الولايات المتحدة قد أكتسبت ثقة كبيرة فى نفسها بعد أن تمكنت من إخراج أسبانيا من كوبا والحلول محلها، ثم طاردت الأساطيل الأسبانية من السواحل الكوبية فى أقصى غرب المحيط الهادئ إلى أقصى شرقه فى الفيليبين، مستولية على امتداد هذا الطريق الطويل على الجزر التى كانت تملكها أسبانيا فى ذلك الوقت كان النمو الكبير فى القدرات الإنتاجية الأمريكية، يدفع القوى والمصالح الاقتصادية فيها إلى التطلع إلى الأسواق الخارجية والضغط فى سبيل ذلك على حكومتها لانتهاج سياسة خارجية توسعية كان «الاتحاد الوطنى للصناعيين» يقود ذلك الضغط وينذر بأن التراخى فى ذلك سيدفع بالأقتصاد الأمريكى إلى الركود ثم الانهيار .

من قبل أن يوجه هاى مذكراته الدبلوماسية المشار إليها، كان ذلك الأتحاد يدعو فى ١٨٩٧ إلى «أن نعد خططنا لتأمين حصتنا الكاملة من التجارة العظيمة التى تأتى من المرحلة الصناعية فى الشرق». أما بعد استيلاء الأسطول الأمريكى على الجزر التى تملكها أسبانيا فى المحيط الهادئ، من كوبا حتى الفيليبين، فقد أعاد اتحاد الصناعيين تفسير «حصتنا الكاملة» لتصبح «نصيب الأسد» وليعلن أن «العالم ملكنا تجاريا»، بل وأنه «سيكون بوسع الحيوية الأمريكية تحويل المحيط الهادئ إلى بحيرة أمريكية».

بالتوازى مع «الأتحاد الوطنى للصناعيين» كان هناك تيار قوى من ذوى الرؤية الإستراتيجية، يدفعون نحو آفاق أبعد .

كان هؤلاء منتشرون فى مختلف مناحى الحياة الفكرية والروحية الأمريكية : المسيحيون البروتستانتيون الذين تهفو أفئدتهم إلى تقديم الأقوام الجاهلية إلى المسيح. والمفكرون «المثاليون» الذين يعتبرون أن على أمريكا «واجب» نشر القيم المتفوقة للحرية المؤسسة على

السلام والديموقراطية والرخاء إلى بقية العالم.كما قال تيودور روزفلت من قبل أن ينتخب رئيسا لبلاده فى مطلع القرن العشرين ومفكرون يجمعون بين الرؤيوية والواقعية، كان أبعدهم تأثيرا اثنان، وإن كانا أقل أفراد سربهم شهرة :

أحدهما الكولونيل ألفرد ثاير ماهان، الذى وضع ما أصبح معروفا بأنه «نظرية القوة البحرية» خلاصة النظرية أن جغرافيا العالم وتوزيع الماء واليابسة عليها تجعل القوة البحرية عمادا لقوة الأمم وعظمتها وضمان استمرارها. وقد بلغ من بعد نظر ماهان أنه رأى منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر أن الإمبراطورية البريطانية دخلت دور الضعف والتراجع. ورأى فى الولايات المتحدة الأمريكية قوة مؤهلة لحلول محلها إن هى حزمت أمرها، وهو ما كان يحثها عليه.

أما الثانى فهو بروكس أدامز، حفيد الرئيس الأمريكى السادس، وكان صاحب نظريات فى تطور الحضارة عرضها فى كتابه «قانون التحضر والتحلل» خلاصتها أن مركز الحضارة والقوة فى العالم يتحرك دائما باتجاه الغرب وأنه فى تسعينات القرن التاسع عشر انتقل من لندن وباريس إلى نيويورك. وأن معنى هذا أن على الولايات المتحدة الأمريكية الإمساك باللحظة التاريخية بأن تتحرك غربا عبر المحيط الهادئ لتسيطر على آسيا وإلا فإن روسيا أو غيرها من الدول سيصبح المركز التالى للقوة والحضارة العالميتين .

كما كان من نظراته الثاقبة أنه لاشئ يوازن القارة الأمريكية التى تتميز بوضع جزيرة كبرى، سوى كتلة اليابسة الروسية الشاسعة وأن مستقبل الصراع الدولى سيدور بين هذين القطبين وركز أدامز على تفوق أمريكا الاقتصادى وانطلاقاً منه، دعا إلى سياسة إمبريالية جسورة تتضمن بين عناصرها احتواء روسيا وقد يلقى هذا النظر ضوءً مختلفا على الصراع الروسى - الأمريكى، حيث يرده إلى ذلك العنصر الجغرافى / السياسى ويوضح أولويته على بالعنصر الأيديولوجى الذى صبغه منذ انتصار الثورة البلشفية فى ١٩١٧ وقد يساعد على تفسير استمرار الصراع الروسى - الأمريكى، وإن يكن على نحو أقل حدة وصخبا بسبب ضعف روسيا النسبى بعد انهيار المنظومة الشيوعية .

وكانت لأدامز نظرات ثاقبة أخرى



تتناول أسس القوة، حيث يردها إلى توفر مصادر الطاقة، ما جعله من أشد أنصار الدخول إلى حلبة الصراع الدولي الدائر حول اقتسام ثروة الصين، وهو ما كان يلقى معارضة قوية في الأوساط السياسية الأمريكية وفي سجل مناقشاته أنه في جدل مع ابن عمه هنري أدامز الذي كان من معارضي الانغماس في الصين، قال أن على الولايات المتحدة أن تسيطر على موارد الصين من الفحم (المصدر الأم للطاقة الصناعية آنذاك) رغم أن أمريكا لم تكن بحاجة إليه، إنما لتحول دون استيلاء دولة أخرى عليه وقد نستطيع أن نرى استطراد ذلك النظر في السياسة الخارجية الأمريكية حتى الآن حيث تسعى إلى السيطرة على مصادر الطاقة كلها في العالم بأكمله .

يبدو تأثير أفكار كل من ماهان وأدامز واضحا على تفكير كل من جون هاي مبتدع مبدأ «الباب المفتوح»، إضافة إلى قرارات الرئيس ماكنلي الذي أطلق المبدأ في عهده وعلى أساسه انبنت سياساته وعلى تفكير الرئيس تيودور روزفلت الذي عمد أثناء رئاسته إلى تفسير «الباب المفتوح» على أنه توسيع لـ «مبدأ مونرو» الذي أغلق القارتين الأمريكيتين في وجه الأطماع الأوروبية – توسعية باتجاه الغرب، أي نحو آسيا كما في خلفية نقاط ويلسون الأربعة عشر، والتي اشتهر منها ما يتعلق بحق الأمم في تقرير مصيرها، بينما كانت في مجموعها وفي جوهرها دعوة إلى فتح أبواب الأمم أمام القيم الأمريكية التي تعبر عنها حرية التجارة والاستثمار .

أي أن سياسة «الباب المفتوح»، حتى عندما قدمها جون هاي، لم تكن سياسة تخص الصراع على الصين أو تقتصر عليه . إنما كانت ترمي إلى فتح أبواب العالم أمام المثل الأمريكية والنفوذ الأمريكي أو كما عبر عنها في ١٩١٥ بصراحة وزير خارجية الرئيس ويلسون ويليام برايان: «أن تكون الأبواب مفتوحة في كل البلدان الأضعف أمام غزو رأس المال الأمريكي والمشروعات الأمريكية».

فهل أتى جورج ويوش بأي جديد، سوى فجاجة الأسلوب؟!.. ■

أقـــوال معاصرة

● «أي جـاهل يسـتطيع أن يكتب رواية، ولكنه سـيحتـاج إلى عبقرية ليبيعها»!

الروائية جي جولارد

● «النمسا أمة إجرامية!!».

الفريدي يلينيك

الأديبة النمساوية الفائزة بجائزة نوبل للآداب

● «الفكر لا ينمو فى غياب الحرية».

الناقد الأدبى السودانى طارق الطيب

● «الأدب العربى الحديث متميز، والتاريخ أضاف إلى هذا التميز».

المستشرقة الألمانية كلاوديا اوت

● «أود فقط أن أعيش كما يحلو لي .. واكتب»!

الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان



فرانسواز ساجان

● «المثقف العربى لعب دورا سلبيا فى مسألة المفهوم الخاطىء للعلمانية، باعتباره المسئول الأول عن توضيح المفاهيم الوافدة على الثقافة العربية».

الباحث الأفريقى سعيد جالو

جامبيا - غرب أفريقيا



علاء الأسواني

● «النقد يضيف مساحات إلى العمل، يستفيد منها الكاتب والعمل نفسه»

الأديب علاء الأسوانى

● «أسباب انتشار الجريمة فى أمريكا تعود إلى ترك مقاعد الدراسة من قبل أبناء الأحياء الشعبية».

المفكر الأمريكى بنيامين باربير

● التنوير الوقائي هو الذى سيحمينا من الغزوات الوقائية التى قد يفرضونها علينا غدا، أو بعد غد».

الكاتب هاشم صالح

صراع الحضارات

بقلم
مصطفى نبيل

عند زيارتي الأخيرة للولايات المتحدة ، لفت نظري، هذا المزيج الغريب بين الخرافة والعقلانية، المنفعة والقداسة.

كتبت يومها قائلاً «هذا المجتمع الذي يخضع كل شيء للعقل وحساباته تنتشر فيه الخرافة والسحر والشعوذة، وصور اللامعقول المختلفة ، تجد كتب السحر جنباً إلي جنب مع دراسات علوم المستقبل. وتساءلت .. كيف يمكن أن تتوافق الخرافة مع المعرفة ؟!».

وتعيش اليوم السياسة الخارجية الأمريكية ثنائية مشابهة، الواقعية وادعاء المثالية، سياسة واقعية تقودها المنفعة ولكنها ذات غطاء من المثالية. وتجد فى تلك المسوح غطاء لمطامع السياسة، أليست تدافع عن الحرية وحقوق الإنسان، وتداخلت الحوافز الدينية بتلك الامبراطورية، وأخذت توظف الدافع الدينى من أجل تحقيق مصالح استراتيجية . وأصبحنا أمام خلطة متقنة بين المنفعة والقدسية ؟

ورغم أن أمريكا دولة علمانية إلا أن الدين يلعب دوراً كبيراً فى التأثير على الرأى العام، ويمكن بالتالى التأثير على القرار السياسى.

والمدهش حقاً .. ظاهرة انتشار الأصولية كتعبير عن رفض النظرة المادية التى يحكمها الدولار، ويأتى هذا الازدهار فى عالم يدور حول الكواكب ويغزو النجوم، ويمشى على القمر، فى حضارة جمعت بين العقلانية والعبقرية ممثلة فى ثورة العلم والتكنولوجيا، فضلاً عن ثورة الاتصالات والمعلومات، وتشهد اليوم تطوراً كبيراً فى الهندسة الوراثية والاستنساخ، وما يمثله ذلك من خطر عندما يحكمها التطرف الذى

أمراض الأصوليات؟!

يؤدى إلى إشعال الحرائق، فمن يطفىء الحرائق التى تشعلها؟!

وتأتى الخرافة من تأويل النصوص المقدسة، وتتحول الرؤى والأحلام إلى فعل سياسى، عندما يصبح تأويل الرؤيا صانعاً للقرار السياسى وضابطاً لإيقاع وزارتى الدفاع والخارجية، ومنهجاً لعمل السفراء فى الدول الأجنبية، حتى وإن كانت الغاية هى تحريك «القطيع» فى الاتجاه الذى يحقق المنفعة.

فهل يسيطر اليوم الانسان على المكان ويفلت الزمان من بين يديه؟ وتعود إلى الوراء، ويصبح تفسير الأحلام والرؤى محركا للمجتمعات، وتعود إلى تفسير الأحلام لابن سيرين، كوسيلة للتعرف على اتجاه الأحداث؟! أم نأخذ بما قاله فرويد، الذى يؤكد ضرورة تفسير الأحلام على نحو ماتضطرب به النفوس من مشاغل ومصاعب، وهو الذى قال إن الشعوب البدائية كانت تهول من أمر الأحلام ولذا ظهر فن التأويل، ومن قبله قال أرسطو المعلم الأول «إن الأحلام ليست رسائل إلهية، ولا تكشف شيئاً، وهى لون من النشاط النفسى للنائم حسب الظروف التى كان عليها نومه».

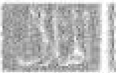
هرمجدون

ورغم ذلك دخل «القطيع» سراديب التأويل، الا من خلال الرموز والخيال، إنما من خلال ماتحمله النفس من ضغائن وأحقاد. يقول القس أندريه زكى.. «إن استدعاء هذه النبوءات لايخدم سوى الجماعة التى استدعتها، وليس هذا جديداً بل له سوابق كثيرة فى التاريخ».

وإلا .. فما هذا التفسير المريض الذى يتنبأ من خلال الرؤى بالقضاء على نصف البشرية بالصواريخ والقنابل الذرية؛ وهل هى نبوءة أم تحريض.؟ والقول .. بأن العالم سوف ينتهى فى معركة تدعى «هرمجدون» التى تؤدى إلى عودة المسيح عن المسيحيين، وظهور المسيح عند اليهود!

ولم أكن أعطى فى السابق هذا النوع من الأحاديث والكتابات أدنى اهتمام، واعتبره مجرد غطاء مزيف للمصالح والأطماع، وأنه لا يؤثر إلا على صغار العقول ، ولكن تبينت أنه تحول إلى ظاهرة خطيرة وأخذ فى الانتشار، وأنه يشكل بعداً مهماً فى تعبئة الرأى العام فى المجتمعات الغربية، وأنه المسكوت عنه فى تأييد ودعم الغرب للصهيونية وإسرائيل.

وكانت بداياته الأولى عندما قام الأمريكى سكوفيلد سنة ١٨٧٥ بالبحث عن دور النبوءة فى الكتاب المقدس، ومن خلال حديثه يصعب التمييز بين كلماته ونص



الكتاب المقدس، ويزعم أن التاريخ الإنسانى يمر عبر مراحل سبع، إحداها معركة «هر مجدون» التى ستنطلق فيها الأسلحة النووية، ويجرى فيها الدم أنهاراً.. وتصل النبوءة إلى المجيء الثانى للمسيح المنتظر، وهذا المجيء رهن بعودة اليهود إلى أرض الميعاد أى أرض فلسطين، وعندها سيعرف اليهود أن الله حق ويتحولون إلى الدين المسيحى»!.

وأخذ هذا التفسير فى الانتشار، وعندما سئل القس بيل جراهام سنة ١٩٧٠ أين تقع «هر مجدون»، أجاب .. «إنها تقع إلى الغرب من نهر الأردن بين الجليل والسامرة (الضفة الغربية) فى سهل بزرئيل، وهو الموقع الذى وقف فيه نابليون وأعلن .. «إن هذا المكان سيكون مسرحاً لأعظم معركة فى العالم» وتكمل رؤيا يوحنا ١٢:١٦ بالقول «وسيجف نهر الفرات، ويتم تحرير القدس ويعاد بناء الهيكل.....».

وتحولت مسألة تجميع اليهود وتحويلهم إلى المسيحية ، واجباً دينياً، يتعين على المؤمنين البروتستانت القيام به تحقيقاً لخلاصهم.

ويذكر جورجى كنعان فى كتابه .. «هناك أكثر من ثمانين ألف قس فى أمريكا يبشرون بلاهوت «هر مجدون» يومياً عبر أكثر من ستمائة محطة بث سمعية ومرئية..».

يستشهدون بسفر دانيال من «العهد القديم» الذى دون بعد ثمانية قرون بعد عصر موسى وحتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

جورج بوش (الجد)

وتتوالى الغرائب والعجائب.

وتصبح هذه الرؤى وتأويلها جزءاً من ثقافة عائلة جورج بوش، يأخذها الأبناء عن الآباء، وصدرت مؤخراً طبعة عربية من كتاب قديم ألفه جورج بوش (الجد) (١٧٩٦م - ١٨٩٥م) ، عنوانه «محمد مؤسس إمبراطورية المسلمين» ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، والذى نشر فى الرياض..

وفى هذا الكتاب تفسير للعديد من السياسات الأمريكية الراهنة، ويمتلىء بالافتراءات على الإسلام ونبيه، وليس هذا الكتاب، أول هذا النوع من الكتب ولا آخرها.

ولكن مايلفت الانتباه اعتماده أيضاً على نبوءة دانيال ويوحنا ..

ويفسر بوش رؤيا يوحنا، الذى رأى رؤية منامية، أى بين النوم واليقظة، أن المقصود بالثعابين والعقارب هم الأتراك والأكراد والفرس، وأن المقصود بالجراد، هم العرب الذين يصفهم بوش بلفظ «السرسرية» أى اللصوص وقطاع الطرق، وحجته أن الجراد هو الذى يأتى على الأخضر!!

وتتركز الرؤيا على تمركز قوى الخير فى أرض الفرات حتى تكون قادرة على سحق الجراد والثعابين والعقارب!!

وعندها سيتخلى المسلمون عن دينهم بلاقتال «وبدون يد تنكسر»، أى سيهلكون دون أن يهلكم أحد.!



فـــهل هذه الرؤيا هى التى دفـــعت جـحـافل الجـيش الأمـريكى إلى منطقـة الفـرات (العـراق)، أم أن الاتجـاه إلى العراق يفسر الرؤيا؟! وصاحب الرؤيا هو كاتب الإنجيل يوحنا، الذى ولد بعد ميلاد المسيح بثمانية وتسعين عاماً وتوفى عام ١١٧م.

القرن الصغير!

أما رؤيا دانيـال، فـتـفـسـر «القرن الصغير» بأنها المنطقة التى خرج منها الاسلام، وولد فيـها النبى ﷺ أما امتداد هذا القـرن نحـو الجنوب والشـرق وأرض المسرة (فلسطين)، فـقـد وقع ذلك بفـعل الإسلام الذى امتد فى ذات الخطوط التى حددتها رؤيا دانيـال، وأرض المسـرة بها المعبـد الذى هو «تاج الجـمـال وإكليل البـهـاء» لنبى إسـرائيل فـقـرة ١٦ فى الاصحاح رقم ٢٠.

وعندما انتصر السرسرية (اللصوص) على القدس سنة ٦٣٧م، كسروا كنائس الشرق وشتتوها، وحالوا دون العبادة اليومية للرب، وقوضت دعائم حرم الرب وسوى بالأرض، وأصبح الحرم المقدس يداس بالأقدام طوال عهود طويلة.

وهكذا بدأ «المحمديون» تقدمـهم فى الإمبراطورية البيزنطية واستمروا يلحقون بها التدمير، ولم يتوقفوا حتى أجهزوا تماماً على المسيحية الشرقية (!) ويجد بوش (الجد) فيما قاله المؤرخ البريطانى جيبون - صاحب كتاب قيام وانهيار الامبـراطورية الرومـانيـة - مـا يؤكـد تفسيره.. يقول .. «إنه عند الاستيلاء على القـدس تم إعداد أرض مـعـبـد سليمان لوضع أساس المسجـد بناء على أوامـر عمر».

وقـد أعطى الله القـوة ليس لتـدمـيـر الدين الحق فقط ولكن لاستبداله بعقيدة أخرى، ويضيف بوش.. «يبدو أن النبوءة تحققت، وراح دين الإسلام يطيح بالأديان الأخرى ورموزها، وحلت المساجد محل الكنائس، وحل الشيوخ محل القسس، وكان السيف هو أداة تحقيق ذلك»!

وعندمـا يصل الآثمـون إلى كـمـال إثمهم، كانت الكنيسة قد وصلت إلى ذروة الانحراف، وكان الإسلام هو العقاب. يقول جيبون.. «إن المسيحيين فى القرن السابع أصبحوا مثل الوثنيين، لقد غضب الرب عليهم فهوى بعصاه على رؤوسهم» ويضيف.. «إن النجاح الملحوظ الذى حققته القوة الإسلامية، يعود إلى رعاية الله، ذلك أن النتائج التى حققها الإسلام كانت فوق مستوى الإدراك البشرى.

وما حاق بالمسيحيين على يد محمد ﷺ شبيه بما جرى لليهود على يد نبوخذ نصر فكلا الأمرين بإرادة الله. «ويل لآشور، أنتم عصا سخطى على أمة منافقة أرسله» سفر أشعياء (٥:١٥)».

ويستشهد بكلمات الرحالة مادن.. «إن أكثر صفات المسلم نعتا للنظر هى جهله العميق وعجرفته، وكسله وخداعه، ذلك الخداع الذى يوجه سياسته ويحكم شراسته فى ميدان القتال»!

وستنتهى قوة الإسلام عندما يتصدع «الحجر»، وتتحول كل قوى الطغيان والضلال إلى هباء «بلا يد تنكسر» ويتحول المسلمون إلى المسيحية».

«ولا يفوتنا أن نلاحظ - والكلام مازال لبوش - أن أجزاء الامبراطورية الرومانية التى لم تمسسها جحافل العرب، هى تلك الأجزاء التى يظهر بها ما تبقى من كنيسة الرب الحقة، لقد كان على العرب أن ينالوا من الرجال الذين لا يحملون خاتم الرب على جباههم».

الصهيونية الأصولية

ما هو المناخ الذى ساهم فى نسج هذا التراث.. وأدى إلى قيام الصهيونية فى الولايات المتحدة قبل ظهورها بين اليهود؟.. يذكر المؤرخون حول نشأة أمريكا، أن كوكبة من البشر يصلون إلى «أرض الميعاد» ويكونون أمة جديدة هى «شعب الله المختار»، وهم عصارة الفضائل فى الحضارة التى تركوها خلفهم، يقيمون المدينة الفاضلة على قمة التل الذى يتطلع إليه العالم، فى أرض اللبن والعسل.

ولد المهاجر من جديد، يحتضن أفكاراً جديدة، وطريقة حياة جديدة، وحكومة جديدة يطيعها، ومكانة جديدة يحتلها، وشعر المهاجرون تماثلا بينهم وبين العبرانيين، فكل منهم فر من الاستعباد، وملك انجلترا جيمس الأول هو فرعون مصر الذى فر منه بنو إسرائيل، كلاهما بحث عن ملاذ، فانجلترا لديهم هى مصر، وأمريكا هى أرض كنعان..

وهذه الحجج والمصطلحات هى ذاتها التى استخدمها الهولنديون عند نزوحهم إلى جنوب أفريقيا. وتطابقت المصطلحات الواردة فى التاريخ العبرى مع المصطلحات المستخدمة فى أمريكا، وهى ذاتها التى يكثر ترديدها وسط التيار الأصولى.

إن الأصولية المسيحية جزء من التاريخ الدينى والاجتماعى والسياسى الغربى، صاحبت انتعاش تيارات اليمين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبلغت ذروتها فى القرن التاسع عشر، مما جعل انجلترا وبعدها الولايات المتحدة تتبنى الحركة الصهيونية. وهناك كتاب مهم بعنوان «الأصولية المسيحية فى نصف الكرة الغربى»، صدر فى يوليو ١٩٩٥ لمؤلفه اللبنانى جورجى كنعان، يرصد خلاله الكاتب ظاهرة تأثير حركة الإصلاح الدينى فى الفكر المسيحى، ويذهب إلى أن ذلك التأثير سابق على الدعوة الصهيونية ذاتها، وأن بذرتها الأولى جاءت مع مارتن لوثر الذى جعل الكتاب المقدس يضم بين دفتيه التوراة والإنجيل، وينقل عن مارتن لوثر قوله.. «إن ذلك الشعب (اليهودى) قد يكون مختاراً.. ولكنه عبء ثقيل علينا بل مصيبة كبيرة..!، لذلك ينبغى تجميعه وتحويله إلى أرض يهوذا، أرض الميعاد وذهابه بعيداً عن الأرض الألمانية...» ويضيف .. «إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون إليه فى رحلتهم، لا لشىء إلا لنتخلص منهم».

وبالفعل كان البروتستانت أكثر الطوائف المسيحية اهتماما بالعهد القديم، وتدعمت الصلة مع اليهود.

● ويتابع كتاب الأصولية المسيحية ما أطلق عليه «تهويد المسيحية»، مما جعل البعض يؤمنون بأن الله اختار الشعب، ووعده بالعودة إلى أرض الميعاد، وبقاء

الأرض المقدسة، ميراثا أبديا لبنى إسرائيل.

ويرصد جورجي كنعان البداية التي اختلطت فيها المصالح مع البحث عن غطاء مقدس..

● فحين وصل نابليون بحملته إلى مصر سنة ١٧٩٨، أصدر بيانا حث فيه يهود آسيا وأفريقيا على الالتفاف حول رايته من أجل إعادة إنشاء «مملكة القدس القديمة» وجاء في هذا البيان.. «أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذى لم تستطع قوى القهر والطغيان أن تسلبهم إسمهم ووجودهم القومي، وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد!

انهضوا أيها المبعدون.. فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل.. يا ورثة فلسطين الشرعية، انهضوا، إن هذه هي اللحظة المناسبة للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم.. » (فرانز كويلز نابليون واليهود ١٩٧٥).

ويهدف نابليون إلى إقامة حائط مادى وبشرى بين مصر والشام، واعتراض طريق الإنجليز إلى الهند، بعد هزيمته المروعة عند أسوار عكا.

● وتقول فى هذا السياق الكاتبة الصهيونية بربارا توخمان.. «من الطبيعي أن تتكيف المفاهيم الدينية مع الواقع، .. فمثلا مفهوم عودة اليهودة إلى أرضهم كتحقيق لنبوءات الكتاب المقدس، تتحول إلى برنامج استعمارى يتلخص فى عودة اليهود الاستيطانية «إلى أرض فلسطين كمقدمة لفتح بوابات الشرق الذهبية أمام المطامع الاستعمارية».

وستتخذ الإمبريالية الغربية من مشاريع توطين اليهود ذريعة للتدخل فى مستقبل هذا الجزء من العالم.

«لنسلك أعط هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير «نهر الفرات» سفر التكوين ١٥:١٨»، ونسلك هنا تعنى نسل إبراهيم، كأن العرب ليسوا من نسل إبراهيم!.

وينقل جورجى كنعان تداعيات ربط التوراة بالإنجيل..

● يؤكد وايزمان أول رئيس لإسرائيل (١٨٦٤ - ١٩٥٢)، «إن من حقك أن تسأل: ما هى أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود، وعملهم على تحقيق أمانى اليهود فى فلسطين؟» ويجيب قائلا.. «إن الإنجليز لا سيما أصحاب المدرسة القديمة، هم أشد الناس تأثرا بالتوراة، وتدين الانجليز، هو الذى ساعدنا على تحقيق آمالنا، لأن الإنجليزى يؤمن بما جاء فى التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين»!

● ويقول أول رئيس وزراء فى إسرائيل بن جوريون (١٨٨٦-١٩٧٣).. «إن كتاب المسيحية المقدس الذى يرجع تاريخه إلى ثلاث آلاف وخمسمائة سنة هو صك اليهود المقدس للعودة إلى فلسطين».

● ويقول الكاتب الإسرائيلى يعقوب تالمون.. «إن حق اليهود فى فلسطين يفتقر إلى أى أساس، إذا تم استبعاد مسألة الإيمان بالوعد الإلهي، وفكرة «الشعب المختار» و«أرض الميعاد»، مما يؤدى إلى إظهار اليهود بمظهر الغزاة الإمبرياليين».

إذن نحن أمام ظاهرة دينية محركة

وموجهة ومؤثرة في الفعل السياسي!.
وتتعدى فكرة أن الكتب المقدسة لاتلزم سوى أصحابها، ولايتحمل عبء ماجاء فيها سوى مقتنيها، ويقع وزر العمل بها على مفسريها.

الرسالة المقدسة!

يتردد أن الشعب الأمريكي أكثر تدينا من الأوروبي، وهناك فصل قائم بين الدولة والكنيسة، ولكن مع قدوم القرن العشرين أصبحت السياسة توظف كدين!، ففي حين تمسكت أمريكا، بأن محاولة تغيير العالم، محاولة غير أخلاقية، ترى أمريكا القرن العشرين - القرن الأمريكي - أن الإحجام عن تغيير العالم غير أخلاقي، وأصبحت تتمسك بالرسالة المقدسة الأنجلوساكسونية أي البروتستانتية الإنجليكانية (كما يذكر والتر مكدوجال في كتاب أرض الميعاد والدول الصهيونية).

أما هذا التقاطع القائم بين الهوية الأمريكية والدين، فالإيمان بالرب وبالوطن إيمان لاينفصل، وهو الذي يميز ويحدد الهوية الأمريكية.

وفي الماضي لم تستطع البروتستانتية أن تتوافق مع العلم، فرفض مارتن لوثر دوران الأرض حول الشمس، لأن التوراة ذكرت أن يشوع أمر الشمس لا الأرض أن تتوقف!.

وكان البروتستانت في القرن التاسع عشر يشككون في إيمان كاثوليكية المهاجرين «الخانعة»، وهكذا.. تتكرر الظاهرة، فالتعصب القائم على التفسيرات الخاطئة، لاسقف لتداعياته، ولا نهاية لانحرافه، يبدأ التعصب ضد الآخر، وينتهي ضد المذهب الآخر في ذات الدين، وهكذا..

ومن الوقائع ذات الدلالة..

● قيام جماعات بروتستانتية بإنشاء ثلاث مستوطنات في فلسطين بين عامي ١٨٥٢ و١٨٨١ أي قبل وعد بلفور..

● عقد الكثير من المؤتمرات في القدس من أجل دعم إسرائيل، لأولئك الذين يؤمنون بصدق التوراة.

● قامت أخيرا مشكلة بين البروتستانت وإسرائيل، عندما عرض على الكنيست الإسرائيلي مشروع قانون مكافحة التبشير الذي اعتبر أن مجرد حمل كتاب «العهد الجديد» أي الإنجيل نشاطا تبشيريا جزاؤه عقوبة السجن.

● قامت الكنيسة المشيخية الأمريكية أخيرا باتخاذ قرار بمقاطعة الشركات الأمريكية التي تتعامل مع إسرائيل، احتجاجا على ما يجري في فلسطين من عمليات القتل والتدمير خاصة الشركات التي تتعدى مساهمتها مليون دولار في الدولة العبرية، مما سيكون له أكبر الأثر على الشركات التي تتعامل مع إسرائيل.

وكثيرا ما اختلطت الأساطير بالحقائق، ففي ولاية أهايو وحدها ١٢٠ وسيطا روحيا، ويصل عدد الذين يؤمنون بالقوة الخفية للشيطان إلى مليوني فرد، وجاء في مجلة تايم أن ٤٠ ألفا يمارسون السحر، وهناك مائة جامعة تقدم منهجا تعليميا عن القوى الخفية، كما يوجد مائة ديانة خاصة بالسحر وعبادة الشيطان.

ومازلنا نذكر الانتحار الجماعي لـ٩١٣ إنسانا من اتباع جيم جونز، ومعهم ٢٦٠ طفلا، ونذكر أيضا اضرام النار عام ١٩٩٣ في واكو بعد انتحار ٧٤ من أعضاء جماعة دافيد فورش، (التنوع



الدينى فى أمريكا، الدكتور القس إكرام لمعى).

والمعروف أن المسيحية هى الديانة الأولى فى الولايات المتحدة، وأن المذهب الرئيسى هو البروتستانتية، وللطائفة المعمدانية تأثيرها الكبير على القرار السياسى الأمريكى.

وقد راج فى الصحافة الأمريكية ذاتها مصطلح «الأصولية» للدلالة على تيار يعتقد ملكيته للحقيقة، وفى عصمة «الكتاب المقدس» والأخذ بالمعنى الحرفى للنصوص، ومن أخطر التطورات ما موقع فى الثمانينات بالتحالف بين اليمين المسيحى واليمين الجديد فى الحزب الجمهورى، وبذلك وجد اليمين المسيحى طريقه إلى داخل الحزب الجمهورى متحالفا مع اليمين السياسى، والذى تشكلت منه المجموعة التى نظرت وقادت الحرب ضد العراق!!.

أولئك الذين يعتبرون الرسالة الدينية مقدسة، وقدروا محتوما، وأصبحت تعبيرات مثل شرف الواجب، والمهمة المقدسة، والحتمية الضرورية، مفردات لطالب القوة الأمريكية»، كما يقول جورج كينان راسم السياسة الخارجية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

ويشكل المسيحيون الإنجيليون الذين يصل تعدادهم إلى أربعين مليونا قاعدة مؤيدة لإسرائيل، ويخضعون الشعب الأمريكى لعملية غسيل دماغ مستمرة عبر «الميديا» وعبر منابر الكنائس..

وظهرت القدرة الجبارة لآلة الإعلام..

ورغم فصل الدولة عن الكنيسة، تظل الكنائس مصدرا مهما للتأثير على روادها، وإلقاء نظرة على حركة النشر، يظهر مدى تنامى «الأصوليين» الجدد، وتبين أرقام مبيعات الناشرين أن الكتب والمطبوعات الدينية تمثل ثلثى إجمالى الكتب المنشورة فى الولايات المتحدة، ويوجد فى أمريكا مايزيد عن ألف دار نشر متخصصة فى الكتب المسيحية.

وتبث فى أمريكا اليوم أكثر من ١٣٠٠ محطة إذاعية، وعشرات من محطات البث التليفزيونى تمثل صوت المحافظين الجدد فى الإدارة الحالية، ويكاد الخطاب الدينى يسيطر على الخطاب العام .

وبدلا من الخطاب الذى يدعو إلى قبول الآخر والتسامح مع العقائد الأخرى ..

هذا فى الوقت الذى تطالب الصحف الأمريكية تغيير الخطاب الدينى فى الشرق، ويتجاهلون فكرة تغيير الخطاب الدينى لديهم!.

وبعد ..

تساعد هذه الظواهر التى استعرضنا بعضها، على الأقل فى خلق مناخ سلبى، يساعد صاحب القرار السياسى، على شن الحرب، وقتل الأبرياء فالعرب والمسلمون فى العقل الأمريكى الذى صنعه الخطاب الدينى، خطرون وليسوا أهلا للثقة، وهمجيون بدائيون، مما يؤدى إلى فشل إنسان القرن الحادى والعشرين فى التضامن ومواجهة الأخطار المحدقة بالبشرية، مثل الفقر وتلوث البيئة وثقب الأوزون وغيرها .. وعجزه عن حل المشكلات السياسية بالحوار واستخدام العقل. ■



الأخلاق .. بين الدين والعلم

أو بين الماوردى وستيوارت ميل

بقلم
د. جلال أمين

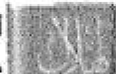
عندما بدأت الأخبار تتواتر بأن جهودا تُبذل من أجل تغيير مناهج الدين فى المدارس المصرية، على نحو يسمح بإحلال مقرر فى «الأخلاق» محل مقرر فى «الدين»، ويسمح أيضا بأن يشترك الطلبة المسلمون والأقباط فى حضور نفس الدروس، وقراءة نفس الكتب، وأداء نفس الامتحانات، لا أخفى على القارىء أننى توجست شرا.

وقفزت إلى ذهنى قصة قديمة كنت قد قرأت عنها منذ زمن، وظلت تعود إلى ذهنى المرة بعد المرة، وتشيع فى نفسى شعورا بعدم الارتياح، إذ كان التفكير فيها يدفعنى دفعا إلى الاختلاف مع رأى بعض معارفى وأصدقائى ممن أحترم عقلياتهم ومواقفهم الفكرية فى كثير من الأمور غير هذا الأمر، بل وشعرت بأنها تدفعنى إلى اتخاذ موقف يختلف عن موقف أبى، الأستاذ أحمد أمين، الذى أجلّه كما يجلّه كثيرون أشد الإجلال، على الأقل يختلف عن موقفه فى مطلع شبابه، وإن كنت أميل إلى الاعتقاد بأنه فى الجزء الأخير من حياته عدل عنه، وربما مال قلبه إلى موقف أقرب بكثير إلى الموقف الذى يميل قلبى أنا إليه، وسوف أقوم الآن بشرحه للقارىء.

* * *

ليس من الصعب أن نتفق جميعا على أن ثمة علاقة وثيقة جدا بين الحسّ الأخلاقى وبين الشعور بالولاء، بمعنى أن وجود الشعور بالولاء شرط جوهرى من شروط وجود الحسّ الأخلاقى، بل لعله الشرط الضرورى والكافى، بحيث لا يتصور وجود الالتزام الأخلاقى بدون وجود نوع ما من الولاء، ولا يتصور وجود الولاء دون وجود التزام أخلاقى.

الذى أقصده بالولاء مزيج من الشعور بالانتماء لمجموعة من البشر، أسرة أو قبيلة أو طائفة أو حزب أو أمة.. إلخ،



والشعور بالمسئولية عن مصير هذه المجموعة من البشر أو رفاهيتها. إذا اجتمع هذان الشعوران: الانتماء والمسئولية، جاز القول بوجود شعور بالولاء، ومتى وجد هذا الشعور بالولاء لجماعة ما، وجد ما يمكن أن نسميه بالحسّ الأخلاقي، الذي يتمثل في الشعور بالالتزام بالقيام بأعمال معينة والامتناع عن أعمال أخرى، لا خوفا من قانون ولا طمعا في مكافأة، بل كمجرد استجابة لشعور «بالواجب».

إذا اتفقنا على هذا فإنه لا يغدو من الصعب أن نتبين كيف يوجد الحسّ الأخلاقي (أو هذا الشعور بالواجب) وكيف ينمو ويقوى، أو يضعف ويزول. إذ يصبح سؤالنا عن كيفية ظهور الحسّ الأخلاقي ونموه أو ضعفه، سؤالا عن كيفية ظهور الشعور بالولاء ونموه أو ضعفه. ومن السهل أن نتبين أن هذا الشعور بالولاء لابد أنه يبدأ في الظهور لدى المرء منذ نعومة أظفاره إذ أن الشعور بالانتساب والمسئولية ينمو بتكرار التعرّض لتجارب مشتركة مع آخرين، سواء كانت تجارب الحياة اليومية أو التعرض لنفس مصادر الفرح أو الألم، أو لنفس الأخطاء أو التوقعات. يبدأ هذا الشعور بالانتساب والمسئولية في البيت الواحد بين أفراد الأسرة الواحدة، ثم في المدرسة بين الزملاء حيث تتكون الصداقات الأولى، وفي نفس الوقت ينمو الشعور بالولاء للوطن، حيث يشترك أفراد الدولة الواحدة في تجارب ومشاعر تتعلق بما يحدث للوطن، والأخطار التي تهدده، أو الآمال التي يطمحون إلى تحقيقها له وأثناء ذلك كله، ومنذ بداية الوعي بما تمارسه الأسرة من شعائر وعادات تتعلق بدين بعينه، ينمو أيضا لدى الطفل شعور بالانتساب والمسئولية إزاء هذا الدين وأهله والمنتمين إليه، أي شعور بالولاء له ولهم، أو الحس الأخلاقي نحوهم.

نحن نعرف أيضا أن الحس الأخلاقي قد يوجد إزاء أفراد من غير أفراد الأسرة التي ينتسب إليها الشخص، ومن غير زملائه في المدرسة، ومن المؤمنين بدين غير دينه، ويحملون جنسية غير جنسيته لمجرد اشتراكهم معه في رابطة «الإنسانية». فهنا أيضا شعور بالانتساب والمسئولية، ومن ثم نوع من الولاء، وإن كان علينا أن نعترف بأن الشعور بالولاء في هذه الحالات يكون عادة أضعف من الشعور بالولاء نحو أفراد الأسرة التي ينتمي إليها المرء، أو نحو أصدقائه أو الذين يشاركونه دينه أو وطنه.

بل إننا نعرف أيضا أن «حسًا أخلاقيا» قد ينشأ عند الكثير من نحو حيوان أو طائر، ينمو أيضا مع نمو الشعور بالانتساب والمسئولية مع طول المعاشرة، خاصة إذا أبدى هذا الحيوان أو الطائر ما قد يدل على تمييزه لصاحبه عن غيره، ومن ثم ما يدل على شعوره بدوره بهذا الانتساب والولاء.

بهذا نستطيع أن نفهم، فيما أظن، لماذا عبّر بعض المفكرين عن شكوك قوية في صدق من يقول إنهم يشعرون بالمسئولية الأخلاقية، ليس نحو أسرتهم الصغيرة، ولا نحو أمتهم أو دين بعينه، بل نحو الإنسانية بصفة عامة. بل لقد قرأت لبعض المفكرين أن مثل هذا الزعم لا ينمّ

إلا عن نوع من النصب والاحتيال. ويقصدون بهذا أن من النادر جدا أن يشعر شخص ما شعورا قويا بالولاء أو الانتساب أو المسئولية نحو مجموعة غير محددة من الناس.

هذا الاتهام ينطوي في نظري على بعض الحقيقة، ولكنه غير صحيح على إطلاقه، فنحن نعرف مثلا أن أعداداً كبيرة من الناس، خاصة من شعوب الدول الثرية، يتبرعون لضحايا الكوارث الطبيعية أو الحروب التي تصيب شعوبا أخرى غير شعوبهم، وقد يتطوعون للعمل على إنقاذ أو مساعدة هذه الشعوب سيئة الحظ، دون انتظار لمكافأة أو خوف من عقاب، مدفوعين فقط بما يربطهم بهذه الشعوب من رابطة الإنسانية. بل نعرف أيضا أن حركات جديدة ظهرت للدفاع عن «حقوق» بعض الحيوانات أو الطيور المهددة بالانقراض، ولاشك أن أفراد هذه الحركات، أو حسني النية منهم، مدفوعون «بحس أخلاقي» لا يختلف كثيرا عن الحس الأخلاقي الذي يدفع آخرين إلى التعاطف مع غيرهم من الآدميين. هذا صحيح بلا شك. ولكن من المؤكد أيضا أن هذه الأمثلة على الحس الأخلاقي، أكثر ندرة من أمثلة التعاطف مع أفراد ينتمون إلى نفس «الجماعة» التي ينتمي المرء إليها، سواء كانت هذه الجماعة أسرة أو جماعة وطنية أو دينية، ومن ثم فشبهة «الاحتيال» في تلك الحالات التي يضعف فيها الشعور بالانتساب والولاء، أكثر احتمالا.

***

إذا كان كل هذا صحيحا فكيف تكون تقوية الحس الأخلاقي، إذا أردنا أن نقوّيه، وكيف يكون نشر «مكارم الأخلاق» إذا ابتغينا نشرها؟

النتيجة المنطقية لما سبق ذكره هي أن تحقيق ذلك يكون بتقوية الشعور بالولاء أو الانتساب. إن أي شيء يقوى أواصر الأسرة يقوّي أيضا الحس الأخلاقي عند أفرادها، بعضهم إزاء بعض، وقل مثل ذلك عن رابطتي القومية والدين. وكذلك عن الرابطة الإنسانية بوجه عام، فكل شيء يقوى من شعورك بالانتساب إلى نفس ما ينتسب إليه شخص أو جماعة من غير وطنك أو ملّتك أو عقيدتك الدينية، يقوّي من حسّك الأخلاقي ومسئوليتك الأخلاقية نحو هذا الشخص «الغريب عنك»، أو نحو الجماعة المختلفة عن جماعتك، فيما عدا الاشتراك معك في الرابطة الإنسانية.

ولحسن الحظ أن تقوية الشعور بالانتساب إلى دائرة ضيقة نسبيا من الناس، وبالولاء لها ، لا ينطوي بالضرورة على إضعاف الشعور بالولاء إزاء مجموعات أكبر من الناس، فتقوية الحس الأخلاقي عندي إزاء رابطة أفراد أسرتي لا ينطوي بالضرورة على إضعاف حسّي الأخلاقي نحو أمتي أو أهل ديني أو نحو الإنسانية بوجه عام. فالنفس الانسانية قادرة، فيما يظهر، على الجمع بين هذه المشاعر كلها دون أن يطغى واحد منها على غيرها. بل كثيراما تؤدي تقوية الحس الأخلاقي نحو مجموعة معينة من الناس إلى تقويته نحو مجموعات أخرى أضيق أو أوسع . ولكن يجب أن نعترف مع هذا بأن الأمر هنا يتوقف إلى حد كبير على الطريقة التي تجري بها تقوية الحس

الأخلاقي. فهناك بالطبع من طرق تقوية الالتزام الأخلاقي نحو جماعة من الناس ما يتضمن إثارة العداوة أو البغضاء نحو غيرها، كإثارة الحمية الوطنية مثلا عن طريق هجاء الأعداء والتنديد بهم، أو إثارة الحماسة لنصرة المنتسبين لنفس عقيدتك الدينية بشجب أو التقليل من شأن عقائد أخرى. ومن الصعب في هذه الحالات الكلام عن تقوية «الحس الأخلاقي» دون تحفظ، إذ قد يؤدى هذا المسلك إلى أن تضيّع بيدك اليسرى ما اكتسبته بيدك اليمنى.

كل هذا، فيما يبدو لي، صحيح ولاشك فيه، ولكن من المهم أيضا أن نلاحظ خطر الوقوع في الخطأ بالسير إلى أبعد من اللازم في الاتجاه المضاد. وهنا أصل إلى مربط الفرس في هذا المقال. فهناك من يؤكدون على خطر تقوية الولاء لجماعة بعينها (كأمة أو جماعة دينية)، لما تحمله من احتمال إضعاف الشعور بالالتزام الأخلاقي نحو جماعات مغايرة (أمم أخرى أو أصحاب عقائد مختلفة). نعم هذا الخطر موجود ولكن الأمر يتوقف على الطريقة التي يتم بها تقوية الولاء، كما أنه لابد أن يكون من المؤسف للغاية، أن يؤدى الخوف من هذا الخطر إلى إضعاف الولاء الأصلي للمرء، أو حتى إلى إضعاف الحسّ الأخلاقي برمّته.

* * *

لنأت الآن إلى القصة الأساسية التي أثارت لديّ هذه القضية برمّتها. ففي كتاب «حياتي» الذي يروى سيرة أحمد أمين الذاتية، (مكتبة النهضة المصرية، القاهر (١٩٥٠) - الطبعة السادسة ١٩٧٨) يحكي أبي قصة عن تدريس مادة الأخلاق في مدرسة القضاء الشرعي في أوائل القرن العشرين، أي منذ نحو قرن كامل بالضبط، وهي المدرسة التي تخرج منها أبي بعد دراسته في الأزهر، ثم عمل بها مدرسا قبل أن ينتقل إلى التدريس بالجامعة المصرية. كان ناظر هذه المدرسة (عاطف بركات) رجلا فاضلا واسع المعرفة، ترك في أبي أثرا عميقا، حتى أن أبي يصفه في هذا الكتاب بأنه كان «أباه الروحي الثاني».

كان عاطف بركات مفتونا بالثقافة الغربية، وخاصة الإنجليزية، ولا يحمل احتراما كبيرا للثقافة التقليدية دون أن يسمح لنفسه دائماً بالإفصاح عن ذلك. فلما رأى علم الأخلاق يدرسه الشيخ حسن منصور من كتاب «أدب الدنيا والدين» لأبي الحسن الماوردي، وهو كتاب يرجع إلى القرن الخامس الهجري والعاشر الميلادي، لم يعجبه هذا وتولىّ تدريس هذه المادة بنفسه من الكتب الانجليزية، ككتاب ماكينزي في علم الأخلاق، وكتاب جون ستيوارت ميل الشهير في مذهب المنفعة. ثم عيّن أبي مدرسا مساعداً له فأصبح يدعوه إلى منزله لتحضير دروس علم الأخلاق معاً، وكان يحضّرها من الكتب الانجليزية دون غيرها. ويصف أبي هذا في كتاب (حياتي) بقوله:

«كان يقرأ بالانجليزية ويمليني بالعربية، وأحيانا ينفرد هو بالترجمة ثم يسمعني ما ترجم، وكنا نتناقش في الدروس قبل إلقائها.. وقد أثّر فيّ أثرا كبيرا تحكيم العقل في الدين، فقد كنت

إلى هذا العهد أحكّم العواطف لا العقل، ولا أسمح لنفسي بالجدل العقلي في مثل هذه الموضوعات» .

لفت نظري بشدة هذا الوصف من جانب أبي «للانقلاب الفكري» الذي حدث له نتيجة الانتقال من «الماوردي» إلى «ستيوارت ميل». إذ كان لابد أن يذكرني بوصف مماثل كنت قرأته في كتاب ستيوارت ميل نفسه عن سيرة حياته، لما حدث له من انقلاب فكري عندما سمع لأول مرة وقرأ أفكار جيريمي بنثام (Jeremy Bentham)، المفكر الإنجليزي الشهير وصاحب مذهب المنفعة في الأخلاق. كان لابد أن ألاحظ أن السبب وراء هذا «الانقلاب الفكري» واحد في الحالين، وأن السبب في عمق التأثير الذي يصاحب هذا الانقلاب واحد أيضا. ففي الحالين بدا لي أن الانقلاب هو من «الميتافيزيقا» إلى «العلم»، أو من «النقل» إلى العقل»، أو من الاحتكام إلى «القول المأثور» إلى الاحتكام لمقتضيات الملاحظة والتجربة والمنطق وحدها. وهناك فيما يبدو شيء جذاب في إعلان التمرد على الميتافيزيقا لصالح التجربة والملاحظة، ليس فقط في العلوم المتعلقة بالطبيعة المادية بل وأيضا في العلوم المتعلقة بالطبيعة البشرية وبالمجتمع، بل وبمبادىء الأخلاق نفسها. كان بنثام يبحث عن مبدأ يحكم المجتمع شبيه بمبدأ نيوتن الذي يحكم الطبيعة المادية، وقد وجده (أو ظن أنه وجده) في مبدأ المنفعة أي أن معيار الحكم على أي سلوك أو سياسة أو قاعدة قانونية هو درجة نجاحها في تحقيق «أكبر قدر من المنفعة» بعد طرح ما يمكن أن يترتب عليها من أضرار، أو بتعبير بنثام وأتباعه «أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس». وبمجرد أن عثر بنثام على هذا المبدأ ظن أنه عثر على الكنز الذي يبحث عنه فطار به فرحاً. وقد طار والد ستيوارت ميل به فرحا وهو جيمس ميل (James Mill) عندما سمعه من بنثام، ثم طار به الابن جون ستيوارت ميل (J.S.Mill) فرحا بدوره، بمجرد أن سمع به من أبيه، وها هو أبي يطير بدوره فرحا بمجرد أن سمع به من أستاذه عاطف بركات عندما قرأ على يديه كتاب ستيوارت ميل.

إني أستطيع أن أتصور بوضوح درجة حماسة أبي لمبدأ المنفعة عندما سمع به لأول مرة، وهو لم يتجاوز العشرين بكثير، وكيف كان شعوره وهو يقارن بينه وبين كتاب الماوردي في «أدب الدنيا والدين»، إذ وجد في الأول علماً، ووجد الثاني كتابا في الأدب. كما أني أعرف من سيرة ميل الذاتية درجة حماسته عندما سمع بمبدأ المنفعة قبل أن يبلغ العشرين.. وأنا أعرف أيضا أن أبي ألّف بعد هذا ببضع سنوات كتابا اسمه «الأخلاق» قرر لفترة ما للتدريس في المدارس الثانوية والكتاب يتضمن شرحا لمبدأ بنثام، مع تعاطف واضح نحوه، ولكنه لا يذكر اسم الماوردي قط.

عندما قرأت هذه القصة في كتاب حياتي عن عاطف بركات وتدريس الأخلاق، كان في ذهني بعض الشذرات القليلة مما كنت أسمع من أبي في صباي عن عاطف بركات وستيوارت ميل وكتاب الأخلاق الذي ألفه أبي، وكان لديَّ قدر لا

بأس به من المعرفة بمبدأ المنفعة كما شرحه بنثام وميل، ولكنى لم أكن قد قرأت قط أى شىء للماوردى أو عن الماوردى، فلم تكن هذه طبيعة تعليمى بعكس تعليم أبى، الذى درس الماوردى والتراث أولا ثم تعرض لتأثير الثقافة الانجليزية، أما أنا فقد تعرضت منذ نعومة أظفارى، ومن مختلف الاتجاهات، لتأثير الثقافة الغربية، حتى من خلال ما تعلمناه بالعربية، مع إهمال كبير لمصادر الثقافة العربية، باستثناء ما كنا نقرأه فى بعض موضوعات المطالعة العربية والدين.

أثارت هذه القصة رغبة قوية لدىّ فى أن أقرأ كتاب الماوردى، «أدب الدنيا والدين»، فوجدته لحسن الحظ متوفرا فى عدة طبعات، وإذا بى أشغف بالكتاب أشد الشغف، وأجد فى قراءته متعة لم أجدها فى كتب شهيرة أخرى، عربية أو انجليزية، بل وتركت مقاطع كثيرة منه أثرا كبيراً فى نفسى. وعلى سبيل المثال سوف أقتطف للقارىء هنا قصة قصيرة وردت فيه، اخترتها دون جهد كبير فى الاختيار، فالكتاب ملىء بأمثالها. وردت القصة فى باب بعنوان «فى فضل العقل وذمّ الهوى»، وتقول:

«حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بصبيان يلعبون، وفيهم عبدالله بن الزبير، فهربوا منه إلا عبد الله، فقال له عمر رضى الله عنه: مالك؟ لم لا تهرب مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم أكن على ريبة فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقا فأوسّع لك» (ص ٢٤).

والقصص ذات المغزى الأخلاقى النبيل والأقوال المأثورة التى تترك أثرا قويا فى النفس والمقتطفات من الأشعار الجميلة، لا نهاية لها فى هذا الكتاب. فإذا كان الأمر كذلك، فما الذى يا ترى لم يعجب عاطف بركات فيه؟

الأرجح أنه رأى فيه شيئين لم يعجباه. رآه أولا كتاب أدب فى موضوع الأخلاق، وهو يريد للأخلاق أن تدرّس «كعلم»، فوجد فى طريقة بنثام وستيوارت ميل فى تناول الموضوع مبتغاه. والثانى أنه وجده كتابا يستلهم الثقافة الإسلامية والعربية ويشيع فيه احترام هذه الثقافة والولاء لها، وهو يريد لمقرر فى الأخلاق، أو فى علم الأخلاق، أن يتجاوز الولاء لثقافة بعينها، ويصلح بالتالى للدارسين من أى ملة ودين، وأيا كانت الثقافة التى ينتسبون إليها، بالضبط مثلما يظن حسنو النية من هؤلاء الذين يريدون الآن أن يستبدلوا بتدريس الدين فى المدارس المصرية والعربية مقررا عاما فى الأخلاق، يصلح لكل الأديان وكل الثقافات.

وأنا من جانبى أشعر بالتحفظ إزاء كلا السببين. أما عن تحويل الكلام عن الأخلاق من كلام فى الأدب والدين إلى كلام فى العلم، فأتحفظ عليه أولا فيما يتعلق بكتاب الماوردى بالذات، إذ أن فيه بالإضافة إلى ما فيه من أدب رفيع، الكثير جدا من التحليل، والنظرات الاجتماعية السديدة والنتائج المستخلصة من قراءات واسعة فى التاريخ ومن تأملات ثاقبة البصر فى أحوال المجتمعات والنفس البشرية. أفلا يندرج كل هذا تحت وصف «العلم»؟.

ولكن بصرف النظر عن تصنيف كتاب الماوردى بالذات، وهل هو كتاب أدب أم علم، هل يمكن حقا تحويل موضوع

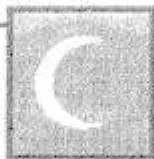
«الأخلاق» إلى علم بحت، دون أن يفقد أهم وأجمل مافيه؟ ما الذى جنيناه بالضبط من كل ما فعله بنثام وتلميذه ستيوارت ميل فى شرح مبدأ المنفعة، والقول بأن معيار الأخلاق هو تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وأن المعيار فى النهاية يقوم على المقارنة بين مجموع اللذة الناتجة عن أى عمل ومجموع الألم، مع التمييز بين قوة اللذة وضعفها، طولها وقصرها.. إلخ، ولكن دون تمييز بين لذة وأخرى أو ألم وآخر من حيث تحقيقهما لأى هدف آخر أو اتفاقهما مع أى مبدأ أخلاقى آخر! نعم، فى هذا التحليل بلا شك شحذ للذهن وتمرين عقلى مفيد، ولكن ألا يؤدى تطبيق هذا المبدأ إلى التسوية بين عملين غير متساويين من زوايا أخرى غير المنفعة؟ فإذا عرّفنا المنفعة بأنها تحقيق ما نعتبره جائزا أو ما نرضى عنه، ألا يكون المبدأ فى الحقيقة مجرد ترديد لبديهية من البديهيات؟ بالإضافة إلى هذا، أو لم يستخدم هذا المبدأ، ولا يزال، لتبرير أى عمل «غير أخلاقى» باسم «تعظيم المنفعة»؟ بل ألا يمكن أن تكون ثمة علاقة وثيقة بين انتشار هذا المبدأ وما وصل إليه اليوم المجتمع الاستهلاكى، وإعلاء شأن ما يسمى بالتنمية الاقتصادية على كل ما عداها من اعتبارات إنسانية وأخلاقية؟

أما الظن بأن «تحرير» الأخلاق من الولاء لدين معين أو ثقافة بعينها ينطوى على خطوة «أرقى» أو أكثر سمواً، فأعتقد أنه يتضمن خطأ كبيرا. فإذا صح ماقلته فى بداية هذا المقال عن ارتباط الأخلاق بالولاء والشعور بالانتماء، فإن الأرجح فى نظرى أن تحرير الأخلاق من الولاء والانتساب لدين بعينه أو ثقافة بعينها لابد أن يضعف الحس الأخلاقى بدلا من أن يقويه.

قديما قيل إن «المفتاح المزيّف يفتح جميع الأبواب»، وهذا القول يمكن أن ينطبق على موضوعنا الآن بمعنى أن الزعم بأن شخصا ما ينتمى إلى الإنسانية جمعاء دون أن يشعر بالولاء لأى ثقافة أو دين أو ملة بعينها قد لا يعنى أكثر من أنه شخص لايحمل أى انتماء أو ولاء من أى نوع. علاج التعصب ليس بإضعاف الولاء بل بإشاعة روح التعقل والحكمة فى حمل هذا الولاء وفى التعبير عنه، بحيث لايتحول الولاء إلى كراهية للغير. وتقوية الحس الأخلاقى تكون بترسيخ ولاء المرء لدينه وثقافته دون افتئات على حق أصحاب أى دين آخر أو ثقافة أخرى، فى التعبير عن ولائهم لدينهم أو ثقافتهم. وليس هذا بالطلب المستحيل أو العسير، وقد عرفنا فى مصر مثل هذا المناخ من الولاء للعقيدة والثقافة والوطن المصحوب بالتعقل والتسامح، قبل أن تنتشر الموجة الحالية من التعصب البعيد عن التسامح.

كان لدى جيل بنثام فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، كما استمر لدى جيل ستيوارت ميل، ثقة كبيرة فى أن يؤدى انتشار حركة التنوير والتعليم والثقة الكاملة بالعقل والعلم إلى تحسن فى الأخلاق، ولكن الذى حدث فيما يبدو لى ولكثيرين غيرى، هو عكس ذلك. انتشر التنوير، بالمعنى الذى كانوا يريدونه، وانتشر التعليم وزاد الإيمان بالعقل والعلم، وشاع الأخذ بمبدأ بنثام فى المنفعة، ولكننا ننظر حولنا فنرى تدهورا فى الأخلاق بدلا من أن نرى ارتقاء بها. والسبب الأساسى، فى رأيى، هو ما طرأ من ضعف على الشعور بالولاء والانتماء، الولاء للأسرة وللوطن وللدين جميعا. ■





كتاب الهلال

التجانس اليهودى والشخصية اليهودية

بقلم: د. عبد الوهاب المسيرى

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٥ نوفمبر ٢٠٠٤



مواعيد الذهاب إلى آخر الزمان

تأليف
عبده جبير

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ نوفمبر ٢٠٠٤

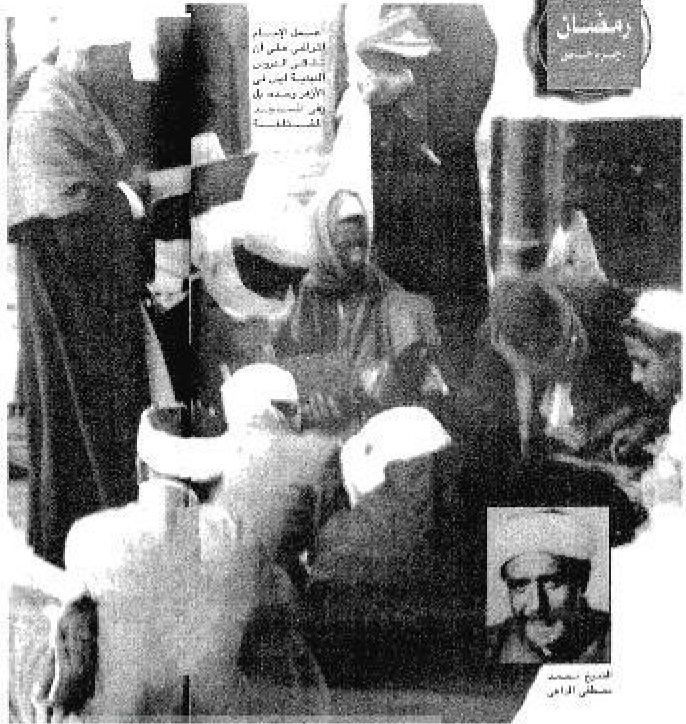
الدروس الدينية في رمضان

الإمام المراغي

فارس الحلبة

بقلم

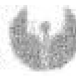
د. محمد رجب البيومي



الشيخ محمد مصطفى المراغى

كانت المساجد منذ نشأة الإسلام مدارس عامة تلقى فيها المواعظ ويتلى فيها القرآن بقراءاته المتعددة تعليما وتثقيفا، وقد نشأت المذاهب الفقهية فى حلقات هذه المساجد، فسجلت مجدا علميا رائعا، قبل أن تنشأ المدارس لتقوم بدورها فى دراسة العلوم على نحو منضبط منتظم، وفى مصر كانت مساجد عمرو بن العاص وابن طولون والأزهر وغيرها مدارس ذات جداول وأساتذة ومواد، كما عرف عصر المماليك بتولية كبار العلماء خطبة الجمعة بمرسوم سلطانى، وكان كبار الفقهاء يعدون الخطبة الأسبوعية والدرس الدينى موضع اعتزاز ومباهاة، حتى جاء العصر العثمانى فانطفأ بريق العلم، ورفعت الدولة يدها عن التعليم، فكانت المساجد لا تجد إلا المتطوعين ممن يحملون أمانة العلم لتؤدى للعامة والخاصة ابتغاء وجه الله.





حتى تبدل الحال في هذا العصر، فازدهرت الدروس الدينية بالمساجد ازدهارا حميدا، ورأينا كبار العلماء يتطوعون بإلقاء الدروس في شهر رمضان، ولهم جمهورهم الغفير في كل مسجد، وأذكر أن الشيخ محمد بخيت المطيعي المفتي الأسبق كان يلقي درس العصر في رمضان بالمسجد الحسيني، وكان الشيخ يوسف الدجوي يلقي درس العشاء بالجامع الأزهر، وكان الشيخ السمالوطي يلقي درسه قبيل الفجر في المسجد الزينبي وثلاثتهم أعضاء في جماعة كبار العلماء بالأزهر، وفي الناس من يتابع هذه الدروس الثلاثة يوميا فيتنقل من مسجد إلى مسجد حتى يحصل على أكثر ما يستطيع من العلم المتاح، لذلك كان رمضان لدى الناس شهر العلم كما هو شهر القرآن وكانت فرحة الصائمين بدروسه تعادل فرحتهم بصومه واعتقاد المثوبة في الاستماع مما يحفزهم على المواصلة دون انقطاع!

الملك في درس المراغي

ولكن هذه الدروس الدينية قد بلغت أوجها الرفيع في عهد الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي، حيث كانت دروسه مطمح الأنظار، إذ يحضرها جلالة الملك فاروق، ورئيس الوزراء، وكبار الصفوة من العلماء والمثقفين، ومن العامة أيضا، وكنت ترى السجاد مفروشا خارج المسجد إلى مدى فسيح، وقد ازدحم الناس في محيطه حين ضاق بهم المسجد وصوت الميكروفون يدوي بأداء الإمام، والإذاعات العربية في عواصمها المختلفة تنقل الحديث الديني كما تنقله إذاعة مصر، والجرائد اليومية تنشر ملخصا وافيا لما قيل، أما المجلات الدينية فتنشر النص بأكمله! وقد جمع كثير من هذه الدروس في كتاب قيم أصدرته دار الهلال وتعددت طبعاته مرات!

وكيلا يظن بي القارئ إسرافا فيما أدونه فإنني أنقل إليه ما كتبه الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي حول هذه الدروس بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦هـ ص٦٤٢ حيث قال من مقال مستفيض ننقل منه ببعض التصرف!

«إن السنة الكريمة التي سنها حضرة صاحب الجلالة الملك الفاروق في الاستماع إلى الدروس الدينية تعتبر بحق حادثا جللا في العالم الإسلامي الحديث، وسيكون من آثارها المباشرة يقظة العاطفة الإسلامية في نفوس الأمم الآخذة بهذا الدين والرغبة في استجلاء روحه الصحيحة وأصوله العالية القويمة، ولما كان هذا لا يمكن أن يكون إلا من طريق التناسب العقلي، والترابط العلمي بين الناس فسيثمر هذا الجهد انقلابا في وسائل الفهم وطريقة تجلية الأغراض

الإسلامية.

وقد قام الإمام المراغى بما اعتبر تجديدا باهرا فى حسن الأداء وجمال البيان، وجلال الموضوع إذ جال فى نواح شتى مما يهم النفوس من أسرار الدين، وأصوله العلمية وفيما له صلة بالعالم الانسانى ومراميه الأدبية، فبين فضيلته الأسباب الداعية إلى ما كان من انفصام وحدة المسلمين، ووقوع الشقاق بينهم، فعلى المسلمين أن يدركوا ما تعنيه هذه النزعة الشريفة، وإن هذه الدعوة إن لم تثمر ثمرتها اليوم فستحقق غدا».

ولعل القراء على ذكر من مقال لى سبق أن نشرته بمجلة الهلال، أرد فيه على كاتب فاضل ظن أن أحاديث المراغى كانت للدعاية الحزبية، فأثبت له نقيض ما قال، وقلت إن من حسن الحظ فى بيان الحقيقة، أن الأحاديث دونت بكاملها فى مجلة الأزهر فى حين إلقائها، وليس بها ما يشم منه رائحة التحزب، كما ليس من المعقول أن يحيل إمام المسلمين كتاب السماء، ومسجد الرحمن أداة لتوجيه حزبى، وهو من هو، والتفسير منتشر ذائع! وهو الوثيقة التى تمحق الاتهام.

ولعل مما ينطق بالحجة البيضاء فى هذا الصدد أن الإمام فى درسه الذى ألقاه فى رمضان سنة ١٣٦٣ مفسرا قول الله عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم..» سورة النساء: ٥٩، قد قال «إن معنى أولى الأمر أنهم أهل البيئة من العلماء والفقهاء والأمراء الذين يمثلون الأمة الإسلامية تمثيلا صحيحا بعيدا عن الهوى والغرض، وعن سائر المؤثرات، ويمثلون طوائفها المختلفة، فهم أصحاب الكفاية فى الرأى والتشريع، وأهل الدراية بمصالح الأمة وما يوافقها! هذا ما قاله الإمام على مسمع من جلالة الملك وحاشيته ووزرائه! فلم يقل إن ولى الأمر هو الملك أو رئيس الوزراء! بل جعل الطاعة لأعلام الأمة الذين يمثلون كيانها، وهم بعد أصحاب الكفاية فى الرأى والتشريع.

درس فى كل مسجد

لم يشأ الإمام المراغى أن تكون الدروس الدينية فى مسجد الأزهر وحده، بل رأى أن تلقى هذه الدروس فى المساجد المختلفة بالقاهرة والاسكندرية، ليكون لساكنى الأحياء الشهيرة حظهم من الاحتفاء، حين يجدون جلالة الملك ووجهاء الدولة يقصدون مسجدهم الذى يعتزون بإقامة الشعائر به، وكان صدى هذا التوجيه الشعبى النبيل، أن أهالى كل مسجد، قد أقاموا مظاهر الاحتفال الباهرة ليلة الدرس الدينى، فأضاءوا الثريات الكهربائية حتى أصبح الليل نهارا يأتلق بالشمس، ونصبوا الأبسطة والسجاجيد فى نواحى المسجد الأربع، وخيوط الكهرباء تمتد من الأعلى فتلقى

أثرا من الارتياح النفسي لدى كل ناظر، وقد حرص أكثر الحاضرين على أن يصحبوا أولادهم فى أكمل زينة، ولا يوجد حرس ملكى يمنع من أراد الدخول إذا كان الفراغ متسعا، أما وقد ضاق المسجد الرحيب عن قاصديه، ففى الخارج متسع لمن يجلس مطمئنا فوق البسط والسجاجيد، وأستشهد الآن بالدروس الدينية التى ألقيت فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ حيث بدئ الدروس الأول مساء الخميس فى الثامن من الشهر الكريم بمسجد البوصيرى بمدينة الاسكندرية، وتلاه الدرس الثانى بمدينة القاهرة فى مساء يوم الجمعة السادس عشر من رمضان بالمسجد الحسينى الشريف وجاء الدرس الثالث مساء يوم الخميس الثانى والعشرين من رمضان بمسجد أبى العلاء بالقاهرة ثم الدرس الرابع فى مساء الخميس التاسع والعشرين من رمضان بمسجد السلطان الحنفى بالقاهرة، وهذا نمط من عام واحد تتابعت بعده الأعوام، لتكرر نماذج هذه الدروس فى مساجد شتى، ولو تتبعناها بالتفصيل التشعب الحديث!

تنوع موضوعات الدرس

وإذا كان الإمام المراغي حريصا على الوحدة الاسلامية بين شتى الدول الاسلامية، فقد دعا إلى نبذ مسائل الخلاف المذهبي دعوة صريحة، وأعلن أن الأصول العامة هى مجال الاتفاق، وأما الفروع فأمرها سهل إذ لكل وجهة هو موليها، ولكن قوما ممن تضيق عقولهم عن استيعاب هذه البدهيات، قد جنحوا للخلاف وفسحت لهم الصحف الهابطة مجال اللجاج دون أن يعرف القائمون على تحريرها مناط الخلاف، وموضع الشقاق، لذلك تأثر طلاب الأزهر! إذ ضاقت صدورهم بما يروج من الأفك، واتجهت وفود من كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية إلى مقر المشيخة تعلن تأييدها المطلق لما يدعو إليه الشيخ الأكبر، وتستنكر أن يقوم مسلم بهذا العبث المريض، وقد نشرت مجلة الأزهر إذ ذاك كلمات كبار الأساتذة التى ألقيت فى لقاء الأستاذ الإمام معلنة خالص الابتهاج بالبيان المشرق الذى استفاد منه كل سامع، وكان الرجل الكبير متواضعا كل التواضع حين قال ردا على ما سمع:

«أما الدروس الدينية فإنى أعتقد أن إخلاصكم لى ومحبتكم إياى أكبرت من شأنها عندكم بأكثر مما تستحق، فهذه الدروس كانت شرحا لبعض الآيات الكريمة قصدت به أن يكون فى المستوى الذى يفهمه الجمهور، لا فى المستوى الذى يستفيد منه العلماء، فإذا قابله الجمهور بالحمد والاطمئنان والرغبة فى الزيادة فإنى أصدق ذلك، وأحمد الله عليه، وعلى أنهم أفادوا منه، أما إذا سمعت منكم أن

هذه الدروس كانت محل إفادة العلماء فهو ما أحمله على الظن وعلى محمل إخلاصكم ومحبتكم لى، وأحمد الله على ذلك أيضا»

وقال الإمام فى وفد آخر:

«أعتقد أننا فى بداية الطريق، وأقول لكم إن القيام بنشر دين الله لا يكفى فيه المجهود الفردى، وإنما يحتاج إلى تضافر جهود المسلمين، وأولى الرأى جميعا، وإنه ليسرنى منكم هذا الشعور الذى جعلنى أعتقد أن مهمة نشر الدين تحل المحل اللائق بها وأنها آخذة فى الازدياد».

لغة سهلة فصيحة

أما أثر هذه الدروس فيما جد بعدها من كتب التفسير الحديث، فواضح ملحوظ لأن قراءة ما كتبه الأساتذة محمد عبدالله دراز وسيد قطب ومحمد متولى الشعراوى والجبالى توحى بتأثير الإمام فى خطراته الاجتماعية، ونظراته الأسلوبية، وإذا كان هؤلاء قد توسعوا فى مناحاهم الفكرى فذلك لا يغفل أثر البذرة فى نماء الشجرة، ومما يعلى قدر هذه الدروس أنها كانت بلسان عربى مبين لم تلوثه العامية التى يصطنعها بعض الواعظين فى التفسير بدعوى أنها تساعد على جلاء المعنى وتقريبه للقراء، والشيخ الشعراوى قد ألف هذا النمط فى درسه الإذاعى، ولكنه فيما طبع من أجزاء التفسير قد ارتقى بالأسلوب إلى مستوى عال رحمه الله.

أما إلقاء الإمام فكان كالجدول المنساب رقراقا هادئا، شفافا عما يحمل من اجتهاد وتحليل، وسأنقل للقارئ نموذجين من تفسيره، يوضح أولهما منحاه البيانى فى تقريب الصورة الأدبية إلى الأذهان دون اصطناع لمصطلحات البلاغة التى تضر هنا أكثر مما تنفع لقد وقف الأستاذ عند قوله تعالى: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم فتراه مصفرا ثم يكون حطاما، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» الحديد: ٢٠، فقال ببعض التصرف:

«فى الدنيا لعب ولهو يتفكه الناس بهما، وأكثر ما يكون الأول للصبيان، وأكثر ما يكون الثانى -وهو الزينة- للنساء ومن فى حكمهن من الرجال، وفيها تفاخر بالأنساب والمقدرة وغيرهما من الصفات، وفيها مباراة فى الإكثار من المال والولد والجيوش وكل هذه عرضة للتبدل والزوال، ويغلب أن تقع الحسرات بعد اللهو والملذات، وقد ضرب الله مثلا للدنيا فى سرعة تقضيها، وقلة جدواها وفى بهجتها عند إقبالها، وعبوسها عند إدبارها، فقال إنها كالنبات يستوى على سوقه ويخضر، ويعجب به الزراع، ثم يجف ويصفر ويصير هشيما وحطاما،

متكسرا، ففي الطور الأول جمال وسحر وفتنة للناظرين، وبهجة للنفس والعين، وأنس لا يقدر قدره، لكن هذا الطور لا يدوم بل ينقضي بسرعة ويحل الطور الثاني، وفيه يزول الجمال والسحر والفتنة ثم لا تبقى من الأعواد البديعة غير حطام لا تستريح له النفس، وتزروه الرياح، وقد قال سعيد بن جبير، الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، أما إذا دعتك إلى رضوان الله فنعم المتاع».. ثم انتقل الأستاذ الإمام إلى ما بعد هذا النص، ليبرز ترابطه العضوي بما قبله فأتى بالجديد الطريف، ولا أستطيع أن أنقل هنا ما قال!

أما النموذج الثاني فأنقل بعضه للدلالة الاجتماعية التي يحرص على إيضاحها، فقد شرح قول الله عز وجل: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» الفرقان: ٦٧، فتوسع توسعا شافيا في الرد على من يحرمون الطيبات، واستشهد بنصوص صريحة من محكم الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ثم قال: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقد قال ابن عباس «كل ما شئت وأشرب ما شئت والبس ما شئت إذا أخطاك اثنان، السرف والمخيلة، والمخيلة هي الخيلاء والكبر، فقد نهى الله عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة، وطلب عدم تجاوز الحد إلى الإسراف، وفي الرجوع إلى الهدى المحمدي تبصرة ونور وضياء، عن ابن عباس قال: رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل، وقد لبس الإزار والرداء والجبة ولبس فروة مكفوفة بالسندس، وكان له جبة طيلسانية خسروانية لينة، وكان بردان أخضران وكساء أحمر، وكان يحب في الطعام الحلوى، وقد أكل الضأن والدجاج والجزور، وأكل الشواء والرطب والتمر، وشرب اللبن خالصا ومشوبا وشرب نقيع التمر، وكان لا يشرب إلا النظيف العذب، ويحب البارد الحلو.

هذا هدى القرآن والهدى المحمدي في تناول الطيبات فمن تركها زهدا وعبادة فلا حق له، ومن بخل على نفسه وعلى غيره وعشيرته فلا حق له، ومن اتبع القوام فهو من عباد الرحمن».

قبس من روح الإمام

وبعض الذين تحدثوا عن هذه الدروس التوجيهية الهادفة، ذكروا أنها قبس من روح الإمام محمد عبده حيث كانت دروسه الرائعة في تفسير كتاب الله بالرواق العباسي تجديدا صريحا في تناول كتاب الله والبحث عن هديه الإصلاحي، وتحديد الرسالة الاسلامية في إنقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، مع البعد عن المماحكات اللفظية، والاعتراضات الجدلية التي تغشي ضياء الوحي القرآني لدى كثير من المفسرين فتحجبه عن العقول، وهذا حق لا شك فيه، والإمام المراغي تلميذ الإمام محمد عبده

وحامل راية الإصلاح الدينى من بعده، إذ بلغ بالأزهر مبلغا ارتفع به إلى مستوى الجامعات المعاصرة حين دعا إلى إنشاء الكليات، وتطوير مناهج التعليم الدينى، وهو رحمه الله يعترف بأثر الإمام محمد عبده وقوة تأثير دروسه الدينية، وأفكاره التوجيهية، يقول الإمام المراغى عن أستاذه الكبير ودروسه القرآنية الهادية «كانت دروس الشيخ كالغيث أما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه، وأما البلد الخبيث فقد خرج نباته نكدا، وكانت دروسه مثلا عاليا فى طريقة الإلقاء والتفهيم، وفى العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى أعماق القلوب، وكانت دائرة معارف يجد فيها اللغوى حاجته والفقيه رغبته والمتكلم بغيته، ويجد علماء الاجتماع بها تطبيق آى القرآن على معارفهم، وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل، ومحركة للجامد، وكانت عاصفة قوية، هزت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أورقت، أما الشجيرات الضعيفة والحشائش الدنيئة فاقتلت منها ولم تنتفع بهاء».

وبعد، فيطيب لى أن أشير إلى شئ له أهميته المعاصرة بمناسبة الحديث عن تفسير الإمام المراغى، حيث إن القنوات الفضائية والإذاعات اللاسلكية، قد زاد انتشارها وعظم خطرها، وهى تفسح مجالا واسعا للأحاديث الدينية والتفسير القرآنى فى طليعتها، وقد تختار من المتحدثين من يجيد القول، فيشبع السامع بما يفتح الله به عليه، ولكن كثيرا ممن يتصدرون للقول فى تفسير كتاب الله بهذه المنافذ القوية التأثير، البعيدة الصيت يضلون السبيل بما يسوقونه من أفكار تشتط حينا وتضعف حينا، وفيهم من يتطلب المثالة بعرض آراء واهية قال بها القدماء، وهى منقودة داحضة، وهذه الآراء ليس مكانها القنوات والإذاعات، لأنها تحتاج إلى تمحيص دقيق فى الصحف الدينية المتخصصة حتى تكشف الرغوة عن الصريح، وأنا أدعو هؤلاء وهم فى مجال الدعوة إلى سبيل الله أن يقرأوا ما كتبه الإمام المراغى ليحاولوا أن ينهجوا نهجه المستنير، فإن أحاديثه الساطعة تقدم المثال النادر لما يجب أن يطالع به جمهور السامعين، ومن الأسف أن بعض مقدمى هذه الأحاديث من موظفى الإذاعة يفرطون فى الثناء على ما يقال بدءا وخاتمة، حتى ليتوهم الغافل أنه سمع من الرأى ما لا معقب من بعده، وهى جهالة تتدرج على جهالة، فتكون ظلمة فوق ظلمة فإذا جعلنا أحاديث المراغى ومن تبعه بإحسان كمحمود شلتوت وعبدالوهاب خلاف ومحمد عبدالله دراز أمثلة تحتذى فإننا نسير بالسفينة إلى الشاطئ المأمول فى سلامة واطمئنان! ■

صحن الجامع الأزهر

رمضان

.. جزء خاص

جوامع وخانقاوات

بقلم

عرفه عبده علي

حرص خلفاء وسلاطين مصر الإسلامية علي التقرب إلى الله - غفار الذنوب - بتشييد أروع المساجد وأجمل المدارس والتكايا والأسبلة، وافتتاحها في شهر رمضان المبارك، وتباروا فى الأوقاف عليها ..

وجامع عمرو بن العاص هو أول جامع شيد في مصر وأفريقيا وارتبط في ذاكرة التاريخ - وحتى يومنا هذا - بصلاة آخر جمعة في شهر رمضان «الجمعة اليتيمة» وانتهى أحمد بن طولون من تشييد جامعه الشهير في رمضان عام ٢٦٥هـ / ٨٧٨م، وافتتح الجامع الأزهر في أول جمعة من شهر رمضان عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م.

جامع عمرو (تاج الجوامع)

الزائر لهذا المسجد الكبير لابد أن يداعب خياله ماضي مدينة الفسطاط وما كانت عليه من عمران وحضارة عظيمة فهي أول مدينة إسلامية أنشئت بمصر، وجامع عمرو هو أول جامع أنشئ بديار مصر، شيده القائد عمرو ابن العاص عام ٢١هـ/ ٦٤٢م واشتهر بالجامع العتيق وتاج الجوامع، وكان وقتئذ مشرفا على النيل ومساحته ٥٠ × ٣٠ ذراعا ولاصحن أو منارة له، كان شديد البساطة في كل شئ وقد زادت مساحته الحالية الى ١٢٠,٥×١١٢,٥ متر، والجامع القديم لم يتبق منه سوى الاسم فقط وكان يواجه دار عمرو بن العاص.

وكان لحريق الفسطاط سنه ١١٦٨م خشية احتلال الصليبيين لها، اثر في تخريب الجامع وهو في أزهى عصوره، ثم توالت عليه العناية بالإصلاح والتجديد والتوسعة من ولاة مصر والخلفاء الفاطميين، وسلاطين الدولة الأيوبية، وقام محمد علي بتجديده وأعاد صلاة الجمعة فيه، وكان أكبر مشروع لتجديد وتوسعه الجامع تم في عهد الملك فؤاد عام ١٩٢٦ .

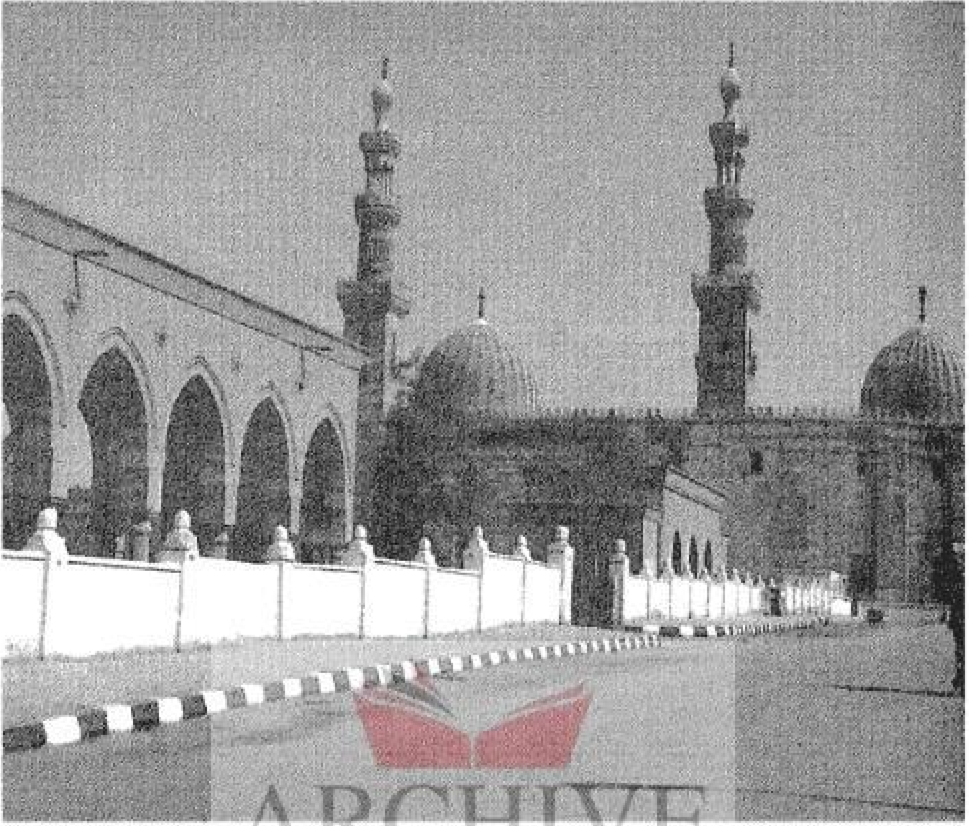
وقد نال الجامع قدرا كبيرا من اهتمام الأثريين وعلى رأسهم محمود باشا أحمد وكوريت بك ود كريزويل ولم يقتصر الجامع على أداء الصلاة فحسب بل كانت به محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية، وكانت تعقد جلساتها في الزيادة الغربية الموجود في جزء منها الآن المحراب الجصي .

وكان به أيضا بيت المال وقد وصفه الرحالة ابن رسته بأنه كان يواجه المنبر، شبه قبة عليها أبواب من الحديد. كما قام الجامع بدور الجامعة، حيث كانت تعقد به حلقات للتدريس، بعضها لإرشاد الناس إلى ما ينفعهم في دنياهم، وبعضها حلقات لتدريس الفقه وعلوم القرآن والحديث والأدب وبلغت هذه الحلقات فى نهاية القرن العاشر الميلادى ١١٠ حلقات يترأسها اشهر وأجل العلماء والفقهاء وكان الامام محمد بن إدريس الشافعي يلقى دروسه فى الفقه بهذا الجامع عقب وصوله إلى مصر سنة ١٩٩ هـ وكان يطلق على حلقته «زاوية الامام».

وحتى يومنا هذا يحرص كثير من سكان القاهرة على أداء الجمعة اليتيمة فى جامع عمرو، ومنذ الصباح الباكر فى آخر يوم جمعة من شهر رمضان كل عام لاتجد موضعا لقدم كما يحرصون أيضا على ختم القرآن وصلاة التراويح «بهذا الجامع، وصلاة الجمعة اليتيمة تقليد نشأ منذ عصر الدولة الفاطمية، حيث كان الخليفة يركب للاحتفال برؤية هلال شهر رمضان، يؤدى صلاة الجمعة الأولى فى القصر، والثانية فى جامع الحاكم، والثالثة فى الجامع الأزهر، والرابعة فى جامع عمرو، وكان أهل القاهرة يقومون بعمل الزينات بطول شارع المعز (قصبة القاهرة) حتى جامع عمرو والذى قال عنه المؤرخ «ابن دقمان» إمام المساجد وقطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، موطن أولياء الله وحزبه، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه ..»

ويقول العالم الراحل د. حسن عبد الوهاب عن خصوصية جامع عمرو بصلاة الجمعة اليتيمة:

«نشأ هذا التقليد منذ الدولة الفاطمية، فقد كان الخليفة الفاطمى يركب للاحتفال برؤية شهر رمضان ثم يستريح أول جمعة منه، فإذا كانت الجمعة الثانية أداها فى جامع الحاكم، فإذا كانت الجمعة الثالثة أداها فى الجامع الأزهر، فإذا كانت الجمعة الرابعة صدرت الأوامر بأدائها فى جامع عمرو بن العاص، فيقوم أهالى القاهرة بعمل الزينات من باب القصر بالنحاسين إلى جامع ابن طولون ويقوم أهالى مصر القديمة بعمل الزينات حتى جامع عمرو، وبعد أداء الفريضة يعود الخليفة إلى القصر ولما أتم مراد بك إصلاح الجامع فى النصف الثانى من شهر رمضان سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٧م أقيمت فيه آخر جمعة من رمضان فاتخذت عادة حتى اليوم إحياء للعادة القديمة».



خانقاه السلطان فرج بن برقوق

ويضيف د. حسن عبد الوهاب «غير أنى أرى فى إقامة الصلاة فى هذا الجامع فى نهاية شهر رمضان معنى سامياً حبا الله به هذا القائد العظيم، فأحيا ذكرى وفاته سنوياً ، إذ يوافق آخر أسبوع من رمضان الأسبوع الذى توفى فيه عمرو، فقد توفى ليلة عيد الفطر

جامع ابن طولون

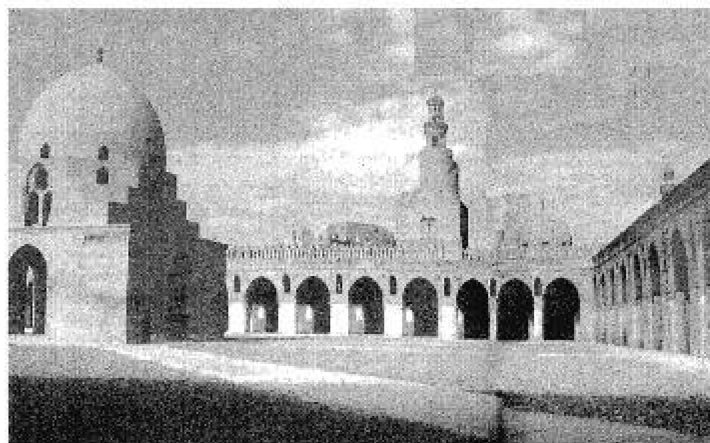
ويعد من أعظم وأقدم الجوامع المحتفظة بتفاصيلها المعمارية الأصلية شيده الأمير «أبو العباس أحمد بن طولون» مؤسس الدولة الطولونية، ولد ببغداد فى شهر رمضان سنة ٢٢٠ هـ - ٨٣٥م، وجاء إلى مصر فى الأسبوع الأخير من شهر رمضان سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م.

وكان حاكماً حازماً محباً للعلم كثير الصدقات شغوفاً بالعمارة وشهدت مصر خلال ولايته عهد رخاء وأمن واستقرار ويعد أن شيد مدينة القطائع وأصلح منار الإسكندرية ومقياس النيل وقناطر

البناء ثم القصر والميدان والبيمارستان ودار الإمارة شرع في تشييد جامعه الكبير الذي انتهى منه في شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ – ٨٧٨م. وكثيراً ما كان يتفقد أعمال البناء بنفسه ووجد أن العمال يؤدون أعمالهم وهم صائمون، فرق قلبه لحالهم وأمر أن ينتهي العمل قبل صلاة العصر، وعقب الافتتاح مدت الأسمطة العامرة ووزعت الحلوى والعمائر عقب صلاة التراويح.

وإذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى في بناء مصر الإسلامية فإن أحمد بن طولون هو صاحب أول تجربة لإنشاء كيان مصري خالص داخل الكيان الإسلامي العام.

ويعد جامع ابن طولون من أكبر جوامع مصر الإسلامية مساحة إذ يغطي ما يقرب من ستة أفدنة ونصف تأخذ شكلاً مربعاً يبلغ طول ضلعه حوالي ١٦٢ يشغل المسجد منها شكلاً مستطيلاً تبلغ أطواله حوالي ١٣٨ × ١١٨م على حين ترتفع الجدران من منسوب أرضية الأروقة الداخلية إلى قمة شرفاته العليا إلى نحو ١٢ متراً، وهو مصمم على النسق التقليدي: صحن أوسط مكشوف مربع الشكل، يحيط به أربعة أروقة مسقوفة بالخشب أكبرها الرواق الشرقي.


صحن جامع ابن طولون ومئذنته الملوية الشهيرة

وقد زود الجامع بمئذنة شيدت من الحجر في الزيادة الغربية خارج المسجد تعتبر الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي وهي تتألف من قاعدة مربعة التخطيط تعلوها منطقة أسطوانية فوقها مثمن علوي يحمل مثمنا آخر أصغر منه يتوجه قبة صغيرة مضلعة تعرف في المصطلح المعماري المحلي باسم المبخرة، يبلغ ارتفاعها عن أرضية الجامع

نحو أربعين متراً ويصعد إليها عن طريق سلم خارجي يرتقي في عكس اتجاه عقارب الساعة، كما يربطها بسطح الجامع قنطرة حجرية ترتكز على عقدين على شكل حدوة الفرس، ويزين باطنها كوابيل حجرية مفصصة الشكل من النوع المألوف في الغرب الإسلامي وخاصة في شمال أفريقيا والأندلس وذلك بالإضافة إلى جملة تأثيرات من أساليب غربية إسلامية مختلفة بعضها محلي وبعضها وافد من الغرب وآخر من الشرق.

والطريف أن هذه المئذنة قد استرعت انتباه علماء الآثار الإسلامية الذين اختلفوا في تحديد العصر الذي تنسب إليه، إذا أرجعها البعض إلى عصر بناء الجامع في أيام أحمد بن طولون بينما رأى البعض الآخر أنها من العصر

الفاطمى ، على حين ذهب فريق ثالث بأنها من بناء السلطان المملوكى لاجين الذى عمر المسجد فى سنة ٦٩٦هـ - ١٢٩٦م، وهو الرأى الذى استقر عليه حاليا أغلب علماء الآثار الإسلامية .

كذلك أثارت هذه المنارة بشكلها الغريب انتباه الكتاب العرب فى العصور الوسطى، الذين اتخذوا من هذا الشكل مادة طيبة لمواصلة نسج الروايات والأساطير حول الجامع الطولونى فذكروا أن أحمد بن طولون، كان لا يعبث بشئ قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته ، فطلب المعمار على الجامع وقال: «تبنى المنارة التى للتأذين هكذا، فبنيت على تلك الصورة «كما ربطوا بينها وبين منارة المسجد الجامع فى سامراء المشهورة باسم الملوية رغم أن الأخيرة تتميز بقاعدة أسطوانية ويدور حولها ست مرات صاعدا بانحدار قليل إلى أعلى ، على النقيض من المنارة الطولونية ذات السلم والقاعدة المربعة .

ويفهم أيضا من كتابات بعض المؤرخين أنه كان بأعلى هذه المنارة عشارى (مركب صغير) عثر عليه أحمد ابن طولون، ضمن الكنز الذى أصابه وشيد منه الجامع، يزعمون أنه كان يدور مع الشمس، بيد أن المقريزى يؤكد أنه كان يدور مع الريح .

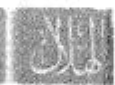
ويشير الجبرتى إلى أن هذا العشارى قد ظل باقيا فى مكانه حتى سقط فى غضون سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م حيث استبدل بالهلال الحالى الذى يتوج قمة المنارة، رغم أننا نشاهده فى الرسوم التى امدتنا بها الحملة الفرنسية عن هذه المنارة .

ومن طريف ما يروى بصدد هذه المنارة أن أحفاد ابن طولون باعوا هذا المسجد إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بثلاثين ألف دينار مغربى، وبعد مدة شرعوا فى هدم المنارة بحجة أنها لم تكن ضمن الصفقة فأرسل إليهم الحاكم بأمر الله قائلاً : لقد بعتمونى هذا المسجد فكيف تهدمونه؟ فأجابوا : نحن لم نبع المئذنة فاعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنا لها !

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر هو أحد مفاخر العمارة الإسلامية وأول جامع شيد بمدينة القاهرة وهو جامع وجامعة وكم للأزهر ولرجاله من مآثر ومواقف فى حياة وتاريخ عالمنا الإسلامى .

فتح القائد جوهر مصر فى ١٧ شعبان سنه ٣٥٨هـ / ٦ يوليو ٩٦٩م، وشيد القصر الفاطمى الشرقى الكبير



وأبدع فى زخرفته وأثاثه وأعده لنزول سيده الخليفة المعز لدين الله، كما أعد به سريراً من الذهب الخالص لجلوسه عليه، ودخل المعز لدين الله القاهرة فى السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ- ٩٧٣م فصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة .

وكان القائد جوهر قد شرع فى بناء الجامع الأزهر فى جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠م ليصلى فيه الخليفة وليكون مسجداً جامعاً للقاهرة، كما أعد ليكون معهداً لفئة معينة من الطلاب لتعليم الفقه الشيعى ونشره، وانتهى بناء الجامع وأقيمت أول جمعة فيه فى السابع من رمضان سنه ٣٦١هـ /٩٧٢م وعرف بجامع القاهرة والجامع الذى نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وضع أساسه القائد جوهر، وإنما أضيفت إليه عدة منشآت وزيادات فى عصور مختلفة، وكانت أكبر عمارة وتجديد لهذا الجامع ما قام به الأمير العظيم «عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧هـ- ١٧٥٣م .

وعن وصف البناء الأصلى للجامع الفاطمى يقول د. حسن عبد الوهاب .

«كان مسقطه الأفقى وقت إنشائه مكوناً من ثلاثة إيوانات حول الصحن، الشرقى منها مكون من خمسة أروقة وبكل من الجانبين القبلى والبحرى ثلاثة أروقة والمشرف على الصحن منها قائم على أكتاف مبنية، أما الحد الغربى فلا أروقة به، ويتوسطه الباب العمومى الذى كانت تعلوه المنارة، ولعله كان بارزاً عن الوجهة.

وقد فتحت بأعلى الجدران فى الإيوان الشرقى شبابيك جصية مفرغة لها أشكال هندسية تتخللها مضاهيات مزخرفة، أحيطت بأفريز مكتوب عليه بالخط الكوفى المزخرف آيات من القرآن، ومازالت بقايا هذه الشبابيك تحدد الجامع القديم فى جدران إيوان القبلة الشرقية والبحرية والقبلية والغربية.

ويشطر الإيوان الشرقى مجاز يتجه مباشرة إلى المحراب، وارتفعت عقوده كما ارتفع سقفه عن مستوى ارتفاعات الإيوان، وقد حليت حافات عقوده بآيات من القرآن مكتوبة بالخط الكوفى .

كما حليت واجهات عقوده بزخارف نباتية مورقة .

وعقود هذا المجاز الباقية فى هذا الإيوان من عقوده القديمة بينما تغيرت باقى العقود غير مرة، وينتهى هذا المجاز إلى المحراب الفاطمى القديم».

ويشير مؤرخو مصر الإسلامية إلى مظاهر البهجة التى صاحبت افتتاح الجامع الأزهر، حيث ملئت الفسقية بالماء المحلى بالسكر والليمون ليشرب منه العامة، وعندما خرج الخليفة فى موكبه

المهيب من قصره الشرقى الكبير، مرتدياً أفخر ثيابه والفرسان فى أبهى زينتهم على خيول تزدان بسروج مذهبة وينثر الخليفة الدنانير الذهبية وقطع الفضة، فى طريقه إلى الجامع الأزهر ، حيث فرش للخليفة السجاد الأحمر الفاخر وشقق الحرير ، وعقب الإفطار مد سماط عظيم خارج الأزهر لجند الخليفة وعموم أهالى القاهرة، بالإضافة إلى السماط الذى أقيم بقاعة الذهب القصر الشرقى.

وتنافس الحكام والأمراء فى إيقاف الأوقاف على الأزهر، ليظل منارة للعلم وإحدى أهم الجامعات الإسلامية بمواكبته أيضا للعلوم الحديثة...

وكان رمضان شهر خير وبركة على طلابه، فتزيد «الجراية»... وتصرف «الكساوى» جبة وقميص وطاقية «وبابوج» يشبه الحذاء، كما تنعم أيضا أسر الطلاب بالخيرات من الكساوى والأطعمة والحلوى ومنها «المعمول بالسكر»!

ويتألق الأزهر – كجميع مساجد القاهرة – فى رمضان وتغمره الأنوار، حيث تزاد أعداد الشموع الكبيرة والقناديل، التى يشار إلى حسابها فى الوقفيات، وتنتشر جماعات «المجاورين» والمتعبدين فى أرجاء الجامع، بين قراءة القرآن وكتب الأحاديث الشريفة وتلاوة الأوراد حتى أذان الفجر...

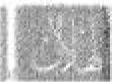
وفى نهاية الشهر، كان يصرف للطلاب «المجاورين» التمر والمكسرات وكعك العيد.

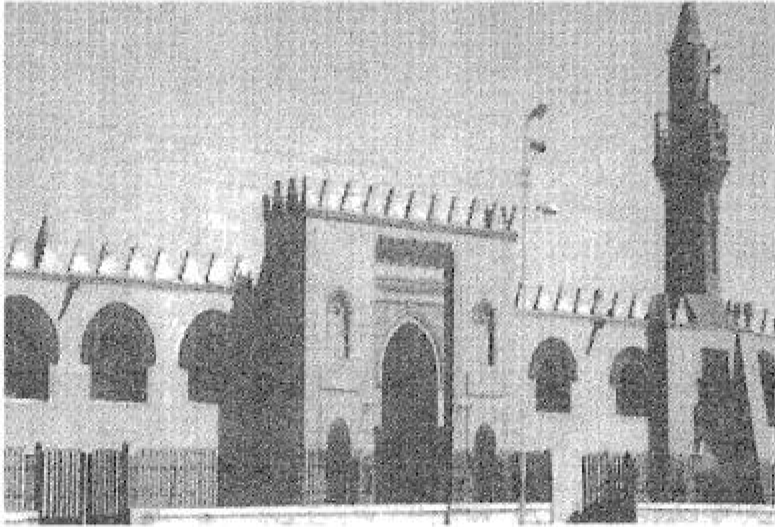
الخانقاوات والتكايا

فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين، وفى شهر رمضان، شيدت أول خانقاه فى تاريخ العمارة الإسلامية بمصر، فى منزل «سعيد السعدا» أحد خدام البلاط الفاطمى بشارع باب النصر بحى الجمالية، والخانقاه تعنى بيت الأستاذ، وتم تجديدها فى عصر سلاطين المماليك، وقد سكن فيها العالم المؤرخ «ابن خلدون» عندما وفد إلى مصر، حتى وافته المنية ودفن بمقابر باب النصر.

وكانت الخانقاوات تخصص للشيوخ المسافرين وطلاب العلم والمتصوفين، وكانوا عندما يحطون الرحال يسجلون أنفسهم عند شيخ الخانقاه ويحددون مواعيد إقامتهم وإذا كانوا سيدرسون فيها أو سيذهبون لأستاذ معين للتعلم وأخذ الإجازة منه..

ورمضان داخل الخانقاه كان دائما مختلفا وحدد هذا فى وثائق الوقت التى خصصها من بنى هذه الخانقاوات لزيادة مبالغ الصرف فيها.. وكانت الخانقاوات تتلألأ فى شهر رمضان وتزداد نسبة صرف الشموع المحددة





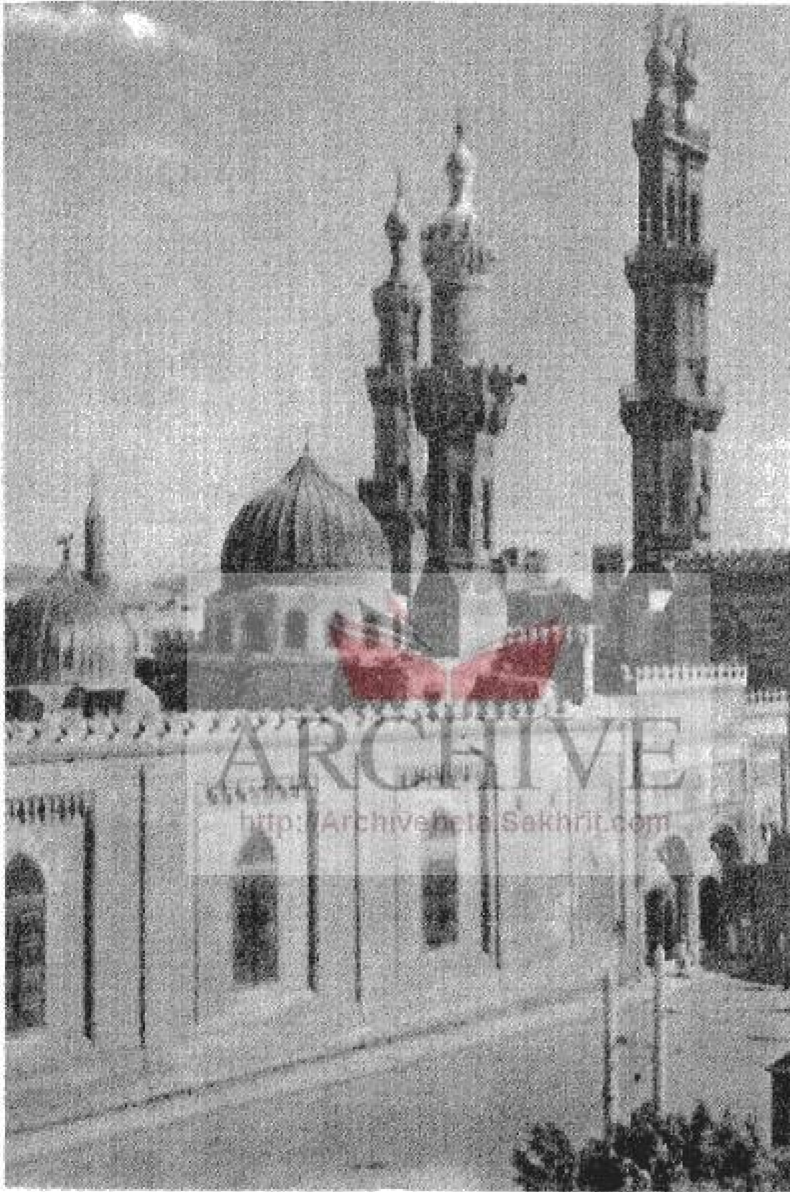
واجهة جامع عمرو بن العاص

لكل متصوف لتساعده على إقامة الليل وصلوات التهجد كما يصرف شمع أكثر لإنارة الخانقاه نفسها بعد صلاة التراويح .. وتزداد نسبة الطعام والحلوى في رمضان والتي كان يوزع منها على أهالي المنطقة التي بها الخانقاه..

ومن أشهر الخانقاوات: خانقاه السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق - أول ملوك الجراكسة - وهذه الخانقاه هي أول المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م، وشيدت مكان خان الزكاة الذي أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على جزء من أرض القصر الفاطمي الغربي.

أما خانقاه السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بشارع الجمالية، فقد تم بناؤها سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م، وكانت تحظى بعناية خاصة، حيث يعين لها أكبر الشيوخ وأكثرهم علماً، ومن أشهرهم الإمام المحدث «ابن حجر العسقلاني» الذي أملى فيها كتابه الشهير «فتح الباري بشرح صحيح البخاري».

وهناك أيضاً «خانقاه سنجر وسلار» المعروفة الآن بجامع أو خانقاه الجاولي بشارع مراسينا (عبدالحميد اللبان) بحي السيدة زينب، وأنشئت سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤م.



واجهة الجامع الأزهر عام ١٩٠٠

وخانقاه السلطان الغورى ضمن مجموعته الأثرية الشهيرة على رأس تقاطع شارع الغورية مع شارع الأزهر.

ثم خانقاه السلطان الملك الاشرف برسباى، وهى شمال منشآت السلطان قايتباى، ملحق بها حوش كبير وقبة أخيه الأمير يشبك ومصلى لإقامة الشعائر، وأنشئت سنة ٨٣٥هـ، وتميز واجهتها الرئيسية: تجاويف رأسية شغلت من أسفل بنوافذ مستطيلة تزدان بمشغولات برونزية، تعلوها نوافذ من شمسيات وقمريات من الجص المعشق بالزجاج الملون.

أما أجمل وأشهر الخانقاوات: خانقاه الملك الناصر فرج بن برقوق ضمن مجموعته الأثرية الضخمة فى الجزء البحرى من قرافة المماليك، وقد تم بناؤها سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م، وتتكون من أربعة طوابق تعانى من الإهمال الشديد، وكان لكل متصوف غرفة من الغرف المخصصة على الجانبين، وتصرف له الكساوى والأطعمة، ويتميز شهر رمضان بطقوس خاصة فى الخانقاوات، حيث تبدأ «مقرأة القرآن» و«مقرأة الحديث الشريف» عقب صلاة الفجر، ثم ما بين صلاتى العصر والمغرب، وبعد صلاة التراويح فى الايوان الكبير بالخانقاه، وتستمر المقرأة طوال أيام وليالى رمضان حتى السابع والعشرين منه: ليلة ختمة القرآن، وختمة الصحيحين البخارى ومسلم.

وفى العصر العثمانى تحولت الخانقاوات إلى تكايا وهى نفس المعنى ولكن باللغة التركية وانتشرت الطرق الصوفية العثمانية مثل البكتاشية والمولوية... وكانت البكتاشية طريقة عسكرية مخصصة لأفراد الفرقة الرئيسية فى الجيش المسماة بالانكشارية..

أما المولوية فكانت لأتباع سيدى جلال الدين الرومى وكانت من الفرق التى أدخلت الموسيقى التركية أثناء الذكر فهم يستخدمون الناى والعود والدف.. وكانت تكثر فيها حلقات الذكر في شهر رمضان وتزداد فيه مخصصات الطعام خاصة أيام الذكر ومنها الكباب والقرفة والقهوة..!!

وستظل العمارة الإسلامية فى مصر - بخصوصيتها المصرية المتميزة - من مساجد وخانقاوات وأسبلة وكتاتيب وحمامات وأسواق ووكالات وقلاع وأسوار وقصور وأحواض لشرب الدواب وبيمارستانات: شواهد مجد قديم لحضارة عظيمة. ■

رمضان
جزء خاص

رسالة أمريكا

خطيب مسجد فى أمريكا يهاجم الحجاج بن يوسف !

الهجوم ينطلق من خلال مسلسل يسئ إلى المسلمين

بقلم
صلاح المراكبى

كانت مفاجأة لى عندما سمعت الخطيب يهاجم الحجاج بن يوسف !.. الخطبة باللغة الإنجليزية، والخطيب يقصد مسلسلا عربيا عرضته إحدى محطات التليفزيون العربية فى رمضان الماضى، وأعادته أخيراً !.

أغلب المصلين فى المسجد ليسوا عربا، وحتى العرب القليلون منهم لا يتابعون المسلسلات العربية.

لكننى تابعت خطبة الشيخ بعد أن عرفت أنه داعية جاء من العالم العربى يطوف الولايات المتحدة لفترة.. فهو قادم لتوه يحمل هموم العالم العربى، كما تحمست لسماعه، لأننى بالفعل شاهدت المسلسل، ولى فيه كلام يتوافق مع ما قاله الشيخ، ويختلف.

الشيخ يقول: تبنى ويهدمون، ونصلح ويفسدون!. فما وجد هذا المسلسل فترة فى تاريخنا الذى نعتزّ به، إلاّ هذه الفترة، التى تمزقت فيها الأمة الإسلامية إلى دويلات، يحكم كل منها واحد يسمى نفسه أمير المؤمنين، ويحارب كل منهم الآخر بجيش يرفع راية الإسلام، ويزعم أنه يعمل على رفع كلمة الله؟ ثم يستعين واحد منهم برجل مغامر فاجر، هو الحجاج بن يوسف، فيستعين بالسيف والمال لقتال الآخرين، ويذبح الآلاف فى معارك وفي غير معارك!. ليعطى نموذجا للعالم اليوم بهذا المسلسل بأن الإسلام يقوم على هذين! وأن المجتمع الإسلامى تجب فيه الطاعة للحاكم بدون معارضة، وبكل ألوان القهر والإخضاع، وكل من مسّ للحاكم طرفا، أو سها عن التسبيح بحمده، والجلوس عند قدميه، فهو مارق لا شفاء من مرضه هذا إلا بالسيف!!

شعار مغلوط

المسلسل - يواصل الشيخ - حافل بالشعار الذى أطلقه المسلسل على لسان

الحجاج: «اقطعوا عنقه»!؟ فبدا كأنه شعار الإسلام فيما يتعامل به المسلمون فيما بينهم، فما بالنا بما يفعلونه بغيرهم من غير المسلمين؟!

ويصل الشيخ إلى ما يريد فيقول: منذ الحادي عشر من سبتمبر، ونحن نحاول أن نصحح الصورة، ونوضح براءة الإسلام مما حدث، لكننا نبني ويهدمون، ونصحح ويفسدون!. ثم ماذا يريد أن يقول المسلسل؟ هل يريد أن يقول: إن هذا هو الإسلام؟ أم يريد أن يقول: إنه لا يصلح للعراق إلا طاغية مثل صدام حسين الذي استطاع أن يحقق الأمن لنفسه بإرهاب الناس، أم يريد أن ينصح الأمريكان باستقدام حجاج جديد من الداخل أو الخارج؟!

● المسلسل كما شاهدته يتناول الفترة التاريخية التي تلت قيام الدولة الأموية، مركزا على فترة خلافة عبدالملك بن مروان الذي لم يكن تحت يده سوى الشام، أما الحجاز والعراق ففيهما عبدالله بن الزبير يتخذ مكة عاصمة له، ويولى أخاه مصعب بن الزبير على العراق، ويتناثر حول العراق فئات من الخوارج أزارقة وشيبانيون، وكلهم يجعل نفسه أميرا للمؤمنين!.

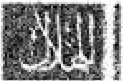
● «خليفة» المسلسل هنا هو عبدالملك بن مروان.. وهو في قصره يدبر أمره لقتال هؤلاء جميعا، لتوحيد الدولة الإسلامية تحت حكم الأمويين.

● نتابع على الطريق إلى الشام شابا ترمي به الصحراء وتنحط به الوهاد، خارجا من الطائف، متجها إلى دمشق فيصلها.. ويقف على مشارف قصر بن مروان حتى يجده الحراس متمسحا بأسوار القصر ، فيثير انتباههم ودهشتهم باستعلائه وصعلكته عندما أمسكوا به ، حتى يفوز وهو يتحداهم بغروره ليصل وجها لوجه أمام الخليفة!. وينجح في انضمامه جنديا في الحرس، ثم جنديا في الجيش، ثم مساعدا للقائد، ثم قائدا للجيش، يسير مع الخليفة لحرب العراق، فيتم له النصر!.

● يحقق الحجاج الخطوة الأولى من طموحه، بإيمانه الكامل بحق الأمويين في توحيد الدولة الإسلامية، وباعتبار كل من خرج عليهم عدوا يجب القضاء عليه، وبأن الوسيلة إلى ذلك تقوم على السيف والمال، متميزا بجرأة لاحدّ لها، فيجد فيه ابن مروان ضالته، فيرسله بالجيش منفردا بالقيادة إلى الحجاز ليحارب عبدالله بن الزبير، فيحاصر مكة حتى يموت الناس، ويستسلم الكثيرون منفضّين من حول ابن الزبير، حتى أبناؤه.. ويقتل ، ويقطع رأسه، ليرسله الحجاج هدية وبشرى إلى الخليفة، بعد أن يصلب جسده!.

● لا أريد بالطبع أن أحكي قصة المسلسل، ولكن الذي حدث أن الحجاج عاد يحكم العراق بعد أن عادت إليه القلاقل، فأعمل سيفه بلا هوادة، واستقر له الأمر!.

● المسلسل تكلف بغير شك عشرات الملايين، وحفل بالاخراج الرائع والتصوير البارع لعدد كبير من المعارك، ومئات الخيول، وأعداد ضخمة من الجنود، وأماكن التصوير العديدة ما بين القصور



والمناطق الصحراوية الوعرة، والملابس، والقدرات العالية للممثلين الذين هم جميعا من الأردن ولبنان.

● أما الإبداع الأكبر فهو لكاتب المسلسل جمال أبو حمدان، فهو يمتلك ناصية اللغة الحوارية الفصحى ببراعة فائقة.. وهى فصحى تخلو مما اعتدناه فى المسلسلات الدرامية الفصحى من الخطابة والطنطنة والتفاصح، وحواره يتفاعل ببراعة مع الأحداث دون فواصل أو مطبات.. فى رأيى أن كاتب المسلسل هو بطله الأول، لكننى أدرك حزنه البالغ على الأخطاء التى بدت فى نطق أغلب الممثلين، وهى أخطاء لاتبدو للمشاهد العادى، أو قل: لا تبدو للمشاهد العربى بشكل عام، بعد أن أصبحت لغتنا العربية صعبة على مسامعنا، لكن هذه الأخطاء، قد غطى عليها أداء الممثلين ونطقهم الرائع بشكل عام.

قام بدور الخليفة الممثل فايز قزق فتبادل الروعة فى أدائه مع عابد فهد الذى قام بدور الحجاج، وكذلك غسان مسعود الذى قام بدور ابن الزبير، وبقية الممثلين، خاصة نادرة عمران التى أدت دور أسماء بنت أبى بكر.

● المسلسل على أى حال رغم انتاجه الضخم، والإخراج المتميز على مستوى أكثر من عربى محلى للمخرج محمد عزيزية، لا أعتقد أنه يحظى بالنجاح الجماهيرى التجارى.. فلغته غير ميسرة للكثيرين، وتتداخل الأحداث فيه، بما تصعب على الكثيرين متابعته لمن لايعرفون التاريخ فى تلك الفترة بشكل مفصل.. لكنه على كل الأحوال خطوة كبيرة على الطريق الصحيح. رغم إيحاءاته التى أغضبت الشيخ، واعتماده على أحداث اختلف عليها المؤرخون أو اختلفوا على تفاصيلها وترتيبها.. فعبد الله بن الزبير لم يكن هكذا تماما، ولا الحجاج كان كذلك تماما.. ولكن عليك أن تسمع ما يقولونه: نحن لا نسجل تاريخا، لكننا نختار منه، ونركز على بعض جوانبه ورؤاه، ونصنع لبعض تفاصيله مزيدا من نفس تفاصيله، ونسلط الضوء ونزيحه.. إنها قراءة خاصة للتاريخ، فكل من كتبوا التاريخ رأوه على قدر ما استطاعوا، وعلى قدر ما رغبوا، وبالقدر الذى وصل إلينا ولم يصل إلينا كل شئ!! إذن.. على بركة الله ولا بأس!.

ولاية أونتاريو الكندية تسمح للمسلمين بتطبيق الشريعة الإسلامية!

كندا دولة علمانية، ليس فيها مشاكل عنصرية ولا اضطهاد للأقليات، لسبب بسيط وهو أن السكان الأصليين هم الأقل عددا، والمهاجرين من أنحاء العالم هم الأكثر، لكن عدد المسلمين لا يزيد على ٦٠٠ ألف نسمة من عدد السكان الاجمالى الذى يصل إلى ٣٠ مليونا.

ولاية أو نتاريو التى تقع فى الجنوب، وتلاصق حدود الولايات المتحدة - بينهما نهر - هى أكبر الولايات فى كندا - ٦٥٩ ألف كيلو متر مربع، أكبر من مصر - وهى الولاية التى يتركز فيها الاقتصاد الكندى: زراعة، وصناعة، ومعادن، وأخشاب، وغاز..

المهم أن قانونا صدر منذ فترة يعطى

الحق لكل أصحاب دين، أن يتحاكموا إلى شريعتهم، فى المسائل التى تتصل بمعاملاتهم وشئونهم الداخلية اليهود فعلوا ذلك وأصبحت مرجعياتهم فى ذلك رجال دينهم ، وكذلك المسيحيون . بالنسبة للمسلمين انحصرت قضاياهم فى: الزواج والطلاق والمواريث.. فيمكنهم تطبيق شريعتهم ولكن دون إجبار لمن تطبق عليه..

القانون الكندى يساوى فى الميراث بين الرجل والمرأة.. أما الإسلام فيعطى للرجل ضعف ما يعطى للمرأة. وعلى كل مسلم يريد أن يطبق هذا ، ألا يعطى البنت نصف ما يعطيه الولد، إلا إذا وافقت البنت على ذلك، فإذا رفضت وطلبت تطبيق القانون الكندى بالمساواة، فلها ذلك..

الذى حدث أن بعض الجمعيات الإسلامية النسائية تحفظت على تطبيق الشريعة الإسلامية، وبدأت تطرح القضية من القاعدة الأساسية حول اهتمامها بحقوق المرأة، والتى تراها مهدرة وضائعة، فكثير من العائلات التى هاجرت إلى كندا، وخاصة من الهند وباكستان، يتزوج الرجال منهم من فتيات صغيرات، غالبا ضعف أعمارهن، وهم يسيطرون عليهن بحيث لايخرجن من البيوت ولا يتعاملن مع المجتمع، ولا يعرفن حتى اللغة الانجليزية!.

حتى أولادهم ، يذهبون إلى مدارس لهم خاصة ينفصل فيها الأولاد عن البنات، وتتزوج البنات منهن فى سن ١٣، ١٤ سنة..

وتقول هذه الجمعيات ومنها جمعية ترأسها مصرية أن نساءً بهذا الوضع المتخلف، يجب أن يرتقى وضعهن إلى المستوى الإنسانى أولا، لتصبح لهن القدرة على أن يكون لهن شخصية ورأى واختيار فيما نريد أن نطبقه عليهن!.

هذا الموقف الذى تتخذه بعض الجمعيات يعارضه الرجال وخاصة سيد ممتاز على، وهو من أصل هندى، ومحامى إسلامى ومدنى، وهو الذى يقود فكرة تطبيق الشريعة، ويقول: إن المسلم لا يكون مسلما دون اتباع الشريعة الإسلامية.. وكل شئ نفعله محكوم بقوانين الدين، ويرى أن المرأة التى حددت لها الشريعة نصف ما يأخذه الرجل فى الميراث، ليس من حقها أن توافق أو ترفض ما قرره لها الله.

لهذا لم يحدث اتفاق بين المسلمين، كما أنه ليس من المتوقع أن توافق كندا على تنفيذ قطع يد السارق أو الأحكام الأخرى التى تتجاوز العلاقات العائلية..

حكومة أونتاريو قررت إعادة النظر فى قانون السماح لكل أصحاب دين باتخاذ ما يرون للعمل بشريعة دينهم ..

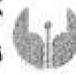
إلى جانب ما حدث بين المسلمين من خلاف فى الرأى، خاصة فيما ظهر من رغبة كثير من النساء بعدم التنازل فى الميراث وغيره مما يعطيه لهن القانون الكندى!. وبما تنادت به بعض نساء اليهود من رغبة فى أن يعطيهن القانون الكندى الفيدرالى الحق فى الحصول على الطلاق، الذى هو الآن من حق الرجال فقط.. يقول المحللون : إن التعديل الجديد سيحاول أن يوائم بين الأديان التى تعطى الرجال اليد العليا فى الحياة الزوجية، وبين القوانين الكندية.. ■



من هو..
مصطفى سويف؟

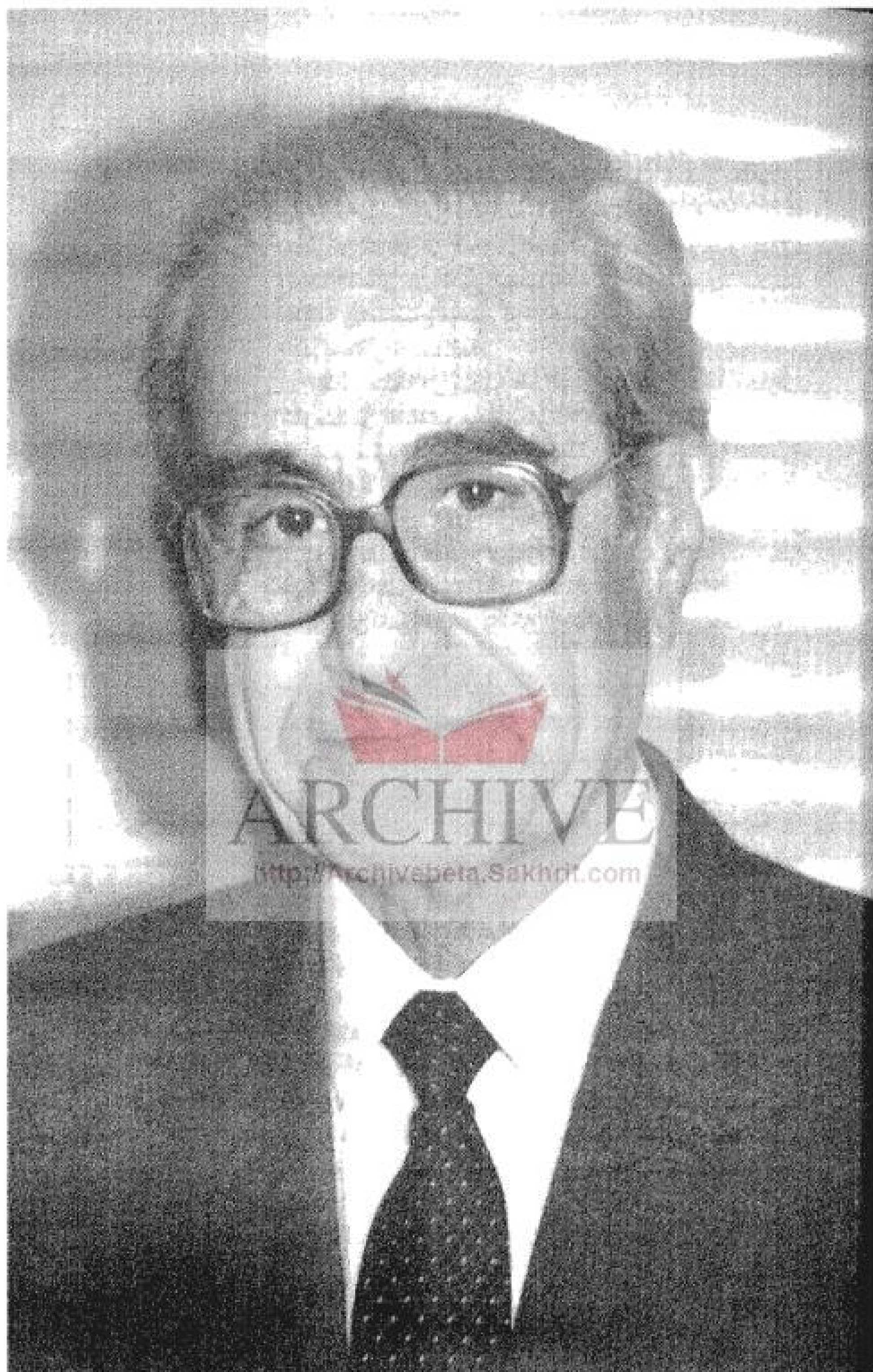
بقلم
د. فيصل عبدالقادر يونس•

المرة الأولى التي شاهدت فيها الدكتور مصطفى سويف كانت في أواخر عام ١٩٦٩ كنت يومها طالبا في قسم الفلسفة وعلم النفس بجامعة القاهرة، وكنت شغوفاً بفلسفة العلم وبالوضعية المنطقية على وجه التحديد وكنت قد التحقت بقسم الفلسفة طمعاً في دراسة أكثر تعمقاً لفلسفة العلم. ولكن آمالي أصيبت باحباط كامل عندما تعرفت على ما يدرس من فلسفة في القسم آنذاك، إذ لم أجد أستاذاً واحداً في القسم يتبنى الاتجاهات الفلسفية الوضعية بل بالعكس الكثيرون كانوا يستبعدونها، ويقللون من قيمتها وكنت في حالة من القلق والتبرم وعدم اليقين مما لم أخبره من قبل. وكان مصطفى سويف آنئذ مديراً مؤسساً لأكاديمية الفنون بالندب من الجامعة، وذات يوم أخبرتنا الأستاذة الشابة التي تدرس لنا «مدخل إلى علم النفس» أن سيزورنا اليوم استاذها مصطفى سويف، وسيحدثنا عن آفاق التخصص، والمشروع المزمع لفتح الدراسة في شعبة أكثر تخصصاً في علم النفس..



كانت كل فكرتي عن علم النفس في هذا الوقت لاتتجاوز شذرات قرأتها عن فرويد والتحليل النفسي، وكان اعتقادي - بناءً على توجهي الوضعي المنطقي - أن هذا ليس علماً، إذ لا يخضع للتجريب، ولايمكن تكذيبه. دخل الأستاذ علينا في ذلك الصباح، أنيقا مهيباً، وبدأ حديثه عن ماهية علم النفس المعاصر، وكيف يفكر العلماء النفسيين في

• أستاذ علم النفس - جامعة القاهرة





سلوك الكائن الحى، وكيف يصلون إلى نظرياتهم وكيف يستطيع دارس السلوك البشرى أن يستخدم المنهج العلمي بعناصره وشروطه ليصل إلى فهم أعمق لهذا السلوك وأن هناك شروطاً ينبغى أن تتوافر فى الدارس الجاد للتخصص أهم هذه الشروط وأولها التمكن من المنهج العلمى بعنصريه الرئيسيين: الملاحظة المنظمة والاستنتاج المنظم، ثم الدافعية المرتفعة التى تجعل محب العلم يستغنى به عما عداه .

وقعت عندها فى محبة علم النفس والأستاذ معاً، ومازلت. تخرجت من الجامعة فى صيف ١٩٧٢ وعملت فوراً مع الدكتور سويف كمعيد فى علم النفس الإكلينكى، وبدأت صحبة استمرت حتى اليوم، كان فيها المعلم والمرشد، والراعى، والأب، والصديق، وأهم من اهتم برأيه فى وفيما أعمل حتى اليوم ولا أظن أننى مبالغ فى كل هذا فجميع من عرفوه وتتلمذوا على يديه سواء ظلوا أم فارقوا، سواء اتفقوا أم اختلفوا، يشعرون تجاهه بدرجات متفاوتة من نفس المشاعر ويفخرون بأنه علمهم وبأنه رعاهم يوماً .

مصطفى سويف

أول ما يلفت الانتباه فى شخصيته هو الإخلاص الشديد لما يعتقد أنه الصواب وتكريس كل طاقته له

أول ما يلفت الانتباه فى شخصيته هو الإخلاص الشديد لما يعتقد أنه الصواب وتكريس كل طاقاته له فى مقدمة واحد من أهم كتبه : التطرف كأسلوب للأستجابة بمقولة لاوتسى :

«عندما يسمع معلم من درجة عالية بالطريق فهو يحاول أن يسير على هداه»

وعندما يسمع معلم من درجة متوسطة بالطريق، فهو يسير عليه مرة، ويتخلى عنه مرة .

«أما عندما يسمع معلم من درجة دنيئة بالطريق، فإنه يضحك عليه بغير صوت مسموع ».

هذا التوجه نحو الاقتناع ثم العمل ثم سد كل الثغرات التى قد تعوق التقدم فى العمل،هو ما ميز هذا العقل الجميل طوال رحلة حياته .

فى حوار معه فى سنة ١٩٨٧ أجريته لحساب الدورية البريطانية للإدمان، سألته: «فى شبابك الباكر كتبت الشعر والقصة القصيرة، ثم توقفت عن هذه الكتابة فجاة فلماذا؟» أجاب «وجهت فى مرحلة معينة من نموى العقلى بصراع بين ميولى الأدبية والمسيرة البحثية التى انتويت أن أختطها، وكنت إذ ذاك فى

التاسعة عشرة أو فى العشرين من عمرى وشعرت حينذاك أننى قد لا استطيع أن أتميز فى أى من المجالين. فى الوقت ذاته كنت خائفاً أشد الخوف من أننى قد أسئ الاختيار بينها، وكانت هذه أزمة حقيقية بالنسبة لى، مليئة بأنواع التردد والقلق انهيتها بقرار اتخذته بأن أكرس إنتاجى الإبداعى للبحث العلمى ولكى أحصن نفسى ضد الانتكاس إلى ما يشبه تشككى وترددى السابقين، جمعت كل ما أنتجت باسم الإبداع الأدبى وأحرقته، وكانت النتيجة أننى لم أنتكس أبداً بعد ذلك ».

وهو لم ينتكس أبدا بعد ذلك ظل لأكثر من ستين عاماً بعدها، وحياته ووجوده كله مكرس – بصرامة مذهلة – لإنتاج المعرفة وتعليمها، وإنشاء وإدارة صروح علمية ينصب نشاطها فى هذا الاتجاه، والدفاع عن قضايا العلم والتعليم، والمشاركة المكثفة – المرشدة بالعلم الرصين – فى هموم وقضايا المجتمع .

إذا أردنا أن نحيط بإنجازات مصطفى سويف واجهتنا صعوبتان أساسيتان: الأولى أنه إنتاج – رغم أنه كله يدور حول العلم – شديد التنوع، والثانية أنه ضخم جداً بحيث تستحيل الإحاطة به كله فى هذه العجالة .

فإذا بدأنا بمجال البحث العلمى الميدانى المتخصص وجدنا كما هائلاً من الدراسات والأبحاث بدءاً من رسالته للماجستير فى الإبداع الفنى (١٩٤٩) التى مثلت علامة فارقة فى بحوث الإبداع وظلت حتى اليوم مرجعاً أساسيا لدراسيه إلى بحوثه الحالية فى تعاطى المخدرات عند الشرائح المختلفة من المجتمع المصرى. فيما بين ذلك عشرات من الدراسات النفسية المنظمة فى مجالات عديدة أهمها الإبداع، والشخصية، والمرض النفسى، وتعاطى المخدرات .

أسس الإبداع

فى مجال الإبداع تلك دراسته الرائدة عن الإبداع فى الشعر مشروع بحثى متكامل ومتواصل، من خلاله وبإشرافه مع تلاميذه، أجابت الدراسات التى أجريت من خلال هذه المشروع على أسئلة من قبيل ما هى أسس الإبداع الفنى فى الفنون والآداب المختلفة مثل: الرواية والقصة القصيرة والفنون التشكيلية والمسرح؟ وما هو الفرق فى طبيعة عملية الإبداع بينها وبين بعضها البعض؟ ما هى العلاقة بين القدرة على الإبداع لدى الأفراد العاديين وبين سمات الشخصية؟ وكيف يؤثر السياق النفسى الاجتماعى على الإبداع؟ وهل هناك فروق بين الجنسين فى القدرات الإبداعية؟ وهل يرتبط الإبداع بالمرض العقلى فإذا ارتبط فما طبيعة العلاقة بينهما؟ وما طبيعة العلاقة بين الإبداع وتعاطى المخدرات؟ .. كل هذه أسئلة وجدت إجاباتها من خلال بحوث سويف وتلاميذه.

وفى مجال بحوث الشخصية كانت البذرة الأولى هى دراسته الرائدة أيضا فى رسالته للدكتوراة (١٩٥٤)«الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى» وتقنيه مفاهيم التوتر النفسى، والتطرف وتلى ذلك سلسلة من الدراسات، له أولاً، ثم تحت إشرافه



بدأت بسلسلة من الدراسات عن التطرف فى الاستجابة، وهل هو سمة فى الشخصية؟ وكيف يرتبط بمفاهيم مثل الانتماء إلى جماعات فاشية؟ وما علاقته بتصلب السلوك؟ ثم انتقل إلى الإشتراك مع استاذه فى جامعة لندن، هانز أيزنك فى سلسلة من الدراسات الحاسمة فى تأسيس واحد من أهم أطر فهم الشخصية الإنسانية المعاصرة أو ما يسمى بنموذج الأبعاد الثلاثة للشخصية، والذى يفترض أبعاداً ثلاثة عريضة تنتظم فى إطارها الشخصية الإنسانية، الانبساط - الانطواء، والعصابية - الاتزان الوجدانى، والذهانية - السواء ونشرت هذه الدراسات فى كتاب معلمى فى منتصف الستينيات من القرن الماضى ثم انتقل إلى سلسلة من الدراسات التى تحاول النظر فيما إذا كان هذا الإطار لوصف الشخصية قابل لتفسير الشخصية فى مجتمعنا المصرى ثم قدم بعد ذلك سلسلة من الدراسات النظرية لعل أهمها ما قدم إطاراً اساسياً للشخصية القومية المصرية، ونموذج نظرى للياقة النفسية.

توظيف العلم

وفى مجال المرض النفسى ينشر مجموعة من الدراسات توصل - للمرة الأولى فى مصر - لما يسمى بعلم النفس المرضى التجريبى ExpERiMENTAL psycHopatHology فيبرس تأثير الأدوية على المرض النفسى، واختلال الذاكرة والذكاء والإدراك وقدرات الإبداع المختلفة عند المرضى النفسيين ويشرف على مجموعة ضخمة من الدراسات التى تناولت جوانب عديدة من الأعراض المرضية النفسية.

أما اسهاماته فى مجال بحوث المخدرات فتمثل نموذجاً فريداً فى توظيف العلم لخدمة المجتمع، وفى بناء المدرسة العلمية، وفى إمكانيات العمل فى ظل ظروف معاكسة، وفى إنجاز بحوث على أعلى مستوى من الكفاءة العلمية فى ظل أدنى الإمكانيات المادية وهى تمثل، فى رأيى عبقرية سويف العلمية والتنظيمة وتجلى سجاياه فى أبهى صورها: الإصرار، والمثابرة، وإتباع الطريق عندما يعلم، والقدرة على القيادة العلمية والمنهجية الصارمة.

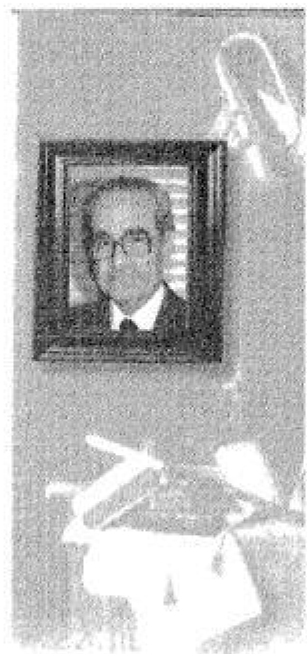
بدأت بحوث تعاطى المخدرات فى مصر عندما شكل المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عام ١٩٥٧ لجنة لدراسة «مشكلة ظاهرة تعاطى الحشيش فى مصر» وكان سويف عضواً فاعلا فيها فاعلاً لدرجة أنه كتب بنفسه التقريرين الوحيدين اللذين

● إسهاماته فى مجال بحوث المخدرات تمثل نموذجاً فريداً فى توظيف العلم لخدمة المجتمع

صدرا عن هذه اللجنة (١٩٦٠ ، ١٩٦٤) وتناولا تكوين اداة البحث على شكل استمارة استبار، ثم إجراء بحث استطلاعي على عينة من مدينة القاهرة ثم فضت هذه اللجنة وأعيد تشكيل لجنة جديدة للبحث ١٩٦٥ برئاسته ليبدأ في إجراء دراسة نفسية موسعة على ٨٥٠ من متعاطي الحشيش (ونفس العدد تقريباً من غير المتعاطين) وتطورت هذه اللجنة إلى ما يسمى «البرنامج الدائم لبحوث تعاطي المخدرات في مصر» والذي ظل ينتج بحوثا نظامية على أعلى مستوى حتى الآن وتخرج منه العديد من الباحثين المتميزين يقودون الآن في مجالات هامة من علم النفس في مصر. أجريت بحوث تتصل بتأثيرات الحشيش على السلوك الاجتماعي وعلى الأداء المعرفي لمتعاطيه وأخرى عن ثقافة المخدرات وطرق تعاطيها، والعوامل التي تدفع إلى هذا التعاطي، وإلى الاستمرار فيه، وإلى العودة بعد انقطاع. وبحوث تهدف إلى دراسة انتشار تعاطي المخدرات بين الفئات المختلفة من الجمهور تلاميذ الثانوي، والجامعة، والعمال، والفلاحين تميزت هذه الدراسات بأنها مجراه على عينات في غاية الضخامة وتمثل المجتمع تمثيلا دقيقاً وتتناول بالإضافة إلى تحديد مدى انتشار تعاطي المخدرات مئات من المتغيرات التي ترتبط بالتعاطي كالظروف الأسرية، والحالة الصحية الجسدية والنفسية، والميل إلى الوقوع في مشكلات وتأثير وسائل الإعلام على التعاطي، وتأثير جماعات الأصدقاء، وظروف العمل، وغير ذلك كثير، مما وفر كماً من المعلومات والتصورات بشكل رئيسي في أن يقود مصطفى سويف مجموعة من المستشارين العلميين، بتكليف من المجلس القومي للإدمان للتوصل إلى استراتيجية شاملة لمكافحة الإدمان في مصر وهو ما خرجوا به عام ١٩٩٥ ولكن للأسف، كانوا يغزلون غزلاً رفيعاً بلا نساجين وقد تمخض ذلك المشروع العبقري عن ثمار عظيمة إذ جسد، لأول مرة في مصر، إمكانية أن يعمل فريق بحثي متكامل لفترة طويلة من الوقت (قرابة أربعين عاماً)، وبصورة نظامية مخططة وتراكمية، في مشروع بحثي محوري والفضل الرئيسي - بل والوحيد - في هذا يعود إلى مصطفى سويف، بقدرته الفذة على قيادة الرجال وحنكته الاجتماعية، وإصراره الهادئ والمستمر. وأدى البرنامج أيضاً إلى وضع مصر على الخريطة العالمية لبحوث المخدرات، ليس كطرف متواضع، بل نجماً باهر السطوع تنتظر الدوريات العلمية المحترمة البحوث الآتية منه، ويدعى رئيسه مصطفى سويف ليكون خبيراً أساسياً في مجال المخدرات، ويقدم شهاداته العلمية في الكونجرس الأمريكي وأكاديمية نيويورك للعلوم وغيرها من المنابر. كذلك كان هذا المشروع العملاق بمثابة مدرسة علمية مزدهرة تضم ذخيرة من الباحثين الشبان (بعضهم فارق الشباب!!) يتدارسون ويتعلمون المنهجية المنضبطة وينتجون العلم لمصلحة الوطن، ثم ينتشرون في ربوع مصر، ينشرون المعرفة، ويواصلون العلم والتعلم .

حزمة من القيم

عندما احتفلنا في كلية الآداب جامعة القاهرة منذ أسابيع بعيد مولده قلت في



الجلسة الأفتتاحية ما معناه: إننا عندما نكرم مصطفى سويف فإننا نحتفي، إلى جانب الشخص بمجموعة من القيم التى تستوجب الإحترام والتقدير، أول القيم التى يمثلها سويف هى قيمة الالتزام الوطنى ظل سويف خادماً مخلصاً أميناً لهذا الوطن على مدى عمره يخدم قضاياه بعلمه وبتفكيره وبعمله اليومى، لايغادر إلا ليزيد من قدرته على مواصلة هذه الخدمة، رافضا كل الإغراءات بالخروج، من وظائف مرموقة، وميزانيات بحثية هائلة، ومقاوماً لكل عوامل الطرد الداخلى من نقص الموارد، وضعف الرواتب وعذابات البيروقراطيات الخانقة للعلم والعلماء الحقيقيين.

ثانى هذه القيم هى الالتزام بالمنهج يستعين سويف فى مقدمة واحد من أهم كتبه بمقولة بيكون «ونحن على يقين من طريقنا لا من موقفنا» المنهج العلمى المنضبط هو النبراس فى حياة سويف العلمية، ليس المنهج العلمى عنده مجرد خطوات تتبع فى تعاقب منتظم، وإنما هو بناء متكامل من التجريب والنظر معاً، من التجربة والنظرية والتجريب عنده هو الاتصال المنظم بما يوجد فى الواقع، هذا الاتصال لابد أن يوجهه النظر، والنظر عنده يتضمن تكوين الأفكار الأولية وبلورتها فى صورة فروض إلى أن تصل إلى نظرية أو نموذج وقد قدم سويف الكثير من النماذج النظرية بدءاً من تصوره عن العلاقة بين التطرف والهامشية الإجتماعية والنفور من الغموض والتصلب، إلى التصورات التى قدمها عن العلاقة بين مستويات الاستثارة فى المخ وبين كفاءة الأداء العقلى لدى متعاطى الحشيش، ونظريته فى الشخصية القومية، وغير ذلك كثير هذا الاهتمام الشديد بقيمة المنهج يتكشف فى بحوث مصطفى سويف الميدانية بصورة جلية حين تقرأ الأجزاء الإجرائية فيها، وكيف لايترك شاردة ولا واردة فيما يتعلق بتفاصيل أساليب القياس والضبط التجريبى، وتحوطات تفسير النتائج إلا ويناقشها مناقشة مستفيضة، بما يجعل هذه الأجزاء فى كتاباته مصدراً أساسياً لنا نحن المتخصصين للأستزادة من العلم فى أمور المنهج .

القيمة الثالثة التى تتمثل فى مصطفى سويف هى قيمة البناء. أنشأ قسم علم النفس بجامعة القاهرة (١٩٧٤) ليخرج علم النفس من مجرد شعبة صغيرة يضمها قسم الفلسفة (جامعة القاهرة) أو الاجتماع (جامعة عين شمس) إلى قسم متكامل التخصصات يستطيع أن يسهم بمتخصصين أكفاء فى حركة المجتمع إلى الأمام، وأنشأ أيضا تخصص الأخصائى النفسى فى وزارة

○ خرج بعلم النفس من مجرد شعبة صغيرة يضمها قسم الفلسفة إلى قسم متكامل التخصصات



الصحة، ليجعل من هذا التخصص الهام لمصلحة المريض النفسى وظيفة معترف بها فى مستشفيات الصحة النفسية، ويقود بصفته مستشارا لوزير الصحة لشئون الخدمة النفسية حركة مستمرة وهادئة، بين أنواء البيروقراطية والتعصب المهنى الضيق، نحو مزيد من الاعتراف بدور علم النفس فى الصحة النفسية، وأهمية التخصص فى مساعدة المريض النفسى وقد شارك مع الدكتور ثروت عكاشة فى أواخر الستينيات فى إنشاء أكاديمية الفنون لتنظيم المعاهد الفنية العليا القائمة آنذاك فى إطار قانونى تنظيمى واحد مماثل لتنظيم الجامعة ثم أدارها لفترة فى طفولتها الأولى وقد نمت هذه المؤسسة بفضل ما وضع لها من ضوابط، وما خطط لمستقبلها لتصبح مؤسسة رائدة فريدة فى نوعها وفوق هذا كله أنشأ البرنامج الدائم لبحوث تعاطى المخدرات الذى سبق ذكره .

أما القيمة الرابعة فهى قيمة التعليم ولا أقصد بالتعليم فقط التدريس النظامى فى الجامعة، وقد كان ويظل هو «الأستاذ» الذى لايبارى بل تمتد هذه الوظيفة إلى مجالات أرحب وأعمق ويتمثل هذا فى جانبين، الجانب الأول هو صناعة العلماء، أجيال تتلوها أجيال من الباحثين المتميزين فى علم النفس والطب النفسى المعاصر نشئوا علمياً على يد هذا الأستاذ الفذ يكسبهم علاقة تكاد تكون عاطفية بالمنهج العلمى، وحرص أخلاقى عليه (يرى سويف أن إتقان البحث واجب من أهم الواجبات الأخلاقية للعالم)، ويكسبهم دراية بالعلم العالمى المعاصر، ويكسبهم حباً للاستزادة الدائمة، ويكسبهم تواضع العلماء : تواضع الحفاظ على الكرامة الشخصية والإحساس الدائم بنقص العلم والمعرفة. وفوق هذا وذاك يكسبهم حب العطاء الإنسانى والعلمى .

أما الجانب الثانى فهو تعليم المجتمع، منذ بداياته الأولى - فى الأربعينيات من القرن الماضى - حرص سويف على هذا الواجب المقدس أن يحيط المواطن العادى بالعلوم النفسية الحديثة، وما يمكن أن تقدمه للوطن من خدمات، وأن يدلى بدلوه فى مشاكل وهموم الوطن بصورة علمية واضحة وصفحات الهلال الغراء تشهد على هذا الإنجاز بصورة واضحة .

وهناك قيم أخرى كثيرة... الانضباط فى العمل، احترام الوقت، الأمانة العلمية، التجرد من التحيز والتعصب البغيض، احترام عقول الآخرين، نستطيع أن نكتب فيها بمزيد من التفصيل لو سمح المجال .

جماع القول أننا أمام ظاهرة وطنية قل أن تجود بها الأيام، وأننى أشعر بعظيم الفخر والسعادة وحسن الطالع أننى عاصرت مصطفى سويف، وتتلمذت على يديه، وشرفت بصحبته ورعايته، وقرأت ما كتب، ورأيت كيف يسلك، وأرجو أن يكون سعيداً بى بمثقال من كل ذلك . ■

الصديق الذى غاب شخصه

الدكتور احسان عباس

بقلم

د. حسين نصار

غريب أن يحتار شخص مثلى - قضى عمرا مديرا فى الكتابة للصحف والمجلات - فى وصف ما يريد كتابته لمجلة الهلال الغراء ، فهو يعرف معرفة يقينية أنه ليس بحثا علميا ، لأن :

- شخصا أعطى ما أعطاه إحسان عباس للحياة العلمية والثقافية لا يمكن أن يوفيه حقه من البحث الجاد بحث واحد : مقالا كان أو كتابا ، بل يقتضى العلم أن يقتصر كل بحث على مجال واحد من تلك المجالات التى أبدع فيها.

- وأن تلك المجالات لا تقتصر على واحد من أقطار العروبة بل تمتد وتتسع امتداد العالم العربى واتساعه فى أزهى عصوره ، ولا على واحد من العلوم أو الفنون التى أبدع فيها الفكر العربى، ولا على واحد من عصور العروبة الزاهرة .



ويعرف معرفة مؤكدة أنه ليس رثاء لفقيد، لأن ما منحناه من إنتاج وافر ثرى ضمن لاسمه البقاء الأبدى بين الأسماء التى تزهو بها العروبة. وإنما فقدنا وجهه البشوش، وبسمته الودود، وشخصه الحبيب؛ فقده الجيل الراهن وحده.

وإذن فلأسم ما أكتب بأنه كلمات، قد تكون بينى وبين إحسان، وقد تكون بينى وبين القراء. والمؤكد أنها عنه.

ذلك هو إحسان رشيد عبدالقادر عباس، الذى ولد فى قرية عين غزال، من قرى مدينة حيفا بفلسطين، فى ٢ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٢٠.

إحسان فى سطور

تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى حيفا وعكا، ثم التحق بالكلية العربية بالقدس، فحصل على دبلوم التربية سنة ١٩٤١، فعمل مدرسا فى المدرسة الثانوية بمدينة صفد من ١٩٤١ إلى ١٩٤٦.

وفى تلك السنة جاء إلى مصر، والتحق بقسم اللغة وآدابها فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، فحصل على الليسانس فى ١٩٤٩، وواصل دراساته العليا فيها، فحصل على الماجستير سنة ١٩٥١، عن رسالة بعنوان «حياة الشعر العربى فى صقلية» تحت إشراف الأستاذ أحمد الشايب والدكتور شوقى ضيف. ثم حصل على الدكتوراه فى سنة ١٩٥٤ عن رسالة بعنوان «نزعة الزهد وأثرها فى الأدب العربى» تحت إشراف الأستاذ أحمد الشايب أيضا.

وفى مطلع سنة ١٩٥١ سافر إلى السودان، والتحق بالتدريس فى كلية غوردون بالخرطوم، التى سميت فيما بعد كلية الخرطوم ثم جامعة الخرطوم. وكان عمله فيها بتوصية من الأستاذ أحمد أمين.

وفى سنة ١٩٦١ انتقل إلى بيروت حيث عمل فى الجامعة الأمريكية، وترك بيروت إلى عمان فى ١٩٨٦ حيث عمل باحثا متفرغا فى الجامعة الأردنية.

ولبى دعاء ربه فى الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء ٢٩ يوليو ٢٠٠٢.

وفى أثناء وجوده بالخرطوم درس بفرع جامعة القاهرة هناك، وعندما كان بلبنان ألقى محاضرات فى عدة جامعات أمريكية وعربية، وشارك فى وضع خطط فيما أنشئ فيها من جامعات جديدة.

وحصل على:

جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب ١٩٨٠.

وسام المعارف اللبنانى ١٩٨١

جائزة جامعة كولومبيا (نيويورك) فى الترجمة ١٩٨٣

وسام القدس من منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨٨.

جائزة سلطان العويس الثقافية للنقد العربى ١٩٩٢.

واختير عضوا فى:

جمعية النقد الأدبى

جمعية المستشرقين الألمان

المجمع العلمى الهندى

مجمع اللغة العربية بالقاهرة

مجمع اللغة العربية بدمشق

مؤسسة آل البيت فى عمان

النادى العربى الأسبانى فى مدريد

روافد متعددة

وقد جمع إحسان عباس بين الإبداع الفنى والعلمى. فقد بدأ حياته شاعرا، استمر يقرض الشعر من ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٨، حيث اخر سنة النكبة الفلسطينية، كما قال: «كنت أنظر إلى هول الكارثة التى حلت بوطنى، فأجدها أعظم من أن يصورها الشعر. ومع ذلك

أرى أنه لا قيمة لشعر غارق في الذاتية والأحزان الخاصة ، إذا أنا لم أحاول توجيه الشعر نحو تلك المشكلة العامة .

وفي أخريات حياته جمع ما قال من شعر في هذه المدة القصيرة ، وأصدره في ديوان سماه «أزهار برية» في سنة ١٩٩٩ .

ويكشف ديوانه عن شاعر عمودي رومانسي ، متأثر بشعراء المهاجر العربية ومدرسة أبولو والرومانسيين الإنجليز والشعر الرعوي الاغريقي واللاتيني ، وبالأساطير الأوروبية والسامية . ومحاولات التجديد في إطار الشعر العمودي .

وقد لفت هذا الشعر أنظار بعض الدارسين والنقاد . فأخضعته الباحثة لانا مامكج لدراسة بعنوان «شعر إحسان عباس : دراسة تحليلية» نالت عليها درجة الماجستير سنة ١٩٩٦ .

وكتب في السيرة الذاتية كتاب «غربة الراعي» . وأكثر من كتابه البحوث والمقالات النقدية في مجلات مصر ولبنان والأردن والسودان . وترجم في فن القصة رواية «موبي ديك» لهرمان ملفل ، ترجمة أشاد بها كل من أطلع عليها .

أما الإبداع العلمي فحدث عنه ولا حرج ، فلن ترمى بالمبالغة مهما قلت . لقد كان مؤرخا وناقدا للآداب العربية خاصة ، والثقافة العربية عامة ، القديم والحديث ، ومحققا للتراث المخطوط .

ألف اثنين وعشرين كتاب أظلمها لو التقطت كتابا منها وخصصته بالذكر ، فكلها يستحق الاختيار ، فقد كان فيها الدارس الواعي ، المستقصي للمصادر ، المحيط بالمجال الثقافي العام والخاص ، الموضوعي التفكير ، صاحب العبارة المتزنة المقنعة .

وحقق – منفردا أو مشتركا – خمسين كتابا : منها ما لا يضم إلا مجلدا واحدا ، ومنها ما ضم ثمانية مجلدات . وكان رأسا في التحقيق ، له بصماته التي تميزه عن غيره من الشرقيين والغربيين .

وترجم سبعة كتب تدل في وضوح على سيطرته على اللغتين العربية والإنجليزية ، مما يجعل القارئ كأنه يطالع كتابا كتب أصلا باللغة العربية .

أما إحسان عباس الإنسان فقد أفاض تلاميذه – بحق – في الثناء . وأكتفي باقتباس كلمات قلائل :

قال : د. هشام نشابة : «أستاذنا إحسان عباس ظل يعلم حتى آخر لحظة في حياته ، يعلم الأدب والتاريخ والوطنية وحب الحياة ، لم تفارقه الابتسامة الحلوة والدعابة المليحة ، كما لم يفارقه الحزم والرأي السديد والفكرة المبدعة» .

وقال الروائي إلياس خوري : «كان أستاذا أولا . لقب الأستاذ يليق به ، لأنه جمع إلى التواضع شغفا بالمعرفة، وطاقة على العطاء جعلته أهلا لأن يكون أستاذا حتى لمن لم يتتلمذ على يديه .. الدارس والباحث في الأدب العربي الحديث والتراثي ، الناقد والمحقق ، المترجم وكاتب السيرة الذاتية ... هذه الصفات كانت أسماء مستعارة لصفة واحدة التصقت بإحسان عباس : الأستاذ . لم يكن عباس أستاذي ، لكنى كنت تلميذه ، حتى لدى مخالفتي رأيه ، كنت أشعر أني في حضرة أستاذ كبير . والأساتذة لا يموتون حين يموتون» ■

عن المعاجم

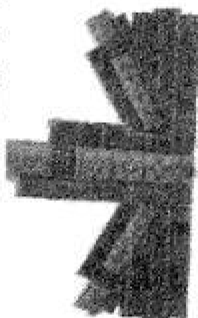
بقلم
وديع فلسطين

هذا حديث أرسله كيفما اتفق عن المعاجم، ومنها معاجم تقتصر على اللغة، ومعاجم بين لغتين أو أكثر، ومعاجم للمصطلحات ومعاجم في موضوعات متخصصة، وقد استعنت بها جميعا في مآرب الحياة كتابة وترجمة وتدقيقا للبيانات.

كان أول عهدي بالمعاجم عندما التحقت بمدرسة الجيزة الابتدائية الأميرية في عام ١٩٣٠ وكان عمري وقتها سبع سنين، وفي اليوم الأول من بداية الدراسة وزعت علينا المدرسة الكتب المقررة على السنة الأولى الابتدائية ومن جملتها معجم «مختار الصحاح» الذي أثقلنا حملة وأدهشنا بعد ذلك أننا لم نستخدمه طوال السنة الدراسية، بل طوال الدراسة الابتدائية ثم الثانوية بعد ذلك، ولا أعاننا مدرسو اللغة العربية على إدراك قيمة هذا الكتاب بعنوانه الملغز ولأن الدراسة في جميع المراحل لم تستدع الرجوع إلى هذا المعجم، فقد بقي يحتل رفا في المنزل لا يكاد يغادره.

ولكن الحاجة إلى معجم لم تظهر إلا بعدما قطعت شوطا في تعلم اللغة الانجليزية التي كانت مقررة علينا منذ السنة الأولى في المرحلة الابتدائية. فقد بدأت الكلمات الانجليزية غير المألوفة تظهر، ولا سيما في الروايات المقررة علينا في المرحلة الثانوية، وكان لابد من الاستعانة بمعجم انجليزي/ عربي لفهم معناها.

ولهذا فرحت فرحة غامرة عندما أهديت نسخة من معجم مدرسي لإلياس أنطون إلياس بقسميه الانجليزي/ العربي والعربي/ انجليزي، وهو معجم عملي بالنسبة لطالب ثانوي، ولكنه لا يصلح لطالب جامعي يتلقى جميع دروسه باللغة الانجليزية بما فيها الأدب الانجليزي والفلسفة والاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع إلى جانب علوم الصحافة التي أتخصص فيها.



ومن حسن الحظ أن مكتبة الجامعة كانت مسعفة لي، لأنني وجدت فيها نسخا من «القاموس العصري» لإلياس أنطون إلياس، وهو أول قاموس يصدر باللغتين، وإن كان سبقه قاموس لخليل سعادة (والد أنطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري) ولكنه كان نافدا كما كان محدود المادة نسبيا.

واشتدت حاجتي إلى المعاجم عندما اشتغلت مترجما في الصحف، ولكن الجريدة التي عملت فيها كانت توفر لنا نسخا من معاجم إلياس أنطون إلياس سواء باللغتين الانجليزية والعربية أو باللغتين الفرنسية والعربية التي كان يعدها شقيقه متري إلياس. وكانت عملية صنع المعاجم مما استهوله، فلابد أن أصحاب هذه المعاجم صنف خارق للطبيعة من البشر، لأنهم أحاطوا باللغة ومفرداتها واستخداماتها إحاطة تامة جعلت منهم رجالا يأتون بالمعجزات.

وذات صباح زارني في مكتبي بالجريدة صديقي سلامة موسى متأبطا مغلفا ضخما قائلا إنه هدية لك من إلياس أنطون إلياس، وكان يضم طبعة جديدة (هي الطبعة الرابعة) من القاموس العصري! يا إلهي، هل وصل خبري إلى هذا العالم الكبير فقرر أن يكرمني بهذه الهدية، لقد أذهلتني المفاجأة لأنني كنت أتصور أن إلياس أنطون إلياس قمة في العلم لا يبلغها أحد، فكيف وصل اسمي إلى برجه العاجي وحرك فيه نخوة الأريحية فأهداني هذا المعجم النفيس؟ لم تسعني الدنيا وقتها، واحتفيت بالطبعة الجديدة من القاموس بمقال أشدت فيه بهذا العالم الكبير الذي وقف كل حياته على إخراج هذه المعاجم متوخيا الدقة المتناهية فيها حتى يتفادى أي خطأ مطبعي أو هجائي أو موضوعي.

ولما ظهر المقال، هاتفني إلياس أنطون إلياس شاكرا، ثم دعاني إلى زيارته في المطبعة التي كانت تحتل مبنى متواضعا في أول شارع الخليج المصري (بورسعيد حاليا) في الفجالة. ولم أصدق نفسي وأنا أصافح هذا الرجل العظيم الذي كان له فضل الأستاذية على أجيال كثيرة استعانت بمعاجمه. وكان - على نقيض ما تصورت - شديد التواضع، أشعرني وأنا في العشرينات من عمري بأنني صديق له، بل دعاني إلى زيارته في بيته إمعانا منه

فى رفع الكلفة بيننا.

وانتهزت الفرصة فسألته عن البدايات، وكيف قرر أن يخوض ميدان المعاجم، فقال إنه كان فى مطالعاته يسجل كل لفظة تعرض له ويضع لها مقابلا باللغة العربية ولما اجتمعت لديه كراسة صغيرة من هذه الألفاظ، قرر نشرها وإهداءها إلى المتخصصين الذين وافوه بتعليقاتهم وتوجيهاتهم عليها، فأخذ يتوسع فى مادة هذه الكراسة شيئا فشيئا، مستدركا فى كل طبعة جديدة ما فاته فى الطبعات السابقة، ومضيفا إلى كل طبعة ألفاظا سقطت من اهتمامه سهوا حتى أن العلامة العراقى الأب أنستاس مارى الكرملى وصف القاموس بأنه «معجم حى لا معجم ميت». وأخبرنى إلياس أنطون إلياس بأن عمل القاموس كان شغله الشاغل على مدار الساعة، ولهذا كان يضع إلى جوار فراشه كراسة صغيرة وقلما حتى إذا ما تذكر لفظة وهو نائم، نهض وسجلها قبل أن تفلت منه.

وفاجأنى إلياس أنطون إلياس بأن عرض علىّ أن أعمل معه فى صناعة المعاجم، فقلت له: إننى أراجع قاموسك أربعين مرة فى اليوم، وربما أكثر من ذلك، فكيف تتصور أننى أصلح مساعدا لك؟!. فقال: سأدربك على هذا العمل، لأننى أقوم به بمفردى، وقد وصلت إلى أعتاب الشيخوخة التى أخشى أن تحول بينى وبين مواصلة العمل، فقلت له: يا أستاذى العزيز، إننى شاكر لك ثقتك الكريمة ولكننى أعرف حدودى وإمكاناتى، ولا أظن أننى أصلح لمثل هذا العمل، بل المؤكد أننى سأكون عالة عليك وعلى علمك عوضا عن أن أكون عونا لك، ثم وعدته بأن أفكر فى الموضوع، فجاءت وفاته فى عام ١٩٥٢ عن ثمانين عاما لتعفينى حتى من التفكير الذى وعدته به.

مشروع مجهض لمعجم انجليزي- عربي

وبعد سنوات تلقيت رسالة من أستاذى فؤاد صروف، وكان يعمل وقتها نائبا لرئيس جامعة بيروت الأمريكية، قال فيها إن هناك مشروعا لإصدار أكبر معجم انجليزى/ عربى بتمويل مشترك من مؤسسة فورد الأمريكية وبعض دول الخليج، وسألنى عما إذا كنت أقبل أن أعمل مساعدا له فى هذا المشروع - إذا ما تجسم - وأن أنتقل للإقامة فى بيروت التى ستتخذ مقرا له، فرحبت بدعوته مادام عملى سيقتصر على مراجعة تجارب الطبعة فى حين يضطلع سواى من المتخصصين بالعمل المعجمى. ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح، لأن التمويل الخليجى امتنع، وانفض السامر.

أصدقائي من أصحاب المعاجم

وقد أكرمنى الله فعرفت عددا من صناع المعاجم على اختلاف توجهاتها، منهم الأمير مصطفى الشهابى صاحب المعاجم الزراعية والجراحية،



والدكتور مجدي وهبة وله عدة قواميس لغوية ومتخصصة، ومنير البعلبكي صاحب معجم «المورد» و«موسوعة المورد»، وإسماعيل مظهر صاحب «قاموس النهضة» بجزئيه، وأحمد شفيق الخطيب صاحب المعاجم العلمية الضخام، والدكتور جميل صليبا صاحب «المعجم الفلسفي» بجزئيه، والدكتور حسين مجيب المصري صاحب معجمات اللغتين الفارسية والتركية، والدكتور حسني سبح صاحب المعجم الطبي، والدكتور أحمد عمار صاحب معجم أمراض النساء، ومكرم عطية صاحب معجم البترول، والدكتور سهيل إدريس صاحب معجم المنهل، والدكتور رءوف سلامة موسى صاحب معاجم «المستقبل» والأمير يحيى الشهابي صاحب معجم مصطلحات الآثار.

وهناك معاجم أسميها معاجم موضوعية لأنها لا تعنى بالألفاظ قدر عنايتها بموضوعات تخصصها، وقد عرفت من أصحابها محمد العدناني صاحب معاجم الأخطاء الشائعة، والدكتور بدوي طبانة صاحب معجم البلاغة، وروكس بن زائد العزيزي صاحب «قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية» ويوسف أسعد داغر صاحب معجم «الأسماء المستعارة» و«معجم المسرحيات العربية والمعربة» و«قاموس الصحافة اللبنانية»، وكوركيس عواد صاحب معجم «المؤلفين العراقيين» ومحمود تيمور صاحب «معجم ألفاظ الحضارة».

ويلاحظ من هذا السرد، وقد قصرته على صناع المعاجم الذين عرفتهم، أن عمل المعاجم هو جهد فردي وليس جهدا جمعيا، في حين أن المعاجم الأجنبية لا ينفرد بإعدادها شخص واحد، وإنما يتوافر على صنعها فريق من الباحثين المتخصصين الذين يحشدون جهودهم لإخراج عمل متقن يورث الثقة لدى كل من يستخدم المعجم. وهم لا يكتفون بذلك، وإنما يعيدون النظر كل فترة في المعجم لكي يضيفوا إليه كل جديد، ولكي يصبح المعجم حيا يلبي احتياجات الطالبين وهو - مع الأسف - ما تفتقر إليه كثرة من المعاجم الخاصة بالمصطلحات التي تتخلف مع الوقت عن متابعة مستحدثات العلم ومسكوكات المصطلحات، وهو ما يشكو منه المترجمون الذين يفتحون القواميس فلا يجدون ضالتهم فيها.

وثمة ملاحظة أخرى، وهي أن معظم قواميس المصطلحات المتاحة تكاد تخلو من المختصرات التي تعاظم سكها بفضل الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات، وإذا كانت اللغة العربية قد تبنت بعض هذه المصطلحات المختصرة مستغنية عن مرادفها الطويل، مثل «اليونسكو» و«الفاو» و«اليونيسيف» و«الأونروا» و«الألكسو» و«الجات» و«الناتو» و«الإسكوا» و«الايجاد» وغيرها من التعبيرات، فإن كثرة كاثرة من

هذه المختصرات تستعصي على المترجمين ولا تسعفهم المعاجم لمعرفة مؤداها.

وقد حاولت من ناحيتي تجميع طائفة كبيرة من هذه المختصرات لفائدتي الشخصية، ولكنني أصطدم في كل يوم بمختصرات جديدة لا سابق عهد لي بها، ولا يساعد السياق على معرفة مؤداها، وهي مشكلة أعتقد أن كثيرين من المشتغلين بالترجمة يواجهونها.

افتقار المعاجم إلى مسارد

ثم إن عددا من معاجم المصطلحات يقتصر على إيراد المصطلح باللغة الانجليزية وما يقابله باللغة العربية، فإن احتاج الباحث إلى معرفة المرادف الانجليزي لمصطلح عربي أعياه البحث، وهي مشكلة يمكن تذليلها بإعداد مسرد للألفاظ العربية يتم فيه رد المصطلح العربي إلى نصه الإفرنجي، ولكن بعض المعاجم فطنت إلى أهمية هذه المسارد، فألحقتها بها تسهيلا للقارئ وتعزيزا لفائدة المعجم أمام الباحثين. وقد وقعت مسارد في معجم «يوسف حتي الطبي» و«المعجم الطبي الموحد»، و«معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية»، و«معجم مجدي الأسيوطي للمصطلحات المصرفية والمالية»، و«القاموس الفريد في المال والاقتصاد» لعبدالله محمد فريد، و«معجم مصطلحات الحاسب الالكتروني» الصادر عن مؤسسة الأهرام، و«معجم مصطلحات العلوم الإدارية» للدكتور أحمد زكي بدوي، و«معجم مصطلحات الأدب» للدكتور مجدي وهبة.

وكان الدكتور يوسف مراد رائد جماعة علم النفس التكاملي يحرص على تذييل كل كتاب يصدره أعضاء الجماعة بقائمة بمصطلحات علم النفس التي سكها هو بنفسه أو اجتهد أعضاء الجماعة في سكها كيما يشيع استخدامها باعتبارها المصطلحات الموحدة المعتمدة في علم النفس.

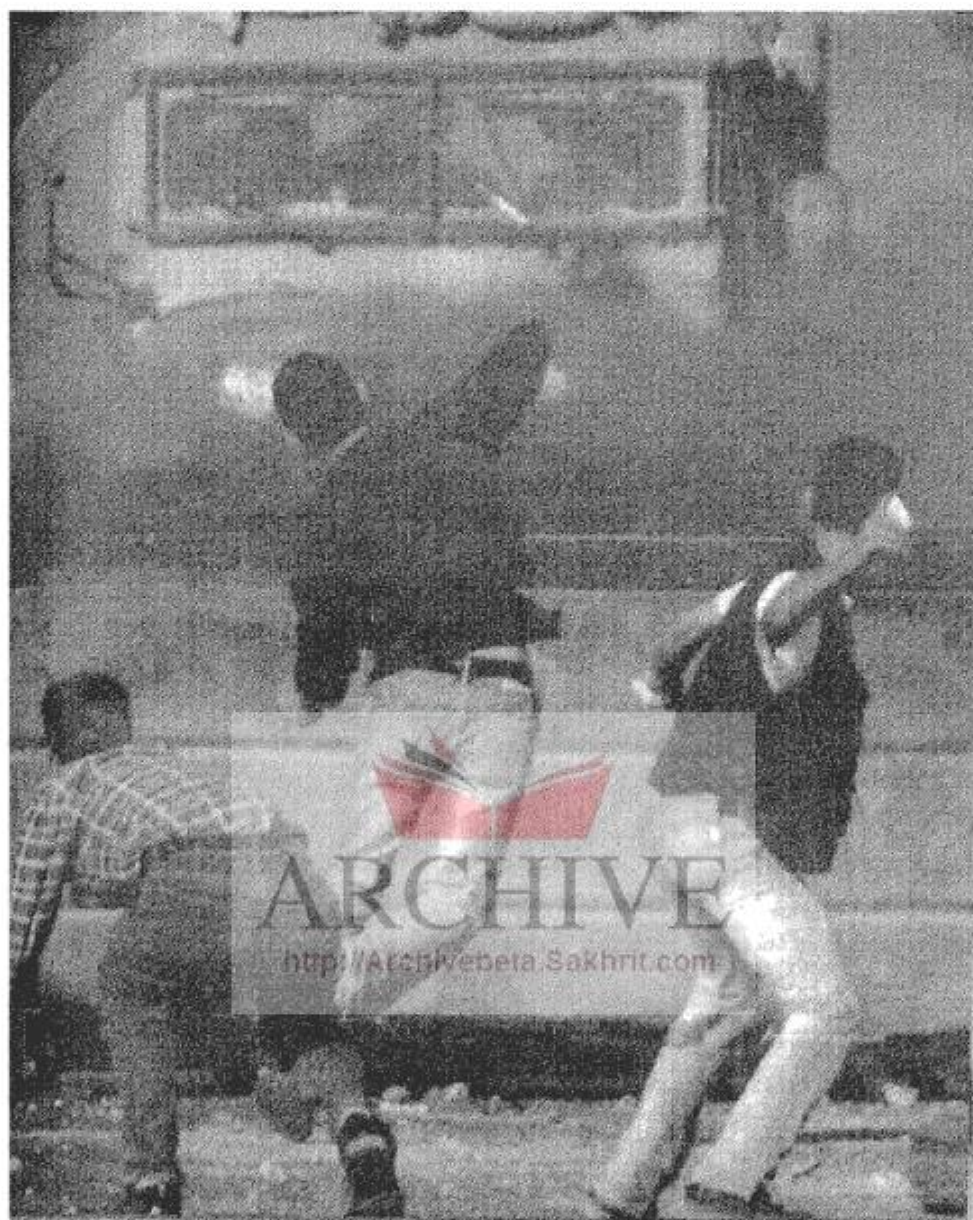
السهو والخطأ

ولأن المعاجم عمل فردي، فهو قد لا يسلم من السهو والخطأ، وعندما قرر ناشرو معجم «المنجد» إلحاق قسم فيه يضم تراجم للأعلام في كل فرع من فروع المعرفة، عهدوا في هذه المهمة إلى «فرديناند توتل» الذي بذل جهدا مقدورا في إعداد هذا القسم، ولكنه تورط في أغاليط انبرى العلامة الأردني الشيخ إبراهيم القطان لرصدها في كتاب ضخم عنوانه «عثرات المنجد» كما نبه إليها محمد عبدالغني حسن في فصول نشرها، وبفضل هذه الاستدراكات صوب ناشرو «المنجد» البيانات الواردة في هذا القسم في الطبعات التالية.

***

وبعد، قد يكون هذا الموضوع جافا، ولكن لعل فيه بعض الفائدة. ومرادنا أن تخضع المعاجم لعملية مراجعة مستمرة لتواكب كل جديد في ميادين المعرفة وتصبح بحق معاجم حية لا تموت. ■





نعدو كغزال تتبعه كل كلاب الصيد

بقلم
صافي ناز كاظم

عام ١٩٧٠ قدم الشاعر الفلسطيني معين بسيسو نص مسرحية «ثورة الزنج» ، للعرض على المسرح القاهرى. وكان تعقيبى المباشر وقتها ، المعبر عن حماسى، أنها باكورة جليلة لمسرح السبعينات العربى . كان قد مضى على هزيمة ١٩٦٧ ثلاث سنوات ، وعلى ضياع الجزء الأول من الأرض المباركة ، فلسطين عام ١٩٤٨ ، ٢٢ سنة. كان معين بسيسو يطرح «حل المقاومة الشعبية» الذى لا بديل عنه ، وكان يرى بوضوح ضرورة استمرارها ويسميها «الثورة» ، كما كان يرى المؤامرات العالمية من أعدائها لعرقلتها ، وبرؤية الشعر حاول أن يصور كل مخاوفه وهواجسه وتوقعاته فى نصه «ثورة الزنج» ، وليجيب عن السؤال : كيف يمكن إنقاذ «المقاومة / الثورة» من الحدأة المتربصة التى تشتهى دائما نهش لحمها الحار لكى يجهض ميلاد التحرير كل مرة .

يصور معين بسيسو الطريقة الأرثوذكسية القديمة التى تتم عادة فى قمع «المقاومة / الثورة» ، ألا وهى أن يأخذ ضارب «المقاومة / الثورة» أولا لون جلدها ليزحف قبل أن يلحظه أحد، وتكون ناصية المعركة عندئذ بيده : فتأخذ أقواله شكلاً ثورياً لتتحرف بالثورة ، وتأخذ الإذاعات والأقلام والكتب وحلقات الدروشة التاريخية و«محاور» البحث ، شكل الاهتمام بثورات التاريخ وسجلاتها وتحورها وتدورها وتخفى وتظهر وتظلل وتبرز وتلعب فى التفصيلات والجزئيات لتشكل وتؤلف من جديد ما يمكن أن تطعن به «الثورات / المقاومة» المعاصرة ، تؤلف فى التاريخ ، وتبعثر فى الحقائق ، وتقلب الأسماء ، وتخلط الأبطال ، كل شئ يدخل دورة الغسيل والقص واللصق والصبغ ليتم تقديمه، تحت عناوين مثل «لكى لا ننسى» بالحجم واللون المطلوب للتشويش والتمير والإزالة ، مع استغلال «الثورات / المقاومة» الحية والقائمة بالفعل ، لكى يوظف صدقها وسخونتها كمؤثرات طبيعية تضفى على الباطل لمحات من الحق مع بقائها «كومبارس» مهمش تحت السيطرة ، تتحرك حين يراد لها وتتجمد ، حين ترغم بالقهر ، على التوقف .

ويصور معين بسيسو فى مسرحيته لعبة «صندوق الدنيا» يدعونا من خلالها

إلى مراقبة الحيل الخسيسة للتزوير والاحتيال :

«صندوق الدنيا والتاريخ على حبل غسيل ،

أوراق تغسل ،

أوراق تصبغ ،

والرأس المقطوع وأوراق النقد الزائفة،

على حبل غسيل.

ثم نسمع الصخب الحاد لآلة نقل الأخبار عبر الوكالات إلى أنحاء العالم مع مدير غسالة كهربائية - (هى الآن كاملة الآلية - فول أوتوماتيك) - ويدور التعامل بين الرجل المنوط بآلة الأخبار مع الرجل المنوط بإدارة الغسالة ، الأول يقطع ورق الأخبار والأحداث ويعطيها للثانى يلقيها فى الغسالة، يغسلها ثم يدلق فوقها سوائل الألوان ، ثم ينشرها إلى جانب أوراق أخرى على الحبل تمهيدا لكى تعيد آلة الأخبار بثها بصبغتها الجديدة ذات الأهداف المخططة لاغتيال الثورة والثوار ، والمقاومة والمقاومين ، ويقول معين بسيسو:

«.. من سوف يعاقب من يقتل بالحبر ،

من يقتل تاريخا ، من يقتل أبطالاً بالحبر ؟».

ويتواصل العمل فى حماس وزحمة ويستمر التعامل بين المتآمرين ، آلة الأخبار والغسالة :

«- لابد وأن نغسل هذا الوجه الآن ،

نغسله ، نصبغه ، ونعلقه فوق الحبل،

سنصور بعد قليل .

- تصور من ؟

- وجه فلسطين

....

- لا ....

لنؤلف ونصور وجهاً آخر ،

وجها نرفعه كالحجر ونضرب وجه فلسطين ....»

ويتجمد الحوار بين المتآمرين وهما فى حركة الاستمرار فى العمل ، وتدخل امرأة لا تنظر إليهما .. وفى مونولوج مكثف تلخص المرأة رمزها ، معاناتها ، تفتحها - رغم الألم - للأمل أبداً :

«- أنا فى واجهة متاجرهم تلك المانيكان ، مانيكان فلسطين ، تظهر حين يريدون وتغيب عن المسرح حين يريدون ، صدرى حائط ... ظهرى حائط ... وعليه يلصق هذا الإعلان وذاك الإعلان ، شريانى حبل غسيل ... ينصب لنعلق هذى الورقة أو تلك الورقة، أنا فى طبق القرن العشرين ، أؤكل بالشوكة والسكين .. لكن سوف يجيئون ، سوف يجيئون .... ، وسيقطع هذا الحبل وتحطم هذى الغسالة، وتكسر هذى الآلة ....»

ويتصور معين بسيسو ثائرا من القرن الثالث للهجرة هو عبد الله بن محمد قائد ثورة الزنج سنة ٢٥٥ هجرية ، ويقدمه كضحية لكذب الوراقين .. (أجهزة الإعلام فى ذلك الوقت) - الذين لا يذكرونه إلا بكلمة «الخبيث» أو «الملعون» بينما الاحتمال القائم أنه كان محررا للرقيق وجامعا للأحرار من الفقراء والبائسين ضد المترفين الذين ساموهم ألوان الخسف والعنف ، ويقول على لسانه :

«المعتمد بأمر الله قتلنى مرة ،

وقتلت على أيدى وراقيه فى القرن

الثالث مرة »
وعلى لسان هذا الثائر ضحية التزوير التاريخي يقول معين بسيسو :
«انطلقوا الآن ،
كونوا ما شئتم ،
زنجا فى القرن الثالث للهجرة
أو زنجا فى القرن العشرين
إن عليكم أن تنطلقوا الآن
لا يستأذن عبد من قيصره
كى يشعل ثورة ..»
وحين تضمد زوجته وطفاء جراح أحد الثوار الغائرة وتقول :
«- الكفرة ،
هل جلدوه بسوط أو محراث ؟».
يكون الرد من معين بسيسو :
«حين يصير السوط هو المحراث ،
يفتح أخدودا فى الظهر أو الصدر ، فعلينا أن نلقى يا وطفاء ، ببذور الدم»...!
ونسمع فى هذا النص المسرحى البديع ، الذى كان ممكنا عرضه على خشبة مسرحنا منذ أكثر من ثلاثين عاما ، ويتحاشاه المسرحيون اليوم ، نسمع :
«حين يكون هناك رجل واحد
يملك كل الدنيا ،
لابد وأن تشهر سيفك ،
أو تبتلع السيف !»
ونسمع :
«أين سأمضى ؟
والسيف أمامى ،
والسيف ورائى ،
والثورة تعدو
كغزال تتبعه كل كلاب الصيد» !
ونسمع :
«هل قدر الثورة أن تلد الطفل الأول للسكين ،
والطفل الثانى للسكين ،
وكمين بعد كمين
ينصب للطفل الثالث ؟».
وتكون النبوءة ، أو الأمل ، ينطقه معين بسيسو ، الشاعر الفلسطينى الموجوع ، على لسان بطلته « وطفاء فلسطين»:
«أنا وطفاء
....
....
هذا الطفل بأحشائى ،
سيقود خطاى ،
....
خبأت لهم قنبلتى فى أحشائى
....
سوف يجيئون ، سوف يجيئون
ويهزون العالم كالشجرة
كى تلقف تلك الثمرة
الثورة ، الثورة ، الثورة ...»

وأتساءل أنا :
منذ متى جعلونا نتهيب أن ننطق تلك الكلمة : «الثورة» كأنها خزى أو عار أو تهمة ؟
ومازال سعى البعض دؤوبا لكى نتهيب النطق بكلمات مثل «مقاومة» و«مظاهرات» و«احتجاج» .....الخ. ■

النافذة الفرانكفورتية

بقلم
د. يوسف زيدان

لم يحظ العرب من قبل بمثل هذه الفرصة لتقديم أنفسهم (بأنفسهم) للعالم الخارجي، ولم تتألق الثقافة العربية بكافة مكوناتها، مثلما تألقت في معرض فرانكفورت الدولي الذي اختار (العرب) ضيف شرف لهذا العام، فأتاح لهم نافذة لم تتح من قبل.. وكنا قد تعودنا أن يتحدث الآخرون عنا، غير أن هذه المرة (الفريدة) كانت: العرب تتحدث عن نفسها.

وقع اختيار المعرض على (الثقافة العربية) هذا العام، في إطار ما جرت عليه عادتهم (الفرانكفورتية) المعنوية من اختيار واحدة من الثقافات العديدة (الحية) في أنحاء العالم، سواء كانت هذه الثقافة يمثلها عدة دول أو دولة واحدة. وهنا إشارة لطيفة الى أن المسألة ليست سياسية (أعني: في المقام الأول) وإنما هي مسألة ثقافية في الأساس. وكما يبرم المعرض مع ممثلي هذه الثقافة المختارة (ضيف شرف) اتفاقية يتم بموجبها توفير وتأمين كل ما من شأنه إنجاح ضيف الشرف في تقديم نفسه للعالم خلال أيام المعرض، شريطة ألا يتعدى الضيف طوره فيستغل المناسبة للدعاية السياسية.. وكانت قد سبقتنا الى معرض فرانكفورت ثقافات أخرى، بعضها تمثله دولة واحدة، مثل (الثقافة الروسية)

ضيف شرف العام الماضي، وبعضها تمثله أكثر من دولة، كما كان الحال في (ثقافة أمريكا اللاتينية) التي مثلتها الأرجنتين والبرازيل والمكسيك، واعتذرت دول أخرى في القارة الأمريكية الجنوبية، لسبب واضح بالغ البساطة: ليس لديهم ما يقدمونه.

[illegible]

ماجت ثائرة كثيرين بسبب اختيار لجن العرب ضيفا شرفيا للمعرض هذا العام. احتقن البعض منهم قائلا ما ملخصه: لماذا لا يكون (المصريون) بحدهم هم ضيف الشرف؟! وكأنهم في غمرة انفعالهم لم يلحظوا أن ثقافة مصر المعاصرة: ثقافة عربية! .. وربما علينا - بالطبع - من تلك الترهات التي تتردد أحيانا في ديارنا، داعية في كتابات ممجة، باللغة العربية، الى قطع الصلة مع الثقافة العربية! لإحياء ما يدعونه هم (الثقافة الفرعونية) وهي تسمية دالة على جهل فاضح بماهية (الثقافة) .. المهم .. أن هؤلاء لم يلتفت أحد اليهم.

قوم آخرون ثاروا، قائلوا ما معناه: ليس في الثقافة العربية شيء مشرف، ومن ثم فلا داعي للاحتفاء بها في محفل دولي كهذا، والأفضل لنا أن نعتذر عن قبول هذه الدعوة! وهؤلاء لو كانوا تريثوا قليلا، لكانوا قد رأوا - على الرغم مما يوم من المعض الفكري والتجاري - أن الثقافة العربية لديها من الأثر ما يستحق الظهور ويستوجب الاحترام، وهو ما كان ماثلا بمنطوق أمام عشرات الآلاف من زائري المعرض هذا العام.

وجماعة يفترض ابتداء أن يعترضوا، وقد اعترضوا! ففي صبيحة يوم الافتتاح الرسمي سمعنا في المعرض أن (اليهود) قاموا بتظاهرات في برلين و فرانكفورت وميونخ - أكبر المدن الألمانية - للاعتراض على اختيار هؤلاء العرب (الهمجيين) للاحتفاء بثقافتهم. الشيء العجيب في الأمر أن الجماعة اليهودية في ألمانيا قامت بتظاهراتها المسجلة أمام السفارة المصرية وقنصلياتها .. وكأن مصر هي العرب. وكأن ما قاموا به سيصرف أنظار الإعلام الغربي عن الالتفات الى ضيف شرف هذا العام. ولكن شيئا من ذلك لم

يحدث، فلا أحد التفت لاعتراضهم، ولا وسيلة إعلام أوروبية الا وأفردت للعرب صفحات جرائدها أو ساعات بثها أو تقاريرها الإخبارية على الإنترنت .

الجامعة العربية

في مبتدأ الأمر، كانت إدارة المعرض قد خاطبت الجامعة العربية وأبرمت معها اتفاقية (ضيف الشرف) وفى الجامعة العربية مشكلات كثيرة، يكفينا منها البعض الذى نعرفه، ومالا نعرفه - بعد - لن يخرج عما نعرفه من حال ومقال الخشب المسندة المعروفة اصطلاحا بالأنظمة السياسية العربية. غير أن ذلك ينسحب فحسب على أمور السياسة، أما الكلام فى (الثقافة) فله شأن آخر، وله بساط آخر (سحرى) يطير به . فالثقافات العربية مثل سجادة ثرية التفاصيل والمنمنمات ، صنعتها قرون طوال من الابداع والتوهج الذى ظل ضوؤه يسطع حينا ويخفت حينا، لكنه لم ينطفئ يوما بالكلية.. والا لما كنا نتحدث اليوم اللغة ذاتها التي تحدثها على ابن طالب (الولى) ويزيد بن معاوية (الفاجر) وسيبويه وطه حسين وابن سينا وأحمد زويل ونجيب محفوظ وابن النفيس.. وغيرهم ، على اختلافهم زمنا وتفننا .

من المضحكات المبكيات أن اللجنة المنظمة لأجنحة ضيف الشرف، وهي اللجنة التابعة للجامعة العربية التى تمثل دول العرب التى يضرب المثل بثراء عدد منها ، اشتكت من نقص (التمويل اللازم) للمشاركة العربية فى فرانكفورت ! فى اليوم الأخير للمعرض، كنا نشد الرحال عائدين الى أوطاننا ، وفى نشرة الأخبار (العربية) أذيع خبر عن منح أحد الحكام العرب هدية لأحد مواطنيه الذين فازوا بميدالية فى الأوليمبياد الأخير، يوازى مقدارها قرابة عشرة ملايين من جنيهات مصر! لفتة رائعة.. ولكن ، مابال هؤلاء المثقفين العرب الذين ملأوا نظر العالم وسمعه خلال أيام النافذة الفرانكفورتية: فكرا وشعرا وأدبا وفنا .. أما من رسالة اليهم - لا مكافأة - يرسلها حاكم عربى لتحية هذه الكتيبة الثقافية المتقدمة فى أوروبا، الجامعة أهم المنارات الثقافية العربية التى تمشى على قدمين : محمود درويش، أحمد كمال أبو المجد، أدونيس، محمد سليم العوا ، يوسف شاهين، الأبنودى، الغيطانى، أصلان.. وغيرهم عشرات، بل مئات المبدعين العرب الذى هم ملح هذه الأرض!

عمرو موسى

من باب إيتاء كل ذى حق حقه، لابد من الإشارة الى أن الأمين العام للجامعة العربية استطاع أن يتعامل مع (المسألة الفرانكفورتية) ببصيرة نافذة، اذ أدار دفة الأمر منذ اللحظة الأولى ، على ما يوجبه الرأى الصحيح، فقد قرر أن المشاركة



العربية (جماعية) وأن العرب لن يذهبوا الى فرانكفورت فرادى، ولن يذهبوا ممثلين لحكومات او أطياف سياسية.. وإنما هى مشاركة جماعية لما يجتمع عليه العرب: الثقافة (وهى فى الواقع: الأمر الوحيد الذى يجمع العرب) .

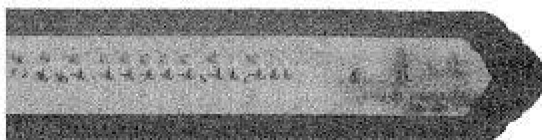
وفى غمرة الكلام عن نقص التمويل، فاز الرجل بجائزة ما، مالية فوهبها للمشاركة العربية فى معرض فرانكفورت، ولم يكن غرضه بذلك اخراج هؤلاء الذين ناءوا بحمل أموالهم، وناءت بهم الأموال (ناء فى اللغة ، تعنى : ذهب بعيدا!) .

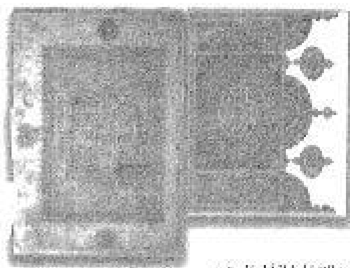
وفى غمرة انهماكنا فى اعداد جناح مكتبة الاسكندرية بالمعرض، قبل الافتتاح بيومين، قيل لى أن عمرو موسى فى طريقه الينا .. وجاء ، ليس مجىء سياسى يزهو بمنصبه ويرفل فى ثياب السياسة الطاووسية! وانما جاء مجىء انسان عربى يحرص على نجاح المناسبة. وقف معى عند التفاصيل. وتفقد اقسام الجناح تفقد محب لا منتقد.

جناح المكتبة

حين كلفنى د. اسماعيل سراج الدين بإعداد جناح المكتبة بمعرض فرانكفورت، لم أسأله عن السبب فى اختيارى.. أعلم الاجابة مسبقا، كان سيقول ما معناه: لأنك أكثرنا انحيازا للثقافة العربية، ولأنك معتاد على تولى هذه المهام غير النمطية! وبالطبع، فقد شرفت بالاختيار وشرعت فى تجهيز عدة المعرض قبل افتتاحه (٥ أكتوبر ٢٠٠٤) بعدة أشهر. وكانت اللجنة المنظمة قد خصصت للمكتبة مساحة تزيد على خمسمائة متر، فرأيت ان اجعلها على أقسام: الأول للدول العربية لتقديم انتاجها الرقمى، فكان لكل دولة جهازى كمبيوتر فى (كابينة) خاصة تحمل اسمها ورايتها. وقد تقاعست بعض الدول عن تقديم مادة رقمية لعرضها فى المكان المخصص لها، فأعددت لها مادة من مصادر مختلفة أهمها شبكة الانترنت. البلد العربى الوحيد الذى تركت شاشتيه سوداوين، كان العراق!

فى القسم الثانى كان هناك ١٦ جهاز كمبيوتر عليها (مواقع) مكتبة الاسكندرية على شبكة الانترنت - وهى بالمناسبة عدة مواقع متطورة - وعليها ايضا برمجيات اصدرتها المكتبة خلال العامين الأخيرين فى مجال النشر الالكترونى والوسائط المتعددة. وتصدر هذا القسم من الجناح،





نسخة طبق الأصل من البردية الوحيدة الباقية من مكتبة الاسكندرية، وأمامها ستة آلاف (مطوية) تعريف بالكتبة والجناح.. تقدمت الآلاف الستة بعد يوم ونصف يوم!

في القسم الثاني كانت قاعة المحاضرات اليومية التي تضم سبعين مقعدا ويحيط بنصف دائرتها شاشات عملاقة يعرض عليها طيلة اليوم برامج التوثيق الحضاري والآثار المصرية، على نحو مبهر يدفع اجتذاب الثناء والآلاف من زائري المعرض، حتى تأتي الساعة الرابعة عصرا لتقام الندوة اليومية لجناح المكتبة، وقد سارت الندوات خلال الأيام الخمسة للمعرض، على النحو التالي: المحاضرة الأولى لكاتب هذه الأسطر والثانية لأستاذنا الدكتور فتحي صالح مدير مركز التوثيق الحضاري بمكتبة الإسكندرية، والثالثة الدكتور اسماعيل سراج الدين مدير المكتبة، والرابعة لجمال الغيطاني متحدثا عن (ألف ليلة وليلة) والأخيرة الدكتور جابر عصفور مديرا لحلقة نقاش مع نخبة من مبدعي الرواية العربية.

وهكذا تناغمت الأقسام الثلاثة لجناح المكتبة، وقد كانت الجدران الداخلية والخارجية للأقسام الثلاثة، مغطاة بجداريات (جرافيك) تعكس مفردات الثقافة العربية وتراثياتها ونوادر مخطوطاتها الموزعة في أنحاء العالم، بالإضافة إلى الأنشطة المتعلقة للمكتبة، ونموذج مصغر منها، طالما وقف الزوار أمامه مستفسرين عن المكتبة الإسكندرية.

فالق الفرانكفورتي

جاء جناح المكتبة على الطرف الأيمن من قاعة المبنى الرئيسي لمعرض فرانكفورت، وفي منتصف القاعة ذات المساحة الهائلة، كان (الناشرون العرب) يقدمون عشرة آلاف عنوان عربي في المجالات كافة، مصنفة بحسب موضوعاتها، وعلى الطرف الأيسر من القاعة الرئيسية كان المعرض البديع الذي قدمه د. فؤاد سزكين للآلات الفلكية العربية وكانت قاعة المحاضرات التي تم نكف من النشاط طيلة أيام المعرض.

وعلى جنبات الطريق إلى القاعة الرئيسية، كان الألمان قد زينوا الجدران بلوحات وجداريات بديعة، للفضاء العربي والمدن العربية، ولمشاهير الكتاب المعاصرين. وعلى جنبات الأروقة الكثيرة للمبنى الرئيسي، كانت رسوم الأطفال العرب تزين الجدران، وكانت (المعلقات) العربية المعاصرة تجتذب المارين وتدعوهم قليلا حينا، أمام انتاج العرب الفكري والفني والأدبي، أطفالا، رجالا، ونساء (كانت هناك فعاليات كثيرة للمبدعات العربيات).

وفي الساحة المتسعة أمام المبنى الرئيسي للمعرض أقيمت عدة (خيام) عربية بالغة الحداثة، احتوت على العروض بالجماعة العربية، ومسرحها، وفنها السينمائي، وتجليات الفن المعاصر في الروح العربي المتاجج. وما كانت فعاليات (المحور الثقافي العربي) في فرانكفورت مقتصرة على معرض الكتاب.. لقد توزعت أيضا على دار الأدب والمتاحف والمسارح بل وفي الشوارع التي امتلأت باحتفالات ترحب بالعرب ضيفا الشرف.

في طريق العودة من الفندق إلى المطار، سألني سائق التاكسي بلهجة عربية مغاربية: هل كان مشاركا في المشاركة العربية؟ أجبت بالإيجاب، فقال: جميل هذا، ثم قال: لقد كنت منذ يومين أوصل إلى زبائني الفندق الذي تحتك منه، ولقد لمحت في سيارته محمود درويش وأدونيس قبل أشاهدا معا في الفندق نفسه؟ أجبت بالإيجاب، فقال: جميل هذا. ■

مثقفات وراء القضبان

بقلم
د. نيفين عبد المنعم مسعد

د. لطيفة الزيات

كن أربعة وعشرين امرأة شملتهن قائمة التحفظ على معارضى كامب ديفيد فى عام ١٩٨١ ، أربعة وعشرين اسماً وطابعاً وحكاية ، دون بعضهن سيرته الذاتية وتجربته خلف القضبان فى روايات لم تعرف أبداً طريقها إلى النشر. هكذا فعلت أمينة رشيد وشاهندة مقلد. ونثر بعض آخر منهن أوراقه فى مقالات صحيفة لم يقدر لها أن تجمع فى كتاب. هكذا اختارت عواطف عبدالرحمن. وخرجت مذكرات البعض الثالث إلى النور تحكى عن الطريق إلى سجن النساء. هكذا كتبت لطيفة الزيات وفريدة النقاش ونوال السعداوى وصافيناز كاظم

وعندما أهدانى الأخ العزيز مصطفى نبيل مذكرات المثقفات الأربع لأكتب عنها، عن قطعة من تاريخ مصر السياسى، تراءى لى أكثر من بديل. أن أجمع بين النساء الأربع فى مقال، فبينهن تقاطعات وتشابكات، وأيضاً اختلافات شخصية وفكرية مثيرة، مهم تسجيلها. أن أتناولهن بحسب اتجاهاتهن السياسية، وهى واضحة يسهل تمييزها. أن أخصص لكل منهن مقالاً، لأنقل للقارىء المتعة الإنسانية بلا مدى التى وانتنى مع نهاية كل قصة من القصص الأربع، وربما أيضاً حالة التقمص التى تملكتنى بعد الفراغ من قراءتها حتى لا يفلت منى الإنسان فى كل شخص من الشخوص الأربعة وأنا أرصد ما بينها من أوجه شبه واختلاف. كما استبعدت البديل الثانى حتى لا أسقط فى تلك الثنائيات التى لا أفضلها كثيراً وأنا أميز فيهن بين اليسار والإسلام السياسى، وأشطر الوطن، وطنى إلى شطرين. وآثرت أن ألجأ إلى البديل الأخير، ففيه تفاصيل أكثر مما هو غير معلوم بالضرورة عن مثقفات لسن اعتياديات. ومن التفاصيل أحياناً ما قد لا

تسكنه الشياطين. واخترت أن أبدأ بلطيفة.

(١) حملة تفتيش

اختارت لطيفة الزيات لقص سيرتها الذاتية عنوان «حملة تفتيش». وفى الاسم أحد مفاتيح هذه الشخصية النسائية الثرية التى نقرأ عنها، مفتاح اكتشاف الأنا بالتوحد مع الآخر. فلطيفة لا وجود لها إلا خارج حدودها، كإنسان وكامرأة تكتب وتناضل، وأحياناً تناضل بالكتابة. قد تتوحد لطيفة مع الآخر الفرد، كما توحدت مع زوجها الثانى الذى ألغى وجودها وحرفها عن طريقها إلى حيث لم تفكر يوماً أن تذهب، فإذا هى تفيق بعد ثلاثة عشر عاماً عاشتها معه، أو عاشتها فيه بمعنى أدق إذ ... د يديها ملوثتين بدمائها، وليس أفدح من جريمة وأد الذات، وهى قد تتوحد مع المجموع، كما فعلت عندما التقطت يد الصبى الصغير فى أول أيامها الدراسية فى روضة المنصورة، وانضمت إلى الدائرة التى صنعها أطفال فى مثل عمرها، لتكسر عزلتها وهى تغنى بأعلى صوتها أغنية الكل مع الكل، وطبعاً هى تتوحد مع

* أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهر

الوطن، هذا الوطن الذى انتزع دموعها العزيزة على الشدائد والمحن، يوم عاد جنوده مكسورين فى ١٩٦٧، فبكت فى هستيريا كما لم تبك أبداً، وقذفت شاشة التليفزيون بولاعة سجائرها. كانت هى التى هُزمت، وهى الوطن.

العنوان الذى اختارته لطيفة لقص سيرتها إلى تلك اللحظة التى توحدت فيها سجينات القناطر مع أمينة رشيد زميلتهن فى العنبر والتى كانت تنتظرها إجراءات تأديبية لا يعلم كنهها أحد. كان التفتيش الذاتى لأمينة وهى على بوابة السجن فى طريقها إلى المدعى الاشتراكى، قد أسفر عن خطابين خبأتهما فى ملابسها، أحدهما للابن والثانى للزوج. وقررت السجينات ألا تخضع أمينة للتأديب، كما قررن ألا تسفر حملة التفتيش التى توقعنها لعنبرهن الشاغب عن شىء، وكان لهن ما أردن. تجمعت السجينات فى حوش السجن، السياسيات منهن والإسلاميات كما كان تصنيفهن الشائع، وكأنما الإسلاميات غير مسيسات. وأعلن إضراباً مفتوحاً ما لم تتم الاستجابة لطالبهن، وكان مدهشاً لإدارة السجن أن الإسلاميات، ممن كان الرهان على ألا يشاركن فى الإضراب، كن فى طليعة المشاركات. كان الاختلاف فى الاتجاه، وفى الزى باليقين، وفى بعض السلوك، أما فى هذه اللحظة فإن الكل كان فى واحد. أخفت لطيفة مذكرات أمينة ومذكراتها فى علبة من الصفيح، وسكبت ماء الدلو على صحف الأمس المحروقة فى فوهة المرحاض، وجلست تتسامر مع زميلاتها وتتمشى فى حوش السجن، وورود زاهية ساخنة تبهج الأنظار تتسلل من وراء أردية المحجبات الداكنة وتشكل همزة وصل بينهن وبين باقى السجينات.

بيت دمياط القديم

تتداخل فى قص لطيفة سيرتها الذاتية الأيام والتواريخ، فتبدأ قصتها بمارس ١٩٧٣ ثم تقوم بحركة فلاش باك - بلغة أهل السينما - لتستدعى أيام طفولتها وصباها، وفى حكيها أيضاً يتداخل العام مع الخاص، فانفصالها عن زوجها الثانى فى ١٩٦٥ ظل يدميها إلى أن داهمها التاريخ الأتعس فى حياتها بعدها بعامين ليكون رمزاً للقطيعة بين مرحلتين من عمر الوطن، لكل مرحلة أبطالها وأحداثها وانفعالاتها.

قالت لطيفة إنها مع كل ما سكنته من بيوت فى المنصورة وأسيوط والقاهرة، لا تشعر بالانتماء قدر ما تشعر للبيت القديم فى دمياط وبيتها الخشبى فى صحراء سيدى بشر التى ما عادت صحراء. فى الأول فتحت عيونها على الدنيا، ففيه ولدت هى وإخوتها عبد الفتاح ومحمد وصفية، وقضت ست سنوات سمان من عمرها، وفى الثانى نضج وعيها السياسى وهى تحط به بعد هروب طويل مع زوجها ليقبض عليهما معاً، وتعيش تجربتها الأولى مع السجن : سجن الحضرة.

ولأنها أحبت بيت دمياط القديم فقد تفننت فى وصفه، بجناحيه اللذين يفصل بينهما حوش مرصوف بالبلاط الإيطالى الملون وحديقة، بمرايا جناح الضيوف البلجيكية تتجمع على صفحتها أضواء الشموع المثبتة فى النجف الكريستال لتعود وتنعكس على موائد الرخام وأرائك الأرابيسك وسجاجيد بلاد فارس، ومع ذلك فقد أحبت السطح أكثر مما أحبت داخل البيت وحديقته، حتى إذا ما استكان ثعبان على الدرج المؤدى إليه، غافلت جدتها

وتسلقت جدار البيت لتبلغ السطح تغنى وتضحك وتقفز وتنط الحبل، وتتحرر. أعطت أذنها لجدتها للمرة الكم لا تدري، تسكب فيها ذكرياتها مع الجد وسفنه الشراعية التى تكسرت واحدة تلو الأخرى على كثبان رمال الميناء، وتسمع منها عن صبا والدها الذى لم يكن له فى نظرها - ككل أم - مثيل فى شقاوته ووسامته، تلقمه نساء البلدة المحنكات فطائر القشطة بالعسل ويشاكسه الرجال فى أوقات الفراغ يتعجلون فيه الذكر. تعرف عن الخير والشر يسجلهما الملكان المثبتان على كتفي بنى آدم، ويدهشها كيف يتم المرء كتابه والملكان لا يدخلان دورات المياه، وربما ظلت لطيفة أسيرة هذا الإنذار المبكر من الشر، حتى حلت الأم لاحقاً محل الجدة فى الحكى لها، فجسمت معنى الشر فى ثنائى ريا وسكينة وكررته وألحت عليه، حتى باتت شرور الدنيا كلها من فعلها. فعندما انفتح كوبرى عباس ليلقى بعشرات المتظاهرين إلى جوف النيل، كان البوليس هو ريا وسكينة، وعندما شق سكون سجن القناطر صراخ السجينات المتواريات خلف الأبواب المغلقة عادت تتذكر بقوة أنات ضحايا ريا وسكينة. هكذا كانت السلطة الظالمة هى الوجه الآخر لذلك الثنائى الشهير، فهل لازال بعد هو الرمز الأبرز للقهر؟ وهل لو قدر للطيفة أن توغل بعمرها إلى حيث نعيش كانت ستستدعى الأختين كلما حنقت على ظلم البشر؟

اكتظ البيت القديم بساكنيه، ويبدو أن إحساس لطيفة بالجماعة والبحث عن التوحد مع الآخر تخلق من رحم هذه اللمة مع أفراد أسرتها الممتدة. عمتها التى ماتت وهى تلد طفلتها الأولى. عمها الذى كانت تطارده عقدة النقص يعوضها بحذاء له كعب عال ليدانى زوجته طويلة القامة مرفوعة الرأس. جدتها. أبواها. إخوتها خصوصا عبدالفتاح ومحمد اللذين كان لهما أثر كبير فى تكوينها الأدبى والسياسى. لذلك عندما مات عبدالفتاح فى ١٩٧٣ أحست باليتم للمرة الثانية، واستدركت قائلة بل للمرة الأولى، لأن عبدالفتاح كان الأب والمعلم والأخ والصديق، وعندما قبض على محمد فى ١٩٨١، وقبل أيام من إلقاء القبض عليها، لازمته فى سيارة الشرطة تنقله إلى أين ليست تدرى، واطمأنت عليه وابتسمت وهو يمشط شعره ويمسح وجهه بمنديله المعطر قبل أن يدخل إلى سجن طرة، ليسقط صريع الذبحة الصدرية بعدها بأيام ثلاثة.

بيت أم التابعى فى المنصورة

فى بيت المنصورة الذى كان مملوكاً لأم الكاتب الصحفى محمد التابعى، تعلمت لطيفة شيئين: الأدب والسياسة. تعلقت بالأدب فى شخص الهمشرى، هذا الشاعر الذى كان يسكن سطح البيت، وكانت تتسلل إليه، والسطح دائما جاذبها، تجلس بلا حراك كالتمثال، ترقبه وهو يكتب أو يقرأ أو يشرد، يكلمها أو لا، يلتفت حتى لوجودها أو لا يلتفت، يعطيها قطعة من الحلوى أو يمتنع. كل هذا لا يهم، المهم أنها تجلس فى حضرة شاعر، وقد علمها أخواها أن الشعر قدسية لا تبارى. ودخلت فى السياسة من أوسع أبوابها، والأدق القول من أعنف أبوابها، عندما انتابها شعور عميق بالعجز المعجون بالأسى فى أحد أيام عام ١٩٣٤. كانت قد انتقلت إلى المنصورة قبل خمس سنوات بحكم طبيعة عمل الأب، وراحت ابنة الحادية عشرة من العمر تطل من شرفة منزلها بحثاً عن نسمة هواء، وإزجاء لفضولها فى الوقت نفسه، فقد كان

الصراع على أشده حينها بين الحركة الوطنية والملك وأحزاب الأقلية وقوات الاحتلال. وشاءت الأحداث أن تضع مدينة المنصورة فى بؤرتها، عندما أراد مصطفى النحاس زعيم الوفد والأغلبية أن يطوف بأقاليم مصر، ومنها المنصورة، وأبى إسماعيل صدقى رئيس الوزراء. تابعت لطيفة موكب النحاس يتحدى الحكومة والقصر، ويتقدم فى شوارع المنصورة محمولاً على أكتاف أفواج المتظاهرين مشبعاً بصيحات تعكس نصر إرادة الجماهير، عندما وضعت طلقات البنادق السوداء الكابية حداً للمشهد برمته، ويسقط على مرأى من لطيفة ومسمع أربعة عشر قتيلاً. تلفتت الصبية المذعورة تبحث عن مجير ولا مجير. ولولا كراهتها فى البكاء ضعفاً لبكت. فاق غدر الرصاص كل توقع. واختلط الدم المسال بطين الأرض فى شارع العباسى. ومن يومها تفتح وعى الصبية، وكبرت قبل الأوان اختارت الصف الذى تقف فيه فى الصراع بين الاحتلال والناس، وتمنت لو تقول لا لكل مظالم الدنيا، وأهم منها ألا تفقد هذه القدرة بفعل منصب أو مال أو عمر.

بقدر ما تلقى حادثة شارع العباسى الضوء على بعض ملامح التحدى فى شخصية لطيفة الزيات فإنها تعوزنا إلى مزيد من استيضاح بعض ملابسات ارتباطها بزوجيها الأول والثانى. قيل فى تفسير انفصالها عن زوجها الأول المناضل الشيوعى العتيد إنه رفض طلبها الاعتذار إلى الملك للإفراج عنه. وقيل فى تحليل التاريخ السياسى لزوجها الثانى الكاتب المسرحى الشهير إنه بدأ متعاوناً مع المخابرات الإنجليزية قبل الثورة وانتهى مروجاً لفكرة الصلح مع إسرائيل. الأمران يتناقضان مع النفس النضالى الذى يلفح قارىء سيرة لطيفة، وإصرارها على قولة لا فى وجه كل ظالم، وانخراطها فى العمل السرى ضد الاحتلال وتأسيسها لجنة الدفاع عن الثقافة القومية لمقاومة التطبيع. هل يقهر حب المرأة التزامها السياسى؟.. تقدم زيجة لطيفة الثانية نصف إجابة على السؤال. ففيها تعاملت الأنثى مع الرجل الذى لفتها إلى أنوثتها فتأنقت وتألقت وتاهت، أما زيجتها الأولى فلا، فقد حملت معنى الاقتران السياسى أكثر منه العاطفى، وهذا ينقلنا إلى المحطة التالية فى حياتها.

من بيت لبيت فى القاهرة

فى القاهرة التى انتقلت إليها أسرة لطيفة من أسيوط بعد وفاة الأب، اقتربت من الحياة السياسية أكثر فأكثر، ما أصخب حياة القاهرة: صبحها ومساؤها. وعندما التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية ألقت بنفسها بالكامل فى أتون السياسة. دخلت لطيفة جامعة فؤاد الأول فى عام ١٩٤٢ على استحياء. كانت تستحى لأن تعليم المرأة كان الاستثناء، وهى لم تكن تعبأ بأن تكسر القاعدة، لكنها كانت تكره أن تُعامل كأنثى، وهذا سلوك يلازمنا نحن النساء، لا نتبرأ من أنوثتنا ولا نحب أن نعرف بها. كانت ترفض أن يحمل عنها زميل كتابها، أو يخلى لها آخر مقعده. لكنها ربما لم تعد تجد فى ذلك غضاضة فيما بعد، أو حتى ربما سألت هذا الزميل أو ذاك أن يسديها خدمة من نوع حمل الكتاب أو ترك المقعد، فقد أثبتت نفسها أولاً كمناضلة. تحكى لطيفة كيف كانت تلقى الخطب الرنانة هنا وهناك، وتنظم الاجتماعات، وتقود المظاهرات، وتتصدى لرفض الإخوان المسلمين الدور السياسى للمرأة، وتجادل الزميل الوفدى



بعد الزميل لتجذبه إلى قلب الحركة الوطنية، وتخوض الانتخابات الحرة وتكون أول امرأة تدخل السكرتارية العامة للجنة الوطنية للطلبة والعمال.

في هذا المناخ السياسي الثوري تفتحت مشاعرها، ربما الأدق تفتح عقلها لزميلها في الحركة الشيوعية، وتقول لطيفة تعليقاً على ذلك اخترت الزواج من هذا الزميل بالتحديد كي لا يحرفها عن العمل السياسي الذي آمنت بضرورته، وقتها كانت تنظر إلى الزينة والحلي والمساحيق كمظهر للترف البورجوازي للسخرية، وذلك قبل أن تتورط حتى أذنيها في هذا اللون من ألوان الترف مع زوجها الثاني، ولعل القارئ «لرواية الباب المفتوح» التي نشرتها لطيفة في عام ١٩٦٠ يلمس هذه الروح الإنسانية في حياتها ولكن بالعكس أو بالمقلوب. فليلى بطلة الباب المفتوح افتتنت بأستاذها الجامعي قبل أن يصدمها بازدواجية الرجل الشرقي ما بين أفكار يلوكها وقيم تحركه، عندما تقرر أن تغير مسارها فتذهب إلى صديق الأخ ذلك المناضل في الحركة الوطنية لتبدأ معه حياة غير الحياة. أما لطيفة بطلة «حملة تفتيش» فإنها بدأت من حيث انتهت ليلى، لم تكن التجربة قد أنضجتها بعد، لكنها أسدت إلى ليلى بعض خبراتها وإرادتها أنفذ منها بصيرة، ولو على ورق . حمتها من تلك اللحظة القاسية التي عاشتها في أحد أيام يونيو ١٩٦٥ عندما استدار لها زوجها الثاني ليواجهها من فوق مقعده المتحرك ليلقي إليها بجملته الصدمة: ولكني صنعتك. كان يحاول أن يثنيها عن الطلاق والمأذون في الغرفة المجاورة يرتب أوراقه. ذكية هي ليلى، لم تقطع الطريق إلى آخرها، نبهها الضوء الأحمر الذي أضاءته لها لطيفة قبل تعانق عقربي الساعة، لم تسمح لأحد أن يدعي أنه صنعها، حتى وإن كان حقاً قد فعل.

كقارئة أيضاً فتشت في أوراق الزوج الثاني، وأوراقه المنشورة كثيرة، بحثت عن صورة المرأة في أدبه في الفترة نفسها التي ارتبط فيها بلطيفة (١٩٥٢ - ١٩٦٥)، وبدت لي مسرحيته الشهيرة «الفراشة» عملاً أكثر من دال. سميحة الفراشة هي النموذج النقيض للطيفة، شخصية محبة لذاتها إلى حد العبادة، لا تعبأ بأحد ولا تكترث بغير نزواتها، تافهة كأشد ما تكون التفاهة، كارهة للأدب، جامعة للمال، تفسد حياة رمزي زوجها فيعتزل الكتابة ويفشل في دنيا الأعمال ويخرج من الدنيا كلها برصاصة تستقر في رأسه. المسرحية كتبت عام ١٩٥٨، تقريباً في نقطة وسط بين بداية علاقة الكاتب بلطيفة ونهايتها معه. والتناقش بين الشخصيتين أوضح من أن يشرح، والمدهش أن الزوجة الفراشة هي التي تحرف زوجها عن مساره وليس العكس، فهل هو نوع من الإسقاط غير الواعي؟ أم أن لطيفة كان مقدراً لها أن تلعب في الحياة الدور الذي لعبه رمزي في المسرحية فتموت إنسانياً وليس سريرياً بالضرورة؟

بيت سيدي بشر الخشبي

كان هذا البيت الذي ألقي فيه القبض على لطيفة وزوجها الأول بعد حرب فلسطين وتطبيق الأحكام العرفية. كان التهاب المشاعر الوطنية المصرية وسريانها ببطء لكن بقوة في الجسد العربي سبباً في استئساد السلطة على المعارضة بأطيافها المختلفة، ولاشك أن حب لطيفة لهذا البيت كان أقوى من ذكريات السجن التي ارتبطت بمغادرتها له، ولذلك فإنك عندما تصل إلى هذا الجزء في «حملة

تفتيش، لاتملك إلا أن تستنشق عبير شجرة المشمش التي تنغرس في حديقة المنزل تحفها صحراء سيدى بشر التي ماعادت صحراء. تتغنى لطيفة كثيرا بخشونة شجرة المشمش وزهرها الأبيض لا حد لرهفاته ولا لنضارته وإن كان عمره قصيرا. ومن قبلها تغنت إنجى أفلاطون بتلك الشجرة العجوز تتوسط حوش سجن القناطر ورسمت لها ست عشرة لوحة طيلة سنوات سجنها الخمس (١٩٥٩ - ١٩٦٤) جزء من الحياة البوهيمية للكاتب، قدرته على التواصل مع ما ومن تنقطع به صلة غيره. وقد تأثرت لطيفة بشجرة المشمش إلى حد أنها جعلتها عنوانا لرواية لها في عام ١٩٦٢، استلهمت من نعومة زهر المشمش، الذى ينبثق من وعورة الأغصان الخشبية، فكرة الصراع الدائر بين إرادة الإنسان وقوة الحياة، وأسقطتها على اصرارها وزوجها الأول على المقاومة رغم المطاردة والحبس والسجن والقهر. ثم قررت أن تغير اسم روايتها إلى «الرحلة». انفصلت لطيفة عن زوجها في عام ١٩٤٩، ولم تكتمل أحداث روايتها التي بدأتها بعدها بأعوام ثلاثة.

تجربة الحياة داخل السجن

عندما بلغت هذا الحد من استدعاء سيرة لطيفة اكتشفت أننى لم أكتب إلا عن بيوت: في دمياط، في المنصورة، في القاهرة، في الاسكندرية، ولعله بدا لى أن حياة موحية بعدم استقرارها اللافت، أو أن صاحبتنا كانت شديدة الارتباط بكل مكان انتقلت إليه وعاشت فيه، وإن كان مدهشا قولها إنها لم تشعر بالغربة عن مكان ولاشعرتها في مكان. حنين ربما لكن لاغربة، وعلى أية حال فإن هذا النهج في الحكى قد أسقط تفاصيل لاترتبط بالضرورة بهذا البيت أو ذاك.. والأدق القول إن انعكاس البيت عليها كان هامشيا، تحركت لطيفة خارج حدود المكان بل والزمان أيضا عندما ألقت أمها في وجهها خبر وفاة عبدالناصر، وهي تسحب منديلا بعد منديل تجفف به دموعها، لم تبك هي رغم بكاء من معها في البيت، لم تبك في لحظتها، لكن عندما وقفت ترقب مشهد الجنازة الحزين احتبس صوتها وهي تقول: ليس من حق فرد أيا كان أن ييتم شعبا، وبكت كثيرا وطويلا، ولم يكن المكان حاضرا إلا بالاسم فقط، في اجتماعها ضمن خمسين كاتبا في لجنة القصة بالمجلس الأعلى للأداب، وقتها انصرف اهتمامها إلى ترويج توفيق الحكيم لفكرة الصلح مع إسرائيل، واستشهاده بصلح الحديبية ليخلص إلى أن جمال عبدالناصر ليس خيرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحست بالإهانة عندما استرجعت قوله إن الرسول قبل الصلح على وطأته فوقع باسم محمد بن عبدالله وليس محمدا رسول الله. أهانها الحكيم عندما تحايل على أمية النبى التى هى معجزته، لم تحب لطيفة من يستخف بذكائها.

ليست كل حملة التفتيش على لطيفة وإن كانت البيوت من أهم معالمها، والمؤكد أن الحديث عن تجربة سجن الحضرة في عام ١٩٤٩ وتجربة سجن القناطر الخيرية في عام ١٩٨١ سوف تسلمنا مجددا إلى حديث يلعب فيه المكان دورا رئيسيا بين السجنين خطوط اتصال لأن البطلة هى هى. وانفصال لأن الناس غير الناس والظروف غير الظروف. ألقى القبض على لطيفة وعلى زوجها في أحد أيام شهر مارس ١٩٤٩، قضت ليلتها الأولى في مبنى محافظ الاسكندرية تأهبا للتحقيق معها في اليوم التالى. انقبض صدرها

وهى تمثل للتحقيق فى حضرة وكيل نيابة يغازلها بسؤال: مالها ومال السياسة وهى الحلوة؟ وضابطان أحدهما قاسى الملامح طويل القامة يتشفى فيها ويتلذذ بسماع أنات المثقفين «خريجى الجامعات» هل ينبغى أن نندهش حين نعلم أن هذا الضابط صار فيما بعد رئيسا لوزراء مصر أثناء حكم السادات؟ لكن كما التقت لطيفة فى محبسها الذى دام لشهور ثلاثة بنماذج غير سوية من البشر فإنها التقت بنماذج أخرى خيرة، وهكذا دائما ثنائية الخير والشر التى تفتحت عليها عيناها منذ زمن بعيد، كان هناك الجندى الريفى الشهم الذى استهجن سجن امرأة، وربت على كتفها فى مبنى محافظة الاسكندرية دون سابق معرفة، وحمل إليها ثلاثة أقراص طعمية ساخنة ورغيف بلدى طازج وكوب ماء مثلج، وكانت هناك سجانتها الطيبة علية التى هونت عليها قسوة أيامها، حتى إذا ما أخذ لطيفة الحنين إلى علية بعد إطلاق سراحها، حجت إلى سجن الحضرة، فهل حج سجين سابق إلى محبسه؟ وكانت هناك زميلتها التى أعانتها واستعانت بها، وصارتا وحدة لاتتجزأ وتشاركتا معا مرارا فى الغناء بالفرنسية «غدا يزدهر الربيع» كلما اسودت الدنيا فى عيونهما.

تكررت تجربة سجن لطيفة عند القبض عليها فى أحد أيام شهر سبتمبر ١٩٨١، دخلت سجن القناطر الخيرية ودخل أخوها سجن طرة، وكأنه قدر لها ألا تخوض أبدا تجربة السجن وحيدة، فقبل مايزيد على ثلاثين عاما خاضتها مع زوجها، فى الأربعينيات اتهمت بالانضمام إلى تنظيم شيوعى يسعى لقلب نظام الحكم، وفى الثمانينات كانت تهمتها نشاطها فى إطار لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، وليس ثمة فارق فى الهدف وإن اختلف السياق، لم تكن حارستها هى علية بل كان سجانتها امرأة شوهاء العينين ممسوحة الصدر والأرداف، ذكرتها على الفور بالأختين ريا وسكينة، دائما ريا وسكينة، لكن بعض ملامح شخصية جندى المحافظة الطيب تبينتها فى الجندى المنتصب أمام سجن القناطر حين سألها عن عملها وأجابت باقتضاب أستاذة جامعية، فاندهش مرددا «ياخبر أسود» ولاشك أن لطيفة قارنت ولو فى اللاوعى بين تشفى رئيس وزراء مصر السابق فى الثقافة والمثقفين، وانتفاض الجندى البسيط لأنه مضطر لاقتياد أستاذه فى الجامعة إلى السجن، ولاشك أيضا أن وحشة لطيفة فى سجنها الأخير كانت أقل، وهى تنحشر فى عنبر واحد مع زميلات لها وصديقات، وتشعر بأبخرة الغضب تتجمع فى كل الصدور متجاوزة حدود الحساسية السياسية تجاه هذا التيار أو ذاك، تهيىء خشبة المسرح لأحداث نهار السادس من أكتوبر ١٩٨١.

رفاهية هى أن تقرأ عن السجن من خارجه، تحلل وتنقد وتنظر إلى مخاليق الله داخله نظرة طائر ولكن عند نقطة معينة قد تختلط عليك الحدود فإذا أنت تكتب عن الداخل من الداخل، وإن كنت حينها فى مكان غير المكان، ولعلك تسحب أقرب مرآة تبثها أنفاسك لتثبت أنك هنا لا هناك، وفى كل الأحوال فإن انعدام اليقين المكانى يعنى أنك لم تخرج من التجربة دون رذاذ.. والحديث بقية.

إسكندرية نجيب محفوظ

بقلم
د. صلاح خليل

على الرغم من أن القاهرة وحاراتها وأزقتها وأحياؤها الشعبية كانت البيئة الأساسية التى اتخذها نجيب محفوظ مسرحا لمعظم أعماله الإبداعية، إلا أن نجيب محفوظ - بما هو معروف عنه من إخلاصه لبيئته وصدقه فى التعبير عنها إلى جانب حساسيته المرهفة للزمن وتأثيراته الاجتماعية وولعه بالتاريخ والسياسة وقدرته الفائقة على المزج بينهما لم يكن ليغفل الأسكندرية - مدينة التاريخ - ويسقطها من انتاجه الأدبى وربما قد غاب عن الكثيرين اهتمام نجيب محفوظ بالأسكندرية بل وحبه لهذه المدينة (انظر حواراته مع الأستاذ رجاء النقاش)(١). وقد ظهرت المدينة بوضوح شديد فى رائعته : السمان والخريف (١٩٦٢) وميرامار (١٩٦٧) والقارئ لهاتين الروايتين يستطيع أن يدرك بسهولة كم كان نجيب محفوظ مغرماً بهذه المدينة بل وكم [illegible] عشقا.

---

(١) رجاء النقاش [illegible]

والقراءة المتأنية لروايتى السمان والخريف وميرامار واختيار الكاتب الكبير للحقبة الزمنية لأحداث هاتين الروايتين بالذات، تظهر بوضوح أن نجيب محفوظ قد وعى جيداً تاريخ الأسكندرية واستوعب تماماً كمادته. ملامح التغيير التى حدثت لهذه المدينة من أهم فترات التحول بها، وقد تناول نجيب محفوظ هذه التغيرات من خلال أحداث الروايتين بحرفية فنية وأسلوب أدبى شديد الارتقاء ارتفع إلى مستوى الشعر فى بعض أجزائه.

وقد ظهرت الأسكندرية بشوارعها وسموات خريفها وشتائها الملبدة بالغيوم ورائحة البحر أيضاً فى رواية الطريق (١٩٦٤) ولكن بشكل مختلف عن ظهورها فى روايتى السمان والخريف وميرامار فبطل الرواية السكندرى الذى هجر موطنه إلى القاهرة باحثاً عن أبيه لم يستطع أن يتخلص من ذكرياته ويسيطر ماضيه على حاضره الجديد فى القاهرة، فنجده يستحضر ماضيه فى الاسكندرية ويكاد يعايشه خلال الرواية.

والهدف من هذا المقال هو تسجيل اهتمام نجيب محفوظ بمدينة الأسكندرية فى انتاجه الأدبى وابراز ملامح رؤيته لها وكيفية ظهورها فى الانتاج.

تعتبر الأسكندرية مثل المدينة ذات العمق الثقافى والحضارى الشديد الخصوصية والتميز والضارب فى عمق التاريخ من أهم مدن مصر وأقدمها، وقد ظلت عاصمة لمصر لفترة طويلة من الزمن فقد بناها الأسكندر الأكبر وأصبحت - ولفترات طويلة - من أهم المراكز الثقافية والتجارية فى العالم القديم حيث ضمت اثنتين من عجائب الدنيا السبع وقد لعبت جامعة الأسكندرية القديمة وعلماؤها آنذاك دوراً رئيسياً فى الاضافة إلى التراث الحضارى الانسانى. وقد تراجعت أهمية الاسكندرية بعد الفتح العربى لمصر حتى أعاد لها محمد على - مؤسس مصر الحديثة - وعائلته بعضاً من أمجادها القديمة مع بداية القرن التاسع عشر وكان نتيجة لنزوح الأجانب إلى هذه المدينة واختلاطهم بسكانها وترسب الحضارات بها أن اكتسبت طابعاً شديد التنوع والخصوصية فى



شادية ويوسف شعبان فى « ميرامار »

نفس الوقت وصار لها أريجاً ثقافياً وحضاريا فريداً.

وقد كانت الاسكندرية مصدر وحى للعديد من الكتاب والفنانين والمبدعين - مصريين وأجانب - ولا تذكر الأسكندرية والأدب إلا ويذكر - على سبيل المثال - الكاتب البريطانى لورانس دوريل ورباعية الأسكندرية الشهيرة والشاعر السكندرى اليونانى - كفافى - المعروف بشاعر الأسكندرية (فى العصر الحديث) وغيرهم.

يصل شغف نجيب محفوظ بالمدينة حدا يصل إلى مناجاة المدينة على لسان أبطال رواياته ومخاطبتها بأسلوب يصل إلى حد المناجاة والغزل الرقيق - ولنتأمل كيف يناجى - عامر وجدى - أحد أبطال ميرامار - المدينة:

« الأسكندرية أخيراً .. قطر الندى .. نفثة السحاب البيضاء .. مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع. » ميرامار ص ٧.

ثم على لسان عيسى الدباغ بطل السمان والخريف:

« .. ونظر إلى السماء المتوارية وراء ظلمات السحب وقال أن الخريف فى الاسكندرية روح من أرواح الجنة وهو معتدل لجميع الأحزان.. » السمان والخريف ص ٢٦٨.

ويصف نجيب محفوظ مشاعر صابر سيد سيد الرحيمى بطل الطريق - وهو يغادر الاسكندرية مودعها

ويتعلق بصره بالمدينة والقطار يرج الأرض

مبتعداً . رآها مدينة الأطياف مغروسة فى حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شبه الخالية . ودعها هى وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة».

الطريق ص . ٢٢.

تأمل اختيار نجيب محفوظ للكلمات والتعبيرات التى تصف احساسات بطل الرواية نحو مدينته:

تعلق بصره ....! ودعها هى وأمه وذكريارات ...... ثم كيف يصف شوارع المدينة، ويبدو أن الخريف والشتاء من أهم مصادر سحر المدينة عن نجيب محفوظ كما سنرى . أن نجيب محفوظ يناجى الاسكندرية – على لسان أبطال رواياته بأسلوب يفيض عذوبة ورقة ويكاد يرتقى الأسلوب إلى مستوى الشعر الرفيع لفرط رقته.

الأسكندرية الأماكن

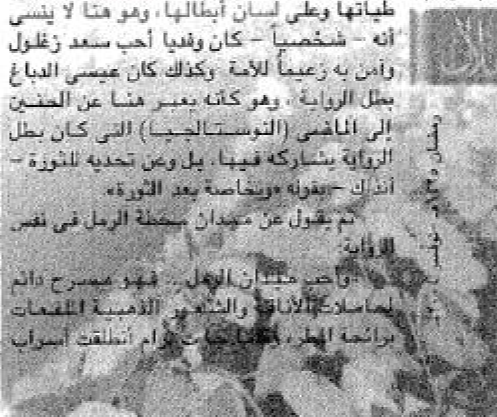
وقد احتلت بعض أماكن الاسكندرية الشهيرة جزءا هاماً من حفاوة الكاتب بالمدينة، ويصف الكاتب مشاعر عيسى الدباغ – الشخصية المحورية فى السمان والخريف – نحو شارع سعد زغلول بالاسكندرية فيقول:

«وسار على مهل فى شارع سعد زغلول – أحب شوارع الاسكندرية إلى نفسه – وبخاصة بعد الثورة – أنه شارعه الخاص على وجه ما – ويحب كثيراً أن يقطعه ولو مرة كل يوم – جيئة وذهاباً ليناجى فيض الذكريات». السمان والخريف .. ص ٨٥.

وكاتبنا هنا لا يخفى شغفه بالسياسة – والتى تكمن دائماً وراء أحداث الرواية بل وفى طياتها وعلى لسان أبطالها، وهو هنا لا ينسى أنه – شخصياً – كان وفديا أحب سعد زغلول وآمن به زعيماً للأمة وكذلك كان عيسى الدباغ بطل الرواية ، وهو كأنه يعبر هنا عن الحنين إلى الماضى (النوستالجيا) التى كان بطل الرواية يشاركه فيها . بل وعن تحديه للثورة – آنذاك – بقوله «وبخاصة بعد الثورة».

ثم يقول عن ميدان محطة الرمل فى نفس الرواية:

«وأحب ميدان الرمل .. فهو مسرح دائم لمناسبات الأناقة والشاعر الأهبية للقمات برائحة العطر ، ومحطة ترام انطلقت أسراب



الحسن تبهج الخاطر وتسكر اللب وتعزف بسيقانها أعذب الألحان». السمان والخريف ص١٠١.

وقد اختتم نجيب محفوظ رواية السمان والخريف بحوار رائع – ورد به ذكر ميدان وتمثال سعد زغلول – بين عيسى الدباغ وشاب غامض – شهد عيسى إجراءات التحقيق معه بصفته الرسمية والحزبية – عندما كان عيسى ذا سلطة وحيثية قبل الثورة – وربما كان هذا الشاب رمزاً للتغيير للمستقبل أيضاً فى حياة بطل الرواية ، ولم يخل الحوار من رموز سياسية كالعادة – عن اعتقال السلطات – قبل الثورة وبعدها للأحرار من ابناء الشعب، وعن ضرورة التغيير والتخلص من رموز الماضى – حتى لو كان سعد زغلول نفسه . وقد قام الكاتب فى هذا الجزء من الرواية بتوظيف ميدان سعد زغلول وتمثاله والأحداث التى صاحبت هذا الحوار للتعبير عن أن بطل الرواية قد بدأ فعلاً فى التخلص من الماضى ورموزه التى كان يتمسك بها وتنفيذ خطة للمستقبل وقد فعل الكاتب ذلك ببراعة منقطعة النظير ولنتأمل معاً بعض أجزاء الحوار – حيث استخدم الكاتب «تمثال سعد زغلول» الذى يطل على كورنيش الاسكندرية بحرفية تعجز الكلمات عن وصفها.

«......... ثم جلس على أريكة تحت تمثال سعد زغلول..........».

«ولم يكن قد نجا بعد من ذكريات الشاب الناشية فى مخيلته ... ولكنه صمم على أن يرسم للمستقبل..........».

ويقتحم الشاب جلسته ويبدأ الحوار .... ويقول له الشاب – من ضمن ماقال – :

– «.......... أليس هذا بخير من الجلوس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول؟

ثم : «...... أنت تود أن تجلس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول».

ويتركه الشاب بعد أن يئس من الحديث معه، وبعد منولوج داخلى، يقول عيسى لنفسه:

«أستطيع أن ألحق به على شرط ألا أضيع ثانية فى التردد». ثم

«وانتفض قائماً فى نشوة حماس مفاجئة ، ومضى فى طريق الشاب بخطى واسعة، تاركاً وراء ظهره مجلسه الغارق فى الوحدة

والظلام.....». السمان والخريف : ص ١٧٥ - ١٧٨.

ولم تخل أيضاً رواية ميرامار من وصف لأماكن معينة فى المدينة على لسان أبطالها ، فيقول نجيب محفوظ على لسان عامر وجدى الصحفى القديم وأحد أبطال الرواية.

«ما أحلى أيام الدفء فى البالما والبجعة». ميرامار ص ٢٢.

ثم على لسان نفس الراوي:

«زرت بحنان اثنيوس ويسترودس وأنطونيادس، جلست وقتا فى بهو وندسور وسيسيل، ملتقى الباشوات والساسة الأجانب فى الزمن القديم وخير محل لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث، فلم أر الا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين....» . ميرامار ص٢٤.

فالكاتب هنا، كلاعب الشطرنج الماهر الذى يسجل أكثر من هدف فى حركة واحدة؛ أو كمن يضرب أكثر من عصفور بحجر واحد؛ فهو يسجل - فى سطور قليلة وبتعبيرات شديدة التركيز - التنوع الحضارى للمدينة (تأمل أسماء الأماكن والفنادق هنا)، ثم يسجل هنا أيضاً - وبلغة رمزية لاتكاد تخفى الحقائق - التطور السياسى فى البلاد، من انحسار الأجانب واختفاء الباشوات ، ثم يسجل مرة ثالثة - ذلك الحنين إلى الماضى القريب- (لاحظ عبارة : فى الزمن القديم) وربما أيضاً يعبر بذلك عن موقفه السياسى من الحاضر - الثورة ، ثم ألا نلمح هنا رؤية مستقبلية أو نبوءة - أثبتت الأيام صدقها بعزلة سياسية قادمة للوطن ... لمصر؟ - ولقد تزامنت فعلاً هذه العزلة السياسية مع تطور ثورة ١٩٥٢ خصوصاً مع دول المعسكر الغربى وظهرت واضحة فى الستينيات من القرن الماضى؟ (لاحظ توقيت أحداث الرواية).

ثم ما هو المقصود من الحنان هنا؟ هل هو خليط من حنين وحب إلى المكان؟ أم هو حنين إلى المكان والزمان؟ أم هو حنين إلى المكان والزمان وكل ما ينطق بهما من سياسة وأحلام وبشر وزعامات؟ إن الكاتب العبقرى هنا يستخدم تعبيرات قليلة ولكنها مشحونة بحشد من المعانى والأفكار على مستويات مختلفة، ومرة أخرى تكمن السياسة وراء تعبيراته وكلماته مهما أغرق فى الرمز.

ثم يصف كازينو البالما - على ترعة المحمودية بالأسكندرية - فيقول على لسان عامر وجدى:

«...هاجرنا إلى أطراف الاسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار ، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام، فأوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات...». ميرامار ص ٣٢.

شخصية الأسكندرية

وقد سجل نجيب محفوظ - وببراعة منقطعة النظر إحدى خصائص الاسكندرية فى ذلك الزمان - وربما عبر التاريخ أيضاً - ألا وهى ازدواجية شخصية المدينة أو فلنقول الطابع المتعدد الجنسيات لشخصية المدينة.

ويجىء وصف الفنان الكبير لهذه الصورة المتكاملة لوجود الأجانب بالمدينة واستوطانهم لها وإقامتهم بها من خلال نسيج رواياته ومسير أحداثها والحوارات التى تدور بين أبطالها . فها هو عيسى الدباغ - بطل السمان والخريف - يختار لسكناه بالأسكندرية شقة مفروشة لأسرة يونانية ليقيم فيها فى حى الابراهيمية - وهو من أحياء الاسكندرية المشهورة التى سكنها اليونانيون والأرمن والأجانب على وجه العموم - فى تلك الحقبة من الزمن - قبل هجرتهم من المدينة إلى أوروبا وأمريكا بعد ١٩٥٢ ووصلت هذه الهجرة إلى ذروتها بعد حرب ١٩٥٦.

«وجدران الحجرات محلاة بصورة الأسرة اليونانية صاحبة الشقة - وكلما نظرت إلى الخارج رأيت الوجوه اليونانية فى الشرفات والنوافذ وعلى قارعة الطريق ، غريباً فى موطن غرباء - وتلك مزية الابراهيمية، والمقهى المرصع طواره بالأشجار وسوق الخضار بألوانه النضرة والحوانيت الأنيقة التى تحفل بالوجوه اليونانية وتتردى فى جنباتها - بعد زوال الموسم - لغتهم الأجنبية» . السمان والخريف ص ٧٥.

والصورة التى رسمها نجيب محفوظ، من أصدق الصور التى يمكن تسجيلها عن أحد أشهر أحياء الأسكندرية التى سكنها اليونانيون والأرمن وغيرهم من مواطنى الأسكندرية من الأجانب خلال تلك الحقبة من الزمن. وربما لايدرك ذلك إلا من عاش بهذا الحى فى تلك الفترة، (وجدير بالذكر أن كاتب هذه السطور قد

عاش في طفولته وشبابه في هذا الحي الجميل، حي الابراهيمية. وعاصر هجرة مواطني الاسكندرية من الأجانب منه).

ثم يأتي وصف نجيب محفوظ لإحدى الفترات الهامة في تاريخ الاسكندرية، حين بدأ سكان المدينة من الأجانب هجرتهم منها في أواخر الخمسينيات، لأسباب سياسية معروفة، وقد رصد الكاتب العظيم هذه الفترة بدقة عالم التاريخ والاجتماع المدقق وحس الفنان المرهف الذي لاتفوته الملامح الأساسية وربما حتى التفاصيل الدقيقة، وقد جاء وصفه لهذه الحقبة الهامة من تاريخ المدينة ديناميكيا متحركا مليئاً بالحيوية والتشويق ومتسما بالصدق والعمق. ومرة أخرى – يجيء هذا الوصف – بطريقة غير مباشرة – من خلال أحداث الروايات وعلى ألسنة أبطالها.

يقول نجيب محفوظ على لسان عامر وجدى – أحد أبطال ميرامار – وهو في طريقه للإقامة في «بنسيون» ميرامار الذى تملكه ماريانا العجوز السكندرية اليونانية الأصل.

«ماريانا ، عزيزتي ماريانا، أرجو أن تكوني بمعقلك التاريخي كالظن والمأمول. «ميرامار ص٨.

ترى هل توحي هذه الكلمات بشيء؟ وهل جاءت «بمعقلك التاريخي» إعتباطا؟

ثم دعونا نتأمل هذا الحوار بين ماريانا وعامر وجدى الصحفي العجوز السكندرى المولد:

يقول عامر وجدى مخاطبا ماريانا:

– «سلامتك ولكن أين أهلك؟

وهي تتنهد

– هاجر النساء والرجال.

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت:

– قلت أين أذهب؟ لقد ولدت هنا، لم أر أثينا أبداً في حياتي ثم أن «البنسيونات» الصغيرة لن تؤمم بأي حال.

– مصر وطنك والاسكندرية ليس مثلها شيء.......

– آه يا مسيو عامر، تقول أن الاسكندرية ليس كمثلها شيء، كلا لم تعد كما كانت على أيامنا. الحثالة تعلو الآن في طرقاتها:

قلت بإشفاق:

– عزيزتي ، كان لابد أن تعود إلى أهلها.

قالت بحدة:

– ولكننا نحن الذين خلقناها.

....

– مسيو عامر، قتلت الثورة الأولى زوجي الأول ، أما الثورة الثانية فجردتني من مالي وأهلي ، لماذا؟» ميرامار ص ١٧و١٨.

ويبين الحوار السابق كيف سجل نجيب محفوظ في حوار قصير مفعم بالواقعية والصدق، أحداث تلك الحقبة الهامة من تاريخ الاسكندرية والتي تزامنت أيضاً مع تطورات هامة جاءت بها ثورة ١٩٥٢ من تأميم للممتلكات الخاصة واتجاه واضح نحو الاشتراكية والحكم الشمولي مع محاولة طمس التارخ السابق للثورة والغاء الأحزاب ، ولن نستطرد هنا في هذا الاتجاه وسوف نحاول بقدر الامكان في هذه الدراسة التركيز فقط على كيف ظهرت الاسكندرية في هاتين الروايتين، حيث أنه من المعروف أن الخط الروائي الأساسي لهاتين الروايتين هو سياسي بالدرجة الأولى وليس هذا موضوعنا هنا على أى حال.

ونعود إلى الاسكندرية وسكانها الأجانب، والذين كانوا قد استوطنوا المدينة وأقاموا بها المتاجر والبنوك والمدارس والنوادي والمستشفيات والمقاهي والملاهي والأسواق حتى إذا تجولت ببعض أحيائها يخيل إليك إنك في أثينا أو حتى في باريس، ثم جاءت ثورة ١٩٥٢ وحرب ١٩٥٦ وبدأوا في النزوح منها في هجرة عكسية إلى الغرب الذي جاءوا منه وإلى أمريكا وكندا واستراليا . ويلمس نجيب محفوظ شعور هؤلاء الأجانب بالانتماء إلى هذه المدينة بل بامتلاكها أيضاً. ومرة أخرى، نجد نجيب محفوظ لايستطيع فكاكاً من إلحاح السياسة الذى يسيطر عليه، فيغمز هنا ويلمز هناك عن التأميم وطرد الثورة للأجانب بل ويشير من بعيد لثورة ١٩١٩ والتي يكن لها إعزازا كبيراً. ولا ينسى نجيب محفوظ تسجيل كيف كان ينظر الأجانب من مستوطني المدينة إلى ما حدث فيها من سلبيات نتيجة عودة المدينة إلى أهلها.

ومما هو جدير بالذكر أن تلك الأحداث التاريخية التي مرت بها المدينة قد تناولها روائيون آخرون، ولكن بأساليب مختلفة – تعتمد

١٢٤



بطبيعة الحال - على أسلوب الروائى وخلفيته الثقافية ووجهة نظره، وقد جاء وصف بعض هؤلاء الأدباء لهذه الأحداث بأسلوب تقريرى وأحياناً اخبارى واستغرق العديد من الصفحات ، بينما برع نجيب محفوظ فى تسجيل صورة حية للأحداث - بأبعادها المختلفة وبجميع ألوانها بأسلوب أدبى مرتفع من خلال النسيج الرقيق لروايته وعلى لسان أبطال هذه الروايات.

الإسكندرية : البحر
الخريف . الشتاء

يمثل البحر وجو الاسكندرية فى الخريف ونواتها فى الشتاء جزءا هاما من الصورة المتعددة الأبعاد التى يرسمها نجيب محفوظ للمدينة الساحلية العريقة ، وقد استخدم نجيب محفوظ فى وصف جو الاسكندرية عبارات رشيقة قوية لاتخلو من شاعرية وأسلوبا عذبا فريداً لم يسبقه اليه أحد، ويكاد جو اسكندرية نجيب محفوظ فى الخريف والشتاء يشارك أبطال رواياته إحاسيسهم بل وأدوارهم.

«ها هو البحر يترامى فى عظمة كونية حتى يغوص في الأفق ولكنه يستمد من حلم أكتوبر حكمة ودماثة....». السمان الخريف ص٧٠.

«وفتح باب الشرفة فتدفق هواء قوى ولكنه لطيف مشبع برائحة البحر ودفء الشمس الساطعة فى كبد السماء . وراح يرنو إلى البحر الذى دبت فيه حركة مليئة بالاشفاء وانتشرت على سطحها خطوط الرغاوى كأفواه ضاحكة....» . السمان والخريف ص٨٨.

«ولم يعد يدهش لأيام الشتاء العاصفة حين يغلق البوغاز وتتطاير أمواج الغضب من البحر الغاضب فتجتاح الكورنيش وتكفهر السحب كقطع الليل، ويشتط البرق كالصواريخ وتنهل الأمطار ككائنات هاربة من غضب السماء». السمان والخريف ص٩٦.

«وها هو الجو يكفهر وتبتلع قوة الضياء وتتكدس السحب فيلوح الأدميون الملون كالأطياف . ياسكندرية الشتاء المتقلبة كامرأة - وهب الهواء عنيفاً كأنباء السوء فحبكت الأيدى البضة المتعاطف وأغلق باعة الصحف معارضهم وأمسى الاحتماء بزجاج «على كيفك»(٢) واحتساء الشاى الساخن نعمة النعم. وجعجع الرعد فشرد القلب وهطل المطر بقوة ورشاقة



نادية لطفى ومحمود مرسى فى «السمان والخريف

حتى وثق مابين السما ، والأرض بأسلاك مكهربة وخلا الميدان وتكتل البشر تحت مظلات الأسمنت فبعث منظر تلاصقهم الدفء فارتاحت نفسه وطابت» . السمان والخريف ص١٠٢

ويواصل الكاتب استكمال لوحاته الحية التى يرسمها بمهارة لجو الاسكندرية فى الخريف والشتاء فى رواية ميرامار فيقول على لسان عامر وجدى:

«وإنى لأعرفك ياسكندرية الشتاء، تخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر» ميرامار ص١٤.

«دنا الخريف من نهايته ولكن جو الاسكندرية يسير على هواه وقد أنعمت بركاته علينا بصباح مضىء دافىء فابتهج ميدان الرمل تحت أشعة الشمس الهابطة من سماء صافية الزرقة». ميرامار ص ٧٢.

«غادرت البنسيون عقب أيام حبست فيها داخله لشدة البرد وثورة الرياح وانهلال المطر. كانت أياما قطيعة فانطوينا على أنفسنا فى الحجرات ولم يكف الجو عن مهاجمتنا فى قواقعنا، لطمت المياه النوافذ وزلزلت الجدران بصواعق الرعد وومض البرق كالنذر وصرخت الرياح كعزيف الجان . ولما غادرت البنسيون استقبلنى الوجه الآخر للإسكندرية، الذى انزاح غضبه وثاب إلى وداعته - تلقيت الشعاع الذهبى المضول بامتنان، نظرت إلى الأمواج التى تتتابع فى جراءة، على حين نقشت السماء بسحاب صغيرة متهافتة كالأنفاس المترددة». ميرامار

• (٢) أحد المقاهى الشهيرة بميدان محطة الرمل بالإسكندرية فى ذلك الوقت .

ص ٧٩.

ثم يبدو الجو وكأنه يشارك أبطال الرواية مشاعرهم – تأمل قول منصور باهي – أحد أبطال ميرامار مناجيا نفسه في منولوج داخلي:

«الريح تسفع النوافذ بوابل المطر.... هدير الأمواج يقتحم أعماقي .....» ميرامار ص ١٨٢.

ثم: «عايشت العاصفة من وراء الزجاج، حتى نعمت بالصفاء. شيء حدثني بأن تلك الدراما إنما تحكي أسطورة مطمورة في قلبي .. وتخط طريقاً مازال غامض الهدف .. أو تضرب موعداً في غمضة لم تفهم بعد» ميرامار ص ١٨٩.

ويبدو أن جو الاسكندرية يلح على الكاتب، فيتحفنا بلوحة أخرى على لسان منصور باهي، وتجيء هذه المرة بأسلوب مباشر:

«يعجبني جو الإسكندرية .. لافي صفاته واشعاعاته الذهبية الدافئة .. ولكن في غضباته الموسمية .. عندما تتراكم السحب وتتعقد جبال الغيوم .. ويمتلء رواق السماء بلحظة صمت مريب .. ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير .. عند ذلك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل .. وتتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون .. ويدوي عزيفها في الآفاق .. ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق .. ويجعجع الرعد حاملاً نشوات فائرة من عالم مجهول .. وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب .. وينهل المطر في هوس فيضم الأرض والسماء في عناق ندي .. عند ذاك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد .. وعند ذاك فقط يجلو الصفاء ويطيب .. اذ انقشعت الظلمات وأسفرت عن وجه مغسول .. وخضرة يانعة وطرقات متألقة ونسائم نقية .. وشعاع دافيء وصحوة ناعمة .. «ميرامار ص١٨٩.

الا تتفق معي ايها القارئ، أن التعبيرات التي استخدمها نجيب محفوظ في وصف العواصف والأمطار في الخريف والشتاء بالإسكندرية ورذاذها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كما أنها في نفس الوقت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

دور المصور السينمائي الماهر في تسجيل لقطات تموج بالحياة والحركة؟

الإسكندرية في رواية الطريق

ظهرت الإسكندرية في رواية الطريق بشكل مختلف عن ظهورها في كل من السمان والخريف وميرامار؛ فقد بدأت رواية الطريق في الإسكندرية ثم أكتملت أحداثها في القاهرة، وكان بطلها صابر سيد سيد الرحيمي «اسكندرانيا» ترك مدينته ليبحث عن أبيه في القاهرة، وعلى الرغم من أن معظم أحداث الرواية قد جرت في القاهرة؛ فقد لعبت الإسكندرية وذكرياتها عند بطل الرواية دوراً فريداً في خلفيتها. فنجد رائحة البحر ولفحات هواء الخريف في الإسكندرية تنبعث من هنا وتهب من هناك في هذه الرواية، وكادت الإسكندرية وذكرياتها تشارك بطل الرواية غربته القاهرة منذ لحظة مغادرته المدينة وحتى اتهامه بالقتل ودخوله السجن.

ويرجع ظهور الإسكندرية بهذه الكثافة في الرواية على الرغم من أن أهم أحداثها دارت في القاهرة أن بطل الرواية لم يستطع أن يتخلص من ذكرياته «السكندرية» وسيطر ماضيه في الإسكندرية على حاضره الجديد في القاهرة في كل كبيرة وصغيرة. فهو يستحضر هذا الماضي ويكاد يعايشه خلال الرواية، في منامه ويقظته، في لهوه وجده، في مغامراته العاطفية، وحتى أثناء ارتكابه لجريمته.

وتجدر الاشارة أيضاً أن هذه الرواية احتوت على العديد من العناصر المشتركة التي اهتم بها الكاتب في كل من السمان والخريف وميرامار لابراز ملامح المدينة كما يراها، فقد ورد بالرواية ذكر العديد من الأماكن المهمة بالمدينة مثل شارع النبي دانيال وسعد زغلول والكورنيش، كما لمس ولو من بعيد شخصية المدينة المتعددة الجنسيات ولم يغفل الاشارة إلى خريف الإسكندرية وشتائها ورعدها وبرقها أيضاً.

«وفي طريقه إلى مسكنه بشارع النبي دانيال لفحه هواء منعش مجبق بأنفاس الخريف وبدت السماء غامضة في مولد المغيب «........ .... مسكن النبي دانيال الذي شهد فترة بهيجة ناعمة في حياته......» الطريق ص٦.

ثم ..

«وجلس في شرفة تطل على ملتقى النبي دانيال بسعد زغلول ينخن سيجارة فجذب بصره استعداد قائم في شقة على الجانب الآخر من الطريق تسكنها أسرة أفرنجية ....» الطريق ص٦.

ويعتبر شارع النبي دانيال من المعالم المهمة لمدينة الإسكندرية ويبقى هذا الشارع شاهداً على شخصية الإسكندرية المتعددة الجنسيات والأديان أيضاً بما يحتويه من المباني ذات الطرز المعمارية المختلفة ودور العبادة لمختلف الأديان. والجدير بالذكر أن هذا الشارع أيضاً ورد في رباعية الإسكندرية المشهورة للورانس دوريل. كذلك فقد ورد ذكر أحياء أخرى من الإسكندرية كالمنشية والأنفوشي في أماكن متفرقة من الرواية.

«والمنشية كانت معبداً لأمة طيلة ربع قرن من الزمان»الطريق ص١٨.

ويربط صابر سيد سيد الرحيمي بين الزوجة اللعوب لصاحب الفندق القاهري - بذكرياته مع فتاة كان قد التقى بها في الإسكندرية منذ عقد من الزمان أو يزيد، ويبدو وكأنه يريد التواصل مع مدينته واقحامها - حتى ولو بيقين ضعيف - في تفاصيل حياته الجديدة، وكأنه يريد أن يتمسك بجذوره وانتمائه للمدينة الأم:

«رباه إنها فتاة في عز الشباب تشد عينيه بقوة ليست بلا سبب - إنها توقظ مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونة في الضباب. العطفة المبلطة الصاعدة من الأنفوشي المشبعة بهواء البحر ورطوبته المالحة وانفعالات الجنون اللفحة بالظلام .... السمرة الرائقة النقية، والعينان اللوزيتان الدعجاوان، وبريقهما المضيء المفعم بالنبض والاقتحام. أين هذا من القطة المهزولة ذات الثوب الباهت الواحد وأظافرها الجارحة؟ إنها تذكره بها بعنف تاركة له تخيل ماصنع الزمن في عشر سنوات أو يزيد. والاسم ضائع كأبيه، ولكن رائحة البحر تملأ خياشيمه......». الطريق ص٢٤.

ولاتزال مدينته تطارده حتى ما بين النوم واليقظة:

«وفتح النافذة فلم ير المنظر الذي في غفلة توقعه، منظر عمارات النبي دانيال وسعد زغلول وزرقة البحر على مرمى البصر وهواء الإسكندرية العامر بالفتن». الطريق ص ٣٠.

وتكاد المدينة الساحرة وذكرياتها تستحوذ عليه فحتى في ذروة انشغاله بالبحث عن الأب المفقود نجد أنه يربط كل شيء حوله وأي شيء يحدث له بالإسكندرية وكأنها أصبحت مركزاً لعالمه الجديد حتى وإن غادرها إلى مدينة كبيرة كالقاهرة:

«تعب البصر من تفحص الوجوه، وشوارع القاهرة الزاخرة بتيارات البشر والسيارات كأمواج البحر في الأيام العاصفة. وسحب الخريف القادمة من الإسكندرية يتبدد أكثرها قبل الوصول إلى سماء القاهرة ولكن ذكريات الإسكندرية مشتعلة أبداً في القلب المنتظر» الطريق ص٥١.

ويصف نجيب محفوظ حنين صابر سيد سيد الرحيمي إلى الإسكندرية بتعبيرات فريدة يجمع فيها بين هواء الإسكندرية ورائحة السمك والمطر في توليفة لاتخلو من براعة.

«وشرب بسرعة ودون أدنى اهتمام بالنقود: كأيام النبي دانيال. عندما قالت له الدنيا جميلة وأنت زهرتها. وهواء الإسكندرية المعربد بالفتن .... وتبسم بالنشوة رغم رائحة السمك .... وحن إلى الرقص في الكفار الليلي، والشوارع السنجابية المغسولة بماء المطر والهواء المنبعث من الهدير الذي يغطي الأجساد بغلالة سمراء ..... ثم راح يغني بالأغنية الإسكندرانية «متبطل الشقاوة وتعال عندنا......» الطريق ص ٥٥.

إن الإسكندرية هنا تبدو وكأنها تكمن في داخل صابر سيد سيد الرحيمي وتعيش في داخله وتسيطر عليه حتى إذا ثمل انطلقت المدينة وذكرياتها وألحانها وروائحها من معقلها.

ثم وبعد رشفات من الحب.

«وتسللت إلى أنفه رائحة خفيفة ولكنها مثيرة جمة الذكريات. وتوقع أن يسمع هدير البحر» الطريق ص٥٧ (لاحظ أن المشهد في القاهرة).

إن البطل الاسكندراني يفتقد حتى هدير البحر الذي تعود أن يسمعه بعد لحظات الحب في مدينته التي هجرها بحثاً عن أبيه ويبدو من

فرط سيطرة الإسكندرية عليه وكأن اكتمال نشوته أصبح مشروطا بإحساسه أنه في مدينته ببحرها وهدير أمواجه.

ويتكرر نفس الإحساس مرة أخرى وبعد مشهد آخر من مشاهد الحب حيث يربط صابر الرحيمي الإسكندرية وذكرياتها (الماضي) بما يحدث له في لحظات الحب في منفاه (الحاضر):

.. كذكريات الكنار الليلي على أنغام البحر وتلك الليالي الظافرة في كل شيء» الطريق ص ٧١.

ومرة أخرى تتداخل احساساته الحالية (في الزمن الحاضر) مع ذكريات مدينته (الزمن الماضي) عندما يقارن بين مشاعره تجاه كل من إلهام وكريمة:

«وإلهام سماء صافية يجرى تحتها الأمان وكريمة سماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولكنها أيضا سماء الأسكندرية المحبوبة، وكان يحتسى الشراب على صوت الرعد في النبي دانيال ويدفئ قلبه بالقبل. وهي تأبى أن تعترف بأنها فتاة عطفة القرشي، لماذا تخفين الأسرار؟ لأنك العذاب والشيطنة. وقد التحمت في خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن......» الطريق ص٨١.

ولازالت الإسكندرية وذكرياتها تطارده في لحظة ارتكاب الجريمة:

«وارتفع الشخير كشخير أمك في الليلة الأخيرة. والكفن كعود جاف. وبكاء السماء من زجاج الشرفة بالنبي دانيال» الطريق ص١٠١

ثم وبعدها

«ومرة ارتفع رأسه فوق الأفق مبنى القضاء العالي فرأى مظلة كبيرة من السحب ذات أرضية بيضاء صافية تنتشر عليها قطعان من السحاب الداكنة فاستيقظ قائلاً «هذه زفرة من الإسكندرية» وتحرك في القلب الشجن» الطريق ص ١١٧.

لقد غادر صابر الرحيمي الإسكندرية ولكن المدينة لم تغادره. وحنينه إلى الماضي القريب يطارده في واقعه الجديد ويكاد يتداخل مع زمنه الحاضر وهو يعيش ويحب ويقتل في القاهرة تصاحبه الإسكندرية بذكرياتها وهدير البحر ورائحة الماء المالح وسحابات الخريف وأمطار الشتاء بها.

الاسكندرية واسماء الروايات:

السمان والخريف - ميرامار

السمان والخريف:

ترصد رواية السمان والخريف في عبقرية فريدة - مرحلة الانتقال من الملكية إلى مابعد ثورة ١٩٥٢ وما صحبها بما يسمى بحركة التطهير التي قامت بها الثورة للتخلص من بعض الموظفين الحزبيين الفاسدين من خلال تسجيل ماعاناه بطل الرواية - عيسى الدباغ - الحزبي الفاسد الذي تسببت حركة التطهير في فقده لوظيفته وتدمير وضعه الاجتماعي ويختار عيسى الدباغ الاسكندرية منفى اختياريا بمحض إرادته ليلوذ بها بعيدا عن القاهرة وفضيحته المأساوية بها.

ما العلاقة إذن هنا بين الإسكندرية وعيسى الدباغ والسمان والخريف؟

المعروف أن الإسكندرية هي نهاية رحلة الطيور المهاجرة - السمان - من بلاد الشمال في الخريف حيث يصلها السمان منهكا بعد طول سفر ويصبح فريسة سهلة لصائد به على الساحل الزعفراني ، إذن فالسمان الغريب يقصد المدينة الغريبة بعد طول سفر لائذا بها ويكون الهلاك مصيره على الساحل الغريب.

أليس هذا هو حال عيسى الدباغ - حيث لاذ بالمدينة بعد رحلة عمر مليئة بالطموح والأمل في المناصب العليا - وها هو يتهاوى تحت ضربات القدر؟

بل قد يكون ذلك هو حال ريرى أيضاً والتي جاءت إلى المدينة هاربة من ماض تريد أن تدفنه؟

وعلى أية حال فلقد كان المؤلف رحيماً «بسمانه البشرى» فترك لهم بعض الأمل، وتنتهي الرواية دون هلاك مؤكد للسمان الأدمي (عيسى الدباغ وريرى).

«ترى البحر وقد سحره أكتوبر فأخلد إلى أحلام اليقظة وترى أيضاً أسراب السمان تتهاوى إلى مصير محتوم عقب رحلة شاقة مليئة بالبطولة الخيالية» السمان والخريف ص٧٦.

«ميرامار» (نضجتجتجتجنجم)تعبيرا يعود إلى اللغة الأسبانية وتعنى حرفياً انظر إلى البحر وتوجد أكثر من مدينة ساحلية فى الأمريكتين بهذا الاسم وقد كان نجيب محفوظ موفقاً إلى حد كبير فى اختيار ميرامار كاسم لروايته وإذا كانت رواية ميرامار رواية سياسية بالدرجة الأولى حيث تضمن نقداً صريحاً للسلطة والثورة والاتحاد الاشتراكى فان اختيار كلمة ميرامار كاسم للرواية التى كانت مدينة الإسكندرية مسرحاً لها يعد اختيارا موحياً إلى حد كبير وميرامار هو اسم البنسيون الذى كان مسرحا لأحداث هذه الرواية وأحاديثها ، وربما استوحى الكاتب اسم الرواية من اسم بنسيون كان موجوداً بالفعل بالإسكندرية بأحد الشوارع المتفرعة من محطة الرمل فى اتجاه الكورنيش . وجدير بالذكر أنه كان يوجد أيضاً، على الكورنيش وبالقرب من نفس المكان بارا يسمى «قهوة وبار ميرامار».

إسكندرية نجيب محفوظ.. المكان والزمن والأبطال

تدور أحداث اسكندرية نجيب محفوظ فى الأحياء القريبة من الكورنيش فاسكندرية نجيب محفوظ هى اسكندرية محطة الرمل والشاطبى وكليوباترة والابراهيمية وسيدى جابر وليست اسكندرية الأحياء الشعبية بها: القبارى وكرموز وكوم الشقافة وغيط العنب وراغب باشا ومحرم بك وربما كانت هذه هى الاسكندرية التى عرفها محفوظ ولم يعرف غيرها، ولا يحسب هذا على الكاتب بل يحسب له بل ويزيد من مصداقيته.

اسكندرية نجيب محفوظ هى اسكندرية الغرباء الذين جاءوا إلى المدينة لاالذين بها هاربين اليها.. إنها اسكندرية عيسى الدباغ وزيرى وعامر وجدى وطلبة مرزوق بزهرة وسرحان البحيرى ومنصور باهى وبسيمة عمران وماريانا، كلهم غرباء عن المدينة، كل غريب بطريقته، فإما ملوث طريد، أو هارب من أيامه وقدره أو طامح إلى تغيير حياته وتبديلها، انها أيضاً إسكندرية الأجانب فى أواخر أيامهم أيضاً، وربما كان عامر وجدى وصابر الرحيمى هما الوحيدين الذين كانا ينتميان لأهل الإسكندرية، ولكن الأول ترك المدينة وعاش عمره كله بالقاهرة وعاد إلى المدينة ليقضى بها ماتبقى



سعاد حسنى ورشدى أباظة فى «الطريق»

له من العمر ، والثانى خرج من الاسكندرية خروجا مأساويا باحثاً عن أبيه.

إسكندرية نجيب محفوظ هى إسكندرية الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى، عندما كانت المدينة تمر بفترة مهمة من تاريخها الموغل فى الزمن، فترة كانت المدينة فيها تصارع التاريخ وتشهد تحولات مهمة من الملكية إلى الثورية، فترة انسلاخ من ثقافة مختلطة إلى ثقافة الشعب الواحد، فترة انتقال من عصر إلى عصر، فترة حرجة شهدت خروج المستوطنين من الأجانب فى هجرة عكسية إلى أوروبا وأمريكا وغيرها ، بعد أن عاشوا بها أكثر من قرن من الزمان وبنوها وأعمروها وشاركوا المصريين فيها حتى ضاقت بهم فرحلوا عنها بالأحزان والدموع، فترة شهدت حرب ١٩٥٦ وارهصات حرب ١٩٦٧.

اسكندرية نجيب محفوظ هى إسكندرية الخريف والشتاء، وليست إسكندرية المصيف، انها اسكندرية العواصف والأمطار الرعد والبرق والنوات، انها اسكندرية التناقضات والأسرار والغربة والحنين إلى الماضى والتطلع إلى المستقبل أيضاً.

«والبحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء؟ والشمس تهوى إلى المغيب مرسبة شعاعاً ماسياً يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيم؟ والهواء يلاعب سعف النخيل فى غابة السلسلة بمداعبات رقيقة فأين الرياح الهوج المزلزلة؟» ميرامار ١٩٦.

إسماعيل صدقى

فى روايات عبد الرحمن الشرقاوى

بقلم

مصطفى بيومى

لعل إسماعيل صدقى هو أكثر رجال السياسة المصرية الذين يحظون بالكراهية والعداء فى العالم الروائى لعبدالرحمن الشرقاوى، فهو شبح مرعب لا يتعاطف معه أحد، وتنهال عليه الشتائم واللعنات والاتهامات، ويتسبب دائما فى الخراب والأزمات وإلحاق الأذى بمعظم طوائف الشعب.

ولأن أحداث «الأرض» تدور فى فترة حكم إسماعيل صدقى، فإنها تتحول إلى سجل حافل يعبر عن الرأى الشعبى فيه، وتكشف عن مدى العداء الذى تحمله له الطبقات الشعبية. والعداء لصدقى ليس سياسيا فحسب، بل شخصى أيضا، فهو مكروه كسياسته وأسطورة فى الشر والأذى لا مثيل لها.

الظهور الأول لإسماعيل صدقى سلبى منفر، فالراوى الصغير يعود إلى قريته محملا بكراهية موروثة عن أخوته الكبار وعن الجرائد التى تدور أحاديثها عن رجل اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن ألغى الدستور لحساب الإنجليز «وكنت أراه يطلق فى القاهرة جنود الانجليز حمر الوجوه ليحموا له سلطانه على رقاب الناس».

وكانت المدرسة الخديوية الثانوية تخرج إلى الطريق كل صباح فتهتف بحياة الدستور والاستقلال والحرية بسقوط صدقى والانجليز «الأرض، ١٧ - ١٨».

لم يكن الراوى العائد من القاهرة هو وحده الذى يحمل موقفا سلبيا من صدقى، فأطفال القرية أيضا يملكون الموقف نفسه، لكنهم يضفون على عدوهم المجهول صفات أسطورية.

- هوه صدقى ده قد ايه؟ يعنى هو اللى يغلب ولا الواد عبدالهادى لو نزلوا لبعض لعب عصا؟

فرد عليه آخرون أن صدقى هذا كائن عجيب يغلب مائة من عبدالهادى ولكن فى غير لعب العصا.. وأنه يأكل خبزا كله من القمح.. وهو لا يعرف خبز الذرة الذى يأكلونه فى القرية.. وهو يشرب الماء بالثلج من الحنفية لامن الزير!.

سألنى ولد آخر إن كان صدقى يستطيع فى المرة الواحدة أن يأكل عشرين رغيفا من خبز القمح، ويشرب ملء جرة من ماء نقى كماء طلمبة المسجد! «نفسه - ١٨، ١٩».

ولا يقتصر التصور الخرافى لشخصية



مشهد من فيلم «الأرض»

عبد الرحمن الشرقاوي

إسماعيل صدقي على الصغار وحدهم، ذلك أن تخيل محمد أفندي لا يختلف كثيرا رئيس الوزراء الشيخ الذي يصب الموت على الآلاف وهو يجلس على مكتبه بهدوء يأكل «الساندوتيش» لفرط ما لديه من أعمال «نفسه - ١٣٨».

من المنطقي أن الكراهية الشعبية المتطرفة لإسماعيل صدقي نابعة من ممارساته السياسية السلبية، التي لا تروق للغالبية العظمى من المصريين وتنحصر جرائم صدقي السياسية في محورين:

تزوير الانتخابات وإلغاء الدستور.

التنكيل بالمعارضة وإلحاق الضرر الاقتصادي بمعظم طبقات الشعب.

***

تجاوز تزوير إسماعيل صدقي للانتخابات كل الحدود، من الطريف أن أحد شباب القرية يربط عفويا بين قدم رجال الحكومة وعملية التزوير!، فهو يسأل «محمد أبو سويلم» عن هؤلاء الرجال الذين كتبوا اسمه في ورقة أجاءوا يطالبونه مرة أخرى بأن يرسل أسماء الأموات لتوضع أصواتهم في انتخابات جديدة يجريها حزب الشعب؟. «نفسه - ٧٣».

وقد كان التزوير مرتبطا بمساعدة رجال الإدارة والعمد والشيوخ وبعض الأعيان، فعمدة قرية «الأبيض» هو الذي ساعد الحكومة في الانتخابات بعد أن قاطعتها الدنيا كلها وكان يكتب بنفسه الأسماء كما يريد «نفسه - ٨٠».

وكان للشيخ الشناوي دوره السلبي أيضا، فقد جمع الناس ذات يوم من الحقول ليعطوا أصواتهم لهذه الحكومة، وقال لهم إن بيدها الخير، إن قدومها قدوم سعد.. فكانت الحكومة نحسا على القرية. «نفسه - ١٤٥».

والشيخ يوسف واحد من الذين عاونوا صدقي على الانقلاب الدستوري وتزوير الانتخابات وعلى الرغم من توبته وعدوله

عن التأييد، فقد بقى موقفه القديم مجالا للمعايرة والتنديد به عند اللزم!. لقد ندم الشيخ على اشتراكه فى الانتخابات، وظل شهورا طوالا يشعر بالخجل، وعاد يقف مع القرية: وعندما امتنع عن دفع المال – كما امتنع أهل القرية وحجزت الحكومة على نصف ما يملك، أعلن سخطه على الحكومة ولم يعد يهمس به.

وتعود أن يجلس فى دكانه ويشتم حزب الشعب والعمدة والباشا والنائب والانجليز والحكومة جميعا.. وأخذ يعدد الفظائع والبشاعات التى ترتكبها الحكومة. «نفسه – ٩٩، ١٠٠».

وعلى الرغم من توبة الشيخ يوسف وشتائمه التى تنهال على صدقى وحكومته وحزبه، فإن موقفه القديم المؤيد يبقى عالقا فى الأذهان وعندما يسخر الشيخ من علاقة محمد أفندى مع العمدة، يرد محمد على تعريضه بنظرة امتهان وهو يقول: لا.. عمدة إيه بقى.. هو أنا كنت مشيت وراه فى الانتخابات ولا دفعت له اشتراك لجريدة الحكومة.

وأدرك الشيخ يوسف أن محمد أفندى يعرض بمواقفه فى أوائل عهد حكومة حزب الشعب. «نفسه – ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٦».

وعندما يتخلى الشيخ عن إجماع القرية، يستنكر علوانى قراءته لسير الأبطال الشعبيين، ويكمل محمد أفندى ضاحكا والا اقرأ جريدة حزب الشعب! «نفسه – ٢٨٣».

لكن الساحة لم تخل من معارضة حقيقية.

محمد أبو سويلم فصل من وظيفته كشيخ للخفراء، فقد طلب المأمور منه أن يسوق الرجال إلى صندوق الانتخابات ولكنه رفض ورآهم يجمعون أصوات الموتى فتشاجر!. «نفسه – ١٩».

وبسبب معارضته لصدقى وحكومته، نقل الشيخ حسونة وخصمت الحكومة من مرتبه جنيها: واعتبرته اشتراكا اختياريا لجريدة حزب الشعب. «نفسه – ٢٠٨».

ولا تقتصر المقاومة على الفلاحين الذين تعبر عنهم «الأرض» فأهالى المدن قاوموا الحكم الاستبدادى بزعامة حزب الوفد، المحامى الوفدى، النائب السابق للدائرة، يواجه المأمور فى مأتم العمدة شاتما صدقى وحكومته بلا رحمة. «نفسه – ٣٣١».

وطبيب العيون، عضو الشيوخ الوفدى السابق، يشن حملة عاتية ضد صدقى وحكومته وحزبه: ذلك أن شعب مصر يدرك أن حزب الشعب خدعه أريد بها تضليل الناس. «نفسه – ٣٧٣».

ولعل محاولة المأمور أن يحشد الناس للهتاف والترحيب بوزراء صدقى، وهى المحاولة التى انقلبت إلى مظاهرة معارضة، خير دليل على الموقف الشعبى العام المعادى لإسماعيل صدقى وحكومته.

***

لم يكن تزوير الانتخابات وإلغاء الدستور إلا أحد أوجه الطغيان الذى مارسه إسماعيل صدقى، ويتمثل الوجه الآخر فى التنكيل بالمعارضة وممارسة أبشع الانتهاكات ضد الحقوق السياسية التى حصل عليها الشعب بعد ثورة ١٩١٩ ودستور ١٩٢٣ لا يقتصر الأمر على نقل محمد أبو سويلم، ونقل الشيخ حسونة، وانتزاع الأرض من الفلاحين وسرقة مياه الرى منهم، فقد دفعت معظم الطبقات الأخرى ثمنا فادحا لطغيان صدقى واستبداده.

عذب الفلاحون عندما قاطعوا انتخابات حكومة حزب الشعب، وعندما امتنعوا عن دفع ضريبة الأرض. «نفسه – ١٠٨».

وتعرضت مرتبات الموظفين للتخفيض:



كل الموظفين ماهياتهم قلت! اللي كان بياخد خمستاشر جنيه بعدما يطفح الكوتة في التعليم ويتخرج من المدارس العليا بقى ياخد اتناشر أول عن آخر. «نفسه - ١٠٤».

وكما يقول القاضي الشرعي في المدينة، فإن حكومة حزب الشعب كالغول الهائج مع الموظفين، وهي تتمسك بتنفيذ القانون الذي يمنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة. «نفسه - ٢٣٢».

وتلفق الحكومة الاتهامات لمعارضيها، فالشيخ حسونة يحكي عن مقال كتبه صحفي ضد الانجليز وصدقي ويرادع الانجليز: قامت الحكومة قافلة الجريدة وحابساه بتهمة العيب في الذات الملكية ومحاولة اغتيال صدقي وقلب نظام الحكم كمان! شفت بقى؟. «نفسه - ٢٨٣».

وفي مأتم العمدة، يستمع شيخ البلد إلى القادمين للعزاء من المركز وهم يتكلمون عن صحف تصدر في القاهرة ويغلقها صدقي، فتصدر في اليوم التالي باسم جديد. «نفسه - ٣٢٦».

إن إسماعيل صدقي يقف عاريا بلا نصراء حقيقيين وبلا مزايا على الاطلاق عند عبدالرحمن الشرقاوي، بل إن ميزته الكبرى كرجل اقتصاد كفء قدير، تتحول إلى أحد عيوبه عند المحامي الوفدي، الذي يقول مستهزئا ساخرا إن صدقي باشا اقتصادي جبار ذو كفاءات، والانجليز في حكمهم لمصر يعتمدون على أمثال هذه الكفاءات!

وأدرك شيخ البلد من ابتسامات السخرية ومن تجربته أنه لا صلاح للفلاح ولا لأي شئ في مصر ما دام صدقي يحكم البر ومعه رجال يركبون ظهور الناس.. ويهزون أرجلهم. «نفسه - ٣٢٨».

ما جدوى الكفاءة الاقتصادية التي يتمتع بها إسماعيل صدقي، وهي توظف لمساعدة الأقلية الضئيلة على حساب الغالبية العظمى؟!

***

على الرغم من أن طاغية آخر هو «توفيق نسيم» يقوم بدور شرير الحياة السياسية في «الشوارع الخلفية»، وتندلع ضده المظاهرات وتنهال الشتائم التي تدينه وتتهمه في وطنيته وإخلاصه، فإن إسماعيل صدقي لا يختفي من الأذهان.

من مميزات الدكتور طه حسين عند طالب المرحلة الثانوية سعد داود، أنه وقف مرة في وجه صدقي وحكومته. «الشوارع - ٨٣».

ولا ينسى شوقي خليفة بطولة ويصا واصف، الذي حطم السلاسل الحديدية يوم عطل صدقي باشا الحياة الدستورية، ووضع البوليس والجيش على أبواب البرلمان سنة ١٩٣٠. «نفسه - ١٧٥».

ووطنية عبدالحي، التي تحظى بتقدير الطالب عطا الله، تعود إلى سنوات حكم صدقي: أنا لا أنسى بلاءك طوال الخمس سنوات الماضية من عهد صدقي سنة ١٩٣٠. «نفسه - ٢٠١».

وعبدالمعبود، متحدثا باسم عمال مصر، يستنكر وجود إسماعيل صدقي في الجبهة الوطنية التي تشكلت عشية معاهدة ١٩٣٦: احنا بنشوف إن وجود صدقي في الجبهة الوطنية هو والناس اللي دوخونا، وكانوا طول عمرهم مع الانجليز دا خطر كبير.. ياما عملوا جبهات وييجوا ساعة الزنقة ويعملوا عملة تهد كل اللي اتبنى وتأخر البلد. «نفسه - ٢٩٩».

مصر لا تغفر خطايا أعدائها، وخاصة إذا كانوا محسوبين عليها ومن أبنائها وإسماعيل صدقي خير نموذج للعداء الأصيل الذي لا يعرف التسامح والغفران! ■

الموسيقى والطرب

علي إلى عصر

بقلم

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي





١٣٤

الهلال

قبيل عصر محمد على كانت صناعة الموسيقى والغناء قد ذوى غصنها لما أصابها من الاهمال حتى صارت فريسة الضياع واندثرت ألحانها لعدم تدوينها إلا فى القليل النادر الذى تناقله المغنون بالتواتر ، ولم يكن له من وعاء يحفظه غير الحناجر ، وانحطت منزلة الموسيقى حتى غدت ممارستها مقصورة على الطبقة الدنيا من الناس الذين راحوا ينشدون ويعزفون قانعين بشظف العيش، لدرجة أن وصل الأمر باعتبار مهنة الغناء ماجنة ، وشهادة الفنان باطلة ، وانحصر الغناء فى العوالم والراقصات (الغوازى) الذين كانت الدفوف النحاسية وصاجات الأيدى تصاحبهن فى أداء الأغانى المرتجلة الجماعية وسط ضجيج كبير ترفع خلاله العقيرة بالصوت.


محمد علي

ولما كان محمد على قد قرر تنظيم الجيش المصرى على مثال الجيوش الأوروبية ، فقد رأى إنشاء فرقة موسيقية عسكرية أحضر لها من فرنسا ما يلزم الجيش من آلات الموسيقى، واستعان بعازفين أوروبيين خاصة من الفرنسيين والألمان لتعليم المصريين الموسيقى العسكرية الغربية ، كما أمر بطبع مقامات فى فن الموسيقى على مطبعة الحجر ولم يكتف محمد على بذلك بل أنشأ فى قرية (جهاد أباد) مدرسة لتعليم الموسيقى تسع مائة وثلاثين طالبا ليكونوا موسيقيين فى فرق الجيش المختلفة والأسطول فنبغ منهم عدد ، تم تزويد الأسطول والجيش بهم ثم نقلت هذه المدرسة إلى (الخانقاه) بعد ذلك .

وإلى جانب ذلك فقد جعل محمد على لكل آلاى من الجيش معلما أوروبيا للموسيقى ، كما افتتح مدارس أخرى لتعليم الموسيقى منها مدرسة بأثر النبى ،


الخديو إسماعيل

ومدرسة أخرى بالقلعة زارها بعض الضيوف الأجانب ، وأعجبوا بطريقة التدريس فيها ، وبقدرة الطلاب المصريين على فهم الموسيقى الأوروبية ، وأداء بعض الألحان لأبرز الموسيقيين فى فرنسا وإيطاليا .

ومع أن كل هذه المحاولات قد وضعت النواة الأولى لدراسات عزف الموسيقى للجيش والأسطول المصرى ، فإنها لم تؤثر التأثير المطلوب فى نفوس الدارسين خاصة ، وأن قاعدة نقل الموسيقى الأوروبية بنغماتها وأناشيدها الغربية إلى بيئة شرقية جعل من الصعب عليهم استيعابها ، ومع ذلك فإن محمد على ظل عازما على إصلاح شأن الموسيقى والطرب فى مصر ، وتشجيع العاملين فى حقله ، فشمل بعنايته ملحن عصره «محمد القبانى» وجعله كبير الملحنين لديه ، كما أنعم على المغنية «ساكنة» بوسام تقديراً لفنها وخلال ذلك الوقت برز الشاعر شهاب الدين محمد بن إسماعيل والذى كان

له أثر كبير فى انتعاش الموسيقى المصرية بعد أن جمع عدداً كبيرا من الموشحات العربية القديمة بكلماتها ومقاماتها وإيقاعاتها فى كتاب أسماه «سفينة الملك ونفيسة الفلك» . رسم فيه لمعاصريه صورة فن التواشيح الأندلسية التى لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً ، ومن هذه التواشيح ظفروا بزاد كبير أعانهم على الخروج من عنق الزجاجة الذى عاشوا فيه طوال عصر انحطاط الغناء المصرى الذى استمر طوال العصر العثمانى تقريبا ، لقد كان تأليف هذا الكتاب إرهاصا لنهضة الغناء العربى فى مصر بعد رقدته الطويلة خلال تبعيتها المباشرة للدولة العثمانية ، وتقليد مطربيها مطربى استنبول .

وما أن انتهى عصر محمد على ، حتى تغير كل شىء وبدلا من أن تتحقق مقولته المأثورة «سيجنى أحفادى ثمار ما زرعت» وبدلا من أن يكون الميراث الذى خلفه ذخراً لن يأتى بعده يستمد منه مادة للعمل والانطلاق ، فإن مرحلة الانغلاق التى تبناها حفيده عباس الأول الذى جاء بعده كانت السمة البارزة خلال عصره الذى امتد حوالى ست سنوات من عام ١٨٤٨ إلى عام ١٨٥٤ .

الموسيقى والطرب خلال عصرى عباس الأول وسعيد

بعد وفاة محمد على ١٨٤٩ م توقف مشروع النهضة وكانت أعماله تندثر خاصة أن خطة حفيده عباس الأول كانت تسفيه الجهود التى بذلها جده فألغى معظم المدارس ، وأهمل التعليم وتردى الحال بمصر إلى درجة سحيقة من السوء خاصة أنه قضى على مشروعات محمد على العمرانية ، وخلال تلك الفترة أصبحت صناعة الموسيقى والطرب ممتهنة ، وظلت صناعة من لا صناعة له ، خاصة أنها كانت من الأمور المرذولة التى يجب محاربتها بكل الطرق ، فأسدل الستار على ما تبقى منها ، وظلت أحوال الموسيقى مزيجا من فنون موسيقية فارسية ، وتركية ، ويونانية تتميز بتكرار طويل فى الأداء ، وفقر فى تعدد الأنغام .

وجاء عصر سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) أصغر أولاد محمد على سنا والذى كان عصريا ، ومثقفا ومحبا للترف ومع أن عصره حدثت فيه عدة تغييرات جذرية لصالح المصريين ، فإن أحوال الموسيقى والطرب ظلت على حالها ، واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى تولى إسماعيل أريكة الحكم ١٨٦٣ - ١٨٧٩ - فتبدلت الأمور وتغيرت الأحوال خاصة أن إسماعيل اهتم اهتماما بالغا بالموسيقى ، والغناء واتسم عصره بالمرح والحبور ، مما كان له أثره فى النهضة الفنية التى شهدتها مصر وقتذاك .

تطور الموسيقى والطرب فى عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)

عمل إسماعيل على تجديد ما كاد يندثر من أعمال جده فحاول أن يرفع من شأن الفنون بصفة عامة والموسيقى بصفة خاصة ، فانشأ مدرسة للموسيقى العسكرية بغرض

عبده الحامولى



يوسف المنيلاوى





عمل الخديو إسماعيل على تطوير « التخت الشرقى »
واستعمال الآلات الوترية فى الموسيقى العصرية الحديثة

التدرب على استعمال الآلات الموسيقية المختلفة وتخريج جنود متخصصين للعمل بفرق الموسيقى بالجيش .

وقد خرجت هذه المدرسة ٢١٥ طالبا فى مدة ثلاث سنوات .

ونظراً لأن إسماعيل كان طروبا فى ذاته محبا للحفلات والأفراح ، وكثير الحنين إلى النغمات الموسيقية العذبة التى تطرب النفوس فقد عنى بالموسيقى والغناء والتمثيل بصفة خاصة ، ومن أجل بناء موسيقى مصرية عصرية شجع إسماعيل الأخذ من الموسيقى العربية بالإضافة إلى الموسيقى التركية مما جعل الموسيقى المصرية تنشأ فى جو صرف من تعدد الأجناس الموسيقية وتشكل صياغة لغة جديدة لها بعد أن كانت تتخذ من الموسيقى العثمانية طابعا خاصا لها ، وورثت جزءاً من نظام مقاماتها العتيدة وإيقاعاتها المتسمة بالرتابة والتكرار الممل لدرجة أن التلحين المصرى كان متصلا بالتلحين التركى بشكل كبير .

ومن هنا كان من الطبيعى أن ينمو فن الطرب فى عهده فقد استحث إسماعيل المصريين على احياء موسيقاهم الشرقية وأخذ بيد أهل ذلك الفن الجميل وراح يغدق على محترفيه بالمزايا كما حاول أن يمزج روح النهضة والتجديد بالموسيقى المصرية التى كانت تتركز فى التواشيح ، والأساليب القديمة التى يتبعها المنشدون والمداحون الذين كانوا يضربون بالدفوف أثناء إنشادهم فأرسل إلى استانبول بعض مشاهير الموسيقى والطرب فى مصر أمثال محمد عثمان صاحب نهضة القالب الغنائى المعروف باسم الدور والمطربان عبده الحامولى والشيخ محمد الشنتورى ، ومحمد العقاد العازف بالقانون وأحمد الليثى العواد وإبراهيم سهلون فى الكمنجة ، وبزرى فى الناى وغيرهم بهدف دراسة الموسيقى التركية والتعمق فيها والتدريب عليها ، كما عمل الخديو إسماعيل على إدخال التخت الشرقى فى صورته الجديدة واستعمال الآلات الوترية فى الموسيقى العصرية الحديثة .

وإلى جانب ذلك فقد حاول إسماعيل إدخال الموسيقى الغربية إلى مصر حتى

بتعودها الناس ، ويشعر المصريون عند سماعها بطرب آذانهم وجوانحهم ، فانتهز فرصة افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ م وشيد دار الأوبرا على عجل للمشاركة في هذه المناسبة بهدف جلب السرور والانشراح لضيوفه من ملوك أوروبا وملكاتها .

ومن اللافت للنظر أن أغلب الجوقات التي استحضرها إسماعيل للتمثيل في هذه الدار كانت أوروبية ، كما كانت تمثل بلغات لايفهمها الشعب بل يفهمها الخديو وبعض أفراد حاشيته والمقربين منه ، وكان يغدق عليها الأموال الطائلة ، يضاف إلى ذلك أن إسماعيل كان يدعو بعض هذه الفرق إلى سراي عابدين لعزف الأنغام الراقصة بها إلى ما بعد منتصف الليل بحضور الأمراء ورجال المعية ، وذوي الحيثيات من الجاليات الأجنبية ، ولم يكتف إسماعيل بل استقدم بعض الفرق الموسيقية التي تضم عازفين من الأرمن ، والشوام ، وكان أبرز هؤلاء «أنطوان الشوا» الذي أدخل الكمان العربي ، واستطاع أن يعزف به الموسيقى العربية ، وخلال ذلك ظهر جيل من المطربين والملحنين والعازفين الجدد مقترنا بظهور جيل من الشعراء الذين لم يتأثروا بطريقة الشعر العثماني ، وردوا الشعر المصري إلى عصر الديباجة العربية الأدبية أيام العصر العباسي الأول ، وكان رائدهم في هذا المضمار محمود سامي البارودي .

كما بزغ نجم الشيخ محمد عبدالرحيم المشهور بالمسلوب ، الذي يعد خير من أنشد الأذكار الصوفية ومن أوائل من قام بتأسيس مدرسة غنائية مصرية الطابع بعد أن كانت خليطا من الموسيقى الأندلسية والأنغام التركية واليونانية ، فحاول قدر إمكانه تخطي مستنقع الألحان البدائية التي كان يغرق فيها الغناء المصري ، وأن يضع اللبنات الأولى لايجاد نغم ينبع من تراب مصر لشعب مصر ويتميز بالسحر والجمال ومن أوتار عودة انبعثت البدايات الأولى لفن الدور ، وإلى جانب ذلك فقد طور في غناء الطقطوقة وعمد إلى تغيير ملامحها مما أحدث هزة في الموسيقى المصرية ، وجعله يتمتع بمكانة المسلوب أصبح للشعب المصري موسيقاه الآلية المصرية الصميمة التي استمع إليها وعزفتها الموسيقات العسكرية لأول مرة عن طريق ألحان الشيخ المسلوب الذي برع في تلحين التواشيح ، ومن أبرز تواشيح الشيخ المسلوب الباقية توشيح «لما بدا يتثنى» الذي يعد مثالا في دقة الصنعة وحلاوتها وسهولته : لدرجة أنه أثار وأدهش بدقة صناعته ملحني عصره فنسبوا هذا الموشح إلى التراث القديم .

وقد تتلمذ على يد الشيخ المسلوب فحول الملحنين والمغنين ، ويعد محمد سالم العجوز ويوسف المنيلاوي ومحمد عثمان وعبده الحامولي من أبرز تلاميذه ، ونتناول ما قدمه هؤلاء في مسيرتهم الموسيقية والفنية .

● محمد سالم العجوز :

يعد من أبرز تلاميذ «المسلوب» في فن الغناء فقد غنى الغناء القديم قبل محمد


سليمان نجيب


منيرة المهدية


اسماعيل صبري

عثمان وعبده الحامولي وغنى معهما غناء عصرهما ، وكان يبزهما في كثير من الحفلات لأن صوته الفاتن، وتفننه في الغناء وألوانه كان يبهر أسماع الناس ويستلب مشاعرهم، ويخلب ألبابهم بغنائه وألحانه ، لدرجة أن أعاظم المطربين في عصره أمثال الشيخ المقدم والشلموني ، وخليل محرم، والسيدة ساكنة ، لم يستطيعوا مجاراته حتى ظهرت «ألمظ» و«عبده الحامولي» و «الشيخ يوسف» و«الشيخ محمد الشنتوري» الذين سطعوا على ساحة الغناء ومن أبرز أغانيه :

صوت الحمام ع العود في الروض على الندمان

أظهر هوى واستميل الأغصان
يا سيدي ياللي ماشي
شوف للمتيم حال
الله يجازي الواشي
بيني وبينك حال

وقد تزعم محمد سالم أغاني التخت وقتا طويلا . وكان محمد سالم يجمع إلى جانب براعته في الغناء براعة في تمثيل ما يتغنى به ، وكان بهذه الحركات التمثيلية يبز عبده الحامولي ويتفوق عليه ، ويكسب منه الليالي بما يحدثه في نفوس الجماهير من التأثير القوي الذي كان يخرج بهم أحيانا عن جادة العقل ، وإلى جانب ذلك فإن محمد سالم يعد أول من ابتكر التغني بالقصائد والإبداع فيها وهذا هو النوع الوحيد الذي لم يلحقه فيه غيره من المطربين .

● الشيخ يوسف المنيلاوي

امتاز بين أقرانه برخامة الصوت وعذوبته ونقاء الحنجرة وصفائها ، ولما أحس ذلك من نفسه اشتهى الغناء، وطلبه وتجشم فيه حملا ثقيلا . فكان نصف غنائه إلهام ونصفه تعليم وكلا النصفين كان معجزة من معجزات الفن الغنائي ، ولقد بلغ من حذقه فيه أنه كان يصنع اللحن ويغنيه ، ولا عجب فقد كان صوته آية في العذوبة وصنعته غاية في التطريب ، يضاف إلى ذلك أنه كان أبرز من تغنى بالقصائد العربية فأبدع ، وكان فيها للمغنين إماما يأخذون وبه يقتدون ومن أبرز القصائد التي لحنها :

لم يطل ليلي ولكني لم أنم .. وحامل الهوى تعب .. وأكذب نفسي عنك في كل مكان ما أرى وفتكات لحظك أم سيوف أبيك

وقد جرى ذكر الشيخ على ألسنة الناس لدرجة أنه كان يغالي في أجر الليالي التي يحييها في الأفراح ، ولما أبدى الخديو إسماعيل رغبته في إيفاد مجموعة من المغنين يطربون في حضرة السلطان عبدالحمي دوقع الاختيار على الشيخ المنيلاوي ضمن وفد من المغنين توجه إلى الاستانة منه عبده الحامولي ، ومحمد عثان وغيره وقد بلغت سعادة السلطان منتهاها عندما سمع منه أبياتا مطلعها .

ته دلالا فأنت أهل لذاكا
وتحكم فالحسن قد أعطاكا

فطرب السلطان ووقع الشيخ في قلبه كل موقع وطلب أن يزيده ، كما بلغ من إعجاب السلطان بالشيخ المنيلاوي أن اختصه بشرف صلاة الجمعة معه في الجامع أيا صوفيا ، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الثالث وببعض الهدايا . وقد توفي الشيخ المنيلاوي بالقاهرة في عام ١٩١١ م عن عمر يناهز ٦٨ عاما

● محمد عثمان ١٨٥٥ - ١٩٠٠ :

يعد محمد عثمان من رواد المدرسة المصرية الحديثة في التلحين فقد جدد في شكل الدور الغنائي ، وابتكر في تلوين الألحان أشياء جديدة ، ثم أدخل الآهات إلى الأجزاء الأخيرة من الدور ، واعتمد بشكل أساسي على المجموعة الغنائية في مساندة المطرب في غنائه بدلا من ترديد ما يقوله ،

وعاش القالب الموسيقى المسمى بالدور فترة طويلة كان فيها الجالس على عرش التخت لدرجة أن وصفه البعض بأنه وعبده الحامولي يمثلان في دولة الغناء الركائز التى ارتفع عليها الغناء المصرى على أسس صحيحة . فإذا كان عبده الحامولي يعد صاحب أجمل الأصوات في عصره . فإن محمد عثمان كان صاحب أجمل الألحان لدرجة أن عبده الحامولى كان يتلقف ألحانه ليغنيها ويكسبه بجمال صوته رونقا خاصا . ومن أهم ألحان محمد عثمان «قده المياس زود وجدى » «نور العيون شرف وبان ..» .

ومن أشهر موشحاته : « ملا الكاسات وسقانى» ، « فتنا مطرب ألحان» ، « أتانى زمانى » ، «هات أيها الساقي بالأقداح» .

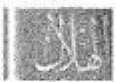
ومما يذكر أن محمد عثمان صحب عبده الحامولى فى رحلته إلى الأستانة ، وكان ضمن معية الخديو إسماعيل هناك ، واستمر محمد عثمان في عطائه الفنى يلحن الأدوار والموشحات وينطق المقامات العربية القديمة بلهجة غنائية جديدة حتى وافته المنية فى ١٩ ديسمبر ١٩٠٠ بالقاهرة .

● عبده الحامولي :

نهض عبده الحامولى بالقالب الموسيقى الغنائى المصرى وساير روح النهضة والتجديد فارتفعت مكانته ، وطبقت البلاد شهرته ، واشتهر بمجموعة أدواره المتقنة التى تزيد على العشرة أدوار والتى افتتن بها الناس افتتانا كبيرا ، فقد تمكن عبده الحامولى من تطوير الغناء العربى وإصلاح أساليب الموشحات القديمة ، وإدخال روح التجديد فيها .. واستخراج المقامات والايقاعات من مرقدها .

هذا إلى جانب عنوية صوته الذى جعل الناس يتهافتون على سماعه ، ويحفون بعرشه الموسيقى المعروف بالتخت قائلين «كمان ياسي عبده» وظل يدخل الطرب والسرور فى نفوس الناس حوالى الثلاثين عاما وبعد أن وصلت شهرة عبده الحامولى إلى قصر عابدين استدعاه الخديو ، وقربه إليه وألحقه بمعيته ، وغمره بعطاياه وجعله مطربه الخاص ، واصطحبه معه فى رحلاته إلى الأستانة ليستمع إلى العازفين والمطربين الأتراك لاستلهام أنغامهم وإدخال ما يناسب الغناء العربى منها ، كما التقى عبده الحامولى بالفرق التركية التى كانت تفد إلى مصر ومعها مجموعة من كبار المغنيين فى الأستانة ، وكان يحضر معهم دائما أثناء اشتغالهم بالغناء ، ليتعلم منهم ويقتبس ما يراه ملائما للمزاج المصرى ، خاصة أن الموسيقى التركية وقتذاك كان لها الزعامة فى بلاد الشرق . وخلال ذلك سمع ألحانهم واقتبس من الموسيقى التركية نغمات لم يكن للمصريين بها علم من قبل وضم منها ما يلائم الروح المصرية مثل النهاوند ، والعجم ، والحجاز كار وغيرها . فلحن من الحجاز كار بضعة أدوار وموشحات جاءت غنية بالذوق ، وزاخرة بالطرب ذات لون وطابع مصرى بحت مثل «كنت فين والحب فين» «ورايح فين يا مسليني» «ومليك الحسن فى دولة جماله والله يصون دولة حسنك وأنت فريد فى الحسن» «ويا طالع السعد إفرح لى » «وجددى يا نفس حظك » «ويا قمر دارى العيون» وغيرها .

كما وضع الحامولى العديد من الأسس من أشكال الغناء المحلية التى كان يغنيها المنشدون الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم أولاد الليالى والمداحون الضاربون بالدفوف، ثم دفعته سجيته إلى الطرب وحسن ذوقه فى الغناء إلى أن يتصرف فيها مع المحافظة على الأصل وأخذ يدخل على الموسيقى المصرية التحسين تلو التحسين حتى وصل بها إلى درجة متطورة وخلط ما أخذه من الأتراك بما ورثه من المصريين وبذلك ابتكر ألحانا جديدة وكان له من الأغانى الشعبية ما يردده الناس حتى الآن



في المناسبات مثل «سالمة يا سلامة» «ويا ليلة بيضا» «وحوى يا وحوى» «ويا بتاع النعناع» «والحنة يا حنة يا قطر الندى» «واتمخطرى يا حلوة يا زينة يا ورده من جوه جنينه» «ويا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا - يا نخلين على نخلتين والأربعة طرحوا سواء .

ومن الأغانى التى كانت شائعة فى هذا العصر الموال التالى الذى غناه عبده الحامولى .

ليه حاجب الظرف يمنعنى وأنا مدعى

لرى روض المحاسن من دما دمعى كم

افتكر فى احتجابك واشتكى وانعى

سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح

قولى لى بحق المحبة ما سبب منعى

كل ذلك جعل البعض يطلق علي عبده الحامولى إمام المغنين فى عصره وزعيم المجددين فى الموسيقى المصرية.

وإلى جانب ذلك فقد استطاع عبده الحامولى أن يقنع صفوة من الأدباء والمشاهير أن يكتبوا له كلمات الأغانى مثل إسماعيل صبرى باشا والشيخ عبدالرحمن قراعة مفتى الديار المصرية ومحمود سامى البارودى باشا والشيخ نجيب الحداد وأديب اسحق والشيخ على الليثى نديم الخديو إسماعيل والسيد على أبو النصر ، ومصطفى بك نجيب ، وسليمان بك نجيب ، كما ألفت له أيضا الأديبة عائشة التيمورية يضاف إلى ذلك أنه طلب من بعض الشعراء الذين يجيدون التركية ترجمة مجموعة من الأغانى التركية إلى العربية ليستهل بها وصلاته الغنائية وكان من أهم هذه الأغانى «لحن بلبل الأفراح غنى فى رياض السندس» ، والجدير بالذكر أن عبده الحامولى كان أول من لحن وغنى قصيدة أبى فراس الحمدانى (أراك عصى الدمع شيمتك الصبر) ثم تنافس فى غنائها بعد وفاته أحد عشر مطربا .

واستمر الحامولى ينهض بالفن ويطرب الناس بإحساسه المرهف وذوقه الرقيق ، وفنه الواسع وقدرته على التصرف فى فنون النغم مما دفع كبار رجالات الدولة العثمانية إلى دعوته وزملائه أمثال يوسف المنيلاوى ومحمد عثمان ومحمد سليم والشنتورى والبغدادى ومحمد العقاد القانونجى وإبراهيم سحلون لاحياء بعض الحفلات بقصر يلدز السلطانى بالأستانة بمناسبة عيد الجلوس السلطانى ومما يروى أن السلطان عبدالحميد من فرط إعجابه بهذه المجموعة من المطربين المصريين أراد أن يحتجزهم بصفة نهائية فى بلاطه ولم يشفع لهم من هذه الغربة سوى إدعائهم بأن كلا منهم موكل إليه خدمة واحد من الأولياء الصالحين فى مصر ، فادعى الحامولى بأنه من خدام سيدى الحنفى وذكر محمد عثمان بأنه من خدام سيدنا الحسين وأدعى العقاد بأنه من خدام الإمام الشافعى أما المنيلاوى فقد ذكر أنه من خدام سيدى الطشطوشى

فقد اعتاد عبده الحامولى أن يصعد منارة الحسين من حين لآخر ليؤذن وينشد التسابيح ويؤدى الفروض والنوافل وإذا جاء رمضان اتخذه عبده الحامولى موسما للعبادات ويؤكد ذلك ما ذكره الأديب خليل مطران من أنه سمع عبده الحامولى يؤذن فى منارة الحسين .

ويقول خليل مطران : بدأ عبده انشاده بصوت ينحدر إلى المسامع وفيه كل الوقار من خشية الله وكل الرجاء فى فضل الله وفى مغفرة الله وكان يغالب العاطفة المتدفقة من قلبه ليتدرج فى إبرازها .. والجمهور فى أثر كل وقفة من وقفاته يملأ الجو تهليلا وتكبيرا ، وقد بقى فى ذاكرتى بيتان مما أنشده عبده فى تسابيحه وهما:

يا من تحل بذكره

عقد النوائب والشدائد

يا من لديه الملتقى

وإليه أمر الناس عائد

بيتان من عادي الشعر ، ومن أشق ما يكون في التلحين ، ولكن ذلك المطرب العجيب ، تصرف في إلقائهما والترنم بهما تصرفا لايقدر عليه إلا من أوتي عبقريته مع صدق إيمانه .. وقد عقب على هذين البيتين بكثير غيرهما .. وكلها في معنى الاستغاثة فكل مقطع يقف عنده ترتفع في أثره الآهات من الصدور ولها دوى كدوى البحر الزاخر .

ومكث عبده الحامولي ساعة أو نحوها في هذا الانشاد الرائع والناس وقوف تحت المنارة وحول المسجد ، وفي النوافذ والشرفات والسطوح والقاهرة كلها صامتة مصغية إلى الصوت المنطلق من منارة الحسين .

ويعقب خليل مطران على ذلك قائلا : يا الله .. رجل في أعلى المنارة لايبدو منه إلا شبح ضئيل ، وهو الذي من أجله تتوافد هذه الجماهير المتزاحمة من الناس على اختلاف مراتبهم كأنهم فقراء ينتظرون من محسن علوى تنزيل الأقوات وتوزيع الصدقات .. لسان تتصل به نياط آلاف من القلوب لتهز بحكم نبراته أشهى الاهتزازات ولتحلق على أجنحة مصعدة إلى السموات !

لقد اهتم الحامولي بتأكيد طابع بلده والدفاع عنها حتى لو كان ذلك لايوافق أولي الأمر في الدولة العثمانية فقد أدى انتقاده بطريقة مستترة لسياسة السلطان عبدالحميد تجاه الثورة العرابية وإصداره منشورا بعزل أحمد عرابي أدى ذلك إلى إدخاله السجن لفترة بعد أن غنى «عشنا وشفنا سنين» تلك الأغنية التي كتبها الشاعر إسماعيل صبري بإيعاز من محمود سامي البارودي والتي تقول :

عشنا وشفنا سنين
ومن عاش يشوف العجب
شربنا الضني والأنين
جعلناه لروحنا طرب
غيرنا تملك وصال
واحنا حياتنا خيال
كده العدل يا منصفين

وقد شارك محمد عثمان عبده الحامولي في جهوده للارتقاء والتجديد في الموسيقى المصرية ، فترك من ألحانه دراسات قيمة لسير النغم وأسس متينة تقام عليها صروح الفن الشرقي ، فقد وضع خططا جديدة في تلحين الأدوار التي هزت أفئدة الملوك والأمراء والعامة وترنح من سحرها وقار الشيوخ ورقصت لها قلوب الشباب وحينئذ عرف المصريون ما للفن الموسيقي من منزلة وما لرجاله من مكانة واعتبار وأخذت الطبقة العليا في مصر تجد متعة في سماع الموسيقى .

والجدير بالذكر أن أول مناسبة يستمع فيها الشعب المصري إلى ألحان المسلوب وتلاميذه أمثال محمد سالم ويوسف المنيلاوي ومحمد عثمان وعبده الحامولي والتي كانت تطرب لها النفوس أيما طرب هي مناسبة الحفلات التي أقامها الخديو


سيد درويش


صالح عبد الحي


محمود البارودي

إسماعيل لانجاله الأربعة وسميت بأفراح الانجال والتي استمرت أربعين يوما وكانت شبيهة بليالى ألف ليلة وليلة وتبارى فيها رجال الموسيقى في وضع المقطوعات الخاصة بمناسبة أفراح انجال الخديو إسماعيل الأربعة والتى بدأت فى ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوما كاملة .

لقد كانت أفراح الأنجال بمثابة بانوراما فنية سهرت فيها القاهرة أربعين ليلة نصبت خلالها تخوت الآلاتية التي ظلت تصدح وتشنف الآذان بأعذب الألحان وكان منها تخت عبده الحامولى الذى كان يبعث فى الحضور طربا وانتعاشا ويبدو أن أفراح أنجال الخديو انتقلت عدواها إلى طبقات الشعب حيث انتشر الغناء وتعددت ألوانه فى مصر خلال تلك الفترة، فيها يذكر أن الافراح كانت فى كل حى وفى نجى كل ليل ، يشدو فيها ويغرد فحل فحيل من فحول الغناء ، وغريد من بلابل الموسيقى الشرقية ، فهذا سرادق عرس ، وذلك حفل موسم عيد وثمة منتد لهو وحانة أنس وطرب .. تسمع هنا عبدالحى حلمى وهناك يوسف المنيلاوى ومحمد سالم العجوز .. الخ هذا بالإضافة إلى حانات وملاهى وجه البركة وروض الفرج وحديقة الأزبكية وغيرها التى يسمع فيها بهية وتوحيدة ومنيرة المهدية وغيرها .

ومن أشهر هذه الأغانى دور «الله يصون دولة حسنك» الذى كتبه الشيخ عبدالرحمن قراعة ، وتقول كلماته :

الله يصون دولة حسنك
على الدوام من الزوال
ويصون فؤادى من نيلك
ماض الحسام من غير قتال
اشكي لمين غيرك حبك ؟
أنا العليل وأنت الطبيب
اسمح وداويني بقربك
واصنع جميل إياك أطيب

وقد سجل هذا الدور على الأسطوانات أكثر من خمسة مطربين وغناه وسجله المطرب صالح عبدالحى فى الإذاعة ودور كنت فين والحب فين الذى ألفه الشيخ الدرويش وغناه عبده الحامولي وتقول كلماته :

كنت فين والحب فين
لم يفارق لحظة عين
يا فؤاد حسبك
ربنا يحاسبك
كم تبال فيك يا غزال
في سيوف الحاجبين

وقد سجل هذا الدور بعد وفاة الحامولى أربعة مطربين كما أخذ منه المؤلف الغنائى عبدالوهاب محمد مطلعه وجعله فى الطقطوقة التى غنتها أم كلثوم من تلحين بليغ حمدى فى عام ١٩٦٠ ويقول فيها : « إنت فين والحب فين» .

* * *

وخلاصة القول أنه بالرغم من تأثر مدرسة المسلوب ومحمد عثمان وعبده الحامولى إلى حد كبير بالأسلوب التركى فإنهم كانوا يحملون أفكارا جديدة لتكوين مدرسة هدفها تلقيح التراث المصرى بالمدرسة التركية . وقد أوجدت هذه المدرسة طابعا مصريا خاصا بها له نكهة أصيلة ومتميزة أسهمت فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى ويبقى أثرها فى فن الغناء ممتدا خاصة أن الأشكال الموسيقية الشجية العذبة التى سطروها كانت تخضع الكلمة للحن .

وظل عبده الحامولى يغنى ويطرب ويسعد مستمعيه حتى وافاه الأجل فى ١٢ مايو ١٩٠١ فحمل لواء الغناء من بعده إبراهيم القبانى الذى يعد من أوائل من كتب المقالات والأبحاث التى تتعلق بشئون الموسيقى هذا إلى جانب أنه شارك فى رثاء الزعيم الوطنى مصطفى كامل بتلحين دور يا كامل الروح والمحاسن . ■

المسلة المصرية على
نهر التيمز بلندن

لصوص الآثار

بقلم
د. محمد إبراهيم بكر



بعد اكتشاف سر اللغة المصرية أخذت الآثار المصرية تجتذب مزيدا من الباحثين الأوروبيين من فرنسا وألمانيا (بروسيا) وإيطاليا وروسيا القيصرية، واتبع ذلك الاهتمام محاولات الدول الصناعية في أوروبا وأمريكا الشمالية لتكوين مجموعات أثرية لعرضها بالمتاحف، فتألفت شبكة من عصابات دولية لسرقة آثار مصر تحت شعار جمع التحف والمحافظة عليها ودراستها، وهى فى الواقع بعيدة كل البعد عن الأهداف العلمية أو الفنية.

كان الغرض الأساسى هو الحصول على أكبر قدر من الآثار بمختلف أنواعها، وتهريبه من مصر وبيعه لمتاحف ولأغنياء العالم الذين تسابقوا لاقتنائها ولتكوين مجموعات أثرية خاصة بهم وعرضها فى قصورهم، وفى سبيل إشباع تلك الرغبة، وسعيا وراء المكاسب المادية الهائلة تسابقت العصابات لسرقة المزيد من الآثار المصرية وتهريبها، وساهم فى ذلك قناصل الدول الأوروبية فى القاهرة والإسكندرية، وكانوا فى الأصل يمثلون بلادهم كسفراء فى مصر بل إن آلاف المومياوات تم تهريبها إلى أوروبا عندما راجت فكرة تناول مسحوقها لإطالة العمر.

هدايا الملوك

كما ساعد بعض أفراد الأسرة المالكة حديثا فى خروج آثار مهمة على هيئة إهداءات إلى ملوك وأمراء أوربا مثل إهداء محمد على باشا مسلة معبد الأقصر إلى لويس فيليب ملك فرنسا فى مقابل الساعة المقامة أمام مبنى جامع محمد على بالقلعة، وإهداء عباس باشا ١٨٥٥ لولي عهد النمسا الأرشيدوق ماكسميليان مجموعة الآثار التى كان يضمها أول متحف مصرى، لمجرد أنها أعجبت الأمير، ونفس الوضع ينطبق على إهداء المسلة التى أقيمت على نهر التيمز بلندن. ومن قبل قام الملوك البطالمة - الذين خلفوا الإسكندر الأكبر فى حكم

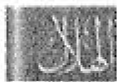
مصر لمدة ثلاثمائة عام - بنقل عدد من المسلات من مواقعها الأصلية أمام معابد عين شمس وتانيس (صان الحجر) وطيبة (الأقصر) لتعاد إقامتها في الإسكندرية عاصمة ملكهم الجديدة.

وعندما ضمت مصر للإمبراطورية الرومانية نقل العديد من المسلات المصرية لتزين ميادين روما عاصمة الإمبراطورية، أما المسلة التي نصبت بالقرب من متنزه سنترال بارك في نيويورك فقد أقيمت عام ١٨٨١م.

ونتيجة للتكالب المنقطع النظير على سرقة وتهريب آثار مصر اتخمت المتاحف الأوروبية والأمريكية بكل أنواع الآثار ونقلت إليها عناصر معمارية كبيرة الحجم جدا، وكانت في الأصل تؤلف أجزاء من معابد ومقابر مصرية، وشملت تماثيل كبيرة وصغيرة وموميآوات وتوابيت ولوحات ونقوش ورسوم وأوراق بردى مسجلة عليها دقائق الحياة المصرية على مر العصور وأدوات الحياة اليومية، امتلأت بها أقسام كاملة في متاحف ومخازن اللوفر بباريس والبريطان بلندن وبرلين وميونخ وتوبنجن وهلدسهاين وليبزج بألمانيا وتورينو بإيطاليا وبوشكين وارميتاج بلينينجراد (بطرس برج) بروسيا، والجلبتوتيك بالدنمارك وليدن بهولندا ومتحف الفن الحديث في بوسطن ومتحفى بروكلن والمتروبوليتان بنيويورك وفرير جالارى بواشنطن والمتحف الملكي بأنتاريو كندا، ومتحف الفنون والصناعات التطبيقية بفيينا في النمسا.

وأيضا .. الآثار الإسلامية

ولم تكن سرقة الآثار المصرية مقصورة على الآثار الفرعونية فقط وإنما تعدتها إلى سرقة الآثار الإسلامية من مصر أيضا، ولعله من العجيب أن يتخيل المرء أن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة لايمتلك سوى جزء من قطعة من السجاد من العصر المملوكي، في حين أن متحف الفنون والصناعات التطبيقية بفيينا بالنمسا يمتلك مايزيد على مائة وخمسين سجادة كاملة من العصر المملوكي، ويمتلك ذات المتحف حشوات (قطع خشبية) من المنبر الخشبي لجامع أحمد ابن طولون الذي صنع في العصر المملوكي ووضعه السلطان حسام الدين لاجين في عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ولو عدنا إلى الوثائق المصرية التي ترجع إلى زمن الدولة الحديثة المصرية لتأصيل حوادث سرقة الآثار فإن المرء يرى أن رجال الملك تحتمس الثالث بعد وفاة الملكة حتشبسوت الذي عاش فترة صباه في ظلها تحت ضغط من الملكة حتشبسوت كانوا يسعون للانتقام من الملكة في صورة سرقة آثارها عن طريق محاولة طمس أسمائها واستبدالها بأسماء ملكهم، ففي المقصورة (الجنوبية) الملحقة بمعبد الملكة حتشبسوت حاول رجال الملك تحتمس الثالث أن يزيلوا أسماء الملكة من على هذه المقصورة



انتقاما منها، ونسوا أن الكلام المكتوب يتحدث بصيغة المؤنث عن الملكة، وأزالوا اسمها وأضافوا اسم الملك دون أن يلاحظوا تغيير صيغة المؤنث، وظل ذلك شاهدا على حادثة السرقة، أما بخصوص إحدى مسلات الملكة حتشبسوت التى تقع حاليا فى وسط معبد الكرنك الشهير بمدينة الأقصر فقد صعب على رجال الملك تحتمس الثالث أن يطمسوا أسماء الملكة من على مسلتها الجرانيتية، فلجأوا إلى إخفاء اسمها وألقابها بواسطة بناء حائط مربع الشكل حول قاعدة المسلة ليمنع رؤيتها نهائيا.

أما رجال الملك رمسيس الثانى الذى عاش حتى بلغ التسعين فقد بالغوا كثيرا حين سعوا فى كل أنحاء مصر يزيلون أسماء الملوك السابقين من على الآثار ويحفرون اسم مليكهم مكانها لدرجة أن اسم الملك رمسيس الثانى كاد يقابلنا فى كل مكان تقريبا.

إخفاء المقابر

وعندما تخطت الدولة المصرية كل مراحل الشباب والقوة ووهنت قواها فى نهاية عصر الدولة الحديثة أخذت البرديات القضائية من زمن الرعامسة المتأخر تتحدث عن عصابات تألفت بغرض السطو على المقابر الملكية فى وادى الملوك بالبر الغربى لمدينة طيبة عاصمة مصر حينذاك، حيث سرت شائعات أيام الملك رمسيس التاسع من الأسرة العشرين عن سرقة مقابر الملوك فى وادي الملوك حيث تقع مدافن حوالى ٦٢ من المقابر حفرت على هيئة أنفاق داخل صخور جبل طيبة الغربية فى المنطقة المعروفة باسم «بيبان الملوك» أو «وادى الملوك»، وكان الملوك قد انصرفوا عن فكرة بناء المقابر الملكية على هيئة الأهرامات نظرا لتعرضها لكثير من محاولات السرقة فى فترات الضعف السياسى، حيث كانت الأهرام تشكل منارة لجذب اللصوص تحت إغراء ما بداخلها من كنوز، ففضلوا إخفاء مقابرهم بكل ماتحتوى عليه من كنوز داخل جبل طيبة الغربى، وأمروا ببناء معابدهم الجنائزية المخصصة لإقامة الصلوات على روح الملك فى المناسبات الدينية المختلفة بعيدا عن مطلع الهضبة القريبة من الوادى الأخضر، وليس بجوار المقبرة الملكية كما كان يحدث بالنسبة للأهرامات فى عصرى الدولة القديمة والوسطى، حتى لاينكشف سر إخفاء المقبرة الملكية فى جوف جبل طيبة فى وادى الملوك، وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات فإنها كانت عاجزة عن مقاومة الطمع والجشع الذى يملأ قلوب ضعاف النفوس، ففى نهاية عصر الدولة الحديثة بدأت الوثائق المصرية تتحدث عن عصابات سرقة المقابر الملكية، وتبين أن عمال الجبانة الملكية وموظفيها قد أصبحوا لصوصا للمقابر، وهم الذين كانوا يقيمون بصفة دائمة فى المنطقة الغربية بالقرب من عملهم فى حفر وإنشاء المقابر الملكية على

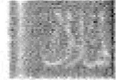
مر العصور.

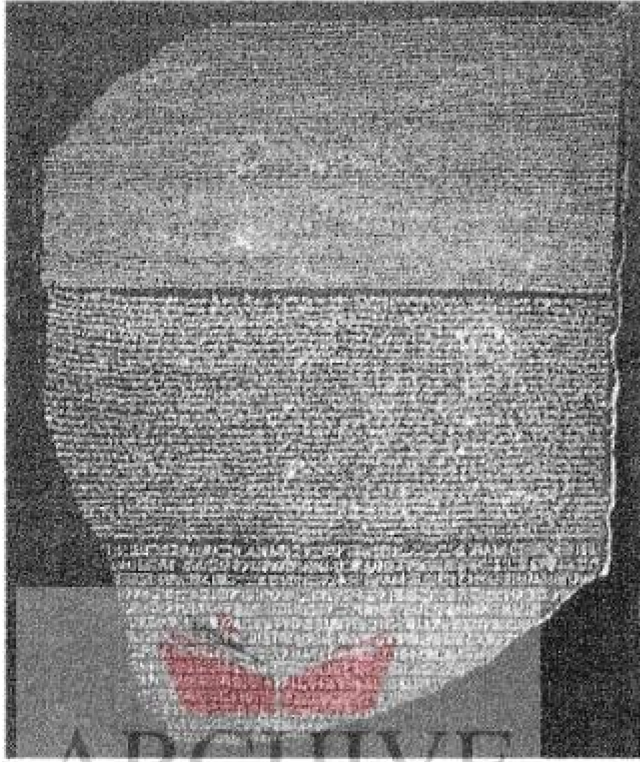
وقد استغل حاكم القسم الشرقي لطيبة - تبعا لما سجل في البرديات - خصومته لحاكم القسم الغربي المسئول عن حراسة المقابر الملكية، وأرسل إلى رئيس الوزراء بلاغا يؤكد وقوع السرقات، وأن غريمه حاكم القسم الغربي مشترك شخصيا في السرقات، وأمر رئيس الوزراء بعقد المحكمة الكبرى في قاعة العدالة بطيبة وكانت تتألف من الوزير، (والمقصود رئيس الوزراء)، ثم من طرفي الاتهام والادعاء، وكاهنين كبيرين هما الكاهن الأكبر للمعبد الجنائزي لرمسيس الثالث في البر الغربي واثنين من الموظفين ذوي الرتب العسكرية، ومع ذلك لم تثبت إدانة حاكم القسم الغربي، ولكن السرقات لم تنقطع، فبعد ثلاث سنوات سرقت مقابر أخرى في وادي الملوك، وقبض على ستين متهما من عتاة اللصوص، وأدينوا وكان من بينهم بعض الكهنة مثل كاهن المعبود خنسو (إله القمر) وكاهن المعبود سبك (التمساح) وكاتب خزينة آمون وعدد من العاطلين الذين قاموا بسرقة خزينة معبد الملك رمسيس الثالث وهو من أغنى المعابد المصرية إلى جانب نهب مقابر بعض الملوك.

محاولة للإنقاذ

ولما فشلت محاولات رجال الأمن في إنقاذ المقابر الملكية من مصيرها المحتوم شرع ملوك الأسرة الحادية والعشرين في طيبة والمعروفة بأسرة كهنة آمون في العمل على إنقاذ مومياوات الملوك الذين سرقت مقابرهم - ولعل هذه من أقدم عمليات إنقاذ الآثار التي نعرفها، فقاموا بتجميعها ووضعها في توابيت متواضعة بعد كتابة أسماء أصحابها، وأقاموا لها حفرة عميقة في موقع غير بعيد من وادي الملوك «يعرف حاليا باسم الدير البحري» خلف معابد الدير البحري وكلها أسماء لمواقع في جبل طيبة الغربي، وهي على ارتفاع خمسين مترا من مستوى الأرض الزراعية، حيث استقرت في مكانها آمنة، وهم الملوك سقنن رع أحد أبطال التحرير، وأحمس طارد الهكسوس، وأمنحتب الأول وتحتمس الثاني والثالث الذين أسسوا الإمبراطورية المصرية، ثم رمسيس الأول وسيتي الأول ورمسيس الثاني والثالث من أعظم ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وظلت المومياوات في مقبرة الدير البحري هذه في أمان مايقرب من ثلاثة آلاف عام إلى أن توصل إلى سرها مصادفة أحفاد أولئك اللصوص القدماء في العصر الحديث وكانوا أربعة رجال من عائلة عبدالرسول، تمكنوا من أن يكتشفوا سر هذه الخبيئة المهمة عام ١٨٧١م، وامتدت أيديهم إليها ينزعون منها ما يمكن بيعه بأثمان كبيرة في السوق السوداء لتجارة الآثار التي كانت رائجة بالأقصر في ذلك الحين.

واحتفظت عائلة عبدالرسول بسرها لنحو عشر سنوات، إلى أن علمت الحكومة



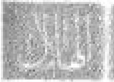


حجر رشيد .كان اكتشافه فتحا في التعريف بالحضارة الفرعونية.. ولكننا لانملكه !

المصـرية ممثلة فى وكـيـل مصلحـة الآثار الألمانى الجنسية واسمه بروجش لأن مدير المصلحـة الفرنسى كـان غائبا فى إجازة بفرنسا، عندما نشب خلاف بين أفراد هذه العائلة، وهناك تم نقل المومياوات الملكية فى حـرارة شـهـر يوليو ١٨٧١ بصـعـوبة شديدة من الحفرة العميقة «عرض فوهتها متران» التى تقع فى مكان صعب الوصول إليه وعلى عمق ١١٫٥٠ متر فى الصخر الطبـيـعى، خلف مـعـابد الدير البـحـرى الخـاصـة بملوك الأسـرتين الحـادية عشـرة والثامنة عشرة.

وفى مـوكب نيلى مـهـيـب وصلت مومـيـاوات عـدد كـبـيـر من ملوك وملكات الدولة المصـرية الحـديثـة مع بعض أفـراد أسـرهـم إلى القـاهرة لتـسـتـقـر بالمتـحف المصـرى، وكـان إذا مـر الموكب بإحـدى القـرى على النيل خـرج الناس يودعـونه بالبكاء والتحـيب كـأنما هى جنازة لأعـزاء لهم ماتوا حديثا.

وبالمتحف المصرى الآن حل العلماء المصريون محل الكهنة فى حفظ مومياوات



الملوك وحل الحديد والزجاج محل التوابيت الذهبية، وملىء التابوت بالغاز الخامل لحماية المومياوات من خطر البكتيريا طبقا لتكنولوجيا حديثة، وكان الملوك ينزعون إلى الأبدية، ولعلهم الآن أقرب ما يكونون إلى ذلك من أى وقت مضى.

لصوص جدد

يحز فى النفس أن اللصوص الجدد قد واصلوا نشاطهم المدمر غير عابئين بأى قيم، إلا المصلحة الشخصية والرغبة فى الإثراء السريع وبأى ثمن نظرا لزيادة الطلب للحصول على الآثار المصرية:

فريق منهم سعى بالرشوة لاعتلاء مناطق أثرية مشهورة والإقامة فيها بطريق البلطجة وشراء الذمم، كمناطق آثار الجيزة وسقارة وأخميم بسوهاج والبر الغربى للأقصر حيث وادى الملوك والملكات ومقابر كبار رجال الدولة المصرية والمعابد ذات الشهرة العالمية كالرمسيوم ومدينة هابو والدير البحرى، ومقابر الفنانين فى دير المدينة، وفى إسنا وإدفو وكوم أمبو، ليتسنى لهم سرقة الآثار ونهب مايكشفون عنه خلسة، ولهم فى ذلك أساليب الثعالب فيقومون بحفر أنفاق داخل الأماكن التى اتخذوها سكنا لهم بالغش والخداع، ويقطعون ما يعثرون عليه من آثار إلى قطع صغيرة رغبة فى زيادة الربح، فيضيعون على العلماء فيما بعد فرصا نادرة للاستفادة العلمية منها لإثراء تاريخ مصر وحضارتها.

وفريق آخر يعمل على أن يبنى له مأوى بجوار المناطق الأثرية ليتمكن من أن يعبث ويحفر ويسرق كلما حانت الفرصة وإذا ضبط يلجأ إلى الرشوة، وعندما يصل الخبر إلى مسئولى الآثار يكون الاكتشاف قد تم تجريده من كل محتوياته عن طريق هؤلاء اللصوص ومساعديهم من أفراد عصابات المافيا من الحراس وبعض ضعاف النفوس من المسئولين عن الآثار.

والغريب أن هؤلاء اللصوص مهما زاد ثراؤهم فإنهم يبقون على أساليبهم الدنيئة فى شراء الضمائر وإفساد الذمم فى كل اتجاه، بل إنهم يعلمون أبناءهم نفس أساليبهم، وفى الماضى كانت البعثات العلمية الأجنبية تقوم بحفظ بعض ماتعثر عليه من آثار فى مخازن منعزلة فى المناطق النائية، ويتركونها منسية فى حراسة الخفراء فتصبح نهبا لبعض معدومى الضمير من المفروض عليهم حراستها، ويتم تبديدها وتهريبها حسب الطلب، بل إن بعضهم يخفون سجلاتها الأصلية لتضييع المسئولية تماما. أما اليوم فقد نقلت كل الآثار من معظم المخازن النائية وبنيت لها مخازن مركزية متحفية لتكون دائما تحت أعين لجان التفتيش.

انعدام التفتيش

ونظرا لاتساع رقعة الأراضى الأثرية القريبة من الأراضى المزروعة فكان يتم بالتدريج سرقة كل ماهو موجود فوق الأرض من آثار ثم تسويتها والتوسع

الزراعي عليها سنة تلو أخرى بعد رشوة الحارس ومن يسانده وتصل الآثار المسروقة إلى مندوبي تاجر الآثار الذي يمر بصفة دورية.

وكان المتبع في الماضي عند تعيين الخريجين للعمل في المناطق الأثرية أن يرسل الخريج إلى منطقة أثرية نائية بمرتب زهيد جدا، ويترك هناك وتنقطع صلته بمن يرعاه، وينعدم التفتيش عليه، فيقع فريسة سهلة لمافيا سرقة الآثار.

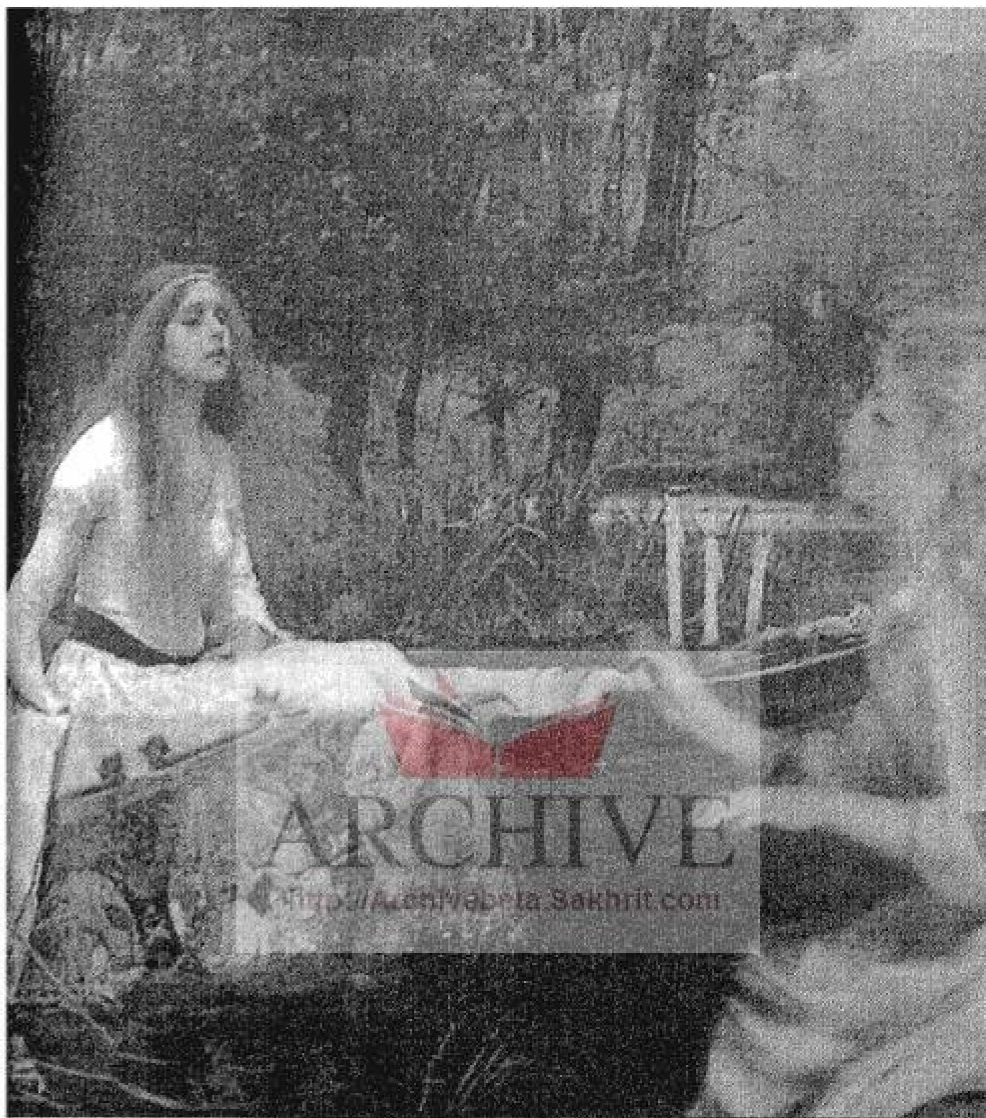
واليوم نسعى إلى تصحيح الأوضاع التي تسهم في شيوع سرقة الآثار وتهريبها إلى الخارج، وبمساعدة اليونسكو عقدت اتفاقيات دولية تجرم سرقة الآثار وتهريبها خارج أوطانها، بل وتساعد في استرجاع هذه الآثار طالما كانت مسجلة في موطنها الأصلي ..وليس لأنها مجرد آثار تحمل الملامح و المواصفات المصرية فقط. واقترح تشديد العقوبات ضد سارق الآثار واعتبار السرقة جريمة مخلة بالشرف والأمانة.

تدابير حمائية

والأهم من كل ذلك أن نمنع تهريب الآثار من المنبع، بمعنى إبعاد الأهالي عن السكنى فوق أراضي الآثار تحت أي عذر وبأي ثمن، لنقطع الحبل السري بينهم وبين مافيا تهريب الآثار. فلا معنى أن تكون مصر بلدا سياحيا ثم تسمح باعتلاء الأفاقين لمناطق أثرية بأكملها بالمباني العشوائية، والاقتراب من أهم مناطق الآثار في العالم في الجيزة والأقصر مثلا بإقامة العمارات التي تخفي أهم ماتفاخر به مصر أمام العالم تحت دعاوى باطلة ظاهرها مصلحة المواطن وباطنها العذاب والخراب.

والتساهل مع عصابات اللصوص والسماح لهم بتجريد مصر من ثروتها الأثرية إلى الأبد هو الطامة الكبرى فيصبح الهرم الأكبر مجرد ميدان تحيط به المباني من جميع الجهات .. ووداعا للسياحة، وهناك من يقول بأن المصريين القدماء تركوا لنا هذه الآثار كصدقة جارية، لنعيش على ريعها من السياحة منعمين إلى مشاء الله، فهل نحن فعلا جادون في الحفاظ عليها؟ وإذا كنا نريد أن يزيد دخلنا من السياحة أضعافا مضاعفة ليعم الرخاء فلا مفر من حماية الآثار، وإبعاد الأخطار عنها، وأهم هذه الأخطار هو تصرفات بعض الأفراد في الانخراط في عصابات سرقة وتهريب الآثار، فهؤلاء اللصوص حين تزداد ثرواتهم يمعنون في غيهم وفي شراء ضمائر ضعاف النفوس فيعم خطرهم.

ونحمد الله أن أيدي رجال الأمن والمخلصين من رجال الآثار قد استطاعت الوصول إلى بعض كبار اللصوص في الآونة الأخيرة، وهذه علامة إيجابية في سبيل مانسعى إليه جميعا للقضاء على ظاهرة سرقة الآثار وتهريبها للخارج أو الحد منها. وهذا أضعف الإيمان بحب الوطن. ■



قصة
قصيرة

امرأة مرهقة

بقلم : نعمات البحيري

حدثتني صديقتي النوبية في السابعة صباحا - نفس توقيت بائعي اللبن والجرائد وباصات المدارس - بأن أترك كل ما يشغلني وأذهب لرؤية ذلك الفيلم الأمريكي الجديد، سمعت عنه من صديقات كثيرات ولم تمنحني إحداهن فرصة هائلة للحماس بمثل ما فعلت صديقتي النوبية هذا الصباح ..

خرجت مبكرا وأنا أبدو لنفسي إمرأة شديدة المرح وفرحت لتلك الحالة التي صرت أبدو عليها رغم عوامل الضجر والملل وفقدان الرغبة في عمل أي شئ جديد. ملأتني هذه الحالة في صباح الأمس وصباحات كثيرة مرت .

أخبرتني جارتي التي تشاركني نفس الإحساس بالملل والضجر وفقدان الرغبة في عمل أي شئ جديد بأن أختها التي نزلت عليها ضيفة لثلاثة أيام ملأتها بالملل وضاقت بضيافتها سوف تنزل وسط البلد بسيارتهاهذا الصباح، وعلى الركوب معها لتجنب مشقة البحث عن تاكسي فارغ، يسمع سائقه موسيقى ناعمة ويقبل أن أنفرد وحدي بالسيارة حتى وسط البلد دون أن يزاحمني براكبين آخرين أو يفجر الكاسيت وأذنيي بصوت جهوري لمطرب لا أرغب في سماعه ..

غير أن المسألة لم تختلف كثيرا عما آلت إلليه الحال والأحوال مع أخت جارتي التي لم تحدثني عن أختها إلاّ بكثير من الشكاوى والمرارة أسلمت لها أذنين منزوعتين من حاسة السمع وشردت مع تفاصيل الصباح الغريب والذى لم أستشعر معه إلاّ بقدر هائل من الصفاء وأنا أرى تجلي الطبيعة بأشجارها الوارفة على جانبي الشارع، وبمشروعات صغيرة للحب بدأها طلاب فارين صباحا من مدارسهم وأفسدها عليهم الباعة المتجولون والمتسولون .

تجاوزت بالفعل مشكلة ثراء التفاهة التي صارت تعتري أغلب الناس حين ينفردون بآخرين لا يعرفونهم على نحو جيد . شكرت أخت جارتي التي أفاضت وأفرطت في استخدام أذنيّ كسلة لمهملات حياتها اليومية وترغب في التخلص منها بالحكي .. مجرد الحكي ولأى بشر تلقاه.

أمام مبنى الأوتيل الفخم أوقفني موظف الأمن الأنيق وهو يبتسم ابتسامة غير مبررة بالمقارنة بما تحمله يده الأخرى من سلاح ، وحين مررت من الحاجز الأمني المصنوع بدت لي متعة متاحة أن أصعد الأدوار السبعة بالمصعد الكهربائي فوقفت على الشريط الكاوتشوكي وراح يصعد بي دورا وآخر حتى أوقفني لتوى أمام شباك التذاكر . قطعت تذكرة وكتبت لي الموظفة الأنيقة الباقي على ظهر التذكرة . ولا أدرى لماذا راحت الموظفة تضحك حينما انحنيت وأخبرتها أنني لوحدى ويجب عليها أن تأخذ هذا في الاعتبار . تركتها لضحكاتها الهستيرية ومضيت أبحث عن مكان

للانتظار، حين دخلت الكافتيريا جاء موظف أنيق ببيونة حمراء يعتذر في أدب جم أن الوقت مبكر للغاية ولم تبدأ الكافيتريا نشاطها بعد واكتشفت أنني قطعت تذكرة في فيلم آخر غير ذلك الذي أوصتني برؤيته صديقتي النوبية.

جريت إلى الموظفة التي ظلت تضحك حين رأتني أمامها فأخبرتها أنني راغبة في دخول الفيلم الذي في القاعة الأخرى، وحينئذ توقفت عن الضحك وأخبرتني أنه على انتظار أي وافد يشتري مني التذكرة لم يمر وقت كثير حتى انهال الوافدون على هذا الفيلم تحديدا، فقد كان الفيلم من نوع الإثارة والأكشن. أخذت النقود من الموظفة وذهبت إلى شباك تذاكر القاعة الأخرى.

كان الجالس في شباك التذاكر شابا نحيلا يشبه في نحوله المفرط رقبة الأوزة، أعطيته النقود وطالبته في رقة متناهية أن ينتقي لي مكاناً يليق بامرأة وحيدة. نظر الشاب إليّ محدقاً وانفجر بالضحك وأعطاني التذكرة لم يشأ يتحدث قليلا إلى زميلته السمراء العجفاء والتي تشبه قردا أفريقيا حتى أفرطت هي الأخرى في الضحك..

على باب القاعة أخبرت «البلاسير» بضرورة انتقاء مكان ينأى كثيراً عن الناس فإذا بالرجل يضحك وتهتز البطارية التي في يده، يضيء بها طريقه داخل القاعة. كان شابا نحيلا هو الآخر، غير أنه كان يشبه رقبة الزرافة جلست في مكاني النائي تماما عن الصوت حيث أوحى لي المكان وأنا أشعر بدهشة بلا حدود من ذلك الموظف السفروت الذي يشبه رقبة الأوزة وله عينان تشبهان عيني الإنسان المغولي وراح يفرط في الضحك ولا



أدري لماذا. كذلك دهشت من ضحكات الموظفة السمراء العجفاء وضحكات البلاسير الذي تقدمني وأنا أتوجس من المبلغ الصغير الذي دسسته في يده ليمنحني مكانا أمنا يليق بامرأة وحيدة..

كانت الفقرة الإعلانية قد بدأت عن سجائر وبارفانات وسيراميك وأفلام أخرى قادمة في هذه القاعة وفي قاعات أخرى، لأول وهلة ضقت بالمكان الذي أجلسني فيه البلاسير فهو بعيد بشكل مبالغ فيه عن الناس، حتى أنني لم أسمع مجرد الهمس أو حتى الأنفاس شعرت بالرغبة في الاقتراب من البشر ولتحرق هذه الوحدة التي أدمنتني وأدمنتها مرغمة وطمأنت نفسي أنني بعد انتهاء الإعلانات ومع بداية الفيلم سوف أنتقل بنفسي دون مساعدة البلاسير للجلوس وسط الناس وليحدث ما يحدث، فأنا الآن لست في حاجة إلى صمت المقابر هذا، ولأربأ بنفسي من أشجار الأسى التي تثمر حولي

وأينما أذهب صمتا وجدباً وضجراً ..

توخيت الحذر فى النظر يمينا ويسارا وصوبت عينى فى اتجاه الشاشة التى لم تفصح سوى عن اعلانات السجائر والمياه الغازية والبارفانات وأدوات التجميل وتبييض البشرة وإطالة الرموش والشعر والأظافر والرقبة والسيقان والعمر. انتهت الفقرة الإعلانية وأضيئت أنوار الصالة وكان هول المفاجأة أكبر من أن أصدق ما حدث وما يحدث. وإمعانا فى التأكد أدرت رأسى إلى الخلف وأمعنت النظر بحثا عن بشر غيرى فى الصالة ولم أجد .

فى البدء توجست من أن أكون قد دخلت قاعة أخرى بطريق الخطأ غير تلك التى سيعرض بها الفيلم، فتحركت لتوى وتجاوزت الفراغ الموجع لأسأل «البلاسير» رقبة الزرافة الذى كان جالسا إلى جوار موظف شباك التذاكر «رقبة الأوزة» والموظفة السمراء العجفاء «وجه القرد» يشاركهما الضحك والثرثرة وارتجال نكات ساخرة ..



أكد لى الموظف أنها القاعة حقا، وأن الفيلم سيعرض بعد قليل فعدت إلى مكانى وقد انتشرت فى المكان موسيقى خفيفة..

كان فاصل موسيقيا ناعما للغاية، يقترب على نحو ما من فالس الدانوب الأزرق أو سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن. قبل أن أصل إلى مقعدى الذى أشار إليه رقبة الزرافة، نظرت إلى الصالة التى تخلو تماما إلاّ منى، وتخيلت أن هناك آخرين فى التواليت أو خرجوا لتوهم إلى الكافيتريا إلا أننى لم أجد أحداً . تذكرت جيدا أن ضحكات رقبة الأوزة ورقبة النعامة ووجه القرد لم تكن إلا سخرية منى حين طلبت مكانا بعيداً لأننى وحدى

فكرت أكثر من مرة فى مغادرة المكان، لكننى وفى لحظة تأملت القاعة بأضوائها المبهجة، وموسيقاها الناعمة، والستائر البرتقالية المسدلة، وأناقة المكان وتفاصيله استشعرت قدرا من الزهو، فقد أتانى إحساس بأن الحفل خاص بى وحدى راق لى التنقل بين مقاعد القاعة كلها وأنا أتسمع جيدا إلى الفاصل الموسيقى، ثم استشعرت بجسدى يرتعش مع نغمات الموسيقى وأنا أتحرك وأجوب الصالة رقصا وزهوا فى كل الاتجاهات مع نغمات الموسيقى .

أغمضت عينى تماما ورحت أراقص شخصا وهميا لا أعرفه، كان يجذبنى فى اتجاهه بعيدا عن أصوات وضحكات رقبة الأوزة ووجه القرد ورقبة الزرافة حتى بدأ الفيلم. ■

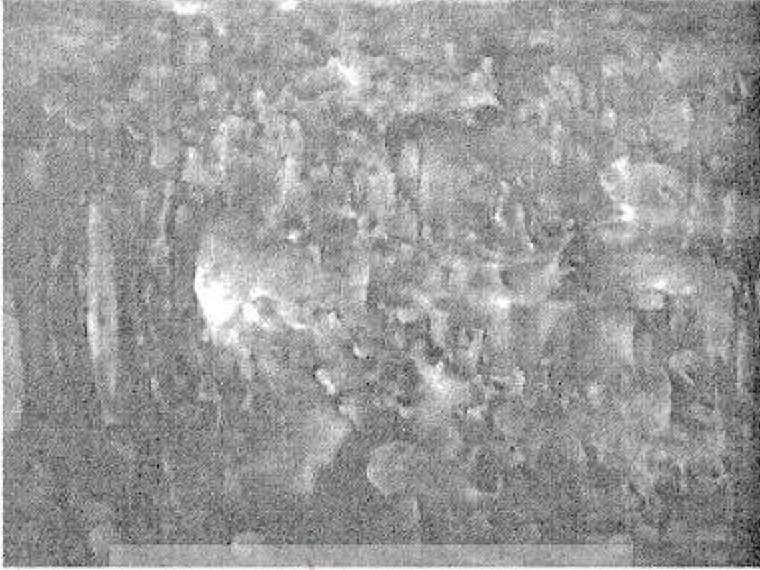
رمسيس يونان

(١٩١٣ - ١٩٦٦)

رائد السيريالية فى مصر

بقلم
د. صبرى منصور

حظيت مصر خلال فترة الأربعينات والخمسينات من القرن الماضى بظهور كوكبة نادرة من الفنانين التشكيليين الذين أولوا للعامل الثقافى والفكرى فى تجربتهم الإبداعية أهمية قصوى ، فى وقت كان فيه المجتمع الثقافى مازال ينظر إلى الفنان التشكيلى على أنه مجرد صانع ماهر ، يعتمد فى عمله على موهبته التلقائية وأدائه الحرفى الماهر. وتلك الكوكبة الفريدة من الفنانين هى التى أسست الجماعات الفنية العديدة التى توالى ظهورها فى تلك الفترة، وصاغت بياناتها المنشورة التى تحمل فكر أصحابها الفنى وآراءهم فى الفن مصحوبة بتوجهاتهم السياسية والاجتماعية حين ربطوا ما بين الفن وحركة المجتمع ، موضحين دور الفن الذى يمكن أن يكون فاعلاً ومؤثراً فى تغيير وعى الناس إلى الأفضل ، ولقد جذبت تلك المجموعة الانتباه نحو الفن التشكيلى وقضاياه ، ومن يطلع على المجلات والمطبوعات الثقافية خلال تلك السنوات فسوف يدهش للمكانة الرفيعة التى احتلها الفن التشكيلى ضمن منظومة الثقافة المصرية.



انتصر رمسيس يونان للسيريالية وأساسها النظرى القائم على مذهب فرويدفى العقل الباطن وتحليلاته للأحلام والأساطير

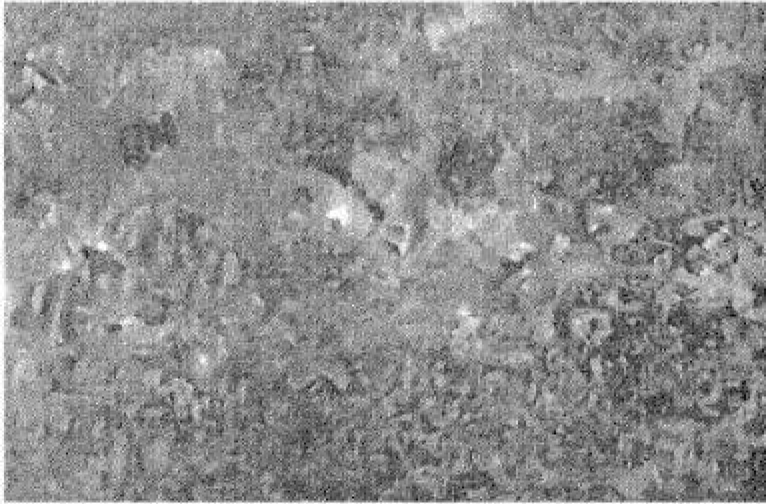
ومن أبرز هذه المجموعة كان المصور رمسيس يونان الذى جسد نموذجاً متميزا للفنان التشكيلى المثقف الذى يعمل عقله وفكره فى إبداعه، ويختار توجهاته الفنية بعد فحص ودراسة واستيعاب لما يدور على الساحة الفنية المصرية والعالمية من اتجاهات وأساليب، وهو يكشف فى سن مبكرة عن اهتماماته النظرية الثقافية عندما شارك فى جماعة الدعاية الفنية التى أسسها حبيب جورجى وحين أصدر مطبوعته «غاية



الرسام العصرى» عام ١٩٣٨ وهو فى سن الخامسة والعشرين، حيث يستعرض فيها - بفهم ووعى - أهم الاتجاهات العالمية وما استحدثته من أفكار وأساليب، ويتفهم دواعى ظهورها ومعالم تميزها، كما يقارن بين الاتجاهات وبعضها موضحا أوجه التشابه والاختلاف ونواحى النقص والقصور. وهو يدعو فى مطبوعته إلى النظر فى رسالة الفنان العصرى فى عصر العلم الذى أتى باختراعات كان لها تأثيرها

ليس فقط في الوسط الذي نعيش فيه ، وإنما كان لها تأثير أيضا على نفوسنا ذاتها ، ويعرض للاتجاهات الحديثة التي استطاعت التعبير عن التغييرات الجديدة وخاصة التكعيبية والحوشية والتجريدية والسيريالية ، ويستشهد بآراء أعلامها أمثال المصور التكعيبي أوزانفان حين يقول «فيما مضى كان الرسام مستخدما في وظائف عدة ، فكان خادما لرجل الدين ، وخادما للأمير ، وللقاضي ، وللقائد ، وللمربي ، وللصحفي ، وللقصاص .. أما الآن وقد اخترعت أدوات جديدة (الفوتوغرافيا والمطبعة) تؤدي عنه هذه الوظائف ، فإنه يجد نفسه ارتفع إلى مصاف الشعراء الأحرار» ويؤمن رمسيس يونان مع التكعيبيين بأن الرسم العصري يجب أن يبتعد عن الحقائق ، ثم يعرج في مطبوعته على نظريات السيكولوجيين أمثال فرويد وأبحاثهم التي تناولت النفس البشرية وحاجاتها وميولها ، إذ رأى أن محاولة فهم طبيعة الفن يجب أن تكون مسبوقة بدراسات للنفس الإنسانية ونزعاتها ، وأن الفن يجب أن يكون قادرا - كالأديان - على إيجاد الحلول لبعض المنازعات النفسية ، فهو بذلك يساعدنا على الوصول إلى حالة من السلم والهدوء النفسي .

وينتصر رمسيس يونان في مطبوعته للمدرسة السيريالية وأساسها النظري الذي يقوم على مذهب فرويد في العقل الباطن وتحليلاته للأحلام والأساطير ، إذ كشف فرويد عن مستودع زاخر يجد فيه الرسام العصري مادة غزيرة موحية . ثم يستعرض الطوائف التي تنتمي إلى السيريالية ما بين واحدة توجه جهودها إلى الجمع بين المتناقض والغريب من الأشياء ، ورأى في ذلك تكلفا فيه من براعة العقل الواعي ومهارته أكثر مما فيه من خيالات العقل الباطن ونزواته ، وطائفة أخرى تمارس ما يسمى «بالرسم الأوتوماتيكي» الذي يحاول فيه الرسام - دون اعتماد على تصميم مسبق - أن يجرد نفسه من رقابة العقل الواعي لتنساب خيالات عقله الباطن عفوا وارتجالا ، وهناك طائفة ثالثة تحترم التصميم والإنشاء وتلتزم بمذهب الحقيقة النفسية ، وهي أكثر الطوائف تجسيدا لمعنى السيريالية التي هي في صميمها دعوة لثورة اجتماعية أخلاقية قبل أن تكون مذهبا فنيا ، وهو ينهي مؤلفه برأي المثال والرسام السيريالي «هنري مور» بأن «عناصر التصميم ضرورية لقيمة العمل الفني ، ولكن في رأيي أن العناصر الإنسانية النفسية لها أكبر الأهمية أيضا ، فإذا امتزجت العناصر المجردة والعناصر الإنسانية في عمل فني كان له دون شك معنى أعمق



ساهم يونان مع جماعة «الفن والحرية» في إثارة الحياة الثقافية بالأشكال الغريبة التي سادت أعمالهم.

وأكمل ».

وكل تلك الأفكار التي وردت في مطبوعة رمسيس يونان عن الرسام العصرى كانت هى القاعدة التى انطلق منها سواء فى إبداعه الفنى أو فكره النظرى ، وظل مخلصا لها عاملا على انضاجها طيلة حياته الفنية، وهي التي دعته إلى تكوين جماعة «الفن والحرية» عام ١٩٣٩ مع جورج حنين وفؤاد كامل وكامل التلمسانى ، والتى أقامت أول معارضها «الصالون الحر» عام ١٩٤٠ حيث ضم صورا تعد ثورة على النظام والجمال والمنطق التقليدى الذى كان سائدا حينذاك فى المعارض الفنية.

تبنى السريالية

وهكذا وجد رمسيس يونان ملاذه الفكرى وضالته الفنية فى الاتجاه السيريالى الذى كان وليدا في أوربا - حوالى عام ١٩٢٨ - وأبدع وفق منطلقاته وتبعا لتوجهاته، وآمن بأنه الاتجاه الذى يمنح خياله حرية الانطلاق بلا حدود.

ولقد ساهم رمسيس يونان مع جماعة «الفن والحرية» فى إثارة الحياة الثقافية من خلال التعبيرات المستفزة - مثل عنوان منشورهم الذى صاحب معرضهم الأول عام ١٩٣٨ «يحيا الفن المنحط» - وكذلك بالأشكال الغريبة المشوهة التى سادت أعمالهم ، معتبرين ذلك نوعا من الثورة الحقيقية فى عالم الفن الحديث نقلوا لواءها من الغرب إلى القاهرة ، محدثين صدمة ثقافية لمجتمع

مازال يخطو خطواته الأولى فى تقبل الفن التشكيلى حتى فى أشكاله التقليديه، وينظر بعين التوجس والريبة إلى تلك الأعمال التى ليس لديه أى معيار نقدى للحكم عليها وتقديرها .

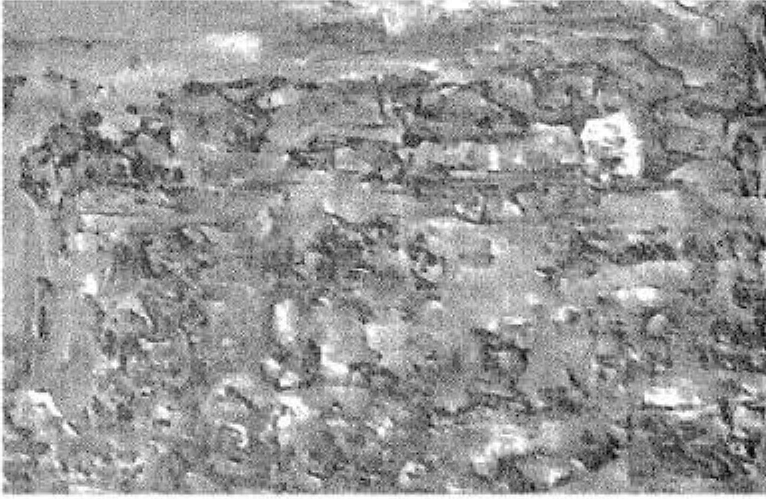
ولقد جسد رمسيس يونان فى أعماله عالما غريبا مليئا بالأشكال المأساوية المحطمة ، وبأشخاص مشوهين فى تكوينات غير مألوفة ولاتنم عن مكان أوتشى بزمان ، فهى خارج إطار الواقع فاقدة لأى انتماء ، وتبرز أجواء أسطورية تنطلق من أعماق اللاشعور والعقل الباطن ، ومن أشهر أعمال تلك الفترة الأولى من إنتاجه الفنى لوحتا «على سطح الرمال» و «شكل سلبى» على أن رمسيس يونان لم يشغله التعبير عن المضمون السيريالى عن الاهتمام بعنصر التصميم والبناء ، وأعماله المبكرة تعكس وعيا بقيمة التصميم وقدرة على التشكيل بحس كلاسيكى رصين . ولكنه ظل يدور فى فلك السيرياليين الأوربيين وطريقتهم فى الصياغة الفنية واختيار العناصر ، فهناك ملامح لاتخطئها العين تقترب من أعمال سلفادور دالى كما فى لوحته «على سطح الرمال» أو أعمال «ماكس ارنست» كما فى لوحته «دون كيشوت» .

اكتمال التجربة السيريالية

ولقد قضى رمسيس يونان حوالى تسع سنوات (١٩٤٧ - ١٩٥٦) فى فرنسا ، وعاد إلى مصر بعد العدوان الثلاثى حيث أتيحت له فرصة مواصلة إبداعه الفنى بعد أن حصل على منحة التفرغ ، ومنذ عودته وحتى وفاته استطاع أن يبلور رؤيته الفنية وأن يقدمها خالصة نقية ، عميقة واثقة ، مشحونة بالإحساس الصادق والخبرة الفنية التى صقلتها التجربة عبر السنين، وهو فيها لم يزل سيرياليا حتى النخاع ، يستمد صوره وأشكاله من أعماق الذات وأغوار النفس ، ولاشك أنه كان لديه قدرة فائقة على الغوص داخل مكامن بعيدة يستخرج منها العناصر التى لاشبيه لها ، وينظمها ويضيئها بضوء سحرى غامض ، فيضفى على لوحاته سحرا أخاذا يمسك بتلابيب الإحساس والشعور ، ويدفع المرء نحو عالم أسطورى ينتمى إلى أزمان سحيقة .

ويؤكد الفنان فى إبداعه الجديد أسلوبا مميزا ومستقلا عن أى سيريالى آخر ، ورغم أنه يهجر عالم التشخيص إلا أن عناصره تظل توحى بأشكال وعناصر مبهمة ، تلك الأشكال والعناصر التى تتوالد على سطح اللوحة خالقة تفاصيل تثير الرؤية وتشحذ الخيال ، وكل ذلك يأتى فى صياغة تشكيلية محكمة من خلال البناء الفنى المتماسك ، وكذلك من خلال المهارة الفائقة التى يعالج بها أسطح اللوحات وحساسيته فى تخليق




في أعماله ملامح لا تخطئها العين تقترب من أعمال سلفادور دالي أو ماكس أرنست

درجات لانهائية رغم سيطرة اللون الواحد سواء كان لونا بنيا أو رماديا ، وهو فى النهاية يكشف فى إبداعه الجديد النقاب عن مصور بارع لاتتخذه الأفكار والمضامين الأدبية بعيدا عن أصول فن التصوير كوسيط فنى له معالجاته وتقنياته الخاصة .

الأفكار النظرية

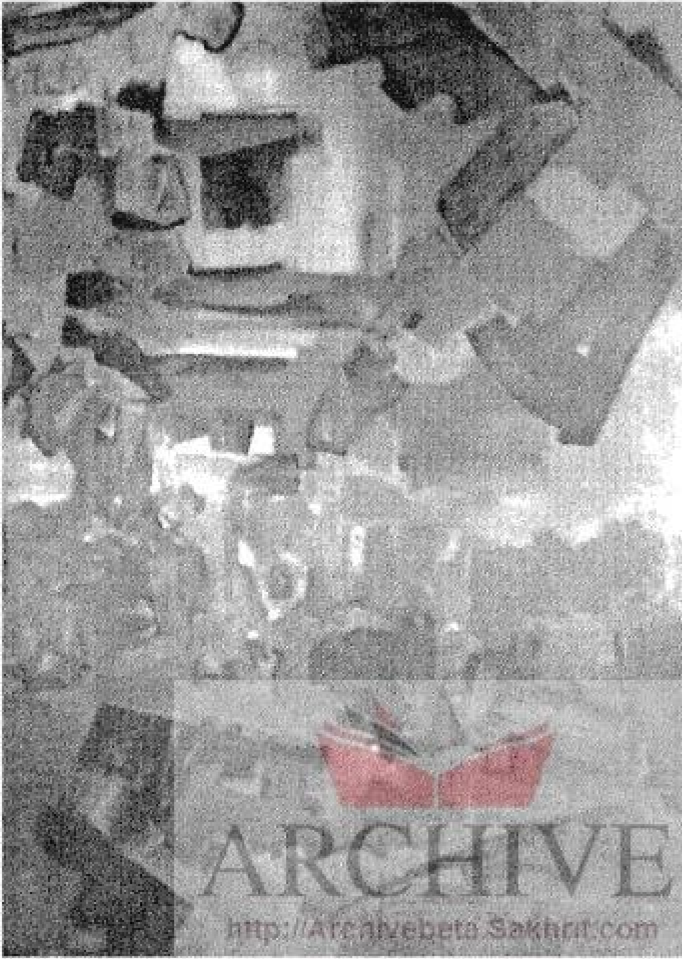
ولقد عرف الناس رمسيس يونان من خلال كتاباته التى قدم فيها مدارس الفن الأوربى الحديث وعرض أفكارها وآراء أصحابها ، وخاصة المدرسة الحوشية والتكعيبية والسيريالية والتجريدية ، وكان لثقافته الموسوعية أثرها الواضح على كتاباته ، فهو ملم بمعالم الفكر الفلسفى والمسرحى والأدبى ، ودفعه ذلك إلى ترجمة بعض المؤلفات الطبيعية فى الغرب مثل ترجمة «كاليجولا» لالبير كامى و«الجحيم» لرامبو، كما شرع قبل وفاته فى ترجمة مؤلف شهير لأندريه مالرو «تشكل الآلهة» ، بالإضافة إلى مقالات عديدة تتصل بقضايا الفن والثقافة ، وهو فى كتابته النظرية يقدم نموذجا جديرا بالاحترام حتى لو اختلفت معه فى وجهة نظره ، ويتحلى بنظرة نقدية موضوعية ويتمتع بأسلوب مفهوم ، وليس هناك أدل على موضوعية نظرته من كل ذلك التقدير الذى منحه لأعمال المصور محمود سعيد الذى كان أسلوبه تشخيصيا ذا صلة وثيقة بالواقع ، ولكنه واقع جديد أدرك

ملامحه رمسيس يونان بحساسيته النقدية ورأى فيه نموذجا للصورة الأسطورية في الفن المصري الحديث، كما يقول عن فنه أنه «ليس مجرد هندسة وأوزان وقوة وامتلاء ، وإنما هو فوق ذلك مذاق وعطر وسحر» كما كان يرى بأن الضوء عند محمود سعيد «ينبع من جوف الكون أو من أغوار النفس ليلهم وينفث في الروح، ويصوغ الكائنات رموزا تهمس بالسر الدفين». وهو في النهاية يضع محمود سعيد- بجرأة على التقييم لجيل الرواد - في موقع الصدارة من هذا الجيل لأنه «كان صاحب شخصية فنية ، وأبرز وأشد استقلالا ، ويتعذر علينا أن نجد له شبيها» .

ومنذ أكثر من أربعين عاما تناول رمسيس يونان مشكلة النقد الفني التشكيلي في مصر حين رصد انصراف المثقفين عن العناية بالفن المعاصر وكأنه لايمت بصلة إلى عالم الثقافة ، وما أدى إليه ذلك الانصراف من تولى أصحاب الحظ الضئيل من الثقافة الحديث عن فنانينا ومعارضنا في المجلات والصحف السيارة « فقد أصبح في وسع هؤلاء الكتاب أن يقولوا ما يشاءون دون رقيب ، بفضل غفلة المثقفين عما يكتبون ، فإذا أضفنا إلى هذا القصور المبدئي ما قد تدفع به الأهواء أو الأغراض الشخصية فلنا أن نتصور بعض ما ينجم عن ذلك من عبث بالقيم الثقافية الحقة ، وتشويش الأذهان ، وخلط بين الغث والثمين من انتاجنا الفني» وهو يطالب المثقفين - وخاصة الأدباء والشعراء منهم - بالالتفات إلى نشاطنا في ميدان الفنون التشكيلية بحكم أن النقد الفني فرع من فروع الأدب ، وعليهم أن يمهدوا لظهور الناقد الفني المتخصص حتى لايظل النقد الفني وقفا على الأدعياء والمتشدقين.

ويتناول رمسيس يونان إشكالية المحلية والعالمية في الفن ، وهو يؤكد أن الفن في هذا العصر أصبح دولي الطابع، وأنه على الرغم من بعض الاختلافات بين أساليب الفنانين في أوطان عديدة فإن الذي يجمعهم هو اعتناقهم للغة واحدة هي لغة الفن الحديث . وهو يرى أنه قد حدث انقلاب خطير في حياة الإنسان على مستوى العالم ، وهو التحول من حضارة الزراعة والحرف اليدوية إلى الحضارة الصناعية، وقد أثر هذا الانقلاب على حياة الإنسان ليس فقط من حيث أحوال المعيشة وإنما امتد هذا التأثير لنظرته إلى الوجود وعقائده وقيمه وموقفه من الكون والطبيعة

ولم يكن عجيبا أن يعود الجيل الجديد من الفنانين إلى اعتناق الفن الحديث ،



رغم أنه هجر عالم التشخيص فإن عناصره تظل توحي بأشكال مبهمة تثير الرؤية وتشحذ الخيال

كما لم يكن من العجيب أن تضمحل تلك الدعوات من أجل احياء تقاليد قومية فى الفن ، ووجهة النظر هذه والتى تبناها رمسيس يونان بالفعل فى إبداعه الفنى - الذى جاء منقطع الصلة بتراث بلاده وسياق تاريخها الفنى - مازالت فى حاجة إلى فحص وتمحيص وإعادة النظر فيما تستند إليه من أسانيد فكرية وثقافية وخاصة حين تدعو إلى فقدان الهوية والاستقلالية الفنية وتلغى إمكانية التميز والتفرد ، كما أنها تتعارض وتتناقض مع الموقف النقدى لرمسيس يونان نفسه حين أشاد باستقلالية محمود سعيد وقدرته على التميز عن الآخرين وامتداده بالجذور الفنية الراسخة للفن المصرى.

وعلى الرغم من هذا التناقض فى الموقف الفكرى لرمسيس يونان ، وعلى الرغم أيضا من أنه كان أكبر داعية للفن الأوربى الحديث فى مصر ، إلا أنه يظل فى رأينا نموذجا يقتدى به ، إذ كان مصوراً مبدعا مرهف الحس عميق الرؤية، ماهر الأداء ، فى نفس الوقت الذى كان فيه كاتبا ناقدا جادا عميق الثقافة مخلص العطاء ■



هلا عمّي أبو محجوب!

بقلم
محيي الدين اللباد

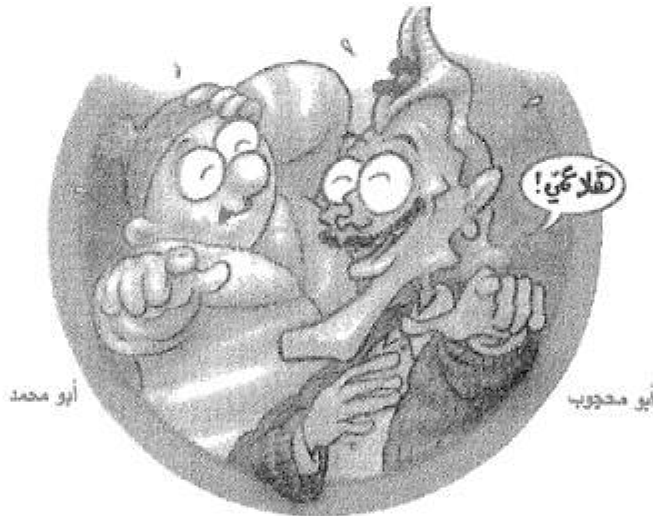
عندما التقيت عماد حجاج أول مرة (١٩٩٧) في عمان، لم أكن قد طالعت له رسماً منشوراً من قبل، بل ولم أكن قد سمعت اسمه بعد. كان شاباً في الثلاثين، متواضعاً وخجولاً، لماحاً وحساساً، يحتفل بافتتاح معرضه الأول للرسوم الكاريكاتورية بالأبيض والاسود.

وفي المرة الثانية بعد عامين (١٩٩٩)، زارني عماد في فندق «عمون» بالعاصمة الأردنية حيث استضافني «مهرجان جرش». جلسنا معاً ساعة في بهو الفندق، أهداني خلالها سفره الثاني «المحجوب» (٦٠٨ صفحة بالألوان)، الذي جمع فيه حوالي ٦٠٠ من رسومه الصحفية من المرحلة التالية لمعرضه الأول، والتي أصبحت ملونة. وأهداني معه اسطوانة سي-دي حملت الرسوم نفسها.

بعد انصراف عماد، تبدلت معاملة أهل الفندق لي: وبعد ابتسامة «cheese» المصنوعة والتهذب الميكانيكي المعتاد من أهل الفنادق، صرت نزيلا له احترام خاص، بل وله -أيضاً- بعض إعجاب الموظفين. ولم لا، وأنا شخص يأتي إليه عماد حجاج زائراً. وبقيت أستمتع بهذه المعاملة المميزة إلى أن غادرت.

بعد حوالي العامين، قابلت ناشطة أردنية في المجال الثقافي تقيم في عمان، التي تراها مجتمعاً مغلقاً يتسم بالركود. قالت لي «أن في البلد أشياء قليلة تساعدها على احتمال العيش هناك، في مقدمتها مطالعة كاريكاتور عماد حجاج في الجريدة كل صباح».

إذن، فلنتعلم أيها القارئ الكريم -قبل أن نبدأ- عن أي نوع من النجوم المحبوبين سوف نتحدث.



بدأ عماد (من مواليد رام الله ١٩٦٧) عمله كرسام كاريكاتور متدرجاً من الصحف الجامعية والمحلية، حتى احتل موقعاً في جريدة «القدس العربي» اللندنية (١٩٩١)، ثم أصبح رسام الكاريكاتير الأول لجريدة «الدستور» (١٩٩٢)، وبعدها «الرأى» (١٩٩٣-١٩٩٩)، وتعد كلتاهما الجريدة الأولى فى الأردن، أو الأولى مكرر. والآن تستقر مساحة عماد اليومية فى جريدة «الغد» أحدث صحف الأردن عمراً، إذ صدرت هذا العام.

كان كتاب معرضه الأول (١٩٩٧) يحمل عنوان «عالم ذهنى» ولعله اختار هذا العنوان تفاخراً وزهواً بالانتساب إلى «الذهنية»، ومحاولة لنفض اليد من «النكتة» العصبية الشعبوية عالية الصوت وما إلى ذلك. وفى الحقيقة ضم الكتاب بعض كاريكاتورات بلا تعليق تمثل هذا الاتجاه «الذهنى» النخبوى، التى لا يتوجه إلا من يحملون شهادة جامعية على الأقل. وكانت رسوماً متميزة،



نرى فيها تفرداً، ولغة جرافيكية بليغة قادرة -بفضل التفوق فى أداء الرسم- على التواصل مع القارئ العربى.

ومع تلك الرسوم «الذهنية» الرمزية القليلة العدد نسبياً والتى كان أغلبها سياسياً صرفاً، كانت هناك أغلبية من رسوم أخرى أقل احتفالاً بـ «الذهنية» وبسكون «البدون تعليق»، لكن كان فيها ما قد يكون أهم: معرفة وثيقة بالشارع الأردنى والفلسطينى/الأردنى، وبدخائل المجتمع ببسيط الحال وطبقاته المرهقة. كان فى الرسوم معرفة واعية بالأزمات العديدة التى تطحن الناس وتتراكم متلاحقة فوق رؤوسهم، وبطرق مواجهتهم لها وتقدهم للأحوال الزفت، ووسائل تحايلهم على قسوة الحياة الخانقة باختراع بعض أشكال الترفيه الحمقاء، وحجج التلاصق الاجتماعى للاحتماء من البلاوى والمصائب المعلقة فوق الرؤوس على وشك الإسقاط، ومحاولة تناسى وجودها.

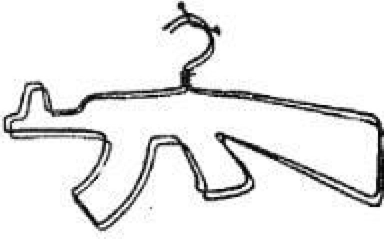
وكان فى رسوم عماد حجاج -تلك أيضاً- معرفة بصرية حميمة بتفاصيل حيوات ناسه فى الدار وفى الشارع، وفى دوائر العمل وفى ميكروباصات السيرفيس، وفى الطوابير أمام

أفران الخبز.

بعد معرضه (١٩٩٧) «عالم ذهني»، انطلق عماد إلى آفاق جديدة أوسع وأنضج، وتفاقمت فكاهته وتركبت وازداد تفردها وصارت أقوى نفاذاً. وتوثقت علاقته مع قارئه وعرف كل منهما لغة الآخر وإشاراته ولزماته ومفاجآته. وارتقى عماد حجاج كثيراً بما عرضه في معرضه الأول وكتابه الأول، وأصبحت رسومه وكأن موضوعاتها أصبحت اجتماعية، إلا أن السياسة كانت عمودها الأساسي وكأن الرسام هو السياسي. وتحول عماد -منذ ١٩٩٧- إلى الكاريكاتور الملون، كما تحول إلى إنجاز رسومه بواسطة الكمبيوتر، بعد أن ملكت برامج الرسم والتصميم ومعالجة الصور لبه، ولم تعد هناك أي أصول ورقية لرسومه الكاريكاتورية. وأصبح الكاريكاتور عنده يبدأ وينتهي على شاشة الكمبيوتر، وينتقل إلى صفحة الجريدة عن طريق الشبكة. وعندما ترى أعمال عماد المنجزة بهذه التقنية، لا تشك لحظة أنها مرسومة على ورق خاص بالرسامين المحترفين، وبالحبر وبالألوان المائية. وتشعر باللمسة الطرية لشعر الفرشاة المبللة بالماء الملون على سطح الورق، الذي تتشرب أليافه العطشى الماء والألوان بشوق بل وقد تجد أن هذه الرسوم الحديثة أكثر طزاجة وأقوى تعبيراً من تلك الأقدم.



كان ضمن ما تعرفنا عليه في رسوم عماد، بدءاً من كتاب «عالم ذهني» ١٩٩٧، سلسلة من رسوم الكاريكاتور يظهر فيها شخصان متلازمان، مثل أمناء شرطة الدورية، وزعيط ومعيط، ولوريل وهاردي، وغيرهم. كان أحدهما نحيفاً فقيراً يضع الحطة الأردنية الحمراء على رأسه، ويلبس بنطلوناً وجاكتة يبدو



من معرض «عالم ذهني» ١٩٩٧

عليهما الإرهاق. له وجه نحيل ممصوص، وذقن عظمية طويلة، ورقبة نحيفة عجفاء. عيناه مكورتان ينفرج جفناهما عن بؤبؤين صغيرين بهما حول ناحية الداخل ولا يخلوان من مجون ونذالة. ويبدو هذا الشخص -مثله مثل «أبو زيد السروجي» بطل «مقامات الحريري» الخمسين -جامعاً بين الحكمة والصعلكة، والطيبة واللؤم، وخفة الدم والاحتيال، والقدرة على كشف المستور والبلاهة في آن. هذا هو «أبو محجوب» بطل الثنائي.

أما رفيقه «أبو محمد» فهو شامل التكور: جسمه مكور، وبطنه مكورة، وعجيزته مكورة، ووجهه مكور، وكذلك منخاره وعيناه الضفدعيتان المنتفختان المكورتان. شاربه هتلري، ويضع طاقية من الصوف الاصطناعي ينزلها حتى أذنيه. ويلبس «أبو محمد» ملابس تبدو رياضية، وأحياناً يضع حذاء مطاطياً أبيض. أقرب إلى طفل سمين، يتحرك برشاقة وخفة، رغم أنه أقل كفاءة وقدرة من زميله «أبو محجوب».

وفي كتاب عماد الثاني، الذي عنونه «المحجوب» (١٩٩٩)، نستطيع أن نرى التطور والتركيب اللذين مر بهما «أبو محجوب» و«أبو محمد» على مدى يقارب العشر سنوات، حتى أصبحا كما نعرفهما اليوم في شكلهما الحالي، وتركيبتهما المعروفة الآن.

وقد اختار عماد حجاج أن يجعل منهما شخصيتين ثابتتين، لكنهما أيضاً ليستا بثابتتين. فنرى «أبو محجوب» يبيع البطيخ في الطريق، ومسؤولاً كبيراً على مكتب ضخم، وحارساً لبوابة



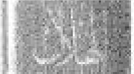
مش معقول شو إنت
شلبي ومحبوب
يا أبو محبوب...



ماكله هوا !

عمل (لعله الصحيفة التى يعمل بها عماد بالفعل)، وموظف استعلامات، وصاحب دكان تافه، وبائع فى محل، وموظف غلبان، ومغنى أفرنجى فى ملهى ليلى يلعب فيه «أبو محمد» وظيفة الشيف اللبنانى فى المطبخ. أما منزله فيكاد يكون ثابتاً وإن لا يوجد مانع من تغيير كل أثاث المنزل وكل غرفة فجأة. يظهر ابنه الكبير «محجوب» كطالب جامعة قد اخضوضر شاربه ولحيته، ثم يتخرج ويقعد متبطلاً بلا عمل. يشبه أبيه لكنه طويل القامة عريض الكتفين، وفى عينيه ذات الدرجة من الحول. وفى فترات أخرى لا يظهر هذا الابن ويكاد يختفى من الرسوم، ويظهر بدلا منه أبناء وبنات أصغر. أما «أم محجوب»، فإنها رغم شكلها الموحد، ليست على موقف واحد، وتتراوح بين الطاعة والاستكانة وبين التمرد والهجوم. وفى إحدى الرسوم تفاجئ «أم محجوب» زوجها بأنها حامل فى الشهر الثامن.

ويلتقى الثانى «أبو محجوب» و«أبو محمد» كثيراً فوق سطح المنزل، وفى غرفة المضيفة التى يجلسان فيها كثيراً على الأرض ويأكلان من أطباق وضعت على جرائد مفروشة. أو يجلسان أمام المنزل، أو متجاورين فى ميكروباص السرفيس وفى حال تحسن الأحوال، يجلسان فى المقهى.



ومنذ سنوات مضت، أصبح الرفيقان (النحيف والمكور) علمان معروفان لكل مواطن أردنى يقرأ الصحف الأردنية. وينهض ذلك المواطن كل صباح ينتظر منهما مفاجأة تعلق على ما يشغل باله من أمور السياسة المتعلقة بالوطن الصغير أو الآخر الكبير، ومن أشكال الصراع بيننا وبين أمريكا وإسرائيل.

ومن هموم الحياة المحلية فى الأردن: تصرفات الحكومة الجائرة إلى أزمة ماء الشرب وانقطاعه لآجال طويلة، إلى أزمات المعيشة والغلاء والفساد، وغيرها. وغالباً ما تختلط القفشات التى تبدو صغيرة بالموضوعات المحلية، وبالعربية، ثم بالكونية. ولعل هذا ما فتن قراء عماد حجاج، حتى صاروا يعرفون لغة رسومه، وإشاراته، ورموزه، وخريطة تفكيره، ونوع مقالبه الفكاهية. وصار الرسام أيضاً يعرف أهل كاريكاتوره جيداً، ويجيد اللغة البصرية واللفظية التى يوصل لهم بها رسالته اليومية بامتياز. فهو ملك فى لغته البصرية المرسومة، وملك كبير أيضاً فى فكاهته المكتوبة المنطوقة داخل الرسم. وبالإضافة إلى موهبته النادرة، تعود هذه الخبرات المميزة لرسام شاب إلى تجربة عماد العريضة فى الحياة كواحد من ملح الأرض وقلقها، وكتلميذ ابتدائى فى مدارس وكالة غوث اللاجئين فى مخيم الوحدات بعمان. إذ جعلته تلك التجربة يعرف الكثير من تقاليد صنع أولاد البلد لفكاهتهم وعبثهم، ويستوعبه، ليصبح بدوره منتجاً ممتازاً لتلك الفكاهة وذلك العبث.

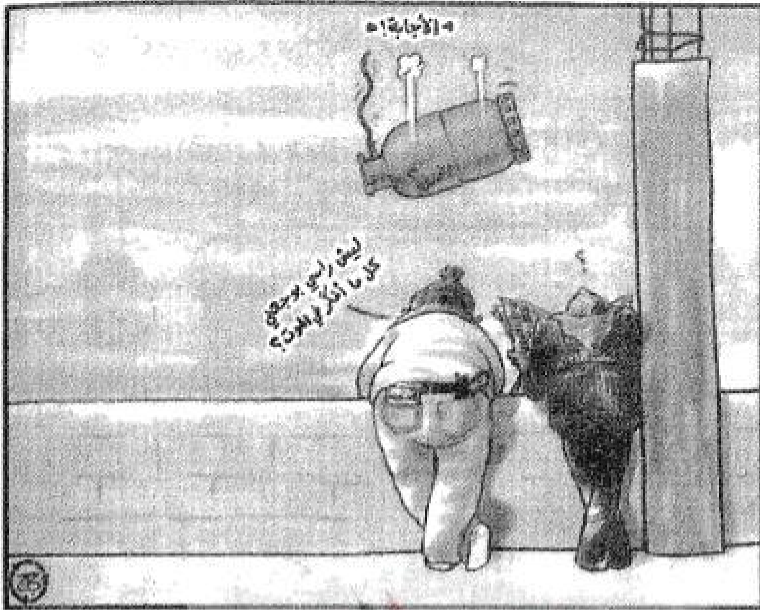
رسم عماد على الكمبيوتر رسوماً جميلة نقلت روح حياة الفقراء التعيسة الضاحكة، وبمفرداتها التى احتفظ بها الرسام على حالتها ولم يبدل منها لحساب تكوين اللوحة أو العلاقات الشكلية، بل نجده وقد هوى تلك المفردات البذيئة المظهر و«الكيتش» التى تزخر بها حياتنا وبيوتنا، وأبدع منها رسوماً حميمة جعلت القلوب تتفتح له.



عماد -فى الأساس- رسام موهوب يهوى الرسم ويحبه ويرقص له، لكنه استفاد كثيراً -أيضاً- من دراسته فى كلية الفنون الجميلة جامعة اليرموك فى القبض على قواعد المنظور ومعرفة قواعد التشريح وهضمها. كما استفاد


حفلة الزحم السنوية
عفواً يا إخوان.. إحنا أخذنا الحكي والأفطار.. ولسّه ما تعرّفنا؟
حافظ عطية ابن خالي..
والي جنبه سليم جوز أختك


نوم وصوم
...وعلى رزقك أفطرت
ذهب الظمأ.. وابتلّت
العروق.. وثبت الأجر
لسه يابا..
هالا أذان العصر!


الأجابة!
ليش راسي بوجعني
كل ما أفكر بالموت؟


خدمة الضمير الناطق!
أخي المواطن..
الموقف القوي والثابت قد تغير
يرجى إعادة الطلب بدون غضب..
وإضافة الرقم (٥)!

● خبر عالصّفحه الأخيره ! ●

أبو محجوب يزور دار أبو محمد

● وادي الرمم - من عماد حجاج

قام السيد أبو محجوب بزيارة ناجحة لدار أبو محمد الصحيح أول إمبارح، وأول ما وصل استقبلو أبو محمد ومرتو ومصطفى وسماعين وشوية من هالجيران.

وتباحثوا الأخوان أثناء القعدة في كل الشغلات والطوابق إللي بتهمهم، وأكدوا على إنو كل الناس خير وبركة وإنهم دايماً كانو أهل وحبايب من زمان زمان، وإنو رآح يظلو قرايب ونسايب برغم كل المستجدات في الساحتين إياهم (ساحة المدرسة، وساحة الكراج).

وفي آخر الزيارة ودّعوا أبو محجوب مباوسة، وشدو فيه عالغدا لكن الزّلمه اعتذر، فوّصلوه لعند باب العمارة. وطبعاً كان في وداع السيد أبو محجوب في بيت الدرج أبو ربحي وأبو صطيف وأكمّن واحد من هالعاطلين عن العمل.

ويذكر طبعاً إنو هاذي الزيارة صارت كثير، وكل مرة نفس الحكي ونفس السلافة.

(البقية في حياة التفاصيل)







لقطات من الزيارة

عدسة وشعيرة

من عمله لفترة طويلة في ميدان التصميم الجرافيكي الذي أعطاه خبرة عميقة في تصميم رسومه الكاريكاتورية. وقد أصبح الآن قادراً على أن يرسم ما يريده وما يقرره وما يتطلبه كاريكاتوره، بيسر وبأستاذية، دون أن يشعر قارئه بالإرهاق الذي بذله في إنجاز العمل. بل يتركه متفرغاً لاستقبال فكاهته ومزاحه «العنقودي» الذي تتوالى انفجاراته منذ أن تنفجر -في وجه قارئه- المزحة الرئيسية.

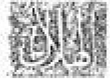
لا يكتفي رسامنا بفكرة كاريكاتورية واحدة، بل يصاعد ويفاقم الحالة الفكاهية فضمن تفاصيل رسمه، ستجد الكثير من الهدايا -فوق البيعة- مرسومة ومكتوبة في الحنايا: ستجد ضمن غرفة طعام الضيوف في بيت «أبو محجوب» صورة على الحائط له مع «كارلوس»، وفي رسم آخر ستجد صندوقاً مخصصاً لتلقي الاقتراحات معلقاً على حائط غرفة أخرى، وفي مشهد يحمل فيه «أبو محمد» علبة سمن، تجد عماد قد كتب عليها: «السم في الدسم»، وعلى ملصق صغير جداً على الحائط، لا علاقة له بموضوع الكاريكاتور، تجده قد كتب عليه: «أخي الحرامي: الأردن لنا جميعاً»، وفي رسم آخر يمثل حالة انهيار عدد من الموظفين عند دخول إحدى زميلاتهم الفاتنات، ويقود الانهيار «أبو محجوب»، بينما يقف «أبو محمد» يلعب بيده في أصابع يده الأخرى، وقد وجه الرسام إلى الكفين سهماً كتب عليه «أبو محمد التافه شلّح الدبلة»!

وفي العامين الأخيرين (٢٠٠٣ و ٢٠٠٤)، تلاحقت على رؤوسنا المصائب والضربات المتلاحقة، وبدونا كمن حكم عليه بالإعدام وينتظر يوم التنفيذ. وهنا بدا أن عماد حجاج أدرك فداحة الكوارث، واطلع -مثل كثيرين- على خطة الأعداء المكشوفة كالشمس، فرفع الصوت في رسومه لينبه، ولكي نسمعه نحن الذين نبدو في إغفاءة طويلة.

ومن رسومه في الفترة التي كانت أمريكا وحلفاؤها يجهزون -على الملأ- لضرب العراق، واحتلاله للسيطرة على نفطه وعلى منطقتنا، جمع عماد حجاج عدداً من الأعمال في كتاب ثالث كبير القياس، عنونه «نفط على قماش»، في تحوير ساخر للتعبير التقني في الفن التشكيلي «Oil on Canvas». ويبدو في هذه الرسوم أن الأولوية للتنبيه والغضب وللأحزان، ولم يضم الكتاب سوى رسوماً قليلة من نوع «أبو محجوب» و«أبو محمد» (ليحذر عماد أن يجرفه الهول الحالي والقادم بعيداً عن هذين «الأبوين» خفيفي الدم، وليقبض عليهما بيد المودة والفخر والاعتزاز بهما فهما جزء هام من رصيده العظيم).

لقد ضبط عماد حجاج موجة كاريكاتوره -لأكثر من عشر سنوات- على دقات قلوب أهله في الأردن وفي فلسطين، مما جعله -حتى عهد قريب- رساماً أردنياً/فلسطينياً. ثم اتسعت دائرته عندما توالى نشر كاريكاتوره في جريدة «القدس العربي» اللندنية التي توزع في أوروبا وتصل إلى عدد من البلدان العربية. وأظن أن الدائرة ستظل في اتساع إلى أن تشمل العالم العربي، بل والعالم كله، لما تحتويه رسومه من قيم إنسانية مشتركة، ومن قضايا كبيرة يتداولها العالم أجمع، ومن فكاهة راقية واعية تكشف خيبة الإنسان الفرد وفشله المتكرر، وحيرته أمام الوجود المتشابك. وتتندر على تفاهة معاركه الصغيرة في مجتمعه الصغير، الفقير والبائس، والمتراحم، والمتحاقد.

في رسوم عماد حجاج الغارقة في المحلية الرائعة، كل الصلاحية لتصبح عالمية، تلبي فضول العالم لمعرفة كيف نعيش وكيف نفكر وكيف نضحك ■





من كتاب «نقط على قماش» ٢٠٠٣

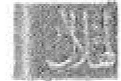


جولة المعارض

دلالات مستقبل هش لفنوننا التشكيلية

بقلم
د. محمد عرابى

غالبا لا تأتى الحقائق الملموسة للصورة متوافقة، أو محققة لحلم الحالمين بها، ولكنها تعبر دائما عن الإمكانات الفاعلة لمن يسهمون فى ابتكارها أو صياغاتها فقيمة الصورة وملامحها تتوقف على العلاقة بين الطرح الذهنى أو النظرى «الفكرى» والوعى بامكانات وسبل التنفيذ، وقوة الإيمان بالطرح والأفكار، وها نحن الآن نواجه طرفين مختلفين لصورة الفن المصرى الحديث أو المعاصر بعد مضى ما يقرب من قرن على ومضته الأولى، الطرف الأول يتمثل فى أحد جوانبها الشبابية التى ساهم صالون الشباب فى تشكيلها ووضعها على سطح الصورة بطرحه - هذا العام- بانوراما نجوم الصالون معتمداً على وجهة نظر أحادية مهتزة دائما تمثلت فى معايير ووجهات نظر لجان التحكيم، التى انتخبت النجوم فى شكل الحاصلين على الجوائز الكبرى والأولى فى مجالات الفنون المختلفة سواء كانت التقليدية متمثلة فى «فنون التصوير والنحت والقوالب الطباعية، والرسم.



أو كانت مما أضافها صالون الشباب بدفعه الدائم نحو مواكبة حركة الفن العالمية بدعوى إنسانية الفن والفكر وتخطيهما الحدود والحواجز المحلية بغض النظر عن الخبرة والوعى ببواعث تلك الرؤى والوسائط الغربية المستحدثة من فنون الفيديو والعروض الحية أو التجهيز فى الفراغ، أو غيرها من التى ظن الكثير أنها تحتاج إلى خبرات مختلفة عن الفنون التقليدية، فأعلت من شأن انصاف الخبرة وضعاف الموهبة، الأمر الذى ينفضح أمره بجلاء عندما يتخلى بعضهم عن ثوبه

عفت ناجي (تعويذة الفارس والفرس) الاسم من عندنا ، يتضح صراحة انتماءاتها الشعبية



١٧٥
الهلال
رمضان ١٤٢٥هـ - نوفمبر ٢٠٠٤م

الهزلي أو يتمرد علي تلك الاتجاهات، ويجرب حظه باستعلاء وجهل كبيرين مع فن الرسم والتلوين أو النحت وغيره فيظهر خاوياً عارياً مجرداً حتى من أى درجة من درجات الخبرة أو الموهبة .

[illegible]

فهذه الصورة التي رأيناها في قاعات اخناتون، أو أتيليه القاهرة، أو حتى بالاسكندرية تشير إلى مستقبل باهت أجوف هش لفنوننا التشكيلية خاصة إذا كان هؤلاء هم النخبة الحقيقية التى تمثل قطاعاً عريضا من الفنانين الشبان، ولا أظن هذا في الحقيقة، فيجب التخلى عن ارهاصات لجان التحكيم والتوجه لتصحيح الوضع بالبحث عن واقع حقيقى لفن الشباب وفقاً لمعايير حقيقية باستثناء بعض الفنانين العارضين أمثال الحفار أحمد عمر الذى اشتهر بالحفر على الخشب مالكا ادواته واعيا بذاته وبغاياته التعبيرية وغيره من الذين دخلو حلبة التسابق منذ جولاتها الأولى متسلحين بنضوج التكوين والوعي على المستوى الفنى والفكرى فلم يقعوا فريسة سهلة للتوجيه والإغراء والاستسهال .

وأما الطرف الثاني : فهو يمثل الخبرة والتراكم المعرفى عبر تطور ذاتى مهموم بالبحث والتقصى والحرية والالتزام بأصالة الفن وتفرده متمثلاً فى صورتين أولهما تنتمى طبيعياً لثقافة البحر الأبيض المتوسط متخذة من الإسكندرية بملامحها المكانية والحياتية نبعاً للإبداع الفنى، وتتمثل فى ثلاثة فنانين من مدرسة الإسكندرية فى فن التصوير، يرتبط كل منهم بالآخر بأواصر مكانية وزمانية وفكرية وطيدة الأركان، وهم الأخوين وانلى «سيف وأدهم» وثالثهم المصور، محمد القبانى الذى تتلمذ على يد سيف فتعلم عنه فن التصوير إلى حد أنه لقب «بتلميذ سيف وانلى» احتضنت المؤسسة الرسمية متمثلة فى قاعة «افق واحد» معرض الأخوين وعرضت جانباً مختفياً من أعمالهما، أو ربما لم ينل حظه من الضوء من قبل، ويتمثل فى أبسط صور تداعياتهم الإبداعية فى فن الرسم السريع سواء عن طريق الأبيض والأسود، أو اللون وكانت أعمال سيف هي الأكثر، واتصفت بدرجة عالية من الحرية ودفء التعبير أو الانطباع الفورى، وأما أدهم فجاءت أعماله فى هذا المعرض لتبرز جانباً مهماً من فنه الكاريكاتير، وعلى مستوى القاعات الخاصة عرضت قاعة «خان المغربى» بالزمالك معرض الفنان محمد القبانى الذى يشكل بدون شك لجمهور القاهرة مشهداً جديداً من فن المنظر الخلوى والطبيعة السكندرية، أيضا فبعيداعن الزحام والفوضى والحركة الصاخبة التى تتميز بها مدننا الكبرى تظهر الإسكندرية نقية هادئة مستقرة تتمتع مشاهدها بصفاء وفضاء واسع رحب، فهو يتجنب الزوايا الجانبية وخطوطها المنظورية المائلة التى تساعد على إثارة الإحساس بالحركة، ويفضل الزاوية المواجهة التى تسمح له بنوع من التبسيط الهندسى يعتمد على الخطوط الأفقية للتأكيد على الرسوخ والاستقرار .

المؤثرات البصرية

ويستعيض بالتقابل اللونى أو تباينات الساخن والبارد عن حذفه للتفاصيل العارضة وتبسيط المساحة، وذلك لإثراء مناظرة بقدر من المؤثرات البصرية لايجور على قيم الهدوء والصفاء والرحابة التى يسعى دائماً لتحقيقها فتظهر مناظره فى





من أعمال الفنان سيف وانلي وتتسم بدفء الانطباع الفوري

من الأعمال الكاريكاتورية للفنان أدهم وانلي توضح قوة الخط وصراحته

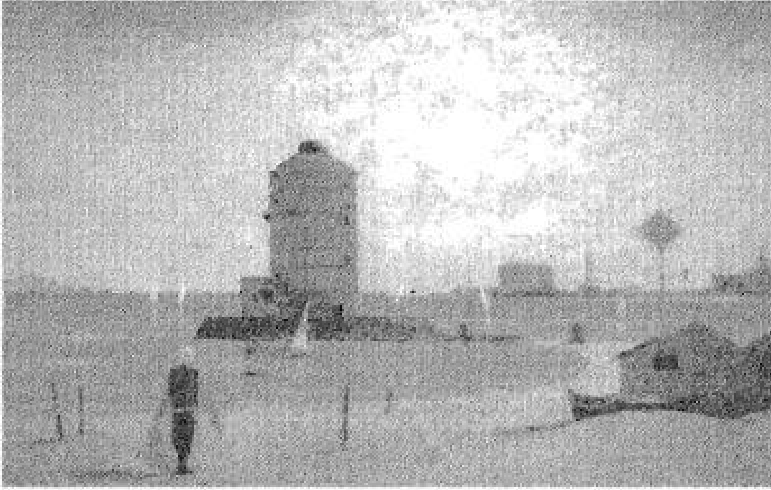
صيغة حلم شاعري يكون منتجعاً طبيعياً لإراحة النفس وتخليصها من أعبائها وهمومها الحياتية الضاغطة .

وأما الصورة الثانية من الطرف الثاني فتتمثل في هامتين من هامات الفن المصري الحديث وهما المصورة «عفت ناجي» ١٩٠٤ - ١٩٩٤ والمثال المعاصر صبحي جرجس مواليد ١٩٢٩ ، فهما يمثلان جيلين مختلفين، وفي نفس الوقت يتمتع كل منهما بذات متفتحة على كل ما هو إنساني في الفكر والثقافة يلقي بظلاله على تجربتيهما بصورة يغلب عليها وجدان مصري خالص يمتلك أسباب حداثته بروح مفعمة بخبرة إنسانية لها أبعادها الخاصة .

ولكن عفت ناجي تبدو أكثر تصريحاً بارتباطها أو انتمائها للروح المصرية بصورتها النقية التي تتبلور في فنونها الشعبية بأشكالها ورموزها وما تمتلكه من طاقة حيوية متحركة، وما تنطوي عليه من أسرار عميقة بعمق -ذورها التاريخية، هذا ما يمكن أن ندركه عبر الإبحار في أزمنة وأمكنة عفت ناجي بمعرضها الرصين المكون من خمس وثلاثين لوحة ملونة، وخمسة عشر لوحة منفذة بالأبيض والأسود في صورة رسوم سريعة موضوعها السد العالي، الذي تنظمه قاعة الزمالك للفن في عرض يستحق منا التأمل والدراسة .

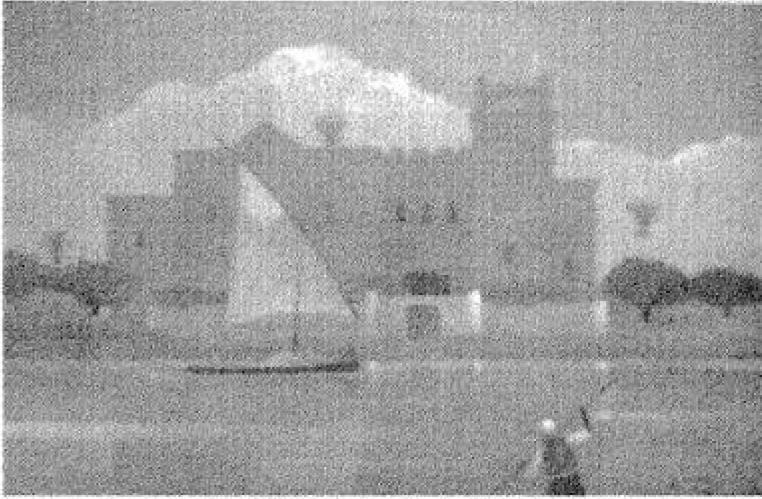
التواصل مع الوجدان الشعبي

فعفت ناجي تمثل حلقة من حلقات مسيرة البحث والكشف عن الروح أوالشخصية المصرية التي وجدت ملاذها وحداثتها في التواصل مع الوجدان الشعبي، فإذا كان راغب عياد ومحمود سعيد وغيرهما قد رسموا أو صوروا الإنسان المصري ومظاهره الحياتية، نجد عفت ناجي تذهب للتواصل مع جماليات



منظر من الاسكندرية للفنان محمد القباني يوضح اهتمامه بالزاوية المواجهة التي تجنبه مشكلات الخطوط المائلة

الإبداع الشعبي متذرعه بوعيها وخبراتها المعرفية الجديدة، فتبدع لنا إجابة فنية مصرية تمتلك أسباب حداثتها بأصالتها وجدتها، وفى هذا الصدد قال لها أخوها المصور محمد ناجي قبل رحيله ١٩٥٦م، «لقد تفوقت على.. بقيت أنا أسير أكاديميتى.. وأنطلقت أنت إلى آفاق الحداثة بعالمها الواسع اللا محدود»، وعندما نتذكر حالة الفن فى مصر والعالم فى الثلاثينات والأربعينيات والخمسنيات نجد عفت ناجى تقف متفردة برؤيتها الفنية التى تتجاوز فيها مغريات اللوحة التقليدية من براعة التلوين والتصميم والإبهار والتجسيم والضوء أو حتى أشكالها الحداثية التى جاءت بها حركة الفن الغربى فى طورها الحداثى، وهذا لايعنى انفصالها التام عن حركة الفن العالمية، بل يعنى هضمها التام لمكتسبات الحداثة الغربية فتتزاوج فى تكوينها الداخلى مع هضمها لتراثها الشعبى والحضارى وأبعاده الوجدانية والإبداعية، فربما تذكرنا خطوطها السوداء السميكة بخطوط «چورچ روو» وربما أيضاً تستدعى غرابة الشكل وجدته أعمال «بول كلى»، وهذا التناص لايعنى التشابه أو التأثر المباشر، فالتقارب يبدو فى غرابة الشكل وقوته التعبيرية وما يحمله من أبعاد انسانية عميقة، فهى تستمد أشكالها الغريبة من الرموز والأشكال والزخارف بكتب السحر والمخطوطات العربية القديمة، فترى عرائس «التلى» بمصادرها الآدمية أو الحيوانية التى نراها برداء رأس المرأة المصرية «الطرحة»، أو تلك الزخارف الخطية وغيرها التى تتضافر بفطرية فى نسيج تصويرى بالغ البساطة والعفوية والدقة فى نفس الوقت، حيث يلعب الخط السميك والبارز أحياناً دوراً مهماً فى صياغة الشكل فيظهر بلون فاتح متنوع الدرجة فيذكرنا أحياناً بنوع من التطريز والحليات النسجية

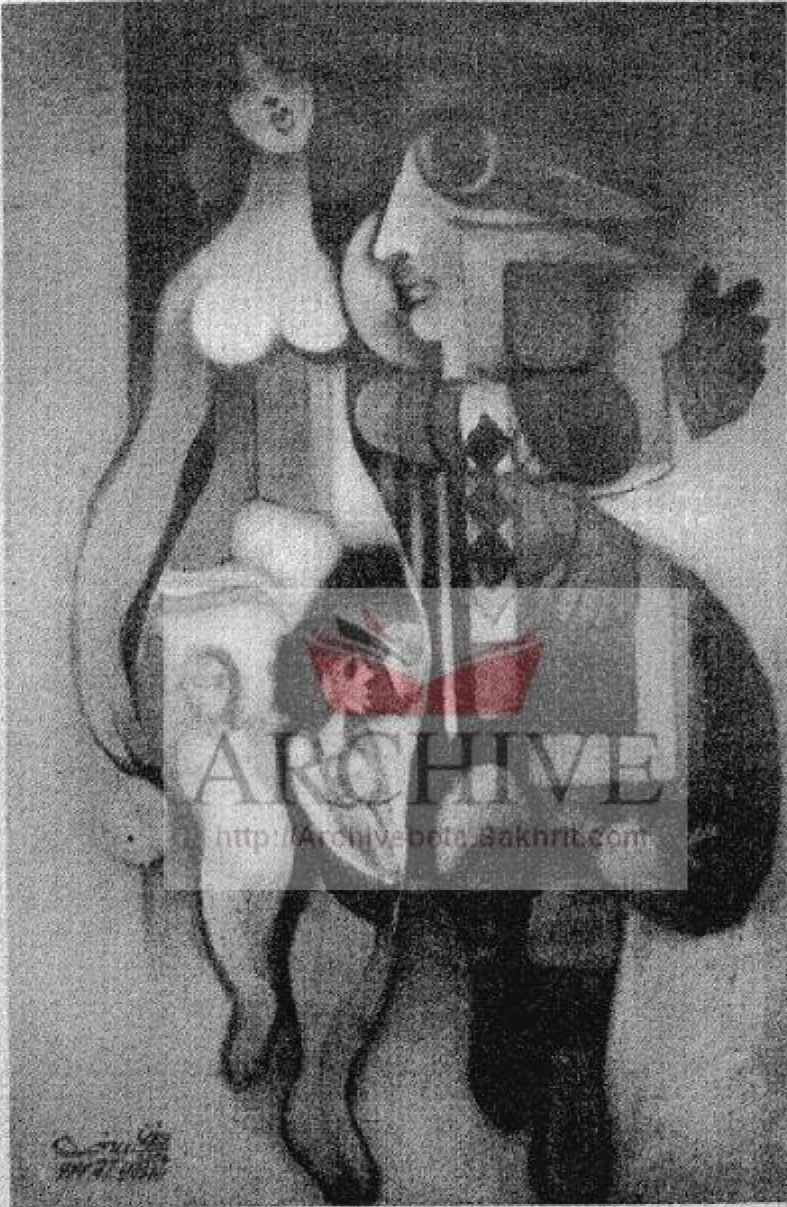


معظم لوحات الفنان محمد القباني تصور البحر والصيادين ويسودها مظهر خيالي

المضافة بأزيائنا الشعبية .

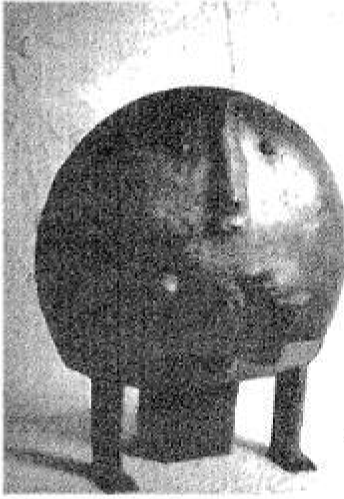
وعلى الجانب الآخر نجد أتيليه القاهرة يقدم آخر أبداعات المثال الكبير «صبحي جرجس» في النحت التي تتميز بمذاق ووجدان لايقف عند حدود تراثه الشعبي أو الحضاري فيكتسب مذاقاً أفريقياعصرياً تمتد جذوره من استشراف مستقبل البشرية في لحظتها الراهنة التي تتحكم فيه قوى مادية ضد الإنسان ووجوده وتحضره إلى كهوف ما قبل التاريخ فيبدو أن صبحي جرجس لم يطمئن إلى قدرات أرواحنا، على إدراك مضمون أعماله ذات النزعة الإنسانية، فهو يستشعر خطرا أو طوفانا آت لدرجة أنه لايستطيع الاكتفاء بلغة الشكل فيرسل لنا إشارة تلغرافية باللغة الشفوية التي يفهمها الجميع ويكتب بخط يده محذراً انتبهو -ATTen tionتحذير لكل الأنحاء المسكونة تذكروا حرب العلمين، نماذج مصغرة لأعمال تنفذ بخامات أخرى تذكرنا بويلات الحروب».

استطاع المثال الكبير صاحب الخبرة والوعي بذاته في العشرين عاما الأخيرة أن يطور لغة فنية خاصة منفردة بقانونها البنائي وإيقاعها الموسيقي، هذه اللغة قادرة على استيعاب أفكاره واحساسه في أن واحد، حيث يخرج التفكير عنده من الدائرة الشفوية إلى دائرة الصورة أو الشكل المجسم بمادته النحاسية أو الحديدية، قوامها الأشكال المخروطية أو الدائرية أو الصندوقية أو الإسطوانية، التي يصيغ من خلالها أفكاره مختلطة بوجدانه في اشكال آدمية يعاد تشكيل اعضائها بوعي وحساسية مكتملة الجوانب بالطاقات التعبيرية الكائنة خلف الشكل الآدمي، فلا يحفل بقشوره السطحية وبنائه الطبيعي كما يتخلى عن جماليات النحت واغراءاته



تكوين من أعمال الفنان عفت حسني

التى جاءت بها الحداثة الغربية وفرضت سطوتها على أجيال عديدة من المثالين، فتكشف لنا فى كثير من الأحيان تركيباته وأسطحها العريضة عن انتماءاته المصرية أو الإفريقية، وأحياناً تفصح لنا عفويته فى صياغة إنسانة ارتباطه بعصور ما قبل التاريخ أحياناً، وفى الغالب تبدو أعماله منفرده بجماليات خاصة تثير الدهشة والإعجاب الشديدين بجوانبها الابتكارية، وتحفز على اكتشاف ما تنطوى عليه من طاقات كامنة لايمكن فك طلاسمهاولايمكن الانفلات أيضا من سحرها الآسر .



تكوين نحتي للمثال صبحي جرجس يعكس انتماءاته الافريقية

الماضى والحاضر

وفى قاعة بيكاسو بالزمالك تظهر حالة فنية أخرى متمثلة فى تجربة الفنان والرسام الصحفى عفت حسنى فى فن الرسم والتلوين يبدو فيها متأثراً بصورة إيجابية فى كثير من الأحيان بخبرته فى الرسوم التوضيحية، حيث احتشاد العناصر والتفاصيل والرموز فى بناء فنى يعتمد على التراكب والتداخل والشفافية والتجسيم والتسطيح فيلجأ إلى حيل كثيرة للتوفيق بين تلك التراكيب التى لايتيح لها منطق الرؤية البصرية من الوجود أو الظهور مجتمعة فتتماهى الأشكال أو تتلاشى أطرافها أو بعض أجزائها بصورة إنصهارية أو تتأكد حدودها وفقاً لما يتطلبه الشكل .

عفت حسنى يجمع بين خبرة أكاديمية تحتفى بالشكل واللون والدقة والاتساق بين أجزاء الشكل ورؤية خيالية تحتشد بالحواديت والرؤى الشعبية، وخاصة رموزها وشخوصها التى تنبثق من عوالمها لتعيش مع بعض الوجوه التى تألفها فى واقعنا المصرى كوجه «أم كلثوم» على سبيل المثال، أو وجه أحد أفراد أسرة محمد على فى زى ملكى يخرج من إطار الصورة الكلاسيكية بيضاوية الشكل شاهراً سيفه وعلى حده سمكة فيتشابه مع أسد أبو زيد الهلالى، وتظهر الأميرة فى عربتها الملكية أيضا، فى الحقيقة ترى الشكل متخماً بالرموز والأشكال بصورة، تحقق نوعاً من التناقض وأحياناً الانسجام، وتتوالد الأشكال وتتكاثر بصورة لانهائية، وفى معظم الأحيان يكون التوالد وفقاً لحاجة جمالية بغض النظر عن دلالات الشكل أو الرمز التقليدية فتكتسب صوره الخيالية درجات من الغموض والدلالات الجديدة وفقاً لرؤية كل منا الخاصة .. ■

حبل غسيل

مصلوب
دمه ينقط على المارة

شعر
محمد أبوزيد

نعم، أحب الورد
لأنه يذكرني بالموت
وأكره الميادين الواسعة، وأخافها
مرة : تهت
ومرة: لم أجدني في صفحة الوفيات
إلا بعد ثلاثة أيام
المرة التالية
أخذت حذري
وطرت فوق الميدان بسرعة
خائفا
من أن تثقب دموعي
أدمغة المارة

أريد أن أبكي منذ ثلاثة أيام
ولم أجد وقتا لهذا
في الماضي
كنت أصفف شعري
من المنتصف

أما الآن
فسأقاطع الجرائد
والأجنحة
وسهرات القناة الأولى

أقول لكم
منذ ثلاثة أيام أريد أن أبكى
لكننى تحجرت
ولم أعد أميز بين التوائم
أمس
لم تفرق جارتى
بين التمثال القديم
فى مدخل الشقة
وبينى
لكنى حين رفعت عينى
اكتشفت كم هو رائع هذا الصمت
الذى يذكرنى بالورد

الورد جميل
جميل الورد
فلا تبتسموا ولاتغنوا
الأحزان معلقة على الحائط
كأوسمة قتلى الحرب
وصوت عقارب الساعة
لم يزل يوقظنى
الشاطئ بعيد
والسفينة مثقوبة
لم أكتشف هذا إلا الآن
أما صرختى فى المقهى
فلم تكن إلا لتأكيد فرحتى
بالغرق

السينما

فى معركة الأفكار

بقلم
مصطفى درويش

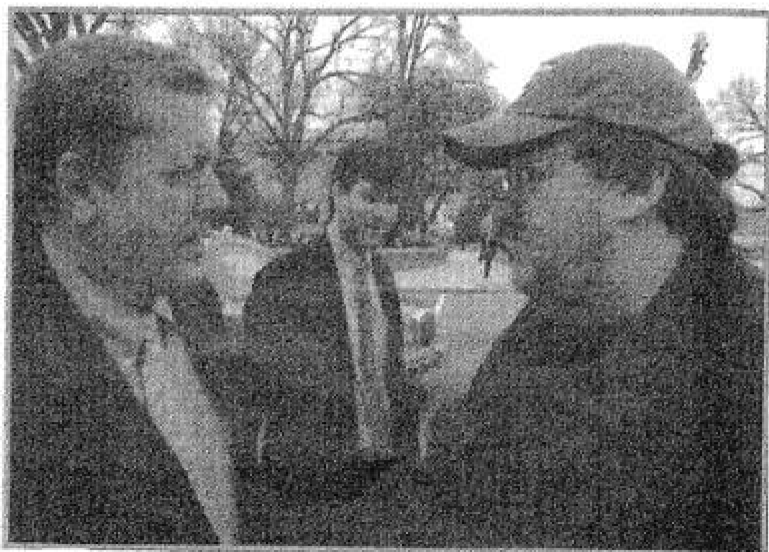
ثلاثة أفلام أثارت أشد الخلاف، حيثما جرى عرضها فى أى مكان من دنيانا.

وهذه الأفلام التى أغاظت البعض، وأهاجت البعض الآخر، هى «باحب السيما»، «فهرنهايت» ٩/١١ و«السقوط».

وكان «باحب السيما» الوحيد من بين الأفلام الثلاثة الذى انفرد بعداء من قبل أفراد، ثم جماعات، وصل غليانه إلى درجة استعداء الدولة، ممثلة في النيابة والقضاء، كل ذلك بغرض استصدار حكم بإلغاء الترخيص الصادر من الرقابة على المصنفات الفنية، لصالح الفيلم، الأمر الذى اتاح له فرصة العرض العام.

ليلى علوي

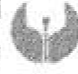
مايكل مور مع نائب أمريكا في فهرنهايت



... وأسرة مصرية من شبرا

منة شلبي الإبنة مع ابن الجيران





أما لماذا لم يتعرض الفيلمان الآخران لمثل هذه المحنة التى تعرض لها «باحب السما» ، فذلك لأن احدهما «فهرينهايت» أمريكي الهوية، والآخر «السقوط» ألماني لحما ودما .

قوة الحرية

ومعروف ، أنه في كل من الولايات المتحدة وألمانيا المتحررة من نير النازية، قد تم استبعاد لغة التحريم والتجريم والتكفير، علي نحو ترسخت معه حرية التعبير، بحيث كادت ترتفع إلي منزلة المقدسات التى لايباح الشك فيها.

وابدأ بالفيلم المطلوب انزال العقاب عليه بحد سيف المنع الباتر، لأقول أن صاحبيه كاتب السيناريو «هاني فوزي»، والمخرج أسامة فوزي»، وهما ليسا شقيقين كما ذهب الظن بنفر من النقاد.

ويعرف عنهما انهما مقلان، على نحو غير مألوف فى سينما، يفضل صانعو أفلامها الكم علي الكيف ، ويجنح بهم الاستسهال السقوط فى هاوية المحاكاة، والابتذال. فالأول رصيده من السيناريوهات التى جرى ترجمتها إلى لغة السينما، ينحصر في أربعة أفلام، أولها «أرض الأحلام» «١٩٩٣»، ذلك الفيلم الذى ختمت به النجمة فاتن حمامة حياتها السينمائية فكان بحق مسك الختام.

أما الثاني، فرصيده من الأفلام ثلاثة لاتزيد «عفاريت الأسفلت» (١٩٩٦)، «جنة الشياطين» (٢٠٠٠) و«باحب السيما» فيلمه الأخير.

فيلم مميز

والأكيد أنه، كما كتب بحق أحد كبار النقاد، الأول من نوعه فى التركيز الكامل على حياة أسرة مسيحية من الطبقة الوسطى الفقيرة، فى أدق تفاصيلها، وبفضله اسقط حاجز الخوف عن المعالجة السينمائية لحياة الأسرة التى يعتنق أفرادها الدين المسيحى.

فالأب فى الفيلم ارثوذكسى متزمت «محمود حميدة» يمارس القمع ضد زوجته الانجيلية «ليلى علوى» وابنته الشابة «منة شلبى» وابنه الصغير المحب للسينما «يوسف عثمان».

الزوجة ممنوعة من الرسم، والابنة ممنوعة من حب ابن الجيران، والصغير ممنوع من مشاهدة الأفلام كل ذلك باسم السماء.

وأحداث الفيلم يحكيها الصغير عندما كبر بلسان الممثل «شريف منير».

وتنتهي بانتصار الجديد على القديم، بموت الأب، وبالتليفزيون يدق الأبواب.

سر الغضب

ولأن الفيلم صادق وأمين فى تناوله

لحياة أسرة مصرية تدين بالمسيحية، فما أن اتضح جنوح أولى الأمـر فى وزارة الثقافة إلى الترخيص له بالعرض العام، حتى هبت ضده عاصفة مميتة، اتخذت شكل مقالات رافضة، وتعليقات حادة، واتهامات جارحة، انحدرت إلى درك المطالبة بمقاطعة الفيلم من قبل نفر من رجال الدين، واستعداء النيابة العامة، مع مطالبة القضاء باصدار حكم مستعجل بمنع عرضه، أى فى حقيقة الأمر، الحكم عليه بالإعدام وهذه القسوة فى مخاصمة «باحب السيما» غير متوافرة فى مخاصمة «فهرنهايت» ٩/١١ و«السقوط».

فالفيلمان جرى عرضهما بنجاح، تمثل فى تحقيق فهرنهايت إيرادات فى الولايات المتحدة وحدها، تجاوزت المائتى مليون دولار، كل ما هنالك، انهما أثارا جدلاً مفيداً على صفحات الجرائد والمجلات والشاشات الصغيرة، وغير ذلك من وسائط الإعلام الجماهيرية فمثلا المصداقية مدار الجدل المثار حول «فهرنهايت» لصاحبه المخرج التسجيلى «مايكيل مور»، والفائز بالسعفة الذهبية فى مهرجان «كان» الأخير، وهو فوز لعبت فيه السياسة دوراً حاسماً.

فيلم ومنشور

«فمور» معاد لآل بوش عداء شديداً وفيلم لا يعدو أن يكون منشوراً سياسياً وكم كان موفقاً توقيت عرضه سواء فى ذلك المهرجان أو فى مشارق الأرض ومغاربها، وبخاصة فى بلد العم سام فهو سابق على إجراء الانتخابات الرئاسية فى الولايات المتحدة ببضعة أسابيع.

وبفضله أصبح «مور» نجما عالميا، ندا «لبوش» يعمل له الرئيس الأمريكى ألف حساب.

ولأن الفيلم منشور، فقد كان فى وسع «مور» أن يستعمله فى حشد التأييد ضد سياسة «بوش» على نحو قد يحول بينه وبين البقاء أربع سنوات أخرى، رئيساً لأغنى وأقوى دولة فى عالمنا.

اتهام التحكيم

ومن بين الجدل الذى ثار حول الفيلم، طرح سؤال حول ما إذا كان جديراً بالفوز بجائزة مهرجان «كان» الكبرى، بوصفه أفضل من جميع الأفلام التى كانت منافسة له فى ذلك المهرجان.

ففوزه هذا شجبته كوكبة من نقاد السينما فى فرنسا، لأنه فى رأيهم لا ينهض فنيا إلى مستوى الأفلام المشاركة معه فى المسابقة وتتويجه بالسعفة الذهبية، مرده حسابات سياسية، واعتبارات مصلحية، كانت توجب على «كوينتين تارنتينو» ان يتنحى عن رئاسة لجنة تحكيم



برونو جانز مع مخرج السقوط


الصورة ....والأصل


يحيون جثة هتلر بعد حرقه

مهرجان «كان».

فهو أمريكي مفصح علنا عن عدائه لمنهج «بوش» في إدارة شئون البلاد.

ومعه أعضاء في اللجنة أمريكيون ثلاثة، يشاركونه العداء للرئيس.

وفضلا عن ذلك، فهو مخرج «اقتل بيل»، المشارك جزؤه الثاني في المهرجان.

هذا إلى ثبوت وجود ملصق دعاية لفيلمه في إحدى لقطات فيلم

«مور» الذى توجه بالجائزة الكبرى.

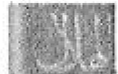
وعلاوة على كل ما تقدم ، فالإخوان «واينشتاين» موزعا «فهرنهايت» ، مشاركان فى تمويل وتوزيع فيلمه «أقتل بيل».

ولقد انبرت «ايمانويل بيار» فاتنة السينما لستنكرى تتويج «فهرنهايت» بالسعفة الذهبية، مدافعة عن قرار اللجنة بقولها.

خطرسة المثقفين

«أقسم أننى فى اليوم التالى لإعلان النتيجة كرهت الفرنسيين.

فبعد أن كالوا المديح لفيلم «مور» السابق اللعب مع كولومبين واصفينه بالفيلم العظيم، هاهم يحاولون تدمير فهرنهايت، من منطلق التعالى، داء المثقفين وأيا ما كان الأمر فى كل ما قيل، فالأكيد أن فهرنهايت نقطة تحول فى تاريخ السينما التسجيلية، وبالذات فى تاريخ استغلال الأفلام فى المعارك الانتخابية.



فهو منشور سينمائى، طلقة هدفها الحزب الجمهورى الحاكم ، بغرض ازاحة الرئيس «بوش» عن كرسيه فى البيت الأبيض، وإحلال مرشح الحزب الديمقراطى المعارض، محله فى كرسى رئاسة الولايات المتحدة.

ولم تبق سوى بضع ساعات، ونعرف ما إذا كان منشور «مور» أصاب الهدف «فازاح بوش، أم فشل فى ذلك فبقى رئيساً أربعة أعوام أخرى.

قبل السقوط

أما «السقوط» فالجدل المثار حوله مداره الملاءمة هل من المناسب استعادة اتعس أيام فى تاريخ ألمانيا النازية على شاشة ذاكرة الألمان، بعد أن كاد يغمرها النسيان.

والحق، أن الفيلم، وقد شاهدته فى ألمانيا عقب عرضه ببضعة أيام، يحرك المواجع، فأحداثه تدور وجودا وعدما حول حياة «أدولف هتلر» فى أيامها الاثنى عشر الأخيرة والجيش الروسى (الأحمر) يضيق الخناق عليه ، وهو أسير مخبئه الحصين ، تحت مبنى دار المستشارية فى عاصمة الرايخ الثالث «برلين».

والمخبأ كما صوره الفيلم ليس حفرة رثة، وإنما مبنى كبير، بممرات طويلة، وحجرات تسع الكثير، جرى تشييده تحت دار المستشارية ، حيث ظل «هتلر» يخدع الشعب الألمانى بسراب امبراطورية تدوم ألف عام، إلى أن جاءه الموت بالانتحار، مع عشيقته «إيفان براون» «٣٠ ابريل ١٩٤٥ بعد زواج لم يدم سوى يومين من عمر الزمان.

الحصار والانتحار

وسيناريو الفيلم مستوحى من كتاب للمؤرخ الألمانى «يواخيم فست»، فضلاً عن سيرة ذاتية بقلم «تراودى يونج» سكرتيرة

هتلر، بدءاً من عام ١٩٤٢، وألمانيا فى أوج الانتصار. وحتى يوم الانتحار، والجنود الروس، على بعد خطوات، والمخبأ تحت الحصار.

ولقد تقمص شخصية هتلر الممثل السويسرى «برونو جانز» وتقمصه لها فاق بكثير تقمص ممثلين عظام لها، أذكر من بينهم على سبيل المثال كلا من السيراليك جينس والسير انطونى هويكنز.

وعندى أن أداءه لدور هتلر فى أيامه الأخيرة يرشحه بجدارة للفوز بجائزة أوسكار.

بشاعة الطغاة

يبقى لى أن أقول إن بشاعة الحرب التى شنها «هتلر» كما صورها الفيلم، لم تتوقف عند تشويه الأجساد، وازهاق الأرواح، بل تجاوزت ذلك إلى تشويه الروح فى الجسد، وازهاق الحق فى الروح.

ولعل خير مثل على ذلك التردى والسقوط. اشتراك الدكتور جوبلز وزير إعلام ألمانيا الهتلرية مع زوجته ماجدا فى ازهاق أرواح أولادهم الستة بالسم الزعاف، وبعد وذلك قيامهما بالتخلص من حياتهما بالانتحار رميا بالرصاص.

وأثناء مشاهدة لقطات قتل الأولاد والانتحار، لم استغرب هذا التصرف الكريه من قبل وزير كان جوهر سياسته الإعلامية الخداع والتضليل.

ولا غرابة فى هذا، افليس هو صاحب مقولة «كلما كبرت الكذبة، صدقها الناس»!!

يبقى لى أن أقول إن آثر لقطات الختام، حيث تنجح سكرتيرة هتلر تراودى يونج فى الهروب من المخبأ، مخترقة صفوف الجنود الروس الفرحين، وفى صحبتها صبى متفان فى حب الزعيم إلى حد حمل السلاح، مع صبية آخرين، دفاعاً عنه فى مخبئه، وحتى الموت برصاص وشظايا قنابل الجيش الروسى المحيط ببرلين، آثر ذلك، وبعد مغادرة قاعة لعرض الأفلام أفخم من أى قاعة فى عاصمتنا، رغم أنها فى مدينة صغيرة، اشبه بما يسمى ريف عندنا.

لاحظت أن الألمان المرافقين، كان يغلب عليهم الشعور بالاستياء.

وسرعان ما تبين لى، بعد استرجاع بعض ما قالوه تعليقاً على الفيلم، ان قطاعاً لايستهان به من الألمان العاديين، يريد ألا يذكره أحد بأيام من تاريخ ألمانيا حالكة السواد.

يريدها نسيا منسيا.

ولكن هل فى الامكان محو أحداث جسام مثل حدث سقوط ألمانيا الهتلرية، من ذاكرة الأيام؟!! ■

هجرة الطيور

مشاهدات في أرصاد في دلالات!!

بقلم
د. نبيل حنفي محمود

إتفق أن شاهدت في أحد الأيام الأولي من شهر أغسطس الماضي وعبر إحدي الفضائيات، فيلم «الطيور» الرائع لعبقري هوليود والسينما العالمية.. المخرج الراحل: ألفريد هيتشكوك (١٨٩٩ - ١٩٨٠)، لم تكن مشاهدتي تلك هي الأولي لذلك الفيلم الذي بلغ الاتقان في كل عناصره المنتهي، ولأن تاريخ إنتاج الفيلم يعود لسنة ١٩٦٣م، فقد شاهدته قبلا لأكثر من خمس مرات، لم تنتقص السابقة منهم شيئا من جمال اللاحقة وإستمتاعي بها، وذلك لأن تكرار المشاهدة يلفت إنتباه المشاهد إلي ما قد يكون أهمل ملاحظته أو تأمله جراء دهشة التلقي الأول، وقد كان هذا ما حدث معي بالضبط في متابعتي الأخيرة لفيلم «الطيور»، حيث جذب إنتباهي جملة وردت علي لسان أحد الممثلين عقب هجوم مجموعات من الطيور علي إحدي المدن الساحلية الأمريكية، قال الممثل بلسان أحد أبناء البلدة ومتعجبا من هجوم الطيور: «إن البلدة لا تقع علي طرق هجرة الطيور»،


هنا قفزت من ذاكرتي بعض الحقائق عن قدرة الحمام على الاهتداء لمكان عشه والتي حواها مقالي بعدد يونيو الماضي من «الهلال»، وساءلت نفسي: هل هناك أوجه شبه بين قدرة الحمام على العودة لعشه وهجرة الطيور الموسمية؟، إن المقال الحالي يطرح العديد من الحقائق التي جاءت من مشاهدات وأرصاد ودراسات حول هجرة الطيور، لعل تلك الحقائق تقدم إجابات أو تفسيرات لما قد تثيره تلك الهجرة في عقل القارئ والمهتم من تساؤلات.

معلومات تاريخية وأفكار قديمة

جذبت هجرة الطيور اهتمام الناس وأثارت خيالهم منذ عهود سحيقة، حيث تضرب المشاهدات المسجلة عن هذه الهجرة عميقا في تاريخ البشر، إذ تشير صور المقابر والمعابد إلى أن قدماء المصريين قد لاحظوا هجرة الطيور وسجلوها قبل أكثر من ثلاثة آلاف من السنوات قبل الميلاد، ولم تقف المعلومات التاريخية عن هجرة الطيور عند ما سجل فوق جدران المعابد والمقابر، وإنما جاوزت ذلك إلى الكتب السماوية نفسها. ففي الانجيل.. توجد عدة إشارات إلى الحركة الموسمية للطيور، كذلك فإن قصة إنقاذ طائر السلوى Quail المهاجر لبني إسرائيل من مجاعة تيههم في سيناء معروفة في العهد القديم، وهي القصة التي أشار إليها القرآن الكريم في ثلاث من سوره: (البقرة: ٥٧) - (الأعراف: ١٦٠) و(طه: ٨٠).

يعد عالم الطبيعيات والفيلسوف الأغريقي: أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) من أوائل الكتاب الذين ناقشت كتاباتهم هجرة الطيور، فقد لاحظ أرسطو أن الكراكي Cranes تهاجر من أعماق سيثيا Scythia (وهي منطقة تقع شمال البحر الأسود) إلى المستنقعات عند منابع النيل، وقد خلص أيضا إلى نفس الملاحظة مع البجع والأوز العراقي والحمام وكثير من الطيور التي تطير إلى المناطق الدافئة لقضاء فصل الشتاء بعيدا عن مواطنها الباردة، لقد صك أرسطو وتلاميذه من بعده بعض المعتقدات الخرافية حول بيات الطيور الشتوي، ومن هذه المعتقدات أن البيات الشتوي للعصافير يتم بالاختباء في تجويف الأشجار أو وحل المستنقعات، ونسب أرسطو كذلك نفس النمط إلى طيور اللقلق Stork والحدأة والحمام، اعتمدت معتقدات أرسطو على روايات بعض الصيادين في مياه الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، من أن شباكهم تخرج ممتلئة بالأسماك والطيور، وقد رجحت تلك الروايات أن هذه الطيور غرقت أثناء البيات الشتوي.

لم تكن المعتقدات والخرافات قصرا على عصر أرسطو وحده، بل إنها امتدت إلى ما بعد انطلاق الثورة الصناعية، وها هي إحدى النظريات التي نشرت في عام ١٧٠٣م وتحت عنوان: «رسالة عن الحل المقبول لهذا السؤال: من أين يجيء اللقلق

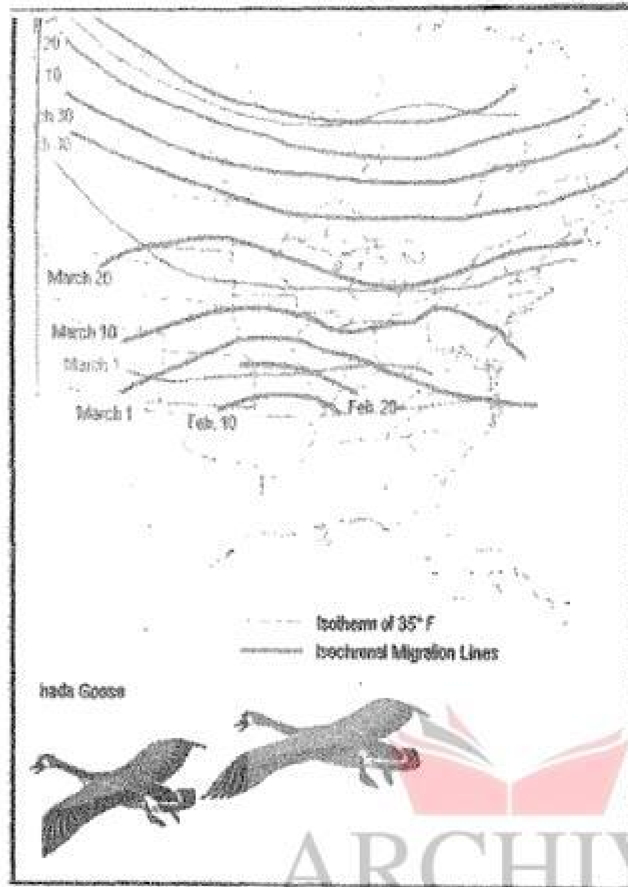
واليمام والكركي والعصافير.. ومتى يعلمون ويلاحظون الوقت المحدد لقدومهم؟»، وكانت إجابة السؤال التى اعتمدتها النظرية تقول بأن الطيور المهاجرة تطير إلى القمر حيث تقضى هناك فصل الشتاء!!، ومن المعتقدات الخيالية عن هجرة الطيور ما ينشأ عن خطأ فى تفسير ظاهرة حقيقية، وكمثال لذلك ما فسر به البعض مشاهدته لمضايقة الطائر الملكى الشرقى Eastern Kingbird للبومة ذات القرن الكبير Great Horned Owl، حيث يلتصق ذلك الطائر بكتف البومة وخارج نطاق إنبساط جناحها وأثناء انزلاقها نحو الأسطح الخشبية، لقد أمدت تلك الظاهرة الصحيحة البعض بتفسير لكيف أن البعض من فصائل الطيور الصغيرة - من ذوات السمعة السيئة فى الطيران - تقوم برحلات هجرة مماثلة لما تقوم به الطيور الكبيرة القادرة على الطيران لمسافات بعيدة، فكان التفسير الذى اعتقد به البعض وروجوا له.. أن الكبار من الطيور يحملون مرافقيهم الصغار فيما يسمى بركوب التطفل hitching ride!.

محفزات الهجرة

ينشأ مع الطيور منذ الصغر إحساس داخلى بوجوب توافق مكان العش مع وفرة الغذاء، بالإضافة إلى ضرورة تناغم هذا المكان مع أى عامل بيئى له تأثير على إنتاجية الطيور، لذلك يبدأ استعداد الطيور للهجرة فى فصل الربيع، يحدث ذلك إثر تغيرات تلم بمراكز الجهاز العصبى من الجزء السفلى hypothalamus من مخ الطائر، ويختص ذلك الجزء من المخ والذى يسمى أيضا الجزء «تحت المهادى» بالاحساس بالحرارة، حيث تتحكم مراكز الجهاز العصبى الموجودة فى ذلك الجزء من مخ الطائر فى الاحساس بالجوع والشبع، وذلك من خلال تعديل إفرازات كل من هرمون البرولاكتين Prolactin وهرمون الكورتيكوستيرون Corticos-terone والاستيرويدات الجنسية Ster-Sex oids، فتحفز تلك التغيرات الهرمونية الطائر على الافراط فى الأكل، مما يجعل ما يجتنيه الطائر من غذاء فى تلك الفترة أكثر بحوالى ٤٠٪ مما يزدرده فى الأيام العادية من طعام، ليقوم الطائر باختزان الغذاء الزائد على شكل طبقات سميكة من الدهن تحت الجلد وعضلات الطيران وفى التجويف البطنى، ويمثل الدهن المختزن فى جسم الطائر حوالى ١٥٪ من وزنه استعدادا لرحلات الهجرة القصيرة والمتوسطة، وأما فى رحلات الهجرة الطويلة.. فإن ما تمثله الدهون من وزن جسم الطائر يبلغ حوالى من ٣٠ - ٥٠٪، إن ذلك الدهن الذى إختزنه الطائر فى فترة الاستعداد للهجرة، يكون بمثابة الوقود لانقباضات عضلات الطيران، مما يسمح للطيور بالتحليق لفترات طويلة ويأذنى قدر من الاجهاد.

يبدأ الاستعداد للهجرة بنشاط زائد للطيور أثناء الليل، ويكون ذلك النشاط الزائد ملحوظا أكثر مع الطيور المستأنسة





«شكل٢» هجرة الأوز الكندى نحو الشمال تتبع تقدم خط ثبوت لدرجة الحرارة ٣٥ فهرنهايت (١٦ م)

منه مع الطيور المفترسة، يبدأ قلق الهجرة مع الأيام الطويلة من خلال تأثير الضوء على الجزء تحت المهادى فى مخ الطائر كما سبق القول، ويرتبط المنبه الضوئى للهجرة عند الطيور بالفترة التى يستغرقها النهار من زمن اليوم، وبالرغم من أن الاعتبارات الخارجية والداخلية لتأثير الضوء تعكس التوزيعات الجغرافية له أيضا، فإن الطيور التى تقضى الشتاء فى المناطق الحارة تتميز باستخلاص استجابة لفترة النهار الضوئية مماثلة لتلك التى تتوصل إليها الطيور التى تقضى الشتاء فى مناطق الشمال المعتدلة، ولنضرب مثلا هنا بالهجرة عبر الاستوائية للمراح Bobo link، وهى طائر أمريكى مهاجر يعرف بتغريده المرح، حيث تبدأ طيور المراح الاستعداد للهجرة مع تناقص طول النهار فى مواطنها بالمناطق الجنوبية المعتدلة، فتهاجر شمالا باتجاه خط الاستواء معتمدة على خبرتها فى تناقص طول النهار، وعندما تقطع خط الاستواء أثناء طيرانها، فإن خبرتها عن الزيادة المفاجئة فى طول النهار والمصاحبة لدخولها نصف الكرة الأرضية الشمالى، تقودها هذه الخبرة إلى موطنها فى العام السابق والذى يكون إلى الشمال من خط العرض رقم (٤٠).

إن محفزات الهجرة لدى الطيور ليست هى طول النهار وحده، وذلك لأن الطيور تستخلص تحكما مضبوطا فى هجرتها بالاستجابة لبقية المثيرات البيئية، وتعد درجة حرارة الجو واحدا من المثيرات البيئية الهامة، لذا... فإن هناك أنواعا من الطيور تتبع فى هجرتها نهجا يجعلها تبدو وكأنها مرتبطة بتغير درجات الحرارة، حيث تنتظر تلك الأنواع فى مواطنها

الشتائية حتى يوغل الربيع فى التقدم، لتتحرك بعد ذلك وبشكل مفاجئ إلى مواطن تكاثرها، ومن أمثلة ذلك طائر السمنة الرمادى الوجنة Gray - cheeked Thrush الذى يقضى الشتاء فى شمال أمريكا الجنوبية، إن هذا الطائر لا يبدأ رحلته إلى الشمال إلا بعد أن تكون أنواع أخرى من الطيور قد قطعت مشوارا فى طريق عودتها، ولا تبدأ طلائع هذا النوع من الطيور فى الظهور بالولايات المتحدة الأمريكية إلا قريبا من آخر شهر ابريل، ففى ٢٥ ابريل تظهر قرب مصب نهر المسيسبى، وفى ٣٠ ابريل تظهر طيور السمنة فى شمال فلوريدا، وبعد شهر من ذلك - وفى الأسبوع الأخير من شهر مايو يشاهد طائر السمنة فى شمال غرب ألاسكا، وفى مثال آخر لارتباط هجرة الطيور بدرجة حرارة الجو، تبدو هجرة الأوز الكندى Canada Goose نحو الشمال كما لو كانت تتبع تقدم خط ثبوت درجة الحرارة ٣٥ ف (٦أم) على الأرض، وفى مثال آخر لتأثير درجة حرارة الجو على هجرة الطيور قدمه لنا ما حدث لهجرة السمان إلى شبه جزيرة سيناء فى العام الماضى، ففى تصريح لمدير إدارة البيئة بمحافظة شمال سيناء أدلى به لصحيفة الأهرام ونشر بعدد الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٢م، قال المسئول فى تصريحه: إنه من المتوقع أن يتأخر موسم الهجرة هذا العام خاصة بالنسبة للسمان الذى تتراوح أعداده المهاجرة بين ٣٠٠,٠٠٠ و٤٠٠,٠٠٠ طائر فى العام، وأضاف المسئول إلى ذلك أن موجة الحر الحالية - فى صيف ٢٠٠٣م - فى أوروبا ستؤدى إلى تشتت الطيور المهاجرة فى طريق هجرتها إلى سيناء، بجانب تأثرها بالمبانى العالية وأجهزة التكييف والعوامل الجوية الأخرى، وذكر المسئول أيضا: أن أعداد طائر السمان المهاجرة إلى سيناء قد انخفضت فى العام الماضى - ٢٠٠٢م - إلى حوالى ١٠٠,٠٠٠ طائر فقط.

يتبقى من محفزات الهجرة المعروفة لدى العلماء، ما يسببه الغطاء الأخضر للأرض من تغير فى الانبعاثات الضوئية التى تستقبلها الطيور، ويتضح أثر ذلك فى هبوط الطيور المغردة بجزيرة جان ماين فى المحيط القطبى الشمالى، فإن تلك الطيور إذا ما وصلت إلى الجزيرة مبكرة فى فصل الربيع، فإنها سوف تجد أرض تكاثرها مازالت مكسوة بالجليد، مما يجعل تطور غددها التناسلية يتوقف مؤقتا، فتقلع الطيور من سطح الجزيرة، وتعود إليه عندما يصبح طول النهار منبها لتلك العودة.

صفات مميزة

تهتم الدراسات الحديثة لهجرة الطيور باستجلاء عدة حقائق تعد بمثابة الصفات المميزة لسلوك الطيور أثناء الهجرة، ويمكن القول بأن الصفات المميزة لهجرة الطيور تتمثل فيما يلى: مستوى الطيران - سرعة طيران الهجرة - معدل الهجرة - والعزل أثناء الهجرة، إن دراسة كل صفة من هذه الصفات يتطلب الكثير من الوقت والجهد

والامكانات، وهو ما يخلص اليه القارئ للنبذات التالية عن كل صفة من هذه الصفات المميزة.

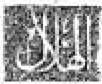
مستوى أو ارتفاع الطيران:

بينما تعد العوامل المحددة للارتفاعات التي تهاجر عليها الطيور غير واضحة، فإن هناك من الأسباب ما يرجح أن يكون طيران هذه الطيور على ارتفاعات عالية، حيث يسهم الطيران على ارتفاعات عالية في: تحديد العلامات الأرضية المألوفة - تجاوز الضباب والسحاب - ارتقاء الموانع الطبيعية - وفي اكتساب مزية امتطاء الرياح.

إن تقدير ارتفاع طيران الطيور المعتمد على الرؤية المباشرة يعد قياسا لا يمكن الركون اليه، والدليل على ذلك أنه يمكن رصد الصقر الدوري الأوراسي Eurasian Sparrowhawk بواسطة العين المجردة حتى مسافة/ ارتفاع ٢٤٠ متراً، ولكنه يخرج عن نطاق الرصد البصري عندما يبلغ مواقع تبعد أو ترتفع لمسافة ٨٤٠ متراً، وهناك العديد من التجارب التي أجريت وتوضح استحالة رصد الطيور حتى مع استخدام النظارات المعظمة التي تبلغ قدرتها ١٢ ضعف قدرة العين المجردة، إن الاستعانة بالرادار فقط هي التي تقدم رصدا أكثر دقة لمستويات هجرة الطيور، حيث تبين من الدراسات أن غالبية تحركات هجرة الطيور تحدث على ارتفاعات فيما بين كيلو متر وثلاثة كيلو مترات، ولكن ذلك لا يمنع وجود استثناءات كثيرة في ذلك، ومنها ما شاهده وسجله راصدون عند ارتفاع ٤٢٠٠ متر لمجموعة من طيور اللقلق والكركي كانت تطير على ارتفاعات شاهقة، مما جعل مشاهدتها متعذرة بدون النظارات المكبرة، لقد وجدت جيفة عقاب Eagle عند ارتفاع ٧٨٠٠ متر في أحد الجبال، ومن المحتمل أن هناك حوالي ثلاثين نوعا من الطيور تسلك وبانتظام مسارات مرتفعة لهجرتها، وعلى العكس من ذلك تماما طائر الفلروب Phalarope وهو طائر شطآني صغير، والذي يبدو أثناء هجرته طائرا عند ارتفاعات صغيرة وكأنه يمتطي قمم الأمواج!.

سرعة الهجرة:

تم رصد وتجميع المعلومات المتاحة عن سرعة الطيور في فترة زمنية طويلة، إن القياسات الدقيقة لهذه السرعة تعد أمرا شاقا، حيث تتحكم عوامل عدة في هذه السرعة مثل: اتجاه الرياح - التعرض لهجوم طائر مفترس - والطيران المنفرد أو من خلال أسراب، وبصفة عامة... فإن سرعة طيران الطيور تتراوح عادة فيما بين ٣٢ إلى ٥٠ كيلو مترا في الساعة، وعادة ما تكون الطيور الكبيرة أسرع من الطيور الصغيرة، إذ أن السرعة المعتادة لطيران البط أو الأوز (وهي من الطيور الكبيرة) تكون فيما بين ٦٤ و٨٠ كيلو مترا في الساعة، وفي حالة البلشون (مالك الحزين) Heron والقبرة ذات القرون Horned Lark والغداف (غراب أسود) Raven والدغناش (طائر مفترس)



Shrike وهى من الطيور متوسطة الحجم، فإن سرعة هذه المجموعة من الطيور متوسطة الحجم قيمت باستخدام سيارة فوجد أنها تتراوح بين ٣٥ إلى ٤٥ كيلو متر فى الساعة، ولقد سجلت سرعة الهجرة للطيور الصغيرة فى شبه جزيرة سيناء فوجد أنها تقع بين ٣٠ و٣٥ كيلو مترا فى الساعة.

معدل الهجرة:

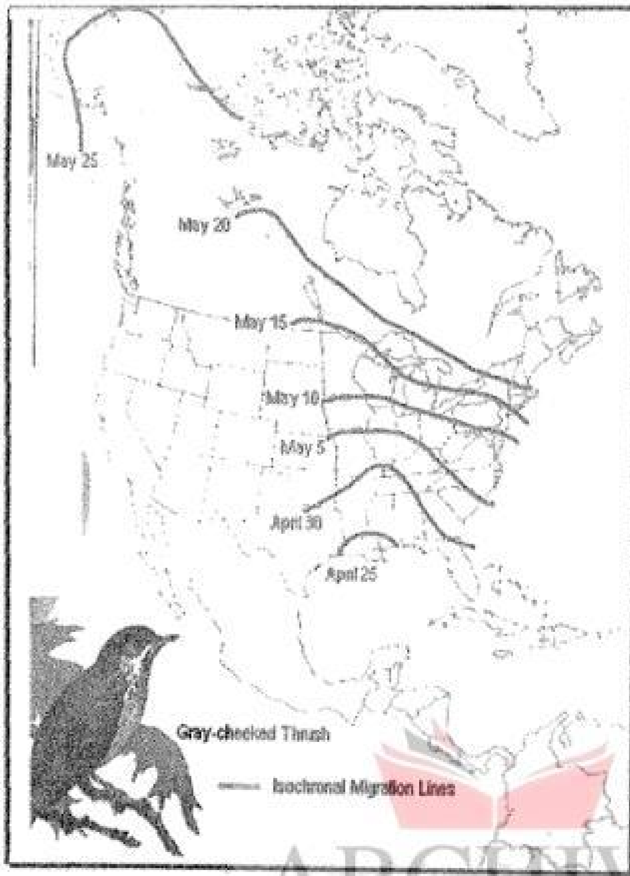
يختلف معدل الهجرة تماما عن القيم التى تبلغها سرعة الطيور فى الطيران القسرى تحت ظروف المطاردة لمسافات قصيرة، ويعنى معدل الهجرة هنا المسافة التى تقطعها أسراب الطيور المهاجرة فى فترة زمنية معينة، ولنضرب مثلا هنا بما يتحقق من معدل للهجرة فى طيران عادى لمدة عشر ساعات فى اليوم وتحت ظروف جوية مستقرة، إن طيور البلشون والغراب والصقر وما يماثلها من طيور تقطع فى هذه الفترة ما بين ١٦٠ إلى ٤٠٠ كيلو متر، بينما يبلغ ما تقطعه طيور البط والأوز فى نفس الفترة حوالى من ٦٤٠ إلى ٨٠٠ كيلومتر، وقد أتاح الرادار للدارسين أدق المعلومات عن معدل هجرة أسراب الطيور، حيث أظهرت نبضات الرادار أن طيور الشاطئ التى تنهى هجرتها عند شاطئ نيو إنجلند، كانت تتحرك وبانتظام حوالى ٧٢ كيلومترا فى الساعة ولعدة ساعات، كذلك أظهر صدى الطيور المغرِّدة أنها تنتقل بمعدل ٤٨ كيلومترا فى الساعة .

يعتمد معدل الهجرة ليس فقط على الظروف البيئية المحيطة، ولكن أيضا على الحالة الداخلية للطيور والتى تؤثر على نمط الطيران، فمن ذلك أن الطيور تحلق بسرعات أكبر عندما تكون متجهة إلى أرض التناسل!، وهو ما أوضحته الدراسات الرادارية على طول الساحل الشرقى للولايات المتحدة وفى إنجلترا، حيث تبين أن هجرة الربيع تكون أسرع من رحلة العودة بعدة كيلو مترات فى الساعة، إن السبب فى ذلك يرجع إلى أن إختزان الدهن يكون أكبر لدى الطيور فى الربيع منه فى رحلة العودة، مما يعنى توفر إحتياطى كبير من الطاقة لهجرة الربيع، وهو ما يساعد الطائر على الطيران لمسافات أبعد وبجهد أقل.

كشفت مراقبة الطيور المهاجرة التى تمر فوق القوارب والمنارات أو تمرق أمام الوجه المضيئ للقمر، أن تلك الطيور تطير لاتحدوها الرغبة فى الإسراع أو بذل مزيد من الجهد لبلوغ سرعات عالية، وأوضحت تلك المراقبة كذلك أن هناك أنواع من الطيور تتبع فى هجرتها نهجا يجعلها تبدو وكأنها مرتبطة بظروف المناخ الجيد، حيث تنتظر تلك الأنواع فى موطنها الشتائى حتى يوغل الربيع فى التقدم، ثم تتحرك وبشكل مفاجئ إلى مواطن تكاثرها، وتكون هجرة تلك الطيور المتأخرة من السرعة بمقدار يجعلها تتقابل مع بعض الطيور التى سبقتها فى الهجرة إلى الشمال بشهر أو أكثر، وهنا فإن أوز الثلج Snow Goose يقدم مثالا مدهشا

للتأخر ولكن مع هجرة ربيع فائقة السرعة، تقضى غالبية الطيور من هذا النوع الشتاء على الشواطئ الكبيرة فى لويزيانا والمطلة على خليج المكسيك، ويقدر عدد الطيور من هذا النوع بحوالى ٤٠٠.٠٠٠ طائر، وتقع مواطن التناسل لهذه الطيور فى جزر بافن وساوثهامبتون فى الجزء الشمالى من خليج هدسون فى شمال شرق كندا، فى تلك المواطن يسود البرد المفرط فيما عدا أسابيع قليلة من العام، تمكث طيور أوز الثلج بالمناطق الساحلية من لويزيانا حتى نهاية مارس أو بداية أبريل، وعندما تبدأ الطيور المحلية فى التناسل، ترحل طيور أوز الثلج مسرعة نحو الشمال وبدون توقف حتى تصل إلى مواطن تناسلها، إن هذه الطيور لا ترى فى جوار مناطق تناسلها قبل بداية شهر يونيو، حيث يمكن خلال الأسبوعين الأولين من ذلك الشهر رؤية الآلاف من تلك الطيور تنحدر إلى سهل التندرا فى المنطقة القطبية، لينهمك كل زوجين فى الاهتمام بفقس صغارهما .

يمكن القول بأن نمط الهجرة لدى الأنواع المختلفة من الطيور لا يتقولب فى نمط واحد، ولنأخذ هنا مثلا ما يصنعه



«شكل ١» خطوط تساوى الزمن لهجرة طائر السمنة الرمادى الوجنة من لويزيانا الى ألاسكا

طائر البركة السوداء المغرِّد Black Poll Warbler كنمط للهجرة متفرد، يقضى هذا الطائر فصل الشتاء فى شمال غرب أمريكا الجنوبية، ويبدأ هجرته فى رحلة العودة إلى الشمال فى شهر أبريل، وعندما يصل هذا الطائر إلى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، فإن مجموعات من الطائر تنفصل وتطير باتجاه الغرب إلى وادى المسيسبّى... واتجاه الشمال إلى مانيتوبا... وباتجاه الشمال الغربى

صوب نهر ماكينزى... وباتجاه الغرب أيضا نحو ألاسكا الغربية، تكشف متابعة تلك المجموعات من طائر البركة السوداء المغرّد أن معدل ما تقطعه من مسافة فى اليوم الواحد يتغير من ٥٦ إلى ٢٢٠ كيلو متر، وأوضحت دراسة أخرى أجريت على جميع أنواع الطيور المهاجرة إختلاف معدل ما تقطع من مسافات باختلاف أنواعها والأرض التى تطير فوقها، وأوضحت الدراسة أن جميع أنواع الطيور تعبر وادى المسيسبى بسرعة متوسطة قدرت بحوالى ٢٧ كيلو مترا فى اليوم الواحد، وأن هناك ١٦ نوعا من الطيور قطعت المسافة من جنوب مينسوتا وحتى جنوب مانيتوبا بمعدل متوسط قدره ٦٤ كيلو مترا فى اليوم، وفى المسافة من جنوب مانيتوبا وحتى بحيرة أثاباسكا فان ١٢ نوعا من الطيور بلغ معدل ما تقطعه فى اليوم الواحد ١١٥ كيلومتر، بينما طارت خمسة أنواع أخرى من الطيور حتى بحيرة العبد الكبير بسرعة قدرت بحوالى ١٨٥ كيلومترا فى اليوم، كذلك فإن خمسة أنواع أخرى قطعت ٤٠ كيلو مترا فى اليوم لتصل فى النهاية إلى ألاسكا، إن هذا التدرج فى معدل الهجرة يماثل ما يطرأ من تغير فى خطوط ثبوت درجة الحرارة على الأرض، وهو تغير يتحرك على الأرض باتجاه من الشمال ونحو غرب البحيرات العظمى فى أمريكا الشمالية (أى فى عكس إتجاه دوران عقارب الساعة) .

آليات الهجرة

عندما يبدأ الربيع فى أمريكا الشمالية... تمتلئ الأشجار والأدغال منذ الصباح بأنواع مختلفة من الطيور مثل شادى الخشب Wood Warbler والسمنة Thrushe والعصفور الدورى Sparrow وصائد الذباب Fly-chatcher وغيرها، وعندما تبدأ تلك المجموعات الهجرة... فإن طبيعة الأمور تكشف عن إحتمالين لهجرة تلك الأنواع المختلفة من الطيور، فى الاحتمال الأول... تترافق كل تلك الأنواع فى رحيلها ووصولها، وطبقا لهذا الأحتمال... فإن شادى الخشب يعد أكثر الطيور رحيلا فى صحبة مشتركة بين مجموعات الطيور فى أمريكا الشمالية، وتبدو أسراب الهجرة فى ضوء هذا الاحتمال مكونة من طيور كبار وأخرى صغار ومن أنواع مختلفة، ويبدو ذلك أمر يصعب تصديقه فى ظل الفروق فى سرعة الطيران وعادات التغذية وتوقيت النوم بين مجموعات الطيور، مما يجعل من طيران الأنواع المختلفة من الطيور معا أمرا غير قابل للحدوث فى معظم الأحيان، وللتدليل على صحة ذلك... فإن الأمر يعد غاية فى الصعوبة لأى من أنواع الطيور كى تحافظ على صحبة السمّامة Swift أثناء طيرانها السريع، لذلك يبدو الاحتمال الثانى هو الأقرب إلى الواقع، حيث يلاحظ أن أنواعا كثيرة من الطيور تحتفظ بتقاربها بشدة، إذ يطير الصقر الليلى Night hawk فى مجموعات منفردة تماما كما يصنع البوم الأمريكى Amer-ican crow وعصفور الأرز الأمريكى نو

الجناح الأصفر Cedar Wax Wings والمراح، فإذا ما أمكن رصد هذه المجموعات فى نقطة ما على طريق هجرتها، فإن الراصد سوف يلاحظ أن أعداد الطيور - فى كل مجموعة تمثل نوعا واحدا - يرتفع وينخفض خلال الفترة الزمنية للرصد، فإذا ما إستمر الرصد لفترة زمنية أخرى ولتكن شهر مثلا، فإن نمط الهجرة ممثلا فى الأعداد المرصودة لكل نوع... سوف يتكرر فى فترة الرصد الأخرى، وبصورة تكاد أن تكون متطابقة!.

يحقق الانتظام فى سرب الحماية للطيور المهاجرة من هجمات الطيور الجارحة، بالاضافة إلى أن ذلك يسهل من عملية البحث عن الغذاء، فضلا عن أن الأسراب التى تتخذ غالبا شكل الحرف V مقلوبا أو الرقم ٨ يتحقق لها ميزة حفظ الطاقة، وذلك لأن هذا الشكل للسرب يسمح لطيوره أن تكتسب ميزات أيروديناميكية من الدوامات المتولدة خلف المقدمة، وهو ما أكدته الدراسات الراداريه من أن الطيران فى تشكيلات أكثر إحكاما يخفض من تأثير مقاومة الهواء.

عندما تبدأ الهجرة من موطن التناسل ، فإن صغار الطيور التى بدأت فى النمو ترحل فى أسراب معا باتجاه الجنوب وقبل تحرك الآباء، وقد تم رصد ذلك فعلا فى هجرة الصقور، حيث وجد أنه عندما تعبر الصقور أجواء ويسكونسن فى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن الصغار تكون أكثر عددا فى الأسراب خلال منتصف شهر سبتمبر، بينما تصل الصقور الكبيرة بعد حوالى شهر، ولكن هناك قليل من فصائل الطيور مثل الكروان الذهبى الأمريكى American Golden - Plover يرحل فيها الكبار صوب الجنوب قبل الصغار، وعلى النقيض من هذين النمطين... فإن طيور الأوز والبجع والكركى تظل فى رباط أسرى خلال هجرتها، إن النتائج التى تم التوصل إليها فى ترتيب هجرة صغار الطيور والوالدين... هى نفسها التى سجلت مع ترتيبات هجرة الذكور والإناث، إذ بينما تهاجر ذكور طيور أبى الحناء Robin والعصفور الدورى والدرسة قبل الإناث، فإن هناك فصائل من الطيور مثل طيور الشاطئ والبط والأز والعقاب النسّارية Osprey تهاجر فيها الإناث والذكور معا، وأما فى حالة طيور البُركة (بطة برية) Mallard والبط الأمريكى الأسود، فإن إناثها تبادر بالطيران لتعقبها الذكور فيما بعد.

السلالات

تنتشر محطات رصد هجرة الطيور على طول الطرق المعروفة للهجرة وعبر دول العالم، والمعروف لدى كاتب المقال منها فى منطقتنا العربية ثلاث: إحداها فى شمال سيناء بمصر والثانية فى منطقة إيلات بإسرائيل والثالثة بمحافظة الاحساء فى المملكة العربية السعودية، ولعل ما تتكلفه عمليات الرصد والدراسة من نفقات يطرح أمام القارئ والمتابع السؤال التالى: ما هو العائد من الرصد المستمر طوال العام -

تقريبا - لهجرات الطيور في مناطق كثيرة من العالم؟، وتبدو الاجابة واضحة تماما عندنا نحن معشر العرب والمسلمين، وهى تحديد بداية موسم الصيد للأنواع ذات المذاق المحبب من الطيور المهاجرة، وقد أضيف إلى تلك المهمة - مؤخرا - تحديد ما يصرح بصيده من طيور والحفاظ على رصيد المحميات الطبيعية من الطيور المهاجرة، ولكن الأمر فى دول العالم المتقدم له بالطبع شأن آخر.

شغل العلماء فى كثير من دول العالم بمشكلة طرحت نفسها على حلقات النقاش فى السنوات القليلة الماضية، حيث لاحظ العلماء أن أنفلونزا الدجاج - التى إجتاحت كثير من الدول الأسيوية - قد بدأت تنتقل إلى الطيور المهاجرة، وقد أثبتت ذلك العينات التى أخذت من هذه الطيور فى أماكن عديدة من دول العالم ومنها مصر، واتضح من تحليل هذه العينات أن الطيور المهاجرة قد جلبت معها نفس سلالة أنفلونزا الدجاج المسماة (إتش١ إن ١ - H1 N1) (الأهرام: ٢٠٠٣/٧/٢٤م - ص٢٦)، وتجيئ خطورة ذلك الاكتشاف من تحذير أطلقته مجموعة من علماء جامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية فى ورقة علمية نشرت بمجلة الجمعية الطبية الملكية البريطانية، فقد لاحظ الفريق البحثى أن القرن العشرين المنصرم شهد سلسلة من أوبئة الانفلونزا إجتاحت العالم من أسبانيا إلى روسيا وإلى هونج كونج، مما دعا الفريق البحثى إلى التحذير من أن الأبحاث التى تجرى الآن لاكمال التتابع الجينى لسلالة فيروس الانفلونزا، سوف تفتح الباب على مصراعيه أمام المغرضين من العلماء (!) لتشييد فيروس أكثر دمارا وأشد ضراوة من السلالات الحالية، وقد حدث ذلك بالفعل وبعد شهور قليلة من تاريخ التحذير الذى أطلقته مجموعة العلماء على صفحات مجلة الجمعية الطبية الملكية البريطانية، حيث حملت إلينا الصفحة الأولى من عدد الجمعة ٢٠٠٤/١٠/٨م من صحيفة «الأهرام» نبأ نجاح فريق علمى أمريكى فى إضافة إثنين من الجينات المأخوذة من عينة لفيروس الانفلونزا الذى قتل الملايين من الأسبان فى عام ١٩١٨م إلى سلالة فيروسية معاصرة، فكانت النتيجة الباهرة أن قتلت الفيروسات الناتجة من التجربة حيوانات المعمل خلال أيام بعد حقنها فى أجساد تلك الحيوانات.

هكذا تحمل إلينا الأيام مزيدا من الهموم تلقيها علينا الطيور المهاجرة من علياء تحليقها، يوجهها ويحملها بما خفى وكان أعظم (غير المغرضين!) من علماء الغرب، ليعلو جبل الهموم الجاثم على صدورنا، وهو جبل تتشكل قاعدته من مقاعل ديمونة بمخزونه الرهيب، ويعتلى قمته سجن أبو غريب الذى يرفرف عليه العلم الأمريكى فى قلب بغداد! ■

رحيل
فرانسواز
ساجان

مساء الخير.. أيتها الأحزان!

بقلم
محمود قاسم

هل يصبح التألق البالغ اللمعان بمثابة نقمة لبعض الأدباء ؟

لا أعتقد أن هناك كاتبا ، من أبناء القرن العشرين تألق ونال من التدليل الأدبى مثلما حدث مع الروائية والكاتبة المسرحية ، والمخرجة السينمائية فرانسواز ساجان. وفى نفس الوقت ، فإن كل هذه الأضواء التى ألقيت على شخصها وأدبها ، قد تحولت إلى ظلال معتمة ، وصارت أخبارها تعرف أكثر فى صفحات الحوادث . وليس فى الأبواب الثقافية فى المجلات والصحف .

حين نقلت وكالات الأنباء خبر وفاة ساجان في الأسبوع الأخير من سبتمبر الماضي ، تصور البعض أن الخبر قديم ، وأن ساجان قد رحلت عن العالم منذ فترة . حدث هذا أيضا قبل عقدين من الزمن حين رحل الكاتب الفرنسي جان أنوى صاحب مسرحية «المسافر بلا متاع».

لا يمكن الحديث عن ساجان دون أن نربط صعودها ، واختفاءها بظاهرة أدبية ، سادت اوروبا ، خاصة باريس ، فعندما اعتلت الوجودية عرش فرنسا بشكل شعبي ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان على هذا المذهب الفلسفي ، الذى صار سلوكا جماهيرياً، أن يجد مريديه من الأدباء، والفنانين، والموسيقيين ، والمطربين ، وامتلات مقاهي شوارع مونمارتر بهؤلاء الشباب الذين صاروا لسان حال بشر ينعمون بأجواء الحرية ، والتعبير الصادق عن الذات .

ومن هنا لمعت أسماء بعينها ، صارت عنوانا لهذه المرحلة ، جوليت جريكو (مطربة) ، وجيلبير بيكو وجاك بيرل ، وفي الأدب كانت فرانسواز ساجان في قمة الهرم.

فتاة صغيرة ، دون التاسعة عشرة، تقدم روايتها الجديدة بتألق واضح هي «صباح الخير أيتها الأحزان» ١٩٥٤ التي التصقت باسمها حتى رحيلها ، فكل الدراسات ، والمقالات والحوارات التي وقعت بين أيدينا عن ساجان في مختلف مراحلها الأدبية، تعلن أن اسم الأديبة



الحقيقي هو فرانسواز ساجان - صباح الخير أيتها الأحزان .

وبالفعل، فإن الكاتبة رغم العدد الكبير من رواياتها ، ومسرحياتها وكتبها ، فإنها ظلت أسيرة لشهرة هذه الرواية ، داخل بلادها وخارجها ، وهي الرواية التي تدور داخل مشاعر خفية للإبنة الشابة لرجل ميسور ، تفاجأ أن مساحة اهتمام الأب قد تقلصت كثيراً عقب زواجه من امرأة حسناء ، فدبت الغيرة في قلبها.

موضوع بسيط ، سوف نرى أن كاتبنا إحسان عبد القدوس قد تأثر به كثيراً وهو يكتب روايته «لا أنام» بعد صدور رواية ساجان بعام على الأكثر ..

جاءت هذه الرواية على هوى الوجوديين ، ليس فقط لبساطتها في الأسلوب ، بل لأن بطلة الرواية التي تحكي الوقائع على لسانها قد كشفت عن مكنون الغيرة في قلبها ، لم تخف ما يعتمل في داخلها من مشاعر، وهي الفتاة

الصغيرة التي لا تميل كثيراً إلى الآخرين ، إنها عقدة اليكترا العصرية ، التي سبق لأغلب كتاب الوجودية أن كتبوا عنها ، وعلى رأسهم سارتر في مسرحيته «الذباب».

الغيرة .. إحساس

هذه الرواية سرعان ما تحولت إلى فيلم إنتاج أمريكي بعد صدورها بثلاثة أعوام فقط ، وكان من حسن الحظ هو اختيار المخرج اوتو برمنجر لبطلة جديدة ، جسدت شخصية الفتاة ، ليس فقط كما تخيلتها المؤلفة ، بل كما تخيلها ملايين القراء.

عالم بالغ البساطة ، يخلو من التعقيد وبعيد عن التجريب ، يمكن للقارئ أن ينتهي من قراءة الرواية في فترة وجيزة في مترو الأنفاق ، وهكذا جاءت بقية أعمال الكاتبة . لم تكن غزيرة ، لكنها كانت ناجحة ، ففي عام ١٩٥٦ نشرت روايتها «ابتسامة ما» ، وفي السنة التالية نشرت روايتها «في شهر في سنة» ، ثم جاءت «هل تحبين برامز؟» عام ١٩٥٩ ..

وكانت السينما تضع عينيها دائما على أعمالها أولاً بأول ، خاصة السينما الأمريكية . فقد أخرج أناتول ليتفال رواية «هل تحبين برامز» عام ١٩٦١ ، واستعان بثلاثة من كبار النجوم آنذاك هم انجريد برجمان، وانتوني بيركنز ، وايف مونتان ، وهي رواية تدور مجدداً حول مسألة الغيرة بين اثنين من العاشقين للمرأة نفسها التي تقترب من خريف العمر ، الأول رجل في مثل سنها ، والثاني شاب يحب هذا النوع من النساء .

إنه عالم صغير للغاية ، محدود الأشخاص ، غالبا ما تكون العلاقات فيه واهية ، مثل تلك العلاقة التي انتهت بعد أسبوعين من بدايتها . مجرد قصة بسيطة ، تخلو من الحوادث المثيرة ، ارتبطت فيها فتاة برجل متزوج ، وسعيد في حياته الزوجية ، وذلك في رواية «ابتسامة ما» ..

تكررت العلاقات نفسها في روايتها «قليل من الشمس في الماء البارد» فنحن أمام رجل وامرأة كل منهما في حالة تحول . الرجل «جيل» .. يعمل صحفياً ، يسافر إلي الريف بحثاً عن الراحة ، وهناك يلتقي بـ «ناتالي» صديقة الأسرة ، يندفع كل منهما نحو الآخر ، تحاول أن تخفف من إحساسه بالاضطراب ، ناتالي متزوجة ، اسوة بالكثير من بطلات روايات ساجان، ومع ذلك تتهاوى في علاقتها .. تقول : لم أعد أدرى وضعي ، وأشعر كثيراً ، أن الأمور تشرد مني ، كأنني غير موجودة..

وأيضا مثل بقية أبطال الكاتبة ، فإن «جيل» المضطرب ، هو أيضاً غيور بشدة ، لدرجة أن هذه الغيرة تضايق المرأة ، فيحاول الاعتذار لها . وعندما يعود جيل .. إلى باريس تكتشف أن هناك امرأة أخرى في حياته ، لكن ناتالي سرعان ما تلحق به في المدينة ، وتقرر الإقامة معه إلى حين طلاقها من زوجها ، تقول له : «أراك أحيانا رائعاً ، صادق المشاعر ، وافر الحيوية ، وأحيانا أخرى أجدك على النقيض من ذلك ، كما أجدك دائماً مسرفا في استغلال وسامتك ..

إنها علاقة قصيرة ، أسوة بكافة العلاقات الأخرى في روايات الكاتبة ، يبدو

كأنه عالم متشابه متكرر ، فالرجل يهجر المرأة التى تركت الريف من أجله، كما تركت زوجها ، لذا تقرر أن تختفي من حياته إلى الأبد ، حتى لو أحس بالندم ، حين يعرف أنها انتحرت من أجله ، وهو يردد: «قولى فقط أنك كنت تعرفين أننى أحبك وإن كانت الفرصة قد ضاقت الآن ، وفقدتك كما يفقد القليل من الشمس فى الماء البارد..

لقب الكاتبة روايتها

مع بداية السبعينات ، انتهى التألق فى حياة وأدب الكاتبة ، صارت مجرد رواية تقدم أعمالاً لا تلفت إليها الانظار، نظر إليها الجميع دوما على أنها صاحبة «صباح الخير أيتها الأحزان » ، رغم أنها لم تكف عن الكتابة الادبية ، ففى عام ١٩٨١ نشرت رواية «المرأة الشاحبة» ، وبعد عامين قدمت «فجر ساكن»، ثم روايتها «الحرب الملول» ١٩٨٥ ، و «المزيفون» ١٩٩١ ، و «أحزان مرة» ١٩٩٤ ، و«المرأة الممسوخة» ١٩٩٦ .

كانت ساجان قد اتجهت للاخراج السينمائى عام ١٩٧٧ بفيلم «السرخسيات الزرقاء» وبعد عامين تولت رئاسة مهرجان كان السينمائى . ومن المعروف أنها نشرت العديد من المسرحيات منها «قصرفى السويد» عام ١٩٦٠ ، ثم «فستان فالنتين الرمادى» ١٩٦٥ و «المدخل المعاكس» .

وعندما انحسرت عنها الأضواء ، بدأت تؤلف كتبا غير إبداعية ، منها كتاب عن «سارة برنار» ١٩٨٧ ، وكتاب فى الفن التشكيلى بعنوان «منزل راكيل فيجا» ١٩٨٥ .

فى الثمانينات ، بدت فرانسواز ساجان كأنها فقدت الجيل الذى ساندها ، وأيدها ، وعلى رأسهم جان بول سارتر ، وسيمون دى بوفوار ، والأسماء الكبيرة من الوجوديين ، رواد مونمارتر، كما أنها أيضاً فقدت قارئها الذى بدا كأنه قد أحس بتشابه هذا العالم ، لذا جاءت روايتها «الكلب النائم» عام ١٩٨٥ أقرب إلى الرواية البوليسية ، حول چيريه الذى يعثر على حقيبة فقدت أثناء مطاردة أحد القتلة ، ويفكر فى أن يستغل النقود كى يغير بها ايقاع حياته ، وأن يعيش بها سعيداً مع امرأة تحبه لماله ، ومع آخرين يهتمون بهذه النقود .

تأثرت ساجان بمدارس أدبية عديدة ، ففى أحاديثها الصحفية قالت إنها مدينة كثيرا إلى بول الوار فى روايتها «صباح الخير أيتها الأحزان» و «قليل من الشمس فى الماء البارد» ، كما أنها تأثرت براسين فى روايتها «فى شهر فى سنة» ، أما بودلير فقد كان دائما فى الخلفية وهى تكتب رواية «السحب الرائعة».

وفى هذه الاحاديث ، اعترفت ساجان أنه فى كل قصص الحب هناك ثلاثة أشخاص «هناك شخص يعلن اعتزاله . إنه شكل من القسوة ، ولا أعرف إن كان هذا يطعن فى هذا التقليد ، وعلى العكس ، فأنا مرتبطة بتقليد ادبى خاص ، إنه نوعى المفضل، فأنا لا أبحث عن توصيل رسالة ، ولست موهوبة ، فالكثير من المواهب لا تظهر على أصحابها».

تدور أحداث «الحرب الملول» ١٩٨٥ خلال شهر مايو عام ١٩٤٢ ، اثناء



جولييت جريكو ، وساجان ايام شباب الوجودية

الاحتلال الالمانى لفرنسا ، حول ثلاث شخصيات : شارل سميرا رجل الصناعة ، وهو اعزب ، يستقبل صديقه القديم جيروم ، وصديقته اليس، جيروم شاب شاحب وحزين ينضم إلى المقاومة ، ويبدو أشبه بكافة الشباب الفرنسيين فى تلك المرحلة ، كل همه أن تتحرر باريس ، لكن نهايته تبدو غريبة ، فهو ينتحر هربا من الفتاة التى تحبه ، فقد وقعت أليس بين طرفى مقص، ففى أثناء احدى الرحلات إلى العاصمة ، اكتشف شارل أنه يحب الفتاة ويفرض عليها مشاعره . لكن شارل الذى لا يحتمل أن يكون هناك محتل عسكرى لوطنه ، لا يحتمل ايضا أن يكون هناك شريك لحبيبته، فيترك لهما الحياة.

النهاية المأساوية المرتبطة بنهاية قصة حب ، تتجدد فى هذه الرواية ، مثلما قرأنا فى «قليل من الشمس فى الماء البارد».

الكتابة .. طوفان أشباح

هناك مسافة شاسعة بين ساجان، ابنة الثامنة عشرة، التى كتبت روايتها الأولى دفعة واحدة ، وبين كاتبة عجوز فى أخر حياتها ، قامت بإعادة صياغة روايتها .. «المرأة الشاحبة» إحدى عشرة مرة وهى تردد «لم أكن واثقة» أن المرة الحادية عشرة ستكون أفضل من المرة الأولى» لذا فقد قالت «إن الادب أشبه بامرأة محفوفة بالمرض» .

وفى السنوات الأخيرة من حياتها ، نشرت ساجان أكثر من كتاب بمثابة ذكريات ، واستجماع لأجمل سنوات الحنين ، وقد تكلمت عن الكتابة ، مثلا، قائلة : «أكتب بشكل بالغ البساطة لأننى أحب ذلك ، الكتابة فضيلة ورذيلة معا ، فضيلة لأنها تشعر بالامتاع ، الكتابة مهنة بالغة الخصوصية وأنا لا أحب الناس الذين يتكلمون عن ما يفعلون، فهذا شئ يحطم قدمى ، ولم أشأ أن أفعل شيئاً آخر اعتقد أننا لا يمكن ابتكار ما نعرفه» .

«بين كل كتابين، لا استطيع أن ألمس ، لا الورق ، ولا القلم ، ولا أكتب بالمرة ، لأننى كائن كسول ، أحب ألا أعمل شيئاً ، أن أظل فوق فراشى ، أتأمل السحب تمر ، مثلما قال بودلير ، أو اقرأ روايات بوليسية ، أو اتنزه . وأقابل الأصدقاء ... هناك لحظة تأتى فيها الأفكار لمداعبة رأسى وأحس بطوفان الأفكار، وطوفان الاشباح ، هذا الأمر يلهمنى ، ثم تأتينى ضغوط خارجية ، وأحس أننى فى حاجة إلى المال ، وهنا فقط أبدأ فى الكتابة». ■



المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

الدراما التليفزيونية
والبطل

مستحيل أن يكون قد خطر بباله أن تبعث فينا عودته ما بعثت من أشجان.. لا حين يقف مواجهاً البحر يرفع ذراعيه، يمدهما باستقامة الكتفين ثم يضمهما إلى صدره كأنما يحتضن كل أشواق الزمان، ولا حين يستجيب كيانه لدقات الدفوف فيخلع السترة ملقياً بروحه إلى رحاب تجليات بهجة العودة للأهل والأحباب، ولا حين تسرح عيناه، تغوص فيما فات من زمن، تستحضر ما يلزم لإحكام نسيج الصراع.

ها هو البطل يعود، ليملأ الشاشة سحراً وألقاً وفتنة، ولنظل على حيرتنا، أمن تلألأ من حوله من نجوم، أم من سرعة إيقاع مشاهد تعجل بتعقيد الخيوط، أم من ملاحة ما يجرى لأحداث الزمان، أم تناقض صارخ بين ما عند د. مدحت العدل من حبكة مدهشة، وما عند غيره من ركاكة موجعة؟

هكذا يعود البطل «محمود عبدالعزيز» ليجعل من «محمود المصرى» لؤلؤة جديدة يضيفها إلى تاج أعماله المجيد، ومرة أخرى نحتار، هل نضعها إلى جانب «الكيت كات» أم «الكيف» أم «العار» أم «إعدام ميت» أم «البحر بيضحك ليه» أم «جرى الوحوش» أم «سيداتى آنساتى ساداتى» أم «السادة الرجال» أم «القبطان» أم «قانون إيكا» أم «الفقراء لا يدخلون الجنة» أم.. ، أم... أم... أم نضعها جنب أخت لها من نوع المسلسل التليفزيونى الخالد «رأفت الهجان»؟ فليضعها كل مشاهد حيث شاء، فعلى اختلاف المسوغات تصدق، وفى هذا قد يطول الكلام، لكننا هنا

مشغولين بما بعثه فينا محمود المصرى من أشجان وسأكتفى منها بثلاثة .

أولا: شجن الغياب

ولقد غاب محمود عبدالعزيز عن دائرة مسلسلات التليفزيون بعد أن أنجز الأجزاء الثلاثة من رائعته «رأفت الهجان» أواسط الثمانينات والآن وقد عاد إلينا في «محمود المصرى» نستطيع أن نؤكد له أننا - رغم افتقادنا الدائم لعطائه الأسر - نحمد له ما يتخذ من قرارات فهو صاحب حق، ذلك أنه رفع نفسه من زمن إلى مكانة فى الفن رفيعة تتيح له أن يكون وحده صاحب القرار، أى الأدوار يختار ولأى مؤلف ومخرج، كذلك فإننا نحمد له أنه يقدر مكانته عندنا فلا يظهر علينا إلا في أدوار تعزز هذه المكانة بصرف النظر عن الفروق الزمنية بين كل إضافة وأخرى. أما حجتى فى ذلك فلا تحتاج منى إلى أى تفصيل ولقد جرت بها ألسنة الناس كافة، بعدما رأوا على شاشاتنا من ابتلاءات جعلتنا نتحسر على ما فعله نجومنا بأنفسهم إذ ساقهم الإصرار على الظهور فى مسلسل فى رمضان إلى مهالك هوت بأرصدتهم فلم نعد نسمع من محبيهم سوى الآهات، وهى آهات وجع حقيقى، فما هكذا تمنينا أن تكون مصائر النجوم، وفى هذا أرجو أن أذكّر بما أوردته فى مقالين متتالين بعنوان «الترياق من السم الهارى» و«الهطل» تم نشرهما فى هذه المجلة الغراء قبل عام، وفيهما عرضت لظواهر حذرت من عواقبها، وهاهى مسلسلات رمضان أكتوبر ٢٠٠٤ تحقق كل ما حذرت منه وما أعظم الأسف.

ثانيا: شجن البعاد

ولما كان البعاد من البعد، فما أبعد الليلة عن البارحة.. والبارحة هنا هى الأيام التى ظهر فيها على شاشتنا مسلسل «رأفت الهجان»، ومعنى الكلام على هذا النحو أننا نتحدث عن أيام كانت فى أواسط الثمانينات، لا كان فيها قطاع للإنتاج ولا مدينة للإنتاج الإعلامى ولا شركة محشورة بين الاثنين اسمها «صوت القاهرة» دون أن يكون لها أى حس، إضافة إلى أنها من حيث مستوى ما يصدر عنها فهى لا تقوى على قهر بعوضة وإن كانت تتنافس مع القطاع والمدينة فى بث سموم يتضاءل فى ظلها شأن الحيات.

أيام «رأفت الهجان» كان المخرجون من طراز يحيى العلمى والصحن وفايز حجاب وعلوية زكى وعلية يس وإبراهيم الشقنقيرى وإقبال الشارونى هم أصحاب الحل والربط فى اختيار النصوص التى تقدم على الشاشة، ومن أجل ذلك فهم على طول الخط مشغولون بالقراءة، يتلقفون ما يكتبه كبار الكتاب، ويتنافسون فى الانتقاء من الكتابات الجديدة، وبفضل ذلك رأينا على الشاشة تمثيليات ومسلسلات كتبها، أو كُتبت عن أعمال لـ طه حسين ونجيب محفوظ وفتحى غانم وصالح مرسى فى تلك الأيام كان الواحد من هؤلاء المخرجين يأبى على نفسه أن يقدم عملين متتالين لنفس المؤلف حتى وإن فصل بينهما عام بكامله، كذلك فإن كتاب ذلك الزمان، لم يكن الواحد منهم يرضى أن يتأبد ظهور



اسمه على أعمال تترى لتنحت من رصيد إعجاب قد يكون تكون فى أول أو ثانى أعماله، وهكذا فإن الكتاب والمخرجين أيام «رأفت الهجان» كانوا من طينة مغايرة، معجونة بالفن والحذق والكرامة.. أما طينة أيامنا فهى من نصب وتلفيق ومهانة إضافة إلى خلوها من أى من صفات المبدعين الأوائل؛ أما عن النصب فهو الصفة الدامغة لمعظم ما عرضته شاشاتنا فى رمضان، أكتوبر ٢٠٠٤ لأنه عرض على أنه من صنف الحلقات الدرامية المسلسلة وهذا صنف من الدراما مختلف تماما عما شاهدنا من ثرثرة هى من حكى المصاطب وإن خلت من تشويقها، وربما يتوجب على الاعتذار لحكائى المصاطب لأنهم لا يستسهلون التلفيق ولا يرضون مهانة لموضوعات حكيهم، أما «إخواننا البعداء» فقد استأثروا بالمهانة تظل تلحقهم كلما وردت إليهم إشارة.

وإلا فبالله عليكم دلونى على مبرر واحد لهذا الانحياز الفاضح لعصبة الأغنياء فلقد أعيانى البحث عن مبرر، ذلك أننى وإن وجدت معظم المشاهد فى معظم حلقات المسلسلات تجرى فى قصور إلا أنها تفتقد لأى من أفكارنا عن أهل القصور.. أم أن المقصود مثلا أن نفهم أن هؤلاء الناس يفتقدون إلى الذوق سواء فى الكلام أو فى السلوك حتى أو فى اختيار أثاث قصورهم.. وأنهم لا يجيدون إلا الحديث عن سيول الأموال يبعثرونها، وأظهر خصالهم هى خيبتهم القوية فى شأن تربية الأولاد الذين انفلت عيارهم قولا وفعلا بما يصعّب السيطرة على كوارثهم، أما عن «اللت والعجن» والمط واللجاجة والسخافة خاصة حين تصدر عن من كانوا محسوبين فى عداد النجوم فمن تفرج مثلى فقد عرف.

والله يسامحك يا محمود يا عبدالعزيز فقد أثرت فينا الشجون، ومع أول طلة لك فى محمود المصرى تأكدنا أنك وصحبك من نجوم هذا العمل قد جئتم إلينا من زمن دونه الضياع.. ذلك هو زمن ما قبل الكيانات العملاقة من نوع القطاع والمدينة والشركة، وهو الثالوث الذى حكم على الدراما التليفزيونية بالضياع.. لكننى بالطبع لم أكتب هذا المقال لأنضم إلى زمرة البكائين وما كنت لأفعل.. وإنما كتبته لأوجه الكلام هذه المرة إلى السيد رئيس وزراء مصر، وأما المناسبة فهى ما قال من كلام فى مناسبة الاحتفال بإصدار تقرير التنمية البشرية لمصر لعام ٢٠٠٤.. فقد أعجبنى كلام الرجل وصدقته والآن أسأله؛ ألاينوى أن يطبق ما قاله عن توجه حكومته لتحقيق اللامركزية فى مصر على أساس أن اللامركزية هى السبيل الوحيد لإنجاز التقدم.. وكذلك دعوته للناس جميعا الخروج من دوائر النقد ليدخلوا إلى دوائر العمل المشارك للحكومة فى انجاز مهمتها.. وفى هذا السياق نقول له إن استمرار «المركزية» فى كل ماله بالإعلام

شأن كفيل بوأد أي محاولة لتحقيق أى تحرك تنموى مأمول، ولا أظن ذلك يخاف عليه، لكننا هنا، وبدلا من مواصلة طرح الأسئلة عليه سنعمل بنصيحته التى صدقناها، وها نحن نخرج من دائرة النقد لدائرة العمل البناء فنقترح عليه وعلى حكومته أن يبادروا باتخاذ ما يرونه مناسبا من إجراءات تكفل تحقيق لا مركزية القرار فى الشأن الإعلامى ومنه شأن المسلسلات المذاعة على شاشة التليفزيون ليعود الأمر فيها إلى ما يراه مخرج العمل كما كان الحال على أيام «رأفت الهجان» وفي هذا فالمسألة لا تحتمل تطبيق فكرة التدرج، وإنما هى تحتاج إلى قرارات حاسمة حتى وإن أدى الأمر إلى حصر العدد فى مسلسل واحد على أن يكون من نوع «محمود المصرى» أما ترك القرار مركزياً فى يد الكيانات العملاقة من عينة ثالوث الشر السابق الإشارة إليه فمعناه الإبقاء على احتكار الرأى فى شأن ما نرى على الشاشة، نتيجة لاحتكار الرأى فى شأن من يكتب للشاشة ومن يمثل ومن يقوم بالإخراج والنتيجة هى قصر الكتابة على حفنة من الأسماء أجهدتها الشهرة وقصر التمثيل على عدد يعجز أحيانا عن تبديل الملابس بتبديل الأدوار التى يلعبها كل منهم ويظهرون بها فى مسلسلات عديدة تذاع على التوالى بحيث لا يقوى على التمييز بين الشخوص فيها ولا حتى أبناء الملوك.. أما عن الإخراج فإن جهد مجدى أبو عميرة فى مسلسل محمود المصرى يؤكد أنه مازال للمجتهدين نصيب، يكفى هنا أن نشير إلى إيقاع اللقطات والمشاهد لأن هذا من صميم عمل المخرج كما أن من صميم عمله تنظيم حركة الممثلين وحركة الكاميرات وهو ما أداه مجدى أبو عميرة أداء قائد أوركسترا تضم أفضل العازفين .

وإذن فعندنا من المخرجين من يقدرون على الاختيار الحر المستقل، بعيداً عن المركزية والشللية التى أخذت فنانينا إلى مهاوى الضياع وهى أيضا التى جعلت رؤساء القطاعات رؤساء على الورق، أما رؤساء القنوات فهم كرؤسائهم، لايملكون سلطة تحريك نملة، ودعنا من الحديث فى البرامج والمسلسلات

وخلاصة القول الموجه إلى السيد رئيس الوزراء أنه فى الشأن الإعلامى لابد من التعجيل باتخاذ اجراءات كسر الاحتكار سواء فى ذلك احتكار اتخاذ القرار فى شأن ما يعرض وما يحجب، ومن يعمل ومن يتعطل ومن يترك ليموت من الجوع أو فى شأن صيغ الانتاج وفى هذا أعيد التأكيد على أن الرأى عندى هو ضرورة أن يكون المخرج هو صاحب القول الفصل ورئيس القناة هو المسئول عن شخصية القناة لأنه فى هذه الحالة لابد أن يكون قد تم انتخابه على أساس تصوره لشخصية القناة، وهو ما يكون خاضعا التقييم والمساءلة أما إن بقى كلام السيد رئيس الوزراء مجرد كلام - لا قدر الله - فإن أحلامه وأحلامنا فى التنمية ستبقى مجرد أحلام.. ويأتى رمضان آخر على الناس يخرجون منه بحقيقة واحدة وهى أن الإعلانات تكسب.. هى الأحلى والأنجح، وهى التى تنسف أى خطط لأى رئيس وزراء يفوته مغزى عودة البطل. ■

التكوين «٢»

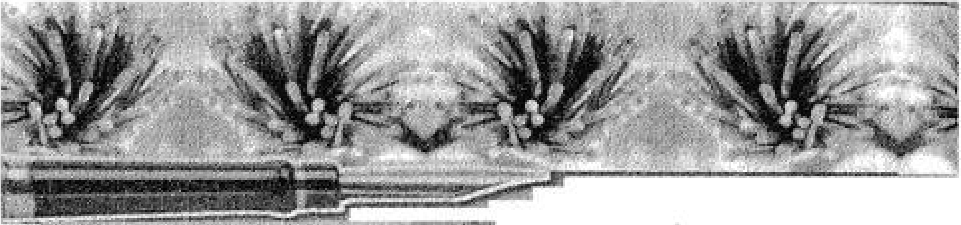
الفن عندي هو الفن الذي يطور المجتمع

إنعام محمد علي

كانت المرحلة الأولى من «التكوين» عبارة عن تراكم خبرات ، فضلا عن التجريب فى قوالب مختلفة ، من قوالب التعبير التليفزيونية ، من خلال البرامج والأفلام التسجيلية ، ثم التركيز على قالب الدراما .

ومنذ بداياتى فى العمل بالإخراج ، لم يكن هدفى «الفن للفن» أو الفن لمجرد الاستمتاع أو التسلية ، لكن كان هدفى هو كيف يستخدم الفن فى تقديم القضايا التى تهم المجتمع ، وتقديمها فى أجمل صورة ممكنة ، والربط بين القضية العامة ، واهتمام الفرد العادى .





المرحلة التى بدأت بعد ذلك ، كانت مواصلة لجهدى فى الإخراج ، بشكل أفضل ، وفيها ظهر زخم تراكم الخبرة ، فسبعة عشر عاما من العمل المتواصل ، حققت لدى خبرات متعددة ، سواء فى عملى ، أو من خلال مشاهداتى .

ساعدتنى الدراسة الأكاديمية والتى حرصت عليها ، والتى تعد بالنسبة لى الركيزة الأساسية ، التى انطلقت من خلال فن اختيار موضوعاتى ، وترجمتها فنيا فى أعمال ، مثل قضية محو الأمية ، وكان الموضوع الذى يدور عليه المسلسل الذى أخرجته عام ١٩٧٩ بعنوان «هى والمستحيل» وكان من تأليف فتحية العسال ، وكان - تقريبا - سيرة ذاتية للمؤلفة .. وقد ربطت فيه بين القضية العامة ، واهتمامات المشاهد الخاصة ، حيث إن الأمية فى المسلسل ، وقفت كعقبة كئود فى سبيل سعادة «زينب» بطلة المسلسل ، وتواصلها مع زوجها ، فانتهت العلاقة بالانهيار .

وهذا العمل لاقى نجاحا كبيرا فى هذه الفترة ، ومازال يلاقى هذا النجاح كلما تم عرضه .

اعتبرت أن تكوينى ينطلق من حرصى على تحقيق النجاح ، فى كل ما أقدمه من أعمال درامية ، وهو التحدى الحقيقى



أثناء تصوير « إيلات » كانت تجلس لمراجعة المشاهد



مع جائزة حكايات الغريب

الذى يواجهنى فى الحياة ، وقد خططت له بعناية ، بل إننى أستطيع القول بأننى وهبت حياتى كلها للعمل وتحقيق الذات ، فيما يفيد المجتمع من حولى .

كنت أقوم سنويا بإخراج مسلسل ، أو عدة سهرات ، ففي سنة ١٩٨٠ قدمت مسلسلا بعنوان «الباحثة» بعدما انتشرت فى المجتمع ظاهرة رجال الأعمال ، الذين

التكوين

بدأوا يحترفون أعمال النصب والتزوير، وعقد الصفقات المريبة ، وبدأوا يهددون الوطن والمواطن بشكل مخيف ، وكان الموضوع يدور حول زوجة تفاجأ ، بأن زوجها يساهم فى مثل هذه الأعمال المشينة، وهي لا تعلم عن حياتها شيئا ، على الرغم من أن مصيرها فى النهاية مرتبط بهذا الزوج ، كان العمل يدعو كل زوجة بضرورة أن تعرف كل صغيرة أو كل كبيرة عن دخل زوجها !

الدراما في هذه الفترة ، كانت قد بدأت ترصد ما يحدث من متغيرات فى المجتمع ، نتيجة لما حدث من تجاوزات كثيرة فى منتصف السبعينيات ، ومن آثار ما يعرف بالانفتاح أو «السداح مداح».

وأنا أؤمن دائما بأن الفن الجيد، الذي يقدم بشكل محكم ، وعلى مستوى عال من التقنية والصدق والابداع ، يجب أى رقابة، لأن الرقابة تقف أمام الأصوات العالية ، أو الأسلوب المباشر ، أو الأعمال الرديئة ، أما الفن المتقن ، المقنع الصادق فمن الممكن أن يخترق أية حواجز رقابية ، مهما كانت صرامتها وشدتها !

وذات مرة واجهتني مشكلة رقابية فى مسلسل «دعوة للحب» وكان أول عمل تكتبه نادية رشاد فى عام ١٩٨٣ ..

كنا قد عانينا من مبادرة الرئيس السادات فى عام ١٩٧٧ بذهابه إلى القدس، وحتى مطلع الثمانينيات ، من مقاطعة عربية شاملة ، وبدأت بوادر الانفراج أثناء اجتياح اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ . هذا المسلسل رصد واقعية الاجتياح ، وبدايات الانفراج فى العلاقات العربية ، وتضمن دعوة للتجمع العربى مرة أخرى .

كانت القضية المحورية للعمل - بالطبع - هى القضية الفلسطينية ، ولأن مصر كانت مرتبطة فى ذلك الوقت ، بمعاهدة كامب ديفيد ، اعترضت الرقابة على بعض المشاهد المحورية .

وأذكر وقتها ، أنني وقفت أمام الرقابة، موقفا صارما ، وقلت بالحرف الواحد : «إذا ألغى أى مشهد من المشاهد التى جاءت فى تقرير الرقابة ، فإن ذلك يعد بمثابة تقطيع أجزاء من جسدى !»

لم أكتف بهذا القول ، ولكن أصابتني حالة من الانهيار والبكاء المتواصل ، لدرجة أدهشت رئيس القناة الأولى فى التليفزيون، وكان من نتيجة هذا الموقف الحازم أن المسلسل عرض على الرقابة السياسية ، وجاء التقرير فى صالح العمل ، وإقرار عرضه كاملا .

الواقعية الصادقة!

تتواصل رحلة التكوين .. والتى هى

رحلة الإبداع عندى ، وحرصى على تقديم العمل الجيد ، الذى احتشد له ، وأقرأه وأختاره بعناية ، لا يشغلنى شئ عن هذا العمل ، وأدرس بعناية كل الوسائل الممكنة لنجاحه .

وكان من بين ما قدمته خلال رحلتى ، مسلسل «حب وأشياء أخرى» ويعد هذا أول تعاون بينى وبين الكاتب أسامة أنور عكاشة ، فى مجال المسلسلات ، فقد سبق لى أن أخرجت له تمثيلية سهرة بعنوان «حب بلا ضفاف» ، أخذ عنها جائزة السيناريو ، وأخذت جائزة الإخراج.

هذا العمل الدرامى يتناول المتغيرات التى حدثت فى هذا العصر ، حيث وضع الحب بين شقى رحى، أحدهما التفكير الرجعى حول العلاقة بين الرجل والمرأة ، والثانى حول التقييم المادى الذى ساد العصر ، وفى كل شئ ، بصرف النظر عن المشاعر والعواطف ، أو أى شئ معنوى .. وأعتبر أن هذا المسلسل الذى يتضمن قدرا كبيرا من الرومانسية، وأيضا الواقعية الصادقة ، من أفضل ما كتبه أسامة أنور عكاشة وقد عرض فى عام ١٩٨٦ .

تجربة الإخراج للسينما

محطة أخرى أتوقف عندها ، حينما أعود إلى سنة ١٩٨٤ ، عندما قدمت أول فيلم سينمائى لى بعنوان «آسفة أرفض الطلاق» قصة حسن محسب ، أذكر أننى قبل إخراجى لهذا الفيلم ، كنت قد قطعت شوطا كبيرا فى إخراج الدراما التليفزيونية ، وكنت أعد من مخرجى الصف الأول فى هذا المجال .

وأن أدخل تجربة الإخراج السينمائى لأول مرة ، فقد كنت أشعر بالقلق الشديد ، وأخشى ألا أصل إلي نفس المستوى الذى حققته فى مجال الفيديو ، ولكن ممدوح الليثى الذى كان رئيسا للإنتاج السينمائى وقتها ، دفعنى إلى دخول هذا المجال .

وبالفعل أخرجت أول فيلم لى ، وكنت فى هذا الوقت أمر بظروف شخصية ، توحدت مع قضية الفيلم، وأذكر أن هذا الفيلم كان فيه اختلاط ، ليس بين المشاهد، بل بين المبدع ، وبين القضية العامة التى يطرحها الفيلم .

ودائما أؤكد أن الأعمال الفنية التى حرصت على تناولها منذ دخولى هذا الميدان ، تنبع من معايشة المبدع ، للمجتمع الذى يعيش فيه ، وتتداخل فيها ذاتية هذا المبدع ، تجاربه وخبراته ، واهتماماته .

التكوين والإبداع

ولهذا فلا يوجد هناك فن محايد، ولابد أن يحمل العمل الفنى وجهة نظر المبدع ، مؤلفا كان أو مخرجا وهذا ما حرصت عليه طوال مشوارى مع العملية الابداعية ، التى

اعتبرتها دوما جزءا من تكويني.

لكنني أتوقف لأقول بأن لدي في مجال الإبداع محطات مهمة أؤكد عليها :

الأولى : مسلسل «ضمير أبلة حكمت»، وهو ثاني مسلسل يكتبه أسامة أنور عكاشة ، وقد استطعت أن أقنع الفنانة الكبيرة فاتن حمامة، بأن تطل على المشاهد ، من خلال الشاشة الصغيرة ، وكانت هذه المسألة في منتهى الصعوبة ، كانت قلقة ، لأن هذه الخطوة الجريئة منها، في هذه المرحلة العمرية ، لو لم يقدر لها النجاح ، كان من الممكن أن تفقد جماهيريتها التي كونتها عبر سنين طويلة، واستمرت عملية الإقناع سنة كاملة قبل أن تدخل الاستوديو .

وبعد بناء الديكورات ، اعتذرت فاتن عن الاشتراك في المسلسل ، وكان علي أن أبذل جهدا كبيرا لإقناعها بالدخول في التجربة ، وكان أول شهرين من عمر العمل، من أصعب الأوقات التي مرت أثناء إخراج هذا المسلسل ، حيث لم تكن معتادة على أسلوب الإخراج التليفزيوني ، الذي يستخدم أكثر من كاميرا ، على عكس الأسلوب السينمائي ، الذي يستخدم كاميرا واحدة .

وعلى ضوء هذا العمل أحبت العمل التليفزيوني ، وكررت التجربة .

المحطة الثانية : «الطريق إلى إيلات» وهو فيلم حربي ، غير مسبوق على السينما المصرية ، فلم يحدث أن أنتجت السينما المصرية ، فيلما حربيا ، حول عملية حربية ، من الألف إلى الياء !

وكان من المستغرب أن يسند هذا العمل إلى امرأة ، وليس رجلا جند ، ومارس الحياة العسكرية .

.. في بداية الأمر ، ترددت في قبول إخراج هذا الفيلم ، وانتابتني الدهشة مرة أخرى من إسناده لي !

وعندما وافقت على إخراج هذا الفيلم ، وأحسست بمسئولية تحويل عملية فدائية ناجحة إلى عمل فني ، لابد أن تكون نتيجته على مستوى عال ، بقدر مستوى العملية الحقيقية ونجاحها .

هذا الإحساس طير النوم من عيني ، على مدى سنتين ، وهي مدة تصوير الفيلم ومونتاجه وقتها وضع اسمي في القائمة السوداء لدى الإسرائيليين ! لكن الذي أسعدني ، أنه عقب الانتهاء من الفيلم ، وقبل عرضه مباشرة أرسل وزير الدفاع - بشكل مفاجئ - عشرة لواءات ، يمثلون مختلف الأفرع في الجيش لمشاهدة الفيلم، وإقرار صلاحيته للعرض ، من النواحي العسكرية .

كان هذا امتحانا قاسيا عانيت منه

طوال مدة عرض الفيلم ، وأحسست أن أنفاسي تكاد تزهق .. لكن أكبر سعادة تحققت لي ، حينما أضيئت أنوار صالة العرض ، ورأيت السعادة والراحة على الوجوه ، وقيل لي لا يوجد في الفيلم خطأ عسكري واحد .

المحطة الثالثة : أم كلثوم ، كانت فكرة المسلسل للكاتب محفوظ عبدالرحمن ، وعرض على إخراج هذا المسلسل ، ووافقت على الفور ، ولكن حينما بدأت التحضير والإعداد للعمل ، أدركت صعوبته ، ومدى المسئولية التي أتحملها ، وخصوصا عندما كنت أسأل عن العمل القادم ويكون ردي أم كلثوم .. حينئذ كنت أرى الدهشة تملأ الوجوه !

كان هاجسي هو كيف أجسد هذه الشخصية الماثلة في أذهان ووجدان المشاهدين على الشاشة الصغيرة ، وهذا هو الذي جعلني أستغرق لمدة سنتين للتحضير للمسلسل ، حتى أستوفيته من كل الجوانب ، كما لو كنت بصدد التحضير لرسالة ماجستير أو دكتوراه .

كانت كل خطوات إنتاج هذا العمل شديدة الصعوبة وكان السؤال الذي يلاحقني .. ومن ستجسد شخصية أم كلثوم ؟

وحتى الاستقرار على اختيار «صابرين» ، قوبل بمعارضة شديدة، من مدير الإنتاج وقتها ، ومن رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون ، ولكنني تمسكت باختياري ، ومع هذا التمسك ، كان القلق يصاحبني ، لأنني تحملت أمام الجميع المسئولية كاملة .

هذا القلق لم يتركني حتى نهاية عرض الحلقة الأخيرة من المسلسل ، والذي بلغ عدد حلقاته سبعا وثلاثين حلقة .

هذا العمل من أجمل الأعمال التي أسعدتني ، وردود فعله جاءت مبكرة جدا ، بعد عرض الحلقتين الأوليين ، وهذا عكس أي مسلسل يعرض ، فعادة ردود الفعل تأتي بعد النصف الثاني من عرض الحلقات لكن مسلسل أم كلثوم كان فريدا في كل ردود أفعاله بالنسبة لكل أعمالي التي قدمتها وصولا إلى آخر أعمالي ، مسلسل «قاسم أمين» ..

ويظل الإبداع هو الطريق لتحقيق الذات ، وتجئ الجوائز ، ويجئ التكريم وآخر ذلك كان جائزة الدولة التقديرية لهذا العام .

ولكن يبقى طموح الإنسان ، وهو جزء أساسي في التكوين ، ليحقق المزيد من النجاح والتألق ، بشرط اختيار الفكرة الجيدة ، وإعمال العقل ، ليحقق الهدف المنشود من وراء العملية الإبداعية ، التي - ربما - تضع الحلول لبعض المشكلات والقضايا التي تواجهنا في الحياة . ■



عبدالعزيز الربيعي .. المفترى عليه!

قرأت ما كتبه أستاذنا الجليل وديع فلسطين في عدد اكتوبر الماضي، حول السرقة المزعومة التي افتراها الشيخ عبدالله بن خميس، ودهشت لهذا الزعم، فالأديب الكبير الشيخ عبدالعزيز الربيعي، لم يشتهر بالشعر من ناحية، وليس من عادته أن يسير في ركب التهاني، كالشعراء الوصوليين، من ناحية ثانية. وإذا كان يريد أن يعبر عن شعوره نحو الشاعر عزيز أباظة، ففي مقدرته أن يكتب عنه بحثاً ضافياً، فهو ليس في حاجة إلى انتحال قصيدة تهنئة قالها شاعر مصري، هو في الوقت نفسه صديق حميم لعزيز أباظة.. فكيف يتخيل ذلك عاقل؟!

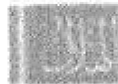
إن أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي حين تحدث عن أعلام الأدب في السعودية في كتابه القيم «كيف عرفت هؤلاء؟» اختار منهم الأساتذة الاعلام عبد القدوس الأنصاري، ومحمد سعيد العامودي، وعبدالعزيز الربيعي، وعبدالفتاح أبو مدين، وما كتبه عن الأستاذ الربيعي، يدل على ما للرجل الكبير من جهد بارز في الأدب، ومن سمو رفيع في المروءة العالية، التي يعز نظيرها الآن، وصاحب هذه الهمة العالية، لا ينحدر إلى مستوى أدعياء القريض.

وقد سكت ابن خميس حتى مات أباظة والصيرفي، ومضت أعوام كثيرة ثم جاء يذيع هذه الفرية لخصومة شخصية بينه وبين الربيعي، وقد عملا معا في تحرير مجلة الجزيرة عند إنشائها.. وكانت مقالات الربيعي أكثر جرأة وأعلى همة من مقالات «بن خميس، ولولا عزوف الشيخ الربيعي عن النشر كما حدثني أحد اعلام الصحافة في الرياض لذاعت آثاره الأدبية».

كما حدثني هذا الصحفي الكبير

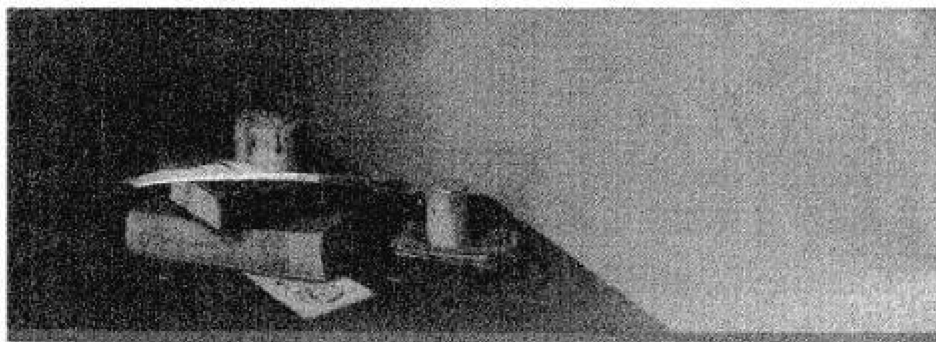
فرج مجاهد عبدالوهاب - عضو اتحاد كتاب مصر - شربين - الدقهلية

ليس الأحفاد كالأجداد



هذه الأيام سود ... كذب، فسق وكفر
أين أعراب فحول؟ ... فوق تلك البيد مروا
أنجبوا سعداً وعمرواً ... يوم ثار النقع كروا
هذبوا الدنيا وقالوا ... ديننا بدر وخيبر
شعرنا نهر غزير ... لشعوب الأرض عطر
أين أمجاد درسناها؟ ... وفرسان وفخر
إننا الآن غبار ... ضمه في الليل قبر
لم نجد في الشرق مأوى ... شجنا الغرب الأغر
حيثما سرنا ذبحنا ... خنجر البغي مصر
هل سيأتي بعد يأس؟ ... زمن كالضوء حر
دجلة فيه تصلي ... وتنادي وتصر
أن تضم الشام مصراً. ... لتضيء الليل مصر

د. هيثم الحويج العمر - دمشق



إنفتاح الشهية لعودة الاستعمار من جديد

قرأت مقال الدكتور مصطفى سويف المنشور فى أكتوبر الماضى، بعنوان «هل آن الأوان لعلاج الاهدار» ، ومفتاح الحل فى المقال هو «عاشرا» وهو الترتيب الذى أراد د. سويف أن يلخص به مضمون الرسالة التى استهدفها، حتى يحمل صاحب اتخاذ القرار فى هذا البلد، أنه يجب التنبيه إلى طبيعة المرحلة التاريخية التى نمر بها الآن، نحن فى مصر، فى الوطن العربى، فى الشرق الأوسط، وهى مرحلة تتسم أساسا بانفتاح شهية - قوى عالمية، متعددة إلى عودة الاستعمار!

ويستكمل فى نفس العدد مقال د. جلال أمين «الارهاب هذا الاختراع المدهش»، أوضح اسلوب معاصر على استماتة المستعمرين القدامى والجدد، فى تسيير دفة حياتنا إلى ما يهدفون إليه استعماريا.

ومن خلال قراءتنا لما جاء بمقال د.جلال، من المفيد أن نلاحظ الشبه بين استخدامات فكرة «الارهاب»، واستخدامات نظرية المؤامرة، فكل منهما تعبير غامض غير محدد، يستخدم لوصف حالات متباينة أشد التباين، لتحقيق غرض واحد، وهو التخويف، وإن كان التخويف فى الحالة الأولى «الارهاب» من الموت والدمار، والتخويف فى الحالة الثانية «نظرية المؤامرة» من استهزاء الناس واحتقارهم.

هكذا يستكمل عدد واحد من أعداد الهلال، ما يراه عالم من علمائنا - مصطفى سويف - ظاهرة يجب الاحتراز منها، إلى اساليب تسويق هذه الظاهرة اجتماعيا - جلال أمين، حتى نتنبه إلى تلك المخططات الاستيطانية.

فلكم هيئة التحرير ولهلالنا وهلالكم خالص الامتنان

القارىء المستديم
د. سامى منير عامر - كلية التربية - جامعة الاسكندرية

نفثة مصدور

فوق سهامك يازمان فإنني ... ما عدت أحفل بالهوى الفتان
هجرت طيور الحب أعشاشى التى ... كانت تهدهد مهجتى وجنانى
ويلحنها الوثاب كانت مقلتى ... تصحو وتغفو تستدر حنانى
لا تطلب السلوى فؤادى إننى ... أحيا بذكر أحبتى، وأعانى
إن الليالى موحشات قفرة ... لفتتركينى لبلتى وزمانى
ولتهجرى الصمت النبيل بأضلعى ... ولتقذفى حمماً من البركان
فبصمتنا الملعون قتل أحبتى ... وبصمتنا المسفوك يحيا الجانى
وأنا هنا، فى قاعة فيحاء قد ... أستاف نسمات مع الخلان
هل بعد هذا تطلبون قصائدى ... والعىّ أحمد من قصيد هوان
وتسيتم الطفل المضرج بالدما ... وسؤاله المرور عن إخوانى
أحجارة ثكلى، وليت قلوبنا ... باتت تئن كأنه الصوان
أرض الكرامة أنبتت أحجارها ... أكرم بأرض نبتها يرعانى
لا تطلبوا منى اغتيال مشاعرى ... قتل المشاعر ليس فى إمكانى

أحمد محمد الدماطى
الشهداء - منوفية

العودة إلى الاهتمام بالرسائل الجامعية!

تنشر الهلال مقالات مهمة، بل هى فى الصميم، لا تبالى إلا بكلمة الحق التى كادت تكون غريبة فى زماننا المستكين!

وخير دليل على ذلك ما تحدث به الأديب الناقد الدكتور محمد رجب البيومى فى هلال أكتوبر الماضى حول الرسائل الجامعية الآن، فأكثرها يعدها فى صلبها هيكلا عظميا.. ويسائل الكاتب نفسه قائلا: «ما علاج هذا الداء الوبيل الذى استشرى فى كل الجامعات؟»..

ويجيب عن ذلك بأنه يجب على طالب الدراسات العليا، مزاولة القراءة المتئدة لآثار الكبار من الباحثين، مع اتقاد صدره بجذوة البحث الدافعة إلى الكمال بحرارتها المشتعلة.

فإذا أراد باحث أن يستكمل الشق الآخر من عوامل تلك المأساة الأكاديمية التى أشار إليها أستاذنا، رأى أن المرجع فى ذلك الموضوع، هو حديث الراحل د. محمود الطناحى بهلال شهر يونيه ١٩٩٩ ص١٨، ص ١٩ إلى أساتذتنا المشرفين على مناقشة الرسائل العلمية، حين قال تحت عنوان: «الرسائل الجامعية وساعة ثم تنقضى»: «إنى أقول بحق وبصدق، إن عند كثير من الأساتذة الجامعيين علما، ولكنهم لا يخرجونه، ليس ضنا به، ولكنهم لا يبذلون جهدا فى قراءة الرسالة الجامعية، لأنهم يزنون الأمور بميزان العائد المادى!

أبو حيان التوحيدي

٣٢٠هـ/٩٣٢م-٤١٤هـ-١٠٢٣م

ولد في مدينة شيراز أو في مدينة نيسابور.. وتلقى أبو حيان علومه النحوية في بغداد على يدى أبي سعيد السيرافي، وعلى بن عيسى الرماني، أما علومه الفقهية في المذهب الشافعي، فقد أخذها عن القاضي أبي حامد المروروذي، وسمع الحديث من أبي بكر بن عبدالله الشافعي، وأخذ التصوف عن جعفر الخلدي.

قال عنه ياقوت الحموي.. هو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء.

كان يتكسب من نسخ الكتب في بغداد. وعاش حياة المغترب القلق، الذي عاني من تجارب الحياة، ومن ضياع الحق والجهل والإدعاء، والتكالب، ومن التعدد والخلط في أحكام القضايا الواحدة، حتى ضاق عليه الفضاء على رحابته، وفقد الثقة في كل شيء.

احتلت مؤلفاته التي لقيت بعد أن تنكر لها وأحرقها، مكانة متميزة في التراث العربي، بما طرحه فيها من أفكار إنسانية متحررة، واضحة العبارة، بالقياس إلى أقطار ولغة عصرها.

وحرق التوحيدي لكتبه واقعة مذهلة في تاريخنا الأدبي، قام بها في أواخر عمره، وهو يراجع حياته ويتأملها، بين المكسب والخسارة.. ويبدو أن مؤلفاته التي أحرقها تلك التي كتبها في سنواته الأخيرة، أما ما سبقها فلم يكن بمقدوره جمعها من الرواة والنساخ، وهي التي بقيت شاهدة على فطنة صاحبها، وعمق رؤياه وخواطره وتأملاته، ترك أبو حيان التوحيدي أكثر من كتاب.. ترك المقابسات، والصداقة والصديق والامتاع والمؤانسة، كما ترك الاشارات الإلهية، وهو قمة كتبه وأرفعها جميعا باتفاق الدارسين الأكاديميين ونقاد الأدب، يقول التوحيدي في مناجاة له بهذا الكتاب: «اللهم إنا نسألك ما نسأل، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك، وحسن أفعالنا معك، وسوالف إحساناتنا قبلك، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض، وطمعا في رحمتك الواسعة..

نعم.. وعن توحيد لا يشوبه إشراك، ومعرفة لا يخالطها إنكار، وإن كانت أعمارنا مقصورة عن إدراك غايات حقائق التوحيد والمعرفة، فنسألك ألا ترد علينا هذه الثقة بك، فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك.

ياحافظ الأسرار، ويامسبل الأستار، وياواهب الأعمار، ويامنشيء الأخبار، ويامدارى الأشرار، ويامنقذ الأبرار من النار والعار.

عد علينا بصفحك عن زلاتنا، وأنعشنا عند تتابع جرعاتنا، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا، لأنك أولى بنا.

لنا الله

ويذهب هذا ويأتي ســـــــواه وكل علينا ونحن الجناة
تولىّ وجـــــــوها لغيــر الإله ونبغي رضاهم وننسى رضاه

★

يعـــادوننا من قـديم الزمــــان ويأتوننا بالردى والهـوان
وننسى ونطلبـــهم للأمـــــــان حـماة وهم أهل غـدر غـزاة

★

مطامــعـــهم في حــمــانا تدور كـدور الذئاب ودأب النســـور
ألا فليـــكن من ثرانا طيـــور ترى ما يكون ومن في ســمــاه

★

ألا إننا أصـــــل كل الفــروع إذا مـا نضـيع فكل يضـيع
لنا الدين شــمس سـيـبـقى السطوع لنا رغم كل ونحـيـا الحـيـاة

★

ستـجـمــع كل القـوي من جـديد ونحـمي الحمى بيد من حـديد
سـيـبـقى لنا المجد مـجـد الجدود ونحـيـا كرامـا بعون الإله

حسن أبو الغيط - كفر المصيلحة - منوفية

أخطر دولة على السلام العالمي!

حسب العقيدة اليهودية، تعتقد أن اشكناز بن جومر بن يافث بن نوح، قد سكنوا أرض القوقاز في روسيا، لذلك فإن أرض القوقاز في التوراة، تسمى أرض اشكناز، وأن يهود الخزر من سلالتهم.

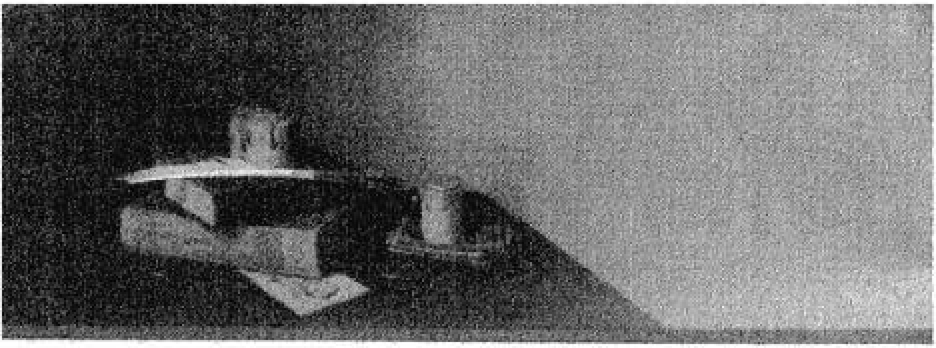
وحدثت مذابح لليهود الخزر على أيدي قياصرة روسيا، ولكن اليهود هم أبرع الناس في الكذب، من أجل أغراضهم السياسية، فقد ادعوا أن اليهود جميعا هم بني إسرائيل، وأنهم تفرقوا في الأرض كلها بعد السجن البابلي.

لذلك فإن الحركة اليهودية، تعمل على إعادتهم إلى أرض فلسطين، وأن اليهود الاشكناز يمثلون ٩٠٪ من عدد يهود العالم، وكانت ذريعة الحركة اليهودية هي ترحيل اليهود من روسيا، بحجة المذابح هناك وفي ألمانيا في القرن الماضي.. ومنذ حدث ذلك وحتى اليوم، لاتزال الهجرة اليهودية إلى فلسطين مستمرة.

لقد تم اغتصاب فلسطين، ودفع أبناء هذا الوطن العربي، ثمن الأخطاء، لقد هرب اليهود من القتل والبطش في دولهم وجاءوا إلى فلسطين، لكي يكون البطش والقتل على أيديهم ضد الفلسطينيين، أصحاب الوطن الذي اغتصبه اليهود!

لذا أقول هل يعترف العالم بالخطأ التاريخي في اقامة دولة إسرائيل، كما اعترف استفتاء معهد جالوب في نوفمبر عام ٢٠٠٢، بأن الدولة الصهيونية، أخطر دولة على السلام العالمي.

د. جمال على العطار - الاسكندرية - كامب شيزار



التدخين.. وكيف نتصدى لتلك الظاهرة؟!

مع بداية شهر الصوم الكريم، نرى مشهداً غريباً، يزداد كل يوم.. مقاهي ونوادي للشيشة يقبل عليها الشباب والفتيات والنساء، وتتزايد أعداد تلك المقاهي، بل يتم تطويرها وتجديدها والعناية بالديكورات الخاصة بها، وكأن اكتشافاً قد حدث لكي يدمر شبابنا قوته، ويهلك أبدانه من جراء هذه العادة الذميمة التي استشرت في الآونة الأخيرة.

حتى أننا نجد في إعلانات الفنادق والنوادي والكازينوهات بمناسبة شهر رمضان، تقديم أفضل أنواع «الشيش» جمع شيشة.. ولا أحد يعلم مضارها إلا الله وحده.

مطلوب من الجميع التصدي لمثل هذه العادات التي تنال من شباب الأمة، وتضعف قوتها، وهذا التصدي يحتاج لحملات من التوعية، لا تستمر أسبوعاً وشهراً، ولكن ينبغي أن تتواصل الحملات، وتتضافر الجهود لدرء خطر يحمل إلينا في المستقبل المزيد من أمراض السرطان وغيرها، وقانا الله منها وكفانا شرورها.

د. محمود الشريف - نقيب الأطباء

على شرف الوظيفة

دعـوت وظيـفـتي.. قـالـت: لماذا ... فـقـلت: إلى غـداء بـعـد جـوع
فـقـالت: هل فـقـدت الصبـر يأسـاً ... قـعـدت إلى السجود أو الركـوع؟
فـأى مـوظف لم يحن رأسـاً ... تشـرحـه المعاول في الضلوع
فـقلت: وظيـفـتي يكفـيك حـزني ... عليك وأنت سـاجـيـة الدمـوع
فـمن حكامك اليـأس المدمي ... ومنهم فـاقـد العـبـد المطيع
ومنهم من يقـضي العـمـر نومـاً ... وإذ يصح ينكل بالجـمـيع
ومن يعـمـل يجـد في كل يوم ... مـذكـرة مـد مـدمـة الصـقـيع
ومن يعـبث يفـرغـه النشـامى ... يقـولون: القـضـا للمـسـتطيع
وفي زمن الوظـائف ذا أتيـنـا ... فكيف تغـيـب في وقت الطلوع
قـروش في يدينا كل شـهـر ... حـشـائش لا تبل دم القطيع
مـصـالح ياحـيـاتي كل شيء ... وللعـمل الهـجـوع إلى الهـجـوع
وقـد فـرض التـقـهـقـر كل حكم ... يمد يد الشـفـاعـة للشـفـيع
فـمـا للمـخلصين أخـو انتـمـاء ... لغـيـر اليـأس في الزمن الوجـيع
فـيـا وطني وأنت منار إرثي ... وقـد طغت الرياح على القلوع
أمـد يدي إليك فـضـم قلبي ... إلى قلبـيك في الصـدر الوسـيع

عبد الرحيم المساخ - سوهاج

قصة قصيرة

وجــود.. وميتافيزيقا

انهار من العرق الكثيرة تنزف من جبهته وساعديه الأسمرين اللذين التحما مع الشمس ليصيغان أغنية جريحة ويحطمان كئوس الانكسار.. تنزل حبات العرق بكثافتها الملهبة لتصبغ حلقة بأنواع شتى من الانقباضات العميقة.. يستحيل لونه ليصبح كل الألوان ثم لا لون.. إنه فى خضم شديد مع أمواج البحر العاتية يدفن أيامه فى محيطات أو هامه، ويوقظ كل الشياطين لتتأمل أنغاما لا صهيل لها.. ورغم الكوابيس التى اصطفت لتغرق فى جحيم سرمدى، إلا أنه ينظر بقوة ويكل أركان الميتافيزيقا لخوف بعيد يطل بأشباح تشبه منطقة التوهان، عندما تسد طرق الانهيار.. ورياح عاتية تقذف بكل عذاباتها الآتية من دنيا رجعت لميلاد موتها.. يتنفس أنفاسا ثقبتها السنين الخرسانية والهواء الفولاذية.. يمسك قلبه بتعب متواصل ويصبغه بلون الدماء الخاشعة المنبثقة من شلالات الفطرة الانسانية وأدغال كون الحقب الانسانية.

ينصهر العذاب الملائكى ويبصق الديناصور حقده المشلول ويفتت عنفوان الخوف قوة الأيام المنسولة بخمر المساء الذى لا نهار له..

عيناه تأسران الجميع ويظل هو البطل الوحيد لم يدخل بوتقة المنفى المستحيل.. واغادير الصباح تهتف بحياة توقفت، لتنتظر كل القادمين من رحلة الانتظار.. لا حطام فى الدنيا سوى جراحات لاهية.. قال هذه الجملة لعقول تسكن دنيا قلبه.. ولم ينتظر ابتسامات مرفهه أخذت تقفز لفمه الذى خرس، لينطلق خلايا أحلامه وجزر أوهامه..

الشمس التى تسكن بيتا تحت السماء تلهب نفسها قبل أن تلهب الآخرين من كائنات بيولوجية وفسيولوجية.. تقترب أشعتها من أشعته الداخلية فشمس قلبه كانت تحطم نوافذ الظلمة التى تعمقت فى كل أنوار جنونه.

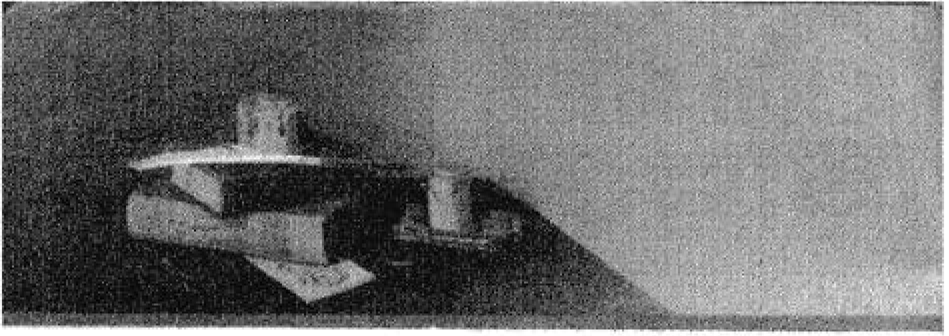
وأنت تقبل من خريف الشتاء المتراقص على سطح الحقب الثلجية.. نورا يمسك «بجلاليب» الأرض.. يمزق نفسه.. حصار يطل من كل جهات المكان والزمان.. رهبة تركب قطار الحياة.. وتبتلع كل ميادين الجراح.. تنزل وتمسك بحياة أطعم جبنها لأطفال العذاب الذين امتشقوا الشيخوخة، وحذفوا الخواطر الممتدة من بواطن النفوس وطرق الجنون المتعقلة.

خيول تقف جاثمة على مستنقعات الحقد الذى يفجر عيوناً تسلقت أوجه المستحيل وقيدت أرجل المستقبل وحطمت جمالاً يزحف مع عتبات البعد المهلل..

المنفى الأبدى يطل من وراء كل الأزمنة ويصــرخ مع كل أحــلام الموتى.. يشق طريق الأنفاس الجامدة والتى ديست بعربات الجحيم الدامى..

يرنو بكتل بشرية وتتسع ضحكات الزمان لتحلق فى اللانهائى وترسم بشموخ الأكوان فى الكائنات المؤقتة وتظل كل الأيام ممراً للملكوت..

صلاح جميل سعد
غزة فلسطين ش عمر المختار



الشاعر محمد إقبال

يعد الشاعر محمد اقبال من أبرز الشعراء المسلمين فى الهند، فضلا عما قدمه من دراسات أدبية تبرز مكانته وأهميته..

قيل فيه هذا الشعر الذى يبين مكانته وصفاء نفسه

نجم مـــؤتلق وشـــهـــاب	وفـــتـى اقليم البنجـــاب
دنيـــاه عطاء مـــتـــصـل	علـم فلســـفـــة وآداب
يصـــغى لحـــديث الأرواح	ويحـــاور فى صـــدق نجـمـــه
والعـــقل يصـــيـر المصـــبـاح	يحـــمله فى ليل الامـــة
فـــاســـأل رابطة الاســلام	عن هذا العـــمـــلاق الشـــاعـر
وابحث فى ســـيـــر الايام	عن ســـر مكنون ســـاحـــر
الشـــعـــر به وهج الكلمـــة	ســـيـــبـدد أســراب الظلمـــة
واللـفظ بســـيـــط لـكن	يحـــوى أســـرار الحـكمـــة

ولد محمد اقبال فى اقليم البنجاب بالهند سنة ١٨٧٣ فى أسرة متوسطة الحال حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ودرس أصول العربية والفارسية وبعد أن أنهى دراسته للفلسفة والاخلاق بجامعة لاهور سافر إلى انجلترا والتحق بجامعة كمبردج لدراسة الفلسفة ثم بجامعة ميونيخ ومنها حصل على الدكتوراة فى الفلسفة ثم عاد إلى انجلترا ودرس بها القانون ثم عاد إلى وطنه وعمل فترة بالمحاماة إلى جانب نظم الشعر واختير رئيسا لحزب مسلمى الهند، أصدر ديوان رسالة الخلود الذى تسارى فى قيمته الادبية مع «رسالة الغفران» للمعرى و«الفردوس المفقود» للشاعر الأنجليزى «ملتون» و«الكوميديا الالهية» للشاعر الايطالى «دانتى» وله دواوين أخرى وملاحم شعرية باللغة الاردية والفارسية وكان له دور كبير فى الدعوة إلى قيام دولة باكستان وتوفى سنة ١٩٣٨ بعد أن ترك تراثا انسانيا وفكريا وأدبيا هائلا.

وشكرا لكم

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

الثقافة فى إجازة!

ملاحظة أبديها عبر الهلال، تلفت الأنظار فى كل عام يهل علينا فيه شهر رمضان الكريم.. حيث تتقلص صفحات الثقافة، ويحصل الكتاب على أجازة طوال هذا الشهر، ولست أدرى ما هى الحكمة فى ذلك، وهل الثقافة تحصل على راحة واجازة فى هذا الوقت!!

إبراهيم عبدالفتاح - المنيا

الهلال: ربما سبب ذلك أن الصفحات الدينية تتضاعف خلال الشهر الكريم، ولكن ليس ذلك عذرا يمنع من أن يستمتع القراء بكل ألوان الثقافة والفنون.

الكلمة الأخيرة

رحلة في مدارات التكوين



بقلم : السيد يسين

انفردت مجلة «الهلال» العريقة بتقليد فكرى يتمثل في نشر فصول من السير الذاتية لمجموعة مرموقة من الأدباء المبدعين والمفكرين والعلماء تركز أساسا على العوامل المتعددة التى أسهمت فى تكوينهم ، ومن هنا جاء اسم هذا الباب «التكوين» الذى كان صاحب فكرته الصديق الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال .

طالعت كل ما كتب فى هذا الباب تقريبا لأجيال من الأدباء والمفكرين والعلماء هم جميعا يعدون أساتذة لجيلى . وفى الكتاب الذى نشرته الهلال باسم «التكوين» نجد فصولا شائقة كتبها شكرى عياد ، وطارق البشرى، وألفريد فرج ، ومصطفى سويف، وعبدالعظيم أنيس ، وأمينة السعيد ، وحافظ محمود ، ونعمات فؤاد، ومحمد سيد أحمد، ومحمد رجب البيومى ، وعائشة عبدالرحمن ، وسهير القلماوى، وأنور عبدالملك ، وحامد عمار ، وصلاح أبو سيف ، ولطيفة الزيات.

وهذه الباقة من المبدعين والمفكرين هم إلى حد كبير تلاميذ طه حسين وأحمد أمين وعباس محمود العقاد ، هذا الجيل العظيم من الرواد الذين صنعوا العقل المصرى الحديث .

وإذا تأملنا خريطة الفكر المصرى الحديث والمعاصر منذ رفاعة رافع الطهطاوى حتى الآن ، يسهل علينا أن نستنتج أن مفتاح فهمها يتمثل فى فكرة الجيل، وفكرة الجيل من الأفكار الأساسية في علم اجتماع المعرفة وعلم الاجتماع الأدبى .فمن خلال تقسيم المبدعين والمفكرين إلى أجيال متلاحقة نستطيع أولا أن نقيم ما يسميه المؤرخون نظاما للتحقيب Periodization أى تقسيم المساحات الزمنية الطويلة من التاريخ إلى مراحل، ومن ناحية أخرى يمكن تحديد ما يجمع أعضاء كل جيل وما يفرق بينهم .

ويمكن القول إن مصر تكاد تنفرد بين كل البلاد العربية بأن شجرة الأنساب الفكرية فيها محددة وواضحة ومعلنة. بمعنى أنك تستطيع أن تحدد من هم تلاميذ أحمد لطفى السيد والشيخ محمد عبده على سبيل المثال ، ومن هم تلاميذ طه حسين وأحمد أمين والشيخ أمين الخولى ، ومن هم تلاميذ الجيل الذى أعقب هؤلاء .

ولو خضنا فى رحلات التكوين التى يضمها الكتاب لأدركنا تباينا واضحا في منهج وأسلوب كل مبدع من المبدعين والمفكرين الذين كتبوا عن العوامل التى أثرت عليهم .

ويمكن – بشكل عام – أن نصنفهم إلى فئتين : فئة تتحفظ لم تشأ أن تكشف عن الوقائع الحقيقية التى حدثت فى حياتهم بما فيها من فشل ونجاح ، وفئة منطلقة لم تجد بأسا من الحديث الصريح حتى لو وصل إلي مرحلة النقد الذاتى .

وهكذا لم تجد أمينة السعيد ضيرا من أن تجعل عنوان ما كتبته «فشلى فى بداية حياتى دفعنى لاحتلال أرفع المناصب الصحفية» ، وعلى نفس النسق كتب الصديق محمد سيد أحمد «برغم تفوقى ظلت معرفتى للغة العربية قاصرة» !

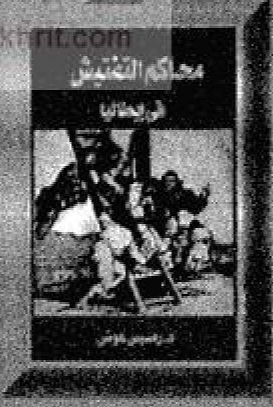
وربما كان العنوان الذى اختاره ألفريد فرج وهو «كل فنان له أسراره وحياته الخاصة» ما يشير إلى منطق هؤلاء الذين آثروا أن يخفوا عامدين متعمدين محطات أساسية فى رحلة تكوينهم!

كتاب التكوين يحتاج إلي مساحة أرحب لمناقشته فى ضوء فن السيرة الذاتية ولكن ما حيلتنا وقد انتهت المساحة المقررة . ■


د. زكى مبارك
ليلى المريضة فى العراق


الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى
د. رشدى سعيد


الاعتبار


محاكم التفتيش
فى بريطانيا

أدبيات

نبع الاداب والثقافة المعاصرة









طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ٨٠، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع: ١٠٠، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الاسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت: ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس: ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -
٤ شارع بدوي محرم بك - الاسكندرية.

الهلال

ديسمبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

■ العالم يفكر

■ أين آمالنا الكبار؟

■ ياسر عرفات



مشاهد وذكريات



إبراهيم باشا

جزء خاص

لوحة وفنان



اللوحة: عريف الكتاب - الفنان: وولترتشارلزهورسلى

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة شوال ١٤٢٥ هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٧ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير
محمد أبو طالب — المستشار الفني
عاطف مصطفى — مدير التحرير
محمود الشيخ — المدير الفني
مؤمن حسنين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥ .١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١
ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس
٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٥ .٢ جك - أمريكا ٨ دولارات

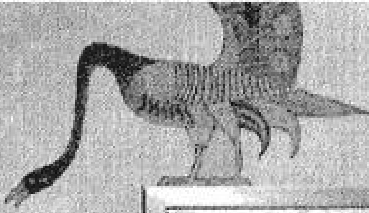


الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد



الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

معاداة السامية أم معاداة الإسلام؟!

في منتصف أكتوبر من هذا العام قام الرئيس الأمريكي بوش بالتوقيع على قانون بإنشاء إدارة جديدة بوزارة الخارجية مهمتها مراقبة الأنشطة المعادية للسامية ليس في بلده فقط، كما لا بد وأن ينصرف إليه ذهن القارئ؛ وإنما في كل بلاد العالم، وهذا هو وجه الغرابة في الموضوع ويقضي القانون بأن تقوم وزارة الخارجية بتقديم تقرير سنوي عن الإجراءات التي قامت بها جميع الدول في هذا الشأن. واللافت للنظر أنه قام باعتماد القانون وهو على متن طائرته في طريقه إلى ولاية فلوريدا التي تعد ثالث تجمع لليهود على مستوى العالم بعد إسرائيل ونيويورك، فبدا الأمر وكأنه جزء من حملته الانتخابية لكسب أصوات اليهود الأمريكيين خاصة وأنه لم يحصل إلا على نسبة ١٩ ٪ فقط من أصواتهم في رئاسة الأولى .

ولقد أعاد هذا القانون إلى الأذهان قيام يهود العالم قبل إنشاء إسرائيل وبعد إنشائها بمطاردة كل من يكتب حرفاً أو يتفوه بكلمة يرون أنها تحض على كراهيتهم ليقيموا عليه الحد .ففي التاريخ البعيد نسبيا هناك الضجة التي أثارها يهود فرنسا في سبعينات القرن التاسع عشر عند اتهام الضابط «اليهودي» دريفوس بالخيانة في الحرب ضد ألمانيا (١٨٧٠)، إذا اعتبرها اليهود معاداة للسامية لأن اتهام هذا الضابط جاء أصلا في رأيهم بسبب يهوديته لا أكثر ولا أقل، وساعتها انبرى إميل زولا لدفع الاتهام عن الرجل. وفي التاريخ القريب وفي أربعينات القرن العشرين نجح اللوبي اليهودي في فرنسا في إصدار قانون بعدم جواز التشكيك في موضوع تعذيب اليهود في ألمانيا وإحراقهم زمن حكم هتلر المعروف بـ «الهولوكوست»، ولا يزال هذا القانون ساريا حتى الآن ويتعرض له أي إنسان كائنا ما كان وفي أي جهة في العالم. وفي مطلع ثمانينات القرن العشرين حدث أن تقدم باحث فرنسي في السادسة والستين من العمر برسالة لدرجة الدكتوراه في جامعة ليون موضوعها دراسة النصوص الخاصة بهذا الهولوكوست وانتهى في دراسة إلى عدم صدق الموضوع نظرا لتضارب النصوص تضارباً واضحا، وهنا أسرعت الدوائر الصهيونية بالاحتجاج استنادا إلي هذا القانون ولم تهدأ إلا بعد أن أرغمت الجامعة على سحب درجة الدكتوراة من الرجل بعد ستة أشهر من منحها، وقال الرجل مستغربا إنه لايسعى للعمل في الجامعة وأن بحثة يدخل في دائرة دراسة النصوص ومقابلة بعضها البعض. وأخيرا يأتي روجيه جارودي المفكر الفرنسي الذي نجحت تلك الدوائر في تقديمة للمحاكمة جزاءً له على ما كتبه على «الأساطير الإسرائيلية» وأكثر من هذا فإن أي مسرح في أوربا وربما في العالم لايجرؤ هذه الأيام على إعادة عرض مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير التي صور فيها بشاعة شايلوك التاجر اليهودي في ابتزاز الآخرين .

إن إصدار هذا القانون الأمريكي ليس فقط جزءا من الحملة الانتخابية وإنما يجئ اتفاقا مع إيمان بوش بنبؤة توراتية غامضة تقول بعودة المسيح لنشر العدل بعد أن ساد الظلم زمنا طويلا، وأنه لكي يتحقق هذا لابد من إعادة هيكل سليمان للوجود، ومن هنا كان بوش ضالة شارون وكل منهما يستخدم الآخر لتحقيق هذا الإيمان الأعمى. وهنا يأتى قانون معاداة السامية خطوة أساسية فى طريق هذا الخيال. ومثلما أصبح «الإرهاب» وسيلة بوش في حشد العالم تحت قدميه ليحقق أغراض الهيمنة والتوسع ويضغط على كل بلاد العالم للوقوف معه وإلا تعرضوا للحرب والغزو تحت هذا الشعار، يجئ قانون معاداة السامية ليستخدم لصالح النبؤة، ولتتسع آفاقه عندما تصبح معاداة السامية معاداة لإسرائيل وخاصة بعد أن أعلنت إسرائيل مؤخرا أنها دولة ليبرالية علمانية وواحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط .

وهذا يعنى فى التحليل الأخير أن إسرائيل اختزلت السامية فى اليهود دينيا وفى إسرائيل تحديدا باعتبارها أعلى سلطة ليهود العالم، على حين أن السامية عند علماء الأجناس واللغات ليست عنصرا أو عرقا بشريا وإنما هى أسرة لغوية تضم عدة لغات معاصرة لها تضم الأكادية والآشورية والبابلية (العراق) والفينيقية (بلاد سوريا) والأمهرية (الحبشة) والعبرية والعربية (الجزيرة العربية) لكن من الذى يجرؤ على مناطحة هذا الاختزال ؟!

ومن عجب أن أحدا لم يتحرك حتى الآن ليعترض على الحكومة الأمريكية فيما إذا كان من حقها إصدار قوانين تطبق على مستوى العالم !! ولسوف يدفع العالم ثمن هذا الصمت عندما يتم تحصين هذا القانون بعرضه على مجلس الأمن تفرض بمقتضاه عقوبات على الدولة التى يظهر بين رعاياها من ينتقد إسرائيل .. أو يتم اختطاف هذا الرعية إذا ما «شوهد» وهو يفكر ضد إسرائيل منتقدا عنصريتها واستبدادها بالفلسطينيين .

بقى أن نعرف أن هذا القانون في أصله كان اقتراحا من «توم لانتوس» النائب الديموقراطي عن كاليفورنيا اليهودى البولندى الأصل وكان قد تقدم فى تاريخ سابق بمشروع قانون لتخفيض المعونة العسكرية لمصر بحجة أن مصر لم تعد بحاجة إلى القوة العسكرية بعد أن تصالحت مع إسرائيل فى مارس ١٩٧٩، ولكنه لم ينجح فى تمرير المشروع !!

ويبدو واضحا أن وزير الخارجية كولن باول لم يكن موافقا على هذا القانون ذلك أنه بعد موافقة الكونجرس والسيناتور على المشروع وقبل أن يوقع بوش عليه صرح ريتشارد باوتشر المتحدث باسم الخارجية بأنه لاتوجد حاجة لإنشاء إدارة بالوزارة لإصدار تقرير منفصل عن معاداة السامية لأن الإدارة الخاصة بحقوق الإنسان والحريات الدينية التى تراقب ١٩٠ دولة تكفى وزيادة ولكن الرئيس الأمريكى الذى يبحث عن أصوات اليهود أصم أذنيه وأسلم نفسه لأغراضه الذاتية . ■

المحرر

الفقر والفقراء

الفقر من أبرز مشكلات حقوق الإنسان



بقلم
د. أحمد زايد

تشتق كلمة الفقر فى اللغة من الفعل «فقر» ويعنى عندما ينصرف إلى حالة الإنسان «كسر فقار الظهر»، وكأن العوز والحاجة وقلة المال التى تشير إليها كلمة الفقر هى مؤشرات على ما يثقل كاهل الإنسان، وما يتراكم على ظهره - مجازياً - من هموم تؤدى إلى كسر فقار ظهره. ويبدو هذا المعني واضحاً في التعريفات الاقتصادية للفقر والتي تركز علي جوانبه المادية. فالفقر من هذا المنظور الاقتصادي هو عدم القدرة علي سد الحاجات الأساسية للإنسان، أي الحاجات الضرورية لتحقيق مستوي الحد الأدني من المعيشة. كما يعبر عن قياسات معينة لمستوي الغذاء والكساء والسكن والصحة والتعليم.



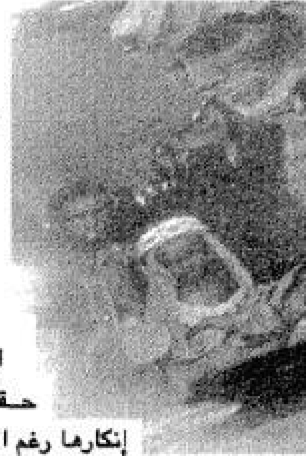
ويبدو أن استخدام مفهوم خط الفقر يوحى أيضاً بعملية عزل الفقراء تحت خط معين، بحيث يمثل عبوره عبور الحدود بين الفقر واللافقر. ويعنى خط الفقر ذلك الخط الذى يمكن رسمه للتفرقة بين الحدود الدنيا من الحياة وما دونها، فكل ما دون الحدود الدنيا يقع تحت خط الفقر، ويصنف على أنه من الفقراء، ومن يعبر الخط إلى الحدود الدنيا وما فوقها فإنه عابر إلى عالم ما بعد خط الفقر.

ولا يعنينا هذا التعريف الذى هو واضح جلى، بقدر ما يعنينا تأكيد الفكرة التى نود إبرازها وهى أن استخدام تعبيرات مثل «الحدود الدنيا للحياة» و«خط الفقر» تحمل فى طياتها أيديولوجيا الاستبعاد بشكل ضمنى، وكأن للفقر عالمه الخاص، وللفقراء دنياهم الخاصة التى توجد «هناك» تحت خط معين أو عند حدود معينة.

ولكن القراءة فى إحصاءات الفقر على مستوى العالم تدل دلالة قاطعة على أن الفقراء يتزايدون يوماً بعد يوم وأن محاولات التدخل لإنقاذهم لا تحقق المرجو منها فى التو واللحظة أو فى الأجل البعيد. ففى قمّة كوبنهاجن التى عقدت برعاية الأمم المتحدة فى مارس عام ١٩٩٥ تم التأكيد على أن العولمة رغم أسهامها فى تحسين أحوال البشر، إلا أنها انتجت مزيداً من الفقر والبطالة والتفكك والعنف والتهميش الاجتماعى. وقدر المؤتمر عدد الفقراء فى العالم بأنهم يفوقون البليون نسمة. وأصبح التدخل لمحاربة الفقر هو أحد المبادىء الأساسية فى أجندة العمل فى عالمنا المعاصر، كما يتمثل فى جهود البنك الدولى والمنظمات الدولية والجهود الدولية لمعظم الدول والحكومات التى تنفذ سياسات للتخلص من الفقر أو على الأقل الحد منه. ولكن واقع الحال يختلف كثيراً إذ إن المؤشرات تدل على أن عدد الفقراء فى تزايد، وأن إحـــدى المشكلات التى تواجه عالمنا المعاصر هى مشكلة تزايد الفقر والتهميش الاجتماعى، فضلاً عن تزايد أعداد اللاجئين الذين لا مأوى لهم نتيجة للحروب والصراعات بين الدول وداخلها وبين الجماعات المتنافسة على السلطة.

خط الفقر

وفى ضوء ذلك فقد أستطيع أن أتقدم بتأويلى لمفهوم خط الفقر خطوة إلى الأمام. فإذا كان الفقراء يتزايدون رغم وجود سياسات واضحة ومعلنة حول القضاء على الفقر، فإن تحديد خط الفقر يرتبط بتحديد الخط الذى يقذف بالأفراد وراءه ليستقروا فى عالم الفقر. أو فى أحسن الظروف هو خط يعبر عليه بعض الناس من خلال الجهود التى تبذلها الدول والحكومات والمنظمات الدولية لتخفيف الفقر أو محاربته، وفى نفس الوقت يعبر عليه البعض الآخر فى عالم الاستقرار والأمان إلى عالم الفقر والعوز وذلك بفضل آليات السوق وآليات الاقتصاد الحر التى



لا تعـــرف إلا تعظيم الربح والفـــائدة باستمرار. وإذا كان تزايد معدلات الفقر في العالم حـقـيـقـة لا يمكن إنكارها رغم الجهود الكبيرة للتغلب عليه، فربما نكون بحاجة إلي تعريفات أكثر شمولاً للفقر، تعريفات لا تؤكد على فكرة الحدود الدنيا أو فكرة خط الفقر. بل تقدم نظرة أوسع. وقد ظهرت بالفعل تعريفات للفقر تتجاوز التعريف الاقتصادى الضيق. من ذلك مثلاً التفرقة بين الفقر المطلق والفقر النسبي. فالفقر بالمعنى الأول هو الفقر الذى تقيسه مقاييس الفقر. والفقراء بهذا المعنى هم أولئك الذين لا يصلون إلى الحد الأدنى من تلبية الحاجات الإنسانية الأساسية. أما الفقر بالمعنى الثانى فإنه فقر يخضع لاعتبارات الزمان والمكان، إنه فقر سياق يرتبط بسياق الظرف الاجتماعي الذى يوجه فيه البشر. ومن ثم فإن من يعتبر فقيراً داخل سياق اجتماعي معين قد لا يكون فقيراً داخل سياق آخر. ويتأسس معيار الفقر النسبي على أساس معيار الحرمان النسبي. فالشعور بالحرمان هو شعور نسبي يختلف من طرف إلى آخر ومن مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر. ومن ثم فإن قياس الفقر يجب أن يكون نسبياً هو الآخر.

توسيع النظرة للفقر

ويبدو أننا بحاجة إلى أن توسع النظرة للفقر عبر مدخل اجتماعي ثقافى يمكننا من أن نمس جوانب فى حياة الفقراء أبعد من مجرد أوضاعهم الاقتصادية. فالمدخل الاجتماعى الثقافى يقوم على المنظور الكلي للفقر بوصفه ظرفاً أو حالة اجتماعية ترتبط بعلاقات اجتماعية ونظم للإنتاج وأطر ثقافية - أيديولوجية. فالفقر هو محصلة لأداء نظام اجتماعي - اقتصادي، والفقراء يشكلون فئة اجتماعية تنتمي إلى بناء طبقي، وترتبط بوشائج وعلاقات مع بقية طبقات المجتمع. وإذا نظرنا إلى الفقر من هذا المنحى فإننا نستطيع أن نفتح أفقاً أوسع فى دراسة الفقر، وأن نأخذ قضايا هامة بعين النظر والاعتبار. ولنحاول فيما تبقى من هذا المقال أن نلقى نظرة على بعض هذه القضايا.

لعل أول ما يطرأ على الذهن - ونحن بصدد توسيع قضية الفقر على المستوى التحليلي - هو السؤال عن أصل الفقر، وكيف ينشأ؟ وهل الفقر سمة أصيلة أم مكتسبة؟ لا يمكن الزعم بأن الفقر سمة أصيلة لصيقة بالفقراء. فالفقر ينتج عن الظروف التى يوجد الناس فيها. ولذلك فإن الفقر هو نبت للمجتمع وللنظام الاقتصادى الذى يوجد فيه، والظروف التى تمر بها عملية التطور الاقتصادى الاجتماعى فى المجتمع. ويوجد الفقر فى معظم المجتمعات، ولكنه يتكاثر ويتعاظم

فى المجتمعات النامية الواقعة فى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. فهذه المجتمعات تتعرض لظروف شاقة، وتتضاعف عليها ظروف الاستغلال الاقتصادى. فهى تخضع لآليات النظام الرأسمالى العالمى الذى يفرض عليها شروطه ويملى عليها قوانينه. وتقوم هذه القوانين على فكرة تعظيم الفائدة الاقتصادية، والعمل فى ضوء مبادىء الحرية الاقتصادية. ومن ثم تزداد فى هذه المجتمعات حدة الاستقطاب الطبقى. وفى ضوء نقص الموارد وفرص العمل، وضعف النمو الاقتصادى، والميل الثقافي نحو التوالد والتكاثر، يزداد الفقر باطراد، وتزداد المشكلات المصاحبة له مثل مشكلات الهجرة والتكدس السكاني، ونقص خدمات الإسكان، والتدهور الحضرى وغير ذلك من المشكلات.

ويؤدى تزايد الفقر على هذا النحو إلى الدخول فيما يسمى الدائرة المفرغة للفقر. فالفقر يترتب عليه تدهور فى أحوال الفقراء الصحية والتعليمية والسكنية، ويترتب على هذا أن يصبح الفقراء غير قادرين على الحصول على عمل وعلى تحسين أوضاعهم الصحية والتعليمية والسكنية، ومن ثم فإنهم يزدادون فقراً باستمرار رغم الجهود التى تبذل لتحسين أوضاعهم، فلا تستطيع هذه الجهود أن تكسر حلقة الفقر عند أى من مفاصلها. فهذه الجهود غالباً ما تتحطم بين مطرقة الفقر وسندان نقص الموارد المتاحة والتزايد المستمر للسكان. هنا يتحول الفقر إلى معضلة تنهك السياسات الحكومية التى تتجه في الغالب نحو تخصيص جزء من الموارد لدعم السلع التى يستهلكها الفقراء.

نقص الموارد والهجرة

ويتوزع الفقر داخل المجتمع مكانياً وزمانياً على نحو يؤشر على قدر من عدم التساوق والانتظام. فقد أدى نقص الموارد فى المجتمعات الريفية، والتزايد المستمر فى معدلات الخصوبة فى هذه المجتمعات إلى تدفق موجات الهجرة إلى الحضر. ولم يكن كل المهاجرين من العمال المهرة الذين يعملون في المصانع ، بل كان معظم هؤلاء من عمال الزراعة الذين يعانون من الأمية وسوء الصحة، وعدم تملك مهارات تتناسب مع أنشطة الحضر الاقتصادية. ولقد شكل هؤلاء عبئاً على المدينة، وشكلوا قطاعات سكانية هائلة فى داخلها، وانتشروا على أطرافها فى تجمعات سكنية عشوائية امتدت امتداداً سرطانيا على أطراف المدن وفى أحيائها القديمة. وترتب على ذلك أن تفاقمت ظاهرة الفقر الحضرى، وأصبحت تلازمها مظاهر أخرى للتردى الحضرى المتمثل في انتشار السكن العشوائى بما يعانيه من ترد فى مستوى الخدمات الاجتماعية ونوعية السكن المتاح، وفى نمو الاقتصاد غير الرسمى الحضرى، وتشعب الأنشطة الاقتصادية التى لا تنتظم فى الاقتصاد الرسمى للدولة، هذا فضلاً عن تفشى الجريمة والعنف والتطرف الدينى وتعاطى المخدرات والبلطجة الحضرية. لقد أصبحت المدينة مدينة متضخمة فى



مستوى تحضرها ولكنها متدنية في مستوى حضريتها. فهي مدينة تنمو ويتكاثر عدد سكانها وتشهد تحولاً مستمراً إلى الحياة الحضرية «هذه عملية التحضر» ولكنها تؤدى في داخلها إلى سكان ينقصهم السلوك الحضرى (أو ما يعرف بالحضرية).

وعبر الزمان يتزايد الفقر أو يتناقص وفقاً لدرجة نجاح النظام الاقتصادي في استيعاب الفقراء ودمجهم في مستوى معيشي ملائم. ولكن واقع الحال لا يدل على ذلك. فالتاريخ يكشف أن الفقراء في تزايد مطرد. وقد لا يرتبط التزايد عبر الزمن باطراد الزيادة السكانية فحسب، بل قد يرتبط أيضاً بطبيعة التغير في النظام الاقتصادى للمجتمع. فقد تحول كثير من المجتمعات عبر العالم - ومنها مصر - من نظام ذوى توجه اشتراكى إلى نظام ذي توجه ليبرالي. ولاشك أن عمل آليات السوق في النظام الرأسمالى الليبرالى يؤدى إلى مزيد من الإفقار لقطاعات أكبر من السكان، الأمر الذى يفرض على الدولة أعباء أكبر لمواجهة الفقر والتغلب عليه، والتناقض الذى يثيره هذا الموقف أن التحول الذى أشرنا إليه من النظم الاشتراكية إلى النظم الليبرالية هو تحول يرتبط بتغير في دور الدولة التى تتحول من دولة راعية إلى دولة مستقلة، أى من دولة تحتوى سكانها وتفرض عليهم رعايتها «التى لا تكون رعاية كاملة ولا مثالية في بعض الأحيان» إلى دولة تترك للسكان رعاية أنفسهم في ظل دور مستقل للدولة. ويظهر التناقض هنا في أن الدولة المستقلة تفرض عليها ظروف تزايد الفقر التدخل لتعديل الأوضاع وتحقيق الاستقرار والتوازن. إن استقلال الدولة يتطلب قدراً من التوازن بين طبقات المجتمع، ومادام هذا التوازن مفتقدا فلا استقلال للدولة قط.

غياب الرجل

ولا تقتصر تضاريس خريطة الفقر على اعتبارات الزمان والمكان، ولكنها تمتد إلى الفروق على مستوى النوع وداخل النوع ذاته. فقد ترتب على هجرة الأزواج ظهور نوع جديد من الأسر تديره النساء، وفي هذا الظرف تتحمل المرأة الكثير من صور المشقة. وقد تضطر إلى العمل في ظروف صعبة وقاسية من أجل رعاية الأطفال ووضع قروشها بجانب قروش الزوج - إن وجد - لكى تستمر الأسرة في البقاء.. وعندما يكون المستوى الاجتماعي الاقتصادى لهذا النوع من الأسر منخفضاً فإن المشقة تزداد على المرأة بشكل أكبر وتواجه المرأة ظروف الفقر والعوز بمفردها.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كشفت الدراسات عن أن نسبة كبيرة من الأرامل والمطلقات يعشن في ظروف فقيرة. ولقد أثارت هذه النتائج بالإضافة إلى نتائج

دراسات الهجرة، أثارت قضية الفقر عند المرأة وظهر فى داخل تراث علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية مبحث جديد يركز على ما يسمى المرأة المعيلة أى المرأة التى تعيش بمفردها مع أطفالها بدون الزوج، وهى التى تدير شئون الأسرة وتكون مسئولة مسئولية كاملة عنها بسبب الهجرة أو الوفاة أو الطلاق. وتشير الدراسات إلى تزايد أعداد النساء اللائى يعولن أسراً. وإذا كانت المجتمعات النامية بشكل عام تعانى مما يسمى «بفجوة النوع» أى تزايد الفروق بين النساء والرجال فى الحصول على فرص العمل والتعليم وتعلم القراءة والكتابة والصحة والمشاركة الاجتماعية والسياسية، فإذا كانت المجتمعات النامية تعانى من هذه الفجوة فإن زيادة الفقر بين النساء وزيادة المسئوليات الملقاة على عاتقهن بسبب المسئولية الأسرية فى حالة المرأة المعيلة يؤدى إلى زيادة فجوة النوع، وتصبح المرأة عاجزة عن أن تستخدم قدراتها وإمكاناتها استخداماً مفيداً، ويتحول وضعها فى الحياة إلى وضع هامشى بحت.

الفقر والتهميش الاجتماعى

وعلى ذكر الهامشية فلعلنا نختتم هذا المقال بالإشارة إلى دور الفقر فى التهميش الاجتماعى والسياسى. فلاشك أن الظروف الاقتصادية الصعبة التى يعيشها الفقراء تجعلهم ينشغلون بهموم حياتهم ومشكلاتهم اليومية، ويكون يومهم منذ مطلع نهاره حتى مغيب شمسه كفاحاً من أجل التغلب على مشكلات الحياة، كما أنه يكون مليئاً بما يطلق عليه «استراتيجيات التكيف مع الظروف الصعبة» وهى استراتيجيات يستخدم فيها كل ما هو متاح فى أيدى الفقراء من موارد مادية وثقافية من أجل تحقيق قدر من الاستمرار والاستقرار وفى إعادة إنتاجية الأسرة. ولاشك أن هذا الظرف يبعد الفقراء عن التيار الأساسى للحياة الاجتماعية فى المجتمع، ويضعهم هناك فى مكان هامشى لا يرتبط فقط بهامشية الموقع على أطراف المدينة وفى الأحياء المتخلفة منها ولكن أيضاً بالهامشية السياسية والثقافية والاجتماعية. وكلما تزايدت حدة الفقر شعر الفقراء بالانفصال والتهميش والعزلة، وكلما ازدادت لديهم الاستراتيجيات الثقافية القائمة على الحيلة والتحايل من أجل استمرار هذه الحياة.

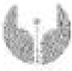
ولا نود أن نخوض هنا فى الحديث عن ثقافة الفقراء كما أننا لا نود أن نؤكد على أن للفقراء ثقافة خاصة بهم، ولكن النقطة الأساسية التى نود التركيز عليها هى أن ثقافة الفقراء ترتبط ارتباطاً كبيراً بالظروف التى يعيشون فى كنفها وهى ثقافة تنبع من حياة «الظلف» التى يعيشونها وهى تأخذهم إلى عالم خاص بهم يعيشونه ويحافظون عليه، وقد يثورون على من يقتحم هذا العالم اقتحاماً يتهدد فيه الحد الأدنى من العيش الذى يحافظون عليه. وينتهى هذا الأمر إلى عزلة سياسية وإلى عدم القدرة على تطوير رأس مال اجتماعى، أى عدم القدرة على الدخول فى علاقات تتجاوز حدود المصلحة الفردية إلى عالم الجماعة. وهذا موضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث العميقين.. ■

كيف ندرك قضايانا؟

بقلم
د. مصطفى سويف

الحديث عن النظرة التجزيئية والنظرة التجميعية أو التكاملية للأمور حديث بالغ الأهمية ، لأنه يتناول جذرا عميقا من جذور حياتنا الاجتماعية في سوائها واضطرابها ، واهتداءً بهذه الحقيقة دأبت في الآونة الأخيرة على الإشارة إلى هذا الجذر (في مقالاتي في هذه المجلة الرصينة) ، غير أني لم أتوقف عنده لأوفيه حقه ، ربما لأنني لم أكن قد مهدت الطريق أمامه بما فيه الكفاية ، وربما لأن بعض الموضوعات التي نفذت إلى معالجتها من خلاله (مثل موضوع «القوالب المفرغة» ، وموضوع «الإهدار») كانت شديدة الوطأة على عقلي ووجداني معا بحيث فرضت لنفسها الأولوية على ساحة الكتابة والمناقشة . على أي حال ، أعتقد أنه قد آن الأوان لكي ننظر في هذا الجذر نظرة مدققة ، لنعرف حقيقته ، ونتبين بعض العوامل التي تؤثر فيه بالنمو والنقصان ، ومن ثم نعرف كيف نرقى به ليحتل لدينا أعلى مراتب الوعي ، وليصبح المنارة التي تهدينا سواء السبيل ، نحو الفهم الناصع ، والتدبير الحصيف ، والفعل الرشيد.

الكل والجزء في إدراكنا



الأصل في عملية الإدراك لدينا أننا ندرك الأشياء مجملة في باديء الأمر ، ثم إذا بهذه الأشياء تتفتح أمامنا عن أجزائها ، ثم إذا بهذه الأجزاء تتكامل في الكل الذي كان مجملا وأصبح الآن مفصلا ؛ وفي تكامل الأجزاء داخل الكل يكتسب كل جزء معناه ووزنه ، يصدق هذا على إدراكنا الأشياء المادية، وعلى موضوعات الفكر ، والأشخاص ، ومواقف الحياة ، مادام المدرك كيانا مركبا وليس بسيطا شديد البساطة .

وقد يستشف البعض من هذا الوصف أن مسيرة عملية الإدراك تمضي هكذا دائما ، في يسر وسلاسة، من الكل إلى الأجزاء إلى الكل ، ولكن هذا غير صحيح ، والصحيح أنها تتعثر أحيانا ، والصحيح أيضا أن هذا التعثر يصل إلى مستوى التعطل أحيانا أخرى، وفي هذه الحالات تكون له آثاره السلبية على جميع جوانب الفكر لدينا (بدءا من إدراك المعنى وانتهاء بالتخطيط للمستقبل على ضوء ما أدركنا) ، وعلى أبعاد الفعل بما في ذلك وجهته العامة ، ومقاصده وخطواته.

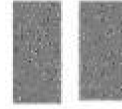
وتبدو احتمالات التعثر والتعطل أوضح ما تبدو عادة في مجال الإدراك الاجتماعي ، إدراك الأفكار والآراء والكيانات الاجتماعية ، وكلما زاد الموضوع أو الكيان الاجتماعي الذي يواجهنا تركيبا أو تعقدا، زادت احتمالات وقوع التعثر والتعطل ، ومن ثم زادت احتمالات ظهور الفكر المشوه والفعل الشارد . وفي الفقرات التالية من هذا المقال سوف أعالج هذه المشكلة: سوف أبدأ بتوضيح ماذا أقصد بعلاقة الجزء بالكل في مدركاتنا، ثم أنتقل إلى شرح ما يحدث في إدراكنا المواقف الاجتماعية التي هي بطبيعتها مركبة ومعقدة، ولماذا نتعثر في إدراك علاقة الجزء بالكل في حالتها ، ثم أختم المقال بإشارات إلى الكيفية التي يمكننا بها رفع كفاءة هذه الوظيفة العقلية الهامة ، والإقلال من احتمالات التعثر في تفعيلها.

الإدراك وإطار الدلالة

من المصطلحات الشائعة في علم النفس الاجتماعي (وهو واحد من العلوم النفسية الحديثة) مصطلح «إطار الدلالة»، ويشار به أساسا إلى منظومة العوامل التي تدخل في تحديد المعنى (أو القيمة أو الوزن) الذي نخلعه على أي مدرك من مدركاتنا .

ومن أبسط الأمثلة التي نضربها في هذا الصدد المثال الآتي : تصور أنك أعطيت في يدك (وأنت معصوب العينين) جسما معدنيا زنته عشرة جرامات ، وطلب إليك الحكم بمدى خفته أو ثقله ، وبعده أعطيت جسما آخر يزن عشرين جراما لتحكم أيضا على مدى خفته أو ثقله ، ثم جسما ثالثا يزن ٣٠ جراما .. وهكذا إلى أن أعطيت جسما زنته ستون جراما (مع تماثل هذه الأجسام جميعا في الشكل) .

هذا في الجزء الأول من التجربة . وفي الجزء الثاني أعطيت أجساما مماثلة للحكم أيضا على مدى خفتها أو ثقلها



ولكن فى هذا الجـزء تبـدأ الأوزان من ١٠٠ مـائة جـرام وتتسلسل إلى ٩٠، ثم ٨٠ ، ثم ٧٠ ، لتصل فى النهاية إلى ٦٠ جراما . إذا أجريت التجربة بشقيها على هذا النحو فالاحتمال الواضح أنك سوف تحكم حكمين مختلفين على الجسم الذى يزن ٦٠ سـتين جـرامـا ، إذ سـيكون حكمك وهو يأتيك فى نهـاية التـسلسل الأول أنه ثقيل (وستشعر بذلك فعلا) ، وسـيكون حكمك وهو يأتيك فى نهـاية التسلسل الثانى أنه خفيف (وستشعر بذلك فعلا) ، وهذا يعنى أن إدراكك لدى خفـة أو ثقل هذا الجسم الواحد يتوقف على مكانه (أو ترتيـبـه) فى تسلسل إجرائه بالنسبة للأجسام الأخرى التى أحاطت به (أو سبقته مباشرة) . هذه تجربة بسيطة كان علماء النفس يجرونها فى معاملهم فى منتصف العشرينيات من القرن الماضى ، وكانوا يمثلون بها لحقيقة تواجهنا فى كثير من مواقف الحياة التى ندرك فيها ما يحيط بنا من أشـيـاء مـادية كـالأحجـام والأصوات والألوان ، وهى الحقيقة نفسها التى نعبر عنهـا أحيانا بقولنا إن إدراكنا الأشياء نسبى (يتوقف على السياق) . وقد طور العلمـاء المتـخـصـصـون فى سنوات الثلاثينيات والأربعينيات طراز التجربة السابقة مستحدثين بذلك نماذج متعددة لتمـثيل الحـقيـقـة نفسـهـا ولكن مع موضوعات أخرى غير أوزان الأجسام ، وهو مـا سـمح باكـتـشـاف أننا بصـدد قانون نفسى عام يصدق على مدركاتنا جـمـيـعـا ، المادية والمعنوية ، ولكننا لن نحكي هذه القـصـة مـفـصلة لأن المقـام لايسـمح بذلك ، ومن ثم نكتـفى بهـذه الإشـارة الموجـزة ، والشيء الذى يهـمنا فى هذا الموضـوع هو التنبيه إلى أهمية إطار الدلالة لكي نحسب حسابه فى فهم كل ما يمر بنا فى حياتنا الاجتماعية من أقوال ، وأحداث ، وأشخاص ومواقف .

صعوبات التطبيق

جدير بالذكر أن تطبيق هذه الصيغة فى حياتنا اليومية ، ومن خلال إدراكاتنا اللحظية، ليس بالأمـر الهين دائمـا ، بل كـثيـرا مـا تعـترض سبيله صـعـوبات مـخـتـلفـة ، وربما كـانت أهم هذه الصعوبات ثلاث ، هى : غياب الإطار أو عدم حضوره حضورا ماديا ملموسا فى معظم الأحيان ، ووقوع الأحداث متفرقة فى المكان والزمـان ، وتعـدد الأطر التى يمكن من خلالها فهم المفـردة الإدراكية فى كثير من الحالات.

ولننظر فى هذه الصـعـوبات واحـدة بعـد الأخرى . فـأمـا الصـعـوبة الأولى فـأمرها يسير ، لأنهـا تشير بعكس ما وجـدنـاه فى تجـربة إدراك خـفـة أو ثقل الجسم المعدنى التى ذكرناهـا فى الفقـرة السـابقـة حيـث الأجسـام الأخرى ذات الأوزان الأخف والأوزان الأثقل حـاضـرة فى المجـال الإدراكى لمن تجـرى عليـهم التـجربة . ومن ثم نفـهم كيف أن غيـاب هذه الأجسام المغايرة يثير درجة معينة من الصعوبة .

أما الصعوبتان الثانية والثالثة فهما اللتان تستحقان التريث فى مناقشتهما . ونبـدأ بأولى هـاتين الصـعـوبتين : تفـرق

الأحداث المدركة في المكان والزمان؛ نأخذ هنا مثالا من أحداث واقعية ورد ذكرها في مجلة المصور بتاريخ ١٧ سبتمبر الماضي . ففي تحقيق أجرى عن أسلوب الإدارة في جهاز الإذاعة والتليفزيون ذكر الكاتب أسماء عدد من الرؤساء قام كل منهم بتعيين ابنه أو ابنته في القسم الإداري الذي يرأسه ، أي تحت رئاسته شخصيا . والسؤال الذي يعنينا هنا هو : كيف ندرك هذه الوقائع الثلاث أو الأربع التي ورد ذكرها في هذا التحقيق؟ هناك عدة طرق يمكن اختزالها في طريقين لإدراك هذه الوقائع؛ الطريق التجزيئي ، والطريق التجميعي أو التكاملي، أي الطريق الذي يكامل بين هذه الوقائع في كل له معنى ، وربما زاد على ذلك بأن كامل بينها مجملة ووقائع أخرى قد لاتشبهها شكلا ولكنها تماثلها دلالة ، ومن ثم ينتهي بنا إلى إدراكها جميعا داخل إطار واحد للدلالة ، هو إطار «المحسوبية للأقرباء» . وما ألاحظه في كثير من الأحوال أن الكاتب (أو المتكلم) يسلك الطريق الأول أعني الطريق التجزيئي . والسؤالان اللذان يجب ألا يغيبا عن أذهاننا في مثل هذا الموقف هما : أين ينتهي بنا الطريق التجزيئي ؟ وإلى أين يتجه بنا الطريق التكاملي ؟

أين يأخذنا طريقا الإدراك ؟

نبدأ بالطريق التجزيئي ، وهذا يأخذنا إلى استهجان كل واقعة على حدة ، وربما إلى الإساءة إلى اسم مرتكبها . وسرعان ما يرد مرتكب الواقعة بأن الكاتب قصد التشهير به ، وأن المسألة تصفية حسابات ، وأنه ليس وحده الذي فعل ذلك ... الخ . وغالبا ما ينتهي الأمر الى تشتيت جهد الكاتب والقارىء معا فيما لايزيد على مستوى التنابز بالألقاب والأفعال الشخصية ، هذا عن الطريق التجزيئي ، أما الطريق التكاملي فيتجه بنا إلى بلورة قضية اجتماعية ، وذلك بالجمع بين الوقائع الثلاث أو الأربع المذكورة ، وفي هذه الحالة لا يكون الجمع فيما بين بعضها البعض من حيث التشابه الشكلي، ولكن من حيث واحدية إطار الدلالة الذي يحتويها وهو «إطار المحسوبية للأقرباء» ، وقد يرقى بنا هذا الإطار إلى إطار آخر أشمل منه وهو «إطار الفساد الإداري». ومعنى ذلك أن طريق الإدراك التكاملي يتجه بنا إلى اكتشاف أحد أدوائنا الاجتماعية أو أحد الأبعاد الرئيسية للخلل الاجتماعي العميق الذي نعاني منه ، وهو في الوقت نفسه ينأى عن التوقف عند الوقائع الفردية التي قد تستغرقنا فنعجز عن تجاوزها إلى ما تمثله هذه الوقائع كمفردات لتيارات فاسدة تنخر في نسيج الحياة الاجتماعية بإسهام الكثيرين منا وعلى غفلة منا جميعا .

ولمزيد من التدقيق في هذه النقطة الخاصة بمساوىء الطريق التجزيئي للإدراك وهي التي ينأى بنا عنها الطريق التكاملي يلزمنا الوقوف عند سؤال محدد : كيف تقع بالضبط مساوىء الطريق التجزيئي ؟ إنها تقع نتيجة لتدخل عوامل متعددة ، بعضها عن وعي والبعض الآخر عن غير وعي من الكاتب (أو المتحدث) ؛ من هذه العوامل أن يكون ذهن الكاتب

منشغلا أكثر مما يجب بشخص مرتكب هذه الواقعة أو تلك ، وهذا أمر جائز بالنسبة لنا جميعا ، أو أن يكون الكاتب على غير علم إلا بواقعة واحدة من هذا الطراز أو ذاك وهى الواقعة التى يتحدث عنها ؛ أو ألا تحضر فى ذاكرته (وقت الكتابة أو القول) وقائع أخرى مشابهة رغم معرفته السابقة بها ، .... إلى آخر هذه الأشكال من قصور المعرفة أو تشوهها ، وهى أشكال عديدة ، يمكن أن تترتب جميعا على ما أسميناه حدوث الوقائع متفرقة (أو متباعدة) فى الزمان أو فى المكان أو فيهما معا .

تعدد أطر الدلالة

أما عن هذه الصعوبة وهى تعدد الأطر المرشحة لأن يكون كل منها إطار دلالة ندرك من خلاله الموضوع الواحد الذى نحن بصدده فهذه أكثر الصعوبات الثلاث تركيبا أو تعقيدا ، ولكى يمكن تذليلها لابد للكاتب (أو المتحدث) من أن يواجه عددا من الأسئلة ويجيب عن كل منها إجابة واضحة وأمينة ، والسؤال الأول فى هذا الصدد يتعلق بهدف الكاتب من طرح هذا الموضوع - هل هو التشهير بفلان أو فلانة ؟ أم طرح قضية لها قدر من العمومية ؟ والسؤال الثانى هو : إذا كان الهدف طرح قضية عامة فإلى أى مدى يتخيل اتساع عموميتها ؟ ونظل عند المثال الذى نحن بصدده ، مثال التعيينات فى جهاز الإذاعة والتليفزيون ؛ هل المستهدف هو طرح القضية فى حدود الممارسات التى تجرى داخل هذا الجهاز فقط ؟ يمكن أن تقوم بذاتها كقضية ، على أساس أن المسألة هنا ليست مسألة جهاز واحد هكذا ولكنها مسألة جهاز بالغ الأهمية والحساسية بالنسبة للدولة والشعب على حد سواء ، هل هذا هو المستهدف؟، أم المستهدف هو الامتداد بدلالة هذه الأحداث على ما يجرى من ممارسات فى كثير من مؤسسات الدولة ؟، والسؤال الثالث هو إذا كان المقصود هو طرح الموضوع كقضية عامة تصدق على ممارسات متباينة فى مفرداتها وفى أشكالها وإن توحدت فى معناها فهل لهذا المعنى دلالة أعم بحيث نستطيع أن نربط بينها (عقليا) وممارسات أخرى قد تبدو للنظرة غير المتأنية شديدة الاختلاف عما نحن بصدده ؟ هذه الأسئلة الثلاثة تعتبر عينة كاشفة عن حقيقة الصعوبة التى نحن بصددها ، وهى تعدد الأطر المرشحة لأن نقدم من خلالها الحدث الواحد (أو المجموعة الواحدة من الأحداث) ، ومع ذلك فهذا بند واحد من بنود هذه الصعوبة ، وهو بند الأطر الاحتوائية ، حيث الإطار الثالث والأخير يحتوى على الإطار الثانى ، وهذا بدوره يحتوى على الإطار الأول أو بعبارة أخرى حيث تعدد الأطر يعنى اتجاها إلى مزيد من التوسع فى التعميم . ولكن هناك بنودا أخرى أشد تعقيدا ، حيث ينطوى تعدد الأطر على نوع من التنازع أو التصارع فيما بينها ، نأخذ مثالا على ذلك من الأحداث الجارية على مشهد منا جميعا : هذا الحدث هو دخول الجيوش الأمريكية فى العراق فى أبريل سنة

٢٠٠٣ وما تلاه من أحداث تشارك فيها هذه القوات. هذا مثال جيد لتعدد أطر الدلالة وتصارعها ؛ إطار إدخال وإرساء النظام الديمقراطي في الحكم ، تقدمه وتدعمه الإدارة الأمريكية الحالية، وإطار إرساء الهيمنة الأمريكية المباشرة على منطقة الشرق الأوسط برمتها : في هذا المثال وأشباهه تواجه الكاتب مشكلة المفاضلة (وحسمها) بين الإطارين المتنازعين . وربما بدت مسألة المفاضلة في حالة هذا المثال مسألة يسهل حسمها ، ولكن هناك أمثلة أخرى ليست على هذا المستوى من سهولة الحسم ، خذ مثلا بعض الأحداث التي تجرى في مجال التعليم لدينا ، من هذا القبيل موضوع السنة السادسة الابتدائية : كانت موجودة أصلا ، ثم صدر قرار بإلغائها ، ثم صدر قرار بإعادتها . ماهو إطار الدلالة الذي تقدم هذه الأحداث الثلاثة بداخله ؟ هل هو إطار اختلاف الفلسفات التربوية ؟ أم هو إطار تضخم الإرادات الفردية لكثير من الوزراء ؟ أم هو الاستهانة بالأعراف والقوانين القائمة؟. وهناك أمثلة أخرى كثيرة يستطيع القارىء أن يستحضرها بذهنه على ضوء هذا الحديث . الشيء المهم أننا هنا بصدد مواجهة لمستوى مرتفع من مستويات الصعوبة الناجمة عن تعدد الأطر التي يمكن من خلالها إدراك بعض الموضوعات . والسؤال المهم هنا هو كيف نتغلب على هذا المستوى من صعوبة تعدد الأطر (حيث الأطر متنازعة فيما بينها) ؟ الطريق إلى الإجابة هنا يشبه الطريق الذي يسلكه العلماء في تعاملهم مع فروضهم العلمية ؛ يواجه العالم ظاهرة معينة تقوم في مجال تخصصه لم يتعرض لها من قبل ، فيحاول تفسيرها ، وفي محاولته هذه يضع فرضا معينا ، ثم يحاول أن يمتحن حق هذا الفرض بامتحانات معينة ، أهمها امتحانان ، الأول هو مدى اتساع هذا الفرض لأن يستوعب مجموع الحقائق المعروفة عن مجال الظاهرة التي يهتم بدراستها ، والامتحان الثاني هو أن يستخدم الفرض الذي وضعه في التنبؤ بوقوع أحداث بعينها ، فإذا صدق هذا التنبؤ ووقعت الأحداث فعلا جمع الامتحانين معا ليجيز لنفسه أن يقتنع بصحة الفرض الذي وضعه ويدعو الغير إلى الاقتناع به ، هذا هو الطريق، أعني هذا هو التوجه العام للطريق ، ولا أعني أن يأخذ الكاتب (أو المتحدث) نفسه بالتحرج ذاته وبالصرامة نفسها .. الخ اللذين يأخذ العالم بها نفسه وهو بصدد التحقق من صحة فروضه . المهم هو التزام هذا التوجه في خطوطه العامة ، وأهم هذه الخطوط هو الامتحان العقلي النقدي للإطار الذي يختاره ، والإبقاء (في ذهنه وفي عباراته التي يسوق بها رأيه) على درجة بعينها من احتمالات إدخال بعض التعديلات على هذا الرأي نتيجة لعثوره على بعض الوقائع أو الحقائق التي قد تنكشف أمامه فيما بعد نتيجة لاستمرار النظر أو مواصلة الحوار .

الطريق إلى رفع كفاءة الإدراك

وأخيرا وليس آخرا نأتي إلى هذا التساؤل : كيف الطريق إلى رفع كفاءة الإدراك ؟ نقطة البدء في الإجابة عن هذا

التساؤل تتمثل فى أن يكون واضحا لنا أن الإدراك وظيفة نفسية، (شأنها شأن الذاكرة ، والانتباه ، والقدرة على حل المشكلات..... الخ)، قابلة للتدريب ومن ثم التنمية والتعديل .

وننتقل الآن إلى الإجابة نفسها . وتحتشد فى إطار هذه الإجابة عدة نقاط، ورد ذكر بعضها متناثرة فى ثنايا المقال ، ولكن البعض الآخر لم يرد له ذكر . وفيما يلى نورد هذه النقاط جميعا آملين أن يساعد هذا الاحتشاد على إنفاذ الرسالة التى توخيناها من كتابة هذا المقال :

النقطة الأولى :

أن نحاول قدر استطاعتنا أن نتسلح بأعلى درجة من التنبه والوعى فى مواجهة أحداث الحياة الاجتماعية التى تدور حولنا .

النقطة الثانية :

أن نعرف أن تفعيل هذا الوعى إنما يبدأ بإلقاء السؤال تلو السؤال فى محاولة جادة لفهم حقيقة هذه الأحداث بغض النظر عن زخرف القول الذى يساق عادة للتبرير .

النقطة الثالثة :

أن نعى أن فهم الأحداث لايتحقق بالوقوف عند كل منها منفردا ، ولكنه يتحقق بالنظر فى الحدث باعتباره جزئية داخل إطار كاشف عن الدلالة ، ومن ثم يكون الهم الرئيسى لطالب الفهم أن يستكشف الإطار الملائم ، ويتبين معالم الدور الذى تقوم به هذه الجزئية فى هذا الإطار .

النقطة الرابعة :

أن نحسن التعامل مع ما نتصور أنه الإطار المناسب ، وذلك بأن نضعه فى مرتبة أعلى قليلا من مجرد التخمين، وأدنى قليلا من اليقين، وذلك حتى نمتحن صلاحيته لفهم ما نريد أن نفهم . فإذا اجتاز الامتحان أبقينا عليه، وإذا فشل أسقطناه من حسابنا .

النقطة الخامسة :

كثيرا ما تتزاحم على صفحة الذهن أطر متعددة لفهم الحدث الواحد ، فإذا تعذرت المفاضلة بينها على أساس مفهوم الصدق ومنطق الخبرة فمن الحكمة الاحتفاظ بها جميعا كأحكام معلقة ، أو كاحتمالات متعددة للتفسير، والمستقبل كفيل بالحسم ، شريطة أن نبقى على انفتاح الذهن ، وسعة الصدر، ومداومة التساؤل .

النقطة السادسة :

فى مثل زماننا هذا ، حيث ارتقت قدرة الإنسان على الخداع ، كأثر من الآثار الجانبية لنمو قدرات الإبداع ، تزداد قيمة شحنة الإدراك باعتباره الأداة الأولى فى حسم نتيجة الصراع من أجل البقاء ، لأن الإدراك الصائب شرط الفعل الرشيد ، والفعل الرشيد شرط البقاء والارتقاء . ■

أقـــوال معاصرة

● «نحن نتبع سياسة الشفافية التامة»

رئيس الوزراء الدكتور أحمد نظيف

● «أعتقد أننا نحتاج إلى البراءة كي نكتب»

الأديب البرازيلي باولو كويلو

● «العمل الأدبي قطرة ماء تضم المحيط»

الأديب العراقي فؤاد التكرلي

● «وجود الإنسان محتاج للحرية حاجته للعدالة»

الأديب العالمي نجيب محفوظ

● «أن للبشرية أن تكتشف أن الوداعة أم الفضائل، فهي ترياق ضد ممارسة العنف ضد كائن من كان ولأي سبب كان»

المفكر الإيطالي نور برتو بوبيو

● «لا يمكن تغيير الواقع إلا بعد فهمه»

الكاتب البحريني محمد جابر الأنصاري

● «إذا استمر شيء معين يكرر على أنه واضح، فالأحرى أن يكون هذا الشيء زائفاً في شكل واضح»

المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي

● «الثقافة العربية السائدة تتحرك ضمن مستويين، أحدهما ذاتي يتمثل في غياب الفكر النقدي، والآخر موضوعي متمثلا في غياب الحريات الديمقراطية»

الشاعر اللبناني عيسى مخلوف

● «آخر شيء أرغب فيه هو التدليل لأنني في الجيش سأكون في الموقع الذي يكون فيه الرجال»

الأمير وليام نجل ولي عهد بريطانيا

● «والداي كانا مقتنعين تماما أنني لن أستطيع تناول الهامبورجر في مطعم للبيض ولكن بإمكاني أن أصبح رئيسا للولايات المتحدة»

كونداليزا رايس المرشحة لوزارة الخارجية الأمريكية

● «الإمبراطورية حسب فهم اليمين في إدارة بوش لا تتوسع بالحب»

جميل مطر كاتب مصري



أحمد نظيف



نجيب محفوظ



محمد جابر الأنصاري

أين ذهبت آمالنا الكبار؟

بقلم
د. جلال أمين

منذ خمسين عاما شهد العالم صعودا مفاجئا لموجة عاتية ، شغلت الاقتصاديين والسياسيين وعلماء الاجتماع. ملئت بها صفحات الجرائد ودارت آلات المطابع لتنشر الكتب عنها ، وأسست من أجلها أقسام ومراكز للبحوث في الجامعات وتكرر الحديث عنها في خطب الرؤساء والزعماء، وتبارت الأحزاب والنظم السياسية في الزعم لنفسها بكفاءة أكبر في تحقيقها. ليس هذا فحسب، بل قامت باسمها الثورات والانقلابات العسكرية، وسقطت بسببها العروش.

هذه الموجة العاتية هي موجة التنمية الاقتصادية. إذ استيقظنا في صباح أحد الأيام لنقرأ أن التنمية الاقتصادية هي مشكلة العصر، وأنها أسمى طموحات العالم الثالث، وأن أكبر مسئولية من مسئوليات الدول المتقدمة هي مساعدة الدول المختلفة على تحقيق هذه التنمية الاقتصادية في أقصر وقت ممكن.



اكتشف كتاب التنمية الاقتصادية أن في بلاد العالم الثالث ثورة ليست كالثورات المعروفة التي تطيح بالعروش والحكومات، بل هي ثورة نفسية تجيش بها الأذهان والقلوب، سموها «ثورة التوقعات العالية» (Revolu tion of Rising Expectations) أو ثورة الآمال الكبار.. وهي تتلخص في أن شعوب العالم الثالث لم تعد، كما ظلت قرونا طويلة، تقنع بالعيش على مستوى الكفاف، بل أصبحت تتطلع الى مستوى أعلى من المعيشة: طعام أفضل، وملبس أليق، ومأوى مناسب، وتعليم حديث، وخدمات صحية متوافرة عند الحاجة، ووسائل للترفيه عن النفس.. الخ، أي باختصار، مستوى من المعيشة يحفظ للإنسان آدميته وكرامته، مثلما توفر لشعوب أخرى سبقت في مضمار التقدم الاقتصادي.

قال هؤلاء الكتاب أيضا إن هذه الثورات في تطلعات الناس وآمالهم، هي الدافع الأساسي وراء هذا الانتشار الملحوظ لبرامج التنمية الاقتصادية الطموح، في بلد بعد آخر من بلاد العالم الثالث، وسماعنا عن خطة خمسية بعد أخرى للتنمية، وهذا الحماس المفاجيء للتصنيع، بل إنه الدافع الأساسي (هكذا قالوا) لقيام الانقلابات العسكرية في كثير من هذه البلاد، معلنة للناس تصميمها على تحقيق التنمية السريعة، واستقبال الناس لها بكل هذا الترحيب والتأييد.

أما القول بأن هذا هو التفسير الحقيقي لكثرة الانقلابات العسكرية في العالم الثالث في الخمسينات والستينات، فهو في رأيي محل نظر ولكن ليس هذا موضوعنا الآن. وأما انه كان هناك بالفعل شيء يمكن تسميته بثورة التوقعات العالية أو ثورة الآمال الكبار استمر طوال العقدين التاليين لانتهاء الحرب العالمية الثانية (٤٥ - ١٩٦٥) فهو في رأيي صحيح، وليس هناك أية صعوبة في تفسيره.

كان هناك أولا الاستقلال السياسي

الذي حصلت عليه دول العالم الثالث، الواحدة بعد الأخرى، في أعقاب الحرب وخروج الدولتين الاستعماريتين الأساسيتين، بريطانيا وفرنسا، من الحرب، عاجزتين عن الاحتفاظ بمستعمراتهما، وتشجيع الولايات المتحدة على حدوث هذا الاستقلال. كان هناك ايضا ما بدا على الاتحاد السوفييتي من نجاح باهر في تحقيق تقدم اقتصادي مذهل حول روسيا من دولة متخلفة الى دولة متقدمة خلال عقدين او ثلاثة، وارتباط هذا التقدم بخطط التنمية الخمسية والتركيز على التصنيع. ربما كان الأهم من هذا وذاك ما ارتبط به قيام الحرب الباردة من تنافس المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي على كسب مواقع نفوذ في دول العالم الثالث مما دفع كلا المعسكرين الى استخدام المعونات الاقتصادية كوسيلة من وسائل هذا التنافس، وبالتالي دفع هذه البلاد للاهتمام بالتنمية الاقتصادية.أضف إلى هذا زيادة درجة الاتصال وسرعة نقل المعلومات من بلد لآخر عن طريق وسائل الإعلام الحديثة، مما زاد من قدرة شعوب العالم الثالث على التعرف على مستويات المعيشة في أجزاء أخران من العالم. كان هناك شيئان آخرن يحدثان في العالم الغربي وساهما أيضا في تغذية ثورة التوقعات العالية في بلاد العالم الثالث. انتشار ما عرف «بدولة الرفاهية» (Welfare State)، أي مسئولية الدولة عن تمكين الجميع، بمن فيهم أفقر الناس ، من إشباع حاجاتهم الأساسية، والتقدم التكنولوجي السريع الذي قام على استغلال ما أحرز من تقدم علمي وتكنولوجي لدعم الأعمال الحزبية.

***

كان هذان العقدان التاليان لانتهاء الحرب (٤٥ – ١٩٦٥) عقدين مدهشين حقا بما شاع خلالهما من تفاؤل بمستقبل العالم بوجه عام والمستقبل الاقتصادي بوجه خاص. صحيح ان الحرب نفسها كانت قد أثارت في نفوس عدد من المفكرين ، في الشرق والغرب، خيبة أمل عظيمة، إذ كان في قيام الحرب الثانية نفسها تخييب للأمل في أن يكون الغرب قد تعلم من كارثة الحرب الأولى واختار ان يعيش في سلام، وبدا إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما سقوطا أخلاقيا ما بعده سقوط للحضارة الغربية، وكانت الفظائع التي يرتكبها ستالين مع معارضيه قد بدأت تتردد اكثر فأكثر على الأسماع ، كما أشاعت فترة المكارثية في الولايات المتحدة في اوائل الخمسينات القلق من ان تكون الديمقراطية الغربية نفسها غير



محصنة تحصينا كافيا ضد الاتجاهات الفاشية. كل هذا صحيح، ولكن كانت الصورة العامة لهذين العقدين صورة تفاؤل بالمستقبل، وانحصر التشاؤم فى دائرة ضيقة من المفكرين والمثقفين دون ان يصبح تيارا عاما. والأرجح أن الانتعاش الاقتصادى الذى ساد فى هذين العقدين كان كفيلا بتبديد المخاوف وطمأنة الناس على المستقبل. لقد فجر هذا الانتعاش الاقتصادى بلا شك طاقات شرائح اجتماعية جديدة كانت تقبع فى قاع المجتمع أو قرب القاع، فرأت امكانيات اقتصادية جديدة تتاح لها ولأولادها فتفاءلت بالمستقبل، وانتشرت عدوى التفاؤل منها الى غيرها.

لم يقتصر الأمر على الدول المنتصرة فى الحرب، بل سرعان ما أعادت الدول المنهزمة بناء اقتصادها. فاذا بالدول الغربية ككل تحقق معدلا للنمو الاقتصادى غير مسبوق في تاريخها. وأقبلت دول اوربا الغربية على إقامة تكتل اقتصادى بشر بدوره بمستقبل زاهر لها جميعا. بل وحتى الغيوم القليلة التى تلبدت فى سماء السياسة سرعان ما انقشعت. فالمكارثية فى امريكا لم تدم طويلا، وقام خروشتشوف فى الاتحاد السوفييتى فى ١٩٥٦ بإلقاء بيانه الشهير امام الحزب الشيوعى ليعلن فيه اعتذاره عن اخطاء ستالين، ويبشر بم جديد من التسامح السياسى. وسرعان ما عمت الأفراح بحصول دول بعد أخرى من دول العالم الثالث على استقلالها، وصعود ابطال وطنيين الى قمة السلطة، وكانوا قد اشتركوا فى عملية إجلاء المستعمر او التخلص من عملائه، من نهرو فى الهند إلى بن بلا فى الجزائر، إلى كاسترو فى كوبا.

***

كيف كان من الممكن ان تكون مصر استثناء من هذا كله؟ كانت الخمسينات وأوائل الستينات فى مصر، بلا شك، كما كانت فى غيرها، عصر التوقعات العالية أو الآمال الكبيرة.

كان التفاؤل قد بدأ بلا شك مع قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكانت أشياء قليلة جدا، حدثت فى أيام معدودة، كافية لاشعال حماس الناس واطلاق قواهم المحبوسة وصعود آمالهم الى أقصى ذراها. كان مجرد عزل الملك، بعد ثلاثة أيام من قيام الثورة، وإعلان قانون الاصلاح الزراعى بعد اقل من شهرين، ثم اعلان الجمهورية بعد اقل من ستة اشهر،

كافيا لاقناع الناس بأن المستقبل سيكون أفضل بكثير لهم ولأولادهم، ومن ثم لم يكن انتشار أغنية مطلعها «ع الدوار.. ع الدوار.. راديو بلدنا فيه أخبار» بموسيقاها الشعبية السريعة والمبهجة، شيئا غريبا بالمرة، فقد أطلقت الثورة مشاعر حبيسة تواقة الى الفرح والتفاؤل، وسرعان ما ظهر الملحنون والمغنون والأدباء والشعراء والسينمائيون والمسرحيون للتعبير عن هذا التفاؤل.

ولكن سنة ١٩٥٦ أعطت موجة التفاؤل هذه دفعة جديدة جبارة، بما بعثه تأميم قناة السويس من ثقة جديدة بالنفس، وتوالت بعدها أخبار أخرى سارة، من إعلان برنامج طموح للتصنيع، إلى تمصير البنوك والشركات، إلى وضع أول خطة خمسية للتنمية، إلى البدء في بناء السد العالي، إلى قوانين التأميم وإعادة توزيع الدخل ابتداء من سنة ١٩٦١، بينما كانت مصر في وحدة سياسية مع سوريا في ١٩٥٨، وتقوم ثورة في العراق وشبه ثورة في لبنان والاردن في نفس السنة، وكان كل هذا يبشر بقرب إقامة الوحدة العربية الشاملة.

عندما انتهت فترة الخطة الخمسية الأولى في منتصف الستينات ظهر أن معدل النمو قد حقق ارتفاعا ملحوظا (أكثر من ٦٪ سنويا بين ١٩٥٦ و ١٩٦٥) لم تشهد مصر مثله منذ الحرب العالمية الأولى، وان نصيب الصناعة في الناتج القومي قد زاد بشدة عما كان في بداية الخطة، فضلا عما حققته بإعادة توزيع الدخل من تضييق الفجوة بين الطبقات وما أدى إليه كل هذا من نمو كبير في الطبقة الوسطى المصرية. كيف يمكن ان يحدث كل هذا دون ان ترتفع التوقعات الى الذرى، وتمتلىء النفوس بالآمال الكبار؟

***

ولكن غيوما ظهرت في الافق في ١٩٦٤، تبين مع مرور الوقت أنها لم تكن مجرد سحابة عابرة، بل بداية لسحاب كثيف استمر يلبد السماء خلال الأربعين سنة التالية وحتى اليوم باستثناءات قليلة لم تنجح قط في إعادة موجة التفاؤل الى المصريين.

كانت الولايات المتحدة قد بدأت تكشف عن أنيابها لمصر، فتعبر لها بين الحين والآخر عن عدم رضاها عن سياسة مصر الخارجية، ومساعدتها للحركات الثورية في افريقيا، وأخذت تقلل بشدة مما تعطيه لمصر من معونات اقتصادية. ثم حدثت في ١٩٦٧ النكبة العسكرية الكبرى، وتوقفت المعونات الامريكية توقفا تاما، وانخفضت كذلك المساعدات الآتية من بقية العالم الرأسمالي والمنظمات الدولية ولم تزد



المساعدات السوفييتية لمصر بما يعوض هذا النقص. كانت نتيجة النكبة العسكرية والانخفاض الشديد في المعونات ان السنوات العشر التالية (٦٥ - ١٩٧٥) كانت من اشد فترات الاقتصاد المصرى بؤسا ركود وبطالة وعجز فى الموازنة العامه وفي الميزان التجارى والالتجاء الى قروض باهظة التكلفة من الخارج والتخلى عن أى طموح فى التنمية او فى إعادة توزيع الدخل.

لم يكن من الممكن لأحد فى مصر فى أواخر الستينات أو أوائل السبعينات أن يتكلم عن عصر التوقعات العالية أو الآمال الكبيرة، فقد كان العكس هو الصحيح. ثم حدث شيء مدهش لمصر وغير متوقع فى منتصف السبعينات، سبب ارتفاعا مفاجئا فى الطموحات وصعودا غير مألوف فى الآمال. كان وراء هذا التحول المفاجيء ظاهرة تلخصها كلمة واحدة «الهجرة» . وأقصد بها بالطبع هجرة الملايين من المصريين الى البلاد العربية الغنية بالبترول على اثر ارتفاع اسعار البترول فى ٧٣/ ١٩٧٤ كانت الثروات التى تولدت عن الهجرة ، كبيرة ومفاجئة والمستفيدون من الثروة النفطية ينتمون إلى مختلف الطبقات بما فى ذلك أفقر المزارعين وأقل العمال مهارة. صحيح انه كان

هناك كثيرون ممن أصابهم الضرر من الانفتاح الاقتصادى ومن التضخم الذى صاحب الانفتاح والهجرة، ولكن الموجة العامة فى مصر كانت موجة من التفاؤل .لم يكن هذا التفاؤل ذا جذور سياسية بالمرة، بل بالعكس بدت التطورات السياسية كئيبة للغاية ومنذرة بأسوأ العواقب، وإنما كانت أسباب التفاؤل اقتصادية بحتة، كما انها كانت تتعلق بتفاؤل بمستقبل مشروعات الأفراد الشخصية وآمالهم فى الإثراء الكبير والسريع، وليس بمشروع قومى للدولة ككل، ولا بآمال تتعلق بالوطن او بالامة العربية.

على كل حال، ما أن وصلنا إلى منتصف الثمانينات حتى كانت الامال كلها قد تبخرت ، والطموحات الكبيرة والصغيرة قد تلقت ضربات قاتلة، الفردى منها والقومى، السياسى منها والاقتصادى، المتعلق منها بمصر وحدها أو بالأمة العربية كلها او بقضية فلسطين على نحو الخصوص. منذ منتصف الثمانينات دخلت مصر إذن مرحلة من مراحل تدهور الطموحات وخيبة الآمال

وتشاؤم التوقعات، تزداد قسوتها يوما بعد يوم، واستمرت طوال العشرين عاما التالية ولاتزال مستمرة حتى اليوم، ومن ثم تبدو فترة السنوات العشر (١٩٧٥ - ١٩٨٥) التى ازدهرت فيها الامال الفردية فى تحقيق طموحات شخصية بحتة، كمجرد فترة انقطاع قصيرة واستثنائية تخللت فترة تدهور طويلة، عمرها الان اربعة عقود كاملة (٦٥ - ٢٠٠٤).

***

سبق أن أشرت إلى أن فترة التفاؤل الرائعة التى مرت بها مصر طوال الخمسينات وأوائل الستينات «٥٢ - ١٩٦٣) لم تكن إلا جزءا من حالة تفاؤل عامة شملت العالم بأسره. وقد أشرت باختصار الى اسباب التفاؤل المصرية والى اسباب تفاؤل العالم ككل، فهل يجوز ان نتوقع ان يكون هذا التدهور الذى اصاب الحالة المصرية منذ منتصف الستينات، واستمر كل هذه الفترة الطويلة، استثناء مما يحدث فى العالم؟ الحقيقة أن مصر هنا ايضا، فى تدهورها الحالى، كما فى ارتفاع طموحاتها السابق لم تكن استثناء على الاطلاق. إذن فلننظر الى ما حدث فى العالم منذ منتصف الستينات.

كان العالم كله قد روع فى اواخر سنة ١٩٦٣ بمقتل الرئيس الأمريكى كيندى، فى ظروف لم يتم كشف القناع عنها حتى الان. وبعد ذلك بشهور قليلة سمعنا ايضا بسقوط خروشتشوف لأسباب لم يجدها الكثيرون حينئذ ، ولا تبدو حتى الآن مقنعة تماما. ولكن ايا كانت اسباب سقوط هذا وذاك، وسواء كانت هناك علاقة بينهما أو لم تكن، دخل العالم الغربى والعالم الشيوعى، كلاهما فى فترة من التدهور الاقتصادى ابتداء من أواخر الستينات ، ولكنهما دخلا ايضا فى مرحلة جديدة من العلاقات فيما بينهما عرفت بمرحلة(الوفاق) Detete وقد وصفها بعض الكتاب حينئذ بانها ليست مرحلة جديدة من توازن القوة بل من توازن الضعف. انحسر معدل النمو فى العالم الغربى منذ أواخر الستينات ولم يعد حتى الان إلى ما كان عليه فى العشرين سنة التالية للحرب. وبدأ يظهر بوضوح تضارب المصالح بين الولايات المتحدة من ناحية وأصدقائها فى اوروبا الغربية واليابان، وبدا وكأن الجميع لم يعودوا يجدون فى أسواقهم هم متسعاً كافيا لتصريف المزيد من السلع، وراحت الشركات العملاقة، او متعددة الجنسيات، كما أصبحت تسمى، تبحث لنفسها بهمة غير معهودة عن اسواق لمنتجاتها واستثماراتها فى خارج العالم الصناعى. وانعكس تباطؤ الأداء



الاقتصادى فى الغرب فى انخفاض معدل النمو فى التجارة الدولية وانخفاض المعونات الاقتصادية المقدمة لدول العالم الثالث، وبدا العالم الثالث، فى عيون الدول الصناعية، مرة أخرى، أقرب الى الفريسة التى يتعين التهامها منه الى ذلك الحيوان البرى الطليق الذى تركت له حرية الحركة والتجول كما يشاء فى فترة استثنائية من التاريخ هى فترة العشرين عاما التالية للحرب.

كان لابد للعالم الثالث، فى هذه الظروف، ان يتلقى الضربات، الواحدة بعد الاخرى. كان الشعار الذى رفع منذ أوائل السبعينات، فى دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث، هو شعار «الانفتاح الاقتصادى» أو التحرير الاقتصادى أوالتكيف أو التصحيح الهيكلى. ولكن أيا كانت هذه الأسماء البراقة، فقد كانت الحقيقة المرة أننا ندخل فى عهد جديد من الاستعمار، وأن ما كسبه العالم الثالث فى سنوات ما بعد الحرب، يجرى الآن فقده بسرعة.

لم تكن التطورات الموازية فى العالم الشيوعى تتيح أى فرصة للمساعدة والانقاذ، بل زاد الأمر سوءا ما أصاب الاتحاد السوفييتى من ضعف، بتدهور أدائه الاقتصادى هو الآخر، وتفاقم الفساد، والارتداد عن مسيرة الانفتاح السياسى وزيادة القيود المفروضة على

المعارك... ين. فقد العالم لثالث إذن حليفه القديم، أو على الأقل الدولة التى كانت تقدم له بعض المؤازرة فى ظل الحرب الباردة، ثم دخلت فى نوع من الوفاق مع الدول الاستعمارية القديمة. لم يكن من الغريب مثلا أن يحدث الهجوم الاسرائيلى على مصر وسوريا والأردن وتبتلع اسرائيل الضفة الغربية فى ١٩٦٧، بمؤازرة الولايات المتحدة بالطبع، ثم يحدث بعد ذلك بأقل من عام، هجوم الاتحاد السوفييتى على تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٦٨ لوأد حركة التحرر بقيادة دوبتشيك، بينما تنظر الولايات المتحدة إلى الناحية الأخرى وكأنها لم تسمع بما حدث.

* * *

باعتلاء رونالد ريجان الحكم فى الولايات المتحدة فى مطلع الثمانينات، ووصول مارجريت تاتشر إلى الحكم فى انجلترا فى نفس الوقت، أصبحت الليبرالية الجديدة هى شعار القوى الصاعدة فى العالم، وتتردد أصداؤها فى العالم الثالث فى نغمة الانفتاح الاقتصادى والتصحيح الهيكلى، ولكن لم يعد أحد يتكلم عن عصر التوقعات العالية أو الآمال

الكبيرة. نعم، قدمت وعود متكررة وتردد التعبير عن الأمل فى ارتفاع معدلات النمو، ولكن كان هذا يقترن دائما بالاعتراف بأن وصول ثمرات هذا النمو إلى الغالبية من السكان لابد أن يتأخر قليلا أو كثيرا، وما على هؤلاء إلا التحلى بالصبر.

زاد هجوم الليبرالية الجديدة (أو الاستعمار الجديد إذا شئت) حدة وتوحشا، على بلاد العالم الثالث فى أعقاب السقوط النهائى للاتحاد السوفييتى والكتلة الشيوعية فى نهاية الثمانينات، بينما بدأت الولايات المتحدة تعيد ترتيب علاقاتها بأوربا واليابان على نحو يضمن لها استتباب الأمر فى العالم الثالث لصالحها. ربما كانت هذه هى أفضل زاوية يمكن منها النظر إلى حروب التسعينات فى وسط أوربا وأفريقيا، وإلى هجوم صدام حسين على الكويت ثم فرض الحصار على العراق لمدة عشرة أعوام: الولايات المتحدة تعيد ترتيب العالم لصالحها بعد سقوط الاتحاد السوفييتى مستفيدة من تفوقها العسكرى الواضح، وعلى الرغم من تدهور مركزها الاقتصادى فى العالم، مبتدئة بترويض أوربا، ذلك الحليف القديم والمنافس الحالى والخصم المحتمل، على أن تتلو ذلك إعادة ترتيب منطقة الشرق الأوسط، لصالحها أيضا وصالح حليفتها المستمرة اسرائيل، تاركة آسيا وأمريكا اللاتينية لمرحلة تالية.

* * *

بدأت مرحلة إعادة ترتيب الشرق الأوسط بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، التى استخدمت لتبرير احتلال أفغانستان ثم العراق، والوجود العسكرى والسياسى الكثيف حول آبار البترول فى وسط آسيا. ونحن نشاهد الآن، يوما بعد يوم، ما يراد تنفيذه من إعادة ترتيب المنطقة العربية بأسرها، لفتح أسواق السلع والاستثمارات وتوسيعها أمام الشركات العملاقة، على الأخص الأمريكية، ولبيع ما يمكن بيعه من مشروعات القطاع العام لنفس الشركات، من الصناعة إلى السكة الحديد وسائر المرافق والبنوك .. إلخ، ولوضع حد لمشكلة فلسطين بإنهائها لصالح اسرائيل، ولو تطلب هذا تهجير معظم الفلسطينيين إلى العراق، وما يتطلبه هذا وذاك وغيره من تعديلات فى مناهج التعليم والثقافة والاعلام... إلخ.

* * *

فى ظل هذا كله تبدو الآمال الكبيرة والتوقعات العالية التى بدأنا بها منذ خمسين عاما، وكأنها قد محيت تماما من الوجود. نعم، ما زال «راديو بلدنا فيه أخبار»، بل إن أخباره الآن أكثر

بكثير مما كانت منذ خمسين عاما، ولكنها كلها أخبار تسد النفس وتسبب الكدر، إذ لا مستوى المعيشة يرتفع، بل إنه ، فيما يتعلق بالأغلبية آخذ في الانخفاض ، ولا العمالة المجزية تزيد بل البطالة آخذة في الزيادة، ولا الفجوات بين الدخول والثروات تضيق، ولا مصر تصبح دولة صناعية أكثر مما كانت ، بل يزيد اعتمادها على البترول والسياحة وتصدير العمالة إلى الخارج، ولا البلاد العربية تتوحد بل تتفرق.. إلخ.

* * *

كان لابد أن ينعكس هذا التدهور في مستوى الآمال والتوقعات فيما ينتجه الكتاب والفنانون المصريون من أعمال أدبية وفنية، كما كان لابد أن ينعكس في أسلوب الخطاب الديني السائد في مصر.

يظهر هذا أولا في التدهور الذي طرأ على حجم المواهب التي طفت على سطح الحياة في مصر وعلى حجم تأثيرها في الناس. ذلك أن الآمال العالية تشحذ الموهبة وتؤجج الهمة وتقوي الرغبة في التعبير عن النفس، بينما تضعف الهمة بفقدان الأمل وتنطفئ المواهب وتموت الرغبة في الإفصاح عما يدور بالنفس. من المستحيل مثلا ألا نلاحظ أن شخصيات موسيقية فذة كبليغ حمدي وكمال الطويل ومحمد الموجي، التي أطلقت موهبة عبدالحليم



حافظ ... عقالها وأشعلت حماسنا وملأت نفوسنا غبطة في الخمسينات والستينات، خبا نورها في السبعينات والثمانينات ولم يظهر مثلها منذ ذلك الحين . والأمثلة المشابهة كثيرة في الأدب والشعر والمسرح والصحافة.. إلخ.

ولكن التغير يظهر أيضا في مضمون الأعمال الأدبية والفنية . من الصعب على المرء مثلا ألا يلاحظ أن العمل الأدبي المصري الذي حصل على أكبر قدر من الذيوع في بداية القرن الجديد كان عملا تشيع فيه درجة عالية جدا من التشاؤم. فرواية «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسواني ، التي ظهرت في سنة ٢٠٠٢ وطبعت منذ ذلك الحين ست أو سبع طبعات ، لا تحتوي على شخصية واحدة لم تخب آمالها ولم تصب بالإحباط، ولأسباب اجتماعية أكثر منها أسبابا شخصية .

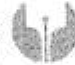
لا يسع المرء أيضا إلا أن يلاحظ درجة الحزن التي تسود الخطاب الديني في مصر الآن، سواء في ذلك موجهو الخطاب أو متلقوه ، حيث يكاد الواعظ يبكي أو يصيح متشنجا من شدة الألم ، وكثيرا ما يجهش السامعون معه بالبكاء!. ■

العالم يفكر:

أفكار وتطورات خطيرة في عقل العالم؟

بقلم
جميل مطر

شدت الانتخابات والحملة التي سبقتها انتباه الناس في أمريكا وركزته على قضايا العراق والإرهاب والسياسة الخارجية وشدت انتباه كثيرين في الخارج. لعلها من الحملات الانتخابية النادرة التي أثارت هذا الاهتمام العالمي، ولعلها الأولى في التاريخ السياسي الأمريكي المعاصر التي تركز على مسائل السياسة الخارجية، وتجر معها الرأي العام الأمريكي. أكد هذا التطور ظنا، كان مترددا بأن مجتمعات غير أمريكية وحركات اجتماعية وسياسية وأفراد صارت تشعر أكثر من أي وقت مضى بأنها لاتستطيع أن تتجاهل أمريكا أو صارت أقرب إلينا، بالخير أو بالشر، أكثر مما كنا نتصور.



ولم يكن تجديد بوش وفوز حزبه الجمهوري وتألق الأصولية الدينية وانتصار اليمين المتطرف وعزل الوسط السياسي النتائج الوحيدة المهمة في هذه الانتخابات الأخيرة. كانت، هناك نتائج أخرى لاتقل أهمية وبعضها على قدر من الخطورة فقد كشف الجدل،



أرجع بوش كل الشر إلى مصدر واحد، وهو يعمل على مواجهة الشر موحدا وتصفية كل أتباعه.

رغم تفاهة كثير منه عن قصة يبدو أن اليمين المتطرف الحاكم في أمريكا يحاول عدم الاعتراف بها صراحة حتى يحين له وقت تجاوزها أو تحقيق الانتصار فيها، هذه القضية هي أن أمريكا تهددها أفكار وتطورت وتحولات اجتماعية أفرزتها عناصر التحول من الوضع الأمريكي المهيمن إلى وضع إمبراطوري أو العكس، أكثرها يتعلق بقضايا ناجمة عن الفراغ الذي خلفه انحسار الاشتراكية فانزواؤها كأيديولوجية احتجاجية عالمية الأبعاد والانتشار صارت المهمة الأكبر التي تقع على عاتق الطبقة السياسية الحاكمة في أمريكا تنفيذها هي العمل على ملء الفراغ الأيديولوجي المتفاقم في العالم ولو بحشوه فعلياً أو بالوهم بإرهاب وخوف وشر، صارت المهمة أيضا، وهي مكملة الأولى ملء الفراغ الأيديولوجي داخل أمريكا والناشئ عن أسباب كثيرة أهمها سلبيات العولمة.

بدأت هواجس لديهم ولدينا. استطاع بعض الأمريكيين التعبير عنها بسرعة أو بتردد لم يدم طويلاً أما عندنا في العالم العربي والإسلامي، فقد أخذ التعبير في أقصى صوره شكل القلق ولم يتبلور فكراً جديداً أو ممارسة، جاءتنا من أمريكا أفكار وممارسات تطرق بشدة أبواب العقل أو تخترق أسوار قصور السياسة والثقافة في أشكال متعددة منها الاحتلال العسكري والتبشير الأيديولوجي وحملات الإصلاح ومنها أيضا صدامات حضارية ودينية وثقافية دعا بعض المفكرين العرب، في وقت أكثر ملاءمة وأمنا وفي وقت كانت أعصاب الطرفين أقل توترا، إلى فتح باب النقاش

لتدخل منه وتنضج كافة الأفكار دعوا إلى تشجيع الاطلاع على كل ما تطرحه أمريكا على صعيد الفكر وفتح كافة الأبواب للنقاش للاستفادة من الجديد وتصحيح ما يشوبه من مبالغات أو تجاوزات ثقافية أو حضارية أو دينية وللأسف كان كثير من ردودنا في هذه المنطقة انفعالياً أو حساسا أو متعصبا، وكان للبعض عذر، فالأفكار الجديدة كان الكثير منها خطيراً كونه انبثق عن وضع استثنائي بكل المعايير، وهو حال الانكشاف الأمريكي على فراغ أيديولوجي هائل وعلى حزم من مضادات القيم، وعلى صحوة دينية في المجتمع كان مفيداً لو أن المفكرين العرب، والشرقيين عموما بل والأوروبيين أيضًا استبدلوا الصدمة التي أصابتهم بها الأفكار الأمريكية الجديدة بدرجة أكبر من الوعي واليقظة. لم ندرك في الوقت المناسب مدى خطورة بعض هذه الأفكار، أو أدركنا ولم نهتم بالقدر المناسب حتى خرج من بين أهل الغرب وخصوصا من الأمريكيين، من يكشف عن فداحة الخطر ويحذر من عواقب تجاهل التأثيرات المحتملة على البشرية وعلى السلام العالمي نتيجة الاستسلام لهذه الأفكار والسكوت عن هذه الممارسات .

صدر عدد حديث لمجلة السياسة الخارجية الأمريكية التي تنشرها مؤسسة كارنيجي، وعلى غلافها عنوان «الأفكار الأشد خطورة في العالم»، اختارت المجلة بعضا من ألمع المفكرين في الغرب، وبخاصة في أمريكا ، وطلبت من كل منهم الكتابة عن فكرة يراها واحدة من أخطر الأفكار في عالم اليوم اختارت المجلة روبرت رايت الأستاذ الزائر بجامعة برينستون ومؤلف كتاب «اللاصفر : منطق المصير الإنساني» ، فاختار فكرة «الحرب على الشر» التي تحولت إلى حرب عالمية تقودها أمريكا يقول رايت إن خطورة هذه الفكرة تكمن في أنها تعتمد على أسطورة من عصور الظلام تعتبر أن وراء كل الأعمال السيئة قوة كونية مظلمة ومنفردة. وهي الفكرة «الشيطانية» التي رفضتها جميع الأديان وحاربها الفيلسوف سانت أوجستين منذ مئات السنين ومات معتقداً أنه دفنها إلى الأبد إلى أن أعاد اكتشافها أو إحياءها الرئيس بوش ويقول روبرت رايت إن أخطر ما فعله بوش أنه أرجع كل «الشر» إلى مصدر واحد، وبعدها أصبح من السهولة بمكان وضع استراتيجيات وسياسات لمواجهة «الشر موحدا» وتصفية كل اتباعه في كل مكان على وجه الأرض، ومن هنا تحولت فكرة خطيرة إلى سياسة جهنمية تعتمد ثلاثة شعارات طرحت للتداول المتكرر وهي شعار إضربهم كلهم، وحاربهم كلهم، كلهم سيئون للغاية» ، وشعار «لايمحو الشر إلا سياسة الأرض المحروقة»، وشعار «الإسلام مكون رئيسي لمعظم

الشر فى هذا العالم » .

واختارت المجلة بول دافيس أستاذ الفلسفة بجامعة ماكوراى الأسترالية فكتب يقول إن تياراً واسعاً من العلماء والفلاسفة صار يرفض مفهوم حرية الإرادة هؤلاء يعتقدون أن الإنسان ليس حراً فى الإدارة أو الاختيار وأن التقدم المذهل والمطرد فى الهندسة الوراثية والعلوم المتصلة بها يؤكد أن هذه الحرية إلى زوال خصوصاً مع تزايد الاقتناع بين العلماء بأن الجينات تشكل العقول تماماً كما تشكل الأجسام، وأن جينات المخ «الميمات» تنتقل كالفيروسات من عقول أخرى حسب قول العالمة البريطانية سوزان بلاكمور. يقول دافيس إن رفض فكرة حرية الإرادة أكثر الأفكار الجديدة خطورة لأنه يمكن استخدامها لتبرير جرائم وعمليات إبادة وقتل جماعي، ولأنها تخدم فكرة أخرى لاتقل خطورة وهى فكرة الشر المتأصل فى مصدر كونى واحد، فضلا عن أن الاقتناع بها، أى الاقتناع بعدم وجود إرادة حرة سيؤدى إلى التسليم بأن الناس جاهزون لن يشكل آراءهم ويفرض عليهم سلوكيات معينة. وحين نفقد نعمة الاقتناع بحرية الإرادة سنفقد معها الشعور بالذنب والمسئولية وتأنيب الضمير والثواب ولن يحاسب المجتمع مواطنين فقدوا معها الشعور بالذنب والمسئولية وتأنيب فيهم السلطة السياسية وتحركهم وتسيطر على عقولهم وسلوكياتهم .

أما المؤرخ البريطاني إيريك هوبسبوم أستاذ التاريخ الاجتماعى والاقتصادى بجامعة لندن فقد اختار «التبشير بالديمقراطية والسعي لنشرها فى كافة أنحاء العالم» باعتبارها فى رأية الفكرة الأشد خطورة، يقول هوبسبوم إن هناك افتراضا خاطئاً تقوم عليه عملية التبشير بالديمقراطية والسعى لنشرها خارج الولايات المتحدة، فالديمقراطية ليست كما يزعم المبشرون بها نظام يمكن أن ينجح فى أى مجتمع وأنه قادر على علاج كافة المشكلات وبخاصة المشكلات عابرة الحدود وأنه الأسلوب المناسب لتحقيق السلام فضلاً عن ذلك فإن الاقتراع العام لايضمن دائما سياسات أفضل أو تنفيذ السياسات التى تعهد بها المرشحون المناصب السياسية لقد كان الظن بين فلاسفة ودعاة العولمة أن الديمقراطية فى مبناها ومعناها لاتختلف عن بقية المؤسسات والممارسات والأفكار النمطية التى أفرزتها مسيرة العولمة الديمقراطية فى نظرهم كالمطارات ومحطات البنزين، مؤسسة نمطية يمكن أن تتكرر بالصورة والمواصفات نفسها فى كافة المجتمعات. الخطورة فى فكرة التبشير بالديمقراطية ونشرها اقتناعاً بأنها نمط موحد، تكمن فى أن أمريكا تريد إعادة تشكيل العالم على صورتها فإن كانت ديمقراطيتها ناجحة فلتكن، هى النموذج . وينسى المبشرون أن هناك

تناقضا بين مصالح الدولة النموذج ، وهي في هذه الحالة الولايات المتحدة، وبين الدفاع عن الحقوق الإنسانية العالمية ، فالدفاع عن هذه الحقوق تتحكم فيه وتعطله أحيانا كثيرة مصالح داخلية. لقد أثبت القرن العشرون فشل جميع المحاولات التي جرت لإعادة تشكيل العالم على صورة واحدة، فهتلر حاول وحاولت الشيوعية وحاولت الولايات المتحدة . ويقول هوبسبوم إن المبشرين بعالمية الديمقراطية يزرعون الوهم بأنها النظام الوحيد الذي لايدخل في حرب، بينما لدينا نموذج الحرب في العراق بقرار اتخذته دولتان ديمقراطيان. ولا يخفي رأيه في أن تطبيق الديمقراطية في بلاد بعينها قد يثير الفوضى والنزاعات الإثنية والطائفية، وأن الديمقراطية بالانتخاب ليست هي الضمان الفعال لحرية التعبير وحقوق الإنسان فالقرارات يتخذها في النهاية عدد ضئيل من الأفراد .

عبور البشرية

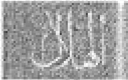
أما فرانسيس فوكوياما أستاذ الاقتصاد السياسي بجامعة جونز هوبكنز وصاحب أطروحة نهاية التاريخ فكتب تحت عنوان «عبور البشرية » عن حركة يهدف الناشطون فيها إلى تحقيق ما هو أكثر أهمية في نظرهم من حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية، يهدفون إلى تحرير الجنس البشري من قيوده البيولوجية، يدعو هؤلاء إلى أن بني البشر يجب أن يستخلصوا مصيرهم من «التطورية» العمياء التي تصنع بها ما تشاء وليس ما يشاءون هم. هذا النفر من الناشطين في حركة تحرير الإنسانية ليسوا حالمين أو من مؤلفي روايات الخيال العلمي، هم في مواقع متعددة على الشبكة الإلكترونية يعملون ويخططون لاختراع جديد يفلح في تجميد أجسامهم لفترة طويلة يعودون في نهايتها للعيش في عمر آخر. الهدف في النهاية هو استخدام إمكانات الثورة في التكنولوجيا الحيوية لجعل البشر أقوى وأذكى وأقل عدوانية وأطول عمراً .إن كثيراً مما تنتجه هذه الأيام مصانع الأدوية وبحوث الطب الحيوي من عقاقير لتقوية العضلات وتغيير الأمزجة ومحو جوانب في الذاكرة وعمليات فحص الجينات قبل الإنجاب والعلاج بها الهدف منه تحسين النوع، أي تحسين البشر. يحدث هذا بعيداً عن التكلفة الأخلاقية. يتحدث فوكوياما عن أكثر الأخطار فداحة نتيجة هذه الفكرة، فكرة العبور بالإنسانية إلى إنسانية أخرى، وهو خطر فقدان المساواة نهائياً..

ويختار الكاتب المعروف فريد زكريا الأمريكي من أصول جنوب آسيوية، كراهية أمريكا كأخطر فكرة تواجهه أمريكا والعالم إلى درجة أنه يعتقد أنها صارت تحتل مكاناً بين الأيديولوجيات، بل لعلها الأيديولوجية الوحيدة في عصر مابعد الأيديولوجية. ويجزم زكريا أن

سياسات الرئيس بوش مسئولة عن الكراهية، وبوش نفسه مسئول لأنه لم يحاول التخفيف منها، فقد رفض أن يتعامل بتواضع مع بقية الدول، ولم يحسن استخدام المؤسسات الدولية والقانون الدولي ، ولم يكن يتمتع بحساسية كافية تجاه الفقر والضعفاء في العالم ، ومع ذلك يرى زكريا أن هناك أسباباً أخرى دفعت إلى نشأة هذه الكراهية وفي صدراتها تراكم هذه القوة الأمريكية الهائلة. هذا التراكم غير المسبوق كان وحده كافياً لدفع الدول الأخرى إلى التجمع ضد هذه القوة الأعظم لهزيمتها ، والسوابق التاريخية شاهدة من هابسبرج إلى هتلر مروراً بنابليون وقيصر ألمانيا . الكراهية لأمريكا جعلت العالم أقل أمنا ورخاء، واستمرار غطرسة واشنطن مع عجزها عن مسايرة العالم لن يحقق غير الفوضى..

وتكتب مارثا ناسبوم أستاذ القانون والأخلاق في جامعة شيكاغو ومؤلفة كتاب «الاختباء من البشرية، التقزز والعار والقانون»، عن التعصب الديني باعتباره فكرة خطيرة قديمة يعاد بعثها. تتحدث عن قتل المسلمين في جوجارات بالهند عام ٢٠٠٢ على أيدي المتطرفين الهندوكيين، وعن عودة اللاسامية إلى أوروبا ، والصحوة الأصولية في الإسلام، وتتحدث عن التحيز ضد الإسلام، الميل لمساواة الإسلام بالإرهاب وبخاصة في الولايات المتحدة، تقول إن التعصب يولد تعصباً، كما أن التعبير عن الكراهية يغذي الشعور بعدم الإنصاف فيسمح للناس بأن ترى ممارستها العدوانية دفاعاً مشروعاً عن النفس.

وتقول ناسبوم أن فكرتين تدعمان التعصب الديني والاستهتار بالأديان وعدم احترامها: الأولى هي أن الدين بالنسبة لصاحبه هو الدين الوحيد الصحيح وغيره من الأديان زائف أو غير صحيح أخلاقيا، الثانية والأشد خطورة هي أن الدولة وبعض المواطنين يتجمعون لدفع الناس جميعاً للدخول في «الدين الصحيح». هذه الفكرة تجد رواجاً في السنوات الأخيرة، حتى في الديمقراطيات الغربية. قرار فرنسا منع ارتداء الرموز الدينية كالحجاب ومطالبات الهندوكيين المتطرفين بقية الطوائف في الهند لتصبح جزءاً من الثقافة الهندوكية من الأمثلة الأحدث والأكثر إزعاجاً، ويلفت الانتباه أن إنسان هذا الجيل يلجأ إلى الدين قبل أن يلجأ لأي شيء آخر إذا تأزمت علاقاته العرقية أو الاجتماعية. فالناس يفضلون الدين وينسون ولو للحظات ضعفهم وعجزهم. ويلعب المسئولون دوراً خطيراً في هذا الاتجاه، لاحظ مثلاً تأثير شخص مثل جون أشكروفت المدعي العام الأمريكي الذي يطلب من معاونيه أن ينشدوا طوال



اليوم أغاني دينية، وهو الذى قال عندما كان عضواً فى مجلس الشيوخ، «أمريكا ثقافة بدون ملك متوج ولكن بالمسيح».

وكتبت أليس ريفلين الأستاذة بجامعة جورج تاون فى مؤسسة بروكنجز عن أن بناء سياسة الدولة ذات الاقتصاد المهيمن على أساس رفض القواعد المادية للتعقل والحذر فى شئون النقد والعجز المالى فكرة بالغة الخطورة، إن العجز المستدام الهائل فى الولايات المتحدة يهدد الرخاء الأمريكي ويهدد أيضاً الاقتصاد العالمى بأسره. إذ يمتص الاقتراض الواسع من جانب حكومة الولايات المتحدة جانباً غير قليل من مدخرات دول أخرى لتمويل أغلى اقتصاد فى العالم. وقد تلجأ الولايات المتحدة قريبا إلى ممارسة ضغوط لرفع سعر الفائدة فى كل أنحاء العالم لإبطاء النمو الاقتصادي، بل إن الولايات المتحدة قد تدفع العالم متعمدة إلى أزمة ستكون تكلفتها الإنسانية هائلة. المعروف أن الدول الصغرى لا تستطيع أن تتصرف تصرفات غير مسئولة فى النواحي المالية، لأنها إن فعلت ذلك، فقدت على الفور قيمة عملتها ولن تستطيع الاقتراض. أمريكا ليست هكذا. فالمستثمرون الأجانب يسمحون لأمريكا بما لايسمحون به للدول الأصغر، ومازال الدين العام الأمريكى (أى سندات الخزانة الأمريكية) المكان الآمن لحفظ المدخرات. والمسئولون الأمريكيون يعرفون ذلك، ولذلك يهتمون بالقواعد العادية. وحين تقع الواقعة سيكون الوقت متأخراً على أمريكا والعالم كله للإفلات من كارثة محققة. سيأتى يوم يطلب فيه المستثمرون الآسيويون فائدة أعلى كتعويض لهم على إبقاء أرصدتهم بالدولار، وقد تعجز الولايات المتحدة عن الاستجابة. وعندها قد تقع الكارثة. من الضرورى أن نتأمل قليلاً فى الأبعاد المحتملة لهذه الكارثة لو وقعت وكيف يمكن أن تنهار اقتصادات دول وشركات وتنتشر فوضى بلا حدود.

وكتبت سامانتا باور المحاضرة فى جامعة هارفارد تناقش معضلة الأمم المتحدة، خاصة بعد أن أصبحت جدواها مثل عدم جدواها، حتى أن الولايات المتحدة هى عام واحد أهملتها بل واتخذت منها موقف العداء ثم عادت تتوصل إليها للمساعدة فى فك أزمتها فى العراق. وتقول باور إن الأمم المتحدة لم تتحمل يوماً مسئوليات كتلك التى ألقت بها عليها الدول فى السنوات الأخيرة وفى مقدمتها حفظ السلام، فى وقت تحاول فيه معظم دول العالم إبقاءها منظمة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، حتى انهارت مصداقيتها. إن كثيراً من أعضاء الأمم المتحدة القادرين على تغيير المنظمة لايريدون إصلاحها. ولا يريد أصحاب الفيتو فى مجلس الأمن التخلى عن هذا الحق، والدول الصغيرة سعيدة

بأن صوت كل منها فى الجمعية العامة يتساوى مع صوت أعظم الدول، وفي داخل المنظمة، تقف البيروقراطية حائلاً دون إحداث تغييرات كبيرة.

من ناحية أخرى فإن أوضاعاً فى الأمم المتحدة لايمكن أن تستمر على ماهى عليه. كيف يمكن أن تستمر بريطانيا وفرنسا تحتلان مقعدين دائمين، يمثلان خمسى أعلى سلطة قانونية في هذا العالم. عند النشأة كانت الدول الخمس دائمة العضوية تمثل ٤٠٪ من سكان العالم. الآن لاتمثل سوى ٢٩٪. الهند، أكبر دولة ديمقراطية، مستبعدة، كذلك قوى إقليمية كبرى كنيجيريا والبرازيل، والعالم الإسلامى. ومن المفارقات أن مجلس الأمن هو الذى يتخذ القرار فى التدخل لأغراض إنسانية، رغم أن اثنين من أعضائه هما من أشد المخالفين لحقوق الإنسان، وهما الصين وروسيا، أما أمريكا، العضو الدائم فى المجلس وأقوى أعضائه، فتعفى نفسها من عضوية الاتفاقيات الدولية حول حقوق الإنسان وترفض أن تنطبق عليها أو على رعاياها.

الأمم المتحدة، بوضعها الراهن، عاجزة عن مواجهة مشكلات القرن الحادى والعشرين، ومازالت عبارة داج همرشولد ترن فى آذان المهتمين بشئون المنظمة الدولية .. كان يقول: «لم تخلق الأمم المتحدة لتأخذ البشرية إلى الجنة وإنما لتنقذها من الجحيم».

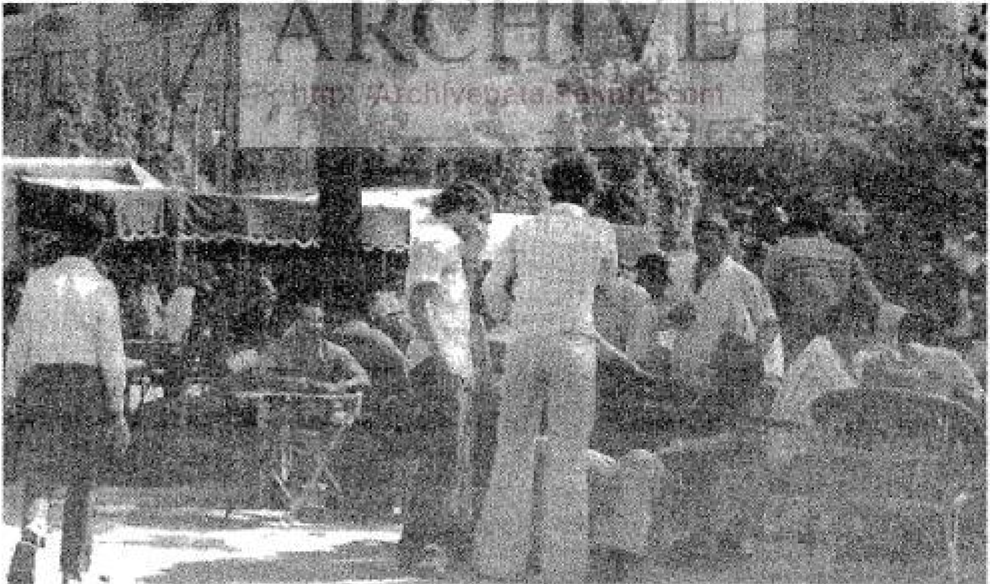
إن الساحة الفكرية في الغرب التى تعج بأطروحات وأفكار لاتقل خطورة لم تحظ منا فى هذه المنطقة بالاهتمام المناسب، فقد ركزنا خلال العامين الأخيرين على فكرة الإصلاح ومبادراته وانشغالنا بالتفكير فى صيغ التنديد به أو التشكيك في جوانب منه وبالسعى للالتفاف حوله وابتكار أساليب خاصة جداً لتنفيذه، ولم تهتم بما هو أهم لأنه أبعد أثراً، لم نهتم برحلات العبور الأعظم الجارية فعلاً على مستوى العالم بأسره، عبور الأفكار والعلوم، والعبور الأيديولوجى عبر فراغات ساحقة وعبور الولايات المتحدة إلى وضع دولى وداخلى جديد، وعبور دول وثقافات فى العالم من حال إلى حال مختلف كلية، والأمثلة بارزة فى أوروبا والصين والهند، ومحاولة إسرائيل العبور إلى الوضع النهائى، وعبور الأديان جميعاً إلى عالم إنسانى غير مسبوق، وعبور الإنسانية إلى إنسانية أخرى حسب تعبير فوكوياما. انطلقت كافة رحلات العبور بالأفكار أو الممارسات أو بهما معا ومازلنا نتأمل فكرة الإصلاح، أو نحلم، خارج السياق والمضمون وخارج الوقت والإمكانات بمقعد دائم فى مجلس الأمن. ■

في المحيط التعليمي

أولياء الأمور ومستقبل الأبناء

بقلم
د. محمد رجب البيومي

من عادة الجمهور أن يتتبع كل ناعق ، فما يقوم صائح بدعوى براقة حتى يلتف حوله من تبهر بقوله دون تمحيص وتصبح هذه الدعوى الكاذبة بشيوعها المستفيض كأنها حق لاشك فيه، ولو خلا كل إنسان إلى نفسه ، وفكر تفكيرا سليما فيما شاع واشتهر كأنه أمر مفروغ من صحته ، لبدا له الخطأ الملموس فيما سلم به الجمهور من أراجيف .



وتلك قضية صحيحة أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد» فقد أطلق بعض الحاقدين من أعداء الرسول فى مطلع الدعوة الإسلامية عليه صلى الله عليه وسلم أنه مجنون وما كاد يفوه بهذا اللغو حتى صادف هوى لدى المشركين، فأخذوا يرددون هذا الإفك الكاذب غير مفكرين فى حقيقة هذا الإنسان الذى خبروه أكثر من أربعين عاما فما عرفوا عنه غير العقل الصريح ! وإزاء هذه الشائعة الكاذبة ، وعظهم القرآن بأن يجلسوا إلى أنفسهم يخلو كل فرد إلى شعوره الخاص ، أو يجلس مع زميل واحد فيتدارسان هذه الفرية بعيدا عن تأثير العامة ، ويتساءلان : أية جنة كما نزعم ، أعرفنا عنه شيئا من الهوس فى عمره المديد ! وإذ ذاك يفىء الواحد أو الاثنان بعيدين عن الجماعة إلى عقلهما فيحكمان بأنه غير مجنون ! وذلك معنى قوله عز وجل (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) وهذا الذى هتف به كتاب الله منذ خمسة عشر قرنا قرره الفيلسوف الفرنسى (جوستاف لوبون) فى كتابه (روح الجماعات) إذ جزم بتأثير الشائعات الكاذبة ، وأثرها فى نيوع الأباطيل ودعا إلى الاستقلال فى الحكم بعيدا عن هذا التأثير .

من اجل الجامعة

أكتب هذه المقدمة تمهيدا لما أعنيه وألمسه من جنون أولياء الأمور بالتعليم الجامعى وغيره المنقذ الأول والأخير



لمستقبل الأبناء ، إذ هو في رأيهم الضمان الأكيد لوظيفة ملحوظة ذات كادر جامعي ، وقد كان ذلك معقولا من قبل ، إذ كانت الدولة تقوم بتعيين جميع الخريجين عن طريق القوى العاملة بحيث لايهمل متخرج ، بل يأخذ مكانه دون انتظار ، كان هذا معقولا من قبل ، أما الآن فقد تخلت الدولة عن تعيين الطلاب وأصبحت الطرقات تتقاذفهم في الرواح والغدو بحثا عن لقمة العيش الضرورية ، فتسد في وجوههم الأبواب دون راحم ! ومع ذلك كله فأولياء الأمور لايهدأ لهم بال إلا إذا وجدوا أمكنة جامعة لأبنائهم، فإذا تعذر ذلك في الجامعات المصرية فهم يبيعون العقار والأثاث والحلي ليلتحق الابن المسكين بإحدى الكليات الأهلية مع ما تطلبه من أجر باهظ يتجاوز كل تصور ! وستكون النتيجة الأليمة بعد بذل الدم والعرق والأعصاب في سبيل هذه الشهادة الجامعية أن يكر المتخرج راجعا إلى منزله دون وظيفة ما، ويصبح عاطلا يأكل مما يأكل أخوته الصغار : فبالله ثم بالله فيم كان هذا الهوس بالتعليم الجامعي الرسمي ، ثم بالتعليم الجامعي الأهلي ، ولماذا أريقت هذه المصروفات في الأعوام الأربعة والخمسة ، وكأنها تتدفق من معين لاينضب ! وماذا يفعل الأب لإبنه العاطل ، وقد سدت السبل في وجهه ، بعد أن باع في سبيل تعليمه الجامعي كل غال وثمين ، ولم يبق لديه شروى نقير !

مدارس الدهماء

وما يقال عن الكليات الجامعية الخاصة يقال عن المدارس الخاصة تماما ، فقد كانت هذه المدارس على تنوع أسمائها بين حضانة وإبتدائية وإعدادية وثانوية ، مثلا للتعليم النموذجي، إذ تختار أكفأ المدرسين ، وتفي بالمواد الدراسية عناية كاملة تظهر في ارتفاع النتائج ، ونباهة التلاميذ وحسن التربية العامة في النشاط المدرسي ، وكان التلميذ بها لايأخذ درسا خصوصيا لأن التدريس على أحسن مستوياته ، ورقابة الإدارة المدرسية كفيلة بإتمامه على أكمل وجوهه، لذلك كان العلية من أولياء الأمور يرتاحون إليه ، ويفضلونه على المدارس الحكومية ، ثم انقلب الحال إلى ضده تماما منذ عدة عقود ، فأصبحت المدرسة الخاصة موردا لكسب ذوي الخبرة في اجتذاب الآباء وتغالت كثيرا في ارتفاع أجورها لدرجة لاتكاد تحتمل ، ثم تكون النتيجة بعد هذا البلاء ، أن التلميذ بها لايستغني عن الدرس الخصوصي في كل ما له ، فهي إذن قد فقدت دورها المأمول في إراحة أولياء الأمور من



نفقات الدرس الخصوصى إذ بذلوا أضعافه فى الرسوم المقررة عن رضا واستسلام ! وكان فى ذلك الواقع الأليم ما يدعو إلى الانصراف عنها . ولكن الدعاية الكاذبة فى الصحف ، والفخفخة المريضة فى النفوس قد شدتا الكثيرين إليها ، وأصبح الالتحاق بها مصدرا للمباهاة والاستعلاء أقول ذلك عن تجربة قاسية ، كنت أحد شهودها ، ففى عمارة من عمارات القاهرة التى يسكنها الثرى ومتوسط الحال ، أراد موظف متواضع أن يلحق ولده بالمدرسة الحكومية ، وذلك هو الأمر الطبيعى الذى لاشذوذ فيه ولا انحراف ، ولكن جارة عزيزة ولدها من أبناء المدارس الخاصة كانت تزور زوجة هذا الموظف المتواضع ، فعلمت أن ولدها سينسب إلى المدرسة الحكومية ، فأظهرت الاستياء وقالت لصديقتها إن مدارس الحكومة أصبحت ملجأ لأولاد البوابين والفراشين ، ولذلك فأولادها لايلتحقون إلا بالمدارس الخاصة ، حيث يحضر الأوتوبيس الأنيق لاصطحابهم فى الصباح ثم مجيئهم بعد الظهيرة ، وهذا أول ما ركزت عليه المتحدثة المغرورة ، وهم بعد ذلك لايختلطون بأولاد الشوارع ! وأخذت تشحن الزوجة بهذا الهراء حتى أوغرت صدرها ، وما جاء الموظف المسكين حتى سمع ضجة عالية ، ورأى استنكارا وإصرارا على أن يذهب إبنه إلى المدرسة الخاصة فليست بأقل من فلانة ، ولا هو بأقل من زوجها ، وأن مركزها سيهبط فى نظر الجيران إذا لم تحمله سيارة المدرسة رائحة غادية فى الصباح والظهيرة ! بهذا المنطق المغرور اقتنع الزوج ، أو أنه تحت الإلحاح وتجنب الصراع أظهر الاقتناع، واستدان لكى يلحق ابنه بالمدرسة المزعومة ! ثم فوجىء بوجوب إعطاء الدرس الخاص فى أكثر المواد ، وجاءت نتيجة امتحان الشهر الأول منذرة بفشل التلميذ إن لم يجتهد !! فبالله كيف يندفع أولياء الأمور إلى مدارس هى والتعليم العام فى مستوى واحد ، ثم يتكبدون ؟؟ أبهظ المصروفات ! أعلم أن بعض هذه المدارس يتباهى بنتائج المتفوقين فى شهادتى الاعدادية والثانوية بالجرائد اليومية ، وتنشر صور المتفوقين دعاية وترويجا ، ولكن هذه النتائج تماما وقع مثلها وأكثر منها فى المدارس الحكومية، وليس للمدارس الخاصة ولا للحكومية فضل ما فى هذا التقدم المظهرى ، إذ الفضل الأول والأخير فى الدرس الخصوصى فى المدرستين وبدونه لايأتى التقدم المنشود ! وقد قلت إنه تقدم مظهرى لاحقيقى ، لأعبر عن واقع مرير، هو أن الذى أخذ ٩٨٪ أو ٩٩٪ لم ينل



هذا المجموع لتفتح ذهنه واتساع أفقه، وتهيئته للدراسة الجامعية فكل ذلك مفقود تماما، ولكنه تأكد بالتلقين الموجز في عدة سطور تحفظ حفظا دون انتباه، إذا ألف المدرسون أن يصوغوا الحقائق العلمية في برشام للحفظ الآلي فقط، وألف المصححون أن يجدوا هذه الاجابة المبتورة، وأن يعتبروها مجال الصواب، بل مجال التفوق النهائي وكسب الدرجة العالية، وهكذا يظل التلميذ لدينا مدرسيا كالآلة الصماء إلا من عصم الله!

محو الأمية

وفي ظل هذه المتغيرات التي حاقت بالمدارس والجامعات كان الواجب الألزم على أولياء الأمور أن يغيرون نظراتهم الخاصة بمستقبل أبنائهم، بحيث لايصبح التعليم الجامعي هو الهدف المرموق مادام المتخرجون لايجدون وسيلة للرزق من ورائه، وتبدأ هذه النظرة الواقعية من المرحلة الثانية من مراحل التعليم، لأن المرحلة الابتدائية ضرورة من الضرورات لا مفر منها، إذ هي التي تمحو الأمية، وتنير الطريق الصحيح للمواطن، ولن تخلو هذه المرحلة من مرهقات يتحملها ولي الأمر مضطرا، لأن الدرس الخصوصي قد انتقل إليها بجبروته، وأصبح التلميذ لايفيد من المدرسة إذا اقتصر على دروسها، بل هو معرض للرسوب بالفصل إذا تكرر الرسوب، وأظرف ما شهدناه من مدرسي هذه المرحلة أنهم صاروا مؤلفين كمدرسي المرحلة الاعدادية والثانوية تماما فكل مدرس يعد مذكرة مزركشة جميلة الغلاف تحوى المقرر وهي خلاصة للكتاب المدرسي، وعلى كل تلميذ أن يشتريها لأنها مجال الشرح في الفصل وفي الدرس الخارجي! ويالله من يرى الآباء حين يدفعون ثمن الكتاب المدرسي، ثم يجرون على هذه المذكرات الساذجة التي جعلت للكسب فحسب! ولابد أن تنتهي المرحلة الأولى بمصاعبها الضرورية، وهنا يقف ولي الأمر وقفه أمام النتيجة التعليمية التي انتهى إليها ولده، فإن وجد الدرجات مقنعة، والاستعداد طيبا، سارع بالتحاقه إلى المدرسة الإعدادية، وإن وجد الحظ العاثر قد تعقبه في سوء الدرجات، وانحدار المستوى فلابد أن يقتصر على ما أخذ في المرحلة الأولى، وأن تبحث له عن عمل حرفي يعينه في طريق الحياة! ولست مع الذين يجعلون المرحلة الاعدادية لازمة لا مفر منها، كما هو المعترف به الآن! لأن محو الأمية يتم بانتهاء المرحلة الابتدائية في رأيي..

معيار الكفاءة

وتمضي المرحلة الاعدادية كما مضت المرحلة الابتدائية، وقد التحق بها



أصحاب النتائج المبشرة بالنجاح ! على أن يكون المنهج الدراسي بهذه المرحلة مليئا بأوجه النشاط المدرسي في الجمعيات المختلفة بحيث يتعرف كل تلميذ على هوايته التي يجب مزاولتها ، وسيبتهج أولياء الأمور بمن يسيرون إلى الغاية في همة ونشاط ، فيأخذون الدرجات المناسبة ، ويتحقق هذا الابتهاج عند تقدير المجموع في الشهادة الاعدادية ! وهنا يكون هذا المجموع موضع الفصل في مستقبل الطالب فإذا لم يكن متوسط ، أو فوق المتوسط ، فالاكفأ والأجدر أن يكتفي بهذا الحد من التعليم ، وأن يكون مستقبل التلميذ في العمل الحر تاجرا أو صانعا أو مزارعا كأبيه ! وسيجد من توفيق الله ما سيضمن له حياة كريمة ، قد يفوق محصولها أجر الشهادة الجامعية المحدود .

وواجب على المجتمع أن يغير نظرته إلى حملة الشهادات المختلفة ، وأن يكون التقدير لا بالدرجة الجامعية بل بالكفاءة الشخصية في مزاولة الأعمال الرائجة ! إذا كنا وجدنا للأسف من الآباء من يرفضون الزواج من غير الجامعي إذا كانت المخطوبة جامعية ويعتبرون ذلك انخفاضا لمستواها الاجتماعي ! وبهذه النظرة السطحية كثرت العنوسة الأليمة بين المتخرجات ، وفاتهن القطار ، فأخذن يتلهفن بعد الثلاثين أن من يجيء ! ولن يجيء إلا من فاته دور الشباب ، ومن يكون سدا للفراغ ! إن الشاب الناجح - وإن لم يحمل غير الابتدائية أو الاعدادية - سيكون مصدرا لسعادة منزلية موفقة، وسيوفق في الاهتام بتربية أولاده على نحو يكون تعويضا لما فاته من قبل ، وهو خير ألف مرة من موظف جامعي يحاسب زوجته الموظفة فيتعاملان كأنهما شركاء في متجر ، لا شركاء في عاطفة حميمة ، ويدور الخلاف لأدنى مناسبة ! وهذا ما نراه رأى العيان ، فلا مبالغة ولا افتعال !

وبعض الذين يخدعون أنفسهم ، يصيحون بك : إن المستوى الثقافي الذي أحرزته الزوجة الجامعية يمنع الانسجام بينها وبين غير الجامعي ممن لم يصل إلى مستواها الفكري ، وأقول لهؤلاء : إنكم تضعون رءوسكم في الرمال حين تتحدثون عن المستوى العالي للجامعة الحديثة ، فقد انحدر هذا المستوى منذ أعوام عدة ، وصار المتخرج لايعرف الضروري البدائي من البدهيات ، وفي اختيارات التعيين لبعض الوظائف انكشف المستور وظهر الجهل الفاضح حين يسأل طالب الوظيفة عن عاصمة إقليم ، أو علم بارز من رجال أمته ، أو مؤلف رائع لبعض الكبار من الكتاب فلا



يجيب بشيء ، وإذن فقد أصبحت الثقافة العامة مشتركة بين الجامعي وغير الجامعي لأنها ثقافة التليفزيون والفيديو والمسلسلات الإذاعية وفيها القدر المشترك ليتبادل السمر ومنعطفات الأحاديث !

تعليم علمي وعملي

فإذا جئنا إلى المدرسة الثانوية وهي مربط الفرس في هذا المجال فإننا ندعو إلى تغيير النظرة إلى رسالتها التوجيهية بحيث لاتكون مقصورة على الإعداد للالتحاق بالجامعة فقط ، وبحيث لايكون كل رجاء أولياء الأمور هو الكلية الجامعة المرموقة ، وعلينا أن ننتفع بخبرات الدولة المتقدمة في هذا المجال ، فاليابان مثلا تعد المرحلة الثانوية كافية لانتهاء التعليم الضروري لأن التدريس بها ينقسم إلى ناحيتين متلازمتين ، ناحية علمية ، وناحية عملية ، بحيث يتلقى الطالب دروسه في الناحيتين على مستوى واحد ، فهو منذ السنة الأولى يلتحق بما يختار من المهن فيدرس التجارة أو الزراعة أو الحدادة أو ملتزمات الصيد والحياكة والنسيج ، وتكون السنوات المتوالية سلما تدريجيا لاتقان الحرفة التي اختارها ، مع ما يدرسها في الناحية العلمية ، فإذا تخرج من الثانوية توجه تلقائيا إلى مزاولة ما أجاد من هذه الحرف ، وتلقفته المصانع والمعامل والمتاجر ليؤدي دوره بأجر مجزى لايجعله يفكر في الكلية الجامعية التي لايتهيأ لها غير ذوي المواهب الراقية ، وسيجدون ما يمتعهم من البحث العلمي في كليات متخصصة ليست متخمة بالأعداد الكثيرة ، ولم تتحول إلى مدرجات يسع الواحد منها عدة مئات ، ليسمع الطالب ولا يناقش ، وليكون الكتاب المفروض هو كل شيء ، وإن لم يفهم على وجهه الصحيح !

أموال التعليم الخاص

وأوجه الكلام هنا إلى أولياء الأمور فأقول إن الواحد منهم يضطر إلى الكليات الخاصة متفقا بالانتساب إلى التعليم الجامعي ، فيدفع في العام الواحد أكثر من ثلاثين ألفا في الكليات المتواضعة ، ويدفع لابنه مصروفه الشهري بما لايقل عن ألف جنيه في الشهر الواحد ، فيزيد المجموع عن أربعين ألفا ، ثم تتوالى السنوات الأربع فيصل ما أنفقه إلى أكثر من مائة وستين ألفا ! والكارثة كل الكارثة بعد ذلك أنه لن يجد مكانا محترما يشغله ! فكيف لايكون هذا المبلغ المرهق حقا ، توضعا للكسب من متجر أو مصنع ، أو مزرعة فيغني صاحبه ويتيح الفرصة، لعمال متعطلين لايجدون بابا للارتزاق ، وتنهض الحركة المعيشية حين يتيسر العمل الشريف لكل عاطل حزين بانتشار هذه المشروعات !

ولا أجد أقرب إلى الاقتناع ، وأدعى



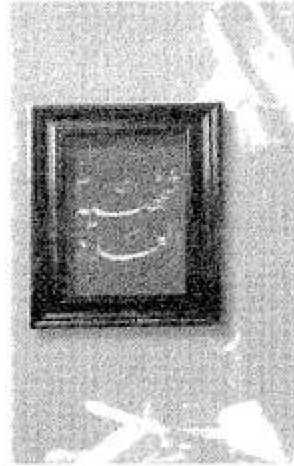
التصديق من المثل الواقعي الملموس الذي يؤكد القضية التي أدعو إليها ، وهو مثال كنت أحد شهوده بدءا أو خاتمة فقد كان بكلية اللغة العربية بالمنصورة طالب في السنة الأولى رسب عامين متوالين في ست مواد ، وتعين عليه أن يسحب أوراقه ليلتحق بكلية أخرى كما يتيح القانون وحين ذهب بأوراقه إلى الكلية المجاورة وهي كلية أصول الدين ، قابله صديقي الراحل العزيز الدكتور عبدالحميد الطنطاوي رحمه الله : وسأله عن مقصده فعرف ما ينتويه ! ونظر الدكتور إلى الطالب ، وهو يعرف مقدرته الضعيفة التي لاتساعد على انتظامه في السلك الجامعي ، وإن تبدل الوضع من كلية إلى كلية ، فاصطحبه إلى مكتبه ، وقال له في رفق الوالد ، وحنان الأستاذ المخلص ، يا فلان :

إن مواد الكلية التي تنوي الالتحاق بها ، لا تقل صعوبة عن مواد كلية اللغة العربية التي لم توفق في استيعابها ، وليست الكلية هي طوق النجاة الوحيدة ، وأنت شاب قوي البنية ، موفور الصحة ! وأشير عليك أن تذهب للعمل في الكويت أو العراق وكان ذلك قبل اعتداء صدام بعدة أعوام ، وطوائف الطلاب يرحلون في المسامحة إلى العراق أو الكويت دون انقطاع ! فارحل سريعا ، ولا تحضر عند الدراسة ، بل استمر حتى توفر لك قدرا من المال ترجع به ليكون نواة لعمل تجاري أو زراعي ! وكان الطالب في صميم شعوره يكره الدراسة ، ويبحث عن منفذ آخر ، فصادف الاقتراح قبوله ، وعجل بالتنفيذ ، وبعد ستة أعوام رجع ليفتح في قريته محلا لبيع الدواجن المذبوحة ، وساعده الحظ الذي أخلفه من قبل ، فراجت تجارته ، واشترك في مزرعة للدواجن مع بعض التجار المدربين فكان من العجب العاجب أن زملاءه الذين أكملوا الدراسة ، ولم يجدوا بابا للرزق أخذوا يسعون إليه كي يكونوا عمالا في مزرعته ! وكان كريما سمحا فأجزل لهم الأجر ، وهم الآن يعملون لديه شاكرين عطفه وسماحته !! ولولا اقتراح الفقير العزيز ما أشرق نور الحياة في وجه الطالب المسكين !

أفبعد ذلك ، نحصر آمالنا في الكلية بالجامعة ، ونبيع العقار والحلي والأثاث لنلتحق بها ، ثم نخرج إلى الحياة عاطلين ، نتلمس الوظيفة الشحيحة كأنها الشيء الوحيد في الحياة ، متجاهلين قول القائل :

وهم الذي حسب الوظائف راحة
هي راحة الأسرى إلى الأغلال





رشدى سعيد

الوطن والخيال

بقلم
مصطفى الحسينى

عندما أجاب الدكتور رشدى سعيد على سؤال كاتب هذا المقال عن سبب اختياره الجيولوجيا موضوعا لدراسته الجامعية ، كانت مفاجأة الجواب أنه قال «فى العام ١٩٣٧ ، عندما قبلت للدراسة فى كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) ، لم أكن أعرف شيئا عن الجيولوجيا ، حيث لم تكن ضمن برامج التعليم الثانوى فى مصر آنذاك، لكنه توجه إليها أخذا بنصيحة المفكر المصرى سلامة موسى ، المعروف برؤيته الثاقبة لاحتياجات المجتمع المصرى ومقتضيات تقدمه .

«لكن ما أن دخلت إلى حقلها ، حتى وجدت فى التجربة متعة كبيرة . فتحت أمامى آفاقا واسعة لكل من الزمان والمكان.

وجدت كوكب الأرض بأكمله (إن لم يكن الكون كله) مفتوحا للدراسة والتأمل ، إضافة إلى الزمن السرمدى الذى عاشه الكوكب والكون .

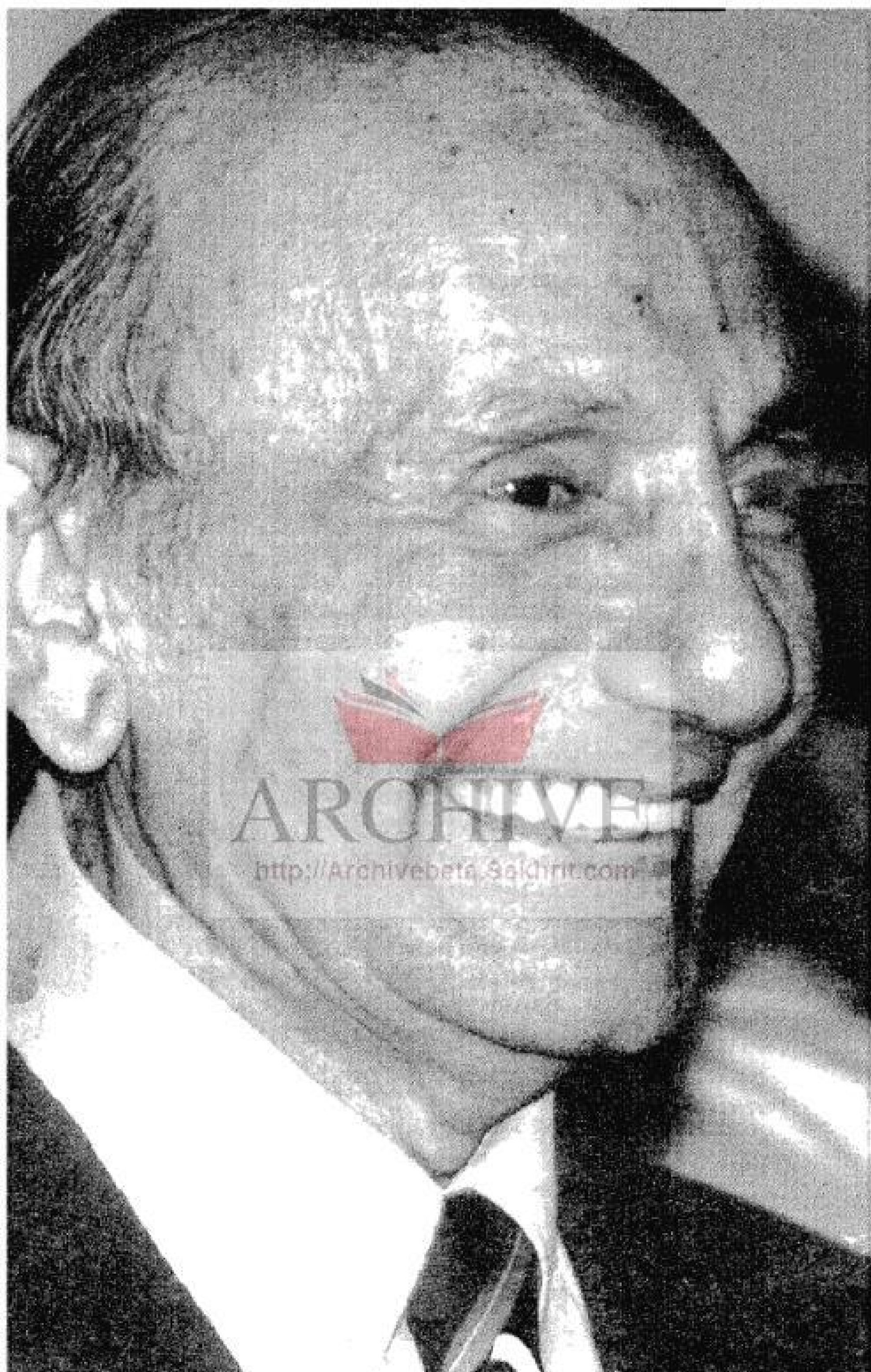
أدى بى استغراقى فى دراسة أرض مصر إلى الوقوع فى غرامها، ما زاد وثوق أرتباطى بها وجعلنى أشعر بالأسى وأنا أرى أرضها لا تستخدم استخداما سليما لفائدة سكانها .

يمكن القول أن تلك الأرض أصبحت جزءاً من روحى .

فالجيولوجيا تشحنك بطاقات من الخيال تعينك على بناء صورة لما كانت عليه بقعة من الأرض قبل ملايين السنين ».

بعد ٦٧ سنة من ذلك «الكشف» يبدو أن «أسى العاشقين» ذاك هو أهم وأقوى ما شكل حياة رشدى سعيد .

وأن آفاق الخيال التى تفتحها صلابة ما تتعامل معه الجيولوجيا ، كانت هى المحفز



الأكبر لما حققه من تقدم في العلوم ، حيث لم يقتصر جهده على مادة تخصصه ، إنما تجاوزتها إلى الجغرافيا وإضافات مهمة فى فهم التاريخ ، حيث لايخفى فى مجمل عمله - العلمى والعام - أنه أدرك التاريخ ماضيا وحاضرا وتوجها إلى المستقبل .

** ** **

أمضى رشدى سعيد قسما كبيرا من شتاء هذا العام وربيعه (٢٠٠٤) فى مصر ، تجاوز زمن عادته السنوية التى التزمها منذ أن ألغى فى ١٩٨٢ أمر باعتقاله ضمن مايزيد على ١٥٠٠ من الشخصيات العامة فى البلاد يمثلون ألوان الطيف السياسى والفكرى جميعا ، كان الرئيس المصرى آنذاك أنور السادات قد أصدر ذلك الأمر قبل حوالى شهر من مصرعه فى أكتوبر ١٩٨١ .

نجا من الاعتقال بمصادفة وجوده عندئذ فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث استقر به المقام ، «إذ أمطرنى أصدقائى وزملائى الأمريكيين بعروض الأعمال والوظائف الاستشارية» .

يمكنك أن تقول أننى «أختطفت وأغريت لأصبح مواطنا أمريكيا» .

عندما سأل كاتب هذا المقال العالم الكبير عن مايظن كان السبب فى إدخال اسمه إلى قائمة تلك الإعتقالات كان جوابه أنه لايستطيع جوابا وأن - فى حدود علمه - لا أحد عنده جواب .

لكنه يعتقد أنه كان يشغل تفكير السادات ، حتى بعد أن أعتزل السياسة فى ١٩٧٦ وقرر أن لاينغمس فيها مرة أخرى .

«كانت زوجتى تقول لى أننى أتوهم أشياء» .

كانت واثقة من أن رئيسا له سلطات مطلقة ، لايمكن أن يشغل تفكيره بشخص متواضع مثلى .

لكننى استعيد أنه بعد أن اعتزلت السياسة أرسل لى السادات من يدعونى إلى الانضمام إلى حزبه .

فلما رفضت ، أرسل لى رسولا آخر يدعونى إلى الانضمام إلى حزب المعارضة الذى كان السادات نفسه يخطط لإنشائه .

وعندما أشار إلى عدم رضاه عنى أثناء أحد اجتماعات حزبه ، أعتبر كثير من الموظفين ذلك أنه رسالة تعنى أننى «صيد مباح» .

أغلق الطريق إلى بيتى فى «الخارجة» .

وضع هاتفى تحت المراقبة ، وأصبحت تحت رقابة محكمة»

** ** **

ربما طالت الإقامة فى مصر هذا العام بسبب من عارض صحى فاجأه فور وصوله ، مع ذلك فقد تحولت زيارته هذه السنة إلى مايمكن تسميته «موسم رشدى سعيد» ، كأنما أستفاقت عليه الخلايا الحية فى البلاد فتزاحمت عليه أحاديث تجريها معه صحف المعارضة ، ندوات وجلسات استطلاع واسترشاد ومناقشات ترتبها



● «إنى دخلت إلى حقل الجيولوجيا ، حتى وجدت فى التجربة متعة كبيرة . فتحت أمامى آفاقا واسعة لكل من الزمان والمكان»

هيئات منظمة وتبادر إليها مجموعات من الأفراد ، من اتجاهات متباينة ومن أجيال متفاوتة ، وأيما كان تنوع مايوجه إليه من أسئلة وبأي اتجاهات كان تشعبها ؛ بقي المدار واحدا : مستقبل مصر .

فى ندوة نظمها المجلس الأعلى للثقافة اقتصر برنامجها - تقريبا - على أن يجيب رشدي سعيد على أسئلة الحضور .

وكان «الحضور» ملفتا للانتباه - معظمه شيوخ يبدو أكثرهم طاعنين في السن ، حتى أن المتحدث الذى كان يدرج فى عامه الرابع والثمانين ، بدا أكثرهم شبابا ، وكان - بالتأكيد - أكثرهم تدفقا بالحيوية .

كان هؤلاء الشيوخ ينهضون واحدا بعد الآخر ، يبدأ حديثه بتذكير المتحدث أنه كان من بين تلاميذه فى زمن مضى ، قبل أن ينتقل إلى طرح مايشغل باله من هموم حاضر البلاد ومستقبلها .

ولم يكد أي من الأسئلة يخلو من القلق حيال «مشروع توشكى» .

«توشكى» مشروع أعلنت عنه الحكومة المصرية منذ ثماني سنوات ، لتحويل مساحات واسعة من الأراضي الصحراوية فى جنوب غرب البلاد إلى أراض للزراعة المروية ، بفتح قناة ضخمة تبدأ من «بحيرة ناصر» التى أثمرها بناء «السد العالى» فى ستينات القرن الماضي ، لتكون مستودع «التخزين القرني» لمياه النيل ، لتصب فى «مفيض توشكى» ، الذى أعتبر منصرفا احتياطيا في حال تعاقب فيضانات عالية للنهر ، تفوق قدرة البحيرة على التخزين .

قدمت الحكومة المشروع كأنه معقد أكبر آمالها فى تنمية الاقتصاد المصرى والخروج بقسم كبير من السكان من خانق وادى النيل المكتظ بهم إكتظاظا يدمر البيئة ويحبط الآمال .

تلميذا شيخا بعد تلميذ شيخ وسؤالا عن توشكى بعد سؤال ، بدا أن المتحدث يتجنب الخوض فى الموضوع ، ولم يلبث أن تبين أن مرد ذلك قد يكون نوعا من السأم من الخوض فى مانفض يديه منه ، خصوصا ، أن تاريخ المشروع قد حسم الجدل حوله ؛ «بعد ثماني سنوات وستة بلايين من الجنيهات من الإعلان عن المشروع ، لا نتائج» - كما يقول رشدي سعيد ، بعد أن يروى تاريخ مواجهته مع ذلك المشروع الذى أنبنى على أوهام وبدد كثيرا من الطاقات والأموال .

«بدأت معرفتى عن (المشروع) عندما أعلن عنه رئيس الجمهورية أثناء زيارته لمفيض توشكى عندما فتح للاستخدام للمرة الأولى ليستقبل الفيضان المرتفع فى ١٩٩٦ .

فى حضور وزير الرى آنذاك ، إذ كان الوزير الأسبق أن أعلن فى خطاب له قرىء أمام مؤتمر نظمته محافظة أسوان للنظر فى التنمية الزراعية للأراضي المحيطة ببحيرة ناصر ، أن مصر لا تملك نقطة ماء تقدمها لأى مشروع لاستصلاح الأراضي جنوب أسوان .

«فور سماعى إعلان الرئيس ، رجعت إلى سجلات مايدخل إلى خزان بحيرة ناصر من المياه على تعاقب السنين وكمية المياه التى استخدمتها مصر على مدى السنوات نفسها . وجدت أن ما استقبلته من مياه يتساوى مع ما استخدمته .

فمن أين ستوفر مصر الخمسة بلايين متر مكعب من المياه التى سيحتاجها المشروع

سنويا ؟ كتبت مذكرة بما توصلت إليه وسلمتها إلى السفير المصرى بواشنطن لتوصيلها إلى السلطات المعنية . لم أتلق أى جواب» .

* * *

«مصر المستقبل : المياه • الطاقة • الصحراء» .

هو عنوان آخر كتاب نشر له باللغة العربية (كتاب الهلال - القاهرة - مارس ٢٠٠٤) .

عنوان أحد فصول الكتاب :

«نحو إعلان الدلتا ووادى النيل محمية طبيعية» .

مضمون الفصل أوسع وأشمل وأعمق مما قد يوحى به العنوان .

فما يعرضه لايقل عن رؤية لمستقبل مصر ، يؤدى تحقيقها إلى استخدام سليم وفعال لموارد البلد ، يطلق طاقاتها للتأسيس للرخاء وتوطيده .

ويقول رشدى سعيد :

«لا أستطيع أن أتصور لمصر مستقبلا على قدر معقول من الرخاء دون الأخذ ببرنامج للتصنيع الكثيف وتنفيذ خطة لإعادة توزيع تجمعات السكان بهدف تخفيض كثافتهم فى وادى النيل الضيق .

الفكرة وراء تلك الخطة هى أن تستفيد مصر من مجالها فى الصحراء ، لنقل قسم كبير من سكانها بعيدا عن وادى النيل .

هذا العنصر فى الخطة أساسى ومفتاح إلى مستقبل أفضل .

المراكز السكانية الجديدة يجب أن تبنى حول قاعدة صناعية تكون عمادا لاقتصادها .

تعتمد تلك الصناعات على مصادر الطاقة التى اكتشفت مؤخرا .

لايجوز ، تحت أى ظرف ، تصدير مصادر الطاقة تلك كما هو مخطط .

وبالطبع ، يتطلب تنفيذ مثل هذا البرنامج تغييرا كاملا للطريقة التى تحكم بها مصر .

يتطلب حكما يقوم على المشاركة ويخضع للمحاسبة ويخلو من الفساد ويقوده أناس أمناء وذوو رؤية .

* * *

هل أن «أسى العاشقين» ذاك هو الذى دفع رشدى سعيد لأن يبنى لنفسه عددا من البيوت فى بقع متعددة من البلاد ؟

يروى رشدى سعيد أن أولها كان فى ١٩٥٥ فى «رأس البر» (عند مصب الفرع الشرقى لدلتا النيل) .

أحب المنطقة عندما ذهب إليها لزيارة والدته التى كانت تقضى الصيف هناك بعد أن نقلت العائلة مصيفها من الإسكندرية إليها لأنها كانت البلدة الوحيدة التى تمنع استخدام السيارات وما إليها .

«ذهبت إليها مباشرة من بلدة «وودز هول» الساحرة فى منطقة



لا أتصور لمصر مستقبلا دون الأخذ ببرنامج للتصنيع الكثيف وتوزيع تجمعات السكان بهدف تخفيض كثافتهم فى وادى النيل الضيق

«.كيب كود» بأقصى الشمال الشرقى للولايات المتحدة حيث قضيت الصيف كزميل باحث في معهد جغرافيا المحيطات هناك .

وجدت عديداً من أوجه الشبه بين «وودز هول» و«رأس البر» ، فحلمت أن يكون لي بيتا فيها .

تحقق حلمي عندما عرضت للبيع قطع من أراضي البناء في ١٩٥٤ .

أشتريت قطعة على شاطىء البحر وبنيت عليها ذلك البيت .

«كان بيتي الثاني في (ضاحية) المعادي (جنوب القاهرة) .

وضع المعماري الشهير حسن فتحي تصميما كان تنفيذه يفوق قدرتي المالية ، فكان عليّ أن أبني بطريقة أكثر تقليدية - أبقيت فقط على تصميم الأبواب والنوافذ على نسق النجارة العربية - المشربية ، كما زخرفت الجدران بقطع من الأحجار جمعتها من أماكن متعددة في الصحارى المصرية .

كما زرعت في الحديقة نباتات وأزهارا جمعتها أثناء أسفاري .

«بيتي الثالث الكبير كان في الواحات الخارجة (وسط جنوب غرب صحراء مصر الغربية) .

وقعت في غرام تلك الواحات أثناء زيارتي المتكررة للإشراف على مشروع فوسفات «أبو طرطور» .

أثناء تلك الزيارات تابعت أيضا نشاط «هيئة تعمير الصحارى» وكنت بالغ الإعجاب بإخلاص الفريق المسئول عن استصلاح أراضي الواحات وحماسهم .

أغراني جو المكان وهدوءه ، فقررت أن أجعله مكان تقاعدي .

دخلت أول مزاد لبيع الأراضي هناك واشتريت مزرعة للنخيل مساحتها ٢٠ فدانا وبنيت بيتا على حافة الصحراء ، على النسق المعماري لحسن فتحي .

«بعد ذلك تخلى السادات عن مشروع استصلاح أراضي الواحات وحل الهيئة المسئولة عنه وطارد روادها .

ثم أتخذ المتطرفون الإسلاميون الواحة ملجأ لهم بعد أن توقف العمل في تعميرها ، وخصوصا بعد مصرع السادات .

أمتلأت المنطقة برجال أجهزة الأمن السياسي .

فقدت الواحات سحرها وهدوءها . قررت الرحيل» .

«بنيت أيضا ثلاثة بيوت صغيرة للأستجمام ؛ أحدها على كورنيش النيل مقابل ضاحية المعادي .

والثاني على شاطىء البحر المتوسط على بعد ٦٧ كيلومتر غرب الإسكندرية .

أما الثالث فعلى بعد ٥٠ كيلومترا جنوب مرسى علم على شاطىء البحر الأحمر .

كان البيتان الصغيران الأخيران في برية نائية عن أي عمران .

كان عليّ - في كل زيارة - أن أحمل حاجتي من الماء والطعام» .

** ** **

هل قصد بأختيار مواقع بيوته أن يلم ما أستطاع من أطراف خريطة البلد ؟ الدلتا والوادي والبحرين - الأبيض المتوسط والأحمر - والصحراء ؟

حالة نهر النيل

ونهر النيل - مصدر الحياة - ملوث يدخله كل سنة مايزيد على ٥٠٠ مليون متر



مكعب من عوادم المصانع الحاملة للسموم .
وعدة بلايين أخرى من الأمطار المكعبة من صرف الزراعة الحامل لبقايا المخصبات والمبيدات .
وملايين أخرى من الأمتار المكعبة من الصرف الصحي غير المعالج والكبير من المعادن الثقيلة التي تأتي مع هذه النفايات والتي تترسب في الأرض التي نأكل مما ينبت عليها ، أو تصل هذه النفايات إلى البحيرات والبرك التي نصيد منها أسماكنا .
ولهذا أثره في إفساد حياتنا وزيادة تعرضنا للأمراض الخبيثة والمزمنة التي تزايدت نسبتها في السنوات الأخيرة .
وكمثال واحد لقدر التلوث الذي يحيط ببحيرات الشمال ، فإنني أذكر ما حدث لبحيرة المنزلة التي يصب فيها مصرف بحر البقر ، الذي يمتد لمسافة مائتي كيلومتر من جنوب القاهرة إليها ، مارا بمحافظات القليوبية والشرقية والدقهلية والإسماعيلية ، حاملا معه أكثر من ٨٤٥ مليون متر مكعب من مياه الصرف الصحي غير المعالج والمختلط بمخلفات وعوادم حوالي ٨٠ مصنعا في منطقة القاهرة الكبرى .
وهذا التلوث يؤثر في أسماك البحيرة التي إنخفض إنتاجها من ١٠٠ ألف طن عام ١٩٨٢ إلى أقل من ٤٠٠٠ طن عام ١٩٩٢ .
والتي تلوثت حتى وصلت نسة تركيز الزئبق فيها إلى ٢٨٠ جزءاً في المليون ، في الوقت الذي أوصت فيه منظمة الصحة العالمية بألا تزيد هذه النسبة على الجزء الواحد في المليون .
كما وصلت نسبة تركيزات الرصاص فيها إلى ٧٣ جزءاً في المليون وهي نسبة عالية جدا .
وقد بلغ التلوث في البحيرة درجة أن الكثير من الطيور التي كانت تصلها قد هجرتها .
وانخفض عدد طيور الغر من ٥١ ألف طائر في سنة ١٩٨٠ إلى حوالي ٤٠٠ فقط في سنة ١٩٩٠ .

د. رشدي سعيد
مصر المستقبل . المياه * الطاقة * الصحاري
«كتاب الهلال» - مارس / آذار ٢٠٠٤



● وقعت في غرام الواحات الخارجة أثناء زياراتي المتكررة للإشراف على مشروع الوسادي «أبو طرطور» .

رشدي سعيد ١٩٢٠

تلقى تعليمه في جامعات القاهرة وزيوريخ وهارفارد .
● شغل مراكز :
باحث مشارك في معهد جغرافيا المحيطات في «وودز هول» بالولايات المتحدة (١٩٤٩ - ١٩٥٢) .
أستاذ مساعد للجيولوجيا بجامعة هارفارد (١٩٥٠ - ١٩٥١) .
محاضر ، أستاذ مساعد ، ثم أستاذ الجيولوجيا بجامعة القاهرة

(١٩٥١ - ١٩٦٨) .
رئيس مجلس إدارة هيئة المساحة الجيولوجية والتعدين بمصر (١٩٦٨ - ١٩٧٨) .
خبير استشاري دولي وأستاذ زائر بجامعة تكساس بالولايات المتحدة وجامعة برلين التكنولوجية (١٩٧٨ - ١٩٩٥) .

• أنتج حوالي ١٥٠ بحثا علميا نشرت في أهم الدوريات العلمية .

• من بين أهم مؤلفاته وأشهرها الأوساط العلمية كتاب «جيولوجيا مصر» الذي نشرته في ١٩٦٢ واحدة من أهم دور النشر العلمي في أوروبا وأمريكا وأعتبر المرجع الحصري في موضوعه .
ترجم الكتاب إلى الروسية في ١٩٦٥.
وأعاد المؤلف كتابته في ١٩٩٠ .

• من مؤلفاته المهمة عملان شهيران عن نهر النيل : أولهما عن تطور النهر وتاريخه الجيولوجي (١٩٨٢) ويتناول الثاني هيدروليكية النهر واستخدام مياهه في الحاضر والمستقبل وقد نشرت الكتابين دور نشر مرموقة ، وترجم ثانيهما إلى العربية .

• إضافة إلى مؤلفاته العلمية ، كتب رشدي سعيد أكثر من ١٣٠ مقالا باللغة العربية نشرتها دوريات مصرية وعربية ، تناول فيها الشئون المصرية الجارية عارضا أفكارها ووجهات نظره حول الاستخدام السليم لموارد مصر .

• حصل كل من كتابيه «نهر النيل» و«الحقيقة والوهم في الواقع المصري» على جائزة معرض القاهرة للكتاب ، في موضوعيهما ، في عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥ على التوالي .
نشر سيرته الذاتية بمناسبة بلوغه الثمانين (٢٠٠٠) واستقبلت استقبالا جيدا من الصحافة ، كما كانت موضوع برنامجين تليفزيونين طويلين تكرر بثهما .
وستظهر السيرة باللغة الانكليزية في نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٠٤ ، عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

• استحق رشدي سعيد الأوسمة والجوائز والميداليات العلمية التالية :

• انتخب عضوا بالمعهد العلمي الفرنسي في مصر (١٩٦٧) * والأكاديمية المصرية للعلوم منذ ١٩٦٨ * ومنح ميدالية العلوم والآداب في مصر (من الطبقة الأولى) في ١٩٦٢ * انتخب عضوا شرفيا في الجامعة الجيولوجية الأفريقية في ١٩٨٢ . * وزميلا فخريا في الجمعية الجيولوجية الأمريكية في ١٩٨٩ . * وعضو شرف متقاعد في الجمعية الأمريكية لجيولوجي النفط في ١٩٩١ . * كما منحته الجمعية جائزة الرواد في ٢٠٠٣ . * في ١٩٩٤ انتخب زميلا في أكاديمية العالم الثالث للعلوم . * ومنحته الجمعية الجغرافية الألمانية ميداليتها للعام ١٩٨٦ .

* منحته كل من جامعة تكساس بالولايات المتحدة وجامعة برلين التكنولوجية درجة الدكتوراه الفخرية في عامي ١٩٨٢ و١٩٨٦ على التوالي .

* إلى ذلك انشغل رشدي سعيد بشئون بلده وحياتها العامة ، وانغمس - حينا في معتركها السياسي ، فتولى مسئولية التعليم العالي في «الاتحاد الاشتراكي العربي» - الحزب الحاكم ، في أواسط ستينات القرن الماضي ، كما كان عضوا في البرلمان (١٩٦٤ - ١٩٦٧) ، كما كان عضوا في هيئة رئاسة الاتحاد البرلماني الدولي . ■

اوراق مصرية
ابراهيم باشا

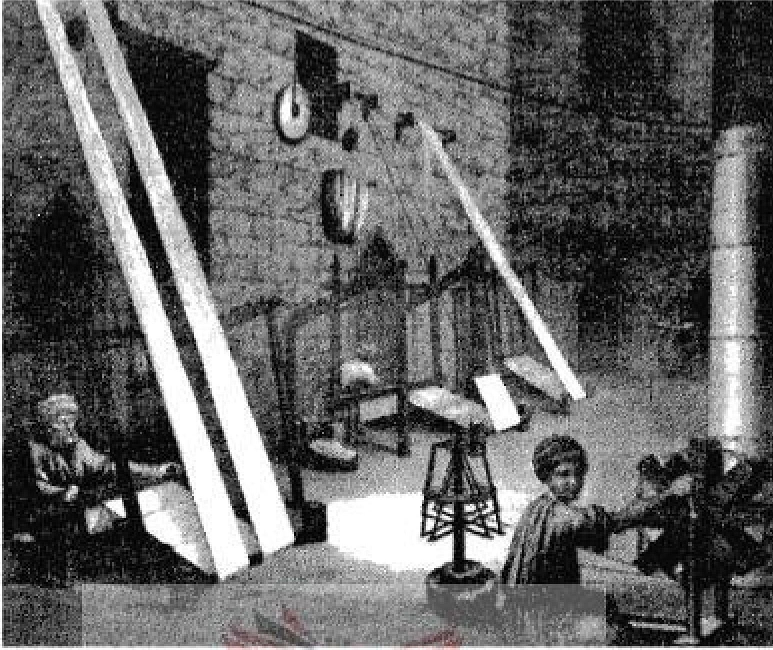
كيف استقبل إبراهيم باشا فى قصر باكينجهام؟

بقلم
محمد عودة

كانت الصناعة والتصنيع وإقامة الدولة الصناعية المصرية العصرية ، وأن تلحق بالحضارة الحديثة لتكون قاعدة لتصنيع الوطن العربى ، وحتى يصمد لتحديات العصر غير المتكافئة حوله. كان ذلك حلما تاريخيا ولد ببداية نهضة مصر منذ أكثر من مائتى عام.. وبدأ حين رفع إبراهيم باشا شعار «التعليم والتصنيع والتسليح» وأن تكون الأعمدة الثلاثة التي يقوم عليها البناء والبعث ، فهناك أمة عربية عريقة تمتد من جبال طوروس حتي منابع النيل وتنتظر من يخلصها ويعيد لها مكانتها، ونذر إبراهيم باشا حياته لتحقيق الرسالتين.

وحينما بدأ الزحف الطويل من القاهرة سئل إبراهيم عن مدى الزحف فقال .. حتى آخر بلد يتكلم العربية . وكان يوقع أوامره «سارى عسكر عربستان » أى قائد الجيوش العربية . وتدفقت جحافل الوفود والمتطوعين من المسلمين والنصارى والدروز ودخل عكا فاتحا ومحررا و هى المدينة التى ارتد نابليون مهزوما على أسوارها، وبددت حلمه العريض فى تحقيق القرن الفرنسي.

وكان الجيش أول جيش مصرى منذ قرون وكان جيش الفلاحين أساسا ، وقام بعد جدل شديد بينه وبين الاتراك والشراكسة فى حاشيته ، وقد أنذروه وحذروه ان تجنيد الفلاحين لابد وأن ينتهى ذات يوم قريب أو بعيد باستيلائهم على السلطة ، ورد محمد على «من حقهم !» وكانوا فلاحين مختلفين عن آبائهم



كان للصناعة حيز كبير من طموح إبراهيم باشا ..فتشجع صناعة النسيج الذى تهافتت السوق الأوروبية على استيراده

وأجدادهم. فقد ألغى محمد على الإقطاع المملوكي ، الذى استغل واستبد قرونا طويلة وأقام رأسمالية دولة عصرية بأساليب انتاج حديثة ووزعت الأرض من جديد على القوى والفئات الجديدة المنتمية، وعلى الأعيان ومشايخ البلاد واحتفظت الدولة «الجديدة» بالقدر الكافى لتحقيق الأهداف . وتجددت المحاصيل التى استوردت وجربت من كل أرجاء العالم وابعدها . وأثبت القطن المصرى أنه أجود أقطان العالم ، وانتجت المصانع المصرية ارفع انواع النسيج وتهافتت المصانع الأوروبية على استيراده.. وأنتجت الأرض المصرية والزراعة الحديثة أجود أنواع الحبوب والفواكه والخضر للاستهلاك والتصدير.

جدل في الغرب

وانقسم الغرب إزاء النهضة المصرية انقساما حادا، انعكس فى البرلمان البريطانى ، فقد أيد الأحرار والإصلاحيون ما يحدث فى مصر. واعتبروه بداية لنهضة فى كل الشرق ولتبادل وتفاعل الحضارات وتعارف وتعايش الشعوب ، خاصة ذوى الحضارات العريقة وبذلك يعم السلام والرخاء.

ورفض الآخرون هذه الأوهام وأنذروا بأن استيعاب الشرق لأسباب القوة والتقدم الأوروبية هو أكبر خطر يهدد الأوروبيين عامة ، وأن قيام دولة عربية عصرية قوية سوف يهدد الطريق الحيوى إلى الهند

والطريق الآخر إلى جنوب أفريقيا، ولكن الخطر الأشد، هو تصنيع مصر وامتداده حولها وذلك سوف يغلق أسواق الشرق أمام تجارتنا وبضائعنا.

توحد أوروبا ضد مصر

واستطاعت بريطانيا العظمى ان تجمع اوروبا معها حول سياستها ، ولأول مرة وآخر مرة فى التاريخ الحديث توحدت كل دول أوروبا الكبرى حول هدف واحد هو إجهاض الخطر، الذى تمثله مصر ويهددها جميعا ، وضاعف المرارة أن انضمت فرنسا صديقة مصر وحليفها الى «أوروبا».

وكان رأى إبراهيم أن يرفض الانذار وأن يزحف العاصمة العثمانية ، وكانت تحت مرمى مدافعه وانحاز له الاصلاحيون العثمانيون ، ورحبوا بإعلان الدولة العربية التركية الجديدة. ولكن خانت محمد على فى القاهرة اعصابه ووطأة الإنذارات التى انهالت عليه وغدر فرنسا به و أصدر أمره إلى إبراهيم الذى كان يقدس أباه ولا يجرؤ على مخالفته وانسحب وهو يفيض مرارة وأسى عبر عنهما فى خطاب تاريخى ردا على أوامر أبيه!!

وقرر الحلف الأوروبى بزعامة بالمرستون أن لابد من إبادة الجيش المصرى خلال انسحابه و، جندت كل القوى المرتزقة والعميلة لهذا الهدف ولأسر إبراهيم ليلقى مصير بطله نابليون.

وانسحبت القوات المصرية من أبواب اسطنبول حتى القاهرة ، بعد سلسلة من المعارك والبطولات والتضحيات الباسلة المريرة، وصنعت عبقرية إبراهيم ورئيس أركان الحرب سليمان باشا الفرنساوى ملحمة من ملاحم التاريخ.. كما وصفت يومئذ.

ولم ينل فشل المشروع العربى من إرادة الأب والإبن، وعكفا على الاصلاح الداخلى.. واختارا مشروعا يكفل أهم ما تحتاجه مصر من المياه والطاقة وهو مشروع القناطر الخيرية. وكان مشروعا أعده «السان سيمونيين» وهم فريق من الاشتراكيين الفرنسيين أتباع الفيلسوف الاشتراكى «الكونت هنرى دى سان سيمون» والذين قرروا الهجرة الى الشرق، حيث يستطيعون تحقيق مشاريعهم ومبادئهم التى لا فرصة لها فى أوروبا التى استولى عليها الرأسماليون والاستعماريون.

وتحقق المشروع وكان حدثا فى حياة القرن يومئذ ، وتجاوب صداه العالم كله ، وكان إضافة كبيرة لسجل انجازات الأب والابن.. واستلهمه المهندسون المصريون العظام فى عصر إسماعيل ثم المهندس اليونانى دانبتوس فى مشروع السد العالى فى القرن العشرين.

واشتد المرض على الاب وكان قرار الانسحاب ، وانهمك ابراهيم فى ممارسة الحكم والإصلاح وبنجاح أدهش القناصل ولكن اقلق «بالمرستون» الذى أرسل الى قنصله فى مصر يستفسر اذا ما كان ابراهيم ينوى القيام بمغامرة ثانية ويثأر لهزيمته ، وبالطبع لم يكن يعرف ان القنصل كان من أشد المعجبين بالوالى الجديد.

واشتدت وطأة الدوسنتاريا فجأة على إبراهيم ونصحه الأطباء بضرورة السفر الى أوروبا للعلاج. واختار ايطاليا وذهب متخفيا كأحد المرضى الشرقيين ولكن ما ان اكتشفت شخصيته حتى انتفضت ايطاليا شعبا وحكومة للحفاوة بنابليون الشرق حفاوة لم تسبق لزائر من الشرق والغرب وتعددت حفلات التكريم والاستقبال الرسمية والشعبية وتبارى المهندسون والفنيون والعمال الذين شاركوا فى النهضة المصرية فى الحفاوة

البالغة بالضيف العظيم وتحولت زيارة العلاج إلى مهرجان حفاوة وتقدير .

وفوجىء ابراهيم بدعوة من جلالة الملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا لزيارتها زيارة رسمية مع رئيس أركان حربه سليمان باشا الفرنساوى «الكولونيل سيف».

وخرجت باريس كلها للاحتفال بالبطل المصرى، وكما لم تعرف باريس منذ عصر نابليون وتبارت الصحف الكبرى فى التمجيد وقارنته بالاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر ونابليون وتسابق العسكريون والمهندسون والعمال المهرة ممن شاركوا بأعداد غير قليلة فى المشاريع الكبرى بالحفاوة الحارة ببطل الشرق.

وأبدى إبراهيم اهتماما استرعى مضيفه بزيارة المدن الصناعية والمنشآت الصناعية المدنية وأحواض بناء السفن وكتبت الفيجارو «يبدو ابراهيم متفائلا وشديد العزم على تجديد ما فقده ومحو آثار الهزيمة».

وفوجىء ابراهيم مفاجأة لم يتوقعها وهو يختتم زيارته لفرنسا، عندما بعثت جلالة الملكة فيكتوريا ، ملكة بريطانيا وامبراطورة الهند وما وراء البحار ، تدعوه دعوة رقيقة وملحة لزيارة بريطانيا والنزول ضيفا مكرما عليها.

وتقبل إبراهيم الدعوة التى لم ينتظرها والتى تصورها مجرد مجاملة او للتصالح من اجل المصالح على الطريقة البريطانية. ولكنه فوجىء بفيض من الحماس والحرارة والإعجاب وقد استقبله ورافقه زوج الملكة وعقد مجلس العموم واللوردات جلسة خاصة لاستقباله وتحيته وتسابق الجميع. فى الحفاوة والتكريم ، وحرص كل القادة العسكريين وأمراء البحر الذين حاربوه على المشاركة فى حفلات ومآدب تكريمه والتعبير عن احترامهم واعجابهم بقدرته وشجاعته.

وحينما سئل ابراهيم اذا ما كان هناك ما يريد رؤيته وزيارته خارج البرنامج اجاب يوركشاير ولنكشاير ثم احواض بناء السفن وحينما تباطئوا فى الاستجابة ذكرهم بها وكتبت الصحف هناك .. «لم يسبق ان لقى زائر شرقى الحفاوة والحرارة والحماس الذى قوبل به ابراهيم باشا اينما ذهب فى المدينتين وخاصة من المهندسين والفنيين والعمال المهرة الذين سبق وعملوا فى مصر» .

وكان برفقة إبراهيم ضابط بريطانى يجيد اللغة العربية قال له «آسف يا سيدى أن لغتى العربية لا تسعفنى بترجمة كل ما يعبر عنه اهل المدينة من سعادة واحترام لكم».

وكانت اخر حفلة وداع كبرى اقيمت لابراهيم باشا هى حفلة رئيس الوزراء اللورد بالمرستون خصمه اللدود والذى عبأ أوروبا بأجمعها لكى تقضى عليه وقال فى خطاب الترحيب: «إن العلاقة والصداقة بين مصر وبريطانيا قدر محتوم للبلدين وعلينا ان نعمل معا بإخلاص لتحقيق هذا الهدف النبيل» وابتسم ابراهيم ولكن لم يقف ليرد كالعادة . وعاد ابراهيم من الرحلة الاوروبية يفيض نشاطا وحيوية وانكب على إحياء شعاره «التعليم والتصنيع والتسليح» وانه قدر مصر وطوق النجاة.

وفوجئت البلاد بوفاة ابراهيم قبل أن يتم رسالته وخرج الشعب بأكمله وكأن أحدا لم يتخلف ، شخص واحد فقط ارتكب ذلك الاثم وهو وريث العرش عباس والذى رفض الاشتراك فى الجنازة وسرت الشائعة انه الجانى وقد دس السم لعمه بعد ان مل انتظار العرش وتكرر الإثم عندما رفض ان يشيع جنازة حبره محمد على والتى بدا وكأنه لم يتخلف عنها مصرى واحد. ■

أوراق مصرية
إبراهيم باشا

إبراهيم باشا الكبير

بقلم
د. رءوف عباس

فى التاريخ شخصيات تلعب أدوارا هامة فى تاريخ بلادها، ولكنها لا تنال حقها من اهتمام المؤرخين، ربما لأن دورها جاء فى إطار مشروع يعود الفضل فيه لصاحبه، أو فى سياق سياسة كان لها دور معين فى تنفيذها، ولكن صاحب السياسة يخطف الأضواء وحده، فلا يحظى من شاركوا فى صنعها إلا ببصيص منها.

من هذه الشخصيات إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد على باشا، باعث النهضة المصرية الحديثة، فرغم دوره الأساسى فى بناء القوة العسكرية التى استند إليها مشروع والده، وفى قيادتها فى مختلف الميادين، والدور المحورى الذى لعبه فى بناء الكيان الإقليمى الذى سعى والده إلى إقامته، رغم ذلك كله لم ينل إبراهيم من اهتمام المؤرخين إلا قليلا قياسا بما ناله محمد على، ونظر إلى دوره الخطير على أنه دور ثانوى، لا يذكر إلا فى سياق أعمال والده، ولا نجد ترجمة مستفيضة له فى العربية أو غيرها من اللغات.

ولكن إبراهيم باشا كان شخصية فذة، جديرة بتسليط الأضواء عليها، لا يبرر ذلك ما أثير حوله من جدل فحسب، بل لما للدور الذى لعبه فى بناء «دولة محمد على» من أهمية فى تاريخنا القومى.

الشك فى نسبه

وأول ما يواجه من يقرأ تلك الشذرات التى تناثرت هنا وهناك من سيرة إبراهيم، ما أثير من شكوك حول نسبه، والزعم بأنه كان ابنا لأمينة زوج محمد على من زوجها الأول، وأن محمد على تبناه بعدما تزوج منها. ولعل تلك الشكوك التى جاءت من صنع عباس ابن أخيه طوسون ومن التفوا حوله من العناصر

التركية التى أضمرت الكراهية لإبراهيم بسبب صرامته فى التعامل مع من خدموا تحت قيادته، ومساواة الترك والمصريين فى المعاملة. ولما كانت تسوية لندن ١٨٤١ التى صدر بموجبها الفرمان الذى جعل من مصر وملحقاتها إرثا تتعاقب على حكمه أسرة محمد على، وأن يكون الحكم للأكبر سنا، فإن ذلك جعل من إبراهيم الوريث الأول للسلطة يليه عباس، ومن ثم كان التشكيك فى نسب إبراهيم يصب فى مصلحة عباس.

وقد استثمرت هذه الإشاعة فيما بعد عندما غير الخديو إسماعيل نظام الوراثة ليقتصر على من جاءوا من نسله، فحُرم بذلك سلالة أبناء محمد على الآخرين من اعتلاء مقعد الحكم، فراح هؤلاء يروجون للإشاعة القديمة من قبيل الطعن فى شرعية حكم إسماعيل بن ابراهيم وسلالته. وهكذا جاءت الإشاعة من صنع بطانة عباس بن طوسون، واستخدمت أداة فى الصراع على العرش بين مختلف فروع أسرة محمد على.

ويأتى إبراهيم (الذى حمل اسم جده إبراهيم أغا والد محمد على) على رأس من ولدتهم أمينة لمحمد على يليه أحمد طوسون الذى ولد عام ١٧٩٣ (وسمى باسم عم والده طوسون) وجاء إسماعيل كامل الذى ولد عام ١٧٩٥ فى الترتيب الثالث، وكان ختام (عنقود) أمينة، توحيدة التى ولدت عام ١٨٩٧، ونازلى التى ولدت عام ١٧٩٩. أما بقية أبناء محمد على الذكور (١٤ ولدا) والإناث (١١ بنتا) فقد استولدهم من جواريه، ومن الغريب أن معظم بنات المستولدات



قضين فى المهد فلم تبق منهن على قيد الحياة إلا زينب الرابعة (كان محمد على حريصا على اسم زينب فكرر إطلاقه على من تولد له من البنات كلما توفيت من تحمله)، كما مات فى المهد عشرة من الذكور أبناء المستولدات، فلم يبق على قيد الحياة منهم سوى محمد سعيد، وحسين، ومحمد عبدالحليم، ومحمد على (الصغير). ومن بين الذكور الذين توفوا فى المهد طفلان حملا اسم «اسكندر» وأربعة حملوا اسم عبدالحليم.

الابن البكر

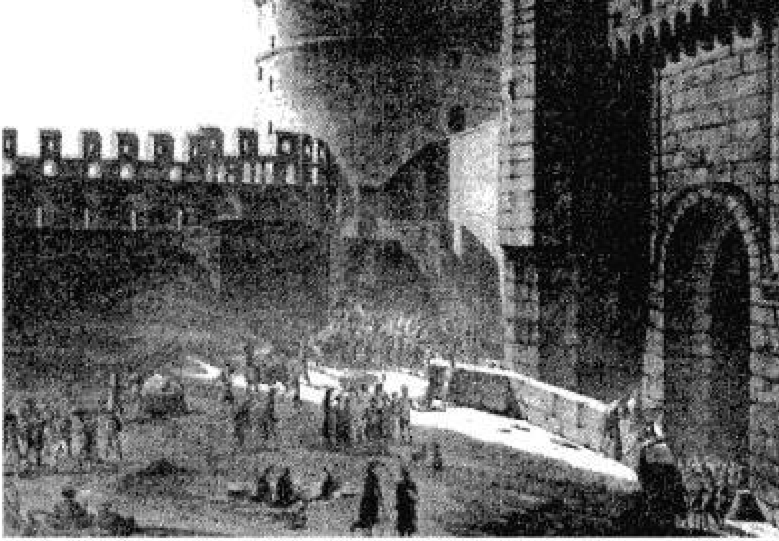
وقد أورد محمد على دائما ذكر إبراهيم باعتباره ابنه البكر فى جميع مراسلاته مع السلطان التى يعود أقدمها إلى أكتوبر ١٨٠٦، عندما أرسل محمد على ولده إبراهيم إلى السلطان حاملا رسالة ولاء وعبودية، وهدايا ثمينة (بعضها معروض الآن بمتحف طوب قابى سراى باستانبول)، وليبقى رهينة لدى السلطان حتى يدبر والده المبالغ المالية المطلوبة من والى مصر، فبقى إبراهيم هناك نحو العام، وكان لهذه الإقامة أثرها فى مشاعر الكراهية التى حملها طوال حياته للأتراك. ولم يكن من المنطقى أن يقبل السلطان ابنا بالتبنى كرهينة.

كذلك يتخذ دعاة التشكيك فى نسب إبراهيم من تعيين طوسون قائدا عاما على الحملة الموجهة إلى الجزيرة العربية عام ١٨٠٩ وحصول طوسون على رتبة الباشاوية وهو فى سن السادسة عشرة ثم تعيين إسماعيل قائدا لحملة السودان، يتخذون من ذلك سندا للقول بأن محمد على فضلهما على إبراهيم لكونهما من صلبه، ولم يتول إبراهيم قيادة حملة السودان إلا بعد مقتل إسماعيل، كما لم يتول قيادة حملة الجزيرة العربية إلا بعد وفاة طوسون بالطاعون عام ١٨١٦.

وإذا كان محمد على قد أبلغ السلطان بالاستجابة لطلبه وتوجيه حملة إلى الجزيرة العربية اختار لها طوسون، مما دعا السلطان إلى منحه رتبة «الباشا» (أى رتبة «اللواء»)، فقد كان هذا التصرف لمجرد كسب الوقت، فلم تتحرك الحملة فعلا إلا بعد عامين (١٨١١) عندما استطاع محمد على، بفضل جهود إبراهيم فى الصعيد، أن يقضى على المماليك فى مذبحة القلعة بعد أن اقتلع إبراهيم جذورهم فى الصعيد. وإذا كان محمد على قد عين طوسون قائدا، فقد كان حريصا على أن يكون بجواره بعض أهل الخبرة العسكرية. كذلك فعل مع إسماعيل فى حملة السودان. ويرجع ذلك إلى حاجته الشديدة إلى إبراهيم لمساعدته فى توطيد أركان حكمه فى مصر باعتبارها القاعدة الأساسية التى يقوم عليها مشروعه السياسى.

حاكم القلعة

يؤكد ذلك الدور المهم الذى لعبه



عين إبراهيم باشا حاكما للقلعة (فى أغسطس ١٨٠٥) حيث معسكرات الحامية العثمانية وتولى «دفتردارية» مصر وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة

إبراهيم باشا منذ وصوله إلى مصر عام ١٨٠٥ حتى عام ١٨١٤ على أقل تقدير، فقد عينه والده حاكما للقلعة (فى أغسطس ١٨٠٥) حيث معسكرات الحامية العثمانية والمركز الرسمى لإدارة الولاية، وكان - عندئذ - فى السادسة عشرة من عمره، وخصص له مستشارين من ثقاة أهل الخبرة، وظل يشغل المنصب حتى أكتوبر عام ١٨٠٦، عندما أوفد إلى استانبول حيث قضى نحو العام رهينة فى قصر السلطان. وقبل عودته إلى مصر عام ١٨٠٧ استصدر والده فرمانا سلطانيا بتعيين إبراهيم فى وظيفة «دفتردار مصر» الذى يتولى إدارة كل ما اتصل بالشئون المالية

من أمور. وبهذه الصفة أسند محمد على إليه مهمتين. أولاهما، اجتثاث جذور المماليك فى البلاد عن طريق إلغاء نظام الالتزام الذى قضى أيضا على نفوذ التجار (رأس المال التجارى) فى الريف، وإصلاح نظام الحيازة الزراعية بإعادة مسح الأطيان وتوزيعها على القرى، وضبط «مكلفات الأطيان»، فى إطار خطة محمد على الرامية إلى إحكام قبضته على البلاد، وإزاحة فئة الوسطاء بين الإدارة والناس، وإعادة هيكلة العلاقة بين الحكومة والمنتجين كأفراد سواء فى قطاع الفلاحة أو الإنتاج الحرفى.. فكان دور إبراهيم - بذلك - دورا تأسيسيا لا غنى عنه، ولا يستطيع القيام به طوسون الذى عرف عنه

التهور والاندفاع أو إسماعيل الذى عرف عنه الاستهتار والطيش، فقد اكتسب إبراهيم بعض صفات أبيه، فكان يتسم بالدهاء، وقوة الحجة، لا يلجأ إلى العنف إلا عندما لا يجد للحيلة سبيلا، يؤكد ذلك ما يورده المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى عند تناوله حوادث تلك السنوات.

أما المهمة الثانية التى أسندت إلى إبراهيم، فكانت تأمين الصعيد، ومطاردة المماليك جنوبا حتى بلاد النوبة، وفرض الأمن فى ربوع الصعيد، وخاصة تأمين الملاحة فى النيل. وهذه أيضا مهمة بالغة الأهمية لتوطيد دعائم الحكم، وضمان وصول الغلال وغيرها من المحاصل إلى القاهرة بانتظام، فى مرحلة دقيقة كان هم الباشا فيها جمع أكبر قدر ممكن من الموارد المالية التى استعان بها على تنفيذ مشروعه السياسى.

ويتضح من ذلك أن إبراهيم كان بمثابة الذراع اليمنى لأبيه فى أدق مراحل إرساء دعائم حكمه، وفى المرحلة التى اقتضت اتخاذ اجراءات حاسمة لوضع أسس تغيير البنية الأساسية لمصر التى بنى عليها محمد على مشروعه التنموى فى القطاع الزراعى وفى قطاع الانتاج الحرفى/الصناعى بما ترتب على ذلك كله من تغيرات اجتماعية وسياسية.

ميول عربية

ورغم المهام الخطيرة التى أسندت إلى إبراهيم وهو بعد فتى تتفتح أمامه مرحلة الشباب، حرص محمد على أن يزوده وإخوته بما يحتاجون من معارف، فخصص لكل منهم معلمين، كما جعل لهم مستشارين من أهل الخبرة الإدارية والعسكرية. وكان ذلك شأن إبراهيم.

غير أن إبراهيم تميز على إخوته بالحرص على تعلم اللغة العربية، والحرص على الحديث بها، ويفسر ذلك العبارة التى نسبت إليه، والتى قال فيها: «جئت إلى مصر صغيرا، فأحببت شمسها ونيلها، وأصبح دمي عربيا»، ويعنى بذلك أنه قد تمصر لأن كلمة «العرب» كانت تطلق على المصريين تمييزا لهم عن «الترك». كما يفسر حرصه على أن يضم إلى حاشيته الأدباء والشعراء، مما يكشف عن تذوقه للأدب العربى وميله إليه.

ومما يروى من النوادر فى هذا الصدد مداعبته لأحد الشعراء الذى كان يكره تناول القلقاس، فدعاه إبراهيم إلى مجلسه، وتسامر الجميع حتى حل موعد الغداء، وانتقلوا إلى تناول الطعام، فلاحظ الشاعر أن كل الأصناف على المائدة صنعت من القلقاس، فأمسك عن تناول الطعام، وعندما سأله إبراهيم عن سر ذلك قال:

سألوك عن قلبي وكم قاسي
فقل قاسي وقل قاسي وقل قاسي

فضحك إبراهيم، وأمر بجلب ما يشتهيه الشاعر من أطباق إلى المائدة، مما يعكس رقة حاشيته وتذوقه للأدب.



إبراهيم باشا يتقدم جيشه استجابة لطلب الباب العالي بالحملة على الحجاز بعد فشل حملة طوسون



على الرغم من صعوبة العمل العسكري عبر جبال طوروس، واختراق هضـــــبة الأناضـــول شـديدة الوعـورة استطاع إبراهيم أن يصل بقواته إلى كـوتـاهيـة

هذا العشق للأدب العربي، والحرص على التحدث بالعربية، والحرص على مقاومة التمييز بين الترك والمصريين (أولاد العرب)، والحديث إلى الجنود بالعامية المصرية، كل ذلك جعل البعض ينسب إلى إبراهيم ميولا عربية «قومية» في وقت لم تكن قد ظهرت فيه الفكرة العروبية، بل يشتط البعض فيزعم أن إبراهيم كان يسعى لإقناع والده بإقامة دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية. والحق أن إبراهيم كان يشارك والده نظرته «الإسلامية/ العثمانية»، التي جعلت الوالي يضع في أولوياته السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية، والعمل على إحياء قوتها بتعميم ما أنجزه من إصلاح في مصر والشام على قاعدة الدولة ذاتها، وبناء قوة عسكرية كبرى تحت قيادته لفرض هيبة الدولة على الساحة الدولية.. فإذا تعذر تحقيق ذلك في إطار الأوضاع الدولية، كان البديل المدعي الاستقلال عن الدولة، أو الحصول على الاستقلال الذاتي الكامل الذي لا يترك للسلطان إلا سلطة إسمية أو رمزية.

الزحف على الأناضول

حقا اختلف إبراهيم مع والده في خطة الزحف على الأناضول عبر جبال طوروس، ولم يكن مبعث هذا الاختلاف



حرصه على التوقف عند الحدود التي لا يوجد بعدها من يتحدث بالعربية، كما يرد في بعض الكتابات دون سند ثابت، لدعم فكرة تحمس إبراهيم «للعروبة»، ولكن كان مبعثه خشية تعريض قواته لخاطر انقطاع خطوط الإمداد والتموين من مصر عبر الشام لصعوبة تضاريس الأناضول، وعدم وفرة الموارد الغذائية في هضبة الأناضول مما قد يعرض جيشه للمجاعة، واقترح على والده خطة بديلة يتم بموجبها إنزال القوات المقاتلة بحرا للاستيلاء على موانئ غرب الأناضول وتحصينها لتسهيل وصول الإمدادات من مصر إليها ثم الزحف السريع من تلك الموانئ إلى استانبول، وتنحية السلطان محمود الثاني بموجب فتوى أصدرها مفتي حلب وتولية ابنه الطفل تحت وصاية محمد علي. وكان إبراهيم يرى في هذه الخطة ضمان سلامة قواته من ناحية، وسرعة الاستيلاء على استانبول قبل توصل الدول الأوروبية الكبرى إلى قرار بشأن القيام بعمل مضاد، مما يجعلها أمام الأمر الواقع.

وجاء اعتراض محمد علي مبنيا على خشيته من أن يؤدي تحويل بحر إيجه إلى مسرح للعمليات من تدخل بريطانيا - القوة البحرية العتيدة - ضده كما فعلت في حرب اليونان، ونبه إبراهيم إلى أن ما تريده بريطانيا هو إضعاف قوات «المسلمين» حتى تسيطر على بلادهم

ولذلك فضل اختراق الأناضول ليظل العمل «داخليا» في إطار الدولة العثمانية، أبعيدا عن البحار الدولية، وهنا دار خلاف آخر بين إبراهيم ومحمد على، إذ أصر إبراهيم على عدم انقاص المؤن اللازمة للجيش حتى لا يقع الجنود فريسة المجاعة.

ورغم صعوبة العمل العسكرى عبر جبال طوروس، واختراق هضبة الأناضول شديدة الوعورة استطاع إبراهيم أن يصل بقواته إلى كوتاهية التي لا تبعد عن استانبول سوى مائة كيلو متر. وعندما أمره والده بالتوقف عن الزحف استجابة لضغط الدول، حرص على إبرام اتفاقية الصلح التي أعطت محمد على حكم مصر وملحقاتها والشام مقابل الانسحاب من الأناضول. وجاء اختيار موقع ابرام الاتفاقية (كوتاهية) دليلا على حرص إبراهيم على تسجيل أن قواته بلغت مشارف استانبول، وأن المكاسب التي حققتها الاتفاقية لحكام مصر تمثل حقا كسبه بقوة السلاح.

قائد مميز

وتكشف مراسلات إبراهيم إلى والده عن شخصية القائد الحريص على جنوده، الذي لا يقبل أن يعرضهم للمخاطر، بينما كان والده لا يشاركه هذا الاهتمام، حتى أن محمد على لم يعد يخاطبه مباشرة، بل كان يراسله من خلال «الباشمعاون» تعبيرا عن ضيقه بإصرار إبراهيم على عدم خفض نفقات تموين الجنود، وتوجسه خيفة من إصرار إبراهيم على ترقية المصريين إلى رتب القيادة الوسطى، فقد ألح إبراهيم على أبيه للموافقة على ترقية الضباط المصريين (وكانوا في الأصل جنودا رقوا من تحت السلاح) إلى رتبة «البنباشي» (العقيد)، وأصر محمد على ألا يتجاوز المصريون رتبة «اليوزباشي» (النقيب)، بحجة أنهم لم يدرسوا بالمدارس العسكرية، وأن تقتصر الترقية إلى الرتب القيادية الوسطى والعالية على الضباط المماليك. وكان إبراهيم يرى أن الدراسة وحدها لا تكفى مبررا لترقية الضباط، وأن الخبرة القتالية والشجاعة والانضباط لابد أن يكون لها المقام الأول عند النظر في ترقية الضباط. ونعى على والده تشككه في ولاء المصريين مؤكدا له أن «إخلاص أولاد العرب لنا يفوق إخلاص الترك، فإذا كان هناك ٣٠٠ بين كل ألف من الأتراك يخلصون لنا، فإن هناك ٧٠٠ بين كل ألف من أولاد العرب من المخلصين..»

هذا الاهتمام الكبير بالجنود والتقدير التام للشجاعة والإقدام والانضباط يفسر ما تجمع عليه المصادر المعاصرة من «امتلاكه لقلوب الجنود»، فقد كان حريصا على مشاركتهم في جميع الأعمال، يتصرف كجندى عادى،



ينام على الأرض بينهم، وعلى الجليد فى بلاد الأناضول، ويتناول طعامهم. وأورثه ذلك كله مرض الروماتيزم ثم داء الصدر الذى أودى بحياته فى نهاية الأمر.

حازم متواضع

ورغم قلة المادة المتاحة عن صفاته الشخصية، تجمع المصادر على أنه كان وقورا متواضعا رقيق الحاشية، حازما، لا تشق له عصا الطاعة، لا يتوانى عن عقاب المخطىء، مثلما لا يتردد فى مكافأة من يحسن أداء واجبه.

ويشير نوبار باشا فى مذكراته إلى أن إبراهيم اختاره سكرتيرا خاصا له فى أواخر أيام حكمه للشام، لكونه من أقارب بوغوص بك صفى محمد على، حتى يطمئن والده من ناحيته، ويبدد الشكوك التى سببها خلافه معه حول التوسع فى الأناضول. وكان تقدير إبراهيم أن نوبار سينقل لبوغوص كل أخباره، فتصل إلى محمد على، غير أن نوبار السكرتير الشاب أحب إبراهيم، ورافقه حتى وفاته. ويصفه بالشجاعة ورباطة الجأش وقت الشدة، وصفاء الذهن، والنظرة الثاقبة فى تقدير الرجال. وعندما صحبه فى رحلته إلى أوربا التى زار فيها فرنسا وانجلترا بحثا عن علاج لما يعانيه من أمراض (١٨٤٧) ينقل عنه نوبار ما جاء فى حديثه معه من أفكار تمنى على الله أن يقوم بتطبيقها عندما يعتلى كرسى الحكم، ولعل أهم ما فيها تحسين أحوال المعيشة للناس بتخفيف الأعباء الضريبية عنهم، وتحميل الأثرياء النصيب الأوفر منها، وتوفير الرعاية الطبية، وكذلك الاهتمام بالتعليم الأساسى الذى يهدف إلى تثقيف أبناء الشعب وليس مجرد إعدادهم لتولى وظائف الإدارة، وهو ما كان ينوى أن يسميه «مدارس الملة».

ولكن القدر لم يمهل إبراهيم لتحقيق ما فكر فيه من إصلاح، فلم يمكث فى الحكم سوى ستة شهور انتهت بوفاته فى ٢٠ نوفمبر ١٨٤٨، وخلفه عباس حلمى الأول ابن أخيه طوسون الذى ظل يكيد له منذ مطلع الأربعينات، ولعل ذلك يفسر مايذكره نوبار من أن عباس وغيره من أبناء وأحفاد محمد على فرحوا لموت إبراهيم، فلم يذرف أحدهم دمعة عليه، بينما كان والده هناك بالإسكندرية يعانى من مرض «خرف الشيخوخة» (الذى عرف فيما بعد بالزهايمر).

كان إبراهيم اليد القديرة التى نفذت مشروع محمد على لبناء قوة إقليمية قاعدتها مصر، كما كان آخر الذكور الأحياء من أبناء محمد على من زوجته أمينة (الحرة)، وكان الباقون من أبناء محمد على من أبناء الجوارى، كما كانوا ينتمون إلى جيل آخر لم يعانى مشاق البناء، واهتم بقطف الثمار دون عناء، ولعل ذلك يفسر ارتياحهم لغياب إبراهيم من الوجود (هذا إذا صح ما يذكره نوبار). ■

أوراق مصرية
ابراهيم باشا

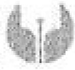
إبراهيم باشا

فاتح عظيم فى ظلال التاريخ

بقلم
د. عاصم الدسوقى



عندما جاء محمد على، على رأس فرقة من الأرناؤوط إلى مصر للإسهام فى إخلاء الفرنسيين عن البلاد، لم يكن يخطر بباله أنه سيبقى فى مصر إلى الأبد، بعيدا عن بلده «قوله»، إذ كان قد جاء فى مهمة محددة سوف تنتهى يوما ما مهما طال به الزمن. فلما خرج الفرنسيون فى سبتمبر ١٨٠١ ووقعت البلاد فى فوضى الفراغ السياسى والصراع على السلطة كان عليه أن يبقى، ثم ساعدته الظروف كما هو معروف لكى يتولى حكم مصر (٩ يوليه ١٨٠٥)، وعندئذ استدعى أولاده للإقامة معه فى وضعه الجديد.



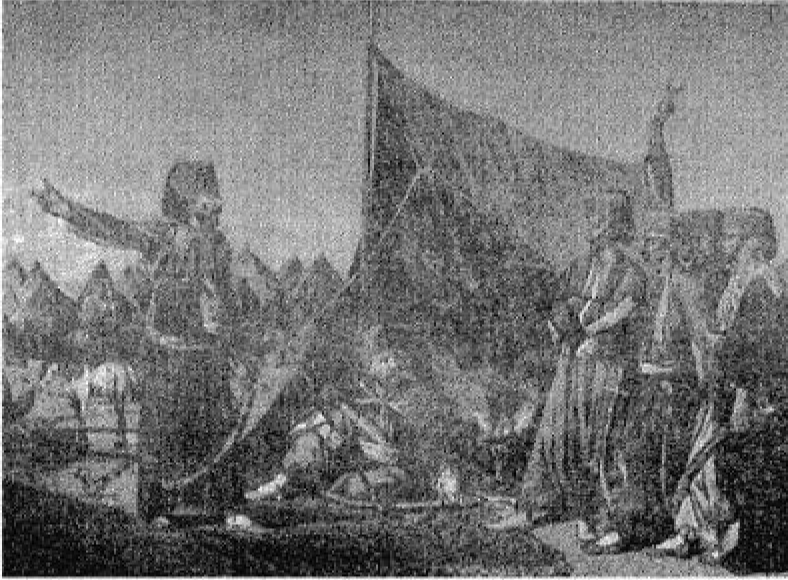
وهكذا جاء إبراهيم إلى مصر في سبتمبر ١٨٠٥ وكان في السادسة عشرة من عمره ويرفقته أخوه طوسون الأصغر منه، ورغم صغر سنهما وقلة خبرتهما إلا أن محمد علي لم يكن أمامه سوى الاعتماد على أبنائه وأصفيائه في إدارة شئون الولاية، وبشكل قريب من مبدأ تقديم أهل الثقة على أهل الخبرة، خاصة وأنه تولى الحكم رغم أنف السلطان العثماني الذي اضطر للموافقة عليه وبرغم أنه كان يتشكك في كفاءة أبنائه وقدراتهم كما أفصح بذلك إلى باتريك كامبل قنصل بريطانيا في مصر .

دفتردار مصر

وما أن تخلص محمد علي من خطر الحملة الإنجليزية في سبتمبر ١٨٠٧ التي جاءت للإطاحة به، حتى واجه مشكلة مالية حادة تمثلت في عجزه عن دفع رواتب العسكر، فأدرك مدى الحاجة لتنظيم الشئون المالية حتى يحتفظ بولاء الرجال، ومن هنا قام بتعيين ابنه إبراهيم في وظيفة «الدفتردار» في أواخر ديسمبر ١٨٠٧ وكان في الثامنة عشرة من عمره ويقيم في منزل خاص به بالأزبكية، فشرع في مهمة إجراء مسح الأراضي الزراعية، كما كلفه محمد علي بحكم الصعيد، وربما إلى هذه الفترة تعود تسمية ولي العهد في مصر بأمير الصعيد .

كانت «الدفتردارية» أول مهمة تولاها إبراهيم وتدريجيا بدأ يكتسب الخبرات من وجوده بجوار والده في كل خطواته السياسية، فقد شهد واقعة عزل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف من منصبه وإبعاده إلى دمياط وكان عمر مكرم قد رفض المثول أمام محمد علي بالقلعة فما كان من محمد علي إلا أن ذهب إلى منزل ابنه إبراهيم بالأزبكية واستدعى القاضي والمشايخ لمواجهة عمر مكرم وإحراجه أمامهم.

ولما طلب السلطان العثماني من محمد علي تجريد حملة على الجزيرة العربية نراه يكلف طوسون ابنه الأصغر ولا يكلف إبراهيم وهو الأكبر، فلما تعثرت أحوال الحملة طوال أكثر من خمس سنوات اضطر محمد علي لتكليف إبراهيم بقيادة حملة لإنقاذ الموقف ضمت ضابطا فرنسيا (فيسيير) وطبيبا وجراحين وصيدلانيا من الإيطاليين ثم انطلق من بولاق (٥ سبتمبر ١٨١٦) متجها إلى قنا. وفي أسيوط نجح في تجنيد ألفين من الفلاحين اصطحبهم معه على ظهر الجمال التي قدمها عرب



رغم أن إبراهيم باشا لم يخدم فى الجيش من قبل إلا أنه تمتع بقدرات فطرية فى القيادة العسكرية، وهاهو وسط جنوده مندمجا فى حياتهم اليومية أثناء الطريق إلى «نصيبين»

العبابدة حتى القصير، ثم ركب البحر الأحمر إلى ينبع التى بلغها فى آخر سبتمبر ١٨١٦ ومن ينبع توجه إلى المدينة المنورة لأداء العمرة قبل أن يذهب للقتال وأنفق بعض الأموال لشراء ولاء بعض القبائل فى الطريق لكى يقفوا إلى جانبه.

ونجح إبراهيم لكنه لم يغادر المكان إلا بعد عام قضاه فى توطيد دعائم الانتصار ثم عاد إلى مصر فى ٩ ديسمبر ١٨١٩ حيث استقبله أهالى القاهرة بالأفراح والزينات التى ظلت قائمة كما يقول الجبرتى «طوال سبعة أيام مع إطلاق المدافع من القلعة طوال الوقت»، كما منحه السلطان باشوية جدة على حين أخذ والده مشيخة الحرم المكى مكافأة لهما.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح إبراهيم يلقب بالفاتح بطل الحجاز، حتى أنه لما تعثرت حملة «فتح» السودان أنفذه أبوه محمد على إلى هناك (٢٢ أكتوبر ١٨٢١) فاصطحب معه بعض الأطباء لمكافحة الأمراض التى تفشت بين الجند وقد انتعش الجنود لما رأوه بينهم باعثا



الفاتح العظيم إبراهيم باشا على ظهر جواده وسط جنوده يهاجم حصن عكا فى الشام

فيهم روح الأمل والشجاعة خاصة وأنه اعتاد أن يعيش بين العساكر كواحد منهم، ويقطع مسافات سيرا على قدميه لقضاء بعض المهام فتمثلته العساكر واحتملوا الشدائد. ولما سأله المهندس فردريك كايو أحد رجال الحملة عن المغزى من حملة السودان وذلك بعد وصوله بيومين (٢٤ أكتوبر ١٨٢١) أجابه إبراهيم بقوله «إننا سنكتشف النيل الأبيض بالمراكب المسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى بإمكانها أن تمضى فى النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات حتى تصل إلى منابعه»، وكانت إجابته تلك مثار إعجاب الرجل الذى أدرك أن وراء إبراهيم سياسات لها مغزاها .

رجل المهام الصعبة

وهكذا لمع نجم إبراهيم فى سماء والده وأصبح ينظر إليه باعتباره رجل الأزمات، فلما احتاج السلطان العثمانى جهود محمد على للقضاء على ثورة اليونانيين فى شبه جزيرة المورة (١٨٢٤) تولى إبراهيم قيادة الأسطول، وحقق انتصارات ملحوظة (مايو ١٨٢٥) وسط إعجاب المراقبين الأجانب. وكان هذا معناه فى التحليل الأخير أن إبراهيم الذى لم

يخدم فى الجيش ولم يذهب فى بعثة تعليمية كان يتمتع بقدرات فطرية فى القيادة العسكرية .

غير أن دعم القوى الأوربية الكبرى لثورة اليونان بهدف إضعاف الدولة العثمانية فى ضوء التوازن الدولى الذى كانت صياغته قد تمت فى ١٨١٥ فى مؤتمر فيينا، أدى إلى هزيمة القوات المصرية - التركية المشتركة فى نفارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) . وكان مبدأ التوازن الدولى فى الأساس يستهدف الحيلولة دون ظهور قوة مماثلة لقوة نابليون بونابرت مرة أخرى .

نابليون مصر

وعندما قرر محمد على ضم بلاد سوريا إلى ولايته فى مصر عهد إلى إبراهيم بأمر القيادة عسكريا ومدنيا وهناك نجح فى تذويب الجليد بين العشائر والقبائل وعامة الناس، وأشعر الجميع بعدالته إذ نراه يشرك الأهالى فى الحكم بمقتضى نظام المشورة، ويساوى بين الرعايا فى الضرائب كبيرهم وصغيرهم مما أثار ضيق المشايخ وأرباب المال وأصحاب المقامات العالية والأفندية والأغوات (رؤساء الجند) وكان هؤلاء يتمنون عودة الإدارة العثمانية لأنهم كانوا يحققون فى ظلها ثروات هائلة من ابتزاز التجار والحرفيين، كما اغتبط المسيحيون لنجاتهم من التعصب وشعورهم بحريتهم فى ممارسة الطقوس الدينية، وكذا الفلاحون الذين لم يعودوا يجبرون على تقديم خدمة دون مقابل، واستخدم الشدة ضد الذين أرادوا تخريب سياساته، وبهذا نجح فى توطيد دعائم الأمن فى البلاد عن طريق القسوة والشدة، حتى لقد وصفه ميخائيل مشاقة فى كتابه «مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان» بأنه «نابليون مصر»، ولكى يتضح هذا المعنى وجدنا أنه بمجرد مغادرة إبراهيم لسوريا فى أعقاب تسوية لندن ١٨٤٠ وبعد تسع سنوات قضاها فى الحكم هناك عاد القوم إلى حالة العصيان والتمرد، وعادت الرشوة والتبذير فى إدارة الشئون المالية ونقصت الأموال فى يد الناس، وعاد البدو للإغارة على السكان الآمنين، وطلت الفتنة الدينية بين الجميع.

غير أن ما عكر صفو حكم إبراهيم لبلاد الشام وجعل شرائح من السكان لايستهان بها تتمنى زوال حكمه، قيامه بتطبيق سياسة الاحتكار امتثالا لأوامر والده محمد على حيث تم احتكار جميع أصناف الحرير صناعة وتجارة، مما



لمع نجم إبراهيم .. وأصبح ينظر إليه باعتباره رجل الأزمات ، ويبدو فى اللوحة على فرسه مع سليمان الفرنساوى وبعض جنوده

أدى إلى ضيق المنتجين، كما تم إكراه الفلاحين على زراعة حاصلات لاقبل لهم بها فتركوا الأرض هربا إلى الأناضول، وأثار الجميع بفرض ضريبة الرأس دون تمييز، ونزع السلاح، والتجنيد الإجبارى.

ليبرالى بخلاف والده

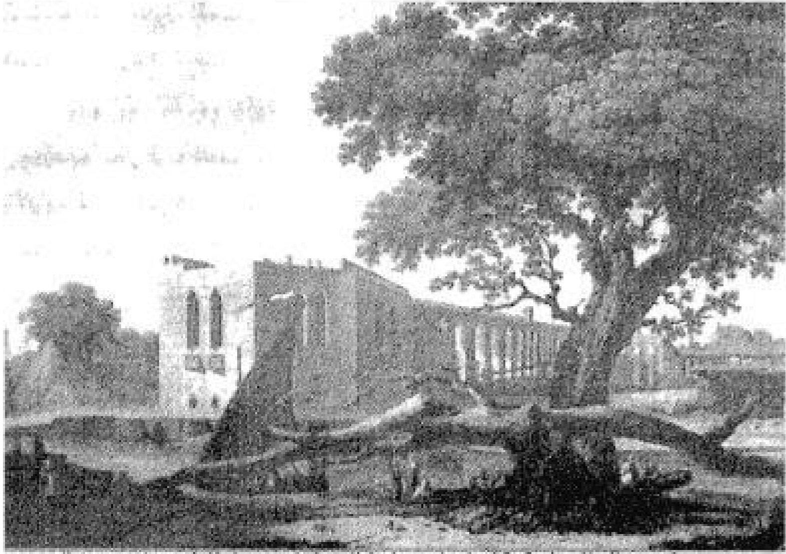
والحقيقة أن إبراهيم باشا لم يكن يوافق أباه محمد على فى تطبيق سياسة الاحتكار، ليس فقط فى سوريا وإنما فى مصر أيضا، مما جعل البارون بوالكنت (القنصل الفرنسى فى مصر) يصف إبراهيم بأنه أقرب إلى المبادئ الحرة (الليبرالية)، عكس محمد على الذى اعتمد على الحكم المطلق.

وهنا لنا أن نتساءل عن مصادر هذا الموقف الرافض للاحتكار عند إبراهيم، خاصة وأن نصيبه من التعليم كان ضئيلا فقد جاء من البيت إلى كرسى الحكم والإدارة ولم يرسله أبوه فى بعثة تعليمية بالخارج فضلا عن أنه نشأ فى «قوله» تحت الحكم العثمانى الذى لم يكن ليبراليا بأى معنى من المعانى، هل كان إبراهيم بالفطرة يعتبر الاحتكار أمرا يتنافى وحرية الاختيار

عند الإنسان أم أن موقفه حددته مرجعية دينية تقول بقسمة الأرزاق ومن ثم الحلال والحرام، أم جاء بتأثير القناصل الأجانب الذي اقتربوا منه كثيرا.. أم أن رئاسته لمجلس المشورة منذ ١٨٢٩ وقبل أن يحكم سوريا قد أنار بصيرته على أحوال المصريين، خاصة وأن هذا المجلس كان يضم خبرات متنوعة من كبار موظفي الحكومة والعلماء والأعيان (١٥٦ عضوا) وامتدت مشورته على شئون الإدارة والتعليم والأشغال والشكاوى التي كان بعضها خاصا بتداعيات سياسة الاحتكار؟!

وإذا كان محمد على قد وجد في التوسع في بلاد سوريا فرصة ذهبية لتوسيع دائرة حكمه وحماية ولايته في مصر استراتيجيا وفي إطار الرابطة العثمانية، فإن إبراهيم رأى في التوسع فرصة لتكوين دولة عربية تنتزع من السيطرة العثمانية.. دولة عربية حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس واحد وأن يعيد للعرب وجودهم واستقلالهم أسوة بلغتهم وآدابهم كما ورد في تقرير البارون بوالكنت. ومما يؤكد أن إبراهيم كان يدرك الفرق بين الترك والعرب أنه صرح أثناء حصاره قلعة عكا في طريقه للشام، أنه سوف يتوقف عند الحد الفاصل بين اللغة العربية والتركية، أو ما معناه إلى مدى ما يتكلم الناس ويتفاهم وإياهم باللسان العربي على حد قول كادلفين وبارو في كتابهما «حرب مصر ضد الباب العالي في سوريا والأناضول ١٨٣١ - ١٨٣٣». وعندما أصبح حاكما عاما لسوريا نراه يعين أحد رجاله حاكما على سوريا بلقب «حكمدار عربستان»، أي بلاد العرب ولعلها كانت المرة الأولى التي يطلق فيها هذا الاسم على تلك المنطقة، وهو أمر له دلالته في موضوع العروبة وإدراك التمايز بين ما هو عربي وما هو تركي.

ولما التقى البارون بوالكنت بإبراهيم بالقرب من طرسوس بالأناضول بعد عودته من كوتاهية (١٨٣٣)، وجده يجاهر علنا برغبته في إحياء مجد العرب وإعطائهم حقوقهم وإسناد المناصب لهم في الإدارة والجيش، وأنه سوف يجعل منهم شعبا مستقلا. كما سمعه يقول إن البلاد العربية تنضم تحت لواء أبيه الذي يحكم مصر والسودان وسوريا وجزيرة العرب التي يعمل على إتمام فتحها وأن عليه أن يضم العراق، وأنه يعتبر نفسه عربيا لأنه يستخدم اللغة العربية في اتصاله مع أهل البلاد ولما سأله أحد


بعيدا عن عالم السياسة كان لإبراهيم باشا الفضل فى تجميل القاهرة واستقدم لذلك خبراء الحدائق والبساتين الإنجليز وأقام لنفسه حديقة بجزيرة الروضة

العساكر لماذا يطعن فى الأتراك وهو واحد منهم، أجابه إبراهيم «أنه ليس تركيا وأنه جاء لمصر صبيا ومنذ ذلك الوقت يشعر بمصريته التى جعلت من دمه دما عربيا».

ومن تداعيات هذا الانتماء كان إبراهيم شديد الرغبة فى دخول الأستانة وإسقاط الحكم العثمانى «لإقامة حكومة صالحة من رجال أكفاء»، ولهذا استغرب كثيرا من مطالبة القوى العظمى لمحمد على بأن يتصالح مع السلطان ويسحب جيوشه من الأناضول، ووجه الغرابة أنه كان يعلم أن هذه القوى العظمى تقف ضد الدولة العثمانية وأن إسقاط الحكومة العثمانية لا بد وأن يخدم أغراض تلك القوى، لكن البارون بوالكانت حدثه حديثا طويلا عن فكرة التوازن الدولى بعد التخلص من نابليون بونابرت، مما يعنى أن انسحاب جيوش محمد على من الأناضول والإبقاء على حكومة الأستانة هو أمر فى صالح التوازن الدولى. لكن إبراهيم كان يتكلم عن اختلال معايير القوى العظمى فى التعامل مع المشكلات المتشابهة، فبينما وقفت أوربا مع ثورة اليونان ضد الدولة العثمانية (١٨٢٥)، فإنها لم تقف مع محمد على الذى يريد

القضاء على الدولة العثمانية عدوة الغرب...!!

تجميل القاهرة

وبعيدا عن عالم السياسة والحكم والإدارة كان لإبراهيم باشا فضل تجميل القاهرة فقد كان يحيط بالمدينة عدة تلال من الحصى والرمال يتراوح ارتفاعها بين خمسين إلى مائة قدم، وخطر لإبراهيم أن الأرض التى تحت هذه التلال لابد وأن تكون مشابهة للأرض التى تجاورها، وأن إزالة هذه التلال لن تؤدى إلى تحسين الحالة الصحية فى القاهرة فحسب، بل إنها ستؤدى إلى تجميل ضواحى المدينة، وعلى هذا ومن خلال رئاسته لمجلس المشورة وضع خواطره موضع التنفيذ فصارت أرض التلال تكسوها الخضرة والأشجار، وقامت عليها الحدائق وشقت فيها الطرقات وكانت مفتوحة للجميع للتنزه والتريض .

وفى هذا الإطار أقام لنفسه حديقة على جانب كبير من الجمال بجزيرة الروضة يمتلك فيها نحو مائة فدان وقد استقدم لها اثنين من خبراء البساتين الإنجليز وهما تريل Trail بمرتب ستمائة جنيه فى السنة وماكلوه Mc cullogh بمرتب ثلاثمائة جنيه، ووضع تحت تصرفهما ثلاثمائة غلام يتقاضى كل منهم ريالا واحدا فى الشهر ويتعلمون القراءة والكتابة يوميا لمدة ساعة، وجعل الحديقة متاحة للجمهور، كما استقدم من جمايكا اثنين من خبراء الزراعة لاستزراع قصب السكر فى حديقته وفى أرض الصعيد . ولما تم حفر ترعة المحمودية منح محمد على عددا من الأوربيين أراضى على جانبى الترعة قرب الإسكندرية فأقاموا فيها منازل صغيرة وحدائق ومزارع خاصة، وفعل إبراهيم الشئ نفسه حيث أقام منزلا ريفيا تحوطه حديقة واسعة .

وبعد انكسار محمد على بفعل تسوية لندن ١٨٤٠ وانسحابه من الشام عاد إبراهيم أيضا إلى مصر يتأمل فيما حدث ويستعيد أحاديث بوالكنت معه عن الممكن والمستحيل فى السياسة العالمية، وسرعان ما بدأت المصائب تحيط بالبلاد ففى ١٨٤٣ انتشر طاعون الماشية، وتبعه انخفاض مياه النيل، واجتاح الجراد الزراعة، وأصبحت البلاد على حافة الخراب، وارتبك دولاب الحكم واستولى الرعب على حكام الأقاليم خشية عقاب محمد على لهم، وفى هذا المنعطف اجتمع مجلس المشورة برئاسة إبراهيم وانتهى إلى تقرير عام عن الأحوال لكن





جهر إبراهيم برغبته في إحياء مجد العرب

لم يجرؤ أحد من أعضاء المجلس على إبلاغ محمد على بحقيقة الأمر، فلما علم به غضب غضبا شديدا وكان يعتقد أن ابنه إبراهيم وراء هذا الموضوع، وفى الوقت نفسه كان يخشى أن يخلعه ابنه من الحكم، ومن ثم قال لخاصته إنه يفكر فى التخلى عن الحكم والذهاب إلى مكة المكرمة ليقضى بقية أيامه هناك غير أن قناصل الدول الأوروبية في القاهرة تكفلوا بإزالة ما فى نفسه تجاه ابنه إبراهيم وعادت المياه إلى مجاريها.

ثم ما لبثت أن تجددت متاعب إبراهيم الصحية منذ إصابته بالدوزنتاريا أثناء حملة السودان فسافر إلى أوروبا للعلاج (١٨٤٥) فعرض نفسه على أطباء فى نابولى وفرنسا وإنجلترا، ولما رجع إلى مصر علم أن والده سافر إلى استانبول (يونيه ١٨٤٦) ليمثل بنفسه أمام السلطان تنفيذا لفرمان تجديد ولايته على مصر فى ١٨٤١ ولما رجع محمد على إلى مصر شعر بأن المرض ينهش جسده فترك مقاليد الأمور لحفيده عباس ابن طوسون لأن حالة إبراهيم الصحية لم تكن لتساعده هو الآخر، فضلا عن أن أولاد إبراهيم كانوا آنذاك فى بعثة إلى فرنسا منذ ١٨٤٤ (البعثة الخامسة).

وفى يوليه ١٨٤٨ سافر إبراهيم مرة أخرى إلى نابولى للعلاج، وفى تلك الأثناء ذهب والده محمد على إلى نابولى للعلاج أيضا، وهناك سمع محمد على بخلع لويس فيليب ملك فرنسا عن العرش (١٨٤٨)، فتذكر خدمات لويس له أثناء أزمة ١٨٤٠ فعزم على العودة إلى مصر لتجريد حملة عسكرية بغية إرجاع صديقة لويس فيليب إلى العرش، فلما علم إبراهيم بخطة والده أسرع بالعودة إلى مصر ليتلقى فرمان ولايته على مصر (يوليه ١٨٤٨) فذهب إلى استانبول لتقديم فروض الولاء وبعد عودته بوقت قصير عاوده المرض ومات فى نوفمبر ١٨٤٨ تاركا تاريخه فى زوايا النسيان بفضل هيمنة محمد على وانفراده بالأمور . ■

إبراهيم باشا

أوراق مصرية
ابراهيم باشا



هل كان ابنا لمحمد على بالتبنى؟

بقلم

د. عبدالمنعم إبراهيم الجميعى

يرى بعض الكتّاب والمؤرخين ومن أبرزهم القاضى الأمريكى «بيير كرابيتس» Pierre Crabites صاحب كتاب Ebrahim of Egypt الذى صدر فى لندن عام ١٩٣٥، والذى كان يعمل قاضيا بالمحاكم المختلطة فى مصر، أن إبراهيم باشا بطل معركة «نزيب Nezib» وصاحب الانتصارات الكبرى فى الجزيرة العربية وبلاد الشام لم يكن ابنا لمحمد على من صلبه، بل كان متبناه حيث إن محمد على كان قد تزوج من سيدة موسرة ذات ثروة كبيرة استعان بها على الاتجار فى الدخان وهذه السيدة المساة «أمنة هانم» كانت مطلقة رجل آخر قبل زواجها من محمد على، وأن إبراهيم باشا نجلها من زوجها الأول ولم ترزق به من محمد على.

وقال بعض آخر اعتمادا على إحدى الوثائق التركيبة إن إبراهيم باشا لم يكن ابنا لمحمد على بل هو نجل عمه طوسون بك الذى كان قد تبنى محمد على وهو فى سن الرابعة بعد وفاة والده حيث هاجرا معا من ألبانيا إلى قولة (ثغر صغير على حدود مقدونيا) وأنه بعد مقتل طوسون عم محمد على تكفل محمد على بابنه إبراهيم وتبناه وفاء لمعروف عمه معه.

وازدادت الشائعات ترددا والأمور تعقيدا حول حقيقة هذا الموضوع بعد قيام الباب العالى خلال نزاعه مع محمد على أثناء حروب الشام بإرسال مذكرة إلى الدول الكبرى يعدد فيها مساوىء محمد على وإبراهيم واصفا إبراهيم بأنه ابن محمد على المزعوم.

روايات تنفى

واستنادا على ذلك ربط بعض المؤرخين بين هذا الأمر وتفضيل محمد على لابنه طوسون على إبراهيم فى كثير

من الأمــور بالرغم من أن إبراهيم هو الأكبر سنا، ومن ذلك أنه حبا طوسون بمنصب حاكم قلعة القاهرة في عام ١٨٠٥، كما مُنح رتبة الباشوية قبل إبراهيم، يضاف إلى ذلك أن محمد على ضحى بإبراهيم في عام ١٨٠٦ ليكون رهينة بالأستانة لدى السلطان حتى يسدد أربعة آلاف كيس كان الباب العالي قد فرضها عليه حتى يؤكد إخلاصه للأستانة وكان يمكنه أن يرسل طوسون بدلا منه.

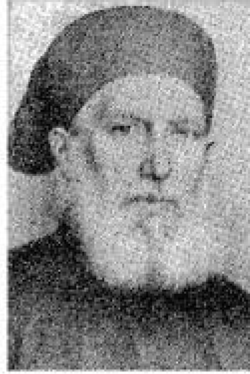
يضاف إلى ذلك أن ميل محمد على الواضح لابنه طوسون وحبه الشديد جعله يفضله على إبراهيم حيث عقد له لواء الحملة على الحجاز في عام ٨١١ دون أخيه الأكبر، وكان عمره وقتئذ ١٧ عاما ويصغر إبراهيم بأربع سنوات.

ومما زاد من شكوك بعض المؤرخين في هذا الموضوع أن خطابات إبراهيم ومراسلاته إلى محمد على كانت تتميز بالكثير من الحياء الذي يندر أن يحدث من الابن لأبيه، فكان إبراهيم لايذكر اسمه في مراسلاته إلى محمد على إلا مقترنا بكلمة عبدكم، كما أنه كان يفضل ألا ينسب لنفسه الفضل في فعل قام به، بل كان ينسب كل الفضل إلى محمد على.

أدلة إثبات

وعلى الرغم من تعدد الروايات بأن إبراهيم لم يكن ابن محمد على بل كان ابن قرينته من بعل سابق فهناك العديد من الأدلة التي تدحض هذه الأقــوال وتؤكد أن ابراهيم باشا كان ابنا من صلب محمد على وأقوى الأدلة على ذلك خطاب تم العثور عليه في القسم التركي من المحفوظات الملكية المصرية كان محمد على قد أرسله إلى إبراهيم أثناء توجهه في مهمة عسكرية بالسودان أوضح فيه مدى حبه له، وتقديره لجهوده وإخلاصه وتفانيه بقوله: «ولدى إني أحبك حبا لايقل عن حبي لعيني وروحي، فإذا ما عرضتك إلى هذه المتاعب الجمة، وأقصيتك عن وطنك، فذلك لكي نستطيع أن ننال جميعا من المزايا، ما يرفع شأننا، ويعلى قدرنا».

وإلى جانب ذلك فقد ارسل «بات كامبل» Pat. cambell القنصل البريطاني العام في مصر إلى وزارة الخارجية البريطانية رسالة لاتترك مجالا للشك في بنوة إبراهيم فذكر أنه عندما رأى بعض المندوبين الفرنسيين يرددون أن إبراهيم لم يكن إلا ربيب محمد على فإنه سأل محمد على هل إبراهيم باشا ابنه حقا أم هو ابن زوجته التي أنجبته من زوج آخر؟ فأجابه الباشا أن زوجته الأولى رزقت منه بخمسة أبناء ولدوا كلهم في «قولة» موطنه وموطن زوجته، وأن أكبر أبنائه انثى، وأن إبراهيم باشا




محمد على وإبراهيم .. ملامح مشتركة تدحض الافتراءات !

ثاني هؤلاء الأبناء.

كما ذكرت الأميرة شويكار وهي من أسرة محمد علي، ومن العارفين ببواطن أمورها، ذكرت في كتابها المعنون «بلادي، تجديد مصر - محمد علي» Mon Pays, La Renovatian de "L'Egypte Mohammed Ali أن متصرف قوله زوّج محمد علي من قريبة له، ثرية كان يكفلها وقد رزق محمد علي من زوجته هذه بخمسة أبناء ثلاثة ذكور وبنتين وهم إبراهيم وطوسون وإسماعيل ونازلي وتوحيدة. كل ذلك دفع أحد المؤرخين الثقاة وهو المؤرخ الإنجليزي «هنري دودول» Henry Dodwell مؤلف كتاب مؤسس مصر الحديثة The Founder of Modern Egypt إلى دحض فرية أن إبراهيم لم يكن ابنا لمحمد على فقال «زعموا أن إبراهيم ابن زوجة محمد علي الأولى من زوجها السابق وهذا زعم باطل».

يضاف إلى ذلك أن المؤرخ «عبدالرحمن الجبرتي» الذي كان يقيم بالقاهرة ويسجل الحوادث التي يشهدها بعينيه يوما فيوم في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ويعتبره المؤرخون من أصدق من كتبوا عن عصر محمد علي لم يشر من قريب أو بعيد أو يشكك في بنوة ابراهيم أو في علاقته بمحمد علي، ولو كان هذا الادعاء حقيقيا ما تردد الجبرتي في ذكره.

أمور واضحة

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في حقيقة هذا الأمر فإن هناك أمورا واضحة للعيان تثبت أن إبراهيم كان

ابنا لمحمد على ومنها أن ابراهيم كان شديد الشبه بمحمد على وقد أكد ذلك قنصل بريطانيا في الإسكندرية عام ١٨٣٠ بقوله «من الشائعات الرائجة أن إبراهيم ليس ابن الوالي بل متبناه أو مملوكه، ولكن ما من أحد رآهما إلا وجدهما مثيلين، وأهم ما يستلفت النظر قصر أذرعهما الشديد»

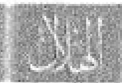
كما أكده الأمير عمر طوسون في كتابه «الجيش المصرى البرى والبحرى» بقوله «إن من يرى الإثنين يجد الشبه التام بينهما لاسيما في قصر الذراعين».

يضاف إلى ذلك أن الوثائق الرسمية التي تتعرض لسلسلة نسب محمد على تذكر أن أولاد محمد على المولودين من زوجته «أمنة هانم» هم على التوالي توحيدة وإبراهيم وأحمد طوسون وإسماعيل وخديجة!! ولو كان الباب العالى يعلم حق العلم أن إبراهيم ليس ابنا لمحمد على لما سمح له بتولى عرش مصر في سبتمبر ١٨٤٨م عندما اختلت قوى محمد على العقلية، ولما اعترف بتعيين إسماعيل واليا على مصر في عام ١٨٦٣م وهو ابن إبراهيم وأكبر أفراد الأسرة العلوية بعد سعيد باشا، ولما تم اعتبار أبناء وأحفاد إبراهيم ورثة شرعيين لهم حق خلافة محمد على الذى منح حكم مصر الوراثى في ظل فرمان ١٨٤١م، ولو كان أمر هذه الشائعات صحيحا فإن سلسلة خلافة حكم مصر من إسماعيل حتى فاروق الأول تصبح غير شرعية.

بواعث هذا الجدل

والحقيقة أن الذى أثار هذا الموضوع وأقام الضجة حوله هم فرع أسرة الأمير «عباس حليم» الذي ينحدر من صلب البرنس حليم بن محمد على الذى لم يرتق عرش مصر رغم أحقيته في ذلك بصفته أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنا حسب فرمان ١٨٤١م، ولكن نظرا لقيام الخديو إسماعيل بتغيير هذا الفرمان والذى يقضى بأن يئول حكم مصر إلى الأكبر فالأكبر من ذرية محمد على فقد تبدل هذا النظام بعد صدور فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ فأصبحت وراثة العرش في ذرية إسماعيل، وبناء على ذلك تولى توفيق أريكة الخديوية بعد عزل أبيه، ومع ذلك فقد ظلت آمال البرنس حليم وأسرته في اعتلاء عرش مصر قائمة، ونتيجة لذلك اشتد الصراع بين فرعى الأسرة العلوية، وأثيرت مسألة التشكيك في نسب إبراهيم لمحمد على في محاولة للمطالبة بعرش الخديو عباس الثانى الذى كان يعيش منفيا في ألمانيا انتظارا للعودة لحكم مصر.

وعلى أى حال، وبالرغم من كل





تطابق فى الشكل والأبعاد الجسمانية يصل إلى حد التوأمة بين محمد على وإبراهيم، واتفاق فى المشروع العسكرى والحوار مع سليمان الفرنساوى

ماقيل فقد كان إبراهيم باشا قائدا عسكريا يشار إليه بالبنان، جاهر علنا بأنه ينوى إحياء أمجاد العرب، وإعطاءهم حقوقهم، وإسناد المناصب إليهم، وأنه ليس تركيا وإنما جاء إلى مصر صبيا، وأن شمسها مصرته، وغيرت دمه وجعلته دما عربيا، كما كان يرفع جنده من المصريين إلى مرتبة الكرامة الإنسانية والوطنية ، وحاول ترقيتهم إلى مرتبة الضباط لولا اعتراض أبيه، ومنحهم الشعور بقوتهم واستنهض عزتهم التى أذلتها قرون العبودية، وتحدث عن عظمة مصر فى العديد من المناسبات فقد وقف أمام حصون عكا فى عام ١٨٣١ قائلا «هدفى مزدوج: أولا صيانة شرف مصر الخالدة، واستعادة مجدها التليد». ■

أوراق مصرية
ابراهيم باشا

أيام إبراهيم باشا الأخيرة

بقلم
د. يونان لبيب رزق

كثير من الصور تستقر فى العقل الجمعى للشعوب تكون مهمة المؤرخين بعدها التصديق عليها ، بإضافة بعض التفاصيل أو إلقاء بعض الظلال ، غير أن الصورة تبقى على حالها ، خصوصا عندما يتعلق الأمر ببطل قومى ، فالشعوب دائما فى حاجة إلى مثل هذا البطل .

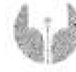
من هذه الصور صورة إبراهيم باشا بن محمد على ، الرجل الذى ارتبط اسمه بأغلب النجاحات العسكرية التى أحرزتها مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بدءا من السودان ومرورا بشبه الجزيرة العربية وانتهاء بالشام ، والذى لا يملكه أى مصرى حتى هذه اللحظة من الشعور إلا الفخار أن أحرزت بلاده كل هذه الانتصارات ، وبجيش من الفلاحين ، خاصة فى الشام ، درة فتوحات الرجل ، والتى كسر فيها أنف الدولة العثمانية ، وكاد أن يحتل عاصمتها ، لولا تدخل القوى الأوربية فى طليعتها بريطانيا العظمى ..

لعل هذا الشعور هو الذى أدى فى النهاية إلى أن ينصب المصريون تمثال الرجل فى شارع من أهم شوارع القاهرة، والذى لم يجرؤ أى نظام على المساس به ، رغم تعاقب العهود واندثار العهد الملكى برمته.



ورشة نجارة من عصر إبراهيم باشا ◄





وهذا الاحتفال الذى أقامته «الجمعية الملكية للدراسات التاريخية» عام ١٩٤٨ بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاة الرجل والذى صدر فى كتاب نفيس تحت عنوان «ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ - ١٩٤٨» والذى ضم عددا من الأبحاث لكبار المؤرخين فى ذلك العصر ، شفيق غربال ، عبد الحميد البطريق ، محمد أحمد حسونة ، أحمد الحتة ، زكى رستم ، عبد الرحمن زكى ، والذى أبرز إنجازات الرجل فى شتى الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية .. هذا الاحتفال إذا ما دل على شئ فإنه يدل على التقدير الذى حظيت به هذه الشخصية الكبيرة ، التى بقيت فى الذاكرة حتى بعد مائة سنة من وفاته .

التقدير حيا وميتا

ومع التسليم ، وعلى ضوء المنجزات التاريخية لإبراهيم باشا ، أن الرجل يستحق الاحتفاء ، فإنه ينبغى ألا ننسى أنه بينما لم يحكم أبناء محمد على ، عباس وسعيد ، سوى خمسة عشر عاماً (١٨٤٨ - ١٨٦٣) فإن إسماعيل بن إبراهيم باشا وأبناءه وأحفاده حكموا الفترة الباقية من عصر الأسرة العلوية والتى ناهزت التسعين عاما بعد أن امتدت حتى ١٩٥٣ .. عام إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية بمعنى أن الرجل ظل يفرض نفسه على وعى المصريين حيا وميتا!

لكل الأسباب السابقة وقرت صورة إبراهيم باشا الكبير فى الوجدان الوطنى العام .. البطل القومى الذى لا يباريه بطل آخر ، فى التاريخ الحديث على الأقل ، وهو أمر طبيعى عند الشعوب المتعطشة لعبادة البطل!

غير أن مثل هذه الصورة تفتقر أحيانا إلى تغافل البعد الانسانى فى الشخصية محل التقدير ، بكل ما يحوط بها من مشاعر تتراوح بين الجرأة المتناهية والمخاوف اللانهائية ، وبكل ما يتصل بها من ظروف وعلاقات حتى مع أقرب الناس إليه ، ثم الأحوال الشخصية ، من صحة ومرض وعلاقات مع المحيطين به من الحريم أو المماليك، هذا فضلا عن روح العصر التى كانت تبيح للحاكم الشرقى أن يزهق روح أى من رعاياه دون مراجعة أو مؤاخذة ، والتى تبدو لنا بعد مرور نحو نصف قرن أعمالا متخلفة أقرب إلى الوحشية !

وقد حدث فى أثناء مراجعتنا للترجمة العربية التى قام بها الباحث «جارو روبير طبقيان» لمذكرات نوبار باشا التى كان قد تم نشرها فى بيروت عام ١٩٨٣ بمقدمة لمريت غالى بك ، أننا عثرنا فى فصلها الخامس الذى تعامل مع الفترة القصيرة جداً التى تولى خلالها إبراهيم باشوية مصر بعد مرض أبيه العضال ، والتى لم تتجاوز الستة شهور ١٣ يونيو - ٢٠ نوفمبر ١٨٤٨ ، أننا وجدناها تقدم لوحة إنسانية مدهشة ، ليس لإبراهيم باشا فحسب ، وإنما للعصر كله ، ولطبيعة العلاقات السائدة بين كبار رجال الدولة بمن فيهم أسرة محمد على .

شاهد عيان

وأهمية مذكرات نوبار باشا فى هذا الجانب بالذات أنه الرجل الذى كان قد خصصه محمد على لصحبة إبراهيم ، فكان شاهد عيان لما يجرى من الداخل، وبغض النظر عن تعبيره عن مشاعره الشخصية فى بعض المواقع ، وهذا أمر طبيعى فى كتابة المذكرات ، إلا أنها اتصفت بقدر كبير من الموضوعية ودقة التصوير ..

ودعونا نقرأ هذا الفصل الذى قدم هذه اللوحة بما لها وبما عليها ، ودعونا لا ننزعج من بعض ما فيها أو نتصور أن فى هذا إقلالا لشخصية صاحب السيرة ، أو طعنا فى رمز من رموز الوطن ، فالمطلوب دائما التعامل مع الحقيقة التى تؤكد أن هناك دائما فى التاريخ الوجه والوجه الآخر !



محمد على تصيبه الشيخوخة ، غير قادر على الحكم الأمر الذى يدفع البعض إلى المطالبة بالوصاية على الحكم - ابراهيم يرفض الفكرة - يقرر الذهاب إلى القسطنطينية لطلب الولاية - زيارته للسفير البريطانى السير STRATFORD GANNING ستراتفورد كانينج - يحصل على الولاية فى ١٣ يونيه ١٨٤٨ - يعود إلى مصر - تفاقم المرض لدى إبراهيم أثناء السفر يسبب له موجات من ارتفاع الحرارة التى أرعبت كل من حوله - نوبار وحده ينجح فى تهدئة إبراهيم والترويح عنه بالحديث عن حملاته العسكرية الظافرة وعن انتصاراته الحربية - نوبار يمضى الليالى فى قمرة إبراهيم يهدئ من روعه حتى الوصول إلى الإسكندرية - بعد العودة إلى القاهرة إبراهيم يقيم فى القصر العالى ثم ينتقل للإقامة فى القلعة.

- محمد على يعيش معزولاً فى قصر شبرا - عباس الوريث المنتظر يخشى إبراهيم ويسافر للإقامة فى الحجاز - آخر أيام إبراهيم وساعة احتضاره بين أذرع نوبار فى اليوم الثانى والسبعين بعد عودته إلى القاهرة كما قالت التكهنات من قبل.

السلطة لا الوصاية

ما إن وصلنا إلى القاهرة فى إبريل ١٨٤٨ حتى بدأت المشاكل والصعاب .. لم يكن فى استطاعتنا إعلان محمد على مجنوناً ولم يكن أيضاً من الممكن الاعتراف بسلامة قواه العقلية . لذلك قررنا عدم تغيير أى شئ (ظاهريا) فى سير الأمور فقط كان على النظار ورؤساء الدواوين اللجوء إلى إبراهيم لتلقى الأوامر الرسمية أو عرض أفكارهم ومقترحاتهم عليه . طرحت أيضاً فكرة تكوين مجلس وصاية برأسه إبراهيم إلا أن الأخير رفض هذا الأمر .

كان يريد من ناحية السلطة الفعلية وليس الوصاية ، ومن ناحية أخرى كان يخشى فكرة شفاء والده ويجعله يدفع ثمن كل خطوة من شأنها أن توليه رسمياً السلطة فى البلاد ، وكان محمد على سيعتبرها اغتصاباً للسلطة . بيد أن إبراهيم كان يفكر فعلاً بحكمة لأن تكوين مجلس وصاية كان يستلزم تأييد وموافقة الباب العالى كى يصبح شرعياً ويعترف به ممثلو القوى العظمى فى مصر . كما كان يمكنه أيضاً استغلال الموقف وتقلد السلطة دون النظر إلى مجلس وصاية أو غيره، لكن هذا أيضاً كان يستلزم تأييد وموافقة الباب العالى . لكن هل سيعطيه الباب العالى ما يريد أم أنه فى ظل الأوضاع الراهنة

ستقترن موافقته ببعض الشروط التى ستحط من شأنه أو يدس في فرمانه بعض هذه الجمل المألوفة لدى الدبلوماسية التركية، وتستخدم بعد ذلك كذريعة للتدخل فى شئون مصر ؟ كان إبراهيم يرى الإجابة فقط فى ولاية تعطى له بشكل حاسم من قبل الباب العالى تؤهله للحكم فى نظر الشعب والقوى الكبرى .

لكن ومن زاوية أخرى كانت وفاة والده ستسمح له بتقلد الحكم تلقائياً دون انتظار القسطنطينية أو الذهاب للبحث عن الولاية التى تكفلها له فرمان ١٨٤١ فى حياة والده بعد المطالبة بها. وكان من الصعب القيام بمثل هذه الخطوة عن طريق المراسلات ، فهذه الطريقة لم تكن تناسب مزاج إبراهيم على الإطلاق فلم يكن يريد سوى أن يتم العمل دون معوقات من أى نوع...

إذن لم يكن أمامه أى مجال سوى الذهاب إلى القسطنطينية لطلب الولاية لكن كيف الذهاب إلى القسطنطينية والإفصاح عما يرمى إليه من وراء هذه الزيارة ؟ كان يجب العثور على حجة للسفر ... لو تلقى دعوة من السلطان سيكون الأمر مختلفاً تماماً لكنه لم يكن يجرؤ على إثارة مثل تلك المسألة حيث لم يكن له أى أمل في الموافقة وكان يعرف تماماً أن الباب العالي يخشاه ويشحذ كل إمكانياته للتخلص منه وإبعاده عن الساحة.

حجة للسفر

وعندما كانت إرادته المهزوزة تتردد فى اختيار أى من الحلول السابقة ، كان إبراهيم يوما يهم بالخروج من عند شقيقته نازلى فى قصر محرم بك عندما وضع أمامى منديله ملوثاً بالدم. ولم يكن يريد أطباء لكن بطريقة أو بأخرى أرغمته على الذهاب للطبيب كلوت بك.

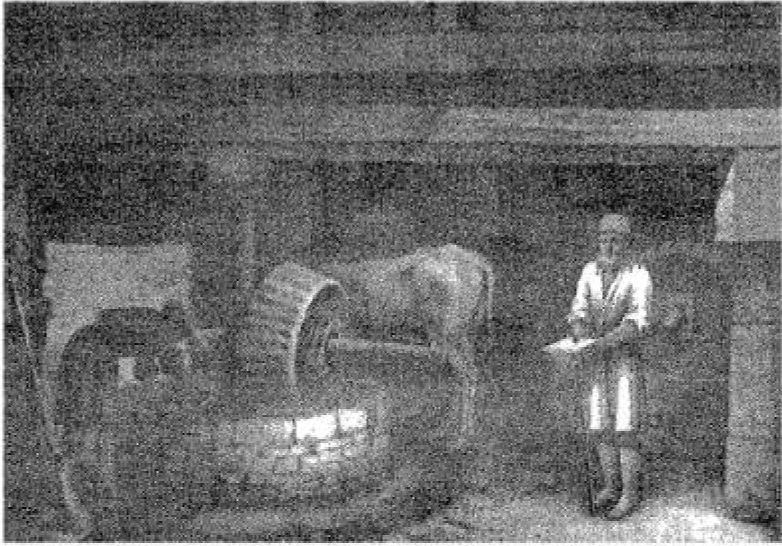
وجد الأخير أن الحالة عضال وبصفة شخصية وسرية صرح لى بأنه يعتقد أنها إصابة قوية فى الرئة . ظل هذا الحدث سراً، أما بالنسبة للنزيف ، فقد توقف بفضل الدواء الفعال الذى وصفه كلوت بك .

أثناء هذه الأحداث انتشر وباء الكوليرا فى الإسكندرية بشكل مفزع ومفاجئ فى الحال اتخذ إبراهيم قراره إذ وجد الحجة المثلى التى يبحث عنها للذهاب إلى الأستانة، فأصدر أوامره بتجهيز السفينة الحربية الوحيدة الباقية من الأسطول الذى كونه محمد علي.

ولكى يصدق الجميع أن الغرض الوحيد من وراء سفره هو تفشى الوباء ، أرسل أولاً أبناءه مصطفى وأخاه الصغير محمد على على ظهر يخت شراعى وأمر قائدها بإلقاء الهلب بين جزيرة رودوس والإسكندرية دون الرسو فى أى ميناء أياً كانت الأسباب..

فى لحظة الصعود على متن السفينة دعا إبراهيم كياميل باشا لاصطحابه ، رفض كياميل باشا الذى يبدو أنه كان يحس بالغرض من وراء هذه الرحلة مما دعا إبراهيم إلى إبداء ضيقه الشديد لهذا الرفض . تركنا الإسكندرية فى الطريق إلى جزيرة رودوس : حسن بك طبيبه الخاص ، بيدان BEDAN بك وأنا كنا الثلاثى الوحيد المكلفين بصحبته.

عند وصولنا إلى رودوس كانت أول سفينة رآها إبراهيم فى الميناء هي اليخت الشراعى المصرى الذى يحمل أبناءه ، فقبض على قبطان اليخت الذى حاول أن يتأسف لعصيان أوامره مراراً معللاً ذلك بأنه رضخ لضغوط الأمراء الصغار إلا أنه تم تقييده على ظهر مدفع



عصر الزيوت .. من الصناعات التى انتشرت عهد ابراهيم باشا

وتلقى ٢٠٠ جلدة.

بعد هذا الحادث تجرأ أحد المماليك وسهـا عليـه أن يقـدم له طاقم أسنانه الصناعية ، أيضـاً تم تقييده على ظهر مدفع وتلقى نفس المعاملة الوحشية ، كان المسكين قد أغمى عليه منذ مدة وكف عن الصياح عندما ذهبت إلى إبراهيم أرجو العفو عنه فكان رده «إذهب ، إذهب» كان إبراهيم فى حالة مخيفة جداً إلى درجة أننى خفت وظل المملوك بين الحياة والموت لمدة ثمانية أيام.

بعـد هذه الأحداث عـادت لإبراهيم حالات تقيؤ الدم من فمه ، فتم استدعاء طبيب مخضرم من رودوس أكد لنا أنه يعرف أن ثمة مكانا ما على شواطئ جزر الكارامـان CARAMANIE لا يستطيع تحديد موقعه جغرافيا بالضبط حيث توجد عيون مياه كبريتية ، وظناً من إبراهيم أن هذه المياه قد يكون تأثيرها عليه هو نفس تأثير المياه التى عولج بها فى مدينتى فرن VERNET ولوكسى LUCQUES فكان على أن أذهب للبحث عن هذه العيون الصحية ، لكن أين ؟ وكيف ؟ لا أعرف . أعطيت الأوامر بناء على هذا لقبطان السفينة بتجهيز القوارب ، لكن إبراهيم وجد أن القبطان قد أخذ كثيراً من الوقت لتنفيذ هذه الأوامر فقال لى : «اذهب لتستفسر عن سبب بطء التحضير» . رد على شاهين القبطان قائلاً : «بحق السماء إنكم ذاهبون إلى عرض البحر حيث ستمكثون لمدة من ثلاثين إلى أربعين ساعة وربما أكثر من يدرى للوصول إلى هدفكم؟ أليس من المفروض أن أعد للجميع المؤن اللازمة للرحلة وأطعم البحارة».

حملت الرد إلى إبراهيم فقال لى : «ليس هذا ما فى الأمر، إن شاهين مملوك

أبي إنه يريد موتي، إسمع أنت ولا تنس هذه الكلمات عندما تسمع شخصاً يتحدث إليك أو يحاول اتخاذ تصرف ما معك توقع منه سوء النية في كلامه وتصرفاته . هكذا دائما تتحاشى الوقوع في الخطأ وتكون على صواب». على هذا أمر بإلغاء تجهيز القوارب وكان هذا الأمر قد بعث بالسرور في قلوب الجميع لأن الطقس كان سيئاً وكان تمسكه بالإبحار من أجل هذه المهمة ربما سيكون سببا في عدم بلوغ أي منا لهدفه.

انتظار وترقب

ظللنا في خليج بحر رودوس لفترة ربما كان ينتظر إبراهيم خلالها الأخبار من الإسكندرية في الوقت الذي رأينا فيه باخرة تابعة للبحرية التركية تقترب منا وعلى متنها كبير صرافي محمد علي في القسطنطينية وبعد مداولات طويلة مع إبراهيم عاد من حيث أتى وفي صباح اليوم التالي أبحرنا صوب القسطنطينية . كانت المجيدية MEDJIDIEH يخت السلطان في انتظارنا على مدخل الدردنيل صعدنا على متن اليخت وفي مساء اليوم التالي وصلنا إلى القسطنطينية عبر مضيق البسفور حيث كان من المقرر أن نبقى فيه لفترة نمضيها في الحجر الصحي مما جعل إبراهيم يشعر بإهانة شديدة دفعت الأميرال الكبير إلى محاولة التفاهم مع إبراهيم .

فكان رد إبراهيم : «لو كنت أعلم أن هذه سوف تكون طريقتكم في التصرف لكنت قد جئت بسفينة الحرب وكنا سنرى ما يحدث»، وعلى هذا تقرر أن يبقى تحت الملاحظة الطبية لمدة ٤٨ ساعة في قصر تشيراغان TCHERAGHAN الصغير . بعد انتهاء إجراءات الحجر ، توافد الوزراء وكبار رجال الدولة والنبلاء جميعهم للترحيب بإبراهيم وتقديم فروض الاحترام له.

لم تكن تصرفات إبراهيم هي نفسها التي كان يتحلى بها في بلاط فرنسا أو إنجلترا . كان يعامل زائريه برعونة ، ويرفض أن يتقيد معهم بأصول ولغة الدبلوماسية المتعارف عليها في الباب العالي التي تساير تقاليد البلاط السلطاني.

كانت مقابلته مع السير ستراتفورد كانينج STRATFORD GANNING الحاكم الفعلي للإمبراطورية الذي كان يرتعش أمامه وزراء الدولة العثمانية قد تخللت بعض مراحلها منعطفات صعبة وسيئة حيث كان كانينج مصراً على ألا يتجاوز عدد جنود الجيش المصري ما نصت عليه الأرقام في بنود فرمان ١٨٤١ ، فرد عليه إبراهيم «لدي ستين ألف رجل مسلحين وأعتزم الإبقاء عليهم وإن رأيت أن هذا العدد لا يكفي لضمان أمن مصر وترابها سوف أزيد عددهم ».

بيد أن كانينج كان مصراً على موقفه مما دفعه لأن يقول لإبراهيم : «كم من القوات تحتفظ بها بريطانيا في مالطة ؟– وأضاف – مع الأخذ في الاعتبار أن مالطة ممتلك بريطاني والملكة هي حاكمتها ؟». فقال له إبراهيم : «كل هذا جيد لكنني أحمل في يدي مفاتيح مصر وسوف أعرف كيف أحتفظ بها»، بيد أن هذه المحادثات التي ظلت على هذا المنوال انتهت بطريقة أفضل مما كنت أتوقع .

مصير الأغبياء

كنت أرى إبراهيم إلى حد ما يشعر بالقلق إلا أنه لم يبح لي بشئ ولم يتحدث معي عن أي من مخاوفه لكنني سمعته يقول يوماً وكأنه يتحدث إلى نفسه : «سوف



كان لصناعة الزجاج أهمية كبرى مع انطلاق النهضة الصناعية

ألقى مصير الأغبياء الذين لا يعرفون كيف يتبعون النصيحة الجيدة». وتذكرت عندما قال هذا نصيحة ملك فرنسا لويس فيليب التي حذرته من السفر إلى القسطنطينية .

كان هناك بالتأكيد أمر يشغل باله وإن كان قلقه هذا لا يظهر أمام أعين من حوله في أي مظهر من المظاهر الخارجية تبدو عليه أو على ملامحه . لكنني كنت قادراً على الشعور بقلقه هذا بالرغم من هيئته الهادئة . بالفعل كان قلقه بسبب أخبار عن تردد الباب العالي في منحه الولاية التي كان يطالب بها في حياة أبيه حيث طرحت عليه قبول منصب الحاكم العام في مصر دون ولاية . رفض إبراهيم ، لكن ما العمل في حالة إصرار الباب العالي على هذا الاقتـــراح ؟ ألم يكن هو من يملك كل مفاتيح هذه اللعبة ألم يكن هو تحت رحمة الوزراء الأتراك الذين في إمكانهم الاعتراض على عودته إلى مصر ؟ وكان يقول : «لا حاجة لي في أن أبرر رفضي هذا سوف أتدبر أمري في مصر». في حين أن الكل كان يعتبره خائناً للدولة (العثمانية) ومتمرداً سابقاً خارجاً على القانون ورجلاً خطيراً يمكنه أن يخلق المشاكل مجدداً لتركيا . كان إبراهيم يعلم كل هذه الأفكار وأصبح الموقف غامضاً للغاية...

لكن لحسن الطالع جاء عراف القصر ليخرج الجميع من هذا المأزق وهذه الحيرة، ليعلن أنه بعد استشارة الكواكب كان الرد أن إبراهيم سيتوفى قبل مرور ستة أشهر ، وكانت هذه النبوءة تتفق مع ما أعلنه أيضاً طبيب القصر النمساوي المكلف برعاية إبراهيم ، فبعد أن قام بفحصه تبين له أن إبراهيم كان يتقيأ الدم من فمه نتيجة إصابة خطيرة في الرئة.

ومن ثم فقد تقرر منحه الولاية وفقا لبنود فرمان ١٨٤١ ، بل إنه أعفى من مشقة المرور بالمراسم التقليدية ومنح الولاية فى (١٣ يونيه ١٨٤٨) .تركنا القسطنطينية صباح اليوم التالى بعد حضور الوزراء وكبار رجال الدولة لوداع إبراهيم الذى ودعهم قائلاً: «أترون هذه الأعمدة ؟ لقد أصبحت أطلالاً بينما أنا وأبى زرعنا فى مصر عشرة ملايين شجرة أنتم على العكس خربتم ما حباه الله لكم».

الوالى المريض

تركنا اليخت السلطانى فى عرض الدردنيل لنصعد على متن السفينة الحربية المصرية التى أبحرت بنا باسطة كل أشرعتها صوب رودوس .

فى حوالى الساعة الرابعة من بعد الظهر كنت بمفردى على سطح السفينة عندما لحق بى أحد مماليك إبراهيم ليقول لى : إنه (أى إبراهيم) يبحث عن كالوست «وكيل أعماله فى القسطنطينية» ويكاد يفقد صوابه حيث يقول إن كالوست خدعه وغالطه فى صفقة الفراء. فقلت له (أى المملوك) إن كالوست ظل فى القسطنطينية بناء على أوامرك لكنه (أى إبراهيم) يرفض أن يصدق ويدعى أنه مختبئ فى مخازن السفينة وطلب منى إحضاره وإلقاءه فى البحر . بعد إبلاغى بهذه المعلومات تركنى المملوك وذهب من حيث أتى . أصبح هذا الخبر مصدر قلق لى من المؤكد أن إبراهيم كان يمر بحالة من حالات الحمى الشديدة . وعند امرئ مثله تكون مثل هذه الحالات مصدر خطورة كبيرة لأنه من الممكن بمنتهى السهولة والبرود أن يرتكب جريمة وهو فى وعيه . لكن عندما يفقد عقله فإنه يكون قادراً على عمل أى شئ.

كنت على دراية تامة بحالته النفسية ، كان خائفاً على حياته ويعانى من خشونة الصوت نتيجة التهاب حباله الصوتية من جراء القئ المستمر . ففى القسطنطينية أمضى لحظات كلها قلق لكنه لحسن الحظ استطاع الخروج من هذه المصيدة التى أوقع نفسه فيها وتمكن من الهروب من هذا الخطر بينما كان خطر آخر يلوح له فى الأفق وهو أكبر من الأول ويطارده منذ طفولته وهو خوفه إلى حد الرعب من والده، لأنه بالفعل إذا وصلنا إلى ميناء الإسكندرية ووجدنا محمد على قد شفى تماماً من مرضه ، فإن ذلك سيعنى أن إبراهيم سيلقى مصيراً مظلما ولن ينجيه لا قبطان بك ولا كل مماليكه . لم يكن إبراهيم يهذى فى هذا الشأن ولا فى إحساس الخوف والكراهية التى يشعر بهما تجاه والده وكان يعرف تماماً أنه فى حالة شفاء محمد على كان ضياعه أكيد ، لا ولاية ولا فرمان ولا أى شئ كان يمكن أن يشكل لمحمد على اعتباراً من أى وزن.

لكن على العكس إذ وجد أباه على نفس الحالة التى تركها عليه قبل السفر غير قادر على القيام بأعباء الحكم والقبض على السلطات التى كان يمارسها ؟ ألم يكن من الممكن أن يستغل لحظة من لحظات استقرار حالة أبيه الذهنية ليعرضه على الشعب والعلماء والجيش والضباط والجنرالات الذين شاركوا فى الحروب تحت قيادته هو إبراهيم ؟ لكن من كان سيقبل فكلهم كانوا تقريبا مماليك أبيه ورجاله المخلصين لن يجرؤ أحد على الانحياز ضده سراً أو علانية.

سواء كانت هذه المخاوف مبالغا فيها أم لا ، لها أساس أم لا ، كنت أحس أنها موجودة فى رأس إبراهيم وكانت دائمة الحضور أمام مخيلته المتعبة والمنهكة بسبب كل هذه الأحداث ، حاضرة ليس كأحلام ولكن كحقائق .

مخاوف نوبات الحمى

كان إبراهيم أثناء نوبات الحمى التى تنتابه يلقى بالاتهامات على كالوست

الغائب وكنت أخاف أنه في يوم آخر يقوم بالتحامل على شخص آخر أو أنا نفسي المقيم معه بصفة شبه دائمة ، وهذه المخاوف كانت تتصاعد خاصة عندما تذكرت تهديده لي في قصر النيل بإرغامي على التوبة . أتوب عن ماذا ؟ عن استقلال شخصيتي التي يبدو أنها في نظر إبراهيم تعتبر جريمة لا تغتفر . في الحقيقة إن اضطرابات إبراهيم النفسية كانت تؤثر على حيث أنني كنت شابا حين ذاك . كانت الرياح مواتية وكانت السفينة تقطع عشرة أميال بحرية في الساعة.

وفي اليوم التالي تم إخطاري بأن إبراهيم هاجمته نوبة أخرى من حالات الاضطراب النفسي وكان كالوست دائماً وكالعادة هو من يبحث عنه ويهدد بقتله . وصلنا إلى مرتفعات رودس وكانت الرياح مستمرة في الهبوب في اتجاه أشرعتنا ولكنها كانت تميل للبرودة وكل ساعة كانت تمر لحسن الحظ كانت تقربنا من الإسكندرية وفي حوالي الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا أنا وحسن باشا وبيدان بك نتبادل الحديث على ممرات الدور الأول عندما رأينا شرين بك قائد السفينة قادما إلينا وهو رجل شجاع كنا نحبه جميعا قال لنا في نبرة هادئة وساكنة: «لقد كلفني ال SERASKER «القائد العام» أن أقول لكم إنكم أنتم الثلاثة خونة وأنك يا حسن باشا خنته مع عباس وأنت «متجها بنظرة لبيدان بك» خنته مع أرتين بك شاراكيان» وأنت مستديراً نحوي خنته مع والده ، لكن وقبل أن تصلوا إلى الإسكندرية ولكي يسلم من أي خيانة أخرى من جانبكم سيأمر بقطع رؤوسكم ويضعها بين أرجلكم ويلقى بكم في البحر «كنت أنظر إلى حسن باشا ، فرأيت خديه قد انكمشا ووجهه قد أصابه الشحوب المفاجئ ثم نظرت إلى بيدان بك فكان وجهه في بياض الكفن . قال حسن باشا في صوت مرتعش لشرين بك : «لكنك لن تنفذ هذا الأمر إذا أعطاك إياه».

فقال شرين بك دون أن يتخلى للحظة عن هدوئه : «حسنا ! إن عدم تنفيذي للأمر لن يقدم من أمركم أو يؤخر شيئاً كثيراً لأن مساعدي الرجل الثاني بعدي سوف يلقي بي كرابع لكم في الماء» . قال هذا وسار مبتعداً مثلما جاء محتفظاً بكل سمات الهدوء الذي في العالم.

إذا قلت إن مثل هذا الحديث كان له تأثير كبير عليّ سيكون نوعاً من المبالغة، والقول أيضاً بأنه لم يؤثر على إطلاقاً هو أيضاً غير صحيح ، لكن ما أعرفه هو أنه لم يضر بي بشكل يفوق الحدود ، ربما يكون الأمر بكل بساطه له علاقة بطبيعتي . لكن كي لا أغفل شيئاً في داخلي وأبوح بكل ما فيها، ربما هذا الشعور كان لأنني لم أر إبراهيم في الميدان بالشام ولم تكن لي نفس الدوافع للخوف كما كانت لدى بيدان بك وحسن باشا.

السيطرة على الغضب

كان الاثنان لا يكفان عن النظر إلى والتساؤل بنظراتهما عن مصيرهما، فقلت لهما : «احتفظا بهدوئكما وتصرفا كما لو أن شيئاً لم يحدث فسألاني: «ماذا سوف تفعل؟ .» فقلت: «لا أعرف».

وكنت بالفعل لا أدري ماذا سأفعل ولكن الوقت كان قد حان للصعود إلى سطح السفينة وكان قراري قد اتخذ إذ كان يتعين على أن أقوم بالترويح عن إبراهيم وأن أبعد عن تفكيره هذه المخاوف التي تنتابه . باختصار كان يجب على أن أمنع حالات الاضطراب والهذيان والسيطرة عليها وعلى ذهنه . كنت ألاحظ أن إبراهيم حتى وهو غاضب كان دائماً يحول عينيه عن نظراتي،

وكان ذلك فيما يبدو يعني أنني صاحب نوع من السيطرة عليه.

دخلت الصالون الذي كان يشغله على سطح السفينة كما كنت معتاداً أن أفعل عدة مرات في اليوم فوجدته يفترش الأرض على فراشه يلعب لعبة المنجلة (MANGALA) مع أحد مماليكه . كانت ملامح وجهه لا يبدو عليها أية علامات للاضطراب . انتهت المباراة فقال لي إبراهيم : «أهذا أنت تعال اجلس » . جلست على خشب الحجرة على ركبتي مثنيتين بجانب حافة السرير في المكان نفسه الذي كنت معتاداً الجلوس فيه . وبعد تبادل بعض العبارات عن الطقس وعن سير السفينة التي كانت سرعتها تقربنا من الإسكندرية دون أية هوادة ، انتقلت بالحديث معه إلى القسطنطينية وإلى الطريقة التي عامل بها وجهاء الدولة (العثمانية).

كان إبراهيم يقاطعني ليكمل هو بنفسه الكلمات القاسية التي قالها لهذا والترحيب بذاك بشكل غير لائق، وليؤكد لي صحة كل هذا وأنه في الحقيقة تعامل معهم بشكل سيئ.

فقلت له «نعم إنني لم أكف عن الإعجاب بك . لكن في نهاية الأمر لقد كنا بين أيديهم ، اعترف يا سيدي أنك ارتكبت خطأ بالتخلي عن حذرك وأنه كانت هناك لحظات كنت تأسف فيها على عدم اتباع نصيحة لويس فيليب الذي حذرك من أي سفر إلى القسطنطينية لحسن الحظ إن كل شئ تم بشكل جيد وحصلت على ولاية مصر».

هنا قاطعني قائلاً : «بهذا الصدد إنك الوحيد الذي لم يهنئني عند عودتي من القصر حاملاً الفرمان الخاص بولايتي ! فما معنى هذا ؟».

فقلت له . «معناه أنه بالنسبة لي أن الولاية لم تغير شيئاً ولم تزد من عظمتك شيئاً كنت بالنسبة لي وأنت الآن وستظل إلى الأبد إبراهيم الذي اقتلع DE-RIYE الدرعية من الوهابيين، الذي زعزع عرش الدولة (العثمانية) فقل لي ماذا يمكن أن تضيف الولاية من بريق إلى اسمك وقوة سلطانك الذي في رأيي كنت تمتلك زمامه دائماً ؟ ».

تبدد المخاوف

إن تذكيره بانتصاراته وبالخطر الحقيقي الذي تعرض له في القسطنطينية والذي نجا منه بالحصول على ما كان يرمي إليه بكل قوة كانت سبباً قوياً في تبديد أفكاره ومخاوفه، ورد علي قائلاً . «نعم ! نعم ! لقد انتزعت منهم الولاية» . واستطردت قائلاً : «إن الولاية شئ جميل . أما اليوم فينبغي أن تشفى من المرض، إن ما لديك ليس شيئا يذكر وأنا واثق أن الطبيب لاليمان LALLEMAND سوف يشفيك في خلال خمسة عشر يوما وهذا ما سوف أفعله ، ما إن نصل إلى القاهرة سوف أكتب إليه في أول بريد أبعث به ليأتي إلى مصر من أجل العناية بك».

أعجبته الفكرة لكن قال لي: «لا .. لا يجب أن يكتب إليه للحضور بل يكتب إليه لتذكيره بالوعد الذي قطعه على نفسه للحضور من أجل زيارة مصر».

فهمت.. كان البخيل يريد فعلاً الحصول على عناية الطبيب لاليمان LALLEMAND ولكنه كان في الوقت نفسه يريد التهرب من دفع الأتعاب

عموما كنت دائماً أجد السبيل للترويح عنه وبالطبع السبيل لطرح أمر والده المريض على فراش الحديث، كنت أذكره دائماً أن سن والده يصبح معه الشفاء من

أمراض المخ أمراً مستحيلا. وكررت له للمرة المائة ربما ما قاله له طبيبه الخاص فى نابولى بخصوص هذا الشأن، وإن كان يتذكره جيداً لكنه دائماً كان فى حاجة إلى سماعه يتكرر على أذنيه حتى يطمئن قلبه بقدر الإمكان . كنت أبقى بجانبه إلى ساعات متأخرة من الليل تارة نتحدث عن أشياء وتارة عن أشياء أخرى كنا نتشاور فى الطقس والرياح وحساب المسافة التى تم قطعها والباقية للوصول إلى الإسكندرية وكان عندما يسمعنى أتحدث عن المستقبل بهذه الثقة المطلقة كان يحس بالاطمئنان وكانت أفكاره السوداء تتلاشى تدريجيا .

تركت مجلسه فى حوالى الساعة الواحدة صباحاً سائلاً أحد مماليكه الذين أثق فيهم وفى إخلاصهم لى أن يقول لى مهما كان الثمن إذا لاحظ أى تغير حتى ولو كان بسيطا يستجد على سيده .

مضت هذه الليلة فى هدوء ، وفى صباح اليوم التالى كانت الرياح دائما فى صفنا تهب على أشرعتنا ، وكنا نقترب أكثر فأكثر من الإسكندرية. دخلت إلى إبراهيم وقابلنى بنظرة كفيلة بأن تبعث فى نفسى الاطمئنان أمضيت معه كل فترة الصباح ، أدخل وأخرج بأية حجة أتبادل معه الحديث فى أى موضوع كنت أجد أنه يصلح للترفيه عنه . كان حسن باشا يراقب تحركاتى بنظرات يغلفها القلق والتساؤل وفى كل مرة كنت أقول له : «إن كل شئ على ما يرام» . وفى كل مرة كان الرجل المسكين يعود إلى حساباته حيث كان قد تفرغ للتنجيم وقراءة الطالع يسأل القدر عن مصير إبراهيم، وذلك بطريقة يقوم فيها بإلقاء بعض الأحجار الصغيرة على الورق بشكل عشوائى ثم يقوم بجمعها متبعا بعض القواعد المركبة بناء على أخرى تؤدى فى النهاية إلى الكشف عن المستقبل، وكانت حرفته هذه تقول إن إبراهيم سيموت وهو ينزف الدم وأنه لن يحكم سوى اثنين وسبعين يوماً.

فى المساء كنت قد اطمأننت تماماً كما أن الرياح كانت دائماً وأبداً وبشكل منتظم مستمرة فى الهبوب يوم ١٤ سبتمبر ١٨٤٨، رأينا فنار الإسكندرية . وبعد ساعة كان القبطان شرين بك قد ظهر على متن السفينة وكنت أتناقش معه . كل شئ كان هادئاً، كان الموظفون قد تجمعوا فى قصر رأس التين من أجل استقبال الوالى الجديد .

حملت هذه الأنباء إلى إبراهيم الذى كان لا يزال راقداً على فراشه ثم انصرفت إلى حجرتى ونمت نوما عميقاً وأنا بكامل ثيابى ، هذا وقد ظهرت علىّ ردود أفعال الموقف الذى مررت به وأنه أصابنى بالإجهاد وبعض من الشعور بالاضطراب .

فى صباح اليوم الثانى سافرنا إلى القاهرة على متن سفينة بخارية ولحق بنا كبار الشخصيات فى سفينة أخرى. مكث إبراهيم فى قصر النيل لبعض من الوقت حيث كان يشغل غرفة صغيرة بسبب عودة حالة تقيؤ الدم إليه. كنت أريد الكتابة للطبيب لاليمان LALLEMAND ولكنه رفض.

وبعد بضعة أيام ترك قصر النيل متجهاً للإقامة فى القلعة حيث شغل قصر الحرملك الذى أصبح فيما بعد مقرا لنظارة الحربية ورجعت أنا من أجل العمل بجواره كممرض وحاجب وأمين سر وكل شئ، وكان أخى مساعداً لى . سارت الأمور كما كانت فى الأيام العادية ولكننى كنت ألاحظ قلق كبار الشخصيات وهم يستفسرون عن حقيقة حالة الوالى الصحية.

الفرحة بالمرض

وأمام كل خبر غير سار عن صحته كنت أرى على وجه السائل علامات السرور ترتسم فى الحال . كان إبراهيم مهاباً

يخشاه الجميع وكانت سمعته وما يعرف عنه من قسوة ووحشية وصلت إلى حد جعل معه مشاعر الفرحة بمرضه الأخير ترتسم على الوجوه بشكل واضح تماماً وكنا أنا وأخي نحس بالاشمئزاز وكان الشخص الوحيد الذي لم يتركه عباس للحظة واحدة هو قبطان بك CAPTAN مملوكه. وفي أثناء مرحلة المرض الأخيرة التي كانت تنال دون هوادة من إبراهيم استغل عباس بعض لحظات الهدنة التي أخذها الوالي الجديد من المرض ليطلب منه الإذن بالسفر إلى الحجاز.

كان عباس يخشى بوصفه خليفة إبراهيم المنتظر أيه مفاجآت غير سارة، وكان الحذر يحتم عليه أن يظل بعيداً عن متناول يدي عمه المريض . اضطر إبراهيم فيما بعد إلى الانسحاب في جناح الحريم والمكوث به وقرر الكتابة إلى الطبيب لاليمان LALLEMAD لكن كانت مسألة أجر الطبيب تشغله دائماً فاكتفى بتذكيره بوعده بالقدوم إلى مصر لزيارتها

وكان الوحيدان اللذان يسمح لهما بالدخول إليه هما أنا وأخي وبونفور BONFORT وطبيبه الخاص دياماتني DIAMANTI وقبطان بك CAP-TAN.

وعندما كنا ندخل إلى الحرملك كانت تسبقنا تحذيرات الأغاوات بس .. بس (أي البسبسة) لتهرول الحريم الموجودة في الطرقات إلى مقارهن . كانت شقيقته نازلي هانم المعروفة بتاريخها الدامي والشهواني تجلس دائماً إلى جواره على حافة الفراش بينما إبراهيم كعادته كان نائماً على الفراش المفروش على الأرض .

وكنا عند دخولنا تقوم نازلي بالتخفي في منتهى العناية وراء ستارة سوداء كبيرة يحملها اثنان من الأغاوات لتحول بيننا وبينها . ولكنهم نسوا أن المرايا التي تكسو كل حوائط الحجرة ، كانت تعكس صورة وجهها ذي الأنف المحدب الذي يشبه منقار الصقر ، وعندما كانت ترغب في الخروج أثناء وجودنا كنا ننبطح على الأرض وأعيننا تنظر إليها بينما تمر هي وراء الستارة السوداء التي كان الأغاوات يحملونها مفرودة دائماً يتحركون معها كلما تقدمت خطوة إلى الخارج .

الصراع بين الحياة والموت

ثم جاء اليوم الذي أخبرنا فيه الطبيب إن النهاية قد أوشكت واستمرت سكرات الموت مدة ثلاث ساعات كانت هي الصراع الرهيب بين الحياة والموت .لم يغب هذا المشهد عن عيني للحظة أبداً لم يكن إبراهيم قادراً على أن ينطق كلمة واحدة أو حتى حرفاً واحداً كانت فقط شفتاه تتحركان وأستطيع القول إنني كنت أفهم ما يريد من خلال حركة شفتيه.

كلفتني شقيقته نازلي بعد حديث معي من خلال فتحة كالون باب الحريم أن أسأل إبراهيم إذا كان يريد أن يسمح لها بإحضار ابنه مصطفى، رفض في البداية ثم في الساعة الأخيرة من حياته وافق . حضر ستة أشخاص سكرات موت إبراهيم واللحظات الأخيرة من عمره ، أربعة مسيحيين واثنان من المسلمين إلى جانب فراشه كان يقف أخي وإلى جواره بونفور BONFORT ثم ابنه مصطفى ثم قبطان بك عند مؤخرة الفراش ثم الطبيب وأخيراً أنا عند حافة الفراش في مواجهة أخي أقوم بين لحظة وأخرى بإسناد رأس المحتضر . تنقل إبراهيم بنظراته ببطء بيننا لكن عندما وصل بنظراته إلى ابنه أغمض عينيه وكان الألم يعتصر قلبه لأنه سيتركه لمصير مجهول ، ثم توقف بنظره لثوان عند قبطان بك CAPTAN وكانت نظرته الأخيرة لي في يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٤٨.

بناء على نصيحة الطبيب انسحبنا جميعا وتركناه لعناية الحريم وشقيقته . كانت الساعة الثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل عندما خرجنا من عنده وفي الثانية صباحاً سمعنا صرخات مدوية ، أكانت صرخات ألم ؟ أشك. كانت صرخات الحريم اللاتي كن ينتظرن لحظة خلاصه من آلامه كما كنا نحن في الخارج ننتظر . أرسلت كما كان من المنتظر أن أفعل فارساً إلى كياميل باشا لأخبره . سرعان ما انتشر الخبر كنت أظن أن كبار رجال الدولة سوف يهرعون ويتسابقون من أجل المجئ للعزاء ، لكن يبدو أني أخطأت التقدير فلم يهرع أحد ولم يتسابق أحد للمجئ ، بل لم يزعج أحد نفسه . صحيح ما الضرورة حتى يزعجوا أنفسهم ويقطعون نومهم ؟ إن من كانوا يرهبونه لم يعد هنا . تذكرت في هذه اللحظة حسن بك وحساباته الفلكية على متن السفينة التي جلبتنا من القسطنطينية، كانت حساباته هذه في منتهى الدقة توفى إبراهيم في تمام اليوم الثاني والسبعين بعد وصولنا إلى الإسكندرية.

في الساعة السابعة صباحاً وصل كياميل باشا ثم شريف باشا وسامي باشا ودخلوا جميعا إلى الحجرة التي كنت أشغلها في مواجهة السلم واكتظ الدور المسحور الكبير في القصر بالكثير من الناس ، ولكن ما كل علامات الرضا هذه التي كانت تكسو الوجوه ؟ وما كل هذه الأحاديث التي انطلقت مرة واحدة وبصوت عال كما لو كنا في ميدان عام حتى أن كياميل باشا قال لي : «إنك الوحيد الذي أرى عينيه قد احمرت أنت الوحيد الذي بكيت» .

لا ! في الحقيقة لم أبك يجب أن أعترف ، بل كنت منهكا بدنياً ونفسياً لدرجة أنني لم أكن قادراً على الإفصاح عن أية أحاسيس . لكن هذه السعادة التي كانت تكسو وجوه هذا الجمع المتواجد في الدور المسحور ، هذا المكان الهائل الاتساع الذي كاد ينهار تحت وطأة كل هذه الأقدام أثارت في داخلي إحساساً غريباً لا وصف له.

في الوقت الذي كان فيه كبار الموظفين يجلسون في حجرتي في منتهى الهدوء كما لو كانوا في يوم عادي ينادون على عبيدهم ليجلبوا لهم الغليون ، جاء بعض الأشخاص يخبروننا أن النعش كان عند مدخل القصر كان فعلاً زحاماً رهيباً هرج ومرج صاخب ، أناس يهبطون وغيرهم يصعدون الدرجات في فوضى تشبه من يصطحب موكب عروس سعيد ، لا أناس يستعدون للسير وراء جنازة . نزل الناس من القلعة كمن يتسابقون للوصول إلى خط النهاية بخطوات سريعة وعند المنعطف الأول والمؤدي إلى شارع الموسكي .

ركب العديد من كبار رجال الدولة خيولهم تاركين الموكب حتى أنهم لم يحاولوا ذلك في الخفاء وتبعهم في ذلك مساعدوهم وعند المنعطف الثاني المؤدي إلى مسجد السلطان حسن انصرف الموظفون من الموكب أما من بقي من الجنازة ومن وصلوا إلى مدافن الأسرة كانوا الفلاحين حاملي النعش على أكتافهم ووراءهم عربة تبكي بداخلها نساء الأسرة . حمل النعش بشكل سريع إلى المدافن كان مشهداً قاتماً وحزيناً تغلفه الوقاحة والانحطاط لأن هذه كانت نهاية الرجل الذي ارتجف أمامه السلطان محمود على عرشه ولم ينقذه سوى تحالف القوى العظمى الأوروبية ضد إبراهيم وأوقفته على مشارف القسطنطينية التي كان شعبها المبهور به يدعو له بخالص الأمنيات. ■



ياسر عرفات ومشاهد ثلاثة

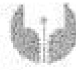
بقلم
مصطفى نبيل

ليس هذا حديثنا عن الماضى، بل هو حديث حول المستقبل، وليس حديثنا عن الزعيم الراحل ياسر عرفات، ولكنه عن فقيد الشعب الفلسطينى.

وهو ليس حديثا عن الأسطورة، ولكنه حديث عن الرمز، فالظروف التى صنعت «أبو عمار» تصنع العديد من أمثاله.

وحان الوقت للانتقال من سلطة الرمز إلى سلطة المؤسسة .

إنها بعض المشاهد والذكريات، تلقى الضوء على بعض الجوانب التى مازال يكتنفها بعض الغموض.



مشهد (١) خريف ١٩٥١ :
معسكر تدريب جامعة فؤاد الأول

قابلت ياسر عرفات أول مرة فى معسكر تدريب بجامعة فؤاد الأول «القاهرة حاليا» ، عندما كان يتولى تدريب الطلاب على ما يطلق عليه «التكتيك العنيف»، وهو المعسكر الذى تدفق عليه المتطوعون من الشباب.

وكان عرفات يملأ المعسكر بصوته العالى وإيقاعه السريع المتلىء حماساً، يأمر ويحرض، وتدب الحيوية فى المعسكر عند وصوله، وأيامها كان طالباً فى كلية الهندسة، يقود الطابور الذى يتولى تدريبه، إلى أعمال خطيرة، يحرضهم على القفز من أماكن عالية، وعلى اقتحام حلقة من النيران، ولا يقبل التردد من أحد.

وكان ضمن مجموعة من الشباب الذين سبق لهم الاشتراك فى حرب فلسطين، تتولى تدريب كتائب الجامعة، ثم تصحبهم إلى الجبهة والاشتراك فى معارك القتال.

وعلى الرغم من أهمية هذا المعسكر ، إلا أنه لم يلق العناية الكافية من المؤرخين الذين سجلوا تاريخ هذه الفترة، وقد أقيم هذا المعسكر، بعد إلغاء الزعيم مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦، فأطلقت طاقات الأمة التى أمسكت بهذه اللحظة التاريخية، ويرجع الفضل فى إقامة هذا المعسكر إلى مدير



لم يهن إيمانه بالله وبعدالة قضيته يوما



عرفات مع الشاعر الفلسطينى توفيق زياد



الجامعة الدكتور عبدالوهاب مورو، الذى اشترط ضرورة استقلاله عن كافة الأحزاب السياسية، وسرعان ما أقيم فى فضاء كلية العلوم، مكان قسم النبات الحالى، وقاده حسن روح طالب كلية الحقوق الذى فقد إحدى رئتيه ، عندما كان متطوعاً فى حرب فلسطين.

وكان يساهم مع ياسر عرفات فى التدريب عمر شاهين الطالب في كلية الآداب، وأحمد المنيسى، وحسن الشافعي، وعبدالرحمن البنان، ويوسف على يوسف، وعلى صديق.. وغيرهم.

يختفى المدربون، ويشتركون فى القتال، ثم يعودون، ولم يعد عمر شاهين وأحمد المنيسى، بعد معركة التل الكبير فى ١٣ يناير ١٩٥٢، اللذان سقطا من أجل تحرير الوطن فى ذات المكان الذى وقف فيه الزعيم أحمد عرابي يقاوم جيش الاحتلال البريطانى.

تدفق على قتال المحتل الشباب من كل الاتجاهات. وهى فترة قصيرة ، غيرت تاريخ مصر، وتركت علامة بارزة فى تاريخ فلسطين، وهى لا تتجاوز أربعة أشهر، فبدأت فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ وانتهت بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢.

ارتفع خلالها الكفاح المسلح، وتلقت مصر كلها إلغاء المعاهدة بفرح بالغ وحماسة كبيرة، وأقيمت معسكرات التدريب، وتكونت كتائب الفدائيين، وتطوع عدد من الضباط الأحرار لتدريب الفدائيين، منهم عزيز المصرى وصالح حرب، والجيل اللاحق جمال عبدالناصر وكمال رفعت ووجيه أباظة وغيرهم.

***

من يومها لم تنقطع صلتى بياسر عرفات، الذى كثيراً ما التقيت به فى أوساط الطلبة العرب، واشترك كضابط احتياط فى مواجهة العدوان الثلاثى، وكان من أوائل الذين دخلوا بورسعيد عام ١٩٥٦.

ورأس خلال هذه الفترة اتحاد طلبة فلسطين، أول كيان يقوم على أساس انتخابات حرة، واشترك معه فى مجلس إدارة الاتحاد صلاح خلف «أبو إياد» وفاروق القدومى «أبو اللطف» وخليل الوزير «أبو جهاد»، وهى الخميرة التى تكونت فى أجواء الثورة فى القاهرة، وقاد جيل جديد العمل الوطنى الفلسطينى، وهى المجموعة التى شكلت حركة «فتح» فى دول الخليج بعد ذلك.

وكان يحرص على استقلاله ويتجنب خلال عمله الانضمام إلى أى حزب سياسى، ويردد: كل الثورات التى قامت فى فلسطين وئدت فى العواصم العربية، ويحرص على استقلال العمل الفلسطينى.ومن أوراقي القديمة يروى لى صلاح خلف «أبو إياد» ذكرياته عن هذه الفترة قائلا:



دائما كان يحمل سلاحه ، يرنو إلى المستقبل ، يحدوه الأمل أن يرفع شبل من أشبال فلسطين أو زهرة من زهراتها علم فلسطين على « القدس »



«أسرني ياسر عرفات خلال رئاسته لاتحاد طلبة فلسطين ، بطاقة ونشاط وحماسة كبيرة، وتمتعه بطاقة روحية تبث الحماس في كل من حوله، كما جذبني إليه ذكاء ونشاط لا يتوقف، وقد احتفظ بمكانته رئيسا للاتحاد حتى نهاية دراسته الجامعية سنة ١٩٥٦».

مشهد (٢) صيف ١٩٦٨ فى غور الأردن

كان لقائى مع ياسر عرفات فى الأردن عقب معركة الكرامة، وبعد إعلانه متحدثا رسميا لحركة فتح، تنقلنا معا فى الأغوار وهو يتفقد القواعد التى انتشرت بعد تدفق الشباب للانضمام إلى العمل الفدائى الفلسطينى.

لم يختلف ياسر عرفات سنة ١٩٦٨ عن ذلك الشباب الذى يمتلىء حماساً وحيوية فى معسكر الجامعة سنة ١٩٥١.

وبعد احتلال إسرائيل أراضى ثلاث دول عربية، تعلقت أنظار الجميع بالعمل الفدائى، حتى يسد الفراغ ويعيد الأمل، وحتى تسترد الجيوش العربية عافيتها.

استقبلنى ياسر عرفات بترحيب، وكتبت يومها فى المصور ٢٤ مايو ١٩٦٨، .. إن بقعة الضوء التى بدأت لابد أن تتسع، ومطلوب من الجميع أن يساهم فى اتساعها، ومازلت أذكر عددا من قادة المقاومة الذين صاحبوا عرفات فى جولاته، الرائد خالد وهانى الحسن، وثالثا قدمه باسم أبو الفهود أحد الخبراء العسكريين، وتبينت بعد نشر صورته أنه فهد الأحمد شقيق الشيخ جابر الأحمد أمير الكويت.

وحضرت تتويج الشاب صاحب الحيوية الدافقة، والذى عرفته فى معسكر الجامعة فى القاهرة، والذى اشترك فى حرب السويس عام ١٩٥٦، قائداً للكفاح المسلح، وهو أول من استخدم اسمه الحقيقى، فى حركة فتح التى دأبت على استخدام الأسماء الحركية.

وخلال هذا اللقاء التقطت له أول صورة بالألوان ، نشرت غلافاً للمصور.. وكان مزهوا بالصمود الذى تحقق فى معركة الكرامة، والتى اشترك فيها الفدائيون مع قوات الجيش الأردنى، وصدت هذه القوات تقدم جيش الاحتلال الإسرائيلى، وكانت كل من معركة الكرامة وقبلها معركة رأس العش، بداية الإفاقة وإعلان قبول التحدى.

وأصبحت معركة الكرامة، محطة مميزة، فقد وقعت هذه المعركة بعد تسعة شهور من هزيمة يونيو ١٩٦٧، بدأ الهجوم الإسرائيلى فى الصباح، واستمر طوال اليوم، بعدها برز اسم عرفات، وأطلق على قواته العمل الفدائى أو الثورة الفلسطينية أو الكفاح المسلح، وسيطرت فتح بعدها على منظمة التحرير الفلسطينية، ومن يومها أصبح «أبو عمار» الرمز الذى يصعب فصله عن



مع عبد الناصر فى الطريق إلى مؤتمر القمة العربى الخامس فى الرباط - ١٩٦٩

قضيته.

وفى أوراقى بعض خفايا ووقائع هذه المعركة، التى حرص رواتها على أن تظل خافية، وعلمت أيامها أن غازى عربيات رئيس المخابرات الأردنية، أبلغ كلا من ياسر عرفات وصلاح خلف معلومات من مصادر أمريكية، تفيد أن القوات الإسرائيلية سوف تشن فى غضون بضعة أيام هجوماً على قواعد المقاومة فى غور الأردن.. وانتقل عرفات وخلف بعدها للقاء رئيس أركان الجيش الأردنى اللواء عامر خماش.. الذى أبلغهما أن الهجوم الإسرائيلى سيتم خلال الأيام الثلاثة المقبلة، واقترح سحب الفدائيين من غور الأردن.

وأصر عرفات على المواجهة، وعند الهجوم أمر اللواء مشهور حديثه القوات الأردنية بالتصدى للعدوان، خوفاً من أن تسيطر القوات الإسرائيلية على الكرامة ذات الموقع الاستراتيجى.

وكانت المعركة التى خرج من أتونها الكفاح المسلح قوياً، وظهر جيل جديد من القادة.

وعرفته أكثر بينما كنت أحاوره، وأصاحبه فى العديد من جولاته.

اختار «الحطة والعقال» رمزاً لأبناء الشعب الفلسطينى، ينام على الأرض بملابس الميدان عندما تنتهى جولته، ويأخذ منه التعب، سواء فى أحد الكهوف أو تحت إحدى الأشجار، أو فى خيمة فى أحد المعسكرات، لا ينام سوى ساعات قليلة، ويقضى يومه كله فى



حركة دائبة، يمتلك موهبة القـيـادة، فلسطين هي محـور حيـاته، فليس له حياة أو اهتمامات خاصة، يأكل مع العناصر في القواعد مما يأكلون، ويفـتـرش الأرض مـثلهم، يستـمع إليهم ويرفع معنوياتهم، يدخل عليه الزوار في مقره من الشخصيات المختلفة، وهو يستريح أو يأكل أو يعمل، يعطي كل واحد منهم اهتمامـاً خاصـاً، يشرب مع عناصره الشاي في معلبات من الصفيح، لا يكف عن العمل والحركة، يلتـقط الأفكار الجـديدة، ويحـتـفي بالمبادرات التي تطرحها قواعده، له نظرة ثاقبـة للأفـراد الذين يتـعامل مـعـهم، يستطيع أن يحدد العمل الذي يصلح له كل منهم، ويكلف كل واحـد بما يتـلاءم وطبعه، والعمل النضالي عنده متعدد الوجـوه، فـأدرك أهمـيـة المعلومـات والإعلام، يعمل هو ورفاقه على إقامة جـهـاز كفء يوفـر له أدق المعلومـات، وأدرك أهمـيـة الإعـلام وهو إعـلامي من الطـراز الأول، يدرك دور الإعــلام في كسب التـأييـد لقـضـيـتـه، ينفـر من السـيـاسـيين المحـترفين، الذين يتقنون الكلام ويأنفون من العمل، يتعذر حمله على الالتزام بأي قـاعدة، فـهو حريص على أن يملك إمكانيـة المناورة، جـعلتـه تجربته يتخلى بحس عميق عن الكثير من الأفكار السائدة في الستينات، ولا يهمه صفات مثل اليمين أو اليسار، أو طبيعة النظام سـواء كانت ملكية أو جـمـهورية، ولكنه يؤيد كل من يقدم المعونة للقضية الفلسطينيـة، لا يدغل في النظريات أو الفلسـفات، وليست له بقـرات مـقـدسـة، يقـوده الواقع ويتـعلم منه، ويسـتلهم من خلاله طريقة العمل ومنهجه، يمتلك موهبة القيادة، وأجمع رفاقه على اختياره قائداً لهم. لديه القـدرة على التـفكيـر العلمي، وكـأي زعيم مـوهوب يعـرف مـتى تحين اللحظة المناسـبـة، التي يسـتـغلهـا إلى أقصى الحدود.

يبدو شـخـصية بسيطة، ولا يخدعك مظهره، فهو شـخـصية مركبة أكثر مما يبدو، لحديثه مستويات متعددة، مع كل حسب خلفيته وثقافته، أدهشني عندما تحـدث في المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في عمان بعد قبول مبادرة روجرز، وما أثارته من انقسام، وقدراته الكبـيـرة خـلال اتصـالاته مع القـوى السياسـيـة المختلفة خـلال وجوده في لبنان. كثيرا ما يكون مثل الزئبق الذي لا يقدر أحد على الإمساك به.

أبدى اهتمامـاً خاصـاً بحكاية رويتها له، عن فتوات الحسينية، عندما يواجهون خطراً لا يقـدرون عليـه، فـيلجـأون إلى النزول إلى المعركة وهم عرايا مدهونين بالزيت فلا يتمكن أحد من الإمساك بهم، يضربون ويختفون!

يشـعـر كل من يلتقي به أن له مكانة خـاصـة، يثـور وينفـعل أحـيـانا ولكن سرعان ما يهدأ، عاطفي أحيانا وعقلاني



الرئيس مبارك فى لقائه برموز القضية الفلسطينية إبان أزمة الاجتياح الإسرائيلى للجنوب اللبنانى فى١٩٨٢

أغلب الأحيان.

وهذا بعض ما سجلته فى المصور عقب إحدى الجولات.. «إن حركة المقاومة الفلسطينية هى فى حقيقتها معكوس الحركة الصهيونية، استفادت من تجاربها، وتعلمت من أساليبها».

وقلت «من أنات الهائمين، ومن نظرات اليأس فى العيون، ومن الدموع الحبيسة، ومن صرخات الذين داخل المأساة، من الظلام المنتشر، ومن أحلام طويلة بالديار والبيارات وشجر البرتقال والزيتون، ومن الاحساس العميق بأنه من الخير أن تحمل شمعة مضيئة فى الظلام بدلا من أن تسب الظلام، من أحاسيس اليأس الكبير لمع الأمل وتعلق به الجميع.

فبعد عدوان ٥ يونيو تصور العدو أن الشعب الفلسطيني سقط نهائيا فريسة اليأس، فإذا بحفنة من الرجال تمزق الأسطورة وتبدأ الكفاح المسلح» (المصور يناير ٦٨).

ولا يخفى على أحد، أن آلة الإعلام الأمريكية الإسرائيلية، تجيد صناعة وأساليب اغتيال الشخصية، عن طريق اختلاق الأكاذيب، وترويج الشائعات، ورسم صورة إعلامية مشوهة لمن يسعون إلى اغتياله، وهذا بالضبط ما عملوه مع عرفات.. وطاش سعيهم، وطارد عرفات شارون حيا وميتا.

واهتز العالم عند رحيله، وتأكدت زعامته لشعبه وتقدير العالم لكفاحه، وظلت كلماته حول شعب الجبارين،



والجبل الذى لا يهزه الريح فى ضمير شعبه.

مشهد (٣) بيـــروت فى الثمانينات

لم يعد الأمر كما كان، الانتقال من الداخل إلى الخارج، بل أصبح الانتقال من الخارج إلى الداخل.

وبعد تراكم الأخطاء المتبادلة وبعد المنافسة بين التنظيمات الفدائية فى الأردن، وقع الصدام بين المقاومة والسلطات الأردنية وخرجت المقاومة من الأردن وتوجهت إلى لبنان، الجسم الذى تصورته الكثير من الأطراف العربية، الجسم الرخو، والذى أكدت الأحداث أنه أكثر الأجسام العربية صلابة.

ذهبت للقاء ياسر عرفات فى بيروت، وللحق كان الرجل كريماً، استقبلنى على الفور، وكثيراً ما شاهدت جوانب من اجتماعات مهمة.

قطعت السيارة حواجز التفتيش وسط البرد والرعد فى يوم مطير عاصف، توقفت أمام إحدى البنايات المتواضعة فى حى الفكهانى، وظهر فى الظلام مسلحون يتأكدون من هوياتنا.

رأيت «الاختيار» وقد زاد وزنه، ومازالت حيوية الشباب، يجمع بين ملامح الذكاء والصلابة والعناد.

كان هذا اللقاء قبل نحو عامين من اشتعال انتفاضة الحجارة، وكانت المقاومة فى حالة اشتباك مع الاحتلال الإسرائيلى فى الجنوب.

ورغم كل الظروف الصعبة، شاهدت جانبا من اجتماع مع خليل الوزير «أبو جهاد» مع رجاله العاملين فيما يطلق عليه «القطاع الغربى»، ولم أدرك فى حينها مدى خطورة وأهمية الحديث، الذى كان يدور حول العمل على إقامة البنية التحتية للمجتمع المدنى فى كل من الضفة والقطاع.

وها فى القيادة الفلسطينية رغم ما تعيشه من مشاكل وفى هذه الظروف الصعبة، يشغلها المستقبل.

وعدت أتذكر عندما قامت الانتفاضة تفاصيل الجلسة التى حضرتها فى بيروت.

استمعت إلى متابعة العمل لإقامة شبكة من الاتصالات والتنظيمات داخل المجتمع الأهلى الفلسطينى، وحتى لا يعتمد الأهالى على إسرائيل، يحددون أدواراً وبرامج للجمعيات والاتحادات والمحليات والعائلات فى المناطق المختلفة والبحث عن وسائل الدعم المختلفة، وتنشيط العمل بالشبيبة والمرأة.. وأمدتنى هذه الجلسة بمغزى الأحداث التى وقعت، وما خفى من جبل الثلج الذى ظهرت قمته فى الانتفاضة من ١٩٨٧ حتى ١٩٩٣.

يدور الحديث عن أن العمل الفلسطينى سينجح عندما يسكن قلوب وضمائر أبناء الشعب، وحتى يكون اكتشافا للذات واستردادا لقدرتها (كما

ياسر عرفات على غلاف مجلة «المصور» وهو في غور الأردن عقب معركة الكرامة ١٩٦٨، وبعد إعلانه متحدثا رسميا لحركة فتح



جاء على لسان عرفات)، وتوفير ما يحتاجه المجتمع الفلسطيني، والهدف هو إنشاء البنية التحتية وليس مجرد مقاومة الاحتلال.

وظهرت فكرة ضرورة قيام لجان شعبية محلية، تستوعب كل القوى، فلم تستوعب التنظيمات السياسية الجميع، والنقابات المهنية والعمالية وتفاعل أعضائها، ويفرض الواقع العملي قيام لجان تتسع للجميع في كل القرى والمدن.

وكلف «أبو جهاد» بتحويل الأموال لتحويل نشاط جمعيات خيرية ومؤسسات تعليمية، ومن أجل إقامة اللجان الشعبية.

ويذكر بعدها بسنوات المحلل الإسرائيلي زئيف شيف «إن منظمة التحرير حولت خلال الفترة ما بين ١٩٧٧ و١٩٨٥، ما قيمته نصف مليار دولار، وهي الأموال التي ساهمت في إقامة بنية تحتية في الضفة والقطاع».

وأعادت الانتفاضة، منظمة التحرير الفلسطينية إلى خريطة السياسة الدولية، والتي نكتشف خلال لقاء بيروت أنها نتيجة تخطيط محكم وعمل دءوب قام به أبوجهاد وصحبه، وتوزعت لجنة التنظيم ٧٧ ورجال القطاع الغربي يقيمون شبكة اتصال، وينسجون خيوط العمل حتى يصبح الداخل هو ساحة الصراع الحاسم.

لذا اغتالت أبوجهاد يد الغدر، واستخدمت «الإرهاب» في مواجهة عمل سلمي مشروع، وسبق هذا العمل، بعد هزيمة يونيو، أن دخل ياسر عرفات تحت اسم مستعار هو الدكتور فوزي الحسيني، وتنقل بين القدس ورام الله، وأقام عدداً من خلايا المتطوعين.

ثم انتقل إلى الأردن في مسيرة طويلة انتهت في رام الله.

قبض الريح

وبقي الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة عقدين من الزمان بعد الاحتلال في يونيو ١٩٦٧، ولم يطلق طلقة ولم يرم حجرا، منتظراً إنهاء الاحتلال، ولم يحصد سوى قبض الريح، مع المعاناة والمهانة والبؤس.

وتعلم الأهالي أن مسئولية مستقبلهم تقع عليهم وحدهم، وأن مصيرهم معلق بعزمهم وقدرتهم، وقامت الانتفاضة، وكأن جمرة لسعت الشعب الفلسطيني في كل مكان، وحققت الوحدة على أرض الواقع، وانتزعت الخوف من القلوب، وكشفت الوجه القبيح للصهيونية، وقامت القيادة الموحدة والمتجددة، فإذا اعتقل أحد هذه القيادات ظهر بديله، وأقيمت قيادة محلية في ٤٢٠ قرية فلسطينية.

وبرز من جديد أنه لا فكاك من مواجهة القضية الفلسطينية، مما دفع شلومو أفنيري إلى القول: «إن إسرائيل

تتعلم أن القوة المادية لها حدود، وأنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولكن لا يمكن هزيمة يد غير مسلحة، ويكتشف الجندى الإسرائيلي، كيف تتحول قوة الضعيف إلى أداة تغيير الواقع، إنها حرب لا تنتهى بحجم السلاح ونوعيته».



الشهيد « أبو جهاد » . رفيق درب عرفات مع أسرته

وهزت الانتفاضة إسرائيل، وتأكد لدى العديد من الإسرائيليين، أنه لا مفر من العودة إلى خطوط البداية للصراع، وكسر أبو عمار بواسطة الانتفاضة الوضع الفلسطيني، وأخذ الفلسطينيون زمام المبادرة.

ومازالت إسرائيل أمام معضلة، فإما أن تعلن ضم الأراضي المحتلة، مما سيؤدى إلى قيام دولة غير يهودية بحكم الكثافة السكانية ومعدل المواليد لدى الفلسطينيين.

وأدت الانتفاضة إلى مدريد ثم أوسلو، ثم عودة منظمة التحرير إلى أرض فلسطين.

نعم.. أمسك عرفات بكل الخيوط، ولم يسمح لأحد سواه أن يتحدث باسم الشعب الفلسطيني، مدركا لعبة الاحتلال، فرق تسد، وبحثه الدائم عن طرف آخر يقبل ما ترفضه الحركة الوطنية الفلسطينية، ولديه اعتقاد عميق أنه ضمان حصول الشعب الفلسطيني على حقوقه.

نعم.. لا يجوز اختصار شعب في شخص الزعيم، ولا يمكن تحجيم وطن في مسيرة رجل، حتى لو كان ياسر عرفات الذى توحد مع آلام فلسطين وأصبح رمزاً لشعبه، أمضى سنوات ثلاث تحت حصار الاحتلال الإسرائيلي، بعد رفضه للإملاءات الإسرائيلية.

حقا.. عرفات مثل فلسطين قد يرحل ولكنه لن يموت ! ■

الإسلام

بين الشرق والغرب

د. «علي عزت بيجوفيتش»

بقلم

محمد يوسف عدس

هذا كتاب فريد في طرازه ومذاقه ومنهجه فريد في ظروف تأليفه ونشره واستقبال القراء له ومؤلف هذا الكتاب كان رئيسا لجمهورية البوسنة والهرسك في أحلك فترة وأخطرها في تاريخ هذه البلاد، فقد تعرضت لعدوان عنصري وحرب إبادة لم تشهد أوروبا له نظير بعد الحرب العالمية الثانية. قاد شعبه في الحرب ببسالة نادرة وصمود مذهل حتى أبلغه شاطئ الحرية والسلام، ولم يمكث بعد ذلك طويلا لينعم بثمرات جهاده ويخلع على نفسه ألقاب البطولة والقداسة كما فعل غيره من الزعماء وإنما استقال من منصبه فلم يكمل ولايته الثانية وعاد ليكتب عن تجربته وفكره من جديد، اتسمت حياته السياسية ورئاسته بالزهد والتواضع ونزاهة اليد وطهارة القلب، لم ينتقم من خصومه ولا أعدائه الذين أودعوه السجن ولفقوا له التهم في عهد سابق، وكان بعضهم لايزال في وظيفته أثناء حكم عزت بيجوفيتش، كان مع زهده وتواضعه شجاعا قوي العزيمة قوي الحجة والمنطق دافع عن حق شعبه في الحياة والحرية أمام المحافل الدولية وصفه المراقبون أنه كان ندا شامخا لكل من حاوره أو فاوضه من زعماء العالم وقادة الدول.

في صحبة هذا الكاتب نجد أنفسنا أمام شخصية متعددة الجوانب والمواهب بالغة الثراء، شخصية متفردة في سيرتها وجهادها وسماتها الخلقية وكتابات هذا المؤلف كلها تعبر أصدق تعبير عن فكره الحر ومواقفه الشجاعة ومن ثم كانت كتاباته مصدر محنة وبلاء متصلين، وقد بدأت محنته مبكرا وهو لايزال شابا في العشرين من عمره عندما استولى الشيوعيون على السلطة في يوغسلافيا في نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، فقد شرع كتابهم يشنون حملة عدائية ضد الإسلام تمهيدا لإحلال العقيدة الشيوعية مكان الأديان في دولتهم ورأى عزت بيجوفيتش كيف يهاجم الإسلام عن جهل وسوء قصد فتصدى للدفاع عنه بقوة العارف الواثق الشجاع ومن ذلك الوقت فصاعدا أصبح علي عزت من سجناء الرأي في النظام الشيوعي ليس «كتاب الإسلام بين الشرق والغرب» كتابا بسيطا يمكن للقارئ أن يتناوله مسترخيا أو يقتحمه من أي موضع فيقرأ صفحة هنا وصفحة هناك ثم يظن أنه قد فهم شيئاً إنما على القارئ الجاد أن يحتشد له ويتهيأ للدخول في عالم فكري واضح الثراء متميز بمنهج تحليلي دقيق، فالمؤلف يضع كل فكرة تحت مجهره الفاحص، وهو في ذلك دائب السعي للوصول إلى حقائق الأشياء وجوهرها والكتاب إلى جانب ذلك يتمتع بأسلوب آخاذ وقوة منطق تعكس ثقافة مؤلفه العميقة فمؤلف الكتاب متمكن من الثقافتين الإسلامية والغربية معا ولا ننسى أنه



علي عزت بيجوفيتش

أوروبي بالمولد والنشأة والتعليم، ساعدته قدراته اللغوية أن ينفذ إلى أعماق الفكر الغربي في لغاته الأصلية الألمانية والإنجليزية والفرنسية إلى جانب لغته البوسنية .

مفكر إسلامي شامخ

الذين قرأوا لعلي عزت أدركوا أنهم أمام مفكر إسلامي من طراز جديد غير مألوف ولأن مثل هذا الطراز المتميز من المؤلفين يستفز بقوة فكره ونفاذ منطقه عقول القراء ويحرك وجداناتهم فقد رأينا أن قراءه ينتمون إلى ثلاث فئات . الأولى تمثل عشاق الفكر الإسلامي المستنير، هؤلاء وهم كثر استطاعوا أن يتوحدوا مع المؤلف وأن يستمتعوا بفكره المبدع ومنطقه الآخاذ وتمثل الفئة الثانية – وهم قلة لايزالون في مرحلة انعدام الوزن بعد أن طرحوا عن أنفسهم الفكر المادي، هؤلاء تلقفوا الكتاب بسعادة غامرة ودهشة لأن الكتاب – كما ذكر أحدهم استطاع أن يجيب على جميع الأسئلة التي كانت حائرة في عقله، وقال آخر أن قراءة هذا الكتاب وفرت على سنوات من الضياع والتيه .

أما الفئة الثالثة – الله وحده يعلم عددهم – فقد أفزعهم ظهور هذا الكتاب والدوي الذي ثار حوله في العالم الإسلامي هؤلاء صنف من الناس يسعدهم أن يروا الفكر الإسلامي راكداً هامداً أو «فاترا» لا يحرك عقلا ولا يبعث همة ولا يؤدي إلى عمل فعال، ومن ثم رأينا هنري كيسنجر يتهم الكتاب ظالما مفتريا بالأصولية بل أنه في تصريحاته عن حرب البوسنة يتخذ موقفا عدائيا من الشعب البوسنوي المسلم أما القادة الأوروبيون فقد اتخذوا مواقف عدائية مخزية من هذه القضية، وكان سلوك جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا السابق وفرانسوا ميتران رئيس جمهورية فرنسا السابق – أصدق تعبير وأقوى دليل على ما يكنه هؤلاء القادة من كراهية للإسلام والمسلمين فقد فرض الصرب على الشعب البشناقي المسلم حرب إبادة واستئصال، وساعدهم قادة الغرب في حربهم بحظر التسلح على المسلمين حتى لا يجدوا وسيلة للدفاع الشرعي عن حياتهم ووجودهم ولايشك منصف أن من أكبر بواعث هؤلاء القادة على موقفهم في البوسنة أنهم أيقنوا أن علي عزت – رئيس جمهورية البوسنة وقائد المقاومة فيها – قد أصبح رمزا على صحوة إسلامية في أوروبا لا يريدونها فأطلقوا يد الصرب تستأصل المسلمين في أبشع حرب عنصرية شهدتها أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

هدف المؤلف من الكتاب

يقول علي عزت بيجوفيتش إنه يحاول في هذا الكتاب ترجمة الإسلام إلي اللغة التي يتحدث بها الجيل الجديد ويفهمها وهو يقصد بذلك تقديم الإسلام كعقيدة فكرية بديلة، وذلك من خلال المقارنات والمناقشات العميقة والمستفيضة للأفكار والعقائد التي تهيمن على الحضارة الغربية بشقيها الشيوعي والرأسمالي من جهة، وبصفة خاصة من خلال إبراز طبيعة وآثار الصراع بين النزعة المادية الجارفة والنزعة الدينية المجردة، على الإنسان ومجتمعه في العالم الغربي .

ويظن بعض المعلقين أن الكتاب معني بالقارئ الغربي متجه بخطابه إليه وهذا صحيح إلى حد ما ولكنه ليس صحيحا بإطلاق فهو معني أيضا بأولئك الذين غرقوا في دوامة الانبهار بالحضارة الغربية، وأولئك الذين يقفون منها موقف فرز وانتقاء لا موقف تبعية واستسلام.

ويرى معلقون آخرون – بحق – أن في الكتاب دعوة إسلامية غير مباشرة تستحق الدراسة والتأمل .

ينقسم الكتاب إلى قسمين رئيسيين كل واحد منهما يشتمل على عدد من الفصول، يقع

القسم الأول تحت عنوان. نظرات حول الدين، ويقع القسم الثاني تحت عنوان الإسلام وحدة ثنائية القطب .

الدين المجرد

يشتمل القسم الأول - كما أشرنا على ستة فصول وهى على التوالى الخلق والتطور، الثقافة والحضارة، ظاهرة الفن، الأخلاق، الثقافة والتاريخ، الدراما والطوبيا.

فأين الدين من هذا كله؟ هنا تكمن عبقرية المؤلف وتبدو قدرته التحليلية الفائقة فهو يحفر وراء هذه الأفكار والظواهر المألوفة ليصل فى أعماقها إلى حقائق ونتائج غير مألوفة ولكنها تدهشك ببداهتها وبساطتها حتى لتتعجب كيف غابت عن ذهنك هذه الحقائق البسيطة؟ وتنسى أنك سرت مع المؤلف فى رحلة طويلة من البحث عبر التاريخ وفى أعماق الإنسان والمجتمعات وفى الأساليب المتنوعة التى لجأ إليها الإنسان للتعبير عن صلته بالكون والحياة والمجهول لترى فى النهاية أن هناك وحدة مبدئية بين جذور الفن يؤكد الدين على الخلود والحياة الأخرة وعلى المطلق ويؤكد الفن على الإنسان وفكرة الخلق، وهذه جميعا جوانب مختلفة لحقيقة جوانية واحدة عبر عنها الفن ربما بلغة قاصرة مغلقة بالغموض فتلك طبيعة الفن وقصاراه .

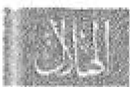
وهو فى هذا يتعارض مع العلم فالعلم معنى بالظواهر، معنى بالحقيقة الموضوعية المادية، بينما يرى الفن أن هذه الحقيقة الموضوعية مجرد وهم، وأن الحقيقة الوحيدة التى يعترف بها هى الإنسان بأشواقه الأبدية وهمومه المأساوية ومحاولته الدائبة استشراف العالم المجهول فى النفس الإنسانية لذلك يرى المؤلف أن الفن الحقيقى والإلحاد لايمكن أن يجتمعا معا لأن الإلحاد لايعترف إلا بالحقيقة المادية فحسب وينكر إنسانية الإنسان وفرديته والفن على عكس ذلك تماما وهو فى هذا يلتقى مع الدين

الحرية والمسئولية والخلق الإلهى :

حرية الاختيار عند على عزت هى جوهر الإنسان وسر وجوده على الأرض ومن ناحية أخرى هى مصدر مأساته الأبدية فعندما خلق الله الإنسان منحه الحرية والمسئولية فى نفس اللحظة، فالحرية والخلق يصدران من مشكاة واحدة، إنهما وجهان لحقيقة واحدة فالإنسان ليس منحدرا من أصل حيوانى خال من الروح، وليس مجرد مادة حية تولد وتموت كما يزعم أصحاب المذاهب المادية، وإنما هو كائن حى حر وحريته هى الدليل القاطع على الألوهية والوحدانية فالله وحده دون سواه هو القادر على أن يخلق كائنا حرا ولا يمكن أن توجد الحرية إلا بفعل الخلق الإلهى، يتحدث على عزت عما يسميه «التمهيد السماوى» وهو سيناريو خلق أدم عليه السلام، حيث جمع الله ذرية أدم كلهم على هيئة يعلمها الله سبحانه، وسألهم ألست بربكم قالوا بلى فى هذا السيناريو الرائع يجمع الله حقائق الخلق والحرية والمسئولية فى لقطة واحدة مبهرة .

إلحاد اليائسين

وكما وصل على عزت فى سياق تحليله للفن إلى الجذور المشتركة بينه وبين الدين فقد فعل نفس الشئ مع فلسفات العدميين والعبثيين والوجوديين الذين انتهوا فى بحثهم إلى أن الحياة لا معنى لها ولا هدف مادام الإنسان يموت إلى الأبد وهى فلسفات تبدو لأول وهلة منقطعة الصلة عن الدين، ولكن المؤلف يكتشف فى أعماقها عناصر دينية فعلى عزت يرى أن العدمية تمرد على الحضارة ذات البعد الواحد التى أخرجت الإنسان من حسابها فلم يعد له مكان فيها فالقلق البدائى والنظر فيما وراء الموت والبحث المضنى عن طريق خارج هذه الضائقة المحيطة كلها هموم مشتركة بين العدمية والدين يقول على عزت أن العدمية ليست إنكارا للألوهية بقدر ما هى احتجاج على غيابها والعدمية عند «بكت» احتجاج على غياب الإنسان أو احتجاج على حقيقة أن الإنسان غير ممكن وغير متحقق هذا الموقف ينطوى على فكرة دينية لافكرة علمية عن



الإنسان وعن العالم، فالعلم يزعم أن الإنسان ممكن ومتحقق ولكننا فى التحليل النهائى نجد أن ما هو متحقق فى نظر العلم شئ لا إنسانية فيه «ثم يمضى قائلاً »: لأن المادية ترفض الغائية فى العالم فإنها تتخلص بذلك من مخاطر العبثية والتفاهة فعالم المادية وإنسانها لهما غايات عملية ووظيفية لتكن وظيفة حيوانية لايهم ويعلق على عزت على عبارة سارتر التى يصف فيها الإنسان بأنه عاطفة تافهة فيقول «إنها عبارة دينية بمنطقها وبروحها معا ... إنها تتضمن أن الإنسان والعالم ليس بينهما تناغم أو تطابق وهذا الموقف المتطرف تجاه العالم المادى كان هو بداية جميع الأديان » ثم يمضى قائلاً . «إن التفاهة عند «سارتر» والعدمية عند «كامى» يفترضان البحث عن هدف ومعنى وهو بحث يختلف عن البحث الدينى فى أنه ينتهى عندهما بالفشل، فالعدمية خيبة أمل بسبب غياب الخير من العالم، فكل شئ تافة وعدم ما دام الإنسان يموت إلى الأبد، إن الفلسفة العدمية تعبر عن القلق، والقلق بجميع درجاته فيما عدا نتيجته هو قلق دينى. الإنسان غريب فى هذا العالم سواء عند العدمية أو فى نظر الدين، والفرق أن العدمية تعتبر الإنسان ضائعا بلا أمل وأما الدين فبه أمل فى الخلاص ».

ويؤكد على عزت أن أفكار «ألبير كامى» لا يمكن فهمها إلا إذا اعتبرنا صاحبها مؤمنا مخيب الرجاء، ويستشهد على ذلك بفقرة مقتبسة من «كامى» يقول فيها «فى عالم خبا فيه الوهم فجأة وانطفأ الضياء يشعر الإنسان بالاغتراب.

هل يمكن قيام أخلاق بلا إله؟

هنا تتجلى قدرة المؤلف التحليلية ومنطقه القوى، حيث ينكشف لنا بعد التحليل وجود عناصر دينية أصيلة فى نسيج الثقافة والفن والأخلاق، بل يرى على عزت أن هذه الموضوعات تدور فى حقيقتها على محور دينى ولا يمكن أن تنفصم عنه، ويرينا كيف أن محاولات بعض الفلاسفة إقامة أخلاق على مبادئ أخرى غير دينية كالنفعة وغيرها قد باءت بالفشل ولذا يتساءل قائلا: هل يمكن وجود أخلاق بلا إله؟ خصوصا وأننا نصادف فى حياتنا اليومية ملحدين على أخلاق ورجال دين لاأخلاق لهم !! ويمضى المؤلف يطوف بنا فى أعماق الفكر الإنسانى وفى تجارب الأمم ماضيها وحاضرها، لنرى أن أشد الأنظمة إلحادا ومادية لم تتمكن من بناء مجتمع ملحد كامل الإلحاد نضرب على ذلك مثلا بالنظم الماركسية التى تقطع مبادؤها عند ماركس ولينين بأن الأخلاق والإنسانية والدين كلها أوهام يجب القضاء عليها، ومع ذلك لم يفلح الماركسيون فى الإلتزام بهذه المبادئ عند التطبيق العملى لأنها تصطدم بجوهر الحياة الإنسانية، وفى ذلك يقول على عزت لقد كان ماركس يستطيع وهو قابع فى مقعده بالمكتبة البريطانية أن يقول بأنه لاوجود للأخلاق ولكن الذين حاولوا تطبيق أفكار ماركس وأن يقيموا مجتمعا على أساسها لم يستطيعوا أن يعلنوا هذا الكلام بنفس السهولة فلكى يقيموا مجتمعا ويحافظوا على بقائه كان عليهم أن يطلبوا من الناس درجة من المثالية ربما أكثر مما طلب أى نبى من قومه باسم الدين ولهذا كان عليهم أن يتناسوا بعض المسلمات المادية الواضحة وهكذا يؤكد على عزت أن الإتحاد وضع موضع الممارسة وهو يحاول بناء مجتمع يضطر صاغرا إلى المحافظة على الأشكال القائمة للأخلاق الاجتماعية ولكنه فى نفس الوقت لايملك الوسيلة لحماية المبدأ الأخلاقى أو الدفاع عنه. إذا وضع موضع التساؤل أو الشك هنالك يبدو الإلحاد عاجزا تماما أمام هجوم دعاة المنفعة أو الأنانية أو للاأخلاقية فعندما يقولون . «إذا كنت سأحيا اليوم فقط وسأموت غدا لامحالة وبلا عودة إلى حياة أخرى فلم لاأعيش اليوم كما يحلو لى بدون قيد أو التزام ما استطعت إلى ذلك سبيلا؟ هنا لا نجد إجابة منطقية عند أصحاب المذاهب المادية والإلحادية وسنجد أن الذى يترسب فى وعى الناس هو المعايير الأخلاقية الموروثة فحسب

وتضطر الدولة الملحدة أن تبقى عليها بدافع الضرورة المحضة».

وهكذا نتتهى إلى نتيجتين الأولى: أن الأخلاق كمبدأ لاتوجد بلا دين بينما الأخلاق العملية يمكن أن توجد فى غياب الدين ولكن يظل وجودها ضعيفا لانفصالها عن المصدر الذى منحها قوتها المبدئية، والنتيجة الثانية: أنه لايمكن بناء نظام أخلاقى على الإلحاد .. وفى كلتا الحالتين يظل النظام الأخلاقى الموروث مناقضا للأيديولوجية الرسمية ولا يوجد له مكان فيها .

التمييز بين الثقافة والحضارة

يبدو من دراسة على عزت لموضوع الثقافة والحضارة أن هناك تصادما بينهما، وأن الحضارة الرأسمالية والحضارة الشيوعية كلاهما معاد للثقافة بطبيعتها وبدرجات مختلفة، ذلك لأن الثقافة فى جذورها الأولى صدرت من أصل دينى، وأن هذه الجذور تمتد من الماضى السحيق إلى ما يسميه على عزت بالتمهيد السماوى ويشير إلى ذلك السيناريو القرآنى الذى جمع الله فيه الأرواح التى قدر لها أن تولد - كما يقول الفلاسفة المسلمون «فى عالم الذر» وسألهم «ألست بربكم قالوا بلى..» هنالك علم الإنسان أنه مختلف عن بقية الكائنات وأنه صاحب مسئولية وأنه حر الاختيار

ويطور المؤلف موضوع الصدام بين الثقافة والحضارة بطرق مختلفة فالثقافة عنده هى تأثير الدين على الإنسان وتأثير الإنسان على الإنسان، بينما الحضارة هى تأثير العقل على الطبيعة تعنى الثقافة الفن الذى يكون به الإنسان إنسانا، أما الحضارة فهى فن يتعلق بالوظيفة والسيطرة وصناعة الأشياء تامة الكمال، الحضارة هى استمرارية التقدم التقنى وليس التقدم الروحى .. كما أن التطور الداروني هو استمرارية للتقدم البيولوجي وليس التقدم الإنسانى .

الثقافة شعور دائم الحضور بالاختيار وتعبير عن الحرية الإنسانية وخلافا لما تذهب إليه الحكمة الإسلامية بضرورة كبح الشهوات، يحكم الحضارة منطق آخر جعلها ترفع شعارا مضادا « إخلق شهوات جديدة دائما وأبدا » الحضارة تعلم أما الثقافة فتنور تحتاج الأولى إلى تعليم والثانية إلى التأمل .

تملك الثقافة الفن وتملك الحضارة العلم تقف الثقافة بمعنى من المعانى خارج إطار الزمن والتاريخ فهى معنية بموضوع واحد هو لم نحيا؟ أما الحضارة فهى إجابة على سؤال آخر دائم التغير وهو : كيف نحيا؟ وفى هذا المجال «يمكن تمثيل الحضارة بخط صاعد دائما يبدأ من اكتشاف الإنسان للنار مارا خلال طواحين الماء ثم عصر الحديد والكتابة والآلة البخارية، حتى عصر الطاقة الذرية ورحلات الفضاء أما الثقافة فهى بحث دائب يعود إلى الوراء ويبدأ من جديد، الإنسان هو موضوع الثقافة بأخطائه التى لاتتغير وفضائله وشكوكه وضلالاته وكلما تعمقنا فى الوجود الداخلى للإنسان نرى معضلة دائمة تسعى إلى حل مستحيل ».

هذه هى مجمل المجالات التى ناقش فيها على عزت موضوع الاختلاف بين الثقافة والحضارة .

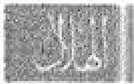
اخفاق الأيديولوجيات الكبرى

يرجع المؤلف اخفاق الأيديولوجيات الكبرى فى العالم إلى نظرتها إلى الإنسان والحياة نظرة أحادية الجانب شطرت العالم شطرين متصادمين بين مادية ملحدة وكاثوليكية مغرقة فى الأسرار «ينكر كل منهما الآخر ودينه بلا أمل فى لقاء» وهكذا وجدنا الحضارة القائمة على العلم المادى من جانب، والدين القائم على الغيبيات من جانب آخر مضاد. ولكن الإسلام - كما يعرضه على عزت - لا يخضع لهذه القسمة الجائرة. وتلك هى القضية الكبرى التى يعالجها على عزت فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» حيث خصص لها القسم الثانى من هذا

الكتاب.
ويمضي الكتاب في رحلة طويلة من البحث في أعماق الفلسفات الإنسانية والمذاهب الفكرية والآداب العالمية، وفي القانون وعلم الأخلاق يكشف لنا عن العناصر الدينية الكامنة في هذه المجالات، تعبيرا عن الفطرة الإلهية التي أودعها الله في قلب الإنسان.
ولكن الدين الذي يعني به المؤلف في القسم الأول من الكتاب هو ما يطلق عليه. «الدين المجرد» الذي يقتصر على الجانب الروحي الذي يربط الإنسان بالله. فبهذا المعنى فهم الغربيون الدين وحصروه في نطاقه وهيمن على ثقافتهم ونظرتهم إلى العالم.
أما على عزت فإنه لا يضع الإسلام في دائرة «الدين المجرد» لأن الإسلام بطبيعته أوسع نطاقا وأشمل مجالا، فالإسلام يحتضن الحياة الإنسانية كلها. الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية.
أما كيف استطاع الإسلام أن يمزج بين الروح والمادة، الأرضي والسماوي عن سائر الأديان الأخرى، هذه الخصوصية هي ما يطلق عليه المؤلف «الوحدة ثنائية القطب»

الوحدة ثنائية القطب

يخصص المؤلف لشرح هذه الفكرة القسم الثاني من الكتاب في خمسة فصول تحت هذه العناوين. موسى وعيسى ومحمد، الإسلام والدين، الطبيعة الإسلامية للقانون، الأفكار والواقع، الطريق الثالث.. وينتهي بنظرة تأملية أخيرة بعنوان: التسليم لله.
هذه الثنائية تبدو أوضح وأبسط ما تكون في أركان الإسلام الخمسة، فإذا نظرنا بشروط مادية وعلمية أهمها الوضوء الذي ينظف المسلم به أعضاءه، والالتزام باتجاه معين (نحو الكعبة)، واتباع حركات وأقوال معينة بترتيب معين، ومراعاة أوقات معينة ثابتة. بغير هذه الشروط لا تصح الصلاة. ونفس الأمر ينطبق على الصيام والزكاة والحج. بل أن الوضوء نفسه وهو عملية مادية يصفه الإسلام بأنه طهور وضياء، وتلك صفات روحية تخلع على هذا العمل المادي الذي يقرب الإنسان من الله. هذه الثنائية لايمكن أن تجدها إلا في الإسلام، بل إن الأديان الكبرى عرفت ومارست نقيض ذلك فيما يسمى بـ «القذارة المقدسة» ذلك لأن العناية بالبدن وغسله كانت تعتبر عند الهندوس وعند الرهبان المسيحيين عملا من أعمال الدنيا يجب الابتعاد عنها وكان الرهبان والراهبات الكاثوليك يفخرون بأن أقدامهم لم تلمس الماء طوال حياتهم إلا إذا اضطروا لعبور مجرى ماء أو نهر.
أما الإسلام فإنه يستحيل تطبيقه تطبيقا صحيحا إلا بممارسات مادية وعلمية تصاحبه وتقربه من الحضارة، ولذلك يرى على عزت أن الإسلام لا يمكن تطبيقه في مجتمع متخلف، ويعني بذلك أنه في اللحظة التي يتم فيها تطبيق الإسلام يكون المجتمع قد تخلى عن تخلفه ودخل في مجال الحضارة.
وهو أمر مقصود لأن الله خلق الإنسان ليكون خليفة الله في عمارة الأرض، ولا يفتأ القرآن يذكر الإنسان بتسخير الله الطبيعة والعالم بأسره للإنسان، ويعلي من قيمة العلم والعمل.
يقول على عزت: «إن إصرار القرآن على محاربة الشر والظلم ليس من التدين بمعناه الضيق (المجرد) فمبادىء اللاعنف واللا مقاومة أقرب إلى الدين المجرد.. وعندما أقر القرآن القتال بل أمر به لم يكن يقرر مبادىء دين مجرد أو أخلاق وإنما كان يضع قواعد سياسية واجتماعية».
ويعلق على تحريم الخمر في الإسلام بقوله: «كان تحريم الخمر بالدرجة الأولى معالجة لشر اجتماعي وليس في الدين المجرد شيء ضد الخمر.. ولكن الإسلام عندما حرم الخمر سلك مسلك



العلم لا مسلك الدين المجرد».

سر انحطاط المسلمين

يتساءل على عزت، ما الذى أدى إذن بالمسلمين إلى الانحطاط بالصورة التى نراها اليوم؟ ويجيب قائلا «لقد انشطرت وحدة الإسلام ثنائية القطب على يد إناس قصروا الإسلام على جانبه الدينى المجرد فأهدروا وحدته.. لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد، أو تأمل صوفى فتدهورت أحوال المسلمين، وذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم وعندما يهملون دورهم فى هذا العالم ويتوقفون عن التفاعل معه تصبح السلطة فى الدولة المسلمة عارية لا تخدم إلا نفسها، ويبدأ الدين الخامل يجر المجتمع نحو السلبية والتخلف، ويشكل الملوك والأمراء والعلماء الملحنون ورجال الكهنوت وفرق الدراويش والشعراء السكارى - يشكلون جميعا الوجه الخارجى للانشطار الداخلى الذى أصاب الإسلام».

هكذا يشخص على عزت مأساة المجتمعات المسلمة فى الوقت الراهن. مثل هذه النظرات الثاقبة فى المجتمعات وفى أعماق النفس الإنسانية تطالعك دائما وأنت تمضى فى تصفح كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب»، يقول مثلا:

الفقر والجشع توأمان وإلا كيف نفسر وجود الفقر فى مجتمعات تطفح بالثراء؟ ولا يكون علاج الفقر بإصدار قوانين فقط لأنك بالقانون تعالج الجانب الظاهر وهو الفقر أما الجانب الباطنى الخفى فهو الجشع الذى يصيب الأغنياء وهو مرض لا تعالجه إلا التربية والتنشئة، فلا يمكن إصلاح العالم مابقيت النفوس مشحونة بالكراهية وحب الاستغلال والاستعباد.

القانون فى ظل الحكومات المستبدة

فى حديثه المستفيض عن القانون يكشف لنا على عزت عن سمات مميزة للحكومات المستبدة فى علاقتها بالقانون والمحاكم فلأنها لا تحترم الإنسان ولا تلتزم بالديمقراطية تميل إلى انتهاك القوانين وازدراء المحاكم والقضاء، وعندما تنجح هذه الحكومات فى تطويع المحاكم وتسخير القضاء لخدمة أغراضها التعسفية بالدرجة التى تريدها فإنها تتجاهل هذه المحاكم وتتجاوزها باستخدام المحاكمات المباشرة بواسطة الشرطة أو بأى سلطة تنفيذية أخرى وهنا تكثر السجون ومراكز الاعتقال.

وينبهنا على عزت إلى أن ظاهرة الإفراط فى إصدار القوانين فى مجتمع ما مؤشر دال على وجود شرخ خطير فى هذا المجتمع لم تعد تصلحه القوانين، لأن القوانين لا تصلح فساد الضمائر هنا يجب التوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء فى تربية الناس تربية أخلاقية.

الوسطية

يلفت المؤلف نظرنا إلى حقيقة جوهرية مهمة وهى أن القرآن ليس كتابا كغيره من الكتب إنما هو كتاب حياة نموذجها المجسد هو حياة النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد استطاع الإسلام كما تمثله هذا النبى العظيم فى حياته أن يبرهن على أنه وحدة طبيعية فطرية اجتمع فيها: الحب مع القوة، المتسامى مع الواقعى، الروحى مع البشرى، الدين مع السياسة، وقد أثبت هذا المركب المتفجر بالحيوية أنه قادر على إطلاق طاقة هائلة فى حياة الشعوب التى احتضنته وعاشت به وله، فقد اكتشفت هذه الشعوب فى لحظة واحدة أن الإسلام يتطابق مع جوهر الحياة الفاضلة الخصبة بكل أبعادها. ويجب أن نفهم وسطية الإسلام من هذه الناحية، فالموقف الوسط للإسلام يعبر أصدق تعبير عن الفطرة الإنسانية ويلقى الضوء على معنى الآية القرآنية: «فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».



هذه الوسطية الإسلامية عجز الغربيون عن فهمها ومن ثم كان الإسلام موضع هجوم من الجانبين المتعارضين: الدين الغربي والمادية الغربية. فالمسيحيون رأوا في الإسلام اتجاها (يساريا) لاصقا بالطبيعة والواقع أكثر مما ينبغي، وعلى عكس ذلك رأى الماديون في الإسلام اتجاها (يمينيا) باعتبار ما فيه من غيبيات، وهكذا رفضه الغربيون لسببين متناقضين. أما الحقيقة التي غابت عن كلا الطرفين فهي - كما يقول علي عزت - أن الإسلام واحد ولكن شأنه كشأن الإنسان له روح وجسد، وإنما تبدو عناصره متعارضة باختلاف وجهة النظر إليه.

العداء الغربي للإسلام

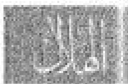
وفي هذا المجال يلفت علي عزت النظر إلى عداء الغرب الحالي للإسلام ليس مجرد امتداد للعداء التقليدي والصدام الحضاري الذي وصل إلى الصراع العسكري بين الإسلام والغرب منذ الحملات الصليبية حتى حروب الاستقلال، وإنما يرجع هذا العداء بصفة خاصة إلى تجربة الغرب التاريخية مع الدين وإلى عجزه عن فهم طبيعة الإسلام المتميزة. وهو يطرح لذلك سببين جوهريين وراء هذا العجز وهما طبيعة العقل الأوروبي أحادي النظرة، وإلى قصور اللغات الأوروبية عن استيعاب المصطلحات الإسلامية. وضرب لذلك مثلا بمصطلحات: الصلاة والزكاة والصيام والوضوء والخلافة والأمة، حيث لا يوجد ما يقابلها في المعنى باللغات الأوروبية. فالمصطلحات الإسلامية - كما يراها علي عزت - كالإسلام نفسه تنطوي على وحدة ثنائية القطب.

ويرى المؤلف بحق أن الغرب إذا كان يريد فهم الإسلام فهما صحيحا عليه أن يعيد النظر في مصطلحاته التي تتعلق بالإسلام.

المأزق والخروج منه

من أجل مستقبل أفضل للإنسان على هذه الأرض وفي سبيل تصحيح حركة الإنسان في هذا العالم يدعو الإسلام إلى تربية إنسان متسق مع روحه وبدنه معا، وإلى بناء مجتمع تحافظ قوانينه ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على هذا الاتساق ولا تنتهكه.

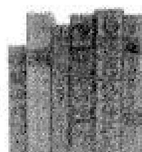
وإذا كانت الحضارة الغربية قد أصابت العالم بحالة أشبه بالفصام العقلي فإن الإسلام هو السبيل إلى الخروج بالإنسانية من هذا المأزق، فقد كان الإسلام ولايزال هو البحث الدائب المتصل عبر التاريخ في حالة التوازن الجواني والبراني. وهذا هو هدف الإسلام وهو واجبه التاريخي المقدر له في المستقبل.



وأخيرا..

في كل قضية يعالجها «كتاب الإسلام بين الشرق والغرب» يجد القارئ فكرة مبدعة أو لفتة إنسانية أو لمحة عبقرية، ويشعر أن روحا إنسانية شديدة الإخلاص تسري في صفحات الكتاب، وأن مؤلفه عميق الفهم لروح عصره قوي الإيمان بدينه وبأهمية رسالته، لا في هداية الفرد فحسب بل في انقاذ البشرية بأسرها.

ولا أجد في هذا المجال أصدق من شهادة «وويز وورث كارلسن» وهو مفكر أوروبي محايد لا ينتمي إلى دين المؤلف ولا عشيرته حيث يقول معلقا على كتاب الإسلام بين الشرق والغرب: «أن تحليله للأوضاع الإنسانية مذهل وقدرته التحليلية الكاسحة تعطي شعورا متعاظما بجمال الإسلام وعالميته».



كتاب

تأويل مشكل القرآن

لابن قتيبة

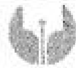
عرض وتحليل
د. حامد طاهر*

تعرض الإسلام، خلال القرن الثالث، لمرحلة اختبار قاسية، فقد تغلغلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين عن طريق الترجمات والشروح والتلخيصات العربية، وفتنت بسحرها كثير منهم، كما أتيح للحضارة الفارسية أن تكشف عن عقائدها المعتقة منذ آلاف السنين، هذا إلى جانب حرية التعبير التى أتاحت لكل من اليهود والمسيحيين أن يدافعوا عن أديانهم التى هجرها أتباعها، بسهولة وبسرعة مدهشتين، لكى يعتنقوا الدين الإسلامى.

نشهد فى هذا القرن جدلاً يمتد تقريباً - إلى كل القيم والمبادىء، وإذا كان كثير من الخلفاء العباسيين قد أتاحوا للشعوب والطوائف الأخرى حرية واسعة فى الاعتقاد والتعبير، فقد تعرض الإسلام نفسه لنتائج هذه الحرية. ومن المبدأ الذى يرى أنه بزعزعة الأساس ينهار البناء كله، أقبل خصوم الإسلام يتتبعون آيات القرآن الكريم، ويبحثون فيها عن موطن ضعف، أو نقاط هجوم.

* نائب رئيس جامعة القاهرة





يقول ابن قتيبة «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) (١) بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول(٢)، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة فى اللحن، وفساد النظم، والاختلاف. وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه فى القلوب، وقدحت بالشكوك فى الصدور(٣) .

وهكذا بعد فترة طويلة من الستر، استعلن الهجوم على القرآن الكريم، المصدر الأول للدين الجديد، ووجد علماء الإسلام أنفسهم فى موقف دقيق، فماذا فعلوا؟

لم يصادروا الخصوم، وكان بامكانهم أن يستخرجوا القرار فى ذلك من السلطة الحاكمة بإحراق الكتب المعادية، أو حتى بكتم الآراء فى الصدور!

ولم يخدعوا الجماهير بالخطب الإنشائية التى تتناول أشخاص الخصوم بالقدح والتشهير، غافلة أو قاصرة عن الرد على آرائهم التى تندفع شبهاتها إلى العقول دون منازع!

وإنما فعلوا ما كان ينتظر من أمثالهم، وهو التصدى لمسئوليتهم العلمية والتنويرية بكل شجاعة ، متبعين فى ذلك خطى المنهج الإسلامى الذى يمكن إبراز بعض عناصره فيما يلى:

تأويل مشكل القرآن
لابن قتيبة

(أ) سماع وجهة النظر المخالفة ، محاولة لفهمها فى هدوء.

(ب) تبسيط المسألة موضوع الخلاف إلى أفكار رئيسية ، ثم تحليل هذه الأفكار إلى عناصرها الأولية.

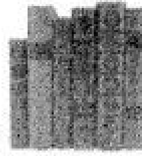
(ج) الرد عليها بموضوعية خالصة، وعرضها بلغة واضحة ومحددة.

ومن الطبيعى أن يكون وراء ذلك كله : احتشاد هائل ، وثقافة واسعة، وحسن استخدام لأدوات البحث والمناظرة.

موقع إسلامي خالص

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى كتاب «تأويل مشكل القرآن» وجدنا ابن قتيبة يبدأ من موقع إسلامى خالص، يعترف بقدر القرآن الكريم، وعناية الله تعالى به ، إذ أنزله ناسخاً لما قبله من الكتب الدينية، وأودع إعجازه فى نظمه وتأليفه، وجعله متلواً لا يمل على طول التلاوة ، ومسموعاً لاتمجه الآذان، وغضاً لايخلق على كثرة الرد، وعجيباً لاتنقضى عجائبه، ومفيداً لاتنقطع فوائده(٤) .

وتمتاز العبارة القرآنية بقدرتها على حمل الكثير من المعانى فى العدد القليل من الألفاظ وذلك هو ماعناه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله. «أوتيت جوامع الكلم» أى الكلمات القليلة العدد الجامعة لصنوف الحكمة، ويمثل ابن قتيبة لذلك قائلاً: «فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه (خذ العفو وأمر



بالعرف وأعرض عن الجاهلين)(٥) .

كيف جمع له بهذا كل خلق عظيم: لأن في أخذ العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات .. وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن ممارسة السفيه، ومنازعة اللجوج»(٦) .

هذا مثال واحد من حوالي عشرة أمثلة أوردها ابن قتيبة في مفتتح كتابه، ليقف منها القارئ، على أهمية التأمل في «العبارة القرآنية» ومحاولة تدبرها بعناية «فإنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات»(٧) .

أفضل لغة

ومما ذهب إليه ابن قتيبة في تفضيل لغة العرب على سائر اللغات(٨) ماتمتاز به من أن حروفها تبلغ ثمانية وعشرين حرفاً، على حين تقصر ألفاظ جميع الأمم عن هذا العدد.

وكذلك «الإعراب» الذي يذهب ابن قتيبة إلى أن الله تعالى، قد جعله وشياً لكلام العرب، وحلية لنظامها(٩) ، وفارقاً - في بعض الأحوال - بين الكلامين المتكافئين ، والمعنيين المختلفين . فلو أن قارئاً قرأ (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)(١٠) . وترك طريق الابتداء بإنا وأعمل القول فيها بالنصب - على مذهب من ينصب أن بالقول كما ينصبها بالظن - لقلب المعنى عن جهته، وأزاله عن طريقته، وجعل النبي، عليه السلام، محزوناً لقولهم: إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون! وهذا كفر ممن تعمده، وضرب من اللحن لاتجوز الصلاة به، ولا يجوز للمأمومين أن يتجاوزوا فيه»(١١) .

ومما اختص به اللغة العربية أيضاً أن التغيير في حركة الحرف الواحد قد يؤدي إلى تغير معنى الكلمة كله، بل وقلبه أحياناً إلى الضد «فيقولون: رجل لعنه - بضم اللام وتسكين العين - إذا كان يلعنه الناس . فإذا كان هو الذي يلعن الناس. فإذا كان هو الذي يلعن الناس قالوا: رجل لعنة ، فحركوا العين بالفتح، وقد جاء في القرآن (ويل لكل همزة لمزة)(١٢) .

ومن الدقة في أوصاف اللغة العربية مايكون أحياناً عن وضع حرف مكان حرف آخر ليؤدي معنى جديداً . كقولهم للنار إذا طفئت «هامدة» فإن سكن لهيبها وبقي من جمرها شيء قيل «خامدة»(١٣).

وقد يرتبط الشيء بعدة معان ، وهنا تلجأ اللغة العربية إلى اشتقاق أسماء من هذا الشيء بعدد المعاني المرتبطة: «كاشتقاقهم من البطن للخميص «مبطن» وللعظيم البطن إذا كان خلقه»، «بطين» فإذا كان من كثرة الأكل قيل «مبطان» وللمنهوم «بطن» وللعليل البطن «مبطون»(١٤) .

كتاب العرب

كذلك يرى ابن قتيبة أن العرب تميزوا بفن الشعر «الذي أقامه الله ، تعالى، لها مقام الكتاب لغيرها ، وجعله لعلومها مستودعاً، ولآدابها حائطاً، ولأنسابها مقيداً، ولأخبارها ديواناً لايرث على الدهر، ولا يبيد على مر الزمان، وحرسه بالوزن، والقوافي،

وحسن النظم، وجودة التحبير، من الدرس والتغيير، فمن أراد أن يحدث فيه شيئاً عسر ذلك عليه، ولم يخف له كما يخف في الكلام المنثور(١٥) .

وأخيراً فإن للعرب «المجازات في الكلام»، ومعناها : طرق القول ومآخذه فيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض، والإفصاح والكناية، ، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز»(١٦) .

ويعقب ابن قتيبة على ذلك بأن القرآن الكريم قد نزل بكل هذه الطرق في التعبير ، ولهذا فإنه يرى عدم إمكانية ترجمته إلى لغة أخرى، لما سوف يفقده في أثناء الترجمة من المعاني الجانبية، والإيماءات التي ترتبط بطبيعة التعبير في اللغة العربية. يقول ابن قتيبة «لذلك لايقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب»(١٧) . ثم يقدم ابن قتيبة عدة أمثلة من آيات القرآن الكريم التي تحمل بوصفها الخاص معاني لايمكن التعبير عنها في وصف عربي آخر. فما بالك بلغة أجنبية؟!(١٨) .

ويمكن أن نعقب على ذلك بأن المقصود بذلك هي الترجمة الحرفية، أما ترجمة المعاني فهي أمر مطلوب، لتعميم فائدة القرآن الكريم بين سائر الأمم.

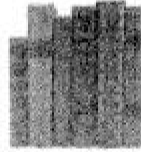
مطاعن الطاعنين

وفي باب (الحكاية عن الطاعنين) يحاول ابن قتيبة استقراء أوجه النقد التي وجهت إلى القرآن الكريم، مصنفاً إياها في موضوعات رئيسية، وعارضاً أقوال الخصوم - دون ذكر أسمائهم - بكثير من الوضوح، ثم مجيباً على كل قول منها بالتفصيل.

وقد اعتمد الطاعنون على مثل قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)(١٩) ، ثم طاروا فرحاً عندما وجدوا اختلاف الصحابة في بعض القراءات، واللحن الظاهر في بعض الآيات، وأخيراً مابدا لهم من تناقض بعض الحقائق التي تحدث عنها القرآن.

يقول ابن قتيبة : «وقد ذكرت الحجة عليهم في جميع ماذكروه، وغيره مما تركوا، وهو يشبه ماأنكروا ، ليكون الكتاب جامعاً للقصد الذي قصدت له»(٢٠) أي أن كتاب «تأويل مشكل القرآن» ليس مقصوراً على ما أثاره الطاعنون في القرآن، وإنما يشتمل على كل مايحتمل من التساؤل أو الغموض . وبهذا يخرج كتاب ابن قتيبة عن أن يكون مرتبطاً بدافع جزئي عارض، إلى مجال أوسع وأرحب وأرشد ارتباطاً بالدراسات القرآنية.

فبالنسبة إلى دعوى اللحن في القرآن الكريم ، فإن ابن قتيبة يذكر اعتماد الطاعنين على حديث عائشة، رضي الله عنها، من أن بعض ما وقع من ذلك إنما يرجع إلى «غلط الكاتب» وعلى حديث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الذي



يقول: أرى فيه لحناً، وستقيمه العرب بألسنتها.

لكن ابن قتيبة يسرع فيؤكد أن تلك المواضع المحتملة للحن من حيث الظاهر قد تكلم فيها النحويون، واعتلوا لكل حرف منها، واستشهدوا الشعر(٢١) .

فمثلاً احتج الطاعنون بوجود اللحن في آية (إن هذان لساحران)(٢٢) حيث القاعدة النحوية تقرر أن تكون : إن هذين لساحران، لكن ابن قتيبة يبين أن إلزام المثنى الألف - في جميع حالاته الإعرابية - إنما هو لغة بلحرث بن كعب، فهم يقولون : مررت برجلان، وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه.. الخ، كذلك، فإن القراء قد اختلفوا في قراءة هذا «الحرف»، فقرأ أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر (إن هذين لساحران) وذهبا إلى أنه غلط من الكاتب ، كما قالت عائشة(٢٣).

ويخلص ابن قتيبة من ذلك إلى أن مايظن أنه لحن في القرآن قد يمكن تفسيره نحوياً باعتباره لغة قبيلة من قبائل العرب، أو إلى خطأ من كاتب المصحف، وعلى أية حال، فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، برىء من أخطاء اللحن، سواء كانت في النطق، أو الكتابة . يقول ابن قتية:

وليست تخلو هذه «الحروف» من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الأعراب فيها، أو أن تكون غلطاً من الكاتب، كما ذكرت عائشة، رضي الله عنها . فإن كانت على مذاهب النحويين فليس ها هنا لحن بحمد الله. وإن كانت خطأ في الكتاب فليس على رسوله، صلى الله عليه وسلم، جناية الكاتب في الخط. ولو كان هذا عيباً يرجع إلى القرآن، لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف عن طريق التهجي»(٢٤).

مطاعن الخصوم

فإذا جئنا إلى دعوى التناقض، وجدنا ابن قتيبة يذكر مطاعن الخصوم ثم يرد عليها بالتفصيل . يقول : «وأما مانحلوا من التناقض في مثل قوله تعالى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان)(٢٥) وهو يقول في موضع آخر (فوربك لنسألنهم أجمعين» عما كانوا يعملون)(٢٦).

فالجواب في ذلك : أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى (.. مقداره خمسين ألف سنة ...)(٢٧) ففي مثل هذا اليوم يسئلون ، وفيه لايسألون، لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة (انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)(٢٨) وانقطع الكلام وذهب الخصام، واسودت وجوه قوم، وابيضت وجوه آخرين، وعرف الفريقان بسيماهم، وتطايرت الصحف من الأيدي، فأخذت ذات اليمين إلى الجنة، وأخذ ذات الشمال إلى النار»(٢٩).

وعلى هذا المنوال من عرض الدعوى بأمانة والرد عليها من القرآن الكريم نفسه، وبالاعتماد على بعض الحجج العقلية - يستمر ابن قتيبة في تتبع أقوال الطاعنين في القرآن الكريم، متعرضا لثلاث مسائل كبرى هي:

- مسألة المتشابه(٣٠) .
- مسألة المجاز (٣١) .
- مسألة الحروف المقطعة في أوائل السور (٣٢) .

وقد قاده هذا بالطبع إلى أن يتعرض

لمباحث لغوية وبلاغية تبين إمكانية اللغة العربية فى التعبير عن المعنى الواحد بصور متعددة، واتساعها فى استخدام الألفاظ والعبارات التى تشتمل على أكثر من معنى. ولا شك فى أن هذه المباحث اللغوية والبلاغية مما يعين كثيراً على فهم القرآن الكريم، فضلاً عن أنها أداة أساسية ينبغى أن يجيدها من يتصدى لتفسيرها.

وإذا كان لنا من كلمة أخيرة عن كتاب «تأويل مشكل القرآن» فلابد من الإشارة إلى أنه يعتبر مصدراً أساسياً من مصادر الدراسات القرآنية، بالإضافة إلى كونه مصدراً مهماً فى مجال الدراسات اللغوية، والبلاغية، كذلك فإنه يعد وثيقة ممتازة فى مجال الدفاع العلمى عن الإسلام، والذود عن كتابه الكريم. ثم إنه يقدم لنا أسلوباً فى البحث الإسلامى الخالص يمتاز بالجدية، والموضوعية، والتمكن من المادة العلمية فضلاً عن تحديد القصد، ووضوح الهدف. ■

(١) سورة آل عمران ، آية ٧ .
(٢) تكشف عبارة ابن قتيبة هنا بوضوح عن ضعف الخصوم فى وسائل بحثهم، وفى نفس الوقت: خبث غرضهم من هذا البحث.
(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٢ .
(٤) مقدمة المحقق، ص ٨٦ .
(٥) سورة الأعراف ، آية ١٩٩ .
(٦) تأويل مشكل القرآن، ص ٤، ٥ .
(٧) السابق، ص ٢١ .
(٨) هذا الرأى موضع مناقشة، فمثلاً ينفى ابن حزم أن يكون للغة العربية فى حد ذاتها أى أفضلية على غيرها من اللغات، انظر الأحكام ٣٩/١، ٤٠ .
(٩) فكرة تزيين الاعراب للكلام فكرة هائلة جداً. ومن واجب علماء النحو أن يلتفتوا إليها، ويطوروها.
(١٠) سورة يس، آية ٧٦ .
(١١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤ .
(١٢) سورة الهمزة، آية ١ .
(١٣) السابق، ص ١٦ .
(١٤) السابق، ص٢٠، ٢١ .
(١٥) السابق، ص ١٨ .
(١٦) السابق، ص ٢٠، ٢١ .
(١٧) السابق، ص ٢١ .
(١٨) من الجدير بالذكر أن الأستاذ السيد صقر قد رجح رأى ابن قتيبة، بل اعتقد صوابه، فيما يتعلق بعدم ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية. انظر مقدمة المحقق، ص٨٠ .
(١٩) سورة النساء، آية ٨٢ .
(٢٠) تأويل مشكل القرآن ، ص٣٢ .
(٢١) السابق، ص ٥٠ .
(٢٢) سورة طه، آية ٦٣ .
(٢٣) تأويل مشكل القرآن، ص ٥٠، ٥١ .
(٢٤) السابق، ص ٥٦، ٥٧ .
(٢٥) سورة الرحمن، آية ٣٩ .
(٢٦) سورة الحجر، آية ٩٢، ٩٣ .
(٢٧) سورة المعارج، آية ٤ .
(٢٨) سورة الرحمن، آية ٣٧ .
(٢٩) تأويل مشكل القرآن، ص٦٥ .
(٣٠) السابق، ص ٨٦، وما بعدها .
(٣١) السابق ، ص ١٠١، وما بعدها .
(٣٢) السابق ، ص ٢٩٩، وما بعدها .

مستوطنات الفضاء بين الحقيقة والخيال

بقلم
على عبد الله بركات *

في عام ١٧٩٨م نشر توماس مالثوس (١٧٦٦- ١٧٣٤) آراءه عن الزيادة السكانية المطردة في مقابل نقص الغذاء والموارد الأخرى على سطح الأرض، وما سوف يترتب على ذلك من اشتعال الصراع من أجل البقاء بين بنى الإنسان.. صحيح أن هذه الآراء كانت - فيما يزعم البعض - محركا لدوافع الدول الكبرى للسيطرة على ثروات الدول الصغيرة، خاصة ان تشارلز داروين تأثر بها في صياغة فرضية، الصراع من أجل البقاء، ضمن نظرية التطور التى صاغها في القرن التاسع عشر.. لكن أصبحت مشكلة ازدحام الكوكب بسكانه - على جانب آخر - دافعا للعلماء للبحث الحثيث عن حلول علمية سلمية، لمشكلة تزايد السكان على كوكب الأرض ونضوب الثروات الطبيعية خاصة البترول الذى ترجح التقديرات نضوبه فى هذا القرن ..

فى حقيقة الأمر، فإن العلم يحقق فى كثير من الجوانب تعادلا لمشكلة الزيادة السكانية بما يتوصل إليه من اكتشافات فى مجالات الغذاء على وجه الخصوص والتحول لمصادر غير تقليدية للطاقة .. لكن الغذاء والطاقة ليسا كل شئ .. فهناك مشكلة ازدحام الكوكب بسكانه ومشكلة نقص المياه الصالحة للشرب، التى بدأت تلقى بظلالها الثقيلة على البشرية، والمشاكل البيئية التى تستعصى على الحلول، وما يترتب عليها من انتشار سريع للأوبئة والآفات ..

استعمار الكواكب الأخرى

لم يقف طموح العلم - إزاء هذه المشكلات - عند حد الأرض، بل جاوزه إلى الفضاء، حيث أخذت فكرة استعمار كواكب أخرى، تلقى بظلالها على الكتاب والمفكرين والعلماء، كحل ممكن لتجنب

* جيولوجي بهيئة المساحة الجيولوجية، ومتخصص في مجال الجيولوجيا الكوكبية .

العناء الذي سوف تلاقيه البشرية من جراء الزيادة المطردة في تعداد السكان .. ولاشك في أن أفكار الهجرة إلى الفضاء قديمة قدم الخيال العلمي لكنها.. أخذت طابعا نفعيا، وأضحت ضرورة يسعى الإنسان لتحقيقها.. فقد ظهر رواد العوالم صغيرة في الفضاء في رواية جول فيرن ١٨٧٨م ورواية «كيردلاسوتز» ١٨٩٧م وقصة كنسانتن تسيولكوفيسكي» ١٨٩٥م. أما الطابع النفعي للهجرة إلى الفضاء فقد ظهر جليا، في قصة هـ .ج. ويلز «أول رجال على سطح القمر» التي نشرت في عام ١٩٠١م، حيث جاء على لسان أبطالها :

«وأجبرنا أنفسنا على الزحف مرة أخرى. وكان عقلي مركزا كلية على الشراب والطعام ..ومررنا على أماكن مستوية تنبت فيها أشياء حمراء ذات لب.. تكسرت عندما اصطدمنا بها.. ولاحظت نوعية الأجزاء المكسورة لاشك أنها تبدو صالحة للأكل، كما أن رائحتها كانت طيبة مقبولة فاقتطعت قطعة وشممتها وقلت في صوت خفيض

كافور مارأيك ؟

فقال: لاتفعل

فالقيت بها وزحفت بين هذه النباتات المغرية وسألت كافور لماذا لا؟

فقال سم !

فقلت : سوف أغامر

وحشوت فمي بها، وحاول أن يمنعني ولكنه تأخر فقلت إنها طيبة!

وأخذ يرقبني وأنا آكل وتغضن وجهه في حيرة بين الرغبة وعدم الموافقة ثم استسلم لشهيته وبدأ يقضم منها بملء فمه وبقينا كذلك لفترة لا نفعل شيئاً سوى الأكل

كان طعم ما نأكله لا يختلف كثيرا عن طعم الفطر (عيش الغراب) وعندما كنا نبتلعه كان يدفئ حلقنا وبدأت دماؤنا تجري أكثر دفئا وبعدها اشتعلت رؤوسنا بأفكار جديدة وقلت: إنه لشئ طيب ! شئ مدهش إنه مكان يصلح لحل الفائض السكاني عندنا في كوكب الأرض»

إن الأسس العلمية والفنية لبناء مستوطنات العيش في الفضاء ظهرت في السبعينات من القرن الماضي وتعتبر أفكار عالم الطبيعة، جيرالد أونيل من جامعة برنستون، أفكاراً قيمة في هذا المجال، إذ تعتمد على نقطتين :

١ - على الإنسان أن يتطلع لبناء عوالم جديدة بدلا من تطلعه لاستعمار العوالم القديمة.

٢ - يجب أن تبنى هذه العوالم، من المناجم التي تستخرج من الفضاء ذاته، وتعتمد في تشغيلها على الطاقة الشمسية ..

وقـــد طورت أفكار أونيل عن المستعمرة الفضائية، فى مؤتمر عقد فى أوائل عام ١٩٧٥م بجامعة برنستون، تحت عنوان «صناعـــة المرافق فى الفضاء»

كوكب الزهرة

أمـا «كـارل سـاجـان» (العـالم الأمريكى المعروف، الذى رحل عن دنيانا من سنوات قليلة، والذى اشــتـهــر بمعارضته لبرامج التسلح النووى للدول الكبرى، خاصة بلاده، ودافع عن تطوير برامج أبحـاث الفـضـاء بما يخـدم الإنسانية، ويحقق مستقبلا أفضل لبنى الإنسان) - فينظر إلى كوكب الزهرة، ويرى إمكانية تحويله إلى أرض جديدة، صالحة لاستقبال سكان الأرض. وكوكب الزهرة، ثانى كواكب المجموعة الشمسية قربا من الشمس، بعد عطارد ويدور الكوكب حول الشمس فى مدة قدرها حوالى ٢٢٥ يوما أرضيا . ويبعد عن الشمس بمسافة قدرها ٧٢ ٪ من المسافة التى بين الأرض والشمس ، لذا فإنه يستقبل حرارة، أعلى من الحرارة التى تتلقاها الأرض من الشمس، مما يجعله حارا بدرجة كبيرة عن الأرض وللكوكب غلاف غازى مختلف عن الأرض، ولايصلح - بوضعه الحالى - لاستمرار الحياة الأرضية بمتطلباتها المعروفة .

الطموح إلى استعمار الفضاء يقلل من الصراعات الدولية ويوفر الإنفاق الباهظ على برامج التسلح

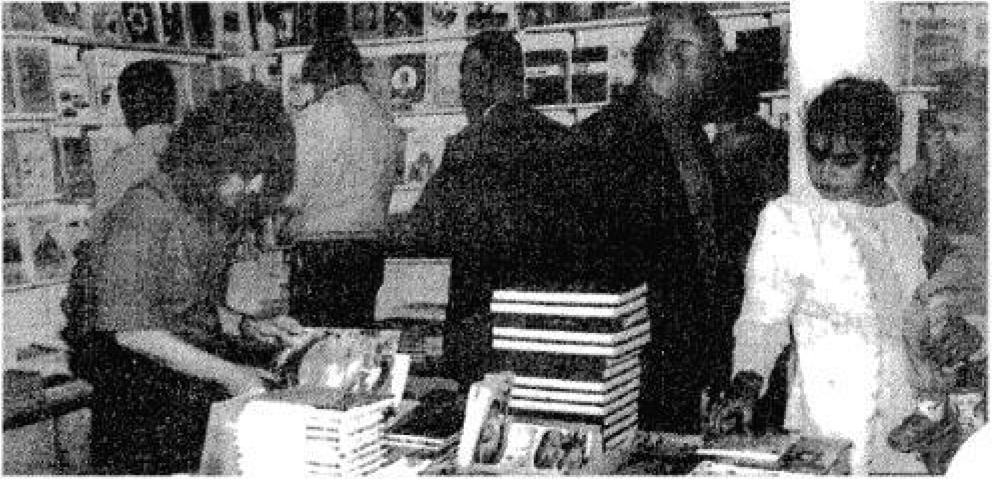
فى عام ١٩٦١م، يستجمع كارل ساجان خيوط العلم، ويقرأ المكتشفات العلمية الخاصة بتاريخ الأرض، والمراحل التى مرت بها، منذ نشأتها، وحتى الوقت الحاضر، وينسج على ضوئها فرضية فريدة .. فالأرض ليست منذ نشأتها وهى على حالها هذا، بل كانت منذ بلايين السنين ذات غلاف جوى يشبه ذلك الذى يوجد فى كوكب الزهرة وقد كان ذلك الجو

خاليا من الأكسجين الذي يعد قوام الحياة الآن فقد كان يتكون من الميثان، والأمونيا وبخار الماء، وأول وثاني أكسيد الكربون ومن الطريف أن ذلك الجو، كان ملائما لتكون المواد العضوية (مثل الأحماض الأمينية) التي قامت عليها الحياة، ودخلها السر الأعظم، الذي أصبحت بمقتضاه حية! كيف لايعرف أحد على وجه اليقين .. ولو كان جو الأرض - آنذاك - على الحالة الحالية، لحال دون تجمع مثل تلك المواد، التي قامت عليها الحياة فالجو المؤكسد (الذي يحتوي على الأكسجين)، يحول دون تجمع المواد المختزلة (قطعة الحديد التي تستخلص باختزال خامات الحديد تتأكسد في جو الأرض الحالي ثانية) وأول من قام من الحياة، هو الكائنات الأولية التي تستطيع العيش في ظروف قاسية، مثل غياب غاز الأكسجين، ودرجات الحرارة العالية أو المنخفضة، ومن الطريف أن هذه الأنواع البدائية من الحياة، التي من أهم خصائصها التكاثر السريع، ومن ثم الانتشار الواسع في زمن بسيط، هي التي غيرت جو الأرض تدريجيا إلى الجو الحالي الذي يوجد به الأكسجين الذي نتنفسه .

شبيه الأرض

وفرضية «كارل ساجان» بسيطة جدا، وتتمثل في شحن كمية من الفطريات الأرضية بوسيلة أو بأخرى ونشرها على سطح كوكب الزهرة، حيث تتكاثر وتنتشر وتبدأ في أنشطتها الحيوية فتستخلص الكربون من جو الزهرة لتبني به أجسامها وتحرر الأكسجين الذي سوف يتراكم مع الزمن في جو الكوكب، وتتوالى عملياته الكيمائية، خاصة تكون السحب المائية، وما يترتب عليها من هطول الأمطار، التي سوف تسهم بشكل مباشر في تلطيف درجة حرارة جو الكوكب، ليصل في نهاية المطاف إلى كوكب قريب الشبه بالأرض، من حيث إمكانية استمرار الحياة عليه ..

إن أهم ما يميز طموحات استعمار الفضاء، هو استجماع الطاقات البشرية أمام هدف كبير، وهذا من شأنه - لو توافرت له الدعاية الجيدة - أن يقلل من الصراعات الدولية ويحصرها في نطاق ضيق جدا، إذ تبدو أمام هذا التحدي أشبه بنزاعات محلية سرعان ما تتلاشى .. ومع التسليم بصعوبة تحقيق هذا الأمل في الوقت الراهن، إلا أن تضافر جهود العلماء، قد يجعل منه أملا ممكنا، ولو على المدى البعيد، خاصة لو تخلت الدول الكبرى عن الإنفاق الباهظ على برامج التسلح، وحولت اهتمامها صوب الفضاء، كما ظل يدعو دوما «كارل ساجان» .. ■



قضية الكتاب

بقلم
وديع فلسطين

من سنوات طلع علينا الشاعر السورى نزار قبانى (١٩٢٣ - ١٩٩٨) بقصيدة ألقاها فى مهرجان للشعر صاح فيها فى وجه الأدباء الحاضرين قائلا:

وإذا أصبح المفكر بوقا ... يستوى الفكر عندها والحذاء

وكنت وقتها أعيش فيما يشبه المنفى الإرادى، حيث ضقت ذرعا بما أسميه بالانكشاريات المتغالظة، لأننى لم أرتض لنفسى أن أكون بوقا من الأبواق فى جوقة من المنشدين، فاستلهمت من نزار قبانى مقالا عنوانه «الأدب والأحذية» نشرته فى مجلة «الأديب» اللبنانية، ولم يلبث هذا المقال أن توالد بتعليقات كثيرة منى ومن القراء، واستمرت سلسلته ست سنين كررت فيها على مسامع الأدباء هذا البيت المدوى:

وإذا أصبح المفكر بوقا ... يستوى الفكر عندها والحذاء

وكان مرادى ، لا أن يحفظ الأدباء والمفكرون هذا البيت وحسب، بل أن يتمثلوه فى حياتهم ، لأن الفكر أسمى من أن ينحدر إلى درك الأبواق التى تجعجع وتلعلع بما يُملى عليها لا بما تمليه ضمائر الأحرار.

الأدب والأحذية

وأعود اليوم إلى تناول الصلة بين الأدب والأحذية من زاوية أخرى، لا لأن مكتبات كبيرة فى وسط القاهرة قد تحولت إلى محال لبيع الأحذية، ولا لأن عددا من مكتبات حى الفجالة قد أخلى الطريق لمحال بيع الأدوات الصحية، ولكن لأن دولتنا الموقرة ممثلة فى جماركها باتت تعامل الكتاب وكأنه سلعة من السلع مثل الحذاء والشبشب بل «الفسيخ»، فتفرض عليه رسوما جمركية ليس لها مثيل فى أى دولة متقدمة أو نامية أو متخلفة من دول العالم، بل إن منظمة اليونسكو تشترط على الدول من أعضائها معاملة الكتب وجميع الوسائل الثقافية معاملة خاصة فلا تخضعها لأى إجراءات جمركية.

ففى أسبوع واحد، تلقيت بالبريد طردين صغيرين من الكتب أهداهما إلى صديقان أحدهما فى السعودية والآخر فى لبنان، وعلى الفور شمر عتاة الجمركيين عن ساعد الجد، فها هم أمام «ضبطية» ثمينة، ولابد من اقتضاء رسوم جمركية عليها بغض النظر عن محتوياتها ، وكانت جملة الرسوم التى سددتها بملحقاتها وبقشيشاتها أيضا ٢٥ جنيها . وسجلت على استمارة البريد احتجاجا صارخا


نزار قبانى

على فرض رسوم جمركية على الكتب والمطبوعات مع أنها معفاة من الإجراءات الجمركية فى العالم كله ، ولكن لا حياة لمن تنادى. وقد سألت ساعى البريد عن مصير هذه الكتب فى حالة الامتناع عن تسديد الرسوم الجمركية ، فقال إنها تطرح فى مهملات البريد – أى زبالته – وهو المصير المحتوم لأوعية الفكر والثقافة فى عرف سدنة الجمارك.

وليس بعيدا عن الذاكرة ما حدث فى معرض القاهرة الدولى للكتاب منذ عامين عندما رفضت الجمارك الإفراج عن الكتب التى بعث بها ناشروها السوريون واللبنانيون والأردنيون لعرضها فى المعرض إلا بعد اقتضاء رسوم جمركية باهظة – سيتحملها القارىء المصرى فى آخر المطاف – وذهبت هباء جميع الاتصالات التى جرت مع جميع المسئولين للإفراج عن الكتب التى غابت تماما عن المعرض، وبقيت القاعات التى استأجرها الناشرون بدولاراتهم العزيزة قاعا صفصفا . وعند انتهاء المعرض، تنازل الجمركيون

وسمحوا للكتب بالعودة من حيث أتت بعد دفع غرامة قدرها ١٥٠ ألف جنيه، وكانت فضيحة تبارت الصحف فى نشرها ، ولكن لا حياة لمن تنادى.

رقابة مستمرة

وعندما حشدت مصر جيشا جرارا من الأدباء والمفكرين للسفر إلى فرنكفورت للمشاركة فى معرضها الدولى للكتاب - وهو معرض يكاد يقدس الكتاب - أشفقت على هذا الجيش الجرار من رسل الثقافة والفكر من أن يواجهوا بمن يعَيرهم لأن بلادهم تعامل الكتاب باعتباره سلعة من السلع تستوى فى قيمتها المادية مع الحذاء أو الشبشب ، ودع عنك الرقابة بأسمائها وتسمياتها المختلفة التى مازالت تفرض على الكتاب، ولا يسلم الأمر من دعاوى ترفع على المؤلفين حتى وإن استخدموا شبكة الإنترنت فى بث شعرهم ونثرهم.

إن قضية الكتاب قد تفاقمت فى الاتجاهين، فلا الكتاب المصرى يعبر الحدود إلى البلاد العربية كما كان يتدفق فى الماضى بسهولة ويسر، ولا الكتاب العربى المطبوع فى العواصم العربية يصل إلى مصر ، اللهم إن جاء محمولا مع رسول مسافر . كل هذا يحدث فى عصر الإنترنت والسموات المفتوحة الكفيلة بنشر اى كتاب مهما كان موضوعه على اوسع نطاق عالمى.

وبسبب هذه الحواجز الجمركية والرقابية ، انتشرت عمليات تزوير الكتب والمعاجم المصرية وترويجها فى الاسواق الخارجية، ومنها تتسلل الى مصر من الأبواب الخلفية - وما أكثرها - فحيث تقام المتاريس أمام الفكر، تكثر الأبواب الخلفية.



محمد مندور

وكم شكا أساتذة الجامعات من أن الكتب العلمية التى يحتاجون إليها لمتابعة أحدث المكتشفات فى ميادينهم يتم حجزها فى الجمارك وتفرض عليها رسوم باهظة تجعل الأساتذة أمام خيارين أحلاهما مر كالحنظل، فإما أن يدفعوا هذه الرسوم صاغرين ويتسلموا الكتب والمجلات العلمية فينتفعوا بعلمها وينفعوا طلابهم ، وإما أن يمتنعوا عن دفعها، فتستقر فى مصيرها المحتوم وهو الزبالة.

الغاء جميع الرسوم

وتحل فى شهر يناير المقبل مناسبة معرض القاهرة الدولى للكتاب، وهى مناسبة تدعونا إلى المطالبة بإلحاح وإصرار بإلغاء جميع الرسوم الجمركية المفروضة على الكتب والمطبوعات والوسائل الثقافية حتى يطمئن العارضون القادمون من البلاد العربية والخارج إلى أنهم لن يصطدموا بعقبات جمركية تحول دون مشاركتهم الفعالة فى هذا المعرض. وقد عشنا زمانا كانت المطبوعات فيه تعامل معاملة خاصة، فتنساب من الخارج الى

الداخل او العكس دون اى معوقات من أى نوع كان، وكانت المجلات والصحف - مهما كان حجمها أو وزنها - ترسل بالبريد فى داخل مصر مقابل مليم واحد، وخارج مصر ولو إلى أستراليا مقابل مليمين اثنين. بل كنت أتلقى مجلات من الولايات المتحدة وعليها طابع بريد قيمته سنت واحد.

وثمة حقيقة لا ريب فيها ولا داعى للمكابرة فى إنكارها، وهى أن القارىء انقرض أو كاد بدليل أن الكتب الأدبية التي يقدر لها ان تطبع، لا يتجاوز المطبوع منها ألفا أو ألفين من النسخ، وهى لا تنفد إلا بعد سنوات وسنوات، فى عالم عربى يضم بين خليجه الثائر ومحيطه الهادر أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة ، ويضم عشرات من الجامعات التى تخرج فى كل عام مئات الآلاف من الطلاب، وهى مأساة كانت كفيلة بأن تغير النظرة الجمركية إلى الكتاب ، فتعمل على تشجيعه وتيسير الحصول عليه عوضا عن أن تكون عنصر «تطفيش» يقضى على الكتاب قضاء مبرما.

والغريب ان قضية الكتاب لا تجد من يدافع عنها من المسئولين عن الثقافة بحكم وظائفهم والتبعات الملقاة على عاتقهم. وآية ذلك ما حدث من سنوات فى لقاء بين رئيس الجمهورية ورجال الفكر عقد بعد افتتاح معرض الكتاب ، حيث أثار الأديب ثروت أباظة (١٩٢٧ - ٢٠٠٢) قضية الجمارك المفروضة على الكتاب وعلى جميع مستلزمات النشر، فطلب الرئيس من وزير الثقافة أن يجد حلا لهذه المشكلة وأمهله ثلاثة أشهر ، ومضت الأشهر الثلاثة وبعدها شهور وسنوات دون الاهتداء إلى حل حاسم لهذه القضية المستعصية على الرغم من بداهتها الواضحة.



سيد قطب

عاصمة النشر الأولى

وقبل تأميم دار المعارف - التى عوملت باعتبارها مؤسسة صحفية مع أنها دار نشر للكتب على مدى تاريخها الطويل - قال لى صاحبها شفيق مترى «ت ١٩٩٤» إن الدار كانت تصدر مطبوعاتها إلى البلاد العربية والخارج بما يصل إلى مليونى جنيه سنويا بالأسعار المخفضة للكتب فى ذلك الوقت وبالقيمة المرتفعة للجنيه المصرى . مما شجع الدار على فتح فرع رئيسى لها فى بيروت التى أصبحت اليوم عاصمة النشر الأولى. ولكن التأميم من ناحية والقيود الجمركية والبيروقراطية من ناحية ضربت صناعة النشر فى الصميم، ولم يعد ناشر يغامر أو يقامر بنشر الموسوعات أو الكتب الضخام لأن تكاليفها لن تسترد أبدا فى ظل الأوضاع الحالية.

وثمة ظاهرة جدت فى ميدان النشر، وهى مطالبة المؤلف بتسديد القسم

الأكبر من نفقات نشر كتابه، وإلا تعذر عليه أن يرى كتابه منشورا. ثم إن كتابه يكاد يظهر سرا ، لأن الناشرين جميعا كفوا عن الإعلان عن مطبوعاتهم بسبب ارتفاع نفقات الاعلان، سواء في الصحف أو التليفزيون كما انتهى عصر النقاد المحترفين الذين كانوا يهتمون بكل جديد يصدر ويضعونه في ميزان النقد الأدبي، وما «حديث الأربعاء» لطه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣ إلا مجموعة من المقالات نشرها حول آثار الأدباء المعاصرين له. وابحث اليوم عن نقاد أصلاء من طبقة محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) أو سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦) أو لويس عوض (١٩١٥ - ١٩٩٠) او بنت الشاطيء (١٩١٣- ١٩٩٨) فسيعييك البحث، اللهم الا ان اعتبرت مقالات المجاملات فيما بين الأصدقاء وأبناء الجيل الواحد من قبيل المقالات النقدية . ولي في هذا تجربة شخصية، فالكتاب الذي أصدرته مؤخرا عن الأعلام الذين عرفتهم في رحلة الحياة - ومعظمهم من المصريين - استقبل بحفاوة نقاد لا أعرفهم في البلاد العربية بأكثر من حظوظه في مصر. وهو ما يؤكد ان الحركة النقدية انتقلت بدورها الى البلاد العربية ما دام الكتاب يعاني من صنوف العقبات الكأداء في مصر.

والذي يراجع المجلات القديمة مثل «الرسالة» و«الكتاب» و«الكاتب المصري» و«المقتطف» يقع فيها على باب ثابت هو باب الكتب الجديدة، وهو باب كان النقاد فيه يصولون ويجولون، ولا يخلو الأمر من معارك وأخذ ورد تتسع لها صفحات هذه المجلات خدمة للقارئ، في المقام الأول ، وكان يسهم في هذا الباب نقاد من البلاد العربية لأن صدور كتاب جديد كان يعد حدثا أدبيا في العالم العربي كله، ومما يؤسف له ان السياسة بكل تداعياتها المزعجة قد انعكست بالسلب على الحياة الأدبية، وأصبح كل قطر عربي منكفئا على ذاته، وما التنازع الشرس على رياسة اتحاد الأدباء العرب وعلى مقره إلا من مظاهر هذا الشقاق عوضا عن الوفاق.


لويس عوض

إن الكتاب العربي، برغم كل المهرجانات الشكلية، يعاني من أزمة خانقة لا سبيل إلى الخروج منها إلا بالتصدي بحزم لجميع المشكلات التي ابتدعناها واختلقناها لتحسير مهمة طباعة الكتب ونشرها وتوزيعها وترويجها، وأكاد أقول تتويجها. فالكتاب، وليس البث التليفزيوني ، هو الوعاء الأول للثقافة ، وهو الذي يعتد به في البحوث والدراسات الاكاديمية وفي متابعة ركب العلوم الحديثة وفي تنشئة الأجيال الجديدة التي يعول عليها في بناء الأمة. وهي قضية تستنفر همة جميع الأجهزة الحكومية المختصة، وإلا استفحلت ظاهرة الأمية السائدة حتى بين المثقفين وخريجي الجامعات. ■

من ينقذ

الجمعية الجغرافية المصرية؟!

تحقيق : أماني عبد الحميد
تصوير: سامح كامل

• أقدم صرح علمي أنشأه الخديو إسماعيل

• ١٣٠ عاما من التاريخ العلمي والكشوف الجغرافية

في الوقت الذي تشجع فيه كافة الجهات قيام الجمعيات الأهلية تقف اليوم الجمعية الجغرافية المصرية في مهب الريح التي تهدد كيانها بالانهيار. ولايزال مجتمعنا يعج بحفنة من المنتفعين الذين مازالوا يبحثون عن موطىء قدم لهم ليتعيشوا منه ضاربين عرض الحائط بكل القيم والمبادىء والتاريخ العريق. والمشكلة تفجرت مع ظهور مجموعة من المدعين الذين يعبثون بأوراق التاريخ، وللأسف لم يجدوا من يقف أمامهم ويردعهم. ولم يجدوا سوى أرض (وقف خيرى) تديرها وزارة الأوقاف وتعود إيراداتها السنوية لتمول الجمعية الجغرافية المصرية منذ عام ١٩٣١. وبه استطاعت الجمعية مواصلة مجهوداتها طوال تلك السنين. ولكنها لن تتمكن من ذلك بعد الاستيلاء على أراضي الوقف الخيرى من غير حق. والجمعية الجغرافية المصرية ومعها المجمع العلمى المصرى من المعالم البارزة كمنارات علمية شامخة في فجر النهضة المصرية الحديثة التي تستحق الحفاظ عليها وحمايتها من كل عبث ومن أية أطماع.

المحمل الشريف في المتحف الملحق بالجمعية ◄



مبني تاريخي قديم، قد لا يميزه العابر بشارع قصر العيني عن غيره، في منطقة لا تزال تحمل مسوح ما تبقى من نجوم عمارة القاهرة الخديوية حلم الخديو إسماعيل.

مبنى الجمعية الجغرافية لا يزال تبدو عليه روح الصرامة والصَّرْحِيَّة، برغم أنه حبيس أسوار مجلسي الشعب والشورى - الحديدية والرخامية - وخلفه ترتفع قبتاهما حيث تغير أنظمة الحكم (خديوية، سلطانية ، ملكية، جمهورية..) وتعتمد الدولة القرارات وتصدر القوانين، وأمامه سارت الكثير من المسيرات الوطنية.

وعلى الرغم من صموده أكثر من ٨٠ عاما - هي عمر المبنى - و١٣٠ عاماً - عمر الجمعية - كصرح علمي لا مثيل له، إلا أنه اليوم أصبح يحتاج مسيرة جديدة من المفكرين والعلماء والغيورين على تاريخ البلاد ، حتى يقفوا أمامه لحمايته من هجمات من لا علم لهم ، قبل أن ينهار ويصبح مجرد رمز منسي لأهم جمعية علمية في مصر.

لا تستطيع الدخول لزيارة الجمعية الجغرافية عبر أسوار مبنى مجلسي الشعب والشورى، فالمكان تلتف حوله مجموعة من ضباط ورجال الأمن، كما تستوقفك نقاط التفتيش والتحقق من شخصيتك.

ورغم التأكد من حسن السير والسلوك لا يجوز لك زيارة الجمعية الجغرافية المصرية إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئيس الجمعية. ومع ذلك لا يزور الجمعية سوى موظفيها وحفنة من الباحثين وأساتذة علوم الجغرافيا ، خاصة وأنها مكان غير معلوم لدى كثير من المصريين. وعندما تنال شرف الزيارة ستكتشف أنك دخلت مبنى يضم من الكنوز ما لا مثيل لها في أي مكان آخر.

يضم المبنى مكتبة نادرة عبارة عن مجموعة من أهم المكتبات العلمية في العالم ، من أهمها مكتبة مكونة من (٢٥٠٠) مجلد أهداها الخديو إسماعيل للجمعية كنواة لأول مكتبة متخصصة في علوم الجغرافيا. ثم توالى على الجمعية عدد من المكتبات المهداة لرموز العلم والأمراء مثل مكتبة محمود باشا الفلكي وهي حوالي (٣٠٠ مجلد) ومكتبة الأمير حيدر فاضل (٧ آلاف مجلد)، ومكتبة الأمير محمد علي توفيق ولي العهد (٧ آلاف مجلد) علاوة على الإهداءات الحديثة من المكتبات مثل مكتبة الدكتور سليمان حزين الرئيس السابق للجمعية. وجزء من مكتبة الرئيس الحالي الدكتور محمد صفي الدين أبو العز.

خرائط نادرة

وعلى الرغم من ثروة الكتب التي تمتلكها الجمعية إلا أنها تمتلك ثروات ونفائس أخرى مثل أصول الكتب القديمة التي تؤرخ للكشوف الجغرافية في القارة الأفريقية وأعالي النيل حتى أطلس الحملة الفرنسية.

وتضم ذخائر الخرائط والمصورات القديمة والحديثة ومنها الخريطة التي تم رسمها في عام ١٨٧٧ بناءً على رغبة الخديو إسماعيل لتشمل خلاصة الكشوف الجغرافية الواسعة والتي تمت



قاعة المحاضرات الرئيسية فى الجمعية



« قاعة إفريقيا » .. تضم مقتنيات من بلاد أعالى النيل

في عهده، وتبين الطرق التي سلكها المكتشفون. كما تضم الجمعية خرائط نادرة مثل خرائط دارفور التي رسمها بوردي باشا وخريطة للنيل رسمها جوردون باشا وأخرى رسمها محمود باشا الفلكي. ومجموعة أخرى تتألف في ٢٥٠ خريطة أهدتها إحدى الأميرات للجمعية. وإن كان عدد الخرائط التي تملكها الجمعية قد وصل اليوم إلى ما يزيد على ١٠ آلاف خريطة و٣٠٠ أطلس معظمها من الخرائط القديمة.. كما يذكر لنا الدكتور كمال لطفي رئيس قسم الخرائط بالجمعية.

وتحتفظ الجمعية بأطلس الأمير يوسف كمال الذي يضم خرائط نادرة وقديمة لقارة أفريقيا. كذلك أطلس أسفل الأرض للأمير عمر طوسون.

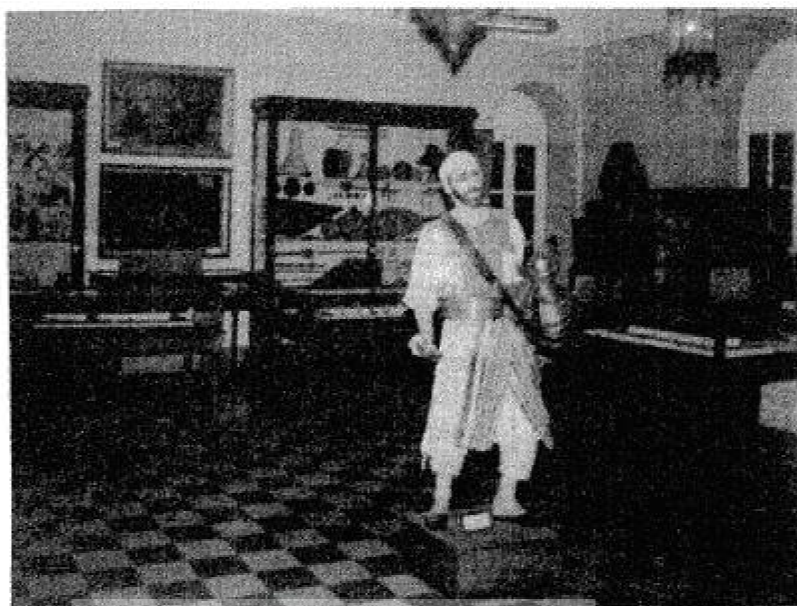
• أقدم جمعية علمية متخصصة في الشرق الأوسط

وفي الدور الأرضي للمبنى لا تغفل عيناك قاعات متحف الجمعية الجغرافية حيث تضم مجموعة من النماذج والتحف التي أحضرتها البعثات الكشفية التي أوفدتها الجمعية إلى أعالي النيل، وعددا من الأسلحة والأدوات والصور المجلوبة خلال حملة إعادة فتح السودان، وتمثل الحياة اليومية والشعبية هناك. ففي عام ١٩٢٤ قررت الجمعية تكليف الأستاذ إي. س توماس أحد المتخصصين في الدراسات الأفريقية لدراسة المقتنيات وتنظيمها وتصنيفها ووضع فهرس علمي لها لتكوّن المتحف العلمي بها.

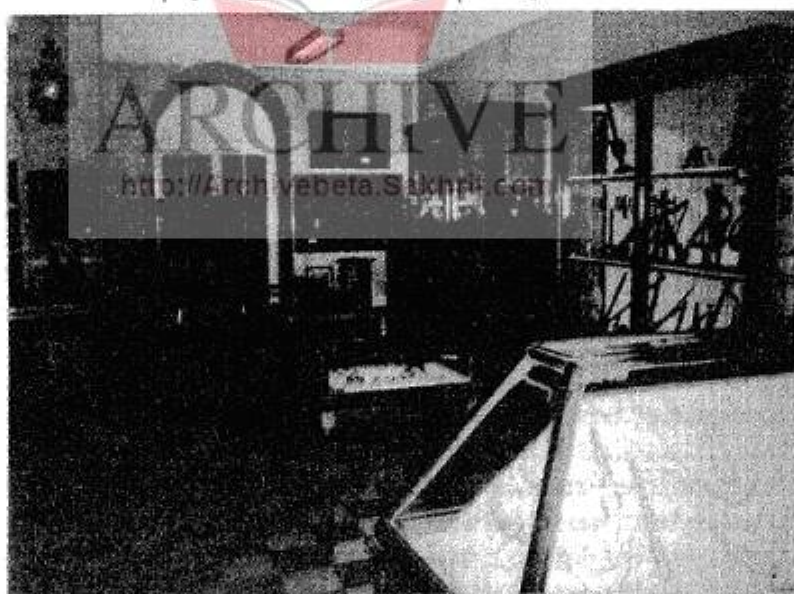
المتحف العلمي

المتحف مكون من عدة قاعات، هي قاعة القاهرة، وتمثل صوراً من الحياة الشعبية في مصر، مثل العادات والتقاليد وأدوات الزينة، الحليّ، أدوات السحر والتمائم، وفنون الخط العربي والكتابة والأعياد. وإن كان أجملها المحمل النبوي الشريف الذي يرجع إلى عصر الملك فؤاد الأول، حيث كانت مصر ترسله إلى الحجاز مع أستار الكعبة في موسم الحج، وهو من الحرير الثقيل والمكتوب عليه آية «الكرسي» بخيوط «الصرْمه» الذهبية والفضية البارزة. كما يضم «التختروان» وهو مصنوع من الخشب النادر وكان يستخدم في القرنين (١٧-١٨) في زف العروس ويحمله اثنان من الجمال ويتصدر موكب العروس حسب التقاليد آنذاك.

ويضم قاعة أخرى عن الحرف والصناعات وتشمل مجموعات من إنتاج الحرف والصناعات المصرية الأصيلة خاصة اليدوية مثل: الخط العربي، صناعة النحاس، الصناعات الحديدية، صناعة الزجاج، أدوات البناء والأحذية، ويضم قاعة أفريقيا وهي مهداة من الفريق مختار باشا رئيس هيئة أركان الجيش المصري، وعدد من الرحالة الذين شاركوا في كشوف الجمعية الجغرافية. ومنها مجموعات من الأسلحة كالسيوف والخناجر والدروع والأدوات المنزلية والطبول وأدوات الموسيقى التي كانت تستخدمها القبائل الأفريقية.



«قاعة القاهرة» . تضم مقتنيات عن عادات المصريين وتقاليدهم



وإن كان من أهم ما يضم المتحف قاعة قناة السويس التي تضم عدداً من المجسمات النادرة والصور والخرائط التي تلخص تاريخ القناة منذ بدء حفرها في عام ١٨٥٩ وحتى افتتاحها عام ١٨٦٩ لتربط بين الشرق والغرب ، وهي مجسمات أعدتها هيئة القناة في عام ١٩٣٠ لتشارك بها في معرض المستعمرات عام ١٩٣١. كما توجد عدة خرائط مجسمة لبعض المدن المهمة في منطقة قناة السويس كما كانت في عام ١٩٣٠ بمنازلها وشوارعها ومنشآتها قبل أن تدمرها حروب الاعتداء التي دمرت القناة أكثر من مرة ، مثل خرائط لمدينتي بور سعيد وبور فؤاد.

> • **خطر الانهيار يهددها بعد الاستيلاء على مخصصاتها المالية من الوقف الخيري**

وإن كان من أهم ما تقوم به الجمعية هو النهوض بالدراسات الخاصة بأفريقيا والبلاد المجاورة، ونشرت نتائجها في مجلتها العلمية «المجلة الجغرافية العربية»، مما أسهم في إلقاء الضوء على الجهود الكشفية والتي قام بها أعضاء الجمعية، ضمن رحلات علمية موسعة، منها رحلة الملك فؤاد إلى واحة سيوة وما حولها في عام ١٩٢٨، ورحلة أحمد حسنين باشا إلى الصحراء الغربية عام ١٩٢٢ واكتشاف واحات «أركنو» و«العوينات» ورحلات الأمير يوسف كمال الدين حسين في الصحراء الليبية والبعثة العلمية التي أوفدتها الجمعية عام ١٩٤٦ إلى شبه جزيرة سيناء.

لذا اكتسبت الجمعية الجغرافية مكانتها الدولية بفضل مجهودات أعضائها، فهي تحتل المرتبة التاسعة على مستوى العالم من حيث إنها جمعية جغرافية متخصصة منذ تاريخ تأسيسها. وهي الجمعية الأقدم على الإطلاق خارج أوروبا والأمريكتين.

مرسوم تأسيسي

بمرسوم عال من الخديو إسماعيل (١٩ مايو ١٨٧٥) تأسست الجمعية الجغرافية المصرية - أحد أعرق وأقدم الجمعيات العلمية في مصر - لتقوم بدور علمي على كل الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية. خاصة لتدعيم أركان الدولة المصرية الحديثة، إلى جانب إسهام علمائها الأعضاء في القيام بالرحلات والكشوف الجغرافية والدراسات الميدانية للصحاري المصرية والأفريقية ومناطق أعالي نهر النيل، وإن كان من أهم أدوارها السياسية الفعالة، تأكيد السيادة المصرية على منطقة «طابا» وذلك لما تمتلكه الجمعية من مجموعة من الوثائق والخرائط التاريخية كانت بمثابة الدليل الدامغ الذي أصدرت على أساسه المحكمة الدولية حكمها لصالح مصر.

أول من تولى رئاسة الجمعية الجغرافية الخديوية - كما كان يطلق عليها - جورج شفاينفورت الرحالة الجغرافي الشهير. وأول مقر لها كان

مجرد قاعة داخل بيت محمد بك الدفتردار - زوج الأميرة زينب هانم إبنة محمد على باشا الكبير - ، وكان المنزل يمثل ما تبقى من قصر محمد بك الألفي. ثم تنقلت الجمعية إلى عدة مقار مثل داخل «المحكمة المختلطة» القديمة في آخر حارة «العسيلي» في ميدان الخازندار. وفي عام ١٩٢٥ انتقلت الجمعية إلى مقرها الحالي، وهو مبنى تاريخي يقع داخل أسوار عدد من الأبنية السياسية والحكومية في قلب القاهرة، مثل مقار مجلسي الشعب والشورى وعدد من الوزارات والدواوين الحكومية.

وفي احتفال كبير داخل مبناها الجديد، احتفلت رسميا الجمعية الجغرافية في يوم الجمعة الموافق ٣ أبريل عام ١٩٢٥، بالعيد الخمسيني لإنشائها، وحضرت وفود الجمعيات الجغرافية في المؤتمر الجغرافي الدولي الثاني عشر، الذي احتضنته مصر لأول مرة وافتتحه الملك فؤاد الأول يوم الخميس ٢ أبريل ١٩٢٥ بدار الأوبرا المصرية القديمة. ويذكر أن اسم الجمعية تغير عدة مرات نظراً لتغير الوضع السياسي للدولة ، ففي البداية حملت لقب «الخديوية» نسبة لمنشئها الخديو «إسماعيل». ثم تغير لتحمل لقب «السلطانية» وذلك بمرسوم أصدره السلطان حسين كامل عام ١٩١٥ بتعيين الأمير أحمد فؤاد رئيساً لها. ثم أصبحت تحمل لقب «الملكية» في ١٩٢٢ عندما تغير النظام السياسي من النظام السلطاني إلى الملكي. وفي عام ١٩٥٢ ومع التحول إلى النظام الجمهوري أصبح اسمها «الجمعية الجغرافية المصرية».

وفي عام ١٩٦٤ صدر قانون الجمعيات الأهلية وعليه تم تعديل النظام الأساسي للجمعية، وجاء في البند الثاني من لائحته أن غرض الجمعية يقع في مجال البحث الجغرافي من خلال تنظيم محاضرات ونشر مؤلفات، وإصدار مجلات وتشجيع البحث الجغرافي، كذلك تنظيم رحلات علمية في الوطن العربي والخارجي، وتنظيم مؤتمرات ومعارض والاشتراك في كل ما تقوم به الجمعيات العلمية المماثلة في جميع أنحاء العالم.

وقف خيري

وفي مرسوم إنشائها قرر الخديو إسماعيل باشا تقديم إعانة حكومية سنوية لها قدرها ٤٠٠ جنيه. ولكن المبلغ وصل إلى ٦٠٠ جنيه بقرار في السلطان حسين كامل. ولكن الجمعية تعتمد كلياً على إيراد وقف خيري أوقفه المرحوم (محمد راتب قوبان بن طبه الجركسي) وكان سردار الديار المصرية. وقبل وفاته أوقفه لزوجته كليرى هانم معتوقة الخديو إسماعيل. ومن بعد وفاته قامت أرملته بوقفه خيرياً لصالح الجمعية الجغرافية الملكية، وذلك بمقتضى حجة شرعية صادرة عن محكمة مصر الابتدائية الشرعية في ١٧ نوفمبر ١٩٣١ واستمرت الجمعية تمارس نشاطها معتمدة على إيراد الوقف طوال السبعين عاما الماضية.

حق منهوب

ويحكى لنا الدكتور محمد صفى الدين أبو العز رئيس الجمعية الجغرافية



المكتبة .. وتضم أهم مكتبات الرحالة الجغرافيين المصريين



قاعة قناة السويس التي تضم خرائط المشروع ووثائقه

الحالي أن الوقف الخيري عبارة عن (٥٣٨) فدانا زراعيا في قرية «كتامة الغابة» مركز بسيون بمحافظة الغربية، كانت وزارة الأوقاف تقوم بإدارته على اعتبار أنه وقف خيري وتحصل الجمعية على إيراده سنوياً الذي كان لا يتعدى سبعة آلاف جنيه سنوياً، ولكن بعد تعديل قانون إيجار الأرض الزراعية في عام ١٩٩١ وصل الإيراد السنوي إلى ما يقرب من (١٦٠) ألف جنيه سنوياً. ولكن للأسف قام مجموعة من الأشخاص يدعون أنهم ورثة «راتب باشا» برفع الدعوى أمام محكمة الأمور المستعجلة بالقاهرة عام ٢٠٠٢، يطالبون فيها بأحقيتهم في الأرض الزراعية. وبالفعل حكمت المحكمة في القضية لصالحهم وقررت عزل وزير الأوقاف عن إدارة الوقف وتعيين حارس من بين الذين أقاموا الدعوى. وفي الاستئناف حكمت المحكمة برفض استئناف الحكم السابق نظراً لعدم قيام ممثلي وزارة الأوقاف بتقديم الأوراق المطلوبة والحجة الأصلية المختومة بخاتم المحكمة الشرعية - المحفوظ لدى وزارة الأوقاف - ودون ذكر لإسم الجمعية الجغرافية المتضررة من الحكم.

ويؤكد الدكتور «صفي الدين» أن الجمعية لم يتم إعلامها بكل هذه التطورات إلا في أوائل عام ٢٠٠٣. ومنذ ذلك الحين والجمعية تواجه أزمة مالية عاصفة، لأنه من دون إيراد الوقف الخيري ستتوقف جميع أنشطتها العلمية، خاصة وأنها صرح كبير يضم كنوزاً علمية متحفية ووثائق وخرائط ومكتبة نادرة تمثل ثروة علمية لا تقدر بثمن.

قبل أن تضيع ثرواتنا العلمية

إن هذه الصروح العلمية الكبرى مثل الجمعية الجغرافية المصرية والجمعية المصرية التاريخية والمجمع العلمي المصري يجب الحفاظ عليها وحمايتها ودعمها بكل الإمكانات المادية والعلمية لأنها الشاهد الوحيد على نهضتنا العلمية والفكرية في عصرنا الحديث منذ بداياتها وحتى الآن ودورنا أن نساعدها وندعمها لتقوم بدورها الدائم والمستمر على مدى الأيام ونحميها من كل عبث واعتداء تحت أي مسمى ومهما كان الأسلوب.

إلى متى تظل الأخطار تهدد صروحنا العلمية واحداً وراء الآخر دون أن نتدخل ونظل نشاهد صراعها من أجل البقاء؟!! فلنتعظ مما حدث داخل الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والتي لم ينقذها من الانهيار سوى تدخل الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة وتبرعه بمبالغ مالية وبنائه لمبنى يليق بمكانتها العلمية. فهل ستنتظر الجمعية الجغرافية تبرع أو تدخل أحد العرب من خارج مصر لإنقاذها من براثن حفنة من المتنفعين؟ أم سيشفع لها تاريخها الطويل (١٣٠ عاماً) لدى المصريين للدفاع عنها وعن حقوقها؟ ■

• تضم ١٠ آلاف خريطة نادرة و٢٠٠ أطلس جغرافي قديم



مثقفات وراء القضبان

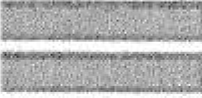
بقلم
د. نيفين عبد المنعم مسعد

**هذا هو المقال الثانى من سلسلة مقالات تتناول المثقفات وراء القضبان.
ففى العدد الماضى قدمنا الدكتورة لطيفة الزيات.
وفى هذا العدد نقدم الناقدة فريدة النقاش كما نتناول الناقدة صافى ناز كاظم والروائية د. نوال السعداوى
«المحرر»**

تقدم لنا فريدة النقاش نموذجا آخر لمعاناة امرأة مثقفة.. كنبتة الصبار تتحدى قفر الطبيعة، تحدت فريدة محيطها الوفدى، فى منية سمنود دقهلية التى يفصلها عن مدينة النحاس «باشا» كوبرى يعبره مئات الشغيلة كل صباح ويأوون إلى قراهم مع الغروب، تكون فكرها اليسارى وتفتح وعيها بشكل مختلف، حاولت كصديقة وكقارئة.. أن أتبين اللحظة المفصلية التى قررت عندها فريدة أن تكون نفسها، وتعثرت.. لم أمسك بلحظة نمو النبات على حد تعبير بول سونيكا فى مسرحيته الطريق. ترى هل هى لحظة الميلاد فى أسرة «مستورة» كبيرة العدد تتخذ من التعليم وسيلتها للحراك الاجتماعى؟ هل هو الصالون الريفى الذى كان يرعاه الأب ويؤمه مثقفون من كل اتجاه؟ هل هو ديوان المتنبى الذى فتح أمام طفلة الحادية عشرة من العمر آفاق المعرفة؟ هل هى الثورة بزخمها ورجالها وشعاراتها تختلف معها وتتفق؟



ربما تكمن الإجابة بشكل جزئى فى هذه العوامل مجتمعة.. لكن يبقى السؤال، لماذا فريدة وأختها أمينة بالتحديد هما اللتان اختارتا هذه الطريق وسارتا فيها حتى آخرها؟ ولماذا لم يخترها بهاء.. أو عطاء، أو باختصار





صافي ناز كاظم



نوال السعداوي



فريدة النقاش

أي من الأخوة الستة الذكور؟ بل كيف نأت فريدة عن تأثير رجاء الذي اقتربت منه كثيرا ولم يرض قط عن اشتغالها بالسياسة؟.. في حكاية فريدة لم أجد مشهدا دراميا كمشهد شارع العباسي في المنصورة الذي أنضج لطيفة الزيات قبل أوانها، ولا دورا مماثلا لدور أخوي لطيفة: عبد الفتاح ومحمد في تشكيل فكرها السياسي.. أما تأثير الزوج المناضل في مشوار فريدة فكان الأوضح من كل ما عداه. جذبتني رسائلها إليه، تدعوه فيها «زوجي وزميلي»، وتداعبه لتكرار اعتقاله بعبارة «حسين الحبيب يارد السجون». تتقوى به وتبثه ضعفها وتحن إليه بصورة غامرة.. تبتكر لغة غير تقليدية لتطمئن عليه وتطمئنه عليها، فترسل له الأدوية مع صديق وتسمعه أشعار أحمد فؤاد نجم، تسري من زنزانتها إلى زنزانته.. وتكتشف به ومعه ذلك المعنى الجميل للحب الذي صاغته ابنتهما رشا في بساطة مدهشة حين قالت «الحب هو أن ننظر معا» إلى الأمام وفي اتجاه واحد.

السجن : دمعتان ووردة

حكت لنا فريدة عن تجربتها الأولى في السجن عندما أخذت مع من أخذوا من معارضي الصلح مع إسرائيل عام ١٩٧٩، وجعلت لحكايتها عنوان «السجن الوطن». وعندما تكررت التجربة عام ١٩٨١ وشملتها حملة الاعتقالات التي طالت ألفا وخمسمائة من أبناء هذا الوطن، أعادت فريدة نشر كتابها مضافا إليه المزيد من التفاصيل تحت عنوان «السجن : دمعتان ووردة». العنوان مأخوذ من كلمات الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين، وسبق أن تغنى بها مارسيل خليفة.. والمعنى الذي يشير إليه هو أن في السجن قهر وقيد وإذلال، وفيه أيضا مساحة لتأمل النفس والدنيا والناس ومع ذلك، فإنني أحببت العنوان الأول الذي اختارته فريدة لحكايتها «السجن الوطن». في هذا العنوان تذوب الذات في الوطن، ويتوحد الخاص والعام، وتتسع دائرة القاص لقارئه في اللحظة التي يتيقن فيها هذا الأخير أنه إنما يقرأ عن نفسه. أما بقعة الضوء التي تتلألأ في مشهد حالك السواد، فإنها تعبير آخر عن فكرة نصف الكوب،

وكل تجربة لها وعليها.

يذكرني عنوان «السجن الوطن» بما كتبته شيرين أبو النجا عن «مفهوم الوطن في فكر الكاتبة العربية»، عندما طوفت بنماذج شتى من روايات النساء، ووجدتها في الأخير تطرح مفهوما كليا للوطن، مفهوما يندمج فيه الخاص والعام ويشكلان معا منطقة جديدة، أو قل إنها منطقة قديمة لكن الضوء المسلط عليها جديد. أكثر من ذلك، أبدعت فريدة نفسها في نسج هذه الضفيرة المحكمة بين شخص المثقف وذات الوطن.. فعندما سألها الضابط «ألا تخافين على أطفالك؟» «ردت» أخاف عليهم جدا، وأمنحهم حياتي ولكن.. عملي السياسي هو من أجلهم» وعندما نصحتها صديقتها المغربية - بأن تترك السياسة من أجل ولديها «رشا وجاسر»، علقت أن خطورة هذا المنطق تنبع من أنه يرتب للشباب «طريق الفردية وطريق الارتقاء الخاص بغض النظر عن الظروف العامة».. لم تسمح لأحد قط بأن يبتز مشاعرها كأم ليفرض عليها حيادا مستحيلا تجاه أحوال الوطن. لذلك فإنها في اللحظة التي يستبد بها القلق على أسرتها حتى تتخيل قلقها ينعكس على صفحة النيل وهي في محبسها. يستغرقها السؤال عن خريطة الوطن وكيف أصبحت بعد كل ما حدث. فهي أبدا لم تجرؤ على أن تجفو مدينتها، ولا هي ارتاحت إلى وصف أحمد عبدالمعطي حجازي القاهرة بأنها «بلا قلب»، فقد ظلت القاهرة في ضميرها تملك قلبا جياشا وهي على كل حال قد استخفت بسجن الفرد في زمن يحاصر فيه السجن الوطن والشعب والأمة. وهونت من الفارق بين المساجين الذين تغلق عليهم أبواب زنازينهم في الليل، وهؤلاء «الأحرار» الذين يتحفهم الإعلام بنماذج مبتكرة من التهريج السياسي كل مساء عند فريدة السجن «مجرد سور» يمكنها كما يمكن غيرها أن يتسلقه بقليل من اليوجا الروحية.

الحزب الوطني

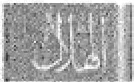
عند نقطة معينة يكتشف القارىء لسيرة فريدة فضلا عن العارف بها أصلا، ألا حدود في حياتها بين الحزب والوطن، فهي مؤمنة برسالته إلى حد التشبع، واثقة من قدرته على الفعل والتأثير والتغيير إلى ما بعد اليقين، إن كان ثمة ما يجب اليقين. مستوعبة فيه بلا مدى، وربما يكون هذا مفهوما بما هو معلوم عن دورها التأسيسي لحزب التجمع، وفي جريدته، لكنه قد لا يكون مقنعا، وبالضرورة تقول فريدة في قص سيرتها : إن الناس ربطوا على التو بين وجودهم «أي أعضاء الحزب» داخل السجن وبين إلغاء الدعم على بعض السلع استجابة لشروط صندوق النقد الدولي، تقصد أحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧. وتقول: إنهم يمثلون رغم سوء الفهم والغموض والصورة المشوهة «أملا» يتشبث به الناس، شعلة صغيرة في الظلام الحالك وتقول «ليس حزب التجمع وحده الآن، بالعكس إن الناس جميعا ينظرون إلينا ويتجهون صوبنا يحدوهم أمل كبير أن يجدوا مرشدا وسبيلا وعلينا نحن الذين نعي الأمر على

حقيقته أن نرشدهم ونضعهم على الطريق.

تعكس هذه الاقتباسات انبهارا بالتجربة من داخلها، أما الواقع فشيء آخر يساورني شك في أن المواطنين البسطاء الذين أذاهم السادات في أقواتهم عام ١٩٧٧ كانوا واعين بتفاصيل الخريطة الحزبية في مصر فضلا عن الربط بين سجن بعض قيادات الأحزاب ودفاعها عن مصالحهم . فهل من دلالة لأن انتخابات ١٩٧٧ التي توصف بأنها الأكثر ديمقراطية لم يجتزها من التجمعيين الا اثنين فيما تحول الثالث لمساندة التطبيع؟.. وهل من مغزى لملاحظة فريدة نفسها حول انتفاض الجماهير بفعل القرارات الاقتصادية دون احتفال بالقضايا السياسية المباشرة بالقوة والشمول نفسيهما؟ في مواضع قليلة من سيرتها، تتضاءل حدود الفجوة بين رؤية فريدة والواقع، كما في قول لها أشبه بالفضفضة أو نقد الذات عن أنه يخيل إليها أحيانا أنهم «أي التجمعيون» يتحدثون إلى أنفسهم، أو أنهم ليسوا بعد قادة الشعب، وأن فريق حراستها المكون من ضابط حديث التخرج وأمين شرطة وجندي لا يعرفون عن حزب التجمع الا اسم زعيمه: خالد محيي الدين أزمة حزب التجمع هي جزء من أزمة عموم الأحزاب في مصر، تضعفها قيود النظام وانشقاقاتها ولذلك بدا لي شديد اليوتوبية انشغال فريدة بمصير سبعمائة داعرة صغيرة صادفتهن في محبسها، وأقلقها كيف يتعامل معهن المجتمع الاشتراكي وكم يكون عليه أن يكنس من آثام وآلام. وكأن في انشغالها رجع لصدى صيحة هاملت الشهيرة «يا أيها الزمن المعوج، لعلني جئت لأقومك».

في عنبر السياسيات

لم تسمح فريدة لصفتها كسجينة سياسية أن تصنع سورا عازلا بينها وبين باقي السجينات سواء في سجن القلعة أو في سجن القناطر الخيرية، ولا كان يمكنها أن تزيد من الطبقية التي يتضرر بعضهن بالفعل منها . ففي السجن طبقية اقتصادية، واستغلال الأضعف والأفقر لحساب صاحبات النفوذ والمال: السجانات وتاجرات المخدرات.. وفي السجن أيضا طبقية قيمية تعكسها النظرة الدونية التي تنظرها النشالات والمتسولات للداعرات وبنات الهوى، وهي، أي فريدة، كانت بحكم تكوينها رافضة للطبقية بشقيها: الاقتصادي والقيمي ومن هنا، فإن قارىء سيرتها يخرج بحصيلة إنسانية رائعة لنماذج بشرية شديدة الايحاء. وأحيانا شديدة الإيلام. نادية المتسولة التي ضللت الجميع وهربت ذات ليلة حتى تنام منها المساء مباشرة، قبض عليها بعد أيام قليلة، لكنها فازت بحلمها، ألا يظللها السجن ولا حوائطه . صفية النشالة التي قهرها السجن، ونفور النزيلات من شذوذها، وأمراض بلا عدد تستوطن أجساد المدمين أمثالها وتعجل بنهايتهم فريال موظفة المجمع التي شاركت فريدة زنزانتها وودعتها بالدموع، تعمل من التاسعة صباحا إلى العاشرة مساء لا تجد اللضى ، تحصرها معاناتها في مطالب آنية بسيطة: ثوب يسترها ومقعد



فى الأتوبيس وصحة تواصل بها العمل.. أن مارى الفرنسية الريفية التى كانت كل مهمتها أنها أوت أحمد فؤاد نجم بعد أن اقتنعت به، وتخلى عنها قنصل دولتها مستنكرا كيف تحمى رجلا لا ترضى عنه حكومته؟ نور صليب وأمل إسماعيل رمزا التشدد الدينى فى الاتجاهين، وأن اقسمت الأولى أن أعز صديقاتها محجبة، وحكت الثانية عن أن فى بلدتها دمياط المسلمون إخوان النصارى.

أما الأقرب إلى قلب فريدة وعقلها فكانت شاهندة مقلد وأمينة رشيد.. عاشت مع شاهندة تسعة شهور كاملة وأحبت فيها هذا الاستعداد الفذ للعطاء بغير مقابل. ووفدت إليها أمينة رشيد مع لطيفة الزيات ونوال السعداوى وصافى ناز كاظم فى سبتمبر ١٩٨١احترمت ككل بنات جيلها لطيفة وألمها من نوال أنها لم تشر الى من تركتهن خلفها فى السجن بكلمة واحدة، وضحكت مع صافى ناز على ذلك الضابط الذى اعتقد فى كراماتها بعد أن دعت عليه -أمه فأصاب نجليه مكروه. لكنها أحبت أمينة وقد وجدت فيها قدرة بلا مدى على إشاعة الحب كضوء غامر.

السجن فى حكى فريدة نابض حى غنى مزدحم أكثر منه عند لطيفة . هل يرجع ذلك إلى أن حملة تفتيش لطيفة جزء من سيرتها فيما تؤرخ فريدة لنفسها من واقع تجربة السجن ومن داخلها؟ هل تملك فريدة قدرة أكبر على الإصغاء للآخر؟ هل غابت تفاصيل صغيرة عن ذهن لطيفة بحكم اتساع المدى الزمنى بين سجنها خصوصا قبل الثورة وبين تسجيله كتابة بعكس فريدة؟ لست أدرى لكنك مع فريدة تعيش حياة كاملة داخل السجن، تلاعبها الشطرنج بوحدات من لبابة الخبز. تشاركها غناء «يا مصر قومى وشدى الحيل» والغناء مثل البكاء يريح القلب تزرعان معا حبات الفول وترويانها بدموعكما بالمعنى الحرفى للدموع، وجديد النبات يحتاج إلى ملح الأرض. توقتان محاضراتكما وأعياد العمال والفلاحين تسخران من زحف الحشرات والجرذان وتجدان فيه حقا «كافكاويا مازوكيا» وتبعثان اليوم تلو اليوم برسائل إلى الأبناء.

المهنة : شهيد

لفتنى بشدة رد بسمة صلاح حسين ذات السنوات الأربع على سؤال أمها شاهندة مقلد ماذا تريد أن تمتهن فى المستقبل؟ فجاء الرد المقتضب «شهيد» كان والد بسمة قد استشهد برصاص الاقطاع فى عام ١٩٦٦ وهو يدافع عن فقراء الفلاحين ، ومن بعد صارت قرية كمشيش التى احتضنت صلاح حسين مناضلا «فشهيدا»: محفورة باسمها ورسمها فى تاريخ مصر السياسى الحديث. وكان خال بسمة قد استشهد فى حرب الاستنزاف عام ١٩٧٠، فترسخ فى ذهن الصغيرة أن الشهادة مهنة، وأحبت أن تكونها، هزنى رد الصغيرة، ولفتنى إلى أننا ونحن نفتش فى أوراق المثقفين وسيرهم بحثا عن حكايات تروى، تنسى أنهم يتركون صغارا من ورائهم، ولا نهتم بأن نعرف ما آل إليه مصير هؤلاء الصغار، ولا

كيف أثرت عليهم تجارب الآباء.. والأمهات وفي سيرة فريدة تفاصيل تعطينا طرف الخيط.

تفتح وعي الصغيرة رشا على حملات المطاردة التي تعرض لها حسين وفريدة «مرارا تكرارا» عايشت دهم منزلها والعبث بحاجياتها وتكلمت لغة الغياب، كما تقول فريدة، تلك اللغة التي ينادي بها الأبناء أعماما وأخوالا وأصدقاء فيما الأب والأم غائبان أو مغيبان. وسمعت عن العقاب بالحرمان من الكتابة، وهو لون من العقاب لا يألفه الصغار لذلك لم يكن مدهشا منها أن تستوقف الضابط الذي جاء يقتحم منزلها وتسأله عن أمر التفتيش، ليدفعها جانبا ويهزأ من ابنة الرابعة عشرة التي لعلها لا تفك الخط لكنها تجادله، ويترك في أعماقها جرحا غائرا. ومع ذلك اختارت رشا حين نضجت أن تظل بعيدة عن السياسة وكذلك عن الحزب. وعندما ألقي القبض على محمد فائق في ١٩٧١ وصدر ضده الحكم بالسجن لمدة عشر سنوات، تساءل صغيره هشام لماذا لم يحكم عليه كغيره بالسجن المؤبد؟ هل يعني هذا أنه أقل بطولة من الآخرين؟.. ظل هشام دوره بعيدا عن عالم السياسة وإن قدر له أن يكابد اختطاف الاب مجددا في ١٩٨١ مع حملة اعتقالات سبتمبر. ربما يكون البعد عن السياسة آلية دفاعية يلجأ إليها الأبناء اتقاء لمصير شائك بالضرورة ولعل هذا المصير نفسه يستفز في الأبناء القدرة على التحدي ولو بتطوير آليات مختلفة. ومن هنا. فإن جاسر الذي طالما راسلته فريدة وهي في محبسها، وربطت في ذهنه بين تقييد الحريات والتفريط في الوطن، اختار أن يكون مجاله الدفاع عن حقوق الإنسان، لكنه مثل رشا ظل خارج الحزب.

النضال قد يكون امرأة

في محبسها الذي دام عاما توزعت شهوره بين سجنين، كانت تتسلى فريدة بقراءة الشعارات السياسية كتبها فتيان وفتيات بعد ما جربت الحبس في سجن الرحال بالقلعة، وكثيرا ما كانت تضيف إليها أشعار أحمد فؤاد نجم على الأرجح فثنائي . نجم / الشيخ امام له منزلة في حياتها وبالتالي في حكيها. وعندما قدر لها أن تعود إلى الزنزانة نفسها في عام ١٩٨١ غاظها محو شعاراتها وأشعارها من فوق الجدران، فإذا هي تعيد كتابتها من جديد لتؤكد أنها باقية. إصرار فريدة من إصرار حسين الزوج والزميل . وليس بعيدا عن الذهن ما قام به عندما صادرت المباحث مسودة كتابه عن انقلاب ١٩٧١ في السودان، فأعاد كتابته من الذاكرة إنصافا لعبد الخالق محجوب، وتأكيدا لموقفه منه.

لماذا إذن قست فريدة وهي المرأة المناضلة الثابتة على المبدأ، على بنات جنسها؟ لماذا اكتفت بقراءة المكتوب على جدران السجن لتخلص إلى أن الثقافة السياسية للشبان أعمق وأوسع؟ هل كل ما يختزنه سجين يسجله حتما فوق جدار؟ كقارئة شعرت بعدم اتساق بين تجربة

فريدة وبين قولها إن النساء أكثر تخلفا وجهلا وإن احساسا غائرا بالدونية يتفشى بينهن. استدعيت ردها الواثق على مأمور سجن الاستئناف فى عام ١٩٧٧ أيام حبس الزوج فى أحداث يناير، عندما تهكم عليها بسؤال: كيف حال الكادحين فى العالم الآن؟ فعاجلته بالقول: «الكادحون ينتصرون فى كل مكان» وتأملت بلاغتها فى وصف حيرة الضابط فى عام ١٩٧٩ ما بين اقتناعه الداخلى بدونية النساء وصلابة السجينات اللائى يمارسن حياتهن العادية وكأن لا شيء يهم ليقرر آخر الأمر أن يضع حدا لهذا التناقض فيغلق الباب على دهشته وغنائهن . فهل يعنى هذا أن فريدة وصويحباتها يمثلن استثناء على القاعدة ؟ وهل الاشتغال بالسياسة فى ذاته غير استثناء؟

عندما قدر لى أن أسمع من فريدة عن طفولتها وصباها، وعندما قرأت لاحقا سيرتها الذاتية بأحداثها وشخوصها الأقرب إلى الذهن مما كان الحال مع لطيفة، أدهشنى أكثر وأكثر حكم فريدة على المرأة المناضلة وذلك أن جزءا من التكوين النفسى وربما حتى السياسى لفريدة وليد إصرار الأم على تعليمهما هى وأمينة، وهما بالتحديد فتعليمهما هو الأصعب والأكثر تعبيرا عن روح التحدى، هل يحمل هذا التفسير ردا على السؤال الذى أثرته فى أول المقال عن سبب اختيار الأختين طريق الاختلاف؟ ربما . المهم أن ليس كل النضال سجنا خلف القضبان . وليست



لطيفة الزيات

كل الثقافة أشعارا ترصع جدران السجن. والمؤكد أن وعى الأم الريفية التى دافعت بإيمان عن حق ابنتيها فى التعليم أنضج بما لا يقاس من وعى صاحبنا قطب اليسار الأشهر الذى نقل معركته مع السادات إلى العراك مع خصومه وسجله فى مقالاته عن مدرسة السادات السياسية وهو أرفع باليقين من وعى صاحبنا الآخر الذى نظر من أعلى للثقافة والفنون السوداء ليعود ويبث من تليفزيون لاجوس برنامجا اسبوعيا عن الدين الإسلامى فالوعى فطرة أو فيه شيء منها .

***

عندما تقرأ أكثر وأكثر عن عالم السجن ومن يكابده ربما تضطر إلى أن تعيد ترتيب منظومتك القيمية بشكل لا إرادى لتضع على رأسها قيمة العدالة، وإن كنت فى قرارة نفسك أكثر تشبثا بالمساواة أو بالديمقراطية . فليس أقسى من إهدار آدميتك ولو ليوم واحد ثم ردها إليك بدعوى عدم كفاية الأدلة ، والحديث بقية. ■

لغويات

لا جرم

من التعابير المسكوكة، الضاربة في القدم، ترد في أدبنا العربي وكتاباتنا، ونفهم معناها على وجه التقريب، وقد يستخدمها اثنان في معنيين متناقضين، تعبير : لا جرم .

لفظ جرم مفردا له معان متعددة، أوضحها : أذنب ، اعتدى ، ارتكب إثما .

ومن معانيها أيضا : قطع ، وجنى ويقال : جرم أن يفعل ، أي حق له ، و«لا جرم أنك أحسنت» ، معناها : حقا إنك أحسنت ، وبهذا المعنى فسروا الآية القرآنية: ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون أعمالا ﴾ ، (سورة هود الآية: ٥٢) ، أي حقا هم الأخسرون أعمالا.

ولا جرم تعني التبرئة والنفي، بمنزلة لابد ولا محالة، ثم استخدمت بمعنى حقا، ولما كثر استعمالها تحولت إلى معنى القسم.

والكلمة عند سيبويه فعل ماض، تحول عن معنى الفعلية إلى الإسمية، ومنع من الصرف، وليس له صيغة مستقبل ولا أمر ولا مصدر ، وجعل مع لا قسما ، وتركت الميم بالفتح على حالها التي كانت عليها وهي في معنى الفعل الماضي.

ويرى الفراء أن الكلمة اسم منصوب بلا ، على معنى التبرئة، وليس للتبرئة خبر هنا، لأن القصد الحلف والقسم.

وهو تعليل لا يجد قبولا عند كل النحاة، ويعترض عليه بعضهم : كيف يحلف بها ، وليس فيها معنى معظم يقسم به؟ قيل : القسم عند العرب على ضربين: أحدهما يقع القسم فيه بمن يجل قدره، وتعلو منزلته ، وهو الذي تسبق إليه الأفهام ويستعمل في أكثر الكلام .

والضرب الثاني أن يعتقد الحالف اليمين، ويحلف بالعظيم عندهم ، الكبير في نفسه ، ثم يأتي ببدل منه ، فيقول مثلا : حلفا صادقا لأزورنك، فجعل حلفا صادقا مكتفى به عند المحلوف ، مع وضوح المعنى ، ومن هنا أقسموا بالحق : حقا لأسافرن غدا، جعلوه عوضا عن اليمين ، وحملوا على الحق ألفاظا معناهم فيها كمعناه ، ومثلها : لا جرم .

د. الطاهر أحمد مكي


ثرثرة فوق النيل
حكايات حارتنا
حضرة المحترم
مصر القديمة

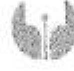
اليهود
فى عالم نجيب محفوظ

بقلم
مصطفى بيومى

فى رواية «قشتمر» ، يقول إسماعيل قدرى : فى مصر أربعة أديان ، الإسلام والمسيحية ، واليهودية والوفد. ويرد صديقه طاهر عبيد ساخرا : والدين الأخير أعظمها انتشاراً «قشتمر - ٢٩».

للحوار بعده الساخر الكاشف عن مدى الأغلبية التى يتمتع بها حزب الوفد فى الشارع السياسى المصرى قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، لكن ما يعنينا هو الوجود المعترف به لليهودية ، ثالث الأديان السماوية انتشاراً فى مصر بعد الإسلام والمسيحية .

مثل هذا الوجود الرسمى لا ينفى أن الموقع الذى يحتله اليهود فى عالم نجيب محفوظ يختلف جذريا عن الموقع الذى يحتله المسيحيون ، بل إن فكرة المقارنة غير قائمة أصلا . اليهود مختلفون وأقرب إلى الأعداء ، وكأنهم - على الرغم من مصريتهم - ليسوا جزءا من نسيج الحياة المصرية .



قبل حرب ١٩٤٨ وقيام دولة إسرائيل ، كان اليهود - المصريون منهم والوافدون - ينتسبون إلى إيقاع الحياة اليومية ، لكنهم - في الوقت نفسه - يمثلون خصوصية تجعلهم بعيدين عن تقبل المجتمع لهم . وفي «زقاق المدق» تظهر هذه الخصوصية عبر شخصيات متباينة ، تعبر عن المواقف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تجاه اليهود : حميدة عاملة المشغل ، السيد سليم علوان صاحب الوكالة التجارية ، المعلم كرشة.

***

تقول حميدة لأمها بالتبني : آه لو رأيت بنات المشغل ! آه لو رأيت اليهوديات العاملات ! كلهن يرفلن في الثياب الجميلة.

وترد الأم باستياء : أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك ، وهيهات أن يهدأ لك بال «زقاق - ٢٧».

فتيات المشغل مسلمات ومسيحيات ويهوديات ، لكن التركيز كله على «اليهوديات» دون «المصريات» ، مسلمات كن أم مسيحيات ! . اليهودية هي النموذج والمثل الأعلى والقدوة ، والفتاة المصرية غير اليهودية ، التي أجبرتها الظروف الاقتصادية القاسية على العمل ، تسعى إلى التقليد والمحاكاة : ومضين على أثر اليهوديات في العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة ..

ولذلك تقول حميدة لأمها وهي تتنهد : حياة اليهوديات هي الحياة حقا ! «نفسه - ٤٠».

الحديث عن الفتيات اليهوديات يتم وكأنهن لسن مصريات ، فهن أقرب إلى جنس مختلف وحضارة مختلفة وعالم مختلف !

***

الممارسة السابقة على المستوى الاجتماعي النسائي تتكرر على الصعيد الاقتصادي عند سليم علوان : وقد جلس إلى مكتبه مركزا انتباهه ، كله في كلام سمسار يهودي .. وقد علمته التجارب أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد ، أو أنه - على حد تعبيره - شيطان مفيد . «نفسه - ٦٦».

قد يكون السمسار اليهودي «أجنبيا» ، لكن يهوديته - دون جنسيته - هي التي تستوجب الحذر وتمثل التحدي ! . عالم السمسرة لا يقتصر على اليهود وحدهم بطبيعة المال ، ففيه كثير من المسلمين والمسيحيين ، وسليم علوان ذو خبرة وليس غرا لكي يخدعه السماسرة ، لكن التاجر المحترف يحشد كل قواه لمواجهة السمسار اليهودي ، أو الشيطان المفيد!.

اليهود المصريون ، أو اليهود في مصر ، مختلفون إذن عن «المصريين» من المسلمين والمسيحيين ، وغير مندمجين على المستويين الاجتماعي والاقتصادي ، وكان ذلك قبل حرب ١٩٤٨ وإعلان قيام إسرائيل .

***

الأمر نفسه نجده على الساحة السياسية ، ففي أحداث ثورة ١٩١٩

تحقق «عمليا» فكرة الوحدة والاندماج بين المسلمين والمسيحيين دون اليهود ، وفي «تاريخ» نضال المعلم كرشة ما يبرهن على ذلك : اشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا ، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، وكان من أبطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرض واليهود من ناحية أخرى . «نفسه - ١٤٧».

وعندما يتوقف كرشة عن «النضال» ويعتزل «السياسة» ، فإنه يكف عن كراهية الجميع : لم يعد يكره أحدا ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم . «نفسه - ١٤٨».

عداء الإنجليز مفهوم مبرر ، أما المعارك العنيفة ضد اليهود والأرمن فتعني أنهم «مختلفون» وليسوا «مصريين» !

علاقات «حميدة» و«كرشة» و«سليم علوان» مع اليهود ، تمثل نموذجا دالا لصورة اليهودي عند نجيب محفوظ ، في عموم عالمه، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً .

***

في مخبأ «خان الخليلي» ، يدور حوار طويل مهم بين الهاربين من جحيم الغارات الألمانية العنيفة ، ويدافع أحدهم عن هتلر ، فيتساءل آخر : فكيف ضربت القاهرة في منتصف هذا الشهر ؟ . ويأتي التبرير والدفاع : ضربت السكاكيني وهو حي غالبية سكانه من اليهود ! . «خان - ٦٧».

وجود اليهود في «السكاكيني» يوشك أن ينفي انتماء الحي إلى القاهرة ! ، أما اليهود وجيرانهم من المسلمين والمسيحيين ، فلا يحسبون على المصريين ، ولا يُدان الألمان إذا أغاروا عليهم ! اليهود لا يمثلون غالبية سكان الحي كما يقول المتعصب للألمان والمدافع عنهم ، والذين يعاشرونهم من المسلمين والمسيحيين يتعرضون للعدوى ، ويتم التعامل معهم كأنهم يهود لا علاقة لهم بمصر والمصريين !.

تمثل المسلمة سعاد وهبي ، في أوائل الثلاثينات ، ظاهرة غير مألوفة في الجامعة المصرية ، لما تتسم به من انطلاق وتحرر ، ولذلك تتوالى الأخبار والشائعات والاتهامات :

- إنها من حي اليهود بالظاهر ، ولدت وترعرعت في جو من الحرية الجنسية المطلقة !

- وأسرتها منحلة ، الأب والأم والأخوات

- وهي إمرأة لا عذراء ، مجربة للسهر والسكر والعربدة ! . «المرايا .. ١٥٩».

«حي» اليهود و«أخلاق» اليهود ! . كل هذه الاتهامات القاسية من نصيب فتاة مسلمة «يقال» إنها من الظاهر ، فما هو الحال بالنسبة لليهوديات ؟!.

وتكتمل الصورة الاجتماعية لليهود في الحياة المصرية إذا تأملنا كيف يتعامل المصريون مع «فكرة» اليهودي ونمط الحياة اللصيق به والمميز له.

لماذا تعترض خديجة أحمد عبد الجواد

على زواج ابنها أحمد من سوسن حماد ؟!
خليط من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية : ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة ، فوجدتهم يقيمون في بدروم في شارع كله يهود على الصفين : «السكرية - ٢١٨» .

مجرد معاشرة اليهود والاختلاط بهم «فعل» يستحق الإدانة ، ويستوجب الرفض والمعايرة !

وفي قصة «الشريدة» يصف الراوي حديث صديقه البارع بأنه قصة مستوفاة العناصر : ومثل هذا الحديث يستبد بمشاعري استبداد المال بقلب اليهودي الشحيح «همس - ٢٨».

ليس استبداد المال بقلب «الشحيح» ، لكنه الاستبداد بقلب «اليهودي الشحيح» تحديدا ، فاليهودي هو ذروة البخل ومضرب المثل في سلوك « إنساني» عام ينتشر بين أتباع جميع الأديان ، وليس بين اليهود وحدهم !

واليهود «شر» يضرب به المثل عند عتاة الأشرار من أمثال حسن كامل ، الذي «يتفلسف» ليبرر قبول هدية جارهم فريد أفندي : قبل النبي مرة هدية أهداها إليه يهودي ، فهل يكون فريد أفندي شرا من اليهود ؟! . «بداية - ١٤٤».

اليهود شر لا يحتاج إلى مناقشة ، ولا ينبغي أن يثير الخلاف !

***

ليس المعلم كرشة وحده من «يناضل» ببسالة ضد اليهود ، فالفتوة المتقاعد عشماوي مناضل سابق ضدهم : في شبابي كنت إذا اخترقت طريقا يختفي اليهود من جوانبه . «الحب تحت - ١٧٧».

اليهود الهاربون من عشماوي في شبابه ، هم الذين أسسوا دولة إسرائيل ، واحتلوا سيناء بعد حرب ١٩٦٧ ، وتسببوا في قتل وإصابة عديد من أبناء الحارة ، التي كان عشماوي نفسه حاميها ! . لقد تحول اليهود إلى دولة تحمل اسم «إسرائيل» ، واستمر الصراع والعداء ، وليس نادرا أن تستخدم كلمة «اليهود» كبديل لإسرائيل عند بعض شخوص نجيب محفوظ .

ولعل مفتاح التداخل بين «إسرائيل» و «اليهود» هو ما نجده في المناقشات الساخنة التي تشهدها الجامعة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، حيث تتعدد الاجتهادات والتفسيرات والتبريرات : الدين .. الدين ، ما انتصرت إسرائيل إلا بالتوراة ، فالحرب يجب أن تكون بالقرآن . «الباقي - ٩٦».

إذا تم التعامل مع إسرائيل كدولة دينية تضم يهود العالم وتحكمها التوراة ، فلا فارق إذن بين «إسرائيل» و «اليهود» . لم تنتصر إسرائيل إلا بالدين وكتابها المقدس ، فلا انتصار لمصر إلا بالدين والقرآن !

***

عيد منصور «مسلم» ، وفي سلوكه وممارساته ما يفارق السائد والمألوف : أبوه تاجر عمارات عمل مع اليهود طويلا ، واكتسب الكثير من أساليبهم ومهاراتهم .

«المرايا- ٣١٠» . وجاء الابن على مثال أبيه الموصوف بأنه كان بخيلا ، دقيقا ، فظاً ، جامد المشاعر ، وفي حرب ١٩٤٨ يتخذ عيد موقفاً نشاذا : حتي خيل إلىّ أنه يكره وطنه لأسباب لا أدريها ، أو أن مصالحه التجارية أفسدت عليه الميول التي نعتبرها فطرية . «نفسه - ٣١٤».

هل يكره وطنه أم يحب مصالحه ؟! . المسألة - ببساطة - أن مصلحته هي وطنه ، ومواقفه جميعا تتبع من هذا القانون !

وضرغام الهندي واحد من الذين يؤرخ لهم نجيب محفوظ في قصة «صباح الورد» : مسلم ورب أسرة مسلمة ، ولكنه أقرب إلى اليهود . مهنته المعروفة هي الإقراض بالربا ، ووصفه كثيرون من أهل شارعنا بالملعون» «صباح - ٨١».

وكما جاء عيد منصور على مثال أبيه، فإن سيد ضرغام يكرر حياة أبيه ، ويتخذ المواقف التي تتوافق مع مصلحته .

إنه يعتبر هزيمة مصر في حرب ١٩٦٧ «عيدا» والانفتاح الاقتصادي عنده «عيد» آخر : ويدعو الله أن يبارك خطانا إذا اخترنا الارتماء في حضن الاستعمار الأمريكي ! . «نفسه - ٨٦».

«عيد منصور» و«سيد ضرغام» ، وما أكثر وجوه الشبه بينهما ، يختاران المصلحة دائما . فإذا كانت المصلحة مع اليهود ، فإنهم أقرب إليهما من المسلمين والمسيحيين والوطن والوطنية جميعاً ! ■

حى بن يقظان للسهروردى

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

عرضنا فى العدد الماضى من «الهلال» لرسالة الشيخ الرئيس ابن سينا «حى بن يقظان»، وفى ظل إسهام الحضارة العربية الإسلامية فى تطور الحضارة الإنسانية بإسهامات غير مسبوقة، وفى إطار ما يعرف بالقصة الرمزية، التى التقى عندها إبداعا وتطويرا وتجويدا وبنفس العنوان كل من ابن سينا والسهروردى وابن طفيل.

وإذا كان ابن سينا قد أراد أن يبث «حى بن يقظان» شيئا من أفكاره فى الكون والحياة والموت، بعيدا عن غوغائية العوام، فحررها مرموزة لا يفهمها إلا الصفوة، فإننا فى هذا المقال نعرض لثانى هؤلاء الفلاسفة وكيف تناول قصته.



جاء السهروردى بعد ابن سينا، وعاصر ابن طفيل، واختلفا اتجاها ومذهبا. فالسهروردى صوفى يؤمن بمذهب «وحدة الوجود» والإشراق والولاية عنها يصدر وعندها يقف، أما ابن طفيل فعرض للكثير من جوانب الفلسفة، وربما مست أفكاره مذهب وحدة الوجود، ولكنه لم يكن متصوفا.

قصة السهروردى أقصر القصص الثلاث، فهى تبلغ ثلث قصة ابن سينا حجما، ويمكن تصور حجمها بالنسبة لقصة ابن طفيل إذا عرفنا أن حجم هذه يعدل حجم قصة ابن سينا سبع مرات. وإلى جانب هذا كانت الأقل شهرة وشيوعا فى العالمين الإسلامى والأوربى، لغموض عبارتها، فلا يدرك مراميها إلا من كان متمكنا من معرفة اتجاهات الصوفية الذين يؤمنون بوحدة الوجود والمكاشفة والإشراق وغيرها من مصطلحات كبار الصوفية المتفلسفين. ومثل هذه الكتابات الرمزية العالية لا يقبل عليها العجلون فهما أو قراءة، وهى



تحتمل بطبيعتها أكثر من فهم ومن تفسير، وواضح أن السهروردى لجأ إلى هذا وأوغل فيه هروبا من العامة، وكراهيتهم للمتصوفة المتفلسفين دعاة وحدة الوجود، أشد من كراهيتهم للفلاسفة، وربما لهذا السبب كان الوحيد بين الثلاثة الذى قتل وهو فى السادسة والثلاثين من عمره، إلى جانب أن قصته ظلت مجهولة إلى وقت، رغم أن حاجى خليفة فى فهرسته للمؤلفات العربية أشار إليها، تحت عنوان: «الغربة الغربية»، وهى الجملة التى ختم بها المؤلف رسالته، ومعتمدا فيما أرجح على مخطوطتها التى فى الآستانة، ولعلها جاءت بغير عنوان فى الصفحة الأولى منها، وأما مخطوطتها الثانية التى توجد فى دير الإسكوريال قرب مدريد، فقد نسبت فى فهرسها خطأ إلى ابن سينا، وهو أمر استدركه المستشرقون المحدثون.

مقدمة مهمة

نشرت القصة لأول مرة فى اسطنبول عام ١٩٤٥، ثم أعاد «المعهد الفرنسى الإيرانى» نشرها مع بقية مؤلفات السهروردى كاملة فى مجلدين، فى سلسلة «المكتبة الإيرانية» فى طهران عام ١٩٥٢، بإشراف المستشرق الفرنسى هنرى كوربان، بعد أن قدم لها باللغة الفرنسية، وهى الطبعة التى قامت الثقافة الجماهيرية فى القاهرة بنشرها مصورة عام ٢٠٠٠م، بعد أن حذفت المقدمة الفرنسية، مما أفقد الطبعة كثيرا من قيمتها العلمية، لأن المقدمة تضم تعريفا وافيا بأسماء المخطوطات التى اعتمد عليها المحقق، والأمكنة التى توجد فيها، وقيمتها، ومن ثم أصبحت الهوامش التى بأسفل الصفحات وتشير إلى الفروق بين المخطوطات المختلفة، مستخدمة الرموز فى تحديدها، لا تعنى شيئا بالنسبة إلى قارئ الطبعة المصرية، كما أنها حرمته من دراسة المستشرق الفرنسى وفيها ناقش كثيرا من القضايا الصوفية التى أثارت جدلا عميقا بين جمهرة المستشرقين.

أما طبعة أستاذنا أحمد أمين، وظهرت في أوائل الستينيات، فقد اعتمد فيها على مصورة مخطوطة فريدة قدمها له الأستاذ محمود الخضيري، ولم يشر إلى مصدرها، ولا أظنه عرف أو اطلع على ما نشر منها في أسطنبول أو طهران. *

تأثر بابن سينا

جاء السهروردي في إبداعه تاليا لابن سينا ومتأثرا به، اقتفى أثره فيلسوفا ثم سرعان ما استقل بفكره، وتحول عن الفلسفة إلى التصوف، ويعد رأس المدرسة الإشراقية، ومن كبار دعاة مذهب «وحدة الوجود»، وهو يعترف منذ البداية بأنه عرف قصة ابن سينا وتأثر بها، وأراد أن يكمل ما رآه نقصا فيها، يقول:

أما بعد، فإني لما رأيت قصة حي بن يقظان، صادفتها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانية والإشارات العميقة، متعرّية من تلويحات تشير إلى الطور الأعظم الذي هو «الطامة الكبرى»، المخزونة في الكتب الإلهية، المستودعة في رموز الحكماء، المخفية في قصة «سلامان وأبسال» التي رتبها صاحب قصة «حي بن يقظان» وهو السر الذي ترتب عليه مقامات أهل التصوف وأصحاب المكاشفات، وما أشير إليه في رسالة حي بن يقظان إلا في آخر الكتاب حيث قيل: «ولربما هاجر إليه أفراد من الناس».. إلى آخر الكلمات. فأردت أن أذكر منها شيئا في طراز قصة سميتها أنا «قصة الغربة الغربية» لبعض إخواننا الكرام:

«لما سافرت مع أخي عاصم من ديار ما وراء النهر إلى بلاد المغرب لنصيد طائفة من طيور ساحل اللجة الخضراء، فوقعنا بغتة في القرية الظالم أهلها، أعني مدينة قيروان، فلما أحس قومها أننا قدمنا عليهم فجأة ونحن من أولاد الشيخ المشهور بالهادي ابن الخير اليماني، أحاطوا بنا فأخذونا مقيدين بسلاسل وأغلال من حديد، وحبسونا في قعر بئر لا نهاية لسمكها. وكان فوق البئر المغطاة التي عمرت بحضورنا قصر مشيد وعليها أبراج عدة، فقيل لنا: لا جناح عليكم إن صعدتم القصر متجردين إذا أمسيتم، أما عند الصباح فلابد من الهوى في غيابة الجب».

رموز الرحلة

اختار السهروردي أن ينطلق لرحلته من بلاد ما وراء النهر، ورمز بها للعالم العلوي، وأن ينتهي بها في القيروان من بلاد المغرب، ورمز به للهيولى (١) ، حيث

تسطع الشمس، ورمز بها لسطوع العقل، وأما اللجة الخضراء فيعنى بها عالم المحسوسات، وأما «الهادى» فهو الفيض الأول، أى العقل الفعال، وهو واسطة الهداية والخير، وتعنى الأغلال والقيود والحياة فى قاع البئر إلى الحياة المظلمة التى تتحكم فيها الشهوات، وتمضى القصة:

«فبينما نحن فى الصعود ليلا وفى الهبوط نهارا، إذ رأينا الهدهد دخل من الكوة سلما فى ليلة قمراء، وفى منقاره رقعة صدرت من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة، وقال لنا: إنى أحطت بوجه خلاصكما وجئتكما من سبأ بنبأ يقين، وهو ذا مشروح فى رقعة أبيكما. فلما قرأنا الرقعة فإذا فيها إنه من الهادى أبيكما، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. شوقناكم فلم تشتاقوا، ودعوناكم فلم ترتحلوا، وأشرناكم فلم تفهموا».

واضح أن الهدهد هنا يرمز إلى وحى العقل وإلهامه الذى يبين الأشياء على حقيقتها، وقد أتى من الله أبينا برسالة فيها الحكمة وفيها النور الذى يكشف الظلام، ويرشد الإنسان، وفيها بين كل غامض، وكشف كل محجوب، وأن الله شوقهم إلى رضوانه واللجوء إليه، فغلبتهم الشهوات وخضعوا لها، ولم يستجيبوا لعقولهم، وفى تسمية أحد المسافرين عاصم إشارة إلى أن العقل يعصم المرء من الزلل، وإذا أراد النجاة لابد له أن يسفر بعيدا عن الشهوات وأن يتركها، وأن يعتصم بحبل الله عن طريق العقل، ومن ثم بدأ يرسم لهم طريق النجاة.

«إن أردت السفر مع أخيك فلا تنيا فى عزم السفر، واعتصما بحبلنا وهو جوهر الفلك القدسى المستولى على نواحى الكسوف، فإذا أتيت وادى النمل فانفض ذيلك، وقل: الحمد لله الذى أحيانى بعد ما أماتنى وإليه النشور، وأهلك أهلك، واقتل امرأتك إنها كانت من الغابرين، وأمض حيث تؤمر فإن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. واركب السفينة، وقل «بسم الله مجريها ومرساها... فركبنا السفينة وهى تجرى بنا فى «موج كالجبال» ونحن نروم الصعود على جبل طور سيناء حتى نزور صومعة أبينا. وحال بينى وبين ولدى الموج فكان من المغرقين».

لقد أوصينا بركوب السفينة لتتجرد من الشهوات، ونسير بها حتى توصلنا إلى بر السعادة، إلى طور سيناء حيث وصل أخونا موسى إذ رأى الله، ولكن السفينة جرت فى موج من الفتن، واستيلاء دواعيها وغلبة أهوائها، وكانت كالجبال الحاجبة النظر، المانعة السير، وهكذا حال

الموج، أو الفتن والأهواء إذا شئت، بين الإنسان وبين الوصول إلى الله، فكان من المغرقين في بحر الهيولى الجثمانية.

فالأهل هنا ترمز إلى الشهوات، والشمس التي فوق رؤوسنا تعني الموت، والظل مفارقة الهيولى عند الصوفية، واقتل تعني اترك.

ويمضي السهروردي في قصته:

وعرفت أن قومي موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟، وعلمت أن القرية التي كانت تعمل الخبائث يجعل عاليها سافلها، ويمطر عليها حجارة من سجيل منضود، فلما وصلنا إلى موضع يتلاطم فيه الأمواج، ويتدحرج المياه، أخذت ظئري التي أرضعتني وألقيتها في اليم. وكنا نسير في جارية ذات ألواح ودسر، فخرقنا السفينة خيفة ملك وراءنا يأخذ كل سفينة غصبا. والفلك المشحون قد مر بنا على جزيرة يأجوج ومأجوج إلى الجانب الأيسر من الجودي، وكان معي من الجن من يعمل بين يدي، وفي حكمي عين القطر، فقلت للجن: انفخوا فيه حتى صار مثل النار، فجعلت سدا حتى انفصلت عنهم. وتحقق وعد ربي حقا، ورأيت في الطريق جماجم عاد وثمود، وطفت في تلك الديار وهي خاوية على عروشها، وأخذت الثقلين مع الأفلاك، وجعلتها مع الجن في قارورة صنعتها أنا، مستديرة وعليها خطوط كأنها دواير، فقطعت الأنهار من كبد السماء. فلما انقطع الماء عن الرحى انهدم البناء فتخلص الهواء إلى الهواء، وألقيت فلك الأفلاك على السماوات حتى طحن الشمس والقمر والكواكب، فتخلصت من أربعة عشر تابوتا وعشرة قبور عنها ينبعث ظل الله، حتى يقبضني إلى القدس «قبضا يسيرا بعد أن جعل الشمس عليه دليلا، ولقيت سبيل الله ففطنت أن هذا صراطي مستقيما، وأختي وأهلي قد أخذتها غاشية من عذاب الله بياتا، فباتت في قطع من الليل مظلما، وبها حمى وكابوس يتطرق إلى صرع شديد.

في بيان الرموز

بعض الألفاظ التي مرت في الفقرة السابقة رموز تحتاج إلى فضل بيان:

أراد «بالملك» الموت، و«بالثقلين» النفس الأمارة والنفس اللوامة مع بواعثها، وربما أراد الوهم والخيال. وعنى «بالقارورة» الدماغ، لأنه معدن روح الإنسان، وبالخطوط العروق والتجويفات التي فيه، و«بكبد السماء» الرأس. وأراد بالقبور العشرة الحواس الظاهرة وهي خمس: البصر والشم

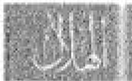
والذوق واللمس والسمع، والحواس الباطنة، وهي خمس أيضا: الشعور والوجدان والحس والحدس والإدراك.

وعنى بالتوابيت الأربعة عشرة مظاهر القوة العشرة وهى: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والمولدة والمصورة (أو المتخيلة) والنامية والغاضبة والشهوانية، إلى جانب الأخلاط الأربعة، وتعنى فى القديم أمزجة الإنسان، وهي: الصفراء والبلغم والدم والسوداء، ورمز بأختى وأهلى إلى هيولى الأجسام.

لقد ركب المسافر سفينة الحياة، تجرى فى بحر متلاطم الأمواج، وهو وجود كل عارف، والتقى بجثث عاد وثمود، وعنى بهم الناس الذين هم صرعى شهواتهم، وقد وضع الفتن والشهوات ودواعى الشر، وعبر عنها بالجن، فى قمقم حتى لا تخرج مرة أخرى وتحمله إلى الفساد. ففار تنور البدن باستيلاء العقل على الأخلاط الفاسدة، وفاض ماء الهيولى على نار الروح الحيوانية وصفا القلب، وعند ذلك وصل إلى صخرة النجاة، فماذا رأى فيها؟

رأيت سراجا فيه دهن وينبجس منه نور ينتشر فى أقطار البيت، ويشتعل مشكاتها ويشعل سكانها من إشراق نور الشمس عليهم. فجعلت السراج فى فم تنين ساكن فى برج دولاب تحته بحر قلزم، وفوقه كواكب ما عرف مطارح أشعتها إلا بارئها والراسخون فى العلم، ورأيت الأسد والثور قد غابا، والقوس والسرطان قد طويا فى طى تدوار الأفلاك، وبقى الميزان مستويا إذا طلع النجم اليمانى من وراء غيوم رقيقة متألقة، مما نسجته عناكب زوايا العالم العنصرى فى عالم الكون والفساد. وكان معنا غنم فتركناها فى الصحراء، فأهلكتها الزلازل، ووقعت فيها نار صاعقة. ولما انقطعت المسافة وانقرض الطريق، وفار التنور من الشكل المخروط، فرأيت الأجرام العلوية اتصلت بها، وسمعت نغماتها ودستاناتها، وتعلمت إنشاءها، وأصواتها تقرع سمعى كأنها صوت سلسلة تجر على صخرة صماء، فتكاد تنقطع أوتارى، وتتفصل مفاصلى من لذة ما أنال، ولا يزال الأمر يتكرر علىّ حتى انقشع الغمام وتخرقت المشيمة.

فى الفقرة السابقة عنى بإشراق الشمس العقل الفعال، وهو عند فلاسفة المسلمين نهاية سلسلة العقول الفلكية، وسموه العقل العاشر لأن هذا ترتيبه، وهو الذى يدير شئون الأرض، ويراه ابن سينا حلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة. ويرمز الأسد إلى الغضب، والثور إلى الشهوة، والنجم اليمانى إلى



سهيل، ويعنى به النفس الكلية، وهى مبدأ وحدة العالم وحركته تدبره كما تدبر النفس والجسم، وهو ما يقول فريق من أصحاب مذهب وحدة الوجود، وكان السهروردى أحد أعلامه، ورمز بالقنم إلى الخوف، وبالشكل المخروط إلى القلب، ويتخرقت المشيمة إلى ارتفاع الحجاب والكشف، أى رؤية الله، تقول رابعة العدوية تناجى ربها:

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا

لما حطت السفينة رأى سراجا فيه دهن ينبعث نورا، وأسدا وثورا وغنما تركوها فى الصحراء فأملكتها الزلازل، ووقعت فيها نار صاعقة، فلما انقطع الطريق وفار التنور، رأى الأجرام السماوية، وسمع نغماتها، وتعلم منها أشياء، فلم تم له ذلك:

طور سيناء فلك الأفلاك

خرجت من المغازات والكهوف حتى تقضيت من الحجرات متوجها إلى عين الحياة، فرأيت الصخرة العظيمة على قلة (قمة) جبل كالطور العظيم. فسألت عن الحيتان المجتمعة فى عين الحياة المتنعمة المتلذذة بظل الشاهق العظيم: إن هذا الطور ما هو؟ وما هذه الصخرة العظيمة؟. فاتخذ واحد من الحيتان سبيله فى البحر سربا فقال: «ذلك ما كنت تبغى، وهذا الجبل هو طور سيناء، والصخرة صومعة أبيك، فقلت: وما هؤلاء الحيتان؟ فقال أشباهك، أنتم بنو أب واحد، وقطع لهم شبيه واقعتك، فهم أخوانك. فلما سمعت وحققت عانقتهم، ففرحت بهم وفرحوا بى، وصعدت الجبل، ورأيت أبانا شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق من تجنّى نوره، فبقيت باهتا متحيرا منه، ومشيت إليه، فسلم علىّ، فسجدت له وكدت أنمحق فى نوره الساطع، فبكت زمانا وشكوت عنده من حبس قيروان.

قال لى: نعما تخلصت، إلا إنك لابد راجع إلى الحبس الغربى، وإن القيد بعد ما خلعته تاما، فلما سمعت كلامه طار عقلى، وتأوهت صارخا صراخ المشرف على الهلاك وتضرعت إليه. فقال: أما العود فضرورى الآن، ولكنى أبشرك بشيئين: أحدهما أنك إذا رجعت إلى الحبس يمكنك المجئ إلينا، والصعود إلى جنتنا هنا متى ما شئت. والثانى أنك تتخلص فى

الأخير إلى جنابنا تاركا البلاد الغربية بأسرها مطلقا. ففرحت بما قال. ثم قال لى: اعلم أن هذا جبل طور سيناء، وفوق هذا جبل طور سنين، مسكن والدى وجدك، وما أنا بالإضافة إليه إلا مثلك بالإضافة إلىّ، ولنا أجداد آخرون حتى ينتهى النسب إلى الملك الذى هو الجد الأعظم الذى لا جد له ولا أب، وكلنا عبيده، به نستضئ، ومنه نقتبس، وله البهاء الأعظم، وله الجلال الأرفع والنور الأقهر، وهو فوق الفوق، ونور النور، وفوق النور أزلا وأبدا، وهو المتجلى لكل شئ، وكل شئ هالك إلا وجهه. فأنا فى هذه القصة إذ تغير الحال على وسقطت من الهواء فى الهاوية، بين قوم ليسوا بمؤمنين، محبوسا فى ديار المغرب، وبقى معى من اللذة ما أطيق أن أشرحه، فانتحبت وابتهلت وتحسرت على المفارقة، وكانت تلك الراحة أحلاما زايلة على سرعة».

قبل أن أعرض لمحتوى الفقرة كلا أزيح الستر عن رموزها، فقد عنى بالحيتان النفوس الجزئية، وبطور سيناء فلك الأفلاك، «وبأبيك» العقل الكلى، وبالشيخ الكبير النفس الكلية، وهى مبدأ وحدة العالم وحركته، تديره كما تدير النفس والجسم، كما يرى بعض أنصار مذهب «وحدة الوجود» ويراها بعضهم بمثابة الإله، ويضعها البعض الآخر فى مرتبة وسطى بين الإله وسائر الكائنات. وهى عند أفلاطون مصدر النظام والانسجام فى العالم. وأراد بمسكن جدى وجدك العالم العلوى، وبالسراج العقل الفعال، وبأختى هيولى الأجسام، وبالأسد الغضب، وبالثور الشهوة، وبالغنم الخوف، وبالشكل المخروطى القلب، وبالحيتان الشهوات والغرائز، وبالحوت الذى تسرب إلى البحر النفس الإنسانية التى تسربت إلى الجسد، وبتخرق المشيمة ارتفاع الحجاب الذى يترتب عليه المشاهدة أو المكاشفة، والأولى أخص من الثانية، لأن المكاشفة ظهور الشئ للقلب باستيلاء ذكره من غير بقاء الريب، أو حصول الأمر العقلى بالأفهام دفعة واحدة من غير فكر ولا طلب، أو بين النوم واليقظة، أو ارتفاع الغطاء حين تتضح جلية الجمال فى الأمور المتعلقة بالآخرة.

نهاية القصة

ومع هذه الفقرة نصل إلى قريب من نهاية القصة، لقد رأى سراجا ينبعث من زيته نور، وينتشر فى أقطار البيت، ورأى أسدا وثورا وغنما تركوها فى الصحراء فأهلكتها الزلازل، ووقعت فيها نار صاعقة فلما انقضى الطريق وفار التنور رأى

الأجرام العلوية، وسمع نغماتها، وتعلم منها أشياء، ولما تم له ذلك توجه إلى عين الحياة، ورأى الصخرة العظيمة على قمة الطور العظيم، ورأى حيتانا مجتمعة، اتخذ واحد منها سبيله فى البحر هربا، فسأل: ما هؤلاء الحيتان، فأجيب بأنهم إخوان، فلما سمع ذلك عانقهم، وفرح بهم، وفرحوا به.

ثم صعد إلى الجبل فرأى أباه شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق منه، وعلم أن هذا الجبل طور سيناء، وفوقه يسكن والده وحده، وكلنا عبيده، وبه نستعين ومنه نقتبس، وله البهاء الأعظم، والجلال الأرفع. وألمح إلى مسلك الإنسان فى الدنيا تطوقه الأهواء والشهوات والغرائز، فإذا استطاع أن يتغلب عليها وصل إلى بر الأمان. والحوت الذى اتخذ سبيله فى البحر سربا هو النفس الإنسانية تسربت إلى الجسد، واتكأ فى هذا الجانب من قصته على تأويل قصة موسى مع الخضر التى وردت فى سورة الكهف الآية ٦٠ وما بعدها، واتخذ منها فى صورة رمزية مركبا للتعبير عن أفكاره، وكان بلوغ الصخرة يعنى النجاة، والوصول إلى المعرفة الإلهية.

لقد كان سفرا صعبا، ولقى منه نصبا، لأنه رحلة الإنسان الطويلة إلى الحضرة الإلهية، ثم رأى الله، وهو المعبر عنه بالأب، كما رآه موسى، ووجد عنده قوما صالحين وصلوا إلى الله قبله فأنس بهم وصاحبهم. ومعه ندرك ما أراد السهروردى أن يقوله: إن أرقى مراحل الإنسان أن يتصل بالله، وطريقه إليه ليس سهلا، إنما يتطلب مجاهدة، وتغلبا على الطبائع والغرائز التى تقف فى طريقه، ويتطلب ذلك جهدا وصبرا وعونا من الله. وبعد أن يصل الإنسان إلى مرتبة الكشف يعود إلى محبسه ثانية، أى إلى بدنه وحسه وحياته فى الدنيا المعتادة، فهو لا يترك الحبس نهائيا، ولكنه يعود إليه من حين لآخر حتى يدركه الموت، فإذا مات اتصل بالرفيق الأعلى. وهذا ما عليه جمهور الفلاسفة من أن النفس كانت عالمة بكل شئ، فلما حلت فى الجسم الثقيل أخذت تتذكر بعض ما كانت تعرف، وسوف تعود إلى حالتها الأولى بعد الموت، وتتصل بالذات العلية ثم يختم السهروردى قصته:

فأنا فى هذه القصة إذ تغير الحال على، وسقطت من الهواء فى الهاوية، بين قوم ليسوا بمؤمنين، محبوسا فى ديار المغرب، ويبقى معى من اللذة ما لا أطيق أن أشرحه، فانتحبت وابتهلت وتحسرت على المفارقة. وكانت تلك الراحة أحلاما زائلة على سرعة.

نجانا الله من أسر الطبيعة، وقيد الهيولى، وقل الحمد لله

سيريكم آياته فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون، وقل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون والصلاة على نبيه وآله أجمعين».

***

استدراك على الشيخ

لقد رأى السهروردى أن ابن سينا أسقط فى قصته «حى بن يقظان» جوانب كثيرة من أحوال الصوفية ومقاماتهم وأفكارهم كالإشراق والكشف ووحدة الوجود، فأبدع قصته هذه ليستدرك ما ترك الشيخ الرئيس، وحملها آراءه وآراء المتصوفة الذين على شاكلته، وكان هو شيخهم، وقمة تفكيرهم، ودفع ثمن هذه الأفكار على نحو ما دفعها سقراط قبله، فأعدموه وهو فى السادسة والثلاثين من عمره، وضنوا عليه بلقب شهيد، فدعوه «المقتول» تمييزا له عن آخرين يشاركونه اسمه، وتجسد قصته، حى بن يقظان، أو الغربة الغربية كما أسماها هو نفسه، الإنسان الذى أكمل عقله عن طريق الكشف والذوق بمعناهما الصوفى، وتوصل إلى معرفة ربه بعد عناء طويل ومجاهدة صادقة، وفيها يتجلى فكره كاملا، رغم أن القصة كثيرة الرموز، لا تكشف للقارئ عن أسرارها للمرة الأولى، وهى سمة كل إبداع عظيم، ولكن لذة الكشف فيها تمثل متعة عقلية مضيئة، تستحق ما يبذل فيها منه جهد، يصبح أقل عناء لمن يقرأ بقية إنتاج السهروردى عامة، وكتابه «حكمة الإشراق خاصة»، وفيها سوف تلتقى باستقلاله الفكرى واضحا ومتكاملا، يناقش نظريات أفلاطون وأرسطو، ويبين ما فى بعض آرائهم من تهافت وتناقض دون أن يغمط أيا منهما قدره، ويجعل دراستهم، مع آخرين، شرطا لمن يريد أن يكون عالما. يقول: إن الطالب إذا أراد أن يفهم الجانب العقلى الخالص للفلسفة العالية فإنه يتعين عليه أن يكون ملما بفلسفة أرسطو، وبالمنطق والرياضيات والتصوف، وينبغى أن يكون بريئا تماما من أدران الخطيئة والهوى، وعليه ثمة أن ينمى بالتدريج حاسته الباطنة، ومهمتها تأكيد وتصحيح ما يدركه العقل، على اعتبار أنه نظرية محضة. إن عقلا دون سند يسنده لا يجدر الوثوق به، إنه ينبغى أن يكون مزودا «بالذوق» - أى الإدراك الخفى لجوهر الأشياء - الذى يجذب المعرفة والطمأنينة للروح القلقة، ويستأصل التشكك إلى الأبد.

إذا استثنينا الألفاظ التى لا يعنى بها ظاهرها، وجاءت رموزا لمعان أبعد، فإن لغة السهروردى أدبية وسليمة، اتكأ فيها على كثير من آيات القرآن وقصصه، ووظفها توظيفا جيدا، استلها من سياقها فى سورها، وأعاد تركيبها فى قصته، وجعلها مركبا ذلولا لأفكاره البعيدة، التى تعلو على أفهام العامة وأنصاف المثقفين، صنع ذلك قاصدا على التأكيد، وإن لم ينجه هذا من النهاية الأليمة: الموت شنقا!

فى مقال قادم مع ابن طفيل فى قصته، وهى الأرقى والأعظم والأوسع حجما وانتشارا وأفكارا.

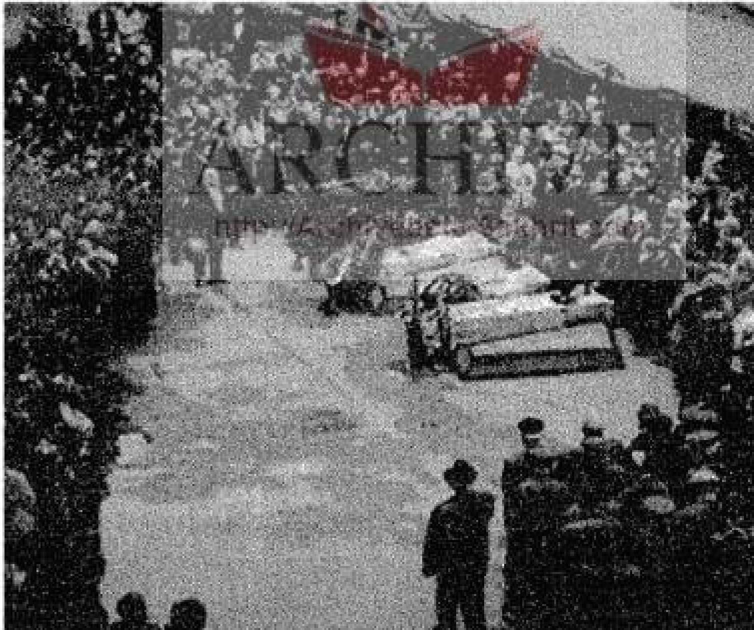
(١) كلمة يونانية الأصل، يراد بها المادة الأولى، وهو كل ما يقبل الصورة. ■

روسيا والشيشان

التراث الدامي وجذور العنف

بقلم
محمود أحمد

«أيها القوقاز طأطيء هامتك المجللة بالثلوج، واخضع ... فإن يرمولوف آتٍ»
بوشكين



١٧٠
الهلال
شوال ١٤٢٥هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م

فى روسيا - كما فى كل مكان فى العالم تقريبا - ينتشر حديث «الإرهاب» فلا يكاد يترك مساحة لحديث غيره، ولكن الحديث عن الإرهاب ربما يبدو فى موسكو كثيفا وثقيل الوطأة بأكثر مما هو عليه فى أى مكان آخر! يكاد المرء يصطدم به فى كل محفل وفى أى مكان يتوجه إليه فى العاصمة الروسية.

ويختلف الحديث عن الإرهاب فى روسيا عما هو سائد فى أماكن أخرى فى العالم هذه الأيام. فبينما يتحدثون فى الولايات المتحدة أو إيطاليا، مثلا، عن «الإرهاب الوارد من الخارج»، فإن الروس - وخاصة المسئولين منهم - يقولون إن الإرهاب الذى يعانون منه نابع من الداخل، وإن كان يستعير الأساليب والتطبيقات التى أصبحت شائعة كالوباء فى كل مكان. ودائما ما تشير أصابع الاتهام، فى كل حادثة إرهابية تقع فى روسيا، إلى أبناء إقليم الشيشان النائى.. القابع بعيدا فى أعالى القوقاز.

ويصر المسئولون الروس على رفض مناقشة أية فكرة أو دعوى تنطلق من اعتبار الشيشانيين أصحاب قضية أو النظر إليهم على أنهم دعاة تحرر وطنى. فبعد المآسى القطيعة المتوالية التى شهدتها روسيا، وخاصة خلال شهرى أغسطس وسبتمبر الماضيين، لا يشير المسئولون الروس إليهم إلا على أنهم مجرمون وقتلة.. ويرفضون حتى وصفهم بأنهم «متمردون»!



جاءت زيارتنا لموسكو فى أعقاب المأساة المروعة التى كان مسرحها مدرسة ابتدائية فى «بيسلان»، حيث احتجزت مجموعة من المسلحين مئات الرهائن، معظمهم من الأطفال، داخل المدرسة ثم اقتحام القوات الحكومية للمكان مما أسفر عن سقوط ٣٣٦ قتيلا معظمهم من الأطفال أيضا. كانت أجواء المأساة لاتزال مخيمة على العاصمة الروسية، كما كان واضحا أن كبار المسئولين الروس يعانون من شعور بالصدمة عكسته تصريحاتهم العنيفة التى ذهبت إلى حد إعلان الجنرال يورى بالويفسكى رئيس أركان الجيش الروسى أن روسيا لن تتوانى عن ملاحقة «الإرهاب» حتى خارج الحدود وضربه فى أى مكان فى العالم.

أثناء وجودنا فى موسكو، أتيح لنا أن نتابع تطور هذا الخطاب الروسى

على مستويات متعددة: فى تصريحات المسئولين، وعبر وسائل الإعلام، وأن نلمس صداه أيضا لدى الرأى العام الذى بدا مقتنعا وموافقا ضمنيا على هذا الخطاب.. خاصة وأن الذاكرة الجماعية لاتزال تعى الحوادث المؤلمة التى عانى منها الروس فى الشهور الأخيرة والتى كان أشدها وقعا حادث الانفجار فى محطة مترو الأنفاق فى موسكو، ثم إسقاط طائرتى ركاب فى وقت واحد بسبب ما وصف بأنه «عمل إرهابى» وأخيرا فى مأساة مدرسة بيسلان، وجاءت ذروة متابعتنا لهذا الخطاب عندما استمعنا إلى الرئيس الروسى «فلاديمير بوتين» نفسه، والذى أتى ليتحدث، كما كان مقررا، إلى «المؤتمر العالمى لوكالات الأنباء» الذى استضافته وكالة الأنباء الروسية «إيتار - تاس» بمناسبة عيدها المئوى.

دخل الرئيس بوتين إلى القاعة فى خطوات سريعة، ليتخذ مكانه على المنصة أمام حشد يضم رؤساء وكالات الأنباء العالمية والإقليمية والمحلية جاءوا من أكثر من تسعين دولة، وبدأ الرئيس الروسى، المتجهم عادة، وكأنه يبذل جهدا ليكتم غضبا عارما يعتمل فى داخله، وعندما تكلم، انفجر هذا الغضب فى عبارات حادة، بل وجارحة، تحمل اتهاما مبطنا لكل وسائل الإعلام «الميديا» بأنها تساعد «الإرهابيين المجرمين» - من حيث تدرى أو لا تدرى - فى تغطيتها للعمليات التخريبية التى يقومون بها، وذلك بنقل «رسالتهم» إلى الجماهير، وقال بوتين إنه يتعين على وسائل الإعلام أن تكف عن القيام بدور «المراقب» بل وتنضم إلى جانب محاربة الإرهاب وذلك بأن تحرص على ألا تؤدى تغطية الحوادث الإرهابية إلى تحقيق أهداف الإرهابيين، ومضى ليشرح ذلك قائلا: «إن الإرهابيين يهدفون إلى استخدام الإمكانيات الكبيرة التى تتوفر لوسائل الإعلام - والوسائل الديمقراطية الأخرى - لمضاعفة التأثير النفسى والإعلامى لعملياتهم على الرأى العام، وهنا، يجب على الإعلاميين أن يدركوا أهمية إيجاد أساليب أخرى فى التغطية بحيث يصبح الإعلام وسيلة فعالة فى الحرب على الإرهاب بدلا من أن يصبح عونا له».

ولكن هذا الخطاب الروسى الرسمى جوبه بانتقادات فى الداخل والخارج على السواء: فى الداخل، اتهم الرئيس بوتين بأنه يحذو حذو الولايات المتحدة فيما ينتهجه من سياسات لمحاربة الإرهاب، وخاصة بعد التهديدات التى صدرت عن المسئولين العسكريين الروس بملاحقة الإرهاب فى أى مكان من العالم، وفى الخارج، جاءت الانتقادات، صريحة أو ضمنية، من جانب الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى على السواء، حيث اتهم الرئيس الروسى بأنه يعود ببلاده

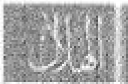
إلى عهود الدكتاتورية وأنه انتهز فرصة تصعيد الحملة على الإرهاب ليعمل على زيادة إحكام قبضته هو على البلاد وتركيز السلطة أكثر فأكثر فى يديه، وانصبت الانتقادات بشكل خاص، على الخطة التى طرحت على البرلمان الروسى «الدوما»، بعد أقل من ثلاثة أسابيع من مأساة «بيسلان»، لكى يقر مجموعة من التشريعات - يصل عددها إلى ٤٠ تشريعا جديدا - تهدف إلى مكافحة الإرهاب.. ولكنها تؤدى فى الوقت نفسه بوضوح، إلى زيادة مركزية الحكم وتدعيم سلطات رئيس البلاد.

وانتهزت العواصم الغربية فرصة الإعلان عن الخطوات الجديدة التى يزمع الرئيس بوتين اتخاذها بدعوى تشديد الحرب على الإرهاب، لكى تكرر مواقفها المعلنة من أنه يتعين ايجاد سبيل مواز للبحث عن حل لمشاكل جمهوريات القوقاز وخاصة «شيشنيا» التى أعلن زعيمها «شامل باساييف» مسئوليته عن عملية «بيسلان». (كان «باسابيف» قد أعلن أن كتيبة «شهداء رياض الصالحين» التى أسسها منذ عدة سنوات هى التى نفذت عملية مدرسة «بيسلان»، وأن المجموعة التى نفذت العملية كانت تتكون من ٣٢ شخصا منهم ١٤ شيشانيا و٩ أنجوشيين وثلاثة روس واثنان من العرب وآخران من الأوستيين وواحد من كل من تتارستان وجوزان - الواقعة فى سيبيريا - وكاباردیا)، وترددت تصريحات لمسئولين أمريكيين وأوروبيين تحث الحكومة الروسية على «التفاوض» مع الانفصاليين الشيشان خاصة، لإيجاد حلول سلمية وكسر حلقة العنف الذى يهدد بتصعيد المواجهات، ولم تخل تصريحات المسئولين الغربيين من الإعراب عن القلق - كالعادة - على أوضاع «حقوق الإنسان» فى شيشنيا وبلدان القوقاز الأخرى.

ولكن الرئيس بوتين رفض بشدة كل هذه الدعوات، مؤكدا أن حكومته لن تجرى حوارا مع الإرهابيين تحت أى ظرف، وفى أحد ردوده على الانتقادات والدعوات الغربية، تساءل ساخرا: «لماذا لا تذهبون للتفاوض مع بن لادن؟ لماذا لا تدعونه إلى بروكسل أو إلى البيت الأبيض، ولماذا لا تقدمون له تنازلات لكى يترككم تعيشون بسلام؟» وفى هذا السياق، يؤكد الرئيس الروسى، بإصرار لا يحيد عنه، «إن أحدا فى العالم لا يملك حقا أخلاقيا لكى يطلب منا بدء التفاوض مع الأوغاد» على حد تعبيره!

حقائق الجغرافيا.. والتاريخ

فى الأسابيع التالية لحادث «بيسلان» المروع، سلطت الأضواء على تلك المنطقة المضطربة فى أعالى القوقاز، والتى أصبحت أشبه بجرح لا يندمل فى الجسد الروسى، وعادت التحليلات والتعليقات إلى



صفحات الصحف وشاشات الفضائيات تحاول البحث في جذور المشكلة وتعرض للحقائق الجغرافية والتاريخية التي أدت إلى الوضع الراهن المتفجر.

والواقع أن هناك مجموعة من الحقائق الأساسية التي ينبغي الإلمام بها حتى يمكن متابعة ما يجري في بلاد الشيشان وغيرها من بلدان القوقاز:

١ - إن شيشينيا تعتبر أهم بلدان القوقاز التي تضم أيضا - بصفة رئيسية - كلا من أنجوشيتيا، وأوسيتيا الشمالية، وداغستان. كما أن الشيشانيين يشكلون أكبر الأعراق في المنطقة حيث يبلغ عددهم نحو مليون وثلاثمائة ألف نسمة، وفقا لما أوردته موسوعة «كولومبيا» التي تسجل أيضا أن مساحة شيشينيا تبلغ ١٥ ألفا و٨٠٠ كيلو متر مربع، وهي تجاور «أنجوشيتيا» التي تقع إلى الجنوب منها والتي تكون معها - قبل انهيار الاتحاد السوفييتي - جمهورية واحدة تحمل اسم «الجمهورية الشيشينية الأنجوشية».

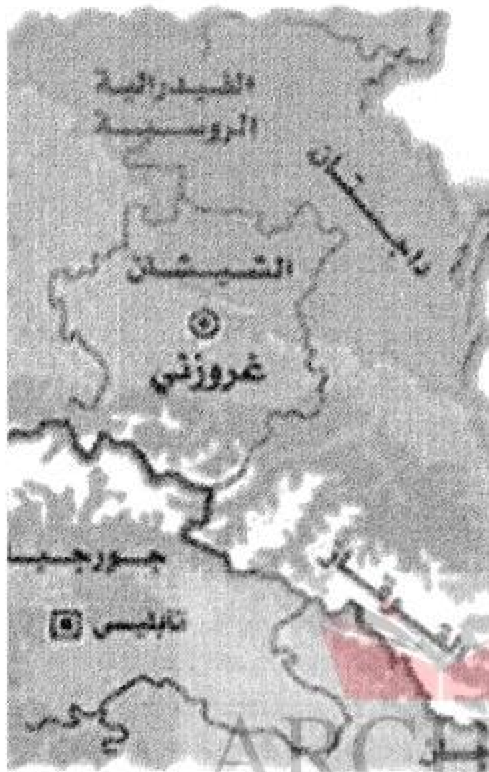
٢ - على مدى التاريخ، وخاصة التاريخ الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر، كانت شيشينيا تحمل دائما لواء التمرد والعصيان على سلطة موسكو.. وكانت الامبراطورية الروسية قد استطاعت، بعد حملات صعبة وباهظة بدأت في القرن الثامن عشر، أن تخضع المناطق القوقازية الجبلية التي تقع في جنوبها رغم المقاومة الشرسة التي أبداها القوقازيون، وتسجل كتب التاريخ أن القائد الروسي «يرمولوف» الذي عهد إليه بمهمة اخضاع القوقاز، جاء إلى المنطقة عام ١٨١٦ وبدأ في بناء سلسلة من القلاع كان أشهرها حصن «جروزني» - وهي كلمة معناها «الرهيب» - على شاطيء نهر «سونجا». وتعهد «يرمولوف» للامبراطور الروسي بأن يخضع «هؤلاء الأوغاد» الذين يطمحون في أن يكونوا «حلفاء» للامبراطور.. وأن يفرض عليهم قبول وضع «الرعايا».

٣ - إن هذه البلاد القوقازية، ذات الطبيعة الجبلية الوعرة، تحتل موقعا فريدا ومهما بين أوروبا وآسيا، وبين الأصقاع الباردة في الشمال والمياه الدافئة في الجنوب، الأمر الذي جعلها دائما محط أطماع الامبراطوريات، وهكذا خضعت عبر التاريخ لسيطرة امبراطورية الصفويين الفارسية حينا، وللامبراطورية العثمانية أحيانا أخرى، واعتنق معظم سكانها الإسلام، وخاصة المذهب السني الذي كان يدين به العثمانيون الذين سيطروا على المنطقة لفترات أطول، وعندما أخذت الدولة العثمانية تضعف ويتقلص نفوذها. انتهزت الامبراطورية الروسية الفرصة لبسط سيطرتها على القوقاز.. خاصة

وأن هذه السيطرة من شأنها أن تحقق للروس حلما دائما للوصول إلى المياه الدافئة عن طريق احتلال المناطق المطلة على البحر الأسود وبحر قزوين.

٤ - يسجل التاريخ ، أيضا، أن السيطرة الروسية جوبهت بانتفاضات وثورات من جانب الشيشانيين خاصة، والقوقازيين عامة، وكان أشهرها ثورة «الشيخ شامل» التى شملت بلاد الشيشان والأنجوش واستمرت نحو ٣٥ سنة وحملت طابعا دينيا - وطنيا ، ولكن الثورة انتهت بانتصار الروس، الذين كانت أسلحتهم وتكتيكاتهم الحربية أكثر تطورا فاستطاعوا القضاء على الثورة وأسر «الشيخ شامل» وكان ذلك فى عام ١٨٥٩ ، وقد نفى «الشيخ شامل» إلى تركيا، ومنها انتقل إلى «المدينة المنورة» حيث توفى عام ١٨٧١ .

٥ - بعد القضاء على الثورة، بدأت حركة هجرة من جانب الشيشانيين باتجاه الجنوب والشرق، ولكن الروس لم يكتفوا بذلك، بل لجأوا إلى السلاح الشهير الناجع «فرق .. تسد» لإضعاف تماسك أهالى القوقاز. ويبدو أن الروس قد حققوا نجاحا ملحوظا فى «أوسيتيا» - التى تقطنها أغلبية مسيحية - على وجه الخصوص حيث تحالف الأوسيتيون مع المحتلين الروس وانخرط الكثير من أبنائهم فى الجيش الامبراطورى الروسى حيث برز من بينهم قادة



الصراع فى القوقاز تحكمه مصالح آنية .. وتغذيه خلافات عميقة الجذور

اشتهروا بالشجاعة فى الحروب فقربتهم الامبراطورة «كاترين الثانية»، ومنحتهم امتيازات وألقابا وأملاكا، وكان من الطبيعى أن يخلق ذلك شكوكا وصلت إلى حد العداء بين الأوسيتيين وباقى أبناء القوقاز.

(فهل يمكن أن يفسر ذلك سبب اختيار مدرسة فى مدينة «بيسلان»، فى «أوسيتيا الشمالية»، لتكون هدفا للعملية الدامية فى شهر سبتمبر الماضى، والتى

لم يعرف أن منفذيها قد تقدموا بمطالب واضحة كما يحدث عادة في مثل هذه العمليات؟!).

٦ - إن روسيا تعد من أكثر بلاد العالم تنوعا في الأعراق، حيث تعيش على أرضها مجموعات بشرية تنتمي إلى نحو مائتي عرق، وإن كان الروس السلافيون يشكلون القسم الأعظم حيث يبلغ تعدادهم نحو مائة وثلاثين مليون نسمة.

ومن بين كل مناطق روسيا، يظل القوقاز - كما كان دائما - الأكثر تقلبا واضطرابا بسبب توالي النزاعات والحروب الدينية والعرقية، ويشكل الشيشان العرق الأكبر (مليون نسمة) يليهم جيرانهم الأنجوش (نحو سبعمائة ألف) الذين خاضوا حربا عرقية دموية مع «أوسيتيا الشمالية» التي تقطنها أغلبية من المسيحيين، وهي حرب انتهت بتغلب الأوسيتيين مما أجج العداء بينهم وبين العرقيات الأخرى التي تدين بالإسلام.. خاصة مع تنامي تيار التطرف الإسلامي بالمنطقة.. وقد أثار هذا الواقع المستجد مخاوف من عودة المواجهات واحتمال انفجار الحروب الدينية والعرقية في أي وقت خاصة مع توزع الأعراق بشكل فسيفسائي في المنطقة (في جمهورية داغستان - مثلا - والتي تقع شمالي شيشينيا يتوزع السكان البالغ عددهم نحو مليون نسمة بين أكثر من مائة عرق ويتحدثون لغات شتى، ولكنهم يدينون جميعا بالإسلام).

٧ - في أثناء حكم ستالين، وإبان الحرب العالمية الثانية، اتهم كثيرون من أبناء الجمهوريات القوقازية بالتعاون مع ألمانيا النازية رغم انخراط معظم أبناء هذه الجمهوريات في الجيش الأحمر، وقد أغضب ذلك ستالين بشدة، وهو الذي ينحدر من أب جورجي وأم أوسيتية، فانتهج سياسة بالغة القسوة إزاء قوميات بعينها وعمد إلى نفي جماعات كبيرة من الشيشان والأنجوش والشركس وغيرهم إلى سيبيريا وكازاخستان وأتى بالروس وغيرهم من القوميات - وخاصة الأوسيتيين والجورجيين ليحلوا محل المهجرين، وكان من نتيجة ذلك أن أجيالا من هذه الشعوب المقتلعة نشأت على رغبة دفينة في الانتقام مما جرى لها على أيدي الروس والأوسيتيين، وذلك على الرغم من أن «نيكيتا خروشوف» قد ألغى أوامر ستالين وأصدر قرارات في عام ١٩٥٧ بإعادة المنفيين إلى بلادهم.

ولا شك أن هذا التعقيد والتشابك، التاريخي والجغرافي والديني، يكمن في أساس الوضع الراهن ويفرض على جميع الأطراف واقعا صعبا ربما يكون



روسيا وجذور العنف

أشد قسوة من وعورة جبال القوقاز نفسها.

مزيد من التعقيد

يضاف إلى كل تلك العناصر التى تجمعت وتراكمت على مدى التاريخ لتصنع هذا الواقع المعقد، عناصر جديدة ظهرت فى التاريخ الحديث أو فى العقود الأخيرة بالذات.. وبالطبع، يأتى «النفط» - الذى تأكدت احتمالاته الكبيرة فى بعض المناطق القوقازية، ولا سيما القريبة من حوض بحر «قزوين» - فى مقدمة هذه العناصر، وغنى عن القول إن النفط قد جذب إلى المنطقة نوعا جديدا من الصراع الدولى الذى أضيف إلى عوامل الصراع المحلى القديم . وتحيط بموضوع النفط ، بما يثيره من مطامع وتضارب مصالح أطراف عديدة، ملابسات ومؤثرات داخلية ودولية يطول الحديث عنها، وإن كان يكفى - فى هذا السياق - أخذها فى الاعتبار بما تضيفه من عناصر «التعقيد» للموقف فى القوقاز.

هذا الوضع المعقد يراه السياسى والمفكر رمضان عبداللطيبوف - الذى شغل حتى وقت قريب منصب نائب رئيس مجلس الوزراء الروسى والعضو الحالى فى مجلس الاتحاد الفيدرالى - السمة الأساسية التى تطغى على الموقف الراهن فى الشيشان، وقد كتب مؤخرا يقول إن ما حدث فى مدرسة «بيسلان» فى أوسيتيا الشمالية، وما يحدث من مآس فى

الشيشان وفي جمهوريات القوقاز عامة، لا يمكن فصله عن مجمل التراكمات التاريخية للمشكلات التي وقعت بين أعراق هذه المنطقة وشعوبها وأديانها وأيديولوجياتها وخياراتها، ولا يمكن فهم ما يجرى اليوم من أحداث متفجرة دون التأمل، ويعمق، في الجوانب الجيوسياسية والاثنوسياسية لهذه الشعوب وموروثاتها الاجتماعية والدينية والتي تمتزج كلها بالطبع الحاد المعروف عن الذهنية القوقازية.

ولعبد الطيبوف، في هذا السياق ملاحظة جديرة بالاهتمام. فهو يرى أن «الإصلاحات الديمقراطية» التي طبقت في السنوات الأخيرة ربما تكون قد خلقت، ولأول مرة ، الظروف المواتية لخروج «الطاقة القومية» لشعوب هذه المنطقة من القمقم الذي ظلت حبيسة فيه أجيالا متعاقبة، ويقول إنه من الواضح أن هذه الطاقة انطلقت لتعبر عن نفسها من خلال إحياء كل ما هو متوارث من أحقاد متبادلة!.

على أن المراقبين يرصدون أمورا أخرى ذات مغزى فيما يتعلق بالموقف في تلك المنطقة المضطربة، والسياسة الروسية المتصلبة إزاء شيشينيا خاصة وإزاء منطقة القوقاز عامة، فمراسل هيئة الإذاعة البريطانية في موسكو «بول رينولدز» على سبيل المثال يسجل في تقرير له أذيع مؤخرا، أن الذي يدفع الروس إلى هذا التصلب هو الخوف من حدوث المزيد من الفوضى في هذه المنطقة الحساسة بالنسبة لروسيا، ويقول إن لدى الروس شعورا بأنه لا يتعين عليهم تقديم مزيد من التنازلات فيما يتعلق بالأرض.. فضلا عن وجود اعتقاد سائد لدى المسئولين الروس بأن الشيشان منحوا فرصة للاستقلال من قبل ولم يستغلوها .

وبالإضافة إلى ذلك، يذهب المراقبون إلى أن الحكومة الروسية في عهد بوتين قد بدأت جهدا منظما لوضع حد لحالة الفوضى التي أعقبت سقوط الاتحاد السوفييتي والتي سادت بشكل واضح إبان حكم سلفه بوريس يلتسين، ولأن الغرب عامة، والولايات المتحدة خاصة، لا يطمئنون بعد إلى انتهاء الأيدلوجية التي حكمت روسيا لأكثر من سبعة عقود وذهابها إلى غير رجعة، فإن هناك رغبة دفينة في الغرب لإبقاء روسيا ضعيفة في المدى المنظور على الأقل، وبالتالي فإن لدى الروس شكوكاً قوية في وجود نشاط خفي تقوم به الأجهزة السرية الغربية لاستغلال المناطق الضعيفة في الجسد الروسي الضخم، ومن بينها منطقة القوقاز وخاصة «شيشينيا» ويغذي هذه المخاوف والشكوك لدى الروس وجود اتصالات بين حركات «الاستقلال» في شيشينيا وغيرها وبين جهات خارجية

عديدة ويجادل المسئولون الروس علنا بأنه إذا حدث وأن حصلت جمهورية الشيشان على استقلالها، فإن ذلك سيشجع المزيد من جمهوريات روسيا الاتحادية على المطالبة بالاستقلال هي الأخرى.

ضغوط .. وانتقادات

تثير معالجة الرئيس بوتين وحكومته للوضع في الشيشان وفي القوقاز عامة، الكثير من الانتقادات، ليس في الخارج فقط، وإنما في الداخل أيضاً، ولكن بينما تتركز انتقادات الخارج، الآتية من الغرب عموماً ومن واشنطن خصوصاً، على أن معالجة الوضع على النحو الذي يتبعه الحكم في روسيا من شأنها أن تثير القلق على حقوق الإنسان وأن «تضعف الديمقراطية الوليدة والهشة في روسيا» كما صرح الرئيس الأمريكي جورج بوش، فإن انتقادات الداخل تكاد تتركز على السياسة التي يتبعها بوتين من جانب المعارضين الروس، بأنها تحاول أن تغطي الحقائق بإطلاق الكثير من الأكاذيب كلما وقع حادث إرهابي، وهذا ما سجله الكاتب الروسي «بوريس كاجارليتسكي» بعد مرور عدة أسابيع على حادث «بيسلان».. فيما أذاعته السلطات في الساعات الأولى للواقعة، سواء فيما يتعلق بعدد الرهائن أو بهوية المهاجمين الذين زعمت أنهم في غالبيتهم من العرب، بينما كشفت الوقائع فيما بعد أن اثنين من المنفذين كانوا مسجلين كمعتقلين في أحد سجون روسيا .. وهي كذبة أخرى.

وينصح المنتقدون من الروس الحكومة بأن تغير من أسلوب معالجتها وتناولها للوضع في الشيشان خاصة وفي القوقاز عامة، واعتماد سياسة جديدة ترمي إلى تخفيف حدة العداء القائم بين الأعراق والاثنيات والديانات الموجودة، وتعمل على ايجاد حلول نابعة من أبناء المنطقة أنفسهم مع الحرص على التقليل من تدخل السلطة المركزية في موسكو، وهو رأي يؤيده بقوة رمضان عبداللطييوف.

ما بين انتقادات الداخل وضغوط الخارج – وربما مؤامراته أيضاً، تبدو حكومة الرئيس بوتين وكأنها تسير على حبل مشدود وهي تواجه الوضع المعقد في شيشنيا وفي القوقاز عامة، وربما تفسر هذه العصبية والتوتر والحدة التي تعكسها تصرفات السلطات الروسية كلما واجهت حادثاً إرهابياً في أوسيتا الشمالية أو في موسكو أو غيرها.

ولكن الوضع يظل مضطرباً. ولا يهدأ إلا لينفجر مع وقوع حادث جديد" أما المستقبل فيبقى غامضاً، ويظل معلقاً على ما يمكن للحكم القائم في موسكو أن يسمح بالأخذ به من حلول مطلوب أن تكون ناجحة وحاسمة.. لاتزال في طي المجهول! ■

ضياع الوعى بأهمية السينما

بقلم
مصطفى درويش

لعلها المرة الأولى فى تاريخ السينما على أرض مصر، وربما فى تاريخها على أية أرض أخرى.
أن يحرم جمهور السينما من مشاهدة الأفلام على شاشات كبيرة، لمدة قاربت شهرا من عمر الزمان، وذلك تنفيذا لقرار مفاجىء باغلاق ابواب جميع دور السينما بطول وعرض البلاد.
والأبواب لم تغلق بسبب حدث جلل، كهزيمة ساحقة ماحقة فى ساحة الوغى، أو كارثة طبيعية نشرت الخراب، وأودت بحياة آلاف العباد، أو موت رئيس محبوب، بينه وبين العقول والقلوب، جذب ووصال.



أبطال «يوم الكرامة»


وإنما اغلقت لسبب آخر، منبت الصلة بمثل تلك الأحداث الجسام، ألا وهو ظهور هلال رمضان في كبد السماء، مبشرا ببدء أيام وليالي الشهر الفضيل .

فلقد تصادف ، مع ظهور الهلال، أنني أخذت أبحث في جريدة ذات جلال في كل العهود، عن دار سينما يعرض على شاشتها أحد الأفلام التي كان لزاما على أن أشاهده.

وفيما أنا منهمك في البحث لفتت نظري إعلانات صغيرة ، مرصوصة جنبا إلى جنب في الصفحة الثانية من تلك الجريدة ذات الجلال. والمخصص أسفلها لإعلانات دور السينما والملاهي الأخرى.

ولدهشتي كانت جميعها ، ودون استثناء لا تقول إلا شيئا واحدا . وهو أن دور السينما بالقاهرة والأسكندرية في اجازة بمناسبة شهر رمضان المبارك.

وتر الحرمان

وهكذا، وجدتني ، على غير المعتاد، محروما من مشاهدة الفيلم الذي كنت أزمع الكتابة عنه، ومحروما من متعة مشاهدة أي فيلم آخر. في دور السينما . طوال شهر بالتمام وكم ترحمت، لحظة الدهشة، على عصر جميل، كانت الأفلام المعروضة . ايامه على شاشات دور السينما ، حديث الناس من الخليج إلى المحيط.

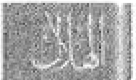
ومن الأكيد أنه نتيجة اغلاق أبواب دور السينما ، لبث الجمهور في مصر، على غير عادة، محروما من ممارسة حقه في الاستمتاع بالأفلام التي يرغب في مشاهدتها وبحكم اللزوم أسير مسلسلات وليدة فكر فقير، الأدوار الرئيسية فيها، يؤديها ممثلون وممثلات. شاخوا، فضاق بهم الناس إلى حد مقاطعة أفلامهم.

عملقة التأقزم

وكأن القدر أراد لهم نهاية أعمتهم عن سلوك الطريق الذي ينقذ سمعتهم، وسمعة تليفزيون ، قيل عنه في يوم من الأيام انه ولد عملاقا . والآن لا حديث إلا عن تأقزمه، وعجزه عن معاصرة عصر ثورتي الاتصالات والمعلومات.

فإذا بهم، أي نجومنا، يكبر عليهم الاعتزال الكريم، فيغزون الشاشة الصغيرة، بكروش بارزة، ووجوه مشدودة، منفوخة، وباروكات قبيحة. متعددة الألوان، وصدور وأذرع عارية الا من حمالات، لا تستر شيئا .

والغريب أن هذه المسلسلات التي فرضت حصارا على الناس لا يستطيعون الفكاك منه، معظمها لمخرجين كان لهم شأن كبير في عالم صناعة الأفلام، أهدروه بالقفز سريعا من سفينة السينما إلى بر أمان



مسلسلات ، أغلبها لا يقول الا تفاهات ، تحت اغراء ذهب تليفزيون، «معز، مذل، لمن يشاء، بغير حساب.

ولأن قرار اغلاق ابواب جميع دور السينما مخالف لطبائع الأمور فقد تراجع عنه مصدروه، بعض الشيء، والشهر الفضيل على وشك الرحيل.

حب ولعب

ومع مجيء العيد السعيد فتحت دور السينما أبوابها لتستقبل ستة أفلام مصرية، من بينها ثلاثة القاسم المشترك الذي يجمعها في صعيد واحد، هو كلمة حب.

وهذه الأفلام «حالة حب» ، «كان يوم حبك» ، «وحبك نار».

أما الأفلام الثلاثة الأخرى، فأسماؤها الهازلة «قشطة بابا»، «اشتاتا اشتوت» و«سيب وانا سيب» انما تدل على واقع سينمائي اشد هزلا، وهزالا!

هذا وطابع افلام العيد الرقص والغناء فتامر حسنى يشارك هانى سلامة بطولة «حالة حب» و«خالد سليم» بطل «كان يوم حبك» دون شريك و«مصطفى قمر» يلعب دور روميو في «حبك نار» المأخوذة قصته بتصرف مخل من مسرحية شكسبير مع استبدال الاسكندرية بفيرونا.

و«مصطفى كامل» ، وهو الآخر مطرب قد اسند اليه المخرج «عاطف شكرى» بطولة «قشطة يابا».

«ومدحت صالح» المطرب المعروف ، بطل «اشتاتا اشتوت» لصاحبه المخرج «عمر عبدالعزيز».

جيل جديد

وفيما عدا المخرج الأخير فمخرجو الأفلام الخمسة الأخرى، إما ليس لهم رصيد سابق من أفلام روائية طويلة، مثل «سعد هنداوى» صاحب «حالة حب» و«عاطف شكرى» و«وائل شركس» صاحب «سيب وانا سيب» .

واما رصيدهم لا يعدو أن يكون فيلما يتيما، مثل «ايهاب لمعى» صاحب «كان يوم حبك» و«ايهاب راضى» صاحب «حبك نار».

«فلمعى» له فيلم سابق «نظرة عين» (٢٠٠٣) و«راضى» ليس له ، هو الاخر، سوى فيلم واحد اخرجه قبل خمسة اعوام «فتاة من فلسطين» عن قصة للأديب «أحمد المنسى قنديل».

والأفلام الستة غارقة في التهريج أو الافتعال او الاثنين معا. شأنها في ذلك شأن معظم الأفلام التى جرى عرضها أثناء السنة التى على وشك الرحيل.

أيام لها تاريخ

وعند احد هذه الأفلام، وهو «يوم الكرامة» . اقف قليلا، لا قارن فشله بنجاح فيلمين اجنبيين، احدهما ألمانى والآخر امريكى من انتاج مصنع

الأحلام.

أما لماذا المقارنة بين الافلام الثلاثة، فذلك لأن أيا منها يدور وجودا وعدما حول يوم له تاريخ فى حياة كل شعب من شعوب البلاد الثلاثة، مصر ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

وليس من شك أنه من بين الأيام، التى لها تاريخ عندنا يوم ٢٦ من اكتوبر لعام ١٩٦٧، ذلك اليوم الذى تم فيه اغراق المدمرة الإسرائيلية «إيلات» فبفضله عادت روح الثقة لنا ، نحن المصريين، حتى إلى أكثر الناس تشاؤما وتشككا فى قدرتنا على تجاوز كابوس هزيمة ساحقة لن ينساها التاريخ.

و«يوم الكرامة» للمخرج «على عبدالخالق» صاحب فيلمى «اغنية على الممر» و«العار» مداره الاحداث التى مهدت ، والبطولات التى ادت إلى إغراق «إيلات» وادخلت يوم اختفائها فى قاع اليم فى عداد الأيام التى لها التاريخ.

وما شككت ، وانا اشاهده، فى دار سينما شبه خاليه من المتفرجين، ان حظه من النجاح لن يكون كبيرا ولكن لم يخطر ببالى قط، ان مثل هذا التقدير، قد يكون بعيدا عن الصواب بعد المسافة بين الأرض والسماء.

فلدهشتى لم يحقق الفيلم اى نجاح، بل كان، والحق يقال، واحدا من افشل افلام الصيف، اذ كان اقلها تحقيقا



نادية الجندى في مسلسل «مشوار امرأة»

للايرادات.

فكل سؤال جواب

وما ان افقت من الدهشة، حتى اخذت اتساءل لماذا كل هذا الفشل غير المسبوق لعمل سينمائى جاد، يعرض لأحداث يوم كله أمجاد؟

ولم اصل إلى جواب إلا بعد مشاهدة فيلمين احدهما «معجزة برن» لصاحبه المخرج الالمانى «سونكى فورتمان» ، والآخر «سيبسكويت» لصاحبه المخرج الأمريكى «جارى روس» الذى سبق له وان امتعنا بفيلمه الأول «بلسنتقيل».

فكلاهما مداره احداث وقائعها جرت بالفعل سواء فى المانيا، وذلك بعد ان القت الحرب العالمية الثانية سلاحها بتسعة اعوام، او فى الولايات المتحدة ، اثناء عقد الثلاثينات، والعاصفة المميتة، عاصفة النازية، تنذر بنار حامية، اندلعت السنتها فى اواخر سنة ١٩٣٩.

عودة الروح

والفيلم الألمانى يعرض ليوم انتصار الفريق القومى الألمانى لكرة القدم فى مباراته الفاصلة بمدينة «برن» السويسرية، مع الفريق القومى المجرى الدائم الانتصار، وخروجه بفضل معجزة دحره الفريق الأخير . متوجا بكأس العالم.

ويكشف من خلال تكوين ذلك الفريق وتدريبه ، ومن خلال صبى مولع بالكرة وعائلته الفقيرة، معاناة شعب لم يزل يعيش عار هزيمة سحقت وطنه سحقا، إلى ان جاء اليوم الموعود، يوم الانتصار على الغول المجرى فبفضله عادت للشعب الألمانى روح الثقة بالنفس وإرادة إزالة آثار هزيمة كلها عار وشنار يقال إن المستشار الالمانى الهر شرويدر بكى والفيلم يقترب من الختام.

اما الفيلم الامريكى، فيعرض لسيرة «سيبسكويت» كما كتبتها «لورا هيلينبراند» فى مؤلف ضخم، ونال من النجاح والاستحسان الشىء الكثير.

قصة حصان ورفس

و«سيبسكويت» من فصيل الخيل حصان تعلقت به قلوب الناس وافئدتهم بطول وعرض الولايات المتحدة ، حيث كان لا حديث فى المجالس والاذاعات إلا عنه، والأمل فى وصوله إلى الدور النهائى، وفوزه على الجياد الأخرى فى سباق الخيل الأخير.

اما لماذا تعلقت به الأفئدة والقلوب، فذلك لأنه اولا حصان غلبان، مستواه لا ينهض إلى المستوى الرفيع المتوافر فى الجياد الأخرى.

وكذلك حال ممتطيه الجوكى الذى نجح فى ترويضه (يؤدى دوره توبى ماكجوير) ، فلقد كان، ويا للعجب، نصف ضرير وثانيا لان الشعب الأمريكى كان وقتذاك ، يعانى هو الآخر من آثار أزمة اقتصادية طاحنة اخذت بخناقه وحتى يتخلص منها . انتخب



توبى ماكجواير فى « الحصان سيبسكويت »

لرئاسة الجمهورية رجلا معاقا، مصابا بمرض شلل الأطفال.

ولو كتب للحصان المحبوب، والجوكى مروضه، وكلاهما شبه معاق، الانتصار فى السباق.

فلم لا ينتهى الأمر بالرئيس المشلول منتصرا، هو الآخر، فى المعركة الدائرة من أجل إعادة الروح إلى الاقتصاد، بانتشال المجتمع الامريكى من هاوية الكساد.

وعندما تحققت المعجزة يوم انتصار الحصان الغلبان فى السباق.

احيا انتصاره هذا امل الشعب الامريكى فى غد مغرد، تحت قيادة فرانكلين، د. روزفلت الرئيس المصاب بشلل الاطفال.

وهكذا دخل هذا اليوم فى عداد الأيام التى لها تاريخ.

سر الفشل

يبقى لى ان اقول : إن هذه المزاوجة بين الخاص والعام، مع الاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية فى زمن الحدث، افتقدها «يوم الكرامة» على نحو كان لابد ان يؤدى إلى فشله فشلا ذريعا.

وأرجح الظن ان هذا الافتقاد إنما يرجع إلى داء الاستسهال، ذلك الداء العضال الذى لن ينجح سينمائيونا فى التلخص منه، إلا بعد كثير من المشقة والعناء!!. ■

ساعة الورد والياسمين

شعر

محمد الفاتح

إلي الاستشهادية البطلة هنادي جرادات في الذكري السنوية الأولي لاصطفائها.

أي جزء من بلادي ..
أنت ياظل هنادي؟!
أنت وسع الكون
عطر الأرض
«هبة» الشعب
أسرار السماوات
مدار الروح من حول الخريطة
بردة التوحيد
لاروب المحاماة

●●

أي جرح في فؤادي
أنت ياطهر بلادي ؟
ياغزال البحر
يا ألق العصافير
وياسرب الملائكة المطل من السحاب
ليقطف الليمون والنعناع
من سر الصلاة علي النبي
ومن تسابيح النوارس فوق هذا الأزرق الدموي

●●

أي ثوب الحدادي
طرزته الريح وشماً في سماء القلب
شمساً لعيونك ياهنادي؟!
ياتفاريح بلادي
من يدافع عن صهيل الأرض؟!
من يمشي علي رمشي ؟!
ويسند ظهره لجحافل الإفرنج
أعينها علي بردي



فأبصر في مرايا الموت نعشي
حبة من قمح جدي ..
كسرة من خبز أمي
أقحوانا من دم الشهداء
حزنا من هوي الشعراء
وحشاً يحصد الورد وأطفال الحجارة
يزرع الموت سياجاً للحداثة
ينشر الرعب طقوساً للحضارة



أي فجر لجهادي
يبزغ الآن حياة لهنادي
بسمة الثلج
كنسمة الصبح
كزهرة اللوز
كوردة الجرح تغفو علي صدر حيفا
حصاناً يطير علي شكل رمح
وطيف حمامة ..
علي شاطئ البحر
علي قمة الكرمل الليلكي
يُطيِّرُ قرآنُها سربَ العصافير فوق الغمامة

لا شئ يمنعها الآن من فرحة الموت
لاعلم يكفي لفك رموز الشهادة
ولا الهندسة الوراثية
تدرك كيمياء العناصر
في العشق الإلهي
وسر انفجار الجسد
فناء وحباً لمالك الكون والكائنات،

الأحد الصمد ..

لفاتق الأرض من تحت أقدامنا مرتين .

ليعلو فينا علو الغزاة

ويدخل الفاتحون إلي القدس في كرتين

لاشئ يمنعهـا الآن أن ترجع للنهـر، نهـر الحياة

وتروي حقول البنفسج دمع الحنين

لفادي ..

لصالح ..

للعاشقين..

لاشئ يمنعها الآن أن تكتب باسميهما ساعة الورد والياسمين

كي ما تعانق روح الغريبين في زفة العمر

علي موج الزغاريد بنات جنين

لاشئ يمنعها الآن أن تحثو التراب بوجه الطغاة

وتسطع في الليل نجماً يبدد هذا الضياع

ويسقط بالنار زيف القناع..

لاشئ يمنعها الآن أن تفقأ عين الغريب

وتعطية درساً بفن الحروب ..

لاشئ يمنعها الآن أن تعلن في كبسة زر :

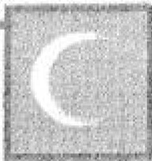
هنا يختتم الكلام ..

هنا ينتصر الحمام ..

هنا ينهض السيف الذي نام من ألف عام !



(*) هذه القصيدة كتبها محمد الفاتح قبل حوالي عام بعد أن نفذت الاستشهادية البطلة المحامية هنادي جرادات عمليتها الاستشهادية الفريدة في مدينة حيفا بتاريخ ٤ /٢٠٠٣/١٠م



كتاب الهلال



مشيناها خطى

د. رءوف عباس

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٥ ديسمبر ٢٠٠٤



قمر على سمرقند

بقلم
محمد المنسي قنديل

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٥ ديسمبر ٢٠٠٤




فردريك بيجبديه وغلاف روايته

يكفى الحب ثلاث سنوات!

بقلم
محمود قاسم

هل لايزال فى العالم أدباء طليعيون..؟ ذلك هو السؤال الذى تطرحه اول قراءة لرواية فرنسية معاصرة مهمة، تحمل عنوانا لطيفا هو «يدوم الحب ثلاث سنوات» لكاتب لم نسمع عنه، واسمه ينطق بصعوبة هو فردريك بيجبيديه، كتب هذه الرواية عام ١٩٩٧، وهو فى الثانية والثلاثين من العمر.

ولد الكاتب فى ٢١ سبتمبر عام ١٩٦٥ وبدأ حياته الأدبية ناقدا فى الصحف الفرنسية، وفى عام ١٩٩٠ نشر روايته الأولى «مذكرات شاب منزعج»، ثم نشر روايته «أجازات فى الغيبوبة» عام ١٩٩٤، وجاءت روايته «يدوم الحب ثلاث سنوات» عام ١٩٩٧ بمثابة تجربة ذاتية، كما يعترف هو بذلك

لتحقق لإسمه دويا فى الأوساط الأدبية الفرنسية، وفى العديد من اللغات الأدبية مما دفع بالناشرين إلى الإلتفات إلى أعماله السابقة، وإعادة طبعها أكثر من مرة، وفى عام ١٩٩٩ قدم مجموعته القصصية «قصص قصيرة تحت تأثير المتعة».

هذا النجاح الذى استبد بالكاتب

دفعه إلى تكثيف نشاطه بقوة، وعرفت السنوات الأخيرة بغزارة إنتاجه، وصعوده المتلاحق، ففي عام ٢٠٠٠ نشر روايته «٩٩ فرنسا»، وفي عام ٢٠٠١، نشر كتابه «آخر اختراع قبل السيولة»، وفي عام ٢٠٠٢ فاز بجائزة أنترالية عن رواية اختار لها عنوانا بالإنجليزية هو «نوافذ في العالم».

في روايته «يدوم الحب ثلاث سنوات» أكد الكاتب أنه واحدا من المنتمين إلى تيار الطليعة، أي أنه هو الذى وصف كتاباته، باعتباره ناقدا، وروائيا معا، ورغم هذا التصنيف، فإن الشكل التجريبي الذي اتخذه يجعله واحدا من هذه المدرسة التي تأسست في فرنسا منذ أوائل الخمسينات، أي منذ أكثر من نصف قرن، يختلف كثيرا عن الأشكال الأدبية التي كتبها جهابذة المدرسة الطليعية، ومنهم كلود سيمون، وجرييه وناتالي ساروت، ومرجريت دوراس، وروبير بينجيه، أو حتى الجيل الوسط أو الحديث من الذين انتهجوا هذه الكتابة ومنهم شانتال شوافل، وأريك رولان، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل نحن أمام كاتب طليعي حقا؟.

الحياة بلا حدوتة

هل يمكن أن تضع تلك الغرابة التي تقابل بها الرؤية قارئها نفسها في إطار الروايات التجريبية، لاشك أن الكتّاب والنقاد الذين حاولوا الخروج عن الشكل المألوف للكتابة، خاصة الحدوتة يكتشفون صعوبة ذلك، خاصة الأجيال التالية للطليعيين، ويبدو هذا واضحا في رواية «العاشق» لمرجريت دوراس عام ١٩٨٤، التي عادت إلى الشكل التقليدي للحكي، وموضوع غير جديد هو بمثابة رواية ذاتية.

وقد بدا ذلك بكل وضوح في رواية «يدوم الحب»، لو نظرنا إليها من الناحية التقليدية، فموضوعها لايتعدى قصتي حب مع امرأتين، إحداهما ذهبت بعد ثلاث سنوات من الزواج، والتالية جاءت، وصار على الروائي أن يمتحن نفسه ومشاعره تجاه هذا الحب الجديد.

سوف تكتشف وأنت تقرأ الصفحة الأخيرة من الرواية أنها أشبه بقصص الأفلام العربية ذوات النهاية السعيدة، وأنها قد لاتقدم الصورة نفسها التي تعرفها في الحياة، لكن لاشك أن الشكل الأدبي الذي اختاره الكاتب لروايته يجعلها واحدة من الأعمال التي تخرج بحدة واضحة بين التجريب، والتقليدية، لدرجة أن القارىء في بعض الفصول قد يتصور أنه أمام مقال أدبي، أو مايشبه الانطباعات، والحديث عن آراء ذاتية فلسفية، أكثر منه أمام رواية تقليدية أو تجريبية..

حاول الكاتب من خلال قصة تقليدية، يمر بها أي شاب أن يغزل روايته، وأن يستجمع جميع أفكاره ورؤيته وقراءاته عن الحب والزواج. فالراوية، وهو يعمل كاتبا بإحدى الصحف، يخصص ثلاث سنوات من حياته لكتابة انطباعاته حول نظرية اكتشف في النهاية عدم صحتها، وهي أن أي قصة حب تدوم ثلاث سنوات، وفي جميع الفصول يحاول أن يؤكد على ذلك، ويقوم بتنظير رؤيته حتى ولو على سبيل المثال، فهو يقول أنه في العام الأول من الحب، أو الزواج، يردد أحدهما: إذا تركتني سوف أقتل نفسي،

وفى العام الثانى يردد: إذا تركتنى سوف أعانى لكننى سأتماسك، أما العام الثالث فيردد فيه: إذا تركتنى، فسوف أشرب شمبانيا..

سنة محددة للطلاق

فى هذا الفصل على سبيل المثال المعنون «تاريخ محدد للابتهاج» يرجع الكاتب إلى إحصائية حددتها الأمم المتحدة عن الزواج فى اثنين وستين دولة منذ عام ١٩٧٤ وحتى ماقبل كتابة الرواية ، أى طوال عشرين عاما، بأن أغلب حالات الطلاق تتم فى السنة الرابعة من الزواج، بما يعنى أن الحب قد استمر فى هذه الزيجات ثلاث سنوات، فالنساء هنا يتكلمن لغات متباينة، ويمارسن العديد من المهن، ولهن ملابس مختلفة، لكن المصير واحد.

يحاول الكاتب هنا أن يكتب ما يشبه المقال، يستند فيه إلى تحاليل علمية، وإحصائيات، ويخلص إلى مفهوم آخر يعضد وجهة نظره: ففى العام الأول يشترى الزوجان الأثاث، وفى العام الثانى يبدلونه، وفى العام الثالث يتشاركان فيه.

وقد ابتعد الكاتب فى الكثير من فصول روايته الأولى عن الحكى، بقدر اقترابه من التحليل، واستخدام المعلومات والمرجعية، ولاشك أن المؤلف قد استعرض هذه المعرفة الغزيرة لديه، وأغلبها فرنسى، يحتاج من القارىء أن يكون فرنسيا، مثل رجوعه إلى ما كتبه أدباء فرنسيون معاصرون، يعتبر الكثيرون منهم سابقوه، أو أساتذة له، ولم يرجع إلا مرة واحدة لكاتب من جيله.

أقوال مأثورة

كما أن الكاتب حاول فى هذه الفصول استخدام رؤيته هو عن الحب، بما يجعل آراءه أقوالا مأثورة، رغم أنها تعبر فى المقام الأول عنه، مثل قوله أن الزواج ليس فقط نموذجا كمؤسسة التربية البرجوازية، ولكنه محاولة من غسيل الدماغ الجماعى للعقلية الإعلانية والسينمائية، والصحفية، وأيضا الأدبية، ولاشك أن صفحات الرواية تمتلىء بمثل هذه العبارات، خاصة الجزء المتعلق بزوجته الأولى «آن» .. التى لم تدم علاقتهما معا أكثر من ثلاث سنوات».

إلا أن الكاتب بدأ بالفعل فى كتابة روايته عندما التقى بأليس، فى جنازة جدته، هى امرأة متزوجة مثله، لكنها لن تفكر بسهولة فى أن تنفصل عن زوجها، حتى وإن خانته، عندما يبدأ ظهور أليس، تبدأ أحداث الرواية ويبدأ المؤلف فى الحكى، فبعد أن طبق جميع نظرياته على طليقته «آن»، فإنه يتوقف عن التنظير، ويبدأ ممارسة التجربة حيث تبدو المرأة الأولى بمثابة التجربة، أما الثانية فهى الممارسة الحياتية للحب، خاصة أن الراوية لن يحصل على أليس بسهولة، فهى امرأة خائفة، أكثر مما هى مقبلة على التجربة، وهى خائنة أكثر مما هى وفية، وهى متغيرة أكثر مما هى ثابتة، لذا فإن «آن» تفقد أهميتها بسهولة فى حياة الراوية وتنتهى العلاقة بالطلاق .. كى تبدأ قصة أخرى غير مضمونة النهاية، من الطرفين معها، حتى السطر الأخير، والثانية الأخيرة، قبل بلوغ علاقته بأليس نهاية السنة الثالثة، فإن الرواية تنقسم بالفعل إلى ثلاثة أقسام، الأول منها المعنون «الفازات المتصلة» ينقسم بدوره إلى قسمين، الثانى يبدأ، كما أشرنا، بظهور

أليس، وفيه تبدأ الرواية الحقيقية، بعد ذلك التنظير القريب الذي ذكره الكاتب في القسم الأول، فالرواية بشكل عام تبدأ بعد نهاية السنوات الثلاث التي عاشها الزوج مع «آن»، وصار عليه أن يقوم بالتنظير كما شاء، أي أن ذلك بعد نهاية الفعل.

فالكاتب لم يذكر لنا تفاصيل علاقته بزوجته، وإنما ألقى الأحكام المطلقة من ناحيته، وقام بفلسفة الأمور التي مر بها، إلى أن ألتقى بالمرأة الثانية التي دفعته علاقته بها أن يكون هناك «فعل» ما في حياته، الطلاق، ومطاردتها والتعذب من أجلها، وكتابة العديد من الرسائل إليها، ثم امتثالها له، وقبولها أن تعيش معه، وأليس تظل هي نفس المرأة بالحمية نفسها، تكسر النظرية، وتجدد نفسها، وتستطيع أن تعيش عاشقة، ومعشوقة أطول من المدة التي حددها الكاتب للعشق، وأيضا تلك التي أعدتها إحصائيات الأمم المتحدة.

آلة لتوليد السعادة

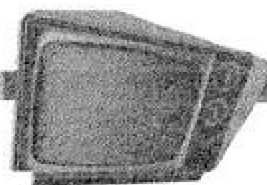
يحاول المؤلف أن يستخدم جميع ثقافته لخدمة أفكاره حسب المرحلة الزمنية، أو العاطفية التي يمر بها، فلديه فكرة مسبقة، حسب تجربته مع زوجته الأولى أن الحب يدوم ثلاث سنوات، ثم هو يود أن يثبت صحة هذا المنظور، حين تقترب السنوات التي قضاها مع أليس من بلوغ الثالثة، في علاقتها العاطفية به، حول الكاتب المرأتين في حياته إلى أداة لإثبات صحة أو خطأ نظريته، هو رجل أحادي البعد، هو الذي يعيش التجربة، فالآخر، وهو المرأة، لايزيد عن كونه آلة لتوليد السعادة، حتى إذا توقف عن ذلك فقد إحساسه به، ولاشك أن قيامه بسرقة حبيبته الثانية من زوجها، يزيد من إحساسه بأهمية أن يحتفظ بها.

تبدو المرأة مخلوقا شبحيا دوما بالنسبة له، أداة للمتعة، حتى «ماتيلدا» عاملة المطعم التي تصبح حبيبة صديقه جان جورج، ونحن لانكاد نعرف شيئا عن شخصيات هؤلاء النسوة، إلا من خلال مايفعله به، فالراوية حين يحس «أن» أليس قد خرجت من حياته، يحاول استعادة طليقته «آن»، التي تبدو حاسمة وهي تخبره أن كل شيء قد انتهى، وأن رجلا آخر في حياتها قد ظهر.

لم تفعل أن شيئا تستحق عليه أن يهجرها زوجها، ويطلقها، عدا لقاءه العابر بأليس أثناء الجنازة، كما أن الرواية لم تتوقف عن الحياة الزوجية للاثنين، ولا نعرف تفاصيل الحياة العاطفية بين الكاتب وأليس سوى أنه قد مرت ثلاثة أعوام وأن هناك اختيارا..

يعني التجريب حسب هذه الرواية، أنه صار موتا، افعل ماشئت وأنت تكتب، المهم أن تحطم الشكل التقليدي للحكي، لكن فردريك بيجبيديه حكى على طريقته، استخدم العبارات التقليدية، وتقسيم الجمل المتعارف عليه، والحوار الذي تقرأه غالبا في جميع الروايات من هذا النوع ..

اعتقد أنه بهذه الصورة، فإن التجريب لن يموت، وسيظل الأدباء يبحثون عن صيغتهم المتجددة، وأن الأغلبية منهم سيظلون مقيدين بالحكي التقليدي، والحواديت المألوفة مهما تجدد الزمن.. ■



المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

أرائك حمراء في مسلسلات التليفزيون

أثارت الأرائك المكسوة بقماش أحمر تزينه زهور ذهبية.. في مسلسلات التليفزيون، رمضان ١٤٢٥ هـ نوفمبر ٢٠٠٤، في نفسي البهجة من أول لقطة. يكفي أن اللون الغالب هو الأحمر وهو لوني المفضل، أما الزهور المذهبة فيقتصر انتشارها على المساند، جميل! لكن الجمال يزيد بفعل المحيط الواسع للمكان الذي احتلت الأريكة الحمراء منه مركز الصدارة، محاطة بالمقعدين المكملين لطاقم الاستقبال، يشرح قلب كل مشاهد، خاصة إن كان مثلي من مواليد برج الحمل، أو من مواليد البرجين الآخرين من الأبراج النارية وهما الأسد والقوس، وهي التي يقال إنها تجعل المواليد فيها يفضلون اللون الأحمر.



وإذا كان عدد الأبراج اثني عشر برجا، فربما يضمن استخدام اللون الأحمر غطاء لطاقم الجلوس الرئيسي في المسلسل كسب إعجاب ربع عدد المشاهدين في أقل تقدير، ناهيك عن البقية الباقية من عموم البشر الطبيعيين الذين يبتهجون لرؤية اللون الأحمر، خاصة إذا اقترن بلون آخر يقوى من تأثيره، مثل اللون الذهبي المستخدم في تلوين الزهور، تزين مساند الأرائك المستخدمة في صالونات الاستقبال في أربعة «على الأقل» من مسلسلات التليفزيون المذاعة في شهر رمضان المشار إليه في العنوان. وإذا ما اعترفت للقارىء الكريم بأنني لما علمت أن المذاع من الأعمال الدرامية في رمضان يزيد على الثلاثين قدرت أن وقتي وطاقتي لا يمكن أن يسمحا لي بما يتجاوز الربع، فقصرت متابعتي على سبعة، ظهر الطاقم الأحمر في أغلبها، وحتى

أساعدكم على التعرف عليه إن كان قد ظهر فى مسلسلات أخرى فاتتى تعقبه فيها، فها أنذا أحدد أماكن ظهوره، فى الصالون الرئيسى ببهو الاستقبال فى مسلسل «لقاء على الهواء» وفى نفس الموضع فى مسلسل عباس الأبيض... وفى مسلسل محمود المصرى فى مشهد المواجهة بين سيلينا وأبيها جورج فى الحلقة ٣٢ وفى مسلسل أصحاب المقام الرفيع ظهر فى أحد صالونات بيت شريف الأخ الأكبر لزمرة أصحاب المقام الرفيع، مع ملاحظة تغيير طراز الأريكة والمقعدين المجاورين لها من مسلسل لآخر.. لكن هل نترك كل المسلسل ونتكلم فى اختيار الأرائك وألوانها؟!

الأمور ليست أبدا كما تبدو

وقد وردت العبارة فى الصفحة ٢٢٧ من رواية «طفل شقى اسمه عنتر» لمحمد توفيق.. وإذا كنا نتحدث عن مسلسلات رمضان، فإننى لشديد الأسف أن دوائر مسلسلات رمضان مازالت حتى الآن مغلقة على أصحابها، وبالتالى فهم منبتو الصلة عن عوالم الروائيين المصريين المعاصرين وبالتالى فهم لم يحاطوا علما بعد بأن اسم محمد توفيق يلمع فى الصفوف الأولى، بعد أن صدرت له بالعربية رواية «ليلة فى حياة عبدالتواب توتو» وقصة طويلة «حتى مطلع الفجر» ومجموعتان قصصيتان «الفراشات البيضاء» و«عجميست»، كما صدرت له بالإنجليزية مجموعة قصصية The Daythe Moon Fell وما لم تحط به علماً دوائر مسلسلات التليفزيون كذلك أن الكاتب المصرى القنبلة «محمد توفيق» له قصص ومقالات ظهرت فى صحف ودوريات مصرية وعربية وعالمية، وهو كذلك عضو باتحاد الكتاب المصريين، ومجموعة كتاب جنيف، ونادى القلم الدولى. ونظرا للخصام المستحكم بين الإعلام والمنتج الثقافى الجيد فمازال اسم محمد توفيق بعيداً عن الدوائر المشار إليها آنفاً، وربما يكون هو أسعد الناس بذلك.. فالخصام بين الإعلام المصرى والإنتاج الرفيع خصام ملتبس، ينطبق عليه المثل الشعبى «لا باحبك ولا أقدر على بعدك» فكثيرا ما يطرأ على الأمور ما يستدعى ذر الرماد فى العيون، باستضافة أحد المبدعين فى برنامج أو حلقة نقاش، لكننا على مدى ربع القرن الفائت لم نشهد إلا إحكاما للفصل بين دوائر الإبداع الرفيع والمبدعين، وعزلهم عن جماهير المتلقين للرسالة الإعلامية إبقاءً على وضعهم كمهمشين، وأغلب ظنى أن الكتاب من قامة «محمد توفيق» يفضلون البعد عن دوائر الإعلام حرصاً على سلامة إبداعاتهم فى أجواء يشيع فيها الاقتباس غير المعلن، فى ظل الإصرار على اللقب الثلاثى «قصة وسيناريو وحوار» وفى هذا الصدد فإننى أنصح كل من تسول له نفسه بعدم الاقتراب من ابداعات «محمد توفيق» على سبيل الاقتباس غير المشروع، ذلك



أنه بالرغم من تخرجه في كلية الهندسة جامعة القاهرة بما قد يوهم بعدم معرفته بحقوق الملكية الفكرية، فقد يلزم التنويه بأنه حاصل على ماجستير القانون الدولي من جامعة باريس ودبلوم العلاقات الدولية من معهد الإدارة الفرنسي بما يعني باختصار أن الرجل يجيد أساليب القصاص من أي محاولة اقتباس غير مشروع لأي من الطامحين إلى اللقب الثلاثي «قصة وسيناريو وحوار» أو المتشبثين به عنوة واقتداراً.

. من منا يدري حقيقة أي شيء؟

وفي الصفحة ٢٢٧ من رواية «محمد توفيق» «طفل شقي اسمه عنتر» نجد العبارتين مرتبتين على النحو التالي «من منا يدري حقيقة أي شيء؟ الأمور ليست أبداً كما تبدو».

ما هي إذن الأمور التي فرضت هذه الأرائك على أربعة «على الأقل» من مسلسلات رمضان؟! هل، مثلاً، تصادف أن العاملين في فرق الإنتاج في المسلسلات الأربعة ينتمون إلى الأبراج النارية التي تفضل اللون الأحمر؟! حتى لو صح هذا الفرض كان من الممكن قبوله لو كان اللون الأحمر مجرداً هو السائد، أو مصحوبا بألوان أخرى مناسبة.. أما أن يكون نفس نوع القماش فقد يرجح أن جهة التوريد واحدة!. وهل هناك اعتراض على أن تكون جهة توريد مستلزمات الإنتاج واحدة؟؟ أو على أن يكون المشرف على الإنتاج واحدا؟ وإذا كان مقبولا جعل المشرف على الإنتاج واحداً في المسلسلات الأربعة فهناك في أمر الأرائك الحمر احتمالان لا ثالث لهما، إما أن مهام وظيفته كمشرف على الإنتاج لا تنص على متابعة مثل هذه التفاصيل، أو أنه اختار وتابع وقرر أن يفرض علينا هذا اللون الأحمر بهذه الرسومات الذهبية ولم يخطر بباله أننا قد نمل أو قد نطرح السؤال لمصلحة من يا ترى هذا القرار من حضرته؟؟

ومع أنني أوافق كاتبنا «محمد توفيق» فيما ذهب إليه من أن الأمور ليست أبدا كما تبدو، إلا أن أغلب ظني أن أحكام الاحتكار - كما يتضح من مثال الأرائك الحمر - لا تريد أن تفوت شيئاً، فكما قصرت الكتابة على أصحاب توكيلات «قصة وسيناريو وحوار» بأسماء محدودة لم تتغير لربع قرن، فهي كذلك تقصر التمثيل على دائرة محفوظة مؤبدة أبدية الأبنية والشوارع والحواري - أقصد الحارة اليتيمة - في مدينة الإنتاج الإعلامي فلماذا يخطر على بالنا إمكانية إفلات مستلزمات الإنتاج؟!!

من منا يدري حقيقة أي شيء؟
الأمور ليست أبداً كما تبدو..

وبعدما عرضنا ما طرأ على الذهن من أفكار بفعل العبارتين المقتبستين فيما

له صلة بالأرائك الحمر يطرح السؤال نفسه، من أين يا ترى تأتى الأفكار؟ وما الذى يجعل الفكرة تطرأ على الذهن؟ يقول المولى عز وجل فى كتابه الكريم « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ...» سورة الإنسان، والمشج هو الخليط ، والمشج هى الكلمة المفردة للجمع «أمشاج» وعلينا أن نجتهد للإلمام بالأخلاط التى تنطوى عليها النطفة بما يجعل الإنسان الفرد مولوداً بصفات وخصائص متعددة متباينة، منها ما يناقض نفسه ومنها ما يتآلف ليعطى كل فرد سماته الأساسية المميزة له، وكذلك فى الفن، سواء فى ذلك منه الموسيقى أو الرسم أو كتابة القصص والروايات والمسلسلات. فالنغمات والألوان شأنها شأن الخصال فى الإنسان، إذا ما اجتمعت فى تآلف تعطى أثراً سلسا ناعما، وإذا أدخل عليها المبدع ما هو مخالف من المكونات المناقضة، فلابد من أن يعلى ذلك من إدراكنا لمجموع التكوين بجميع أبعاده، المتآلف منها والمتناقض.

ومن أجل ذلك قبلنا من يحيى الفخرانى وهو يقوم بدور مدرس التاريخ فى مسلسل «عباس الأبيض» أن يثور حين يسمع اسم شجر الدر منطوقا على لسان صديقته الممثلة على أنه «شجرة الدر» ويرجع قبولنا لثورته هنا لأن شخصية مدرس التاريخ فى هذا المسلسل مقدمة لنا لتفهمنا أن الرجل ليس أى مدرس للتاريخ إنما هو من المدرسين العاشقين للتاريخ الفاهمين لقيمته ومغزاه فى حياة البشر، لذلك قبلنا منه هذا النوع من الثورة واقتنعنا بما ورد على لسانه بأن ما يرد فى الأعمال الفنية يخاطب الوجدان، وبالتالى يمكن أن يعتبر توثيقا للتاريخ.. وإذا كان الأمر كذلك.. أى إذا كانت الشخصية مبنية على هذا النحو بحيث لا تخلو حلقة من إشارة صريحة لإيمان يحيى الفخرانى «عباس الأبيض» بقيمة التاريخ، هل والأمر كذلك يمكن أن نقبل من نفس هذا الشخص احتجاجا على صديقه «مرسى» (وأقد أبدع فيه الممثل الكبير محمد كامل) حين يذكره بما حدث فى العراق وفلسطين وما يصيب الناس فيهما من أهوال، هل يمكن أن نقبل أن يكون رد هذا المدرس للتاريخ بأن هذه مشكلات تحلها أجيال وأجيال تأتى بعدنا «خلينى أنا فى مشكلتى اللى لازم أحلها»، ومشكلة «عباس» الأهم هنا، هى الكتاب الذى وضعه فى التاريخ كما يجب أن يكون.

ولكننى بصراحة لم أكتب هذه السطور لأضع الخطوط تحت هذه التناقضات فى رسم الشخصيات، فالمسلسل غنى بكل أنواع التناقضات التى تسقطه بالرغم من إبداع بعض الممثلين فيه، بل إننى أذهب إلى القول بأن إبداع الممثلين جاء نقمة عليهم بدلا من كونه نعمة تضاف إلى رصيدهم.. فإذا أخذنا يحيى الفخرانى مثالاً.. فإننى وبمنتهى الصراحة أقول إننى فى غاية



الحزن لما رأيته، صحيح أنه أجاد في التمثيل بما أثار إعجاب الكثيرين فقد اتقن الانفعال كما اتقن الضحك والبكاء.. ولكنه لبس الأراجوز الذي نقتنع منه بإتقان ما أتقن، إنما هو فنان كبير من حقنا عليه ألا يصدمنا بالاكتفاء بدور الأراجوز، مثير الضحك والبكاء، من حقنا أن نسأله، كيف قرأ النص، وكيف فهمه، وكيف قبل أن يقوم بهذا الدور؟ وكيف رضي بأن يكون المستخدم لفتح باب الجحيم؟ أم أنه وهو يقوم بدور مدرس التاريخ إياه يتصور أن الجحيم الذي يصطلي به، إخوة لنا في العراق على يد مجرمي الحرب في الإدارة الأمريكية هو جحيم من النوع المؤيد هو الآخر؟ ألم يخطر ببال حضرة مدرس التاريخ الهمام أن يوما سيأتي ويكون في الأمور أمور؟ ماذا عندئذ لو خرج من بين أبناء العراق من قرر أن يقتص من المصريين الذين سمحوا لنجمهم الكبير يحيى الفخراني أن يسخر من محنة أهل العراق كما فعل حين قبل أن تكون الحلقة الثانية من المسلسل مخصصة لحكايات عن التلاميذ الذين نسبوا كل الأفعال المجيدة لصدام بما في ذلك بناء حدائق بابل المعلقة وطرد الهكسوس من مصر.. ألم يخطر ببال الممثل الكبير أن الأيام دول، ألم يخطر بباله أن ما قاله في تلك الحلقة يعتبر سابقة خطيرة، ذلك أنها المرة الأولى التي يتم فيها التعرض لشعب شقيق بهذا الأسلوب وهذه اللهجة، كنا نفهم أن تكون تصفية الحسابات أو النفاق السياسي في مقالات أو برامج أو حتى كتب لكن ترك هذا الدور للأعمال الدرامية المذاعة على الملايين يشي باحتمالات خطيرة تستدعي الدعوة لاتخاذ ما يلزم من إجراءات للتعامل مع باب الجحيم الذي فتحه يحيى الفخراني وعلينا أن نحذر كل الحذر من يوم يتناول فيه الآخرون شعب مصر وحكامها على طريقة يحيى الفخراني في عباس الأبيض.. وعلى قاذفي الناس بالحجارة أن يحذروا يوماً من اليوم الذي يعيشون فيه في بيوت من زجاج.

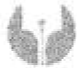
ونحن إذا ما تذكرنا عبارة الكاتب محمد توفيق بأن الأمور ليست أبداً كما تبدو.. وإذا ما تذكرنا الأرائك الحمر في مسلسلات رمضان وسؤالنا، لمصلحة من أحمرت الأرائك فإننا بالمثل نسأل لمصلحة من وضعت هذه القنابل في مسلسل عباس الأبيض؟؟؟

وكذلك نسأل صاحبي نص المسلسل «سمير خفاجي ويوسف معاطي» من أين أتيا بالأفكار؟؟!!!

التجريبي وثقافة الطبقة الجديدة

بقلم
مهدي الحسيني

لقد هيمنت الطبقة الجديدة على الحركة المسرحية المصرية نصاً وإخراجاً ومشاهدة، فهي طبقة ذات نفوذ قوي وواسعة الطيف، لها عشاق ومريدون وأنصار وممارسات ثقافية لثقافتنا الوطنية مصرية أو أفريقية أوعربية، أما ثقافتها وفنونها المزعومة فتقوم على النقل من الغرب والشمال دون عقل، أما ما تنتجه محليا فهو سطحي وزائف مثل الفيديو كليب .



ووفقا لسياسات قد اتبعت تم استدراج قطاعات غير قليلة من المثقفين والمبدعين إلى اتخاذ الموقف الثقافي للطبقة الجديدة، إما مخدوعين وإما متورطين وإما ممالئين، فعلى سبيل المثال عاتبني المخرج الصديق القادم من بلاد العرب برقة ودماثة لأني لم أحضر عرضه التجريبي، والحقيقة كان سبب تخلفي هو ازدحام العروض جداولها ..

وهو سبب - فيما أظن - وجيه، غير أن هناك بعدين آخرين لم أذكرهما: الأول هو أن العروض العربية تأتي إلى المكان غير المناسب، وفي السياق غير الصحيح، فمكانها ومناسبتها هو مهرجان / ملتقى / حلقة/ لقاء/ يقام خصيصا للمسرح والمسرحيين العرب، حيث يتسع المجال ويتركز الاهتمام والحوار حول الواقع الثقافي والفني في المنطقة العربية

بأسرها، أما البعد الثاني فيتضح من سؤالي المباغت له عما إذا كان قد قدم عرضه في وطنه، فكانت إجابته: في العاصمة ولأيام معدودة، فسألته: هل قدمته في مسقط رأسك أو في مكان من ريفكم ونجوعكم وبواديكم؟ فكانت إجابته القلقة المباشرة: «سوف يصير ضرب نار» وكنت أتوقع إجابته تلك، خاصة وأن التي صممت له الرقصات زوجته الأجنبية التي تزوجها أثناء بعثته الدراسية!!.

في الماضي كان الأجانب - حين يتوطنون عندنا - يتعربون ويتمصرون ويتقمصون عباءاتنا، أما اليوم فهم يفرضون ثقافتهم علينا ... فنتخلى عن ثقافتنا وكأنها عار يجب غسله والتخلص منه.

وبالمثل، سألت ناقدة مصرية مبتدئة عن انطباعها عن عروض المهرجان، فأبدت إعجابها بأغلبها .. حبذا لو أخذنا بأساليبها!، ورأت أيضا أن نأخذ بالنظريات والآراء النقدية المصاحبة لها، وحين سألتها لماذا لم تدعو أسرتها لمشاهدة هذه العروض، قالت بالحرف الواحد: «أنا لا أجرؤ... سوف يتبرأون مني» هذا مع ملاحظة أنها من أسرة متعلمة ومتماسكة ومنفتحة، نال جميعهم قسطا من الثقافة العامة، ولا يعانون من ضوائق معيشية مستحكمة. والسؤال هنا: إلى أي ثقافة تنتمي هذه الشابة؟ وإلى أي ثقافة تنتمي أسرتها المستنيرة؟ وإلى أي ثقافة ينتمي المخرج العربي الصديق؟ وإلى أي ثقافة ينتمي أهله وذووه؟

ثقافة الـ «بين بين»

في الحالين: حال المخرج العربي وحال الناقدة المصرية، إنهما ينتميان - بمنتهى حسن النية ودون أن يدريا - إلى ثقافة الطبقة الجديدة، وهكذا شهدت عروضا مصرية وعربية أخرى من نفس النوع، تتزايد نسبتها عاما بعد عام مع مرور دورات المهرجان، لم أعثر في سحناتها على (جنسية) ما، لا هي مصرية، ولا عراقية ولا مغربية، فقط بعض حائل مشوه منقول عن عروض أجنبية من العالم الأول، ولنسمها - وفق القول الدائر الآن - عروضا (عولية) يصنعها هؤلاء «البدون» كما يسجلون على باسبورتات المبعدين أو المستضعفين. وأخيرا إذا ما افترضنا أن هذين الصديقين - المخرج والناقدة - يريدان التعبير عن رؤى تقدمية منفتحة مستنيرة، فعلينا أن نقر بأن القاطرة قد انفصلت عن القطار.. فضاعا معاً وفقدا الطريق.

قراءة للمهرجان في نشرة «التجريبي»

سنحاول هنا سبر بعض أبعاد المهرجان من خلال مناقشة جانب مما نشر من محاورات وأفكار في هذه النشرة:

(أ) فيما يتعلق بمفهوم التجريب: بتركيز عال استطاع الناقد «حازم شحاتة» أن يضع يده على جوهر المسألة، فقط تنقصه بعض التأكيدات، إذ يقول: «.. فالتجريب مفهوم يقوم على فلسفة ترى أن المعرفة لاتأتي إلا من التجربة، فإذا أردنا أن نعرف شيئا عن العلاقة بين المؤلف والمخرج أو بين النص والعرض أو بين الخشبة والجمهور أو بين الممثل والاكسسوار، قمنا ببعض التجارب وفق برنامج محدد يسمح في النهاية بالحصول على بعض النتائج، ومن هذه النتائج سنعرف شكل العلاقة أو تلك، وهي عملية تقوم بالضرورة على الملاحظة والقياس لاختيار الفروض المحددة التي أقيمت التجربة من أجلها.



لغة الجسد اهتمام أصيل للفن، لابد أن تتعلق بالمشاعر والانفعالات الإنسانية عند تقديمها في التجريبي

وهناك ملحوظتان:

(١) الجملة التي تقول: «... إن المعرفة تكون مطلوبة فقط عند الحاجة إليها» يمكن إعادة صياغتها في العبارة التالية مع وضع خط تحت كل إضافة من عندي: «... إن المعرفة الجديدة لا تأتي إلا من التجربة شرط توفر الحاجة الماسة إليها، فإذا أردنا أن نعرف شيئاً جديداً ... ».

(٢) في ظني أن التأصيل أو التجريب أو أي فعل ثقافي أو إبداعي لا يصح النظر إليه إلا من خلال إطاره المجتمعي وظروفه العامة المحلية والإقليمية والعالمية، ومن خلال وظيفته العضوية وأثره داخل مسرحه وخارجه في المكان والزمان المحددين. فليس هناك تجريب للتجريب، ولا يوجد هناك تجريب في المطلق.

ويواصل الناقد المصري شرحه «... ولذا، فإن المحاولة والخطأ من الأسس المهمة التي تقوم عليها عملية التجريب، بل إن حق الخطأ هو حق أصيل للمبدع. لذلك مازلنا نحلم بأن يمنح المبدع العربي هو حق الخطأ».

ولنا ملحوظتان عن:

(١) «... حق الخطأ هو حق أصيل المبدع» فنقول هذا إذا كان مبدعاً بحق، وهذا رهن برأي النقد فيما أبدع وموقف الجمهور منه، فقد لاحظنا - بمناسبة التجريبي وغير التجريبي - ازدحام الساحة

بالمدعين والمغرضين والوكلاء والجهلة، في ظل غياب حركة نقدية جادة وقادرة، وتعليم أكاديمي جيد، فضلا عن ضيق فرص التعبير - الابداعي والنقدي معا - الواعي الحر.

(٢) لابد من معايير نقدية أو دراماتورجية أخرى مرافقة لكل تجربة، وإلا سوف يقتصر الأمر على «حق الخطأ» فحسب.

ويقول الناقد : «.. ومن ثم. فإن لا معيار واحد للتجريب، إذ تختلف الأسئلة مع كل تجربة، فأسئلتنا في القاهرة تختلف عن أسئلة مسرحية في الرياض، وأسئلة اليوم - في بغداد مثلا - تختلف عن أسئلة الأمس.. وهكذا، كنت أتمنى أن يضيف الناقد عواصم مثل لندن وباريس وبرلين وروما وطوكيو وموسكو وواشنطون، وكلها عواصم أدمنت استعمار بلادنا واستغلال شعوبنا وقهرها، بل ويرتكب جنودها (بعضهم من أبناء الطبقات الشعبية) جرائم يندى لها الجبين في (فيتنام وفلسطين والعراق.. على سبيل المثال) فهل يكون التجريب والتقليد والنقد والثقافة والإبداع عندهم من أدوات الفكر الاستعماري؟ على الأقل في تفسيره المغرض واستخدامه المنحرف؟ لقد قال لي ناقد أردني إن قيادات التحالف عمدت إلى توزيع نص «ريتشارد الثالث» لشكسبير على ضباط وجنود مؤامرة غزو العراق، كي تستحوذ شخصية الملك عليهم فتنتزع ما تبقى في قلوبهم من الرحمة، لذا نرجو مراجعة المفكر الفلسطيني «ادوارد سعيد» في كتابه «الثقافة والامبريالية».

وأخيرا يقول الناقد : «.. إن للتجريب أسسا يقوم عليها وهي : (١) المعرفة، وهي الغاية من التجريب (٢) الاجراءات، وهي كيفيات التجربة (٣) القياس، وهو الأدوات النقدية للحكم على النتائج، وهنا أوافقه تماما، مع التأكيد على أن هذه الأفكار هي أوضح ما قرأته وسمعته عن المسرح التجريبي بعد مرور ١٧ عاما على دورته الأولى، وأما الآخرون فأغلبهم مازالوا يمسكون بأطراف كثيرة من كرة الخيط المتشابكة والى ما لا نهاية.

ب - اللغة على المسرح: لم يعد النص الأدبي هو المدخل الوحيد أو الأول إلى العرض المسرحي ، بل أصبحت الصيغة السينوغرافية الحية «الديناميكية» والمناسبة هي المدخل الرئيسي لعالم العرض، وأصبحت الكلمة أحد العناصر الضرورية الحاسمة لقيام عرض مسرحي يعتمد على فن الممثل والتمثيل المسرحي، هذا الفن الذي اتسع الوعي به فتجاوز الأداء الصوتي «الشعر» .. الى فنون التعبير الإنساني الأخرى. ومنذ السنوات الأولى للمهرجان بوجه خاص وجد ما يشبه المناظرة غير المعلنة بين أنصار ما يسمى بمسرح الكلمة وبين ما يسمى بمسرح الصورة.. ومازالت هذه المسألة مطروحة ، خاصة حين ننتج عرضا لا نكتفي فيه بالتوجه إلى جماهير المصريين والعرب، بل حين نسعى الى مخاطبة العالم.. إن لهذه القضية وجوها وجوانب عديدة، سأكتفي هنا بالتعرض لجانب واحد فقط. مبدئيا ليس المسرح أدبا وإنما فن، ليس أدبا يقرأ أو يسمع وأنما فن يرى ، وفي اللغة كلمات - وفقا لوجودها في السياق - يمكن أن تكفينا بسماعها بينما هناك كلمات لا يمكن الاكتفاء بسماعها بل لابد من مشاهدتها، وتلك تحتاج بالضرورة الى طرح بصري لها، ومن هنا يكون على الكاتب أن يبني نصه المسرحي بحيث تكون الكلمة هي جوهر رؤيته البصرية، وهي التي تقود المشاهد في العالم المرئي



منذ السنوات الأولى للمهرجان وجد ما يشبه المناظرة بين ما يسمى بمسرح «الكلمة» ومسرح «الصورة»

للكاتب، وهذه صعوبة حقيقية فى التأليف للمسرح ولا يدركها كثيرون وإن أدركوها لا يستطيعون تحقيقها.

وفى ما يسمى بالندوة الرئيسية (المسرح فى زمن ما بعد الحداثة) أثار الممثل الانجليزى «بارى راندل» مسألة أهمية حضور الكلمة المسرحية بالنسبة له كممثل فقال : «إننى ممثل يعشق أن يهتز جسده مع الكلمات التى تنساب منه أثناء التمثيل. .. إننى اسمح لموسيقى النص أن تتغلغل داخل نفسى وتعلمنى كيف أقود المشاهد. أوزان الشعر مثل السجع والجناس الاستهلالى العميق. هذه اللغة البلاغية تحتاج الى أنفاس طويلة ورئات قوية. وثروة لغوية.. وذاكرة حادة.. رنين وتصادم بين الحروف المتحركة.. النصوص العظيمة (لاسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس وشكسبير وموليير) كتبت لتملأ المساحات والفراغات الشاسعة.. تقديم جدل الشخصية هو أقدم شكل من أشكال التمثيل وبالنسبة لى هو أنبل الأشكال على الاطلاق. ولكن الذى لا يمثل شيئا لى هو ذلك القطع أو البتر المفاجىء للإيقاع كما

لو كان نوعا من السحق أو حشرجة محرك سيارة . إن المؤلفين الكلاسيكيين هم كاشفو الكلمات.. وتحتاج ابداعاتهم لقوى متماسكة وملموسة يعاد إنتاجها على ألسنة الممثلين.. إن الدعوات لمقابلة أوديب وكلايتمنسترا والملك لير (يقصد فى المسارح المسماة بالتجريبية) تعد أكذوبة صارخة فيظهر العمل تلو الآخر كالأرض الخراب، بلا كلمة، بل وتستخدم قائمًا مثل شاشتي تلفاز تحلان محل الأفكار والفكاهة والكلمات، كما تقلل من أهمية الدوافع العاطفية الإنسانية التى هى موضوع دائم المعاصرة.. اذا ما حالفنى الحظ فى المستقبل، واستطعت احضار إنتاجى الخاص لكل من «انتيجون وأوديب» الى مصر، فسوف ترون بأنفسكم ذلك التصوير المادى القوى للعواطف الإنسانية، ولسوف تستمعون الى ذلك التركيز العقلى الشديد وتشعرون بنبض القلب العميق ولسوف ترتجفون مع موسيقى التمثيل التى توصل المعنى فى التزام حيث نعيد الحياة الى هذه النصوص القديمة من خلال سطور جديدة لشاعر حى.. ليس للكلاسيكيات تاريخ صلاحية.. أما بعد الحداثة فلها تاريخ صلاحية.



جـ : عروض الجسد: الجسد اهتمام أصيل لفن النحت، غير أن النحات لا يجسده طازجا كما هو بل يفجر فكره وأحاسيسه وخياله من خلال كتلته وفراغه ثم يتركه فى صورة ساكنة أبدية، لهذا لا ينوب فن المسرح – إزاء الجسد – فى مهمته تلك عن فن النحت، ففى المسرح إذا ما عرضنا جسما حيا – فإننا بالضرورة – نقدمه طازجا كما هو فلا يصح أن نقدمه فى صورته الحيوانية، بل علينا أن نؤنسنه فنبث فيه المشاعر والانفعالات والأفكار والأخيلة الإنسانية التى لا تكتمل دون البوح بلغة المسرح «روح الشعر».. «وجوهر الفلسفة». لذا فإن ما يسمى بعروض الجسد أو لغة الجسد، هو عودة بالفن الى الوراء» ورجوع الى مدرسة المسرح الفرنسى «انطوان» من المدرسة الطبيعية الذى قدم عرضا مسرحيا فوضع دكان الجزار على المسرح وعلق لحما طازجا عاريا.. الخ ، هذا الطابع الحسى لن يخاطب إلا الغرائز أى الحاجة الى الطعام والجنس، فيعود بنا الى حياة الإنسان الأول منكرين كل التطورات الإنسانية التى انجزها البشر عبر التاريخ، والبعض من هؤلاء الداعين الى سيادة «لغة الجسد » على المسرح يحاولون مغالطتنا بجنوحهم الى التجريد وهذا ينقل عروضهم الى تصنيف آخر.. هو فن الباليه .. وهو فن مختلف عن الفن المسرحى، غير أن غياب «التقسيم» فى خطط المهرجان جعل الأنواع تختلط، علما بأن الوزارة تقيم مهرجانا سنويا آخر للرقص المسرحى لتجد عروض الجسد مكانا لها فى سياقه.

د – الحداثة وما بعد الحداثة :

هذا كان عنوان المهرجان فى دورته الـ ١٦، وقد خصصت ندوة كبيرة بهذا الاسم، ولكن أية ندوة؟ إنها حوار غير متصل، فالكل يقولون ولا يتحاورون!! وسأكتفى هنا بإيراد نماذج من الآراء المتضاربة التى لم تزد الأمر إلا غموضا وضبابية.

يقول د. أحمد سخسوخ: «لا يوجد فى تاريخ الحركة الفنية والأدبية العالمية مصطلح أكثر غرابة وغربة، وأكثر فوضى وفوضوية، وأكثر غموضا واضطرابا وتشويها وتشوشا وضلالا من مصطلحى «حداثى و «ما بعد حداثى» لندرك كم من

الغموض يحيط بهذا المصطلح.

ويقول الهولندي «ايفون بون» عن ما بعد الحداثة : لم يتفق نقّادها ومؤيدوها على تعريف لها، وما يتضح على أي حال هو أنها وصفت على نطاق واسع الانتشار من خلال «مالا تكون» فهي ليست معتقداً كونيا أو عالميا، أو انها تمثل ايديولوجية، كما أنها ليست حقيقة مطلقة، إنها لا تشكل ثقة في المستقبل، ولا تعد باعتماد ما على علوم منضبطة أو الايمان في التقدم الكوني».

أما الممثل الانجليزي «باري راند» فيقول: «لكن هؤلاء الممثلين الذين تنقصهم الموسيقى، لا يثيرون كيدي، إنهم يظنون أن هذا النقص هو الأنسب، وأحيانا ينكرون الاهتمام بالمسرحيات القديمة، وهذا هو ما يلام عليه اتجاه ما بعد الحداثة. فمنذ أواخر الستينيات برز تركيز على ثقافة تتسم «بعدم التماسك» والتشظي، تردد نغمة ما بعد الحداثة: إن العالم بلا معنى، مشتت، متجزئ وبالتأكيد لا تعتقد ما بعد الحداثة أن شكسبير وسوفوكليس يمكن أن يحتويا على معان وبصائر تظل مستقرة وثابتة عبر القرون».

وقال الأردني «زايد غرايبة» : إن النص المسرحي رسالة فكرية، وتجسيد هذا النص يهدف إلى إيصال هذا الفكر جاعلا السينوغرافيا عنصرا فاعلا لإيصال هذا الفكر، وبما أن تيار ما بعد الحداثة لا يؤمن بوحدة النص ولا الانسجام في تسلسل العرض المسرحي ولا يقيم وزنا للمتلقي الا من خلال ذوبانه في العرض».

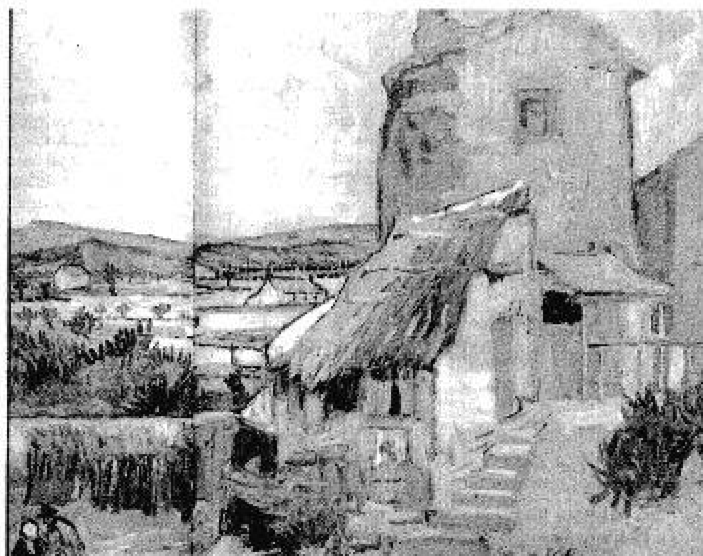
اما «روبرت أدموند جونس» فيقول عن حال المسرح المعاصر بأنه «يتأرجح ويضمحل ويمكن أن ينسى، وأن المسرح النثري أصبح مسرحاً صحفي الطابع لأن الطبيعة الأسطورية غدت غائبة عنه، والآن ترى كيف المابعد حداثيين يعملون على هدم الكلمة التي هي أساس العمل المسرحي، يستبدلونها بالصورة، معتقدين أنه لا قداسة لخبرة أو حقيقة بعينها في ظل قصر الحياة اذا ما قيست بالخلود، وقد تولد ذلك نتيجة للتسارع الكبير في متغيرات العصر.. علاوة على عدم الثقة بثوابت القيم».

اما المخرج المصري «هاني مطاوع» فيقول : «يتميز أدب ما بعد الحداثة بأنه غير تقليدي وبأنه ضد السلطة وضد المعنى، ومن أهم سماته «الكولاج» والـ«بارودى» أي المحاكاة التهكمية، وإلغاء الفواصل بين الثقافة العليا وبين ثقافة الجماهير بخلط فنونهما معاً».

ويقول العراقي «فاضل سوداني»: «لا تعني دعوتي لكتابة النص البصري، الى الغاء الكلمة، بل على العكس فإن الكلمة تصبح إحدى الوسائل البصرية المهمة لتحقيق النص البصري».

وأخيرا يقول الإسباني كارلوس فيرثا: «لا توجد مراجع حول مسرح ما بعد الحداثة، فلا يوجد أحد تقريبا اهتم بدراسته كظاهرة كونية، بل كتيار مبهم في إطار مسار تاريخي حيث الليبرالية الجديدة، أي الرأسمالية الأكثر وحشية التي قامت بقيادة المجتمع الغربي، ووجدت فنانين خدومين ومفكرين حاولوا العثور على تبرير فكري وجمالي.

وهكذا جاء الأوروبيون الى هنا، ليناقشوا أطروحة غربية نشأت عندهم لم يجسموها بعد، أما نحن فمضيافون كرماء.. كرماء.. بلهاء.. ندق الماء في الهون. ■



قصة قصيرة

عند باب الواقفين

بقلم : أيمن بكير

الأفق موشى بالأرق، والأذى مدوامات من اللون والغبار معاً في ساعة القيلولة.. وصولجان الحزن يبيت عليه كلى المخضبة بالعرق. حزني أعز علي من الأرض ومن الناس فوق هذه الأرض التي تفصلني من أرضي بآلاف الأميال.. الناس في هذه البقعة من الأرض يتسربلون بالبياض وقلوبهم تغلف بكل سواد العالم طيبة. أرادوني أن أعلن ما أملك لبسطاء من أبناء القرى في وطني البعيد.. قلت بأن الرأي عندي فيهم أغلى من الملح، هددوني بالحرمان من العطايا والمزايا والهبات، ابتساماتي عندي كانت أغلى من الناس، صعروني عند باب الراحلين، ثم قالوا بأن هناك تشابها في الأسماء بيني وبين أحد رموز الإرهاب.. فتلجهم.. خفيرا.. فابتسمت.. وكانت الابتسامة عندي أغلى من الناس. تكسروني في ابتسامات رسموها فوق الوجوه بما كان فوق سطور العرائض عند بلاط الأمير.. على باب الواقفين للترحيل كان حق الاختيار، أو الاعتذار.. قالوا تكلم قلت:

- إنني أحب قمح بلادي، وترابها، ونيلها، وناسها.

قالوا:

- لك الحزن والاشتهاء وطيف تود رغم التنازل عن كرامتك!!

قلت: لست من شعراء يوم الزوايا.

أوصلوني إلى باب السجان، الحزن غامرني، والنوم طار، وجلست أقلب كل الأشياء في عقلي من جديد، ووجدتني نسمة هواء تعرف طريقة الترحال وتركت أفكاري تمر فوق طنين التزاحم، ومن المدى البعيد يأتي صدى الصوت، وابتسامة أمي تخفيه لي وتزاملني



الانفرادية، ابتسامة أمي كانت أغلى من الماس، وإذا بالمصابيح خلفي وأمامي تعلن رقصتها للنار.. وصوت أمي ينساب من بين رفيق الصمت الموحوش:

- لا تنهار.

قلت:

- أنا لا أخشاهم

وصرت ظلا تطارده الأرض المحدودة بالجدران وبأكلوة وبالقضبان، وصارت نفسي تتلون بين الندوم وبين الاعتذار، لكن وجهي ماثلون.. واشتد جيش النبالة داخل تجويف صدري، وأعلن البوق القيام، كان الغمام أظهر لي خلايا الزمان المريض. ناداني الشرطي ولم أتبعه، بل جعلته يتبعني إذ كان تماسكي أشد مما كنت بالأمس، وتقابلت عيناي بعيني قائد السجن، كانت سخريته لا تحتاج إلى تفسير منذ الوهلة الأولى، قال:

- من أنت

قلت:

- اسمي مدون في دفتر الأحوال عندك

قال وهو يرمقني باحتقار:

- أجب عن السؤال

قلت: أنا الظل الذي تطارده الظلال

قال وهو يجلس ويغلف كلماته بالسخرية:

- هل تريد أن تلعب دور البطولة معي. ستعرف عاقبة ذلك.

ضغط على زر الجرس، أتى السجان، أمره فجرني إلى الزنزانة من جديد وكأن في عودتي قد نزع عني زند الرصاص، وتأملت حالة فض الاشتباك في كل المواقف التي سلفت، تذكرت أني أحب نفسي،



وأحب ناسي، وأحب بلادي، فجلست القرفصاء، ولما اعتراني الغضب، تذكرت أن لي ابتسامة أغلى من الماس، فابتسمت.ثم خلدت لنوم عميق.. وفي الصباح الباكر جدا استشعرت يد السجان على لحمي.. ووجدت قرنفلة في دماي تنبت، سكن البرق وجمرة الريح اشتدت خارج القضبان، الأصوات تتعالى، وكل الحزاني اصطفوا، استلوا أزهار دهشتي بموقفهم، انهم ليسوا من أهلي، انهم من أبناء هذا الوطن البعيد، كان هناك في كبد السماء عاصفة بدوية مراوغة، وإذا بجمرة الريح تصحو، بداخلي، ووجدتني حجرا، تتدحرج من قمة جبل، في رحلة صمت، وسقوط.. انتظرت حتى وصولي للأرض وإذا بالناس زرافات تجري وتولول، التقطت مسامعي كلمة (زلزال) وكانت الشمس دبارا

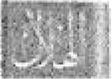
تستقبل ضوء القمر، وتراب الاقدام يتكون سحابات، ووجدت سيلا من العربات يربض فوق صدر المفترق، العرق قد تفصد من ثنايا اللحم المرتج داخل الجلاليب البيضاء، وتخرج من سجون العهد أحشاء المدينة، صالت العيون، كل العيون ثاقبات، لا شيء سوى رائحة العرق واللهاث والجرى بلا هدف، أصوات مكبرات الصوت تشق هذا الحشد الرهيب، الجراح تفتتح صفحات من بكاء وعويل يطول، ويطول ولا ينتهى، شتان بين الجرح يفتح صفحة ويمر فى شجر الخلايا مُنزعا بصراخه، وعين المسافرين فى ركاب الهول تضيقان إلى حد الموت، مكبرات الصوت تعلن:

- لقد فتحنا كل السجون من أجل الإيواء.

وكنت أنا ضمن آلاف الذين كتبوا بذاكرة الصحارى غيمة مشت



من غيب إلى غيب، الذاكرة مسممة، وعلى المدى البعيد. كان هناك ما يمكن أن نراه بجلاء. طيور ترقص مع النيران المتصاعدة إلى عنان السماء، ثم تختفى وراء الأسوار القديمة، والحراس وكلاب مدربة يمشطون جحور قتلاهم. وتظل أحلامنا نحن النازحين من السجن فى أعلى الجبل برغبة أصحاب البلاد نرى فى نهاية الطريق الممتد بوابة، البوابة على مصراعيها تنفتح، ويندلق البشر من كل صوب صارخين، ونتوارى عن أنظارهم فى شعاب الجبل ونطلب من الله التستر علينا حتى نمضى من هذا المكان بأمان وسلام. تسلل البيان المذاع إلى أوردتنا، وتركنا أحلامنا خلف ظهورنا، وبالرغم الرؤيا المراوغة مشينا.. وعند بوابة ضخمة عليها حراس كان الحلم بالنعاس ولو لدقائق معدودات، لكننا نفضنا هذا الوهم. فلقد كانت الطائرات تهبط. والطائرات تحلق، وكانوا يسوقون الغرباء بلا نداء ويقذفون بأجسادهم داخل تجويف الطائرة، ثم يأمروها بالاقلاع.. حذرونا من وزر تكرر السؤال وعندما لامس جسدى أرض وطنى الذى يقلع صوب بلادى البعيدة، نمت وعندما استيقظت، وجدتنى أهبط إلى أرض الوطن. عندها. عادت ابتسامتى من جديد.. وكانت الابتسامة عندى، أغلى من الماس، وانتظمت عند باب الواقفين، الداخلين لديارهم.■



ناظر مدرسة العباسية أكثر أهمية من مدير الجامعة

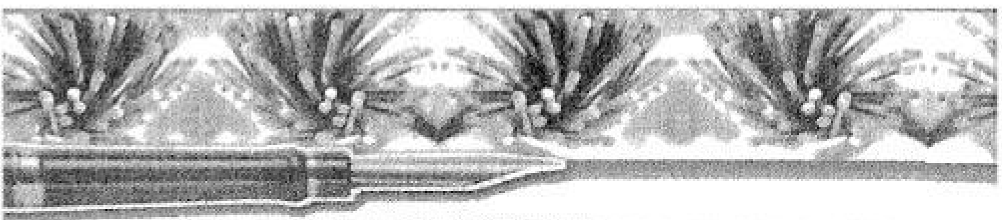
د. عطية عبد السلام عاشور



كانت دمياط في الربع الأول من القرن العشرين مدينة صغيرة تتنوع أنشطة أهلها بين الزراعة وصيد الأسماك والصناعات الصغيرة الحرفية مثل بناء المراكب وصناعة الأثاث، كما كانت إحدى موانئ التجارة مع الشام.

اشتغل جدي لأمي بهذه التجارة في حين كان أبي مزارعا، لذا كان بيتنا علي الطرف الجنوبي للمدينة، بينها وبين الحقول. مازلت أذكر ذلك البيت الذي أثثه جدي بموبيليا بلجيكية استوردها لتجهيز بناته، كما كانت أسقف الحجرات مزينة برسوم علي النمط البلجيكي أو الفرنسي، بينما تحيطه الحقول.

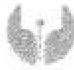
في ذلك البيت ولدت في ١٣ سبتمبر ١٩٢٤، كنت الولد الأول بعد أربع بنات يكبرنني بسنين عديدة، وجاء بعدي بثلاث سنوات شقيقي إحسان.





د. عطية عاشور وعدد من زملاء الدراسة، وفي الوسط د. علي مصطفى مشرفة جالسا

البداية



بدأت تعليمي بالكُتّاب، كان المسئول عنه شيخ ينتمي للأزهر بشكل ما وربما كان يحصل على إعانة من الأزهر، تعلمنا في الكُتّاب اللغة العربية والقرآن والحساب بدءا من عمر خمسة أعوام، كنت سريعا جدا في تعلم الحساب وقادرا على إجراء العمليات الحسابية بسرعة، حتى كان المعلم تقريبا يغار مني ويضربني دون سبب.

في سن السابعة التحقت بالمدرسة الابتدائية، كانت في دمياط في ذلك الوقت مدرسة ابتدائية وحيدة للبنين تتبع الحكومة ومدرسة للبنات تتبع إحدى طوائف الراهبات، وكانت دمياط تعتبر بلدا نائيا ونقل المدرسين إليها لون من العقاب، رغم ذلك أذكر أن المدرسين كانوا يؤدون عملهم بإخلاص وجدية كبيرة، كان المدرسون يدخلون الفصل على صوت الجرس ويخرجون على صوت الجرس ولم يكن هناك أي إهمال أو استهتار، كما كان المفتشون يقومون بالتفتيش بدقة على كراساتنا ويحاسبون المدرسين. تعلمنا اللغة العربية والحساب والتاريخ والجغرافيا «والأشياء والصحة» وهي ما يناظر مادة العلوم الآن، كما تعلمنا اللغة الإنجليزية التي كان يدرسها لنا مدرس إنجليزي والذي كان يرغب في دراسة اللغة الفرنسية كان هناك أيضا مدرس فرنسي. الدراسة الابتدائية كانت في ذلك الوقت أربع سنوات، وكان الحاصل على الابتدائية يمكن أن يدخل الكلية الحربية، فرغم أن التعليم لم يكن شاملا للكثير إلا أنه كان تعليما جيدا والمدرسون كانوا يهتمون فعلا بتعليمنا رغم أن بعضهم كان قاسيا جدا، فأذكر مدرسا كان يضربنا بقسوة شديدة، وكان رجلا ضخما يدرس لنا الحساب. في سنين الدراسة الأربع كانت الرياضيات سهلة جدا بالنسبة لي فقد كانت أساسها تعلم الحساب وإجراء العمليات الحسابية وهو ما أتقنته بسهولة، وربما لا يكون هذا الآن مقياسا للمقدرة الرياضية لكنه وقتها

كان مقياسا للتفوق فى الحساب. لكى أذهب للمدرسة كنا نفتش عن شخص ذاهب إلى دمياط بالحمار ليأخذنى معه، أو كنت أمشى لمسافة طويلة على جانب ترعة الشرقاوية التى ردمت الآن، وكان قضيب القطار على ضفتها الأخرى. دمياط بلد ممطر جدا والأرض موحلة، فكانت والدتى تقف على سطح البيت لتراقبنى وأنا ذاهب للمدرسة الواقعة فى ناحية بعيدة من دمياط. رغم هذه المشقة كنا نحب الذهاب للمدرسة ونشعر بالاستفادة منها.

عندما وصلنا للابتدائية لم تكن هناك لجنة لامتحان الابتدائية فى دمياط، فكان علينا السفر للمنصورة والمبيت هناك ثلاث ليال، وكان التقليد الدمياطى أن يأخذ كل تلميذ معه خمسة وعشرين قرشا لمصاريفه وعند عودته يشترى دستة جاتوه من المنصورة.

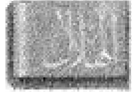
تعليم البنات

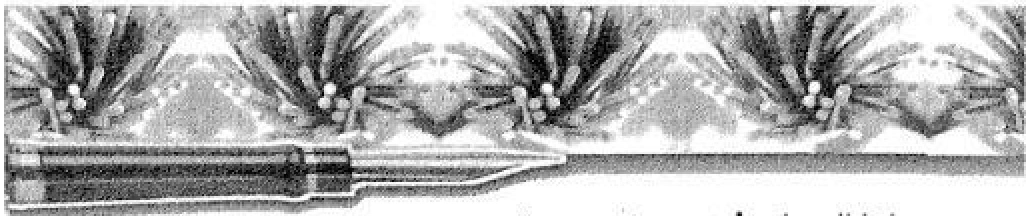
حصلت على الابتدائية عام ١٩٣٥، لم يكن بدمياط مدرسة ثانوية، وأخواتى البنات أكملن تعليمهن الثانوى بالقاهرة. أختى الكبرى لم تكمل تعليمها بعد الابتدائية ثم تزوجت وسكنت بالقاهرة، لما حصلت الأخت الثانية على الابتدائية التحقت بمدرسة ثانوية بالقاهرة وأقامت عند الأخت الكبرى وكذلك الأخت الثالثة، لكن هذا الوضع لم يعد ممكنا فأختى الرابعة (وهى أيضا أكبر منى) التحقت بمدرسة داخلية لتكمل دراستها، لم تكن الحياة سهلة خلال تلك الفترة، فوالدتى كانت تضطر أحيانا لتركنا والسفر للقاهرة لمساعدة ابنتها.

طرح إذن السؤال عند حصولى على الابتدائية، وكان رأى والدى أن أعمل معه بالزراعة والتجارة. لكن والدتى والتى أدين لها بالكثير صممت أن أكمل دراستى، بل غيرت حياة الأسرة كلها لتحقيق هذا الهدف، فقد قررت أن ننتقل للمعيشة بالقاهرة. كان ذلك القرار صعبا، فنحن نعيش فى دمياط فى بيت ملكنا، والخبز يخبز فى نفس البيت، الخضروات والفاكهة تأتى من أرضنا المزروعة، فلا نحتاج لأى شئ بينما فى القاهرة سنحتاج لكل شئ. وكانت أملاك أمي وأموالها في يد عمها الذى لم يكن يعطيها أى مستحقات إلا بصعوبة.

في مدارس القاهرة

المهم أننا انتقلنا للقاهرة وسكنا فى العباسية والتحقت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية الآن مدرسة العباسية الثانوية لأن أولاد خالى كانوا فيها. كانت العباسية الثانوية مدرسة كبيرة وتشتهر بأمرين: النظار الذين كانوا شخصيات هامة جدا، ففى ذلك الوقت كان ناظر مدرسة العباسية الثانوية، المسئول عن ألف ومائتى تلميذ، شخصية مرموقة ربما أكثر أهمية من رؤساء الجامعات الآن. الأمر الثانى الذى اشتهرت به العباسية الثانوية هو لاعبى الكرة، فى ذلك الوقت كان فرق المدارس الثانوية مشهورة مثل فرق النوادى الآن، واشتهر فى العباسية أبناء عائلة الجندى كلاعبى كرة. كانت الفترة مليئة أيضا بالأحداث السياسية بعد معاهدة ١٩٣٦، عرفنا السياسة وعمرنا حوالي ١٠ سنوات، فكنا نخرج فى مظاهرات، وأحيانا يطلق





علينا الرصاص أو نحبس في مدرسة لمنعنا من التظاهر.. إلخ، أخي الأصغر إحسان (وهو الآن أستاذ متفرغ بطب الزقازيق) كان أكثر شقاوة وأكثر مشاركة في المظاهرات، وكان في مدرسة الحسينية الابتدائية ثم الثانوية.

رغم هذه الأنشطة كانت المدرسة في منتهى النظام، كنا ندرس إلى جانب المواد الأساسية المعروفة موادا مثل التربية الرياضية والرسم وكانت هي الأخرى تدرس بجدية شديدة إلى جانب المقررات الهامة مثل اللغة العربية والرياضيات واللغة الفرنسية (التي درسناها في السنة الثالثة والرابعة)، كان هناك مدرسون إنجليز ومدرسون مصريون يدرسون اللغة الإنجليزية، وكان المدرسون المصريون على أعلى مستوى، فلم يكن من الممكن ألا يكونوا ويجانبهم المدرسين الإنجليز. رغم الإضرابات والنواحي السياسية كان النظام دقيقا، فالبواب لديه أوامر ألا يفتح الباب لو تأخرت أكثر من ربع ساعة، وثاني يوم يصل لعائلتك خطاب بأنك تخلفت عن الحصة. الصعوبات المالية كانت موجودة فكنا نطلب الإعفاء من المصروفات، وكان هناك درجات من الإعفاء: إعفاء من ربع المصروفات أو نصفها أو ثلاثة أرباع أو إعفاء كامل، لكنها كانت عيب فكان الناظر أو الوكيل يطلبنا خارج الفصل ليبلغنا بحصولنا على الإعفاء حتى لا يعرف زملاءنا، لأن الفقر كان وصمة.

أساتذة متميزون

حدثت نقلة أخرى كبيرة جدا وهي أن إسماعيل القباني (وهو رائد التربية في مصر وله جهد كبير في تطوير التعليم بابتكار طرق مثل اختبارات الذكاء في المدارس)، أصبح ناظرا لمدرسة فؤاد الأول، كما قلت كان التدريس على مستوى ممتاز جدا وكان المدرسون يحاسبون تمام المحاسبة والمفتشون يحضرون للتفتيش (مثل على الجارم الذي كان مفتشا للغة العربية)، لكن إسماعيل القباني كانت لديه فكرة إنشاء مدرسة نموذجية على مستوى أفضل، فبعد نجاحنا في السنة الثانية الثانوية أنشأ مدرسة فاروق الأول وانتقى فيها التلاميذ المتميزين من فؤاد الأول ومن مدرسة القبة الثانوية، في المدرسة النموذجية كان لدينا مدرسون متميزون في كل المواد، ولهم ذكريات عندي لا تنسى، فمثلا كان عندنا مدرس لغة عربية إسمه الأستاذ عبدالباقي وجدت فيما بعد أن قدامى أعضاء مجمع اللغة العربية يعرفونه، إذ كان مدرسو الثانوي المتميزون معروفون



منح د. عاشور العديد من الأوسمة والبراءات وشهادات التقدير

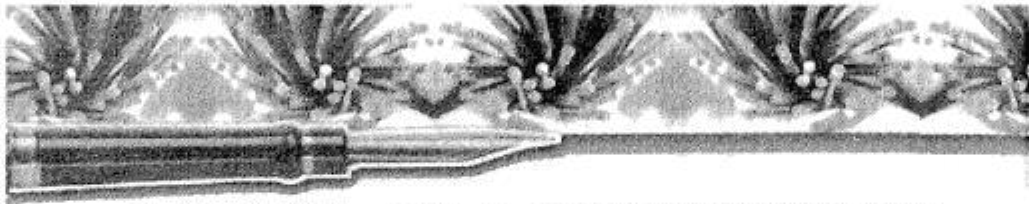


علي المكتب في الاسكا

كما كان يدرس لنا بعض الأوقات كبار مفتشي المواد في الوزارة.

الرياضيات كانت سهلة بالنسبة لي، والمدرسون كانوا بالإضافة لكفاءتهم قادرون على التباسط في التعامل مع التلاميذ، مثلا كان يدرس لي في إحدى السنوات الأستاذ/ عبدالرحمن فهمي، وكنت أهوى قراءة روايات شرلوك هولمز، ولسهولة الرياضيات بالنسبة لي أحضر معي رواية شرلوك هولمز وأضعها في الدرج لأقرأها أثناء الحصة، ويمر على الأستاذ عبدالرحمن فهمي ويسألني «قتله ولا لسه؟»، استمرت علاقتي بالأستاذ عبدالرحمن فهمي بعد ذلك، وألفنا كتب مشتركة وكنا لفترة نشترك معا في لجنة وضع امتحانات الثانوية العامة. في مدرسة فؤاد الأول بدأت أيضا زمالتي مع عبدالعظيم أنيس(١)، والتي استمرت بعد انتقالنا للمدرسة النموذجية والجامعة.. وحتى الآن.

كان النظام وقتها هو أنه بعد السنة الرابعة الثانوية يحصل الطالب على شهادة الثقافة العامة، والتي لا تؤهل لدخول الجامعة، ثم يحصل بعد السنة الخامسة على شهادة التوجيهية لو أراد الالتحاق بالجامعة، في الدراسة الثانوية لم يكن هناك اختيار سوى في السنة الأخيرة والتي كان بها شعبة رياضيات، كان من الممكن من شعبة الرياضيات الالتحاق بكلية الهندسة أو كلية العلوم. الحياة في ذلك الوقت (بداية الحرب العالمية الثانية) كانت في منتهى الصعوبة، فمجرد الحصول على الخبز كان أمرا صعبا، وكان لهذا الأمر تأثير على اهتمامنا بأمور الحياة الوقتية، فلم نكن نفكر كثيرا أو نخطط للمستقبل. حصلت على التوجيهية عام ١٩٤٠ وأصبح لابد أن أختار، لم يكن لدي تخطيط واضح للمستقبل لكن كانت رغبتي أن ألتحق بكلية العلوم لأدرس الرياضيات، وهنا يظهر ضغط الأسرة، أولاد خالتي مثلا كانوا أكبر مني وفي كلية الهندسة وكانوا ناجحين وأقارب آخرين في كلية الطب. حتى أن جدتي التي لا تعرف شيئا عن الكليات كانت تقول لي: هاتعمل إيه في كلية العلوم؟ تعمل مدرس؟، لكنني كنت مصمما على اختياري، كان من الممكن جدا أن أنصاع للضغوط، لحسن الحظ كان والدي على الحياد، ولو أصرت والدتي لاختلف مصيري، لكنها تركت لي الاختيار، لذلك فأنا أقول دائما أن هناك





د. عبد العظيم أنيس



د. إبراهيم حلمى

سيدتان أثرتا فى حياتى: والدتى وزوجتى. أحد العوامل التى سهلت الأمر أيضا أن مصروفات كلية العلوم كانت ١٨ أو ٢٠ جنيه بينما كانت مصروفات الطب والهندسة والزراعة حوالى ٤٨ جنيه، لكن هذا العامل لم يكن رئيسيا.

فى كلية العلوم

دخلت إذن إلى كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٠، وأمضيت بها أربع سنوات حتى حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات عام ١٩٤٤ وتخرج فى نفس دفعتى عبدالعظيم أنيس وفؤاد رجب(٢).

كانت الدراسة مثل اللعب، فكنا نقلب حتى الكيمياء إلى رياضيات. درسنا فى السنة أولى رياضيات بحتة ورياضيات تطبيقية وكيمياء وفيزياء، وكنت من أسوأ الناس فى الفيزياء العملية ولم أكن أحبها إطلاقا، فى الرياضة البحتة كان يدرس لنا الدكتور محمد مرسى أحمد(٣) الجبر والتفاضل والدكتور أمين ياسين الهندسة البحتة والهندسة التحليلية. كنا ندرس أيضا معمل رياضيات وكان المعمل يتكون من جزئين: الأول استخدام جداول اللوغاريتمات من ٧ أرقام (كنا تعلمنا فى الثانوى جداول اللوغاريتمات من ٤ أرقام)، وكنا ندرس حل المثلثات الكروية مثلا، هذه الموضوعات لم يعد لها أهمية الآن، والجزء الثانى حساب الاستكمال والهندسة الوصفية فنرسم المقاطع والمساقط، ولم أكن جيدا فى الرسم، كنا نستخدم آلات حاسبة يدوية، كما كان لدينا أيضا نماذج هندسية مجسمة، استمر هذا المعمل حتى السنة الثالثة. فى السنة الثانية حدثت أزمة فى التدريس: فالدكتور أمين ياسين (وكان حاصلا على الدكتوراه من جامعة ليدز) لم يجد وظيفة أستاذ مساعد بكلية العلوم، لأن الوظائف كان لابد أن تكون خالية حتى يعلن عنها، انتقل الدكتور أمين ياسين إلى كلية التجارة التى وفرت له وظيفة أستاذ مساعد، وانتدب للتدريس لنا من كلية الهندسة الدكتور نجيب باخوم والدكتور صادق بشارة، الدكتور صادق بشارة كان محاضرا متميزا وكان يتحدث طوال المحاضرة ويشعر الطالب أنه قد استوعب كل شئ لكنه لا يعطى فرصة للكتابة فتجد نفسك نسيت كل شئ بعد المحاضرة. كان د. صادق بشارة يدرس لنا فى السنة الثانية الهندسة التحليلية والهندسة الإسقاطية. فى السنة الثانية أيضا بدأت معرفتى بالدكتور على مصطفى مشرفة(٤) الذى درس لنا الرياضيات التطبيقية، فى السنة الثالثة درسنا الهندسة الفراغية والتحليل الرياضى، كما درسنا المتغيرات المركبة والمعادلات التفاضلية الجزئية، درسنا أيضا الفلك فى السنة الثالثة كتخصص جانبى، ودرسه لنا د. إبراهيم حلمى عبدالرحمن(٥) وكان له تأثير كبير

جدا علينا، إذ كان أصغر الأساتذة سنا وبالتالي أقربهم للطلاب وربطت بيننا بعد ذلك صداقة متينة.

كانت المناهج التي ندرسها هي نفس مناهج جامعة لندن وكانت امتحاناتنا لها ممتحن خارجي من جامعة لندن، بالتالي لم يكن لدينا صعوبة أن نقبل لدراسة الدكتوراه في إنجلترا بعد حصولنا على البكالوريوس مباشرة.

الحصول على الدكتوراه

عينت معيدا بكلية العلوم في ٣ أكتوبر ١٩٤٤، وعملت بالكلية لمدة عام وشهرين حتى سافرت في ديسمبر ١٩٤٥ إلى إنجلترا في بعثة الحصول على الدكتوراه. عرضت على بعثتين: بعثة لكلية العلوم وبعثة للتأمينات، كان الحاصل على بعثة التأمينات يصبح مدير شركة عند عودته، وبعثة التأمينات كانت لمدة ٧ سنوات، اخترت بعثة الجامعة، طلبني مدير عام البعثات وحاول أن يثنيني وينصحني بألا أندفع بصغر سني وأرفض فرصة لن تتاح لي مرة أخرى، فعندما أعود للجامعة قد يكون مرتبي ٢٥ جنيه في الشهر، بينما في التأمينات سأحصل على أضعاف ذلك، لكن اختياري كان واضحا لا علاقة له بالمال ولا بالمظهر.

سافرت لأدرس للدكتوراه مع أستاذ في أسكتلندا حدده لي الدكتور محمد مرسي أحمد (رئيس قسم الرياضيات آنذاك)، لكنني كنت أرغب في الدراسة بلندن، وكان من ضمن من درسوا لي الدكتور أحمد حماد(٦)، وقد حصل على الدكتوراه من جامعة لندن تحت إشراف «سيدني تشابمان» والذى كان من أعلام الرياضيات التطبيقية، فأعطاني الدكتور حماد خطابا لتشابمان ورتب لي أحد موظفي المكتب الثقافي موعدا لمقابلته، في تلك المقابلة حدد لي «تشابمان» فورا موضوعا للدكتوراه، وساعدني الدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن على إقناع الكلية والبعثات بالتغيير وبأن أبقى في لندن وأدرس مع «تشابمان»، لم تنجح تلك الخطة تماما، إذ انتقل «تشابمان» إلى جامعة أكسفورد في نفس العام، لكنه رتب أن استمر في الدكتوراه مع أحد زملائه هو برايس والذى أنهيت الدكتوراه فعلا تحت إشرافه عام ١٩٤٨ في دراسة خاصية التوصيل الكهربائي والحث للأيونوسفير (أي الطبقات المتأينة من الغلاف الجوي للأرض)، وكانت هذه بداية تعاون علمي طويل استمر بعد ذلك مع «تشابمان» و«برايس».

عدت لجامعة فؤاد الأول في بداية عام ١٩٤٩ لكنني لم أنقطع عن النشاط العلمي، وفي عام ١٩٥٢ تقدمت لجائزة فؤاد الأول في العلوم والتي كانت أرفع جائزة علمية تمنحها الدولة في ذلك الوقت، وبالفعل حصلت عليها، كما سافرت في العديد من المهمات العلمية إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية متابعا للبحث في موضوع تخصصي وهو الدراسة الرياضية للمجال المغناطيسي للأرض ومجالات الحث. وكان «لتشابمان» و«برايس» أيضا الفضل في تشجيعي على التقدم للحصول على دكتوراه العلوم، وهي أعلى درجة علمية تمنحها الجامعات

البريطانية، وكان لحصولي عليها في أغسطس ١٩٦٧ أثر كبير في تخفيف الشعور بالألم والحزن بعد نكسة ١٩٦٧.

كان لـ «سيدني تشابمان» دور آخر مهم في مستقبلي العلمي، فقد دعاني عام ١٩٥٤ لحضور مؤتمر الاتحاد العلمي الدولي للطبيعة الأرضية ومقاييس الأرض والذي كان رئيسه. كانت تلك الدعوة بداية صلتي بهذا الاتحاد التي استمرت بعد ذلك حتى أصبحت نائبا لرئيسه (١٩٧١ - ١٩٧٥) ثم رئيسا له (١٩٧٥ - ١٩٧٩). ■

هوامش

(١) المفكر المعروف د. عبدالعظيم أنيس (١٩٢٤) هو الآن أستاذ الإحصاء الرياضي بكلية العلوم - جامعة عين شمس.

(٢) د. فؤاد رجب (١٩٢٣ - ١٩٩٨) والذي كان أستاذا للرياضيات بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

(٣) الدكتور محمد مرسي أحمد (١٩٠٨ - ١٩٨٩) كان أستاذا للرياضيات بكلية العلوم - جامعة القاهرة ثم رئيسا للجامعة ووزيرا للتعليم العالي.

(٤) الدكتور علي مصطفى مشرفة (١٨٩٨ - ١٩٥٠) عالم الرياضيات والفيزياء المصري النابغة وأول عميد مصري لكلية العلوم.

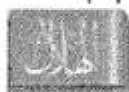
(٥) د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن درسا الرياضيات والفلك ثم اهتم بالاقتصاد، أسس معهد التخطيط القومي (١٩٥٧) وهيئة الطاقة الذرية (١٩٥٨).

(٦) د. أحمد حماد (١٩١١ - ١٩٨٥) كان أستاذا للرياضيات التطبيقية بكلية العلوم ورئيسا لهيئة الطاقة الذرية (١٩٥٩)

د. عطية عبد السلام عاشور في سطور

أستاذ الرياضيات بكلية العلوم - جامعة القاهرة

- حصل على جائزة فؤاد الأول في العلوم الرياضية والفيزيقية والهندسية عام ١٩٥٢ وكان عمره وقتها ٢٨ عاماً.
- حصل على درجة دكتوراه العلوم D.S.C من جامعة لندن عام ١٩٦٧، وهي أعلى درجة علمية تمنحها الجامعات البريطانية.
- كان رئيسا للاتحاد الدولي للطبيعة الأرضية ومقاييس الأرض ١٩٧٥ - ١٩٧٩.
- كان رئيسا للمركز الدولي للرياضيات البحتة والتطبيقية بفرنسا من ١٩٩٢ - ١٩٩٦.
- عضو مجمع اللغة العربية.
- حاصل على جائزة مبارك في العلوم الأساسية.



رأي نقدي مهم للدكتور شكري عياد

تأتي الهلال من خلال أبحاثها ومقالاتها كي تكون الوهج الذى تطاير عنه تلك المواقع الهشة، بفضل حرارته الملتهبة.

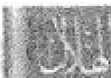
وضمن تلك الأبحاث مقال د. صلاح خليل في عدد نوفمبر ٢٠٠٤ بعنوان اسكندرية نجيب محفوظ، وقد جعلنا د. صلاح بأسلوبه المنساب السلس، تعيش هذه الفترات الزمنية المتقلبة فى شتاءات الأسكندرية، من خلال دراسته النقدية لأعمال نجيب محفوظ (السمان والخريف/ ميرامار/ الطريق) متنقلا بنا بين أحيائها العريقة قديما وحاضرا من مثل (محطة الرمل، الشاطئ، النبى دانيال، شارع سعد زغلول) وذلك من خلال أحداثها وشخصياتها الرئيسية كعامر وجدى (الوفدى القديم) فى ميرامار و(عيسى الدباغ) فى السمان والخريف وصابر الرحيمى (في الطريق) كل هذا قد عرضه علينا د. صلاح خليل ذاكرا المراجع العربية وكنت أتمنى ألا ينسى أستاذنا الراحل الكبير د. شكرى عياد الذى اشتممت رائحة عطره النقدى فى تفسيركم للعلاقة بين الأكندرية وعيسى الدباغ والسمان والخريف.

يقول د. صلاح فى ص ١٢٨ من الهلال المعروف أن الأسكندرية فى نهاية رحلة الطيور المهاجرة - السمان - من بلاد الشمال في الخريف، حيث يصلها السمان منهكا بعد طول سفر، يصبح فريسة سهلة لصائديه على الساحل الزعفراني، فالسمان بعد طول سفر لائذا بها يكون الهلاك مصيره على الساحل الغريب!

أليس هذا هو حال عيسى الدباغ، حيث لاذ بالمدينة بعد رحلة عمر مملوءة بالطموح والأمل فى المناصب العليا؟ وهاهو ذا يتهاوى تحت ضربات القدر.

وهذا التفسير النقدى هو ما سبق أن أشار إليه أستاذنا شكرى عياد فى كتابه «على هامش النقد ط ١٩٩٣ ص ١١٢، ص١١٣».

د. سامي منير عامر
كلية التربية - جامعة الأسكندرية - قسم اللغة العربية

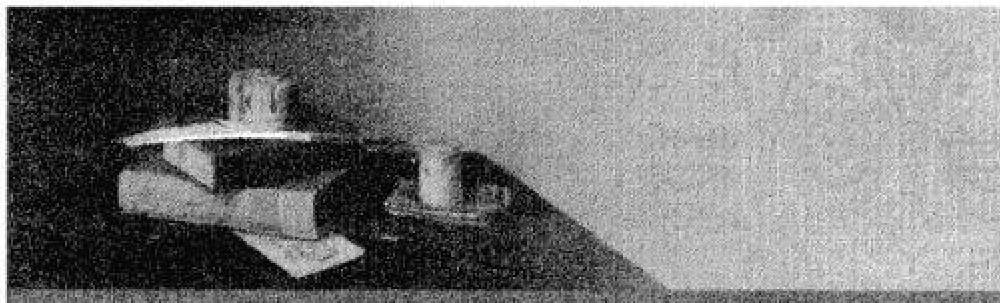


قصائد للعمر الحزين

ليل عليل

يمضى على دربنا ليل
بحوزته أحزان ماض
وأحزان لحاضرنا
بلابل الشرق
يذوى صوتها ألما..
فالليل يعصر فرحا فى حمى وطنى

يعلو الأنين بقلب
والهوى قابع.. محاصر.. بالردى!!
والفرح مكتئب
يا أرض «يعقوب»
ماذا تلتقين هنا؟!
ليل عليل.. طويل.. والنهار منى



نداءات الضياع

حلم يرف على عين المنى
فتضمه لساح اللظى
رقطاء صادية لنفثة
كي تميت الحلم فى هلع
هذى رياض الهوى
تشكو النوى،
لهفت مشتاقة.. لشموس،
للعلا عشقت
يعدو الضياع على الأحلام
يفزعها وتشهق الآه فى
قلب يناجي الهدى
عل السكينة
تبدو فى عذوبتها

زكريا عبدالمحسن
أسيوط - جزيرة الواسطى

د. سليمان حزين مؤسس قسم الجغرافيا

فى ذكرى رحيله الخامسة فى ٢٤ ديسمبر الجارى نتذكر واحدا من أساتذتنا الدكتور سليمان حزين جامعيا وجغرافيا ومفكرا من ألمع مفكرى مصر والعالم العربى فى القرن العشرين، فهو من الرواد الذين تركوا تأثيرا واضحا على الاتجاهات الثقافية المعاصرة، وكان عطاؤه وافرا سخيا فيما بين ميلاده فى ٢٤ مايو ١٩٠٩ حتى وفاته فى ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩.

كان من أوائل خريجى جامعة القاهرة عام ١٩٢٩، وقد أوفدته كلية الآداب جامعة القاهرة فى بعثة دراسية وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٥ فى مجال الجغرافيا الحضارية.

وبعد عودته عين مدرسا بكلية الآداب وتدرج فى وظائفها أستاذا مساعدا فى قسم الجغرافيا ومؤسسا لقسم الجغرافيا بجامعة الأسكندرية عام ١٩٣٨، ولخبرته الواسعة أسند إليه تأسيس جامعة أسيوط فى الخمسينيات والجامعات العربية فى بغداد وبنى غازى فى ليبيا والكويت وجامعة بيروت العربية.

كان مشاركا بفاعلية وقطبا فى الحياة السياسية لثورة ٢٣ يوليو فكان مقررا للجنة تقرير الميثاق الوطنى سنة ١٩٦٢ ووزيرا للثقافة عام ١٩٦٥ ومقررا عاما للمجلس القومى للتعليم والبحث العلمى فى السبعينيات.

ومن أشهر كتبه «مستقبل الثقافة فى مصر العربية».

عمرو عبدالمنعم حمودة

ديسمبر

ديسمبر
ليس الوقت الأفضل لتموت
رائحتك
ستفقد كل عفونتها
في ديسمبر
وبعد مرور الوقت
ستخرج قلبك
وتقدمه في علبة
تلقفها هي منك
وتلقيها للمارة
في ديسمبر
قلبك لم ينبض
حين جلست
وكانت قدامك
قلبك لم ينبض
ساعتها كانت تسرع
وساعتك كانت تسرع
لكن للخلف

شريف الدمناوي

ابن الفارض - سلطان العاشقين

عمر بن الفارض والذي أطلق عليه سلطان العاشقين ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ لأسرة من الشام كانت تعيش بمدينة حماه بسوريا.

نشأ في بيئة دينية، إذ كان والده من كبار رجال الدين، وبذلك أتيح له أن يدرس الفقه والحديث، ويحضر مجالس العلم والأدب، وتنقل في سياحته الروحانية بين وادي المستضعفين في جبل المقطم وأودية مكة التي قضى بها خمسة عشر عاما، ثم عاد بعدها إلى مصر، وظل بها حتى مات سنة ٦٣٢هـ.

قال فيه أحد الشعراء:

أعظم شعراء الصوفية ... بالميميـــة وبالتائيـــة
وهب الشعر محبة لدينه ... ولعشق الذات الإلهيـــة
والشاعر عايش في حقيقة ... بتدوب فيها كل حقيقة
وشايفها بقلبه ووجدانه ... وبعين الوحدة الشعـورية

من بين أشعار ابن الفارض نختار هذين البيتين:

كل من في حماك يهواك لكن ... أنا وحدي بكل من في حماك
يحشر العاشقون تحت لوائي ... وجميـــع الملاح تحـت لواك

محمد أمين عيسوي - الإسماعيلية

دور أدبي مهم للمرأة المصرية

يحاول الغرب أن يسئ إلينا باستمرار ويتهمنا بأننا لا نعطي الحرية الكاملة للمرأة.

والرد عليهم نشير إلى تلك الصالونات الأدبية التي كانت تنتشر في مصر في أوائل القرن العشرين، ومن أهمها بل أولها صالون نازلي فاضل والذي كان يحضره الإمام محمد عبده وسعد زغلول زعيم الأمة وقاسم أمين محرر المرأة ومحمد المويلحي وولي الدين يكن وغيرهم من الأدباء والمفكرين من بعده أيضا كان صالون مي زيادة والذي كان يحضره العقاد ومصطفى صادق الرافعي وغيرهما من أدباء ومثقفي هذا العصر.

هذه الصالونات كانت ملتقى للفكر والثقافة، وكانت مجالا مفتوحا لمناقشة قضايانا السياسية والاجتماعية وقد خدعنا الغرب عندما حاول أن يلصق بنا مثل هذه التهم وكل ما نرجوه من مجلة الهلال المجلة الرائدة في الثقافة العربية والتي تأسست منذ عام ١٨٩٢ وتواصل دورها المهم في مجال الثقافة العربية أن تتناول إلقاء الضوء على هذه الصالونات الأدبية الخاصة بالمرأة وكيف حظيت المرأة بحريتها وحقوقها في هذا الوطن.

د. جمال العطار
كامب شيزار - الأسكندرية

على مدى ما يقرب من قرن من الزمان والهلال تتناول دور المرأة، وهذه الصالونات الأدبية التي تحدثت عنها نشرت الهلال في أعدادها المقالات العديدة سواء الصالون الأدبي لمي زيادة والصالون الأدبي لنازلي فاضل، فضلا عن كتابات كثيرة لأدبائنا حول تلك الشخصيات النسائية ودورها في الحركة الثقافية.

أجمل الهوى

أجمل أهوى ومن أهواه ... مخلوق من الطهر
وسحر للتقى عينا ... ه، لن أنبيك عن ثغر
به تسبيح ذكر اللـ ... ـه بالآصال والفجر
وقلب مخبت أوا ... ه لا يفتر عن ذكر
ووجه صبحه يحكي ... شموس الكون إذ تسري
ودالبيتي، محاسنها ... أعز علي من قمر
فما أرضى بها بدلا ... فما أحلاه من قدر
وندعوا ربنا دوما ... بجنات مع النهر
ويسبغ من محبتنا ... لباسا للتقى النضر
يفيض على جوانحنا ... بالسنة من الشكر

أحمد محمد الدماطي
الشهداء - المنوفية



شاعر من فلسطين

أنجبت فلسطين أدباء وشعراء يشار إليهم بالبنان، وفى ظل الظروف التى تمر بها فلسطين من نضال وكفاح لا ينبغى ألا ننسى بعض هؤلاء الشعراء الذين أنجبتهم هذه الأرض الطيبة ومن بينهم الشاعر سعيد العيسى الذى رحل عن عالمنا منذ أربعة عشر عاما.

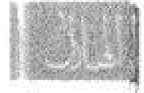
ولد بقرية المجاسين القريبة من يافا.. وعمل بإذاعة فلسطين فى القدس عام ١٩٤٥ ثم عمل بإذاعة الشرق الأدنى (هيئة الإذاعة البريطانية فيما بعد).

له مجموعتان شعريتان بعنوان «نفحات، «همسات الأصيل» ومن أوائل قصائده تلك التى نشرتها جريدة فلسطين فى عام ١٩٣٦ ويقول فى مطلعها:

أيهذا الشعب صبرا
إن بعد الليل فجرا
لن يكون اليسر ما لم
تك قد عانيت عسرا

بعد خروجه من فلسطين مع الآلاف غيره فى أعقاب قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ عمل فى الإذاعة البريطانية.. وظل يكتب الشعر ويدافع عن القضية الفلسطينية من خلال لقاءاته الفكرية والأدبية فى الندوات والمؤتمرات خلال رحلاته إلى البلاد العربية.

رجب عبدالحكيم بيومى الخولى - القاهرة - المعصرة



ظلال كثيفة.. كأشباح موتى تحيط القبور
ودنيا مخيفة.. كصمت تحجر لا يستدير
ومن بين هذى وتلك استمعت..
لصوت أضاء
لقد كان صوت أبى فى المساء..
ينادى من الأرض ومن السماء
يقول سنبعث بعد الفناء
ونلقى الجزاء
فيا كل غيمة.. ويا كل ظلمة..
ويا كل ظل كثيف تحجره..
إلام الكرى؟!
وكم باع مستيقظ واشترى..

دعونى أرى.. لكل الورى..
أزيحوا عن الميتين الثرى..
وعن كل رمس
أنا اليوم لست كما كنت أمس
أنا الآن درس.. أنا الآن منطق..
أنا الآن برهان من لا يصدق..
بأن الحياة فناء وبعث..
بأن الحياة فناء وبعث

حسن عبدالخالق أبو الغيط
المصيلحة - شبين الكوم - منوفية

أ

أبو الحسن الماوردي

٣٦٤هـ - ٤٥٠هـ

هو أبو الحسن البصري الماوردي ولد سنة ٣٦٤هـ بمدينة البصرة تتلمذ فى بداية حياته على أبى القاسم الصيحرى، ثم رحل إلى بغداد عاصمة الملك والخلافة فى ذلك الوقت.

كان الماوردي إماما فى الفقه والأصول والتفسير، بصيرا باللغة العربية والأدب، وكان من أعظم الكتاب، عرف عنه الميل إلى الهدوء فى أفكاره، بعيدا عن الهوى، ثم صار أقضى القضاة، وكان يفتى بمذهب الشافعي، ويميل إلى الاعتزال.

تتجلى شخصيته فى كتبه، وهو فى كتبه يبدو صاحب معرفة ثاقبة بأمور الدولة، وإطلاع واسع على تاريخ الحركات الفكرية والسياسية فى الإسلام، ويمكننا أن نتمثله ونحن نقرأ كتابه «الأحكام السلطانية»، فهو كتاب يدعوك إليه، ويجعلك كبقية كتبه تتحبب إليه، وهذا الكتاب مرجع فريد، و هو فيه لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ، وتفهم نصوص العلماء وفى الكتاب والسنة، وإنما شفع علمه بتجاربه، وما درسه بذاته ووقوفه على طبائع الناس، ومهارته فى حسن القضاء بينهم.

فتناول فى هذا الكتاب الخلافة وتقليدها، والوزارات وأنواعها، والولايات والقضاء وضروبه.

وحينما تقرأ كتابه «أدب الدنيا والدين» تشعر بأنه من أمتع ما كتبه علماء الأخلاق والتربية، وقد جعل مصادره الكتاب والسنة وأقوال الحكماء والبلغاء، وبه طائفة من الشعر البديع.

من أهم كتبه «الحاوى الكبير» وهو مجموعة ضخمة من أحكام الفقه الشافعي فى أكثر من ٢٠ مجلدا و«أدب القاضي وأعلام النبوة» وفى اللغة له كتاب «الأمثال والحكم» الذى يضم ثلاثمائة حديث وثلاثمائة حكمة وثلاثمائة بيت من الشعر.

وله أيضا كتاب فى النحو، وكتاب فى قوانين الوزارة ونصيحة الملوك ويمكن القول بأن الماوردي الذى عاش مايقرب من ٨٦ عاما هو واضع أصول الفكر السياسي أو القانون الدستوري الإسلامي، هذا العلم الذى توسع فيه خلفاؤه، وفيه كتب تاريخ ابن خلدون ومقدمته.

حتى لا يكون البلاغ كاذبا

ارتمى على الأرض متظاهرا بالإغماء، كما اقترح عليه رجل غريب شهد الواقعة معه. غامت المرئيات في عينيه.. تخشبت أطرافه.. تثلجت.. هرب الدم من عروقه، رعبا وفزعا وهلعا. خشى أن تأتي الشرطة ولا تنطلي عليهم الخدعة لابد أن يتقن الدور. لأول مرة يمثل.. يخادع.. كان مضطرا.. مجبرا.. لابد أن يغيب عن عالم الأحياء، يتماوت.. يتقن الدور، وإلا... لو اكتشفت الخدعة سيقاد إلى السجن، ضحية بلاغ كاذب وخداع السلطة المتمثلة فى الشرطة.

الرجل الغريب أصلع الرأس.. جلده في لون البن المحروق، وشاربه كث. يبدو عليه أنه موظف يكفيه راتبه بالكاد. اقترح عليه التظاهر بالإغماء، بديلا للمغمى عليه الذى أبلغ عنه، لكنه أفاق سريعا يجرى كالحصان.

قال الموظف الغلبان:

– حين تأتى الشرطة، ستقبض عليك.

سأل، غير متيقن مما سمع

– تقبض على من؟

– على صاحب البلاغ الكاذب..

تريث قليلا ثم قال مشيرا بإصبعه إليه:

– سيادتك..

قال سيادته وقد غار قلبه من الخوف:

– ما العمل؟

– ترتمى على الأرض بدلا منه، وتتظاهر بالإغماء..

وضع يده على بطنه، صارخا متألما، وارتمى على الرصيف، فالتف الناس حوله.

مازال يسترجع المشورة الغائبة التى أرقدته على ظهره، تشخص إليه العيون.. يسمع الهمهمات والصيحات.. كيف يتراجع؟ ما كان له كان يقف الموظف البسيط بجانبه ويحكي للناس ما حدث للمسكين.

سأل أحدهم:

– هل طلبت الإسعاف؟

– فى الطريق..

جس شاب نبضه.. وبشر الواقفين:

– خير يا جماعة.. النبض سليم..

مضت نصف ساعة، ولم تصل سيارة الإسعاف، وهو ممدد على أسفلت الرصيف الساخن، لا يبدى حراكا ولا ينطق حرفا. لا يتنفس هواء ولا تتحرك له عضلة!

حين جاءت سيارة الإسعاف بعد نحو ساعة، حملوه على النقالة جثة هامدة..

قال الموظف الأصلع:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. صاحبى أخذ الحكاية جد!

انبجست الدموع من عينى الموظف الكليلتين.

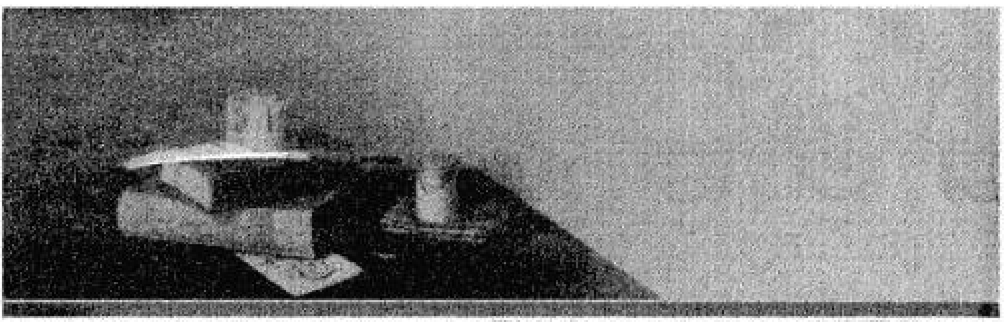
سأله رجل الإسعاف:

– أهو أخوك؟

– لا..

أولى المكان ظهره منصرفا، بينما تتحرك سيارة الإسعاف ولما بعدت السيارة عن ناظريه، تمتم محدثا نفسه: «مات بصحيح.. لا كان به شئ ولا عليه!».

حسنى سيد لبيب – الجيزة – إمبابة



ضمان وصول الهلال للقارىء العزيز

أحرص باستمرار على قراءة الهلال، وانتظار صدورها مع بداية كل شهر، لكنني في الأونة الأخيرة، لاحظت أنها تنفد بشكل سريع، وأظل أبحث عنها دون جدوى.. فكيف يمكن أن أحصل على الهلال دون معاناة وبشكل يسير.

محمد حمدى إبراهيم
القاهرة – مصر الجديدة

● **الهلال:** هذه ليست الرسالة الأولى التى تصلنا حول هذا الأمر، وحرصا منا على قارىء الهلال العزيز نقترح بأن يتم الحصول على نسختك عن طريق الاشتراك الشهرى والذى يضمن وصولها إليك شهريا وبانتظام وتجد فى هذا الكوبون كيفية الإشتراك فى الهلال.



يمكنكم الحصول على خصم ١٠٪ من قيمة الاشتراك فى مجلة الهلال لتقدمها لصديق فى مناسبة عزيزة أو في بداية عام جديد ، وذلك عن طريق إرسال هذا الكوبون مرفقاً به حواله بريدية غير حكومية داخل (ج . م . ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب مسجل لأدارة الأشتراكات.

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : ....التليفون..............................

القيمة بعد خصم ١٠٪

	داخل ج.م.ع جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا – أوروبا أفريقية دولار	أمريكا الهند – كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٤٨	٢٥	٣٥	٣٥	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٤	١٢	١٨	١٨	٢٣

الكلمة الأخيرة

محمد جلال كشك

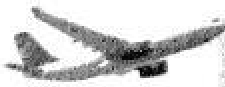


فى ٥ ديسمبر ١٩٩٣ لقى محمد جلال كشك ربه شهيد جدل تليفزيونى، مع نصر أبو زيد، حول الإمام الشافعي ، فاجأته أزمة قلبية أودت به فورا، رغم أنه كان ينتظر الموت بفعل إصابته بمرض السرطان، الذى جعله يكتب مقاله الجميل المؤثر بمجلة أكتوبر: «أنعى لكم نفسى» .

وعلى الرغم من أن جيلى كان قد عرف محمد جلال كشك منذ خمسينات القرن الماضى، إلا أننى شخصيا لم أقرأ له ولم أعرفه قبل عام ١٩٨٢، وحين أبلغنى الصديق الراحل الكاتب الصحفى جابر رزق، أن محمد جلال كشك يريد منى ترتيب حفل استماع للشيخ إمام عيسى، تم ذلك يوم الأربعاء ١٩٨٢/٧/١٣ عندما اصطحبت الشيخ إمام إلى منزل محمد جلال كشك، ٢ ب شارع بهجت على بالزمالك، وتلك كانت مقابلتى الأولى له وجها لوجه.

كانت معلوماتى عنه غائمة، فلم أكن قد قرأت له سوى كتابه الرائع «الغزو الفكرى»، بين عامى ١٩٨١ - ١٩٨٢ وبسبب طبيعتى التى ترى أنه من غير اللائق سؤال الناس عن تاريخهم السابق على معرفتى بهم - مالم يتطوعوا هم بسرده - فقد ظلت معلوماتى عن خط سير حياة الأستاذ محمد جلال كشك السياسية والفكرية والصحفية غير مكتملة لدى، إلا فى لمحات يذكرها فى سياق كلامه أو كتابته . كان الأهم لدى هو تأكدى من انتمائه الأخير لخندق العروبة والإسلام وجهاده الدوب القوى ضد مرض التغريب وجراثيمه وفيروساته، ونشأت بسبب تقديرى وإعجابى بجهاده ذلك صداقة ومودة بينى وبينه، كان هو دائما مؤسسها ومتابعها . كل الذى لم أتردد فى سؤالى له هو: تاريخ ميلاده، وحين قال ٢٠ سبتمبر ١٩٢٩، قلت لنفسى: برج العذراء، ربما يسترا خلال صداقتى معه، التى لم تزد على عشر سنوات، لم أقابله ربما أكثر من خمس أو ست مرات، لكنه كان يخابرنى هاتفيا كل يوم تقريبا من أى مكان يكون به، من محال إقامته العديدة فى لندن أو بيته فى فرجينيا بأمريكا، أو بيته فى المعادى، أو فى الزمالك، وتكون المكالمة فى فترة استراحته من عمله المتواصل أمام الكمبيوتر، ومن طرف واحد، معظمها تعليقاته على الأنباء وتعقيباته على ما كتبه فلان العلمانى وعلان التغريبى، وتبدأ مكالمته بحماس: «شفتى يا ستى .. » وتنتهى بتفويت ساخر: «يا!!!!!! الله..» ثم يضع السماعة من فوره قبل أن تخرج من فمى «مع السلامة»، فأظل أضحك. آخر مكالمة تلقيتها منه كانت عصرا من أمريكا، قبل ساعة واحدة من وفاته، ولم يكن قد أخبرنى بأنه ذاهب لجدل تليفزيونى مع رمز من رموز خصومه وخصامه.

بلا تردد أحكم - نقديا - بأنه كان واحدا من أفضل وأقدر وأنشط كتاب ومفكرى جيله وعصره . وستظل مجموعة مؤلفاته عن الغزو الفكرى، مع رائعته « .ودخلت الخيل الأزهر» ثراء دائما لمكتبتنا العربية . رغم كل ما جمع من مال، أوصى أهله أن يوسدوا كتابه «... ودخلت الخيل الأزهر» يمينه عند تكفينه ليدفن معه فى ثرى مصر، حتى يلقى الله به طالبا منه أجره الحق: رحمته ومغفرته سبحانه وتعالى. ■



مصر للطيران

بمناسبة الجدول الشتوى الجديد

تعلن مصر للطيران عن رحلاتها الآتية

أولاً : فى الخليج و الشرق الأوسط

دمشق	يوميا
بيروت	يوميا
عمان	يوميا
دبى	يوميا
ابو ظبى	يوميا ماعدا الثلاثاء
البحرين	الأثنين و الأربعاء و الجمعة
صنعاء	الثلاثاء و الجمعة و الأحد

ثانيا :- فى افريقيا

الخرطوم	يوميا
طرابلس	يوميا ماعدا الجمعة
بنى غازى	الأربعاء و الأحد
تونس	الأربعاء/ الجمعة/ الأحد
لاجوس	الأثنين/ الثلاثاء / الأربعاء / الخميس

ثالثا :- اوروبا

باريس	يوميا
روما	يوميا ماعدا الأربعاء
فرانكفورت	يوميا ماعدا الأربعاء
اسطنبول	يوميا ماعدا الأربعاء و الجمعة

مصر للطيران
EGYPTAIR

بالأضافة الى رحلاتنا المنتظمة على شبكة الخطوط العالميه
الى مدن اوروبا و أسيا و افريقيا و امريكا

www.egyptair.com.eg